الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
المحرم ١٤٣٣ هـ ▪ ديسمبر ٢٠١١ م الجزء "١" السنة "٨٥"

ثقافة الشهادة والاستشهاد
.. أ. د. محمد عمارة

في فقه التغيير
.. أ. منير شفيق

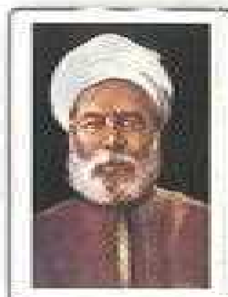
هدية العدد طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

للعلامة الشيخ عبد الرحمن الكواكبي — دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة

صاحب المنار والبعث الإسلامي
.. أ. د. حلمي القاعود



اقرأ لهؤلاء



الشيخ محمد عبده



د. مصطفى الزرقا



دراز

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الفنان أحمد القطب



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى

داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٦٢٨٥٩٩٠

ثقافة الشهادة والاستشهاد



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

«الشهيد».. اسم من أسماء الله الحسنى؛ لأنه - سبحانه وتعالى - عالم الغيب والشهادة.. والغيب: هو ما بطن وخفى.. أما الشهادة: فهي ما ظهر.. فهو - سبحانه - الشاهد المشاهد.. والذى يشهد على خلقه يوم القيامة بما علم وشاهد منهم[1].

ولقد سمى المؤمن، الذى يقدم روحه فداء لله ودينه.. وأمة رسوله ﷺ.. ودار الإسلام، شهيداً؛ لأنه يشهد ويشاهد مكانته فى الجنة فى ذات اللحظة التى تنبثق من جسده أول قطرة من الدماء!.. وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلَّى حُلَة الإيمان، ويُزوَّج من الحور العين، ويُشفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه» رواه ابن ماجة.

ولهذه الحقيقة، قرر القرآن الكريم أن الشهداء ليسوا أمواتا، وإنما هم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحون بهذه الحياة الخالدة التى صاروا إليها - بعد الحياة الفانية -؛ لأن شهودهم وشهادتهم ومشاهدتهم لمكانتهم فى الجنة، لحظة انبثاق أول قطرة دم من أجسادهم، معناه أن حياتهم الخالدة قد بدأت فى ذات اللحظة التى بدأوا فيها المغادرة لحياتهم الفانية والتحول عنها.. فحياتهم موصولة، ليس فيها أى انقطاع:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

(البقرة: ١٥٤)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران: ١٦٩ - ١٧١)

لقد تفردوا بمشاهدة مكانتهم فى الجنة - دار الخلد - قبل مغادرتهم دار الفناء.. ومن ثم تفردوا بتجاوز الموت، عندما أفضت حياتهم الدنيا - الفانية - إلى حياتهم الأخرى - الباقية - فى جنات النعيم.

● ولأن الإسلام يريد الإنسان ربانيا، يتسامى على الجانب الطينى فى خلقه وخلقته، ليصعد وينطلق من الجانب الروحى الذى نفخه الله فيه من روحه - سبحانه وتعالى - فلقد دعا الإسلام هذا الإنسان إلى الارتفاع والارتقاء بحياته وخلقه وسلوكه من درك الحيوانية إلى آفاق التخلق - النسبى والممكن - بأخلاق الله وصفاته - المطلقة - ومنها صفة الشهيد..

(١) أبوحامد الغزالى (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى) ص ٨١، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - بدون تاريخ

فالتخلق بأخلاق الله، بمعنى السعي على درب اكتساب الممكن من صفاته ـ سبحانه ـ هو سبيل التسامي بالإنسان.

وفي هذا المعنى يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م): «إن كمال العبد وسعادته «هي» في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه.. ومن لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى، فهو مبخوس الحظ، نازل الدرجة، ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي يدرك بها الأصوات، وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها، وأما فهم وضعه في اللغة؛ فلا يستدعي إلا معرفته العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي، بل الغبي البدوي، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف، فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها، وهذه رتبة يشارك فيها العامي بل الصبي، فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقي إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدها بقلبه وصمم عليها.. ومن حظوظ المقربين من معاني أسماء الله الحسنى.. استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبها من الملائكة المقربين عند الله تعالى. ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة.. فبالسعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات، والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها يصير العبد ربانيا، أي قريبا من الرب تعالى»[٢].

تلك هي ثقافة المسلم، وتلك هي آفاق المثل الإسلامية، حيال التخلق بمعاني صفات الله وأسمائه الحسنى.. ومنها صفة الشهيد.. فحتى يكون المسلم شاهدا على الناس.. ومشاهدا لمقعده من الجنة، لابد أن يسعى ليبذل جهده ووسعه ـ بما في ذلك الروح والدم ـ ليكون من الشهداء الأحياء الفرحين عند ربهم في جنات الخلود.

● ولأن الإسلام: دين ودنيا.. ودنيا وآخرة.. وفرد وجماعة وأمة.. ودين ودولة ونظام واجتماع.. ولأن مقاصد الشريعة الإسلامية لم تقف فقط عند حفظ الدين.. وإنما أضافت إليه حفظ النفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. فلقد فتح الإسلام أمام المسلم أبوابا كثيرة وواسعة للشهادة والاستشهاد.. فكل ميادين الحفاظ على الدين.. والنفس.. والعقل..

---

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠، ٢١.

والعرض.. والمال.. هي ميادين للشهادة.. والمقبلون على بذل النفوس والأرواح فيها هم الشهداء الأحياء عند الله، الفرحون بما أعد لهم مولاهم في دار الخلود وجنات النعيم..

ولقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد» رواه الترمذي.. وأول الناس دخولاً في الجنة هم: «الفقراء المهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره» رواه الإمام أحمد.

فالتضحية بالنفس في جميع ميادين الحفاظ على مقاصد الشريعة ـ الدينية والدنيوية ـ هي أبواب للشهادة والاستشهاد، تفضي إلى الحياة الحقة الخالدة للشهداء في جنات النعيم.

بل إن هذه الميادين ـ ميادين الشهادة والاستشهاد ـ التي يحافظ بها المسلم على مقاصد الشريعة الإسلامية، إنما تتسع وترحب بتعدد وتنوع لوازمها وضروراتها.

فالحفاظ على الدين لا يقف عند التمكن من الاعتقاد.. والعبادات.. وإنما يمتد ليكون النظام الحاكم والمحقق لسعادة الدنيا والآخرة.

والحفاظ على النفس لا يقف عند صيانة حياة الأفراد، وإنما يمتد ليشمل كل ما يحقق فاعلية الأنفس والأمم والشعوب وعزتها وكرامتها وحرياتها.

والحفاظ على العقل لا يقف عند صيانته من السكر والجنون، وإنما يمتد ليشمل كل الميادين والعلوم والفنون والآداب التي تصون العقل والقلب عن التدني والانحطاط.

والحفاظ على العرض لا يقف عند الحريم الفردي، وإنما يمتد إلى صيانة جميع الأعراض من كل ما ينتهك حرماتها.. بل وحياءها.. مسلمة كانت تلك الأعراض أم على غير الإسلام من المعتقدات..

والحفاظ على المال لا يقف عند صيانة ما في الحوزة من الأموال والثروات، وإنما يمتد إلى سائر الميادين التي يتحقق بها العدل الاجتماعي بين الناس.. كل الناس.. وفي ذلك يقول العلامة ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ـ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م): «.. وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فَيء أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل «زيادة» عن صاحبه لمسلم أو ذمي.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القوَد ـ الدية ـ وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنه مانع حقا، وهو طائفة باغية. قال تعالى:

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(الحجرات: ٩)

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق. وبهذا قاتل أبوبكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة[٣].

فالاستشهاد فى ميادين تحقيق العدل الاجتماعى داخل فى ميدان صيانة النفس، كمقصد من مقاصد شريعة الإسلام.

بل إن تكامل هذه الميادين - على اتساعها - ليبلغ الحد الذى جعل فيه الإسلام صيانة النفس بتحقيق ضروريات حياتها - الشرط لإقامة الدين - وهو المقصد الأول لشريعة الإسلام!.. وفى ذلك يقول حجة الإسلام أبوحامد الغزالى: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا:

- بصحة البدن.
- وبقاء الحياة.
- وسلامة قدر الحاجات، من:

أ - الكسوة

ب - والمسكن

جـ - والأقوات

د - والأمن.

ولعمرى! إن من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، ولا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا، فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟!.. فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعنى مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين..»[٤].

فكل ميادين الصلاح الدنيوى هى ميادين لصلاح الدين، وجميعها مقاصد للشريعة الإسلامية، والجهاد فيها أبوابه مشروعة للشهادة والاستشهاد.

---

(٣) ابن حزم الأندلسى (كتاب المحلى) ج ٦، ص ١٠٩، طبع القاهرة - المنيرية

(٤) الغزالى (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٥، طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ

● ولهذه الحقيقة، ربط القرآن الكريم القتال المشروع، الذى هو ميدان للشهادة والاستشهاد، بالحفاظ على حرية الدين والتدين، كى لا يفتن المؤمن فى دينه:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(الأنفال: ٣٩)

وبالحفاظ على حرية الوطن، الذى هو الوعاء الضرورى لإقامة الدين، والشرط اللازم لكماله واكتماله.. والذى بدون حريته لا يتم الحفاظ على مقاصد الشريعة الأخرى، النفس، والعقل، والعرض، والمال.. ولذلك، بدأ «الإذن» فى القتال - زمن البعثة النبوية - للحفاظ على حرية الدين.. وحرية الوطن، منعا للفتنة فى الدين.. وللإخراج من الديار:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠)

وكان «الأمر» بالقتال خاصا بذلك أيضا:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٩٠، ١٩٢)

وكذلك كان «فرض القتال وإيجابه» مقصوراً على هذه الأغراض، حماية الدين من الفتنة، وحماية الوطن من العدوان:

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا
شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر
لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ۝ يسألونك عن الشهر
الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل
الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه
أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾

(البقرة: ٢١٦، ٢١٧)

فالإخراج من الديار، والفتنة فى الدين هما سبب الأمر بالقتال والإيجاب لهذا القتال، وكذلك كانت معايير الموالاة والمعاداة مع الآخرين - كل الآخرين -:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين
۝ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من
دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك
هم الظالمون ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

هكذا وقفت مقاصد القتال عند حماية حرية الدين والتدين، وحرية الوطن الذى هو الوعاء الضرورى لإقامة كامل الدين.. واتسعت ميادين الشهادة والاستشهاد لتشمل كل ميادين الجهاد، الذى هو بذل الوسع واستفراغ الجهد فى كل ميادين الصلاح والإصلاح.

● ولهذه الحقيقة -حقيقة أن حرية الوطن هى الشرط لحرية الدين والتدين- كانت صيانة الحرية لدار الإسلام باباً عظيماً وواسعاً من أبواب الشهادة والاستشهاد.

إن كثيرين - من الجاهلين أو الغافلين - يقفون اليوم عاجزين عن استيعاب مكانة ثقافة الشهادة والاستشهاد فى النسق الفكرى الإسلامى، تلك التى جعلت وتجعل ﴿ ناشئة الليل ﴾ يذيقون الفرعونية الجديدة كؤوس المنية فى ساحات الجهاد الإسلامى على امتداد ديار الإسلام، التى عدت عليها عاديات آلات الحرب الصليبية الصهيونية.. إنهم عاجزون عن فهم قول الشهيد - سبحانه وتعالى -:

﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾

(المزمل: ٦)

وعاجزون عن فهم مكانة الوطن فى ثقافة الشهادة والاستشهاد الإسلامية، فالوطن عندهم «تراب»، بينما هو فى الإسلام الوعاء الضرورى لإقامة الدين وكل مقاصد شريعة الإسلام.

- لقد جعل الإسلام حرية الوطن مرادفه ومساوية للحياة:

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من
دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون
به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ﴾

(النساء: ٦٦)

﴿ وإذ يمكر بك
الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون
ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾

(الأنفال: ٣٠)

﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا
منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان
وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم
إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض
فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة
الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله
بغافل عما تعملون ﴾

(البقرة: ٨٥)

فالإخراج من الديار، كالإخراج من الحياة.. إعدام!.. تقابله الحياة المتمثلة فى حرية المواطن، التى لا تتحقق إلا فى وطن حر!.

وإذا كان الإخراج القسرى من الديار إعدام.. فإن التفريط فى حرية الوطن هو موت لهؤلاء المفرطين، حتى ولو ظل الجانب الحيوانى منهم «حياً»، يأكلون به ويشربون!.. ذلك

أن ذهاب منعتهم، وذوبان ذاتيتهم وهويتهم في الغزاة هو موت حكمي، لا يعوضه بقاء الجانب الحيواني لهؤلاء الذين فرطوا في حرية الأوطان.

ولقد أبدع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، في تقرير هذه الحقيقة - التي رفعت حرية الوطن إلى مرتبة الحياة.. وجعلت الخروج منه، بالتفريط في حريته موتًا ومواتًا - فقال - في تفسيره قول الله -سبحانه وتعالى- في سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤)

فقال الأستاذ الإمام: «تلك سُنة الله - تعالى - في الأمم التي تجبن فلا تدفع العادين عليها، وحياة الأمم وموتها، في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تُعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها، فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالبين، ضائعون فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم: هو عودة الاستقلال إليهم.

إن الجبن عند مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المِلّية المحفوظة من عدوان المعتدين.

والقتال في سبيل الله، أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل أيضًا الدفاع عن الحوزة إذا همّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا في ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»[٥]

فالحفاظ على حرية الوطن هو حفاظ على الوعاء الذي بدونه لا يمكن أن نقيم كامل دين

(٥) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج٤، ص٦٩٥، ٦٩٧، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت ١٩٧٢م.

الإسلام.. فانتهاك حوزة الوطن هو المعادل للفتنة في الدين، كلاهما يوجب الجهاد القتالي لتحرير الضمير وتحرير الديار.

ولأن الإسلام هو الإحياء للقلوب.. وللأوطان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(الأنفال: ٢٤)

كانت ثقافة المقاومة.. والشهادة والاستشهاد هي السبيل إلى حياة الفرد والأمة والحضارة.. وبهذه الحقيقة التي تجسدت منذ صدر الإسلام دينًا وأمة ووطنًا، حقق المسلمون - وسيظلون - العزة الإسلامية، التي شاء الله - سبحانه وتعالى - أن تكون من عزته.. ومن عزة رسول ﷺ:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(المنافقون: ٨)

وإذا كانت آلة الحرب الباغية والدمرة الفرعونية الصليبية تحاول وأد اليقظة الإسلامية المعاصرة واغتيال حرية دار الإسلام، فإن ثقافة الشهادة والاستشهاد، ثقافة:

﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾

(المزمل: ٦)

هي التي تحقق الآن واحدة من أعظم معجزات الإسلام، على امتداد أرض المواجهة بين أمة الإسلام وبين فراعنة القرن الواحد والعشرين:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(الحج: ٤٠)



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(البقرة: ٦-٧)

كان الذى تقدم بياناً من الله تعالى لصنفين من الناس لهم فى القرآن هداية ولنفوسهم إلى الاهتداء به انبعاث:

الأول ـ من الصنفين أولئك الذين يبلغهم لأول مرة، وهم ممن يخشى الله ويهاب سلطانه، وفى أصول اعتقادهم الإيمان بما وراء الحس، على ما تقدم.

والثانى ـ أولئك الذين آمنوا بما أنزل إلى النبى ﷺ وما أنزل من قبله.

وهذا الصنف قد يجتمع مع الذى قبله فيمن كانوا متقين مؤمنين بالغيب، ثم آمنوا بالنبى وبما جاء به، وقد يفترق الصنفان فيمن بقى إلى اليوم لم تبلغه الدعوة وهو على تلك الأوصاف، ومن ولد من آباء مؤمنين ثم صدق إيمانه بعد أن بلغ رشده وملك عقله.

أما هاتان الآيتان فقد بينتا حال طائفة ثالثة من الناس وهم الكافرون، ثم بين قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾

إلخ.. حال طائفة أخرى أخص منها وهم المنافقون، الذين يظهر من أقوالهم وفى بعض أفعالهم أنهم مؤمنون، ولكنهم فى حقيقة أمرهم كافرون، بل شر من الكافرين.. فهذه أقسام أربعة ينقسم إليها الناس إذا بلغهم القرآن ونظروا فيه، ودعوا إلى الإيمان به والأخذ بهديه.

بيَّن الله تعالى لنبيه أنه إذا كان يوجد فى الناس من لا يؤمن بالقرآن فليس هذا عيبا وتقصيراً فى هداية الكتاب، وإنما العيب فيهم لا فى الكتاب، لأنه هداية كسائر الهدايات الطبيعية التى أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والسمع والبصر ونحوها مما أكرم الله به هذا النوع البشرى، وقد يحكم الرجل بأن فى العمل مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه انتهازاً للذة زينها له حسه أو وهمه، ويأتى ذلك العمل على ما يعلم من سوء مغبته، فاحتقار الرجل لعقل نفسه لا يعد عيباً فى تلك الموهبة الإلهية ولا يحط من شأن النعمة فيها. انظر إلى رجل يغمض عينيه ويمشى فى طريق لا يعرفها فيسقط فى حفرة وتتحطم عظامه، هل ينقص ذلك من قدر بصره، ويبخس من حق الله فى الإحسان به، على هذا الذى لم يرد أن يستعمله فيما خلق له؟! ففى الكلام تسلية لأهل الحق وسيدهم هو النبى ﷺ، فهو تسلية له أولاً وبالأولى.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

الكفر هنا عبارة عن جحود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله، أو جحود الكتاب نفسه، أو النبى الذى جاء به، وبالجملة ما علم من الدين بالضرورة بعدما بلغت الجاحد رسالة النبى ﷺ بلاغاً صحيحاً، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شىء من ذلك وجحده عناداً أو تساهلاً أو استهزاءً. نعنى بذلك أنه لم يستمر فى النظر حتى يؤمن. ولم نسمع أن أحداً من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كفر أحداً بما وراء هذا. فما عداه من الأفاعيل والأقاويل المخالفة لبعض ما أسند إلى الدين، ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة ـ أى لم يكن سنده قطعياً كسند الكتاب ـ فلا يعد منكره كافراً إلا إذا قصد بالإنكار تكذيب النبى ﷺ، فمتى كان للمنكر سند من الدين يستند إليه فلا يكفر، وإن ضعفت شبهته فى الاستناد إليه، مادام صادق النية فيما يعتقد، ولم يستهن بشىء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم ﷺ.

وقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير من يتأول بعض الظنيات، أو يخالف شيئاً مما سبق الاجتهاد فيه، أو ينكر بعض المسائل الخلافية، فجرءوا الناس على هذا الأمر العظيم، حتى صاروا يكفرون من يخالفهم فى بعض العادات، وإن كانت من البدع المحظورات، ثم هم على عقائد الكافرين، وأخلاق المنافقين، ويعملون أعمال المشركين ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين.

الكافرون أقسام:

(منهم) من يعرف الحق وينكره عناداً، وهؤلاء هم الأقلون ولا ثبات لهم ولا قوام، وكان منهم في زمن النبي ﷺ جماعة من المشركين واليهود، ولم يلبثوا أن انقرضوا.

كنت قلت في هذا المعنى كلمة جديرة بأن تحفظ وهي: «إن جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل من الناس».

(ومنهم) من لا يعرف الحق، ولا يريد ولا يحب أن يعرفه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

«الأنفال: ٢٢ - ٢٣».

هؤلاء كلما صاح بهم صائح الحق فزعوا ونفروا، وأعرضوا واستكبروا، ففي أنفسهم شعور بالحق، ولكنهم يجدون فيها زلزلة، كلما لاح لهم شعاعه يحجبونه عن أعينهم بأيديهم، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا أنظارهم في فهم الحق، ويخافوا لو استعملوها أن ينقصهم شيء مما يظنونه خيراً ويتوهمونه معقوداً بعقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم وساداتهم.

(ومنهم) من مرضت نفسه واعتل وجدانه، فلا يذوق للحق لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، بل انصرف عنه إلى هموم أخر، ملكت قلبه وأسرت فؤاده، كالهموم التي غلبت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم، وهي ما استغرقت كل ما توافر لديهم من عقل وإدراك، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة في سبيل كسب مال، أو توفير لذة جسمانية، أو قضاء شهوة وهمية، فعمي عليهم كل سبيل سوى سبل ما استهلكوا فيه. فإذا عرض عليهم حق، أو ناداهم إليه مناد، رأيتهم لا يفهمون ما يقول الداعي، ولا يميزون بين ما يدعو إليه، وبين ما هم عليه، فيكون حظ الحق منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره. فإذا وعدهم أو أوعدهم النذير، قالوا: لا نصدق ولا نكذب، حتى ننتهي إلى ذلك المصير. وهذا القسم، كالذي قبله، كثير العدد في الناس في كل زمان ومكان، خصوصا في الأمم التي يفشو فيها الجهل، وتنطمس من أفرادها أعين الفطرة، وتنضب من أنفسهم ينابيع الفضائل، فيصبحون كالبهائم السائمة لا هم لهم إلا فيما يملأ بطونهم أو يداعب أوهامهم. ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين، والقسم الأول هو قسم المعاندين المكابرين.

فكل من هذه الفرق:

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾

الإنذار: الإخبار والإعلام بالشيء، المقترن بالتخويف مما يترتب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك لأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصاً أو اقتضاءً. والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء.. والمعنى أن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المستعدين للإيمان لرسوخهم في الكفر، يستوي الإنذار وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع. فالذي يعرض عن النور مع العلم به، ويغمض عينيه كيلا يراه بغضا له لذاته، أو تأذيا به، أو عنادا وعداوة لمن دعاه إليه ـ ماذا يفيده النور؟ وماذا يعيب النور من إعراضه؟ والذي لا يعرف النور، ولا يحب أن يعرفه، لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أتاه عنه وأبعده، وجعله يألف الظلمة كالخفاش، أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لا يميز بين نور وظلمة، ولا بين نافع وضار، ولا بين لذيذ ومؤلم ـ ماذا عساه يفيده النور مهما سطع، أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع؟!

ثم وصف سبحانه فقدهم لهذا الاستعداد، ورسوخهم في الكفر الذي لم يبق معه محل لغيره بهذا التعبير البليغ:

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾

يقولون إن الختم والطبع والرين ألفاظ تجري على شيء واحد وهو: تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه. والقلوب مراد بها العقول، والمراد بالسمع الأسماع، وأفرده لأن أصله مصدر، ومن شأن المصادر أن لا تجمع، وقد لوحظ هنا الأصل. والأبصار العيون التي تدرك المبصرات من الأشكال والألوان.

وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والإفراد رأياً آخر؛ إذ لو صح ما قيل، فإن البصر أيضاً مصدر فلماذا جمعه؟.. والذي أراه أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات، فليس الناس فيه سواء، فجمع لاختلاف الناس فيه، وأنواع تصرفهم في وجوهه، بخلاف السمع فإن أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات، فلا تتشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات. وأما الأبصار، فهي مثل العقول في التشعب، وأعظم معين للعقول في إدراكها، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة. والسمع لا يدرك إلا الصوت، وليس في الكلام عند النقل طريق من طرق العلم اليقيني إلا التواتر، بخلاف ما نقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر فهو كثير، فالأوليات: كالحكم بأن الجزء أصغر من الكل وأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان. والقضايا التي قياساتها معها، من المعقولات المحضة. والتجريبيات والحدسيات يشترك فيها العقل والبصر، والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه البصر. فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة، بخلاف السمع فإنه ينبوع واحد لا اختلاف فيما يصدر عنه. فالحاصل، أن العقول والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة، فكأنها صارت بذلك كثيرة، فجمعت. وأما السمع، فلا يدرك إلا شيئاً واحداً، فأفرد.

وهنا يسأل سائل: كيف هذا، وقد قالوا: إن السمع أفضل من البصر[1]؟ والجواب: أنا لا أتكلم في التفضيل، ذلك إلى الله ورسوله، وإنما أشرح موجودا وأبين مناسبة اللفظ له، وأن المشاهدة قاضية بأن العقل لا منتهى لتصرفه، وبأن أقل ما قيل في البصر أنه يدرك الألوان، والأشكال، والمقادير، والسمع لا يدرك إلا الأصوات فقط، كما أن الذوق لا يحس إلا بالمذوقات وحدها. وإن كان ما يصل من طريق السمع قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر، ولكن وروده على الحكاية لا يغير من حقيقته، فهو معقول أو مبصر. فمن ذكر لك برهاناً على حقيقة علمية، فإنما تسمع منه الأصوات والحروف. وأما فهمك المقدمات ووصولك منها إلى النتائج، فهو من طريق عقلك لا من طريق سمعك، فإن كان حديث الأفضلية يستند إلى أن جميع المدركات قد يمكن أن يعبر عنها بالكلام - وهو مسموع - فقد بينا لك ما فيه، ويعارضه أن جميع ضروب الكلام يصح أن تكتب، وطريق فهمها من الرقم إنما هو البصر. والحق أن المعول عليه في تعدد الطريق ليس ما يكون من قبيل الحكاية، بل ما يكون من طبيعة القوة.

وأما انطباق الكلام على تلك الأقسام السابقة، وبيان حرمانهم وكونهم كما وصفوا - فهو بالنسبة إلى الطائفة التي عاندت الحق وهي تعرفه - ظاهر، لأنهم لما عاندوا الحق، لأنه لم يأت على أيديهم، فقد طبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه. فإنه قد حيل بين عقولهم وإدراك ما يصيرون إليه بالإصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال في الدنيا، وشقاء وخلود في نكال الآخرة.. ثم هم قد حجبوا به عن إدراك ما يتبع ذلك الحق من المعارف والحقائق الأخرى، فقد ختم على قلوبهم بالنسبة إلى ما حجبوا عنه.

وأما الختم على سمعهم، فلأنهم صموا عن سماع الحق واستماع القول لفهمه. فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع إلا صوتا لم ينفذ شيء من معناه إلى موضع الإدراك الحقيقي منه، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ إليه شيء ينتفع به.

وأما الأبصار، فإنما كانت عليها غشاوات عند هؤلاء الجاحدين، لأن فائدة البصر، هي التوقي من الخطر، والعبرة بما يبصر، فمن لم ينظر في الآيات الكونية التي تقع تحت بصره كل يوم، كأنه لم يبصر شيئا منها، فقد ضرب على بصره بغشاوة. وأما بالنسبة إلى القسمين الآخرين اللذين جمعا تحت قسم واحد، وهم قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين كما سبق، فالختم على القول والسمع والأبصار ظاهر، لأنهم لم ينتفعوا بشيء من هذه القوى حتى في فهم ما يعرض عليهم، ورؤية ما يقع تحت حواسهم. والكلام كله ضرب من التمثيل، يعرفه اللسان وتعهده اللغة. ولما كان حديث الختم تمثيلاً لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية: مواهب العقل والسمع والأبصار، كان إسناده إلى الله تأكيدا لمعنى الحرمان، وتقريرا لمعصية الخسران، لأن ما ختم بيد الله لا تفضه يد سواه.

وأما النكتة في استعمال الختم مع القلب والسمع، والغشاوة مع البصر، فهي أن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور. وهكذا موضع حس السمع، وموضع الإدراك من العقل.. والأسماع في ظاهرة الخلقة، وأما البصر فالحاسة منه ظاهرة منكشفة، ومثل هذه الدقائق هي المرادة بقول صاحب التلخيص: «ولكل كلمة مع صاحبتها مقام».. والمعنى هو ما بيناه.. والله أعلم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

التنكير فيه للتعظيم والتهويل، ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كماً وكيفاً، فهو شديد الإيلام، وطويل الزمان. وهل هذا العذاب في الدنيا أم في الآخرة؟ قال في آية أخرى:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

«المائدة: ٤١»

فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الإعراض عن هدى الإسلام، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد، جزاؤه الضنك والضيق وفقد العزة والسلطة في الدنيا، والعذاب العظيم في العقبى.

وهنا يسأل سائل: هل الآية نص في التكليف بالمحال[2]؟ والجواب: لا. وأنا لا أحب أن أحشر المسائل الخلافية في تفسير القرآن، بل أحب أن أبين المعنى الذي كان يفهمه الصحابة رضي الله عنهم، وما كان يخطر على بال أحد منهم التكليف بالمحال. على أن الاتفاق واقع بين الأئمة بل بين الأمة على أن التكليف بالمحال غير واقع، وأنه:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

«البقرة: ٢٨٦»

كما صرح به الكتاب وتضافرت عليه الأحاديث النبوية، فما بقي من مواضع الخلاف لا يمس نصوص الكتاب العزيز الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

«فصلت: ٤٢»



(١) سأل هذا السؤال أحد الحاضرين لدرس الأستاذ الإمام في التفسير بالجامع الأزهر.

(٢) وقع هذا السؤال من أحد حضور الدرس.

أقسام السنة النبوية عند الإمام محمد الخضر حسين



٢ (١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٥٨م)

تقريره ﷺ

من مقتضى ماتقرر من عصمته ﷺ وأمانته في التبليغ أن لا يقر أحداً على أمر غير مأذون فيه شرعاً، فيكون إقراره للأمر دليلا على أنه لا حرج في فعله، سواء شاهده بنفسه فسكت أو بلغه فلم ينكره. وما لا حرج فيه يشمل الواجب والمندوب والمباح، فيحمل على أقل مراتبه وهو الجواز حتى يقوم الدليل على الندب أو الوجوب، ولا يدل الإقرار على جواز الفعل في حق من أقره النبي ﷺ وحده، بل يكون الجواز حكماً شاملا لجميع المكلفين، أخذاً بالأصل الذي هو استواء الناس في أحكام الشريعة. فليس لأحد أن يعد اللعب في المسجد بالسلاح تمريناً على الحرب أمراً مخالفا للسنة. بعد أن ثبت أن النبي ﷺ أقر الحبشة على اللعب في مسجده بالحراب، وليس لأحد أن ينكر على المعتدة عدة وفاة إذا خرجت للاستفتاء، بعد أن ثبت أن فريعة بنت مالك[١] خرجت بعد وفاة زوجها تستأذن رسول الله ﷺ في موضع العدة، فقال لها: «امكثي حتى تنقضي عدتك»[٢] ولم يتعرض لخروجها بإنكار.

ويتصل ببحث السنة مسألتان جرى فيهما اختلاف علماء الشريعة:

إحداهما: ما يقوم الدليل على أنه سنة؛ ثم يتهاون فيه الناس، ولا يحتفظ به إلا فريق عرفوا باسم المبتدعة من ناحية اعتقاد أو عمل. وقد ذهب بعض الفقهاء إلى ترك هذه السنة احتراساً من التشبه بالمبتدعة. وضرب المثل لهذا بتسطيح القبور والختم باليمين، والحق أن محافظة بعض المبتدعة على سنة حتى تصير شعاراً لهم لا يخرجها عن حقيقة السنة، ولا يزال خطاب الاقتداء بالنبي ﷺ فيها متوجهاً إلى أولئك الذين تركوا السنة حتى يعودوا إليها.

(١) فريعة بنت مالك بن سنان، أخت أبي سعيد الخدري، شهدت بيعة الرضوان، وهي من رواة الحديث.

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد.

ثانيهما: ما يخشى من فعله اعتقاد العامة لوجوبه، فقد راعى بعض الأئمة مفسدة اعتقاد العامة لوجوب ما هو مندوب إليه. كما ذهب الإمام مالك إلى كراهة صوم ستة أيام من شوال مع صحة الحديث الوارد في فضله، خشية أن يعتقد العامة وجوبها، قال أبو إسحاق الشاطبي: والذي خشي منه مالك وقع في العجم، فصاروا يتركون المسحرين على عادتهم والبواقين.[٣]

وكذلك قال أبو إسحاق المروزي[٤] من أصحاب الإمام الشافعي[٥]: لا أحب أن يداوم الإمام على مثل أن يقرأ كل يوم جمعة بسورة الجمعة ونحوها، لئلا يعتقد العامة وجوبه، والجمهور لا يقيمون للخوف من اعتقاد العامة وزناً. والتبعة في مثل هذا على أهل العلم إذ هم المطالبون بتعليم الناس آداب دينهم وهدايتهم إلى سبيل ربهم، وانظروا إلى ما صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قبل الحجر الأسود وقال: «إني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[٦] فقد جمع بين الأخذ بالسنة ودفع ما عساه يخطر في أذهان العامة من اعتقاد فاسد.

البدعة

البدعة في اللغة: الأمر المحدث على غير مثال، محموداً كان الأمر أم مذموماً، ووردت البدعة في لسان الشارع، فذهب الفقهاء في الحديث عنها مذهبين:

* أحدهما: مذهب من يتوسع في معناها فيحملها على ما أحدث بعد عهد النبوة سواء أكان راجعاً إلى العبادات أم المعاملات، وسواء أكان حسناً أم قبيحاً. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه المحدثات من الأمور ضربان:

أحدهما: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً، فهذه البدعة الضلالة.

والثاني: ما أحدث من الخير، وهذه محدثة غير مذمومة. وعلى هذه الطريقة جرى عز الدين ابن عبد السلام[٧] إذ قسم البدعة إلى واجبة؛ كوضع علم العربية وتعليمه، ومندوبة؛ كإقامة المدارس، ومكروهة؛ كتزويق المساجد، ومحرمة؛ كتلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربي، ومباحة؛ كوضع الأطعمة على الموائد ألواناً.

* ثانيهما: مذهب من يفسر البدعة بالطريقة المخترعة على أنها من الدين وليست من الدين في شيء، فهي مذمومة في كل حال، ولا يدخل في حقيقتها واجب أو مندوب أو مباح، وعلى هذا المعنى ورد قوله ﷺ: «وكل بدعة ضلالة»، وهذا ما يريده الإمام مالك رضي الله عنه في قوله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول:

(٣) الذين ينفخون في الأبواق ليوقظوا النيام.

(٤) أبو إسحاق المروزي، إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي الشافعي (٣٤٠هـ/٩٥١م) فقيه، من أصحاب المزني، توفي بمصر.

(٥) الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ/٧٦٧ - ٨٢٠م) صاحب المذهب الفقهي الشهير، وواضع علم أصول الفقه.

(٦) صحيح الإمام البخاري.

(٧) عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/١١٨١ - ١٢٦٢م) سلطان العلماء وأبرز قادة الأمة في عصره، ومن أشهر علماء الفقه والأصول.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(المائدة: ٣)

وأصحاب هذه الطريقة يحملون قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة التراويح: «نعمت البدعة هذه» على معنى البدعة في اللغة، كما أن أصحاب الطريقة الأولى يذهبون في قوله ﷺ «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»[٨] إلى أن المراد من المحدثة والبدعة نوع خاص من المحدثات والبدع وهو ما كان مخالفا للكتاب والسنة.

والابتداع إما إحداث أمر في الدين غير مشروع من أصله، كصلاة الرغائب في رجب، وصلاة ليلة عاشوراء. وإما زيادة على أمر مشروع، كالذكر يقرن بالرقص في حركات متطابقة، وإما نقص من المشروع، كالذكر باسم مفرد في رأي من يعده بدعة، نظرا إلى أن الوارد إنما هو ذكر الله بلفظ مركب مفيد، وإما تحويل المشروع عن موضعه، كتقديم خطبة العيد على صلاته.

ويدخل في البدعة كل عمل استند صاحبه في ابتداعه إلى حديث موضوع، كالرقص في حال الذكر الذي يروي فيه فاعلوه حديثا موضوعا هو «أن النبي ﷺ تواجد واهتز حتى سقط الرداء عن منكبه» أما الحديث الضعيف يدل على فضل عمل خاص فينفي عن العمل اسم البدعة بشرط أن لا يكون ضعيفا جدا، وأن يشهد لما رغب فيه من العمل أصل عام من أصول الشريعة.

ويدخل في البدعة ترك المأذون فيه على وجه التدين، وتسمى البدعة التركية، وقد سدت الشريعة الطريق دون هذه البدعة إذ همّ قوم أن يقعوا في خطيئتها، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

(المائدة: ٨٧)

ولم تعدم هذه البدعة بعد نزول الآية أناسا يتعلقون بها ويحسبون أنهم يتقربون إلى الله بالتزامها. وإنما انحدروا إليها من ناحية الزهد، وللزهد مواطن لا يدخل ترك الطيبات في حدودها. دعي الحسن البصري[٩] إلى طعام ومعه أصحابه وفرقد السبخي[١٠] فقعدوا على المائدة وعليها ألوان من الدجاج المسمن والفالوذج وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فرقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن، يعيبه مسلم!

ومن البدع التي يلبسها بعض المتصوفة بدعوى الزهد أثواب ينشئونها من قطع مختلفة، وتسمى المرقعات. قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب العارضة: إن الثوب إذا خلق منه جزء كان طرح جميعه من الكبر والمباهاة والتكاثر في الدنيا. وإذا رقعه كان بعكس ذلك كله، ورقع الخلفاء ثيابهم. والحديث مشهور عن عمر، وذلك شعار الصالحين وسنة المتقين؛ حتى اتخذه الصوفية شعارا فجعلته في الجديد وإنشاء مرقعة من أصلها. وهذا ليس سنة، بل هو بدعة عظيمة، داخل في باب الرياء، وإنما المقصود بالترقيع استدامة الانتفاع بالثوب على هيئة البلي.

ومن أقبح البدع ما يوضع موضع سنة كالاستخارة بنحو المصحف والسبحة بدل الاستخارة الواردة في السنة التي هي صلاة ركعتين بالفاتحة وسورتي الكافرون والإخلاص، ثم الدعاء «اللهم إني أستخيرك بعلمك.....إلخ»[١١]، ولو قال إنسان لآخر عند الملاقاة: (صباح الخير) أو: أسعد الله صباحكم مثلا - في موضع السلام عليكم، لعد صنيعه هذا من قبيل وضع المحدث مكان السنة. غير أن الفرق بين هذا المثال وما تقدمه أن الاستخارة بنحو المصحف والسبحة ممنوعة في نفسها، قال القاضي أبوبكر بن العربي في كتاب الأحكام بعد أن تكلم عن التعرض للغيب: فإن قيل: فهل يجوز طلب ذلك في المصحف؟ قلنا: لا يجوز؛ فإنه لم يتبين المصحف ليعلم به الغيب، إنما بينت آياته، ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به ولا يتعرض أحدكم له. وأما نحو (أسعد الله صباحكم) فإنما ينكر حيث يوضع موضع تحية الإسلام، فلو أضيف إلى التحية الإسلامية لم يكن في إضافته إليها من بأس.

ومما يفعله بعض الناس بدل حكاية الأذان والدعاء «اللهم رب هذه الدعوة التامة.... إلخ» الثابتين في الصحيح أن يقول الشخص: (مرحبا بحبيبي وقرة عيني محمد بن الله ﷺ) ثم يقبل إبهاميه ويجعلهما على عينيه، ولا نعلم لهذا الذي يفعلونه من سند يوثق به حتى يصح أن يقام مقام سنة ثابتة.

ولا يدخل في البدعة ما يفتي به البالغ درجة الاجتهاد وإن خالف الجمهور، وإنما هو رأي مرجوح وآخر راجح - إلا أن تكون الفتوى مخالفة للنص الجلي من القرآن أو السنة، أو القواعد القاطعة أو الإجماع. فإن الفتوى تكون حينئذ زلة لا يصح البقاء عليها أو المتابعة فيها.

والشاهد على ما نقول من أن الأعمال التي تستند إلى آراء اجتهادية ولو كانت مرجوحة لا تسمى بدعة، أن الأئمة المجتهدين يرون أقوال مخالفيهم بالنسبة إلى أقوالهم مرجوحة، ولا ينسبونهم إلى ضلال، ولا ينكرون على من يقتدي بهم في المذهب، وإجماعهم على أن حكم الحاكم يرفع الخلاف، شاهد على أن المجتهد لا يرى أن العمل بقول مخالفه بدعة، ولو كان في نظره بدعة، لما أفتى بإقراره وهو يعلم أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فلا تسمى الصلاة لغير الخسوف والكسوف كالزلزلة والريح الشديدة بدعة وضلالة، وصاحبها مبتدعا ضالا؛ لأنها مشروعة عند بعض الأئمة وإن كانت أدلتهم فيما نرى أو

---

(٨) أخرجه مسلم.

(٩) الحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م) إمام أهل العقل والتوحيد، الذي تتنازعه لعلمه وفضله وزهده وورعه - مختلف تيارات ومذاهب وفرق الفكر الإسلامي، فتنسبه إليها، وتجعله من المقدمين في أئمتها.

(١٠) السبخة: موضع بالبصرة ينسب إليه فرقد؛ لأنه كان يأوي إليه.

(١١) رواه البخاري والترمذي وابن ماجة والإمام أحمد.

يرى الإمام الذى تفقهنا على مذهبه، واهية مرجوحة.

نقول هذا تحذيراً من قوم لم يدرسوا أصول الدين، ولم يتعرفوا مقاصد الشريعة، وبمجرد ما يتلون آية أو حديثا ويبدو لهم - وهم أشباه العامة - أن ما يقوله الإمام فلان أو الأئمة الأربعة مخالف للآية أو الحديث، يعجلون إلى الإنكار، ولا يبالون أن يسموا العمل - على ما ظهر لهم من أنه مخالف لنص الكتاب أو السنة - بدعة، وصاحبها مبتدعاً.

وإذا كان فى أشباه العامة من يقرأ الحديث فى صحيح الإمام البخارى أو الإمام مسلم - مثلا - ولا يحسن أن يتفقه فيه على مقتضى أصول الشريعة، فيخف إلى الطعن فى مذاهب الأئمة حتى ينبذها بلقب البدعة، فإن فى المستضعفين من أهل العلم من يعمد إلى أعمال يبتدعها العامة مخالفة للنصوص الجلية أو القواعد القطعية، فيتطلب لها مخرجاً يبتغى بها مرضاتهم:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾

(التوبة: ٦٢)

ومن أضر البدع ما يكون إتلافاً للمال، وإنفاقا له فى غير جدوى كإيقاد الشموع على قبور الأولياء بقصد القربة. ومن أجلبها للخسارة ما يعوق عن فعل خير كالاستخارات غير الشرعية. فقد يتفق لفاتح المصحف أن يقع نظره على آية فيها معنى النهى - مثلا - فيترك الأمر، ويكون فى فعله لو استشار أو اعتمد على الاستخارة الشرعية خير كثير.

ومن شرها ما يفعل بدعوى القربة ويكون فى الواقع مثيرا للأهواء، مبعدا للنفوس عن التقوى، كهذه الأشعار التى توصف فيها الخمور والغوانى والغلمان. ولا يتحاشى فيها عن ذكر العشق والهجر والوصال والعيون والثغور والرضاب، ويتغنى بها فى المجامع بزعم أنها كنايات أو إشارات لها تعلق بالحضرة الإلهية أو النبوية.

ومن أسوأ البدع ما يتباهى به بعض طرق المخالفين كهذا الذى يدعو إليه بعض الزائغين أو المغفلين من إقامة خليفة (روحى) لا جند له ولا سلاح، ولا يملك من تنفيذ الأحكام الشرعية قليلا ولا كثيراً، يدعو إليه الزائغون لأنهم يريدون اتخاذه رمزاً لفصل الدين عن السياسة، ويدعو إليه بعض المغفلين لأنهم لم يتنبهوا لسريرة الزائغين أو لما قصد الشارع فى إقامة الخليفة من مصلحة اتحاد كلمة المسلمين وتنفيذ أحكام شريعته الغراء، وإنما يتحد المسلمون تحت راية من يحترمونه لعدله وجهاده فى الحق جهاداً يطمس على أثر الباطل، وإنما يقيم أحكام الشريعة على وجهها من يكون فى لسانه حجة وفى يده قوة.

ومن البدع التى جاء الإسلام ليقتلعها من منبتها أعمال يبنيها أصحابها على زعم أنها تقى من الجن، وليس بينها وبين هذه الوقاية من صلة؛ كذبح حيوان، أو صنع طعام، باعتقاد أنه يجلب رضاهم، ويكون سببا لدفع ضرر يتوهم أنه يجىء من ناحيتهم. ذكر لابن شهاب[١٢]

(١٢) ابن شهاب، عبدالله بن محمد بن على الجندوبى، المعروف بابن شهاب (١١١٦ - ١١٨٦هـ/ ١٧٠٤ - ١٧٧٢م) ولد بحلب، وأقام وتوفى بدمشق.

أن إبراهيم بن هشام المخزومى[١٣] أجرى عيناً فقال له بعض المهندسين عند ظهور الماء: لو أهرقت عليها دماً كان أحرى أن لا تغيض ولا تغور فتقتل من يعمل فيها، فنحر جزائر[١٤] حتى جرى الماء مختلطا بالدم، وأمر فصنع له ولأصحابه منه طعام. فقال ابن شهاب: أما بلغه أن النبى ﷺ نهى أن يذبح للجن؟![١٥].

وقد عرفت أن ترك السنة لا يستدعى فعل بدعة - إلا أن ترك السنة على اعتقاد أن خير الدين فى تركها، فيكون من قبيل البدعة التَّرْكِيَّة، كمن يترك الصلاة فى جماعة بدعوى أن صلاته فى حال انفراد أجمع للقلب وأدعى للخشوع. أما من ترك السنة لغرض دنيوى، فلا يسمى بمجرد تركه السنة مبتدعا، كما اعتاد الناس ترك تشميت[١٦] الرؤساء مهابة لهم ولو حمدوا الله تعالى بعد العطاس. عطس المأمون[١٧] مرة فى محضر جماعة فلم يشمته أحد. فقال لهم: لماذا لم تشمتونى؟ قالوا: هبناك، فقال: لا خير فى مهابة تحرمنى من رحمة الله. وإنما أمات هذه السنة فى مجالس الرؤساء استنكاف بعضهم من الرد على من يشمتهم، وما كان لهم أن يستنكفوا.

وإذا كانت البدع تشوه وجه الدين الحنيف فى نظر من يجهلون حقائقه فضلا عما تجره من المفاسد العظيمة والمآثم، فمن الواجب على أهل العلم أن يحاربوها بما استطاعوا، وعلى القوة الحاكمة أن تشد أزرهم فى تغييرها. وكثير من البدع لا تقتلع عروقها ويطمس على آثارها إلا أن تتعاضد القوتان العلمية والتنفيذية على إماتتها، قال عزالدين بن عبدالسلام فى رسالة[١٨] أنكر فيها بدعة صلاة الرغائب: «ولما صح عند الملك الكامل[١٩] - رحمه الله - أنها من البدع المفتراة على رسول الله ﷺ، أبطلها من الديار المصرية، فطوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين، فأعان على إماتة بدعة أو إحياء سنة»[٢٠]

(١٣) إبراهيم بن هشام المخزومى - لعله إبراهيم بن الخشاب المخزومى - إبراهيم ابن أحمد بن عيسى بن عمر (٦٩٨ - ٧٧٥هـ/ ١٣٤٩ - ١٤٢٢م) فقيه، ناب فى الحكم بالقاهرة، وولى قضاء حلب والمدينة المنورة، ومات ودفن بمصر.

(١٤) جمع جزور، وهى الناقة المجزورة أى المنحورة.

(١٥) لأنه ذبح لغير الله، ولقد لعن رسول الله ﷺ من يذبح لغير الله. انظر: صحيح مسلم، وسنن النسائى، ومسند الإمام أحمد.

(١٦) تشميت العاطس الدعاء له.

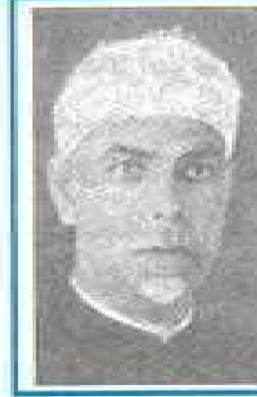
(١٧) المأمون: عبدالله بن هارون الرشيد (١٧٠ - ٢١٨هـ/ ٧٨٦ - ٨٣٣م) سابع خلفاء بنى العباس، وأحد عظماء الخلفاء سيرة وعلماً.

(١٨) أوردها ابن السبكى فى طبقات الشافعية (٤/ ٥-١٠).

(١٩) الملك الكامل، محمد بن محمد بن أيوب، أبوالمعالى (٥٧٦ - ٦٣٥هـ/ ١١٨٠ - ١٢٣٨م) من سلاطين الدولة الأيوبية.

(٢٠) للمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.





للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

الوضع التاريخى للمسألة

خطأ هذا الوضع فى وسائله وفى غايته:

ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه، ومحاولة حلها من هذا الطريق، ينطوى على خطأ مزدوج: خطأ فى الغاية، وخطأ فى الوسيلة.

أما من حيث الغاية التى يهدف إليها البحث، وهى تحديد الأصل الأصيل للعقيدة، والمظهر الذى ظهرت به فى أول الأزمنة بإطلاق؛ فلأن هذه المنطقة «البدائية المحضة» قد اعتبرها العلم شقة حراماً حظرها على نفسه، وأعلن فى صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، وتستر بثوب مستعار، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادراً عن قاض معزول، فاقداً للركن الأول من سلطته الشرعية. ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لاتزال مجهولة لنا جهلاً تاماً، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب.

وأما من حيث المنهج وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المعزولة المتخلفة عن ركب المدنية؛ فلأنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل إليها بحثنا، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذى أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون. عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود والتقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وأن هذه المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، قريبة أو بعيدة، فى أدوار تتعاقب على البشرية، كما تتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة بحيث يصبح من العسير أن تحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان، وليس تعيين أحد الأمرين للابتداء الحقيقى بأثبت تاريخياً من مقابله. فكذلك نقول فى شأن العقائد الدينية. إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم الآفات الاجتماعية، فقلت عنايتهم بأصول دينهم، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين، وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سنناً مقدسة ولقد أنصف العلامة هوفدنغ Hoffding حين قال: «إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى.. فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى فى موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً...» «حتى إن أحط القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بأدوار شتى، وتطورت تطوراً بعيداً» (١).

فقد بان لك مبلغ ثبات الفرض الذى بنيت عليه البحوث الحديثة كلها، وأنها أسست على جرف هار لا تطمئن عليه الأقدام.

نقد المذهب التطورى بشكل خاص:

ويمتاز المذهب التطورى بأنه مبنى على افتراض آخر لم يقم عليه دليل كذلك، وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية، على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية: فكما أن الإنسان ينتقل فى نموه البدنى من الضعف إلى القوة وفى نموه العقلى من الجهالة إلى المعرفة، قد يلوح أيضاً أنه بدأ حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء.

ونحن نسأل قبل كل شىء عن الأصل الذى بُنى عليه هذا القياس.

هل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير فى نموها على قدم المساواة، وأن حياة الناس الروحية تمشى فى كل أدوارها جنباً إلى جنب مع حياتهم المادية؟ أو لسنا نرى هاتين الظاهرتين تسيران أمامنا فى طريقين متعارضين؟ فإذا صح ما يقال من أن الإنسان كان فى بدايته قانعاً بكهف يؤويه، وجلد حيوان يستر به بشرته، وشىء من الأعشاب يدفع مخمصته، ألا تكون قلة مشاغله ومطامحه المادية قد تركت فى نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التى تُرهف حاسته الدينية، وتنمى مشاعره الروحية العليا؟ كما أن انشغال الناس فى عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية، يؤدى إلى عكس هذه النتيجة ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها، ككفتى الميزان: لا ترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى.

على أن قليلاً من التأمل يهدينا إلى أن قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة، بل تباين طبائعهما ووسائلهما فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس فى طلبها واكتسابها، ويتطلب اقتنازها وتنميتها علاجاً ومثابرة، واستعانة بأدوات منفصلة فى غالب الأمر، وحقيقة الدين توجد عناصرها قارة بين الجوانح، وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس، حتى إن التفاتة يسيرة لتكفى للظفر بها فى حدس سريع، كالبرق الخاطف وليس إدراك هذه الحقيقة الكبرى محصول إدراكات حقائق الكون ودقائقه الجزئية، ولا هو أشق منها كما ظن (٢)، بل إنه يتقدمها ويمهد لها، فى نظرية كلية تلم بها جملة، قبل أن تفحص أجزاءها وتفصيلاتها ولذلك يستوى العالم والجاهل فى أصل

---

(١) Harald Hoffding, Philosophie de la Religion, trad fr. pp. 126 - 127

(٢) انظر أول صفحة من كتاب العقاد عن نشأة العقيدة الإلهية «الله».

هذا الإحساس، كل على فهمه يجد في الكون ما يبهره ويستولى على مشاعره.

ولقد كان مقتضى الوضع السليم، في تعرف ما كانت عليه بداية الأديان فيما قبل التاريخ، أن تسترشد في مقارنتها - لا بسير الفنون والمصنوعات بل بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ إلى اليوم. ألا وإننا نعرف بالاستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطها الشوائب والأباطيل على طول العهد فالأشبه أن تكون هذه سنة التطور في الديانات كلها: أن بدايتها دائماً خير من نهايتها.

فإذا أبينا إلا أن نقيس تطور الدين على تطور الفن، كان من الحق علينا ألا نأخذ في هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والتشابه اللفظي الأجوف، بل ننظر إلى جوهر الأشياء وأعماقها، وحينئذ ينقلب هذا القياس نفسه حجة في يد أنصار «الفطرية»؛ ذلك أن معنى «التطور» في الفنون - كما في كل كائن حي - هو أنها تبدأ في صورة ساذجة، متحدة، متجانسة، ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركيب، تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة والسهولة واليُسر، إلى التعقد بالإضافة الأسطورية، والنزوات الخيالية، التي لا ضابط لها من العقل السليم.

التطور في الأديان السماوية:

أما «التطور» بمعناه الأدبي، وهو الترقي من النقص إلى الكمال، فليس قانوناً علمياً، ولا سنة طبيعية مطردة، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشرى، وإنما هو إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس، وتشرئب إليها الأعناق؛ فتبلغها حيناً؛ وتنحسر عنها أحياناً، نعم إن كل مصلح لابد أن يكون مؤمناً بإمكان تحقيق هذه الغايات السامية، إذ لولا الأمل في قابلية الأخلاق والعقائد للتحول والرقي، لبطل كل تشريع، ولأصبح من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم، ولكن شتان ما بين قابلية الترقي وبين تحققه بالفعل، فهذا مطمح لا يناله إلا من أدى مهره من العزيمة الصادقة، والمجاهدة المتواصلة، وتاريخ الإنسانية لا يسير في هذا الاتجاه على خط رأسي مستقيم (٣).

هكذا نرى أن التحليل النفسي وشواهد التاريخ، والتطور الصحيح، لا يقف شيء منها في وصف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية، والتي تجعل الخرافة والأسطورة هي بداية الأديان؛ بل إنها بالعكس تميل إلى تأييد النظرية المقابلة. غير أن تأييدها لهذه النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى صف الحقائق التاريخية المفروغ منها؛ لأن هذه الدلائل كلها لا تقدم لنا ضماناً من المنطق ولا من الواقع تثبت به أن الحوادث كانت تسير بالفعل دائماً على وفق ما ألفناه من الأوضاع، لا على الوجه الذي كان ينبغي أن يكون.

بل هي هنا نظرية ثالثة يمكن الأخذ بها في المسألة. وتقريرها أن الرشد والضلال في الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط، صعوداً أو انحداراً على مدى العصور، بل هما ظاهرتان متعاصرتان، موزعتان في كل أمة وجيل، تبعاً لاختلاف الأفراد في درجات استقامة الحدس العقلي، ونبل الحس الباطني. فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقية من شوائب الخرافة، وأخرى دون ذلك. ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويراً للواقع المعروف، فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخي الأديان كما أسلفنا على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب. لكن بين القدر الذي عرفناه من تاريخ البشرية وبين عصر نشأتها، لا تزال الثغرة واسعة لم تسد ولن تسد؛ إذ لم يقل أحد أن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين، اعتماداً على مجرد حسن المقابلة وجمال التناسق بينها وبين الوقائع المعروفة، دون تثبت من تشابه الظروف والملابسات في طرفي القياس.

هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بياناً شافياً يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول. أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية، فإنه سوف يجد فيها ما شد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا في الغريزة فحسب:

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

(الروم: ٣٠)

بل في التطور الزماني كذلك. فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً بعد ذلك:

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

(يونس: ١٩)

وأن استمرار هذا الخلاف واتساع شُقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» (٤). وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تُترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها، بغير مرشد ومذكر، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين. وأول المتضرعين الأوابين.

لكن الالتجاء إلى هذه النصوص اعتراف ضمني بأن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقيني إلى نقطة البدء الحقيقي للدين. والواقع أن الحل النهائي لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحي، لأنها داخلة في منطقة الغيب التي هي موضوع الإيمان، وليس من شأن العلوم الاستقرائية، ولا العلوم الاستنتاجية.

وجملة القول إن كل النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية، فصورتها لنا تارة سليمة، وتارة سقيمة، وتارة ملفقة، إنما هي افتراضات مبنية على افتراضات فهي لا تصف الحق الثابت Le vrai، الذي هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلاً أو كثيراً «vrisemblablesou + ».

فإذا نحن عرضنا الآن شيئاً من هذه النظريات، فليكن معلوماً أننا لن نتابعها في تلك الدعوى العريضة، وهي أنها ترسم الصورة الأولى المطلقة للحياة الدينية، بل سنقنع منها بالجانب التحليلي، أو الجانب التاريخي النسبي، لا أكثر من ذلك.

(٣) نعم إن الناظر في الأديان السماوية الثلاثة يلاحظ بينها تطوراً فعلياً، وتقدماً تدريجياً محققاً. لكن هذا التقدم لا يبرز فيها بصفة مطردة من حيث هي حقيقة خارجية تطبيقية حسبما يدين بها أهلها، كما كان يلزم لو صح المذهب التطوري؛ بل في حقيقتها التنزيلية من حيث طبيعة دعوتها ومنافع تشريعها. وحتى من هذه الوجهة الأخيرة ليس هو تطوراً من الخطأ إلى الصواب كما تريد أن تصوره المذاهب التطورية للأديان، وإنما هو تدرج تصاعدي في مراتب الوفاء، والشمول والكمال ولعلنا توافينا الفرصة لعرض هذه المقارنة مقتبسة من النصوص المقدسة نفسها.

(٤) البخاري عن أبي هريرة، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم الحديث ١٢٩٦.

تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة

٢

للأستاذ الدكتور/ إبراهيم البيومي غانم

معنى التقنين

يرجع «التقنين» – في التاريخ العام للقانون – إلى عصور موغلة في القدم، وقد عرفته مختلف الحضارات بصور متباينة، وبدرجات مختلفة من السذاجة والنضج. فقانون حمورابي والألواح الاثنا عشر كانا نوعاً ساذجاً من أنواع التقنين. والقانون الروماني القديم مر بمراحل عدة قبل أن ينتهي إلى تقنينات جوستنيان الضخمة ذائعة الصيت. وهكذا، تدرجت الأمم والشعوب في وضع ما يناسبها من تقنينات في كل مرحلة من مراحل تطورها، إلى أن وصلنا إلى العصر الحديث الذي شهد نقلة نوعية هائلة في تاريخ التقنين عندما صدرت «تقنينات نابليون»، التي بقيت إلى اليوم، بعد أن زالت الانتصارات العسكرية التي ظفر بها نابليون نفسه ومحتها معركة واترلو. ولم يتوقف أثر هذه التقنينات النابليونية على فرنسا فقط، وإنما امتدت فسادت أغلب دول أوروبا وأمريكا اللاتينية طوال القرن التاسع عشر، وامتدت – أيضاً – فشملت بلاداً عربية مثل مصر وتونس ومراكش ولبنان. ولم تتخلص هذه البلدان إلى اليوم من آثار تلك التقنينات منذ دخلتها، أو جُلبت إليها خلال القرن التاسع عشر.

وقد قضت وقائع التطور والمدنية بوجوب صوغ تقنينات عامة تنظم شئون الحياة الاجتماعية، وتتمتع بدرجة عالية من التجريد والمرونة. وفي نطاق الفقه الإسلامي، أضحى التقنين – حسب رأي الدكتور توفيق الشاوي – رحمه الله – وسيلة «لعرض الأحكام القانونية بأسلوب أكثر دقة وإيجازاً من الأسلوب الذي تسير عليه كتب الفقه الإسلامي. وقد شاع استعماله في العصر الحاضر استجابة للضرورات العملية التي تفرض على القائمين بتنفيذ القوانين وتطبيقها العلم بها بدون حاجة إلى البحث في مصادرها أو أدلتها الشرعية أو غاياتها وأهدافها؛ لأن هذا كله تقوم به الهيئة العلمية أو اللجنة الفنية أو العالم أو الفقيه الذي يقوم بإعداد التقنين وتتم مناقشته قبل إصداره»[١].

(١) توفيق الشاوي، فقه الشورى والاستشارة (المنصورة: دار الوفاء، ط٢ – ١٩٩٢) ص١٩٢.

وإذا رجعنا إلى الجذر اللغوي لكلمة التقنين – في لغة العرب – سنجد أنها مشتقة من «القَنّ» والقن: هو تتبع الأخبار. واقتن: بمعنى اتخذ. والقنة؛ أي القوة. وقنة كل شيء طريقه، ومقياسه، ومنه التقنين[٢]. ويتكون جذر الكلمة من حرفي: القاف والنون المشددة. يقول ابن فارس – في معجم مقاييس اللغة – «إن القاف والنون أصلان؛ يدل الأول على الملازمة، والآخر على العلو والارتفاع»[٣]. وفي المعجم الوسيط: قنّن: أي وضع القوانين.

والقانون كلمة رومية، أو فارسية (في قول آخر)، وهي تعني في اللغة «مقياس كل شيء وطريقه». وجاء في قاموس المنجد: القانون (والجمع قوانين) هو: مجموعة الشرائع والنظم التي تنظم علاقات المجتمع؛ سواء كان من جهة الأشخاص أو من جهة الأموال. وفي «التعريفات للجرجاني» أن «القانون» يشير إلى ما هو: «كلي منطبق على جميع جزئياته التي يُتعرف أحكامها منه».

تقودنا هذه الخلفية اللغوية إلى المعنى الاصطلاحي للتقنين؛ حيث يشير في معناه المجمل إلى العلو والارتفاع عن التفاصيل، ولزوم التجريد والعموم، وهما من أهم صفات «التقنين» بالمعنى الاصطلاحي. فالتقنين هو عملية تقوم بمقتضاها جهة أو هيئة علمية متخصصة بـ جمع أحكام المسائل في موضوع ما على هيئة مواد مرقمة. ويقتصر التقنين في المسألة الواحدة على حكم أو اجتهاد واحد مختار من الآراء المختلفة التي قالها الفقهاء؛ وذلك ليسهل الأمر على القضاة في معرفة الحكم المختار وتطبيقه وحده على أطراف القضية التي تدخل تحت حكمه؛ دون بقية الآراء المخالفة للرأي المختار[٤]. ويظهر التقنين في صورة «قانون». وفي ظل الدولة الحديثة يصدر القانون عن السلطة التشريعية (البرلمان أو مجلس الشعب، أو مجلس النواب... إلخ).

(٢) انظر مادة «قنن» في لسان العرب لابن منظور، ج١٢/ ٢٠٥ – ٢٠٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ص١١٠٥.

(٣) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة تحقيق محمد عبدالسلام هارون (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩) ٥/ ٢٩.

(٤) محمود طنطاوي، المدخل إلى الفقه الإسلامي (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠١) هامش ص١٦٦. (بتصرف يسير في الصياغة).

إذا أتينا إلى المقصود بتقنين الشريعة فهو «صوغ الأحكام فى نصوص مرتبة، ووضع هذه النصوص فى مجموعة مبوبة»، أو مرقمة على غرار القوانين الحديثة من مدنية وجنائية وإدارية؛ كى تكون مرجعاً سهلا محدداً، يمكن بيسر أن يتقيد به القضاة، ويرجع إليه المحامون، ويتعامل على أساسه المواطنون». وينطبق هذا المعنى على أى عملية تقنين؛ شرعية كانت أو وضعية. فالإجراءات «الشكلية» التى تحدد مسار صدور القانون واجب التطبيق تكاد تكون واحدة، ويظل الاختلاف الجوهرى موجوداً فى المضمون الذى تسفر عنه عملية التقنين.

وفى سياق تجربة تقنين أحكام الشريعة الإسلامية فى التاريخ الحديث والمعاصر، يمكن القول إن حصاد عملية «التقنين» – وهو القانون – هو ما توصل إليه علماء وفقهاء الشريعة والقانون من آراء وأحكام فقهية ووضعوها فى نصوص مرقمة ومبوبة؛ كى يرجع إليها القضاة، وتطبقها المحاكم. وتصل عملية التقنين إلى أعلى مراحلها عندما تصدر عنها «قوانين» بمعرفة المجالس التشريعية كما أسلفنا، شريطة أن تكون هذه المجالس منتخبة بإرادة شعبية حرة. وتتسم مواد القانون فى هذه الحالة بما تتسم به مواد أى قانون آخر من حيث العموم والتجريد والإلزام والجزاء الذى يوقع على من يخالف هذه المادة أو تلك من مواد القانون؛ فرداً كان هذا المخالف، أو مجموعة أفراد، أو هيئة أو مؤسسة، أو السلطة نفسها.

وإذا كان «التقنين» الشرعى هو صوغ الأحكام الفقهية على شكل مواد مرقمة ومسلسلة ومختصرة، ومستمدة من نصوص الشريعة الإسلامية، فمن البديهى أن تصاغ بأسلوب يخلو من ذكر الأدلة والنصوص النقلية، طالباً للاختصار، وبحثاً عن سرعة الوصول إلى النص الفقهى المطلوب، واقتصاراً على قول واحد يعتبر هو الراجح من حيث الدليل والمصلحة؛ وبهذا المعنى يختلف التقنين – حسب رأى البعض – عن التدوين؛ الذى هو كتابة الأحكام الفقهية بصياغة يراها المدون مناسبة من حيث الوضوح، ومن حيث اشتمال المدونة على الأدلة والنصوص، وقد لا يقتصر على قول واحد من أقوال الفقهاء، دون أن تكون على شكل مواد مرقمة ومسلسلة. وبوضوح هذا الفرق يصبح من الخطأ استخدام مصطلحى التدوين والتقنين كمترادفين.

وفى سياق الجدل الدائر منذ سبعينيات القرن العشرين الماضى حول تقنين أحكام الشريعة الإسلامية؛ ذهب العلامة توفيق الشاوى إلى أن المقصود بـ«التقنين»، «هو القانون المستمد من الشريعة، أو القانون الإسلامى». ودعا الشاوى إلى استعمال هذه التسمية؛ أى «القانون الإسلامى»، وحجته فى ذلك هو أن هذه التسمية ملائمة لمرحلة انتقالية يجرى فيها الانتقال من القوانين الوضعية إلى القوانين الشرعية، وذلك إلى أن يتم تطهير مجتمعاتنا من القوانين الوضعية نهائياً، ويصبح القانون كله إسلامياً أى مستمداً من المنابع والأصول التى جاءت بها الشريعة السمحاء[*].

(*) توفيق الشاوى، الموسوعة العصرية فى الفقه الجنائى الإسلامى: كتاب عبدالقادر عودة مع تعليقات آية الله السيد إسماعيل الصدر وآراء الدكتور توفيق الشاوى والمشاركين: ج/١ مجلد١ (القاهرة: دار الشروق ٢٠٠١) ص٣٢.

ويرى الشاوى أن التقنين يكتسب صفة شرعية إذا توافر فيها شرطان هما: «أن يستمد من مصادر الشريعة ويلتزم أصولها. وأن يكون ملتزماً بحدودها وأحكامها القطعية ومقاصدها السامية»[٦].

وكثيراً ما أكد الشاوى فى كتاباته على أن «التقنين» والدراسة الفقهية والقانونية المقارنة كلها عمليات تساعد على إخراج أقطارنا العربية والإسلامية من مرحلة الازدواجية التى تفصل بين الفقه والقوانين الوضعية السائدة، كما تسهم «فى توحيد الثقافة الحقوقية التى تمكننا من المساهمة فى التقدم العالمى فى العلوم القانونية والنظم التشريعية؛ باعتبارنا أصحاب شريعة أصيلة ونظام قانونى عريق، ومتميز فى المستقبل، بدلاً من أن نكون عالة على غيرنا، وذنباً «ذيلاً» للثقافة الوضعية المستوردة من الخارج»[٧].

وثمة فرق كبير بين القانون الوضعى، والقانون المستمد من الشريعة.

«القانون الوضعى ينشأ فى الجماعة التى ينظمها ويحكمها، ثم يتطور بتطورها فتزداد قواعده، وتتسامى نظرياته، كلما ازدادت حاجات الجماعة وتنوعت، وكلما تقدمت الجماعة فى تفكيرها وعلومها وآدابها. فالجماعة إذن هى التى تخلق القانون الوضعى وتصنعه على الوجه الذى يسد حاجاتها وينظم حياتها، وهو تابع لها، وتقدمه مرتبط بتقدمها»[٨].

أما «الشريعة» الإسلامية فهى ذات مصدر سماوى. هذا المصدر يسمو عن واقع الجماعة وفكرها. نصوصها المؤسسة من عند الله، ومصدرها الأول هو الوحى. ولم تكن الشريعة قواعد قليلة ثم كثرت، ولا مبادئ متفرقة ثم تجمعت، ولا نظريات أولية ثم تهذبت. وإنما نزلت كاملة من عند الله، شاملة جامعة تحكم كل حالة. مانعة لا تخرج عن حكمها حالة، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول. لا ترى فيها عوجاً، ولا تشهد فيها نقصاً. ولم تأت لجماعة دون جماعة، أو لقوم دون قوم، أو لدولة دون دولة، إنما جاءت للناس كافة.

ثلاثة فروق بين الشريعة والقانون، يوضحها عبد القادر عودة، وهو يقدم محاولته الرائدة فى المقارنة بين التشريع الجنائى الإسلامى والقانون الوضعى. هذه الفروق هى:

١- أن القانون من صنع البشر، أما الشريعة فمن عند الله. وكل من الشريعة والقانون يتمثل فيه بجلاء صفات صانعه. فالقانون يتمثل فيه نقص البشر، وعجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم، ومن ثم كان القانون عرضة للتغيير والتبديل، أو ما نسميه التطور، كلما تطورت الجماعة.

أما الشريعة فصانعها هو الله، وتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان، وما هو كائن، ومن ثم صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شئ فى الحال والاستقبال؛

(٦) المرجع السابق، ج/١-مجلد ١ ص٣.

(٧) المرجع السابق، ج/١-مجلد ١ ص٤.

(٨) المرجع السابق، ص١٤-فقرة ١٥.

حيث أحاط علمه بكل شئ، وأمر جل شأنه ألا تغيير ولا تبديل :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾

[يونس: ٦٤]

٢- إن القانون عبارة عن قواعد مؤقتة تضعها الجماعة لتنظيم شئونها وسد حاجاتها، فهي قواعد متأخرة عن الجماعة، أو هي في مستوى الجماعة اليوم، ومتخلفة عن الجماعة غداً؛ لأن القوانين لا تتغير بسرعة تطور الجماعة.

أما الشريعة فقواعدها وضعها الله على سبيل الدوام لتنظيم شئون الجماعة. فالشريعة تتفق مع القانون في أن كليهما وضع لتنظيم الجماعة، ولكن الشريعة تختلف عن القانون في أن قواعدها دائمة، ولا تقبل التغيير، أما ما يستمد منها فهو القابل للتغيير بحسب اجتهادات البشر، وبحسب تقديرهم لمصالحهم في ضوء تلك المبادئ العامة للشريعة.

٣- إن الجماعة هي التي تصنع القانون وتلونه بعاداتها وتقاليدها وتاريخها. والأصل في القانون أنه يوضع لتنظيم شئون الجماعة، ولا يوضع لتوجيه الجماعة، ومن ثم كان متأخراً عنها، وتابعاً لتطورها، ولم تكن الجماعة من صنع القانون. وهذا الأصل تعدل في القرن العشرين، وعلى وجه التحديد بعد الحرب العظمى الأولى؛ حيث بدأت الدول التي تدعو لدعوات جديدة تستخدم القانون لتوجيه الشعوب وجهات معينة، كما تستخدمه لتنفيذ أغراض معينة. وكان أسبق الدول على الأخذ بهذه الطريقة روسيا الشيوعية، وتركيا الكمالية، ثم تلتهما إيطاليا الفاشية، وألمانيا النازية، ثم اقتبست بقية الدول هذه الطريقة، فأصبح الغرض من القانون هو تنظيم الجماعة وتوجيهها الوجهات التي يرى أولياء الأمور أنها في صالح الجماعة. أما الشريعة: فقد علمنا أنها ليست من صنع الجماعة، وأنها لم تكن نتيجة لتطور الجماعة وتفاعلها كما هو الحال في القانون الوضعي، وإنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شئ خلقه.

وإذا لم تكن الشريعة من صنع الجماعة، فإن الجماعة نفسها هي من صنع الشريعة؛ إذ الأصل في الشريعة أنها لم توضع لتنظيم شئون الجماعة فقط؛ وإنما المقصود من الشريعة قبل كل شئ خلق الأفراد الصالحين والجماعة الصالحة وإيجاد الدولة التي تتطلع للمثل العليا، ومن أجل هذا جاءت نصوصها أرفع من مستوى العالم كله وقت نزولها، ولا تزال كذلك إلى اليوم، وجاء فيها من النظريات والمبادئ ما لم يتهيأ للعالم غير الإسلامي معرفته والوصول إليه إلا بعد قرون طويلة، وما زال يتهيأ هذا العالم غير الإسلامي لمعرفته والوصول إليه حتى الآن. ومن أجل هذا تولى الله وضع الشريعة، وأنزلها على رسوله في نموذج من الكمال ليوجه الناس إلى الطاعات والفضائل، ويحملهم على التسامي والتكامل حتى يصلوا أو يقتربوا من مستوى الشريعة الكاملة، وقد حققت الشريعة ما أراده لها الخبير العليم، فأدت رسالتها أحسن الأداء، وجعلت رعاة الإبل سادة العالم، ومن جهال البادية معلمين وهداة للإنسانية(٩).

(٩) المرجع السابق، ص٤٦ - ٥٣.

وثمة فرق آخر بين «الشريعة»، و«القانون» يتجلى في «حكمة» كل منهما، أو في فلسفته؛ فبينما تخاطب الشريعة أسمى ما في النفس الإنسانية، وهي غريزة الرجاء والصفح، نجد أن القانون الوضعي يخاطب في هذه النفس غريزة الخوف من العقاب، وهي أسوأ غرائز النفس الإنسانية.

الشريعة أرحم وأرأف بالإنسان من أي قانون وضعي؛ وهي - كما يقول الشاوي - «أوسع من أي قانون، والجزء الأهم فيها هو المبادئ العامة والأحكام التكليفية التي لا مكان لها في القوانين الوضعية»(١٠).

إن الشريعة تنزلت من عند الله تعالى كاملة في أصولها ونصوصها المقدسة، ووفرت للفقه أن يجتهد في إطارها على نحو يتسم بالمرونة والنمو والتطور لمواجهة ما يستجد من احتياجات الأفراد والجماعات، ولا يطمس هذه الحقيقة إلا تعطيل العمل بأحكام الشريعة، واستبدال القوانين الوضعية بها.

ضرورات التقنين

التقنين بالمعنى السابق، أضحى من ضروريات الحياة في المجتمع المعاصر؛ هذا المجتمع الذي يتسم بكثافة العلاقات وتشابكها بين أفراده وجماعاته، وبين أفراده من جهة، ومؤسساته الحكومية وغير الحكومية، المحلية والخارجية، من جهة أخرى. ويشهد المجتمع المعاصر أيضاً كثافة عالية في المعاملات وتنوعها وسرعة تغيرها. وفي إطار مبدأ التخصص وتقسيم العمل، ووجوب توحيد المراكز القانونية لجميع مواطني الدولة - على اختلافهم - في القضايا المتشابهة؛ في ضوء كل ذلك، باتت عملية التقنين أمراً لازماً، بل تفرضها المصلحة العامة والمصلحة الخاصة في آن واحد.

ظهرت الحاجة إلى «تقنين» الشريعة الإسلامية؛ بالمعنى الاصطلاحي لكلمة «تقنين» منذ ما يزيد على قرنين من الزمان؛ أي في بدايات القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. واشتدت الحاجة إلى التقنين، وأضحى لا مناص منها بمرور الزمن لسببين رئيسيين:

● السبب الأول: هو وقوع أغلبية البلدان العربية والإسلامية - تباعاً - تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي «الأوروبي» منذ بدايات القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي، وقيام سلطات الاحتلال بتعطيل العمل بأحكام الشريعة في البلدان التي احتلتها وشمل هذا التعطيل مختلف مجالات الحياة، مع سلب كثير من اختصاصات القضاء الشرعي الأصيلة في النظر في المنازعات والأقضية المختلفة، ونقلها إلى المحاكم القنصلية والتجارية، ثم المحاكم المختلطة والأهلية؛ باستثناء مسائل الأحوال الشخصية والأوقاف.

● والسبب الثاني: هو قيام كثير من حكومات البلدان العربية والإسلامية بإصدار مجموعات من القوانين الوضعية المستمدة في عمومها من القوانين الأجنبية، وفي مقدمتها

(١٠) توفيق الشاوي، الموسوعة، ص ١٠٢٤/١.

القوانين الفرنسية. وقد جرى إصدار هذه المجموعات القانونية بشئ من التدرج في ظل سلطة الاحتلال الأجنبي قبل رحيله في بعض الحالات، أو بعد رحيله - في حالات أخرى - في ظل سلطة الدولة الوطنية التي نشأت بعد التحرر من المستعمر الأجنبي.

وكان من الحجج الرئيسية التي استندت إليها السلطات «الأجنبية» لاستيراد القوانين الأجنبية وتطبيقها، وتعطيل العمل بأحكام الشريعة الإسلامية: تعدد الآراء الفقهية، وكثرة الاختلافات في المسألة الواحدة؛ ليس فقط بين فقهاء المذاهب المختلفة، وإنما أيضا بين فقهاء المذهب الواحد، الأمر الذي جعل من العسير على قضاة المحاكم الاهتداء إلى الحكم واجب التطبيق في الحالات المتماثلة، وهو ما يعني بدوره إهدارا لمبدأ المساواة أمام القانون «وفق منطق الدولة القومية الحديثة»، ومن ثم تضييع العدالة بين المتقاضين. وتلك كانت حجتهم في المناداة بتعطيل العمل بالشريعة، واستيراد القوانين الأجنبية والعمل بها؛ متعللين بأن القوانين الأجنبية حسنة التنظيم، وسهلة المأخذ والتطبيق؛ دون تمييز أو تفريق بين القضايا المتماثلة، متجاهلين أن تلك القوانين مختلفة المنشأ والمضمون، وغريبة في مجملها عن روح مجتمعنا وهويته.

ولكن تلك الحجة - نفسها - هي التي استند عليها المنادون بضرورة «تقنين» الفقه الإسلامي، ولَمّ شتاته في مجموعة منظمة من المواد التي يسهل على القضاة والمفتين الرجوع إليها، وقد أشارت إلى ذلك اللجنة التي وضعت مجلة الأحكام العدلية في تقريرها بقولها: «ولا يخفى أن علم الفقه بحر لا ساحل له، واستنباط درر المسائل اللازمة منه لحل المشكلات يتوقف على مهارة علمية وملكة كلية، وعلى الخصوص مذهب الحنفية؛ لأنه قام فيه مجتهدون كثيرون متفاوتون في الطبقة، ووقع فيه اختلافات كثيرة، ومع ذلك فلم يحصل فيه تنقيح كما حصل في فقه الشافعية، بل لم تزل مسائله أشتاتاً متشعبة، فتمييز القول الصحيح من بين تلك المسائل، والأوقات المختلفة، وتطبيق الحوادث عليها عسير جداً، وما عدا ذلك فإنه بتبدل الأعصار تتبدل المسائل التي يلزم بناؤها على العادة والعرف»[11].

تقرير لجنة المجلة ذهب أيضاً إلى أن «الإحاطة بالمسائل الفقهية وبلوغ النهاية في معرفتها أمر صعب جداً؛ ولذا انتدب جمع من فقهاء العصر وفضلائه لتأليف كتب مطولة مثل كتاب الفتاوى التتارخانية والعالمكيرية المشهورة باسم الفتاوى الهندية، ومع ذلك فلم يقدروا على حصر جميع الفروع الفقهية والاختلافات المذهبية «.....» وبناء على ذلك لم يزل الأمل معلقاً بتأليف كتاب في المعاملات الفقهية، يكون مضبوطاً سهل المأخذ، عارياً من الاختلافات، حاوياً للأقوال المختارة، سهل المطالعة على كل أحد «.....» وبموجب الإرادة العلية، اجتمعنا في دائرة ديوان الأحكام، وبادرنا إلى ترتيب مجلة مؤلفة من

(11) من نص «تقرير لجنة الأحكام العدلية»، انظر: سليم رستم باز اللبناني، شرح المجلة «بيروت: دار إحياء التراث العربي، طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة، ٦-١٤-١٩٨٦»، ص١٠.

المسائل والأمور الكثيرة الوقوع، اللازمة جداً من قسم المعاملات الفقهية، مجموعة من أقوال السادة الحنفية الموثوق بها، وقسمت إلى أبواب متعددة، وسميت بالأحكام العدلية....»[12].

وهكذا ظهرت «مجلة الأحكام العدلية» باعتبارها أول محاولة منظمة وذات صفة رسمية «حكومية / عثمانية» لتقنين الفقه الإسلامي - وإن اقتصرت على المذهب الحنفي - في التاريخ الحديث للمجتمعات الإسلامية.

وجاءت المجلة شاملة لموضوعات متعددة، يدخل بعضها ضمن ما يتناوله القانون المدني، وبعضها ضمن أصول التقاضي والمحاكمات والدعاوى، إلى جانب الكثير من مسائل القانون التجاري.

وكانت لجنة إعداد «المجلة» قد تشكلت بأمر سلطاني «همايوني» عام ١٨٦٩، وتألفت من سبعة علماء برئاسة أحمد جودت، ناظر ديوان الأحكام العدلية. وقد استمر عمل اللجنة من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧٦، وبعد فراغها من عملها صدر الأمر العالي بتطبيق «المجلة» على تركيا والبلدان التابعة لها في سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م، واستثنيت مصر نظراً لوضعها الخاص الذي كانت قد استقرت عليه في علاقتها بالدولة العثمانية منذ عهد محمد علي.

كانت «المجلة» فتحاً جديداً في تاريخ الفقه الإسلامي وطرائق العمل به. وظلت مطبقة رسمياً في جميع البلاد العربية الخاضعة للسيادة العثمانية - ما عدا مصر كما أسلفنا - بل إن العمل بها ظل جاريا في بعض هذه البلدان إلى قرب نهايات القرن الرابع عشر الهجري / السبعينيات من القرن العشرين الميلادي.


صوفي أبو طالب

إن انفراد الشريعة بتنظيم مختلف جوانب الحياة في مجتمعاتنا الإسلامية (في السابق)، هو حقيقة تاريخية ليست محل جدل أو إنكار. يقول الدكتور صوفي أبو طالب - رئيس مجلس الشعب المصري في أواخر عهد الرئيس السادات - لقد «كنا نطبق الشريعة الإسلامية دون منازع أو منافس حتى أواخر القرن التاسع عشر، حتى جاءت القوانين الأوروبية التي ترتب عليها تغيير هوية الشعب العربي وتمزيقه، وما أحدثه الجانب الثقافي والحضاري الوافد علينا من ازدواجية في كل شيء في حياتنا اليومية؛ حتى في الملبس»[13].

إن تنحية مرجعية الشريعة الإسلامية عن القانون والقضاء بصفة خاصة، وعن بقية جوانب الحياة وتنظيماتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بصفة عامة، كانت علامة على تعرض السيادة الوطنية لعدوان صارخ. وفي رأي

(12) المرجع السابق، ص١٢.

(13) صوفي أبو طالب، كلمة في الدورة التدريبية التي نظمها الحزب الوطني لمسئولي الخدمات بالمحافظات بمعهد الدراسات الوطنية يوم ١٩٨٣/٣/٢٩، ونص كلمته تلك مثبت في الكتاب الصادر عن مجلس الشعب بشأن تقنين الشريعة، وقد سبقت الإشارة إليه.

المستشار طارق البشرى أن إزاحة هذه المرجعية الشرعية كانت دليلاً على فقدان ركن أساسي من أركان «الاستقلال الحضارى»، وتشويه الهوية، وأنه لا يمكن الحديث عن «استقلال» تام قبل إنجاز الاستقلال التشريعي والقانوني.

ولكي يكون التقنين «شرعياً»، يرى الشاوى أن ثمة عدداً من الشروط يجب الالتزام بها في كل تقنين، وهى:

١ ـ أن يكون إقراره بالشورى العلمية التي يشترك فيها ممثلو الأمة أو الجماعة، ويختارهم جمهورها ممن يتوفر فيهم أكبر قدر من المعرفة العلمية والفقهية. وأن يكون بتولى كل دولة أو قطر إصدار التقنين الخاص بها؛ «ولا يجوز أن يوصف بأنه تقنين ملزم للأمة جميعها في جميع أنحاء العالم، أو في دار الإسلام كلها، حتى لا يختلط بالإجماع، ولا يسد على الناس باب الاجتهاد، أو باب حرية الاختيار بين المذاهب والآراء».

٢ ـ أن يكون إعداده بمعرفة من له أهلية الاجتهاد الفردى أو بمعرفة جماعة من العلماء الذين يختارون بمعرفة الأمة، أو من تختارهم اختياراً حراً، لا من تختارهم الدولة أو الحكومة للمشاركة في الاجتهاد الجماعي في الحدود التي يجوز فيها هذا للاجتهاد. فلا يجوز إذن أن يصدر مجلس نيابى سياسى ليس مؤهلاً الاجتهاد الجماعى، أو منتخباً لهذا الغرض، ولا يجوز أن يقوم به من يختارهم هذا المجلس؛ لأن الناخبين لم يفوضوه في ذلك. إن ما توجبه مبادىء الشريعة هو ألا يتخذ التقنين باباً يفتح أمام الدول والحكومات طريق إصدار قوانين وضعية تحت اسم «التقنين الفقهى».

٣ ـ أن يستمد من المصادر الشرعية عامة، أو من مذهب معين تعترف به الجماعة ويلتزم به جمهورها.

٤ ـ إن هذه التقنينات تبقى في نظر القضاة والقانونيين والأفراد عملاً علمياً بحتاً، لا يسد أمام أحد باب الاجتهاد أو الإفتاء أو باب المطالبة بتفضيل رأى أو مذهب على مذهب؛ وإنما تلتزم بها الهيئات التي تقوم على توحيد القضاء واستقرار أحكامه؛ وهى محكمة النقض، وكذلك مجلس الاجتهاد، على أن يكون له الحق في تعديلها كلما وجد داعياً إلى ذلك [14].

والقضية في رأى الشاوى ليست اختياراً بين التقنين أو عدم التقنين، وإنما هى قضية الالتزام بحرية الاجتهاد واستمرار الشورى العلمية، لكي تكون إرادة الأمة أو اختيارات ممثليها الذين يمثلوها لهذا الغرض هى التي تقرر وتختار القواعد والأحكام التي يلتزم بها القضاة ـ وليست الدول الكبرى أو أتباع القوى الأجنبية في بلادنا.

وعلى أية حال فإن التقنين الذى تتوفر فيه الشروط السابقة يكون شرعياً، ويجب الالتزام به متى أقرته الجماعة، أو جمهورها بالشورى الحرة بناء على ما يتمتع به عامتها وعلماؤها من حرية التقليد أو حق الاجتهاد الجماعي أو الفردى في نطاق الأحكام المنظمة لهذه المبادىء [15].

(١٤) الشاوى، فقه الشورى، مرجع سابق، ص ١٩٥، ١٩٦.

(١٥) المرجع السابق، ص ١٩٧.

أهمية التقنين

اكتسبت الدعوة لتقنين أحكام الشريعة الإسلامية أهمية سياسية وحضارية ـ كما أوضحنا آنفاً ـ في سياق التحولات التي مرت بها مجتمعاتنا وهى تواجه الهيمنة الأجنبية وموجات الاستعمار على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين. وإلى جانب ذلك أضحت عملية التقنين أيضاً دافعاً قوياً ليس فقط لدراسة الشريعة الإسلامية في ضوء القانون المقارن، وإنما أيضاً لتجديد الفقه الإسلامي، وتمكينه من مواكبة مستجدات الواقع الاجتماعي وتحولاته في مختلف المجالات. وقد أثبتت تجارب التقنين التي استندت إلى المرجعية الإسلامية منذ نهايات القرن التاسع عشر، قدرة الفقه الإسلامى على التجدد ومعالجة مشكلات العصر، ولولا اقتطاع مجال المعاملات من أصوله الشرعية منذ وفود القانون المدنى الفرنسى وبدء سريانه في مصر سنة ١٨٨٣، لأفضت عملية التقنين إلى إيجابيات كثيرة، منها: المساعدة في إنجاز مهمة الاستقلال التشريعي، ومن ثم الاستقلال الوطنى بمعناه الحضارى الشامل الذى تحدث عنه طارق البشرى؛ باعتبار أن هذا الاستقلال الحضارى «هو الإطار الأوسع، الذى يجمع بداخله الاستقلال الوطنى، والاستقلال التشريعى» [16].


توفيق الشاوى

وإلى جانب تلك الأهمية السياسية والحضارية الكبرى لتقنين أحكام الشريعة في عصرنا الراهن، فإن لعملية التقنين دواعي أخرى بعضها اقتصادى، وبعضها الآخر اجتماعي، وكلها دواع ذات طابع إجرائي تستهدف تيسير طرق التقاضى، وفض المنازعات بين المتخاصمين، واستيعاب الأنماط المستحدثة في مجال المعاملات، وإزالة ما قد يكون هنالك من تناقضات بين مبادىء الشريعة ومقاصدها من جهة، ومستحدثات العصر وابتكاراته التي لا تتوقف من جهة أخرى.

إن الأهمية السياسية والحضارية لعملية التقنين تنبع ـ أيضاً ـ من كون الشريعة الإسلامية هى أعز مفاخر التراث الإسلامى، وهى سر قوته، والركن الأساسى في تميزه عن غيره من تراث الأمم الأخرى؛ من حيث شموله لشئون الدين والدنيا، في مجالات العقيدة والأخلاق والتنظيم السياسى القانونى والاقتصادى. وتعتبر وحدة الشريعة قاعدة متينة لاتحاد جميع البلدان الإسلامية، وعودتها إلى ذاتها.

ـ يتبع ـ

(١٦) طارق البشرى، في المسألة الإسلامية المعاصرة: الوضع القانوني بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦)، ص ٣٩ ـ ٤٩.

رحلة التجديد فى التشريع الإسلامى



للمستشار: طارق البشرى

ترتفع الأصوات مطالبة بأن تكون الشريعة الإسلامية مصدرا رئيساً للتشريع، أو أن تكون هى المصدر الرئيس له، ويختلف المختلفون فيما إذا كان يتعين اعتبارها مصدرا من مصادر التشريع، أو أن تكون هى المصدر الغالب. على أنه لا يبدو أن ثمة خلافا بالنسبة لمسألتين:

● أولاهما: أن تكون الشريعة «مصدرا» للتشريع وليست التشريع ذاته، أى أن تكون هى الأصول الكلية المأخوذ عنها والمستقى منها، مع ترك تفاصيل الأحكام تستنبط لمواجهة الواقع المعيش.

● وثانيهما: أن ثمة مغايرة بين الشريعة و«التشريع»؛ بمعنى أن حكما لا يكون ملزما للقضاء إلا عندما يصدر به قانون وفقا للإجراءات الدستورية. وعندما يصدر القانون المأخوذ من الشريعة، إنما يستجيب بالضرورة لحاجات البيئة والعصر، ويتوخى جلب المصالح ودفع المفاسد، وبما ينسجم مع الهيكل التشريعى القائم، بالتزام الأصول العامة للشريعة وأدلتها الشرعية، وبمراعاة العرف وعادات التعامل الجارى من جهة أخرى.

والشريعة الإسلامية، هى مجموع الأحكام المأخوذة عن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما استقر فى كتب الفقه الإسلامى منذ تأسست المذاهب الفقهية المختلفة، وما تفرع على أحكام القرآن والسنة من اجتهادات الفقهاء والمذاهب.

فثمة مذاهب السنة - الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة - ومذاهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية وغيرهما، والمعتزلة

. وثمة آراء فى كل مذهب واجتهادات لأعلام أفراد.

وكل هذا الحشد الضخم من الأحكام تضمه الشريعة الإسلامية فى وعائها الرحب الفسيح. والخلافات بين المذاهب والفقهاء، مصدرها: إما «اختلاف حجة وبرهان» بمراعاة مناهج التفسير، وإما «اختلاف زمان ومكان» بمراعاة فهم النصوص فى ضوء ظروف البيئة وعادات التعامل. والغاية لديهم جميعا تحقيق مصالح الناس، وكفالة العدل بينهم.

وعلى الرغم من كثرة ما يعرف من الدراسات المعاصرة عن حركة التجديد فى الفكر والنظم، فى مصر والوطن العربى، منذ القرن التاسع عشر، فإننا لا نكاد نرى إلا القليل منها عن حركة التجديد فى الفكر القانونى، وإلا أقل القليل عن التجديد فى التشريع الإسلامى، برغم الأهمية الكبيرة لهذا الجانب والجهد المجتهدين فيه، وليس المقصود هنا التجديد فى الشريعة، فهى ذات أصول مستمدة من أحكام القرآن والسنة التى بلغت تمامها مع ختام الرسالة النبوية، إنما المقصود هو التجديد فى التشريع المأخوذ عن الشريعة، أى الشريعة الإسلامية مطبقة من خلال القوانين.

القضاء قديما:

لم يعرف النظام الإسلامى، قديما، الفصل بين سلطات الدولة، أو وظائفها الرئيسة المختلفة، تشريعية وقضائية وتنفيذية. كانت الوظيفة التشريعية مستوعبة فى الشريعة الإسلامية. وكان الوالى هو من يفصل فى المنازعات بين الناس، أى يتولى الوظيفة القضائية. ثم أناب عنه القاضى. فقام النظام القضائى على فكرة الإنابة من الوالى. يعين الخليفة قاضى القضاة، الذى يعين بدوره القضاة. وكان القاضى يجتهد فى الأحكام بنفسه؛ يأخذ من كتاب الله ثم من سنة رسوله ثم يجتهد رأيه، حسبما يقول معاذ بن جبل. ثم استقرت المذاهب الفقهية، وضعف الاجتهاد، وعم التقليد. فكان القاضى يلتزم فى قضائه بواحد من المذاهب المختلفة.

وفى مصر مثلا، غلب مذهب الشافعى على قضاتها أيام الطولونيين والإخشيديين. ثم التزموا بمذهب الشيعة الإسماعيلية على عهد الفاطميين. وفى أواخر ذلك العهد، شارك هذا المذهب فى القضاء مذاهب الشيعة الإمامية والسنة الشافعية والمالكية. ثم انحصر القضاء فى عهد الأيوبيين فى مذهبى الشافعية والمالكية.

وعلى عهد المماليك، جرى العمل بمذاهب السنة الأربعة، على رأس كل منها قاض للقضاة، ويولى كل منهم نوابا عنه فى الأقاليم. ومع الحكم العثمانى، صارت الهيمنة للحنفية بواسطة قاضى قضاة يعينه السلطان كل عام، ويعين هو نوابا له من المذاهب السنية الأربعة. ثم انحصر القضاء - على عهد العثمانيين أيضا - فى الرأى الراجح لمذهب أبى حنيفة.

والملاحظ عامة، أنه لم تكن تصدر بأحكام الشريعة قوانين يطبقها القاضى.

إنما كان يستقى أحكامه مباشرة من كتب الفقه الخاصة بمذهبه. وكان ما يصدر عن الحاكم من

قرارات وأوامر، يقوم عمال الدولة والشرطة بتطبيقها مباشرة.

ويبقى ذلك بعيدا عن وظيفة القضاء. وكان تنظيم القضاء «واحديا» في الأساس.

تتكون المحكمة من قاض مفرد، لا من قضاة متعددين، كما يحدث الآن عادة (ثلاثة أو خمسة مثلا). وينظر القاضي في جميع أنواع المنازعات، دون توزيع للاختصاص حسب نوع القضية، كما يحدث الآن عادة (مدني، جنائي، إداري.... الخ) وإن كان بعض التخصص قد عرف استثناء كقاضي الجند مثلا، كما عرف مبدأ تخصيص القضاء بالزمان والمكان، وبالقضية (نوعها) وبالرأي (أي المذهب) ولم توجد بهذا النظام درجات للتقاضي، كما يحدث الآن عادة (ابتدائي، استئناف.....) إلا في أحوال استثنائية، كأن يخالف القاضي نصا قطعي الدلالة أو إجماعا.

كما يلاحظ أنه لم يعرف - عبر عصور تطبيق الشريعة - التزام بمذهب واحد، ولا عرف التزام بمذهب وحيد في أي مرحلة خاصة، إلا في القليل من الفترات. ومن ثم، لم تعرف الشريعة تلازما لا ينفك مع مذهب وحيد في أي من البلدان. ولم تكن الظاهرة التي أدركها القرن التاسع عشر من التزام صارم مضيق برأي راجح في مذهب وحيد، لم تكن ظاهرة لصيقة بحكومة الشرع الإسلامي ذي الوعاء الفسيح المتعدد الجوانب.

قوانين الوالي:

وعلى عهد محمد علي في مصر، ظهر في النظامين التشريعي والقضائي ما ظهر في غيرهما من المؤسسات الفكرية والتنظيمية، وهي ظاهرة الازدواج، أي بقاء القديم على حاله تقريبا، وإنشاء


محمد علي

جديد من مصدر مغاير إلى جانبه. (حدث ذلك في التعليم ونظم الدولة... الخ) لم ينصرف الاهتمام إلى تجديد القديم أو تحريكه، إنما انصرف إلى تشكيل مجال آخر ينبني فيه الجديد الوافد.

بقي قاضي القضاة المعين من السلطان ونوابه، يلتزمون بالمذهب الحنفي كشريعة عامة، ولكن نمت إلى جوار ذلك ظواهر جديدة في مجال شبه منفصل: استحدثت دواوين ومجالس ذات اختصاصات قضائية، والتزام تلك المجالس بما يصدره الوالي من قوانين لا بالشريعة الإسلامية. وما لبث الناس أن اعتادوا رفع منازعاتهم إلى هذه المجالس الجديدة، التي اتسع نطاق نشاطها بالتدريج اطرادا مع زيادة ما يصدره الوالي من قوانين وتشريعات، كما درج استقلال مصر القضائي عن تركيا في طريق النمو. فاستخلص الوالي محمد سعيد في الخمسينيات من القرن التاسع عشر سلطة تعين قضاة الأقاليم، ثم كان للخديو إسماعيل في الستينيات من نفس القرن دور في تعيين قاضي القضاة نفسه (قاضي مصر).

منذ القرن التاسع عشر، ونحن نواجه هجمة أوروبية ضارية، لم ينحصر خطرها في عنفوانها الاقتصادي والعسكري، ولكنه تمثل - أخطر ما تمثل - تفوقا في العلوم والفنون وأساليب التنظيم الاقتصادي والسياسي والعسكري. وقد الغزو الأجنبي بعلومه، فلزمت مقاومته مع التعلم منه. لزم رفضه مع الأخذ عنه. ولزم التقدم لمواجهة العدوان،

والتجديد للمحافظة على الأصالة والاستقلال. لم يترك التدفق الكاسح فرصة للاستيعاب الهادئ الرشيد، فعظم المعضل والإشكال. تمثل الإشكال في التساؤل: هل يمكننا أن نستوعب علومهم، دون أن نستوعب نحن فيهم؟! لقد فعلها المسلمون والعرب قديما، وهم منتصرون، فهل يمكن أن نفعلها ونحن مهزومون؟!

لزم فيما يلزم تجديد النظم القانونية والقضائية، تنظيما للإجراءات، وملاءمة للعلاقات المتغيرة، ورفعا لمستوى الوظيفة الاجتماعية.

جرت محاولة لتنظيم المحاكم الشرعية، بأن أصدر محمد سعيد لائحة القضاء الأولى في عام ١٨٥٦، فنظمت إلى حد ما بعض الإجراءات والسجلات، مع ما يشبه النصح للقضاة بالتزام الدقة والمساواة بين المتخاصمين، «وعدم التفرقة بين الصغير والكبير والغني والفقير»، والتحرز من شهادة الزور.. ولكنها أبقت الالتزام «بالأقوال الصحيحة من مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة»، والالتزام بوسائل الإثبات الشرعية، وهي: الإقرار، واليمين، وشهادة الشهود. وبرغم قلة ما تضمنت من عناصر التجديد، فقد أوجب الحذر على الوالي أن يوقع معه على اللائحة ٣٣ من كبار شيوخ الأزهر.

وجاءت المحاولة الثانية في عام ١٨٨٠ بلائحة جديدة، التزمت أيضا بالرأي الراجح لمذهب أبي حنيفة، «لا يعدل عنه إلى غيره». ولكنها أدخلت نظام تعدد القضاة في بعض المحاكم، مع توزيع الاختصاص في نطاق محدود. وتركت للقاضي الأخذ من المذاهب الأربعة في مسائل القتل العمد وحدها، وذلك حسب المنشورات التي تصدر بذلك. كما منعت القضاة من سماع الدعاوى التي


رشيد رضا

يكون قد مضى عليها خمسة عشر عاما. وكان هذا القليل أهم ما أتت به من تجديد.

التشريعات الغربية:

في السنوات اللاحقة لعام ١٨٧٥، تلقى تطبيق الشريعة الإسلامية أعنف ضربة وجهت له. أنشئت المحاكم المختلطة لنظر قضايا الأجانب. ووضعت لها تقنيات أخذت عن القانون الفرنسي باختصار مخل. وبدأ تفكير الدولة في إنشاء قضاء وطني على هذا الغرار. فتشكل محمد قدري باشا لجنة لوضع هذا النظام في عام ١٨٨٠.

وصدرت لائحة المحاكم الأهلية الجديدة في عام ١٨٨١. وجرى وضع التقنينات الرئيسة الستة التي تطبقها هذه المحاكم: المدني والمرافعات والتجاري والبحري والعقوبات وتحقيق الجنايات. والغريب، أنها وضعت كلها باللغة الفرنسية، وعلى غرار مثيلاتها المختلطة. ثم ترجمت إلى العربية. وقد أوقفت الثورة العرابية هذه الحركة.

ثم عاودت المسير في عام ١٨٨٣ بعد الاحتلال الإنجليزي، وافتتحت المحاكم الجديدة في أول يناير عام ١٨٨٤ بالوجه البحري، ثم في عام ١٨٨٩ بالوجه القبلي. وعرف ذلك بحركة الإصلاح القضائي التي سجلت «مرحلة تقدم واسعة.. وقضت على كثير من مساوئ الماضي». كما يقول الدكتور عبدالرزاق السنهوري.

يشير السيد رشيد رضا إلى سبب هذه الانعطافة الحادة، من الشريعة الإسلامية إلى القوانين الأوروبية، فيقول: «قعد أهل الأزهر عن إجابة طلب إسماعيل

باشا الخديو تأليف كتاب في الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر، سهل العبارة، مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الأوروبية. وكان رفضهم هذا الطلب هو السبب في إنشاء المحاكم الأهلية، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا. واحتجوا في رفضهم بأنهم يحافظون على الشرع، برغم أن تصنيف الأحكام ليس ضد الشرع بداهة. وكان الخديو إسماعيل قد حاول توسيط رفاعة الطهطاوي في إقناعهم، فاعتذر خشية أن يتهم منهم بالكفر». وهو يصف المحاكم الشرعية بأن «إصلاحها أعيا النظام والجالسين على أرائك الأحكام.. وحومت الحكومة حول الإصلاح غير مرة ولكن لم تقع فيه، ورمت إليه عدة سهام فأخطأت كلها الغرض».

انحصرت المحاكم الشرعية في مجال جد محدود، كالأحوال الشخصية (الزواج والطلاق... الخ) والأعظم خطرا من هذا الانكماش، أن المحاكم الجديدة كانت أكثر كفاية.. كان شيوخ الأزهر أنفسهم يفضلون رفع الدعاوى إليها، حتى عندما يكون الاختصاص مشتركا بينها وبين المحاكم الشرعية. ويذكر رشيد رضا قوله: «ظهر للناس بالاختبار أن المحاكم التي يحكم فيها بقانون فرنسا أضمن للحقوق وأقرب للإنصاف...» وينبغي الحذر من القول بأن الاحتلال البريطاني كان هو سبب نشأة النظام الجديد. فقد أعد مشروع النظام الجديد قبل الاحتلال. وهو مأخوذ من النظام القانوني اللاتيني الفرنسي، لا النظام الإنجليزي الأنجلوسكسوني. وكان ما اعترى تطبيق الشريعة الإسلامية في ذلك الزمان من ضعف وجمود، بما لم يستطع به هذا التطبيق أن يستجيب لظروف الواقع، ولا أن يتصدى للهجمة الوافدة. وتلك هي العبرة التي يتعين علينا إدراكها.

واجه الفقه الإسلامي تلك الضربة، بانبعاث روح التجديد فيه. لأنه فقه ينطوي على مادة عظيمة الخصوبة، ودقة في الصياغة الفنية مدهشة، وقابلية للتجاوب مع ظروف الزمان والمكان. والدارسون له لا يغالون في انبهارهم بما يكمن فيه من حيوية.

ولكن يلاحظ بطء التجديد فيه عن حركة المجتمع كما سيبين. ولعل مرجع ذلك أولا، إلى كثافة الجمود ن عصور الركود، منذ أغلق باب الاجتهاد. ولعل مرجع ذلك أولا، إلى كثافة الجمود من عصور الركود، منذ أغلق باب الاجتهاد. ولعل مرجعه ثانيا. رد الفعل المحافظ والتلقائي لمقاومة الهجمة العتيقة الوافدة الغازية، وهو رد فعل يفرض على المدافع أن يتشبث بموقعه خشية أن يقتلع منه، وذلك قبل أن يشرع في الحركة والتقدم. ومرجع الجمود وبطء التجديد ثالثا، يعود لأسباب سياسية لها أمثلة واضحة الدلالة، فمثلا أعد الشيخ محمد عبده تقريرا عن إصلاح المحاكم الشرعية في عام ١٨٩٦، لم يستفد منه كثيرا في اللائحة التي صدرت في عام ١٨٩٧ك إذ أبقت على الالتزام بالمذهب الحنفي وحيدا في التفسير، ولكنها أدخلت نظام تعدد درجات التقاضي، واشترطت الدليل الكتابي لنظر بعض الدعاوى. (أي أن الدليل الكتابي لا يطلب لإثبات الحق فقط، ولكنه مطلوب لكي تنظر المحكمة الدعوى ابتداء). ولم يجد هذا الإصلاح البطيء، وعمت الشكوى، فطلب إلى الأستاذ الإمام في عام ١٨٩٩ - بعد أن تولى منصب الإفتاء - أن يعد تقريرا شاملا عن الإصلاح.

وجاب الإمام المحاكم مفتشا منقبا، وانتهى بتقرير تلحظ فيه الغيرة الشديدة على النظم الشرعية، وطالب فيه بأن تسترد المحاكم الشرعية ولو بعضا من اختصاصها المسلوب، وذلك في إطار خطة لتطوير التشريع الإسلامي، وإعداد تقرير للمعلومات الشرعية تؤخذ أحكامه «من جميع المذاهب الإسلامية، ليكون خلافهم رحمة للأمة...».

ولكن تقرير الإمام ووجه بمعارضة شديدة، قادها «قاضي مصر» التركي، بدعوى أن الالتزام بالمذهب الحنفي مصدره الانتماء للخلافة العثمانية، فلا يصح حكم القاضي بغير هذا المذهب. ومن هنا تعطل الإصلاح، بدافع سياسي في الجوهر.

مدرسة القضاء الشرعي:

إن دعوة الشيخ محمد عبده أنتجت - فيما أنتجت خارج الأزهر - مدرسة القضاء الشرعي، أنشأها بعد وفاة الإمام بعامين، تلميذه سعد زغلول وهو ناظر للمعارف في عام ١٩٠٧. وصارت بحق مدرسة المجتهدين في الفقه والقضاء الشرعيين. كان من أساتذتها أمثال الشيوخ: زيد الإبياري، وأحمد إبراهيم، ومحمد الخضري. ومن خريجيها أمثال: المرحوم الشيخ عبدالوهاب خلاف، والمرحوم الشيخ علي الخفيف.

وأمدت القضاء وكليات الحقوق بصفوة من الأعلام. وسار هؤلاء على درب الإمام، تفتيحا لباب الاجتهاد، وبعثا للفقه الإسلامي. وبحثوا وكتبوا وحاضروا وحرروا الفتاوى والأحكام الشرعية، وتربت على أيديهم أجيال من الأزهريين والمدنيين، وكشفوا عن الجذور الرواسخ للفقه الإسلامي، وبنوا عليه من مادة الشريعة نفسها.

ومناهجهم يظهر من أقوالهم:

يذكر الشيخ أحمد إبراهيم أن الأحكام الشرعية نوعان:


سعد زغلول

العبادات، وهي حق الله سبحانه يلزم الوقوف فيه عند النصوص

. والمعاملات، المتعلقة بشئون الدنيا، أساسها المصالح المرسلة.

«وإذا خالف المصلحة النص أو الإجماع وجب تقديم رعايتها عليهما، بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتيات عليهما والتعطيل لهما. ومن أجل ذلك، خصص الفقهاء النص بالتعامل، وقرروا بناء الأحكام على العرف». وإذا كانت الأحكام الشرعية عامة أبدية، وتبنى على العدل واليسر والرحمة، فيلزم أن يراعى فيها مصالح الناس في كل زمان ومكان.

ويذكر الشيخ خلاف أن الرسول عليه السلام كثيرا ما «بلغ الأحكام مقرونة بعللها والمصالح التي تقتضيها. وفي هذا إيذان بارتباط الأحكام بالمصالح...» وأورد أمثلة مما جرى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء، مما «بث في نفوس المسلمين أن غاية الشرع إنما هي المصلحة، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله...».

وجدت هذه الروح سبيلها إلى التشريع الإسلامي والنظام القانوني، من خلال العديد من التعديلات الجزئية التي صدرت على فترات متراخية، على مدار خمسين عاما أو يزيد، وذلك بتعديل لائحة المحاكم الشرعية، فضلا عن العديد من المنشورات والتعليمات التفسيرية.

ثم جرت ما تسمى بحركة التقنينات الواسعة

نسبيا في الأربعينيات، بإصدار قانون المواريث في عام ١٩٤٣م، وقانون الوصية في عام ١٩٤٦، وقانون الوقف في السنة ذاتها. وبعد ثورة يوليه عام ١٩٥٢م، ألغي الوقف الأهلي (القانون ١٨ لسنة ١٩٥٢م)، وتبعه عدد من القوانين المعدلة لنظام الوقف الخيري، أهمها قانون استبدال سندات على الحكرة بأراضي تلك الأوقاف (١٥٢ لسنة ١٩٥٧م) كم ألغيت المحاكم الشرعية جملة، ونقل اختصاصها إلى المحاكم الوطنية، مع بقاء القوانين الشرعية نافذة.

والملاحظ عامة، أن تجديد التشريع الإسلامي قد جرى في المجال الذي ترك للشريعة الإسلامية منذ عام ١٨٨٣، وهو - أساسا - مجال الأحوال الشخصية والوقف والوصية والميراث. ولا أن نتصور ما كان يمكن أن تفضي إليه حركة التجديد في مجال المعاملات، لو لم يقتطع من أرض الشريعة الإسلامية في عام ١٨٨٣، واتجه إليها جهد رجال النهضة منذ ذلك الوقت المبكر. كما يلاحظ أن التجديد جرى بتدرج بطيء ينبيء عن حجم المقاومة التي كان يلقاها. ولكنه جرى باطراد ينبيء عن انتصار روح التجديد، والتمشي مع العصر من خلال الفقه الإسلامي نفسه.

ثلاثة مسارات:

وقد جرى التجديد على مناهج ومسارات، كان أهمها ما يلي:

أولا: تجاوز الالتزام بالرأي الراجح عن الحنفية، إلى الآراء الأخرى في الفقه الحنفي، ثم إلى المذاهب السنية الأخرى: مالكية، شافعية، حنبلية. ثم إلى غير مذاهب السنة من بعض آراء أئمة من المعتزلة، أو الشيعة.

وبهذا، اتسع تدريجيا مجال اختيار الحكم الأكثر ملاءمة لظروف الزمان والمكان، حسب المصالح العامة. وتم ذلك على مدى خمسين عاما أو أكثر.

ثانيا: تجاوز أدلة الإثبات التي اعتبر بها الفقه الإسلامي لإثبات الحقوق.

كانت هذه الأدلة تنحصر في الإقرار (أي اعتراف الشخص على نفسه بشيء)، واليمين (أي يحلف أمام القاضي أو ينكث)، وشهادة الشهود. وقد أوجب هذا التجاوز ما لوحظ من كثرة الدعاوى الكيدية، والأيمان الكاذبة، وشهادات الزور.

وبحث المجتهدون عن أنواع أخرى من الأدلة لتكون بديلة ورواجية في بعض الحالات، أو شريكة ومساعدة في غيرها. وتدرج الأخذ بهذه الوسائل «الحديثة» كالسجلات الرسمية والمعاينة والقرائن والخبرة.

وبذل المجتهدون الإسلاميون المحدثون جهدهم في إرجاع هذه الوسائل الحديثة إلى المفهومات التقليدية توسيعا لتلك المفهومات. فالخبرة والمعاينة نوعان خاصان من الشهادة، بمعنى ما من معاني الشهادة، وكذلك القيد في السجلات.. وهكذا.

ثالثا: إجراء التفرقة بين مسألة التحليل والتحريم، التي تعتبر حقا لله سبحانه، وبين شروط سماع الدعوى في المحاكم. ذلك أن ولي الأمر أو المجتهد لا يستطيع أن يحلل حراما أو يحرم حلالا، فلا يستطيع أن يضيف شروطا للتحليل أو ينقص منها.

ولكن لولي الأمر تنظيم ولاية القضاء. ومن هذا الرافد، نفذ المجددون ليضيفوا ما تمليه المصلحة من الشروط. فإذا أريد - مثلا - تحديد سن زواج الفتاة بستة عشر عاما على الأقل، لم يستطع المجتهد أن يقرر بطلان زواج البالغة أو تحريمه لهذا السبب «غير الشرعي»، فهو يبقى الزواج صحيحا دينيا «حلالا»، ويلجأ إلى مبدأ شرعي آخر هو تنظيم القضاء (تخصيصه بالمكان والزمان والقضية والرأي)، وبه يمنع المحاكم من نظر أي قضية عن زواج تم لفتاة تقل عن السن المضروبة. ومن ذلك، أنه إذا حصل نزاع على الزوجية أو أحد آثارها (كميراث أو نسب)، فإن الزواج برغم كونه حلالا، تنحسر عنه حماية الدولة والمجتمع. وتم ذلك بالتدريج على مدى ثلاثين عاما.

الاستقلال التشريعي:

أما تطور التشريع الإسلامي، فقدر له مسار آخر، وأحكام الشريعة الإسلامية لم تكن استبعدت تماما عن هذا الميدان في عام ١٨٨٣؛ إذ تضمن القانون المدني (الفرنسي المأخذ) قلة من أحكامها، كالشفعة ومرض الموت وأحكام الأهلية... الخ.

فجرت في التطبيق مفعمة بالحياة. ومن جهة أخرى، عكف المجتهدون المحدثون على دراسة مبادىء الفقه الإسلامي، مما أثرى الفكر القانوني عامة.

ومادة الشريعة من أهم ما يدرس في كليات الحقوق المدنية. واهتمامات رجال القانون «المدنيين»، وجدت في الشريعة زادا للبحوث والرسائل، مثل دراسات الدكتور السنهوري، والدكتور شفيق شحاتة (فقيه جليل في القانون المدني، قبطي، لا يخفى على المتخصص مبلغ استيعابه للفقه الإسلامي) وعلى ذلك، لم تكن المؤسسات الجديدة - بمحاكمها وكلياتها - بعيدة عن هذا الفقه ودراساته، بل كانت مجالا ازداد مع الوقت وبالتدريج اهتمامها به وتوجهها إليه، بمنهج عصري يستكشف ظواهره وكوامنه.

وإذا كانت دعوة محمد عبده لتجاوز المذهب الحنفي، تعد في أحد جوانبها دعوة للاستقلال التشريعي عن الدولة العثمانية، فقد قامت في المؤسسات القانونية «الحديثة» - (مجال الفكر الوافد) - دعوة مماثلة لتجاوز الفقه الفرنسي، تحقيقا للاستقلال عنه.

وهي ما أسماه السنهوري في عام ١٩٣٤ «تمصير» الفقه المصري، والتخلص من «الاحتلال» الفرنسي له. وبنيت هذه الدعوة على أساسين:

أولهما: أن يستقي التشريع أحكامه من سائر التشريعات في العالم، دون أن ينحصر في القانون الفرنسي، وأن تقتصر الاستفادة من تلك التشريعات على الصياغة الفنية للنصوص، شريطة أن يحيا النص بعد ذلك حياة قومية خالصة؛ فلا يخضع لتفسيرات أجنبية، وإنما يخضع فقط لتفسيرات المحاكم والفقهاء المحليين من خلال تفاعله مع البيئة القومية.

وثانيهما: أن يؤخذ من الفقه الإسلامي في نطاق ما تصل إليه النهضة العلمية لدراسة هذا الفقه، ومع عدم التقيد بمذهب معين فيه، ومع مراعاة الانسجام مع الهيكل التشريعي العام.

كان هذا هو رائد الجماعة التي أعدت القانون المدني الجديد، والذي بدئ التفكير في إعداده مع إلغاء الامتيازات الأجنبية في عام ١٩٣٧، وصدر مع إلغاء المحاكم المختلطة في عام ١٩٤٩م، وأخذ من الفقه الإسلامي نزعته الموضوعية بدلا من النزعة الذاتية للفقه الفرنسي. كما استمد من الفقه الإسلامي نزعته الموضوعية بدلا من النزعة الذاتية للفقه الفرنسي. كما استمد من الفقه الإسلامي فكرة أن الحقوق غير مطلقة، إنما تقيد في حدود المصالح العامة المشروعة، وبما لا يسبب ضررا للغير. وكذلك، أخذ فكرة الضرورة والعذر في تعديل الالتزامات، وذلك تقييدا لسلطان الإرادة الفردية بقيود الصالح.. وغير ذلك من الأحكام التي أتت نتيجة الدراسة العلمية المتأنية. كما جيء في

هذا التقنين بأحكام أخرى لم تؤخذ من الشريعة، وإن أتت متفقة مع أحكامها؛ لأنها استمدت فى الأساس مما استقرت عليه أحكام المحاكم الوطنية ومعاملات الناس، فكانت بمثابة العرف بالمعنى الذى قصده فقهاء الإسلام المجتهدون.

ولا يدعى أحد أن هذا القانون، أو غيره، قد أوفى على الغاية فى هذا الشأن، أو أنه حقق الرجاء فى استقلال الفكر القانونى، ولكن القصد من البيان السابق كله الكشف عن مسارات التطور فى الفكر القانونى، وهم مساران رئيسان: تفتيح أبواب الاجتهاد فى التشريع الإسلامى، ليتفاعل مع واقع الحياة المعيشة وأعراف الناس وعاداتهم، شريطة أن يأتى التجديد بمادة شرعية خالصة، ويستمد من أصولها الكلية. والأخذ من هذا الفقه فى نطاق ما تصل إليه النهضة العلمية بالدراسة الجادة للشريعة وللواقع.

الأصالة المتجددة:

وإذا كنا قد واجهنا، فى القرن الماضى، أشكال الأخذ عن الغرب دون أن نستوعب فيه، فإن السياق التاريخى ليظهر أننا قادرون على حل الإشكال لصالحنا، حتى برغم هزيمتنا المؤقتة أمام الغرب فى القرن الماضى. إن مجتمعنا عانى من الازدواجية فى الأفكار والقيم والمؤسسات، وكان هذا يهدده بالتناثر. والفكر «التقليدى» يتجدد، و«الحديث» يتأصل. والحركة بطيئة، لكن يشفع لبطئها أنها بدت فى لحظة تاريخية ما شبه مستحيلة، أو - بأقل التقديرات - شديدة الصعوبة.

المهم أن يثق كل طرف فى الآخر، وأن يدرك أنه مرتبط به بمصير واحد، وألا يتعجل النتائج وصولا إلى حلول سريعة جياشة بالحماسة، وقد لا تكون قادرة على تمثل الواقع أو تمثل التراث. والمهم، إدراك أننا لسنا فى بداية الطريق ولا فى نهايته. نحن فى منتصف طريق بالنسبة لكل من مشكلات حياتنا، فلا نستطيع العودة إلى الوراء، ولا القفز قدما فى الهواء. وإنما السعى الدءوب هو قدرنا.

ولن يستطيع طرف أن ينفى صاحبه ابتسارا، وإنما الهدف هو ذوبان الطرفين فى واحدية متجددة أصيلة. والمهم، إدراك أن المسألة مسألة حضارية فى الأساس، نظلم ماضينا ومستقبلنا لو تركناها تمتص فى عراك سياسى وقتى. نظلم ماضينا إذا تصورنا أن الأصالة مستوعبة فى التخلف. ونظلم مستقبلنا إذا تصورنا أن الحداثة مستوعبة فى الإلحاد. وهذه المسألة بالذات ليست صراعا بين الكفر والإيمان، ولا بين الرجعية والتقدم، ولكنها حوار بين الأصالة والتجدد، وصولا لتجديد يحمى الأصالة ويقوم عليها. وليس لواحد فينا عصمة، فمازلنا على الطريق نجدد ونكتشف أصالتنا. أى نكتشف الماضى والمستقبل معا.

ورحم الله الشيخ عبدالوهاب خلاف، إذ يقول: «وكثيرا ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه، بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص. ولم يتهم مجتهد منهم بأنه على غير حق أو تنكب طريقه، مادامت الغاية المصلحة وعدل الله، والوسيلة اجتهاد الرأى وإنعام النظر».

- يتبع -

الفقه الإسلامى ومدارسه



الحلقة الأخيرة



للأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد الزرقا

خامسا: الاتجاه العصرى نحو التجديد فى الفقه الإسلامى

إن الاستعمار الذى كان من أهدافه قطع الشعوب التى رزحت تحته عن أصالتها وماضيها، وإماتة الإحساس بشخصيتها، قد أيقظ زواله بعد الحرب العالمية الثانية الشعور بالذات لدى الشعوب الإسلامية بوجه عام، والعربية بوجه خاص.. فقامت حركات فى مصر وفى سوريا والعراق، وفى باكستان، وكذا فى الشمال الأفريقى: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، تطلب الرجوع إلى الأصالة الإسلامية وسيادة الفقه الإسلامى.

وفى الوقت نفسه قام فى وجه هذه الحركات تيارات معاكسة (ولاسيما من غير المسلمين) تطالب ببقاء الوضع الذى خلفه الاستعمار تشريعا وإدارة.

وكان من حجج هذه الفئة الثانية عدم وجود قانون مدنى حديث كامل جاهز مستمد من الفقه الإسلامى، ليسهل على القضاة ودارسى القانون الوضعى الرجوع إليه.

وكانت الفئة الأولى تؤيدها الجماهير الشعبية، والفئة الثانية تمالئها الحكام والعلمانيون.. وخلال ذلك صيغت دساتير جديدة لبعض البلاد العربية المستقلة حديثاً، وضعت فيها - رعاية لصوت الجماهير - نصوص على أن دين الدولة الإسلام، وفى بعض آخر نصوص على أن الفقه الإسلامى هو مصدر التشريع، وفى بعض آخر نصوص على أن الفقه الإسلامى هو مصدر رئيسى، أو هو المصدر الرئيسى للتشريع.

وفى إثر ذلك بدأت المطالبات بوضع قانون مدنى حديث مستمد من الفقه الإسلامى.. وبدأت اهتمامات، على صعيد الأفراد من فقهاء الشريعة والقانون بوضع نماذج تنفيذية لذلك، وتلاها بعض اهتمامات على الصعيد الرسمى: فمثلاً، أوفدت وزارة العدل السورية سنة ١٩٤٩م أحد كبار القضاة إلى مصر، وزودته بكتاب إلى الدكتور عبدالرزاق السنهورى القانونى الشهير (واضع القانون المدنى المصرى الجديد والذى اتجه إلى دراسة وتدريس الفقه الإسلامى) ليتعاونا فى وضع قانون مدنى مستمد من الفقه الإسلامى.

ثم صادف أن وقع فى العام نفسه أول انقلاب عسكرى فى سوريا أطاح بالحكم الدستورى،

واختلت فيه الموازين، وألغي مشروع القانون المدني المستمد من الفقه الإسلامي، وأُخذ بدلاً منه القانون المصري الأجنبي الأصول.. لكن تيار المطالبة بالرجوع إلى الأصالة والسعي الدؤوب لتحقيق ذلك المشروع ظل قوياً في سوريا ومصر وعدد من البلاد العربية والإسلامية.. وقد تمخض هذا الاتجاه العصري ـ نحو تجديد الفقه والاستمداد منه ـ عن نتائج ونشاطات عظيمة الأهمية سنوجزها فيما يلي من هذا القسم الخامس من البحث.

الدعوة إلى الاجتهاد الجماعي وثمراتها:

كانت فكرة قانون مدني إسلامي حديث مستجيب لحاجات العصر الجديد تتطلب أمرين لابد منهما:

– الاستمداد من الفقه الإسلامي بمفهومه العام، أي بجميع مذاهبه ومدارسه المعتبرة، دون الاقتصار على مذهب واحد كما صيغت المجلة في أواخر العهد العثماني من المذهب الحنفي فقط.

– التخريج الجديد على أصول الفقه ومقاصد الشريعة، واللجوء إلى استخدام القياس والاستحسان والاستصلاح فيما سكتت عنه المذاهب الفقهية في نصوصها القديمة، من قضايا الساعة والأمور المستجدة، كعقد التأمين وعقد التوريد وشركات المساهمة «الأنونيم» وسواهما.

وهذا يستلزم ممارسة الاجتهاد، كما فعل فقهاء السلف فيما واجهوه من المستجدات.. فلابد أن ينفخ الروح في الاجتهاد من جديد بعد أن أقفل بابه منذ القرن الخامس الهجري.

وإذا كانت المخاوف السابقة إذ ذاك من الاجتهاد الذي كان يمارسه الأفراد قد أوجبت ذلك التدبير الوقائي بإقفال بابه، كما سبق بيانه، فإن العلاج في نقله من عهدة الأفراد إلى عاتق الجماعة، فيصبح الاجتهاد جماعياً يمارسه فقهاء العصر الثقات بطريق الشورى فيما بينهم بعد أن كان فردياً يمارسه كل فقيه بمفرده.. فبذلك تتحقق ثمرات الاجتهاد، إذ لا يمكن أن يلبي الفقه حاجات العصور دونه، وتنتفي محاذير الاجتهاد الفردي التي دعت إلى إقفال بابه.


السنهوري

ومن هنا نبتت فكرة إنشاء مجمع فقهي يضم نخبة من فقهاء العصر في مختلف البلاد الإسلامية، يكون له مكتب دائم، ودورات اجتماع سنوية تقدم فيها البحوث، وتناقش قضايا الساعة وتقرر فيها الحلول المناسبة في ضوء أصول الشريعة ومقاصدها العامة، وآراء الفقهاء السابقين وحاجة العصر.

وقد كان من ثمرة هذه الدعوة والاتجاه انعقاد مؤتمرات للفقه الإسلامي نذكر منها:

أ ـ أسبوع الفقه الإسلامي بدمشق في شوال ١٣٨٠هـ (= نيسان ١٩٦١م).

ب ـ مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، في القاهرة، ١٩٦١م.

ج ـ مؤتمر مدينة البيضاء في ليبيا الذي دعت إليه الجامعة الليبية.

د ـ مؤتمر الفقه الإسلامي في الرياض عام ١٣٩٦هـ (= ١٩٧٦م) بدعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

أما في موضوع المجمع فقد أنشئ أولاً (مجمع البحوث الإسلامية) في الأزهر عام ١٩٦١م.. ثم أنشأت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة (المجمع الفقهي الإسلامي) وعقدت دورته الأولى في شعبان ١٣٩٨هـ (منتصف ١٩٧٨م).. ثم أنشأت منظمة المؤتمر الإسلامي (مجمع الفقه الإسلامي) الذي عقد دورته الأولى في مكة المكرمة في شهر صفر/ ١٤٠٥هـ (= ١١/ ١٩٨٤م) ويضم هذا المجمع عضواً عاملاً من كل دولة من دول منظمة المؤتمر الإسلامي.

ولكل من هذه المجامع الفقهية الثلاثة مكتب دائم، وتعقد لها دورات سنوية تعالج قضايا مهمة لتحديد موقف الفقه الإسلامي منها وحكمه فيها جوازاً أو منعاً.. ومن أمثلة الموضوعات التي عنيت بها تلك المجامع وأصدرت فيها قرارات:

– زراعة الأعضاء الإنسانية.

– التلقيح الصناعي ـ وأطفال الأنابيب

– تحديد أوقات الصلاة في البلدان القريبة من القطب الشمالي، وبدايات الشهور القمرية

– حقوق الملكية الأدبية والفكرية

– الاستملاك ـ للأغراض العامة

– الزكاة عن الصيغ الحديثة من الثروة كالعقارات المأجورة، ومزارع المطاط

– الكثير جداً من القرارات المتصلة بالأمور الاقتصادية والمصارف الإسلامية والأسواق المالية

وتصدر هذه المجامع مجلات علمية تتضمن البحوث المقدمة لدورات المجمع والمناقشات، والقرارات الصادرة.

وهكذا بعث الاجتهاد من مرقده في صورة اجتهاد جماعي[1].

ويلاحظ أن المجامع السابقة هي دولية بمعنى أنها تضم أعضاء من دول متعددة.. وهناك مجامع وطنية أبرزها مجلس الفكر الإسلامي في باكستان الذي نُص على إنشائه في الدستور منذ أوائل الخمسينيات، ونشط منذ أوائل السبعينيات، وهو يضم علماء من مدارس الفقه المتعددة، ويقدم توصياته الشرعية في شأن جميع التشريعات التي تعرض على البرلمان «المجلس الوطني».. وكان من أعظم منجزات هذا المجلس الخطة التفصيلية التي أعدها خلال أكثر من سنتين ثم قدمها للحكومة في حزيران ١٩٨٠م عن كيفية إلغاء الفائدة الربوية من الاقتصاد الباكستاني وإحلال معاملات شرعية بديلة محلها.. واستعان المجلس في إعداد هذه الخطة بمجموعة من الخبراء الاقتصاديين والمصرفيين.. كما أن المجلس ساعد في صياغة القانون المهم الخاص بتطبيق الزكاة في باكستان والذي صدر في حزيران ١٩٨٠م.

هذا، وجدير بالذكر والتنبيه أن المجامع الفقهية المذكورة، في جميع القضايا التي يتوقف الحكم الفقهي فيها على معلومات من علوم أخرى كالطب، والفلك، وعلم الحياة «البيولوجيا» تدعو الاختصاصيين بتلك العلوم لسماع معلوماتهم وخبرتهم وآرائهم وتسجيلها، ثم يبني أعضاء المجمع قرارهم بالإجماع أو بالأكثرية عن الحكم الشرعي في القضية موضوع البحث بناء على الحقائق العلمية التي شرحها الاختصاصيون.

---

(١) أول من كتب في موضوع الاجتهاد الجماعي والحاجة إليه في هذا العصر فيما نعلم هو الكاتب الإسلامي الكبير المؤرخ رفيق بك العظم قبل أكثر من نصف قرن في رسالة صغيرة نشرها في مصر بعنوان «قضاء الفرد وقضاء الجماعة».



الفتح الإسلامى لمصر

٦



للأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا

كانت وستظل..

كانت مصر من أقدم عصور التاريخ، بل من قبل التاريخ، عربية. وهى ستظل كذلك، أحبَّ من أحبَّ، وكره من كره، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يذكر المقريزى فى كتابه: (البيان والإعراب عمَّن نزل مصر من الأعراب) أسماء أكثر من ثلاثين قبيلة عربية، من القبائل الكبيرة التى لها ذكر فى تواريخ العرب، نزلت منها بطون وأفخاذ أرض مصر. ولا يسع هذا النص الموجز، الذى يحاول التأريخ للفتح الإسلامى لمصر، إيراد ما قاله المقريزى ولا تلخيصه. ولكننا نشير إلى قليل مما فيه، مع ضرورة التنبه إلى ما سوف يأتى من أن بعض هذه القبائل كان لها وجود فى مصر، ثابت موثق، منذ ما قبل الإسلام بقرون عديدة.

فمما ذكره المقريزى أنه لما تملك مصر عز الدين أيبك التركمانى، أول ملوك الترك بديار مصر، أنِفتْ عربان مصر من حكمه البلاد لأنه مملوك من جملة المماليك البحرية قد مسه الرق فلا يجوز أن يُولَّى الحكم عليهم وهم أحرار عرب يأنفون من الرق، ولا يقبلون أن يحكمهم من كان رقيقًا ولو بعد تحرره أو عتقه. فجمعوا رجالهم، وجعلوا عليهم رجلا من الأشراف - ذوى النسب المتصل إلى رسول الله ﷺ - وحاربوا الأتراك، فقاتلهم الأتراك وهزموهم، وتفرقت القبائل التى حاربت الترك - بعد تلك الواقعة - فى نواحى الغربية (أى محافظة الغربية) وهم من الجعافرة ومن طيّ[1]، بعد أن كانوا يقيمون فى موضع واحد

(١) المقريزى:البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١، ص٩ و١٠.

قطنوا فى مناطق كثيرة، وبذلك أصبح العرب أكثر انتشارًا وأظهر وجودًا فى البلاد مما كانوا عليه قبل هزيمتهم من الترك. وكان فى هذا الظهور من الخير للعرب أضعاف ما كان فى تجمعهم الأول وتحيزهم فى مكان لا يشركهم فيه سواهم.

وكان بمصر فرقة من بنى عدىّ، رهط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، نزلوا بالبرلّس وكانوا هم والكنانيون (عرب كنانة) من ذوى الآثار المذكورة (المعروفة) فى وقعة دمياط[2].

والمقصود بوقعة دمياط المعركة التى خاضها المسلمون لفتحها، وفيها انحاز بعض العرب المتنصرة من أهل البرلس إلى الرومان فى دمياط، لكنهم هزموا جميعا، وفتحت دمياط بنصر حاسم للمسلمين على الرومان ومن والاهم، كما سيأتى.

ومن بطون جُذام العايذ، وهم منتشرون من القاهرة إلي عقبة أيلة[3]، ومن أيلة قدم على النبى ﷺ يوحنة بن رؤبة، والنبىُّ ﷺ فى تبوك، وكان يوحنة حاكم أيلة، وأتى النبى ﷺ مندوبا عن أهلها من النصارى يطلب موادعة النبى ﷺ والمسلمين، فصالحه النبى ﷺ على الجزية دينارًا على كل حالم من الرجال، فكان ذلك ثلاثمئة دينار فى السنة فكان عمر بن عبدالعزيز لا يزيد عليهم فوق الثلاثمئة دينار شيئًا (!)[4] واستمر هذا مقدار جزيتهم طول العهد الأموى.

وممن كان بمصر من جذام بنو رداد بن بعجة ابن زيد بن مية[5] ومن هؤلاء أهل برهمتوش[6]، ومنهم بطون كثيرة عدّها المقريزى فليرجع إليه[7].

وبالإسكندرية من جُذام ولخم جماعة ذوو عدد وشجاعة وإقدام ولهم أيام معلومة وأخبار معروفة ووقائع مشهورة[8]. وهذا مديح لهذه القبائل يتضمن أنها كانت ذات مكانة فى المجتمع ظاهرة، ولم يكن أبناؤها مجرد آحاد لا يؤبه لهم.

وببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب، ففى بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال، وفى بلاد أخميم وما تحتها بَلىّ (من قضاعة)، وفى بلاد منفلوط وأسيوط جهينة، وفى بلاد

(٢) المرجع السابق، ص١٠.

(٣) العقبة: الجبل الطويل يعرض للطريق فيضيقه، ياقوت، معجم البلدان، السابق، ج١ ص١٥١ رقم ٨٤٦٥. وأيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم (البحر الأحمر).

(٤) ياقوت، السابق، ج١ ص٣٤٧ رقم ١١٩٦.

(٥) المقريزى، المرجع السابق، ص١٦.

(٦) برهمتوش قرية من أعمال مركز السنبلاوين جنوب شرق محافظة الدقهلية وهى تبعد عن (تماص)، التابعة لمركز ميت غمر، ٦.٧كم وعدد سكانها ١٢٥٧٦ نسمة سنة ٢٠٠٦، وفى تحقيق عبدالمجيد عابدين أن برهمتوش قريتان إحداهما فى الشرقية، ص٣١، ويذكر محمد رمزى أن برهمتوش التى فى الشرقية غير التى فى الغربية، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ج١ ص٢٥٧.

(٧) ذكرت عرب برهمتوش خاصة لأنها ينتسب إليها أخونا الدكتور حسنين البرهمتوشى أستاذ علم الحاسبات بجامعتى الأزهر بالقاهرة والملك عبدالعزيز بجدة، وقد ساكنته وأسرته أكثر من عشرين سنة فلم نر منهم جميعاً إلا خيراً.

(٨) المقريزى، السابق، ص١٧.

الأشمونين [٩] قريش.

وفي معظم بلاد البهنسا لواتة ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية والبحيرة. وهذا التوزيع للقبائل العربية يؤكد فكرة الانتشار في البلدان التي ذكرتها آنفًا، وبهذا الانتشار كان من نزل منهم ببلد وجد له فيها أقارب يأوي إليهم ويتقوى بهم، وهي مسألة بالغة الأهمية عند العرب.

وكانت بَلِيّ وجهينة جيرانا بمصر كما هما بالحجاز [١٠]. وكان في أسيوط طائفة من أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يعرفون بأولاد الشريف قاسم، وكان بالصعيد من قريش بنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة[١١] وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو سهم[١٢].

وقد مرت الدولة الفاطمية [١٣] وبنو أمية بأماكنهم لم يروّع لهم سرب، ولم يكدر لهم شِرْب [١٤] وبالصعيد أيضا طائفة من الأنصار[١٥]، وجماعة من فزارة [١٦]، وفي الصعيد بطون كثيرة من لخم [١٧] وهكذا نتبين أنه لم تكن في مصر منطقة خالية من البطون والقبائل العربية، من أعلى الصعيد إلى أدنى الدلتا، فإن لم يكن هذا دليلا على عروبة مصر فماذا يكون؟!

وفي الفصل الذي كتبه الدكتور عبدالمجيد عابدين بعنوان (القبائل العربية في إقليم مصر في العصر الجاهلي) [١٨] ملحقا بكتاب المقريزي: أنه «لاشك أن طريق سيناء كان قنطرة ثابتة ومفتوحة للهجرات العربية منذ القدم. وهذه القنطرة تصل بين بلاد العرب ووادي النيل الخصيب وأن التباين في الثروة والغنى... منذ فجر التاريخ، كان عاملا مهما لاجتذاب البدو إلى مصر» [١٩].

ولم يستطع حكام مصر على مر التاريخ إغلاق هذه القنطرة، وهم لا يمكنهم إغلاقها حتى الآن، وما أمر الأنفاق بين غزة ومصر، ومحاولات القضاء عليها، عند أحد ببعيد.

وكانت الهجرات الأولى سلمية يؤخذ فيها رأي حاكم مصر، ولا تتم إلا بموافقته، وقد كانت هذه الهجرات تحدث باستمرار. وفي مقابر بني حسن صورة تمثل عدداً من البدو يقدمون لفرعون مصر القرابين ليسمح لهم بالسكنى في

(٩) هي اشمون وهي من أعمال مركز ملوي التابع لمحافظة المنيا، ياقوت ج١ ص٢٢٨ رقم ٧٠٠، وهد (١) ص٢٢٨. وقد ذكرت في الفصل الخامس أن الأشمونين هي في أسيوط وذلك صحيح إذ كانت أعمال مركز ملوي تابعة لها حتى سنة ١٨٢٦، الذي انشئت فيه مديرية أسيوط وأصبحت مدينة الأشمونين قاعدة لها أي عاصمة، ثم تغير التقسيم الإداري وبقيت أسيوط محافظة مستقلة واستتبع مركز ملوي لمحافظة المنيا ولا يزال كذلك. محمد رمزي، السابق، ج٤ ص٥٩ - ٦٠.

(١٠) المقريزي، السابق، ص١٩.

(١١) بنو شيبة هم الأمناء على مفاتيح الكعبة المُشرّفة حتى الآن.

(١٢) السابق، ص٢٥.

(١٣) أي مرت مدة حكمها مصر كاملة.

(١٤) السابق، ص٢٦.

(١٥) السابق، ص٢٩.

(١٦) السابق، ص٣٠.

(١٧) السابق، ص٣٦.

(١٨) هو الباب الثاني من تحقيقه لكتاب البيان والإعراب للمقريزي، السابق.

(١٩) عبدالمجيد عابدين، ملحق البيان والإعراب، السابق، ص٧٧.

وادي النيل [٢٠]. وهذه الصور والنقوش على المقابر تقطع بصحة الوقائع التي تصورها.

وسكن مصر أيضًا قبائل من الأنباط، وهم عرب أقحاح، من أهل الجزيرة العربية، وكان منهم من يشارك قريشًا في عبادة آلهتها مثل اللات والعزى. هؤلاء أقاموا دولة مهمة من بلاد الشام إلى بلاد العرب ومن الفرات إلى البحر الأحمر، وكانت التجارة عملهم الأساسي، تليه الصناعة، ولم يكونوا يمارسون الزراعة أصلا لأنهم يرون أنها تفسد القدرة على القتال.

ومنطقة ارتحالهم تبدأ من شمال الحجاز وتمتد شمالا وغربا إلى برزخ السويس. وقد كانوا سادة طريق التجارة بين الشام وسيناء، وطرق التجارة بين البتراء ودمشق، وبين العريش ودمشق. وامتد نفوذهم إلى معظم مناطق سيناء وأثبتت الكشوف الأثرية ذلك، وعُيِّنت أماكن كثيرة في منطقة سيناء وفي الصحراء الشرقية كانت مراكز لهؤلاء الأنباط. ومن هذه الكشوف الأثرية نقوش وخربشات بلغ عددها (٨٣) تمتد مواضعها من سيناء شمالا وتتجه إلى الجنوب في الصحراء الشرقية حتى تبلغ صعيد مصر الأعلى. وبعض هذه النقوش دال دلالة واضحة على أن أصحابها كانوا صناعا استقروا في بعض مناطق الصحراء الشرقية. وكان للتجار من عرب الأنباط منازل مستقرة (مستعمرات) ينزل بها القادمون من بلادهم للتجارة في مصر، وكان لهم معابد اكتشفت أطلال بعضها. وامتد نفوذهم إلى معظم مناطق سيناء وحكموا مدخل مصر منها وسيطروا على طرق الخروج من سيناء إلى بادية الشام. وكان القضاء على مملكة الأنباط سنة ١٠٦م على يد الرومان سببا في توسيع نشاطهم في إفريقية بوجه عام وفي مصر بوجه خاص [٢١]. بدلا من أن يكون سببا في القضاء عليهم. وهذا يذكرنا بانتشار العرب في أرض مصر بعد هزيمتهم من الترك (!)

وقد سكن بعض الأنباط على ضفاف النيل، وفي الصحراء الغربية، وفي شمالي إفريقية.

ووجود النقوش النبطية على الآثار المصرية يدل دلالة واضحة على أنهم لم يكونوا قوما قليلي الشأن في البلاد، فلو كانوا كذلك ما سمح لهم الفراعنة أن يضعوا رسومهم وكتاباتهم على جدران تلك الآثار بجانب الرسوم الفرعونية نفسها. وقد كان من أسباب مكانة الأنباط في مصر أنهم كانوا هم الذين يجلبون مواد التحنيط - عبر المراكز التجارية اليمنية العربية مع الهند - إلى مصر، وكان هذا عملا مهما جدا بالنسبة إلى المصريين القدماء، المغرمين بالتحنيط، الذي كانوا يعتبرونه من وسائل تحقيق عقيدتهم في البعث بعد الموت.

والموطن الذي وفدت منه الهجرات العربية منذ أقدم العصور إلى مصر هو (بادية الشام) التي تقع شمالي صحراء النفود. وقد وفد من هذه المنطقة إلى مصر قبائل من قضاعة وهم أصلا من أعقاب سبأ، من أهل اليمن، ثم انتقلوا إلى الحجاز، ثم إلى بادية الشام في حوالي القرن الأول للميلاد، وأقدم الروايات تفيد أن قضاعة

(٢٠) المرجع السابق، ص٧٧ - ٧٨، ومقابر بني حسن موجودة بتل العمارنة ٢٠ كم جنوب المنيا.

(٢١) عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق، ص٨١ - ٨٢.

ينتهي نسبها إلى حمير بن سبأ [٢٢]. وهؤلاء القضاعيون سكنوا مصر قبل الفتح الإسلامي لها بنحو ستة قرون، واختلطوا بأهلها الأصليين حتى ذابوا فيهم، واندمجوا بهم، ولم يبق ما يميزهم عن سائر أهل مصر أو يميز هؤلاء عنهم.

والمؤرخان اليونانيان: استرابو (٦٦ ق. م) وبلينيوس (٧٠م) يذكران أن العرب تكاثروا في أيامهما على الناحية الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعالي الصعيد، وأصبح نصف سكان قفط منهم [٢٣].

ومن أعقاب سبأ القبائل الكهلانية الذين منهم الأزد، والقبائل التي عرفت بالغساسنة [٢٤].

وقد نزل بعض بطون خزاعة ولخم [٢٥] وجذام في الجاهلية إلى مصر، وأقطعهم حاكم مصر الروماني ولاية تنيس (صان الحجر)[٢٦]. وكانوا برئاسة أبي ثور من بني عامر بن صعصعة من العرب المتنصرة، وقد حاربوا في فتح دمياط ضد المسلمين مع الرومان وأسر أبو ثور هذا وانهزم أصحابه [٢٧]. ومن الجماعات العربية التي استقرت في شرق الدلتا قبل الإسلام قوم يقال لهم (البشموريين) كانت لهم مواقع استطلاع وعيون في أماكن عدة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية جنوب مصر، وقد عاون هؤلاء الجيش الإسلامي في أثناء فتح مصر [٢٨]، كانوا عيونا لعمرو بن العاص مع أنهم لم يكونوا مسلمين، كانوا على وثنيتهم الأولى، لكن رابطة العروبة جعلتهم ينحازون إلى العرب/ المسلمين الفاتحين ضد الرومان المحتلين.

والوجود العربي في مصر يسبق دخول الإسكندر الأكبر (٣٣٢ق. م) إليها، فقد سكنتها آنئذ جموع عربية كبيرة من قبائل معين اليمنية وحمير والأنباط ومدين [٢٩]. وعثر في الجيزة، وإدفو، وقفط على كتابات معينية بالخط المسند تشير إلى وجود جالية معينية كبيرة في مصر، وبعض هذه النصوص مؤرخ بسنة ٢٦١ ق. م، الأمر الذي يثبت وجود العرب الجنوبيين (عرب اليمن) في مصر قبل ذلك التاريخ، والبحث الأثري يثبت أيضا وجود السبأيين في مصر (كما سلف ذكره [٣٠]). بل كانت هناك

(٢٢) عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق، ص٨٥ - ٨٦.

(٢٣) المرجع السابق، ص٨٩. وقفط مدينة في محافظة قنا كانت عامرة بالعلماء، ووصف هذين المؤرخين لها بأنها «نصف عربية» موجود في معظم المصادر الأجنبية عن تاريخ مصر في تلك الحقبة.

(٢٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢٥) يقول الإمام أبو محمد بن حزم، في جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ص٤٢٤: إن دار لخم بين مصر والشام حوالي العريش.

(٢٦) المرجع السابق، ص٩١.

(٢٧) المرجع السابق، الموضع نفسه، ومصطفى الشريف، عروبة مصر من قبائلها، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٢٣.

(٢٨) مصطفى الشريف، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢٩) عبدالفتاح مقلد الغنيمي، عروبة مصر قبل الإسلام، شركة دار الإشعاع للطباعة، القاهرة ١٩٩٢، ص١٠٢.

(٣٠) الغنيمي، السابق، ص١٠٤.

قوات من الجنود السبأيين تقوم بحراسة طرق القوافل إلى مصر وبلاد الشام [٣١]. وثمة خلاف بين المصادر التي رجعنا إليها حول الطريق الذي سلكته تلك القبائل: أهو الصحراء العربية ومنها إلى سيناء، أم هو الطريق البحري من موانئ اليمن على البحر الأحمر إلى موانئ مصر؟ وإلى هذا يميل بعض الباحثين استنادا إلى أن الحضارة المصرية القديمة تبدأ في الصعيد[٣٢].

وفي عام ٤٧ ق. م التمس يوليوس قيصر من مالك بن عبادة، ملك الأنباط، كتيبة من الفرسان الخيالة لفتح الإسكندرية، وردًا لجميل هذه الكتيبة العربية التي مكّنته من فتح الإسكندرية، التي كانت مستعصية عليه من قبل، عقدت روما معاهدة مع دولة الأنباط تعهد فيها الرومان بعدم الاعتداء على مملكة الأنباط، وتعهد الأنباط بالعمل لصد الهجوم العنيف من قبائل الصحراء (العربية) على الحدود المصرية [٣٣].

والنقوش النبطية تؤكد وجود السلالات العربية الأصيلة داخل المجتمع المصري القديم منذ ستة قرون قبل الميلاد [٣٤]. وبالإضافة إلى النقوش التي ترجع إلى سنة ٢٦١ ق. م هناك نقوش ترجع إلى عام ٢٦٦م الأمر الذي يقطع بوجود حياة عربية مستمرة في مصر على مدى نحو خمسة قرون ونصف! قبل الميلاد وبعده. وقبل الفتح الإسلامي لمصر بنحو أربعة قرون(!)[٣٥].

وقد ذابت كثير من البطون النبطية (أو العربية) في المجتمعات التي عاشت فيها، كما حدث في مصر، ولا مراء في تأثير هذا الذوبان على أهل تلك المجتمعات ثقافيًا ولغويًا [٣٦] في العصر الفرعوني الذي دام ٢٩ قرنًا، فلم تنقطع الصلات العربية المصرية عبر شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية [٣٧] وقد اختلط الساميون العرب بالمصريين، وتزاوجوا وتصاهروا [٣٨]. وتعبير علماء التاريخ والاجتماع بـ(الذوبان) يشير إلى أن كلا من طرفيه يعطي الآخر بعض خصائصه فينشأ خلق جديد من اختلاط أولئك بهؤلاء. وهذا الخلق الجديد هم سكان مصر في وقت الفتح الإسلامي لها: لا هم جنس غير عربي خالص ولا هم عرب خُلّص وإنما مصريون تجري في عروقهم دماء مختلطة.

وفي سنة ٢٤ ق. م حاول الرومان غزو بلاد العرب، فجردوا حملة قوامها عشرة آلاف جندي منهم ألف من النبط، وكان دليل هذه الحملة قائدًا من الأنباط وصل بها إلى نجران فاحتلتها ثم أخذ الدليل النبطي يضلل الحملة حتى قضى عليها

(٣١) الغنيمي، السابق، ص١٠٥.

(٣٢) نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، دار الكتب بتحقيق دكتور صبري أحمد العدل، ٢٠٠٥، مصورة عن ط ١٩١٦، ص٦٨٢.

(٣٣) الغنيمي، السابق ص١٠٩ - ١١٠. ومن الجدير بالذكر أن روما لم تحفظ للأنباط هذا العهد، ففي سنة ١٠٦م شنت روما الحرب على مملكة الأنباط وقضت عليها واحتلت أراضيها، أو معظمها، وليقل القائل: ما أشبه الليلة بالبارحة (!)

(٣٤) الغنيمي، السابق، ص١١٢ - ١١٣. (٣٥) راجع، الغنيمي، السابق، ص١١٤.

(٣٦) الغنيمي، السابق، ص١١٦ بتصرف يسير، وعبدالمجيد عابدين، السابق، ص٩ و١٠.

(٣٧) الغنيمي، السابق، ص١٢٧. (٣٨) الغنيمي، السابق، ص١٢٨.

جوعاً وعطشاً في الصحراء دون أن تحقق مبتغاها من الدخول إلى بلاد الحجاز[٣٩]. وكانت هذه المرة هي الأولى والأخيرة التي تحاول فيها الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) أن تغزو جزيرة العرب (!) وغزا جيش تدمر العربية مصر سنة ٢٦٨م وحكمتها ملكتها الزبّاء من سنة ٢٦٨م إلى سنة ٢٧١م[٤٠].

ويقرر نعوم بك شقير، في تاريخ سيناء، أن رهباناً من البتراء سكنوا سيناء في صدر النصرانية وأن أبراشية فيران (في سيناء) كانت قبل بناء الدير (دير سانت كاترين) تابعة لأبراشية البتراء[٤١]. وهو ينقل عن العلامة أحمد بك كمال[٤٢] أن اللغة المصرية القديمة واللغة العربية هما من أصل واحد، وأن كثيراً من ألفاظهما ومبانيهما واحدة[٤٣].

والعرب البائدة هم سكان مصر وأثيوبياً الأولين سكنوا وادى النيل، قبل التاريخ، مهاجرين من جزيرة العرب عن طريق سيناء أو بوغاز باب المندب أو كليهما[٤٤]. وهؤلاء العرب البائدة هم أنفسهم الذين تسميهم الدراسات الحديثة الساميين[٤٥].

يقول نعوم شقير: إن سكان مصر الأولين، أجداد القبط الحاليين، هم من أصل عربي قديم «وهذا هو الفتح العربي الأول لمصر» وسبب الخلاف في مكان دخولهم أن التمدن المصرى القديم بدأ من الصعيد، وقيل من سيناء بسبب النقوش التي وجدت بها للنبط[٤٦].

ثم كان مجئ الهكسوس هو «الفتح العربي الثاني لمصر» وقد حكموها نحو ١٥٠ سنة. والظاهر أنهم كانوا من جنس عرب سوريا لأنه في أيامهم عم السلام بين مصر وسوريا ونزح كثير من السوريين إلى مصر[٤٧].

ثم كان الفتح الثالث على يد زنوبيا ملكة تدمر التي ذكرناها آنفا ٢٦٨ - ٢٧١م[٤٨].

ثم كان الفتح الرابع، الإسلامي، على يد عمرو ابن العاص[٤٩].

أما شبه جزيرة سيناء فسكانها الأصليون

---

(٣٩) فيليب حتي تاريخ العرب، دار الكتاف، بيروت ٢٠٠٢، ج١ ص٧٧. وهو ينقل عن مؤرخ الحملة الجغرافي اليوناني، سترابو الذي كان صديقاً لقائدها جالوس.

(٤٠) العنيمي، السابق، ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٤١) نعوم شقير، تاريخ سيناء، السابق، ص٤٢٦.

(٤٢) أحمد كمال باشا (بعد ذلك) بن حسن بن أحمد ١٢٦٧ ـ ١٣٤١ هـ =١٨٥١ - ١٩٢٣م، أثرى من توابع مصر ولد ونشأ وتوفى بالقاهرة كان يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية والهيروغليفية ويعرف قليلا من القبطية والحبشية (!) أمين متحف القاهرة (المتحف المصري) له كتاب اللآلئ الدرية في قواعد اللغة الهيروغليفية، وبغية الطالبين في علوم قدماء المصريين. له ترجمة جيدة في الأعلام للزركلي (خير الدين) ج١ ص١٩٩ تحت اسم أحمد كمال باشا ومنها استقيت ما تقدم، وللأخ الدكتور محمد بهجت قبيسي دراسة موجزة عنه قدمها إلى مكتبة الإسكندرية مرقومة على الحاسوب وأهداني نسخة منها. وله ترجمة حسنة أيضاً في: علي خشيم، آلهة مصر العربية، مجمع اللغة العربية الليبي، ومركز الحضارة العربية، القاهرة، ط الرابعة ٢٠٠٦، ص٢١٦ وما يليها. وفي هذا الكتاب (الجزء الثالث) دراسة موسعة عن الصلة بين اللغتين العربية والمصرية القديمة، راجع ص٦٤٩ ـ ٧٤٣.

(٤٣) نعوم شقير، السابق، ص٤٧٥، وعبدالمجيد عابدين، السابق، ص٧.

(٤٤) نعوم شقير، السابق، ص٦٢١.

(٤٥) عبدالمجيد عابدين، السابق، ص٧.

(٤٦) نعوم شقير، السابق، ص٦٨٢.

(٤٧) المرجع السابق، ص٦٨٦.

(٤٨) السابق، ص٧٢٣.

(٤٩) المرجع السابق، الموضع نفسه.

الساميون، كسكان سوريا، وعرفوا في التوراة بالعمالقة، وفي وثائق دير سانت كاترين أن سكان سيناء في أوائل القرن السادس الميلادي كانوا هم «الأعراب الإسماعيليون»[٥٠]!

ولذلك عندما نقرأ أن: جيش عمرو بن العاص ضم البدو من صحراء سيناء، والصحراء الشرقية، والغساسنة، والأنباط، الذين كانوا في طريقه إلى حصن بابليون[٥١]، وعندما نقرأ عن حصار هليوبوليس أن: «عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة أسرعت فحملت إلى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال»[٥٢]، وعندما نقرأ أن جيش المسلمين ضم طائفة من أكبر فرسان العرب، «هذا غير الأعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربي منذ دخوله مصر...»[٥٣].

عندما نقرأ هذا وأمثاله، في كتب التاريخ التي كتبها غير مسلمين، أو في كتب التاريخ التي كتبها أشخاص أسماؤهم كأسماء الأفراد المسلمين ولكن روح كتابتهم أشبه شيء بروح كتابة غير المسلمين... فنحن عندئذ لا نقرأ عن بدو أو أعراب أو عرب جاءوا من المريخ إنما نقرأ عن عرب وبدو وأعراب من القبائل الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها ولم نذكرها كلها... عاشوا في مصر، واستوطنوها، وأصبحوا من أهلها بمرّ القرون، لا بمجرد مر السنين، واختاروا البادية حول مدنها؛ لأنهم لها أكثر أُلْفَة، وبأسرارها أعظم دراية، منهم بالحواضر والأراضي المزروعة.. وهذه هي بداوتهم، اختيارية لا فطرية ولا جبلية، ومنها وصفوا بالعربان لا من كونهم من (الأعراب) المذكورين في القرآن الكريم. على أن الأعراب أنفسهم إذا كان منهم من يصدق فيه قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٨)

فإن منهم من يظله قول ربنا في الآية التي بعدها مباشرة

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٩)

ومنهم من يدخل في قوله تعالى:

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٠٢-١٠٣)

يتبع

---

(٥٠) المرجع السابق، ص٦٠١.

(٥١) عبدالعزيز جمال الدين، تحقيق تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، ج١، ص٤٧٥.

(٥٢) المرجع نفسه، ص٤٨٥.

(٥٣) المرجع نفسه، ص٤٨٤.

صاحب المنار والبعث الإسلامي


رشيد رضا


٢



للأستاذ الدكتور/ حلمي محمد القاعود

- ٥ -

يقول محمد رشيد رضا عن إنشاء المنار:

«إنني لم أنشئ المنار ابتغاء ثروة أتأملها ولا رتبة من أمير أو سلطان أعمل بها ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي بها الأقران، بل لفرض من الفروض، يرجى النفع من إقامته، وتأثم الأمة كلها بتركه، فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكنت إذا أصبت هذا بحسن عملي واجتهادي؛ فسيّان رضي الناس أم سخطوا، قبلوا المنار أم رفضوا» (السابق أيضا :ص٣٣).

وكان رشيد رضا قد قال عن نفسه من قبل موضحا طبيعة المنار وعمله فيها:

«منشئ المنار نشأ وشب وشاب على الزهد في الدنيا وجدانا وعملا لا رأيا وعقلا، فهو يرى أن الزهد لا يجوز أن يتجاوز شعور القلب إلى التقصير في الكسب، لكن قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «كل ميسر لما خلق له» متفق عليه، وروى بزيادة «اعملوا» في أوله. وبهذا الزهد يسر الله له أن يتصرف بكل قواه إلى الإصلاح والتجديد الإسلامي علما وبحثا ودعوة وحجة ودفاعا وإقناعا، حتى صار موضع ثقة خواص المسلمين غير الجغرافيين في العالم الإسلامي كله في إصلاحهم كما قال الشيخ المراغي».

«إن المسلمين لا يرجى لهم صلاح إلا بالقرآن على الوجه الذي يفسره به المنار» (نفسه : ص ٢٥ وما بعدها).

لقد تحمل رشيد رضا بإصراره وزهده متاعب كثيرة في سبيل أن تستمر المنار في الصدور حوالي سبعة وثلاثين عاما، دون مساندة من دولة أو مؤسسة أو جماعة، وقد تعرض في أخريات حياته وحياة المنار إلى أعباء ثقيلة من الديون التي تراكمت للمطابع وجهات أخرى، وكان يضطر إلى التضحية ببيع بعض ممتلكاته البسيطة للوفاء بجزء من

هذه الديون، ولكن الموت وضع حدا لهذه الأزمة التي تراكمت فتوقفت المنار بعد عمر طويل في ميدان الصحافة الإسلامية، وخرج من الدنيا خالي الوفاض من المال، ولكنه كان يحمل حب المسلمين وذكرا خالدا لما قام به من جهاد في سبيل الدعوة والمعرفة والبعث الإسلامي!

ويلاحظ أن رشيد رضا كان يحرر معظم مادة المنار على مدى عمرها المديد، معتمدا على معرفة غزيرة ممتدة، وزاد واسع من العلم، فهو عالم كبير موسوعي له إلمام عريض بالتراث الإسلامي والأدب العربي، محيط بعلوم القرآن، على دراية واسعة بالفقه الإسلامي والسنة النبوية، عارف بأحوال المجتمع والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي، شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبير بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية.

وقد أدخلت المنار أسلوب المعالجة الصحفية والفكرية الحديثة وقضايا المسلمين إلى الصحافة الإسلامية، كما اعتمدت أسلوب أهل السنة والجماعة، وهو الطور الطبيعي للأسلوب الذي بدأه الأفغاني ومحمد عبده، وكان يسمى المعتزلة الجدد، وصولا إلى منهج أهل السنة ومفهوم القرآن الأصيل على النحو الذي سار عليه محمد رشيد رضا، حيث اتسع وتعمق في كتابات حسن البنا (أنور الجندي، مرجع سابق، ص٩).

لم تمض خمس سنوات على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس، وانتشرت انتشارا واسعا في العالم الإسلامي، واشتهر اسم صاحبها حتى عرف باسم رشيد رضا صاحب المنار، وعرف الناس قدره وعلمه، وصار ملجأهم فيما يعرض لهم من مشكلات، كما جاء العلماء يستزيدون من عمله، وأصبحت مجلته هي المجلة الإسلامية الأولى في العالم الإسلامي، وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والعصر.


المراغي

يقول المستشرق هاملتون جب في كتابه وجهة الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده عن المنار وتأثيرها:

«ولم يشرق منار القاهرة على المصريين وحدهم، ولكنه أشرق على العرب في بلادهم وخارجها وعلى مسلمي أرخبيل الملايو الذين درسوا في الجامعة الأزهرية وعلى الإندونيسي المنعزل الذي ظل محافظا على علاقاته بقلب العالم الإسلامي بعد عودته إلى بلاده النائية على حدود دار الإسلام: هؤلاء جميعا رأوا الإسلام على نور جديد لم يروا فيه مثالا للتشدد والجمود ورأوه الدين المختار بين الأديان، وحامل المثل الأعلى لكل زمان مضى، المثل الجديدة لكل زمان آت، وهو شباب متجدد الشباب حامل لواء كل تقدم، شديد في التسامح، وقد أصبح الذين اقتبسوا من نور المنار منارات

صغرى بعد أن عادوا إليها» (أنور الجندى ، نفسه ، ص٢٢).

لقد امتد التأثير إلى الحركة السلفية فى تونس والجزائر، فضلا عن الجزيرة العربية، كما نشأت مجلات وصحف على هدى من العروة الوثقى والمنار فى شتى أرجاء العالم الإسلامى بدءا من الشمال الإفريقى والجزيرة العربية إلى الهند والملايو وإندونيسيا.

وقد وصف الشيخ قاسم بن مهزع أبرز زعماء الفكر الإسلامى فى البحرين مجلة المنار بقوله : «إنها تعبر عن الأقوال الفاصلة بالحق».

- ٦ -

لقد أثارت المنار كثيرا من القضايا لبعث العالم الإسلامى وإصلاحه وبنائه، كما أثيرت بعض القضايا حول صاحب المنار وكتاباته بحكم ارتباطه بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، ومخالفة بعض الناس لاجتهاداته أو آرائه. ومن القضايا التى ركزت عليها المنار فى معظم أعدادها :إصلاح الأمة والتربية والتعليم ، والعلاقة بين العلماء والحكام وغيرها..

كان أكثر ما يؤرق رشيد رضا، وقادة الإصلاح فى زمنه، هو الفرقة التى تحكم علاقة المسلمين بعضهم، فهى سبب الضعف والهوان الذى يعيشونه، وهى الذريعة أو الفرصة التى يتخذها خصوم الإسلام وأعدائه للنيل من المسلمين، وهزيمتهم واغتصاب ثرواتهم ، وحرمانهم من الحرية والاستقلال.


محمد عبده

وقد ألح فى كثير من أعداد المنار على هذه الناحية مبينا ما آلت إليه أحوال المسلمين فى زمانه على يد أفرادهم وحكامهم وأعدائهم، ودعا إلى هيئة يقوم بها نفر من علمائها وأصحاب العقول فيها من أجل الوحدة والاتفاق والاعتصام بحبل الله، ويعد المنار عنصرا من عناصر الدعوة للعمل للأمة وإصلاحها. يقول فى افتتاحية السنة التاسعة من المنار:

«إن المسلمين أمسوا كالريش فى مهب الحوادث، وكالغثاء فى مجرى سيول الكوارث، لا رأى لخواصهم فيما يراد منهم، ولا شعور لعوامهم فيما يراد بهم. وللأجانب يد فى تصرف حكامنا فى سياستنا، ويد فى تصريف أموالنا فى مصلحتهم دون مصلحتنا، ويد تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافى آداب ملتنا ، وتوقع فى العقول عقائد وأفكارا تقوض بناء وحدتنا»....

«إنه لم تستيقظ أمة من نومها ، ولم تبعث دولة من موتها إلا بصيحة نفر من أولى الألباب، وتستعفى العقول والألباب الذى يغير الله ما فى نفوس أقوامهم بما يلقيه من الحكمة فى ذلاقة ألسنتهم، ونفثات أقلامهم فيستبدلون الاعتصام بالانفصام ، والاتفاق بالشقاق، والوحدة بالفرقة ، وبذلك يشعر الأفراد بمعنى الأمة ، ويعملون بالتعاون فيكونوا أمة :

﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

(غافر : ٨٥)

«وما المنار إلا صحيفة أنشئت لتأييد دعاة العلم للأمة والعمل لها، سواء منهم من دعا إلى الإصلاح معها، ومن يدعو إليه معها ، ولتكثير سواد الدعاة الذين يتعلمون للأمة ويعملون للأمة»...

لذا رأى رشيد رضا أن القضاء على الفرقة وأسبابها أمر ممكن من خلال تأليف كتاب يحوى ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم، فى المسائل التى تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل، والابتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة، وتُرسل نسخ بعد ذلك من هذا الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية، وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها. كما طالب بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام، فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب على الأسس المتفق عليها فى جميع المذاهب الإسلامية وتتفق مع مطالب العصر، ثم تُعرض على سائر علماء المسلمين للاتفاق عليها والتعاون فى نشرها وتطبيق أحكامها.

وفى مجال التربية والتعليم كان الشيخ رشيد رضا من التابعين لأستاذه محمد عبده، حيث كان يرى أن بناء الأمة يقوم أو يرتكز بالدرجة الأولى على التربية والتعليم لأن «سعادة الأمم بأعمالها، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها».

وفى هذا السياق طرح «رشيد رضا» ما ينبغى على الأمة أن تتبناه من علوم لإصلاح شئون الناس، ودفعهم إلى مسايرة ركب العلم والعرفان، مثل: علوم أصول الدين، وفقه الحلال والحرام والعبادات، والتاريخ، والجغرافيا، والاجتماع، والاقتصاد، والتدبير المنزلى، وحفظ الصحة، ولغة البلاد، والخط.

وقد طبق محمد رشيد رضا فكرته النظرية عن التعليم بإنشاء مدرسة تربوية تعليمية يتحقق من خلالها ما دعا إليه وطالب به ، ولذا أنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المدربين لنشر الدين الإسلامى، وجاء فى مشروع تأسيس المدرسة أنها تختار طلابها من طلاب العلم الصالحين من الأقطار الإسلامية، ويُفضل من كانوا فى حاجة شديدة إلى العلم كأهل جاوة (إندونيسيا) والصين (يقصد مسلمى الصين فى تركستان)، وأن المدرسة ستكفل لطلابها جميع ما يحتاجون إليه من مسكن وغذاء (على طريقة الأزهر)، وأنها ستعتنى بتدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعباداته. كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث، فلا خير فى علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع، وأن المدرسة لا تشغل بالسياسة، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية. وقد افتتحت المدرسة فى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى سنة (١٣٣٠هـ-١٩١٢م) فى مقرها بجزيرة الروضة بالقاهرة، وبدأت الدراسة فى اليوم التالى

للاحتفال، وكانت المدرسة تقبل في عداد طلبتها شباب المسلمين ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا قدراً من التعليم يمكنهم من مواصلة الدراسة.

غير أن المدرسة كانت في حاجة إلى إعانات كبيرة ودعم قوى، وحاول رشيد رضا أن يستعين بالدولة العثمانية في إقامة مشروعه واستمراره لكنه لم يفلح، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتقضى على هذا المشروع، فتعطلت الدراسة في المدرسة، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى.

أما علاقة الحكام بالعلماء فقد كان يراها محمد رشيد رضا أساس الإصلاح العام، فقد كتب مئات المقالات والدراسات لإعداد الوسائل كي تنهض الأمة وتقوى، وخص العلماء والحكام بتوجيهاته؛ لأنهم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان، وأن في صلاح حالهم صلاح حال الأمة. يقول: «إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس».

وكان رشيد رضا يحدد طبيعة العالم الحقيقى الذى يعلق عليه أملا في الإصلاح وأداء الواجب الإسلامى في بناء الأمة، فيقول:

«لا أعنى بالعلماء من قرأ حواشى الصبان على الأشمونى، ومطولات الفقه بحيث يقدر على التنكيت في قوله... وإنما أعنى بالعلماء من كل من له وقوف على سر الدين وحكم التشريع وانطباق أحكام الإسلام على مصالح البشر وتأثيرها في سعادتهم في الدارين، وحكمه في وضع الأشياء في مواضعها ومخاطبة الناس على قدر عقولهم وإعطائهم ما تمس إليه حاجتهم، وإنما تجتمع هذه الصفات لن يجمع بين العلم بأخلاق الدين وعقائده وآدابه والعلم بأحوال الناس وشئونهم ومرامى أفكارهم وكيفية معاملاتهم».

كما أتبع رشيد رضا هذا التحليل بإلقاء تبعة إيقاظ الإيمان في قلوب الناس على العلماء المخلصين لرسالتهم الحقيقية، ورسم لهم منهجا عمليا محدد الأهداف كي يقوموا بالإصلاح في ميدان البدع والمفاسد، ورأى أن الطريقة المثلى لإبطال المنكرات والبدع إنما هى الوعظ والتعليم، وذلك على ضروب ثلاثة: هى الخطابة، وقراءة علم الأخلاق والآداب، وسلوك طريق التربية عملا وحقيقا، ويرى أن هذه الأمور الثلاثة لو أعطيت حقها من العناية لنهضت الأمة نهضة الأسود. (انظر: إبراهيم أحمد العدوى، مرجع سابق ١٧٠- ١٧١).

- ٧ -

ومن القضايا التى أثيرت حول محمد رشيد رضا؛ علاقته بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده لارتباطهما بالحركة الماسونية التى دخلت مصر مع الاستعمار الغربى الحديث. وهذه القضية سببت التباسا لدى كثير من الناس، لأنهم ينظرون إليها بمنظار معاصر عرف طبيعة هذه الحركة بعد اكتشاف أبعادها وأهدافها وارتباطها بالصهيونية ومؤامراتها..

ومن المؤكد أن الارتباط بالصهيونية أو الاستعمار بصفة عامة كان هدفا غائبا عمن انتسبوا إليها في القرن التاسع عشر، لأنها قدمت نفسها بوصفها حركة اجتماعية تدعو إلى الحرية والإخاء والمساواة، وهى أهداف عامة لا يرفضها أحد، فضلا عن كونها شعار الثورة الفرنسية، وكان انضمام جمال الدين الأفغانى إليها بسبب هذا الشعار الذى يدعو إلى الحرية، لأنه كان حريصا على تحرير مصر والبلاد الإسلامية جميعا من قبضة الاستعمار والاستبداد.

في ٢٠ مارس ١٩٠٣ روى المستشرق الإنجليزى ويلفريد بلنت أن الشيخ محمد عبده قال له:

«حدثت محاولة لإدخال الماسونية مصر في أواخر أيام إسماعيل باشا. وكانت جميع المحافل مرتبطة بالمحافل الأوربية، وقد انضم الشيخ جمال الدين إلى أحدها، ولكن سرعان ما اكتشف عدم جدواها فانسحب منها، وكان إسماعيل يشجعها حين بدأت متاعبه كي تخدم أهدافه، ولكن الماسونية لم تكن لها قوة في مصر على الإطلاق».

ويبدو أن بلنت لم يحاول تقصى تاريخ الماسونية في مصر. ولا كان محمد عبده يهمه أن يؤرخ لها، فقد دخلت الماسونية مصر في عهد إسماعيل، وحاولت المحافل الأجنبية ذات الأغلبية الأوربية- أن تشتغل بالسياسة والمكائد، و انقسمت في أواخر عهد إسماعيل بحيث كان قسم منها يؤيده أو يؤيد خلافة ابنه توفيق له. وقسم آخر يؤيد ولاية الأمير حليم.. أما أن


الأفغاني

الماسونية لم تكن لها في مصر - حتى ذلك الوقت- قوة ولا نفوذ فأمر نسبى في الحقيقة يمكن أن ينطبق على الأقلية المصرية في المحافل، ولكنه لا ينطبق على الأغلبية الأوربية فيها. فقد كانت هذه الأغلبية تعمل- بطبيعة تركيبها وانتماءاتها- لحساب المصالح الأوربية وقناصل أوربا، على الرغم من شعار عدم التدخل في الدين أو السياسة الذى ترفعه الماسونية دائما. (على شلش، الماسونية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٥٥).

لقد أشار الأفغانى بعد سنوات عديدة إلى سر خلافه مع الماسونية في خلال تلك المرحلة بوجه عام، حين صرح لتلميذه محمد المخزومى في الآستانة بأنه «اكتشف أن الجبن يمكن أن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية». وأن شعارات الماسونية استدرجته وجعلته ينضوى تحتها، فإذا به يجدها مفعمة بالأنانية وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء، وحذر في الوقت نفسه من أن الماسونية ستختنق في المهد، إن لم تصلح حالها وتعود إلى أصولها الصحيحة التى شوقته للعمل تحت لوائها، مثل الحرية

والإخاء والمساواة والسعي وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق على حد تعبيره» (على شلش ، مرجع سابق ، ص٥١).

وهذا يعني أن الماسونية في تصوره وتصور معاصريه لم تكن إلا جماعة تهدف إلى الخدمة العامة ، ولكن الأفغاني اكتشف سلبياتها ورصد عيوبها ، وكان يأمل أن ينصلح حالها ليستفيد منها الناس ، وواضح أنه انخدع فيها مثلما انخدع فيها معظم رجالات النخبة العليا في المجتمع آنذاك ، فقد ضمت كثيرا من المشاهير ، أبرزهم:

الخديو توفيق- شاهين مكاريوس صاحب جريدة اللطائف- حسين فخرى باشا وزير الحقانية (العدل)- حفنى ناصف- إدريس راغب بك- الأمير محمد على توفيق- الشاعر ولي الدين يكن- إبراهيم اليازجى- الشاعر خليل مطران- الشاعر إسماعيل صبرى- أحمد فتحى زغلول المحامى- وشقيقه الزعيم سعد زغلول- عدلي يكن السياسى- عبد الخالق ثروت السياسى- الشاعر محمود رمزى نظيم- الشاعر أحمد زكى أبو شادى- ومن الأمراء والنبلاء : عمر سعيد حليم ، وسعيد محمد على حليم وسعيد داود ، ومن السياسيين : على شعراوى ومحمد حافظ رمضان وفؤاد أباظة ، ومن علماء الأزهر الشيخ حسن مأمون ، ومن العسكريين اللواءان على شوقى ومحمد فهمى المتيني وغيرهم (انظر : على شلش ، مرجع سابق ، ص ٥٧- ٦٠).

ولا أظن أن ذلك يدفعنا إلى اتخاذ موقف حاد من هؤلاء الذين تصوروا أنهم يحسنون صنعا بانضمامهم إلى الماسونية ذات الشعارات البراقة فى عصرهم ، وقد رأينا أن جمال الدين ومحمد عبده يتجاوزان مرحلتها ، ويبتعدان عنها ، مثلما ابتعد عنها محمد رشيد من البداية ولم ينضم إليها.

هناك بعض الانتقادات توجه إلى تفسير المنار ومواقف محمد رشيد رضا من بعض الأحاديث ، ولا أحسب أن هذه الانتقادات تسوغ أن ترفض هذا التفسير أو عمل الرجل فى مجال الحديث ، وتهدر جهده العلمى الذى استغرق منه عمرا بأكمله ومشقة عظيمة صبر على بذلها وأدائها مضحيا بالوقت والمال . إن الحق سبحانه يحاسب على مثقال الذرة خيرا أو شرا ، فكيف لا يرى بعضهم غير السلبيات- إن صحت- ويبنى عليها رفضا كاملا لتراث ضخم ، وحكما قاسيا بالرفض للرجل وعلمه.

إن أصحاب بعض الآفاق المحدودة يرفضون ويحكمون من خلال نظرات جزئية ضيقة لا تستقيم مع الأحكام العلمية ، ولا المنهج الذى يقول بأن كل المسلمين يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام. ويجب أن نتجاوز ذلك إلى الرؤية الناضجة التى ترى الموضوع من كل جوانبه ، وتوازن بين الإيجابيات والسلبيات ، وتضع كلا فى مكانه وموقعه الملائم.

- ٨ -

تميز رشيد رضا بأخلاق رفيعة ، فهو لا يعرف الحقد ، ولا يعرف الحقد طريقا إلى قلبه ، وقد خاض معارك عديدة وضارية مع خصومه والمتحاملين عليه ، ولكنه لم يحمل ضغينة لأحدهم ، وكان لا يمضى وقت قصير حتى ينسى ما وجه إليه ويذكر حسنات من هاجمه.

وقد شبه شكيب أرسلان أخلاق رشيد رضا بأخلاق صلاح الدين الأيوبى الذى أوصاه أبوه بمجموعة من الوصايا منها : «ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد».

كما أجمع المعاصرون لرشيد رضا أنه كان أصدق الناس لهجة وأبعدهم عن الكذب والتدليس ، وقد تأصل هذا الخلق فيه بسبب دراسته للحديث الشريف ، وما يتطلبه ذلك من الحيطة فى رواية الحديث وضبط الكلمة بل الحرف.

لذا اشتهر رشيد بكراهية الغيبة والنميمة ، واحترامه لحقوق الصداقة والإخوان.

وذكر شكيب أرسلان بقدرة رشيد رضا على نسيان العداوة ، وحرصه على إعادة المودة مع كبار معاصريه من المناوئين له ، كما جرى مع الشيخ عبد العزيز جاويش.

وكان مع وداعته وقورا ، وفى تواضعه كبيرا ، وكانت رقته فى مواطن الحنان تدل على بلوغ الإنسانية فيه مثلها الأعلى ، وأنه قلما اجتمع العلم والخلق اجتماعهما فى الشيخ ، وقلما جرى العقل والقلب فى شوط واحد كما جريا فى هذه الفطرة الشريفة .


شكيب أرسلان

وبذلك نال رشيد رضا إجلال معاصريه واحترامهم ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وطالبهم ، فكان أخص أصدقائه ، حتى المقاربين معه فى السن يبادرون إلى تقبيل يده لعلمه وفضله ، واعترافا منهم بمكانته . وكان يعض من يقبل يده يجيب عن سبب ذلك كما يروى شكيب أرسلان ؛ بأنه يقبّل يد العلم قبل اليد التى طالما ناضلت عن الإسلام ، وتناولت قلما من نوادر الأقلام التى كشفت الكرب عن وجوه المسلمين. (إبراهيم أحمد العدوى ، مرجع سابق ، ص ٢٧١- ٢٧٤).

وأخيــــرا

كانت الخاتمة الطبيعية لكل كائن حى ، حيث جاءت لحظة الرحيل ، فذهب الشيخ إلى السويس لتوديع أحد الأمراء السعوديين من أصدقائه ، وعاد فى اليوم نفسه ، وكان واضحا أنه أجهد نفسه وسهر كثيرا ، فلم يتحمل جسده الضعيف مشقة الطريق ، وكان طول الطريق يتلو القرآن كعادته ، ثم أصابه دوار من ارتجاج السيارة ، وطلب من رفيقيه أن يستريح داخل السيارة ، ولكن روحه الطاهرة فارقته ، ووافق ذلك يوم الخميس الموافق (الثالث والعشرين من جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ = الثانى والعشرين من أغسطس ١٩٣٥م) وذهب إلى ربه راضيا مرضيا ، رحمه الله تعالى.



مصطفى كامل باشا (*)

لأمير الشعراء / أحمد شوقى

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني

يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين وروّع الحرمان (١)

السكة الكبرى حيال رباهما ... منكوسة الأعلام والقضبان (٢)

لم تألها عند الشدائد خدمة ... في الله والمختار والسلطان

يا ليت مكة والمدينة فازتا ... في المحفلين بصوتك الرنان

ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ... ما غاب من قس ومن سحبان (٣)

جار التراب وأنت أكرم راحل ... ماذا لقيت من الوجود الفاني؟

أبكي صباك ولا أعاتب من جنى ... هذا عليه كرامة للجاني

(*) هو الزعيم الخالد الذكر مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني، وقد توفي سنة ١٩٠٨م.

١- الحرمان: حرما مكة والمدينة.

٢- السكة الكبرى: يريد سكة حديد الحجاز، وقد كان الفقيد أعظم الدعاة الجاهدين في سبيل إنشائها.

٣- قس وسحبان: خطيبان عربيان يضرب بهما المثل في الطلاقة الخطابية والفصاحة والحكمة.

يتساءلون أبالسلال قضيت أم ... بالقلب أم هل مت بالسرطان؟

الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والإقدام والعرفان

إن كان للأخلاق ركن قائم ... في هذه الدنيا فأنت الباني

بالله فتش عن فؤادك في الثرى ... هل فيه آمال وفيه أماني؟

وجدانك الحي المقيم على المدى ... ولرب حي ميت الوجدان

الناس جار في الحياة لغاية ... ومضلل يجري بغير عنان

والخلد في الدنيا وليس بهين ... عليا المراتب لم تتح لجبان

فلو أن رسل الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين من الأديان

المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جعلت لها الأخلاق كالعنوان

وأحب من طول الحياة بذلة ... قصر يريك تقاصر الأقران

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثاني

للمرء في الدنيا وجم شئونها ... ما شاء من ربح ومن خسران

فهي الفضاء لراغب متطلع ... وهي المضيق لمؤثر السلوان

الناس غاد في الشقاء ورائح ... يشقى له الرحماء وهو الهاني

ومنعم لم يلق إلا لذة ... في طيها شجن من الأشجان

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان (٤)

يا طاهر الغدوات والروحات وال ... خطرات والإسرار والإعلان

هل قام قبلك في المدائن فاتح ... غاز بغير مهند وسنان؟

٤- سيان: مثلا، الواحد سي.

يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران؟
لفقوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكي بدمع قاني [٥]
يزجون نعشك في السناء وفي السنا ... فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعش الحسين بكربلا ... يختال بين بكا وبين حنان
في ذمة الله الكريم وبره ... ما ضم من عرف ومن إحسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتك بالدمع الهتون غواني [٦]
والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون بأي قلب ترتقي ... بعد المنابر أم بأي لسان؟
لو أن أوطاناً تصور هيكلا ... دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يحمل في الجوارح ميت ... حملوك في الأسماع والأجفان
أو صيغ من غر الفضائل والعلا ... كفن لبست أحاسن الأكفان
ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
يبغي ويطغى والطبيب مضلل ... قنط وساعات الرحيل دواني
ونواظر العواد عنك أمالها ... دمع تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمشاغل جمة ... ويداك في القرطاس ترتجفان
فهششت لي حتى كأنك عائدي ... وأنا الذي هد السقام كياني

٥- قاني: أحمر.

٦- العقائل: جمع عقيلة، وهي كل شيء كريمة .. والهتون: من هتن الدمع إذا قطر والغواني جمع غانية، وهي الفتاة تغنى بجمالها عن الحلي.

ورأيت كيف تموت آساد الشرى ... وعرفت كيف مصارع الشجعان [٧]
ووجدت في ذاك الخيال عزائماً ... ما للمنون بدكهن يدان
وجعلت تسألني الرثاء فهاكه ... من أدمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لخاطري ... لنظمت فيك يتيمة الأزمان
وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت ... فتعود سيرتها إلى الدوران
قد كنت تهتف في الورى بقصائدي ... وتجل فوق النيرات مكاني
ماذا دهاني يوم بنت فعقني ... فيك القريض وخانني إمكاني؟
هون عليك فلا شمات بميت ... إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بلغتها ... عزت على كسرى أنوشروان؟
عوفيت من حرب الحياة وحربها ... فهل استرحت أم استراح الشاني؟ [٨]
يا صب مصر ويا شهيد غرامها ... هذا ثرى مصر فنم بأمان
اخلع على مصر شبابك عالياً ... والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدي ... مجداً تتيه به على البلدان
فلو أن بالهرمين من عزماته ... بعض المضاء تحرك الهرمان
علمت شبان المدائن والقرى ... كيف الحياة تكون في الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها ... قبر أبر على عظامك حاني
أقسمت أنك في التراب طهارة ... ملك يهاب سؤاله الملكان



٧- آساد: جمع أسد، والشرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد.

٨- حربة (كطلبه): سلبه ماله، والشانى المبغض.

حول ميزان القوى



للمفكر الإسلامي والباحث الإستراتيجي
الأستاذ/ منير شفيق

يبدو أن ثمة عنصرًا أساسيًا يفرض نفسه فى تحديد أسلوب العمل التغييرى عند انسداد الأبواب وتفاقم الظلم والقهر وكبت الأنفاس هو ضرورة الإدراك الدقيق لميزان القوى وظروف الصراع محليًا وإقليميًا ودوليًا. فإذا كان صاحب الأمر يحتقر كل نصح أو معارضة ويضيق بالمشورة، ولا يريد إشراك الجماعة بالأمر فهذا لا يعنى أن ينحصر الخيار فى كل الحالات فى مواجهة ذلك بأسلوب العنف أو الثورة تحت حجة أنه فرض ذلك فرضًا، لأن طبيعة ميزان القوى السائد، والظروف القائمة قد يؤديان إلى فشل ذريع لأسلوب العنف، ومن ثم يكون الحاكم محرضًا أو مستفزًا خصومه ومستدرجًا لهم إلى اتباع أسلوب العنف حتى يتخذ من ذلك ذريعة لتصفيتهم، ولهذا لا يجوز أن يكون رد الفعل عنيفًا لمجرد أن الحاكم فرض ذلك، لأن قرار اللجوء إلى العنف يحتاج إلى توفر شروط أخرى تحقق شرعيته وتضمن نجاحه، فشرط الشرعية ضرورى مثلاً. لكن شرط النجاح أشد ضرورة. لأن اللجوء إلى العنف فالفشل يعود بالكوارث ويزيد من تدهور الأوضاع. ولهذا حرص علماء الأمة. وبعد تجارب تاريخية مريرة، على التعامل وهذا الموضوع تعاملاً حذرًا جدًا. وغلب عليهم تجنب النصح فى الخروج، وندر ما وصولا إلى حد إباحته، وكانت الإباحة إما فى ظروف حتمت ضرورة مواجهة غزو خارجي، ومنع التفريط والإهمال فى ذلك، وإما فى حالات انسداد كل الممكنات الأخرى مع توفر شروط النجاح. وقد راحت الحركة الشعبية العفوية تملأ الشوارع تلح باتخاذ موقف.

ومن هنا يمكن القول إن طبيعة الهدف المحدد تؤثر فى نوع أسلوب العمل التغييرى، أو أشكال الجهاد ولكن، ذلك لا يعنى أن يقود حتمًا إلى أسلوب بعينه أو إلى لون معين من أشكال المواجهة دون غيره. ولهذا إذا صح القول إن طبيعة سياسات السلطات الحاكمة تؤثر فى الأسلوب المقابل إلا أنها يجب ألا تكون المؤثر الحاسم فيه، فإذا كانت ذات تأثير، لا محالة، إلا أن ذلك التأثير يجب أن يخضع لحسابات ميزان القوى ودراسة حال السلطة وحال الناس، والظروف الخاصة والعامة، واتجاهات تطورها. وهذه الأخيرة مجتمعة يجب أن تكون أكثر حسمًا فى تحديد أساليب التغيير للوصول إلى الهدف.

على أن لكل أسلوب مراحله وإجراءاته المحددة فى تجسده على الأرض، وبهذا تحدد سمات كل مرحلة كما يحدد نوع الشعارات وأشكال التعبئة والتحريض والمواجهات الجزئية، ونوع التنظيم والعلاقات بالناس فيرشد العمل بوعى مسبق، دون إغفال لتعميق هذا الوعى مع امتلاك التجربة واستقاء العبر، كما لا يسمح بأن يخلط بين أسلوب وآخر، خلطًا متخبطًا، فيصبح العمل التغييرى مختبرًا يجرب فيه على البشر، فإن لم ينفع يجرب أسلوب آخر، وكأن شيئًا لم يكن. فهذا أمر يحتاج إلى أعلى درجات الأمانة والحرص لأنه «تجربة» بأرواح الناس مما يتطلب العقل الراشد والحس المرهف للأوضاع، والجهد المضنى فى اكتشاف نظرية العمل لاختيار الأسلوب الأنسب، وإلا فإن الارتجال والضحالة والتبسيطية تقود إلى كوارث فى عملية التغيير، وذلك نتيجة جهلنا للسنن، أو قلة حرصنا على حياة الناس، أو عدم إدراكنا خطورة العمل فى مجال التغيير، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالأساليب العنيفة وذلك أنها حين لا تكون فى مكانها تهدر الدماء وتزهق الأرواح سدى، وتضيع الفرص السانحة وتنتكس الأوضاع أكثر. أما الأمر فيما يتعلق بالأساليب غير العنيفة فلا يقل خطورة من حيث الجوهر، وإن لم يسبب بهدر الدماء وإزهاق أرواح إنسانية. ذلك أنه يتسبب بإضاعة فرص ثمينة للتغيير. مما يعنى استمرار ذل الأمة لعشرات السنين القادمة وهذا فيه من الكوارث الكثير الكثير كذلك. فهنالك كارثة بالقتل الفردى السريع وهنا كارثة بالقتل الجماعى البطئ.

لعل من آفات اختيار أسلوب التغيير بهذا الشكل أو ذاك تتركز فى الفهم الجزئى التبسيطى لآية من الآيات أو تجربة من التجارب، أو تدخل الهوى إما خوفا، وحماية مصالح معينة، وإما فقدانا للصبر واندفاعا وراء نزوات مغامرة مغالية. فعملية التغيير تحتاج إلى الكثير الكثير من المعرفة والدراية فى القرآن والسنة وفى سنن الله وتجارب التغيير كما تحتاج إلى امتلاك حس خاص لاكتشاف ما يجب عمله وكيف يعمل ومتى يعمل!.

شرعية الأشكال التغييرية واختيارها

وهذا ما يوصل إلى مقولة حاسمة فى هذا الصدد وهى أن ثمة خيارات عدة من بين وسائل العمل التغييرى لتحقيق هدف بعينه سواء أكان شاملاً أم محددًا. أما المقولة الحاسمة الثانية فهى أن تلك الخيارات فى أساليب العمل التغييرى تكاد تكون متساوية من حيث شرعيتها وجواز استخدامها ما عدا حالات استثنائية تخالف الشرع ولا يقبل بها الإسلام، فأساليب العمل التغييرى يمكن أن تكون عنيفة وغير عنيفة ويمكن أن تكون باللسان والقلم والنصح ويمكن أن تكون بتحريض الناس لممارسة الضغوط أو تكون بالتظاهر والاضطراب والعصيان السلمي وغير السلمي، فليس هنالك أسلوب يمكن أن يقال عنه مرفوض من حيث المبدأ أصلاً، ويمكن إدانته بحد ذاته من حيث أتى.

فالحاكم، على سبيل المثال، إن كان ممن يشاور ويقبل بالإصلاح يمكنه أن يسن القوانين الزاجرة عن فعل منكر، أو من أجل فرض نفع عام أو القيام بإصلاح، ويمكنه أن يحصر ذلك بالاقناع وترك الأمر لقناعة الناس، وهذا ما يشجع أهل الرأى

والمشورة على أن يعارضوا بالنصح والإرشاد والإقناع دون اللجوء إلى تحريك الناس أو ممارسة الضغوط الأشد. أما إذا لم يترك مجالاً إلا بإيصال الوضع حتى الانفجار بسبب إرهاق الناس بالظلم والتضييق على الأرزاق وانتشار الفساد والفضائح، أو بسبب التفريط فى حرمة أرض الوطن وسيادته خضوعاً أو موالاة للأعداء فهذا يشجع على اختيارات العنف والانتفاض والعصيان وغير ذلك، وهو ما أجازه الشرع فى كثير من الحالات ومارسه العلماء.

ولكن إذا كانت مختلف خيارات أساليب التغيير مقبولة شرعاً وجائزة من حيث المبدأ إلا ما تعارض مع النص أو أنكره الشرع بإجماع، فإن اختيار هذا الأسلوب أو ذاك يجب أن يخضع لحساب عسير لأن القول بجواز استخدام أسلوب من الأساليب لا يعنى جواز استخدامه فى كل مكان وزمان وظرف.

أما من جهة أخرى فلا يجوز حصر الخيار بالنصح والإقناع وعدم اللجوء إلى العنف فى كل الظروف والأمكنة والأوضاع فقد تنشأ هنا حالات الغلو والانحراف، وتقع البلاد فى الفتنة والفوضى حين يتولى أمر التغيير غير أهله، وهو ما يفرض على المؤهلين له أن يتولوه ويحسنوا قيادته، فى وقت كان مناسباً لذلك أو فى الأصح فى ظل ميزان قوى وظروف خاصة وعامة مناسبين وهنا. يجب أن يحضر مثال العز بن عبدالسلام بقوة.

وبهذا نصل إلى المقولة الثالثة والحاسمة وهى أن العمل التغييرى لا يستطيع أن يحصر نفسه بأسلوب للعمل بعينه ويجعله صالحاً لكل زمان ومكان وظرف لأنه إذا أخطأ فى الخيار فشل فى تحقيق الهدف، وربما أسهم فى زيادة سوء الأوضاع بسبب ما يمكن أن يترتب من نتائج على صراع لم يخض بالأسلوب الناجح، ولم يقد قيادة دقيقة صحيحة:

الإمساك بالجوهر بالأشكال

إن مسرح التغيير الإسلامى فى شبه الجزيرة العربية اختلف جوهرياً عن مسرح التغيير فى تجارب من سبق من الأنبياء عليهم السلام. وهذا ما جعل خاتم الرسل والنبيين عليهم الصلاة والسلام من جهة أساليب التغيير بل من جهة كل الجوانب التى تمس إشكاليات التغيير، يقدم تجربة ذات غنى غير محدود وقد احتوت داخلها على أهم القوانين التى لها علاقة بهذه الإشكاليات، ولعل من أهمها وفى مقدمتها أنها تعلمنا كيف نتعاطى وما يحيطنا من ظروف ومعادلات وموازين قوى تعاطياً سليماً ومبدعاً فنكتشف الأسلوب الأنسب والأكثر ملاءمة ونحن نمسك الكتاب بقوة.

على أن الإمساك بهذا المنهج والجوهر يحمل معه نماذج حية وتفصيلية لتطبيقات عملية شديدة الغنى. وهذا ما يجعل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة فى كل مجال لا من ناحية بناء المسلم النموذج فحسب ولا من ناحية العبادة والمسلك والأخلاق والمبادئ فحسب ولا فيما حملته من أوامر ونواه فحسب وإنما أيضاً من حيث تعليمنا كيف نتعاطى تنوع الحياة والظروف والمتغيرات تعاطياً مبدعاً يراعى سنن الله فى كل مجال من المجالات فى الصحة والزراعة والصناعة أو فى العلوم والتكنولوجيا أو فى الحرب والسياسة والاجتماع، أو فى أساليب التغيير، ونحن نمسك بثوابت الدين ونجعل عملنا خالصاً فى سبيل الله، والأهم أنها تعلمنا كيف نأخذ بالأسباب ونراعى سنن التغيير بينما نتوكل على الله ونرجو نصرته بالغيب والكرامات.

فى مواجهة الدول الكبرى

يمكن أن نلحظ أن قرار الرسول صلى الله عليه وسلم حين أرسل إلى امبراطور الروم أو شاه فارس أو غيرهما من الملوك يعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو السيف، ما فعل ذلك إلا مع توفر ظروف وإمكانات ومعطيات متوفرة، أو آلية بعد حين، تسمح بأن يوضع كل أولئك تحت هذه الخيارات لا محالة، بل إن تجييش حملة مؤتة كان استطلاعاً حياً من جهة، لكن كان من جهة أخرى، بداية لأسلوب عالمى فى التغيير وبداية استراتيجية بيد أن هذه الاستراتيجية كانت أيضاً تقوم على معطيات، فمن جهة أصبحت الجزيرة العربية كلها أو هى فى طريقها كلها، لتصبح تحت قيادة الدولة الإسلامية، ومن ثم أصبح من الممكن تعبئتها فى تجييش الحملات والغزوات على مستوى تحدى جيوش الدول الكبرى، وكانت الدولتان الكبريان، وهذا ما أثبته الوقائع فيما بعد، نخرهما السوس، وتصلبت شرايينهما من الشيخوخة، وانحطت قواهما الداخلية، وأخذتا تسرعان الخطى فى طريق الانهيار. فمن هنا، كان التحدى يقوم على أساس من معطيات ملموسة، أو كان الأسلوب تابعاً من شروط محددة اتسم بها الخصم كم اتسم بها حال الذات وهذا ما جعل استراتيجية الفتح على الأجندة فور فتح مكة، وبلا إبطاء ولهذا رأينا جند الروم فى معركة اليرموك يربطون بالسلاسل خوفاً من الهرب إذ تبدأ المعركة. ورأينا جند الفرس يحتمون وراء الأفيال وما أن رأوها تضطرب حتى راحوا يولون الأدبار. ويكفى أن نلحظ أن هذا وضع مختلف تماماً عن وضع تلك الجيوش عندما انطلقت لتفتح الأمصار وتبنى الامبراطورية، ففى ذلك الوقت، على سبيل المثال فى مرحلة يوليوس قيصر كان الجيش الرومانى مندفعاً إلى القتال مقداماً لا يخشى الموت، وكان يحارب جيوشاً تفوقه عدة وعدداً.

ولهذا جاء أسلوب المواجهة بالحرب ضد أكبر دولتين عظميين فى ذلك الوقت محسوباً جيداً، وهذا ما أثبتته الوقائع والانتصارات، ومن ثم إن تكرار هذا المسار فى عصرنا الراهن وضمن معطياته وموازين قواه ليس متاحاً على تلك الصورة، فالأسلوب لابد من أن يختلف اليوم بسبب اختلاف تلك المعطيات. اما الجوهر فهو الذى يحتفظ به. أى حسن مطابقة ما يختار من أسلوب فى التغيير والظروف والمعطيات وموازين القوى والزمان والمكان.

مرة أخرى، إن التشديد هنا على المتغير فى التغيير يحميه من الانحراف، أو يسدده التشديد على الثابت فى التغيير، وإذا ما تكامل هذان الجانبان تمت عملية التغيير على أحسن وجه، بلا انحراف عن الهدف الكلى أو الأهداف الوسيطة أو العقيدة والمبادئ والثوابت، وبلا جمود فى التطبيق العملى حين لا يراعى المتغير لاسيما فى أسلوب التغيير، لأن هذا يقود إلى النكوص والتضاؤل والفشل إن لم يؤد إلى الكوارث.

الايمان بالغيب والسنن الموضوعية

ثمة ملاحظة أخرى فى هذا الصدد لها علاقة بما اعتاد عليه المسلمون وهم يتناولون غزوات الفتح مثل معركة اليرموك أو أجنادين، فترى أغلب المحللين لا يقفون للحظة عند الحديث عما كان عليه جيوش الروم ولافرس من حالة الخور والضعف والتآكل، وإذا ذكروا بعض مظاهر ذلك كرواية ربط جنود الروم بالسلاسل أو الفرار الجماعى من

المعارك لا يربطون ذلك بقرار المعركة من جانب المسلمين، أى لا يتناولون الموضوع بتحليل دقيق للظروف والمعطيات وموازين القوى بل إنهم يحاولون دائما أن يبرزوا أن موازين القوى كانت دائما فى غير مصلحة المسلمين معتمدين بذلك على العدد والعدة، فقط وهذا من أجل أن يبرزوا عنصر الإيمان وعنصر نصر الله للمؤمنين. وذلك من أجل تثبيت المسلمين على الإيمان وتعزيزه بالنفوس.

على أن هذه التعبئة وإن أدت أغراضها من زاوية الإقناع بأهمية الإيمان وضرورة الاعتماد على الله ونصره إلا أنها تركت آثارا سلبية حين تجاهلت المعطيات الأخرى التى جعلت النصر ممكنا فى تلك المعارك. فالإيمان والغيب لا يجوز أن يوضعا ضد السنن التى وضعها الله فى الحياة والمجتمع والطبيعة وصراع البشر. لأن ذلك يضرب الإيمان بالله والإيمان بالغيب كما يضر بالتعاطى الصحيح وسنن الله فى الخلق والمجتمعات.

إن من مزايا الإسلام أنه يقيم التوازن بين العوامل الإيمانية والغيبية فى حياة الإنسان وفى مجريات الصراع والعوامل الموضوعية بما فى ذلك موازين القوى، ومن ثم فإن التشديد على سنن التغيير الموضوعية والذاتية العامة لا يتناقض والتشديد على دور الإيمان فى تعزيز جيش المسلمين ولا يتناقض ونصر الله متى شاء لجيش المسلمين بعد أن أعد العدة وحسب المعطيات من حوله حسابا جيدا واختيار الأسلوب المناسب للمعركة أو للتغيير، وإلا فإننا سنعجز عن التفسير لحالات الفشل الذى منى المسلمين به وعند المراحل الأولى، فى بعض المعارك والمواقع كما سنعجز عن التفسير لماذا نزلت الرسالة فى ذلك الزمان وذلك المكان ومرت بكل ما حملته عملية الصراع من تعرجات، كما سنعجز عن فهم صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

أو بكلمات أخرى لقد وضع رب العالمين فى كونه سننا (قوانين) نظمت حركة المادة فيه، ونظمت حركة الإنسان والمجتمعات والتاريخ وأقامت معادلة فى موازين القوى بين العوامل الموضوعية والمادية والمعنوية، والروحية، وجاءت دعوات الأنبياء والرسل لا لتعطل تلك السنن حتى عندما اعتمد بعضها على الخوارق والمعجزات فهذه كانت لتؤكد على وجود الله وقدرته لا لتعطل سننه ولا لتتحول هى إلى سنن لا تستقيم الحياة إلا بها.

فقد نزل الوحى ليعزز الإيمان بالله ويحدد الهدف، وليسدد الطريق ويقوم الأخلاق والمسلك والقيم، ولإقامة العدل ومحاربة الشرك والطغيان، ولكن ذلك عبر من خلال الأنبياء والرسل عليهم السلام، بمعادلة دقيقة مع سنن الكون والحياة، وهو يعبر بعد الرسل من خلال معادلة دقيقة مع سنن الكون والحياة والمجتمعات.

بكلمة، ما جاء الوحى ليعطل السنن الموضوعية والذاتية التى تحكم التغيير وإنما جاء ليرشدنا كيف نتعامل وتلك السنن ونحن مؤمنين ممسكين الكتاب بقوة وراجين من الله أن ينصرنا ويمدنا بجند من عنده، فيكون الاختلاف عن غيرنا لا فى التعامل والسنن واتخاذ الأسباب «بل علينا أن نبزهم فى فهم السنن ومراعاتها واتخاذ الأسباب»، وإنما فى الإيمان والتزام القرآن والسنة والدعاء إلى الله ورجاء النصر من عنده. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٠٤)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة





٥



للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

(د) تاريخهم منذ وفاة سليمان - عليه السلام - إلى خراب أورشليم الأول سنة ٥٨٦ ق. م:

كانت وفاة سليمان - عليه السلام - حوالى سنة ٩٧٥ق. م [1]، بعدها يبدأ الدور الثانى للملوك الذين حكموا بنى إسرائيل إذ بدئ الدور الأول لملوك بنى إسرائيل بطالوت وانتهى بوفاة سليمان - عليه السلام - وقد أعلن «رحبعام» ابن سليمان - عليه السلام - نفسه ملكا على بنى إسرائيل بعده وفاة أبيه، وبايعه على الملك سبطا يهوذا وبنيامين اللذين كان يقيمان فى المنطقة الجنوبية وحول أورشليم. ثم توجه «رحبعام» بعد ذلك إلى مدينة «شكيم»[2] ليأخذ البيعة من بقية الأسباط، فاجتمع حوله شيوخهم وطلبوا منه ترك الشدة والقسوة، ولكنه رد عليهم بغلظة، وهددهم بقوله: «أنى سأؤدبكم بالعقارب»[3].

وهنا أعلن الأسباط العشرة امتناعهم عن مبايعة «رحبعام» ملكا عليهم واختاروا «يربعام» ليكون ملكا عليهم.

وهكذا انقسمت مملكة بنى إسرائيل بعد وفاة سليمان إلى مملكتين:

(١) مملكة يهوذا بالجنوب وعاصمتها أورشليم وأول ملوكها هو «رحبعام»، وقد تعاقب عليها من بعده عشرون ملكا، واستمرت حتى سنة ٥٨٦ ق. م حيث سقطت فى هذه السنة فى يد بختنصر البابلى، فتكون قد عمرت زهاء أربعة قرون، وهاك ملوكها بالترتيب، مع بيان مدة حكم كل واحد منهم.

اسم الملك	مدة حكمه
١- رحبعام بن سليمان	١٧ سنة
٢- ابيام بن رحبعام	٣ سنوات
٣- آسا بن رحبعام	٤١ سنة
٤- يهو شافاط بن آسا	٣٥ سنة
٥- يهو رام بن يهو شافاط	٨ سنوات
٦- أخزيا بن يهورام	سنة واحدة
٧- عثلياء بن أخزيا	٦ سنوات
٨- يوآش بن أخزيا	٤٠ سنة
٩- امصيا بن يوآش	٣٩ سنة
١٠- عزيا بن امصيا	٥٢ سنة
١١- يوثام بن عزيا	١٦ سنة
١٢- آحاز بن يوثام	١٦ سنة
١٣- حزقيا بن آحاز	٢٩ سنة
١٤- منسى بن حزقيا	٥٥ سنة
١٥- آمون بن منسى	سنتان
١٦- يوشيا بن آمون	٣١ سنة
١٧- يهوآحاز بن يوشيا	٣ أشهر
١٨- يواقيم بن يوشيا	١١ سنة
١٩- يهوياكين بن يواقيم	ثلاثة أشهر
٢٠- صدقيا بن يواقيم	٢١ سنة

(١) وقيل: كانت وفاته سنة ٩٣٢ق. م.

(٢) شكيم هى نابلس الآن.

(٣) الإصحاح الثانى عشر من سفر الملوك.

وكان صدقيا آخر ملك من ملوك دولة يهوذا، إذ في عهده تم القضاء عليها على يد بختنصر البابلي.

(٢) مملكة إسرائيل في الشمال، وكانت عاصمتها في معظم أيامها «شكيم» وأول ملوكها هو «يربعام» وقد تعاقب عليها من بعده حوالي تسعة عشر ملكا، وعمرت زهاء مائتين وخمسين سنة، وكانت نهايتها على يد سرجون ملك آشور سنة ٧٢١ق.م:

وهاك ملوكها بالترتيب ومدة حكم كل واحد منهم:

اسم الملك	مدة حكمه
١- يربعام بن نباط	٢٢ سنة
٢- ناداب بن يربعام	سنتان
٣- بعشا بن أخيا	٢٤ سنة
٤- أيلة بن بعشا	سنتان
٥- زمري	سبعة أيام
٦- عمري	٧ سنوات
٧- آخاب بن عمري	٢٢ سنة
٨- اخزيا بن آخاب	سنتان
٩- يورام بن آخاب	١٢ سنة
١٠- ياهو بن يهو وشافاط	٢٨ سنة
١١- يهو حاز بن ياهو	١٧ سنة
١٢- يهوآش بن يهوا حاز	١٦ سنة
١٣- يربعام الثاني	٤١ سنة
١٤- زكريا بن يربعام	ست أشهر
١٥- شلوم بن يابيش	شهر واحد
١٦- مناحيم بن جاد	١٠ سنوات
١٧- فقيحا بن مناحيم	سنتان
١٨- فقح بن رمليا	٢٩ سنة
١٩- هوشع بن أيلة	٨ سنوات

وكان هوشع بن أيله هو آخر ملوكها، إذ في عهده قضى عليها سرجون الثاني ملك آشور[٤].

هذا، وأسفار الملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الثاني سجلت كثيرا من أخبار دولتي يهوذا وإسرائيل. فقد تكلمت عن أحوالهما الداخلية والخارجية، وما ارتكستا فيه من فتن وحروب أهلية، وانحرافات دينية وخلقية، وما تعرضتا له من ضربات خارجية.

ونحن سنجمل حديثنا عن هاتين المملكتين في أمرين:

أولهما: بيان علاقة كل واحدة منهما بالأخرى، وأحوالهما الداخلية

ثانيهما: بيان علاقتهما بغيرهما من الدول المجاورة.

أما عن الأمر الأول فنقول: سادت العلاقات بين الدولتين منذ انقسامهما «ويذكر سفر الملوك الأول، أنه كانت الحروب مستمرة بين رحبعام ويربعام وقد وصلت القطيعة بين الدولتين، أن يربعام ملك دولة إسرائيل صنع عجلين من ذهب وقال لشعبه: هذه آلهتكم التي أصعدتكم من مصر فاذبحوها، وأقيموا أعيادكم عندها، ولا تصعدوا إلى أورشليم فاستجاب له الشعب، وقد فعل هذا تفاديا من عواقب صعود شعبه إلى أورشليم، وتأثير دعاية رحبعام فيهم[٥].

وقد استمرت الحروب والمنازعات بين المملكتين معظم أيام قيامهما، ووصل الحال بهما أن كل واحدة منهما كانت تستعين بدولة، أو بدول أخرى، لتقضي على أختها. فقد استنجد ملك يهوذا «آسابن رجبعان» بملك دمشق، لكي يعاونه على قتال «بعشابن أخياس» ملك إسرائيل.. ومثل هذه التصرفات حدثت من ملوك آخرين لكلتا الدولتين.

ويصف صاحب تاريخ الإسرائيليين ما كان بين الدولتين من نزاع وحروب فيقول: «وحدث بين المملكتين حروب ومنازعات كثيرة، أثارها ما بين ملوكها من التنافس، وعدم انتظام الملك في كليهما على اطراد. لكن أولئك الملوك كانوا في بعض الأحايين، يتعاهدون ويسيرون معا بجيوشهم إلى الحرب، على أن روح المنافسة لم يزل دأبها بينهم؛ لأن ملوك إسرائيل كانوا يخشون أن ترتد رعاياهم عنهم إلى ملوك يهوذا، بذهابهم للعبادة في هيكل أورشليم، فاتخذ بعضهم جميع الوسائل لحملهم على أطراح تلك العادة، فكانوا تارة ينصبون لهم الأوثان ليعبدوها، وطورا يمنعونهم عن تأدية فريضة العبادة جبرا، وهكذا تناثرت عرى الاتحاد والوئام بين الأسباط، وازداد الشقاق، فكانت النتيجة ضعف المملكتين، وتغلب الأعداء والغزاة عليهما الواحدة بعد الأخرى[٦]».

وقد انتشرت المفاسد في الدولتين انتشارا كبيرا، وعمتهما الفتن الداخلية، في كثير من العهود، إلا أن دولة يهوذا كانت - في الجملة - أحسن حالا من دولة إسرائيل، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد عزة دروزة:

«كانت دولة إسرائيل تمثل أكثرية الأسباط، وكانت أوسع مساحة في دولة يهوذا، إلا أن أفرادها - ملوكا وشعبا - انحرفوا عن الطريق المستقيم منذ بداية دولتهم، وظلوا منحرفين إلى نهايتها، وقد تعددت الانقلابات في دولة إسرائيل، وأدى ذلك إلى سفك الدماء، وإبادة أسر مالكة برمتها في سبيل الحكم والسلطان، كما أن عاصمتها قد تغيرت أكثر من مرة بسبب الفتن، فقد كانت شكيم - نابلس - هي العاصمة أولا، ثم صارت العاصمة «ترصه» ثم «شامر» القريبة من شكيم، والتي يقوم مكانها اليوم قرية اسمها «سبسطية» وقد جددت في عهد الرومان، وأخذت اسمها منهم. أما دولة يهوذا، فكانت أحسن - في الجملة - من دولة إسرائيل، سواء من ناحية الاستقرار، أو من ناحية الصلاح، فقد سجلت الأسفار لبعض ملوكها نشاطا غير يسير في مختلف المجالات «ونوهت بما كان لهم من مجد وغنى وقوة، غير أنها سجلت كذلك على كثير من ملوكها انحرافا وظلما وتضعضعا شديدا، وكانت فترات الانحراف أطول من فترات الاستقامة.. وقد استمرت سلسلة ملوك دولة يهوذا في ذرية سليمان - عليه السلام - بخلاف دولة «إسرائيل فقد تعاقب عليها ملوك من أسباط مختلفة[٧]».

تنتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الأمر الثاني فنقول:

كانت علاقة الدولتين بغيرهما عن الدول - في مجموعها - علاقة عداء وحرب.

(٤) أخذنا أسماء ملوك الدولتين ومدة حكم كل واحد منهم عن كتاب «تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس ص٢٨، ٢٩.

(٥) سفر الملوك الأول. الإصحاح الثالث عشر نقلا عن «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص١٢٦».

(٦) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص٣٠.

(٧) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم. بتصرف وتلخيص. ص١٢٨ وص١٦٤ و١٧٧.

١- ففي عهد - رحبعام ويربعام - غزا «شيشق» فرعون مصر، فلسطين، وصعد على أورشليم ونهبها، وبسط سيطرته على دولة يهوذا، ثم على دولة إسرائيل، وامتد سلطانه إلى منطقة الجليل[٨].

وفي سنة ٧٤٠ق. م غزا ملك آشور «تغلت فلاسر» دولة إسرائيل، فبذل له ملكها «مناحيم بن جاد» ألف وزنة من الفضة، ليترك له الملك في يده، فقبل «تغلت» ذلك منه.

٣- وفي سنة ٧٢٧ق. م تولى عرش آشور «شلمناصر الثالث» فتمردت عليه إسرائيل، فزحف عليها فقدم إليه «هوشع بن أيله» آخر ملوكها هدايا كثيرة قبلها ملك آشور، وتوجه عائدا إلى بلاده، ولكنه لم يكد يصل إلى «نينوى» حتى عاد الإسرائيليون إلى عصيانهم فزحف عليهم مرة ثانية، وضرب حصارا شديدا حول السامرة عاصمتهم: ولكنه مات قبل أن يفتحها.

٤- وفي سنة ٧٢١ق. م، قام خليفته «سرجون الثاني» يغزو دولة إسرائيل فحاصرها حصارا شديدا، ثم دارت بينه وبينهم معركة انتهت بزوال دولة إسرائيل زوالا تاما، إذ سبى «سرجون» الأسباط، وأجلاهم عن أوطانهم إلى ما وراء الفرات، وأقام على البلاد واليا آشوريا من قبله.

وهكذا قضى على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ق. م، قضاء تاما لم تقم لها بعده قائمة.

٥- وقد استطاع «أسر حدون» بن سرجون الثاني، أن يوطد سيطرته بعد أبيه على بلاد الشام، ومن جملتها دولة يهوذا، التي ظلت في نطاق حدودها بعد زوال دولة إسرائيل، مع بقاء بلاد هذه الدولة الزائلة تحت إدارة الآشوريين. ومن بين الذين قدموا له الهدايا من ملوك يهوذا - كترضية له - «منسي بن حزقيا» إلا أن «منسي» هذا حاول التمرد على الآشوريين بعد ذلك، فانقض عليه «أسر حدون» وأخضع مملكة يهوذا لآشور، وسيق «منسي» مكبلا بالأغلال إلى بابل، وهناك تعهد مرة أخرى بالولاء والخضوع فأعيد إلى عرشه، وكان ذلك حوالى سنة ٦٧٧ق. م.

٦- وفي سنة ٦١٠ق. م انتهز «نخو» فرعون مصر فرصة انحطاط مملكة آشور، فأعد جيشا لغزوها فتصدى له «يوشيا بن أمون» ملك يهوذا، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بمقتل «يوشيا» ثم واصل «نخو» زحفه نحو الشام، فاستولى على كثير من مدنها، وتابع سيره حتى وصل إلى الفرات، ثم بلغه أن اليهود عادوا إلى العصيان، فعاد إليهم وأدبهم، وعزل ملكهم وعين آخر بدله.

٧- وكانت نهاية دولة يهوذا على يد «بختنصر البابلي»، وذلك أن بختنصر ملك بابل أغار على أورشليم سنة ٦٠٦ق. م، فنهبها، وأجلى كثيرا من أهلها وقبض على «يهوا كين بن يواقيم» ملكها في ذلك الوقت، ونفاه مع جماعة كبيرة من نسائه وأسرته، وأقام بدله «صدقيا بن يواقيم» ولكن «صدقيا» ثار عليه بعد ذلك، فأعاد بختنصر الكرة مرة ثانية على أورشليم سنة ٥٩٩ق. م، وأجلى من اليهود في هذه المرة عشرة آلاف من أعيانهم وأشرافهم إلى بابل، وحمل كنوز الهيكل والبلاط الملكي.. ثم إن «صدقيا» أعلن العصيان للمرة الثانية سنة ٥٩٣ق. م، فزحف بختنصر على أورشليم للمرة الثالثة سنة ٥٨٦ق. م، وفي هذه المرة قتل ملكها «صدقيا» شر قتلة، وقتل معه أبناءه وأسرته، ودمر مدينة أورشليم وأسوارها وهيكلها، وأحرقها بالنار، ونهب خزائنها، واستاق شعب يهوذا أسيرا إلى بابل، وهناك بقوا في أسره حوالى خمسين سنة، ظلت خلالها أورشليم خرابا.

وهكذا قضى على مملكة يهوذا حوالى سنة ٥٨٦ق. م، كما قضى قبل ذلك على أختها مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ق. م.

ويصف الأستاذ محمد عزة دروزة علاقة الدولتين بغيرهما من الدول فيقول: «ويبدو أن صلات مملكة يهوذا وإسرائيل بغيرهما من الدول، كانت على حسب الظروف، عدائية أو عدوانية، أو مذبذبة أو غادرة، أو في صورة خضوع وذلة، وأن الشعوب الأخرى عاملتهم بالمثل، وكالت لهم بمثل كيلهم، فكانوا في معظم مدة وجودهم في عداء، وحروب مع الغير، وعرضة للغزوات والغارات والسيطرة والإذلال، ثم انتهى الأمر إلى نسف دولتهم وإجلائهم عن بلادهم؛ لأن الآشوريين والكلدانيين رأوا أن ذلك هو العلاج الحاسم، لما كان منهم من غدر ومراوغات وتذبذب وتناقضات[٩]».

ويصف أحد الكتاب الغربيين نهاية الدولتين فيقول:

«لم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمدا وجيزا، فمات حيرام، وانقطع عون «صور» الذي كانت تقوى به أورشليم، ثم قويت شوكة مصر ثانية، ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحى، تعركهما على التوالي سورية ثم بابل من الشمال، ومصر من الجنوب وهي قصة نكبات، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة ملوك همج، يحكمون شعبا من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق. م، محت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ق. م».

ويصور «ولز» حالة المملكتين الإسرائيليتين فيقول:

«كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار.. ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم».

وإلى هنا نكون قد ألممنا بأحوال دولتي: يهوذا وإسرائيل منذ ولادتهما إلى مماتهما، والآن فلننظر ماذا جرى لبني إسرائيل بعد ذلك!!

«يتبع»

(٨) تاريخ مصر من أقدم العصور (بريستيد) ص٣٥٧.

(٩) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص٤٥٧.

خطابهم الدينى !!



من فتاوى الحاخامات(*)

عنوان الفتوى: «شولحان عاروخ» يحرم المساعدة في توليد واحد من الأغيار

مصدر الفتوى: .www.daatemet.org ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٥.

فتوى من: هيئة تحرير الموقع

* سؤال: هل صحيح أنه ورد فى كتاب «شولحان عاروخ» أن المرأة اليهودية لا يجب أن تساعد غير اليهودية أثناء الولادة؟

** جواب: ورد فى «شولحان عاروخ» ما يلى: لا يجب على اليهودية إرضاع ابن أحد عبدة النجوم، حتى ولو بأجر. ولا يجب عليها أيضا توليد عابدة النجوم، إلا إذا كان معروفا عنها أنها قابلة، حينئذ يباح لها القيام بذلك مقابل أجر، ولكن فى غير أيام السبت «شولحان عاروخ»، فصل «يوريه ديعا» (كاشف المعرفة) ١٥٤ / ٢.

ويرجع أصل هذه الفتوى إلى فترة المشنا (القرون الأولى بعد الميلاد)، حيث ورد فى المشنا: «لا يجب على اليهودية أن تولد عابدة النجوم، لأنها تتسبب فى مولد ابن لواحدة من عبدة الأوثان يمكنها أن تولد اليهودية.

«ولا يجب على اليهودية أن ترضع ابن عابدة النجوم، لكن عابدة النجوم يمكنها أن ترضع ابن اليهودية لكن بموافقتها» (المشنا، باب عبادة الأوثان، ٢ / ١).

ويضيف التلمود أنه لا يجب السماح لعابدة النجوم بتوليد اليهودية لأن هناك احتمالا أن تقتلها، إلا إذا كانت هناك نساء يهوديات أخريات تقمن بالإشراف على الولادة» (باب عبادة الأوثان، الفصل ٢٦ / ٧١).

ومسموح بهذه الأمور فى الأيام العادية، لكن يحظر بأى حال من الأحوال مساعدة واحدة من الأغيار أثناء الولادة فى يوم السبت، حتى لو مقابل أجر، بسبب تدنيس يوم السبت، وهذا نص ما ورد فى كتاب «شولحان عاروخ»: «لا يجب توليد واحدة من الأغيار فى يوم السبت، حتى لو لم يتسبب هذا فى تدنيس يوم السبت» (فصل «أورح حاييم» ٣٣٠ / ٢).

وقد وضع الحاخام يسرائيل مئير هكوهين (١٨٣٩ - ١٩٣٣) الملقب بـ «هاحفيتس حاييم» هذا التشريع فى كتابه التشريعى «مشنا بروورا»، وهو الكتاب المعتمد لدى معظم اليهود الورعين، وقد تم العمل بهذ التشريع فى القرن العشرين. وتوسع الحاخام يسرائيل فى رأيه وذكر أن تحريم توليد واحدة من الأغيار فى يوم السبت يشمل تقديم المساعدات الطبية باختلاف أنواعها لأحد الأغيار وعند أى مرض حتى لو تسبب هذا فى وفاته، وفيما يلى نص ما ذكره:

«ليكن فى معلومك أن الأطباء فى عصرنا الحالى غير حريصين فى هذا الشأن بوجه عام، رغم أن معظمهم مؤهلين (من الناحية الدينية)، فهم يعملون فى أيام السبت ويسافرون لمسافات بعيدة لعلاج عبدة النجوم ويكتبون ويطحنون العقاقير (يطحنون النباتات للعلاج) بأنفسهم. وليس لديهم ما يمكن الاستناد إليه، حتى لو قيل: إنه يمكن انتهاك قدسية يوم السبت ومخالفة الحظر الذى فرضه رجال الدين حتى لا يكون هناك أى عداء بين الأغيار واليهود، وعلى أى حال فإن التوراة تحرم تدنيس يوم السبت، كما أنه من المؤكد أن هذا التحريم تتفق عليه كل الآراء بينما منتهكى قدسية يوم السبت يفعلون هذا عن سوء نية حفظنا الرب منهم» (كتاب «مشنا بروورا» ٣٣٠ / ٨).

ورغم أن الحاخامات أفتوا فى عصرنا الحالى بالسماح للأطباء بتقديم المساعدة فى توليد أحد الأغيار، فهم لم يسمحوا بهذا إلا من منطلق إدراكهم العميق بأن هذا فى نهاية الأمر سيساعد اليهود أنفسهم، وليس من منطلق ضرورة تقديم المساعدة لأى إنسان أينما كان، وهذا هو ما كتبه الحاخام عوفاديا يوسف (الحاخام الأكبر لإسرائيل سابقا) فى كتابه أسئلة وأجوبة: «كان هناك طبيب شهير من الأغيار يحب اليهود، وأنقذ حياة الكثيرين منهم، كما اعتاد علاج المرضى اليهود الفقراء مجانا دون أى مقابل، وقد أصيب بمرض خطير فى يوم السبت فأرسل فى طلب طبيب يهودى ليحضر إليه ويخرج الدم الفاسد من جسده، وإذا امتنع عن الذهاب إليه فسيكون هناك عداء كبير وسيتغير قلبه وسينضم هو الآخر إلى أعدائنا وسيضمر له الشر وسيمتنع عن علاج المرضى اليهود إلخ.. (فسمح للطبيب اليهودى بانتهاك قدسية يوم السبت لعلاج هذا الطبيب لوجود ما يبرر ذلك) لأنه طالما أن الطبيب اليهودى لا يقصد من وراء هذا إلا إنقاذ نفسه وإنقاذ مرضى شعبه اليهود من الخطر وما شابه ذلك، فلا يسرى هنا تحريم التوراة، وبالتالى يجب السماح له بالقيام بذلك» (٨ «أورح حاييم» ٣٨).

(*) د. منصور عبدالوهاب، فتاوى الحاخامات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠.

صالح عليه السلام

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

ذكر اسم صالح فى القرآن تسع مرات، فى سورة الأعراف فى الآيات ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، وفى سورة هود فى الآيات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٤٢. وقوم صالح هم ثمود.

نسب صالح وثمود

اختلف فى نسبه فقال الحافظ البغوى إنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود.. وعن وهب أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود.

وأما ثمود فهى القبيلة التى منها صالح، سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن أرم بن سام.. وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن أرم.. قال الألوسى: هو المنقول عن الثعلبى.

مساكن ثمود

كانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء - وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادى القرى.. ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم. وقد زارها بعض أصحابى ودخل بيت الملك وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة وهو منقور فى الصخر. والمكان الذى فيه ديارهم يعرف إلى اليوم بـ «فج الناقة» - ويقول المسعودى: ورممهم باقية وآثارهم بادية فى طريق من ورد من الشام. وحجر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى مصاقبة(١) خليج العقبة. وقد كان يقال لعاد: عاد أرم، إلى أن هلكوا فقالوا: ثمود أرم.

وقد اختلف الباحثون من المستشرقين فى أوروبا فى أصل ثمود وزمن وجودهم، فقال فريق: إنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين، وهذا القول لا يعدو أن يكون ظنا لا أثر فيه للتحقيق؛ إذ القرآن ناطق بأنهم قد انقضى أمرهم وعرت ديارهم من كل ديار قبل خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل؛ وهذا مؤمن آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

وقال آخرون - أى من المستشرقين: إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات.. ويظن آخرون أنهم من العماليق الذين طردهم أحمس ملك مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر؛ ولذلك نحتوا لهم بيوتا بعضها نقر فى الصخر وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التى تتخذ من الصخر.. وقال بعض المؤرخين: إنهم بقية من عاد، وهذا أقرب إلى المعقول، ويدعى أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من مستعمرات عاد، وهذا القول لا يخالف ما قبله، وقد يؤيده قول صالح الآتى لقومه:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾

(الأعراف: ٧٤)

أما زمن وجود ثمود فلم يعلم بالضبط، غير أنى أقول إنهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى. وأما وجود الكتابة الآرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء وكون تلك الكتابة مؤرخة بتاريخ قريب من زمن الميلاد فلا يدل إلا على أن ناسا أخذوا الخط الآرامى يخلدون به آثارهم قد نزلوا فى تلك الناحية وكتبوا على مقابرهم ونحوها.


جورجى زيدان

قال جورجى زيدان بك فى كتابه «العرب قبل الإسلام»:

أما الثابت من قراءة الآثار: أن مدائن صالح «الحجر» دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حوزة النبطيين سكان بطرة الآتى ذكرهم. والأطلال المشار إليها زارها غير واحد من المستشرقين، ودرسوا بقاياها، وهى منقوشة فى الصخر أهمها أنقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا، والقلعة، والبرج.

وقرءوا ما عليها من نقوش نبطية، فإذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور.. هذا مثال منها وجدوه فى الحجر بالحرف النبطى:

«هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن فى أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعمى ذو الشرى وعرشه(؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها

---

(١) مصاقبة: تصاقبت البيوت دنا بعضها من بعض. (أنظر المعجم الوسيط ج١ ط٣، مجمع اللغة العربية، مادة: ص ق ب).

وذريتها ـ ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها ألف درهم حارثي إلا من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كليبة ابنتها بشأن هذا القبر، والتصريح المذكور يجب أن يكون صحيحاً صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة».

ولعل المراد بالساحر: الكاتب.

دين أهل ثمود

كانت قبيلة ثمود تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله في العبادة، فأرسل الله إليهم صالحا واعظا لهم ومذكرا لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده وأنه لا شريك له، وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم في عبادتهم وعلى أن الله هو الذى يجب إفراده بالعبادة دون سواه.

وقد جاء في تفسير المنار (٥٠٢ج٨) ما نصه:

«قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام وحوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال.. وقد حكى لنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التى أيده الله تعالى بها عقب تبليغ الدعوة وفي قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وتصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة الشعراء طلبهم الآية منه.. وكل ذلك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد» أ. هـ.

ولكن ما هي هذه الآية التي جاء بها؟ لم يبين الله له آية سوى الناقة ولا مانع من أن يكون جعلها آية صدقه بأنهم سيبقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يحتروها بسوء ولم يمسوها بأذى؛ فإذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته ويحتمل أنه جاءهم بآية سوى الناقة أو كانت في الناقة آية أخرى أو عدة من الآيات ليست في غيرها.

والذى يظهر من قصة صالح أنها تلخص في أن القوم كانوا عاكفين على عبادتهم الباطلة.. وكانوا أهل خصب ورفاعة حال؛ لما كان لهم من الماشية الكثيرة والجنات الوافرة الجنى والعيون التي يستقون منها هم وماشيتهم وزروعهم، بدليل قوله لقومه:

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾

(الشعراء: ١٤٦-١٤٨)

جاء إليهم صالح ومحضهم نصيحته وذكرهم أنواع التذكير وخوفهم بأس الله، فآمن له المستضعفون من قومه، وكفر الملأ منهم ولم يؤمنوا له، وقد أبان لهم أنه لا يسألهم أجراً على الهداية التي يسديها إليهم وإنما يطلب أجره من الله، ومن كان شأنه كذلك يكون أبعد من تهمة جر النفع إلى نفسه بريئاً من اتخاذ الدعوة طريقاً للكسب أو الرياسة، وألح على جمهورهم أن يطيعوه ولا يتبعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ لأن الإصلاح يفوت عليهم المنافع التي يجرونها لأنفسهم؛ فقال المستكبرون من قومه:

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾

(ص: ٨)

استبعاداً لأن ينال الخير أحد سواهم واستكباراً عن متابعة رجل منهم لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء، وقالوا لمن استضعف منهم:

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ٧٥)

فأجاب الذين استكبروا:

﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٧٦)

وطلبوا آية على صدقه فأتاهم بالناقة كما قدمنا وقال لهم:

﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾

(الأعراف: ١٥٥)

وأمرهم ألا يمسوها بسوء وعليهم أن يذروها تأكل في أرض الله، فإن سلامتهم بسلامتها من إيذائهم.

ولم يثبت ثبوتا قطعيا أنه أتى لهم بالناقة حسب اقتراحهم من الصخرة وأن الصخرة تمخضت عنها فخرجت منها سوداء الحدق حمراء الوبر خلفها فصيلها وأنها كانت إذا شربت أتت على الماء في يومها ثم تنفج[٢] لهم ويأخذون من لبنها ما يشاءون؛ لأن ذلك زائد عما في الكتاب الكريم.

ظلوا على ذلك مدة غير طويلة لم تحدد في الكتاب الكريم إلى أن خاسوا بعهدهم وعقروا الناقة.

ورد في القرآن الكريم نسبة الناقة التي أتى بها صالح إلى الله في قول صالح لهم:

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾

(الأعراف: ٧٣)

وهذه الإضافة ذكرت تعظيما لشأنها.. وقيل: لأنه خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها لم يخلق في الإبل سواها ناقة تختص بالشرب يوما وأهل ذلك الماء يوما آخر وتعرف يومها الخاص بها ولا تقرب الماء في يوم أهلها، كما قال تعالى:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾

(القمر: ٢٨)

وقال تعالى:

﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾

(الشعراء: ١٥٥)

ومجموع آيات القرآن الواردة في شأن الناقة تدل على أن آية الله تعالى في الناقة ألا يتعرض أحد من ثمود بسوء لها في نفسها ولا في أكلها ولا في شربها في الماء الخاص الذى كان قسمة بينهم وبين الناقة، وأن الوعيد بالعذاب يحل بهم متى اعتدوا عليها في أحد هذه الأشياء.. ولا مانع من أن تكون فيها آية أو آيات من وجه آخر.

وإلى على قدم الاستعداد للإقرار بالوجه الذى

(٢) انفج الحالب: أبعد الإناء عن الضرع عند الحلب حتى تعلوه الرغوة (انظر المعجم الوسيط ج٢ الطبعة الثالثة مادة: ن ف ج) والمراد أن الناقة كان لبنها يتفجر من ضرعها بدون حلب (المجلة).

يكون فيها متى جاء بنص قطعي وأضرب برأيي عرض الحائط.

بذل صالح الجهد في تذكير القوم بنعم الله تعالى عليهم ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين بعبادة غير الله تعالى والتكبر في الأرض.

أما الملأ المستكبرون من قومه وكانوا ذوى عناد ولهم الزعامة في الأمة فقد رأوا كبيرا عليهم أن يطيعوا رجلا منهم ويصيروا سوقة مرءوسين؛ لأن صالحا سيصير بحكم هدايته إياهم إلى الله تعالى رئيساً يفزعون إليه في كل شأن، ويكون واسطة بينهم وبين ربهم ودالا لهم على ما يقربهم إليه وناهيا لهم عما يبعدهم عنه؛ فذهب أولئك السادة إلى المستضعفين من قوم صالح وسألوهم متهكمين:

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

(الأعراف: ٧٥)

فكان جواب المستضعفين بالإيجاب قائلين:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ٧٥)

فقال المستكبرون:

﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٧٦)

كما قدمنا.

يقول الألوسي في روح المعاني: وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر كاهنهم.. ثم قال: ولم يزالوا في سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا جاء الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادى في حره وجدبه، وتشتو في بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برده وجدبه فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذى يريده الله تعالى بهم والبلاء من الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، فأجمعوا على عقرها. وأن امرأتين ذواتي مال وإبل يقال لإحداهما صدوق عرضت نفسها على رجل يقال له مصدع إن قتل الناقة، فأجاب. واسم الأخرى عنيزة لها بنات حسان عرضت إحدى بناتها على قدار بن سالف فأجاب. واستغويا سبعة رجال فكانوا تسعة، فأما مصدع فرمى الناقة بالسهم، وأما قدار فأنحى إليها بسيفه فكشط عن عرقوبها ثم نحرها، وذهب السبعة وراء سقبها، ففر منهم إلى الجبل ورغا ثلاثا.. وعن ابن إسحق أنه تبع السقب[3] أربعة من التسعة فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله ووضعوا لحمه على لحم أمه واقتسم أهل البلد لحم الناقة وسقبها، فأنذرهم صالح بأن العذاب يحل بهم بعد ثلاث لما انتهكوا من حرمة الله، فكانوا يهزءون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب.. وأنذرهم بأنهم يصبحون وجوههم مصفرة، وفي اليوم الثاني تكون وجوههم محمرة، وفي اليوم الثالث تكون وجوههم مسودة: آية هلاكهم، ثم يصبحهم العذاب. أهـ من الألوسي باختصار.

أما أولئك الذين اقترفوا عقر الناقة وأعانوا عليه فقد تقاسموا بالله ليبيتن صالحاً ويقتلونه وأهله ثم يقولون لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنهم لصادقون فيما يزعمون.

فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا إلى صالح يرصدون الفرصة للإيقاع به وأهله فأهلكهم الله.

قيل: إن الملائكة دمغتهم بالحجارة فأهلكتهم وأراد قومهم قتل صالح لأنهم اتهموه بقتلهم فمنعه قومه.

وقال البيضاوى: روى أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلى فيه - فقالوا - زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا، وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة، كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(النمل: ٥١)

وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة، وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة.. وكل صحيح لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر.

والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب.. فإذا دنا جسم مكهرب كهربائية موجبة من جسم مكهرب كهربائية سالبة اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق؛ فيحصل عن ذلك البرق الشديد ثم الرعد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الاستفراغ وذلك هو الصيحة.. وإذا كان الاستفراغ حصل من دنو سحابة مكهربة كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل الكهربائية السالبة التى في الأرض بالكهربائية الموجبة التى في السحابة، ويكون الاستفراغ أو الاتحاد في جسم مما على الأرض؛ فيصهر إذا كان معدنيا، ويحترق إذا كان شجراً أو إنساناً، ويتفتت إن كان صخراً أو بناء.. ومبلغ ما تدمره منوط بمقدار كمية الاستفراغ ومبلغ قوة الكهربائيتين، عن ذلك تكون الرجفة وهولها.

وإذا حصل الاستفراغ بين سحابتين مكهربتين بكهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب حصل البرق أولا ثم الرعد ثم المطر.

وسبب اختلاف الكهربائيتين في السحاب أن الجو مكهرب كهربائية موجبة وهو مشحون بها، والأرض مكهربة كهربائية سالبة.. فإذا تكونت السحابة في مكان مرتفع في أعالي الجو كانت كهربائيتها موجبة.. وإذا تكونت في مكان سافل قرب الأرض كانت كهربائيتها سالبة.. فإذا دنت كل من السحابتين إلى الأخرى فبمقتضى الناموس المودع في الكهربائية من ميل كل من الكهربائيتين للاتحاد بالأخرى يكون التفاعل الذى هو الاتحاد - وأما السحابتان اللتان كهربائيتاهما موجبة أو سالبة فإن الكهربائية فيهما تميل إلى الابتعاد عن الأخرى.

فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق.

أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق

(٣) السقب: ولد الناقة الذكر ساعة يولد (المعجم الوسيط – ج١ مادة: س ق ب)

بقومهم من العذاب الذى أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم..

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

(الأعراف: ٧٩)

ويشبه قوله هذا فى خطابه لقومه بعد هلاكهم ما يكون من الواحد منا إذا هلك له إنسان متصل به وقد حذره ذلك السبب الذى هلك به بأن يقول له: ألم أحذرك ما وقعت فيه؟ وكذلك ما قال رسول الله ﷺ لأهل بدر أصحاب القليب إذ قال لهم: «يا فلان بن فلان وفلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا». وقد قالوا إن الله أحياهم حتى أسمعهم.. قال العلماء: ومثل هذا إنما خص الله به أنبياءه.

وقد قال بعض المفسرين: إن صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين.. ويقول أهل حضرموت: إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية.. أو هى فصيلة من أهل الأحقاف وهناك قبر يزعمون أنه لصالح.

وقال آخرون: إنهم أقاموا فى ديارهم بعد هلاك قومهم وقال آخرون: إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربى الكعبة.

وأقرب الأقوال عندى إلى التصديق أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحى فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم.. والعربى إنما يطلب الكلأ لرعى ماشيته والأرض ذات الماء.. وفى الألوسى: أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين، أما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت..

كلمة أخيرة

الذى أقوله: إن صالحاً نصح لقومه وذكرهم بآيات الله وأقام لهم من الأدلة على صدقه فى دعوته ما على مثله آمن الناس؛ ولكن قومه أبدوا غاية الجحود وقالوا له:

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(الأعراف: ٧٠)

وكما قال الله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

(فصلت: ١٧)

ولا يكون قد هداهم الله إلا بأن أقام لهم الأعلام البينة على صدق صالح، فلما جحدوا بآيات ربهم وعصوا الرسول أرسل الله إليهم الناقة آية؛ ولكنها لم تكن آية صدق صالح فى دعواه ولابد، ولكنها آية فتنة وابتلاء كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾

(القمر: ٢٧)

ولما كانت آية فتنة وابتلاء صح أن تكون آية مقارنة، لأن الله تعالى قد فرغ من أدلة صدق رسوله صالح.. على أننى لا أمنع أن يكون فيها آية أو آيات من وجوه أخرى والله أعلم.

فى العلاقة بين النص والعقل..

أصول الفقه نموذجاً!



للأستاذ / يحيى رضا جاد
باحث مصرى

لقد عُنى علم أصول الفقه أول ما عُنى بإيضاح مصادر التشريع الإسلامى، وعلى رأسها: القرآن الكريم والسنة النبوية.

والركيزة الأساسية للتصديق بهذين المصدرين المقدسين هى (ركيزة إيمانية).. وعلم أصول الفقه اقترب من هذا (المجال الإيمانى) بـ (منهج عقلى) يتعلق (بالثبوت).. والثبوت مسألة معرفية.. فالقرآن الكريم ثابت بطريق "التواتر"، والتواتر هو ما ينقله جماعة يستحيل تواطؤهم على كذب... وهذا منهج عقلى أشد صرامة من "المعرفة الاجتماعية" - التى يقول الناس بها الآن- التى تصل للفرد منا ويصدق بها من غير أن يختبر بنفسه أدلة صوابها أو ثبوتها، مكتفيا بأنها تنتقل إليه من مصادر شتى ثم أجرت علوم المنهج - أصول الفقه وعلوم الحديث- معايير (التحقيق العقلى) على أحاديث السنة النبوية المطهرة التى لا تتوافر لثبوتها درجة التواتر؛ من حيث (الضبط) و(التحقيق) بمنهج أكثر صرامة فى نسقها العقلى من أساليب تحقيق الوقائع التاريخية، بل من كافة أساليب التحقيق التى عرفها البشر على امتداد تاريخ الإنسانية.. وهنا نلحظ أن النصوص الأساسية هذه، وهى إيمانية فى التصديق بها، قد صارت عقلية فى ثبوتها (أى قد تخللها العقل من هذا الوجه المعرفى)، ثم بدأ هذا التخلل يفرض سلطانه - الشرعى- على ما يتلو هذين المصدرين من مصادر أخرى.. فمن المعروف أن النصوص - بمجرد الارتكان إلى ظواهرها- محدودة، سواء نصوص القرآن الكريم أو نصوص السنة النبوية المطهرة، فتفتقت أذهان العلماء عن مصادر أخرى فرعية -استنبطوها من مقررات الكتاب والسنة- تعمل كآليات معينة على استخراج الأحكام من نصوص الوحى.. وفى غالب هذه

"المصادر- الآليات" - بل في جميعها- نلمس دورا ناميا وفعالا للعقل في تفاعله مع الواقع المعيش!؟[1]

أ - ف "القياس" مثلاً، وهو منهج عقلي معرفي - مستمد من أصول التشريع الإسلامي- يتعلق بإدراك وجه الشبه الفعال بين الظواهر التي وردت فيها أحكام في القرآن أو السنة، والظواهر التي لم ترد فيها أحكام فيهما .. والمهم هنا هو المنهج المعرفي الذي وضع لإدراك الشبه الفعال، وهو منهج يعمل الاستقراء لإدراك خواص الظواهر التي تعتبر "علة" للحكم، أي سبباً له، وهو ما يسمى بـ "المناط". وهنا نلحظ وجوه تجريب واستقراء وملاحظة، ثم استخلاص للصفة العلة وبلوغ للمشترك الحاكم لما يمكن أن تعتبره متماثلا.

ب - و"الاستصحاب"، وهو منهج عقلي معرفي - مستمد من أصول التشريع الإسلامي- ومؤداه هو بقاء الحال على ما كان حتى يقوم دليل يغيره، فهو يتعلق "بالإدراك" البشري للواقع، ومؤداه أنه عند التيقن من وجود أمر ما، فنحن نتصرف على أساس أنه موجود بعد ذلك حتى يتبين لنا أن ثمة تغييرا أو تعديلا حدث. وما ثبت باليقين من ذلك لا يزول إلا بيقين مغاير.

ت - و"الاستصلاح" أو المصالح المرسلة، وهو منهج عقلي معرفي - مستمد من أصول التشريع الإسلامي- وحاصله هو التصدي المباشر للواقع الحادث والعمل بما فيه مصلحة الناس، وذلك فيما ليس فيه أمر أو نهي ديني ورد بالقرآن أو السنة. والنظر في هذا الشأن يكون بملاحظة أن كل الأوامر والنواهي الدينية إنما قُررت من الله سبحانه لنفع الناس ولإصلاح شئونهم.

والفقه الإسلامي - كما هو معلوم- يقوم على نوعين من المبادئ:

أ - مبادئ مستقاة من الوحي: قرآنا وسنة (باعتبارها - أي هذه المبادئ- مجسدة للشريعة مقاصداً وضوابطاً)

ب - ومبادئ مستمدة من الخبرة التاريخية (لما تفيده في تعيين آليات تحقيق المقاصد وإعمال الضوابط)

وكلا الأمرين يتدخل فيه العقل (بمعنى أن للعقل في تلك الأمور عملاً يؤديه) بشكل كبير؛ بدءاً بفهم الوحي قرآنا وسنة، ومروراً باستلهام المبادئ المستمدة من الخبرة التاريخية (العلمية والعملية، النظرية والتطبيقية، الأكاديمية والواقعية) لتحقيق المقاصد وإعمال الضوابط.

وإنما قصدت سوق الأمثلة للأساليب والمناهج التي يتفاعل بها الفكر الديني (بنصوصه الثابتة)، مع مناهج إعمال العقل من ناحية، ومع أساليب التعرف على الواقع ومناهجه من ناحية أخرى .. وذلك كله ينفي قطعاً توهم وجود إشكالية في العلاقة بين

1 - ملامح البنية الأساسية للتفكير الإسلامي- أستاذنا وشيخنا الجليل المستشار/ طارق البشري، موقع إسلام أون لاين، 5/ 9/ 2004م.

(النص) و (العقل)، بل يؤكد أن للعقل أهمية كبرى في التعميق التأسيسي والتأصيلي والتفريعي للفقه الإسلامي[2].

أرأيت منزلة العقل والتعقل والتفكر والتدبر في دين الله؟! إنها والله لعظيمة.

وأما من يضع (العقل) نداً (لله) تعالى، فهو (مؤلِّه لعقله) لا (مطيعٌ لربه)! ولا أعلم لماذا آمن بالله أصلاً؟!

نعم، (العقل) ملكة من أعظم ملكات الإنسان، ونعمة من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى عليه، لكنه على عظمته وضرورته - ككل ملكات الإنسان - (نسبي) الإدراك، ولذلك، فإن الاعتماد على العقل وحده - دون (الوحي)، الذي هو علم الله المطلق والكلي والمحيط - يقف بالإنسان عند (النسبي) و(الظني)، اللذين هما غاية الاجتهاد الإنساني، ويحرم الإنسان من (اليقين) الذي سبيله العلم الإلهي ونبأ السماء العظيم.

وأزيد على ذلك فأقول: إن من نعم الله علينا أن جعل العقل هو الذي يدرك بنفسه عجزه وقصوره عن إدراك بعض - أو أكثر - ما حوله (ذواتاً أو ماهيات)، وبذلك عرفنا عجز العقل بالعقل نفسه، فكان هذا أشد إقناعاً وألزم حجة .. نعم، إن العقل هو الذي يكشف الحقيقة، ولكنها - في كثير من الأحيان- حقيقة نسبية مقيدة بظروف الزمان والمكان.

العقل، على عظمته وضرورته، إنما قصاراه - في كثير من الأحيان، بل في أغلب الأحيان- أن يدرك الأعراض والظواهر والخصائص والآثار، أما إدراك الكنه واليقين فسبيله الإيمان والعلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط[3] ولذلك اختص المنهاج الاسلامي في المعرفة بتزامل وتكامل آيات الله في كتابيه: كتاب الوحي المسطور وكتاب الكون المنظور .. واختل هذا التوازن في معارف الحضارات التي أخذت بشق منهما دون الآخر؛ فغرق البعض في (المادية) وحدها، واستغرق البعض في (الباطنية) دون سواها[4].

نعم، العقل مناط التكليف، وغير العاقل لا ينال شرف التكليف من الله تعالى؛ إذ

2- نفس المرجع السابق.

3- إن عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل العقول على الإطلاق، وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب: فقال تعالى: "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا" [الشورى 52] وقال تعالى: "ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى" [الضحى 6، 7] .. فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهُدى بالوحي - مصداقاً لقوله تعالى: "قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي" [سبأ 50]- فكيف يحصل لغيره من ذوي العقول الاهتداء إلى حقائق الإيمان والغيب - إذ تصوُّر ماهيتها وكنهها فوق طاقة البشر- بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي. نعم، مجرد إثبات وجود قوة خفية موجدة وحاكمة ومديرة للكون قضية يمكن البرهنة عليها بطريق عقلي صرف، ولكن أين هذا من تصور تفاصيل حقائق وماهيات الإيمان والغيب ؟! اهـ بتصرف - زيادة وحذفاً وتعديلاً وتحويراً- من كلمة لابن القيم.

4- مستفاد بتصرف - زيادة وحذفاً وتعديلاً وتحويراً- من حوار مطول مع أستاذنا وشيخنا الجليل د/ محمد عمارة.

التكليف لا يكون إلا لمن أمكنه علم الحق والعمل به، ومعرفة الباطل واجتنابه، وهذا لا يمكن إلا من أهل العقول.

نعم، العقل هو إحدى الضروريات، أو الكليات، التى لا قوام للحياة ولا استقرار لها بدون حفظها.

نعم، لقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه لإبلاغ الناس دينه الحق، مبيناً لهم بالحجج والبراهين أن ذلك الدين حق، وأن ما خالفه باطل، ملجئا عقول البشر جميعاً – بتلك الحجج والبراهين– إلى التسليم الاختيارى بأن دين الله حق، وأنه الهدى والرشاد، وأنه جالب لمصالحهم فى الدارين، واق لهم من المفاسد فيهما .. فأقام الله قضية الإيمان – وهى رأس القضايا– على الحجة والبينة التى يدركها العقل – دون سواه– بالتأمل والتفكر والتدبر !

نعم، كل ذلك لا ننازع فيه، بل ونجهر به، فمقام العقل فى الإسلام مقام لا يخطئه البصر ولا تخطئه البصيرة؛ وكيف لا نجهر به، بله أن ننازع فيه، والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكَّدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه؛ قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٥)

إذن الغاية من وجود العقل أن يدل الإنسان ويعرفه على الطريق السليم، ويفرق به بين الحق والباطل، ويقيم به الأمور، وهو حجة على الإنسان يوم القيامة .. وإلا فكيف سيحاسبنا الله إن كان العقل ليس بحجة ؟!؛ فالإسلام قد جعل العقل مناط التكليف، أى جوهر إنسانية الإنسان .. والقرآن وهو المعجز لم يأت ليدهش العقل، فيشله عن التفكير كحال المعجزات المادية، وإنما جاء القرآن معجزة عقلية، تحتكم إلى العقل فى فهمه وتدبره، وفى استنباط الأحكام من نصوصه، والتمييز بين المحكم والمتشابه فى آياته، بل لقد جعل القرآن الكريم من البراهين العقلية السبيل للبرهنة على وجود الخالق، وعلى الخلق فى هذا الوجود؛ فالمنهاج القرآنى يقدم الإيمان بوجود الخالق الواحد على الإيمان بالنقل وبالرسالة التى حملت إلى الناس هذا النقل، وذلك لأن الإيمان بصدق النقل متوقف على الإيمان بصدق الرسول، والإيمان بصدق الرسول متوقف على الإيمان بوجود من أرسل هذا الرسول، فلا بد من الإيمان أولا بوجود الخالق، الذى بعث الرسول، وأنزل عليه الكتاب .. وطريق ذلك هو العقل، الذى يدبر المصنوعات فيؤمن بالصانع القدير لهذه المصنوعات .. و"ربنا عرفوه بالعقل" كما يقول الناس جميعاً !!

كيف لا نجهر بذلك، وآيات القرآن الكريم التى تحض على العقل والتعقل تبلغ ٤٩ آية .. أما الآيات التى تتحدث عن «اللُّب» بمعنى عقل وجوهر الإنسان فهى ١٦ آية .. كما يتحدث القرآن عن النُّهى بمعنى العقل فى آيتين، وعن الفكر والتفكر فى ١٨ آية .. ويذكر الفقه والتفقه بمعنى العقل والتعقل فى ٢٠ موضعاً .. ويأتى العقل بمعنى التدبر فى أربع آيات، وبمعنى الاعتبار فى سبع آيات .. أما الآيات التى تحض على الحكمة فهى ١٩ آية .. ويذكر القلب كأداة للفقه والعقل فى ١٣٢ موضعاً .. ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التى تبلغ فى القرآن أكثر من ٨٠٠ آية .. وبهذا يتضح – بمجرد دليل الإحصاء لا غير– لكل مَنْ له عقل أن النقل الاسلامى – وهو الشرع الإلهى– هو الداعى للتعقل والتدبر والتفقه والتعلم، وأن العقل الإنسانى هو أداة فقه الشرع، وشرط ومناط التدين بهذا الشرع الإلهى.

كل ذلك أجهر به وزيادة؛ فلا أثر للشرع من دون العقل، ولكننى أجهر كذلك بأنه لا غنى للعقل عن الشرع – وخاصة فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أمور الغيب وأحكام الدين؛ لأن العقل مهما بلغ من العظمة والتألق فى الحكمة والإبداع هو ملكة من ملكات الإنسان، وكل ملكات الإنسان – بحكم "الخبرة التاريخية" و"المعاصرة"؛ أعنى بحكم "الاستقراء" و"الواقع" – هى نسبية الإدراك والقدرات؛ تجهل اليوم ما تعلمه غداً، وما يقصر عنه عقل الواحد يبلغه عقل الآخر[٥].

ونُذَكِّر فى الختام بالقول البليغ لعلمائنا – والذى ركبتُه من أقوال الغزالى وابن تيمية وابن خلدون والشاطبى، على الترتيب– : "مثال العقل : البصرُ السليمِ عن الآفات والأذاء، ومثال الشرع : الشمسُ المنتشرة الضياء؛ فالعقل مع الشرع نور على نور .. العقل شرطٌ فى معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، والأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل – أعنى قَطْعِيَّهُ– باطلة .. العقل ميزان صحيح، وأحكامه القطعيةُ يقينيةٌ لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به كل ما وراء طوره أو أن تعلم به ما يفوق حدود معرفته؛ فللعقول فى إدراكها حدودٌ تنتهى إليها لا تتعداها؛ إذ ليس للعقل سبيلٌ إلى إدراك كل مطلوب[٦].

وبهذا البيان نؤسس لـ (عقلانيتنا المؤمنة)، وندفن إلى الأبد (صيحات عبيد التنوير الغربى) التى تقول : لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده دون سواه !

والله تعالى أعلى وأعلم

٥- نفس الهامش السابق. وفى فقه الاجتهاد والتجديد دراسة تأصيلية تطبيقية، يحيى رضا جاد، تقديم د/ محمد عمارة، (ص ١٣٥، ٦٦٧)، ط ١، ٢٠١٠م، دار السلام/القاهرة.

٦- إحياء علوم الدين للغزالى، ومجموع الفتاوى لابن تيمية، والمقدمة لابن خلدون، والموافقات للشاطبى.

المقاصد التربوية للعبادات

٣



للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المقصد التربوى للحج فى الجانب الروحى للفرد المسلم

الحج رحلة إلى الله تعالى يتجرد فيها المسلم من كل علائق الدنيا التى لازمته منذ ولادته حتى الملابس، بغير عاداته التى تعودها من التطيب والادهان وإزالة الشعر وقلم الأظافر وستر الرأس والصيد، وغيرها، يترك الحاج أهله وماله ويخرج متجرداً لله تعالى من كل شىء إلا الرغبة الصادقة فى التوبة والإنابة والذكر والدعاء والقنوت، وهذه كلها ذات أثر متعدد فى إصلاح الجانب الروحى وذلك يتضح من الجوانب التالية:

أولاً: لاشك أن العامل يمتلىء قلبه رضا إذا أحس أن عمله القليل عليه أجر كبير وكذلك الحاج عندما يقرأ وعد الله تعالى لمن قصد بيته حاجاً أو معتمراً فإن ذلك يشرح صدره وهذا ما يجعل كل مسلم على وجه الأرض تتعلق نياط قلبه بأن يمن الله عليه بحج بيته وزيارة نبيه ﷺ، تجدها رغبة عارمة ينشأ عليها الصغار، ويتعسف لها الكبار، ويحنو إليها الشيوخ ويتمنون ألا يموتوا قبل أن يمتعوا عيونهم وقلوبهم ببيت الله الحرام ومكة ومنى وعرفة والمزدلفة وطيبة المدينة المنورة وذلك راجع إلى هذه النصوص الكثيرة فى فضل الحج والعمرة منها:

١- ما رواه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[1].

٢- ما رواه الترمذى والنسائى وأحمد بسندهم عن عبدالله ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»[2].

هذه النصوص وغيرها تجعل من حرم الحج والزيارة فى لهفة إليهما، ومن ذهب مرة أو مرات يزداد تعلقاً ورغبة فى معاودة الحج والعمرة والزيارة، ولن تجد مسلماً عنده ذرة إيمان إلا وقلبه معلق بهذه الرحلة الإيمانية، حتى الفجار والفساق من المسلمين تجدهم أمام هذه الشعيرة ذوى رغبة صادقة أن يمن الله عليهم بذلك.

ثانياً: الحج والعمرة فرصة ذهبية لإعادة القلب إلى الصفاء والنقاء والاطمئنان بذكر الله تعالى فهى رحلة ذكر تشبع هذا القلب بالمداومة عليه، فإذا كان الجسد قد تشبعه لقيمات، فإن القلب لا يسعده شىء مثل ذكر الله تعالى، والحاج أو المعتمر عندما يخرج من شواغله الدنيوية ويصل إلى الأرض المقدسة، ويضع قدميه فى بيت الحرام يجد قلبه كأنما شده شىء إلى عنان السماء، إلى العرش العظيم، فلا يكون هناك شىء سوى تفاعل القلب واللسان بالذكر لله تعالى، وفى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ما يوضح أن هذه رحلة الأذكار لإحياء القلب منها:

أ- قوله تعالى:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾

(الحج: ٣٦)

ب- قوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾

(البقرة: ١٩٨)

جـ- قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

(البقرة: ٢٠٠)

د- قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾

(البقرة: ٢٠٣)

هـ- ما رواه الدارمى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «إنما جعل الطواف بالبيت ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله»[3].

من هذه النصوص تتجلى أهمية الذكر بالقلب حتى يكون الحاج مخبت القلب لا يغدو إلى شعيرة من الشعائر إلا مصحوبا بالذكر الدائم، ولعل السيدة عائشة قد أصابت جوهر المناسك عندما جعلتها جميعا لإقامة ذكر الله تعالى وفيه حياة القلوب، وشفاء الصدور.

ثالثا: يتعلق بذلك أيضا التلبية وهى من شعائر الحج والعمرة خاصة، وفى فضلها روى ابن ماجة بسنده عن سهل ابن سعد أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يلبى إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أومدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»[4].

والتلبية تعنى الاستجابة لنداء الله تعالى عن حبٍّ ورغبة، وليس فقط عن خوف ورهبة، فالزوجة التى يناديها زوجها لا يمكن أن تقول له لبيك إلا إذا كانت شديدة الحب له، موفورة الرضا عنه، ولله المثل الأعلى والعبد فى إعلان التلبية يدل على أنه جاء يحمل قلبه الحب لله تعالى يرجو رحمته ويخشى

---

(١) صحيح البخارى، كتاب العمرة، باب وجوب العمرة رقم (١٧٧٣)، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة (٥٦٦/٦)، والجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب رقم (٤٢٦).

(٢) سنن الترمذى، باب ما جاء فى ثواب الحج والعمرة (٨٠٧)، وسنن النسائى، كتاب المناسك، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (١١٥/٥) واللفظ للترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الدارمى، كتاب المناسك رقم (١٨٥٣).

(٤) سنن ابن ماجة، كتاب الحج، باب التلبية ص(٩٧٤/٢).

عذابه. لكن هذه التلبية لا تقتصر على هذا الملبي لنداء الله تعالى بل يهيج كوامن الحب لله تعالى في مخلوقات الله حوله من حجر أو شجر وتراب وجبال وأرض وسماء، كل ذلك يلهث بالتلبية ويشارك هذا الحاج أو المعتمر هذه الكلمات الطيبة وهي أعظم صور التفاعل الإيماني بين الإنسان والكون. تفاعل يقوم على الوحدانية، والتسليم لله بالربوبية، وتفرده بالعبودية، وهذا شعور يملأ قلب المتنسك قوة، لأنه مع هذا الكون كله ـ يسجد لله تعالى، لذلك في مضامين آيات الحج قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾

(الحج: ١٨)

هذه الآية تمثل قمة التفاعل بين الكون والإنسان المسلم، ولعل هذا يفسر هذه المشاعر الإيمانية لهذه الأماكن المقدسة؛ لأنها تسمع طوال العام الذكر والدعاء والتلبية وتشارك الحجيج تلبيتهم، فصارت لها نفحات روحية، ورحمات ربانية لا تجدها في غيرها، وهي تختلف قطعا عن أرض تتأذى بألوان الفجور، وصور الفسوق التي تمارس عليها، إذا مر عليها المؤمن انقبض قلبه، على حين ينفسح قلبه وينشرح صدره إذا دخل إلى هذه الأرض الطاهرة.

رابعا: الدعاء وهو مخ العبادة من شعائر الحج والعمرة، حيث يجأر الحجاج والمعتمرون إلى الله تعالى بخالص الدعاء عند إحرامهم ودخولهم مكة أو المسجد الحرام، عند طوافهم أو شربهم ماء زمزم، عند سعيهم أو وقوفهم بعرفة، عند ذبحهم ومبيتهم بمنى في كل هذه المواضع يسن الدعاء سواء بالمأثور أو بما يشرح الله صدر كل مسلم إليه، وقد كان النبي ﷺ يدعو الله تعالى في الطواف بين الركنين فيقول:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(البقرة: ٢٠١)

وكان يدعو على جبل الصفا: فيقول:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[٥].

أما أشد مواقف الدعاء وأكثرها مظنة في الإجابة فهي كما يلي:

أ- عند استقبال الحجر الأسود لما رواه الحاكم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «استقبل رسول الله ﷺ الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه يبكي طويلا، فالتفت فإذا عمر يبكي، فقال: «يا عمر، ها هنا تسكب العبرات»[٦].

ب- عند شرب ماء زمزم وذلك لما رواه الحاكم بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له»[٧].

ج- الدعاء يوم عرفة وهو من أكثر الأيام

---

(٥) «الموطأ» للإمام مالك بن أنس، كتاب الحج، باب البدء بالصفا في السعي (٣٧٢/١).

(٦) رواه الحاكم في «المستدرك» «الصحيحين» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، راجع مع رقم (١٦٧٠)، (٣٧٢/١).

(٧) «سنن ابن ماجة» من حديث جابر بن عبدالله، كتاب المناسك، باب الشرب من ماء زمزم رقم (٣٠٦٢) ورواه الحاكم من حديث ابن عباس، كتاب المناسك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ص (٦٤٦/١)، رقم (١٧٣٩).

والأوقات التي يستجاب فيها الدعاء، ولذا روى الإمام مالك بسنده عن طلحة أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام..»[٨].

وروى مالك بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»[٩].

هذه النصوص تشير إلى أن المسلم تكون أمامه فرصة كبيرة لزيادة الدعاء والإكثار من التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وحسن التضرع فيعود الحاج والمعتمر بعد هذا الدعاء وقد ذاب قلبه تذللا لله تعالى، وامتلأ قلبه أملاً في رحمته سبحانه، ولعل هذا ـ لمن ذاق وعرف ـ من أوسع أبواب السعادة القلبية التي يمنحها الله تعالى لمن وفد عليه وتضرع إليه.

خامسا: في الحج تحيا في القلب أسمى معاني الامتثال لأمر الله تعالى دون تردد يقينا بأن ما أمر الله به هو الذي يجلب سعادة الدارين، وأن الله تعالى لا يريد بعباده سوءا.

وتذكر هذه الأرض الطيبة في كل مواقعها بقصة الامتثال الكبرى من سيدنا إبراهيم عندما أودع زوجته وولده هذه الأرض اليابسة بلا زرع ولا ضرع ولا غذاء ولا سقاء، فنبع الماء من تحت أقدامه عذبا زلالا غذاء للجوعان وسقاء للظمآن ودواء لكل ذي داء، وعندما بلغ معه السعي أمر أن يذبح بيده ولده وفلذة كبده فما تردد في إجابة الأمر وما كان موقف الابن إلا الرضا والتسليم.

وصارت هذه الأماكن معلماً لهذا الامتثال، وصارت الأضاحي سُنةً إلى يوم القيامة لتذكر كل ذي عقل أن العقل يحتاج إلى الوحي، وأن الوحي لا يستغنى عن العقل، وأن المسلم الذي يمتثل لأمر الله سبحانه دون تردد ينال الحسنى في الدنيا والآخرة.

سادسا: مناسك الحج تذكر بالدار الآخرة، وفي هذا يقول الشيخ الجيطالي: السفر للحج والعمرة تذكرة لسفر الآخرة وأهوال المعاد.. وكان ركوبه للراحلة مثلا لركوبه نعش الجنازة، ودخوله البادية وقطعه عقباتها إلى الميقات تذكرة للخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة ومشاهدة تلك الأهوال والمطالبات، وكان انفراده عن الأهل في البر ومكابدته من قطاع الطريق وسباعه مثلا خلوته في القبر من ديدانه وأفاعيه، وكان الشفاقة لتزيه وإحرامه مخالفا لهيئة لباسه تذكرة لثياب الكفن إذ كلاهما غير مخيط ملفوفاً فيهما العبد، وكان تلبيته الله تعالى عند الميقات تذكرة لإجابة الداعي من الأجداث يوم ينفخ في الصور، وكان دخوله الحرم أشعث أغبر مثلا لقيامه من القبر شاخصة أبصاره مع الناس، ذاهل العقل، عاري البدن من اللباس، وكان انصبابه إلى مكة مع جملة الزائرين مثلا لانصباب الناس في القيامة من جهة الجنة آملين دخولها، وكان دخوله إلى البيت وتعلقه بأستاره ميلاً لحضرة الملك جل جلاله»[١٠].

---

(٨) «موطأ الإمام مالك» كتاب الحج، ص (٤٢٢/١)

(٩) «الموطأ» ص (٤٢٦/١)

(١٠) «قواعد الإسلام» للجيطالي تصحيح وتعليق بكلي عبدالرحمن بن عمر (١٢٦/٢، ١٢٧).

أريج البستان

للشيرازي (٥٨٠-٦٩٠هـ)
ترجمة:
د/ أمين بدوي

القاهرة:
دار الشروق (٢٠٠٦م)

التعريف بالمؤلف:

ولد شرف الدين عبدالله السعدى ونشأ فى شيراز فى أسرة رجالها من أهل العلم والدين والعرفان. وفى تاريخ مولده اختلاف، فهو فى رواية عام (٥٩٥ هـ) الموافق سنة (١١٩٩م)، أو عام (٦٠٦هـ) المطابق سنة (١٢٠٩م)، أو عام (٥٠٨ هـ) المقابل سنة (١١٨٤م). وبهذا التاريخ الأخير أخذت دائرة المعارف البريطانية.

أما الاختلاف فى تاريخ رحيله عن الدار الفانية فهو أيسر من هذا. يذكر البعض أنه فى عام (٦٩٠هـ) أو عام (٦٩١هـ) الموافقين (١٢٩١م) أو عام (٦٦٤هـ) الموافق (١٢٩٤م) ولكنهم متفقون على أن الشيخ كان من المعمرين وأنه جاوز المائة.

لما اشتد عوده سافر إلى بغداد ليستكمل علومه فى المدرسة النظامية. والتقى السعدى هناك بعلماء كان أبعدهم أثراً فى حياته شيخاه شهاب الدين السهروردى الصوفى المعروف، وشمس الدين أبو الفرج الجوزى.

عرض الكتاب:

يقع الكتاب فى (٢٨٨) صفحة من القطع الكبير، مشتملة على الفهارس، وإهداء للمغفور لها الدكتورة إسعاد عبدالهادى قنديل من المترجم فى شكل أبيات شعر، ومقدمة المؤلف فى تمجيد الخالق ومدح النبى ﷺ. ثم تاريخ تأليف الكتاب، وتقديم الكتاب، والتماس الإغضاء عن العيوب، ومدح لأبى بكر بن سعد بن زنكر، ومدح لسعد بن أبى بن سعد وحكاية العارف والنمر والأفعى.

ويتكون الكتاب من عشرة أبواب عبارة عن مجموعة من القصص المعنونة بعناوين منفردة. يشير الباب الأول إلى العدل والتدبير والرأى، ويبدأ بوصية أنوشيروان لولده هرمز يوصيه فيها بالعفو والصفح والتزام الرضا، أتبعها بنصيحة خسرو لولده شيرويه، ويبين كيف تتم معاطلة التجار والغرباء وإكرامهم، وأن الاحتراز من الغريب حسن، ومعاملة الخدم والأتباع واختيار العمال ومعاملة العمال المعزولين والجمع بين الشدة واللين، والنهى عن إهمال ذكر العظماء، والاعتبار بسيرة الملوك السابقين، والنهى عن الاستماع إلى قالة السوء، وعدم التسرع فى معاقبة الجناة. وفى حكاية السائح جواب الآفاق بين كيفية اتخاذ القرار Decision - Making (ص٤١) من خلال ذكره؛ لأن من يعمل أعمالاً بلا تجربة يحمل على قلبه أعباء من جور الغم. وحين يسجل القاضى أحكامه بفكر وروية، لا يخجل من ذوى العمائم، وانظر فوق السهم فى إبهامك، لا حين تكون قد أطلقته من يدك.

ثم ذكر حكاية إبليس فى المنام وأشار فى أصول الحكم وسياسة الرعية والجند إلى تأثير الغضب Anger (ص٤٧). فذكر أنه لا يقول: إذا حاربت فاثبت بل: إذا غضبت فاضبط بالعقل، كل من له عقل يتحمل لا العقل الذى يحكمه الغضب، وحكاية عن ملك عادل كان يرتدى قباء زهيداً، وحكاية دارا والراعى، وحكاية عمر بن عبدالعزيز، وحكاية عن تكله بن زنكى وأحد العرفاء، وحكاية عن سلطان الروم، وحكاية العابد والحاكم الظالم، وحكاية عام القحط فى دمشق، وحكاية عن حريق بغداد وفى الاعتبار بملوك العجم الظالمين، وحكاية الملكين الأخوين العادل والظالم.

وفى التحذير من عاقبة فعل الشر والجور على الضعفاء وملك القناعة وحديث الجمجمة مع العابد والمحسن والمسيء وحكاية العسس الجبار الذى وقع فى البئر، وحكاية الرجل الصالح والحجاج، وعظات وحكم متفرقة، وحكاية الملك المريض بداء الخيط: فى التحذير من الغرور بالدنيا. وحكاية أمير مصر الأجل الذى وافاه الأجل، وحكاية عن ملك ظالم من ملوك الغور، وحكاية الملك الكبير والرجل الطيب الفقير، وحكاية المصارع البائس، وحكاية الحاكم الظالم والشيخ الحكيم وفى التدبير ومداراة العدو والحيطة والحذر فى خوض الحرب والعناية بالجند وتشجيع الأبطال، وفى تدبير الحرب والملك، وفى الفرار من القتال، وفى تربية الرجال فى الحذر من العدو وفى السلم فى التنبيه لكيد العدو والضعيف فى الحرب، ومعاملة الأسرى فى الحذر من صداقة أقرباء العدو والحذر من استخدام الجندى العاصى أميراً، وفى سياسة البلاد المفتوحة وفى حرب العدو وكتمان السر.

أما الباب الثانى فى الإحسان ويبدأها فى الاهتمام بالمعانى لا الصور، وعرض فيه للعاقل الذى يميل إلى المعانى؛ لأن المعنى هو الذى يبقى من الصورة لا الصورة وهى إشارة إلى الإدراك Perception والذى يعنى اختفاء المعنى على الصورة (ص٨٨) ثم العطف على اليتيم، وفى الرحمة والتواضع، وحكاية إبراهيم الخليل عليه السلام وضيفه المجوسى فى الإحسان وبيع الآخرة بالدنيا، وحكاية الخب المحتال والشيخ الصوفى، وحكاية الغنى الممسك ووارثه المنفق. وحكاية المرأة، ثم قدم عظة، وعرض بعدها لحكاية الشيخ المغرور بصلاته وعبادته وأشار فيه إلى الوسواس المشتت الخاطر والذى يعنى Obsessions (ص٩٥)، وحكاية عن رجل كريم رقيق الحال، وحكاية الرجل الرحيم والكلب الظمآن، وفى العطف على المساكين وعدم الاغترار بالجاه والسلطان، وحكاية الغنى الذى نهر السائل فأصبح سائلاً، وحكاية النملة الحائرة، وحكاية الشاب والخروف الأليف، وحكاية الدرويش والثعلب الأبتر اليدين والرجلين، وحكاية الرجل الخامل البخيل، واختبار سلطان الروم لكرم حاتم الطائى، وحكاية ملك اليمن الحاقد على حاتم الطائى، وحكاية ابن حاتم مع النبى ﷺ، وحكاية حاتم والشيخ طالب السكر، وفى مقارنة أبى بكر بن سعد بحاتم الطائى، وحكاية الرجل الذى وقع حماره فى الوحل والسلطان، وحكاية المحسن الأعمى الذى أبصر ببركة إكرامه السائل، وطريق الوصول إلى الخير، ورجل يبحث عن ولده فى الليل وياقوته بين الحصى وباب المعرفة، وحكاية الرجل الحريص وابنه المتلاف، وحكاية عن شاب تصدق بدانق

على شيخ فقير، وحكاية صحراء الحشر، وفى معاملة الأشرار، وحكاية المرأة الحمقاء وعش الزنابير والحزم فى الأمور والعمل فى الوقت المناسب.

أما الباب الثالث ففى العشق والوله وعرض فيه لما جاء فى عشق الذات الإلهية والعشق الإلهى والعشق الدنيوى.

وجاء الباب الرابع فى التواضع وجاء فيه على ذكر الحض على التواضع وقطرة المطر المتواضعة، وحكاية الشاب الصوفى وكبير العابدين، وحكاية بايزيد والرماد المهال على رأسه والرفعة فى التواضع والهوان فى الكبر، وحكاية العابد بعبادته والفاسق النادم على معصيته، وحكاية الفقيه الرث الثياب فى مجلس القاضى، وحكاية أمير كنجه الفاسق الطاغية، وحكاية السيد الفاضل وغلامه النديم، وحكاية معروف الكرخى وحيقة المريض وجاءت هنا إشارة إلى اضطرابات النوم Sleep Disorders ألا وهى الكوابيس Nightmares (ص١٥٥). كما جاء على ذكر الاضطراب Disorder والقلق Anxiety (ص١٥٦). ثم عرض لحكاية الطامع الوقح والشيخ الصوفى، وحكاية الملك الصالح وفقيرين نائمين بالمسجد، وحكاية المنجم الناشىء المغرور، وحكاية العبد الآبق والملك الغاضب وبين كيف يمكن التعامل مع حاد الطبع، وأن القول اللين مثل الماء على نار الرجل الحمى الغاضب، وفيه إشارة إلى أحد أساليب تنمية السلوك (التوكيد) ألا وهو تطويق الغضب Anger Disarming (ص١٦٠).

وحكاية الإمام ومخالفه فى الرأى، وحكاية الخليفة والشحاذ، وحكاية رؤية الرجل الصالح فى الرؤيا، وحكاية ذى النون المصرى وعام جفاف النيل.

أما الباب الخامس فكان فى الرضا، فبدأه فى تحدى السعدى خصومه ثم فى الإيمان بالقدر والرضا بالقضاء ثم حكاية البطل الأصفهانى، وحكاية البطل الأرديلى والحارب لابس اللبد، وحكاية الكردى العليل والطبيب الصحيح، وحكاية القروى الذى نفق حماره، وحكاية المفلس الذى وقع منه دينار، وحكاية الشيخ الهرم وضربه لابنه بلا ذنب، وحكاية المقيم فى حى الشحاذين، وحكاية النسر والحدأة، وحكاية تلميذ النساج، وحكاية ولد الناقة مع أمه، وحكاية العبادة بإخلاص وحكاية الفاسق الهالك.

والباب السادس فى القناعة وبدأها بتربية النفس وحكاية الحاجب والنشط، وحكاية الطماع وملك خوارزم، وحكاية العارف المصاب بالحمى، وحكاية الحديث عن البصرة، وحكاية الصوفى فى المغلوب على أمره وبائع قصب السكر، وحكاية الأمير وطاق الحرير، وحكاية الفقير القانع، وحكاية الهرة فى بيت العجوز، وحكاية الأب الفقير وطفله وفى تحويل الحجر إلى فضة، وحكاية البيت المنخفض، وحكاية الشيخ الذى خلف السلطان وأشار إلى أهمية أن تكون الخصال مرضية وجميلة وهى إشارة إلى سمات الفرد Traits (ص١٩٥)، وانتهى بحكاية الشيخ المعمر.

والباب السابع فى التربية وبدأها بكبح جماح النفس، وحكاية صون اللسان عن الهذيان، وحكاية المجهول الصامت وحكاية رجل جمح لسانه، وحكاية عضد الدولة وابنه المريض وفى مشهد معركة، وفى النهى عن الغيبة والنميمة، وحكاية السعدى فى المدرسة النظامية، وهنا أشار إلى أحد أساليب التعليم ألا وهى التسميع الذاتى Rehearsal (ص٢٠٧)، وحكاية القادح فى الحجاج، وحكاية العبد وتعليمه الصبى الوضوء، وفى ذكر الناس بالخير، وحكاية الرفيق المغتاب والمجنون، وحكاية من يجوز اغتيابهم، وحكاية اللص القادم من الصحراء، وحكاية النمام والصوفى، وحكاية أفريدون والواشى والوزير، وفى المرأة الطيبة والمرأة الخبيثة، وحكاية الشاب المشتكى من زوجته، وفى تربية وتعليم الصبى.

وتناول الباب الثامن الشكر على العافية وفيها ذكر فى عجز الخلق عن شكر الحق، وحكاية الأم وابنها العاق، وفى تدبر صنع الخالق وبين فيها أن البصر والرأى والفكر Thinking, Opinion and Vision والتمييز بينهم يتم فى الرأس، أى أنها تدرك فى الرأس وفى مراكزها فى الرأس (ص٢٢٨)، وحكاية الأمير ناكر الجميل، وفى تأديب الصبى وفى تذكير الإنسان بأنعم الله وفى معرفة المحروم قدر النعمة، وحكاية طغرل والحارس، وحكاية العسس واللص، وحكاية العابر والعابد الزاهد، وحكاية العاجز والباكى، وحكاية الفقيه والسكران، وفى حكمة صنع البارى وبين أن العسل يحسن لإحياء المزاج ويقصد به أن بعض الأطعمة تؤثر على المزاج Mood (ص٢٣٥) وأن المزاج ينقسم إلى رطب ويابس وحار وبارد وأن طباع الإنسان مركبة من هذه الأربع، وبين أن هناك اختلافًا فى الأمزجة Moods Differences وذلك إذا تغلبت واحدة من السابقة على الأخرى (ص٢٣٥).

أما الباب التاسع ففى التوبة وطريق الصواب والبدء فى الإعداد للآخرة، وحكاية الشبان والشيخ، وحكاية الشيخ المعمر والطبيب، وفى حض الشبان على الطاعة، وحكاية الميت والحى، وحكاية العابد والأجرة الذهبية، وحكاية العدوين اللدودين، وحكاية المسافر فى القافلة، وحكاية الصبى وخاتمه الذهبى، وحكاية الشخص الذى أغضب الملك، وحكاية آكل مال الناس والذاهب إلى المسجد ملطخًا بالطين، وحكاية الصبى الضال، وحكاية جامع الغلة وحارق البيدر، وحكاية المتفق على مفكر، وعرض فى ظل ذلك إلى أحد مظاهر الخجل Shyness وهو التعرق Sweating (ص٢٦٢)، وحكاية زليخا وعشقها ليوسف، وفى ستر الهرة قذارتها بالتراب، وحكاية الغريب فى سداد الحبش، وحكاية رئيس دامغان وضربه شخصا بالصولجان، وحكاية موت طفل للسعدى فى صنعاء.

أما الباب العاشر ففى المناجاة وختم الكتاب وعرض إلى التضرع إلى الله، وعتاب الشخص الأسود اللون والدرويش ناقض التوبة، وحكاية المجوس وخدمته الصنم، وختم ما جاء فى الكتاب بعبارة «لم أجىء ببضاعة إلا الأمل، فلا تجعلنى يا إلهى قانطًا من العفو» بالإضافة إلى قصيدة وخاتمة بقلم المترجم.

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- اتخاذ القرار Decision - Making
- الغضب Anger
- الإدراك Perception
- الوسواس Obsessions
- تشتت الإدراك Perception Distraction
- اضطرابات النوم Sleep Disorders
- الاضطراب Disorder
- القلق Anxiety
- تطويق الغضب Anger disarming
- السمات Traits
- التسميع الذاتى Rehearsal
- البصر Vision
- الرأى Opinion
- الفكر Thinking
- التمييز Discrimination
- المزاج Mood
- اختلاف فى الأمزجة Moods Differences
- الخجل Shyness
- التعرق Sweating

القائم بالعرض

د. نشوة عبدالتواب حسين

من سنن التنوع فى إطار الوحدة





بقلم أ.د. أحمد فؤاد باشا

www.afbasha.com



٤- تنوّع الطبائع والغرائز:

لقد أودع الله سبحانه وتعالى فى المخلوقات طبائع متنوعة، تتمثل فى شعور فطرى وسلوك غريزى لا إرادى، ومن هذه الطبائع والغرائز ما هو طيب كالأمومة والوفاء والشجاعة، ومنها ما هو غير طيب كالخوف والغدر، لكنها فى جميع الأحوال ضرورية وحيوية لوظيفة الكائن التى هيأها الله - تعالى - له وأعدّه لها.

ولعل غريزة الأمومة التى أوجدها الله - سبحانه وتعالى- فى الأنثى من الإنسان والحيوان تأتى فى مقدمة الغرائز السامية الضرورية لاستمرار الحياة وبقائها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فلقد ملأ الخالق العليم قلب كل أم بالحب والحنان على صغارها، وهداها إلى وظيفتها فى الحرص على أولادها مهما كانت المصاعب والتضحيات. كذلك يلهم الله سبحانه وتعالى كافة الكائنات الحية أعمالاً هى من صميم فطرتها وغريزتها التى لا إرادة لها فيها، منها سنة التزاوج والتناسل، وما يلزمها من سلوكيات تدل على وجود خالق واحد مدبّر لحركة الكون والحياة.

وإذا كان التزاوج بين أفراد الجنس البشرى لم يختلف منذ بدء الخليقة من حيث الطرق والأساليب المعروفة فى إبداء الرغبة ولفت الانتباه بين الذكر والأنثى، فإن معظم الحيوان لا يختلف عن الإنسان فى اتباع أساليب خاصة فى البحث عن الأليف وجذب انتباهه، بل ربما تكون مظاهر الإلهام فى تناسل الحيوان أقوى وأبلغ فى الدلالة منها فى الإنسان. على سبيل المثال، لوحظ أن طائر البطريق له أسلوبه المميز فى الغزل واختيار الأليف، فإن أراد التودد إلى أنثى، اختار حصاة وتقدم بها فى زهو وحنان ووضعها تحت قدميها، فإن التقطتها كان ذلك دليلا على أنها قبلته زوجاً لها، فيتزاوجان. أما إذا تركتها ولم تمسها كان ذلك دليلاً على عزوفها عنه وإعراضها عن الزواج منه، وعندئذ يعود فيلتقط حصاة وينصرف بها إلى أخرى أملاً فى بلوغ المراد.

وقد لوحظ أن الطيور المهاجرة تعود إلى مواطنها فى مواعيد تكاد تكون محددة، مهما كانت المسافات بعيدة، ليتم التزاوج والتناسل. ويحدث الشىء نفسه فى تناسل بعض أنواع السمك. لكن قصة ثعبان السمك تعتبر من أعجب أدلة الإلهام، فهو يعيش فى الأنهار، وعندما يكتمل نموّه بأن يبلغ العاشرة من عمره

يهاجر فى مختلف أنحاء العالم. فثعابين السمك التى تعيش فى أنهار أوروبا تسبح حتى المحيط الأطلسى، وتلك التى تعيش فى النيل وأنهار أفريقيا تسبح إلى البحر المتوسط، ثم تخترق مضيق جبل طارق إلى محيط الأطلسى.

ثم تستأنف جميعاً رحلة تقطع فيها آلاف الأميال قاصدة إلى الأعماق السحيقة فى جزر الهند الغربية، جنوبى برمودا، حيث تتزاوج وتضع البيض، وتنتهى عندئذ حياتها وتموت، وبعد مدة تخرج الصغار من البيض على هيئة خيوط صلبة شفافة صغيرة لها عيون بارزة، وتتهيأ للعودة إلى مواطن آبائها فى رحلة تستغرق أكثر من ثلاث سنوات فى بعض الجهات، لتصل إلى مصاب الأنهار فى أوروبا، أو إلى الترع فى أواسط أفريقيا، أو إلى البحيرات فى آسيا. ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الأوروبية، أو ثعبان أوروبى فى المياه الأمريكية.

وعالم النبات، شأنه شأن عالم الإنسان وعالم الحيوان، يزخر بالعديد من الأمثلة الدالة على تنوع طرق التلقيح والتزاوج بين أعضاء التذكير والتأنيث. فسبحان الخالق العظيم الذى ألهم كل مخلوق كيف يحافظ على نوعه وحياته، وصدق العليم الخبير القائل فى محكم التنزيل:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

(سورة يوسف: ١٠٥)

وهناك من الغرائز والطبائع ما يدفع النوع الواحد من الحيوانات إلى أن يتخذ من ضروب الحذر والحيطة ما يساعد على حماية أفراده، فكل الحيوانات والطيور التى تسير فى جماعات وأسراب، تتخذ من بعض أفرادها حراساً تنبهها وتحميها من أى خطر قادم، وطلائع ترشدها وتكشف لها الطريق، ولا يكون هذا من قبيل المصادفة مرة أو مرات، بل يكون عن قصد وإلهام غريزى ينطقان بوجود قوة راعية لكافة الكائنات على اختلاف أنواعها.

وتظهر قافلة الاستكشاف واضحة فى أسراب الجراد، حيث يسير فى المقدمة بضعة أفراد لاكتشاف الطريق، وتكون هذه المجموعة إنذاراً بسرب هائل قد يغطى ما مساحته ٢٠٠٠ ميل مربع. ومن المدهش أن نعلم أن طلائع أسراب الجراد إذا شعرت بين الحين والآخر بابتعاد أفراد المؤخرة عن المقدمة بحيث يصبح السرب عرضة لتمزيق الشمل وتشتيت الأجزاء، فإن طلائع الاستكشاف فى المقدمة تبطئ من حركتها حتى يتمكن أفراد المؤخرة من اللحاق بها والالتحام بالسرب، بحيث يظل محتفظاً دائماً بشكله وانتظامه. ولا يمكن لأى جرادة أن تنعزل عن السرب أو تخرج بعيداً عن إطاره العام، وإذا ما حدث ذلك أسرعت بالدخول ثانية فى الجماعة الكبيرة. ذلك لأن حياة الجراد بصورة عامة تعتمد على قدراته التجمعية، وتكوينه للأسراب المهاجرة. ومن ثم فإن مقاومة كوارث الجراد والوقاية من غزواته المدمرة قبل حدوثها تعتمد على إيقاف تجمعاته، وتعطيل طبيعته الغريزية فى الحياة الجماعية، وتكوين أسراب تطير لمسافات بعيدة.

وتتنوع صور الحراسة وأساليبها بتنوع الحيوانات وبيئاتها، فجماعة الفيلة التى تعيش فى الغابات يتقدمها عادة دليلها إلى الماء أو الغذاء، وأسراب الطيور يحرسها فى سيرها أكبر ذكورها. ويسير ضعافها فى مؤخرتها، بينما يسير حراس الظباء فى الخلف لأن الذئب، وهو أخطر أعدائها، لا يهاجم القطيع إلا من خلفه. والجاموس الوحشى الإفريقى من عادته أن يقع حارسه على أعلى بقعة فى الغابة ليستطلع مشارف الطرق ومسالكها، أما حيوان القندس القارض الذى

يستوطن أوروبا وأمريكا الشمالية، فإنه يعيش أيضاً في تجمعات، وتعمد جماعات القنادس إلى تعيين حراس يخفرون الجهات الأربع، نظراً لأنها تُحدث ضجة كبرى في أي مكان تحل به عندما تقوم بقطع أغصان الأشجار وأوراقها، فهي لا تكتفي بحارس واحد كما يفعل الجاموس الوحشي الإفريقي.

كيف عرفت هذه المخلوقات كل تلك الأساليب والتصرفات التي تحذرها من الخطر وتنقذها من الهلاك. إنها تفعل ذلك بالغريزة الفطرية التي أودعها الله فيها، فسبحان من ألهم الحيوان ما لم يفهم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.

وإن شئنا أمثلة أخرى، وجدنا القنفذ وقد حصنه الله بأشواك حادة تغطي جسمه، فإذا ما اجترأ عدو على مهاجمته انتصبت هذه الأشواك لتكوّن درعاً واقياً، وتقلب على عدوّه متدحرجاً كالكرة فوقه مدافعاً عن نفسه، والسلحفاة وضعها الله جلت قدرته داخل حصن حصين، فإذا ما شعرت بخطر يهددها أدخلت رأسها وأرجلها في هذا المخبأ الإلهي الذي يصعب على أي حيوان كسره ليصل إلى لحمها. وهناك بعض الكائنات التي حماها الله بقناع من الألوان ليخفيها عن عدو يفتك بها، مثل الحرباء العجيبة التي يتغير لونها بلون ما تحتها لتختفي عن الأنظار.

ومن دلائل القدرة الإلهية في خلق الكائنات منحها من الصفات والخصائص ما ييسر لها الظروف الملائمة للحياة في البيئة التي تعيش فيها. ومن يتأمل عالم الأحياء عموماً يجد أنها تعيش في مستويات مختلفة من نطاقات القشرة الأرضية، من أعماق البحار والمحيطات إلى أعالي الجبال، والطبقات الغازية الدنيا من الغلاف الجوي، وكثيراً ما نجد في بعض الأماكن أحياء تختلف في نوعها وشكلها عن أحياء الأماكن الأخرى، ويعود هذا الاختلاف إلى ظروف البيئة الطبيعية. فالبيئة البحرية غير بيئة اليابسة. وفي المدى الجغرافي الواحد، كالبحر مثلاً، نجد بيئة الشاطئ تختلف عن بيئة المنحدر القاري عند الأعماق، وفي البر تختلف بيئة الغابة عن البيئة الصحراوية والبيئة الجبلية. والأحياء في كل بيئة متكيفة مع عناصر البيئة.. وهذا التكيف حاصل خلال ملايين السنين، فإذا حدث تغير في عناصر البيئة، فإن هذا يؤثر على الأحياء فيها، ويدفعها إلى أن تهاجر إلى أماكن أخرى، وتتكيف مع الظروف الجديدة، أو تتطور بظهور صفات عضوية وسلوكية جديدة بقدرة الخالق الواحد سبحانه وتعالى لتستمر في الحياة.

ومعظم الحيوانات تكيفت في بيئاتها من خلال التطور الطبيعي خلال ملايين السنين، وتلك سنة الله في خلقه، فاتخذت أشكالاً وألواناً تعطيها حرية الحركة في بيئاتها فهناك بعض الحشرات تشبه أوراق النباتات، وأشهرها "الحشرة الورقة" التي تشبه ورقة نباتية تماماً، لونها أخضر وعلى ظهرها عروق ذات لون بني فاتح تحاكي عروق الورقة النباتية، وإذا وقفت الحشرة على النبتة التي تشبه أوراقها فإنه يستحيل تمييزها.

وتوجد فراشات تشبه الأوراق النباتية الميتة، فإذا وقفت فراشة من هذا النوع على غصن شجرة وأطبقت جناحيها، تظهر كورقة صفراء بنيّة ميتة، وبذلك لا يميزها أعداؤها عن أوراق الشجرة.

وأحياناً يظهر التكيف بشكل أزهار، فهناك نوع من حشرات فرس النبي له شكل يماثل الأزهار، حيث تعطي الأقسام المنبسطة من الجسم والأرجل ما يشبه بتلات الزهرة، ولونها يماثل ألوان الأزهار الوردية الفاتحة.

ولا يقتصر التكيف في عالم الأحياء على الحشرات الكاملة، فيرقات بعض الأنواع تشبه الأزهار أو فروع النباتات التي تعيش عليها الحشرات، ولذلك تتوفر لها الحماية وفرص البقاء، ولا يقتصر التكيف على الشكل، بل يشمل الألوان التي تتوافق مع ألوان البيئة، وقد لعب التطور دوراً أساسياً في هذا التكيف.

وفي بعض الأنواع يمتد التكيف إلى البيض والصغار أيضاً، فبيض طائر "الزقزاق المطوّق" تشبه الحصى التي يضع الطائر بيضة عليها أو بينها، وعندما يفقس البيض تخرج أفراخ تشبه الأرضية العامة للبيئة، ولا تتحرك الأفراخ إذا شعرت بوجود حركة غريبة قربها، فلا يمكن ملاحظتها بسهولة.

ومثل هذه الصور من صور التكيف حصلت خلال ملايين السنين، حسب تقدير العلماء بطرق وآليات علمية، وهي خصائص للتمويه بغرض الدفاع عن النفس بالحماية والتخفي، أو بغرض الاستخفاء للقنص من أجل الحصول على الغذاء، وكلا الهدفين ضروريان لاستمرار حياة الكائن الحي والحفاظ على نوعه، وهما يدلان على عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي قدّر فهدى، وأحسن كل شيء خلقه، وأعطى كل شيء خلقه.. فتبارك الله أحسن الخالقين.

٥- تنوّع ألوان الكائنات:

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

«سورة فاطر: ٢٧-٢٨».

في هاتين الآيتين الكريمتين من كتاب الإسلام الخالد الذي أنزله الله على النبي العربي الأمي الخاتم، دعوةٌ إلى تأمل كتاب الكون الجميل الصفات، العجيب التكوين والتلوين، بكل ما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، لكي يتدبره العلماء الذين يعبدون الله سبحانه وتعالى حق عبادته، ويدركون قدرته المبدعة عن طريق العلم المنهجي الصحيح.

فإذا تأملنا خلق الجبال، وجدنا أن السبب في اختلاف ألوانها يعود إلى اختلاف المواد المكوّنة لصخورها. فالجبال البيضاء تتكون أساساً من الطباشير والحجر الجيري، والجبال السوداء يكثر فيها المنجنيز والفحم، والجبال الحمراء غنية بالحديد، وغير ذلك من الجبال النارية تتكون من الجرانيت والبازلت، وتحتوي على عروق الحديد والنحاس والذهب ومعادن أخرى، تؤدي إلى تعدد أنواع الجبال وألوانها. ومن دلائل القدرة الإلهية هنا أن التباين في أحوال الجبال وألوانها وأنواعها، رغم أنها ترجع أصلاً إلى أرض واحدة كانت تكوّن مع الشمس والسموات رتقاً واحداً متصلاً، يشير إلى وحدانية الخالق المبدع.

وإذا تأملنا عالم البشر وجدنا أن اللون من الخصائص الجسمية الظاهرة التي يدل اختلافها وتنوعها على قدرة البارئ المصور. فالناس ينقسمون من حيث لون البشرة إلى فئات ثلاث تشمل بيض البشرة وصفر البشرة وسود البشرة. أما ذوو البشرة السمراء، الذين يتراوح لونهم بين الأصفر الفاتح والأسمر المشرب بحمرة والأسمر الغامق، فإنهم - حسب التصنيف «الأنثروبولوجي» - يعتبرون شعبة من البيض.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن لون الجلد يتوقف على مقدار المادة الملونة فيه والتي تعرف باسم

«الميلانين» وتعتمد على نشاط الخلايا الصانعة لها. هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى تؤثر على تشكيل لون الجلد النهائي، مثل عامل انكسار الضوء على سطح الجلد، وعامل امتصاص البشرة للضوء، وسمك طبقات الجلد المختلفة، ووجود مواد ملونة أخرى مثل الكاروتين (الأصفر) والهيموجلوبين (الأزرق) والأوكسي هيموجلوبين (الأحمر)، ولكن يظل الميلانين (البني) هو أهم ما يؤثر في اللون النهائي لجلد الإنسان، وعدد الخلايا الصانعة له لا يختلف من جنس إلى آخر، وهي موجودة في جميع أنسجة الجسم تقريباً، ولكن كثافتها تكون عالية جداً في البشرة والغشاء المخاطي والشعر وأغشية المخ والعين.

وإذا تأملنا عالم الدواب والأنعام نجد أن هناك تنوعاً وتغيرات تحدث في لون فروة الحيوان، خاصة في حيوانات الغابات التي يحدث فيها تساقط أوراق الشجر. إن ضوء الشمس المتناثر بين الأوراق يعطي للحيوانات المنقطة (مثل بعض أنواع النمور) ميزة للتخفي، ولكن في المناطق الباردة تسقط الأوراق في الخريف، وبهذا يكون لها ميزة التنقيط في الحيوان كوقاية خلال أشهر الشتاء. وهناك بعض الحيوانات، مثل الدب القطبي – يستمر أبيض الفروة طوال العام، وبعضها، مثل الأرنب البري، يتغير لون فروتها إلى الأبيض في الشتاء.

والألوان من الناحية العلمية ظاهرة ضوئية يدركها الإنسان والحيوان عن طريق حاسة البصر، وقد ظل تفسيرها غامضاً لآلاف السنين، إلى أن جاء عصر الحضارة الإسلامية بعلمائها النابهين، أمثال ابن الهيثم والبيروني وابن سينا وغيرهم.

وشهد علم الضوء على أيديهم قفزة نوعية غير مسبوقة مهدت لاكتشافات جديدة في عصر النهضة الأوروبية الحديثة، حيث تمكن العالم الإنجليزي اسحق نيوتن من إجراء تجربة عملية بسيطة استخدم فيها منشوراً زجاجياً ثلاثياً، وسمح بسقوط أشعة الشمس على أحد جانبيه، واستقبالها من الجانب الآخر على حاجز أبيض، فوجد أن ضوء الشمس الأبيض قد تحلل إلى عدة ألوان تميز العين منها سبعة ألوان هي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وهي شبيهة بحزمة قوس الألوان، وتشكل ما يسمى علمياً «طيف الضوء المرئي» الذي يتكون في حقيقته من عدد لا نهائي من الألوان المتدرجة في التغير.

وبعد أن استقرت نظرية الضوء في العصر الحديث، وأمكن إثبات خاصيته الموجية، أصبح من المألوف التفرقة بين الأضواء الملونة المختلفة بدلالة الطول الموجي لكل منها. فالضوء الأحمر هو أطول موجات الطيف المرئي، ويليه بالتدريج بقية الألوان حتى اللون البنفسجي، وهو أقصرها. ورغم أن تحليل الضوء الأبيض خلال مروره في منشور زجاجي يعطينا سبعة ألوان، إلا أن الألوان الأساسية فيه ثلاثة فقط هي الأحمر والأخضر والأزرق. فإذا ما تم مزج اثنين أو أكثر من هذه الألوان الأساسية الثلاثة حصلنا على بقية الألوان بدرجات متفاوتة، أي أن مزج اللونين الأحمر والأخضر يعطي اللون الأصفر، ومزج اللونين الأحمر والأزرق يعطي اللون الأحمر القرمزي (الماجنتا)، ومزج اللونين الأزرق والأخضر يعطي اللون الأزرق «السيانيدي».. وهذه هي طريقة مزج الألوان في التليفزيون الملون، وطريقة خلط ألوان الطلاء بدرجاتها المختلفة.

وكل ذلك أدعى إلى شكر نعم الله تعالى في خلق العين وأدائها لوظيفتها في إبصارها للأشياء بألوانها المتنوعة كما هي في الواقع.

حرية الإعلام بين الالتزام والانفلات رؤيـــة إســـلاميـــة





للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية



الصورة المعكوسة للإسلام

قد يحار الباحث المنصف في تبرير قتامة صورة الإسلام لدى الغرب ووسائله الإعلامية، إذا أمعن في بحث العلاقات القائمة بين الغرب والعرب ودول النفط العربي بوجه خاص، لما يجنيه الغرب من مكاسب وتحصده أمريكا بالإضافة إلى كم المصالح التي يحصل عليها لكن تبدو الصورة معكوسة وظالمة إذا تحمل الإسلام هذه الأوزار التي يوصف بها السلوك العربي، وهو منها براء، وكان الأولى والأصح، أن يحكم على الإسلام من خلال مبادئه وتعاليمه التي وردت في أصح وثيقتين وهما القرآن والسنة، وفي التطبيق الكامل المستنير للإسلام من جانب العرب في صدر الإسلام.

وأغلب الظن أن العرب في توجهاتهم وفي سلوكياتهم والنظم القائمة لديهم وفلسفتهم الحياتية المعاصرة ليسوا هم النموذج الصحيح للإسلام لا في شئون الحكم والإدارة ولا في النظم الاقتصادية والاجتماعية، وإنما وقفوا بالإسلام عند الشكل والقشور، وطرحوا الجوهر والمضمون، وأقاموا نظمهم وخططهم على أخلاط من التوجهات والفلسفات التي ليس بينها تناغم أو تحاكم إلى صحيح الإسلام وروحه الوثابة، وفكره المستنير، الذي يساير الأوضاع، ويقدم الحلول، ويملك زمام المبادرة، ويحقق النهضة والتنمية للفرد والجماعة في كل المجالات. وليس في ذلك النموذج الذي يعتمد التقليد والانكفاء على الذات، واختزال الإسلام في العبادات والشعارات ونفيه في أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة، أو في تغييبه عن الساحة، واستيراد الفلسفات والنظم وهو بمعزل عن الهيمنة عليها وتوجيهها، مع النص على الاحتكام إليه واعتباره المرجعية والأصل.

ومن هذا الطرح للإسلام في الأنظمة الحياتية العصرية وفي ضوء الممارسة العصرية للبلدان

العربية والمسلمة، يستبين الجزء المغيب فى الصورة، ويبرز المعضلة الراهنة الكاملة لدى الأنظمة والفلسفات العربية العصرية، وهو أنها ليست حجة على صحيح الإسلام، ويصح القول بأن العرب عبء عليه، ودعاية سلبية له فى الحاضر.

ومن اللازم الضرورى، أن تعكف النخبة العربية على تشخيص الحالة، وأن تحدد مقدار الغلط فى المسيرة، وأن تنطلق فى رسم السياسات والفلسفات، النابعة من الإسلام، وأن تعيد تقييم مؤسساتها، وأن يقوم الاعوجاج فى السلوك العربى، بما يعبر عن الالتزام بالإسلام فى العلاقات والتعامل ونمط الحياة فى الداخل والخارج.

وهنا يغدو لازماً التواجد الإعلامى الإسلامى، كصوت فاعل ومؤثر فى التعبير عن الهوية والذاتية الإسلامية، وبيان الحقائق الإسلامية فى شئون الدين والحياة، والنفاذ إلى عقول وقلوب الجماهير بالحكمة المطلوبة، وأن تقدم الوسائل الإعلامية المجتمعات الإسلامية كمجتمعات لها خصوصية ثقافية وثوابت دينية واجتماعية وحضارية، تساهم فى التقدم الإنسانى، وترقى بالحياة فى شتى المجالات العصرية.

لقد بات ملحاً على الإعلام الإسلامى أن يتصدى للتحديات والمخاطر التى تواجه الأمة، وتبغى اقتلاعها من جذورها، وأن تواجه صناعة الإعلام الغربية فى وصم الإسلام بالتخلف وعدم الصلاحية، وأن يتبنى هذا الإعلام كشف تزييف الأطروحات الإعلامية الغربية، بشأن القضايا التى تعكف على ترديدها بإلحاح، لضرب صورة الإسلام والعرب والمسلمين فى الخارج، مثل الثيوقراطية والاستبداد، وخرق حقوق الإنسان، وامتهان المرأة، وإلصاق الإرهاب به والتعصب واضطهاد الأقليات، وعلى الإعلام الإسلامى أن يكون صوت الإسلام، والترجمان الصادق والأمين لمبادئه وثوابته وممارساته الحياتية إبان العصر الذى قدم نموذج الإسلام الصحيح فكراً وتطبيقاً وهو ما يقتضى عرضا لمبادئه وهويته وأطروحاته الحياتية، بحسبان هذا الإعلام، هو فن إيصال الحق للجماهير بقصد الإقناع به وغرس الالتزام به، وفن كشف الباطل ودحضه، قصد طرحه واجتنابه، فهى إذن مهمة بناء وتحصين.

وينبغى الاعتراف بأن رسالة الإعلام الإسلامى رسالة عالمية، تعرض بموضوعية وجاذبية فى آن واحد: شمول الإسلام كدين وحياة، وعقيدة وسلوك اجتماعى، مثال ومادة، تبنى الإنسان وتعمر الكون وترتقى به، تعبر عن خصوصية الإسلام، وقبوله للناس جميعاً.

لقد آن الأوان، أن يضطلع الإعلام الإسلامى، بتقديم الفكر الإسلامى فى القضايا التى تطرح فى الإعلام الغربى من منطلق الغزو الفكرى والتى تشكل رأس حربة تطعن الوجود الإسلامى، فمن المعلوم الجلى مسخ الإعلام الغربى لصورة الإسلام، وتقديمه كنظام حكم ثيوقراطى (نظرية الحكم الإلهى).. وهذا محض هراء، لأن الحاكم فى الإسلام هو حاكم مدنى من كل الوجوه وليس حاكما دينيا، ونظام الحكم فى الإسلام هو عقد اجتماعى بين الحاكم والأمة هى التى توليه السلطة باختيارها، وهى التى تقومه إذا انحرف وتقوم على نصحه، وتعزله إذا خرج على الشريعة الإسلامية.

ولعل فى مقولة: أبى بكر الصديق ما يؤكد هذه الحقيقة: «إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى».

والحكم فى الإسلام ينأى عن الاستبداد، ويبغى الحق والعدل، ونصوص القرآن صريحة فى هذا المعنى:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(ص ـ ٢٦)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء ـ ٥٨)

والشورى ركيزة الحكم الإسلامى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

(آل عمران ـ ١٥٩)

وهو خطاب الله لرسوله النبى والحاكم السياسى.. كذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

(الشورى ـ ٣٨)

بهذا المنحى يتجه الخطاب الإعلامى، بإلصاق كل اتهام يثار ضد الإسلام، وهو ما يبغى التصدى له ببيان الفكر والواقع الإسلامى الأول، الذى نبع من معين الإسلام والتزم بتعاليمه الصحيحة غير المشوشة ولا المبتورة.

وما يدعيه الإعلام الغربى عن خرق حقوق الإنسان فى الإسلام[1]، هو تعبير عن الانتهازية الإعلامية، التى تأخذ من الواقع المتردى الحالى سنداً لها، لكى تبلغ مرادها فى تشويه الإسلام، ومصادرة مبادئ الحرية والمساواة والحرية بشعبها المتعددة، حرية الرأى، وحرية التعليم، والحرية الشخصية وحرية التنقل، وحرية الملكية، المكفولة فى الإسلام، ولا أدل على كفالتها من تقريرها بحسم وصراحة، فى قضية العقيدة، وهى إلصاق الحريات مساساً بالإسلام، ومجابهة له، ومعلوم أن تقرير الحرية الأعلى، يتضمن تقرير الحريات الأدنى بالضرورة، وبطريق الأولى:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس ـ ٩٩)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية ـ ٢١، ٢٢)

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾

(مريم ـ ٩٣)

وليس أقوى من إثبات الحرية للإنسان، من خضوعه لعبودية الله وحده دون سواه، وحقه فى اختيار الدين الذى يرغبه، واقتصار العبودية لله، يستوجب تحريره تجاه الناس، وحقه فى حرية الرأى والتعبير، وسائر الحريات الأخرى.

وعلى نفس المنوال، ينبغى تناول حقوق الأقليات، والإسلام يفارق النظم الأخرى فى أنه لا يعامل غير المسلمين داخل دولته على أنهم أقلية، بل إنهم يتمتعون بالرعوية ـ جنسية الدولة ـ شأن المسلمين وهم مكرمون بتكريم الله لهم، ووجوب المحافظة على حقوقهم الإنسانية..

(١) انظر للباحث: حقوق الإنسان فى الإسلام ١٩٩٩.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

(الإسراء ـ ٧٠)

وامتثالا والتزاماً بذلك، نهض الرسول ـ صلوات الله عليه ـ واقفاً حينما مرت عليه جنازة ليهودى، فلما أخبره بعض صحابته عن أنها ليهودى، قال: «أليست نفساً».(٢)

وثمة قاعدتين ذهبيتين فى معاملة غير المسلمين هما: «أمرنا بتركهم وما يدينون».. وقاعدة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وبمقتضاهما فهم أحرار فى العقيدة، وممارسة الشعائر الخاصة بهم. ناهيك عن مساواتهم المسلمين فى الحقوق والواجبات، والمشاركة فى مؤسسات المجتمع المدنى.

وتأتى حقوق المرأة فى هذا المضمار، بوجوب التصدى لما يروجه الإعلام الغربى من أفكار مغشوشة، عن وضعها فى المجتمع وفات هذا الإعلام أن المرأة مخلوق مكرم، وهى مع بنات جنسها شقائق الرجال، ونصوص الإسلام وممارساته ترى فى هذا الموضوع:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

(آل عمران ـ ١٩٥)

وفى الحديث: النساء شقائق الرجال (٣)

وهى صاحبة حق كالرجل فى اكتساب الحقوق والتحمل بالواجبات: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

(النساء ـ ٣٢)

وهى بموجب ذلك تتمتع بالاستقلال فى الشخصية، والذمة المالية عن الرجل، لها الحق فى المشاركة السياسية، فقد بايعت الرسول فى تأسيس الدولة، فى بيعة العقبة الثانية. فضلا عن الدفاع عن حقوقها الخاصة، والاجتماعية. فقد عارضت امرأة عمر فى تحديد المهر وسلم لها عمر بذلك قائلا: «أصابت امرأة وأخطأ عمر» ولا ينفك الإعلام الغربى عن وصم الإسلام بالنقائص، ولا يفتأ أن يواصل حملته ضده بنسبة اتهام إثر آخر، ومن جملة هذه الاتهامات تصوير الإسلام بأنه دين التعصب، ورفض الآخر، ويصم أتباعه بالجمود وضيق الأفق، وهذا من الإفك الذى لا يسوغه الدين والعقل المنصف ويدحض هذا المنظومة القرآنية فى جوانبها العقيدية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية، فإنها تعتمد الحوار، وتبرهن على حقائق الإسلام لإقناع المخالف، وهو ما جعل الإسلام بحق دعوة للحوار والمناظرة وكلها تشهد بالسماحة والتسامح الإسلامى، وهاك طرفا من هذه النصوص:

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(سبأ ـ ٢٤)

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(فصلت ـ ٣٤)

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت ـ ٤٦)

ويقول الرسول ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وليس المقام مقام إسهاب وتجلية لموقف الإسلام من هذه القضايا المشتعلة، والتى يقصد الإعلام الغربى من وراء إثارتها إلى حرق الإسلام، وتقويض بنيانه من الأساس، واقتلاع هويته، وإنما هى إشارة وتوجيه لما يجب على الإعلام الإسلامى عمله فى الاتجاه الصحيح حماية لقيم الإسلام ومعتقداته وجوهر ثقافته وبناة حضارته ورموزه وستظل هذه الرسالة، هى تلخيص لطبيعة المهمة التى على الإعلام الإسلامى أن يضطلع بها، ويعبئ إمكانياته، ويحشد طاقاته من أجل إعلام الآخرين بها، لأن الوجود الإسلامى فى الإعلام الإلكترونى لايزال قاصراً، وحبيس أفكار تقليدية، وأسلوب قاصر عن مواجهة تكنولوجيا الاتصال، وتقنيته الجبارة، وهو ما يكرس البون الشاسع بين التفوق الغربى والانكسار الإسلامى فى مجالات شتى، ولعل ما يبرهن على عمق التفاوت بين نظام الإعلام الغربى والإعلام العربى والإسلامى، يظهر فى هلع بعض الأنظمة العربية الإسلامية من إشاعة الأفكار التحررية والديمقراطية وما قد تحدثه من ثورة على النظم السلطوية الاستبدادية، وسحب البساط من تحت أقدامها، وتقويض عروشها.

ويبرز فى هذا المقام الدور البناء الذى ينبغى أن يلعبه الإعلام الإسلامى فى تبنى أوجاع العالم الإسلامى، من احتلال أراضيه، وتدنيس مقدساته والاعتداء على حقوقه كما فى فلسطين والقدس والعراق، وحماية الأقليات المسلمة ضد الإبادة فى الفلبين والهند وبورما وكشمير وكوسوفا، والشيشان والبوسنة حيث تتعرض هذه الأقليات للعسف والمهانة، لا لشىء إلا بسبب دينها، وإصرارها على إسلامها.

وعلى الإعلام الإسلامى أن يطور نفسه، وأن يرسم خططه ويحدد أهدافه، ويعى خطورة مهمته، بما يمثله من خط الدفاع الأول، وصوت الأمة فى تحصين عقائدها، وبعث شخصيتها، وأبراز هويتها، والمنافحة عن قضاياها، والدعوة إلى الإسلام والتوعية به، وأن يتصدى للرد على حملات التشكيك والتشويه فى الإعلام الغربى، حيث تزخر العديد من وسائل الإعلام بالسموم والأباطيل، والتشكيك فى الإسلام، وطمس معالمه بأساليب مكشوفة، وألاعيب مفضوحة، وهو ما سنعرض لنموذج منه مدحاً وقدحاً، وهو ما ينبئ عن الأسلوب الغربى فى طرح القضايا الإسلامية.

إن الإعلام العربى الإسلامى مطالب بأن يساهم بالحلول الإسلامية والتصورات الإسلامية بشأن المشترك من القضايا التى باتت عالمية فى طبيعتها ومحتواها مثل البيئة والإرهاب والمخدرات والإيدز، وانهيار الأسر والأخلاق وما على شاكلتها من المشكلات الضاغطة التى تؤرق العالم، والتى تحتاج إلى تضافر الجهود، وإيقاظ الضمير العالمى، وبالقطع فإن للإسلام موقفاً ناصعاً ليت إعلامنا ينجح فى تقديمه للعالم، ويقينا فإنه سيساهم فى إيجاد العلاج لها، والحد من الآثار الضارة لها، وترشيد السلوك الإنسانى إزاءها.

(يتبع)

(٢) كشف الخفا.

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.

وسائل انتشار الإســـلام فى إفريقيا (٢)

للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة



سادسا: مراكز الإشعاع الإسلامى:

الأزهر منار الثقافة الإسلامية

كان لمصر دائما دور كبير كمركز للإشعاع الحضارى والثقافى فى إفريقيا فمصر اتخذت سياستها منذ العصور القديمة فى الاتجاه نحو منابع النيل الذى نظر إليه على أنه شريان الحياة فى ضوء حقيقة أن مصر هبة النيل، وقد كانت الصلة وثيقة بين مصر وجنوبها فى كوش ومروى وعن طريقها انتقلت حضارة مصر الفرعونية القديمة جنوبا، وقد قام الكثير من الباحثين الغربيين وغيرهم بتحليل آثار الحضارة المصرية على الجنوب وذلك قبل مجئ المسيحية والإسلام إلى مصر بآلاف السنين.

وفيما يتعلق بالنواحى الدينية والروحية فمن الواضح أيضا أن مصر الفرعونية كانت مركز إشعاع حضارى وثقافى للجنوب ومنها - على ما يعتقد الكثيرون - أخذت وانتشرت فكرة التوحيد التى بدأت بها، وكانت مصر هى نقطة الارتكاز والانطلاق لكل من المسيحية والإسلام.

وقد كان للموقع الاستراتيجى لمصر فى طريق سفر وانتقال الحجيج من شمال وغرب إفريقيا إلى المناطق المقدسة بالأراضى الحجازية لأداء شعائر الحج دوره فى ربط مصر بالمناطق الإسلامية، فهى تتحكم فى الباب الشمالى لشرقى إفريقيا.

ويعد الأزهر أهم ما تركه الفاطميون من آثار خالدة فى مصر على مر العصور بالإضافة إلى القاهرة [١]، فبعد إنشاء القاهرة لتصبح العاصمة أمر المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى

(١) الأزهر فى ٦٢ عاما. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٦١.

ولمزيد من المعلومات انظر: الكتاب التذكارى: العيد الألفى للأزهر، إعداد محمد رجب بيومى ود. عبد الودود شلبى. القاهرة: الأمانة العامة للعيد الألفى للأزهر، ١٩٨٣. والأزهر: تاريخه وتطوره. القاهرة: الأمانة العامة للعيد الألفى للأزهر، ١٩٨٣م. محمد كمال السيد محمد، الأزهر جامعا وجامعة أو مصر فى ألف عام، سلسلة البحوث الإسلامية. القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٩٨٦. وعن دور الأزهر انظر: ماجدة على صالح ربيع، الدور السياسى للأزهر، رسالة دكتوراة منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٠، إشراف د. حورية توفيق مجاهد.

بإنشاء الجامع الأزهر [٢] حيث أرسى قواعده فى ٢٤ من جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ (٩٧٠م) واستكمل بناؤه وصليت فيه أول جمعة فى ٧ من رمضان عام ٣٦١هـ. وكان الغرض من إنشائه أن يكون المسجد الرسمى الجامع للقاهرة العاصمة الجديدة أسوة بجامع عمرو بالفسطاط، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قصد من إنشائه أن يصبح مركز النشر للدعوة الفاطمية ومناهضة الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الأموية فى قرطبة بهدف انتزاع زعامة العالم الإسلامى من العباسيين. فقد كان الهدف أن يتلقى فيه الطلاب أصول المذهب الشيعى، مذهب الدولة الفاطمية على يد أساتذة شيعيين على أمل نشر نفوذهم.

ومن الجدير بالذكر أن الأزهر الذى نشأ فى كنف السلطة الحاكمة تأثر نشاطه بالتغيير الذى طرأ عليها. وقد نشط الأزهر منذ إنشائه وأسهم فى الحركة العلمية إسهاما كبيرا حيث كانت تعقد به حلقات لدراسة الدين واللغة والأدب والقراءات والنحو والمنطق والفلك. وإن كان قد ركز نشاطه فى ظل الدولة الأيوبية السنية المذهب التى جاءت على أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية ووجهت هجومها على كل ما يرتبط بالمذهب الشيعى وتخليص البلاد منه: فأبطلت صلاة الجمعة بالأزهر لنحو مائة عام وركدت الحياة العلمية التى ازدهرت من قبل [٣].

ولكن استعاد الأزهر نشاطه من جديد فى ظل العهد المملوكى خاصة فى ظل الحاكم الظاهر بيبرس الذى أمر بإعادة خطبة الجمعة وحلقات الدراسة ووصل عدد الدارسين إلى ٧٥٠ طالباً ليس فقط من القاهرة بل من ريف مصر ومن إفريقيا وشمال إفريقيا وتم تخصيص رواق لكل جنسية أو مجموعة من هؤلاء يقيمون به.. وعليه فإن الأزهر لم يعد فى العهد المملوكى مسجدا للعبادة فقط، ولكنه أصبح أيضا جامعة عليا

(٢) عرف الجامع الأزهر فى أول الأمر باسم جامع القاهرة ثم سمى بالجامع الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء، والتى تنتسب إليها الدولة الفاطمية. ويفسر البعض أن الاسم نسبة إلى ... الزهرية حيث كان يزمع إطلاق اسم الزهراء بدلا من القاهرة على العاصمة الجديدة. انظر: الأزهر فى ٦٢ عاما، مرجع سابق، ص ٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥.

للدراسات الإسلامية والعربية ومركزا لأعمال الدولة الرسمية كما كان يؤمه الفقراء والحجاج والمسافرون والمتصوفة وغيرهم [٤].

أما في العصر العثماني فقد ركد نشاط الأزهر العلمي وتأثر بالركود الذي عم كل مظاهر الحياة في البلاد. فانصرف عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية ونادت آراء بتحريمها وجمد الفكر عند علوم السلف ولكنه لم يركد كمركز جذب وإشعاع حيث ظل يجذب طلاب العلم وعمل على الحفاظ على الثقافة العربية الإسلامية من الاندثار. وقد درست به آنذاك مذاهب الفقه الأربعة وكان لكل مذهب شيخه وإن كانت مشيخة الأزهر للشافعية في معظم الأحوال. وقد أنشئت وظيفة شيخ الأزهر في نهاية القرن السابع عشر الميلادي وأصبح هذا المنصب وقفا على كبار العلماء [٥].

ومن الجدير بالتأكيد في هذا المجال على أن الإسلام لا يعرف مفهوم رجل الدين المعروف في المسيحية ولا يعرف السلطة الكهنوتية ولا الهيراركية الكنسية، وليس لديه أسرار، ولا يتمتع أي شخص بالقداسة [٦]. فما يعرفه هو العالم بأمور الدين والفقه وليس رجل الدين. وبالتالي فإن شيخ الأزهر هو موظف في الدولة ولكن من هيئة كبار العلماء ـ علماء الدين الإسلامي ـ وهم جميعا أصحاب فضيلة لعلمهم بالأصول الشرعية ولكنهم ليسوا أصحاب قداسة.

وقد تطور الأزهر ليصبح جامعة علمية إسلامية بل إنه في الواقع «أكبر وأقدم جامعة علمية إسلامية عرفها الشرق» [٧] بل إنه أقدم جامعة إسلامية في العالم. ويرجع الفضل في تطوير الأزهر ليصبح جامعة علمية بجانب رسالته كجامع إلى الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس حين استأذن العزيز بالله ـ ابن المعز لدين الله ـ في تعيين جماعة من الفقهاء للتدريس فيه تحت رياسة أبي يعقوب القاضي. وكان قوام الدراسة فيه في بدء الأمر انضمام الطالب لحلقة دراسية تحت أحد الأساتذة [٨] حتى يكتسب علما ثم يتسلح عن أستاذه ويتولى بدوره عرض علمه على الطلاب فإذا لقي استجابة ونجاحا أصبح من العلماء وإلا فإنه يعود لاستكمال العلم عند أستاذه في حلقته. وبإنشاء منصب شيخ الأزهر أصبح هو المرجع في منح الإجازة التي تبيح لصاحبها التدريس والإفتاء والقضاء [٩].

وقبل أن تنتقل الدراسة للمباني الحديثة كانت

---

(٤) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٦) ويلاحظ أن البعض من مذاهب الشيعة يركز على أهمية رجال الدين وامتلاكهم قوى خارقة. حيث يعتقد بأن الإمام معصوم ويمثل مركز السلطة والمعرفة وهو محور التنظيم الشيعي، كما يعتقد بعضهم أن الوحي الإلهي فهو ينفذ كلام الله، وهو يصبح محور الولاء والطاعة. ولمزيد من المعلومات عن الاختلافات انظر: إحسان إلهي ظهير، بين الشيعة وأهل السنة. الرد على الدكتور علي عبدالواحد وافي في كتابه، لاهور ـ باكستان: إدارة ترجمان السنة، ١٩٧٩.

(٧) الأزهر في ١٢ عاما، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٨) كان الأزهر رائدا في استخدام مفهوم «الأستاذ كرسي» المنتشرة في الجامعات المختلفة حتى الأجنبية منها.

(٩) المرجع السابق، ص ٧٥.

تتم في المسجد وعلى نظام الحلقات حيث يحيط الطلبة بالأستاذ. وقد أنشأ الأزهر معاهد دينية ملحقة به منتشرة في أنحاء مصر. وتطورت الدراسة وأصبحت تقوم على مراحل دراسية وتبلورت المواد التي تدرس بكل مرحلة كما خضعت المناهج للتطوير. وقد أعطى القائمون على الدراسة بالأزهر اهتماما خاصا بالوافدين من دول العالم المختلفة.

وقد بدأت جامعة الأزهر عهدها العلمي بثلاث كليات هي كلية أصول الدين (١٩٣٠م) وكلية اللغة العربية (١٩٣١م) وكلية الشريعة (١٩٣٣م). وبلغ عدد كليات الجامعة عام ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ خمسين كلية بين نظرية وعملية [١٠].

وبلغ عدد الطلاب الوافدين من إفريقيا عام ٩٧ / ٩٨ نحو ١٤٢٩ طالبا يدرسون في كليات الجامعة المختلفة ولكن تركيزهم الأساسي على دراسة اللغة العربية والشريعة والقانون وأصول الدين والتربية. بالإضافة إلى عدد من الطالبات يبلغ ٧٧ طالبة يدرسن بكليات البنات بجامعة الأزهر مع تركيزهن على الدراسات الإسلامية العربية والدراسات الإنسانية والتجارة والعلوم [١١].

شهادات الغرباء ومعهد البحوث الإسلامية [١٢]:

وضع نظام لدراسة الغرباء أو الوافدين في عام ١٩١٦م. وقسم هذا النظام التعليم والشهادات الممنوحة لهم إلى ثلاثة أنواع:

«إجازة الغرباء» وهي شهادة تعطى لمن أتم الدراسة في أقل من ثمان مواد ونجح فيها.

«الشهادة الأهلية للغرباء» وتعطى لمن أتم دراسة في ثمان مواد ونجح فيها.

«الشهادة العالية للغرباء» وتعطى هذه الشهادة لمن أتم دراسة ١٢ مادة ونجح فيها.

وكان ينص في كل شهادة من الشهادات المذكورة على المواد التي امتحن فيها الطالب.

أما معهد البحوث الإسلامية فقد عرف في بدء الأمر باسم القسم العام وكان طلابه ممن لم تؤهلهم سنهم للالتحاق بالمعاهد النظامية، وكانوا خليطا من المصريين والوافدين يتلقون العلم في حلقات بالجامع الأزهر. وقد أنشيء معهد البحوث الإسلامية خصيصا للطلبة الوافدين وفي نفس الوقت يسمح فيه لكثير منهم لالتحاق بمعهدي القاهرة والإسكندرية. وقد قسم التعليم بالمعهد في بدء الأمر إلى ثلاث مراحل تعادل المراحل القديمة في نظام الأزهر:

المرحلة الأولى: ومدتها أربع سنوات، يمنح الناجح بعدها «الشهادة الابتدائية للبحوث».

المرحلة الثانية: ومدتها خمس سنوات، يمنح الناجح بعدها «الشهادة الثانوية للبحوث».

المرحلة الثالثة: ومدتها أربع سنوات، يمنح

---

(١٠) د. أحمد عمر هاشم، التقرير السنوي عن شئون الجامعة العربية والتعليمية والإدارية والمالية ومستويات العاملين عن شئون الدراسة والامتحانات والنتائج والإحصاء والحاسب الآلي، القاهرة: جامعة الأزهر، ١٩٩٤/ ١٩٩٥، ص ٢٣.

(١١) د. أحمد عمر هاشم، مرجع سابق، ١٩٩٧/ ١٩٩٨، ص ١٣١ ـ ١٣٦، ولبيان تفصيلي انظر ملحق رقم (٢) من هذا المؤلف.

(١٢) المرجع السابق، ص ٩٣ ـ ٩٥.

الناجح بعدها «الشهادة العالمية للبحوث».

أما النظام الحديث الذى أصبح متبعاً بعد التطوير فيشمل مرحلتين:

المرحلة الأولى: ومدتها أربع سنوات، ويحصل فى نهايتها الطالب على الشهادة الإعدادية ويدرس نفس المناهج التى تدرس فى المعاهد الأزهرية الإعدادية.

المرحلة الثانية: ومدتها خمس سنوات، ويحصل بعدها الطالب على الشهادة الثانوية الأزهرية المعادلة. ويمكن التقدم بعدها للالتحاق بالكليات المختلفة النظرية أسوة بخريجى المعاهد الثانوية الأزهرية العامة بالإضافة إلى كليات جامعة الأزهر.

وقد ساير تطوير معهد البحوث الإسلامية ما طرأ على الأزهر من تطوير أدخلت بموجبه دراسة وتخصصات العلوم المختلفة بالإضافة إلى العلوم الدينية(١٣).

وإذا كان الشيخ محمد عبده فى إطار آرائه فى تجديد الفكر الإسلامى(١٤) قد وجه هجوماً شديداً للأزهر وهو أحد خريجيه وعلمائه فإن هدفه كان تطوير الأزهر والاهتمام بالعلوم المدنية حتى يمكنه تخريج دارسى العلوم الدينية والعلوم المدنية المواكبين للعصر.

هذا ويوكل إلى بعض الأساتذة المختارين تعليم اللغة العربية لمن لا يجيدونها من الوافدين غير العرب وإعدادهم للالتحاق بمراحل التعليم المختلفة. ويسكن هؤلاء الوافدون فى الأروقة(١٥) الخاصة بهم. ولما كثر عددهم عن أن يستوعبها أنشأت لهم مشيخة الأزهر المساكن الحديثة (مدينة سكنية ضخمة) فى مدينة البعوث الإسلامية(١٦) تحت إشراف مراقبة البعوث الإسلامية.

وعليه كان لإنشاء الأزهر فى مصر دوره

(١٣) عن قانون تطوير الأزهر انظر المرجع السابق، ص ١٠٢ ـ ١٢٨.

(١٤) ولمزيد من المعلومات عن الشيخ محمد عبده وآرائه فى مجال التجديد وتطوير التعليم بالأزهر والتعليم عامة انظر: د. حورية مجاهد، الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص ٤٩٦ ـ ٥٤٣.

(١٥) الأروقة الخاصة بالوافدين من إفريقيا هى: رواق المغاربة (الطلاب شمال إفريقيا)، رواق الجبرت (الطلاب منطقة الصومال وما حولها)، رواق البرنية (الطلاب شمال ووسط إفريقيا)، رواق البرابرة (الطلاب موريتانيا والبلاد المحيطة)، رواق التكارنة (الغربية) الدارفورية (الطلاب دارفور وتكرور وبلاد غرب إفريقيا)، رواق السنارية (الطلاب منطقة سنار).

وهناك أروقة أخرى للوافدين من المناطق الإسلامية المختلفة: رواق الحرمين (الطلاب أهل مكة والمدينة والطائف)، رواق الشوام (الطلاب أهل الشام)، رواق جاوة (إندونيسيا) (الطلاب إندونيسيا والفلبين والملايو وسيام)، رواق السليمانية (الأفغان) (الطلاب الأفغان وما وراء النهر)، رواق الأتراك (الطلاب الأتراك وأهل تركستان وألبانيا والبوسنة ويوغوسلافيا وروسيا)، رواق اليمنية (الطلاب أهل اليمن)، الرواق العباسى (الطلاب الأكراد)، رواق الهنود (الطلاب من أهل الهند وباكستان)، رواق البغدادية (الطلاب من أهل إيران والعراق والبحرين وكردستان والكويت)، رواق الصين (الطلاب من أهل الصين).

لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد شفا زيتون، «تأثير الأزهر فى الخارج: بين الماضى والحاضر»، مجلة الأزهر، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، الجزء التاسع السنة الخامسة والخمسون، يونية ١٩٨٣، ص ١٣٠٢، ١٣٠٤.

(١٦) وهى مدينة طلابية بطريق صلاح سالم بالقاهرة.

الكبير كمصدر ومركز للإشعاع الثقافى الإسلامى.

وقد أوضح أحد المستشرقين وهو جاك بولان، أهمية دور مصر عامة والأزهر خاصة في هذا المجال بقوله: «تعد مكة المكان المقدس عند المسلمين، وتعد القاهرة مركز الثقافة الإسلامية، ومكانة الأزهر فى العالم الإسلامى لا تعادلها مكانة، ومنذ قرون عديدة والأزهر مفتوح للمسلمين يحجون فيه العلم ومشعل النور، بل يجدون فيه المأوى والزاد، وكان الإفريقيون يتدفقون إليه ليتعلموا علوم القرآن والحديث وغيرها، ولكن مصر كانت تستغل الأزهر لتغرس فى نفوس الوافدين إليه ألوانا من المعارف والثورات والاتجاهات القومية، مما حدا بأحد قادة نيجيريا أن يصرح: «إن مسلمى نيجيريا يعدون الأزهر مركز القيادة للعالم الإسلامى كله»(١٧).

وعامة ينظر للأزهر وشقيقاته فى شمال إفريقيا ـ القيروان والزيتونة ـ من جانب المبشرين المسيحيين على أنها مصانع تنتج دعاة إسلاميين مزودين بمنطق عاطفى يكون لتأثيره بين مواطنيهم من الوثنيين والمسيحيين بعد عودتهم فعل السحر.

وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أنه قد نشأت فى إفريقيا جنوبى الصحراء مراكز ثقافية فى جاو وحتى أرجمة وتمبكتو فى شمال مالى وعرفت فترة ازدهار كبيرة.

ولكن التركيز على الأزهر بالذات يرجع لامتداد نشاطه لأكثر من ألف عام منذ إنشائه ولرسالته الدعوية كمركز إشعاع ثقافى. ولا يتصور البعض مدى انجذاب الإفريقيين وتقديرهم لكل من يلبس الملابس الأزهرية حيث يحرصون على أن يحصلوا منه على البركة. بل أن السفير المصرى نفسه فى كثير من المناطق الإفريقية يحرص الإفريقيون المسلمون على أن يتباركوا به بعد صلاة الجمعة، لأنه من بلد الأزهر.

وقد لعب الأزهر دورا ثقافيا رئيسيا كان له أثره فى نشر الإسلام وإن كان دوره غير مباشر فى هذا المجال، خاصة عن طريق المنح المعطاة للدارسين من الدول الإفريقية للدراسة بالأزهر فيعود لكل من الدارسين خريجى الأزهر داعية للإسلام من إفريقيا ذاتها ليقوم بنشر الدعوة فى مجال شعبه عملاً بقوله تعالى:

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾

(التوبة: ١٢٢)

وينجذب إليهم الأفراد نتيجة لتقدمهم الثقافى وقدرتهم على التعبير باللغات المحلية وكذلك لباسهم المميز.

«يتبـــع»

(١٧) النص فى د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ١٧٦، نقلاً عن جاك بولان: The Arab Role in Africa, p. 59.

نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية



أ.د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

ورئيس قسم العلوم السياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

الأبعاد المنهاجية والنظرية

إن خبرة عقد من الحوارات (٢٠٠١ - ٢٠١١) والتي انشغل بها العالم، على مستويات عدة: وطنية وإقليمية وعالمية، وعبر دوائر متنوعة: أكاديمية، فكرية، إعلامية، سياسية... وفي مجالات ثلاثة متداخلة: الأديان والثقافات والحضارات. إن هذه الخبرة المعقدة والمركبة والمتشابكة وإن دلت على شيء فهو أن الأمم والشعوب والجماعات لا يمكن أن توجد بمعزل عن بعضها، ولكن الأهم هو كيف يحدث التفاعل والتبادل، صراعا أم تعاونا، سلما أم حربا، وهل هناك حاجة لمدخل آخر هو «التعارف»؟ وهو ما يتصدى له المؤتمر بحثا في خريطة تأصيل «التعارف» كمفهوم، أو خطاب، أو عملية أو مشروع، وتطرح هذه الخريطة إشكاليات متعددة أمام بناء «نظرية التعارف»، كما تنبه هذه الخريطة إلى ضرورة التمييز بين عدة أمور: التعارف: رؤية للعالم أم غاية أم سبيل لغاية؟ ونحو أية غاية؟ ومجالات التعارف هل هي معرفية أم سياسية أم..؟

وإذا كانت بحوث عدة تساهم في هذا البناء من مداخل متعددة فإن دراستي تنطلق من مستوى سياسي-عسكري، وعلى مستوى النماذج التاريخية، ولاختبار إطار نظري، وأخيراً والأهم لاستكشاف الدلالات الراهنة لهذه النماذج في ظل «حالة ثورات الشعوب العربية».

ومن ثم فإن الدراسة تنبني على أربعة أبعاد منهاجية ونظرية وهي كالآتي:

أولاً: منظومة أو شبكة مفهوم التعارف، سياق التعارف، دوائر التعارف الحضارية محل الاهتمام، صعوبات المدخل السياسي- العسكري التاريخي للتعارف، ثانيا: الإطار النظري، ثالثا: المنهج، رابعا: الدلالة الراهنة.

(١) المفهوم، السياق، الدوائر، الصعوبات:

التعدد، التنوع، التعارف، الحوار، رباعية تقع في صميم المنظور الحضاري للعلاقات بين الأمم والشعوب والدول[١].

(١) د. نادية محمود مصطفى، العلاقات الدولية في الإسلام: نحو تأصيل من منظور الفقه الحضاري، مجلة المسلم المعاصر، العدد (١٣٣/ ١٣٤)، ديسمبر ٢٠٠٩، ص ١٢١-١٨٩.

وتنتظم هذه الرباعية في إطار منظومة أكثر كلية وشمولاً من السنن الحضارية: التعارف الحضاري، التدافع الحضاري، التداول الحضاري[٢].

إذن، التعارف ليس إلا منطلقا لدورة من العمليات والتفاعلات الحضارية يعقبه منطلقات أخرى ويسبقه منطلقات أخرى أيضا.

هذا، والتعارف لا يتم في فراغ ولكن في بيئة أو (نسق) قد تختلف طبيعتها من مرحلة إلى أخرى، صراعا أو تعاونا، سلما أو حربا. فإذا كان الحوار هو إدارة سلمية للصراع بالكلمة، فليس من الحتمي أن يكون التعارف دائما في بيئة سلمية، أو لا صراعية. ومن ثم، فإن التعارف قد يكون في إطار صراعي (أو تعاوني) سلمي حواري، وقد يتحقق في إطار صراعي من خلال الحرب والدبلوماسية. فكيف إذن تصبح الحروب والدبلوماسية سياقاً للتعارف أو تمثل نسقاً للتعارف؟ وما الفارق بين التعارف في ظل بيئات مختلفة؟

وكيف كانت الحروب والدبلوماسية مدخلاً للتعارف؟

سأحاول الإجابة عن هذا السؤال، من استقراء دائرة الحضارة العربية الإسلامية في تفاعلها التاريخي مع دائرة الحضارة الغربية؟ المسيحية، بحثا عن نماذج تاريخية تشرح حالات التعارف، وخاصة في وقت الحرب والدبلوماسية.

وقراءتي للتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي من منظور حضاري إسلامي لدراسة العلاقات الدولية، وهذه القراءة أسفرت، أو استهدفت؟ الاقتراب النظمي من تاريخ العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين، وهو الاقتراب الساعي لاستكشاف مراحل وأنماط تطور هذه العلاقات سلما وحربا وتدبر أسباب صعود الدولة الإسلامية ووحدتها ثم انحدارها وانقسامها، وهي قراءة ركزت ابتداء، على الأطر العسكرية والسياسية والدبلوماسية لهذه العلاقات[٣]، إلا أن هذه الأطر ما كانت تكفي بمفردها لفهم حقيقة الصورة الأعقد تركيباً من العلاقات الدولية للمسلمين، فهي لم تكن علاقات الحروب والمعاهدات فقط ولكن كان للعملة وجه آخر يتصل بالناس، وليس بالملوك والحكام وأمراء الجيوش والقادة والدبلوماسيين فقط، أي يتصل بالقيم والأفكار والعادات والتقاليد والثقافة وفي قلبها بالطبع الدين.

ولذا، فإن الحلقة الثانية من القراءة ركزت على النماذج الفكرية التاريخية أيضا، أي ركزت على الفكر السياسي في العلاقات الدولية[٤].

وهذا التقاطع بين «العسكري- السياسي» وبين الفكري الثقافي في تاريخ المسلمين، ليس من السهل اكتشافه، حيث تتم دراسة كل جانب على حدة، فالتواريخ الشاملة (أو الجزئية) السياسية والعسكرية في جانب وتواريخ الأفكار والحياة الاجتماعية والاقتصادية

(٢) انظر بناء المفهوم في: د. نادية محمود مصطفى- د. سيف الدين عبد الفتاح وآخرون: منظومة مفاهيم نظم الحكم والعلاقات الدولية في الإسلام، (في) د. أحمد فؤاد باشا وآخرون (محررون): موسوعة الحضارة الإسلامية، في: سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة (٤)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، ج. م. ع، ٢٠٠٥، ص ٣٩٧-٤٩٦.

(٣) انظر: د. نادية محمود مصطفى، مدخل منهاجي لدراسة التطور في وضع ودور العالم الإسلامي في النظام الدولي، (في): د. نادية محمود مصطفى (إشراف)، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦، الجزء السابع، هذا إضافة إلى أربعة أجزاء تطبيقية في إطار المشروع ذاته.

(٤) د. نادية مصطفى، دراسة العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي: بين الإشكالات المنهجية وخريطة النماذج والمفاهيم الفكرية، بحث أعد كإطار نظري لاستكمال المستوى الثالث من مشروع "العلاقات الدولية في الإسلام" والخاص بالفكر الإسلامي، يوليو ٢٠٠٨. (تحت الطبع).

في جانب آخر. ولكل من هذه التواريخ مصادرها كما تعدد الدعوات للاهتمام بنمطي التواريخ وليس أحدهما على حساب الآخر[٥].

وهنا تتجلى أهم صعوبات دراسة نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية حيث لأنماط الحروب والدبلوماسية ونماذجها عبر التاريخ الإسلامي مصادرها المنفصلة عن أنماط التعارف الحضاري عبر هذا التاريخ.

ومن ثم، فإن أهم متطلبات هذه الدراسة، وصولاً إلى تحديد «النماذج التاريخية» على اختلافها وتنوعها، هو استحضار خريطة النسق الدولي وموازين القوى بين الدول الإسلامية وغيرها عبر تطورها وتحولاتها من مرحلة إلى أخرى عبر أرجاء العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي تحققه دراسات التاريخ الإسلامي من مدخل نظمي، وليس دراسات التاريخ الإسلامي "التقليدية"، فالأولى استهدفت اكتشاف الأنماط التاريخية المتكررة في نظام العلاقات الدولية الإسلامية -غير الإسلامية في حين أن الثانية لم تستهدف إلا التاريخ ثم فلسفة التاريخ أي (تفسيره)[٦].

ونظراً، لأن الدراسة الحالية تهتم بنماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية وليس تاريخ التعارف خلال الحرب والدبلوماسية، فإن هذه الدراسة تستعين بما تم من قبل من دراسات نظمية للتاريخ وستركز تحديداً على خريطة من النماذج، التي ترتبط بسياقات زمنية ومكانية متنوعة وعلى نحوٍ يشرح كيف تؤثر توازنات القوى على اتجاه التعارف (من أين إلى أين)، وعلى نمط التعارف، وكذلك على محتوى التعارف وآلياته وأدواته. والنموذج التاريخي كما درسنا إياه وشرح لنا عنه أستاذانا المغفور لهما، أ.د. حامد ربيع وأ.د. منى أبو الفضل- يشير إلى خبرة محددة زماناً ومكاناً بشأن قضية تتجلى حولها أنماط من تفاعلات وعمليات تكتسب صفتها من واقع الظروف التاريخية التي تقع في إطارها. ومن ثم، فالحديث عن «نماذج تاريخية» إنما يعني الحديث عن سياقات محددة زماناً ومكاناً وليس حديثاً في تأصيل «التعارف» فقهياً أو فكرياً أو معرفياً. وهذه السياقات المختلفة لا تجعل «التعارف» أمراً واحداً مطلقاً.

(٢) ثانياً: الإطار النظري:

إن القراءة الأولية بحثاً عن "نماذج تاريخية" قادتني إلى تصميم إطار نظري أولي لعرض النماذج على ضوئه. وهو يقوم على التمييز بين عدة أمور على الجانبين التاليين:

الجانب الأول: التمييز بين التاريخ الإسلامي ومفاصل تطور التاريخ الإسلامي، والنماذج التاريخية، فالأول عام تتنوع مناهج دراسته تاريخاً أو تفسيراً، والثاني ينظر للتاريخ الإسلامي كنظام يتغير ويتحول، ومن ثم هناك مفاصل تحدد متى التغير ومتى التحول.

فعلى سبيل المثال: تاريخ الفتوح الإسلامية، تاريخ الاسترداد المسيحي، تاريخ الوحدة ثم التعدد ثم التجزئة الإسلامية، شهدت كل منها مفاصل مهمة تميز بين مرحلة وأخرى من مراحل هذه العمليات (فتح الأندلس، فتح القسطنطينية، الفشل العثماني على أسوار فيينا، سقوط غرناطة، احتلال الروس للقوقاز،.. سقوط ممالك الذيلع، الكشوف الجغرافية، الحملات الصليبية... إلخ.

أما النماذج التاريخية، فهي قد تتكرر في أزمنة وأمكنة مختلفة التفاصيل ولكن تظل تحمل نفس الدلالات الحضارية. فعلى سبيل المثال: نموذج الفتح، نموذج الاسترداد، نموذج التجزئة، نموذج الرباط، نموذج الخيانة، نموذج الموالاة والتبعية، نموذج النصرة أو الخذلان، ..إلخ.

وجميع هذه المفاصل والنماذج تحمل وجهي عملة: التعارف بالقتال والتعارف سلماً، أو التعارف خلال القتال والتعارف خلال السلم والناجم عن تلاحم «الناس» وليس مجرد احتكاك الجيوش والقادة والمفاوضين، وذلك خلال فترات الحروب. وهو تلاحم لابد وأن يختلف عن أوقات السلم (مثلاً في ظل التجارة، الدعوة، الرحالة..)، والتي تتعرض لها دراسات أخرى في المؤتمر.

ومن ثم، فإن الدراسة تحاول الإجابة على السؤال الآتي: أليس التعارف يجد سبيله أيضاً في أوقات القتال والدبلوماسية؟ وهو سؤال ينبع من تأصيل مفهوم التعارف ذاته: باعتباره عملية وليس غاية أو حالة مبتغاة في حد ذاتها، كما ينبع السؤال أيضاً من طبيعة الرؤية الإسلامية للحرب والسلم، باعتبارهما حالات للعلاقات تتناوب وتتوالى. وبالتالي، فهو لا ينطلق من سؤال هل أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم الحرب أم السلم، ولكن ينطلق من السؤال: متى تكون الحرب ومتى يكون السلم؟ كما أن هذا السؤال الذي تحاول الدراسة الإجابة عنه ينطلق أيضاً من مفهوم حضاري لدور الحرب ووظيفتها في الرؤية الإسلامية فهي ليست استئصالية للآخر، وليست غاية في حد ذاتها، ولكنها أداة من أدوات الجهاد وليست الأصل في الرؤية عن العلاقة مع غير المسلم[٧].

وبناء على ما سبق، ننتقل إلى الجانب الثاني من الإطار النظري.

الجانب الثاني:

إن التعارف ليس مصمتاً أو مطلقاً ولكن يجدر التميز بين الآتي:

١- اتجاه (التعارف): من أية حضارة نحو أية حضارة؟ زاهرة أم متدهورة؟ مادية أم قيمية؟ صاعدة أم هابطة.. أم تعارف متبادل بين حضارات أنداد؟

٢- هدف التعارف: البحث في المشترك أم الفروقات؟ (تجاوز الصور النمطية، فتح اندلاع الحروب، الأمن).

٣- مناط التعارف وموضوعاته: القيم، السلوك، المعارف، الأفكار، المؤسسات والنظم، ...الخ.

٤- نمط التعارف: رشيد/ ضال، إرادي / قسري، إلحاقي/ استباقي، استعلائي/ تفاعلي.

٥- آليات التعارف وقنواته وأدواته: من الذي يتعارف على من؟ وكيف؟ ومن الذي رصد هذا التعارف في حينه أو بعده وكيف أدركه؟

التعارف ليس سكونياً ولكنه عملية ممتدة معقدة ومركبة ومتغيرة وخاصة حين ننظر لها من الاقتراب العسكري السياسي.

---

(٥) د.نادية محمود مصطفى، مدخل منهاجي لدراسة التطور في وضع ودور العالم الإسلامي في النظام الدولي، مرجع سابق.

(٦) حول منهجية الوصول إلى هذه الأنماط انظر: المرجع السابق.

- وحول هذه الأنماط وأسس تفسيرها انظر: د.ودودة بدران، وضع الدول الإسلامية في النظام الدولي في أعقاب سقوط الخلافة [١٩٢٤-١٩٩٦]، في: مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، الجزء الثاني عشر.

(٧) د.نادية محمود مصطفى، إشكاليات البحث والتدريس في علم العلاقات الدولية من منظور حضاري مقارن، مؤتمر "حوار الحضارات والمسارات المتنوعة للمعرفة (المؤتمر الثاني للتحيز)"، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٧، (تحت الطبع).

ومن هنا، فإن النماذج التاريخية التي تقدمها الدراسة حاولت أن تعكس خريطة ممتدة زمنيا ومتنوعة جغرافيًا وموضوعيًا، بحيث تبين الأبعاد المشار إليها عاليًا للتعارف من ناحية. ومن ثم، تبين من ناحية أخرى إشكالية العلاقة بين العسكرى السياسى وبين الثقافى والحضارى.

فكلاهما ليس منفصلاً عن الآخر، ولا يمكن أن تكون دراسة كل منهما على حدة كافية لفهم حقيقة العلاقات المعقدة بين الحضارات والثقافات والأديان. وحتى لو كانت مداخل التعارف بين الحضارات تحاول أن تجد مخرجًا من تناقض القول إن هذه العلاقات صراعية (كما يقول الواقعيون) أو تعاونية (كما يقول المثاليون)، إلا أن التعارف ذاته بين الناس وخاصة الذى يتم خلال الحروب وإن نبع من رؤية حضارية إسلامية، لا يتم فى فراغ كما سبق القول، ولابد وأن يستدعى بدوره إشكالية العلاقة بين الحضارى وبين السياسى. وهو فى ذلك مثل كل ما درسناه عن الحوار كآلية لإدارة العلاقات بين الثقافات والحضارات والأديان [8]. فهو بدوره يتأثر بالسياقات المحيطة ومن ثم فلابد أن تتأثر نماذجه التاريخية بحالة الحرب أو الدبلوماسية المحيطة.

ويبقى أخيراً على خلفية هذا الإطار النظرى استدعاء قضية فكرية معرفية مهمة تقع فى صميم تاريخ «التعارف بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية»، وكانت موضع نقاش بين اتجاهات عدة ومحورها أن المسلمين فى عصر القوة والفتوح والازدهار لم يهتموا بالتعارف على غيرهم على عكس ما حدث منذ أن بدأ ميزان القوة في التحول لغير صالحهم، كما أن فشل الحملات الصليبية كان منطلق اهتمام الغرب بالتعارف علينا ومن ثم تدشين الاستشراق [9]. ولقد تعرض الاستشراق بدوره لتقييم متعدد الدرجات ما بين متهم له على إطلاقه بخدمة الاستعمار [10] وما بين مركز على النماذج الاستشراقية التى خدمت بصورة إيجابية التعرف على الإسلام بوجوهه المتنوعة (العقيدة، الشريعة، الحضارة والثقافة، التاريخ، الفنون...) [11]، وما بين داعٍ للتمييز بين الاستشراق القديم والاستشراق الحديث [12]، وما بين مهتم بمعرفة كيف يرد المستشرقون على الاتهامات الموجهة لهم من تيارات فكرية إسلامية [13]، وما بين مهتم بدراسة مواقف رموز الاستشراق التقليدى والحديث من قضايا مهمة فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والعالم وعلى رأسها

(٨) انظر إصدارات مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

(٩) انظر أبعاد هذا النقاش حول الأسباب والنتائج والتحولات (فى): د.نادية مصطفى، العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبى إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية (٦٤٢–٩٢٣هـ/١٢٥٨–١٥١٧م)، مرجع سابق، ص٣٨-٤٣، د.نادية مصطفى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق. وانظر أيضاً:

- د.علا أبو زيد، الغرب فى كتابات المسلمين بين التجهيل والافتتان والرفض، مجلة المؤرخ المصرى (دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة) قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٨، ١٩٩٢.

(١٠) جمال عبد الهادى وآخرون، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ: الدولة العثمانية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(١١) انظر على سبيل المثال: مقدمة المترجم والمحقق لكتاب: آنا مارى شميل، الجميل والمقدس: دراسات غير تقليدية فى الحضارة الإسلامية، تحقيق وترجمة: عقيل يوسف عيدان، الدار العربية للعلوم ناشرون، الكويت، ٢٠٠٨.

(١٢) أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: حوار الاستشراق، المركز العربى للدراسات الغربية، القاهرة، ١٩٩٩.

(١٣) مجموعة باحثين، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، بيروت، دار الساقى، ط٢، ٢٠٠٠.

الجهاد، والدعوة، والفتوح، والأقليات [14] وأخيراً ما بين متهم للشرق الآن بعدم القدرة على دراسة الغرب وفهمه [15].

وتمثل هذه القضية الإطار الكلى الذى يحيط بالدراسة: متى وكيف ظهر وتطور الاهتمام بدراسة «التعارف» بين الحضارتين؟

وما الفارق بين الاستشراق وبين الاستغراب؟ وما موضع قضية التعارف بين الحضارات منهما، وخاصة ما نحن بصدده في هذه الدراسة أي خلال الحروب والدبلوماسية؟

وبغض النظر عن تفاصيل الاتجاهات المختلفة حول الإجابة عن هذا السؤال، فإنه يجدر الإشارة إلى ما يلى:

التعارف السياسى ليس المحورى أو الوحيد فى التاريخ الإسلامى، والتاريخ الإسلامى ينصب على المعارك والدبلوماسية والسلاطين بين الحكام. ولذا، فإن التعارف السياسى من عدمه تابع للتواصل الحضارى بين الشعوب في التاريخ الإسلامى، فالأخير ممتد ومستمر مهما كانت حالة العداء أو التعاون بين الحاكم، لأنه أصل لا يتأرجح صعودًا وهبوطًا فى الرؤية الإسلامية الكونية الإنسانية.

(٣) المنهج:

ويقوم منهج الإجابة عن الأسئلة التى تطرحها الدراسة، وانطلاقًا من الاستدعاءات المتصلة بالمنظور الحضارى والمتصلة بلب قضية التعارف، على الخطوات التالية:

تحديد الفواصل التاريخية فى تطور العلاقات الدولية الإسلامية من جهة، ثم اختيار النماذج التاريخية ذات الدلالة بالنسبة للتعارف بأبعاده المختلفة المشار إليه عاليًا، ثم من جهة ثالثة القراءة فى أدبيات التاريخ الفكرى والاجتماعى والاقتصادي لهذه العلاقات بحثًا عن النماذج التى استدعت الأبعاد الحضارية خلال هذه الفواصل ولنتعرف كيف تم إدراك حالة التعارف وبواسطة من؟

وأخيراً، محاولة تقسيم الفواصل التاريخية فى محاور كبرى وتقديم بضعة نماذج عن كل محور، دون إدعاء بالطبع بشمول هذه النماذج، فهى ليست إلا مجرد حالات انتقائية. وذلك على ضوء معارف الباحث، وقد تعكس اهتمامًا ذاتيا فى حدود الاطلاع على التواريخ الاجتماعية والاقتصادية فى نطاق اهتمام الباحث كمتخصص في العلاقات الدولية، وليس الأنثروبولوجيا أو دراسات المناطق أو الدراسات الثقافية أو التاريخ، ولذا تظل هذه النماذج مجرد نماذج وليس النماذج الشارحة للصورة الكلية للتعارف بكافة جوانبه المشار إليها عاليًا.

ومن ثم، لابد أن يدعم هذه النماذج ويراكم عليها حالات أخرى، تتطلب دراسة منظمة كلية فى التواريخ الدولية؟ سواء السياسية أو الاقتصادية– الاجتماعية– لرسم خريطة أكثر شمولاً من ناحية، ولمناقشة دلالة الإطار النظرى المقترح فى هذه الدراسة من ناحية أخرى، بل وللنظر فى مدى «مصداقية» ما يقدمه فى هذه الدراسة من مقولات وذلك على ضوء النماذج المقدمة. فإن هذه الدراسة وإن انطلقت من منظور حضارى إسلامى لدراسة العلاقات الدولية الإسلامية، فما موضع اختلافها مع ما قد يتم من دراسات أخرى مناظرة ولكن من منظورات أخرى حول نفس القضية «التعارف من خلال الحروب والدبلوماسية»؟

(١٤) انظر تحليل مقارن لكل من برنارد لويس، مجيد خدورى، مارسيل بوازار، توماس أرنولد، (فى): د.نادية مصطفى، العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق.

(١٥) مجموعة باحثين، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، مرجع سابق.

فتاوى لها تاريخ



للأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

ولاية المرأة الأم

(السؤال): سأل محمود جمعة، فى: بنات قاصرات مشمولات بوصاية أمهن، فهل لها ولاية عقد زواج إحداهن متى شاءت، مع وجود أخ عاصب فقط لهن ذى سمعة؟ أو تكون الولاية له؟ أو للقاضى؟ أو نائبه؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب): صرحوا بأن الولى فى النكاح هو البالغ العاقل الوارث، ولو فاسقاً، على المذهب، ما لم يكن متهتكاً أو سيء الاختيار، فسقاً أو مجانة، قال فى «الفتح»: وما فى «البزازية» من أن الأب أو الجد إذا كان فاسقاً فللقاضى أن يزوج من الكفؤ. غير معروف فى المذهب وفى «القهستانى» نقلاً عن الكرمانى: لو عرف سوء اختيار الأب فسقاً أو مجانة لم يجز عند الإمام، وهو الصحيح، وحملوا كلام البزازى على كلام الكرمانى بأن يراد بالفاسق سيء الاختيار، وحملوا المذهب على ما إذا كان الفاسق غير سيء الاختيار ولا متهتكاً، فأما سيء الاختيار فتزويجه من غير كفؤ أو بنقص مهر باطل إجماعاً، وأما الفاسق المتهتك، غير سيء الاختيار، إذا زوج من غير كفؤ أو بنقص مهر، فلا ينفذ تزويجه كذا قال علماؤنا.

ومنه يعلم أنه متى كان سوء سمعة الأخ العاصب، المذكور فى السؤال، بتهتكه أو سوء اختياره، فسقاً أو مجانة، لا يجوز له أن يزوج واحدة من أخواته البنات المذكورات، وحيث إن الولى فى النكاح العصبة، على ترتيب الإرث، فإن لم يوجد عصبة فالولاية للأم، وليس لهذا الأخ العاصب التزويج، كما ذكر، ولم يوجد غيره من العصبة المقدمة على الأم فيكون للأم ولاية تزويج بنتها القاصرة من كفؤ بمهر المثل والله أعلم [1].

(1) تاريخ هذه الفتوى ١٦ من شوال سنة ١٣١٨ هـ ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٦٨ وتقع فى ص ١١٤.

سقوط ولاية الأب الماجن

(السؤال): سأل إسماعيل محمد دوير، عم الزوج المذكور بعد، فى بنت صغيرة زوجها أبوها وهو سيء الاختيار، مجانة وفسقاً، لصغير يبلغ من السن سبع سنين، وقبل النكاح له أبوه، والبنت قد بلغت، وعند بلوغها أعلنت بفساد العقد، والولد فقير لا يقدر على المهر والنفقة، فهل هذا النكاح صحيح؟ أو غير صحيح؟ وإن كان غير صحيح يحتاج فى الفرقة بينهما إلى مرافعة شرعية؟ أم كيف؟؟

(الجواب): سوء اختيار الأب ومجانته تجعلانه بمنزلة غير الأب، فإن سوء الاختيار والمجانة مما يضعف الرأى، وقد صرحوا فى تزويج الأم بأنه صحيح، ويجوز للزوج أو الزوجة أن يختار الفسخ عند البلوغ، وعللوا ذلك بأن الشفقة وإن توفرت فالرأى غير كامل، فضعف الرأى فيها سوغ جواز الفسخ للصغيرة إذا بلغت والوالد الماجن السيء الاختيار قد يفقد الشفقة مع الرأى، خصوصاً من أهل زماننا الذين فشا فيهم فساد الرأى وغلب على وجدانهم، حتى إن الرجل لأدنى شهوة له لا يبالى بما يكون من شأن بنته فى مستقبل قريب فضلاً عن بعيد، وليس من الفقه أن يسوى بين كامل الرأى حسن الاختيار وبين الماجن سيء الاختيار فى لزوم العقد.

على أن الذى يظهر من كلام عم الزوج فى هذه الحادثة أن أباه مات ولا مال له، فالولد فقير لا يملك نفقة ولا مهراً، ولو بقيت البنت فى عصمته أصابها من الضرر ما هو معلوم؛ فالزوج فى هذه الحالة غير كفؤ، لشدة فقره، وفقر البنت لا مدخل له فى الكفاءة عند العجز النفقة، فالفقير غير كفؤ، وإن كانت الزوجة فقيرة بنت فقير، كما صرحوا به؛ لأن لزوم النكاح يقضى بالنفقة، فالعاجز عنها عاجز عن توفية حق الزوجة، فهو غير كفؤ لها على كل حال، فللبنت بعد أن اختارت فسخ النكاح أن ترفع الأمر إلى القاضى ليقضى به متى صح عنده جميع ما ذكر فى السؤال والله أعلم [2].

شق بطن الميتة حاملاً

(السؤال): سئل [3] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ نمرة ٢ مضمونها:

أن خطاب مصلحة الصحة طيها نمرة ١٢ الوارد للحقانية بشأن الأجنة الحية التى توجد فى بطون بعض النساء الحوامل اللاتى يتوفين، ومرغوب بها الإفادة عما إذا يمكن فسخ البطن بعد الوفاة لإخراج الجنين؟ سواء كان برضا الأهل أو بغير رضاهم؟؟

وعليه نرجو الإفادة وطيه ورقتان.

(الجواب): صرحوا بجواز شق بطن الميتة

(2) تاريخ هذه الفتوى ٤ من رمضان سنة ١٣٢٦ هـ ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٢٠٦ وتقع فى النهر الأيمن من ص ٣٤.

(3) أى الأستاذ الإمام.

لإخراج الولد إذا كانت ترجى حياته كما في «الأشباه» وعليه: يجوز شق بطون من يموت من النسوة لإخراج الجنين منها متى كانت ترجى حياته، ولا يتوقف ذلك على رضا الأهل وطيه ورقان[4].

أهل الكتاب يستفتون الإمام

(السؤال): سئل[5] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة في ٢٣ من المحرم سنة ١٣٢١هـ مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما تضمنته مكاتبة الداخلية نمرة ٣٨ والورقة المرفقة بها، بشأن طلب بطريرك الأقباط بتسليم أولاد عبدالله إبراهيم، صراف ناحية أبي كبير، الذي ضمهم إليه بعد إسلامه، لوالدتهم مريم بنت حنا، تفاد الحقانية عما يجب شرعاً في ذلك؛ ومضمون ذلك أن عبدالله إبراهيم، المسيحي، زوج مريم بنت حنا، المسيحية، له أولاد منها ثلاثة، أكبرهم بنت عمرها خمس سنوات تقريباً، والثاني ولد عمره سنتان، والثالث طفلة رضيعة عمرها ستة شهور، وقد أسلم هذا الزوج، ومنع هؤلاء الأولاد عن أمهم، وهي تريد أخذهم وضمهم إليها ومرغوب معرفة الحكم الشرعي في ذلك، حيث إنها لم تتزوج.

(الجواب): من المقرر شرعاً أن حضانة الولد الصغير تثبت للأم، ولو كتابية، أو بعد الفرقة؛ لأن الشفقة لا تختلف باختلاف الدين، ويستمر عندها إلى أن يخشى عليه أن يألف ديناً غير الإسلام، وذلك باعتبار السن إلى سبع سنين في الذكر والأنثى، فإذا بلغ واحد من أولئك الأولاد السابعة من سنه وجب نزعه من والدته وضمه إلى أبيه، فإذا خشي عليه أن يشرب غير دين الإسلام بوسائل أخرى قبل بلوغه ذلك السن وجب أخذه من والدته وضمه إلى أبيه كذلك. وكل ذلك ما لم تتزوج الأم، وإلا نزع منها الأولاد مطلقاً؛ وعلى ذلك فحق حضانة هؤلاء الأولاد هو لأمهم الآن، إذا توفرت فيها شروط الحضانة، ولم يخش على الأولاد شيء مما ذكر. والله أعلم[6].

مواريث

(السؤال): سأل الخواجة «كيورك ابكاوشي» في: مسيحي توفي بمصر عن زوجته وأولاده ثلاثة ذكور وأنثى، وترك لهم أطياناً وعقارات ونقدية، فما هي حصة كل منهم؟؟

(الجواب): يخص الزوجة المذكورة في جميع تركة زوجها المذكور الثمن فرضاً، ثلاثة قراريط، ويخص كل ابن من الأبناء الثلاثة المذكورين ستة قراريط؛ ويخص البنت المذكورة ثلاثة قراريط وهذا حيث لا وارث للمتوفى المذكور سوى هؤلاء الورثة. والله أعلم[7].

(4) تاريخ هذ الفتوى ٦ من ذي الحجة سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١١٦ وتقع في النهر الأيسر من ص١٩.

(5) أي الأستاذ الإمام.

(6) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ من المحرم سنة ١٣٢١هـ، ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٢٦ وتقع في النهر الأيسر من ص٢٢.

(7) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ من رجب سنة ١٣١٨هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢١ وتقع في ص٩٩.

(السؤال): سأل ميخائيل قسطندي بشارة، في امرأة اسمها مروه، ماتت عن أخوالها، إخوة أمها لأبيها، وهم ديمترى ميخائيل وكترينة، وعن أولاد خالها وخالتها أخوى أمها من الأب والأم، وهم اسكندر وحنه ويوسف وحبيب ونقولا وهيلانة، لا وارث لها سواهم، وتركت ما يورث عنها، فمن يرث من هؤلاء؟ وما يخصه؟ ومن لا يرث؟؟ أفيدونا، ولكم الثواب.

(الجواب): تركة هذه المرأة المتوفاة تكون موروثة عنها لأخوالها، إخوة أمها لأبيها، الذين هم ديمترى وميخائيل وكترينة، لاتحادهم في حيز القرابة، فتقسم التركة على أبدانهم اتفاقاً؛ لاتفاق الأصول حينئذ، ويعطى للذكر ضعف الأنثى؛ فيعطى لديمترى من هذه التركة تسعة قراريط وثلاثة أخماس قيراط، ويعطى منها كذلك لميخائيل تسعة قراريط وثلاثة أخماس قيراط، وباقيها، وهو أربعة قراريط وأربعة أخماس قيراط، يعطى لكترينة.

أما أولاد خالها وخالتها، أخوى أمها من الأب والأم، المذكورون فلا حظ لهم من هذه التركة، لبعدهم في الدرجة عن الخالين والخالة المذكورين والله أعلم[8].

(السؤال): سأل مسيحة أفندى سعد مسيحة، الموظف بعموم هندسة السكة الحديد، في أن شقيقه مات عنه وعن والدتهما وزوجته وبناته الثلاث القصر، وماتت الزوجة بطنطا عن بناتها الثلاث المذكورات، وعن أبويها فقط، وأن البنتين: الأولى والثانية انتهت مدة حضانتهما، والثالثة مولودة سنة ١٨٩٧ أفرنجية، ووالدة الأب موجودة، وغير متزوجة، ولم يكن لها أولاد صغار، ولا صناعة لها، وقادرة على الحضانة، ووالدة الأم متزوجة، ولا يمكنها القيام بالحضانة؛ لأن لها أولاداً صغاراً مشغولة بهم، ويخشى على البنات الضياع عندها، لاشتغالها عنهن بأولادها، وبالخروج من منزلها للسفر في غالب الأوقات إلى أهلها في البلاد المقيمين بها وتركها لهن، وأنه يخاف عليهن من العدوى بداء السل؛ لأن أمهن وخالهن وعم أمهن ماتوا جميعاً به في المنزل القاطنات به مع أم أمهن، واستفهم عن الأحق بهن: هو، لكونه مأموناً عليهن؟ أو والدته القادرة على حضانتهن؟ أو جدتهن أم أمهن؟؟ ورغب الجواب.

(الجواب): لا حق لأم الأم في ضم البنتين اللتين انتهت مدة حضانتهما ببلوغ سنهما تسع سنين، وإنما الحق لعمهما العاصب المذكور في ضمهما لنفسه، أما البنت الثالثة التي لم تبلغ تسع سنين فمتى كان يخشى عليها الضرر والضياع عند جدتها أم أمها يكون الحق في حضانتها لجدتها أم أبيها المذكورة والله أعلم[9].

(8) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٠هـ ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٣٩ وتقع في النهر الأيمن من ص٩.

(9) تاريخ هذه الفتوى ١٦ من المحرم سنة ١٣٢١هـ، ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٢٤ وتقع في النهر الأيمن من ص٢١.

قالوا عن القرآن



٤

للدكتور/ عماد الدين خليل

فيشر «١»

[١] «إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتماداً على أثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع» «٢».

[٢] «.. إن القرآن كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره..» «٣».

جب «٤»

[١] «إذا رأى أحد أن خاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيراً أن الله شاهد أبداً» «٥».

[٢] «هذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ عهدئذ فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشئون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضاً، فإنه يحاول أن يستملك شيئاً من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني» «٦».



هاملتون جب

[٣] «مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضاً وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيا جديداً متميزاً» «٧».

[٤] «.. على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم كلام إسلامي منهجي، يبقى صحيحا ما ذكرناه سابقا وهو: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثراً أقوى وأسرع من كل أثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي أو من حذاقته وبراعته» «٨».

[٥] «إننا نخطىء خطأً فاحشاً إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي اتقن بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة إنها على العكس من

«١» الدكتور سيدني فيشر Sydney fisher

أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شئون البلاد الشرقية التي يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام مؤلف كتاب «الشرق الأوسط في العصر الإسلامي» والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

«٢» الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص٤١.

«٣» نفسه، ص٤٤.

«٤» سير هاملتون الكساندر روسكين جب ١٨٩٥ - ١٩٦٧ Prof. Sir Hamilton A.R. G.ibb يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة الشرقيات بلندن.

من آثاره «دراسات في الآداب العصرية» ١٩٢٦م، «الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين» «رحلات ابن بطوطة» «اتجاهات الإسلام المعاصرة»، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية.

«٥» دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤.

«٦» نفسه، ص ٢٥٤.

«٧» نفسه، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

«٨» نفسه، ص٢٥٥.

ذلك يقين وإيمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاص، حين يدرس النص المقدس لقد عارض المذهب السني المتمسك بشكل عام ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى على الرغم من أن النص العربي يظهر فى بعض الأحيان مقترنا بترجمة تركية أو فارسية أو أوردية وغيرها من اللغات إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلانى مستندة فى ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلانى والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسى كما هى الحال بالنسبة للشعر الرقيع إذ ليس بالامكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذى يصغى إلى القرآن لتلقى تعاليمه ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقى إلى فخار..»(٩٠).

كوبولد(١٠٠)

[١] «.. وذكرت أيضاً ما جاء فى القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة»(١١٠).

[٢] «إن أثر القرآن فى كل هذا التقدم [الحضارى الإسلامى] لا ينكر، فالقرآن هو الذى دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من انشاء امبراطورية فاقت امبراطورية الاسكندر الكبير، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة..»(١٢٠).

[٣] «الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها فى غيره من الكتب ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأى مثقفى الفرنجة وكبار مفكريهم قال: «(إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه فى الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين فى شىء قليل أو كثير ولا خطبا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميا فى جملته، بعيد المعنى فى مختلف سوره وآياته، حتى أنه يردد فى كل الاصقاع، ويرتل فى كل بلد تشرق عليه الشمس»(١٣٠).

[٤] «أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسى الذى كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد فى كتاب غيره وسواه فقال: «أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذى ينطوى عليه كنه الكائن الذى صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكاً قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذى جعل أجانب المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن ذلك أن هذا الأسلوب.. الذى يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس كان لفعله الأثر العميق فى نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذى لا يثمر أن يحاول المرء [نقل] تأثير هذا النثر البديع الذى لم يسمع بمثله بلغة أخرى..»(١٤٠).

[٥] «الواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله فى أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قل أن تجد فيها غريبا، وهى مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكله منسجمة لا تحس فيها لفظا نابيا عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه»(١٥٠).



---

(٩٠) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام؛ ص ٣٠-٣١.

(١٠٠) اللادي ايفلين كوبولد Lady E. cobold نبيلة انكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك فى كتاب لها بعنوان: «الحج إلى مكة» «لندن ١٩٣٤»، والذى ترجم إلى العربية بعنوان: «البحث عن الله».

(١١٠) البحث عن الله، ص٤٥.

(١٢٠) نفسه، ص٥٦.

(١٣٠) نفسه، ص١١١ - ١١٢.

(١٤٠) نفسه، ص ١١٢ - ١١٣.

(١٥٠) نفسه ص ١١٣.

﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

سلس البول

• السؤال من ج.أ.ع: أعاني من سلس بول عقب التبول يستمر من نصف ساعة إلى ساعة كما أعاني من نزول مذي أو ودي بعد ساعة أو ساعتين من تمام الوضوء والصلاة.

•• الجواب: إذا كان الحال كما ورد بالسؤال فللسائل أن يتوضأ ويصلي قبل أن يتبول حتى لا يعقب بوله سلس البول فإن كان لا يستطيع ذلك فله أن يتبول وينتظر حتى تمضي الفترة الزمنية التي ينزل فيها سلس البول ثم يتوضأ ويصلي ولا حرج عليه في فوات صلاة الجماعة أما إذا استمر سلس البول حتى موعد الوقت الذي يليه فله أن يتوضأ ويصلي حتى ولو نزل منه البول أثناء الصلاة أما نزول المذي أو الودي بعد الانتهاء من الصلاة فعلى السائل أن يغسل محل نزوله ثم يتوضأ أن إراد الصلاة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

• السؤال من: ش.ع.ح: أجريت لي عملية جراحية في البروستاتا والمثانة مما أدى بعد الشفاء من الجراحة إلى خروج قطرات بول مني بصفة دائمة وعدم التحكم فيه بعد الاستنجاء، مما يضع النفس في حيرة وشك في الوضوء والصلاة نرجو الإفادة، وكيف يصح الوضوء والصلاة؟

•• الجواب: إذا كان الحال كما ورد بالسؤال فما يشكو منه السائل يدخل تحت ما يعرف فقها وطبا بسلس البول، وعلى من به سلس البول أن يضع ما يستقبل به قطرات البول وينزعه قبل الوضوء ويتطهر ويضع شيئا جديدا طاهرا، ثم يتوضأ لكل صلاة مكتوبة بعد دخول وقتها، ويصلي على الفور بعد انتهاء الوضوء بلا تأخر إلا لاحتياجات الصلاة كستر العورة وإقامة الصلاة، وله أن يصلي بعد ذلك ما يشاء من النوافل حتى يدخل وقت الصلاة التي تليها فيتوضأ لها مرة أخرى..

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـــى جمعـــة

مفتي جمهورية مصر العربية



وهكذا، ولا يعتد بما ينزل بعد الوضوء عملا بالقواعد الفقهية المقررة: «المشقة تجلب التيسير»، و«إذا ضاق الأمر اتسع»، و«الضرورات تبيح المحظورات»، و«ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها».

والله سبحانه وتعالى أعلم

سهو الإمام

• والسؤال من: أ.م.ن: أنه كان يصلي بالناس إماما وبعد قراءة الفاتحة وأثناء قراءته للسورة فسقطت منه كلمة سهوا فهل يجب على المأموم الفتح على الإمام أم لا وإذا كان يجب فمتى يكون الفتح وما كيفيته؟

•• الجواب: معنى فتح المأموم على الإمام تنبيهه إلى ما يقرؤه من السور أو الآيات بعد قراءة الفاتحة، وهذا التنبيه قد يكون تصحيحاً خطأً في القراءة، وقد يكون تذكيراً له بما يريد أن يقرأه، وهو مشروع والأصل في ذلك حديث رواه أبو داود عن مُسَوَّر ابن يزيد المالكي قال: صلى رسول الله ﷺ فترك آية، فقال له رجل: يا رسول الله آية كذا وكذا، قال: «فهلاً ذكرتنيها» وفي رواية له عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى صلاة فقرأ فيها فلبس عليه، فلما انصرف قال لأبي: «صليت معنا»؟ قال: نعم «فما منعك؟»، وإسناده جيد كما قال الخطابي والمعنى أن النبي ﷺ ترك آية فظن مسور أنها نسخت، فذكر له النبي ﷺ أنها لم تنسخ وكان يود أن يذكّره إياها ومعنى «لبس» بفتح اللام والباء، التبس واختلط جاء في نيل الأوطار للشوكاني «ج٢ ص٣٣٩» أن الحديثين يدلان على مشروعية الفتح على الإمام، على خلاف في ندبه أو وجوبه عند الشيعة، وقال أبو حنيفة في رواية عنه: إنه مكروه ودليله ما أخرجه أبو داود عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي لا تفتح على الإمام في الصلاة» وأخرجه عبدالرازق في مصنفه، وهو مطعون فيه، ولا يعارض ما ورد في مشروعية الفتح. وجاء في المغني لابن قدامة «ج١ ص٧١١» أن الفتح على الإمام إذا ارتج عليه أو غلط فردّ عليه لا بأس به في الفرض والنفل، روى ذلك عن عثمان وعلي وابن عمر، وكذلك بعض التابعين كالحسن وابن سيرين، وكرهه ابن مسعود من الصحابة، وشريح والشعبي، وقال أبو حنيفة: تبطل الصلاة به، وذكر الأحاديث السابقة ثم ذكر ابن قدامة أن الإمام إذا أرتج عليه في الفاتحة لزم من وراءه الفتح

عليه، كما لو نسي سجدة لزمهم تنبيهه بالتسبيح، فإن عجز عن إتمام الفاتحة فله أن يستخلف من يصلي بهم لأنه عذر كما لو غلبه الحدث.

وعلى ما تقدم وفي واقعة السؤال: فإنه إذا نسي الإمام آية أو كلمة أثناء قراءته فإذا فتح عليه المأموم فلا بأس بذلك من غير ضوضاء في المسجد هذا إذا كان النسيان في غير الفاتحة، أما إذا ارتج عليه في الفاتحة لزم من وراءه من المأمومين الفتح عليه لأنها ركن الصلاة فيكون كمن نسي ركوعا أو سجودا فلينبهه بالتسبيح لقول الرسول ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء» كذلك إذا أخطأ الإمام في القراءة الخطأ الواضح الذي يحيل المعنى بأن أدخل أهل الجنة النار أو العكس فيجب على المأموم حينئذ الفتح عليه وعلى المأمومين أن يلتزموا الآداب الإسلامية وأن لا يدعوا للشيطان بابا يفسد به علينا حياتنا وصلاتنا وجاء في فقه المذاهب الأربعة ما خلاصته:

١- أن الحنفية قالوا: إذا نسي الإمام الآية كأن توقف في القراءة أو تردد فيها فإنه يجوز للمأموم الذي يصلي خلفه أن يفتح عليه، ولكنه ينوي إرشاد إمامه لا التلاوة؛ لأن القراءة خلف الإمام مكروهة تحريماً.. ويكره للمأموم المبادرة بالفتح على الإمام، كما يكره للإمام أن يلجئ المأموم على إرشاده، بل ينبغي له أن ينتقل إلى آية أخرى أو سورة أخرى، أو يركع إذا قرأ القدر المفروض والواجب.

٢- والمالكية قالوا: يفتح المأموم على إمامه إذا وقف عن القراءة وطلب الفتح بأن تردد في القراءة، أما إذا وقف ولم يتردد فإنه يكره الفتح عليه، ويجب الفتح عليه في الحالة الأولى إن ترتب عليه تحصيل الواجب لقراءة الفاتحة، ويُسن إن أدّى إلى إصلاح الآية الزائدة عن الفاتحة، ويندب إن أدى إلى إكمال السورة الذي هو مندوب.

٣- والشافعية قالوا: يجوز للمأموم أن يفتح على إمامه بشرط أن يسكت عن القراءة، أما إذا تردد في القراءة فإنه لا يفتح عليه ما دام مترددا، ولابد لمن يفتح على إمامه أن يقصد القراءة وحدها، أو يقصد القراءة مع الفتح، أما إن قصد الفتح وحده، أو لم يقصد شيئاً أصلا فإن صلاته تبطل على المعتمد.

٤- الحنابلة قالوا: يجوز للمصلي أن يفتح على إمامه إذا ارتج عليه «أي منع من القراءة» أو غلط فيها، ويكون الفتح واجباً إذا منع الإمام من القراءة أو غلط في الفاتحة، لتوقف صحة الصلاة على ذلك.

هذا، ولعل ما نقلته من فقه المذاهب الأربعة يوضح ما نقلته عن نيل الأوطار للشوكاني وعن المغني لابن قدامة. واختلاف الآراء رحمة؛ لأنه يتيح الفرصة للأخذ بأحدها دون تعصب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حول صلاة النساء في المسجد

● السؤال من د. ى. أ: يوجد مسجد يصلي فيه الرجال ويفصل بينه وبين مصلى النساء شارع مطروق بعرض ٦ أمتار ومصلى النساء في مكان يجعله متقدماً على موقف الإمام.. فهل يجوز اقتداء النساء في هذا المصلى بإمام المسجد عن طريق توصيل سماعات؟ وماذا يحدث لو انقطعت الكهرباء أثناء الصلاة؟ هل تصلي بهن إحداهن إماماً، أم يصلين فرادى؟

●● الجواب: المقرر شرعاً لصحة اقتداء المأموم بإمامه في صلاة الجماعة أن يكون هناك إمكانية لمتابعة المأموم لإمامه؛ بأن يكون على علم بانتقالاته بسماع أو رؤية مع اتصال الصفوف لما روى أن النبي ﷺ كان يصلي في حجرة عائشة رضي الله عنها والناس في المسجد يصلون بصلاته، وتصح الصلاة مع وجود حائل يمنع اتصال صفوف المصلين عند الضرورة والحاجة يقول ابن قدامة: «وإذا كان بينهما - أي بين الإمام والمأموم - طريق أو نهر تجري فيه السفن أو كان في سفينتين مفترقتين ففيه وجهان.. أحدهما: لا يصح أن يأتم به وهو اختيار أصحابنا ومذهب أبي حنيفة؛ لأن الطريق ليست محلاً للصلاة فأشبه ما يمنع الاتصال، والثاني: يصح وهو الصحيح عندي ومذهب مالك والشافعي؛ لأنه لا نص يمنع ذلك ولا إجماع ولا هو في معنى ذلك لأنه لا يمنع الاقتداء فإن المؤثر في ذلك ما يمنع الرؤية أو سماع الصوت» المغني جـ ٢ طبعة دار الحديث ص٤٧٤».

وفي واقعة السؤال وبناء على ما سبق فلا مانع شرعا من اقتداء النساء في المصلى المذكور بإمام المسجد إذا توافر شرط صحة الاقتداء من إمكانية متابعة الإمام في حركاته وانتقالاته ولو عن طريق مكبر الصوت، وأغلق الطريق أثناء الصلاة مع مراعاة أن يكن موقف النساء بمحاذاة الإمام أو خلفه. وإذا ما حدث انقطاع للتيار الكهربائي أثناء الصلاة ولم يتمكن النساء من متابعة الإمام بحال فيتممن الصلاة فرادى للضرورة ولأنه لا يصح أن يحل شخص محل الإمام إلا بالاستخلاف وتكون الصلاة صحيحة بإذن الله تعالى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

إنما الأعمال بالنيات

● السؤال من ط. ع. ف: أريد أن أسأل عن الخوف من الصلاة في المسجد خشية الرياء والسمعة وعما يجب أن أفعله؟

●● الجواب: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات» فعلى السائل أن يجعل نيته خالصة لله في ذهابه إلى المسجد ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان الذي يتربص به حتى يثنيه عن عبادة الله بدعوى أنه يذهب للمسجد رياء وسمعة فما هي إلا مكائد الشيطان حتى تبتعد عن المسجد فعليك بذكر الله والاستعاذة به سبحانه من الشيطان الرجيم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الصلاة جلوساً

● السؤال من أ. د. ى: ما حكم الصلاة على كرسي أو مقعد لأسباب مرضية حيث إنه من الممكن حدوث بعض النسيان؟

●● الجواب: المقصود من أداء الصلاة القيام بها على وجه يدرك الإنسان معه ما يفعله فيها، فإذا كان المكلف يصلي قائماً ولكنه لا يدرك ما يفعله في صلاته إلا إذا صلى قاعداً فإنه يعتبر في حكم من لا يستطيع القيام، ويدخل بذلك في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب» رواه البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فإنه يجوز للإنسان أن يصلي على مقعد إذا كان قيامه في الصلاة ينسيه ما يفعله فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدى عضو مجمع البحوث ونائب رئيس جامعة الأزهر



بقلم تلميذه الدكتور
محمد إبراهيم العشماوى
مدرس الحديث الشريف بكلية أصول الدين

في زمن كثر فيه المتلونون: بحثاً عن منفعة، أو فرارا من مضرة: رحل عن عالم الضجيج - في صمت - الطود الراسخ، والجبل الأشم الشامخ، قدوة الثابتين على المبدأ، العلامة الجهبذ المحقق الناقد علم المفسرين وشيخ الصوفية المحب الوله العارف الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدى، حيث فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها: مساء الخميس ١٤٣٢/١١/٢٢هـ، الموافق ٢٠١١/١٠/٢٠م، عن عمر يناهز سبعة وستين عاما، وذلك إثر أزمات قلبية متكررة، نقل على أثرها إلى المستشفى الجامعي بطنطا حيث وافته المنية وصلى عليه بالمسجد الأحمدي، وشيعت جنازته في موكب مهيب عقب صلاة الجمعة، ووُسّد جثمانه الثرى في جوار والده الشيخ محمد أبي اليزيد، بضريحه في مقابر طنطا.

مولده ونشأته:

ولد شيخنا رحمه الله في ٧ / ٤ / ١٩٤٤م في قرية العزيزية التابعة لمركز منيا القمح بمحافظة الشرقية، لأبوين شريفين يتصل نسبهما بالنسب النبوي المبارك، وكان وحيد أبويه، فتوجهت عنايتهما إليه، وتوفرت همتهما عليه، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم انتقل مع أسرته إلى مدينة طنطا، حيث التحق بالمعهد الأحمدي (الجامع)، شقيق الجامع الأزهر، كما يسميه المؤرخ الدكتور مجاهد الجندي.

وقد نشأ الشيخ نشأة صوفية خالصة في بيت ولاية وعلم، فأبوه هو الشيخ محمد أبو اليزيد، كان رجلاً صالحاً معتقداً من العامة، وله كرامات ظاهرة، كان يجاور بالمقام الأحمدي، وأخبرني شيخنا - رحمه الله - أن الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود كان يقصده للزيارة والتبرك في بيته في طنطا، وهو يومئذ شيخ للأزهر! وجده لأمه الشيخ جودة إبراهيم - الذي سمي باسمه تيمنا - أحد الأولياء المذكورين في مدينة منيا القمح، وله مقام يزار، ويحتفل به في كل عام، وقد ترجم له شيخنا في كتابه «النفحات الجودية في مناقب وأوراد الطريقة النقشبندية»، ورفع قدره، وفخم أمره، وذكر له كرامات باهرة وخوارق عجيبة، وقد كان الشيخ متيماً به، حريصا على زيارته، حتى إنه ظل يسافر من طنطا إلى منيا القمح زمنا طويلا؛ لأداء خطبة الجمعة وإلقاء الدروس بمسجد جده هذا.

نشأ الشيخ في تلك البيئة الصوفية العريقة، فلا جرم أُشرب في قلبه حب الصوفية، فعلى أيديهم تربى، ومن أقواتهم تغذى، ومن معارفهم شرب وارتوى، فلم ير غيرهم، ولم يسمع سواهم، ولم يعلق قلبه بأحد دونهم، وكان مولعا بالتشبه بهم في كل شيء إلى حد التسمي بأسمائهم، فقد سمى بعض ولده باسم السيد أحمد البدوي، وسمى آخر باسم السيد أبي اليزيد البسطامي، وهذا فضلا عن محمد والحسين وفاطمة وزينب ونفيسة! وهو نفسه سمي جده الشيخ جودة، ووالده سمي الشيخ أبي يزيد. اشتهر الشيخ - رحمه الله - بتعلقه الشديد بالسيد البدوي، وبالدفاع عنه، ورد الشبه المثارة حوله، حتى إنه كتب كتابا علميا حافلا سماه «حقيقة القطب النبوي السيد أحمد البدوي»، وهو خير من يتكلم عنه، حتى لقد سمعت شيخنا الدكتور أحمد عمر هاشم - في محاضرة له عندنا في كلية أصول الدين في طنطا إبان توليه رئاسة جامعة الأزهر - يعتذر عن الكلام عن السيد البدوي في حضور الشيخ، ويقول: هو خير من يتكلم عنه! وكان الشيخ مواظبا على حضور مجلس دلائل الخيرات وغيره من مجالس الذكر في مقام السيد، وكنت لا تخطئه هناك إلا لعذر قاهر.

وكان من أسرار تعلقه الشديد به - كما أخبرني بنفسه - أن والده كان يأمره في ذهابه وإيابه من المعهد الأحمدي - وهو طالب - أن يمر بمقام السيد، ويسلم عليه، ويقبله، ويقرأ له الفاتحة، ويدعو، وشب الشيخ على هذا، وشاب، ولم يتركه حتى توفاه الله عز وجل! وقد تعرض للانتقاد الشديد والهجوم عليه، بل واتهامه في عقيدته بسبب هذا التصرف، وامتحن بسببه، وأوذي، وهو ثابت لا يتزلزل، ولم يزل خصومه في شد وجذب معه حتى سعوا به إلى الإمام الأكبر الراحل الشيخ جاد الحق، فاستدعاه إلى مكتبه بمشيخة الأزهر ليسمع منه، ولقد دخلت على شيخنا مكتبه يوما - وهو عميد لكلية القرآن، وكان يسر إلي ببعض أسراره - فرأيته يراجع بعض الكتب، وينقل منها نصوصا، ويوثق، ويحقق - كعادته دائما - في مسألة تقبيل الأعتاب، والطواف حول الضريح، فسألته عن السبب، فأخبرني أن الإمام الأكبر قد استدعاه، ولا يدري لماذا، غير أن أكبر ظنه أنه بسبب ما يفعله في مقام السيد، وقد صدق - والله - ظنه، وحين تمت المقابلة أخبرني بما جرى فيها، وأنه ساق للإمام الأكبر الأدلة العلمية على جواز هذا الفعل شرعا، وأنه لا يمكنه أن يخالف الشريعة في شيء، وهو من المعظمين لها، المستمسكين بحبلها، وأن الإمام الأكبر قد اقتنع بكلامه، لكنه نصحه ألا يفعل؛ لئلا يساء به الظن ممن لا يفهم، ولأنه في موضع القدوة من الخواص فضلا عن العوام! وامتنع الشيخ فترة لموضع النصيحة، ثم عاد مرة أخرى، فقد غلبت عليه قناعاته الشخصية والعلمية، وألفت مشاعره الفياضة تجاه الأولياء كل

اعتبار، ولسان حاله يقول:

أمرُّ على الديار ديار ليلى
أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفْنَ قلبي
ولكنْ حبُّ من سكَن الديارا!

ومن بالغ حبه للصوفية وتعظيمه لنهجهم أنه كان يشغل جُلَّ مجالسه بذكرهم، ونقل كلامهم، وحكاية أحوالهم، وسرد أخبارهم، ويقدمهم على كل شيء سواهم، ويحوِّل الحديث إليهم لأدنى مناسبة، ويحب من جليسه أن يكون كذلك:

لها أحاديثُ من ذكراك تشغَلُها
عن الشراب وتُلهيها عن الزاد!

ومن عجيب أمره في ذلك أن عنده لكل مناسبة حديثا عنهم، مهما استبعد وجود ذلك منهم، فقد يكون الكلام في شيء من الأمور العصرية، التي يستبعد وجود مثلها عند الصوفية، فضلا عن غيرهم، لكنه يأتيك بخبر أو حكاية أو عبارة من عندهم تناسب المقام، وتصيب المرام، فقد كان يستخرج النكتة من كلامهم بالمنقاش!

وقد كان الشيخ حريصا على مجاورة آل البيت، والقرب من أولياء الله الصالحين في حياتهم وبعد، وفاتهم، فبيته في طنطا يقع خلف المسجد الأحمدى، وقد ترك الإقامة في هذا البيت في السنوات الأخيرة، وانتقل إلى بيت آخر قريب منه علي بعد بضعة أمتار في نفس الاتجاه، لكنه أكثر قربا من مقام السيد حيث يقع قبالة المقام! وللشيخ استراحتان في القاهرة إحداهما مجاورة للمسجد الحسيني، والأخرى قريبة من مسجد السيدة زينب!

ولقد اشتهر الشيخ بين أهل عصره بأنه لسان الصوفية، وحامل راية التصوف، وهذا حق، فإنه هو الأشهر في هذا الميدان كتابة وتأليفا، ومحاضرة ومناظرة، ومنهجا وسلوكا، ودعوة وجهادا، بعد وفاة أمثال المشايخ الكرام: عبدالحليم محمود، ومحمد زكي إبراهيم، ومحمد خليل الخطيب، وغيرهم من طبقة شيوخه الذين اشتهروا بالتصوف علما وعملا وحالا، وقد خلفهم الشيخ في هذا الطريق، وحمل الراية من بعدهم! ولقد انعقد المؤتمر الصوفي العالمي مؤخرا في القاهرة، وغاب الشيخ عن المشهد لظروف مرضه، فكان من تعليق بعض الأكابر: لقد غاب فارس الميدان! ورغم هذه الصوفية العريضة للشيخ وشهرته بها؛ إلا أنه لم يتبوأ منصبا رسميا في الطرق الصوفية، ولا حتى مشيخة الطريقة النقشبندية التي ينتسب إليها، ولم يكن يطمح إلى شيء من ذلك، فقد كان يرى أن جهاده العلمي والدعوي، وقيامه بالتربية الروحية للمريدين أجلُّ من تلك المناصب الرسمية، وأوسع وأنفع للمسلمين منها، فالشيخ من شيْخه العلم لا من شيخته الوظائف!

وللشيخ من المؤلفات العلمية في التصوف: النفحات الجودية، حقيقة القطب النبوى السيد أحمد البدوى - وقد مرت الإشارة إليهما -، شوامخ من أعلام الصوفية، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها وهو معيد بكلية أصول الدين في فترة السبعينيات، ونشرها في مجلة منبر الإسلام، وأخبرني أن الشيخ عبدالحليم محمود كان معجبا بكتابته، وأنه بشره بمستقبل عظيم! وقد جمع تلك المقالات، وزاد عليها بعض التراجم، وعمل مقدمة للكتاب، وكنت أعاونه في الإعداد لهذا الكتاب ومراجعته، وكنت قد أشرت على فضيلته - إذ استشارني - بأن يرتب الكتاب على الطبقات، وقد فعل. وللشيخ مؤلفات أخرى في التصوف بعضها في الأوراد والأذكار العامة والخاصة، وبعضها في التأصيل للمفاهيم والمناهج الصوفية، وبعضها في الرد على شُبه الخصوم، وبعضها مقدمات علمية رصينة لكتب صوفية محققة.

لقد كانت فكرة التصوف هي القضية الكبرى التي يؤمن بها شيخنا، ويؤصل لها، ويدعو إليها، ويناظر عليها، ويدافع عنها، وكان كثيرا ما يتمثل بقول إبراهيم بن أدهم: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف»! ولقد كانت قضية التصوف شغله الشاغل الذى ملك عليه أقطار نفسه، واستغرق الكثير من وقته وجهده، وهيمن على فكره وقلمه، حتى في بحوثه العلمية التخصصية، فقد كتب بحوثا قيمة عن الاتجاه الصوفي عند بعض المفسرين، ممن لم ينسب قط إلى تصوف، كالإمام القرطبي وغيره، بل طلب مني أن أكتب بحوثا مماثلة عن الاتجاه الصوفي عند المحدثين، إيمانا منه بأن التصوف الحق هو ربانية الإسلام، وهو طريق الصلاح والخلاص لهذه الأمة، وهو المنهج الذى كان عليه السلف الكرام، والذى تتضاءل أمامه كل المناهج، بغض النظر عن قضية المصطلح، والممارسات الخاطئة التي شوهت معالم الحق فيه!

ولقد أوعز إليه البعض يوما أن يتخلى عن هذا المنهج، أو بالأحرى يخفف من غلوائه، وانتقاد خصومه، أو على الأقل يقف على الحياد من جميع التيارات والمناهج، كي تنفتح أمامه كل أبواب الشهرة والرزق في الداخل والخارج، لكنه رفض بشدة، وأصر على موقفه، وأبى إلا الثبات على المبدأ، وقد أعرض عن السفر للعمل في الخارج رغم كثرة العروض التي أتته، وترك الظهور الإعلامي في بعض القنوات، والكتابة في بعض المجلات، فقد كان يرفض التلون من أجل المادة، ويضحي من أجل الفكرة، وكان يقول لمن يلومه على ذلك: «نحن في بحبوحة من العيش، والحمد لله الذى أغنانا من فضله»!

مكانته العلمية والأدبية:

تخرج الشيخ في كلية أصول الدين عام ١٩٦٨م، وكان ترتيبه الأول على أقرانه، كما أخبرني زميل دراسته شيخنا الدكتور سعد جاويش، وعين معيدا بالكلية في ٩/٤/١٩٦٩م، ثم رُقي إلى درجة مدرس مساعد عام ١٩٧٠م، ثم حصل على الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن عن رسالته «الواحدى ومنهجه في التفسير»، وقد طبعها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ولما افتتحت كلية أصول الدين بطنطا - وكان اسمها القديم كلية الدعوة - انتقل إليها عام ١٩٧٧م، وعين مدرسا في نفس العام، وكان يدرِّس فيها مع كبار مشايخه! ثم رقي إلى درجة أستاذ مساعد في ١٨/٨/١٩٨١م، ثم إلى درجة أستاذ في ١/٧/١٩٨٥م، ثم عُيِّن وكيلا لكلية أصول الدين في طنطا ١٩٨٦م، ثم عميدا لها عام ١٩٩٦م، ثم لما أنشئت كلية القرآن الكريم في طنطا عام ١٩٩٢م أسند إليه الإشراف عليها مع عمادته لكلية أصول الدين، ثم عين عميدا لها عام ٢٠٠٢م، وهو أول من تولى عمادتها، ثم شغل منصب نائب رئيس جامعة الأزهر للوجه البحرى عام ٢٠٠٦م، وظل يشغله حتى أحيل إلى التقاعد عام ٢٠٠٩م.

واختير الشيخ عضوا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وكان مقررا للجنة القرآن والسنة -

كما اختير عضوا بالمركز الدولى للسيرة والسنة، وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية، وكان أحد الأعضاء باللجنة العلمية الدائمة (!) لترقية الأساتذة بقسم التفسير، واللجنة العلمية بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية، ونقابة الأشراف، وأشرف على عشرات الرسائل العلمية، وناقش العديد منها، ودرّس وحاضر فى العديد من الجامعات والمعاهد والمساجد، وجاب البلاد شرقا وغربا للدعوة إلى الله تعالى ونشّر المنهج الصوفى الأصيل، فى داخل مصر وخارجها.

وقد تتلمذ الشيخ فى المعهد الأحمدى على كبار المشايخ من أمثال: محمد خليل الخطيب، إبراهيم الدسوقى خميس، توفيق محمد سبع، محمود سالم الخطيب، وكان يقول عن الأخير: درس لى طالبا، وزاملته مدرسا، وأشرفت عليه أو ناقشته باحثا - الشك منى - ! وكان الشيخ محمود يكبر شيخنا بكثير، وحصل على الدكتوراه فى سن متأخرة مع متانته العلمية، فقد كان من الجيل القديم.

كما تتلمذ الشيخ فى كلية أصول الدين على أعلام عصره من أمثال: عبدالحليم محمود، محمد الغزالى، محمد السماحى، محمد بن فتح الله بدران، محمود النواوى، أحمد الكومى، سيد أحمد المسير، أحمدين. وأخبرنى شيخنا الدكتور سعد جاويش بأن الشيخ عبدالحليم محمود كان يحبه كثيرا، ويقدمه على زملائه، وكان معيدا لدرس الشيخ فى غيابه، فقد كان أستاذا فى زى طالب! وقد تأثر الشيخ ببعض شيوخه تأثرا عظيما لاسيما الصوفية منهم، كالشيخ الخطيب والشيخ عبدالحليم محمود.

وأما تلاميذه فلا يحصون كثرة، ومن أبرزهم من الطبقة الأولى الدكاترة المشايخ: أحمد عجيبة، فتحى الزغبى، مجدى الصافورى. ومن الطبقة الثانية: أحمد القرشى، ، أحمد أبو الفضل، مخلوف جلاجل. ومن الطبقة الثالثة: عبدالله موسى، ياسر سليمان، وكاتب هذه السطور.

كان شيخنا - رحمه الله - ممن يحرص الطلاب على حضور محاضرته، وتكتظ بهم القاعة، بالرغم من أن محاضرته كانت تقع فى وقت متأخر من اليوم الدراسى، وذلك بعد أن ينهى الشيخ أعماله الإدارية كعميد للكلية. فكان الطلاب ينتظرون محاضرته انتظار الظمآن إلى الماء، فإذا جلس أمامهم فكأنه بحر يتفجر، أو سيل ينحدر! فلم تكن محاضرته محاضرة عادية، بل كانت دائرة معارف علمية! وقد شاركه فى هذه الخصوصية الكبار من أبناء جيله من مشايخنا الذين درسونا فى طنطا، من أمثال: القصبى زلط، إبراهيم سلامة، عبدالله الشاذلى، فتحى أبو عيسى.

وكان فى محاضرته يلتزم الفصحى لا يحيد عنها، فإذا تكلم أسكت الجميع بفصاحته وجزالته وعمقه وتحقيقه، وكان فى شرحه يمتاز بالموسوعية، لا سيما فى التفسير التحليلى، فمن جوانب عقدية، إلى أخرى فقهية، إلى ثالثة لغوية! وكان يقول: «من لم يتعلم اللغة من كتب اللغة فسأعلمه إياها فى التفسير»!

وكان ينتهز الفرص للإشارة إلى بعض المفاهيم الصوفية فى تفسيره، إذ كان يميل بحكم تربيته ونشأته إلى التفسير الصوفى الإشارى، وينقل فيه

عن أعلام المفسرين من الصوفية كالقشيرى والرازى والألوسى، وكان بعض الطلاب ممن لا يؤمنون بفكرة التصوف ينتهزون هم الآخرون تلك الفرص لمناقشته فى تلك المفاهيم، فيتسع صدره لهم، ولا يجد فى نفسه حرجا من ذلك، وكان يكشف ما عندهم من شُبه، ويزيل ما عندهم من لَبْس، ويقنعهم بالأدلة، فيروى الغُلّة، ويشفى العلّة، بحكمة الأستاذ ورحمة الوالد، فيخضعون له الخضوع التام، ويسلمون له فى احترام!

وقد شهد له الموافق والمخالف بقوته العلمية، وبقدرته الفائقة على إقامة الحجج والبراهين على ما يعتقد أنه الحق والصواب، لا يختلف أحد منهم فى ذلك، وإن خالفوه فى المنهج!

ومن مؤلفاته التخصصية التى تدل على عالميته: تدبر أسرار التنزيل (تفسير سورة الفاتحة)، قصد السبيل فى التفسير الموضوعى لآى التنزيل، الإيمان والتقوى فى القرآن الكريم، فنون الأفنان من علوم القرآن، وله كتاب فى السيرة النبوية بعنوان «هدى النيرين فى سيرة سيد الكونين». هذا عدا مؤلفاته فى التصوف والتى سبقت الإشارة إليها.

وقد كان للشيخ ميول أدبية فى صدر الشباب، وأخبرنى أنه حاول قرض الشعر فلم يفلح، ولعل شيخه نهاه عنه، وكان يقرأ شعر نزار قبانى وصلاح عبدالصبور، كما كان يقرأ لنجيب محفوظ وغيره من أعلام الكتاب، ثم حببت إليه العلوم الشرعية، فانصرف إليها عن الأدب والشعر، ونعما ما فعل! فلئن كنا خسرناه أديبا أو شاعرا، فلقد كسبناه عالمًا لا يشق له غبار!

ولقد كان لقراءاته الأدبية السابقة أثر كبير فى ترقيق مشاعره، وترهيف إحساسه، فضلا عن أثرها فى سلامة لغته، ورصانة أساليبه، ومتانة تراكيبه! كما كان لتربيته الصوفية أعظم الأثر فى روحانيته وشفافيته العالية، التى امتاز بها عن أقرانه من الأساتذة.

ديانته وأخلاقه:

كان الشيخ - رحمه الله - عبداً ربانياً، صواماً، قواماً، أواهاً، تلاءً للقرآن، كثير التدبر له، وكان يختمه فى صلاته، كما كان له ورد يومى يحرص عليه لا يفوته، ولقد صحبته يوماً فى سفره إلى القاهرة، وهو يقرأ ورده فى المصحف، حتى أقبل الليل بظلامه، فمازال يدقق النظر فى المصحف على البصيص المتبقى من ضوء النهار، حتى أنهى ورده! وكان الشيخ كثير التصدق فى السر والعلن، يكثر من مساعدة الطلاب الفقراء، وكان زاهداً فى المال غير حريص على جمعه، لا يبالى ما أتاه منه ولا ما فقده.

وكان عظيم الأدب، شديد الحياء، بعيداً عن العبارة الجارحة مع من يخاطبه، حريصاً على مراعاة مشاعر الناس، لا يشعر جليسه قط بأنه غير راغب فى مجالسته، حتى ولو كان كذلك، وكان هادئاً، حليماً، وقوراً، لا يستفزه الغضب، وفيه مرح ودعابة ذكية - فقد كان ألمعيا متوقد الذهن - غير منقبض ولا متجهم، راض عن الله، محب لعباده، منبسط معهم، سهل الخليقة، سليم الصدر، نقى القلب، رقيق المشاعر، رهيف الإحساس، يسعى فى حوائج الناس، لا يرد سائلاً سأله، ولا داعيا

دعاه، ولا طالب علم أو هداية قصده.

وكان شديد الغيرة على الحرمات، قويًا فى دينه، سليمًا فى اعتقاده، مكثرًا من النوافل، مدمنًا للذكر والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، مكثرًا من زيارته، مترضيًا عن الآل والأصحاب والأولياء، مكثرًا من زيارتهم، معظمًا للجناب النبوى الأطهر.. غيورًا عليه من كل ما يخدش كماله، أو يسقط هيبته وجلاله، حتى إنه لم يكن راضيًا عن المذهب الأصولى القائل بجواز الخطأ فى اجتهاده ﷺ، ويراه من سوء الأدب، وغير لائق بجلال منصب النبوة!

وكان يعتمر فى رمضان من كل عام، ثم اعتمر فى آخر عمره فى رجب وشعبان، وإنما كان يكثر من الاعتمار، اقتباسًا للأنوار، والتماسًا للأسرار، وقصدًا للقرب من النبى المختار، وآل بيته الأطهار، وصحبه الأخيار، وكان يتوخى زيارة الإمام الحسين فى كل يوم اثنين، ويحكى فى ذلك عن أهل الأذواق ما لا يمكن تسطيره فى الأوراق!

وكان كريمًا مضيافًا، لا سيما فى المناسبات الدينية التى كان يفتح فيه بيته للناس، كالمولد الأحمدى، وكانت تأتيه الوفود لأخذ العهود، والتعرض للكرم والجود، وقد أخذ عليه العهد بعض الأكابر، وتتلمذوا له فى الطريق، وقبلوا يده ـ وبعضهم أسن منه ـ اعتقادًا فيه، وتبركًا به، ومن هؤلاء شيخنا العلامة الدكتور محمد حسن جبل، وشيخنا العلامة الدكتور فتحى أبوعيسى، العميدان الأسبقان لكلية اللغة العربية، وشيخنا الدكتور صفوت زيد أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية، والدكتور محمد عزت عبدالمنصف العميد الأسبق لكلية العلوم بجامعة طنطا، وكان ينظر إلى الموالد على أن فيها الخير والشر؛ فالخير ينبغى الإبقاء عليه، والشر تجب مقاومته، وكان ينكر على الصوفية وقوعهم فى البدع والمنكرات، وتهاونهم فى أداء العبادات!

وكان متواضعًا مع اعتزاز، ويوقع كتبه بالفقير إلى الله تعالى، وكان يقول: لقب الشيخ أحب إلىّ من لقب الدكتور!

وكان غيورًا على الأزهر، معتزًا به وبعلمائه، حزينًا على ما وصل إليه حاله من الضعف، وكان كثيرًا ما يتمثل بالعبارة المشهورة: «لا علم إلا أزهرى، ولا قرآن إلا أحمدى»! وقد حزن حزنًا شديدًا حينما تعثرت خطوات إنشاء كلية القرآن الكريم فترة من الزمن، وكنت كثيرًا ما أراه مهمومًا حزينًا على غير عادته فى ذلك الوقت! وكان الشيخ - رحمه الله - بهى الطلعة، جميل المنظر، مشرق الوجه، منفرج الأسارير، تبدو عليه آثار نعمة الله - عز وجل - حسًا ومعنى!

وقد شرفت بصحبته عشرين سنة، وكنت أرافقه فى سفره كثيرًا، وقد أرفقنى شقته فى حى سيدنا الحسين بالقاهرة، حينما كنت طالبًا فى الدراسات العليا، تفضلاً منه وكرمًا ودعا لى غير مرة، وبشرنى بما يسرنى، وقرّظ لى كتبى، وأثنى علىّ بما أخجل منه، ولا زال يحبونى ويتحفنى حتى دعاه الداعى، ونعاه الناعى، فلحق بالرفيق الأعلى، وتبوأ المكان الأسمى، رحم الله شيخنا الدكتور جودة، وأنزله المقعد المقرب عنده:

﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

(النساء: ٦٩)

كيف نفكر فى الصلة بين العلم والدين؟



للأستاذ الدكتور/ طه عبدالرحمن(*)
الأستاذ بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط

لقد فكر غيرنا طويلا فى الصلة بين العلم والدين، حتى أضحى هذا التفكير سبيلهم إلى صنع تاريخ لهم جديد، تاريخ أضفوا عليه من جميل الأوصاف ما أضفوا، فهل فكرنا نحن من جانبنا فى هذه الصلة كما فكروا، وطولنا فى هذا التفكير كما طولوا وخرجنا منه بما خرجوا؟!

كان يصح الجواب بـ «نعم»، لو أننا أبدعنا فى تفكيرنا كما أبدعوا، إذ لا تفكير بحق إلا مع وجود الإبداع، والواقع أن تفكيرنا فى هذه الصلة الخفية خلا من أسباب الإبداع، إذ اكتفينا بترديد ما قاله غيرنا فى وجود هذه الصلة.

وقد انقسم هؤلاء بشأنها إلى فرق ثلاث:

١ـ أن بين العلم والدين تناقضا صريحا

فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والدين تناقضاً صريحاً «(١)» وبالغت فى التمسك بهذا التناقض، ولم تر مخرجا منه لا بترجيح ولا بتفريق، بل جعلت العلم حربا على الدين وجعلت الدين حربا على العلم، ورأت أنه لا مخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانهزام الدين، فانتصر العلم لديها وانهزم الدين[٢].

ووجدت منا نحن كذلك طائفة تدعى ما ادعاه

(*) د/ طه عبد الرحمن: فيلسوف عربى إسلامى معاصر، ولد عام ١٩٤٤م بمدينة الجديدة المغربية، أستاذ المنطق وفلسفة اللغة بكلية الآداب جامعة محمد الخامس بالمغرب، وعضو الجمعية العالمية للدراسات الحجاجية وممثلها فى المغرب، وعضو المركز الأوروبى للحجاج، ورئيس منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين بالمغرب. وصاحب عدد من المؤلفات الأصلية والمتميزة، منها: تجديد المنهج فى تقويم التراث، فقه الفلسفة (ثلاثة أجزاء)، اللسان والميزان (التكوثر العقلى)، الحق العربى فى الاختلاف الفلسفى، الحق الإسلامى فى الاختلاف الفكرى.

(١) ومقابله الفرنسى: «contradiction».

(٢) لا يخفى أن هذه الفرقة تتكون من الأنواريين ومن تبعهم من الوضعانيين والعلمويين.

هؤلاء، لا حجة لها إلا أن سوانا تقدموا ونحن تأخرنا، فلنحذ حذوهم حتى نتقدم. وما درت هذه الطائفة منا أن أسباب النزاع بين العلم والدين عند غيرنا لا وجود لها ألبتة عندنا مهما تكلفت من أسباب المشابهة بيننا وبينهم، ومهما لفقت من تهم لتاريخنا حتى يكون بسوء تاريخ غيرنا، طامعة في أن يقبل موقفها كما قبل موقف غيرها، وهيهات أن يقبل! فالفجوة بيننا وبين سوانا في هذا الأمر لا هي حفرة تردم ولا هي هوة تعبر.

٢.أن بين العلم والدين تمايزا لا تناقضا

وادعت فرقة ثانية من غيرنا أن بين العلم والدين تمايزا،[٣] لا تناقضا، فليس أحدهما يثبت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، وإنما يختص بما لا يختص به هذا الثاني[٤]، فما يشتغل به العلم لا يشتغل به الدين، وما يشتغل به الدين لا يشتغل به العلم، فالعلم عند أفراد هذه الفرقة الثانية موضوعه المعرفة والحقيقة، بينما الدين موضوعه الشعور والحدس، وضوابط المعرفة والحقيقة لا تنطبق على مجال الشعور والحدس، وقواعد الشعور والحدس لا تنطبق على مجال المعرفة والحقيقة وعلى هذا، فلا النقد العلمي بمقدوره أن ينال من الدين، ولا السلطة الدينية بمقدورها أن تنال من العلم.

ووجدت منا نحن أيضاً طائفة أخرى ادعت ما ادعاه هؤلاء، حجتها في ذلك أن العلم مبني على التدليل العقلي والدين مبني على التسليم القلبي، ولا مطمع في التقدم والتحضر مثلما تقدم وتحضر سوانا إلا باعتماد طريق العقل على شرطهم، ولكم كان فخرها كبيراً أن تجد بين أسلافنا من أشبه قوله قول غيرنا، فراحت تشدد على أتباعه، وما ذاك إلا ابن رشد الذي قرر وجوب الفصل بين العلم والدين بدعوى أن العلم طريقة البرهان الذي يناسب العلماء وأن الدين طريقه الإيمان الذي يناسب العوام، وما درت هذه الطائفة الثانية منا أن البرهان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن الإيمان كما أن الإيمان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن البرهان!

٣.أن بين العلم والدين تباينا لا تناقضا

وادعت فرقة ثالثة من غيرنا أن بين العلم والدين تباينا،[٥] لا تناقضا ولا تمايزا، فليس أحدهما يثبت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، ولا أنه يختص بما لا يختص به، فيكون بينهما تمايز كما عند الفرقة الثانية، وإنما الواحد منهما يتناول ما يتناوله الآخر، لكن بغير الوجه الذي يتناوله به، فمتعلقهما واحد ووجه تعلقهما مختلف[٦] فالاعتقاد في العلم غير الاعتقاد في الدين والمعرفة في هذا غير المعرفة في ذاك والفعل هنا غير الفعل هناك، فيكون العلم والدين بمنزلة شكلين متباينين من أشكال الحياة، بل بمنزلة عالمين اثنين لا مجال للمقارنة بينهما ولا لمقايسة أحدهما بالآخر، ومادام العلم والدين بهذا التباين البالغ، فلا يعقل أن نصرف الدين بحجة أنه معرفة لا تقوى على النهوض بموجبات العلم، كما لا يعقل أن نسعى إلى تقويته بأن نخلع عليه حلية العلم.

ووجدت منا نحن كذلك طائفة ثالثة ادعت ما ادعاه هؤلاء، مسترجعة بهذا الصدد ما قاله بعض أسلافنا من كون الدين يعبر عن الأشياء بلغة المجاز والإشارة، في حين أن العلم يعبر عن هذه الأشياء بلغة الحقيقة والعبارة، لذا لا يجوز أن نحكم على الإشارة بما يجب في حق العبارة، وإلا صارت قولا كاذباً، ولا نحكم على العبارة بما يجب في حق الإشارة، وإلا صارت قولاً لا يقبل التحقيق ولا التدليل، فيتباين الدين والعلم عند أفراد هذه الطائفة منا كما تتباين لغة الشعر ولغة المنطق، وما درى هؤلاء أن الإشارة ليست درجة واحدة، وإنما درجات كثيرة، وأن العبارة - هي الأخرى - ليست درجة واحدة، وإنما درجات مختلفة! وحينئذ لا مفر من أن يتعذر عليهم الفصل في الأقوال التي تنزل الدرجات الوسطى، هل وردت على وجه الإشارة أم على وجه العبارة.

فهذه مواقف ثلاثة من الصلة بين العلم والدين وقفها غيرنا، فقلدناهم فيها على غير بصيرة من أسبابها الحقيقية في مجالها الأصلي:

- أولها: التناقض وهو يفضي إلى صرف الدين.
- والثاني: التمايز، وهو يفضي إلى تقديم العلم على الدين.
- والثالث: التباين، وهو يفضي إلى جعل العلم في رتبة الدين.

ما السبيل للخروج من هذه التقليد؟

فإذن هل من سبيل إلى الخروج من هذا التقليد الذي لا يوضح ما استشكل علينا من أمر العلاقة بين العلم والدين ولا يرفع ما استغلق علينا بصددها، بل ينقل إلينا ما يزيد هذا الأمر استشكالاً واستغلاقا، حتى صرنا لا نتعرف على هذه العلاقة في صورتها الأولى عندنا كما كنا قبل التعاطي لهذا التقليد؟

ولكي ينفتح لنا باب التجديد في النظر إلى الصلة بين العلم والدين، فلا بد من صرف الاستغلاق الزائد الذي دخل علينا بسبب التقليد.

يأتي هذا الاستغلاق من تصوّرين منقولين عن غيرنا كلاهما مردود:

- أحدهما: «اختزال العلم في علوم الطبيعة».
- والثاني: «اختزال الدين في أحوال الإيمان».

لا يمكن اختزال العلم في علوم الطبيعة

فلا يمكن أن نختزل العلم في علوم الطبيعة لوجود مبدأين يمنعان هذا الاختزال:

- أولهما «مبدأ مراتب العقل» وبيانه أن السؤال الذي يجيب عنه العلم هو بالذات «ماذا أعقل؟»، فيكون الأصل في العلم هو العقل الصحيح،[٧] غير

---

[٣] بمعنى «الفصل» ومقابله الفرنسي «separation».

[٤] يأتي على رأس هذه الفرقة مؤسس التأويليات الحديثة الفيلسوف الألماني «فريدريك شلاير ماخر» والذي تنبني نظرته على فكرة «الدين الخالص» انظر كتابه المترجم إلى الإنجليزية
F. Schlelermacher: On Religion ,Speeches To its Cultured Despisers. Trans. R. Crouter ,Cambrige University Pres 1998

[٥] مقابله الفرنسي «incompatibilite».

[٦] يأتي على رأس هذه الفرقة الثالثة الفيلسوف النمساوي الشهير «فيتجنشتاين» انظر مقالته «دروس في الاعتقاد الديني» ضمن المجموع
wittgenstein: lecons et conversations sur l'esthetique la psychologie et la croyance religieuse, trad jacques FAUVE. Gallimard. Paris pp. 107-135

(7) تعبير الآية الكريمة «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» (العنكبوت: ٤٣).

أن العقل الصحيح ليس - كما شاع وذاع - رتبة واحدة، وإنما هو - على الحقيقة - رتب متعددة، وحيثما وجدت رتبة من هذه الرتب العقلية فثمة علم على قدرها، وعلى هذا يكون العلم فوق العلم الطبيعي متى كانت رتبة العقل الذى يتعلق به تعلو على رتبة العقل الذى يتعلق بالعلم الطبيعي، كما يكون العلم دون العلم الطبيعي متى كان العقل المتعلق به ينزل عن رتبة العقل المتعلق بالعلم الطبيعي، وهكذا، فالعلم أوسع من أن يستوعبه العلم الطبيعي وحده.

● والمبدأ الثانى هو «مبدأ استكمال العلم»، وتوضيحه أن الأصل في كل علم من العلوم أن يطلب كماله، ولا يحصل هذا الكمال إلا بالالتجاء إلى العلم الذى يعلوه، ذلك أن كل علم تكون به آفات وله حدود، ولا يمكن أن يزيل هذه الآفات ويرفع هذه الحدود إلا علم أرقى منه، فلا بد إذن لكل علم من أن يظل موصولاً بالعلم الذى فوقه، حتى تزول عنه آفاته وترتفع عنه حدوده، وهكذا فالعلم الطبيعي لا تذهب عنه مناقصه ويكتمل حقا إلا بعلم غير طبيعي يسمو عليه.

لا يمكن اختزال الدين فى أحوال الإيمان

كما أنه لا يمكن أن نختزل الدين في أحوال الإيمان لوجود مبدأين يمنعان هذا الاختزال:

● أولهما «مبدأ تعدد شعب الحياة»، وبيانه أن السؤال الذى يجيب عنه الدين هو بالذات: «كيف أحيا؟»، فيكون الأصل في الدين هو الحياة الطيبة[8] غير أن الحياة الطيبة ليست شعبة واحدة، وإنما شعب متعددة، وقد تجمل هذه الشعب في ثلاث كبرى وهى «شعبة الإيمان»، وتدخل فيها كل الاعتقادات، ثم «شعبة العلم» وتدخل فيها كل المعارف، فـ «شعبة العمل» وتدخل فيها كل الأفعال، ولا حياة طيبة إلا بتكامل هذه الشعب الثلاث فيما بينها، فالفرد لا يحيا بشعبة واحدة منها، أى إيمانا وحده أو علما وحده أو عملا وحده، ولا بشعبتين منها، أى إيمانا وعلما معا، أو إيمانا وعملا معا، أو علما وعملا معا، وإنما يحيا بها جميعا على قدر نصيبه من كل شعبة منها، وهكذا فالدين أوسع من أن تستوعبه حال الإيمان وحدها.

● والمبدأ الثانى هو «مبدأ استكمال الشعبة»، وتوضيحه أن الأصل في كل شعبة من شعب الحياة الطيبة أن تطلب كمالها، ولا يحصل هذا الكمال إلا بالتداخل مع الشعبتين الأخريين، ذلك أن كل شعبة تكون بها حاجات ولها تعلقات، ولا يمكن أن تلبى هذه الحاجات وترضى هذه التعلقات إلا هذه أو تلك من الشعبتين الأخريين أو هما معا، فلا بد إذن لكل شعبة من أن تظل موصولة بغيرها من شعب الحياة، وهكذا فالشعبة الواحدة لا تبلغ غاياتها وتكتمل حقا إلا بباقى الشعب.

معالم الصلة بين العلم والدين عندنا

بناء على هذا الذى ذكرناه في سياق إبطالنا للاختزالين المنقولين، تتضح معالم الصلة بين العلم والدين التى قد تكون بها مجددين غير مقلدين، ومنتجين غير مستهلكين، وهذه المعالم المبدعة هى:

أ - أن مفهوم «العلم» يصبح - بمقتضى «مبدأ مراتب العقل» أوسع من المفهوم المتداول «للعلم» كما أن كل علم يصبح - بمقتضى «مبدأ استكمال العلم» محتاجا إلى ما فوقه من العلوم» - محتاجة إلى ما يناظرها من الشعب، وفى هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

ب- أن مفهوم «الدين» يغدو- بمقتضى مبدأ تعدد شعب الحياة- أوسع من المفهوم المتداول للدين كما أن كل شعبة تغدو بمقتضى مبدأ استكمال شعبة محتاجة إلى ما يناظرها من الشعب، وفى هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

تترتب على هذا الاتساع في مفهوم «العلم» ومفهوم «الدين» نتائج أساسية:

● أولاها: أن العلم لا يقابل الدين مقابلة تناقض، ولا مقابلة تمايز، ولا مقابلة تباين، وإنما مقابلة تداخل،[9] إذ يكون العلم جزءا واحدا من أجزاء الدين كما يكون الإيمان جزءا ثانيا والعمل جزءا ثالثا من هذه الأجزاء.

● والثانية: أن العلم - خلافا للقائلين بالتناقض - لا يمتنع أن يرد في ترتيب واحد مع الدين، وأنه - خلافا للقائلين بالتمايز - لا ينزل رتبة أعلى من الدين، وأخيرا أنه - خلافا للقائلين بالتباين - لا ينزل نفس الرتبة التى ينزلها الدين، وإنما ينزل رتبة أدنى منه كما يكون الجزء أدنى من الكل، إذ إن العلم يدخل فى الدين دخول الإيمان والعمل فيه.

● والثالثة: أن العلوم التى تكون جزءا من الدين لا تقتصر على ما اختص باسم «علوم الدين»، وإنما تشمل أيضا ما اختص باسم «علوم الدنيا»، سواء كانت علوم رياضة أو علوم طبيعة أو علوم حياة أو علوم إنسان، فكل علم منضبط بالمبدأين المذكورين: «مبدأ مراتب العقل» و«مبدأ استكمال العلم» يصح أن يتعبد ويُتقرب به، أى يتدين به، وقد ذكرنا أن المبدأ الأول يقضى بأن تتنوع العلوم بتنوع رتب العقل، أعلاها ما تعلق بما فوق الطبيعة، وأن المبدأ الثانى يقضى بأن يكون كل علم موصولا بما فوقه، حتى يتمكن من صرف النقص الذى يلحقه.

● والرابعة: أن تطور العلوم - على خلاف ما يظن غيرنا - لا يُضيق من رقعة الدين، بل يزيدها توسعا، ولا ينقص من تأثيره، بل يزيده قوة، ذلك أن العلوم، لما كانت جزءا داخلا فى بنية الدين نفسها، كانت الأطوار التى تتقلب فيها والتى يفضل لاحقها سابقها، تفتح فى الدين آفاقا معرفية غير مسبوقة وترقى بفهمنا له درجات على قدر هذه الأطوار، بل إنها تتعدى ذلك إلى كونها تجدد قدرتنا على التدين وتنوع سبل تحققه لدينا.

والقول الجامع أن صلة العلم بالدين، من منظور الإسلام، هى صلة تداخل يكون فيها العلم جزءا من الدين، فيلزم بحسب هذا المنظور أن تقدم الدين على العلم، لا تقديم الفاضل على المفضول، وإنما تقديم الكل على الجزء، كما يلزم بحسبه أن تدخل فى الدين كل العلوم، لا دخول التابع فى المتبوع، وإنما دخول العنصر فى المجموع، ألا ترى كيف أن مكتشفات العلوم وحقائقها - وهى تشهد بصدق أخبار الدين وصحة أحكامه - تزداد بها افتكارا واعتبارا حتى إنها تقوى صلتنا بخالقنا كما يقويها دائم صلواتنا!

(٨) تعبير الآية الكريمة «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة» (النحل: ٩٧).

(٩) نستعمل كلمة «تداخل» هنا بالمعنى المنطقى القديم، أى «دخول شئ فى آخر من غير أن يصح العكس»، ومرادفه فى لغة نظرية المجموعات هو «تضمن ضيق»، ومقابله المنطقى بالفرنسية هو: «Implication»، ومقابله المجموعى هو: «Inclusion Stricte».

قالــوا وقلنــا

للأستاذ / عبدالمجيد حامد صبح

قالوا: لا تسلموا على غير المسلمين، لا تبدأوهم بتحية، ولاتهنوهم فى أعيادهم.. إلى آخر مقالاتهم من هذا النوع الذى يؤدى إلى القطيعة الكاملة وعدم أى نوع من أنواع المجاملة. ويعلنون هذا، ويكتبونه فى كتيبات، ويصدرونها فى جميع بلاد الدنيا.

ونقول: إحقاقاً للحق، وبياناً للشريعة الإسلامية قولاً وعملاً، بما يبين أنها شريعة إنسانية عامة. كما تعتى بالإخاء الإيمانى الذى يربط المسلم بأخيه المسلم، تعتنى كذلك بالإخاء الإنسانى الذى يربط بين البشرية. كما تعنى بالإخاء الوطنى الذى يربط بين أبناء الوطن الواحد مع اختلاف عقائدهم، ومن هذا يتبين أن الإسلام بشريعته، دين إنسانى، عام، صالح لأن يخاطب البشر أجمعين، على اختلاف عقائدهم وأديانهم.

مبدأ قرآنى عام

قرر الله تعالى فى كتابه مبدأً عاماً، وجعله سنة من سنن الله فى البشر، قال الله تعالى فى سورة هود:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(هود: ١١٨ / ١١٩)

فالله تعالى يقرر فى هذا القول المحكم أن اختلاف الناس سنة من سننه فى الخلق وبين أن تلك هى مشيئته، ولو شاء أن يجعلهم على دين واحد لفعل، كما قال فى سورة يونس:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس: ٩٩)

وزاد فى هذه الآية الاستفهام الإنكارى، أن يكون من وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إكراه الناس على الإسلام، كما قال فى سورة البقرة:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فليس علينا وظيفة فى الدين، مع غيرنا، إلا البيان، كما رُوى الرسول - ﷺ أنه قال -: «إن عليك إلا البلاغ». وقال:

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

ووصف القرآن الرسول - صلى الله عليه وسلم - «بالسراج منير»، قال فى سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾

(الأحزاب: ٤٥ / ٤٦)

فبين أنه سراج منير، ينير للناس طريق الحق، ولا يكون ذلك إلا بحسن الخلق الذى به نشر المسلمون الإسلام فى بقاع الأرض.

فى معاملة غير المسلم

وقد حدد القرآن الكريم بما لا لبس فيه أسلوب التعامل مع أهل الأديان الأخرى فقال فى سورة الممتحنة:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة: ٨)

فالذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يعتدوا على ديارهم بالاحتلال أو الإخراج، بين الله أن معاملتهم تكون بالبر والعدل (ولفظ البر) من أجمع ألفاظ اللغة العربية لأنواع الخير، ويقابله لفظ (اللؤم) الذى هو أجمع ألفاظ اللغة، لصفات الدناءة.

وهذا منهج إسلامى فريد فى معاملة المخالفين وفى الدين، أمرنا به المولى سبحانه وتعالى:

أما الذين يناصبون المسلمين العداء فقيهم يقول المولى عز وجل:

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(الممتحنة: ٩)

فالنهى هنا لمن فعل واحدة من هذه الثلاث: القتال فى الدين، الإخراج من الديار، أو من ظاهر على واحد منهما.

وعلى ذلك يكون الأصل الإسلامى فى طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم، هو السلم، حتى يأتى داعى الحرب من قبل الآخرين، وهذا أصل قال به جمهور العلماء ومنهم ابن تيمية.

التطبيق القرآنى

وتطبيقاً عملياً لهذه المبادئ، أحل الله طعام أهل الكتاب فقال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾

(المائدة: ٥)

وفى حديث عائشة أنها قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن قوما قالوا يا رسول الله: إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا، فقال رسول الله ﷺ: سموا الله عليه وكلوا»[1]. ومعنى أنهم يأتون بالذبائح، أن المسلمين تعاملوا معهم بالبيع والشراء، فهل يتم التعامل والمسلمون عابسو

---

(١) صحيح البخارى.

الوجوه، أو ضيقوا عليهم الطريق.

والآية قررت حل التزوج من محصنات أهل الكتاب، فهل يتزوج المسلم منهم، وهو عابس الوجه، أو يضمر لهم الكراهية، ثم يكون له من الكتابية أولاد، أخوالهم من غير المسلمين، وتكون بينهم الرحم، التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «الرحم شجنة من الرحمن»[٢] (شجنة: أي صلة ورابطة) فتكون بين أولاد المسلم وأخواله وجديه (أم الزوجة وأبيها) وشيجة رحم، أمر الله برعايتها، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

«الأنفال: ٧٥»

وهذه الرحم تقتضي نوعاً من الود والاتصال بالزيارة ونحوها.

والرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، زار غلاماً يهودياً مريضاً ودعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فنطق بالشهادتين وفاضت روحه، فخرج رسول الله وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار»[٣]، فهل ترون زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم خارجة عن شرع الله، أو ترونها تمت وهو عابس الوجه، أترونه دخل بيت اليهودي كارها أو متقززاً أو أي صفة مما تزعمون في كلامكم.

إن رسول الله ﷺ كان له الجار اليهودي، وكان يؤذيه بوضع القذر أمام بيته فما يزيد الرسول ﷺ على قوله: أي جوار هذا.

وعامل اليهود بالشراء منهم، وكان أحدهم يرفض البيع له إذا كان الثمن آجلاً. ومن المشهور في السيرة أنه صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وكانت اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول: يرحمكم الله. فيقول: «هداكم الله»[٤].

فهل ترون هذا التزاور، من الرسول لليهودي، ومن اليهود للرسول -صلى الله عليه وسلم- أترونه يتم بعبس الوجه، أم بالود وحسن الخلق الذي هو داعية إلى الحق.

وروى القلقشندي، في موسوعته «صبح الأعشى» ج/ ٦: يجوز الدعاء لغير المسلم، اصطلح على ذلك علماء المسلمين، لما روى: استسقى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسقاه يهودي، فقال له الرسول: «جملك الله» فما رؤي الشيب في وجهه حتى مات.

... ودعى الشافعي لنصراني بقوله: «أعزك الله» أ.هـ. فلاحظ هنا أن الإمام الشافعي دعى له بالعزة، فهل ترون هذا.

وفي أسباب النزول أن الرسول «صلى الله عليه وسلم» هم أن يمنع الصدقة المطلقة على غير المسلمين، فنزل قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧٢)

(٢) صحيح البخاري.
(٣) مسند أحمد.
(٤) مسند البزار.

ومن أحكام الفقه الإسلامي جواز صدقة الفطر على نصراني أو يهودي ذكر ذلك الشعراني في كتابه «الميزان».

عمر مع غير المسلمين

وقد أجرى عمر عطاء دائما ليهودي رآه يتكفف الناس من بيت مال المسلمين.

وكانت قبيلة تغلب، قبيلة نصرانية، وأراد عمر أن يفرض عليهم الجزية فأنفوا من ذلك. وطلبوا منه أن يسميها صدقة، فسماها لهم كذلك.

وفي كتاب الأعلام للزركلي، وكذلك موسوعة فقه عمر، أن عمر استعمل المنذر بن حرملة، وكان نصرانياً، لجمع صدقات قومه، وأخواله قبيلة تغلب النصرانية.

ولما زار عمر الشام عزم عليه راعي الكنيسة، أن يصلي صلاته فيها فقال عمر: أخشى أن يقول الناس، هنا صلى عمر، فيغلبونكم عليها، ولكن استقر في الفقه الإسلامي، أنه يجوز للمسلم، الصلاة في كنيسة النصارى، وقد صلى عمر بن عبدالعزيز، وأبو موسى الأشعري، في الكنيسة.. ومحرر هذا الكلام كانت تحضره الصلاة وهو في إحدى مدن أوروبا، فلا يجد مكاناً للصلاة إلا الكنيسة فيصلي فيها، متحرياً مكاناً لا يقابله صورة أو تمثال وبالمقابل يباح للنصراني واليهودي دخول المسجد، وقد استقبل الرسول «صلى الله عليه وسلم» نصارى نجران في مسجده، ولما حضرتهم الصلاة، أذن لهم بالصلاة في مسجده، وكتب لهم كتاباً يؤمنهم على دينهم وكنائسهم.

أين هذا مما تدعون إليه؟!

وذكر الشافعي أنه يجوز للمشرك أن يبيت في كل مسجد، إلا المسجد الحرام، وقد حبس الرسول ثمامة بن أثال في سارية مسجده، ويدخل المسجد فيقول له: هل عندك خير يا ثمامة؟ فيقول: نعم يا محمد، إن عفوت عفوت على شاكر، وإن قتلت قتلت ذا دم، وإن سألت الفدية فلك ما تريد، يفعل ذلك معه ثلاثة أيام، ثم أطلقه، فدفع هذا الخُلق الكريم، ثمامة أن يسلم، فذهب إلى بئر واغتسل وعاد إلى الرسول «صلى الله عليه وسلم» معلناً إسلامه، ثم عاد إلى بلده وقطع الطريق على قريش إلى العراق، فكتب أبو سفيان إلى الرسول - وهو على حرب معه - يناشده بالله والرحم، فكتب الرسول إلى ثمامة أن يترك لهم الطريق ففعل.. أين ما تقولون من هذا الخلق النبوي الكريم.

دخل أبو بكر الصديق على ابنته عائشة، وعندها يهودية ترقي عائشة فقال الصديق لليهودية: ارقيها بكتاب الله.

ولما سئل الشافعي: أيرقي غير المسلم المسلم؟ قال: نعم، واستشهد بهذه الواقعة فهل هناك أدل من هذه الواقعة، والاستنباط الفقهي منها، على قوة الارتباط بين المسلم والكتابي، وهل يتم مثل هذه الواقعة إلا وهناك قدر كبير من الألفة.

صحب ابن مسعود نصرانياً، فلما هم النصراني بالانصراف، قال له ابن مسعود السلام عليكم وهنا نلاحظ، أنه ألقى عليه السلام، وهو مكانه، والآخر هو المنصرف.

معاملات من غير النبي والصحابة

كان الأخطل شاعراً عربياً نصرانياً، وكان يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً
ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنساً بكوراً
إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست منادياً أبداً بليل
كمثل العير «حي على الفلاح»
ولكني سأشربها شمولاً
وأسجد قبل منبلج الصباح

هذا الذي قال ذلك، كان يستقبله خليفة المسلمين، عبدالملك بن مروان، ويكرمه ويستنشده أحياناً.

وهكذا كان خلفاء المسلمين من بعده، يكرمون العلماء، ولو من غير المسلمين، وكانوا في مجالس الخلفاء جلوساً، والوزراء المسلمين قياماً.

.. وكان المعتصم يسير مرة في حديقة قصره، واضعاً يده على كتف عالم غير مسلم، وفجأة رفع يده، ففزع العالم، فقال له الخليفة المسلم: لا ترع إني ذكرت أن العلماء يعلون ولا يعلى عليهم.

وكان طبيب أبو جعفر المنصور صابئاً، وعاده المنصور في مرض موته، ودعاه إلى الإسلام فقال: رضيت أن أكون مع أهلي في جنة أو نار فضحك المنصور وودعه وخرج.

وكان مدير دار الحكمة في أيام المأمون العالم المسيحي يوحنا، وكانت دار الحكمة بمثابة «دار كتب موسوعية» تمتلىء بكل صنوف العلم، إسلامية، وفلسفية، وغيرهما واستأمن خليفة المسلمين هذا النصراني عليها.

أدب المجادلة

ولما انتشرت الزندقة في أيام الخلافة العباسية، كون المهدي جماعة من العلماء يناظرون الزنادقة، ويؤلفون رسائل في الرد على شبهاتهم على الإسلام.

والزندقة لفظ فارسي معناه عندهم: القول بقدم العالم، واستعملها المسلمون في قول الثانوية بالنور والظلام، ثم توسعوا فيها وصارت بمعنى الملحد والدهري وللإمام أحمد بن حنبل رسالة بعنوان «الرد على الزنادقة».

فإذا كان الخلق الإسلامي «ناظر» الملحدين بأدب المجادلة، والتي قال الله فيها:

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

إذا كان ذلك مع من يقول بنفي الألوهية، وليس له كتاب منزل، ألا يكون التعامل مع من له كتاب منزل، بالتي هي أحسن؟!

من المجاملات.. وحسن المعاملة

كان للحسن البصري، وهو من هو -علماً وفقهاً وتقوى- جارٌ نصراني، وكان للنصراني كنيف على السطح، وكان البول يتسرب من الكنيف على بيت الحسن ثم إن الحسن مرض، فجاء جاره النصراني يعوده، فرأى ما هو من كنيفه، والحسن قد وضع إناء يطلقى البول المتسرب، وكان يذهب به ليلاً ليتخلص منه، فلما دخل النصراني ورأى ذلك، قال له: منذ متى يا أبا سعيد؟ فقال: منذ عشرين عاماً، فقال له: منذ عشرين عاماً تتحمل أذاي!! أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. فنطق بالشهادتين، وأسلم لإدراكه حُسن الخلق الإسلامي.

فبحُسن الخلق هذا، اعتنقت الإسلام طوائف من كل الأديان، على عكس الذين ينادون اليوم، بنبذ الأقباط، أو غيرهم، من غير المسلمين.

.. ذكرت الدكتورة ملك أبيض، في كتابها «التربية والثقافة الإسلامية» أن المسلمين لما فتحوا الشام، أدخلوا صبيانهم كتاتيب يديرها نصارى، قالت الدكتورة: ولا يمكن لوالي الشام أن يوافق على هذا السلوك إلا وعنده إذن من خليفة المسلمين.

.. وكان من قضاة المسلمين، من له جارٌ غير مسلم بل كان مجوسياً، وكان إذا جاء رجلٌ يخطب إحدى بناته يستشير جاره المجوسي، في هذا الخاطب.

جاء في كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف»: أن القاضي نوح بن أبي مريم، قاضي مرو، أراد أن يزوج ابنته، فاستشاره ـ فقال له: سبحان الله، الناس يستفتونك، وأنت تستفتيني، فقال له القاضي: لابد أن تشير عليّ. فقال له المجوسي: كسرى كان يختار المال، وقيصر كان يختار الجمال، والعرب كانوا يختارون الحسب، ورئيسك محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي.

.. في عهد معاوية، كان الذي يقومون بترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها من النصارى.

ولا مجاملة أكثر من فعل الرسول ﷺ حيث قام لجنازة يهودي، فلما قالوا له: إنه يهودي أجاب بقوله: «أليست نفساً»(٥)؟!

تأملوا: «أليست نفساً»؟!، إنها نفسٌ إنسانية تحترم حتى في موتها.

احترام الإنسان من حيث هو إنسان

في كلمة الرسول ﷺ السابقة «أليست نفساً» تقرير للإخاء الإنساني، الذي قرره الله في مواضع من كتابه، حيث قال: في أول سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا ﴾

(النساء: ١)

وقال في سورة الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

.. قرر أولاً: الإخاء الإنساني، بنداء الناس أجمعين، وخلقهم من أب واحد، وأم واحدة، ثم بين اختلافهم، شعوباً وقبائل، ثم بين حكمة التعدد بأنه، من أجل التعارف وتبادل المنافع، حيث يكمل بعضهم بعضاً، وليس للتناحر، ولا للتقاتل، ولا لازدراء بعضهم لبعض.

وقد أوصى أمير المؤمنين عليّ، حين ولى مالك بن الحارث الأشتر في عهده ولاية مصر، لجباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أرضها، وعمارة بلادها، ومما أوصاه به: «فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، ولا تكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه».

وهذا الذي قاله أمير المؤمنين -كرم الله وجهه، إنما هو تنفيذ لوصية الرسول ﷺ: «إن دخلتم مصر فاستوصوا بقبط مصر خيراً، فإن لنا فيهم ذمة ورحماً»(٦)، النسب: هي هاجر أم إسماعيل، وكانت أميرة من أمراء الصعيد، والصهر: مارية القبطية، التي ولدت إبراهيم للرسول ﷺ.

وكان المقوقس أوصاها أن تخبره بحال هذا الذي

(٥) معرفة السنة والآثار للبيهقي، بلفظ مقارب.

(٦) مشكل الآثار، باب ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يدعى النبوة، فكتبت إليه: وجدتُ نبى المسلمين أظهر من الديكة فى سمائها «الديكة: السحابة».

فشتان بين ما قال القرآن، وقرره الرسول ﷺ قولاً وعملاً، وطبقه الراشدون، وفعله ملوك المسلمين، وبين ما يقوله أدعياء اليوم ويشيعونه ويحرضون عليه.

الرد على التضييق عليهم

بقى مسألة النهى عن البدء بتحيتهم، وإلجائهم إلى أضيق الطرق.. وقد ورد ذلك فى أحاديث صحيحة.. ولكن الحكم الفقهى، لا ينتهى عند معرفة النص، ولابد من الفقه فيه، ومعرفة مناسبة قوله، وحسبنا على سبيل الإجمال، ما نقله ابن القيم والشوكانى، عن إمام أهل الشام عبدالرحمن الأوزاعى من قوله: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون، وهؤلاء الصالحون هم السلف الذين ندعى الانتساب إليهم.

وفى فقه الإمام إبراهيم النخعى قوله: أن الصحابة لم يحرموا الأكل مع اليهود والنصارى، والاجتماع على الطعام نوع قوى من الألفة.

ولعل هذا مقتضى إباحة القرآن لطعامهم.

وكلمة الإمام الأوزاعى تلخص الاتجاهات الفقهية فى مسألة بدء أهل الكتاب بالسلام أو عدمه.

إنما هى مسألة «نظر».

ومن هنا نقول: إن حديث النهى عن بدئهم بالسلام وإلجائهم إلى أضيق الطرق، قاله الرسول ﷺ للمسلمين عندما أمرهم بالتوجه إلى بنى قريظة ـ الذين تآمروا مع الأحزاب من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين ـ ومن ثم رأى بعض العلماء أن الحديث مقصور على هذه الحالة وأمثالها، وليس تشريعاً عاما.

والخلافات الفقهية كلها دائرة على ما خصته كلمة الإمام الأوزاعى، ونزيد فى التطور الزمانى، أننا لو أخذنا بمبدأ التضييق على غير المسلمين، يكاد يكون من الصعب تنفيذه، ولاسيما فى المدن المزدحمة، وتصور كيف يكون مشى المسلم فى هذه المدن، لو حاول أن يطبق ذلك، ألا يكون داعيا للسخرية منه؟!

ألا يكون داعيا إلى فتن تهلك الحرث والنسل، وتكون أضرارها بالغة على المسلمين.

هذا قول الخليفة الراشد، وهذا أمر رسول الله ﷺ، حين أوصى الصحابة خيرا بقبط مصر، وهذا نهج القرآن يحفظ دور العبادة للمسلمين ولسائر الأديان، وتلك تطبيقات الراشدين وملوك الإسلام من بعدهم.

خاتمة

ثم إليكم نكتب؛ فى هذا الختام؛

قال رسول الله ﷺ فيما:

«من عض على شبدعه، أمن الآثام»[٢].

الشبدع يريد «اللسان» وأصل الكلمة اسم للعقرب، سمى اللسان بهذا الاسم، تشبيها للسعته بلسعة العقرب، ولسعة العقرب يمكن دواؤها، والشفاء منها، وليس كذلك لسعة اللسان، وكم من بيوت خربت، وجماعات مزقت وفرقت بلسعة من لسان.

روى الحديث أصحاب «غريب الحديث» وأخذه الشاعر فقال:

عض على شبدعه الـلـبـيـب
فـقـل لا يـلـحـى ولا يـحـوب

فيحفظ لسانه يسلم من لوم الناس، وإساءته التى يعتذر عنها، فهل لكم فى ذلك مزدجر.

والله يهدى إلى سواء السبيل

(٢) مجمع الأمثال للميدانى.

الفتاوى الباغية فى مسألة الطعام


للدكتور/ سيد دسوقى حسن

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(النساء: ١٦٠ ـ ١٦١)

يقرر القرآن فى هذه الآيات المحكمات وفى غيرها أن كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرموه على أنفسهم ونحن هنا لا نتحدث عن تحريم فردى يتعلق بمزاج فرد من الأفراد يحب أن يأكل هذا الطعام ولا يحب أن يأكل طعاماً آخر. وإنما نتحدث عن تحريم جماعى لشعب كامل. وبالطبع لم يتقرر هذا التحريم الجماعى إلا نتيجة لعقائد عامة أو سياسات عامة تبنتها الجماعة كلها. ويقرر القرآن أن السياسية الإسرائيلية تجاه الطعام لم تكن وحياً من السماء ولكنها كانت نتيجة لبغيهم الذى تمثل فى صدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وقد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل. ونحن نعرف أن الرعى والزراعة هما مصدر الطعام الذى يأكله الإنسان. فإذا كانت سياسات الجماعة تقوم على البغى متمثلا فى الربا وأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله فإن ذلك سوف يصرف لا محالة الرعاة والمزارعين الفقراء عن الرعى والزراعة وإنتاج الطعام.

وللأسف الشديد فإننا نجد هذه الأيام أموراً متشابهات مع أحوال تلك الجماعة من بنى إسرائيل.

فى الخمسين سنة الأخيرة أهملنا الرى و الزراعة بتوجيه القادرين عليها إلى تعليم فاسد لا يؤهلهم لحرف ولا مهن، وانشغلنا بنظم لا نملكها ووجهنا أموالنا وأولادنا فى طرق أدت بنا إلى الفقر الزراعى والصناعى والرعوى.

إن النمط التنموى الذى مضينا فيه فى الخمسين سنة الأخيرة هو الذى حرمنا الطعام الذى كنا نطعمه. هل يعقل أن تصبح مصر أكبر مستورد للقمح فى العالم. والقرآن العظيم يحذر أن السياسات التى تقوم على البغى السياسى والاقتصادى والبيئى والأخلاقى هى التى ستحرمنا الطعام لا محالة. وحينئذ سيقال عنا ما

قيل عن ذلك الملأ من بني إسرائيل: كل الطعام كان حلاً للمصريين إلا ما حرم المصريون على أنفسهم بعد أن هجروا كتاب ربهم و لم يأتنسوا بمقاصده التنموية في الحياة.

وكما حكى القرآن عن هذا الملأ من بني إسرائيل حكى لنا أيضاً عن الموقف السائد في بلاد العرب قبل الإسلام نجد ذلك فيما حكاه المولى عز وجل في قوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ ﴾

(الأنعام: ١٣٦-١٤٦)

والقرآن هنا يتحدث عن العقائد والسياسات التي يتعامل بها أهل الجاهلية مع البيئة الزراعية والنباتية والبيئة الحيوانية، فهناك سياسات تحسن التعامل مع

البيئة وتحكم فيها شرع الله، ومن ثم تؤدي هذه السياسات الراشدة إلى نتائج طيبة تنفع العباد والبلاد. وهناك عقائد فاسدة وسياسات فاشلة تؤدي إلى خراب البيئة المحيطة بنا ونتائجها مدمرة للبلاد والعباد، واحدة تصل إلى الله عملاً صالحاً وأخرى تصل إلى الفساد والخراب عملاً سيئاً.

إن الإفساد البيئي اليوم على قدم وساق تقوده جحافل الصناعيين الذين لا يرقبون في البشرية إلاً ولا ذمة، همهم الأكبر وشريكهم الأعظم هو الأرباح الضخمة، أما البيئة الحيوانية والزراعية فلتذهب إلى الجحيم. والغريب أنهم يعلمون أن إصلاح ما أفسدوه يكاد يكون مستحيلاً وأنهم بذلك يقتلون أولادهم ولا يتركون لهم أرضاً تزرع ولا بيئة يحيا الناس فيها آمنين.

إن عقائد المشركين في أيام الجاهلية الأولى كانت بسيطة وهينة مقارنة بعقائد المشركين اليوم والتي تكاد تهلك البشرية هلاكاً لا تقوم بعده. ففساد المشركين الأول كان يتعلق بتوزيع غير عادل لخيرات البيئة المحيطة، أما اليوم فبجانب التوزيع غير العادل هناك أيضاً التدمير الكامل لهذه البيئة ولن أنسى كلمات جيمي رفكن في كتابه الرائع (Entropy) عندما قال في نهاية الكتاب: ليس هناك أمل لإصلاح ما نحن فيه إلا بالعودة إلى ما قبل الثورة الصناعية الأولى.

والدرس المستفاد من هذه الآيات البينات التي حواها قرآننا هو أننا ينبغي أن نعي الفرق بين أصول الدين وبين أجواء التمدين الذي يحيط بالقوم عندما جاءهم النبي أو الرسول بالدين الجديد.

فعندما جاء الدين كان الناس يلبسون لباساً متعدداً وكانوا يأكلون أطعمة متعددة وكانوا يمارسون أنماطاً من السلوكيات الطبيعية في سكنهم ولباسهم وشرابهم وملبسهم. والدين عندما جاء إنما جاء ليهذب سلوكياتهم فلا يعتدون على بعضهم البعض ولا يعتدون على البيئة النباتية أو الحيوانية ولا يعتدون على أنفسهم بانتهاج سلوكيات مدمرة لصحتهم وبيئتهم. ولذلك فالقرآن في قضية الطعام لم يحرم على المسلم إلا الأطعمة والأشربة الضارة بصحتهم من الخمر والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به. وأنا أظن أن: ما أهل لغير الله به يشتمل على كل أنواع الأطعمة والمشروبات الضارة بصحة الإنسان والملوثة للبيئة، وبالطبع الذي يقرر هذا هم أساتذة الطعام وأساتذة الطب، وليس غيرهم من الذين يطلقون الفتاوى الباغية التي تحرم وتحلل ويمضي وراءهم ملايين الأتباع محللين ومحرمين. فما أهل لغير الله به ليست كلمة تقال عند الأكل أو الذبح فقط وإنما مرد الأمر أن نقصد وجه الله ونلتزم بأوامره في كل نواحي الحياة وفي طعامنا وشرابنا وسلوكنا كله، وأن تنقى نياتنا فلا ننوي إلا خيراً.

❖❖❖

علاقة الإسلام بالديانات السماوية السابقة

لفضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

جاءت الديانات السماوية من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ وراء بعضها عبر تاريخ البشرية، ووفق علم الله وحكمته، ووفق إرادته ومشيئته، ووفق الأزمنة والأمكنة التى أتت فيها لتؤدى رسالتها شيئا فشيئا فى تصحيح الانحرافات العقائدية والاجتماعية والأخلاقية التى وقعت من بنى البشر.. ولتعالج فساد المعاملات التى تفشت بين الناس فى مجالات حياتهم.. والتى كانت تختلف من مكان إلى مكان، ومن بيئة إلى بيئة.. ولذلك وجدنا فى بعض الأحيان أن الزمن الواحد قد جمع بين أكثر من نبى أوحى الله إليه برسالة سماوية تتلاءم مع من أرسل إليهم فى علاج الخلل الذى شاع وانتشر فيما بينهم، ولتعيدهم إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ولتهديهم إلى الصراط المستقيم.

غير أن أصول الديانات السماوية كلها واحدة لا يختلف فيها دين عن دين، كإثبات وجود الله، والدعوة إلى الإيمان به وتوحيده وعبادته، وإلى الإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر.

أما ما يتعلق بفروع الشرائع: كإباحة بعض الطيبات وحلها لقوم على سبيل التيسير لهم، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة عليهم، فهذا لا يدخل فى الأصول الثابتة فى جميع الأديان، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال. يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى: قد أنزل الله التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب «القرآن الكريم» الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة من هدايا وأحكام.. وقد أنزلناه ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، وجعلناه مصدقا ومؤيدا لما فى تلك الكتب السماوية التى تقدمته من دعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد جمع فيه محاسن ماحوته الكتب السابقة عليه، وزاد فيه ما ليس فى غيره من الكمالات.. فلهذا جعله الله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها.. وتكفل الله بحفظه من الضياع والتبديل والتحريف، فقال ـ سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا ﴾

(الحجر: ٩)

وإذا كان شأن القرآن كما ذكرت لك يا محمد فاحكم بين أصحاب الديانات السابقة وبين غيرهم من الناس بما أنزله الله عليك من أحكام فى القرآن، فإن ما نزل فيه هو الحق الذى لا باطل معه، ولا تتبع يا محمد فى حكمك أهواء أصحاب الديانات الأخرى، لأن اتباعك لأهوائهم يجعلك منحرفا ومائلا عما جاءك من الحق ـ فى القرآن الكريم ـ الذى لا مرية فيه ولا ريب.

ويذكر الله ـ تعالى ـ أنه وضع لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية شرعة ومنهاجا خاصين بها، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ـ عليهما السلام ـ كانت شرعتها ما فى التوراة من أحكام، والأمة التى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ـ عليهما السلام ـ كانت شرعتها ما فى الإنجيل من أحكام.. وأما هذه الأمة الإسلامية فشريعتها ما فى القرآن الكريم من أحكام، لأنه مشتمل على ما جاء فى الكتب السابقة عليه من أصول الدين وكلياته التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.. كالدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، كما قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

وزاد عليها ما يناسب العصر الذى نزل فيه والعصور التى تليه إلى يوم القيامة.

ويخطىء من يعتقد أو يفكر أو يظن أن الدين الإسلامى جاء لينكر الديانات السماوية السابقة، ولايعترف بها.. أو أنه جاء ليقطع الصلة بينه وبين هذه الديانات.. أو أنه جاء ليحارب أتباعها ويقضى عليهم ويستأصل شأفتهم.. إن كل من يعتقد أو يفكر أو يظن ذلك فقد وقع فى خطأ كبير.. فمن أسس عقيدة الدين الإسلامى أنه أمر المسلم بالإيمان بالرسل السابقين وما نزل عليهم من كتب سماوية، وذلك لاعترافه بالديانات السماوية السابقة عليه، وبجميع الأنبياء والرسل السابقين الذين أرسلهم الله برسالات سماوية، والذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم على سبيل التحديد والحصر.. وإن كان القرآن الكريم قد أشار إلى رسل آخرين على وجه الإجمال ولم يذكر أسماءهم، كما قال ـ تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

(غافر: ٧٨)

وهذا يعنى أن الوحى الإلهى وحدة جامعة،

وأن أى مسلم لا يؤمن بأى رسول منهم ـ عليهم جميعا الصلاة والسلام ـ أو لا يؤمن بأى كتاب سماوى نزل من الله على أى واحد منهم لا يكون مسلما.

يقول الله ـ جل شأنه ـ:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة:١٣٦)

لقد أرشد الله ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين فى هذه الآية الكريمة إلى نبذ التعصب الدينى، ودعاهم إلى اتباع الوحى الإلهى الذى أرسل الله به الرسل ـ السابقين ـ مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وطلب من المسلمين ـ بصيغة الأمر ـ أن يقولوا لأتباع الديانات السابقة: إننا نؤمن ونصدق بالله وبالقرآن الكريم الذى نزل على الرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبالتوراة التى أنزلها على موسى ـ عليه السلام ـ، وبالإنجيل الذى أنزله الله على عيسى ـ عليه السلام ـ، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه ورسله جميعا تصديقا لهم فى نبوتهم ورسالتهم، ونحن فى تصديقنا وإيماننا بالأنبياء والرسل السابقين لا نفرق بين أحد منهم، فلا نقول نؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر.. ونحن لربنا مسلمون خاضعون له بالطاعة، مذعنون له بالعبودية.

ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

لقد مدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة رسوله محمدا ﷺ ومدح المؤمنين الذين آمنوا به بأن كلا منهما «الرسول والمؤمنين» صدق بما أنزله الله فى القرآن: من عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وأخلاق وفضائل، وقيم وآداب.. تصديق إقرار وخضوع واطمئنان، وأن كلا منهما آمن إيمانا تاما بوجود الله ـ تعالى ـ ووحدانيته، وكمال صفاته، ووجوب الخضوع والعبادة له، وبوجود الملائكة، وأنهم عباد مكرمون:

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

(التحريم:٦)

كما آمنوا بكتب الله التى أنزلها، وبرسله الذين أرسلهم لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأن من صفاتهم «الرسول والمؤمنين» أنهم لا يفرقون بين رسل الله فى الإيمان بهم، وبالتصديق برسالة كل رسول أرسله الله، ولا يقولون كما قال غيرهم:

﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾

(النساء: ١٥٠)

وفى مدح الله هذا تشريف وتكريم للرسول وللمؤمنين، وإعلاء من أقدارهم ومنازلهم.

ويقول الله ـ عز وجل:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى:١٣)

أى: شرع الله لكم يا أمة محمد ﷺ من أصول الديانات السماوية التى لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة، كإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ، والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، والتحلى بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف والحب والتعاون واحترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليهم.. وما شرعه لنوح ـ عليه السلام ـ، وما أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ، وما أوصى به أنبياءه: إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم جميعا الصلاة والسلام ـ من وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله ـ تعالى ـ وإخلاص العبادة له، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم..

وقد أمر الله ـ جل وعلا ـ المؤمنين بإقامة الدين، وذلك بالالتزام بتوحيد الله وطاعته، وبالإيمان برسله وكتبه وباليوم الآخر، وبالالتزام بتنفيذ أوامره ونواهيه فى الأصول والأحكام والآداب التى أجمعت عليها الشرائع الإلهية، والتى لا تقبل الاختلاف أو التفرق.. وقد شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ، وإلى ترك ما ألفوه من شرك ومن تقاليد باطلة ورثوها عن آبائهم..

ثم بين الله كمال قدرته ونفاذ مشيئته، فهو ـ سبحانه ـ يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده، ويهدى إلى الحق من ينيب ويرجع إليه، ويقبل على عبادته وطاعته.

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا يوضح ويبين فيه أن الدين الإسلامى أتى مكملا ومتمما للديانات السماوية السابقة، ويؤكد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيه تأكيدا تاما على ما جاء به القرآن الكريم من سلامة أصول الديانات السماوية، واتفاق مصدرها، واتفاق أهدافها وغاياتها، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1].

إن من يقرأ هذا الحديث النبوى الشريف قراءة متأنية يرى بكل تأكيد أن الديانات السماوية تنسجم فيما بينها انسجاما تاما صحيحا، كما تنسجم اللبنات الناهضة فى البناء الواحد، وأن كل دين سماوى يجىء إنما يأتى ليكمل ما سبقه من الديانات السماوية الأخرى دون تعارض أو تصادم، حتى إذا ما تهيأت البشرية واشتدت حاجتها إلى استقبال الدين المكمل والمتمم للديانات السماوية السابقة جاءت الديانة الإسلامية خاتمة لهذه الديانات السماوية، غير محددة بزمان أو مكان، وغير خاصة بقوم معينين.. بل هى رسالة عامة للناس جميعا فى كل زمان ومكان.

(١) الشيخان والترمذى.

تأملات فى السيرة



لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

تروى كتب السنة عن أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيى رضى الله عنها قالت: «لم يكن أحد من والدى وعمى أبو ياسر بن حيى أحب إليهما منى. لم ألقهما قط مع ولديهما إلا أخذانى دونه - تعنى أنها أحب أولادهما لهما - فلما قدم رسول الله ﷺ قباء غدا إليه أبى حيى بن أخطب وعمى أبو ياسر مغلسين. فوالله ما جاءا إلا مع مغيب الشمس - يعنى لما وصل النبى ﷺ إلى قباء بادر إليه أبى حيى وأبو ياسر ابنى أخطب فى الصباح الباكر ليتبينا أمره، ومكثا عنده حتى قرب مغيب الشمس - فجاءا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى - يعنى متعبان مجهدان يمشيان متثاقلين من طول المكث وكثرة الجدال مع رسول الله ﷺ كى يستبينا أمره - تقول رضى الله عنها: فهششت لهما فرحًا وسرورًا كما كنت أصنع كلما لقيتهما، فوالله ما نظر إلىّ واحد منهما - يعنى أبديت لهما فرحًا وسرورًا كما كنت أفعل كلما لقيتهما فلم يلتفت إلىّ واحد منهما ولم يعيرانى اهتمامًا كأنهما لم يريانى، فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى - يسأله ويستفسر منه ليتأكد ويزيل بقايا شك أو وهم قد يتبادر إلى ذهنه - أهو هو؟ فيجيبه أبى حيى نعم هو هو، فيعود أبو ياسر يسأله أتعرفونه بنعته وصفته، فيجيبه حيى: نعم والله هو هو، فيعود أبو ياسر يسأل: فما قولك فيما رأيت وما فى نفسك منه؟ فيقول حيى: عداوته والله ما بقيت...».

أتدرى أيها القارىء الكريم من التى تحكى هذه الحادثة وتروى ذلك الحديث؟ إنها أم المؤمنين صفية بنت حيى وقد حازت كل مؤهلات التصديق لسلامة فطرتها وعلو مكانتها، فهى بعيدة عن الشك والريبة فهى ابنة زعيم اليهود وحبرها فى المدينة حيى بن أخطب، وهى بذلك فى منأى عن الريبة وحرية بالصدق كله، فهى بذلك يهودية فى قمة اليهود مكانة ومنزلة، وهى تحكى أيام الطفولة التى لا يشوبها شك أو ريب ولا تزييف أو تحريف فهى فى مرحلة البراءة التامة والنقاء الطبيعى، كما أنها حازت كل مناقب الفضل والرفعة بوضعها الجديد حيث إنها أصبحت زوج النبى ﷺ، فهى أم المؤمنين فأىُّ مكانة ومنزلة تعلو أو تقترب من مكانة أمهات المؤمنين أزواج النبى عند المسلمين، وهى بجانب هذا وفوقه ليست بحاجة إلى تلفيق فى رواية تُحمد بها عند المسلمين ولا اختلاق تزداد به فى قلوب أتباع النبى ﷺ فهى بمكانتها فوق كل منزلة فهى بإيمانها ويقينها فوق كل شبهة أو ريب وهذه الرواية لا يكذبها بالقطع مسلم ولا يكذبها مشرك، ولكن قد يرفضها يهودى لا يحب محمدًا وأصحاب محمد، وهذا هو الذى حدث ويحدث حتى الآن، هكذا كان الرفض والتكذيب والتزييف والحقد والبغضاء لدعوة الإسلام منذ دخوله ﷺ المدينة حتى (جولدامائير) (ونتنياهو)، لكن كيف قابل النبى ﷺ هذا السلوك من اليهود، وكيف كانت معاملته لهم؟ نقول على الإجمال لم تكن معاملة النبى ﷺ لليهود رد فعل لأعمالهم، لكنها كانت تنطلق من معانى الدين الحنيف السمح الرشيد، كانت معاملة تهدف إلى إرساء مبادىء الحنفية السمحة وإرساء قواعد المعاملة الرشيدة المستقيمة، ولن تستبق الأحداث فى الحكم على أفعال اليهود فى مواجهة الدعوة الإسلامية، لكنى أود أن أعرض لك أيها القارىء الكريم واقعة أخرى ترى فيها كيد اليهود واضحًا وبهتهم صريحًا وهم يعلمون خبر النبى ﷺ نبوته وصفته جلية واضحة فى كتبهم، يروى البخارى عن رجل من آل عبد الله بن سلام قال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذى كنا نتوكف له - أى ننتظر وقوعه - فكنت مسرًا بذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما قدم نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه. وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرتُ فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: (لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت) فقلت لها: أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به فقالت لى: يا ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث قرب الساعة؟ قلت لها: نعم. قالت: فذاك إذا. قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت بأنه ليس بوجه كذاب. فكان أول ما سمعته يقول: أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام. فسأل النبى ﷺ أسئلة يختبره بها، فأجابه النبى ﷺ عنها فكانت إجابته كما فى كتبهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ثم رجع إلى أهل بيته وأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن اليهود كما قد علمت أنى سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم وأنهم قوم بهت وأنهم لو علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى يبهتونى وقالوا فىّ ما ليس فىّ. فأحببت أن تدخلنى بعض بيوتك. فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته. وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: يا معشر اليهود يا ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا فقالوا: ما نعلمه - أى لسنا

نعلم ذلك . فقال ﷺ : أى رجل فيكم الحصين بن سلام . وهذا اسمه قبل أن يغيره رسول الله ﷺ . فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . فقال : أرأيتم إن أسلم قالوا : أعاذه الله من ذلك . فقال : يا ابن سلام اخرج عليهم فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقاً تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة اسمه وصفته إنى أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه : قالوا : كذبت ، أنت شرنا وابن شرنا وانتقصوه . قال : هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهت وأهل غدر وكذب وفجور؟! قال : وأظهرت إسلامى وأسلم أهل بيتى وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها .

وبعد أيها القارئ الكريم فإن رسول الله ﷺ لم يكن قائداً حربياً منتهى أمله وغاية مراده أن ينتصر فى المعركة أو يكسب الحرب إنما هو رسول غايته وهدفه ومنتهى أمله أن يهدى الله به الخلق إلى مراد الله وأن يحقق العدل والمساواة بين الناس وأن يضع للناس أسساً ومبادئ تحكم سيرهم فى الحياة ومنتهى أمله كما قال ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فلو أنه كان قائداً عسكرياً يبغى الفوز فى المعركة أو النصر فى الحرب لكان فى إمكانه أن يقضى على اليهود فى المدينة أو أن يستأصل شأفتهم ولكنه كان هادياً ورحمة للعالمين فأراد أن يؤسس أحكاماً ويضع أسساً تسير عليها الجماعات وإن اختلفت فى الفكر والعقيدة إلا إنها تشترك فى الإنسانية فكيف تعيش رغم اختلاف العقيدة وتباين الفكر واختلاف المصالح فرغم ما أبداه اليهود مما ذكرنا بعضه فى الواقعتين السابقتين إلا أن الرسول ﷺ لم يشأ أن يقابل هذه الأحقاد وهذه الضغائن بسيف يقطع أطماع المغرضين ويقطع رءوس الفتن، فهو ﷺ ليس ذلك القائد الحربى الباحث من زهو النصر ولا ذلك الرئيس الموتور، ولكنه ﷺ الرسول الهادى الداعى إلى الخير والحق والسلام يضع أساساً لتعامله ﷺ وهو القائد المنتصر يحكم تعامله مع اليهود القاطنين فى المدينة وبرغم أنهم مناوئون حاقدون كارهون للدعوة وصاحبها إلا أنه ﷺ كتب معهم كتباً تحدد وتوضح أطر التعامل فى الحرب والسلم، فى المنشط والمكره، فى حروب بينهم أو جيوش تهجم على المدينة كيف يقابلها هؤلاء المختلفون فى نزاعات تنشأ بين المتجاورين؟ كيف يكون الحكم فيها؟! هذه الأسس تقول بصدق ووعى إن عالم اليوم رغم ما يزعم من تقدم وحضارة فى التشريع والقانون والعدل والمساواة لم يصل إلى عشر معشارها فى التقنين بله التطبيق والعمل .

وإذا كنا لم نورد نص الكتب والمعاهدات التى كتبها الرسول ﷺ والتى تحدد طبيعة العلاقة المستقبلية بين كل قاطنى المدينة.. ومنهم اليهود، إلا أننا نود أن نذكر واقعات أخرى تدل على تمادى اليهود فى بغيهم وحقدهم وإثارة الفتن بين سكان المدينة وبين المسلمين أنفسهم فمن ذلك سؤالهم عن الروح . فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث المدينة وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون . فقال بعضهم : لنسألنه فقام به رجل فقال : يا محمد أخبرنا عن الروح كيف تعذب الروح التى فى الجسد؟ فلما نزل الوحى قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء : ٨٥)

قالوا : هكذا نجده فى كتبنا وقد قال بعضهم لبعض قلنا لكم لا تسألوه .

لعلك أيها القارئ الكريم تفهم من هذه القصة أن اليهود أرادوا أن يختبروا علم الرسول عن الروح لكنى أقول لك إنى أفهم أن هذه القصة فيها دلالة واضحة على أن نبوة رسول الله ﷺ ثابتة فى كتبهم وأنهم يعرفون ذلك بدليل أنهم قالوا : هكذا نجده فى كتبنا أى يجدون الجواب فى كتبهم ورغم هذا فإنهم لا يؤمنون بل لا يكفون عن العناد والبلبلة وأيضاً فإنهم لما سمعوا الحروف المقطعة فى أول السور فبدأوا يحرفون فى معانيها بأقوال ليس عليها دليل أو علم . ولا توصل إلى نتائج معقولة أو صادقة وأيضاً إذا أضفنا إلى ذلك ما حاولوا بثه من فتنة وخلاف بين الأوس والخزرج وما حاوله شاس بن قيس من إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج لما وجدهم مجتمعين ورآهم متآلفين يجلسون يتحدثون فى فرح وسرور فأوعز إلى أحد الفتيان كان معه أن يجلس معهم ويذكر لهم واقعة بُعاث . وهو يوم كانت فيه حرب ضروس بين الأوس والخزرج أهلكتهم . ويذكر لهم ما تفاخر به القوم بعضهم على البعض فقام رجال من الأوس يتفاخرون بأبيات قيلت فى هذه المعركة فرد عليهم آخرون من الخزرج وتفاخروا حتى قام كلٌّ إلى سلاحه وتواعدوا فبلغ النبى ﷺ فخرج إليهم غاضباً يذكرهم ويعظهم فأنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(آل عمران : ٩٨ : ١٠١)

وغير ذلك كثير والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم . وإلى لقاء آخر إن شاء الله .

❖❖❖

بين الصحف و المجلات

إعداد
أ/ محمد جمعة
أ/ علا عبد الرحمن

وثائق التحريض على الفتنة الطائفية

تحت هذا العنوان، جاء مقال الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة المنشور بجريدة «الأهرام» الصادرة فى ٢٠١١/١١/١م يقول:

بالتوازى والتزامن مع إقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م، بدأ المخطط الاستعمارى لتفتيت أقطار الشرق الإسلامى تفتيتاً جديداً.. بعد تفتيت «سايكس بيكو» سنة ١٩١٦م، وذلك بإنشاء اثنين وثلاثين كياناً سياسياً جديداً، على أسس دينية ومذهبية وعرقية ولغوية، لتحويل الشرق الإسلامى إلى «فسيفساء ورقية»، مشغولة بتناقضاتها وصراعاتها الداخلية.. أما الهدف من ذلك كله فهو تحقيق الأمن والتفوق لإسرائيل!.. ولقد كتبت ونشرت وعقدت لرسم هذا المخطط وتنفيذه، وثائق ودراسات وندوات خرجت به عن «نظرية المؤامرة» التى هى تدبير سرى، إلى دائرة النشر والإعلان.

● فمع إقامة إسرائيل نشر المستشرق الصهيونى برنارد لويس فى مجلة INTELLIGENCE RESCURCH PROJECT EXECUTIVE التى تصدر عن البنتاجون –وزارة الدفاع الأمريكية– دراسته الشهيرة التى تقترح العمل على إعادة تفتيت الشرق الإسلامى من باكستان إلى المغرب، بإضافة اثنين وثلاثين كياناً سياسياً مستقلاً، على أسس دينية ومذهبية وعرقية ولغوية، لتحقيق الأمن الاستراتيجى لإسرائيل.

● وفى النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين، بدأت إسرائيل إمساك خيوط التنفيذ لهذا المخطط، وذلك ببث الفتنة الطائفية بين الموارنة والمسلمين فى لبنان.. وكتب «بن جوريون» (١٨٨٦ - ١٩٧٣م)، رئيس الدولة الصهيونية، بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤م رسالة إلى رئيس وزرائه شاريت (١٨٩٤ – ١٩٦٥م)، يقول فيها: يجب علينا أن نجند كل من يتكلم العربية بيننا، وأن نوفر الأموال اللازمة لإنجاح هذه السياسة، ولا بأس لو اضطررنا أحياناً إلى إنفاق الكثير دون الوصول إلى نتائج سريعة.. ذلك أن تحريك الأقليات المسيحية يهز الاستقرار فى المجتمعات العربية.. وعندما تنتشر الفوضى والاضطرابات يتصرف الضعفاء المفتقرون إلى الشجاعة من أبناء هذه الأقليات على نحو مختلف، إذ يتصرفون كأبطال فى مثل هذه الأوقات!.

● وفى فصل آخر من فصول هذا التخطيط لتدمير الاستقرار فى المجتمعات العربية وضرب وحدتها الوطنية بالفتنة الطائفية، نشرت مجلة الاتجاهات KIV- الناطقة بلسان المنظمة الصهيونية العالمية فى ١٤ UNIM فبراير سنة ١٩٨٢م.. أى بعد معاهدة كامب ديفيد، وبالرغم منها! نشرت دراسة ركزت فيها الحديث على تفتيت مصر، وتحويلها من دولة مركزية إلى دولتين، قبطية ومسلمة، على الأقل!! معتبرة تفتيت مصر بالفتنة الطائفية المفتاح التاريخى لتفتيت سائر أقطار الوطن العربى.. وفى هذا المخطط الصهيونى – الذى نشر تحت عنوان «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» جاء بالنص:

«إن مصر المفككة والمنقسمة إلى عناصر سلطوية كثيرة، وليس على غرار ما هو الحال اليوم، لا تشكل أى تهديد لإسرائيل، وإنما ضمانة للأمن والسلام لوقت طويل.. وهذا الهدف هو اليوم فى متناولنا، إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منها لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون!!.. إن رؤية دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية مصرية، لا سلطة مركزية، كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى.. وإن استعادة سيناء بمواردها هدف ذو أولوية، تحول دون الوصول إليه الآن اتفاقيات كامب ديفيد، ويجب علينا العمل على استعادة الوضع الذى كان فى سيناء قبل زيارة السادات «القدس».


برنارد لويس

لقد ماتت الأسطورة القائلة: إن مصر هى زعيمة العالم العربى، فقد فقدت فى مواجهتها لإسرائيل ٥٠٪ من قوتها، وهى جسد مركزى قد صار جثة، ولا سيما بتزايد المواجهة بين المسلمين والأقباط، فإنشاء دولة قبطية فى صعيد مصر وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخى، فإذا ما تصدعت مصر فإن بلاداً عربية أخرى ستواجه لب المصير نفسه».

● وبعد عشر سنوات من نشر هذه الاستراتيجية الصهيونية، عقدت بإسرائيل فى ٢ مايو ١٩٩٢م ندوة دعا إليها مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيجية التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية، بواسطة مركز الأبحاث السياسية وأسهم فيها باحثون من مركز ديان التابع لجامعة تل أبيب وذلك تحت عنوان «الموقف الإسرائيلى» من الجماعات الأثنية والطائفية فى منطقة الشرق الأوسط، وطموحاتها وتطلعاتها الاستقلالية فى ضوء ما حققه أكراد العراق بعد الحظر الأمريكى على شمالى العراق وجنوبه، عقب حرب عاصفة الصحراء».

ولقد ناقشت هذه الندوة التى حضرها ممثلون للأقليات فى العالم العربى أحد عشر بحثاً، من عناوينها:

١- «تأييد إسرائيل للنزاعات الانفصالية للجماعات العرقية والأثنية والاعتبارات الكامنة وراءه».

٢- «دعم إسرائيل للحركة الكردية».

٣- «الثورة الشيعية فى جنوب العراق أثناء حرب الخليج».

٤- «سوريا هل ستبقى موحدة فى ظل انتعاش الاتجاهات الانفصالية فى المنطقة».

٥- «إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال والحرية».

٦- الشيعةفى أقطار الخليج».

٧- «إسرائيل ونضال البربر فى شمال أفريقيا».

٨- أما مصر فكان عنوان البحث الخاص بها هو «الاستقطاب بين المسلمين والأقباط فى مصر».

ولقد خلصت هذه الندوة الصهيونية إلى تأكيد الموقف الثابت للحكومات الصهيونية المتعاقبة.. وهو: دعم الأقليات الطائفية فى الشرق الأوسط، وتأييد طموحاتها ورغباتها فى تقرير المصير أو إقامة كيانات مستقلة، وذلك انطلاقًا من الحلف الطبيعى القائم بين إسرائيل، وهذه الأقليات.. ذلك أن هذه الأقليات هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولابد أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية.

هكذا تم التخطيط لتفتيت أقطار الشرق الإسلامى دون استثناء، بواسطة الفتن الطائفية التى تحول هذا الشرق إلى فسيفساء ورقية ليتحقق الأمن والتفوق لإسرائيل.. ولقد تم التركيز فى هذا المخطط على مصر بالإعلان عن أنه إذا تفتت مصر تفتت الباقون.

فهل تعى قوانا الوطنية مرامى هذا المخطط المعلن؟.. وهل تنجح فى رؤية العلاقة بين الأصابع الكثيرة التى تلعب فى هذه الفتنة وبين استراتيجية هذا المخطط؟.. وهل تتخذ الموقف الحازم والحاسم من الأصابع التى تعبث بمستقبلنا وبوجودنا فى كنانة الله وفى المحيط الذى نعيش فيه!!.

من أدوات بناء الحضارة: توليد العلوم

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور/ على جمعة المنشور بجريدة «المصرى اليوم» الصادرة فى: ٢٠١١/١١/٣م يقول:

قامت حضارة المسلمين على العلم، ووضع المسلمون الأوائل علوما خادمة لمحور حضارتهم وهو النص الشريف، والتزموا بهذا المحور وخدموه وانطلقوا منه وجعلوه معيارا للقبول والرد والتقويم، ولهذا أصبح توليد العلوم من أهم أدوات بناء هذه الحضارة، فأخذ المسلمون يخترعون العلوم اختراعا، وينقلون منها عن الأمم السابقة ما يمكنهم من فهم الحقيقة، وإدراك الواقع، ويصنفونها ويبلغونها لمن بعدهم، ولمن يجاورهم، ورأينا عصر الترجمة فى عهد المأمون، ورأينا البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة ممدوحة فى العقل أو مرذولة)، ورأينا الخوارزمى فى كتابه (مفتاح العلوم) وهو الذى يرسم لنا الذهنية العلمية فى التاريخ الإسلامى ويرصد ذلك التنوع من ناحية، والتفاعل من ناحية أخرى، وهما الصفتان المجمع عليهما لكل من اطلع على التراث الإسلامى ونتاجه الفكرى.

ولابد علينا أن ندرك أن توليد العلوم نوع من أنواع مظاهر حياة الفكر، وأنه لم يمت، وهو أيضا مظهر من مظاهر التفاعل مع العصر الذى نعيشه، وهو ثالثا الجسر الذى يصل بين الشرع والواقع المحيط.

ويسأل كثير من المخلصين عن كيفية توليد العلوم، وهى تحتاج إلى قدرة التصور المبدع، وهى التى قد لا توجد عند كثير ممن اشتغل بنقل العلم والحفاظ عليه، والتصور المبدع، هذا أمر لابد منه لعملية التوليد. ولنضرب مثالا يجيب على أولئك الذين يريدون نموذجا لتوليد العلوم حتى يسيروا على منواله، وحتى يهدأ بال من يشك فى هذه العملية وما قد تخفيه فى ظنهم من الاعتداء على ثوابت الدين، أو القدح فى هوية الإسلام، فنحاول أن نلقى الضوء على بذور توليد العلوم وآليات ذلك فى التراث الإسلامى عسى أن ندرك المنهجية التى ساروا عليها فى خدمة حضارتهم..

فقد وضع التراث الإسلامى ما يسمى بالمبادىء العشرة من أجل أن يطلع عليها طالب العلم، ليتشوف للعلم الذى سوف يدرسه، أو ليعرف ما لابد له من معرفته، وهى بذاتها العناصر التى يجب الالتفات إليها عند توليد العلوم. ووضعها بعضهم فى صورة نظم يحفظه صغار الطلاب حتى يحدث لهم هذا التشوف الذى انحسر بعد ذلك عند المسلمين فى التلقى دون إنشاء العلوم واستمرار الفكر فقال:

من رام فنا فليقدم أولا
علما بحده وموضع تلا
وواضع ونسبة وما استمد
منه وفضله وحكم يعتمد
واسم وما أفاد والمسائل
فتلك عشر للمُنى وسائل
وبعضهم فيها على البعض اقتصر
ومن يكن يدرى جميعها انتصر

فالمبدأ الأول: هو تعريف العلم، وهو المعيار الأول لتحديد إطاره.

والمبدأ الثانى: هو موضوعه، والعلوم تتمايز بموضوعاتها، وموضوع العلم هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية حتى تتكون المسائل فى هذا العلم من الموضوع والوصف المناسب له، والمسائل هى الجمل المفيدة التى عرفناها فى اللغة العربية فى علم النحو وغيره، والتى تتكون إما من مبتدأ وخبر، وإما من فعل وفاعل، وكلاهما واحد فى الدلالة على الجملة المفيدة التى يستفيد منها سامعها مراد المتكلم من كلامه، فموضوع علم الطب جسم الإنسان من حيث الصحة والمرض، وعلى ذلك يكون جسم الإنسان مبتدأ وما يعرض عليه من أحوال الصحة والمرض وكيفية العلاج وأسباب ذلك كله هو الخبر الذى يكوّن الجمل المفيدة فى علم الطب، فجسم الإنسان مسند إليه (مبتدأ أو فاعل) فهو موضوع، وما يخبر عنه هذا المسند (خبر أو فعل) وهو محمول أى محمول على ذلك الموضوع، فقولنا جسم الإنسان يمرض بالميكروب ويصح بالدواء جمل مفيدة تكوّن العلم.

والمبدأ الثالث: هو تحديد الواضع لهذا العلم، حيث إنه سينسب إلى أول من ألّف فيه، ولو ألفت جماعة مرة واحدة فسيحدث نزاع أيهم ألف أولاً، وترجع إلى حلاوة النقاش العلمى والخلاف الثرى الذى كان يحرك العقول ويربى النفوس على قبول الرأى الآخر، ويدرب الطلاب والعلماء على البحث وترتيب الأدلة واستجلاب البراهين وبيان جهة دلالتها، ويخرج العقل المسلم من إسار التقليد والجمود والأزمة الفكرية التى يمر بها إلى نوع آخر من العمق فى الفهم والوعى بما يجرى حوله، والقدرة على تهيئة الأجواء لعودة المجتهدين العظام مرة أخرى، قادرين على عرض ما عندهم بالمنطق والبرهان الذى يوافق عليه الجميع حتى

لو لم يتخذوه سبيلاً لهم، ولكنهم يحترمون المنهج ويؤكدون على صحته بغضّ النظر عن النتائج ومشارب البشر.

أما المبادىء السبعة الباقية فهى نسبته إلى العلوم الأخرى، ومن أى العلوم يستمد، وأحكامه ومسائله، وما فضله وما حكمه وما اسمه، وما الثمرة والفائدة المترتبة عليه؟.

فهذه العشرة تعد مدخلاً للعلم تدفع طالب العلم إلى التشوق لدراسته وتحصيله، وهى بنفسها التى يمكن للمفكر إذا أراد أن يبنى علماً أن يحددها كبداية لاستقلال العلوم أو إبداعها، والحقيقة أن العلم لا يولد كاملاً حتى علم العروض الذى ضبط به الخليل بن أحمد الفراهيدى الشعر العربى لم يولد كاملاً بالرغم من أنه كان شبه كامل، إلا أننا رأينا الأخفش يضيف إليه بحر المتدارك، ورأينا علماء هذا الفن يمشّون أوزاناً أخرى، صحيح أنه لم يتكلم بها العرب، ولم ينقل من شعرهم شىء على أوزانها إلا أنها زادت فى العلم، ووسعت من مفهوم الشعر كما أورده الدمنهورى فى كتابه: «الكافى فى العروض والقوافى»، حتى ابتدع محمود سامى البارودى بعض الأوزان التى لم تكن من قبل فقال:

املأ القدح واعص مَنْ نصح
وارو غُلّتى بابنة الفرح

إن توليد العلوم منهج مناسب للخروج العملى من الأزمة الطاحنة التى تمر بها الأمة، وهو من الأدوات اللازمة لبناء الحضارة الإسلامية وضمان استمرارها لعصور مديدة فى المستقبل، والله ولى التوفيق.

منظمة اليونسكو والابتزاز الأمريكى

تحت هذا العنوان كتب محرر (رأى القدس) بجريدة القدس العربى الصادرة بتاريخ ٣١/١٠/٢٠١١م يقول:

صوتت ١٠٧ دول إلى جانب مشروع قرار يمنح فلسطين العضوية الكاملة فى منظمة اليونسكو، ومن المؤسف أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وكندا كانت من الدول التى صوتت ضد هذا القرار، ورضخت للإملاءات الإسرائيلية فى هذا الصدد.

الإدارة الأمريكية بذلت جهوداً كبيرة داخل هذه المنظمة الدولية المتخصصة وخارجها من أجل حرمان فلسطين من هذا الحق الشرعى لدرجة التهديد بوقف مساعداتها المالية التى تقدر بحوالى ٨٨ مليون دولار سنوياً، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل الذريع؛ لأن العالم لم يعد يؤيد الباطل ويأتمر بإمرة أمريكا وإسرائيل مثلما كان عليه الحال لسنوات عديدة. الذرائع الأمريكية فى معارضة هذه العضوية الفلسطينية فى منظمة مختصة بالثقافة والإبداع غير مقنعة، مثل القول بأنها تعطى نتائج عكسية على عملية السلام، أو أن قيام الدولة الفلسطينية لا يتم إلا من خلال التفاوض. فأين هى عملية السلام التى تتحدث عنها الولايات المتحدة، ثم من عرقل المفاوضات وقتلها فى مهدها غير إسرائيل حليفة الولايات المتحدة والتى لا تستطيع البقاء يوماً واحداً دون الدعم الأمريكى؟.

الفلسطينيون اختاروا طريق المفاوضات للوصول إلى الدولة الفلسطينية المستقلة قبل ١٨ عاماً وتلبية لنصائح أمريكية وأوروبية. وظلوا يتنقلون بين العواصم العالمية للمشاركة فى جولات مفاوضات لم تعطهم غير الإحباط واليأس والمزيد من المستوطنات غير الشرعية فوق أراضيهم المحتلة، ولهذا لم يبق أمامهم من خيارات غير الذهاب بقضيتهم مرة أخرى إلى الأمم المتحدة بحثاً عن انتصارات سياسية ودبلوماسية بعد أن قررت السلطة الفلسطينية فى رام الله استبعاد الحلول العسكرية نهائياً من مخططاتها.

الانتصار الفلسطينى فى اليونسكو هو واحد من أكبر الإحراجات السياسية والدبلوماسية لإدارة الرئيس باراك أوباما الذى هدد باستخدام «الفيتو» ضد طلب فلسطينى مماثل مطروح حالياً على مجلس الأمن الدولى؛ لأن هذه الإدارة باتت تسير عكس رغبة المجتمع الدولى بأسره، وتتخذ قرارات ومواقف تتناقض كلياً مع كل إدعاءاتها حول حقوق الإنسان والديمقراطية ونصرة الضعفاء والمظلومين.

ماذا يضير الولايات المتحدة لو حصلت فلسطين على عضوية منظمة مثل اليونسكو يحتل العمل من أجل السلام والتعايش بين الثقافات قمة أهدافها؟ فهل الولايات المتحدة ضد التعايش وحوار الثقافات والعمل من أجل عالم أفضل تسوده المحبة والتعاون والحفاظ على المخزون الثقافى العالمى؟.

تطالب الدول العربية، والخليجية منها بالذات، بتعويض قيمة المساعدات المالية الأمريكية لليونسكو المقدرة بحوالى ٨٨ مليون دولار فى حال قطعها انتقاماً من حصول فلسطين على عضوية المنظمة، وإذا كانت هذه الدول تخشى الغضبة الأمريكية، فإننا نتمنى على الدول العربية الأخرى مثل الجزائر والسودان أن تتولى تدبير هذا المبلغ، سواء من ميزانياتها أو بمساعدة الدول الأفريقية والأمريكية اللاتينية التى صوتت إلى جانب هذه الخطوة بكل شجاعة ورفضت كل الضغوط الأمريكية - الإسرائيلية غير الأخلاقية والمخجلة فى آن.

نتانياهو الكذاب

تحت هذا العنوان جاء كلمة (عربى أصيل) المنشورة بجريدة المساء الصادرة بتاريخ: ١١/١١/٢٠١١م يقول:

الحديث الذى دار بين الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى ونظيره الأمريكى باراك أوباما حول رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو يكشف عن حلقة جديدة من النفاق الأمريكى - الأوروبى بشأن القضية الفلسطينية. فقد قال ساركوزى فى حديث خاص مع أوباما والذى سمعه الصحفيون دون قصد فى قمة مجموعة العشرين التى عقدت فى كان: «لا يمكننى تحمل نتنياهو. إنه كذاب». ورد عليه أوباما قائلاً - طبقاً لما قاله مترجم فرنسى -: «أنت سئمت منه لكننى مضطر للتعامل معه ربما أكثر منك».. لقد كشف ساركوزى وأوباما عن رأيهما بصراحة فى نتانياهو دون علم بأن الميكروفونات مفتوحة. لكن لن يجرؤا على الإدلاء بهذه التصريحات فى العلن حرصاً على مصلحة الشقيقة الصغرى إسرائيل. الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون يعلمون علم اليقين أن جميع قادة إسرائيل يمارسون الكذب منذ أن وطأت أقدامهم أرض الفلسطينيين قبل ما يزيد على ستين عاماً وأنهم يرتكبون كافة الانتهاكات الوحشية ضد أصحاب الأرض للتضييق عليهم وتهجيرهم. ولم تفعل الولايات المتحدة أكثر من عبارات رقيقة مهذبة للغاية يقول فيها مسئولوها: إن الممارسات الإسرائيلية لن تخدم الجهود الرامية إلى إحلال السلام بين الشعبين الفلسطينى والإسرائيلى. وبعد ذلك لا شىء.. دعم كامل لإسرائيل على كل الأصعدة. مهما فعلت. والضغوط على الفلسطينيين فقط.

طرائف.. ومواقف


لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

كعب بن لؤى كما وصفته أمه

قال لؤى بن غالب (جد النبى صلى الله عليه وسلم) لامرأته :- أى بنيك أحب إليك قالت : الذى اجتمعت فيه ثمان خلال : لا يخامر عقله جهل ، ولا يخالط حلمه سفه ولا يلوى لسانه عى ، ولا يفسد يقينه ظن ، ولا يغيره عقوق ، ولا يقبض يده بخل ولا يكدر صنعه من ، ولا يرد إقدامه جبن .

قال : ومن هو ؟ قالت : ولدك كعب .

ثقل الأمانة

بعد أن بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة ، خلا فى مصلاه يبكى ، فأقبل عليه المسلمون يقولون : يا بن عبد العزيز ما يبكيك ؟ قال : إننى حملت أمانة هذه الأمة ، فأنا أبكى لمن حملت الأمانة عنهم : أبكى للفقير الجائع ، وابن السبيل الضائع ، والمظلوم المقهور ، وذى العيال الكثير ، علمت أنى مسئول عنهم وعن غيرهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأشفقت على نفسى وبكيت لثقل الأمانة .

حقا

قال الشاعر :

صوت الشعوب من الزئير مجمعا
فإذا تفرق كان بعض نباح

ماء الوجه

قال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه
ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك فإنما
يدل على فعل الكريم حياؤه

● والحياء مشتق من الحياة ، فهو من قوة الحس ولطفه وعلى حسب حياة القلب ولطف الحس يكون الحياء قوة وضعفا

من أقوال الفاروق عمر بن الخطاب

● « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل ، وقضى بالحق ، ولم يقض على هوى ولا قرابة ولا رغب ولا رهب وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه » .

● « إذا رأيتم الرجل يضيع الصلاة فهو والله لغيرها من حق الله أشد تضييعا » .

● وسأل رضى الله عنه جماعة من الناس : أى الناس أفضل ؟ قالوا : المصلون . قال : إن المصلى يكون برا وفاجرا . قالوا : الصائمون . قال : إن الصائم يكون برا وفاجرا . قالوا : المجاهدون فى سبيل الله . قال : إن المجاهد يكون برا وفاجرا ، لكن الورع فى دين الله يستكمل طاعة الله عز وجل .

سجن المؤمن وجنة الكافر

● قال أبو حازم : « إن الرجل ليعمل السيئة ، إن عمل حسنة قط أنفع له منها ، وإنه ليعمل الحسنة إن عمل سيئة قط أضر عليه منها » .

قال ابن الأعرابى : معناه أن يعمل الذنب فلايزال منه مشفقا وجلا أن يعاوده فينفعه ذلك ، ويعمل الحسنة فيحتسب بها على ربه ويعجب بها وينسى فضل الله عليه فيها فيهلكه .

● وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فإذا مات المؤمن يخلى له سربه يسرح حيث يشاء » .

مروءة ابن المقفع

كان عبدالله بن المقفع صديقا حميما لعبدالحميد الكاتب وكان الأخير من أصفياء الأمويين ، وحين عصفت رياح الزمن بالدولة الأموية هب العباسيون يتعقبون أولياءها فى كل مكان ، ففر عبدالحميد إلى صديقه ابن المقفع واختبأ فى بيته مدة وشاء حظه العاثر أن يشى به الواشون ، ووصل الخبر إلى الخليفة العباسى (السفاح) الذى بعث بالجند يدهمون منزل ابن المقفع ، ليجدوهما معا ، فسألوهما أيكما عبدالحميد ؟ فقال كل واحد منهما : « أنا » وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع الذى أصر أن يبذل نفسه تضحية رخيصة فى سبيل صديقه لولا أن صاح بهم عبدالحميد قائلا : ترفقوا بنا فلكل منا علامات يعرف بها أتم التعريف ، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات ، ففعلوا كما أشار واتضح لهم عبدالحميد فقتلوه .

مدافن الحضارة الحجازية

فى واحدة من سفراته المتعددة .. مر شاعر الإسلام الدكتور/ محمد إقبال بجزيرة صقلية فى طريق عودته إلى بلاده .. الهند ، فلما وطئت قدماه أرض الجزيرة ترقرقت الدموع فى عينيه وقال :

« إبك أيها الرجل دما لا دمعا
فهنا مدفن الحضارة الحجازية » .

نزاهة كاتب مجاهد

أتى على جريدة الأخبار القديمة ، زمن ما كانت أولى الجرائد المصرية انتشارا ورواجا بين القراء ، فقد تسنم صاحبها الغيور (أمين الرافعى) مكان القيادة بين رجال الصحافة الأفذاذ ، بما اشتهر عنه من وطنية رائعة ونزاهة عالية ، ثم جد من المفاجآت المذهلة ما جعلها بين يوم وليلة تتضاءل توزيعا فقط ، وإن كانت تحتفظ بقوة الرأى ، وصراحة المنطق ، ووضوح الحجة ، حتى مكث صاحبها أربعة أشهر لا يجد ما يعطيه من المرتبات الشهرية للمحررين والعمال ، واتضحت نذر إفلاسها الأليمة للعيان ، مهددة بعض الأسر الكادحة بالضياع .

وفى سواد هذه المحنة الحالكة رأت بعض الشركات الأجنبية التجارية - طامعة فى نفس يعقوب - أن تصطنع الرجل المأزوم فى ضيقه الكارب ، فأرسلت إليه شيكا يحمل ألفا من الجنيهات ليكون أجرا لإعلان متكرر عن بعض المشروبات المسكرة ، وفرح محررو الصحيفة ، حين علموا بالثروة الهابطة فجأة على أمين ، فهم لا محالة سيأخذون رواتبهم المتجمدة ، وستسير الجريدة قدما إلى أمد قد يطول حتى تحتل الأمور ، ولكن صاحب الأخبار يرد الشيك فى أنفة إلى أصحابه ، معلنا أن جريدته المسلمة لا يمكن أن تتضمن إعلانا يغضب الله ! وبهت المحررون ! وأعلنوا للأستاذ أن إفلاسه القريب أمر محتوم ، فرد الرجل فى هدوء : أرحب بالإفلاس دون أن نغضب الله !

دعاء

يا عونى عند كربى ، ويا صاحبى فى وحدتى ، ويا غياثى عند شدتى ، ومفزعى عند فاقتى ورجائى إذا انقطعت حيلتى .

يا إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب اجعل لى فرجا ومخرجا واقض حاجتى .

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

بالإيمان والإيثار.. ينطلق الضمير الثورى

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار - مدير عام تنظيم وإدارة سابق - سندنهور - قليوبية:

ليس هناك أعظم من الإيمان فهو فى القلب نور يبدد ظلام الحقد والضغينة لتحول إلى حب وإيثار وعطاء ووفاء وتعاون على البر والتقوى.

وقوىُّ الإيمان إنسان مثالى يؤثر على نفسه من أجل الآخرين بعكس ضعاف العزائم الذين سيطرت المادة على تفكيرهم من ذوى السوابق وأصحاب السمعة السيئة الذين نغصوا علينا حياتنا.. يريدون ليطفئوا نور ثورتنا بأنانيتهم وعنادهم بشكل يصعب فهمه أو تبريره.

إن هذا الذى نشهده على الساحة اليوم من ظواهر البلطجة لا يعنى فقط أن هناك انفلاتا أمنيا وإنما هو دلالة على ضعف الإيمان لدى البعض الذين يظنون أن بإمكانهم أن يعصفوا بين العدالة والقانون ليمارسوا البلطجة باغتصاب حقوق الغير وتعطيل تنفيذ أحكام العدالة الصادرة ضد الفاسدين وإرباك دور الشرطة والتحريض على تنظيم المظاهرات والوقفات الاحتجاجية التى تعطل عجلة الإنتاج فهم أناس مسلطون تتعارض أنانيتهم مع مصالح شعبنا العزيز ولو أنهم آمنوا حق الإيمان بدينهم وقيمه السامية.. واتبعوا ما ترك لنا رسولنا القدوة ﷺ من طابع الحب والإيثار فى تنظيم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع المدينة المنورة حين هاجر إليها هو وأصحابه حتى إن القرآن الكريم يسجل كرم الأنصار وإيثارهم بقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

(الحشر: ٩)

إننا الآن بحاجة إلى تدبر معانى هذه المواقف ولنأخذ العبرة من أحد الأنصار وهو الصحابى الجليل «سعد بن الربيع» لنرى كيف كان أثر الإيمان فى سمو نفسه وطيبته.

فعندما آخى النبى ﷺ بينه وبين «عبدالرحمن بن عوف» عرض سعد بن الربيع وبإصرار على عبدالرحمن بن عوف أن يتنزل له عن نصف داره ونصف ماله الذى شمل خصوصية يصعب تخيلها وهى أن يطلق إحدى زوجيه ليتزوجها بعد وفاء عدتها ولكن كانت عفة «عبدالرحمن بن عوف» أسبق فى مقابل إيثار سعد فقال له: «بارك الله لك فى أهلك ومالك.. دلونى على السوق فأنا رجل أجيد البيع والشراء» حقا ما أجمل صنيع الإيمان فى النفوس الطيبة!!

كذلك كان سعد بن الربيع فى مقدمة المدافعين عن النبى ﷺ فى غزوة أحد وكان يستميت فى دفاعه مما لفت أنظار المشركين إليه فجعلوه هدفهم لقتله والنفاذ إلى غرضهم فى إيذاء النبى ﷺ ويلحظ الرسول الكريم إصابات سعد فيسأل عنه بعد انتهاء المعركة فيجده المسلمون بين القتلى وبه رمق فسألوه: أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟ فقال: أنا فى الأموات!! ولكن أبلغوا نبينا عنى السلام.. أقول لكم إنه: «لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم أذى وبكم عين تطرف» ومات رضى الله عنه شهيدا وشاهدا لكل حملة لواء الحق فى كل زمان ومكان.

فلنسلك طريق التغيير باتباع دروس الإيمان والإيثار التى نستخلصها من سيرة النبى وأصحابه الكرام لتكون قاعدة انطلاق لتغيير أنفسنا وفقا لتقاليد ديننا التربوية العظيمة لاستعادة الأمن والأمان والإحساس بلذة الحياة فبالإيمان والإيثار تنصلح الطبائع والنفوس ويعلو نقاء الضمير الثورى الذى به يتم التغيير الذى أمرنا به سبحانه بقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

ونقاء الضمير الثورى طريقه تحقيق التغيير لينطلق قطار التنمية.. والتغيير من سنن الله فى خلقه وسبحانه الذى يغير ولا يتغير يقول عن ذلك فى كتابه الكريم:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

(يونس: ٦١)

نسأل الله أن يحمى ثورتنا ويبارك شبابها ويوفقنا إلى خير بلدنا.

مهمة الإنسان ورسالته فى الكون

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ خالد توفيق عبده - داعية إسلامى - ش السلام - المنزلة - دقهلية:

إن لكل شىء فى الوجود مهمة ورسالة ينبغى أن يؤديها، نعم للنبات رسالة وللجماد رسالة، وللحيوان رسالة، وللإنسان رسالة.

فما هى الرسالة التى لابد للإنسان أن يؤديها؟

ثمة أمور ولعل أجلها وأكبرها الآتى:

١ - عبادة الله تعالى: فواجب على الإنسان أن يعرف ربه حق المعرفة، وإذا عرف هذا الإنسان ربه كان لزاما عليه أن يعبده، فكانت الغاية والحكمة من خلق الإنسان (عبادة الله) وفى هذا يقول سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝ ﴾

(الذاريات: ٥٦ - ٥٨)

ومعنى العبادة فى هذه الآية: العبادة بمعناها المتسع هى كل ما يحبه الله ويرضاه (فالصلاة عبادة، إقامة الشعائر كلها عبادة، بر الوالدين، مساعدة المحتاج، أداء الواجبات، الجهاد فى سبيل الله.. إلخ).

٢ ـ عمارة الأرض: إن مهمة الإنسان الثانية فى هذا الكون عمارة الأرض قال ـ تعالى ـ:

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(البقرة: ٣٠)

فإذا أصلح الإنسان فى الكون وعمر فلح ونجا، وإذا أفسد هلك وضاع. فما هى قيمة الإنسان فى الكون؟

لقد خلق الله هذا الكون كله من أجل خدمة الإنسان رغم عمره القصير، وليست القيمة فى طول وقصر عمر الإنسان. وإذا كان آخر العمر موتاً.. فسواء قصيره والطويل، فإذا ليست قيمة الإنسان فى هذه الناحية المادية، إنما فى هذا الشىء الذى أودعه الله فيه، فى هذه الجوهرة الروحانية:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(ص: ٧٢)

وإذا لم يقم الإنسان بالمهمة والرسالة التى كلف بها كان أضل من الأنعام، كما قال الله:

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤)

إن الإنسان يمكنه أن يرتقى بنفسه فيكون مثل الملائكة أو أفضل؛ لأن الملائكة ليس عندها غرائز ولا شهوات، أما الإنسان إذا تخلص من هذا كله ارتفع عن الملائكة الكرام.

قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (رواه مسلم).

الإسلام دين الرحمة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ: محمد على أحمد الشريف ـ محاسب بكلية التربية بدمياط الجديدة ـ جامعة المنصورة:

الرحمة خلق عظيم يسمو بصاحبه إلى مرتبة الكمال ويجعله لا يقسو، ويتألم لآلام المكروبين ويحاول دوماً تخفيفها وإزالتها.

وفى معناها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه وعز جاهه وعظم سلطانه فلقد شملت رحمته الوجود وعمت الملكوت، قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

(غافر: ٧)

وفى الحديث القدسى: «إن رحمتى تغلب غضبى» (رواه مسلم)

أى أن تجاوزه عن ذنوب البشر يسبق سخطه عليهم وعقابهم، وبذلك كان أرحم الراحمين، قال تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

(المؤمنون: ١١٨)

ولقد أراد الرحمن الرحيم أن يمن على البشرية جمعاء بعد استحكام الظلم وسواد الظلمة وغلو القسوة بالرحمة المهداة محمد ﷺ، يخفف الأحزان ويمسح الآلام ويبتر الظلام، ينصر المظلوم ويدافع عنه، يصل الرحم ويعين على نوائب الدهر ويكون المثل الأعلى والأسوة الحسنة والقدوة العظمى.

لقد كان ﷺ خلقه الرحمة والحلم والبر، فهو بحق أعظم عباد الله رحمة. قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

ولقد حذرنا الإسلام من القسوة واعتبرها سبب العصيان وسر الشرود عن الطريق المستقيم، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(الحديد: ١٦)

ولقد أمرنا ديننا الحنيف بالرحمة والتراحم.

قال ﷺ: «من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء» (الطبرانى)

«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» (مسلم)

والذلة على المؤمنين تعنى السكينة والليونة معهم، قال تعالى:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(المائدة: ٥٤)

وقال ﷺ: «جعل الله الرحمة مائة جزء، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» (البخارى) وقال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» (أبو داود)

ولقد خص الإسلام ذوى الأرحام بجانب كبير من واجب الرحمة، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، الرحم شجنة من الرحمن، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله» (الترمذى)

فواجب على المسلم صلة أقاربه ومودتهم المودة القوية الدائمة والتى لا تنقطع، كما أمرنا ديننا الحنيف بالرحمة والبر بالوالدين، قال تعالى:

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(الإسراء: ٢٤)

كما أمرنا ديننا الحنيف بالرحمة بالأبناء والزوجة، فعن أبى هريرة: «قبل رسول الله الحسن أو الحسين بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً قط! فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «من لا يرحم لا يرحم» (البخارى)

كما أمرنا الإسلام بالرحمة باليتامى والإحسان إليهم ورعايتهم الرعاية الكاملة وكفالتهم الكفالة الصحيحة؛ فعن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين» (أحمد)

وفى رواية: أن رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه، فقال له: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك» (الطبرانى).

كما أمرنا الإسلام بالرحمة بالمرضى والضعفاء وذوى الحاجات وذوى العاهات، فالمريض الموجع قريب من الله حقيق برحمته جدير برحمة البشر وتقديم العون والراحة له بكافة الوسائل والتدابير وألا تقسوا عليه أبداً.

وتمتد الرحمة فى الإسلام إلى الخدم، حيث أوجب الإسلام علينا معاملة الخدم بالحسنى واللين والرأفة والرحمة والرفق، فعن أبى مسعود البدرى: كنت أضرب غلاماً لى بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفى:

اعلم أبا مسعود.. فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» فقلت يا رسول الله.. هو حر لوجه الله تعالى فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك فى النار» (مسلم).

كما تمتد الرحمة فى الإسلام إلى الرحمة والرفق بالحيوان.. قال رجل: يا رسول الله.. إنى لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله» (الحاكم).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» (البخارى).

وفى رواية: «أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها، فغفر لها به» (مسلم).

تعقيب على منع الذكر بعد الصلوات جهراً.. لماذا؟

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ أحمد على أحمد الأمير - وكيل وزارة بالمعاش - فرشوط - قنا:

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٤١ - ٤٢)

وأشار القرآن الكريم إلى أن من صفات المنافقين أنهم:

﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء: ١٤٢)

وقال ﷺ: «سبق المفردون. قالوا وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات» (رواه مسلم وأحمد).

وقال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة إلى أن قال: ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» (أخرجه البخارى فى صحيحه والحاكم فى المستدرك).

وعن ثوبان رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ: «إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» (رواه مسلم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون فقال: «ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم.. قالوا بلى يا رسول الله قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين» ولم يشر الحديث إلى صفة ذلك الذكر جهرا أم سرا.. فإذا انتهت الصلاة فأى الناس يشغل بالذكر جهرا؟ لا أحد طبعا ثم أليس فى الذكر إذا كان جهرا تعليم للجاهل وإرشاد للغافل ومزيد خير للمصلى، الكثير من الناس ينصرف مباشرة بعد الصلاة إذا لم يكن هناك ذكر جهرى. ثم ومتى يذكر وهو يجرى وراء الدنيا جرى الوحوش؟!

روى سيدنا عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح بيمينه «يعد التسبيح على أصابع يده اليمنى».

وإذا كان المفسرون الفضلاء قبلنا قالوا فى قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾

(الإسراء: ١١٠)

المراد بالصلاة الدعاء فلماذا نخافت فقط ولا نجهر بالذكر والدعاء لتعليم الجاهل.

ثم والحديث النبوى الذى رواه كعب بن عجرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثا وثلاثين تسبيحة وثلاثا وثلاثين تحميدة وأربعا وثلاثين تكبيرة» (رواه مسلم).

فلماذا التشنج فى أمر له أصل من الكتاب والسنة؟ وليس كل شىء فعل بعد رسول الله يطلق عليه «بدعة» مادام له أصل من الكتاب والسنة بل على الأقل «بدعة حسنة» والرسول ﷺ يقول: «مثل الذى يذكر الله والذى لايذكره مثل الحى والميت» (البخارى).

فهل نريد موتا لقلوبنا وعاداتنا؟ ألا تكفينا الغفلة التى يحيا فيها الناس هذه الأيام.

وأخيـــــرا

وآخر ما نختم به بريد القراء لهذا العدد هى رسالة الأستاذ الفاضل «عبد القادر الإدريسى» مدير الإعلام فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إيسيسكو) - الرباط - المغرب معلقا على العدد السابق من مجلة الأزهر (عدد شهر ذى الحجة ١٤٣٢ هـ):

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة،

رئيس تحرير مجلة (الأزهر) القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد اطلعت على العدد الجديد من مجلتكم الزاهرة (الأزهر)، فوجدته دسماً، حافلاً، مشرقاً، متميزاً عن الأعداد السابقة، يعطى صورة واضحة عن التطور الفنى الرائع الذى تعرفه المجلة، وعن التجديد فى المضمون المنفتح على آفاق الفكر الإسلامى الحديث والمعاصر الذى تتميز به الأعداد التى صدرت برئاستكم. أما اختياركم لكتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبى هدية لهذا العدد، فهو اختيار موفق ومناسب موضوعاً وزمناً. وأشكر للمجلة نشرها مجموعة من أخبار الإيسيسكو.

زادكم الله توفيقاً، وزاد مجلتكم الراقية تألقاً، وحفظكم لى أخاً عزيزاً، وأستاذاً قدوة، ومفكراً أستنير بفكره المستنير، وأستفيد من عطائه الغزير.

وتفضلوا بقبول فائق التقدير وبالغ الاحترام وخالص المودة.

فضيلة الشيخ محمد عبد العزيز واصل فى ذمة الله

توفى إلى رحمة الله تعالى فضيلة الشيخ/ محمد عبد العزيز واصل وكيل الأزهر الشريف يوم الأربعاء ٢٠ من ذى الحجة ١٤٣٢ هـ الموافق ٢٠١١/١١/١٦م وأسرة تحرير مجلة الأزهر تنعى فضيلة الشيخ ببالغ الحزن والأسى. تغمد الله الشيخ فى رحمته وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله الصبر والسلوان.

أنباء مكتب الإمام الأكبر


إعداد الأستاذ/ محمد عبدالمجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر



شيخ الأزهر وشرف يبحثان الأوضاع الحالية فى مصر

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر بمكتبه يوم الخميس الموافق ١٣/ ١٠/ ٢٠١١ معالى الدكتور عصام شرف رئيس مجلس الوزراء، حيث تم خلال اللقاء استعراض و قراءة الأوضاع فى مصر فى هذه المرحلة الدقيقة، حيث دعا فضيلة الإمام الأكبر المجتمع المصرى كله إلى التماسك والتوحد حول الوطن وتفويت الفرصة على كل من يريد به سوءا مذكراً بمعدن هذا الوطن الذى يتجلى فى المواقف الصعبة وأهمية ذلك فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتنا.

ومن جانبه أكد رئيس الوزراء على ثقته فى نشاط بيت العائلة المصرية وما نتج عن اجتماعه الطارئ من بيان أصدره مجلس بيت العائلة.. وأبدى اقتناعه بوثيقة الأزهر وردود فعلها فى مصر والكثير من بلدان العالم.



فى استقباله لخطيب المسجد الأقصى: الإمام الأكبر يؤكد على أهمية الوحدة الوطنية الفلسطينية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر يوم الخميس الموافق ١٣/ ١٠/ ٢٠١١ خطيب المسجد الأقصى الشيخ الدكتور/ يوسف جمعة سلامة، وقد شرح سعادته لفضيلة الإمام الأكبر الوضع فى القدس بصفة عامة ووضعية المسجد الأقصى بصفة خاصة.

وقد ركز فضيلة الإمام الأكبر على موضوع المصالحة الفلسطينية، فقال: إن الباب الوحيد الذى يدخل منه الكيان الصهيونى للمسجد الأقصى هو باب الفرقة، فينبغى ويجب سد هذا الباب بالأقفال المحكمة والاعتصام والوحدة الصادقة والجادة بين السلطة الفلسطينية وحماس وبقية الفصائل الفلسطينية، والمبادرة إلى إتمام هذه الوحدة الوطنية دون إبطاء وتردد، وكفى ما ضاع من وقت على هذه القضية المحورية والمصيرية.

كما هنأ فضيلة الإمام الأكبر حماس وسائر الأخوة الفلسطينيين بما تحقق من تحرير بعض أسرانا ونسائنا المجاهدات من إصر العدو الغاشم، ودعا الجميع إلى عدم نسيان رجالنا الباقين فى سجون الاحتلال البغيض، ليعودوا إلى خدمة مجتمعهم وبناء دولتهم المستقبلة بإذن الله تعالى وعاصمتها القدس الشريف.



الإمام الأكبر يستقبل نائب رئيس وزراء إنجلترا

* استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر - فى ١٠/ ٢٠١١/ ٢٠ م سعادة نائب رئيس وزراء إنجلترا السيد / نيك كليج.

رحب فضيلة الإمام الأكبر بالضيف والوفد المرافق لسيادته واعتبر أن الأزهر الشريف منفتح على العالم لأنه يؤمن بأن من مهمات الأزهر الحرص على التعارف بين الشعوب والأمم وتشجيع العيش المشترك الآمن بين بنى البشر، كما أكد فضيلة الإمام الأكبر على أن الأزهر يتفهم قلق الشباب العربى بصفة عامة والشباب المصرى بصفة خاصة، لأن حماسة الشباب ربما تؤدى أحياناً إلى المبالغة فى التفاؤل، ثم تصطدم بالواقع ولكننا نؤمن بأن الصبر مع العمل هما الطريق السليم للوصول إلى بر الأمان. وذكر الإمام الأكبر أننا الآن بصدد بناء سياسى جديد وعلى الدول المتقدمة وعلى رأسها بريطانيا واجب المساهمة على النهوض الاقتصادى للدول النامية، وأملنا أن الشعب المصرى يقول كلمته بحرية بدون قيود لأنه حقق بثورته السلمية مكاسب كبرى، ونحن نراقب يوماً بيوم الحالة السياسية بمصر، ونسهم قدر الاستطاعة فى توجيه الجماهير للمشاركة الفعالة. وأنا على يقين بأن الجماهير الكبرى فى مصر قادرة على تحقيق الديمقراطية، ونحن نثق فى قدرة الشعب المصرى على تحقيق كل آماله فى الحرية والديمقراطية والعيش الكريم.

وتحدث سعادة نائب رئيس الوزراء عن أهمية المرحلة الانتقالية فى مصر وأهميتها فى الانتقال الديمقراطى السليم وذكر أن بريطانيا والاتحاد الأوروبى يحرصون على تقديم الدعم الكامل لمصر فى هذه المرحلة الحرجة وفقاً لخطط مدروسة.

وبمناسبة الكلام عن صندوق النقد الدولى والمساعدات الغربية ذكر فضيلة الإمام أنه يتحفظ على المساعدات المالية المقترنة بالشروط التى تمس الثوابت الشخصية المصرية، وأن الأزهر الشريف يرفض كل الإملاءات من أى طرف كان، ونحن نرضى أحياناً بالحد الأدنى من الرفاهية ولكن مع الاحتفاظ بشخصيتنا وهويتنا.

وبمناسبة الكلام عن الحراك الحزبى فى مصر قال فضيلته: إن التعددية الحزبية ظاهرة صحية، وأنا لا يزعجنى كثرة الأحزاب لأننى على يقين بأن الأحزاب التى لا جذور لها فى الواقع ستتساقط وتبقى الأحزاب الفاعلة التى تعبر فعلاً عن آمال الجماهير وهى التى ستستمر وتساهم فى تشكيل الحياة السياسية المستقبلية.

ويستقبل رئيس لبنان الأسبق

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر - بمكتبه يوم الأحد الموافق ٢٠١١/ ١٠/ ١٦م رئيس لبنان الأسبق أمين الجميل، حيث تناول اللقاء دور الأزهر فى معالجة كثير من القضايا المصرية والعربية، وتم التباحث فى موضوع الثورات العربية وكيفية ترشيدها، حيث أبدى فضيلة الإمام تقديره للدور الذى يلعبه السياسيون المخلصون فى لبنان من أجل تهدئة الأوضاع فى المنطقة، وأكد أنه على يقين من أن الشرق العربى سيتخطى هذه المرحلة بنجاح وسيخرج منتصراً بإذن الله نحو آفاق الحرية والديمقراطية.

وأبدى فضيلة الإمام استعداد الأزهر لاستضافة مؤتمر عام للكنائس الشرقية (المسيحية العربية) لتأكيد سلامة العيش المشترك والمتجزر فى المجتمعات الإسلامية منذ ١٤ قرناً.

وطلب أمين الجميل من الإمام الأكبر التدخل لمعالجة مشكلات العراق وسوريا ولبنان أيضاً، حيث إن هذه الدول فى حاجة ملحة لحكمة الإمام الأكبر الرصينة فى معالجة الأمور بعقلانية وأثبتت جدواها فى الأحداث المصرية.





حفل تخريج الدفعة الثانية من مركز تعليم اللغة الإنجليزية

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شهدت قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر الاحتفال بتخريج الدفعة الثانية من طلاب الكليات الشرعية الدارسين في المركز البريطاني بجامعة الأزهر والذى تم إنشاؤه منذ ٦ سنوات وذلك يوم الاثنين الموافق ١٧ / ١٠ / ٢٠١١ .

وحصل الخريجون على شهادة مزدوجة لحصولهم على درجة الليسانس فى مادة التخصص، وكذلك إتقانهم للغة الإنجليزية من خلال تدريبهم بمركز الأزهر للتدريب وتعليم اللغة الإنجليزية.

يذكر أن المركز تم إنشاؤه بمبادرة من جامعة الأزهر بهدف التواصل والانفتاح على العالم الخارجي، وقد تم العمل فى المركز على مدى ثلاث سنوات على محورين أساسيين الأول: تدريب الطلاب على مهارات اللغة الإنجليزية تمهيداً لإتقانها لتمكنهم من نشر منهج الوسطية والفهم الصحيح للإسلام الذى تميز به الأزهر على مر التاريخ، أما الثانى: تدريب خريجى كلية اللغات والترجمة من قسم اللغة الإنجليزية وكلية الدراسات الإنسانية للبنات الذين يرغبون فى إعداد أنفسهم كمدرسين للغة الإنجليزية حتى يتمكن الأزهر من بناء موارده البشرية الخاصة به تمهيداً لإدارة المركز بدءاً من العام القادم.

إضافة إلى رفع مستوى خريجى كليات العلوم الإسلامية وتمكينهم من المساهمة فى ترسيخ الصورة الصحيحة عن الإسلام بمنهجه الوسطى دون غلو أو تفريط وتوسيع فرص الخريجين فى الحصول على منح دراسية واستكمال دراستهم العليا بالجامعات الكبرى بالخارج مما يساعدهم على عبور الفجوات بين الثقافات من أجل عالم يسوده العدل والسلام والتعاون.

اتفاق تعاون بين الأزهر وفرنسا

شهدت مشيخة الأزهر الشريف فى ١٢ / ١٠ / ٢٠١١ م توقيع اتفاقية تعاون بين الأزهر الشريف ويمثله فضيلة الإمام الأكبر وبين جمهورية فرنسا ممثلة فى سفيرها السيد / جون فيليكس باجانون، والمعهد الفرنسى بمصر ويمثله السيد / جون بيير دوبار - مستشار التعاون والنشاط الثقافى الفرنسى.

حيث سيتم بمقتضى هذه الاتفاقية إنشاء المركز الفرنسى لتعليم اللغة الفرنسية بجامعة الأزهر ابتداء من شهر نوفمبر ٢٠١١ وخصوصاً للطلاب المتميزين فى كليات الأزهر الدينية الإسلامية لتأهيلهم للبحث العلمى فى جامعات الغرب فى التخصصات التى يحتاج إليها الأزهر ومصر، فى إطار عالمية الأزهر ووسطيته ونشر الدعوة الإسلامية وتمكين خريجى الأزهر من التفاهم والحوار مع الغرب بلغته.

وأكد الإمام الأكبر على أن هذا التعاون العلمى بين الأزهر وجامعات فرنسا ليست جديدا وليس وليد اليوم، وإنما هى عودة إلى تقليد اتخذه الأزهر الشريف منذ زمن طويل، وكان الكثير من رموز الأزهر، بل ومن شيوخه الكبار يجمعون بين مناهج العلوم الإسلامية الأزهرية وبين مناهج الجامعات الكبرى فى فرنسا وأشار السفير إلى أن فرنسا تنتظر من المبعوثين الأزهريين إلى فرنسا أن يساهموا فى تعليم اللغة العربية فى الجامعات الفرنسية.

وقد أكد سفير فرنسا سعادته واستعداد فرنسا كذلك لإرسال طلابها المتخصصين فى علوم الإسلام للدراسة فى قسم خاص بذلك فى جامعة الأزهر لتأهيلهم خصوصاً فى اللغة العربية ليستطيعوا استيعاب العلوم الأصلية.. كما اتفق الطرفان على ضرورة توسيع دائرة التعاون العلمى والبحثى بما يلبى حاجات الجانبين.

وفى النهاية أبدى السفير ومعه الوفد الفرنسى إعجابه بوثيقة الأزهر التى يراها العالم اليوم أساساً يخدم توجهات مصر نحو الحرية والديمقراطية والعدالة مع الحفاظ على القيم الدينية العليا.





الإمام الأكبر يستقبل الدكتور بطرس غالى

* استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب بمكتبه بمشيخة الأزهر الشريف يوم الاثنين الموافق ١٧ / ١٠ / ٢٠١١م الدكتور/ بطرس بطرس غالي رئيس منظمة حقوق الإنسان بجمهورية مصر العربية وتطرق الحديث عن وضعية حقوق الإنسان في مصر بصفة خاصة، وعن ضرورة حماية حقوق المواطن العربي بصفة عامة.

حيث قال الإمام الأكبر : ينبغي أن نشجع كل المحاولات التي تُقوِّم العولمة، وأمريكا تعاني الآن في كل مكان، وهذا أمر واضح كل الوضوح، ولابد أن نحمي حضارتنا؛ لأننا أصحاب أخلاق وقيم ودين، إن حضارتنا تقاد بمصادر إيمانية وقيمية بعكس الحضارة الغربية التي تقودها المصلحة والحرية الشخصية.. ونحن بحاجة إلى بعث الحياة في الشرق، الحياة بكل معاني الكلمة، حياة في الثقافة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك، وهذا لا يكون إلا بالعمل الجاد والمستمر والمستقل.

ثم شرح الإمام الأكبر لضيفه الدكتور بطرس غالى قانون المساجد لسنة ٢٠٠١م وأوضح رأى بيت العائلة فى هذا الموضوع.

وبمناسبة الكلام عن حقوق الإنسان قال الإمام الأكبر إن حقوق الإنسان ينبغي ألا تكون مصادمة لمقدساتنا وكثير ممن يتشدقون بالدفاع عن حقوق الإنسان اتخذوها تجارة نافقة في ظل العولمة، ولو فتح باب حقوق الإنسان بالمفهوم الغربي الخالص خربت الديار وهذا ينطبق عليه المثل : بنى قصراً وهدم مصراً، فليس كل ما هو حق للإنسان الغربي هو حق للإنسان العربي أو المسلم، والعكس صحيح.

ويرى الإمام أن ثقافة المركز فى نيويورك لا ينبغي أن تقودنا فى الشرق، فلدينا من الثقافة والقيم والتاريخ ما يعصمنا من الانقياد والذوبان.

وبمناسبة الكلام عن الوضع السياسي في العالم العربي قال الإمام: إن السياسة في العالم العربي من أسف - هي سياسة ردود أفعال، ليس لدى سياسيينا رؤية مستقبلية واضحة، وهذا ما حاولنا استدراكه في وثيقة الأزهر.

اجتماع مجلس بيت العائلة

*عقد مجلس بيت العائلة المصرية يوم الأحد الموافق ١٦ أكتوبر سنة ٢٠١١ بمشيخة الأزهر الشريف وممثلى كل الكنائس المصرية من أعضاء بيت العائلة.

ورحب الجميع بقرار السيد رئيس الوزراء باعتماد اللائحة الأساسية لبيت العائلة المصرية هيئة قومية عليا مشتركة.

وتمت مناقشة قانون بناء دور العبادة بعد أن قرأت مواده على الحاضرين، وبعد دراسة التفاصيل، اتفق كل الحاضرين على أن من الأفضل اعتماد شروط تنظيم بناء المساجد الموجودة فعلا من سنة ٢٠٠١ م واعتماد قرار مواز لتنظيم بناء الكنائس وبموافقة الكنائس المعنية وأما الكنائس المغلقة التى صدرت لها تراخيص فقد أوصى المجلس بضرورة إعادة فتحها والكنائس القائمة التي لم تصدر لها تراخيص يتم الترخيص لها بعد توفيق أوضاعها..





الإمام الأكبر: السودان يمثل العمق الاستراتيجي لمصر

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر الدكتور علي عثمان طه النائب الأول للرئيس السوداني والوفد المرافق له. حيث أكد فضيلة الإمام الأكبر على أن السودان هو العمق الاستراتيجي لمصر، حيث نشرب من معين واحد وهو نهر النيل وعلاقة الأزهر بالسودان من أقدم العلاقات الدبلوماسية العادية بين الدولتين، مبديًا استعداد الأزهر للتعاون مع السودان من أجل نهضة إسلامية حقيقية تقوم على الوسطية والاتزان لتحقيق المقاصد العليا للأمة.. كما أكد فضيلته أن الأزهر هو مجمع الفكر الإسلامي المستنير والمكان الذى يدرس فيه المذاهب الأربعة السنية على قدم المساواة، وأشار إلى أن الأزهر يحافظ على التعددية المذهبية، حيث يرعى الجميع دون تحيز أو إقصاء، كما أبدى استعداده لإمداد السودان بالكوادر اللغوية والشرعية وزيادة المنح الدراسية فى التخصصات الشرعية والعلمية.. وقال إن مصر فى مرحلة الخروج من عنق الزجاجة وقد حققت الثورة الكثير من المكاسب، وحث الإمام الأكبر السودانيين على المحافظة على روح التسامح الدينى الموجود بين الجماهير ودعاهم لليقظة والحذر من المخططات الغربية التى تعمل ليل نهار من أجل إثارة النعرات الأثنية والطائفية، وتطرق اللقاء لقضايا التعليم فى العالم العربى والإسلامى وأبدى شيخ الأزهر استيائه للحالة المتدهورة للتعليم بكل أشكاله فى العالمين العربى والإسلامى، مؤكدًا ضرورة النهوض بالبحث العلمى، وتطوير سبل التعليم.. وطالب فضيلته بضرورة توفير مصادر القوة التى توجد فى العالم الإسلامى من فكر وبشر ومناجم وطبيعة، ومواقع استراتيجية، إلا أن غياب الإرادة وحسن التخطيط والإخلاص والنزاهة آفات لم نستطع حتى الآن التخلص منها.

ومن جانبه أكد نائب الرئيس السودانى على ضرورة تشجيع العلاقات بين الشعبين المصرى والسودانى إضافة للعلاقات السياسية وجميع العلاقات وأبدى حرص السودان على استعادة مصر للاستقرار ومكانتها الطبيعية فى الأمة العربية والإسلامية. وأكد أن الأزهر هو المرجعية الدينية العليا فى العالم الإسلامى وإنه يؤيد الدور الذى يؤديه الأزهر فى هذه المرحلة كما أداه من قبل عبر التاريخ الطويل. وأكد على ضرورة أن يقوم الأزهر برسم السياسة الكبرى لمصر والعالم العربى والإسلامى بكل ما تحتويه من منظومات تربوية وثقافية واجتماعية ودينية مبديًا استعداد السودان للوقوف بجانب الأزهر فى اجتهاداته لتجديده لفكر الأمة ووجه دعوة رسمية لشيخ الأزهر لزيارة السودان.

وفى الختام ثمن الوفد دور الأزهر الطليعى وطلبوا من الأزهر أن يتولى رسم الخريطة المستقبلية لإصلاح المناهج التعليمية حتى نقطع الطريق أمام الذين يريدون التدخل فى الشأن الداخلى فى العالم العربى والإسلامى، ونقف دون الإملاءات المغرضة الخارجية التى تريد بنا التبعية المطلقة.

الإمام الأكبر يشهد حفل تخريج طلاب تايلاند

شهد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر الاحتفال الذى نظمته سفارة تايلاند بتخريج دفعة جديدة من طلابها الدارسين فى جامعة الأزهر وعددهم ٦٥ طالبًا وطالبة

وقد وجه فضيلة الإمام الأكبر كلمة للطلاب الخريجين هنأهم فيها بالنجاح والتفوق وقدم لهم عدة نصائح أولها أن التخرج لا يعنى أنهم أصبحوا علماء لأن طلب العلم طريقه طويل ومن يعتقد أن طلب العلم له نهاية فهو واهم، فطلب العلم من المهد إلى اللحد والشهادة ما هى إلا مفتاح للتعمق والتبحر فى العلوم الإسلامية.

وقال فضيلته: إن الرحلة إلى طلب العلم هى التى أثرت الحضارة الإسلامية فى القديم وفى المأثور «أطلبوا العلم ولو فى الصين» والمقصود هو السعى فى طلب العلم ولو كان فى أقصى الأرض.

والنصيحة الثانية: هى أنه ينبغى على جميع الخريجين أن يكونوا خير قدوة ومثال لنموذج المسلم الصادق ودعاة خير لوطنكم ولكل الإنسانية بمنهج وسطى معتدل لأن الحضارة الإسلامية حضارة متصالحة مع الغير أى أننا نرجو الإصلاح للكل ولا نتصادم مع الآخر.

وأنهى فضيلة الإمام نصائحه للطلاب بأن يبتعدوا عن كل المذاهب المتشددة التى تقصى الآخر وتتعصب للرأى الواحد والمذهب الواحد وأن تكون تقوى الله هى منهجهم فى العودة وأن يبتعدوا عن كل ما حرم الله ورسوله وأن يلتزموا بآداب الإسلام.

حضر الاحتفال شاليت مانيتياكول سفير تايلاند بالقاهرة.



الإمام الأكبر يستقبل سفير إيطاليا

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف يوم الأربعاء الموافق ٢٦ / ١٠ / ٢٠١١ السيد / باشيفيكو سفير إيطاليا بالقاهرة والذى أبلغ فضيلة الإمام الأكبر برسالة شفوية من رئيس جمهورية إيطاليا والسيد / رئيس وزراء إيطاليا بدعمهم الكامل للدور الذى يقوم به الإمام الأكبر فى نشر صحيح الإسلام ووسطيته، وأضاف السفير أن إيطاليا ترى أن الدور المهم الذى يقوم به الأزهر يؤدى إلى تحقيق السلام ليس فى مصر فحسب، بل فى العالم الإسلامى، والعالم كله، وقدم السيد السفير لفضيلة الإمام الأكبر دعوة لزيارة إيطاليا للالتقاء بالسادة المسئولين فى إيطاليا وبالمسلمين فيها والذين يبلغ عددهم مليون مسلم تقريباً ووعد فضيلة الإمام الأكبر بدراسة هذه الدعوة.

وتم الاتفاق مع السيد / باشيفيكو سفير إيطاليا على أن تقوم إيطاليا بدعم المدارس الفنية التابعة للأزهر الشريف دعما فنياً وعلمياً وإيفاد أساتذة من إيطاليا للتدريس فى هذه المدارس والاستمرار فى دعم كليات طب الأسنان والتجارة، كما تم الاتفاق على تشكيل لجنة من الأزهر والسفارة الإيطالية لبحث تنفيذ التعاون العلمى والدينى بين الأزهر وإيطاليا.

كما رحب فضيلة الإمام الأكبر برغبة سفير إيطاليا فى إيفاد بعض الأئمة المسلمين فى إيطاليا للدراسة فى برامج قصيرة بالأزهر الشريف بالقاهرة، كما أكد سفير إيطاليا دعم رئيس إيطاليا ورئيس الوزراء وتأييدهم الكامل لوثيقة الأزهر الشريف والتى سيتم ترجمتها إلى اللغة الإيطالية.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية



للأستاذ / عبدالموجود أمين



اجتماع مجلس مجمع البحوث الإسلامية

ناقش مجلس مجمع البحوث الإسلامية مقترح المرسوم بقانون تنظيم قواعد وشروط بناء دور العبادة بجلسته التى عقدت يوم الإثنين الموافق ٤ من ذى الحجة ١٤٣٢هـ الموافق ٣١ أكتوبر ٢٠١١م وبعد دراسة الموضوع ومناقشته باستفاضة من جميع جوانبه وافق مجمع البحوث الإسلامية على ما يلى:

أولاً: فيما يتعلق بقواعد وشروط بناء المساجد يرى المجلس الاكتفاء بقرار مجلس الوزراء الصادر فى ١٧/ ١٠/ ٢٠٠١م.

ثانياً: فيما يتعلق ببناء دور العبادة لأتباع الديانتين المسيحية واليهودية.

يعدل عنوان المشروع ليكون مرسوم بقانون رقم ( ) لسنة ٢٠١١م بتنظيم قواعد وشروط بناء دور العبادة للديانتين المسيحية واليهودية.

ويرى المجلس صلاحية مشروع القانون المقترح بعد إجراء بعض التعديلات عليه.

مركز السنة والسيرة

كما تمت الموافقة على تفعيل مركز السنة والسيرة النبوية، الذى أنشأ بقرار جمهورى.. وصرح الشيخ على عبد الباقى الأمين العام للمجمع أن المجمع رأى بأن السنة قتلت بحثا من ناحية الرواية ولم تستخدم مطلقا من ناحية الدراية، بالمدلولات وفقه الحديث والمعنى والنسب فى الرواية إلى رسول الله وأسباب ورود الحديث.

وأكد الشيخ على عبد الباقى أنه سيتم تفعيل هذا المركز من خلال لجنة تشكل لبحث السنة النبوية لتحدد الأهداف والغاية لإنشاء هذا المركز مرة أخرى.. بالإضافة إلى قيام المركز ببحث القضايا والمشاكل المعاصرة الخاصة بالسنة النبوية وكذلك القضايا المذهبية

مسابقة البعوث الإسلامية

• تم الإعلان عن المسابقة العامة للابتعاث للعام ٢٠١٢ / ٢٠١٣م من السادة:

(١) العاملين فى مجال التدريس والوعظ بالأزهر من حملة المؤهلات العليا.

(٢) خريجى كليات جامعة الأزهر الذين يجيدون إحدى اللغات الأجنبية «الإنجليزية أو الفرنسية» من مدرسى العلوم الدينية والعربية العاملين بالأزهر الشريف.

• كذلك تم الإعلان عن مسابقة ابتعاث شهر رمضان للعام الهجرى ١٤٣٣هـ.

على أن يكون المتقدم من المقيدين على درجة مالية بموازنة الأزهر الشريف ومستوفيا الشروط ويكون قد أمضى فترة لا تقل عن عشرين عاما فى العمل وألا يكون قد سبق له الابتعاث فى شهر رمضان ومستوفِ الشروط التى حددتها الإدارة العامة للبعوث الإسلامية.

كما علمنى عمر

صدر عن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية كتاب «كما علمنى عمر» للأستاذ محمد عبدالرحمن عبداللطيف ويقع الكتاب فى ٢٨٦ صفحة من القطع الصغير، قدم فيه الكاتب الدراسة الجادة الخصبة وبأسلوب سهل فى المنهج والتحليل وقد تناول فيه شخصية الخليفة الثانى للرسول ﷺ الذى أثبت فيه أنه - رضى الله عنه - مثل إسلامى فريد فى الإسلام وفريد فى التاريخ، وأنه استطاع أن يوائم بين التجارب التى حاول ويحاول فيها البشر أن يقيموا دولا وممالك تنظم شعوبهم وتضع القواعد والنظم التى تكفل العدالة الاجتماعية لبنى البشر وبين الحرية التى تمثل حافز الإبداع فى حياة الأفراد، فقد وائم هذا الصحابى الجليل العادل بين هذين المتضادين وأقام عدلا اجتماعيا مثاليا يفوق ما وصلت إليه التجارب الاجتماعية الحديثة والقديمة، وفى نفس الوقت كان حريصا - رضى الله عنه - على الحرية الشخصية بين أفراد رعيته.

الكتاب جدير بالقراءة ويجعل القارئ يستنتج ويستمتع فى آن واحد بما سطره التاريخ فى تلك العلاقة بين العدالة الاجتماعية والحرية الشخصية وكيف تواءم بينهما فى نظام هذا الصحابى الجليل عمر بن الخطاب سياسيا واجتماعيا.

أنباء العالم الإسلامى

إعداد الأستاذين/ محمود الفشنى - أحمد رضوان

الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين يؤيد وثيقة الأزهر


يوسف القرضاوى

أشاد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين بالبيان الذى أعلنه الأزهر الشريف والذى يتضمن تأييد الشعوب العربية فى المطالبة بحقوقها المشروعة فى تحقيق الحرية واحترام حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع والتى ورد فيها أن أى مواجهة لاحتجاج سلمى بالقوة والعنف هو نقض لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها إلى آخر ما ذكر للناس فى هذه الوثيقة المباركة.

ووجه الشيخ يوسف القرضاوى رئيس الاتحاد رسالة للإمام الأكبر قائلا: هذا هو الموقف المنتظر من الأزهر الشريف المعهد العتيق الذى حمل راية الإسلام لأكثر من ألف عام وهذا هو الموقف المنتظر من إمامه الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الازهر الذى نرجو أن يستعيد الأزهر مكانته القديمة تحت لوائه والذى تثبت مواقفكم الكريمة يوما بعد يوم أنكم- إن شاء الله- فاعلون شكر الله لكم وجزاكم عن دينه وأمته خيرا.

٦٢ نفقا بمكة تنجح فى انسيابية المرور بالمشاعر المقدسة خلال الحج

أسهمت شبكة الأنفاق التى نفذتها حكومة خادم الحرمين الشريفين والتى تخترق جبال مكة المكرمة والمشاعر المقدسة والبالغ عددها أكثر من ٦٢ نفقا فى نجاح منظومة الحج لهذا العام

وسهولة الحركة المرورية من وإلى المشاعر المقدسة ومكة المكرمة وبالعكس، حيث أسهمت فى انسيابية الحركة المرورية وإعطائها المرونة اللازمة فى التنقل إضافة إلى اختصار المسافات والوقت.

وهيأت أمانة العاصمة المقدسة هذه الشبكة من الأنفاق لخدمة حجاج بيت الله الحرام وخصصت عشرة أنفاق للمشاة والباقى للسيارات وتبلغ أطوالها الإجمالية أكثر من ٣٠ كيلو مترا وهى تحتوى فى مجملها على أكثر من ٤٨ ألف وحدة إنارة و٤٥١ مروحة نفاثة و٣٦ مولداً احتياطياً وتحتوى كذلك عدداً من مضخات المياه وشبكات إطفاء الحريق والحساسات وأنظمة الحاسب الآلى وغيرها إضافة إلى نفق السوق الصغير.

وشكلت الأمانة عدداً من الفرق الفنية لمتابعة سلامة الأنفاق وتقوم الفرق الفنية بمتابعة صيانة الشبكات الكهربائية والمصابيح وأجهزة الإنذار والحريق وتفقد عناصر الشبكة وجميع مكوناتها من إضاءة وأنظمة تهوية وإطفاء ووسائل وغيرها.

الهيئة العالمية للتعريف بالرسول تدين بشدة سخرية مجلة فرنسية من النبى

أدانت الهيئة العالمية للتعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم بشدة ما نشرته إحدى المجلات الفرنسية من سخرية بالنبى ووصفتها بأنها قمة فى الإساءة والاستخفاف برسول الله.

وقالت الهيئة «إحدى المؤسسات المنبثقة عن رابطة العالم الإسلامى» فى بيان لها: إن المواثيق الصحفية العالمية تمنع من الطرح الساخر القائم على أساس عنصرى أو على أساس الجنس أو اللغة أو الدين أو المعتقدات السياسية وغيرها من المعتقدات أو الأصل الاجتماعى، وأضاف البيان إنه لمن المستغرب أن تتبنى المجلة المشار إليها هذه الإساءة البغيضة فى وقت تحشد فيه الجهود والطاقات من قبل عقلاء قادة العالم من مسلمين وغيرهم من أجل عالم يسوده التواصل الإنسانى والاحترام المتبادل بين أتباع الديانات والثقافات فى العالم أجمع.

ودعت - الهيئة وانطلاقا من مسئولياتها - القائمين على المجلة المشار إليها وعموم العاملين فى المجال الإعلامى إلى الكف عن الأساليب المسيئة وأن تعمل على احترام معتقدات الشعوب وبخاصة ما يتعلق بجانب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وطالبت الهيئة فى بيانها المسلمين الالتزام بالنهج النبوى الكريم فى الاستنكار وفق الضوابط الشرعية مع مراعاة الحكمة.

يذكر أن مجلة فرنسية أسبوعية مغمورة خصصت عددا يتضمن سخرية واستخفافا برسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

المسلمون يغيرون أسماءهم إلى «غربية» هربا من الملاحقات الأمنية

كشف تقرير سرى أعدته الشرطة الفيدرالية الأمريكية أن المسلمين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة اضطروا لتغيير أسمائهم الإسلامية والعربية إلى أسماء غربية هرباً من الملاحقات الأمنية المستمرة.

أشارت صحيفة يديعوت أحرونوت العبرية التى سربت التقرير إلى أن الشرطة الأمريكية فى نيويورك تعمل على تعقب المسلمين الذين يعيشون فى نيويورك حتى لو غيروا أسماءهم التقليدية، حيث تعاملهم أجهزة الأمن الأمريكية على أنهم إرهابيون حتى تثبت براءتهم.

وفى محاولة لرصد كل المسلمين الذين يغيرون أسماءهم، قامت وزارة العدل الأمريكية بتكوين وحدة قضائية خاصة على مستوى كل الولايات الأمريكية لرصد حالات تغيير الأسماء وإبلاغ البوليس الفيدرالى الأمريكى لاتخاذ الإجراءات المناسبة حيال كل مسلم يغير اسمه.

الطريف أن الأمن الأمريكى اعتقل يهودية تبلغ من العمر ٧٥ عاما ظنا منهم أنها من جذور عربية بسبب أن اسمها سارة وظلت السيدة اليهودية قيد الاحتجاز وعوملت بقسوة شديدة حتى تدخلت القنصلية الإسرائيلية فى نيويورك وكشفت عن هويتها الحقيقية وهى أنها يهودية أمريكية تحمل أيضا الجنسية الإسرائيلية.

أوضاع مسلمى أوروبا فى لقاء بمكة


عبدالله تركى

التقى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى الدكتور عبدالله التركى بعدد من الشخصيات الإسلامية العالمية الذين أدوا مناسك الحج، حيث التقى مع رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى ألمانيا الدكتور نديم إلياس وبحث معه أنشطة الحوار التى ينفذها المجلس هناك. كما تم استعراض خطط المجلس لتشجيع الحوار بين أتباع الحضارات المختلفة فى أوروبا وذلك بالتعاون مع الرابطة.

كما بحث الدكتور التركى مع المفتى العام للمسلمين فى فنلندا الشيخ وليد حمود تنسيق الجهود بين دار الافتاء فى فنلندا والمراكز والجمعيات الإسلامية لما فيه خدمة الإسلام والمسلمين.

واطلع الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى على الأوضاع فى القدس المحتلة والمخاطر التى يتعرض لها المسجد الأقصى ومؤامرات التهويد التى تقوم بها إسرائيل وذلك خلال لقائه مع الدكتور إسماعيل نواهضة الأستاذ فى جامعة القدس والخطيب فى المسجد الأقصى.

وأجرى التركى حواراً مع وفد دعاة لبنان برئاسة الشيخ محمود الأسمر حول القضايا

المتعلقة بتوجيه الشباب المسلم نحو وسطية الإسلام، وذلك فى ضوء مقاصد الحج الدعوية، وأكد الجانبان ضرورة إبراز محاسن الإسلام من خلال الدعوة إلى الوسطية الإسلامية ونشرها فى مختلف أرجاء العالم.

القس الذى أحرق نسخة من القرآن يترشح لرئاسة أمريكا!!

أعلن القس الأمريكى «تيرى جونز» الذى أحرق فى مارس ٢٠١١م نسخة من القرآن الكريم فى كنيسته بفلوريدا أنه ينوى الترشح للانتخابات الرئاسية الأمريكية المقررة عام ٢٠١٢.

يرفع القس جونز فى برنامجه الرئاسى وعنوانه «انهضى أميركا» شعار تحقيق التوازن فى الميزانية العامة للحكومة الفيدرالية وتقليص المصاريف الفيدرالية بشكل كبير وتقليص ميزانية الدفاع والتصدى للبيروقراطية وإعادة الجنود الأمريكيين الذين يقومون بمهمات فى الخارج وطرد جميع المهاجرين غير الشرعيين فوراً.. وقد أثار حرقه لنسخة من القرآن الكريم موجة من التظاهرات الاحتجاجية فى العالم وخصوصاً فى أفغانستان ومن بين تلك التظاهرات العنيفة واحدة جرت فى الأول من إبريل فى مزار شريف «شمال أفغانستان» هاجم خلالها المتظاهرون مقر الأمم المتحدة وقتلوا فيه سبعة موظفين أجانب يعملون لحساب الأمم المتحدة.. ويترأس القس جونز جماعة إنجيلية صغيرة متشددة تدعى «دوف وورلد أوتريتش سنتر» مقرها ولاية فلوريدا «جنوب شرق الولايات المتحدة».

مراسم رسمية أمريكية لانسحاب آخر جندى فى العراق

ذكر تقرير إعلامى بتاريخ ١٣/١١/٢٠١١م أن القوات الأمريكية ستقيم مراسم رسمية لتوديع الجيش الأمريكى فى مطار بغداد الدولى نهاية العام الحالى، وهو الموعد النهائى لانسحاب آخر جندى أمريكى من العراق، ونقلت صحيفة الصباح العراقية الحكومية عن مصادر أمريكية مطلعة قولها إن آخر جندى أمريكى سيغادر العراق فى مراسم رسمية ستجرى فى قاعدة مطار بغداد الدولى يوم ٣٠ أو ٣١ ديسمبر.

وقالت المصادر: إن جميع القوات الأمريكية ستغادر قبل منتصف ديسمبر، فيما ستبقى قوة عسكرية صغيرة لا تتعدى ٢٠٠ جندى لحضور احتفال رسمى سيعقد فى مطار بغداد الدولى، حيث سيتم إنزال العلم الأمريكى من قاعدة المطار ويرفع العلم العراقى، ويعزف النشيدان الوطنيان للبلدين، قبيل مغادرة آخر جندى فى طائرة عسكرية، وأضافت المصادر: إن هذه المراسم ليست لها علاقة بمفاوضات أو تطورات إبقاء مدربين أو عدمه، وأن مسئولين أمريكيين رفيعى المستوى سيحضرون هذه المراسم.

مساعدات إسلامية للشعب الصومالى

وقعت منظمة التعاون الإسلامى اتفاقية تعاون مع الحملة القومية السعودية لإغاثة الشعب الصومالى، وذلك لتنفيذ برنامج توزيع التبرعات العينية السعودية المكونة من مواد غذائية وإغاثية وطبية على متضررى كارثة المجاعة والجفاف فى الصومال، وبموجب الاتفاقية يتولى مكتب المنظمة فى مقديشيو مهام استقبال وتفريغ وتحميل ونقل وتخزين حمولة باخرة الإغاثة التى تسيرها الحملة الوطنية السعودية إلى ميناء مقديشيو. ووقع الاتفاقية كل من رئيس الحملة الوطنية السعودية لإغاثة الشعب الصومالى الدكتور ساعد القرابى الحارثى مستشار سمو النائب الثانى لرئيس مجلس الوزراء وزير الداخلية والدكتور عبدالرحمن السويلم مستشار الأمين العام للشئون الإنسانية فى منظمة التعاون الإسلامى. وتحمل الباخرة السعودية على متنها أكثر من أربعة آلاف طن من مختلف المواد الغذائية الإغاثية التى تبرع بها المواطنون السعوديون، على أن يتولى مكتب المنظمة فى مقديشيو نقل وتوزيع المساعدات على اللاجئين الصوماليين فى مراكز ومخيمات الإيواء التى يتواجدون بها بالتنسيق مع مكتب الحملة الوطنية السعودية فى الصومال.

وفى هذا الإطار ثمن الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى الدكتور أكمل الدين إحسان أغلو الدور المتميز الذى تضطلع به المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين فى خدمة جميع القضايا الإنسانية فى العالم الإسلامى، ولا سيما الصومال.

د. عبدالحليم عمر: ٩٠٪ من سكان العالم الإسلامى.. فقراء

كشفت دراسة اقتصادية أعدها الدكتور محمد عبدالحليم عمر، أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر ومدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى سابقاً، عن وجود ١١٤٨ مليون فقير فى العالم الإسلامى، بمعدل ٨٩,٧٪ من عدد السكان، وأكدت الدراسة التى تحمل عنوان «الوحدة الاقتصادية بين الدول الإسلامية»، أن ٤٦ دولة من دول العالم الإسلامى تصنف ضمن الدول الفقيرة، موضحة أن ٧١٢ من سكان العالم فى سن العمل (ما بين ١٥ - ٦٤ سنة)، لكن يعمل منهم ٥١٥ مليون نسمة ويصل عدد غير العاملين إلى ١٩٧ مليون نسمة بنسبة تقدر بـ ٢٧,٧٪ ممن هم فى سن العمل.

الإيسيسكو تستنكر الحملة ضد صحافيين فرنسيين أنصفوا القضية الفلسطينية

أعربت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، عن استنكارها للحملة العدائية التى تشنها أطراف يهودية فى فرنسا ممثلة فى «المجلس التمثيلى للديانة اليهودية» ضد صحافيين فرنسيين اشتركوا فى إعداد حلقة تليفزيونية عن القضية الفلسطينية ضمن البرنامج التليفزيونى

«عين على الكوكب» الذى تبثه القناة الثانية الفرنسية.

وتددت الإيسيسكو بشدة بالهجوم المنافى لحرية التعبير والموضوعية المهنية الذى يتعرض له الفريق الإعلامى الذى أنتج حلقة تليفزيونية عن فلسطين تحت عنوان «هل الدولة الفلسطينية ممكنة»، والذى يوصف فى وسائل الإعلام الفرنسية وبتحريض من الأطراف اليهودية بـ «النازيين الصغار» ويتعرض أفراده لتهديدات بالتصفية.. وقالت الإيسيسكو فى بيان لها: إن الحملة العدائية التى يتعرض لها الفريق الإعلامى الفرنسى الذى أنصف القضية الفلسطينية بشجاعة.. وقدم إنتاجاً إعلامياً عالى الجودة بثته القناة الثانية الفرنسية ينحاز فيه إلى منطق الحق والعدالة وحقائق التاريخ، تتعارض مع مقتضيات الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وتتنافى مع مبادئ الديمقراطية ووثيقة حقوق الإنسان والمواطن التى تستند إليها الجمهورية الفرنسية.. وأكدت الإيسيسكو تضامنها مع الصحافيين الفرنسيين منتجى هذا البرنامج التليفزيونى الموضوعى المنصف وطالبت المجتمع الدولى، وخصوصاً اليونسكو، التدخل فى نطاق اختصاصاتها لإدانة ووقف الحملة العدائية ضد هؤلاء الصحافيين.

المؤبد لجندى أمريكى قتل ٣ مدنيين أفغان لـ «التسلية»

قضت محكمة عسكرية فى واشنطن بالولايات المتحد بالسجن المؤبد على قائد مجموعة من الجنود الأمريكيين اتهموا سابقا بقتل ثلاثة مدنيين أفغان عام ٢٠١٠ بهدف التسلية. وخلصت هيئة المحلفين المؤلفة من خمسة عسكريين أنه فى ختام مداولات استمرت خمس ساعات إلى أن الرقيب كالفين جيبس مذنب فى ١٥ تهمة وجهها الإدعاء إليه من بينها ثلاث تهم بالقتل العمد.

وجاء فى لائحة الاتهام أن الرقيب جيبس تزعم مجموعة من خمسة جنود كانوا يخدمون فى ولاية قندهار بجنوب أفغانستان ووضعوا «سيناريوهات» قتلوا بموجبها ثلاثة مدنيين أفغان بهدف التسلية عام ٢٠١٠ كما قاموا أيضا بالتمثيل بالجثث وتصويرها. كان جيبس قد أقر فى شهادته بأنه انتزع أصابع من الجثث ولكنه أكد أن عملية القتل جاءت رداً على هجوم معاد.



a- In Al-Batiniyyah, Al-Ghonusiyyah, and Al-'Irfaniyyah doctrines, reason and writing are neglected along with the other means of knowledge. Conscience, intuition, inner Gnosticism, flow, inspiration, and donation may possess alone all forms of knowledge. Civilization cannot be built on Gnosticism, or by individuals, but the civilization should be build collectively, while Gnosticism is a very isolated and special experience.

b- In the materialistic and positivist doctrines, there is enhancement of the stance of reason to the extent of "rational arrogance". Resorting to it proofs along with the outcomes of the physical experiences are the recognizable means of knowledge, and that which is not realized by reason is not promote to the rank of facts of knowledge and scionece.

c- As for the Islamic view, which colored with its philosophy the Islamic civilization, rationalism differs greatly.

The Islamic Rationalism

The Western rationalism is defined in its Greek phase at the time when there was no revelation. It came free of conveyance and the revelation, and is unique of collecting knowledge and the facts of things. The Islamic rationalism is defined in the Qur'anic revelation and amidst the momentum of defending religion. It came a believing rationalism of the believing human being, who realizes that his attributes, among which is his mind are proportional if they are compared to the comprehensive and surrounding divine science.

In this way, the Islamic rationalism came: it recites the conveyance by the reading and judges the reason by the conveyance. It made the conveyance along with reason, senses, and conscience as the means of knowledge, which are integrated in guiding the human being. It made the sources of knowledge: the recited book, the seen universe. Not only the book of the seen universe, like the case of the Western positivism, knowledge has two sources and four means of guidance. This protected the Islamic rationalism from the struggle burning the Western civilization between rationalism and theology.

This struggle made the modern western rationalism contradicting to religion after being free from religion in the Greek phase. While the Islamic rationalism remained along history the small sister of the religious Shari'a, as it is one of the means of guidance, not a substitute or contradicting to the guidance of religion.

This Islamic rationalism is marked with the Islamic Shari'ah, in spitre of the participation of all of the civilizations in of the creative reason of these civilizations.

guides him. This is the contract of succession as a holder of the trust. He is not neglected and compelled, and also does not escape the Divine managing. He is the successor of the Creator of this universe.

This Islamic conception of the human being as the successor of Allah, taking into consideration that the Divine Self is the One who manages the affairs of the universe gives the human bein*g a stance has the two sides of the same coin. This is the characteristic that distinguishes the Islamic civilization from the other civilizations. When the characteristics ramify, many things prove the distinction of the Islamic identity and its philosophy when comparing it to other civilizations.

The idea of succession has many extensions in the field of civilization distinction of the Islamic civilization found in the relation of the human being with the wealth and money. The human being is the owner of the benefit, and his freedom is disposition and possession is limited according to the terms of the contract of the succession of the real Owner (Glory be to Him): {And spend of that whereof He has made you trustees} [Al-Hadid (Iron): 7]

He is a ruler, but he is charged with ruling according to the terms of this contract: {And so judge O Muhammad (peace be upon him) among them by what Allâh has revealed and follow not their vain desires, but beware of them lest they turn you (O Muhammad peace be upon him) far away from some of that which Allâh has sent down to you.} [Al-Ma'idah (Table): 49]

{O Dâwûd (David)! Verily, We have placed you as a successor on the earth; so judge you between men in truth (and justice) and follow not your desire for it will mislead you from the Path of Allâh.}[Sad: 26]

He has rights, which are linked to the Rights of Allah (Glory be to Him). He has interests, but they should be abide by Shari'ah, and he has freedom and choice within the frame of the contract of succession. The state he establishes with the others is the state of succession on behalf of the nation, which is governed by Allah within the Divine Shari'ah.

This position – the position of the successor – is the position, which Allah wills for the human being in the construction of the earth; and it expresses the specialty of the Islamic view. His commitment to build the Islamic civilization makes the human being a real human being and a follower of the path of Allah. This fulfills the meaning which was not realized by the angels when Allah created the human being:

{'And (remember) when your Lord said to the angels: "Verily, I am going to place (mankind) generations after generations on earth." They said: "Will You place therein those who will make mischief therein and shed blood, while we glorify You with praises and thanks and sanctify You." He (Allâh) said: "I know that which you do not know.} [Al-Baqarah (The Cow): 30]

The fulfillment of the philosophy and regulations of succession makes the human being like a successor: a human being and a follower for Allah at the same time. This also makes his establishment of the civilization a human and Islamic civilization. In this way, this makes the civilization an Islamic succession civilization. Thus, the Islamic

succession civilization is distinguished from the civilizations which neglect him or regards him as a god.

3- Sharing the "religion" and specialty in its "source" and "scopes""

All of the human civilizations have something in common, which is embracing religions. Rather, the category of the people which becomes atheist and substituted "Allah by "material" made the materialistic philosophy a creed and religion.

The civilizations differ in their view of the source of religion. There are civilizations of positivist and non-heavenly religions – such as the religions of the far East – along with which the "the Western positivism" with its various doctrines. They claim that religion, like all of the types of the thought, is a human creation and an outcome of the human mind. They say that it is the representative of the human mind in the phase of childhood, which is promoted to the phase of metaphysics and belief in it. When it grew up, it became positivist. It does not see a real science or knowledge unless it is one of the fruits of the physical experiences and absolute reason stemming from the facts of the materialistic universe.

These civilizations knew the religions, and made it "human positivistic" and not "divine positivist and heavenly revelation."

Even the religious civilizations and conceptions, which participate in the believing in the divine positivism of religion, differ in determining the prospects of the work of this religion. Those who made religion as a special creed between the individual and His Creator, and the rituals of worship are restricted to the cells, isolating it from the guiding in all of the fields of construction, whether intellectual or practical, their civilization view of the scope of the work of religion and of the scope of religiousness differed from the Islamic view of this religiousness.

Religion is the Soul of Life

In the Islamic view, religion – in addition to being a divine positivism and heavenly revelation – is the soul flowing in all the fields of the human work and life. It controls the relation between the human being and his Lord, family, people, nation, and humanity. Also, it governs the relation between the real life and the Hereafter, construction with the values, methods with control and aims, politics, society, economy, research methods, and knowledge theories with philosophies and morals.

Thus, the Islamic civilization – in the real sense of the word - is distinguished from the other civilizations participating with it in religiousness in this special view of the source of religion and of the scope of religiousness.

4- Participation in "reason" and specialty in "the essence of mentality": Without reason, there is no sound fulfillment and all of the human civilizations are the outcomes of creation and reasonable person.

However, in spite of participation is rationality among the human civilizations, there is difference and specialty between civilizations with respect to reason, and its stance with regard to the other ways of knowledge and the entity of rationality. Civilizations participate in resorting to reason and differ in degrees of resorting to it.

Allah guided him to say this supplication to release his agony quickly. Allah (Glory be to Him) permitted him to immigrate from Mecca to Medina, where Al-Ansar and the beloved people lived. Thus, it was a place of residence for him and its people advocated and supported him.

The Messenger of Allah had a command from Allah and not only a permission, concerning which he can do whatever he wants. Ibn Kathir said that the good entry was Madina and the good exit was Macca. Abu Bakr asked the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) to give him permission for Hijirah, but the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) told him: "Do not be in a hurry, because Allah may grant you a Companion." Then, Allah commanded his Messenger to immigrate from Macca. The greatness of the Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) and the sublimity of his morals are revealed in the following:

1- The Prophet's patience for disbelievers of Macca, as he might supplicate Allah against them, so that they become destroyed.

2- The sacrifice of Imam Ali by his sleeping in the place of the Messenger of Allah to return the entrusted properties. This should be the morals of the Muslim youth. Imam Ali was not the only person, who sacrificed, but there were other cimpanions such as Abu Bakr and his daughter Asma'a.

3- The first deed performed by the Messenger of Allah in the new society was building a mosque, establishing brotherhood between the Muhajirs and Al-Ansar, and concluding a treaty between the Muslims and the Jews, which they broke, and the events written in the books of the prophetic autobiography and the Islamic history, as well.

If we get benefit from the Hijirah and its memories, we would not waste the efforts in experiments and would not spoil matters with hesitation. We have a rich human history, which has various great events and experiments. Also, our Noble Qur'an is regarded as a comprehensive constitution, which has a solution for every problem. If we seek our evidence in the Revelation, derive these significances from the righteous predecessors, and followed the path of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), we will reach our goal: power, unity, and gain a great victory.

*The relations of participation and distinction among the relations...!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine

All of the historical and contemporary civilizations are human, meaning that they are created by the human being, human invention and civilian accomplishments. It is human made and human invention. As the human being improves into the civilization and stability. However, the philosophical conception of the stance of the human being in the universe differs from one civilization to another to the extent that distinction in this conception becomes one of the specialties distinguishing the civilizations although all of them share one thing: that they are created by the human being.

a- In the philosophy of the Indian civilization – Nirvana – along with some of the Madhabs (School of mysticism-Sufism-) of philosophic Sufiusm – Ghonosityah, Al-Batiniyyah, and Al-`Irfaniyyah – there is negligence of the human being regarding him as mean and compelled, and there is no way out for him except by extinction either in the absolute or in the Self of Allah.

b- In the materialistic intellect – which affected the Western civilization since its period of Greek ignorance to the modern European civilization – they regard the human being as the master of the universe. He can permit by his own will and choice that which is religiously prohibited and disallow that which is religiously permitted. It regards that as one of his rights which do not abide by any of the Shari`ahs sent by Allah in constructing this civilization.

c- In the Islamic view of the stance of the human being in this universe, he is the successor of Allah on earth. He should construct the world. He is free and capable, but within the limits of succession set by the Islamic Shari`ah. The human being is a master in the universe, but he is not the master of the universe. Quoting the words of Imam Muhammad `Abdo (1265-1323 H/ 1849-1905) "The human being is the Slave of Allah only, and the master of any other thing."

This Islamic view of the stance of the human being in the universe, which represents cultural characteristic of the Islamic civilization distinguishing it from the other human civilization. It makes the place of the successor between "regarding him as the successor of Allah, the creator and manager of the universe".

It is the fruit of the Islamic conception of the scope of work and contemplating at the Divine Self. While Allah is the One Who manages the affairs of the human beings not only the Creator of the universe, His managing of the affairs of the human being

* An article by editor-in-chief of Al-Azhar Magazine published in Arabic at Al-Azhar Magazine.

The Companions started to immigrate as individuals and groups, and nothing hinders any of them except a very difficult obstacle that exceeds his will.

Na`im ibn `Abdullah from `Udai ibn Ka`b was one of the earlier Muslims, who embraced Islam after ten persons. He hides his embracement of Islam. When the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) immigrated, he wanted to follow him, but his family prevented him, as he was spending on widows and orphans from Bani `Udai. His family told him: stay with us whatever your religion is, and no one will hurt you, because if you go, we will be ruined without you.

He followed the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) after six years, in the year of Al-Hudaybiyyah reconciliation and witnessed the events thereafter. When he came to Medina, he presented forty persons of his family followed him asking him to come back with them and requested the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) to allow his family. He told him: Your people are better for you than my people."

Na`im said: No, your people are better, Messenger of Allah. The Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: My people sent me out, but your people wanted you to stay with them."

Na`im said: Messenger of Allah, your people let you immigrate, but my people refused to immigrate me.

Na`im who was honored and welcomed by the Messenger of Allah in this way, but he regarded himself deprived of honor gained by other Muslims, which is the honor of immigrating. He regarded Hijirah as an honor and a rank, from which he delayed, although he can make many good deeds, which cannot be done by any other person when he resides in Mecca.

Na`im was called Al-Nahham (who always coughs), as the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "I entered Paradise, as heard the cough of Na`im therein."

In the new society of Medina, the Muhajirs and Al-Ansar lived loving each other and cooperating with each other. There are many lessons that can be learnt from Hijirah:

1- The Muslim does not accept humiliation, as he is characterized with pride, sense of honor, dignity, and sovereignty. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) is the best teacher of the humanity, who taught it not to accept humiliation.

2- Whoever thinks that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) exploited the chance to immigrate secretly, fearing that disbelieves living in Mecca may hurt him is mistaken. Whoever thinks that

our love for the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) is that which incites us to deny his fear (May the blessings and peace of Allah be upon him) in his Hijira, which occurred secretly is deluded. His Hijirah was not decided by him, but it required taking a permission from his Lord (Glory be to Him), without which this Hijirah would not have occurred whatever his suffering, dangers, and plots had been. There was no exploitation of chances or fear. The Messenger of Allah waited until he took permission from His Lord.

a- All of the believers were able to immigrate safely, and resided in Medina. Also, they could practice their acts of worship in public and in tranquility. No one stayed in Mecca after the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) except the weak or the coerced. Their number does not exceed the fingers. Allah protected them.

b- No one in Mecca would believe except those, who actually believed. It was full of disbelievers only. Allah (Glory be to Him) emphasized that to His honorable Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) twice. Allah (Glory be to Him) said: {So turn away O Muhammad (peace be upon him) from them for a while} [Al-Safat (Those who set the ranks): 174]

{So turn O Muhammad (peace be upon him) away from them for a while,} [Al-Safat (Those who set the ranks): 178]

This means that the Messenger of Allah cannot be blamed for leaving the people of Mecca, as he performed his duties, and Allah witnesses this. So, he had to leave them for some time. With the descending of these two verses, this reveals that the residence of the Messenger of Allah in Mecca was useless. Islam is not special to the people of Mecca, and their refusal to the message does not mean the end of the message, as the message is for the whole world. This aspect, which is emphasized by the two verses, is the strongest evidence that Hijirah would occur soon. This is to cause the Messenger to live in peace and not to feel sorry for the disbelievers. The cause of Hijirah is to continue the Islamic call (Da`wah)

c- The Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) waited for permission for Hijirah, and was full of joy with the descending of the holy verses:

{And say (O Muhammad peace be upon him): My Lord! Let my entry (to the city of Al-Madinah) be good, and (likewise) my exit (from the city of Makkah) be good. And grant me from You an authority to help me (or a firm sign or a proof).} [Al-Isra' (The Night Journey): 80]

Hijirah changed the path of life in Medina first, in the Arabian Peninsula, and the East and the West. The most remarkable features of this change are represented in many fields:

1- In the economic field, the Muslims managed to liberate the lands of Medina from the Jews of Bani Qainuqa`a and Bani Quraizhah, and the lands were restored to the Muslims and those, who contributed in liberating it at the basis of their real needs. Islam nullified all the kinds of exploitation, which existed in the society of the Medina.

2- In the political field, we see implantation of the principle of consultancy and continuous intellectual coherence between leadership and the ruled. In this regard, we recite the Saying of Allah (Glorified be He): {And by the Mercy of Allâh, you dealt with them gently. And had you Muhammad (peace be upon him) been severe and harsh-hearted, they would have broken away from about you; so pass over (their faults), and ask (Allâh's) Forgiveness for them; and consult them in the affairs. Then when you have taken a decision, put your trust in Allâh, certainly, Allâh loves those who put their trust (in Him).} [Al-Imran (The Household of Imran): 159]

3- In the military field, this change is crystal clear in the increase of the number of the Islamic troops from approximately three hundred persons in Badr Battle in the second year of Hijirah to thirty thousand in Tabuk Battle in the ninth year of Hijirah.

The great power of horsemen was revealed at that time, as it was two horsemen in Badr Battle and ten thousands in Tabuk Battle.

Many of the Companions of the Prophet, who embraced Islam at an early phase preceded the Prophet in Hijirah to this new nation, and regarded it as new homeland, as they loved it even more than their first homeland. When they went to Mecca, they used to hurry after finishing the rituals of their `Umrah or Hajj. They regarded themselves in a journey not residence while they were in Mecca.

Hijirah was a condition of faith, and the evidence on this is the Saying of Allah (Glory be to Him): {They wish that you reject Faith, as they have rejected Faith, and thus that you all become equal (like one another). So take not Awliyâ'a (protectors or friends) from them, till they emigrate in the Way of Allâh (to Muhammad peace be upon him). But if they turn back (from Islâm), take (hold of) them and kill them wherever you find them, and take neither Awliyâ'a (protectors or friends) nor helpers from them.} [Al-Nisa' (Women): 89]

Imam Al-Bukhary related that Al-Humaydy, Al-A`mash, and Sufian said that they heard Abu Wa'il saying: We immigrated with the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) seeking Allah's Great Pleasure and reward from Him. Some of us lost their life there, and one of them

was Mus`ab ibn `Umayr, who was killed on the Day of Uhud and left a stripped woolen garment. If we covered his head, his legs appeared, and if we covered his legs, his head appeared. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) commanded us to cover his head and to put some of Al-Ezkhar (a good-smell plant on his legs. Mus`ab teaches us a great lesson in life and sacrifice. Mus`ab gives lesson that the spirit is eternal, while the material perishes. The bounties and graces of life will vanish.

Al-Tirmidhy narrated that "Mus`ab ibn `Umayr" came wearing only a ragged garment with a patch of fur although he was rich. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) wept when he saw his previous state of rich and wealth and his poverty at that day. The Messenger said when Mus`ab was carried to him after his martyrdom in Uhud Battle: "I saw you in Mecca, while you were the best dressed person, but now you are disheveled wearing a ragged garment.

The Messenger of Allah commanded the companions to bury him, and they did not find except a stripped woolen garment to shroud him. When the Companions covered his head, his legs become uncovered, and when they cover his legs, his head becomes uncovered. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) commanded them to cover his head by this garment and to put on his legs (Al-Ezkhar) a good-smelled plant. In this way, Mus`ab was fighting in Badr and carrying the banner in Udud. He was steadfast in the battle, and was fighting and died as the greatest fighter in the sake of Allah, herald, and Muhajir. Then, Allah honored him of his martyrdom and he gained from life only a shroud covering his body, and spent all of his money for the sake of Allah.

He was calling for Islam, while he was in Medina, the place to which the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) immigrated. He died and shrouded with a ragged garment and his legs were covered with grass.

However, his memory is eternal, as he was a good pattern in life and death. If he has not immigrated or fight in the battles, his life would not have been worth his eternal memory and great reward. If he kept his money, was shrouded in silk, and verses and legends were carved on his grave, he would not have died in this way, and his memory would not have been eternal.

The believers who loved and preferred religion to family, relatives, and the homeland and even to the whole life. They sought martyrdom and beloved in Allah's Saying: { 'Verily, Allâh has purchased from the believers their lives and their properties for (the price) that theirs shall be Paradise. They fight in Allâh's Cause} [Al-Tawbah (Repentance): 111]

The Holy Prophetic Emigration (Hijirah) from Mecca to Medina...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The message, with which our Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him), is distinguished by its generality and comprehension of all of the human beings and the human life, although the previous Messages were limited to certain environments. Also, Islam contains an advantage over the other religions, embraced by other Muslims: their religion is confined to creed and worship, which are sufficient to them, and they often know nothing about it except at the time of Prayer.

However, Islam is a religion of creed and worship and at the same time includes morals concerning families and societies, cooperation between the individuals and groups, tackles contracts and commitments, and it includes the systems of ruling and managing the affairs of the countries.

Waraqah ibn Nawfal (the cousin of Lady Khadijah, the Prophet's wife, and the mother of the faithful) informed the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) when he was accompanied by the Mother of the Faithfuls, Khadijah (may Allah be pleased with her) that his people will send him out. Thus, the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) realized since the first day in which the Revelation was sent down to him that he will be sent out of his place of birth, and it was destined to immigrate as long as there is struggle between right and wrong. Thus, the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Hijirah will not stop until repentance stops, and repentance will stop only when the sun rises from the West." (Related by Ahmed in his Musnad and ranked as Sahih).

Allah (Glory be to Him) gratified the rank and the reward of the Muhajir for His sake due to the hardships, and risks he endures. Thus, Allah (Glory be to Him) says:

{Those who emigrated in the Cause of Allâh and after that were killed or died, surely, Allâh will provide a good provision for them. And verily, it is Allâh Who indeed is the Best of those who make provision. Truly, He will make them enter an entrance with which they shall be well-pleased, and verily, Allâh indeed is All-Knowing, Most Forbearing.}

[Al-Hajj (Pilgrimage): 58-59]

Allah (Glory be to Him) enjoined Hijirah on every believer at the time of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to increase the number of the Muslims, to advocate Islam, and to defend it by the soul and every precious thing, as the growing Islamic nation in Medina was in need for the believing Muhajirs.

The wisdom behind the Hijirah is that the Message of Islam came to organize the affairs of the people in the different fields of life, as it is a comprehensive constitution and system, which should have a nation and a land setting the rulings of the Shari`ah to be applied. When the Muslims could not apply the rulings of their religion and set its social and economic system and morals in their countries, they were obliged to move to another country, where they can apply the rulings of their religion and to spread its principles and values.

Thus, the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) resorted to Ta'if when he despaired of the possibility of his people in Mecca embracing Islam. His coming out of Mecca was not due to fear or a way of fleeing. When the people of Ta`if did not respond to him, he introduced his religion to the Arab tribes at the season of Hajj.

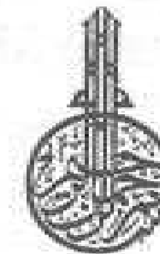
In this Hijirah, the honorable Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) came out of Mecca to Medina, and Hijirah was really a new birth of the call to Islam. The Muslims, started, after suffering from tyranny and stubbornness, their truthful call (Daawa) in public and in every part of the earth. They were directed to all the people addressed by the Noble Qur'an, and being encompassed in all of their righteous deeds by Allah's Mercy, Guidance, and Support. This is according to the Saying of Allah (Glory be Him): { And as for those who emigrated for the Cause of Allâh, after they had been wronged, We will certainly give them goodly residence in this world, but indeed the reward of the Hereafter will be greater; if they but knew!} [Al-Nahl (the Bee): 41]

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) defined the goal of Hijirah in the Second `Aqabah Bay`ah, when he addressed Al-Ansar saying: "I ask you for the sake of Allah to worship Him without accompanying with Him any other thing, and for my sake and that of my Companions to shelter, advocate, and defend us from that which you defend yourselves."

The Messenger of Allah revealed the rank of Hijirah when Al-Ansar asked him saying: "We will cut the links with the Jews. If we do so and Allah granted you victory, will you come back to your people and leave us? The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "There is blood between us, and we are one family, and I will make peace with those with whom you make peace, and fight those whom you fight." He meant the person who sought your blood, he sought my blood too, and the person who shed you blood, he shed my blood too, because of intimacy between us. This is the meaning of the Hadith: "Living will be with you, and death will be with you."

AL-AZHAR MAGAZINE

Al-Muharram, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION

December, 2011

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

الفهرس السنوى لعام ١٤٣٢هـ

محرم

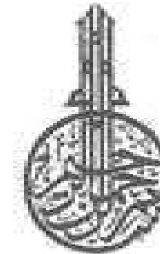
صفر

ربيـــع الأول

ربيـــع الآخـــر

AL-AZHAR MAGAZINE

Al-Muharram, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION

December, 2011

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

الفهرس السنوى لعام ١٤٣٢هـ

محرم

صفر

ربيـــع الأول

ربيـــع الآخـــر

جمـــــادى الأولـــى

جمـــــادى الآخـــرة

رجب

شعبان

رمضان

شوال

ذو القعدة

ذو الحجة

جمادى الأولى

جمادى الآخرة

ملاحق مجلة الأزهر لعام ١٤٣٢هـ

الشهر	العنوان	الكاتب
المحرم	ما يقال عن الإسلام «الجزء الأول»	أ. عباس محمود العقاد
صفر	ما يقال عن الإسلام «الجزء الثانى»	أ. عباس محمود العقاد
ربيع الأول	ما يقال عن الإسلام «الجزء الثالث»	أ. عباس محمود العقاد
ربيع الآخر	بحث فى ترجمة معانى القرآن الكريم	فضيلة الشيخ/ محمد مصطفى المراغى
جمادى الأولى	مكانة السنة	فضيلة الشيخ/ على الخفيف
جمادى الآخرة	التأويل العبثى للوحى والنبوة والدين	أ.د. محمد عمارة
رجب	القرآن فى التربية الإسلامية	فضيلة الشيخ/ نديم الجسر
شعبان	الدين والدولة فى الإسلام	أ.د. محمد عمارة
رمضان	الصوم تربية وجهاد	أ.د. محمد عبدالله دراز
شوال	الوثائق الدستورية فى دولة النبوة والخلافة الراشدة	أ.د. محمد عمارة
ذو القعدة	السياسة الشرعية	فضيلة الشيخ/ عبدالوهاب خلاف
ذو الحجة	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (الجزء الأول)	للعلامة الشيخ/ عبدالرحمن الكواكبى دراسة وتحقيق: أ.د. محمد عمارة

AL AZHAR
MAGAZINE

ترقب في العدد القادم

هدية العدد القادم :

حوار الإسلامية والعلمانية تقديم (أ.د. محمد عمارة)

- أقسام السنة (لفضيلة الشيخ محمود شلتوت)
- الوضع القانوني بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي
(للمستشار طارق البشري)
- انتشار الإسلام في إفريقيا
(د. حورية توفيق)



إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض

السعر ١٥٠ قرشاً

هدية العدد **حوار الإسلامية والعلمانية**

شارك فيه وقدم له: أ. د. محمد عمارة

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
صفر ١٤٣٣ هـ - يناير ٢٠١٢ م الجزء "٢" السنة "٨٥"
www.AlazharMag.com

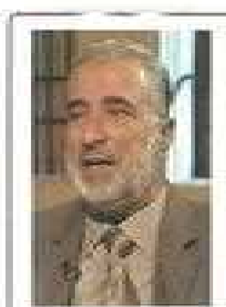
اقرأ الهوية



د. محمد سليم العوا



المستشار طارق البشري



عماد خليل

سنة التدرج فى الإصلاح

.. أ. د. محمد عمارة

الآثار التربوية للعبادات

.. أ.د صلاح سلطان

حول فتوى الأزهر

بجواز عزل الأنظمة الظالمة

.. أ.د وصفى عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ/ أحمد ...



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعي خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

الاشتراك السنوي

داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

سنة التدرج فى الإصلاح



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

التدرج: سُنة من سنن الله، سبحانه وتعالى، وقانون من القوانين الكونية التى لا تبديل لها ولا تحويل..

● هو سنة من سنن الخلق الإلهى للكون والعالم بسماواته وأراضيه.. فلقد خلق الله، سبحانه وتعالى، السماوات والأراضين وما فيهما فى ستة أيام من أيام الله

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(الأعراف: ٥٤، يونس: ٣)

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

(فصلت: ٩-١٠)

(أى فى تتمة أربعة أيام لخلق الأرض وما فيها)

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

(فصلت: ١١-١٢)

فتدرج خلق الله لها فى ستة أيام- من أيامه سبحانه- وهو القادر على أن يقول لها- فى جزء من اللحظة- كن فتكون..

● والتدرج سنة من سنن الله فى خلقه للإنسان الأول- آدم، عليه السلام-.. فلقد مرت مراحل خلق الله له بسبعة أطوار، بدأت بمرحلة (التراب) الذى أضيف إليه (الماء) فصار (طينا) ثم تحول هذا الطين إلى (حمأ)- أى أسود منتن- لأنه تغير- والمتغير هو (المسنون)- فلما يبس هذا الطين- من غير أن تمسه نار- سمى (صلصالا)- لأنه يصل، أى يصوت، من يبسه-..

وبعد هذه المراحل الخمسة- التراب.. فالماء.. فالطين.. فالحمأ المسنون.. فالصلصال- كانت مرحلة النفخ الإلهى فى «مادة» هذا الخلق من (روح الله).. فكان ان استوى هذا المخلوق (إنسانا)، هو آدم، عليه السلام:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾

(آل عمران: ٥٩)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾

(السجدة: ٧)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٨، ٢٩)

● وبسنة التدرج، عبر الأطوار والمراحل، كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم، عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(المؤمنون: ١٢-١٤)

فكان التدرج سنة كونية مطردة فى خلق الله للعالم.. وللإنسان الأول.. ولكل إنسان..

● كذلك، شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة فى مسيرة الشرائع السماوية، التى جعلها، سبحانه، «لطفا» لهداية الإنسان.. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات، كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم، ومع نمو المستوى العقلى لأمم هذه الرسالات.

● وفى عصر النبوة:

● وحتى فى الشريعة الإسلامية، شريعة الرسول الخاتم محمد بن عبدالله ﷺ كان التدرج سنة مطردة ومرعية.. فهذه الشريعة، الخاتمة والخالدة، قد بدأت- فى المرحلة المكية، التى استغرقت ثلاثة عشر عاما- بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها.. أى بدأت بالدرجة الأولى فى سلم التغيير الكبير والجذرى والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كى تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد: ١١)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٥٣)

وكذلك كان الحال- التدرج- فى المرحلة المدنية- التى استغرقت عشر سنوات- فامتلاك الجماعة المؤمنة- الأمة- للدولة وأركانها، لم يجعل «الطفرة» تحل محل «التدرج»، ولا «الثورة» تحل محل «الإصلاح» فى استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام.. فمع تدرج الوحى- المنجم- واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان، الذى سيقيم كامل الشريعة، وللواقع، الذى لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة..

- فنظام المواريث طبق فى السنة الثالثة للهجرة.. أى بعد ستة عشرة عاما من بدء الوحى..

- والنظام الإسلامى للأسرة- من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها- اكتمل تشريعه وتطبيقه فى السنة السابعة للهجرة.. أى عبر عشرين عاما من بدء الوحى.

- والقوانين الجنائية، تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت فى السنة الثامنة للهجرة.. أى عبر واحد وعشرين عاما من عمر الوحى الخاتم..

- وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائى لها فى السنة الثامنة للهجرة.. أى فى العام الواحد والعشرين من بدء الوحى.

- وكان تحريم الربا فى السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلق فى الواقع الإسلامى للدولة الجديدة والأمة الوليدة اقتصاد إسلامى بديل حل محل الاقتصاد الجاهلى القديم.. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوى ومعاملاته أمرا ممكنا[1]..

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضا فى الشعائر والعبادات- بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط فى أحكام الواقع والمعاملات.. فالصلاة- بصورتها التامة والحالية- اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج- فى السنة الثانية قبل الهجرة.. الحادية عشرة من البعثة-.. والصوم فرض بالمدينة.. وكذلك الزكاة.. والحج إلى بيت الله الحرام.. فكان التدرج سنة إلهية وقانونا كونيا فى كل عوالم الخلق.. خلق الله العالم.. وللإنسان الأول.. ولذرية هذا الإنسان.. والـ«لطف» الله بهذا الإنسان عبر النبوات والرسالات والشرائع، التى واكبت سنة التغير فى النفس الإنسانية، والتطور فى الواقع الذى يعيش فيه هذا الإنسان.

● سنة جدل العدل والجور:

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد خلق كل شىء بقدر وقدره تقديرا

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾

(الفرقان: ٢)

وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الدينى والإنسانى

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الفتح: ٢٣)

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

---

(١) أبو الأعلى المودودى (القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان) ص٥١، ٥٢. ترجمة محمد عاصم الحداد طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٧)

فلقد شاء، سبحانه، أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير، تقدما وإصلاحا كان هذا التغيير، أو تخلفا وتراجعا وانحدارا نحو الفساد.. فالحديث عن «الطفرات»، و«الثورات»، و«الانقلابات الفجائية» لا يعدو أن يكون حديثا عن «هبات» مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج، أو الأماني والأحلام.. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره، ولا تؤتي ثمارها- في الشفاء- إلا بعد تدرج في العلاج.

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، الذي حكم التشريع الإسلامي، والتطبيق لهذا التشريع، على عهد رسول الله ﷺ.. فإن لرسول الله حديثا أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.. أي كل ألوان التغيير، تراجعا كان هذا التغيير عن معايير الصلاح الإسلامي، أو تقدما نحو معايير هذا الصلاح.. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو «دورات متواليات»- وليس خطا مستقيما، صاعدا نحو الصلاح، أو هابطا نحو الفساد-.. هو «دورات» يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد..

وفي هذا الحديث النبوي الشريف- الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني- يقول رسول الله ﷺ:

«لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله، تبارك وتعالى، بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»- رواه الإمام أحمد..

فدورات العدل والجور، وحقب الصلاح الفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني.. والتغيير في هذه الدورات محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى، وكذلك الحال في الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج في ظاهرتي الشروق والغروب للشمس مثلا، دونما «طفرة» أو «انقلاب فجائي».. بل إن ما يحسبه البعض «طفرة» أو «فجأة» إنما هي لحظة في سلك التدرج وتوالي التطور والتغيير.

في تاريخنا القديم

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التي أصابت الاجتماع الإسلامي بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذي غالب الفساد وتدافع معه.. سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة- سنة التدرج في التغيير- التي تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ.

فالتغيرات التي أصابت نموذج العصر النبوي والعصر الراشدي- والتي جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التي دخلت في إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام.. والتي جاءت- أيضا- من النفوس التي تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالي للعهد النبوي- هذه التغيرات التي أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعي أكثر من سواها وقبل سواها، لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج في الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد.

وكذلك الحال مع التغيرات التي جسدتها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبدالعزيز (٦١-١٠١هـ- ٦٨١-٧٢٠م) رضي الله عنه وأرضاه، والتي أحلت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتي مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل في الاجتماع الإسلامي.. هذه التغيرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه.. فزوجه.. فأمراء بني أمية.. وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.. حتى لقد استغرقت هذه التغييرات كل عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز!.

ولقد عبر عمر بن عبدالعزيز عن تلك التغييرات التي تدرجت بالاجتماع الإسلامي نحو الجور والمظالم، والتي ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بني أمية.. عبر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعي في ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التي نقلته من العدل إلى الجور، فقال:

«إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ رحمة- لم يبعثه عذابا- إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، فقبضه إليه، وترك للناس نهرا شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر، فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهرا. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار.. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد، ومروان، وعبدالملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه..»[2]!.

وكما تمت التغييرات السلبية، من العدل إلى الجور، بالتدرج، بدأ عمر بن عبدالعزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح، بالتدريج أيضا. فبدأ بنفسه، عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة.. وعندما رد جميع المظالم التي ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين، وقال- وهو يرد «إقطاع فدك»-: «إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه»[3]!.

لقد جعل عمر بن عبدالعزيز من عامي خلافته سلسلة متدرجة ومتصلة من «رد المظالم» انتقلت بالاجتماع الإسلامي من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: «إنه مازال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات»[4]!.

---

(٢) الأصفهاني (كتاب الأغاني) جـ٩ ص٣٣٧٥، ٣٣٧٦. تحقيق: إبراهيم الإبياري. طبعة دار الشعب- القاهرة.

(٣) البلاذري (فتوح البلدان) ص٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٣١٩هـ. وابن الأثير (الكامل في التاريخ) جـ٥ ص٣١- طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣هـ.

(٤) ابن سعد (كتاب الطبقات) جـ٥ ص٢٥٦- طبعة دار التحرير- القاهرة.

كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج فى هذا التغيير الإصلاحى، رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح، واستعداده لأن يبذل روحه فى سبيل هذا الإصلاح.. فمع قوله: «لو كان كل بدعة يميتها الله على يدى، وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى، حتى يأتى آخر ذلك على نفسى، كان فى الله يسيراً»[٥]!.

إلا إن حماسه للإصلاح، واستعداده للفداء والاستشهاد فى سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج، ودافع عن هذا المنهاج فى التغيير، فى حواره مع ابنه عبدالملك، الذى كان يتعجل التغيير والإصلاح، فقال لأبيه:

- يا أبت! مالك لا تنفذ فى الأمور؟!.. فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى وبك القدور!

فرد عليه عمر بن عبدالعزيز، بحكمة رجل الدولة، وخبير الإصلاح، والفقيه فى سنة التغيير التدريجى، قائلاً:

- «لا تعجل يابنى! فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة»[٦]!.

فلقد كان هذا الراشد العادل واعيا بسنة الله فى التدرج بالإصلاح والتغيير العادل.. وعارفا بضرورات التعايش - مؤقتاً - مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل التغيير التدريجى محلها بدائل العدل والإصلاح.. بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال:

«إنى لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا»[٧]!.

فهو - هنا - يتجاوز مستوى «التعايش» مع مقادير من الجور وألوان من الفساد، حتى يحين حين التغيير التدريجى لها، وإحلال مقادير من العدل والصلاح محلها.. يتجاوز هذا المستوى، إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو «تغليف» العدل بشىء من «طمع الدنيا»؛ كى تتقبله النفوس التى «تعلقت» بقيم الاجتماع الفاسد والجائر الذى طرأ على حياة الناس!.

وتلك - لعمرى! - عبقرية فى فقه التدرج بالتغيير - جسدتها تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبدالعزيز.. وعبرت عنها كلماته الراشدة الحكيمة فى فلسفة هذا المنهاج.. وجسدتها تجربته العملية التى لازالت مضيئة فى تاريخ الإصلاح الإسلامى. تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق..

---

(٥) د. محمد عمارة [عمر بن عبدالعزيز: ضمير الأمة وخامس الراشدين] ص٢٦ طبعة دار الوحدة- بيروت سنة ١٩٨٤م.

(٦) ابن عبدربه [العقد الفريد] جـ١ ص٤٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

(٧) المصدر السابق- جـ٢ ص٢٢٢.

وفى العصر الحديث

فإذا انتقلنا من الفلسفة الإسلامية فى التغيير.. والتطبيقات النبوية والراشدة لفلسفة هذا المنهاج التغييرى، إلى الواقع الإسلامى فى العصر الحديث.. فإننا سنجد سنة التدرج عاملة وحاكمة فى ميدان الإفساد الذى جاءنا فى ركاب الاستعمار الغربى الحديث، والذى استفاد غزوه الثقافى والقيمى والإعلامى للعقل المسلم والواقع الشرقى من الفراغ الذى صنعه الجمود والتقليد، ومن تخلفنا الحضارى الموروث.. سنجد سنة التدرج حاكمة لهذا الغزو الفكرى والثقافى والإعلامى والقيمى الذى اخترق عقلنا المسلم وواقعنا الشرقى..

كما سنجد سنة التدرج، أيضاً، واضحة فى نوايا ومقاصد ومخططات حركات الإصلاح الإسلامى التى تصدت لتغيير هذا الفساد الذى أحدثه الاستعمار الغربى فى ثقافة المسلمين.

فالتسلل القانونى - للقانون الوضعى العلمانى - قد دخل بالتدريج إلى عقلنا الفقهى ومؤسساتنا القانونية والقضائية والتشريعية والتغيرات التى أحدثها الاستعمار بواقعنا الاقتصادى والاجتماعى، والتى فتحت الأبواب إلي قيمه الحضارية والثقافية، قد تمت هى الأخرى بالتدريج.. بل وبالتدريج الناعم والبطىء فى أغلب الأحايين.. والاختراق التغريبى لمناهج التعليم فى بلادنا الإسلامية قد بدأ «بالضرورات البريئة» فى علوم الصنعة - الدقيقة.. والمحايدة - ثم تطرق الاختراق - بالتدريج أيضاً - إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. ثم تصاعد حتى طال أطرافاً من علوم العقيدة والشريعة - التى درسها نفر من أبنائنا على أيدى المستشرقين، وبمناهجهم! - كما استوعب هذا الاختراق واستولى على الكثير من ميادين الفنون والآداب، مستفيداً - أيضاً - من الفراغ الذى أحدثه الجمود والتقليد عندما عجز سدنته عن إبداع البدائل الإسلامية التى تغذى العقل والوجدان فى هذه الميادين..

***

ولقد كانت دعوات الإصلاح الإسلامى، والحركات التى انتظمت حول هذه الدعوات، واعية بسنة التدرج هذه فى حلول الفساد التغريبى بواقعنا القانونى - الذى عبر عن التغيرات الثقافية والقيمية الجديدة - وكانت هذه الدعوات الإصلاحية واعية - أيضا - بسنة التدرج فى مسيرة الإصلاح الإسلامى لهذا الفساد التغريبى..

وإذا شئنا نماذج محددة وشاهدة - كى لا يطول بنا الحديث - على وعى حركات الإصلاح الإسلامى الحديثة والمعاصرة بهذه السنة - سنة التدرج فى الغزو الثقافى الغربى لنفوس المسلمين وعقولهم - وأيضا الوعى بضرورة التدرج فى إصلاح هذا الفساد، وتنقية الحياة الثقافية من آثاره.. فإن فى رؤية كل من الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا (١٣٢٤م-١٣٦٨هـ. ١٩٠٦-١٩٤٩م) والعلامة الأستاذ أبى الأعلى المودودى (١٣٢١-١٣٩٩هـ. ١٩٠٣-١٩٧٩م) نماذج للرؤية الإصلاحية فى هذا الميدان.


حسن البنا

فالإمام البنا يتحدث عن تسلل القيم الغربية إلى نفوس المسلمين، بتدرج وسلاسة، أحلت هذه القيم محل القيم الإسلامية، حتى لقد غدت محبوبة ومعشوقة من نفوس المسلمين!.. فيقول:

«إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا، فى أرض الإسلام نفسه، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى.. لقد عمل الأوروبيون على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التى امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة.. ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم بالمدارس العلمية والثقافية فى عقر ديار الإسلام- والتى ضمت أبناء الطبقة العليا- فعلمتهم كيف يتنقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربى، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة.. نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوى الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف»[8].

فهذا الغزو قد تم فى ميادين الثقافة والإعلام والاجتماع- أى فى عالم النفوس والوجدان- فى الوقت الذى حرم فيه الاستعمار بلادنا من العلوم النافعة والضرورية لعمران وترقية الواقع المادى فى بلادنا.

وإذا كان الغزو العسكرى قد تم فى معركة، ووقت وجيز.. فإن هزيمته يمكن أن تتم بنفس الوتيرة.. أما هذا الغزو الثقافى والإعلامى والقيمى والاجتماعى، فإن تمامه ببطء وتدريج، يجعله «طويل العمر»- كما يقول الشيخ حسن البنا..

وهذا الذى أشار إليه الأستاذ البنا قد فصل فيه الأستاذ المودودى، عندما تحدث عن التدرج فى الغزو الغربى لثقافة المسلمين.. وعن التدرج الذى يجب أن تسلكه الجهود الإصلاحية لإحلال البدائل الإسلامية محل الإفساد الفكرى والثقافى والإعلامى والقيمى الغربى.. يتحدث المودودى عن تدرج الإفساد فيقول:

«إن الإنجليز قد صرفوا مدة قرن كامل تقريبا فى تبديل نظام البلاد القانونى، بدلوا نظام حياتها أولاً شيئا فشيئا، وأعدوا رجالاً لا يتفكرون ولا يعملون إلا حسب نظرياتهم وأفكارهم، وعملوا عملاً متواصلاً على تغيير أذهان الناس وأخلاقهم ونظامهم الاقتصادى بنشر الأفكار وبتأثير السلطة والاستيلاء، أى ظلوا يلغون القوانين القديمة وينفذون مكانتها قوانينهم الجديدة، على قدر ما ظلت

(8) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا)- رسالة (بين الأمس واليوم)- ص ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠ طبعة دار الشهاب- القاهرة- بدون تاريخ.


المودودى

تأثيراتهم المختلفة تغير من نظام البلاد الاجتماعى».

فهو «تدرج- جدلى» فى تغيير الواقع الاجتماعى والفكرى والثقافى والقيمى، ينتج عنه غربة المجتمع عن القوانين الموروثة، فيأتى إحلال القانون الغربى ليحكم حركة الواقع المتغرب.. هكذا استمر الاستعمار يمارس هذا «التغيير- الجدلى- المتدرج» نحو قرن من الزمان فى شبه القارة الهندية.

ثم يتحدث المودودى- باستفاضة- عن ضرورة سلوك حركة الإصلاح الإسلامى سبيل التطور، والتزامها الواعى بسنة التدرج فى التغيير لهذا الواقع الاجتماعى والثقافى والقيمى الذى كرسه الاستعمار الغربى.. فيقول:

«إننا إن كنا نريد حقا أن يحالفنا التوفيق فى إلباس فكرة إقامة الدولة الإسلامية حلة العمل والتنفيذ، فلابد أن ننتبه للقاعدة الفطرية التى لا تقبل التغيير، وهى أنه لا يحدث الانقلاب فى الحياة الاجتماعية إلا بالتدريج. ولابد أن يكون كل انقلاب بددا غير محكم على قدر ما يكون فوريا متطرفا، ولابد لكل نظام راكز المبادىء والأصول أن يجرى فى كل جهة من جهات الحياة وناحية من نواحيها باتزان تام، حتى تساند كل ناحية نواحيه الأخرى.. أما الذين يظنون أن جميع القوانين الماضية ستلغى دفعة واحدة، وينفذ مكانها القانون الإسلامى فجأة بمجرد إعلان تغيير نظام الحكومة.. فإنهم لا بصر لهم فى المسائل العملية، وما إحداث الانقلاب عندهم فى النظام الاجتماعى إلا كلعبة الأطفال!. أو هم يتمنون أن يحصدوا زرعهم بعد غرسه على الفور!».

ثم يضرب المودودى المثل على سنة التدرج الحاكمة، وعلى الجدل بين التغيير التدريجى للواقع وبين التغيير التدريجى للقانون والفكر والثقافة- والتى تسهم هى الأخرى فى دفع التغيرات الواقعية إلى الأمام- يضرب المثل على ذلك المنهاج فى التغيير بالنموذج النبوى فى دولة الإسلام الأولى، بالمدينة المنورة، فيقول:

«وأحسن أسوة لنا فى هذا الصدد ذلك الانقلاب الذى تم على يد رسول الله ﷺ.. إنه لم يطبق القانون الإسلامى بجميع شعبه ونواحيه دفعة واحدة، بل كان- قبل هذا الانقلاب- قد مهد الأرض وأعد المجتمع لقبوله، ومازال شيئا فشيئا مع هذا الإعداد، يبدل طرق الجاهلية ويستعيض بها طرق الإسلام وقواعده الجديدة.. حتى إذا مرت على ذلك تسع سنوات، تم فى البلاد فى جانب بناء الحياة الإسلامية، وفى الجانب الآخر نفاذ القانون الإسلامى بأسره.. فمن المحتوم إذن ألا يتم الإصلاح والتغيير المنشود إلا على مبدأ التدرج..»[9]!

ثم فصل المودودى تفصيلاً فى كيفية هذا التدرج، وفى ضرورة تزامل وتزامن «الجدل» بين تغيير الواقع

(9) (القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان) ص١٨٩- ١٩٧، ترجمة: محمد عاصم الحداد- طبعة بيروت- ضمن مجموعة (نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون) سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩م. ود.محمد عمارة (أبو الأعلى المودودى والصحوة الإسلامية) ص٢٦٢- ٢٦٨، ٤١٤، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٠- ٤٢٠، طبعة دار الشروق- القاهرة سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م.

الاجتماعى بالإبداع الفكرى، وبين إسهامات تغيير الواقع وتجديد الفكر، ودور التجديد الفكرى وإبداع البدائل الإسلامية فى دفع الواقع باتجاه إسلامية النموذج الثقافى ومنظومة القيم الإسلامية..

●●●

تلك هى سنة التدرج، كما تجلت فى:

● السنن الإلهية الكونية فى خلق العالم.. وخلق الإنسان..

● والسنن الإلهية التاريخية فى الوحى بالشرائع السماوية الهادية للإنسان..

● والتطبيقات النبوية- لسنة التدرج هذه- فى الاجتماع الإسلامى، بالدولة الإسلامية الأولى..

● والإصلاح الإسلامى الراشد، كما تمثل فى تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبدالعزيز، رضى الله عنه وأرضاه.

● وكما تجلت- أيضًا- فى فكر أبرز الدعوات والحركات الإصلاحية الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. وخاصة فى منهاج كل من الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا.. والعلامة الأستاذ أبى الأعلى المودودى.. الأمر الذى يقول لنا:

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية فى ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإسلامى الراهن، الذى أفسد التغريب الكثير من نواحى فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه، لابد وأن يعنى سلوك طريق التدرج فى هذا التغيير المنشود.

فبقدر ما تتكون الكتيبة التى تبدع البدائل الإسلامية المحكومة بالقيم الإسلامية فى الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإسلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايات التغيير للواقع الاجتماعى للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية.. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التى يحدثها الإبداع الثقافى والإعلامى الإسلامى فى الواقع الاجتماعى بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإسلامية فى الإبداع الفكرى والثقافى والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك- فى صراحة ووضوح- أن سنة التدرج هذه إنما تعنى مصاحبة الصلاح الإسلامى الجديد- حينا من الدهر- لكثير أو قليل من الفساد التغريبى- الوافد والموروث-.. وأن نتذكر، جيدًا ودائمًا، منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبدالعزيز فى التدرج الإصلاحى، والإصلاح المتدرج، الذى لم يقف، فقط، عند التعايش- مؤقتًا- مع مقادير من الجور الموروث، وإنما سلك سبيل «تغليف» العدل ببعض طمع الشهوات فى زينة الحياة الدنيا، وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.. فقال، رضوان الله عليه، كلمته الحكيمة الجامعة:

«إنى لأجمع أن أخرج للمسلمين أمرًا من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا

من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا..»!

تلك هى سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم فى كل عوالم الخلق.. والإصلاح والتغيير.. وذلك هو منهاجها فى الخروج بأمتنا من واقعها الفكرى والثقافى والإعلامى الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامى المنشود.

مع ضرورة:

● صدق النية فى الإصلاح الكامل- قدر الطاقات والإمكانات-.. وليس مجرد «الترقيع».. والاكتفاء بسياسة مجاورة الصلاح للفساد، والتعايش بينهما، بدعوى وضع النماذج المتخلفة أمام الأذواق المتخلفة.. فإصلاح الأذواق التى أفسدها التغريب هو هدف من الأهداف الرئيسية للإصلاح.

وعلينا أن نميز بين صدق النوايا فى التدرج الإصلاحى وبين النوايا الكاذبة التى تتحدث عن «التدرج» بينما يضع أصحابها النموذج الإسلامى فى «الأدراج»!!.

فبالنية الصالحة.. وبالعزم الصادق.. وبالتخطيط الراشد.. والتنفيذ الواعى- وفق سنة التدرج- تتحقق آمال المصلحين فى الإصلاح..

● وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة فى الإصلاح الكامل.. وإنما العمل المتواصل على تقديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة- تقديم «المثال الإسلامى»- وتنمية مساحة هذا «المثال» باستمرار.. ليتوارى- مع نموه- النموذج الفاسد والسلبى فى الثقافة والإعلام..

● وتقدير الضرورات بقدرها، وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات فى التعايش مع نماذج من الثقافة السلبية.. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين السيىء والأسوأ والأقل سوءًا فى المادة التى يتم التعايش معها مؤقتًا.

● وكما يجب إعمال قاعدة «سد الذرائع» إلى الأسوأ.. فإن بالإمكان إعمال قاعدة «فتح الذرائع» إلى الأقل سوءًا، إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

● مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية، تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامى.. ودائمة الإشعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامى.. فضرب الأمثال.. وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج، هو من أفعل الوسائل فى تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم على الرسول الخاتم، إمام المصلحين إلى يوم الدين.

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

(البقرة: ٨ - ١٠)

سمى يوم القيام باليوم الآخر لأنه آخر الأيام، فإن اليوم الذى كانت به الحياة الأولى هو ابتداء طور جديد من الحياة ينتهى بالموت، ويوم القيام ابتداء طور آخر لا موت بعده..

.. قدمنا أن الكلام من أول السورة فى القرآن وأقسام الناس بإزائه، وذكرنا منهم ثلاث فرق: فرقتان لهما فيه هدى (إحداهما) المتقون، وبين حالهم بقوله:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

(البقرة: ٣)

ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفيين، والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور الحق ليهتدوا به، كما تقدم. (والثانية) هى المذكورة فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

(البقرة: ٤)

وهم كل من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق.

وبينا أنه يوجد بإزاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان، لا ترجى هدايتهما بالقرآن: الأولى منهما، هى المشروح حالها فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(البقرة: ٦)

إلخ.. وهى - كما قدمنا - تنقسم إلى قسمين: جاحدين لا يسمعون، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون.

وهذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها الآن، هى المبينة لحال الفرقة الرابعة، وهى فرقة من الناس توجد فى كل آن وفى كل عصر. وليست الآيات كما قيل فى أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى عصر التنزيل - ولذلك، قال تعالى فى بيان حالهم:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

ولم يقل عنهم إنهم يقولون مع ذلك «وآمنا بك يا محمد». وما كان القرآن ليعتنى بأولئك النفر الذين لم يلبثوا أن انقرضوا كل هذه العناية، ويطيل فى بيان حالهم أكثر مما أطال فى الأصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس.

نعم، إن الآيات - على عمومها - تتناول من كان منهم فى عصر التنزيل تناولاً أوليا، وتصف حالهم وصفا مطابقا. وهى مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجئ من هذا الصنف إلى يوم القيامة. وقد كان ويكون من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس، ومن كل طائفة تدعى أنها على دين، ولم يحك عنهم دعوى الإيمان بالأنبياء والأعمال الصالحة - مع أن منهم الذين يدعون ذلك - لأن الإيمان باليوم الآخر يتضمن ذلك، فهو إنما يعرف من قبل الأنبياء، وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التى بلغت حد الإعجاز.

قد يقال: كان فى أولئك القوم من كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، كمنافقى اليهود، فلم كذبهم ونفى عنهم الإيمان نفيا مطلقا مؤكدا بدخول الباء فى خبر ما، فقال:

﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

أى بداخلين فى جماعة المؤمنين الصادقين البتة وهو أبلغ من نفى فعل الإيمان المطابق للفظهم والمقيد بالإيمان بالله وباليوم الآخر!.

والجواب: إن اعتقادهم التقليدى الضعيف، لم يكن له أثر فى أخلاقهم وأعمالهم. فلو حصل ما فى صدورهم، ومحص ما فى قلوبهم، وعرفت مناشئ الأعمال من نفوسهم، لوجد أن ما كان لهم من عمل صالح - كصلاة وصدقة - فإنما مبعثه رياء الناس، وحب السمعة، وهم من وراء ذلك منغمسون فى الشرور، كالإفساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التى حكاها عنهم الكتاب، ونقلها رواة السنة. وهذه الأعمال تدل على أنهم لا

يؤمنون بالله كما يحب ويرضى أن يؤمن به، وهو أن يشعر المؤمن بعظيم سلطانه، ويعلم أنه سبحانه مطلع على سره وإعلانه، لأنه مهيمن على السرائر، وعالم بما في الضمائر، فيرضيه بظاهره وباطنه. بل كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات، يظنون أنهم يرضون الله تعالى بذلك. والعمل الظاهر الذى لا يصدقه الباطن، إذا قصد به إرضاء آخر يسمى في اللغة مداجاة ومداراة ومخادعة. فإن كان يقصد به المخادعة فظاهر، وإلا فيكفى لصحة الإطلاق أن العمل عمل المخادع، لا عمل الطائع الخاضع. وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم أهل الكتاب المؤمنين بالله إيمانًا ناقصًا، لم يقدروا الله فيه حق قدره. ويستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته، ولكنهم لجهلهم بالله ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم. فهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾

وأما قوله:

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾

فهو بيانه للواقع. فإن هذه الأعمال لا قيمة لها عند الله، خلافا لما يتوهمونه عن غير هدى ولا بينة..

إذا رجع الإنسان إلى نفسه، وأصغى لمناجاة سره، يجد عندما يهم بعمل شئ أن في قلبه طريقين، وفي نفسه مختصمين، أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج، وآخر ينهاه عن العوج، ويأمره بالاستقامة على المنهج. ولا يترجح عنده باعث الشر، ولا يجيب داعي السوء، إلا إذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطلوبة فيها، وصرفها عن الحق، وزين لها الباطل. وهذه الشئون النفسية في غاية الخفاء، تكون المنازعة، ثم المخادعة، ثم الترجيح. ويمر ذلك كله كلمح البصر، وربما لا يلتفت إليه الإنسان بفكره، ولذلك قال:

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

فإن الشعور هو إدراك ما خفى.

فمعنى نفى الشعور عن المنافقين في مخادعتهم لله تعالى، أنهم يجرون في كذبهم وتلبيسهم وريائهم على ما ألفوا وتعودوا، فلا يحاسبون أنفسهم عليه، ولا يراقبون الله فيه. وما كلهم يؤمنون بوجود الله وإحاطة علمه. ومن يؤمن بوجوده، ولم يترتب على خشيته ومراقبته، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يغضبه، فهو يعمل عمل المخادع له وما يشعر بذلك. وأما مخادعتهم للمؤمنين فظاهرة، لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم، فأعمالهم التي يقصدون بها إرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء.

هؤلاء المغرورون، إذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم، قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره من أمل في الغفران، أو تأويل إلى غير المراد، أو تحريف إلى ما يخالف القصد من الخطاب، وذلك بما في نفوسهم من ملكات السوء المغشاة بصور من العقائد، الملونة بما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه إيمانًا، وما هم في الحقيقة بمؤمنين، وإنما هم خادعون مخدوعون، ولكنهم لما عمى عليهم من أمر أنفسهم لا يشعرون، لأن ذلك يمر في أنفسهم وهم عنه غافلون.

وفرق ظاهر بين ما تستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عندما تسأل عنه، وما هو راسخ فيها من تلك المعلومات بصيرورته ملكة في النفس متصرفة في الإرادة باعثة لها على العمل. فمن العلوم، ما هو ثابت في النفس ممتزج بها، على النحو الذى ذكرنا، فيتبع امتزاجه هذا تمكن ملكات أخر تصدر عنها الأعمال وهي ما يعبر عنه بالأخلاق والصفات كالكرم والشجاعة ونحوهما، فإنها إنما تنطبع في النفس تبعا للعلم الذى يلائمها، وهو العلم الحقيقي الذى تصدر عنه الأعمال ربما يغفل الإنسان عنه ولا يلاحظه عندما يعمل. وفرق بين ملاحظة العلم واستحضاره، وبين وجوده وتحققه في نفسه.

ومن العلوم، ما يلاحظ الإنسان أنه عنده، فهو صورة عند النفس تستحضره عند المناسبة ويغيب عنها عند عدمها، لأنه لم يشربه القلب ولم يمتزج بالنفس فيصير صفة من صفاتها الراسخة التي لا تزايلها. وهذا النوع من العلم يتعلق بما تعلق به النوع الأول، كعلم الحلال والحرام الذى يحصله طلبة الفقه الإسلامى مثلا، وكعلم مزايا الفضيلة ورزايا الرذيلة الذى يحزنه طلاب علوم الآداب والأخلاق والنظار في كتب الأواخر والأوائل لتعزيز مادة العلم وتوسيع مجال القول وتوفير القدرة على حسن المنطق ونحو ذلك. فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل، يبقى في خزانة الخيال، تستحضره النفس عندما تدفعها الشهوة إلى تزيين ظاهر المقال، لا إلى تحسين باطن الحال. ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر في عمل من أعمال صاحبه. وتسميته علما لأنه يدخل في تعريفه العام «صورة من الشئ حاضرة عند النفس» وعند التدقيق لا ترتفع به منزلته إلى أن يندرج في معنى العلم الحقيقي.

فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوح وإدراك ما فيه، ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشئ آخر.

فهؤلاء - الذين يخدعون أنفسهم ويخادعون الله تعالى - عندهم علم حقيقي تنبعث عنه أعمالهم، وإن كان باطلا في نفسه، وهو تصديقهم بما في شهواتهم، من المصلحة لذواتهم، وهو الذى رجح عندهم اختيار ما فيه قضاؤها والانصباب إلى ما تدعو إليه، وهو ما أنساهم ما كانوا خزنوا في أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقي الذى يعتد به وجعله رسما مخزونا في الخيال، لا أثر له في الأفعال، يدعونه بألسنتهم، وتكذبهم في دعواهم أعمالهم وأحوالهم، ولذلك نسبهم إلى الدعوى القولية، ولم يقل فيهم ما قال في ذلك الفريق الأول:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة: ٣)

فإنه هناك ذكر إيمانهم وقفى عليه بذكر العمل يشهد له، ومن هنا يعلم ما الإيمان الذى يعتد به القرآن، وهو يظهر لمن يقرأ القرآن

ليحاسب به نفسه، ويزن إيمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تاريخية مات من يحكى عنها، واستثنى القارئ نفسه ممن حكم عليهم فيها.

فإن كان مات من كانوا سبب النزول، فالقرآن حي لا يموت، ينطبق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان. فكل مؤمن بالله واليوم الآخر، ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته، ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته، فاعتقاده إنما هو خيال، لا يعلو عن لفظ في مقال، ودعوى عند جدال. فإذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه، مخادع لربه، يظن أن علام الغيوب لا ينظر إلى ما في القلوب.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب. والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تألقها وإدراكها. والشك والوهم من أعراض هذا المرض. فهو ظلمة تعرض للعقل، فتقف بشعاعه أن ينفذ إلى ما وراء التكاليف والأحكام من الأسرار والحكم. وهذا النفوذ هو الفقه في الدين الذي يسوق النفس إلى الأخذ به ظاهرا وباطنا، وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا بقوله:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب في مثل هذا المقام، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذي هو السائق إلى الأعمال. يظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح، فإنك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته. فصورة الاعتقاد، إذا تناولها العقل من طريق التقليد والتسليم، فجعلها في زاوية من زوايا الدماغ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير في الوجدان. واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ولا يصدر عنه هذا التأثير، لا يعتد الله تعالى به، ولا يستفيد الإنسان منه كما تقدم آنفا. فمن لم يطرق الإيمان قلبه بقوة البرهان، ولم يحل مذاقه منه في الوجدان، بحيث يكون هو المصرف له في أعماله، لا ينفعه إيمانه، إلا إذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وإخلاص، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح، فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين في الانتفاع بإيمانهم. وهذا الفريق الذي تحكي عنه الآيات، وتصفه بالكذب والخداع، قد فقد الأمرين معا، ولا صحة للقلب إلا بهما، فمن فقدهما مرض ولا يلبث مرضه أن يقتله.

ولضعف العقل أسباب، منها ما هو فطري، كما هو حال أهل البله والعته، وهو الذي لا يكلف صاحبه ولا يلام، ومنها ما يكون من فساد التربية العقلية، كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيئات، وما يكونون عليه من التقاليد والعادات، ولا يعتنون بما أمر الله من تمزيق هذه الحجب، وإزالة هذه السحب، للوقوف على ما وراءه من مخدرات العرفان، ونجوم الفرقان، وشموس الإيمان. بل

يكتفون بما حكى الله عنهم في قوله:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣)

حتى يجئ اليوم الذي يقولون فيه:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾

(الأحزاب: ٦٧)

كان في قلوبهم المرض قبل مجئ النذير وبيان الرشد من الغي، عندما كانوا في فترة، حظهم من الكتب قراءة ألفاظها ومن الأعمال إقامة صورها

﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾

بعدما جاءهم البرهان المنير ببعثة البشير النذير، ووجدوا منه زعزعة في أنفسهم، ولكن أخذتهم العزة بالإثم فأبوا الإيمان، ونبوا عن القرآن، وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه، فكان شعاع النور الذي جاء به الرسول عمى في أعينهم ومرضا على مرضهم.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أي عذاب مؤلم فوق هذه الأمراض. وأليم صيغة فعيل من ألم يألم فهو أليم وصف به العذاب نفسه.

﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر، فإنهم لم يصدقوا بأعمالهم، ما يزعمونه من حالهم.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي يكذبون بالتخفيف أي بسبب تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم والحكم في القراءتين، وإثبات جمعهم للرذيلتين، أي الكذب في دعوى الإيمان، وتكذيب النبي عليه الصلاة والسلام. والثانية سبب الأولى. وهم إنما كانوا يكذبونه في أنفسهم، وفيما بينهم إذا خلوا إلى شياطينهم. والعذاب عقوبة عليهما معا، أي على التكذيب وهو الكفر، وعلى الكذب في دعوى الإيمان وهو النفاق. وهؤلاء في باطنهم شر من الذين كفروا عنادا من رؤساء قريش، فإنهم لم يكونوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم، وإنما كانوا يجحدون جحود استكبار. قال تعالى:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

(الأنعام: ٣٣)

والقراءة الأولى هي المشهورة والعذاب فيها مقرون بالكذب لا بالتكذيب. وقد يقال: لم جعل العذاب جزاء الكذب دون الكفر؟ والجواب أن الكفر داخل في هذا الكذب. وإنما اختير لفظ الكذب في التعبير للتحذير عنه، وبيان فظاعته وعظم جرمه، ولبيان أن الكفر من مشتملاته، وينتهي إليه في غاياته، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير، وتوعد عليه أسوأ الوعيد. وما فشا الكذب في قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة، لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياة والمروءة، ومن كان كذلك لا يترك قبيحا إلا بالعجز عنه، نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه.

أقسام السنة النبوية عند الإمام محمود شلتوت



١ (١٣١٠-١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣-١٩٦٣م)

التعريف به:

- ولد بمنية بني منصور، مركز إيتاي البارود، محافظة البحيرة بدلتا النيل بمصر.
- تخرج في الجامع الأزهر الشريف، وحصل على العالمية سنة (١٣٣٦ هـ - ١٩١٨م).
- وعُين مدرساً بمعهد الإسكندرية الديني، التابع للجامع الأزهر، سنة (١٣٣٧ هـ - ١٩١٩م).
- وشارك في ثورة مصر الكبرى ضد الاحتلال الإنجليزي سنة (١٣٣٧ هـ - ١٩١٩م)
- وانخرط مع تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، وفي مقدمتهم الشيوخ: محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٥ م)، ومصطفى عبدالرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م)، وعبدالمجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤ هـ / ١٨٨٢ - ١٩٥٤م).. في العمل على تطوير الأزهر وتجديد مناهج التعليم والتدريس فيه.. وبسبب ذلك، فُصل الشيخ شلتوت من الأزهر سنة (١٣٥٠ هـ / ١٩٣١م).. فعمل بالمحاماة الشرعية.. ثم أعيد للأزهر مع انتصار التيار الإصلاحي، وعودة المراغي إلى المشيخة ثانية سنة (١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥م).
- مثّل الأزهر في المؤتمر الثاني «للقانون الدولي المقارن»، بلاهاي، سنة (١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م).. وقدم إليه بحثه عن (المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية).
- نال عضوية (هيئة كبار العلماء) سنة (١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م).. وكان أصغر أعضائها سناً.. وتقدم إليها ببرنامج لتنقية كتب التراث الإسلامي من الإسرائيليات، وآخر لدفع الشبهات عن الإسلام.
- عُين عضواً بلجنة الفتوى في الأزهر الشريف.
- نال عضوية «مجمع اللغة العربية» سنة (١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م)، ضمن عشرة من كبار العلماء والفقهاء والفلاسفة والقانونيين.
- انتدبته جامعة فؤاد الأول، القاهرة، لتدريس مادة «فقه القرآن والسنة» لطلاب «دبلوم» الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق.
- عمل مستشاراً «للمؤتمر الإسلامي»، بمصر، سنة (١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م).
- تولى وكالة مشيخة الجامع الأزهر.. ثم أصبح شيخاً له سنة (١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨م).. وصدر في عهده قانون تطوير الأزهر سنة (١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م).
- شارك بنشاط في «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية».. وفي تحرير مجلتها «رسالة الإسلام».
- استقال من مشيخة الأزهر، احتجاجاً على تقليص سلطاته، سنة (١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م).
- وبعد استقالته بأشهر قليلة - خمسة أشهر - صعدت روحه إلى بارئها في (٢٧ رجب ١٣٨٣ هـ)، (١٣ ديسمبر ١٩٦٣م).

ومن آثاره الفكرية:

١ - الإسلام عقيدة وشريعة.
٢ - من توجيهات الإسلام.
٣ - الفتاوى.
٤ - فقه القرآن والسنة.
٥ - مقارنة المذاهب.
٦ - منهج القرآن في بناء المجتمع.
٧ - المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية.
٨ - القرآن والقتال.
٩ - القرآن والمرأة.
١٠ - تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام.
١١ - الإسلام والوجود الدولي للمسلمين.
١٢ - تنظيم النسل.
١٣ - رسالة الأزهر.
١٤ - إلى القرآن الكريم.
١٥ - يسألونك.

- أما تقسيمه للسنة النبوية - التشريعية وغير التشريعية - فلقد عرض له في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة».[1]

تنبيه

في حديث الشيخ شلتوت عن السنة النبوية.. وأنواعها، وأقسامها، أشار إلى

(١) د. محمد عمارة (من أعلام الإحياء الإسلامي) (ص ١٥٩ - ٢٢٠)، طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة - سنة ٢٠٠٦م

عدد من المصادر فى علم أصول الدين.. يحسن تعريف القارئ بها.. ومنها:

١- (مسلم الثبوت)، فى أصول الفقه، للبهارى، محب الله بن عبدالشكور البهارى (١١١٩ هـ).

٢- (شرح مسلم الثبوت)، أى (فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت)، فى أصول الفقه، لبحر العلوم، أبوالعباس عبدالعلى محمد بن نظام الدين محمد اللكنوى الأنصارى.

٣- (التحرير)، فى أصول الفقه، لابن الهمام الحنفى، كمال الدين محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد بن مسعود (٧٩٠ - ٨٦١ هـ).

٤- (فتح القدير للعاجز الفقير)، لابن الهمام.

٥- (مقدمة ابن الصلاح - أو علوم الحديث) لابن الصلاح، تقى الدين أبو عمر عثمان بن عبدالرحمن بن موسى بن أبى نصر النصرى الشهرزورى الدمشقى، الشافعى (٥٧٧ - ٦٤٣ هـ).

٦- (نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر) لابن حجر العسقلانى، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد الكنانى العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢هـ).

٧- (شرح المقاصد - شرح مقاصد الطالبين فى علم أصول الدين)، لسعد الدين التفتازانى، مسعود بن عمر بن عبدالله الهروى الشافعى (٧٢٢ - ٧٩٣ هـ)

٨- (كنز الوصول إلى معرفة الأصول)- المعروف (بأصول البزدوى) لفخر الإسلام البزدوى، على بن محمد بن الحسين بن عبدالكريم بن موسى (٤٨٢ هـ).

٩- (الإحكام فى أصول الأحكام) لابن حزم الأندلسى، أبومحمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ).

١٠- (إعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن قيم الجوزية، محمد بن أبى بكر ابن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى (٦٩١ - ٧٥١ هـ).

١١- (إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان) لابن القيم.

١٢- (زاد المعاد فى هدى العباد) لابن القيم.

١٣- (سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع الأدلة والأحكام)، للصنعانى، محمد بن إسماعيل الأمير بن صلاح الكحلانى ثم الصنعانى (١٠٥٩ - ١١٤٢ هـ).

١٤- (شرح الزيلعى)، وهو كتاب (تبيين الحقائق على كنز الدقائق)، وهو شرح الزيلعى، فخر الدين أبومحمد فخر الدين عثمان بن على بن محجن البارعى الزيلعى الحنفى (٧٤٣ هـ)، شرحه على (كنز الدقائق) للنسفى، فى فقه الحنفى.

١٥- (الفروق)، وهو كتاب (أنوار البروق فى أنواء الفروق)، للقرافى، المالكى (٦٨٤ هـ).

السنة(٢)

السنة فى الوضع اللغوى:

● السنة كلمة قديمة معرفة فى اللغة العربية بمعنى الطريقة المعتادة، حسنة كانت أم سيئة، ومنها قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(٣).. وقد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة، بمعنى العادة المستمرة، والطريقة المتبعة، فقال تعالى:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ «آل عمران: ١٣٧»

وقال عز وجل:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ «الإسراء: ٧٧»

وقال سبحانه:

﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ «الأنفال: ٣٨»

وقوله عز وجل:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ «الأحزاب: ٦٢»

فى صدر الإسلام ولسان الشرع:

● وقد اقتبسها علماء الإسلام من القرآن واللغة، واستعملوها فى معنى أخص من المعنى اللغوى، وهى بحسب استعمالهم: الطريقة المعتادة فى العمل بالدين، أو بعبارة أخرى فى الصورة العملية التى بها طبق النبى وأصحابه أوامر القرآن، على حسب ما تبين لهم من دلالة القرآن ومقاصده.

ويقرب منها فى المعنى كلمات (السبيل، الصراط، الطريقة، الطريق المستقيم)،

قال تعالى:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ «النساء: ١١٥»

وقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ «يونس: ٢٥»

وقال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ «الأحزاب: ٢١»

وقال عز وجل:

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ «الجن: ١٦»

(٢) (الإسلام عقيدة وشريعة) (ص ٤٧ – ٦٥، ٤٩٠ – ٤٩٩، ٥٠٠ – ٥٠٥) طبعة دار الشروق – القاهرة سنة (١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م)

(٣) روى – مع تفاوت فى بعض الألفاظ – فى مسلم والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد

وقال سبحانه:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

«الأحقاف: ٣٠»

وقال سبحانه:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

«الأنعام ١٥٣»

وبهذا المعنى عرفت كلمة السنة في صدر الإسلام، ووقد وردت مقترنة بالكتاب في وصايا الرسول في قوله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله» [4]

والسنة المقرونة بالكتاب، والتي يكون التمسك بها كالتمسك بالكتاب في الوقاية من الضلال، ليست إلا الطريقة العملية المضطردة التي نقلت عن الرسول نقلاً متواتراً عملياً معروفاً عند الكافة، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ما ورد من أحاديث رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى» [5]، وقوله ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»، فإن سبيلها في هذين هو سبيلهما في الوصية السابقة، ومنه أيضاً قولة ﷺ في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» [6]، أي اسلكوا في معاملتهم الطريقة التي اتبعت مع أهل الكتاب، وهذا في الجزية خاصة.

ويقابل (سنة) على هذا الاصطلاح كلمة (بدعة) التي فسرها النبي ﷺ بقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [7]، ويقرب منها في هذا المعنى كلمة (سبيل) الواردة في عبارتي (سبيل المفسدين، وسبيل المجرمين) الواردتين في قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

«الأنعام: ٥٥»

وقوله عز وجل:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

«الأعراف: ١٤٢»

والخلاصة: أن كلمة (سنة) عربية الأصل، وجاءت في القرآن، واقتبسها المسلمون للطريقة التي كان عليها الرسول وأصحابه، وشاع ذلك في الصدر الأول، كما شاعت كلمة (بدعة) في سلوك طريق آخر غير طريقهم.

في اصطلاح علماء الأصول:

● ثم أخذت الكلمة عند علماء الأصول معنى آخر، وهو: ما روى عن النبي ﷺ من أقوال، أو أفعال، أو تقريرات.

وكانت بهذا المعنى المصدر الثاني من المصادر التشريعية، يستنبطون منها كما يستنبطون من المصدر الأول وهو القرآن، ويرجعون إليها في فهم المراد منه، ومن ذلك قول العلماء: «أصول الشرع: الكتاب والسنة».

ونظراً إلى ما لها من هذه المكانة، أفردها العلماء ببحوث خاصة ومسائل متنوعة، تتعلق بحجيتها وأقسامها، من جهة القبول والرد، والصحة والضعف، ومن جهة ما يثبت بها من الأحكام وما لا يثبت، ومن جهة مركزها من الكتاب، وتأثيرها فيه وعدم تأثيرها، إلى آخر بحوثهم.

زعم بعض الناس أن كلمة سنة دخيلة في اللغة العربية:

● هذا وقد زعم بعض الباحثين أن كلمة (سنة) مأخوذة من كلمة (مشناه) العبرية، التي كان يطلقها اليهود على مجموعة الروايات الإسرائيلية، ويعتبرونها شرحاً للتوراة، ومرجعاً لهم في تعرف أحكامها، وأن المسلمين عربوها بكلمة (سنة)، وأطلقوها هم أيضاً على مجموعة الروايات المحمدية، واعتمدوها مصدراً لأحكام دينهم، كما فعل اليهود، ولعلك تعلم مما تقدم فساد هذا الزعم، فإن المسلمين الأوائل لم يستعملوا الكلمة في مجموعة هذه الروايات، وإنما استعملوها كما استعملها القرآن، وكما استعملها النبي صلى الله عليه وسلم في المعنى الذي بينا آنفاً، وهو: الطريقة العملية التي كان يطبق بها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما يفهمونه من القرآن بوجوه دلالاته المختلفة، وتحرى مقاصده التشريعية. وأن إطلاقها على مجموعة الأقوال المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا بعد تمام المائة الأولى من تاريخ الإسلام، حيث قصدت الأحاديث والروايات بالجمع والتدوين.

على أن ما أطلقت عليه روايات عن الرسول نفسه صاحب الشرع، لا عن العلماء الذين تناولوا المصدر الأول بالتفسير والبيان على نحو ما حصل في المسمى بكلمة (مشناه) بالنسبة للتوراة. ومع هذا الفارق الكبير فالسنة لم تحل عند المسلمين محل المصدر الأول وهو القرآن المحفوظ بنصه المتواتر في نقله، بل كانت في المرتبة الثانية، لا يفزع إليها إلا حيث لم يوجد في الكتاب نص واضح في الحكم المطلوب، وعندئذ كانوا يتلمسون الأحاديث إما لمعرفة الحكم، أو لمعرفة دلالة القرآن، فلم تكن عندهم بمثابة الروايات الإسرائيلية التي حلت على اليهود محل التوراة، وصارت مرجعاً لهم في تعرف أحكامها.

على أن هناك ما يقطع في المسألة من جهة أخرى، وهو أن الكلمة عرفت عند العرب قديماً، واستعملها القرآن مضافة إلى الله وإلى الرسل، ومضافة إلى الأمم، فلم يأخذها علماء الأصول عن كلمة (مشناه) العبرية، وإنما أخذوها من صميم لغتهم وصريح كتابهم.

نعم رأوا أن مجموعة ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال، وأفعال، وتقرير، هو الطريق الوحيد لتصوير الطريقة العملية التي درج عليها الرسول وأصحابه، فأطلقوا كلمة (سنة) على هذه المجموعة، وجعلوها في المرتبة الثانية من المصادر التشريعية، فكيف يصح أنهم اقتبسوها من العبرية؟ وكيف يصح أن يقال إن صنيعهم كصنيعهم؟

«يتبع»

[4] روى – مع تفاوت بعض الألفاظ في الدارمي وأبوداود والموطأ والإمام أحمد.

[5] رواه أبوداود والدارمي والترمذي وابن ماجة والإمام أحمد.

[6] رواه مالك في الموطأ.

[7] روى – مع تفاوت في بعض الألفاظ – في البخاري ومسلم وأبوداود وابن ماجة والإمام أحمد.





للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

الوضع التعليلي للمسألة واختلاف المذاهب فيه

المذاهب الكونية أو الطبيعية:

١ - الطبيعة العادية:

يرى فريق من العلماء أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية كان هو النظر في مشاهد الطبيعة، ولاسيما الأفلاك والعناصر.

ذلك أن التأمل في هذا المجال غير المتناهي يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غلابة، قوة مستقلة عن إرادة البشر، يخضع الجميع لتأثيرها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها، فيجتمع له من ذلك شعور مؤلف من دهشة وإعجاب، يرى به الكون أشبه شيء بالمعجزة، «وفي الحق لهو أكبر المعجزات، فإنه لا شيء أقل طبيعية من الطبيعة نفسها».

أشهر مقرري هذه النظرية هو العالم الألماني ماكس ميلر Max Muller في كتابه عن الأساطير المقارنة Comparative Mythology وهو لا يبنيها على هذا الاعتبار النفسي وحده، بل يستند فيها إلى وثائق لغوية، استمدها من دراسته المقارنة للأساطير والتماثيل القديمة، وعلى الأخص من دراسة الفيدا les vedas «كتب الديانة البراهمية»، حيث وجد أن أسماء الآلهة فيها هي في الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية العظيمة، كالسماء والنار ونحوها، وأن هذه الأسماء بعينها تتشابه حروفها في سائر اللغات المسماة «بالهندية الأوروبية»، فخلص من ذلك إلى أنه، قبل تشعب الشعوب الإنسانية وخروجها من

موطنها الأول، كانت هناك لغة واحدة، تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى، فتكون إذا هي الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات.

غير أنه لما كانت الديانة بمعناها الحقيقي لا توجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات حية عاقلة، فعالة، يتوجه إليها بالعبادة، لزم السؤال عن سبب هذا التطور الفكري: من النظر في مشاهد الطبيعة، إلى التفكير في تلك الكائنات الروحية.

يجيب ماكس ميلر بأن هذه من أثر اللغات نفسها، لأنها في العادة تنسب لكل ظاهرة فعلاً يشبه أفعال الإنسان، فنحن نقول إن النهر «يجري»، والشمس «تطلع» والهواء «يئن أو يزمجر»، والنار «تشهق أو تزفر» إلى غير ذلك: فهذه التعبيرات التي كانت في أصلها تعبيرات مجازية تشبيهية، طال بها الأمد حتى أخذت على حقيقتها؛ فصارت هذه العناصر نفسها تأخذ في الأذهان صورة الكائنات الحية المفكرة، ومن هنا نشأت عادة تمثيل الأفلاك والعناصر في رموز مجسمة على صورة الحيوان أو الإنسان، ولعب الخيال في ذلك دوراً هاماً: فكان تارة يرمز إلى الأشياء المتعددة التي يجمعها اسم مشترك باعتبارها حقيقة واحدة تتحول من نوع إلى نوع، وهكذا.

هل نحن بحاجة إلى تذكير القارئ بأن هذه المحاولة التي قد تنجح في تعليل الأساطير والمثل، لا تصلح تفسيراً للأديان؟



ماكس ميلر

لقد اعترف ميلر بأن العقلية التي تتصور العناصر بصورة الحيوان المفكر عقلية مريضة، أوقعها الوهم والخيال في حبائله حتى وصل بها إلى درجة الخبل والهذيان.

ونزيد نحن أنها في الوقت نفسه ليست عقلية دينية، كما يعلم مما أسلفناه في تحديد معنى الدين، وأنه اعتقاد في «روح» مستقلة تسيطر على الطبيعة لا في «نفس» محصورة في الطبيعة، مسايرة لها.

فالصواب في تفسير هذا النقلة الفكرية، من المادة إلى الروح، أنه انتقال من الكائن إلى المكون، وهو انتقال معنوي طبيعي من غير حاجة إلى توسط اللغات فكما أن الناظر في جمال أثر فني لا يقدر أن يمنع نفسه من التفكير في ذوق الفنان؛ والناظر في دقة الآلة المركبة ينتقل فكره توا إلى مهارة المهندس، كذلك التأمل في عظمة البدائع الكونية ينساق بطبيعته إلى التفكر في عظمة القوة العاقلة التي تدبرها وإذا كانت تلك النظرة الأسطورية (التي تستنطق الجماد وتعتقد أن في جوفه روحا عاقلة) ليست عقلية ولا دينية، فهذه النظرة الاستنتاجية، على عكس ذلك، دينية منطقية معاً. ذلك أن العقل الإنساني لا يكاد يتصور أن جمادات لا روح فيها ولا شعور يمكن أن تتحرك بنفسها وتنتقل في

أوضاع منظمة، بين أجرام أخرى متحركة بحركات منظمة مباينة لها على أبعاد محددة، وبطريقة مؤدية إلى غايات معقولة، من غير أن تكون مدفوعة مباشرة أو من طريق غير مباشر، بشيء ذي إرادة وشعور، يحركها وينقلها في تلك الأوضاع، على حساب ثابت دقيق.

قدر في ذهنك بيتاً متسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائماً على جبل مرتفع، تكتنفه غابة كثيفة.. وقدر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت، فلم يجد فيه ولا حوله دياراً ولا نافخ نار.. فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع، بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً، وتركبت أبواباً وسرراً، ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره، قد تحولت بنفسها أنسجة مُوشاة، ثم تقطعت طنافس، ووثائر، وزرابي، فانبثت في حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوي إليه بنفسها من كل مكان فتثبت في سقفه زرافات ووحداناً.. ألست تحكم بأن هذه حلم نائم، أو حديث خرافة، قد أصيب صاحبه باختلاط في عقله؟ فما ظنك بقصر.. السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه؟

أيكون في حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت الصغير؟ أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى باريء مصور، حي قيوم، خلق فسوى، وقدر فهدى؟

وإذا كان الإعجاب بالأثر الفني البارع، يحمل الإنسان بفطرته على التساؤل عن الفنان الذي أبدعه، ويحفزه إلى التوجه بفكرته إليه، سواء أعرف شخصه أم لم يعرفه، ليعبر له عن هذا الشعور والتقدير، أليس الإعجاب ببدائع الملكوت أحق بأن يتحول إلى مناجاة مُبدعه، والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق، والتقديس البليغ؟ وهل العبادة في جوهرها ولبها إلا ذلك؟

ألا وإنك لو أخذت تحلل هذه المناجاة الخاضعة، لوجدتها تنطوي بالضرورة على عنصرين جوهريين: فهي تفترض «أولاً» أن الشيء الذي تتوجه إليه أهل لأن يستقبل حديث من يناجيه، وتفترض «ثانياً» أنه أسمى مقاماً وأكمل صفة من الإنسان، لأنه يستطيع ما لا يستطيع الإنسان، فلا يمكن والحالة هذه أن يكون مادة صماء عمياء، لا تحسك ولا تراك، ولا تسمع نجواك، وإلا لكان المعبود محروماً من مزايا الحياة والعقل والشعور التي يتمتع بها عابده، وهو قول متناقض يهدم نفسه.

هكذا تتولد العقيدة الإلهية، والحركة العبادية، من تزاوج مبدأين نفسيين أحدهما غريزة عقلية وهي غريزة التطلع لفهم الطبيعة، والثاني حاسة وجدانية، وهي حاسة التذوق الفني لما في الطبيعة من جمال وجلال.

وإن مما يؤيد القول بأن فكرة التأليه وليدة هذه النظرة في الطبيعة، أن الارتباط بين هذا الإحساس الكوني، وهذا الإحساس الديني، تثبته التجارب النفسية المتكررة في كل الأمم وفي كل العصور.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

(تبارك: ١-٤)

ولذلك لا يزال هذا التفسير من أصح التفاسير وأقواها، على الرغم مما وجه إليه من اعتراضات.

الاعتراضات على هذه النظرية:

استبعد بعض الناقدين أن يكون النظر في صحيفة الكون سبباً في إيقاظ هذا الشعور الديني العميق، فقال: إن استمرارها على نسق واحد يجعلها أمراً مألوفاً، لا يلفت النظر، ولا يحتاج إلى تعليل. وعلى فرض أنها تبعث الدهشة والخشوع في نفوس المفكرين، فليس لها هذا الأثر في تلك العقول الساذجة (٧) التي تزعم أنها قادرة على تغيير قوانين الطبيعة، وأنها تستطيع - بوسائل خاصة - أن تستثير الرياح، وتستنزل الأمطار، الخ ويضيف هذا الناقد أن العقيدة الدينية نفسها تقرر هذا المعنى في عقول أهلها، حيث تعلمهم أن «قوة الإيمان تزحزح الجبال»، وهكذا تكون العقيدة مستمدة من روح العظمة والقدرة في مواجهة الطبيعة، لا من روح الضعف والخضوع أمامها (٨). قال: ولو كان باعث العقيدة هو الضعف أمام الطبيعة، والتماس الطريق لاجتلاب خيرها، واتقاء

---

(٧) هنا يحسن التنبيه إلى أن أكثر الباحثين يقررون الفرق بين العقول المستنيرة والجاهلة على عكس هذا الترتيب، ويرون أن هذا الشعور الرهيب الذي يدعو إلى تعليل الظواهر الكونية بقوى سرية عظيمة تحدثها، إنما يخالط العقول الفطرية التي لم تتمرس بالعلم الطبيعي وقوانينه، ولا شك أن تقرير الفرق على هذا النحو أقرب إلى الفهم من مقابله، ولكنه لا يقل عنه خطأ، إذ الواقع المشاهد هو أن العلم لا يضعف هذا الإحساس بل يزيده قوة، وناهيك بكلمتي الفيلسوفين: باسكال PASCAL وكانت KANT حيث يقول أولهما: «إن هذا الصمت الأبدي لتلك الفضاء اللانهائي ليقذف في قلبي روعة لنهاية» Le silence eternel des espaces infinis m effaie، ويقول الآخر: «شيئان يملآن قلبي إعجاباً وإكباراً يتجددان وينموان كلما أعملت فيهما تأملي: السماء المزدانة بالنجوم من فوقي، وقانون الأخلاق في ضميري».

Deux choses remplissent le coeur d une admiration et dune veneration toujours nouvelles eit ou - jours croissantes,a mesure que la reflection sy attache et sy applique: le ciel etoile au - dessus de moi, et la loimorale en moi

(٨) قد أخذ هذا المعنى بعض الكتاب العصريين وتوسع فيه، ولكنه ما لبث أن نقض آخر كلامه أوله. انظر كلام العقاد في كتابه عن نشأة العقيدة الإلهية «الله» ص١٠ و١١.

شرها، لكانت الديانات كلها ضرباً من الخرافة، لأنه ليس بالدعاء والصيام وتقديم القرابين ونحو ذلك يكون استدرار الأمطار، وإجراء الأنهار، واتقاء الحر والبرد، والجوع والعرى، والفقر والمرض وقد أثبتت التجربة فشل هذه الوسائل في غالب الأمر، ومن جهة أخرى لو كان مبعث العقيدة هو المشاهد الكونية، وهدف العبادة هو استرحام الطبيعة، لما استمر الإنسان على التدين، بعدما ظهر له أنه محاولة عابثة وإذ أن الديانات لم تنقطع يوماً ما، ولن تنقطع عن الجماعة الإنسانية، فلابد أن يكون لها منشأ وهدفاً آخرين. على أننا إذا استطعنا تفسير عبادة القوى الطبيعية العليا بشعور الانبهار أمام مظاهرها، فكيف نفسر عبادة الأحجار، والأشجار، والحشرات، وتافه الأشياء التي لا توحي مثل هذا الشعور؟ وأخيراً كيف نفسر بذلك ما في الأديان من الفصل التام بين الأمور المقدسة والأمور العادية؟

هذه هي خلاصة النقد الذي وجهه دور كايم[٩] إلى نظرية التدرج من الشعور الكوني إلى الشعور الديني.

الإجابة عنها:

إنه لا ينكر أحد أن الإلف والعادة يقلان من حدة الشعور، وأن استمرار المحسات على نسق واحد يضعف باعثة التفكير في مصدرها. ذلك ما لا شك فيه ولكن الظواهر الكونية مهما تتشابه أدوارها المتقابلة لا تفتأ كل حركة منها تعرض على حواسنا صوراً متبدلة، وألواناً طريفة: فتغير وجوه القمر، واختلاف مواقع النجوم، ومطالع الشمس،


دوركايم

ومناظر الفجر والشفق، واختلاف الليل والنهار، وتقلب الرياح والفصول والخصب والجدب، كل أولئك يحمل تنبيهاً جديداً لمن ألقى سمعه وبصره. على أنه ليس المدعى أن كل أحد لابد له أن يسأل نفسه عن منشأ هذه الظواهر ومغزاها؟ ولكن المدعى أن كل من ألقى هذا السؤال عن نفسه وتنبه إلى هذه الآثار رأى فيها آية عجيبة، وأحس أمامها بروعة وخشوع.

والقول بأن «البدائيين» قاصرون عن هذا الإدراك لأنهم يزعمون لأنفسهم القدرة على تسخير عناصر الطبيعة لأهوائهم قول مناقض للواقع إذا أخذ على عمومه في كل الأفراد والأحوال. فجمهور العامة أضعف من أن يظنوا ذلك بأنفسهم. والأفذاذ الذين يزاولون بعض وسائل السحر أو الكيمياء إذا ظفروا بتسخير شيء من القوى الدنيا لم يمنع ذلك خضوعهم واستسلامهم للقوانين العليا التي لا تمتد إليها يد مخلوق فالله يأتي بالشمس من المشرق فمن يأت بها من المغرب؟ وكل نفس ذائقة الموت، فهل

٩. Durkheim ouvr 112 - 121

يستطيع بشر أن يكتب لنفسه الخلود؟ وهل يتهيأ لأحد أن يفارق ظله، أو أن يسترجع ماضيه؟ أو أن يصنع ولده كما يشاء خلقاً وخُلقاً؟ بل أن يخلق حشرة أو ذبابة؟

ولقد أسلفنا أن فكرة السحر مباينة تماماً لفكرة التدين في طبيعتها وفي موضوعها فالشعور بالسلطان والقوة على تسخير الطبائع يمكن أن يكون شعوراً كيميائياً أو ساحراً، ولا يمكن أن يكون شعور عابد لها؛ لأن الإنسان لا يعبد شيئاً مسخراً له حين يسخره، ولا يسخر شيئاً يزعم أنه يعبده حين يعبده.

والقول المأثور: «إن قوة الإيمان تزحزح الجبال» لا يمكن أن يكون معناه أن الإيمان مبعثه القوة؛ فإن فرقاً شاسعاً بين أن يكون الإيمان باعثاً للقوة، وبين أن تكون القوة هي التي تبعثه والالتباس بين الأمرين قلب واضح للأوضاع؛ إذ يصور الآثار بصورة أسبابها، ويضع النتائج موضع مقدماتها وهكذا لا يلد التسرع والإكثار إلا أقوالاً ينقصها التحرى والدقة في التعبير.. ثم ما هذه القوة التي يبعثها الإيمان أليست هي قوة الثقة والطمأنينة التي تجئ تعويضاً وعلاجاً لما نشعر به بادىء ذي بدء من الضعف والحيرة الأصليين في طبيعة الإنسان، واللذين هما مبعث الإيمان؟ ثم من أين تستمد تلك القوة الجديدة المكتسبة من الإيمان؟ أليس منبعها الاعتماد على القوة الروحية العليا التي يلجأ إليها المؤمن؟ فهي إذن ليست قوته الذاتية البشرية. وأخيراً ليس لنا أن نخلط بين قوة الفهم والتأمل في الكون، وبين القدرة على تصريف الكون، فإن أقوى الناس فهماً، وأوسعهم علماً بحقائق الكون هم أشدهم إحساساً بضعف الإنسان وضآلته في جنب هذا الصرح العالمي، وبخضوعه وتبعيته للقوانين العليا التي لايد له في تغييرها وهذا الإحساس هو مبدأ الإيمان، ومبعث التأليه والعبادة.

وهنا نسأل عن مغزى هذه السلسلة المتلاحقة من الحركات النفسية التي تنتقل من النظر والتأمل.. إلى الاستعظام والإكبار.. إلى التوجه والمناجاة هل يجب أن يكون لها هدف وراء ذلك؟ ألست إذا وقفت أمام أثر فني بارع، فملأ صدرك، واستبد بإعجابك، تجد في نفسك باعثة قوية للتعبير لصاحب هذا الأثر عن شعور الإكبار لصنعته، والاعتراف بعظمته، كأن هذا دين في عنقك تؤديه، لا يبتغي منه جزاء، ولا تقضي به وطراً، غير الترجمة عن صدق شعورك وتقديرك لهذه الآية القيمة؟ فما ظنك بأعظم الآثار وأبهرها؟ ألا يستحثك على التوجه لصانعه بهذا التعظيم البليغ، تسبيحاً بحمده، وتقديساً لجلاله، بغير غرض ولا عوض؟ فإذا شعرت بأنك أنت نفسك جزء من هذا الأثر العظيم، وأنك مدين بوجودك وفهمك وقوتك لهذا الصانع، الذي خلقك وصورك، وشق سمعك وبصرك، ومنحك العقل والبيان، ومكنك من الانتفاع بما في السماء والأرض، ألست تقبل عليه بقلبك وجوارحك مقيداً بقيود إحسانه إليك، معترفاً بعبوديتك له؟ فهذه

كلها غايات نبيلة تؤديها الأديان، ولم تفشل فيها يوماً من الأيام. ومن ذا الذى قال إن الخشوع أمام روعة الكون، والاتجاه بالتعظيم لصانعه، وهو تلك الانبعاثة الكريمة التى تُعطى ولا تطلب، يمكن أن يفسر بذلك الشعور الضارع، شعور الالتجاء لتحقيق مطلب من مطالب الحياة، أو استدفاع ضرر من أضرارها؟!

لقد خلط الناقد هنا خلطاً واضحاً بين نظريتين منفصلتين: نظرية الإعجاب التى نحن بصددها، ونظرية الرغبة والرهبة التى سنعرضها فى الشعبة الثانية من المذاهب الطبيعية، فاعترض على إحداهما بالنتائج المترتبة على الأخرى.

على أنه فى الحالة التى يكون فيها الباعث على العبادة هو الشعور بتلك الحاجة، والتى يتحول فيها معنى العبادة من التسبيح والتقديس إلى التماس الحماية - نقول إنه حتى فى هذه الحالة - لا يجعل العابد من عبادته وسيلة يقينية للحصول على مآربه، كأنها عملية حسابية، أو قياس منطقى، أو تجربة مفروغ منها لابد أن تؤتى ثمرتها، لأن التدين ينطوى دائماً على اعتقاد أن القوة المتوجه إليها لا تصدر فى تصرفاتها إلا عن مشيئتها المستقلة ولذلك تلاحظ فى توجهاته شعوراً مزدوجاً، هو مزيج من الاستسلام والرضى بما يقع، ومن الأمل والرجاء فيما يتوقع. وإذا كان اللاعب المغامر لا يعد نفسه فاشلاً لمجرد تكرر خسارته، ولا ييأس من مؤاتاة الحظ له بالربح فى فرصة قريبة أو بعيدة، فالمؤمن أحق بتنحية عوامل اليأس من حسابه، وإرخاء حبل الأمل لنفسه إلى آماد بعيدة فى حياته أو بعد مماته، بل المؤمن الصادق حين يلتجئ إلى ربه، ويناجيه برغائبه ومخاوفه، يجد فى هذه التوسلات والدعوات نفسها شفاء وراحة هو عليهما أشد حرصاً منه على موضوع شكواه.

وحسبه أنه في هذه الانبعاثة يعبر تعبيراً واعياً صادقاً، بأقواله وأفعاله وأحواله، عن مبلغ إدراكه للحقائق، ومدى شعوره بالتفاوت بين ضعف المخلوق وقوة الخالق، وأنه بذلك الإدراك وهذا التعبير يحقق المهمة العليا للإنسان فى هذه الحياة فسواء عليه بعد ذلك أن تصادف دعوته قبولاً أو رداً فقد أصاب من قبل حاجته الكبرى بهذا الخضوع الذى هضم به كبرياء نفسه، ووضع به كل شيء فى موضعه، وبهذه العبودية التى أتم بها تصفية روحه وإنضاج فطرته، وتلك هى قرة عين المؤمنين، والهدف الأسمى للمتعبدين.

بقي الاعتراض بأنه لو كان منشأ الدين هو النظر إلى جمال الطبيعة وجلالها لكان يجب أن يوجه التقديس أول كل شيء إلى القوى الكونية العظمى: إلى الشمس، والقمر، والبحر، والجبال، والرياح، وأشباه ذلك؛ لا إلى محقرات الأمور من أنواع النبات والحيوان والمفروض أن عبادة هذه أقدم من تلك فيما يزعم المعترض.

لقد أشرنا من قبل إلى أن البحوث التاريخية والتنقيبات الأثرية فى هذه المسألة قد أدت إلى نتائج متعارضة، لا يمكن الركون إلى واحدة منها بصفة نهائية، وأن المرحلة التى ظن هذا المعترض أنها أقدم ما يمكن الوصول إليه قد جاوزها كثير من الباحثين، واكتشف وراءها ظاهرة أسبق من كلتيهما، تكون ذات صبغة دينية مختلفة عنهما، أصبح الاعتماد على التاريخ والآثار هنا اعتماداً على جُرف هار، عرضة للتغيير والتبديل دائماً، كلما ظهر اكتشاف جديد كما بينا أن حجج القائلين بأسبقية العقائد السليمة وأقدمية عبادة الخالق الأكبر، وإن كانت لا تصل إلى درجة اليقين العلمى الاستقرائى إلا إنها من الوجهة النظرية أقوى من مقابلتها.

فإن كنت لا تزال على ذكر مما سبق فى تحديد معنى الدين، فسوف تأخذ على صيغة الاعتراض شيئاً آخر وهو إسنادها العبادة إلى الطبيعيات نفسها إسناداً فيه كثير من التجوز، فقد قرر مؤرخو الأديان أن المادية والحسيات، علوية كانت أو سفلية، لم تكن يوماً ما هى المقصودة بالعبادة الحقيقية، وإنما كان تقديسها بطريق التبع والمجاورة: إما لأنها تعد مهبطاً ومزاراً لقوى خفية عُلوية، وإما لأنها تعتبر رمزاً لتلك القوى، أو تصويراً مُجسماً لصفاتها وأفعالها. والعجب أن صاحب النقد نفسه قرر هذا المعنى فى غير موضع من كتابه فوقوف العابد أمام هذه المواد هو أشبه شيء بوقوف العشاق على ديار الأحبة أو على أطلالها ورسومها، لا شغفاً بالمكان، ولكن شوقاً إلى السكان. وفى وسعنا أن نقول إن الالتفات إلى أنواع من المخلوقات الصغيرة، باعتبارها مظهراً أو رمزاً لهذه القوة العلوية، يتضمن الشعور بأثر تلك القوة فى الجلائل بالأحرى. بل المعقول أن الاعتبار بالدقائق لا يظهر إلا فى طور عقلى متأخر عن طور الالتفات إلى العظائم الكونية التى «يحس بها كل ذى عينين وهو على كل حال دليل على عمق فى التأمل، ودقة فى الفهم لما فى أجزاء الكون المختلفة من شأن عجيب وآيات باهرة وفى كل شيء له آية.

أما التفرقة بين «المقدس» و«غير المقدس» فإنها، فى هذه النظرية، ترجع إلى التفرقة بين «الإلهى» و«الإنسانى» أو بين العظيم الفائق العجيب، وبين العادى المبتذل المطروح، ذلك أنه ليس كل ما تقع عليه الحواس سواء فى استدعاء الانتباه، واستيقاف النظر، وإيحاء العبرة، واختلاب الألباب وليس كل الذى تراه أنت بارعاً باهراً أراه أنا كذلك. فقد تمر بزهرة أو حشرة، فترى فيها ما يستوقف نظرك، ويأسر قلبك؛ بينما غيرك لا يأبه لها، ولا يستوحى منها أدنى عظة روحية. وهكذا تنقسم الكائنات فى نظر الناس خاصتهم وعامتهم إلى ما هو عادى لا يؤبه له، وما هو جليل يذكر بالمعانى الإلهية، ويوحى فكرة «التقديس» أعنى أنه يبعث فى النفس أبلغ معانى الخضوع وأعمق آيات التعظيم لا لهذه الكائنات أنفسها، ولكن لبارئها ومصورها.

«يتبع»

حول حركة التجديد فى التشريع الإسلامى فى مصر



للمستشار: طارق البشرى

(١)

على مدى القرن التاسع عشر، تفاعلت عناصر ثلاثة، كان من شأن تفاعلها حدوث الاضطراب الشديد فى البناء التشريعى وهياكله وأنساقه، فى أقطار الدولة العثمانية عامة، وفى مصر على وجه الخصوص لم يكن واحد من هذه العناصر وحده هو مصدر الاضطراب، ولكن تضاربها معا هو ما شاعت به الفوضى الشاملة.

أول هذه العناصر، هو الوضع التشريعى الآخذ من الشريعة الإسلامية، وهو الوضع الذى انحدر إلينا من قرون الركود السابقة، حسبما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية والسياسية، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على وجه الخصوص. وليس المقصود بالجمود هنا الشريعة الإسلامية، بحسبانها الأصول المستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهى أصول استمد منها الفقه الإسلامى أسسا لبناء تشريعى وطيد الأركان، فى مراحل النهوض والصحوة فى المجتمعات الإسلامية، وقامت بها على أيدى المجتهدين العظام أنماط تشريعية بلغت شأوا بعيدا من الدقة فى الصياغات الفنية واتباع المناهج العلمية والعقلية الرصينة، سواء فى تحقيق المادة التشريعية كالأحاديث الشريفة، أو فى استنباط الأحكام وتميزت بقدر كبير من المرونة فى جلب المصالح ودفع المضار، وفى مراعاة ظروف المكان والزمان ولكن المقصود هو ما آل إليه هذا الجهد الاجتهادى من جمود، فى فترات الركود التالية.

وثانى هذه العناصر، هو ما أوجبته أوضاع الصحوة الاجتماعية والسياسية، التى ظهرت مع أوائل القرن التاسع عشر، من طروء الحاجة الماس لإصلاح الأوضاع والنظم وتجديدها، الأمر الذى يستوجب إصلاحا وتجديدا مناسبين فى الهياكل والنظم التشريعية وليس الإصلاح فى ذاته مدعاة للاضطراب، إنما كان أسلوب الإصلاح هو ما أفضى إلى ذلك، إذ اتخذت برامج النهوض، سواء على أيدى محمد على وخلفائه فى مصر، أو على أيدى محمود الثانى وخلفائه فى الدولة العثمانية، اتخذت طابعا ازدواجيا، تأتى من إبقاء القديم على ركوده، وإنشاء الحديث بجانبه، وعلى غير انبثاق منه، ولا تفاعل معه. نلحظ ذلك فى المؤسسات التعليمية والقضائية، ونظم الإدارة والقانون والاقتصاد وكان هذا مما انصدعت به البيئة الاجتماعية والفكرية إلى شطرين متميزين، لاتزال آثار انصداعها العميقة تعمل بيننا إلى الآن.

ومن ناحية النظام التشريعى والقضائى، بقى قاضى القضاة، أو قاضى مصر، أو قاضى الشرع فى عرف العامة، يعينه الباب العالى، ويستمد شرعية ولايته من تفويض الخليفة له، ويأذن هو لنوابه بالأقاليم بأداء الوظيفة القضائية.

وبقى التشريع مرتبطا بالمذهب الحنفى السائد فى الدولة العثمانية، ملتزما بأرجح الآراء فى المذهب. ويستقى القاضى أحكامه من كتب الفقه مباشرة، وما بها من مسائل وشروح وهوامش، دون أن تنظمها لائحة أو تقنين بالمعنى المصطلح عليه حديثا بقى كل ذلك على حاله، وانضاف إليه دواوين مستحدثة ومجالس ذات اختصاص قضائى ينشئها الوالى، مثل: قومسيون مصر ومجالس الأحكام ومجالس الأقاليم، تنشأ وتلغى وتعود وتتعدل اختصاصاتها على أيام: محمد على، ثم سعيد وإسماعيل. وبعضها - كالقومسيون - يشكل تشكيلا مختلطا من مصريين وبعض الأوروبيين والأروام والأرمن وهذه المجالس تطبق لوائح يصدرها الوالى، كقانون السياسة نامة (عام ١٨٣٩)، وقانون المنتخبات أو الفلاحة (عام ١٨٣٠) وغيرهما.

وبعض هذه اللوائح نفذ فى مصر بموجب صدوره فى أستانبول، كالقانون السلطانى (عام ١٨١٩)، وقانون التجارة (عام ١٨٤٠) وبقيت الملكية العقارية تحكمها الشريعة الإسلامية، وبعض هذه القوانين يميل أيضا إلى الشريعة الإسلامية فيما لم

يرد فيه نص، وبعضها يميل في هذا الشأن إلى القانون الفرنسي كقانون التجارة وبعضها يميل إلى العرف الموجود.

ولهذا، صار النظام القضائي موزعا ومتداخلا بين قضاة الشرع وبين المجالس المستحدثة. وصار النظام القانوني مصريا عثمانيا شرعيا فرنسيا وكل ذلك يعمل.

وثالث هذه العناصر، هو الغزو الأوروبي: السياسي، والاقتصادي، ثم العسكري. ما من أمر ولا من معضل في تاريخنا الحديث، إلا ويبدو هذا العنصر ذا تأثير كبير فيه، ولو عن طريق رد الفعل وهنا نلحظ الاقتحام أول ما نلحظ، سواء بالإملاء والقسر، أو بفعل ضغوط السياسة والاقتصاد ثم نلحظ بعد ذلك ما فرضته مقاومة الغزو، وما أوجبه تفوق الغزاة في العلوم والفنون وأساليب التنظيم، ما أملاه ذلك كله من ضرورة التعلم عن الغزاة، وما ولد ذلك من مشكل يتعلق بضرورة الأخذ عنهم وضرورة مقاومتهم في الوقت نفسه.

وأوضح مثال لهذا العنصر في موضوعنا الماثل، هو نظام الامتيازات الأجنبية، أي خضوع الأجانب القاطنين في الديار المصرية لقضائهم القنصلي دون المحاكم والمجالس المصرية، وخضوعهم في مصر لتشريعات بلادهم دون القوانين المصرية.

وقد آل الوضع بهذه الامتيازات في مصر قبل سنة ١٨٧٥، إلى أن أقل من ثمانين ألف أجنبي تابعين لسبع عشرة دولة، كانوا يتبعون سبع عشرة محكمة (قنصلية)، ويخضعون لسبعة عشر نظاما قانونيا. والمصريون يتبعون ويخضعون لكل هذه المحاكم والقوانين عند تعاملهم مع الأجانب. وإذا أراد فلاح مصري مثلا أن يستأنف حكما صدر من القنصل الفرنسي ضده، جاز له ذلك أمام محكمة «السين» الابتدائية (في فرنسا)!


نوبار

تلك كانت العدالة الأوروبية التي رفضت في ترفع، وبازدراء، أن يحتكم مواطنوها «في مصر» إلى فقه أبي حنيفة والشافعي ولما كان الويل للمغلوب، فقد سعى المصريون طوال أحد عشر عاما لتحقيق أي نوع من النظام بأي ثمن ومن هنا، قبلوا ما فكر به نوبار وسعى إليه لاستبدال المحكمة المختلطة بالمحاكم والقنصليات المتعددة، وقبلوا ما أوجبته الدولة الأوروبية - صاحبة الامتيازات - من أن تشكل المحاكم المختلطة للأجانب، بحيث تكون الغلبة فيها لقضاتها، ولهم الرياسة في المحاكم والدوائر، ولهم النيابة العامة ورياسة النيابات، ويختارون بواسطة دولهم، ولا يعزلون إلا بموافقتها، واللغتان المستعملتان فعلا هما الفرنسية والإيطالية.

وقبل المصريون الشرط الذي فرضته عليهم الدول الأوروبية، وهو أن تطبق هذه المحاكم القوانين «المتمدينة»، فوضعت ستة تقنينات أخذت عن القوانين الفرنسية

تقنينات: المدني والتجاري والتجارة البحري والمرافعات والعقوبات وتحقيق الجنايات صاغ هذه القوانين محام فرنسي اسمه «مانوري»، كان سكرتيرا لنوبار ووكيلا لعدد كبير من الشركات الأجنبية في مصر. صاغها جميعا في ستة أشهر، وتضمنت ما يعرفه رجال القانون عنها من خطأ وشطط. ثم ترجمتها إلى العربية لجان شكلت لذلك. واشترط ألا يعدل قانون إلا بموافقة الدول صاحبة الامتيازات.

وتم ذلك كله في سنة ١٨٧٥. وعرفت هذه المحاكم قضاة فرنسيين وإيطاليين وإنجليز وبعض الألمان والنمساويين وغيرهم.

تلك كانت العناصر الثلاثة التي أدى تضاربها إلى ما شاع عبر القرن التاسع عشر من اضطراب وفوضى قضائية وتشريعية، وإن إدراك التفاصيل الكثيرة والتشابكات المعقدة بين هذه الأوضاع والأخلاط، من شأنه أن يجعلنا أعذر للمخطئ وأرفق بالمتسرع، عندما ننظر الآن في عمل أسلافنا من رجال الشريعة الإسلامية في القرن التاسع عشر، فنرى من عزف منهم عن الاجتهاد، ومن قاوم منهم التجديد، ومن ضلت به سبل الإصلاح وفي وسط هذا الركام الآخذ بعضه بنواصي بعض، من نظم القضاء والمحاكم والمجالس والقومسيونات، ومن اللوائح والأعراف والقوانين الأجنبية وفقه الشريعة، في وسط كل ذلك قد يكون الاجتهاد معضلا، حذر أن تنقطع دونه الأصول الآخذ عنها، وقد يكون التجديد مشكلا، خوف أن تتهاوى منه الأسس، ويكون الإصلاح مما تلتوي به السبيل.


رشيد رضا

(٢)

كان قيام المحاكم المختلطة مقدمة ورأس جسر، أقامته التشريعات الأوروبية (والفرنسية خاصة)، ووجهت منه - من بعد - أعنف الضربات للتشريع الإسلامي، وفقه الشريعة. ولم تمض خمس سنوات، حتى ظهر التفكير في إنشاء القضاء الأهلي في سنة ١٨٨٠ وأوقفت الثورة العرابية سير هذه الحركة وقتا ما، ثم عاودت المسير بعد هذا وشاهد عام ١٨٨٣ صدور لائحة المحاكم الأهلية في ٤ من يونية، ثم صدور القانون المدني في أكتوبر، والقانون التجاري وقانون التجارة البحري وقانون المرافعات وقانون تحقيق الجنايات في نوفمبر من السنة نفسها، أخذت جميعها من القوانين المختلطة، مع بعض التعديل الذي يلائم أوضاع البيئة المصرية. وساهم في وضعها محام إيطالي عمل قاضيا بالمحاكم المختلطة، اسمه موريوندو، واشترك معه بعض المصريين مثل محمد قدري وبطرس غالي. ووضعت بالفرنسية، ثم ترجمت إلى العربية وافتتحت المحاكم الأهلية لتعمل بها في أول إبريل سنة ١٨٨٤ بالوجه البحري، وفي سنة ١٨٨٩ بالوجه القبلي. وأسميت هذه

الحركة حركة الإصلاح القضائى. وقد عرضت هذه القوانين على مفتى الديار المصرية، فرفض المصادقة عليها.

ترتب على ذلك، أنه على الرغم من أن لائحة ترتيب المحاكم الشرعية، التى صدرت فى ١٧ من يونية سنة ١٨٨٠، حرصت فى المادة ٥٣ منها على تبيان أن هذه المحاكم هى صاحبة الولاية العامة، وتختص بالنظر والحكم فى جميع المواد الشرعية، على الرغم من ذلك فإن المحاكم الأهلية الجديدة قد زاحمت المحاكم الشرعية فى هذه الولاية بالنسبة لغالب المعاملات المدنية والتجارية، ولم يبق مجال تختص به المحاكم الشرعية دون غيرها، إلا الأحوال الشخصية (الزواج، النفقة.. إلخ)، ومسائل الأوقاف. وقد زالت الولاية العامة عن المحاكم الشرعية، واقتصرت على هذه المسائل فقط بعد سنين قليلة.

يطرد الحديث عن سبب إنشاء المحاكم الأهلية، بأن جمود الفقه الإسلامى، ومجافاة الفقهاء لدعوة التجديد، مع ما كانت أوضاع القضاء الشرعى بلغته من مساوئ، كل ذلك يشكل سبب العدول بالنظام القانونى القضائى، عن الشريعة إلى القوانين الوضعية الآخذة عن أوروبا. وإن إطلاق لفظ «الإصلاح القضائى» على هذه الانعطافة الكبيرة الحادة، هو أوضح دليل على شيوع هذا التفسير.

ويحكى السيد رشيد رضا عن على رفاعة، عن أبيه رفاعة رافع، أن علماء



حسونة النواوى — محمد قدرى باشا

الأزهر عارضوا وضع تقنين لأحكام الشريعة الإسلامية، يكون جامعا للأحكام، مرتب المسائل، يسهل الرجوع إليه، وأن معارضتهم هذه كانت سبب الاستعاضة عنها بقوانين نابليون على أن مثل هذا السبب لا يقوم به وحده هذا الانعطاف الكبير الحادث.

والحاصل، أن مصر فى تلك الآونة، كانت لاتزال على علاقة تشريعية وقضائية وثيقة بالدولة العثمانية، وأن الدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٦ كانت قد أتمت وضع «مجلة الأحكام العدلية»، تقنينا لأحكام الشريعة على المذهب الحنفى فى المعاملات، وطبقت «المجلة» فى سائر أقطار الدولة. وإذا لم تكن المجلة قد نفذت فى مصر، فقد كانت فكرة التقنين لأحكام الشريعة فكرة معترفا بها، أو بالأقل يستبعد من الوجهة الشرعية أن يقف ضدها علماء الأزهر هذه الوقفة العنيدة بدعوى مخالفتها للشرع.

ومن جهة ثانية، فإن محمد قدرى باشا ـ الذى شارك فى ترجمة القوانين المختلطة والقوانين الأهلية، وكان وزيرا للحقانية من

سبتمبر عام ١٨٨١ إلى فبراير عام ١٨٨٢، ووزيرا للمعارف من مايو عام ١٨٨٣ إلى يناير عام ١٨٨٤ ـ كان قد شرع فعلا فى وضع ثلاثة تقنينات أخذا من الشريعة الإسلامية، وهى «مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان» عن المعاملات المدنية، و«قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف»، و«الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية»، وتوفى فى ٢٠ من نوفمبر عام ١٨٨٦، وطبعت بعد وفاته، وبعد مراجعتها وإسناد ما لم يكن يسند إلى مراجعه بواسطة الشيخ حسونة النواوى، ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد العباسى المهدى، وذلك فى عام ١٨٩١. ولهذا، لم يكن الجهد التقنينى مستبعدا، ولا كان التفكير مغلقا من دونه فى فترة إعداد التقنينات الأهلية.

ومن جهة ثالثة، يمكننا أن نلمح سببا رئيسا للأخذ عن التشريعات الغربية فى القوانين الأهلية، دون الشريعة الإسلامية، من مطالعة مذكرة حسين فخرى باشا ناظر الحقانية، ومحضرى جلستى مجلس النظار فى ٢ من نوفمبر و٢١ من ديسمبر عام ١٨٨٢، حيث نوقشت القوانين الأهلية وأجيزت فقد ذكر فخرى باشا فى جلسة ٢ من نوفمبر قوله: «لى أمل بأنه مع اعتدال محاكمنا الأهلية التى تنشأ فى النظام الجديد، وقيامها بحق واجباتها، بموجب ذات القوانين المتبعة فى المحاكم المختلطة، يتيسر للحكومة الاستغناء عن هذه المحاكم



عمر لطفى — على مبارك

ببرهان عدم الحاجة إليها»، وأورد فى مذكرته المؤرخة ٧ من ديسمبر، ما يفيد أنه كان قد تراءى وضع قانون مدنى من الشريعة الإسلامية، وأحيل عمله إلى قدرى باشا، ولكنه لم يتم ثم وصل إلى السبب الذى يقصده، فقال: «هل يمكن تطبيق ذلك القانون على الأهالى بالنسبة لعاداتهم ومعاملاتهم الآن، سواء كان فيما بينهم أو مع الأوروبيين؟...» وفى صدد حديثه فى نهاية مذكرته عن استحسانه تعيين قضاة أجانب فى المحاكم الأهلية، عاد إلى ذكر هذا السبب الأخير، قائلا: «لإدخال الأجانب فى المحاكم الأهلية مزية أخرى، وهى أن المحاكم المختلطة هى محاكم استثنائية، وإيجادها ما كان إلا لعدم وجود محاكم أهلية يمكن طمأنة الأوروبيين بها، والاستحصال على ثقتهم بكفاءتها وحقانيتها فإن ترتيب المحاكم الأهلية بالصورة المقدم ذكرها طبعا ترتاح لها نفس الأوروبيين...».

وعلى وفق هذا التصور، فإن على مبارك وعمر لطفى وافقا فى جلسة ٢١ من ديسمبر على ما ورد بمذكرة ناظر الحقانية،

وعلى تعيين قضاة أجانب بالمحاكم الأهلية، والأخذ بالقوانين المختلطة، ولكنهما عارضا بوضوح تقييد اختصاص المحاكم الشرعية.

من هذا يبين أنه لم يكن رفض علماء الشريعة تقنين أحكامها، هو وحده سبب أخذ التشريعات الغربية. وكان قدرى باشا يقوم فعلا بهذه المهمة، وأتمها وحده بعد سنوات قليلة والظاهر أنه لو كانت جدية أصحاب القرار بدت في سرعة تقنينها، لأمكن إنجازها بمعونة آخرين في وقت أقل. إنما هناك سبب آخر يتعلق «بارتياح نفس الأوروبيين» مع الأمل في أن يكون إنشاء المحاكم الأهلية على الصورة الحادثة، ذريعة للإسراع بإلغاء المحاكم المختلطة مستقبلا، وهو أمل لم يتحقق بطبيعة الحال، فإن نفس الأوروبيين كانت ترتاح للامتيازات من حيث كونها كذلك، وليس فقط للمصدر التشريعي للقانون.

لم تمض سنوات قليلة على تلك الضربة التي وجهت لتطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، حتى بدأت عناصر المقاومة تتجمع، ودعاوى النهوض والصحوة تعلو ويصعب في هذا الحيز المحدود تتبع خيوط هذه المسألة بالتفصيل.. لكن يمكن إجمال الأمر بالوقوف عند التقرير الشهير الذي وضعه الشيخ محمد عبده في سنة ١٨٨٩، لبيان الملامح العامة لما شاع من مساوئ القضاء الشرعي، والملامح العامة لما دعا إليه نهوضا بهذا القضاء وبالتشريع الإسلامي عامة.

عين محمد عبده مفتيا للديار المصرية في



سليم البشرى — محمد عبده

يونية عام ١٨٩٩، وعهدت إليه الحكومة بالتفتيش على المحاكم الشرعية، ودراسة أحوالها، واقتراح ما يراه لازما لها من وجوه الإصلاح.. وانتهز فرصة إجازة الصيف، فطاف بمحاكم الوجه البحرى، وزار المحكمة الشرعية الكبرى، وقدم تقريره إلى ناظر الحقانية في ٥ من نوفمبر.

وطبع التقرير طبعة مستقلة. كما نشرته مجلة المنار في أعدادها المتتابعة منذ ٢٥ من نوفمبر عام ١٨٩٩ وجاء التقرير عملا متفحصا أعده أستاذ، ليس عالما في الشريعة فقط، ولكنه شغل وظائف القضاء الأهلي، قاضيا ومستشارا، أحد عشر عاما سابقة على تعيينه مفتيا. ومكنه ذلك من المقارنة وتقليب النظر.

وكان ما اقترحه التقرير من سبل التجديد في التشريع الإسلامي، هو ما سار التجديد التشريعي على دربه من بعد.

ومطالعة تقرير الأستاذ الإمام، تكشف عن أن الناس كانوا لايزالون في ذلك الوقت أشد وثوقا في المحاكم الشرعية منهم في غيرها، برغم مرور نحو خمس وعشرين سنة على المحاكم المختلطة، ونحو خمس عشرة سنة على المحاكم الأهلية.

وإن شكوى الناس من المحاكم الشرعية «تنحصر في صعوبة المعاملة مع الكتاب، وطول الزمن على القضايا، خصوصا إن كانت مهمة، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة، فضلا عن سائر العامة، وهوى القاضي أو ضعف يقظته».

أما شكوى القضاة، فهي «تنحصر في رداءة مقامهم «مقار المحاكم»، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التي لابد منها، والنظام يشكو من التساهل في المحافظة عليه....».

وعند حديثه عن القضاة، قال: «ليست المحاكم الشرعية وحدها هي التي ابتليت بضم الضعفاء وغير الأكفاء في جوانبها، فكثير من القضاة في المحاكم الأهلية لا يزيدون في معارفهم عمن كثر الكلام فيهم من قضاة المحاكم الشرعية، وما يتحدث به من الأحكام المخالفة للشريعة صادرا عن هذه المحاكم، يتحدث به مخالفا للقانون والعقل صادرا من محكمة أهلية أو مختلطة، وقد رأينا ذلك وشاهدناه....» ثم تحدث عن ضعف معارفهم، وما يقترحه علاجا لذلك.

والذي يمكن ملاحظته، من النظرة الأولى من مطالعة التقرير، أن ما كان يؤخذ من مساوئ على سير العمل في المحاكم الشرعية في ذلك الوقت البعيد، يؤخذ كثيره على سير العمل بمحاكمنا اليوم، من حيث رداءة المقار، وضعف كفاية الأجهزة المعاونة، وتطاول الزمن على قضايا، وخفاء طرق المرافعات، واضطراب الجوانب التطبيقية من الإجراءات، كالإعلانات والإخطارات وغيرها، مما يثير التساؤل عن مدى مسئولية التشريع الإسلامي، من حيث هو كذلك، في قيام هذه المساوئ، مما يثير الشك في صواب التدبير الذي قام في ذلك الوقت البعيد، على أساس أن «إصلاح القضاء» يكون بالخروج عن التشريع الإسلامي. وأن المقارنة بين ظروف العمل في تلك المحاكم، وظروفه في المحاكم الجديدة الأهلية والمختلطة، يكشف عن عدم التناسب بين السعة التي أقيمت للمحاكم الحديثة، في المقار والرواتب كفاية العاملين وحداثة أساليب تنظيم العمل، مع القلة النسبية في الدعاوى وقتها، مما مكن من هدوء الدراسة، وسرعة الإنجاز في ذات الوقت.

وإذا أمكن استبعاد مثل هذه المساوئ التي هي أدخل في الجوانب المالية والتنظيمية منها في التجديد الفكرى، فإن تقرير الشيخ الإمام يضع أيدينا على هذا الجانب الأخير. وهو يتبدى في عدد من النقاط، التي عاقت تقدم الاجتهاد في المحاكم الشرعية، وعاقت من ثم تقديم الحلول الأكثر مناسبة لمشكلات الواقع المعين وأول هذه النقاط وأولاها، وجوب التزام القاضي بالرأى الراجح في مذهب أبي حنيفة إذ انحصرت الأحكام الشرعية بذلك في إطار ضيق وبه ضاق اختيار

القضاة الأكفاء بحصر نطاق اختيارهم ضمن دارس مذهب واحد بعينه.

وثانية هذه النقط ما يعرف فى المصطلح القانونى «بأدلة الإثبات» والشهود.

وثالثتها صعوبة استخراج الأحكام الشرعية من بطون الشروح وكتب الفقه.

وأعد مشروع قانون للإصلاح من إحدى عشرة مادة من واقع التقرير، وأعلن الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١٩٠١ تأييده له ولكن تراخى الأخذ بفحوى هذه الإصلاحات، وأدخلت من بعد فى عامى ١٩٢٠ و١٩٢٩ ويبدو من تتبع المادة التاريخية لهذه الفترة، أن أهم سبب قامت به معارضة التجديد، أو تراخى به السعى العملى للتجديد، هذا السبب لا يعزى إلى ما اعتيد سماعه عن الجمود والتحجر وضيق النظر، وهو لا يعود إلى مجال الخلافات الفكرية من حيث كونها كذلك، إنما يرجع إلى مجال المواقف السياسية وإلى النظر الشرعى السياسى.

كانت العقدة أمام تجديد التشريع الإسلامى، فى خواتيم القرن الماضى وبدايات هذا القرن، تتعلق بالتزام القضاء الشرعى بمذهب واحد، وبأرجح الأقوال فيه، وهو مذهب «الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت» وعلى هذا، جرى الالتزام بفرمان أصدره الباب العالى وعلى هذا، أصبحت اللوائح التى صدرت فى القرن التاسع عشر، كلائحة فى ٢٦ من ديسمبر عام ١٨٥٦م، ولائحة ترتيب المحاكم الشرعية الصادرة فى عام ١٨٩٧م. وذلك اتباعا للمذهب السائد فى دار الخلافة.

وهنا ترد ملاحظتان: الأولى، أن المذهب الحنفى لا يتصف فى ذاته بالجمود، بل لعله فى منهاجه أكثر مذاهب السنة مرونة حسب بداياته التاريخية، وأبو حنيفة يسمى إمام أهل الرأى، ومذهبه هو مدرسة الرأى. ولعله أكثر تميزا بهذا الوصف من المذاهب السنية الأخرى، مالكية وشافعية وحنبلية. إنما كان المشكل ركود الاجتهاد فى القرون السابقة مما حصر أحكام المذهب فى إطار مجموعة الاجتهادات التى قامت فى القرون الأولى، على أيدى أئمة الحنفية، كأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن وزفر وغيرهم. فكان السعى للخروج عن هذا المذهب لا يعنى الابتعاد عن مذهب جامد فى ذاته، وإنما كان يعنى الإفساح للاختيار من المذاهب المختلفة، ما يلائم ظروف الواقع المعيش وتنويع الحلول بما يمكن من اختيار الحكم الأنسب ومع السعة يكون اليسر.

وثانية الملاحظتين، المذهب الحنفى لم يكن هو الأكثر شيوعا بين المصريين، لا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا قبلهما كان المذهب الشافعى هو الأكثر شيوعا، ويليه المالكى. وغالب التدريس فى الأزهر على هذين المذهبين، وبخاصة الشافعى وعلى مدى القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، أى منذ الشيخ الشرقاوى حتى الشيخ الجيزاوى، تولى مشيخة الأزهر سبعة عشر شيخا، منهم نحو أحد عشر شيخا من الشافعية «من عام ١٧٩٣ إلى عام ١٨٧٠، ثم من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٩٦، ثم بضع سنوات فى القرن العشرين»، واثنان من المالكية فى الربع الأول من القرن العشرين «وإن كان المالكية كثر توليهم المشيخة فى القرن الثامن عشر»، وأربعة من الحنفية، فكان الشيخ محمد العباس المهدى أول حنفى تولى المشيخة مطلقا من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٢، ثم الشيخ حسونة النواوى أربعة أعوام حتى عام ١٩٠٠، ثم الشيخ عبدالرحمن قطب، شهر واحد فى عام ١٩٠٠، ثم الشيخ على الببلاوى ثلاث سنين والدلالة المعنية فى هذه الملاحظة أن الخروج عن مذهب أبى حنيفة إلى غيره من مذاهب السنة لم يكن من شأنه أن يجرح أدنى شعور مذهبى، سواء لدى جمهور المصريين أو لدى الأزهريين، بله أن يجرح ذلك أدنى شعور دينى لأى من هؤلاء جميعا، إذ لا شبهة فى أن خلاف المذاهب لا يمس أصلا من الدين ولا معتقدا.

تتراءى نقطة أخيرة حول هذه المسألة - وهى أدخل فى باب الملاءمات الشرعية منها فى باب المسموح والمحظور - هى أن للإمام شرعا أن يخصص القضاء بالرأى، بمعنى أن له أن يلزم القاضى باتباع مذهب معين لا يحيد عنه فى نظره للقضايا.

وقد ألزم القاضى أن يحكم وفقا لمذهبه فى كل ما يعرض له من قضايا، وذلك حتى لا يكون ترخصه فى الاختيار المطلق بين آراء المذاهب فى كل قضية أو واقعة، لا يكون ذلك مدعاة للانحراف والحكم بالهوى، والبحث فى عموم أقوال المذاهب عما يخدم مصلحة معينة فى كل قضية خاصة فكان القاضى الشافعى ملزما بمذهبه، وهكذا.

ثم رئى فى فترات لاحقة إلزام القضاة جميعا بمذهب واحد، حتى لا تتضارب الأحكام باختلاف مذاهب القضاة، مما يعم به الاضطراب فى المعاملات وهذه النقطة مع وجاهتها من حيث ضبط التعاملات فى المجتمع كله، فإن أحدا من دعاة الخروج على المذهب الحنفى، لم يقل بإطلاق الاختيار للقاضى، يختار حيثما يستريح أو يهوى، ولا حبذ أحد من هؤلاء الافتيات على فكرة تخصيص القضاء بالرأى إنما طالبوا أن يكون الخروج عن المذهب الواحد عن طريق الإمام أو الوالى بقانون أو لائحة تصدر، تكون ملزمة للمحاكم جميعا، بما أوردت من أحكام وجد اختيارها مناسبا لأوضاع المجتمع.

فما سبب معارضة الخروج عن المذهب الحنفى إذن؟ وما وجه تراخى هذا الأمر؟

لا يظهر لذلك سبب من داخل إطار الفكر الشرعى، حتى يمكن عزوه إلى الجمود أو ضيق النظر. وعلينا تلمس الأسباب خارج هذا الإطار، فى الوعاء الفسيح للحقيقة التاريخية.

تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة



٣



للأستاذ الدكتور/ إبراهيم البيومي غانم

خلفية تاريخية عن فكرة تقنين أحكام الشريعة

ظهرت الحاجة إلى تقنين أحكام الشريعة في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي يرجع إلى عهد الدولة الأموية.. وتحكي كتب التاريخ أن الخليفة الوليد بن عبدالملك أراد أن يحمل القضاة على قول واحد، ولكن محاولته لم تفلح لأسباب عدة؛ كان من أهمها اتساع أرجاء الدولة والتنوع الهائل في الشعوب والأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، مع احتفاظ كل منها بخصوصياته الثقافية والاجتماعية، وما صاحب ذلك من تعددية مفتوحة في اجتهادات أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة، بل وفي اجتهادات المنتمين إلى مذهب واحد.. ثم كانت مبادرة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وفقا لحديث أبي زرعة الذي يفهم منه أن الخليفة أراد تدوين أحكام الشريعة، وتيسير المعرفة بها، وخاصة على القضاة، ولكن هذه الفكرة لم تنجح للأسباب نفسها التي حالت دون نجاحها في عهد الوليد بن عبدالملك، فضلا عن أن خلافة عمر بن عبدالعزيز لم تستمر سوى عامين تقريباً.

وفي عهد أبي جعفر المنصور، كتب ابن المقفع سنة ١١٤هـ رسالته المشهورة باسم «رسالة الصحابة»، وضمنها نصائح عدة، كان منها أن يقوم الخليفة بجمع الأحكام الفقهية ووضعها في كتاب تذكر فيه المسائل الضرورية مع أجوبة عنها من مذاهب الفقهاء، ثم يختار أرجحها ويعمم ليقع القضاء بما فيه، ويأمر الخليفة القضاة بالالتزام بالرأي المختار، وألا يقضوا بخلافه.. ومما جاء في تلك الرسالة: «فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة، فترفع إليه في كتاب، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله، ويعزم عليه عزماً، وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتاباً جامعاً، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً».

وفي موسم حج ١٦٣هـ/ ٧٧٩م طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من الإمام مالك بن أنس أن يضع كتاباً جامعاً للأحكام مع مراعاة اليسر والسهولة، وأوصاه أن يراعي التوسط والاعتدال والبعد عن الإفراط والتفريط.. وتذكر المصادر التاريخية أن أبا جعفر قال للإمام: «يا أبا عبدالله، ضع هذا العلم ودونه، ودون منه كتاباً، وتجنب شدائد عبدالله بن عمر ورخص عبدالله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة (رضي الله عنهم)، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك، ونبثها في الأمصار، ونعهد إليهم ألا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها»، فاستجاب الإمام مالك وكتب موطأه، ولكنه لم يشأ أن يجعل لرأيه دون آراء الفقهاء الآخرين قوة ملزمة، وقال رحمه الله: «إن لكل قوم سلفاً وأئمة، فإن رأى أمير المؤمنين - أعز الله نصره - قرارهم على حالهم فليفعل».. وظل الحال على ما كان، وبقي الناس يرجعون إلى كتب الفقهاء لحل مشاكلهم، والفصل في أقضيتهم[1]. وظهر من تلك الواقعة دليل آخر على أن ثمة عقبات موضوعية وعلمية تحول دون إنجاز عملية «التقنين» في ظل الأوضاع التي كانت سائدة في ذلك العصر.. وكرر المنصور طلبه من الإمام مالك مرة ثانية سنة ١٤٨هـ، ومرة ثالثة سنة ١٦٣هـ، ويقال إن ذلك حدث من هارون الرشيد أيضاً، ولكن الإمام لم يستجب.

وفي القرن التاسع الهجري قام الفقيه الحنفي إبراهيم بن محمد الحلبي بوضع كتابه «ملتقى الأبحر» ليكون مرجعاً للقضاة والمفتين، وكان ذلك تلبية لطلب السلطان سليمان القانوني؛ وسن السلطان سليمان القانوني أيضاً (القانون نامه) الذي ضم أحكاماً في العقوبات التعزيرية وفي حقوق الأراضي وتحديد الأراضي الأميرية والخراج، وكذلك في المسائل العسكرية والإدارية.. كما جرى تأسيس السجلات الشرعية التي

(١) محمد حسن البغا، التقنين كما يبدو في مجلة الأحكام العدلية، بحث قدم في ندوة تطور العلوم الفقهية في عُمان/مسقط: التقنين والتجديد في الفقه الإسلامي المعاصر ٥ - ٨ ابريل ٢٠٠٨م، ص٧.

ضمنت قرارات المحاكم الصادرة من المحاكم الشرعية[٢].

ولكن قبل تلك المحاولات كانت البذور المعرفية لفكرة التقنين قد ترسخت فى الذهنية الفقهية من خلال اهتمامهم بتأصيل القواعد الفقهية، وعنايتهم الفائقة فى صوغها؛ حيث كانت هذه القواعد بمثابة منارات للتقنين، وهى بمجموعها تشكل مبادئ أساسية للقوانين المستمدة من الشريعة[٣]، وأبرز الأمثلة على ذلك هى مجلة الأحكام العدلية ذاتها، التى اختار واضعوها البدء بذكر القاعدة الفقهية أولاً ثم ترتيب المسائل والمواد المتفرعة عنها فى كل باب من أبواب المجلة.

وفى القرن الحادى عشر الهجرى، أراد الملك محمد أورنكزيب حاكم ولاية «عالمكير» الهندية أن يضع مرجعاً رسمياً للأحكام الفقهية يلتزم القضاة بتطبيقها، وكلف لجنة لهذا الغرض، انتهت إلى وضع كتاب «الفتاوى العالمكيرية»، ويعرف أيضاً باسم «الفتاوى الهندية»[٤].

محاولات التقنين فى العصر العثمانى

تبنت الدولة العثمانية المذهب الحنفى رسمياً منذ عهد السلطان سليم الأول، فأصبح شيخ الإسلام والمفتون والقضاة يحكمون ويفتون وفق المذهب الحنفى..


محمد الفاتح

ويعتبر «قانون نامه الباديشاهى» الذى أصدره السلطان محمد الفاتح (٨٥٤هـ/ ١٤٥١م - ٨٨٥هـ/ ١٤٨١م) أول نشأة القوانين العثمانية، وقد سماه «قانون نامه آل عثمان»، وكتب آخر أيام سلطنته، وتضمن ما كان يمليه السلاطين المجاهدون على الكاتب «التوقيعى»، ونامة أى العريضة المكتوبة[٥].. وكان ذلك خطوة أخرى فى طريق نضج عملية تقنين الفقه الإسلامى، وأكد ذلك العلماء بقولهم إن أمر الحاكم فيما ليس فيه معصية يعد ملزماً، وهو ما نصت عليه مجلة الأحكام العدلية فيما بعد فى مادتها رقم «١٨٠١» من أنه «لو صدر الأمر السلطانى بالعمل برأى مجتهد فى مسألة؛ لأن رأيه بالناس أرفق، ولمصلحة العصر أوفق، فليس للحاكم أن يعمل برأى مجتهد آخر مناف لرأى ذلك المجتهد، وإذا عمل فلا ينفذ

(٢) هادى محمود، الخلفية التاريخية لمفهوم الأحوال الشخصية فى الفقه الإسلامى ومخاطر عدم التقنين بحث منشور على شبكة الإنترنت www.ahewar.org.

(٣) عبدالستار أبو غدة، موسوعات الفقه والقواعد: رؤية نقدية نحو التقنين الفقهى، بحث قدم فى «ندوة تطور العلوم الفقهية فى عمان/مسقط: التقنين والتجديد فى الفقه الإسلامى المعاصر ٥ - ٨ أبريل ٢٠٠٨م، ص٢٣.

(٤) المرجع السابق، ص٤٠. وانظر أيضاً: محمد حسن البغا، مرجع سابق، ص٧. وطارق البشرى، فى المسألة الإسلامية المعاصرة، الوضع القانونى المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٨٣.

(٥) انظر: حكمت مقليجلى، التاريخ العثمانى، بيروت: دار الجليل، ص٧٦ - ٧٤.

حكمه»[٦]، وكذلك نصت م/ ١٦ من المجلة أيضاً على أن «الاجتهاد لا ينقض بمثله».

ولكن الدولة العثمانية لم تلتزم المذهب الحنفى وحده، وإنما خرجت تدريجياً إلى المذاهب الأخرى، كما فى قانون حق العائلة.. ثم خرجت إلى القوانين غير المنبثقة عن الفقه الإسلامى منذ عام ١٨٤٠؛ إذ أخذت قانون العقوبات الفرنسى فى تلك السنة، والقانون التجارى الفرنسى أيضاً سنة ١٨٥٠[٧].

وظهرت فى تاريخ التحولات التشريعية أعمال تأصيلية جليلة، جاهد أصحابها من أجل تثبيت الأمة على أحكام الشريعة، ودعوا إلى الاجتهاد والتجديد لمعالجة قضايا الواقع ضمن كليات الشريعة وأصولها، ولم ينقطع هذا الجهد فى فترة من الفترات؛ فنلاحظ فى فجر النهضة الحديثة إصرار رفاعة الطهطاوى «ولد سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠١م وتوفى سنة ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م» على أن تكون الشريعة هى مرجعية التحديث، وحذر كثيراً من خطر التحول نحو أخلاق أوروبا وأحكامها.. وظل الإمام ثابتاً على يقينه بأن السيادة العليا فى مجال التشريع والقانون يجب أن تظل للشريعة الإسلامية، ومن بعد الطهطاوى جاء الإمام محمد عبده «١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م/ ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م» ليواصل الدعوة إلى بناء التحديث على أصول الشريعة، واجتهد قدر ما وسعه جهده فى إزاحة عوامل الجمود عن الفقه الإسلامى، وطرح رؤية أصيلة تصب فى اتجاه استعادة سيادة الشريعة ومرجعيتها


الطهطاوى

العليا فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ورسم طريقاً تربوياً تعليمياً للوصول إلى هذه السيادة التشريعية، وتابعه عدد كبير من تلامذته، وبخاصة فى مجال الدراسات الفقهية والقضائية وفى مجال الإفتاء وإصلاح المؤسسات الإسلامية وعلى رأسها الأزهر الشريف، والأوقاف الإسلامية[٨].

الازدواجية فى البناء التشريعى القانونى الحديث والمعاصر

صدرت مجلة الأحكام العدلية عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م - كما أسلفنا القول - وأصبحت قانوناً عاماً يطبق فى أغلب الولايات العثمانية فى مجال المعاملات المدنية مثل: البيوع، والإجارة، والكفالة، والحوالة، والرهن، والوقف، والشركات، والوكالة... إلخ.. ولكن عملية التقنين لم تكتمل فى المجالات الأخرى التى لم تشملها «المجلة»..

(٦) انظر: سليم رستم باز، شرح المجلة، مرجع سابق، ص١١٦٩.

(٧) انظر: البغا، مرجع سابق، ص١١، ١٢.

(٨) انظر لمزيد من التفاصيل حول جهود الأستاذ الإمام: إبراهيم البيومى غانم، وصلاح الدين الجوهرى «محرران»: الإمام محمد عبده - مائة عام على رحيله ١٩٠٥ - ٢٠٠٥، القاهرة وبيروت: مكتبة الإسكندرية، ودار الكتاب المصرى/اللبنانى، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩م.

وكانت الولايات العثمانية قد أخذت في السقوط تباعاً تحت سيطرة الاحتلال الأوروبي، الأمر الذي حال دون المضي قدماً في عملية تقنين أحكام الشريعة ووضعها موضع التنفيذ وفق الصياغات القانونية الجديدة بمعايير تلك المرحلة.

وثمة عوامل عدة دفعت إلى وضع «المجلة»، لعل من أهمها اتساع المعاملات التجارية، وزيادة التداخل بين النظم الوافدة والنظم الموروثة في مختلف ولايات الدولة العثمانية، وحاجة كثير من القضاة إلى التعرف بيسر إلى الاجتهادات والقواعد الفقهية التي تعينهم على النظر في القضايا وإصدار الأحكام والفصل في الخصومات.

كان صدور المجلة في أول عهد السلطان عبدالحميد «تولى الخلافة في ١١ من شعبان ١٢٩٣هـ/ ٣١ من أغسطس ١٨٧٦م ـ وتوفى في ٢٨ من ربيع الثاني ١٣٣٦هـ/ ١٠ من فبراير ١٩١٨م».. ويذهب بعض المؤرخين ـ بحق ـ إلى أن المجلة كانت جزءاً من مشروع كبير لإصلاح نظام العدالة والقضاء ونظام التعليم والنظام الإداري في الدولة برمتها.. وقد نجحت خطة السلطان الإصلاحية في مجال التعليم إلى حد كبير[٩]، ولكن الدول الاستعمارية وقفت منه موقفاً متعنتاً، وبذلت كل ما في وسعها كي تفشل برنامجه لإصلاح القضاء؛ إذ أدركت أن نجاحه في إصلاح القضاء سيفضي بالضرورة إلى التخلص من نظام الامتيازات الأجنبية Les capitula-tions، ومن ثم إلغاء الإعفاءات القانونية والقضائية والمالية التي كان يتمتع بها رعايا الدول الأجنبية في الدولة العثمانية. وكان نجاح السلطان في الإصلاح القضائي سيفضي أيضاً إلى نجاحه في إجراء إصلاحات تشريعية ومالية واجتماعية أخرى[١٠]، تمكن الدولة العثمانية من تجديد عناصر قوتها الذاتية، والحد من تغلغل النفوذ الأجنبي فيها، وصون استقلالها، وهو الأمر الذي عارضته الدول الاستعمارية كي تصل إلى هدفها النهائي وهو تفكيك الدولة وإسقاط نظام الخلافة.

وفي أواخر عهد الدولة العثمانية كان النظام القضائي يعاني مشكلات كثيرة. وكان في وضعه الذي آل إليه غير محقق لمقصد «العدالة» على النحو الذي تريده الشريعة الإسلامية ذاتها. واتخذت القوى الأجنبية ذلك الضعف ذريعة لإجبار الدولة العثمانية على الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية الذي رجع نشأته إلى القرن السادس عشر في عهد السلطان سليمان القانوني الذي وقع سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م معاهدة صداقة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، وأقر فيها بامتيازات للمقيمين الأجانب على أراضي الدولة العثمانية؛ تعبيراً عن التزام الدولة بقواعد العدالة الإسلامية التي تشمل المسلم وغير المسلم.

ويكشف الرجوع إلى تلك المعاهدة ـ وغيرها من المعاهدات الشبيهة ـ عن جذور نشأة الازدواجية في النظام القانوني والقضائي في الدولة العثمانية، وكيف أنها انقلبت من شاهد على تسامح الدولة العثمانية إبان قوتها تجاه الأجانب نزولاً على أحكام الشريعة الإسلامية، إلى شاهد على سيطرة القوى الأجنبية الاستعمارية إبان ضعف الدولة العثمانية ودخولها مرحلة التدهور تحت وطأة الهجمات الاستعمارية منذ نهايات القرن الثامن عشر، وحتى إلغائها في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

نعود فنقول إن معاهدة سليمان القانوني مع فرانسوا الأول سنة ١٥٣٥م تألفت من ١٧ مادة، تتعلق بمسائل الإقامة، والتجارة، وممارسة الشعائر الدينية والمعتقدات المسيحية. وقد بادرت الدول الأجنبية الأخرى إلى عقد معاهدات مماثلة أو شبيهة بتلك المعاهدة مع الباب العالي على التوالي: إنجلترا عام ١٥٨٣. هولندا عام ١٦١٣. النمسا عام ١٧١٨. السويد عام ١٧٣٧. مملكة الصقليين عام ١٧٤٠. توسكانيا عام ١٧٤٧. الدانمارك عام ١٧٥٦. بروسيا عام ١٧٦١. إسبانيا عام ١٧٨٢. روسيا عام ١٧٨٣. الولايات المتحدة عام ١٨٣٠. وبلجيكا عام ١٨٣٨. وأخيراً اليونان عام ١٨٥٥. وتذكر المصادر التاريخية أن جمهورية البندقية سبقت فرنسا في عقد معاهدتها مع الباب العالي عام ١٤٥٥م وأنها كانت معاهدة نموذجية في سلسلة تلك الامتيازات التي نصت على منح الأجانب حريات مختلفة[١١].


سليمان القانوني

وكان من أهم الحريات التي كفلتها معاهدات الامتيازات الأجنبية في ولايات الدولة العثمانية ما يلي:

١ ـ حرية الإقامة في جميع أرجاء السلطنة، وذلك شريطة التسجيل في قنصلية الدولة التي ينتمي إليها الأجنبي من جهة، وألا يكون في هذه الإقامة ما يعكر الأمن العام، أو ما يسبب خطراً على النظام العام من جهة أخرى.

٢ ـ حرية المسكن فلا يجوز انتهاك حرمة المسكن إلا بإجازة قنصلية الدولة التي ينتمي إليها هذا الأجنبي، وفي هذه الحالة يجب حضور القنصل أو من يقوم مقامه عندما تدعو الحاجة إلى دخول تلك المساكن.

(٩) انظر: عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٣) ج/٣ ص١١٦٤

(١٠) تحولت الامتيازات الأجنبية إلى عقبة كئود في سبيل الإصلاح المالي والاقتصادي والاجتماعي في الدولة العثمانية بصفة عامة ـ كما أشرنا ـ وفي مصر بصفة خاصة. ولمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرزاق السنهوري، مقدمة كتاب الامتيازات الأجنبية، منشورة في: مجلة القانون والاقتصاد، كلية الحقوق جامعة القاهرة، الجزء الأول، ١٩٩٢، ص٢٠٣ ـ ٢٥٨.

(١١) انظر: زكريا السباعي، «الامتيازات الأجنبية»، منشور في: الموسوعة العربية ـ على شبكة المعلومات الدولية -http:www.arab ency.com

٣ ـ حرية التنقل في جميع أرجاء السلطنة، وذلك بموجب وثيقة مرور أو تنقل تمنحها سلطات الأمن استناداً إلى جواز سفر الأجنبي.

٤ ـ حرية التجارة وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بحرية الإقامة والتنقل لممارسة الأعمال التجارية وما قد يتفرع عنها من دفع الرسوم المالية والجمركية والعقارية.. وقد نصت أغلب المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية على إعفاء رعاياها من تلك الرسوم.

٥ ـ حرية المعتقدات الدينية وما يتبع ذلك من ممارسة الشعائر الدينية.

٦ ـ الحصانة القضائية والتشريعية، فلا تجوز مقاضاة الأجنبي أمام المحاكم الوطنية، بل أمام قنصلية بلاده ووفقاً لقانون بلاده أيضاً.

وهنا فرقت الامتيازات بين حالات ثلاث:

الأولى: إذا كان المتداعون ينتمون إلى جنسية بلد أجنبي واحد، وفي هذه الحالة كانت المحكمة القنصلية تتألف من ثلاثة أعضاء هم: القنصل أو من يقوم مقامه، واثنان آخران من وجهاء الجالية الأجنبية المقيمين في السلطنة العثمانية.

والثانية: إذا كانوا ينتمون إلى جنسيات بلدان متعددة كانت المحكمة تتألف على النمط السالف ذكره في الحالة الأولى، وكانت الأحكام تصدر في أغلب الحالات طبقاً للرأي الذي ينحاز له القنصل أو من ينوب عنه.

والثالثة: إذا كان بين المتداعين الأجانب المقيمين في السلطنة أحد الرعايا العثمانيين، وفي هذه الحالة درج العمل على أن تتولى المحاكم الوطنية الفصل في القضايا من هذا النمط، وفي هذه الحالة كانت الهيئة القضائية تتألف من خمسة أعضاء: ثلاثة منهم عثمانيون، والاثنان الآخران من جنسية الأجنبي أو الأجانب الأطراف في الدعوى. كما جرى العمل أيضاً على التفريق بين الدعاوى المدنية والتجارية التي تتفاوت فيها صلاحيات تلك المحاكم تبعاً للمبالغ المحددة فيها. أما في الدعاوى الجزائية فكان يجري الاستناد فيها إلى القوانين والأنظمة السائدة في أجهزة الأمن السلطانية، وتحكم فيها المحاكم السلطانية أيضاً[١٢].

وفي جميع تلك التصنيفات الثلاثة من الدعاوى كان الأمر يستدعي حضور مترجم (ترجمان Drogman) يقوم بمهمة ترجمة أقوال المواطنين العثمانيين ودفاعهم وأسانيدهم في الدعوى.. وهنا لابد من الإشارة السريعة إلى الخاصتين التاليتين عند ممارسة الأعمال التجارية في إطار حرية التجارة بموجب تلك الامتيازات الأجنبية، وهما:

١ ـ إن مفهوم الرعايا الأجانب شمل حسب رأي بعض الفقهاء والمشرعين الأشخاص الطبيعيين Les personnes physiques بقدر ما شمل الأشخاص الاعتباريين Les personnes morales، كالشركات

(١٢) المرجع السابق.

التجارية والمؤسسات المالية والصناعية والزراعية والسياحية والفندقية التي أقامها الأجانب في السلطنة العثمانية. ومع ما تعرض له هذا الاجتهاد من الانتقاد الذي وصل عند بعض المجتهدين إلى درجة الرفض الكامل، فقد جرى القضاء القنصلي على تطبيق مبدأ الشمول.

٢ ـ إن شرط الدولة الأكثر رعاية في معاملة الشركات والمؤسسات الأجنبية عند عقد المعاهدات والاتفاقات الدولية، كان في متناول أي دولة أجنبية لمصلحة رعاياها العاملين في السلطنة. ومع معارضة القضاء السلطاني مبدأ المطالبة بهذا الشرط حفاظاً على المصلحة العامة. فإن وزارة الخارجية السلطانية أفتت على العكس بقبول تطبيق هذا الشرط مستجيبة لشتى الضغوط السياسية الأجنبية في تلك الأيام[١٣].

والحاصل أن تلك «الامتيازات الأجنبية» قد اتسعت بمرور الزمن، وأضحت ركيزة لتثبيت التدخل الأجنبي في شئون السلطنة والولايات التي كانت تابعة لها.. وأدركت القوى الاستعمارية أن نفوذها سيبقى ما بقيت هذه الامتيازات؛ حتى لو اضطرت إلى إنهاء احتلالها العسكري للبلدان الإسلامية.. وعلى الجانب الآخر، أدركت حركات التحرر والجهاد ضد السيطرة الأجنبية أن الاستقلال التشريعي، ومن ثم الاستقلال القضائي هما من صميم أهدافها من أجل تحقيق الاستقلال بمعناه الشامل، وليس فقط بمعناه السياسي أو الاقتصادي.

بعد الحرب العالمية الأولى، بدأت المطالبات بإلغاء الامتيازات الأجنبية في العديد من البلدان التي انفصلت عن الدولة العثمانية، ومنها بلدان عربية مثل: سوريا ولبنان ومصر والأردن وفلسطين والعراق. وبلدان إسلامية مثل إيران وتركيا نفسها، وخاصة بعد انتصارها على اليونان في معركة سقاريا. ولم يحل منتصف القرن العشرين الماضي إلا وكانت الامتيازات الأجنبية قد ألغيت من سوريا، ولبنان، مصر وتركيا وإيران وغيرها.

ولكن زوال الامتيازات ومعها المحاكم المختلطة، لم يقض نهائياً على ازدواجية النظام التشريعي والقضائي في بلادنا. بل ظلت آثار هذه الازدواجية قائمة، وتفاقمت في بعض الأحيان، وخاصة بعد قرارات تصفية المحاكم الشرعية وشطبها من المؤسسة القضائية نهائياً.

ويشرح المستشار طارق البشري الأسباب التي أدت إلى اضطراب البناء التشريعي في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ما كان منها تابعاً للدولة العثمانية، وما كان قد انفصل عنها خلال القرن التاسع عشر. وهو يرى أن هذا الاضطراب نجم عن تفاعل ثلاثة عناصر خلاصتها هي الآتي:

١ ـ جمود الوضع التشريعي المأخوذ عن الشريعة الإسلامية. ويوضح المستشار

(١٣) المرجع السابق.

البشرى أن المقصود بالجمود هنا «ليس الشريعة الإسلامية بحسبانها الأصول المستمدة من القرآن والسنة الشريفة، ولكن المقصود هو ما آل إليه الجهد الاجتهادى فى تلك الأحكام من جمود».

٢ ـ ما أوجبته أوضاع الصحوة الاجتماعية والسياسية، من طروء الحاجة الماسة لإصلاح الأوضاع والنظم وتجديدهما، الأمر الذى يستوجب إصلاحاً وتجديداً مناسبين فى الهياكل والنظم التشريعية.

٣ ـ الغزو الأوروبى السياسى والاقتصادى، ثم العسكرى. ويؤكد المستشار البشرى أن هذا الغزو قد أثر بقوة فى معظم جوانب الحياة فى مجتمعاتنا؛ «سواء بالإملاء والقسر، أو بفعل ضغوط السياسة والاقتصاد». إضافة إلى ما فرضته مقاومة الغزو، وما أوجبه تفوق الغزاة من ضرورة التعلم عن الغزاة، والأخذ عنهم ومقاومتهم فى الوقت نفسه[١٤].

أتاحت تلك الملابسات للقوانين الغربية أن تتغلغل فى الدولة العثمانية بشكل مطرد خلال أربعين عاماً تقريباً (١٨٤٠ ـ ١٨٧٩)، واطرد ـ فى المقابل ـ انحسار الشريعة الإسلامية، كما يقول المستشار البشرى أيضاً: «عن نظم القضاء، وعلى تنظيم التجارة، وتنظيم الأراضى، والتنظيم الجنائى... ولم يفلت من هذا الزحف التشريعى الأوروبى إلا نظام المعاملات المدنية غير التجارية، الذى دون له تقنين عرف باسم مجلة الأحكام العدلية»[١٥].

ولمواجهة ذلك الزحف، ظهرت عدة محاولات لتقنين أحكام الشريعة من مدونات الفقه الموروث. بعض تلك المحاولات كانت فردية مثل محاولة محمد قدرى، وبعضها كانت مؤسسية/جماعية، وأهمها فى نهايات القرن الثالث عشر الهجرى هى «مجلة الأحكام العدلية»، التى سبقت الإشارة إليها.

وكان مما ترتب على الزحف القانونى الأوروبى، ورد الفعل الذى تمثل فى محاولات التقنين من داخل الفقه الإسلامى، أن حدث ازدواج فى النظام القانونى بشكل عام، وكانت ـ ولاتزال ـ لهذا الازدواج آثار سلبية، طالت مختلف مناحى الحياة، وأثرت على نقاء الهوية الحضارية الذاتية لمجتمعاتنا الإسلامية. وكانت هذه الازدواجية ـ ولاتزال أيضاً ـ علامة على انتقاص «الاستقلال التشريعى» فى بلادنا على مستوى كل دولة، كما لاتزال علامة على استمرار الكبوة الحضارية على مستوى جميع دول العالم الإسلامى، باستثناء عدد قليل منها.

وفى سياق تلك الظروف، لم تلق فكرة التقنين قبولاً لدى بعض الفقهاء فى بعض

(١٤) طارق البشرى: فى المسألة الإسلامية المعاصرة، الوضع القانونى، مرجع سابق، ص٤ ـ ٦.

(١٥) المرجع السابق، ص١٤ ـ ١٥.

البلدان بحجة رئيسية هى أن الأصل فى الفقه هو أن القاضى يجب أن يكون مجتهداً، والتقنين فى جوهره يحرمه هذا الحق، وإذا لم يكن القاضى مجتهداً فهو يتمتع بحرية التقليد؛ أى الاختيار من الآراء المتعددة فى المذاهب المختلفة، ولكن التقنين سيحرمه هذه الحرية كذلك.

ودار الجدل ردحاً من الزمان بين القائلين بجواز التقنين، والقائلين بمنعه، ولما كان التقنين يعنى فى محصلة الأمر «إلزام القاضى بالقضاء بأحكام معينة لا يتجاوزها مهما خالفها اجتهاده لو كان مجتهداً»؛ فقد استعاد الفريقان المتجادلان مسألة كانت محل جدل بين قدماء الفقهاء وهى: حكم إلزام القاضى بمذهب معين لا يقضى إلا به. وكان للفقهاء القدماء رأيان:

الرأى الأول: لا يرى أنصاره جواز إلزام القاضى بالحكم بمذهب معين، وأن اشتراط ذلك على القاضى باطل غير ملزم. وهو قول عند المالكية، وهو الراجح عند الشافعية، وبه قال الحنابلة، وقال ابن قدامة «لا أعلم فيه خلافاً». ومما استدلوا به قولهم إن الحق لا يتعين فى مذهب، وقد
يظهر للقاضى الحق فى مذهب آخر وهنالك يجب عليه العمل بموجبه، نزولاً على قول الله سبحانه وتعالى ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ (ص: ٢٦). هذا إلى جانب الإجماع على عدم إلزام الناس بقول واحد وحملهم عليه؛ حيث صرح بانعقاد الإجماع على ذلك غير واحد من السلف ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى مواضع كما فى مجموع الفتاوى[١٦].

الرأى الثانى، ويرى أنصاره جواز الإلزام بالحكم بمذهب معين، وأن من حق ولى الأمر أن يشترط على القاضى أن يقضى به. وإلى هذا القول ذهب الحنفية، وهو قول عند المالكية، وبه قال السبكى وغيره من الشافعية. ومما استدلوا به؛ أن إلزام القاضى بمذهب معين لا يقضى بغيره فيه مصلحة، فإذا رأى ولى الأمر وجود هذه المصلحة جاز له الإلزام. وإذا كان القاضى مفوضاً من ولى الأمر فى القضاء على مذهب معين فليس له أن يتجاوزه إلى غيره حتى إن خالفه اجتهاده؛ لأن التولية لم تشمله؛ فكأن القاضى هنا بمثابة الوكيل، أو النائب عن ولى الأمر.

وقد دار الجدل الحديث والمعاصر بشأن جواز أو عدم جواز التقنين، على تلك الخلفية الفقهية الخاصة بجواز أو عدم جواز إلزام القاضى بمذهب معين لا يتخطاه. وظهر للفقهاء المحدثين والمعاصرين رأيان أحدهما يقول بالجواز، وحجج هذا الرأى هى الأقوى، وأنصاره هم الكثرة، والآخر يقول بعدم الجواز

(١٦) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/٢٣٩، والمجلد ٢٧/٢٩٦ ـ ٢٩٨، ومواضع أخرى.

وحجج هذا الرأى أقل قوة، وأنصاره أقل عدداً[١٧].

وبالرجوع إلى المعنى الاصطلاحي لمفهوم «التقنين»، نجد أن جوهر هذا المعنى يتمثل من الناحية العملية فى عنصر «الإلزام» الذى هو من سلطة الدولة، والإلزام فى الفقه الإسلامى إما فردى وإما جماعى. والأصل أن كل مجتهد ملزم بما انتهى إليه اجتهاده. وأما المجتمع فى مجمله فيلزمه ولى الأمر برأى أو اجتهاد مستوف لشرائطه العلمية والعملية؛ تطبيقاً للقاعدة التى تقول إن حكم الحاكم «وهو هنا القاضى» يرفع الخلاف، ويلزم القاضى والمتقاضى، الحاكم «وهو هنا الحاكم السياسى» والمحكوم.

وقد أثبتت التجربة العملية أن المصالح فى التقنين أكثر من المفاسد، وعلى هذا جرى العمل فى حالات كثيرة؛ بدأت من أواخر القرن الثالث عشر الهجرى «التاسع عشر الميلادى»، ثم توالى ظهور محاولات لتقنين أحكام الشريعة على مدى القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى.

كانت أول محاولة ـ بعد المجلة وبعد مرشد الحيران وقانون العدل والإنصاف لقدرى باشا ـ محاولة المستشرق الإيطالى سانتيلانا -san tilana الذى وضع فيما بين عامى ١٨٩٦ و١٩٠٦م «مجلة الالتزامات والعقود التونسية».. وسنأتى على هذه المحاولة بعد ذلك بشىء من التفصيل.

وفى أوائل عام ١٩١٥ تشكلت فى مصر لجنة من كبار العلماء من المذاهب الأربعة لتقنين قانون للأسرة، على أن تستمد مواده من المذاهب الأربعة دون أن تقتصر على ظاهر الأقوال فى المذهب الحنفى. وأثمرت تلك المحاولة فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية والإجراءات المتعلقة بها الصادر بهما الأمران العاليان المؤرخان ١٠ ديسمبر ١٩٢٠، وذلك فيما يخص أحكام النفقات وبعض مسائل الأحوال الشخصية.. وجاء الكثير من مواد هذا القانون وفق المذهب المالكى متأثراً بقانون الأسرة العثمانى.

ففى ١٣٣٦هـ الموافق ١٩١٧م كانت الدولة العثمانية فى النزع الأخير عندما أصدرت «قانون العائلة العثمانى»، وكانت آنذاك خاضعة لحكم جمعية الاتحاد والترقى ذات النزعة القومية/ التغريبية. وفى عام ١٩٢٣ صدر فى العراق قانون للمحاكم الشرعية، وتأسست بموجبه محاكم خاصة للجعفريين فى الأحوال الشخصية. وفى تلك السنة نفسها ١٩٢٣، صدر فى مصر القانون رقم ٥٦ والذى تحدد بموجبه سن الزواج حسب المادتين اللتين تكون القانون منهما، ومضمونهما أنه لا تسمع دعوى الزوجية إذا كانت سن الزوجة تقل عن ست عشرة سنة، وإذا كانت سن الزوج تقل عن ثمانى عشرة سنة، وإنه لا يجوز مباشرة عقد زواج، ولا المصادقة على زواج أسند إلى زمن ماض ما لم تكن سن الزوجين فى هذا السن المحدد[١٨].

وبعد إلغاء نظام الخلافة فى مارس ١٩٢٤، وبالرغم من الفراغ الهائل الذى أحدثه قرار إلغائها داخل تركيا وخارجها، إلا أن محاولات التقنين لم تتوقف، بل تصاعدت وتيرتها فى مختلف البلدان العربية والإسلامية، وإن بشكل جزئى.

فى عام ١٩٢٦، تألفت فى مصر لجنة من المختصين بالمسائل الفقهية، كان أغلبهم من تلامذة الشيخ محمد عبده، وكانت مهمة تلك اللجنة هى أن تقوم بوضع مقترحات لتقنين أحكام الأسرة، على أن تكون مستمدة من المذاهب الفقهية الأربعة، ومن آراء المجتهدين من الفقهاء عامة، مما هو نافع للأسرة. وارتقى عمل اللجنة إلى الاستنباط من القرآن والسنة حتى ولو ناقض ذلك ما قاله السابقون من الفقهاء المجتهدين. ونتيجة لذلك الجهد صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ واقتصر على ما جاء بالمذاهب الأربعة، وترك ما لم يمكن فى هذا النطاق، إلا فى الطلاق بلفظ الثلاث والإلزام بكل شرط تشترطه الزوجة.

وأدى ذلك المشروع ـ فيما أدى ـ إلى تقييد رغبة الرجل فى تعدد الزوجات، واشترط لتزوج الرجل من أخرى ألا يعقد الزواج أو يسجله إلا بإذن القاضى الشرعى، ومنع القاضى من الإذن لغير القادر على القيام بحسن العشرة، والإنفاق على أكثر ممن فى عصمته، ومن تجب نفقتهم عليه من أصوله وفروعه. كما أخذت اللائحة المقترحة بمبدأ الالتزام بالشروط التى تفرضها الزوجة على الزوج عند إبرام العقد، كالاشتراط بألا يتزوج عليها. وأعطت اللائحة الحق للزوجة فى طلب التفريق بسبب إضرار الزوج بها؛ بما لا يستطاع معه دوام العشرة. وكذلك طلب الزوجة الطلاق لو غاب زوجها سنة فأكثر، ولو ترك مالا تستطيع الإنفاق منه. وعلى الرغم من عدم قبول اللائحة فى ذلك العام، فقد صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ واقتصر القانون على ما جاء بالمذاهب الأربعة، كما أسلفنا.

وفى ٧ محرم ١٣٤٧هـ، ٢٦ يونيو ١٩٢٨م، أصدرت الهيئة القضائية فى نجد

---

(١٧) الجدل بين الفريقين آخذ فى الانحسار، وللاطلاع على نموذج منه انظر: عبدالمحسن العبيكان، تقنين أحكام الفقه، بحث منشور فى جريدة الرياض الجمعة ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م ـ العدد ١٣٤٤٨.

(١٨) هادى محمود، مرجع سابق http://www.ahewar.org/debat/show

والحجاز قراراً أوجب العمل في القضاء بالقول المفتى به من المذهب الحنبلي. وتلا ذلك ظهور «مجلة الأحكام الشرعية» التي وضعها الشيخ أحمد القاري المكي الذي توفي عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م. وقد قام الشيخ المكي بتصنيف قواعد الفقه الحنبلي في صورة مواد، واقتفى الطريق الذي رسمته كل من مجلة الأحكام العدلية العثمانية، ومرشد الحيران لقدري باشا. ولم تظهر هذه المجلة للدارسين حتى تحدث عنها الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان في جريدة عكاظ بتاريخ ٥ ربيع الأول عام ١٣٩٣ هجري[١٩]. ولازالت هذه المجلة مرجعاً غير رسمي للمحامين عند إعداد دفوعهم والاستناد إلى موادها في مذكراتهم»[٢٠].

وفي اليمن، أمر الإمام أحمد بن الإمام يحيى حميد الدين عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠ بتشكيل لجنة «تقنين أحكام الشريعة الإسلامية»، وقامت اللجنة بإصدار أعمالها في كتاب بعنوان: «تيسير المرام في مسائل الأحكام للباحثين والحكام»، وقد استعان به قضاة اليمن فترة من الزمن[٢١].

وفي سنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٥م أوصى المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية في مصر السلطات المختصة بالعمل على تنقية التشريعات والنظم من كل ما يخالف حكم الإسلام، وأن ترد التشريعات إلى الكتاب والسنة مستعينة بكل مستحدث صالح من فكر أو حكم لا يعارض أصلاً من أصول الدين. وأوصى المؤتمر الرابع للمجمع في سنة ١٣٨٨هـ ١٩٦٧م، بتأليف لجنة من رجال الفقه والقانون لتضع الدراسات ومشروعات القوانين التي تيسر على المسئولين في الدول الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية في قوانينها.

ووافق مجمع البحوث الإسلامية ـ في مصر ـ في سنة ١٩٧٠م على الخطة المرحلية لأعمال لجان المجمع ومنها لجنة تقنين الشريعة. وأصدر المجمع الطبعة التمهيدية لمشروع تقنين مذهب الإمام مالك في سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. وفي نفس العام أيضاً أصدر الطبعة التمهيدية لمشروع تقنين مذهب الإمام أحمد.

وقد طرحت فكرة التقنين مرة أخرى في مناقشات هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ـ كانت المرة الأولى سنة ١٣٤٦هـ في عهد الملك عبدالعزيز ـ وانقسمت جماعة العلماء هذه المرة إلى فريقين: أحدهما ذهب إلى جواز التقنين ولم ير فيه بأساً مادام سيصدر من ولي الأمر، والثاني ذهب إلى عدم جواز ذلك؛ لأن ما فيه من أضرار أكثر مما فيه من منافع. وانتهت اللجنة إلى أن المصلحة تقتضي صرف النظر عن التقنين، خاصة أن فيه مظنة استبدال القوانين الوضعية بأحكام الشريعة[٢٢].

وفي عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م قرر مجلس الشعب المصري البدء في تنفيذ مشروع طموح لتقنين الشريعة، واستعان في ذلك بكبار أساتذة كليات الحقوق وبعض الخبراء من المسلمين والمسيحيين، لإنجاز مشروع التقنين، وتم تقسيم العمل إلى لجان يرأس كل لجنة أحد أعضاء مجلس الشعب إلى جانب هؤلاء الخبراء، وكانت الخطة تقوم على عدم التقيد بالراجح في مذهب


صوفي أبو طالب

معين، بل الأخذ بالرأي المناسب من أي مذهب من المذاهب الفقهية[٢٣]. وفي ٢ يوليو ١٩٨٢م، أعلن د. صوفي أبو طالب رئيس المجلس ـ آنذاك ـ انتهاء المجلس من تقنين: القانون المدني، وقانون العقوبات والقانون التجاري، والقانون البحري، وقانون الإثبات.

التقنين ـ إذن ـ ليس وليد العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري «العشرين الميلادي»، وإنما هو رغبة قديمة في أن تكون الشريعة مصدراً للقانون، وآنئذ تكون البلاد قد استكملت حلقة من حلقات جهادها الطويل من أجل استرداد سيادتها المسلوبة، وإحياء معالم هويتها الأصيلة.



(١٩) عبدالمحسن العبيكان، المرجع السابق.

(٢٠) أحمد ضيف، مجلة الأحكام أول محاولة لتقنين الشريعة في تاريخ المملكة، جريدة عكاظ، العدد ١٨٧٧، ٨ يونيو ٢٠٠٦م.

http://www.okaz.com.sa/okaz/osf/20060608/com200606082375O.htm

(٢١) حسين عبد علي، تقنين العقوبات الشرعية، مجلة الثقافة الجديدة، منشور على موقعها على شبكة المعلومات الدولية //:http

www.althakafaaljadeda.com

(٢٢) للاطلاع على بعض التفاصيل حول اختلاف هيئة كبار العلماء السعودية انظر: عبدالرحمن بن أحمد الجرعي، تقنين الأحكام الشرعية بين المانعين والمجيزين، بحث منشور على موقع إسلام أون لاين شبكة المعلومات الدولية http://www.islamonline.net بتاريخ ٢٩ أغسطس ٢٠٠٥.

(٢٣) عاطف مظهر، حوار مع الدكتور صوفي أبو طالب (مشروع تقنين عام ١٩٧٨)، منشور على موقع إسلام أون لاين www.islamonline.net.

نحو تقنين فريضة الزكاة



المستشار عثمان حسين عبدالله

عضو مجلس الدولة ونائب أول رئيس محكمة النقض، سابقاً

إن الأصل العام فى شريعة الإسلام أن الحكومة المسلمة تتولى أمر الزكاة، فتجبيها ممن تجب عليهم، وتصرفها على من تستحق لهم، على أن تنشئ لذلك مؤسسة عامة، أو بيت مال، يختص بشئون الزكاة، بحيث تستقل بأموال الزكاة تحصيلاً، وتوزيعاً، بحيث لا تختلط الزكاة بإيرادات الدولة ومصروفاتها.

ولقد أوجب القرآن الكريم على دولة الإسلام أن تقوم على شئون الزكاة:

﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾

(الحج: ٤١)

والحق تبارك وتعالى كلف نبيه محمداً ﷺ بوصفه رئيس دولة المسلمين، أن يجمع الزكاة

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ۝ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾

(التوبة: ١٠٣ / ١٠٤)

فلم يقف الأمر عند حد إيجاب الزكاة وفرضيتها، (وهى الصدقة الواجبة)، وإنما جاوز ذلك إذ أمر الدولة أن تتولى أخذ هذه الزكاة من أصحاب الأموال، كما أن ربنا سبحانه ناط بالدولة، (سلطة الحكم أو الإمام)، المسئولية عن توزيع حصيلة الزكاة، أى إنفاقها فى المصارف المحددة التى عينها دون غيرها

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾

(التوبة: ٦٠)

ويلاحظ أن هذه الآية نصت على أن من مصارف الزكاة (العاملين عليها)، أى الإنفاق على مكافآت أو مرتبات الموظفين القائمين على شئون الزكاة جمعاً وصرفاً.

وسيدنا رسول الله ﷺ بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن وأمره أن يقول لمن يسلم من أهلها: «إن الله افترض عليهم صدقة (هى الزكاة) تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»، حديث متفق عليه.

وقال ﷺ عن الزكاة: «من أعطاها مؤتجراً فله أجرها، ومن منعها فإنا آخذوها، وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا» رواه أحمد وأبو داود والنسائى.

وهكذا بعث رسول الله ﷺ عماله إلى القبائل يجمعون الزكاة ويزودهم بتعليماته.. وأبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه كانا يسيران على النهج ذاته، وكانت بعض القبائل قد امتنعت -رغم إسلامها- عن أداء الزكاة إلى سيدنا أبى بكر، وحجتها أنها تتولى إنفاقها على الفقراء من أهل القبيلة، (ومن هؤلاء بنو يربوع)، فجند أبو بكر (رئيس الدولة)، الكتائب ووجهها إلى هذه القبائل حتى تلتزم بأداء فريضة الزكاة إلى ولى أمر المسلمين، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقاً، (أو قال عقالاً)، كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها»، قال الفاروق عمر: «فما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق».

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»، إلى هذا المدى وصل اهتمام شريعة الإسلام بفريضة الزكاة ووجوب قيام الدولة عليها، والذين قاتلوا من أجل حقوق الفقراء والانتصاف للمساكين، كان على رأسهم بعض سراة الصحابة وأهل الحل والعقد من سادة المسلمين!



أبوزهرة

***

ومن الجهود العلمية الداعية إلى تحمل الدولة مسئولية جمع الزكاة، وإنفاق حصيلتها فى مصارفها الشرعية، البحث الذى أعده ثلاثة من كبار أساتذة الشريعة، هم: الأساتذة الشيوخ عبدالرحمن حسن وكيل الأزهر، وعبدالوهاب خلاف أستاذ الفقه والأصول بجامعة القاهرة، ومحمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق.. وانتهوا من بحثهم إلى أنه يتعين على ولى الأمر الآن أن يقوم بجمع الزكاة وصرفها فى مصارفها.. وأقرت هذا البحث حلقة الدراسات الاجتماعية المنعقدة بدمشق فى سنة ١٩٥٢م بمشاركة هيئة الأمم المتحدة، وأوصت بجعل الزكاة أساساً للتكافل الاجتماعى..

كما أن الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ركز

على هذا الموضوع فى أبحاثه المدونة بكتابه (فقه الزكاة)، وكتابه (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام).. وانتهى إلى أن الزكاة- وهى العبادة المالية الاجتماعية فى الإسلام- لا يمكن أن تؤدى كما شرح الله ورسوله إلا فى ظل الدولة.. وأن الواجب على كل حكومة إسلامية أن تتولى أمر الزكاة تحصيلاً وتوزيعاً.. وهذا هو الأصل فى تلك الفريضة.

***

والواقع الحالى، فى بلادنا، يقول: إن الفقراء والمحتاجين والمرضى والعجزة وذوى البطالة.. يزدادون عدداً، ويزدادون حاجة وفقراً ومرضاً وعجزاً.. فى حين الأغنياء يزدادون غنى ورفاهية وترفاً، وأن أكثر القادرين لا يؤدون زكاة أموالهم، أو هم لا يؤدونها كاملة، أو لا يؤدونها بصفة دائمة ومنتظمة، وبعض الدعاة قال: إنها لطول إغفالها أصبحت فريضة غائبة فى الوعى العام وفى الوعى الخاص، وبعض الأغنياء قد يظنها صدقة تطوعية أو إحساناً اختيارياً.. وإذا دعوا إلى إيتاء الزكاة احتجوا بالضرائب وادعوا أنها تعفيهم من الزكاة؟!.. وكل هذه تعلات ومعاذير يلقى بها فى الأنفس جهل سائد أو إيمان محدود! ذلك إلى جانب تهاون المسئولين فى الدولة.

كل ذلك ووسائل البحث العلمى، ووسائل الإعلام تطالعنا -نحن المصريين- بالحرمان من الحاجات الأساسية والضرورية حرماناً يشمل نسبة كبيرة جداً من المواطنين الذين أصبحوا بسبب سوء أحوالهم الاقتصادية يعيشون تحت خط الفقر! ومن ذلك أن إحدى الجامعات المصرية العريقة، وهى جامعة أسيوط، أعدت دراسة انتهت فيها إلى أن هناك أكثر من عشرة ملايين مواطن مصرى لا يجدون الطعام بصفة يومية وهم يعيشون على التسول أو بقايا الطعام الملقاة بداخل صناديق القمامة، وأن ٢٤٪ من المصريين يعيشون بدخل يومى لا يتجاوز دولارين وهو ما لا يتناسب مع المعايير الآدمية، وأن أكثر من ٢٣٪ من الأطفال توقفوا عن إتمام مرحلة التعليم الأساسى بسبب الظروف المادية القاسية التى تحول دون استكمال تعليمهم فى مراحل التعليم الأولى.. ويزيد من هذه المشكلات فى المجتمع المصرى ارتفاع الأسعار فى السنوات الأخيرة، على نحو يؤدى حتماً إلى انخفاض القوة الشرائية وتدنى مستويات المعيشة إلى جانب ازدياد أعداد العاطلين أو جيوش البطالة.. وهذه كلها أجواء ترشح لمزيد من الجرائم ومن السخط الاجتماعى (جريدة الأهرام ١٥/ ١١/ ٢٠١١).


القرضاوى

***

وإذ كان الحق تبارك وتعالى قد فرض الزكاة، فى كل دين سماوى، وأوجب على أولى الأمر فى بلاد الإسلام أن يقوموا على شئونها، لكى تسد حاجات الفقراء والمساكين، ولكى تسد الذريعة إلى المفاسد الاجتماعية، ولكى لا يكون المال دولة بين الأغنياء من الناس، ولكى تسود مبادئ التكافل الدينى والعقائدى، ومبادئ الإخوة الإسلامية والتراحم والتضامن الاجتماعى، ولكى تسلم البنية الاجتماعية، إذ يستشعر الأغنياء مسئولياتهم نحو المواطنين ذوى الحاجة ويحس الفقراء بالرضا والاطمئنان.. ولكى تقوى الأواصر بين الناس، كما تقوى روح الانتماء للأمة وللوطن.

***

من أجل ذلك أعددنا كتابنا وعنوانه (الزكاة الضمان الاجتماعى الإسلامى)، وقد تولت نشره دار الوفاء وصدرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٨٩م، ولست أقصد بالإشارة إلى الكتاب الإعلان، وإنما أرى هذا الكتاب بمثابة المذكرة الإيضاحية وهو مشروع قانون بشأن الزكاة وهو فى نحو مائة مادة وهو عمل تشريعى رائد وهو مثال ونموذج ويشتمل على ما يلى:

١- بيان الأموال الواجبة فيها الزكاة وشروط وجوبها فيها وهو يحسم الخلاف بشأن الضرائب، إذ أن أداء الضرائب للدولة لا يعفى من وجوب إيتاء الزكاة.

٢- وفى الباب الثانى تفصيل لمصارف الزكاة الثمانية وأسلوب توزيعها ومراعاة الأولويات بشأنها وتنظيم الرقابة الشعبية والرقابة القضائية بهذا الشأن تفادياً للظلم.

٣- وفى الباب الثالث: الأحكام المتعلقة بالمؤسسة العامة للزكاة أو بيت مال الزكاة.. ومن أهم ما اشتمل عليه هذا الباب النص على التعاون والتنسيق بين مؤسسات الزكاة فى الدول العربية والإسلامية.

٤- ويشتمل الباب الرابع على إجراءات تحديد الزكاة وجبايتها.

٥- وفى الباب الخامس أحكام عامة منها الجزاءات على عدم إيتاء الزكاة (ومن يمنعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا)، هكذا قال سيدنا رسول الله ﷺ.

٦- ومما يحرص عليه مشروع القانون المقترح (التدرج فى التطبيق)، فمرحلة للإعلام والتوجيه ومرحلة لإعداد واستصدار اللوائح التكميلية والتنفيذية، ومرحلة أو مراحل لتنفيذ القانون والأنظمة واللوائح، فيما يتعلق بكل نوع من أنواع الأموال التى تجب فيها الزكاة مع العناية بحسن اختيار العاملين فى بيت مال الزكاة (المؤسسة العامة) وتدريبهم والإشراف على سلوكهم وعلى تصرفاتهم.

٧- ولم يغفل مشروع القانون حقوق المواطنين غير المسلمين فهؤلاء يخيرون بين سريان أحكام قانون الزكاة عليهم (فلهم ما لنا وعليهم ما علينا)، وإما أن ينشأ لهم بقانون صندوق خاص للضمان الاجتماعى يتحمل أغنياؤهم تكاليفه ويستفيدون بمنافعه وخدماته، وذلك عملاً على المساواة بينهم وبين المواطنين المسلمين، وفى جميع الأحوال، وأياً كانت الاختيارات، فإن أوضاع الإخوة المواطنين غير المسلمين، لا يمكن بحال من الأحوال أن تقف عائقاً بين الدولة وبين إصدار قانون الزكاة المنشود.

٨- وإننا لنأمل أن يكون إعداد مشروع قانون الزكاة بصياغته التشريعية المعاصرة، محاولة لتقنين فريضة لازمة وركن من أركان العبادة، نواجه بها اللغط السخيف المغرض الذى يثيره بعض الكتاب والذى يدعون به أن الدعوة إلى تطبيق الشريعة هى مجرد دعوة عاطفية، أو أن الحل الإسلامى مسألة غامضة تتخلف عن مواكبة العصر، أو أن الأصل المقرر بالمادة الثانية من الدستور المصرى هو مجرد شعار جاوزه سير الزمان؟!

مستقبل مصر بين الشريعة والأهواء

للدكتور/ حمدى فتوح والى

لا أحد يستطيع أن ينكر شوق الشعوب العربية والإسلامية الجارف إلى الحرية، وسعيها الدائب إلى اكتشاف ذاتها، وإدارة حياتها وفق منهج ينسجم مع عقيدتها، ويمتزج بفطرتها ويتلاءم مع تاريخها وحضارتها، وهى فى سبيل ذلك لا تتردد أن تقدم أغلى ما لديها ثمنا لهذا المطلب العزيز، وها نحن نرى نشرات الأخبار وهى تنقل أمام أعيننا صور المجازر البشرية التى فاقت بشاعتها كل حدود الاحتمال. فالمقابر الجماعية والأجسام المشوهة والأشلاء الممزقة والأعضاء المتناثرة والدماء المتدفقة كل ذلك نراه فى كل يوم ورغم ذلك كله تزداد مواجهات البشر وتتسع صيحات الغضب وترتفع صرخات الأحرار تعلو على هدير المدافع وطلقات الرصاص لتؤكد للدنيا كلها أن إرادة الشعوب من إرادة الله وأنها أشد استمساكًا بحقها من استمساك الحاكم المستبد بشهوة التأله ولذة الاستبداد، وتؤكد مرة أخرى بأن الحرية أغلى لدى الشعوب من الحياة، لأن الحياة بلا حرية عبء ثقيل وسجن طويل.

وإذا كانت بعض الشعوب قد بلغت مرادها، وحققت أحلامها، وانتقلت من مرحلة الصراع من أجل الحرية إلى مرحلة الاستمتاع بالحرية، فإن العقبة الكؤود والاختبار الرهيب هو كيفية التعامل مع الحرية وكيفية إدارة الحياة، وكم من أمم نجحت فى معالجة الصراع من أجل استخلاص حقوقها لكنها أخفقت إخفاقًا شديدًا فى استثمار تلك الحقوق والتحرك بها فى الأرض وفق منهج رشيد ونظام سديد.

ومن هنا كان من الضرورى أن يبادر عقلاء الأمة وحكماؤها إلى اختيار المنهج الأمثل والنظام الأكمل الذى يترفع عن الأهواء ويستعلى عن النقائص ويتبرأ من الشبهات ويتنزه عن الشهوات ولن نجد هذا النموذج إلا فى كتاب الله، هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

إن المنهج المطلوب لقيادة النفس البشرية وسياستها كان لابد أن يكون ربانيا، لأن خالق النفس ـ سبحانه وتعالى ـ هو الأعلم بأسرارها والأقدر على طبها وعلاجها، فهو الخبير بمنحنياتها ودروبها والبصير بطبيعتها وحقيقتها العليم بضروراتها وأشواقها:

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾

(الملك: ١٤)

واليوم تعود مصر إلى أبنائها بعد أن سقطت الموانع، وتهيأت الأسباب لتختار الأمة طريقها وتستعيد مجدها، وتحدد هويتها، وتحقق أهدافها وبعد أن عانت طويلا من كابوس أسود على مدى القرن العشرين من احتلال بغيض وحزبية مقيتة وانتهازية رخيصة وزعامات جوفاء ومغامرات مراهقة لا تتحسب للنتائج، ولا تستشعر قداسة الأمانة، حتى أوصلتنا إلى تلك الحال.

لكننا اليوم نعود وقد زالت حجتنا وانكشفت أعذارنا ولم يبق أمامنا إلا أن نرى الله منا ما يرضى به عنا مستشعرين حقيقة قوله تعالى:

﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾

(الأعراف: ١٢٩)

وحتى نكون فى مأمن من التجارب الحمقاء والمغامرات الفاشلة كان لابد أن نعود إلى الخالق الحكيم نسترشده ونستهديه ونستعينه فهو وحده الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وأول خطاب يتوجه به الخالق الحكيم ليرفعنا إلى مقام الأمانة ويهيئنا إلى قيادة البشرية ويشرفنا بالشهادة على الناس هو خطاب إلى الضمائر والسرائر ليعالج به النوايا والخفايا مما لا يطلع عليه أحد ولا تقوى على رصده قوة فى الأرض، وإنما الذى يعلم دقائقه وحقائقه هو الخالق وحده فيقول سبحانه:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾

(النساء: ١٣٥)

انه نداء للذين آمنوا بصفتهم الجديدة، تلك الصفة التى ولدت فيهم فولدت معها مبادئهم وأهدافهم وولدت معها المهمة الجديدة التى تناط بهم والأمانة العظيمة التى وكلت إليهم، أمانة القوامة على البشرية والحكم بين الناس بالعدل، وهى لمسة من لمسات المنهج التربوى الحكيم تسبق التكليف الشاق الثقيل:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾

(النساء: ١٣٥)

أنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال، القسط الذى يمنع البغي والظلم في الأرض، والذى يكفل الإنصاف والعدل بين الناس، والذى يعطى كل ذى حق حقه من المسلمين ومن غير المسلمين، وفي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأصدقاء والأعداء ويتساوى الفقراء والأغنياء دون النظر إلى أحوالهم أو طبيعة معايشهم، فالعدل المطلق هو مراد الله من خلقه دون أية اعتبارات أخرى، فلا مجاملة للقوى خشية قوته، ولا للغنى طمعاً في غناه أو الجبار خشية بطشه أو الضعيف شفقة عليه.

إنه لابد من ضوابط للحياة، حياة المرء مع نفسه التي بين جنبيه، وحياته مع غيره من الناس من الأقربين أو الأبعدين من الأهل والعشيرة من الجماعة والأمة ومن الأصدقاء والأعداء ثم حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهى أساس الحياة وهذه الضوابط لم تترك لاجتهادات البشر وإنما تكفل الحق سبحانه ببيانها وربطها كلها به سبحانه وخاطب نبيه بقوله:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الجاثية: ١٨)

وهذه الضوابط هي التي سماها ربنا بالعقود وأمرنا بالوفاء بها بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

(المائدة: ١)

وعندما تنتصب الشريعة حاكمة بعد أن تكون قد امتزجت محبتها في المشاعر والضمائر فلن تترك الأمر للأهواء الغالبة أو الشهوات المتقلبة، أو المصالح العارضة التى يراها فرد أو حزب أو تراها مجموعة أو أمة أو يراها جيل من الناس فيحطمون في سبيل تلك الأهواء ما شرعه الله من هذه الضوابط لثقتهم بأن أهواءهم هي المصلحة ويتسون أن هذه الضوابط التى حققها الله هى «المصلحة» ما دام أن الله هو الذى أقامها للناس، ولو رأى فرد أو حزب أو جيل أو مجموعة من الناس أن المصلحة غيرها فقد أساء الأدب مع الله، فالله يعلم والناس لا يعلمون.

وأمام جدية الإيمان بالله وصدق اليقين به لا يبقى لأهواء النفس مجال باسم الليبرالية أو العلمانية لكي يتشدق بها كل متبجح جهول، وكل انفلات من ضوابط الخالق وكل ميل لسواها هو خضوع للأهواء وانقياد لها مرده إلى ضعف الإيمان بالله وتغليب سلطان النفس والهوى على سلطانه سبحانه وتلك هى عبادة الهوى التى حذرنا الله منها بقوله:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ٢٣)

وفي مقابل هذه الأهواء التى تتعدد بتعدد أصحابها تبرز الضوابط الإلهية، والتشريعات الربانية حكيمة بحكمة الله، كاملة بكماله عادلة بعدله، وهذا ما يجعل الإنسان في أمان كامل، واطمئنان عميق عندما يستمع إلى قول الخالق سبحانه وتعالى يخاطب نبيه مبينا له منهج التشريع في الأرض:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١٥)

أننى لا أجد ما أتقدم به إلى أهلى وإخوتى وأبناء وطنى في هذه الظروف الضبابية الخادعة التى أغرت كل صاحب هوى أن يفصح عن باطله وأن يتبجح بهواه إلا أن أضع أمام عينيه ملامح الطريق وأضيئ بين يديه أنوار الحق:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾

(النساء: ١٦٥)

وحتى لا يبقى لمحتج حجة ولا لمعتذر عذر.

إن مصر التى عانت من محاولات الاستعمار ومكائده على مدى قرنين من الزمان لن تسلم رقبتها لتلامذته وصبيانه ممن برزوا اليوم منتهزين مناخ الحرية ليطمسوا معالمها ويغيبوا دينها ويضللوا أبناءها وليعودوا بها مرة أخرى فريسة للأهواء والأوهام والشبهات والشهوات متجاوزين بها عن عمد وقصد منهج الخالق الحكيم الذى أنزله نورا وهدى للناس وضمن به السعادة والهداية لعباده وكتب على من خالفه ضنك العيش وضلال الوجهه.. وشقاء الحياة في قوله تعالى:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣ - ١٢٤)

هذه صيحة حق أعلنها لله قاصدا بها الإعذار والإنذار قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه درهم ولا دينار:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء: ٨٨)

●●●

خلافة الإسلام



لأمير الشعراء - أحمد شوقي

عادت أغاني العرس رجع نواح ... ونعيت بين معالم الأفراح (١)

كفنت في ليل الزفاف بثوبه ... ودفنت عند تبلج الإصباح (٢)

شيعت من هلع بعبرة ضاحك ... في كل ناحية، وسكرة صاح (٣)

ضجت عليك مآذن، ومنابر ... وبكت عليك ممالك، ونواح

الهند والهة، ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحاح (٤)

والشام تسأل، والعراق، وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

وأتت لك الجمع الجلائل مأتما ... فقعدن فيه مقاعد الأنواح (٥)

(*) ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة، تلك النصر الحاسم الذي كان حديث الدنيا والذي تم على يد مصطفى باشا كمال في سنة ١٩٢٢ - حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، ونفي الخليفة من بلاد الأتراك، فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، وينبه العالم الإسلامي إلى اعتداء النصح الجاري لعله يبني ما هدم، وينصف من ظلم.

١- الأغاني: جمع أغنية، وهي ما يترنم به ويتغنى فيه من شعر ونحوه، والرجع: ما يرد في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالم: جمع معلم، وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

٢- تبلج الإصباح: إشراقه وظهوره.

٣- الهلع: الجزع الشديد، والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل: هي تحلب الدمع.

٤- الوالهة: الحزينة، أو التي ذهب عقلها حزنا. وسحاح: كثير السح، وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

٥- الجمع: واحدتها جمعة، وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم. والأنواح: النائحات.

يا للرجال لحرة موءودة ... قتلت بغير جريرة وجناح (٦)

إن الذين أست جراحك حربهم ... قتلتك سلمهمو بغير جراح (٧)

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم ... موشية بمواهب الفتاح (٨)

نزعوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح (٩)

حسب أتى طول الليالي دونه ... قد طاح بين عشية وصباح (١٠)

وعلاقة فصمت عرى أسبابها ... كانت أبر علائق الأرواح

جمعت على البر الحضور وربما ... جمعت عليه سرائر النزاح (١١)

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... في كل غدوة جمعة ورواح

بكت الصلاة، وتلك فتنة عابث ... بالشرع، عربيد القضاء، وقاح (١٢)

أفتى خزعبلة، وقال ضلالة ... وأتى بكفر في البلاد بواح (١٣)

إن الذين جرى عليهم فقهه ... خلقوا لفقه كتيبة وسلاح

إن حدثوا نطقوا بخرس كتائب ... أو خوطبوا سمعوا بصم رماح

٦- الموءودة: التي تدفن حية في التراب. والجناح: الإثم.

٧- أست جراحك: داوتها. السلم: الصلح، والسلام أيضا.

٨- يقال: هتك الستر ونحوه: خرقه، أو جذبه فقطعه من موضعه، أو شق منه جزءا فبدا ما وراءه. وموشية: منقوشة منمنمة. والفتاح: من أسماء الله تعالى.

٩- نضوا: خلعوا. والأعطاف: جمع عطف، وهو الجانب من كل شيء. والوشاح: شبه قلادة ينسج من جلد عريض، ويرصع بالجوهر، فتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها.

١٠- طاح: ذهب.

١١- البر: الصلة، والرفق. والنزاح: البعيدون: جمع نازح.

١٢- العربيد: الشرير، والكثير العربدة، وهي سوء الخلق من السكر. والوقاح: ذو الوقاحة، وهي قلة الحياء.

١٣- الخزعبلة: الفكاهة، والمزاح. أما الباطل فهو الخزعبيل والخزعبل. ويقال: جاء بالكفر بواحا: أي بينا. وقيل: جهارا.

أستغفر الأخلاق، لست بجاحد ... من كنت أدفع دونه وألاحي[١٥]

مالي أطوقه الملام وطالما ... قلدته المأثور من أمداحي؟

هو ركن مملكة، وحائط دولة ... وقريع شهباء، وكبش نطاح[١/٦]

أأقول من أحيا الجماعة ملحد ... وأقول من رد الحقوق إباحي؟

الحق أولى من وليك حرمة ... وأحق منك بنصرة وكفاح

فامدح على الحق الرجال ولمهمو ... أو خل عنك مواقف النصاح

ومن الرجال إذا انبريت لهدمهم ... هرم غليظ مناكب الصفاح[١٦]

فإذا قذفت الحق في أجلاده ... ترك الصراع مضعضع الألواح[١٧]

أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح ... إن الجواد يثوب بعد جماح[١٨]

إن الغرور سقى الرئيس براحه ... كيف احتيالك في صريع الراح؟

نقل الشرائع، والعقائد، والقرى ... والناس نقل كتائب في الساح[١٩]

تركته كالشبح المؤله أمة ... لم تسل بعد عبادة الأشباح

هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو ... حتى تناول كل غير مباح

غرته طاعات الجموع، ودولة ... وجد السواد لها هوى المرتاح

وإذا أخذت المجد من أمية ... لم تعط غير سرابه اللماح[٢٠]

١٥- أدفع دونه: أرد عنه بالحجة. ألاحي: من الملاحاة.

١/٦- القريع: الغالب في المقارعة وهي أن يضرب الأبطال بعضهم بعضا. والشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.

١٦- المناكب هنا: الجوانب والنواحي. والصفاح: حجارة عريضة رقيقة.

١٧- الأجلاد والتجاليد: جسم الإنسان وبدنه.

١٨- الغازي: مصطفى كمال، وهو أيضا المراد بالرئيس في البيت التالي.

١٩- الساح: جمع ساحة، والمراد ساحة الحرب.

٢٠- اللماح: اللماع.

من قائل للمسلمين مقالة ... لم يوحها غير النصيحة واح؟

عهد الخلافة في أول ذائد ... عن حوضها ببراعة نضاح[٢١]

حب لذات الله كان، ولم يزل ... وهوى لذات الحق والإصلاح

إني أنا المصباح، لست بضائع ... حتى أكون فراشة المصباح[٢٢]

غزوات (أدهم) كللت بذوابل ... وفتوح أنور فصلت بصفاح[٢٣]

ولت سيوفهما، وبان قناهما ... وشبا يراعي غير ذات براح[٢٥]

لا تبذلوا برد النبي لعاجز ... عزل، يدافع دونه بالراح[٢/٦]

بالأمس أوهى المسلمين جراحة ... واليوم مد لهم يد الجراح[٢٦]

فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى (الكذاب) أو لسجاح[٢٧]

ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يباع الدين بيع سماح

يفتي على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس، وحقدها الملحاح[٢٨]



٢١- الذائد: الحامي الدافع والنضاح: الدافع أيضا.

٢٢- الفراشة حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج حتى يحترق.

٢٣- الذوابل: صفة الرماح، والصفاح: جمع صفح، وهو عرض السيف. وأدهم وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام.

٢٥- القنا: جمع قناة والشبا: جمع شباة، وهي حد كل شيء. البراح: الزوال.

٢/٦- العاجز العزل: حسين بن علي شريف الحجاز. الراح: جمع راحة وهي بطن الكف.

٢٦- بالأمس أوهى.. إلخ: الموصوف بهذا العمل هو حسين بن علي أيضا وهو إشارة إلى خروجه على المسلمين وموالته أعداءهم في الحرب الكبرى.

٢٧- يريد أن تنحي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها من لا يصلح لها، وجعل الدعاة إليها الطامعين يجهرون بكل مكان، والمراد بالكذاب: مسيلمة الكذاب، وسجاح: امرأة كانت تدعي النبوة.

٢٨- المراد بذهبه وسيفه: المال الذي كان يبذل لمن أطاعوه، والعقاب الذي كان يصيب من خالفوه.

الفتح الإسلامي لمصر



٧



للأستاذ الدكتور / محمد سليم العوا

ظلم المحتل.. وعدل الفاتح (٤)

عندما استعصت عقيدة المسيحيين المصريين على محاولات الأباطرة الرومان الذين حاولوا ـ واحداً بعد آخر ـ فرض العقيدة القائلة بالطبيعتين للسيد المسيح، على المسيحيين المصريين، عيّن هرقل سنة ٦٣١م أسقفاً على الإسكندرية وحاكماً على مصر يدعى قيرس أوسيروس.

كان المعتاد من قبل أن ترسل الدولة الرومانية الشرقية حاكماً سياسياً أو عسكرياً يحكم مصر، وترسل أسقفاً للملكانيين، الذين يتبعون مذهبها في العقيدة المسيحية لتكون له الرئاسة الدينية عليهم. لكن هرقل جمع السلطتين الدينية والسياسية لرجل واحد هو قيرس أوسيروس، وقد مر ذكره معنا من قبل.

ويبدو ـ من قراءة أحداث مرحلة توليه حكم مصر ـ أن هذا الرجل كان ضيق الصدر، فلما وجد أن استمالة الأقباط إلى المذهب الديني الذي تؤيده الإمبراطورية الرومانية الشرقية غير ممكنة، أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً، فنفر منه المسيحيون المصريون الذين أرسل لاسترضائهم، ونفّر الاضطهاد الذي مارسه على المصريين هؤلاء من الولاء للدولة الرومانية[١].

«لقد أزال سيروس بتصرفاته كل ولاء للقسطنطينية، فقد أخذ يتعقب ويطارد أساقفة الأقباط، والقوميين من الأقباط كان عليهم إما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم»[٢].

(١) هـ. جيرس بل. مصر من اسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة د. زكية عبداللطيف على، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣م، ص١٩٤.

(٢) عبدالعزيز جمال الدين، تاريخ مصر، ج١ ص٣٢٢.

«ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذى أنزله المقوقس بالأرثوذكسيين لكى يدخلوا فى الأمانة (المذهب) الخلقيدونية، ضل جماعة منهم لا يحصى عددها. قوم بالعذاب، وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخداع، حتى أن كيروس أسقف نيقوس، وبقطر أسقف الفيوم، وكثيرين منهم خالفوا الأمانة الأرثوذكسية؛ لأنهم لم يسمعوا وصية الأب المغبوط بنيامين ولم يختفوا كغيرهم. فصادهم بصنارة ضلالته فضلوا بالمجمع الخلقيدونى»[٣].

وقد سبق هذا الاضطهاد، الذى مارسه المقوقس، ولم يستنقذ المصريين منه إلا الفتح الإسلامى سنة ٦٤١ / ٢٤ هـ، اضطهاد أقسى عانى المصريون منه أشد المعاناة؛ ذلك هو الذى بدأه الإمبراطور الرومانى الوثنى (دقلديانوس). كانت مصر ولاية رومانية منذ سنة ٣٠ق.م، وجعل الرومان لليونان واليهود المقيمين فى مصر محاكم خاصة بهم تقضى بينهم بقوانين تسرى عليهم وحدهم، ولا تطبق قوانين الدولة الرومانية. فكان لليونان ولليهود فى مصر تحت الاحتلال الرومانى وضع ذوى الامتيازات الأجنبية فى مصر تحت الاحتلال البريطانى. أما المصريون، أهل البلد المحتل، فقد طبقت عليهم القوانين الرومانية التى لا يعرفونها ولا يطمئنون إليها. وكانت القوانين الرومانية تسرى على المصريين دون سواهم، وكانت محاكماتهم تجرى أمام المحاكم الرومانية التى لا تضم أى عنصر مصرى فى تشكيلها. فأثار هذا التمييز، غير المسوّغ، بينهم وبين غير المصريين، من اليونان واليهود، غضب المصريين ونقمتهم، لاسيما أن الحاكم الرومانى كان مطلق اليد فى شأنهم[٤]. وكان هذا النوع من التمييز المجحف بالمصريين مستمراً منذ بدء الاحتلال الرومانى سنة ٣٠ق.م اقترن به فى فترات مختلفة اضطهاد مادى تمثل فى الحبس والتعذيب والنفى بسبب الاختلاف العقدى.

لكن الاضطهاد الأكبر للمسيحيين المصريين كان فى عهد دقلديانوس الذى حكم الإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٢٨٤م إلى سنة ٣٠٥م[٥]. ولا يتفق المؤرخون المسيحيون المصريون على الواقعة التى أدت إلى هذا الاضطهاد.. فعند يوحنا النقيوسى أن الإسكندرية ومصر رفضتا الاعتراف بدقلديانوس امبراطوراً والخضوع لسلطانه[٦].. وعند يعقوب نخلة روفيلة أن الحاكم الرومانى لمصر (أخيلاوس) أراد الاستقلال بها، وأن الأقباط انحازوا إليه

(٣) ساويرس بن المقفع، تاريخ البطاركة، ج١ ص٤٧٢.

(٤) يعقوب نخلة روفيلة، تاريخ الأمة القبطية ص٢٣ ـ ٢٤، عبدالعزيز جمال الدين، السابق، ج١ ص٢٢٢.

(٥) يوحنا النقيوسى، ط عمر صابر عبدالجليل، ص ٩١، وهو يبين المدة التى حكم فيها منفرداً وبالاشتراك مع مكسيميان والقنصلين اللذين يختلف اسماهما فى طبعته عن اسميهما فى طبعة القمص بيشوى عبدالمسيح، راجع ص٦٢ من هذه الطبعة.

(٦) يوحنا النقيوسى، ط القمص بيشوى، ص٦٢.

نظراً لسوء معاملة الرومان لهم واضطهادهم إياهم[7]. وعند ساويرس بن المقفع أن دقلديانوس «فى السنة التاسعة عشرة من حكمه (= 303) وصلت كتبه إلى الإسكندرية ومصر (بعبادة الأصنام)..»[8] فلما أبى القبط أن يتحولوا عن دينهم السماوى إلى عبادة الأوثان كان ذلك سبب بدء الاضطهاد الذى أمر به دقلديانوس.

وأياً ما كان السبب الذى حرك دقلديانوس ضد المسيحيين المصريين، فإن إجماع مؤرخى المسيحية المصرية منعقد على أنه أنزل بالمصريين أشد صنوف العذاب وأبشع صوره، حتى إن الكنيسة المصرية جعلت مبدأ تأريخها هو سنة 284م (السنة الأولى لولاية دقلديانوس)، وأسمت تأريخها بتأريخ الشهداء، فى إشارة إلى الذين ضحوا بحياتهم من أجل إيمانهم فى أول المسيحية.

نقرأ فى تاريخ ساويرس بن المقفع، المسمى بتاريخ البطاركة، أن دقلديانوس «أنزل البلايا على النصارى، وأخرب كنائس الله، وقتل خلقاً كثيراً بالسيف، وهرب المؤمنون بالمسيح للبرارى والكهوف والمغاير[9]. فحينئذ أقام دقلديانوس حراساً وحفظة فى كل مكان، من كورة مصر[10] والصعيد الأعلى، وأمرهم بقتل كل من يجحدون من النصارى»[11].

واعتقل بطرك الإسكندرية الأنبا بطرس وسجن مقيداً، وأمر دقلديانوس بقتله، وكان ذلك فى قصة طويلة مؤثرة تدل على صبر الأنبا بطرس وشجاعته وإيمانه بدينه[12].

ويكتب يعقوب نخلة روفيلة أن دقلديانوس «حاصر الإسكندرية، وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة واستولى عليها، وحرق المدينة وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، واقتفى أثر أخيلاوس العاصى الذى هرب إلى داخل البلاد فكان دقلديانوس أينما حل يوقع بالنصارى ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبى نساءهم وأولادهم»[13].

ولما هاجم دقلديانوس مدينة الإسكندرية وحاصرها فاستعصت عليه بنى قصراً شرقى المدينة ومكث به زمناً طويلاً لأنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة.. وبعد مرور هذا الزمن خرج بعض أهل المدينة - عندما طال حصارها - وأروه مدخلاً ليدخل منه إليها، «وبتعب كثير ومشقة فتح المدينة، وكان معه جيوش كثيرة لا تحصى.. فألقى النار فى المدينة وأحرق كل شىء، وتسلط عليها.. وكان عابد وثن، ومقرّب القرابين للأرواح النجسة، واضطهد المسيحيين، وكان كالحيوانات المفترسة، وكره كل شىء حسن، وعارض الرب.. وقتل القسس والكهنة والرهبان، رجالاً ونساء وأطفالاً صغاراً، وأراق الدم بكثرة لا تحصى دون شفقة ورحمة.. وكان اضطهاد كل المسيحيين على مدى تسعة عشر عاماً منذ تغلب وحاز النصر على أرض مصر»[14].

وتذكر بعض المصادر أن عدد الذين قتلوا فى أثناء اضطهاد دقلديانوس للأقباط بلغ 800000 نسمة[15].

وبسبب «ما رآه الأقباط من آيات الظلم وقساوة الاضطهادات التى كان يتفنن فيها المضطهدون أرخوا بأول ملك هذا الإمبراطور العاتى ليكون تذكاراً لأولادهم يعرفون منه أنهم لم يشتروا حريتهم الدينية إلا بدم زكى ثمين»[16].

وهكذا تصنع الأمة، أو الجماعة التى لا تريد أن ينسى تاريخها. إن كثيراً من العرب والمسلمين لا يعرفون التاريخ العربى أو الإسلامى، ولا يذكرون أسماء الشخصيات البارزة ممن صنعوه (!) نعم قد تسمى الشوارع بأسمائهم دون أن يعرف الساكنون فى الشارع من هو صاحب هذا الاسم[17] ومن واجبنا أن تستعيد ذاكرة تاريخنا وتستحضرها، وأن تعلم الأبناء والبنات أهم المواقف فيه، فهذا جزء مهم من العمل فى سبيل النهضة العربية الإسلامية المرتقبة.

***

لم يتوقف اضطهاد المسيحيين المصريين بعد دقلديانوس، ولا بعد دخول الإمبراطورية الرومانية فى المسيحية، ذلك أنه بدأ اضطهاد آخر للمصريين بسبب جديد، هو عقيدتهم المخالفة لعقيدة مسيحيى القسطنطينية فى شأن طبيعة المسيح، وبلغ هذا الاضطهاد حداً وصفه معه المؤرخ القبطى يعقوب نخلة روفيلة بأنه أدى بالأقباط إلى «الدمار والاضمحلال»، ونقل روايات وصفها بالمبالغة والمغالاة - تقول إن قتلى الأقباط بلغوا فى يوم واحد بالإسكندرية «مائتى ألف نفس»[18].

ولا نبالغ قط إذا قلنا إن الاضطهاد الرومانى للمصريين المسيحيين استمر منذ تلك الفترة المبكرة فى التاريخ الميلادى حتى القرن السابع الميلادى عندما قدمت طلائع

(7) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص25.

(8) ساويرس بن المقفع، السابق، ص236.

(9) أى المغارات، جمع مغارة.

(10) يقصد المدن، فالكورة هى المدينة.

(11) ساويرس بن المقفع، السابق، ج1 ص236 - 237.

(12) المصدر السابق، ص237 - 261.

(13) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص25 - 26.

(14) تاريخ يوحنا النقيوسى، ط عمر صابر عبدالجليل ص92، وط القمص بيشوى عبدالمسيح، ص 62 - 64.

(15) حسين كفافى، المسيحية والإسلام فى مصر، مكتبة الأسرة، القاهرة 1999، ص 42، وهو ينقل عن إبراهيم صبرى معوض، تاريخ حياة القديس أثناسيوس، دائرة المعارف القبطية، ص98. ومهما يكن فى الرقم من مبالغة فهو يدل على اضطهاد عظيم.

(16) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص25 - 26.

(17) بل إن من المفارقات أن فى حى مدينة نصر بالقاهرة شارع اسمه (شارع أبوداود الظاهرى) وليس فى التاريخ شخص يحمل هذا الاسم!) عندنا (أبوداود) المحدث، وعندنا علماء آخرون يحملون هذه الكنية، وعندنا (داود بن على الظاهرى) مؤسس مذهب الظاهرية، فجمع الذى سمى الشارع بينهما واخترع شخصاً لا وجود له!)

(18) يعقوب نخلة روفيلة، المصدر السابق، ص28، وقد صنع الدكتور جوزيف جبر (محقق الكتاب) حاشية نفى فيها وصف ذلك الاضطهاد بالدمار والاضمحلال مستدلاً باستمرار الوجود القبطى حتى الآن. لكن هذا النفى لا يقدح فى صدق شعور المؤرخ بالآثار الخطيرة لهذا الاضطهاد.

الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص. ولم يكن الاضطهاد كله على ضرب واحد من التعذيب والقتل وما إليهما، بل إنه تنوع إلي ضروب عدة لكنه بقي اضطهاداً على كل حال[19].

***

وإذ كان هذا هو حال المصريين تحت حكم الرومان، عدة قرون قبل الفتح الإسلامي لمصر، فإنه ليس غريباً، ولا يجوز أن يزعم زاعم أنه أمر مستنكر ـ كما يزعم بتلر ـ أن يكون القبط عوناً للمسلمين علي فتح مصر، منذ بداية مسيرة ذلك الفتح، عملا بكتاب بنيامين إلي قبط مصر الذي أخبرهم فيه بانقطاع ملك الروم، وأمرهم بتلقي عمرو بن العاص فامتثلوا لرأيه، حتي لقد نقل لنا التاريخ عبارات مثل: «فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً»[20]. «وخرج عمرو بن العاص.. وخرج معه جماعة من رؤساء القبط.. وصارت لهم القبط أعواناً علي ما أرادوا من قتال الروم»[21]. ولما تحصن الروم بالاسكندرية وحاصرهم جيش المسلمين كان «معهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة»[22].

وفي أثناء الفتح «أخذ الناس يساعدون المسلمين»[23]. «وكان هناك انشقاق كبير يسود الوجه البحري وكانوا منقسمين إلى فريقين: أحدهما مع تيودور (قائد الرومان) والآخر يريد الانضمام إلى المسلمين وفي الحال نهض قسم على آخر، ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم بالنار، وكان المسلمون يخشونهم»[24].

ويؤكد هذه الحقيقة ما حدث من مساعدة القبط للمسلمين عند الفتح الثاني للإسكندرية (سنة ٢٥هـ) بعد أن نقض الروم عهدهم وأعادوا احتلال المدينة بقيادة منويل (الذى تصفه المصادر العربية بالخصى) إذ لا شك أن البطريرك بنيامين، الذى أعاده عمرو بن العاص إلى الإسكندرية، بعد أن ظل هارباً عشر سنين[25] من الاضطهاد الروماني، «وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ويظهرون لهم الود، حافظين بذلك عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الإسكندرية»[26]. وكان العرب وهم يتتبعون فلول الروم بعد هزيمة جيش منويل يلقون «مساعدة من قرى القبط حيث ساروا، فكانوا يأتون إليهم بمن يقيم لهم الجسور، ويقدمون لهم ما كان فى استطاعتهم تقديمه»[27]، وكان «القبط يمالؤون العرب راغبين وهم على عهد معهم (أى صلح بابليون أو صلح الإسكندرية)»[28]. «إذن ما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان. كانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين، فأصبحوا (أى بالفتح الإسلامى) وقد فك قيدهم فى أمور الدنيا، وأرخى من عنانهم. وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق. وقد يقال إن حكامها (أى حكام مصر) الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض ديناً غريباً غير دين المسيح، وهذا حق. غير أنهم لم يروا فى ذلك إلا عدلا من الله، إذ أجمع الناس على قول واحد، فقالوا: ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس.. إن التاريخ لن يحكم إلا بأن العسف وسوء الحكم هما اللذان هويا بدولة الروم بغير شك إلى الضياع وزوال السلطان»[29]. وفيما يرويه ساويرس بن المقفع عن البطريرك بنيامين أنه كان يشكر الله أن رده إلى مدينته الإسكندرية ونجاه من محاربين مخالفين واضطهادهم له[30]، وينقل ساويرس عن أسقف نيقيوس باسيليوس ثناءه على عطاء الله المتمثل فى نجاة بنيامين من التنين العظيم الطاغى الذى كان يطارده[31]، وينقل بتلر هذه النصوص ويعلق عليها بقوله: «إن هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم فى قيد

(١٩) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص٣٦ حيث يشير إلى طرد القبط من جميع الوظائف الحكومية قصداً إلى اذلالهم. وهكذا يصنع الظالمون أبداً: يحطون مفاتيح الأرزاق بأيديهم ليذ شحوا الرعية لهم(!)

(٢٠) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٨٠.

(٢١) المرجع السابق، ص ٩٦، والرواية هنا عن مسير عمرو لفتح الاسكندرية.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٩٧، والعلوفة علف الخيل والابل ونحوهما.

(٢٣) عبدالعزيز جمال الدين، السابق، ص ٤٩١، وهو يحيل الى ديوان حنا النقيوسي، وينقل العبارة نفسها، عن المصدر نفسه، أحمد عادل كمال، ص ١٦٨ لكن الموضع الذي يشيران اليه من كتاب يوحنا النقيوسي لا يشير الى (الناس) بهذا العموم، ولكنه يشير الى الحكام، ويبدو أنهم حكام القرى والمدن الصغيرة التي كانت بين بابليون واسكندرية، كما في ترجمة القمص بيشوى عبدالمسيح ص ٢٠٩. وفي ص ٢١٠ يقول ان فيلق الشرطة كلها رفضت محاربة المسلمين . وفي طبعة عمر صابر عبدالجليل يذكر أن جميع الميليشيات المسلحة أبت محاربة المسلمين، ص ١٩٧.

(٢٤) يوحنا النقيوسي، ط بيشوى عبدالمسيح، ص ٢١٨، وط عمر صابر عبدالجليل ص ٢٠٧.

(٢٥) مدة اختفاء بنيامين كانت في الواقع ١٣ سنة منها عشر سنوات قبل الفتح الاسلامي وثلاث بعده. وسبب ذلك أن الفتح احتاج الى هذه المدة ليشمل أرض مصر كلها، وأن عمرًا لم يعلم بقضية بنيامين واختفائه الا من رجل قبطي يقال له (شنودة = سانثيوس) كان يسير مع جيش المسلمين من مكان الى مكان، فلما استقرت الحال أخبر عمراً بقصة بنيامين فكتب عمرو كتاب أمان له مشهوراً عند المؤرخين، راجع: ساويرس بن المقفع، السابق، ص ٤٨٢؛ ويوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوى، ص٢٣٢، وط عمر صابر، ص٢٢٠.

(٢٦) عبدالعزيز جمال الدين، السابق، ص ٦٥٤، وهو ينقل من بتلر، ص ٤٦٠، دون اشارة اليه.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٦٥٥.

(٢٨) المصدر نفسه ص ٦٥٦، وهو ينقل من بتلر ص ٤٦٠ - ٤٦١ بغير عزو!

(٢٩) الفريد بتلر، المرجع السابق، ص ٣٨٧، نيرين مثنى نير، وهو الشدة والقوة، ويقال للحرب القوية الشديدة: ذات نيرين، راجع: ابن منظور لسان العرب، مادة (ن ي ر).

(٣٠) ساويرس بن المقفع، السابق، ص٦٠٣.

(٣١) المرجع السابق، ص٦٠٩.

الذل، بل يتم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص»[٣٢].

وعلى الرغم من عدم حياد يوحنا النقيوسي، الظاهر في كتابه كله، فإنه لم يملك إلا أن يقول: «كان موقف عمرو يصير أكثر قوة يومًا بعد يوم، وأمر عمرو برفع الضرائب التي كانت مفروضة على الكنائس، كما لم يرتكب أي عمل من (أعمال) السلب أو النهب، بل كان يحميها (أي الكنائس) خلال حكمه»[٣٣]، وهذا النقل الذي ينقله يوحنا النقيوسي عن صنيع عمرو في مصر ينقض كل ما أورده، مما يخالف ذلك، في كتابه[٣٤] فعلى الرغم من أن يوحنا النقيوسي يذكر في كتابه- كما أشرنا إلى ذلك آنفا- أن «الحكام بدءوا في مساعدة المسلمين، وأن فيلق الشرطة كلها رفضت محاربة المسلمين، وأنه يذكر أنّ: «الجنرال تيودور والقائد دومنتيانوس لم يقدرا على إساءة معاملة سكان المدينة (ربما كان المقصود مدينة منف) بسبب المسلمين المتواجدين فيها»[٣٥]، وعلى الرغم مما نقلناه عنه من عدل عمرو بن العاص، وحمايته الكنائس وأموالها، وإعادته البطريرك بنيامين إلى كرسيه في الإسكندرية، فإنه لا يتورع عن أن يقول «فليوقع الله هذا العقاب (أي الموت غرقًا كفرعون وجنوده) على الإسماعيليين (أي المسلمين)، وأن يعمل بهم كما فعل مع فرعون القديم! فإنه بسبب خطايانا سمح الله لهم أن يعاملونا هكذا. ولكنه يطول أناته سينظر إلينا ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وينقذنا. وأكثر من هذا فنحن ننتظر بأنه سيفنى أعداء الصليب كما هو مكتوب في الكتاب الحق»[٣٦].

ولذلك، وأمثاله، وهو غير قليل في كتاب يوحنا النقيوسي، يقول أحمد عادل كمال، في إيجاز بليغ: «حين يدهش المسلمون المعاصرون من تحامل بعض القبط فقد نجد تفسير ذلك فيما كتب يوحنا النقيوسي ومن نقل عنه. فليس كل من يقرأ يبحث ويحقق ويصبر على ذلك»[٣٧]. معنى كلام أحمد عادل كمال أن سر الحملات الطائفية المتعصبة التي يقع فيها نفر من الأقباط هو أنهم نُشئوا على كتابات يوحنا النقيوسي وأمثاله، وهي كتابات يتشيع قارئها، إن لم يبحث عن الحقيقة خارجها، بروح طائفية بغيضة تنسيه وحدة الوطن وأهله، وتوقعه في شرك الفكر المتعصب بالحق وبالباطل لطائفته.

ويبطل كلام يوحنا النقيوسي- فضلا عن إبطاله إياه بتناقضه- كلام مؤرخين مسيحيين آخرين: «لما شرع عمرو في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين على عمارتها ولاسيما رجال الحكومة الذين كان معظمهم، إن لم نقل كلهم، من الأقباط فشيدوا بها القصور العالية، والدور الرحبة (يعني لسكنى هؤلاء الأقباط) والكنائس والديارات الواسعة والمتنزهات والبساتين النضرة، وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران، .... وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمن حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام، على حين أن المسلمين كانوا يصلون ويخطبون في الخلاء، أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص»[٣٨].

«ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد، وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها، استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معا. فقسّم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطي له اختصاصات وحدود معينة.. وعين نوابا مخصوصين من الأقباط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، فكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني هي ميزة كانوا قد جرِّدوا منها في أيام الدولة الرومانية.. وضرب الخراج على البلاد (= الضرائب على الأرض الزراعية) بطريقة عادلة، وولّى عليه متوليًا من ذويه يقبضه على أقساط في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد. ورتب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية وكانت كلها تجرى باللغة القبطية»[٣٩].

ولنقف هنا عند الفرق بين صنيع عمرو بن العاص في الشأن القضائي والإداري وتمكينه الأقباط من توليهما، وعند صنيعه في شأن المال العام، الذي يقتضي دقة وأمانة ومحاسبة للعامل عليه دائمة، فقد ولاه رجلا من المسلمين يستطيع متى اقتضت الحال أن يحاسبه، أو يعاقبه، دون أن يتهم بظلم أو تعصب. وهذا من الحنكة السياسية والإدارية لعمرو بن

(٣٢) ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٨٦.

(٣٣) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوى، ص ٢٢٢، وط عمر صابر عبدالجليل، ص ٢٢٠.

(٣٤) يجب مراجعة تقويم أحمد عادل كمال ليوحنا النقيوسي وكتابه، في الفتح الإسلامي لمصر، ص ١٣٨ - ١٥٠.

(٣٥) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوى، ص ٢١٦.

(٣٦) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوى عبدالمسيح، ص ٢٢٦، وط عمر صابر عبدالجليل، ص ٢٢٩.

(٣٧) أحمد عادل كمال، الفتح الإسلامي لمصر، ص ١٤٧.

(٣٨) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ج١ ص ٥١-٥٢.

(٣٩) المصدر السابق، ص ٥٦-٥٧.

العاص، وحسن تصوره لحال المصريين بعد قرون الاضطهاد الروماني.

وفي مقابلة هذا، نقرأ عند نعوم شقير، عن عهد الرومان، أنه: «لم يكن يسكن الإسكندرية مصري إلا ويشعر أنه من شعب مغلوب على أمره؛ لأنه لم يكن يتمتع بالحقوق المدنية التي كان يتمتع بها اليونان واليهود من سكان تلك المدينة، مع أنه لم يكن يدخل تلك المدينة يهودي أو يوناني إلا كانت تعطى له تلك الحقوق بحال دخوله، وبقيت هذه الحال.. إلى أن استولى العرب على الإسكندرية في أيام عمرو بن العاص»[٤٠].

وعلى الرغم مما كان في نفوس القبط من مرارة ضد المسيحيين الملكانيين بسبب الاضطهاد الذي أصاب القبط على يد الروم ومن والاهم من أتباع مذهبهم، فإنهم لم يتمكنوا - تحت حكم المسلمين - من الاقتصاص منهم، ذلك «أن عمرًا كان في حكمه يسير على نهج الاعتدال والتسامح، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين، ولدينا كثير من الأدلة على صدق هذا الرأي... وعلى هذا لابد لنا أن نقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبًا إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم، ويحمونهما جميعًا بحمايتهم»[٤١]. والظاهر «أن العرب كانوا أخف وطأة من الروم في جباية الأموال»[٤٢]. وكان العرب الفاتحون هم أول من تسمى بالمصريين، ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها، كما أنف اليونان والرومان من قبلهم»[٤٣].

«وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان»[٤٤]، لذلك لم يكن عجيبًا ولا مستغربًا أن يدخل القبط في الإسلام منذ وصلت طلائع المسلمين أرض مصر، وأن يستمر اعتناق المصريين للإسلام، على مدى نحو قرنين من الزمان، أصبحت مصر في خلالهما تلك الدولة الإسلامية التي نعرفها.

***

(٤٠) نعوم شقير، تاريخ سيناء بين القديم والحديث، ص ٧٠٥. ويتأمل في قوله هذا من شاء، ويقارن صنيع الاحتلال الروماني في مصر بصنيع الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي لايزال مستمراً حتى الآن.

(٤١) ألفريد بتلر، السابق، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٤٢) المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٤٣) مصطفى كمال الشريف، عروبة مصر من قبائلها، ص ٢٤، وهو ينقل عن محمود كامل، عروبتنا، ص ٥٠.

(٤٤) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ج ١ ص ٤٧.

من عيون التراث

بحر الدموع

تأليف:
ابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج
(٥١٠هـ - ٥٩٧هـ)
القاهرة:
مكتبة مصر

التعريف بالمؤلف:

هو الشيخ الإمام العلامة جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن عبدالله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن القاسم بن النضر ابن القاسم بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي البكري البغدادي الحنبلي، اشتهر الحافظ أبو الفرج بالجوزي. ولد سنة (٥١٠هـ)، ومن شيوخه أبو القاسم بن الحصين، وأبو سعد أحمد بن محمد البغدادي الحافظ وغيرهم، ومن تلاميذه ابن البخاري وابن أبي الخير. من مؤلفاته زاد المسير، وفنون الأفنان، وتلبيس إبليس وغيرها. توفي سنة (٥٧٩هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في «١٢٨» صفحة من القطع المتوسط مشتملة على الفهارس. ينقسم الكتاب إلى اثنين وثلاثين فصلاً.

تناول الفصل الأول: المجتهدون بالليل أصحاب القرآن، وأن من تقرب إلى الله تقرب الله إليه، ومن عمل لله تقبله الله.

أما الفصل الثاني: فكان في المماطلة في العمل والطمع في تحقيق أمل ما، مع عدم الأخذ في الاعتبار قدوم الأجل وقربه.

وعرض الفصل الثالث: للمقيمين على الخطايا والعصيان ومدى إصرار العاصي على عصيانه.

ويعتبر الفصل الرابع: تنبيهاً للغافلين والقائمين على الذنوب أن ينتهوا ويتعظوا.

وأشار الخامس: إلى تقييد النفوس بزمام ما، ومن قهر النفس من المهام التى يجب أن يطلع عليها الفرد، وأن الدنيا دار تكليف وامتحان.

أما الفصل السادس: فمثل تنبيهاً لتهيئة الفرد لنفسه للآخرة وأن يعمل لها ويستعد.

وعرض السابع: للدنيا وما فيها وخطاياها الكثيرة التى يمكن أن يقع الفرد فيها.

اهتم الفصل الثامن: بما على الناس أن يقوموا به، وأن عليهم التوجه إلى الله، وأن يتوبوا إليه، وأن عليهم أن يصلحوا ما فسد من أعمالهم.

وتناول الفصل التاسع: ماهية الدنيا وأنها زائلة، فكيف لنا أن نطلب البقاء فيها، فهى مجرد معبر وطريق نأخذه حتى نصل إلى الآخرة.

أما العاشر: فأشار إلى أن ظاهر الفرد قد لا يتفق مع باطنه.

وأشار الحادى عشر: إلى اختلاف أداء الفرد، فعند طلبه للدنيا يسرع، وعندما يطلب الآخرة يمشى رويداً، وأن العمر أمانة يجب أن تعرف كيف تحافظ عليها.

يصف الفصل الثانى: عشر سمات وصفات التائب إلى الله، نهاره صوم، وليله سهر.

وبين الفصل الثالث عشر: أن من أصر على المعاصى فهو فى غفلة من حياته.

وتناول الفصل الرابع عشر: كيف يكون قلب الفرد معمور بذكر الحبيب، وليس فيه لغيره حظ ولا نصيب.

ووجه الخامس عشر: إلى التائبين والتائهين، مع توصية ابن آدم بألا يعلق قلبه بالدنيا.

وعرض الفصل السادس عشر: لقرب الأجل وقرب الموت، وما يمكن أن يقوم به الفرد حتى لا يندم عندما يأتيه الممات.

وتناول الفصل السابع عشر: من أذنب عليه التوبة والصلاح، فكيف يستطيع المذنب أن يعيش فى ذنبه.

واهتم الثامن عشر: بأن على الفرد الاستعداد حتى لا تفاجئه الأيام فيجدها قد انتهت به إلى الممات.

ويوجه الفصل التاسع عشر: الفرد إلى كيف يمكنه أن يشترى آخرته بدنياه، وما يصنعه فى هذه الدنيا ليفوز بالآخرة.

وأشار الفصل العشرون: إلى تغير الفرد من الأحسن إلى الأسوأ يطول بقائه وأمده.

وبين الفصل الحادى والعشرون: أن من أحبه الله حماه من نفسه والآخرين.

وأظهر الفصل الثانى والعشرون: أهمية البكاء والدموع فى غسل الفرد لذنوبه.

وتناول الفصل الثالث والعشرون: تأجيل التوبة، وأن من كان غافلاً فى شبابه عليه أن يفيق من هذه الغفلة.

وعرض الرابع والعشرون: لكيف للفرد أن يرحل دون زاد ويسافر دون عتاد، فكيف له أن لا يخاف مما هو مقبل عليه.

ووضح الفصل الخامس والعشرون: جزاء من اتبع هواه وشهواته، ولم يجعل قرة عينه الصلاة والزكاة والزهد.

وجاء الفصل السادس والعشرون: فى التائبين، وكيف أنهم عمروا قلوبهم بذكر الله والتقوى ووصفهم فى ذلك بالخوف Fear وأذبلهم الأرق Insomnia وهم من القلق Anxiety كل يوم فى شأن (ص٩٤).. كما أشار لمن وسوست له نفسه أمراً وكيف تسيطر هذه الوساوس عليه وفى ذلك إشارة إلى الأفكار الوسواسية Obsession Thoughts (ص٩٦).

اهتم الفصل السابع والعشرون: بكبائر الذنوب، وأن الزنا من أكبر الكبائر التى نهى الله عنها، وأشار إلى أن ممن لا يدخلون الجنة المخنثون.

وعرض الفصل الثامن والعشرون: إلى أن العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت وجزء فى الفرار من الناس.

وأشار الفصل التاسع والعشرون: إلى أبغض عباد الله إلى الله وهم كل طعان ولعان، وأن الغيبة والنميمة يضران الدين.

وأتى الفصل الثلاثون: على ذكر الغيبة وما تفعله بالناس وعلاقاتهم ومجتمعهم، وبين أن الغيبة لا تقتصر على اللسان، ولكنها تشمل كل ما يقع الفرد أو سمعه باليد، أو بالرجل، أو بالإشارة، أو بالحركة، أو بالتعريض، أو بالمحاكاة Imitation والتى قصد بها التقليد (ص١١١).

وانتهى الكتاب بالفصلين الحادى والثانى والثلاثين: والذى ذكر فيهما أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأن الربا من المهلكات وأن طعام المرابى يوم القيامة من شجر الزقوم. كما أشار إلى جزاء من يأكل مال اليتيم، ومن يخون فى الميزان والمكيال، كذلك شارب الخمر، وتارك الصلاة.. وأشار إلى أن هناك عشرة من أمتى يأمر الله - تعالى - بهم يوم القيامة إلى النار منهم مدمن الخمر Alcoholism (ص١٢٥).

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الخوف Fear.
- الأرق Insomnia.
- القلق Anxiety.
- الأفكار الوسواسية Obsession Thoughts.
- المحاكاة Imitation.
- مدمن الخمر Alcoholic.

القائم بالعرض
د. نشوة عبدالتواب حسين

مخطوطات تربوية:

اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم



للأستاذ الدكتور: سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

ما من حضارة اشتد ساعدها ورسخت، فقاضت بصنوف العلوم والفنون وصور التحضر المختلفة على العالمين، إلا ولابد لها من الاستناد إلى عملية شاملة واسعة متعمقة لبناء الإنسان، الذى هو زناد التحضر وغايته، ولعل تأملا بسيطا فى الحضارات الكبرى السابقة، ما يؤكد هذا.

ولم تكن الحضارة الإسلامية بعيدة عن هذه القاعدة، خاصة وأنها تستند إلى عقيدة هى بطبيعتها تسعى إلى تشكيل الشخصية الإنسانية تشكيلا يجعل منها صورة مشخصة لأعلى ما يمكن أن يصل إليه الجهد البشرى من استنباط توجيهات المولى عز وجل.

وكما شهدت الحضارة الإسلامية كما يصعب حصره من الكتابات التى استغرقت مجالات المعرفة الإنسانية، سواء ما كان معروفا من قبل أو ما استحدثته، فضلا عما طورته، كان النسق المعرفى التربوى من أبرز الأنساق المعرفية التى أبدع فيها العقل الإسلامى.

ولما كان نهر الحضارة متصل الجريان، حرص بعض الباحثين المعاصرين على أن يتيحوا للأجيال الحديثة فرصة الاطلاع على الجهود التى بذلها علماء السلف على طريق المعرفة التربوية، لا لمجرد التغنى بما كان، والفخر به، وإنما الإفادة به ومنه، فى مواجهة حاضر التعليم واستشراف مستقبله.

ولما كان ما تركه الأسلاف قد كُتب بخط اليد، وتأثر بمرور القرون العديدة عليه، وما تحمله من عوامل سببت تلفا لبعض أجزاء المخطوط، فضلا عن احتمالات الخطأ فى النسخ، وأحيانا التزوير، أو التحريف، سعى بعض من شُغلوا بأمر تحقيق المخطوطات، إلى إحياء هذه الكنوز، والتى منها هذا الكتاب الذى بين يدينا «اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم»، لشيخ الإسلام أبى يحيى الأنصارى

(٨٢٥ - ٩٢٥هـ)، وحققه الدكتور عبدالله نذير أحمد، ونشرته دار البشائر الإسلامية ببيروت، ١٩٩٨م، بعنوان (خزانة العلوم فى تصنيف الفنون الإسلامية ومصادرها)، باعتبار هذا العنوان شرحا لرسالة أبى يحيى.

والمخطوط الذى اعتمد عليه الشارح هو رسالة صغيرة، وجدها الباحث محفوظة (ميكرو فيلم) بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة، تحت (رقم المجاميع ٥/٧/٢٤) استهدف منها أبو زكريا تصنيف العلوم بصورة مختصرة، وهذا المجال المعرفى عنى به كثيرون، من العلماء والمفكرين والفلاسفة المسلمين، ولعل من أمثلة ذلك:

- كتاب (الفهرست) لابن النديم (٣٨٥هـ).
- و (مفاتيح العلوم) للخوارزمى (٣٨٧هـ).
- و (كشف الظنون) لحاجى خليفة.
- و (إحصاء العلوم) للفارابى (٣٣٩هـ).
- و (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم) لابن الأكفانى (٧٤٩هـ).

وغير هؤلاء، كثيرون.

وحرص الأنصارى على أن يرشد المتعلم، قبل أن يلج أبواب العلوم والفنون المختلفة، إلى مجموعة من القواعد والمبادئ، التى تجعل عملية التعلم عملية علمية هادفة دقيقة، لا عملا عشوائيا، وتتلخص هذه القواعد والمبادئ فيما يلى:

١- لكل علم مقاصد تُبتغى به، من الضرورى للمتعلم أن يكون عارفا لها، حتى يلتزم بها، فلا يستهدف من تعلم هذا العلم أو ذاك غير ما وضع له، ومن ثم لا يستهدف أغراضا أخرى مثل كسب مال، أو جاه، أو مغالبة خصم، أو مكاثرة.

وربما يشير هذا إلى ما شاع فى عصور سالفة مما عرف بمبدأ «العلم للعلم»، والذى تحول فى العصر الحديث إلى ما عرف بـ «العلم للمجتمع»، وهى قسمة مفتعلة فى رأينا، فالعالم الذى يصل إلى حقيقة ما، من الطبيعى أن يعقب ذلك سعى منه، أو من غيره إلى الاستفادة منها وبناء حياته وحياة غيره وفقا لها.. كذلك فإن شعار العلم للمجتمع، يستحيل أن يتحقق ما لم يتم الكشف عن الحقيقة العلمية المقصودة.

٢- أن يقصد المتعلم العلم الذى يتسق وما هُيئ له من خصائص واستعدادات وقدرات، إذ يختلف المتعلمون فى مدى قابليتهم لتعلم هذا أو ذاك من صنوف المعرفة، وإذا صلح المتعلم لتحصيل الفرع (أ) فلا يعنى هذا أنه يستطيع أن يحصل مختلف العلوم «بل كل ميسر لما خلق له».

والحق أن كل نظم التعليم فى مختلف دول العالم أصبحت مبنية على هذه الحقيقة التى أكدتها الدراسات النفسية والتربوية، وما عرفناه من أواسط خمسينيات القرن الماضى مما عرف بـ «مكتب التنسيق» للقبول للجامعات، إلا صورة لهذا، حيث يُعتبر مجموع درجات الطالب فى الثانوية العامة مؤشرا لمدى قابلية استعداده لدراسة هذا الفرع أو ذاك، وهو الأمر الذى أحيانا ما يتغافل عنه بعض أولياء الأمور، فيُكرهون

أبناءهم على تخصص بعينه يرون أنه هو الأنسب لأبنائهم، مما قد يكون طريقا مؤديا لفشلهم، إذا لم يبن الاختيار على القدرات والاستعدادات الحقيقية للمتعلم.

٣- ويستوقفنا الشرط الثالث الذى ترى أنه يكرر بصورة أخرى ما قال به الشرط الأول، فهو هنا يقول بضرورة «أن يعلم المتعلم - غاية ذلك العلم، ليكون على ثقة من أمره»، حيث لا ندرى حقا: ما الفرق بين اشتراط «أن يقصد به ما وضع ذلك العلم له»، وبين هذا الذى يقوله هنا؟

نقول هذا، ربما مخالفة لما جرت عليه العادة فى الكتابة عن علماء السلف، حيث نلاحظ لدى الكثرة الباحثة والكاتبة عن هؤلاء، قدرا من «التقديس» الذى يعطل الوقوف موقفا نقديا مما يقولون، ويغلب على كتابتنا عنهم مجرد الشرح، والتبرير، والتقدير.

٤- أن يستوعب المتعلم العلم الذى يسعى إلى تعلمه «من أوله إلى آخره»، وهو الأمر الذى قد نجد تحقيقه صعبا فى أيامنا الحالية، بالنسبة لكثير من العلوم، خاصة تلك التى قطعت شوطا طويلا من التطور والتقدم. وللأنصارى عذره، فقد كان «الكم المعرفى» مما يمكن استيعابه كله لمحدوديته، أما وقد مر على هذا الكلام ما يزيد على الخمسمائة عام، فى ظل ما أصبح يعرف بـ «ثورة المعلومات»، والانفجار المعرفى، يصبح من المستحيل استيعاب بعض العلوم استيعابا كاملا.

٥- أن يتجه المتعلم فى تحصيله إلى «الكتب الجيدة المستوعبة لجملة الفن»، وهذا لعمرى ما ينقص بعض باحثى اليوم الذين نَخبُرهم فى قراءاتنا لرسائلهم للماجستير والدكتوراه، حيث يستسهلون الرجوع إلى كتاب ومؤلفين مما يمكن وصفهم «من الدرجة الثانية»، دون بذل مشقة الرجوع إلى «الأصول»، و«الثقاة». فإذا كانت هناك مناسبة للاستشهاد - مثلا - برأى للإمام الغزالى، ربما رجع الباحث إلى أحد أساتذة الفلسفة الإسلامية المحدثين، الذى قد يكون أستاذا فاضلا، وعالما بارزا، لكن المفروض أن يرجع الباحث إلى ما كتبه الغزالى نفسه، ولا بأس بعد ذلك من الرجوع إلى من كتبوا عنه من المحدثين لمزيد من الإيضاح والفهم والتحليل.

٦- أن يقرأ على شيخ مرشد أمين ناصح، ولا يستبد بنفسه وذكائه، وتلك قضية نراها شائعة لدى كثير من علماء السلف، من حيث أهمية الأخذ من «العلماء»، مباشرة، وعدم الاعتماد فقط على القراءة من الكتب، مهما علا قدر مؤلفيها، حتى لقد قيل بحق أن من أبرز النواقص «تشبيخ الصحيفة»، أى الاعتماد على تحصيل المعرفة من الكتب فقط، بحيث يصبح الكتاب هو المعلم، وهو الأستاذ، ففى التلقى المباشر من أستاذ وعالم، فرصة الاحتكاك والتفاعل والمراجعة والحوار والاستيضاح والتقييم.

وهذا أمر ربما يحتاج إلى بعض المراجعة فى زماننا الحالى، حيث تختلف الظروف، وتتبدل الأحوال إلى الدرجة التى برز فيها ما يسمى بنظام التعليم المفتوح، واعتماده على «التعليم من بعد»، لمواجهة احتياجات تعليم وتعلم شرائح اجتماعية واسعة، لا تتيح لها ظروفها الانتظام فى تعليم نظامى، فى مدارس أو معاهد وجامعات تتطلب الانتظام بالحضور لتلقى العلم داخل قاعات المحاضرات والدروس.

بل، وماذا نقول بالنسبة لهذا المحيط الواسع بغير حدود «الإنترنت»، حيث بدأ كثيرون من الأجيال الحديثة، لا يذهبون إلى مكتبات للاطلاع وقراءة الكتب، بل يجلسون فى منازلهم، وبضغطة «زر» يصلون إلى مئات، إن لم يكن آلاف من الكتب؟!

٧- أن يُذاكر به الأقران والأنظار، للتحقيق لا للمغالبة، بل للمعاونة على الإفادة والاستفادة، وهو الأمر الذى يتيح الفرصة لتبادل المعلومات، وإجراء الحوارات، والتأكد من صحة الفهم والتحليل، والانتفاع المتبادل.. إن الأمر هنا يمكن تسميته بـ «التلاقح المعرفى»، الذى لابد أن ينتج ما هو أفضل، إذا قصد به وجه العلم لا المفاخرة والمباهاة.

٨- والمعرفة المُحصَّلة يمكن أن تتعرض لعوامل النسيان، مما يفرض على المتعلم أن يعاود مراجعتها، من حين لآخر، ومن هنا سميت عملية المراجعة المستمرة لطلاب العلم، ما عرفوه ودرسوه بـ «المذاكرة»، نسبة إلى التذكير.

ومما حرص على التأكيد عليه عدد غير قليل من علماء التربية المسلمين، ومنهم الأنصارى، هذه القاعدة التعليمية: التشديد على ألا يحبس المتعلم ما تعلمه داخل ذاته، بل يتعداها إلى غيره لينتفع بها هذا الغير، فتشيع المعرفة، وتتسع دائرة المعلومات.. وشيخنا هنا يستند إلى حديث مهم رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجه الطبرانى فى الكبير والوسيط، ورجاله موثوقون، وأورده الهندى فى كنز العمال، قال نبينا الكريم: «من علم علما نافعا وكتمه، ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار».

لكن إيصال ما تعرف إلى الغير لابد له من قيد مهم، ألا وهو أن يكون المقصود من التعليم أهل له، والأهلية هنا أهلية قدرة واستعداد وصلاح وهداية، ومن هنا فمما يكمل القاعدة ألا يبذل المتعلم ما تعلمه إلى غير مستحقيه، وفقا لما جاء فى كلام النبوة: «لا تعلقوا الدُر فى رقاب الخنازير»، أى تُسلموا العلم لغير أهله، وهو ما أورده الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين.. وهذه القولة النبوية، فهمها بعض المغايرين فهما غير مستقيم، حيث صوروا، من خلالها، الإسلام وكأنه يريد أن حصر المعرفة فى نطاق «ارستقراطى» - النخبة - بحيث تبعدها عن عموم الناس.

كذلك يرتبط بهذه القاعدة، أن المتعلم إذا استطاع أن يستنبط بجهده العقلى الخاص، بعض أفكار ودلالات تثرى ما تعلم وقرأ، فعليه أن ينقل هذا إلى غيره، مثلما فعل ذلك سابقوه، بالنسبة لما قرءوا، وانتقل إليه، فازداد معرفة.

٩- أن لا يعتقد فى علم أنه حصّل منه مقدارا لا يمكن الزيادة عليه، فذلك نقص وحرمان، وفى هذا استجابة لقول الله تعالى فى كتابه الكريم، سورة طه:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

وفى سورة الإسراء:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ومن ثم فمهما أوتى الإنسان من علم، فلا يجب أن يكتفى بما عرف، وإنما لابد من الاستزادة دائما، حيث إن بحر المعرفة يكاد أن

يكون بلا حدود، وفى علوم التربية الحديثة هناك، ومنذ سنوات غير قليلة ما عرف باسم (التربية المستمرة) التى تقتضى بألا يتصور المتعلم أنه، إذ ينتهى من الحصول على الدرجة الجامعية، أو درجة قبلها، أو حتى بعدها، أنه قد «اكتفى»، وإنما لابد من استمرار التعلم.

١٠- أن يعلم أن لكل علم حدا، فلا يتجاوزه، ولا ينقص عنه، وهو ما يمكن أن نفسره بما هو معروف عن «أساسيات العلم»، بمعنى أن لكل نسق معرفى، «أساسيات» و«أصول»، لا يجوز أن يدعى مفتقدها أنه يعلمه، ولا يجوز له أن يتجاوز هذه الأساسيات، وإن كان هذا يمكن أن يكون مطلوبا لفئة خاصة، وهى فئة المبدعين والمبتكرين، فعلى يد هؤلاء يحدث التطور العلمى الجذرى.

١١- أن لا يدخل علما فى علم آخر، لا فى تعلم، ولا فى مناظرة، لأن ذلك يشوش الفكر، وهو ما يشير إلى التداخل غير المحمود بين حقائق ومعارف العلوم المختلفة، مما يسبب بلبلة، نقول تداخل «غير محمود»، لأننا بدأنا نعرف منذ سنوات غير قليلة ما يعرف بالعلوم «البينية» حيث يحدث تمازج وتفاعل بين حقائق علمين أو أكثر، مثلما رأينا فيما أصبح معروفا اليوم بـ «الهندسة الحيوية»، وهى المعرفة الناتجة عن تعاون بين علماء الحياة، وعلماء الهندسة... بل إن التربية نفسها، لا تحيا إلا على تفاعل وتبادل بين علوم عدة، ونخص بالذكر هنا «أصول التربية»، التى هى خلاصة تعاون وتفاعل بين علوم مثل الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والسياسة، وبين التربية.

١٢- أن يراعى كل من المتعلم والمعلم الآخر، خصوصا الأول؛ لأن معلمه مثله مثل الأب، بل هو أعظم إلى حد كبير؛ لأن أباه «أخرجه إلى دار الفناء» - الدنيا - بينما معلمه دله على «دار البقاء» - الآخرة.

إن كلا من المتعلم والمعلم طرفا العملية التعليمية، فلا متعلم بغير معلم، ولا معلم بغير متعلم، وما دام الاثنان طرفان أساسيان لعملية واحدة، تحتم أن يحرص كل منهما على إنجاح الآخر فى مهمته، وفقا لأصول وواجبات تفرضها المهنة عليهما.

كذلك رأى شيخنا الأنصارى أن هناك بعض السلبيات التى يمكن أن تقف عائقا بين المتعلم وبين طلب العلم، والتمهر فيه، ذكر منها:

أ- الركون إلى أن ظروف المستقبل ربما تكون أفضل لتحصيل العلم، بحيث يهمل الانكباب على تحصيله فى حاضره.

ب- أن يثق المتعلم أكثر من اللازم فى الاعتقاد بتوافر مواهب عقلية خاصة لديه، يمكن أن تغنيه عن تحصيل العلم، وتعوضه.

ت- التنقل من علم، قبل إتقانه، إلى علم آخر، أو من معلم إلى آخر قبل إتقان ما بدأ به عليه، ذلك أن مثل هذا التنقل غالبا ما يهدم ما سبق تحصيله، حيث إنه لم يكن قد ترسخ لديه.

ث- الانغماس فى المشاغل الدنيوية، والانكباب على ملاذها، والتقرب إلى المنغمسين فيها، ومصاحبتهم.

ج- شغل مواقع فى سلم العمل التنفيذى، إذ غالبا ما تشغل الوقت كله، فلا تترك لصاحبها وقتا للاطلاع، وهو الأمر الذى نلمسه دائما، وخاصة فى عصرنا الحاضر حيث أصبح العمل التنفيذى مثقلا بالأعباء، مما يلتهم الوقت كله، بل قد لا يكفى الوقت المحدد للعمل، وبالتالى، ينقطع شاغل المواقع التنفيذية عن متابعة الاطلاع والقراءة.

وجريا على عادة بعض الفلاسفة والعلماء والمفكرين، كما أشرنا، بالنسبة لتصنيف العلوم، عنى الشيخ الأنصارى بهذه القضية، وإن اكتفى فيها بمجرد ذكر اسم الفرع العلمى، وهنا نجد أن محقق المخطوطة قد أفاض كثيرا فى تفصيل الكثير مما يتصل بكل فرع، وفقا لما جاء فى مصادر عدة، مما جعله يعنون الكتاب بـ «خزانة العلوم فى تصنيف الفنون الإسلامية ومصادرها».

وأشار تصنيف الأنصارى إلى توزع العلوم والفنون المعروفة فى وقته إلى أربع فئات، كل منها يضم عددا من الفروع، وهى كما يلى:

القسم الأول: العلوم الشرعية، وهى: الفقه، والتفسير، والحديث.

القسم الثانى: العلوم الأدبية، وعددها أربعة عشر، هى: علم اللغة - علم الاشتقاق - علم التصريف - علم النحو - علم المعانى - علم البيان - علم البديع - علم العروض - علم القوافى - علم قرض الشعر - علم إنشاء النثر - علم الكتابة - علم القراءات - علم المحاضرات، ومنه التواريخ.

وليس هناك ما يوضح المقصود بـ «علم المحاضرات»، والذى منه التواريخ.

القسم الثالث: العلوم الرياضية، ويضم عشرة علوم، هى: علم التصوف - علم الهندسة - علم الهيئة - العلم التعليمى - علم الحساب - علم الجبر - علم الموسيقى - علم السياسة - علم الأخلاق - علم تدبير المنزل.

ومما لا شك فيه أن القارئ لابد أن يدهش لوجود بعض العلوم فى هذا القسم، مثل علوم السياسة والأخلاق والتصوف؟!

القسم الرابع: العلوم العقلية، حيث لم يحص شيخنا عددها، حيث وصفها بأنها «ما عدا ذلك»، وذلك هو ما سبق فى الفئات السالفة، ويضرب المثال بعلوم مثل: المنطق - الجدل - أصول الفقه - أصول الدين - العلم الإلهى - العلم الطبيعى - الطب - علم الميقات - علم النواميس - الفلسفة - الكيمياء.

ولا يعنى إثبات هذه القائمة لما كان يُتعارف عليه من علوم وفنون فى زمن الأنصارى، أنها جميعا تشكل ما نسميه الآن «مناهج التعليم»، فبعضها يمكن بالفعل الإشارة إليه باعتباره من موضوعات التعلم والتعليم فى مؤسسات التعليم التى كانت قائمة مثل الكُتاب، والمسجد، والمدرسة، وبعضها الآخر، كان ساحة واسعة لحبى المعرفة والاطلاع والاجتهاد، خارج النظام القائم للتعليم.

ونرجو أن يوفقنا المولى عز وجل إلى أن نعرض على قرائنا مزيدا من المخطوطات التربوية التى تركها لنا علماء ومفكرون، سعيا منهم نحو تأسيس بناء الشخصية الإسلامية على أسس تتسق مع الأصول الإسلامية، والقدرات الشخصية، وتطلعات الأمة.

قصص الأنبيــاء

إبراهيم عليه السلام

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

هو إبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح ابن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو نسبه الموجود فى التوراة والتواريخ

وقد جاء فى الكتاب الكريم قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

اختلف المفسرون فى اسم أبى إبراهيم - فقال بعضهم أن لفظ ﴿ آزَرَ ﴾ فى الآية بدل من لفظ «أب» فى «أبيه» ويكون مقول القول:

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

الخ وقال آخرون اسمه «تارح» وأن لفظ ﴿ آزَرَ ﴾ كلمة ذم فى لغته ومعناه «أعرج» قاله السهيلى فى التكملة.

وقال آخرون إن معناه الخاطئ والخرف وفى التكملة «يا مخطئ يا خرف» وقيل معناه «يا شيخ» أو هى كلمة زجر عن الباطل «راجع ص١٢ ج٣ تاج العروس».

أقول: بعيد فى نظرى أن يكون إبراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر كأعرج وخرف ومخطئ لأن والد إبراهيم عليه السلام لما هدده بقوله:

﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾

وقال آخرون: إن تارح اسمه العلم، وأن آزر وصف له كما قال البيضاوى.

أقول: إذا صح أن والد إبرهيم كان له اسم علمى واسم وصفى، يكون معناه القوى أو الناصر أو المعين؛ لأن لفظ آزر من الأزر أى القوة والنصر والعون ومنه الوزير أى المعين «تاج العروس ص١١ ج٣» وهى كذلك فى اللغات السامية التى منها لغة إبراهيم، ومن ذلك عازر وعزير وعازر فى العبرية فإن هذه المادة تفيد التقوية والنصرة والإعانة فى تلك اللغة كما هى فى اللغة العربية قال تعالى:

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾

ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد.

وفى أسماء ملوك الأشوريين «اسرحدون» ولفظا «اسر» و«ازر» فى غاية القرب وفيهم أيضا «توخلات ابال آزار» وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ فى اللغات السامية.

وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما نصه: «آزر» اسم أبى إبراهيم فى القرآن - سورة الأنعام الآية ٧٤ - ويظهر أن فى هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقا على أنه أبو إبراهيم فى غير هذا الموضع كما أن تارح أو تارخ قد ورد فى روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضا ولذلك لجئوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين ولكن هذا التحايل لا قيمة له.

ويقول مراتشى prodrani maracci، ج٤ - ص٩٠ إن صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة Agae التى وردت فى تاريخ الكنيسة ليوز بيوس؛ إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التى ورد فيها هذا الاسم. أضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر فى مواضع متعددة ومهما يكن من شىء فإن ما ذهب إليه مراتشى بعيد الاحتمال.

ولمعرفة حياة آزر وابنه إبراهيم نحيل القرىء إلى مقال «إبراهيم» «ج١ ص٢٥» الذى ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضوع أيضا أهـ فنسنك.

وقد علق على هذه النبذة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولى «مساعد أستاذ بالجامعة المصرية» فى دائرة المعارف الإسلامية بما يأتى:

(١) إطلاق القول بأن آزر اسم أبى إبراهيم فى هذه الآية غير صحيح، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معانى كلمة «آزر» باختلاف إعرابها وفى بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسما لأبى إبراهيم، وفى بعضها يتحمل ذلك وإليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعاريب:

كتبت الكلمة فى المصحف هكذا «آزر» أتتخذ أصناما.. وقرئت «أأزرا» بالنصب مع التنوين و«آزر» بالنصب بلا تنوين و«آزر» بالضم. ففى القراءة الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة، والهمزة الأولى للاستفهام الأنكارى، والمعنى الأجل القوة تتخذ أصناما؟ كقوله تعالى:

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾

(النساء: ١٣٩)

وإن فسرت ﴿ آزَرَ ﴾ فى هذه القراءة باسم علم لم يقل إنه أبو إبراهيم وعلى قراءة النصب

بلا تنوين، قد تعرب نعتا فلا تكون ﴿ ءَازَرَ ﴾ علما بل صفة. فليست كذلك اسم أبي إبراهيم. وقد تعرب بدلا أو عطف بيان فيحتمل أن تكون اسما له. وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات - على نظر في بعضها - يتعين في اثنين منها ألا يكون ﴿ ءَازَرَ ﴾ اسم أبي إبراهيم ويحتمل في اثنين؛ فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن ﴿ ءَازَرَ ﴾ اسم أبي إبراهيم.

(٢) مع التسليم بأن أكثر الأوجه التي ذكرها من تصدوا للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين في اسم أبي إبراهيم لا تقع عندي موقعا فإني ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين:

أ- إطلاق القول بأنهم لجئوا إلى التحايل للتوفيق مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف إجماعهم؛ لأنه إجماع ينتهي إلى خبر واحد أو اثنين منهم فلم يتكلف التوفيق لا في تحايل ولا في غير تحايل. وقد نقل هذا الرأي في كثير من كتب التفسير المتداولة. فالأطلاق غير صحيح وكان الحق أن يقول منهم من وفق أو تصدى للتوفيق ومنهم من رد الرواية التاريخية.

ب- استعمال لفظ الحيلة والتحايل في وصف عمل المفسرين. فإن هذه الكلمات النازلة والتي يتصدى فيها للحكم الخاطئ على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين ينقدون بل هي من عبارات غيرهم.

٣- من الإنصاف الصادق للعلم أن يعرف القارئ أن مراتشي قسيس إيطالي عاش في القرن السابع عشر وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها إلا بعد إلحاق معارضات القرآن بها، وقد قدم لها ببحث في القرآن والإسلام انتهى فيه إلى الحكم للمسيحية على الإسلام ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان «عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبدالله..» جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم.

وبعد: فإني ألاحظ - دون مجاوزة حدود النقد العلمي النزيه - أن المادة لم يكتب فيها شيء النقول الإسلامية غير محررة، وفرض مراتشي مردود. فالواجب الحق في درس الآية أن تستوفي القول في كلمة «آزر» هذه واستعمالها العربي وأصلها اللغوي والتاريخي على نحو عملي عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا «أن علم التفسير لم ينضج» ونحن أهل الواجب الأول في ذلك ا هـ كلام الأستاذ أمين الخولي.

أقول: ذهب فريق من المفسرين إلى أن «آزر» اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم وكان سادنا له.

قال السيد المرتضى الزبيدي في «ص١٢ ج٣ تاج العروس»: وروى عن مجاهد في قوله تعالى:

﴿ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾

قال لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾

وقال الصغاني: التقدير أتتخذ آزر الها، ولم ينتصب «أتتخذ» الذي بعده لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ولأنه قد استوفى مفعوليه: ا هـ.

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عبارة تاج العروس السابقة في أول كتابه «تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبي».

وهذا القول الذي قاله مجاهد أولى الأقوال عندي بالقبول. وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي في القرآن الكريم. ومما يستأنس له بأن «آزر» اسم إله أننا نجد في الآلهة القديمة عند المصريين الإله «أزوريس» ومعناه الإله القوي المعين. وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضا في أسماء الآلهة.

وهذا جدول مواليد نوح إلى إبراهيم على عمود النسب:-

حام ولد من أبيه نوح وهو ابن ٥٠٠ سنة

أرفكشاذ ولد من أبيه سام وهو ابن ١٠٠ سنة

شالح ولد من أبيه أرفكشاذ وهو ابن ١٣٥ سنة

عابر ولد من أبيه شالح وهو ابن ٣٠ سنة

فالج ولد من أبيه عابر وهو ابن ٣٤ سنة

رعو ولد من أبيه فالج وهو ابن ٣٠ سنة

سروج ولد من أبيه رعو وهو ابن ٣٢ سنة

ناحور ولد من أبيه سروج وهو ابن ٣٠ سنة

تارح ولد من أبيه ناحور وهو ابن ٢٩ سنة

إبرام ولد من أبيه تارح وهو ابن ٧٠ سنة

المجموع ٨٩٠ سنة

وقد رأيتم الجدول الذي بين عمر كل واحد من نوح وأبنائه على عمود نسب إبراهيم - حين ولد ولده الذكور بعده كما ذكر في التوراة - ومن جميعها ترون أن بين ولادة إبراهيم وولادة نوح ٨٩٠ سنة. فإذا قلنا بما قالته التوراة من أن عمر نوح كله قبل الطوفان وبعده ٩٥٠ سنة كان إبراهيم قد عاصر نوحا ستين سنة.

وفي اعتقادي أن اليهود في العصور الأولى دونوا ما كانوا يسمعونه من الحكايات بدون ضبط ولا مراعاة للأزمان.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية «ص٢٧ من المجلد الأول» ما يأتي نقلا عن فنسنك:-

كان شبرنجر «ج٢ ص٢٧٦ وما بعدها» أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم - كما في القرآن - مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة.

وجاء سنوك هجرونييه «ص٢٠ وما بعدها» بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال: إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي «الذاريات آية ٢٤ وما بعدها. الحجر آية ٥٠ وما بعدها. الصافات آية ٨٢ وما بعدها. الأنعام آية ٧٤ وما بعدها. هود آية ٧٢ وما بعدها. مريم آية ٤٢ وما بعدها. الأنبياء آية ٥٢ وما بعدها. العنكبوت آية ١٥ وما بعدها» هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل. ولم تذكر لإسماعيل صلة به وإلى جانب هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيرا «السجدة آية ٢. سبأ آية ٤٣. يس آية ٦» ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين.

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واضع ملة إبراهيم ورفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم - الكعبة - «البقرة آية ١١٨ وما بعدها. آل عمران آية ٦٠، ٨٤.. الخ» وسر هذا الاختلاف أن محمدا كان قد اعتمد على اليهود في مكة. فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء؛ فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب «إبراهيم» وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس اهـ فنسنك.

(١) والذي أقوله: ان هجرولييه وفنسنك كغيرهما من أكثر المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم لحرب الإسلام وإلصاق النقص به والعيب على القرآن الكريم وستر محاسنه ليظهروا بمظهر لا يمتاز عن كتب النصارى المقدسة؛ فهم كما قال الله تعالى:

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾

فالذي يعزون كل من هجرولييه وفنسنك - ومن على شاكلتهما - أن يقولوا إن الإسلام في مكة غير الإسلام في المدينة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام.

فإن إبراهيم في مكة أو في القرآن المكي لم تكن له صلة بالعرب فليس أبا لهم. ولم يكن باني البيت، ولا صلة له بإسماعيل ولا بالعرب.

(٢) ان النبي لما جاء إلى المدينة كان يحمل أكبر الآمال في أن يؤمن به اليهود ويظاهرونه على أمره فلما أخلفوه ما أمله وكذبوه أراد أن يتصل بهم عن طريق إبراهيم، وعبر عن ذلك بـ«يهودية إبراهيم» وهم في ذلك كله على ضلال مبين.

«أما عن الأول» فقد أخطأ خطأ ظاهرا. فإني ألاحظ أن المستشرق فنسنك يقول: لم تذكر في السور المكية أية صلة لإسماعيل بإبراهيم وذلك ترويجا لفكرته التي يريد أن يصل إليها وهي: أن محمدا ظل بعيدا عن صلة العرب بإبراهيم وإسماعيل إلى أن هاجر إلى المدينة، فبدت له فكرة هي أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إسماعيل وإبراهيم، مع أنه لا صلة بينهم وبين إبراهيم وإسماعيل. وهذه الفكرة تهدم التوراة قبل أن تهدم القرآن لأنها ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل وأنه جد عدة قبائل في بلاد العرب. وحين عد السور المكية عمد إلى التي يذكر فيها إبراهيم مجردا عن الصلة بإسماعيل والعرب؛ لذلك تخطى سورة إبراهيم وهي مكية وقد شهدت بعكس ما يقول، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت، وإنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام. وإبراهيم يذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات، ويحمد الله أن وهب له إسماعيل وإسحق واقرءوا قوله تعالى في سورة إبراهيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

ولا يمكن أن يمر بخاطري أنه لم يعرف هذه الآيات ولم يلتفت إليها، بل أكبر اعتقادي أنه تخطاها عمداً غاضاً النظر عما تقضي به الأمانة في سبيل تأييد نظريته.

وأما عن الأمر الثاني فإن النبي ما أمل أن يعتز باليهود، ولكن لما كانوا أهل توحيد ويجانبون الأصنام ويعادون أهلها، والنبي له ذكر عندهم في كتبهم لم تزل آثاره إلى اليوم ناطقة تنادي عليهم بأنهم يكتمون ما أنزل الله ـ كان يتوقع أن يؤمنوا فلما جحدوا كانوا عنده بمثابة غيرهم فقط.. ومعلوم أن القرآن يرفض أن يكون إبراهيم يهوديا لأن اليهود هم أبناء إسرائيل.. وإسرائيل إنما هو ولد اسحق بن إبراهيم، وغريب أن يكون المتقدم معزواً وتابعاً لولد ولده الذي لم يره ولم يعاصره.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ﴾

بقي أمر ثالث يعزوه هؤلاء المستشرقون: وهم أنهم ينكرون أن يكون إبراهيم أو إسماعيل رسولاً إلى العرب مستندين إلى قوله تعالى:

﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

وأشباهها إذ لو كان إبراهيم قد دعا العرب إلى دينه أو إسماعيل قد دعا العرب إلى دين إبراهيم لما صح ذلك القول.

والجواب على هذا: أن المفسرين يقولون إن معنى ذلك أن الموجودين من هؤلاء القوم لم يباشرهم رسول يبلغهم دين الله ويهديهم إلى الدين الحق ـ فلا تناقض ـ لأن تبليغ إسماعيل أو إبراهيم إنما كان لآبائهم.

أما أنا فأجيب بأن العرب كان دين كثير منهم عبادة الأوثان وكان لهم قرابين يقدمونها إليها، وقد سيبوا السوائب وبحروا البحائر ووصلوا الوصيلة، وسنوا لهم قواعد ما أنزل الله بها من سلطان.. فجاء محمد لينذر هؤلاء القوم الذين يدعون أنهم على دين وأن الله قد أمرهم بما هم عليه مع أن الله ما أرسل إليهم نذيراً شرع لهم هذه الشرائع الباطلة، لأنهم كانوا إذا ظلموا أنفسهم بشرائعهم الباطلة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.. وقد ناقشهم الله في ذلك ورد عليهم في غير موضع من القرآن كقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ففى سورة الصافات بعد أن ذكر دعاوى الوثنيين بقوله:

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

ففى هذه الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار القطيع لأقاويلهم والتضعيف لعقولهم واتهامهم مع استهزاء بهم.. وفى قوله:

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾

أى الناطق بصحة دعواكم والأمر فيه للتعجيز وإضافة الكتاب إليهم للتهكم.

وفى قوله:

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾

إضراب انتقالى من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً أى بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلى وهو لا يوجد عندهم.

فالمعنى فى هذه الآيات مثله فى قوله تعالى فى سورة الأحقاف:

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ ﴾

تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلى بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلى، فهو من جملة القول أى ائتونى بكتاب إلهى كان ﴿ مِّن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ الكتاب أى القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة. وهكذا كل آية وردت فى المعنى.

وتدل العبارة التى نقلها «فنسنك» عن «هجرونيه» بفحواها على أن إبراهيم لم يذكر بأنه حنيف إلا فى السور المدنية، وهو خطأ أيضاً؛ لأنه ذكر بأنه كان حنيفاً فى سورة الأنعام مرتين وفى سورة النحل كذلك وهما مكيتان:

سورة الأنعام مكية:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

سورة النحل مكية:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

من ذلك كله يتبين القارئ المنصف فساد ما يقوله المستشرقون غير المنصفين.

واعلموا أن قصة إبراهيم ترتبط بها قصص أخرى كقصة لوط؛ لأن إبراهيم ولوطا كانا متعاصرين، ولوطا ابن أخ لإبراهيم. قد آمن لوط بعمه إبراهيم كما قال تعالى:

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾

وإسماعيل كذلك رزق به إبراهيم وهو ابن ست وثمانين سنة.

وقد عاش إبراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة.

فيكون إسماعيل قد عاصر إبراهيم تسعا وثمانين سنة، وإسحق ولد لإبراهيم وهو ابن مائة سنة؛ فيكون قد عاصر أباه خمسا وسبعين سنة.

أما لوط فقد ذكر فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة.

إسحق ذكر ست عشرة مرة فى القرآن الكريم.

وذكرت قصة إبراهيم فى عدة مواضع من القرآن.. تارة باختصار، وتارة بالتطويل، وتارة بذكر شأن من شئونه فى سورة، ثم شأن آخر من شئونه فى سورة أخرى. ومثل ذلك فى شأن لوط وإسماعيل.

قصة إبراهيم

تتلخص فى أنه كان فتى من أهل «فدان آرام» بالعراق وكان قومه أهل أوثان. وكان أبوه نجارا ينحت الأصنام ويبيعها لمن يعبدها ـ كما نص على ذلك فى إنجيل برنابا ـ وأن إبراهيم كان قد أنار الله بصيرته وهداه إلى الرشد؛ فعلم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر، ولا تسمع نداء ولا تجيب دعاء، ولا تضر ولا تنفع، وأنها لا تباين بنات صنفها من سائر الخشب، وأن أباه هو الذى يصنعها.

اقرءوا قوله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

تبييت إبراهيم الشر للأصنام

وأن إبراهيم نوى الشر فى نفسه لهذه الآلهة التى جمدوا على عبادتها ولم تفدهم موعظة ولا برهان عن الغواية بها، فأقسم فى نفسه أن يلحق بها الأذى.. وهذه طريقة أراد بها أن يفهم القوم مركز آلهتهم.. ويقيم لهم الحجة عملا على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها، أو تكسبهم خيراً إذا عبدوها؛ لأن البرهان العملى أوقع فى النفس وأرجى أن يحرز القبول. فقال فى نفسه:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾

سورة الأنبياء

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة



٦ 

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي

تاريخهم منذ خراب أورشليم الأول سنة ٥٨٦ ق.م إلى خرابها الثاني سنة ٧٠ م

توالت دول متعددة على حكم فلسطين منذ خراب أورشليم الأول على يد «بختنصر» إلى خرابها الثاني على يد «الرومان».

وكان حكم هذه الدول لفلسطين في تلك الفترة على الترتيب التالي:

١ – البابليون من سنة ٥٨٦ – سنة ٥٣٨ ق. م.

٢ – الفرس من سنة ٥٣٨ – سنة ٣٣٠ ق. م.

٣ – اليونان من سنة ٣٣٠ – سنة ٣٢٣ ق. م.

٤ – البطالسة من سنة ٣٢٣ – سنة ٢٠٠ ق. م.

٥ – السلوقيون من سنة ٢٠٠ – سنة ١٦٧ ق. م.

٦- السلوقيون والمكابيون من سنة ١٦٧ - ٦٣ ق.م.

٧- الرومان من سنة ٦٣ ق. م - ٦١٤ م.

وهاك الكلام بشئ من الإيجاز عن كل فترة من هذه الفترات:

١ - خلت فلسطين تقريبًا من اليهود بعد سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق. م. في يد (بختنصر)، وقد عاشوا أسارى في بابل زهاء خمسين سنة، فقلدوا فيها عادات البابليين، وأخذوا عنهم الكثير من شعائرهم وآدابهم، واشتركوا في وظائف وأعمال الدولة تحت رقابة البابليين.

وخلال هذه الفترة - كما تقول الأسفار - ظهر في بني إسرائيل بعض الأنبياء وكثير من الوعاظ والمرشدين، وفي أسفار أرميا، وعزرا، ونحميا واستير، وحزقيال ودانيال.. كثير من المواعظ والزواجر التي كان يوجهها المرشدون لبني إسرائيل في هذه الفترة.

٢- وفي سنة ٥٣٨ ق م استولى (قورش) ملك الفرس، على بلاد بابل، فعامل اليهود معاملة حسنة، لأنه تربى

في حجر (استير) اليهودية، التي كانت في حوزة أبيه، وقد أصدر (قورش) نداء سمح فيه لليهود أن يعودوا إلى أورشليم، وأن يعيدوا بناء هيكلهم، وساعدهم على ذلك بالأموال والرجال.

ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة في بابل، وامتدت بها أعراقهم، وذاقوا بها خصب العيش، والتجارة الرابحة، ومن ثم فقد ترددوا كثيرا في العودة إلى أورشليم، ومعظم الذين عادوا منهم إلى أورشليم كانوا من سبطي يهوذا وبنيامين.

(وكانت عودة اليهودة من المنفى عودة الأمة، وليست عودة الدولة، فإن بني إسرائيل عادوا، ولكن دولتهم لم تعد، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسي وخاضعة له، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم من الفرس) (١).

وقد تعاقب على حكم الفرس في الحقبة التي كانت لهم السيطرة على فلسطين عدد من الملوك من بينهم (قمبيز) و(خوماتا) و(درياش الأول) و(درياش الثاني) و(درياش الثالث) وكانت منطقة فلسطين خلال حكم الفرس لها تدار من قبل ولاة يرسلهم الملك إليها من الفرس، وأحيانا كان الملك الفارسي يختار واليا من اليهود؛ ليقوم بالحكم تحت رقابة الفرس، فقد عين الملك (لوغيامانس) الفارسي (عزرا) اليهودي واليا على أورشليم سنة ٤٤٥ ق. م تقريبا.

٣ – وفي سنة ٣٣٠ ق. م. قامت حروب بين الإسكندر المقدوني، وبين الفرس بقيادة ملكهم (دارا الثالث) انتهت بانتصار الإسكندر، وهزيمة الفرس، وطردهم من بلاد الشام جميعا، وأصبحت بلاد الشام ومن بينها فلسطين خاضعة لحكم الإسكندر المقدوني.

وتحكي الأسفار وبعض كتب التاريخ: أن الإسكندر خلال حكمه عامل اليهود معاملة حسنة، وأنه زار أورشليم والهيكل.

٤ – وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق. م، اقتسم ملكه الكبير قواده، فكانت فلسطين من نصيب القائد (بطليموس) الأول ملك مصر، وقد استمر حكم البطالسة على فلسطين حتى سنة ٢٠٠ ق. م. تقريبا.

وقد حكم بطليموس الأول من سنة ٣٢٣ – إلى سنة ٢٨٥ ق. م. وخلال حكمه دارت بينه وبين البلاد المجاورة له حروب ومنازعات، استطاع في النهاية أن يتغلب على أعدائه جميعا، واستطاع

(١) اليهودية الدكتور أحمد شلبي ص٦٦.

كذلك أن يسيطر على أورشليم بعد أن أعلن اليهود عصيانهم له، وساق منهم إلى مصر أكثر من مائة ألف أسير.

وتولى الملك بعده بطليموس الثاني من سنة ٢٨٥ ـ سنة ٢٤٧ ق. م، فبقيت فلسطين تحت سلطانه، وقد عامل اليهود معاملة حسنة؛ إذ سمح لمائة وعشرين ألفاً من اليهود الذين كانوا يقيمون في مصر بالعودة إلى اليهودية.

ويقول عنه صاحب تاريخ الإسرائيليين: «بطليموس الثاني هذا هو مؤسس مكتبة الإسكندرية المشهورة، التي كان المؤرخون يتهمون العرب بحرقها بعد فتح مصر»[٢].

ويقول عنه الأستاذ محمد عزة دروزة: (أن بطليموس الثاني) طلب من (اليعازار) رئيس كهنة اليهود أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالماً من علماء التوراة ـ ستة من كل سبط ـ لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية فنفذ الطلب، وكان (اليعازار) على رأس العلماء، وتمت المهمة في اثنين وسبعين يوما، فكانت الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية في اللغة اليونانية للأسفار الخمسة»[٣].

وعقبه بطليموس الثالث فحكم مصر وفلسطين من ٢٤٧ ـ سنة ٢٢٢ ق. م، وقد ذكر المطران الدبس (أن ـ أدينا ـ رئيس أحبار اليهود بأورشليم، تقاعس عن دفع الجزية بضع سنين في زمن بطليموس الثالث، وكان قدر الجزية السنوى عشرين وزنة، فأرسل بطليموس الثالث عاملا إلى أورشليم؛ لإرغام اليهود على دفع الجزية، وهددهم بالطرد إذا لم يدفعوا، فعظم القلق في أورشليم؛ ثم أوفد اليهود رجلا ذكيا منهم إلى بطليموس استطاع أن يقنعه بإعفاء اليهود من معظم الديون المتراكمة عليهم»[٤]. هـ.

وخلال حكم بطليموس الرابع الذى امتد من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٠٢ ق. م تقريبا، جرت حروب في فلسطين بينه وبين (أنطوخيوس الثالث) السلوقي ملك سورية، وكان النصر فيها لأنطوخيوس، الذى جاء إلى أورشليم فأذل اليهود، وبعد مدة قليلة استطاع بطليموس الرابع أن يأخذ بثأره من أنطوخيوس، وأن يطرده من فلسطين ويعيدها إلى حكمه، إلا أن السلوقيين استطاعوا أن يعيدوا فلسطين إلى حظيرتهم حوالى سنة ٢٠٠ ق. م. وأن ينتصروا على بطليموس الخامس.

---

(٢) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٣٦.

(٣) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص ٢٣٦.

(٤) تاريخ سورية للمطران الدبس جـ ٢ ص ١٢٢.

٥ ـ ومنذ سنة ٢٠٠ إلى سنة ١٦٧ ق. م، استطاع السلوقيون أن يجعلوا فلسطين خاضعة لسلطانهم، وقد عاملوا اليهود بالشدة والقسوة، وجعلوا يبذلون جهودهم في تحويل اليهود عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية، وقد نصب الوالى السلوقي (أنتيوس) تمثالا لمعبودهم اليوناني في هيكل أورشليم، وقرب له القرابين، وأخذ يدعو اليهود إلى المشاركة في الطقوس اليونانية، وينزل أشد العقوبات بمن يمتنع عن الاستجابة لتعاليمه، وقد استجاب له عدد كبير من اليهود، وأخذوا يتركون دياناتهم وتقاليدهم؛ ليندمجوا في تقاليد وطقوس اليونانيين.

والخلاصة: أن السلوقيين خلال مدة حكمهم لفلسطين أذلوا اليهود، وانتقموا منهم شر انتقام.

٦ ـ وقد أدت معاملة السلوقيين القاسية لليهود، إلى انفجار الثورة ضدهم من جماعة، من كهنة اليهود عرفوا في التاريخ باسم المكابيين[٥] وكانت ثورتهم هذه حوالى سنة ١٦٦ ق. م.

وكان على رأس تلك الثورة (متاثيا) الكاهن اليهودي مع أولاده الخمسة، وهم: (يوحنا)، و(سمعان)، و(يهوذا)، و(العازار)، و(يوناثان).

وتحكي لنا أسفار المكابيين أن (متاثيا) هاجر بأولاده إلى مدينة تدعى (مودين)[٦] وكان حزينا لما أصاب أورشليم، وجاءت رسل الملك السلوقي بعد ذلك لإجبار أهلها على نبذ أحكام التوراة.. وطلبوا من (متاثيا) الطاعة فأبى.. ثم وثب (متاثيا) على واحد من رسل الملك فقتله.. ثم خرج إلى الجبال قائلا: «ليلحقني كل من يغار على الشريعة» فتبعه كثيرون فكان ذلك إعلانا للثورة[٧].

وبعد وفاة (متاثيا) تولى ابنه يهوذا قيادة الثائرين، والتقى مع (أبلونيوس) قائد السلوقيين في معركة عنيفة انتهت بانتصار يهوذا وأتباعه.

ثم توالت المعارك بعد ذلك بين يهوذا والسلوقيين، فكانت سجالاً بينهم، إلا أن يهوذا استطاع في سنة ١٦٥ ق. م أن يستولى على أورشليم.

وفى سنة ١٦١ استطاع السلوقيون أن يهزموا يهوذا ومن معه، وأن يعيدوا أورشليم إلى سلطانهم، غير أن المكابيين واصلوا ثورتهم ضد السلوقيين.

---

(٥) قيل: سموا بذلك نسبة إلى كلمة (مكابا) العبرية التى معناها: المطرقة.

(٦) تسمى الآن باسم (المدية) وهي قرية من بلدة اللد.

(٧) أسفار المكابيين الأصحاح الثاني.

وفى سنة ١٠٤ ق . م استطاع القائد المكابى (ارستبولس) أن يأخذ لقب الملك إلا أن ملكه لم يدم طويلا، إذ حصل بينه وبين أخيه (انتغنس) منازعات أدت إلى هلاك الاثنين. واستطاع المكابيون بعد ذلك أن يسيطروا الفترة من الزمان على أورشليم، وأن يتمتعوا بشيء من الكيان المستقل إلا أن استقلالهم فى أكثر عهودهم كان تحت سيادة السلوقيين، وكان يضيق ويتسع على حسب الظروف.

ومما ساعد على نجاح المكابيين فى بعض الفترات نشوب النزاع بين السلوقيين والبطالسة أحيانا، وبين زعماء السلوقيين فيما بينهم أحيانا أخرى.

هذا، وثورات المكابيين تجلت فيها مواقف تدل على الشجاعة والإقدام إلا أنه يؤخذ عليها أن اليهود جميعا لم يندمجوا فيها بل كان كثير منهم يكيدون لها ولرجالها فى مختلف المناسبات، وبشتى الوسائل. كما يؤخذ على ثورة المكابيين ذاتها أن رجالها لم يدم التعاون بينهم طويلا، بل أحيانا كانوا ينقسمون على أنفسهم ويحارب بعضهم بعضا.

ففى سنة ٦٣ ق . م نشب نزاع على الحكم بين (هركانس المكابى) وبين أخيه (ارستبولس) فانتهزت الدولة الرومانية فرصة هذا النزاع لبسط سلطتها على فلسطين، وحضر لهذا الغرض القائد (بمبيوس) الرومانى، فاقام بجيشه فى دمشق يترقب ما ينجلى عنه الموقف بين الأخوين، ثم وفد عليه بعد ذلك (أرستبولس وهركانس) وقدما له الهدايا النفيسة وطلب كل واحد منهما أن يكون الملك له، إلا أن (بمبيوس) أمرهما أن يخضعا له. ولكن أرستبولس لم يخضع للأمر وتحصن بأورشليم، فحاصره (بمبيوس) حتى أجبره على الخضوع والاستسلام له.

وقد أصر الكهنة على مقاومة (بمبيوس) ولاذوا بالهيكل، وامتنعوا عن التسليم، فحاصرهم الرومان زهاء ثلاثة أشهر، ثم تمكنوا فى النهاية من دخول الهيكل، وأعملوا السيف فى اليهود بلا شفقة أو رحمة.

ومن ذلك التاريخ خضعت فلسطين للحكم الرومانى الذى استمر إلى سنة ٦١٤ م.

وهاك كلمة عن اليهود وتاريخهم منذ سيطرة الرومان على فلسطين من سنة ٦٣ ق . م إلى خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى سنة ٧٠ م.

٧ ـ كان الرومان خلال هذه الفترة (٦٣ ق . م إلى ٧٠ م) من حكمهم لفلسطين، يستعملون عليها أحيانا ولاة يختارونهم من اليهود، وكان هؤلاء الولاة يخضعون فى تصرفاتهم للدولة الرومانية، إلا أن اليهود كانوا كثيرا ما يشقون عصا الطاعة على الرومان، فيقوم

الرومان بتأديبهم بالطريقة التى يرونها مناسبة.

(أ) ففى سنة ٥٧ ق . م قام (إسكندر بن أرستبولس اليهودى) بثورة ضد الرومان، وحارب عمه (هركانس) الوالى على البلاد من قبل الرومان وانتصر عليه، ودخل أورشليم.. إلا أن انتصار (إسكندر) هذا لم يدم طويلا، فقد أرسل الرومان لتأديبه قائدا من قوادهم يدعى (غابينوس) فزحف على أورشليم وتمكن من التغلب على (إسكندر) ولما رأى إسكندر أنه لا مفر من التسليم، طلب من القائد الرومانى الأمان فأجابه إلى طلبه، ثم أعاد (هركانس) إلى ولاية أورشليم.

(ب) وفى نفس السنة تمكن والد إسكندر (ارستبولس) من الفرار من روما ومعه أحد أولاده، فلما وصل إلى أورشليم انضم إليه عدد كبير من اليهود، وأعلنوا الثورة على الرومان إلا أن القائد الرومانى (غابينوس) استطاع أن يمزق صفوفهم، وأن يقتل معظم من انضم إليه من اليهود، وأن يقبض على (أرستبولس) ويرسله للمرة الثانية أسيراً إلى روما.

(جـ) وفى سنة ٤٩ ق . م عاود (إسكندر بن أرستبولس) الثورة على الرومان، فقبض عليه والى سورية من قبل الرومان ثم قتله شر قتلة فى أنطاكية.

(د) وفى سنة ٣٧ ق . م كان (انتغنس بن أرستبولس) قد تمكن من حكم أورشليم بمساعدة بعض الثائرين، فجهز الرومان جيشاً لتأديبه وحاصروا أورشليم مدة ستة أشهر، ثم تمكنوا من اقتحامها، وبعد دخولها قتلوا كثيراً من سكانها، ونهبوا ما فيها من أموال، وقبضوا على (انتغنس) وساقوه أسيراً إلى القيصر الرومانى، فقتله.

وبموت (انتغنس) زالت دولة المكابيين زوالا تاما؛ لأن انتغنس كان آخر زعيم من زعمائهم.

ولكن هل كف اليهود بعد ذلك عن ثوراتهم ضد الرومان؟

يقول صاحب (تاريخ الإسرائيليين) (على أن اليهود لم يخلدوا إلى السكينة بعد دخولهم تحت حكم الرومان، وشق على نفوسهم أن يحتل الرومان عاصمة ملكهم، وبيت مقدسهم، فكانوا تارة يتهددون الولاة، وطورا يطردون الجنود الرومانيين من أورشليم، وآونة يظهرون الرضا بحكم الرومان عليهم.. وقد تعاقب عليهم ولاة رومانيون ساموهم سوء العذاب، فرفعوا أمرهم إلى رومية، ولما لم يأتهم منها الفرج تظاهروا بالعصيان، وأحدثوا شغبا عظيما، فأرسلت رومية قائدها المحنك (فاسباسيان) فحاصر أورشليم، وحارب اليهود، وظل على قتالهم إلى أن انتخبه الرومان امبراطورا لهم، فخلفه ابنه

(تيطس) على الحصار، وقتال اليهود وكان (تيطس) هذا قائدا مدرباً.. وبطلا مجرباً، ذاق منه اليهود الأمرين.. وتابر على منازلتهم بالجنود الرومانية المشهورة، ومنى اليهود بالانقسام الداخلى، والفتن والمنازعات بينهم، حتى ضعف أمرهم، وتقلص ظلهم وتقوى (تيطس) عليهم فمزق شملهم، ودخل أورشليم فدكها دكا، ودمرها تدميرا، ومات من اليهود فى ذلك الحصار نحو مليون نسمة، فسالت الدماء كالأنهار.

ثم يقول: وإلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمّة، فإنهم بعد خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى: تفرقوا فى جميع بلاد الله، وتاريخهم فيما بقى من العصور ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها، أو نزلوا فيها، وقد قاسوا فى غربتهم صنوف العذاب والبلاء؛ فإن الرومان حظروا عليهم دخول أورشليم [8].

ويصف المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث وهو (يوسيفوس) [9] اليهودى ما حل بأورشليم على يد تيطس الرومانى فيقول ما ملخصه:

«ولقد طال حصار (تيطس) لأورشليم، حتى فنى ما فيها من قوت، واضطر سكانها إلى أكل الجيف ودبيب الأرض. وهلك خلق كثير من الجوع واشتغل الأحياء بأنفسهم وتركوا الموتى بدون دفن. فامتلأت المنازل والشوارع والأزقة بالجثث وتعفنت الموتى.. وصار الناس يخرجون إلى الروم بالألوف دون أن يمنعهم أحد، وكانوا يبتلعون ما عندهم من ذهب وفضة، ثم يستخرجونه من البراز بعد وصولهم إلى الروم، وانتشر خبرهم بين الروم فكانوا يقتلونهم طمعاً فيما فى أجوافهم من ذهب وفضة، وقد تمكن الروم فى النهاية من خرق أسوار أورشليم، فدخلوا المدينة، وأخذوا يقتلون اليهود، ويدمرون ما تقع عليه أيديهم.. وهكذا دمرت أورشليم، ودمّر المعبد للمرة الثانية، وهلك اليهود فى المدينة قتلا وجوعا بأيدى بعضهم، وأيدى الرومان معاً» [10].

هذا، وقد كان تدمير تيطس لأورشليم سنة ٧٠ م، وبعد هذا التدمير فر من بقى حياً من اليهود إلى الأقطار المجاورة كمصر وقبرص، وليبيا وجزيرة العرب.

«يتبع»

(٨) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٧٦ وص ٧٧. طبعة المقتطف سنة ١٩٠٤.

(٩) يوسيفوس مؤرخ يهودى ولد سنة ٣٧ م وتوفى سنة ١٠٢ م تقريبا وكان من المعاصرين لتدمير أورشليم وقد كتب فى ذلك مجلداً ضخما.

(١٠) تاريخ يوسيفوس نقلاً عن تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٢٥٦.

خطابهم الدينى !!

من فتاوى الحاخامات (*)

عنوان الفتوى: وضع الأغيار

مصدر الفتوى: WWW.daatermet.org.il، ٣/١/٢٠٠٤.

فتوى من: هيئة تحرير الموقع

سؤال: ما وضع الأغيار فى التوراة، وهل إذا درس أحد الأغيار التوراة يمكنه أن يغير وضعه، وما هو وضع شخص حكيم من الأغيار يدرس التوراة؟

جواب: إذا كنت تقصد بكلمة «التوراة» - الشريعة الشفوية، أى الاستدلالات كما وردت فى الشريعة (التى تلزم الجمهور الأرثوذكسى)، فإن وضع الأغيار يعد الأكثر تدنيا حسبما ذكر الحاخام دافيد بر حاييم فى مقاله «الأغيار فى الشريعة اليهودية».

وحتى التوراة المكتوبة التى لا تسمح بحرية الدين والعقيدة، تأمر بقتل عبدة الأوثان.

لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى. (خروج ٢٠/ ٤ - ٥)، وحتى الأغيار الذين لا يعبدون الأوثان لابد من التمييز ضدهم ويجوز إقراضهم بالربا: «للأجنبى تقرض بربا».

وإذا كان أحد الأغيار يدرس التوراة، فقد ورد فى الشريعة اليهودية: من يدرس التوراة من الأغيار يجب أن يقتل.. وكذلك من يحافظ على السبت من الأغيار، يجب أن يقتل (الحاخام موشيه بن ميمون: «هلا خوت ملاخيم» (تشريعات الملوك) ١٠/ ٩)، وقد ذكرنا هذا التشريع فى مقال «الشعب اليهودى هو الشعب المختار».

(*) د. منصور عبدالوهاب. فتاوى الحاخامات. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ٢٠١٠.

التجديد فى أسلوب تدريس الفقه والتأليف فيه

منذ إنشاء كليات للشريعة الإسلامية فى الجامعات بعد زوال الاستعمار وقيام جامعات إسلامية كاملة، أخذ تدريس الفقه والتأليف فيه طوراً جديداً. ذلك أن الكتب المذهبية القديمة التى كانت مؤلفة للتعليم بأسلوبه القديم، أو كمرجع للعلماء ليست ملائمة لحاجة التدريس الجامعى فى هذا العصر. فانبرى أساتذة الفقه فى كليات الشريعة إلى وضع مؤلفات حديثة فى الفقه ملائمة حاجة الطلاب فى مراحل الدراسة العالية والعليا. فلمرحلة البكالوريوس أسلوب تعليمى، ولمرحلة الدكتوراة أسلوب تعمقى فى موضوعات خاصة. وبذلك وجدت رسائل ماجستير ودكتوراه فى موضوعات فقهية كثيرة تستوعب كل موضوع وتناقشه بتعمق من مختلف جوانبه، وتفتق الباحثين والمراجعين، وأصبحت تعد بالعشرات، وبعضها فى الفقه الدستورى كنظام الحكم والشورى، وفى الفقه الاقتصادى، وحقوق السلم والحرب فى الإسلام (القانون الدولى الإسلامى) وفى حقوق الإنسان، وحقوق المرأة.



للأستاذ الدكتور
مصطفى أحمد الزرقا

الانفتاح على المذاهب، والاهتمام بالفقه المقارن:

إن التجديد فى تدريس الفقه والتأليف فيه فى الجامعات قد صاحبه الانفتاح على المذاهب الفقهية جميعاً، الأربعة الممثلة لفقه أهل السنة، والأربعة الأخرى التى سبقت الإشارة إليها فى موضعها، بل وعلى آراء الصحابة والتابعين وسائر فقهاء السلف الذين لم تدون مذاهبهم تدويناً كاملاً، وإنما نقلت لهم آراء فى موضوعات شتى فى كتب اختلاف الفقهاء كالأوزاعى والليث بن سعد وابن شبرمة وابن أبى ليلى والحسن البصرى وسفيان الثورى وغيرهم، للاستفادة من آرائهم فيما نقل عنهم.

وهذا الانفتاح قد خفف العصبية المذهبية التى كانت بين أتباع المذاهب فى الماضى مما سبقت الإشارة إليه، وأصبحت الدراسة الفقهية فى الجامعات تظهر للطالب مزايا المذاهب المختلفة وما فيها من ثروة فقهية، وتنمية فكرية، وتوسعة للمدارك بمناقشة الأدلة، وتيسير على المكلف فى التطبيق، وتسهيل على أولياء الأمور لعملية التقنين من الفقه الإسلامى أن يختاروا فى كل موضوع من كل مذهب ما هو أنسب وأوفى بالحاجة الزمنية والمكانية.

الانفتاح على القانون والدراسات الفقهية المقارنة به:

ومن أهم ما أسفر عنه الاتجاه العصرى فى تجديد الفقه جانب جديد عظيم الأثر فى خدمة الفقه وإبراز جوهره الأصيل ومكنوناته النفيسة التى كانت محجوبة فى كتبه المذهبية القديمة بأسلوبها المعقد الذى لم يعد يفهمه إلا من نشأ وعاش فى أحضانها، وتغذى بلبانها، وتلقى لغتها واصطلاحاتها الخاصة كما يتلقى الطفل فى أسرته لغة الأم، وبخاصة كتب المتأخرين من فقهاء المذاهب.

ذلك الجانب الجديد هو فتح نافذة على القانون الوضعى، والإطلال منها على آراء علماء القانون فى كل موضوع من فقه المعاملات، مما يفيد فى تدريس الفقه الإسلامى بالجامعات، وتأليف كتبه الحديثة لطلابها.

ذلك أن الانفتاح على المذاهب الفقهية، والاطلاع على ما فيها من آراء ونظريات ومبادئ فيها النفيس الكثير المفيد، قد جر إلى فتح هذه النافذة على علم القانون الوضعى، ورؤية ما فيه من نظريات ومبادئ، وطريقة عرض مبسطة ميسرة، لا تعقيد فيها ولا وعورة.

وقد كان هذا الاتصال بين الفقه والقانون الوضعى ذا ثمار طيبة، وساعد على عرض الفقه مقارناً بالقانون فى المؤلفات والبحوث ورسائل الدكتوراه، بالأسلوب الذى يفهمه رجال القانون وباللغة والعناوين المألوفة لديهم، ولم يكونوا يعرفون مقابلها فى الفقه الإسلامى، وزالت الوحشة الشديدة التى كانت بين فقهاء الشريعة الإسلامية وعلماء القانون فى النصف الأول من هذا القرن.

وفى الخمسينيات من هذا القرن أدخل تدريس مبادئ علم القانون وموجز النظرية العامة للالتزامات من القانون المدنى فى بعض كليات الشريعة.

ويلفت النظر أكثر من ذلك أنه قد صدر فى سوريا قانون يشترط فى تعيين القضاة الشرعيين أن يكونوا حاصلين على شهادة الإجازة فى الحقوق (بكالوريوس فى القانون)، ومن ثم أصبح كل من يرغب فى القضاء الشرعى مضطراً أن يدخل كلية الحقوق ويتخرج فيها، وأصبح القاضى الشرعى يضاهى قاضى المحاكم النظامية فى كل شىء، بل قد يفضله؛ لأنه درس دراسته ويزيد عليه بثقافته الشرعية. وهذا التدبير لم يحصل مثله فى البلاد العربية الأخرى.

التقنين من الفقه الإسلامى:

منذ أن وضع فى دساتير البلاد العربية بعد استقلالها نص على أن الفقه الإسلامى هو المصدر الرئيسى للتشريع ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ بدأت مطالبات بتوفيق القوانين القائمة مع أحكام الفقه الإسلامى وتغيير ما يخالف. وركزت المطالبات فى مصر وفى سوريا والعراق والأردن على وضع قانون مدنى حديث مستمد من الفقه الإسلامى بمعناه الواسع، كما سبق بيانه.

وقد تحققت الفكرة فى بعض البلاد العربية، حيث ولد أول قانون مدنى حديث فى أسلوبه وترتيبه وتبويبه مستمداً من الفقه الإسلامى بمختلف مذاهبه، وذلك فى المملكة الأردنية على يد لجنة من رجال الفقه والقانون، مع مذكرة إيضاحية تواكب مواده مادة فمادة وتصلها بمصادرها من فقه المذاهب، أو تدعمها بقياس اجتهادى، أو بالتخريج على قاعدة الاستصلاح والمصالح المرسلة. وصدر ذلك القانون رسمياً فى عام ١٩٧٦ م وحل محل مجلة الأحكام العدلية التى كانت معمولاً بها فى الأردن حتى ذلك التاريخ.

وصدور هذا القانون كسر حاجز الصعوبات التى كانت تعترض تحقيق هذه الفكرة من منتصف هذا القرن. وكان فى اختلاف المذاهب الفقهية ومرونة نصوص الشريعة أكبر عون على اختيار الأحكام المناسبة الملائمة لحاجة العصر.

وقد بادرت دولة الإمارات العربية المتحدة إلى أخذه كاملاً وإصداره قانوناً مدنياً لها، كما أخذت به كاملاً جمهورية السودان عام ١٩٨٣ م.

وقد جاء القانون المدنى الأردنى حجة دامغة للمنادين بضرورة تحقيق هذه الفكرة، وذلك بالمذكرة الإيضاحية الضافية التى ربطت مواده بمستنداتها من قواعد الفقه وأصوله من مختلف المذاهب.

والواقع أن هذا القانون قد اقتبس كثيراً من القانون المدنى المصرى الجديد الأجنبى الأصول ترتيباً وصياغة، ومن الناحية الموضوعية كل ما وجده من المبادىء والأحكام قابلاً للتخريج على قواعد الفقه الإسلامى ومقاصد الشريعة والمصالح المرسلة. ومن الممكن فى جولة أخرى تنقيحية عليه وعلى مذكرته الإيضاحية أن يصبح أكمل وأحكم صياغة، وأن يربط بالفقه وأصوله ربطاً أوثق.

وهذه الخطوة الرسمية الجريئة فى الأردن مهدت السبيل إلى الخطوة التالية: وهى (مشروع القانون المدنى العربى الموحد) المستمد من الفقه الإسلامى.

فقد كانت جامعة الدول العربية فى منتصف السبعينيات كلفت دائرتها القانونية وضع مشروع لقانون مدنى موحد تأخذه من تشاء من الدول العربية، توحيداً للتشريع المدنى

فيها. وألفت لذلك لجنة خبراء من رجال القانون بدأت وضع المشروع فى السبعينيات مستمداً من التقنينات الأجنبية. ثم تبين لها أن البلاد العربية لا يمكن أن تقبل شعوبها قانوناً بعيداً عن أصالتها الفقهية أجنبى المصادر، ولا سيما بعد صدور القانون المدنى الأردنى، فغيرت الاتجاه، وألفت لجنة خبراء من فقهاء الشريعة والقانون لوضع المشروع مستمداً من الفقه الإسلامى وأصوله دون تقيد بمذهب معين، وموصلاً بمذكرة إيضاحية تربط كل مادة فيه بمأخذها ومرجعها من مصادر الفقه ونصوص الفقهاء. (وكان كاتب هذا البحث أحد أعضاء لجنة الخبراء هذه).

بدأت اللجنة أعمالها باجتماعات دورية فى أول الثمانينيات، وأنجزت حتى عام ١٩٨٤ م وضع الباب التمهيدى للقانون، ونصوص النظرية العامة للالتزامات (وهى التى تمثل العمود الفقرى من القانون وأصعب مرحلة فيه) كاملة بكل أبوابها وفصولها من مصادر الالتزامات حتى انقضاء الالتزام، مؤصلة تأصيلاً فقهياً كاملاً بمذكرة إيضاحية تواكب نصوص المواد.

فقه الأعمال المصرفية وطرق الاستثمار الإسلامية

ظهر فى العالم الإسلامى وخارجه منذ منتصف السبعينيات وحتى اليوم عشرات من المصارف والمؤسسات المالية والاستثمارية التى ترغب فى الالتزام بالشريعة الإسلامية فى أعمالها، وبخاصة فيما يتصل بتحريم الفوائد المصرفية أخذاً وإعطاءً. كما برز توجه قوى فى عدد من الدول فى العالم الإسلامى للتخلص من الفوائد فى نظامها المصرفى كله.

وشكل هذا التطور تحدياً كبيراً للفقه الإسلامى وللفقهاء أن يمارسوا الاجتهاد ويطوروا صيغاً عملية للتمويل والاستثمار مقبولة شرعاً وناجعة اقتصادياً.

ونلاحظ أن استجابة الفقهاء لهذا التحدى المعاصر كانت جيدة جداً وتعبر تعبيراً عملياً عن المنهج العصرى نحو التجديد فى الفقه:

أ ـ فقد أنشئت فى كثير من المصارف الإسلامية هيئات شرعية تمارس الاجتهاد الجماعى بصورة مصغرة. كما برز هذا النوع من الاجتهاد من خلال عشرات المؤتمرات وحلقات العمل المتخصصة التى عقدتها تلك المصارف الإسلامية، ودورات المجمع الفقهى والتى أصدرت كثيراً من التوصيات والفتاوى الفقهية المحددة.

ب ـ وبرز فى النشاط الفقهى فى هذا المجال الانفتاح الكامل بين المذاهب، إذ لا تتقيد أى من الهيئات الشرعية فى المصارف الإسلامية بمذهب معين، بل جميعها تستهدى فى اجتهاداتها وفتاواها بجميع المذاهب.

أسبوع الفقه الإسلامي بباريس والدعوة لموسوعة فقهية:

في اليوم الثاني من شهر يوليه (تموز ١٩٥١ م) عقدت شعبة الحقوق الشرقية من «المجمع الدولي للحقوق المقارنة» مؤتمراً في كلية الحقوق من جامعة باريس للبحث في الفقه الإسلامي تحت اسم «أسبوع الفقه الإسلامي» برئاسة المستشرق المسيو ميو MILLOT (أستاذ التشريع الإسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس، وقبلها في الجزائر) دعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهم، ومن المستشرقين. وقد اشترك فيه من مصر أربعة أعضاء من الجامعات ومن الأزهر، كما اشترك من الجامعة السورية (جامعة دمشق ـ كلية الحقوق) عضوان كنت أنا أحدهما. وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية عينها مكتب المجمع الدولي للحقوق المقارنة من زمر الحقوق العامة والخاصة (المدنية، والجنائية، والإدارية، والاقتصادية) ومن تاريخ التشريع، وهي:

(١) إثبات الملكية.

(٢) الاستملاك للمصلحة العامة.

(٣) المسئولية الجنائية.

(٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها ببعض.

(٥) نظرية الربا في الإسلام.

وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية، وخصص لكل موضوع يوم. وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مهمة مع المحاضر وبين المؤتمرين، وتسجل خلاصاتها.

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء وهو نقيب محاماة سابق في باريس، فقال:

«أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكي لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادئ».

وفي ختام المؤتمر وضع المؤتمرون بالإجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي:

«إن المؤتمرين بناء على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت أثناء «أسبوع الفقه الإسلامي»، وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح:

أ ـ أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها.

ب ـ وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات، ومن الأصول الحقوقية، هي مناط الإعجاب، وبها يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة، والتوفيق بين حاجاتها.

يعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الإسلامي يتابع أعماله سنة فسنة، ويكلفون مكتب المؤتمر بوضع قائمة للموضوعات التي

أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة.

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة» (١).

مشروع الموسوعة الفقهية

بعد أن أنشئت كلية الشريعة الإسلامية بالجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) في عام/ ١٩٥٤ م كان من باكورة نشاطها تنفيذ توصية أسبوع الفقه الإسلامي بباريس بشأن تأليف موسوعة فقهية. فألفت الكلية لجنة لهذا المشروع عام ١٩٥٦ م وبدأت اللجنة أعمالها باستخراج الألفاظ العنوانية لموضوعات الفقه ومسائله وأحكامه من مختلف كتب المذاهب الأربعة لتكوين الهيكل اللفظي للموسوعة التي ستعرض فيها جميع أحكام الفقه في المذاهب الأربعة مرتبة بترتيب حروف الهجاء لكلماتها العنوانية، فيستطيع من يشاء مراجعتها ومعرفة ما في المذاهب عن كل موضوع فقهي بمجرد الرجوع إلى كلمته العنوانية بترتيبها الهجائي، تيسيراً على غير المختصين الذين لا يعرفون موضع المسائل في كتب كل مذهب.

وفي عهد الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ م ألفت لجنة مشتركة بين القطرين للتعاون على هذا المشروع العظيم. ثم بانفصال الوحدة عام ١٩٦١ م توقف العمل ثم توبع المشروع ببطء في مصر. ثم في عام/ ١٩٦٦ م قررت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في دولة الكويت أن تتبنى المشروع، وألفت له جهازاً، ومشت فيه خمس سنوات بخطى سريعة. وقد أثار ذلك حماس وزارة الأوقاف في مصر لمتابعة المشروع لديها. فنشطت في تنفيذه. وهكذا قام مشروعان للموسوعة الفقهية، أحدهما في مصر والثاني في الكويت. وقد صدر من كل منهما حتى الآن أكثر من عشرين مجلداً، ولم يبلغ كل منهما في موضوعاته منتصف الحروف الهجائية.

وإذا كتب لهذا المشروع التمام، وأصبحت الموسوعة الفقهية في المكتبات العالمية، وترجمت إلى لغات البلاد المعنية بالقانون، فستكون هذه الموسوعة مدداً من الفقه الإسلامي غزير المادة وميسراً للمشترعين، يحسب له حساب كبير بين مصادر التشريع في عالم المستقبل، وليس في البلاد العربية والإسلامية فحسب.

(١) وقد قامت الجمعية الدولية للحقوق المقارنة بتلخيص وقائع أسبوع الفقه الإسلامي هذا وما دار فيه من بحوث ومناقشات مع التعليق عليه بما يظهر أهميته الكبرى في عالم القانون، ونشرت هذه الخلاصة في ثلاثين صفحة من مجلتها (المجلة الدولية للحقوق المقارنة في العدد الرابع من السنة الثالثة، أيلول ـ تشرين الأول ١٩٥١ م. كما نشر معهد الحقوق المقارنة بجامعة باريس نصوص المحاضرات التي ألقيت في هذا المؤتمر كاملة مع مناقشاتها في كتاب خاص أصدرته مكتبة مجموعة سيريه Sirey للبحوث القانونية سنة ١٩٥٣م. بإشراف المسيو ميو رئيس المؤتمر.

جلب المصالح ودرء المفاسد.. الأصل والفرع



د. أحمد الريسونى (*)

موضوع هذا المقال موضوع تخصصى، وربما أيضا موضوع فلسفى. رأيت أن أدرسه وأعالجه؛ لأنه يسعى إلى تصحيح النظر فى قضية كبيرة من قضايا الشريعة ومقاصدها وأولوياتها. وهى قضية تنجم عنها - بوضعها الشائع غير السليم - إشكالات كثيرة فى الفقه الإسلامى، والفكر الإسلامى، والسلوك الإسلامى.

والقضية هى: جلب المصالح من جهة، ودرء المفاسد من جهة أخرى؛ أيهما السابق وأيهما اللاحق؟ أيهما يقدم وأيهما يؤخر؟ أيهما الأصل المتبوع وأيهما الفرع التابع؟...

وسبب آخر لتناول هذه القضية، وهو أنها ذات صلة وثيقة بما قلته فى حلقات سابقة عن حاجة الحركات والأحزاب الإسلامية إلى الاجتهاد والتجديد، وما ذكرته عن مشكلات الاجتهاد الفقهى المعاصر...

من قبل ألقيتُ محاضرة بمقر (الندوة العالمية للشباب الإسلامى) بجدة، حول التعريف بمقاصد الشريعة. وذكرت فيها كلمة عابرة حول موضوع هذا المقال. وفى ختام المحاضرة لخص المُسيّر بعض ما جاء فيها، ثم قال: ولكن المُحاضر قلب علينا الطاولة. لقد كنا نعتقد أن "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، ولكنه أتانا بعكس ذلك! فقلت فى نفسى: أمّا هذا فقد فهم المقصود. فعلا، لقد فهم الإشارة وأحسن العبارة.

نعم هناك قاعدة شهيرة ومسلمة - أو شبه مسلمة - فى الفقه الإسلامى، بل هى سيارة على ألسنة الدعاة والوعاظ وكثير من الناس، وهى قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

(*) د/ أحمد الريسوني. أصولي ومقاصدي معاصر. ولد عام ١٩٥٣م بالمغرب. أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة بجامعة محمد الخامس بالمغرب، وعضو مؤسس للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والرئيس السابق لحركة التوحيد والإصلاح المغربية (١٩٩٦ - ٢٠٠٣م)، ومستشار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وخبير أول بمجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمشرف على إصدار معلمة القواعد الفقهية بالمجمع. وصاحب عدد من المؤلفات المتميزة منها: نظرية المقاصد عند الشاطبي، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية، الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

وهى تعنى أن المكلف إذا كان بصدد جلب مصلحة، لكن تلازمها أو تعترضها مفسدة، فليترك تلك المصلحة، حتى لا يقع فى المفسدة الملازمة لها. وهكذا كلما اختلطت علينا المصالح بالمفاسد، فدرءُ المفاسد مقدم على جلب المصالح...، أى أن الأولوية للسلامة من المفاسد والمحظورات، ولو بالتضحية بالمصالح والمشروعات. ويعبّر عن هذه القاعدة بعبارات أخرى مثل قولهم «الاجتناب مقدم على الاجتلاب»، أى اجتناب المفاسد مقدم على اجتلاب المصالح.

ومما يُستدل به على هذه القاعدة، الحديثُ النبوى المتفق عليه: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)! فالحديث جازم فى ضرورة اجتناب كافة المنهيات، بينما المأمورات خففها وعلقها بالاستطاعة.

والحقيقة أن الاجتناب إنما كان لازما فى جميع المنهيات، لكون الاجتناب دائما فى الإمكان وفى المستطاع؛ لأنه عبارة عن الإمساك وعدم الفعل. وعدمُ الفعل يستطيعه الجميع، فلا يحتاج إلى قدرة أو جهد، أو سعى، أو وسائل... بخلاف المأمورات، فهى بحاجة إلى جهد وسعى وبذل، ووسائل وإمكانات... وكل هذا قد يكون بالإمكان وقد لا يكون، ولذلك علقت الأوامر بالاستطاعة.

فليس فى الحديث دلالة صريحة ولا صحيحة، على أفضلية درء المفاسد على جلب المصالح، وليس فيه دلالة على أولوية الاجتناب على الاجتلاب.

وقد تناول ابن تيمية هذه القضية، فى بحث فلسفى عميق ومفصل، قال فى مطلعه (قاعدة) فى أن جنس فعل المأمور به أعظمُ من جنس ترك المنهى عنه، وأن جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه، وأن مثوبة بنى آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات، وأن عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات «مجموع الفتاوى (٢٠ / ٨٥)».

وقد استدل رحمه الله على هذه القاعدة من وجوه عديدة، أوصلها إلى اثنين وعشرين وجها، وفى كل وجه عدد من الأدلة: «مما يبين أن اتباع الأمر أصل عام، وأن اجتناب المنهى عنه فرع خاص»، ويؤكد «أن فعل المأمور به أصل وهو المقصود، وأن ترك المنهى عنه فرع وهو التابع» (مجموع الفتاوى ٢٠ / ١١٦).

ومما يستدل به القائلون بأفضلية اجتناب المنهيات والمفاسد، كونُ التقوى - وهى عماد الدين وجماعه عبارة عن التوقى والاجتناب للمعاصى والمنكرات والمفاسد، وعلى هذا فالخير كله فى الاجتناب.

وقد رد عليهم ابن تيمية ردا مطولا وبليغا، قال فى بدايته: «ومَن الذى قال: إن التقوى مجرد ترك السيئات، بل التقوى كما فسرها الأولون والآخرون: فعلُ ما أمرت به وتركُ ما نهيت عنه. كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة: اتقوها بالتقوى. قالوا وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وقد قال تعالى في أكبر سورة في القرآن:

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة: ١-٣)

فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ٢١)

وقال:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

وهذه الآية عظيمة جليلة القدر من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين. وقد روى أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن خصال الإيمان فنزلت... وقددلت على أمور:

أحدها: أنه أخبر أن الفاعلين لهذه الأمور هم المتقون، وعامة هذه الأمور فعلُ مأمورٍ به.

الثاني: أنه أخبر أن هذه الأمور هي البر وأهلها هم الصادقون، يعني في قوله:

﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾

وعامتها أمور وجودية هي أفعال مأمور بها. فعُلم أن المأمور به أدخلُ في البر والتقوى والإيمان من عدم المنهي عنه. وبهذه الأسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾

(الإنفطار: ١٣، ١٤)

وقال:

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

(ص: ٢٨)

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾

(القمر: ٥٤)

وقال:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

(السجده: ١٨)

أ.هـ (مجموع الفتاوى ٢٠ / ١٣٣).

وقبل ابن تيمية نجد الفخر الرازي - المفسر الأصولي المتكلم؟ يسجل تنبيها عميقا عند تفسيره آية الحديد (من سورة الحديد)، حيث قال رحمه الله: «مدار التكليف على أمرين: أحدهما: فعل ما ينبغي فعله. والثاني: ترك ما ينبغي تركه، والأول هو المقصود بالذات، لأن المقصود بالذات لو كان هو الترك لوجب أن لا يخلق أحد، لأن الترك كان حاصلا في الأزل».

يعني: لو كان القصد الأساسي من الخلق ومن التكاليف هو ترك المنهيات واجتناب المفاسد، لكان أفضل تحقيق لذلك هو عدم خلق البشر. ومعنى هذا أن الناس خلقوا أساسا ليفعلوا لا ليجتنبوا...، وإنما يجب اجتناب المنهيات ومفاسدها، بسبب ضررها بالمأمورات ومصالحها. وهذا ما عبر عنه ابن تيمية بقوله: «فعل المأمور به أصل، وهو المقصود، وأن ترك المنهي عنه فرع، وهو التابع».

ومن لطائف التشبيهات للمسألة، ما قاله الرازي عند تفسير قوله تعالى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(سورة النساء: ١٦٥)

حيث قال: «وإنما قدم البشارة على الإنذار؛ لأن البشارة تجرى مجرى حفظ الصحة، والإنذار يجرى مجرى إزالة المرض. ولا شك أن المقصود بالذات هو الأول دون الثاني، فلا جرم وجب تقديمه في الذكر». وهي الفكرة التي فصلها ابن تيمية وابن القيم، حين اعتبرا أن الأوامر والمصالح بمثابة الغذاء، وأن اجتناب النواهي والمفاسد بمثابة الحمية والدواء. ولا شك في أولوية الغذاء، وأنه هو الأصل في صحة الإنسان وقيام حياته، وأن الحمية والدواء فرع واستثناء.

التخلية قبل التحلية

هذه القولة شائعة في الثقافة الإسلامية، وهي حجة ومحجة عند عامة المسلمين، بسبب كثرة ترديدها والتسليم بها، خاصة عند الدعاة والوعاظ وأهل التربية والتزكية.

ومقصودهم بها: أن تخليص الإنسان من المفاسد والأدران والآفات، سابق ومقدم على تحليته وتزكيته بالفضائل والمحاسن. وهذا يستدعي بدء الدعوة والإصلاح والتربية بالتخلية عن المفاسد والمنكرات والانحرافات...، أي: مواجهة المفاسد أولاً، وإزالة المفاسد أولاً. ثم بعد ذلك تأتي المصالح والخصال الحميدة، فتغرس في أرض طيبة نقية.

ومن أقوالهم في ذلك: «أزِلْ الموانع أولاً، ثم أثبت. فأولاً فرِّغ قلبك من كل خشية لغير الله، ثم مكن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكون المحل قابلاً؛ فإذا كان المحل قابلاً، فحينئذ يكون الوارد عليه وارداً على شيء لا ممانعة فيه».

وقالوا: «رهبوت خير من رحموت؛ أي لأن ترهب خير من أن ترحم؛ وذلك لأن التخلية قبل التحلية».

وقال بعضهم في توجيهاته لطلاب العلم: «التخلية قبل التحلية: ينبغي لطالب العلم أن يتهيأ لطلب العلم بتطهير قلبه التخلية قبل التحلية: ينبغي لطالب العلم أن يتهيأ لطلب العلم بتطهير قلبه من الغش، والغل، والحسد، وفساد المعتقد، وسوء الخلق، ليصبح أهلا لطلب العلم وقبوله، فإن القلوب تطيب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة».

وأنا أتساءل: إذا كان الإنسان قبل أن يتهيأ لتلقى العلم الشريف، عليه أولا أن يكون قد تطهر من الغش، والغل، والحسد، وفساد المعتقد، وسوء الخلق، فماذا بقي أن يستفيده من تلقى هذا العلم؟! وإذا لم يكن العلم هو الذي يطهره من كل هذا، فما جدوى هذا العلم؟

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

(هود: ١١٤)

وقد دلت أدلة الشرع الصحيحة على أن التحلية هي التي تحقق التخلية أو تساعد عليها، وأن استتباب المصالح والفضائل، هو الذي يمكن من دفع المفاسد والرذائل، وأن إظهار الحق وإثباته هو الذي يطرد الباطل، وأن الحسنات هي التي تزيل السيئات.

قال الله عز وجل:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(سورة الإسراء: ٨١)

وقال سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(هود: ١١٤)

فالحسنات لا تنتظر التخلية وإفراغ المكان لها، بل هي التي تنجز التخلية بوجودها، وهي التي تزيل السيئات وتحل محلها.

وكذلك الصلاة، لا تنتظر أن يتطهر الإنسان من الفواحش والمعاصي، قبل أن يقدم عليها، بل هي التي تطهره بعد ممارستها والتلبس بها:

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

وكذلك الصيام، لا ينتظر حتى تتحقق له التخلية، بل هو صاحبها. فالتحلي بالصيام هو سبيل التخلية ووسيلتها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

والزكاة أيضا: تتحقق وتنفذ أولا، ثم هي التي تطهر وتنقي وتزكي، أي تنجز التخلية والتحلية معا؛ لأن هذا بعض من مقاصدها وحكمة مشروعيتها. قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣)

فالتطهير يحصل بها ومعها لا قبلها.

إنجاز البدائل مقدم على مقاومة الرذائل

من المعلوم – كما يقول ابن تيمية وغيره من العلماء – «أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها». وهذا هو المقصود بالعبارة الأخرى، الأكثر اختصارا واشتهارا، وهي: «جلب المصالح ودرء المفاسد»

وقد بينتُ في أول كلامي أن تحصيل المصالح وتكميلها، هو الغرض الأصلي الأساس، وأن «تعطيل المفاسد وتقليلها»، إنما هو فرع متمم ومُرمِّم لإقامة المصالح وتمامها ودوامها. وبينت أن ما هو سائد من القول بأولوية درء المفاسد على جلب المصالح، وأن الاجتناب أولى من الاجتلاب، وأن التخلية سابقة على التحلية...، هي مقولات غير صحيحة وغير مسلمة.

وهذه القضية تناولها بعض العلماء من زاوية

أخرى وتحت اسم آخر، كما في قول الشاطبي عن طريقة الشرع في رعاية المصالح وحفظها: «والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما: ما يقيم أركانها ويُثبِّت قواعدها. وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود. والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم» اهـ (الموافقات ٢ / ٨).

فإذا، الشطر الأول والأساس لحفظ المصالح هو «ما يقيم أركانها ويُثبِّت قواعدها»، فهو صاحب الأسبقية والأولوية. ثم بعد ذلك في الأهمية والأولوية، يأتي «ما يدرأ الاختلال الواقع أو المتوقع فيها».

والذي نراه اليوم أن كثيرا من الدعاة والجماعات والأحزاب الإسلامية، ما زالوا أسرى لنظرية «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والتخلية تسبق التحلية». يظهر ذلك في شدة الانشغال والاشتغال بالمواجهة مع: المنكرات، والانحرافات، والطواغيت، والبدع، والمعاصي، والمفاسد،... ومع الجاهلية والعلمانية والصهيونية والإباحية والدكتاتورية....

وأنا لا أنكر ولا أعارض – من حيث المبدأ– الانشغال والاشتغال بأي شيء مما ذُكر، ولكني أقول: إن ذلك كله فرع من قضيتنا الأصلية، وليس هو القضية الأصلية، ولا هو شطرها الأكبر، ولا هو صاحب الأسبقية والأولوية.

القضية الأصلية، ذات الأسبقية والأولوية، هي بناء المصالح وتكميلها، هي تحقيق الأعمال الإيجابية، أو الوجودية بتعبير ابن تيمية، أو هي الحفظ الوجودي بتعبير الشاطبي. فلو أن هذه القضية الفرعية – قضية درء المفاسد ومحاربتها – أخذت رُبع عنايتنا وجهودنا وانشغالاتنا، لكان هذا كثيرا، ولو أخذت أقل من ذلك لكان أفضل...

لنتأمل هذه الآيات الكريمة، ولننظر في المعاني والتكاليف الجامعة، التي توجهنا إليها وتحثنا عليها:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٩)

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

(المؤمنون: ٥١، ٥٢)

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

(الحج: ٧٧، ٧٨)

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

(الملك: ٢)

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(سورة العصر)

وحتى سورة الفاتحة، وهى أم الكتاب، ونظل نقرؤها ونصلى بها، لو تدبرناها، لوجدنا أنها خصصت ست آيات ونصف الآية للأعمال الإيجابية (المصالح)، وخصصت نصف آيتها الأخيرة للتنفير من التوجه السلبى العدمى (أى المفاسد)، وهو قوله تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

(الفاتحة: ٧)

وأما فى مجال العمل الدعوى والإصلاحى خاصة، فإن من أبرز عناوينه ومداخله: «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». وهما متلازمان غالبا فى الخطاب الشرعى، ولكن من المعلوم قطعا أن الأمر بالمعروف دائما متقدم على النهى عن المنكر. والآية الجامعة فى هذا الباب، وهى قوله عز وجل:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

دالة دلالة واضحة على كل ما تقدم. فالرسالة المحمدية، والرسالة الإصلاحية، تتضمن ثلاثة عناصر هى:

١- الدعوة إلى الخير.

٢- الأمر بالمعروف.

٣- النهى عن المنكر.

وهذه العناصر عادة ما تتزامن وتتداخل، ولكن الترتيب المطَّرِد فى النصوص الشرعية الكثيرة، يدل على الأسبقية والأولوية بصفة عامة.

وهذا واضح كذلك فى الآية الجامعة التى تتحدث عن المضامين والخصائص الكبرى للبعثة المحمدية، وذلك قوله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

(الأعراف: ١٥٦، ١٥٧)

وأيضا فإن النظر والتأمل فى الخطوات الأولى للبعثة النبوية، فيها إشارات ودلالات هادية. فمعلوم أن أول ما نزل من الهُدى والنور:

● قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١-٥)

● وقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

(المزمل ١ - ٤)

● وبعد ذلك بدأت المزاوجة بين الأمر والنهى، كما فى قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

(المدثر ١-٧)

● وقبل هذا كله، نجد ما ذكرته السيدة خديجة رضى الله عنها، بعد الرجة والرجفة التى أصابت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، عند أول وحى نزل عليه، فقالت له: (والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق).

ومعنى هذا أن الرسول الكريم عليه السلام، كان صاحب إنجازات تأسيسية وتمهيدية بين يدى بعثته، وكلها كانت من جنس جلب المصالح، لا من جنس درء المفاسد.

وهذا يذكرنا بقوله عليه السلام: (إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق)[1]، ودلالته واضحة فى الموضوع ...

فهذا هو دأب الأنبياء جميعا؛ جاءوا أساسا وأصالة بالتأسيس والبناء والتشييد، أى بالمصالح وعمل الصالحات، كما تقدم فى الآيات، وكما يشير إليه الحديث النبوى الشريف: (مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء من قبلى، كَمَثَلِ رجل بنى بنيانا، فأحسنه وجمله، إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وُضعتْ هذه اللبنة. قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)[2].

فليس هاهنا ذكر للمفاسد أصلا، لا مقدَّمة ولا مؤخَّرة، وإنما ذُكر البنيان والتحسين والتجميل والتتميم، وكل ذلك مرصَّع ومُحلى بمكارم الأخلاق.

وهذا لا يعنى، ولا أعنى به إغفال مسألة المفاسد وإخراجها من الحسبان، ولكنه يعنى وأعنى به، أنها مسألة ضمنية وفرعية وتابعة.

وقد يأتى فى بعض الخطابات الشرعية إبراز قضية بعض المفاسد والتركيز عليها وتقديمها فى الذكر أو فى الاعتبار، ولكن هذا منظور فيه إلى الحالات والأولويات الخاصة بسياقها وظرفها وغرضها، مثلما قد يأتى على الإنسان المريض حين من الدهر يصبح الشغل الشاغل له ولطبيبه، هو الدواء والحمية والاجتناب والحذر والاحتياط ... كما هو واقع لى هذه الأيام!

كما أن هذا كله لا ينفى أن كثيرا من المفاسد والشرور قد تصل فى ضررها وخطورتها حدا يستدعى إعطاءها الأولوية فى الدفع والاجتناب، ولو بتفويت بعض

---

(١) كشف الخفاء للعجلونى.

(٢) فقه السيرة للغزالى.

المصالح التى تحتمل التفويت. فهذا معلوم ومسلَّم، ولكن الغرض الآن هو تقرير الأصل والوضع الأصلى. وهو الأصل الذى يوضحه ويؤكده الإمام الشاطبى فى هذا النص النفيس. قال رحمه الله: "الأمور الضرورية أو غيرها من الحاجية أو التكميلية، إذا اكتنفتها من خارج أمورٌ لا تُرضى شرعا، فإن الإقدام على جلب المصالح صحيح على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة من غير حرج؛ كالنكاح الذى يلزمه طلب قوت العيال مع ضيق طرق الحلال واتساع أوجه الحرام والشبهات، وكثيرا ما يلجئ إلى الدخول فى الاكتساب لهم بما لا يجوز، ولكنه غير مانع لما يؤول إليه التحرز من المفسدة المربية على توقع مفسدة التعرض، ولو اعتُبر مثل هذا فى النكاح فى مثل زماننا، لأدى إلى إبطال أصله، وذلك غير صحيح. وكذلك طلب العلم، إذا كان فى طريقه مناكر يسمعها ويراها، وشهود الجنائز، وإقامة وظائف شرعية إذا لم يقدر على إقامتها إلا بمشاهدة ما لا يرتضى، فلا يُخرج هذا العارضُ تلك الأمور عن أصولها؛ لأنها أصول الدين وقواعد المصالح، وهو المفهوم من مقاصد الشارع، فيجب فهمها حق الفهم. فإنها مثار اختلاف وتنازع"... (الموافقات ٤ / ٢١٠-٢١١)

وختاما.. وباستصحاب ما قلناه قديماً وحديثاً - فى أكثر من مكان وفى أكثر من مقال - حول الحاجة إلى الاجتهاد والتجديد، وخاصة لدى الحركات الساعية إلى البناء والإصلاح على أسس ومنطلقات إسلامية، فإن إعادة ترتيب الأولويات بصفة عامة، وقضية التقديم والتأخير بين الاشتغال بتحصيل المصالح، والاشتغال بمحاربة المفاسد، تبدو قضية ملحة وعاجلة، حتى لا يستمر تقديم العربة على الحصان، ولو فى بعض الأحيان.

ومقتضى هذا أن تعطى العنايةُ والأولوية للأعمال والمبادرات والمشاريع الإيجابية البناءة والمفيدة، ولو "اكتنفتها من خارج أمورٌ لا تُرضى شرعا، على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة من غير حرج"، على حد تعبير الشاطبى.

كما أن هذا النهج سيقتضى حتما تقليصاً فى مقدار الاشتغال بمحاربة المفاسد والرذائل، لفائدة إنجاز المصالح البدائل.

إن القيمة الحقيقية، أو القيمة المضافة، لأعمالنا وجهودنا، هى أن نوقد شمعة لا أن نلعن الظلام. فلعنُ الظلام يحسنه كل أحد، ويمارسه كل أحد.

للأسف، فإن كثيرا من الحركات والأحزاب الإسلامية، قد حُشرت، أو حشرت نفسها، فى مربع المعارضة، وفى منطق المعارضة، بمعناه الديموقراطى الحزبى التقليدى. ومنطق المعارضة هذا، يلزمك أن تقف دائما بالمرصاد لكى تنتقد وتستنكر وتدين وتستهجن وتقاوم وتعارض وتفضح وتسب وتلعن...

الاشتغال بالمعارضة والمناهضة ينبغى أن يكون مهمة عرَضية، لا مهنة دائمة. أما الأصل الدائم، فهو الاشتغال بالبناء والإنجاز وتحقيق المصالح والمنافع.

وبالله تعالى التوفيق.



شواخص النهضة فى فكر رشيد رضا
الدين الخالص والعلم الصحيح



د/ محمد منصور عبد الرزوف الدفراوى
كلية التربية - جامعة عمر المختار - ليبيا

فى ثقافتنا المعاصرة «نماذج نهضوية» تتعاظم أمامها خسارتنا ويتضاءل حجم نتاجنا الفكرى والإصلاحى أمام عمق ماقدموا، أصالة رأيهم؛ وأفكارهم؛ فحازوا قصب السبق، وتبوأوا بين القمم مكاناً علياً؛ فى حين رسخ فى وجدان أمتنا آفة من أشدّ الآفات فتكاً؛ وهى بخس الرواد حقهم من الإنصاف والاعتراف؛ فكممت الأفواه وصودرت الآراء وتكسّرت الأقلام بمحاكمتهم فكريًا.. مستندين إلى ادّعاء امتلاك الحقيقة أو التعصب الأعمى؛ وانتشار بدع وضلالات وجهل بالمقاصد والغايات وجمود أفكار ورؤى.. وليس من باب «الارتكاس النهضوى» أو «الانتكاس العقلى» فهذا لا سائغ ولا جائز؛ إنما استجرار لسيرة رجل لم نجد له نظيراً فى كمال البصيرة ونفاذ الرؤية وغزارة العلم وقوة الحجة وفصاحة الكلمة؛ وبحث لمنهج مصلح وأجلاء لفكرة انضوت تحت لوائها أفكار وانسلت من عباءتها آراء غيّرت وجه الحياة.. فيعرف الفضل لأهله أهله كما يقولون.

فقد عُنى الشيخ بالرصد العميق والتحليل الدقيق والاستنباط الجليل والغوص الماهر فى أعماق الدين الصحيح والواقع المعيش؛ فشخص الداء العضال ووصف الدواء الناجع؛ فكان مبشراً مصلحاً كالأنبياء؛ أبتغى الصلاح والإصلاح وإزاحة ركام وتثبيت ركاز وتفض غبار الغفلة عن الأمة؛ فمثل بعطائه العقلى والفكرى الغزير واسطة عقد وحبة من حبات اللؤلؤ المنضد كشف بما قدمه عن «جوهر الإسلام الأصيل»

وغزل بفكره خيوط اليقظة وروح النهضة المأمولة؛ وفتل حبلاً متيناً تمسك به هو دين روحانى جسمانى أخروى دنيوى؛ من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض.

بالحق؛ ليكون خليفة لله فى تقرير الحية والعدل.. (عن كتاب المنار والأزهر ٧).

والإسلام دين ودنيا؛ علم وعمل؛ جسد وروح؛ بلا انفصام؛ وبلا افتئات ولا استحداث بدعة ولا إماتة سنة.. فكان ذكاء رشيد رضا مرونة فى فهم وتطور فى فكر وشمولية فى وعى وتحول فى طريقة.. فقد «كان همه محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا؛ فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم مباراة الأمم العزيزة فى العلوم والصناعات وجميع مقومات الحياة».. (المنار والأزهر..ص٨).

فرأى بمنطقه وبفهمه الثاقب عقلنة الأمور وحاجة المجتمعات الضرورية إلى الدين والعلم؛ وتصحيح المفاهيم الدينية والحياتية المغلوطة؛ فلا فصل بين الدين والدنيا؛ ولا بين الدين والعلم والمدنية الحديثة؛ وأكد بالبرهان أن علاج التخلف الجسيم العتيد يتطلب مهارات وملكات توفر ربط «الدين الخالص بالعلم الصحيح» بطريقة تناسب نهوض الأمة من كبوتها وعثرتها الحضارية.

فجهلها بحتمية الربط يصيرها عاجزة عن تلافى الشرور وتدارك المخاطر وتجنب العثرات.. فمن اليقينى أن البشر يرجعون القهقرى فى الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم فى العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها؛ فهم يزدادون إسرافاً فى الرذائل وجرأة على اقتراف الجرائم وافتتاناً فى الشهوات البهيمية؛ نقض ميثاق الزوجية وقطيعة وشائج الأرحام؛ وعقوق الوالدين ونبذ هداية الأديان؛ حتى كادوا يفضلون الإباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل؛ بل رجع بعضهم إلى عيشة العرى فى أرقى ممالك أوروبية وأمريكية علماً وحضارة كما يعيش بقايا الهمج السذج فى غابات إفريقية».. (الوحى المحمدى.. ص٨)؟

فرأى بنافذ فكره وصائب رأيه ونور العلم أن الدين السليم هو علاج لأدواء الحضارة المادية وترياق سمومها وإكسير حياتها؛ فالدين الخالص هو «النبى الجديد» وباعث إصلاح وهاد بشر ومصلح نفوس ومحيى سنن ومميت بدع وضلالات وحسن منقلب فى الدارين.. وكذلك العلم الخالص مانع لانتكاسة المريض ومساعدته على اجتثاث المرض من جذوره.

فالدين عند رشيد رضا سبب جلى وحجة بالغة لصلاح الحياة وصحة الحضارة؛ فما نهضت أمة من الأمم الغابرة إلا بتأثير الدين فى سلوكيات أتباعه ورقى أخلاقهم ونهوض علومهم واتساع معارفهم.. وفى التاريخ شواهد كالحضارة الفرعونية واليونانية. لصيق نشأة ورقيق مدنية وعمران.. والعرب فى عصور ازدهارهم بتأثير دين الإسلام فى وحدة الكلمة ولم الشمل وجمع الصفوف ودفع عجلة الحياة إلى الأمام.. فالدين كان سبب الصلاح والإصلاح لايمكن أن يكون سبب الفساد والاختلال؛ لأن العلة الواحدة لايصدر عنها معلولات متناقضة؛ فإذا كان لدين المسلمين تأثير فى سوء حال خلفهم فلابد أن يكون من جهة غير الجهة التى صلحت به حال سلفهم».. (مقدمة الاعتصام للشاطبى.. ص ٨).

فضعف الدين يتبعه ضعف العلم.. وضعف العلم يعنى بالضرورة خللاً فى الدين فهما متلازمان.. فالتربة خصبة فى الحالتين لنماء الشرور وانتشار المفاسد ومستنقعات الجهل والفقر.. وظهور أحدهما دون الآخر ليس دليل صحة.. فتناول العقاقير لايُقصد به الامتثال للشفاء ولا اكتمال العلاج.. فعندئذ المرض شاخص والخلل موجود.

فالدين السليم حل أمثل وطريق أدق - فى منهج رشيد رضا - «فلا يمكن أن تعود الحياة - بكل صورها وأشكالها - لمسلمين إلا بمثل ما بدأت به سلفهم من روح القرآن وهدى الرسول ﷺ».. (الوحى المحمدى.. ص١٠) والنسق القرآنى جمع بين الدين والعلم قرنهما بالعمل فى كثير من آيه الكريم؛ تجديد حياة وإحياء مجد ودفع غائلة لايكون سوى بالدين الخالص والعلم الصحيح والدعوة للوحدة وتنقية القلوب وتوجيهها للهداية وللحضارة وللعلوم وللفنون مجتمعة.. كما يقول الإمام مالك «لايصلح خلف هذه الأمة إلا بما صلح به سلفهم»..

ففى الدين السمح دستور يشترك فيه الجميع فلا فرق بين غنى وفقير وعربى وأعجمى ومذهب ومذهب ووطن ووطن؛ فالجميع عليه يقتات ومن نبعه يرتشف على اختلاف الطبائع وتباين الأوطان وعلاج التخلف والانتكاس الحضارى المقيت...

هذه شواخص النهضة فى فكر الإمام محمد رشيد رضا..



رسائل لها تاريخ

بين ابن باديس ومحمد عبدالله دراز



بن باديس — محمد عبدالله دراز



بقلم الشيخ: أحمد مصطفى فضلية

تكشف رسائل العلماء المجاهدين من أعلام التحرر الإسلامي للإمام المجاهد محمد عبدالله دراز عن حقائق تاريخية في دعمه لنضال شعوب الإسلام ضد الاستعمار الغربي الحقود.. كما تكشف رسائله هو لهؤلاء الأعلام من العلماء المجاهدين بالعلم والفكر والقلم واللسان.. عن دعم كامل وعمل دائب من أجل الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية لتلك الشعوب ضد موجات التغريب المتلاحقة للمجتمعات الإسلامية الرازحة تحت نير المستخربين الغربيين.. مما أوردنا منه جانباً في كتابنا عن العلامة الكبير «محمد عبدالله دراز سيرة وفكر».

وإجابة لرغبة أستاذنا الكبير الدكتور محمد عمارة في أن يشارك علماء شباب الأزهر في دعم وتطوير وتحرير مجلة الأزهر الغراء.. اخترت أن تكون مساهمتي أن أطلع قراء المجلة الحبيبة على جانب مهم من جوانب حيوات علماء الأزهر الأعلام بنشر رسائلهم فهي تقدم لهم دروس دعوية وتربوية وحقائق تاريخية وتكسبهم فن الإنشاء والأسلوب الأدبي الرفيع، وتصقل «بيانهم لما يعتمل» في حسهم ومشاعرهم في أدب المراسلة كوسيلة فاعلة من وسائل الدعوة والتربية والإصلاح.. كان ولايزال ذا أثر بعيد في تصحيح المفاهيم، واستقامة الفكر على الخط الإسلامي المعتدل الموزون.

وأبدأ في تقديم رسائل مختارة من ديوان رسائل هؤلاء العلماء للدكتور محمد عبدالله دراز ورسائله إليهم فأقول:

كان للإمام محمد عبدالله دراز عناية فائقة بالمسلمين في فرنسا إبان بعثته العلمية للسوربون، كما كانت له عناية فائقة بقضايا المسلمين.. فقد كان إلى جانب دراسته في باريس يهتم بالوفود والجاليات العربية والإسلامية، وتحت يدي من المراسلات والخطابات ما يوضح مدى عنايته الجدية بقضايا الإسلام والعروبة، من فلسطين إلى الجزائر ومراكش غرباً والهند والباكستان شرقاً وكأني به يردد على مسامعنا:

يا أخي في الهند أو في المغرب
أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري عن نسبي
إنه الإسلام أمي وأبي

والرسالتان اللتان نقدمهما للقراء بين الإمام بن باديس والإمام دراز تكشف النقاب عن مساندة دراز لجمعية علماء الجزائر طوال فترة وجوده في فرنسا وهي أحد عشر عاماً.

كان مسانداً لها في جهودها المخلصة للحفاظ على إسلام وعروبة الشعب الجزائري فكان يحاضر بنوادي التهذيب العربية في باريس، وفي هذه النوادي تعمقت علاقات الأخوة الإسلامية الحميمة بين الدكتور دراز وعلماء جمعية علماء الجزائر وعلى رأسها إمامها الشيخ المجاهد «عبدالحميد بن باديس» وتحت يدي أيضاً ١٨ (ثمانية عشر) رسالة خطية بين علماء جمعية علماء الجزائر أمثال الفضيل الورتلاني وسعيد صالحي وبين الدكتور محمد عبدالله دراز.. وكلها تبرز دور الأخوة الإيمانية في دعم قضية التحرر الجزائري وحسبنا منها ما كتبه الأستاذ المجاهد: الفضيل الورتلاني للعلامة دراز بقوله:

«فلا نزاع فيما لكم علينا من حقوق، تارة أثبتتها الأخوة الإسلامية وأخرى رتبها علينا إحسانكم الكبير وعطفكم العظيم وعنايتكم الصادقة واهتمامكم الخالص بحالة إخوانكم الجزائريين والأفريقيين.

ونوع هذه الحقوق لا يمكن أن تكون من باب التكميل للنقص والمساعدة للضعف أو مالا تناسب واستغنازكم مع حاجتنا وإنما هي اعتراف بالجميل وشهادة بواقع وشكر لمستحق، لذلك لما كنا في جولة بالقطر – لم نتمالك على ذكركم بكل خير وأنتم له أهل.. بارك الله لنا في حياتكم وأكثر من أمثالكم، ونرجو ألا تحرموا إخونكم الإفريقيين من تلك النصائح العالية التي ألفوها منكم، وأن حضوركم في النوادي الجزائرية في باريس له معنى كبير للفرق الطبيعي بين ممثلي الدين ورجال الكليات الأخرى (١) أما رسالة الإمام عبدالحميد بن باديس فهي رسالة شكر وتقدير وعرفان للدكتور محمد عبدالله دراز على اهتمامه بنوادي التهذيب العربية في باريس وجهوده في فتح الطريق لبعثة أزهرية لأبناء الجزائر ليدرسوا علوم الإسلام في الأزهر الشريف برئاسة الشيخ الفضيل الورتلاني عليه رحمة الله.. وهذا نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قسنطينة في ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧هـ

(١) يونيه سنة ١٩٣٨م

الأخ الكريم صاحب الفضيلة: الأستاذ محمد عبدالله دراز رئيس البعثة الأزهرية في باريس حفظه الله وحفظها للعلم والدين وأقر به وبها أعين إخواننا المصريين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فهذا كتاب نجدد به الذكرى ليوم اجتماعنا بفضاء الجامع بباريس في حضرة الزعيم الاقتصادي الكبير لمصر والشرق العربي: صاحب السعادة طلعت حرب باشا مع بعض رجال البعثة

الأزهرية الكريمة.

علم الله ماذا كان سرورنا يوم علمنا أن الأزهر قرر إرسال البعثات إلى أوروبا لمعرفة لغاتها وفنونها وعلومها وأساليبها العلمية والفنية، لأننا نعلم أن الإسلام لا ينهض بأهله إلا من جمع بين ما عندنا وما عند الغربيين، ومن لهذا مثل أبناء الأزهر الشريف؟

فكيف يكون سرورنا يوم اجتماعنا بالبعثة نفسها؟

لقد كان من نعمة الله علينا وجزائه بفضله لنا على ذلك السرور الخالص لوجهه الكريم، أن جنت أمتنا الجزائرية قبل غيرها ثمار تلك البعثة واستضاءت بنورها.. وقد كان ذلك بما قمتم به أنتم وإخوانكم يا صاحب الفضيلة في نوادي التهذيب من المحاضرات القيمة والإرشادات المفيدة وما قدمتموه من روابط الأخوة والمحبة وللتعاون على الخير مع ابننا الشيخ الفضيل الورتيلاني وإخوانه العاملين، ثم كنتم السبب في فتح الطريق إلى المناهل الأزهرية العذبة الصافية لأبناء الجزائر المتعطشين إلى ذلك الرحيق السلسبيل، فسعيتم لدى مشيخة الأزهر الجليلة في قبول بعثة علمية جزائرية على نفقة الأزهر الشريف وفزتم بوفاق مولانا الأستاذ الأكبر الأستاذ محمد مصطفى المراغي أبقاه الله ذخراً للمسلمين.

فبلسان الأمة الجزائرية عامة وبلسان جمعية العلماء خاصة أرفع لفضيلتكم وللبعثة الكريمة الممثلة فيكم شكر الروح وثناء القلب ودعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب.

سيدى الأخ.. إذا تفضلتم عليَّ بالتفاصيل زدتم إحساناً بتسهيل العمل للإنجاز، وفقتم لكل خير وجميل وتفضلوا سيدى بقبول احترام وإخلاص وسلام،

عبد الحميد بن باديس

رئيس الجمعية

* نص رسالة الإمام محمد عبدالله دراز للإمام عبدالحميد بن باديس:

بسم الله الرحمن الرحيم

باريس في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧هـ

من محمد عبدالله دراز عضو البعثة الأزهرية بباريس إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبدالحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء بالجزائر

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

أما بعد: فقد تلقيت كتابكم الكريم المحرر بقسنطينة في ٢ من ربيع الثاني الجاري وتلوته على مسامع زملائي أعضاء البعثة الأزهرية بباريس فكان له من حسن الوقع في نفوسنا مثل ما كان لمشاهدة طلعتكم المحبوبة التي جئتم الآن تجددون سرورنا بذكراها.

وإني أنا وزملائي كلما ذكرناكم وذكرنا جمعية العلماء الجزائريين التي تتشرف برئاستكم ذكرنا تلك النهضة الجزائرية التي تتولون قيادتها بحكمة وروية والتي تتقدم بخطوات ثابتة رغم ما يواجهها من الصعاب والعراقيل، وتفاؤلنا بالمستقبل العظيم الذي ينتظر الأمة الجزائرية من وراء هذه النهضة، بل رجونا مثل ذلك لسائر الأقطار العربية والإسلامية ـ فهذه اليقظة التي بدأت تسري في أطراف العالم الإسلامي تبشر المؤمنين بأنهم مقبلون على عهد جديد يستردون فيه قوتهم ومجدهم وسؤددهم بتوفيق الله تعالى ثم بجهاد المخلصين أمثالكم.. أما ما أشرتم إليه من معاونتنا للأساتذة الفضلاء في أندية التهذيب فالواقع أنها محض معاونة أدبية وإعلان للمشاركة الروحية بزيارتنا للأندية من وقت لآخر.. وهذا لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب الواجب الديني الذي في أعناقنا لعامة المسلمين والذي نأسف لتقصيرنا فيه من جراء مزاحمة الواجبات الأخرى الدراسية وغيرها.. لذلك نرى أنفسنا أحق باللوم والعتاب منا بعبارات الشكر الرقيقة التي قضت مكارمكم بتوجيهها إلينا.

وأما مسألة البعثة الجزائرية الأزهرية فإن الخطاب الذي ورد إلينا بشأنها من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ينص على قبول ستة من الطلاب الجزائريين ويعد بأن يعطى لكل طالب منهم ١٥٠ قرش (جنيه ونص) شهرياً من مالية الأزهر ماداموا منتسبين إليه ـ هذا هو كل ما عندنا من التفاصيل في شأن البعثة.

وتفضلوا سيدى الأستاذ أنتم وحضرات أصحاب الفضيلة أعضاء الجمعية الموقرة بقبول أزكى التحية والسلام.

محمد عبدالله دراز

• تعليق:

بعد مطالعتنا لهاتين الرسالتين المتبادلتين بين الإمامين الجليلين يمكننا استلهام قيم ومعان ودروس تربوية لشبيبتنا المؤمنة تتأصل في نفوسهم ليعيشوا بها أعزة أحرارا:

١ ـ قوة الترابط العقدي والروحي وضرورته بين حركات التحرر الإسلامي في العالم الإسلامي لقيامها على الأخوة الإسلامية الجامعة.

٢ ـ قوة دور الأزهر الشريف في العناية بقضايا الشعوب الإسلامية، ودعم علمائه أينما كانوا لقضايا هذه الشعوب الحرة في كفاحها ضد المستعمرين وأذنابهم من الظالمين والمستبدين.

٣ ـ إبراز الجانب الوطني المضيء للعالم الأزهري الغيور محمد عبدالله دراز وهو جانب ظل مجهولاً حتى أذن الله لنا أن نكشف عنه ونقدمه لشباب العلماء ليقتدوا به في تبني قضايا أمتهم وأوطانهم بفهم ووعي وحكمة.

٤ ـ تلاشي العصبية القومية وإعلاء الرابطة الإسلامية، وتربية شعوب الإسلام على إخوة الإيمان.. وهذا ما دعاني لأقدم هاتين الرسالتين للأمة الجزائرية والأمة المصرية لنسيان آثار التعصب الأعمى في التشجيع الرياضي وما أحدث من صدوع في العلاقة بينهما.

٥ ـ ضرورة إحياء الهدف الرسالي والحضاري العالمي بين علماء الأمة المسلمة واجتماعهم وتلاقيهم من أجل العمل الدائب المخلص لتحرير الأوطان من الأنظمة المستبدة التي تجثم على صدر شعوبها.. ولازالت على ولائها للعلمانية الغربية التي تفصل الدين عن الدولة.. وتعادي الأصالة الإسلامية.. وهذا ما اجتمع عليه الإمامان دراز وابن باديس لتحرير مصر والجزائر.. وما أشبه الليلة بالبارحة فها هي شعوب الإسلام تنتفض يقودها العلماء ويساندها الأزهر وشيخه الجليل.

وغداً إن شاء الله تشرق شمس الحرية الزاهية في أوطان الإسلام، ويشرق فجر جديد.. ولمثل هذا فليعمل العاملون.. وينهض له المجاهدون.

مصطفى صادق الرافعي
إمام البيان العربي الحديث



للأستاذ الدكتور/ حلمي محمد القاعود

-١-

حين درست مصطفى صادق الرافعي قبل خمسة وثلاثين عاما؛ كنت أركز على صفته التي اشتهر بها في مطالع القرن العشرين وهي حيازته لقب إمام البيان العربي، بحكم ما تميز به من قدرة بلاغية على الصياغة والتعبير، وفقا لأسلوب متميز يجعله في ذروة الأساليب الحديثة التي تقوم بهندسة الصياغة وتقطير العبارة، واستخدام اللفظ المشبع بروح القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي العظيم، في إطار تصوير حي ومتفرد يجعل من يطالعه - دون أن يذكر اسمه - يتأكد أن هذا أسلوب الرافعي..

إلى جانب هذا التميز البياني فإن الرافعي كان مدفعية ثقيلة دكت حصون خصوم الإسلام وأعدائه، بتقديم قيم الإسلام المضيئة والدفاع عنها ضد الهجمة التغريبية التي شاءت أن تواجه الإسلام من خلال بعض أبنائه الذين انبهروا بالغرب، وذابوا في هواه، وتماهوا مع تصوراته ورؤاه.

كان الرافعي واحدا من أعلام النصف الأول من القرن العشرين الذين أضافوا إلى التراث العربي والإسلامي إضافة ثرية في الفكر والأدب واللغة والثقافة والشعر. وكانت معاركه الأدبية مع طه حسين والعقاد وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى وزكي مبارك وعبد الله عفيفي وغيرهم؛ مجالا حيويا لإضاءة كثير من مناطق الأدب العربي والفكر الإسلامي، وتحريك الحياة الثقافية نحو البحث والدرس في دائرة واسعة زاخرة بالقيم والأفكار والمثل..

ولم تكن حدة المعارك الأدبية التي

دخلها الرافعي حائلا دون أن يفيد القراء والجمهور جديدا في الصياغة والأسلوب، فضلا عن الأفكار والقيم والحقائق الموثقة و التحليلات العلمية المنطقية.

ولعل هذا كان من وراء دراسات عديدة تناولت الرافعي، في جوانب مختلفة من حياته وأدبه وفكره، فضلا عن تقدير الإمام محمد عبده الذي كتب إليه قائلا: "أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل"، ثم مدح الزعيم سعد زغلول لأدبه وفكره حينما صدّر كتابه تاريخ آداب اللغة العربية- الجزء الخاص بإعجاز القرآن قائلا:

"بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم".

لقد تناوله عدد من الدارسين من أبرزهم مصطفى الشكعة في كتابه: "مصطفى صادق الرافعي. كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا"؛ وحسين حسن مخلوف (مصطفى صادق الرافعي، حياته وأدبه)، ومصطفى نعمان البدري في رسالته "الإمام مصطفى صادق الرافعي"، وكمال نشأت في كتابه (مصطفى صادق الرافعي)، ومحمد رجب البيومي، في كتابه (مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن) و (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين - ج١)، وإبراهيم عوض في كتابه (معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين)، ومحمد سعيد العريان في دراسته (حياة الرافعي) و عبد الستار علي السطوحي في كتابه "الجانب الإسلامي في أدب مصطفى صادق الرافعي"، كما أصدرت عنه مجلة "الأدب الإسلامي" عددا خاصا مزدوجا (العدد ٤٣، ٤٤) - ووائل حافظ خلف في كتابه (هدم الدساكر على من بغى على الرافعي وشاكر) و(مجمع البحرين في المحاكمة بين الرافعي وطه حسين)، وإبراهيم الكوفحي (مصطفى صادق الرافعي، الناقد والموقف)، وإبراهيم عوضين (مصطفى صادق الرافعي أديبا إسلاميا)، وأحمد محمد عيش (سيرة الرافعي) ،علي عبد الحليم محمود(مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه)، و نعمات أحمد فؤاد (دراسة في أدب مصطفى صادق الرافعي) ،و حامد محمد أمين شعبان، (بلاغة القرآن في أدب الرافعي) ،و عمر الدسوقي (مع الرافعي الكاتب)،و محمد الأخضر بن مسعود (نثر الرافعي)، و مصطفى الجوزو (مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية)، و: محمد بن علي الهرقي (شعر مصطفى



مصطفى الشكعة

صادق الرافعي بين التقليد والتجديد)، وعبد القادر القط (مصطفى صادق الرافعي في رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد)، وعباس بيومي عجلان (من أدب الرافعي ومعاركه)، و محمد عبد القادر العمادى (الرافعي وطه حسين)، و مها عبد الستار السطوحي (المرأة في أدب الرافعي - رسالة ماجستير)، و عبد السلام هاشم حافظ (الرافعي ومى)، و حسن عبد القادر عبد الدايم (الرافعي ناقداً - أثر القرآن في أدب الرافعي - رسالة ماجستير)، و محمود محمد لبده (مدرسة الرافعي في الأدب الحديث - رسالة دكتوراه)، و محمد عزت أحمد (معارك مصطفى صادق الرافعي التعليمية وأثرها في الأدب والشعر - رسالة دكتوراه)، ومحمد إسماعيل عبد الحميد إسماعيل (مصطفى صادق الرافعي شاعرا - رسالة ماجستير)، وسعاد صالح عبد المطلب (الجانب الديني في نثر الرافعي - رسالة ماجستير)، وأحمد عبد القادر الطويل (القيم الإسلامية في أدب الرافعي - رسالة ماجستير)....

وهناك عشرات المقالات والدراسات؛ كتبها أعلام عصره ومن جاء بعدهم حتى يومنا هذا تناولت جوانب عديدة في حياته ومواقفه وأدبه وشعره، فضلا عن بعض المقدمات التي وضعت بين يدى تحقيق ديوانه وكتابه على السفود.. وقد عقدت جامعة طنطا - كلية التربية عام ١٩٨٧م، مؤتمرا دوليا حول الرافعي وحياته وأدبه.


د. محمد رجب البيومي

وبصفة عامة فشخصية مثل هذه دارت حولها مثل هذه المؤلفات والكتابات والاهتمامات جديرة بالنظر إليها من حين لآخر، لترى الأجيال الجديدة ملامح مما قدمته للأمة خدمة للغة والأدب والإسلام، خاصة أنه من جيل رواد الطريق، وواجه عملية الصراع الثقافي كأعتى ما يكون بين ثقافتين، إحداهما وطنية ترتبط بالمعتقد والوجود، وأخرى غالبة ترتبط بالقوة والهيمنة ومبدأ المنفعة التي لا تخضع للقيمة أو الأخلاق.

وقد لقي الرافعي بعد رحيله إهمالا ملحوظا في الحياة الثقافية داخل مصر، وإن كان العرب خارجها قد احتفوا به حفاوة كبيرة، ولعل إهماله في مصر يعود إلى تحديه لمن يهيمنون على الصحافة والثقافة في ذلك الحين ومواجهتهم بسلبياتهم في وضوح وجرأة لا يعرفهما غير الرافعي، وقد عبر عن هذه الحالة محب له ودارس ومترجم، هو محمد رجب البيومي - رحمه الله - حيث أوضح أن الرافعي قد ظُلم لدى مؤرخي الأدب في العصر الحديث، وتعرض لحملات ظالمة من أعدائه الذين جمعتهم العداوة للإسلام والتبعية

للاستعمار، والدعوة للإباحية، فقد تواطأوا على النيل منه والحط من أدبه، لأنه كان حربا عليهم جميعا، ويقف أمامهم مدافعا عن دين الله والعروبة ومجد الشرق، وانتصر عليهم في مواطن كثيرة ((انظر: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم، دمشق، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥م، ١/ ٤٣٥).

لقد ترسب في أذهان بعض الأدباء والنقاد أن الذى بقى من الرافعي هو ما كتبه عن علاقته بالأديبة مى، وعمد بعض المتعجلين إلى الاتكاء على كتاب واحد للرافعي هو "على السفود" وجعلوه خلاصة أدبه في صباه وشبابه وكهولته! ومع أن هذا الكتاب لم يظهر باسم الرافعي الصريح - كما يقول البيومي - مقدرا ما يحمله من قسوة النقد على العقاد لأسباب كثيرة، واعترافه بأنه سلاح كريه اضطر لاستعماله في ساحة اللجاج؛ فإن المغرضين جعلوه الطريق الأوحد في مجال النقد الأدبي! (السابق، ٤٣٧/ ١).

ومع أن الرافعي صنع عالما كبيرا تصعب الإحاطة بمعظم ما قدمه فيه للإسلام واللغة العربية والأدب العربي، فإنه لم ينل ما يستحق من الحياة الأدبية والثقافية في مصر. "لقد أدى الرافعي دوره الضخم في بعث اليقظة الإسلامية وإيقاد الحمية العربية، وعلى من يتصدر للحكم عليه ألا يقف عند التكلف الباهت في وجه القمر ليجعله وحده مجال القول، تاركا أثر هذا الكائن المشرق في هداية المدلج، وإضاءة الطريق، وجمال الليل، وسلام الحياة" (السابق، الصفحة نفسها).

-٢-

والرافعي هو: مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٢٩٨ هـ - ١٣٥٦ هـ الموافق أول يناير ١٨٨٠ - ١٤ مايو ١٩٣٧ م)، وقد ولد في بيت جده لأمه في قرية "بهتيم" بمحافظة القليوبية، وعاش حياته في طنطا. ووالدة الرافعي سورية الأصل كأبيه، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجرا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وكانت إقامته في بهتيم مسقط رأس الرافعي وكان له فيها ضيعة. وقيل إن أسرة الرافعي يتصل نسبها بعمر بن الخطاب -رضي الله عنه (انظر: محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٥هـ= ١٩٥٥م، ص ٢٣-٢٧).

ونشأ الرافعي على الثقافة السائدة لأسرة من أهل العلم هي أسرة الرافعي؛ فاستمع من أبيه أول ما استمع إلى تعاليم الدين، وجمع القرآن حفظا وهو دون العاشرة، فلم يدخل المدرسة إلا بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين، ثم دخل الرافعي المدرسة الابتدائية في

المنصورة وتخرج فيها سنة ١٣١٥ هـ ونال شهادتها وهو في سن السابعة عشرة، ثم أصيب بمرض يقال إنه التيفود أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصابا في أذنيه، وظل المرض يزيد عليه عاما بعد عام حتى وصل إلى الثلاثين من عمره وقد فقد سمعه بصورة نهائية، مما أثر على تعليمه النظامي؛ فلم يحصل الرافعي في تعليمه على أكثر من الشهادة الابتدائية. فكان مثل العقاد في التعليم النظامي -حيث لم يحصل كل منهما إلا على الشهادة الابتدائية (تعادل الإعدادية في أيامنا تقريبا). ويشبه الرافعي طه حسين أيضا، فكل منهما صاحب عاهة دائمة؛ هي فقدان البصر عند طه حسين وفقدان السمع عند الرافعي، ومع ذلك كان الرافعي مثل زميليه العقاد وطه حسين من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات، وإنما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد. وعندما اضطره المرض إلى ترك التعليم الرسمي،، استعاض عنه بمكتبة أبيه الزاخرة، إذ عكف عليها حتى استوعبها وأحاط بما فيها. وكانت علته سببا باعد بينه وبين مخالطة الناس، فكانت مكتبته هي دنياه التي يعيشها وناسها ناسه، وجوها جوه وأهلها صحبته وخلانه وسماره، وقد ظل على دأبه في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم في عمره، يقرأ كل يوم ٨ ساعات لا يكل ولا يمل كأنه في التعليم شاد لا يرى أنه وصل إلى غاية..

في الرابعة والعشرين من عمره تزوج الرافعي من أخت صديقه الأديب الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان وصاحب شرح ديوان المتنبي، فكانت نعم الزوج والصديق الوفي، وأنجب من زواجه عشرة أبناء.

عمل الرافعي في عام ١٨٩٩ كاتب محكمة في محكمة طلخا، ثم انتقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية، ثم إلى محكمة طنطا الشرعية، التي قضى بها نحو سنتين، ثم انتقل منها إلى المحكمة الأهلية بطنطا، لأن العمل فيها أيسر وأكثر أجرا، وبقي فيها حتى لقي وجه ربه الكريم (حياة الرافعي، ٣٤).

وكانت الوظيفة بالنسبة للرافعي مجرد مصدر للرزق يعينه على العيش، ليفرغ لنفسه ولما تهيأت له، وهو المطالعة والدرس، حيث لم ينقطع عنهما يوما واحدا، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته..

لقد كان حريصا على أداء عمله، ولكنه لم يكن يعبأ بمواعيد الحضور والانصراف في المحكمة، وهو ما جعل أحد رؤساء المحكمة يستدعيه ذات مرة، فلم يذهب إليه، فكتب مذكرة إلى الوزارة في القاهرة مطالبا بعزله من وظيفته وإقالته من الخدمة. وجاء مفتش من القاهرة ليحقق مع الرافعي في مذكرة رئيسه ضده، وكان المحقق هو الشاعر اللبق حفني

ناصف بك، الذي استمع من الرافعي إلى رأيه الذي يتلخص في أنه لا يقصر في عمله، أما الحضور والانصراف فلا يعتبانه، فما كان من حفني ناصف إلا أن كتب تقريرا ينصف الرافعي، ويقول: إن له حقا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية، وإن الوظيفة ليست مرضعه، وطلب من المسئولين أن يتركوه يعيش كما يشتهي أن يعيش، ويعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع وإلا فاكفلوا له العيش الرخي في غير هذا المكان..!" (السابق، ٤١).

ومن يومها لم يعد أحد في المحكمة يسائل الرافعي، ولكنه لم يهمل في واجبه قط، ويلاحظ أن صلته توثقت بحفني ناصف فيما بعد، وخاصة بعد أن تولى الأخير القضاء في محكمة طنطا.

وكان الرافعي نبيلا كريم الخلق في وظيفته، لدرجة أنه كان يحمل عن زملائه أخطاءهم في العمل، حتى لا يتعرضوا إلى شر هو أقدر على الخلاص منه، وقد رآه صديقه محمد سعيد العريان الذي يعد أول من ترجم له ترجمة دقيقة موسعة، في صيف عام ١٩٣٤م، وقد لزمه مفتش من وزارة العدل ثلاثة أشهر أو يزيد، ليستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائتي وعشرين قضية، وقد بلغ النقص في الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها، والرافعي يرد المفتش ويداعبه، ويرى له الرأي، ويصف له العلاج، والمفتش دائب الحضور كل يوم يبحث ويستقصي، وما ضاقت به أخلاق الرافعي الذي لم يخطئ خطأ واحدا في هذه القضايا، بل كانت أخطاء زملائه" (السابق، ص ٣٧).

وبصفة عامة؛ فقد كان الرافعي محبوبا من كل العاملين بالمحكمة، حتى من المحامين الذين كانوا يلقبونه أو يسمونه "عمدة المحكمة" (نفسه، ص ٣٩).

وكان الرافعي في أخلاقه العامة مزهوا بنفسه، معتدا بعلمه، قويا بإيمانه، لا يهاب مواطن الهلاك، وكان منذ بداياته الأدبية حادا عنيفا فيما يرى أنه الحق والصواب (السابق، ٥٨).

-٣-

كان الرافعي يأمل في بداية حياته أن يكون شاعرا وأميرا للشعراء، وشاءت إرادة الله أن ينصرف عن الشعر إلى الدفاع عن الدين والذود عن العربية والنضال في سبيل الله، وقد تعرف على الشاعر العراقي الأشهر في زمانه عبد المحسن الكاظمي، وكانت علاقته به وطيدة، كما تعرف على أعلام الشعر آنئذ مثل حافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، ونشر الرافعي الجزء الأول من ديوانه الذي حمل اسمه (ديوان الرافعي) عام ١٩٠٣، ونشر الثاني عام ١٩٠٤، ونشر الثالث عام ١٩٠٦، كما نشر في عام ١٩٠٨ديوانه النظرات، وفي عام ١٩١١ تغير مسار الرافعي،

وتوجه وجهة جديدة في الأدب، وانصرف عن الشعر إلى الكتابة النثرية.

ومع ما أنجزه في ميدان الشعر من نجاح لفت إليه الأنظار إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع أن يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره وخاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم فقد أعطى هذان الشاعران ملكة التعبير عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل.

تميز شعر حافظ إبراهيم وأحمد شوقي بالسهولة والغزارة مما أتاح لهما القدرة على الانتشار بين القراء حتى لو كان هؤلاء القراء متوسطين في ثقافتهم فأين يذهب الرافعي في هذه المعركة الكبيرة وشعره لم يكن شعرا سهلا بل كان شعرا صعبا يحتاج إلى ثقافة أدبية ولغوية عالية لكي يفهمه من يقرأه ولكي يتذوقه بعد ذلك ويستمتع به ؟

ولعل الرافعي هو من أطلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربي التقليدي في أدبنا وفق ما يقوله محمد سعيد العريان:

"إن في الشعر العربي قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة، أو تؤيد ما أدعيه أنا، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيده من المنظوم، ولا يعجزه البيان في المنثور. نعم، كان شعر الرافعي أقوى من أداته، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره.." (حياة الرافعي، ص ٧٣).



أحمد شوقي — حافظ إبراهيم

ولعل وقفة الرافعي ضد قيود الشعر التقليدية أخطر وأول وقفة عرفها الأدب العربي في تاريخه الطويل، وإذا عرفنا أنها كانت مع بداية تحوله إلى النثر وتوجهه نحو ميادين الدفاع عن الإسلام واللغة العربية وتاريخ المسلمين، فإنه بذلك يسبق معظم الدعوات الأدبية الأخرى التي دعت إلى تحرير الشعر العربي جزئيا أو كليا من الوزن والقافية. ومع ذلك فهناك مقولات للرافعي بعدئذ تؤكد أن الشعر لا يكون شعرا إلا من خلال التقاليد الفنية، وخاصة الوزن والقافية.

لقد كتب الرافعي مقالته عن (الشعر العربي في خمسين سنة) ويقصد بها الفترة التي سبقت إنشاء مجلة (المقتطف) التي كان يكتب بها، وتضم الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي والربع الأول من القرن العشرين تقريبا.. وقد تحدث فيها عن أسباب تخلف الشعر العربي قبل النهضة، ثم تكلم عن آثار النهضة في إثراء الشعر وتقدمه، وقد ذكر بوعي يقظ وإدراك

عميق هذه الآثار التي تتلخص في إدخال القصة إلى الشعر، وصياغة بعض الشعر على أصل التفكير في الإنجليزية والفرنسية، والانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والرثاء، والإكثار من الوصف والإبداع في بعض مناحيه، وإهمال الصناعات البديعية التي كان يبني عليها الشعر، والنظم في الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية، واستخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية.

وواضح أن للرافعي (رؤية ثورية) – إن صح التعبير – تطمح إلى التجديد، ورفض الجمود. مع ما يشاع عنه بأنه متعصب للقديم. فمن خلال ما سبق تبدو أصالة النظرة التي ينظر بها (الرافعي) إلى القضايا الأدبية، إنه مع التجديد الذي يثري الأدب العربي، وليس مع ذلك التجديد الذي يطيح بالأصول والفروع جميعا.

كان للرافعي فيما بعد شعر آخر أقوى من شعره المنظوم، وهو ما نراه في كتبه الوجدانية التي عبرت عن عواطفه ومشاعره في تصوير حي، وتعبير خلاق، أعني ما كتبه في كتبه العاطفية: السحاب الأحمر، حديث القمر، رسائل الأحزان، وبعض فصول وحي القلم.



وهو في هذه الكتب وما يشبه نصوصها في كتبه الأخرى قد بلغ الغاية في التصوير والتعبير الذي يتواضع أمامه شعره المنظوم كله.

ويرى "كمال نشأت" أن شاعرية الرافعي قد تحققت في كمالها ونضجها في كتاباته النثرية، وبخاصة في "أوراق الورد"، فالرافعي شاعر كبير في نثره، وشاعر وسط في قصيده، ولعل قصيدته النثرية "نشيد اليمامة" التي قالها على لسان مارية في قصة "اليمامتان" المنشورة في "وحي القلم" ذات مستوى لم يصل إليه شعره المنظوم (كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٢١).

ومهما يكن من أمر، فإن الرافعي حقق سبقا ملحوظا في ميدان مهم للغاية، وهو ميدان الأناشيد، فقد نظم مجموعة من الأناشيد جعلته بحق شاعر الأناشيد، خاصة وأن بعضها ما زال يتردد على ألسنة المصريين والعرب وتلاميذ المدارس، ومن أشهر هذه الأناشيد التي رددتها الأجيال: اسلمي يا مصر، إلى العلا.. إلى العلا بني الوطن، حماة الحمى..

«يتبع»

نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية



أ.د. نادية محمود مصطفى
أستاذ العلاقات الدولية
ورئيس قسم العلوم السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

(٤) الدلالات الراهنة للذاكرة التاريخية

وأخيراً، وقبل الانتقال لعرض النماذج التاريخية المعنية، يجدر التوقف عند الأمر التالي:

أن الإجابة عن الأسئلة الكبرى التي تنطلق منها الدراسة تمثل الذاكرة الحضارية الواجب الوعي بها وتدبرها خلال المرحلة الراهنة من «التعارف بين الحضارتين» في ظل العولمة وفي ظل اختلال ميزان القوة المادية بين الحضارتين وفي ظل مراجعة شعوب كل منهما لذاتيته وهويته. ومن ثم، فإن النماذج التاريخية المعني بها في الدراسة ستمتد إلى بعض نماذج التاريخ الجاري Current History.

إن الحاجة لدراسة هذه النماذج التاريخية ليست ترفا علميا أو غاية في حد ذاتها أو كسبيل من سبل مناقشة مصداقية مقولات افتراضية أو إمبريقية عن «التعارف بين الحضارات» باعتبار أن التاريخ هو معمل حي للعلوم الاجتماعية، ولكن تنبع أيضا هذه الحاجة من احتياجات راهنة للشعوب العربية والإسلامية وهي تعايش، في ظل العولمة، وما بعد الحرب الباردة، وما بعد الحادي عشر من سبتمبر، مرحلة من تطور النظام العالمي تمارس تأثيرها على هذه الشعوب بأكثر من وسيلة، وعلى نحو تنامى فيه اختراق الخارجي للداخلي، وهو الأمر الذي لابد وأن يؤثر على نمط تعارف هذه الشعوب على شعوب أخرى والعكس صحيح. وتكتسب أهمية الحاجة الراهنة لفهم النماذج التاريخية عن التعارف، أبعادا إضافية في ظل «اندلاع الثورات العربية» ابتداء بتونس مرورا بمصر، واليمن والبحرين وليبيا وسوريا (حتى الآن). فإذا كانت «الثورات» قد أعلت من وزن دور الشعوب، فكيف ينعكس هذا على أنماط التعارف الراهنة؟

ومن ثم، فإن منهاجية الدراسة تمتد من النماذج التاريخية إلى تلك الراهنة الجارية.

وسيتم عرض مجموعة من النماذج التاريخية في أربعة محاور:

المحور الأول: الفتوح- الاسترداد- الأقليات المسلمة: وتوزعت نماذج ثلاثية هذا المحور، بين عصور القوة والضعف، في مناطق القوقاز وآسيا الوسطى، الأندلس، الزيلع، البلقان، وهي المناطق المحيطة بالقلب العربي الإسلامي[١].

فكيف جاءت نماذج الفتوح الإسلامية، وكيف جاءت نماذج الاسترداد في هذه المناطق بأنماط مختلفة من التعارف، وما الدلالة بالنسبة لماهية وطبيعة الحضارة المعنية بالقوة الفاتحة أو المستردة؟ وما مآل المسلمين الآن في المناطق المستردة؟ وما مآل المسيحيين الآن في الدول الإسلامية؟ ما نمط التعارف الذي اقترن بالفتح الإسلامي للقوقاز وآسيا الوسطى، ومصر والشام وشمال إفريقيا، والأندلس، والبلقان، وشرق أفريقيا وغربها؟ وما نتائجه على أديان وقوميات وثقافات شعوب هذه المناطق وعلى العمران الحضاري في مرحلة الفتوح الراشدة ثم الدول الأموية والعباسية والعثمانية؟ ألا يمكن وصفه بأنه تعارف رشيد، تفاعلي، ليس استئصالي؟

وعلى ضوء المقارنة مع أنماط الاسترداد شبه المتزامنة منذ أواخر القرن الخامس عشر في نفس المناطق (والتي اكتملت خلال القرن السادس عشر في الأندلس واستمرت في الشرق وفي البلقان حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، فما نمط التعارف: ألم يكن ضالاً استعلائيا استئصاليا؟

وماذا عن الامتدادات الراهنة لما بعد الاسترداد، بالنسبة لوضع الأقليات (الشيشان، البوسنة، مسلمو أوروبا) في هذه المناطق؟[٢].

ومن الأعمال عن التواريخ الفكرية والاجتماعية والتي تشرح هذه الأنماط المتقابلة من التعارف خلال الفتوح والاسترداد: يمكن أن نتوقف عند النماذج التي تقدمها الأعمال التالية:

١- نماذج من كتاب "الفتوح العربية الكبرى"[٣]

يقدم هذا الكتاب تأريخًا غير تقليدي، وفق منهج علمي جديد (كما حدده المؤلف نفسه وكما علق عليه المترجم)، ويسعى إلى

---

(١) انظر السياقات التاريخية لهذه المفاصل وأبعادها العسكرية والدبلوماسية في الأجزاء التطبيقية لمشروع العلاقات الدولية في الإسلام

- د. علا أبو زيد، الدولة الأموية.. دولة الفتوحات (٤١- ١٣٢هـ/ ٦٦١- ٧٥٠م) من استئناف الدولة الأموية القوي والمؤثر لحركة فتوحات الراشدين إلى بلوغ المد الفتحي حدوده الطبيعية في الشرق والمغرب، الجزء الثامن.

- د. علا أبو زيد، الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط (١٣٢- ٦٥٦هـ/ ٧٥٠- ١٢٥٨م)، الجزء التاسع

(٢) وحول السياقات التاريخية والسياسية العسكرية في هذه المناطق، انظر:

- أعداد حولية أمتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة

(٣) هيو كينيدي، الفتوح العربية الكبرى: كيف أثر انتشار الإسلام على تغيير العالم، ترجمة وتقديم وتعليق: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧.

الإجابة عن سؤال مزدوج: لماذا كان نجاح المسلمين سريعًا وواسع النطاق فى الفتح؟ وكيف تمكنوا من تحويل الفتح إلى تغيير دائم فى مصائر المناطق والشعوب؟ وذلك من خلال فهم لتاريخ الفتوح يخالف التيار السائد فى البحث التاريخى الأوروبى والأمريكى عن هذه الفتوح. ويكشف الكتاب، وفق مقدمته وتقديم المترجم، عن كيف أن معظم الفتوح كانت سلمية، وكيف رأى أهل البلاد المفتوحة فى الفاتحين "سادة أفضل من سادتهم القدامى".

بعبارة أخرى، ووفق مقدمة المؤلف أيضًا، فهو يسعى لتقديم إجابة أكثر تركيبًا من التى قدمها بعض أهل هذا الزمان "من المسيحيين" (إنها إرادة الرب).

ومن بين تفاصيل الأحداث التاريخية ذات الدلالة المهمة عن فتح مصر والشام وشمال أفريقيا، يمكن القول إن المؤلف قد أبرز الإجابة عن السؤال التالى، الذى طرحه أحد رهبان القرن السابع الميلادى تعليقًا على الفتوح العربية:

"كيف يمكن لرجال عراه، يركبون دونما دون درع أو ترس أن يتمكنوا من الانتصار ويحطوا من شأن روح الكبرياء الفارسية؟"[4].

وهذه الإجابة هى: الفرق بين العرب والمسلمين وأعدائهم وعاداتهم ومواقفهم وقيمهم المختلفة"[5].

ومن بين القصص ذات المغزى فى الكتاب، تلك المنقولة[6]، عن أحد كتب تاريخ فتح مصر (ابن عبد الحكم) خلال فتح الإسكندرية عن مواجهة بين فارس عربى وبين فارسين بيزنطيين، قد تبدو هذه القصة بسيطة مقارنة بأحداث فتح الإسكندرية إلا أنها بينت، وفق المؤلف: الفارق بين أثر الترف والغنى وعدم اعتياد خشونة الأمور الحربية عند البيزنطيين فى مقابل حياة الزهد والتقشف والحرمان لدى الفارس العربى وقدراته القتالية العالية إلى جانب إيمانه الشديد برسالته ودوره فضلا عن تمسكه بالفضيلة وعدم مبالاته بالأغراض المادية (الغنائم) بل والانصراف قارئا للقرآن بعد صرعه لعدوه.

ومن ناحية أخرى، وفى موضع آخر من الكتاب، حين وصف فتح الشام بين المؤلف، من خلال المصادر عن أحداث كثيرة، كيف تجلت قوة إيمان وصبر وجلد المسلمين فى أعمال الحصار وكيف تجلت مساندة الله لهم على أكثر من نحو، فى مقابل تحسرات البيزنطيين على أنفسهم واليأس الذى دب فى نفوسهم وانتظارهم السقوط وفق إرادة الرب[7].

من ناحية ثالثة، بين المؤلف[8] كيف ينتهى الأمر بين أتباع الديانتين المتقابلين فى حرب عنيفة إلى مقاسمة كنيسة يوحنا (فى حمص) وكذلك فى دمشق والنجف. ويقول فى هذا: "بعد الهزيمة السياسية للقوات المسيحية، تعايشت الجماعات الدينية (المسلمون والنصارى) معًا، على أساس من التسامح المتبادل، إن لم يكن فى حال من الانسجام والتوافق".

هذا، وحيث يتضمن الكتاب، رؤى من أكثر من مصدر تاريخى عربى وغير عربى وغير مسلم، فهو يقدم أيضا رؤى قاسية عن فتح العرب قدمتها مصادر قبطية تصف عنف ودموية هذا الفتح واستعباد أهل مصر لدرجة التشبيه بفترة حكم فرعون[9].

إن كتاب الفتوح الكبرى، وفق هذه المنهاجية متعددة المصادر والروايات عن الحدث الواحد، إنما يقدم لقطات حية عن نمط من أنماط التعارف، "حين الفتح العربى" وكيف اختلفت الروايات التاريخية المسيحية والإسلامية حول تكييفه وكيف أسهم هذا الكتاب، من خلال المقارنات فى تقديم مساهمة علمية منضبطة.

وبلا شك، فإن الدلالات الحضارية الراهنة لهذا الكتاب، وما يقدمه من نماذج: ذات أهمية كبرى فى إطار السياق الراهن فى الشرق العربى والخاص بوضع المسيحيين مما يهدد بتفريغ المنطقة من مسيحييها، وهو سياق يساهم فى صنعه العديد من العوامل السياسية الداخلية والخارجية، فهو ظرفى، وليس هيكلى تابع من طبيعة ثقافة ودين أغلبية أهل المنطقة كما يدعى البعض[10].

ومما لا شك فيه، أن هذه الدلالة الراهنة للكتاب لابد وأن تتأكد من قراءة فى كتابات أخرى عن نماذج تاريخية للتواصل والتعارف عبر عصور الحضارة العربية الإسلامية، وليس للقطة الفتوح فقط، كما سيرد لاحقًا فى هذا المحور ومحاور أخرى.

٢- نماذج من كتاب "الإسلام فى يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو"[11]:

يُقدم الكتاب جانبًا من تاريخ الفتوح العثمانية فى البلقان، ومن مدخل تعارفى آخر يتصل بالناس خلال توالى الحروب العسكرية وتغير توازنات القوى بين العثمانيين والصرب والنمساويين (عبر ما يزيد عن ثلاثة قرون) منذ فتح كوسوفا الذى أكد الهيمنة العثمانية على المنطقة وحتى الحروب البلقانية التى صفت الحكم العثمانى فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣). والمدخل التعارفى الذى يقدمه المؤلف هو مدخل فريد ألا وهو تاريخ المدن - بلجراد وسراييفو - وكيف أن أحوالهما العمرانية وخصائصهما البشرية وغيرها تتغير بتغير القوة المسيطرة، عثمانية كانت أو

(٤) المرجع السابق، ص٩٠.
(٥) المرجع السابق، ص٤٤.
(٦) المرجع السابق، ص٤٤-٤٨.
(٧) المرجع السابق، ص١٢٤-١٢٥.
(٨) المرجع السابق، ص١٢٦.
(٩) المرجع السابق، ص٨٤.
(١٠) انظر أعمال مؤتمر مسيحيو الوطن العربى: التاريخ، الدور، المستقبل، (١٧-١٨ سبتمبر ٢٠١٠)، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة (تحت الطبع).
(١١) د.محمد الأرناؤوط، الإسلام فى يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، دار البشير للنشر، عمان، ١٩٩٣.

مجرية نمساوية أو صربية وهو التغير الذى يعكس الفارق بين نموذجين حضاريين متقابلين انعكسا ليس على نمط الحروب فقط ولكن على نمط إدارة العمران أو تخريبه فى ظل تسامح أو تعصب، وذلك خلال فترة ما بعد الحروب.

ويلخص المؤلف فى تقديمه للكتاب، ما يفصله الكتاب من دورات ازدهار ودورات ارتداد للمدينتين فى إطار التعاقب من الحكم العثمانى إلى غيره[١٢].

ويقول المؤلف فى هذا عن بلجراد[١٣]: "خلال الحكم العثمانى الطويل (١٥٢١-١٨٦٧)، وخاصة فى الفترة الأولى (١٥٢١- ١٦٨٩)، توفر الاستقرار لهذا الموقع وتحولت بلغراد من قلعة إلى واحدة من أكبر المدن فى أوروبا الشرقية. وفى الواقع، لقد نشأت خارج القلعة مدينة جديدة ازدهرت كنموذج للمدينة الإسلامية وشكلت نموذجا حضاريا متقدما بالنسبة للوسط الأوربى. ومع هذا الازدهار، الذى صاحبه نمو المدن الأخرى فى البلقان فى ظل الحكم العثمانى، امتدت حدود الشرق غربا حتى أصبحت مدينة بلغراد "بوابة الشرق" بالنسبة للأوروبيين الغربيين الذين كانوا يشعرون عند وصولهم إلى بلغراد بعبورهم إلى الشرق. وبعد هذا الازدهار، الذى أصبحت فيه بلغراد تشبه بدمشق، جاءت حرب الاسترداد لتقضى على بلغراد تدريجيا كرمز للنموذج الحضارى الشرقى الإسلامى فى أوروبا، وهكذا، باستثناء الجامع الوحيد الذى بقى فى المدينة بعد أن كان عدد الجوامع يتجاوز المئتين، تبدو بلغراد الآن مدينة أوربية حديثة لا تمت بصلة إلى تراثها الحضارى السابق".

وتحت عنوان "سرايفو: دار الجهاد والزهرة بين المدن" يقدم د. أرناؤوط للقسم الثانى من كتابه، ويبين التشابه بين بلجراد وسرايفو باعتبار كل منهما "نموذجا للتطور العمرانى الفريد الذى حصل فى البلقان خلال العصر العثمانى[١٤]:

"وكان هذا التطور العمرانى الفريد تعبيرا عن حضارة جديدة (الحضارة الإسلامية)؛ ولذلك فإن كلا من بلغراد وسرايفو تحولت إلى مركز من مراكز هذه الحضارة المتميزة بالملامح العمرانية والتعايش والتسامح والإبداع الجديد فى مجال التأليف بلغات جديدة لم تكن معروفة كالعربية والتركية والفارسية.

ومع هذا التشابه، كما قلنا، بين بلغراد وسرايفو لدينا هناك نوع من الترابط أيضا فى المصير. فبعد أن أصبحت عاصمة صربيا، عايشت بلغراد أولا ما يسمى الآن "التطهير"، أى "تطهير" المدينة من المسلمين وما يذكر بهم من جوامع ومدارس ومنشآت أخرى، وذلك باسم التخلص من "الأتراك".

(١٢) المرجع السابق، ص١١-١٢.
(١٣) المرجع السابق، ص١٢.
(١٤) المرجع السابق، ص١٥٩.

وعندما أصبحت بلغراد عاصمة يوغسلافيا (١٩١٨) وجد المسلمون فى سرايفو أنفسهم فى وضع مشابه، إذ تعرضوا لمجازر دموية وحوصروا بالشعارات والمقالات الصحفية التى تطالبهم بالهجرة تحت شعار "الأتراك إلى آسيا"، أو بالعودة إلى "الدين القديم" (المسيحية). مع أن البوسنيين المسلمين، كما سنرى فى الفصول اللاحقة، صمدوا وقاوموا، إلا أن تلك العقلية التى لا تفهم إلا فى "التهجير" و"التطهير" بقيت كامنة وتنتظر الفرصة لانطلاقتها من جديد".

إن نموذجى كل من بلجراد وسرايفو التاريخيين يعكسان نمطا من التعارف الحضارى فى مقابل نمط من التعارف الاستعلائى الاستئصالى. وهو نمط ممتد عبر التاريخ وتجسد فى شكله المعاصر بعد نهاية الحرب الباردة فى مأساة حروب الإبادة والتطهير ضد البوسنيين والكوسوفيين بصفة خاصة.

واقترن ذلك -زمنيا- بإبادة أخرى فى القوقاز ضد شعب الشيشان بعد تفكك الاتحاد السوفيتى.

ولقد سبق وتعرض هذا الشعب بدوره لمواجهات من التهجير والإبادة فى ظل الروسنة والسفيتة وبعد أن أحكم القياصرة الروس هيمنتهم على القوقاز فى منتصف القرن التاسع عشر، بعد صراع على النفوذ مع العثمانيين.

كل هذه الحلقات من الاسترداد الروسى، ومن الاسترداد الصربى والمجرى، لا تقارن بالاسترداد الأكبر فى الأندلس.

٢- الاسترداد فى الأندلس

وقد تم عبر حلقات متتالية تدعمت خلالها قوة قشتالة وأرجون ووحدتهما فى مقابل تزايد تجزئة ممالك الأندلس وإماراتها من ناحية وتزايد موالاتهم وتحالفهم مع أسبانيا ضد بعضهم البعض أملا فى النجاة أو بمعنى أدق إطالة أمد عدم السقوط، الذى أضحى حتميا، وخاصة مع افتقاد النصرة وفشل ما قدم منها.

ولقد شهد الاسترداد عدة مراحل: ابتداء من الحروب الصليبية فى الأندلس (٦٢٥هـ-٨٩٨هـ) والتى واجهت مقاومة وجهادا قبل تدهور روح الجهاد لينتهى بسقوط غرناطة، وصولا إلى إجبار المسلمين على التنصر ثم إجبارهم على ترك لغتهم العربية وكل مظاهر الحياة والسلوكيات العربية والإسلامية وإخضاعهم لمحاكم التفتيش[١٥].

وهنا، يبدأ أن نمط التعارف والتواصل الحضارى الذى ازدهر فى خبرة الأندلس مؤسسا حضارة قد تحول إلى نمط آخر استئصالى.

«يتبع»

●●●

(١٥) د. نادية محمود مصطفى، العصر العثمانى من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، مرجع سابق، ص ٤٦-٤٤.

من ركائز الوحدة الوطنية:

التعايش الاجتماعى للمسلمين مع غير المسلمين

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

لقد أرسى الإسلام أصولاً بمقتضاها يتعايش المسلمون مع غير المسلمين فوق أرض واحدة، وتحت سماء واحدة، وفي مجتمع واحد.

وكانت هذه الأصول متمثلة في البر والعدل حيث قال الله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

جعل الإسلام التعايش الاجتماعي بين المسلمين وغير المسلمين قائماً على المعاملة الحسنة، فعند الحوار أو الجدال لابد أن يكون الجدال بالتي هي أحسن حتى تظل جسور التواصل والتعاون قائمة فقال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

ولو كان غير المسلم مشركاً واستجار بالمسلم، فعلى المسلم أن يجيره وأن يبلغه مأمنه، وهنا تتجلى عظمة الإسلام في إرساء أصول التعايش الاجتماعي الآمن، حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾

(التوبة: ٦)

ومن أوجه التعايش الاجتماعي إباحة زواج المسلمين من نساء أهل الكتاب وإباحة طعامهم وإباحة طعام المسلمين لهم كما قال الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(المائدة: ٥)

ومن أوجه التعايش الاجتماعي ما فعله رسول الله ﷺ حيث عامل أهل خيبر وهم يهود على نصف ما يخرج من أراضيهم، على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم، وهذه شركة في الزرع والغرس والثمر، وقد ابتاع رسول الله ﷺ طعاماً من يهودي بالمدينة، ورهنه درعه فهذه تجارة مع اليهود ومعاملتهم جائزة»[1].

وهاهو ذا عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودي، سمعت النبي ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

ومن نماذج التعايش أيضاً تقدير الرسول ﷺ للأموات ولو كانوا غير مسلمين ولجنائزهم، عن عبدالرحمن بن أبي يعلى قال: «كان سهيل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمرَّ عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً!»[3].

بل بلغت سماحة التعايش الاجتماعي للمسلمين مع غير المسلمين مبلغاً سمح لوفد نجران بدخول المسجد النبوي وأداء شعائرهم فيه، لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوهم فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم»[4].

ولم يقتصر هذا التسامح على حال دون أخرى بل رأينا توجيهات الإسلام تنهى حتى في الحروب عن الغدر والتمثيل، عن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من

(١) المحلى لابن حزم، والمغني لابن قدامة (٢) رواه البخاري ومسلم (٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) رواه ابن إسحاق

المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدة..»[٥].

وقد شهدت الحياة الاجتماعية تعايشاً بين المسلمين وغيرهم وشهدت دفاع المسلمين عنهم وحمايتهم لحقوقهم، لدرجة أن ابن تيمية - رحمه الله - حين تغلب التتار على الشام، وأسروا جماعة من المسلمين وأهل الذمة، ذهب إلى حاكمهم، وكلمه في إطلاق سراح الأسرى فأطلق أسرى المسلمين ومنع أسرى أهل الذمة فأبى الرجوع إلا بافتكاك أسرى أهل الذمة وحصل له ما أراد[٦].

كما حمى الإسلام أموال غير المسلمين، وصانها وجاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت يديهم من قليل أو كثير».

ومن الوقائع التاريخية التي توضح مراعاة ولاة أمر المسلمين لحقوق غير المسلمين تلك الحادثة التي أخذ فيها الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد الأموي فلما استخلف عمر بن عبدالعزيز شكا النصارى إليه، فكتب إلى عامله برد ما زاده في المسجد عليهم، لولا أنهم تراضوا مع الوالي على أساس أن يعوضوا بما يرضيهم[٧].

ويؤكد ولاة أمر المسلمين على الوصية بأهل الذمة مهما حدث، فها هو ذا عمر بن الخطاب: رضي الله عنه - برغم ما جرى له من واحد من غير المسلمين وهو أبو لؤلؤة المجوسي الذي أصيب بسبب ضربته، فمع هذا كان عمر - رضي الله عنه - وهو في لحظات حياته الأخيرة يقول: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً أن يوفي بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم».

وبهذا التوجيه الإسلامي العظيم، وعلى هذا النحو من الدعوة إلى التعايش الاجتماعي للمسلمين مع غير المسلمين أكد الإسلام عبر عصور التاريخ على عالمية دعوته، وسماحة عقيدته.

وهذا التعايش المتسم بالتسامح يستوجب على غير المسلمين أن تكون معاملتهم للمسلمين، وخاصة للأقليات الإسلامية تمثل هذا الأسلوب المتميز المتسامح العادل، حتى يعيش العالم في سلام عالمي وتعايش سلمي، فآدم عليه السلام هو والد الجميع وحواء هي الأم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات: ١٣)

(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي

(٦) فتاوى ابن تيمية

(٧) فتوح البلدان (١٧٦)

احترام الإسلام لسائر الأديان السماوية

واحترم الإسلام جميع الأديان السماوية، وأرسل الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ خاتماً للأنبياء والمرسلين، مصدقاً لجميع الرسل الذين كانوا قبله، وأنزل الله تعالى على رسوله القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، ومصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها وحارساً أميناً لها.

وكان من عناصر الإيمان: الإيمان بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية، قال الله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

«البقرة: ٢٨٥»

بل إن إيمان المؤمن لا يكون صحيحاً إلا إذا آمن بجميع الأنبياء السابقين، وآمن بما أنزله الله تعالى عليهم من الكتب السماوية الصحيحة، قال الله تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

«البقرة: ١٣٦»

ومادام كل مسلم مأموراً أن يؤمن بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية، فلا يكون لديه تعصب، ولا كراهية لدين آخر أو نبي أو رسول، ولا كراهية ولا حقد على أحد من أتباع الأديان الأخرى.

ووضح القرآن الكريم لأتباعه ما قضته الإرادة الإلهية منذ الأزل، من اختلاف الناس في عقائدهم وأجناسهم وألوانهم وذلك لحكمة يعلمها الحكيم الخبير، قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

«هود: ١١٨، ١١٩»

وقال جل شأنه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

«يونس: ٩٩»

ولا يحجر الإسلام على أحد، ولا يكره أحداً على الدخول في عقيدته، قال الله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

«البقرة: ٢٥٦»

موقف الإسلام من غير المسلمين

من المعلوم أن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله، دفاعاً عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين، فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الغير، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى الإسلام عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ وعن حرق النخيل والزروع وقطع الأشجار المثمرة.

وأوصى أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رحيماً بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص عندما أرسله في حرب الفرس بأن يكون في حربه بعيداً عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئاً لأن لهم ذمة وعهداً، كما أعطى عمر - رضي الله عنه - أهل إيلياء أماناً على أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وحذر من هدم كنائسهم، وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال الله تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

«الإنسان: ٨»

ولقد كانت معاملة الإسلام كلها خير في أسرى غزوة بدر الكبرى عاملهم النبي ﷺ خير معاملة فوزعهم على الصحابة وأمرهم أن يحسنوا إليهم فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم في الطعام وفي الغذاء، ولما استشار أصحابه في شأن أسرى بدر، وأشار البعض بقتلهم وأشار الآخرون بالفداء، وافق على الفداء وجعل فداء الذين يكتبون منهم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وكان هذا أول إجراء لمحو الأمية.

ولم يقبل الرسول أن يمثل بأحد من أعدائه في الحروب مهما كان أمره، ولما أشير عليه أن يمثل بسهيل بن عمرو لأنه كان يحرض على حرب المسلمين وعلى قتالهم، فأشير عليه أن ينزع ثنيتيه السفليتين حتى لا يستطيع الخطابة بعد ذلك، لم يوافق النبي ﷺ على ذلك، بل رفض قائلاً: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً»، وعندما حقق الله تعالى لرسوله ﷺ أمنيته بفتح مكة المكرمة ودخلها فاتحاً منتصراً ظافراً قال لقريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟، قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ اذهبوا فأنتم الطلقاء لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم.. ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في الحرب:

١- أن يكون القتال في سبيل الله.

٢- وأن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين.

٣- وعدم الاعتداء.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

«البقرة: ١٩٠»

فالذين يعتدون على المسلمين ويقاتلونهم أمر المسلمون أن يقاتلوهم، ولكنه قتال عادل بمعنى ألا يمثلوا بأحد وبلا تعذيب، حيث قال الله تعالى:

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

«البقرة: ١٩٤»

وهذا فيمن يقاتلون المسلمين.

أما الذين لا يقاتلون من غير المسلمين، فكان النبي ﷺ ينهى عن قتالهم، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة»[٨]، وفي حديث آخر «سيروا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تغلوا وتقتلوا وليداً»[٩].

كما كان ينهى ﷺ عن التعرض للرهبان وأصحاب الصوامع وعن التمثيل والغلول، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع»[١٠].

***

(٨) رواه أبو داود.

(٩) رواه ابن ماجه.

(١٠) رواه ابن ماجه.

وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا (٥)



للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية. جامعة القاهرة

منظمة المؤتمر الإسلامي(*) (١):

وهدفها دعم التضامن الإسلامي وزيادة التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والعلمية والسياسية. ومقرها حاليا في قطر. وقد نشأت المنظمة بموجب قرار قمة رؤساء الدول الإسلامية في الرباط (المغرب) من ٢٢ ـ ٢٥ سبتمبر ١٩٦٩م.

ويلاحظ أن الدول الإفريقية عامة تمثل نصف عدد دول المؤتمر الإسلامي فهناك دول ليست إسلامية ولا يمثل الإسلام غالبية سكانها ولكنها منتمية للمؤتمر الإسلامي.

كما يتضح أن عدد الدول الإفريقية في منظمة المؤتمر الإسلامي وصل في سبتمبر ٢٠٠١ إلى ٢٧ دولة من مجموع أعضاء المنظمة الذي يصل إلى ٥٧ عضوا(٢). أي أنها تمثل ما يقرب من نصف الأعضاء بالإضافة إلى مراقب واحد (جمهورية إفريقيا الوسطى) من مجموع ثلاثة مراقبين.

وكان عدد الدول الإفريقية المؤسسة في المنظمة ١٣ دولة من مجموع ٢٥ دولة مؤسسة وهي: الجزائر، والسنغال، والسودان، والصومال، والمغرب، والنيجر، وتشاد، وتونس، وغينيا، وليبيا، ومالي، ومصر، وموريتانيا.

ثم توالى انضمام الأعضاء كالتالي(٣):

سيراليون (١٩٧٢)، أوغندا وجابون وجامبيا وغينيا بيساو (١٩٧٤)، بوركينا فاسو والكاميرون (١٩٧٥)، وجزر القمر (١٩٧٦)، وجيبوتي (١٩٧٨)، وبنين (١٩٨٢)، ونيجيريا (١٩٨٦)، وموزمبيق (١٩٩٤)، وتوجو (١٩٩٧)، وأخيرا كوت ديفوار (٢٠٠١).

وبنظرة على لغة الأرقام نلاحظ أن نحواً من ٥٠٪ من الدول أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي في دول إفريقية (بما فيها دول الشمال الأفريقي). من بينها دول لا يمثل المسلمون بها أكثرية بل أقلية ومع ذلك عضو بالمنظمة الإسلامية من ذلك بوركينا فاسو (٤٠٪)، سيراليون (٣٩٪)و غينيا بيساو (٣٠٪)) الكاميرون (٣٠٪)، أوغندا (٢٩٪) والجابون التي يصل عدد المسلمين بها إلى نحو (١٪) فقط وإن كان رئيسها عمر بونجو قد دخل الإسلام.

وهناك دول أدخلت صفة الإسلام ضمن اسم الدولة وهي «جمهورية جزر القمر الفيدرالية الإسلامية»، و«الجمهورية الإسلامية الموريتانية».

كما أن هناك العديد من الدول التي تعتبر الإسلام الدين الرسمي للدولة، فبالإضافة للدول العربية الإفريقية (تونس، جيبوتي، السودان، والصومال، وليبيا، ومصر، والمغرب، وموريتانيا، وجزر القمر) هناك (تشاد، والسنغال، وغينيا، ومالي، والنيجر). وهناك دولة طبقت الشريعة الإسلامية وجعلتها المصدر الوحيد للتشريع وهي السودان، وأخرى طبقتها ضمن ولاياتها الشمالية وهي نيجيريا.. وإن كانت تلك التجارب مازالت حديثة حتى يمكن الحكم عليها.

رابطة العالم الإسلامي:

وهي منظمة إسلامية عالمية غير حكومية. تأسست بموجب قرار المؤتمر الإسلامي في دورته الأولى بمكة المكرمة في ١٤ إلى ١٦ ذي القعدة ١٣٨١ هـ الموافق من ١٨ إلى ٢٠ مايو عام ١٩٦٢ أثناء موسم الحج ذلك العام. والذي ينص على تكوين هيئة إسلامية مقرها مكة المكرمة

(*) الإحصاءات أو البيانات الواردة قد لا تكون معبرة عن الواقع الحالي.

(١) لمزيد من المعلومات عن ميثاق المنظمة، وأعضائها ومؤسساتها وأجهزتها انظر:
organization of the Islamic Conference, Jeddah; Marawa Advertising, N. D

(٢) http://www.oic_un. org/about/members.htm,23/09/2001.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر الملحق رقم (٢).

خدمة الإسلام والمسلمين. وقد صدر القرار بأهداف الرابطة ووسائل تحقيقها وأجهزتها العاملة وميزانيتها وشبكة اتصالاتها ومكاتبها في العالم[4].

وأقر نظام الرابطة رسمياً في المؤتمر الإسلامي في ١٥ ذي الحجة ١٣٨٤ هـ الموافق ١٧ أبريل عام ١٩٦٥ [5].

وتتضمن الرابطة مؤسسات على رأسها المؤتمر الإسلامي العام الذي يمثل أعلى هيئة تشريعية باعتباره أعلى سلطة في الرابطة ثم المجلس التأسيسي ويتكون من ٦٢ عضوا لا يتقاضون رواتب ويتولى رسم سياسة الرابطة بما يكفل تحقيق الأهداف. أما الأمانة فتمثل الجهاز التنفيذي وقد بلغ عدد موظفيها نحو ٤١٠ في المملكة العربية السعودية، وخارجها ٢٣١، بالإضافة إلى ألف مبعوث.

هذا وتنتشر مكاتب الرابطة في الأنحاء المختلفة للعالم وقد وصل عددها إلى ٣٣ مكتباً نصفها في إفريقيا وحدها حيث توجد مكاتب للرابطة في كل من: إثيوبيا، أوغندا، الجابون، السنغال، الصومال، الكونغو، بوركينا فاسو، بوروندي، تنزانيا، جزر القمر، جنوب إفريقيا، سيراليون، كينيا، موريشيوس، نيجيريا، موريتانيا، زائير [6].

أهداف الرابطة:

وقد تحددت الأهداف في تبليغ دعوة الإسلام وشرح مبادئه وتعاليمه ودحض الشبهات عنه والتصدي للتيارات والأفكار الهدامة التي يريد بها أعداء الإسلام فتنة المسلمين عن دينهم وتشتيت شملهم وتفريق وحدتهم، والدفاع عن القضايا الإسلامية بما يحقق صالح المسلمين وآمالهم ويحل مشاكلهم.

ووسائلها: أما الوسائل التي وضعت لتحقيق الأهداف فتتمثل في التالي [7]:

(١) العمل على تحكيم الشريعة الإسلامية في البلاد الناطقة بالشهادتين.

(٢) الأخذ بمبدأ الشورى وتنسيق الجهود من أجل انتشار الدعوة الإسلامية

(٤) قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة عشرة، مجلة رابطة العالم الإسلامي، العدد الثاني، السنة الخامسة عشرة، صفر ١٣٩٧، فبراير ١٩٧٧.

(٥) لمزيد من المعلومات انظر رابطة العالم الإسلامي في ٢٥ عاما: ذو الحجة ١٣٨٢ ـ ١٤٠٧ هـ/ مايو ١٩٦٢ ـ ١٩٨٨ م: إنجازات وتطلعات، جدة، دار عكاظ للطباعة والنشر، د. ت.

(٦) أما بقية مكاتب الرابطة فتوجد في كل من: الأردن، إنجلترا، إندونيسيا، الدانمرك، فرنسا، جمهورية المالديف، بنجلاديش، الفلبين، ماليزيا، كندا، أسبانيا، أستراليا، المملكة العربية السعودية، الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الجنوبية وباكستان. انظر: دليل المنظمات والمؤسسات الإسلامية في العالم، السعودية، رابطة العالم الإسلامي، مركز المعلومات، ١٤١٣ هـ، ٥٥٦ ـ ٥٥٤. انظر أيضا:
http://www.arab.net/mwl/offices.htm,24/01/2002.

(٧) المرجع السابق، ص ١٦ ـ ١٧.

وعن نشاط الرابطة تفصيلا في تحقيق الأهداف والوسائل خلال ربع قرن، انظر: المرجع السابق.

وذلك عن طريق مؤتمرات لكبار علماء العالم الإسلامي.

(٣) التوعية الإسلامية أثناء موسم الحج عن طريق المحاضرات والندوات الإسلامية التي تنظمها الرابطة يوميا.

(٤) إقامة ندوة إسلامية عالمية في موسم كل حج بمقرها العام.

(٥) تنظيم التعارف بين وفود الحجيج بكل وسيلة ممكنة.

(٦) تشجيع ودعم الدعاة الإسلاميين في كافة أنحاء العالم للعمل على نشر الإسلام.

(٧) توزيع المصاحف بقراءتي حفص وورش وتراجم معاني القرآن باللغات العالمية الحية وتلك السائدة في المناطق الإسلامية.

(٨) توزيع الكتب والمجلات الإسلامية مجانا بهدف تعميم الثقافة الإسلامية ونشر الدعوة.

(٩) تشجيع المؤسسات الإعلامية الإسلامية التي تخدم الدعوة الإسلامية وتشجيع النشر.

(١٠) ابتعاث وفود لجميع أنحاء العالم لدراسة مشكلات الأقليات الإسلامية بها ومساعدتهم.

(١١) تنسيق الجهود مع المؤسسات والمنظمات التي لها صلة بالرابطة ودعمها لخدمة الدعوة الإسلامية.

(١٢) تشجيع التأليف الإسلامي وشراء الكتب الإسلامية التي تشرح حقائق الإسلام.

(١٣) نشر التعليم الإسلامي بالإسهام في إنشاء المدارس والمعاهد الإسلامية في الوطن الإسلامي ودعمها.

(١٤) العمل على نشر لغة القرآن الكريم بين الشعوب المسلمة لتكون لغة التفاهم بين الجميع.

(١٥) العمل على تنقية وسائل الإعلام الإسلامي من أية دعوات غريبة عن روح الإسلام.

(١٦) العمل على إغاثة المسلمين المتضررين من الكوارث والنكبات والحروب ورفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات الإسلامية.

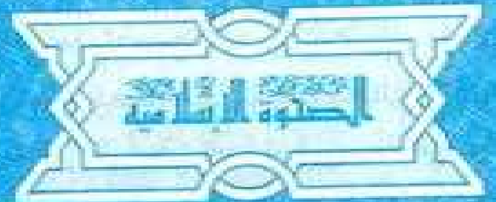
(١٧) تدريب أبناء المسلمين وتعليمهم بمدهم بالمنح الدراسية والمعونات المالية والدورات التدريبية.

وقد قامت الرابطة بإنشاء العديد من المراكز الثقافية والدينية في إفريقيا منها: مدارس أولية، ومراكز ثقافية إسلامية، ومراكز طبية، وأكاديميات إسلامية للعلوم والتكنولوجيا، ومستوصفات ومعاهد جمعيات للشباب المسلمين وكليات إسلامية ومعاهد للدراسات القرآنية[8].

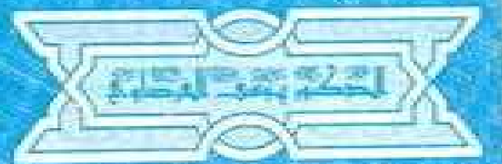
«يتبع»

(٨) دليل المنظمات والمؤسسات، مرجع سابق ص ٥٥٧ – ٥٥٨.

قراءة فى كتاب



الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا




للأستاذ / عادل خفاجة

يتساءل المؤلف فى هذا الفصل من الكتاب: هل حقق الاشتراكيون الثوريون العرب مجتمع الكفاية والعدل، الذى نصبوا أنفسهم لإقامته؟

ولضمان الحيدة يقول: لن نستدعى أحداً غير ثورى وغير اشتراكى، وغير تقدمى، فقد التزامنا أن يكون الشهود على الاشتراكية من أهلها.

وتسود الصفحات من ٢٣٠ حتى ٢٤٢ بالكثير من الفضائح التى يخلص المؤلف من خلالها إلى أن العدالة والفرص المتكافئة لجميع المواطنين لم تكن إلا وهما.

ثم يقارن بين حال العمال قبل التأميم وبعده، وينتهى إلى أن النقابات الممثلة للعمال تصل إلى أوج قوتها فى نظام المشاريع الخاصة، وتفقد قوتها وتأثيرها فى نظام التأميم، لتصبح آلة فى يد النظام السياسى.

ثم يشير إلى أن وضع العمال فى المشاريع الحكومية فى أى بلد من بلاد العالم لم يكن ممتازاً ولا حتى مساوياً لوضعهم فى المشاريع الخاصة.

الاشتراكية الثورية.. وتحرير فلسطين

ويؤكد المؤلف فى هذا الفصل أن العرب فى ظل الحكم العسكرى قد بعدوا عن حقهم أضعاف ما كانوا بعيدين عنه فى عهود الحكم المدنى.

وأن الثغرات الأساسية والمباشرة، التى نفذت منها الهزيمة، كانت فى نقائص النظم

العربية التى تصدت للمواجهة ومساوئها، وفى تخاذل القيادات العسكرية البيروقراطية وترفها وترهلها وفسادها وفى إبعاد الجماهير عن المشاركة الجدية وعزلها عن تقرير مصايرها وعن فرض إرادتها على النظم، كل ذلك جاء ليقرر الهزيمة ويوقع النكسة.

وهكذا تتحمل الأنظمة الثورية الاشتراكية مسئولية الهزيمة الكبرى التى قصمت ظهر العرب، وحنت رؤوسهم، وأذلت أعناقهم منذ ١٩٦٧ حتى اليوم.

هكذا يلقى باللائمة على الأنظمة الثورية ويحملها مسئولية هزيمة ٦٧ ثم يقول:

ورغم مضى أكثر من أربع سنوات على الهزيمة، فإن الموقف يزداد سوءا.

إسرائيل تتصرف فى كل الأراضى التى احتلتها تصرف المقيم فيها أبدا، تبنى مستوطنات فى الجولان، وتقوم بحفريات وتغييرات متواصلة تغير بها معالم القدس العربية الإسلامية، وتحول عشرات الألوف من سكان غزة من مساكنهم إلى سيناء، وتبنى مستعمرات ومساكن فى الأراضى العربية المحتلة.

ونحن مازلنا نحلم بحل سلمى يأتى عفواً صفواً، يرد إلينا بجرة قلم، ما احتله العدو بحد السيف. وكل أملنا وعملنا وتفكيرنا - معشر الثوريين العرب - هو طرد إسرائيل من المناطق الجديدة التى احتلتها، أى إزالة آثار عدوان ١٩٦٧، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى ٤ / ٦ / ٦٧:


القرضاوى

معنى هذا أن حوالى ٢٠ سنة من عمر الأمة العربية قد ضاعت كلها هباء. فقد قضتها فى التأهب والاستعداد منذ هزيمة ١٩٤٨، ثم تبخر هذا كله فى ستة أيام أو ست ساعات فى ١٩٦٧!

لماذا فشل الثوريون الاشتراكيون؟

ثم يواصل المؤلف رصد مجالات الفشل التى منى بها الثوريون فيطرح السؤال الأكبر: لماذا فشلت الاشتراكية الثورية العربية؟! ثم يتناول بالتفصيل العديد من مجالات الفشل بعد أن تساءل: لماذا فشلت فى تحقيق كل من الوحدة، والحرية والعدالة الاجتماعية والنمو والتقدم، ولماذا فشلت فى حرب ٦٧، ولماذا فشلت فى إشاعة القيم والقضايا الخلقية؟

أما عن الوحدة، فيرى المؤلف أن وحدة الهدف وحدها لا تكفى ما لم تصحبها وتمهدها وحدة أخرى هى وحدة المنهج ووحدة الطريق. يقول المؤلف:

قد يتفق فريق من الناس على غاية واحدة، ولكن يتخذون للوصول إليها مناهج عدة. وسبل شتى.

ولهذا نجد الاشتراكيين مختلفين فى مناهجهم وطرائقهم، ما بين متخذ طريق الروس، وبين متبع سبيل الصين، وبين مقتف أثر يوغوسلافيا، ومن ناهج نهج كاسترو.

وكذلك يختلفون فى سياستهم الخارجية ما بين موال لبكين أو دائر فى فلك موسكو، وآخر لا يفرط فى حبال الغرب. وكل حزب بما لديهم فرحون.

أما من اتخذوا الطريق الإسلامى، والمنهج المحمدى، فهم أولى الناس أن يلتقوا فى بدايته وفى وسطه وفى نهايته. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

«الأنعام: ١٥٣».

ويشير المؤلف إلى أن الآفة الكبرى فى هذه الأفكار الدخيلة وهذه الحلول المستوردة، إذ يأسى على هذه الحال التى يعيشها العرب وهذه الفرقة التى تشتتهم فى حين يتقارب العالم ويتعايش المتعارضون، حيث يتم التقارب بين المسيحية واليهودية برغم تاريخ النزاع الطويل بينهما، ويتم التقارب على الصعيد السياسى بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى. أما العرب فيزدادون اختلافاً.

يقول المؤلف: كل هذا التقارب والتفاهم والتعاون يحدث فى العالم كله من شرقه إلى غربه، فى مجالات الدين والسياسة والاقتصاد، والعرب وحدهم، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، بل يقاتل بعضهم بعضاً، ببركات «الإيديولوجيات» المستوردة، والأفكار الدخيلة، التى جعلت الشعب العربى الواحد، فريقين متصارعين - حتماً - وفقاً للفكر الطبقى الذى تتبناه، وحمل بعضهم فكرة ضرورة قيام حرب عنيفة بين العربين: عرب اليمين وعرب اليسار، أو على الأصح: بينهم - معشر الثوريين، وبين سائر العرب، وهى حرب «لا تدانى قسوتها قسوة الحروب الخارجية مع الأعداء الألداء» بل اعتبر كل عربى ليس بثورى عدواً سافراً.

ويرى المؤلف أن فشل الإيديولوجية الثورية كامن فى طبيعتها وليس فى ظروف طارئة عليها كما يحاول سدنة الحكم الثورى تفسير ذلك الفشل.

ويتساءل: هل آمن الثوريون العرب بأن الكرامة والحرية والمساواة حقوق طبيعية لكل إنسان؟ ولكل فرد، ولكل مجموعة من أبناء الوطن؟ وهل آمنوا بأن الفئة الثورية ليست فوق الأمة؟ وأن الحق يجب أن يكون فوق القوة؟

يقول المؤلف: وما أعظم الإيديولوجية الإسلامية التى تعلم الناس كافة أن «الدين النصيحة»، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الدين، وأن «التواصى بالحق» من أسباب النجاة من الخسران، وأن على المسلم أن يقول الحق وإن كان مراً. لا يخاف فى الله لومة لائم. وأن عليه أن يغير المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

وتتحقق الحرية فى ظل أيديولوجية تؤمن بالأخوة والمساواة بين البشرية فلا طبقية ولا امتياز. ولا تسلط من أحد على أحد. لا توجد طبقة أعلى من طبقة، ولا امتياز لفئة على فئة، ولا لأسرة على أسرة. ولا لقلة على كثرة. ولا لحاكم على محكوم. الجميع عبيد لرب واحد، وأبناء لأب واحد. فلا معنى لأن يستعلى أو يتسلط بعضهم على بعض، ويتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

ولهذا يرتبط معنى الحرية بمعنى الإخاء والمساواة. فمن لا يؤمن بهما، وإنما يؤمن بصراع طبقى حتمى، أو يؤمن بامتياز فئة صغيرة من الناس على مجموع الأمة. أو يؤمن بأن مجموعة من أبناء الأمة يجب أن تحرم من الحرية. أو يؤمن بأن الحاكم فوق النقد. وأن «الطليعة» أو «النخبة» المؤيدة له فوق الشعب، فقد هدم الحرية من أساسها.

لماذا فشلوا فى تحقيق الكفاية والعدل؟

وفى معرض حديثة عن الكفاية والعدل، يرى المؤلف أن هناك ستة شروطاً لتحقيق النمو والتقدم نلخصها فيما يلى:

١- أن ترتبط الأمة برسالة أو هدف كبير تؤمن به وتعمل على تحقيقه وتضاعف جهدها فى سبيله.

٢- أن النمو والتقدم والإنتاج لا يتحقق بالفعل إلا فى ظل مجموعة حتمية من الأخلاق والفضائل مثل: الأمانة والصدق والإخلاص والاتقان، والصبر والجد والاستقامة والعفة وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وتقديم الكفء، ولو كان خصماً ومعارضاً على غير الكفء ولو كان ولياً ونصيراً وهذه الفضائل وغيرها من ثمرات الإيمان الصحيح.

٣- أما الشرط الثالث فهو العدالة، فلابد أن تسود العدالة مع الأخلاق.

٤- ورابع هذه الشروط الأمن والحرية لأن الخائف لا ينتج وإذا أنتج فلا يحسن، وكذلك المكره.

٥- وخامس هذه الشروط الاستقرار، أى استقرار النظام، واستقرار الاتجاه، واستقرار القوانين الأساسية، حتى يستطيع كل إنسان تكييف آماله ومشروعاته وتصرفاته وفقاً لها.

٦- أما الشرط السادس والأخير: أن تكون السيادة للعقل لا للعواطف والأهواء، وأن تكون كلمة العلم فوق كلمة «السياسة».

لماذا فشلوا فى حرب ١٩٦٧

يحشد المؤلف العديد من أقوال الثوريين والاشتراكيين وتبريرهم للشقاق القائم بين الدول العربية فى ظل هذه الأيديولوجية الثورية.

وعن أسباب هزيمة ٦٧ ينقل المؤلف ما قاله الأستاذ هيكل فى الأهرام فى شهر أكتوبر ١٩٦٧، ونحن بدورنا نقدمها للقارئ إذ يقول:

الحقيقة الأولى: أننا كنا نواجه عدوا تلقى مساعدات غير عادية.

الحقيقة الثانية: أن عدونا تصرف فيما حصل عليه من الإمكانيات ببراعة غير عادية.

الحقيقة الثالثة: أننا تصرفنا أمامه بقصور غير عادي.

إن الضربة التي فاجأتنا كانت متوقعة بالطريقة التي جاءت بها تقريبًا وفي الوقت الذي جاءت فيه تقريبًا أيضًا.

ولكن الفشل من توقيها كان مذهلاً!

لماذا فشلوا في مجال الأخلاق؟

ويصيب المؤلف كبد الحقيقة حين يقرر أن القيم والفضائل لا تسود المجتمع، ولا تشيع في حياة الناس ولا تخط مجراها في سلوكهم العام والخاص، بالأوامر العسكرية، ولا بالقرارات الثورية. ولكنها تحتاج إلى تربة صالحة تنمو فيها بذورها، وترسخ جذورها، وتمتد فروعها وتزهر غصونها وأوراقها.

وأن أول ما يحقق هذه التربة هو «العقيدة الصالحة» التي ترجع إليها أخلاق الأمة وينبثق عنها سلوكها.

وإنه يجب على كل مجتمع حريص على الأخلاق أن يعمل على إزالة المظالم، وإقامة الموازين القسط بين الناس؛ لأن التمييز بين الناس يورث التحاسد بينهم.

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب يخلص المؤلف إلى القول أن الخطأ الأكبر للاشتراكيين الثوريين هو نفسه الخطأ الأكبر الذي سقطت فيه الليبرالية العربية وهو أنهم كانوا يقودون أمة لا يعرفون حقيقتها، ولم ينفذوا إلى روحها وحقيقة أفكارها ومشاعرها.

لقد نسي أو تناسى أولئك الثوريون اليساريون، كما نسي قبلهم الليبراليون اليمينيون أنهم يصفون علاجًا وحلولا لأمة مسلمة أمة أرفع قيمة عندها هي «الإيمان»، وأسمى غاية عندها هي «رضا الله»، وأجل كتاب تهتدي به هو «القرآن الكريم»، وأعظم إنسان تقتدي به هو «محمد» ﷺ.


محمد حسنين هيكل

فكيف يستقيم الأمر لأمة عربية ذات رسالة ماركسية؟ وينتهي المؤلف إلى أن أمتنا ليست بحاجة إلى الاستيراد وأن الإصلاح الحقيقي والجذري، والتغيير الثوري حقًا هو رد الأمة إلى أصولها وإلى منابعها وإخراجها من ذلك التيه الطويل.

وبعد..

فقد قدم المؤلف القدير كتابًا مقنعًا، لا يعوزه البرهان على ما يقول، ولا ينقصه الدليل على ما قدم.. وأفضل ما فيه أنه أعطى الثوريين الاشتراكيين والليبراليين مساحة كبيرة من الكتاب نقل فيها أقوالهم وعرض اختلافاتهم، كما نقل ما باحت به أفواههم من خزايا، وما تناقلته ألسنتهم من فضائح.

غير أن القارئ يقف أمام إصرار المؤلف على ترديد كلمة «الفشل» في كل أنحاء الكتاب، وإصراره على أن يجعلها عاملا مشتركا في عشرة عناوين من جملة عناوين فصول الكتاب البالغة خمسة عشر عنوانًا.

إن القارئ ليضيق بهذا الكم من الفشل الذي يتكلم عنه المؤلف وأن حشد له الأدلة

الدامغة على حدوثه فعلاً.

وكم كنا نأمل أن يعمد المؤلف إلى بعض مجالات النجاح ولو كانت نجاحات قليلة أو هزيلة؛ حتى يخفف عن القارئ كم الضيق الذي أصابه.

وللحق.. فإن المؤلف - القدير - قد أدرك ذلك فنجده يلتمس لنفسه العذر - فيقول في خاتمة الكتاب:

«وكل ما أرجوه من أنصار الحل الليبرالي، أو الحل الاشتراكي، أن يقرأوا كتابي بعين النصف لا بروح المتهم، وأن يفتحوا صدورهم، لما فيه من نقد قد يشتد ويقسو في بعض الأحيان، ولكن عذري أن الأمر يتعلق بدين ورسالة. وبمصير أمة ومستقبل حضارة، كما أن تجبر الجاهلية، وضغطها الخانق على دعاة الإسلام، ورفضها لكل لغة للتفاهم إلا للسياط تلهب، وللنيران تكوى، وللمشانق تقتل.. وافتراءها على البرآء العيب. كل هذا جعلنا نتحدث ونكتب بحرارة المظلوم، ومرارة المكلوم، ومن حق الملدوغ أن يتأوه، ومن حق الثكلى أن تبكي، وقديمًا قالوا: ليست النائحة كالثكلى!

إن مرارة المكلوم وحرارة المظلوم لم تفارق المؤلف حين يأسى ويأسف على وصل إليه حال الأمة، فيقول: لقد دخلنا جحر الغرب مرة فلدغنا عقرب الليبرالية.

ثم دخلناه مرة أخرى فلدغتنا أفعى الاشتراكية.

ولو كنا مؤمنين حقًا ما لدغنا من الجحر الواحد مرتين.. لكن ضعف إيماننا، فتكرر لدغنا.

والمؤسف حقًا أن تلدغ مرتين ولا تعتبر.. وكأنما تريد أن تبقى الدهر في جحر العقارب والأفاعي!!

ولكن مع كل هذا الأسى والأسف فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، لذلك نراه يختتم هذا الكتاب بكثير من التفاؤل حيث قال:

بيد أني أحس أن عهدًا جديدًا، يوشك أن يبزغ فجره على شعوبنا، بعد أن تكشف لها عوار الاتجاهات المستوردة: يمينها ويسارها، غربيها وشرقيها..

وبعد أن تبينت هذه الاتجاهات على شخصيتها وعجزها عن حل مشكلاتها، وإفلاسها في تحقيق آمالها، وإثبات ذاتها.

أجل أحس أن الفكر المستورد قد أخذ يفقد بريقه، وأن موجة الغلو «الثوري» قد بدأت تنحسر، وأن بلدًا كمصر العربية المسلمة بشعبها وبتاريخها، قد طفق يراجع نفسه، ويقترب من الوسط، ويتخلص من كثير من «العقد» التي كبلته طيلة سنوات مضت، إذا صدقت الأنباء، وصحت الاستنتاجات.

ونقول: لقد صحت استنتاجاتك.. أيها الشيخ الجليل.. وإن الدور القادم ليس لليمين ولا لليسار، ليس للحل الليبرالي ولا للحل الاشتراكي.. فكلاهما جرب حظه واستنفد وقته، وآن الأوان لحاملي «الحل الإسلامي» أن يؤدوا دورهم.. ونسأل الله أن يكونوا على قدر الأمانة.

التوثيق فى البحث العلمى
أدبياته ومناهجه وقيمته ووظائفه



للأستاذ الدكتور / خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

التثبت والتوثيق فريضة !

كان مما ظهر للناس من رأى أن التثبت والتوثيق فريضة وضرورة بكل ما تعنيه هاتين الكلمتين.

وكان هذا الذى ظهر من رأى حول التثبت والتوثيق ناتج تأمل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

(سورة الحجرات ٦)

وقد فهم أصحاب التفاسير الفقهية من هذه الآية أن الله يأمر بالتثبت فى النقل، وهو ما يقرر القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٧م ج ١٦ ص ٣١٢): "إنما أمر فيها (أى فى الآية الكريمة) بالتثبت عند نقل خبر الفاسق". وهو ما يمكن توسيعه فى مجالات الحياة عموما والعلوم خصوصا، ليكون مطلب التثبت عند النقل خلقا ثابتا من أخلاقيات العلم، وضروراته.

وهذا الذى نقرره ثابت فى تراث أحكام القرآن الكريم، بما هى تفاسير فقهية للذكر الحكيم، على ما يظهر من أقوال ابن عربى فى كتابه أحكام القرآن (٤/١٧١٥) والجصاص فى كتابه أحكام القرآن (٥/٢٧٨) ومحمد صديق حسن خان فى كتابه نيل المرام فى تفسير آيات الأحكام(٢/٣٦٩).

وتوسيع القول بضرورة التثبت والتوثيق له ما يؤكده ويدعمه ويعضده بما توافر فى أجواء المنهجية البحثية فى الحضارة الإسلامية من اقتران المعرفة بطلب الدليل. وهو الأمر الذى يلمح إليه الدكتور / محمد السيد الجليند فى مقالته (توثيق النص المخطوط ص ١٤٧) عندما قال إن النظر إلى التوثيق ومصطلحاته بما هما أمران دينيان بالمعنى الشائع يعد خطأ ظاهرا؛ ذلك أنه "ينبغى أن نتعامل معها على أنها مصطلحات بالإضافة إلى كونها دينية فهى علمية منهجية أيضا".

والتوثيق فى البحث العلمى فى ضوء ما مر أصل وأساس لا يصح التهاون فى النظر إليه.

والتوثيق مصطلح قام فى بنية كثير من العلوم على امتداد التاريخ غير أنه صار أصلا فى علم المناهج وعلم المكتبات وعلم الوثائق والأرشيف حتى استقل عدد من المصنفات ببيانه وبيان مناهجه وطرقه.

والتوثيق فى البحث العلمى مصطلح يتعلق بالتعامل مع المعلومات المعتمدة فى عمليات البحث العلمى والتأليف إثباتا، وتناولا فى ثنايا البحث أو فى نهايته فيما يظهر فى قوائم المراجع.

وهو بهذا المعنى ترجمة للفظ الإنجليزى citation، وقد ظهرت لهذا اللفظ مكافئات ترجمية متعددة؛ فترجم بالمكافئ العربى: "إحالة" عند الدكتور محمد أمين البنهاوى فى معجم المصطلحات المكتبية (ص ٨)، وشاعت ترجمته بالمكافئ العربى: "استشهاد مرجعى"، عند الدكتور : ياسر يوسف عبد المعطى والدكتورة تريسا لشر فى معجمهما : معجم علوم المكتبات والمعلومات (ص٦٩).

واستعمال هذه الألفاظ أكثر دورانا من مصطلح التوثيق بما هو مكافئ للمصطلح الإنجليزى Documentation الذى يشيع استعماله فى مجال جمع المعلومات واختزانها وتنظيمها واسترجاعها وإنتاجها وبثها.

ويقرر علماء المكتبات والمعلومات استعماله أيضا فى مجال استعمال مصطلح الاستشهاد المرجعى، بما يجعله مرادفا له.

التوثيق تاريخ عريق وتنوع مزدهر

عرف تاريخ التصنيف فى الثقافة العربية بعد الإسلام التوثيق، وقدر قيمته، فيما ظهر من التنوع فى استعماله وتوظيفه.

وقد تنبه مؤرخو المناهج إلى هذا التاريخ العريق، فقد وقف مثلا فرانتز روزنتال فى كتابه (مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى) أمام عدد من عناصر التوثيق التى عرفها المسلمون فى تآليفهم فى العلوم المختلفة حيث أفرد الفقرات من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة من القسم الثانى للمسائل التوثيقية التالية :

١- الإشارة إلى المراجع المقتبس عنها.
٢- علامة انتهاء الاقتباس.
٣- مشكلة الهوامش (الحواشى).
٤- المحتويات والفهارس.

والحق يقضى أن نقرر أن عددا من المؤلفات العربية ولا سيما فى مجال علم الحديث والجرح والتعديل والرجال كان تنبه إلى العناية بمعالجة

هذه المسائل، وبيان طرق إثبات المعلومات، والإحالة على المصادر.

وقد كان هذا التاريخ العريق الممتد أثرا من آثار حرص الإسلام على طلب الدليل والحجة شرطا للعلم والتأليف، حتى استقر ذكر المصادر والإشارة إلى المراجع أصولا ثابتة في آداب التأليف عند العرب.

وقد تنوع تعامل القدماء مع المادة العلمية المثبتة في مؤلفاتهم داخليا، فظهرت طريقة الإحالة على المصدر بذكر مختصر له في نهاية المادة العلمية. وكان الغرض من هذا النوع من الإحالات أو الاستشهادات المرجعية تحقيق أمرين هما:

أ- إثبات مصدر المنقول من المعلومات، توثيقا لها.

ب- الحكم على المادة المنقولة، وبيان درجتها صحة وضعفا.

ومن أمثلة ذلك ما صنعه جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ في كتابه الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، حيث افتتحه بسرد قائمة بمصادر مادة كتابه وهي:

خ = للبخاري في صحيحه. حم = لأحمد في مسنده.

م = لمسلم في صحيحه. عم = لابنه عبد الله في زوائده.

ق = للمتفق عليه منهما. ك = للحاكم في المستدرك.

د = لأبي داود. ك مقيدة = للحاكم في غير المستدرك.

ت = للترمذي. خد = للبخاري في الأدب المفرد

ن = للنسائي. تخ = للبخاري في تاريخه.

هـ = لابن ماجة. حب = لابن حبان في صحيحه.

٤ = للأربعة هؤلاء. طب = للطبراني في الكبير.

٣ = لهم إلا ابن ماجة. طس = للطبراني في الأوسط.

طص = للطبراني في الصغير.

ص = لسعيد بن منصور في سننه. فر = للديلمي في فردوسه.

ش = لابن أبي شيبة في مصنفه. حل = لأبي نعيم في حليته.

عب = لأبي يعلى في مسنده. هق = لهما في السنن.

قط = للدارقطني في سننه. عد = لابن عدي في كامله.

قط مقيدة = للدارقطني في غير سننه. عق = للعقيلي في ضعفائه.

خط = للخطيب في تاريخه. خط مقيدة = للخطيب في غير تاريخه.

وقد اقترن بهذه الرموز المختصرة الدالة على المصادر التي نقل عنها أحاديث كتابة رموز أخرى للحكم على الحديث بدرجة صحة أو حسنا أو ضعفا إلخ.

ومن الأمثلة التطبيقية الدالة على منهجية التوثيق والاستشهاد المرجعي الداخلي عند السيوطي ما يلي مما يظهر في التعليق على الأحاديث التالية:

أ- "إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض، فأفشوا السلام بينكم" (خد) عند أنس (ح)؛ ومعنى هذا: أن الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأنه حسن والحديث كما قال في الأدب المفرد باب: السلام (اسم من أسماء الله عز وجل، باب ٤٥١ حديث ٩٨٩ ص ٤٥٢).

ب- "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" (ت ن) عن عائشة (صح): ومعنى هذا: أن الحديث أخرجه الترمذي والنسائي، وهو صحيح. والحديث كما قال في سنن الترمذي باب ٣٠٧ حديث ٤١٦ (٢/٢١٢).

ج- "كان إذا رأى الهلال، قال: هلال خير ورشد، آمنت بالذي خلقك، ثم يقول: الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا، وجاء بشهر كذا" (د) عن قتادة بلاغا ابن السني عن أبي سعيد (ح)؛ ومعنى هذا: أن الحديث أخرجه أبو داود، وهو صحيح. والحديث كما قال في سنن أبي داود باب ما يقول الرجل إذا رأى الهلال حديث رقم ٥٠٩٢ (٤/٣٢٧) وفيه: حدثنا قتادة: "أنه بلغه" وهي العبارة التي ترجمها السيوطي بقوله: عن قتادة بلاغا، وهي دقة بالغة في بيان الاستشهاد المرجعي، وتوثيق النقل، وبيان حدوده.

وقد ظهر نوع آخر للتوثيق والإحالة والاستشهاد المرجعي في صدر المادة قبل إيرادها.

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك ما صنعه ملك المحدثين، محمد طاهر الصديقي الهندي ت ٩٨٦هـ في كتابه (مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار)، وهو واحد من أهم المصادر اللغوية المعنية بشرح غريب القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، مما يعرف باسم معاجم الغريبين، التي ظهرت بسبب أصولي خادم للأصلين الأعلين عند المسلمين.

وقد ذكر المصنف مختصرات لمصادره في مقدمة معجمه كما يلي:

نه = النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير.

مخ / در = للدر مختصر النهاية، للسيوطي.

قس / ق = لشرح البخاري للقسطلاني.

ك = لشرح البخاري، للكرماني.

ن = لشرح صحيح مسلم، للنووي.

ط = شرح المشكاة، للطيبي.

وغير ذلك من مختصرات مذكورة في مقدمة مجمع بحار الأنوار (٤/١)، ومن أمثلة توثيقاته:

أ- (ألل) نه، فيه: "عجب ربكم من "إلكم" وقنوطكم"؛ الإل: شدة القنوط. ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء والكلام في النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (ألل) ٦١/١ بنص ما هنا تماما.

وقد سبق العلماء المسلمون بما وظفوه من هذه الطرق التوثيقية العلماء المعاصرون، لدرجة أن طريقة التوثيق التي اتبعها السيوطي وأشرنا إليها هنا طبقها التصنيف المعجمي المعاصر في الغرب، وهو ما يظهر جليا في الطريقة التي اتبعها (آدم جيلك) في معجمه لمصطلحات الخطوط العربي.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن التأليف عند العرب بعد الإسلام اعتنى عناية بالغة بالتوثيق، وتنوع في طرق توظيفه طلبا للإتقان والانضباط العلمي. وقد سار التوثيق، في اتجاهين؛ داخلي بالإحالة على المادة العلمية في متن الكتب، وخارجي بذكر مصادر المادة العلمية، فيما يشبه قوائم المصادر في أول الكتب أو في آخرها في فصول أشبه بالملاحق.

التوثيق في البحث العلمي

في العصر الحديث

أدبياته ومنهجياته

وبعد رحلة طويلة في التراث المعرفي عند المسلمين، وبسبب مما انضاف إليه من الانفتاح على المنهجية البحثية في الغرب، تطور مبحث التوثيق أو الاستشهاد المرجعي في الحياة العلمية العربية المعاصرة، واستقل هذا المبحث بالتأليف والعناية إلى حد ما.

وفيما يلي عرض لأشهر الأدبيات المعاصرة التي توقفت أمام هذا المبحث، واعتنت به، وهو ما تجلى في صورتين أساسيتين هما :

أولا- العناية بالتوثيق والاستشهاد المرجعي في مؤلفات مناهج البحث :

أ- الفصل الخامس من كتاب (مناهج البحث العلمي : أسس وأساليب) للدكتور عمار بوحوش والدكتور محمد محمود الذنيبات، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن ١٤١٠هـ١٩٨٩ / م، وهو بعنوان (أساليب توثيق المعلومات ص ١٤٠-١٧٢.

ب- الفصل السادس من كتاب (مناهج وأصول التحليل في العلوم الاجتماعية) للدكتور إبراهيم البيومي غانم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م بعنوان: أصول الاقتباس وقواعد التوثيق، ص ١٩١-٢٣٠.

ت- جاء في كتاب (أسس البحث العلمي في ضوء التعديلات الواردة في APAS للدكتور عادل عبد الله محمد، دار الدراسة) مبحث مطولا للتوثيق داخل المتن، ثم خصص الفصل الخامس كاملا لمعالجة التوثيق في قائمة المراجع.

ثانيا- العناية بالتوثيق والاستشهاد المرجعي في مؤلفات مستقلة.

أ- الدليل الإرشادي لصياغة الاستشهادات المرجعية في بيئة البحث العلمي التقليدية والرقمية، للدكتور محمد محمد النجار، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، ٢٠٠٩م.

ب-

The Bibliotheca Alexandrina Manual of style PartII: (Bibliographies & Reference lists

(إرشادات كتابة المصادر والمراجع والفهرسة العربية) وهو من تحرير وإشراف سهير وسطاوي وإعداد منار بدر ونيفين نور الدين ومشاركة أمنية فتح الله ومروة عناني وهالة ربيع وهدير شادي، طبعة مكتبة الإسكندرية سنة ٢٠١٠م

وفحص هذين العملين المستقلين يعكسان عددا من العلامات المهمة التي يمكن إيجازها فيما يلي :

أولا- تنامي العناية بالتوثيق والاستشهادات المرجعية، لدرجة ظهور مدارس أو اتجاهات دولية متنوعة تغطي خريطة أنواع الاستشهادات المختلفة في سياق البحوث وفي خواتيمها.

ثانيا - اعتماد المحاولات المعاصرة في ميدان الثقافة العربية أكاديميا على المنجز الغربي وحده وسط غياب كامل للمنجز العربي التراثي في مجال التوثيق الذي وصل إلينا من بيئة المحدثين، وعلماء أدب الكتابة والتأليف، وما طوره عدد كبير من المعاصرين في ميدان أصول تحقيق النصوص ونشر الكتب من العرب المعاصرين من صنف في هذا الميدان من أمثال : عبد السلام هارون ورمضان عبد التواب وبشار معروف وعبد المجيد دياب ومحمود الطناحي وغيرهم.

وهذا الاعتماد على المنجز الغربي دون التنبه على المنجز العربي التراثي والمعاصر معا خلق نوعا من الاغتراب في بعض تفصيلات الاستشهادات المرجعية.

ثالثا- ظهر تقدم رتبة العلم / أو المؤلف أيا ما كان مدخل ترتيبه ابتداء باسم العائلة، أو باسمه هو نفسه على حساب تأخر عنوان الكتب، مع أن المرجع أو المصدر هو المعول عليه في صناعة التوثيق تأسيسا.

وفيما يلي محاولة لعرض الأصول العامة التي عرض لها أصحاب هاتين المحاولتين المستقلتين :

عرض محمد النجار لطرق توثيق المعلومات ومصادرها وفقا لأسلوب الجمعية الأمريكية للغات الحديثة، ووفقا لجمعية علم النفس الأمريكية، ووفقا لدليل جامعة شيكاغو، اقترح منهجية لتوثيق المصادر المتاحة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

على حين عرضت محاولة مكتبة الإسكندرية لطرق توثيق المراجع والمصادر كما يلي :

أ- توثيق الكتب، لمؤلف واحد، أو لمؤلفين، أو لثلاثة مؤلفين، أو لأكثر من ثلاثة مؤلفين، أو لمؤلف هو مؤسسة أو هيئة، أو عند غياب مؤلف.

وتوثيق الكتب التي حررها محرر ومؤلف، أو محرر ولا وجود لمؤلف أو محرر ومترجم، أو محرران أو ثلاثة محررين، أو أكثر من ثلاثة محررين.

و توثيق مصدر لمترجم ومؤلف معا، أو مترجم فقط.

ب- توثيق المؤتمرات

ج- توثيق فصول من كتاب.

د- توثيق الكتب الإليكترونية.

هـ- توثيق الميكروفيلم والميكروفيش.

و- توثيق الكتب السمعية.

ز- توثيق البحوث والمقالات.

ح - توثيق المصادر على الشبكات (المواقع / والصفحات / والعناوين / والصور وغيرها من المواد المتاحة على الإنترنت).

وهذا التوسع في التفصيلات راجع إلى كثافة العناية بهذا الفرع من علوم المعلومات في العالم المتقدم، وراجع كذلك إلى التنوع الجبار لمصادر المعلومات ورقيا وصوتيا.

وهو الأمر الذي يعكس تنامي الشعور بقيمة التوثيق لتقدم الحياة العلمية في المعاهد والجامعات ومراكز البحث.

وظائف التوثيق

تتنوع وظائف التوثيق في الأعمال العلمية المختلفة، لتغطي مساحات متعددة من مشاغل العاملين في البحث العلمي، لتتوزع على الغايات المعرفية والتعليمية، والأخلاقية، وفيما يلي محاولة لرصد رءوس الوظائف والغايات التي

تنهض بها عمليات التوثيق والاستشهادات المرجعية:

أولا - الوظيفة المعرفية والعلمية

وتمثل هذه الوظيفة حجما بارزا في قائمة درجات الوزن النسبي للوظائف والغايات التي تقدم بها عمليات التوثيق.

ذلك أن التوثيق يقوم في هذا السياق بنقاط محددة يجملها محمد النجار (ص ٢٢) في:

أ- بيان المصدر أو المرجع، والإشارة إليه مدخل للمعرفة والعلم.

ب- الإيضاح وما يرتبط بالحواشي أو الهوامش من معلومات.

ج- الإسهام في ترجيح بعض الآراء والأقوال بما تحتله بعض المراجع من قيمة علمية راقية، إن بسبب من الموضوع الذي تعالجه وإن بسبب من قيمة المؤلف، وإن بسبب منهما معا.

ويتوسع محمد النجار في سرد تفاصيل فرعية كثيرة متعلقة بوظيفة الهوامش المعرفية والعلمية مما يرقى برتبة النظر إليها، بما هي مظنة لمعلومات كثيرة يمكن أن تقدمها لجمهور القارئين أو المستعملين تغطي مساحات من المعلومات المتعلقة بالكتب، أو الأشخاص، أو الأماكن أو الآراء أو المفاهيم إلخ.

وهو ما يمكن تلخيصه في عبارة جامعة تقرر أن الهوامش بما هي علامة على التوثيق والاستشهادات المرجعية وعاء معلوماتي يقوم بدور معرفي لا مجال لإنكاره.

هذا فضلا عما يمكن أن تقوم بها عمليات التوثيق من قياس تطور العلم في مسألة بعينها، وهو الأمر الذي لم يتنبه إليه أحد حتى اليوم.

ثانيا - الوظيفة التعليمية

ومن الحق أن نعترف أن هذه الوظيفة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالوظيفة السابقة، لكنني أفردتها بفقرة مستقلة، لأقرر أن الباحثين في بداية طريقهم محتاجون إلى إعادة تقييم التوثيق والاستشهادات المرجعية من هذا الباب بما هو مفتاح معين على بناء مكتسباتهم، وبما يتيحه لهم من تعليم يوسع دائرة ما يصلح لهم في عمليات تعلمهم وبحثهم.

ثالثا - الوظيفة الأخلاقية

لقد استقر في برامج أخلاقيات العلم الذي ذاع أمر العناية بها في العقود المتأخرة - أن التوثيق والاستشهادات المرجعية معيار لازم في صناعة التأليف والبحث العلمي، وقانون أخلاقي حاكم في هذا المضمار له آثار في الحكم على المنزلة العلمية للكاتب والكتاب معا، أو للباحث والبحث معا.

وإذا اتفقنا على أن العلم والمعرفة مسألة تراكمية يتأسس صرحها من توالي المنجز الذي يتركه علماء كل جيل لما يخلفه من علماء الأجيال التي تليهم، فإن الحق والأخلاق، بما هي مشترك في كل الثقافات - يقضي بضرورة تقدير سهمة منجز هؤلاء العلماء السابقين، وهو ما يدعم وجوب الاعتراف بفضل حركة العلم السابقة.

وهذا الملمح الأخلاقي باعث على الارتقاء بالمسئوليات العلمية، وهو شرط تأسيس لتنامي حركة العلم اليوم.

رابعا - وظيفة الموثوقية، أو الحكم على المنقول المستشهد.

وأقصد بهذه الوظيفة أن الاستشهادات المرجعية والتوثيق يقوم بالحكم على المسألة أو الرأي المستشهد عليه صحة وضعفا وتقديما لرتبته، أو تأخيرا

ذلك أن التوثيق بمادة ما يتوجه إلى واحد من الوظائف التي يمكن حصرها في:

أ- الاستدراك، أي قبول جزئي لبعض الرأي، وتعديل بعض آخر في السياق نفسه.

ب- الدعم الكامل لرأي الباحث الذي يستشهد بما ينقله الآخرين.

ج- الرفض الكامل لرأي، يورد الناقل ما ينقله لرده ونقضه، وبيان تهافته.

والدوران حول هذه الوظائف أو الغايات الفرعية تسهم في النهاية في تحقيق الوظيفة الكبرى المتمثلة في الخروج بحكم ما بناء على توجهات استعمال المنقول من المصادر المختلفة في القضية موضع البحث والمناقشة.

خامسا - الوظيفة الدينية

وأنا أحب ألا نخلط بين نوعي الوظيفتين الأخلاقية والدينية ذلك أنني أحب لهذه الوظيفة الأخيرة أن تستقل، لنقرر من وراء هذا الاستقلال أن ثمة حكما شرعيا يحيط بالتوثيق بما هو عملية بحثية أو إجراء علمي.

ومن هنا يمكن التأسيس للحكم الشرعي التكليفي، ليرقى إلى رتبة الواجب أو الفرض، ذلك أن الاعتراف بالمنقول ونسبته إلى صاحبه، يحمي الناقل من أمور يمكن تكييفها شرعيا من مثل:

أ- أمر عدم القيام بواجب الشكر لمن قدم معروفا، يستوجب شكره، ومكافأته بنسبة كلامه إليه.

ب- إمكان حمل إنكار التوثيق على بعض جرائم السرقة، أدبيا وماديا.

ج- الظهور بمظهر المزور عند عدم التوثيق، ذلك أن الثقافة الإسلامية ترى فيمن يدعي ما ليس فيه كاللابس ثوبي زور.

د- ومن الممكن أن يحمل فعل من يتهاون في التوثيق والاستشهادات المرجعية على فعل من يكتم علما، والوعيد ثابت في حق كاتم العلم.

***

من مجموع ما مر لنا يتضح أن التوثيق أساس كبير من أسس البحث العلمي على امتداد التاريخ العلمي للأمة الإسلامية، ولغيرها من الأمم.

وهو الأمر الذي يفرض ضرورة ارتفاع سقف العناية به بسبب تقدم مسوغات هذه العناية في الأخلاق والتشريع الإسلاميين معا.

ويفرض من جهة أخرى ضرورة التفكير في تطوير نظرية عربية للتوثيق والاستشهادات المرجعية، تتخذ من المبادئ الإسلامية التيسيرية، والتوثيقية معايير هادية على طريق هذا التطوير، بحيث يكون: عنوان المصدر أو المرجع هو المدخل الرئيسي للتوثيق والفهرسة، مع العناية بكل المعلومات الببليوجرافية الأخرى.

وهو ما يتطلب إعادة بعث الإسهام الإسلامي القديم في هذا المجال، وتقييمه، وتطويره، والبناء عليه بوازع مما يأمرنا به الله تعالى، فالتوثيق طريق المعرفة الإنسانية، وطريق لتحصيل الأجر من الله سبحانه.

حول فتوى الأزهر بجواز عزل الأنظمة الظالمة

قراءة تحليلية فى المضمون والدلالات



للأستاذ الدكتور/ وصفى عاشور أبو زيد

أصدر كبار علماء الأزهر الشريف يوم الرابع من ذى الحجة ١٤٣٢هـ - مستفيدين برؤى وآراء مثقفين وقانونيين - بيانًا أو فتوى أجازوا فيها عزل الحاكم المستبد الظالم، إذا تحققت القدرة على ذلك، وانتفى احتمال الضرر والإضرار بسلامة الأمة ومجتمعاتها..

وتكونت الفتوى أو البيان من ديباجة وستة أصول أو بنود وخاتمة:

محتويات البيان

أما المقدمة فقد جاء فيها أسباب إصدار الأزهر ومجموعة المثقفين هذه الفتوى، وأهمها: إدراك الأزهر لدوره وطبيعة مواقفه، والحرص على المصالح العليا للأمة، وإرساء معالم العدالة والحقوق لجميع الشعوب على أساس من أصول الشريعة ومبادئها، وسد الطريق أمام السلطة الجائرة التى تحرم المجتمع العربى والإسلامى من دخول عصر التألق الحضارى، والتقدم المعرفى، والإسهام فى تحقيق الرخاء الاقتصادى والنهضة الشاملة..

وأما ستة الأصول فقد تحدث الأصل الأول: عن أن العلاقة بين الحاكم والمحكومين تستمد شرعيتها من رضا الشعوب، واختيارها لحاكمها عبر الاقتراع الحر المباشر الذى يترتب عليه المراقبة والمساءلة والمحاسبة، وإذا كان بعض الفقهاء أجاز الصبر على الحاكم المتغلب حرصًا على سلامة الأمة من الفوضى والهرج والمرج - فقد أجاز فى الوقت نفسه عزل المستبد الظالم إذا تحققت القدرة على ذلك وانتفى احتمال الضرر والإضرار بسلامة الأمة ومجتمعاتها.

والأصل الثانى: أن المتظاهرين السلميين الذين يطالبون بالحقوق العادلة مثل الحرية والكرامة وحقوق الإنسان لا يعتبرون بغاة، إنما البغاة هم أصحاب الشوكة الذين يخرجون بأسلحتهم على الإمام الحق بغير حق.

والأصل الثالث: مواجهة الاحتجاجات السلمية بالعنف والقتل من قبل الأنظمة والاستهانة بإراقة الدماء يسقط شرعية تلك الأنظمة، فإذا تمادت فى عسفها ضد الشعوب المسالمة أصبح من حق الشعوب عزلها ومحاسبتها، وعلى الجيوش أن تقوم بواجبها فى حماية الشعب.

والأصل الرابع: على القوى الثورية أن تحرص على سلمية التحركات وألا تستقوى بالخارج على الداخل، وإلا أصبحت من البغاة الذين يجب على السلطة ردهم إلى الصف الوطنى، كما أن على هذه القوى أن تتحد فيما بينها، وتنسى النزعات الطائفية والعرقية تحقيقًا لحلمها فى العدالة والحرية.

والأصل الخامس: مناصرة لحق الشعوب فى السعى نحو الحرية والعدالة، ورفع الظلم الواقع عليها من أنظمتها الظالمة، وإدانة آلات القمع والطرق الوحشية التى تواجه بها الأنظمة شعوبها، ودعوة العالم الإسلامى للمبادرة إلى نصرة هذه الشعوب تحقيقًا لارتكاب أقل قدر من الخسائر، وتعزيزًا لحق الشعوب فى اختيار حاكمها وعزله إن لزم الأمر.

والأصل السادس: دعوة الأنظمة الحاكمة إلى سرعة الإصلاح السياسى الشامل وإلا فصحوة الشعوب قادمة لا محالة، وعلى هذه الأنظمة الأخذ بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجى، واستثمار الطاقات البشرية لدى شعوبها.

وحذر البيان فى الخاتمة رعاة الظلم والاستبداد أنهم ليسوا بمنجاة من غضب الشعوب ولعنة التاريخ، وكفاهم تشويها لمعالم الدين ودعوة لتأييد الظلم والاستبداد؛ لأن هذا عبث لا طائل من ورائه.

أهمية البيان أو الفتوى

تمثل هذه الفتوى قيمة كبيرة فى تاريخ الأزهر، وتشير بشكل قاطع إلى أن الأزهر استعاد إدراكه بدوره وواجبه نحو قضايا أمته، وأنه أصبح - أو يريد أن يصبح - رائد الأمة وحاديها على درب قضاياها وإشكالاتها الكبرى، وأنه صار يصدع بالحق، ويقول الصدق لا يخشى فيه أحدا.

وما من شك أن مناخ الربيع العربى الذى ساد منطقتنا، وفى القلب منه مصر، هو الذى هيأ الأجواء، ومهد السبيل، ووطأ الأرض لاستقبال وتسطير مثل هذا البيان أو تلك الفتوى، فلولا أجواء الحرية التى تمتعت بها مصر لما استطاع الأزهر أن يصدر مثل هذا البيان.

ومن الأهمية البالغة لهذا البيان أن تحدث عنه الكتاب والمفكرون والعلماء، وثمنوه، وقدروه حق قدره، ونكتفى هنا بشهادة اثنين من كبار علماء الأمة، وهما: شيخنا العلامة الشيخ يوسف القرضاوى، وأستاذنا العلامة

الدكتور أحمد الريسوني.

أما العلامة القرضاوي فقد أصدر بيانا خصيصا يحيي فيه شيخ الأزهر على البيان، ويباركه، ويثمن ما جاء فيه، وكان مما قال: "فضيلة الإمام الأكبر: هذا هو الموقف المنتظر من الأزهر الشريف، المعهد العتيق الذي حمل راية الإسلام لأكثر من ألف سنة، وهذا هو الموقف المنتظر من إمامه الأكبر أخينا الدكتور أحمد الطيب، الذي نرجو أن يستعيد الأزهر مكانته القديمة تحت لوائه، والذي تثبت مواقفكم الكريمة يوما بعد يوم أنكم إن شاء الله فاعلون".

أما العلامة د. الريسوني فقد تحدث عنه في حلقة برنامج "الشريعة والحياة" بتاريخ ١٣/١١/٢٠١١م على قناة الجزيرة الفضائية، تحت عنوان: "فقه الثورة"، ومما قاله عن البيان الفتوى: "إذا سقطت الأمانات، إذا سقط العدل، إذا حل محل ذلك الظلم والبطش والقتل فلا طاعة ولا انضباط ولا خضوع بل الواجب - كما في فتوى الأزهر - التي أرجو أن يهتم بها الإعلام وهذا البرنامج بالتحديد؛ لأنها في صميم الشريعة وفي صميم الشريعة والحياة"، وقال مطلقا على الفتوى أنها فتوى العصر: "هذه فتوى الأزهر وفيها ٦ أصول، وأنا أدعو جميع الإعلاميين والعلماء وطلاب العلم وجميع المسلمين أن يقفوا على هذه الفتوى، هذه فتوى العصر". وقال مبينا سياق إصدار هذا البيان الفتوى: "الآن العلماء تحرروا في الدول التي سقط فيها الطغيان والاستبداد؛ ولذلك أصدر الأزهر الشريف هذا البيان التاريخي هذه الفتوى التاريخية فتوى العصر لماذا أصدرها؛ لأنه تحرر قبل ١٠ أشهر، قبل سنة لم يكن باستطاعة الأزهر أن يصدر هذا.. الآن أستطيع أن أقول: إن الأزهر تحرر واستقل".

معالم شرعية وحقائق علمية للبيان أو الفتوى

من خلال التأمل في هذا البيان التاريخي يمكن أن نضع أيدينا على معالم شرعية وحقائق علمية جاءت في مضمون البيان، ومن ذلك أنه:

أولا: أدرك السنن الجارية:

من أهم ما جاء في البيان الفتوى أنه حوى إدراكا واضحا للسنن الجارية التي أقام الله عليها الكون والحياة، والتي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ولا تحابي أحدا، وفي هذا حمل للحكام والأنظمة الظالمة على الاستجابة؛ لأن سنن الله مطردة ومستمرة، ومن ذلك أنه طالب الشعوب أن تسرع في الإصلاح الشامل معللا ذلك بقوله: "فصحوة الشعوب المضطهدة قادمة لا محالة، وليس بوسع حاكم الآن أن يحجب عن شعبه شمس الحرية"...

وقال: "ولا يحسبن أحد من رعاة الاستبداد والطغيان أنه بمنجاة من مصير الظالمين، أو أن بوسعه تضليل الشعوب، فعصر الاتصالات المفتوحة والانفجار المعرفي، وسيادة المبادئ الدينية والحضارية النيرة، ونماذج التضحية والنضال المشهودة عيانا في دنيا العرب".

ومنه: "وليكف الجاهلون بالدين، والمشوهون لتعاليم الإسلام، والداعون لتأييد الطغيان والظلم والاستبداد عن هذا العبث الذي لا طائل وراءه.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(يوسف: ٢١)

هذا الإدراك السنني يعزز من قيمة البيان، ويعلي من قدره؛ لأن الاحتكام إلى سنن الله تعالى، في الأقوال والأفعال والفتاوى والبيانات يعطيها صفة الخلود والقوة ويقترب بها من حدود العصمة.

ثانيا: أدرك الواقع الأليم:

ومن الحقائق العلمية في هذا البيان التاريخي أنه مدرك لواقع الأمة الأليم من تخلف حضاري، وتحلل أخلاقي، وفساد اجتماعي، واستبداد سياسي، قال: "ومن العار أن تظل المنطقة العربية وبعض الدول الإسلامية قابعة دون سائر بلاد العالم في دائرة التخلف والقهر والطغيان، وأن ينسب ذلك ظلما وزورا إلى الإسلام وثقافته البريئة من هذا البهتان".

ومنه إدراك الصحوة الإعلامية والمعلوماتية والاتصالاتية التي أصبح العالم يتمتع بها مما يجعل كذب الأنظمة معروفا، وما يخفونه ويسترونه مكشوفا مفضوحا، قال في خاتمته: "هذا، ولا يحسبن أحد من رعاة الاستبداد والطغيان أنه بمنجاة من مصير الظالمين، أو أن بوسعه تضليل الشعوب، فعصر الاتصالات المفتوحة والانفجار المعرفي، وسيادة المبادئ الدينية والحضارية النيرة، ونماذج التضحية والنضال المشهودة عيانا في دنيا العرب، كل ذلك جعل من صحوة الناس شعلة متوهجة، ومن الحرية راية مرفوعة، ومن أمل الشعوب المقهورة باعثا يحدوها للنضال المستميت حتى النصر".

ثالثا: بيان لأحكام شرعية ومواقف عملية:

احتوى البيان على بيان عدد من الأحكام الشرعية، أهمها: اعتماد شرعية الأنظمة على رضا الشعوب من خلال اقتراع علني شفاف، "فشرعية أية سلطة مرهونة بإرادة الشعب، وحق المعارضة الوطنية السلمية غير المسلحة مكفول في التشريع الإسلامي في وجوب رفع الضرر، فضلا عن كونه من صميم حقوق الإنسان في المواثيق الدولية جميعا".. كما قرر أن استخدام الأنظمة لأساليب العنف والقتل يسقط شرعية السلطة: "تعد مواجهة أي احتجاج وطني سلمي بالقوة والعنف المسلح، وإراقة دماء المواطنين المسالمين، نقضا لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها، ويسقط شرعية السلطة، ويهدر حقها في الاستمرار بالتراضي، فإذا تمادت السلطة في طغيانها، وركبت مركب الظلم والبغي والعدوان واستهانت بإراقة

دماء المواطنين الأبرياء، حفاظًا على بقائها غير المشروع - وعلى الرغم من إرادة شعوبها - أصبحت السلطة مدانة بجرائم تلوّث صفحاتها، وأصبح من حق الشعوب المقهورة أن تعمل على عزل الحكام المتسلطين وعلى محاسبتهم، بل تغيير النظام بأكمله، مهما كانت المعاذير من حرص على الاستقرار أو مواجهة الفتن والمؤامرات"...

كما أعلن مناصرته لإرادة الشعوب: "علماء الأزهر وقادة الفكر والثقافة يعلنون مناصرتهم التامة لإرادة الشعوب العربية في التجديد والإصلاح ومجتمع الحرية والعدالة الاجتماعية والتي انتصرت في تونس ومصر وليبيا، ولا تزال محتدمة في سوريا واليمن، ويدينون آلات القمع الوحشية التي تحاول إطفاء جذوتها".

رابعًا: احتوى على ضوابط وشروط لحركات الثورة:

ولكي يكون العمل منضبطا وفاعلا وراشدا لابد من رعاية شروطه وضوابطه الشرعية، وقد جاء في البيان عدد من الشروط والضوابط منها: "يتعيّن على قوى الثورة والتجديد والإصلاح أن تبتعد كليًا عن كل ما يؤدي إلى إراقة الدماء، وعن الاستقواء بالقوى الخارجية أيًا كان مصدرها، ومهما كانت الذرائع والتعلات التي تتدخل بها في شئون دولهم وأوطانهم وإلا كانوا بغاة خارجين على أمتهم وعلى شرعية دولهم. ووجب على السلطة حينئذ أن تردهم إلى وحدة الصف الوطني الذي هو أول الفرائض وأوجب الواجبات".

ومنها: "التوافق والانسجام الوطني، ويهدف لبناء المستقبل على أساس من المساواة والعدل، وبحيث لا تتحوّل الثورة إلى مغانم طائفية أو مذهبية، أو إثارة للحساسيات الدينية".

وغير ذلك مما يرشد حركة الشعوب، ويضفي على ثوراتها الشرعية والدستورية، وهذا يصب مباشرة في إقامة مطالبها وتحقيق مقاصدها.

خامسا: رد على شبهات:

كما احتوت الفتوى على إيراد عدد من الشبهات والرد عليها، ومن ذلك وجوب طاعة الحكام وحرمة الخروج عليهم، استنادا للآية القرآنية:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(النساء: ٥٩)

قالت الفتوى: "وقد درج كثيرٌ من الحكام على تعزيز سلطتهم المطلقة متشبثين بفهم مبتور للآية القرآنية الكريمة... متجاهلين سياقها الواضح الصريح في قوله تعالى قبل ذلك في الآية التي تسبق هذه الآية مباشرة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

مما يجعل الإخلال بشروط أمانة الحكم وعدم إقامة العدل فيه مسوّغا شرعيًا لمطالبة الشعوب حكامهم بإقامة العدل، ومقاومة الظلم والاستبداد، ومن قال من فقهائنا بوجوب الصبر على المتغلب المستبد من الحكام حرصًا على سلامة الأمة من الفوضى والهرج والمرج - فقد أجاز في الوقت نفسه عزل المستبد الظالم إذا تحققت القدرة على ذلك وانتفى احتمال الضرر والإضرار بسلامة الأمة ومجتمعاتها".

ومن ذلك نفي أن تكون حركات الثورة والمعارضة من البغاة، قالت الفتوى إنهم "لا يُعدّون من قبيل البغاة أبدًا، وإنما البغاة هم الذين تحددت أوصافهم فقهيًا بامتلاك الشوكة والانعزال عن الأمة، ورفع الأسلحة في مواجهة مخالفيهم، والإفساد في الأرض بالقوة، أما الحركات الوطنية السلمية المعارضة، فهي من صميم حقوق الإنسان في الإسلام التي أكدتها سائر المواثيق الدولية، بل هي واجب المواطنين لإصلاح مجتمعهم وتقويم حكامهم، والاستجابة لها واجبٌ على الحكام وأهل السلطة، دون مراوغة أو عناد".

وبهذا تكون الفتوى أو البيان جمعت بين تبليغ الدعوة وإقامة الحجة ودفع الشبهة، وهو البلاغ الإسلامي الدعوي المتكامل.

سادسا: احتوى على بيان مطالب وواجبات أطراف المشهد:

ومن المعالم المهمة التي احتوت عليها الفتوى مطالب من جهات عدة وبيان واجبات على جهات كثيرة، من شأنها أن تضع النقاط على الحروف؛ لاستيعاب المشهد، وبيان ما يجب على كل جهة من الجهات.

ومن هذا ما بينه البيان من واجبات على الجيوش نحو شعوبها، قال: "وعلى الجيوش المنظمة - في أوطاننا كلها - في هذه الأحوال أن تلتزم بواجباتها الدستورية في حماية الأوطان من الخارج، ولا تتحوّل إلى أدوات للقمع وإرهاب المواطنين وسفك دمائهم؛ فإنه

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

ومنه ما بينه من واجبات على قوى الثورة، قال: "وعلى قوى الثورة والتجديد أن تتحد في سبيل تحقيق حلمها في العدل والحرية، وأن تتفادى النزاعات الطائفية أو العرقية أو المذهبية أو الدينية، حفاظا على نسيجها الوطني، واحترامًا لحقوق المواطنة، وحشدًا لجميع الطاقات من أجل تحوّل ديمقراطيٍّ يتمّ لصالح الجميع".

وقال في هذا أيضا: "يتعيّن على الثوار

والمجددين والمصلحين الحفاظ على مؤسسات دولهم، وعدم إهدار ثرواتها، أو التفريط لصالح المتربصين، وتفادي الوقوع في شرك الخلافات والمنافسات".

ومنه بيانه لواجبات المجتمع العربي والإسلامي والدولي، فقال: "ويهيبون أي كاتبو البيان الفتوى - بالمجتمع العربي والإسلامي أن يتخذ مبادرات حاسمة وفعالة لتأمين نجاحها بأقل قدر من الخسائر، تأكيداً لحق الشعوب المطلق في اختيار الحكام، وواجبها في تقويمهم منعاً للطغيان والفساد والاستغلال.

ومن ذلك مطالبته الأنظمة الحاكمة بالقيام بواجباتها، فقال: "يناشد علماء الأزهر والمثقفون المشاركون لهم النظم العربية والإسلامية الحاكمة يناشدونهم الحرص على المبادرة إلى تحقيق الإصلاح السياسي والاجتماعي والدستوري طوعاً، والبدء في خطوات التحول الديمقراطي.. يتعين على هذه الدول - يعني التي فيها ثورات وأنظمتها - أن تشرع على الفور في الأخذ بأسباب النهضة العلمية والتقدم التكنولوجي والإنتاج المعرفي، واستثمار طاقاتها البشرية وثرواتها الطبيعية خدمة لمواطنيها، وتحقيقاً لسعادة البشرية كلها".

كما وجه نداء للمرجفين وأصحاب الطابور الخامس أن يكفوا عما يقومون به، فقال: "وليكف الجاهلون بالدين، والمشوهون لتعاليم الإسلام، والداعون لتأييد الطغيان والظلم والاستبداد عن هذا العبث الذي لا طائل وراءه".

وبهذا يكون البيان قد استوعب جهات المشهد، وجوانبه المختلفة، وبين ما يجب على كل جهة من واجبات، وما لها من حقوق، وهذا يقترب بالبيان أو الفتوى من حدود الحكمة، وبين الأحكام الشرعية الواجبة على كل جهة.

***

إن التأمل في هذا البيان، وسبر أغواره، واستكناه حقائقه ومضمونه ليوحي بدلالات كبيرة وعظيمة ومهمة في السياق الذي تحياه أمتنا العربية والإسلامية والعالم كله، ويبشر باستعادة الأزهر لدوره، وريادته لقيادة الأمة، وبيانه لأحكام قضاياها الكبرى.

ولا يقل ذلك أهمية وقوة عن البيان الذي أصدره الأزهر الشريف قبل أسابيع عن الأقصى وفلسطين بمناسبة نية الكيان الصهيوني هدم باب المغاربة، فحذر الأزهر إسرائيل من القيام بشيء من ذلك، وقرر أن الطريق الوحيد لتحرير فلسطين والأقصى والأسرى هو سبيل الجهاد والمقاومة...

تحية لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وإن الأمة لتترقب أن يكون للأزهر دوره الرائد، وتوجيهه الحكيم؛ انتصاراً لقيم الحق والعدل والحرية والكرامة، ورفضاً للظلم والقهر والاستبداد الذي تمارسه الأنظمة المستبدة، بما يقوم به الآن من دور تنويري وريادي على طريق نصرة الأمة ورفع الظلم عن المظلومين!.

فتاوى لها تاريخ



للأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

● (السؤال): سأل الخواجا حبيب عاذر في رجل يطالب تركة آخر بدين فيه ربا، قبل حلول أجله المضروب بسند الدين، فهل يُعتبر هذا الدين شرعياً، وتلزم التركة بأدائه قبل حلول أجله؟ وإذا حكم بأدائه ورباه قبل حلول أجله هل يكون الحكم نافذاً؟ أو باطلاً؟؟ أفيدوا الجواب.

●● (الجواب): بموت المدين حل الأجل، وللدائن طلب الدين في تركته، وهو شرعي فيما عدا الربا، فعلى التركة دفع أصل الدين دون رباه، وإذا حكم بذلك الدين ورباه لا ينفذ الحكم إلا في أصل الدين فقط.. والله أعلم[1].

● (السؤال): سأل الخواجا حبيب جاماتي، بمصر، في: رجل مات عن أبيه يوسف وزوجته مرتا وأولاده منها ديب وماريا وفيكتوريا، ثم مات ديب عن جده يوسف، أب أبيه، وأمه مرتا، وشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، ثم مات يوسف، الجد، عن زوجته وردة وأولاده منها إبراهيم وأمين ومريم وفيلومينا وليلى، وبنتيه من غيرها وردة وصابات، ثم ماتت بنتها فريدة، وشقيقتها وردة، وإخوتها لأبيها، ثم ماتت مريم عن أمها وردة وأشقائها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى، وأختها لأبيها وردة، لا وارث لكل منهم سوى من ذكر، وخلف المتوفى الأول تركة، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟ وما نصيب كل وارث؟ وما الحكم في نصيب وردة بنت يوسف وفريدة بنت صابات الغائبتين اللتين لا يدرى مكانهما؟ هل يبقى تحت يد البطركخانة كما كان من قبل؟؟ أفيدوا الجواب.

●● (الجواب): بموت هذا الرجل عن أبيه يوسف وزوجته مرتا وأولاده منها ديب وماريا وفيكتوريا، يكون لزوجته من تركته الثمن، فرضاً، ثلاثة قراريط، ولأبيه السدس، فرضاً، أربعة قراريط، ولأولاده المذكورين الباقي، تعصيباً، للذكر مثل حظ الأنثيين.

(١) تاريخ هذه الفتوى ١٨ صفر سنة ١٣٢١ هـ ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٤٤ ويقع في ص٢٤.

ويموت ديب، الابن، عن جده يوسف، أب أبيه المذكور، وأمه مرتا وشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، يقسم نصيبه من تركة أبيه المذكور، وهو ثمانية قراريط ونصف قيراط، بين جده يوسف وأمه مرتا، لأمه سدسه، قيراط واحد وسدسان اثنان من قيراط ونصف سدس قيراط، وباقيه لجده، وهو سبعة قراريط ونصف سدس قيراط، فيكمل بذلك ليوسف، المذكور، لشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، لحجبهما بالجد المذكور، على ما عليه الفتوى.

ويموت يوسف، الجد المذكور، عن زوجته وردة وأولاده منها إبراهيم وأمين ومريم وفيلومينا وليلى، وبنتيه من غيرها، وردة وصابات، يقسم نصيبه المذكور بينهم، لزوجته وردة ثمنه، قيراط واحد وسدسان اثنان من قيراط وربع سدس قيراط وثمنان اثنان من ربع سدس قيراط، ولأولاده المذكورين باقيه، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، فيكون لكل واحد من ابنيه إبراهيم وأمين قيراطان اثنان وثلاثة أرباع سدس قيراط وخمسة أثمان ربع سدس قيراط وسبعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط، ولكل واحدة من بناته مريم وفيلومينا وليلى ووردة وصابات قيراط واحد وربع سدس قيراط وستة أثمان ربع سدس قيراط وثمانية أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

ويموت صابات، المذكورة، عن بنتيها فريدة وشقيقتها وردة يكون نصف نصيبها المذكور لبنتها، فرضا، ونصف الثاني لشقيقتها، تعصيبا مع البنت، ولا شيء لإخوتها لأبيها المذكورين، لحجبهم بتلك الشقيقة.

ويموت مريم المذكورة عن أمها وردة وأشقائها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى يقسم نصيبها المذكور بينهم، لأمها وردة سدسه، فرضا، سدس قيراط وثمنان اثنان من ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وسدسان اثنان من تسع ثمن ربع سدس قيراط، ولأشقائها المذكورين باقيه، وهو خمسة أسداس قيراط وربع سدس قيراط وأربعة أثمان ربع سدس قيراط وثلاثة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وأربعة أسداس تسع ثمن ربع سدس قيراط، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا شيء لأختها لأبيها وردة، لحجبها بهؤلاء الأشقاء.

ومن هذا يتبين أن هذه التركة قد انحصرت في: زوجة الميت الأول مرتا، وبنتيه منها ماريا وفيكتوريا، وفريدة بنت صابات، وشقيقتها وردة، وفي: وردة، زوجة يوسف، وأولادها: إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى.

وما هو لزوجة الميت الأول مرتا ميراثا من زوجها المذكور وابنها ديب: أربعة قراريط وسدسان اثنان من قيراط ونصف سدس قيراط.

وما هو لماريا وفيكتوريا، بنتي الميت الأول المذكور، ثمانية قراريط ونصف قيراط، مناصفة بينهما. وما هو لفريدة، ميراثا من أمها صابات، نصف قيراط وسبعة أثمان ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لوردة، ميراثا من شقيقتها صابات ومن أبيها يوسف، قيراط واحد ونصف قيراط ونصف سدس قيراط وستة أثمان ربع سدس قيراط وثلاثة أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لوردة زوجة يوسف، ميراثا من زوجها المذكور ومن بنتها مريم، قيراط واحد ونصف قيراط وربع سدس قيراط وأربعة أثمان ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وسدسان اثنان من تسع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لأولادها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى، ميراثا من أبيهم يوسف وشقيقتهم مريم، سبعة قراريط وسدسان اثنان من قيراط وخمسة أثمان ربع سدس قيراط وستة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وأربعة أسداس تسع ثمن ربع سدس قيراط، باقي التركة المذكورة، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وحيث كانت وردة بنت يوسف، وفريدة بنت صابات غائبتين، لم يدر موضعهما ولا حياتهما ولا موتهما، وكانت قد أمنتا على نصيبهما، قبل غيبتهما البطركخانة، فلا ينزع من يدها.. والله أعلم [٢].

● (السؤال): سئل [٣] بإفادة من محافظة مصر مؤرخة في ٢١ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٦٥٨، مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة جناب وكيل بطريكخانة الروم المتعلقة بالإجابة على السؤال طيه.

إجابة طلبه والإفادة.

●● (الجواب): السؤال المرفق بهذا يتضمن أن امرأة ماتت عن زوج وأم وبنتين وأختين وثلاثة إخوة لأبوين، وقد استفهم به عما يخص كلا منهم على حسب الشريعة الغراء.

ونفيد عزتكم أن التركة الموروثة عن هذه المرأة تجعل على حسب قواعد الميراث المعروفة في تلك الشريعة الغراء من اثنى عشر سهما، ويزاد عليها واحد يسمى بالعول به، أي بالزيادة، فيخص الزوج منها ثلاثة، فرضا، وهو الربع عائلا، ويخص الأم منها اثنان فرضا، وهما السدس عائلا، ويخص البنتين باقيها ثمانية، فرضا، وهي الثلثان عائلا، وبذلك استغرق أرباب الفروض التركة مع ما زيد عليها، وهو الواحد، ولا شيء للأختين، لأنهما عصبة مع البنتين، ولا للأخوة، لأنهم عصبة لأنفسهم، والكل يسقطون باستغراق الفروض التركة، والله سبحانه أعلم [٤].

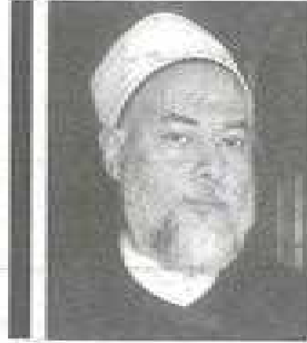
(٢) تاريخ هذه الفتوى ١٩ صفر سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٨١ وتقع في ص١٩٥، ١٩٦.

(٣) أي: الأستاذ الإمام.

(٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣١٩هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٨، وتقع في ص ١٧٥، ١٧٦.

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـــى جمعـــة
مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

الصلاة فى المسجد متعدد الأدوار

● والسؤال من ش. د. هـ: تم بناء مسجد بالقرية مكون من دورين وتم بناء القبلة والمنبر بالدور الثانى وبالتالى يكون الإمام فى الدور الثانى والمصلون فى الدور الأول والثانى، وللعلم الدور الثانى أكبر من الدور الأول، فهل يجوز صلاة الإمام فى الدور الثانى أم يتم هدم القبلة وإنشاء قبلة أخرى فى الدور الأول وإذا لم يتم ذلك هل تكون الصلاة باطلة؟

●● الجواب: مادام المأمومون فى الدور الأول يستطيعون متابعة أفعال الإمام فإن صلاتهم صحيحة ولا يقدح فى صحة الصلاة كون الإمام أعلى من المأمومين، فالصواب ترك المسجد على حاله لأنه ليس هناك ما يقدح فى صحة صلاة الإمام إذا ارتفع مكانه عن مكان المأمومين.

صلاة الجماعة فى الأندية

● السؤال من ط. ى. ع: يقوم بعض أعضاء النادى بأداء صلاة الجماعة فى بعض الأماكن المخصصة للألعاب والاستحمام وغرف تغيير الملابس، مما دفع البعض للسؤال عن جواز صلاة الجماعة فى هذه الأماكن، علماً بأن مرتادى هذه الأماكن يقومون بارتداء الملابس الرياضية وملابس الاستحمام ويقوم البعض الآخر بالثرثرة وتبادل الأحاديث غير اللائقة خلال الصلاة، علماً بأن للنادى مسجداً كبيراً للصلاة -مسجد عمر بن عبدالعزيز- وزاويتين مجهزتين على مستوى عال ولا تبعد أى منهما عن أى مكان فى النادى سوى القليل من الأمتار.. برجاء الإفادة عن جواز صلاة الجماعة فى هذه الأماكن درءاً للخلافات وتبناً للفتنة داخل النادى.

●● الجواب: الصلاة تصح فرادى وجماعة فى أى مكان على الأرض إذا لم تكن مغصوبة أو عليها نجاسة يباشرها بدن المصلى أو ثيابه، ولم تكن مقبرة، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وجعلت لى الأرض مسجداً طهوراً» رواه البخارى، فالمسلم ليس عنده دار معينة خاصة بالصلاة كغيره من أصحاب الديانات، بل متى حضر المسلم الصلاة فعنده مسجده وطهوره أى مكان صلاته وتطهره وهو الصعيد الطاهر، هذا من ناحية صحة الصلاة وإجزائها، غير أن الذى يصلى فى جو ضجيج وشواغل ربما يصعب عليه جمع قلبه على صلاته، والأصل أن الصلاة فى المسجد أفضل فى الأجر من الصلاة فى غير المسجد ببضع وعشرين درجة، ولكن إذا كان المسلم مخيراً بين الصلاة فى المسجد أو عدم الصلاة أصلا لبعد المسجد أو لكسل طرأ على المصلى أو خوفه من خروج الصلاة عن وقتها أو خشية من خطر على حياة إنسان أو حيوان محترم أو على مال محترم أو إذا كان المصلى يحب الصلاة خارج المسجد لتشجيع غيره من المسلمين على صلاة لولا صلاته معهم لتركوها كصلاة الرجل بأهل بيته أو الأستاذ مع طلبته أو المدرب مع المتدربين، ففى مثل هذه الأحوال تكون الصلاة خارج المسجد مثل أو أفضل من الصلاة فيه.

حكم صلاة الظهر بعد الجمعة

● السؤال من أ. ب. ج: ما حكم صلاة الظهر بعد الجمعة كما يفعله بعض الناس؟

●● الجواب: من المعلوم شرعاً أن المقصود من إقامة صلاة الجمعة إظهار شعار الاجتماع واتفاق الكلمة؛ ولذا اشترط جمهور العلماء لصحة صلاة الجمعة أن لا يسبقها ولا يقارنها جمعة أخرى فى بلدتها إلا إذا كبرت البلدة وعسر اجتماع الناس فى مكان واحد فيجوز التعدد بحسب الحاجة، وللشافعية فى ذلك قولان: أظهرهما - وهو المعتمد - أنه يجوز التعدد بحسب الحاجة، وقيل: لا يجوز التعدد ولو لحاجة، وفرّعوا على ذلك مراعاة خلاف الأظهر أنه يستحب لمن صلى الجمعة مع التعدد بحسب الحاجة ولم يعلم أن جمعته سبقت غيرها أن يعيدها ظهراً احتياطاً؛ خروجاً من الخلاف.

على أن الحنفية يجيزون على المعتمد عندهم أن تؤدى الجمعة فى مصر واحد بمواضع كثيرة؛ حيث ذكر الإمام السرخسى أن هذا هو الصحيح من مذهب الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى.

فتحرر من ذلك ما يأتى:

● أن من شرط صحة صلاة الجمعة عند جمهور العلماء عدم سبقها أو مقارنتها بجمعةأخرى فى نفس البلدة إلا لحاجة.

● أنه يجوز تعدد الجمعة إذا كانت هناك حاجة لذلك؛ كضيق مكان أو عسر اجتماع.

● أنه يستحب احتياطًا وخروجًا من خلاف من لم يُجز تعدد صلاة الجمعة ولو لحاجة إعادتها ظهراً إذا لم يتيقن من صلى الجمعة أن جمعته هي السابقة وأنها لم تقارنها جمعة أخرى، وهذا الاحتياط مشروع على سبيل الندب والاستحباب لا على جهة الحتم والإيجاب.

● أن هناك من العلماء من يجيز تعدد صلاة الجمعة في المصر الواحد مطلقًا ولو لغير حاجة، وذلك في المساجد التي يأذن ولي الأمر بإقامة صلاة الجمعة فيها.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال:

فإن إعادة صلاة الجمعة ظهراً بعدها عند من قال بذلك إنما هي على سبيل الاستحباب لا على جهة الإيجاب، وليس لأحد أن ينكر في ذلك على أحد، وليسعنا في ذلك ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذي كان منهجا لهم في مسائلهم الخلافية.

في القيام والقنوات

● السؤال من: ث. ع. ق: أهل بلدتي يقومون يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع بصلاة ركعتين بعد صلاة العشاء جماعة بنية قيام الليل داعين الله عز وجل أن يفرج عن أمتنا الإسلامية ولما دخل شهر ذو الحجة دعوا الناس في مساجد قريتهم إلى صلاة ركعتين جماعة عقب صلاة العشاء طيلة الأيام العشر بنية قيام الليل مع القنوت فيها فما حكم ذلك؟

●● الجواب: شرع الله تبارك وتعالى الصلاة وفرضها على الأمة الإسلامية لأنها الصلة التي تربط بين الخلق والخالق فهي عماد الدين فرض الله تبارك وتعالى خمس صلوات في اليوم والليلة وسن لنا سيدنا رسول الله ﷺ سننا تابعة للفروض وغير تابعة لها، وسن لنا الحبيب المصطفى صلوات ربي وتسليماته عليه وآله الجماعة في الصلاة المفروضة وغيرها وبين ثواب الجماعة وأن لها فضلاً عظيماً فقال ﷺ في حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» رواه الإمام مالك.

وغير ذلك من الأحاديث الشريفة.. ولقد صلى سيدنا رسول الله ﷺ النوافل في جماعة مثل قيام الليل لما حدث أن خرج في رمضان فصلى وصلى خلفه الصحابة وجاء في الليلة الثانية فصلى وصلى وراءه جمع أكثر وفي الليلة الثالثة احتجب ﷺ عنهم فلم يخرج عليهم فلما سئل سيدنا رسول الله عن ذلك قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم..» والصلاة التي صلاها سيدنا رسول الله لا تخرج عن كونها من قيام الليل.. ولما رواه الإمام مسلم في صحيحه أن أنس بن مالك أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته فأكل منه ثم قال: «قوموا فأصلي لكم» قال أنس بن مالك فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فنضحته بماء فقام عليه رسول الله ﷺ وصففت أنا واليتيم وراءه والعجوز وراءنا فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف وفي رواية أخرى لمسلم عن ثابت عن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام خالتي فقال: «قوموا فلأصلي بكم» في غير وقت صلاة فصلى بنا فقال رجل لثابت: أين جعل أنسا منه؟ قال: جعله على يمينه ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة، فقالت أمي: يا رسول الله خويدمك ادع الله له، قال فدعا لي بكل خير وكان في آخر ما دعا لي به أن قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه» قال الإمام النووي في شرحه لمسلم عند هذا الحديث وفيه جواز صلاة النافلة جماعة. صحيح مسلم الشرح النووي ج٥ / ١٦٢-١٦٤.

وفي واقعة السؤال ليس هناك مانع من أداء مثل هذه الصلاة في جماعة ولا حرج في ذلك لما ذكر من أدلة عامة كما سبق.

قالوا عن القرآن

٤

للدكتور / عماد الدين خليل

كويليام[1]

(١) «من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. (وهو حافل بالمجازات السامية مليء بالاستعارات الباهرة)..»[2].

(٢) «أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية، ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف مادياً عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية، بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعديمة التأثير»[3].

(٤) «لقد عثرت في (دائرة المعارف العامة) Popular Encyclopedia على نبذة نصها كما يأتي: (أن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيا بلا تقليد ودون مثيل، أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية)..»[4].

(١) عبدالله كويليام مفكر إنجليزي، ولد سنة ١٨٥٦م، وأسلم سنة ١٨٨٧م، ولقب باسم: (الشيخ عبدالله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية) (١٨٨٩)، و(أحسن الأجوبة).

(٢) العقيدة الإسلامية: ص ١١٩ – ١٢٠. (٣) نفسه، ص ١٢٢ – ١٢٣ (٤) نفسه، ص ١٢٨.

(٥) «هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة، فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز، رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة، كأنها مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجاز مفيد للمرام بالتمام، وكما أنه كان يرى مطابقاً للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوباً، كذلك يرى موافقاً لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه، وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا أعطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعاً لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهياً عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضاً ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة، فضلاً عن القول..»[٤].

(٣) «أن من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جداً: أحدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائماً على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون إليه.. والثاني خلوه من القصص والخرافات وذكر العيوب والسيئات وإلى آخره، والأمر الذي يؤسف عليه كثيراً لوقوعه بكثرة فيما يسميه المسيحيون (العهد القديم)..»[٦].

لاندو[٧]

(١) «بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئاً من روح الوحي المحمدي، والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية»[٨].

(٢) «.. كلف كاتب الوحي، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب وكان أبوبكر – رضي الله عنه – قد أشرف على هذه المهمة، وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان – رضي الله عنه – اتخذ القرآن شكله التشريعي النهائي الذي وصل إلينا سليماً لم يطرأ عليه أي تحريف»[٩].

«.. إن بين آيات قصار السور ترابطاً باهراً له تأثيره الوجداني برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق أن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيراً ما يخلف في نفس المرء تأثيراً بليغاً. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكماً عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزاً لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة أيما شيء من مثله»[١٠].

لوبون[١١]

غوستاف لوبون

(١) «.. إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى «عليه السلام».. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه. فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شئون الحياة»[١٢].

(٢) «إن هذا الكتاب (القرآن) تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون..»[١٣].

---

(٤) نفسه، ص ١٣٩ – ١٤٠.

(٦) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢٢ – ٢٦.

(٧) روم لاندو R. Landau نحّات وناقد فني إنجليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (١٩٣٦)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢م – ١٩٥٧م)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي أفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرنسيسكو (١٩٥٣)، من آثاره: (الله ومغامراتي) (١٩٣٥)، (بحث عن الغد) (١٩٣٨)، (سلم الرسل) (١٩٣٩)، (دعوة إلى المغرب) (١٩٥٠)، (سلطان المغرب) (١٩٥١م)، (فرنسا والعرب) (١٩٥٣)، (الفن العربي) (١٩٥٥)، وغيرها.

(٨) الإسلام والعرب، ص ٣٦ – ٣٧.

(٩) نفسه، ص ٢٩٦.

(١٠) نفسه، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(١١) غوستاف لوبون، ولد عام ١٨٤١م، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

(١٢) حضارة العرب، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(١٣) النتائج الأولى للحرب (عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/٧٤).

المقصد التربوى للعبادات فى الجانب الخلقى للفرد المسلم

للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المقصد التربوى للطهارة فى الجانب الخلقى للفرد المسلم

تؤثر الطهارة فى إصلاح الجانب الخلقى للفرد المسلم فى جوانب عديدة أهمها:

أولاً: النجاسات التى فرضت الشريعة التطهر منها مثل: الميتة والدم المسفوح والكلب والخنزير وبول وروث ما لا يؤكل لحمه والقىء والصديد والمذى والودى أو غير هذه النجاسات التى تستخبثها الطباع السليمة والفطر النقية، والتطهر الدائم منها يحافظ على الحس الخلقى فى النظافة والرقى، ولا شك أن النجاسات الحسية مفضية إلى التلوث الخلقى، ومن ثم كان من الفرائض الواجبة التطهر من هذه النجاسات كلما تعلق شىء منها بثوب الإنسان أو بدنه أو مائه أو مكانه، فيحاط بألوان النظافة من خارجه وتغمره الطهارة من داخله فتحافظ على فطرته التى فطره الله عليها.

ثانياً: عند إزالة هذه الأخباث أو التطهر من الأحداث نجد أن السنة النبوية دلتنا على ألفاظ راقية مثل الاستنجاء وهو ما يعلو ويرتفع أو طلب المكان المرتفع، كذلك الاستطابة وهو طلب أعلى درجات الطيب، والوضوء وهو من الضوء، والوضاءة من الحسن والنظافة، لذا نجد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما مر على قوم قد أشعلوا نارا ولا يعرف من هم، فناداهم: يا أهل الضوء ولم يقل يا أهل النار، وهذا ما جرت عليه سنة الإسلام فى تحسين كل شىء حتى الكلمات والمسميات لقوله تعالى:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾

(الإسراء: ٥٣)

وكان النبى ﷺ إذا وجد من سمى ولده اسماً قبيحاً يغيره ومنه ما رواه مسلم بسنده عن ابن عمر أن النبى ﷺ رأى امرأة تسمى عاصية فغير اسمها إلى جميلة[1].

(١) «المسند» (٢/١٨).

ثالثاً: يتعود المسلم من آداب الطهارة كيف يحافظ على مشاعر الناس، فعند قضاء الحاجة يجب الابتعاد عن ظل الناس وطريقهم، وفى ذلك يروى مسلم بسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين. قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: الذى يتخلى فى طريق الناس أو ظلهم»[2]. هذا الأدب يقوى شعور الفرد بالحفاظ على البيئة حوله وعدم إيذاء الآخرين.

رابعاً: من آداب الطهارة فى الاستنجاء والوضوء والغسل الاقتصاد فى استعمال الماء ولو كان التطهر من نهر جار لما رواه ابن ماجة بسنده أن النبى ﷺ رأى سيدنا سعداً يسرف فى استعمال الماء فقال: «ما هذا السرف ياسعد. فقال: وهل فى الماء من سرف؟ قال: نعم. وإن كنت على نهر جار»[3].

هذا الأدب لا يلبث أن ينتقل من الطهارة إلى أن يصير خلقاً عاماً فى الاقتصاد فى كل شىء من نعم الله تعالى من مال وملبس ومشرب ومأكل لقوله تعالى فى صفات عباد الرحمن:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

ولو أن الدول التى تشكو من الإسراف فى استعمال الموارد الطبيعية وبخاصة المياه جعلت من الإسلام وروافده وأحكامه وآدابه مادة لدعوة الناس إلى حسن استعمال الموارد والاقتصاد الراشد فى التعامل معها لاستجاب الناس سريعاً ولكان الأثر قوياً، ولتوفرت جهود مضنية فى الحفاظ على هذه الموارد ولأمكن استغلالها فى زيادة الرقعة الزراعية لنستغنى عن التبعية للآخرين فى مواردنا الغذائية.

خامساً: التطهر من النجاسات والحرص على الاستنجاء والوضوء والطهارة والغسل كلما وجدت دواعيه أو كلما غدا المسلم إلى اجتماع مع الناس فيغتسل لصلاة الجمعة، والعيدين، ودخول مكة والوقوف بعرفة، وهذا يجعل المسلم أنيقاً نظيفاً فى جميع أوقاته؛ لأن الصلوات تتوزع على اليوم والليلة فإذا قام المسلم من نومه بادر إلى التطهر، بل ينهاه النبى ﷺ أن يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها أولاً فإنه لا يدرى أين باتت يده[4]، ثم يبادر إلى الوضوء، وفيه طهارة لأعضاء جسمه التى تعلق فيها الأوساخ كثيراً، ويتوضأ لصلاة الضحى، وأثناء عمله يبادر للوضوء لصلاة الظهر، وعند عودته من عمله يزيل بقية الشوائب التى تعلق به فى وضوء العصر وفى المغرب والعشاء يحرص على هذه الطهارة التى تجعله يبيت خالياً من جميع الأقذار والأدران والأوساخ. هذا يحول النظافة إلى دأب وخلق بحيث لا يستسيغ المسلم أن تعلق به نجاسة أو تمسه الأقذار فيبادر حتى لو لم يكن وقت صلاة، وعليه يكون الفرد المسلم متحلياً بأعلى سمات النظافة؛ لأنه يمارسها تعبداً لله تعالى ورغبة فى نيل حبه سبحانه وتعالى ورضاه يوم القيامة، حتى إن سيدنا عثمان يروى عنه أنه كان يفيض الماء عليه كل يوم تعبداً لله تعالى[5].

(٢) «صحيح مسلم» - كتاب الطهارة، باب النهى عن التخلى فى الطرق والظلال.

(٣) «سنن ابن ماجة» - كتاب الطهارة - باب ما جاء فى القصد فى الوضوء، رقم (٤٢٥).

(٤) «صحيح البخارى» - كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ، وغيره يده المشكوك فى نجاستها فى الإناء.

(٥) «فتح البارى» لابن حجر (٢/٤٢٦).

سادساً: لا يستطيع الإنسان أن يغفل هذا الخلق السامي والأدب الراقي في غسل الميت حيث لا يجوز أن يغسل الميت الفساق أو الأبرار الذين لا يكتمون الأسرار، بل ينبغي أن يعمد أهل الميت إلى استصحاب ذوي القلوب التي تكون كالقبور في حفظ الأسرار فلا يفشي للميت سراً. إذا كان لا قدر الله من الأشرار فترى علامات الشقاء في عبوس وجهه وسواده فلو كان المغسل غير أمين على هذه الأسرار، أذاع ذلك بين الناس فيشمت أعداؤه، وهذا ما نهى عنه الإسلام لما رواه ابن ماجة بسنده عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «ليغسل موتاكم المأمونون».

المقصد التربوي للصلاة

في الجانب الخلقي للفرد المسلم

للصلاة آثاره عديدة في تقويم الجانب الأخلاقي للمسلم أهمها ما يلي:

أولاً: الصلاة تجعل المسلم وقافاً عند حدود الله، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

فهي تعد المسلم إعداداً أخلاقياً راقياً إذ يحرص دائما على الطهارة والنظافة طوال اليوم والليلة، ثم يقف يناجي ربه تعالى تاركاً وراءه زخارف الدنيا ليتزود للآخرة. فإذا عاد إلى الدنيا لم يكن ذلك الذي يغوص في وحلها بل يجعلها بلاغاً إلى الآخرة، يستمتع بطيباتها ليقوى على عبادة ربه جل وعلا، فلا هو بالذي يفرح فرحاً مفرطاً بزينة الدنيا، ولا يجزع جزعاً مفرطاً لذهابها أو تحولها.

ثانياً: الصلاة تعود الفرد عادات حسنة، وتخرجه عن العادات السيئة، فهي تعود المسلم والمسلمة ضبط الوقت، فالمسلم الحق ينتظر الصلاة بعد الصلاة ويحرص على الصلاة لوقتها، كما تعود المسلم ضبط الوقت وعدم تأخير واجباته عن موعدها تعوده ضبط النفس في أوقات متوالية طوال اليوم والليلة عن الكلام والحركة في الصلاة، إلا بطلت صلاته، ولذا يقول القرطبي: الصلاة فيها سجن النفوس والصوم فيه منع الشهوة، وليس منع شهوة واحدة أو شهوتين كمنع جميع الشهوات، فالصائم إذا منع شهوة النساء والطعام والشراب ثم ينبسط في سائر الشهوات من الكلام والمشي والنظر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق، فيتسلى بهذه الأشياء عما منع، والمصلي يمتنع عن جميع ذلك فجوارحه كلها مقيدة عن جميع الشهوات[6].

ولعل من أكثر الآفات التي يقع فيها الناس هي آفات اللسان، ولذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم»[7]. والصلاة تجعل المسلم قادراً على التحكم في كلامه بوجوب الإمساك عن الكلام بغير أذكار الصلاة، في أوقات متوالية حتى يحصل لديه هذا الخلق الحسن ألا يقول إلا كلاماً حسناً، لذا يروي مسلم بسنده- عن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إليّ فجعلوا

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي.

(٧) رواه ابن ماجه- كتاب «الفتن»- باب كف اللسان في الفتنة.

يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما قهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن..»[8].

ثالثاً: والصلاة تجعل المسلم يحرص دائماً على أن يراعي نفوس الآخرين ومشاعرهم بل بشريتهم وأن لهم طبائع وسمات الأصل عدم مواجهتها بعنف وحدة مادامت غير خارجة عن دائرة التشريع، ومن الجوانب التي تعالج هذه الجوانب ما يلي:

(أ) إذا كان المسلم يشعر بحرارة الجوع، وجاء وقت الصلاة فلا يحمل نفسه حملا على الصلاة فيعالج آلام الجوع وحرارته الملتهبة بل روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إذا حضر العشاء، وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء»[9].

(ب) إذا اشتد الحر بالناس في صلاة الظهر أو الجمعة فمن السنة أن تؤخر الصلاة حتى تنكسر حدة الحر وذلك لما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم»[10].

(جـ) من صلى بالناس إماماً يخفف قدر الاستطاعة حتى لا ينفر الناس من الصلاة وفي هذا يروي البخاري ومسلم بسندهما عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح لأجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قد أشد مما غضب يومئذ فقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، أيكم أمّ الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة»[11].

وفي هذا أكبر درس عملي لمراعاة مشاعر الناس وظروفهم وأحوالهم وعدم المشقة عليهم، ولذلك يعلمنا النبي ﷺ من خلال الصلاة كيف نحس بمشاعر الآخرين في الحديث الذي رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاة كراهية أن أشق على أمه»[12].

رابعاً: ومن افتتاحية الصلاة أيضا يعرف المسلم أين مكانه من الناس، فهو أول المسلمين والنموذج الذي يحتذى، والقدوة التي تتبع ويحتل الذؤابة من العالمين، ولما فقه المسلمون الأول هذا الافتتاح لكل صلاة لم يرضوا سوى الشهادة على الناس بديلاً، وتقدموا نحو بلاد الشام والعراق ومصر ثم شرقوا حتى وصلوا إلى بلاد الهند والسند، وغربوا حتى وصلوا إلى المغرب العربي، ثم التقى الفاتح المسلم في بلاد آسيا قادماً إلى القسطنطينية وبلاد أوروبا من جهة الشرق مع الفاتح المسلم من بلاد الأندلس، فصارت الأرض والبحار تحكم في أغلبها حكم الإسلام وتحقق وعد الله تعالى لهم.

(٨) «صحيح مسلم» - كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ما كهرني: ما نهرني، والكهر: الانتهار والضحك واستقبالك إنسانا بوجه عابس تهاوناً به.

(٩) «صحيح مسلم» كتاب الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام.

(١٠) «صحيح مسلم» كتاب الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر.

(١١) «صحيح البخاري» - كتاب الأذان- باب من شكا إمامه إذ طوّل رقم (٧٠٤). و«صحيح مسلم» - كتاب الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(١٢) «صحيح البخاري» - كتاب الأذان- باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

خامسًا: المسلم الذي يقرأ الفاتحة كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل يعرف الفضل لصاحبه، وصاحب الفضل الأول والأكبر هو الله تعالى، ومن له حق علينا نؤدي له واجب الشكر؛ لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى. وهكذا ينطلق من إسار اليائس من رحمة الله إلى سعة الأمل في رحمة الله الواسعة وهو يردد قوله تعالى:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وهو دائما يعمل لآخرته ولا يغفل عنها، لأنها دار الحيوان والنعيم المقيم أو العذاب المهين، وهو محدد في عبادته وتوكله واستعانته فلا يكون ذلك إلا بالله تعالى، وهو متميز دائمًا عن اليهود والنصارى منحاز إلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فيعامل كلا بما يستحقه فللمؤمنين الود والتراحم، ومع غيرهم تجرى أحكام الإسلام بلا مهادنة ولا ظلم.

سادسًا: والمسلم الذي يصلي راكعًا وساجدًا لربه جل وعلا يأبى كل الإباء أن تنحني هذه الجباه إلا لله تعالى. فهو عزيز النفس، أبى لا يخشى في الله لومة لائم، لا تستذله الأموال، ولا ينحني أمام هامات الرجال، ولا يعطي الدنية في دينه. ولا يرضى سوى العزة والكرامة خلقًا وجبلة؛ لأنه يكتسب مع كل سجدة قربًا من العلى القوى القدير. فيرى ويحس من أسباب القوة ما يحتقر معه قوى المتجبرين، وظلم الغاشمين، ولذا يقول النبي ﷺ: «من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منا»، ويقول الشيخ الغزالي: العزة والإباء، والكرامة من أبرز الخلال التي تنادى بها الإسلام، وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهد نماءها بما شرع من عقائد أو سن من تعاليم. وإليها يشير عمر بن الخطاب بقوله: أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه: لا، علام يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم مناديا بتكبير الله وحده في بداية الأذان ونهايته؟ ولماذا يكرر هذا التكبير فيكتنف حركات الصلاة كلها من قيام وقعود؟ ذلك لكيما يوقن المسلم يقينًا لا يهتز ولا يزيغ أن كل متكبر بعد الله فهو صغير.. فكأنما وكل هذا النداء أن يرد الناس إلى الصواب كلما أطاشتهم الدنيا، وضللتهم مناعاتها الطامة، وتوكيدًا لهذا المعنى اختار الله عز وجل اسمي: العظيم والأعلى من أسمائه الحسنى، ليكررهما المسلم في أثناء ركوعه وسجوده، فتتشرب روحه إفراد رب العالمين بالعظمة والعلو[13].

سابعًا: يتعلم المسلم من الصلاة السكينة والوقار، فإذا كانت الصلاة على أهميتها البالغة لا يحسن معها الخروج من البيت في سرعة وتهور ويجرى المسلم في الطريق يفقد فيها مروءته ووقاره فغير الصلاة أولى بألا يهرع المسلم إليه ويجرى نحوه على نحو لا يليق بمثله، بل يأخذ الأمور بنفس هادئة وقلب مطمئن أن ما أصاب المسلم لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا الدرس العملي نتعلمه من الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[14]، هذا الحديث وغيره يرسم السبيل الذي يسير عليه المسلم سواء كان في ذهاب إلى المسجد أو غيره، ومنهجه أن ما أدرك يحصله وما فاته يكمله.

ثامنًا: من الصلاة يتعلم المسلم أو المسلمة أن يبادر إلى الواجب في أول وقته لا يؤخره عن موعده، فإن حالت الظروف بينه وبين أدائه في أول الوقت فإنه لا يتخلى عن واجبه لمجرد فوات وقته الأول وهذا يستفاد من قضاء الفوائت عند أول فرصة يتمكن فيها المسلم من قضائها وذلك لما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما عاد من غزوة خيبر ناموا ليلة في الطريق وأمر بلالاً أن يرقب الفجر، فقام بلال فصلى ما قدر له وغلبه النوم وهو مستند على راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظا ففزع رسول الله ﷺ فقال: أى بلال؟ فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ - بأبي أنت وأمي يارسول الله - بنفسك، قال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم شيئا ثم توضأ رسول الله وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[15]

(طه: ١٤)

هذا الحديث يوضح إلى أى مدى ينبغي أن يدرك الإنسان ما فاته، وتلحظ فيه فزع النبي ﷺ الشديد وأصحابه كذلك من فوات أول الوقت في أداء الفريضة، ثم خروج النبي ﷺ وانتقاله عن المكان الذي فوت عليهم صلاة الفجر لحضور الشيطان فيه، ثم يتوضأ ويقيم الصلاة، ومن هنا يتعلم المسلم أن الواجب إذا تعلق برقبته يجب أن يؤديه في أول وقته أو عند أول فرصة يتمكن فيها من ذلك.

وإن كان المسلم يشعر أنه من الممكن أن يفوته شيء منهم فإنه يبادر إليه ولا يدع الأمور للاحتمالات، ومما يشير إلى هذا المعنى الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخر الليل فإن صلاة الليل مشهودة وذلك فضل».

هكذا يأخذ المسلم المنهج الصحيح في المبادرة إلى الخير، والحرص عليها في أول الوقت ولا يؤخر العمل إلا إذا كان التأخير للعمل ذاته، فإن شك في ذلك فالأولى أن يبادر إليه في وقته.

تاسعًا: تساعد تشريعات الصلاة في التربية الاجتماعية، حيث إن المسلم الذي يرى إخوانه في المسجد في لقاء ودى خال من التعالي والكبرياء، والفخر والخيلاء، بل في صلوات الجماعة وحلق العلم، وجلسات الذكر، يرى منذ نعومة أظفاره المسلمين صفًا واحدًا، ويتصافحون في حب عميق، ويدعو بعضهم لبعض في الصلوات وبعدها، هذه من أهم أسس التربية الأخلاقية الاجتماعية التي تنفي السلبية والانفرادية وما ينتج عنها من أمراض الخوف من الناس والحقد عليهم، وكراهية مخالطتهم، والتلعثم في الحوار معهم.

(يتبع)

(١٣) «خلق المسلم» الشيخ محمد الغزالي، ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(١٤) «صحيح البخاري»، كتاب الأذان، باب يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار (٦٣٦).

(١٥) «صحيح مسلم»، كتاب المساجد- باب قضاء الفائتة واستحباب تعجيله.

عبادة الله مفهوما وغاية



معوض عوض إبراهيم
مراقب عام الوعظ
وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف سابقا

إن الله عزوجل هو رب كل شيء ومليكه وهو الخالق ذو القوة المتين له الخلق وحده وله الأمر دون سواه عرفنا بذاته فقال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

(سورة الإخلاص)

وأسعد الناس من عرفوا الله عزوجل بقدر ما يعينهم عليه سبحانه ومن ذلك والله عز وجل اسم الله الأعظم تفرد به عز وأجل وحده وأجل معاني هذا الاسم أنه إله كل شيء ومعبود كل شئ.

وهو سبحانه يقول:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

(إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣)

ولقد أوجب الله سبحانه عبادته بعبارات ربانية تخاطب العقول والقلوب على سواء وقلب سبحانه منا الأبصار والبصائر فى آياته المتلوة وآياته المجلوة فى الأنفس والآفاق لتتصل مواكب أهل الإيمان على الصراط المستقيم وفى مجال التعريف بالله وهدايته يقول ابن منظور فى لسان العرب ما يعين على فهم العبادة فقال بتصرف العبد هو الإنسان حرا كان أو «رقيقا» يذهب بذلك إلى أنه مردود لبارئه جل وعلا فيقال فلان عبد أى بين العبودة والعبودية والعبدية وأصل العبودية الخضوع والتذلل.

وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يقل أحدكم لمملوكه عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى» رواه البخارى ومسلم بألفاظ متقاربة.

وهذا يعنى النهى عن الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديته إليه ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ومن عبد من دونه إلها فهو من الخاسرين وأما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده قال الليث: ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله.

إن العابد هو الموحد، قال الإمام الزجاج فى قول الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

المعنى: ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتى وأنا مريد منهم العبادة وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به قال: ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عبادا مؤمنين قال الأزهرى: وهذا رأى أهل السنة والجماعة.

ومعنى العبادة فى اللغة الطاعة مع الخضوع ومنه طريق معبد إذا كان مذللا وصدق الله العظيم:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(الملك: ١٥)

أى معبدة ممهدة للسالكين

إن عبادة الله أبعد مدى وأعظم دلالة من مجرد الخضوع والتذلل كما يبدو من كلام كثيرين تحدثوا عن العبادة لغة واصطلاحا.

فإن عبادة الله لا تكون ذات بال حتى يمازجها حب الله واليقين فى أن ما نذكر به من أوامره تعالى ونواهيه فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هو أيسر حقوقه علينا حتى نذوق حلاوة الإيمان ونستشعر سكينة الوجدان وندرك بها صفو الحياة ورضوان الله، أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «قال الله تعالى» يا بن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملئت يديك شغلا ولم أسد فقرك».

إن الله تعالى تعرف إلى الناس أول ما تعرف إليهم برحمته بعد ربوبيته ألسنا نقرأ:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

(الفاتحة)

والله تعالى يحب المؤمنين ويحبه المؤمنون قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(المائدة: ٥٤)

وكم يخطئ من حصر العبودية فى الخضوع والذل دون محبة لله تدعو إلى طاعته برغبة وشوق وشعور بأن ذلك هو الحق أيسر الحق ومحبة الله ليست أناشيد ومدائح ولا هى

دعوى لا يرتبط فيها الحب لله وربما بلغ البشرية مصطفاه صلوات الله عليه ودعوى المحبة بدون عبادة صنيع أقوام لا تصلهم بالله تعالى واصلة.

وقد صدق الذى قال:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمرى فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد وقد صدق الله العظيم وهو يذكر زكريا عليه السلام واستجابته تعالى لدعوته حين وهبه يحيى فقال:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

(الأنبياء: ٩٠)

فهم راغبون فى رحمته خائفون من عقابه تبارك وتعالى

إن ممن أحبه مولاه استعمله فيما يرضاه وفى الحديث الصحيح «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه.......» الحديث رواه البخارى

ومحبوب الله تعالى لا يفعل شيئا يبغضه مولاه ويضع دائما أشواق نفسه ومطامحها لمراد الله ومراضية وهو بذلك يكون سعيدا راضيا يتحقق فيه أمر الله والحياة».

وقد ذكر العلماء عن شباب الفضيل بن عياض ما ذكروا ورووا أنه كان فى طريقه إلى بعض صبوات اللهو والغافلين فسمع صوتا نديا يتردد بقول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(الحديد: ١٦)

وتبلغ الآية مبلغها من نفسه وإذا به يقول من فوره آن يا رب آن يا رب وإذا به وقد أسدل الله بينه وبين ما خر فيه إلى الأذقان من معاصيه ستارا صفيقا فيصلح من فساد ويستقيم من عوج ويهتدى من ضلال ويسارع إلى الخيرات ويدوم عليها وتعزف نفسه على الدنايا ويقول «والله لو عرضت لى الدنيا لتقذرتها كما يتقذر أحدكم الجيفة فيتحاماها ويتحاشاها مخافة أن تصيب ثوبه»..

إن الله تعالى يعبد لذاته ويجد المؤمن فى طريق الحق والخير سوابق فضل الله إليه وسوابغ أنعمه التى ما انفكت تترادف إليه - ومن عبد الله لمجرد طلب ثوابه كان ناظر فى حقيقة أمره إلى الثواب لا إلى رب الأرباب وحسب المؤمن أن يعبد الله استجابة لأمره وقياما بحق شكره واستغناء بطاعة الله على أن يكون عبد هواه أو أسير دنياه وهو شرف يقصر دونه كل شرف ورحم الله من قال:

كفى بك عزا أن يكون الله لك ربا
وكفى بك شرفا أن تكون له عبدا

تأملات فى السيرة

غزوة بدر الكبرى



لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

لا أخفى عليك أيها القارىء الكريم أن الدافع لى إلى كتابة (التأملات فى السيرة) هو فى الأساس ما يزعمه الغرب وأمريكا على وجه الخصوص من تدليس تجاوز حد التزوير والافتراء على التاريخ الإسلامى خصوصا ما يتعلق بالسيرة النبوية فلكم تطاول المرجفون وما زالوا يتطاولون وزعموا أن الإسلام دين حرب وأن النبى كان متعطشاً للدماء وما إن انيحت له فرصة للغزو والتعدى إلا اهتبلها دون مراعاة لخلق أو ضمير ولكم تطاولوا ولكم وجهوا سهامهم إلى غزوات النبى وزعموا أنها كانت نتيجة نفسية متعطشة للدماء والحرب مع أن الواقع غير ذلك تماماً فلم تكن غزوة من غزوات النبى إلا ووراءها أهداف تجبر أى إنسان سوى أن يهب لإصلاح اعوجاج مخل أو انحراف شارد عن الحياد أو إرساء مبدأ إنسانى لا بد أن تتعلمه الإنسانية ولو قسرا حتى يستقيم أمر الناس وصدق الله فى قوله:

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٤٠)

وتاريخ الغزوات كلها يخبرنا بصدق هذا القول وأنه بعث داعياً وهادياً ومعلماً وأما ما يزعمه الغرب الاستعمارى فلا حقيقة له فإن الغرب هو الذى يتشدق بكلمات ظاهرها غير باطنها حتى أن معنى الكلمات نفسه قد تشوه فهو يطلق كلمة تقدم على انحراف أعمى يؤدى إلى تدمير الإنسان والطبيعة. ويطلق كلمة حرية على نظام يسمح بحرية السوق لأولئك الأكثر قوة أن يفرضوا ديكتاتورية عديمة الإنسانية تلك التى تسمح لهم بابتلاع الضعفاء وتطلق كلمة (عولمة) لا على حركة تؤدى إلى وحدة متآلفة الأنغام للعالم ولكن على إنقسام يتنامى بين الشمال والجنوب نابع من وحدة امبريالية وطبقية وانقسام يدمر تنوع هذه الحضارات ومنتجاتها هكذا يقول جارودى فى كتابه كيف "نصنع المستقبل" فنرى الغرب يزعم أنه يقدم معونات لترسيخ الديمقراطية فى العالم الثالث والواقع أنه يدمر الأخلاق والممتلكات وكذلك يزعم أنه يقدم معونات وقروض بواسطة البنك الدولى للدول الفقيرة والواقع الذى اعترف به رئيس البنك الدولى أنه وسيلة قذرة لسيطرة الامبريالية الغربية على مقدرات الشعوب بالإضافة إلى أنه ترويج لسلع استهلاكية تستنزف طاقات الدول الفقيرة وأظن أن العالم أجمع لم ينس

الحجج الواهية الخبيثة لغزو أو تدمير العراق بأن العراق يمتلك أسلحة نووية وهاهم دخلوا العراق ولم يوجد فيه آثاراً لامتلاك أسلحة نووية وبعد كل الدمار الذى أصاب العراق أرضاً وبشراً ومستقبلاً فإن الغرب يزعم بأنه سيرحل لأن مهمته انتهت والواقع يكذّب هذا الزعم وهذا الإدعاء الكاذب والواقع أن الغرب وأمريكا لن تخرج من العراق إلا مع آخر برميل نفط فى العراق فأين هذا من نبل الإسلام ونبى الإسلام.

وبعد: فإنى أردت أن أوضح أسباب غزوات النبى ﷺ التى قادها فهى تعلم الإنسانية كيف تقف مع الحق وتدافع عن الحرية وإنسانية الإنسان.

لا يخفى على أحد ما لقيه النبى صلى وأصحابه فى مكة من تعذيب يجاوز حد القسوة حتى إنه أجبر على الفرار هو وأصحابه بأنفسهم ودينهم إلى المدينة.

قل لى بربك كم خسر المسلمون من أموال وكم نفوس أزهقت كل ذلك بالباطل أفلا يحق فى ميزان العدل والمروءة والشجاعة أن يهّب الفقراء لاسترداد بعض حقوقهم؟ بلى. لأن النكوص عن السعى فى استرداد الكرامة المهدرة والأموال المأخوذة بغير حق هو فى الحقيقة إهدار للإنسانية وتكريس للظلم والجهل والغطرسة فكان لابد أن ينهض النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لاسترداد بعض أموالهم فخروج النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن للحرب إنما كان لاسترداد بعض ما سلبه المشركون من أموال المسلمين فى مكة وهكذا يقول القرآن ويوضح أن المسلمين لم يخرجوا لقتال ولم يريدوه إنما خرجوا لاسترداد بعض أموالهم فلم يرد النبى قتالا ولم يخرج له لكن الله سبحانه وتعالى أراد القتال لإظهار الحق وإعلاء مبادئه، ووضع أسس الحياة المستقيمة وهكذا يوضح القرآن الكريم فى آيات محكمة ويبين أن المسلمين لم يخرجوا لقتال إنما دخلوا الحرب وهم كارهون يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ
اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(الأنفال: ٥ - ٨)

وهكذا كل غزوات النبى وكل حروبه لم تكن عدواناً إنما كانت للدفاع وإرساء مبادئه ودفاعاً عن مظلوم ونشر مبادئه سامية دون إكراه أو اضطهاد فلم تقم فى الإسلام حرب ابتغاء نشر الإسلام بالقوة ولم تكن حرب فى الإسلام لإشباع شهوة السيطرة والاستعلاء والاستبداد ولا لنهب ثروات الآخرين وكل ما تفعله أمريكا الآن وما فعلته أوروبا قديماً وما يعانى منه العالم كله الآن هو نتيجة أطماع غربية شرهة للمال والسلطة والاستبداد إن الاستعمار الذى نهب ثروات البلاد الفقيرة وما يسمى بالعالم الثالث شاهد على سوء استبداد الدول الغربية وغطرستها وأخس ما يوصف به هذا أنه يزوّر ويزعم أنه ينشر العدل والسلام ويساعد الدول الفقيرة وأكبر دليل على هذا ما يزعم أنه يقدمه للعالم الفقير كمساعدات بما يسمى البنك الدولى فإن هذا البنك هو مخلب الشيطان الغربى الذى يكبلهم به ويرقعهم تحت غطرسته وتحكمه.

إنّ ما فعلته أمريكا فى فيتنام ليس خافياً على أحد، ومازالت تفعله فى العراق وأفغانستان خير شاهد على هذه الغطرسة والجبروت وما تمارسه الآن مع ثورات الربيع العربى من أموال تقدمها إلى فئات المجتمع تحاول ضرب استقلال الدول ولا تسمى ما تقدمه من أموال رشا، إنما تستتر خلف مسميات خادعة

أيها القارئ الكريم إنى أمقت الاستبداد والمستبدين وأعرف طبائع الاستبداد وحيله وخبث ولؤم المستبدين وأعرف حيلهم وزيف دعواهم التى يخدعون بها الشعوب الضعيفة ليستولوا على ثرواته البشرية والمادية وها هو تاريخ الشعوب المقهورة ينضح بمكر وخداع الاستبداد والمستبدين فكم عانت الشعوب ومازالت تعانى من قهر الطغاة هل تدرى بم تسمى أمريكا تدخلها السافر لتفتيت وتشويه ثورات الربيع العربى إنها تسمى ما تفعله وما تبذله من أموال مساعدات لنشر الديمقراطية فهل بربك شراء النفوس الضعيفة لتقويض تقدم الأمم الفقيرة يسمى مساعدات لنشر الديمقراطية ولماذا تريدنا أمريكا نبرر لها ما تفعله من تدخل بأنها تسعى لنشر الديمقراطية وترفض أن يسعى الإسلام لتبليغ دعوة السلام والعدل والتوحيد للناس أجمعين ثم يتهمون المسلمين بالإرهاب.

أنا بن دارة معروفا بها نسبى
وهل بدارة يا للناس من عار

كيف ولماذا تبرر أمريكا غطرستها وتدخلها المشين فى دول العالم وتطلق لنفسها العنان تحاكم من تشاء من رؤساء الدول وتقيل من تشاء وتؤلب الشعوب على حكامها وتزعم أن الإسلام دين إرهاب إننا لا ندافع أو نبرر أفعال النبى صلى الله عليه وسلم دون وعى ولكننا نحتكم إلى العقل والضمير هل أكره النبى صلى الله عليه وسلم أحدا على الدخول فى الإسلام؟.. لا.. هل غزا أو هاجم قوما دون إنذار؟ زاعما أنه يبشر بدعوة السلام.. لم أنه كان لا يسير فى اتجاه إلا دفاعا عن حق أو تأسيسا لمبدأ ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم يعذر وينذر من يقدم عليه فضلا عن كل ذلك أنه نبى موحى إليه.

فبالله عليك تعالى معى إلى غزوة بدر هل فى قدرة أى قائد أو خبرته ما يستطيع أن يحدد مصارع القوم ويحدد أسماءهم ثم هل يصح فى ميزان الجيوش والمقاتلين أن يقابل ما لا يقل عن ألف مقاتل مدججين بالسلاح والعتاد يقابلهم ثلاثمائة ليس معهم إلا ما يستر عوراتهم إلا أن الله وعدهم النصر الذى نحسب أن أمريكا وغيرها فى حاجة إلى أن يتعقلوا وحى السماء ويؤمنوا به بل أقول ليت المسلمين يصدقوا أو يوقنون بوحى السماء وأن يتصرفوا على أساسه بعقل وقلب ويقين.

تأمل معى بعض ما ورد فى خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تجنى عليه الغرب بأكمله ظلما وعدوانا واتهمه بالعدوانية تقول الروايات أنه صلى الله عليه وسلم ما ضرب أحدا بيده قط إلا أُبى بن خلف لأنه فى رأينا استحق القتل، فليت المسلمين يُعلمون أبناءهم غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وكيف أنه لم يبدأ بعدوان قط.

يروى عن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: " كنا نُعلَّم مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم سورة من القرآن ".

ويروى عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص قال " كان أبى يعلمنا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه ويعدها علينا ويقول يا بنيّ هذا شرف آبائكم فلا تضيعوه".

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علاء عبدالرحمن

نماذج من الغش الثقافي!

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ: ٣٠/ ١١/ ٢٠١١م يقول:

من مأثورات السيرة النبوية، قول رسول الله ﷺ إن الرائد لا يكذب أهله.. ومن غشنا فليس منا.

ولأن أهل العلم والثقافة والفكر هم رواد أقوامهم وأهليهم وأممهم، فإن الواجب عليهم أن يصدقوا أقوامهم وأهليهم فيما يقدمون لهم من فكر وثقافة تنير لهم الطريق. لكن ثقافتنا العربية الإسلامية، في عصرنا الحديث.. خاصة منذ حملة بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) قد شابها غش كثير وخطير، صنعه، وارتكب وزره عدد من رواد الفكر والثقافة، الذين غشوا أهلهم بدلاً من أن ينصحوهم، وكذبوا عليهم بدلاً من أن يصدقوهم القول فيما قدموا من أفكار وآراء.. وعلى سبيل المثال:

فالإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) قد غزا الشرق.. في القرن الرابع قبل الميلاد.. فأسس للقهر الحضاري، والنهب الاقتصادي، والعزل السياسي، والمسخ الثقافي، والاضطهاد الديني، الذي عاني منه الشرق لأكثر من عشرة قرون، كان الشرقيون فيها عبيداً وأقناناً للإغريق والرومان والبيزنطيين.. ومع ذلك وجدنا من رواد ثقافتنا من يغشنا فيقول: لقد كان الإسكندر قائد فكر قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء.. ولم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها، وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل، بل قل إنه إنما كان يفتح الأرض تمهيداً لهذا الفتح العقلي.. بل لا تستعمل كلمة.. الفتح فلم يكن الإسكندر فاتحاً بالمعنى الذي فهمته الأجيال المختلفة.. لم يكن صاحب حرب وقهر وغلب، وإنما كان صاحب مودة ومحبة وإخاء وتسوية بين الناس!.. وسيراً على طريق الغش الثقافي وجدنا من يدعو لإقامة تماثيل للإسكندر الأكبر في جميع ميادين بلادنا، تخليداً لذكرى هذا الذي أسس لعشرة قرون من الغزو والقهر والاستنزاف.

وعندما جاء بونابرت إلى بلادنا غازياً، ليعيد أحلام الإسكندر الأكبر، والملك الصليبي لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠م) قرر هؤلاء الرواد الثقافيون الكذبة حملته الفرنسية على الفكر والثقافة والإعلام والتربية والتعليم، باعتبارها الرافعة لأعلام الحرية والإخاء والمساواة.. والتي أيقظت العقول والقلوب وأخرجتها من الظلمات إلى النور.. والتي منحتنا الحداثة والاجتهاد والتجديد.. والتي أسست المجمع العلمي في بلادنا.. والتي أتت بالمطبعة التي دخلت بنا إلى العصر الحديث.

ولم يقل لنا هؤلاء الرواد الكذبة: إن حملة بونابرت قد أبادت في عامين ٣٠,٠٠٠ مصري.. أي سبع الشعب، الذي كان تعداده يومئذ أقل من ثلاثة ملايين!.. وهي أعلى نسبة إبادة في أي غزوة من غزوات الاستعمار في التاريخ!.. وأن بونابرت هذا هو رائد الغواية الاستعمارية، التي أوقعت قطاعات من أبناء الأقليات في الخيانة لأمتهم وحضارتهم، حتى لقد رفع بعضهم.. تحت حراب فرنسا.. شعارات: انتهاء ملة المسلمين ودولة الموحدين.. الأمر الذي أسس للتوتر الطائفي في عصرنا الحديث، وأنه هو الرائد لاغتصاب فلسطين لحساب الأقليات اليهودية التي دعاها وأغراها بالتحالف مع الإمبريالية الغربية ضد العرب والمسلمين.

وأنه هو الذي أعطى الأمان لثلاثة آلاف جندي مسلم، استسلموا في معركته ضد غزة ثم ذبحهم جميعاً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

وأنه هو الذي سار على طريق الصليبيين القدماء في تدنيس المقدسات الإسلامية: فاقتحم الأزهر الشريف بخيله، حيث عسكر فيه جنوده، وبالوا، وتغوطوا.. وقتلوا طلاب العلم، وأحرقوا الكتبات، بما فيها من المصاحف وكتب الحديث النبوي الشريف!.. وحتى العميان من شيوخ الأزهر وطلابه.. قتلهم نابليون، وألقى بجثثهم في النيل! وأن المطبعة التي جاءت بها الحملة الفرنسية، لم تطبع سوى منشورات الدعاية للغزاة.. وأنهم قد أخذوها معهم عندما رحلوا سنة ١٨٠١م.. وأن المطبعة التي قامت بمصر لتطبع الكتب والصحف قد أنشأها محمد علي باشا.. بأموال الشعب المصري سنة ١٨٢٠م.. أي بعد عشرين عاماً من زوال دولة الفرنسيس!

لم يقل لنا هؤلاء الرواد الثقافيون الكذبة شيئاً من هذه الحقائق.. التي أشرنا إلى قطرة من بحرها!.. وإنما ظلوا لأكثر من قرنين يزيفون صورة هذه الحملة الفرنسية على مصر، ويكذبون على أهلهم.. حتى لقد احتفلوا بالذكرى المائتين لهذه الحملة الاستعمارية سنة ١٩٩٨م.. أي احتفلوا مع فرنسا بالاحتلال بدلاً أن يحتفلوا. ككل الوطنيين. بالاستقلال. ونموذج ثالث لهذا الغش الثقافي، صنعه هؤلاء الرواد الثقافيون الكذبة، عندما ترجموا (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالية دانتي (١٢٩٥-١٣٢١م) فلقد أخفوا عنا وصفه للإسلام بالهرطقة!.. ووضعه لرسول الإسلام ﷺ مع علي بن أبي طالب. رضي الله عنه. في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات جهنم، وقد قطع جسميهما وشوه جسدهما في دار السعير، لأنهما. برأي دانتي. من أهل الشجار والشقاق!!.. لقد أخفى الرواد الثقافيون الكذبة عنا هذا الفحش الفكري الذي اقترفه دانتي.. تلك نماذج مجرد نماذج. للغش الثقافي، الذي مارسه رواد ثقافيون كذبة، خانوا الأمانة، فنصحوا ولائهم وجعلوا انتماءهم للآخر وليس للذات؟!

الحرب على الإسلام لا مبرر لها

تحت هذا العنوان جاء هذا التقرير في جريدة الأهرام المسائي الصادرة في ٧/ ١٢/ ٢٠١١م جاء فيه:

بينما تحشد الحكومات الأمريكية المتعاقبة منذ هجمات ١١ سبتمبر ميزانيات ضخمة لما يسمى بالحرب على الإرهاب، يفضح مؤلف أمريكي المبالغة الأمريكية والغربية في إلصاق الإرهاب بالإسلام وإشعال الحروب هنا وهناك للتغطية على فشل هذه الحكومات داخلياً لتوفير متطلبات شعوبها، والادعاء بوجود عدو خارجي ينبغي أن تحشد من أجله طاقة البلاد. ويعرض جوشوا سيناء الأستاذ المشارك للأبحاث في جامعة فيرجينيا في صحيفة نيويورك تايمز كتاب (الشهداء المفقودون.. لماذا هناك عدد قليل جداً من الإرهابيين المسلمين) للمؤلف الأمريكي تشارلز كورزمان أستاذ علم

الاجتماع بجامعة ولاية كارولينا الشمالية الذي جاء في ٢٤٨ صفحة عن مطبعة جامعة أكسفورد ويقول المؤلف: يجب أن يفهم القراء أن الإنفاق الحكومي في الولايات المتحدة وإهدار الموارد فيما يسمى بالحرب ضد الإرهاب أو على نمط تنظيم القاعدة غير متناسب مع حجم التهديد الفعلي الذي تشكله للولايات المتحدة لأن هناك عدداً قليلاً جداً من المتشددين الإسلاميين، كما أن هناك متطرفين في جميع الديانات، ويتساءل كورزمان لماذا تتعمد إغلاق أعيننا لعدم رؤية الهجمات الإرهابية في كل مكان، والتي تحدث كل يوم والتي لا تتعلق بالإسلاميين فقط؟!

وفي فصل كامل حول تنظيم القاعدة يقول المؤلف: إن تنظيم القاعدة الذي ينفذ عمليات إرهابية يمثل نسبة ضئيلة جدا من المتشددين الإسلاميين (أي المتطرفين الذين يستغلون الإسلام لتحقيق أهداف عنيفة) وفي المقابل، يمثلون أقلية من المسلمين الذين يبلغ عددهم أكثر من مليار نسمة في جميع أنحاء العالم.

ومع ذلك يقول كورزمان تدعي حكومتنا أن التهديد لايزال قائماً.

وأضاف إنه عندما واجهت الغرب المشكلات الاقتصادية وأزمة التوظيف كان تكتيك الحرب على الإرهاب بمثابة عنق الزجاجة التي فشل الغرب في الخروج منها وتفاقمت مشاكله الاقتصادية على أثرها.

وقال إن التنظيمات الإرهابية تفتقر لما تحتاجه من مئات المجندين الذين هم على استعداد للعمليات الاستشهادية في الغرب، وذلك في إشارة لتنظيم القاعدة وحلفائه الذين يتمثلون في حركة طالبان في أفغانستان وباكستان، وحركة الشباب في الصومال وتنظيم القاعدة في اليمن، كما قال: إن المناطق الجغرافية لتلك التنظيمات تقلل من التهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة والغرب.

وأوصى المؤلف بوضع حد لحالة الطوارئ التي تشهدها الولايات المتحدة والغرب خوفا من الهجمات الإرهابية الضيقة والتي لا تتناسب مع حجم الموارد التي تحشدها واشنطن والغرب إلى جانب تأثير حالة الطوارئ على الحريات المدنية في البلاد، مشيرا إلى أن السياسيين الحاليين والسابقين في أمريكا سيلقى عليهم باللوم وسوف يساءلون مستقبلا بسبب إهدارا موارد البلاد وبإدخال اقتصاد الغرب النفق المظلم.

كتاب كورزمان لايخلو من ملاحظات حول كيفية استغلال الإرهابيين لشبكة الإنترنت ذات التأثير العالمي ووسائل الإعلام المختلفة والمتطورة من أجل تغذية التطرف وتجنيد أنصار جدد فيما أطلق عليه اسم «الجهاد الالكتروني» والتي تتضمن نشر كتيبات من التعليمات المتشددة لتسهيل تنفيذ هجمات إرهابية إلى جانب جذب التعاطف لشيوخ التطرف مثل زعيم القاعدة الراحل أسامة بن لادن، وقال: إن هذه الأنشطة هي الأجدر بالملاحقة بدلا من الدخول في حروب غير عادلة وغير منطقية لمطاردة دول بأكملها وتعريض مواطنيها للقتل والدمار.

ويتحدث المؤلف عن تأثير العولمة على انتشار الإرهاب وأن كان يؤكد أن هذا الأمر محدود ونادر الحدوث وفرق بين الإرهاب المحلي مثل حركة طالبان والإرهاب الذي يتجه نحو العالمية مثل تنظيم القاعدة.

وركز المؤلف أيضا على سعي المسلمين في أنحاء العالم لتحديث المجتمع والسياسة وإعادة صياغة التقاليد في قوالب حديثة وقال: إنهم يسعون لتكريس مبدأ المساواة الاجتماعية لبناء مجتمعات مدنية حديثة.

كما انتقد المؤلف عدم الاعتماد على العلوم الاجتماعية للحد من ظاهرة الإرهاب لتجنب إشعال حروب لا طائل من ورائها سوى الخسائر والدمار.

الخوف من الخلافة الإسلامية!!

تحت عنوان: «نتنياهو يدعو إلى تأسيس صندوق دولي لدعم خصوم الإسلاميين في العالم العربي» جاء تحقيق الأستاذ / زهير أندراوس المنشور بجريدة القدس العربي الصادرة بتاريخ: ٩ / ١٢ / ٢٠١١ م يقول:

منذ اندلاع الثورات في العالم العربي لإسقاط الطغاة والدكتاتوريين لم تنفك مراكز الأبحاث في الدولة العبرية عن نشر دراسات حول اليوم الذي سيلي الثورات كما أن الإعلام العبري «المتطوع لصالح الأجندة الصهيونية» يواصل نشر التقارير والتحقيقات حول آخر المستجدات والتطورات في الوطن العربي، والمتابع للشأن الإسرائيلي يتوصل إلى نتيجة واحدة وهي أن القاسم المشترك لجميع الخبراء والمستشرقين في الدولة العبرية هو التهويل من خطر الإسلاميين، والتحذير من أن سيطرتهم على مقاليد الحكم، ستؤدي إلى قيام امبراطورية إسلامية راديكالية في الشرق الأوسط الأمر الذي يُحتم على صناع القرار في تل أبيب أن يستعدوا لهذا السيناريو المذهل، على حد تعبيرهم.

في نفس السياق، عكفت المؤسسة الحاكمة في إسرائيل والنخب المرتبطة بها على التشكيك في طابع ثورات التحول الديمقراطي في الوطن العربي وتحذير العالم من مآلاتها زاعمة أنها سوف تفضي إلى هيمنة الحركات الإسلامية على مقاليد الأمور في الدول العربية ولقد فطن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى إثارة مخاوف العالم من خلال تحذيره من تكرار تجارب، يبدي الغرب تجاهها حساسية خاصة، لاسيما تجربة الثورة الإسلامية في إيران التي انطلقت كحركة احتجاج ضد نظام الشاه وانتهت إلى إقامة الجمهورية الإسلامية.

ولم يفته التحذير من أن مصر تنتظر مصيراً مشابهاً في حال صعود الإسلاميين إلى الحكم فيها كنتاج للثورة، ولكن نتنياهو لم يكتف بالتحذير من مخاطر وصول الإسلاميين إلى الحكم، بل إنه حاول إعطاء الانطباع بأنه حريص على بروز تيار ديمقراطي منافس لهم فدعا إلى تأسيس صندوق دولي لدعم خصوم الإسلاميين في العالم العربي، ممن أسماهم ذوي التوجهات الليبرالية، مشبها هذه الخطة بخطة «مارشال» التي نفذتها الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية لدعم أوروبا الغربية وقد أرسل نتنياهو عيران ليرمان، مساعد مستشاره للأمن القومي إلى الولايات المتحدة لبحث هذا المقترح مع قادة الكونجرس الأمريكي.

وفي سعيها لشيطنة ثورات التحول الديمقراطي في العالم العربي، وتأليب العالم عليها، اقتفت النخب الإسرائيلية أثر نتنياهو، وحرصت عى استدعاء متلازمتي إيران وحركة حماس، والإيحاء بأن العالم بات على موعد مع تكرار هاتين التجربتين فهناك من اعتبر أن ما حدث في مصر انقلاب وليس ثورة، لأن هذه الأحداث ستنتهي بوصول جماعة الإخوان المسلمين إلى الحكم، وأنهم سيقيمون في مصر النسخة السنية للجمهورية الإسلامية في إيران، مشددين في الوقت ذاته، على أنه لا يوجد في مصر أي ميل نحو التحول الديمقراطي والحريات، بل العكس تماما فقد قال نتنياهو من على منصة الكنيست إن العرب والمسلمين لا يمكنهم أن يعيشوا تحت كنف الديمقراطية، لأنه يوجد تناقض جوهري بين تعاليم الدين الإسلامي وبين قيم الديمقراطية على حد تعبيره.

في سياق ذي صلة، فقد حذر يوسي بيلين، وزير القضاء الإسرائيلي السابق، المحسوب على ما يطلق عليه في إسرائيل اليسار الصهيوني، وهو الذي وقع على إعلان جنيف، حذر من أن تسليم العالم بنقل مقاليد الأمور للإسلاميين في أعقاب الثورات العربية يمثل عملاً غير مسئول مدعياً إن الرئيس الأمريكي باراك أوباما عاد إلى ما اسماه بالخطأ نفسه الذي وقع فيه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر الذي تخلى عن

الشاه، مما أدى فى النهاية ليس فقط إلى سقوط الحكم الامبراطورى فى طهران، ولكن أيضا إلى تغيير جذرى فى المنطقة بأسرها.

وزعم إيتان هابر، المدير العام السابق لديوان رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق، إسحاق رابين، وأحد كتبة الأعمدة المشهورين فى الدولة العبرية، زعم ان الثورة فى مصر تحديدا، تشكل نقطة تحول فارقة نحو القطيعة بين مصر والعلمانية والغربنة، متوقعاً أن تنافس الصور التى ستأتى من مصر، تلك التى تصل من إيران التى تحرك الأحداث من وراء الكواليس، من أجل تحقيق هدف رئيس واحد، وهو القضاء على أجواء السلام والمصالحة مع إسرائيل.

فى حين اعتبر إلياكيم هعتسنى، أحد قادة المستوطنين فى الضفة الغربية، وهو ينشر مقالاً أسبوعيا فى صحيفة يديعوت أحرونوت الأوسع انتشارا فى إسرائيل، أن وصول الإسلاميين الحتمى إلى الحكم بفضل الثورات العربية، سيشكل دعما كبيراً لحكم حركة حماس، مما يمثل تهديداً استراتيجيا لإسرائيل، معتبراً أن وصول الإسلاميين المتوقع إلى الحكم فى مصر يعنى تقليص قدرة تل أبيب على العمل ضد الحركة، على اعتبار ان هناك إمكانية كبيرة أن يزود الحكم الجديد فى مصر حركة حماس بتجهيزات ومعدات حربية لوجستية دفاعية تقيد قدرة إسرائيل على إلحاق الأذى بالحركة، علاوة على أنه لا يستبعد أن تقف مصر تحت حكم الإسلاميين خلف عمليات عسكرية على طول الحدود مع إسرائيل - على حد تعبيره.

إسرائيل والإسلام السياسى

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة/ رندى حيدر المنشور بجريدة النهار الصادرة بتاريخ: ٢ / ١٢ / ٢٠١١م تقول:

تدرك إسرائيل اليوم أنها أمام شرق أوسط جديد وأنظمة عربية ذات طابع إسلامى تختلف تماماً عن الأنظمة العربية القديمة الفاسدة والاستبدادية التى اعتادت التعامل معها طوال عقود، وقد انقسمت مواقف الإسرائيليين حيال هذا التحدى الجديد بين اثنين: موقف الذين يهولون بخطر صعود الإسلام السياسى ويعتبرونه بداية لمرحلة من عدم الاستقرار والفوضى فى المنطقة وعودة إلى الوراء إلى عهد الصراع بين الإسلام والغرب، وموقف آخر براغماتى واقعى يحاول سبر أعماق ما يحدث فى العالم العربى فى محاولة للتنبؤ بالتطورات المستقبلية، مع سعى جدى للتعرف إلى حقيقة الإسلام السياسى الصاعد وماهيته.

يتولى اليمين فى إسرائيل حملة التهويل بخطر صعود الإسلام السياسى إلى السلطة فى مصر وفى غيرها من الدول العربية، مدعياً أن هذا الإسلام سيعيد المجتمعات العربية إلى عصور الظلام بفرضه الشريعة الإسلامية وتقييده حرية المرأة وخنقه الأقليات الدينية، والمفارقة الكبيرة أن هذا اليمين نفسه يتجاهل ما يحدث فى إسرائيل نفسها حيث يتصاعد يوماً بعد يوم نفوذ التيارات الدينية المتشددة التى تحاول فرض نمط حياتها على الدولة من طريق تطبيق نصوص الشريعة اليهودية، سواء داخل الجيش الإسرائيلى من خلال إجراءات الفصل بين النساء والرجال، أو بسن قوانين عنصرية ضد الأقليات العربية، أو بفرض قيود على تمويل جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان، وذلك فى أشرس حملة يتعرض لها الجمهور العلمانى واليسارى فى إسرائيل من الجمهور المتدين، هذا من دون التطرق إلى المعركة الشرسة التى تخوضها حكومة نتنياهو من أجل حمل الفلسطينيين على الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية.

لا يمكن إسرائيل أن تفرض على الجميع الاعتراف بها دولة يهودية، وأن ترفض تحول مصر إلى دولة يحكمها الإسلام السياسى.

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقى الدين

المتحدثون بالإسلام!

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة

بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير وانطلاق الحريات وخروج المجتمع المصرى من سنوات القهر وتكميم الأفواه إلى استنشاق عبير الحرية حتى صار الكلام مباحا فى كل شيء، ومن أى أحد ولكل من يهوى الكلام؛ وبالتالى انطلقت أصوات وأفكار إسلامية كان أصحابها من أوائل من ذاق صنوف الاضطهاد والملاحقة؛ فإذا بهذه الأصوات - بعد الثورة - تحاول التعبير عن أفكارها وتوجهاتها بكل حرية وقوة إلى الحد الذى صار كثير من الدعاة والوعاظ - وخصوصا المتحدثين فى الفضائيات - قد تحولوا - فى سياق الحديث السياسى عن الإسلام - إلى محللين سياسيين أو «شيوخ سياسة» - كما أطلق عليهم كاتب هذه السطور - محذراً أن يتكلم الواعظ أو الداعية بلسان السياسى أو العكس؛ فترى اختلاطا واضحاً للأوراق؛ فالسياسة علم له قواعد وأصول يعرفها من درسها وتخصص فيها؛ والعلم الشرعى له منابعه وأصوله ومتخصصوه؛ ومن ثم فالاستخفاف أو «الاستسهال» فى خلط هذا بذاك من غير المؤهلين علمياً من كلا الطرفين يحدث ارتباكاً شديداً فى المفاهيم، ويعمق الصراع الدائر بين ما هو سياسى وبين ما هو شرعى، وهنا يدفع فاتورة هذا «التلبيس» الإسلام ذاته ودعوته؛ فمن أخطر ما يصيب الدعوة وطريقها أن يتحدث فى شأنها من لا يجيد مؤهلات الدفاع دون شعور بحجم القضية وأثر التحدث بها أو عنها بلا وعى أو تمكن فيقع فى مخالفة واضحة لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

ثم إنه لن يغير من واقع الناس أن تمتلئ كثير من الأفواه بالكلام المعسول والحديث الفياض عن الدين والشريعة وحكم الإسلام؛ دون أن يرى الناس نموذجاً حقيقيا يلتفون حوله معروف السيرة والمسيرة فى عمل الخير وقضاء حوائج الناس وإغاثة الملهوفين منهم؛ فتنظيف شارع واحد ورصفه خير من ألف خطبة عن فضل النظافة وآداب

الطريق، وإطعام رغيف خبز لفقير جائع أفضل ألف مرة من موعظة مطولة أو خطبة عصماء عن فضل الصدقة؛ فالأمة تحتاج لبرنامج واع وخطة راشدة يقدر فيها من يتحملون مسئولية حكم بلد في قامة مصر «أم الدنيا» ضخامة تلك المسئولية ومثولهم أمام الله تعالى وهو سائلهم عما استرعاهم واستخلفهم فينظر كيف يعملون.. فاللهم ول أمورنا خيارنا ولا تول أمورنا شرارنا.. آمين.

الإسلام وقضية الإسراف

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ محمد على أحمد الشريف - محاسب بكلية التربية - فرع دمياط - جامعة المنصورة:

الإسراف في اللغة ضد القصد ومن معانيه: مجاوزة الحد، ووضع الشئ في غير موضعه.

ويؤدي الإسراف إلى ضياع النعم وتبديد الثروات والطاقات واستنزاف الخيرات وهلاك الحرث والنسل وتدمير التوازن البيئي والإضرار بصحة وحياة الإنسان والكائنات الحية.

وللأسف الشديد، فإننا نعيش اليوم واقعاً مريراً، حيث أضحى الطعام والشراب في أغلب حياة الناس نهماً وشرهاً وإسرافاً وتبذيراً ولذة وغاية. فالأموال الكثيرة الطائلة تنفق وتهدر في صناعة الأطعمة والأشربة وتنصب الموائد الفاخرة في البيوت والفنادق والمطاعم وتجرى السباقات في إقامة وتزيين الحفلات والمناسبات ببذخ شديد.

الفقر ينتشر بين المسلمين وتعاني من مشكلات عديدة وخطيرة بسبب بذخ الأغنياء وإسراف المبذرين.

الأغنياء يسكنون القصور الفاخرة ويركبون العربات الفارهة ولا يشعرون بمعاناة الفقراء بل والملايين من المسلمين الذين لا يجدون ما يقيم أودهم.

والإسلام دين الوسطية، فلا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير، قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

(الأعراف: ٣١)

إن ديننا الحنيف يقف موقفاً فريداً متميزاً من قضية الإسراف، فهي ليست في الإسلام قضية هامشية أو اختيارية، وإنما هي قضية تكليفية طاعة للمولى عز وجل وابتغاء لمرضاته وتجنباً لمخاطر وأضرار الإسراف القاتلة. والإسراف في الإسلام نوع من التهور والتسرع وعدم التبصر بعواقب الأمور وهو دليل على الاستهتار واللا عقلانية وعدم الحكمة في تحمل المسئولية، وقد توعد القرآن الكريم المسرفين بالهلاك، قال سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾

(الأنبياء: ٩)

ومن أهم صور الإسراف، الإسراف في المشرب (الماء) وقد خلق الله سبحانه وتعالى الماء وجعله سبب الحياة حيث قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

لذلك نهى الإسلام عن الإسراف في استهلاك الماء ولو كان الغرض من ذلك الوضوء أو الغسل، فقد أخرج ابن ماجة من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص -وهو يتوضأ- فقال: «ما هذا السرف»؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار».

وأخرج مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد».

وهناك الإسراف في استهلاك مصادر الطاقة بترولية أو كهربائية.. الخ مما يؤدي إلى الاستنزاف والهدر والضياع دون الضرورة الملحة أو الحاجة الماسة، كل هذا ولا شك إسراف وتبذير وترف ينهى عنه الإسلام فمتى نسترد وعينا ونترك ما نحن فيه من إسراف.

البر والصلة

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية للبنين - إدارة الدقي - جيزة

● بر الوالدين يكون بالإحسان إليهما، وفعل ما يسرهما، فالأمر بالإحسان للوالدين ولو كانا كافرين فقد روى الإمام أحمد ومسلم - أن أم سعد بن أبي وقاص حلفت لا تكلم سعداً أبداً حتى يكفر بدينه، وقالت له زعمت أن الله أوصاك بوالديك، فأنا أمك، وأنا آمرك بهذا فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(العنكبوت: ٨)

وقال رسول الله - ﷺ -: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

● ومن الإحسان إلى الوالدين وبرهما إكرام أصدقائهما والإحسان إليهم قال الشاعر:

أكرم خليل أبيك حيث لقيته
ولقد عققت أباك إذ لم تفعل

● ومن وصل رحمه وصله الله فقد روي أن إحدى نساء المسلمات ذهبت إلي رسول الله ﷺ - وقالت: أتتني أمي وهي راغبة في عهد النبي ﷺ أي راغبة بري وصلتي مع شركها فسألت النبي ﷺ أفأصل أمي؟ قال ﷺ: «نعم صلي أمك» قال تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

(النساء: ٣٦)

وكذلك وصل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخا له من أمه بحلة أهديت إليه، وكان ذلك قبل إسلام أخيه.

● وصلة الرحم تكون سبباً في بسط الرزق والبركة في العمر قال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

الظـــالم

قال أهل اللغة:

الظالم معناه في كلام العرب: الذي يضع الأشياء في غير موضعها. ويقال: من يشبه أباه فما ظلم، أى فما وضع الشبه في غير موضعه. والظلم أيضاً هو النقصان، قال ـ تعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ٥٧)

معناه: ما نقصونا من ملكنا شيئاً إنما نقصوا أنفسهم، وقال سبحانه:

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾

(الكهف: ٣٣)

ولم تنقص منه شيئاً.

ويكون الظلم كذلك بمعنى الشرك، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾

(الأنعام: ٨٢)

أى بشرك.

رءوس النعـم

كان أبو يوسف القاضي ـ صاحب أبي حنيفة وناشر مذهبه ـ يقول: رءوس النعم ثلاثة هي:

نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، قال تعالى:

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، فاجعل صحتك في طاعة الله. ونعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.. فكن بما في يد الله أوثق مما في يدك لتكن أغنى الناس.

إن القلوب تموت وتحيا

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي! قال: أدنه من الذكر، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأتبعوها بالتطوع، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

(البقرة: ٧٤).

حقـــا

تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس أخو علم كمن بات جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفت عليه المحافل

لقد أتعبت من بعدك

رأى على بن أبي طالب عمر بن الخطاب يهنأ[1] بعيرا أجرب من إبل الصدقة، فقال أبو الحسن لأبي حفص، هلا عهدت بذلك إلى عبد يقوم به!!

فقال ـ رضي الله عنه ـ من ولي من أمر المؤمنين فهو عبد للمؤمنين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده!!

قال علي ـ رضي الله عنه: لقد أتعبت من بعدك!

لهم ما لنا.. وعليهم ما علينا

عندما هاجم قازان التترى دمشق؛ في آخر القرن السابع، أسر أسرى من المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى، فذهب ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ إليه فأجابه في فك أسرى المسلمين دون الذميين، ولكن ابن تيمية؛ رأى أن الدين يوجب عليه أن يفك أسرى اليهود والنصارى من أهل الذمة لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولم يتركه حتى فك أسرهم جميعاً.

«المسك لونى»

كانت العرب كثيرا ما تعير عنترة بن شداد - الشاعر والفارس الجاهلي الشهير - بالسواد، فلما كثرت الأقاويل في ذلك أنشد في شرح حاله هذين البيتين:

لئن أك أسودا فالمسك لونى
وما لسواد جلدى من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عنى
كبعد الأرض عن جو السماء

«النقى.. التقى»

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت، أى الخصال خير للإنسان؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين، قال: الدين والمال، قال: فإذا كانت ثلاثا، قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربع خصال، قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمسا، قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستا قال: يا بني، إذا اجتمعت الخصال الخمس فهو نقي تقي، ولله ولي، ومن الشيطان بري.

دعـــاء

اللهم أرزقنا من العقول أوفرها، ومن الأذهان أصفاها، ومن الأعمال أزكاها، ومن الأخلاق أطيبها، ومن الأرزاق أجزلها ومن العافية أكملها، ومن الدنيا خيرها، ومن الآخرة نعيمها، ومن الجنة الفردوس الأعلى.

(١) هنأ البعير: طلاه بالهناء، وهو القطران

أنبـــاء الأزهـــر



إعداد الأستاذين:
عبد الموجود أمين - يحيى سليمان

بيان الأزهر والمثقفين لدعم إرادة الشعوب العربية



د. أحمد الطيب

انطلاقًا من إدراك كبار علماء الأزهر، ومجموعة المثقفين المشاركين لهم، لمتطلبات المرحلة التاريخية الفصلية، التي تمر بها شعوب الأمة العربية في نضالها المشروع للحرية والعدالة والديمقراطية، واستئناف مسيرتها الحضارية، واستلهامًا لروح التحرر في الإسلام، والقوانين الفقهية لمشروعية السلطة، ودورها في الإصلاح وتحقيق المقاصد والمصالح العليا للأمة، واتساقًا مع مواقف الأزهر الشريف، وقادة الفكر في مصر والوطن العربي، في دعم حركات التحرر من المستعمر الغاشم والمستبد الظالم، وإيمانًا من الجميع بضرورة يقظة الأمة للأخذ بأسباب النهضة والتقدم، وتجاوز العثرات التاريخية، وإرساء حقوق المواطنين في العدالة الاجتماعية، على أساس راسخ من مبادئ الشريعة وأصولها، بما تتضمنه من حفظ العقل والدين والنفس والعرض والمال. وسد الطريق أمام السلطة الجائرة التي تحرم المجتمع العربي والإسلامي من دخول عصر التألق الحضاري، والتقدم المعرفي، والإسهام في تحقيق الرخاء الاقتصادي والنهضة الشاملة انطلاقًا من كل ذلك: فإن المجموعة التي أصدرت وثيقة الأزهر ومثلت مختلف ألوان الطيف الفكري في المجتمع المصري، قد أدارت عدة حوارات بناءة، حول ما حققته الثورات العربية من تفاعل خصب، وتجارب حميم بين مختلف المشارب والتيارات، وتوافقت على جملة المبادئ المستمدة من الفكر الإسلامي، والطموحات المستقبلية للشعوب العربية، وانتهت برعاية الأزهر الشريف إلى إعلان ضرورة احترام المواثيق التالية:

أولاً: تعتمد شرعية السلطة الحاكمة من الوجهة الدينية والدستورية على رضا الشعوب، واختيارها الحر، من خلال اقتراع علني يتم في نزاهة وشفافية ديمقراطية، باعتباره البديل العصري المنظم لما سبقت به تقاليد البيعة الإسلامية الرشيدة، وطبقًا لتطور نظم الحكم وإجراءاته في الدولة الحديثة والمعاصرة، وما استقر عليه العرف الدستوري من توزيع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، والفصل الحاسم بينها، ومن ضبط وسائل الرقابة والمساءلة والمحاسبة، بحيث تكون الأمة هي مصدر السلطات

جميعًا، ومانحة الشرعية وسالبتها عند الضرورة. وقد درج كثير من الحكام على تعزيز سلطتهم المطلقة متشبثين بفهم مبتور للآية القرآنية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾

(النساء: ٥٩)

متجاهلين سياقها الواضح الصريح في قوله تعالى قبل ذلك في الآية التي تسبق هذه الآية مباشرة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾

(النساء: ٥٨)

مما يجعل الإخلال بشروط أمانة الحكم وعدم إقامة العدل فيه مسوغًا شرعيًا لمطالبة الشعوب حكامهم بإقامة العدل، ومقاومة الظلم والاستبداد، ومن قال من فقهائنا بوجوب الصبر على المتغلب المستبد من الحكام حرصًا على سلامة الأمة من الفوضى والهرج والمرج - فقد أجاز في الوقت نفسه عزل المستبد الظالم إذا تحققت القدرة على ذلك وانتفى احتمال الضرر والإضرار بسلامة الأمة ومجتمعاتها.

ثانيًا: عندما يرتفع صوت المعارضة الوطنية الشعبية والاحتجاج السلمي، الذي هو حق أصيل للشعوب لتقويم الحكام وترشيدهم، ثم لا يستجيب الحكام لنداء شعوبهم، ولا يبادرون بالإصلاحات المطلوبة، بل يمعنون في تجاهل المطالب الوطنية المشروعة التي تنادي بالحرية والعدالة والإنصاف، فإن هؤلاء المعارضين الوطنيين لا يعدون من قبيل البغاة أبدًا، وإنما البغاة هم الذين تحددت أوصافهم فقهيًا بامتلاك الشوكة والانعزال عن الأمة، ورفع الأسلحة في مواجهة مخالفيهم، والإفساد في الأرض بالقوة، أما الحركات الوطنية السلمية المعارضة، فهي من صميم حقوق الإنسان في الإسلام التي أكدتها سائر المواثيق الدولية، بل هي واجب المواطنين لإصلاح مجتمعهم وتقويم حكامهم، والاستجابة لها واجب على الحكام وأهل السلطة، دون مراوغة أو عناد.

ثالثًا: تعد مواجهة أي احتجاج وطني سلمي بالقوة والعنف المسلح، وإراقة دماء المواطنين المسالمين، نقضًا لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها، ويسقط شرعية السلطة، ويهدر حقها في الاستمرار بالتراضي، فإذا تمادت السلطة في طغيانها، وركبت مركب الظلم والبغي والعدوان واستهانت بإراقة دماء المواطنين الأبرياء، حفاظًا على بقائها غير المشروع - وعلى الرغم من إرادة شعوبها - أصبحت السلطة مدانة بجرائم تلوث صفحاتها، وأصبح من حق الشعوب المقهورة أن تعمل على عزل الحكام المتسلطين وعلى محاسبتهم، بل تغيير النظام بأكمله، مهما كانت المعاذير من حرص على الاستقرار أو مواجهة الفتن والمؤامرات، فانتهاك حرمة الدم المعصوم هو الخط الفاصل بين شرعية الحكم وسقوطه في الإثم والعدوان. وعلى الجيوش المنظمة - في أوطاننا كلها - في هذه الأحوال أن تلتزم بواجباتها الدستورية في حماية الأوطان من الخارج، ولا تتحول إلى أدوات للقمع وإرهاب المواطنين وسفك دمائهم، فإنه:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

رابعاً: يتعين على قوى الثورة والتجديد والإصلاح أن تبتعد كلياً عن كل ما يؤدى إلى إراقة الدماء، وعن الاستقواء بالقوى الخارجية أياً كان مصدرها، ومهما كانت الذرائع والتعلات التى تتدخل بها فى شئون دولهم وأوطانهم وإلا كانوا بغاة خارجين على أمتهم وعلى شرعية دولهم. ووجب على السلطة حينئذ أن تردهم إلى وحدة الصف الوطنى الذى هو أول الفرائض وأوجب الواجبات. وعلى قوى الثورة والتجديد أن تتحد فى سبيل تحقيق حلمها فى العدل والحرية، وأن تتفادى النزاعات الطائفية أو العرقية أو المذهبية أو الدينية، حفاظاً على نسيجها الوطنى، واحتراماً لحقوق المواطنة، وحشداً لجميع الطاقات من أجل تحول ديمقراطى يتم لصالح الجميع، فى إطار من التوافق والانسجام الوطنى، ويهدف لبناء المستقبل على أساس من المساواة والعدل، وبحيث لا تتحول الثورة إلى مغانم طائفية أو مذهبية، أو إثارة للحساسيات الدينية، بل يتعين على الثوار والمجددين والمصلحين الحفاظ على مؤسسات دولهم، وعدم إهدار ثرواتها، أو التفريط لصالح المتربصين، وتفادى الوقوع فى شرك الخلافات والمنافسات، والاستقواء بالقوى الطامعة فى أوطانهم أو استنزاف خيراتها.

خامساً: بناء على هذه المبادئ الإسلامية والدستورية، المعبرة عن جوهر الوعى الحضارى، فإن علماء الأزهر وقادة الفكر والثقافة يعلنون مناصرتهم التامة لإرادة الشعوب العربية فى التجديد والإصلاح ومجتمع الحرية والعدالة الاجتماعية والتى انتصرت فى تونس ومصر وليبيا، ولاتزال محتدمة فى سوريا واليمن، ويدينون آلات القمع الوحشية التى تحاول إطفاء جذوتها، ويهيبون بالمجتمع العربى والإسلامى أن يتخذ مبادرات حاسمة وفعالة لتأمين نجاحها بأقل قدر من الخسائر، تأكيداً لحق الشعوب المطلق فى اختيار الحكام، وواجبها فى تقويمهم منعاً للطغيان والفساد والاستغلال، فشرعية أية سلطة مرهونة بإرادة الشعب، وحق المعارضة الوطنية السلمية غير المسلحة مكفول فى التشريع الإسلامى فى وجوب رفع الضرر، فضلاً عن كونه من صميم حقوق الإنسان فى المواثيق الدولة جميعاً.

سادساً: يناشد علماء الأزهر والمثقفون المشاركون لهم النظم العربية والإسلامية الحاكمة يناشدونهم الحرص على المبادرة إلى تحقيق الإصلاح السياسى والاجتماعى والدستورى طوعاً، والبدء فى خطوات التحول الديمقراطى، فصحوة الشعوب المضطهدة قادمة لا محالة، وليس بوسع حاكم الآن أن يحجب عن شعبه شمس الحرية، ومن العار أن تظل المنطقة العربية وبعض الدول الإسلامية قابعة دون سائر بلاد العالم فى دائرة التخلف والقهر والطغيان. وأن ينسب ذلك ظلما وزورا إلى الإسلام وثقافته البريئة من هذا البهتان، كما يتعين على هذه الدول أن تشرع على الفور فى الأخذ بأسباب النهضة العلمية والتقدم التكنولوجى والإنتاج المعرفى، واستثمار طاقاتها البشرية وثرواتها الطبيعية خدمة لمواطنيها، وتحقيقا لسعادة البشرية كلها.

هذا، ولا يحسبن أحد من رعاة الاستبداد والطغيان أنه بمنجاة من مصير الظالمين، أو أن بوسعه تضليل الشعوب، فعصر الاتصالات المفتوحة والانفجار المعرفى، وسيادة المبادئ الدينية والحضارية النيرة، ونماذج التضحية والنضال المشهودة عياناً فى دنيا العرب، كل ذلك جعل من صحوة الناس شعلة متوهجة، ومن الحرية راية مرفوعة، ومن أمل الشعوب المقهورة باعثا يحدوها للنضال المستميت حتى النصر. وليكن الجاهلون بالدين، والمشوهون لتعاليم الإسلام، والداعون لتأييد الطغيان والظلم والاستبداد عن هذا العبث الذى لا طائل وراءه.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٢١)

اللهم إنا نسألك رحمة تهدى بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وترد بها الفتن عنا يا رب العالمين.

مشيخة الأزهر فى:
٣من ذى الحجة سنة ١٤٣٢هـ
الموافق: ٣٠ من أكتوبر سنة ٢٠١١م

شيخ الأزهر أحمد محمد الطيب

الإمام الأكبر يؤكد: العدوان على الحرم القدسى الشريف خط أحمر

فى الوقت الذى تتسارع فيه وتيرة التهويد الصهيونى لمدينة القدس الشريف، وتتصاعد الاعتداءات الصهيونية على المقدسات الإسلامية بالحرم القدسى - وفى القلب منها المسجد الأقصى المبارك - وتتسابق المشروعات الصهيونية فى تهديد معالم الحرم الشريف، وآخرها مشروع قطار القدس - يعلن الأزهر الشريف قبلةُ العلم الإسلامى، والمرابطُ على ثغور الأمة والمدافع عن قضاياها العادلة، وطنية كانت أو إسلامية. يعلن:

أولاً: أن عروبة القدس تضرب فى أعماق التاريخ لأكثر من ستين قرنا.. حيث بناها العرب اليبوسيون فى الألف الرابع قبل الميلاد.. أى قبل عصر أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام - بواحد وعشرين قرنا.. وقبل ظهور اليهودية التى هى شريعة موسى عليه السلام بسبعة وعشرين قرنا.

ثانياً: أن شريعة موسى - عليه السلام - وتوراته، قد ظهرت بمصر، الناطقة باللغة الهيروغليفية، قبل دخول بنى إسرائيل غزاة إلى أرض كنعان، وقبل تبلور اللغة العبرية بأكثر من مائة عام. ومن ثم فلا علاقة لليهودية لا بالقدس ولا بفلسطين.

ثالثاً: إن الوجود العبرانى فى مدينة القدس لم يتعد ٤١٥ عاما - على عهد داود وسليمان عليهما السلام - فى القرن العاشر قبل الميلاد.. وهو وجود طارئ وعابر، حدث بعد أن تأسست القدس العربية ومضى عليها ثلاثون قرنا من التاريخ.

رابعاً: إذ كان تاريخ القدس قد شهد العديد من الغزوات والغزاة، فإن عبرة التاريخ تؤكد دائما أن كل

الغزاة قد عملوا على احتكار هذه المدينة ونسبتها لأنفسهم دون الآخرين.. صنع ذلك البابليون.. والإغريق، والرومان.. وكذلك الصليبيون.. ثم الصهاينة الذين يسيرون على طريق هؤلاء الغزاة، ويعملون الآن – على تهويدها واحتكارها، والإجهاز على الوجود العربي فيها.

لقد صنع الغزاة ذلك، بينما تفرد الإسلام الذى تميز بالاعتراف بكل الشرائع والملل، واحترام كل المقدسات – تفرد بتأكيد قداسة هذه المدينة وإشاعة ذلك بين كل أصحاب الديانات والملل.. الأمر الذى جعل – ويجعل – من السلطة العربية على القدس ضمانًا لمصالح الجميع، فالقدس فى ظل السلطة العربية هي دائما– مدينة الله، المفتحة الأبواب أمام كل خلق الله وعباده.

خامسًا: أن احتكار القدس وتهويدها – فى الهجمة المعاصرة – إنما يمثل خرقًا للاتفاقيات والقوانين والأعراف الدولية التى تحرّم وتجرّم أى تغيير لطبيعة الأرض والسكان والهوية فى الأراضي المحتلة، ومن ثم فإن تهويد القدس فاقد للشرعية القانونية، فضلاً عن مصادمته لحقائق التاريخ التى تعلن عروبة القدس منذ بناها العرب اليبوسيون قبل أكثر من ستين قرنًا من الزمان.

سادسًا: أن الأزهر الشريف، – ومن ورائه كافة المسلمين فى الشرق والغرب –، إذ يرفض هذه المشروعات، يحذّر الكيان الصهيوني والقوى التي تدعمه من التداعيات التى تهدد سلام المنطقة بل سلام العالم كله، ويذكّر الكيان الصهيوني ومن وراءه – بأن:

● الصليبيين قد احتلوا مناطق أوسع مما تحتله الصهيونية.. ووقعت القدس فى الأسر الصليبى سنوات تزيد على ضعف السنوات التى وقعت فيها فى قبضة الصهيونية الباغية.. ومع ذلك، مضت سنة التاريخ – التى لا تتخلف – فى طي صفحة الاحتلال، وإزالة آثار عدوان المعتدين على الحقوق والمقدسات.

● وأن الصهاينة – الذين يستندون إلى القوى الإمبريالية الغربية الغاشمة، فى محاولتهم تهويد القدس الشريف – إنما يغامرون بمستقبل اليهود أنفسهم، ويتجاوزون الخطوط الحمراء للأمة الإسلامية، التى يبلغ تعدادها نحو ربع البشرية، وهى أمة قادرة – فى يوم قريب – على انتزاع حقوقها السليبة.

● إن القدس ليست مجرد أرض محتلة، وإنما هي – قبل ذلك وبعده – حرم إسلامي ومسيحي مقدس.. وقضيتها ليست – فقط – مجرد قضيةٍ وطنية فلسطينية، أو قضية قومية عربية، بل هي – فوق كل ذلك – قضية عقدية إسلامية، وأن المسلمين وهم يجاهدون لتحريرها من الاغتصاب الصهيوني، فإنما يهدفون إلى تأكيد قداستها وتشجيع ذلك عند كل أصحاب المقدسات كى يخلصوها من الاحتكار الإسرائيلي والتهويد الصهيوني.

● والأزهر الشريف يناشد كل أحرار العالم أن يناصروا الحق العربى فى تحرير القدس وفلسطين.. كما يدعو عقلاء اليهود للاعتبار بالتاريخ، الذى شهد على اضطهادهم فى كل مكان حلّوا به إلا ديار الإسلام وحضارة المسلمين.

ويؤكد الأزهر – مرة أخرى – أن تهويد القدس، والعدوان على معالم الحرم القدسي الشريف، هو خط أحمر، وهو فى الوقت نفسه مقدمة واعدة بطيّ صفحة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.

● لقد سبق لصلاح الدين الأيوبي أن حدد طريقة تحرير القدس الشريف، عندما كتب إلى الملك الصليبي ريتشارد قلب الأسد، وقال له: «لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عن القدس أبدًا، كما لا يمكن بحال أن نتخلى عن حقوقنا فيها كأمة مسلمة.. ولن يمكنكم الله أن تشيّدوا حجرًا واحدًا فى هذه الأرض طالما استمر الجهاد»، ولقد صدّق التاريخ على كلمات الناصر صلاح الدين، ومعلوم لكل عاقل، أن للتاريخ سننًا إلهية لا تبديل لها ولا تغيير:

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٢١)

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

(الشعراء: ٢٢٧)

شيخ الأزهر أحمد محمد الطيب

بيان بيت العائلة المصرية

عقد بيت العائلة المصرية صباح يوم الخامس من المحرم سنة ١٤٣٣هـ الموافق ٣٠ من نوفمبر سنة ٢٠١١م. اجتماعا طارئا برئاسة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وحضور ممثلين للكنيسة الأرثوذكسية والطوائف المسيحية الأخرى وتدارس المجتمعون تداعيات حادث قرية الغريزات مركز المراغة محافظة سوهاج، وهو حادث قام على إثر خلاف عائلى حول مسائل مدنية إدارية لجيران من أبناء قرية واحدة فى مشكلة حياتية لا علاقة لها بالدين من قريب أو من بعيد، ولما كان الطرفان من مسلمين ومسيحيين فقد أعطى الحادث انطباعا طائفيا غير صحيح، على الرغم من أن الأسباب الحقيقية لا تمت لذلك على الاطلاق.

وقد رأى بيت العائلة إيفاد وفد مشترك من مجلس بيت العائلة إلى موقع الحادث لتقديم العزاء للطرفين في الوقت المناسب والسعى لإنهاء آثار هذا الحادث البغيض، فى إطار القانون والمحاكمة العادلة والسريعة لمن ارتكبوا هذا الحادث أو شاركوا فى الجريمة النكراء.

كما بحث المجلس في اجتماعه الإجراءات الوقائية لتفادى مثل هذه الأحداث المتكررة وتداعياتها السلبية على المجتمع المصرى، خصوصا فى ظل الأجواء الرائعة التى يعيشها شعب مصر العظيم مع بدء انتخاباته النيابية الأولى بعد ثورة ٢٥ يناير متوجها نحو حياة ديمقراطية حقيقية فى اندماج كامل بين المسلمين والمسيحين إذ أن صفوف التصويت أمام اللجان قد جمعت المصريين جميعا بلا تفرقة أو استثناء.

وسوف يبدأ بيت العائلة جولات فى مختلف محافظات الجمهورية تبدأ بمحافظة سوهاج بوفود تضم متخصصين فى كافة المجالات الثقافية والاجتماعية والتربوية إلى جانب رجال الدين من الجانبين، لأنه قد آن الأوان لأن تخرج مصر من نفق الطائفية البغيض التى رفضها التاريخ المصرى بحضاراته المتعاقبة على مر العصور.

حمى الله مصر الكنانة على مر العصور وصانها من كل شر

الإمام الأكبر: مصر فى غنى عن المذاهب التى تشيع الفرقة

إن الأزهر الشريف وقد أزعجته الظواهر الغريبة التى أخذت تطل برأسها وتتجرأ على اقتحام المساجد والعبث بحرمتها يعلن من جديد ضرورة اعتزاز الشعب المصرى، والمسلمين فى مصر بوحدة نسيجهم الدينى وتمسُّكهم – على مدار تاريخهم – بمذهب أهل السُّنّة والجماعة، المذهب الذى عاشوا فى ظله وتمسكوا بعقيدته السَّمحاء، وفكْره الوسطىّ الذى لا يُقدّسُ الأشخاص ولا يعترفُ بالعصْمة إلا للأنبياء وحْدهم، وقد حقق المسلمون المصريون فى ظلّ هذا المذهب أمجادهم التاريخية الخالدة، وحَمَوا من خلاله العالم الإسلامى كلّه، حين ردت مصر بجنودها المرابطين كتائب المغول، وطردت الصليبيين من الأراضى المقدسة، واستعادت الحرم القدسى الشريف بقيادة صلاح الدين وخلفائه الأبطال الذين قاوموا المذاهب الباطنية بالتصوف السنى الصحيح.

إن الأزهر الشريف وهو الصّرح العلمى التاريخى والمرجعية الكبرى لأهل السُّنّة والجماعة الجامع – فى الوقت نفسه – بين الالتزام الشرعى. والولاء الروحى الحق لآل البيت الكرام، ليؤكِّد مرّة أخرى أنه بالمرصاد لمن يريدون تمزيق الوَحْدة الدينية والنسيج الروحى لشعبنا المسلم فى مصر وبخاصة فى هذه الظروف التى تحتاج إلى مزيد من الوَحْدة والوعى والتنبه للمخططات التى تريد بذر عوامل الفتنة والصراع بين أبناء الوطن الواحد، ولن يسمح الأزهر قطُّ فى يوم من الأيام باصطناع النزاعات التى تتخذ التشيُّع المزعوم لآل البيت غطاءً يحمى أهدافها الطائفية وأوهامها المذهبية وتوسعاتها الإقليمية، وتدّعى المحبّة لآل البيت، رضى الله عنهم الذين يبرأون من دعاوى هذه الثقافة التى تجفر الكراهيّة والحقد على صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم وأزواجه الأطهار.

وإن مصر لفى غنى عن هذه المذاهب التى تُشيع الفُرقة، وتُروّجُ لمعاداة أصحاب النبى وخلفائه بناءً على أساطيرَ متخلفة، ورؤى تاريخية عفى عليها الزمن، ولسوف يتصدّى الأزهر بكلّ قوّة للمحاولات الإجرامية الخبيثة التى تصدمُ العقلَ الصّريحَ وترد النقل الصحيح، وتنقض أصول القياس عند جماهير العلماء والعقلاء من الناس. ومصر فى تاريخها الطويل، ودساتيرها وقوانينها – لا تعرف إلا الأديان السماوية التى تعيش على أرضها، ويحترمها كل المصريين.

حفظ الله مصر الكنانة، وحفظ أزهرها عرينًا لأهل السنة والجماعة وحمى شعبها من المتربصين بها والكائدين لها والحاقدين على شعبها..

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٢١)

شيخ الأزهر د.أحمد الطيب

أنباء العالم الإسلامى

إعداد الأستاذين/ محمود الفشنى - أحمد رضوان

التعاون الإسلامى تدين تسريع بناء المستوطنات

أدان الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو بشدة قرار الحكومة الإسرائيلية بتسريع بناء وحدات استيطانية فى الضفة الغربية معتبرا هذا القرار دليلاً على عجز إسرائيل وعنجهيتها إزاء انحياز المجتمع الدولى لحق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم المستقلة بعد موافقة (اليونسكو) على منح دولة فلسطين العضوية الكاملة لديها.

وقال الأمين العام للمنظمة إن القرار قد كشف النوايا الإسرائيلية المبيتة التى تثبت عدم جديتها فى المضى فى عملية سلام حقيقية قائمة على مبدأ الدولتين، وحذر من الانعكاسات السلبية لتحدى إسرائيل للإرادة الدولية، لافتا إلى أن من شأن التنصل الإسرائيلى المتواصل من عملية السلام، أن يقود المنطقة إلى تطورات خطيرة وغير محمودة العواقب. من ناحية ثانية شدد أوغلو على عزم منظمة التعاون الإسلامى على دعم الجهود الفلسطينية فى مساعيها لنيل العضوية الكاملة فى الأمم المتحدة حتى إقامة دولة فلسطين المستقلة وعاصمتها القدس.

الحماس ضد الإسلام فى الشرطة الأمريكية

أعرب وزير العدل الأمريكى إريك هولدر، عن سخطه من الدروس التى تعطى لموظفى الشرطة الفيدرالية وفيها أن الإسلام دين عنيف جداً وأكد أن هذه الدروس لن تكون أبدا ضمن برنامجه.

وقال هولدر خلال جلسة استماع فى مجلس الشيوخ إن لهذه الدروس قوة تدمر الجهود الأساسية التى نقوم بها وقد تكون لها أيضا عواقب سلبية على قدرتنا فى التواصل بشكل فعال مع الأمريكيين المسلمين وأوضح أن الأمريكيين المسلمين هم شركاء أساسيون فى التصدى للإرهاب وهم يشكلون مصادر موثوقة للمعلومات التى سمحت بتحقيق عدد كبير من النجاحات.

ملحد بريطانى يهاجم المدارس الإسلامية

هاجم الأكاديمى البريطانى الملحد ريتشارد دوكنز الدين الإسلامى، حيث وصف المناهج التى تدرسها المدارس الإسلامية، فى المملكة المتحدة بالقمامة.

ورأى ريتشارد دوكنز وهو أستاذ علم الأحياء بجامعة أكسفورد أن طلاب المدارس الإسلامية يتجاهلون الأدلة العلمية من أجل اتباع تعاليم القرآن. وأشارت صحيفة «ميل اون صنداى» إلى أن دوكنز أصبح معاديا للدين بوجه عام، وشديد الانتقاد للمدارس الدينية سواء اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية، مدعيا أن مناهجها متأثرة بالتعاليم والأجندة الدينية. وقال الملحد البريطانى إن جل من قابلهم فى المدرسة يعتقدون أنه إذا حدث تعارض بين القرآن والعلم، فإن القرآن على صواب، زاعماً أن أطفال بريطانيا تم حشو رءوسهم بقمامة غريبة.

وكان دوكنز وقد وصف النقاب بكيس قمامة مما أثار موجة من الغضب بين مسلمى بريطانيا.

النيويورك تايمز: النهضة نموذج عصرى للإسلاميين العرب

وصفت صحيفة «النيويورك تايمز» الأمريكية حزب حركة النهضة التونسى بأنه نموذج عصرى للأحزاب الإسلامية التى تسعى لتشكيل حكومة ائتلافية مع أحزاب ليبرالية فى الدول التى شهدت الربيع العربى فى الشرق الأوسط.

وأشارت الصحيفة إلى إعلان حزب النهضة البدء فى مشاورات مع أحزاب ليبرالية نجحت فى دخول المجلس التأسيسى التونسى وفق النتائج الأولية لفرز الأصوات فى

الانتخابات التى جرت مؤخراً من أجل تشكيل الحكومة الجديدة بعد الثورة التى أطاحت بالرئيس التونسى زين العابدين بن على وتحدثت الصحيفة عن إعلان الأحزاب الليبرالية فى تونس دخولها فى مشاورات مع حزب النهضة لتشكيل حكومة جديدة تحت قيادة الحركة التى أظهرت النتائج الأولية حصولها على أعلى الأصوات بنسبة تصل إلى ٤٠٪ من مجموع أصوات الناخبين.

٥٣٪ من النرويجيين يطالبون بغلق الحدود أمام المسلمين

كشفت بعض استطلاعات الرأى الحديثة بالنرويج أن ٥٣٪ من النرويجيين يطالبون بإغلاق الحدود أمام المسلمين والمهاجرين الذين لا تتوافق ثقافتهم مع ثقافة المجتمع النرويجى، كما عاد الجدل مرة أخرى حول ارتداء المسلمات للحجاب فى الأماكن العامة بالنرويج، حيث تمارس ضغوط كبيرة على النساء المسلمات لاجبارهن على خلع الحجاب بحجة الاندماج فى المجتمع.

حماس تطالب اليونسكو بحماية التراث الفلسطينى

دعت وزارة الثقافة فى الحكومة الفلسطينية فى غزة منظمة اليونسكو لحماية المقدسات والتراث الفلسطينى الذى يتعرض للتخريب والهدم على أيدى المستوطنين تحت سمع وبصر الحكومة الإسرائيلية فى مدينة القدس المحتلة وقالت فى بيان لها إن اليونسكو مطالبة اليوم أكثر من أى وقت مضى للقيام بمسئوليتها خاصة فى أعقاب قبول فلسطين عضوا باليونسكو، وحذرت الوزارة من تصاعد الهجمة من قبل قوات الاحتلال والمستوطنين على مقدسات إسلامية لها أكثر من ألف وأربعمائة عام وناشدت منظمة المؤتمر الإسلامى بالتحرك الفاعل ضد أعمال التخريب والاعتداء التى يقوم بها الاحتلال والمستوطنون ضد المقدسات الإسلامية عبر كل الوسائل وعدم الاكتفاء بإصدار البيانات التى لا تردع الاحتلال.

ملتقى إقليمى فى ماليزيا لكليات القرآن الكريم

احتضنت العاصمة الماليزية «كوالالمبور» الملتقى الإقليمى الأول لكليات القرآن الكريم الذى نظمته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بالتعاون مع الهيئة العامة لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لرابطة العالم الإسلامى، وبالتنسيق مع الجامعة الإسلامية العالمية فى ماليزيا. جاء الملتقى فى إطار برنامج التعاون المشترك بين الإيسيسكو والهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم الهادف إلى الارتقاء بمستوى تدريس

القرآن من خلال التنظيم والتخطيط والتطوير والمتابعة والتقويم للمؤسسات القرآنية في الدول المشاركة في الملتقى والاستفادة من تجاربها الناجحة في تعليم القرآن الكريم. شارك في الملتقى ممثلون من معظم الدولة الإسلامية.. وناقش المشاركون قضايا تعليم القرآن الكريم في ضوء النظريات المعاصرة بهدف تطوير خبراتهم وتعزيز كفاءاتهم وتشجيع التواصل بين العاملين في الكليات القرآنية.

دبلوماسي أمريكي: جرائم «إسرائيل» سبب معاداة السامية

أكد هوارد جوتمان سفير الولايات المتحدة لدى بلجيكا، أن هناك علاقة بين ارتفاع معدلات معاداة اليهود في العالم وسياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين، حيث ذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن جوتمان قال: إنه ينبغي لنا أن نميز بين معاداة السامية التي ندينها وبين الكراهية الناتجة عن الصراع بين المسلمين واليهود، وأن اتفاق سلام ينهي الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل من شأنه أن يقلل من حالات معاداة السامية من قبل المسلمين.

جاءت هذه التصريحات خلال مشاركته في مؤتمر «حقوقيون من أجل مكافحة معاداة اليهود في بروكسل» الذي حضره محامون يهود في مختلف أنحاء أوروبا، وجوتمان هو من أصل يهودي، وكان ناشطاً في مجال جمع الأموال للحزب الديمقراطي والانتخابات الرئاسية. وقد أثارت تصريحات جوتمان ذهول العديد من الخبراء والمحامين اليهود الذين حضروا المؤتمر، ورفضوا هذه التصريحات، وقال أحدهم إن معاداة السامية ليست وليدة هذه الأيام، وهذا لا يعني أن اليهود هم الشر الوحيد في العالم.

١٤٦ مليون درهم من «هيئة الهلال الأحمر الإماراتي» لأبناء الصومال

أعلنت هيئة الهلال الأحمر الإماراتي أن حجم المساعدات التي قدمتها للصومال، بلغت أكثر من ١٤٦ مليون درهم إماراتي «٢٣٨ مليون جنيه» معظمها أنفقت في مشروعات تنموية لصالح المحتاجين من الشعب الصومالي.. شملت المساعدات الأنشطة الإغاثية والإنسانية التي بلغت قيمتها نحو ٥٩ مليون درهم، فيما بلغت تكلفة المشاريع التنموية ٨٧ مليون درهم، ونفذت الهيئة نحو ألفين و١٢٤ مشروعاً تنموياً في المجالات الصحية والتعليمية والأوقاف الخيرية، إلى جانب مشروعات توفير مصادر المياه لمحاربة القحط والجفاف؛ وذلك ضمن جهود الهيئة المستمرة لتخفيف المعاناة عن الشعب الصومالي الذي عانى كثيراً من ويلات الحروب والأزمات والكوارث الطبيعية.

{Have you (O Muhammad peace be upon him) not seen of those who went forth from their homes in thousands, fearing death? Allāh said to them, "Die". And then He restored them to life. Truly, Allāh is full of bounty to mankind, but most men thank not. And fight in the Way of Allāh and know that Allāh is All-Hearer, All-Knower.}

[Al-Baqarah (The Cow): 243-244]

The Imam said: "This was the Legislation of Allah (Glory be to Him) in the coward nations, which do not defend their homeland. The life and the death of the nations are known to all of the people. The death of one nation means that the enemy defeated them and rid it from their autonomy. Thus, it does not become a nation, as the people scattered, and they have no separate entity, but they follow others. Their life means gaining their autonomy.

Cowardness in defending against the enemies by defeat and fleeing is the death full of shame, and the real life is the one protected from the aggressors.

Fighting for the sake of Allah is more general than fighting for the sake of religion, which includes defending the nation, if a greedy enemy starts to extort our country and to enjoy its bounties or of the tyrant enemy wants to humiliate us and take over our autonomy. If this was not for the sake of protecting our religion from temptation, then fighting for the sake of reality is like fighting for the sake of protecting the truth. All of these are forms of Jihad for the sake of Allah. The jurists agreed that if an enemy entered any of the Islamic countries, fighting is imposed on every Muslim."[5]

Extorting the homeland equals temptation in religion, which should be fought to liberate the conscience and homeland.

As Islam revives hearts and homeland: {'O you who believe! Answer Allāh (by obeying Him) and (His) Messenger when he (peace be upon him) calls you to that which will give you life, and know that Allāh comes in between a person and his heart (i.e. He prevents an evil person to decide anything). And verily, to Him you shall (all) be gathered.}

[Al-Anfal (The Spoils of War): 24]

The culture of resistance, witnessing, and martyrdom is the only way to the life of the individual, nation, and civilization. By this reality, which is embodied since the emergence of Islam as a religion, nation, and homeland, the Muslims achieved the Islamic dignity and honor, which Allah (Glory be to Him) willed to be from His Dignity and that of the Messenger of Allah:

{But honour, power and glory belong to Allāh, and to His Messenger (Muhammad peace be upon him), and to the believers, but the hypocrites know not.}[Al-Munafiqun (The Hypocrites): 8]

If the tyrant pharonic and crusade nation want to kill the current Islamic wakefulness and the liberty of the countries of Islam, the culture of witnessing and martyrdom is the culture of: {the rising by night (for Tahajjud prayer)} [Al-Muzzamil (The Enshrouded One): 6]

It achieves one of the miracles of Islam along the land extending from the nation of Islam and the pharaohs of the twenty first century:

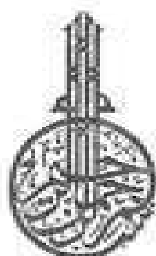
{Verily, Allāh will help those who help His (Cause). Truly, Allāh is All-Strong, All-Mighty.}

[Al-Hajj (pilgrimage): 40]

[5] (The complete works of Imam Muhammad 'Abdoh, vol. 4, p.695 and 697, a study and report by Dr. Muhammad 'Imarah, Beirut edition, 1972.

AL-AZHAR MAGAZINE

Safar, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION

January, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

AL AZHAR
MAGAZINE

www.AlazharMag.com

ترقب في العدد القادم

عدد تذكاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- البيان عن أكمل إنسان للأستاذ الدكتور محمد عمارة
- وهؤلاء الأئمة والعلماء يكتبون عن رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم)
- محمد عبده - المراغي - شلتوت - السنهوري باشا - ابن باديس -
- العقاد - الرافعي - الغزالي - البشير الإبراهيمي - هيكل باشا - فتح الله كولن - الفلكي باشا - البوصيري - أحمد شوقي - البارودي - الخضر حسين - ميخائيل وردى - نظمى لوقا
- مع الأبواب الثابتة

هدية العدد

كتاب (محمد صلى الله عليه وسلم الرسول السياسي)

للدكتور محمد عمارة



السعر ١٥٠ قرشاً

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

ربيع الأول ١٤٣٣هـ • فبراير ٢٠١٢م الجزء "٣" السنة "٨٤"

عدد تذكاري

مع هدية العدد

محمد ﷺ الرسول السياسي

للدكتور محمد عمارة

البيان عن أكمل إنسان

للأستاذ الدكتور محمد عمارة

هؤلاء الأئمة والعلماء يكتبون

عن

رسول الإسلام

صلى الله عليه وسلم

العقاد — فتح الله كولن

محمد عبده — البشير الإبراهيمي

ابن باديس — أحمد شوقي

السنهوري باشا — الغزالي

الفلكي باشا — شلتوت

البوصيري — الخضر حسين

هيكل باشا — المراغي — نظمى لوقا

البارودي — الرافعي

ميخائيل ويردى

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

البيان عن أكمل إنسان



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

• هو: أبو القاسم، محمد ﷺ (٥٣ ق.هـ-١١هـ/ ٥٧١-٦٣٣م) ابن عبدالله (٨١ ق.هـ-٥٣ ق.هـ/ ٥٤٤-٥٧١م) ابن عبدالمطلب (١٢٧ ق.هـ-٤٥ ق.هـ/ ٥٠٠-٥٧٩م) ابن هاشم.

• من قريش، يتصل نسبه الشريف إلى عدنان، من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

• وأمه: آمنة بنت وهب (٤٥ ق.هـ/ ٥٧٥م) القرشية، الزُهرية.

• ولد بمكة المكرمة، في يوم الاثنين (٩ ربيع الأول سنة ٥٣ ق.هـ/ ٢٠ أبريل سنة ٥٧١م).

• وأرضعته -بالبادية- حليمة السعدية، من بني سعد بن بكر بن هوازن.

• نشأ يتيمًا؛ فلقد مات أبوه عبدالله قبل أن يولد؛ فاحتضنته أمه آمنة إلى أن توفيت، وهو في السادسة من عمره، فكفله جده عبدالمطلب، إلى أن مات -وهو في الثامنة من عمره- فكفله عمه أبو طالب (٧٥ ق.هـ-٣ ق.هـ/ ٥٤٠-٦٢٠م).

• شبَّ كاملَ العقل، عالي الهمة، صادقًا أمينًا، شجاعًا، فاضل الأخلاق، حتى لقد لقبه قومه -واشتهر بينهم- بالصادق الأمين.

• شارك في عقد «حلف الفضول» الذى قام -بمكة- لنصرة المظلومين، وأخذ حقوق الضعفاء من الأقوياء.

• اشتغل برعي الغنم حينًا، ثم بالتجارة، وسافر إلى الشام في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية (٦٨ ق.هـ-٣ ق.هـ/ ٥٥٦-٦٢٠م).

• وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة خديجة، وأنجب منها كل أولاده -باستثناء إبراهيم الذى مات طفلاً- وظلت خديجة زوجه الوحيدة حتى توفيت -وهو في الخمسين من عمره- سنة (٣ ق.هـ/ ٦٢٠م)؛ فتعددت -بعدها- زوجاته.

• لم يعش بعده من أولاده، ويتجب سوى ابنته فاطمة (١٨ ق.هـ-١١هـ/ ٦٠٥-٦٣٢م)، التي تزوجت من ابن عمه علي بن أبي طالب (٢٣ ق.هـ-٤٠هـ/ ٦٠٠-٦٦١م)، فكان نسلها من ولديها: الحسن بن علي (٣-٥٠هـ/ ٦٢٤-٦٧٠م) والحسين بن علي (٤-٦١هـ/ ٦٢٥-٦٨٠م).. على حين توفي بقية أولاده -في حياته-: القاسم، وعبدالله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وإبراهيم.

• لم يعبد صنمًا منذ نشأ، وكان يميل إلى التأمل؛ بحثًا عن الحقيقة، ثم أخذ يخلو إلى نفسه شهر رمضان من كل عام، في غار حراء -بمكة- يتحنث (يتعبد) فيه تعبد الحنفاء ببقايا شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.

• وبينما هو بالغار في رمضان سنة (١٣ ق.هـ/ ٦١٠م) جاءه الوحي من الله بالنبوة الخاتمة، والرسالة الخالدة؛ فأخذ يدعو المقربين منه إلى الإسلام -سرًا، ثلاث سنوات- فآمن به نفر قليل، ثم جهر بالدعوة إلى الإسلام.

• نزل عليه القرآن منجمًا (مفرقًا)، وكان كُتَّاب الوحي يكتبونه ويحفظونه، وهو معجزته التي تحدى بها قومه، والإنس والجن أن يأتوا بشيء من مثله.

• أصابه الأذى -هو وأصحابه- من مشركي قريش وملئها وأغنيائها؛ فصبروا وصابروا، وحاصرته قريش -مع من آمن به- في شعب بني هاشم ثلاث سنوات، وقاطعوهم اقتصاديًا واجتماعيًا، حتى كادوا أن يهلكوا جوعًا؛ فأذن لبعض أصحابه -من الرجال والنساء- بالهجرة -مرتين- إلى الحبشة،

وأخذ يعرض نفسه، ودعوته على القبائل؛ طلبًا للحماية، والإيمان، وكسرًا للحصار.

• ولما استجاب نفر من يثرب (المدينة المنورة) من قبيلتي الأوس والخزرج لدعوة الإسلام سنة (٢ ق.هـ) ثم عادوا في العام التالي سنة (١ ق.هـ)، فتعاقدوا معه -عند العقبة- على تأسيس الدولة الإسلامية الأولى -بالمدينة- بدأ أصحابه في الهجرة إليها.

• هاجر -بصحبة أبي بكر الصديق (٥١ ق.هـ-١٣ هـ/ ٥٧٣-٦٣٤م)- من مكة إلى المدينة، فدخلها يوم الاثنين (٨ ربيع الأول سنة ١ هـ/ ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، فأقام مسجد النبوة، ووضع «الصحيفة-الكتاب» دستورًا للدولة الإسلامية الأولى.

• ولاحقته قريش -في مهجره- بالعداء، والعدوان؛ فأذن الله سبحانه وتعالى له ولأصحابه بالقتال دفاعًا عن حرية العقيدة والدعوة، ودفاعًا عن وطن الإسلام ودولته:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

(الحج: ٣٩-٤٠)

• وفي سبيل حماية الدين، والدولة، والوطن؛ وفي سبيل تحرير الشرق من استعمار الرومان وقهرهم؛ كانت غزواته الثمانية والعشرون، وبها انتصر الإسلام على الشرك والوثنية، وعلى تحالف اليهود مع الوثنية؛ وتوحّد العرب في دولتهم الإسلامية -لأول مرة في التاريخ- ودخل الناس في دين الله أفواجا، وبدأت الدعوة إلى الإسلام تتعدى شبه الجزيرة العربية إلى جوارها ومحيطها، ولم يتجاوز ضحايا كل تلك الغزوات -التي أعقبتها كل تلك الانتصارات- (٣٨٦ قتيلاً) هم كل شهداء المسلمين وقتلى المشركين!

• وفي (٢٥ ذي القعدة سنة ١٠ هـ/ فبراير سنة ٦٣٢م) خرج حاجًا حجة الوداع، وخطب -على عرفات- أطول خطبة، التي قنن فيها الحقوق المدنية، والدينية للإنسانية جمعاء، ثم عاد إلى المدينة المنورة.

• وفي (٢٧ صفر سنة ١١هـ/ مايو سنة ٦٣٢م) كان مرضه الذي توفي فيه؛ فصعدت روحه الطاهرة الزكية المطمئنة إلى بارئها في (يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٧ يونيه سنة ٦٣٢م)، بعد عمر بلغ -بالتقويم القمري- (٦٣) عامًا وثلاثة أيام، وبالتقويم الشمسي (٦١) عامًا، وثمانية وأربعين يومًا.

• وكان عدد الذين اهتدوا إلى الإسلام -عند وفاته- (١٢٤,٠٠٠) مائة وأربعة وعشرين ألفًا، بينما بلغ عدد النخبة والصفوة، والقيادات، والريادات التي تربت في مدرسة النبوة نحوًا من ثمانية آلاف، بينهم أكثر من ألف من النساء.

• كان خطيبًا، أوتي جوامع الكلم، إذا خطب -في نهي أو زجر- احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه؛ كأنه منذر بقتال، وإذا خطب في الحرب اعتمد على قوس، وإذا خطب في السلم اعتمد على عصا.

• وكان محدثًا، حلو المنطق، في كلامه ترتيل وترسيل، وإذا تكلم تبسم.

• وكان متواضعًا، يجلس ويأكل على الأرض، ويخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم أهله، ويلبي دعوة الفقير، والرقيق إلى خبز الشعير، ويجالس المساكين.

• وكان طويل الصمت، قليل الضحك، وإذا ضحك وضع يده على فمه، يمزح -قليلاً- ولا يقول إلا حقًا، وإذا مزح غض بصره.

• وكان شديد الحياء، إذا صافحه أحد لا يترك يده حتى يكون المصافح هو الذي يترك يده.

• ضخم الرأس، واليدين، والقدمين، ربعة -ليس بالطويل ولا بالقصير- واسع الجبين، سبط الشعر (مرسله)، في وجهه تدوير، وميل إلى الحمرة، كث اللحية، عظم الفم، في أسنانه تفليج وتفريق، عيناه سوداوان، يرسل شعره إلى أنصاف أذنيه، أزهر اللون، ضخم رءوس العظام، يلبس قلنسوة بيضاء، ويمسح رأسه ولحيته بالمسك، وإذا مشى لم يلتفت، وإذا التفت التفت جميعا، يتكفأ في مشيته كأنما ينحدر من علٍ، وإذا اهتم لأمر أكثر من مس لحيته.

• وكان شجاعًا بطلاً، إذا حمي وطيس الحرب احتمى به أصحابه، وإذا اشتد بأسها كان أقرب أصحابه إلى الأعداء.

• وكان يقف بين يدي مولاه -بقيام الليل- حتى تتورم قدماه، رفيقًا بالإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.

• وكان عاشقًا للجمال في الكون، وللطيب، لا يصدُّ نفسه عن طيبات الحياة وزينتها.

• وكان -وهو المعصوم في التبليغ عن ربه- أكثر الناس مشورة لأصحابه يُخضع اجتهاده لاجتهادات الأغلبية، وإذا عزم على غزوة أخفاها، وورّى بغيرها.

• وصف نفسه فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، ووصفته زوجه عائشة (٩ق.هـ-٥٨هـ/ ٦١٣-٦٧٨م) فقالت: «كان خلقه القرآن»، ووصفه الله سبحانه وتعالى فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم: ٤)

وصدق الله العظيم، وصلى عليه الله وسلم، والملائكة، والمؤمنون إلى يوم الدين[1].

(١) انظر كتابنا (محمد ﷺ المصطفى المعصوم: بشر يوحى إليه) طبعة دار السلام - القاهرة.

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ
هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا
الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١١ - ١٦)

تنطق هذه الآيات بأن ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قد سول له الباطل وزين له سوء عمله فرآه حسنا، وشوه في نظره كل حق لم يأته على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلي فهو يراه قبيحا. وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفراده، وهو:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاء، وتنفرون الناس من محمد صلى الله عليه وسلم والأخذ بما جاء به من الإصلاح، الذي يجتث أصول الفساد، ويصطلم جراثيم الأدواء، ويحيي ما أماتته البدع من إرشاد الدين، ويقيم ما فرضته التقاليد من سنن المرسلين.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

بالتمسك بما استنبطه الرؤساء، وما كان عليه الأحبار والعرفاء من تعاليم الأنبياء، فإنهم أعرف بسننهم، وأدرى بطريقتهم، فكيف ندع ما تلقيناه منهم، ونذر ما يؤثره آباؤنا وشيوخنا عنهم، ونأخذ بشئ جديد، وطارف ليس له تليد؟

هكذا شأن كل مفسد: يدعي أنه مصلح في نفس إفساده. فإن كان على بينة من إفساده عارفا أنه مضل - وإنما يكون كذلك، إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له - فإنما يدعي ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالتمويه والمواربة. وإن كان مسوقا إلى الإفساد بسوء التقليد الأعمى الذي لا ميزان فيه لمعرفة الإصلاح من الإفساد إلا الثقة بالرؤساء المقلدين، فهو يدعيه عن اعتقاد، ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم.

وإن كان أثر تقليدهم، والسير على طريقتهم، مفسدا للأمة في الواقع ونفس الأمر، لأن الوجود والحقيقة الواقعة لا قيمة لهما ولا اعتبار في نظر المقلدين، بل هم لا يعرفون مناشئ الفساد ومصادر الخلل، ولا مزالق الزلل، لأنهم عطلوا نظرهم الذي يميز ذلك، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك، بصدهم عن سبيل الإسلام، الداعي إلى الوحدة والالتئام، فكان ذلك منهم دعاء إلى الفرقة والانفصام، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الأصنام، وأي إفساد في الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين، والأرض إنما تفسد وتصلح بأهلها؟

ولذلك، قال تعالى:

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾

فابتدأ الكلام المؤكد لإثبات إفسادهم بكلمة ﴿ أَلَا ﴾ التي يراد بها التنبيه والإيقاظ وتوجيه النظر، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها.

﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

بأن هذا إفساد غرز في طبائعهم، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم. وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين، وأنهم على اعتقاد ضعيف يشهد له العمل كما تقدم في تفسير آية:

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾

وإذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمة - كما قدمنا - فيحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه، وأن فيه هدى له، فإنها حجة على كثير ممن يدعون الإسلام بالقول، ويعملون بخلاف ما جاء به، ويتبعون غير سبيله.

ثم صورت الآيات ذلك الجهل والغرور في الفريقين بصورة أخرى أشد تشويها مما قبلها، لأن تلك صورتهم في عملهم، وهذه صورتهم في جوهر إيمانهم. وهي:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾

الذين تعتقدون كما لهم، وترون تعظيمهم وإجلالهم، كإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم، الذين كان الإيمان راسخا في جنانهم، ومؤثرا في وجدانهم، ومصرفا لأبدانهم، أو كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم.

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

ويعنون بالسفهاء أتباع النبي ﷺ الواقفين عندما كان عليه، المعرضين عن غير ما أنزل إليه، لما تضمنه الأمر من الشهادة لهم بأنهم في إيمانهم كأتباع أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم، وكانوايفتخرون بما يتناقلون من سيرتهم.. فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾

أي وحدهم دون من عرضوا بهم، لأنهم لهم سلفا صالحا تركوا الاقتداء بهم، زعما أن المتأخر لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم، لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به، واحتذاء عمله، لعلوه في الدرجة، وبعده في المنزلة، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم، وإن لم يسيروا على سنتهم، فأي الفريقين أجدر بلقب السفيه؟ أهم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة ولكنهم لا يهتدون بها وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل؟ أم من لا سلف له إلا عبدة الأوثان، وقلبه مع ذلك مطمئن بالإيمان، وأعماله تشهد له بالإحسان، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الإسلام، فكانوا كأتباع أولئك الأنبياء الكرام، بل ربما سبقوهم بالفضائل، وزادوا عليهم في الفواضل؟ لا شك أن أولئك المفسدين بعدما تقدم لهم من سلف صالح، ودين قيم، هم السفهاء، دون هؤلاء العقلاء.

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

أن السفه محصور فيهم، ومقصور عليهم، وإنما عندهم شعور ما بأنهم ركبوا هواهم، ولم يتبعوا هدى سلفهم ولا هداهم، ينتحلون له العلل الضعيفة، ويتمحلون له الأعذار السخيفة، فهو لم يصل إلى حد العلم الذي تتكيف به النفس.. ويكفي في إثبات سفههم، أنهم يعرفون حسن حال سلفهم، ويعترفون به ولكن لا يقتدون بهم، ولا يقتفون أثرهم وإنما يعتمدون في نجاتهم وسعادتهم على تلك الأماني والتعلات، كقولهم:

﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾

وقولهم:

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

وشعبه وأصفياؤه، وإنما هو نفي العلم الكامل يزيل الشبه ويذهب بالعلل، ويبعث على الاقتداء بالعمل.

وهذا أيضا حجة على كثير من اللابسين لباس الإسلام، وهم من هذا الصنف، يعتقدون كمال سلفهم، ولا يقتدون بهم، وإنما يطمعون في سعادة الدنيا والآخرة

بانتسابهم إلى أولئك السلف العظام، ولكونهم من أمة النبي عليه السلام، وهي خير الأمم، بشهادة الله في القدم، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال، في العقائد والأخلاق والأعمال، وتسعى في إصلاح البشر، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وكما سيأتي في تفسير:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وتفسير:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وليس عند هؤلاء السفهاء شيء من هذه الصفات، إلا الأماني والتعلات.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٤ - ١٦)

الآيات التي تقدمت في وصف هذا الصنف من الناس الذي قلنا إنه يوجد في كل أمة وملة وفي كل عصر.. كانت عامة تصور حال أفراده في كل زمان ومكان، وكان أسلوبها ظاهرا في العموم كقوله ﴿ يُخَادِعُونَ ﴾ إلخ.. وقوله: وإذ قيل لهم كذا ـ قالوا كيت وكيت.

وأما قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾

الآية، فهو وصف قد يختص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل، جاء بعد الأوصاف العامة، وحكي بصيغة الماضي ليكون كالتصريح بتوبيخ تلك الفئة من هذا الصنف، التي بلغت من التهتك في النفاق، والفساد في الأخلاق، أن تظهر بوجهين، وتتكلم بلسانين، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف.

ولهذه الخصوصية في الآية، قال بعض الواهمين: إن جميع تلك الآيات في منافقي ذلك العصر.. وقد مر تفنيده فلا نعيده.. على أن هذه الفئة أيضا توجد في كل عصر وزمان، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان.. والحكاية عنها بصيغة الماضي الواقع لا تنافي ذلك، لأن ﴿ إِذَا ﴾ تدل على المستقبل، فمعنى الفعل مستقبل.. وإنما اختيرت صيغة الماضي لتوبيخ أولئك الأفراد وإيذانهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة لا تروج في سوق المؤمنين لأنها مزجاة، وأن استهزاءهم مردود إليهم، ووباله عائد عليهم.

كان أولئك النفر يدهنون في دينهم، فإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾

من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار

الباطل، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوساوس والأوهام، وما يلقون فيه من أشواك المعايب وتضاريس المذام.. وقال مفسرنا «الجلال»: إنهم الرؤساء، والصواب ما قلنا.. وكم من رئيس مغمول، لما في نفسه من الضعف والخمول، لا ينصر اعتقاده، وإن كان معترفًا بأن فيه رشاده، وفي عزته وإسعاده.. وكم من مرءوس شديد العزيمة، قوى الشكيمة يكون له في نصر ملته، والمدافعة عن أمته، ما يعجز عن الرؤساء، ولا يأتي على أيدي الأمراء.

وللذبابة في الجر المعد يد

تنال ما قصرت عنه يد الأسد

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

أي إنا معكم على عقيدتكم وعملكم، وإنما نستهزئ بالمسلمين ودينهم.. فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم وفضح بهتانهم، فقال:

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾

أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشيء في النفس، وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضا تهكمًا.. وهذا المعنى محال على الله تعالى.. والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه، والمستهزئ بإنسان في نحو مدح لعمله واستحسان لعمله مع اعتقاد قبحه، غير مبال به ولا معتن بعلمه ولا بعمله، حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه، ويلزمه استرسال المستهزأ به في عمله القبيح.. فمعنى:

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾

أنه يمهلهم، فتطول عليهم نعمته، وتبطئ عنهم نقمته، ثم يسقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

والعمه عمى القلب وظلمة البصيرة، وأثره الحيرة والاضطراب وعدم الاهتداء للصواب.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾

المشار إليه بأولئك، هم الذين بينت حالهم الآيات السابقة بأنهم يقولون: آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين إلخ.. وهو صريح في أن طغيانهم وعمههم من كسبهم، ولم يجبروا عليه بخلق ربهم.. وقد فسروا ﴿ ٱشْتَرَوُاْ ﴾ باستبدلوا، وهو غير سديد، لأن بين اللفظين فصلًا في المعنى.. وكلنا نعتقد - والحق ما نعتقد - أن القرآن في أعلى درج البلاغة، لا يختار لفظًا على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه، ولا يرجح أسلوبًا على أسلوب يمكن تأدية المراد به، إلا لحكمة في ذلك وخصوصية لا توجد في غير ما اختاره

ورجحه.. ووجه اختيار ﴿ ٱشْتَرَوُاْ ﴾ على استبدلوا، أن الأول أخص من وجهين:

أحدهما: أن الاستبدال لا يكون شراء، إلا إذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه، سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية.

وثانيهما: أن الشراء يكون بين متبايعين، بخلاف الاستبدال.. فإذا أخذت ثوبًا من ثيابك بدل آخر، يقال إنك استبدلت ثوبًا بثوب.. فالمعنى الذي تؤديه الآية، أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بإزائها يعتقدون الحصول عليها من الناس، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح، وهذا هو معنى الشراء والاشتراء، ومثلهما البيع والابتياع، ولا يؤديه مطلق الاستبدال.

ذلك بأنه كان عندهم كتب سماوية فيها مواعظ وأحكام، وفيها بشارة بأن الله يرسل إليهم نبيًا يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصر التقاليد، وأغلال التقيد بإرادة العبيد، ويرعى جميع الأمم بقضيب من حديد، فيرجع للعقول نعمة الاستقلال، ويجعل إرادة الأفراد هي المصرفة للأعمال.. فكان عندهم بذلك حظ من هداية العقل والمشاعر، وهداية الدين والكتاب.. ولكن نجمت فيهم الأحداث والبدع، وتحكمت فيهم العادات والتقاليد، وعلا سلطان ذلك كله على سلطان الدين.. فضل الرؤساء في فهمه، يتحكم تقاليدهم في أحكامه وعقائده، بضروب من التحريف والتأويل.. وأهمل المرءوسون العقل والنظر في الكتاب بحظر الرؤساء وأثرتهم.. فكان الجميع على ضلالة في استعمال العقل وفي فهم الكتاب، بعد أن كانا هدايتين ممنوحتين لهم لإسعادهم.. وكانت المعاوضة عند الفريقين في ذلك المنافع الدنيوية: للرؤساء المال والجاه والتعظيم والتكريم باسم الدين، وللمرءوسين الاستعانة بجاه رؤساء الدين على مصالحهم ومنافعهم، ورفع أثقال التكاليف، بفتاوى التأويل والتحريف.

هكذا استحبوا العمى على الهدى - وهو العقل والدين - رغبة في الحطام، وطمعًا في الجاه الكاذب.

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾

في الدنيا إذ لم تثمر لهم ثمر حقيقية، بل خسروا وخابوا بإهمالهم النظر الصحيح الذي لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به.. وإسناد الربح إلى التجارة عربي في غاية الفصاحة، لأن الربح هو النماء في التجر، وهذه المعاوضة هي التي من شأنها أن تثمر الربح، فإسناده إليها نفيا.. أو إثباتًا إسناد صحيح لا يحتاج إلى التأويل، كأنه قيل فلم يكن نماء في تجارتهم. على أن ذلك التأويل المعروف من أن إسناد الربح إلى التجارة لأنها سببه

والوسيلة إليه وأن العبارة من المجاز العقلي ـ تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها، ولازال المجاز العقلي من أفضل ما يزين البلغاء به كلامهم، ويبلغون به ما يشاءون من تفخيم معانيهم.

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

في دينهم لأنهم لم يأخذوه على وجهه، ولم يفهموه حق فهمه، أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التي زجوا أنفسهم فيها ـ أو ما كانوا مهتدين في طور من الأطوار، ولا مس الرشد قلوبهم في وقت من الأوقات، لأنهم نشئوا على التقليد الأعمى من أول وهلة، ولم يستعملوا عقولهم قط في فهم أسراره، واقتباس أنواره.. ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة، فيتناقض أول الآية مع آخرها، إذ ليس كان من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتديًا.. وهؤلاء حملوه فباعوه ولم يحملوه، وينظر إلى هذا الاشتراء ويشبهه الاستحباب في قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾

(فصلت: ١٧).

الله أعلم.

ومن مباحث الأداء، قراءة حمزة والكسائي «الهدى» بالإمالة أي جعل مدها بين الألف والياء وهي لغة بني تميم، وعدم الإمالة لغة قريش وهي الفصحى.. ولما كان يعسر على لسان من اعتادها تركها، أذن الله تعالى بها فيما أقرأ جبريل النبي ﷺ.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(البقرة: ١٧ ـ ١٨)

هذا مثل من مثلين ضربهما الله في هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم.. وكان من عناية الله تعالى في بيان حاله، أن قفى على ذات التفصيل في شأن فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذي يقصد به تجلي المعنى في أتم مجاليه، وتأثر النفوس بما أودع فيه، ناهيك بما في التنقل في الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول، ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه.. ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم، وداءه دفين، وعلاجه متعسر ـ لأنه متولد من الدواء الذي كان يجب أن تكون فيه الصحة ونعمة العافية ـ لما كان من البلاغة ولا من الحكمة، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية، كما قلنا في تزييف رأي من ذهب إلى أن الكلام في

تلك الشرذمة من المنافقين في عصر التنزيل.

ضرب الله تعالى لهذا الصنف في مجموعه مثلين، ينبئان بانقسامه إلى فريقين، خلافًا لما في أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد، وأن معناهما وموضوعهما واحد.

الأول: من آتاهم الله دينا وهداية، عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها، وصلح حالهم بها، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة، آخذين بإرشاد الوحي، واقفين عند حدود الشريعة.. ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهرًا وباطنًا، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم.. بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة، إنما كان أمرًا خصوا به أو خيرًا سيق إليهم، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم، ولم تصلح به ضمائرهم، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالًا لغيرهم.. ولذلك، لم يتفكروا قط في كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم، لأن حفظ الموجود، أيسر من إيجاد المفقود.. بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اهتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان، ونجوم الفرقان، لزعمهم أن فهمه لا يرتقي إليه إلا أفراد من رؤساء

الدين، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا، وبكتبهم إذا فقدوا.

فمثل هذا الفريق، من الصنف المخذول في فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة، وانطماس الآثار دونها عنده ـ مثل من استوقد نارًا إلخ.. والوجه في التمثيل أن من يدعي الإيمان بكتاب نزل من عند ربه، وقد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدي بها في الشبهات، ويستضيء بها في ظلمات الريب والمشكلات، ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشهوات، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد، وكان بالنظر فيها يمشي على هداية وسداد، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث، وعصب عينيه شيطان الغرور، فذهب عنه ذلك النور، وأطبق عليه جو الضلالة، بل طفيء فيه نور الفطرة، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه، فهو بمنزلة الأعمى الأصم الذي لا يبصر ولا يسمع.

وأما الفريق الثاني: فقد ضرب الله له المثل في قوله:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

إلخ، وهو الذي بقي له بصيص من النور، فله نظرات ترمي إلى ما بين يديه من الهداية أحيانًا، ولمعاني التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة، ويأتلق في نظره الحين بعد الحين، عندما

تحركه الفطرة، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك، وهو فى تخبطه يسمع قوارع الإنذار الإلهى ويبرق فى عينيه نور الهداية، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار، وإذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لا يدرى أين يذهب ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق، كمن يضع أصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح، يخاف من تلك القوارع أن تقتله، ومن عواصف النذر أن تهلكه.

هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالًا وفى تفسير الآيات تفصيل ما أشرنا إليه.

قال تعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾

العرب تستعمل لفظ «الذى» فى الجمع كلفظى «ما» و«من» ومنه قوله تعالى:

﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾

«التوبة: ٦٩»

وإن شاع فى الذى الإفراد لأن له جمعا وقد روعى فى قوله:

﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

معناه، والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولًا ومراعاة المعنى آخرا والتفنن فى إرجاع الضمائر متفرعة، ضرب من استعمال البلغاء، يقرر المعنى فى الذهن ويهبه فضل تمكن وتأكيد، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعانى المختلفات.

﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾

يقال ضاءت النار و الشمس وأضاءت «لازم» ويقال ضاء المكان وأضاءته النار أى أظهرته بضوئها قال العباس رضى الله عنه فى النبى صلى الله عليه وسلم.

وأنت لما ظهرت أشرقت الأر
ض وضاءت بنورك الأفق

استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الإلهية بتصديقهم، فلما أضاءت لهم بروقها، ووضح لهم طريقها، فاجأتهم التقاليد الموروثة، وباغتتهم العادات المألوفة، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد، وما يتوقعونه فى الإعراض عنها من المضار والمفاسد، عن الاستعانة بذلك الضوء على ذلك الصراط المستقيم، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم بل استبدلوا هذا الديجور، بذلك الضياء والنور، وهذا هو معنى ذهاب نورهم وإنما قال: «ذهب الله بنورهم»، ولم يقل ذهب نورهم، أو أذهب الله نورهم – للإشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها، معتقدين صحة شريعته التى دعا الناس إليها، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل، وعافوا ذلك المورد السلسبيل.

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية فى التوجه إليه وقصد اتباع هداه، والاستضاءة بنوره الذى وهبه إياه، فإذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه، وذهب بنوره وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة، وما كان هؤلاء فى ظلمة واحدة، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التى فتنوا بها، وبتعدد أنواع الهداية التى أعرضوا عنها، ولذلك قال:

﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

شيئا حذف مفعول يبصرون إيذانا بالعموم، أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقا من طرقها، لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سننه، وإهمالهم هدايته، ووكلهم إلى أنفسهم ويا ويل من وكله الله إلى نفسه، وحرمه توفيقه، نسأل الله العافية.

هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية، فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده، وعدم الإبصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق، أو يذر شارق، أو يصيح طارق، فتكون الهداية، تنكشف الغواية ولذلك، عقبه بقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ أى أنهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقيه المرشدون إليها من الحجج القاطعة، والدلائل الناصعة، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ، ولا يصغون لتنبيه منبه:

فما أضيع البرهان عند المقلد

بل لا يسمعون وإن أصاخوا، ولا يفقهون إن سمعوا، فكأنهم صم لم يسمعوا وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها، فلا يسألون بيانا، ولا يطلبون برهانا، وفقدوا خير منافع الأبصار، وهو نظر الاستفادة والاعتبار، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزجروا، ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا، ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ عن ضلالتهم، ولا يخرجون من ظلماتهم، لأن من وقع فى أرض فلاة فى ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتا يهتدى به، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه، ولا أن يرى بارقا يؤمنه ويقصده فهو لا يرجع من تيهه، بل يظل يعمه فى الظلمات، حتى يفترسه سبع ضار، أو يصل إلى شفا جرف هار، فينهار به فى شر قرار.

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

«البقرة: ٢٧٠»

***

أقسام السنة النبوية عند الإمام محمود شلتوت



٢

(١٣١٠-١٣٨٣هـ/١٨٩٣-١٩٦٣م)

السنة فى اصطلاح الفقهاء:

● وكما أخذت كلمة (سنة) عند الأصوليين هذا المعنى، أخذت عند الفقهاء معنى آخر، وهو الصفة الشرعية للفعل المطلوب طلباً غير جازم، بحيث يثاب المرء على فعله، ولا يعاقب على تركه.

والفرق بين اصطلاح الأصوليين واصطلاح الفقهاء، أنها عند الأصوليين: اسم لدليل من أدلة الأحكام، فيقال: هذا الحكم ثبت بالسنة أى لا بالقرآن، أما عند الفقهاء فهى: حكم شرعى يثبت للفعل بهذا الدليل، فيقال: هذا الفعل سنة، أو حكمه السنية، أى ليس فرضاً ولا واجباً، فهى على هذا حكم من الأحكام، لا دليل من الأدلة.

ومما تقدم يتبين أن كلمة (السنة) مرت بها أطوار أربعة:

أ- معناها فى اللغة.

ب- معناها فى صدر الإسلام ولسان الشرع.

جـ- معناها عند الأصوليين.

د- معناها عند الفقهاء.

ومن الواضح أنها فيما نحن بصدده (مصادر الشريعة) لا يراد منها سوى اصطلاح الأصوليين؛ لأنها بهذا الاصطلاح هى التى اتخذها العلماء مصدراً من مصادر التشريع، ودليلاً من أدلة الفقه، يستنبطون منها الأحكام ويرجعون إليها - كما قلنا - فى تفهم القرآن.

شبهة المخالفين فى أن السنة مصدر من مصادر التشريع:

● ويهمنا هنا أن نعلم أن جماعة من الباحثين أبوا أن يتخذوا هذه الأحاديث المروية مصدراً من مصادر التشريع، رأوا أن القرآن بدلالاته المختلفة، وإشاراته المتعددة، وما تناقله المسلمون بالعمل، كفيل ببيان أحكام الله، وأن ما جاء من هذه الأحاديث لم يكن صادراً عن الرسول إلا باعتباره إماماً للمسلمين، يقدر مصلحتهم التى تحددها الظروف وتمليها

الأحوال، وليست من قبيل التشريع العام الملزم فى جميع الأزمنة والحوادث والأشخاص.

ويستدلون على هذا بمثل قوله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣]

وقوله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]

وقوله عزوجل:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الأسراء:٩]

وغير ذلك مما يدل دلالة واضحة على أن القرآن فيه كفاية المسلمين فى دينهم وتشريعهم. ويرون أن البيان الذى كلفه الرسول ما هو إلا التطبيق العملى لما فهمه من القرآن، وهو (السنة) بالمعنى المعروف أولاً.

ويستدلون أيضاً بأن الأحاديث لو كانت تشريعاً عاماً كالكتاب، لأمر الرسول بتدوينها وحفظها، كما فعل ذلك فى القرآن، وليس من المعقول أن يكون قوله ﷺ مصدراً لإيجاب أو تحريم يتعلق بأمة خالدة. ثم لا يأمر - وهو الرسول المكلف بالبلاغ والبيان - بتدوين ما به البلاغ والبيان حفظاً له من الضياع والاختلاف.

ومع هذا فقد وجدت أحاديث تمنع من تدوين الحديث، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ومنها ما جاء فى البخارى عن ابن عباس أنه قال: لما اشتد بالنبى ﷺ وجعه قال: «إيتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده»، قال عمر: إن النبى غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا.

قالوا: ولقد رأينا الخلاف يشتد بين المحدثين، بعضهم مع بعض، والفقهاء بعضهم مع بعض، وهؤلاء مع هؤلاء، فى تصحيح الحديث أو رفضه، والتعويل عليه فى الدلالة أو عدم التعويل، وذلك مما يشهد بأن الحديث لو كان أصلاً فى التشريع والتحليل والتحريم، لما ترك بدون تحديد وضبط، حتى تثور حوله هذه الخلافات الشديدة.

ولقد كان من أثر هذا أن رفض جماعة من العلماء كثير من الأحاديث المروية، لاعتبارات فقهية لم يعتمدوا فيها على غير الرأى العقلى البحت[١].

بهذا ونحوه استدلت هذه الطائفة، وأسقطت الأحاديث المروية من أصول التشريع، ورأت أن كل ما ورد منها قولاً، أو فعلاً، أو تقريراً، مما لم يتواتر عملياً،

(١) راجع الجزء الثاني من كتاب [إعلام الموقعين] لابن القيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١هـ).

قبيله - إن صحت روايته، وثبت اتصاله - الاجتهاد الذى يتغير تبعاً للمصلحة، وليس من التبليغ الدائم والشرع العام، كما أنه ليس من الهوى الذى نفاه الله عن رسوله ﷺ بقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

[النجم: ٣، ٤]

على أن القوم ما كانوا يرمونه بالهوى إلا فيما كان ينطق به قرآناً ووحياً من عند الله.

الرد على شبهة هؤلاء:

● ولكن المحققين من العلماء، قد أثبتوا بالسنة قولاً وعملاً، كثيراً من الأحكام التشريعية الدائمة، كما اعتمدوا عليها فى بيان القرآن بتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، وبيان مجمله، وغير ذلك، معتمدين فى هذا على القرآن نفسه، إذ يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

[الحشر: ٧]

ويقول عزوجل:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

[النساء: ٥٩]

ويقول سبحانه:

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

[النساء: ٨٠]

ويقول تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[النساء: ٦٥]

ويقول عزوجل:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

[النساء: ٥٩]

وقد أقر النبى ﷺ معاذاً على اعتبار السنة مصدراً من مصادر التشريع، حينما بعثه إلى اليمن، واستقر ذلك عند الأصحاب حتى كتبها عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى فى عهده إليه بالقضاء، واعتبرها مصدراً تالياً للكتاب.

ومن هنا يتبين أن الرأى السابق مخالف لإجماع الذين يعتد بإجماعهم، وأن ما ذكروه من الشبه لا قيمة له أمام العمل المستمر من عهد الرسول إلى يومنا هذا، فى نزوع المسلمين فى تعرف أحكامهم إلى السنة المروية. وإذا كانت السنة العملية المتواترة حجة عندهم، فسنة المسلمين العملية المتواترة فى جميع الأجيال السابقة هى استدلالهم على الأحكام بما يصح من أحاديث الرسول أقوالاً كانت أو غير أقوال.

ومع اتفاق العلماء على أن السنة مصدر من مصادر التشريع، فقد جعلوها فى المرتبة الثانية بعد القرآن، فلم يكن لها عندهم حكم مع صريحه.

الفروق بين القرآن والسنة وأثرها:

● ويرجع ذلك إلى فروق بينهما نجمل أهمها فيما يأتى:

أولاً: القرآن قد اتخذ له الرسول ﷺ كتاباً يكتبونه ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله، بينما السنة لم يتخذ لها كتاباً، ولم يكتب منها إلا القليل، بل ورد كما تقدم النهى عن كتابتها اكتفاء بحفظها فى الصدور.

ثانياً: القرآن نقل إلينا بالتواتر حفظاً وكتابة، بينما السنة قد نقلت فى معظمها بطرق الآحاد، ولم يتواتر منها إلا القليل.

ثالثاً: القرآن لم ينقل منه شئ بالمعنى، ومنع ذلك فيه منعاً باتاً، بينما السنة قد أبيح فيها ذلك، ونقل كثير منها بالمعنى، ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل.

رابعاً: كان الأصحاب يراجعون النبى ﷺ عند اختلافهم فى حرف من القرآن، وكان يحكم بينهم فيه، إما بتعيين إحدى القراءتين أو بإجازتهما، بينما السنة لم يعهد فيها شئ من ذلك.

أثر هذه الفروق

وقد كانت هذه الفروق أصلاً فى انحصار مصدر العقيدة فى القرآن، وعدم الاعتماد فى ثبوتها على السنة وكانت فى الوقت نفسه سبباً عظيما فى اتساع نطاق الخلاف فى دائرة السنة أكثر منه فى دائرة القرآن، فإن الخلاف فيها تناولها من جهة الثبوت ومن جهة الدلالة، ومن جهة المعارض لها منها أو من غيرها، بينما القرآن لم يتناوله الخلاف إلا فيما يختص بجهة الدلالة أو بجهة المعارض له منه إن وجد، وسيتضح هذا حين نذكر أسباب الخلاف بين العلماء فى فقه القرآن والسنة.

القرآن.. وثبوت العقيدة

● وتطبيقاً للمبادئ التى ذكرناها، يتبين لنا أن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم، وذلك فيما كان من آياته قطعى الدلالة (لا يحتمل معنيين فأكثر).

وأما ما كان غير قطعى فى دلالته محتملاً لمعنيين فأكثر، فهذا لا يصلح أن يتخذ دليلاً على عقيدة يحكم على منكرها بأنه كافر، وذلك كالآيات التى استدل بها بعض العلماء على رؤية الله بالأبصار فى الدار الآخرة:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

[يونس: ٢٦](٢)

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾

[المطففين: ٢٢، ٢٣](٣)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

[القيامة: ٢٢، ٢٣]

---

(٢) وقد فسروا بقيها رؤية الله.

(٣) وقد قالوا إن السياق يجعل المنظور إليه هو الله تعالى

ولم يسلم لهم آخرون من العلماء فهمهم فيها، بل نفوا الرؤية المذكورة بآية أخرى

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام: ١٠٣]

وإذن فثبوت العقيدة بالقرآن أو عدمه مبنى على قطعية الدلالة أو ظنيتها، أما قطعية الورود فهذا لا شك فيه، إذ القرآن كله قد وصل إلينا - كما أنزله الله - متواتراً جيلاً عن جيل.

السنة.. وثبوت العقيدة

منشأ ظنية السنة:

● وإذا كانت العقيدة لا تثبت إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته، كان لابد من تبيين المبادئ التى تقوم عليها قطعية السنة أو ظنيتها.

وأول ما يجب التنبيه له فى هذا المقام أن (الظنية) تلحق السنة من جهتى الورود والدلالة: فقد يكون فى اتصال الحديث برسول الله ﷺ شبهة، فيكون ظنى الورود، وقد يلابس دلالته احتمال، فيكون ظنى الدلالة، وقد يجتمع فيه الأمران: الشبهة فى اتصاله، والاحتمال فى دلالته، فيكون ظنياً فى وروده ودلالته، ومتى لحقت (الظنية) الحديث على أى نحو من هذه الثلاثة فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها، وإنما يثبت الحديث العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعياً فى وروده وفى دلالته.

التواتر والآحاد:

ولكى يتضح مناط (القطعية والظنية) فى ورود الحديث ينبغى أن نبين ما قرره العلماء فى (التواتر والآحاد) ليكون مناراً يهتدى به من يريد الوصول إلى الحق، قسم العلماء (السنة) إلى قسمين: ما ورد بطريق التواتر، وما ورد بطريق الآحاد، وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حداً من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب، ولابد أن يكون ذلك متحققاً فى جميع طبقاته: أوله ومنتهاه ووسطه، بأن يروى جمع عن النبى ﷺ ثم يروى عنهم جمع مثلهم، وهكذا حتى يصل إلينا، وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة.

ويقول بعض علماء الأصول: (الخبر المتواتر: هو الذى اتصل بك من رسول الله ﷺ اتصالاً بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه، وذلك أن يرويه قوم لا يحصى عددهم، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله، وذلك مثل: القرآن، والصلوات الخمس، وأعداد الركعات، ومقادير الزكوات)[4].

الآحاد لا تفيد اليقين:

هذا هو التواتر الذى يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ، أما إذا روى الخبر واحد، أو عدد يسير ولو فى بعض طبقاته؛ فإنه لا يكون متواتراً مقطوعاً بنسبته إلى

(٤) أصول البزدوى.

رسول الله ﷺ، وإنما يكون (آحاديا) فى اتصاله بالرسول شبهة، فلا يفيد اليقين[5].

إلى هذا ذهب أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه، وقد جاء فى الرواية خلاف ذلك، وفيها يقول شارح مسلم الثبوت[6]: (وهذا بعيد عن مثله فإنه مكابرة ظاهرة) وقال البزدوى: (وأما دعوى علم اليقين - يريد فى أحاديث الآحاد - فباطلة بلا شبهة؛ لأن العيان يرده؛ وهذا لأن خبر الواحد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال، ومن أنكر هذا فقد سفّه نفسه وأضل عقله.

وقال الغزالى: (خبر الواحد لا يفيد العلم وهو - أى عدم إفادته العلم - معلوم بالضرورة. وما نقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجود العمل، إذ يسمى الظن علماً، ولذا قال بعضهم: خبر الآحاد يورث العلم الظاهر، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن).

وقال الإسنوى: (وأما السنة فالآحاد منها لا يفيد إلا الظن).

وقال البزدوى تفريعاً على أن خبر الواحد لا يفيد العلم: (خبر الواحد لما لم يفد اليقين لا يكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد؛ لأنه مبنى على اليقين، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل).

وقال الإسنوى: (إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن، والشارع إنما أجاز الظن فى المسائل العملية وهى الفروع، دون العملية كقواعد أصول الدين).

وهكذا نجد نصوص العلماء من متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضرورى لا يصح أن ينازع أحد فى شئ منه، ويحملون قول من قال[7]: (إن خبر الواحد يفيد العلم) على أن مراده العلم بمعنى الظن كما ورد، أو العلم بوجوب العمل. على أن الكلام إنما هو فى إفادته العلم على وجه تثبت به العقيدة، وليس معنى هذا أنه لا يحدث علماً لإنسان ما، فإن من الناس من يحدث العلم فى نفسه بما هو أقل من خبر الواحد الذى نتحدث عنه، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد، ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها، فإن الله تعالى لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن، ومن هنا يتأكد أن ما قررناه من أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات قول مجمع عليه وثابت بحكم الضرورة العقلية التى لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء!

يتبع

(٥) ولا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما. انظر: مسلم الثبوت والتحرير.

(٦) هو بحر العلوم، أبو العياش عبد العلى محمد بن نظام الدين محمد اللكنوى الأنصارى - ومؤلف (مسلم الثبوت) هو محب الله البهارى.

(٧) كابن حزم فى كتابه «الأحكام».

الرسول الخاتم



للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

في الليلة الثانية عشر من ربيع الأول، عام الفيل، (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام). ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، بمكة، ولد يتيمًا، توفي والده قبل أن يولد، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية، ويروى أقل من ذلك. وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضًا، فاحتضنه جده عبد المطلب، وبعد سنتين من كفالته توفي جده، فكفله من بعده عمه أبو طالب.

وكان شهمًا كريمًا، غير أنه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله، وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم، على ما به من يُتْم فقد فيه الأبوين معًا، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقم على تربيته مهذب، ولم يعن بتثقيفه مؤدب، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل، بدنًا وعقلًا وفضيلة وأدبًا، حتى عرف بين أهل مكة، وهو في ريعان شبابه، بالأمين.

أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصًا مع فقر القُوَّام، فاكتهل ﷺ كاملًا والقوم ناقصون، رفيعًا والناس منحطون، موحدًا وهم وثنيون، سلمًا وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعًا على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيمًا فقيرًا أميًا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده، ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بُغِّضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله:

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾

«الضحى: ٧»

لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

•••

وجد شيئًا من المال يسد حاجته - (وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته) - بما عمل لخديجة -رضي الله عنها- في تجارتها، وبما اختارته بعد ذلك زوجها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه، لكنه لم ترقه الدنيا، ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر، والمراقبة والتحنث[1] بمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي، وتجلى عليه النور القدسي، وهبط عليه الوحي من المقام العلي، في تفصيل ليس هذا موضعه.

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سُلب من ملكه، وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، وفي قناعة بما وجده من شرف النسبة إلى المكان، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف «أبرهة» الحبشي[2] على ديارهم، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومنتجع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم، وتقدم بعض جنده فاستاق عددًا من الإبل

(١) أي التعبد بمناجاة الله.

(٢) لقب بالأشرم، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة، وكان في الأصل عبدًا لرجل روماني، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن، وكان مسيحيًا، بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٣١م. انظر دائرة المعارف الإسلامية.

فيها لعبد المطلب مائتا بعير، وخرج عبدالمطلب في بعض قريش لمقابلة الملك، فاستدناه وسأله حاجته فقال: هي أن ترد إلى مائتي بعير أصبتها، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير، فأجابه: أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه.

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام، وعبدالمطلب في مكانه من الرياسة على قريش، فأين من تلك المكانة محمداً ﷺ، في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع مُلكًا أو يطلب سلطانًا؟؟.. لا مال، لا جاه، لا جند، لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده ما يُكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة.

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرءوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم، وكفالته لهم كشف الغمم، بل وإحياء الرمم؟؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مُقوِّم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم. ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية، ينصره في عمله، ويمده في الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله. ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل. ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي.

أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة؟.. نادى في الوثنيين بترك أوثانهم، ونبذ معبوداتهم، وفي المشبهين المتغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم، وفي الثنوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان، ورد كل شيء في الوجود إليه، أهاب بالطبيعين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به. صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السماوات والأرض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم. تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين به، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في الاستعانة برب واحد، يستوي جميع الخلق في النسبة إليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضّل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة. وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التي أخذتْ بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الأمل. مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعتْه من الشرائع الإلهية، فبكّت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قُصد من وحيها، اتباعًا لشهواتهم، ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم، واستلفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثا، عامة وسادات، إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشد إليه عقله وفكره، وإن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين مُختلفين، وإن كانا ممتزجين، وإنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق. دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهوتهم، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته. عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحُجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم

للعبر، ويحوطهم مع ذلك، بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه، عادل فى أمره ونهيه، أو أب حكيم فى تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم فى شدته، رحيم فى سلطته.

ما هذه القوة فى ذلك الضعف؟؟ ما هذا السلطان فى مظنة العجز؟! ما هذا العلم فى تلك الأمية؟! ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية؟!. إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا، ذلك خطاب الله القادر على كل شىء، الذى وسع كل شىء رحمة وعلما، ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف[٣]، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه، بعيدا عن الظنة، بريئا من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أى برهان على النبوة أعظم من هذا؟!.. أمى قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء، ليمحصوا ما كانوا يعلمون؟! فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء؟! ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء؟؟ غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها؟!.

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم؟.. أأقول ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم؟! لا، لا أقول، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه، إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه. نبى صدق الأنبياء، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(٣) مفردها غلاف.



كتاب (حياة محمد) (*)

بقلم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وجد الإنسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص، وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل، وظهر ضعفه وتضاءل غروره، ونبى الإسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود، فقد جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخلقه وعلمه. ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى الشىء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة؛ وأمامهم جهاد طويل، وبعد شاسع، وطريق لا نهاية له.

والنبوة هبة الله لا تنال بالكسب؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادر على حملها. الله أعلم حيث يجعل رسالته. ومحمد ﷺ أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنه، وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها. وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها. غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم، فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحيانا.

أمر محمد ﷺ بأن يبلغ عن ربه، ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة، وترك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته، كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء، وجاء الوحى مفصلا قاطعا فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول، فهناك

(*) تقديم الشيخ المراغى لكتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل باشا.

مجال واسع للبحث عن عظمة النبي ﷺ قبل الوحي، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي. فقد صار مبلغا عن ربه داعيا إليه، حاميا تلك الدعوة وحرية الداعين، مدافعا عنهم؛ وأصبح حاكم الأمة الإسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها ومنظم جميع الصلات والروابط فيها، وبينها وبين غيرها من الأمم، وقد أقام العدل في ذلك كله، وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم في كل ما صدر عنه من قول أو فعل، وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة، وينابيع البلاغة التي يطأطئ البلغاء رءوسهم أمامها إجلالا وهيبة؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضيّ من الله ومن المسلمين.

وكل هذه النواحي تستحق الدرس والتمحيص، وليس في مقدور شخص واحد أن يفيها حقها، بل ليس في مكنة شخص واحد أن يوفى على الغاية في ناحية من هذه النواحي.

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله، كسائر العظماء، أضيف إليها ما ليس منها، إما عن حب وهوى وحسن قصد، وإما عن سوء قصد وحقد. غير أنها تمتاز عن سائر العظماء جميعهم بأن منها شيئا كثيرا ضمه الوحي الإلهي وضمن حفظه القرآن المطهر، وشيئا كثيرا روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدثين، وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة، وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها، وأن تحلل التحليل العلمي النزيه، ملاحظا في ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعادات.

وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) في سيرة محمد ﷺ ويسر لي أن اطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه. والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية، غنيّ بآثاره فيها عن التعريف. وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة، ومكنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منهما على حظ عظيم، وناظر وجادل وهجم ودافع في المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفي السياسة وغيرها، فنضج عقله وكمل علمه واتسع اطلاعه وامتد أفقه، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قويّ وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه. بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال في مقدمته: (لست مع ذلك أحسب أني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد؛ بل لعلي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قويّ. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها.

وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وها هي ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته).

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه؛ فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذم المقلدين، وأنب من يتبع الظن وقال: (إن الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا) وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها. ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا في القرآن، وهي معجزة عقلية. وما أبدع قول البوصيري:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به

حرصا علينا، فلم نرتب ولم نهم

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه، وقدساير الدكتور غيره من العلماء في هذا، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين، انظر كتب الكلام ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله، فيقول آخرون: لا، إن أول واجب هو الشك، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان، وهو وإن كان نوعا من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية، أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف في المنطق. وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها. وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدر، ورتب ووازن، وقرب وباعد، وعرض الأدلة وهذبها وحللها؛ ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء. وقد فعل هذا ليجافي التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان، ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه.

وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد، ثم البحث والنظر. فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة، فليس هناك جديد عندنا، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق، وبعد أن نشأ التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناضج وأفادوا منها في العلم والعمل، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة.

هذا القانون العلمي في البحث معروف قديما وحديثا. والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير. ولا يتفاوت الناس كثيرا في معرفة القانون، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون.

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة؛ لكن الإنسان الرازح تحت أحمال الوراثة في دمه وعقله، وأحمال البيئة في البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات، كيف يسهل عليه تطبيق القانون؟ هذا هو موضع الداء قديما وحديثا وهو سبب تعدد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر، ومن أمة إلى أمة. والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياءها، وقلّ أن تجد فيها شيئا يصونه حرز أو بقية حصن؛ بل سرى التبدل إلى قواعد العلم التي لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعا للشك.

ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها. والآراء في الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفي التغذية لا تزال مطية للتبدل والتحول. وهكذا إذا أمعنا النظر لا نجد أمانا لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافرًا فيه.

ولكن ما نسبة هذه الأشياء التي يتوافر فيها البرهان إلى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام وتمجه الأذهان المريضة، وتفرضه السياسة؛ ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة في مخالفة غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء! ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يوما من الأيام إلى الدخول في حمى الحق وحصن اليقين؛ وهو الوحي الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة.

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه.

يقول بعض علماء الكلام أن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهي لدقائق الوجود، وأنا أقرر أيضا أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرّب إلى العقل الإنساني طريق فهم ما كان غامضا مبهما، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت: ٥٣)

والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحوّل القوّة إلى مادة، وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طيّ الأبعاد، وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الإسراء فأتى بشيء طريف.

ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات، وحسبي أن أنبه إلى تلك الحسنات إجمالاً، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة، ويهديه المنطق الدقيق وتسعده الفطرة الصادقة، وسيرون أن الدكتور كان مخلصا الإخلاص كله للحقيقة، عامر القلب بما في الوحي المحمدي من هدى ونور، وبما في سيرة النبي ﷺ من جمال وجلال وعظمة وعبرة، مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدي سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة، وينتشلهم من ظلمة المادة ويبصّرهم بنور الإيمان، ويوجههم إلى النور الإلهي، فيدركون به سعة رحمته التي وسعت كل شيء، وعظمة مجده الذي تسبّح به السموات والأرض وكل شيء فيهما، وعزّته التي تتضاءل أمامها الموجودات، ألا تراه يقول: (وأذهب أبعد مما تقدم فأقول: إن هذا البحث جدير بأن يهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تلتمسها، وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الإسلام ورسوله وتلتمس هذا النور في (تيوزوفية) الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق.

(فالتفكير الإسلامي على أنه تفكير علمي على الطريقة الحديثة في صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، هو من هذه الناحية واقعي بحت، ينقلب تفكيرا ذاتيا حين يتصل الأمر بصلات الإنسان بالكون وخالق الكون).

ويقول: (لكن طلائع القضاء على الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه، فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره، والثورة الروحية التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره).

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع؛ فإن ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق، ومن عناية علمائه بدراسة الإسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأئمة قديما وحديثا، ومن إنصاف بعضهم للنبي ﷺ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الإسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم، هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعا عنه، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله، وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التي نشأ فيها، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه، وقد بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء! وإذا كان النبي ﷺ خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هاد مرشد، وكان دينه أكمل دين بنص الوحي القاطع، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب.

حياة محمد

محمد حسين هيكل

وقد وُفّق الدكتور في تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض، فجاء كتابه عقدا منضدا وسلسلة متينة محكمة الحلقات، وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانا قويّا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضيّ القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين، فيملك عليه أمره، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفي على آخر ما بيده من البحث.

وفي الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب في بيان أغراضها.

وأختم كلمتي هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل عليّ غضبك، أو تحل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله).

ذكرى الميلاد النبوى



للإمام الشيخ محمود شلتوت

تاريخ ميلاد الرسول

فى النصف الثانى من القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام، وفى مكة، إحدى قرى بلاد العرب، ولد محمد من أبوين كريمين، يتصل نسبهما بنبى الله إسماعيل، وقد مات أبوه، عبدالله بن عبدالمطلب، وهو فى بطن أمه آمنة بنت وهب، لم تنفخ فيه روح الحياة، ومكث بعد ولادته إلى السنة الخامسة من عمره فى بنى سعد، حيث كانت ترضعه حليمة السعدية، وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه إلى المدينة، ومكثت به شهراً فى ضيافة بنى النجار، أخوال أبيه عبدالله. وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه كيلا يشتغل قلبه بالأمومة، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة، فانتزعها منه أثناء أوبتهم إلى مكة، وهكذا نشأ ربه، خالى القلب من شواغل الأبوة والأمومة متفرغاً لما يفاض عليه من حب مولاه.

إعداده للرسالة

تولاه الله برعايته، وصنعه بيده: آواه من يُتْم، وأغناه من فقر، وهداه من ضلال، وما يزال يغمره بالفضل والإحسان، حتى بلغ أشده واستوى فى أفق الإنسانية الأعلى، وتهيأت نفسه لتلقى الرسالة العامة الخالدة التى ختمت بها رسالات الحق إلى الخلق، فأرسله الله رحمة للعالمين، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أرسله بدين أساسه الإيمان بالله واليوم الآخر، وقوامه مكارم الإخلاق وصالح الأعمال

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

«سورة المدثر: ١-٧»

ظل بعد ذلك بمكة، يدعو عشيرته وقومه إلى التوحيد وعقيدتى البعث والجزاء، ونبذ ما كان عليه الآباء من الشرك والوثنية، وسوء الخلق وقبيح العادات، ولم يكن له فى تلك الدعوة من سلاح سوى الحكمة، يغزو بها القلوب، والموعظة الحسنة، يهذب بها النفوس ويلطف الطباع.

هجرته إلى المدينة

ولما رأى أن الدعوة لا تتغلغل فى النفوس، كما يحب ويريد، وأن موقف المكيين منه وحقدهم عليه، وتعصبهم لموروثاتهم، قد يكون له من النتائج الخطيرة ألا يتفق ونجاح دعوته، هاجر هو وصحبه إلى المدينة، وهناك استقبلته قلوب عاهدته على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأعزاءهم، هاجروا إليهم ضماً للَّبنات الموحَّدة، وتوحيداً للصفوف العاملة، وجمعاً للقلوب المتحابة فى الله، وهناك ابتدأت للدعوة حياة جديدة، أخذت تغزو الناس فى عقر دارهم، وأخذ الوحى يتتابع من السماء بالقانون الذى ينظم تلك الحياة وقد سلخ فى تركيزها، وتشييدها، وتنظيمها مدة حياته بالمدينة، وقد أقر الله عينه بثمرة جهاده ورأى كلمة التوحيد تعمل عملها فى معسكرات الشرك والوثنية، وتعفى على مظاهر الضلال والبهتان، وعندئذ أنزل الله فى محكم كتابه امتناناً بالنعمة

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

«المائدة: ٣»

ثم تلاه قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

«سورة النصر»

وما أجدر المسلمين أن يتعرفوا عظمة نبيهم محمد، التى تجلت آثارها فى أطوار حياته كلها فلم تكن عظمته من جنس العظمات البشرية المألوفة، فهى ليست من عظمة الملوك الجبارين، الذين يستعذبون أنين الإنسانية، واستعباد الخلق وإذلالهم، وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ولا يرون السعادة إلا فى الفتك بالضعفاء، والتخريب والتدمير، وترويع الآمنين، وليست من عظمة الأغنياء الموسرين، الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق، ويمنعون حق السائل والمحروم، ثم يسخرون عباد الله فى شهواتهم وأهوائهم بشىء من حطام الدنيا الزائل.

أنها عظمة رحمة وعطف، عظمة هداية وإرشاد، عظمة تثقيف وتهذيب، عظمة إصلاح وتعمير، عظمة سلم وأمان، عظمة تهيئ للحياة الفاضلة عدتها، وتعبد سبلها، عظمة تساير الدهر، وتستقر فى صفحة الخلود، ويستمد العالم منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية، عظمة تتمثل فى تلك التعاليم التى وحدت بين قلوب متنافرة، وربطت بين قبائل مبعثرة، واستلت منها الأحقاد والأضغان، وكونت منها أمة مهيبة الجانب، عزيزة المنال، ذات شخصية ثابتة، ونظام محكم متين، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض، على دعائم قوية من العلم والمعرفة، والحكمة والعدل.

آثار تعاليمه وهدايته:

تلك التعاليم التى فوجئ بها قوم رسخت فيهم عوامل الفساد فى الأرض وحرفوا الشرائع، وأفسدوا الفطر، فعبدوا غير الله، ونسوا يوم البعث والجزاء، وانحلت أخلاقهم واستباحوا الدماء، والأعراض، والأموال، حتى اضطرب العالم، وتزعزعت أركانه، وما هى إلا صرخة الحق عن طريق محمد، فيملأ الإيمان قلوبهم، وتسود الرحمة بينهم، فينقلب شرهم خيراً، وفسادهم صلاحاً، وجهلهم علماً، وانحلالهم تماسكاً، وفوضاهم نظاماً، ويصبحون بنعمة الله وفضل تلك التعاليم إخواناً، أساس ترابطهم الإيثار، وسبيل دعوتهم التواصى بالحق، والتواصى بالصبر، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

تلك التعاليم التى أطلقت للعقل البشرى حريته، ودفعته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض، وفكته من السلاسل والأغلال، وعابت عليه التقليد والجمود والتعصب، هذه التعاليم التى سوت بين الذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، وقررت أن الناس سواسية، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، ونظرت إلى الشعوب والقبائل نظرة واحدة، وجمعتهم فى ثوب واحد، ونادتهم بنداء واحد (يا أيها الناس)، «يا بنى آدم».

تلك التعاليم، التى قررت مبدأ حرية العقيدة، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

«الإسراء: ١٣ - ١٥»

تلك التعاليم التى قررت للإنسانية، حق التشريع فى دنياها، وقررت أنه لا سيادة للحاكم عليها، وأنه يسعى لخدمتها بتفويض منها، فلها فيه حق العزل وحق التولية.

تلك التعاليم التى ما تركت فضيلة إلا حثت عليها، ولا رذيلة إلا حذرت منها، ولا أصلا من أصول التشريع الحى الناهض إلا قررته، وطلبته من الناس شرعاً يسعدون به فى الدنيا، وديناً ينعمون به الآخرة.

تلك التعاليم التى كانت شفاء ورحمة للعالم: غرست بذور الخير فى نواحيه ونهضت بالإنسانية من كبوتها، وسمت بها إلى المكانة اللائقة بها، مكانة الخلافة عن الله رب العالمين.

النبى الأمى:

تلك التعاليم - التى ظهرت وتجلت، وتظهر وتتجلى فى وحى الله، لعبده محمد - هى آثار العظمة المحمدية، تجرى آياتها على لسانه، فتقرع الأسماع، وتخالط القلوب، وتعمل عملها فى التوجيه والإرشاد، ومحمد هو محمد الأمى، الذى لم يقرأ ولم يكتب، والذى نشأ فى مكة التى لا ترى فيها إلا رمالاً وجبالاً، والتى لا تعرف علماً، ولا تأنس بحضارة

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

«العنكبوت: ٤٨، ٤٩»

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾

«النجم: ٤ - ١٠»

الاحتفال بذكرى المولد:

وقد جرت سنة للمسلمين - بعد قرونهم الأولى - أن يحتفلوا فى شهر ربيع الأول من كل عام بذكرى ميلاد الرسول محمد ﷺ، وكان لهم فى الاحتفال بهذه الذكرى أساليب تختلف باختلاف البيئات والبلدان.

فمنهم من يحتفل بتهيئة طعام خاص لا يألفونه فى مجرى عاداتهم الغالبة، تتناوله الأسر فى ليلة الثانى عشر من الشهر فرحة مسرورة حول مائدة واحدة، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول.

ومنهم من يحتفل بأصناف من الحلوى ذات أشكال وصور مخصوصة، يصنعها الباعة لتلك المناسبة، ويضعونها منسقة منظمة أمام حوانيتهم التماسا للرواج والربح، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول.

ومنهم من يحتفل بالدعوة إلى اجتماعات تفتتح بتلاوة آى من الذكر الحكيم وكثيراً ما يتحرى القارئ الآيات التى تعرض لذكرى الرسول باسمه أو صفته.

ولعلك تسمع فى الليلة الواحدة أكثر من قارئ يقرأ قوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

«الأحزاب: ٤٠»

ثم تتلى قصة المولد الشريف بما أودع فيها من الأوصاف الخلقية، والأوضاع التى

كانت عليها وقت ولادته عليه الصلاة والسلام، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول.

وتعنى بعد هؤلاء وهؤلاء أقلام الكتاب والسنة المتحدثين بالمقالات والأحاديث، ينشرونها ويذيعونها على الناس، يذكرونهم فيها بعظمة محمد وشمائله التى فُطر عليها، وعرف بها فى أهله وبين قومه.

يوم أن كان غلامًا يرعى الغنم، ويعزف بنفسه عما يألفه أقرانه من مجالس اللهو واللعب.

ويوم أن كان شابًا جلدًا يحضر مع أعمامه حرب الفجار وحلف الفضول.

ويوم أن كان رجلاً مكتملاً وافر العقل، يرضاه قومه حكمًا فى النزاع يشجر بينهم.

ويوم أن كان ملتهب الفطرة فى صلته بالله، فيفر من ظلمة الدنيا وجهالتها إلى التحنث والأنس بنور الإيمان الفطرى.

ويوم أن كان مشفقًا على قومه من جهلهم بالله، وانغماسهم فى الشهوة والهوى، لا يدرى كيف يهديهم.

ويوم أن كان هاديًا مرشدًا، يتعهدهم بالحكمة والموعظة الحسنة. ويبشر من أجاب وينذر من أبى.

ويوم أن كان محتملاً مكايد قومه، صبورًا على إيذائهم، يستعذب العذاب فى سبيل دعوته.

ويوم أن خرج من نطاق الحديد والنار الذى ضربه قومه حول بيته، ليضربوه ضربة واحدة يتفرق بها دمه فى القبائل فيستريحوا منه ومن دعوته.

ويوم أن صار فى المدينة قائدًا يتقدم الصفوف، ويتقى به أصحابه.

ويوم أن كان حاكمًا يقيم الوزن بالقسط، لا يعرف نفسه ولا أهله فى إقامة حد الله وشرعه.

هكذا جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى.

ذكرى الرسول عند المسلمين الأولين:

وما كان المسلمون الأولون يفكرون فى تعيين زمن خاص يذكرون فيه الناس بعظمة محمد ﷺ عن طريق الاحتفالات التى تقام، أو المقالات التى تكتب، أو الأحاديث التى تذاع.

ذلك أنهم كانوا يرون أن عظمته ﷺ ليست من جنس العظمات التى يخشى عليها النسيان أو التلاشى فى صحف الأيام حتى تحتاج فى بقائها إلى تذكير الناس بها، وتنبيه وعيهم إليها، وليست من جنس العظمات التى تألفها الأمم فى نوابغها وأفذاذها تكون فى ناحية من نواحى الحياة، كانتصار فى معركة، أو فتح لحصن، أو سبق إلى اختراع مادى، أو كشف نظرية علمية فى السماء أو فى الأرض، أو زعامة أمة أو إقليم.

عظمة خالدة:

وإنما كان يرون - كما هو الواقع - أنها عظمة خالدة بخلود آثارها فى العالم، تنمو وتمتد، وتسرى بقوتها الذاتية فى جوانبه شرقًا وغربًا، وتنطلق أشعتها على مجاهيل الكرة الأرضية، فتنبض لها القلوب. وتتحرك لها العقول، وتنشرح بها الصدور، وتمتلئ بروعتها وبساطتها النفوس، وترسم هى لهم سبل السير وراءها فيكشفون للناس عن جوهرها ومصدرها وعن نظمها فى الحياة.

كانوا يرونها خالدة بآثارها هكذا، وخالدة بكتابها الخالد الذى يهدى الإنسان فى الحياة إلى التى هى أقوم: فى عقيدته، وفى خلقه ونظم حياته، وروابطه العائلية والمدنية والإنسانية، وفى علاقته بالكون، أرضه وسمائه، وفى متعته بلذائذ الحياة الطيبة، وفى تضامنه مع إخوته بنى الإنسان، وفى عمارة الدنيا وفى أمنها واستقرارها وفى بلوغها أقصى ما قدر لها من كمال.

كانوا يرونها هكذا خالدة، وهكذا عامة.

وكان ذكراها لديهم فى ترسم خطاها، والجد فى نشرها، وفتح قلوب الناس لها، والعمل على انتفاع الإنسانية بها، وبذلك ركزوا حياتهم فى تقليب وجوهها، والاقتباس من نصها وروحها، لما يكفل للإنسانية أن تحتفظ بمكانتها فى صفحة الترتيب الكونى لهذا العالم.

وتلك كانت ذكراهم لعظمة محمد، كانت حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم أقلامًا من نور، ترسم خطوطها فى جميع الآفاق تفتح القلوب، وتنير العقول، وتحيى الضمائر.

انحراف إلى عظمات زائفة:

هذه عظمة محمد ﷺ، وتلك ذكراها عند المسلمين الأولين، ولكن لما ضعفت النفوس، وتفتحت للناس منابع للشهوة والهوى، وناءت القلوب بحمل الأمانة، هان على الناس قدرها واستبدلت بها غيرها من صور العظمات الخاصة، وصارت تلك العظمات هى المحراب الذى نتجه إليه، والغرض الذى نسعى جهدنا فى الحصول عليه.

وأقفرت قلوبنا وحياتنا من جوهر العظمة المحمدية، وصرنا لا نذكرها، ولا يلمع برقها إلى حيث يوافينا من كل عام هلال ربيع الأول، أو يقال لنا هذا شهر المولد النبوى الكريم.

فنهرع إلى هذه المظاهر نقيمها وتلك الكلمات نؤلفها، حفاوة بحق الذكرى وبحق الانتساب:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

(الكهف: ١٠)

***

محمد ﷺ بشر يوحى إليه



للدكتور/ عبد الرزاق السنهوري باشا

في إسلاميات السنهوري باشا مكان ملحوظ للحديث عن رسول الله ﷺ سواء في خواطره التي ضمنتها «أوراقه الشخصية»، أو المقال الذي كتبه بعنوان: «نبي المسلمين والعرب».. والفكرة المحورية التي كان يلح عليها.. في زاوية الرؤية لسيرة المصطفى ﷺ والتي كان يحلم بتوفيتها حقها بدراسة متخصصة.. هي إبراز عظمة النبي انطلاقًا من بشريته.. فالاصطفاء الإلهي إنما كان لبشر.. والوحي السماوي إنما نزل على بشر.. وهذا الإنجاز المعجز والخالد إنما قام به بشر.. وفي بشريته سر التميز والامتياز.. فالوقوف عند «الإعجاز» وحده فيه ظلم للبشرية المتميزة.. وجدير بالذكر أن هذه «الزاوية للرؤية» هي التي تحدث عنها القرآن الكريم كثيرًا، باعتبارها سنة الله في النبوات والرسالات:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

(الإسراء: ٩٤ - ٩٥)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ١١٠)

من أوراقه الشخصية[١]

قرأت بعضًا من رسالة أحد المصريين وضعها في المرأة المسلمة وعرض فيها لحياة النبي ﷺ فأورد ما أراد أن يثبت به، أن النبي كان يحب النساء، وأنه أحل لنفسه منهن ما لم يحل لغيره، ولا أدري قيمة الكتاب من الوجهة الاجتماعية، كما لا أعرف ما الذي قصده المؤلف من إيراد مجموعة منظمة من الحوادث يسوقها للنيل من كرامة نبي نال احترام المنصفين من المفكرين في الغرب. ولكني واثق من أن المؤلف فاتته ملاحظة اجتماعية على غاية كبيرة من الأهمية والبساطة، تلك هي أنه عند الحكم على رجل يجب ألا يُنزع من البيئة التي نشأ فيها، ويقاس بمقياس غير العصر الذي وجد فيه. وقد وجد للنبي ﷺ أعداء منذ قام بالدعوة إلى أن مات، وتحينوا له الفرص للإيقاع به والنيل من كرامته، وتناولوه بالطعن في عقله ودينه، ولكني لم أقرأ أن عربيا واحدًا نال منه من حيث حبه للنساء، أليس هذا دليلاً على أن الوسط الذي نشأ فيه النبي كان يألف كل الألفة هذه الناحية من أخلاقه فلم ير فيها ما يوجب الطعن، وأن النبي ﷺ إن كان قد أكثر من اتخاذ الزوجات فهو في ذلك إما ناظر لمصلحة انتشار الدعوة أو خاضع للوسط ومؤثراته؟ وهو يعد من البشر مثلنا، ولعل خضوعه لكل المؤثرات البشرية وعدم تظاهره كثيرًا بصفة من الصفات الروحانية التي تتناقض مع طبيعة البشر من أخص مميزاته التي تتفق كثيرًا مع ما يمكن فهمه من معنى حقيقة النبوة، وأن النبي لم يخرج عن الحدود التي رسمها الله للبشر.

وبعد، أليس ثابتًا أن النبي قضى زهرة عمره من سن الخامسة والعشرين إلى الخمسين مع امرأة واحدة كان يحبها ويحترمها، وهي أكبر منه سنًا بعدد غير قليل من السنين[٢]؟.

أعتقد أن دراسة حياة النبي ﷺ كرجل إلى جانب أنه نبي، يفيد كثيرًا في تربية الأخلاق، وفي تعريف النبي للمسلمين ولغير المسلمين في صورة طبيعية أقرب إلى الذهن في العصر الحاضر.

لا أشك في أن محمدًا ﷺ نبي أوحي إليه من عند ربه، ولكن بقي فهم معنى النبوة ومعنى الإيحاء، وهذه موضوعات لا أتطرق إليها الآن.

ولكني أعتقد أن الله لم يختر النبي ويخصه برسالته إلا لأن النبي فيه صفات ممتازة جعلت منه رجلاً ممتازًا قبل أن يكون نبيًا مرسلاً، وتاريخ حياته إلى سن الأربعين، وهي السن التي أرسل فيها، يدل على حب للتفكير العميق، وحياة طاهرة نقية، وأعتقد أيضًا أن الذي أعده للنبوة في هذه السن هو الحياة التي أخذ نفسه على أن يعيشها قبل بلوغه سن الأربعين؛ أي أن النبي كان يفكر حتى إذا استكمل تفكيره وشعر أن

(١) انظر (إسلاميات السنهوري باشا) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - جـ١ طبعة دار السلام. القاهرة.

(٢) اليوبين في (٢٣ - ٢ - ١٩٢٢م). والإشارة إلى الدكتور منصور فهمي باشا (١٣٠٣ - ١٣٧٩هـ/١٨٨٦ - ١٩٥٩م). ولقد تمت لمسيرته الفكرية تحولات انتقلت به من «التغريب» إلى «الإسلام» كمنهاج شامل للحياة.

عنده فكرة صحيحة عن الحياة وما بعد الحياة فاض هذا الشعور في جوانب نفسه، وكان من هذا الشعور العميق (نتيجة التفكير الطويل المؤسس على طهارة القلب وحب الإنسانية) الوحي والتنزيل، ثم يدخل النبي بعد ذلك في حياة أخرى، حياة التجارب والسياسة العملية.

كان حتى سن الأربعين يفكر كالفيلسوف الذي يبني نظرياته الفلسفية في دائرة الفكر، دون أن يجرب كيف يطبق هذه النظريات على العالم الخارجي، حتى أوحى إليه أن الله اختاره لهداية خلقه، وأنه مطالب بالعمل إلى جانب التفكير، فنادى بأكبر وأصدق فكرة جالت في عقله حتى استقرت في قلبه وهي فكرة توحيد الله وعجز العقول عن إدراك كنهه. ثم شرَّع قواعد الدين الإسلامي، ووضع إلى جانب تلك القواعد التي تُعنى بالحياة الأخرى قواعد للحياة الدنيا التي طالما ذكرها القرآن الكريم وجعل السعادة فيها من أغراض رسالة محمد ﷺ فوضع ﷺ قواعد لحياة اجتماعية وحياة سياسية وأسَّس دولة إلى جانب دين. وأعتقد أنه في تأسيسه الدين كان نبيًا مرسلاً، وفي تأسيسه الدولة كان رجلاً عظيمًا.

وقد درس علماء الدين حياة النبي من ناحية أنه نبي مرسل، ولكن بقي علينا دراسة حياته ﷺ باعتباره رجلاً عظيمًا، وهي دراسة تاريخية منتجة ومقوية للأخلاق[٣].

***

نبي المسلمين والعرب[٤]

للنبي ﷺ حرمة في نفس كل مسلم، بل في نفس كل إنسان يحترم الإنسانية، ويحترم من يعمل خيرها. وهذه الحرمة تولد في قلب من يهم بالكتابة عن هذه الصفحة النقية الجليلة من صفحات الإنسانية شعورًا تمتزج فيه الهيبة بالحب والإجلال.

وقد طلبت مني جمعية الهداية أن أكتب في نبي المسلمين والعرب فوقفت بين الرهبة والواجب، ثم أقدمت على كتابة هذه الكلمة مختلسًا بعض الوقت وسط ما يشغلني من العمل، وقد حددت -قبل أن أبدأ الكتابة- المعاني التي أحببت أن أتقدم بها إلى القراء، فجوانب الكتابة عن النبي ﷺ متشعبة متنوعة، تزدخر بالمعاني، وتزدحم بالأفكار، وهو منذ صعد إلى الفريق الأعلى، موضوع شهي للأقلام، ومجال متسع للتحليل والوصف.

أردتُ أن أضع أمام القارئ مسائل ثلاثًا:

أولاً: أن النبي ﷺ هو نبي المسلمين والعرب، وقد اخترت هذا المعنى عنوانًا للمقال.

وثانيًا: أن النبي ﷺ كان بشرًا مثلنا، بل لعل أروع ما في حياته من جلال وعظمة هي تلك الصفحة التي تريه لنا بشرًا، يخضع لنواميس البشرية، ويجري على سننها.

وثالثًا: أن هذا الدين الذي أتى به النبي ﷺ هو دين الأرض كما هو دين السماء، بل لعله بالوصف الأول أقرب إلى العقل البشري وأنفذ إلى قلب الإنسان.

أما النبي ﷺ هو نبي المسلمين والعرب، فقد أردت بهذا أن أقول: إنه لم يبعث إلى العرب وحدهم، بل بعث إلى البشر كافة. ثم هو بعد ذلك عربي من صميم بني عدنان، فالنبي العربي وقف في حجة الوداع، منذ ثلاثة عشر قرنًا، يخطب الإنسانية وهي لاتزال واعية لقوله حتى اليوم، ولايزال يرن ذلك الصوت الكريم الذي يقول: «ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود، إلا بتقوى الله، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟» نعم، وأحسن التبليغ.

وهو، إذ ذاك، يرى بعين الغيب أركان الدولة الرومانية، وأركان الدولة الفارسية، تنهار وتنقض، ويعلو فوق هذه الأطلال بناء عليٌّ شامخ يكاد يسامت السماء، هو بناء الدولة الإسلامية الجديدة، دولة لا تعرف الأجناس ولا تعرف الألوان، فالعجمي والعربي والأحمر والأسود عندها سواء. ولكن هذه الدولة وضع أساسها نبي عربي، وارتفعت على أكتاف العرب؛ فللعرب إذن أن يتقدموا إلى الإنسانية بهذه الصفحة البيضاء، فهم أول من قالوا برابطة البشرية، وهدموا الحدود والحواجز ما بين بني البشر، وأقاموا أساسًا لعصبية أمم حقيقية لم ينجح الغرب في إيجادها حتى الآن.

أما أن النبي ﷺ كان بشرًا مثلنا، فهذا ما أكده لنا في عبارات صريحة جازمة، وهذا ما نقرأه في القرآن واضحًا لا لبس فيه ولا إبهام، ومعنى أنه كان إنسانًا هو أنه كان يخضع لما تخضع له البشر من سنن ونواميس. ولو أنك استعرضت سيرة النبي ﷺ، لوقفت أمام كثير من صفحات هذه السيرة النقية الطاهرة، لا تستطيع تفسيرها إلا على أساس أنه كان إنسانًا يخضع للعواطف البشرية، وما تزدخر به من حب وكره ورضا وغضب، وثبات واضطراب، وقوة وضعف، وأمل ويأس، وإقدام وإحجام، وهل ترون معي أيها المسلمون جميعًا، بل أيها البشر جميعًا، لو أن النبي ﷺ كان ملكًا من السماء أكان يقع من نفوسنا البشرية موقعه؟

إن عظمة النبي الحقيقية هي في أنه إنسان مثلنا، يخضع لما تخضع له من العوامل النفسية وظروف البيئة، ومع ذلك يسمو، فيتغلب بقوة نفسه، وهي نفس بشرية، على ما لا نستطيع نحن أن نتغلب عليه، ثم يسمو، فيقهر بعظمة نفسه، وهي نفس بشرية، ما ننهزم نحن أمامه، خذوا جبريل والنبي؛ هذا ملك كريم وهذا نبي عظيم، فلو أنبئتم أن جبريل نظر إلى امرأة جميلة فلم تقع من نفسه شيئًا، واعتصم منها أكنتم تندهشون؟ أكنتم ترون في هذا ما يدل على عظمة نفس وقوة إرادة؟ كلا فجبريل ملاك من السماء، لا شأن له مع البشر، ولكن إذا أنبئتم أن النبي ﷺ نظر إلى امرأة جميلة بعين الرجل فأثرت المرأة في نفس الرجل، ولكنه

(٣) باريس في (١٠ - ١١ - ١٩٢٣م).

(٤) مقال في مجلة الذكرى (التي كانت تصدرها جمعية الهداية العراقية) نشر في عددها الصادر سنة (١٩٣٦م) بمناسبة المولد النبوي الشريف.

اعتصم منها. أما كنتم ترون فى هذا دليلاً على قوة الإرادة وعظمة النفس؟ لماذا نحاول إذن أن نخفى أقوى ناحية فى عظمة النبى ﷺ وهى ناحية البشرية فنسبغ عليه ثوبًا من القدسية يكاد يخرجه عن أن يكون إنسانًا مثلنا، ويكاد يجعله آلة تحركها يد الله فلا تتحرك إلا إذا حُركت، وليس لها إرادة ولا وعى؟ كلا أيها الناس، فالنبى رجل منا، تركه الله إلى نفسه، بعد أن أيده بروح من عنده، وأنزل عليه وحيه، فقام يعمل وأخذ يبنى ويشيد، وهو فى عمله وفى تشييده ينفّذ وحى الله، لكن بيده ويلبى كلمة الله لكن بقوته، ويمكّن لدين الله، لكن بجهوده.

بقى أن الإسلام دين الأرض كما هو دين السماء، فالإسلام لا يبشر بنعيم الآخرة وبجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار فحسب، بل هو يبشر أيضًا بتاج كسرى، وإيوانه وعرش قيصر وسلطانه، يبشر بالأرض تدين لسلطان المسلمين، ويستخلف الله فيها من عباده الصالحين:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

(النور: ٥٥)

فالمسلم له عين إلى الأرض وعين إلى السماء، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

والإسلام دين القوة بقدر ما هو دين العطف والرحمة؛ مائة تغلب ألفًا، ثم مائة تغلب مائتين، ولا يرضى الله عن المائة التى تغلب المائتين إلا بعد أن يصفها بالضعف، فالمسلم القوى يعدل عشرة، هذه هى القوة العادية، أما القوة المعنوية، فقوة العقل وقوة الخُلق، فالمسلم يطلب الله منه أن يجيل عقله فيما حوله، وأن يتدبر خلق السماء والأرض وأن يتدبر خلق نفسه، وأن يؤمن عن تفكير، وأن يجعل العقل المرشد الهادى الذى لا يضل:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ١٦٤)

والمسلم لا يتم إسلامه حتى يكون قويا فى خُلقه، والإسلام هو دين:

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

(آل عمران: ١٧)

دين:

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾

(الحج: ٥٨)

دين:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٢)

دين:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٣)

دين الفقراء:

﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾

(البقرة: ٢٧٣)»

أليس الإسلام هو دين الرجولة الحقة؟ بلى وقد بُعث النبى ليتمم مكارم الأخلاق.

***

من أوراقه الشخصية

يملأ النبى ﷺ نفسي إعجابًا لأنه بشر مثلي.. وإذا كان فيه من نواحى ضعفي[٥].. فليست فيّ من نواحى قوته[٦].

وددت لو تمكنت من كتابة سيرة للنبى ﷺ تظهر فيها بوضوح مسألتان:

أولاهما: أن النبى ﷺ لم يخالج نفسه أى شك فى صحة رسالته كما تشهد بذلك سيرته من أولها إلى آخرها.

والمسألة الثانية: أن النبى ﷺ رجل مثلنا يجوز عليه ما يجوز على البشر وينتابه ما ينتاب البشر من أعراض القوة والضعف، ولعل ما ينعاه عليه أعداء الإسلام من نواحى الضعف هو أصدق دليل على أنه بشر مثلنا، وهو فى الوقت ذاته أصدق دليل على قوته النفسية وعلى سمو عظمته[٧].

قرأت مقالاً لأحد الكتاب يصف فيه النبى ﷺ وهو فرح عندما يولد له إبراهيم، حزين متكول عندما يُرزأ بفقده، ويقول الكاتب فى ختام مقاله: «وهكذا أراد الله أن يكون نبيه إنسانًا ليكون قديرًا على فهم الإنسان، جديرًا بتبليغ الرسالة إلى الآدميين».

فكرت قليلاً، ولم أملك إلا أن أكتب فوق المقال هذه العبارة: «هو نبى لهذا.. لا هذا لأنه نبى»[٨].

(٥) الإشارة إلى اليتيم
(٦) القاهرة فى (١٣ - ٧ - ١٩٤٣م).
(٧) دمشق فى (٥ - ٢ - ١٩٤٤م)
(٨) القاهرة فى (١٥ يونية - ١٩٤٧م).

محمد ﷺ رسول الإنسانية ورجل القومية العربية (*)





للإمام / عبد الحميد بن باديس

لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه. فعناية المرء نفسه - عقلاً وروحاً وبدناً - لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس، على منازلهم منه في القرب والبعد، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملاً مشتتاً لا يهديه علم، ولا يمتنه خلق، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه، وإنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح من شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضاً عما لا حاجة له به وما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته.

فمحمد ﷺ وهو رسول الإنسانية، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إنسانياً أو شعبياً إلا بمراعاته: فكان «أول دعوته ﷺ لعشيرته لقوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

«الشعراء: ٢١٤»

فلما نزلت صعد الصفا ثم نادى «يا صباحاه» - وكانت دعوة الجاهلية إذا دعاها الرجل اجتمعت إليه عشيرته - فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها، فعم وخص، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أكنتم مصدقي؟.. قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني كعب بن لؤي، يا بني مرة بن لؤي، يا آل عبد شمس، يا آل عبد مناف، يا آل هاشم، يا آل عبد المطلب، يا صفية، يا فاطمة، سلوني من مالي ما شئتم، واعلموا أن أوليائي يوم القيامة المتقون، فإن تكونوا يوم القيامة، مع قرابتكم، فذلك وإياي، لا يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهي عنكم فتقولون يا محمد فأقول هكذا - وصرف

(١) كتاب آثار ابن باديس، ج ٢، مجلد ٢، ص ١٧ - ٢٦.

وجهه إلى الشق الآخر - غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها.. ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾

«القصص: ٤٦»

وهم عامة العرب، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم، ثم عمم دعوته، قوله تعالى:

﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾

«الأنعام: ١٩»

فكاتب ملوك الأمم وقد عمت دعوته العرب وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم في الإسلام، وكان ذلك أيام هدنته مع قريش قبيل فتح مكة. ثم نجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب، وعولجت فيه مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية وما كان منهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم، فكان أول الإصلاح متوجهاً إليهم ومعتنياً بهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم وضلالهم وسوء حالهم وتستنير عقولهم وتتطهر نفوسهم وتستقيم أعمالهم فيصلحوا لتبليغ دين الله وهدى رسوله ﷺ للأمم بالقول والعمل. ثم لأجل أن يشعروا بأن القرآن هو كتاب هداية لهم كلهم، وأن الرسول لهم كلهم، أنزل القرآن على سبعة أحرف، فعم جميع لهجاتهم، وكان النبي ﷺ يخاطبهم بتلك اللهجات وينطق بالكلمات منها ما ليس من لهجة قريش، وكان في هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه ويشتركون فيه، وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

«الزخرف: ٤٤»

فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه، نزل بلغتهم ونهض بهم من كبوتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهيأهم لهداية الأمم وإنقاذها من الهلاك وقيادتها لعزها وسعادتها، وأنهم يسألون عن هذه النعمة، يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين.

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم، وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام، علم هذا فبين أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي، وإن لم ينحدر من سلالة العرب، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له، بين هذا في حديث رواه ابن عساكر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، يعني النبي ﷺ، فما بال هذا «يعني الفارسي والرومي والحبشي ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عرباً مثل قومه»، فقام إليه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - فأخذ بتلابيبه «ما على نحره من الثياب» ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه «لما أعجله من الغضب»، حتى أتى المسجد ثم نادى: الصلاة جامعة «ليجتمع الناس»، وقال ﷺ: «أيها الناس، الرب واحد والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي»، فقام معاذ فقال: فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول

الله ؟ قال : «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل.

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد: ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميًا وجزائريًا، مثلاً ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله. لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم.

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبي الكريم، رسول الإنسانية ورجل القومية العربية، في الحديث المتقدم فقضى بكلمته تلك على العصبية العنصرية الضيقة المفرقة، فنبه على تساوي البشر في أنهم كلهم مخلوقون لله، فربهم واحد وأنهم كلهم من عنصر واحد، فأبوهم آدم واحد، وذكّر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنساني، ثم قرر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع في تكوين الأمم، ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتتسع دائرتها لجميع الأمم التي رشحت لدعوتها إلى الإسلام بلغة الإسلام، وقد كان ذلك من أعظم ما سهل نشر الهداية الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها وتعاونها ذلك التمدن الإسلامي العربي الذي أنار العالم شرقًا وغربًا، وكان السبب في نهضة الغرب والأساس لمدنية اليوم، وبذلك أيضا كانت الأمة العربية اليوم تجاوز السبعين مليونًا عداً لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة.

كوّن رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل، فلم يكونها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المتسولين باسم الملك أو باسم الدين، ولم يكونها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتخدم الأمم في مصالحهم، ولم يكونها لتدوس كرامة الأمم وشرفها ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد، إلى درجات العز والصلاح والكرامة وبالجملة: لم يكونهم لأنفسهم، بل كونهم للبشرية جمعاء. فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم غوستاف لوبون: لم يعرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب، نعم، لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل - بإذن الله - عليهما، ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل ويتغنى العرب غير المسلمين بذكره، وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان في الثناء عليه والإشادة بفضله.

هذا هو رسول الإنسانية، ورجل الأمة العربية التي تهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون، وخدع المخدوعون، واضطرب المضطربون.

وإلى أعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة في مولده الشريف، الذي هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها.. عاد الله فيه باللطف والرحمة على الجميع.

الرسول العابد



الأستاذ / عباس محمود العقاد

الطبائع الأربع

طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة..

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس وقلما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة.

فإذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت.

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها؛ تدعونا إلى الحلول من الكون في أسرة كبيرة.

وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء؛ تدعونا إلى الحلول من الكون في معمل كبير.

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا، أو صنع قرائحنا وأيدينا، أو صنع قرائحنا وأوصالنا، تدعونا إلى الحلول من الكون في متحف كبير.

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها، وتجذبنا إليها فنستمد منها القدرة التي تجذبها إلينا؛ تدعونا إلى الحلول من الكون في ميدان صراع ومضمار سباق.

وقلما تشعر بالكون بيتًا لأسرة، ومعملا لباحث، ومتحف فن، ومضمار سباق في وقت واحد. إنما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات، وقد تلحق بها إلحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل.

محمد بن عبدالله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر في كل طبيعة: كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا وعاملا يغير الدنيا بعمله.

ولكنه عليه الصلاة والسلام كان عابدا قبل كل شيء، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله، وكل سجية فيه.

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه. فولد في بيت السدانة والتقوى، وتقدمه آباء يؤمنون بإيمانهم، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه.

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن

الدنايا، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير.

وتكوّن فى بنيته عابدا من صباه.

قيل إنه فى الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شرّاح التاريخ فى تفسيرها، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندرى ما هو الواقع الصحيح منها، ويتعجل بعض المؤرخين الأوروبيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمى أو تاريخى محقق يستند إليه.

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكوّن ليتلقى الوحى الإلهى، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه، لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى أشهر ولا فى سنوات، ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه، ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع.

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحى نكس رأسه، وكرب لذلك وتربد وجهه، وأخذته البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى، وسمع عند وجهه كدوى النحل، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء.. وقد شاب فقال: «شيبتنى هود وأخواتها»، وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم.

وإنا لنسأل مع هذا: إلى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا فى شكوكهم وتطوحوا بها إلى قصوى ما تفرضه الفروض؟

إلى أين انتهى «كانت» إمام المفكرين فى هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث، إن لم نقل الحديث والقديم؟

انتهى إلى أن النفس نفسان والوجود وجودان: نفس حسية ونفس حقيقية.. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود.

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع إلى قرارها، ثم لا تتخطى بإدراكها عالم الباطن إلى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصوير الكلام.. أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان؟ وأن المرجع غاية المرجع إنما هو الإيمان ولا شيء غير الإيمان؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود إليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول؟

يقول لنا إن العدم معدوم فالوجود إذن موجود، وإنك إذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الإيمان به فى صفته المثلى؛ لأنك تحتاج إلى مقتض لفرض النقص ولا تحتاج إلى مقتض لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق إليه العدم.

وما الفارق بين الإيمان بالله والإيمان بالوجود فى صفته المثلى؟

هنا ينتهى الإيغال فى الفروض والشكوك.

وهناك انتهى الإيمان، بغير إيغال فى فروض ولا شكوك.

ألا تتلاقى النهايتان؟.. أولا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطو الإيمان؟

لهذه السنّة التى استنّها النبى عليه الصلاة والسلام فى عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله. فقال فى حديث: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»، وقال فى هذا المعنى: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا»، وقال فى حديث قدسى: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف»، أو كما جاء فى رواية: «فخلقت الخلق فبى عرفونى».

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما فى معناها أن التفكير فى حقائق الوجود هو طريق الوصول إلى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة: إيمان بالوجود الأبدى فى صفته المثلى، وتفكير فى حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها، وذلك قصارى ما عند العقيدة، وقصارى ما عند الفلسفة، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده، وهذا هو العلم الذى فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة، وقال النبى فى رواية ابن عباس: «إنه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله»؛ لأنه سبيل الوصول إلى الله.

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى، وأن النبى يعلم جميع الناس الإيمان، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد. فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون، ولا يبلغون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالخالق والتفكير فى الخليقة. فإما هذه الهداية وإما الضلال الذى لا هداية وراءه. وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال.

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى توحى إليه «عبادته الروحية».

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين: يصلّى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم، وقد يطلب إلى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره، على سنّة السماحة والتيسير التى أُثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجيّة من سجاياه.. «فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه»، وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت «لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»؛ لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة، فهم فى حاجة إلى الرفق والتيسير.

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء.

***

وكان محمد «إذا حزبه أمر صلّى».

كذلك إذا حزب الأمر نفسا رجعت إلى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة.

ومتى وجدت النفس «فرحة اللقاء» فى الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق، ولاسيما إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها. ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها، أو عن حق من حقوق بنى الإنسان.

الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام



 للعلامة: مصطفى صادق الرافعي

كما تطلع الشمس بأنوارها فتتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبى فيوجد فى الإنسانية ينبوع النور، المسمى بالدين.

وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهى، فى عملها للمادة تحوّل به وتغير، والنبى يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع فى عمله تترقى فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور، وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لإنسان الكون فى نور من الكلام.

والعامل الإلهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين:

أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرُّسل والأنبياء.

فليس النبى إنسانًا من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل (التلسكوب) فى الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة فى درس الأنبياء – صلوات الله عليهم – تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة، فإنما النبى إشراق إلهى على الإنسانية يقومها فى فلكها الأخلاقى ويجذبها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب.

ويجيء النبى فتجيء الحقيقة الإلهية معه فى مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثرا، وأيسر فهمًا، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلاف من الحس.

وهذا هو الأسلوب الذى يجعل إنسانًا واحدًا فى الناس جميعًا، كما تكون البلاغة فى لغة بأكملها، هو الشخص المفسر إذا تعسف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمون منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتى، فتظهر به حقائق الآداب العالية فى قالب من الإنسان العامل المرئى، أبلغ مما تظهر فى قصة متكلَّمة مروية.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبى أبلغ نفوس قومه، حتى لهو فى طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفسانى الدقيق الذى ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء، وكأن الحقيقة السامية فى هذا النبى تنادى الناس: أن قايلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية.

***

ومن ثم فنبيُّ البشرية كُلِّها من بعث بالدين أعمالاً مفصَّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطى الحياة فى كل عصر عقلها العملى الثابت المستقر تنتظم به أحوال النفس على مسيرة، وبصيرة ويدع للحياة عقلها العلمى المتجدد المتغير تنتظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هى حقيقة الإسلام فى أخص معانيه، لا يغنى عنه فى ذلك دين آخر، ولا يؤدى تأديته فى هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبعٌ فى الأرض لمعانى النور، بإزاء الشمس نبع النور فى السماء.

وكلُّ ذلك تراه فى نفس محمد ﷺ، فهى فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة، لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت فى نصاب واحد –ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه ﷺ . ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة فى محارتها، أو تركيب كتركيب الماس فى منجمه، أو صفة كصفة الذهب فى عرقه، وهى النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسط وتضحى.

وتلك هى الشهادة له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير، فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها: صلابته بمقدار الحق الإنسانى الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذى يكون عند سبب جبلاً صلدًا يشمخ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجرى.

وهو دين يعلوا بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همَّه فى ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة، وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعيا فى الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضع

عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع: يحرص على ما يكون له ويشره إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويبدع وسائل الخداع؛ ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا، بل نظرة القلب المسالم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير؛ ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه، وأن الحرام وإن غرّ ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله -تعالى- قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس: لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتى معاني النظر.

وإذا قامت هذه الحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة، تريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى السيئات وتنفر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها، وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها، لا يقررها للإنسانية حسب، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتياد والمران الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتألبة عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعمّ السلام إلا إذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح منتزعاً من طبيعة التراحم، فإما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شرته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.

***

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً -هذا هو أساس العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاح للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها، فإن من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع، وتجانس بين أفراده، فتوجه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيها بمطيعها، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول، لأن الله الحق غرضها الأخير؛ فيصبح المرء -وهذا دينه- كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان: الإنسان، والشريعة، ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليُمسكه؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع.

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها، لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص؛ وذلك هو سر مشقته على النفس بما يفرضه عليها؛ فإن فلسفته أن هذه النفس هي أساس العالم، وأن النظام الخلقي هو أساس النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تعلن، وما تسر؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السر فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمر فيه، وآتيه الذي يمتد له؛ ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ما بعده كما ورث ما قبله، وما حاضر الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية والنفرة منها. ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقنها، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر:

كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه؛ صبر فيه من السحر ما يكسر الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها، لذة كلذة إدراكه.

***

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على أعمال النار -وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته- وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقص من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير فى الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنسانى من أوبائه الاقتصادية، التى جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضا، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل فى الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير معدما ويتعفف، ويكون الغنى موسرًا ويتصدق، ويكون الشره طامعًا ويمسك، ويكون القوى قادرًا ويحجم، وكما قال العرب فى تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادى: (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها).

***

تريد الإنسانية امتدادًا غير امتدادها التجارى فى الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذى فيه؛ وإذا قاد الغراب قومًا فإنما هو -كما قال شاعرنا- يمر بهم على جيف الكلاب... والإنسانية اليوم فى مثل ليل حوشى مظلم اختلط بعضه فى بعض، وليست معانى الإسلام إلا الإشراق الإلهى على هذه الكثافة المادية المتراكمة، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته.

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامى، إلا أن تعيش فى محبوب؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت فى نبيها الطبيعى، تبى أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا فى محمد ودين محمد؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبى العظيم خمس مرات فى الأذان كل يوم، ينادى باسمه الشريف ملء الجو؛ ثم حكمة ذكره فى كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة، يهمس باسمه الكريم ملء النفس!

وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا عن نبيهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جزءًا واحدًا من اليوم؛ فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله، وكأنه فى يومه لا فى دهر بعيد؛

والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع فى نفسه إشراق النبوة، فيكون دائمًا فى أمره كالمسلم الأول الذى غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته فى كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما ترى اليوم؛ فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخى بجهله وخرافاته وما ورث من القدم؛ فهنا المسلم الفرعونى، وفى ناحية المسلم الوثنى، وفى بلد المسلم المجوسى، وفى جهة المسلم المعطل.. وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنسانى.

أيها المسلم! لا تنقطع عن نبيك العظيم، وعش فيه أبدًا، واجعله مثلك الأعلى؛ وحين تذكره فى كل وقت، فكن كأنك بيد يديه؛ كن دائمًا كالمسلم الأول؛ كن دئمًا ابن المعجزة.

حياة محمد صلى الله عليه وسلم (*)





للأستاذ الدكتور/ محمد حسين هيكل باشا

لقد كانت حياة محمد حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنسانى من طريق الإيمان والعمل الصالح، أىّ سمو فى الحياة كهذا السمو الذى جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق والكرامة والأمانة، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثة الله به، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرّات، فلم يصده عنه أن أغراه قومه، وهو فى الذروة منهم حسبًا ونسبًا، بالمال وبالملك وبكل المغريات!

بلغت هذه الحياة الإنسانية من السمو ومن القوة ما لم تبلغه حياة غيرها، وبلغت هذا السمو فى نواحى الحياة جميعًا، وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزله إلى أبده، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة، ولولا هذا الاتصال، ولولا صدق محمد فى تبليغ رسالة ربه، لرأينا الحياة على كر الدهور تنفى مما قال شيئًا، لكن ألفًا وثلثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى، وبحسبنا على ذلك مثلًا واحدًا نضربه: ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، انقضت أربعة عشر قرنًا لم يقل أحد خلالها إنه نبىّ، أو إنه رسول رب العالمين، فصدّقه الناس، قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروة العظمة فى غير ناحية من نواحى الحياة، فلم توهب لأحدهم هبة النبوة والرسالة، ومن قبل محمد كانت النبوات تتواتر والرسل يتتابعون، فينذر كل قومه أنهم ضلوا ويردهم إلى الدين الحق، ولا يقول أحدهم إنه أرسل للناس كافة أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، أمّا محمد فيقولها فتصدق القرون كلامه، ما كان حديثًا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين.

(*) فقرات من كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل باشا

يوم من حياة رسول الإسلام ﷺ



لفضيلة الشيخ محمد الغزالى



لنتأمل فى هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبى الإسلام.

لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين، وظلمه الليل لا تزال مخيمة على كل شىء، إنه يتحرك مع طلائع الصبح المقبل قائلا: «الحمد لله الذى رد إلى روحى، وعافانى فى جسدى، وأذن لى بذكره».

انظر كيف يستقبل الحياة بترحاب وتفاؤل: «الحمد لله الذى رد إلى روحى».

إن العمر الذى ملكناه نعمة نحمد الله عليها، وينبغى أن نحسن استغلالها.

إن الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح، ولذلك امتن الله بالشروق والغروب على عباده:

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

غافر (٦١)

وعظمة الحياة فى العافية. ما أجمل أن يكون المرء سليم البدن، تنهض أجهزته وعضلاته بوظائفها كلها دون إعياء أو ملال، إن المسلم عندئذ ينطلق فى كل أفق ليؤدى واجباته باقتدار ورغبة، وذلك سر حمد الله على العافية التاحة.

ونقف طويلا عند قول الرسول: «وأذن لى بذكره». أرأيت أدب العبودية فى شمائل العابد الرقيق؟ إن منحه يوما جديدا إيذان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر.

ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها، يقولها فى الصباح والمساء على سواء «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى».

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ لى: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه» وفى رواية: «وأن اقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم».

مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول وهو وأصحابه: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين».

وإقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر، فما معنى أن يقول ذلك النبى نفسه، لقد تكرر فى أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة، أو بأن محمدا حق.

وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها: أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغا للآخرين وتكليفا.. أما هم ففوق المساءلة به.

ومنها مراغمة الكفار والمنكرين الشانئين، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام..

ومنها استشعار نعمة الله على صاحب الرسالة، وإبراز الرضا والسعادة بها شكرا لله الذى اصطفى.

وقد كان القلب الشريف يجيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل الله منذ يصبح، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة:

«اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر».

«اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر، فأتمم نعمتك على وعافيتك، وسترك فى الدنيا والآخرة».

وروى أبو هريرة أن رسول الله قال: «ما من رجل ينتبه من نومه فيقول: الحمد لله الذى خلق النوم واليقظة، الحمد لله الذى بعثنى سالما سويا، أشهد أن الله يحيى الموتى، وهو على كل شىء قدير.. إلا قال الله تعالى: صدق عبدى»..

وجميل أن يثنى المرء على مالك الملك، فيستمع الله إلى الثناء المهدى، ويقبله بالتصديق، ونسبة القائل إلى عبادته، يقول عنه: صدق عبدى..

وعن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم، فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعده، ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك».

إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقية، أو المتخيلة.

وإنه لمحزن أن عقولا ذكية لا ترى أبعد من جدران هذا الكهف، وأن قلوبا فياضة بالأسى لا تحس إلا ظلمته، وضيقه.

إن الرسول العارف بربه يستنكر هذا الانقطاع الخزى فيقول: «ما من صباح يصبح العباد إلا مناد ينادى: سبحان الملك القدوس- وفى رواية- إلا صرخ صارخ: إيها الخلائق سبحوا الملك القدوس».

أكاد أقول: إن فؤاد محمد وحده، وهو الذى أصاخ إلى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حجب الغفلة، وأن يتوبوا إلى الملك القدوس..

وافتتانه ﷺ فى التذكير هو أثر استغراقه فى الذكر، ورؤيته لذى الجلال.

وجمهور الفقهاء لا يلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التى نقلناها وننقلها هنا، إن ترديدها مستحب وحسب، وهذا صحيح.

- بيد أنى أرى طول التأمل فى هذه الأذكار والضراعات لابد منه حين يعتل القلب، وتضعف بالله علاقته، فإن أثرها قوى فى تعريف المرء بربه، وتبصيره بمعانى الأسماء الحسنى.

إن الإيمان الغامض قليل الجدوى، والإيمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك، أو يكبح الهوى.

والواقع أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يحتلوا فى الإيمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنسانى، ويقيموا حكمًا مكان حكم، وأخلاقًا مكان أخلاق إلا لقربهم من حياة الرسول، واقتباسهم من سناه، وسريان الإخلاص من قلبه إلى قلوبهم، وحب الله من فؤاده إلى أفئدتهم..

هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار على ما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وأرى أن الاستماع إلى النبى وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو يناجى يشعل البصائر المنطفئة، ويدفعها دفعًا إلى الإقبال على الله..!!

* وليكن هذا اللون من الأدعية نافلة، فهناك قدر مفروض من الاتصال بالله يتصل بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم.

إنه خلال أربع وعشرين ساعة لابد من الوقوف بين يدى الله خمس مرات، وقد تفترض الجماعة أو تكون سنة مؤكدة، ومكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى رفيعة، وسوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

مع التباس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخطو إلى المسجد وإغراء لذلك يقول الرسول الكريم «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلم الليل بالنور التام يوم القيامة»:

﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾

(الحديد: ١٢)

﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ﴾

(التحريم: ٨)

وفى المشى إلى المساجد لحضور الجماعات، صح قول الرسول أنه: ما يرفع الإنسان قدمًا ويضع أخرى، إلا كتبت له حسنة: ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة.

وروى ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول: «اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا، واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا، اللهم أعطنى نورا».

وقد أعطاه الله ما سأل، فكان: «داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا» وليت شعرى ما تكون الإنسانية لو خلت من محمد! ومن سريرته النقية وبصيرته الوضاءة؟ ومن رسالته التى غسلت غسلا ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والخرفين..

لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملا حلوا، وأحيا بسيرته دعاء أبيه إبراهيم لما قال:

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾

(إبراهيم: ٤٠)

لقد تحولت الصلاة فى سيرته من تكليف تصحبه المعاناة إلى سعادة تستريح إليها النفس، وهو القائل: «وقرة عينى فى الصلاة».

وفى رواية كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال- المسلم- ذلك قال الشيطان: حفظ منى سائر اليوم».

وفى رواية. كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وسمى وقال: «اللهم اغفر لى وافتح لى أبواب رحمتك». وإذا خرج قال مثل ذلك، وقال: «اللهم افتح لى أبواب فضلك».

ما كان أشد حبه للصلاة، كان إذا سمع المؤذن يقول: قد قامت الصلاة يقول: «أقامها الله وأدامها».

ونحن مأمورون أن نردد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول، وهنا لطيفة يحسن إثباتها، إننا نقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته.

ربما تساءل سائل: لماذا لم تتجانس الكلمات فى التعريف، فيقال: ابعثه المقام المحمود الذى وعدته؟ والجواب أن النبى فرح بالكلمة التى ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التى تنتظره

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾

(الإسراء: ٧٩)

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته فى الآخرة، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة وإنجاز الوعد، ومكافأة قوام الليل الذى تورمت قدماه من طول المناجاة والتلاوة، والركوع والسجود.

إن محبة الله فى قلب هذا الإنسان المتبتل مكانة لا يزحمها شىء أبدا.

ولقد ربى- عن طريق المحراب- الرجال الذين قادوا الإنسانية بعده ثقافيًا وسياسيًا، فما رأت الدنيا حضارة أشرف ولا أنقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد..

رباهم بوحى قريب العهد بربه، فإذا الصحراء العقل تتحول إلى معهد يخرج أعرف الناس بالقيم والشرائع، وأحق الناس بالإمامة والسياسة.

كانت القلوب- وهو يقرأ القرآن- تكاد تطير من الروعة والخشوع وكان الأصحاب يرمقونه وهو يربيهم، فما يملأ أحد عينه منه مهابة وإعزازا.

ولقد شعر الرسول الخاتم أنه أدى رسالته عندما نظر فى مرض الموت إلى المصلين فى المسجد، فرآهم مقبلين على الله، خالصين للحق، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهبة.

ذلك كل ما يريد!! ما يبغى إلا أن يلقى الله بهذا الثمر الحى لجهاده الدءوب.

ترى هل تعود المساجد يومًا مصانع للرجال كما كانت قديمًا؟ إن الأماكن متشابهة ولكن السكان.. غير ما نهوى..

كأن مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال:

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

فى ذكرى المولد النبوى الشريف (*)





للإمام محمد البشير الإبراهيمى

أيها المسلمون:

ليس هذا المولد النبوى الذى تحيون ذكراه فى كل عام ميلاد رجل محدود الوجود بطرفى الحياة، ولو كان كذلك لكان محدود المعنى لأن وراء كل حياة موتا، ولكان كبقية الموالد التى تتحكم فيها الأعراف فتتغالى فيها أو تتوسط، واحتفال رجل بعيد ميلاد ولده الوحيد العزيز لا ينقل شعور الفرح والابتهاج من الوالدين إلى الجيران إلا على نمط من المجاملة والمقارضة العرفية.

ولكن ميلاد محمد ﷺ الذى جاء بالهدى ودين الحق، هو مولد لكل ما جاء به محمد من الهدى ودين الحق، فهو مولد للصلاح والإصلاح والهداية والرحمة والخير والعدل والإحسان والأخوة والمحبة والرفق، وهو مولد لجميع الشرائع السمحة التى غيرت الكون، وطهرت النفوس، وصححت الحدود بين الناس فوقف كل واحد منهم عند حده، ووضحت المعالم المطموسة بين الخلطاء فوقف كل خليط من خليط موقف المعاون، لا موقف المعاكس: فالمرأة والرجل، والأمير والمأمور، والحر والعبد، والكبير والصغير، والأب والابن، والجار وجاره، والعربى والأعجمى، والأجير والمستأجر، والغنى والفقير، كل أولئك أصبح راضيا بحاله، ناعما فى عيشه، سعيدا فى حياته آمنا من ظلم خليطه.

ومولد محمد هو الحد الفاصل بين حالتين للبشرية: حالة من الظلام جللها قرونا متطاولة، وحالة من النور كانت تترقبها، وقد طلع فجرها مع فجر هذا اليوم، فميلاد محمد ﷺ كان إيذانا من الله بنقل البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، وبعبارة جامعة من الشر الذى لا خير فيه إلى الخير الذى لا شر معه.

مولد محمد ﷺ هو مولد تلك التعاليم التى حررت العقل والفكر وسمت بالروح إلى الملأ الأعلى، بعدما تدنت بالمادة إلى الحيوانية، وبالشهوات إلى البهيمية، وبالمطامع إلى السبعية الجارحة.

ومولد محمد ﷺ هو مولد الإسلام والقرآن وذلك الفيض العميم من المعانى التى أصلحت الأرض ووصلتها بالسماء وفتحت الطريق إلى الجنة.

فقولوا لمن جاء بعد محمد ﷺ من زاعم يزعم الانتصار للحق، وزعيم يهتف بالحق وداع يدعو إلى الحرية، ودعى يكذب على الحرية، وعاقل يبكى على العقل، ومفكر يجهد فى تحرير الفكر، وروحانى يعمل لسمو الروح، وأخلاقى يضع الموازين للمثل العليا، وحاكم يحاول إقامة العدل فى الأرض، وحائر لا يدرى من أين يبتدئ ولا أين ينتهى، قولوا لهم جميعا: قد سبقكم محمد ﷺ إلى هذا كله، وقد نصب لكم بقرآنه وسيرته أعلام الهداية فى كل مصعد وكل منحدر، ولكنكم قوم لا تفقهون أو لا تصدقون، فارجعوا إليه إن كنتم صادقين تجدوه منكم قريبا.

هذه هى المعانى التى يجب أن نستشعرها حينما نذكر المولد، وحينما نحتفل به، أما ما عدا ذلك مما نفعله ونقوله فزوائد لا قيمة لها فى العقول ولا أثر لها فى النفوس.

وهذه هى المعانى التى يجب أن نعد أنفسنا للتأثر بها حتى تلين قيادها للخير وتندمث وعورتها لتلقيه وللعمل به، ولا يكون ذلك إلا إذا مررنا بها على مواطن العبرة فيها، واستدرجناها لحسن الاقتداء بها وإتقان الاحتذاء لها.

لو فهمنا المولد المحمدى بهذه المعانى لكان إظلاله لنا فى كل عام تجديدا لهممنا، وإيقاظا لشواعرنا، وصقلا لأذهاننا، وجلاء لأرواحنا، ولكانت آثار ذلك سموا فى أرواحنا، وسدادا فى آرائنا، وتحولا إلى الخير فى أحوالنا، وجمعا لكلمتنا على الحق، وتوحيدا لصفوفنا فى النوائب.

ولكننا فهمناه على قياس من عقولنا وهى جامدة، وعلى نحو من هممنا وهى خامدة، وعلى نمط من عاداتنا وهى سخيفة، وقصرناه على هذه التوافه: لعب للصغار ليس فيها فائدة وخطب للكبار ليس فيها عائدة.

فعلنا بمولد محمد ﷺ ما فعلناه بسيرته فاقتصرنا فى كليهما على أضعف جانبيه، فنحن فى مولده نلهو ونلعب، وقد نفرح ونطرب، ونعمر يومه وأسبوعه بحفلات تقليدية ليس فيها روح، كذلك نحن نتدارس سيرته التى هى التفسير العملى للإسلام فلا ندرس إلا جانبها البشرى من كيفية أكله ولباسه ونومه، لا جانبها الملكى من صبره وجهاده وتربيته لأمته، وبناء الدولة الإسلامية.

يختلف الفقهاء فى هذه الحفلات المولدية وهل هى مشروعة أو غير مشروعة، ويطيلون الكلام فى ذلك بما حاصله الفراغ والتلهى وقطع الوقت بما لا طائل فيه، والحق الذى تخطاه الفريقان أنها ذكرى للغافلين وإنما لم يفعلها السلف الصالح لأنهم كانوا متذكرين بقوة دينهم وطبيعة قربهم، وعمارة أوقاتهم بالصالحات.

---

* مسودة وجدت فى أوراق الشيخ لكلمة ألقاها فى الحفل الذى أقيم بالقاهرة فى شهر نوفمبر ١٩٥٢ بمناسبة ذكرى المولد، بحضور الرئيس محمد نجيب رئيس جمهورية مصر.

أما في هذه الأزمنة المتأخرة التي رانت فيها الغفلة على القلوب، واستولت عليها القسوة من طول الأمد واحتاج فيها المسلمون إلى التنبيهات، فمن الحكمة والسداد أن يرجع المسلمون إلى تاريخهم يستثيرون عبره، وإلى نبيهم يدرسون سيره، وإلى قرآنهم يستجلون حقائقه، وإن من خير التنبيهات مولد محمد لو فهمناه بتلك المعاني الجليلة.

أيها المسلمون: قبل أن تقيموا حفلات المولد أقيموا معاني المولد، وتدرجوا من المولد المحمدي الذي هو مولد رجل إلى البعثة المحمدية التي هي مولد دين نسخ الأديان لأنه أكمل الأديان، وهناك تضعون أيديكم على الحقيقة التي تهديكم إليها هذه الذكرى.

حاسبوا أنفسكم في كل عام من أين انتقلتم وإلى أين وصلتم، أشيعوا بينكم في هذه الذكريات المحبة والأخوة والاتحاد على الحق، واذكروا أن صاحب هذه الرسالة بعث بالعزة والكرامة والعلم والقوة، فكونوا أعزة وكونوا أحرارا وكونوا أقوياء، واعرفوا محمدا بدينه وقرآنه وسيرته لا بمولده، وأقيموا دينه، ولا عليكم بعد ذلك أن تقيموا مولده أو لا تقيموه.

إن محمداً ﷺ يطالبكم بإقامة الدين لا بإقامة المولد، وإن دينكم دين الحقائق والأعمال والنظم فارجعوا إلى تلك الحقائق وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

- ٢ -

من الخير للمسلمين أن يسيروا إلى الأمام دائما بأبدانهم وعقولهم مع الأمم الزاحفة إلى الحياة، المتزاحمة على مواردها، أو أمام الأمم الزاحفة المتزاحمة، مندفعين بحداء القرآن إلى الحق الذي تؤيده القوة، وإلى القوة التي يؤيدها الحق، ليعمروا هذا الكون بالعدل والصلاح والإحسان والخير والمحبة، ويتحقق وعد الله إياهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم فيها، وتبديل خوفهم أمنا إذا آمنوا وعملوا الصالحات وعبدوا الله ولم يشركوا به شيئا.

من الخير العميم لهم أن يفعلوا ذلك في جميع العام، إلا في ليلة واحدة منه وهي الليلة الموافقة لليلة ميلاد محمد (ﷺ)، فالواجب عليهم أن يرجعوا فيها القهقرى، وأن يطووا فيها هذه المراحل الأربع عشرة التي نسميها قرونا، وأن يمحوها من أذهانهم بخيرها وشرها حتى كأن لم تكن، ليتصلوا في ليلة من العام بالآفاق التي انفجر منها مأزه العذب الزلال، فأروى النفوس وغسل أكدارها، وطهر الأرض وأحيا مواتها؛ والواجب أن يتبعوا السبب حتى يبلغوا مطلع الحقيقة- حقيقة السعادة التي جلاها الله على هذا الكوكب الأرضي، كوكب الشقاء والشر والفساد والتناحر، والواجب أن يفعلوا هذا ليجتمعوا بمحمد في ليلة من كل عام، فيأخذوا عنه كيف كان يزكي وكيف كان يعلم، وكيف كان يجاهد الكفر قبل أن يجاهد الكفار، ويحارب المعاني الفاجرة قبل أن يحارب الفجار، وكيف كان يغرس الفضيلة ويتعهدها بالسقي والرعاية حتى تنمو وتورق وتظل وتثمر، وكيف كان يقتلع الوثنية ليزرع التوحيد، ويهدم الضلال ليبني الهدى، وكيف كان يهدي بالقرآن للتي هي

أقوم، وكيف كان يمهد للحق بالقوة، ويضع القوة في خدمة الحق، وكيف كان ينتصف للروح من الجسم حتى إذا بلغ المعدلة أذن لسلطان الروح بالاستيلاء على العرش من غير أن يضار الجسد أو يضيمه، وكيف كان يؤلف بين سنن الله في الدين وبين سننه في الكون ليربط الأسباب بالمسببات والدين بالدنيا، ويزاوج بين السعادتين فيهما.

هذه المعاني- وهي قطرة من بحر- هي التي يجب أن يذكرها المسلمون، وأن يتذاكروها كلما أظلتهم هذه الليلة من كل عام، وأن يحتفلوا لذكرها باللسان وذكراها بالقلب وتحقيقها بالعمل، وأن يتواصوا بالتخلق بها في أنفسهم ثم فيمن يليهم من أهل وجيران وأقارب، وأن يتنافسوا في البلوغ إلى غاياتها، وأن يعتبروا هذه الليلة حدا فاصلا بين مرحلة مقطوعة ومرحلة مستأنفة، وموقف محاسبة على عام مضى، واستعداد لعام يأتي...

أما والله لو أننا نظرنا إلى هذه الليلة بهذه النظرة، ووزناها بهذا الميزان، وبنينا إقامة الحفلات فيها على هذه الحكمة، لما أصبنا بهذا الوهن القاتل، ولما أصيبت جدة الدين بيننا بالإخلاق، ولما تفرقنا شيعا فيه ومذاهب، ولما تكدرت مشاربنا منه بالضلال والابتداع، ولا تنوسيت تلك السنن العظيمة بالغفلة والإضاعة.

أيها الإخوان: إن نبينا منا لقريب لو جعلنا الصلة بيننا وبينه حبل الله القرآن، فقد تركه فينا ليكون النور الممتد بيننا وبينه، وقد كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ويقف عند حدوده ويصنع أفعاله وتروكه من أوامره ونواهيه، وينحت من معدنه تلك الآداب التي ربى بها نفسه وراض عليها أصحابه، ثم تركها كلمة باقية فينا وحجة بالغة لنا أو علينا، وقد شرفنا ﷺ تشريفا يبقى على الدهر، وشهد لنا شهادة نتيه بها على الغابرين إذ قال لأصحابه: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي».

ولكننا تركنا هذا المرجع الإلهي المعصوم في اقتباس سيرة نبينا كما هجرناه في كل ما جاء به من عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وأصبحنا نتلمسها من كتب فيها الموضوع وفيها المصنوع وفيها الصحيح الذي لا يثير عبرة ولا يحيي نزعة من نزعات الخير فينا، ولا يحملنا على التأسي بتلك السير التي هي كنوز معارف ومعادن فضائل وأعلام اقتداء، ومنازل نقلة بالفكر إلى المثل الأعلى، وبالروح إلى الملأ الأعلى..

ألستم ترون أن أكثر المؤلفين في السير يصرفون اهتمامهم إلى الجهات التي لا محل فيها للاقتداء الذي يزكي النفس- أكثر مما يصرفونه إلى الجهات التي تزكي النفس وتطبعها على الخلال النبوية؟ يهتمون بالمواطن السطحية البشرية مثل كيفية لبسه وأكله وشربه ونومه وملابسة أهله، ويغفلون المكامن الروحية الملكية مثل تعلقه بالله ومراقبته له وتأديته الأمانة الشاقة وصبره وشجاعته وتربيته لأصحابه، وتدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تكمل وعلى السمع والطاعة للحق وفي الحق، وعلى التعاون والتناصح والتحابب والتآخي والاتحاد..

مفخرة الإنسانية

محمد (ﷺ)

للعلامة / محمد فتح الله كولن

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هى أهل له كان رغبة ملحة لدىّ- كما هى عند كثيرين- وهاجساً من هواجس فكرى ومشاعرى، وموضوعاً مهماً من المواضيع التى لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء.. فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: «أنت الإنسان الذى نفخر بانتسابنا إليه».

ويكفى للاستدلال على مدى عظمته بأنه على الرغم من كل عوامل الهدم والنخر التى أصابت عصرنا، فنحن لا نزال نسمع من فوق المآذن أصداء نداء «أشهد أن محمداً رسول الله»، ولا نزال نشاهد كيف أن الروح المحمدية تفتح فى كل مكان آفاق السمو نحو الأعالى، فيغمرنا الوجد والشوق خمس مرات كل يوم فى عالم الروح. وتستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله فى الداخل والخارج فى الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى فى هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب فى عمر الزهور- رغم عدم إحاطتهم التامة بالحقيقة الأحمدية التى ليس من اليسير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة- يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلا فى العالم، فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أى حقيقة من الحقائق العائدة له ﷺ ولا أن يبليها.. أجل، فهى حقائق غضة ندية ونضرة على الدوام.

وكما قلت لإخوانى مراراً إننى عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بى إلى درجة تشعرنى وكأننى سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجى الذى يحيى القلوب يقول لى: «أهلا وسهلا.. ومرحباً».

أجل، إنه حى ونضر فى صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية فى قلوبنا.

إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتحة فى الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة فى القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون فى تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشئون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما تربع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل فى الضلوع والصدور سواه.

ولكن مع كل هذا، وعلى الرغم من كل شىء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافى الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليبلغوا قبته.. قبة الإنسان الذى يضع التيجان على هامات الشموس.

أجل، إننا نشاهد فى جميع أنحاء العالم- ولاسيما فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا- انبعاثاً جديداً لمنهجه ﷺ، وحركة دائبة من قبل المسلمين لشرح وبيان مبادئه، ونسج نسيجه المزخرف ذى النقوش البديعة والألوان الجميلة المتناسقة، فكأنهم يعيشون روح عهد النبوة من جديد. ونرى الأمر نفسه فى العالم الإسلامى.. فقبل قرن أو قرنين كان هناك أناس يشعرون بارتباطهم مع المسلمين عن طيب قلب دون تدقيق أو تمحيص، أما الآن فهناك مثقفون يعرفون

لماذا يؤمنون بالإسلام، ولماذا يقتدون بالرسول محمد ﷺ ؛ لأنهم بدأوا بتحليل المسائل الإسلامية تحليلاً علمياً دقيقاً.

فحتى الآن استغل أعداؤه الجامعات والكليات والمدارس والطبقة المثقفة، وخدعوها بشعارات براقة، واستخدموا المؤسسات الوطنية لحساب الكفر والضلال، ولكن كل هذه الأمور آذنت بالانتهاء، وبدأت تتفتت وتذوب وتضمحل مثل جبال الثلج الطافية على المياه، وبدأت الإنسانية تتجه نحو رسول الله ﷺ وتقبل عليه.

أما الذين غيروا مذاهبهم وأفكارهم مرات ومرات منذ سنوات عديدة، وانتقلوا من هذا المبدأ إلى ذاك، ومن هذه الأيدولوجية إلى تلك، فقد رأى هؤلاء كيف باءت محاولاتهم هذه بالفشل والخذلان، ورأوا أن المدرسة الوحيدة التي لم يقربها الخذلان هي مدرسته ﷺ، وأن سبيله وطريقه هو الصراط المستقيم، فاتجهوا إليه وأقبلوا عليه.. هكذا فعل «موريس بوكاي»، وهكذا تصرف «روجيه جارودي»، وغيرهم وغيرهم.


جارودي — موريس بوكاي

ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون «قطميرا»[1] له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حبًا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حبًا ووجداً.. ولو تنشقت الأرواح ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعر جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المُتَّقدة بحبه بعدما صارت رماداً، فتذروها الريح نحوه ﷺ.

ولأن الإنسان يحب بمقياس إدراكه وفهمه، ولأنه عدو ما يجهل.. فإننا نرى أن البؤرة التي تتجمع حولها محاولات أعدائنا على الدوام ومؤامراتهم، هي بذل الجهود لإقصائه ﷺ عن القلوب، وإهمال ذكره، وتنشئة الأجيال الجديدة على عدواته وبغضه، وتوجيه هذه الأجيال وتربيتها وتعليمها في هذا الاتجاه.

ولكن انظروا إلى هذا التجلي الإلهي.. فجميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب، ويزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وحبور، كفرح ظمآن في صحراء موحشة وجد بالقرب منه ماء سلسبيلاً بارداً بعد أن قاسى آلام العطش والظمأ أياماً عديدة ولا شك أن قلباً رحيماً مثل قلبه ﷺ لا يرد أبداً من يقبل عليه بكل هذا الشوق وبكل هذا الوجد والعشق، بل يحتضنه بكل حنان وشفقة، ويضمه إلى صدره.

لا أدري إن كنتم انتبهتم إلى الناس الذين يملؤون المساجد على سعتها أيام الجمع؟ فلو دققتم النظر لرأيتم أن معظمهم من الشباب.

فياترى ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس، وفي المطر والثلج إلى الجوامع وإلى الوضوء وأسنانهم تصطك من البرد؟ من يدفع هؤلاء على الرغم من محاولة أرباب الضلالة والطغيان جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ سأجيبكم أنا: إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.

وسواء استطاعت عقولنا أن تفهم وتستوعب هذه الحقيقة، أو عجزت عن ذلك، فإن القلوب دائما ترف حول هذه الشمعة وتطوف حول هذه الشمس، وفي المستقبل القريب سوف يتجرع مرارة الألم

---

(١) قطميرا: هو اسم كلب أهل الكهف. (المترجم)

ولوعة الندم من فاتته المسارعة إلى رحابه، والتوجه إلى جنابه ﷺ ومن لم يقف في صفه، وبقي متشرداً، بائساً، وحيداً، منفرداً مثل ذبابة الشتاء... سيتأوه من الألم، وسيعض أنامله حسرة وندماً قائلاً: «لِمَ لَم أتوجه إليه وأحُمْ حوله كالفراش؟» وحينذاك قد يكون الوقت متأخراً ومنتهياً بالنسبة للكثيرين منهم.

سيهرع العالم والدنيا إليه، وستدقق المحافل العلمية في سيرته، وستسير وراءه كل نفس متفتحة على عالم الفكر، وسيتحول العديد من أعدائه إلى أخلص محبيه وأتباعه، ويهرع إليه ليلوذ به، بل إن منزلة الرسول الكريم بدأت ترجح في كفة ميزان الطرف الخصم حتى بمقاييسه وموازينه، وبدأت الأوساط المعادية له تقر وتعترف بعظمته. وقد ورد في الحديث بأن الرسول ﷺ وزن بعشرة من أمته فرجحهم، ثم وزن بمائة فوزنهم، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال الملك لصاحبه: «دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها»[٢]. وجاء هذا المعنى في حديث آخر كذلك[٣].

أجل، فلو وضع الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وأكبر الناس وأعلمهم حتى يوم القيامة، وجميع المتصوفة والزهاد الذين فتحوا القلوب ونفذوا إليها، وكل الأولياء والأصفياء، وكل الأبرار والمقربين في كفة، ووضع محبوب قلوبنا وسلطانها، وضياء عيوننا ونورها في كفة لرجحهم جميعاً، ذلك لأنه هو سبب الوجود وحكمته.

فهو علة الكون والكائنات. وهناك قول مشهور يتردد على ألسنة الكثير من الناس: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك»[٤] أجل، فمن العبث كتابة كتاب لا يمكن فهم معناه، والله سبحانه وتعالى منزه عن العبث، لذا فهناك حاجة إلى مرشد جهوري الصوت مثل سيدنا محمد ﷺ سيد الزمان والمكان لكي يشرح معنى الوجود، ومعنى الكون والكائنات. كذلك هناك حاجة إلى شارح وإلى مبلغ مثله لكي يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هذه

(٢) الدارمي، المقدمة ٣، المسند للإمام أحمد، ١٨٤/٤؛ الشفاء للقاضي عياض، ١٧٣/١.

(٣) المسند للإمام أحمد، ٧٦/٢.

(٤) كشف الخفاء للعجلوني، ١٦٤/٢.

السماء الواسعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. يشرح له من أين أتى وإلى أين هو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّح؟ أجل، لكي يعلن ويوضح هذا، ويوصل ما وراء أستار الوجود إلى الأرواح، فلو لم يكن موجوداً لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى؛ لأن الرسول محمداً ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء.

هو أقرب وأحب إلينا من كل المحبوبين. ومع أنني أعد نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين: إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبها لهذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده؟ لذا، أود أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم.

عندما منَّ عليَّ الله سبحانه وتعالى بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحاً لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضل البقاء هناك.

والحقيقة أن الجنة أملنا جميعاً، ومن الصعب تصور أن هناك مسلماً واحداً لا يرغب في الدخول إليها.. ألا نبتهل لله سبحانه وتعالى كل صباح وكل مساء في أدعيتنا أن يجيرنا من النار وأن يدخلنا جنته، ومع اعترافي بهذا وقبولي له، فإنه لو عرضت على تلك المرتبة العليا، ودعيت لها، لربما استأذنت ربنا أن يسمح لي بالبقاء في الروضة الطاهرة لرسول الله ﷺ. ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقاً لتلك المرتبة العليا، بل إني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

التحقيق الفلكى لتاريخ المولد النبوى والهجرة النبوية





للعلامة محمود باشا الفلكى

تقديم:

كان العلامة محمود باشا الفلكى (١٢٣٠ - ١٣٠٢هـ/١٨١٥ - ١٨٨٥م) من عظماء علماء مصر فى الرياضة والفلك والهندسة - بالقرن التاسع عشر الميلادى.

- ولد ببلدة «الحصة» بمحافظة كفر الشيخ حاليا.
- وتعلم بالإسكندرية، ثم بالقاهرة.
- وعمل أستاذا للعلوم الرياضية والفلكية بمدرسة المهندسين ببولاق وابتعثته الحكومة المصرية إلى فرنسا للتخصص فى العلوم الرياضية والفلكية سنة ١٢٦٦هـ سنة ١٨٤٩م وعاد من البعثة سنة ١٢٧٥هـ سنة ١٨٥٨م.
- نال عضوية المجمع العلمى المصرى ومثل الحكومة المصرية فى المجمع الجغرافى بباريس سنة ١٢٩٢هـ سنة ١٨٧٥م.وعين وكيلا للمجمع العلمى المصرى سنة ١٢٩٧هـ سنة ١٨٨٠م وناظرا - «وزيرا» - للأشغال العمومية سنة ١٢٩٩هـ سنة ١٨٨٢م. ووكيلا لوزارة المعارف العمومية سنة ١٣٠٠هـ سنة ١٨٨٢م وناظرا «وزيرا» - للمعارف العمومية سنة ١٣٠١هـ سنة ١٨٨٤م.
- ومن آثاره الفكرية والعلمية: «خريطة الوجه البحرى بمصر» و«نخبة إجمالية فى الجغرافية المصرية» و«التقاديم الإسلامية والإسرائيلية» و«الإسكندرية القديمة» و«التنبؤ عن ارتفاع النيل قبل ارتفاعه» و«المقاييس والمكاييل بالديار المصرية ومقابلتها بالمقاييس الفرنسية» و«أهرام الجيزة» و«عمر أهرام مصر» و«نتائج الإفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام وفى تحقيق مولد النبى وعمره عليه الصلاة والسلام» - كتبه بالفرنسية، وقدمه إلى أحد مؤتمرات الاستشراق، ثم ترجم إلى العربية، ونشره مجمع البحوث الإسلامية بمقدمة للإمام الشيخ عبد الحليم محمود وهو البحث الذى نقدم منه تحقيق تاريخ المولد النبوى والهجرة النبوية.
- وكان الفلكى باشا أول واضع لمدفع الظهر بالقلعة باتجاه خط الزوال، كما أقام على سطح منزله - بميدان الأزهار بالقاهرة - مزولة تبين ساعات النهار، وأنصاف الساعات، وأرباعها، ووقتى الظهر والعصر. عليه رحمة الله.

البحث الأول
فى مولد النبى محمد ﷺ

إن عدم وجود روايات قاطعة عن الوقت الذى ولد فيه النبى محمد ﷺ قد اضطرنى إلى أن أرجع فى هذا البحث إلى عدد كبير من الروايات والأقوال المتعلقة بهذا الموضوع:

أولا: نحن نجد ما يلى فى الجزء الأول «السيرة الحلبية» رقم ٥٩٦ من ملحق المكتبة العربية بالمكتبة الإمبراطورية بباريس صفحة ٤٧ وما يليها[1]:

«عن قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن يوم الإثنين فقال: ذلك يوم ولدت فيه - وذكر ابن بكار والحافظ ابن عساكر أن ذلك كان حين طلوع الفجر، ويدل له قول جده عبد المطلب: ولد لى الليلة مع الصبح مولود، وعن سعيد بن المسيب ولد رسول الله ﷺ عند ابهيرار النهار - أى وسطه - وكان ذلك اليوم لمضى ثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول - أى وكان فى فصل الربيع - وقد أشار لذلك بعضهم بقوله:

يقول لنا لسان الحال منه
وقول الحق يعذب للسميع
فوجهى والزمان وشهر وضعى
ربيع فى ربيع فى ربيع

قال: وحكى الإجماع عليه، وعليه العمل الآن - أى فى الأمصار - خصوصا أهل مكة فى زيارتهم موضع مولده ﷺ، وقيل لعشر ليال مضت من ربيع، - وصحح أى صححه الحافظ الدمياطى -، وقيل لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقيل لثمان مضت منه، قال ابن دحية وهو الذى لا يصح غيره وعليه أجمع أهل التاريخ».

وعلى ذلك فقد كان مولد النبى محمد ﷺ فى الربيع يوم ٨ أو ١٠ أو ١٢ من ربيع الأول طبقا للآراء الجديرة بالثقة.

ثانيا: إن النسخة التى تحمل رقم ٥٩٧ من المؤلف العربى سالف الذكر قد ورد بها ما يأتى، فى الصفحة ٧٠ وما يليها[2]:

«قالت حليمة (مرضعة محمد): فقدمنا مكة على أمه ﷺ - أى بعد أن بلغ سنتين - ونحن أحرص شىء على مكثه فينا: لما نرى من بركته ﷺ فكلمنا أمه وقلنا لها: دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإنى أخشى عليه وباء مكة - أى مرضها - ووخمها فلم نزل بها حتى ردته ﷺ معنا: قالت حليمة: فرجعنا به ﷺ فوالله إنه بعد مقدمنا به ﷺ بأشهر «وعبارة ابن الأثير بعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه «يعنى من الرضاعة» لفى بهم لنا «ولعل هذا لا ينافيه قول المحب الطبرى فلما شب وبلغ سنتين لأنه ألغى الكسر» فبينما هو ﷺ وأخوه فى بهم لنا خلف بيوتنا «والبهم أولاد الضأن» إذ أتى أخوه يشتد أى يعدو فقال لى ولأبيه ذاك أخى القرشى ﷺ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه،

(١) انظر «السيرة الحلبية» فى ميلاد الرسول ﷺ الجزء الأول ص٤٧ «المراجع».

(٢) انظر «السيرة الحلبية» فى إرضاع الرسول ﷺ.

فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه، قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا وقال لى أبوه يا حليمة: لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، قالت فحملناه فقدمنا به مكة على أمه».

وفى موضع آخر من نفس السيرة صفحة ٨٠ نجد ما يلى:

«وعن حليمة رضى الله تعالى عنها أنها كانت بعد رجوعها به ﷺ من مكة لا تدعه أن يذهب مكانا بعيدًا عنها، فغفلت عنه يومًا فى الظهيرة فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته من الرضاعة وهى «الشيماء» وكانت ترقصه بقولها:

هذا أخ لى لم تلده أمى

وليس من نسل أبى وعمى

فأنمه اللهم فيما تنمى

فقالت: فى هذا الحر؟ أى لا ينبغى أن تخرجى به فى هذا الحر وهذا الحادث كما يرى القارئ قد وقع بعد أن عادت به حليمة من مكة، ونحن نعرف أن الرواية الأولى تقول لنا إنه كان وقتئذ فى الثانية من عمره وأنه قد أعيد إلى أمه حين صارت سنه سنتين وبضعة أشهر «شهرين أو ثلاثة طبقا لرواية ابن الأثير»، وعلى ذلك فإن محمدًا ﷺ كان عمره من سنتين إلى سنتين وثلاثة أشهر حين خرجت به أخته من الرضاعة فى وقت الحر الشديد الذى خشيت عليه منه مرضعته.

ولابد أن هذا قد حدث فى وقت الصيف أو فى وقت قريب جدًا من الصيف، وينتج من ذلك أن مولد محمد ﷺ كان فى الربيع.

وهذه النتيجة تبدو لى أقرب ما يكون إلى التصديق وخصوصًا أنها تتفق مع ما جاء فى النص الأول، ومع الأقوال الأخرى التى سأوردها.

ثالثا: إن الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن سالم المعروف بالخلال يقول لنا فى كتابه «الجفر الكبير» -رقم ١١٧٤ من المخطوطات العربية صفحة ٤ ما يلى:

«من المؤكد أن النبى عليه الصلاة والسلام ولد فى يوم الاثنين من شهر «ربيع الأول» فى العشرين من شهر «نيسان» عام الفيل فى عهد «كسرى أنو شروان»، وقد بعثه الله بالرسالة بعد أربعين سنة ويوم من ميلاده، وفى الثالثة والخمسين هاجر إلى المدينة».

وشهر «نيسان» فى هذا القول هو شهر «إبريل»، وإذن فقد ولد النبى ﷺ فى الربيع.

رابعا: إن المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» يحدد مولد النبى ﷺ سنة ٨٨٢ من تاريخ «الإسكندر».

وإلى القارئ نص ما كتبه طبقا للمخطوط العربى رقم ٧١٤ بمكتبة باريس فى الملحق الجزء الأول، الصفحة ٢٧٩[3]:

«والذى صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل إلى مكة بخمسين يومًا وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من «المحرم» سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد «ذى القرنين»، وكان قدوم أبرهة «الحبشى» مكة بسبع عشرة سنة خلت من «المحرم» وليست عشرة ومائتين سنة من تاريخ العرب الذى أوله حجة الغدر ولسنة أربعين من ملك كسرى أنو شروان، وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة».

والوقت الذى عينه المسعودى يقع فى سنة ٥٧١ ميلادية.

خامسا: جاء ما يلى بالصفحة ٢٨٣ بالجزء الأول من كتاب «تاريخ العرب» تأليف المسيو «كوسان دى برسيفال»:

«فى رأى ابن الأثير كما ورد فى تاريخ الخميسى الجزء الخامس صفحة ٨٦، أن «كسرى» استمر حكمه سبعا وأربعين سنة وثمانية شهور «ومؤرخو الروم يذكرون أيضاً هذه المدة غير أنهم يفترقون عن مؤرخى العرب فى شهر واحد فقط»، ويضيف ابن الأثير إلى ذلك، أن «كسرى» عاش سبع سنوات وثمانية شهور بعد مولد محمد عليه الصلاة والسلام».

وإذن: «فإن «كسرى» كان قد حكم أربعين سنة كاملة قبل مولد النبى ﷺ ونحن نعلم أن هذا الملك قد بدأ حكمه سنة ٥٣١ ميلادية وعلى ذلك فإن النبى ﷺ وقد ولد خلال سنة ٥٧١ ميلادية.

سادسا: إن جرجس مؤلف كتاب «مختصر التواريخ»[4] وهو ابن أبى إلياس ابن أبى المكارم بن أبى الطيب المعروف باسم العميد.

ويؤكد أن محمدًا ﷺ كان قد بلغ الثامنة من عمره وقت وفاة كسرى أنوشروان «ملحق المخطوط العربى رقم ٧٥١»، ونحن نجد فى كتاب «فن تحقيق التواريخ» بالصفحة ٤٠٨ الفقرة الآتية: «فى سنة ٥٧٩ مات كسرى فى كتيسفون حوالى شهر مارس».

وإذن فإن النبى محمدا ﷺ كان عمره ثمانى سنوات حوالى شهر مارس، وبناء على ذلك فقد كان مولده الشريف حوالى ذلك الوقت نفسه من سنة ٥٧١ ميلادية.

سابعا: إن فلكى برلين الكبير المسيو إيدلر -Idler- يقول فى رسالته عن الكرتولوجية الرياضية الجزء الثانى بالصفحة ٤٩٨ ما يلى: «إن محمدا «ﷺ» قد ولد طبقا لما ذكره المكين يوم ٢٢ «نيسان» من سنة ٨٨٣ من تاريخ الإسكندر».

وشهر «نيسان» السريانى هذا يطابق شهر «إبريل» وإذن فيكون مولده ﷺ يوم ٢٢ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية.

ثامنا: إن المسيو «سلفستر دى ساسى» قد أورد فى «مذكرات أكاديمية التسجيلات» الجزء ٤٨ الصفحة ٥٣٠ الفقرة الآتية اعتمادًا على ما ذكره جانييه Gagnier:

إن ميلاد النبى قد حدث فى الساعة السادسة من ليلة الاثنين العشرين من

(٣) انظر كتاب «مروج الذهب» للمسعودى الجزء الأول ص٣٩٨ طبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦هـ.

(٤) هذا المؤلف معروف فى أوروبا باسم «المكين» كما ذكره المسيو «رينو» فى فهرس ملحق «المخطوطات العربية» بمكتبة باريس.

«نيسان» سنة ٨٨٢ من تاريخ الإسكندر. وهذا اليوم يوافق يوم ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية.

ويبدو أن الفلكيين الشرقيين متفقون على تحديد ميلاده ﷺ فى شهر «إبريل» سنة ٥٧١هـ ميلادية، وهم يحددونه عقب اقتران المشترى بزحل مباشرة تقريبا، ذلك الاقتران الذى حدث فى برج العقرب.

وقد حسبت موقع هذين الكوكبين متخذا جداول «بوفار» Bouvard فوجدت أنه فى أول إبريل سنة ٥٧١ ميلادية كان المشترى فى ١٥.٢ من برج العقرب(٥) وكان زحل فى ١٧.١٥ من نفس البرج وقد كانت حركة هذين الكوكبين رجعية ولابد أن الاقتران قد حدث يوم ٢٩ أو ٣٠ مارس سنة ٥٧١ ميلادية وهذا الاقتران يسميه الفلكيون الشرقيون «بالقران الملة الإسلامية»، أو ببساطة «اقتران الملة» وإلى القارئ بعض أقوالهم المتعلقة بذلك:

تاسعا: جاءفى المخطوط العربى رقم ١١٦١ بالصفحة ٨٨ ما يلى:(٦) «أقول إن سنة ولادة النبى ﷺ حدثت عام الفيل وهى سنة ٨٨٢ للإسكندر وفيها كان قران بين زحل والمشترى فى برج العقرب قبل الولادة بقليل».

وطبقا لهذا القول يكون النبى ﷺ قد ولد بعد ٣٠ مارس سنة ٥٧١ ميلادية بوقت وجيز.

عاشرا: إن القول اللاحق الذى استقيته من كتاب بعنوان «منتهى الإدراك» رقم ١١١٥، من المخطوطات العربية، الفصل الثامن يؤدى إلى نفس النتيجة:

«ولد النبى ﷺ فى السنة الأولى من القران المبشر بظهور العقيدة الاسلامية».

وقد عرفنا مما تقدم أن هذا القران حدث يوم ٢٩ أو ٣٠ مارس سنة ٥٧١ وإذن فقد ولد النبى ﷺ فى هذه السنة نفسها.

حادى عشر: وأخيرا نجد فى المخطوط رقم ١١٢٩(٧) ورقم ١١٣١(٨) أقوالا متشابهة تثبت أن مولد النبى ﷺ كان فى سنة ٥٧١ ميلادية بعد ٢٩ مارس بوقت وجيز وهو وقت الظاهرة السماوية سالفة الذكر.

(٥) وإلى القارئ نتائج حساباتى بالضبط عن أول إبريل سنة ٥٧١م:

الكوكب	الطول الشمسى	العرض الشمسى
المشترى	٢١٠° ٥٧' ٢١"	ب ١° ٩' ٤"
زحل	٢١٣° ٤' ٤"	ب ٢° ٢٢' ٣"
الكوكب	الطول الأرضى	العرض الأرضى
المشترى	٢١٥° ٢' ٢٥"	ب ١° ٢٢' ٤٠"
زحل	٢١٥° ٦٦' ٤٧"	ب ٢° ٣٦' ٤٠"

(٦) مؤلف هذا الكتاب هو يحيى بن محمد بن أبى شكر الأندلسى.

(٧) هذا الكتاب يسمى الكامل من أسرار الكواكب.

(٨) المؤلف هو أحمد بن عبدالجليل والكتاب اسمه كتاب القرانات.

ثاني عشر: يمكن أن نضيف الدليل الثاني عشر والأخير الذى يتمثل فى آراء المؤرخين والذين يحددون تاريخ مولد النبى ﷺ بالسنة الأربعين(٩) أو الحادية والأربعين(١٠) من حكم كسرى أنوشروان.

والواقع أنه مادام هؤلاء العلماء لا يذكرون الوقت بالضبط من أوقات السنة، فإن الإنسان يمكن أن يفترض أن الأولين كان يقصدون آخر السنة الأربعين وأن الآخرين قصدوا ابتداء السنة الحادية والأربعين من حكم ملك الفرس الأكبر، وبذا يكون الرأيان متقاربين ولا يختلف أحدهما عن الآخر إلا بمقدار شهر أو شهرين، ويكونان متفقين على القول بأن مولد النبى ﷺ كان فى سنة ٥٧١ ميلادية.

وأضيف إلي ذلك ما أورده أبو الفداء من أن مولد النبى ﷺ كان فى سنة ٨٨١ من عصر الإسكندر وفى سنة ١٣١٦ من عصر بختنصر وهو يجعل تاريخ المولد الشريف مطابقا للسنة الثانية والأربعين من حكم كسرى أنوشروان والواقع أن سنة ٨٨١ للإسكندر قد بدأت يوم أول أكتوبر سنة ٥٦٩ ميلادية، بينما سنة ١٣١٦ من عصر بختنصر قد انتهت يوم ٢ إبريل سنة ٥٦٩م.

وإذن: فإن ذلك التوافق مستحيل، وبناء على هذا فإننا مضطرون إلى رفض رأى أبى الفدا باعتباره رأيا لا يقوم على أساس ولا قيمة له، خصوصا أنه يناقض نفسه بنفسه، ذلك أنه بالصفحة ١٤ من طبعة جانييه Gagnier لحياة النبي محمد ﷺ بقلم أبى الفدا قال هذا المؤرخ إن محمدا عليه الصلاة والسلام تلقى رسالته فى سن الأربعين سنة ٩٢٢ للإسكندر وطبقا لهذا القول يكون قد ولد فى سنة ٨٨٢ للإسكندر أو فى سنة ٥٧١ ميلادية.

إن التوافق الذى يلاحظ بين هذه الكثرة من الروايات والأقوال المختلفة يعادل عندى حقيقة لا يعتريها الشك، ومن ثم فإنى لا أتردد لحظة فى القول بأن النبى محمدا ﷺ قد ولد فى ربيع سنة ٥٧١ ميلادية، ولما كان شهر إبريل قد تحدد صراحة فى بعض هذه الأقوال ويدل عليه الاستنتاج فى بعضها الآخر، فإنى أقره أيضا على أنه الشهر الذى حدث فيه المولد الشريف.

ولكن فى أى يوم من أيام شهر إبريل؟ إن هذا ما سنراه الآن:

إن الاجتماع الحقيقى للقمر قد حدث «طبقا لجداول لارجتو Largeteau المختصرة» فى العاشر من إبريل سنة ٥٧١م الساعة ٩ والدقيقة ٤١ تقريبا بعد منتصف الليل بحساب الزمن الوسط لمكة(١١) وما كان يمكن رؤية الهلال بالعين المجردة إلا يوم ١١ مساء. وإذن فإن الشهر القمرى العربى الموافق لابد أنه ابتدأ يوم الأحد ١٢ إبريل وقد ولد النبي محمد ﷺ طبقا للآراء الجديرة بالشقة يوم ٨ أو ١٠ أو ١٢ من

(٩) المسعودى فى كتابه «مجمل التواريخ».

(١٠) حمزة الأصفهانى.

(١١) اتخذت لخط هذا البلد ٥٠" ٤٤' ٣٧° شرقي خط نصف النهار المار بباريس واتخذت لخط العرض ١٧" ٢٨' ٢١° شمالا.

الشهر القمرى ربيع الأول. وكان يوم ولادته ﷺ يوم الاثنين كما هو المتفق عليه بإجماع الآراء.

ولما لم يكن بين يوم ٨ ويوم ١٢ من هذا الشهر القمرى يوم اثنين إلا يوم ٩ منه، فإننا لا يمكننا أن نعتمد غير هذا اليوم يوما لميلاد النبى محمد ﷺ.

وإذن فإنى أختم هذا البحث مقرراً أن النبى محمد ﷺ قد ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١م ميلادية.

البحث الثانى

فى تحديد وقت الهجرة

روى صاحب السيرة الحلبية فى كتابه سالف الذكر -ملحق المخطوطات العربية بمكتبة باريس رقم ٥٩٦ص ٢١٠ الجزء الثانى- ما يلى[١٢]:

«وفى كلام الحافظ ناصر الدين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة يوم عاشوراء[١٣] فإذا اليهود صيام فقال رسول الله ﷺ: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ونجى فيه موسى، فقال رسول الله ﷺ: أنا أولى بموسى فأمر رسول الله ﷺ بصومه».

وأضاف مؤلف «السيرة الحلبية»:

«وهذا حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم والمدينة يحتمل أن المراد بها قباء «وهى قرية صغيرة بضواحى المدينة ويحتمل أن المراد بها المدينة نفسها».

ولأجل الاستفادة من هذا الحديث يجب أن نفهم تماما ماذا كانوا يعنونه بعاشوراء الذى يطابق يوم دخول النبى ﷺ فى المدينة فإذا كان المقصود بهذه الكلمة ما يقصده المسلمون من أنها تدل على اليوم العاشر من شهر المحرم فإن الحديث يكون مخالفا لما اتفق عليه الرأى من أن الهجرة كانت فى شهر ربيع الأول وهو ما يقوم على أساس روايات صحيحة أيضا، وإذن فإن من الضرورى أن نعرف ما إذا كانت كلمة «عاشوراء» تطلق فى عهد الرسول على وقت آخر من أوقات السنة.

إن الشواهد الآتية تدلنا على اليوم الحقيقى الذى أريد أن تعنيه كلمة «عاشوراء» التى أحاطت ذلك الحديث بالشكوك وأدت إلى خطأ بعض العلماء ومن ثم فإن ذلك المؤلف أيضا لما شعر بهذه الصعوبة أتبع روايته بما يلى:

«وفى كونه ﷺ وجدهم صائمين لذلك اليوم إشكال، لأن يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم أو هو اليوم التاسع منه كما يقول ابن عباس، فكيف يكون فى ربيع الأول؟ وأجيب بأن السنة عند اليهود شمسية لا قمرية، فيوم عاشوراء الذى كان

(١٢) انظر كتاب «السيرة الحلبية» الجزء الثانى ص ٢١٠ «المراجع».

(١٣) عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم عند المسلمين ويظهر أن اليهود من العرب كانوا يسمون بعاشوراء أيضا اليوم العاشر من شهر «تشرى» الذى هو أول شهور سنتهم المدنية وسابع شهور السنة الدينية عندهم.

عاشر المحرم واتفق فيه غرق فرعون لا يتقيد بكونه عاشر المحرم بل اتفق أنه فى ذلك الزمن أى زمن قدومه ﷺ كان وجود ذلك اليوم بدليل سؤاله ﷺ: إذ لو كان ذلك اليوم يوم عاشوراء ما سأل.

ومما يؤيد ذلك ما فى «المعجم الكبير للطبرانى» عن خارجة ابن زيد عن أبيه قال: ليس عاشوراء الذى يقول الناس إنما كان يوم تستر فيه الكعبة وتلعب فيه الحبشة عند رسول الله ﷺ وكان يدور فى السنة وكان الناس يأتون فلانا اليهودى فيسألونه فلما مات اليهودى أتوا زيداً بن ثابت فسألوه».

وهذا يبين لنا أن يوم عاشوراء الذى نحن بصدده كان عند اليهود وعرب مكة يوما محددا طبقا للسنة القمرية الشمسية.

ولكن فى أى شهر؟ وفى أى يوم من هذا الشهر؟ وذلك ما ستراه بعد:

قال البيرونى فى كتاب «الآثار» ما يلى:

«وقد قيل إن عاشوراء عبرانى معرب يعنى عاشور وهو العاشر من شهر «تشرى» عند اليهود الذى صومه صوم الكبور وإنه اعتبر فى شهور العرب فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود».

***

وأنا أستنتج من جميع هذه الشواهد أن النبى محمد ﷺ دخل المدينة فى اليوم العاشر من شهر «تشرى» وهو اليوم الذى فرضت التوراة الصوم فيه ولايزال اليهود حتى يومنا هذا يراعون القيام بهذه الفريضة.

ويبدو لى أن هذه النتيجة تطابق الحقيقة، وخصوصا أن ذلك اليوم كان يوم الاثنين فى رأى جميع الكتاب ولمعرفة وقت هذا الحادث فى التقويم المسيحى يجب بكل بساطة البحث عن التاريخ الموافق لليوم العاشر من سنة اليهود[١٤] من بين أيام سنة ٦٢٢ مسيحية لأنه لا نزاع فى أن الهجرة قد وقعت خلال هذه السنة الأخيرة. ويدلنا الحساب[١٥] على أن هذا اليوم كان هو اليوم العشرون من سبتمبر من الشهر القمرى ابتداء من ظهور الكوكب، وذلك لأن اجتماع النيرين قد حدث يوم السبت ١١ من سبتمبر بعد ساعة تقريبا من منتصف الليل بحساب باريس[١٦] ولم يستطع الناس رؤية الهلال بالعين المجردة إلا مساء الأحد ١٢ إلى ١٣ سبتمبر بحيث يتحتم أن يوافق يوم الاثنين ١٣ سبتمبر أول الشهر القمرى العربى.

وتقول الروايات إن دخول النبى ﷺ فى المدينة كان فى اليوم الثانى أو الثامن أو فى اليوم الثانى عشر من شهر «ربيع الأول»، وإن ذلك اليوم كان يوم الاثنين وبما أن يوم ٢ ويوم ١٢ لم يكن أحدهما يوم الاثنين فإن يوم ٨ هو الذى يحدد بالبداهة لهذا الحادث، وتكون

(١٤) هذه السنة هى السنة الـ ٤٣٨٢ من بدء الخليقة كما هو فى حسابات اليهود.

(١٥) انظر رسالة المؤلف عن «التقويم اليهودى» بالجزء XXVI من مطبوعات أكاديمية العلوم البلجيكية.

(١٦) وقبل ساعة ونصف تقريبا من نصف الليل بحساب المدينة.

النتيجة النهائية هي: أن الهجرة أو دخول رسول الله ﷺ في المدينة كان يوم الاثنين ٨ من شهر «ربيع الأول» الموافق ليوم ٢٠ «سبتمبر» سنة ٦٢٢ ويوم ١٠ من شهر «تشرى» من السنة «الـ١١» ٤٣٨٣ من بدء الخليقة.

وقبل أن أترك هذا الموضوع رأيت من المفيد أن أضيف بعض ملاحظات بشأن الحديث الرئيسي.

وإني ألاحظ أولا: أن ورود هذا الحديث في مصادر شتى في صحيحي البخاري، ومسلم يمكن أن يعتبر برهانا على صحته.

غير أن بالحديث عبارة لا تتفق مع ما جاء في التوراة، والعبارة التي وردت في الحديث هي: «فقال رسول الله ﷺ: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ونجى موسى».

إن اليوم الذي يدور عنه الحديث هنا هو العاشر من شهر «تشرى»، بينما اليوم الذي عبر فيه موسى البحر الأحمر كان كما ورد في التوراة الحادي والعشرين من شهر «نيسان» أو اليوم السابع بعد عيد الفصح عند اليهود.

فهل يمكن أن يكون هذا الاختلاف دليلا على عدم صحة الحديث؟ كلا بالتأكيد.

إن ابن عباس رضي الله عنه لم يفعل سوى أن ردد ما رآه وسمعه من بعض اليهود الذين كانوا بلا شك قليلي المعرفة. وما يدل ذلك إلا على جهل اليهود بالسبب الذي من أجله فرض الصوم.

على أن هذه العبارة قد سقطت تماما من نفس الحديث، كما ورد في موضع آخر «بالبخاري» عن طريق أبي موسى الذي كان من أكثر الصحابة علما، فقد ورد «بالبخاري» بالمخطوط رقم ٣٠١ص ٢٣٢ بمكتبة باريس ما يلي:

«حدثنا أحمد أو محمد بن عبدالله الغداني قال حدثنا حماد بن أسامة قال حدثنا أبو عميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن ابن موسى قال: دخل النبي ﷺ المدينة وإذا أناس من اليهود يعظمون عاشوراء ويصومونه فقال النبي ﷺ: نحن أحق بصومه فأمر بصومه»[٦٧].

إن بعض الكتاب لم يدركوا تماما معنى هذا الحديث، فزعموا أن الهجرة كانت في اليوم العاشر من شهر «المحرم»، وأن هذا اليوم كان مطابقا لليوم العاشر من شهر «تشرى» عند اليهود. وقد بين البيروني صاحب «كتاب الآثار» استحالة هذا التوافق الذي بني عليه هذا الرأي، ولكنه غالى في نقده حتى لقد حسب أنه يثبت عدم صحة حديث ابن عباس، وإليك ما قاله في «كتاب الآثار»: «وروى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسألهم عنه فأخبروه أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ونجى فيه موسى ومن معه، فقال عليه الصلاة والسلام: نحن أحق بموسى منهم فصام وأمر أصحابه بصومه. فلما فرض صوم شهر

(٦٧) انظر كتاب «البخاري» عن يوم عاشوراء.

رمضان لم يأمرهم ولم ينههم».

وأضاف البيروني:

«وهذه الرواية غير صحيحة؛ لأن الامتحان يشهد عليها. وذلك أن أول المحرم في السنة الأولى للهجرة كان يوم الجمعة السادس عشر من «تموز» سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر. فإذا حسبنا أول سنة اليهود في تلك السنة كان يوم الأحد الثاني عشر من شهر «أيلول» ويوافقه اليوم التاسع والعشرون من شهر «صفر» ويكون صوم عاشوراء يوم الثلاثاء التاسع من «شهر ربيع» الأول وقد كانت هجرة النبي عليه الصلاة والسلام في النصف الأول من «ربيع الأول» وسئل النبي عليه الصلاة والسلام عن صوم يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه وبعثت فيه وأنزل علي فيه وهاجرت فيه».

ثم اختلف في أي «الأثانين» كانت الهجرة فزعم بعضهم أنها في اليوم الثاني من «ربيع الأول» وزعم بعضهم أنها في اليوم الثامن منه وزعم آخرون أنها في اليوم الثاني عشر منه والمتفق عليه الثامن ولا يجوز أن يكون الثاني ولا الثاني عشر لأنهما ليسا بيوم اثنين من أجل أن أول «ربيع الأول» في تلك السنة كان يوم الاثنين فيكون على ما ذكرنا قدوم ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ المدينة قبل عاشوراء بيوم وليس يمتفق وقوعه في المحرم إلا قبل تلك السنة ببضع ستين أو بعدها بنيف وعشرين سنة فكيف يجوز أن يقال إن ـ النبي عليه الصلاةوالسلام ـ صام عاشوراء لاتفاقه

مع العاشر من المحرم؟ وكذلك في السنة الثانية من الهجرة كان العاشر يوم السبت من «أيلول» والتاسع من «ربيع الأول» فما ذكروه من اتفاقهما حينئذ محال على كل حال.

وأما قولهم: إن الله أغرق فرعون فيه فقد نطقت التوراة بخلافه وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من «نيسان» وهو اليوم السابع من أيام الفطير وكان أول فصح اليهود بعد قدوم النبي ﷺ المدينة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من آزار سنة ثلاث وثلاثين[٦٨] وتسعمائة للإسكندر، ووافقه اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

واليوم الذي أغرق الله فيه فرعون كان اليوم الثالث والعشرين من شهر «رمضان» فإذن ليس لما رووه وجه البتة». أ. هـ.

ويبدو أن البيروني قد فسر الحديث بنفس الطريقة التي فسره بها أولئك الذين انتقدهم، وهي أن النبي ﷺ دخل المدينة في يوم عاشوراء عند اليهود، وأن هذا اليوم هو نفسه يوم عاشوراء عند المسلمين، وأخيرا أن الله قد نجى موسى في مثل هذا اليوم فقد قال: «وهذه الرواية غير صحيحة؛ لأن الأدلة شاهدة على بطلانها».

واستدل على ذلك بثلاثة أدلة:

أولا: عدم توافق العاشوراءين.

ثانيا: أن عاشوراء اليهود كان يوم الثلاثاء بينما دخول النبي ﷺ في المدينة كان يوم الاثنين السابق.

(٦٨) عدد ٩٣٣ خطأ، والصواب هو ٩٣٤.

ثالثاً: أن هذا اليوم لم يكن مطلقاً فى مثل اليوم الذى نجا فيه موسى من الغرق.

***

إن عدم توافق العاشوراءين لا يصلح برهاناً على عدم صحة الحديث لأن هذا التوافق لم يشر إليه أحد بتاتاً وهو إنما يثبت خطأ أولئك الذين حسبوا أنهم يرون فى الحديث نتيجة لذلك التوافق، والبيرونى مع توكيده صحة الحديث لا يورده إلا كدليل على عدم منطقية التوافق بين العاشوراءين وإن كانت طريقة تعبيره تشعر القارئ بالتهجم على الحديث على غير أساس.

أما عن الدليل الثانى الذى ذكره فإن الرجوع إلى احتجاجه على بطلان الرواية يثبت صحتها أكثر مما يثبت بطلانها كما أراد.

والواقع أن الحساب الصحيح سيؤكد له أن اليوم الأول من شهر «تشرى» من السنة اليهودية التى بدأت خلال السنة الأولى من الهجرة، كان يوم السبت الحادى عشر من أيلول - ١١ سبتمبر، الذى يوافق آخر شهر صفر - وليس يوم الأحد الثانى عشر من أيلول كما يقول البيرونى وعلى ذلك فإن يوم عاشوراء أو اليوم العاشر من شهر تشرى كان يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول، وليس يوم الثلاثاء التاسع من هذا الشهر العربى.

أما عن النقطة الثالثة: فقد سبق أن ناقشناها فى هذا البحث وبينا أنها لا تمس صحة الحديث بأى حال.

يضاف إلى ذلك أنه يمكن البرهنة بطرق أخرى على أن دخول النبى ﷺ إلى المدينة كان حقيقة يوم العشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية الموافق اليوم العاشر من شهر «تشرى» الذى هو يوم عاشوراء اليهود:

أولاً: يقول المسعودى فى «مروج الذهب» ملحق المخطوطات العربية رقم ٧١٥ص ١٥٢ - ما يلى:

«بين تاريخ «يزدجر» وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلف وستمائة وأربعة وعشرون يوماً»[١٩].

هذا والهجرة نفسها أو دخول النبى ﷺ إلى المدينة كانت بشهادة جميع الكتاب بعد ٦٧ يوماً من اليوم الأول من شهر «المحرم» الذى يبدأ به التاريخ الهجرى.. وإذن فلدينا ٣٦٢٤ يوماً ناقصاً ٦٧ أى ٣٥٥٧ يوماً بين بداية عصر «يزدجر»، وبين يوم دخول النبى ﷺ فى المدينة.

ولما كان عصر «يزدجر» قد بدأ يوم الثلاثاء ١٦ يونيه سنة ٦٣٢م، بعد ٨ أو ٩ أيام من وفاة النبى ﷺ، فإنه يكفى أن نعد ٣٥٥٧ يوماً إلى الوراء، ابتداء من ١٦ يونيه سنة ٦٣٢، لكى نحصل على اليوم فى التوقيت الجوليانى الذى يطابق يوم الهجرة، وبهذه العملية الحسابية نصل إلى يوم ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية الذى هو يوم الاثنين. وإذن فإن دخول الرسول ﷺ إلى المدينة كان حقيقة

(١٩) ابن يونس وعلماء الشرق الآخرون متفقون على هذا الرأى.

يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية وهو اليوم الموافق يوم ١٠ «تشرى» عند اليهود.

ثانياً: أن ملحق المخطوط العربى رقم ١١٣١ بمكتبة باريس أورد ما يلى فى آخر الجزء الثالث منه:

نحن نقول إنه بين أول يوم من السنة الهجرية وبين أول يوم من السنة التى تبدأ بالاعتدال الربيعى، والتى تم خلالها اقتران المشترى بزحل السابق لميلاد النبى ﷺ، توجد ٥١ سنة فارسية و٤ أشهر و٨ أيام و١٦ ساعة[٢٠].

إن الاعتدال الربيعى المشار إليه هنا قد أعقبه اقتران المشترى بزحل. هذا، ويدلنا الحساب على أنه قد حدث حقيقة اقتران بين هذين الكوكبين حول وقت ميلاد النبى ﷺ أى يوم ٢٩ أو ٣٠ مارس سنة ٥٧١ ميلادية كما سيراه القارئ فيما بعد.. وقد حدث الاعتدال الربيعى - طبقاً لحسابات قمت بها - يوم ١٩ مارس فى الساعة ١٥ والدقيقة ١١ بعد منتصف الليل على حساب الزمن الأوسط للمدينة. وعلى ذلك فإن اليوم الأول من شهر المحرم من سنة الهجرة يقع بعد ٥١ سنة فارسية و٤ أشهر و٨ أيام و١٦ ساعة بعد يوم ١٩ مارس و١٥ ساعة و١١ دقيقة من سنة ٥٧١ ميلادية.

فإذا حولنا هذه الفترة الزمنية إلى أيام، على أساس أن السنة الفارسية تحتوى على ٣٦٥ يوم، فإننا نحصل على ١٨٧٤٣ يوماً و١٦ ساعة أو ١٨٧٤٤ يوماً مع إضافة يوم لجبر الكسر. ونحن نعرف أن الهجرة حدثت بعد شهرين وثمانية أيام من ابتداء شهر المحرم. فعندنا إذن ١٨٧٤٤ يوماً، زائداً ٦٧ يوماً، أى ١٨٨١١ يوماً بين الهجرة نفسها وبين الاعتدال الربيعى الذى حدث يوم ١٩ مارس سنة ٦٢٢ ميلادية وهذا يجعل تاريخ الهجرة أو دخول النبى ﷺ فى المدينة يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية الموافق يوم ١٠ «تشرى» الذى هو يوم عيد الكبور عند اليهود.

***

(٢٠) إن النص العربى قد شوهه النساخون إن عدد ٨ أيام هو فى النص ٣ أيام ورقم الـ٣ أيام هذا هو خطأ بلا أدنى ريب ويجب أن يكون ٨ لأننا إذا عددنا ٥١ سنة فارسية و٤ شهور و٣ أيام إلخ ابتداء من الاعتدال الربيعى المشار إليه فى هذا النص، فإنه لا يوافق مطلع هلال جديد ذلك الذى يتعين أن يكون هلال شهر «المحرم» من السنة الهجرية ولكن بتصويب هذا الرقم وجعله ٨ نجد إننا فى هلال جديد، وهذا ما يجب أن يكون وفضلاً عن ذلك فإن التشابه بين كتابة كلمتى ثلاثة وثمانية باللغة العربية إذا كتبتا بسرعة من شأنه أن ينجم عنه خطأ النساخ فى الخلط بينهما.

النبـوّة الإسـلامية



للأستاذ الدكتور/ نظمى لوقا

لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوّة الإسلامية، وهى مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد.. فكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، أو بنسب من الأنساب.. فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشرا كسائر البشر، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء.

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترا مكررا فى آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ما جاء فى سورة الكهف:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠)

وفى تخير كلمة «مثلكم» معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال.. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (الشورى: ٤٨)

وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التى كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها.. بل كأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة، فجاء فى (سورة ق):

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ (ق: ٤٥)

ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى (سورة الغاشية):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢)

رسول بشر.. ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه ولا زيادة..

وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها، وتاريخ الرسول كله.

إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب.. فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم «مثلهم» حقا وصدقا كما جاء فى سورة الكهف.. لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون.. وليس له من سلطان عليهم.. وإنما الأمر إليهم، كى يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية، وعن اقتناعهم الذاتى، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير.. فيكون اهتداؤهم إيمانا ليست فيه شائبة استهواء أو توريط.

وما توالى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه فى جعبة كل صاحب نبوة، وما أرادوا بذلك إلا الملهاة:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ (يونس: ٢٠)

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩)

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨)

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء، حقا! وما أكثر ما أوذى، وما أشد ما أساءوا إليه به، وهو لا يملك لذلك دفعا، إلا الصبر على البلاء.

حقا! بل وتخطف الموت فلذات أكباده.. ليكون ذلك إيذانا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم. فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به.. فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول، فأين هم منه؟ وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به؟

بل هو «مثلكم» لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.. ويمسه السوء والتنكيل مرة بعد مرة.. فهو قدوة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء.

وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى، فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده. وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد.

كذلك العقل السوى يجد امتهانا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى، فإن كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها.. فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك.

لهذا كان لابد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف، يحترم فطرته وبداهته.

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت مرافقة للطور الطبيعى للبشرية تاريخا، ونضوجا، ورشدا.

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحرا ولا كاهنا ولا مجنونا مما يهم لوثات الصرع.. وينبه إلى أن المعجزة الخارقة لا تفيد في إقناع مكابر، وفي ذلك ما جاء بسورة الحجر:

﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ۝ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ۝ لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ۝ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ۝ لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾

(الحجر: ١١ - ١٥)

ومن أنعم النظر في هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار على بشرية الرسول، وأن آيته الوحيدة هي صدق رسالته.. وذلك حسبها من سند، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين.. فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا من الملائكة، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة:

﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ۝ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ۝ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ۝ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ۝ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ۝ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ۝ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾

(الإسراء: ٩٠ - ٩٦)

ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا ما قاله الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه «الإسلام والنصرانية»:

«فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري. فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة. ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.

«وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه، على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله. فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة. فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولا».

رحم الله الأستاذ الإمام!

***

إن الحقيقة باقية والبشر زائلون

الرسالة إذن هي الباقية، وما هي بمتوقفة في شيء على بقاء هذا الرسول:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾

(آل عمران: ١٤٤)

إنها الحقيقة. ولكن كان لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول.. وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين، من أن إماما مثل عمر بن الخطاب، على رجاحة عقله، وقوة إيمانه، وهو من هو من الإسلام ورسوله، أبى أن يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت.

ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس هذه الآية لقطع عمر أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات:

﴿أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾

(آل عمران: ١٤٤)

كان من الجائز أيضا أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته وما أكثرهم، وما كان ذلك لينفي شيئا أو يثبته. فإن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها، عاش الرسول أو مات أو قتل.

هذا إذن هو مكان النبوة في ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية.. يتنزه الله في تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر وأشباه جوبيتر. وليس أنبياؤه كهانا ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين.. وإنما هم بشر يأتيهم الوحي من الروح الأمين.. وليس عليهم إلا البلاغ المبين.

ولكن هل تكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب؟

لا حاجة للبشرية بذلك التكرير. فإن طور الأسلوب العقلي المجرد هو آخر أطوار البشرية.. ومن تفتح عقله، وبلغ رشده، فطائره في عنقه، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره، وقد تسلم قياد نفسه.

للرسالة خصوصية هي إتمام ما سبق.. ومتابعة البشر في أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح. فما هي الخصوصية التي يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام؟.

لقد تمت فكرة التوحيد. وتم خطاب العقل. وتم البلاغ إلى الناس كافة، أحمرهم وأسودهم، وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه، وبدنياه. وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور. فكل رسالة بعد ذلك قول معاد، ليس فيه جديد يستفاد:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾

(المائدة: ٣)

وبسبب من طبيعة الرسالة؛ ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها، كان من الطبيعي أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل، لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات.

***

مع المبعوث مُعلماً ومتمماً لمكارم الأخلاق





للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

إن العلم الشامل الذى يحث عليه الإسلام ويعلى من شأنه لابد أن يكون نافعاً ولا يخلو من فائدة. وقد ورد تحديد العلم الشامل النافع فى دعائه ﷺ «اللهم إنى أعوذ بك من أربع:من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع،...» (رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى). ومقياس النفع هنا فى التصور الإسلامى ليس ذلك المعيار الفردى «الذرائعى» الذى تقول به الفلسفة «البراجماتية» السائدة لدى الغرب، وإنما هو صالح مجموع الأمة وإقامة أمر الدين. ولا يعقل أبداً أن تكون الهداية إلى الحقيقة مجرد هداية إلى الفكرة الصائبة وحدها، بل لابد أن تتعدى ذلك فتبصر هداية إلى العمل النافع والسلوك القويم أيضاً. ويشير القرآن الكريم فى آيات كثيرة إلى أن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض، وهو الذى حمل أمانة إعمار الحياة عليها بالإفادة من كل ما سخره الله له فى هذا الكون الفسيح.

وقد روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى «صحيحه» والبيهقى، وحسنه الألبانى

فى صحيح الترغيب والترهيب).

فأى نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء فإذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ما ينصح به عباد الله. وإن أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه.

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسله به» (رواه البخارى مسلم).

قال ابن القيم رحمه الله: شبه ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فإنها بالعلم والمطر، وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته، ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده:

• القسم الأول: أهل الحفظ والفهم مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية.

• القسم الثانى: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه، هذان القسمان هم السعداء، والأولون أرفع درجة وأعلى قدراً،

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(الجمعة: ٤)

• أما القسم الثالث فهم الذين لا نصيب لهم منه، لا حفظا، ولا فهما، ولا رواية، ولا دراية، وهؤلاء هم الأشقياء.

وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير ما يخلف الرجل من بعده «ثلاث» ولد صالح يدعو له، وصدقة تجرى يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده (رواه ابن ماجه وصححه المنذرى والألبانى).

وفى هذا بيان فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه والترغيب فى توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغى أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع.

ولا ينبغى أن يغيب عن الأذهان فى كل ذلك نصيب العلوم القائمة على الملاحظة والتجربة والاستقراء، وكذلك

العلوم التقنية المفيدة في مختلف المجالات الحيوية، فلا تنكر قيمتها وحاجة الناس إليها لأنها مطلوبة لتلبية احتياجات الإنسان، وإن كان بعض العلماء يقولون إن هذه العلوم التجريبية والتقنية مطلوبة طلب الوسائل لا طلب الغايات.

من ناحية أخرى، يتطلب تعظيم مكانة العلم والعمل النافع أن نؤكد على أهمية التدرج في مراتب التحصيل من أجل تحقيق أعلى قدر ممكن من المهارة والجودة في الأداء. ذلك أن السنة الإلهية في التطور تقتضي أن يبدأ الشئ صغيراً ثم يأخذ في النمو والترقي على مراحل رويداً رويداً. هذا ما أخبر به القرآن الكريم وجاءت به السنة القولية والعملية، وله شواهد عديدة في المخلوقات من حولنا.

قال تعالى:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾

(الإسراء: ١٠٦)

وقال سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾

(الفرقان: ٣٢)

وعن الحكمة في نزول القرآن منجما يقول الزرقاني رحمه الله في «مناهل العرفان»: أن في التنجيم - أي التفرق - تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه، وذلك مطمئن له على وعى ما يوحى إليه حفظا وفهما وأحكاما وحكما، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله».

ومبدأ التدرج واضح في جانب التكليف والتشريع، فقد كان التكليف في العهد المكي مقصوراً على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق، ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة، وفرضت في أول الأمر ركعتين، ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر، وفي المدينة فرضت بقية الفرائض، كما حرمت الخمر والربا وغيرهما، كل ذلك بمنهج تدريجي حكيم يسهل على المكلفين امتثال الأمر واجتناب النهي في غير حرج ولا إعنات.

وهكذا كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أن يأخذوا بسنة «التدرج» التي تسير على مقتضى الفطرة، بل هي سنة الله في الحياة والوجود كله، ففي مجال العلم والتعليم يقول الرسول الأمين ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه». (أخرجه الخطيب في تاريخه وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة).

وإذا كان العلم بالتعلم كما أخبر المبعوث معلماً ﷺ، فإنه إنما يكون شيئا بعد شيء وفي وقت بعد وقت، وهذا يعني أن يعطى المتعلم من العلم المقدار الملائم له، ولا يحمله المعلم أكثر مما يطيق فينوء بحمله ويضيعه كله، وفي هذا أوصى الزهري تلميذه يونس بن يزيد فقال: يا يونس لا تكابر العلم إن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ولكن الشئ بعد الشئ مع الأيام والليالي.

هذا عن الأسلوب في التعليم والعلم، أما بالنسبة للكيف والنوع فينبغي أن يبدأ المعلم مع طلابه بالجلي من العلم قبل الخفي، وبالبسيط قبل المركب، وبالخفيف قبل الثقيل، وبالجزئي قبل الكلي، وبالعلم الملموس قبل النظري.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم: ٤)

جاءت الأحاديث الشريفة لتحث على الخلق الحسن، وتنفر من الخلق السئ، فقال ﷺ: «خير ما أعطى الناس خلق حسن» (رواه أحمد والنسائي)، وقال: «ما من شئ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذئ». (أخرجه الترمذي)، وقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (سنن البيهقي).

ولقد بلغ من اهتمام الإسلام بالأخلاق في تحقيق أمانة الاستخلاف وإعلاء صرح البنيان الحضاري أن جعلها طابع رسالته وشعارها، وجعل مناط التكليف بين الناس حسن أخلاقهم، بل إن الأخلاق تسرى في كيان الإسلام وبنيانه من خلال عقائده وعباداته ومعاملاته، فقد قرن بين الإيمان الكامل وحسن الخلق.

قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (سنن أبي داود) وقال أيضاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». (صحيح البخاري).

وقد نفى رسول الله ﷺ كمال الإيمان عن الذين يقترفون بعض الرذائل لأن مقتضى الإيمان البعد عنها، فقال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». (صحيح البخاري).

وكان من وصايا الرسول ﷺ لأصحابه أن يعاملوا الناس بأخلاق حسنة، فقال لأبي ذر رضي الله عنه: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». (سنن الترمذي).

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله

فلقد بعثت معلماً ومتمماً لمكارم الأخلاق

***

مثالية الرسول الأخلاقية فى الظروف الحربية





للأستاذ الدكتور/ عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كان بعض العجلين يعيب على الكاتب الكبير (عباس العقاد) إطلاقه مصطلح (العبقرية) على رسول الله محمد ﷺ، وقد ظنوا أن إطلاق هذا المصطلح يشتم منه رائحة نفى النبوة، وقد أكرمنى الله فرددت على هذا الظن فى كتابى الصغير عن (شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية).. فالأنبياء بعامة يفترض فيهم بداهة أن يكونوا فى القمة من الذكاء.. والقمة من الذكاء تلتصق بالعبقرية.. بل إن من الشروط الأربعة المطلوب توافرها ضرورة فى جميع الأنبياء (الفطانة) إلى جانب (الصدق)، و(الأمانة)، و(التبليغ)...

- وتتجلى عبقرية الرسول فى أنها (عبقرية إنسانية أخلاقية) تبلغ القمة فى الذكاء والتخطيط للمعارك والحروب... لكنها - فى الوقت نفسه - تبلغ القمة فى الحفاظ على المستوى الأخلاقى، مهما تكن الظروف الضاغطة الاستثنائية التى تبيح (للعباقرة) العاديين المجردين من المستوى الإنسانى والأخلاقى الرفيع - أن يستبيحوا ما لا يباح، وأن يتجاهلوا القيم والأخلاقيات، وأن يطبقوا المبدأ الميكيافيلى اللاإنسانى (الغاية تبرر الوسيلة)...

- لكن سيرة محمد الحربية، سواء فى نطاق التعامل مع جنوده وأصحابه، أم فى نطاق التعامل مع أعدائه، تبقى آية عظمى دالة على نبوته وأخلاقيته التى امتدحها الله فى القرآن

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم: ٤)

... ودالة على عبقريته أيضاً.

- لقد اشترك الرسول ﷺ فى نحو عشرين غزوة وانتصر فيها باستثناء ما وقع فى (الومضة الأخيرة) فى أحد... وباستثناء ما وقع فى (الومضة الأولى) فى حنين... حين جمعت ثقيف وهوازن أكثر من عشرين ألفاً ضد الرسول بعيد فتح مكة، وقد ثبت الرسول فى المعركتين ثباتاً لم يثبته أحد من الأبطال الذين معه، وكان ثباته على هذا النحو مظهراً لعبقريته العسكرية، ومعروف أنه فى أحد وقع ما وقع بتأثير مخالفة الرماة لأوامره، فالمسئولية عليهم؛ لكنه استطاع مع هذا أن يتحمل أذى شديداً، وأن ينقذ المسلمين بعد أن دفع الثمن غالياً، وفى حنين عندما ظهرت بوادر الهزيمة على إثر إمطار ثقيف للمسلمين بالنبال والسهام من الكمائن التى كمن فيها الأعداء وبدأت بوادر الهزيمة تظهر.. لكن الرسول الأعظم بشجاعته التى تظهر متألقة فى أصعب المواقف وأحرجها، وبفطنته الفطرية الكبيرة؛ استطاع أن يثبت فى وجه الأعداء منادياً بأعلى صوته: (أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)، وأمر عمه العباس أن ينادى فى الناس باسم رسول الله، وسرعان ما أجابوه لبيك لبيك... وعادوا مسرعين إليه وسيوفهم فى أيديهم... بعد أن أزال نداؤه ونداء عمه العباس الذهول والتراجع القصير الذى كان قد سيطر عليهم... وتحقق النصر للمسلمين فى حنين بفضل هذه الوقفة الشجاعة من رسول الله ﷺ...

الرسول والمثالية الأخلاقية

والدرس الإنسانى المستفاد هنا أننا لم نسمع أنه - عليه السلام - حاسب أصحابه، أو أخذهم بشىء من اللوم والغضب، وقد ظهرت من بعض حديثى الإسلام بعض الأخطاء.. لكنه عليه السلام تجاوز عنها، وتألف قلوبهم، وأعطاهم من الغنائم أكثر مما أعطى المهاجرين والأنصار، حتى غضب الأنصار من ذلك، فاجتمع بهم - عليه السلام - وخطب فيهم، وقال لهم: يا معشر الأنصار.. تألفت بهذه الغنائم قلوب أهل مكة ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... فو الذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار... اللهم ارحم الأنصار... الحياة محياكم والممات مماتكم.. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم... وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[١]!!

- وهكذا عالج الرسول بسموه الإنسانى موقفاً من توابع الحرب كان من الممكن أن يؤدى إلى فتنة كبيرة !!

- ويورد البخارى عن جابر بن عبد الله (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجرة، فنزل رسول الله تحت سمرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابى فقال: (إن هذا اخترط على سيفى وأنا

(١) البداية والنهاية لابن كثير، حوادث سنة ٨هـ، وانظر مختصر سيرة ابن هشام، ٢٥٦، لمحمد الزعبى وعبد الحميد الأحدب، نشر دار الوفاء، ص١٩٨٦/٢.

نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله (ثلاثاً)، ولم يعاقبه وجلس (البخاري ـ باب الجهاد)... فهل رأيت قائداً يصل إلى هذه القدرة على العفو والصفح الجميل؟!!

الشورى في الحروب ودلالتها الإنسانية

ومن أخلاقه الحربية التي لا يمكن إغفالها احترامه لجميع جنوده وأصحابه، واستشارتهم واحترام رأيهم في أدق الأمور... ففي بدر استجاب لرأي (الحباب بن المنذر) وغير موقع وقوف الجيش، وكان قبيل المعركة قد استشار المهاجرين والأنصار فتكلم أبو بكر الصديق والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ مؤيدين دخول معركة (بدر)، فاتخذ قراره بالحرب قائلاً لهم: سيروا وأبشروا.. فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم (متفق عليه) ثم استشار في شأن الأسرى كما هو معروف... وقد استشار في (أُحد) أيضاً، واستجاب لرأي الأكثرية وهو رأي كان يختلف مع رأيه... واستشار يوم الأحزاب واستجاب لاقتراح سلمان الفارسي بحفر الخندق، واستشار سعد بن معاذ، وسعد بن عُبادة، وغيرهما حين جاءه الحارس الغفاري يعرض عليه الخروج من الأحزاب شريطة أن يعطوه شطر ثمار المدينة فرفضوا، فاستجاب لرأيهم، ورجع عن رأيه الذي كان يميل إليه.. واستشار المرأة العظيمة بعد إقرار صلح الحديبية وغضب الصحابة فأشارت عليه بأن يقوم وينحر دون أن يكلم الصحابة، فلما فعل ذلك قاموا يفعلون مثله وانتهت أزمتهم النفسية بسبب مشورة (أم سلمة) أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ... وهكذا كانت قيادته الحربية أخلاقية مع أصحابه أيضاً يحترم عقولهم وإنسانيتهم ويخضع لآرائهم ليعلمهم قيمة الشورى في أدق الأمور المصيرية وأصعبها، فالإنسانية والأخلاق لا يقبلان التجزئة!!

الرسول وشروط القيادة الفذة:

يقولون: إنّ القائد السوي المثالي يجب أن يكون إنساناً هادئاً منسجماً مستقراً من الناحية النفسية، لا يتأثر ولا يغير وضعه ولا أخلاقه تحت تأثير الحواجز المختلفة.. فلا يغره أروع النجاحات، ولا يغيره أكبر الانتصارات... وهكذا... كان الرسول القمة في ذلك.

ـ ويقولون: إن القائد الناجح هو الشخص الذي بعد عن وضاعة النفس، واستمر على نهج حياة بسيطة متقشفة، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، وتنتهي حياته بمستوى أعلى من البداية التي بدأها.. وهكذا كان الرسول القائد والنبي الإنسان في حياته، فكلما ملك الدنيا ودخل الناس في دين الله، وامتدت رقعة الإسلام، وازداد عدد المسلمين ـ كلما ازداد تواضعاً وانسجاماً وكأن الدنيا تحت قدميه، لا يعنيه انخفاضها أو ارتفاعها، وحسبك موقفه وهو يدخل مكة خاشعاً لله، تكاد رأسه تلامس ظهر راحلته.

ـ ويقولون: إنّ القائد الناجح هو الذي يحب رعيته بحيث إن كل فرد منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو ـ أيضاً ـ الشخص الذي تقابله رعيته بالحب، كما أنّ ثقته في الرعية وثقة رعيته فيه كاملة تامة[2]... وهكذا كان القائد العبقري والنبي الإنسان الأعظم.. ولعلّ حب صحابته له لا يشبهه حب في التاريخ... وأما هو فقد وزع الأوسمة على صحابته حباً وإجلالاً.. فهذا (صديق) وذاك (فاروق)، وثالث (أمين الأمة)، ورابع (تستحي منه الملائكة)، وخامس (سيف الله)، وسادس (حواريه)، وسابع (شهيد يمشي على الأرض).. وأما (علي) ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فمولاه وأخوه.. وهكذا...

ـ ويقول الشيخ المجاهد المعاصر العلامة الكبير / فتح الله كولن (التركي نزيل أمريكا)[3]: "لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل الصفات التي اجتمعت في محمد القائد، والإنسان العبقري، والنبي الرحيم. أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضاً...

لنتذكر "الإسكندر الأكبر"، و"هينبعل"، و"نابليون"، و"هتلر"، و"محمد الفاتح"، و"السلطان سليم الأول"، و"السلطان بايزيد (الملقب بالصاعقة)، و"جلال الدين خوارزم شاه"، و"صلاح الدين الأيوبي، و"طارق بن زياد"، و"الشيخ شامل" الذي حارب الروس أربعين عاماً.. لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظاماً، غير أننا إذا قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي تحدثنا فيها عن النبي الأعظم، لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبداً بقائد القادة محمد ﷺ...

الرسول القائد: نسيج وحده في العظمة المثالية

ـ أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله، استطاع أن يجمع جميع صفات القيادة الناجحة، دون أي نقص؛ بل في أعلى الذرى وهو محمد ﷺ.... ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الأعمال التي قام بها طوال حياته.. ثم كانت أخلاقيته وإنسانيته ورحمته جزءاً لا يتجزأ من نسيج فكره وحياته.. فما أرسله الله إلا رحمة... وبرحمة من الله لان قلبه لكل من حوله، وكان حريصاً عليهم.. بالمؤمنين رءوف رحيم.. يذب الناس عن النار حتى لا يتساقطون عليها تساقط الفراش... ويسأل الله لأعدائه الهداية، وهم يحيطون به باذلين جهدهم لقتله قائلاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".. ثم يرفض عرضاً ملائكياً بالانتقام الجماعي منهم قائلاً: "لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده ويعبده".

ـ فعلى محمد النبي الإنسان ـ في سلمه وحربه ـ أفضل الصلوات، وأزكى التحيات المباركات.

(٢) فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص١٦٣، ١٦٤ بتصرف.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٤

صفحة مشرقة من إنسانية النبى ﷺ



للدكتور/ وصفى عاشور أبو زيد

شملت حياة النبى ﷺ من الجوانب الشخصية ما يمكن أن يوجد فى شخصية بشر، ويتمثل معجزة محققة فى هذه الجوانب أنه بلغ فى كل جانب مداه وأدرك منتهاه.

فالمعلم إذا تأمل سيرة النبى وجد بغيته، والمربى إذا تفحص حصل على طَلِبته، والقائد العسكرى أو الرجل الحربى إذا نظر استطاع أن يُحكم خطته، والحاكم السياسى إذا تفرس وقف على سياسته، والمصلح أو الداعية إذا تأسى هُدى طريقته..... ولم لا، وقد قال الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ولهذا لم تكن شخصية النبى ﷺ يحتويها جانب واحد فقط من هذه الجوانب، إنما كانت تتسع وتتسع لتطلب جانبا آخر بل جوانب أخر، فلم يك يملأ أقطارها ويفيض عنها إلا مقام النبوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولستُ من أنصار الكتابة المُفْرطة فى جوانب العظمة لشخصية نبينا الكريم، وتحليلها بأكثر من طريقة وأسلوب، إنما أشعر أن الكتابة الكثيرة عن عظمة شخصيته ﷺ تنال من هيبتها وجلالها، وتخدش من روعتها وجمالها، فلا أروع وأورع من أن تظل شخصية النبى محمد هى شخصية النبى محمد ﷺ، ولا يُعرَف محمد بن عبد الله بأفضل من أنه محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام.

وكثير من الناس يعلم الكثير عن حياة محمد "النبى"، لكنهم لا يعرفون إلا القليل عن محمد "الإنسان"، وربما ظنوا أن هيبة النبوة وقفت سدا رادعا بينه وبين الإنسانيات من المداعبة والملاعبة، والمرح والترح، والتبسم والبكاء.

إن النبى ﷺ برفقه وإيناسه كان يُنْسى بعض زوجاته أنها تخاطب "رسول الله"، فتقول أمام أبيها: "تكلم ولا تقل إلا صدقا..."، وأخرى تعارضه وتغاضبه سحابة نهارها، وقد كان بكل تواضع يتولى خدمة البيت معهن؛ فعن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته؟ قالت: "كان يكون فى مهنة أهله، تعنى خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"[١].

ومن أبرز المجالات الإنسانية التى وجدتُها فى حياة المصطفى هو جانب الأبوة، وهو جانب إنسانى بحت، وربما يتساءل إنسان: أنتكلم عن الأبوة وهذا شعور طبيعى لدى كل إنسان حتى الكافر؟ حقا هو شعور طبيعى وعاطفة جياشة عند كل مخلوق، ليس الآدميين فحسب، لكن تعالوا نرى كيف بلغت مداها عند أحنى الآباء، وأرأف الأجداد.

حبه فاطمة:

بلغ حب النبى فاطمة - رضى الله عنها - أن جعلها بضعة منه، روى البخارى بسنده عن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي"[٢].

وفى بعض الروايات يعبر بـ "مضغة" كما يروى الإمام أحمد فى المسند عنه أيضا أن النبى قال: "فَاطِمَةُ مُضْغَةٌ مِنِّي يَقْبِضُنِي مَا قَبَضَهَا وَيَبْسُطُنِي مَا بَسَطَهَا"[٣].

حتى أراد النبى أن يراها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة - والإنسان يطلب رؤية من يحب عند صعود الروح - ليبثها مكنون نفسه وما ألقاه فى روعه أمين السماء، عن عائشة - رضى اللَّهُ عنها - قالت: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَرْحَبًا بِابْنَتِي ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَبْكِينَ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ فَقَالَ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ"[٤].

وهذا الحب العميق الذى رفرفت أجنحته على فاطمة فملك عليها قلبها، جعل هذا القلب يتصدع ويتأوه يوم وفاة الأب المحب الحنون، عن أنس قال: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَام - وَا كَرْبَ أَبَاهُ فَقَالَ لَهَا لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ

(١) صحيح البخارى: كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان فى حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج.

(٢) صحيح البخارى: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبى ﷺ.

(٣) مسند الإمام أحمد: أول مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم رضى الله تعالى عنهما.

(٤) صحيح البخارى: كتاب المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام.

اليوم فلما مات قالت يا أبتاه أجاب ربًا دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه فلما دفن قالت فاطمة - عليها السلام - يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[٥].

حبه إبراهيم:

قبل مجيء إبراهيم بن محمد بن عبد الله كان النبي في شوق شديد إليه لا سيما أنه مكث أكثر من عشرين سنة لم تلد له فيها إحدى زوجاته، إضافة إلى موت كل أولاده في هذه الفترة ما عدا فاطمة التي ماتت بعده بقليل: رقية، وزينب، وأم كلثوم، بعد زواجهن، ومات القاسم، والطاهر، ولم يتعوض إلى الآن بما يعزيه عن هذا الفقد الجلل، ألا ما أشد شوق النبي إلى مولود يكون فيه العزاء!

وجاء الطفل، وسماه إبراهيم تيمنًا بجده الأكبر أبي الأنبياء، لعله يخلف رسول الله ﷺ، ولكن ما هو إلا أن مات الحلم الكبير، ومات الطفل الصغير، وقد بلغ أبوه الستين من عمره، وتظهر الأبوة والإنسانية في شخصية النبي عند هذا الموقف أتم ما يكون الظهور، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئرًا لإبراهيم - عليه السلام - فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وأنت يا رسول الله فقال يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[٦].

إن عبد الرحمن بن عوف في هذا الموقف اندهش للبكاء من النبي، فربما أنساه إكباره لمقام النبوة أن النبي - ﷺ - من الآباء، وأنه من الطبيعي أن يحزن ويسيل دمعه، بل إنه أرحم من سائر الآباء، والقلب الذي لا يحزن ليست له فضيلة في الصبر.

حبه للحسن والحسين:

وقد تعدت هذه الأبوة بتدفقها حتى ضمت أبناء الأبناء لتغمرهم وتحوطهم وتنشر أجنحتها عليهم: الحسن والحسين، عن البراء رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ، والحسن بن علي على عاتقه، يقول: "اللهم إني أحبه فأحبه"[٧].

وروى النسائي بسنده عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها قال أبي فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت إلى سجودي فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك قال كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته[٨]..

وبلغ من حبه لهم أن دعا لهم الله أن يجعل من أسباب حب الله للعبد حبه للحسن والحسين، فعن أسامة بن زيد قال طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه قال فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه فقال هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما[٩].

وتتعدى إنسانية النبي كل الأسرة لتشمل الأبناء والأب والأم جميعا، كما روت أم سلمة أن النبي ﷺ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فقالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله قال إنك إلى خير[١٠].

أبوة لكل المسلمين:

لم تقتصر أبوة النبي - عليه السلام - أبناءه وأحفاده فحسب، وإلا لم يكن له فضل، بل تعدت لتشمل كل المسلمين وتحوط أبناءهم.

إن النفوس التي تنكفئ على شخصها وأبنائها فقط، وتحرم أبناء غيرها هي النفوس الصغيرة الضئيلة، أما النفوس الكبيرة العظيمة فلها شأن آخر، إنها استودعت من الرحمة ومشاعر الإنسانية ما تأبى به على صاحبها إلا أن ينشرها على كل الناس ويعمهم بها، وأولى الناس بذلك الأنبياء، وأولاهم محمد بن عبد الله الذي له من ذلك القدح المعلى.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: "اللهم ارحمهما فإني أرحمهما"[١١].

وروى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال من لا يرحم لا يرحم[١٢].

---

(٥) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: (إنا بك لمحزونون).

(٧) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، وعند ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ دعا له بذلك وضمه إلى صدره.

(٨) سنن النسائي: كتاب الافتتاح، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة.

(٩) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب.

(١٠) رواه الترمذي، وقال هذا حديث حسن صحيح، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب.

(١١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب: وضع الصبي على الفخذ.

(١٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وفي رواية لمسلم عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا أتقبلون صبيانكم فقالوا نعم فقالوا لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله ﷺ وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة(١٣).

وعن أم قيس بنت محصن أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره فبال على ثوبه فدعا بماء فنضحه ولم يغسله(١٤).

وروى عن أنس - رضي الله عنه - قوله: أن كان النبي - صلى الله عليه وسلم ليخالطنا - حتى يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير ما فعل النغير(١٥).

ولم يمنع النبي أداءُ شعيرة كبرى من شعائر الإسلام أن يحافظ على مشاعر الأمهات، ويرحم الأطفال، فعن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه(١٦).

ولم تنزل دموع الرحمة من عيني نبي المرحمة لفراق ولده فحسب بل سالت لفراق غيره من أحفاده وأبناء المسلمين، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنا لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا فقال هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء(١٧).

وبعد، فهذه صفحة مشرقة من الأبوة في حياة قدوة الدعاة ﷺ جديرة أن يتأملها الآباء لا سيما حملة الدعوات وأصحاب الرسالات منهم، الذين ينشغلون بالدعوة عن أبنائهم وزوجاتهم وأهليهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.



(١٣) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك.

(١٤) صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب: بول الصبيان.

(١٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب: الانبساط إلى الناس.

(١٦) صحيح البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

(١٧) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، وما يرخص من البكاء في غير نوح.

في رحاب ذكرى المولد النبوي

سيد ولد آدم ﷺ





للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

في هذه الآونة التي يستلهم المسلمون عمق السيرة النبوية العطرة، تطالعنا بعض الفئات الآثمة، والأقلام الغاشمة محاولة التطاول على أطهر من مشى على أرض، وسيد ولد آدم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ونحن نرى أن الذين يتطاولون على الرسول ﷺ هم في الواقع يتطاولون على جميع الرسل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وجاء للبشرية جمعاء داعيا إلى الإيمان بجميع الرسل:

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾

ولو عرف المتطاولون منزلة خاتم النبيين، وأنه رحمة الله للعالمين، ما كانوا ليتطاولوا. فبفضل هذا الرسول العظيم رفع الله عن الإنسانية كلها عذاب الاستئصال في الدنيا الذي كانت تؤاخذ به الأمم السابقة. وبفضل هذا الرسول العظيم تكون الشفاعة العظمى يوم القيامة ولا تكون الشفاعة للأمم كلها من هول الموقف إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد اقتدى به جميع الرسل ليلة الإسراء في بيت المقدس إيذاناً بأنه إمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين، فإذا كان جميع الرسل بمن فيهم من رسل بعض المتطاولين قد اقتدوا به، أليس أولى بأتباعهم في كل الأرض أن يقتدوا به لا أن يتطاولوا عليه؟!

إنه رحمة الله للعالمين، كما قال رب

العزة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧)

ووجهه الله أن يعلم الجميع أنه سيد ولد آدم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» رواه مسلم. فهو يتوجيه من ربه سيد ولد آدم، ورسالته خاتمة الرسالات ودعوته خاتمة الدعوات فهو خاتم المرسلين، ودعوته خالدة فوجب على الجميع في كل الأرض أن يتبعوه، وأن يؤمنوا به وأن يطيعوه، وأن يوقروه فهو أول من ينشق عنه القبر فيبعث يوم القيامة وقد بين أيضا أنه «أول شافع»، يشفع للخلائق من هول يوم الحشر ومن شدة الموقف؛ لينصرف الناس إلى الحساب، وتلك هي الشفاعة العظمى التي لا يستطيعها أحد من الرسل السابقين فكل رسول يقول نفسي نفسي ولكن أول شافع يشفع هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أيضا أول «مشفع» يقبل الله تعالى شفاعته. فالسيادة ثابتة لرسول الله ﷺ بنص هذا الحديث الصحيح، وأما ما يتردد من قوله: «لا تسيدوني في الصلاة» فليس بحديث بل إن نحيه إلى جانب كونه ليس حديثا، خطأ لغويا إذا الأصح لا تسودوني.

بل إن السيادة ثابتة في القرآن الكريم: «وألفيا سيدها لدى الباب» وفي الحديث: «قوموا إلى سيدكم» وقول عمر رضي الله عنه: أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا، يقصد بلالا رضي الله عنه وقد تحدث بعض العلماء في موضوع السيادة لرسول الله ﷺ في التشهد، وفي الأذان وفي مطلق الأحوال أما في مطلق الأحوال. في غير التشهد والأذان فلا خلاف في أن قول: «سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» هذا هو الأفضل.

وأما في التشهد والأذان، فقد رأى بعض العلماء الالتزام بالنص الوارد في كلمات الأذان وهو أشهد أن محمداً رسول الله» وكذا في التشهد وعند قول«اللهم صل على محمد» في التشهد فرأوا أن في هذا إلتزاما بالنص الوارد، وأن رسول الله ﷺ عندما سئل: «عرفنا السلام عليك فكيف نصلي عليك»؟ فقال: قولوا: «اللهم صلى على محمد» قالوا فنحن نلتزم بالنص الوارد عنه ولا نزيد.

● وأما رأى الشافعية وغيرهم من رأوا بأن الأفضل أن نقول: اللهم صلى على سيدنا محمد وأن نقول وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، فقد بنوا رأيهم هذا - ونحن نرجحه - على أن الرسول ﷺ من تواضعه لن يقول لهم قولوا اللهم صلى على سيدنا محمد بل قال: قولوا اللهم صلى على محمد تواضعا منه وفي قولنا: «سيدنا محمد» احترام وتوقير وتعظيم له.

وقد وجهنا القرآن الكريم إلى احترام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وطاعته، وبين سبحانه أنه لا خيرة لأحد إذا قضى الله ورسوله أمرا فقال الله سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾

(سورة الأحزاب آية: ٣٦)

ووضح الله سبحانه أنه لا يصح أن نقدم بين يدى الله ورسوله ولا أن ترفع الأصوات فوق صوت النبي وألا نجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض فقال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(سورة الحجرات: -٣)

ولبيان عظمته ومكانته، وشرفه وسيادته أقسم الله تعالى بعمره وحياته فقال:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(سورة الحجر: ٧٢)

وأثنى عليه في القرآن حيث قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

سورة القلم(٤)

وفي قولنا: «سيدنا محمد» أدب في جانبه، وأما قولنا «اللهم صلى على محمد» فهو امتثال لنص ما أمر، وهل الأدب أفضل أم الامتثال؟

ونرى أن الأدب في جانبه بقولنا: «سيدنا محمد» أفضل من الامتثال إذا قلنا: «اللهم صلى على محمد» والدليل على أن الأدب أفضل من الامتثال ما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، والذي يفيد أن الرسول ﷺ عندما كان يصلح بين جماعتين وأخبر أبا بكر رضي الله عنه إذا تأخر أن يصلي بالناس فلما صلى بهم وجاء الرسول صلى عليه وسلم ووقف في الصف أخذ الناس يصفقون ليتنبهوا أبا بكر رضي الله عنه وكان لا يلتفت في صلاته فلما علم بحضور رسول الله ﷺ تأخر ليتقدم النبي صلى الله عليه وسلم ليصلي بالناس فلما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يثبت لم يمتثل وآثر الأدب بالوقوف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهت الصلاة قال لهم الرسول ﷺ: ما بالكم أكثرتم التصفيق في الصلاة؟ من نابه شئ في صلاته فليسبح إنما التصفيق للنساء، ثم قال لأبي بكر ما منعك أن تثبت إذا أمرتك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله ﷺ، فآثر الأدب على

الامتثال مما يؤيد أن قولنا «سيدنا محمد» أفضل. وقد جاء في بعض الروايات ما يفيد أن الرسول ﷺ ما قال إنه سيد ولد آدم تفاخرا بل لبيان البلاغ الذي ألهمه الله أن يعرف الناس به، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، ما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» رواه الترمذي.

ومما لا شك فيه أن الله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد اختار لخاتمة الرسالات والشرائع خاتم الأنبياء والمرسلين واختاره من خير القبائل ومن خير البيوت.

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشا جلسوا فتذكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، وخير الفريقين ثم خير القبائل، فجعلني في خير قبيلة، ثم خير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا» رواه الترمذي وأكد الرسول ﷺ لأصحابه مكانته في الدنيا وفي الآخرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فتسمع حديثهم، فإذا بعضهم يقول: عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا فإبراهيم خليله، وقال آخر: ماذا بأعجب من أن كلم الله موسى تكليما، وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: وآدم اصطفاه الله، فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجيه وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك بحلق الجنة ولا فخر فيفتح الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر» رواه الدارمي.

ومعنى كلمة السيد في قوله «أنا سيد ولد آدم» هو الذي يفوق قومه في الخير، وهو الذي يفزع إليه الناس في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم.

والتقييد بيوم القيامة في قوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة مع أنه سيد ولد آدم دائما وأبدا في الدنيا والآخرة وفي يوم القيامة وفي غيره سبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه، بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين كما قال النووي رحمه الله - وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى:

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

سورة غافر (١٦)

ومعلوم أن الملك لله سبحانه وتعالى قبل ذلك لكن كان في الدنيا من يدعي الملك أو من يضاف إليك الملك مجازا فانقطع كل ذلك في الآخرة.

وقوله: «أنا سيد ولد آدم» لم يقله فخرا بل صرح بنفي الفخر في غير رواية الإمام مسلم في الحديث المشهور «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان.

وإنما قال ذلك ﷺ لوجهين الوجه الأول: أنه قاله امتثالا لقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

سورة الضحى (١١)

والوجه الثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى.

قال الإمام النووي رحمه الله: وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم لأن مذهب أهل الفقه أن الآدميين أفضل من الملائكة وهو صلى الله عليه وسلم أفضل الآدميين وغيرهم وأما الحديث الآخر: «لا تفضلوا بين الأنبياء» فجوابه من خمسة أوجه.

أحدهم: أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به.

والثاني: قاله أدبا وتواضعا.

والثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول.

والرابع: إنما نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو المشهور في سبب الحديث.

والخامس: أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة، فلا تفاضل فيها وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى ولابد من اعتقاد التفضيل فقد قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

سورة البقرة (٢٥٣)

وقوله ﷺ: «وأول شافع وأول مشفع» إنما ذكر الثاني لأنه قد يشفع اثنان فيشفع الثاني منهما قبل الأول.

وهكذا نرى منزلة خاتم الأنبياء والمرسلين، ومنزلة رسالته التي جاء بها رحمة للعالمين، فأخرج الناس بها من الظلمات إلى النور، وصاغ خير أمة أخرجت للناس تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الإيمان بالله:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

***

فى أضواء ذكرى المولد النبوى



لفضيلة الشيخ/معوض عوض إبراهيم

سيدنا محمد ﷺ هو رحمة الله للعالمين ونعمته المسداة إلى الناس أجمعين عربا وعجما وإلى الجن والإنس، وهو الإنسان الكريم الذى اختصه الله عز وجل فى كتابه الخالد بما لم يُعرف لنبى سبق ولا لرسول تقدم فقد نادى الله عز وجل كل نبى ورسول باسمه ولكنه نادى خيرته من خلقه صلوات الله عليه بقوله مرات (يأيها النبى) وقوله مرات (يأيها الرسول) وجل الله الذى يقول:

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(البقرة: ٣٥)

وقوله:

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(هود: ٤٨)

وقوله:

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾

(الأعراف: ١٤٤)

بينما نرى الله عز وجل يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

ويقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٤)

ونجد الله تعالى ينادى رسوله بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾

(المائدة: ٤١)

ويقسم الله عز وجل بحياة النبى كما لم يقسم بحياة غيره من الأنبياء والرسل فيقول:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(الحجر: ٧٢)

وما ذكر الله اسم محمد إلا فى مجال الإخبار عنه بمثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

وقوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

(الأحزاب: ٤٠)

وقوله:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

(محمد: ٢)

وقوله:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(الفتح: ٢٩)

ذلك تكريم إلهى من الله عز وجل لرحمته العامة ونعمته التامة.

وخذوا كلمة لمنصف من وراء الساحة العربية وهو «جون ديون بورت» فقد نقل صاحب كتاب «الرسالة المحمدية» العلامة الحكيم السيد سليمان الندوى. كبير علماء الهند فى عصره ما نصه: «يقول فى كتابه الفائض فى معانى الإخلاص والإنصاف باللغة الإنكليزية وسماه (Appologey for Mohammed and Qu-ran) (اعتذار لمحمد والقرآن) واستهله بالكلمات التالية: «مما لا شك فيه أنه لا يوجد فى قائمة الفاتحين والمقننين أحد اهتم الناس بسيرته ووقائع حياته، وأولوها عناية كبيرة، تكون سيرته ووقائع حياته أوسع بيانا وأصح نقلا وأشمل جهة من سيرة محمد ﷺ»[1].

وأين هذا الكلام على قيمته وصدقه من مثل قول الله تعالى فى مصطفاه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وهى آية من آيات ذوات عدد فى معناها، ومن معانيها امتنان الله عز وجل علينا بنبيه محمد الذى جاءنا هدى ورحمة وبشرى رسولاً من أنفُسنا وأنفَسنا كما تذكر قراءة أخرى للآية. عزيز عليه أن تضلوا السبيل وألا تأخذوا من الله البرهان، والدليل. حريص عليكم فى أضواء قول الله عز وجل:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

[الكهف: ٦]

(١) الرسالة المحمدية للعلامة الحكيم/ السيد سليمان الندوى ص١١١ . طبعة دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ . ٢٠٠٥م.

وهو عليه الصلاة والسلام يذهب فى هذه الآية بصفتى الرأفة والرحمة اللتين هما من صفات الله عز وجل الرءوف الرحيم.

وكلام النصفين للحق بعد ما تبين خليق بأن تُصغى له الآذان وتتحرك به القلوب وتخشع له الأفئدة لنمضى فى الحياة بالسراج الوهاج والضياء الذى لا يعتريه انطفاء، إنه ضياء الإسلام وسراج هذا الكتاب الذى شهد الله عز وجل له بقوله:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٩)

وقد نقل الأستاذ محمد فهمى عبدالوهاب فى رسالته «محمد رسول الإسلام فى نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه» كلام المؤرخ الإنجليزى الكبير «وليم موير» فى كتابه حياة محمد ما نصه: لقد امتاز محمد عليه السلام بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل نبى الإسلام محمد[2] أ.هـ.

وكفى بالله شهيداً وهو يقول:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[المائدة: ١٥-١٦]

لقد صلحت برسالة سيدنا محمد ﷺ طباع واستقامت أوضاع وتبين لكثيرين الرشد الذى غطت عليه الأوهام وأفهام أقوام يجادلونك فى الحق بعدما تبين ويحرصون على بهارج الحياة وحطام ما لا يساوى مثقال ذرة مما أحل الله عز وجل فى كتابه الكريم وهو يقول:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف: ٣٣]

وما جاء محمد ﷺ الناس بشىء من عنده ولكنه الوحى الصادق والدين القيم والكتاب الذى يقول الله تعالى فيه:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ٣٨]

(٢) محمد رسول الإسلام فى نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علماء وكتابه للأستاذ/ محمد فهمى عبدالوهاب - ص٥٤ - طبعة دار الاعتصام ط ١) سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م - ط ٢ - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ويقول:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

[البقرة: ٢]

ويقول:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

(الجاثية: ٦)

إنه نبى الحياة المبرأ عن الهوى والله تعالى يقول:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(النجم: ٢-٤)

ومن معانى ما ذكرت عن الرسول والرسالة يقول «برنارد شو» المؤرخ العالمى والروائى الأشهر: «إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمتها بها من أراجيف رجال أوروبا فى العصور الوسطى وسيكون دين محمد هو النظام الذى تؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، وتستمد من فلسفته حل المعضلات وفك المشكلات وحل العقد.. وأن كثيرين من الأوروبيين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول: إن بوادر العصر الإسلامى الأوروبى قريبة لا محالة.. وإنى أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح فى حكمه، ولقاد العالم إلى الخير وحل مشاكلاته على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة..»[3].

وليكن إلى لقاء ختام حديثنا فى ذكرى المولد النبوى الشريف ماكتبه الفيلسوف الأديب الروسى تولستوى الذى يقول فى كتابه: «حكم النبى محمد»: «لا ريب أن هذا النبى من كبار المعلمين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء، وفتح لها طريق الرقى والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام»[4].

ونحن نقول مع العلامة الحكيم السيد سليمان الندوى قال فى كتابه الرسالة المحمدية[5]: «فدلونى على أى مؤسس دين أو زعيم مذهب لقى هذا الاهتمام، ونال هذا التحرى والحيطة، وفاز بهذه العناية البالغة فى تدوين سيرته وأحواله وترتيب أقواله وسننه وهديه من قبل أتباعه!!

ومن حصل على هذه (الجامعية والشمول) غير نبينا وحبيبنا محمد ﷺ؟ اللهم صلى عليه وسلم.

(٣) محمد رسول الإسلام فى نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه - ص٦٦.

(٤) حكم النبى محمد للأديب الروسى تولستوى دراسة وتحقيق د. محمود النجيرى - مكتبة الثقافة طبعة ٢٠٠٨م.

(٥) الرسالة المحمدية ص١١٦.

ردوها لصاحبها ولو حكم لكم بها رسول الله ﷺ



للدكتور - أيمن الغايش

عنوان غريب لم أتصور أن أكتبه يوماً ما ولكنه ما نطق به الرسول ﷺ نفسه.

عندما تأملت العديد من المشكلات الإنسانية حولي وجدت أن سببها أن المتخاصمين حينما يذهبون إلى من يحكم بينهم فإن كل طرف يجمع ما يمكنه من حيل وعواطف وبكاء ودلائل حتى يحكم له أو بمعنى آخر يحكم على خصمه.

إنني أرى هذه المسألة في البيوت والثورة والعمل وفي كل مكان وغالبا ما تنتهي بحكم غير عادل يفسد العلاقة بين الأفراد لمدد طويلة ويبقى من يحكم له بغير الحق يطلب الدعم من القاضي ويطالب المحكوم عليه بالمزيد من الطواعية بينما يطالب القاضي المحكوم عليه بالصبر.

وإذا أراد القاضي العدل فإنه يوزع الأحكام على الطرفين - ولكن غالبا بغير القسط - فصاحب الحيلة والغضب أو قوة الشخصية والقيادة ينبغي أن يتلطف معه ويختصر بينما يستطرد ويستطيل ويستعرض مع قليل الحيلة والقوة، أليست القوة مطلبا ينبغي أن يسعى إليه؟ فما يلاقيه هو جزاء ضعفه واستكانته.

وفي النهاية يقوم المحكوم عليه بمصالحة المحكوم له وطلب العفو فهو يرى احتياجه أو مصلحته في علاقته بالمحكوم له.

وبعد فترة يتدلل المحكوم له ويبدأ في قهر المحكوم عليه حتى يظهر له أن مجرد الرد عليه أو المعاملة بالمثل هو عين الإحسان وتمام الإكرام. ولا يجد المحكوم عليه في هذا الوقت أحداً ليشكو إليه فليس أمامه إلا التحمل وأنه إذا انفجر في لحظة فإن مدة القهر وعمقه وأثره سيطول حتى يعود إلى رشده ويعلن استسلامه مرة أخرى وربما حينها لا يقبل منه ذلك.

أما المرحلة الأخيرة وهي أسوأها على الإطلاق فهي أن يحتقر المحكوم له المحكوم عليه وعندما تمر عليه الخواطر بمراجعة العلاقة السابقة بالطرف الآخر أو يشتاق إليها يجد نفسه محاصراً بالأفكار والعوائق بل والمشاعر التي تمنعه عن ذلك.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

(٢٤) سورة الأنفال

إن الظلم ولو مرة واحدة حتى لو كنا ننوي العدل كفيل بكل هذا بل وأكثر.

وعندما تبحث عن السبب في كل هذه السلسلة ستجد أنه قبل أن يأخذ طواعية أكثر من حقه مرة واحدة.

عنْ أمّ سَلَمَة، زوْجِ النّبيّ صَلّى اللّهُ عليْه وسَلّم قال: "إنكُمْ تختَصِمُونَ إليّ، وإنّما أنا بشرٌ مثلُكُمْ، فلعلّ بعضَكُمْ أنْ يكُونَ ألحَنَ بحُجّته منْ بعْضٍ، فأحكُمَ لهُ بقدرِ ما أسْمَعُ منْ حُجّته، فمنْ قضيْتُ لهُ منْ حقّ أخيه بشيْءٍ فلا يأخُذْ، فإنّما أقطَعُ لهُ قطْعَةً منَ النّارِ" رواه مالك

والعلاج في ذلك أن يرد من حكم له الحق للمحكوم عليه وألا يلبس له الشيطان ما قضى له به وهذا ليس بالأمر الهين على النفس البشرية الموصوفة بالشح بل لا يفعل ذلك إلا أصحاب نفوس عالية وقلوب طاهرة.

إن من يقبل شيراً أو نصرة من غير حقه يدفع أضعاف ما أخذه من الضيق والتضييق. إن الموظف الذي يرضى بنصرة ظالمة على زميله قضى بها المدير والزوج الذي يرضى بنصرة ظالمة على قرينه قضى بها الوسيط والإدارة المدنية أو العسكرية أو الحزب الذي يرضى بنصرة ظالمة قضى بها القانون سيلاقي من الأحزان أضعاف أضعاف ما قبله من عطاء بل سينتقل إلى الشعور بالظلم وإن كان ظالماً جزاء وفاقا لقبوله للظلم.

وحتى نعيش سعداء ولا نصل إلى كل هذه المراحل المسلسلة التي يوهم الإنسان في كل مرحلة فيها نفسه بالحق والعدل، أقول لكم ردوها وإن أعطاكموها رسول الله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

(سورة النساء: ١٣٥)



الخصائص الأدائية والجمالية في الخطابة النبوية



للأستاذ الدكتور/ صابر عبد الدايم يونس
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق - جامعة الأزهر

إن الخطابة فن أدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق مخاطبة قلوبهم، وعقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية في مقدمتها جذب انتباه السامعين وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم، بما يلقيه الخطيب من عبارات لها إيقاعها المؤثر، وفي صياغتها، وفي نسيج كلماتها وحروفها، وفي إلقائها أيضاً، وفي تلوين الصوت جهراً وهمساً وعلواً، وانخفاضاً وما إلى ذلك من وسائل تأثيرية متعددة، وكان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة إذ اتخذها الرسول ﷺ أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة، حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم، بل يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه[1].

(1) العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف ص ١٠٦.

وللخطابة أهمية قوية وتأثيرية في الإسلام، فهي مرتبطة بكثير من الشعائر والعبادات في الإسلام - فصلاة الجمعة - تسبقها خطبتان، وهما متممتان لشعائر الصلاة، وكذلك صلاة العيدين تعقبهما خطبتان، ولا يكتمل ثواب الصلاة وأجرها إلا بالاستماع إلى خطبة العيدين.

وخطابة المصطفى ﷺ قضت على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام مثل: خطابة «المنافرات»، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب.

• وتخالف خطابة المصطفى ﷺ في رؤاها وأفكارها، وفي صياغتها وتراكيبها.. الخطابة في العصر الجاهلي، حيث كان المصطفى ﷺ لا يسجع في خطابته، وكان ينفر منه حين يلجأ إليه أحد محدثيه كراهية للتشبه بالكهان في سجعهم.

• والخطابة في العصر الجاهلي لم تكن ذات موضوع محدد ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة، لا رابط بينها، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطاب موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول، إذ يحدث الناس واعظاً، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام.

وكان محمد ﷺ يخطب في العرب على هدى القرآن الكريم ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من اللسن والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب، وكأنما كانت المعاني موقوفة بشخوصها بين يديه ليختار منها ما تهش له الأسماع، وتصغي له الأفئدة.[2]

• ومن الخصائص الأدبية لخطابة المصطفى ﷺ أنه كان يستعمل جميع فمه للتكلم، ولا يقتصر على تحريك الشفتين، كما يقول «هند بن أبي هالة» يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم.

وقد برأ الله سبحانه رسوله من عيوب النطق «الخلقية» التي لا تتفق مع جلال الرسالة ومهابة التبليغ، حيث برئ الأداء النبوي في منطقه من عيوب النطق مثل «التمتمة، والفأفأة، وغيرها» وبرئ أسلوبه، ونطقه من تنافر الحروف ومن التعقيد والمعاظلة، ومن الغرابة المستكرهة، ومن الألفاظ الوعرة الوحشية في غير قصد أو غرض.

كما برئ منطق المصطفى ﷺ في خطابته وأحاديثه من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسباً لرضا المستمعين، واستجلاباً لثنائهم، مثل التنطع والتمطق والتفيهق، وغيرها..

• وتتسم خطابة المصطفى ﷺ بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، فالخطبة تسيج

(2) انظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب لمزيد من الإيضاح.

متلاحم من الفكر التشريعى الواضح على هدى التعاليم القرآنية.

› وهو ﷺ فى أسلوبه الخطابى بعيد عن الانفعال الذى ينأى بالخطيب عن دائرة الحقيقة، فكل ما يتفوه به فى خطابته صدق وجد، وترغيب وترهيب، وإرشاد وتشريع، وهداية وتبشير.

ومقدمات الخطب النبوية تنبئ عن مقومات الشخصية الإسلامية فى إيمانها بالغيب، وتوكلها على الله، وكذلك يهيئ المصطفى ﷺ الجو النفسى للمستمعين، ويأتى فى مقدمات خطبه بما يلائم أحوال المستمعين، ويهيئهم للجو المناسب لطبيعة الموضوع، ففى أول خطبة خطبها ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه، يقول عبارة موجزة تطمئن النفوس، وتنزع الجزع من نفوس أهل مكة، وتشدهم فى صدق وحب ويقين إلى اتباع الإسلام، وإلى حب هذا النبى الكريم، ويقول ﷺ : «إن الرائد لا يكذب أهله»... والرائد هو: المرسل فى طلب الكلأ، أى الذى يرسله الناس ليبحث عن الطعام فهو يصدق أهله ودائما لا يخدعهم، بعد أن يطمئن المصطفى ﷺ القوم بهذه العبارة الجامعة الدالة الموحية، يقول لقومه «أهل مكة» فى صيغة القسم الذى يؤكد صدق البشير النذير فى دعوته، وفى وفائه بالعهد والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا وإنها لجنة أبدًا أو النار أبدًا[3]

والمصطفى ﷺ معصوم من الكذب ومن التغرير، ولذلك أتى بأسلوب الشرط وأدواته «لو» وهى أداة امتناع لامتناع، فكذبه على قومه مستحيل لأن كذبه على الناس جميعا مستحيل، وكذلك تغريره بقومه مستحيل لأن تغريره بغيرهم من الناس داخل فى دائرة الاستحالة، والمؤانسة والمؤاخاة والمصافاة والمحبة الصافية تسكن حروف هذه الكلمات النقية الحانية، وليس هناك أصفى ودًا، وأنقى إخاء، وأشبع عاطفة من إشباع الإحساس بالخصوصية والمودة فى القربى، وهذه الخصوصية تعبق بعطرها الإنسانى والنبوى.

هذه العبارة الحانية الراشدة بما تنشره من ظلال الأمان فى النفوس، وبما تزرعه من ثمار الهداية فى القلوب.

يقول المصطفى ﷺ لأهل مكة «أحب البلاد إليه»: إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة».

› وبعد هذا التواصل الحميم، وهذا التأثير العميق، يقرر المصطفى ﷺ حقيقة الحقائق، ولب الألباب، وجوهر العقيدة، وصلب الرسالة، وهى حتمية الإيمان بالبعث، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وجنة ونار.

ويتوسط دائرة الإيمان بالبعث ووجوبية وجود الجنة والنار محور الوجود الإنسانى فى حياته الدنيا وضرورة الإيمان بالحساب والجزاء، على ما تقدم من أعمال:

(ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا)

فهنا العدالة فى أسمى تصور لها، فالخطاب للجميع، والثواب للمحسن، والعقاب للمسئ عملا يقول الله عز وجل:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ۝ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾

(الزلزلة: ٧ – ٨)

ويقول تعالى:

﴿فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾

(المؤمنون: ١٠١)

وفى أول خطبة خطبها بالمدينة نجده يحذر البشرية كلها من الغفلة والتفريط فى المسئولية، ويطلعهم على مصير المعاندين، والجاحدين الذين لم ينفذوا تعاليم الله، ولم يطبقوا منهجه فى الأرض؛ ويرشد الناس إلى طريق الخير، وإلى سبل النجاة من النار، وكل ذلك يتم عرضه فى صياغة متنوعة الأساليب وجمل واضحة لا التواء فيها ولا ابتذال.. وإنما تفيض هذه الجمل بالقوة والصدق، والحرص على نجاة كل من آمن بالله وبرسوله وبرسالة الإسلام.

ويروى ابن هشام فى «السيرة النبوية» نص هذه الخطبة قائلا: وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن: نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل:

إنه قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد: (أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينًا وشمالاً، فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار، ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته.[4]

(٣) انظر: نص هذه الخطبة فى «جمهرة خطب العرب» تأليف أحمد زكى صفوت، ج ١، وراجع إلى «السيرة الحلبية»، و«الكامل لابن الأثير».

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ج ٢، ص ٦٣، تأليف د. محمد فهمى السرجانى وانظر: جمهرة خطب العرب، المكتبة التوفيقية ج ١، ص ١٥٨

البشــــارة

بمولد الرسول ﷺ وبعثته





لفضيلة الشيخ/ فوزي الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يترقب المسلمون في جميع بقاع الأرض حول شهر ربيع الأول من كل عام للاحتفال بذكرى مولد الرسول الكريم والنبي العظيم الصادق الأمين محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، ذكرى منقذ البشرية ومخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد..

لقد عانت البشرية قبل مجيء الإسلام كثيراً من الظلم والقسوة والعذاب، والضلال والشرك والكفر، والتفرقة بين بني البشر، بين الأبيض والأسود، وبين الغني والفقير، وبين القوي والضعيف، وبين الرجل والمرأة، وبين الطبقة الحاكمة وسواد المحكومين، وبين أصحاب الحسب والنسب الذي وصفوه لأنفسهم وبين الخدم والعامة الذين صاروا لا يملكون من أمرهم شيئاً سوى الخنوع والخضوع، والطاعة والولاء لأسيادهم أصحاب الجاه والنفوذ والسطوة والسلطان والأمر والنهي، حتى الأطفال حديثي الولادة لم تسلم عند العرب في الجاهلية من هذه التفرقة البغيضة بين الذكر والأنثى، ويسجلها القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(سورة النحل: ٥٨، ٥٩).

وأبناء الفرس كانوا ينظرون إلى الأكاسرة كما ينظرون إلى الإله، وأبناء الرومان كان يستعلي بعضهم فوق بعض، ويتحكم القياصرة والأمراء في عامة الشعب تحكم السادة في العبيد والحيوانات..

وهكذا عمت البلوى المجتمعات البشرية قبل الإسلام، وساد قانون الغابة بين الناس، وعاش الناس في رعب الخوف وفزع القلق، وجهالة الغد والمصير... إلى أن بزغ فجر الإسلام وأشرقت شمسه بمولد الحبيب المصطفى محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام.

بشرت بقدومك يا سيدي يا رسول الله الكتب السماوية، وترقب مولدك الشريف الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب.

إن أمارات النبوة وعلامات الرسالة كانت واضحة جلية على محمد ﷺ منذ ولادته وفي صباه، كان محمد ﷺ قبل الرسالة فتى قريش الذي إليه مطمئنون، وبأمانته يعترفون، وبصدقه يقرون، وباستقامته يضربون الأمثال، فكان يعرف بينهم بالصادق الأمين...، وكان عليه الصلاة والسلام ذا مهابة وجلال وجمال وهو في فجر صباه، وكان علماً في قومه، ما من قرشي إلا عرف محمداً الصبي المستقيم، والشاب الأمين... مع تحاشيه حضور مجتمعاتهم الصاخبة، ومنتدياتهم الفاسدة، فقد عصمه الله من أوزارها، وجنبه المشاركة في عاداتهم الجامحة، وأنجاه ربه من مباذلها...، ومن ثم كانت صفحته قبل الرسالة وضاءة الجنبات، وسيرته قبل النبوة عاطرة النفحات...

ذكر أبو هاشم محمد بن ظفر في «خير البشر بخير البشر» حج أكثم بن صيفي ـ حكيم العرب ـ والنبي صلى الله عليه وسلم في سن الحلم، فرآه أكثم، فقال لأبي طالب: ما أسرع ما شب أخوك! فقال: ليس بأخي، ولكنه ابن أخي عبدالله، فقال أكثم: أهو ابن الذبيحين؟ قال: نعم: فجعل يتوسمه ثم قال لأبي طالب: ما تظنون به؟ قال: نحسن به الظن، وإنه لوفي سخي. قال: هل غير هذا؟ قال: نعم، إنه لذو شدة ولين، ومجلس ركين، وفضل متين، قال: فهل غير هذا؟ قال: إنا لنتيمن بمشهده، ونتعرف البركة فيما لمسه بيده، فقال أكثم: أقول غير هذا، إنه ليضرب العرب قامطة[1] بيد حائطة، ورجل لائطة، ثم ينعق بهم إلى مرتع قريع، وورد سريع، فمن اخرورط إليه هداه، ومن احرورن عنه أرداه..

هكذا توسم وتنبأ حكيم العرب أكثم بن صيفي بمحمد بن عبدالله ـ عندما رآه ـ وهو في باكورة صباه.

عليك الصلاة وأزكى السلام يا سيدي يا رسول الله، فقد ظلت البشرية تترقب في لهفة وشوق مولدك الشريف لتشرف بقدومك، ويعم الخير الكون كله ببعثتك، وقد تحقق ذلك بعد أن بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وتحملت في سبيل ذلك أذى المشركين، وسفه الكافرين، وعناد المكابرين، وضلال المنافقين، وحقد ومؤامرت أعداء الدين، وتحملت كل هذا بقلب كبير رحيم لم يقبل أن يدعو على هؤلاء بالقتل والخسف والعذاب، وأجبت الأمين جبريل حين عرض عليك أن يطبق عليهم جبال مكة بقولك الرحيم: «عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالتوحيد».

سيدي يا رسول الله: تحل ذكرى مولدك العطرة وعالم اليوم قد علا فيه صوت الباطل، وخفت فيه صوت الحق، وعاث الطغاة في الأرض

(١) جامعة.

فساداً، وانقلبت فيه الموازين والمعايير، وعاد الناس إلى سيرتهم الأولى، يفتك فيه الأقوياء بالضعفاء، ويستغل فيه الأغنياء الفقراء، ويعيش المسلمون فيه - مع كثرة عددهم وتنوع ثرواتهم وتميز جغرافية بلادهم - يعيشون أياما عصيبة، تكالبت عليهم ذئاب البشر، واستأسدت عليهم أراذل الخلق، وتحالفت ضدهم قوى السفهاء، وتعالى عليهم الوضعاء، واستذلهم الأذلاء من القردة والخنازير...

على المسلمين اليوم - وهم يعيشون أسوأ مرحلة في تاريخ أمتهم - بعد أن مزقتهم الأهواء، وشتت شملهم الأعداء، وتفرقوا شيعاً وأحزابا، وركنوا إلى الدنيا وزينتها، وغرقوا في ملذاتها وشهواتها، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، ووصلوا إلى حالة من الاستسلام والضعف، والاستكانة والخنوع، والمذلة والهوان، وتحقق فيهم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: عن ثوبان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أومن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[٢].

على المسلمين اليوم أن يدركوا عن عقيدة وإيمان أنه لا سعادة للعباد، ولا نجاة في المعاد إلا بالعودة إلى طاعة الله بتنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه، وهجر معاصيه.. واتباع سنة رسوله ﷺ، والاقتداء بسيرته، وأن يتعرفوا عظمته التي تجلت آثارها في أطوار حياته كلها فيقتدوا بها... فطاعة الله ورسوله هي باب الفلاح والنجاح، وهي عدة النصر والنجاة...، وأن تتحد كلمتهم وأن يجتمع شملهم وأن ينفذوا أمر الله - تعالى -:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾

(آل عمران: ١٠٣).

وأن يعين قويهم ضعيفهم، وأن يساعد غنيهم فقيرهم وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والدول....، وأن يحققوا قول رسول الله ﷺ: عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٣].

ألا يجدر بنا في ذكرى مولده «صلى الله عليه وسلم» أن نسعى جاهدين لتحقيق ذلك، حتى يرضى عنا ربنا فيكشف عنا كربنا، ويحقق لنا ما وعدنا في قوله - تعالى -:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(المنافقون: ٨)

---

(٢) أبو داود.

(٣) متفق عليه.

تأملات في السيرة



لفضيلة الشيخ: الطاهر الحامدي

تحدثنا في العدد السابق عن غزوة بدر الكبرى وسنتحدث بعدها عن غزوة أحد وبينهما وقعت غزوات صغيرة أو مناوشات نختار من بينها غزوة بني قينقاع وقبل أن نتحدث عن موقعة بني قينقاع وملابساتها وأسبابها وما جرى فيها أود أن أصارحك أيها القارئ الكريم بأنني أمقت الغدر والخيانة مهما بدى في ناظري انهما أو احدهما أقرب سبيل إلى النصر والفوز فأنا لا أحب النصر والفوز عن طريق الغدر والخيانة ولذلك فأنا أستطيع أن أقول بكل حزم وبكل جد إنني أمقت اليهود لأن الغدر والخيانة طباع أصيلة فيهم فهم أهل غدر وخيانة ليس لهم عهد ولا ذمة على مر التاريخ وكذلك أمقت الحقد والتشفي ولذلك فإنني أمقت اليهود فهم حاقدون على كل نبيل ونظيف فدائماً ما يشوهون صورة كل نبيل ونظيف ومن طبيعة خصال الغدر والتشفي أنها توغل في النفس حب الإنتقام وتبلغ المدى في القسوة ولا تعرف الرحمة لقلوبها سبيلا وأصارحك بأنني لا أثق في كثير من الغرب عموماً في عهوده وتعهداته ومعاهداته وكلامه حتى وإن بدى معسولاً براقاً جميلاً، بل كلما رأيته كذلك توجست أكثر لأن التاريخ علمني أن هؤلاء الناس لا عهد لهم ولا ميثاق، إنما ينظرون بعيون حاجاتهم ومآربهم ولا يتطلعون إلى أي شيء آخر ويأتي في قمة الدول الغربية أمريكا فيا ويلي إننا نشاهد الآن أنها تعبث بأيديها في دول الربيع العربي ورغم ذلك تزعم أنها ترحب بالثورات العربية، إلا أن أيديها تعبث في الخفاء وفي العلن تقدم أموالاً باهظة لتحقيق أغراضها الخاصة وتزعم في بجاحة منقطعة النظير أنها تسعى لنشر الديمقراطية وياليت شعري لماذا تسعى بإلحاح لنشر الديمقراطية وترفض نشر الإسلام رغم ما في الإسلام من سماحة ويسر وصدق وخير للإنسانية كلها. هل عرفت أمريكا أن رسول الإسلام لم يحاب إنسانا وإن أدى فرائض الإسلام صلى وصام وزكى وحج إلا أنه حبس هرة فلم تشفع له صلاته ولا صيامه لأنه آذى حيوانا ضعيفا لكن مصيره إلى النار. فقال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض» أرأيت كيف حارب

الإسلام طبيعة الاستعلاء واستبداد القوة وغرور الاستعلاء. وهل تعلم أمريكا - وأنا أعلم أنها تعلم - أن امرأة مسيئة غفر لها الله سبحانه وتعالى لأنها سقت كلباً يلغ به العطش مبلغه وما ذاك فى تصورى إلا لأن فيها نواة لقلب تدب فيه الرحمة فهى رقت لكلب يلهث من الظمأ وذلك هو هدف الإسلام! القلوب الرحيمة

وبعد أن انتهى النبى ﷺ من غزوة بدر الكبرى، ورغم أنه عاهد اليهود فى المدينة وكتب بينه وبينهم كتاباً يعتبر نموذجاً أمثل فى تعايش بنى آدم مع بعضهم وإن اختلفت عقائدهم ومللهم حتى يمكن أن يتعايش الناس فى مجتمع مختلف الديانات والعقائد تأمل كيف استقام هذا للنبى ﷺ حتى يكوّن مجتمعاً متماسكاً يعيش فى صعيد واحد.

إن أمريكا تتخذ اليوم من اختلاف الأديان والعقائد والملل سبيلاً إلى تشرذم الجماعات وانقسام الأمم لا لشىء إلا لأنها تريد أن تسود هى وأن تقسم العالم إلى قطع صغيرة يمكن التهامها والنفاذ إليها لتحقيق أطماعها عكس ما تدّعيه وتزعم. لا عليك أخى. لكن دعنا نعود لنذكر أنه بعد انصراف النبى ﷺ من غزوة بدر منتصراً لم يسترح اليهود لهذا وبدأوا يتحينون الفرص ويعقدون الأحلاف ويوزعون من خلالها أساليب التهديد فاجتمع بنو قينقاع وأخذوا يكيدون للمسلمين فبدأوا أعمال الخيانة التى تتنافى مع المعاهدة التى وقعوها مع النبى ﷺ لكى يعيش مجتمع المدينة آمنا مطمئنا وكعادة اليهود إذا ما قدروا أو توهموا أن عندهم القدرة بدأوا يكيدون

فأعلم الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بهذا الكيد ورغم هذا الإعلام الصريح من الله سبحانه وتعالى لنبيه بالكيد والخيانة فإن رسول الله ﷺ لم يبدأ بنى قينقاع بالهجوم أو الغارة عليهم رغم أن الإعلام من الله قال الله تعالى:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾

(الأنفال: ٥٨)

ونحن اليوم نرى أن أمريكا تعتمدُ على استخبارات تستخدم أساليب رديئة وتتذرع بها فى الهجوم على دول العالم لنهب ثرواتها وبينما المسلمون ينتظرون أوامر النبى ﷺ للرد على اليهود لفض اجتماعهم قدمت امرأة فباعت فى سوق بنى قينقاع متاعاً لها وجلست إلى صائغ لتشترى حلياً فجعلوا يراودونها عن كشف وجهها فلم تفعل فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فربطه فى أعلى ثوبها وهى لا تشعر فلما قامت كشفت عورتها فضحكوا منها فصاحت واستغاثت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فقال ﷺ: (إنما أخاف من بنى قينقاع) يعنى أنى أتوقع خيانتهم وأخاف منهم فلما نزلت هذه الآية سار إليهم وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه واستخلف على المدينة أبا لبابة وكعادة اليهود أنهم يخافون من القتال

المكشوف والحروب خارج المدن لأنهم لا يستطيعون القتال فى الأجواء المكشوفة كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾

(الحشر ١٤)

فهم لا يستطيعون ولا يقدرون على المواجهة ولكنهم ألفوا العمل فى الخفاء ولذلك فإن (المؤامرة) هى أسلوب حياتهم. ولذلك فإنهم بعد الفعلة الشنيعة وكشف عورة مرأة مسلمة واستعداد النبى ﷺ للهجوم عليهم تحصنوا داخل حصونهم فحاصرهم النبى ﷺ خمس عشرة ليلة حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب فنزلوا متصاعين مكرهين على حكم رسول الله ﷺ على أن لرسول الله ﷺ أموالهم وأن لهم النساء والذرية ثم أمر بهم رسول الله ﷺ أن يجلوا من المدينة فلحقوا بأذرعات [1]، فما كان أقل بقائهم بها وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنه هو الذى تولى إخراجهم من المدينة فأنزل الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

(المائدة ٥١، ٥٢)

وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

(المائدة: ٥٥، ٥٦)

ولقد رأينا والتاريخ يخبرنا بأن اليهود انتصروا فى عام ٦٧ لأنهم حاربوا وهم داخل حدودهم. فعمدوا إلى الضرب بسلاح الطيران وكذلك انهزموا فى ٧٣ لأن مسرح العمليات كان مكشوفاً على أرض سيناء العطرة.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

***

احتفاء مجلة الهلال بالنبى محمد ﷺ



الأستاذ / عاطف مصطفى

تعد مجلة الهلال واحدة من المجلات المصرية العريقة التى حملت مشعل الثقافة العربية ودعمت اللغة الفصحى منذ صدورها فى عام ١٨٩٢م وحتى الآن، وظلت مرآة للأمة تسطر حضارتها وتشكل وجدانها المعرفى والحضارى من خلال أساطين الفكر من المصريين والعرب وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف وطه حسين والعقاد وأحمد أمين.

وقد شارك العديد من علماء الأزهر ومفكريه فى كتابة نماذج من روائع كتاباتهم وإبداعهم فى كثير من قضايا الأمة ومن بينهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود أبو العيون والدكتور عبد الحليم محمود والشيخ أحمد حسن الباقورى والدكتور أحمد الشرباصى والدكتور أحمد الطيب والدكتور محمد عمارة والشيخ محمود محمد شاكر.

وفى هذا العدد من "مجلة الأزهر" التى تحتفى بذكرى ميلاد الرسول ﷺ نتناول بعض ما قدمته الهلال خلال الأربعين سنة الماضية عن الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

أصدرت الهلال عددين بمناسبة قدوم شهر الصوم الكريم، غلاف العدد الأول عنوانه "النبى" ولوحة فنية بالألوان لقبة المسجد النبوى ومئذنته، أما العدد الآخر فجاء غلافه يحمل عنوان "محمد ﷺ رؤية جديدة" ثم وضعت أسماء كتاب العدد وفى مقدمتهم توفيق الحكيم ود. زكى نجيب محمود ود. بنت الشاطئ وخالد محمد خالد ويوسف السباعى وأنيس منصور ود. محمود على مكى، وبعض كتابات كبار المفكرين والذين رحلوا عن عالمنا وقت تحرير العدد وصدوره ومن بينهم د. طه حسين وعباس محمود العقاد ود. أحمد أمين والشيخ على عبد الرازق والشيخ أمين الخولى والدكتور زكى مبارك وغيرهم.

هذه الأعداد والتى شرفت بالاشتراك فى إعدادها وتحريرها على مدى عملى فى الهلال منذ عام ١٩٦٣م وحتى عام ٢٠٠٩م حققت نسبة عالية فى التوزيع فضلا عن صداها الطيب فى نفوس القراء لما تضمنته من كتابات رصينة عن رسول البشرية الأعظم ﷺ.

رئيس تحرير العدد الأول كان شاعراً معروفاً وهو صالح جودت، أما رئيس تحرير الثانى فكان المفكر والمؤرخ المعروف الدكتور حسين مؤنس.

عالمية دعوته ﷺ

وحرصًا منى على نقل بعض ما كتب فى هذين العددين ونحن نقترب من احتفالات العالم الإسلامى كله بذكرى نبينا الكريم ﷺ إلى مجلة الأزهر صاحبة التاريخ الناصع على مدى نيف وثمانين عاما، والتى أسهمت بدور رائد فى إبراز وسطية الإسلام وعالميته من خلال علماء الأزهر البارزين على مدار ما يقرب من قرن كامل من الزمان فإننى أشير إلى ما جاء فى افتتاحية عدد الهلال الذى صدر فى ٢٢ شعبان ١٣٩٢هـ/أول أكتوبر ١٩٧٢م.

قال رئيس التحرير: ما أجمل – ونحن فى ارتقاب أيام رمضان المباركة أن تكون الكلمة عن النبى الذى نزلت عليه رسالة القرآن فى مثل هذا الشهر هدى للناس.

إن رسالة محمد ﷺ ليست مجرد دعوة دينية، وإنما هى قبل ذلك، وبعد ذلك أول دعوة أيديولوجية عالمية نزلت على الناس، قبل أن تظهر أى أيديولوجية من الأيديولوجيات المعاصرة.

ومع هذا فإن أيا من هذه الأيديولوجيات المعاصرة لم تستطع أن ترقى إلى المستوى الإنسانى الذى رقت إليه دعوة الإسلام، الذى نزل للبشر كافة، لم يفرق بين جنس وجنس، ولا بين لسان ولسان، ولا بين أرض وأرض، ولا بين لون ولون ولا بين عنصر وعنصر وإنما جعل المفاضلة بينها بالتقوى.

بينما الأيديولوجية المعاصرة تسقط معنى التقوى– التى هى قوام الخير والحب والسلام – وتلبس فى ظاهرها ثوب الدعوة الإنسانية، بينما تحتوى فى باطنها دعوات العنصرية البيضاء أو الحمراء أو الصفراء وما ينطوى وراءها من مطامع وشهوات.



حسين مؤنس

ويؤكد فى ختام الافتتاحية على أن رسالة هذا النبى ﷺ هى التى فتحت أبواب الخير والشرف، والغفوة عنها هى التى أسقطت المسلمين فى وهدة ما يعانون اليوم من احتلال وانحلال فليكن هذا الحديث عن النبى تذكرة بالعودة إلى الله، فإنها السبيل إلى النصر.. وإن ينصركم الله فلا غالب لكم.

صفات النبى ﷺ

أسماء كثيرة شاركت وأسهمت بالحديث عن الرسول الأعظم عن أخلاقه وغزواته والشعراء الذين مدحوه، وكذلك أصحاب النبى، والمؤامرات اليهودية حول النبى، والاحتفال بالمولد النبوى بدأه العباسيون وزينه الفاطميون، والنبى زوجًا وأبًا، والتجارة فى حياة النبى.. إلخ.

يقول عنه جبران خليل جبران: أن يكون نبى الله أميا، فذلك حكمة أرادها الله، ولكن النبى الأمى، كان دائما يحض أتباعه على العلم.

كان يقول: العلماء ورثة الأنبياء.

.. كان يطلق سراح الأسير إذا علم مسلماً.

وكان يقول دائما: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"

وكان خلقه القرآن

تصدرت مقالات العدد مقالة بعنوان : "أخلاق النبى ﷺ" للدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف وشئون الأزهر فى ذلك الزمان، يقول فيه : سئلت السيدة عائشة - رضوان الله عليها - عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : "كان خلقه القرآن".

ومع أن هذا الوصف من أم المؤمنين واضح وضوحا لا لبس فيه فإننا مع ذلك نحاول له تحديدا نراه ضروريا، وبيانا نراه حتميا.

ذلك أن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى وترسم الفضيلة فى درجاتها الأولى، ثم لايقتصر القرآن على ذلك، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق، ويوجه إلى السنام منها، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين.

إنه - القرآن - يتحدث عن المقتصد، وعن السابق بالخيرات إنه يتحدث عن أصحاب اليمين، ويتحدث عن المقربين ويبين أنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين:

يقول د.عبد الحليم محمود :

يحق لنا أن نتساءل، ما الذى تريده السيدة عائشة - رضى الله عنها - حينما تصفه ﷺ - بأن خلقه القرآن؟

هل تريد الخلق القرآنى الكريم فى حده الأدنى؟ أو تريده فى حدة الأوسط؟ أو تريده فى حده الأقصى

ويحكى لنا القرآن الكريم هذه المسألة فيحدد بصورة عامة بطريقة مجملة الدرجة التى وصل إليها الرسول ﷺ من الخلق القرآنى فيقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم : ٤)

يقول صاحب الشفاء :

أثنى عليه بما منحه من هبته، وهداه إليه، وأكد ذلك - تتميما للتمجيد - بحرفى التأكيد، فقال تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

قيل القرآن وقيل الإسلام، وقيل الطبع الكريم وقيل : "ليس لك همة إلا الله" أهـ. -

قال الواسطى : "أثنى عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمه، وفضله بذلك على غيره، لأنه جبله على ذلك الخلق" أهـ. -

ويعود الدكتور عبد الحليم محمود ليتحدث عن خلق النبى قائلا: إن القرآن يحسم الأمر حسما لا يدع فيه مجالاً للبس ويسفر عنه إسفارا لا يدع مجالا لريب.. يقول الله لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٢)

هذه الآية الكريمة تحدد درجة الأخلاق القرآنية التى وصل إليها الرسول (ﷺ) إنها ذروتها وسنامها وقد بعث النبى (ﷺ) ليتمم مكارم الأخلاق بذاته :بسلوكه.

وليتممها بقوله :برسالته، إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب، وإنما بعث ليتمم مكارمها، ومكارم الأخلاق لم تكن- قبل الرسول ﷺ قد تمت، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد وكانت بذلك مكارم ناقصة.. كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق وهى إسلام الوجه لله إسلاماً تاماً.

النبى فى صورة بطل

هذا هو عنوان مقال أحد أهم كتاب هذا الزمان الأستاذ على أدهم وقد استقى هذا المقال بعد قراءته لكتاب "الأبطال وعبادة البطولة" حيث اهتم بالفصل الممتع الذى اختص به نبينا الكريم محمد (ﷺ) مشيرا إلى واحد من الكتاب الغربيين الذين احتفوا بنبينا (ﷺ) (يقول كارليل فى أحد فصول هذا الكتاب كلاماً طيبا عن نبينا الكريم ودافع عنه دفاعا اتسم بالصدق والجرأة ومن بين دفاعه عن النبى أنه رجل الصدق والوفاء، يواصل: "وقد لوحظ عليه منذ صباه أنه كان شابا مفكرا، وقد سماه رفقاؤه: الأمين -رجل الصدق والوفاء- الصدق فى أفعاله أقواله وأفكاره، وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة، وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضا فيتركه إلاوقد أثار شبهته وكشف ظلمته، وأبان حجته، واستثار دفينته، وقد رأيناه طوال حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم بعيد الهمة، كريما رءوفا تقيا فاضلا حراً، شديد الجد مخلصا، وهو مع ذلك سهل الجانب، لين العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس، تضيئ وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.



عبد الحليم محمود

وقد كان رجلا عظيماً بفطرته، ولم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، فأدى عمله وحده فى أعماق الصحراء".

المملوء رحمة وخيرا (ﷺ)

ويدحض كارلايل حجة الذين كانوا يعزون قيامه بالدعوة إلى الإسلام إلى حب الشهرة والمجد الشخصى فيقول "ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدين أن محمدا لم يكن يريد بقيامه بالدعوة إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان، كلا وأيم الله، لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة، وحنكة، وإربة ونهى، ونيات خلاف طلب السلطة والجاه، وليس الطمع وحب الدنيا، هو الذى أثار محمدا واستنهضه..

هذه كلمات وومضات فى ذكرى الحبيب المصطفى (ﷺ) سطرها كتاب كبار.. وما أطيب وأعذب الحديث عنك يا أكرم خلق الله فى يوم ميلادك -صلوات الله وسلامه عليك.

(يتبع)

قالوا عن محمد رسول الله ﷺ



للأستاذ الدكتور/ عماد الدين خليل

«إن محمداً ﷺ كان الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح بشكل أسمى وأبرز فى كلا المستويين الدينى والدنيوى.. إن هذا الاتحاد الفريد الذى لا نظير له للتأثير الدينى والدنيوى معاً يخوله أن يعتبر أعظم شخصية ذات تأثير فى تاريخ البشرية».

العالم الأمريكى مايكل هارت

إبراهيم خليل أحمد

(١) «هذه هى حقيقة يثبتها التاريخ: فبينما كان العالم الشرقى والعالم الغربى بفلسفاتهما العقيمة يعيشا فى دياجير ظلام الفكر وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة فى شخص محمد رسول الله ﷺ، نور وضاء أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام»(١).

(٢) «إن سيدنا عيسى عليه السلام يتنبأ عن الرسول الكريم محمد ﷺ بقوله: (وأما متى جاء ذاك: روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية)»(٢)،(٣).

(٣) «يقول برنابا: (سيأتى -أى الرسول- الرسل من الله لكل العالم، وحينئذ يُسجد لله فى كل العالم وتُنال الرحمة)»(٤)،(٥).

(٤) «كلمة إنجيل كلمة يونانية تعنى بشارة أو بشرى، ولعل هذا هو الذى نستفيده من سيرة سيدنا عيسى عليه السلام، أنه كان بشرى من الله للرحمة، وبشرى بتبشيره عن النبى الذى سيأتى للعالمين هدى ورحمة، ألا وهو الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ»(٦).

(١) محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص٤٧.
(٢) إنجيل يوحنا، ١٦: ١٢.
(٣) محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص٩٨.
(٤) إنجيل بارنابا، ٨٢: ١٦ - ١٨.
(٥) محمد فى التوراة، ص١٠٥.
(٦) نفسه، ص١١٤.

(٥) «يقول عيسى (عليه السلام) فى إنجيل برنابا: (لأن الله سيصعدنى من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى. ومع ذلك فإنه حين يموت شر ميتة أمكث أنا فى ذلك العار زمناً طويلاً فى العالم ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عنى هذه الوصمة)»(٧)،(٨).

ارنولد

(١) «لعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشىء الدعوة الإسلامية ﷺ، هى الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين.. وإذا كانت حياة النبى ﷺ هى مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئاً عن الروح التى دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التى ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجىء فى تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكر، وإنما هى قديمة قدم العقيدة ذاتها. وفى هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك وكيف كان النبى محمد ﷺ بعد نموذجاً للداعى إلى الإسلام»(٩).



ارنولد

(٢) «من الخطأ أن نفترض أن محمداً ﷺ فى المدينة قد طرح مهمة الداعى إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين»(١٠).

(٣) «إن المعاملة الحسنة التى تعودتها وفود العشائر المختلفة من النبى ﷺ واهتمامه بالنظر فى شكاياتهم، والحكمة التى كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التى أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف فى جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين، كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم، كما جعل صيته ذائعاً فى كافة أنحاء شبه الجزيرة سيداً عظيماً ورجلاً كريماً. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبى ﷺ بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً فى تحويل إخوانه إليه»(١١).

(٧) إنجيل برنابا، ١١٢: ٨ - ١٦.
(٨) محمد فى التوراة، ص١٤٦.
(٩) الدعوة إلى الإسلام، ص٣٤.
(١٠) نفسه، ص٥٤.
(١١) نفسه، ص٥٥ عن: Myir (Sir William): Life of Mahomet, PP. 107 - 8 (London, 1858 - 1)

واشنجتون ايرفنج

(١) «كان محمد ﷺ خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله»[١٢].

(٢) «كانت تصرفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[١٣].

(٣) «لقي الرسول ﷺ من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلى عن كل متع الحياة وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة»[١٤].

(٤) «برغم انتصارات الرسول ﷺ العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول ﷺ على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، ولم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثياً لأسرته»[١٥].

(٥) «كان الرسول ﷺ ينفق ما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيراً ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم فيبيت المال.. وهو لم يخلف وراءه ديناراً أو درهماً أو رقيقاً.. وقد خيره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة»[١٦].

بارت[١٧]

(١) «كان من بين ممثلي حركة التنوير من رأوا في النبي العربي ﷺ أداة لله، ومشرعاً حكيماً، ورسولاً للفضيلة، وناطقاً بكلمة الدين الطبيعي الفطري، مبشراً به»[١٨].

(٢) «كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فساداً. حتى جاء محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس»[١٩].

---

(١٢) حياة محمد، ص٧٢. (١٣) نفسه، ص٢٢٢. (١٤) نفسه، ص٣٠.

(١٥) نفسه، ص٣٠٢ - ٣٠٣. (١٦) نفسه، ٣٠٣.

(١٧) رودي بارت Rudi, Part عالم ألماني معاصر، اضطلع بالدراسات الشرقية في جامعة هايدلبرج، وكرس حياته لدراسة علوم العربية والإسلام وصنف فيها عدداً كبيراً من الأعمال، منها ترجمته للقرآن الكريم التي استغرقت منه عشرات السنين وأصدرها بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٦ وله كتاب عن النبي محمد ﷺ.

(١٨) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص٢٤. (١٩) نفسه، ص٣٠.

بروي[٢٠]

(١) «جاء محمد بن عبدالله ﷺ، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد. كانت الشريعة «في دعوته» لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. وتنشر الدين الحنيف.. وعندما قبض النبي العربي ﷺ، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل»[٢١].

بلاشير

(١) «إن معجزة النبي ﷺ الحقيقية والمتفردة هي إبلاغه الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلف بالمهام الثقيلة العبء، وهي حمل النور إلى عرب الحجاز في أوائل القرن السابع؟ إن محمداً ﷺ لا يبدو في القرآن إطلاقاً، منعماً عليه بمواهب تنزهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع في نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يصرح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق هالك:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

(الكهف: ١١٠)

وهو لم يتلق أي قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتخب ليكون منذراً ومبشراً للكافرين. إن نجاح رسالته مرتبط إذن في قيمتها الإيحائية وإلى شكلها المنقطع النظير. ولم يكن محمد ﷺ رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعراً، فإن الأخبار التي روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما إذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فن ارتجال الشعر، وعندما قال عنه المكيون المشركون أنه شاعر، أو حين عرضوا بأن مصدر الوحي جني معروف أزال الله عنه هذه التهمة:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(يس: ٦٩ - ٧٠)

وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حد الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، كظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر»[٢٢].

(٢) «أما عن انتصار الإسلام فثمة أسباب تداخلت وفي طليعتها القرآن والسنة وحالة الحجاز الدينية، ونصح وبيان وأمانة الرجل المرسل لإبلاغ الرسالة المنزلة عليه»[٢٣].

---

(٢٠) ادوار بروي Edourd Perroy باحث فرنسي معاصر، وأستاذ في السوربون.

(٢١) تاريخ الحضارات العام، ٣/١٦٢. (٢٢) تاريخ الأدب العربي، ٢/١٤ - ١٥. (٢٣) نفسه، ٢/٥٠.

مارسيل بوازار

(١) «سبق أن كتب كل شىء عن نبى الإسلام ﷺ، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التى نعرفها فى أدق تفاصيلها. والصورة التى خلفها محمد ﷺ عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، علمية فى الحدود التى تكشف فيها وهى تندمج فى ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الدينى وتتيح إدراك عظمته الحقيقة»[٢٤]

(٢) «لم يكن محمد ﷺ على الصعيد التاريخى مبشرا بدين وحسب بل كان كذلك مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ، وأثرت فى تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق»[٢٥]

(٣) «منذ استقر النبى محمد ﷺ فى المدينة، غدت حياته جزءا لا ينفصل من التاريخ الإسلامى. فقد نقلت إلينا فعاله وتصرفاته فى أدق تفاصيلها.. ولما كان منظما شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية فى الدفاع عن المجتمع الإسلامى الجنينى، وفى بث الدعوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبى الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامى فى إبان قيامه وجسدت المناخ الروحى للإسلام.. وكما يظهر التاريخ الرسول ﷺ قائدا عظيما ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحا قوى الشكيمة له سياسته الحكيمة التى تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطى كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات فى الوقت الذى كان النصر العسكرى قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيرا على الصعيد النفسانى هشاشة السلطان الذى كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التى كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلى بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابد أن يكون محمد ﷺ الذى عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانا فوق مستوى البشر حقا، وأنه لابد أن يكون نبيا حقيقيا من أنبياء الله»[٢٦]

(٤) «لقد كان محمد ﷺ نبيا مصلحا اجتماعيا. وأحدثت رسالته فى المجتمع العربى القائم آنذاك تغييرات أساسية ماتزال آثارها ماثلة فى المجتمع الإسلامى المعاصر»[٢٧]

(٥) «مما لا ريب فيه أن محمدا ﷺ قد اعتبر، بل كان فى الواقع، ثائرا فى النطاق الذى كان فيه كل نبى ثائرا بوصفه نبيا، أى بمحاولته تغيير المحيط الذى يعيش فيه»[٢٨]

---

(٢٤) إنسانية الإسلام، ص٤٠ - ٤١.

(٢٥) نفسه، ص٤٢.

(٢٦) نفسه، ص٤٦.

(٢٧) نفسه، ص٦١.

(٢٨) نفسه، ص٦٦.

البردة للبوصيرى

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين منسجم منه ومضطرم

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم

فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم

وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألم

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى إليك ولو أنصفت لم تلم

عدتك حالى لا سرى بمستتر ... عن الوشاة ولا دائى بمنحسم

محضتنى النصح لكن لست أسمعه ... إن المحب عن العذال فى صمم

إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل ... والشيب أبعد فى نصح عن التهم

فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألم برأسى غير محتشم

لو كنت أعلم أنى ما أوقره ... كتمت سرا بدا لى منه بالكتم

من لى برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهى فى الأعمال سائمة ... وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قول بلا عمل ... لقد نسبت به نسلا لذى عقم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
محمد سيد الكونين والثقليـ ... ـن والفريقين من عرب ومن عجم
نبينا الآمر الناهى فلا أحد ... أبر فى قول لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم
دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم
فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذى تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم
منزه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم
أكرم بخلق نبى زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ... والبحر فى كرم والدهر فى همم
كأنه وهو فرد من جلالته ... فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف ... من معدنى منطق منه ومبتسم
لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه ... طوبى لمنتشق منه وملتثم
أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدإ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم ... تسمع وبارقة الإنذار لم تشم
من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم ... بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ما عاينوا فى الأفق من شهب ... منقضة فوق ما فى الأرض من صنم
حتى غدا عن طريق الوحى منهزم ... من الشياطين يقفو إثر منهزم

كأنهم هربا أبطال أبرهة   أو عسكر بالحصى من راحتيه رمي
نبذا به بعد تسبيح ببطنهما   نبذ المسبح من أحشاء ملتقم
جاءت لدعوته الأشجار ساجدة   تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرا لما كتبت   فروعها من بديع الخط باللقم
مثل الغمامة أنى سار سائرة   تقيه حر وطيس للهجير حمي
أقسمت بالقمر المنشق إن له   من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم   وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار والصديق لم يرما   وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الأطم
ما سامني الدهر ضيما واستجرت به   إلا ونلت جوارا منه لم يضم
ولا التمست غنى الدارين من يده   إلا استلمت الندى من خير مستلم
لا تنكر الوحي من رؤياه إن له   قلبا إذا نامت العينان لم ينم
وذاك حين بلوغ من نبوته   فليس ينكر فيه حال محتلم
تبارك الله ما وحي بمكتسب   ولا نبي على غيب بمتهم
كم أبرأت وصبا باللمس راحته   وأطلقت أربا من ربقة اللمم
وأحيت السنة الشهباء دعوته   حتى حكت غرة في الأعصر الدهم
بعارض جاد أو خلت البطاح بها   سيب من اليم أو سيل من العرم
دعني ووصفي آيات له ظهرت   ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم   وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح إلى   ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة   قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا   عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة   من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما تبقين من شبه   لذي شقاق وما تبغين من حكم

ما حوربت قط إلا عاد من حرب   أعدى الأعادي إليها ملقي السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها   رد الغيور يد الجاني عن الحرم
لها معان كموج البحر في مدد   وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها   ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له   لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى   أطفأت حر لظى من وردها الشبم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به   من العصاة وقد جاءوه كالحمم
وكالصراط وكالميزان معدلة   فالقسط من غيرها في الناس لم يقم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها   تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم
يا خير من يمم العافون ساحته   سعيا وفوق متون الأينق الرسم
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر   ومن هو النعمة العظمى لمغتنم
سريت من حرم ليلا إلى حرم   كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة   من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها   والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم   في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق   من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ   نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أي مستتر   عن العيون وسر أي مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك   وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما وليت من رتب   وعز إدراك ما أوليت من نعم
بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا   من العناية ركنا غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته   بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم
راعت قلوب العدا أنباء بعثته   كنبأة أجفلت غفلا من الغنم
ما زال يلقاهم في كل معترك   حتى حكوا بالقنا لحما على وضم

ودوا الفرار فكادوا يغبطون به   أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضى الليالى ولا يدرون عدتها   ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم   بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سابحة   يرمى بموج من الأبطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب   يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم   من بعد غربتها موصولة الرحم
مكفولة أبدا منهم بخير أب   وخير بعل فلم تيتم ولم تئم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم   ماذا رأى منهم فى كل مصطدم
وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا   فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المصدرى البيض حمرا بعد ما وردت   من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت   أقلامهم حرف جسم غير منعجم
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم   والورد يمتاز بالسيما عن السلم
تهدى إليك رياح النصر نشرهم   فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى
كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا   من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا   فما تفرق بين البهم والبهم
ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
ولن ترى من ولى غير منتصر   به ولا من عدو غير منقصم
أحل أمته فى حرز ملته   كالليث حل مع الأشبال فى أجم
كم جدلت كلمات الله من جدل   فيه وكم خصم البرهان من خصم
كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم
خدمته بمديح أستقيل به   ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم
إذ قلدانى ما تخشى عواقبه   كأننى بهما هدى من النعم
أطعت غى الصبا فى الحالتين وما   حصلت إلا على الآثام والندم
فيا خسارة نفس فى تجارتها   لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع آجلا منه بعاجله   يبن له الغبن فى بيع وفى سلم

إن آت ذنبا فما عهدى بمنتقض   من النبى ولا حبلى بمنصرم
فإن لى ذمة منه بتسميتى   محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن فى معادى آخذا بيدى   فضلا وإلا فقل يا زلة القدم
حاشاه أن يحرم الراجى مكارمه   أو يرجع الجار منه غير محترم
ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه   وجدته لخلاصى خير ملتزم
ولن يفوت الغنى منه يدا تربت   إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت   يدا زهير بما أثنى على هرم
يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بى   إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم
يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   إن الكبائر فى الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمها   تأتى على حسب العصيان فى القسم
يارب واجعل رجائى غير منعكس   لديك واجعل حسابى غير منخرم
والطف بعبدك فى الدارين إن له   صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم
وأذن لسحب صلاة منك دائمة   على النبى بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا   وأطرب العيس حادى العيس بالنغم
ثم الرضا عن أبى بكر وعن عمر   وعن على وعن عثمان ذى الكرم
والآل والصحب ثم التابعين فهم   أهل التقى والنقى والحلم والكرم
يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا   واغفر لنا ما مضى ياواسع الكرم
واغفر إلهى لكل المسلمين بما   يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم
بجاه من بيته فى طيبة حرم   واسمه قسم من أعظم القسم
وهذه بردة المختار قد ختمت   والحمد لله فى بدء وفى ختم
أبياتها قد أتت ستين مع مائة   فرج بها كربنا يا واسع الكرم

نهج البردة



لأمير الشعراء / أحمد شوقي

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم[1]

رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا ... يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم[2]

لما رنا حدثتني النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي[3]

جحدتها وكتمت السهم في كبدي ... جرح الأحبة عندي غير ذي ألم[4]

رزقت أسمح ما في الناس من خلق ... إذا رزقت التماس العذر في الشيم[5]

يا لائمي في هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم[6]

لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورب منتصت والقلب في صمم[7]

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا ... أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم[8]

أفديك إلفا ولا آلو الخيال فدى ... أغراك بالبخل من أغراه بالكرم[9]

سرى فصادف جرحا داميا فأسا ... ورب فضل على العشاق للحلم[10]

١- الريم: الظبي الخالص البياض. والقاع: الأرض السهلة المطمئنة. والبان: جمع بانة ضرب من الشجر. والعلم: الجبل.

٢- الجؤذر: ولد البقرة الوحشية، والأجم: جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد.

٣- رنا: أدام النظر مع سكون الطرف. ويا ويح: كلمة تقال لمن وقع في الشدة والمكروه.

٤- جحدتها: الجحود: الإنكار مع العلم.

٥- الشيم: جمع شيمة.

٦- شفه الوجد: أهزله وأنحل جسمه.

٧- انتصت: سكت سكوت مستمع.

٨- الناعس: الوسنان.

٩- الألو هنا: المنع والتقصير.

١٠- السرى: المشي في الليل. وأسا الجرح: ياسوه: داواه.

من الموائس بانا بالربى وقنا ... اللاعبات بروحي السافحات دمي[11]

السافرات كأمثال البدور ضحى ... يغرن شمس الضحى بالحلي والعصم[12]

القاتلات بأجفان بها سقم ... وللمنية أسباب من السقم

العاثرات بألباب الرجال وما ... أقلن من عثرات الدل في الرسم[13]

المضرمات خدودا أسفرت وجلت ... عن فتنة تسلم الأكباد للضرم[14]

الحاملات لواء الحسن مختلفا ... أشكاله وهو فرد غير منقسم[15]

من كل بيضاء أو سمراء زينتا ... للعين والحسن في الآرام كالعصم[16]

يرعن للبصر السامي ومن عجب ... إذا أشرن أسرن الليث بالعنم[17]

وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربى ... يرتعن في كنس منه وفي أكم[18]

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ... ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم[19]

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ... أن المنى والمنايا مضرب الخيم[20]

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر ... وأخرج الريم من ضرغامة قرم[21]

بيني وبينك من سمر القنا حجب ... ومثلها عفة عذرية العصم[22]

لم أغش مغناك إلا في غضون كرى ... مغناك أبعد للمشتاق من إرم[23]

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسن مبتسم[24]

١١- الموائس: جمع مائسة، وهي المتبخترة.

١٢- العصم: القلائد.

١٣- الرسم: حسن المشي.

١٤- الضرم: اشتعال النار.

١٥- حمل لواء الحسن: كناية عن نهاية الحسن فيه.

١٦- الآرام: الظباء، والعصم: جمع أعصم، الذي فيه العصمة بالضم وهي بياض اليدين.

١٧- العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبه بها البنان المخضوبة.

١٨- الكنس (بضمتين) جمع كناس، وهو مستقر الظباء في الشجر. والأكم: جمع أكمة وهي الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله.

١٩- الأطم: القصر وكل حصن مبني بالحجارة.

٢٠- عن الشيء: بان وظهر، ومضرب الخيم: المكان الذي تضرب فيه وتقام.

٢١- الصمصامة: السيف، والضرغامة: الأسد. والقرم: شديد الشهوة إلى اللحم.

٢٢- العصم: جمع عصمة وهي المنع والحفظ.

٢٣- غشي المكان: وافاه. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله. والكرى: النوم. وإرم: هي إرم ذات العماد.

٢٤- المبتسم: بمعنى المصدر، أي الابتسام.

قَضّي بتقواك فاهاً كُلّما ضحكت ... كما يفُضّ أذى الرقشاء بالثرم (٢٥)
مخطوبةً مُذ كان الناس خاطبةً ... من أوّل الدهر لم تُرمل ولم تَئِم (٢٦)
يفنى الزمانُ ويبقى من إساءتها ... جرحٌ بآدم يبكي منه في الأدم (٢٧)
لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموتُ بالزهر مثلُ الموت بالفحم (٢٨)
كم نائمٍ لا يراها وهي ساهرةٌ ... لولا الأمانيُّ والأحلامُ لم ينم (٢٩)
طوراً تمدُّك في نُعمى وعافيةٍ ... وتارةً في قرار البؤس والوصم (٣٠)
كم ضلّلتك ومن تُحجب بصيرتُه ... إن يلقَ صابا يرد أو علقما يسم (٣١)
يا ويلتاه لنفسي راعَها ودهَا ... مسودّةُ الصحف في مبيضّة اللمم (٣٢)
ركضتُها في مريع المعصيات وما ... أخذتُ من حمية الطاعات للتخم (٣٣)
هامت على أثر اللذات تطلبها ... والنفس إن يدعُها داعي الصبا تهم (٣٤)
صلاحُ أمرك للأخلاق مرجعُه ... فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفسُ من خيرها في خير عافيةٍ ... والنفسُ من شرها في مرتعٍ وخم (٣٥)
تطغى إذا مُكّنت من لذةٍ وهوى ... طغيَ الجياد إذا عضّت على الشُّكُم (٣٦)
إن جلّ ذنبي عن الغفران لي أملٌ ... في الله يجعلني في خير معتصم (٣٧)

٢٥- الثرم: كسر السن من أصلها.
٢٦- أرملت المرأة: إذا مات عنها زوجها. وآمت المرأة من زوجها تئيم. والأيم: التي لا زوج لها
٢٧- الأدم: الجلد.
٢٨- الجنى: ما يجتنى من الشجرة ويقطف من ثمرها.
٢٩- يريد بالنائم: المغتر بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها.
٣٠- الوصم (بالتحريك): الألم والمرض.
٣١- الصاب: جمع صابة، شجر مر. والعلقم: الحنظل. ويسم: من سام يسوم: أي رعى يرعى.
٣٢- دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة، وهي الشعر، يجاوز شحمة الأذن. مسودة الصحف: كناية عن العمل السيئ، ومبيضة اللمم الشيب.
٣٣- التخم: جمع تخمة، قيل: هي فساد الطعام في المعدة وقيل فساد المعدة بالطعام، وقوله «للتخم» أي للتحرز عن التخم.
٣٤- هامت الناقة على وجهها: ذهبت ترعى. وداعي الصبا: اللهو والشباب.
٣٥- الوخم: الرديء الوبيء.
٣٦- الشكم: جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في لجام الفرس.
٣٧- والمعتصم بمعنى المصدر، أي الاعتصام.

ألقى رجائي إذا عزّ المجيرُ على ... مفرّج الكرب في الدارين والغمم (٣٨)
إذا خفضتُ جناح الذلّ أسأله ... عزّ الشفاعة لم أسأل سوى أمم (٣٩)
وإن تقدّم ذو تقوى بصالحةٍ ... قدّمتُ بين يديه عبرة الندم (٤٠)
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم (٤١)
فكلُّ فضلٍ وإحسانٍ وعارفةٍ ... ما بين مستلمٍ منه وملتزم (٤٢)
علّقتُ من مدحه حبلاً أعزُّ به ... في يوم لا عزّ بالأنساب واللُّحم (٤٣)
يُزري قريضي زهيراً حين أمدحه ... ولا يقاس إلى جودي لدى هرم (٤٤)
محمدٌ صفوةُ الباري ورحمتُه ... وبغيةُ الله من خلقٍ ومن نسم (٤٥)
وصاحبُ الحوض يوم الرسلُ سائلةٌ ... متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمين ظمي (٤٦)
سناؤه وسناه الشمسُ طالعةً ... فالجرمُ في فلكٍ والضوءُ في علم (٤٧)
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوّتُه ... من سؤددٍ باذخٍ في مظهرٍ سنم (٤٨)
نموا إليه فزادوا في الورى شرفاً ... وربَّ أصلٍ لفرعٍ في الفخار نُمي (٤٩)
حواه في سُبُحات الطُّهر قبلهمُ ... نوران قاما مقام الصلب والرحم (٥٠)
لمّا رآه بحيرا قال نعرفُه ... بما حفظنا من الأسماء والسيم (٥١)
سائل حراء وروح القدس هل علما ... مصونَ سرٍّ عن الإدراك منكتم

٣٨- الغمم: جمع غمة، وهي الهم والحزن.
٣٩- الأمم: اليسير.
٤٠- العبرة: تحلب الدمع.
٤١- أمير الأنبياء: هو محمد ﷺ.
٤٢- العارفة: المعروف.
٤٣- اللحم: جمع لحمة، وهي القرابة.
٤٤- هرم، بكسر الراء: هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري.
٤٥- النسم: جمع نسمة، وهي النفس، أو هي الإنسان.
٤٦- الملائكة لا تظمأ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب، أي التماس.
٤٧- العلم - هنا: العالم.
٤٨- السؤدد: السيادة. والباذخ: العالي.
٤٩- نموا: نسبوا.
٥٠- السبحات (بضمتين): مواضع السجود.
٥١- السيم، ككتب: جمع سيمة، وهي العلامة.

كم جيئة وذهاب شرفت بهما … بطحاء مكة في الإصباح والغسم[52]

وروحة لابن عبد الله بينهما … أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحي فيها قبل مهبطه … ومن يبشر بسيمى الخير يتسم

لما دعا الصحب يستسقون من ظمإ … فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وظللته فصارت تستظل به … غمامة جذبتها خيرة الديم[53]

محبة لرسول الله أشربها … قعائد الدير والرهبان في القمم

إن الشمائل إن رقت يكاد بها … يغرى الجماد ويغرى كل ذي نسم

ونودي اقرأ تعالى الله قائلها … لم تتصل قبل من قيلت له بفم

هناك أذن للرحمن فامتلأت … أسماع مكة من قدسية النغم

فلا تسل عن قريش كيف حيرتها؟ … وكيف نفرتها في السهل والعلم؟

تساءلوا عن عظيم قد ألم بهم … رمى المشايخ والولدان باللمم[54]

يا جاهلين على الهادي ودعوته … هل تجهلون مكان الصادق العلم

لقبتموه أمين القوم في صغر … وما الأمين على قول بمتهم

فاق البدور وفاق الأنبياء فكم … بالخلق والخلق من حسن ومن عظم

جاء النبيون بالآيات فانصرمت … وجئتنا بحكيم غير منصرم[55]

آياته كلما طال المدى جدد … يزينهن جلال العتق والقدم[56]

يكاد في لفظة منه مشرفة … يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة … حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان به … في كل منتثر في حسن منتظم[57]

بكل قول كريم أنت قائله … تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم

سرت بشائر بالهادي ومولده … في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

52- الغسم: الإمساء، وظلمة الليل.

53- الديم: جمع ديمة، وهي المطر الدائم.

54- ألم: نزل. واللمم (محركة): الجنون.

55- الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم في مواضع منه.

56- جدد: جمع جديد.

57- يقال: عطلت المرأة عطلا، إذا لم يكن عليها حلي.

تخطفت مهج الطاغين من عرب … وطيرت أنفس الباغين من عجم

ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت … من صدمة الحق لا من صدمة القدم[58]

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم … إلا على صنم قد هام في صنم

والأرض مملوءة جورا مسخرة … لكل طاغية في الخلق محتكم

مسيطر الفرس يبغي في رعيته … وقيصر الروم من كبر أصم عم

يعذبان عباد الله في شبه … ويذبحان كما ضحيت بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم … كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم[59]

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه … والرسل في المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت به التفوا بسيدهم … كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذي خطر … ومن يفز بحبيب الله يأتمم[60]

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم … على منورة درية اللجم[61]

ركوبة لك من عز ومن شرف … لا في الجياد ولا في الأينق الرسم[62]

مشيئة الخالق الباري وصنعته … وقدرة الله فوق الشك والتهم

حتى بلغت سماء لا يطار لها … على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبي عند رتبته … ويا محمد هذا العرش فاستلم

خططت للدين والدنيا علومهما … يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم

أحطت بينهما بالسر وانكشفت … لك الخزائن من علم ومن حكم

وضاعف القرب ما قلدت من منن … بلا عداد وما طوقت من نعم

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة … لولا مطاردة المختار لم تسم[63]

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا … همس التسابيح والقرآن من أمم؟[64]

58- ريعت: ذعرت وخافت. والقدم: جمع قدوم.

59- البهم: ولد الضأن والمعز. والبلم: صغار السمك.

60- ذي خطر: ذي قدرة ومنزلة. ويأتمم: أي يأتم.

61- يريد بقوله «منورة درية اللجم» البراق.

62- الأينق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها، حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها.

63- سائمة: راعية.

64- من أمم: من قرب.

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب والحائمات والزغب كالرخم؟[٦٥]

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم[٦٦]

لولا يد الله بالجارين ما سلما ... وعينه حول ركن الدين لم يقم[٦٧]

تواريا بجناح الله واستترا ... ومن يضم جناح الله لا يضم[٦٨]

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمي؟[٦٩]

المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم[٧٠]

مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملي صادق الكلم[٧١]

الله يشهد أني لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم؟[٧٢]

وإنما أنا بعض الغابطين ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم[٧٣]

هذا مقام من الرحمن مقتبس ... ترمي مهابته سحبان بالبكم[٧٤]

البدر دونك في حسن وفي شرف ... والبحر دونك في خير وفي كرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت ... والأنجم الزهر ما واسمتها تسم[٧٥]

والليث دونك بأسا عند وثبته ... إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي[٧٦]

تهفو إليك وإن أدميت حبتها ... في الحرب أفئدة الأبطال والبهم[٧٧]

٦٥- الزغب: الحمام، والرخم: جمع رخمة، وهي طائر على شكل النسر، إلا أنه منقط السواد والبياض.

٦٦- شبه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بجمع الباطل وإدحاضه قال الله تعالى **(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)** ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلي، واللاعن: من فيها من المسلمين والملائكة، أو المراد وجوه أهلها، أي أعيانهم وأفاضلهم.

٦٧- الجاران: الرسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٦٨- جناح الله: لطفه وستره. ويضم: يلحق به الضيم.

٦٩- ويتسامى: يتعالى. والاستفهام في البيت إنكاري.

٧٠- والقدم: التقدم والمنزلة، وصاحب البردة: هو الإمام البوصيري.

٧١- مديحه حب: أي ناشئ من الحب أو ذو حب أي دال عليه.

٧٢- الصوب: الانصباب ومجيء السماء بالمطر. والعارض: السحاب المعترض في الأفق، والعرم: يريد المطر الشديد.

٧٣- الغابط: الذي يتمنى مثل ما للغير، وليس هذا القدر بمذموم، ويذمم: يذم.

٧٤- البكم: الخرس، وسحبان: هو سحبان وائل من بني باهلة، كان يضرب بفصاحته المثل.

٧٥- يقال: واسمه في الحسن فوسمه: غلبه فيه. انخفاض الجبال: كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه.

٧٦- الكمي: لابس السلاح.

٧٧- تهفو: هفا الظبي في المشي يهفو هفوا وهفوة: أسرع وخف فيه. والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه صلى الله عليه وسلم. وحبة القلب: سويداؤه. والبهم جمع بهمة وهو الشجاع.

محبة الله ألقاها وهيبته ... على ابن آمنة في كل مصطدم[٧٨]

كأن وجهك تحت النقع بدر دجى ... يضيء ملتثما أو غير ملتثم[٧٩]

بدر تطلع في بدر فغرته ... كغرة النصر تجلو داجي الظلم[٨٠]

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة ... وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

الله قسم بين الناس رزقهم ... وأنت خيرت في الأرزاق والقسم

إن قلت في الأمر لا أو قلت فيه نعم ... فخيرة الله في لا منك أو نعم

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم

والجهل موت فإن أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم[٨١]

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم[٨٢]

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلم[٨٣]

طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها ... في كل حين قتالا ساطع الحدم[٨٤]

لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

لولا مكان لعيسى عند مرسله ... وحرمة وجبت للروح في القدم

لسمر البدن الطهر الشريف على ... لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم[٨٥]

جل المسيح وذاق الصلب شانئه ... إن العقاب بقدر الذنب والجرم

أخو النبي وروح الله في نزل ... فوق السماء ودون العرش محترم

٧٨- مصطدم: بمعنى المصدر، أي الاصطدام، أو الموضع، أي موضع الاصطدام، وهو ميدان الحرب.

٧٩- النقع: غبار الحرب.

٨٠- بدر: موضع بين الحرمين الشريفين، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمغ فيها الشرك وأعز الإسلام.

٨١- والجهل موت: كالترشيح للاستعارة في البيت السابق، وهو تشبيه بليغ. وأوتيت: خطاب لغير معين. الرجم: القبر.

٨٢- العمم: اسم جمع للعامة.

٨٣- الغلم: الهائج الثائر.

٨٤- الحدم (بالتحريك): شدة احتراق النار.

٨٥- لسمر: جواب الشرط في البيت السابق، والطهر: الطاهر من أدران المعاصي، ووصف بالمصدر مبالغة، واللوحان: الصليب الذي أعد له عليه السلام، والمراد بالتسمير: الصلب. لم يجم: لم يفزع.

علمتهم كل شيء يجهلون به ... حتى القتال وما فيه من الذمم[٨٦]
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم ... والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات في زمن ... ما طال من عمد أو قر من دعم[٨٧]
تلك الشواهد تترى كل آونة ... في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر ... لولا القذائف لم تثلم ولم تصم[٨٨]
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ... ولم نعد سوى حالات منقصم
مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها ... ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم ... لله مستقتل في الله معتزم[٨٩]
مسبح للقاء الله مضطرم ... شوقا على سابح كالبرق مضطرم[٩٠]
لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى ... بعزمه في رحال الدهر لم يرم
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم ... من أسيف الله لا الهندية الخذم
كم في التراب إذا فتشت عن رجل ... من مات بالعهد أو من مات بالقسم
لولا مواهب في بعض الأنام لما ... تفاوت الناس في الأقدار والقيم
شريعة لك فجرت العقول بها ... عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها ... كالحلي للسيف أو كالوشي للعلم[٩١]
غراء حامت عليها أنفس ونهى ... ومن يجد سلسلا من حكمة يحم[٩٢]
نور السبيل يساس العالمون بها ... تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجري الزمان وأحكام الزمان على ... حكم لها نافذ في الخلق مرتسم
لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت ... مشت ممالكه في نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة ... رعي القياصر بعد الشاء والنعم

٨٦- الذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان، والحق.

٨٧- عمد: جمع عمود. وقر: ثبت ودعم: جمع دعام، وهو عماد البيت والدعم هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك، ويرتفع به شأن الأمم.

٨٨- [illegible]

٨٩- على لوائك: أي منضو تحت لوائك.

٩٠- الاضطرام: توقد النار وتأججها. سابح: جواد.

٩١- الوشي: النقش.

٩٢- حامت: طافت ومالت. ونهى: جمع نهية وهي العقل. والسلسل الماء العذب.

كم شيد المصلحون العاملون بها ... في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ما عزموا ... من الأمور وما شدوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم ... وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس فهي بهم ... إلى الفلاح طريق واضح العظم
لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم ... وحائط البغي إن تلمسه ينهدم
نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا ... على عميم من الرضوان مقتسم
دع عنك روما وآثينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوم
وخل كسرى وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيس إن الملك مظهره ... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانا عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها ... على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين إذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم[٩٣]
ويجلسون إلى علم ومعرفة ... فلا يدانون في عقل ولا فهم
يطأطئ العلماء الهام إن نبسوا ... من هيبة العلم لا من هيبة الحكم
ويمطرون فما بالأرض من محل ... ولا بمن بات فوق الأرض من عدم[٩٤]
خلائف الله جلوا عن موازنة ... فلا تقيسن أملاك الورى بهم
من في البرية كالفاروق معدلة ... وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم[٩٥]
وكالإمام إذا ما فض مزدحما ... بمدمع في مآقي القوم مزدحم
الزاخر العذب في علم وفي أدب ... والناصر الندب في حرب وفي سلم
أو كابن عفان والقرآن في يده ... يحنو عليه كما تحنو على الفطم
ويجمع الآي ترتيبا وينظمها ... عقدا بجيد الليالي غير منفصم
جرحان في كبد الإسلام ما التأما ... جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمي

٩٣- الكتائب: جمع كتيبة وهي الجيش. والتخم – كعنق: جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود.

٩٤- المحل: الجدب. والعدم: فقدان المال.

٩٥- المعدلة: العدل.

وما بلاءُ أبي بكر بمتَّهمِ
بالحزمِ والعزمِ حاطَ الدينَ في محنٍ
وحدِّثْ بالراشدِ الفاروقِ عن رشدٍ
يجادلُ القومَ مستلًّا مهنَّدَهُ
لا تعذلوهُ إذا طافَ الذهولُ به
يا ربِّ صلِّ وسلِّمْ ما أردتَ على
محيي الليالي صلاةً لا يقطِّعها
مسبِّحاً لكَ جنحَ الليلِ محتملاً
رضيَّةً نفسُهُ لا تشتكي سأماً
وصلِّ ربِّي على آلٍ لهُ نخبٍ
بيضِ الوجوهِ ووجهُ الدهرِ ذو حلكٍ
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منكَ أربعةً
الراكبينَ إذا نادى النبيُّ بهمْ
الصابرينَ ونفسُ الأرضِ واجفةٌ
يا ربِّ هبَّتْ شعوبٌ من منيَّتها
سعدٌ ونحسٌ وملكٌ أنتَ مالكُهُ
رأى قضاؤكَ فينا رأيَ حكمتِهِ
فالطفْ لأجلِ رسولِ العالمينَ بنا
يا ربِّ أحسنتَ بدءَ المسلمينَ به

بسعدِ الجلائلِ في الأفعالِ والخدمِ
أضلَّتِ الحلمَ من كهلٍ ومحتلمِ[٩٦]
في الموتِ وهوَ يقينٌ غيرُ متَّهمِ
في أعظمِ الرسلِ قدراً كيفَ لم يدمِ
ماتَ الحبيبُ فضلَّ الصبُّ عن رغمِ
تنزيلَ عرشِكَ خيرِ الرسلِ كلِّهمِ
إلا بدمعٍ من الإشفاقِ منسجمِ
ضراً من السهدِ أو ضراً من الورمِ
وما معَ الحبِّ إنْ أخلصتَ من سأمِ
جعلتَ فيهمْ لواءَ البيتِ والحرمِ
شمِّ الأنوفِ وأنفُ الحادثاتِ حمي
في الصحبِ صحبتُهمْ مرعيَّةُ الحرمِ
ما هالَ من جللٍ واشتدَّ من عممِ
الضاحكينَ إلى الأخطارِ والقحمِ[٩٧]
واستيقظتْ أممٌ من رقدةِ العدمِ
تديلُ من نعمٍ فيهِ ومن نقمِ
أكرمْ بوجهِكَ من قاضٍ ومنتقمِ
ولا تزدْ قومَهُ خسفاً ولا تسمِ
فتمِّمِ الفضلَ وامنحْ حسنَ مختتمِ

***

٩٦- يشير إلى حروب الردة بعد وفاة النبي ﷺ، وانتصاره على المرتدين.

٩٧- القحم: جمع قحمة بالضم، ومن معانيها: الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد، وهو المراد هنا.

نهج البردة


للشاعر السورى / ميخائيل ويردى

أنوارُ هادى الورى فى كعبةِ الحرمِ
وأرسلتْ نغمَ التوحيدِ عن ملكٍ
فمزِّجْ روحكَ بالروحِ التى ازدهرتْ
وشمَّكَ العطرَ فوَّاحاً بروضتِها
ومن بهمْ بعظيمٍ يتَّحدْ معَهُ
والحبُّ عنوانُ حبِّ الروحِ خيرُهما
يا ليتَ أحلامَ عمرى لم تضعْ بددا
وليتنى لم أهِمْ إلا بمن غرقوا
فكم حبيبٍ إذا خالفتَ فكرتَهُ
ومن يساقُ حبيباً ضدَّ خمرتِهِ
فاربأْ بنفسِكَ أن تنهارَ من ألمٍ
واجعلْ هواكَ رسولَ اللهِ تلقَ به
هذا رسولُ الهدى فارشفْ على ظمأ
كأنَّما قلبُهُ ينبوعُ مرحمةٍ
يا أيها المصطفى الميمونُ طالعُهُ
وحَّدتَ ربَّكَ لم تشركْ به أحداً
وكيفَ تشركُ بالرحمنِ آلهةً

فاضتْ على ذكرِ جيرانٍ بذى سلمِ
كالروحِ منطلقٍ كالزهرِ مبتسمِ
يغنيكَ عن مزجِ دمعٍ ساجمٍ بدمِ
ألذُّ من عشقِ ريمِ القاعِ والأكمِ
بالرأى والفكرِ قبلَ الوسمِ والأرمِ
فلا تكنْ للهوى الفانى بملتزمِ
بحبِّ قصرٍ من الأوهامِ منهدمِ
برقَّةِ القلبِ لا بالظُّلمِ والعقمِ
جازاكَ بالصدِّ قبلَ البحثِ فى التُّهمِ
وسحرُ ألحانِهِ يندمْ ويختصمِ
واربأ بحسنكَ أن يربدَّ من سأمِ
يومَ الحسابِ شفيعاً فائقَ الكرمِ
من وردِهِ العذبِ عطفاً شاقَ كلَّ ظمى
فتستقرَّ جذلانَ بالنعمِ
قد أطلعَ اللهُ منكَ النورَ للظُّلَمِ
ولستَ تسجدُ بالإغراءِ للصنمِ
لا يستطيعونَ ردَّ الروحِ للرِّممِ

عاديت أهلك في تحطيم بدعتهم   من ينصر الله بالأصنام يصطدم
كأن ربك لم يخلق لدولته   سواك من مرسل بالحق معتصم
أدى الرسالة حتى ضج من سأم   أجناد إبليس واشتد الأسى بهم
وأفلست بعد إقبال جهنمهم   ولم تجد حطبا في الأشهر الحرم
كأن أحمد بالأصفاد كبلهم   فارتد جيشهم المقهور بالندم
شرع على أقوم الأركان أسسه   للعالمين نبي طاهر الشيم
غذى عقول الورى حتى أتاح لهم   عيش النعيم وتقاهم من الأثم
وعلم العرب حتى ساد نسلهم   هام الممالك وارتاحت لعدلهم
كأنما الشرع جزء من نفوسهم   فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة   وإن هم قسوا أرضوك بالقسم
وخلدوا ملكهم ربان مؤتلقا   وكل ما شادت الأطماع لم يدم
إن الممالك إن شيدت على جشع   تفرس ولا خير في الحيتان للبلم
وقد يمل الفتى بالشيب من أرب   ولا يمل عبيد المال من بشم
أتون نار زفور جد محتدم   والمال يهوى بخلق جد مزدحم
لو أدرك المرء أن المال تاركه   لمل صحبة خوان الوداد عمي
ولو درى العاشق الموتور كيف سلا   أحبابه لم يبت يوما بقربهم
كفاك هما فأهواء الدنا غصص   تودي بصفوك مثل السم في الدسم
والزهد راحة فكر من متاعبه   فإن دعانا وأهملناه ينتقم
همنا بفان فأغرانا وأذهلنا   وأي قلب بحب الأرض لم يهم
يا أزهد الناس في الدنيا وفي يده   خزائن الملك والأنصار كالخدم
عجبت كيف تعاني الجوع مرتضيا   حظ الفقير ولم تلتذ بالتخم
ولم تبال بتيجان مرصعة   ولم تكن للألى ضلوا بمرتسم
تقول ربي أجرهم من عمايتهم   وتصرف النفس نحو المورد الشيم
فاستضحك القوم هزءا واستبد بهم   وهم تصيرهم لحما على وضم
كأن أفكارهم من طول ما شقيت   ألقت بأرواحهم في وهدة الحطم
والنار حرقة نفس من ندامتها   يا بؤس من لم يحد عن شر مغتنم
فاسلم بنفسك إن الروح يعوزها   رضا الذي علم الإنسان بالقلم

فلا طعام من البأساء ينقذنا   ولا لباس يقينا شرة الضرم
وهل تفيدك أبراج مشيدة   والموت في القصر مثل الموت في الخيم
والمرء يفنى إذا لم يبق مأثره   تحيا إذا باتت الأجساد في الرجم
والعمر إن طال يوم لا رجوع له   فهيئ الزاد قبل الشيب والهرم
أسلمت لله أمري فهو يكلؤني   كالزهر في الحقل والأطيار في العلم
ألست يا أيها الإنسان أفضلها   وبارئ الكون قد حلاك بالحكم؟
وكيف تسمو بروح بالثرى علقت   وكيف تعلو على الآساد في الأجم؟
فإن يغب عنك أن العيش مرحمة   فكيف تدرك أن الفوز بالألم؟
أقول للمصطفى أعظم بما ابتدعت   آيات برك من خير ومن نعم
لو يتبع الخلق ما خلدت من سنن   لم يفتك الجهل والإعواز بالأمم
ولم ير الناس أحكاما وفلسفة   في الاجتماع ستلقيهم إلى العدم
مذاهب أحدثت في الأرض بلبلة   وأورثتنا بلايا الحرب والإزم
أين الزكاة وأين العشر يحمله   أهل الغنى للألى ماتوا من السقم؟
هل كنت تبصر ما أودى بعالمنا   من قبل أن فاض بالويلات والنقم؟
أم هل تنبأت عما تم في زمن   تسوده فكرة الإلحاد والنهم؟
نبوءة حارب الجبار منكرها   وروع الناس بالتعذيب والحمم
فيا نبي الهدى حييت من علم   بالطهر متسم بالعدل مدعم
أحببت دينك لما قلت أكرمكم   أتقاكم وتركت الحكم للحكم
وقلت إني هدى للعالمين ولم   تلجأ إلى العنف بل أقنعت بالكلم
في دينك السمح لا جنس ولا وطن   فكل فرد أخ يشدو على علم
الله أكبر والأكوان فانية   ومن يلذ بجلال الله لا يضم
سبحان من بيديه الملك أجمعه   ويرجعون إليه يوم بعثهم
يا عبقري الورى الأمي هل سمحت   من قبلك العرب وحيا جد منسجم
آياتك الغر إعجاز تنزه عن   تند وليس دعي الحب كالندم
كأنما الناس آلات مبعثرة   أخرجت منها جميل اللحن والنغم
محمد رد من ضلوا وعلمهم   حق النساء اللواتي كن كالرمم
يا فخر أمتنا في الأرض قاطبة   وسيد المصلحين العرب والعجم

عززت كل فتاة حين صحت بنا ... ما أولد العز غير السادة الحشم
فأنت أول من نادى بمأثرة ... يظنها الغرب من آلاء بعضهم
خاطبت كل ذكي حسب قدرته ... ولم تكن بغبي القوم بالبرم
وكنت أرأف بالمسكين من دول ... رأت بأمثاله سربا من الغنم
إن كان ينجع طب الناس في جسد ... فأنت تفعل بالأرواح كالحسم
ترعى اليتيم وترعى كل أرملة ... رعي الأب المشفق الباكي من اليتم
فارع النفوس التي ذلت ويتمها ... فقد الكريمين حب الخير والشمم
وهب لنا مبدأ أحيا وتضحية ... بها تفردت بين الناس من قدم
إن القلوب إذا ألفتها ائتلفت ... والود حبل فإن تصرمه ينصرم
ماذا يطهر قومي من تنابذهم ... والصد يعلق بالأرواح كالوشم
أجفوة ورعاة غرهم طمع ... كأنهم عن نداء الحق في صمم
أسمعتنا فتية واستقل بنا ... هوى فأمسى عزيز القوم كالحطم
فانفخ بنا نخوة تجمع أواصرنا ... وابعث بنا همة يا باعث الهمم
أبناء بابل أفنتهم مآثمها ... وآل فرعون ما شادوا سوى الهرم
وتدمر ومغانيها غدت خربا ... والذكر بالخير غير الذكر بالإرم
يا ليت من شيدوها للفناء رأوا ... عقبى المباني فأغنتهم عن الندم
زالوا وزالت مع الآثار عزتهم ... فإن تجادل سل التاريخ واحتكم
والمصطفى خالد في الناس ما بزغت ... أم النجوم وممدوح بكل فم
يا أيها العرب المأثور مجدهم ... ما فاز بالمجد شعب شبه مختصم
أيصبح الخير شرا من تخاذلنا ... وتغتدي نهبة الغربان والرخم
إن الكرامة تأبى أن تذل ولم ... نهضم حقوق الورى كالهائج القرم
فاستجمعوا أمركم فالله وحدكم ... والمكر فرقكم في حومة الجسم
وشرع أحمد بالقرآن هذبكم ... وجد في أمركم بالحب والسلم
يا أيها المسلمون الفخر فخركم ... ونحن إخوانكم في النطق والعلم
فأيدوا بالفعال الغر دينكم ... فقيمة الحب عندي أعظم القيم
ما الدين إلا هوى في نفس عاشقه ... ومن يبح بالهوى يوم النوى يلم
سيان يا قوم من يقضي بلا أمل ... ومن ينال المنى في عالم العدم

صوفية أدركتها النفس فانصرفت ... عن الدنايا ومن يهو العلا يعم
فاستهد بالروح في الأفلاك واهو كما ... تهوى الملائك وجه الله واستقم
وقل لمن أدمت الأهواء مهجته ... أما اكتفيت من الدنيا بحبهم
رمت فؤادي بسهم الحسن فاتنة ... فاعجب لنصب جريح ثابت القدم
تندت أناشيده نيران لوعته ... ففرجت عن عليل بالجمال رمي
إن لم يخلد فؤادي الحب فالنفس ... يا نفس كفيها ببطن الأرض واعتصم
عل المنية تتأنى كما نبت ... عرائس البحر صيد النسر في القمم
يا نفحة من جنان الخلد سارية ... كالورد يلثم في الأسحار من أمم
إني محب ومحبوب ولو زعموا ... أن المحبة بالأنساب والرحم
فالناس من آدم بالمصطفى اجتمعوا ... وشرعة الحب أم الناس فالتئم
يا أجمل الخلق سيماء وأظرفهم ... طبعا وأوفاهم بالعهد والذمم
عشقت منك صفات جل مبدعها ... كالغيد تفتن لب الشاعر الفهم
يرنو فيمنحه وحيا يخلده ... ورب حب مثير جاء بالعظم
ورب نجم منير يستضيء بكم ... فأنتم الشمس لم تدرك ولم ترم
وحسن شعري بكم من شمسكم قبس ... والنبع ما سال لولا صيب الديم
فإن أجدت بهذا الطل مدحكم ... فكل معنى بكم كالهاطل العرم
حباك ربي بآيات مفصلة ... والناس أعجز عن إدراك ربهم
لكنها صورة بالشعر أرسمها ... لأستجير بها إن بت كالحلم
يا هادي الفكر أهداه الإله إلى ... عباده منة من فضله العمم
إن يمدحوك بأبيات منمقة ... فأنت تفرق قلبي عن قلوبهم
تبارك الله لو شاءت مراحمه ... لشع نورك بين الناس كلهم
إن لم تكن بوكيل فاشفعن لنا ... بحق ترديدنا التوحيد في الحرم
صلى الإله على محياك في مهج ... تحيا بها كحياة النور في السدم
صلى الإله على مثواك ما صدحت ... ورقاء أو هينمت عطرية النسم
صلى الإله على ذكراك ممتدحا ... حتى تؤم صلاة البعث بالأمم

●●●



في حب رسول الله ﷺ

لرائد الإحياء الشعري / محمود سامي البارودي باشا

قال يمدح النبي ﷺ :

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج؟ ... حتى فتكت بها ظلما بلا حرج (1)
ما زال يخدع نفسي وهي لاهية ... حتى أصاب سواد القلب بالدعج (2)
طرف، لو أن الظبا كانت كلحظته ... يوم الكريهة ما أبقت على ودج (3)
أوحى إلى القلب فانقادت أزمته ... طوعا إليه وخلاني ولم يعج (4)
فكيف لي بتلافيه؟ وقد علقت ... به حبائل ذاك الشادن الغنج (5)
كادت تذيب فؤادي نار لوعته ... لو لم أكن من مسيل الدمع في لجج (6)

(1) الصارم: القاطع، واللحظ: النظر بمؤخر العين، والمراد باللحظ الصارم: النظرة الفاتنة الساحرة.

(2) القلب وسويداؤه: حبته، والدعج: شدة سواد العين مع سعتها، والمعنى: انه تيمني وعبدني بجمال عينه

(3) الطرف: العين، والظبا: حد السيف والسنان ونحوهما، والكريهة: الحرب أو الشدة فيها. والودج: هو الوريد الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة

(4) أوحى: أشار، وانقادت: خضعت، والأزمة: جمع زمام، وهو القود أي الحبل الذي تقاد به الدابة، وخلاني: تركني، ولم يعج: لم يرجع

(5) التلافي: مصدر تلافيت الشيء، أي تداركته ولحقته، وعلقت: نشبت وتمسكت، والحبائل: جمع حبالة، وهي الشرك، والشادن: الغزال إذا قوي واستغنى عن أمه، والغنج: الحسن الدل.

(6) اللوعة: حرقة في القلب، وألم من حب أو غيره، واللجج: جمع لجة وهي معظم الماء.

لولا الفواتن من غزلان كاظمة ... ما كان للحب سلطان على المهج (7)
فهل إلى صلة من غادر عدة ... تشفي تباريح قلب بالفراق شج؟ (8)
أبيت أرعى نجوم الليل في ظلم ... يخشى الضلالة فيها كل مدلج (9)
كأن أنجمه والجو معتكر ... غيد بأخبية ينظرن من فرج (10)
ليل غياهبه حيرى وأنجمه ... حسرى وساعاته في الطول كالحجج (11)
كأنما الصبح خاف الليل حين رأى ... ظلماءه ذات أسداد فلم يلج (12)
فليت من لامني لانت شكيمته ... فكف عني فضول المنطق السمج (13)
يظن بي سفها أني على سرف ... ولا يكاد يرى ما فيه من عوج (14)
فاعدل عن اللوم إن كنت امرأ فطنا ... فاللوم في الحب معدود من الهوج (15)
هيهات يسلك لوم العاذلين إلى ... قلب بحب رسول الله ممتزج (16)
هو النبي الذي لولا هدايته ... لكان أعلم من في الأرض كالهمج (17)
أنا الذي بت من وجدي بروضته ... أحن شوقا كطير البانة الهزج (18)

(7) الفواتن: جمع فاتنة.

(8) التباريح: جمع تبريح وهو الشدة، وتباريح الشوق: توهجه وتوقده، والشجي: الحزين المهموم، يتمنى من حبيبه غير الوفي عدا يوصل يشفي قلبه الذي برح به الفراق، وشجاه وحزنه.

(9) المدلج: السائر في آخر الليل.

(10) وفرج: جمع فرجة، وهي الثغرة.

(11) الغياهب: جمع غيهب وهو الظلمة، والحجج: وهي السنة.

(12) الأسداد: جمع سد، ولج يلج ولوجا: دخل.

(13) الشكيمة: الطبع

(14) السفه: الجهل وخفة العقل، والسرف: ضد القصد.

(15) الهوج: الحمق والطيش والتسرع.

(16) العاذل: اللائم.

(17) الهمج: الحمقى.

(18) الوجد: المحبة وجد بها: أحبها. ويريد بالروضة: ما بين قبره ﷺ ومنبر مسجده. والبانة: واحدة البان، وهو ضرب من الشجر يسمو ويطول في ارتفاع. والهزج: المغرد.

هاجت بذكراه نفسي فاكتست ولهاً ... وأي صبٍّ بذكر الشوق لم يهج (١٩)

فما احتيالي؟ ونفسي غير صابرة ... على البعاد وهمي غير منفرج (٢٠)

لا أستطيع براحاً إن هممت ولا ... أقوى على دفع ما بالنفس من حوج (٢١)

لو كان للمرء حكمٌ في تنقله ... ما كان إلا إلى مغناه منعرجي (٢٢)

فهل إلى صلة الآمال من سببٍ؟ ... أم هل إلى ضيقة الأحزان من فرج؟

يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت ... جرائمي رحمة تغني عن الحجج (٢٣)

ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي ... مغلولةٌ وصباحي غير منبلج (٢٤)

ما لي سواك وأنت المستعان إذا ... ضاق الزحام غداة الموقف الحرج (٢٥)

لم يبق لي أملٌ إلا إليك فلا ... تقطع رجائي فقد أشفقت من حرجي (٢٦)

❋❋❋

---

(١٩) الوله: ذهاب العقل، والتحير من شدة الوجد. والصب: العاشق المشتاق.

(٢٠) انفرج الهم: انكشف وزال.

(٢١) المغنى: المنزل، والمراد قبره ومسجده ، والمنعرج: الانعراج، وهو الانعطاف والانحناء، والمراد: الانتقال والسفر.

(٢٢) الحجج: جمع حجة (بضم الحاء فيهما)، وهي الدليل والبرهان، والمراد بها المعذرة.

(٢٣) يده مغلولة مربوطة إلى عنقه بالغل، وانبلج الصبح: أضاء.

(٢٤) الغداة، والمراد بها هنا الوقت مطلقاً، والحرج: الضيق، ويقصد بالموقف الحرج موقف الحساب يوم القيامة.

(٢٥) الحرج (بفتحتين): الإثم والذنب.



ذكرى المولد



للإمام الشيخ محمد الخضر حسين

«قيلت في احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى المولد النبوي الشريف سنة ١٣٥٩ هـ»

أمن خفقان أفئدة رقاق ... تألقت المدامع في المآقي (١)

إذا أهدت يد الإقبال بشرى ... تلقتها الضمائر باختفاق (٢)

كما اهتزت غصونٌ لاعبتها ... جنوبٌ باعتناق وانطلاق (٣)

وأرشفها الربيع ندى فطابت ... رباها لاصطباح واغتباق (٤)

لليلتنا الفخار إذا الليالي ... تباهت بالمحاسن والمراقي (٥)

أشارت بالمغيب على ذكاء ... وجاءت بالكواكب في اتساق (٦)

ومدت في السماء البدر كفاً ... تدير الأنس بالكأس الدهاق (٧)

ولو أرخت ذؤابتها لقلنا ... خذوا هذا السواد إلى الحداق (٨)

---

(١) تألقت: لمعت. المآقي: جمع مأق: مجرى الدمع من العين.

(٢) الضمائر: القلوب والبواطن. اختفاق: خفقان.

(٣) الجنوب: الريح المقابلة للشمال.

(٤) الاصطباح: شرب الصبوح. الاغتباق: شرب الغبوق.

(٥) المراقي: جمع المرقى والمرقاة: الدرجة.

(٦) ذكاء: الشمس.

(٧) الكأس الدهاق: المملوءة.

(٨) الذؤابة: الضفير من الشعر. الحداق: جمع حدقة: سواد العين الأعظم.

ذكرنا إذ تقلدت المعالي حساماً قد تهيأ لامتشاق (٩)
ذكرنا كيف لاح جبين طه وهبّ الفجر يؤذن بانبثاق
كأن الفجر والميلاد جاءا لإجلاء الظلام على اتفاق
ألا من مبلغ قمراً توارى وساطع نوره في الناس باق
سلاماً كالصبا مرت بروض ولاقتها الكمائم بانفتاق (١٠)
أروم مديحه وإخال أنى سأحظى منه بالسيل الدفاق (١١)
فيبهرني علاه كأن فكري توثب وهو مشدود الوثاق
تملى نوره صحب فأغنوا غناء النجم في الظلم الصفاق (١٢)
نفوس أخصبت هدياً وأدنت إلى الدنيا جنى عذب المذاق
تحلت بالمكارم وهي أغلى من الحلي أخفيا في الحقاق (١٣)
وتؤثر غيرها بالزاد زهداً وتقنع في المعيشة بالرماق (١٤)
ولا ترضى إذا خطبت خصال الـ ـعلا إلا بغالية الصداق (١٥)
سراة أحكموا الإصلاح علماً وهبوا للجهاد على وفاق (١٦)
دعوا والحجة الغراء تهدى إلى سبل الحقائق من تلاقى
وناصبهم خصوم الحق حرباً فلاذوا بالمثقفة الرقاق (١٧)
وهل يجدى الأصم بيان قس وهل يشفى أخا الأموات راق (١٨)
فكم شرعوا الأسنة في كفاح وكم ملكوا الأعنة في سباق (١٩)

(٩) الامتشاق: امتشق السيف: استله أي أخرجه من غمده.
(١٠) الصبا: ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.
(١١) السيل الدفاق: الذي يملأ جنبي الوادي.
(١٢) الظلم: جمع ظلمة: ذهاب النور. الصفاق: جمع الصفيقة: الكثيفة.
(١٣) الحقاق: جمع الحق: الوعاء.
(١٤) الرماق: ما يسد الحاجة.
(١٥) الصداق: مهر المرأة.
(١٦) السراة: سادة القوم ورؤساؤهم. جمع السرى.
(١٧) المثقفة: الرماح.
(١٨) قس: (... - نحو ٢٣ ق. هـ) قس بن ساعدة من بني إياد، أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية. يقال إنه أول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه «أما بعد».
(١٩) الأعنة: جمع عنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة.

وإن قاموا قنوتاً لم يقاموا بغير ملائك السبع الطباق (٢٠)
هم الأعلام إن طمحت نفوس إلى علياء واسعة النطاق
ولا أدرى أقومي في سبات فأرجو صحوهم أم في سياق (٢١)
فأشياع الضلال اليوم صالوا بألسنة وأقلام حماق (٢٢)
وهم ما بين إلحاد وقاح وإلحاد تقنع بالنفاق (٢٣)
وإن شؤم النعاق فما أزاغوا به الفتيات أشأم من نعاق (٢٤)
فمن قصص تعاطى قارئيها شراباً ديف بالسم الزعاق (٢٥)
ومن صور تثير هوى وتحدو نفوساً كالبدور إلى محاق (٢٦)
أما للشباب أحمد أن يذودوا خطوباً كالمطاعن في التراقي (٢٧)
ويرموا للسيادة عن قسي من الإيمان والتقوى رشاق (٢٨)
كفى ما قد خسرنا من شباب رأوا سوق الخلاعة في نفاق (٢٩)
فغادوها، وكيف ترى فراشاً تهافت في لظى النار الحراق (٣٠)
وما للنفس إن ركبت هواها وحطت في المجانة من خلاق (٣١)
هي الشكوى يرددها لسان وما بين الجوانح في احتراق

***

(٢٠) القنوت: الطاعة والقيام في الصلاة والدعاء. السبع الطباق: السماوات السبع مطابقة بعضها على بعض.
(٢١) السبات: النوم. السياق: نزع الروح.
(٢٢) الأشياع: الأتباع والأنصار. حماق: جمع أحمق.
(٢٣) الوقاح: ذو الوقاحة للذكر والأنثى.
(٢٤) النعاق: صياح الغراب. أزاغوا الشيء: أمالوه.
(٢٥) ديف: خلط. الزعاق: المر الغليظ.
(٢٦) المحاق: آخر الشهر القمري، أو ثلاث ليال من آخره.
(٢٧) التراقي: جمع الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، أو أعلى الصدر.
(٢٨) القسي: جمع القوس.
(٢٩) نفاق: يقال نفقت السلعة: أي كثر طلابها.
(٣٠) فغادوها: باكروها. نار حراق: لا تبقى شيئاً.
(٣١) المجانة: الهزل. الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

ذكرى النبى فى الربيع العربى



شعر: السيد الصديق حافظ

يارب صل على الحبيب المصطفى   أهل العدالة والأمانة والوفا
الرحمة المهداة من وسع الورى   براً وإحساناً وفهماً منصفا
النعمة المسداة تبهر محبة   يشفى قلوب الواردين من الجفا
لو لم يكن فى الكون نورُ محمد   لاسودّ وجه الشمس حزناً واختفى
رجلٌ.. أبٌ.. زوجٌ.. صديقٌ.. فارسٌ   حاز المحاسن والوجودُ به اكتفى
جبريل يحدو الركبَ فى إسرائه   والله والملأ الكريم به احتفى
تمت ببيعته النبوةُ وارتقى   حتى دنا من ذى الجلال وشرفا
ورنا إلى النور المبارك خاشعاً   ما زاغ من بصر ولا هو أسرفا
يا من سقى غرسَ الشباب محبة   وسماحةً وتطهراً وتعففا
ربى وعلم أمةً فتعلمت   ومضت على سنن الهداية مصحفاً
عقد اللواء لذى الفتوة والصِّبا   إن الشيوخ ترى القيادة زُخرفاً
يعلو الشباب إرادة وعزيمة   لا يعرفون تردداً وتخوفا
والشيخ إن خفض الجناح لضعفه   فالنسر يصعد فى السماء مرفرفاً
نظر النبى إلى الكنانة راضياً   فرأى شباباً رائعاً ومشرفاً
دخلوا إلى «التحرير» حتى يُخرجوا   من أرض مصر المفسد المتعجرفا
ما كان أولى أن يخاف ويتقى   يوماً عبوساً بالنهاية مؤسفاً
والظالمون المفترون مآلهم   للنار لا يجدون عنها مصرفاً

«رسالة إلى الحبيب»!!



شعر: د. محمد إبراهيم العشماوى
مدرس الحديث الشريف بجامعة الأزهر

إذا ما زرتَ يا مشتاقُ طه   وأشرقتِ المدينةُ فى رُباها
وبان النورُ وانكشف المحيّا   وبثّتْ روضةُ الهادى شذاها
فقبّلْ بالدموع ثرى حبيبى   عساها تشتفى منه عساها!!
وقُلْ يا سيدَ الكونين إنى   أحبك يا أعزَّ الخلق جاها!
أتيتك أحتمى بحماك يا من   حماك على البسيطة قد حماها
وأسألك الشفاعة يوم حشرى   فلا ملجا ولا منجى سواها!
وما قد شئت فاسأل لا تبالى   فساحَ الجود متسعٌ مداها!
فإن قضيتَ أوطار التلاقى   وفاض الجودُ من نفحات طه!
فبلغْ سيدى منى سلامى   فقلبى فى محبته تناهى!
وأخبرهُ بأنى فى اشتياق   لطلعة وجهه على أراها!
فتسعدُ مهجتى وتقرّ عينى   وأبلغ فى المحبة منتهاها
حبيبى لا تذرنى اليوم فرداً   فمن تتركهُ ضلّ إذن وتاها
لكلّ رعية فى الخلق راعٍ   وظلّك فى الرعية قد رعاها!
دواءُ النفس عندك يا حبيبى   فهل داويتها مما دهاها؟
عليك صلاةُ ربى كلّ حين   إذا افتخر المحبُّ بكم وباهى

مقتطفات شعرية



شبلى شميل

(١٢٦٩ ـ ١٣٣٥هـ ١٨٥٣ ـ ١٩١٧م)

دعْ من محمد فى سُدى قرآنه ما قد نحاه للحمة الغايات
إنى وإن أكُ قد كفرتُ بدينه هل أكفرنْ بمحكم الآيات
أو ما حوتْ فى ناصع الألفاظ من حكم روادعَ للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها ما قيَّدوا العمرانَ بالعادات
نعم المدبِّر والحكيم وإنه رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجلُ الحجا رجلُ السياسة والدَّها بطلٌ حليفُ النصر فى الغارات
ببلاغة القرآن قد خلبَ النُّهى وبسيفه أنحى على الهامات
من دُونه الأبطال فى كل الورى من سابق أولا حق أو آت

الشاعر القروى رشيد سليم الخورى

(١٣٠٥ ـ ١٤٠٤هـ، ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤م)

عيدُ البريَّة عيد المولد النبوى فى المشرقين له والمغربين دوى
عيد النبى ابن عبدالله مَنْ طلعتْ شمس الهداية من قرآنه العُلْوى
يدا من الفقر نوراً للورى وهدى يا للتمدُّن عمَّ الكون من بدوى
يا فاتح الأرض ميداناً لدولته صارت بلادُك ميداناً لكل قوى
يا قوم هذا مسيحىٌّ يذكِّركمْ لا يُنهِضُ الشرقَ إلا حُبُّنا الأخوى
فإن ذكرتم رسولَ الله تكرمةً فبلِّغوه سلام الشاعر القروى



خليل مطران

(١٢٨٨ ـ ١٣٦٨هـ ١٨٧١ ـ ١٩٤٩م)

بأىِّ حِلْمٍ مبيد الجهل عن ثقة وأىِّ عزمٍ مُذِلِّ القادة الصِّيد
أعاد ذاك الفتى الأمىُّ أمتهُ شملا جميعا من الغُرِّ الأماجيد
صعبان راضهما: توحيد معشرهم وأخذهم بعد إشراك بتوحيد
لتلك تالية القرآن فى عجب بل آية الحق إذْ يبغى بتأكيد
وزاد فى الأرض تمهيداً لدعوته بعهده للمسيحيين واليهود
وبدئه الحكم بالشورى يتم به ما شاءهُ اللهُ عن عدلٍ وعن جُود
هذا هو الحق والإجماع أيدهُ فمن يُفنِّدهُ أولى بتفنيد!

عبدالله حلاق

(١٣٢٩ - ١٤١٧هـ ١٩١١ - ١٩٩٦م)

قبسٌ من الصحراء شعشع نوره   فجلا ظلام الجهل عن دنيانا
ومشى وفي أردانه عبق الهدى   وأريج فضل عطر الأكوانا
بعث الشريعة من غياهب رمسها   فرعى الحقوق وفتّح الأذهانا
مرحى لأمّيٍّ يُعلّمُ سِفْرهُ   تبغاء يَعْرُب حكمةً وبيانا
من ذا يجاذبهُ الفخار وقد حمى   أمّ اللغات وشرّف العُربانا؟
إني مسيحيٌّ أجلّ محمّداً   وأراهُ في سِفْر العُلا عنوانا
وأطأطئُ الرأسَ الرفيع لذكر مَنْ   صاغ الحديث وعلّم القرآنا
إنيَ أباهي بالرسول لأنّهُ   صقل النفوسَ وهذّب الوجدانا
ولأنه داس الجهالة وانتضى   سيف الجهاد فحطّم الأوثانا

جاك صبري شماس

إني مسيحيٌّ أجلّ محمّداً   وأجلّ ضاداً مهدها الإسلامُ
وأجلّ أصحاب الرسول وأهله   حيث الصحابة موقف وإمامُ
كحّلتُ شعري بالعروبة والهوى   ولأجل (طه) تفخرُ الأقلامُ
أودعتُ روحي في هيام محمّدٍ   دانت له الأعرابُ والأعجامُ

وله أيضاً:

يممتُ (طه) المرسل الروحاني   ويجلُّ (طه) الشاعرُ النصراني
يا خاتم الرسل الموشّح بالهُدى   ورسولَ نُبْلٍ شامخ البنيان
ماذا أسطّر في نبوغ محمدٍ   درب النجاة وشعلة الفرقان
أنا يا محمد من سلالة يَعْرُبٍ   أهواك دينَ محبّةٍ وتفان
وأزود عنك مولّهاً ومتيّماً   حتى ولو أُجْزى بقطع لسانْ
أكبرتُ شأوك في فصيح بلاغتي   وشغاف قلبي مهجتي وبياني
مهما مدحتك يا رسولُ فإنكم   فوق المديح وفوق كل بيان[1]

حليم دموس

(١٣٠٥ - ١٣٧٦هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٧م)

أمحمّدُ والمجد بعض صفاته   مجّدتَ في تعليمك الأديانا
بُعثَ الجهادُ لدن بُعثْتَ وجُرّدتْ   أسياف صحبك تفتح البلدانا
ورفعتَ ذكر الله في أمّيّةٍ   وثنيّةٍ وتفتحتها الإيمانا
مرحى لأمّيٍّ يعلّم سفرُهُ   تبغاء يعرُب حكمةً وبيانا
إنّي مسيحيٌّ يحبُّ محمّداً   وأراهُ في فلك العُلا عنوانا

(١) انظر في مدح شعراء النصارى العرب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «محمد في شعر النصارى العرب» لمحمد عبدالشافي القوصي - طبعة القاهرة - مكتبة مدبولي الصغير سنة ٢٠١١م.

طرائف.. ومواقف



لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

«حقا»

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

«فضل رسول الله ﷺ»

فإن فضل رسول الله ليس له حد
فيعرب عنه ناطق بفم
كالزهر في ترف، والبدر في شرف
والبحر في كرم والدهر في همم

من أسماء رسول الله ﷺ

«الماحي»: الذي يمحو الله به الكفر.

فقد جاء ﷺ إلى هذه الدنيا وهي غارقة في طوفان من الوثنية والشرك يعبدون غير الله ويركعون أمام الأصنام صنعوها بأيديهم ثم يلجأون إليها لتجلب لهم الخير أو تدفع عنهم الضر!!

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم

«دلائل النبوة»

من دلائل نبوته ﷺ لجمال الدين يحيى ابن يوسف الصرصري يقول:

محمد المبعوث للناس رحمة
يشيد ما أوهى وهي الضلال ويصلح
لئن سبحت صم الجبال مجيبة
لداود أو لان الحديد المصفح
فإن الصخور الصم لانت بكفه
وإن الحصا في كفه ليسبح
وإن كان موسى أنبع الماء بالعصا
فمن كفه أصبح الماء يطفح
وإن كان إبراهيم أعطى خلة
وموسى بتكليم على الطور يمنح
فهذا حبيب بل خليل مكلم
وخصص بالرؤيا وبالحق أشرح
والرتبة العليا الوسيلة دونها
مراتب أرباب المواهب تلمح
ولهو إلى الجنات أول داخل
له بابها قبل الخلائق يفتح

هؤلاء دعا لهم رسول الله ﷺ

• لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه: «اللهم اجعل أبابكر معي في درجتي في الجنة» (رواه

أبونعيم).

• لعمر بن الخطاب: رأى ﷺ على عمر ثوبا، فقال: «ثوبك هذا غسيل أم جديد؟»، قال: لا، بل غسيل، قال: «البس جديدا وعش حميدا ومت شهيدا» (ابن ماجة).

• لعثمان بن عفان: «اللهم اغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر» (رواه الطبراني).

• لعلي بن أبي طالب: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه» (رواه الحاكم).

• لسعد بن أبي وقاص: «اللهم سدد سهمه، وأجب دعوته وحببه» (رواه ابن عساكر).

• لعبدالله بن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (رواه ابن أبي شيبة).

• للحسن والحسين: «اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما» (رواه النسائي).

حراس رسول الله -ﷺ-

سعد بن معاذ «حرسه يوم بدر»
الزبير بن العوام «حرسه يوم الخندق»
محمد بن مسلمة «حرسه يوم أحد»

ولما نزل قوله - تعالى -:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

(المائدة: ٦٧)

خرج صلى الله عليه وسلم - على الناس وأخبرهم بها وصرف الحرس.

فاطمة الزهراء ترثي النبي -ﷺ-

عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما فرغنا من دفن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أقبلت عليّ فاطمة، فقالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التراب؟ ثم بكت ونادت: «يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من ربه ما أدناه، يا أبتاه من ربه ناداه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه!! جنة الفردوس مأواه».

وروى أنها وقفت على قبر أبيها المصطفى - صلى الله عليه وسلم وأنشدت:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكتب

من دعاء الرسول ﷺ

• اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا.

• اللهم اجعلني شكورا، واجعلني صبورا، واجعلني في عيني صغيرا، وفي أعين الناس كبيرا.

• اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق، والرضا بالقدر.

• اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك.

• اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقطاع عمري.

• اللهم احفظني بالإسلام قائما، واحفظني بالإسلام قاعدا، واحفظني بالإسلام راقدا، ولا تشمت بي عدوا ولا حاسدا.

الدين (٧)



للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

٢- الطبيعة الشاذة العتيقة

يرى العالم الإنجليزى جيفونس Jevons أن النظر فى مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية. ولكنه يقرر فى كتابه «المدخل إلى تاريخ الديانات» Inrtroduction to the History of Religion أن الظواهر العادية لا تكفى فى إيقاظ هذه الفكرة؛ لأنها لتكرر عرضها على الحواس تألفها النفس، فلا تحتاج إلى التماس تفسيرها. أما الحوادث الأرضية المفاجئة، والعوارض السماوية النادرة، التى يضطرب بها النظام العادى، كالبرق، والرعد، والعواصف، والصواعق، والخسوف، والطوفان، والزلازل، فإن تأثيرها على المشاعر كتأثير دق الجرس، فى تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان؛ ذلك أنه قد ارتكز فى الغرائز البشرية «والحيوانية أيضاً» استحالة أن يحدث شئ من لا شئ؛ حتى إن الطيور والدواب لتفزع عند سماع صوت مزعج، وتلتفت إلى جهة الصوت شعوراً بأن له فاعلا، فكان من الطبيعى أن هذه الحوادث الفجائية الرهيبة تزعج من يشهدها، وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها[١]. وإذ كان لا يرى لها سبباً ظاهراً، اضطر عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفى ذى قوة هائلة، إذ لا مخرج للعقل من هذه القسمة الثنائية.

على أن جيفونس لا يرى مانعاً من أن يكون التأمل فى الحوادث العادية والسنن الكونية المستمرة، باعثاً أيضاً لهذا الشعور؛ ولكنه يرى أن ذلك لا يكون إلا بنظرة ثانية، عند هدوء البال، ونضج الفكر، وانزياح أسباب السهو والغفلة، وعلى هذا يكون شعور الرهبة والخشية أسبق أثراً فى التدين من شعور الإعجاب.

لا حاجة بنا إلى التذكير بأن أكثر الأسئلة التى أثيرت بصدد التفسير الأول والأجوبة التى

(١) كان «دور كايم» فى تحديده ماهية الدين ينكر تعريف القدس بمعنى العظم حيث قال: إنه ليس بلازم أن يكون الشئ القدسى أشد قوة ولا أعلى مقاماً.

Le sacre n'est pas necessairement superieur en dignite et en pouvoir Durkheim Ouvr. vit pp. 51- 52.

ولم يعتبر هناك من التقديس إلا شطره العملى، ولا من هذا الشطر إلا جانبه السلبى، وهو الحجز والمنع وتحريم اللمس، ولكنه رجع هنا فاعترف ضمنا بالمعنى الذى نفاه من قبل، وقرر أن فكرة «العظمة» فكرة دينية فى جوهرها:

Lidee de majeste est es sentiellement religieuse ibid.p. 87.

ونحن نرى أن التقديس بالمعنى العملى إنما يستمد سلطانه على النفوس من معناه النظرى، فإنه ليس كل منهيٍّ عنه يعد مقدساً، وإنما القدس من المنهيات هو ما كان مصدر النهى عنه قوة إلهية، ثم لا معنى لتقديس هذه المحرمات بعدم الاقتراب منها إلا الاعتقاد بأن هناك قوة معنوية تحميها، وتمنع من انتهاكها، وتجعل لها سياجاً من الحرمة احتراماً لأمر حاميها، فهذا الاحترام والتوقير هو حجر الزاوية فى معنى التقديس.

قدمت لحلها، يمكن أن تسرى على هذا التفسير، لأنهما قضيتان من نوع واحد.

غير أن هذا التفسير، وقد تفادى الاعتراض الأول الذى وجه إلى تفسير «ميلر» قد تعرض لنقد وجيه، أشار إليه ساباتييه[٢]؛ وهو أن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفى وحده لتفسير الفكرة الدينية، ولابد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدوثه. ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة، وشل الحركة، وولد اليأس. ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر فى البحث عن عون ينقذه من الخطر الذى وقع فيه. فلابد لتحقيق الشعور الدينى من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلهما من الأمل والرجاء، اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع. وهذه هى حقيقة التدين.

المذاهب الروحية، المشهورة باسم الحيوية Animisme

رأينا فى التفسيرات السابقة كيف تتولد العقيدة الإلهية عن النظر فى صحيفة الكون المادى، ولذلك اشتهرت تسمية هذه التفاسير بالمذهب الطبيعى، حتى نسب إليها القول بأن العبادة الأولى كانت عبادة الطبيعة.

والآن نأخذ فى بيان النظرية المقابلة لها، وهى النظرية التى اشتهرت تسميتها باسم المذهب الحيوى Animisme ونسب إليها أن الأصل كان عبادة أرواح الموتى.

لا ريب عندنا فى أن وضع المذاهب على هذا النحو من التقابل بين المادة والروح، فيه شئ كثير من اللبس بين منشأ الفكرة، وموضوع العبادة؛ فقد قلنا غير مرة أن العبادة توجه دائما إلى مبدأ روحى غير مادى؛ وها قد رأينا آنفاً رئيس المذهب الطبيعى «ماكس ميلر» يصرح بأن النظرة فى عجائب الأفلاك والعناصر، لا تلبث أن تنتقل من قواها الطبيعية إلى قوى روحية ذات شخصية إرادية، وأنه لولا هذه النقلة ما كان لها أن تدخل فى موضوع الأديان.

فالواقع أنه لا اختلاف فى هذا القدر بين مختلف التفاسير؛ وإنما الخلاف فى نقطة الابتداء وطريقة الانتقال: فبينما يرى المذهب الطبيعى أن هذه القوة أو القوى الروحية المسيطرة على العالم، إنما جاء الاعتقاد بها من طريق الحدس أو التأمل فى عالم المادة (استرشاداً بعظمة الصنعة ومعقوليتها، على مهارة صانعها وعاقليته، كما يستدل على وجود قوة عاقلة فى الإنسان بمشاهدة آثارها المنظمة فى الأقوال والأفعال، من غير أن يبصر أحد تلك القوة أو يلمسها) يرى المذهب المقابل له أن الاعتقاد فى تلك الروح أو الأرواح الفعالة يستند إلى تجارب مباشرة فى البيئة الإنسانية. فالنتيجة على التفسيرين واحدة؛ ولكن التجانس بين المقدمات والنتائج فى هذا التفسير أشد منه فى المذهب الطبيعى. فهناك الانتقال من مادة إلى روح، وهنا من روح إلى روح.

هذه النظرية الروحية قررها تيلور فى كتاب «المدنية البدائية» وتابعه عليها مع تعديل يسير الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر Herbert Spenser فى كتاب «مبادئ علم الاجتماع» Principes de Sociologie.

ولابد لنا قبل كل شئ من إزالة اللبس الذى يسهل الوقوع فيه هنا من جراء الاشتراك اللفظى لهذه الكلمة. نعم لابد لنا من تفسير كلمة «روح» التى يرى المذهب الحيوى أن التجارب فى شأنها كافية

(٢) Auguste Sabatier,ouvrage cite p. 13.

لإيقاظ الاعتقاد بروح علوية جديرة بالعبادة. كما يجمل بنا بعد ذلك أن نسلك في تقرير النظرية منهجاً مستقلاً ينفذ إلى لبها وجوهرها، قبل الإشارة إلى عناصرها الإضافية القابلة للمناقشة.

ليس المقصود بالروح هنا - حسبما يوحي به التعبير غير الموفق باسم المذهب الحيوي - مبدأ الحياة الحيوانية، أعنى تلك القوة التي تقوم عليها وظائف النمو، والتنفس، والحس، والحركة، بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك، هو مبدأ حياة التفكير، والإرادة المنظمة، والعاطفة، والضمير، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة.

كل أحد يستطيع أن يميز بين هذين النوعين، ويدرك أن هذه الروح، التي هي خاصة الإنسانية، ذات كيان مستقل عن تلك الروح المشتركة بين الإنسان والحيوان.

فنحن نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون؛ فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير، حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة فيعود إليهم شعورهم المنظم وتفكيرهم المستقيم.

هذه التجربة تجربة صحيحة؛ والفكرة التي استنبطت منها، وهي التمييز بين القوتين، فكرة سليمة، لا يزال العلم يقررها حتى يومنا هذا.

ولكن الفكر، إذا أرسل على سجيته، لا يقف عند هذا الحد في الاستنتاج؛ بل إنه يصعد من التفرقة العملية بين الوظيفتين، إلى التفرقة الذاتية بين القوتين؛ فيجعل منها مبدأين منفصلين، وجوهرين مستقلين.. حتى إذا ما تقرر عنده هذا الطابع الاستقلالي انتقل به خطوة أخرى. ذلك أنه متى اقتنع بأن الروح العاقلة، حين تغيب عن بدنها بالنوم، لم تصبح عدماً محضاً، أخذ يتساءل: لم لا يكون الأمر كذلك في انفصالها بالموت؟ - نعم إن تناوب الحياة والموت على الشخص الواحد لم يتحقق في التجارب العادية كتبادل اليقظة والنوم عليه. ولكن الحكم بعودة الروح إلى البدن بالفعل، أو عدم عودتها إليه، شئ، والحكم بأنها بانفصالها قد أصبحت عدماً صرفاً شئ آخر لم يقم عليه دليل، بل تأباه الطباع السليمة، وتقاومه غريزة الحياة النفسية، الموصولة من أحد طرفيها بماض لا تطيق تناسيه، وتحرص على استبقاء ذكرياته، ومن الطرف الآخر بمستقبل تنتظر فيه عودة الغائب وإن بعدت غيبته، ووجدان المفقود ولو طال فراقه، بل نقول إن هذا الحكم تأباه العادة العقلية التي تستمد أحكامها من تجارب الواقع وسننه المستمرة: فكما أنه ليس من المألوف أن شيئاً يصبح لا شئ، وكل ما يتصوره العقل في فقد الأشياء إنما هو تغير صورها، وتبدل أوضاعها الزمانية والمكانية فالتصور الطبيعي لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصري المادة والروح، يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبيئته: فتعود المادة إلى عالمها، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبي. وهكذا ينشأ الاعتقاد بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان.

وهنا تجئ الحلقة الرابعة والأخيرة في هذه السلسلة المتصلة، بل في هذه الدوائر المتداخلة، من التفكير الطبيعي. ذلك أن انتقال العنصر الروحي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ليس من شأنه حتماً أن يضعف سلطانه، بل من المعقول أنه قد يزيده قوة؛ لأن الروح في عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل، مشغولة بتدبيره، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات. ولذلك ليس من حقها في هذه الحال أن تسمى روحاً مسيطرة وإنما هي نفس مسخرة. فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر، أصبحت جديرة باسم «الروح»، وأضحت أوسع مجالا، وأملك لحرية العمل في الميدان الذي تختاره: إن نفعاً وإن ضراً، من حيث لا يشعر بها أحد.

ولا تحسبن هذه النقلة الأخيرة ضرباً من النزوات الخيالية، أو التجريدات العقلية، المعتمدة على محض التشهي أو الفروض الممكنة. فالواقع أن الفكر قد يلجأ إليها إلجاء لتفسير ظواهر معينة لا يجد لها تفسيراً آخر. ذلك أنه كثيرا ما يحدث في ميدان النشاط الإنساني حوادث عجيبة، تخرج خروجاً بيناً، علوا أو انحطاطاً، عن المستوى المألوف للناس، أو المألوف للشخص نفسه في مجرى حياته العادية، بل لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود هذه الشواذ التي لا يعرف لها سبب ظاهر. فتنسب إلى سبب من تلك الأسباب المعنوية السرية. فالعراف الماهر، والشاعر الملهم، والخطيب المفوه، والبطل الموفق، والصائد الذي لا يخطئ سهمه، والحاسب السريع الحساب، السديد الجواب؛ من غير استعانة بقرطاس ولا قلم، في أطول المسائل وأشدها تعقيداً، و«الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا»، كل أولئك ينسب نجاحهم وعبقريتهم إلى أنهم قد أمدوا بروح خيرة، ذات قوة خارقة. وبعكس ذلك يقال فيمن يصاب بالصرع أو الجنون، وفيمن يولعون بالرذائل المبكرة، أو الجرائم الشاذة المنكرة، إنهم قد مستهم روح خبيثة شريرة.

أضف إلى هذا كله ضروبا من التجارب الجزئية في الرؤيا الصادقة، والفراسة السديدة، والإلهام الكاشف، والعلم بالحوادث البعيدة ساعة وقوعها، ورؤية الأشباح، وسماع الأصوات، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا يستقيم تفسيرها بسبب من الأسباب المادية.

وليس يعنينا أن تكون كل هذه الملاحظات والتجارب والاستنباطات سليمة مستقيمة؛ ولكنها في جملتها يظاهر بعضها بعضاً على تكوين الاعتقاد في أمرين:

١- أن في الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس؛ سواء أكانت في الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أبدانها، أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة، أم كانت روحاً أعلى من ذلك وأسمى.

٢- أن هذه الكائنات الغيبية، المزودة بتلك القوة الخارقة. قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة[٣].

هكذا تنشأ عقيدة التأليه من أقرب المقدمات وأيسرها:

فذلك الكائن الغيبي، الذي كانت المذاهب الكونية تستنتجه استنتاجاً من مطالعة الآثار العظمى في عالم المادة، أصبحت تشتق صفاته من جنس عمله نفسه. ومن نوع التجارب التي دلت عليه، فهو لا ريب روح عظيم، ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية؛ وهو لا شك عقل خلاق، ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن إمدادها.

سيقول قائل: لكن أليس تنوع هذه الآثار العجيبة آية على اختلاف مصادرها، كما أن تعدد الأنهار دليل على اختلاف منابعها؟ وإذا لم يكن في الغيب كائن فعال واحد، بل كائنات كثيرة، فهل كلها استوجب التأليه والعبادة؟

(٣) لا يفوتنا أن نسجل هنا أن نزعة الاعتقاد في تلك القوى السرية وتأثيرها لا تخص أمة معينة من الأمم، ولا ديناً خاصاً من الأديان، بل إنها تعم الشعوب المتحضرة وغيرها، وتكاد لا تخلو منها ديانة من الديانات المعروفة. وها هي ذي البحوث الحديثة سائرة اليوم في طريق تزويدها بالتجارب والوسائل العلمية فيما يسمونه بعلم الروحانيا

الجواب أن ذلك يختلف باختلاف دقة الأفهام وغلظها:

فأما الأنظار القصيرة، التي لا ترى أبعد من أنفها، فإنها تجد آلهتها وتعدهم بحدود الحوادث الفردية أو النوعية وأعدادها. فروح هذا الولي أو القديس الذي استجيب عنده الدعاء، وفاضت من حوله البركات، إله، وقرين ذلك الكاهن أو العراف الذي صدقت نبوءته أو فراسته، إله، والروح الذي هبط على الشاعر المفحم فحلّ عقدة لسانه، إله، والملك الذي أوحى إلى صاحبه ما أوحى إله...

وهكذا يقف الغافلون شاخصة أبصارهم في مواجهة كل أثر روحي عجيب ثم يخرجون سجداً أمام مصدره المباشر، أو روحه الخاص الموكل به، كأنما هو النبع الحقيقي للقوة، وقلما يتحررون من ربقة هذه الأسباب القريبة المحدودة المجال، الخاضعة لعوامل الحدوث والفناء وتقلبات الظهور والاختفاء، للتفكر في الكائن الغيبي الأعظم، الأزلي الأبدي، الذي بيده مقاليد الأرواح والأشباح على السواء.

فمثلهم كمثل الذي يرى تفرق منابع الأنهار في الأرض، ولا يذكر أن مردها جميعاً إلى أصل واحد، هو الماء الذي أنزله الله من السماء فسلكه ينابيع.

وأما العقول النافذة في بواطن الأمور، الممتدة إلى منابتها، فإنها لا تركن لحظة واحدة إلى هذه الظلال المتقلصة، والسحب المتقشعة، ولا تلهيها حركات هذه الجنود المنتشرة في السموات والأرض عن التوجه إلى قيادتها العليا: إلى رب الأرباب، ومسبب الأسباب، الذي لا تخلو وثنية من الوثنيات عن الاعتراف به، وإن كانوا لا يذكرونه إلا قليلاً.

والآن نرسم لك بإيجاز الطريق الذي سلكه «تيلور» وأتباعه في بيان تولد العقيدة الإلهية عن التجربة الروحية:

فقد ذهبوا إلى أن هذه العقيدة تمت على مرحلتين: «الأولى» الاعتقاد في بقاء أرواح الموتى «والثانية» الاعتقاد بوجود أرواح للأفلاك والعناصر.

واتفقوا على تفسير المرحلة الأولى بأن فكرة الروح فيها تعتمد في جوهرها على تجربة «الأحلام» وعلى التفسير البدائي لهذه التجربة. وخلاصته أن الحلم عند «البدائيين» انتقال حقيقي لروح الشخص المرئي، أي لجسم شفاف على صورته، هو أشبه بظل أو مثال له، ينبثق منه ويجئ إلى الرائي في المنام فيراه رؤية حقيقية على شكل طيف، كما ترى صورة الشخص في المرآة، وإذ كانت الرؤيا المنامية تتعلق بالأموات كما تتعلق بالأحياء، بمعنى أن أرواحهم أي مثلهم تجئ إلى الرائي في المنام كما تجئ أرواح الأحياء، دل ذلك على بقاء أرواح الموتى، واستمرار اتصالها بالأحياء، وتمكنها من نفعهم وضرهم فاقتضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذاها واستدرار عطفها.

أما المرحلة الثانية، وهي عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية، فلهم في تفسيرها مذهبان: فأما «تيلور» مؤسس النظرية فيرى أن العقلية البدائية فيها من سذاجة الطفولة ما يقصر بها عن التمييز بين الجماد والحيوان، ويجعلها تعامل كلاً منهما معاملة الكائنات الحية، كما يداعب الطفل دميته ويناجيها كأن فيها روحاً.

وأما «سبنسر» فإنه يرفض هذا التفسير بحجة أنه لا ينطبق على نفسية الطفل، ولا على نفسية الحيوان، فضلاً عن العقلية «البدائية»، ويرجع أن عبادة الطبيعيات ليست نتيجة التباس عقلي كما زعم تيلور، بل وليدة التباس لغوي في أسماء الأسلاف المقدسة، ذلك أن هؤلاء الأسلاف كانوا يسمون أسياداً بأسماء مواد طبيعية، فكان بعضهم مثلاً يسمى «نجماً» والآخر «قمراً» والثالث «حجراً» فانتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسماة بتلك الأسماء نفسها.

خلطاً بين الاسم المنقول لمجرد التمييز، والاسم الدال على أصل معناه.

وهذا التفسير، كما ترى، ليس خيراً من سابقه، فكلاهما يجعل العبادة في هذه المرحلة مبنية على اعتقاد حيوية الأفلاك، وكلاهما يجعل هذا الاعتقاد قائماً على وهم أو لبس، وكلاهما يجعل العبادة موجهة إلى النفوس المتصلة بالكواكب، لا إلى روح مفارقة مهيمنة عليها.

كما أن عبادة الأسلاف، في التفسير المتفق عليه بينهما، مبنية في جوهرها على نوع واحد من التجارب، وهو تجربة «الحلم» وعلى تفسير خرافي لتلك التجربة. وهكذا تصبح المذاهب الروحية في تقريرهما معلقة على خيط أوهن من خيط العنكبوت.

ولقد وجه «دور كايم» كل قوته الجدلية لمهاجمة هذه النقطة الضعيفة في النظرية، مبيناً أن البدائيين ليسوا في حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام، وأنهم إن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذي وصفته النظرية متعيناً، إلخ. ونحن نحتفظ من بين هذه الوجوه بوجه واحد نحرص على تقريره وتأييده، لصحته وصلته بجوهر الموضوع فحسب، ولكن لأنه في الوقت نفسه يحدد فكرة «عبادة الأسلاف» تحديداً معقولاً، ويبرز أسبابها الحقيقية، ذلك أن تجربة الحلم إن سلم أنها تكفي للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفي بمجردها لتعليل الاعتقاد بألوهية مصدرها، فإن من الرؤى ما هو هذيان وأضغاث أحلام، ومنها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية، وليس شئ من ذلك يثير عقيدة التأليه. وإنما يثيرها نوع خاص.

وهو الرؤى التي يتجلى فيها معنى الوحي والإلهام بحوادث غير متوقعة، أو بحقائق لا تدرك بنور العقل البشري العادي. ومن جهة أخرى فإنه لا يعرف في أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف؛ وإنما الذي كان موضعاً لهذا التقديس من بينهم من كان قد عرف في حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً في الطبيعة أو في المجتمع. فليس الموت إذاً شرطاً ولا سبباً في هذا التقديس، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة، أو تلك الجوهرة الإلهية التي تتجلى آثارها في الحوادث الإنسانية العظيمة.

أما سائر الوجوه التي أتعب الناقد فيها نفسه، وظن أنه قد نقض بها التفسير الروحي من قواعده، فإنها مناقشات شكلية لم تمس إلا الصورة البدائية التي وصفتها النظرية وطبعتها بطابع الخرافة؛ ومازال جوهر التفسير الروحي سليماً لا غبار عليه ولم تنل منه هذه المجادلات شيئاً.

والواقع أن عالم العجائب الروحية ليس بأقل من عالم العجائب الطبيعية إيحاء لفكرة الألوهية؛ بل هو أمس بها رحماً، وقد أسلفنا أن فكرة الروح في ذاتها ليست قاصرة على الأمم الهمجية، بل هي أوسع ميداناً، وأقدم تاريخاً، وأقوى بنياناً من تلك الصورة البدائية. وقد اعترف الناقد بأنه «كما لا تخلو أمة من ديانة، كذلك لا تخلو من فكرة عن القوة الروحية»[٤].

«يتبع»

(٤) Durkheim, ouv. cite.p. 343

سوابق التقنين فى بعض البلدان الإسلامية والعربية

للأستاذ الدكتور/ إبراهيم البيومى غانم

تعددت محاولات التقنين وتجاربه على مدى القرنين الأخيرين، الثالث عشر والرابع عشر الهجريين(١٩، و ٢٠ الميلاديين)، وتباينت تلك المحاولات والتجارب من حيث درجة النضج من حالة لأخرى على امتداد بلدان العالم الإسلامى.

كانت البدايات الأولى للتقنين فى مجال المعاملات المدنية، إذ كانت هى الأيسر مقارنة بمجال الأحوال الشخصية التى تشتمل -فيما تشتمل- على أحكام الأسرة، وهى أحكام عصية على الاستلاب من الأنظمة القانونية التى وفدت فى ركاب حركة المد الاستعمارى.

لقد بات واضحا منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى أن العودة لكتب الفقه ومدوناته القديمة لم تعد ميسورة لأغلبية القضاة، وخاصة بعد أن تعقدت المعاملات، وتداخلت أطرافها بين الأهالى والأجانب، وفيما بين الأهالى أنفسهم. وكانت «مجلة الأحكام العدلية» هى أهم خطوة خطتها الدولة العثمانية فى طريق التقنين كما أسلفنا، واستمر تطبيقها حتى ألغيت سنة ١٩٢٦م فى تركيا ضمن عمليات التغريب الشاملة الأتاتوركية واستبدل بها القانون السويسرى.

أما فى أغلبية بلدان العالم العربى فقد استمر تطبيق أحكام المجلة إلى عقود متأخرة من القرن الماضى (ظلت مطبقة فى الأردن مثلاً إلى سنة ١٩٧٦م)، ولازال بعضها مطبقاً فى لبنان.

وقد عنى الفقهاء والباحثون بالمجلة وشرحوها، كما كان الفقهاء القدامى يشرحون المتون الشرعية، متبعين فى شروحهم تبويب المجلة لا التبويب الفقهى [١]. كما أقامت المجلة الصلة الوثيقة بين الأحكام الحديثة والفقه الشرعى فى المسائل المسكوت عنها فى القوانين الحديثة، وهى مسائل متنوعة، كما أوجدت المجلة فرصة عظيمة لإعادة تدوين مسائل الفقه الإسلامى المتناثرة فى مراجع الفقه الحنفى فى مرجع واحد سهل المأخذ، ومنتظم وفق الهيكل المعتاد فى الدراسات القانونية الحديثة، مما أقام الصلة بين خبراء القانون والفقه الحنفى، وتشهد على ذلك الدراسات القانونية المقارنة على امتداد أكثر من مائة عام.

كانت المجلة وسيلة فعالة لتخليص الفقهاء من الجمود المذهبى، الذى كاد أن يؤدى إلى إحلال القوانين الغربية إحلالا شاملا محل الفقه الإسلامى وأحكامه، وخاصة مع ضيق الفقه الحنفى فى أبواب المعاملات والشروط بوجه خاص [٢].

وبالرغم من أهمية المجلة فى تاريخ محاولات التقنين الحديث فى العالم الإسلامى، فإنها كانت تعانى من عيوب كثيرة تناولها فقهاء القانون وشراحه، ومنهم العلامة عبدالرزاق السنهورى. ولكن السنهورى قبل أن ينبه إلى بعض تلك العيوب أقر بأنها عمل رائد، وتنم عن جهد تشريعى رصين، وأن لواضعيها علماً غزيراً بالفقه الإسلامى، وقدرة واسعة على الصياغة التشريعية.

ومن الإنتقادات التى وجهها للمجلة أنها كانت أقرب إلى أن تكون قانوناً للعقود المدنية، لا العقود والالتزامات، فإنها لم تتضمن نظرية عامة للالتزامات إذا استثنينا بعض النصوص الخاصة بالمسئولية التقصيرية [٣].

---

(١) عدنان بن عبدالله الصالح البريكان، مرجع سابق.
http://www.arabiyat.com/ar_files/kbk/albraik.ppt

(٢) الإصلاح التشريعى فى مصر، مرجع سابق.

(٣) انظر: عبدالرزاق السنهورى، من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدنى العراقى وحركة التقنين المدنى فى العصور الحديثة، مجلة القانون والاقتصاد/جامعة القاهرة - كلية الحقوق - عدد خاص - الجزء الثانى ١٩٩٢، ص٤٤.

هذا إلى جانب أنها اقتصرت على أرجح الأقوال من المذهب الحنفي، دون الالتفات إلى أقوال وآراء المذاهب الأخرى، الأمر الذي جعلها أقل مرونة في مواجهة الوقائع والمستجدات المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الولايات العثمانية التي شملتها أحكامها لعقود طويلة من الزمن. وانتقد السنهوري الصياغة التشريعية للمجلة أيضا - رغم إقراره بأنها جاءت متقدمة بالنسبة لزمنها - ومن ذلك أن أسلوبها في بعض النصوص لا يتفق مع الأسلوب التشريعي الرصين الذي يقتصر على الأمر والنهي في صيغة أحكام مقررة، فتجد فيها أسلوبا تعليمياً فقهياً أولى بلغة الفقه منه بلغة التشريع[4].

وإذا كانت «المجلة» عملاً رسمياً، تبنته الدولة العثمانية وفرضته على أغلبية ولاياتها، فإن محاولة محمد قدري باشا كانت جهداً فردياً، وعملاً عبقرياً، وقد جاءت محاولته في سياق عدم رغبة الخديوي إسماعيل في أن يعمل بما جاء بمجلة الأحكام العدلية، حتى يقطع صلته بدولة الخلافة العثمانية، وفي الوقت نفسه صارت الحاجة ملحة إلى وضع قوانين جديدة وفق الصياغات العصرية، فاتجه القائمون على البلاد إلى القانون الفرنسي ينقلون عنه ويستلهمون منه مواده القانونية، وكان هذا أول خطوة للخروج على الفقه الإسلامي، متعللين بأن الكتب الفقهية ليست مؤلفة على نظام الكتب القانونية الحديثة ذات المواد المرتبة والمرقمة وأنه يصعب على القضاة الرجوع إليها.


نوبار

يؤكد السنهوري باشا أن الامتيازات الأجنبية كانت وراء توجه مصر لوضع تقنين مدني، وأن نوبار باشا رئيس الوزراء في عهد إسماعيل أراد أن يخفف من وطأة تلك الامتيازات، فأنشأ المحاكم المختلطة، ومن ثم وضعت التقنينات المختلطة (المدني، والمرافعات، والتجاري، والبحري، والجنائي، وتحقيق الجنايات)[5].

في سنة ١٨٧٥ لتطبقها تلك المحاكم. وقد وضعها محام اسمه مانوري (Manoury) وكان مقيماً في الإسكندرية في ذلك العهد، واتخذه نوبار سكرتيراً له، ثم عينه بعد ذلك سكرتيراً للجنة الدولية التي كانت تدرس مشروع إنشاء المحاكم المختلطة بمصر. ونقل واضع التقنينات المختلطة نصوصه من التقنينات الفرنسية، لأنها كانت أكثر شيوعاً في ذلك العهد[6].

ومن المفيد أن نستطرد هنا في بيان وجهة نظر السنهوري باشا بشأن الملابسات التي أحاطت بوضع التقنين المدني المصري القديم، والعلل الكامنة خلف وضع ذلك التقنين، وكيف كان رد الفعل تجاهها. يقول السنهوري إنه «لما استقر الأمر بالمحاكم المختلطة وبقوانينها، تطلعت الحكومة المصرية في ذلك العهد إلى إنقاذ البلاد من الفوضى التي كانت سائدة في القضاء المصري، وكان يلي أمره مجالس غير منظمة إلى جانب المحاكم الشرعية.

وكانت القوانين التي تطبق في تلك المجالس هي القوانين المعمول بها في الدولة العثمانية، مع اعتبار العادات المحلية في البلاد، كما كان يطبق القانون التجاري العثماني المأخوذ من القانون الفرنسي، فتألفت في أواخر سنة ١٨٨٠م لجنة لوضع تقنينات لمحاكم نظامية تقوم بالقضاء بين المصريين، كما (كانت) تقوم المحاكم المختلطة بالقضاء بين المصريين والأجانب، ومن بين أعضائها محام إيطالي اسمه موريوندو (Moriondo) هو الذي وضع القنين المدني للمحاكم المصرية الجديدة، وكان قدري باشا ناظراً للحقانية (العدلية) في ذلك العهد، وقد اشترك مع اللجنة في عملها، وتقيدت اللجنة بتقنينات المحاكم المختلطة إلى حد أنها كادت تنقلها بحروفها وصدرت التقنينات الأهلية في ١٢ من شعبان ١٣٠٠ هـ/ ٢٨ من يونيو ١٨٨٣م»[7]. وقد انتقد السنهوري باشا التقنين المدني القديم، ووصفه بأنه «معيب من حيث الموضوع، ومن حيث الشكل.. يقلد القانون الفرنسي تقليداً أعمى، فينقل كثيراً من عيوبه..»[8].

كان مشروع النظام القضائي للمحاكم الأهلية قد تم إنجازه، بموجب قرار من مجلس النظار (الوزراء) صدر في (١٠ من صفر سنة ١٣٠٠هـ/ ٢١ من ديسمبر ١٨٨٢م)، وصارت هي المحاكم العامة في مصر، وحددت اختصاصات المحاكم الشرعية التي تقلص نفوذها واختصت المحاكم الجديدة بالنظر في دعاوى الحقوق المدنية والتجارية بين الأهالي وبين الحكومة.

ويبدو أن ذلك التوجه التغريبي - في القانون والقضاء - كان من أهم الأسباب التي استثارت همة محمد قدري باشا آنذاك. وكان قد شارك في اللجنة التي أعدت تقنين المحاكم الوطنية سنة ١٨٨١م مع موريوندو الذي عمد إلى نقل ذلك التقنين مع التقنين المدني للمحاكم المختلطة الذي كان قد صدر قبل ذلك في مصر سنة ١٨٧٢م[9] وإلى جانب تلك الاستثارة، لابد أن هناك عوامل أخرى ذاتية دفعت قدري باشا إلى بذل محاولته الرائدة في تقنين أحكام الشريعة، والنهوض إلى وضع كتبه الثلاثة التي تدحض المزاعم القائلة بأن

(٤) المرجع السابق، ص٤٨، ٤٩.

(٥) لاحظ أن هذا التقسيم هو الذي سارت عليه لجنة تقنين أحكام الشريعة في مجلس الشعب، الذي نعيد نشره - إن شاء الله - في «الأعمال الكاملة لتقنين الشريعة»، وهذا التشابه شكلي محض، أما المضمون والمرجعية فمختلفان كل الاختلاف.

(٦) عبدالرزاق السنهوري، المرجع السابق، ص٦٤.

(٧) المرجع السابق، ص٦١ ويشير السنهوري إلى أن المسئولين المصريين رأوا آنذاك أن نقل التقنينات المختلطة كان أمراً مقصوداً، وكان يراد به أن تكون القوانين واحدة في المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية، حتى يتيسر الاستغناء عن الأولى والاكتفاء بالثانية (هامش ص٦١ بالمرجع السابق نفسه) ومعنى هذا أن عملية تحديث القوانين والمحاكم كانت متحيزة لجهة القوانين المستوردة، وعلى حساب الفقه الموروث، وهو ما سعى قدري باشا لاستدراكه قدر استطاعته وبجهد فردي منه.

(٨) السنهوري، المرجع السابق، ص٦٦، ٦٥.

(٩) انظر: عبدالرزاق السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني الجديد - نظرية الالتزام بوجه عام، مصادر الالتزام (القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٥٢) ج١/ص٣٠٢.

الفقه الإسلامي يعاني من قصور لا يمكن استدراكه، ومن ثم لا يمكن تلبية الحاجة إلى صياغات عصرية للقوانين التي يطبقها القضاة في المحاكم المختلفة. وفي رأي السنهوري باشا أن قدري باشا هو «زعيم مدرسة التقنين ورائدها الأول» في مصر. وقد استند قدري باشا إلى المذهب الحنفي، واسترشد فيها بمجلة الأحكام العدلية. وأما الكتب الثلاثة التي وضعها قدري باشا فهي:

١ـ مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان: ويحتوي على ٩٤١ مادة، وهو خاص بالمعاملات المالية. وقد طبع الكتاب سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م).

٢ـ قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف: ويحتوي على ٦٤٦ مادة، وهو خاص بالوقف. وقد طبع سنة (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م).

٣ـ الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية: ويحتوي على ٦٤٧ مادة. وتعد هذه المحاولة الرائدة مرجعاً لرجال القضاء والقانون في المحاكم، وعمدة لكل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية، ودليلاً لكل محاولات التقنين التي جاءت بعده في العالم الإسلامي[10].

ورغم أن تلك الكتب الثلاثة لقدري باشا لم تحظ بالتصديق الرسمي، فإنها غدت مرجعاً واسع التأثير في الدراسات الفقهية والقانونية التي جاءت بعدها، كما استمدت منها بعض التشريعات العربية، وأصبحت وثيقة تاريخية، ودليلاً على غنى الفقه الإسلامي، وقابليته للتفاعل مع تحديات العصر، وقابليته للتجديد. وقد سهل قدري باشا بكتابه مرشد الحيران المقارنة بين القسم المدني من الشريعة على مذهب أبي حنيفة، وبين القوانين الوضعية؛ حيث نظم أحكام المذهب الحنفي في المسائل المدنية في مواد وأبواب متتالية على غرار مواد وأبواب القانون المدني المصري، فمكن رحمه الله بعمله هذا لكل من يطلع على كتابه أن يقارن بسهولة بين أحكام الشريعة وأحكام القانون»[11].

التقنين التونسي والتقنين المراكشي

ألمحنا فيما سبق إلى محاولة المستشرق الإيطالي سانتيلانا Santilana الذي وضع فيما بين عامي ١٨٩٦ و١٩٠٦م «مجلة الالتزامات والعقود التونسية». وكان الفرنسيون قد ألفوا لجنة سنة ١٩٠١م بعد أن فرضوا حمايتهم على تونس «١٨٨٣م». وقد بذلت اللجنة برئاسة سانتيلانا بعض الجهد في التوفيق بين أحكام القانون الفرنسي وأحكام القوانين الغربية الحديثة، وأحكام الشريعة الإسلامية.. ولكن أحكام القانون الفرنسي

(10) أحمد تمام، محمد قدري وبواكير تقنين الشريعة، مجلة الفقه والقانون
http//:www.alex4all.com/stor/articl

(11) انظر: الموسوعة العصرية في الفقه الجنائي الإسلامي ـ كتاب عبدالقادر عودة مع تعليقات آية الله السيد إسماعيل الصدر، وآراء الدكتور توفيق الشاوي، مرجع سابق ج١ من المجلد الأول، ص٦/ ٣٧.

كانت هي الأساس الذي بني عليه العمل، وقد عرض المشروع الذي أعدته اللجنة على لجنة أخرى تألفت من خمسة علماء من جامع الزيتونة، وخمسة قضاة من المحكمة الشرعية الكبرى بتونس، وانضم إليهم عضوان من اللجنة الأولى «سانتلانا وبرج»، فنظرت في المشروع، وبعد أن أقرته، صدر بمرسوم من الباي «حاكم تونس» في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٦م[12].

ولكن العمل بذلك التقنين سرعان ما توقف بعد ستة أشهر فقط من بدء تطبيقه أتاح فرض الحماية الفرنسية على مراكش سنة ١٩١٢م ـ بعد اثنين وعشرين سنة من الاعتداءات العسكرية لإخضاع المغاربة ـ فرصة أخرى للسلطات الاستعمارية الفرنسية كي تقوم بتكوين لجنة لوضع تشريع حديث للبلاد؛ بحيث يتوافق مع مصالحها الاستعمارية ويكون في خدمتها. وقد استفادت من تجربتها السابقة في تونس. وضمت اللجنة ثلاثة أعضاء هم: المسيوبرج «وهو الذي اشترك في تقنين تونس»، وتيسييه، ولابراديل. ووضعت اللجنة مشروعاً لقانون الالتزامات والعقود مقتبساً من التقنين التونسي المشار إليه.

ولكن التقنين المراكشي جاء أكثر اختصاراً من التونسي؛ إذ حذفت منه بعض النصوص المتعلقة بالإجراءات التي لم تكن تطبق في مراكش، ولا شأن لها بالقانون المدني، وحذفت كذلك بعض نصوص قانون التجارة، وأخرى من قانون الأراضي التي لا محل لتطبيقها في مراكش؛ إذ كانت تقرر نظاماً خاصاً بتونس، وحذفت أخيراً نصوص استمدت أحكامها من عادات محلية في تونس «كما في إيجار الأراضي الزراعية»، وعدلت بعض نصوص التقنين التونسي؛ إما لتجعله متمشياً مع التشريع المراكشي، أو لأنها كانت في حاجة إلى التعديل «مثال ذلك المادتان ٧٩ و٨٠ وهما تقرران مسئولية الموظفين، ومسئولية الدولة عن أولئك الموظفين، والمواد من ٢٢٥ إلى ٣٣٤ وهي تقرر كيفية الوفاء بطريق الشيكات، والمواد ٨٧١ وما بعدها وتحارب الربا الفاحش الذي فشا في شمال أفريقيا».

وصدر التقنين المراكشي في الالتزامات والعقود في ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٣. وكان من مزاياه ـ حسب رأي العلامة السنهوري ـ أن نصوصه تعقب بالإشارة إلى مراجع الشريعة الإسلامية، وردت فيها أحكام تقابل الأحكام التي تتضمنها هذه النصوص، ولا يخفى ما لهذه المراجع من الأهمية عند محاولة التوفيق بين أحكام الشريعة الإسلامية، وأحكام القوانين الغربية الحديثة[13].

التقنين اللبناني

للمرة الرابعة وقعت عملية التقنين تحت

(12) السنهوري من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدني العراقي، مرجع سابق، ص١٦، و١٧.

(13) المرجع نفسه، ص١٧، و١٨.

ضغط الهيمنة الاستعمارية. فبعد أن وضعت لبنان تحت الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٠ نتيجة تفكك الدولة العثمانية وتقسيم ولاياتها إلى مناطق نفوذ بموجب معاهدة سيفر؛ رأت سلطة الانتداب الفرنسي على لبنان إبطال العمل بمجلة الأحكام العدلية والاستعاضة عنها بتقنين جديد في الالتزامات والعقود، على غرار ما حدث في كل من تونس ومراكش. وكلف المسيو زوبرس بوضع مشروع التقنين، فوضع مشروعاً وأرسله للأستاذ جوسران، عميد كلية الحقوق بجامعة ليون في ذلك الوقت؛ كي يراجعه. ثم جرى تحويل المشروع إلى اللجنة الاشتراعية الاستشارية بلبنان، فنقحته، ووضعته في صيغته النهائية. وبعد إدخال بعض التعديلات صدر التقنين اللبناني في ٩ مارس سنة ١٩٣٢، ونشر في الجريدة الرسمية في ١١ أبريل سنة ١٩٣٢.

يقرر السنهوري باشا أن التقنين اللبناني من حيث التبويب ومن حيث اشتماله على نظرية عامة في الالتزامات وفي العقود، يعتبر متقدماً على «مجلة الأحكام العدلية»، التي حل مكانها.. ولكنه ينتقد هذا التقنين لكونه قد تأثر كثيراً بالتقنين المدني الفرنسي، وبالمشروع الفرنسي الإيطالي «هو مشروع تقنين كانت لجنة إيطالية فرنسية مشتركة قد بدأت إعداده عام ١٩١٩م، وانتهت منه عام ١٩٢٨م»، فجاء التقنين اللبناني يحمل كثيراً من عيوبهما، ولم يستفد كثيراً من مزايا التقنين السويسري والتقنين الألماني، كما إنه لم يعن عناية كافية بالتوفيق بين ما أورده من الأحكام، وأحكام الشريعة الإسلامية، بل اقتفى أثر تركيا ومصر في نبذه للشريعة الإسلامية [١٤].

محاولات عبدالرزاق السنهوري

توافق انعقاد «المؤتمر الدولي للقانون المقارن» ـ في مدينة لاهاي الهولندية ـ سنة ١٩٣٢م، مع مرور خمسين عاماً على وضع القانون المدني المصري «القديم» ذي المرجعية الفرنسية، وعلى إنشاء المحاكم الأهلية المصرية ـ العيد الخمسيني لهذه المحاكم ـ فانطلق عبدالرزاق السنهوري مستعيناً بتوصيات مؤتمر «لاهاي» حول الشريعة الإسلامية ليكثف الجهود في الدعوة إلى «وجوب تنقيح القانون المدني المصري، وإلى إعادة مرجعية الشريعة الإسلامية لهذا القانون، ما دامت مرجعيته الفرنسية قد فرضتها التدخلات الأجنبية، وساعدتها السلطات الاستعمارية. وكان يرى أن من الواجب مواكبة العودة لمرجعية الشريعة الإسلامية ـ وهي قانون الأمة والحضارة والمدنية ـ وأن العودة إلى هذه المرجعية يجب أن تقوم على أساس سعي مصر إلى تحقيق الاستقلال السياسي؛ لأن الاستقلال الفقهي والقانوني شرط لتحقيق هذا الاستقلال السياسي.

اغتنم السنهوري تلك المناسبة ـ العيد الخمسيني للمحاكم الأهلية المصرية ـ ليثير

(١٤) المرجع السابق ص١٨، و١٩.

قضية المرجعية الإسلامية للقانون المدني المصري، بدلاً من المرجعية الفرنسية التي فرضها الاستعمار.. فكتب وحاضر عن «وجوب تنقيح القانون المدني المصري.. وعلى أي أساس يكون التنقيح»، فأضاف إلى تراثه الفكري آثاراً مضيئة بجهاده في سبيل أسلمة القانون [١٥].

ومن يرجع إلى أعمال السنهوري يجد أنه كان دائم التفكير في البحث عن أفضل السبل لوضع التقنينات العصرية وفق المرجعية الشرعية الإسلامية؛ ليس في مصر وحدها، وإنما في جميع البلدان العربية. وكانت انتقاداته للتقنينات المدنية في كل من مصر، وتونس، ومراكش، ولبنان، منطلقة من أنها نبذت الشريعة، فيما عدا الأحوال الشخصية، وأخذت بالتقنينات الأجنبية، وخصوصاً الفرنسية.

وبالنسبة للتقنين المدني المصري «القديم»، كان للسنهوري دور أساسي في تنقيحه تنقيحاً شاملاً من ناحية، واعتماد الفقه الإسلامي مصدراً أساسياً من مصادر التنقيح. أما التقنين المدني الجديد «الذي بدأ العمل به في أكتوبر ١٩٤٩م»، فقد استبقى ما أخذه التقنين المدني القديم عن الفقه الإسلامي، وأضاف مسائل جديدة. والأهم من ذلك كله هو أن السنهوري جعل الفقه الإسلامي مصدراً رسمياً للقانون المدني، يأتي بعد النصوص التشريعية والعرف، ويتقدم مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة.

نود بإشارتنا هنا إلى مرجعية الفقه الإسلامي في التقنين المدني المصري «١٩٤٩م» أن نصحح انطباعاً سائداً خاطئاً لدى الأجيال الجديدة، مؤداه أن هذا التقنين مستورد بأكمله من القوانين الأجنبية، والفرنسية على وجه الخصوص.. صحيح أن ثلاثة أرباع هذا التقنين أخذت من التقنين المدني القديم «١٨٨٣م»، وهي أخذت بدورها ـ في أغلبها ـ من التقنين الفرنسي، إلا أن جوانب مهمة من هذا التقنين استقيت مباشرة من الفقه وأحكام الشريعة الإسلامية، ومن ذلك الأحكام الخاصة بنظرية التعسف في استعمال الحق، وحوالة الدين، ومبدأ الحوادث غير المتوقعة، وبيع المريض مرض الموت، والغبن، وتبعة الهلاك في البيع، وغرس الأشجار في العين المؤجرة، والعلو والسفل والحائط المشترك. والأهلية، والهبة، والشفعة، ومبدأ لا تركة إلا بعد سداد الدين، وكلها أحكام لها أهميتها البالغة في الحياة العملية.

واستمد التقنين الجديد أيضاً من الفقه الإسلامي أحكاماً أخرى، بعضها أحكام عامة، وبعضها مسائل تفصيلية:

فمن الأحكام العامة التي أخذ بها التقنين المدني من الشريعة: النزعة الموضوعية، التي تخللت في كثير من نصوصه، وقد آثرها التقنين الجديد على النزعة الذاتية التي هي

(١٥) محمد عمارة، الدكتور عبدالرزاق السنهوري: إسلامية الدولة والمدنية والقانون، القاهرة، مكتبة دار السلام ٢٠٠٩م.
http://www.islamonline.net/iol-arabic/qadaya/sunhory/sun2 -5.asp

طابع القوانين اللاتينية، وجعل الفقه الإسلامي عمدته في الترجيح. ومن هذه المبادئ أيضاً نظرية التعسف في استعمال الحق، التي لم يقتصر فيها على المعيار الشخصي، بل ضم إليها معياراً موضوعياً في الفقه الإسلامي يقيد استعمال الحق بالمصالح المشروعة، ويتوقى الضرر الجسيم الذي قد يصيب الغير من استعماله. وكذلك الأمر في حوالة الدين، أغفلتها القوانين اللاتينية، ونظمها الفقه الإسلامي، فأخذ بها التقنين المدني المصري.

وهنا أيضاً مبدأ الحوادث الطارئة، أخذ به بعض التقنينات الحديثة، ولكن التقنين المدني المصري رجع إلى الفقه الإسلامي ورجح الأخذ به استناداً إلى نظرية الضرورة، ونظرية العذر.

ومن الأحكام التي استحدثها التقنين الجديد أيضاً مستمداً إياها من الفقه الإسلامي مسائل تفصيلية منها: ما يتعلق بمجلس العقد، وإيجار الوقف، والحكر، وإيجار الأراضي الزراعية، وهلاك الزروع في العين المؤجرة، وانقضاء الإيجار بموت المستأجر، وفسخه بالعذر، ووقوع الإبراء من الدين بإرادة الدائن وحده[16].

ولتأكيد مرجعية مبادئ الشريعة الإسلامية في التقنين المدني، نصت المادة الأولى منه على أنه «إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه، حكم القاضي بمقتضى العرف، فإذا لم يوجد فبمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية، فإذا لم يوجد فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة». ويعقب السنهوري على هذا النص بقوله «إن ذلك يجعل دراسة «الشريعة» في ضوء القانون المقارن أمراً ضرورياً، لا من الناحية النظرية الفقهية فحسب، بل كذلك من الناحية من الناحية العملية التطبيقية. فكل من الفقيه والقاضي أصبح الآن مطالباً بأن يستكمل أحكام القانون المدني؛ فيما لم يرد فيه نص، ولم يقطع فيه عرف، بالرجوع إلى أحكام الفقه الإسلامي، ويجب عليه أن يرجع إلى هذه الأحكام قبل أن يرجع إلى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة، بل لعل أحكام الشريعة وهي أدق تحديداً وأكثر انضباطاً من مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة، هي التي تحل محل هذه المبادئ والقواعد، فتغنينا عنها في كثير من المواطن»[17].

ثم قال بالحرف الواحد: «هذا هو الحد الذي وصل إليه التقنين الجديد في الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية، عدا المسائل التي أخذها بالذات من الفقه الإسلامي، وهي المسائل التي تقدم ذكرها. أما جعل الشريعة الإسلامية هي الأساس الأول الذي يبنى عليه تشريعنا المدني، فلايزال أمنية من أعز الأماني التي تختلج بها الصدور، وتنطوي عليها الجوانح، ولكن قبل أن تصبح هذه الأمنية حقيقة واقعة، ينبغي أن تقوم نهضة علمية قوية لدراسة الشريعة الإسلامية في ضوء القانون المقارن، ونرجو أن

(١٦) عبدالرزاق السنهوري، الوسيط، مرجع سابق، ج١/ ص٤٤ ـ ٤٧.

(١٧) المرجع السابق، ص٤٨.

يكون من وراء جعل الفقه الإسلامي مصدراً رسمياً للقانون الجديد ما يعاونه على قيام هذه النهضة»[18].

يرى الدكتور محمد عمارة أن السنهوري باشا كان رائداً بين رجال القانون في فتح باب المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الأوروبية الوافدة، وقد أثبت تفوق الشريعة وتميزها من كل وجه وبكل اعتبار على تلك القوانين؛ فالشريعة عند السنهوري كانت ـ تاريخياً وعبر أكثر من عشرة قرون ـ هي القانون الواحد الموحد لكل الأمة، على اختلاف مللها الدينية، ومن ثم كانت عامل وحدة للأمة والثقافة والمدنية، أما في ظل مرجعية القانون الفرنسي ـ والتي يحسب البعض أن «وضعيته» هي عامل توحيد لطوائف الأمة الدينية ـ فلقد تراجعت وحدة القانون ووحدة المحكمة في واقع الأمة.. الأمر الذي يجعل إعادة المرجعية للشريعة الإسلامية في القانون الحديث جهداً قومياً مثمراً لإعادة الوحدة القانونية للأمة من جديد.. فإسلامية القانون هي سبيل وحدة الأمة، وليست علمنة القانون.

وقد يظن البعض أن مسائل الأحوال الشخصية لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، لا تطبق عليها أحكام الشريعة الإسلامية.

والسنهوري يرى أن مثل هذا الظن خطأ شائع، وأنه يؤدي إلى شق وحدة الأمة، ومن ثم يهدد تماسكها الوطني في ظل الدولة الحديثة.

في رأي السنهوري أن هذه القضية من أخطر القضايا التي لا يجوز الاعتذار عن الإطالة فيها «لأن الموضوع جد خطير» على حد قوله[19] وقد ذهب إلى أن ثمة خطأ شائعاً بشأن التزام أهل الكتاب لأحكام الإسلام، فيظن كثير من الكتاب أن الشريعة الإسلامية قانون شخصي، فلا يطبق إلا على المسلمين، وأن أهل الكتاب في دار الإسلام قد تركوا وما يدينون، لا في معتقداتهم الدينية وعباداتهم وحدها، بل فيها وفي معاملاتهم المدنية.

ومن أصحاب هذا الرأي «الخطأ» صليب سامي بشا الذي كان يرى أن «الشريعة تقضي في موضوعنا بأمرين:

الأول: أن القاضي المسلم غير مختص بنظر قضايا الأحوال الشخصية لغير المسلمين ـ وبخاصة قضايا المواريث ـ إلا إذا تراضوا على قضائه، وفي حالة تراضيهم، يفصل القاضي المسلم في قضايا غير المسلمين على مقتضى حكم الشريعة الإسلامية.

الثاني: عند عدم التراضي يفصل في قضايا غير المسلمين قاضيهم الملي، ويحكم على مقتضى حكم دينهم».

ويعقب السنهوري على ما ذهب إليه صليب سامي بأن «واقع الأمر أن فقهاء الشريعة أبعد ما يكونون عن الاتفاق على هذا الأمر، بل هم يكادون يكونون متفقين على العكس ونحن في أشد الحاجة للرجوع إلى مراجع الفقه المطولة

(١٨) المرجع نفسه، هامش ص٤٨.

(١٩) انظر: السنهوري، وصية غير المسلم لا تجوز إلا في الثلث ولغير الوارث، مقالات وأبحاث الأستاذ الدكتور عبدالرزاق السنهوري، مجلة القانون والاقتصاد، مرجع سابق، ص٥١٣.

حتى تصحح هذا الخطأ الشائع الذي وقع فيه حتى صاحب كتاب مرشد الحيران، وتقل عنه كتاب من الأجانب، لم تواتهم الفرصة فيدرسوا الفقه الإسلامي دراسة أعمق».

وبعد أن أورد السنهوري نماذج من الآراء التي وقعت في هذا الخطأ، شرع في البرهنة على وجوب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية لغير المسلمين، وانتهى إلى أن «ولاية القضاء الإسلامي لا ترتفع عن الذميين، حتى في الأنكحة؛ ما دام أحد الخصمين استعدى هذا القضاء على خصمه، أما إذا تراضوا جميعاً على قضاء دينهم، فهنا هو التحكيم، وهو جائز للذميين جوازه للمسلمين، ولا يعتبر هذا قضاءً، بل تحكيماً»[20].

وذهب السنهوري خطوة أخرى في سعيه لإعادة تأسيس التقنينات الحديثة وفق المرجعية الإسلامية، وبما يخدم مبدأ الوحدة الوطنية وتماسك الأمة؛ وذلك بتأكيده على أن تداخل المعاملات مع الأحوال الشخصية، الأمر الذي دعا إليه عند وضع القانون المدني المصري الجديد، وخطأ الفصل بينهما، كان يرى وجوب إدماج مسائل الأحوال الشخصية فيه.

يقول «لا معنى لشطر القانون شطرين، بين معاملات وأحوال شخصية، فالتقنين الجديد يجب أن يكون شاملاً لكل المسائل التي يحتويها القانون المدني الكامل، ولا نقصد بهذا أن ننقل تشريع الأحوال الشخصية من التشريعات الغربية، بل يجب أن يكون تشريعنا في هذه المسائل منقولاً من الشريعة الإسلامية، مع جعله ملائماً لأن ينطبق على غير المسلمين من المصريين، فيكون لنا بذلك تشريع عام في الأحوال الشخصية، يخضع له جميع المصريين، مع احترام العقائد الدينية، وعدم المساس بها، فنحن - إذن - لا نريد بإدماج الأحوال الشخصية في القانون المدني أن تنتقص من سلطان الشريعة الإسلامية، بل على العكس من ذلك، نحن نحب امتداد هذا السلطان إلى دائرة المعاملات نفسها، ولكننا نريد أن نحصل على مزية التقنين في جميع تشريعنا المدني أما في الحالة الحاضرة «يقصد في الثلاثينيات من القرن العشرين» فلا يزال تصف قانوننا المدني غير مقنن، ولا علة لهذا سوى وهم قام بالذهن من أن الشريعة الإسلامية يجب البحث عنها في بطون كتب الفقهاء، مع أن تقنينها أمر ليس بالصعب، بل هو قد تم بالفعل، وقد قام به الأتراك رسمياً في «مجلتهم» المشهورة، وقام به فذ من المصريين هو المرحوم «محمد قدري باشا» فوضع كتباً قيمة يقنن فيها أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية وفي المعاملات وفي الوقف، فلتقنين الشريعة إذن سوابق معروفة»[21].


محمد قدري باشا

«٢٠» الرجع السابق، ص٢٤.

وحسب رأي السنهوري أيضاً؛ فإن الشرع المصري قد قنن بالفعل بعض أحكامها في شكل تشريعات خاصة، أدمج بعضها في لائحة ترتيب المحاكم الشرعية، وبقي البعض الآخر منفصلاً وكان - رحمه الله - يتساءل: «لماذا لا نقوم بالعمل كاملاً، ونتولى - بمناسبة تنقيح القانون المدني - تقنين جميع أحكام الأحوال الشخصية؟ ونتتهز هذه الفرصة فنختار من كتب الفقهاء المسلمين في هذه المسائل ما يكون أكثر اتفاقاً مع روح العصر، دون أن نتقيد بمذهب معين، فيكون تقنين أحكام الأحوال الشخصية ليس مجرد تقنين، بل هو إصلاح قانوني شامل، نحس جميعاً أن البلاد متعطشة له، بل هو لا يكون إصلاحاً فحسب؛ إذ نحب أن تكون الأحكام التي نقننها من الشريعة الإسلامية قابلة للتطبيق على غير المسلمين من المصريين، وإذا اقتضى الأمر أن نقنن أحكاماً خاصة بغير المسلمين أمكن إدماج هذه الأحكام في تقنين الأحوال الشخصية، على أن يقتصر تطبيقها على غير المسلمين، وبهذا يخلص لنا تقنين مدني كامل، معروف الأحكام بين السبيل»[22].

لقد تعددت محاولات العلامة السنهوري في تقنين أحكام الشريعة، وكانت له أكثر من تجربة في صوغ التقنينات المدنية «العراق، ومصر، وسوريا، وليبيا والكويت، ودستور الإمارات وبعض قوانينها، ودستور السودان» وبلغ إيمانه بوجوب إعادة صوغ جميع التقنينات الحديثة وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وفي ضوء اجتهادات الفقهاء المسلمين بمختلف مذاهبهم، أن دعا إلى بذل الجهود لوضع تقنين مدني عربي موحد، يكون مرجعه الأساسي هو الفقه الإسلامي، وسجل رغبته هذه في المقدمة الافتتاحية لكتابة الضخم «الوسيط» الذي شرح به القانون المدني المصري الجديد الذي كان قد صدر سنة ١٩٤٩م، ومما جاء في تلك المقدمة قوله «في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين» أنه قد «حان الوقت ليتعاون الفقهاء المصريون مع زملائهم فقهاء سورية والعراق، ويتكاتفوا جميعاً لإرساء أساس قوي للقانون المدني العربي، يكون قوامه الفقه الإسلامي؛ قانون المستقبل للبلاد العروبة جميعاً»[23].

«يتبع»

«٢١» انظر: محمد عمارة، الدكتور عبدالرزاق السنهوري، مرجع سابق.

«٢٢» محمد عمارة، المرجع السابق.

«٢٣» انظر: السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني الجديد، مرجع سابق، الكلمة الافتتاحية /ج١/ ص«و».

الإسلام والديمقراطية



للأستاذ الدكتور/ القصبي زلط
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ما هو جوهر الديمقراطية؟

إن جوهر الديمقراطية ـ بعيداً عن التعريفات والمصطلحات الأكاديمية ـ أن يختار الناس من يحكمهم ويسوس أمرهم، وألا يفرض عليهم حاكم يكرهونه، أو نظام يكرهونه، وأن يكون لهم حق محاسبة الحاكم إذا أخطأ، وحق عزله وتغييره إذا انحرف، وألا يساق الناس ـ رغم أنوفهم ـ إلى اتجاهات أو مناهج اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو سياسية لا يعرفونها ولا يرضون عنها، فإذا عارضها بعضهم كان جزاؤه التشريد والتنكيل، بل التعذيب والتقتيل.

هذا هو جوهر الديمقراطية

وإذا نظرنا إلى هذا الجوهر فإنه يتفق مع الإسلام، فالإسلام يكره أن يؤم الناس في الصلاة من يكرهونه، ولا يرضون عنه، وفي الحديث: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً...» وذكر أولهم «رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون...»[1].

وإذا كان هذا في الصلاة فكيف في أمور الحياة والسياسة؟

وفي الحديث الصحيح «خيار أئمتكم ـ أي حكامكم ـ: الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ـ أي تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[2].

كذلك نعى الإسلام على الحكام الظلمة الذين يسوقون الناس قهراً، ويسكتون كل ناطق بالحق، أو مجاهر بالنقد.

كما نعى على من يساندهم ويعاونهم ويمشون في ركابهم ويحرقون البخور بين أيديهم فقال عليه الصلاة والسلام لكعب بن عجرة يوماً: «أعاذك الله من إمارة السفهاء يا كعب!» قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون بعدي لا يهدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني، وأنا منهم، وسيردون عليَّ حوضي»[3].

ولم يُعْفِ الشعوب التي تستكن للظلم وتخضع له ولا تحرك ساكنا بل حملها جزءا من المسئولية؛ لأنها هي التي أطمعت الحكام في الظلم والاستبداد بسكوتها كما قال سبحانه:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

(الزخرف: ٥٤)

وإذا كانت الديمقراطية الغربية قد اهتدت خلال كفاحها مع الحكام المستبدين إلى وسائل تضمن حماية الشعوب من التسلط والقهر، فلا حرج أن نقتبس منها ومن وسائلها ما يتفق مع الإسلام ونرفض ما لا يتفق معه.

يقول القرضاوي:



دولة الإسلام تقوم على أفضل ما في الديمقراطية من مبادئ، ولكنها ليست نسخة من الدولة الديمقراطية الغربية.

إنها توافق الديمقراطية الغربية في ضرورة اختيار الأمة لمن يحكمها، فلا يجوز أن يفرض عليها من يقودها رغم أنفها.

وتوافقها في أنه مسئول أمام ممثليها من أهل الشورى، وأصحاب الحل والعقد فيها حتى إن لهم أن يعزلوه إذا انحرف وجار، ولم يستمع لنصح الناصحين.

وتزيد عليها أنها تجعل لكل فرد في الأمة ـ رجلاً كان أم امرأة ـ أن ينصح للحاكم، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، بما له من ولاية المؤمن على المؤمن، أيًا كان منصبه ومنزلته:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

(التوبة: ٧١)

كما أن الديمقراطية الغربية ـ على ما لها من محاسن ـ لا تحكمها أصول تقيدها ولا قيم تضبط سيرها، فتستطيع ـ باسم ممثلي الشعب ـ أن تلغي الفضائل وأن تقرر الرذائل، وأن تقنن المظالم، وأن تحل الحرام، وأن تحرم الحلال، حتى قيل في البرلمان الإنجليزي: إنه يستطيع أن يقرر أي شيء، إلا أن يحول الرجل إلى امرأة أو المرأة إلى رجل!

ولهذا رأينا الديمقراطية الأمريكية تبيح الخمر: شربا وصناعة واتجاراً، برغم ما ثبت لها من أضرارها المادية والمعنوية على الأفراد والأسر والمجتمعات وعلى الاقتصاد والأخلاق، ووجدنا بعض الديمقراطيات الغربية يبيح زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء!

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٧١) وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان في صحيحه ـ الموارد (٣٧٧) وكلاهما عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم عن عوف بن مالك.

(٣) رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح، كما في الترغيب للمنذري، والزوائد للهيثمي (٥/٢٤٧).

إن الديمقراطية الغربية تستطيع أن تتحلل من أي شيء، حتى من الديمقراطية نفسها، بأغلبية خاصة، أو باستفتاء شعبي، أو غير ذلك من الحيل، حتى قال أحد حكام العرب يوماً: إن للديمقراطية أنياباً ومخالب! وإنها يمكن أن تكون أشرس من الدكتاتورية!

والديمقراطية الغربية ـ وإن لم ننكر مزاياها ـ توجهها قوى ظاهرة وخفية لخدمة مصالحها، فلا غرو أن وجدنا الديمقراطيات الرأسمالية تبيح الربا والاحتكار لما يحققانه من منافع لطبقات ذات قوة ونفوذ، وإن أضرا بمصالح الجماهير الغفيرة في المجتمع.

فإن قال قائل: إن الديمقراطية تعني حكم الشعب بالشعب، ويلزم من ذلك رفض المبدأ القائل: إن الحاكمية لله؟!

ونقول: هذا القول غير مسلّم فمبدأ «الحكم للشعب» الذي هو أساس الديمقراطية: ليس مضاداً لمبدأ «الحكم لله» الذي هو أساس التشريع الإسلامي، إنما هو مضاد لمبدأ «الحكم للفرد» الذي هو «أساس الدكتاتورية».

فليس يلزم من المناداة بالديمقراطية رفض حاكمية الله للبشر، فأكثر الذين ينادون بالديمقراطية لا يخطر هذا ببالهم، وإنما الذي يعنونه ويحرصون عليه هو رفض الدكتاتورية المتسلطة، رفض حكم المستبدين بأمر الشعوب من سلاطين الجور والجبروت وهو الذي سماه الحديث (الملك العاض) أو (ملك الجبرية) أي ملك التجبّر والطغيان.

أجل، كل ما يعني هؤلاء من الديمقراطية أن يختار الشعب حكامه كما يريد، وأن يحاسبهم على تصرفاتهم، وأن يرفض أوامرهم إذا خالفوا دستور الأمة، وبعبارة إسلامية: إذا أمروا بمعصية، وأن يكون له الحق في عزلهم إذا انحرفوا وجاروا، ولم يستجيبوا لنصح أو تحذير.

المراد بمبدأ (الحاكمية لله)

وأحب أن أنبه هنا على أن مبدأ «الحاكمية لله» مبدأ إسلامي أصيل، قرره جميع الأصوليين في مباحثهم عن «الحكم» الشرعي، وعن «الحاكم»، فقد اتفقوا على أن «الحاكم» هو الله تعالى، والنبي مبلغ عنه، فالله تعالى هو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويحكم ويشرع.

وقول الخوارج: «لا حكم إلا لله»، قول صادق في نفسه، حق في ذاته، ولكن الذي أنكر عليهم هو وضعهم الكلمة في غير موضعها، واستدلالهم بها على رفض تحكيم البشر في النزاع، وهو مخالف لنص القرآن الذي قرر التحكيم في أكثر من موضع، ومن أشهرها التحكيم بين الزوجين إن وقع الشقاق بينهما.

ولهذا رد أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه على الخوارج بقوله: «كلمة حق أريد بها باطل» فقد وصف قولهم بأنه «كلمة حق» ولكن عابهم بأنهم أرادوا بها باطلاً.

وكيف لا تكون كلمة حق وهي مأخوذة من صريح القرآن:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

(يوسف: ٤٠)

فحاكمية الله تعالى للخلق ثابتة بيقين، وهي نوعان:

١ ـ حاكمية كونية قدرية، بمعنى أن الله هو المتصرف في الكون، المدبر لأمره الذي يجري فيه أقداره، ويحكمه بسننه التي لا تتبدل، ما عرف منها وما لم يعرف، وفي مثل هذا جاء قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

(الرعد: ٤١)

فالمتبادر هنا أن حكم الله يراد به: الحكم الكوني القدري لا التشريعي الأمري.

٢ ـ حاكمية تشريعية أمرية، وهي حاكمية التكليف والأمر والنهي والإلزام والتخيير، وهي التي تجلت فيما بعث الله به الرسل، وأنزل الكتب، وبها شرع الشرائع وفرض الفرائض، وأحل الحلال، وحرم الحرام.

وهذه لا يرفضها مسلم رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

والمسلم الذي يدعو إلى الديمقراطية إنما يدعو إليها باعتبارها شكلاً للحكم يجسد مبادئ الإسلام السياسية في اختيار الحاكم، وإقرار الشورى والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الجور، ورفض المعصية، وخصوصاً إذا وصلت إلى «كفر بواح» فيه من الله برهان.

ومما يؤكد ذلك أن الدستور ينص ـ مع التمسك بالديمقراطية ـ على أن دين الدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هي مصدر القوانين، وهذا تأكيد لحاكمية الله، أي حاكمية شريعته، وأن لها الكلمة العليا.

ويمكن إضافة مادة في الدستور صريحة واضحة: أن كل قانون أو نظام يخالف قطعيات الشرع، فهو باطل، وهي في الواقع تأكيد لا تأسيس.

لا يلزم ـ إذن ـ من الدعوة إلى الديمقراطية اعتبار حكم الشعب بديلاً عن حكم الله، إذ لا تناقض بينهما.

ولو كان ذلك لازماً من لوازم الديمقراطية، فالقول الصحيح لدى المحققين من علماء الإسلام: أن لازم المذهب ليس بمذهب، وأنه لا يجوز أن يكفر الناس أو يفسّقوا أخذاً لهم بلوازم مذاهبهم، فقد لا يلتزمون بهذه اللوازم، بل قد لا يفكرون فيها بالمرة.

فإن قال قائل آخر: إن الديمقراطية مبدأ مستورد ولا صلة له بالإسلام فهي تقوم على تحكيم رأي الأكثرية، واعتبارها صاحبة الحق في تنصيب الحكام، وفي تسيير الأمور، وفي ترجيح أحد الأمور المختلف فيها، فالتصويت في الديمقراطية هو الحكم والمرجع، فأي رأي ظفر بالأغلبية المطلقة، أو المقيدة في بعض الأحيان، فهو الرأي النافذ، وربما كان خطأ أو باطلاً.

هذا مع أن الإسلام ـ في نظرهم ـ لا يعتد بهذه الوسيلة، ولا يرجح الرأي على غيره لموافقة الأكثرية عليه، بل ينظر إليه في ذاته: أهو صواب أم خطأ؟ فإن كان صواباً نفذ، وإن لم يكن معه إلا صوت واحد، أو لم يكن معه أحد، وإن كان خطأ رفض، وإن

كان معه (٩٩) من الـ(١٠٠) !!

بل إن نصوص القرآن تدل على أن الأكثرية دائماً في صف الباطل، وفي جانب الطاغوت، كما في مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(الأنعام: ١١٦)

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(يوسف: ١٠٣)

وتكرر في القرآن مثل هذه الفواصل القرآنية:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف: ١٨٧)

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(العنكبوت: ٦٣)

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(هود: ١٧)

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٤٣)

كما دلت على أن أهل الخير والصلاح هم الأقلون عدداً، كما في قوله تعالى:

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

(سبأ: ١٣)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾

(ص: ٢٤)

وهذا الكلام مردود على قائله، وهو قائم على الغلط أو المغالطة.

فالمفروض أننا نتحدث عن الديمقراطية في مجتمع مسلم، أكثره ممن يعلمون ويعقلون ويؤمنون ويشكرون، ولسنا نتحدث عن مجتمع الجاحدين أو الضالين عن سبيل الله.

الثوابت لا يتدخل فيها التصويت

ثم إن هناك أموراً لا تدخل مجال التصويت، ولا تُعرض لأخذ الأصوات عليها؛ لأنها من الثوابت التي لا تقبل التغيير، إلا إذا تغير المجتمع ذاته ولم يعد مسلماً.

فلا مجال للتصويت في قطعيات الشرع، وأساسيات الدين، وما علم منه بالضرورة وإنما يكون التصويت في الأمور الاجتهادية التي تحتمل أكثر من رأي ومن شأن الناس أن يختلفوا فيها، مثل اختيار أحد المرشحين لمنصب ما، ولو كان هو منصب رئيس الدولة، ومثل إصدار قوانين لضبط حركة السير والمرور أو لتنظيم بناء المحلات التجارية أو الصناعية أو المستشفيات أو غير ذلك مما يدخل فيما يسميه الفقهاء «المصالح المرسلة» ومثل اتخاذ قرار بإعلان الحرب أو عدمها، وبفرض ضرائب معينة أو عدمها، وبإعلان حالة الطوارئ أو لا، وتحديد مدة رئيس الدولة، وجواز تجديد انتخابه أو لا، وإلى أي حد.. إلخ.

فإذا اختلفت الآراء في هذه القضايا، فهل تترك معلقة أو تحسم، هل يكون ترجيح بلا مرجح؟ أو لابد من مرجح؟

الكثرة العددية مرجح معتبر ودليل ذلك:

أن منطق العقل والشرع والواقع يقول: لابد من مرجح، والمرجح في حالة الاختلاف هو الكثرة العددية، فإن رأي الاثنين أقرب إلى

الصواب من رأي الواحد.

الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد:

وفي الحديث: «إن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد»[٤].

حديث «ولو اجتمعتما على مشورة»

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما على مشورة ما خالفتكما»[٥] إذ معنى ذلك أن صوتين يرجحان صوتاً واحداً، وإن كان هو صوت النبي ﷺ، ما دام ذلك بعيداً عن مجال التشريع والتبليغ عن الله تعالى.

النزول على رأي الكثرة في أحد:

كما رأيناه ﷺ ينزل على رأي الكثرة في غزوة أحد، ويخرج للقاء المشركين خارج المدينة، وكان رأيه ورأي كبار الصحابة البقاء فيها والقتال من داخل الطرقات.

الستة أصحاب الشورى:

وأوضح من ذلك موقف عمر في قضية الستة أصحاب الشورى، الذين رشحهم للخلافة وأن يختاروا بالأغلبية واحداً منهم، وعلى الباقي أن يسمعوا ويطيعوا، فإن كانوا ثلاثة في مواجهة ثلاثة، اختاروا مرجحاً من خارجهم، وهو عبدالله ابن عمر، فإن لم يقبلوه، فالثلاثة الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف.

أما قول من قال: إن الترجيح إنما يكون للصواب وإن لم يكن معه أحد، وأما الخطأ فيرفض ولو كان معه (٩٩ من المائة) إنما يصدق في الأمور التي نص عليها الشرع نصاً ثابتاً صريحاً يقطع النزاع، ولا يحتمل الخلاف، أو يقبل المعارضة، وهذا قليل جداً.. وهو الذي قيل فيه: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

أما القضايا الاجتهادية، مما لا نص فيه أو ما فيه نص يحتمل أكثر من تفسير، أو يوجد له معارض مثله أو أقوى منه، فلا مناص من اللجوء إلى مرجح يحسم به الخلاف، والتصويت وسيلة لذلك، عرفها البشر، وارتضاها العقلاء، ومنهم المسلمون، ولم يوجد في الشرع ما يمنع منها، بل وجد في النصوص والسوابق ما يؤيدها.



(٤) رواه الترمذي في الفتن عن عمر (٢١٦٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. قال: وقد روي هذا من غير وجه عن عمر، ورواه الحاكم (١/١١٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٥) رواه أحمد عن عبدالرحمن بن غنم الأشعري (٤/٢٢٧) وفي سنده شهر بن حوشب، وقال ابن حجر في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، وقد وثقه الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند.

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

إسرائيل.. وقواتها المسلحة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ مرسى عطا الله المنشورة بجريدة «الأهرام» بعددها الصادر بتاريخ: ٩/ ١/ ٢٠١٢م يقول:

شغلتنا أحداث الداخل ـ مع التسليم بأهميتها ـ بأكثر مما ينبغي ومن ثم لم نلتفت كثيرا لما استجد من أخطار تهدد أمننا القومي وتخل بالتوازن الاستراتيجي في المنطقة بعد أن رفعت إسرائيل ميزانيتها العسكرية عدة مرات «سرا» خلال عام ٢٠١١م لتصل إلى ما يقرب من ١٦ مليار دولار سنويا والشروع في مطالبة أمريكا بمساعدات عسكرية إضافية قيمتها ٢٠ مليار دولار.

والحقيقة أنه لا صوت يعلو في إسرائيل على صوت المؤسسة العسكرية وربما يكون هذا الكتاب دليلا على ذلك.. اسم الكتاب «المجتمعات الديمقراطية وقواتها المسلحة.. إسرائيل في إطار مقارنة» والمؤلف هو الصحفي ستيوارت كوهين الذي حرر كتابه في شكل حوارات صحفية ومن هنا فإن الكتاب والمساهمات الواردة فيه تنبع من توفيره صورة تشريحية وحديثة لعلاقة الجيش الإسرائيلي مع المجتمع وموقعه في العملية السياسية، وهي صورة يقدمها أكاديميون من وجهة نظر متعاطفة مع إسرائيل وحريصة عليها.

ويرتكز الكتاب على فكرة أساسية قوامها أن الجيش الإسرائيلي وفكرة القوة المتفوقة التي تردع جيرانها وتخيفهم تحتل موقع القلب في المشروع الصهيوني في فلسطين منذ تحققه سنة ١٩٤٨م بل أكثر من ذلك ليس ثمة مبالغة في وصف إسرائيل بأنها لم تكن ـ ولا تزال ـ سوى مجتمع حرب.

وبسبب الطبيعة العسكرية لهذا المجتمع والدولة فإن نقطة الخلاف الأولى مع الكتاب والتوجه العام للمساهمات فيه تأتي من الافتراض الضمني بوجود جسمين يتبادلان التأثير والعلاقة هما: الجيش والمجتمع فالجيش هو الشريحة الأساسية من المجتمع الإسرائيلي، والمجتمع الإسرائيلي هو الرديف الاحتياط للجيش والمكمل له بسبب امتداد فترة الخدمة الإجبارية وتوسع عدد جنود وضباط الاحتياط.

أما الخلاف الأهم فهو عنونة الكتاب بما يسمى «ديمقراطية إسرائيل» والحديث عنها كحقيقة راسخة وفوق النقاش ومن ثم لا

نجد معالجات ولا مجرد تساؤلات عن مدى انطباق الوصف الديمقراطي على إسرائيل في حين أن خمس السكان (من العرب) يعانون من تمييز عنصري وحقوقي قائم على الإثنية والاختلاف الديني والقومي.

الإسلام في إسرائيل

تحت هذا العنوان كتبت الأستاذة ـ هيام سليمان في جريدة «الوفد» الصادرة في ٥/ ١/ ٢٠١٢م تقول:

تجدد الفزع في إسرائيل من تحول اليهود لاعتناق الإسلام.. بعد أن نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية نتائج دراسة أجراها إيتاك ريتر الأستاذ بمركز القدس للدراسات الإسرائيلية خلصت إلى أن ٢٠ يهودية يعتنقن الإسلام سنوياً.. زاعماً أنهن اعتنقن الإسلام ليتزوجن برجال مسلمين.

وقالت الصحيفة: إن الدعوة للإسلام بدأت تتخلل صفوف اليهود وأن دعاة الإسلام في إسرائيل رجال ملتحون يشبهون السلفيين يتقربون لليهود ويدعونهم للإسلام بلطف كما تتميز لغتهم العبرية بالطلاقة، فالداعية أبو حسن الذي تلقى تعليمه في إحدى الجامعات الإسرائيلية وجد عدد الدعاة للدين الإسلامي في إسرائيل غير كاف، لذا قرر هو وزملاؤه إنشاء «لجنة الرحمة للمسلمين الجدد» لمباشرة الدعوة والدعاة وتأليف الكتيبات الإسلامية باللغة العبرية مثل كتاب «الطريق للسعادة» وفيه يدعون اليهود للإسلام.

من جانبه أوضح «عماد يونس» ـ مؤسس اللجنة ـ أن غالبية من يعتنقون الدين الإسلامي من اليهود هم نساء وترجع أصولهن لروسيا أو أوروبا الشرقية، وفي آخر احتفالاتهم اعتنق ٥٥ يهوديا الإسلام جميعهن نساء، بينهن خمس سيدات ولدن وتربين في إسرائيل.

وقالت «ياسمين» التي تبلغ من العمر عشرين عاماً، وهي يهودية اعتنقت الإسلام: «لقد رحب بي المسلمون كما لم يرحب بي والداي وقالوا إنني أصبحت منهم ولا أملك الآن سوى زوجي والإسلام».

وقد أثار منذ أعوام إسلام حاخام يهودي زوبعة داخل المجتمع الإسرائيلي حيث اعتبر البعض أن هذا بمثابة خطر على اليهودية في إسرائيل في ظل الأصوات التي تنادي بيهودية الدولة، وكان يحمل أفكاراً صهيونية لإقامة إسرائيل الكبرى إلا أن الحياة في قطاع غزة لم تلائم ظروفه وظروف عائلته وقررت الانتقال للسكن في «نتيفوت» الواقعة في جنوب إسرائيل.

وتردد كوهين في تلك الفترة على عمله في الحي اليهودي في القدس القديمة، وبدأ هناك بإجراء أول اتصالاته مع مسلمين. وفي مرحلة معينة قام كوهين بمراسلة علماء دين مسلمين عبر الإنترنت، وبدأ في قراءة القرآن باللغة الإنجليزية. وقرر كوهين اجتياز جميع الحدود فأعلن إسلامه وغير اسمه ليصبح يوسف خطاب، وغيرت زوجته اسمها إلى قمر، وغير أسماء أولاده الذين يتعلمون اليوم في مدرسة إسلامية ويتحدثون اللغة العربية بطلاقة، وهو في مراحل متقدمة من تعلم اللغة العربية.

وانتقلت العائلة للسكن في حي جبل الطور في القدس الشرقية، وبدأ خطاب يعمل في جمعية إسلامية خيرية في المدينة.

هذا ولم يكتف خطاب بالتحول إلى الإسلام، بل ذهب مباشرة إلى أحضان التيار الإسلامي وتحول إلى داعية إسلامي وأسس في القدس مركزا للدعوة الإسلامية يقوم بنشاط واسع في أوساط اليهود حتى يعتنقوا الدين الإسلامي وفعلا اعتنق العشرات من اليهود الدين الإسلامي بفضل نشاطاته في الدعوة الإسلامية.

وتقوم السلطات الإسرائيلية منذ أن أعلن خطاب عن إسلامه بتضييق الخناق عليه ورفضت الاعتراف

به كمسلم حتى حصل مؤخراً بعد أن تعرض لمتاعب كبيرة على اعتراف وزارة الداخلية الإسرائيلية بعد تدخل حقوقى من مركز القدس للحقوق الاجتماعية والاقتصادية.

إسرائيل تريد سرقة العرب

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / رضا محمد لارى المنشور بجريدة «المدينة» الصادرة بتاريخ: ٩ / ١ / ٢٠١٢م يقول:

تعد إسرائيل لمفاجأة كبرى؛ لأنها تطالب فى الوقت الحاضر عن طريق مدير عام إدارة الأملاك بوزارة الخارجية الإسرائيلية بإعداد مشروع قانون سيطرح على البرلمان الإسرائيلى «الكنيست» فى شهر مارس من عامنا الحالى ٢٠١٢م يلزم الحكومة الإسرائيلية بمطالبة السلطات المصرية برد أملاك اليهود المصريين الذين تركوا المدن المصرية المختلفة فى بداية عام ١٩٤٨م تمهيداً لوضعها على مائدة المفاوضات الدولية فى حالة الضغط على إسرائيل بحق العودة للفلسطينيين إلى ديارهم فى فلسطين.

المشروع يطالب مصر وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان وسوريا والعراق ولبنان والأردن والبحرين بتعويضات عن أملاك ٨٥٠ ألف يهودى قيمتها ٣٠٠ مليار دولار أمريكى مقسمة فيما بينهم طبقاً للتعداد السكانى الأخير لليهود فى عام ١٩٤٨م.

ويعمل كبراء خبراء القانون الدولى والتاريخ والجغرافيا الإسرائيليون فى جامعات بارايلان وبئر السبع وتل أبيب، والقدس وحيفا بتمويل خاص حدد بمبلغ ١٠٠ مليون دولار أمريكى اقتطع من ميزانية وزارة الخارجية لعامنا الحالى ٢٠١٢م.

أما إيران فلها قسم خاص فى إطار المشروع نفسه حيث تطالبها إسرائيل بدفع مائة مليار دولار وحدها تعويضاً عن مئات القتلى والمفقودين من اليهود الإيرانيين داخل إيران دون أن يعلم مصيرهم حتى اليوم. كما أن إسرائيل تطالب البحرين هى الأخرى بالتعويضات عن أملاك أسر يهودية كانت تعيش فى المنامة ولها مدافن يهودية فى البحرين حتى اليوم طبقاً للمعلومات المتسربة من المشروع الإسرائيلى تحت إشراف وزير الخارجية أفيجدور ليبرمان.

ولا شك أن كل المحافل والمنظمات الدولية تدين هذا المطلب الإسرائيلى ولن يعبأ أحد فى الأسرة الدولية بهذا المطلب ويعتبره محاولة سرقة تقدم عليها إسرائيل فى وضح النهار لأن مطالبة التعويضات من العديد من دول الوطن العربى عن أملاك اليهود التى تركوها خلفهم عندما هاجروا من تلك الأوطان العربية إلى فلسطين المحتلة؛ هو مطلب عبثى وسرقة واضحة لأن كل اليهود الذين هاجروا من دول الوطن العربى قاموا ببيع كل ممتلكاتهم بموجب صكوك مسجلة فى المحاكم وثابتة وقبضوا ثمنها قبل أن يهاجروا منها، فلم يتركوا خلفهم ولا دراجة دون أن يقوموا ببيعها، وهذا ثابت فى كل السجلات التى تنظم نقل الملكية للأرض والعقار وأخذوا أموالهم نقداً معهم عند هجرتهم من البلاد العربية إلى فلسطين المحتلة.

سبق لإسرائيل أن رفعت هذه المطالب من قبل، وسبق الإثبات القاطع بأن اليهود المهاجرين باعوا كامل ممتلكاتهم ولم يتركوا خلفهم شيئاً من تلك الممتلكات دون بيع.. كما أن صحيفة الجارديان أجرت استفتاء لليهود المهاجرين عندما طالبت إسرائيل العراق بالتعويضات عن أملاك اليهود المهاجرين منها مستغلة فى ذلك الوجود الأمريكى فى العراق فطلبت تل أبيب فى عام ٢٠٠٣م مبلغ ٣٠ مليار دولار أمريكى من العراق واستطاعت العراق أن تثبت بالصكوك أن إسرائيل تقدمت بمطالب باطلة؛ لأن اليهود المهاجرين كما أن اليهود المهاجرين من الوطن العربى كله اعترفوا اعترافا صريحا بأنهم بالفعل قاموا ببيع ممتلكاتهم وإنما بثمن بخس والحجة الآن أن عملية البيع قد تمت بثمن بخس أو بثمن معتدل أو بثمن مرتفع فإن ذلك لا يلغى قيام عملية البيع أصلاً ويترتب عليه حصول اليهود المهاجرين من الوطن العربى على قيمة كل ممتلكاتهم.

من ناحية أخرى قامت هيئة دولية بالتحقيق أيضاً فى المطالب الإسرائيلية بتعويضات عن ممتلكات اليهود وقررت بعد البحث والدراسة أن التعويضات التى تطالب بها إسرائيل غير شرعية وغير منطقية كما أن هذه الهيئة الدولية فى لندن قررت أن التعويض الذى لا يقدر بثمن هو المستحق للفلسطينيين مقابل الوطن الفلسطينى الذى سلب من أهله ولم يهاجروا منه وإنما هُجِّروا إلى خارجه بعد أن تمت مصادرة أموالهم وبيوتهم ومزارعهم دون وجه حق وهذا وحده يحمل إسرائيل جريمة العدوان التى لا تقدر هى الأخرى بثمن فالوطن سلب والمال نهب، ولا تخجل إسرائيل من المطالبة بالتعويضات عن أموال يهودية هاجر أصحابها وقاموا ببيع كل ممتلكاتهم قبل هجرتهم.

إن إسرائيل تريد من وراء المطالبة بهذه التعويضات أن تساوم فى المفاوضات لمنع عودة الفلسطينيين إلى بلادهم.. كل هذه الحقائق تدحض المطالبة الإسرائيلية بالتعويضات من الوطن العربى.

أين فلسطين فى الثورات العربية؟

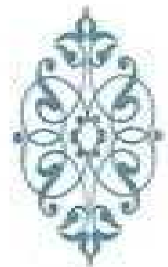
تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة / رندى حيدر المنشور بجريدة «النهار» اللبنانية الصادرة بتاريخ: ٦ / ١ / ٢٠١٢م وتقول فيه:

خابت كل الآمال التى علقها الفلسطينيون العام الماضى على إمكان ولادة الدولة الفلسطينية المستقلة، وخصوصا بعد مرور أيلول، وخطاب محمود عباس أمام الجمعية العمومية فى الأمم المتحدة من غير أن يشهد الوضع الفلسطينى أى تقدم ملموس، ومن دون حصول أى تحركات شعبية ضد الاحتلال الإسرائيلى كثر الكلام عنها. وقد زاد هذا كله مشاعر الإحباط الفلسطينى تفاقما ولاسيما فى ظل تعنت حكومة اليمين الإسرائيلى ومواصلتها خطط البناء فى المستوطنات فى الضفة الغربية ومدينة القدس.

والثابت حتى الآن أن الثورات التى يشهدها العالم العربى، لم تبدل فى المعادلة القائمة للنزاع الفلسطينى الإسرائيلى. فإذا كان ذهاب حكم حسنى مبارك فى مصر وفوز الإخوان المسلمين فى الانتخابات المصرية قد قوى النفوذ السياسى لحركة «حماس» فى قطاع غزة، وساهم إلى حد بعيد فى جهود المصالحة بين حركتى «فتح» و«حماس»، فإنه من غير الواضح حتى الآن كيف يمكن للتغيير الحاصل فى مصر أن يؤثر على المواقف الإسرائيلية المتعنتة من مسائل مثل البناء فى المستوطنات، وقبولها الحوار مع حكومة وحدة فلسطينية يمكن أن تضم فى صفوفها أفراداً من «حماس» التى تعتبرها إسرائيل حركة «إرهابية». كما من غير المعروف ما إذا كان القرار الإسرائيلى الذى اتخذ قبل أيام بضرورة فتح باب الحوار غير المباشر مع الإخوان المسلمين فى مصر سيؤثر على الموقف الإسرائيلى الرافض للتحاور مع «حماس». والسؤال الذى يطرح نفسه بقوة اليوم: ما هو موقع القضية الفلسطينية والنزاع العربى - الإسرائيلى على جدول أعمال الأحزاب الإسلامية القادمة إلى السلطة فى أكثر من دولة عربية؟ فهل تتصدر القضية الفلسطينية سلم الأولويات لهذه الأحزاب الإسلامية، أم يكون التركيز فى المراحل الأولى على الوضع الداخلى وعلى بناء مؤسسات الدولة والمجتمع فى هذه الدول التى لا تزال تعانى آثار المرحلة السابقة؟ كما أنه من غير الواضح حتى الآن كيف سيوظف عداء الأحزاب الإسلامية لإسرائيل فى مصلحة القضية الفلسطينية.

قراءة في كتاب

عباس محمود العقاد



عبقرية محمد





عرض وتقديم: الأستاذ عادل خفاجة

قبل أن نبدأ في قراءة هذا الكتاب نود أن نقول: إن هناك من يرفضون وصف النبي بالعبقرية فيقولون: إن الإنسان العبقري مهما كان ذكاؤه حادًا نجد في كلامه بعض السقطات وهذا كلام صحيح، وأن العبقري حين ينظر إلى شيء فإنما ينظر إليه من وجهة نظره الخاصة فإذا كان فقيرًا كان نظره فيه بمنظار الفقراء.. أي أن له نظرة طبقية.. وهذا لا نرفضه جملة.

ثم إن أهم ما في الموضوع أن العبقري مهما أوتي من ذكاء فليس مؤهلاً أن يكون مشرعاً للناس.

وإن صح تشريعه في عصر فلن يصح ذلك التشريع في العصور التالية.. ووجه الاعتراض هنا لا يختلف عليه أحد.. فلأجل ذلك يرفضون أن يوصف النبي بأنه عبقري.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن.. ماذا يمنع أن يكون النبي بشراً عبقرياً يوحى إليه حتى يؤدي ويبلغ ما أوحي إليه على أكمل وجه؟

نعم.. إننا نؤمن أن النبي بشر أعده الله إعداداً لهذه المهمة، فعناية الله تشمل كل الرسل وهي مع الرسول الخاتم أشمل.. ونحن إذا تأملنا بعض البشر ممن أفاض الله عليهم ووهبهم صفة العبقرية نجدهم مختلفون فيما أوتوا؛ لأن بعضهم عبقري في الأدب والآخر في الرياضيات وهذا في التخطيط.. إلى آخر هذه المجالات.. ولم نر فرداً اجتمعت له العبقرية في عدة مجالات.

فيبقى الاختصاص الواضح بين ما أوتي آحاد البشر وما وهب الله للنبي ﷺ في كثير من المجالات من الكمال الذي هو من لوازم النبوة ومقدماتها.

ويبرز السؤال: هل هناك فارق بين «العبقرية» و«الكمال»؟!

فإذا ذهبنا نبحث عن معنى العبقرية، وجدنا في معاني القرآن وإعرابه للزجاج أن: أصل العبقري في اللغة صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن العبقري ينسب إلى اسم بلد كان توشّى فيه البسط وغيرها، فنسب كل شيء جيد، وكل ما بولغ في وصفه إلى عبقر[1].. وقال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال عند العرب «عبقري» ومنه قول النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «لم أر عبقرياً يفري فرية»[2].

فهل الرفض الواقع على لفظ «عبقرية» سببه وروده بخبث في صياغة بعض المستشرقين الذين يريدون إسناد الرسالة المحمدية إلى عبقرية إنسان لا إلا رسول أرسله الله عز وجل؟!

فلعل هذا ما جعل المؤلف يعمد إليها لتصل إلى فهم أقوام أراد أن يخاطبهم باللغة التي يفهمونها وليس لتصل للمسلم فحسب، وهو ما نلمسه في قوله:

إنما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذي يثبت له الحب في قلب كل إنسان، وليس في قلب كل مسلم وكفى.

فمحمد هنا عظيم؛ لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس.. عظيم؛ لأنه على خلق عظيم.

لقد أفصح المؤلف إفصاحاً عن تعمده استخدام قياس المعاصرين حتى يكون أكثر إقناعاً لهم بعدما اختلت مقاييس التقدير.

ولأن هذا التقدير نافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها.. لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس.

ويؤكد على هذا القياس مرة أخرى فيقول: وحسبنا من «عبقرية محمد» أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان: عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد.

مؤلف الكتاب

مؤلف الكتاب هو الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، ولد العقاد في أسوان بجنوب مصر وللعقاد ثروة فكرية ضخمة تزيد عن المائة كتاب من أشهرها العبقريات وله في الدفاع عن الإسلام عشرات الكتب منها: هذا الكتاب الذي نعرضه للقراء «عبقرية محمد».. وله الديمقراطية في الإسلام، والمرأة في القرآن، والإنسان في القرآن، والتفكير فريضة إسلامية، بالإضافة إلى مئات المقالات التي نشرت في العديد من المجلات الأسبوعية والشهرية كمجلة الأزهر والرسالة والهلال.

وأسلوب العقاد يحتاج من القراء شيئاً من الروية للوصول إلى فهم مراميه العميقة التي اكتسبها الكاتب من ثقافته المتعددة وارتباطه الطويل بالثقافة الإسلامية.

أسباب تأليف الكتاب

يرجع المؤلف أسباب تأليف هذا الكتاب إلى واقعة حدثت قبل تأليف الكتاب بثلاثين سنة إذ يقول:

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة، إلى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام.

وكنت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام.

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب، غير أنها كانت حلية لهذه الجماعة، ولم تكن فيها من دواعي التفرق والشتات.

ثم يقول: ففي يوم من أيام المولد ـ والرهط يزورني لنؤم الساحة مجتمعين في المساء ـ كان الكاتب

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ ٥ ص١٠٥ عالم الكتب بيروت ١٩٨٨.

(٢) مشيخة ابن البخاري لجمال الدين بن الظاهري، المحقق ج١ ص٤٤٣ دار عالم الفوائد ـ مكة ١٤١٩هـ.

الإنجليزي العظيم «توماس كارليل» هو محور الحديث كله؛ لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية، صاحب كتاب «الأبطال» الذي عقد فيه فصلاً عن النبي محمد ﷺ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتمثيل.

وإنا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية. وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذلقا، يتظاهر بالمعرفة، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الإطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة.. فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج، وشيء عن البطولة، فحواه أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء!.

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول، أو خيل إليه أنه مقبول.

وتساءلنا: ما بالنا نقنع بتمجيد «كارليل» للنبي، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه.. ثم سألني بعض الإخوان: «ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد عن النمط الحديث؟».

قلت: «أفعل.. وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب»، ولكنه لم يتم في وقت قريب.. بل تم بعد ثلاثين سنة!..

ثم يعلل المؤلف لهذا التأخير بأن الخيرة في الواقع والخيرة كذلك في هذا التأخير، حيث نظر المؤلف إلى محصول الخبرة والقراءة والرياضة النفسية، والفكرية التي جمعها خلال هذه المدة لذلك تراه يقول:

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين؟

إنها مسافات في عالم الفكر والروح.. لو تمثلت مكانا منظوراً، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار.

كم رأي.. كم مذهب.. كم وسواس.. كم محنة.. كم مراجعة.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان.. كم، وكم في ثلاثين سنة مما يطرق نفساً لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض غمة عين في نهار.. وكم لذلك كله من أثر في توطيد الرأي وتهدئة الثوائر وتجلية الغبار.. وكم يضيف ذلك كله إلى الشباب الباكر الذي كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل أوج، وبالأوج المحمدي في عليا مراتب الأنبياء!

ويؤكد المؤلف أن هدف هذا الكتاب هو الرد على هؤلاء الأغرار والشانئين فيقول:

واليوم نحن نضع كتابنا هذا عن «عبقرية محمد» بين يدي القراء- لا نقول إننا قد استوفيناه كما أردناه، ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذي توخيناه.. ولكننا نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة.. كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل، التي يغلط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية.

الكتاب: يقع الكتاب في مائة وخمسين وأربع صفحات من قطع ١٧سم × ٢٤سم صدر عن نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة في طبعته الثانية عشرة في أغسطس ٢٠١٠.. وقد ضمن المؤلف كتابه أربعة عشر فصلاً هي: علامات مولد- عبقرية الداعي- عبقرية محمد العسكرية- عبقرية محمد السياسية- عبقرية محمد الإدارية- البليغ- محمد الصديق- محمد الرئيس- الزوج- الأب- السيد- العابد- الرجل- محمد في التاريخ.

علامات مولد

لقد ألقى المؤلف الضوء على أهم العناصر التي تشير إلى قرب ميلاد الرسول الهادي.. فبدأ ينظر في عمق الزمن ويطيل النظر إلى العالم، فوجد عالماً متداعياً قد شارف النهاية، فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر.

وجد «بيزنطة» قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها.

ووجد «فارس» قد سخر فيها المجوس من دين المجوس.

ووجد الحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة.. هذا عن حال العالم.

ثم نظر إلى هذه الدول المتداعيات، فوجد أمةً ليست بذات دولة، ولكنها تتأهب لإقامة دولة.. هي الأمة العربية، وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها.

ثم نظر فوجد مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة.. فإذا يمم ناحية القبيلة وجد قبيلة في تلك الأمة في تلك المدينة.. لها شعبتان إحداهما: من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم، كما كان قائماً على هواها.

والأخرى: من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوي الذي يجور ويطغى، وبين مقام الضعيف الذي يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة.

ثم نظر من وسط هذا كله إلى بيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق، وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبدالمطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا وإن لم يكن معدوداً من أثرياء القبيلة القرشية في ذلك الأوان.

ورأس هذا البيت - عبدالمطلب - رجل قوي الخلق، قوي الإيمان فيما آمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خليق أن ينجب العقب الذي يبشر بدعوة وينضح عن دين.

ثم يتابع المؤلف حديثه ليصل إلى الأب، فيقول: وإذا كان «عبدالمطلب» جداً صالحا لنبي كريم، فابنه «عبدالله» نعم الأب لذلك النبي الكريم.

وليقف عند عبدالله أقرب هذه الأصول الكريمة صلة برسول الله ليصفه بكلمة هي خلاصة ما تقدم إذا يقول: لكأنما كان بضعة من عالم الغيب، أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبياً وهي لا تراه، ثم تعود.

ويزيد المؤلف هذه الجملة إيضاحاً حين يكتب عن عبدالله بضعة سطور كأنه صب فيها تاريخ حياة الرجل، إذ يقول: كان إنساناً من طينة الشهداء، يتجه إلى القلب الإنساني بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة.. فهو الفتى الذي اسمه عبدالله والذي اختير للفداء، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين، وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات في الخدور بوسامته وحيائه، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج، وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتجر فإذا هي السفرة التي لا يؤوب منها الذاهبون، وهو الفتى الذي مات وهو غريب، وولد له نسله الكريم وهو دفين.

وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء.

ثم جاء الكلام عن الرجل الذي لا يساميه رجل، الرجل الذي انتظره العالم بأسره، ولعل من يقرأ هذه الكلمات يعلم تماماً أن المؤلف أراد بالعبقرية هنا عبقرية خاصة تليق بالنبي لا تلك العبقرية التي اتصف بها خاصة البشر يقول المؤلف تحت عنوان «رجل»:

عالم يتطلع إلى نبي.. وأمة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي

هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة.. وفي الجزيرة، وفي العالم بأسره.

نبيل عريق النسب، وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب.

فقير.. وليس بالغني المترف، فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة، تربى في الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان، واشتغل بالتجارة، وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه.. فلا هو يجهلها فيغفل عنها، ولا يغاسيها كل المغاسة فيغرق في لجنها.

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التي ترقبها..

ذلك محمد بن عبدالله عليه السلام..

ويشير المؤلف في نهاية هذا الفصل إلى جهود المؤرخين في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث وما ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته.

ثم يشير إلى قضية منطقية مفادها أن تلك البشائر لم يكن لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة وكذلك لم يكن ثبوت الإسلام متوقفاً عليه؛ لأن الذين شهدوا علامات يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة.

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

ثم يسجل في إيجاز لا يداخله شك أن العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها: هي علامة الكون وعلامة التاريخ.

- يقول: قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة.

- وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد صاحب تلك الرسالة.

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ.

عبقرية الداعي

وفي هذا الفصل الثاني من الكتاب يوضح المؤلف أن محمداً كان مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ، كانت له فصاحة اللسان واللغة وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة.

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

ولأن الفصاحة أساس في إنجاح الدعوة، فقد خصها المؤلف بشيء من التوضيح، لأنها الصفة التي يجتمع للكلام ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام، فقد يكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق غير فصيحة أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب لذا يقول عن فصاحة النبي ﷺ: أما فصاحة محمد، فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه..

فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام: «أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هي فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم. أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه، كجمال فصاحته في كلامه.

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم في نطق سليم.

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون سليماً في كلامه سليماً في نطقه.. ثم لا يقول شيئاً يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه.

فهذا أيضاً قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائغة من شتى نواحيها.

وبهذا المنطق الجامع يتكلم المؤلف في هذا الفصل عن: «الوسامة والثقة» و«الإيمان والغيرة».

ويختم المؤلف هذا الفصل بالكلام عن نجاح الدعوة فيقول: إن الذين دخلوا في الدين الجديد كانوا يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحداً لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذاً بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين، ونقمة الناقمين، ولا يخرجون أحداً من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفاً من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا واحداً بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

وليس قول أبين للحقيقة ولا أقطع للشك من قول المؤلف:

لم يكن في إسلام الفقراء الذين هم أقل من عُمَر ناصراً، وأضعف منه بأساً جبن ولا طمع، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة، فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة، وجبن عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غني أو فقير، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى. وهو استنتاج صحيح يتفق مع ما جاء في حديث الرسول ﷺ فعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم.

قال: يا رسول الله ليس عن هذا نسألك، قال: أفعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخير الناس في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا».

وهكذا يصل المؤلف إلى نتيجة مفادها أن دعوة الإسلام نجحت لأنها دعوة طلبتها الدنيا، ومهدت لها الحوادث وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه.

«يتبع»

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقى الدين

أحباب مصر.. تعالوا إلى كلمة سواء

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار مدير عام تنظيم وإدارة سابق - سندنهور - قليوبية:

ورد اسم مصر في كتاب الله العزيز في عدة مواضع.. فيها يوصي - رب العزة - سبحانه على حفظ مصر وشعبها بالأمن والأمان حيث يقول:

﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

(يوسف ٩٩)

كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أيضاً.. حيث يحكى لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع النبي يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا من أهلها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال الصديق رضي الله عنه ولم ذاك يا رسول الله قال:

«إنهم في رباط إلى يوم القيامة».

ولكي نستحق - نحن أهل مصر - هذا التكريم فإننا يجب ان نهيئ أنفسنا للتغيير الذي تهدف إليه الثورة والذي ننفض به غبار العهد الأغبر الذي ندعوا الله أن يخلصنا من أذنابه وفلوله الذين يستفزون حكماء الثورة والثوار ويتعقبوهم بالشائعات لإحداث الفتنة والانقسام بيننا وبينهم تنفيذاً لمخطط الفوضى والعنف الذي أنذرنا به الرئيس المخلوع في خطاب تنحيه.

وهم بهذا يغلقون عقولهم وقلوبهم ظلما وعدوانا على حكم الله في تحريم قتل النفس إلا بالحق لقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾

(النساء ٩٣)

وكذلك قوله تعالى منذراً ومحذراً لأمثال هؤلاء:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾

(الفرقان ٦٧-٦٨)

.. وإن الدين ليس ببعيد عن الأحداث المؤلمة التي يقوم بها المجرمون أعداء الشعب ضد الثوار الأنقياء فقد أعد الله لهم الجزاء القاسي جراء تحريضهم على الاقتتال والتشاجر بمقذوفات النار والحجارة وقد حذرهم رسولنا الكريم بقوله:

«من حمل علينا السلاح فليس منا.. ومن غشنا فليس منا» (رواه مسلم)

كذلك يقول:

«لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا في قتل مؤمن لأكبهم الله في النار».

وأيضاً قوله:

«من أعان على قتل مسلم ولو بشق كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله».

إن النبي ﷺ تحدث وكأنه يعيش بيننا الآن عن هذا التقاتل بين الأبناء فى مصر قلب الإسلام والمسلمين بقوله فى وداعه للأمة وللحياة حيث كان يوصى الناس فى حجة الوداع:

«كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» كما حذر الأمة فى نفس الخطبة من أن يرتدوا من بعده إلى عصر الجاهلية فيعادى بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا بغير حق.. كما يقول:

«لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

أن تحقيق التغيير الذى يتطلبه الضمير الثورى لتجديد تطلعاتنا وسلوكياتنا فى ضوء تقاليدنا المتوارثة وقواعد ديننا وهو بالحق تغيير واجب التنفيذ لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾

(الرعد ١١)

وإن ما نقاسيه اليوم من نقاش بسبب تعدد الاتجاهات أمامنا هو ظاهرة صحية نرجو أن تكون هى المخاض الذى ينتج عنه التغيير المطلوب للوصول إلى الأفضل بيقظة الوعى والرجوع إلى الحق والصواب ونأمل أن يحدث هذا فى ظل الهدوء والاستقرار وتحكيم العقل والتروى خشية أن تأخذنا زحمة التيارات والنقاشات إلى طريق مسدود يعوقنا عن الوصول إلى الحل المرضى لجميع أطراف الأمة والذى يرسو بنا إلى شط الأمان.. وما علينا إلا أن نجمع بكل إخلاص كل طاقات الحب لبلدنا لتكون دفعة قوية للدفع الثورى محوطا بكل آمال وأحلام المحبين من أجل الانطلاق للبناء والتعمير بروح التحدى فى حماية جيشنا وفدائية ثورتنا حتى نحتفل بالذكرى لقيامها ونحن ننعم بالأمن والسلام وننزع فتيل الفتنة التى يدبر لها أعداؤنا ولنرد كيدهم فى نحورهم تحت راية الوحدة الوطنية التى يشهد بها تاريخنا البعيد حتى الآن ولنهدأ حتى نتفرغ لبناء الأمجاد ولن يتراجع قطار الثورة إلى الوراء أبدا.

والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

الأمة بين ربيعين!

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفي الأزهري خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها:

لا فض فوك يا شوقي .. دعاء تعودت أن أدعو به لأمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله كلما قرأت أو سمعت هذا البيت:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

إذ تغمرني فرحة مستحقة بتلك النعمة الكبرى التي يصفها المولي عز وجل بقوله:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

«آل عمران: ١٦٤»

ويغمرني شعور عارم بالغبطة والسرور لحكمة الله العلي الكبير أن يولد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في شهر ربيع الأول ليفوح من يومها عبير الخير والرحمة والهدى والنور وكل معاني المحبة والسلام علي ربوع الأرض بهذا النبي العربي الذي جاء ليعيد للإنسان إنسانيته، ويمنحه حريته ويفتح قلبه وعقله على معان جديدة للحرية في ظلال العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وشاء الرب القدير - جل جلاله - أن يولد المصطفى فيما سمي بـ«عام الفيل»، وهو العام الذي أغرى أبرهة الأشرم شيطانه بالتوجه إلي بيت الله الحرام ليهدم الكعبة ممتطيا أفياله إرهابا لقبائل العرب، وعلي رأسها قريش التي لم يكن لها عهد بهذه الدابة الضخمة في بلادها! وهل ترى ظلما وغواية واعتداء أكثر من محاولة هدم الكعبة المشرفة، لكن الطغيان يعمي قلوب أصحابه ويطمس على بصائرهم، فحفظ الله بيته الحرام كما أحسن عبدالمطلب ظنه برب البيت لأبرهة «للبيت رب يحميه» فصدق الله ظنه وحمى بيته وأهلك عدوه وجاء القرآن ليحمل القصة بكل ما فيها من دلالات جليلة وبالغة ليقصها في آيات قصيرة على نبيه الذي ولد في نفس العام فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝﴾

«سورة الفيل»

مخبرا حبيبه المصطفى بأنه حفظ البيت الذي أقام قواعده إبراهيم وولده إسماعيل ليكون قبلة أمة رسول رب العالمين، فكان في هلاك الظالم مطردة لآفة الظلم، وتصفية لأجواء مكة من كل من يحاول تعكير أجوائها النقية التي يفوح عبيرها من البيت الحرام، وليولد النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم في هذا العام ليكون مولده نارا تحرق الطغاة والمتكبرين، وربيعا يستنشق شذاه من نشأ محمد فيهم يتيما وللعالمين من بعد ذلك أجمعين..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

«الأنبياء: ١٠٧»

ويمر الزمان على أمتنا منتصرة حينا مغلوبة على أمرها حينا ويخفض الله تعالى أقواما، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وتحل ذكرى مولد النور والبهجة والسرور على أمة العرب والمسلمين ويأتي شهر ربيع الأول وقد سقطت عروش ظالمة، وهوت أنظمة كانت متفرعنة حاكمة ليتزامن - بحكمة الله العليا - ما يسمي بـ«ثورات الربيع العربي» مع ذكرى مولد النبي العربي؛ عسى أن تعود من جديد في ذكرى نبيها كما قال رب العزة:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

«آل عمران: ١١٠»

ذكرى المصطفى ﷺ

وتحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية - إدارة الدقي التعليمية الجيزة:

مع إحياء ذكرى المصطفى - ﷺ - يجب علينا أن نتمسك بما جاء في كتاب الله قولاً وعملاً وذلك باتباع سنته والعمل على إحيائها قال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

● ويمكننا أن نجعل من هذا اليوم ميداناً للتنافس في الخير ومجالاً لتكريم طفل يتيم أو حافظ للقرآن الكريم بتقديم المنح والجوائز لهم.

● أو كما كانت ذكرى الأولين لعظمة سيدنا محمد - ﷺ - فقد كانت حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم يترسمون خطاها في الآفاق تفتح القلوب، وتنير العقول، وتحيي الضمائر، فكان كل مسلم دليلاً على مبادئ الإسلام وكأنه يقول لكل من يراه: أنا الإسلام الذي جاء به سيد المرسلين - ﷺ -.

● إن ذكرى مولد رسوله الله خالدة بكتابها الخالد الذي يهدي الإنسان في الحياة إلى التي هي أقوم، فهي خالدة بخلود آثارها في العالم تنطلق أشعتها على مجاهيل الأرض فتنبض لها القلوب، وتتحرك لها العقول، وتنشرح بها الصدور.

● إن هذه الذكرى ليست في حاجة إلى تعيين زمن بعينه يتذكر فيه الناس عظمة رسول الله عن طريق الاحتفالات أو الخطب، وكيف تحتاج إلى تذكير وهي ملء السمع والقلب.

● وآخراً وليس بأخير فالذكرى باقية ينبغي أن نعيشها في جميع أوقاتنا. ولا حرج أن نجعل من يوم ميلاده - ﷺ - مثلاً أعلى وأسوة حسنة، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

«الأحزاب: ٢١»

أنبـــاء الأزهـــر



إعداد الأستاذين:
محمود القشنى - عبد الموجود أمين

بيان الأزهر والمثقفين عن منظومة الحريات الأساسية


د. أحمد الطيب

يتطلع المصريون، والأمة العربية والإسلامية، بعد ثورات التحرير التى أطلقت الحريات، وأذكت روح النهضة الشاملة لدى مختلف الفئات، إلى علماء الأمة ومفكريها المثقفين، كى يحددوا العلاقة بين المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية السمحاء ومنظومة الحريات الأساسية التى أجمعت عليها المواثيق الدولية، وأسفرت عنها التجربة الحضارية للشعب المصرى، تأصيلاً لأسسها، وتأكيداً لثوابتها، وتحديداً لشروطها التى تحمى حركة التطور وتفتح آفاق المستقبل. وهى حرية العقيدة وحرية الرأى والتعبير، وحرية البحث العلمى، وحرية الإبداع الأدبى والفنى، على أساس ثابت من رعاية مقاصد الشريعة الغراء، وإدراك روح التشريع الدستورى الحديث، ومقتضيات التقدم المعرفى الإنسانى، بما يجعل من الطاقة الروحية للأمة وقودا للنهضة، وحافزاً للتقدم، وسبيلاً للرقى المادى والمعنوى، فى جهد موصول يتسق فيه الخطاب الثقافى الرشيد مع الخطاب الدينى المستنير، ويتآلفان معاً فى نسق مستقبلى مثمر، تتحد فيه الأهداف والغايات التى يتوافق عليها الجميع.

ومن هنا فإن مجموعة العلماء الأزهريين والمثقفين المصريين الذين أصدروا وثيقة الأزهر الأولى برعاية من الأزهر الشريف، وأتبعوها ببيان دعم حراك الشعوب العربية الشقيقة نحو الحرية والديموقراطية، قد واصلوا نشاطهم وتدارسوا فيما بينهم القواسم الفكرية المشتركة فى منظومة الحريات والحقوق الإنسانية، وانتهوا إلى إقرار جملة من المبادئ والضوابط الحاكمة لهذه الحريات، انطلاقاً من متطلبات اللحظة التاريخية الراهنة، وحفاظاً على جوهر التوافق المجتمعى، ومراعاة للصالح العام فى مرحلة التحول الديموقراطى، حتى تنتقل الأمة إلى بناء مؤسساتها الدستورية بسلام واعتدال وتوفيق من الله تعالى.

وبما لا يسمح بانتشار بعض الدعوات المغرضة بكل أشكالها، والتى تتدخل فى حريات الناس العامة والخاصة الأمر الذى لا يتناسب مع التطور الحضارى والاجتماعى لمصر الحديثة، فى الوقت الذى تحتاج فيه البلاد إلى وحدة الكلمة والفهم الوسطى الصحيح للدين والذى هو رسالة الأزهر الدينية ومسئوليته نحو المجتمع والوطن.

أولاً: حرية العقيدة:

تعتبر حرية العقيدة، وما يرتبط بها من حق المواطنة الكاملة للجميع، القائم على المساواة التامة فى الحقوق والواجبات حجر الزاوية فى البناء المجتمعى الحديث، وهى مكفولة بثوابت النصوص الدينية القطعية وصريح الأصول الدستورية والقانونية، إذ يقول المولى عز وجل:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ويقول:

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(الكهف: ٢٩)

ويترتب على ذلك تجريم أى مظهر للإكراه فى الدين، أو الاضطهاد أو التمييز بسببه، فلكل فرد فى المجتمع أن يعتنق من الأفكار ما يشاء، دون أن يمس حق المجتمع فى الحفاظ على العقائد السماوية، فللأديان الإلهية الثلاثة قداستها، وللأفراد حرية إقامة شعائرها دون عدوان على مشاعر بعضهم أو مساس بحرمتها قولاً أو فعلاً ودون إخلال بالنظام العام.

ولما كان الوطن العربى مهبط الوحى السماوى وحاضن الأديان الإلهية كان أشد التزاما برعاية قداستها واحترام شعائرها وصيانة حقوق المؤمنين بها فى حرية وكرامة وإخاء.

ويترتب على حق حرية الاعتقاد التسليم بمشروعية التعدد ورعاية حق الاختلاف ووجوب مراعاة كل مواطن مشاعر الآخرين والمساواة بينهم على أساس متين من المواطنة والشراكة وتكافؤ الفرص فى جميع الحقوق والواجبات.

كما يترتب أيضاً على احترام حرية الاعتقاد رفض نزعات الإقصاء والتكفير، ورفض التوجهات التى تدين عقائد الآخرين ومحاولات التفتيش فى ضمائر المؤمنين بهذه العقائد، بناء على ما استقر من نظم دستورية بل بناء على ما استقر قبل ذلك - بين علماء المسلمين من أحكام صريحة قاطعة قررتها الشريعة السمحاء فى الأثر النبوى الشريف: (هلا شققت عن قلبه) والتى قررها إمام أهل المدينة المنورة الإمام مالك والأئمة الآخرون بقوله: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر»، وقد أعلى أئمة الاجتهاد والتشريع من شأن العقل فى الإسلام، وتركوا لنا قاعدتهم الذهبية التى تقرر أنه: «إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل وأول النقل» تغليباً للمصلحة المعتبرة وإعمالاً لمقاصد الشريعة.

ثانياً - حرية الرأى والتعبير:

حرية الرأى هى أم الحريات كلها، وتتجلى فى التعبير عن الرأى تعبيراً حراً بمختلف وسائل التعبير من كتابة وخطابة وإنتاج فنى وتواصل رقمى، وهى مظهر الحريات الاجتماعية التى تتجاوز الأفراد لتشمل غيرهم مثل تكوين الأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى، كما تشمل حرية الصحافة والإعلام المسموع

والمرئى والرقمى، وحرية الحصول على المعلومات اللازمة لإبداء الرأى، ولابد أن تكون مكفولة بالنصوص الدستورية لتسمو على القوانين العادية القابلة للتغيير. وقد استقرت المحكمة الدستورية العليا في مصر على توسيع مفهوم حرية التعبير ليشمل النقد البناء ولو كان حاد العبارة ونصت على أنه «لا يجوز أن تكون حرية التعبير فى القضايا العامة مقيدة بعدم التجاوز، بل يتعين التسامح فيها» لكن من الضرورى أن ننبه إلى وجوب احترام عقائد الأديان الإلهية الثلاثة وشعائرها لما فى ذلك من خطورة على النسيج الوطنى والأمن القومى. فليس من حق أحد أن يثير الفتن الطائفية أو النعرات المذهبية باسم حرية التعبير، وإن كان حق الاجتهاد بالرأى العلمى المقترن بالدليل، وفى الأوساط المتخصصة، والبعيد عن الإثارة مكفولاً كما سبق القول فى حرية البحث العلمى.

ويعلن المجتمعون أن حرية الرأى والتعبير هى المظهر الحقيقى للديموقراطية، وينادون بتنشئة الأجيال الجديدة وتربيتها على ثقافة الحرية وحق الاختلاف واحترام الآخرين، ويهيبون بالعاملين فى مجال الخطاب الدينى والثقافى والسياسى فى وسائل الإعلام مراعاة هذا البعد المهم فى ممارساتهم، وتوخى الحكمة فى تكوين رأى عام يتسم بالتسامح وسعة الأفق ويحتكم للحوار ونبذ التعصب، وينبغى لتحقيق ذلك استحضار التقاليد الحضارية للفكر الإسلامى السمح الذى كان يقول فيه أكابر أئمة الاجتهاد: «رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب» ومن ثم فلا سبيل لتحصين حرية الرأى سوى مقارعة الحجة بالحجة طبقا لآداب الحوار، وما استقرت عليه الأعراف الحضارية فى المجتمعات الراقية.

ثالثا - حرية البحث العلمى:

يُعَدُّ البحث العلمى الجاد فى العلوم الإنسانية والطبيعية والرياضية وغيرها، قاطرة التقدم البشرى، ووسيلة اكتشاف سنن الكون ومعرفة قوانينه لتسخيرها لخير الإنسانية، ولا يمكن لهذا البحث أن يتم ويؤتى ثماره النظرية والتطبيقية دون تكريس طاقة الأمة له وحشد إمكاناتها من أجله. ولقد أفاضت النصوص القرآنية الكريمة فى الحث على النظر والتفكر والاستنباط والقياس والتأمل فى الظواهر الكونية والإنسانية لاكتشاف سننها وقوانينها، ومهدت الطريق لأكبر نهضة علمية فى تاريخ الشرق، نزلت إلى الواقع وأسعدت الإنسان شرقا وغربا، وقادها علماء الإسلام ونقلوا شعلتها لتضىء عصر النهضة الغربية كما هو معروف وثابت. وإذا كان التفكير فى عمومه فريضة إسلامية فى مختلف المعارف والفنون كما يقول المجتهدون فإن البحث العلمى النظرى والتجريبى هو أداة هذا الفكر، وأهم شروطه أن تمتلك المؤسسات البحثية والعلماء المتخصصون حرية أكاديمية تامة فى إجراء التجارب وفرض الفروض والاحتمالات واختبارها بالمعايير العلمية الدقيقة، ومن حق هذه المؤسسات أن تمتلك الخيال الخلاق والخبرة الكفيلة بالوصول إلى نتائج جديدة تضيف للمعرفة الإنسانية، لا يوجههم فى ذلك إلا أخلاقيات العلم ومناهجه وثوابته، وقد كان كبار العلماء المسلمين مثل الرازى وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم أقطاب المعرفة العلمية وروادها فى الشرق والغرب قرونا عديدة، وآن الأوان للأمة العربية والإسلامية أن تعود إلى سباق القوة وتدخل عصر المعرفة، فقد أصبح العلم مصدر القوة العسكرية والاقتصادية وسبب التقدم والتنمية والرخاء، وأصبح البحث العلمى الحر مناط نهضة التعليم وسيادة الفكر العلمى وازدهار مراكز الانتاج، إذ تخصص لها الميزانيات الضخمة، وتتشكل لها فرق العمل وتقترح لها المشروعات الكبرى، وكل ذلك مما يتطلب ضمان أعلى سقف للبحث العلمى والإنسانى، وقد

أوشك الغرب أن يقبض بيديه على كل تقدم علمى وأن يحتكر مسيرة العلم لولا نهضة اليابان والصين والهند وجنوب شرقى آسيا التى قدمت نماذج مضيئة لقدرة الشرق على كسر هذا الاحتكار، ولدخول عصر العلم والمعرفة من أوسع الأبواب، وقد آن الأوان ليدخل المصريون والعرب والمسلمون ساحة المنافسة العلمية والحضارية، ولديهم ما يؤهلهم من الطاقات الروحية والمادية والبشرية وغيرها من شروط التقدم فى عالم لا يحترم الضعفاء والمتخلفين.

رابعا - حرية الإبداع الأدبى والفنى:

تستهدف الآداب والفنون فى جملتها تنمية الوعى بالواقع، وتنشيط الخيال، وترقية الإحساس الجمالى وتثقيف الحواس الإنسانية وتوسيع مداركها وتعميق خبرة الإنسان بالحياة والمجتمع، كما تقوم بنقد المجتمع أحيانا والاستشراف لما هو أرقى وأفضل منه، وكلها وظائف سامية تؤدى فى حقيقة الأمر إلى إثراء اللغة والثقافة وتنشيط الخيال وتنمية الفكر، مع مراعاة القيم الدينية العليا والفضائل الأخلاقية.

ولقد تميزت اللغة العربية بثرائها الأدبى وبلاغتها المشهودة، حتى جاء القرآن الكريم فى الذروة من البلاغة والإعجاز، فزاد من جمالها وأبرز عبقريتها، وتغذت منه فنون الشعر والنثر والحكمة، وانطلقت مواهب الشعراء والكتاب - من جميع الأجناس التى دانت بالإسلام ونطقت بالعربية - تبدع فى جميع الفنون بحرية على مر العصور دون حرج، بل إن كثيرا من العلماء القائمين على الثقافة العربية والإسلامية من شيوخ وأئمة كانوا هم من رواة الشعر والقصص بجميع أشكاله، على أن القاعدة الأساسية التى تحكم حدود حرية الإبداع هى قابلية المجتمع من ناحية، وقدرته على استيعاب عناصر التراث والتجديد فى الإبداع الأدبى والفنى من ناحية أخرى، وعدم التعرض لها ما لم تمس المشاعر الدينية أو القيم الأخلاقية المستقرة، ويظل الإبداع الأدبى والفنى من أهم مظاهر ازدهار منظومة الحريات الأساسية وأشدها فعالية فى تحريك وعى المجتمع وإثراء وجدانه، وكلما ترسخت الحرية الرشيدة كان ذلك دليلاً على تحضره، فالآداب والفنون مرآة لضمائر المجتمعات وتعبير صادق عن ثوابتهم ومتغيراتهم، وتعرض صورة ناضرة لطموحاتهم فى مستقبل أفضل، والله الموفق لما فيه الخير والسداد.

شيخ الأزهر

مشيخة الأزهر - ١٦ من صفر سنة ١٤٣٣هـ - ١٠ من يناير سنة ٢٠١٢م — أحمد الطيب

بيان الأزهر الشريف حول استكمال أهداف الثورة المصرية واستعادة روحها

بمبادرة وطنية من الأزهر الشريف وبمشاركة كريمة من مجلس الوزراء، والكنيسة المصرية الوطنية، والقيادات الشعبية وفى هذا اليوم التاريخى، عيد الثورة المصرية الأول، الثورة التى بهرت العالم بخصائصها غير المسبوقة، وطابعها السلمى الخالص، وحرصها على الإجماع الوطنى لمصر بكل رجالها ونسائها، واستيعابها لأحدث أسلحة العصر فى ثورة الاتصالات العالمية، لتنجز أول أهدافها الثورية، وهو: تخليص مصر من حقبة اتسمت بالفساد والضعف، والقمع والظلم، - فى هذا اليوم تعود مصر كلها اليوم إلى هذا المكان الذى شهد ميلاد الثورة، وشهد تضحيات الشباب الوطنى المخلص، ممن قدموا أرواحهم فداء لمصر، تعود مصر - اليوم - إلى «ميدان التحرير» الذى دخل بحروفه العربية كل لغات العالم، وأثر بروحه

الديمقراطية على العديد من شعوب الشرق والغرب.

اليوم: مصر الميدان ومصر البرلمان، مصر الجيش ومصر الشعب، مصر الحكومة، ومصر الأزهر، مصر الوطن ومصر العروبة، مصر الإسلام ومصر المسيحية، مصر التاريخ والتراث، ومصر الحاضر والمستقبل، مصر التدين الأصيل ومصر الحريات المدنية الكاملة. تطالع اليوم العالم كله بوجهها الثورى النبيل، معلنة هذه الالتزامات الوطنية:

١ - الحفاظ على روح هذا الميدان كما كانت خلال الأيام الثمانية عشرة التى غيرت مجرى التاريخ المصرى، وجمعت كل أبناء الوطن على كلمة سواء.

٢ - التعاهد الوطنى - باسم كل القيم السابقة - على استكمال أهداف ثورة الخامس والعشرين من يناير.

٣ - التوافق الوطنى على رعاية كل مكونات هذا الوطن، دون غلبة أو هيمنة أو إقصاء أو انحياز.

٤ - تأكيد حق المواطن الدستورى فى محاكمته أمام قاضيه الطبيعى، ومنع المحاكمات العسكرية للمدنيين، والإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين.

٥ - سرعة المحاكمات بما لا يخل بحرمة الحق ومقتضى العدل وواجب النزاهة.

٦ - استكمال الوفاء بحقوق أسر الشهداء والمصابين فى العلاج والتعويض والعمل والرعاية التامة.

٧ - المضى فى البناء الديموقراطى لمؤسسات الدولة وإتمام تسليم السلطة للمدنيين فى موعده المحدد دون ابطاء.

٨ - الالتزام بما أسفرت عنه الانتخابات النزيهة الحرة من نتائج، والتعاون بين شباب الثورة جميعًا وممثلى الشعب المنتخبين فى بناء مصر المستقبل تحت مظلة الديموقراطية وعلى أساس من الشرعية البرلمانية والتوافق الوطنى.

٩ - القضاء على آثار السياسات القمعية، والفساد الشامل، مع العمل الجاد على بناء اقتصاد مصرى قوى، يستثمر كل إمكانات مصر، ويحقق العدالة لجميع أبنائها.

١٠ - عودة الدور الوطنى المصرى فى ريادة المنطقة، والإسهام فى السياسة الدولية بقرار حر دون تبعية أو انحياز.

١١ - عودة الجيش الوطنى - ذخر الوطن وحامى انتفاضاته الثورية - إلى دوره فى حراسة حدود مصر وأمنها القومى.

١٢ - إطلاق طاقات الشعب، وبخاصة شبابه الثورى الناهض لبناء المجتمع والدولة، ومحاربة التخلف والفقر والمرض والجهل، والنهوض بمصر سياسيًا واقتصاديًا وأخلاقيًا لتكون الأنموذج المضىء لأمة العرب والمسلمين.

والله خير الشاهدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل

شيخ الأزهر

أ. د/ أحمد الطيب

أنباء العالم الإسلامى

إعداد: أحمد رضوان يحيى سليمان

التعاون الإسلامى تقرر بطلان مشروع قانون «القدس عاصمة لإسرائيل»

دعا الدكتور أكمل الدين إحسان الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى - مجلس الأمن الدولى واللجنة الرباعية واليونسكو وكافة الأطراف الفاعلة إلى التدخل من أجل وقف سياسات التمييز العنصرى الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطينى ومقدساته ورفض تلك التشريعات الباطلة وعدم الاعتراف بها، وإلزام إسرائيل باحترام قواعد القانون الدولى والالتزام بقرارات الشرعية الدولية.

وأدان أوغلو مشروع قانون إعلان مدينة القدس المحتلة «عاصمة لإسرائيل وللشعب اليهودى»، معتبرا ذلك عدوانا على الشعب الفلسطينى وحقوقه الثابتة والغير قابلة للتصرف.

مصر تستدعى سفيرة هولندا احتجاجا على نشر كتاب مسيىء للإسلام

استدعت وزارة الخارجية سفيرة هولندا بالقاهرة سوزان بلانك أرت - للتعبير عن إدانة مصر لاعتزام عضو البرلمان الهولندى فيلدرز نشر كتاب يسيىء إلى الإسلام وإلى عدد من رموزه بصورة فجة من شأنها أن تعكس ثقافة الكراهية وازدراء الأديان التى تتنافى مع أبسط قواعد القانون الدولى ومواثيق حقوق الإنسان.. وأكدت الخارجية أن مصر الثورة لا يمكنها بأى حال من الأحوال تجاهل تلك التصرفات غير المقبولة التى من شأنها أن تنعكس سلبا على روح التعاون التى يجب أن تسود العلاقات بين الدول.. وكانت السلطات المصرية قد منعت مؤخرا النائب الهولندى فيلدرز من دخول القاهرة خلال قدومه ضمن وفد برلمانى أوروبى إلى مصر.

دار الكتب: مقتنيات المجمع العلمى ٤٠ ألف كتاب ومجلد فقط

كشف الدكتور زين عبدالهادى رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية عن أن عدد الكتب التى كانت لدى المجمع العلمى ٢٣ ألف كتاب و١٧ ألف مجلد بحسب قاعدة البيانات التى تم استخراجها من «هارد ديسك» خاص بأحد أجهزة كمبيوتر المجمع العلمى وهو ما يتعارض مع الرقم الذى أعلنه الدكتور/ محمد الشرنوبى الأمين العام للمجمع حول وجود ١٩٢ ألف كتاب داخل المجمع عند احتراقه.

وأكد أن إجمالى ما تلقته الدار كان حوالى ٤ أطنان من الورق المستخدم فى تجفيف الكتب المبللة قدمتها مؤسسات «الأهرام والأخبار والجمهورية والشروق».

وعن الكتب المسروقة، قال عبدالهادى إنه وزع أختام المجمع العلمى التى يبلغ عددها خمسة على الإنتربول ومكتبة الكونجرس وتجار الكتب النادرة والمزادات حتى يتم التعرف على تلك الكتب حال وجودها فى أى مزاد أو لدى أى بائع كتب.

غزة تدعو لمنع اليهود من إحراق مساجدها

دعت وزارة الأوقاف فى الحكومة الفلسطينية إلى تدخل الدول العربية والإسلامية والمجتمع الدولى لوضع حد لتكرار قيام المستوطنين اليهود بحرق المساجد فى القدس والضفة الغربية، وقالت: إن السياسة التى ينتهجها المستوطنون ضد المساجد ودور العبادة بالحرق والتدمير دليل واضح على مدى العنصرية والهمجية التى يتمتع بها الاحتلال الإسرائيلى.

واستنكرت الوزارة فى بيان لها قيام مجموعة من المستوطنين المغتصبين العنصريين بإحراق مسجد فى شارع «شتراوس» بمدينة القدس، وأشارت إلى أن المستوطنين لم يكتفوا بحرق المسجد، بل كتبوا شعارات عنصرية على الجدران الخارجية للمسجد وشعارات أخرى معادية للعرب والمسلمين.

وقالت وزارة الأوقاف: إن حماية قوات الاحتلال للمستوطنين أثناء عمليات اقتحام المساجد ودور العبادة وحرقها بمثابة تواطؤ مع المستوطنين، منوهة إلى أن قوات الاحتلال فى كل مرة لا تقوم بمنع المستوطنين من ارتكاب جرائمهم منذ اللحظة الأولى، بل تتركهم حتى ينتهوا من الجريمة ثم تتدخل بعد ذلك.

وأحرق مستوطنون متطرفون أجزاء من مسجد «النبى عكاشة» غرب مدينة القدس المحتلة، كما قام متطرفون فى يونيو من العام الماضى بكتابة شعارات عنصرية على أحد مساجد قرية إبطن القريبة من حيفا كان من بينها «للهدم» و«جباية ثمن» و«الحرب على الضفة الغربية» كما رسمت على الجدران نجمة داوود.

دعوة من وزراء الثقافة لتشجيع الإبداع الثقافى

دعا المؤتمر الإسلامى السابع لوزراء الثقافة بالجزائر إلى تشجيع الإبداع والإنتاج الثقافى الذى يعكس الموروث الحضارى الكبير للعالم الإسلامى، وذلك خلال اعتماد مشروع الوثيقة التى أعدتها الإيسيسكو حول المقاولات الثقافية.

وأكد المؤتمر على أهمية تشجيع التبادل الثقافى بين الدول الأعضاء من أجل تنمية الإبداع الفنى والثقافى وتعزيز التنوع الثقافى، واستثمار الموروث الثقافى لإبراز الخصائص والحضارة الإسلامية، والاستفادة من مردودها الاقتصادى؛ للإسهام فى التنمية الشاملة. ودعا المؤتمر الأول الأعضاء والقطاع الخاص إلى تقديم الدعم اللازم للمقاولين الشباب من أجل إنشاء مقاولات ثقافية تعنى بمختلف أنواع الإبداع الثقافى والفنى الذى يزخر به الموروث الثقافى للأمة الإسلامية وتجلياته المعاصرة وتستجيب لمعايير تدبير المقاولات، لضمان استمراريتها وتعزيز تنافسيتها.

كما دعا المؤتمر الإيسيسكو إلى إعداد برنامج شامل لتكوين الأطر العاملة فى المجالات الثقافية وتأهيلها والعمل على تعزيز التعاون مع الدول الأعضاء والمنظمات الدولية والإقليمية المتخصصة، من أجل تشجيع إنشاء مراكز إقليمية فى مجالات الصناعات الثقافية الإبداعية.

مشروع ثقافى لمعالجة الصور النمطية عن الإسلام

اعتمد المؤتمر الإسلامى السابع لوزراء الثقافة، مشروعًا دراسيًا أعدته ـ ايسيسكو ـ لتأهيل الصحفيين والإعلاميين لمعالجة الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين فى وسائل الإعلام الغربية.

ودعا المؤتمر الدول الأعضاء إلى اعتماد المشروع والاسترشاد به فى مقررات المعاهد والمدارس الخاصة بإعداد وتأهيل الصحفيين والإعلاميين وكليات الإعلام؛ لرفع الكفاءة المهنية لطلبتها فى مجال تصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، كما دعا المؤتمر الإيسيسكو إلى مواصلة الاهتمام بتأهيل الصحفيين والإعلاميين داخل العالم الإسلامى وخارجه؛ من أجل امتلاك التقنيات الحديثة الكفيلة بمعالجة الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين والتصدى لظاهرة الإسلاموفوبيا، استنادًا إلى مضامين المنهاج المعتمد، وتعزيز التعاون والشراكة مع معاهد تكوين الصحفيين والإعلاميين فى الغرب ذات الاهتمام المشترك لتحقيق ذلك.

تعاون مصرى، إيرانى فى مجال المخطوطات

اتفق كل من الدكتور محمد صابر عرب رئيس دار الكتب والوثائق القومية ،وسيد محمد الحسينى وزير الثقافة الإيرانى والإرشاد الإسلامى على دعم وتفعيل التعاون المشترك بين البلدين فى مجال المخطوطات والوثائق والأرشيف.

وتباحث عرب - الذى ترأس وفد مصر فى أعمال الدورة السابعة للمؤتمر الإسلامى لوزراء الثقافة بالجزائر، والحسينى فى لقاء مشترك على هامش المؤتمر حول الجهود المشتركة لترميم وتحقيق المخطوطات الفارسية التى تمتلكها دار الكتب والوثائق فى مصر، وأوضح عرب أن دار الكتب قد انتهت مؤخرا من إنجاز كتالوج خاص للمخطوطات الفارسية النادرة بالهيئة، وطلب الوزير الإيرانى الحصول على نسخة منه.. وأعرب الوزير الإيرانى عن رغبة بلاده فى توقيع بروتوكول تعاون مشترك مع وزارة الثقافة المصرية، بخاصة فى مجال تحقيق التراث والمخطوطات ونشرها. ورحب رئيس دار الكتب والوثائق المصرية بالتعاون مع وزارة الثقافة الإيرانية مبدياً استعداده للتعاون العلمى مع وزارة الثقافة الإيرانية.

أمين اتحاد المدارس العربية الإسلامية: نستعين بعلماء الأزهر لنشر اللغة العربية

أكد المستشار عبدالفتاح سليمان الأمين العام للاتحاد العالمى للمدارس الإسلامية الدولية أن الاتحاد يستعين بعلماء الأزهر فى دول إفريقيا لنشر اللغة العربية فى هذه الدول، موضحاً أن الدكتور/ محمود عزب مستشار شيخ الأزهر قد شارك فى العديد من هذه الدورات فى تشاد والنيجر، وأضاف سليمان أن الاتحاد يضم أربعة آلاف مدرسة إسلامية، تدرس اللغة العربية والتربية الإسلامية، ويعقد العديد من الدورات التدريبية للمعلمين عن كيفية تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، كما يعقد دورات تدريبية للطلاب الوافدين بجامعة الأزهر ويمنحهم منحاً مجانية للاستفادة من اللغة العربية.

السنة العراقيون يتهمون المالكى بعمل ديكتاتورية تهدد بحرب أهلية

اتهم عدد من كبار الشخصيات السُّنية العراقية رئيس الوزراء الشيعى نورى المالكى بعمل ديكتاتورية جديدة حوله تهدد بخطر انزلاق البلاد فى حرب أهلية بعد انسحاب القوات الأمريكية.

قال زعماء الكتلة العراقية ومن بينهم إياد علاوى وأسامة النجفى ورافعة العيسوى: إن مالكى وضع سياجا حول الكتلة العراقية، وأنه يستخدم قوات الأمن والقضاء لمحاصرة خصومه السنة.. واتهموا المالكى فى إعلان بصحيفة نيويورك تايمز بانتهاك اتفاقية مشاركة السلطة التى سمحت بتشكيل حكومة وحدة وطنية.. وفى الموصل قتل ضابط كبير بالجيش العراقى برصاص مسلحين غربى مدينة الموصل ٤٠٠كم شمالى بغداد.

the fields of legislation, law, justice, and equality reached only a tiny portion of its codification, rather application and work.

Although we did not mention a text from the Book of Allah or the treaties written by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), which determine the nature of the future relations between all of the residents in Medina including the Jews, we wish to mention other incidents signifying their persistence in their grudge and stirring seditions between the inhabitants of Medina and the Muslims. This includes their inquiry about the soul.

It was narrated on the authority of Ibn mas`ud (may Allah be pleased with him) that he said: "I was walking with the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) in Medina, and he was leaning on a stick, and some of the Jews were passing by. They told to each other: Ask him about the spirit. Other said: Do not ask him, otherwise he will speak ill to you. Some of them said: We will ask him. One of them said: O Muhammad, tell us about the spirt and how it is punished. When the Revelation descended, it said:

{'And they ask you (O Muhammad peace be upon him) concerning the Rûh (the Spirit); Say: "The Rûh (the Spirit) is one of the things, the knowledge of which is only with my Lord. And of knowledge, you (mankind) have been given only a little."}

[Al-Isra' (The Night Journey): 85]

They said: This is what is mentioned in our Book, and others said: We told you not to ask him.

O reader, you may understand from this incident that the Jews wanted to test the Messenger's (May the blessings and peace of Allah be upon him) knowledge with the spirit. However, I may say that I understand from this incident that there is a clear significance that the prophecy of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) is firm in their Book and they know about him. The evidence is that they said: This is what is mentioned in our Book. However, they are still stubborn. When they listened to the separate letters at the beginning of some Surahs (Qur'anic chapters), they started to distort their meanings without any evidence or knowledge that lead to reasonable results.

Moreover, there is the sedition and dispute stirred by them between Al-Aws and Al-Khazraj, as Shas ibn Qays tried to stir sedition between Al-Aws and Al-Khazraj, when he found them in conformity with each other. He sent one of the youths to remind them with the incident of Bu`ath – which was a fierce war between Al-Aws and Al-Khazraj. Also, he reminded them with some of the poetry said by in this battle. Some of the members of Al-Khazraj said other poetic verses until each of them unsheathed their weapon towards the other. The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) came out to them in anger and he reminded with their covenant. Then, the following verses were sent down:

{'Say: "O people of the Scripture (Jews and Christians)! Why do you reject the Ayât of Allâh (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) while Allâh is Witness to what you do?" 'Say: "O people of the Scripture (Jews and Christians)! Why do you stop those who have believed, from the Path of Allâh, seeking to make it seem crooked, while you (yourselves) are witnesses [to Muhammad peace be upon him as a Messenger of Allâh and Islâm (Allâh's Religion, i.e. to worship none but Him Alone)]? And Allâh is not unaware of what you do." 'O you who believe! If you obey a group of those who were given the Scripture (Jews and Christians), they would (indeed) render you disbelievers after you have believed! 'And how would you disbelieve, while to you are recited the Verses of Allâh, and among you is His Messenger (Muhammad peace be upon him)? And whoever holds firmly to Allâh, (i.e. follows Islâm – Allâh's Religion, and practically obeys all that Allâh has ordered), then he is indeed guided to a Right Path.} [Al- Imran (The Household of Imran): 98-101]. Also, there are many other incidents.

Meditations in the Biography of the Prophet Muhammad (May the blessing and peace of Allah be upon him)...!

By: the honorable Sheikh At-Tahir Al-Hamedy

The books of biography records on the authority of the Mother of the Believers Safiyyah bint Huyay (may Allah be pleased with her and her father) that she said: "My parents and my paternal uncle did not love anyone more than me. I am the most beloved person to their hearts. When the Messenger of Allah came to Quba'a, my father Huyay ibn Akhtab and my paternal uncle Abu Yaser came to him early in the morning. They returned only at the time of sunset.

My father Huyay and my uncle Abu Yasir went in the morning to know more about him, and they stayed with him until the time of sunset. They came tired and exhausted from the long argument with the Messenger of Allah to get information about him. I revealed that I was happy to see them, but they did not care about me as if they had not seen me. I heard my uncle asking my father to make sure and to remove any doubt: "Is it he?" my father Huyay said: Yes, he is. Abu Yasir asked: "Do you know his attributes? Huyay answered: Yes, I swear that it is he. Abu Yasir asked him: What do you think about him? Huyay said: Enmity towards him is removed, I swear.

Do you know, my dear reader, who narrates this incident? She is the Mother of the believers, Safiyyah bint (daughter) of Huyay, who attained the qualification of truthfulness due to the purity of her soul and her sublime status. Her sayings can not be doubted, as she is the daughter of the leader of the Jews in Medina, Huyay ibn Akhtab. Thus, she is free from suspicion. She narrates about the days of childhood without suspicion, doubt, or distortion, as she was in the phase of purity. Also, she attained the attributes of virtue and sublimity, as she was one of the wives of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him). There is no status above that of the Mothers of the Believers.

Moreover, she is not in need to make false lies to increase the Muslims' love to her. Her status makes her above the status of all the Muslims, and her belief cannot be doubted. No Muslim or disbeliever may accuse her of lying. But a Jew who does not love Muhammad the messenger of Allah may accuse her of lying. This refusal, accusation of lying, fabrication, grudge, and hatred for the call for Islam continued starting from its beginning in Medina until the time of Golda Meir and Netanyahu. But, how the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) responded to their treatment? The treatment of the Messenger of Allah was not a reaction to their deeds, but they stemmed from the meanings of the tolerant religion.

His way of treating them aims to set the bases of the noble principles and the straightforward and kind treatment. We will not anticipate the events in judging the deeds of the Jews in facing the Islamic Da`wah. However, I want to put forward another incident in which you see the cunningness of the Jews, as they knew about the coming of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and his attributes in their books.

Al-Bukhary narrated on the authority of a man from the family of `Abdullah ibn Salam. He said: When I knew about the Messenger of Allah, his attributes, names, and time, we were expecting and waiting for him. I kept this secret until the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) came to Medina. When he stayed in Quba'a with Bani Amr ibn `Awf, someone came and informed us with his coming. At that time, I was at the top of my palm tree and I said: "Allah is the Gretest", and my paternal aunt, Khalidah bint Al-Harith, was sitting at the bottom. When she heard me, she said: If you heard about Mosa ibn Imran, you will not say anything more. I told her: I swear that he is the fellow brother of Mosa ibn `Imran and belongs to his religion. She said: Is this the Prophet about

whom we heard that he will be sent down when the Day of Judgment approaches. I said: Yes. She said: It is he. I came to the Messenger of Allah; and when I saw his face, I knew that this is not the face of a liar. The first things I heard from him were: Feed the people, maintain the ties of kinship, and offer Salah (Prayer) at night, while the people are asleep, you will enter paradise peacefully. He asked the Prophet some questions to test him, then Abdullah ibn Salam said: I testify that there is not god but Allah and you are the Messenger of Allah.

He came to his family and ordered them to embrace Islam and they did and he hide his being a Muslim. He came to the Messenger of Allah and said: O Messenger of Allah, I am the master of the Jews and the most informed person out of them. They are slanderers; and if they knew about my embracing of Islam, they would speak falsly about me and will fabricate matters about me. I would like that you let me enter some of your houses, and the Messenger of Allah did.

He sent someone to call the Jews and they entered his house and he said: O Jews, Woe unto you, fear Allah. I swear by Allah, Who has no partner in Deity that you know that I am his Messenger. You should embrace Islam. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) asked: Who is Al-Hussain ibn Sallam (which was his name before embracing Islam)? They said: This is our master and the son of our master. He asked: What if he embraced Islam? They said: We ask refuge for him from this. He said: Ibn Sallam, come to them. He said: I testify that there is no god but Allah and that Muhammad is the Messenger of Allah. O Jews, accept the Da`wah of Muhammad, as I swear that you know that he is really the Messenger of Allah. This fact is written in Torah, and I testify that he is the Messenger of Allah and I believe in him. They said: You are a liar, and you are the evilest person among us and despised him.

He said: This is what I feared, Messenger of Allah, as I told you that they are slanderers, liars and dissolute. He said that he announce his being a Muslim and my family embraced Islam as well as my paternal aunt, Khalidah bint Al-Harith, as she was a good Muslim.

O reader! The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) was not only an army commander, whose aim was to attain victory in a war or a battle, but he is a Messenger, whose aim was to perfect the morals. He wanted that Allah makes him a way of guiding people. He also wanted to achieve justice among the people, and that the people set bases governing their lives. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "I am sent to you as a Messenger to perfect the morals."If he was a military commander who sought victory in wars, he would be able to get rid of the Jews in Medina. But he was sent as a mercy to all of the people. He wanted to set instructions and rules, by which communities abide even though they differ with regard to thought and creed. However, they are all human beings. They will show the way they coexist in spite of differences in creed, thought, and interests. In spite of the attitude of the Jews in the previously mentioned incidents, the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) did not want to respond to their grudge with similar grudge and a sword that eradicates seditions. He (may the blessings and peace of Allah be upon him) is not the war commander, who seeks military victory or a lightheaded leader.

However, he (May the blessings and peace of Allah be upon him) guides the people and calls for good, right, and peace. He sets a basis for dealing with him. He was the victorious conqueror, who controls handling the Jews residing in Medina and hating the Da`wah and its herald. He sets bases and rules, which determine the frameworks of treatment in war and peace, in the wars that may occur between them, or armies that attack Medina. How should those differing parties respond to these disputes? How should they be settled? These bases and rules reveal truthfully that the world today, in spite of the progress and improvement in

in the next year, they took upon themselves to set the first Islamic State in Medina, his Companions started to immigrate to it.

- He immigrated with Abu Bakr Al-Seddiq from Mecca to Medina. He entered it on Monday (8th of Rabi' Al-Awwal, 1 H, 20 September 622) and he resided in the Prophet's Mosque. Also, he set a constitution for the first Islamic state.
- Quraysh chased and antagonized him. Allah permitted him and his Companions to fight them to defend the freedom of creed and call for defending the Islamic nation.
- For the sake of protecting the religion, state, and nation, the twenty eighth invasions occurred, by which Islam conquered disbelief and paganism as well as the alliance of the Jews and paganism. The Arabs united for the first time in history and the people embraced Islam in huge numbers. Also, call for Islam transcended the Arabian Peninsula to the surrounding area. The victims of theses victories, which are followed by these victories, did not reach 386 murdered persons. This number includes all of the martyrs of the Muslims and the killed disbelievers.
- In 25th of Dhul Qi'dah in 10 A.H, February 623, he went out to perform Hajj (Farewell Hajj). He delivered a sermon on 'Arafat Mountain, which was the longest sermon, in which the civil and religious rights were determined to humanity. Then, he went back to Medina.
- In 27th of Safar, 11 May, 632, he was ill until he died. Then, his calm soul ascended to Allah on 12th of Rabi' Al-Awwal, 11 A.H, 7th of June, 632, after 63 years and three days in the moon chronology and 61 years and forty eight days in the sun chronology.
- The number of those who embraced Islam at the time of his death 124,000 people, while the number of the elite and leaders who were taught by the Prophet was eight thousand including more than thousand women.
- He was an eloquent preacher, who, if spoke about prohibition, his eyes turn to red, his voice becomes loud, and he becomes angry as if he fights. If he preaches for war, he depends on bow, and when he speaks about peace, he depends on a stick.

- He was a good speaker, whose words were sweet. When he speaks, he smiles.
- He was modest, used to sit and eat on the ground, repaired his cloth and shoe, serves his family, responds to the invitation of the poor to the barely bread. Also, he used to sit with the needy.
- He used to keep silent for a long time and to laugh slightly. If he laughed, he used to place his hand on his mouth. He used to joke somewhat and does not say except the truth. If he joked, he used to lower his gaze.
- He was extremely shy; if he shook hands with someone, he did not leave his hand first.
- His head, hands, and legs were big. He was neither tall nor short. His forehead was wide and his hair was flowing and reached half of his ears. His face was round and tended to be red. His beard was bushy, his mouth was big, and there were spaces among his teeth. He had tawny complexion, and he used to wear a white cap and to apply musk on his head and beard. When he walked, he did not turn around. If he turned around, he turned with his whole body. He walked as if he were descending from a high place. When he paid much attention to a certain matter, he used to touch his beard.
- He was a brave hero, who was strong in wars and his Companions used to protect themselves with him, and he used to be the nearest to the enemies.
- He used to offer optional night Prayer at night until his feet swelled. He was tender towards the human being, the animal, the plant, and the solid bodies.
- He described himself saying: "My Lord brought me up in the best way." His wife 'Aishah (9 B.H – 58 H \ 613-678 B.C) described him saying: "The Qur'an formed his manners." Allah (Glorified and Exalted be He) said: "

  [Al-Qalam (The Pen): 4]

  Allah is the Ever-Truthful, Allah, the angels, and the believers invoke blessings and peace upon him until the Day of Judgment.

(1) See our Book "Muhammad (peace be upon him) the perfect human being receives the Revelation", Dar Al-Salam edition, Cairo.

*Facts about the most Perfect human being the messenger of Allah Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him)...!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar magazine

- He is Abul Qasim Muhammad (53 B.H – 11 A.H, 571-633 B.C) ibn `Abdullah (81 B.H – 53 B.H. / 544 – 633 A.D) ibn `Abdul Muttalib (127 B.H – 45 B.H , 500- 579 A.D) ibn Hashim (may the blessings and peace of Allah be upon him).
- He is from Quraysh, and belongs to `Adnan. They are the sons of Isma`il ibn Ibrahim (may peace of Allah be upon them).
- His mother is Aaminah bint Wahb (45 B.H / 575 A.D) from Quraysh.
- He was born in Mecca, on Monday (9th of Rabi` Al-Awwal, 53 B.H / 20 April, 571 A.D).
- He was breastfed in the desert by Halimah As-Sa`diyyah, who belongs to bani Sa`d ibn Bakr ibn Hawazen.
- He was an orphan, as his father died before his birth, and his mother took care of him until her death, while he was six years old. Then, his grandfather brought him up until he died when he was eight years old. Then, his uncle Abu Talib (85 B.H – 3 B.H , 540 – 620 A.D)
- As he grew up, he was sound-minded, resolute, truthful, honest, courageous, and good-mannered. He was known among his people as the truthful and the honest.
- He participated in (Helf Al-Fudul)The excellent people treaty, which was held in Macca to advocate the wronged people and to take the rights of the weak from the strong.
- He worked as a shepherd sometimes, and worked in trade in other times. He travelled to the Levant to trade in the interest of lady

* Leading article in the Arabic section of Al Azhar magazine, Rabuil-Awwal, 1433 A.H.

Khadijah bint Khuwailid Al-Asadiyyah Al-Qurayshiyyah (68 B.H – 3 B.H / 556 – 620 A.D).

- When he was twenty five, he got married to lady Khadijah and she borne him six children – with the exception of Ibrahim who died as a child. Khadijah was his only wife until she died – while he was fifty years old (3 B.H/620 A.D). Then, he had some wives.
- None of his children lived until his death except his daughter Fatimah (18 B.H – 11 H / 605 – 632 A.D), who married his cousin `Ali ibn Abu Talib (23 B.H – 40 H / 600 – 661 A.D). She bore her sons Al-Hasan ibn `Ali (3-50 H / 624-670 A.D) and Al-Hussayn ibn `Ali (4-61 A.H / 625 – 680 A.D). However the rest of his children died during his life. They are Al-Qasim, `Abdullah, Zaynab, Ruqayyah, Um Kulthum, and Ibrahim.
- He never worshiped an idol, and he tended to meditation and searching for truth. He used to seclude himself during Ramadan month every year in Mecca to worship Allah like the other Hanifis in the rest of the Shari`ahs of Ibrahim.
- When he was in the cave in Ramadan (13 B.H, 610 A.D), the Revelation was sent down to him with the eternal message. He started to call people intimate to him secretly for three years. Few of them believed him, then he announced the Da`wah.
- The Noble Qur'an was sent to him separately, and the writers of the Revelation used to write and memorize it. It is the miracle with which he challenged his people as well as the human beings and the Jinn.
- He and his Companions were severely harmed by the disbelievers of Quraysh and its rich people. They endured this suffering patiently. He was besieged by Quraysh with those who believed him along with his relatives in Bani Hashim mountain pass for three years. They boycott him economically and socially until they were about to die out of hunger. He permitted twice some of his Companions to immigrate to (AlHabasha) Ethiopia .Then, he started to introduce his Da`wah to some tribes, asking for protection, belief, and breaking besiege.
- When some people from Yathrib belonging to Al-Aws and Al-Khazraj responded to his Da`wah for Islam in 2 B.H. and returned

{'And Verily, you (O Muhammad peace be upon him) are on an exalted (standard of) character.}[Al-Qalam (The Pen): 4].

{'Verily, there has come to you a Messenger (Muhammad peace be upon him) from amongst yourselves (i.e. whom you know well). It grieves him that you should receive any injury or difficulty. He (Muhammad peace be upon him) is anxious over you (to be rightly guided, to repent to Allâh, and beg Him to pardon and forgive your sins in order that you may enter Paradise and be saved from the punishment of the Hell-fire); for the believers he (peace be upon him) is full of pity, kind, and merciful.}

[Al-Tawbah (Repentance): 128]

The stubborn disbelievers did not stop at accusing this message with these attributes especially nowadays, as they describe it of being terroristic and incapable of being applied to the modern time. The financial disasters afflicting them now due to usury(riba), prohibited by the Islamic Shari`ah, sent to the Messenger of Allah from his Lord.

After suffering extremely from the disasters, some of their reasonable people call to cure these disasters by making the interest equal zero without indication to the prohibition of usury in Islam.

Allah (Glory be to Him) said: {'O you who believe! Be afraid of Allâh and give up what remains (due to you) from Ribâ (usury) (from now onward), if you are (really) believers. And if you do not do it, then take a notice of war from Allâh and His Messenger (peace be upon him) but if you repent, you shall have your capital sums. Deal not unjustly (by asking more than your capital sums), and you shall not be dealt with unjustly (by receiving less than your capital sums).}[Al-Baqarah (The Cow): 278-279]

Islam urges the Muslims to treat the non-Muslims coexisting with them with piety and justice. Allah (Glory be to Him) says in His Glorious Book: { 'Allâh does not forbid you to deal justly and kindly with those who fought not against you on account of religion nor drove you out of your homes. Verily, Allâh loves those who deal with equity.}

[Al-Mumtahanah (She that is to be examined): 8]

Kindness towards them is clear, even when they announce war against the Muslims, Allah (Glory be to Him) permits them to respond to them. If they ask for stopping the fighting, the Muslims should do, according to the Saying of Allah (Glory be to Him): {But if they incline to peace, you (also) incline to it, and (put your) trust in Allâh. Verily, He is the All-Hearer, the All-Knower.} [Al-Anfal (The Spoils of war): 61].

This is because Islam is a religion depending on peace not war.

If the non-Muslims accept coexisting with the Muslims, the Muslims should accept that and should be equal with the Muslims in rights

including justice in treatment and non-discrimination between the Muslims and the non-Muslims.

In this regard, we find the attitude of Omar ibn Al-Khattab, the second Caliphe, when the one of the Egyptian Christians complained to him due to the aggression of the son of the ruler of Egypt, `Amr ibn Al-`As towards the son of the Christian. The son of `Amr ibn Al-`As was playing with the son of the Chrsitian. They were competing each other, and the son of the Chrsitian won. Then, the son of the Egyptian ruler beat him. The Caliphe called `Amr to Medina anlong with his son and gave the son of the Christian a whip to beat the son of `Amr in front of his father. He said his famous saying: "How come that you enslave people while their mothers did born them free?"

Allah (Glory be to Him) limited the aggression if started by the Muslims, as they should not exaggerate in fighting. Allah (Glory be to Him) says:

{And fight in the Way of Allâh those who fight you, but transgress not the limits. Truly, Allâh likes not the transgressors. [This Verse is the first one that was revealed in connection with Jihâd, but it was supplemented by another}.

This means that aggression means starting with fighting. Also, it means fighting to defend self, religion, and nation. It should not be overcome by revenge. This is clarified by the commands of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) to the war leaders: not to cut a tree, kill a child, a woman, or an old man, or frighten a person worshiping in his place of worship, as he has nothing to do with the war.

The Messenger ordered them not to fright the non-Muslims, who practice their acts of worship, as they are peaceful. This can not be compared to the attitude of the Christians in Spain, when they conquered the Islamic Andalusia in the fifteenth century after Christ. They forced its Muslim inhabitants by sword to leave their religion and to embrace Christianity; otherwise, they would kill them severely. This led the Muslims to be killed or fled to the North Africa fearing for their religion.

Also, there is the attitude of Saladin when he conquered Jerusalem in the twelfth century. When the Crusades seized the same city, they killed the Muslims, as the streets were full of the skulls of the Muslims, to the extent that the number of the murdered Muslims was over seventy thousand. Besides, they burnt and plundered their houses.

This is so far from the orders of Saladin to his soldiers to avoid plundering the houses and harming the peaceful civilians. Really Islam is the religion of tolerance and non-aggression, as it is mentioned in the Noble Qur'an, the prophetic Hadiths and as well as the commands of the Muslim leaders.

In the memorandum of the Prophet's birth: His Message (May the blessings and peace of Allah be upon him) is a mercy sent to all of the human beings...!

{And We have sent you (O Muhammad peace be upon him) not but as a mercy for the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists).} [Al-Anbia'a (The Prophets): 107]

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) was sent from Allah, the Lord of the worlds, to guide all of the human beings to the truth and the straightforward path. Allah, the Lord of humanity, sent him to all the human beings, so that all of them will be in welfare and happiness "say, O you mankind, surely I am the Messenger of Allah to you altogether, to Whom belongs the kingdom of the heavens and the earth. There is no god except He. He gives life and causes to die. So believe in Allah and His messenger, the prophet the illiterate one, who believes in Allah and His Speeches, and follow him closely that possibly you would be guided" (Al- Araf – The Battlements: 158) . "And we have sent you to mankind a messenger and Allah suffices as Ever-Witnessing" (An-Nisa'a – Women: 79). The message of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) is a substitute for the Divine messages, as it collected the essence of the principles included in the Divine religions, held by the other messengers of Allah starting from Adam to Isa and our Prophet Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon them).

Thus, it is better for the Servants of Allah to accept this grace if they want to be happy in their life and their Hereafter. It is unquestionable that everything in life starts small, then becomes mature. This applies to the human mind, as the human beings in the earlier ages differ from those living nowadays. In the earlier ages, they had little knowledge and did not have the cultural progress occurring in the twenty first century.

All the people everywhere should seek this divine grace and adapt themselves to accept it and to apply its principles and their cultural progress should not be a reason for being far from it. Allah (Glory be to Him) willed that the message of Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) be general and applies to all of the creatures and be the final divine Shari'ah. Allah declared in the Noble Qur'an:



{'Muhammad (peace be upon him) is not the father of any of your men, but he is the Messenger of Allâh and the last (end) of the Prophets. And Allâh is Ever All-Knower of everything.}

[Al-Ahzab (The Allied parties): 40]

There is no prophet after him. Nearly fifteen centuries have passed since the beginning of the message of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him), and history has not recorded any messenger or prophet came with a message from Allah. This is the best evidence on the truthfulness of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) even if the stubborn, who do not submit to the right and light denied it.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) strived much since he carried this trust for the sake of informing his people and the whole world thereafter. His way to achieve this end was the kind word, fair preaching, welcoming manner, and unlimited patience, enduring the stubbornness and denial of the people. When they resorted to fighting, he and his companions did not hesitate to defend the call for the Path of Allah not caring for death for the sake of the creed. Also, he (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his followers did everything to make it general to all humanity to make the believers happy and to cast a shadow of mercy over those who embraced Islam. Many of the disbelievers described him of being a magician, soothsayer, and poet. Then, they described him of being mad. In this regard, Allah (Glory be to Him) says:

{'Or do they say: "(Muhammad peace be upon him) is a poet! We await for him some calamity by time!"} [At-Tur (Mount): 29].

{'It is not the word of a poet: little is that you believe!} [Al-Haqqah (The Reality): 41].

{'Nor is it the word of a soothsayer (or a foreteller): little is that you remember!} [Al-Haqqah (The Reality): 42].

{'Therefore, remind (mankind of Islâmic Monotheism, O Muhammad peace be upon him). By the Grace of Allâh, you are neither a soothsayer, nor a madman.} [At-Tur (Mount): 30].

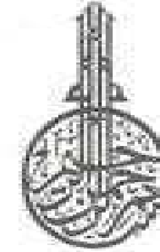
{Nûn. [These letters (Nûn, etc.) are one of the miracles of the Qur'ân, and none but Allâh (Alone) knows their meanings]. By the pen and by what they (the angels) write (in the Records of men). You (O Muhammad peace be upon him), by the Grace of your Lord, are not mad.}

[Al-Qalam (The Pen): 1, 2]

When the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) replied to them, Allah said:



AL-AZHAR MAGAZINE
Rabiul-Awwal,1433



ENGLISH SECTION
February, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

AL AZHAR
MAGAZINE

العدد القادم

- الطابع الدفاعي لَغزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ... للأستاذ الدكتور محمد عمارة
- العلمانية وتطبيقها في الإسلام ... للأستاذ الدكتور محمد البهي
- دعوة الإسلام إلى تأسيس مدنية عالمية فاضلة ... للعلامة محمد فريد وجدي
- الآثار التربوية للعبادات ... للأستاذ الدكتور صلاح سلطان .



الهدية

كتاب (أثر القرآن في تحرير الفكر البشري)

للعلامة المجاهد الشيخ عبد العزيز جاويش

دراسة وتقديم وتعليق الدكتور محمد عمارة



المتن ٧٠ جم مستورد - الغلاف ١٥٠ جم كوشيه

السعر ١٥٠ قرشاً

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ربيع الآخر ١٤٣٣هـ - مارس ٢٠١٢م الجزء ٤ السنة ٨٥
www.AlazharMag.com

داخل العدد

اقرأ لهؤلاء



د. محمد البهي



أ.د. محمد حلمي القاعود



أ. محمد فريد وجدي

هدية العدد

أثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري

دراسة وتقديم وتعليق أ.د. محمد عمارة



بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

الاشتراك السنوى

داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الطابع الدفاعي لغزوات الرسول ﷺ



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

فى كثير من الكتابات الغربية ، ترددت وتكررت دعاوى انتشار الإسلام بالسيف .. ولقد حاول البعض الاستدلال على هذه الدعاوى بالغزوات التى حدثت فى دولة النبوة.

وأمام هذا الافتراء - نحتكم - فى سير حقيقته - إلى مصدر تاريخى ، كتبه رائد التنوير فى عصرنا الحديث رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ هـ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م) ، الذى دقق تواريخ الغزوات الإسلامية ، ورصد مقاصدها وملابساتها وأسبابها فى كتابه الفذ (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) .. ومن خلال هذا المصدر ، لهذا الرائد المستنير - الذى لابد أن يكون موضع الاحترام والمصداقية - نقدم الصورة الحقيقية للأسباب الموضوعية لسرايا المسلمين وغزواتهم فى المدينة المنورة :

• إن استعراض مجمل السرايا والغزوات الإسلامية ، إنما يعلن عن أنه :

- لم تحدث سرايا ولا غزوات فى السنة الأولى للهجرة - على عكس كذب الجابرى.

- وأن ما حدث قبل غزوة بدر (رمضان سنة ٢هـ / ٦٢٤م) إنما كان سرايا لتأمين محيط المدينة المنورة والدفاع عنها.

• أما أولى الغزوات ، فكانت غزوة « الأبواء » - عند قرية « ودّان » - سنة (٢هـ / ٦٢٣م) ، وفيها صالح رسول الله ﷺ مجدى بن عمرو الجهنى على ألا يغزوهم ولا يغزونه ، وألا يكثر عليه جمعًا ، ولا يعين عليه عدواً .. وكتب الرسول بذلك مع سيد بنى ضمرة كتابًا .. أى أنها - غزوة « الأبواء » - كانت لتأمين المدينة ، ومصالحة سكان الجوار.

• وفى نفس العام (٢ هـ / ٦٢٣م) كانت الغزوة الثانية ، غزوة « بُواط » فى شهر ربيع الآخر - أى بعد أكثر من عام على الهجرة - وكانت لاعتراض قافلة قريش ، التى كان يقودها أمية بن خلف (٢هـ / ٦٢٤م) - أحد أكابر المجرمين المشركين الذين احترفوا تعذيب المسلمين بمكة - .. ولم يحدث فى هذه الغزوة لقاء ولا قتال.

• وفى نفس العام (٢هـ / ٦٢٣م) كانت الغزوة الثالثة ، غزوة ذى العشيرة - فى شهر جمادى الأولى - وهى التى كانت لاعتراض عير قريش وقافلتها التى كانت متجهة إلى الشام ، بقيادة أبى سفيان ، وهى العير التى خرج الرسول ﷺ لاعتراضها وهى عائدة من الشام - لاقتضاء بعض ما للمسلمين المهاجرين من حقوق مغتصبة ومصادرة عند مشركى قريش .. فلما أفلتت العير .. خرجت قريش غازية للمسلمين ، ومعتدية عليهم فى مدينتهم ومهجرهم ، فكانت غزوة بدر الكبرى ، رمضان سنة (٢هـ).

• وفى نفس العام الهجرى (٢هـ / ٦٢٣م) كانت الغزوة الرابعة - غزوة « سفوان » (بدر الأولى) - .. وفيها خرج رسول الله ﷺ إلى كرز بن جابر الفهرى ، الذى أغار

على «نَعَم» المدينة ومواشيها - (سَرْح المدينة) التي تسرح بالغداة.. فأفلت كرز، ولم يقع قتال.. فكانت هذه الغزوة دفاعية، لمطاردة الذين أغاروا على سَرْح المدينة واغتصبوه ونهبوه.

• وفي رجب سنة (٢هـ/ ٦٢٤م) كانت سرية عبدالله ابن جحش (٣هـ/ ٦٢٥م) - ومعه ثمانية أنفس - ذهبوا إلى «نخلة» - بين مكة والطائف، على بعد ليلة من مكة - «ليتعرفوا أخبار قريش»؛ أي أنها كانت سرية لاستطلاع الأخبار عدد أفرادها تسعة - وحدث أن مر بهم عير لقريش فغنموها، وأسروا اثنين من المشركين. فكانت غنيمتهم هذه أول غنيمة غنمها المسلمون، كجزء من المقاصّة لما للمسلمين من حقوق اغتصبها منهم المشركون.

تلك هي حقيقة «المجابهات» التي حدثت منذ الهجرة وحتى بدر الكبرى، في (١٧ رمضان سنة ٢هـ/ ١٥ مارس ٦٢٤م).

• أما غزوة بدر الكبرى - في (رمضان سنة ٢ هـ) - فكانت دفاعية.. خرج فيها المسلمون - من المهاجرين - والأنصار - للدفاع عن دولتهم ومدينتهم ضد الجيش القرشي الذي زحف من مكة للقضاء على الكيان الإسلامي في المدينة المنورة.

• وبعد غزوة بدر الكبرى، حدثت غزوة السويق في (٥ ذي الحجة سنة ٢ هـ/ ٢٩ مايو سنة ٦٢٤م).. لأن أبا سفيان - انتقاماً مما حدث للمشركين في بدر - تسلل إلى ما حول المدينة، واتصل بسيد بني النضير - من اليهود - ليؤلب على الرسول ﷺ ودولته وأمته، وقتل اثنين من الأنصار، وأحرق حرثهما، وذلك وفاء لنذره الانتقام من المسلمين بسبب بدر الكبرى.. فكانت غزوة السويق دفاعية، ومطاردة لعدوان أبي سفيان على حرم المدينة وجوارها، وقتله اثنين من الأنصار، وإحراقه لحرثهما ولم يقع فيها قتال.

• وفي أواخر ذي الحجة سنة (٢ هـ) وأوائل محرم سنة (٣ هـ/ ٦٢٤م) كانت غزوة بني سليم، التي خرج فيها رسول الله قاصداً بني سليم وغطفان، الذين تجمعوا - بين العراق ومكة - لمهاجمة المدينة المنورة.. فلم يجدهم الرسول بذلك المكان فعاد بدون قتال.. أي أنها كانت دفاعية، لإجهاض تجمع بني سليم وغطفان للعدوان على المدينة المنورة.. ولم تكن لقطع طرق التجارة.. كما كذب الجابري.

• وفي (جمادى الأولى سنة ٣هـ/ أكتوبر سنة ٦٢٤م) كانت غزوة بحران (بني

سليم).. عندما بلغ الرسول ﷺ أن بني سليم قد اجتمعوا ثانية لمعاودة غزو المدينة.. فلما خرج لإجهاض هذه المحاولة، وجدهم قد تفرقوا، فعاد إلى المدينة دون قتال.

• وفي (٧ شوال سنة ٣هـ/ ٢٣ مارس سنة ٦٢٥م) كانت غزوة أحد، التي كانت دفاعية، ضد مشركي قريش، الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لتدمير الكيان الإسلامي والأمة الإسلامية فيها.

• وفي (١٦ شوال سنة ٣هـ/ أبريل سنة ٦٢٥م) كانت غزوة حمراء الأسد، التي خرج المسلمون فيها إلى هذا المكان، وهم مثخنون بجراح أحد، إعلاناً عن صلابة إرادتهم وعزيمتهم، وذلك تخويفاً لعدوهم، الذي انتشى بانتصاره في أحد.. فكانت هذه «الغزوة» مظاهرة لمنع تكرر العدوان المشرك على المدينة المنورة.

• وفي (شوال سنة ٤هـ/ مارس سنة ٦٢٦م) كانت غزوة «بدر الموعد» التي خرج فيها الرسول ﷺ والمسلمون استعداداً لصد عدوان قريش، التي نذر قائدها أبوسفيان إعادة الإغارة على المدينة، عندما قال عقب أحد: «الموعد بيننا وبينكم بدر العام المقبل» - ولذلك سميت «بدر الموعد» - ولقد انسحبت قريش - بعد أن خرجت من مكة؛ لعدم ملاءمة الوقت للحرب، فرجع الرسول ﷺ إلى المدينة دون قتال.

• و(لخمس بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م) كانت غزوة دومة الجندل، بعد شهرين وأربعة أيام من غزوة ذات الرقاع - وهي أول غزوات المسلمين في الشام - وكان سببها اجتماع جمع من الأعراب - الذين يعيشون تحت حكم الروم البيزنطيين - يظلمون من مر بهم، ولقد عزم هذا التجمع على غزو المدينة المنورة.. فكان خروج المسلمين إلى دومة الجندل إرهاباً لقطاع الطرق هؤلاء، وإجهاضاً لعزمهم على غزو المدينة المنورة.. فلما سمعوا بخروج الرسول ﷺ والمسلمين إليهم، هربوا.. ولم يحدث فيها قتال.

• وفي (جمادى الأولى سنة ٥هـ/ أكتوبر سنة ٦٢٦م) كانت غزوة بني لحيان.. طلباً للثأر من هذيل، الذين قتلوا أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع.. فلما وجد المسلمون أن بني لحيان قد فروا، وتحصنوا بحصونهم، عاد المسلمون إلى المدينة دون قتال.

• وفى (شوال أو ذى القعدة سنة ٥هـ/ أبريل سنة ٦٢٧م) كانت غزوة الخندق، التى كانت دفاعية، ضد الزحف الذى انتظم قريشًا وحلفاءها.. عندما حاصروا المدينة وأحكموا حولها الخناق.

• وفى سنة (٦هـ/ ٦٢٧م) كانت غزوة ذى قرد - على ميلين من المدينة، على طريق خيبر - وكانت ردًا على إغارة عيينة بن حصن - فى خيل من غطفان وفزارة - على لقاح[1] رسول الله ﷺ بالغابة قبل خيبر.. أى أنها كانت مطاردة للمغيرين المغتصبين.

• وفى سنة (٦هـ/ ٦٢٧م) كانت غزوة بنى المصطلق.. وسببها أن الحارث بن ضرار - سيد بنى المصطلق - جمع من قومه ومن العرب من قدر عليه لمحاربة الرسول ﷺ.. فخرج إليهم الرسول لإجهاض غزوتهم وغدرهم وعدوانهم.. فحاربهم دفاعًا عن المدينة وأهلها.

• وفى (جمادى الأولى سنة ٨هـ/ ٦٢٩م) كانت غزوة مؤتة - بالشام - وهى أولى الغزوات الإسلامية ضد الروم البيزنطيين، الذين احتلوا الشام والشرق وقهروه عشرة قرون.. ولقد كان سببها المباشر قتل الروم لرسول رسول الله ﷺ الحارث ابن عمير (٨هـ/ ٦٢٩م) الذى أرسله الرسول برسالته إلى ملك بصرى.

• وفى (١٠ رمضان سنة ٨هـ/ أول يناير سنة ٦٣٠م) كان فتح مكة، بعدما نقضت قريش عهدها الذى أبرمته مع الرسول ﷺ والمسلمين فى الحديبية سنة (٦هـ/ ٦٢٨م).

ولقد مثل هذا الفتح عودة الذين أخرجوا من ديارهم بمكة إلى هذه الديار.

• وفى (٦ شوال سنة ٨هـ/ يناير سنة ٦٣٠م) كانت غزوة حنين - بالقرب من الطائف - وذلك لمواجهة اجتماع هوازن التى انضمت إليها ثقيف، وبنو سعد بن بكر، وبنو جشم بخيولهم وأموالهم لمحاربة المسلمين بعد فتح مكة..

• وفى سنة (٩هـ - ٦٣٠م) كانت غزوة تبوك - بالشام - ضد الروم - وهى آخر الغزوات - ولم يقع فيها قتال.. وإنما كانت إعلانًا نبويًا عن ضرورة تحرير الشرق وأهله ودياناته من قهر الغزوة الإغريقية الرومانية التى دامت عشرة قرون، قهر فيها الغرب الشرق حضاريًا ودينيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا.. وفى هذه

(١) اللقاح - جمع لقحة - الناقة ذات اللبن، القريبة من الولادة.

الغزوة صالح الرسول ﷺ أهل أيلة.. وأهل جرباء.. وأهل أذرح.. وأهل ميناء..

• أما غزوات الرسول ﷺ - ضد اليهود - بنى قينقاع: (منتصف شوال سنة ٢هـ - إبريل سنة ٦٢٤م) فكانت ردًا على نقضهم العهد مع الرسول ودولة المدينة.. وكذلك ضد يهود بنى النضير سنة (٤هـ/ ٦٢٥م) لنقضهم العهد، ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ.. وضد يهود بنى قريظة فى (ذى الحجة سنة ٥هـ/ ٦٢٧م) لخيانتهم العهد وتحالفهم مع المشركين الذين حاصروا المدينة فى غزوة الخندق.. وضد يهود خيبر (أواخر محرم سنة ٧هـ/ أواخر مايو سنة ٦٢٨م) للقضاء على خيانتهم العهد، وتحالفهم مع الشرك الوثنى، وتأليبهم المشركين لمحاربة الرسول ﷺ، وتمويلهم هذه الحروب.. وإعلانهم لقريش «إنا سنكون معكم حتى تستأصله»!..

تلك هى حقيقة الأسباب والملابسات التى صاحبت هذه الغزوات التى فُرضت على المسلمين فرضًا[2].. والتى مثلت الصراع بين الشرك الوثنى - المتحالف مع التآمر والتمويل اليهودى - على امتداد حياة الرسول ﷺ بالمدينة المنورة..

وهى الغزوات والسرايا التى تثبت بالوقائع التاريخية الدامغة أن الموقف الإسلامى فيها كان موقف الدفاع دائمًا وأبدًا.. أو الردع الذى يمنع العدوان والقتال.. ومع عدد الغزوات والسرايا.. ومع ما كتب عنها وفيها.. فإن جميع ضحاياها لم يتجاوز عددهم (٣٨٦ ضحية) - (١٨٣) هم شهداء المسلمين.. و(٢٠٣) هم قتلى المشركين[3].

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى: نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز، الجزء الرابع من (أعماله الكاملة)، (ص ١٦٨، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٨١، - ٢٨٣، ٢٨٥ - ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣٣١، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٢) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٧م).

(٣) ابن عبد البر: الدرر فى اختصار المغازى والسير. وانظر كتابنا: الفاتيكان والإسلام (ص٧٧)، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٧م)، والإسلام والآخر (ص٦٥)، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠١م).
وانظر فى ذلك: كتابنا (رد افتراءات الجابرى على القرآن الكريم) ص١٢٩-١٣٧، طبعة دار السلام، القاهرة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ
بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(البقرة: ١٧ - ٢٠)

هذا مثل من مثلين ضربهما الله في هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم. وكان من عناية الله تعالى في بيان حاله، أن قفى على ذلك التفصيل في شأن فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذي يقصد به تجلي المعنى في أتم مجاليه، وتأثر النفوس بما أودع فيه، ناهيك بما في التنقل في الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول، ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه. ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم، وداءه دفين، وعلاجه متعسر - لأنه متولد من الدواء الذي كان يجب أن تكون فيه الصحة ونعمة العافية - لما كان من البلاغة ولا من الحكمة، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية، كما قلنا في تزييف رأي من ذهب إلى أن الكلام في تلك الشرذمة من المنافقين في عصر التنزيل.

ضرب الله تعالى لهذا الصنف في مجموعه مثلين، ينبئان بانقسامه إلى فريقين، خلافا لما في أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد، وأن معناهما وموضوعهما واحد.

الأول- من آتاهم الله دينا وهداية، عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها، وصلح حالهم بها، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة، آخذين بإرشاد الوحي، واقفين عند حدود الشريعة. ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهرا وباطنا، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم. بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة، إنما كان أمرا خصوا به أو خيرا سيق إليهم، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم، ولم تصلح به ضمائرهم. فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالاً لغيرها. ولذلك، لم يتفكروا قط في كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم، لأن حفظ الموجود، أيسر من إيجاد المفقود. بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اهتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان، ونجوم الفرقان، لزعمهم أن فهمه لا يرتقي إليه إلا أفراد من رؤساء الدين، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا، وبكتبهم إذا فقدوا.

فمثل هذا الفريق، من الصنف المخذول في فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة، وانطماس الآثار دونها عنده - مثل من استوقد نارا إلخ. والوجه في التمثيل أن من يدعي الإيمان بكتاب نزل من عند ربه، قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدي بها في الشبهات، ويستضيء بها في ظلمات الريب والمشكلات، ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشهوات، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد، وكان بالنظر فيها يمشي على هداية وسداد، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث، وعصب عينيه شيطان الغرور، فذهب عنه ذلك النور، وأطبق عليه جو الضلالة، بل طفئ فيه نور الفطرة، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه، فهو بمنزلة الأعمى الأصم الذي لا يبصر ولا يسمع.

وأما الفريق الثاني: فقد ضرب الله له المثل في قوله:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

وهو الذي بقي له بصيص من النور، فله نظرات ترمي إلى ما بين يديه من الهداية أحياناً، ولمعاني التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة، ويأتلق في نظره الحين بعد الحين، عندما تحركه الفطرة، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه، ولكنه من التقاليد والبدع في ظلمات حوالك، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك، وهو في تخبطه يسمع قوارع الإنذار الإلهي ويبرق في عينيه نور الهداية، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار، وإذا انصرف عنه بتشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لا يدري أين يذهب. ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق، كمن يضع أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح، يخاف من تلك القوارع أن تقتله، ومن عواصف النذر أن تهلكه.

هذا هو شأن فريقي هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالا. وفي تفسير الآيات تفصيل ما أشرنا إليه.

قال تعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾

العرب تستعمل لفظ «الذى» فى الجمع كلفظى «ما» و«من» ومنه قوله تعالى:

﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾

(التوبة: ٦٩)

وإن شاع فى «الذى» الإفراد لأن له جمعا. وقد روعى فى قوله:

﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

معناه. والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولا ومراعاة المعنى آخرا. والتفنن فى إرجاع الضمائر متفرعة، ضرب من استعمال البلغاء، يقرر المعنى فى الذهن ويهبه فضل تمكن وتأكيد، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعانى المختلفات.

﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾

يقال ضاءت النار والشمس وأضاءت (لازم). ويقال ضاء المكان وأضاءته النار أى ظهرته بضوئها. قال العباس - رضى الله عنه - فى النبى - صلى الله عليه وسلم.

وأنت لما ظهرت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الإلهية بتصديقهم. فلما أضاءت لهم بروقها، ووضح لهم طريقها، فاجأتهم التقاليد الموروثة، وباغتتهم العادات المألوفة، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد، وما يتوقعونه فى الإعراض عنها من المصارع والمفاسد، عن الاستعانة بذلك الضوء على ذلك الصراط المستقيم، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم. بل استبدلوا هذا الديجور، بذلك الضياء والنور، وهذا هو معنى ذهاب نورهم. وإنما قال:

﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

ولم يقل ذهب نورهم، أو أذهب الله نورهم للإشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها، معتقدين صحة شريعته التى دعا الناس إليها، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل، وعافوا ذلك المورد السلسبيل.

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية فى التوجه إليه وقصد اتباع هداه، والاستضاءة بنوره الذى وهبه إياه، فإذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه، وذهب بنوره وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة، وما كان هؤلاء فى ظلمة واحدة، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التى فتنوا بها، وبتعدد أنواع الهداية التى أعرضوا عنها، ولذلك قال:

﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

شيئا، حذف مفعول يبصرون إيذانا بالعموم، أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقا من طرقها، لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سنته، وإهمالهم هدايته، ووكلهم إلى أنفسهم. ويا ويل من وكله الله إلى نفسه، وحرمه توفيقه، نسأل الله العافية.

هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية، فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده، وعدم الإبصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق، أو يذر شارق، أو يصيح طارق، فتكون الهداية، وتنكشف الغواية، ولذلك، عقبه بقوله تعالى:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾

أى أنهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقيه المرشدون إليها من الحجج القاطعة، والدلائل الناصعة، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ، ولا يصغون لتنبيه منبه.

فما أضيع البرهان عند المقلد

بل لا يسمعون وإن أصاخوا، ولا يفقهون إن سمعوا، فكأنهم صم لم يسمعوا وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها، فلا يسألون بيانا، ولا يطلبون برهانا، وفقدوا خير منافع الأبصار، وهو نظر الاستفادة والاعتبار، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فيزدجروا، ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا:

﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

عن ضلالتهم، ولا يخرجون من ظلماتهم، لأن من وقع فى أرض فلاة فى ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتا يهتدى به، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه، ولا أن يرى بارقا يؤمه ويقصده. فهو لا يرجع من تيهه، بل يظل يعمه فى الظلمات، حتى يفترسه سبع ضار، أو يصل إلى شفا جرف هار، فينهار به فى شر قرار،

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

(البقرة: ٢٧٠)

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا هو مثل الفريق الثانى من هذا الصنف من الناس، الذى كان أفراده ولا يزالون فتنة للبشر، ومرضا فى الأمم، وحجة على الدين، لأنهم يغرورهم بتقاليدهم التى اكتفوا بها من دينهم الموروث، يعبثون بعقولهم، ويلهون بخيالاتهم، ويجنون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها، ويصارعون الفطرة الإلهية فيصرعونها، حتى يكون بعضهم كالجمادات:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾

كما تقدم فى المثل الأول.

ويألف البعض الآخر الظلمة بطول التقليد، ويكون أفراده فى نور البرهان كالخفافيش فى نور الشمس. ولكنهم أمثل من الفريق الذى ضرب له المثل الأول، لأن فيهم بقية من الرجاء ورمقا من الحياة، يوجههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقها، والمشى فى الجادة كلما استبانوا طريقها، ولكن تحول دون ذلك ظلمات التقاليد العارضة، وتقف فى

السبيل عقبات البدع المعارضة. وقد يعدهم لاستماع قوارع الآيات التي تنذرهم بما حرفوا، وصوادع الحجج التي تبين لهم كيف انحرفوا، ولا يصدهم عنها إلا أنها تزعجهم إلى ترك ما صنفوا وألفوا، وهجر ما أحبوا وألفوا، وعدم المبالاة بسنة الآباء، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء. فهم يتراوحون بين الخوف والرجاء، مذبذبين بين أهل الجحود وأهل اليقين:

﴿ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(النساء: ١٤٣)

ولا ينقطع منهم الأمل، حتى ينقطع بهم الأجل.

ألا تراهم عندما يقرع أسماعهم من كتاب ربهم ما يبين فساد سيرتهم، والتواء طريقتهم، كقوله تعالى في النعي على أمثالهم، وحكاية ما لم يرضه من أقوالهم:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣)

وقوله في بيان ندمهم على التقليد، عندما يحل بهم الوعيد:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

(الأحزاب: ٦٧)

يأخذهم الزلزال، ويتولاهم الاضطراب والقلق، وتنشق لهم الظلمة عن فلق، ويلمع في نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون فيه خطوات، ثم تحيط بهم الظلمات، وينقطع بهم الطريق كما أشرنا آنفا. وأسباب غلبة الظلمات على النور، هي موافقة ما عليه الجمهور، والإخلاد إلى الهوى، وتفضيل عرض هذا الأدنى، وانتظار المغفرة ولو بما تأولوه في معنى الشفاعة، وتمني الربح من غير بضاعة:

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾

(الأعراف: ١٦٩)

بلى هو عندهم مدروس بجدليات النحو والكلام، ولكنه دارس الصوى والأعلام، المنصوبة لهداية القلوب والأحلام، ومقروء بالتجويد والأنغام، ولكنه متروك الحكم والأحكام، يقرءونه لكسب الحطام، ولمعرفة الحلال والحرام، ولا يتلونه لإصلاح القلب واللسان، بتزكية النفس وتغذية الإيمان، ويكتبونه لشفاء الأبدان من الأسقام، لا لشفاء ما في الصدور من الأوهام والآثام. ولو كان له أنصار يدعون إليه، وهداة يعتصمون به ويعولون عليه، لتبددت الظلمات أمام الأنوار، ومحت آية الليل آية النهار.

تلك الإرشادات الإلهية بمنزلة المطر الذي ينزل من السماء، والزلزال والاضطراب الذي أشرنا إليه بمنزلة الرعد، واستبانة الصراط المستقيم الذي يلمع في أنفسهم من ذلك كالبرق، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات التي تصد عن سلوك الطريق بل تعميه على طالبه وتحجبه عنه. ولذلك، قال تعالى في تمثيل حال هذا الفريق:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

أي قوم نزل بهم صيب، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للإشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه في أيديهم. ومن المعهود عند بلغاء العرب، التعبير عما يلم بالناس مما لا دافع له بأنه نزل من السماء. ولا جرم أن تلك السوانح التي تسنح في الأفكار، والإلهامات الإلهية، لأصحاب الفطرة الزكية، التي يكون من أثرها ما أشار المثل إليه، وتقدم التنبيه عليه، هي أمر وهبي واقع، ما له من دافع.

قال تعالى في وصف الصيب:

﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾

الظلمات هي ظلمة الليل، وظلمة الصيب نفسه. والرعد هو الصوت المعروف الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه أحيانا. والبرق هو الضوء الذي يلمع في السحاب في الغالب، وقد يلمع من الأفق حيث لا سحاب. وقال مفسرنا الجلال السيوطي: إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه يسوق به السحاب، وكأن الملك جسم مادي لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام، وكأن السحاب حمار بليد لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع وما ذكرناه هو الذي كان يفهمه العرب من اللفظين، وهو الذي يفهمه الناس اليوم. ولا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولاسيما إذا صرفت عن معان من عالم الشهادة، الذي يعرفه الواصفون والمتكلمون، إلى معان من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى، ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحي. ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التي نص المحدثون على كذبها، كما ولعوا بحشوها بالقصص والإسرائيليات التي تلقفوها من أفواه اليهود، وألصقوها بالقرآن لتكون بيانا له وتفسيرا، وجعلوا ذلك ملحقا بالوحي. والحق الذي لا مرية فيه، أنه لا يجوز إلحاق شئ بالوحي غير ما تدل عليه ألفاظه وأساليبه، وإلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتا لا يخالطه الريب.

وقال تعالى في أصحاب الصيب:

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾

الصاعقة هي ما كان يعرفه العرب ويعرفه كل واحد، وهو ما ينزل في أثناء المطر والبرق والرعد فيصعق ما ينزل به، بأن يهلك أو يلحقه ضرر. وما تفسيرنا للبرق والرعد والصاعقة مع كونها معروفة لكل الناس إلا لأن المفسرين صرفوا أفهامهم عن المعروف إلى غيره، كما حكي عن (أرسطو) حكيم قدماء اليونان أن تلاميذه سألوه عن تعريف الحركة، فقام ومشى، وما أنطقهم بالسؤال عنها على بداهتها إلا أنهم اعتادوا أن يسمعوا من الفلاسفة أقوالا في الأمور الجلية، تجعلها غامضة خفية.

وأما حقيقة البرق والرعد والصاعقة، وأسباب حدوثها، فليس من مباحث القرآن، لأنه من علم الطبيعة (أي الخليقة) وحوادث الجو التي في استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم، ولا تتوقف

على الوحي. وإنما تذكر الظواهر الطبيعية في القرآن، لأجل الاعتبار والاستدلال، وصرف العقل إلى البحث الذي يقوى به الفهم والدين. والعلم بالكون ينمو ويضعف في الناس، ويختلف باختلاف الزمان، فقد كان الناس يعتقدون في بعض الأزمنة أن الصواعق تحدث من أجسام مادية، لما كانوا يشمونه في محل نزولها من رائحة الكبريت وغيره، ورجعوا عن هذا الاعتقاد في زمن آخر، ملاحظين أن تلك الرائحة لا تكون دائما في محل الصاعقة.

وقد ظهر في هذا الزمان، أن في الكون سيالا يسمونه الكهرباء، من آثاره ما ترون من «التلغراف» و«التليفون» و«الترامواي»، وهذه الأضواء الساطعة في البيوت والأسواق، من غير شموع ولا زيت ولا ذبال، وإنما تكون باتصال سلكين دقيقين كالخيوط التي يخاط بها الثياب، أحدهما يحمل أو يوصل السيال الكهربائي الذي يسمونه الموجب، والآخر يوصل السيال المسمى بالسالب، وباتصال السلكين، يتولد النور من تلاقي السيالين، وبانقطاعهما أو الفصل بينهما ينفصل السيالان فينقطع الضوء من المصابيح والحركة من الآلات. والكهربائية موجودة في كل شيء، والبرق في السحاب يتولد من اتصال نوعيها الموجب والسالب بقدرة الله تعالى، كما يتولد في الأرض بعمل الإنسان. وقد استنزل بعض علماء الكهربائية قبس الصاعقة من السحاب إلى الأرض. والصعقة من أثر الكهربائية، وهي تفريغ السحاب طائفة منها في مكان لجاذب في الأرض يجذبه. وكثيرا ما حصل الصعق لعمال التلغراف، لما بين السحاب والأسلاك من الجاذبية. ومعرفة الناس بالسبب الحقيقي للصواعق، هدتهم إلى حفظ الأبنية الشاهقة منها، باتخاذ القضيب المعروف الذي يسمى قضيب الصاعقة، فلا تنزل الصواعق على بناء رفع فوقه هذا القضيب. ولا مجال في تفسير القرآن للتطويل في أمثال هذه المسائل الطبيعية، لأنها تطلب من فنونها الخاصة بها، فلنعد إلى بيان المثل.

استحضر حال قوم مشاة في فلاة من الأرض، نزل عليهم بعدما أقبل ظلام الليل صيب من السماء قصفت رعوده، ولمعت بروقه. وتصور كيف يهوون بأصابعهم إلى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد، ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع برءوس الأنامل. وعبر عن الأنامل بالأصابع، هذا التعبير المجازي اللطيف، للإشعار بشدة عنايتهم بسد آذانهم، ومبالغتهم في إدخال أناملهم في صماليخها، كأن كل واحد منهم يحاول بما دهمه من الخوف أن يغرس أصبعه كلها في أذنه، حتى لا يكون للصوت منفذ إلى سمعه، لما يحذره على نفسه من الموت الزؤام، ومعالجة الحمام. وهذا هو الجبن الخالع، ومنتهى حدود الحماقة، لأن سد الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت. والموت فقد الحياة بمفارقة الروح للبدن، وخلق الله له عبارة عن تقديره أو عن قبضه للروح وتوفيه للنفس.

وقوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

يرشدنا في أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل، لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات - وهو أن التصام، والهروب من سماع آيات الحق، والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التي يرون حياتهم الملية مرتبطة بها، لا يفيدهم شيئا؛ لأن الله تعالى محيط بهم، مطلع على سرائرهم، وعالم بما في ضمائرهم، وقادر على أخذهم أينما كانوا، وفي أي طريق سلكوا. فلا يهربون من برهان إلا ويفاجئهم برهان آخر كالغريق يدفعه موج ويتلقاه موج، حتى يقذف به إلى ساحل النجاة، أو يدفعه إلى هاوية العدم. ولهذا، قال:

﴿ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

ولم يقل محيط بهم. والمراد بالإحاطة هنا إحاطة القدرة. فمن لم يمته بأخذ الصاعقة، أماته بغيرها (تنوعت الأسباب والموت واحد). المحيط بالشيء لا يمكن أن يفوته وينفلت من قبضته. ثم بعد التنبيه والاستلفات، عاد إلى إتمام المثل وتفصيله، فقال عز شأنه:

﴿ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾

إذا لمع البرق بشدة، مفاجئا من هو في ظلمة، فإنه يؤثر في بصره تأثيرا يكاد يخطفه - والخطف هو الأخذ بسرعة - ولكنه يتبين به جزءا من الطريق، فيمشي فيه خطوات، ثم يعتكر عليه الظلام، وتستحوذ عليه المخاوف والأوهام، فيقف في مكانه، أو يعود البرق إلى لمعانه. ويحاكي هذا من حال الممثل بهم أنه عندما يدعوهم الداعي إلى أصل الدين، ويوضح لهم سبب ما هم فيه من البلاء المبين، ويتلو عليهم الآيات البينة، ويقيم لهم الحجج القيمة، على أنهم تنكبوا الصراط السوي وأصيبوا بالداء الدوي، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه، وتسير أفكارهم في نوره بعض خطوات، ولكن لا يعتمون أن تعود إليهم غتمة التقليد، وظلمة الشهوات، وغيبة الأهواء والشبهات، فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره وإنما تعود به إلى الحيرة - كما تقدم في أول الكلام - ثم يتكرر النظر في تضاعيفها بطريق الالتفات والإلمام. وفيه أنهم على سوء الحال وخطر المآل، لم تنقطع منهم الآمال، كما انقطعت من أصحاب المثل الأول الذين وصفوا بالصم البكم العمي، ولذلك قال فيهم:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ ﴾

حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تفيدهم هداية هاد، ولم يقل إنه ذهب بنور أولئك وسلبهم كل أنواع الهدى والرشاد، فوقع اليأس من رجوعهم إلى الحق. وقوله تعالى:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

إلخ رجع إلى بيان حال من ضرب فيهم المثل، لا من تتمة المثل، وقد كنى عنهم بالضمير هنا لأن المثل قد تم، بعدما ذكرهم في قوله:

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

بالوصف الذي اقتضى التمثيل.

«يتبع»

أقسام السنة النبوية عند الإمام محمود شلتوت



٣

(١٣١٠ - ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣م)

ندرة المتواتر:

وإذا قد عرفنا الفرق بين مناط القطعية في الورود وهو التواتر، ومناط الظنية وهو الآحادية، فهناك بحث آخر يتصل بالتواتر ولابد من النظر فيه، هذا البحث هو: هل يوجد المتواتر في الأحاديث المروية في الكتب المدونة؟ وقد اختلف العلماء في الجواب عن ذلك: فذهب قوم إلى أنه لا يوجد حديث متواتر فيما روى لنا من الأحاديث ودون في الكتب، ولعل هؤلاء بنوا رأيهم هذا على اشتراط عدم الإحصاء في رواة المتواتر، وهو مذهب لطائفة من العلماء كما تبين مما نقلناه في تعريف المتواتر، وقال ابن الصلاح: (لا يكاد يوجد المتواتر في رواياتهم، من سئل عن إبراز مثال له فيما يروى من أهل الحديث أعياه تطلبه، وحديث «إنما الأعمال بالنيات...» ليس من ذلك السبيل وإن نقله عدد التواتر وزيادة؛ لأن ذلك طرأ في وسط إسناده ولم يوجد في أوله. نعم حديث «من كذب عليّ...» نراه مثالاً لذلك؛ فإن رواته أزيد من مائة صحابي وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف حديث يروى عن أكثر من ستين صحابيا إلا هذا الحديث الواحد).

وذهب آخرون إلى أن المتواتر كثير في هذه الكتب. قالوا: (إن هذه الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقًا وغربًا مقطوع بصحة نسبتها إلى مصنفيها، فإذا اجتمعت على إخراج حديث، وتعددت طرقه تعدداً تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب إلى آخر الشروط أفاد ذلك العلم اليقيني بصحة نسبته إلى قائله، ومثل ذلك في الكتب كثير)[1].

(١) انظر: مسلم الثبوت والتحرير لابن الهمام، ومقدمة ابن الصلاح.

وليس بنا حاجة إلى أن نعرف مدى هذه الكثرة التي يراها هؤلاء، ويذكرونها في مقابلة القول بالعدم، أو في مقابلة القول بالندرة وإعياء تطلب المثال، وإنما يهمنا أن نلفت النظر إلى أنه لا يحكم لحديث بالتواتر - حتى على أكثر هذه المذاهب توسعاً - إلا إذا اجتمعت فيه الشروط الآتية:

١ - أن تخرجه جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة.

٢ - أن تتعدد طرق إخراجه تعدداً تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب.

٣ - أن يثبت هذا التعدد في جميع طبقاته: أوله وآخره ووسطه.

وإذن: فالحديث الذي لم تخرجه جميع الكتب المتداولة المشهورة، أو أخرجته جميعًا ولكن لا بطرق متعددة، أو أخرجته بطرق متعددة ولكن لا في جميع الطبقات، بل في بعضها دون بعض - لا يكون متواترًا باتفاق العلماء أجمعين!

الإسراف في وصف الأحاديث بالتواتر وأسبابه:

ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت في الناس، وإن الحق ليتقاضى فيها واجبه من العلماء المسئولين أمام الله وأمام الرسول: تلك الظاهرة هي أنه على الرغم مما قرره العلماء في شأن المتواتر تحديداً ووجوداً، وعلى رغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث مما دون في الكتب بالتواتر - نرى بعض المؤلفين قديماً وحديثًا يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافًا أخرى كالشهرة والاستفاضة والذيوع على ألسنة العلماء، وتلقى الأمة إياها بالقبول، والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث، أو في كتب التاريخ والمناقب... إلخ.

وقد يشتط أناس في سلوك هذا السبيل، فتراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على ألسنة النقلة في رواية الحديث، وهم يعلمون أنها روايات ضعيفة لا تصبر على النقد، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث حتى في الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها، ويجتهدون في عدها وإحصائها وذكر الكتب التي اشتملت عليها؛ لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة، ويستغلوا عاطفتهم الدينية، ويزعموا لهم أن هذا الحديث أو تلك الأحاديث قد وردت عن نبيكم في هذه الكتب الكثيرة، وعلى لسان هذا الجم الغفير من الرواة بين صحابة وتابعين، فهي متواترة لاشك في تواترها، وهي متصلة بالرسول لاشك في اتصالها، ومن حاول الطعن فيها؛ أو الحط من درجتها، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وحاد عن سبيل المؤمنين!

ولهذه الظاهرة أسباب:

منها: وقد يكون أقلها خطراً، اشتهار الحديث في طبقة أو طبقتين فتحسب الشهرة على جميع طبقاته، ويحكم عليه حكم عام بالتواتر أو الشهرة من غير تحقيق ولا تمحيص؛ وقد لا يصل الحديث إلى حد الشهرة في طبقة ما، ولكنه جاء في (الخلافيات) فقهية أو كلامية فتعصب له أتباع المذاهب وخلعوا عليه وصف الشهرة أو التواتر تأييداً لمذهبهم، وتناقلته الكتب، موصوفًا بذلك منسوبًا إلى جمع من رجال الرأي والمذهب فيخاله الناس مشهوراً أو متواتراً وهو ليس بمتواتر ولا مشهور!

ولقد كان للقائمين (بالترغيب والترهيب) ونقل الملاحم والفتن وغرائب الأخبار التي تميل النفوس إلى التحدث بها والاستماع إليها، أثر عظيم في خلع أوصاف الشهرة والتواتر على أنواع خاصة من الأحاديث التي ليست بمشهورة ولا متواترة بل ربما كانت غير صحيحة[2]، وقد تأثرت بذلك طبقة من الخاصة لم تعن بتحقيق الرواية، ولا بمعرفة درجة الحديث، واكتفت بنقل ما يقوله هؤلاء وإجرائه على ألسنتهم وفي كتبهم حتى شاع واشتهر.

وإنما استباحوا ذلك معتمدين على ما قرره بعض علماء المصطلح من (جواز التساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع[3] من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب مما لا تعلق له بالأحكام والعقائد)[4].

وبذلك رووا الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، ثم توسعوا فوصفوا الآحاد بالتواتر، والضعيف بالصحيح، وتناسوا مقاييس التواتر والآحادية، ومقاييس الصحة والضعف، ومن هنا رأينا من يصف (المعجزات الحسية) كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وكلام الغزالة وحنين الجذع بالتواتر من أنها غير متواترة، وإنما هي آحادية كما قرره علماء الأصول. وكذلك رأينا من يصف أخبار المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج وما إلى ذلك مما يذكر باسم (أشراط الساعة) بالشهرة أو التواتر.

بقي بعد هذا أمر لابد من تقريره: وهو أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل المحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى

---

(٢) وقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: أربعة أحاديث تدور بين الناس في الأسواق ولا أصل لها ... إلخ.

(٣) وفي نخبة الفكر عن بعض الكرامية والمتصوفة: إباحة الوضع في الترغيب والترهيب. انظر: مسلم الثبوت.

(٤) انظر: مقدمة ابن الصلاح.

تكون قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديماً وحديثًا ولم يجدوا مانعاً من تأويلها. وقد جاء في شرح المقاصد - بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية - ما نصه: (ولا يمتنع حملها على ظواهرها عند أهل الشريعة.. وأوّل بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازي، والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك، وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد، ونزول عيسى عليه السلام باندفاع ذلك وبدو الخير والصلاح... إلخ).

ومن ذلك نرى أن السعد لا يقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعي الدلالة الذي يمتنع تأويله، وإنما يقرر بصريح العبارة (أنه لا مانع من حملها على ظواهرها) فيعطي بذلك حق التأويل لمن انقدح في قلبه سبب التأويل، ثم يحدث عن بعض العلماء أنهم سلكوا سبيل التأويل في هذه الأحاديث فعلا، ويبين المعنى الذي حملوها عليه، ولاشك أن هذا لم يكن منه إلا لأنه يعتقد - كما يعتقد سائر العلماء الذين يعرفون الفرق بين ما يقبل التأويل وما لا يقبله - أن ما تدل عليه ألفاظ تلك الأحاديث ليس عقيدة يجب الإيمان بها، فمن أداه نظره إلى أن يؤمن بظاهرها فله ذلك، ومن أداه نظره إلى تأويلها فله ذلك، شأن كل ظني في دلالته.

***

السنة تشريع وغير تشريع

● ينبغي أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبي ﷺ ودون في كتب الحديث من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، على أقسام:

● أحدها: ما سبيله سبيل الحاجة البشرية؛ كالأكل والشرب والنوم والمشي والتزاور، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية، والشفاعة، المساومة في البيع والشراء.

● ثانيها: ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية؛ كالذي ورد في شئون الزراعة والطب، وطول اللباس وقصره.

● ثالثها: ما سبيله التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة؛ كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية، وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة، والكمون والكر والفر، واختيار أماكن النزول؛ وما إلى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدّربة الخاصة.

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعاً، يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعاً ولا مصدر تشريع.

والسنة تشريع عام وخاص:

● رابعها: ما كان سبيله التشريع، وهو على أقسام:

أولاً: ما يصدر عن الرسول ﷺ على

وجه التبليغ بصفة أنه رسول؛ كأن يبين مجملاً في الكتاب، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً، أو يبين شأناً فى العبادات، أو الحلال والحرام، أو العقائد والأخلاق، أو شأناً متصلاً بشيء مما ذكر.

وهذا النوع تشريع عام إلى يوم القيامة، فإن كان منهياً عنه اجتنبه كل إنسان بنفسه، لا يتوقف فى ذلك على شيء سوى العلم به والوصول إليه.

ثانياً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين؛ كبعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال فى جهاتها، وجمعها من محالها، وتولية القضاة والولاة، وقسمة الغنائم، وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما هو شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة.

وحكم هذا أنه ليس تشريعاً عاماً، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئاً منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبى فعله أو طلبه.

ثالثاً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء، فإنه كما كان رسولاً يبلغ الأحكام عن ربه، ورئيساً عاماً للمسلمين ينظم شئونهم ويدبر سياستهم، كان عليه الصلاة والسلام مع ذلك قاضياً يفصل فى الدعاوى بالبينات، أو الأيمان، أو النكول[4].

وحكم هذا كسابقه، ليس تشريعاً عاماً، حتى يجوز لأى إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به، وفصله فيه بحكم معين، بين من حكم بينهم. بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم؛ لأن الرسول تصرف بوصف القضاء، ومن هذه الجهة لا يلزم المكلف إلا بقضاء مثله. فمن كان له حق على آخر، ويجحده، وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم؛ لأن هذا هو الذى كان شأن أخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ.

هذا ومن المفيد جداً معرفة الجهة التى صدر عنها التصرف، وكثيراً ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ، ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقره، ومن هنا نجد أن كثيراً مما نقل عنه ﷺ صور بأنه شرع أو دين، وسنة أو مندوب، وهو لم يكن فى الحقيقة صادراً على وجه التشريع أصلاً. وقد كثر ذلك فى الأفعال الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية، أو بصفة العادة والتجارب.

ونجد أيضاً أن ما صدر على وجه الإمامة أو القضاء، قد يؤخذ على أنه تشريع عام، ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات.

وقد تكون معرفة الجهة فيما ينقل من كل ذلك واضحة جلية، فيتقيد كل فعل بالجهة التى صدر عنها، وقد يشتبه الأمر على الناظر فى معرفة الجهة التى صدر

(4) النكول - فى اليمين -: هو الامتناع منها.

عنها الفعل، فيقع خلاف بين العلماء فى صفة التشريع، تبعاً لخلافهم فى الجهة التى صدر عنها ذلك التشريع.

ولنضرب لذلك أمثلة يتضح بها هذا النوع:

١ - صح أن النبى ﷺ قال: «من أحيا أرضاً ميتة فهى له». واختلف العلماء فى أن ذلك: هل صدر عنه بطريق التبليغ والفتوى فيكون حكماً عاماً، لكل أحد أن يحيى أرضاً ليس لأحد حق فيها فتكون له، أذن الإمام فى ذلك أم لم يأذن، أو أنه صادر عنه باعتبار إمامته ورياسته، فلا يكون حكماً عاماً، ولا يجوز لأحد إحياء الأرض المذكورة إلا بإذن الإمام؟

ذهب إلى الأول جمهور الفقهاء، وإلى الثانى أبو حنيفة[6].

٢ - صح أن النبى ﷺ قال لهند بنت عتبة لما قالت له إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى وولدى ما يكفينى، قال لها: «خذى لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف».

واختلف العلماء فى هذا: هل كان بطريق الفتوى والتبليغ فيجوز لكل من ظفر بحقه أن يأخذه بغير علم خصمه، أو كان بطريق القضاء، فلا يجوز لأحد أن يأخذ حقه أو جنس حقه، إذا تعذر أخذه من غريمه، إلا بقضاء القاضى؟ وهذه هى المسألة المعروفة عند الفقهاء بمسألة (الظفر)، ولهم فيها أقوال وترجيحات[7].

٣ - صح أن النبى ﷺ قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، والسلب هو ما على القتيل من ملابس وأدوات. واختلف العلماء أيضاً فيه على النحو المتقدم، فمنهم من يرى أنه تصرف بالإمامة؛ فلا يستحق أحد سلب مقتوله، إلا أن يقول الإمام ذلك فى الموقعة، ومنهم من يرى أنه تبليغ؛ فيستحق كل قاتل سلب قتيله، أعلن الإمام أم لا.

قال الكمال: «ولا خلاف فى أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك، وإنما الكلام فى أن هذا كان منه نصب شرع على العموم فى الأوقات والأحوال، أو كان تحريضاً قاله فى وقائع فيخصها. فعند الشافعى هو نصب شرع؛ لأنه هو الأصل فى قوله؛ لأنه مبعوث لذلك؛ إلى آخر المسألة فى فصل التنفيل من الجزء الرابع فى فتح القدير.

هذا وقد عرض لهذه المسألة بوجه عام الإمام القرافى فى كتابه (الفروق - جـ١)، كما عرض لها الإمام ابن القيم الجوزية فى كتابه (زاد المعاد جـ٢) فى أثناء الكلام على غزوة حنين، وعرض لها كما أشرنا كثير من الفقهاء فى جزئيات المسائل التى انبنى الخلاف فيها بين الأئمة على الخلاف فى جهة التصرف الذى صدر عن الرسول.

(6) وقد ذكرت هذه المسألة فى كتاب «إحياء الموات» من كتب الحنفية، وراجع فيها إن شئت الجزء السادس من شرح الزيلعى والتعليقات عليه.

(7) انظر إن شئت (إغاثة اللهفان) لابن القيم، وباب العارية من كتاب (سبل السلام).

ومن هذا نرى أن كل الفقهاء مجمعون على تقرير مبدأ التفرقة بين الجهتين فى مصدر التصرف، أونه معترف به عندهم.

محتويات القسم التشريعى فى السنة:

• وإذا قطعنا النظر عما ورد فى السنة مما سبيله العادة والتجارب والشئون التى تعتمد على محض التدبير الإنسانى، فإنا نستطيع أن نحصر ما احتوت عليه سائر الأحاديث من شئون تشريعية فيما يأتى:

• أولاً: العقائد التى حددها الإسلام، فى الفرق بين الإيمان والكفر فيما يتعلق بالله وصفاته، وما يتعلق بالرسل والوحى، وما يتعلق باليوم الآخر.

وهذا القسم قد تكفل القرآن ببيانه، وكان القرآن - لتواتره وإفادته القطع - هو المصدر الوحيد لتعرف هذه العقائد، فما طلب من الناس الإيمان به فهو عقيدة، وما لم يطلب الإيمان به فليس بعقيدة. والحديث، فى هذا القسم ليس إلا مرددا لما أثبته القرآن منه، وليس فى العقائد ما انفرد الحديث بإثباته، أو ما يخالف الحديث فيه القرآن.

وقد كان مسلك الحديث فيه كمسلك القرآن، فمنه المحكم البين، ومنه المتشابه المشكل. وما كان للعلماء من آراء فى متشابه القرآن، فهو لهم فى متشابه الحديث، وذلك مثل كلمات: (اليد) و(الوجه) و(استوى) المنسوبة إلى الله، فى مثل قوله تعالى:

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(الفتح: ١٠)

وقوله عزل وجل:

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾

(الرحمن: ٢٧)

وقوله سبحانه:

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

(الأعراف: ٥٤)

فالعلماء فى مثل هذا - سواء ورد فى القرآن أم فى السنة - بين أن يقولوا: آمنا به على المعنى الذى يريده الله، وهو مذهب (التفويض)، ولا يكلفون أنفسهم البحث عنه، ولا يتحملون تبعة تحديد معنى خاص لها، وبين أن يقتحموا هذه الألفاظ ويفسروها بمعان تتفق مع التنزيه لله سبحانه عن مشابهة الحوادث، كتفسير اليد بالقدرة، والوجه بالذات الأقدس، والاستواء بعموم السلطان والتدبير، وهو مذهب (التأويل).

وإنما لا تثبت العقيدة بالحديث؛ لأن العقيدة ما يطلب الإيمان به، والإيمان معناه اليقين الجازم. ولا يفيد اليقين الجازم إلا ما كان قطعى الورود والدلالة، وهو المتواتر. والأحاديث المروية لم تتوفر فيها أركان التواتر؛ فلا تفيد بطبيعتها إلا الظن، والظن لا يثبت العقيدة.

• ثانيا: الأخلاق: جاء فى الأحاديث كثير من الحكم والآداب والنصائح؛ مثل ما ورد فى مدح العدل، والصدق، والوفاء بالعهد، وذم ما يقابلها، وهى كثيرة فى القرآن والحديث، وهى بطبيعتها أمور يتطلبها الكمال الإنسانى، وتدعو إليها الفطر السليمة، وكل ما جاء منها فى الأحاديث فله أصل فى القرآن، والحديث فيها إما مردد ومذكر، أو موضح ومُفصِّل.

وهذان القسمان: العقائد والأخلاق، لا كلام لنا فيهما فيما نحن بصدده، وإنما الكلام فى القسم الثالث وهو:

• ثالثا: الأحكام العملية التى تتصل بضبط العبادات، وتنظيم المعاملات، وتمييز الحقوق، والحكم بين الناس: وقد روى فى هذا القسم جزء كبير من الأحاديث، اتخذها العلماء - كما قلنا - المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن، فنظروا فيها، واستنبطوا منها، وبينوا بها دلالات القرآن فيما عرض له من أحكام. والأحكام التى تستفاد من هذا القسم هى التى نسميها: (فقه السنة). وأحاديثها تعرف بأحاديث الأحكام، كما أن أحكام العبادات والمعاملات التى تستنبط منها هى التى نطلق عليها: (فقه القرآن)، وآياتها تعرف بآيات الأحكام.

وعليه يكون المراد من عبارة (فقه القرآن والسنة): الأحكام العملية المتعلقة بشئون الإنسان، فرداً كان أو جماعة. المستفادة بطريق مباشر من القرآن والسنة بحسب الدلالات المعهودة للكلام فى اللغة العربية. وإنما قلنا بطريق مباشر، لنخرج الأحكام المستفادة بطريق القياس، أو تقدير المصلحة، فإنها لا تندرج تحت هذا العنوان.

ومما ينبغى ملاحظته فى هذا المقام، أن الخلاف الذى حصل بين العلماء فى وسائل الاستنباط من آيات الأحكام، قد حصل مثله بينهم فى الاستنباط من أحاديث الأحكام، فما من آية حصل من دلالتها اختلاف بين العلماء، وفى موضوعها حديث أو أحاديث، إلا كانت هذه الأحاديث أيضا محل خلاف بينهم، وقلما نجد حديثا رفعت دلالته ما بين العلماء من خلاف فى دلالة آية من القرآن. ولعل ذلك يرجع إلى اشتراك القرآن والسنة فى الأسلوبية العربية، وهى واحدة فيهما، كما يرجع إلى أسباب أخرى تتعلق بثبوت الحديث وعدم ثبوته، وقوته وضعفه[٨].

●●●

(٨) لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام- القاهرة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الديــن







للأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز

المذاهب النفسية:

هذه فصيلة أخرى من النظريات، تتلخص فكرتها العامة فى أنه لأجل الوصول إلى العقيدة الإلهية لم يكن بالناس حاجة إلى التأمل فى الطبيعة وجمالها، ولا فى التقلبات الكونية وأهوالها، ولا إلى التجارب العجيبة فى عالم الأرواح وأسرارها؛ بل إن تجارب الإنسان النفسية، فى حياته العادية المألوفة له فى كل يوم، كانت كافية لتوجيه نظره بقوة إلى تلك الحقيقة العليا.

١- نظرية ساباتييه:

حاول «أوجيست ساباتييه» فى الفصل الأول من بحثه عن فلسفة الدين أن يؤسس العقيدة الإلهية على بعض الملاحظات النفسية، فقال: إن هذه العقيدة تتولد فى الإنسان منذ نشأته على أثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهما القوتان اللتان تتألف منهما حياة النفس فى أيسر مظاهرها.

وفى الحق أن حياتنا النفسية قائمة فى جوهرها على حركتين متعاكستين:

إحداهما: تتجه من الخارج إلى الداخل «من المحيط إلى المركز»، والأخرى: من الداخل إلى الخارج «من المركز إلى المحيط». فالحركة الأولى تمثل تأثير الأشياء على النفس بواسطة الإحساس «وتلك هى حال انفعال النفس وقابليتها» والحركة الثانية تمثل مجاوبة النفس على الأشياء بتوسط الإرادة «وهذه هى حالة تأثير النفس وفاعليتها» بيد أن هاتين الحركتين لا تنطبقان تمام الانطباق، وليس بينهما كمال تناسق وتجاوب، ذلك أن الحساسية تسحق الإرادة وتكبتها، فكلما اندفعت موجة الحركة الإرادية من داخل النفس، وارتطمت على صخرة الأشياء الخارجية فانكسرت عليها، رجعت كئيبة مبتئسة، وهذه الصدمات المتوالية، وتلك المنازعات المستمرة، بين النفس وبين العالم الخارجى، هما السبب الأول لكل أنواع الآلام، ولكنها فى الوقت نفسه هى منبع النور، ومصدر الشعور ذلك أن ارتداد الموجة إلى مركزها يولد فى هذا المركز حرارة تشبه الحرارة الناشئة من حركة العجلة على محورها ثم لا تلبث هذه الحرارة أن تبعث شرارة ضوئية تضئ جوانب الوجدان، وذلك هو الوعى وتنبه البصيرة، والذى تصبح به النفس مدركة مدركة، وحاكمة محكومة معاً، كأنها كائن مزدوج: أحد شقيه هذه النفس المثالية، والآخر تلك النفس المكبوتة الواقعية.

هكذا ولدت الحياة النفسية بين وخزات الألم والإخفاق. أليست كل ولادة تصحبها الآلام والدموع؟

قال: ولو أننا تابعنا هذه الملاحظة فى سائر الحالات النفسية، لرأيناها كلها كما تولد من مناقضة، تفنى فى مناقضة أخرى: فرغبة العلم تنتهى بالاعتراف بالجهل؛ ورغبة الاستمتاع تنتهى بالتقزز؛ كأنها تحمل فى نفسها جرثومة فنائها؛ والإسراف فى الحرص على السعادة يذهب براحة الطمأنينة والرضى، ويزيد الألم شدة.

فأين المفر؟

إن من الخطأ أن يعتمد الناس على تقدم العلوم الطبيعية فى إنقاذهم من هذا البؤس والحرمان، فإن العلم بدلاً من أن يلطف من هذه المناقضة العتيدة، يزيد فى حدتها، ويشحذ سلاحها الفتاك. ذلك أن كل اكتشاف علمى يضم حلقة جديدة إلى سلسلة الأسباب الضرورية، التى لابد منها فى نظام الأشياء واتساقها وثباتها، فيزيد بذلك قيداً فى حريتنا، وغلاً فى أعناقنا، ولا نزال نتقدم فى هذه السبيل، حتى نصل إلى المناقضة العامة بين العلم والعمل، بين التفكير والحركة، بين قوانين الطبيعة وقوانين الأخلاق، وهكذا نقيم حرباً داخلية بين ملكات النفس، وتنتهى إلى شعور اليأس من قيمة الحياة.

ومن هذه الأزمة الداخلية ينشأ التدين، كأن هذه الأزمة تفتح فى صخرة الطبيعة شقاً يتفجر منه ماء الحياة. لا على معنى أن الدين يقدم لنا حلاً نظرياً لهذه المشكلة، لأن الحل الذى يقدمه لنا التدين هو فى الحقيقة عملى محض، فهو لا يفتح لنا باباً جديداً من المعرفة، بل يعود بنا عملياً إلى المبدأ الذى اقتبسنا منه وجودنا، ويمنحنا شعور الثقة والإيمان بمبدأ الحياة وبنهايتها. إن منزلة هذه الثقة من عالم النفس كمنزلة غريزة البقاء من عالم الطبيعة المادية، ولكنها صورة أسمى من تلك، فإنها فى عالم المادة تسير بقوة قاهرة عمياء. أما فى عالم النفس فإنها تستضئ بنور الشعور والإرادة المفكرة. ومن جهة أخرى فإنها تستند إلى حقائق واقعية، وتقوم على شعور ملازم لكل فطرة إنسانية، وهو شعور التبعية المطلقة لقانون الوجود العام.

أجل! من ذا الذى يستطيع أن يبعد عن نفسه هذا الشعور؟ أليس حظنا من القدر قد رسم دون استشارتنا، فقضى علينا أن يكون وجودنا فى زمان ومكان معينين. وترك لنا ميراثاً من الملكات والطبائع لم يكن لنا فيه شئ من الاختيار؟ بل إننا لا نجد فى أنفسنا ولا فى أية مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافى لوجودنا، ولا غايته النهائية المعقولة، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب وهذه الغاية خارجاً عنا، فى الوجود العام. وما التدين إلا الاعتراف بهذه التبعية فى تسليم وخضوع.

هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبى للعقيدة الإلهية. ومهما تكن فكرة الألوهية فى عقولنا ناقصة غير محددة، فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا؛ فهو حاضر لدينا، بل يفرض نفسه علينا فى هذا الشعور حتى إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسابية مطمئنين.

إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهى فينا. هذا هو الينبوع العميق الذى تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم.

غير أنه يجب أن نعرف كيف يقبل العقل الإنسانى هذه التبعية لمبدأ الحياة العالمية؟ هذا العقل الثائر الذى يرى نفسه من طبيعة غير طبيعة الأشياء الخارجية، ويرى أن أخص خصائصه هو أنه يفهم هذه الأشياء ويسيطر عليها ويسخرها؟ فالإنسان - كما يقول باسكال -: «ليس إلا قصبة ضئيلة، ولكنها قصبة مفكرة. حتى إنه لو سحقه لكان هو أنبل من الذى يسحقه، لأنه يعرف أنه مسحوق، بينما الكون لا يعى من أمر نفسه شيئاً».

ومن هنا يتبين أن المبدأ العالمى الذى يخضع له الإنسان ليس هو ذلك الكون المادى، بل الروح العالمية التى تديره، ذلك أن القوة العاقلة لا تخضع إلا لسلطان قوة عاقلة تسيطر عليها وعلى العالم على السواء، وهكذا نجد الحياة العقلية، التى كانت قد افتتحت بالنزاع بين الشعور الذاتى والتجربة الخارجية، تكمل وتختم بحد ثالث جامع ينتظم الحدين معاً: وهو الشعور بخضوعها جميعاً لهذا السلطان الأعلى.

هذه الصفحة الرائعة التى كتبها أوجست ساباتييه لا تزال تحتفظ بجمالها ودقة تصويرها للفكرة الإلهية فى الديانات العليا. ولكن هل تنطبق على سائر الديانات؟ أليست من دقة الفلسفة والمبالغة فى التجريد بحيث يبعد أن تكون فكرة عالمية؟

لقد أحس الفيلسوف بهذا السؤال، فكتب يقول:

«إن الذين يعترضون بذلك إنما يبرهنون على أنهم لم يروا جيداً هذه المناقضات الأصيلة فى حياتنا اليومية، من مبدئها إلى نهايتها؛ فإنه لأجل أن يتحقق الإنسان من هذه المناقضات ويقاسيها ليس بحاجة إلى أن ينتظر حتى يصبح فيلسوفاً.

إنها لتتجلى فى كل العقول على اختلاف درجاتها من الثقافة والاستنارة؛ وإنها فى نفوس الهمج الذين ترعبهم تقلبات الجو فى وسط الغابات، ليست بأقل منها فى نفوسنا حين تضطرب أفكارنا أمام اللغز العالمى وأمام ظاهرة الموت. قد تختلف العبارة ونوع الشعور؛ ولكن الهزة الدينية التى تزلزل الإنسان هى فى جوهرها شئ واحد. فكل أحد، حين يكف عن التفكير فى عجزه وجهله وفنائه، وحين يجمع أمره - صابراً مستسلماً - على أن يقضى الحياة كما هى، يشعر رغماً عنه بزفرة يفيض بها صدره، وتكاد تنطق بها شفتاه؛ وما هى فى الحقيقة إلا فاتحة دعاء ومناجاة»[1].

٢- نظرية برجسون ونقدها:

هذه النظرية تلتقى مع سابقتها فى القول بأن العقيدة الإلهية تقوم على عوامل نفسية تثيرها حياة الإنسان اليومية. ولكن بينما النظرية السابقة تواجه من هذه الحياة جانبها المتصل بقوانين الطبيعة الثابتة، التى تصطدم بها الإرادة فلا يسعها إلا الخضوع والاستسلام للقوة التى فرضت هذه القوانين، وأحكمت وثاقها، يعتمد «هنرى برجسون» فى كتابه عن «ينابيع الخلق والدين» على جانبين آخرين من تلك الحياة العادية: «أحدهما» يرتبط بالقوانين الأدبية التى يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد؛ «والآخر» يتعلق بالحوادث المستقبلة، التى تفتح لها أبواب الإمكان، وتتسع للاحتمالات وللمصادفات، فلا يمكن التنبؤ بها بصفة قاطعة.

أما كيف تنشأ العقيدة الإلهية عن الشعور بالواجبات الاجتماعية فبيانه أنه لما كان نظام المجتمع وتماسكه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته وتضحيته بجانب من حريته، وتحمله أعباء تقتضيها مصلحة غيره، ولا يعود عليه منها نفع مباشر، وكان أليس من الهين أن يتقبل المرء عن طيب خاطر كل هذه التضحية وكل هذا الحرمان، إذ كانت الغريزة الاجتماعية عنده أضعف من أن تحمله على نسيان فى خدمة المجموع، وأن تجعل مثله كمثل النملة أو النحلة حين تذهل عن نفسها فى خدمة النمل والنحل، وكان استعمال ذكائه العادى فى حساب مصلحته يدعوه بالعكس إلى الأثرة، وإلى التضحية بمصلحة الآخرين فى سبيل إصلاح الفرد والجماعة، تلك القوة قد أعدتها الفطرة الإنسانية فى النفوس حين أشربتها الفكرة الدينية. وذلك أنها صورت أمامها المحظورات الاجتماعية بصورة مخيفة تجعل من المخاطرة انتهاكها،

---

(١) Sabatier.ouvr.cite.pp.14-22.

ومازالت تبالغ في هذا التصوير حتى خيلت للنفس أن هذه المحظورات يقوم على حمايتها حارس معنوي، آمر، ناه، محاسب ينذر من ينتهكها بالبطش والعقاب، وذلك هو معنى الإله.

وهنا يضيف «برجسون» أن صورة هذا الحارس وإن لم تكن وليدة التفكير المنطقي، بل من عمل الواهمة أو المخيلة التي تشخص المعنويات، وتجسم المجردات، ولكنها ليست من قبيل تخيل الفنانين، ولهو المثالين والمصورين وأصحاب الأساطير، فإن آثارها هؤلاء لا تعدو أن تكون نوعاً من الترف الذي يمكن الاستغناء عنه، بخلاف الصورة الإلهية التي تخلقها الحاجة الاجتماعية، فإنها وإن تكن وهماً إلا أنه وهم تفرضه الحياة، ومن أجله أوجدت هذه الملكة الرمزية في طبيعة الإنسان[٢٠].

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان الأعمال اليومية وجدنا فيه كذلك فراغاً نفسياً عميقاً، لا يملؤه إلا العقيدة الإلهية، فالصائد حين يسدد سهمه إلى فريسته، والتاجر في سعيه إلى الربح، والمريض في تناوله الدواء، وتطلعه إلى الشفاء؛ والزارع في طلبه للثمرة؛ والمتزوج الذي ينتظر الولد؛ وراكب السفينة الذي يطلب النجاة، ولاعب الميسر الذي يرقب حظه بين اليأس والأمل، وكل ذي حاجة ينتظرها وهو لا يدري ما قدر له من النجاح أو الإخفاق.. كل أولئك لو استلهموا عقولهم، وقاسوا أعمالهم بمقدار نتائجها المحققة أو الغالبة، لقعدوا عن السعي، ولوقف بذلك دولاب الحياة. غير أن دفعة الحياة حركة تأبى الوقوف والجمود؛ فكان لابد لها من ثقل تضعه في الكفة الأخرى من الميزان النفسي، لترجح به جانب العمل، رغم كل تفكير وحساب. وما ذلك إلا الأمل تبعثه. والاعتماد على الحظ المحتمل تقدره، ولا تزال بهذا الحث والتشجيع، حتى تصور أمام النفس إرادة خفية يركن القلب إليها ويعتمد عليها. تلك هي إرادة «الإله المستعان»، كما كان ذلك السلطان سلطان «الإله الديان».

الذي نلاحظه على هذه النظرية هو أنها جعلت فكرة الألوهية في مظهريها عند العامة فكرة رمزية لا تعدو أن تكون ضرباً من ذلك الأسلوب القصصي الذي يخوف

(٢٠) اعلم أن هذا التفسير إنما ينطبق في نظر «برجسون» على نشأة العقيدة الإلهية عند العامة الذين يعيشون متأثرين بقوانين المجتمع وعوائده في الجماعات العادية المحدودة بحدود القبيلة أو الشعب أو الأمة، والتي يسميها بالجماعات «المغلقة»، ولكنه لا ينطبق في نظره على العباقرة الممتازين، الذين لا يستمدون عقيدتهم من قواعد المجتمع وعوائده، ولا حاجة بهم إلى هذه المقاييس النفعية. فهؤلاء يغترفون من منبع الحياة الصافي حتى تجيش به صدورهم، فيلهمون الجماعة وراءهم دفعاً، بدلا من أن يندفعوا بها، ويضعون لها القوانين بدلا من أن توضع لهم القوانين. وما الجماعة في نظرهم إلا الإنسانية العالمية التي لا تعرف الحدود والحواجز، وما قانونهم إلا المحبة التي لا تنتظر جزاء، ولا تبتغي نفعاً ولا عوضاً.

به الأطفال أو يداعبون به. وهذا وصف لا يستساغ في القسم الأول منها، إلا لو صح أن كل ما يجري في المجتمع من سنن وعوائد، سواء ما كان منها ذا طابع ديني أو اقتصادي أو غيرهما، كان في جملته مبعثاً لعقيدة إلهية في عقول العامة. فهنالك فقط يسوغ أن يقال إن فكرة الإله عندهم لا تدل على حقيقتها، وأنها محض رمز لما في نفوسهم من سلطان رهيب للمجتمع، ولا شك أن الذي يعيش أسيراً لعوائد قومه ولو تحكمية، ولتصرفاتهم ولو همجية، ولقوانينهم ولو جائرة، لو بلغ به استسلامه إلى حد الظن بأن تلك الوضعيات البشرية أوضاع إلهية، يقوم على حمايتها جنود من السماء حين تغيب عنها جنود الدولة، لكان أقل ما يقال فيه إنه سخيف واهم، وأنه يسمى الأشياء بغير أسمائها. أما إذا أخذنا قانون الأخلاق في جوهره الصحيح، واعتبرنا ما له من سلطان مركوز في طباع الناس على اختلافهم موحياً للعقيدة الإلهية، ودليلا على صنعة الفاطر الأول، الذي ألهم النفوس هداها، ورسم لها طريق فجورها وتقواها، فتلك فكرة سليمة ومنطق مستقيم. وسنرى الفيلسوف الألماني «عمانويل كانت» يجعل قانون الأخلاق هو المقدمة الأولى في الاستدلال على وجود الله.

وكذلك نقول: إن الاستدلال على وجود القدر الإلهي بالحوادث المستقبلة التي لابد للبشر في تصريفها، والتي تقع تارة على وجه وتارة على وجه آخر؛ دون أن تخضع في سيرها لقانون طبيعي ثابت، نقول: إن هذا الاستدلال سديد قويم، لا يعتمد على شئ من الوهم أو التمثيل، لأنه ينطوي على مقدمتين: «الأولى» أن هذه الحوادث تستند إلى سبب خفي. وهذا حكم انفصالي يقيني، إذ أن ما لم يوجد له سبب في عالم الشهادة يجب أن يكون له سبب في عالم الغيب. ولا ثالث. «الثانية» أن هذه القوة الغيبية قوة عاقلة إرادية، مقدرة للحوادث قبل وقوعها. وهذه قضية لا يؤيدها العقل السليم فحسب، بل تشهد بها التجارب المتكررة في كل أمة، فإن هذه الحوادث التي لا يمكن التنبؤ بها من طريق النور العقلي وحده قد يكشفها الروحانيون الملهمون وينبئون بما ستكون عليه في وقتها المحدود، ثم يقع مصداق نبوءتهم، بيناً، لا يخالطه شك ولا وهم. فذلك لا شك آية على أنها ليست وليدة المصادفة والاتفاق، ولا نتيجة آلية لدفعة الحياة العمياء كما يظن برجسون[٣٠]. وإنما هي خاضعة لخطة مرسومة من قبل، رسمتها يد مدبرة قاصدة لما تفعل، مقدرة لكل ما يجري في مملكتها.

(٣٠) هذا الفيلسوف يهودي الأصل، وشاع أنه اعتنق المسيحية في أخريات حياته ولكن فلسفته كلها تدل على أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا ذا دين مطلقاً، وإنما كان يؤمن بالحياة من حيث هي قوة مندفعة في أعمالها تخبط خبط عشواء، ولا تدري مغبة اندفاعها.

٢- نظرية ديكارت:

لا مناص من الاعتراف بأننا سنجاوز حدود موضوعنا قليلاً حين نضم إلى هذه السلسلة من التفاسير النفسية طريقة من طرق الفيلسوف الفرنسي «ديكارت» Descarts في إثبات وجود الله، مع أنه لم يقدمها تفسيراً لهذه العقيدة في نشأتها ولا في نظر الجمهور، بل في نظره هو. غير أنه لما صرح بأن أساسها نفسي فطري، لم نر بأساً من نظمها في هذا السلك.

وجد هذا الفيلسوف في تأملاته أن عقيدة وجود الله تعتمد على تجربة نفسية، أقرب من هذه التجارب كلها، وأقل تعقيداً، حتى إن الذي يغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويقطع علاقته بالكون وبالناس، ثم ينطوي على نفسه، ويتحسس أفكاره وتصوراته يجد مفتاح هذه العقيدة حاضراً فيها بين طيات نفسه، كلما شعر بالفرق بين الشك واليقين، أو بين الجهل والعلم، وبالجملة كلما قرأ في لوحة نقصه عنوان «الكمال» الذي ليس له.

ليست فكرة «الكمال» هذه في نظر «ديكارت» فكرة مستنبطة من فكرة أخرى، وإنما هي حقيقة أولية فطرية، بل هي أسبق في العقل من فكرة النقص، فإن من لا يعرف الشئ لا يتفقده، ولا يحس بحرمانه حين يفقده، إذ كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياساً أعرف به مواضع نقصي؟ فالرغبة في الكمال وحدها دليل على أسبقية وجود هدفها في التصور العقلي ثم ليست هذه الفكرة معنى سلبياً «كالسكون: عدم الحركة؛ وكالظلام: عدم النور» بل هي جماع الحقائق الإيجابية، ونظام ضروب الكمالات كلها.

من أين تجئ هذه الفكرة إذاً؟

لا جائز أن يكون من هاوية العدم مطلعها، فإن العدم لا يخلق الوجود، كما أن الصفر لا يلد عدداً إيجابياً.

ولا جائز أن يكون من قرارة النفس منبعها، فهذه النفس هي مصدر النقص الذي أحاول التخلص منه.

ولا يقال: إن الكمال الذي لم أحرزه بالفعل هو حاصل عندي بالقوة، وأنا دائب في سبيل اكتسابه، بالترقي في مراتبه تدريجيا، وهذه النزعة إليه هي التي أنشأت فكرته في نفسي، فذلك فرض باطل من وجهين:

● «أولهما» أن هذه الفكرة لا تصور في نفسي درجات الكمال التي سأنالها أو التي يمكنني نيلها فحسب، بل إن كل درجة من الكمال أتصورها في نفسي أو في غيري، أتصور دائماً فوقها درجة أعلى منها.

● «وثانيهما» أن فكرة الكمال الأعلى التي أجدها في نفسي تحتوي كل درجات الكمال الوجودي الفعلي، الذي لا شئ منه بالقوة الإمكانية القاصرة؛ وإلا لم يكن هو المثل الأعلى، ولما أمكن وجود شئ من الكمالات الجزئية بالفعل؛ لأن ما هو بالقوة والإمكان فحسب لا يمكن أن يحدث ما هو بالفعل في حقيقته الإيجابية الظاهرة الباهرة، فإن فاقد الشئ لا يعطيه غيره.

وأخيراً، ليست هذه الفكرة اختراعاً وفرضاً افترضه خيالي، بل هي ضرورة تفرض نفسها على عقلي وعلى كل العقول.

فلم يبق إلا أن تكون صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية، وذات خارجية، هي مادة الكمال المطلق ومصدره، وهي المثل الأعلى. وما وضع هذه الصورة على لوحة نفسي إلا كوضع «سمة الصانع» على صنعته، أو «توقيع الكاتب» في رأس رسالته.

هذا التفسير لم يكن «ديكارت» أسبق الناس إليه، ولكنه أجاد تفصيله، وأحسن تصويره، في التأمل الثالث من تأملاته Meditation troisieme.

وقد أكثر الناس من الاعتراض عليه، حتى في عصر ديكارت نفسه.

وظن الفيلسوف الألماني «كانت» أنه استطاع هدم هذه الحجة، بقوله: إنه وإن تكن خصائص الماهيات العقلية يمكن استنباطها كلها من طبيعة تلك الماهيات، كما تستنبط خصائص الأشكال الهندسية من مفهوماتها، إلا أن صفة «الوجود» على الخصوص لا يمكن أخذها من تلك المفاهيم العقلية. فحقيقة المثلث وإن ثبتت لها الخواص الهندسية المعروفة، بالضرورة العقلية، إلا أنه لا يلزم من ذلك وجود مثلث في الخارج، وكل ما في الأمر أنه إن وجد مثلث كان على هذه الأوضاع، وكانت له هذه الخواص، وهكذا سائر المفاهيم العقلية، ليس وجودها في الذهن دليلاً كافياً على وجودها في الخارج؛ بل إن منها ما هو مخترع اختراعاً بحتاً، كما نتصور قصراً من ماء، وإنساناً من هواء.

ولكن فات هؤلاء الناقدين ما هناك من بون شاسع [٤] بين تلك الماهيات الممكنة التي يعترضون بها، والتي لا يلزم من فرض عدمها محال، بين الماهية العقلية الواجبة، التي بلغ من رسوخها في كيان العقل أن إبطالها يعد إبطالاً لكل معقول ومعلوم؛ إذ لابد في العقل من التسليم بوجودها في الخارج لتستمد منه كل الممكنات وجودها في الأعيان والأذهان.

❁❁❁

(٤) المشار إليه ديكارت نفسه.

«محمد، الرسول والرسالة»

من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه، ولا يضير النور. ومن يغلق عقله وضميره دون الحق، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق.

فالنور منفعة للرائى لا للمصباح، والحق منفعة وإحسان إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه.

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذى البصر، ومن الصمم لذى السمع. لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنسانًا، والأصم قد يبقى بعد فقد السمع إنسانًا... أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه، حتى ما يميز الخبيث من الطيب، فذلك ليس بإنسان، بالمعنى المقصود من كلمة إنسان.



للدكتور نظمى لوقا

وبهدى من هذا النهج وجدت من واجبى أن أكتب هذه الصفحات، موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم.

وليس الإنصاف مزية لصاحبه إلا حينما يغالب الحوائل، كالعقائد الموروثة، والتقاليد السائدة... أما حين يوافقها فما أهون الإنصاف، «ولولا المشقة ساد الناس كلهم» كما يقول أبوالطيب، وأوشك أن أقول على غراره «لولا العصبية أنصف الناس كلهم».

فما أحوجنا فى هذا العالم المضطرب الذى تقسمت فيه الناس معسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التى صبغت كل منحى من أنحاء الحياة أن نسعى للقضاء على آفة العصبية، ونتعود الإنصاف. إنصاف الخصم وكأنه صديق. فالمنصف إنما يعنو للحق، ويعنو لنوره فى العقل، فيشهد لنفسه بالفضل وحسن الرأى حين يؤدى لذى الحق حقه مهما اشتجر الخلاف أو لجّ الخصام.

وما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾

(المائدة: ٨)

فأى إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بديدن أقل منه تساميا واستقامة...؟

أجل! نعدل ولا نجور! فذلك حق أنفسنا علينا، وحق عقولنا علينا، وحق ضمائرنا علينا، قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك.

وما أرى الشانئ يضير خصمه حين يجور فى الحكم عليه، إلا كما يفقأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسوؤه مرآه...

ولست أحب ذلك لأحد، بل إنى أرى مستقبل هذه البشرية منوطًا باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم، حتى يرتد بنو حواء إخوة يختلفون فى مودة، ويتباعدون إلى تقارب، ويفيئون فى نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم به، وهو الحق والعدل.

وإنى لأسأل من يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير دينه، أما يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجحود والجور؟

ولست أنكر أن بواعث كثيرة فى صباى قربت بينى وبين هذا الرسول، وليس فى نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتنكر له، بل إنى لأشرف به وأحمد له بوادره وعقباه.

ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئًا من التفهم، وزين لى من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المشرقة، وجعلنى أعرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها فلخير من يشوه المشوهون كل جميل وكريم من مفاخر البشرية المثخنة بالقروح والخزيات؟

وخير من يثلب الثالبون كل مجيد من هداة هذه الجنس الفقير إلى المجد، المثقل بالخساسة والحقد؟

ألا إن كل محب للبشر ينبغى أن يكون شعاره دوامًا:

ـ مزيدًا من النور! ومزيدًا من العظمة! ومزيدًا من الجمال! ومزيدًا من البطولة والقدوة!

وبدافع من حب البشرية أقدمت على تسيطر هذه الصفحات، وسيّان بعد هذا أن يقول عنها القائلون: إنها شهادة حق، أو رسالة حب، أو تحية توقير وتبجيل، فما كان كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه، وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيى فيه الرجل.

الدكتور نظمى لوقا

صبى فى المسجد...

صبى قصير، نحيل، عصبى الملامح، واسع العينين، تطل منهما نظرة تطلع، وفى ثيابه إهمال، وفى يديه آثار حبر، ورباط حذائه مرسل يكاد يتعثر به وهو يمشى، وسنه لم تتجاوز السادسة إلا قليلا، يقطع الطريق جادًا مسرعًا بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس، قريب من مبنى المحافظة بها، لا يلوى على شىء.

ويتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذى يواجه المسجد، ليرى الشيخ جالسًا، بقامته

المفرطة في القصر، وجبهته المفرطة في العلو، وبشرته البيضاء المحمرة، وثيابه النظيفة الناصعة، ولحيته الصهباء التي يخالطها بياض كثير.

ويقرئ الفتى أستاذه الشيخ السلام، ويهش الشيخ للقائه، ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن، يفتحها، ثم يتحسس عقاربها، ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانه الأبيض.. وترتسم على وجهه ظلال ابتسامة، يكاد الفتى يراها في موضع عيني الشيخ، لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض في الطفولة الباكرة إغلاقًا أبديًا.

ويقبض على قلب الفتى قابض، لم تذهب به الألفة المعادة كل يوم.. وينظر بحسرة إلى صفحة السماء الصافية، ويقشعر بدنه ويتنهد.

ما أنكد هذه الآفة، إنه ليؤثر الموت على هذا الحرمان الوجيع، من ومضات النور، وهمسات ظلاله.. وهي تبدي أنفه وأشوه المرئيات، حتى هذه البقية من الروث التي تركها حصان كان يجر عربة عابرة.. فكل شيء عزيز على العين، حتى ولو لم يكن جميلاً مرغوبًا؛ لأنه يبدي لها نورها.

ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبي، وإنه ليضارعه طولاً أو قصرًا ثم يدب بعصاه عبر الشارع، والصبي لا يخطئ نظرات الفضول من الحلاق، وزبائنه، وعابري السبيل. إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد، ليبدآ درسهما اليومي من بعد صلاة العصر، إلى صلاة العشاء.

ففي مدينة السويس الصغيرة، سنة ١٩٢٦م، لم يكن أحد من أهليها يجهل من الشيخ سيد البخاري، إمام مسجدها، وعالمها وفقيهها، يجلونه ويرهبونه. فإن له لعلمًا ورأيًا. وإن فيه لشجاعة في الحق، وذرابة في المنطق، وأنفة تدخله لديهم مدخل الكبر الذي لا يغتفر لمن كانت به كالشيخ خصاصة شديدة، يداريها بتجمل أشد.

ولم يكن أحد من أهليها يجهل كذلك من الصبي الصغير، ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس، فيه وسامة وأناقة، وفي لسانه عذوبة وذلاقة، وإنهم ليعرفونه رجلاً قبطيًا صليبة.. يؤم الكنيسة يوم الأحد.

وفي مدينة كالسويس يتساءل الناس عن النازحين إليها والغرباء من الطارئين. وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبي أرومة معرقة في صناعة القسوس. فكم له من جد من ذوي الطيالس السود والعمائم السود.. فلاشك إذن في قبطية هذا الصبي الذي يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ.. وأن الحيرة لتستبد بهم، ثم تأخذهم نافلة من الغيرة، يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون. ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب، رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى في مؤخرة المسجد، ويتقدم فيؤم المصلين، ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع، والفتى ينظر إليهم مصلين، ويسمع لما يتلى في الصلاة،

وفي عينيه، ذلك التطلع القلق فمنهم من يزور عنه، ومن يحملق فيه بفضول.

وخرج بعضهم من النجوى إلى العلن، فجاهر الشيخ بما في نفسه، وراجعه فيما يفعل. فإن كان حبًا للتدريس ففيم رفض التدريس لابن فلان وفلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير؟.. وإن كان حبًا للمال، ففيم خطبه التي يحارب بها التقرب للأولياء، وتقديم النذور، ورفعه صندوق النذور من مسجده، وقد كان له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء؟

ويغضبها الشيخ غضبة لله ولبيوته، ولسماحة دينه، ويبدي من ذلك ما يفحم سامعه. ولكن السامع ينهض غير قانع بما سمع. لأن حجة العقل لا تقنع القلب. والقلوب التي لا يعمرها نور الحب، لا تستجيب إلا للأثرة، والأثرة تتغذى بالعداء لا بالولاء.

ويضمر الشيخ في نفسه أمرًا، فإذا كان الغد أرسل إلى ذلك المعترض أن يوافيه بعد صلاة العصر لأمر، ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد ويستمهله الشيخ قليلاً ريثما يفرغ له. ويتابع الدرس. وكان موضوعه تفسير سورة الضحى. ويتلو الصبي السورة بلسان قويم، وإيقاع سليم. ويختمها: بـ«صدق الله العظيم». ثم يشرع في تبين معانيها، مستشهدًا بسيرة الرسول الكريم. والشيخ يناقشه حينًا، ويوجهه حينًا آخر، ويستوضحه حينًا ثالثًا.. حتى إذا بلغ الموضوع غايته.. وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلا:

● كيف بنوك يا فلان؟

●● بخير يامولانا.. يقبلون الأيدي..

● تعرفني يا فلان أمقت تقبيل الأيدي وأخذل عنه الناس.. أعرفت فيم أرسلت إليك؟

فاطرق الرجل وقال: عرفت يامولانا

● انصرف راشدا..

ونهض الرجل محييا. وتحرى أن يصافح الصبي الصغير في مودة سابغة أشبه شيء بالاعتذار.

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم ـ وكان ساعاتيًا له دكان قريب من المسجد ـ يستقبله بالتحية التي يلقى بها الشيخ، كلما مر به قادمًا أو منصرفًا، ويكاد يلمس في صوته وإيمائه هزة الخشوع.

<<<

وكان والد الفتى ـ أكرم الله مثواه ـ شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء. اتفق له شيء من قرض الشعر في صدر شبابه. وآمن أن ولده البكر ينبغي أن يصيب من ينابيع الضاد وبلاغتها أكبر حظ مستطاع. ورأى هزال ما يتاح لطلاب المدارس من ذلك كله فعهد بولده إلى ذلك الشيخ الذي التقى به في دكان الحلاق فبهرته منه شخصية مشرقة، وذهن رحب، وسماحة ما كان يتوقعها في أحد الأشياخ فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات من الإنجيل وهو في

حديثه الدارج مع الناس من حوله لا يحيد عن الفصيح من اللفظ والجزل من التراكيب فكأنما خرج الشيخ لتوه من سوق عكاظ! وهم الشيخ أن يعتذر بزهده في التدريس، لولا أن الوالد ذكر له أنه اقرأ ولده كليلة ودمنة قبل أن تسمح سنه بدخول الدراسة الابتدائية. وأن الفتى ـ وهو أصغر طلاب مدرسته وأقصرهم قامة ـ وجد نفسه في مؤخرة صفوف الفصل في أول يوم. فرفع يده وقال للمعلم ـ وكان معمما ـ بلغة فصيحة: أريد أن أجلس بجوار السبورة!

فضج التلاميذ بالضحك، وقال المعلم ضاحكًا: لك ذلك أيها الفيلسوف العجر!

فذهبت مثلاً! وصارت هذه كنيته بين أترابه وأساتذته، لأنه يأبى أن يحدث المعلمين إلا باللغة الفصحى.

ـ واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن، وتتهذب نفسه بالمعلقات وعيون الشعر..

فأخذت الشيخ هزة وقال: أما وأنت لا تريدني على تدريس تلك المناهج السقيمة والخوض إلى تلك المدارك الضحلة فهذا مطلب تطيب به نفسي وينشرح له فؤادي.

ـ والأجر؟..

ـ أمره لك.. وأكبر جزائي أن تزهر للعربية شجرة مثمرة في قلب فتى أريب، في زمن أوشك اللسان العربي القويم فيه أن يعز وجوده كالكبريت الأحمر!..

ووجد الفتى في أستاذه المكفوف خزانة أدب وعلم وفقه وفلسفة.. وخلق!..

كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب.. وكان التعليم بالضرورة شفويا، ولابد فيه من ضبط مخارج الحروف وإقامة النحو، وتجنب اللحن، وتوخي الجزالة. فتعلم الفتى أن يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

وبدأ الفتى يحفظ القرآن. ويقف عند كل آية، ويملي عليه الشيخ موجزًا لتفسيرها ثم يملي عليه ما يتطرق إليه ذهنه الخصب بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور. فتعلم الفتى كيف يربط المعنى اللغوي بالصورة الجمالية والذوق الأدبي.

وخرج الفتى مبرزًا في امتحان نصف السنة وأتى شيخه فرحا مرحا، فجعل الشيخ موضوع درسه ذلك اليوم بيتا من الشعر، ثم آية من القرآن الكريم، أما البيت فهو:

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

وأما الآية فهي:

﴿ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾

(الإسراء: ٣٧)

وكان على الفتى أن يعالج الموضوعين بلسانه، والشيخ يستدرجه ويحاوره على سنة سيدنا «سقراط» عفا الله عنه.. إلى أن وصل إلى غايته من تصغير الغرور إليه.

وأتاه بعد ذلك بأيام حزينا مغيظًا، فقد دعاه أستاذه إلى السنة النهائية وطلب إليه أن يصحح ـ وهو التلميذ بالسنة الأولى ـ خطأ طالب طَرَّ شاربه وأوتي بسطة في الجسم، بعد أن عجز كل تلاميذ الفرقة النهائية عن ذلك التصويب، فأجاب بداهة، وأمر الأستاذ التلاميذ جميعا أن ينهضوا له واقفين ويحيوه تحية التعظيم ففعلوا صاغرين.. حتى إذا انقضى اليوم المدرسي، تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجعلوا يتناقلونه بالأرجل وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد، حتى تمزقت ملابسه واحمر قفاه. ولولا أنفته الشديدة لفاضت عيناه.

وعض الشيخ على نواجذه ثم قال: الموضوع الذي سنجعله مدار حديثنا اليوم هو «آية الفضل أن تعادى وتحسد» و:

كل العدوات قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عداك عن حسد

وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر، حتى إذا انتهيا إلى قول أبي الطيب:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

استشعر الفتى العزة بعد الذل، والكرامة بعد الهوان، ولما آنس منه شيخه أنَّ جرح كرامته قد التأم، انتقل إلى جرح من نوع آخر: إلى جرح أحدثه الحقد، ونزعة فطرية إلى الثأر، فقال للفتى: أريد أن تعد لمجلس الغد قول أبي الطيب:

وأتعب من ناداك من لا تجيبه
وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وأيضًا قول المسيح عليه السلام: أبت اغفر لهم فإنهم لا يدرون ما يفعلون!

أمن عجب بعد هذا أن يكون الشيخ ملاذ الفتى في كل ملمة، ونبراسه في كل مدلهمة، وقدوته التي يأتم بها عقلا وقلبا وعاطفة وضميرا؟..

لقد أصبح الشيخ القزم عملاقًا، وسكن إليه الفتى واطمأن، وأخذ نفسه بأدبه وفضله. أمره الأمر، ورأيه الرأي..

وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد يلتمس الشيخ، فعرف فيه الفتى خادم أستاذه. فقال له: «الولد» حضر يا مولانا.. الولد خادمك.

فأشاح بعنقه كعادته حين يضيق بشئ سمعه. وأدنى الغلام وتسارا برهة ثم انصرف الغلام. وعندئذ قال الشيخ:

ـ ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد! كان الرسول ﷺ يقول فتاي وفتاتي ولا يقول عبدي وأمتي..

وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع في معاملة خدمهم، ثم قال له في حزم:

أرجو أن تفكر حتى غد، وعندما تخلو إلى نفسك في المخدع، ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدما؟ فإنه مثلنا ابن أب وأم. والدهر الذي جار عليه جار على سائرنا وأحب أن تفكر في قول الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس
كلاكله أناخ بآخرينا

وأرق الفتى ليلته وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حى، وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادمًا فى بيت كبيته هذا. وطار قلبه شعاعًا. وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخادم فى بيته رفيقًا رقيقًا. ولما رأى أمه تسبه وهى تتعجله قضاء حاجة ثار بها، وأسمعها طرفًا مما وعاه من آداب الرسول وصحابته فى هذا السبيل. فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته. ووعدها أن يكون له مع الشيخ حديث فى ذلك النهار.

ولما حل العصر، قيل للفتى: إنه لا درس اليوم، وذهب الوالد فلقى الشيخ وقال له: إن بالفتى وعكة. ثم تطرق الكلام إلى بيت القصيد. وأدرك الشيخ مراد الرجل، فقال محتدًا:

- هل ترضى منى أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكمل والنهج الأقوم وأن أعرف الحق وأحيد به عنه؟

- بل لا أريد..

- وإن أردت أنت فلن أريد! لأن ذلك هو الغش البيّن.

فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقًا وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك؟

- ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات..

- ويداول الدنيا بين الناس! ثم أما قرأت كتابك؟ ألم تجد فيه أن المسيح - عليه السلام - ورأيكم فيه ما تعلم! - غسل أقدام حوارييه؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت. وإنما التفاوت عندنا حين نفرط فى لباب الدين لنتعلق بزخارف الدنيا.

وأعاد الرجل على زوجه حديث الشيخ، وآذنها أن الفتى مستأنف درسه منذ الغد: فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرفيعة أتاحه له الله فى صورة هذا الشيخ.

- وإنى يا فلانة لأستحى - والله - أن يظن الشيخ بنا دون هذه الآداب.

<<<

وكأنما همس الهامسون فى آذان الأبوين كما همس هامسون من قبل فى أذن الشيخ.. ولعل غيورا من أهل الخدالقة قال لهما:

- كيف تخاطران بالفتى هذه المخاطرة؟ فإنه يخشى أن يفتنه الشيخ عن دين آبائه.

ووجد الفتى أبويه يقرآن له فصولا من الإنجيل كل يوم.

ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة. وجعلت أسرار العقيدة تصب فى دماغه صبًا. فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى وناقش فقيل له: إن الإمعان فى التفكير يسوق إلى الكفر، وإن المناقشة سبيل الشك. ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الإيمان، وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء.

والتمس الفتى عند شيخه الهداية، فتحرج الشيخ أن يطرق الموضوع، بيد أنه حدثه عن العقل. وأنه الإمام الذى أنعم الله به عليه. وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل. وأن اليقين الذى لا يصمد للشك يقين زائف. والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال.. وحدثه الشيخ فى ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة، وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم فى حياته من بعد. حدثه عن «غاندى». وكيف يصلى بآى من القرآن والإنجيل والتوراة والبرهمايوترا. وحدثه عن متصوفة الإسلام، وعن محيى الدين بن عربى.. وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور.

- اقرأ يابنى كتابك بنفسك واحتكم إلى عقلك، واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء، وعن فعل السوء، وعن تفكير السوء.

وسمع الفتى بعد ذلك واعظًا مشهورًا حضر إلى المدينة واحتشد القبط لسماعه احتشادًا مشهودًا، فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت، سماهم الذئاب الخاطفة، وحض على اختصامهم، فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحدًا أو يرد عليه السلام!..

وصورت المخيلة الناشطة له أولئك الناس ذوى أنياب كاشرة، ومخالب كاسرة. وذهب إلى شيخه بذلك الحديث فزعًا فاغتم الشيخ وقال:

- أواثق أنت مما سمعت يا بنى؟.

- كل الثقة يا مولانا..

- أعوذ بالله! إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء!.. فالمسيح الناصرى يقول: أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم!.. كبرت كلمة تخرج من أفواههم! اقرأ إنجيلك يابنى وافتح له بصيرتك.. واصدد عن مفترى السوء ما استطعت.

ووعى الفتى درس شيخه، فتزوج بعد عقد ونصف إحدى بنات «الذئاب الخاطفة» المزعومين!

<<<

وحفظ الفتى القرآن لتسع، ووعى المعلقات وديوان الحماسة. وقرأ اللزوميات. وافتتن بأبى العلاء والمتنبى على وجه الخصوص وأصبح وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه.

يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبى طالب. والشيخ من وراء ذلك كله أعز عليه من أهل الدنيا جميعًا.

أتاه ذات يوم باكيًا فسأله ما به:

- سعد يا مولانا.

- رحمة الله على الزعيم الجليل! ماذا ذكّرك به؟..

- ليس سعدا هذا.. بل الآخر..

- ومن ذاك يرحمك الله؟

- هو كبش كنا نربيه فى البيت.. غافلونى وذبحوه للعيد!.. ولما بكيت سخروا منى.. ولم يكفهم أن يأكلوا منه. فأرادونى - وألحوا - أن آكل منه مثلهم.. فأبيت!..

ولم يضحك الشيخ بل رق للفتى رقة واضحة.

- ولماذا يسخرون منك؟ لقد بكيت من

أحببت!..

ـ أليس كذلك؟.. وقالوا حرام ألا تأكل مما أحل الله.

ـ ليس حرامًا أن تحب شيئًا خلقه الله.

ـ وقالوا أتحب خروفا كأنه أخوك؟

ـ الحب يا بنىّ شئ جميل جليل.. ولو كان لشئ تافه ضئيل: ألا يحب الواحد منهم أصصا من الزهر؟.. أو حلية من الجوهر؟. لا تثريب عليك فيما أحببت!.. فليست قيمة الحب فيما تحبه، بل فى حبنا له.. وإن لك لقلبا سخيًا وفؤادا ذكيا.

وأصبح الشيخ أقرب إلى الفتى من آله وذويه، بهذا الفهم، وهذا الحس.

>>>

وأصيب شقيق للفتى فى مهده بمرض طويل، أكل علاجه الأخضر واليابس، ثم مات فركب الأسرة دين وسافرت أم الفتى ـ وهى حامل فى شهرها الثامن ـ إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية حقيدة القسوس جزءًا من حقها القانونى فى وقف جدتها. وكانت أم الفتى وحيدة أمها. ولبثت الأم فى سفرها ثلاثة أيام أحس الفتى فيها بالوحشة. ثم عادت الأم من سفرها خاوية الوفاض، دامعة العين. وقد أبت عليها أمها الثرية حقها، وهى بين الثكل والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضعضعة النفس.

وقررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة. فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا وقطعت تيار الكهرباء واستغنت عن الخادم والغاسلة. وأقبلت الأم الحبلى تعمل بيديها كل شئ. حتى الخبز!.. فحز ذلك فى نفس الفتى الذى يكاد يعبد أمه من دون الله..

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس. وكان الشيخ قد عرف طرفًا من ذلك الحديث من الفتى الذى لم يكن يطوى عنه أشجانه. فإذا به يسكت عندما فاتحه أبو الفتى فى انقطاع ابنه.

وينصرف الأب إلى داره، وإذا بالباب يطرق بعد قليل. وإذا بالشيخ الضرير يقوده صبى الحلاق. ويبادر الوالد قائلاً:

ـ ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة أو نحوها.

وعرف الفتى أن الشيخ عازم أن يستمر الدرس، بغير مقابل، وأن تلطفه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلميذه صونًا لعزته وزيادة فى مروءته.

ولم يسع الفتى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدة تنتمى للمسيح وتتشدق باسمه، وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد وآله خمس مرات فى كل يوم!..

ليس البر وقفًا إذن على دين دون دين.

>>>

وفى العاشرة رحل الفتى عن السويس، ولم ير الشيخ بعدها ولكن الشيخ ظل قائمًا فى عقله ونفسه ولسانه.. فقد صاغ الشيخ فى الفتى ذلك كله، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل وتقديس العقل وشجاعة الرأى.

الحركة الإسلامية ومنهج التغيير



الشيخ/ راشد الغنوشى

الحركة الإسلامية تيار واسع، يعبر من جهة عن خيبة آمال الأمة فى المشاريع النهضوية العلمانية القطرية التى لوحت لها وبشرتها بأحلام النهضة. كما يعبر من الوجه الآخر عن عقد آمالها بالإسلام فى الخروج بها من وهدة ومآزق الحاضر وقيادتها إلى تحقيق الآمال المجهضة فى العدل والكرامة والوحدة واستعادة فلسطين السليبة. فليس عجيبا، مع اتساع التيار وتباين أحوال البلاد الإسلامية واختلاف المصادر الثانوية لتكوين النخبة الإسلامية أن تختلف رؤاهم للواقع المحلى والدولى ومشاريعهم البديلة. وبحسب ذلك تعددت مناهجهم التغييرية.

ومع الإقرار بهذه الواقعة فمما لا يمكن إنكاره أن التيار العام – تيار الوسطية الإسلامية كما أحسن صياغته وتهذيب مناهجه شيخنا القرضاوى حفظه الله – يكاد يجمع إن لم يجمع فعلاً على الالتزام بالنهج السلمى فى التغيير وإعمال كل مساحة للحرية والعمل على توسيعها وصونها، على اعتبار الحرية المناخ الأمثل لعمل الدعوة الإسلامية التى تعتبر الاستبداد عدوها الأول مرددة نداء النبى –عليه السلام– إلى قومه: «خلوا بينى وبين سائر الناس»[1]، حريصة على الاندراج بسائر مجالات نشاطها فى إطار القانون والعلنية بعيدًا عن أجواء السرية الخانقة، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وتيار الوسطية الإسلامية ولئن شجب انغلاق الأنظمة ومصادرتها للحقوق والحريات، وارتكابها شتى المظالم وحظرها حرية الدعوة إلى الله، وانتهاكها حرمات الله، وتعطيلها للشرائع وصمها الآذان عن سماع كل نصح ما من شأنه أن يقدم المسوغات الشرعية لاستخدام القوة كرد فعل حسبما تدل عليه ظواهر بعض النصوص والفتاوى، فهى ترفض الانسياق وراء العواطف والاندفاعات وتعتصم برد أحد ابنى آدم على عدوان أخيه:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ «المائدة: ٢٨»

١- مسند أحمد، طبعة الرسالة، باب حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم.

وتصر على الالتزام الكامل بأساليب الجهاد السلمي وحسب في معالجة ما ينجم من مظالم وينشب من خلافات داخل المجتمع الإسلامي مهما عظمت. إنه جهاد الكلمة، الجهاد الكبير الذي حرضت عليه الآية:

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

«الفرقان: ٥٢»

وجاء التنويه به على لسان صاحب الدعوة – عليه السلام – مقدما إياه على كل أنواع الجهاد الأخرى في التعامل مع الاختلافات داخل المجتمع الإسلامي: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» «رواه أحمد» و«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[٢].

وهذه النصوص وأمثالها المنوهة بالجهاد السلمي، بقوة الكلمة وبقوة ضغط الرأي العام الذي يبدأ بالكلمة الفردية يصدع بها عالم في وجه طاغية، قد تتطور وتتراكم وتتكاثف لتصنع ثورة عبر العرائض الاحتجاجية والاعتصامات والمسيرات وعبر الإضراب عن الشغل ومقاطعة المؤسسات الفاسدة و الامتناع عن دفع الضرائب مما يشكل منهجا كاملا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد السلمي المعبر عنه في لغة غاندي استراتيجية اللا عنف، تلك التي قهر بها غاندي أعتى إمبراطورية استعمارية في عهده غير أنه وللأسف لم يطور المسلمون هذا النهج في الجهاد



القرضاوي

السلمي الذي دلت عليه ونوهت به عديد النصوص، ما حصر التعامل مع ظلم الحكام بين الخروج عنهم بالسيف وبين الخضوع لهم حذر الوقوع في الفتنة:

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

«البقرة: ١٩١»

مع أن الخيارات أوسع مما ضيقوا.

لقد انتهت تجربة علماء الإسلام مع تجارب الخروج المسلح إلى سد هذا الباب جملة أو إحاطته بشروط قل توفرها بسبب ما جرته تلك التجارب على الأمة من كوارث دون أن يتحقق المقصود أو حتى بعضه، ذلك ما ساقهم إلى منع الخروج والاعتراف بحكم المتغلب كأمر واقع مقابل التزامه بأحكام الشريعة مع العمل على الحد من العيوب ومحاصرتها من خلال إعمال آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفراغ الجهد في إصلاح الرعية ودعم مؤسسات العمل الشعبي الطوعي كالمساجد والمدارس وسائر الخدمات الاجتماعية بالاستناد إلى مؤسسة الوقف العتيدة بما حاصر سلطان الحاكم وقلل من حاجة الناس إليه فأغناهم عنه إلى حد كبير فيما عدا شؤون الدفاع عن الحوزة «الأمن القومي» وإقامة الحدود.

٢- الجامع الكبير للسيوطي.

أما الجهاد المسلح فقد قصر ضمن هذا النهج الذي ساد لدى جمهور علماء المسلمين – وكان ثمرة تجربة تاريخية طويلة – على مواجهة العدوان الخارجي على الدين وأهله وأوطانه.

والحقيقة أن هذا النهج الذي أفرزته تجربة تاريخية طويلة في التعامل مع ظلم الحكام رغم ما قد عيب ويعاب عليه من تخاذل وسلبية وتجرئة للطغاة على الدعاة وعلى الحرمات والحقوق والحريات، قد شهدت له تجربة التاريخ أنه إن لم يكن هو الأقوم فهو الأقل ضررا بالأمة من نهج المغامرة وسل السيوف واستسهال استباحة الدماء بدعوى محاربة طاغية لا يمكن الوصول إليه غالبا إلا عبر بحر من دماء بريئة تزهق بغير وجه حق، وتدمير مصالح عامة وفتح ثغرات كبرى لتدخل أعداء الأمة وإضافة أسباب أخرى إلى وهنها. والأدهى من ذلك أنه علاوة على جسامة التضحيات توصلا إلى اقتلاع الطاغية، فقد أثبتت التجربة أن المطلب عزيز المنال قل أن تم التوصل إليه. وحتى في الحالات القليلة التي تم فيها ذلك فقد كانت المفاجأة مذهلة إذ حل طاغية محل آخر وربما أطغى منه، فلم يكن الحكم العباسي أرحم بالأمة من حكم بني أمية، ولا حكام المماليك أرحم من سابقيهم، ولا الذين خلفوهم من العثمانيين أشد بأسا على الأمة من حكام العرب المعاصرين.. هذا إذا لم يكن الأمر على نحو:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾

«الأعراف: ٣٨»

وذلك لا يعني بحال الاستسلام للطغيان، فإن مقاومته بلا هوادة واجب شرعي مقدس باعتبار أن ذلك هو المقصد الأعظم الذي أرسل به الرسل – عليهم السلام – ألا وهو مقاومة الظلم وإرساء العدل في العالم، وإنما المقصود عقلنة هذه الآلية العظيمة التي أناطها الإسلام بكل مسلم بحسب قدرته فردا وجماعة، أعني آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يخرج بهذه الآلية من طور العمل العشوائي الأعشى على نهج الخوارج ومن سار على دربهم على امتداد التاريخ الإسلامي، مخضبين حياة المسلمين بدماء وكوارث بلا حد، ولا تزال امتداداتهم موصولة دون أن يتحصل من ذلك شروى نقير من الخير والخلاص من الظلم.

إن الخروج من طور هذه الثورية الفوضوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أمر رشد وتبصر تتنزل معه أنواع الجهاد في منازلها الطبيعية بحسب القاعدة لكل مقام مقال، «وحدثوا الناس بما يعرفون. أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[٣] وتلك هي الحكمة: وضع الشيء في موضعه. إن الخروج من هذه الفوضى ليس له من سبيل غير ضبط وتطوير نظرية في التغيير الإسلامي تحدد منازل واضحة للجهاد الإسلامي بدءا بتطوير استراتيجية أفضل الجهاد: جهاد الكلمة.. الجهاد الوحيد المأذون فيه للتعامل مع ما ينجم من اختلاف داخل الأمة.

وإن من أسباب هذا الخلل، بل الضعف الفادح في الفكر السياسي الإسلامي المتعلق

٣- صحيح البخاري، باب من خص بالعلم قوما دون قوم.

يفقه التغيير، ضعف وحتى ضحالة الفقه المتعلق بالدولة، وكذا الفقه المتعلق بالواقع، ولربما كان ذلك بأثر التقليد للأسلاف حيث كانت حاجاتهم ومشكلاتهم بسيطة أو بسبب التأثر بمنطق القياس اليونانى المجرد عن الواقع بما صاغ العقائد الإسلامية صياغة مجردة عن الواقع وجعل عمل العقل حوارا بين مقولات نظرية بدل أن يكون حوارا ثلاثى الأطراف: العقل والشريعة والواقع.

وقد ترتب على هذا النهج التجريدى أن ساد القياس، فكلما وقعت نازلة جديدة سارع المتناظرون إلى النصوص - كان ذلك فى المراحل الأولى - أو سارعوا إلى فتاوى وأقوال الأسلاف يبحثون عن واقعة مشابهة للقياس عليها.

ولأن النصوص كالوقائع متعددة إلى حد الاختلاف والتناقض الظاهرى فقد اختلف النظار بحسب النص الذى أعمله كل طرف أو الواقعة من تاريخ السلف التى قاس إليها. ففى واقع الحال ترى دعاة الخروج عن الحكام الظلام يعملون آيات القتال فى القرآن ويعززون موقفهم بشواهد من أعمال السلف وآراء الفقهاء الأوائل، بما يجعل الجهاد أو الإعداد له على الأقل فى حال العجز عنه واجبا شرعيا بالنص فى زعمهم، والتخلى عن ذلك فى كل الأحوال إثما عظيما قد يخرج من الملة.. بينما يهملون مقابل ذلك الآيات الموجهة إلى الدعوة بالتى هى أحسن والتدرج بالصبر والمصابرة منعا للفتنة والهرج، واصمين الخارجين بالفتانين، غير أن هؤلاء إذا تحقق لهم النجاح، وهو قل أن حدث، استحقوا من طرف العلماء الاعتراف بهم كأمر واقع وطولبوا فقط بما كان يطالب بهم حكام الأمس كل هذا يحدث دون إيلاء ما يكفى من الاهتمام بالعنصر الأساسى والحاسم فى معادلة التغيير ألا وهو الواقع، فهو وحده الكاشف عن الاستطاعة والإمكان أى حقيقة الظروف الموضوعية ومدى نضجها وما تتيحه من فرص للتغيير. إنه عنصر الاستطاعة الذى اعتبره الشارع حاسما فى تعيين نوع وسيلة التغيير المطلوبة شرعا إزاء منكر محدد فى زمن محدد، قال تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

«التغابن: ١٦»

وقال:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

«البقرة: ٢٨٦»

وقال صاحب الدعوة عليه السلام: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» «رواه مسلم» فمن ذا الذى يملك الكشف عن هذا العنصر المحدد لنوعية وسيلة التغيير التى فتح الشارع أمامها خيارات كثيرة؟ قطعا ليست هى نصوص الشرع فلقد قالت هذه كلمتها إذ أحالت الأمر إلى اجتهاد العقل فى تشخيص الواقع والكشف عن القدرات المتوفرة ومدى قيامها بالتغيير المطلوب فليست إذن كتب الفقهاء بمجدية شيئا فى هذا الباب وإنما هى العلوم المتخصصة فى فقه الواقع: علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والإحصاء والسياسة.. إلخ، تلك العلوم التى يمثل تخلفنا الفادح فيها أهم خلل فى فكرنا السياسى القديم وبخاصة الحديث، أهم مصدر لتخلفنا وإهدار معظم طاقات أمتنا ونواياها الطيبة وتضحياتها الجسام من أجل تحقيق أهدافها، بما جعل الخلل فى تجاربنا التغييرية ليس عائدا يحال إلى ضعف استعدادات أمتنا فى بذل دمائها وأرواحها وأموالها من أجل التغيير، فما عرف التاريخ أمة أكثر سخاء بالروح والدم من أجل عقيدتها من هذه الأمة، وإنما الخلل الأكبر فى وظيفة العقل وضعف قدرته على حسن تقدير الأوضاع والتصرف فى الموارد البشرية والمادية وتقدير إمكاناتنا إلى إمكانات أعدائنا، كضعف قدرتنا على ترتيب أولوياتنا، وتصنيف خصومنا، والبحث عن الأصدقاء، وتقليل الأعداء والاقتصاد فى التضحيات، ما أمكن والتبصر بالعواقب والتجارب، وتوسيع مجال الشورى، وتوظيف أهل الخبرة، واحترام التخصص وتوزيع المهام بحسب ذلك وإرساء العدل سبيلا لا بديل عنه لتعبئة طاقات الأمة، والتدرج بالصبر والحيلة وتفويت فرص استدراجنا إلى معارك لا ضرورة لها ولما تتوفر الفرص الكافية للنجاح فيها.

وبالنظر إلى كل ذلك بعين الاعتبار وغيره فى الحكم على تجاربنا التغييرية نلقاها لا تختلف كثيرا عن المعارك التى خاضتها دولنا مع أعدائها المتربصين بها.

تقدم معارك الخليج فى هذا الصدد نماذج لا تختلف كثيرا عن معارك الحركة الإسلامية فى معظم ساحاتها ومنها الجزائر وتونس ومصر والشام وأفغانستان والبوسنة وكوسوفو وكشمير.. نماذج محكومة بنفس المنطق والعقلية إنه منطق التخلف إذا كان للتخلف منطق.

الجميع على اختلاف أيديولوجياتهم قد استقوا فى تربيتهم الأولى من نفس الينابيع:

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

[سورة الرعد: ٤]

ثقافة التجريد والتبسيط والفردية والتعجل والانفعال! إنه التخلف.

وليس يعزينا أمام ما حصل من كوارث بسبب قلة التبصر بقوانين الواقع، وهى غلابة، وما جره ذلك من كوارث غير حسن القاصد ونبل القضايا، وغير الأمل بعد عفو الله فى الأجيال الإسلامية الجديدة أن لا تقلدنا ولا من سبقنا، وأن لا تعتبر أن ما تزدحم به المكتبة الإسلامية من طارف الفقه وتليده مجددا لها كثيرا فى ضبط نهجها فى التعامل مع واقع محدد، بل قد يكون مضللا وسائقا إلى كوارث. إن طريقهم الوحيد هو التبصر فى الواقع المحلى والدولى من أجل الوقوف على قوانينه واستخراج ما يتيحه من إمكانات ووسائل تغييرية بعيدا عن كل تعجل وانفعال.

ألا يكفى ما حصل من كوارث؟ فإلى الاستجابة إلى ما طولب به صاحب الدعوة أن يفعله وأن يبلغه:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

[سورة يوسف: ١٠٨]

فسارعوا إلى العلوم الكفيلة بتوفير إمكانات التبصر بقوانين الواقع.

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام



بقلم الأستاذ الدكتور

محمد المختار محمد المهدى

الأستاذ بجامعة الأزهر والرئيس العام للجمعيات الشرعية بمصر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الرشيدة، لا تغنى عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعى، والإسلام على وجه الخصوص دين تتضافر تشريعاته وتتكامل لتكون الشخصية الإنسانية الفاضلة التى تتمتع بكافة الحقوق وتقوم بما عليها من واجبات، إنه عقيدة تتسق مع العقل والفطرة، وشريعة تحقق المصالح والمنافع وتربى الفرد الايجابى الذى يسهم فى إسعاد الإنسانية، وتوجيه الحياة نحو الصراط المستقيم، إنه سلام للخلق وأمن للعالم، إنه دين الحق الذى تشهد به الفطر السليمة، وتطمئن إليه النفوس الطاهرة، وتطيب به الحياة المستقيمة، وتؤمن به العقول الراجحة، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

(النساء: ١٧٤ - ١٧٥)

فإلى الإسلام فى عقيدته وشريعته، فى عباداته ومعاملاته، فى نظمه وأخلاقه، فى حقوق الإنسان كاملة تامة. فلعل قلوبا تتفتح للهدى والنور فتستمع إلى دعوة الإسلام الحقة، إذ لا طريق لخلاص البشرية مما تتخبط فيه من ظلمات سوى الإسلام، قال تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

بين يدى البحث

مضى أكثر من ستين عاماً على إعلان هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان، ويوم أن أعلنت، استبشر المظلومون والمقهورون بأن يكون هذا الإعلان بداية لنشر العدل والحرية والمساواة، وقوى الأمل لدى الشعوب المغلوبة أن تحصل على حريتها واستقلالها، إذ طالما عللوا أنفسهم وعلقوا أمانيهم على الجهود المرتقبة لتعاون الأقوياء على إنصاف الضعفاء حتى يتحقق للجنس البشرى ما يصبو إليه من أمن وسعادة ورخاء وازدهار.

غير أن هذا الميثاق - وقد مرت عليه هذه الأعوام - لم يحقق لهؤلاء المطحونين شيئاً من آمالهم، وظل حبراً على ورق بالنسبة للشرق الإسلامى على وجه الخصوص، بل إنه كان سيفاً مصلتاً على رقابهم لتغيير قيمهم ومبادئهم، وفرض أنماط الغرب ونظمه على شعوبهم، بل وساعد الصهاينة على ابتلاع أرضهم وانتهاك حرماتهم ومقدساتهم وسفك دمائهم.

ومن هنا كان على العالم الإسلامى وقد منحه الله تعالى بالإسلام منهجاً كاملاً، ونظاماً شاملاً، وتشريعاً متكاملاً تتعاون روافده كلها على تكوين الشخصية الإنسانية المثالية، وعلى صنع المجتمع الفاضل، وعلى إقامة معالم الحق والعدالة والحرية والمساواة فى فجاج الأرض وبين جنبات الحياة.

كان عليه بهذه الميزة الفريدة وذلك التراث الخالد أن يبرز هذه الحقوق، وأن ينقذ كرامة الإنسان، فهو الذى طبق هذه المبادئ، وأظهر للتاريخ البشرى النماذج العملية الرائعة، والقدوة الطيبة الصالحة، فى شتى ميادين الفضيلة والأخلاق.

وقبل أن نخوض فى غمار البحث، نحب أن نضع بين يدى القارئ الكريم، حقيقتين هامتين تزيلان كثيراً من اللبس والغموض، وتمحوان ما قد يتبدى أمامه من تساؤلات وشكوك.

الحقيقة الأولى:

أن الإسلام - وهو الدين الخالد العام الشامل الذى يقول عنه رب العزة:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

يعتبر جنده وأتباعه مسئولين عن مهمة تبليغ نوره إلى جميع أفراد الجنس البشرى حتى لا يكون لأحد حجة على الله تعالى عند الحساب، ولأنه نور وهدى ورحمة، فمن حق كل إنسان أن يرى هذا النور، ثم هو بعد ذلك مسئول عن نفسه فى اختيار ما يحب، إما بالسير على هداه أو بإغماض العين عن نوره وسناه، ولكنه حين يغمض عينه وينتكب طريقه ليس له أن يصد غيره عن هذا النور، وليس له أن يضع حاجزاً بينه وبين وصوله إلى الآخرين، عليه أن يختار لنفسه فقط، فلكل الناس عقول، وهم أحرار كما كان حراً فى النظر إليه واختيار ما راق له حسب تقديره، دون سلطة خارجة عن أقطار نفسه، ودوافع طبعه، فإذا ما وضع عقبة أو وقف حجر عثرة فى طريق هذا النور، مانعا من وصوله إلى الآخرين، كان متعدياً على حرياتهم، وكان متسلطاً ظالما يجب تأديبه، وتقليم أظافره حتى يسلم للمجتمع الإنسانى كله حق الحرية والاختيار، وحتى ينزاح من أمامه كل مسيطر على العقول والأفكار.

من هنا انطلق موكب الإسلام يزحف إلى القلوب المتعطشة إلى سلسله العذب، وتميره

الصافى، المتطلعة إلى نوره الممتد وبلسمه الشافى، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، ومن هنا كان المجتمع الإنسانى مقسما -فى نظر الإسلام- إلى ما يأتى:

١ - المسلمون:

وهم الذين ارتبطوا بمنهج الإسلام ونظامه وعقيدته ينفذون مبادئه ويحرصون على نشرها فى الآفاق.

٢ - غير المسلمين: وهم:

أ - إما مسالمون لا يقفون فى طريق الدعوة ولا يسالمون خصومها ولا يضطهدون أهلها سواء كانوا معاهدين، أم ذميين، أم مستأمنين، فهؤلاء لهم البر والوفاء والاحترام المتبادل، ماداموا محافظين على هذا الود، محترمين لهذا العهد، قال تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

ب - وإما محاربون شهروا السلاح فى وجه الدعوة وصدوا عن دين الله تعالى، ووقفوا أمام نور الإسلام حجابا كثيفا، لا يسمحون لأشعته الهادية أن يتمتع بها عباد الله تعالى، أو ظاهروا أعداءه وساعدوهم، فليس لهؤلاء عند المسلمين غير المنابذة والدفاع عن حرية الإنسان فى اختيار ما يشاء من عقيدة ونظام، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٩)

هذا هو المجتمع الإنسانى فى العرف الإسلامى، وقد وجه إليهم جميعا رب العزة خطابه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ٢١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

(النساء: ١)

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣، ١٢٤)

هذه النداءات الربانية وأمثالها فى القرآن الكريم تخاطب فى الإنسان جميع أفراده أن ينضموا إلى رحاب الحق، وإلى الإله الحق، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، وهذه النداءات لا لبس فيها ولا غموض، فهى موجهة إلى الجميع بلا استثناء.

ملحظ هام:

بيد أن هناك نداءات وتوجيهات إلى المسلمين خاصة، وسيأتى منها الكثير فى الأدلة التى سنسوقها برهانا على ضمان الإسلام لحقوق الإنسان من أمثال قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

وقد يساور القارئ شك عندما يقرأ هذه الأدلة فيظن أن الإسلام يخص بها صنفا معينا من بنى الإنسان، وهم الذين أسلموا وآمنوا بالله، ويهمل هذه الحقوق بالنسبة إلى غير المسلم.

ولإزالة مثل هذه الشبهة سقنا هذه الحقيقة التى تبين أن لغير المسلم حقا متكافئا مع المسلم من التمتع بالحقوق العامة التى تضمن الأمن والاستقرار له فى شتى مناحى الحياة، وتكفل له العيش الكريم.

وبناء على ذلك يكون واضحا أن كل ما يرد فى هذا البحث من أدلة يتوهم منها أنها خاصة بالنسبة للمسلم، منسحبة بطريق التبع على المسالمين من غير المسلمين.

الحقيقة الثانية:

إن أدلة واستشهادات ستأتى فى ثنايا هذا البحث مأخوذة من حوادث عملية طبقها صحابة رسول الله ﷺ من الخلفاء الراشدين، وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة فقط هما النبعان الوحيدان للبراهين، غير أننا نلفت نظره إلى ذلك الحديث الصحيح الذى يرشدنا إلى الاقتداء بأعمال الخلفاء الراشدين من بعد رسول الله ﷺ، حيث يقول ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».(١)

وبهاتين الحقيقتين نستطيع أن نسير فى هذا البحث عن حقوق الإنسان، على أن ما قرره الإسلام منها فهو الأصل والمصدر، إذ لا يستطيع أحد أن ينكر تأثر الغرب بثقافة الإسلام عن طريق الأندلس، ثم عن طريق الصليبيين. وما لم يقرره الإسلام فهو شعار زائف باطل لا يحتوى معنى للكرامة الإنسانية.

ذلك أن أحدا من البشر لن يستطيع أن يجد سبيلا إلى المفاضلة بين قانون وضعى وبين الإسلام، إذ هو بذلك يضع رسالة السماء فى مستوى نتاج العقل الإنسانى، مع ما بينهما من بون شاسع فى الإحاطة والدقة والحكمة والمصلحة، بحكم أن الأول صادر عن العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ولا تند عنه شاردة لا فى عالم الغيب ولا فى عالم الشهادة، لا فى السر ولا فى العلانية وأن الثانى صادر ممن يتأرجح فكره بين حين وآخر، ويختلف ما يراه مصلحة فى يومه ليصير مفسدة فى غده، وهذا من أدلة النقص فى الإدراك البشرى.

---

(١) أخرجه أبو داود - كتاب السنة - باب فى لزوم السنة - حديث رقم ٤٦٠٧.
وأخرجه الترمذى - كتاب العلم - باب ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع - حديث رقم ٢٨٩١.

مكانة الإنسان في القرآن الكريم

من بين مخلوقات الله الكثيرة اختص القرآن الكريم هذا الإنسان بقيمة خاصة، ومكانة ممتازة. فهو المخلوق الذي تحدث عنه الخالق جل علاه أنه قد خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، فاستحق بهذه النفخة العلوية، وذلك السر الإلهي أن يكون أكرم مخلوق، وأن يأمر الله تعالى ملائكته المطهرين أن يسجدوا له:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(ص: ٧١، ٧٢)

ومنحه من العلم والمعرفة ما تفوق به على الملائكة الكرام:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة: ٣١ - ٣٣)

وبوأه ربه منازل الرضا والتكريم فقال له:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(البقرة: ٣٥)

وكرمه بالاستعداد الفطري الذي استأهل به الخلافة في الأرض:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

وسخر كل ما في الكون من أرضه وسمائه لخدمته والانتفاع به:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

ولم يتركه هملاً كما لم يخلقه عبثاً، فاصطفى منه رسلاً يحملون إليه وحياً، يهديه ويسعده في تلك الحياة، ويعيده بعد الحياة إلى الفردوس والنعيم:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقرة: ٣٨)

هذه قصة الإنسان كما وردت في القرآن الكريم: مكرم مفضل له منزلته السامية، ومكانته الفريدة في الجنة وفي الأرض، في الحياة وبعد الموت، وسر هذا التفضيل والتكريم ما منح من عقل، وما وهب من علم وإدراك، وإزاء هذه المنة الإلهية العظيمة أتى واجب التكليف، وحوسب المرء على ما يقول ويفعل، وإذا كنا في مقاييسنا البشرية لا نحاسب إلا من له كيان، ولا نعتب إلا على من ننظر إليه باهتمام، فإننا ندرك أن مسألة

الحساب على العمل تعد من الله تعالى مزيداً من التكريم لهذا الإنسان، لقد حمله مسئولية نفسه لأنه رشيد، ولأنه عاقل، ولأنه يزن ما يأتي وما يدع:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(فصلت: ٤٦)

الإخاء الإنساني

لقد وصل الإسلام الإنسانية كلها بأوثق الروابط وأمتن الوشائج والصلات حين ردها إلى أصل واحد هو التراب والماء، وإلى أب واحد وأم واحدة، فعقد بينهم سبباً لا تبلى جدته، ولا تهن قوته مهما امتد في آفاق الأرض ومهما طوف حول هذا الكون، إن الإسلام يرى أن كثرة أفراد البشرية وشعوبها وقبائلها ينبغي أن تكون مدعاة إلى التعارف والتعاون والوئام، لا سبباً في التناكر والتعادي والشقاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

(الحجرات: ١٣)

لا مجال للتفاخر

ومادام الأصل واحداً، والنسب واحداً كذلك، فليس هناك داع للتفاخر والتعالي والتسلط والكبرياء؛ إذ القيمة الحقيقية للإنسان التي يحق له أن يزهو بها ويعتز هي الأثر الطيب الذي تصنعه يداه، والعمل الصالح المبني على تقوى الله تعالى، يقول رب العزة سبحانه:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

ولا مجال للتمييز

وبهذه المساواة في القيمة الإنسانية التي تعتمد على الأصل الواحد والنسب الواحد، لا يتصور في أحد من بني الإنسان أن يولد متميزاً على غيره في الكرامة والقيمة، أو فيما ينبغي له من حقوق وكيان. لقد ولد الجميع في حالة متساوية في كل شيء، ثم منح الجميع بعد ذلك أدوات الفهم والتعقل والتفكير، ويسر أمام كل فرد سبيل النبوغ فيه:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل: ٧٨)

كما ولد كل إنسان على فطرة نقية سليمة، تشكل ضميره ووزاعه الديني، بحيث يدرك الخير والشر بوضوح وجلاء، قال تعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد: ١٠)

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الجنائز - باب ما قيل في أولاد المشركين - حديث رقم ١٣٨٥.

حق الحياة

من الأصول الأساسية التى يتبناها الإسلام ويضع لها من القواعد والتشريعات ما يحفظها ويحوطها بالعناية والرعاية هذا الحق. فالحياة منحة ربانية أعطيت لنا لنستمتع بها ونعمل على حفظها وصيانتها إلى أن يأتى الأجل المحتوم الذى لا يعلمه إلا من خلق الموت والحياة.

وإذا كان الخلق لم يكن عبثًا، ولم تكن الحياة سدى، فليس للإنسان أن ينتحر ويقتل نفسه، أو يوردها موارد الهلكة، وإلا استحق اللعنة والغضب من الله تعالى ومن المجتمع، فليست حياته ملكًا له يتصرف فيها كيف يشاء، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

وليس لأحد مهما كانت مكانته وسلطانه أن يغصب الإنسان حق الحياة، ومن فعل ذلك بغير حق فقد آذن الناس جميعًا بالحرب، وآذن معهم رب الخلق الذى جعل لنفسه وحده صفة الإحياء والإماتة. والإنسانية كلها متضامنة فى كف اليد التى تبسط لقتل أى إنسان، فإن كل بنى آدم إخوة، حق كل واحد منهم فى أن يعيش هو حق الآخر، فإذا قصرت الإنسانية فى ذلك، دخلت كلها فى إثم إقرار الجريمة وعدم استنكارها:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

ثم إن الإسلام لم يشرع حد القصاص فى القتلى إلا حفاظًا على هذا الحق المقدس:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٩)

ولم ينكر القرآن ويسخر من طوائف العرب الذين كانوا يئدون بناتهم فى الجاهلية إلا حفاظًا كذلك على هذا الحق الذى يستوى فيه الرجال والنساء، انظر إلى هذه الوحشية التى يصورها القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(النحل: ٥٨، ٥٩)

ثم انظر إلى تحطيم هذه الأسباب التى يبنون عليها إزهاق تلك الروح، إنها خشية الفقر بوجود النسل:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٣١)

أما الحرب المشروعة فى الإسلام فهى مختصة بالدفاع عن النفس، وعن العقيدة، والحرية، واستبعاد الفتنة، واضطهاد المؤمنين، وإكراههم على الخروج من دينهم، والحرب فى هذه الحالات ضرورة كضرورة بتر العضو الفاسد حتى لا يؤثر على بقية الأعضاء، فهى كمبضع الطبيب الذى يضحى بالجزء لإصلاح الكل، فإذا ما اندفع الخطر وساد الأمن والاستقرار، وسلم المحاربون، فإن الإسلام يقبل هذا السلام ويضع أوزار الحرب استجابة لقول الله سبحانه:

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾

(الأنفال: ٦١)

حق المساواة

انطلاقًا من مبدأ الإخاء الإنسانى الذى تحدثنا عنه، بنى الإسلام علاقة الإنسان بأخيه على مبدأ المساواة المطلقة أمام القانون، حتى يستقر العدل ويسود الحق، وتنمحى كل آثاره من ظلم وإجحاف، فلا تمييز بين فرد وآخر لأى اعتبار سوى التقوى والعمل الصالح، وحتى هذا الاعتبار لا يعطى لصاحبه حقًا زائدًا على غيره، ولكنه فقط يفرض التقدير والاحترام له من المجتمع، أما أن يحابى أو أن يكون عمله وتقواه وسيلة لنيل حق ليس له فهذا ما يرفضه الإسلام، وإذا كانت بعض الآراء الحديثة قد أغرقت وتغالت فى إبراز شعارات التمييز بين الناس، فجعلت بعض العناصر تفوق الأخرى، فهذا سامى وذلك آرى، وهذا يجرى فى عروقه الدم الألمانى، فإن الإسلام يرد الجميع إلى أصل واحد، إلى عنصر واحد:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(النساء: ١)

وإذا كانت نعرة الأجناس قد ذاعت وفشت على هيئة قوميات وجنسيات مختلفة، فإن الإسلام لم يعط جنسا فضلا على آخر.

وإن الإسلام لم ينزل للعرب فقط، ولم تقتصر الدعوة إليه على هذا الجنس، إنه دين عالمى يخاطب نبيه قائلا:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

نظرة الإسلام إلى الجنس العربى:

غاية ما هناك أنه أنزل باللغة العربية، وطبق أولاً فى الأرض العربية، وحملته إلى الناس كثرة من الجنس العربى، ومع أن هذه الميزات التى نالها العرب لم تعطهم فضلا على من سواهم، بل حملتهم مسئولية التبليغ والدعوة إلى الله تعالى، قال سبحانه:

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

(الزخرف: ٤٤)

ولقد طبقت تلك المساواة بين العرب والعجم على أساس الكفاءة والديانة والجدارة، يروى عن «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه أنه وقف على بابه «أبو سفيان بن حرب» و«بلال الحبشى» فأذن لبلال قبل أبى سفيان، ضرورة أن «بلالا» وهو حبشى كان من السابقين إلى الإسلام أما «أبو سفيان» فقد تأخر إسلامه إلى يوم الفتح المبين.

(يتبع)

العلمانية وتطبيقها فى الإسلام

إيمان ببعض الكتاب.. وكفر بالبعض الآخر

للأستاذ الدكتور: محمد البهى

ما هى العلمانية؟:

العلمانية هى فصل بين مجالين فى حياة الإنسان: مجال الدنيا، وزينتها ومتعها، ومجال الصلة الخاصة بين الإنسان وخالقه.

هى فصل بين سلطتين غير متجانستين: بين دين أو كنيسة.. وسلطة زمنية أو دولة.

هى تفرقة بين «طاهر» وهو سر الله فى الإنسان.. و«نجس» وهو ما يمثل المادة وسرها فى حياته.. والكنيسة كسلطة مسيحية تباشر أحوال الإنسان المسيحى فيما يتصل بعلاقته بربه: تباشره منذ ولادته.. إلى موته.. ومنذ زواجه وإنجاب الولد، حتى يظل فى رضاء الله، بينما الدولة والسلطة الزمنية تباشر شئونه الاجتماعية فى علاقته بالآخرين معه فى المجتمع.. وشئونه الاقتصادية فى الملكية ومنفعة المال.. وشئونه فى المعاملات التجارية والزراعية، والصناعية، وشئونه فى التشريع والقضاء عدا قضاء الأسرة والتشريع فيها.

العلمانية فصل فى كتاب الحياة الأوروبية عنيت به الخصومة بين الكنيسة والسلطة الزمنية فى المجتمعات الأوروبية فى محاولة لاستقلال كل منهما، أو فى محاولة لمنع الاحتكاك بينهما، بعد الشد والتوتر فى علاقتهما طوال القرون الوسطى وسيادة حكم الكنيسة فيها.

ومفهوم الدين هو ما يغطى حاجة الإنسان كفرد فى صلته بالله داخل مكان العبادة أو فى خارجها فى الأسرة.. ومفهوم السياسة هو ما يشتمل ما عدا ذلك الجانب فى حياة الإنسان.. والإنسان بذلك له جانبان: جانب دينى.. وآخر سياسى. ولايتكلم فى الجانب الأول، كما لا يفصل فيه إلا «رجل دين» بينما لا يمارس الجانب الثانى إلا «رجل دولة» أو «رجل سياسة».. ورجل الدين مطالب بعدم التدخل فى مجال السياسة.. ورجل الدولة مطالب بأن لا يقحم نفسه فى مجال الدين.. وقد يكون لكل منهما تأثير فى مجال الآخر.. ولكن هذا التأثير يبقى فى الخفاء ويظل من الوجهة الشكلية غير معترف به من الجانب الآخر.

وعلى أية حال فالعلمانية كما اتفق على مفهومها رجال الكنيسة والدولة معاً: فصل واضح بين تدخل أية من السلطتين القائمتين - سلطة الكنيسة، وسلطة الدولة - فى مجال الأخرى وفى شئونها.

فهل فى الإسلام سلطتان: دينية.. وسياسية؟:

يصور الإسلام كتاب الله، وهو القرآن.. وكتاب الله عندما يفتح وتتلى آياته يشير إشارة واضحة إلى شئون عديدة فى حياة الإنسان، تغطى جميع جوانبها.

فى مجال الاعتقاد:

فيشير فى مجال الاعتقاد إلى وحدانية الله المعبود. وهو كامل كمالاً مطلقاً، وإذن لا شريك له.. ولا ند له.

ووحدانية الله فى الاعتقاد يجب أن تنعكس على ثنائية الإنسان بين عقله، وغرائزه.. كما تنعكس على الأفراد فى المجتمع، فى علاقة بعضهم ببعض.. فشهوة الإنسان لها مكان فى حياته.. وعقله له مكان آخر فيها، ولكن مكان السيادة والقيادة.. والأفراد فى المجتمع متساوون فى الاعتبار البشرى، وإن فرق بينهم مدى كل منهم فى مستوى الإنسانية وهو ما يعرف بتقوى الله.

وإذا كان الاعتقاد فى وحدانية الله يجب أن ينعكس على «ثنائية» الإنسان المؤمن به، فيضعف الصراع الداخلى على الأقل بين: عقله الذى هو مصدر الحكمة فيه.. وغرائزه التى هى مصدر الشهوة لديه، فإن معنى ذلك: أن هذا الاعتقاد يحول بالأولى دون أن يوزع المؤمن بالله الواحد، بين سلطتين كما تطلب العلمانية: سلطة دينية.. وأخرى سياسية؛ لأن معنى توزيع الفرد بين سلطتين: الإبقاء على كونه موزعاً، دون أن يصير إلى وحدة يغلب عليها الانسجام، بين أجزائها إذا كانت مركبة فى ذاتها.

* * *

فى مجال الحكم

وفى مجال الحكم يصرح القرآن فى قول الله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة : ٤٩)

فيأمر بأن يكون الحكم بين أهل الكتاب ــ والمؤمنين برسالة الرسول عليه السلام بالطريق الأولى ــ بما أنزل الله في القرآن.. وأن يتجنب تماما الحكم بالهوى.. والحكم بالهوى لا يلتزم طريقا واحدا.. وإنما يتبع الميل البشري في اتجاهه.. وهو خصيصة من خصائص الجاهلية.. كما يذكر في الآية التالية في قول الله تعالى:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

فالحكم بين الناس لا يتجاوز أحد نوعين: إما حكم الهوى.. وهو حكم الإنسان حسبما يهوى.. حكم الطغيان والمادية أو كما يطلق القرآن عليه: حكم الجاهلية.. وإما الحكم بالقرآن وبما أنزل الله فيه.. وهو الحكم بالطريق الأقوم والأحسن، لأناس يريدون أن يسود العدل والإحسان بينهم.

والحكم بالقرآن ليس حكماً إلهياً.. وإنما هو حكم بما أنزل الله، على حسب اجتهاد الحاكم الإنسان فيه.. هو حكم إنساني يجتهد فيه الإنسان الحاكم فيصيب ويخطئ والإنسان ليس بمعصوم عن الخطأ في اجتهاده.. إذ العصمة لله وحده.

والحكومة الإلهية حكومة الكنيسة وحدها؛ لأن المسيح، وهو ابن الله، كما يدعي، يحل في الأب الأعلى لها. ومن هنا تكون تفسيرات لنصوص الإنجيل مقدسة.. كما تكون أوامره ونواهيه، مقدسة أيضاً.. يجب على التابعين للكنيسة أن يطيعوها ويخضعوا لها خضوعاً تاماً.

ووحدانية الألوهية في الاعتقاد، كما يدعو إليها القرآن، تحول دون عصمة أحد من البشر، عدا الرسول عليه السلام فيما كلفه الله بتبليغه للناس. فالناس جميعاً متساوون في عدم العصمة وفي جواز الخطأ والصواب في اجتهاداتهم.

* * *

الإسلام في مجال السياسة:

يتضح القرآن في السياسة الداخلية من أجل تماسك الأمة وتعاون بعض أفرادها مع بعض بأن يؤثر المؤمنون في الولاء والمودة بعضهم مع بعض.. وبأن يؤثرن بالولاء كذلك بعضهن مع بعض. فهم جميعاً متجانسون في رسالتهم ومسئولياتهم.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(أي هذا الولاء على هذا النحو يجب أن يكون أمراً واقعاً يتحدث عنه).

﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

وفي الوقت ذاته ينهى عن أن يتخطى ولاء المؤمنين والمؤمنات: المؤمنين والمؤمنات في الأمة غيرهم عوضا عنهم. أي أنه ينهى عن أن يكون ولاء المؤمن في الأمة لغير المؤمن، بدلا

من مؤمن مثله، وكذلك ولاء المؤمنة لغير مؤمنة بدلاً من مؤمنة مثلها فيقول:

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(أي لا ينبغي أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، بدلاً من المؤمنين)

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾

(إلا في حال واحدة وهي اتقاء الكافرين وتحديهم للمؤمنين. عندئذ يجوز إظهار المودة للكافرين ولكن ليس على حساب المؤمنين حتى لا يصيب المؤمنين أذاهم)

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

(آل عمران: ٢٨)

.. فالتقية تدعو فقط إلى إظهار الصداقة للكافر، ولكن ليس بدلاً من المؤمن، على أية حال.

وإذن المطلوب:

أولاً عدم التجاوز بالولاء: المؤمنين والمؤمنات في الأمة، إلى غيرهم بديلاً عنهم.

وثانياً: أنه يجوز أن يكون للمؤمنين والمؤمنات في الأمة ولاء لغيرهم، تقية فقط، بجانب ما هو أصلاً للمؤمنين والمؤمنات من ولاء.

ولكي يفصل القرآن مبدأ «الولاء» الذي هو مبدأ أساسي في سياسة الأمة الإسلامية، ويبرر أسباب ما يراه فيه، يقول:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(المائدة: ٥٥، ٥٦)

فالآية الأولى تحدد: من يكون له الولاء والمودة. وهم: الله، ورسوله، والمؤمنون الذين يباشرون العبادة والطاعة لله.

والآية الثانية: تعد بنجاح التماسك في الأمة على أساس من مثل هذا الولاء.

ثم يستطرد القرآن مبرراً لما حدده هنا، فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(المائدة: ٥٧، ٥٨)

وهم أهل الكتاب والمشركون على السواء، موضحا: أن منع المؤمنين والمؤمنات من أن يكون لهم ولاء لغيرهم: يعود إلى استهزائهم بدين المؤمنين، وهو دين الله. فقد اعتاد الفريقان أن يسخرا من الصلاة عندما يؤذن لها. وسخريتهم من دين المؤمنين على هذا النحو يعبر عن عدم احترامهم للمؤمنين.

وليس من حسن السياسة أن يكون الإنسان مواليا أو صاحب ود وصداقة لمن لا يحترمه، ولمن يسيء إليه فيما يعتقده.

وكما ينهى القرآن عن أن يتجاوز المؤمنون والمؤمنات بولائهم أو صداقتهم، وودهم: إخوانهم فى الإيمان. إلى غير المؤمنين من أهل الكتاب والمشركين ممن اعتادوا أو ممن شأنهم أن يسخروا من المؤمنين ومن دينهم على السواء، ينهى أيضاً عن أن يتخذ المؤمنون والمؤمنات: «خاصة»، و«مستشارين» من غير المؤمنين، فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾

(خاصة من غير المؤمنين)

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

(أى لا يقصرون فيما يورثكم الشر والفساد)

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾

(أى ما يشق عليكم)

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(آل عمران: ١١٨، ١١٩)

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

(آل عمران: ١٢٠)

وإذا كان القرآن يبرر ما يدعو إليه المؤمنين والمؤمنات من قبل: من عدم الولاء لغيرهم، بسبب سخرية هؤلاء لدين المؤمنين واستهزائهم بما يؤدونه من عبادة، فإنه يبرر دعوته الثانية: إلى المؤمنين والمؤمنات بعدم اتخاذهم بطانة، وخاصة ومستشارين:

(أ) بعدم تقصير هؤلاء من أهل الكتاب والوثنيين أو الماديين الملحدين - إذا ما أصبحوا بطانة للمؤمنين والمؤمنات - فيما يسبب الأزمات والشر والفساد لهم:

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

(ب) وبالرغبة فى التفتيش عما يشق على نفوسهم ويسبب لهم العنت:

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾

(جـ) وبانطواء نفوسهم على البغض والحقد:

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(د) والرغبة فى الانتقام منهم:

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(هـ) وبأن نجاح المؤمنين يسيئهم.. بينما يسعدهم إخفاقهم:

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾

وقد بلور القرآن ما دعا إليه المؤمنين والمؤمنات فى كتابه: من مواقف فى سياستهم مع غيرهم على الأخص، فى قول الله تعالى:

﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(الممتحنة: ١)

فمن عدا المؤمنين والمؤمنات من أهل الكتاب.. والملحدين الماديين، أو المشركين: هم فى واقع أمرهم أعداء للمؤمنين.. وأعداء لله جل جلاله لأنهم جميعاً يكفرون بالقرآن كآخر رسالة سماوية.

وقد حذر القرآن المؤمنين، بعد أن كفر أعداؤهم بما جاء إليهم من الحق وهو القرآن الكريم: من أن يمدوا إليهم يد الولاء والمودة.. أو بأن يتخذوا منهم خاصة وبطانة لهم، لأن نفوسهم تنطوى على البغض والحقد:

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾

(إن صادفوكم وانفردوا بكم يكشفوا لكم عن عداوتهم)

﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾

(وتمد إليكم أيديهم بالسوء كما تمتد ألسنتهم إليكم بالسوء أيضاً، إن استطاعوا فى هذا أو فى ذاك)

﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

«ونهاية مطافهم معكم: أن تعودوا كفاراً وتتحولوا إلى أن تكونوا أتباعاً لهم».

فهل يعى المؤمنون سياسة القرآن بالنسبة لأمتهم فى تماسكهم.. وبالنسبة لأعدائهم فى عدم موالاتهم، واتخاذ بعضهم خاصة له؟ ما أصاب المسلمين بالأمس.. وما يصيبهم اليوم، أو غداً، هو بسبب عدم اتباعهم لسياسة القرآن.. وبقائهم مع حزب الشيطان فى اتباع سياسة الهوى والشهوة.

* * *

فى مجال الرأى:

وفى مجال تكوين الرأى للمصلحة العامة ينصح باتباع الشورى. سواء فى الأمر بها أو بجعلها صفة لازمة للإيمان. فيأمر بها فى قول الله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

فمع غضب الرسول عليه السلام على بعض من أعلنوا إيمانهم ممن شهدوا غزوة «أحد» يأمره سبحانه وتعالى بأن يأخذ رأيهم، ويصفح عنهم، ويستغفر لهم المولى جلت قدرته فعسى أن يكون فى الرأى ما يكشف له أمراً قد خفى على كثير من المؤمنين.

ويجعل القرآن «الشورى» إحدى صفات المؤمنين التى لا تفارقهم عندما يقول:

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

(الشورى: ٣٧، ٣٨)

فيقرن هنا: «الشورى» بالصلاة، والزكاة. والصلاة والزكاة صفتان أساسيتان فى حياة المؤمن، وفى صياغته كإنسان يتميز بعدم استغراقه في شأن الدنيا ولهوها، وفي عدم طغيانه بالمال الذى يذل كثير من الناس فى العادة فى سبيله. فمنزلة «الشورى» فى حياة الأفراد المؤمنين، وحياة أمتهم تساوقها الآية هنا بمنزلة الصلاة والزكاة.

والشورى هى أساس المسئولية الفردية التى يحملها حديث رسول الله ﷺ فى قوله: «كلكم راع.. وكلكم مسئول عن رعيته».. فصاحب الولاية العامة.. والزوج فى أسرته.. والزوجة فى أهل زوجها.. والعامل فى مال مخدومه أو سيده: مسئول عن رعيته. و«الشورى» هى الطريق الذى يكشف جوانب هذه المسئولية ويحدد الطريق السوى لأدائها.

* * *

فى مجال المال:

وفى مجال المال يوضح:

إن المال قوام الحياة فى الأمة كلها.. وفى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾

(النساء: ٥)

ما يقدم الدليل على وجوب الحجر على أموال السفهاء ـ وهم الذين ينفقون المال فى محرم ـ بسبب أن هذه الأموال وإن كانت ملكا خاصا للسفهاء، لكنها «العماد» فى حياة الأمة كلها:

﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾

كما يوضح أن الملكية الخاصة للمال هى فى واقع أمرها: ملكية استخلاف وتفويض من الله جلت قدرته. فإذ يقول الله سبحانه:

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد: ٧)

ويأمر المالكين للمال بالإنفاق منه فى سبيل المصلحة العامة فى الأمة فإنما يأمرهم بأمر فيما يملكه هو أصلا. فليسوا هم المالكين على سبيل الحقيقة. وإنما يدهم عليه يد الأمناء والوكلاء. وعليهم أن ينفذوا فيه ما يوصى الموكل أو المفوض.

وشأن المال فى الاستخلاف كشأن الحكم والجاه فيه.. فكلاهما مستخلف فيه من الله عندما يقول:

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾

(الأنعام: ١٣٣)

فالولاية العامة فى الحكم هى ولاية استخلاف يجب على من يتولاها: أن يطيع الله فيما أمر به، أو نهى عنه.

وعلى أساس أن الملكية الخاصة للمال هى ملكية استخلاف من الله جل شأنه: كانت منفعة المال ـ رغم ملكيته الخاصة ـ منفعة عامة يتمتع بمنفعته من يملك ومن لا يملك على السواء. من يكون مالكا من الأحرار، ومن لا

يجوز له أن يملك المال كالأرقاء فملك الرقيق يدخل ملك سيده، ولا يستقل به.

فما جاء فى قوله تعالى فى سورة النمل الآية (٧١):

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾

(وهم الملاك الأثرياء)

﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾

(من الأرقاء)

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾

(أى هم فى منفعته سواء. لأنهم لا يستوون فى صلاحية الملك).. يسوى بين الأثرياء الأحرار المالكين للمال.. وأرقائهم، فى الانتفاع بالمال. فما يأخذه الرقيق من مال سيده، نفقة عليه، ليس فى واقع الأمر من نصيب سيده كما يظن وإنما هو حقه فى الانتفاع بالمال الذى هو تحت يد سيده، عن طريق الاستخلاف عليه.

والإسلام بنظرته إلى المال:

* فى أن ملكيته ملكية استخلاف.

* وفى أن ملكيته الخاصة، تقترن بمنفعته العامة.

يبرز اهتمام الإسلام بالمال: فى إنمائه.. وفى استخدامه وإنفاقه. فهو أمر مرغوب فى تحصيله والسعى إليه. وعلى الأقل ليس أمرا يهرب منه المؤمن بالله. إذ طالما أباح للولاة أو للمؤمنين ككل: الحجر على السفيه بينهم لأن ماله من مال هو عماد الأمة، لا يكون عندئذ أمرا غير مرغوب فيه. وفى الوقت ذاته استخدامه أو إنفاقه مشروط بالأوضاع التى يحددها القرآن الكريم. وفى مقدمتها:

وضع المنفعة العامة لأصحاب الحاجة ومصالح الأمة.

ووضع عدم أكله بالباطل، فى أية صورة من صور الأكل بالباطل.

ووضع تجنب الربا فى إنمائه، واستغلال حاجة الضعيف إلى المال.

وبهذه النظرة إلى المال يتفادى المجتمع المؤمن بالله: الطغيان بالمال عن طريق الحرية فى إنمائه وإنفاقه على نحو ما يوحى النظام الرأسمالى، كما يتفادى التواكل فى الإنماء، والتسيب فى الإنفاق، على نحو ما يدعو النظام الماركسى.

* * *

فى مجال العمل فى سبيل الرزق:

يجعل القرآن العمل فى سبيل الرزق مساويا لأداء عبادة الصلاة يوم الجمعة فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(الجمعة: ٩، ١٠)

فيأمر بترك العمل المتمثل في التجارة أو في غيرها عندما يحين وقت أداء الجمعة بالأذان لها. فإن أديت يأمر بالانصراف إلى السعي في سبيل الرزق، نحو مباشرة العمل، ولكن على أن يكون على ذكر من أوامر الله ونواهيه فيما يحل من طريق للسعي، وفيما يحرم من طريق آخر له.

وفي هاتين الآيتين لا يقل أثر السعي في سبيل الرزق في حياة الإنسان، عن أثر أداء الصلاة يوم الجمعة في حياته. فإذا كان أثر صلاة الجمعة في نفس مصليها: الترابط بين المؤمنين على أساس من هداية الله. فأثر السعي في سبيل الرزق: الاعتماد على الله، والاستقلال عن الآخرين في سد حاجة الذات.

والإنسان في حياته في حاجة إلى التعاون والترابط مع الآخرين، كما أنه في حاجة إلى الاستقلال والاعتماد على الذات، بعد الله. وليس هناك تنافر بين الجانبين من حاجة الإنسان. إذ الترابط قوة.. والاستقلال كذلك قوة أخرى. فطالما الإنسان غير مستقل في توفير حاجته المعيشية فهو ضعيف بسبب هذه الحاجة إلى الآخرين. وطالما هو غير مترابط مع الآخرين على أساس إنساني فهو ضعيف بعزلته ووحدته بين الناس.

والقرآن في هاتين الآيتين بتقسيم الوقت بين أداء الصلاة.. وأداء السعي في سبيل الرزق، إذا كان يريد أن يحول بين أن يستغرق المؤمن في شئون الدنيا بأن تلهيه التجارة والعمل في سبيل الرزق على أي نحو، كما يصرح في قوله:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

(الجمعة: ١١)

فإنه في الوقت نفسه لا يقلل من قيمة العمل في سبيل الرزق، فضلا عن أن ينفر منه.

ومجالات العمل على أرض الله، والسعي في سبيل الرزق فيها: لا يحدها إذن إلا الاستغراق في متاهاتها بحيث ينسى العامل فيها ما له في حياة الإنسان، وبحيث ينصرف كلية إلى العمل، تاركا ما يجب عليه نحو ربه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

وأرض الله واحدة. والعمل عليها متساو. ولا يفصل بين نوع وآخر منه إلا ما يحمل على نسيان الله. وهو الاستغراق. أو الافتتان بالعمل. والدنيا مطلوبة. والعمل فيها مطلوب. ولكن الغلو في التوفر من أجلها، بحيث يطغى على القيم الإنسانية العليا في علاقات الناس بعضهم ببعض: هو المبغوض أو هو الحرام فيها.

ومن هنا صلاحية المؤمنين للعمل في أي جانب من جوانب أرض الله: قائمة. وليس فيها جانب نجس بالنسبة للبعض.. وجانب آخر مبارك فيه ومقدس بالنسبة للبعض الآخر. ومعنى ذلك أن أرض الله والعمل فيها لا يقسم إلى جوانب، ويوزع بحسب خيريته

وبشريته على طوائف خاصة.. معنى ذلك أن ما يسمى بالمادة: ليس شرا، وأن المتع المادية ليست محرمة على طائفة بعينها، وهي الطائفة التي تحمل لافتات الألوهية أو الكنسية.

ومن تقييم العمل في نظر الإسلام على النحو المشروع هنا يصعب على أي مسلم أن يتصور طوائف متعددة في الأمة الإسلامية، على أساس نوع العمل ونوع مجاله واختلاف كل نوع في قيمته عن الآخر. وبناء عليه ينبغي أن لا تكون هناك حكومة واحدة وسلطة واحدة. بل يجب أن تقتسم مجالات العمل في الأمة: حكومتان، حسب ما هو مقدس وغير مقدس: في المجال.. وفي العمل، كما هو قائم بين دولة الكنيسة، والسلطة السياسية في المجتمع المسيحي.

***

في مجال الأسرة والمجتمع

يذكر الله: أن غاية الزوجية في خلقه: الأنعام، والنبات: هي «التكثير» وزيادة الكمية لمصلحة الإنسان أخيرا، فيقول:

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾

(الشورى: ١١)

أي خلق لكم من أنفسكم ومن الأنعام أصنافا من الذكور والإناث يكثركم بجعلكم وجعلها أزواجا.. كما يقول:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾

(طه: ٥٣، ٥٤)

ولكنه يذكر في غاية الزوجية في خلق الإنسان: أمرين:

* زيادة العدد، وكثرة الكمية. عندما يقول القرآن الكريم:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

(النحل: ٧٢)

* والأمر الثاني: أمر نوعي يتحقق في السكنى.. والمودة.. والرحمة، فيما يذكره في قول الله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

فزيادة الكم والتكثير في العدد هدف الزوجية المشترك في خلق الأنواع الثلاثة: الأنعام.. النبات.. والإنسان.. ولكن الإنسان يتميز بهدف آخر نوعي، وراء الكم والعدد وهو تحقيق الاطمئنان والسكنى.. والمودة.. والرحمة.. وهي من القوى للضعيف

وتحقيق هذه الغاية الثلاثية يكون بتكوين الأسرة، فالمجتمع والأسرة هى النواة الأولى، والمجتمع هو المركب من الأسر. فإذا لم تقم الأسرة، أى إذا لم يتحقق الهدف النوعى للزوجية فى خلق الإنسان من: السكنى.. والمودة.. والرحمة، فى الأسرة، وظلت عند العدد وحده.. عند النمو والكثرة العددية فقط: يكون الإنسان قد أخفق فى تحقيق الميزة التى يتميز بها عن الأنعام. والنبات. كغاية ثانية للزوجية بين الذكورة والأنوثة فى خلقه.

والشىء الذى يعوق تحقيق هذه الميزة فى الأسرة ثم فى المجتمع هو «الفردية» أو بقاء الإنانية فى الأفراد. إذ الأنانية تحافظ على استقلال الذات فلا تمكنها من أن تنعطف على ذات أخرى فى الأسرة أو فى المجتمع. والسكنى والاطمئنان بين فرد وآخر: نتيجة انعطاف أحدهما على الآخر. وكذلك: المودة.. والرحمة.

***

فى مجال العبادات

والعبادات من صلاة، وصوم، وزكاة، التى فرضها الإسلام إن كان أثرها المباشر: صقل الفرد، وتهذيبه، فهى صاحبة الأثر القوى فى تعاطف المؤمنين، وفى تراحمهم. وفى توادهم، وفى مؤاخاة بعضهم لبعض. فالصلاة جماعة خمس مرات فى اليوم كفيلة بأن تؤسس هذا التعاطف وتزيد فى مستواه. والصيام كفيل بالإحساس بمعنى الحرمان عند الآخرين، ويدفع من أحس من الأثرياء بحرمان غيره إلى الترابط معه على أساس التواد والتعاون. والزكاة هى تعبير مجسد عن عد[م] طغيان المال عند المزكى، وعن معنى المشارك[ة] لديه فى سد حاجة صاحب الحاجة.

وهكذا العبادات فى الإسلام ليست صياغ[ة] لعلاقة المؤمن بربه، فى عزلة عن المشاركة فى روابط الأسرة والمجتمع، وفى بعد عن تحقيق ميزة الإنسان لزوجيته بين الذكورة والأنوثة فى خلقه.

والعبادات إذن إن كانت تدرب الأفراد المؤمنين على السلوك الإنسانى المطلوب وعلى العمل الصالح، فهدف السلوك الإنسانى والعمل الصالح للمؤمن هو تحقيق الترابط بين المؤمنين على أساس من هداية الله كما يطالب القرآن الكريم فى قول الله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وليس على أساس آخر بعيد عن الإنسانية فى مستواها الفاضل.

ومجال العبادات فى الإسلام ليس مجالا منعزلا عن المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فى حياة الإنسان. وإنما هو مجال الإعداد للصلاحيات فى المجالات العديدة الأخرى التى يزاولها الإنسان: فى سلوكه، وفى أسرته، وفى مجتمعه.

***

الإسلام فى جميع جوانب الحياة للإنسان

وبما عرضناه هنا من مبادئ الإسلام، كما تذكرها آيات القرآن الكريم: نجد أن الإسلام نظام شامل لحياة الإنسان ومترابط فى مبادئه. وفى تطبيقه لا يقبل التجزئة بحال، وقصر التطبيق على جانب مثلا فى حياة الإنسان أو على جانبين فأكثر من جوانب هذه الحياة، دون باقى الجوانب الأخرى، معناه: إفساح مكان لهوى الإنسان بجانب ما يطبق من مبادئ القرآن. وشتان بين هوى الإنسان.. ووحى الله.

إن إخلاء مكان لهوى الإنسان فى حكم الإنسان المسلم فى مجتمع إسلامي، بجانب تطبيق مجموعة من مبادئ القرآن فى جانب أو فى عدة جوانب من حياة الإنسان، هو كفر ببعض الكتاب، وهو القرآن. فيما أفسح فيه المجال للهوى.. وإيمان ببعضه الآخر مقيما يطبق فيه القرآن. فلو قصر تطبيق القرآن على أداء العبادات، أو كما يقال على حياة المسجد، وأبعد عن مجالات الشئون السياسية.. والاقتصادية.. والاجتماعية، مثلا كان إبعاد القرآن عن مجالات الشئون السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية: كفر بمبادئ القرآن فى هذه المجالات. وكان حكم الإنسان المسلم فى المجتمع الإسلامى يخضع للهوى أو للشيطان فى المجالات التى يبعد فيها القرآن. وهى هنا المجالات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

(المائدة: ٤٩)

(أى فى جميع مجالات الحياة الإنسانية)

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(المائدة: ٤٩)

(فى جانب أو فى أكثر منها)

إلى أن يقول:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾

(وهو حكم الأهواء).

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

(وليس هناك حكم أفضل ولا أحسن من الحكم بما أنزل الله)

وارتباط هوى الإنسان بالشيطان هو ارتباط وثيق. فحكم الهوى هو حكم الشيطان. وحكم الشيطان هو اتباع الإنسان سبيل الهوى. والجامع بين الأمرين هو تسلط الرغبات والشهوات. يقول الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

(أى هدايتنا)

فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(الأعراف: ١٧٥ : ١٧٦)

ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه»

فاتباعه هواه جاء على إثر قبوله غواية الشيطان. وغواية الشيطان إذا أبعد القرآن فى حياة الإنسان.

والله الموفق وهو المستعان

تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة (٥)

سوابق التقنين فى بعض البلدان الإسلامية والعربية



للأستاذ الدكتور/ إبراهيم البيومى غانم

التقنين العراقى

قبل أن يصدر التقنين المدنى العراقى، كان العراق يطبق مجلة الأحكام العدلية «العثمانية» وعاشت البلاد العراقية قروناً تطبق الفقه الحنفى فى معاملاتها المدنية، وكان العراق هو مهد هذا الفقه، ففيه نشأ، وبين ربوعه ترعرع وازدهر، وعاش أبو حنيفة النعمان - رضى الله عنه وأرضاه فى الجنة - فى الكوفة ما قدر الله له أن يعيش وهو يضع كل يوم لبنة فى هذا البناء الضخم المشمخر(١)، فما طوى حياته فى الدنيا حتى أتم هذا البناء، وتركه للعالم الإسلامى صرحاً منيعاً تتحصن فيه الأجيال، وتراثاً غالياً يفاخر به الأبناء والأحفاد.

وقد أسهم العلامة السنهورى إسهاماً كبيراً فى وضع التقنين المدنى العراقى وفق مرجعية الفقه الإسلامى؛ إذ كان عضواً فى اللجنة التى تشكلت لهذا الغرض، وعهدت إليه بإعداد لائحة القانون لتكون أساساً لبحث اللجنة ذاتها وثارت آنذاك بالفقه الإسلامى عامة، والحنفى الذى تأسست عليه مجلة الأحكام العدلية خاصة ولكن السنهورى باشا شرح حقيقة ما قامت به اللجنة، فأوضح أن مشروع التقنين الذى وضعته ليس فيه جديد إلا الألفاظ؛ ذلك لأن القانون المدنى العراقى كان موجوداً «مجلة الأحكام» وإن كانت تنقصه الصياغة التى تتمشى مع العصر، وينقصه الترتيب والتنسيق والتبويب، وقسط من التحوير والتعديل يقتضيه تطور المدنية؛ فإذا بدا القانون المدنى العراقى، بعد هذا الصقل فى ثوب جديد، فهى جدة تخفى تحتها تقاليد العراق الفقهية وتراثها العظيم، سالمة مصونة من كل عبث وتشويه، على حد تعبير السنهورى نفسه(٢).

لم يكن السنهورى وحده الذى يرى صلاحية الشريعة كى تكون مصدراً للتقنينات الحديثة، بل شاركه الإيمان بهذا الرأى بعض كبار رجال القانون من المسيحيين فى مصر مهم مثلاً: الدكتور شفيق شحاتة، الذى كان يرى «أن الشريعة الإسلامية بحالتها الموجودة من غير تجديد فيها صالحة لأن تكون مصدراً للتقنين»(٣). كما شاركه أستاذه القانونى الفرنسى الشهير إدوارد لامبير الذى أكد على أن: «الشريعة الإسلامية هى مفتاح تطوير النظم القانونية التشريعية فى العالم العربى والإسلامى، وأن إغفالها خطيئة فى علم القانون» ولم يكتف السنهورى باستحضار بعض شهادات لفقهاء منصفين من علماء الغرب يؤكدون فيها على صلاحية الشريعة للتطبيق فى الواقع المعاصر، ومنهم الفقيه الألمانى كوهلر، والإيطالى دلفيشيو، والأمريكى ويجمهور بل وجدناه يقوم هو نفسه بإثبات صلاحيتها وجدراتها، وبرهن على ذلك بأربعة أمثلة - كنماذج فقط - وهى نظرية التعسف فى استعمال الحق، ونظرية الظروف الطارئة، ونظرية تحمل التبعة، ومسئولية عدم التمييز وكلها من أحدث نظريات القانون فى الفقه الغربى الحديث ولكل نظرية منها أساس فى الشريعة الإسلامية، لا يحتاج إلا للصياغة والبناء، ليقوم على أركان قوية، ويسامت الفقه الحديث(٤).

كان السنهورى يرى أن «من السفه أن نبدد ثروة «فقهية» تركها لنا الأجداد، ونعيش عالة على غيرنا نتكفف»(٥) وكان أمام السنهورى عند وضع التقنين المدنى العراقى نموذجان من بلدان الشرق الإسلامى: تركيا الكمالية، ومصر

(١) الشمخر: اشتد ارتفاعه فهو مشمخر.

(٢) انظر: السنهورى، من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدنى العراقى، مرجع سابق، ص٣، ص٤.

(٣) انظر: شفيق شحاتة، الاتجاهات التشريعية فى قوانين البلاد العربية، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٠، ص٥، وص٦.

(٤) انظر: السنهورى، المرجع السابق، ص٤٢ - ٥٧، حيث يؤصل للنظريات الأربع من مصادر الفقه الإسلامى.

(٥) انظر: السنهورى، من مجلة الأحكام إلى القانون المدنى العراقى، مرجع سابق، ص٩.

ولكنه وجد أن مصر قد أخذت قوانينها المدنية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر من التقنين الفرنسي، ولم تأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية - فيما عدا الأحوال الشخصية - إلا النذر اليسير ووجد أن تركيا الكمالية قد اختصرت الطريق، وأخذت التقنين السويسري برمته، ولم تشأ أن تعدل فيه شيئاً، وبذلك هجرت الشريعة الإسلامية وإزاء هذا الوضع، لم يشأ السنهوري أن يحتذي بأي منهما في وضع التقنين العراقي المدني، وفضل أن يقوم هذا التقنين على عصرية الصياغة والتبويب، والاستفادة دون تحفظ من التقنيات الغربية من ناحية الشكل، وأن تكون الشريعة الإسلامية هي الأساس الموضوعي له من ناحية الموضوع وبناء على هذا صدر قرار وزارة العدل العراقية بتشكيل لجنة من رجال القانون لوضع لائحة للتقنين المدني الجديد، ووافقت اللجنة على اعتبار الشريعة الإسلامية أساساً لهذا التقنين[٦].

شرح السنهوري منهجية التقنين العراقي في الأخذ من الشريعة الإسلامية ومن المفيد أن نعيد إثبات ما قاله هنا لأهميته من الناحيتين النظرية والتطبيقية في عملية التقنين.

أكد السنهوري على أن الشريعة الإسلامية هي أساس التقنين العراقي وقال: «والخطة المثلى في نظرنا هي أن يعمد واضع التقنين الجديد إلى التقنيات الغربية، فيختار أحدثها وأكثرها إتقاناً، ويصوغ كل ذلك نموذجاً خير تشريع يراه، دون نظر إلى بلد معين، أو إلى تقاليد معينة ثم يقرب هذا النموذج من أحكام الشريعة الإسلامية في مذاهبها المختلفة، وفي مختلف الأقوال من كل مذهب وهو لابد مستطيع أن يخرج أكثر أحكام نموذجه على قول أو آخر في مذهب من مذاهب الفقه الإسلامي وبذلك يظفر لأكثر الأحكام التي اختارها بمستند في الشريعة الإسلامية يجعله هو الأصل للحكم الذي اختاره أما بقية الأحكام التي تعدم مستنداً صريحاً في نصوص الشريعة الإسلامية - وهي لا شك قليلة - فإذا لم تتفق مع حالة العراق وظروفها وتقاليدها القضائية، عدل عنها إلى أحكام أخرى مناسبة للبيئة، وإلا فعليه أن يتأول لها، وينظر في تخريجها، حتى توافق قولاً في مذهب ولا يعترض على هذا الرأي بأن الأخذ به لا يختلف كثيراً على الأخذ بأحكام التقنيات الغربية، فما دمنا سننتهي إلى الأخذ بالنموذج الذي اخترناه من أحدث التقنيات الغربية، فلنأخذ به من الآن، ولا حاجة للرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، فمثل هذا الاعتراض لا وجه له؛ إذا هناك فرق جوهري بين أن نجعل مصدر الأحكام الصالحة التقنيات الغربية، وبين أن نجعل مصدرها الشريعة الإسلامية.

ففي الحالة الأولى نكون قد قطعنا كل صلة بالقديم، وبدأنا حياة قانونية جديدة، نكون فيها عالة على فقه الغرب وجهوده، نأخذ منه ولا نعطيه.

أما في الحالة الثانية فنكون قد احتفظنا بصلة الماضي، وجعلنا من هذه الصلة أساساً يقوم عليه

(٦) المرجع السابق، ص٥٠.

المستقبل، واحتفظنا باستقلالنا القانوني، فلا نكون عالة على فقه الغرب، وفي الوقت ذاته نكون قد استفدنا من هذا الفقه إلى أبعد مدى؛ إذ تصبح الأحكام القانونية في مستوى الأحكام الغربية وأرقاها وإذا كنا تركنا الغير يأخذ بيدنا في حلبة السباق إلى حيث يوجد السابقون؛ فإنا بعد أن ندركهم يجب أن نجري على قدمينا، ونكون معهم جنباً إلى جنب في هذا الميدان، بجعل الشريعة الإسلامية عمدتنا في تفسير النصوص، ما دمنا قد جعلنا هذه الشريعة هي مصدر الأحكام التي اخترناها، وبذلك نقيم للشريعة الإسلامية ركناً جديداً من تطبيق القضاء واجتهاد الفقهاء، فتعود شريعة متطورة، تقوم بقسطها من العمل في تدعيم أركان القانون المقارن في عالم الفقه القانوني»[٧].

كان العراق - في ضوء ما سبق - أول بلد عربي اعتز بتراث أجداده، وحرص عليه من الضياع، ولم يشأ وهو يراجع قوانينه المدنية، في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، أن يفرط في هذا الذخر العظيم، وكان السنهوري باشا يرى أنه إذا صحت دعوى العراق بصلاحية الشريعة للتطبيق المعاصر كنظام قانوني، فليس أمام سائر الأقطار العربية إلا أن تقتفي أثر العراق[٨] وكانت دعوته تلك تعبيراً عن إيمانه العميق بأن الاستقلال التشريعي جوهر الاستقلال السياسي وأساسه، وأن أي نقص في هذا الاستقلال التشريعي يعني نقصاً في الاستقلال الوطني، وتكريساً للتبعية[٩].

واقترح السنهوري منهجية متعددة الأبعاد في عملية التقنين وطبقها في التقنين العراقي بدأ فيها بالنص «النموذج» الذي اختاره من بين نصوص التقنيات الغربية الحديثة، مع التصرف في النص بما يراه ملائماً للتطبيق، وبما يحقق أعلى درجة من الوضوح ثم أردفه بالنصوص الواردة بشأنه في «مجلة الأحكام العدلية»، ثم بما ورد في مرشد الحيران لقدري باشا وبعد ذلك قام بتوضيح أسباب اختياره للنص النموذج برؤية مقارنة[١٠] وعلى هذا صدر القانون المدني العراقي برقم ٤٠ لسنة ١٩٥١م ونشر في الوقائع العراقية (عدد ٣٠١٥ بتاريخ ٨/ ٩/ ١٩٥١)، وصار قيد التنفيذ بعد عامين من صدوره أي في ٨/ ٩/ ١٩٥٣، طبقاً لنص المادة ١٣٨٢ منه، ومما يجدر ذكره هنا أن وزارة العدل العراقية شكلت بتاريخ ٧ من فبراير/ شباط ١٩٥٩ لجنة لوضع لائحة الأحوال الشخصية، وقد استمدت مبادئها مما هو متفق عليه من أحكام الشريعة، وما هو مقبول من قوانين البلاد الإسلامية، وما استقر عليه القضاء الشرعي في العراق، واستطاعت اللجنة صياغة مشروع قانون للأحوال الشخصية

(٧) المرجع السابق، ص٥٧، وص٥٨؛ وقد أثبت السنهوري هذا المعنى في الكلمة الافتتاحية لكتابه «الوسيط» جزء الالتزامات قال «هذه هي الشريعة الإسلامية، لو وطئت أكنافها، وعبدت سبلها، لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال في فقهنا وفي قضائنا وفي تشريعنا، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد، فنضيء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية في القانون».

(٨) المرجع نفسه، ص٦٢.

(٩) انظر حيث يؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه، نجم الدين قادر كريم الزنكي: عبدالرزاق السنهوري ومشروعه في التقنين، دراسة وتقويم، مجلة إسلامية المعرفة (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) العدد ٣٧.

(١٠) انظر النماذج التي أوردها في بحثه القيم: من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدني العراقي، مرجع سابق، ص٦٦ - ٦٩.

والذى صدر بالقانون رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ واشتمل على أهم أبواب الفقه فى الأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية الجامعة لمسائل الزواج والطلاق والولادة والنسب والحضانة والنفقة والوصية والميراث وأخذ هذا القانون أحكامه من جميع المذاهب الإسلامية وجرى تطبيق أحكام القانون دون النظر إلى مذهب العراقى المسلم «سنيا كان أم شيعيا»، حيث إن القانون المذكور يشكل حالة وسطية وشاملة يتم تطبيقها على عموم المسلمين العراقيين، والأجانب المسلمين فى العراق(١١).

محاولات مجمع البحوث الإسلامية

فى سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٥م أوصى المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية فى مصر السلطات ذات الاختصاص بالعمل على تنقية التشريعات والنظم من كل ما يخالف حكم الإسلام، وأن ترد التشريعات إلى الكتاب والسنة، مستعينة بكل مستحدث صالح من فكر أو حكم لا يعارض أصلا من أصول الدين ثم أوصى المؤتمر الرابع للمجمع فى سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧م بتأليف لجنة من رجال الفقه والقانون لتضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسئولين فى الدول الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانينها(١٢).

وقد ضمت اللجان التى قامت بإعداد مشروعات التقنين عددا من الأساتذة والمشايخ منهم: فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علوان سامون، السيد الأستاذ المستشار محمد عبدالمنعم ناصف، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد البحيرى، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبدالرحيم الكشكى، فضيلة الأستاذ المستشار أحمد سعيد ثابت، فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالتواب عبدالتواب أباظة، فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الشاذلى، السيد الأستاذ المستشار محمد محمود علام، فضيلة الأستاذ الشيخ سليمان عطا(١٣).

وفى سنة ١٩٧٢م صدرت الطبعة التمهيدية لمشروع تقنين مذهب الإمام مالك عن تلك اللجان، ثم صدرت الطبعة التمهيدية لمشروع تقنين مذهب الإمام أحمد فى نفس العام والطبعة التمهيدية لمشروع تقنين مذهب الإمام أبى حنيفة.

تجربة التقنين فى اليمن

تكونت فى اليمن هيئة علمية لتقنين أحكام الشريعة الإسلامية، وأسندت إليها مهمة القيام بأعمال التقنين بالقانون رقم (٧٤) لعام ١٩٧٦م وأنجزت هذه اللجنة العديد من القوانين، سواء من خلال عمل الهيئة العلمية لتقنين أحكام الشريعة الإسلامية، أو من مجلس الشعب التأسيسى، أو من خلال مجلس الشورى أو مجلس النواب فى ظل جمهورية اليمن بعد توحيد شطريها الجنوبى والشمالى سنة ١٩٩٠ وقد نصت المادة الثالثة من دستور الوحدة على أن «الشريعة الإسلامية مصدر جميع التشريعات»، وتشكلت لجنة خاصة بالمجلس باسم «لجنة تقنين الشريعة الإسلامية»، ومهمتها «تقديم الآراء الشرعية التى يطلبها المجلس بناء على طلب موقع من عشرة أعضاء على الأقل، أو التى تطلبها هيئة الرئاسة»، أو احدى لجان المجلس بشأن أى موضوع معروض على أى منها، أما القوانين التى أنجزتها جمهورية اليمن فى مجال تقنين أحكام الشريعة الإسلامية فهى:

١- قانون المواريث.
٢- القانون التجارى.
٣- قانون الوصية.
٤- قانون الهبة.
٥- قانون الوقف
٦- قانون الإيجارات.
٧- قانون المرافعات الكتاب الأول والثانى.
٨- قانون العقوبات.
٩- قانون المراهق(١٤).
١٠- قانون التنفيذ.
١١- قانون الإجراءات الجزائية.
١٢- قانون التحكيم.

ولعل أهم ما تم انجازه فى مجال تقنين أحكام الشريعة الإسلامية فى اليمن هو القانون المدنى، والذى استغرق العمل فيه ما يقرب من خمسة وعشرين عاما، وقد تم تعديله عدة مرات بهدف مواكبته لكافة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والاجتهادات الفقهية المعاصرة. وقد صدر بالفعل قانون الإثبات الشرعى رقم ٩٠ لسنة ١٩٧٩م، وصدر الكتاب الأول، والكتاب الثانى من القانون المدنى رقم ١٠ لسنة ٩٧٩١، ورقم ١١ لسنة ١٩٧٩م ثم صدر القنون رقم ٤٢ لسنة ١٩٨١م الخاص بالمرافعات، ومع إعلان الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠ طرح مشروع قانون الجرائم والعقوبات الشرعى، الذى احتوى على مجموعة كبيرة من النصوص الشرعية، وهو المشروع الذى تم إقراره لاحقا سنة ١٩٩٥ بعد الحرب بين شطرى اليمن.

الخاتمة

لم تصل جهود تقنين الشريعة إلى غايتها حتى اليوم وغايتها لا تتمثل فقط فى اكتمل «عملية» التقنين، وإنما فى وضع هذه التقنينات موضع التطبيق، واللحظة التى تتحقق فيها هذه الغاية هى ذاتها لحظة اكتمال الاستقلال الوطنى واسترداد الهوية وتحرير «السيادة التشريعية» من أسر هيمنة القوانين الأجنبية التى زحفت على بلادنا منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان.

لقد بدأنا هذا الكتاب بالإشارة إلى مشروع تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب المصرى سنة ١٩٧٨ وكان هذا المشروع استجابة رسمية من الدولة لنص المادة الثانية من الدستور التى تقول إن «مبادئ الشريعة

---

(١١) هادى محمود، مرجع سابق، منشور على الإنترنت
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=33143

(١٢) الإصلاح التشريعى فى مصر، مرجع سابق.

(١٣) مشروع تقنين الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة، اللجنة التحضيرية لتقنين الشريعة الإسلامية، مصر، مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م.

(١٤) المقصود بالمراهق اماكن تجمع مياه السيول والأمطار وقد صدر هذا القانون برقم ١٦ لسنة ١٩٧٨ بشأن المراهق والمرافق العامة والمقصود بكلمة «المرافق العامة» الجبال والمرتفعات والمنحدرات التى تتلقى مياه الأمطار وتصرفها، ومجمعات مياه السيول، وكلها فى حكم المرافق العامة.

الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع ،ولكن هذا المشروع لم ير النور رغم اكتمال أعماله - إلا قليلا - ودخل في أدراج مجلس الشعب مع بداية عهد الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك ، ولا يزال حبيس تلك الأدراج إلى اليوم.

وإذا تأملنا قضية تقنين الشريعة من زاوية العلاقة بين إرادة المجتمع وسياسات السلطة ستجد أولا أن «الدولة المصرية» قد أخذت الموقف الصحيح على مستوى النصوص الدستورية التي أكدت على سمو الشريعة الإسلامية على غيرها من مصادر التشريع ولكن هذا الموقف الصحيح نظرا أجهضته سياسات السلطة المستبدة طوال عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك ، وبسبب تلك السياسات الاستبدادية اتسعت الفجوة بين إرادة المجتمع ورغبته في النزول عند أحكام الشريعة الإسلامية وبين الموقف الرسمي للدولة وسلطتها الرسمية .

ومنذ شرع مجلس الشعب سنة ١٩٧٨ في تنفيذ عملية تقنين الشريعة ، لم يتوقف الجدل الفكري والفقهي والقانوني إلى منتصف الثمانينات من القرن الماضي وشارك عدد كبير من المفكرين العلمانيين ، ومن العلماء الأزهريين في ذلك الجدل ورغم تباين وجهات نظر هؤلاء وأولئك إلا أنهم توافقوا جميعا على أهمية مشروع تقنين الشريعة : وأن إنجاز هذا المشروع ووضعه موضع التطبيق من شأنه أن يوثق علاقة الدولة المصرية بالمجتمع ، وفي هذه الحالة يكون الشعب المصري قد استكمل مسيرته الطويلة التي بدأها قبل أكثر من قرن من أجل استكمال استقلاله الوطني والحضاري.

لسنا بحاجة إلى استدعاء أقوال علماء الأزهر الشريف آنذاك التي أكدوا فيها على وجوب تقنين الشريعة ، وأهمية ذلك بالنسبة لقضية الاستقلال الوطني والحضاري للشعب المصري ولكن قد يكون مفيدا أن نذكر القارئ الكريم ببعض ما قاله عدد من كبار المثقفين العلمانيين في الترحيب بمشروع التقنين والثناء عليه والتأكيد على أهميته من منظور الاستقلال الوطني والحضاري بالمعنى الذي أشرنا إليه.

كتب الدكتور فؤاد زكريا في الأهرام بتاريخ ٢٩ / ٧ / ١٩٨٥ معبرا عن اعترافه بشعبية مطلب التقنين فقال : «إن هناك بالفعل أعدادا غفيرة من الناس تؤمن بصدق هذه الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وتطالب بها بحماسة وإخلاص» .

وكتب يوسف إدريس في الأهرام أيضا بتاريخ ١٥ / ٨ / ١٩٨٥ فقال : «إن أحدا لا ينادي أبدا بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية ، إنه يكون مجنونا لو فعل ، فالشرائع السماوية ، وعلى رأسها الإسلام فوق أنها أمر الله سبحانه لم تأت إلا لتقيم العدل بين البشر» ، وكتب الأستاذ السيد ياسين أيضا في الأهرام بتاريخ ١٥ / ٧ / ١٩٨٥ ، فقال «نحن في مجال الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية بصدد صيحة تدعو للأصالة الحضارية التي يراد لها أن تعتمد على تراثنا ، وهذه الدعوة في حد ذاتها يمكن أن تكون مناسبة لمراجعة عديد من ممارساتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية بشرط أن يتم ذلك من خلال الحوار» .

وكتب الأستاذ السيد ياسين مرة أخرى في الأهرام بتاريخ ١ / ٨ / ١٩٨٥ مؤكدا على وجهة نظره السابقة فقال : «إننا نعتبر الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية دعوة للأصالة الحضارية تحتاج لكي تسير في الطريق الصحيح إلى أن نقوم جميعا مهما كانت اتجاهاتنا السياسية ببعث الاجتهاد والإبداع الفكري في مجال تراثنا الإسلامي ، وإننا نحن جمهرة المثقفين والمفكرين والكتاب والباحثين العلمانيين قد انغمسنا في اقتباس الفكر السياسي والاجتماعي الأوروبي نقلا وترجمة ، وإن الأجيال الأولى بالاتجاه الذي عمد إلى التهوين من قيمة التراث الوطني والديني ، وإننا نشهد الآن ثورة نقدية عنيفة ضد هذا الاتجاه الأوروبي المتعالي» «انتهى كلام السيد ياسين» .

تلك المواقف التي أوردنا نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر ،أكدتها نتائج استطلاع للرأي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية سنة ١٩٨٥ حول «تطبيق أحكام الشريعة على جرائم الحدود» ، حيث كشفت نتائجه آنذاك - عن أن نسبة الموافقة على تطبيق أحكام الشريعة على جرائم الحدود بلغت ٩٨٪ بين المسلمين ، و٦٣٪ بين المسيحيين وأن ٣١٪ من المسلمين يوافقون على التطبيق الفوري لتلك الحدود بينما بلغت هذه النسبة ٣٢٪ لدى المسيحيين أما نسبة الذين قالوا بالتطبيق المتدرج فبلغت ٦٩٪ عند المسلمين و٦٨٪ عند المسيحيين.

وثمة نتائج أخرى كثيرة كشف عنها ذلك الاستطلاع. ورغم أنها باتت قديمة وتحتاج إلى تحديث في سياق الظروف الراهنة التي يمر بها المجتمع المصري إلاأنها تظل محتفظة بدلالتها الأساسية وهي رغبة الشعب المصري بجميع مكوناته في استكمال مسيرته الطويلة من أجل استرداد سيادته التشريعية والتحرر من التبعية للتشريعات والفلسفات القانونية الأجنبية.

ما أردت قوله هوباختصار أن إسهام الشريعة في تكوين هوية المجتمع المصري كبير جدا ، ولا سبيل إلى إنكاره أو طمس معالمه وأن الشريعة من حيث صلتها بهوية المجتمع هي في الوقت نفسه رمز من رموز السيادة الوطنية ، وهي أيضا حصن يحتمي به المجتمع من النزعات الاستبدادية في الداخل ، وكما يحتمي به من أطماع القوى الأجنبية القادمة من الخارج.

إن مسار استرداد سيادة الشريعة في التاريخ المصري الحديث والمعاصر هو نفس مسار حركة التحرر الوطني واسترداد الحقوق الذاتية من أسر الاستلاب الأجنبي.

وقد ناضل المصريون - مسلمون ومسيحيون جنبا إلى جنب - عشرات السنين من أجل هذا الاستقلال وحققوا انتصارات كبيرة في الطريق نحو هذا الهدف وقد فتحت ثورة يناير ٢٠١١ أمامهم آفاقا جديدة لمزيد من النضال والكفاح من أجل الوصول إلى أعلى مراحل الحرية والسيادة الوطنية في ظل سيادة الشريعة الإسلامية.

الوضع القانونى بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى «٨»

حول حركة التجديد فى التشريع الإسلامى فى مصر





للمستشار: طارق البشرى

من المعروف، أن السياسة الأوروبية تآزرت على عزل مصر عن الدولة العثمانية، كجزء من سياسة تقطيع أشلاء هذه الدولة، على مدى القرن التاسع عشر. وتحققت واحدة من علامات الطريق فى هذا المجال، بمعاهدة لندن فى عام ١٨٤٠. وتحققت علامة أخرى باحتلال الإنجليز مصر فى عام ١٨٨٢. ومن وقتها، عملت السياسة البريطانية بجهد صبور ودءوب على استكمال الجوانب لانفصال مصر عن دولة الخلافة وإذا كانت «المصرية السياسية» قد انتقضت تكافح الاستعمار البريطانى، فى ثورة عام ١٩١٩، فإن هذه «المصرية السياسية» فى بداية القرن العشرين، كانت تلقى، لا أقول تشجيعاً، ولكن أقول نوعاً من «السماح والإفساح من السياسية البريطانية من حيث كون هذه المصرية تحتوى عنصر انفصال عن دولة الخلافة وهى سياسة تبعها الإنجليزى من بعد فى السودان فصلا له عن مصر.

وكانت الحركة الوطنية المصرية فى بداية القرن، وحتى الحرب العالمية الأولى، تنزع إلى استبقاء على ما بقى من أواصر مع دولة الخلافة، كما تنزع إلى استبقاء ما بقى من المؤسسات التقليدية الاجتماعية والفكرية، بوصف أن ذلك كله من المثبتات لروح المقاومة وحركة المكافحة للوجود الإنجليزى. ومن هنا قامت الصيغة المحافظة للموقف الفكرى والاجتماعى الذى اصطبغت به الحركة الوطنية فى ذلك الوقت وروح الحذر والتوجس التى قامت لديها، تجاه دعاوى الإصلاح التى أطلقها دعاة العزلة المصرية، أو تلك الدعاوى التى ترسمت هياكلها الفكرية والاجتماعية، لا من مقتضيات النهوض بالمجتمع المقاوم، ولكن تقليدا وتشبها بأساليب التفكير ومعايير الاحتكام والشرعية ونماذج العيش الآتية من الغرب والتبس الإصلاح والمحافظة، والتبست العزلة والمقاومة وإن التدقيق فى مواقف كل من حزب الأمة والحزب الوطنى، ليشهد بصدق على ذلك.

فى إطار هذا التصور العام، ترد قصة قاضى القضاة، أو قاضى مصر، أو قاضى أفندى. سبقت الإشارة إلى أن القاضى كان كل سنة تقريبا يعين من دولة الخلافة، وهو يعين القضاة ثم استخلص محمد سعيد سلطة تعيين القضاة فلما جاء إسماعيل، سعى لأن يستخلص من دولة الخلافة جملة من الامتيازات التى تطلق سلطته فى حكم مصر، على ما هو معروف ومن ذلك، أنه لما انقضت مدة عبدالرحمن نافذ فى قضاء مصر، سعى الخديو لاستبقائه، وتم له ما أراد، وبقى الشيخ عبدالرحمن متوليا قضاء مصر، حتى توفى فى عهد الخديو توفيق فرغب الخديو فى أن تنتقل ولاية القضاء إلى ابن الشيخ المتوفى، عبدالرحمن نافذ، وأرسل كتبه فى ذلك إلى المابين الهمايونى، فبرز أمر السلطان بعدم صلاحية الابن لتولى المنصب، وبولاية الشيخ جمال الدين أفندى قضاء مصر وأذعن الخديو، وتولى جمال الدين القضاء.

ومن جهة أخرى، فمع ظهور لوائح تنظيم القضاء، كان قاضى مصر مع شيخ الجامع الأزهر ونخبة من العلماء المصريين يؤخذ رأيهم فى سن هذه اللوائح وإصدارها، ويشار إلى ذلك فى ديباجة اللائحة، أو ترد بذيلها توقيعاتهم كما كان «قاضى أفندى» يرأس المحكمة الشرعية الكبرى والهيئات الرئاسية.

وبعد احتلال الإنجليز مصر، عملوا تدريجيا على بسط نفوذهم على سائر وظائف الحكومة ومناصبها، ولكنهم تركوا للخديو ثلاثة مجالات: الأزهر، والأوقاف، والمحاكم الشرعية. فلما تم لهم انبساط سلطانهم على جهات الحكومة المختلفة، شرعوا فى عام ١٨٩٩ يعملون على النفاذ إلى المحاكم الشرعية. وأعد المستشار الإنجليزى لوزارة الحقانية مشروعا لإعادة تنظيم هذه المحاكم، وحصر سلطة قاضى القضاة فى دائرة محدودة، وقدم مشروعه فى ١٨ من إبريل، تضمن تعيين قاضيين من قضاة الاستئناف لحضور جلسات المحكمة الشرعية وذكر أحمد شفيق فى مذكراته لسنة ١٨٩٩ عن محمد عبده عن بطرس غالى، أن الإنجليز كانوا يرمون من المشروع إلى إلغاء المحاكم الشرعية.

أثار المشروع القضاة وعلماء الأزهر وقاضى القضاة. وأنكر القاضى «أفندى» جواز إشراف وزارة الحقانية أو مستشارها على أعمال المحاكم الشرعية وشئونها، ووافقه على ذلك شيخ الجامع الأزهر، الشيخ «حسونة النواوى» وأصدر الشيخان فتوى بعثا بها إلى مجلس شورى القوانين الذى عرض عليه المشروع فى ١٠ من مايو وورد بالفتوى أن للمحكمة الشرعية الكبرى عملين: عمل إفتاء، وعمل قضاء. فهى بمراجعتها الأحكام الصادرة من المحاكم الصغرى، تفتى بصحتها أو عدم صحتها، وهى بإعادة النظر وإصدار الحكم فى القضايا غير المقبولة شكلا أو موضوعا، تقضى فى النزاع موضوع

الدعوى؛ لذلك وجب أن تتوافر الشروط الشرعية للإفتاء والقضاء في أعضائها.

وذكرت الفتوى «عدم جواز تولية من لم يكن موصوفا بالقدرة على معرفة القول الراجح من المرجوح، والضعيف من الصحيح، من مذهب الإمام الأعظم؛ لأن من يتولى الأحكام الشرعية مأمور بالحكم والفتوى بالقول الصحيح من مذهب أبي حنيفة، ويكون من الممارسين للمرافعات والأحكام الشرعية، وثاني الأمرين: «أن سماحة قاضي مصر حيث كان معينا من لدى الخلافة، فاشتراك أحد قضاة محكمة الاستئناف معه في الأحكام لا يسوغ شرعا ولا يسعه الإذن له، كما يستفاد ذلك من النصوص».

وإن الأمير لم يخول من الخليفة سلطة القضاء، ولقاضي القضاة أن يعتبر السلطة الممنوحة له إنما جاءته من قبل الخليفة وإن شروط تولي القضاء لا يتأتى توافرها لكل متخرج من معاهد العلم ممن يختارهم مستشار وزارة الحقانية «وكان إنجليزيا».

ونظرت المسألة أمام مجلس شورى القوانين في ١٠ من مايو ووقف إبراهيم فؤاد باشا ناظر الحقانية، يفند ما جاء بفتوى الشيخين، وكانا حاضرين. فقال: إن اختيار القاضيين المنتدبين من محكمة الاستئناف سيجرى حسب توافر الشروط الشرعية فيهما. ثم عرج إلى بحث كل من سلطة أمير مصر وسلطة الخليفة في هذا الشأن. فقال: إنه في عهد إسماعيل تولى لجنة من علماء مصر اختيار القاضي، وهو الشيخ عبدالرحمن نافذ ثم أطنب في الحديث عما حصلت عليه مصر أيام إسماعيل من امتيازات السلطان بموجب الفرمانات الشاهانية، ثم صدور لوائح المحاكم الشرعية التي جعلت قاضي القضاة رئيسا لمحكمة تصدر حكمها بالأغلبية، بما يتصور معه صدور الحكم على غير رأي قاضي القضاة وكان خطاب الناظر يُظهر مدى الجهد العنيف الذي بذلته دوائر الحكومة للدلالة على استقلال مصر في قضائها عن الدولة العليَّة، ولا وجه للتفصيل هنا في بيان هذه الحجج.

ثم تحدث المستشار القضائي بالفرنسية، مؤكدا أقوال الوزير، وأن المشروع لم يتضمن اعتداء على الشريعة الإسلامية. ثم تحدث بطرس غالي باشا ناظر الخارجية، فأكد الأقوال نفسها، ثم أخرج برقية بعثها الباب العالي إلى مصر، بشأن تعيين جمال الدين أفندي قاضيا للقضاة، وقرأها بالتركية مع ترجمته إلى العربية، مستدلا بها على أن تعيين القاضي صار بملكه أمير مصر كان الشيخ جمال الدين ـ الذي حضر الجلسة ـ يُقاطعه محتجا على سوء تأويل بطرس غالي في الترجمة من اللغة التركية، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنكم تجردونني حتى من معرفة التركية». ثم تكلم مصطفى فهمي باشا رئيس النظام، مؤيدا موقف الحكومة.

وبعد ذلك، رد الشيخ النواوي بصفته: شيخا للأزهر، ومفتيا للديار المصرية، وعضوا بمجلس الشورى قال: إن المشروع مخالف للشرع، ولا يجوز العمل به.

وقال: إن قضاة الاستئناف يحكمون بالقوانين الوضعية، التي تجيز الربا ومحظورات أخرى، فلا يسوغ توليهم القضاء الشرعي. فلما اعترض ناظر الحقانية بأنه استفتى علماء فأجازوا ذلك، رد الشيخ حسونة قائلا: «أنا الذي عُينت مفتيا للديار المصرية، ومرجع الفتوى إليّ، وهو حقي. والذي أفتي به لا ينقضه أحد، ويجب العمل به»، وانسحب هو وقاضي القضاة، محتجين من الجلسة. فقام الأعضاء يبالغون في استرضائهما، حتى عادا.

واقترع على مشروع الحقانية بالمجلس، فامتنع العضوان المسيحيان عن إبداء رأيهما أما بقية الأعضاء، فقد قرروا بالإجماع على رفضه، عدا عضوين لم يؤيدا المشروع ولكنهما طالبا بإعداد مشروع آخر لإصلاح المحاكم.

يحكي ميخائيل شاروبيم في مخطوطة الجزء الخامس من كتابه «الكافي»: «ولقد استندنا إليها في بيان هذه الواقعة، وإلى مذكرات أحمد شفيق عن سنة ١٨٩٩»، يحكي أن هذا المشروع، منذ أن أثير وعرف به الناس، «كان حديث نهارهم وسهر ليلهم»، وأنه قد انقسم الرأي العام والصحافة إلى قسمين: قسم يصوب رأي الشيخين، ويرى في مشروع الحكومة الحيف والافتيات بما لا ترضاهما الشريعة المحمدية، «وفيه مساس بحقوق الخلافة ومأذونية القضاء الشرعي في البلاد». وقسم يصوب رأي المستشار الإنجليزي والحكومة، لما فيه من تقنين «القوانين العصرية المناسبة لروح العمران».

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وتصاعد الخلاف فمن جهة، اشتد ضغط الإنجليز على الوزارة، وكثر تردد كرومر على رئيس الوزراء وعلى الخديو، واجتمع مجلس الوزراء بحضور الخديو بالإسكندرية. ثم عزم المجلس على تنفيذ المشروع، وهدد القاضي بالخلع. وسرت الشائعات بأن مشاغبته ربما أدت إلى غلق المحاكم الشرعية.


حسونة النواوي

وقيل: إن الحكومة تزمع عزل القاضي، وإبعاده عن مصر، وتولية مصري محله، على أن يعين مستشارو الاستئناف في المحكمة الشرعية قبل تنصيب القاضي الجديد ومن جهة أخرى، تمسك جمال الدين أفندي بموقفه، يؤازره شيخ الأزهر مفتي الديار، وأجاب عن التهديد بخلعه بأنه سيترك دار المحكمة، ويعقد مجلس القضاء بداره ينظر دعاوى الناس بما له من إذن «الخليفة أمير المؤمنين» ولجأ إلى الخديو، وبعث إلى الآستانة ولما تأخر تأييد الباب العالي له، تحركت جماعات من المصريين والعلماء تبرق للباب العالي تستحثه على التدخل، وتجمعت منهم جماعات ترسل للخديو ألا يستجيب للمشروع المخالف للشرع، وأن يصون القضاء الشرعي وناموسه، ويحفظ أركان الدين ثم أرسل الغازي مختار باشا، مندوب الباب العالي بمصر، كتابا إلى الخديو بما جاءه من الآستانة بتثبيت جمال الدين أفندي في منصبه، واجتمع مجلس شورى القوانين على بحث المشروع الذي رفضه. وهنا حسم الخديو الأمر، وجمع مجلس الوزراء، وقرر إبقاء القديم على قدمه، وترك المشروع.

وإن كان المشروع سقط، فقد نجح كرومر في أن يستصدر الأمر بخلع الشيخ حسونة النواوي من منصبه في ٣ من يونية عام ١٨٩٩م، وتعيين الشيخ عبدالرحمن قطب النواوي شيخا للأزهر،

والشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية . وكان هذا الظرف الذى عين فيه الشيخ محمد عبده من أسباب ما لاقى الشيخ فى نفور واستياء ، على الرغم من أنه هو الذى أوجد للخديو المخرج ، ورسم له أسلوب الاعتذار عما كان كرومر يطلبه من تعيين مصرى قاضيا للقضاة ، بدلا من جمال الدين أفندى . ولعله قام بدور الوساطة ، لاقناع كرومر بالتراجع عن هذه الخطرة ، إذ استغلوا الحادثة وإقصاء الشيخ حسونة ، فى الفصل بين مشيخة الأزهر ومنصب الإفتاء . إن شيخ الإسلام فى الآستانة كان هو المفتى وفى مصر ، نجد أن منصب الإفتاء طرأ فى القرن التاسع عشر وقد جمع بينهما الشيخ العباس المهدى ، والشيخ حسونة ثم بعده افترق المنصبان ، ولم يلتقيا فى شخص واحد بعد ذلك قط وتوفى القاضى جمال الدين فى يناير عام ١٩٠١م ، وحرصت دولة الخلافة على تعيين خلفه بإرادتها هى ، دون اتفاق مع مصر وبقى منصب القاضى حتى سنة ١٩١٤م.

والدلالة التى تهم من هذه الواقعة فى الموضوع المعروض ، أن دعوة الإصلاح هنا التبست ببسط النفوذ الإنجليزى ، وأن حركة مقاومة هذا النفوذ اتصلت بنزعة الحفاظ على المؤسسات التقليدية . وكان غالب الرأى العام المصرى ـ فيما يبدو ـ مؤيدا هذا الموقف الثانى والدلالة أيضا ، أن هذا الموقف «الشرعى» كان يحمل موقفا سياسيا فى طياته وإن تقييم المواقف لا يجوز أن يقتصر على القول بأن فكرا جامدا حال دون إصلاح ما إنما كان الأمر مرجعه إلى موقف سياسى ظاهر الدلالة ، بين التصور ، سواء المشروع الإنجليزى أو المقاومة الوطنية له .

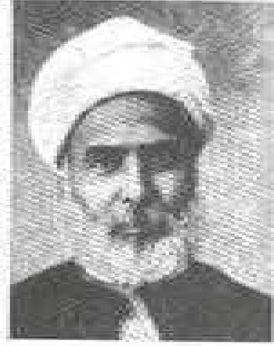
وإن كانت الإشارة سبقت فى الحديث عن تقرير الأستاذ الإمام أن أول نقط التجديد فى التشريع الإسلامى وأولاها ، هى العدول عن الالتزام بالرأى الراجح فى مذهب الإمام أبى حنيفة ، والخروج إلى سعة اختيار الأحكام من المذاهب المختلفة ، فقد سبقت الإشارة أيضا إلى أنه لم يوجد مانع ، من شريعة ولا من تعصب مذهبى ، يحول دون هذا المرام . إنما كان الأمر يتعلق بالأوضاع التاريخية العامة ، التى قام بها توجه الحركة الوطنية المصرية على أساس من تأكيد هويتها السياسية فى إطار الجامعة الإسلامية ، رفضا للعزلة والوقوع الدائم تحت الهيمنة البريطانية بموجب سلطة الاحتلال البريطانى . كما كان موقفا يتعلق بمقاومة ما أرادته السياسة البريطانية من امتداد نفوذها إلى ما لم يكن امتد إليه بعد من مؤسسات الدولة .

لقد أعد الشيخ محمد عبده تقريره عن إصلاح المحاكم الشرعية ، فى الشهور التالية مباشرة لواقعة قاضى القضاة تلك وجاءت طريقة الشيخ فى تناول مسألة تنويع مصادر الحكم الشرعى ، وعدم الانحصار فى مذهب واحد ، جاءت طريقته بالغة الحنكة والذكاء ، وكأنه يقوم بجراحة دقيقة فتكلم عن إمكان تعيين قضاة من غير الحنفية ، ليقضوا وفق المذهب الحنفى وحرص على الاستشهاد بمجلة الأحكام العدلية ، عندما أراد أن يتوسع فى الأدلة الشرعية أو غيرها من الأحكام ، حيثما أسعفه هذا الدليل . ثم تكلم عن أنه لا حرج على المسلمين من الاعتبار بالمذاهب الأربعة وهكذا .

خلاصة الأمر ، فى كلمة ، أن أهم ما عاق الخروج عن الانحصار فى مذهب وحيد ، عند وضع التشريع الإسلامى واختيار أحكامه بما يوافق ظروف الواقع المعيش ، هو الحرص على ألا تنفصم الصلة الباقية مع دولة الخلافة ، انفصاما لن يفيد ـ حسبما قدر أهل هذا الزمان ـ إلا لصالح البريطانى فى مصر ، وذلك فى الظروف التاريخية السياسية لما قبل الحرب العالمية الأولى ، عندما كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى ، ولكنها تابعة رسميا لدولة الخلافة .

لقد بقيت دعوة التجديد خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين ، محض دعوة ، لم تلق نصيبا كبيرا من التطبيق وبقيت تبعية مصر فى القضاء الشرعى لدولة الخلافة ، حتى سنة ١٩١٤م . وبعد وفاة القاضى جمال الدين فى يناير سنة ١٩٠١ ، رفضت الآستانة محاولات الحكومة المصرية مشاركتها فى اختيار القاضى الجديد كما فشلت محاولات كرومر خلال فترة الفراغ شغل المنصب بقاض مصرى وعين الباب العالى القاضى الجديد فى فبراير سنة ١٩٠١ ، والذى أظهر فى مسلكه تشددا واضحا .

ولقد أثير فى سنة ١٩٠٣ موضوع الغيبة المنقطعة ، أى حكم غياب الزوج عن زوجته غيابا تنقطع به أخباره ، ولا يعرف له مقر ، ومذهب أبى حنيفة فى هذه الحالة ، إبقاء علاقة الزوجية ، وعدم اعتبار الزوج ميتا ، وبقاء زوجته على ذمته حتى يموت أمثال الزوج عمرا ، مهما تطاول المدى على ذلك عشرات من السنين ولا يخفى ما فى هذا الحكم من حرج شديد على زوجة شابة ، ليس لها مصدر للرزق وفى مذهب الإمام مالك فرجة لمثل هذه الحالة ؛ إذ يحدد زمن الغيبة المنقطعة بأربع سنوات ، يجوز الحكم بعدها بموت الزوج أو الحكم بتطليق الزوجة وقد كثرت



محمد عبده

الشكاوى وقتها ، ونظر الأمر وبحث ، وتناولته الأقلام والعلماء ، ولكن لم يمكن العدول فى ذلك عن مذهب أبى حنيفة ؛ لأن المحاكم الشرعية لا تزال تستمد مأذونيتها فى الحكم بموجب تلك الصلة التى تكاد تكون الصلة الرسمية الوحيدة الباقية بين دولة الخلافة فى الآستانة وبين «الإيالة المصرية» .

على أنه ، خلال هذه الفترة ، أمكن إدخال بعض التعديلات القليلة على لائحة المحاكم الشرعية ، وهى تعديلات لم تمس مبدأ الالتزام بمذهب وحيد ، وإنما جرى التوسل إليها من خلال مبدأ آخر ، وهو فكرة جواز تخصيص القضاء .. لأن ولى الأمر الذى يمد القاضى بشرعية الولاية ، له شرعا أن يخصص ولاية القاضى بالرأى ، أى يلزمه باتباع مذهب أو حكم معين ، أو أن يخصصه بالقضية ، أى يحصر نطاق ولايته فى نوع قضايا معينة ، معاملات أو قضايا عسكرية مثلا وله أن يخصصه بالمكان ، أى يحدد لولاية القاضى نطاقا إقليميا معينا . وله كذلك أن يخصصه بالزمان ، أي يلزم القاضى فى سماعه للقضايا بشرط زمانى معين . وطبقا لهذا المبدأ أمكن إدخال بعض التعديلات فى لائحة عام ١٨٩٧ ، وفى التعديلات التى أدخلت عليها فى السنوات من ١٩١١م إلى ١٩١٣م.

وبهذا الأسلوب ، وجد عرف من أعراف تجديد التشريع الإسلامى فى مصر ، يترسم طريقه من إجراء التفرقة بين التحليل

والتحريم، أو موضوع الأحقية وعدم الأحقية، وبين موضوع شروط سماع الدعوى فى المحاكم فإذا أراد التشريع إجراء تعديل ما، لم يذهب إلى المساس بالحق، أو الحل والتحريم، ولكنه يذهب إلى تنظيم طريقة المطالبة بالحق، بأسلوب يمتنع به سماع الدعاوى إذا لم تتوافر الشروط التى يراها وبهذه الطريقة، فإن التشريع يجرد الحق عن وسيلة حمايته بطريق الإجبار، أى يمنع تدخل الدولة عن طريق المحاكم لحمايته، مالم تتوافر الشروط التى يتطلبها وبهذه الطريقة، اشترط الدليل الكتابى فى بعض التصرفات، أو التوثيق الرسمى، وغير ذلك.

والمرحلة الثانية فى هذه الفترة المدروسة، أتت بعد عام ١٩١٤م، إذ انفصلت مصر عن دولة الخلافة بالقرار البريطانى الذى وضعها تحت الحماية وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى كانت دولة الخلافة قد هزمت، ثم ما لبثت أن جرت مقاديرها السياسية بما نشأت به الدولة التركية، وألغيت الخلافة الإسلامية. وقامت بمصر حركة وطنية مصرية تترسم الاستقلال والنهوض فى الإطار المصرى.

وقد شُكلت لجنة برئاسة وزير العدل فى عام ١٩١٥م، لاقتراح وجوه التجديد فى التشريع الإسلامى، ثم بعد الحرب، صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠، الذى أوجد بعض الأحكام الجديدة فى مسائل الأحوال الشخصية ثم شكلت فى عام ١٩٢٦ لجنة لاقتراح المزيد من وجوه الإصلاح، وصدر على أثرها القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م بإدخال تعديلات أخرى فى مسائل الأحوال الشخصية أيضا، مع بقاء الرأى الراجح فى مذهب أبى حنيفة هو المرجع للقاضى فيما لم يرد بشأنه نص تشريعى، وهو ما صرحت به لائحة ترتيب المحاكم الشرعية التى صدرت فى عام ١٩٣٣. ومع بقاء هذا المذهب هو المصدر الأساسى للتشريع، بمراعاة أنه جرى به التطبيق دهرا طويلا، فقد تميز قانونا سنتى ١٩٢٠ و١٩٢٩ بالخروج من حدود الالتزام بهذا المذهب وحده، أخذا لبعض الأحكام من المذاهب الأخرى، بمراعاة ما يصلح وما يلائم العصر المعيشى من أحكام تحل مشكلاته.

وأخذت هذه التشريعات من أقوال مرجوحة فى مذهب أبى حنيفة، كما أخذت بأقوال من المذهب المالكى وغيره، ومنها موضوع الغَيبة المنقطعة وبعد زمن آخر، بدأت الأحكام تأخذ عن أقوال من غير مذاهب السنة نفسها، من آراء المعتزلة والشيعة وصار هذا هو المنهج الثانى للتجديد فى التشريع الإسلامى، أضيف إلى المنهج الأول الخاص بشروط سماع الدعوى.

تلك هى الملامح العامة لأساليب التطوير فى التشريع الإسلامى، حسبما أفصحت عنها حركة التاريخ، وفى إطار السياق التاريخى ومنها، يبين أن هذا السياق التاريخى السياسى هو ما تحكم فى حركة التجديد ولكن هذا التجديد اقتصر على مسائل الأحوال الشخصية والأوقاف، دون مسائل المعاملات؛ لأن المعاملات انتقلت من القرن الماضى انتقالا كاملا من إطار التشريع الإسلامى والمحاكم الشرعية، إلى القوانين الوضعية والمحاكم الأهلية.

(يتبع)

دعوة الإسلام إلى تأسيس مدنية عالمية فاضلة



للعلامة
محمد فريد وجدى

إن كلمتى مدنية ودين تعتبران فى عرف أهل العصر الحاضر متناقضتين، فإن ذكرت الكلمة الأولى أيقظت فى ذهن سامعك الزخارف الفنية، والمبدعات الصناعية، والمتع المادية بما تنطوى عليه من المراقص والمسارح والملاعب، متع مطلقة من القيود إلا ما تحده العادات، مفتكة من الربط إلا ما توجه الآداب المتفق عليه، والتقاليد المعمول بها، لا الآداب ولا التقاليد التى يقررها العلم، وتحررها الفلسفة، وربما أيقظت فى ذهن سامعك مبدأ الإباحة أيضا، ولكن فى حدود تلك الآداب المتفق عليها.

وإن ذكرت كلمة دين نبهت فى نفس سامعك الزهد عن متع الحياة، والتملص من علائق الدنيا، ومكافحة الميول البدنية مكافحة لا هوادة فيها، والنظر إلى الزخارف والمبدعات الكمالية نظر استخفاف وزراية، وتطهير النفس من كل رغبة مادية، وإنكار حقوق الجسد لمصلحة الروح التى يجب أن تستوعب جميع القوى المعنوية.

هذان الاعتباران المتناقضان قد تغلبا على العقلية الإنسانية فى أكثر الأمم، وبعد العهد عليهما حتى لا يكاد الباحث يعثر على مبدأ تشوبهما، وقد تقررا فى الأذهان إلى حد أن أصبحا فى عداد البداهات العلمية، وجاءت أقوال وأعمال حفظة الأديان مؤيدة لهما بحيث صار من المتعذر إعادة النظر فيهما.

ولكن القرن العشرين قد وضع كل المدركات البشرية فى الميزان، حتى ما كان

يعتبر منها من المقررات العلمية التى لا تقبل الشك، وهل بعد الأصول الميكانيكية والرياضية شئ فى الرسوخ والاستقرار؟ فقد جعلها العلم هى أيضاً تحت التمحيص، فلم يبق بعد هذا شئ يتعالى على إعادة النظر فيه.

ونحن نستفيد من هذه النزعة التجديدية فنعالج مسألة المدنية والدين تحت هذا الضوء الساطع، فنقول: هل يمكن أن تتفق المدنية والدين؟ وهل المدنية بطبيعتها تنافى الدين؟

وقبل أن نخوض فى هذا البحث ننظر فى ماهية المدنية، وماهية الدين حتى يكون حكمنا بإمكان اتفاقهما أو تنافيهما مؤسساً على أصول صحيحة، ومقررات قويمة، فما هى المدنية وما هو الدين؟

إذا اعتبرت كلمة المدنية فى أوسع معانيها دلت على مجموعة من الشئون تشمل المبادئ المقررة، والعادات الشائعة بين الآحاد المؤلفين لمجتمع مستقل، وعليه فتوجد مدنيات بقدر ما وجد ويوجد من جماعات، ولكن ليست كل المدنيات تستحق هذا الاسم على إطلاقه، فكل منها يقرب أو يبتعد عن المثل الأعلى للمدنية على نسب مختلفة وهذا المثل الأعلى يتألف من اجتماع أصول بالغة أقصى درجات السمو، مستمدة وجودها من صميم الروح الإنسانى فى أصفى وأنزه ما تكون عليه، ومنطبقة على العلم والفلسفة فى أقصى ما تؤدى إليه.

فمن يوم أن وجد الناس على الأرض وألفوا الجماعات وجدت لديهم مدنيات تناسب أحوالهم، ثم أخذت هذه المدنيات ترقى يسيرا يسيرا حتى وصلت إلى ما نحن عليه اليوم، فهل ما نحن عليه هو المثل الأعلى الذى ليس بعده مذهب؟ هل الأصول التى تقوم عليها مدنيتنا بالغة أقصى درجات السمو، ومستمدة وجودها من صميم الروح فى أصفى وأنزه ما تكون عليه؟ وهل هى منطبقة على العلم والفلسفة فى أقصى ما تؤدى إليه؟.

إن أهل هذه المدنية أنفسهم لا يدعون ذلك، ويرجون أن يهذبوا من أحوالهم لتصل إلى المثل الأعلى.

بقى الدين، فهل هو شيء غير المثل الأعلى الذى يتخيله الإنسان للمدنية؟

نعم، إن المتمدنين قد ساءت ظنونهم فى الأديان، لما رأوه من سيرة زعمائهم فى الأمم التى خضعت لزعاماتهم، ولما أدخل عليها من الآراء والتأويلات، حتى يئسوا أن يوجد واحد منها ينطبق عليه مميزات المثل الأعلى للمدنية.

إنهم لا ينكرون أن الأديان تعلم الرحمة والإيثار والبذل، ولكنهم يقولون: إنها فى مقابل ذلك تبث عقائد تنافى أوليات العقل، وبداهات النظر، وتحرم على ذويها إجالة الفكر فيها، وتعادى العلم وتقف له كل مرصد، علما منها أنه ينير البصائر وينفر الناس من العقائد التى تصبوا أنفسهم قواماً عليها، وتقيد الحريات الطبيعية، وتضيق الخناق على المذاهب الفلسفية والآراء المستقلة، وقد فتك قادتها بألوف مؤلفة من خيرة العلماء وجلة الفلاسفة ممن تجاسروا على بث تعاليم فى القرون الماضية.

وقد تأثروا من هذه المشاهد التاريخية إلى درجة أنهم أصبحوا لا يعتقدون أن دينا فى الأرض يخلو من هذه العقبات الكأداء فى سبيل تقدم البشرية، ولذلك فهم يبغضون الأديان جملة وإن كان عامتهم لا تزال تتمسك بخيالات منها لا سلطان لها على أعمالهم اليومية، والسواد الأعظم منهم يعدون أنفسهم منها بالإسم دون الواقع.

فإذا أمكن إقامة الدليل على أن واحداً من الأديان تنطبق أصوله على مميزات المثل الأعلى للمدنية، فلا يوجد ما يمنع من إعلان اتفاق الدين الحق والمدنية.

ونحن معشر المسلمين نعلم أن الإسلام ينطبق على المثل الأعلى للمدنية، ويزيد عليه سمواً، فعلينا وحدنا التدليل على ذلك، والقيام بنشره فى الآفاق فى أسلوب من العلم يرضاه المتمدنون، ويلتئم ومقرراتهم الفلسفية.

فالإسلام بمعناه اللغوى والاصطلاحى يدفع الإنسان للتجرد من الأحوال البهيمية، والتخلق بالأخلاق الإلهية، فى أسمى ما يتخيله العقل من نزاهة ورفعة روحية، وقد قدرت أصوله ومبادئه على هذا المعنى، ليصل الإنسان بالقيام عليها إلى تحقيقه فى عالم الإنسانية، فليس هو بعدو للعقل ولا للعلم، بل هو يعتمد عليها فى التدليل على سموه، وعلى أنه عام وخالد خلود الأصول الأولية، والحقائق العلوية.

وقد أطلق كل المواهب الكريمة للنفس البشرية، بعد أن قرر أن النفس نفحة إلهية، إطلاقاً لا يقف بها عند حد من توثباتها التكملية، فلم يضع للخير حداً، ولا للعقل والعلم تخماً، ولم يعين للإحسان دائرة، ولم يحصر العدل والرحمة فى قبيل دون قبيل، ولم يجعل للارتقاء الصورى والمعنوى مدى لا يتجاوزه، ولم يعين للفضيلة أحوالاً لا تتعداها وشرطه فى كل هذه الإطلاقات أن تكون غايتها الحق والخير، والارتقاء الشخصى والاجتماعى.

وكما فتح الإسلام للنفس باب الارتقاء الروحانى على مصرعيه، ووسع من مداه إلى ما لا يصل إليه خيال المتخيل، فتح كذلك لها باب الارتقاء المادى، فلم يحرم عليها علماً نافعاً، ولم يضع للعلوم حدوداً، واستنهض الهمم للشئون الصناعية، والإبداعات الفنية، إلا ما كان منها عادياً على الفضائل النفسية، أو مثيراً للقوى الشهوانية، وعد الارتقاء فى هذه المجالات العلمية والعملية فتوحاً إلهية يثاب عليها الموفق لها ثواب العاملين على ترقية الإنسانية.

هنا يسوغ لى، وقد انتهيت إلى هذا الحد، أن لا أكتفى بالقول: بأن المدنية والدين يجب أن يتفقا، بل أعلن على رءوس

الأشهاد أن الدين هو ذروة المدنية، وليس معنى هذا أن كل مدنية قائمة دين، وأن كل دين قائم مدنية، ولكن معناه أن المدنية التي تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها، وطهارة مبادئها، وحكمة حرياتها، وسمو أغراض عواملها.. إلخ، هي غرض الدين الحق الخالص من كل شائبة بشرية، المؤدى إلى أرفع الكمالات الصورية والمعنوية.

أشعر وأنا أقضي بهذا التقرير أن معترضاً يقاطعني قائلاً: إن كان ما تقولونه يسوغ في عالم الخيال، فلا يسوغ في عالم الحقيقة، وليس له صورة في الواقع، فإن الإنسان في تساره نحو التكمل وهو على فطرته من تسلط العوامل الشهوانية عليه لا يستطيع أن يعيش على حالة من النزاهة والسمو لا يكون عليها إلا الأفذاذ المفطورون على الفضائل، فالمدنية لا يمكن أن توجد إلا ملتاثة بالرذائل، بل ولا تزداد ارتقاء وازدهاراً إلا بحوافز قوية من الشهوات البهيمية، فإذا صح هذا، وهو ما لا سبيل إلى إنكاره، وجب القطع بأن المدنية تنافي الدين منافاةً لا وفاق معها.

نقول: إن هذا الاعتراض لا يضيرنا في شيء، فإننا أقمنا الدليل على أن المدنية الفاضلة المنزهة عن الرذائل، تتفق والدين الحق، بل هي غايته المرجوة، وهذا القول لا يعني أن المدنيات التي ظهرت في العالم الإنساني لم تك ملتاثة بأقذار الشهوات البهيمية، والانحرافات العقلية، ولا يعني كذلك أن المدنيات المستقبلة تبلغ قبل تمام تضجها مبلغ الدين من النزاهة الروحية، والطهارة القلبية.

ولكن هل يرى المعترض أن ليس للمدنية مثل أعلى تحاول الاقتراب منه على قدر الإمكان؟

إن قال نعم، قلنا: وهذا المثل الأعلى هو الدين الحق كما قررنا. وإن قال لا، قلنا: هذا محال؛ لأن لجميع المحاولات البشرية مثلاً عليا تحاول القرب منها، والوصول إليها، وإلا استحال عليها الترقي عما هي عليه، بل إن هذه المثل العليا تتألف لهذه المحاولات بنفسها باعتبار أنها الغايات النهائية لها، فإن منعت موانع من الوصول إليها بقيت هي ماثلة نصب أعين العاملين، تحفزهم لتحسين وسائلهم لبلوغها.

والمدنية لا تشذ في هذا عن سائر المحاولات البشرية، بل هي أدعاها للمثل العليا في كل عنصر من عناصرها العلمية والعملية. لذلك تجد جماهير من أعلم علمائها انقطعوا لدراسات مختلفة تتعلق بها، منها ما يتصل بأخلاق الأفراد وآدابهم، ومنها ما يختص بأصنافهم وطبقاتهم، ومنها ما يبحث في مقومات الاجتماع وما ينتابها من عوامل مضعفة وعوامل مقوية، ومنها ما ينظر في البيئة وقواعلها، وما يجب إصلاحه منها.. إلخ، وكل هذا يشعر بأن المدنية في حاجة ماسة إلى التقويم والتعديل في كل شيء من أشيائها وكل هؤلاء العلماء لا يفترضون في أعمالهم أن المدنية لا تقوم إلا ملتاثة بالشهوات والموبقات، كما لا يفترض علماء الصحة أن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا إلا مرضى على نسب مختلفة، ولكنهم يبحثون في موضوعاتهم على أكمل ما تكون الصحة عليه، فالذين يبحثون في الأخلاق والآداب يأتون بالمثل العليا لها غير مبالين بإقبال الناس عليها أو إدبارهم عنها، منبهين إلى خطر الاستعصاء عليها، ويجرى مجراها سواهم ممن ينظرون في شئون أخرى.

كذلك لا نستطيع، ونحن نبحث في هل يمكن اتفاقُ الدين والمدنية؟ أن نفترض الحالات المرضية للمجتمعات فنبني على ذلك رأياً علمياً لا يلبث أن يظهر فساده بتطور جديد للجماعات أو انقلابٍ فكرى لا يجول في خيال أحد، والمفاجآت في العالم الإنساني لا تقف عند حد.

ظهر لنا مما مر كله أن المدنية الفاضلة لا تنافي الدين، بل الدين هو المثل الأعلى لأرقى مدنية، ونعني بالدين، الدين الإلهي الخالص من كل شائبة بشرية، لا الدين الذى تداولته الجماعات بالتحريف والتصحيف، والشرح والتأويل، حتى خرج عن حقيقته وأصبح هيكلاً حجرياً غير قابل للمماشاة للتطورات التي تدخل فيها الإنسانية في كل مرحلة من مراحل حياتها العقلية والمادية.

وليس بين أيدى البشر من الأديان ما حفظه الله على نقائه الأول غير الدين الإسلامي، وقد رأيت مما ذكرناه عنه إجمالاً في هذه المقالة، وما أفضنا فيه تفصيلاً من قبل، ما يكفي لإثبات أنه المثل الأعلى لمدنية فاضلة إن لم تصل إليها الإنسانية إلى اليوم فستصل إليها لا محالة تحت تأثير التطورات الأدبية التي لا تفتأ تطرأ عليها.

ولا يقولن قائل: أنى هذا، والعالم يزداد كل يوم إيغالاً في حمأة القاذر، وإسفافاً إلى حضيض التاكر؟!

لأنا نقول: هذا صحيح، ولكن تدهوره هذا يصحبه شعور قوى بالتقزز مما هو فيه، يدل عليه القلق الذى يساوره في كل حركة من حركاته، وروح السخط المستولي عليه حتى وهو في معمعان لذاته، وهذا أمر طبيعي من كائن كل ما فيه يدعوه للتكمل، ويهيئه لخلافة الله في أرضه.

فكل ما يمكننا أن نقوله في أمر هذا التناقض أنه دور من أدوار الحياة ينتهي أمده، ثم يحل محله دور جديد فيلبث حتى ينقضي عهده، ثم يخلفه غيره، وهلم جرا حتى تطهر الفطرة البشرية من أقذائها، وإذ ذاك تسير إلى الكمال قدما لا يلويها عنه شيء حتى تصل إليه.

وفي أثناء هذه الانقلابات لا يفتأ الإسلام مثلا أعلى للمدنية تتقرب الإنسانية منه يسيرا يسيرا حتى تبلغه، وإذ ذاك تشعر النفوس بسعادتها الحقة، فتعيش في أمان وسلام، فإذا انقضت آجالها تابعت ترقياتها في عالم الروح المحض، حيث تجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

«يتبع»

الفتح الإسلامى لمصر (٨):

وأسلم أهلها!!

للأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا



ذكرنا آنفًا أن سكان مصر عشية الفتح الإسلامى لها كانوا خليطا من القبط والرومان واليونان واليهود، وعلى الرغم من مسيحية الرومان واليونان وأعداد كبيرة من القبط، فإن الصراع المذهبى بين هؤلاء المسيحيين حال بينهم وبين أن يعتبروا - تاريخيا أو واقعيا - أمة واحدة، ولم يكن النزاع المذهبى وقفا على مسألة طبيعة المسيح، التى فرقت بين الرومان المحتلين وأتباعهم من القبط من ناحية، وبين سائر القبط المسيحيين من ناحية أخرى، بل إنه كان أوسع من ذلك إذ شمل النزاع بين المسيحيين المُثلِّثين كلهم فى ناحية، والمسيحيين الموحدين (= الأريوسيين) فى ناحية أخرى، وكان القبط - سكان مصر - الذين لم يعتنقوا المسيحية، قد استمروا على وثنيتهم الأولى على النحو الثابت من كتاب يوحنا النقيوسى[١]، وهى حقيقة لم يشر إليها أحد من المؤرخين كما أشار هو.

ولم يكن القبط المسيحيون على رأى واحد فى مسيحيتهم، فكان منهم من يتبع مذهب الطبيعتين، وهو مذهب الدولة البيزنطية (الرومانية الشرقية) آنئذ، وسمى هؤلاء بالملكانيين نسبة إلى الملك الذى هو إمبراطور بيزنطة، وكان منهم من يتبع مذهب الطبيعة الواحدة[٢]، وسمى هؤلاء باليعاقبة، أو الأرثوذكس. وكان من المسيحيين المصريين فريق ثالث يتبعون مذهبا مسيحيا توحيديا ويسمون الأريوسيون «أتباع أريوس» فلم تكن فى مصر، عشية الفتح العربى، دولة قبطية قائمة، وإنما كانت الدولة هى الدولة الرومانية (الشرقية) المحتلة لمصر، وكانت تلك الدولة فى جانب والشعب المصرى فى عدة جوانب، فلم يكن هناك ما يسمى الحضارة القبطية، أو الدولة القبطية، بل كانت الدولة رومانية والحضارة رومانية[٣]، فلا يجوز أن يصدق أحد دعاوى إنكار حضارة القبط ومحو تاريخهم، التى ينسبها المتعصبون إلى الإسلام ودولته، فهذا كله باطل لا صحة له.

كان أريوس قسًا مسيحيًا مصريًا، ولد فى ليبيا، وعاش فى الإسكندرية، وأصبح فيها كاهنا مسئولا عن كنيسة فى بولكلى «الحىّ الذى فيه القر الصيفى للحكومة منذ عهد الملكية حتى الآن»، وكانت عقيدة الأريوسيين تذهب إلى أن المسيح - عليه، وعلى نبينا، الصلاة والسلام - ليس إلها، ولا هو ابن إله، لكنه مخلوق من عدم، كما خلق الله العالم من عدم وكان شعار أريوس هو «فلنتبع المسيح كما علمنا، واستند فى قوله إن المسيح مخلوق، وإنه ليس إلها، إلى نصوص فى الأناجيل لا يصح تفسيرها إلا بكون المسيح مخلوقًا لله، وليس هو الله نفسه[٤]».

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المسيحيين الأريوسيين كانوا أكثر عددا من المسيحيين الأرثوذكس، وهو الاسم الذى كان يطلق على جميع المسيحيين المثلثين قبل الانقسام الكبير بين جماعتى الكاثوليك والأرثوذكس بعد الاختلاف حول طبيعة المسيح فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

وقد أدينت الأريوسية باعتبارها بدعة وهرطقة، فى مجمع نيقية، سنة ٣٢٥م ومع ذلك فإن المذهب ظل موجودا فى مصر حتى الفتح الإسلامى سنة ٦٤١م[٥] - وبدأ اضطهاد الأريوسيين فى مصر منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، واستمر إلى وقت الفتح الإسلامى لمصر، وصاحب اضطهادهم، الذى مارسه المسيحيون بفرقتيهم «الرومان والقبط»، نوعٌ من الاحتقار الذى يبدو جليا فى تعبيرات يوحنا النقيوسى عنهم، كما ذكرهم فى تاريخه، وهو لم يذكرهم إلا قارنا إياهم بالوثنيين وأعداء المسيح(!)

ولم يكن الأريوسيون موجودين فى مصر وحدها، بل كانوا فى أماكن شتى من الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)[٦]، ولذلك جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل إمبراطور الروم:

«من محمد عبدالله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم[٧]، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)[٨]

---

(١) راجع: على سبيل المثال، الصفحات ١٢٥ و١٢٧ و٢٠٤ و٢٢٤ من طبعة عمر صابر عبدالجليل.

(٢) الطبيعة الواحدة والطبيعتين للمسيح عليه السلام، بشرية وإلهية ويتبع القول فى تلك القول فى التثنية وهى مسألة لا هوتية معقدة، وإن كان بعض المؤرخين المسيحيين يصف الخلاف فيها بأنه لفظى انظر يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص٣٧.

(٣) محمد عمارة، عندما دخلت مصر فى دين الله، نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٧، ص١٣ وما يليها، والكتاب هو رقم (١٢) من سلسلة فى التنوير الإسلامى.

(٤) راجع: فاضل سليمان، أقباط مسلمون قبل محمد ﷺ، القاهرة ٢٠١٠، ص٤٧ و٥٠ و٥٣ و٥٧ و٥٨.

(٥) فاضل سليمان، السابق، ص٤٨ - ٤٩ وما يليها، وهو يذكر استمرار الأريوسية فى أوروبا حتى سنة ٥٨١م.

(٦) فاضل سليمان، السابق، ص ٤٧ - ٥٢.

(٧) أى من عذاب الآخرة، وهذا تبشير وليس تهديدا ولا وعيدا كما يظنه بعض المعاصرين.

(٨) روت نص الكتاب كتب الحديث وكتب السيرة، وهو متفق عليه من حديث عبدالله بن عباس، البخارى ج(٧) ومسلم (١٧٧٣)، واللفظ هنا لمسلم.

ولم يأت في كتابه ﷺ إلى المقوقس أن عليه إثم الأريسيين - على الرغم من أن صاحب دعوتهم الأول قس مصري - وإنما قال له: «... فعليك إثم القبط» لأن المقوقس، وهو عامل هرقل على مصر، كان يضطهد القبط أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة كما يضطهد القبط الأريسيين، فجمع النبي بينهما بلفظ «القبط»[9]، ويؤكد العلامة أبو الحسن الندوي أن المقصود بالأريسيين في رسالته ﷺ إلى هرقل هم أتباع أريوس المصري[10].

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي، في شرح كتاب النبي ﷺ إلى هرقل: «وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل جماعة تعرف بالأريوسية توحد الله وتعترف بعبودية المسيح له - عز وجل - ولا تقول شيئا مما يقول النصارى في ربوبيته.. - وإذا كان ذلك كذلك.. - جاز أن تكون هذه هي الفرقة التي ذكرها رسول الله ﷺ»[11] وروى الإمام النووي مثل هذا القول في معنى الأريسيين[12] هؤلاء الأريسيون، الذين كانوا عددا غير قليل من المصريين، والقبط أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وبقايا الوثنيين الذين أشار إليهم يوحنا النقيوسي في مواضع من كتابه، تلقوا كلهم رسالة الإسلام عندما وصلت طلائع جيش الفتح الإسلامي إلى مصر، وليس من سبيل سوى التخمين للوصول إلى أعداد قريبة من الصحة - أما الصحة المطلقة فلا سبيل إليها - لمكونات المصريين والمقيمين في مصر من ذوي المذاهب المختلفة؛ لذلك تكتفي بذكر وجود هذه المذاهب دون أن تغامر باتباع صنيع بعض الذين زعموا معرفة أعدادها الصحيحة أو التقريبية، فتلك كلها ظنون لا حقيقة لها.

ويتحدث يوحنا النقيوسي عن مسيحيين مصريين كثيرين دخلوا في الإسلام: «والآن أي (وقتما كان يكتب) كثير من المصريين الذين كانوا مسيحيين كذبة، أنكروا العقيدة الأرثوذكسية، والمعمودية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرب، وقبلوا التعليم الركس للحيوان الذي هو (ويذكر اسم نبينا ﷺ) وأخطأوا مع هؤلاء الوثنيين وأخذوا في أيديهم السلاح وحاربوا المسيحيين وكان أحدهم واسمه يوحنا الخلقدوني من دير سيناء، انضم إلى عقيدة الإسلام وترك زيه الكنسي، واتخذ له سيفا، وطارد المسيحيين المؤمنين بسيدنا يسوع المسيح»[13]، ويشير في موضع من كتابه إلى أن المسلمين صحبوا «المصريين الذين تركوا المسيحية واعتنقوا ديانة هؤلاء البهائم (أي المسلمين)»[14]. ويذكر عند فتح حصن بابليون كيف اضطهد الأريسيون الأرثوذكس الذين في الحصن وقطعوا أيديهم (وقد تكون الإشارة إلى صنيع الروم لا الأريسيين بالقبط)[15].

وهذه النصوص القبطية المصرحة بانتقال بعض القبط، أو مجموعات منهم، إلى الإسلام في الشهور الأولى بعد دخول المسلمين إلى مصر يجب أن تفهم في ظل الاضطهاد الروماني لأهل مصر الذين لم يقبلوا عقيدة الرومان في طبيعة المسيح، والاضطهاد الروماني / المصري لذوي العقيدة المسيحية التوحيدية (الأريسيين)، وفي ظل وجود قطاع من أهل مصر كان لم يزل على وثنيته الأولى وهؤلاء جميعا استقبلوا الإسلام بلا ضغائن تحول بينهم وبينه، إذ كان المسلمون يحاربون البيزنطيين لا المصريين، وكان المصريون يشعرون أن انتصار المسلمين هو غضب الله على الرومان، الله الذي «كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين لأجل أمانتهم (= عقيدتهم) الفاسدة»[16].

فلم يكن أمرا غريبا أن يرحب المصريون بالمسلمين ويعتبروهم - في الجملة - منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر[17] ولم يجد المصريون في العرب أعداء لدينهم، ولا لمذهبهم فيه كما كان البيزنطيون فلم يقابلوهم بما يقابل به العدو من دفع ومحاربة. وكان فقهاء المسلمين يفتون ببناء الكنائس، وإصلاح ما تهدم منها، وجعلوا أساس فتواهم أن ذلك من «جملة عمارة البلاد»[18] وظل الأقباط بعد الفتح الإسلامي - وإلى اليوم - يحتفلون بأعيادهم الدينية التي عد منها المقريزي ستة عشر عيدا[19]. والأعياد الدينية من أهم مظاهر التدين، ليس ثم دين بلا أعياد وترك المسلمين للأقباط يحتفلون بأعيادهم تطبيق صحيح للقاعدة الإسلامية الآمرة بترك «أهل الكتاب وما يدينون به».

وقد أبدى المسلمون من حسن التعامل مع أهل مصر ما لا بد أنه كان ذا أثر في تقبل

---

(9) راجع نص كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس في فصل: «رسائل وبشارات» من هذا الكتاب، وراجع، فاضل سليمان، السابق، ص١٠٩ وما يليها.

(10) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، بيروت ١٩٨١، ص٣٤٤ - ٣٤٩.

(11) أبو جعفر الطحاوي، مشكل الآثار، ج٢ ط حيدر أباد الدكن، ١٣٣٣هـ، ص٣٩٩، وهو في طبعة شعيب الأرنؤوط الثانية، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٦، ج٥ ص٢٣٣.

(12) النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٢ ص١٠٩.

(13) يوحنا النقيوسي، ط عمر صابر عبدالجليل، ص٢٩٢، وط القمص بيشوي، ص٢٢٤ وهذا النص ونظائره في كتابه، يؤيد صحة تقويم أحمد عادل كمال، الذي أشرنا إليه من قبل للكتاب وصاحبه.

(14) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص٢٠٩، ط عمر صابر عبدالجليل ص١٩٧، حيث يترجم العبارة إلى عقيدة هذا المفترس، بدلا من البهائم.

(15) المصدر السابق، ط عمر صابر عبدالجليل ص٢٠٤، ط القمص بيشوي، ص٢١٦ والحق أن الكلام في الطبعتين عمن ألحق به الأذى، ومن الذي ألحقه، يلفه الغموض.

(16) ساويرس بن المقفع، السابق، ج١ ص٤٧٦.

(17) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص١٨١.

(18) الكندي، السابق، ص١٥٦.

(19) المقريزي، الخطط، السابق، ج١ ص٧٦٤ - ٧٧٩، ويذكر أن الفانوس كان يباع بكثرة ويوفر في عيد الميلاد، وقال محققه (أيمن فؤاد سيد) ولا نعرف متى تحول إلى عادة رمضانية. راجع ص٧٦٦ وهذا التبادل للعادات والتقاليد بين المسلمين والمسيحيين في مصر رد بليغ على الذين يقولون إن الشعب المصري طوائف متباغضة، وعكس ذلك هو الصحيح: الشعب المصري أمة واحدة، لا ينكر ذلك إلا دعاة الفتنة والمتاجرون بالعصبية الدينية.

هؤلاء للإسلام دخولا فيه أو تعايشا معه.

ففي أول شهور الفتح قاتل أهل بعض القرى المصرية مع الرومان ضد المسلمين، وأعقب الهزيمة التي حاقت بالرومان أن أخذ جيش المسلمين من المصريين أسرى، أرسلهم عمرو بن العاص إلى المدينة المنورة، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي ردهم إلى قراهم في مصر، وكتب إلى عمرو بن العاص يأمره بتخلية سبيل من في يده من الأسرى وإعادتهم إلى قراهم[٣٠]، وقد تكرر ذلك في الحرب مع منويل الخصي سنة ٢٥هـ، وكان الخليفة الذي أعاد الأسرى هذه المرة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه[٣١].

وكان الفتح الإسلامي سببا لاستعادة اللغة القبطية (لغة الطقوس الكنسية)[٣٢] وأسماء المدن والقرى القبطية مكانها الأصلي في مصر بعد أن كانت تحولت إلى اللغة اليونانية[٣٣]، حتى لقد كتب أحد الأساقفة النسطوريين بعد الفتح بنحو خمسة عشر عاما: «إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا... لا يحاربون الدين المسيحي قط، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا»[٣٤]، وأبقى المسلمون على تقليد سابق على الفتح هو عدم فرض ضرائب على الأديرة والرهبان، وبذلك وجدت، منذ الفتح الإسلامي، طبقة متميزة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية المفروضة على سائر الناس[٣٥].

وقد كانت هذه كلها عوامل تقرب بين أهل مصر وبين الإسلام، ومع ذلك فإن الإسلام لم يبدأ في الانتشار بشكل واسع في مصر إلا بعد القرن الأول الهجري[٣٦]، وقد تطلب التحول الديني من المسيحية، واليهودية، والوثنية إلى الإسلام نحو قرنين أو ثلاثة قرون[٣٧].

ولم تبلغ نسبة المسلمين في مصر نحو ٨٠٪ من السكان إلا في القرن التاسع

(٣٠) ابن عبدالحكم، السابق، ص١٠٧، والمقريزي، السابق، ص٤٥٠ ـ ٤٥٤؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، السابق، ج١ ص١١٦.

(٣١) ألفريد بتلر، السابق، ص٤٢٦.

(٣٢) محمد بهجت قبيسي، أحمد كمال باشا، السابق، ص١٠ و١٢.

(٣٣) سيدة إسماعيل الكاشف، السابق، ص١٩٠ ـ ١٩١؛ وقاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٧. وقارن صنيع المحتل الروماني لمصر بصنيع المحتل الصهيوني في فلسطين في شأن تغيير الأسماء من عربية إلى عبرية!) وكما زال الاستعمار الروماني عن الشرق كله سيزول الاستعمار الصهيوني عن فلسطين إن شاء الله.

(٣٤) سيدة إسماعيل الكاشف، السابق ص١٩٧ ـ ١٩٨، وهي تنقل عن مصدر فرنسي.

(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(٣٦) قاسم عبده قاسم، السابق، ص٣٦؛ وحامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام، قصة فتح مصر، الكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨، ص٧٥ وما بعدها.

(٣٧) جمال حمدان، شخصية مصر، الطبعة الموجزة، دار الهلال، مايو ١٩٩٣، ص٣٨.

الميلادي أي في القرن الثالث بعد الفتح الإسلامي[٣٨].

وقد كان شأن المسيحية في مصر، عند الفتح الإسلامي، من الضعف بسبب التناحر المذهبي العقدي، إلى الحد الذي دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية، وبأنها لم تغير شيئا من روح الجنس المصري، ولم تصل للتأثير في الحياة الخاصة للأفراد ولم تتحول الأرواح تحولا صادقا إلى المسيحية، ودفع آخرين إلى إعلان أن: الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الدينية، ذلك لأن نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقدية مع البيزنطيين[٣٩]. بل إن جمال حمدان، وهو من هو، يقول: «لم تنتشر المسيحية في أوجها إلا نصف انتشار على الأكثر»[٤٠]. فالدولة كانت رومانية لا قبطية، والقبط كانوا مذاهب ثلاثة لا مذهبا واحدا، وعندما نرى ذلك كله ندرك أي نوع من الإسلام البطيء المتعقل كان الدين الذي دخل فيه المصريون من القبط بأنواع مذاهبهم، وممن لم يكونوا يدينون بالمسيحية من أهل البلاد، على ما تذكر كتب التاريخ القبطي نفسها.

إن بعض الباحثين الأقباط المعاصرين يقدر أن بين سكان مصر المسلمين ٨٨٪ من أسر قبطية اعتنقت الإسلام[٤١] ويرى أبو سيف يوسف أن الثابت تاريخيا أن كثيرين من قبط مصر قد دخلوا في الإسلام طوعا عن اقتناع، وثمة قطاع من القبط تحول إلى الإسلام بدافع الرغبة في تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين الفاتحين من الناحيتين السياسية والاجتماعية، وأن فريقا من القبط دخلوا الإسلام بسبب النظم المالية التي طبقت على المصريين (المقصود هنا الخراج والجزية)[٤٢].

أما الأستاذ ماسينيون (المستشرق الفرنسي) فإنه يضع في كتابه «حوليات الإسلام» نسبا للمصريين تثبت أن غالبية المسلمين هم من المصريين الذين دخلوا الإسلام، فعنده أن المصريين المعاصرين ينقسمون كما يلي:

٦٪ من القبائل العربية الخالصة.

٢٪ من البربر.

٢٪ من الحاميين.

٨٨٪ مصريين أسلموا.

(٣٨) محمد عمارة في تذييله على كتاب فاضل سليمان، السابق ذكره، ص١٧٩، وهو يحيل إلى: فيليب فارج ويوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، دار سيناء، القاهرة ١٩٩٤.

(٣٩) عبدالفتاح مقلد الغنيمي، السابق، ص٥٤.

(٤٠) جمال حمدان، شخصية مصر، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٤، ج٤ ص٤٠٩.

(٤١) أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، ط مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص١٧.

(٤٢) أبو سيف يوسف، السابق، ص٥٩ ـ ٦١، ونلاحظ أن مسألة الجزية بقيمتها الزهيدة (ديناران على كل ذكر بالغ قادر على حمل السلاح) لا يعقل أن تكون سببا في ترك الديانة؛ ويصدق هذا بوجه خاص على شعب تحملت الكثرية، الأريوسية والأرثوذكسية، الاضطهاد الروماني لعدة قرون دون أن تغير إيمانها.

٢٪ مصريين لم يسلموا[٣٣].

وقد رد أخونا العلامة الدكتور محمد عمارة في كتابه: (الفتنة الطائفية) على الدعوات الطائفية العنصرية، التي تصدر بين حين وآخر، عن رجال كنسيين وعن أقباط من خارج سلك الكهنوت[٣٤] وكان رده ذا شعبتين:

أولاهما: نقل تلك الدعوات أو أهمها، على لسان أصحابها من البابا شنودة فمن دونه.

وثانيتهما: نقل الردود على تلك الدعوات من ألسنة الأقطاب المسيحيين الكنسيين وغير الكنسيين.

ففي الفريق الأول نقرأ كلامًا للبابا شنودة والقمص سرجيوس، ودكتور سليم نجيب، والأنبا جريجوريس، وكمال فريد إسحاق، ورسمي عبدالملك، والأنبا مرقس، والأنبا توماس، ومشروع جماعة الأمة القبطية ١٩٥٢، وإعلان المشروع السياسي للكنيسة سنة ١٩٧٧، وإقامة بعض أقباط المهجر حكومة منفى في ألمانيا، لم تدنها الكنيسة، في الثمانينيات من القرن العشرين.... إلخ ما ذكره[٣٥]، وفي الفريق الثاني نقرأ كلام مكرم عبيد، والأنبا موسى والأنبا يوحنا قلتة، وغالي شكري، وأنور عبدالملك، ورؤوف نظمي (الشهير بمحجوب عمر)، وصادق عزيز، ومتى المسكين[٣٦] والحاصل أن المسيحيين المصريين أسلموا:

● لأن الموحدين منهم وجدوا في الإسلام المسيحية التي بشر بها المسيح والحواريون[٣٧].

● ولأن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها، ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته[٣٨].

(٣٣) نقلا عن دكتور حسن محمود أحمد، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، ٢٠٠٦، ص ٨١، ويلاحظ أن الحكومة المصرية توقفت منذ مدة عن نشر نسبة السكان، بحسب الإحصاء، الذي يجري كل عشر سنوات، حيث انتماؤهم الديني. وهذا خطأ يجب أن يتدارك لأن نشر الأعداد الرسمية لأهل كل دين يقطع كثيرا من طرق الفتن التي تعاني منها البلاد بين فينة وأخرى.

(٣٤) بدأت هذه الدعوات في التاريخ المعاصر على لسان القمص سرجيوس سنة ١٩٤٧ عندما كتب أن أرض الإسلام هي الحجاز فقط وليست البلاد التي يعيش فيها المسلمون. مجلة المنارة ١٩٤٧/١٢/٦ والنقل عن محمد عمارة، الفتنة الطائفية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٩، ص٤٧.

(٣٥) المصدر السابق، ص٤٧ - ٥٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص٨٥ - ٩٦.

(٣٧) محمد عمارة، السابق، ص٧٦، نقلا عن بتلر فتح العرب لمصر.

(٣٨) الفريد بتلر، السابق، ص٣٨٥.

● ولأن الاضطهاد الروماني للمسيحية المصرية كان قد بلغ مداه حتى نال من المقومات الثقافية والحضارية للمصريين إلى الحد الذي جعل مصر، الوطن والدولة والسيادة واللغة والدين والحضارة - بتعبير محمد عمارة، عندما ظهر الإسلام (سنة ٦١٠م) - فرغًا حضاريًا، فقد قهر فيها الرومان أغلب سمات الانماء وقسماته التي ميزت المصريين عبر تاريخهم العريق فكان هذا الفراغ الحضاري هو العامل الأول والسر الأعظم وراء انخراط مصر في الدولة الإسلامية، ثم في الدين الإسلامي واللغة العربية، والحضارة الإسلامية، على نحو من العمق والشمول نادر الحدوث في غيرها من الأقطار التي فتحها الإسلام... وبذلك استعادت مصر الإسلامية عافيتها الحضارية عندما دخلت في الإسلام[٣٩].

● ولأن تصرف المسلمين الفاتحين كان تصرفًا كريمًا يطمئن الناس إليهم ويحببهم في دينهم الذين يحملهم على هذه التصرفات. ومن أكثر ما بين ذلك أن جماعة من قبط الوجه البحري جاءوا إلى عمرو بن العاص - بعد قيادته الجيش الإسلامي ضد منويل الخصي ومن معه - وأخبروه بما فعله الروم في قراهم من نهب وسلب، وقالوا له «كان لنا أن نقاتل عنا لأنا في ذمتك وقد أصابنا من وراء ذلك ما أصابنا». يقول بتلر «كانوا على حق في شكواهم لكن قلما تجد من الفاتحين من يعبأ بمثل تلك الشكوى، لكن عمرا ندم، وقال لهم: «يا ليتني كنت لقيت الروم حين خرجوا من الإسكندرية»، وأمر بتعويض القبط عما فقدوه من أموالهم. ولم يكن ذلك - في تعبير بتلر - إلا دالا على «ما كان عليه عمرو من حسن الرأي في الحكم، وما كان متصفا به من نبل الشيم»[٤٠].

● ولأنه لم تظهر في المدة التي أعقبت فتح مصر سياسات عامة من قبل الحاكمين المسلمين، أو إجراءات خاصة، يمكن أن تفسر على أنها موجهة إلى إجبار القبط على ترك عقيدتهم[٤١].

● ولأن بعض المسيحيين كان يرغب في تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية مع المسلمين الفاتحين[٤٢].

● ولأن المصريين لم يشعروا بغربة عن العرب الذين كان الإسلام دينهم «لا لسبب سوى أن العنصر العربي من أصل قاعدي واحد مشترك مع العنصر المصري، فكلاهما أقارب جنسيا منذ ما قبل الإسلام، بل وما قبل التاريخ..»[٤٣].

● ولأن معظم المال الذي يجبى من مصر كان ينفق في مصالحها وعمارة بلدانها

(٣٩) محمد عمارة، عندما دخلت مصر في دين الله، السابق، ص١٦ و١٧.

(٤٠) الفريد بتلر، السابق، ص٤٣٣.

(٤١) أبو سيف يوسف، السابق، ص٦٠.

(٤٢) أبو سيف يوسف، الموضع نفسه.

(٤٣) جمال حمدان، شخصية مصر، الطبعة الموجزة، السابق، ص٣٨، والطبعة الموسعة، ج٢، دار الهلال، ص٢٩٨.

ومرافقها[٤٤]. حتى إن بتلر يقول ـ بعد ذكر سيرة عمرو بن العاص في حكم مصر ـ إن القبط كانوا أجدر الناس أن يأسفوا مر الأسف عندما عزل عنهم عمرو بن العاص[٤٥].

● ولأن الإسلام يجعل لمن يدخل فيه مثل ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ويساويهم في شرف الفاتحين ومكانتهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، ويسهم لهم في الفئ، ولا يفرض عليهم الجزاء[٤٦].

وعلى ذلك كله، وفي ضوئه، نستطيع أن نفهم، ونصدق، عبارة الأستاذ توماس أرنولد: «لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية، حاضرة مصر يومئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[٤٧] وفي ضوء ذلك كله، كذلك، نستطيع أن نفهم محاولة الأخ العلامة الدكتور محمد عمارة للتوفيق بين الرأيين المتعلقين بفتح مصر: أفتحت عنوة أم فتحت صلحا؟ فهو يقول إن مصر الدولة (الحكومة) الرومانية فتحت عنوة، أما مصر الشعب (القبط) فقد فتحت صلحا، لأن أهل مصر دخلوا في الإسلام طواعية واختيارا، والرومان هزموا عسكريا وفروا من مصر فرارا أمام الجيش الإسلامي[٤٨] ومهما يكن من أمر محاولة التوفيق هذه، فإن من الضروري أن نتذكر أن المسلمين الفاتحين تجاهلوا ـ في مصر ـ الفرق بين البلاد المفتوحة عنوة والبلاد المفتوحة صلحا، وعاملوا أهل مصر دائما كما لو كانت مفتوحة صلحا.

ومن الضروري أن نتذكر ـ كذلك ـ أنه لم تسجل حالة واحدة لانتقال مسلم من الذين جاؤوا مع جيش الفتح من الإسلام إلى المسيحية، على الرغم من الأمن الذي تمتع به رجال الدين المسيحي ومن فتح كنائسهم وإعادتهم إليها بأوامر مباشرة من عمرو بن العاص.

وعلى ذلك كله، وفي ضوئه، نستطيع أن نعلم، بل أن نوقن، أن مقولة: «المسلمون ضيوف على الأقباط» أو مقولة «العرب ضيوف على المصريين» كلتاهما مقولة فاسدة في ضوء حقائق التاريخ التي يثبتها المؤرخون المصريون وغير المصريين، المسلمون وغير المسلمين. هذا لمن أراد الإنصاف فأحبه، وأراد العلم فطلبه. أما سواهم من أهل الهوى والعصبية الطائفية وصناع الفتنة فسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

«يتبع»

(٤٤) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، القاهرة ٢٠٠٩م، ص٨١.

(٤٥) ألفريد بتلر، السابق، ص٤٠١.

(٤٦) ألفريد بتلر، ص٣٤٣.

(٤٧) الدعوة إلى الإسلام، السابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤ والنقل عن محمد عمارة، الفتنة الطائفية، ص٧٦.

(٤٨) محمد عمارة، عندما دخلت مصر في دين الله، السابق، ص٤٩.

الفكر المقاصدي وتفعيله في الواقع الثوري المعاصر



للأستاذ الدكتور/ وصفي عاشور أبو زيد

دخلت المنطقة العربية ـ بل العالم كله ـ في واقع جديد، ومرحلة جديدة، تنتقل فيها من حكم الفرد إلى حكم الأمة، ومن الاستبداد إلى الحرية، ومن الدكتاتورية إلى التعددية، ومن تحكيم قوانين البشر الوضعية في واقع الأمة إلى تحكيم شريعة من يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير؛ إذ أشرق عليها ربيع الثورات بجراحات المجاهدين الأحرار ودماء الشهداء الأطهار التي لا تنبت الأرض بدونها إلا الخور والضعف والتقهقر والتخلف.

ولقد كان الداعي إلى قيام هذه الثورات هو استرداد كرامة الحياة والأحياء، ورفض ما يحاك ضد البشر في هذه الأوطان من امتهان وظلم وإفساد ونهب للأموال الخاصة والعامة، والتعدي على الآخرين بغير حق، بما يمثل استردادا لمقاصد الإسلام العليا والحفاظ عليها، فصبّت أهداف هذه الثورات مباشرة في حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، بالإضافة للمقاصد العالية أو المفاهيم التأسيسية مثل: الحرية، والمساواة، والكرامة الإنسانية، والأمن الفردي والجماعي والاجتماعي، وتحقيق العيش الكريم[١]؛ حيث مثّل إهدار مقاصد الشريعة السبب المباشر لإشعال الثورات العربية في المنطقة كلها[٢]، فكانت هذه الثورات المعاصرة في خدمة المصالح والمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية.

وينبغي ألا تغيب عنا هذه الغايات في حراكنا العملي الواقعي المتمم للثورات، سواء في البلاد التي لا زالت تتلظى بنيران المستبدين، أو تلك البلاد التي تخلصت من فراعنتها، وما زلنا في طريقنا لتكميل أهداف ما قمنا من أجله على الوجه الذي يحقق مراد الله منا في هذه الحياة.

أقول هذا بمناسبة الأجواء "الرمادية" التي تحيا فيها أوقاتا كثيرة في بعض البلدان التي قامت فيها ثورات؛ حيث نرى مساحات وأوقات ضبابية لا تتضح فيها الرؤية، وتغيب فيها "البوصلة" بفعل المكائد والمؤامرات التي يحيكها أذناب الأنظمة الطاغية الظالمة، والتي ليس من السهل عليها ترك مناصبها ومكاسبها التي

(١) راجع: الثورة المصرية بنظرة مقاصدية، وصفي عاشور أبو زيد، على موقع أون إسلام:
www.onislam.net/arabic/madarik/culture-ideas/128881-egyptian-revolution.html//:http

(٢) راجع تحقيقا على موقع أون إسلام بعنوان: إهدار مقاصد الشريعة أشعل الثورات العربية، على هذا الرابط:
www.onislam.net/arabic/madarik/culture-ideas/130019-arab-revolutions.html//:http

كانت تتمتع بها في غيبة من وعي الأمة، وحسبنا أن الله تعالى عبّر عن ذلك بكلمة "ينزع" الملك، في قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

(آل عمران: ٢٦)

وفي ذلك من دلالة التمسك بالملك والحرص عليه ما لا يخفى.

وفي هذا من الآثار السلبية ما فيه؛ حيث يصاب كثير من قطاعات المجتمع بالإحباط، وتداهمهم مشاعر الريبة والشك، ويخامر خواطرهم وهواجسهم ظنونٌ وأحاديثُ نفس وخاطر بالندم على ما جرى، ولا شك أن هذه المشاعر والهواجس كلها قاصرة لا ترقى إلى أن تضع نفسها في مرتبة الوعي بالتاريخ والواقع، ولا أن تكون قادرة على ملاحظة الغايات والمقاصد العليا التي قامت من أجلها هذه الثورات.

إن الغايات التي قامت الثوراتُ من أجلها، وقدمت الأمة من الشهداء والجرحى ما قدمت، لا يصح -بل لا يجوز- أن تغيب عن الوعي الجمعي في المجتمع، فينبغي أن تُظلِّل تحركاته، وتؤثر في اختياراته، وتنظم سيره، وتضبط حركته؛ ليكون سيره وفكره على هدى ونور:

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الملك: ٢٢)،

وذلك لأن في رعاية الفكر المقاصدي وتفعيله آثارًا وفوائد بالغة الأهمية والدقة والخطورة، ونذكر منها ما يلي:

١- رعاية المقاصد تضبط الرؤية وتقوم الاختيارات:

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن نراعي المقاصد التي قامت من أجلها الثورات؛ لأن في اعتبارها وتفعيلها ورعايتها ضبطًا للرؤية؛ حيث تعصم العقل الجمعي من الوقوع في براثن التخبط ومهاوي التشتت وضبابية الرؤية؛ وذلك لأن التعلق بالهدف واستحضاره دائمًا يضمن صحة الاختيارات، وصوابية التصور، ويتحكم في الاختيارات التي نختارها، ويضبط المسار الثوري دون ميل عنه أو حيد إلى جهة اليمين أو الشمال.

فلا يمكن لراعي المقاصد وملاحظها أن يختار اختياراً خطأ، أو يستمر مع اختيار خطأ إن وقع دون تصحيح وتقويم بحيث يستقيم الاختيار مع الهدف الموجود والقصد المرصود؛ لأن ملاحظة المقصد تصحح استخدام الوسائل وترشد الاختيارات وتقوم الرؤية وتضبطها في مسارها الثوري الصحيح.

٢- رعاية المقاصد توحد الصف وتسرع في تحقيق النتائج:

ومن الفوائد المهمة في تحكيم المقاصد في الواقع الثوري -وكل واقع وكل فكرة وكل عمل ونشاط- أنها توحد الصف الثوري، بل الصف الدعوي والعملي؛ لأننا متى اتفقنا على الهدف فلن يكون بيننا خلاف؛ إذ غياب الهدف أو المقصد يحل محله النزاع والخلاف وسعة الفجوة والهوة بين التيارات، ويحل محل الهدف الأهواء الشخصية، والمآرب الحزبية، والمصالح الذاتية، والفتنة الطائفية، ويدور كل فريق حول تحقيق مصالحه الخاصة دون اعتبار للمصلحة العامة التي يجب أن تقدم وتُصدَّر، ويكون لها الاهتمام، وعليها التركيز بعيدا عن تحقيق المآرب الشخصية واتباع الهوى.

كما أن من شأن استحضار الغايات والمقاصد دائما أن يعمل على تحقيق النتائج والأهداف المرصودة بأقل جهد وأقل تكلفة وأسرع وقت؛ إذ الذي يغيب عنه هدفه يتخبط هنا وهناك، ويصبح فريسة لسُبل الشيطان وطرق الأبالسة من الجن والإنس، ويضل ضلالا بعيدا، وقد قال الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

وعن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال: "هذه سبل -قال يزيد- متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

إن الذي يسير في طريق وعينه على نقطة الانتهاء يختلف اختلافا كبيرا وجذريًا عن الذي يسير على غير هدى ولا هدف ولا مقصد، الأول سيختصر المسافات، ويصل إلى غايته في أقرب وقت وبأقل جهد ومال، والثاني ستتخبطه السبل في مهاوي الشياطين، ويصبح فريسة للجزئيات والجدال والتنازع الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح:

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٤٦).

٣- رعاية المقاصد تحفظ النسيج الاجتماعي وتحول دون الاستقواء بالخارج:

ومن أهم الفوائد التي تتحقق برعاية المقاصد في واقعنا الثوري المعاصر أنها تعمل على حفظ النسيج الوطني والاجتماعي من التحلل والتفسخ والاهتراء؛ إذ إن تحكيم الأهداف العليا والمقاصد الكبرى والمفاهيم التأسيسية يحفظ القوى الوطنية السياسية، والنخب الثقافية من التنازع، كما أن ذلك يقضي على النعرات الطائفية التي نراها في بعض البلدان التي تجري فيها ثورات، وهذه النعرات هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق المجتمع، وتهدد استقراره، وتبدد سلامته، ويحل التنازع والفرقة والخلاف والتشرذم محل التفاهم والتعاون والوحدة.

كما أن رعاية أهداف الثورة تحمل أصحابها على حفظ أمن المجتمع وسلامته، وأن تكون مناعة ضد أي تدخل خارجي طامع، وإنما تأتي عمليات الاستقواء بالخارج -وهي خيانة دينية

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦/٤٣٥ طبعة مؤسسة قرطبة، القاهرة، وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن".

ووطنية وسياسية - حين يغيب الهدف، وتتحكم الأطماع الشخصية والمصالح الذاتية المحدودة التي لا ترى لا ذاتها، ولا تنظر إلا تحت أقدامها.

وهذا سبب كبير لما نراه في بعض البلاد التي سقطت أنظمتها الطاغية الظالمة؛ حيث تتعدد الرؤى، وتتنوع الأهواء، وتتباين المصالح الشخصية، وتتعارض المآرب الحزبية؛ فيحدث الصدام، ويكون الصراع، ونسمع بقوى غير وطنية تنادي بتدخل الغرب الطامع في بلادنا؛ ليبني أمجاده ويحقق أطماعه على سُلّم الجماجم وآلام الجرحى ودماء الشهداء!.

٤- رعاية المقاصد تعين على التحديد الصحيح للمآل:

من الأمور الخطيرة وبالغة الأهمية في تصرفاتنا جميعاً أن نراعي المآل الذي سيؤول إليه الفعل أو التصرف، وإذا كان هذا في التصرفات والأفعال العادية خطيراً، فإنه يبلغ من الخطورة منتهاها إذا كان في واقع ثوري كالذي تحياه الأمة اليوم.

فكم من مصيبة حدثت وكان سببها عدم رعاية المآل، وكم من أرواح أزهقت، ودماء سالت، وجراح جرحت، لو راعينا مآل فعلنا أو نتيجة تصرفنا لما وصل الحال إلى ما وصل إليه؛ ولهذا فإنه من الذكاء والفطنة وتمام الحكمة أن ننظر إلى مآل الفعل قبل اختياره والتلبس به.

ولقد تنبه الإمام الشاطبي لخطورة المآلات وأهمية اعتبارها فقال في كلام مفصَّل منضبط:

"النظر في مآلات الأفعال مُعتَبر مَقصُودٌ شَرعاً، سواءٌ كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أنّ المجتهد لا يحكم على فعلٍ من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلاّ بعد نظرِه إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تُستَجلَبُ، أو لمفسدة تُدرأ.. ولكنّ له مآلاً عَلى خلاف ما قُصِد فيه. وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكنّ له مآلاً على خلاف ذلك، فإذا أُطلِق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية. وكذلك إذا أُطلِق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصحّ إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجالٌ للمجتهد صَعبُ المَورِد، إلا أنه عَذبُ المذاق، مَحمُودُ الغِبّ، جارٍ على مقاصد الشريعة"[٤].

٥- رعاية المقاصد تضبط الموازنة بين المصالح والمفاسد:

ليس الفقيه من عرف المفسدة من المصلحة، وإنما الفقيه هنا من جلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أكبر المفسدتين بارتكاب أخفهما.

ومن الفوائد المهمة التي نستثمرها من تفعيل المقاصد في الواقع الثوري المعاصر، وكل واقع، أنها تضبط الموازنة في الاختيار بين المصالح بعضها وبعض، وبين المفاسد بعضها وبعض، وبخاصة أن

(٤) الموافقات: ٥/ ١٧٧-١٧٨ تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

واقع الثورات يحكمه - في أغلب أحكامه واختياراته - مبدأ المصلحة والمفسدة، فبتحكيم المقاصد ورعايتها في التفكير والحركة والاختيار يمكننا أن نختار المصلحة ونرفض المفسدة، ونختار أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وندفع أعظم المفسدتين بارتكاب أخفهما.

وهذا ما تواتر القول به في ضوء فهم نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة عند العلماء الذين أفاضوا في الحديث عن هذا، مثل: ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد السلام، والشاطبي، وغيرهم[٥].

فالواقع الثوري المعاصر وغيره لا يخلو من مصالح ومفاسد، ومن وجود مصلحتين، ومن وجود مفسدتين في كل اختيار وكل قضية، فنجلب المصلحة وندفع المفسدة، ونحصل أعظم الخيرين، وندفع شر الشرين.. والذي يحكم ذلك هو اعتبار المقاصد وتفعيل الفكر المقاصدي، فملاحظته تبين أي المصلحتين أكبر فنحصلها، وأي المفسدتين أقل فنرتكبها.

٦- رعاية المقاصد تحدد الأولويات "ما يقدم وما يؤخر":

لكل واقع أولوياته، ولكل مؤسسة وكيان وهيئة ما يجب أن يقدَّم وما يجب أن يؤخَّر، وإن الناظر في أحكام الإسلام، وفي كل مجالاتها وأبوابها الفقهية والخلقية والعقدية يجد فيها الأهم والمهم، والواجب والفرض، والمندوب والمستحب، والمكروه والمحرم وهكذا.

ولقد قرر القرآن الكريم أن الأعمال ليست سواء؛ قال سبحانه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾

(التوبة: ١٩)

وجعل النبي ﷺ الإيمان شُعباً، منها أعلى ومنها أدنى، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٦].

ومن الفوائد الجليلة التي تؤديها رعاية المقاصد في كل عمل وكل قول أنها تضبط مسار اختيار الأولويات، فقد نختلف على تصرف أو عمل ما في واقع معين أنه الأولى الآن، أو هو واجب الوقت، ولكن حين نستحضر المقاصد ونستدعي الغايات ينضبط الميزان وتصح الموازنة، ونختار التصرف الأولى وفق التصور المقاصدي الذي يرشحه الواقع ويضبطه الشرع.

فمتى أدرك الشاب أولويات دينه، وأولويات واقعه فلن يقدم على أعمال ليست من واجب الوقت؛ فضلاً عما من شأنه أن يزعزع أمن المجتمعات مثلاً، ويهدد سلامتها، ويسفك دماءها، أو يؤخر عملية الإصلاح والبناء.

(٥) راجع مثلاً: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٠/ ٤٨، و٢٩/ ١٦-١٧، و٢٦/ ٩٢، وإعلام الموقعين: ٣/ ١٦٣، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ٣، و٢/ ٧٥.

(٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان.

الحفاظ على المرافق العامة واجب شرعى

للمستشار/ حسن حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

من الحقائق التى يقررها علماء الاجتماع، أن الإنسان كائن اجتماعى بطبعه، أى أنه لا يستطيع أن يعيش بمفرده، بل هو يعيش مع غيره، سواء من بنى جنسه، أو من المخلوقات الأخرى، وهو فى هذه الحياة لا يملك وحده كل شىء، بما يفرض عليه استعمال أشياء كثيرة، لا قدرة له منفردا على ملكيتها، سواء أكانت هذه الأشياء عامة بطبيعتها، كالماء والهواء والبحار والأنهار وغيرها، أو كانت عامة من صنع الإنسان كالمرافق، التى ينشئها ليستفيد منها جميع أفراده، ونظرا لأهمية هذا الأمر، باعتباره أمانة شرعية، بمقتضى قول الحق تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾

(الأحزاب: ٧٢)

بل هى واجب شرعى أصيل فإننا نعرض له بالبيان، وذلك من خلال النقاط الآتية:

أولا: ماهية المرافق العامة:

والمرافق العامة متعددة الأشكال والأنواع، فهى ليست قاصرة على ما تملكه الدولة منها، كالطرق والمدارس والمستشفيات والحدائق العامة وغيرها، بل تشمل كل شىء مخصص لاستعمال الكافة، أيًا كانت الجهة المالكة له، ولو كانت هذه الجهة فرداً من آحاد الناس أو جماعة منهم؛ لأن العبرة ليست بخصوصية الملكية، ولكن بعموم الانتفاع بهذه المرافق، ويدخل فى ذلك البيئة بصفة عامة، التى تحيط بالإنسان فى حياته، ويتعامل معها فى كل زمان ومكان.

ثانيا: واجب المحافظة على هذه المرافق:

وهذا الانتفاع يقتضى قيام علاقة خاصة بين هذه المرافق والمنتفع بها، قوامها السلامة والمحافظة عليها، وذلك فى إطار المبدأ العام فى حياة المسلم، والذى يقرره الرسول الكريم ﷺ، فى تحديد أهم خصائص المسلم، بقوله الشريف الذى رواه مسلم بسنده عن جابر ـ رضى الله - عنه: «المسلم من سلم المسلمون (وفى رواية: الناس) من لسانه ويده»، والسلامة هنا لا تقف عند حد سلامة الأشخاص، بل تتعداهم إلى سلامة ممتلكاتهم، الخاصة منها والعامة، ومن بينها المرافق العامة.. ونلحظ فى هذا الحديث أن استعمال كلمة المسلمين، تفيد أن السلامة لا تقتصر على كل فرد مسلم على حدة، بل تشمل مجموع المسلمين، وكما فى الرواية، تشمل جميع الناس، أيًا كان دينهم أو جنسهم، وما لهم من ممتلكات عامة، وهذه السلامة كما تكون بعدم استعمال اليد، بالاعتداء على المرفق العام، تكون بكف اللسان عن التحريض، ولو بالكلمة على هذا العدوان.

وأيضاً تكون بالمحافظة عليها من وقوع أى اعتداء، يؤدى إلى هلاكها، أو تخريبها أو التقليل من الانتفاع بها، وأيضا يكون بصيانتها لتحسين أدائها، لزيادة الانتفاع بها، وقد ضرب لنا الرسول الكريم ﷺ مثلا، لإحدى صور تخريب أحد المرافق العامة، وذلك فيما رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين فى أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا».

ويؤخذ من هذا الحديث أنه يجوز لولاة أمر المسلمين، أن يراعوا حسن استخدام الرعية للمرافق العامة، والضرب على يد من يعتدى عليها منهم، رعاية للمصلحة العامة فى المجتمع المسلم، ومن هنا كان تدخل الدولة فى وضع العقوبات المناسبة، لجرائم الاعتداء على المرافق العامة، تلك العقوبات التى قد تصل إلى السجن المشدد، كما هو الحال فى جرائم سرقة الأجهزة والمعدات المستعملة فى وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، وفى خطوط المياه والكهرباء والسكك الحديدية وغيرها من المرافق العامة.

ومن التوجيهات النبوية فى كف الأذى عن المرافق العامة، ما رواه أبو داود والإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال فى بيان حق الطريق العام: «إياكم والجلوس على الطرقات، فإن أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟، قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر».. وما رواه الحاكم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «اتقوا الملاعن الثلاث: وضع الأذى

فى كل من: الموارد «وهى مناهل المياه»، وقارعة الطريق، والظل».

ثالثا: تكريم من يحافظ على هذه المرافق:

ومن الحوافز التى يقررها الإسلام، لمن يحافظ على المرافق العامة، أن ينال التقدير من القائمين على شئون هذه المرافق، سواء كان هذا التقدير ماديا أو معنويا، ومن أمثلة هذا التقدير المعنوى، ما رواه بعض أصحاب السنن، من أن امرأة عجوزا، كانت على عهد الرسول ﷺ، كانت تقم «ترفع منه القمامة» المسجد النبوى الشريف، فغابت حينا من الدهر، فسأل ﷺ عنها، فأخبروه أنها توفيت، فطلب من الصحابة أن يدلوه على قبرها، فذهب إليه وصلى عليها، ودعا لها، جزاء ما كانت تصنعه من المحافظة على بيت من بيوت الله، يرتاده المسلمون لأداء شعائر الصلاة، التى هى عماد الدين، ويقاس على ذلك كل مرافق خدمة عباد الله أجمعين، ولاسيما إذا كانوا داخل وطن واحد.

رابعا: الحق فى بيئة نظيفة:

إن من أهم حقوق الإنسان، التى أصبحت الآن أكثرها إلحاحا فى رعايتها، حقه فى بيئة نظيفة، لما لهذه النظافة من أهمية خاصة فى حياة الفرد والمجتمع، وقد حض الإسلام الحنيف عليها، فيما رواه الترمذى بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله تعالى طيب، يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود».

فإذا كان الله تعالى الطيب، بهذه الصفات من الكمال، فيكون من مقتضى الإيمان بالله تعالى، وجوب الإيمان بهذا الاسم وهو الطيب، ومن ثم كانت النظافة، ومنها إماطة الأذى عن الطريق، من الإيمان، وقد أوضح الرسول ﷺ ذلك بقوله، الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه: «الإيمان بضع وسبعون بابا، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله».

ولا يقتصر الحفاظ على البيئة على النظافة وحدها، بل تتعداها كل أنواع إزالة الضرر والأذى من المكان الذى يعيش فيه الإنسان، كمسببات التلوث الصوتى والإشعاعى والحرارى، وغيرها من ملوثات الماء والهواء، والجار هو أولى الناس بالتمتع بهذه البيئة النظيفة.

بل إن هناك علاقة وثيقة بين الدعاء والحفاظ على البيئة: وذلك كما فى قول الحق تعالى:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف: ٥٥، ٥٦)

فقد طلب رب العزة تعالى من عباده أن يتوجهوا إليه بالدعاء، وهم على حالتى، التضرع والخيفة، وأيضا وهم فى حالتى:

الخوف والطمع، وهذه الأحوال خاصة ومتصلة بشخص الداعى ذاته، وقد يقصر الدعاء على نفسه، فلا يستفيد منه الغير، ولكن المعنى العظيم الذى يشير إليه هذا القول المحكم، هو أن الله تعالى، اشترط لقبول هذا الدعاء، أن تتحقق مصلحة لغير الداعى، وهى المحافظة على صلاح الأرض، كما أوجدها الله تعالى نافعة لجميع المخلوقات:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

خامسا: دور القانون فى توفير البيئة النظيفة:

وإذا كان الأصل أن الإنسان يتمتع بكامل الحرية فى مباشرة كافة سلطاته على ملكه، فله مثلا: أن يقيم على أرضه ناطحة سحاب، إلا أنه خروجا على هذا الأصل، وتحقيقا لمصلحة الجار، كان لابد من تقييد هذه الحرية، إذا ترتب على ممارستها إلحاق أى نوع من الضرر بالجار، كمنع الهواء أو الضوء عنه، فإذا تطاول الجار فى البناء، إلى الدرجة التى تتسبب فى هذا الضرر، فإنه يكون متعسفا فى استعمال حقه، ويجوز للقاضى فى هذه الحالة وقف هذا التعسف، بإزالة دواعى الضرر، كهدم الأدوار المرتفعة بغير الطريقة المألوفة.

وقد أخذ المشرع القانونى بما ورد فى قول الرسول الكريم ﷺ: «ولا ترفع بناءك فوق بنائه، فتحجب عنه الريح»، ما يعرف لدى فقهاء القانون: بنظرية التعسف فى استعمال الحق، فنص فى الفقرة الأولى من المادة ٨٠٧ من القانون المدنى على أنه: «على المالك ألا يغلو فى استعمال حقه، إلى الحد الذى يضر بملك الجار».

ولم يقتصر دور القانون فى الحفاظ على البيئة، على ما ورد فى القانون المدنى وحده، أصدر المشرع القوانين المتعددة التى تعمل على تحقيق هذا الغرض النبيل، منها قانون النظافة العامة، وقانون مكبرات الصوت، وقانون المحلات الصناعية والتجارية، بل وضع قانونا متكاملا لهذا الغرض وهو قانون البيئة رقم ٤ لسنة ١٩٩٤، وبمقتضاه تم إنشاء جهاز ووزارة شئون البيئة.

سادسا: دور الفرد والجماعة فى الحفاظ على هذه المرافق:

مما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد، أنه إذا كان من الظواهر المحمودة، التى تصاحب قدوم المناسبات الدينية الجليلة، تزاحم المسلمين على المساجد؛ لأداء الصلوات المكتوبة والسنن والنوافل، مثل صلاة التراويح فى كل ليلة من شهر رمضان المبارك وغيرها، إلا أنه فى السنوات الأخيرة، برزت مشكلة ناجمة عن زيادة أعداد المصلين المترددين على هذه المساجد، بدرجة أدت إلى أنها تضيق بهم، مما جعلهم يفترشون الطريق العام لأداء هذه الصلوات، حتى يصل الأمر إلى غلق بعض الطرقات المحيطة ببعض هذه المساجد، مما ترتب عليه التضييق على المارة من مختلف الناس، أيا كانت دياناتهم

وسنهم وطبيعة أعمالهم، ووسائل الخدمة العامة، بما ينذر بأخطار جسام قد تلحق الكافة، كإعاقة سيارات الإسعاف والإطفاء والنجدة عن القيام بمهامها الإنسانية.

والأصل المقرر في الشريعة الغراء أن بيوت الله في الأرض المساجد، وهي الأماكن المخصصة لأداء الصلوات المكتوبة والأغراض الإسلامية الأخرى، وإذا ضاقت بمن فيها، فهناك أحكام شرعية يجب مراعاتها، في التعامل مع الأملاك المجاورة لها، ولاسيما إذا كانت من الأملاك العامة، كالطرق والحدائق والمرافق العامة وغيرها، وقد ذكر فقهاء المذهب الحنفي، فيما يخص الطريق العام: أنه إذا بنى قوم مسجداً، واحتاجوا إلى مكان ليتسع، فأدخلوا شيئاً من الطريق في المسجد، وكان ذلك لا يضر بأصحاب الطريق جاز ذلك، وإذا كان يضرهم فلا يجوز.

وذلك فقد ورد النهي الصريح، من الرسول ﷺ عن الصلاة في الطريق العام، بما يتسبب في التضييق على الناس، فقال فيما رواه البيهقي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ، قال: «إياكم والتعريس (أي النزول آخر الليل للنوم وغيره) على جواد الطريق (جمع جادة أي معظم الطريق والمراد نفسها)، والصلاة عليها، فإنها مأوى الحيات، والسباع، وقضاء الحاجة عليها، فإنها الملاعن (أي الأمور التي تحمل على اللعن والشتم)».. وأيضاً روى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ، قال: «سبع مواطن لا تجوز فيها الصلاة: ظاهر بيت الله «سطح الكعبة»، والمقبرة، والمزبلة، والمجزرة، والحمام، وعطن الإبل، ومحجة الطريق (أي وسطه ومعظمه)»، والصلاة المقصودة هنا، هي المفروضة، ومن باب أولى صلاة السنن والنوافل.

ولكن إذا كانت هناك ضرورة توجب الخروج عن الحدود المعتادة للمسجد، فعلى القائمين عليه التعامل مع هذه الضرورة بقدرها، وعدم التوسع فيها بما يضر بالآخرين، لأن من المبادئ المستقرة في شريعة الإسلام أنه: لا ضرر ولا ضرار، ولو كان ذلك بسبب العبادة، وأن من موجبات قبول الصلاة، كما قال الرسول ﷺ، رواية عن ربه: «إنما أتقبل الصلاة من... ولم يستطل بها على خلقي».

ومن هنا فإن المسئولية الملقاة على عاتق الأسرة، والمدرسة ووسائل الإعلام، تفرض عليهم حسن توجيه جميع أفراد المجتمع، إلى تبني ثقافة السلامة في التعامل مع المرافق العامة، التي يترددون عليها، ويستفيدون منها، كالحدائق العامة ووسائل المواصلات العامة، ومعاهد العلم وغيرها، والحفاظ على البيئة، وأن تغرس في نفوسهم، حب هذه الأشياء، وجعلها في منزلة الملكية الخاصة، واعتبار ذلك من مقومات الانتماء إلى الوطن، ومردود كل هذا يعود بالخير على الجميع.

والله تعالى ولي التوفيق..

من عيون التراث

تسلية أهل المصائب

تأليف:
الحنبلي أبي عبدالله محمد بن محمد
(٧٨٥هـ)
صححه وأعد فهارسه:
السعيد المندوه

القاهرة: دار الكتبي، الطبعة الأولى

عرض الكتاب:

يقع هذا الكتاب في (٢٦٠) صفحة من القطع المتوسط، ويتكون من ثلاثين باباً. يختص كل باب منها بأحد الأمور المتعلقة بالإصابة بكرب ما، وما ذكر في كل نوع من أنواع هذه المصائب والكروب، وكيف للمؤمن أن يتعامل مع الكروب، والأجر الذي ينتظره نظير صبره على ما وقع به.

فيشير الباب الأول إلى المصيبة وحقيقتها، وما أعد الله لمسترجعها، وكيف أن الله يكافئ من يتحمل المصائب ويصبر عليها ويجازيه من عنده. ويكمن تمكين أهل المصاب وعلاجه في اعتناق أفكار عقلانية Rational Thoughts (ص٢٢) تجعله يؤمن أن ما كان يصيبه لم يكن ليخطئه. وأن ينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسوله، وأن كلمات الاسترجاع «إنا لله، وإنا إليه راجعون» يؤجره الله عليها، ويخلف عليه.

كما أشار إلى أن الرضا satisfaction (ص٢٤) هو تقبل ما أصيب به، والإيمان بأنه كان سيصيبه حتى وإن اعترض عليه، وأن يعلم أن ما وقع قد وقع برضى المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضي به له الله.

كما أشار إلى التأسي بأهل المصائب، وأنه لا يوجد من يخلو من المصائب والمحنة. والنظر في حال من ابتلي أكثر من هذا أو يمتل هذا البلاء؛ ذلك أن التأسي راحة عظيمة.

وأهمية معاتبة النفس عند الجزع أي إجراء حوار مع النفس، لتفسير وتوضيح ما وقع لها، وتقبله على هذا الأساس.

وأشار الكاتب إلى أن بعض الصحابة كانوا

يتمنون أن تحل عليهم المصائب ويطلبونها لما لها من جزاء عند الله؛ كطلب فقد الولد؛ لأنه يستقبل والديه يوم القيامة ليسقيهم شربة ماء.

أما الباب الثانى فى البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء فى ذلك، فلم ينه الرسول ﷺ عن بكاء العين والقلب، أما البكاء الذى يصاحبه العويل والصراخ فهو ما نهى الرسول عنه.

ويشير الباب الثالث والمتعلق بتحريم الندب والنياحة وشق الثياب، وقد اختلفت الأحاديث فى هذا الشأن، إلا أن عديداً منها أشار إلى أن الميت يعذب فى قبره بنياح أهله وندبهم عليه.

تناول الباب الرابع والذى ذكر فيمن فقد ثلاثة من الولد فأكثر أن له الجنة، كما أنه يحفظ من النار وتعمه رحمة الله. كذلك وردت أحاديث فى أن جزاء من مات له أربعة أولاد الجنة.

وجاء الباب الخامس فيمن أصيب بفقد ولدين. فورد فى الكتاب والسنة أن هؤلاء الصغار فى الجنة، وأن من صبر على فقد ولديه يجزيه الله الجنة.

كما وردت أحاديث فى الباب السادس فيمن فقد ولداً واحداً. وأجمعت الأحاديث فيمن كانت مصيبته فى فقد أحد أبنائه أن جزاءه الجنة، وأن صغاره ينتظرونه فى الآخرة ليسقونه شربة ماء وذلك فى حالة أن كان حال أهلهم فى الدنيا الصبر على مصيبتهم. وأشار الكاتب فى ظل هذا الأمر إلى كيفية التعامل مع من مات لهم ولد، وكيف لهم أن يتأسوا بمن أصيب بمثل مصيبتهم.

أما الباب السابع فجاء فى ذكر السقط وثوابه، وزيارة القبور. وأن السقط أيضاً يورد أهله الجنة، إذا احتسبوه عند الله. كما ذكرت أحاديث فى فضل زيارة القبور للوعظ والتذكر مع عدم الصلاة، أو الجلوس عليها.

وجاء الباب الثامن فى ذكر تطييب خاطر الوالدين على الأولاد. وقصد بتطييب خاطر الوالدين مساندتهم support (ص١٠٢ - ١٠٤) والتخفيف من مصيبتهم. كما ألمح هذا الباب إلى أن موت المواليد على الفطرة يعنى موتهم على ما خلقوا وجبلوا عليه من التوحيد والإسلام، يكون جزاؤه السعادة فى الآخرة، واستحقاق دخول الجنة بلا عمل عملوه، ولا خير قدموه بل برحمة الله عليهم.

ويتحدث الباب التاسع عمن مات له طفل رضيع فى أنه يكمل رضاعه فى الجنة، وأورد هذا الباب الأحاديث المؤيدة لهذه المقولة.

أما الباب العاشر والخاص بالصلاة على كل مولود مسلم والدعاء لوالديه. فيذكر أنه يصلى على الطفل الميت، وأنه من الخير الدعاء لوالديه، كما أنه يصلى على السقط إذا أكمل أربعة أشهر فى الحمل؛ لأن الروح تكون قد نفخت فيه عندئذ.

وفى باب استحباب اصطناع الطعام لأهل الميت (الباب الحادى عشر). يهتم الكاتب بالإشارة إلى بعض مظاهر المساندة الاجتماعية social support (ص١١٤، ١١٥) ومنها إعانة أهل الميت، وجبر قلوبهم، وذلك بمساعدتهم فى شئون منزلهم.

ويذكر الباب الثانى عشر الذبح عند القبور وكراهة صنع الطعام من أهل المصيبة. فبينت الأحاديث المذكورة فى هذا الباب أنه لا عقر فى الإسلام؛ فالذبح على القبر مكروه، كما أن صنع أهل الميت طعاماً للناس مكروه أيضاً.

أما الباب الثالث عشر فيذكر الثناء الحسن على الميت، وذكر محاسنه، والسكوت عن مساويه. وجاءت فيه الإشارة إلى أهمية الثناء على الميت وذكر محاسنه، والكف عن ذكر مساوئه وأذيتهم بما كانوا عليه من سوء فى حياتهم.

وتظهر لنا مرة أخرى المساندة الاجتماعية (ص١٢٥) فى الباب الرابع عشر والذى يدور حول فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وأن من مظاهر المساندة تعزية أهل الميت وتسليتهم عما ابتلاهم به الله بأنه من أمة محمد، وأن الرسول سيكون أول شافع له وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة.

أما الباب الخامس عشر فى استحباب التعزية لأهل المصيبة، والدعاء لميتهم. فسرد الكاتب عدداً من الأحاديث والمواقف المذكورة فى شأن ألفاظ التعزية المختلفة، وجميعها تشير إلى تشبيه من أصيب بموت حبيب له بعطية أعطاها الله عبده فترة من الزمان ثم استردها، فكيف للعبد أن يحزن عليها.

ويشير الباب السادس عشر فى وجوب الصبر على المصيبة، أن الصبر على المصيبة هو مفتاح التعامل معها؛ لأن المصيبة تزعزع القلب عند وقوعها، ولكن إن صبر المؤمن عليها صغرت مصيبته واستهانت واستطاع تحمل عواقبها.

وقد أورد عديد من الأحاديث والآيات القرآنية فى الصبر على المصيبة الواردة فى الباب السابع عشر وأوضحت هذه الآيات والأحاديث كيفية الصبر على المصيبة، وكيف أن هذا الصبر خير للمؤمن.

ويهتم الباب الثامن عشر بالشخص الذى لا يستغنى عن الصبر ولا فى المصيبة ولا فى غيرها، فيشير الباب إلى أهمية الصبر من خلال أداء العبادات، واجتناب المعاصى والمساوئ، وأهمية الصبر على الضراء. وأشار الكاتب إلى أن النفس مطبوعة على محبة الفطر، ولذلك يأتى الصوم ليكيف النفس على ذلك Adapt (ص١٥٣) كما ورد أن الصبر على السراء مشقة على النفس، أى يمثل شكلا من أشكال المشقة Stress(ص١٥٣) لأنه مقرون بالقدرة على ما تشتهيه النفس وتميل إليه.

أما الباب التاسع عشر فيشير إلى أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس، وأن المشقة تكمن فى الامتناع عن كل شىء يوجب إظهار الحزن على المصيبة (ص١٥٩).

وجاء فى الباب العشرين فى الرضا بالمصيبة ذكر الرضا Satisfaction(ص١٦٢)،

وكيف له أن يجلب راحة البال لصاحبه، لأنه يعني تقبل الأحداث والأمور التي تتغير من حوله دون أن تثير انفعالاته.

ويهتم الباب الحادي والعشرون بما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما، فورد في قول الرواة «من بث لم يصبر» وهي إشارة إلى الشخصية التي تفتقد القدرة على التحمل وتميل إلى الشكوى.

وأشار إلى أن العكس من الصبر والرضا الهلع panic (ص١٧٦)، وتعني به الإصابة بالخوف الشديد غير المبرر.

ويشير الباب الثاني والعشرون والخاص بالإجابة عن تساؤل: هل المصائب مكفرات أم مثيبات، فكانت الإجابة أن المصائب والأوجاع تكفر عن الذنوب والخطايا. وأشار ابن تيمية إلى أن كل ما تولد عن عمل الفرد الصالح من المصائب أثيب عليه، بخلاف المصائب التي لم تتولد عن عمله، فإنها مكفرات لا مثيبات.

أما حول الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه المذكورة في الباب الثالث والعشرين، فمن المستحب التصدق عن المصاب والقيام بأعمال بر عنه، ذلك أن الدعاء والاستغفار، والصدقة عنه، وقضاء دينه وأداء الواجبات عنه تصل إليه.

ويشير الباب الرابع والعشرون في ذكر عمارة القبور فتكون بالصدقة عن ساكنيها، وأفعال القرب منه، وليس بتجميل القبر وتزويقه بل الأخذ في الاعتبار أن أول منازل الآخرة هو القبر، ولكونه يمثل عبرة لأهل الدنيا، فلا ينبغي تزيينه ولا زخرفته وأشار الكاتب إلى أن المؤمن يثبت عند دخوله القبر، وعند البعث، أي أنه يثبت عند السؤال في القبر وعند الحساب في البعث والكافر لا يثبت في الإثنين.

أما الباب الخامس والعشرون في أن الله يثبت الذين آمنوا عند المسألة، فتحدث الكاتب عن اللاشعور Unconsciousness (ص٢٢٣)، وذلك عندما أشار إلى أن الفرد قد يقوم في حالة نومه فيبطش ويضرب في الهواء، أو يدافع عن نفسه، وربما يصرخ بأعلى صوته كأنه يقظان وهو لا شعور له بشيء من ذلك، لأن الروح استعانت بالبدن.

واهتم الباب السادس والعشرون باجتماع الأرواح وهيئاتها، وأين محلها والخلاف في ذلك فاختلفت الآراء حول من يموت: البدن أم الروح، فأشار بعضهم إلى أن البدن يموت كذلك الروح؟! وأشار آخرون إلى أن الأرواح لا تموت وخلقت للبقاء، وأن الأرواح في النعيم أو العذاب حتى بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها. كما اختلفت الآراء في عذاب القبر فهل تعذب الروح أم الجسد أم الإثنين معا، فأشار بعض المتفقهين إلى أن الروح تعذب وتنعم منفردة، وبعضهم أشار إلى أنها تعذب وتنعم مع الجسد، ويرى آخرون أن التنعيم والعذاب للجسد فقط.

كما تطرق هذا الباب لعذاب القبر وأنه حق لا ينكره إلا ضال مضل، فكل من مات

وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، أما ما يختص بالبدن فهو يبلى وما هو إلا آلة تؤذى الروح أو تنفعها.

أما الباب السابع والعشرون فينظر في مسألة عدد الشهداء وفضلهم وأنهم أرفع درجات من الصالحين وأشار إلى فضل الشهداء، وأن من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وأن من يموت بالطاعون أو الغرق أو مبطون فهو شهيد كما أشار الكاتب إلى أن الموت كفارة لكل مسلم وأن على المسلم أن يستعيذ من سبع موتات، الموت المفاجأة من لدغ الحية، ومن السبع، ومن الغرق، ومن الحرق، ومن أن يخر على شيء، أو يخر عليه شيء، ومن الفرار من الزحف.

أما الباب الثامن والعشرون في ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه، وعن الصراط ومن يثبت عليه أشار الكتاب إلى أنه طريق حرج ومسلك شاق وقنطرة مضطربة وعقبة لا تثبت عليها الأقدام، ولا تجوزها الأوهام ولا يثبت عليها إلا من ثبته الله بالقول الثابت.

أما باب ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد في الباب التاسع والعشرين، فيذكر هذا الباب أن من رحمه الله وشمله برحمته، ومات على التوحيد، ومن وجدت في قلبه ذرة من خير فيخرج من النار فمن كان سالما من المعاصي أدخل الجنة، ومن كان له معصية كبيرة ولم يتب منها فهو داخل تحت مشيئة الله، إن شاء الله عذبه بمقدار ذنبه، أو عذبه بالقدر الذي يريده ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه مطلقا، فلا يخلد أحد في النار مات على التوحيد، وأن أسعد الناس بشفاعة الرسول ﷺ من قال لا إله إلا الله.

وينتهي الكتاب بالباب الثلاثين الخاص بالزهد في الدنيا والتسلية عنها والرغبة في الآخرة، وأنها منزل نقلة وارتحال، ومحل نائبة وامتحان ومتاع وغرور وافتتان. وأنه جاء عن رسولنا الكريم ﷺ أنه قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» وأن علامة السعادة اليقين في القلب والورع في الدنيا والزهد فيها، والحياء والعلم وعلامة الشقاء تشوه القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا كما أن زاد الآخرة التقوى، فلابد من تعب الشخص والتصبر على مرارة التقوى.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الأفكار العقلانية Rational Thoughts
- الرضا Satisfaction
- المساندة Support
- المساندة الاجتماعية Social Support
- التكيف Adapt
- المشقة Stress
- الهلع Panic
- اللاشعور Unconsciousness

القائم بالعرض

د.نشوة عبدالتواب حسين

بنوا إسرائيل فى الكتاب والسنة



للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

ثالثا: يهود جزيرة العرب، وأحوالهم الدينية والاجتماعية:

نعنى بيهود جزيرة العرب: من سكن منهم المدينة وضواحيها كبنى قينقاع والنضير وقريظة. ونعنى بهم ـ أيضا ـ من سكن المدينة كيهود خيبر وتيمام ووادى القرى.

وكلامنا عن يهود جزيرة العرب يتناول الأمور الآتية:

(أ) آراء المؤرخين فى وقت وصولهم إلى جزيرة العرب.

(ب) جنسيتهم ومساكنهم، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية.

(جـ) أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة.

(د) علاقتهم بالأوس والخزرج.

وللكلام عن الأمر الأول نقول:

(أ) هناك خلاف طويل بين المؤرخين فى الوقت الذى هاجر فيه اليهود إلى جزيرة العرب، فبعضهم يرى أن هجرتهم إليها كانت فى عهد داود ـ عليه السلام ـ وبعضهم يرى أن نزوحهم إليها كان فى عهد الملك «حزقيال» الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق . م.

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين.

والذى ارتضاه بعض المؤرخين، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى جزيرة العرب كانت فى القرن الأول الميلادى، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠م.

وهذا لا يمنع أنه كان يوجد عدد قليل من اليهود توطنوا الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ.

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون: بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع غفيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» الذى شهد تلك الحروب وكان قائداً لبعض وحداتها.

ثم يقول: وتؤيد المصادر العربية كل هذا فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، خرج: بنو النضير وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع (تمر الروم) فهو اسمه إلى اليوم[1].

ويرجع الدكتور جواد على ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول:

«أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين. ومن هؤلاء المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو بهدل، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا، وأرضا عذبة، حتى إذا بلغ (العالية) وهى بطحان ومهزور وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون استقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير، ومن معهم على بطحان، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور»[2].

وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلوا بها فى القرن الأول الميلادى، أى بعد تدمير أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه، فرارهم من وجه الرومان حتى ينجوا من بطشهم وفتكهم بهم.

(ب) وللكلام عن الأمر الثانى نقول: يرى بعض الكاتبين أن يهود الحجاز من قبائل عربية تهودت، وليسوا من بنى إسرائيل. ويستدل على ذلك: بأن معظم أسمائهم، وأسماء قبائلهم عربية مثل: رفاعة، ووهب، وكعب وزيد، وعبدالله... إلخ، ومثل: بنى النضير، وبنى عوف، وبنى ثعلبة... إلخ.

ونحن نرد على هذا الرأى: بأن القرآن

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص٩.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على جـ٦ ص١٠، طبعة المجمع العلمى العراقى.

الكريم قد وجه خطابه إلى اليهود في كثير من آياته بعبارة (يا بني إسرائيل) وذكرهم في مواضع متنوعة بهذه العبارة، أو بعبارة اليهود أو هادوا، وربط في كثير من آياته بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين أخلاق آبائهم من لدن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، وبين ما كان عليه الجميع من كفر وتكذيب، واعتداء على الرسل الذين جاءوا لهدايتهم، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾

وقوله تعالى في سورة النساء:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

وقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

فهذه الآيات الكريمة وغيرها، تجعلنا نجزم بأن اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها هم من بني إسرائيل، وليس أصلهم من العرب لأن توجيه الخطاب إليهم بهذه الصورة يفيد أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا موسى وعيسى وغيرهما من الرسل (عليهم الصلاة والسلام).

وفضلا عن هذا فإن اليهود في العهد النبوي كانوا يعيشون في أحياء وقرى خاصة بهم، وكانت لهم لغتهم العبرية التي يتخاطبون بها فيما بينهم، كما كانت لهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم، التي لا يشاركهم فيها غيرهم بل هم كانوا يعتبرون عقيدتهم اليهودية وقفا عليهم وحدهم.

وقد فصل الأستاذ محمد عزة دروزة الحديث في هذا الموضوع فقال ما ملخصه: لم يكن في الحجاز قبائل عربية متهودة، وإن كان لا يبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب تهودوا، مع أنه ليس هناك من الأسانيد الوثيقة ما يساعد على الجزم بذلك، وتسمية بني النضير أو بني قريظة، أو بني قينقاع، لا تقوم دليلا، وكل ما يمكن أن تدل عليه هو اقتباس الإسرائيليين تسميات وصيغاً متناسبة مع البيئة التي طال عهد إقامتهم فيها، وما روي من أسماء عربية كان يتسمى بها بعض اليهود.. فإن الروايات وهي تذكر هذه الأسماء لا تلبث أن تذكر آباء أصحابها الإسرائيلية، مثل عبدالله بن صوريا، ثعلبة بن شعيا، ورفاعة بن يزيد بن التابوت، ونعمان بن أضا... إلخ.

بل إنا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول: إنه لم يكن كذلك في سائر جزيرة العرب ـ وخاصة اليمن ـ كتل عربية يهودية في عصر النبي ﷺ وإذا كانت الروايات تذكر أن بعض أحياء اليهود في الحجاز استطاعوا نشر اليهودية في اليمن في عهد التبابعة، فليس هناك سند وثيق يؤيد ذلك، ومع هذا فإن

كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود في اليمن في زمن النبي ﷺ، كما أنها لم تذكر أن عمر ـ رضي الله عنه ـ أجلى يهودا عن اليمن حينما أجلى النصارى العرب عن نجران اليمن تنفيذا لوصية النبي ﷺ بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، ولقد روى أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ أن آخر كلام قاله رسول الله ﷺ هو وصيته بإخراج يهود الحجاز، ونصارى نجران اليمن من جزيرة العرب، وهذا يدل على أنه لم يكن في اليمن في عهد النبي ﷺ، يهود وإنما كان بقية منهم في الحجاز[3].

ومن هذا يتبين لنا أن يهود الجزيرة من أصل يهودي، وأنهم كانوا جماعات طارئة عندما أجليت عن المدينة وضواحيها، لم تترك آثارا تشهد بأصالتها في سكنى تلك المناطق.

وأما عن مساكن اليهود فبعضها كان بداخل المدينة، وبعضها كان قريبا منها وبعضها كان بعيداً عنها.

فبنو قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة.

وبنو النضير كانت مساكنهم (بالعالية) بوادي بطحان على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكانت عامرة بالنخيل والزروع.

وبنو قريظة كانوا يسكنون في منطقة «مهزور» التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة.

ومن بين اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها بطون صغيرة أخرى كبني عكرمة، وبني ثعلبة، وبني محمر، وبني زعورا، وبني عوف، وبني بهدل، وبني القصيص وغيرهم، إلا أن هذه البطون الصغيرة كانت تابعة في سياستها للبطون الكبرى كبني قينقاع والنضير وقريظة.

ويقول الدكتور جواد علي: «وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين) نسبوا بذلك إلى جدهم الذي يقال له (الكاهن) و(الكاهن) هو ابن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار، فهم على هذه النسبة من أصل رفيع، ولهذا كانوا يفتخرون به، ويرون لهم السيادة على غيرهم من إخوانهم في الدين»[4].

وأما يهود خيبر فكانوا يسكنون على بعد ثماني برد من المدينة إلى جهة الشام وقد اشتهر يهود خيبر بغناهم، لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم، كما اشتهروا ـ أيضاً ـ بضخامة حصونهم ومتانتها.

وعلى مقربة منهم كان يسكن قسم آخر من اليهود، كيهود وادي القرى وتيماء

(٣) تاريخ الجنس العربي جـ٥ ص١٤٨، وعصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة ص٥٠١، والقرآن واليهود ص٢٤ للأستاذ محمد عزة دروزة.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي جـ٦ ص١٢.

وفدك. ومساكن اليهود عموماً، كانت تمتاز بعزلتها، ومتانتها، وقد أقاموها كذلك؛ ليتحصنوا فيها عند الأخطار، وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾

ومن أقوى حصون اليهود، حصن النطاة، والصعب بن معاذ، وناعم والزبير والقموص، والوطيح، وسلالم.. وكلها كانت توجد في منطقة خيبر.

كما كانت تمتاز ـ في مجموعها ـ بوجودها في المناطق الخصبة، والتي هي ملتقى طرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية من جزيرة العرب.

ومن أهم الأعمال التي اشتغل بها اليهود التجارة، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة (كأبي رافع سلام بن أبي الحقيق)، الذي كان ينعت بتاجر أهل الحجاز، ويمكن أن يقال إن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفا عليهم في شمال الحجاز، كذلك اشتغل اليهود بالزراعة التي كانت المهنة الرئيسية لسكان القرى منهم، واشتغلوا بتربية الماشية والدواجن وكانوا في جهات (مقنا) يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة. ومن الصناعات التي كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها، صناعة الصياغة، وقد اشتهر بها بنو قينقاع، كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطي الربا، وكان لهم من طبيعة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا، الذي نهاهم الله عن أخذه، فقال تعالى:

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(النساء: ١٦١)

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوى نفوذهم المالي، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكما فاحشا، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم، فكرههم السواد الأعظم من الناس، بسبب أنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا، وحصولهم على غنى وثراء بطرق خبيثة، يأنف العربي عن سلوكها والتعامل بها.

(جـ) ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن ـ أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة ـ فنقول:

كان لليهود الذين سكنوا جزيرة العرب، مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم، كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عبادتهم وشعائر دينهم.

وكانت هذه الأماكن تسمى «المدراس» أي المكان الذي تدرس فيه نصوص التوراة، وأمور الشريعة.

ولم يكن «المدراس» في الواقع موضع عبادة وصلوات وتدريس فحسب، بل كان إلى جانب ذلك هو المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية.. وهو المكان الذي كان يقصده غيرهم حين يريد الاستفسار من أحبار اليهود عن شيء يريد الوقوف عليه.

والذين كانوا يقومون بمهمة تعليم اليهود أمور دينهم، هم علماؤهم وأحبارهم، وقد ذكر المؤرخون أنه كان في مقدمة هؤلاء الأحبار عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ الذي أعلن إسلامه بعد لقائه مع رسول الله ﷺ وفي مقدمتهم ـ أيضا ـ (عبدالله بن صوريا الأعور) الذي قيل عنه: إنه لم يكن بالحجاز في زمانه من هو أعلم بالتوراة منه.

وقد جاءت الأخبار الصحيحة بأن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، كان يذهب إلى اليهود في «مدراسهم» ليدعوهم إلى الإسلام وليحذرهم من الكفر به، فقد أخرج البخاري، عن أبي هريرة قال: «بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود أسلموا تسلموا، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال ذلك أريد، ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، ثم قال في الثالثة: اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بما له شيئا فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»[٥].

وبعض الصحابة ـ أيضا ـ كأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان يذهب إليهم في هذا المكان ليأمرهم باتباع محمد ﷺ الذي كانوا يستفتحون به على غيرهم والذي يعرفون صدقه فيما يبلغه عن ربه كما يعرفون أبناءهم.

وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من المجادلات الدينية، والأسئلة المتعنتة التي كان اليهود يقومون بتوجيهها إلى النبي ﷺ بقصد إحراجه وإظهاره بمظهر العاجز عن الرد على أسئلتهم ومجادلاتهم، إلا أن الرسول ﷺ كان يجيب على مجادلاتهم وأسئلتهم بما يدحض حجتهم، ويخرس ألسنتهم[٦].

كذلك كان لليهود تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم فيما يتعلق بالذبائح، والقرابين، والقصاص، والميراث، والاعتراف، والتطهير، والرق، والختان، والنكاح، وشئون المرأة، وغيرها من التشريعات التي

(٥) صحيح البخاري باب «في بيع المكره ونحوه في الحق» وغيره من كتاب «الإكراه» جـ٩ ص٢٤.

(٦) فصلنا القول في حرب الجدل التي دارت بين الرسول ﷺ وبين اليهود في فصل «مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين» مبحث «المجادلات الدينية».

بعضها أخذوه عن كتبهم، وبعضها وضعه لهم كهانهم وأحبارهم من عند أنفسهم.

من ذلك ـ مثلاً ـ ما جاء في الحديث الشريف عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت ـ أي لم يخالطوهن، ولم يساكنوهن في بيت واحد ـ فسأل الصحابة النبي ﷺ فأنزل الله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يترك من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أُسَيْدُ بن حضير، وعبّاد بن بشير فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه النبي ﷺ حتى ظننا أن قد وجَدَ عليهما ـ أي غضب عليهما ـ فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فبعث في آثارهما فسقاهما، فعرفا أنه لم يجد عليهما[٧].

وأيضاً كانت لهم أعيادهم الخاصة بهم والتي من أشهرها عيد الحصاد عيد رأس السنة، وعيد الصوم الكبير، وعيد الفصح ويسمونه: عيد الفطير[٨]. ويهتم اليهود بهذا العيد لأنه يوافق اليوم الذي خرج فيه بنو إسرائيل من مصر فرارا من فرعون وظلمه.

ويعتبر اليهود كذلك يوم السبت عيداً لهم، لا يجوز ليهودي أن يشتغل فيه، ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه، يكون قد ارتكب جرماً عظيماً.

وكانت لليهود أيام خاصة يصومونها، كيوم عاشوراء، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم»، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه وقال لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموه»[٩].

(٧) أخرجه مسلم في كتاب الحيض جـ١ ص٢٤٦، وأخرجه أبو داود في باب «مؤاكلة الحائض» جـ١ ص٤٩ وأخرجه النسائي في باب «ما ينال من الحائض» جـ١ ص١٥٢.

(٨) قيل سمي بعيد الفطير: لأنهم خرجوا سريعا من مصر فلم يعدوا خبزهم كالعادة وإنما أعدوه فطيرا دون أن يختمر، ومازالت هذه عادة اليهود في هذا العيد الذي يستمر سبعة أيام، يأكلون خبزا غير مختمر، وهذه الأيام السبعة تبدأ في كل عام في اليوم الرابع عشر من شهر أبريل وتنتهي في اليوم الحادي والعشرين منه.

(٩) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في «كتاب الصوم» جـ٣ ص٤٤ طبعة صبيح، وأخرجه مسلم في «باب صوم عاشوراء» من كتاب الصوم، جـ٢ ص٧٩٦، طبعة محمد فؤاد عبدالباقي.

هذا، ويزعم اليهود أنهم يعتمدون في عباداتهم، وتشريعاتهم، وآدابهم ومعاملاتهم، على ما جاء في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام.

وهنا نريد أن نتوسع قليلاً في الحديث عن التوراة، وأسفارها، وعما دخلها من تحريف وتبديل فنقول:

التوراة: كلمة عبرية معناها: الشريعة، أو التعاليم الدينية وقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرا، أطلق عليها اسم (العهد القديم) للتفرقة بينهما وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها «العهد الجديد»، وجرت العادة أن يطلق على أسفار العهد القديم، وأسفار العهد الجديد اسم «الكتاب المقدس».

واليهود يعتبرون التسعة والثلاثين سفراً هذه، أسفاراً مقدسة، أي: موحى بها. ويطلقون على خمسة منها إطلاقًا حقيقيًا اسم التوراة، أو كتب موسى، لأنها ـ في زعمهم ـ أنزلها الله على موسى «عليه السلام» وكتبها موسى بنفسه.

وهذه الأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد.

١ ـ أما سفر التكوين «أو الخلق» فسمي بذلك لأنه يقص خلق السموات والأرض، ويحكي قصة خلق آدم وأكله من الشجرة، ونزوله إلى الأرض، كما يحكي قصة نوح «عليه السلام» وقصة الطوفان، وقصة إبراهيم «عليه السلام» وأولاده، وينتهي هذا السفر بالحديث عن قصة يوسف «عليه السلام» إلى أن مات.

٢ ـ وأما سفر الخروج فسمي بذلك لأنه يحكي تاريخ بني إسرائيل في مصر، وكيف خرجوا منها؟ وكيف عاشوا بعد ذلك؟ كما يحكي قصة تيههم وما جرى بينهم وبين موسى عليه السلام.

٣ ـ وأما سفر التثنية فسمي بذلك لأنه يكرر ويعيد التعاليم التي أوحاها الله إلى موسى ـ عليه السلام ـ ومعظمه يدور حول الشئون التشريعية والاقتصادية، والسياسية، الخاصة ببني إسرائيل.

٤ ـ وأما سفر اللاويين فمعظمه يدور حول شئون العبادات، والوصايا والأحكام، والطقوس والأعياد، والنذور، واللاويون هم نسل لاوي أحد أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ ومنهم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ونسب هذا السفر إليهم لأنهم كانوا سدنة الهيكل، وحفظة الشريعة، ومعظمه يدور حول ما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات.

٥ ـ وأما سفر العدد.. فمعظمه يدور حول تقسيم بني إسرائيل، وبيان تعداد أسباطهم وجيوشهم وأموالهم وذكورهم وإناثهم... وبجانب هذا به بعض الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات.

أما الأربعة والثلاثون سفراً الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى ـ عليه السلام ـ بأزمان متفاوتة في الطول والقصر وهي:

«يشوع والقضاة، وراعوث، وصموئيل

الأول، وصموئيل الثاني، والملوك الأول، والملوك الثاني، وأخبار الأيام الأول، وأخبار الأيام الثاني، وعزرا، ونحميا، واستير، وأيوب، والمزامير، والأمثال والجامعة، ونشيد الأنشاد، وأشعياء، وأرمياء، ومراثي أرمياء، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيلي، وعلموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاحي»[١٠].

وهذه الأسفار الأربعة والثلاثون مقدسة ـ أيضاً ـ عند اليهود، ويطلق عليها ـ تجوزا ـ مع الأسفار الخمسة السابقة اسم التوراة، من باب إطلاق الجزء على الكل.

والأسفار في جملتها صبغتها دينية، إلا أن منها ما يغلب عليه الطابع التاريخي، كأسفار التكوين، والخروج، ويشوع والقضاة، وأخبار الأيام، وعزرا ونحميا... ومنها ما يغلب عليها الطابع التشريعي، والأخلاقي، والتوجيهي، كأسفار اللاويين والمزامير، والجامعة، وأشعيا ومراثي أرمياء... كذلك منها ما هو طويل: كسفر التكوين والمزامير وأشعيا وأرميا ومنها ما هو قصير: كسفر عوبديا وحجي وحبقوق.

بعد هذا التعريف الموجز للأسفار المقدسة عند اليهود، والتي يطلقون عليها اسم التوراة، نسأل هل هذه الأسفار المقدسة عندهم هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن الذي ينظر في هذه الأسفار، يجد فيها من التناقض والافتراء، والانحراف عن الحق، وسوء التعبير ما يجعله يحكم عليها بأنها ـ في مجموعها ـ ليست هي التوراة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على موسى وهذه بعض الأدلة على ذلك.

أولاً: اعترف القرآن الكريم بالتوراة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على موسى عليه السلام ـ ومدحها في آيات كثيرة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن اليهود قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوها وبدلوها، وأخفوا منها ما لا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم، قال تعالى في سورة البقرة:

(١٠) هذه الأسفار التسعة والثلاثون التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتية، أما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى هي «طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثاني»، وبذلك تكون الأسفار المقدسة عندهم ستة وأربعين وهناك أسفار أخرى يذكر المؤرخون أنها كانت ثم ضاعت أو اختفيت أو أبطلت، كما أفاده الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه القيم «إظهار الحق».

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

وقال تعالى في سورة المائدة:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾

وقال تعالى في سورة المائدة أيضاً:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

ثانياً: انقطاع سندها، فإن التوراة الموجودة حاليا ليس لها سند متصل إلى موسى ـ عليه السلام ـ بل هي على النقيض من ذلك إذ يوجد فيها ما يدل دلالة قاطعة على أنها كتبت بعده بزمن طويل!!

فمثلاً جاء في سفر التثنية بخصوص وفاة موسى ـ عليه السلام نص يقول «فمات موسى عبدالرب في أرض مؤاب ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا».

فهذا النص بعيد كل البعد عن أن يكون كتبه موسى ـ عليه السلام – وجاء فيه ـ أيضا ـ «ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى».

ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى ـ عليه السلام ـ.

وقد أقام المرحوم الشيخ رحمة الله الهندي أدلة متعددة على انقطاع سند التوراة فقال ما ملخصه:

«اعلم ـ أرشدك الله تعالى ـ أنه لابد لكون الكتاب سماويا واجب التسليم، أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلاني، ووصل إلينا بعد ذلك بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل.. وأنه لا سند لكون هذه التوراة المنسوبة إلى موسى ـ عليه السلام ـ من تصنيفاته ويدل عليه أمور منها.. أن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون[١١]

(١١) يوشيا بن آمون واحد من ملوك اليهود حكمهم من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٦٠٩ ق.م أي بعد موسى ـ عليه السلام ـ بستة قرون تقريباً.

والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطة لا اعتماد عليها يقينا، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة - أيضا - غالبا قبل حادثة بختنصر، وفي حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد القديم عن صفحة العالم رأسا، ولما كتب «عزرا» هذه الكتب على زعمهم ضاعت نسخها وأكثر نقولها في حادثة انتيوكس)[١٢].

ويتحدث الدكتور علي عبدالواحد وافي عن الأزمنة التي كتبت فيها تلك الأسفار المنسوبة إلى موسى (عليه السلام) فيقول:

«هذا، وأهم أسفار العهد القديم هي أسفار - التكوين - والخروج - والتثنية - واللاويين - والعدد - التي ينسبها اليهود إلى موسى - عليه السلام - ويعتقدون أنها بوحي من الله، وأنها تتضمن التوراة. ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين، من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير - وعصر موسى يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد - وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.. وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل في هذه الأسفار عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل.. فهي إذن تختلف كل الاختلافات عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام»[١٣].

وبهذا نرى أن سند التوراة الحالية منقطع، وأنها كتبت بعد موسى - عليه السلام - بأزمنة مختلفة وبأياد متعددة.

«يتبع»

***

(١٢) المراد به «انتيوكس» الذي حكم سوريا من سنة ١٧٤ ق.م إلى سنة ١٦٤ ق.م وقد أذل خلال حكمه اليهود إذلالاً شديداً. راجع (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله الهندي جـ١ ص٤٦ - ٤٨، طبع مكتبة الوحدة العربية بالمغرب.

(١٣) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص٢٦ طبعة مكتبة نهضة مصر.

من فتاوى الحاخامات

خطابهم الديني !!

لتدمروا أماكن عبادة الأغيار

مصدر الفتوى: www.moriya.org.il نوفمبر ٢٠٠٥ - فتوى من: الحاخام موشيه عميئيل

سؤال: قرأت في باب قضية الأسبوع عن الأمر الخاص بتدمير الأماكن التي بها توجد عبادة الأوثان، وجاء فيه: «لتدمروا جميع أماكن عبادة الأغيار.. لتنسفوها ولتحطموها ولتحرقوها بالنار».. هل ينطبق هذا على العصر الحديث؟ أليس هذا استفزازا للشعوب السابقة وللشعوب الحالية؟

ربما كان هذا الأمر يسري فقط على العصور القديمة عندما احتلوا هذه الأرض، مثلما ورد في الفقرة: «الأمم التي ترثونها».

وهل يلزمنا هذا الأمر بأن نفعل ذلك الآن؟ إن التوراة تدعو كثيرا إلى الإحسان، ولكن لماذا لا توجد في هذا الشأن أي مراعاة للمتطلبات الدينية للشعوب؟

جواب: هذا الأمر الوارد في الفقرة التي ذكرتها هو واحد من مجموعة الفروض البالغ عددها ٦١٣.

راجع مجموعة فروض الرمبام (موشيه بن ميمون) وبها فروض «افعل» البالغ فصولها ١٨٥. وهي تصلح الآن مثلما كانت تصلح قبل ذلك، بل ربما تصلح الآن أكثر من الألفي عام التي قضيناها في الشتات ولم نتمكن فيها من أدائها.

وكما جاء في كتاب شرح مجموعة الفروض، فقد تم تفسير هذا الفرض على النحو التالي: «ويطبق هذا الفرض على الذكور والإناث في كل مكان وكل زمان».. وبذلك فإنه يسري اليوم وكل يوم.

وبالنسبة لكونه استفزازا للشعوب.. فلا، ليس هذا استفزازا؛ لأن عبدة الأوثان الذين يقيمون في هذه الأرض يجب أن نرث مكانهم فيها ومن ثم يجب أن نبيد أماكن عبادتهم عن آخرها.

وجاء صراحة في شرح شروط هذا الأمر في كتاب التفاسير ما يلي: «ينطبق هذا الفرض، في كل وقت، إذا كانت لدينا القدرة، في أرض إسرائيل عندما نقوى على عبدة الأوثان فيها». ومعنى ذلك بداية، أن الأمر ليس موجها إلى فرد واحد، بل إلى الشعب الذي يعيش على هذه الأرض.. ولكن بشرط واضح وهو أن تكون السلطة في يد هذا الشعب. وفي هذه الحالة لن ينطوي الأمر على استفزاز، وإنما على صلاحية سلطوية تطبق فروض الرب في هذه الأرض.

أما فيما يتعلق بعدم مراعاة المتطلبات الدينية؟ فهذه الملاحظة ليست ملائمة هنا لأن تحريم عبادة الأوثان أمر إلهي لكل شعوب العالم مثل تحريمها على شعب إسرائيل. وعلى ذلك فإن عبادة الأوثان ليست شأنا دينيا ولكنها جريمة خطيرة في نظر الرب.

وكقاعدة، فإن التوراة تراعي احتياجات الإنسان في كل مكان في العالم، ولكن عبادة الأوثان هي أمر مرفوض ومحظور؛ ولذلك فإن التوراة توصي الشعب الإسرائيلي - كجزء من دوره كشعب الله في هذا العالم - أن يدمر أماكن عبادة الأوثان، وهذا فضل كبير من الرب حتى لا تباد الشعوب ويبقى العالم قائما.

* د. منصور عبدالوهاب، فتاوى الحاخامات الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠.

قصة سيدنا إبراهيم (٢)

للعلامة الشيخ عبد الوهاب النجار

المحاكمة

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء:

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾

حينئذ ظهرت حجة إبراهيم واضحة. ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم الحجة. قال:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

فلما أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوبا غلفا وآذانا صما؛ عمدوا إلى ما يلجأ إليه القوى الجبار الذى لاحق معه بإزاء المحق الضعيف.

قال تعالى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾

وتوجد طريقة أخرى في احتجاج إبراهيم لدينه وتزييف دين قومه أتى بها على سبيل التدرج في الإلزام. ويرى فريق من الناس أنها تدرج في تكوين العقيدة. ذلك أن القوم كانوا يعبدون الأصنام. يحنونها على أسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما. فأراد أن يلزمهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة. وإنما الإله هو الذى خلقهن وخلق السموات والأرض. وبيده ملكوت كل ما فيهما. وأن التماس الصحة والعافية والرزق من غيره تعالى باطل. اقرأوا قوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ (أى خوفوه سطوة آلهتهم):

﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

(الأنعام: ٨٠ - ٨٣)

وهناك رأى آخر: وهو أنه حين التفت إلى النظر في المعبودات لم ترقه الأصنام فظن النجم هو الإله فلما أفل لم يعجبه فانتقل إلى القمر، فلما أفل انتقل إلى الشمس؛ فلما أفلت علم أن الإله سوى هذه كلها. وقد قصها برنابا في إنجيله نقلا عن المسيح عليه السلام.

اقرءوا قصة إبراهيم كاملة في الآية ٢٥ من الفصل ٢٣ إلى آخر ٢٥ من برنابا.

محاجة إبراهيم للملك

تشعرنا قصة إبراهيم الحكية في القرآن أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون ملوكهم مع آلهتهم. يدل على ذلك المحاجة التي كانت بين إبراهيم وبين الملك فأحب الملك أن يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه وأن يعبده وآلهته.

وقد قص الله ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

تعدد مواقف إبراهيم

وقد كانت مواقف إبراهيم مع قومه متعددة. فتارة يحاج والده وتارة يحاج الجمهور، وتارة يحاج الملك، وتارة يفعل ما يستفزهم به إلى محاجته كتكسير الأصنام ليكلموه في شأنها إلى أن أوقدوا النار

لتحريقه، فنجاته منها بعد أن ألقي فيها، فهجرته. انظروا إلى قوله تعالى في سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾

(الصافات: ٩٣ - ٩٩)

وهذه الآيات أيضا تدل على أنهم كانوا يأتون بالطعام إلى آلهتهم ولعل السدنة كانوا يأخذونه ويوهمونهم أن آلهتهم رضيت عنهم فأكلت طعامهم اقرءوا قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

قصة إبراهيم في القرآن تدل على أنه كان حليما رقيق القلب عطوفا رءوفا بارا بوالده مع قسوته عليه. وأنه كلما باعد والده بينه وبينه تلطف هو في المقاربة وترفق في دعوته وهدايته وتحذيره. ولكن ذلك كله لم يفد لغلبة الشقاء عليه يقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾

إخفاق إبراهيم في هداية قومه

إن إبراهيم - صلوات الله عليه - بعد أن جهد الجهد كله في سبيل هداية قومه وبعد أن حاول أن يقنعهم بكل وسائل الإقناع؛ لم يحل من قومه بطائل. وجفاه قومه وألقوه في النار فجعلها الله تعالى بردا وسلاما عليه. وهدده أبوه بأن يرجمه إذا استمر على جحد الأصنام. ولم يؤمن له من قومه سوى زوجه سارة ولوط بن هاران بن تارح.

رحلته إلى أور الكلدانيين ثم حاران أو «حران»

تبرأ إبراهيم من أبيه. ولم يطب له المقام بين أهله وقومه. فذهب إلى أور الكلدانيين[1] ثم حاران. وكان إبراهيم قد ظفر من أبيه بعدة: هي أنه سيؤمن به فاستغفر الله له. ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه فتبرأ إبراهيم منه يدل على ذلك قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

رحلته إلى فلسطين

رحل إبراهيم بعد ذلك إلى فلسطين غريبا ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط؛ ومع لوط زوجه كما قال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

وقد ورد أن عثمان لما هاجر بزوجه رقية بنت رسول الله إلى الحبشة قال النبي ﷺ: «إن عثمان أول مهاجر بأهله بعد لوط». وسكن إبراهيم ولوط في تلك الأنحاء وكانت أرض الكنعانيين.

وأقام في «شكيم» وهي مدينة «نابلس» ولكنه لم يطل به المقام؛ بل كان ينتقل نحو الجنوب كما تدل على ذلك عبارات التوراة في رحلتيه إلى مصر ثم إلى أرض أبي مالك.

رحلته إلى مصر

حدث جدب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميهم الرومان «هكسوس» فأظهر أن التي معه أخته، وأراد الملك أخذها زوجة له فرأى في نومه أنها ذات بعل فعاتب إبراهيم وأعطاه أموالا وماشية وجواري وعبيدا، وعاد إبراهيم كما بدأ. وأنا استبعد ما نصته التوراة في ذلك، وأحذر كل مؤمن أن يصدق ما جاء بها من ذلك فإنها توهم أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها «إن كانت في ذلك الوقت على حال جمال» استغلالا شائنا معيبا فهي تذكر أنه اتفق معها على أن تقول إنه أخي وهو يقول أختي لئلا يقتلوه، ويكون له خير من ذلك، وأنا أعيذ إبراهيم من هذا النقص الشائن وأقول: إن سارة لما كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر!

---

(١) مدينة كانت قرب الشاطئ الغربي للفرات.

وكان لوط مع إبراهيم، وكان الرجلان لهما أموال كثيرة. وكان الرعاة يزدحمون على الأسامة والورد فاتفق رأيهما على أن يفترقا في الإقامة حفظًا لعلاقة المودة والرحم.

فذهب لوط إلى سادوم وعامورة في دائرة الأردن وأقام إبراهيم حيث كان.

دخول إبراهيم بهاجر

كانت سارة زوج إبراهيم عاقرًا لم تلد وكان ملك مصر قد أعطى سارة على ما تقول التوراة جارية مصرية وتألمت سارة إذ لم تجد لإبراهيم نسلا - وهي قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أمًا - فأثرت مع إبراهيم. وكان عاقبة ذلك أن دخل إبراهيم على هاجر فأتت منه بغلام هو إسماعيل عليه السلام.

ولادة إسماعيل بن إبراهيم من هاجر

لم تفصل قصة ولادة إسماعيل ورزق والده به في القرآن الكريم. وإنما ذُكرت في سفر التكوين مفصلة - وأما التي ذُكرت في القرآن الكريم فلم يذكر فيها إسماعيل. وسنذكرها عند موقفه في ذبح إبراهيم ولده.

سنة الختان

وقد عهد الله إلى إبراهيم بالختان وكانت سنه إذ ذلك تسعا وتسعين سنة. وكان إسماعيل قد بلغ ثلاث عشرة سنة، فاختتن إبراهيم وإسماعيل وكل من كان لإبراهيم من العبيد. وفي إنجيل برنابا أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضوًا إذا تاب الله عليه فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنذره احتار ماذا يصنع؟ فدله جبريل على هذا الموضع فقطعه. ولعل أبناءه تركوا هذه السنة حتى أمر الله إبراهيم بإحيائها.

إبراهيم والملائكة

ومن مواقف إبراهيم - عليه السلام - أنه رأى ثلاثة رجال في البرية فاستقبلهم - وكان إبراهيم يحب - قرى الأضياف - فمالوا إليه، فصنع لهم طعامًا وعمد إلى عجل سمين فذبحه وسواه في النار وجاء به حنيذًا، قد أثرت فيه النار وجعلت لونه الحمرة، وقربه إليهم. فلم تمتد إلى طعامه أيديهم، فارتاب في شأنهم وأوجس منهم خيفة. فخاطبهم في هذا الشأن فعلم أنهم ملائكة أرسلهم الله للانتقام من أهل سادوم وعامورة، وهم المعبر عنهم بقوم لوط. وكانت سادوم وعامورة في مكان البحر الميت المعروف اليوم ببحر لوط، ويقال أنه ظهرت بشاطئه بعض آثارهما.

دفاع إبراهيم عن لوط ابن أخيه

خاف إبراهيم من هذا العذاب النازل أن يمس ابن أخيه فقال لهم إن فيها لوطا! فقالوا له: نحن أعلم بمن فيها وأنه وأهله من الناجين.

مجادلة إبراهيم عن قوم لوط

كان إبراهيم - عليه السلام - رجلا رقيق القلب، فلما علم أن قوم لوط هالكون وأن الملائكة قادمون لإنفاذ الأمر فيهم، أخذته الشفقة عليهم؛ فأخذ يجادل في شأن قوم لوط ويستنزل الرحمة بهم - رجاء أن ينظر الله إليهم نظرة رحمة. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾

(هود: ٧٤، ٧٥)

وهذه المجادلة عنهم لم تفصل في القرآن الكريم.

البشرى بإسحاق

والبشرى التي بُشر بها إبراهيم هي: أن الملائكة قالوا له إنا جئنا لنبشرك بغلام عليم؛ فراجعهم قائلا: أبشرتموني على أن مسني الكبر وصار لا يُرجى لمن كان مثلي أن يلد وامرأتي عاقر قد بلغت سن اليأس. وكانت سارة تسمع كلام الملائكة لإبراهيم فضحكت من هذه البشرى العجيبة، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخها؟!

وأبدت غاية الاستغراب! فأحال الملائكة الأمر على قدرة الله الذي لا يُعجزه شيء، وأفتوا وقتا لهذا الأمر. ثم فصلوا عن إبراهيم إلى سدوم وعامورة.

حب الاستطلاع في إبراهيم

كان إبراهيم عليه السلام محبًا للاستطلاع شغوفًا بأن يرى الشيء الذي يقع عنده موقع الغرابة، وقد أوحى إليه أن الله سيحيي الموتى ويحشرهم ليوم لا ريب فيه، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فأحب أن يرى ميتا عاد حيًا. فسأل الله ذلك فقال الله له:

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

(البقرة: ٢٦٠)

فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيقتلها ويفرق أجزاءها على الجبال، ثم يدعوها فإنه سيجدها آتية إليه. وحينئذ يكون قد رأى الميت قد عاد حيًا. ففعل ودعا الطيور فعادت إليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعمًا.

اقرءوا قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

والقرآن نزل مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه فهو الواجب التصديق دومًا خالدًا.

وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا (٦)



للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) [1]:

نشأت فكرة المنظمة بقرار صادر فى المؤتمر الإسلامى الحادى عشر لوزراء الخارجية، المنعقد فى مايو ١٩٨٠، وقرر مؤتمر القمة الإسلامى الثالث المنعقد فى مكة المكرمة والطائف بالسعودية فى يناير ١٩٨١ إنشاءها، وانعقد مؤتمرها التأسيسى بفاس بالمملكة المغربية فى مايو ١٩٨٢. وأعضاؤها هم الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى.

أهداف المنظمة:

(١) تقوية وتشجيع وتعميق التعاون بين الدول الأعضاء فى ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال.

(٢) تطوير العلوم التطبيقية واستخدام الثقافة المتقدمة فى إطار القيم والمثل العليا الثابتة للأمة الإسلامية.

(٣) تدعيم التكامل والسعى للتنسيق بين المؤسسات المتخصصة التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامى فى مجالات التربية والعلوم والثقافة، والاتصال بين الدول الأعضاء فى الإيسيسكو.

(٤) جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم فى جميع مراحله.

(٥) دعم الثقافة الإسلامية وحماية استقلال الفكر الإسلامى من عوامل الغزو الثقافى والتنصيرية، والمحافظة على معالم الحضارة الإسلامية وخصائصها المتميزة.

(٦) حماية الشخصية الإسلامية للمسلمين فى البلدان غير الإسلامية.

ومن أبرز أوجه نشاط الإيسيسكو نشر كتب توثيقية عن الحضارة الإسلامية فى العالم الإسلامى باللغة العربية واللغات الأجنبية، كما تم ترجمة كتب تعليم الصلاة إلى ست لغات إسلامية أفريقية (الهوسا، مندنكو، الولوف، الفلفلدى، اليوغندية، السواحلية). كذلك قامت بإنشاء عشرة مراكز فى مالى، ومراكز فى مصر وموريتانيا).

(١) دليل المنظمات والمؤسسات، مرجع سابق، ص ٤٤٧ – ٤٤٨.

وتقوم المنظمة بتقديم تقارير عن الأوضاع التربوية والثقافية والعلمية فى العالم الإسلامى إلى منظمة المؤتمر الإسلامى، مع عقد مؤتمرات وورش عمل فى مجالات اهتمامها. وقد وضعت عددا من الخطط الطموحة بهدف تطوير التربية والثقافة والعلوم.

كذلك قامت بإصدار «معجم تفاسير القرآن الكريم» فى ٦٥٠ صفحة، والذى يعد عملا رائدا من حيث الاستقصاء والاستيعاب ولا عهد للمكتبة العربية الإسلامية بمثيل له. كما أصدرت «معجم عربى ـ هوسا بالحرف القرآنى»، ومعجم آخر للغة الفولانية بالتعاون مع دولتى نيجيريا وغينيا، بهدف تنشيط توصيف وتوثيق اللغتين الأساسيتين فى الدول الإسلامية فى غرب أفريقيا وضبطهما لسانيا، بما ييسر تعلمهما عن طريق اللغة العربية، مع ربطهما بمحيطهما الثقافى وتراثهما الإسلامى. وتهدف ـ عامة ـ لدعم الثقافة الإسلامية مع تنشئة أجيال قادرة على مواكبة العصر، مع المحافظة على هويتها.

وقد وقعت منظمة الإيسيسكو مع منظمة الأليكسو على اتفاقية تعاون فى عام ١٩٨٤. وكان من أهم ما تم بينهما من اتفاق: برنامج تعاون مشترك للسنوات (١٩٩٨ ـ ٢٠٠٠)، اتفق فيه على تنفيذ مجموعة من البرامج المشتركة، التى تعنى بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ومحو الأمية وتعليم الكبار والتعليم عن بعد، والمحافظة على التنوع الإحيائى، وحماية حقوق المؤلف، وفهرسة المخطوطات، وتأهيل العاملين فى المتاحف، وتدريب الموثقين والإعلاميين، مع دعم إنشاء شبكة للمعلومات، تربط بين اللجان الوطنية وكل من الإيسيسكو والأليكسو مع ربطها بالشبكات الدولية. كما أن من إنجازات تعاونهما دعم المدارس العربية (من ذلك ما تم فى جمهورية بنين من عمل دورة تدريبية لموجهى المدارس العربية الإسلامية).

المركز الإسلامي الأفريقي[٢]:

أنشىء المركز عام ١٩٦٦م في الخرطوم بالسودان بهدف تعليم الإسلام واللغة العربية لأبناء الوافدين المسلمين من الدول الأفريقية المجاورة، إلا أنه لم تبدأ الدراسة فيه فعليا إلا في عام ١٩٧١م. وقد دعت الحكومة السودانية العديد من الأقطار العربية للمساهمة في هذا المركز باعتباره «مؤسسة إسلامية متكاملة» تشمل مسجداً، وفصولا دراسية، وسكناً للطلاب، ومبنى إدارياً، ومكتبة، ومساكن للأساتذة والعمال، ومخازن وورشاً تعليمية، وناديا للطلاب، ووحدة علاجية ووحدة خدمات. وتتراوح أنصبة الدول المشتركة في ميزانية التشغيل والتشييد بين المملكة السعودية (٢٥٪) والكويت والإمارات العربية وقطر (١٥٪ لكل منها)، ومصر والمغرب والسودان (١٠٪ لكل منها).

ويهدف المركز إلى نشر تعاليم الدين الإسلامي وتعميقها بين الشعوب الأفريقية، وتوضيح العقيدة الإسلامية وتثبيتها بين المسلمين منهم. وفي نفس الوقت إعداد الدعاة والتعاون مع الهيئات الإسلامية الأخرى بهدف نشر الدعوة الإسلامية بين الدول الأفريقية.

وقد بدأ المركز في عام ١٩٧٧م بقبول ستين طالباً من: تنزانيا، وزنجبار، وأوغندا، والسودان مع إعطائهم منحاً دراسية، ثم تزايد عدد الطلاب ليصل إلى ٧٥٠ طالباً من ٣٢ دولة أفريقية.

وتنقسم الدراسة في المركز إلى أربع شعب تخصصية[٣] وهي:

التعليم وتضم: (التعليم الثانوي الأكاديمي، والتعليم الثانوي دراسات إسلامية وعربية، والتعليم الثانوي دراسات فنية، ودبلوم دعوة ودراسات إسلامية، ودبلوم تربية).

والدعوة وتتولى: (الإشراف على تدريب الوعاظ والدعاة وأئمة المساجد، ونشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا، وتوثيق العلاقات والتعاون بين المركز والمؤسسات الإسلامية التي تعمل في إطار الدعوة الإسلامية داخل السودان وخارجها، وتبادل الوفود والدعاة بين السودان ومختلف الدول للقيام بالدعوة الإسلامية).

والبحوث والنشر وتقوم: (بإجراء بحوث ودراسات حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية للمسلمين في أفريقيا لتوفير الإحصائيات اللازمة لنشر الدعوة، مع تبني البحوث والدراسات التي تبرز دور الإسلام في أفريقيا وتصحح المفاهيم الخاطئة عن القارة، ونشر الثقافة الإسلامية من خلال ترجمة وتأليف الكتب الإسلامية مع ترجمة

(٢) The Islamic Education, Science, and Cultural Organization (ISEACO)

وقد وصفها العاهل المغربي في رسالته للمؤتمر العام السابع بأنها «الضمير الثقافي الحي للعالم الإسلامي».

انظر: الإيسيسكو، عدد ٤٥، شوال ١٤٢١هـ يناير ٢٠٠١.

انظر أيضاً: الإيسيسكو، عدد ٣٦، ربيع أول ١٤١٨هـ – يوليو ١٩٩٧ وعدد ٤٠، رجب ١٤٢٠هـ أكتوبر ١٩٩٩م، وعدد ٤١، رجب ١٤٢١هـ – أكتوبر ٢٠٠٠.

(٣) خالد بوقماز: المركز الإسلامي الأفريقي في السودان، الكويت: مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٦٨، ديسمبر ١٩٨٦، ص ٧٤ - ٨٢.

بعض الكتب التي تتحدث عن المسلمين في أفريقيا إلى اللغات الأجنبية. ويتبع هذه الشعبة: المكتبة والوثائق وتضم أكثر من ١٥ ألف كتاب ومائتي دورية و٦٥٠ وثيقة و٧٠ أطروحة جامعية وعدداً من المخطوطات والكتب النادرة. كما يصدر المركز عدداً من المجلات أهمها «نشرة المركز» و«دراسات أفريقية»، وهي مجلة نصف سنوية، وسلسلة الإسلام في أفريقيا.

وأخيراً شعبة الخدمات الاجتماعية والتي تأخر قيامها.

ويتكون الهيكل التنظيمي للمركز من مجلس أمناء يضم ممثلين عن الدول المساهمة، ومجلس إدارة يمثل السلطة الإدارية ويتكون من رؤساء الشعب التخصصية وخمس شخصيات أخرى يعينها المجلس الأول.

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية:

أنشئت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ليبيا بموجب قانون ٦٨ لسنة ١٩٧٢م في ١٣ مايو عام ١٩٧٢م (٢٩ ربيع أول عام ١٣٨١م) أصدره مجلس قيادة الثورة بها. واتخذت مقرها في «أكبر بناء صليبي كنسي»[٤] وذلك لتكون مركزاً للإشعاع الحضاري الإسلامي. والجمعية تعد منظمة خيرية غير حكومية ومستقلة تعمل على تقديم المساعدات بصرف النظر عن الانتماءات الدينية. وتتمتع الجمعية بشخصية اعتبارية مستقلة ويتبعها صندوق لتمويل نشاطها أطلق عليه صندوق الجهاد.

ولها عدد من الدعاة في أنحاء العالم المختلفة، كما يتبعها كلية الدعوة الإسلامية التي أنشئت عام ١٩٧٤م والتي يدرس بها طلبة من كافة أنحاء العالم. ومدة الدراسة بها ٤ سنوات يحصل بعدها الخريج على درجة: «الإجازة العامة في الدعوة الإسلامية» وهي تعادل درجة الليسانس الجامعية.

وتعمل الجمعية على دراسة المناطق التي تقدم لها المساعدات خاصة في أفريقيا مع تحديد دراسة الأمراض المتوطنة والمشكلات البيئية.

وتقدم الجمعية المساعدات الإنسانية وذلك عن طريق تسيير قوافل إسلامية إنسانية للدول الأفريقية المختلفة بناء على طلبها وذلك للاستفادة من الخدمات التي تقدمها. والقوافل تتضمن عدداً من الأطباء في مختلف التخصصات بالإضافة للممرضين والصيادلة لتوزيع الأدوية والمساعدات والإسعافات الأولية وإجراء الجراحات إذا لزم الأمر. مع عدد من الوعاظ والمرشدين الإداريين للدعوة إلى الإسلام ولكل قافلة قائد «والقافلة الإسلامية هي فكرة تجسد التبشير بتعاليم الإسلام وشرحه لغير معتنقيه وتثبيته وتقويته في نفوس المسلمين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم».. «فهي تزور المدرسة والمسجد والكنيسة والمستشفى والمؤسسات الاجتماعية؛ لأن هدفها القضاء على عدو الإنسان المتمثل في المرض والجهل والفقر».

هذا وقد انتشرت القوافل الإسلامية في مناطق أفريقيا المختلفة ولم تقتصر على منطقة بعينها ولا على المناطق الأقرب لليبيا كالساحل فهدفها أفريقيا ككل ومن ثم زارت كلاً من: موزمبيق، إثيوبيا، بتسوانا، بوركينا فاسو، غانا،

(٤) من المرجع السابق، ص ٧٨ - ٨٠.

أوغندا، زيمبابوى، مالى، مدغشقر، توجو، بنين، رواندا، بوروندى. وعملها الأساسى فى أفريقيا وإن كانت قد زارت أيضاً مالاديف وسريلانكا فى آسيا. وتتوالى على جمعية الدعوة طلبات الدول بزيارة القوافل لها.

كما تقوم جمعية الدعوة الإسلامية مع بداية شهر رمضان من كل عام بإرسال عدد من قراء القرآن الكريم والوعاظ لإحياء ليالى رمضان.

هذا وقد تم إنشاء «المجلس العالمى للدعوة الإسلامية» عام ١٩٨٢م ليكون بمثابة اللجنة التنفيذية للمؤتمر العالمى للدعوة الإسلامية.

وعمل الجمعية هذا يعتبر رائداً؛ حيث إنها تعد «أول مؤسسة إنسانية أفريقية تقوم بهذا العمل مباشرة بتقديم المساعدات إلى الأفريقيين»[٦]. وهى تقوم بدور إنسانى متعدد الأبعاد فكما تعمل القوافل على توزيع الدواء والملابس والأغطية والأطعمة تقوم بتوزيع المصاحف.

وتسعى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية إلى إقامة المراكز الإسلامية مثلما أنشىء فى بنين وأوغندا ومراكز ثلاثة فى بوروندى، وبناء المساجد كما تم فى مالى (مسجد فى حى القردسية) وإنشاء المدارس الإسلامية (مثل مدرسة عمر المختار فى مدغشقر). كما تقوم بإرسال الدعاة ودفع رواتبهم[٦].

وتحرص الجمعية على المساعدة فى مواجهة آثار القحط والجفاف والكوارث فى أفريقيا وإرسال العقاقير الطبية والمساعدات.

وجدير بالذكر أن العديد من المواطنين الأفريقيين اعتنقوا الإسلام على يد أعضاء القافلة وكان جهدها واضحاً فى هذا المجال فى رواندا عام ١٩٨٢م[٧].

كما تسعى جمعية الدعوة الإسلامية إلى محاولة توحيد صفوف الجماعات الإسلامية وحل الخلافات فيما بينها كما حدث فى غانا، وتوحيد الجماعات الإسلامية فى بوركينا فاسو لتصبح جميعها ما يسمى باتحاد الجمعيات الإسلامية وذلك بإرسالها وفداً من المجلس العالمى للدعوة الإسلامية لهذا الغرض[٨].

هذا وقد وقعت ليبيا مع دولة الإمارات العربية اتفاقية لإنشاء منظمة مشتركة لإنشاء المراكز الثقافية الإسلامية فى أفريقيا وآسيا فى ٢٨ أبريل عام ١٩٧٥م وذلك بهدف المساعدة فى التنمية الثقافية والاجتماعية للأقليات المسلمة فى آسيا وأفريقيا وقد عملت بنشاط فى أفريقيا فأنشأت مراكز إسلامية ومدارس وجوامع ومستوصفات ومسارح فى رواندا، وبوروندى، وتوجو، ومالى وغيرها[٩].

«يتبع»

(٥) «القوافل الإسلامية»، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ١٣٩٥ور – ١٩٨٦م، ص٩ (ور) المقصود بها (وفاة الرسول) وفقا لما هو معمول به فى ليبيا من نظام تاريخ إسلامى، مع أن المتفق عليه هو التاريخ بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة (هـ). أما (م) فأصبح يقصد بها فى ليبيا (مسيحى) وليس (ميلادى) كما هو معروف.

(٦) المرجع السابق، ص١٤ – ١٥.

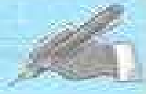
(٧) المرجع السابق، ص١٨.

(٨) المرجع السابق، ص ٣٢ – ٣٤.

(٩) المرجع السابق، ص٣٤.

عبد العزيز جاويش (*)





لأمير الشعراء أحمد شوقى

أصاب المجاهد عقبى الشهيد	وألقى عصاه المضاف الشريد
وأمسى جماداً عدو الجمود	وبات على القيد خصم القيود
حداه السفار إلى منزل	يلاقى الحفيف عليه الوئيد
فقر إلى موعد صادق	معز اليقين مذل الجحود
وبات الحوارى من صاحبيه	شهيدين أسرى إليهم شهيد
تسرب فى منكبى مصطفى	كأمس وبين ذراعى فريد (١)
فيا لك قبراً أكن الكنوز	وساج الحقوق وحاط العهود
لقد غيبوا فيك أمضى السيوف	فهل أنت يا قبر أوفى الغمود؟
ثلاث عقائد فى حفرة	تدك الجبال وتوهى الحديد
فعدن فكن الأساس المتين	وقام عليها البناء المشيد
فلا تنس أمس وآلاءه	ألا إن أمس أساس الوجود (٢)
ولولا البلى فى زوايا القبور	لما ظهرت جدة للمهود

(*) هو الشيخ عبدالعزيز جاويش، أحد السابقين في خدمة القضية المصرية، كان زعيماً سياسياً دينياً عظيماً، وقد كرس حياته لخدمة سياسة بلاد الإسلام عامة، ومصر وتركيا خاصة ثم حكم عليه بالنفي والتشريد مدة طويلة، ثم عاد إلى مصر ولم يلبث إلا بضع سنين، ومات في سنة ١٩٢٩، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها.

١ ـ هو مصطفى كامل الزعيم الوطني الأول، وفريد: هو محمد فريد الزعيم الوطني الثاني، وكانا صاحبي الفضل في البدء والجهاد.

٢ ـ الآلاء: النعم.

ومن طلب الخلق من كنزه   فإن العقيدة كنز عتيد
تعلّم بالصبر أو بالثبات   جليد الرجال وغير الجليد
طريد السياسة منذ الشباب   لقد آن أن يستريح الطريد
لقيت الدواهي من كيدها   وما كالسياسة داه يكيد (٣)
حملت على النفس ما لا يُطا   قُ وجاوزت المستطاع الجهيد
وقلّبت في النار مثل النضا   رِ وغُرّبت مثل الجمان الفريد
أتذكر إذ أنت تحت اللواء   نبيه المكانة جم العديد (٤)
إذا ما تطلّعت في الشاطئين   ربا الريف واقتن فيك الصعيد
وهز الندى لك المنكبين   وراح الثرى من زحام يميد
رسائل تقرى بسجع البديع   وتنسى رسائل عبد الحميد
يعيها شيوخ الحمى كالحديث   ويحفظها النشء حفظ النشيد
فما بالها نكرتها الأمور   وطول المدى وانتقال الجدود ؟ (٥)
لقد نسي القوم أمس القريب   فهل لأحاديثه من معيد ؟
يقولون ما (لأبي ناصر)   وللترك ؟ ما شأنه والهنود ؟
وفيم تحمّل هم القريب   من المسلمين وهم البعيد ؟
فقلت وما ضركم أن يقوم   من المسلمين إمام رشيد ؟
أتستكثرون لهم واحداً   وفي القديم نصير الحديد ؟
سعى ليؤلف بين القلوب   فلم يعد هدى الكتاب المجيد

٣ ـ الداهي هو الذي يأتي بالداهية.
٤ ـ كان الفقيد محرر جريدة اللواء في عهدها الأول.
٥ ـ الجدود هنا: بمعنى الحظوظ.

يشد عرا الدين في داره   ويدعو إلى الله أهل الجحود
وللقوم حتى وراء القفار   دعاة تغني ورسل تشيد
جزى الله ملكاً من المحسنين   رؤوف الفؤاد رحيم الوريد (٦)
كأن البيان بأيامه   أو العلم تحت ظلال (الرشيد) (٧)
يداوي نداه جراح الكرام   ويدركهم في زوايا اللحود
أجار عيالك من دهرهم   وجاملهم في البلاء الشديد
تولى الوليدة في يتمها   وكفكف بالعطف دمع الوليد
سلام (أبا ناصر) في التراب   يعير التراب رفيف الورود
بعدت وعز إليك البريد   وهل بين حي وميت بريد ؟
أجل بيننا رسل الذكريات   وماض يطيف ودمع يجود
وفكر وإن عقلته الحياة   يظل بوادي المنايا يرود (٨)
أجل ! بيننا الخشب الدائبات   وإن كان راكبها لا يعود
مضى الدهر وهي وراء الدموع   قيام بملك الصحارى قعود
وكم حملت من صديد يسيل   وكم وضعت من حشاش ودود
تشدتك بالموت إلا أبنت   أأنت شقي به أم سعيد ؟
وكيف يسمى الغريب امرؤ   نزيل الأبوة ضيف الجدود ؟ (٩)
وكيف يقال لجار الأوائـ   ـل جار الأواخر ناء وحيد ؟



٦ ـ هو جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حيث تعطف على أبناء الفقيد ولم يتركهم بعد وفاة أبيهم لتصاريف الزمن، فأنعم عليهم بهبة ملكية وافرة.
٧ ـ هو هارون الرشيد، وقد اعتز العلم والأدب في عهده اعتزازاً كبيراً.
٨ ـ يرود: أي يبحث ويكتشف.
٩ ـ يقول: إن الميت ينزل في التراب ضيفاً على آبائه وجدوده، إذن فليس يصح أن تعتبره غريباً ولا وحيداً.

مصطفى صادق الرافعي إمام البيان العربي الحديث



٢



للأستاذ الدكتور: حلمي محمد القاعود

تستطيع أن تجد لكل أديب شبيها في السابقين أو المعاصرين، ولكنك لا تستطيع أن تجد لمصطفى صادق الرافعي في نثره هذا الشبيه كما يقول محمد رجب البيومي، إذ كان الرجل نسيجا وحده دون خلاف " (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ١ / ٤٣١).

والرافعي يختلف عن معظم الكتاب، في قدرته على تقديم الرؤية الجديدة في كتابته ووضع يده على مناطق لم يتطرق إليها الكتاب من قبل، وهي خاصية تميز بها عن سواه ":

" وإن من أعظم خوارق الرافعي البيانية أن يتكلم في حادثة تعرفها تمام المعرفة - إذ قرأتها مرات في كتب التاريخ - ثم تطالع ما كتب الرافعي في هذا المجال الذائع، فلا تجد غير الطريف الجديد، حتى لكأنك تقرأ عن موضوع لم تسمع به قبل الآن ".

ومثال ذلك حادثة الإسراء المشهورة، حيث يكتب الرافعي في الموضوع فيقول:

" لقد حار المفسرون في قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الإسراء: ١)

فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلا، والحكمة (في ذكر كلمة الليل) هي الإشارة إلى أن القصة قصة النجم الإنساني العظيم، الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتمم هذه العجيبة أن آيات المعراج لم تأت إلا في سورة النجم.

وإن ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى:

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾

مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يخيل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها السر الأكبر، فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي - صلى الله عليه وسلم - فوق الزمان والمكان، يرى بغير حجاب الحواس، مما مرجعه إلى قدرة الله لا إلى قدرة نفسه، بخلاف ما لو كانت العبارة: ليرى من آياتنا، فإن هذا ما يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام ويتطرق إليه الاعتراض، ولا تكون ثم معجزة وتحويل فعل الرؤية من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه تحويل الرائي من شكل إلى شكل، كما ستعرفه، وهي معجزة أخرى يسجد لها العقل، فتبارك الله منزل هذا الكلام.... إلخ " (السابق، ١ / ٤٣٢ وما بعدها).

لقد بدأ الرافعي كتابته النثرية بكتاب مدرسي اسمه ملكة الإنشاء " وضع فيه نماذج يحتذيها الطلاب عند كتابتهم لبعض الموضوعات التي تطلب عادة في المدارس، ولا أظن هذا الكتاب قد أعيد طبعه مرة أخرى.

بيد أن الرافعي بدأ الكتابة الأدبية في الصحف مع إعلان الجامعة المصرية عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي، وكان يأمل أن يعين مدرسا في الجامعة، وشاء قدر الله أن تكون مقالاته في الموضوع، وتأليفه لكتابه تاريخ آداب العرب، سببا في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية، وهما السبب أيضا في وضع ما وضع من كتب في هذا العلم (حياة الرافعي، ص ٦٧).

ثم إن (الرافعي) في تأريخه للأدب، اعتمد- ربما لأول مرة - على المنهج الرأسي الذي يعني بتناول كل موضوع أدبي على حدة، وهو يختلف عن المنهج الأفقي الذي درج عليه المستشرقون وبعض العرب في تقسيم التاريخ الأدبي إلى عصور وفترات زمنية معينة مثل العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر الأموي.. إلخ، وهو بهذا المنهج - كما يعتقد - يخدم الموضوعات الأدبية بوصفه وحدة متكاملة في كل العصور والأزمنة (الرافعي، تاريخ آداب العرب، ط ٤: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م: ١ / ١٧)، والكتاب يتحدث عن اللغة، والرواية والرواة، ومنزلة القرآن الكريم من اللغة، وإعجازه، والخطابة والأمثال، وعن الشعر ومذاهبه.. ويتوقف في كل باب عند كل ما يتصل بعنوانه من تاريخ وقضايا حتى يستوفيه.

وكان الرافعي مفتونا ببعض الكتاب الأجانب في أساليبهم إلى جانب استيعابه للأسلوب القرآني والبلاغة

النبوية والتراث العربي القديم، وقد أعجبته بعض التعبيرات الأجنبية البسيطة، السهلة المعنى؛ التي كتبها بعضهم، ومنها على سبيل المثال عبارة فيكتور هيجو التي يقول فيها " وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل"، وكانت هذه العبارة وأمثالها جذوة أشعلت لدى الرافعي ملكة الإنشاء (انظر: حياة الرافعي، ص٧٦).

وكان من أبرز كتبه التي تأثرت بهذه الجذوة كتاب " المساكين "، الذى عالج فيه قضايا الفقر والمجتمع، وكتب في افتتاحيته:

" أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ".

وهذا الكتاب اجتمع على إخراجه سببان: أهوال الحرب العالمية التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ على الجناجي، وهو رجل كان يعيش ليومه في قرية أصهاره؛ منية جناج التابعة لمديرية الفؤادية آنئذ، وقابله الرافعي هناك وتأثر لمنظره.

وقد لفت كتاب المساكين نظر كبار الكتاب والمشاهير، ومن بينهم أحمد زكي باشا، الذي كتب إلى الرافعي يقول:

" لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوتة كما للألمان جوتة ".

حرص الرافعي على استخدام اللغة العربية والسمو بها والدفاع عنها، وقرّ في نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى صاحبها المجيد، حتى تعود " الجملة القرآنية " إلى مكانها مما يكتبه الكتاب، وينشئ الأدباء، وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك إلا أن يتزوّد له زاده من الأدب القديم (السابق، ص ٧١).

كان الرافعي حريصا على التأنق في أسلوبه، وتقطيره، بحيث تراه حالة هندسية دقيقة في التصوير والتعبير، وهو ما كان يدفعه أحيانا إلى الإغراق في الصور الذهنية التي تبدو وقد شابها شيء من التعقيد أو الصعوبة أو الغموض، ولكنه لحسن الحظ لم يكن يتوسع في ذلك، ويمكننا أن نجد حالة من التلقائية والعفوية المفرطة - إن صح التعبير - في رسائله التي كان يرسلها إلى تلميذه " محمود أبو رية "، ففيها ينطلق على سجيته متخففا من أسباب الصنعة والأساليب المنمقة، وليس معنى ذلك أن (الرافعي) خرج على أصول فنه أو طريقته في التعبير، ولكنه يتغاضى مؤقتاً - إذ صح القول - عن التنقيح، فتأتي رسائله عفوية خالية مما يؤخذ عليه أحيانا من استطراد أو ازدحام في المعاني أو تداخل في الصور.

ومن أمثلة رسائله التي يعبر فيها بتلقائية وعفوية، ويجيب فيها عن بعض أسئلة تلميذه أبي رية؛ رسالته عن وحي القرآن باللفظ والقراءات، وجاء فيها:

(يا أبا رية..

السلام عليكم، وبعد فإنك تسألني مسائل دقيقة تحتاج إلى الفكر وبسط الجواب، وهذا ما لا قبل لي به، فأنا مريض الدماغ حقيقة ولكني أجيبك بما قل ودل.

وقبل هذا الجواب أنبهك إلى أنك كررت في كتابك ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - دون أن تتبع اسمه الشريف بصيغة الصلاة عليه، وهذا سوء أدب لا أقبله أنا من أحد ولا أقر أحداً عليه وأنت حين تقول في كتابك (إن الألفاظ ألفاظ محمد) لا تكاد تمتاز عن رجل مظلم القلب تعوذ بالله من هذه الظلمة، فانتبه إلى ذلك واستغفر الله لنفسك).

أما سؤالك فقد كثر الكلام في جوابه والذي أراه أنا أن ألفاظ القرآن منزلة بحروفها ونسقها وإلا بطل الإعجاز لأن الإعجاز لا يكون إنسانياً...إلخ) (رسائل الرافعي، ص ٧٣).

وكان الرافعي لشدة حبه للعربية والإسلام الذي تعبر عنه؛ قد انبرى لأحمد لطفي السيد صاحب الجريدة، حين دعا إلى تمصير اللغة سنة ١٣٣٠هـ= ١٩١٢ وإعلاء شأن اللهجات العاميّة، ودفعها لتكون لغة الكتابة، وأشار إلى أن هذه الدعوة تستهدف القرآن نفسه، وإلى الفصل بين الأداء العربي في الأسلوب الحديث، ومستوى البيان القرآني، من أجل تعميق الفوارق بينهما، وأن الهدف تمزيق اللغة العربيّة إلى لهجات إقليميّة.

كما تصدى لسلامة موسى عندما حمل على العربيّة، وغمز بالإسلام في كتابه (اليوم والغد)، كما فجّر أيضا معركة مع خصوم العقيدة واللغة، كانت خيراً وبركة على التراث العربي أدباً وفكراً، وخرج بالدين من المعركة منتصراً.



أحمد لطفي السيد

ويلاحظ أن حظ الرافعي من العامية المصرية كان قليلا، وكان يسأل صديقه محمد سعيد العريان عن كلمة أو عبارة أو مثل ما يقع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى ذلك، فقد كان يعده قاموس العامية (حياة الرافعي، ص٣١وما بعدها).

ويمكن القول: إن الرافعي جعل هدفه الأساس الذي يسعى إليه هو حراسة الدين وحمايته، ودفع أسباب الزيغ والفتنة والضلال عنه، ثم النفخ في اللغة العربية روحا من روحه يردها إلى مكانها ويرد عنها، فلا يجترئ عليها مجترئ، ولا ينال منها نائل، ولا يتندر بها ساخر، إلا انبرى له يبدد أوهامه، ويكشف عن دخيلته (انظر السابق، ص ٧١).

(يتبع)

***

نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية

٣





أ.د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

ورئيس قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٤ - من نموذج "طريق الحرير" إلى نموذج العلاقات الاقتصادية الدولية العثمانية:

من لقطة الفتح، إلى لقطة العمران نصل إلى لقطة التجارة والاقتصاد في ظل تطور موازين القوى السياسية والعسكرية. فالتجارة والاقتصاد شكلاً من أشكال التواصل الحضارى المستمرة مهما كانت أشكال العداء أو الصراع أو التعاون بين الكيانات السياسية، إلا أنها لابد وأن تتأثر صعودًا وهبوطًا أو ازدهارًا وتراجعًا أو استقلالاً وتبعية، بالتطور في السياقات السياسية والعسكرية المحيطة.

أ) نموذج طريق الحرير [١]:

وإذا كان نموذج طريق الحرير، يمثل نموذجًا للتفاعلات البشرية الحية وانتقال الوارد من مركز ثقافى وحضارى إلى آخر في مسار ممتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب عند الأراضي التركية وشاطئ المتوسط العربى، مرورا بتضاريس وجغرافيا طبيعية وبشرية شديدة التنوع، إلا أنه يمثل أيضًا نموذجًا على شبكة مصالح تجارية ودعوية ربطت بين جميع هذه الأطر البشرية والطبيعية والثقافية عبر تاريخ ممتد.

ويستهل مؤلف الكتاب الفصل الأول تحت عنوان "الخيط الحريرى" بمقولة لماركو بولو الرحالة، وهى[٢]:

"أيها الأمراء والأباطرة والملوك العظماء والدوقات والماركيزات والفرسان وأعضاء البرلمان والناس من كل الطبقات، يا من ترغبون في معرفة شعوب البشرية العديدة وأقاليم العالم الكثيرة المتباينة، لتأخذوا هذا الكتاب وليُقرأ عليكم. فسوف تجدون فيه كل ما هو عجيب إلى جانب التواريخ المختلفة لأرمينيا الكبرى وبلاد فارس وبلاد التتار والهند وبلاد كثيرة أخر".

وتعليقًا على هذه المقولة، فإن مؤلف الكتاب يقدم شهادة مهمة ذات دلالة أساسية عن موضع طريق الحرير من التواصل الحضارى بين حضارتين: شرقية زاهرة وغربية آفلة (خلال العصور الوسطى) وهذه الشهادة هى[٣]:

(بداية الاقتباس)

"عندما سجل ماركو بولو مشاهداته في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، لقى ذلك تقدير عدد قليل من الناس ولم يصدقه إلا عدد أقل. فقد كان الأوروبيون الأجلاف غير المتعلمين الذين تميزوا بضيق الأفق في العصور الوسطى، في ريب من رواياته عن المدن القديمة الواقعة وسط بحار الرمال وعن ملوك البدو الذين يرفلون في ثياب من الحرير ويجلسون على عروش طليت بالذهب وعن المدن الشرقية التى تفوق مدن أوروبا عظمة وجمالاً.

ولكن ما لم يدركه ماركو بولو، أو من عاصروه، إدراكًا كاملاً، أنه جاء في حقبة متأخرة من تاريخ هذا الطريق العظيم الذى يقطع قارة آسيا. فقد أتيحت له فرصة ثمينة لرؤية طريق الحرير في أواخر عصوره الزاهية. فذلك هو أعظم طرق العالم القديم، طريق الإسكندر الأكبر والإمبراطور دارا العظيم وتشانغ شيان وجنكيز خان.

وعلى مر الآلاف من السنين التى سبقت زمن ماركو بولو، سار في طريق الحرير التجار والباحثون عن الثروة والحجاج والجنود والمغامرون والمهاجرون والممثلون الجوالون واللاجئون. أما التاريخ المتعارف عليه لبدء السير في طريق الحرير، فهو سنة ١٠٥ أو ١١٥ قبل الميلاد. ففى ذلك الوقت، سار الصينيون حتى منتصف الطريق عبر آسيا، ليربطوه بطريق مشابه يسير من عند البحر المتوسط إلى وسط آسيا. ومع ذلك، فالواقع يقول إن طريق الحرير أقدم من ذلك بكثير، فربما يعود إلى ألفى سنة قبل ذلك أو يزيد، إذ ظل طريق الاتصال بين البحر المتوسط والصين ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة.

وإذا كان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية في العالم، فقد يكون كذلك أكثرها أهمية من حيث كونه طريقًا لتبادل الأفكار. فعلى هذا الطريق، انتقلت بعض أهم الأفكار والتقنيات في العالم، كالكتابة والعجلة والنسيج والزراعة وركوب الخيل وغيرها، وكان للدين أيضًا دور كبير على طول طريق الحرير. وربما يكون الإسلام والبوذية أهم الديانات التى صاغت شخصية الطريق في عصر كل منهما، إلا أن ديانات كثيرة أخرى عبرت قارة آسيا على هذا الطريق، مثال ذلك المسيحية والزرادشتية والمانوية واليهودية والمزدكية والكونفوشية والتاوية...

وفي العصور الوسطى، وبينما كانت أوروبا تعانى من الضعف، أرسلت الصين المزدهرة إلى الغرب بعضًا من أعظم إسهاماتها، وإن لم تتعمد ذلك. وشملت تلك الإسهامات الورق والطباعة، أو ما أطلق عليه مايكل إدواردز "سقالة العالم الحديث"، إلى جانب التفكير الجديد

(١) إيرين فرانك، ديفيد براونستون، طريق الحرير، ترجمة: أحمد محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ١١.

(٣) المرجع السابق، ص١٣-١٧.

والتطورات العملية في الطب والفلك والهندسة، علاوة على الأسلحة التي تشمل القوس والنشاب ومعدات الحصار والبارود والعجلات الحربية.

ولا عجب -إذن- أن يحظى هذا الشريان الآسيوي باهتمام بعض الشخصيات العالمية العظيمة. فمنذ أقدم العصور وهذا الطريق به من المغريات ما يستحق اهتمام أكثر الغزاة طموحًا.

ومع ذلك، لم يكن الناس جميعًا مغرمين بالاتصال بآسيا. فعلى مر العصور، كانت هناك شكوى من إفساد رفاهية الشرق لسكان الغرب وإبعادهم عن الحياة البسيطة التي تتميز بالنقاء.

وعلى امتداد تاريخ الطريق لم يتمكن من قطعه ذهابًا وعودة إلا قليل من الناس. وهذا الطريق الذي يمتد خمسة آلاف ميل تقريبًا يمر عبر العديد من البلاد التي تغار على أراضيها ومما يحققه الوسطاء التجاريون من أرباح وكانت بلاد فارس أكثر تلك البلاد غيرة.

وفي العصور الوسطى، التي حكم فيها المسلمون الغرب ولمعت أسرة تانغ في الشرق، لم يقطع الطريق بحرية سوى عدد قليل من الناس، فعلى الدوام كان قطاع أو آخر من هذا الطريق المحفوف بالعذاب يُبتلى بالحروب أو الثورات.

ولم تتوحد آسيا تحت راية واحدة إلا في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وفي تلك الفترة، وفر المغول، الذين يعتبرهم الغرب مجرد شعب مدمر، الأمن والسلامة للمسافرين بين الشرق والغرب. وفي تلك الحقبة القصيرة من السلام المغولي اتجه التجار الأوروبيون إلى الصين في رحلات منتظمة.

وبزوال دولة المغول انقضت آخر أيام طريق الحرير العظيمة. إذ عادت شعوب آسيا إلى ما كانت عليه من انقسام وفرقة وعاد الشرق والغرب ينظر كل منهما للآخر نظرة كلها خيال ورومانسية. وكثيرًا ما تميزت تلك النظرة بغرابة شديدة، وعند سقوط القسطنطينية، في منتصف القرن الخامس عشر، ظل طريق الحرير مقطوعًا تمامًا لبعض الوقت. ورغم استئناف التجارة والسفر عبر آسيا، لم تقم لطريق الحرير قائمة، وفي عصر الكشوف الجغرافية كان أهل غرب أوروبا يفتحون طرقًا بحرية جديدة، ليس إلى العالم الجديد فحسب وإنما كذلك إلى الصين حول آسيا وأفريقيا، ولم يكن هناك بأس من قطع الرحلة في عام أو يزيد وضياع العديد من الأرواح، خاصة قبل أن يتعلم البحارة كيف يتقون مرض الأسقربوط. ولم يكن الطريق البحري يمر في أراض تابعة لأحد، ولم يكن الوسطاء يقاسمون التجار أرباحهم، لذلك كان ظهور الطرق البحرية سببًا في أفول نجم ذلك الطريق البري، الذي ظل آلاف السنين مسيطرًا على آسيا، لقد انقطع الخيط الحريري.

وفي عصور الانحطاط التي تلت ذلك، نسيت الشعوب التي تعيش على امتداد طريق الحرير تلك العظمة التي شهدها أسلافهم، أما تلك المدن التي شيدها الفاتحون العظام وأحياها المستوطنون واللاجئون وأثراها التجار وعمّرها الكهنة، فقد انكمشت، وغالبًا ما هجرها أهلها وتركوها نهبًا للرمال". (نهاية الاقتباس)

وإذا كانت توازنات القوى السياسية والعسكرية وتحولاتها قد أثرت في ازدهار هذا الطريق أو تراجعه، مما لا شك فيه أن تحولات القوى العالمية الراهنة "نحو قارة آسيا" ومع كل الحديث عن "القرن ٢١ قرن آسيا" ومع كل الحديث عن توازنات القوى الآسيوية وتحالفاتها في مواجهة تحالفات القوى الأوروبية-الأمريكية ومصالحها العالمية وفي آسيا بصفة خاصة، فتشهد محاولات لإحياء "طريق الحرير" كنموذج على تنظيم المصالح الاقتصادية بين مراكز ثقافية وحضارية بل وقوى سياسية مختلفة.

وفي هذا، يقول مترجم الكتاب "أن ٤٠ دولة آسيوية أعلنت ١٩٩٦ من إيران، قيام "طريق الحرير الجديد" من خلال شبكة خطوط سكك حديدية تربط بين بكين شرقًا والبحر المتوسط غربًا". ويصف المترجم هذا الحدث الراهن ودلالات ذاكرته الحضارية كالآتي[٤]:

"... وهكذا، تعود الحياة إلى طريق الحرير الذي خطه التجار منذ ما يربو على الألفي سنة، عندما كانوا ينقلون النفائس بين الشرق والغرب. وهو الطريق الذي سار عليه الغزاة والفاتحون، كالإسكندر الأكبر والرومان والفرس وجيوش الفتح الإسلامي وجحافل جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك، وحمل هذا الطريق الدعاة والمبشرين البوذيين واليهود والمسيحيين والمسلمين، وعليه سار الرحالة العظام أمثال شيان تسونغ وابن بطوطة وماركو بولو، الذين لولاهم لما عرفنا كيف كان حال الطريق في العصور التي عاشوا فيها.

وقد عاش هذا الطريق سنوات عز وازدهار، وأخرى من الكساد والانقطاع. أما أكثر أيامه ازدهارًا فكانت عندما خضعت البلاد الواقع فيها لإمبراطوريات قوية، كما حدث في عهد الفرس والمغول، في حين أدى ضعف الدول التي يمر فيها وحدوث حروب وصراعات فيما بينها إلى انقطاع الطريق.

وعلى مر التاريخ، كانت هناك مدن تظهر وأخرى تختفي، تبعًا لموقعها من طريق الحرير، تمامًا كما حدث مع تدمر والبتراء اللتين ازدهرتا بمرور تجاه طريق الحرير عليهما ثم انهارتا وطواهما النسيان حين ابتعد مسار الطريق عنهما".

ب- نموذج التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية

نستطيع استخلاص مجال آخر للتعارف وكيف تأثر بحالة توازن القوى سلمًا أو حربًا، فتحت عنوان "التجارة العالمية"، نجد الجزء الأول من كتاب "تاريخ الدولة العثمانية الاقتصادي والاجتماعي" يشير إلى الآتي[٥]:

"كانت تعاليم الشرع الإسلامي تحظى بأهمية عظيمة وتتحكم بعلاقات العثمانيين مع أوروبا، ولا يمكن فهم أي دراسة بدون هذه التعاليم...

قبل عام ١٨٠٠، لم تكن التجارة العالمية بين

---

(٤) المرجع السابق، ص٧-٨.

(٥) خليل اينالجيك، دونالد كواترت (محرران)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية المجلد الأول ١٣٠٠-١٦٠٠م، ترجمة د.عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧، ص٢٨٧-٢٩١.

الدولة العثمانية وأوروبا محكومة بتكاليف النقل فحسب وإنما أيضًا بالصراعات المتكررة بين هذين العالمين المتنافسين دينيا وثقافيا، وحروب الحدود المستمرة، ونشاطات القراصنة. ومع ذلك، فإن الحاجات الاقتصادية المتبادلة الإلزامية فرضت على كلا الجانبين الحفاظ على علاقات تجارية ودية حتى خلال أوقات الحرب، وكان السلطان -الإمام يمنح الضمانات الضرورية للإقامة، والانتقال والتجارة في الأراضي العثمانية بحسب مبدأ الأمان الإسلامي، فقط لغير المسلمين من دار الحرب الذين يقدمون تعهدًا "بالصداقة والنية الحسنة". ونتيجة لذلك، فإن الدول أو الأفراد المعتبرين أعداء للإسلام كانوا يحرمون من تلك الضمانات الرسمية.

إن المبدأ الأساسي للامتيازات هو دائمًا "أمان" أعطي رسميًا من قبل رئيس الجماعة الإسلامية في مقابل التعهد بالصداقة من قبل غير المسلمين، وغالبًا ما كان العثمانيون يميلون إلى تفسير مثل هذا التعهد على أنه نوع من التحالف.

وعلى قاعدة التعهد "بالصداقة"، توقع العثمانيون -رغم أن ذلك لم يكن معبرًا عنه في الوثيقة- حصول رعاياهم على امتيازات متبادلة، وقد استفاد الرعايا العثمانيون غير المسلمين مثل: اليهود، والأرمن، واليونان والسلاف بشكل خاص، من الحماية المعطاة للعثمانيين في الخارج وأنشأوا منذ القرن الخامس عشر، جاليات تجارية مزدهرة..

توقع العثمانيون، وبشكل رئيسي، من منحهم الامتيازات الحصول على امتيازات سياسية من الدول المستفيدة، أي فرصة الحصول على حليف ضمن العالم المسيحي...

واستفاد العثمانيون أيضًا من علاقاتهم التجارية مع أوروبا، فقد حصلوا على سلع نادرة واستراتيجية...

اعتبرت المنافع المالية الناتجة عن هذه التجارة أحد أكثر نواحيها أهمية، فقد قدمت الرسوم الجمركية مبالغ نقدية كبيرة كانت الخزانة الإمبراطورية في أمس الحاجة إليها..

وفي ظل الامتيازات منح الأجانب غير المسلمين الإذن بالتنقل والتجارة الحرة في الأراضي العثمانية. لكن لم يسمح عمليًا لأعضاء الدول الأجنبية إلا بالإقامة فقط في بعض المرافئ بأحياء محددة أو خانات ضمن هذه المرافئ. وتمتعوا في إزمير، وحلب وغلطة بدرجة عالية من حرية الحركة".

هذا، ولقد استهل خليل إينالجك أحد محرري الكتاب مقدمة الجزء الثاني منه[6]، بالقول إن دراسة الأحداث السياسية تسبق قيام مؤلفي الكتاب على دراسة الاقتصاد والمجتمع في مراحل تطور العصر العثماني.

ومن ناحية أخرى، بين كيف أن القوة العثمانية، السياسية والعسكرية قد أحيت التجارة الشرقية بين الهند والشرق الأوسط وحافظت على العالم الإسلامي طيلة أربعة قرون من الأخطار الخارجية، التبشيرية والاستعمارية وفي نفس الوقت فلقد كان للدور العثماني العالمي وجها آخر حيث يشير خليل إيناجك[7]:

"... وهناك حقيقة تاريخية مدونة حتى في مناهج التاريخ المدرسية ألا وهي: إن الأوروبيين تعلموا كافة العلوم ابتداء من علم الرياضيات وحتى فنون النسج والأصباغ ونظم الشركات غير الخاصة وغيرها من حضارة الشرق الأدنى، ودون إدراك هذا المفهوم لا يمكن فهم وإدراك ما يسمى بـ"المعجزة الأوروبية".

ومن دون شك، فقد لعب العثمانيون دورًا في تطوير الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي وذلك بتوسيع امتيازاتهم الرأسمالية... وباختصار يمكن القول: إنه لا يمكن فهم تطور أوروبا الحديثة بغض النظر عن الحضارة الإسلامية والتعاون الإسلامي، وسوف يجد القارئ تفاصيل كل ذلك في هذا الكتاب".

وفي المقابل، في حين بدأ الدور العثماني العالمي في التراجع عسكريًا وسياسيًا، وبدأ عصر الإصلاحات أو التنظيمات، فإن اتجاهات الاقتصاد العالمي سجلت نموًا أوروبيًا متسارعًا نتيجة اختلال الميزان التجاري لصالح أوروبا الرأسمالية الأمر الذي أثر سلبًا على الدولة العثمانية والتي كانت تواجه مشاكل تتفاقم وهو الأمر الذي انعكس على التجارة والضرائب والجمارك والعملة العثمانية[8].

بعبارة موجزة:

فإن المدخل لتفاصيل العلاقات الاقتصادية والتجارية العثمانية مع العالم هو حالة العلاقات السياسية وميزان القوة السياسية، كما أن حالة هذه العلاقات الاقتصادية هي أيضًا مؤشر أو مدخل للتأثير في حالة العلاقات السياسية، ولقد كان وضع التجار الأجانب والامتيازات العثمانية وهجرات السكان، ووزن العملات محورًا أساسيًا في هذا الجانب من التعارف.

ومن الواضح، أن هذا الجانب موضوعه هو "الاقتصاد السياسي الدولي" "للتعارف" ودوره في تشكيل علاقات القوى العالمية في العصر العثماني.

ويوجز خليل إينالجيك هذا المدخل في عبارات واضحة وشاملة تشرح بيسر تفاصيل ممتدة عبر أكثر من أربعة قرون تفاعل خلالها الاقتصاد والسياسة داخليا وخارجيا وهي الآتية[9]:

"علاقات الدولة بالغرب التي تكثفت بعد القرن السادس عشر. لقد كانت الدولة العثمانية أول إمبراطورية آسيوية تشهد تأثير نهوض أوروبا وتوسعها البارزين في الحقلين الاقتصادي والعسكري. وبينما كان الغرب التجاري مهتما بالحفاظ على السوق العثماني واستغلاله كأمر حيوي للاقتصاد الغربي، فإن كلا من إمبراطورية آل هابسبورغ والإمبراطورية الروسية، مستفيدتين من التطورات الجديدة في

(٦) خليل اينالجك، دونالد كواترت (محرران)، الدولة العثمانية التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (المجلد الثاني ١٦٠٠-١٩١٤)، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧، ص٢٥-٣٥.

(٧) المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

(٨) المرجع السابق، ص٣٦-٣٩.

(٩) المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

التكنولوجيا العسكرية، بدأتا سياسة عدوانية لغزو وتقسيم الإمبراطورية العثمانية.

في هذه المرحلة الجديدة، غيَّرت الهيمنة الأوروبية وضع الإمبراطورية العثمانية، من السيطرة إلى التبعية المتزايدة. وفي محاولة للخروج من هذه الأزمة، سعى العثمانيون أولاً إلى إصلاح مؤسستهم العسكرية، ثم تنظيماتهم الإدارية. لذا ظهر بالنسبة للعثمانيين ما يمكن تسميته المسألة الغربية، أي محاولة مجتمع إسلامي تقليدي أن يحدد إلى أي مدى بإمكانه أن يتبع الطرق الغربية.

ترافقت هذه التغييرات العسكرية والإدارية مع تسارع وتيرة الاستيراد من الغرب.

من التطورات الأكثر أهمية في المرحلة التي تلت المرحلة التقليدية، ظهور "الليبرالية" العثمانية في الموضوعات الثقافية والاقتصادية، وقد توسعت الامتيازات التجارية لتطال كل الدول الأوروبية.

وفي القرن العثماني الأخير، استُؤنفت الليبرالية بالقضاء على الإنكشارية عام ١٨٢٦، وهي التي كانت تحمي امتيازات النقابات الحرفية، وبالمعاهدة الإنكليزية -التركية عام ١٨٣٨. لقد ضعفت مساعي الحكومة لتوجيه الاقتصاد، تدريجياً من الآن فصاعداً، بعد أن كادت تؤدي إلى تدميره في أواخر القرن الثامن عشر. إلا أن الحكومة سعت مجدداً في القرن التاسع عشر، للتدخل والحماية.

إلا أن الحروب وخسارة الأراضي استمرت في تدمير شبكات التجارة وتشكيل شبكات جديدة، أثر وبشكل عميق في النشاطات الزراعية والصناعية في أعقاب ذلك.

لقد سعينا لعرض تفسير للوقائع الاجتماعية والاقتصادية في محيطها العالمي.

خلاصة القول، إن النموذج التاريخي لهذا النمط من "التعارف" خلال "الإصلاحات في ظل ضغوط خارجية"[١٠] لابد وأن يقود إلى نمط من الإصلاح "الضال" والتابع.

وهذه الخبرة تلقي بالكثير من الضوء على مسار ونتائج خبرات الإصلاح الجارية في العالم الإسلامي في ظل شبكة من الضغوط والتدخلات الخارجية.

فهل ستعي الثورات العربية مغزى هذه الخبرة التاريخية وهي تؤسس لنظم جديدة تأملها الشعوب، ألا يمكن للتعارف على الآخر أن يتم لأمور أخرى وليس مجرد النقل عنه فقط احتذاء أو تقليداً؟

(١٠) حول مزيد من التفاصيل انظر: د.نادية مصطفى، العصر العثماني، مرجع سابق. د.نادية محمود مصطفى، الدولة العثمانية في دراسات التاريخ الإسلامي والنظام الدولي، [في]: د.عبد الوهاب المسيري (محرر) إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. أعمال الندوة التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن بالتعاون مع نقابة المهندسين، القاهرة في ١٩- ٢١ فبراير ١٩٩٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤.

- د.نادية محمود مصطفى، محمد علي بين الدولة العثمانية والتوازنات الأوروبية: من عواقب التناقص الإسلامي البيني إلى قيود وضغوط السائدة الأوروبية، بحث مقدم إلى: ندوة "مائتي عام على تأسيس دولة محمد علي" التي عقدت في جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية أبريل ٢٠٠٧. (تحت الطبع).

صفحات من تاريخ الأقليات



لفضيلة الشيخ عبد المجيد صبح

الإسلام دين الإنسانية:

وهذا المصطلح له معنيان يمثلان معنى إنسانية الإسلام:

أ) أنه دين المروءة، والأخلاق السامية التي تراعي كرامة الإنسان وحقه في الحرية، والتكريم، واحترام مشاعره، وأفكاره.

ب) وأيضاً معنى إنسانية الإسلام: أنه دين عام إلى البشرية جميعاً وليس لجنس معين أو مكان معين.

(الإله في دين الإسلام هو رب العالمين) وليس إله المسلمين فقط أو العرب فقط وحسبك أن تفتتح أول سورة بقوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

«الفاتحة: ٢، ٣»

(ونبي الإسلام) رسول للناس جميعاً ورحمة للعالمين.

ومقتضى هذين المعنيين لإنسانية الإسلام أنه يعطي الحرية لكل الأفراد فيما يرونه، أو يعتقدونه ويؤمنون به. كما يعطيهم الحرية في إنكار ما ينكرون، وحسبك في هذا أن شاتم الرسول ﷺ يعذر تأديباً. بينما المكذب به لا يناله أذى.

وإذا كان معنى «الدولة» التنظيم الذي يكفل لمجتمعه ممارسة علاقة أفراده بعضهم ببعض في حدود الأهداف والمبادئ التي ارتضاها هؤلاء الأفراد كما يكفل لهم حريتهم الفردية في توجههم: «الاعتقاد الإيماني» وحركتهم على مقتضى اعتقادهم.

أقول: إذا كان تعريف الدولة هكذا، فإن «الدولة الإسلامية» مكلفة بتحقيق «المعنى الإنساني» للإسلام، الذي سبق بيانه. وهذا معناه: أن المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية تظلل بسلطانها طوائف الناس جميعاً على سواء، مع اختلافهم في الإيمان ونوع العمل، فضلاً عن اللون والجنس، وسائر أنواع الاختلاف بين الناس.

دعوة إلى التعاون

وكل ما تقدم معناه أن الإسلام لا ينظر بعين العداوة والعدوان إلى المخالفين لدينه، أو دولته ما داموا لا يبدءونه بالعداوة والعدوان بل هو يدعوهم إلى التعاون

﴿عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾

«سورة المائدة ٢»

ويدعوهم إلى تبادل النافع والخير العام يقول الله تعالى :-

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

«سورة الحجرات : ١٣»

تشريع الإسلام يطابق إنسانيته

كما يترتب على «إنسانية الإسلام» أن يكون تشريعه متفقاً مع «إنسانيته» بمعناها الأخلاقي والعالمي . ولذلك نجد الإسلام : دينا ودولة يتسع لقبول كل الأديان ، والمذاهب ، والأفكار ، ولا يضيق بها ذرعاً بل يجعل ذلك قانوناً عاماً حتمياً ، يقول القرآن :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

«يونس : ٩٩»

والمولى سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة يحرص على أن يؤكد للنبي الكريم «رسول الإسلام» أنه لا يملك سلطة إكراه الناس إلى ما يدعو إليه ، وهذا أمر مهم يهذب ضراوة أصحاب الدعوات الذين ينفون الغير ، إلا أن يكون معهم ، ويقول القرآن :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾

«سورة هود ١١٨ ، ١١٩»

وهذا تقرير لاختلاف الناس . الاختلاف الشامل لكل أنواعه ، وتقرير أن ذلك مشيئة الله الخالق . ووقائع دعوة رسول الإسلام كانت تطبيقاً لهذا (التنظير) القرآني . فكان يقول لقبائل العرب : أدعوكم إلى الله ولا أكرهكم على شئ . ولما قال الرسول ﷺ لمن رفع عليه السيف وقال له : من يمنعك مني . وقال الرجل عفوك ! قال له صلى الله عليه وسلم تشهد أني رسول الله قال الرجل أما هذه فلا ، لكن لا أكون معك ولا أكون عليك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فتركه ﷺ .

أنواع الإخاء في الإسلام

ولصفة الإنسانية في الإسلام الذى يشمل الناس بدعوته من غير إكراه كانت دعوته إلى الإخاء أنواعاً ثلاثة :

الإخاء «القومي الوطني»

يعني أن القوم ، والمواطنين في بلد واحد ، أو دولة واحدة هم أخوة وشركاء في وطنهم ودولتهم ، لكل منهم ما للآخر وعليه ما على الآخر ، وإن اختلف دينهم .

لما هاجر الرسول ﷺ كتب ما عرف في السيرة «الصحيفة» ، وأقر اليهود على دينهم وأوجب عليهم التعاون فيما بينهم ، كما جعل المسلمين كذلك وأوجب على الجميع من المسلمين واليهود حماية أرضهم ووطنهم ودولتهم .

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ تعامل مع اليهود بالمزارعة في الأرض ، واشترى من تجارهم ، وجاورهم في السكن ، وزار غلاماً يهودياً مريضاً ، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى في قدح من الشعير ، وكذلك فعل أصحابه عندما فتحوا البلاد ، مثلما أوصى أمير المؤمنين على ولاته على مصر وقال لهم : هم أخوة لكم في الدار .

وأباح القرآن تزوج المسلم من اليهودية والنصرانية المحصنة ، فيكون أخوال أبنائه من اليهود والنصارى . ولهذه الزوجة حق التردد على كنيستها وأكل ما أباحه دينهم كما أن لها حضانة أولادها وأباح طعامهم يجتمعون عليه أو يتهادونه ، يقول الله تعالى :

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

«سورة المائدة : ٥»

هذا بينما المذاهب النصرانية واليهودية يحرمون التزاوج بينهم ولا يخفى أن هذا التشريع الإسلامي الذى يعالج أقوى الرغبات الجسدية في الإنسان : الطعام والنكاح ، له أثر قوى عميق في الترابط الاجتماعي .

وتأصيل هذا الإخاء بتعبيرات القرآن الكريم عندما كان يذكر أخا رسول من رسل الله كقوله :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾

«سورة الأعراف : ٦٥»

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾

«سوره الاعراف : ٧٣»

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾

«سورة الأعراف : ٨٥»

وهذا دليل على جواز تسمية قريب النسب أو المشارك في الوطن أخا وإن اختلف الدين . ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وعندها يهودية ترقى عائشة فقال لليهودية : ارقيها بكتاب الله ولا يخفى ما في هذه القصة من العلاقة النفسية بين ابنة أبي بكر ، زوج رسول الإسلام وهذه اليهودية ، ومن غرائب الفقه الإسلامي الدالة على قوة الوحدة الوطنية :

أ- ما جاء في شرح الكنز للزيلعي أنه إذا أسلم أحد الزوجين الذميين لا يعرض الإسلام على الآخر : لأن عرض الإسلام عليه تعرض له ، وقد ضمنا له بعقد الذمة ألا نتعرض له .

ب- من هذه الغرائب أن الزوجين الكتابيين إذا أسلمت الزوجة لا يفسخ عقد نكاحها وتظل زوجة لزوجها الكتابي . تأمل ما يكون بينهما من ولد أمه مسلمة وأبوه يهودياً أو نصرانياً !! فهل ترى تسامحاً وتقارباً بين الإسلام وغيره فوق ذلك ، أو قريباً من ذلك ؟!

وبسبب هذه التشريعات في الإسلام ، نشأ في فقه الشريعة ما يعرف باسم :(فقه العلاقات الاجتماعية بين المسلمين ومن معهم من غيرهم) . كما نشأ فيه :(فقه العلاقات الدولية) وهذا تشريع وفقه تأسس على مبادئ إسلامية لم يسبق الإسلام بمثله ، ومازال واقع البشرية دونه إلى اليوم .

الإخاء الإيماني :

وهو الرابطة الدينية الجامعة للمؤمنين بدين الإسلام والتي يقول فيها الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

«سورة آل عمران ١٠٣»

وقوله:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

«سورة الحجرات ١٠»

ومقتضى هذا الإخاء أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد، والبنيان يشد بعضه بعضاً، ووجوب التكافل الاجتماعي والولاء، والتناصر، والتعاون على الخير، ودرء الشر والفتن وحسبك من هذا قوله ﷺ: المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان، رواه أبو داود والترمذى أين هذا من واقع المسلمين اليوم؟!

الإخاء الإنساني

فمن لم يكن لك أخاً في الدين ولا في الوطن فهو أخ لك في الإنسانية هذا توجيه الإسلام وبهذا يكون غير المسلم في البلد الإسلامي متمتعاً متظللا بإخاءين ومتحصناً بحصنين: المشاركة في الوطن، والقاسم الإنساني المشترك وقد قرر الإسلام هذا الإخاء في آيات من القرآن كقوله في مفتتح سورة النساء:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

ويذهب في شوط بعيد في هذا الإخاء حين يجعل اختلاف الناس اختلاف تعاون وتبادل وتكامل للمنافع كقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

«سورة الحجرات ١٣»

وهذه (عالمية) سبق بها الإسلام واشترى بها قلوب المسلمين حتى يقول عمار فيما رواه البخاري، صاحب رسول الله ﷺ «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم» وحسبك من ذلك أنه كان من أدعيته ﷺ في ختام الصلاة قوله: «اللهم ربنا رب كل شئ، إنا نشهد أن العباد كلهم إخوة» رواه أبو داود.

وقد طبق المسلمون ذلك عملاً احترموا إنسانية كل إنسان، وحرموا دمه وماله كحرمتهما للمسلم، وقصص عدلهم في الحكم لغير المسلمين مشهودة معروفة، وتأمل قول الإمام على في وصيته للأشتر النخعي عندما ولاه مصر: (إنهم أهل مصر) صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق) وهذا كلام غنى عن التعليق.

أسألك بربك، ثم بخبرتك بواقع التاريخ الاستعماري الممتد إلى زماننا هل وجدت فيه، ومن يدعون الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان - مثل ما تجد في الإسلام قولاً وعملاً هل وجدت تسمية غير المسلمين (أقليات)؟ أم وجدت إخاء ومساواة وإنساناً مكرماً.

طرف من المقايسة

نكتفي في هذا الطرف بالتنبيه على ما فعلته دول الاستعمار بدول العرب والمسلمين.

أما ما فعلته فرنسا في الجزائر والجزائريين فهو معروف فما زال شهود العيان منهم أحياء يذكرونه، ولا ينس الفرنسيون أنفسهم المجزرة التي قاموا بها في الجالية الجزائرية إبان محاولة الجزائريين التخلص من الاستعمار الفرنسي (والفرنسيون في الشهر الأول من كل عام يحيون ذكرى هذه المجزرة) ولا ننسى أن سبب إسلام الفيلسوف الفرنسي (جارودي) إنما كان لما رأى من ثبات الجزائريين (المسلمين) أمام الإبادات الجماعية التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي في الجزائر وهو معهم، ويعاونهم (حلف شمال الأطلسي)! أما ما فعل يهود إسرائيل ويفعلونه في عرب فلسطين فما زال واقعاً مشهوداً يصرخ منه الضمير الحي ومع ذلك تؤيده أمريكا بكل أثقالها السياسية والعسكرية، وقضية فلسطين بكل ما فيها من ظلم من صنع إنجلترا باعتراف رجالاتها، وما تدمير العراق إلا واحداً من هذه المآثم تعللوا له بأكاذيب لا ينكرونها وكذلك يفعلون.

ولا غرو، فإله اليهود كما تصوره أسفا العهد القديم: إله حرب: ينفث الدخان من منخريه، ويحرض شعبه على إبادة أصحاب الأرض الأصليين (الكنعانيين) وفتاوى حاخامات إسرائيل اليوم التي تطلب من جيش إسرائيل إبادة العرب وتقول عنهم أنهم أفاعي وتحرض الجيش على الاستيلاء على مزارع الفلسطينيين



جارودي

بحجة أن الأرض أرضهم والزرع زرعهم!

وهذا الواقع اليوم إنما هو حلقة حديثة من تاريخ قديم يؤمنون به ويجددون عهده، يقول ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة) جـ٢ ص ٣٢٦: «وهزيمتهم للكنعانيين ما هي إلا مثل لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقتلوا من الكنعانيين كل من استطاعوا قتلهم منهم وجرت دماء القتلى أنهاراً، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس: «فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى» يقول ديورانت: ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به.

أرأيت أن تحريض حاخامات اليهود اليوم امتداداً لتاريخهم القديم؟!

ألم يأتك - والأنباء تترى - ما فعل (شارون) في مجازر صبرا وشاتيلا وما يفعل الصهاينة من قتل الشيوخ والنساء والأطفال كل يوم، وما يهدمون من البيوت على أصحابها، وتجريف مئات، ومئات من الدونامات بما عليها من زروع وأشجار. أترك لكل ضمير حي طرف هذه المقارنة وما تقدم من تقريرات الإسلام النظرية وتطبيقات المسلمين العملية وحمايتهم لليهود حينما احتموا ولاذوا بدول المسلمين فعاملوهم بميزان قسط لا يعول عليهم مقدار شعيرة ولا يحيف قيد شعرة.

«يتبع»

قالوا عن محمد ﷺ





للدكتور/ عماد الدين خليل

سانتيلانا [1]

[١] «ما كان من محمد ﷺ إلا أن تناول المجتمع العربي هدماً من أصوله وجذوره وشاد صرحاً اجتماعياً جديداً.. هذا العمل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة.. إن محمداً ﷺ هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية Gens والموالاة والجماعات المتحالفة، من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه، ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته في الإيمان)، فما داموا على دينهم القديم، فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم - عليه السلام - لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)..» [2].

[٢] «كان محمد ﷺ رسول الله إلى الشعوب الأخرى، كما كان رسول الله إلى العرب» [3].

هنري دي فاستري

[١] «إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ﷺ، ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية، على أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي» [4].

«ثبت إذن أن محمداً ﷺ لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه..» [5].

[٢] «.. ولقد نعلم أن محمداً ﷺ مر بمتاعب كثيرة، وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه ﷺ ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الإدراك.. إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله أحد الله أحد).. كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها ليدعنا عن فكرة التوحيد..» [6].

[٤] «.. لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة، ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين، لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين.. ومن الصعب أن نقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل - عليه السلام - .. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل في كل حال» [7].

[٥] «لا يمكن أن ننكر على محمد ﷺ في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني (الدور المدني)، وما أوتيه من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه.. وما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحاً.. وكان قنوعاً خرج من (الدنيا) ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.. تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً، وقد احتقر المال..» [8].

إيتين دينيه

[١] «إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين برديه كانت خارقة للعادة، وكانت ذات أثر عظيم جداً، حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوى جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد..» [9].

[٢] «إن نبي الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم..» [10].

[٣] «.. إن سنة الرسول ﷺ الغراء باقية إلى يومنا هذا، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس (مئات الملايين) من أتباع سنته منتشرين على سطح الأرض» [11].

[٤] «كان النبي ﷺ يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة.. ليتمشط أو ليسوى طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشرى أن يروق الخالق سبحانه وتعالى..» [12].

١- دافيد دي سانتيلانا [١٨٥٥ – ١٩٣١] David de Santillana ولد في تونس، ودرس في روما، أحرز الدكتوراه في القانون. فدعاه المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانونين المدني والتجاري، معتمداً بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية، ومنسقاً إياهما بحسب القوانين الأوروبية. كان على معرفة واسعة بالمذهبين المالكي والشافعي، وفي سنة ١٩١٠ عين أستاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية، وله محاضرات قيمة فيها، ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامي. من آثاره: [ترجمة وشرح الأحكام المالكية]، كتاب [الفقه الإسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي].. إلخ

٢- تراث الإسلام [إشراف سير توماس أرنولد]، ص ٤٠٥ – ٤٠٦

٣- نفسه، ص ٤٠٦

٤- الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٦

٥- نفسه، ص ١٦

٦- نفسه، ص ١٦ – ١٧

٧- نفسه، ص ٢١

٨- نفسه، ص ٢٤

٩- أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥

١٠- نفسه، ص ١٦

١١- محمد رسول الله، ص ٥١

١٢- نفسه، ص ٣٩٢

[٥] «لقد (دعا) عيسى - عليه السلام - إلى المساواة والإخوة، أما محمد ﷺ فوفق إلى (تحقيق) المساواة والإخوة بين المؤمنين أثناء حياته»[١٣].

ول ديورانت

[١] «.. يبدو أن أحدًا لم يعن بتعليم (محمد ﷺ) القراءة والكتابة.. ولم يعرف عنه أنه كتب شيئًا بنفسه.. ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفًا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا»[١٤].

[٢] «كان النبي ﷺ من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسيًا محنكًا، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم»[١٥].

[٣] «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا أن محمدًا ﷺ كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العرب لما بدء الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا وقوامه البسالة والعزة القومية، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشيء دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[١٦].

[٤] «.. لسنا نجد في التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد ﷺ لإعانة الفقراء..»[١٧].

[٥] «تدل الأحاديث النبوية على أن النبي ﷺ كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين..»[١٨].

١٣- نفسه، ص ٣٢٣

١٤- قصة الحضارة، ١٣/٢١ - ٢٢

١٥- نفسه، ١٣/٣٨

١٦- نفسه، ١٣/٤٧

١٧- نفسه، ١٣/٥٩

١٨- نفسه، ١٣/١٦٧

رودنسن[١٩]

«.. بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستيرين في القرن الثامن عشر، بدأت تتكامل معالم صورة هي صورة محمد ﷺ الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع»[٢٠].

فرانز روزنتال

[١] «إن أفكار الرسول ﷺ التي تلقاها وحيًا، أو التي أدى إليها اجتهاده نشطت دراسة التاريخ نشاطًا لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضي وحوادث كافة شعوب الأرض أمورًا ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول ﷺ كانت خطًا فاصلاً واضحًا في كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامي هذا الخط قط..»[٢١].

[٢] «تبقى حقيقة، هي أن الرسول ﷺ نفسه وضع البذور التي نجني منها اهتمامًا واسعًا بالتاريخ.. لقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول ﷺ لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم في تقديم نمو التاريخ الإسلامي في المستقبل، رغم أن الرسول ﷺ لم يتنبأ بالنمو الهائل للمعرفة والعلم الذي سيتم باسم دينه»[٢٢].

جانترسلر

[١] «القرآن يكمله الحديث الذي يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبي ﷺ وإرشاداته، وفي الحديث يجد المرء ما كان يدور بخلد النبي ﷺ، العنصر الأساسي من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة في الحياة، هذه الأقوال، أو هذه الأحاديث التي يشكل مجموعها السنة دونت مما روى عن الصحابة - رضي الله عنهم - أو نقل عنهم مع التمحيص الشديد في اختيارها وهكذا جمع عدد كبير من الأحاديث.. والسنة هي المبينة للقرآن التي لا غنى عنها للقرآن..»[٢٣].

[٢] «.. كان لزامًا على محمد ﷺ أن يبرز في أخصر وقت ممكن تفوق الشعب العربي، عندما أنعم الله عليه بدين سام في بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية، وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية، فإنه يجب أن نعترف أن محمدًا ﷺ يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان»[٢٤].

١٩- مكسيم رودنسن M. Rodinson ولد عام ١٩١٥، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديرها. من آثاره: [مباحث في فن الطبخ عند العرب، ١٩٤٩]، ونشر عدداً من الدراسات في المجلات المعروفة مثل [دانتي والإسلام]، و[حياة محمد والمشكلة الاجتماعية المتعلقة بأصول الإسلام]، و[دراسة الصلات بين الإسلام والشيوعية].

٢٠- تراث الإسلام، [تصنيف شاخت وبوزورث]، ١/٦٧ - ٦٨

٢١- علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٠

٢٢- نفسه، ص ٤٥

٢٣- الحضارة العربية، ص ٣٢

٢٤- نفسه، ص ٣٧

فتاوى لها تاريخ



للأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

العودة للدين الحق

سـأل باشكاتب محكمة شرعية لواء نابلس: الشيخ عبده بكر التميمى، فى رجل اقر أنه من طائفة الدروز، ويريد الآن أن يترك ما كان عليه من الاعتقادات الدرزية، ويعتنق الدين الإسلامى الحنيفى المبين، فهل، والحالة هذه، إذا أتى بالشهادتين، مع عبارة التبرى من جميع ما يخالف دين الإسلام، يعتبر بنظر الشرع مسلماً ويعامل معاملة المسلمين فوراً؟ ولا يعد منافقاً؟ وإذا صح إسلامه بتلك الصيغة فما حكم من لم يقبل إسلامه من المسلمين؟ وهل يشترط لقبول إسلامه أن يكون رسمياً؟؟

أرجو الجواب.

(الجواب): الذى قالوه: أنه متى جاء الدرزى ونحوه طائعاً معلناً بأنه كان على عقيدته، وأنه رجع عنها، متبرئاً من كل دين يخالف دين الإسلام. وجب قبول قوله، واعتبر مسلماً. وقالوا، كذلك: إن من لم يقبل رجوع من يريد الأوبة إلى الإسلام يكون راضياً ببقائه على الكفر. وقالوا: إن أقل ما فى ذلك أن يكون آثماً سيئاً.

ثم إنه ليست لنا سنة نتبعها فى اعتبار المتحول إلى الإسلام مسلماً منا، له ما لنا وعليه ما علينا فى أخوة الدين إلا سنة نبينا محمد ﷺ، وقد كان عليه السلام يقبل الرجعة إلى الإسلام بعد الردة، والإخلاص بعد النفاق، ولم يكن ينظر إلى من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق، والآخرة حق، وأن جميع ما فرض الله فى كتابه واجب الأداء، وما منعه يجب عنه الانتهاء، إلا نظرة المسلم للمسلم، ولم يكن يفرق بين المسلمين فى الإسلام، إلا أن يطلعه الله على ما كن شخص من نفاق، أو قامت له على ذلك شواهد قاطعة. وكتب السنة شاهدة بذلك. فكيف لا نقنع من الناس بما قنع ﷺ منهم؟ وكيف نطالبهم بأكثر مما طالبهم به؟ وهو صاحب الشريعة، وإليه المرد عند النزاع؟؟

فهذا الدرزى الذى اعترف بما كان عليه، وجاء الآن طائعاً من نفسه يشهد أنه على الدين الحق، وأنه ينبذ كل دين يخالفه، يعد مسلماً حقاً. ومن لم يقبل منه ذلك يخشى أن يبوء بها، نعوذ بالله! فليتق الله المسلمون، وليرجعوا إلى حكم الله وحكم رسوله، ولا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، والله ينقذهم مما صاروا إليه، وهو يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

أما اعتبار الراجع إلى العقيدة الصحيحة مسلماً فلا يحتاج إلى أن يكون ذلك من طريق رسمية، بل يكفى أن يعلم الله عنه ذلك. ثم فى جريان أحكام المسلمين عليه لا يحتاج إلا إلى أن يعرف الناس منه ذلك ويشتهر أمره بين من يعرفونه. والله أعلم [1].

التبنى وفقر الآباء والأمهات

سئل [2] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٣ ذى القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٣، مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة مصلحة الصحة رقمية أول يناير الماضى، نمرة ١ المختصة بالاستفهام عما إذا كان يجوز شرعاً تسليم الطفلة سيدة بنت سارة التى وجدت بالمستشفى لعدم قدرة والدتها على تربيتها وطلاقها من زوجها، هى ومن يماثلها، لمن يرغبون استلامهم لتربيتهم بطرفهم أسوة بالأطفال اللقطاء؟ تفاد النظارة بما يقتضيه الحكم الشرعى فى ذلك. وطيه سبع ورقات.

(الجواب): واقعة السؤال ليست مما يختص بباب الحضانة وحده، بل هى واقعة تشتمل مع ذلك على المحافظة على حياة الطفل، لعدم الوسائل للإنفاق عليه، فلينظر فى حال الأم، فإن كانت قادرة على حضانة بنتها والإنفاق عليها، والأب عاجز عن ذلك، وجب على الأم أن تحضن بنتها، ولا يجوز تسليمها لغيرها، وإن كانت الأم عاجزة عن التفرغ للحضانة والإنفاق ألزم الأب بأن ينفق عليها وأن يكل حضانتها لمن يلى الأم فى استحقاق الحضانة إن أبت الأم أن تحضنها، وإن كان الأب عاجزاً عن الإنفاق وإعطاء أجر الحضانة، ولا فائدة من إجباره على ذلك، ووجد من يكفل تربيتها، وكان أبواها راضيين بتسليمها إليه جاز ذلك حفظاً لحياتها. والله أعلم [3]. طيه الأوراق عدد ٧.

---

(١) تاريخ هذه الفتوى ١٦ صفر سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٩ وتقع فى ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) أى الأستاذ الإمام.

(٣) تاريخ هذه الفتوى ٨ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤١٦ وتقع فى ص ١٧٢، ١٧٣.

سئل [٤] بإفادة من نظارة الحقانية، مؤرخة في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣١٩ نمرة ٩ مضمونها: أن حضرة مدير الصحة العمومية رام بإفادته نمرة ٢٩، ضمن العشر ورقات طيه، معرفة ما إذا كان يجوز شرعاً تسليم الأطفال الذين ليس لأهاليهم مقدرة على تربيتهم لمن يرغبون استلامهم لتربيتهم بطرفهم، بصرف النظر عن قبول أبويهم، للسبب الذي أوضحه حضرته؟ فالأمل الإفادة بما يرى.

(الجواب): قد اطلعت على هذا الرقيم، وعلى ما جاء في إفادة حضرة مدير الصحة، المرفقة بهذا، من الاستفهام عما إذا كان يجوز تسليم الأطفال الذين ليس لأهاليهم قدرة على تربيتهم لمن يرغبون استلامهم، بصرف النظر عن قبول أبويهم، نظراً لما أورده حضرته من أنه بعد تسليم الطفل «للاسبيتالية» لعدم القدرة على تلك التربية، يصعب معرفة أبويه لأخذ قولهما في الرضاء بالتسليم للغير. فرأيت أن لا مانع في هذه الحالة من تسليمه لثقة قادر على حفظه. والله أعلم. وطيه الأوراق عدد ١٠.

حاشية: ويراعى في الثقة القادر أن يكون مسلماً. والله أعلم [٥].

مسألة في المواريث

• سأل محمود يوسف، المحضر بالمحاكم الأهلية، في: رجل مات عن زوجة وابن أخ، ثم إن الزوجة ادعت أنها صرفت على مأتمه مصاريف مثل أجرة فراش وطباخ وفقهاء عتاقة وإسقاط صلاة وغير ذلك، مع أن المتوفى لم تصدر منه وصية بعمل شيء مما ذكر، ولم يأذنها ابن الأخ المذكور بشيء من ذلك، فهل لها الرجوع عليه بما يخصه فيما ادعت صرفه؟ أو لا ترجع إلا بما يخصه في التكفين؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المعروف في كتب الفقه أنه إذا أنفق أحد الورثة للمأتم وشراء الشمع ونحوه، بلا وصية، ولا إذن من باقي الورثة، فإنه يحسب من نصيبه، ولو كان ذلك من مال نفسه يكون متبرعاً فيه، كما في (العقود) نقلا عن (حاوي الزاهدي).

وعلى هذا يحسب ما صرفته هذه الزوجة في لوازم المأتم وإسقاط الصلاة وغير ذلك من نصيبها، إن كان ما صرفته من التركة، أما لو كان من مال نفسها فإنها تعد متبرعة فيه، حيث كان ذلك بلا وصية ولا إذن من ذلك الوارث الآخر، ولا حق لها في الرجوع بشيء من ذلك

(٤) أي الأستاذ الإمام.

(٥) تاريخ هذه الفتوى ٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٠ وتقع في ص ١٨١.

نعم لها أن ترجع في التركة بما أنفقته من مالها في تكفين المورث كفن المثل، ولو كان بغير إذن ذلك الوارث. والله أعلم [٦].

مسألة في الإمامة

• سأل أحمد أفندي الكريدي، مدير مجلة التركية شرق مصور، بمصر، في: مدينة وقعت تحت حكم المسيحيين، ولم يكن فيها مأذون من قبل الخليفة، فهل يسوغ شرعاً لمن ينتخبه الأهلون من عند أنفسهم أن يقوم عنهم بوظيفة الإمامة في مثل صلاة الجمعة والعيدين وعقد الأنكحة؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم إذا انتخب المسلمون من بينهم من يقوم بوظيفة الإمامة فيهم ويخطب بهم في الجمعة والعيدين ويعقد لهم الأنكحة، وبالجملة يؤدي من الأعمال ما يؤديه القاضي، جاز ذلك ونفذت جميع تصرفاته فيما من شأنه ان يتصرف فيه. والله أعلم [٧].

حرمة الميت

• سئل [٨] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة في ١١ صفر سنة ١٣٢٠ نمرة ١٤ مضمونها: أن مكاتبة الصحة رقيمة ٦ مايو الجاري نمرة ٤٦ والسبع عشرة ورقة طيه مختصة بطلب الست فاطمة بنت يعقوب نقل جثة بنتها من جبانة تلبانة إلى دمنهور، ومعارضة أخ المتوفاة وزوجها في ذلك، ويراد الإفادة عما يرى في هذه المسألة، وعليه نرجو النظر والإفادة بما يرى.

(الجواب)

قد اطلعت على الأوراق- المختصة بطلب الست فاطمة بنت يعقوب نقل جثة بنتها ستوتة بنت الحاج محمد الحبشي من مقبرة تلبانة التي دفنت بها في مايو سنة ١٩٠٠ إلى مقبرة دمنهور، ومعارضة أخ المتوفاة وزوجها في ذلك - المرسلة تلك الأوراق مع هذا الرقيم بقصد الإفادة منا عن الحكم في ذلك، وأفيد سعادتكم بأن أقوال علمائنا صريحة في منع نقل الميت بعد دفنه، فقد قال في (الفتح) ما نصه: (واتفقت كلمة المشايخ في امرأة دفن ابنها وهي غائبة في غير بلدها، وأرادت نقله، على أنه لا يسعها ذلك)، وهذا صريح في المنع، كما قلنا. والله أعلم [٩].



(٦) تاريخ هذه الفتوى ٦ محرم سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٤ وتقع في ص١٨٥، ١٨٦.

(٧) تاريخ هذه الفتوى ١٨ صفر سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٨٠ في ص ١٩٥.

(٨) أي الأستاذ الإمام.

(٩) تاريخ هذه الفتوى ١٢ صفر سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٧٨ في ص ١٩٤.

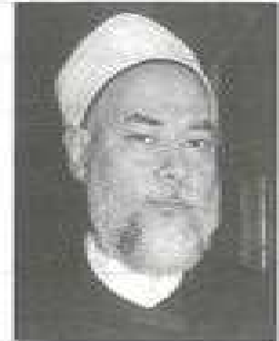
﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـــى جمعـــة

مفتى جمهورية مصر العربية



(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

الصلاة فى المساجد التى بها أضرحة

● ما حكم الصلاة في المساجد التي بها أضرحة؟

●● الجواب:

الصلاة فى المساجد التى يوجد بها أضرحة الأولياء والصالحين صحيحة ومشروعة، وما يُثار من أنها باطلة هو قول مبتدع لا سند له، بل إنها تصل إلى درجة الاستحباب، وذلك بالكتاب، والسنة، وفعل الصحابة، وإجماع الأمة الفعلى.

- فمن القرآن الكريم: قوله تعالى:

﴿ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

«الكهف: ٢١»

وسياق الآية يدل على أن القول الأول هو قول المشركين، وأن القول الثانى هو قول الموحِّدين، وقد حكى الله تعالى القولين دون إنكار؛ فدل ذلك على إمضاء الشريعة لهما، بل إن سياق قول الموحدين يفيد المدح؛ بدليل المقابلة بينه وبين قول المشركين المحفوف بالتشكيك، بينما جاء قول الموحدين قاطعاً وأن مرادهم ليس مجرد البناء بل المطلوب إنما هو المسجد.

قال الإمام الرازى فى تفسير:

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

«نعبد الله فيه، ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد» اهـ.

وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على تفسير البيضاوى: «فى هذه دليل على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين» اهـ.

- ومن السُّنة: حديث أبى بصير رضى الله عنه، الذى رواه عبدالرَّزاق عن معمر، وابن إسحاق فى «السيرة»، وموسى بن عقبة فى «مغازيه» - وهى أصح المغازى كما يقول الإمام مالك - : ثلاثتهم عن الزُّهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضى الله عنهم: أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو دفن أبا بصير (رضى الله عنه) لما مات وبنى على قبره مسجداً «بسيف البحر»، وذلك بمحضر ثلاثمائة من الصحابة.. وهذا إسناد صحيح؛ كله أئمة ثقات، ومثل هذا الفعل لا يخفى على رسول الله ﷺ، ومع ذلك فلم يرد أنه ﷺ أمر بإخراج القبر من المسجد أو نبشه.

كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «فى مسجد الخيف قبر سبعين نبيًّا».. أخرجه البزار والطبرانى فى المعجم الكبير، وقال الحافظ ابن حجر فى «مختصر زوائد البزار»: هو إسناد صحيح.

وقد ثبت فى الآثار أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر - رضى الله عنها - قد دُفنا فى الحجر من البيت الحرام، وهذا هو الذى ذكره ثقات المؤرخين واعتمده علماء السِّير: كابن إسحاق فى «السيرة»، وابن جرير الطبرى فى «تاريخه»، والسهيلى فى «الروض الأنف»، وابن الجوزى فى «المنتظم»، وابن الأثير فى «الكامل»، والذهبى فى «تاريخ الإسلام»، وابن كثير فى «البداية والنهاية»، وغيرهم من مؤرخى الإسلام، وأقر النبى ﷺ ذلك ولم يأمر بنبش هذه القبور وإخراجها من مسجد الخيف أو من المسجد الحرام.

- وأما فعل الصحابة: فقد حكاه الإمام مالك فى «الموطأ» بلاغاً صحيحاً عندما ذكر اختلاف الصحابة فى مكان دفن النبى ﷺ فقال: «فقال ناس: يُدفَنُ عند المِنبر، وقال آخرون: يُدفَنُ بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما دفن نبى قط إلا فى مكانه الذى توفى فيه»، فحفر له فيه» اهـ.

والمنبر من المسجد قطعاً، ولم ينكر أحد من الصحابة هذا الاقتراح، وإنما عدل عنه أبو بكر تطبيقاً لأمر النبي ﷺ أن يُدفن حيث قبضت روحه الشريفة ﷺ، فدفن في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها المتصلة بالمسجد الذي يصلي فيه المسلمون، وهذا هو نفس وضع المساجد المتصلة بحجرات أضرحة الأولياء والصالحين في زماننا.

وأما دعوى الخصوصية في ذلك للنبي ﷺ فهي غير صحيحة؛ لأنها دعوى لا دليل عليها، بل هي باطلة قطعاً بدفن سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما في هذه الحجرة التي كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعيش فيها وتصلي فيها صلواتها المفروضة والمندوبة؛ فكان ذلك إجماعاً من الصحابة رضي الله عنهم على جوازه.

– ومن إجماع الأمة الفعلي وإقرار علمائها لذلك: صلاة المسلمين سلفاً وخلفاً في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ والمساجد التي بها أضرحة من غير نكير، وإقرار العلماء من لدن الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة الذين وافقوا على إدخال الحجرة النبوية الشريفة إلى المسجد النبوي سنة ثمان وثمانين للهجرة، وذلك بأمر الوليد بن عبدالملك لعامله على المدينة حينئذ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، ولم يعترض منهم إلا سعيد بن المسيب، لا لأنه يرى حرمة الصلاة في المساجد التي بها قبور، بل لأنه كان يريد أن تبقى حجرات النبي ﷺ كما هي يطلع عليها المسلمون حتى يزهدوا في الدنيا ويعلموا كيف كان يعيش نبيهم ﷺ.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فالمساجد: جمع مسجد، والمسجد في اللغة: مصدر ميمي يصلح للدلالة على الزمان والمكان والحدث، ومعنى اتخاذ القبور مساجد: السجود لها على وجه تعظيمها وعبادتها كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان ـ كما فسرته الرواية الصحيحة الأخرى للحديث عند ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً؛ لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فجملة «لعن الله قوماً..» بيان لمعنى جعل القبر وثناً، والمعنى: اللهم لا تجعل قبري وثناً يسجد له ويعبد كما سجد قوم لقبور أنبيائهم.

قال الإمام البيضاوي: «لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور أنبيائهم؛ تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة، ويتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه، أما من اتخذ مسجداً بجوار صالح أو صلى في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه ووصول أثر من آثار عبادته إليه ـ لا التعظيم له والتوجه ـ فلا حرج عليه؛ ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد الحرام ثم الحطيم، ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلي بصلاته، والنهي عن الصلاة في المقابر مختص بالمنبوشة؛ لما فيها من النجاسة» اهـ.

وبناءً على ذلك فإن الصلاة في المساجد التي بها أضرحة الأولياء والصالحين جائزة ومشروعة، بل ومستحبة أيضاً، والقول بتحريمها أو بطلانها قول باطل لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الصلاة على النبي ﷺ

● ما حكم الصلاة على النبي ﷺ جهراً بعد الأذان؟

●● الجواب:

الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان سنة ثابتة في الأحاديث الصحيحة، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

ولم يأت نص يوجب الجهر أو الإسرار بها فالأمر فيه واسع، وإذا شرع الله سبحانه وتعالى أمراً على جهة الاطلاق وكان يحتمل في فعله وكيفية إيقاعه أكثر من وجه فإنه يؤخذ على إطلاقه وسعته ولا يصح تقييده بوجه دون وجه إلا بدليل.

على أنه قد ورد عن النبي ﷺ ما يدل على الجهر بالصلاة عليه بعد الأذان، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سمع المؤذن: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد واعطه سؤله يوم القيامة»، وكان يسمعها من حوله ويحب أن يقولوا مثل ذلك إذا سمعوا المؤذن، قال: «ومن قال مثل ذلك إذا سمع المؤذن وجبت له شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة».

وعلى كل حال فالأمر في ذلك واسع، والصواب ترك الناس على سجاياهم، فمن شاء صلى بما شاء كما شاء، ومن شاء ترك الجهر بها أو اقتصر على الصيغة التي يريدها، والعبرة في ذلك حيث يجد المسلم قلبه، وليس لأحد أن ينكر على الآخر في مثل ذلك ما دام الأمر فيه واسعاً.

والله سبحانه وتعالى أعلم

لا مانع من إتمام العمرة

● عزمت بإذن الله تعالى أن أقوم بعمرة في شهر رمضان المعظم، وأنا على المعاش ومعي من المال مبلغ بسيط وسأقوم بسداد باقي المبلغ من البنك ولي أولاد سيقومون بسداد الأقساط الشهرية للبنك إذا توفيت في العمرة.. فما حكم الشرع في نقود البنك التي سأكمل بها العمرة؟

●● الجواب:

لا مانع من إتمام العمرة بنقود البنك.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المقصد التربوى للحج فى الجانب الخلقى للفرد المسلم



للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

الحج مدرسة تربوية كبرى للنفس البشرية لضبط شهواتها وكبح جنوحها وإطلاق كوامن الخير فيها ويتضح ذلك من جوانب كثيرة منها ما يلى:

أولاً: للحج أركان وآداب وسنن وواجبات ومندوبات تسهم كلها فى إقدار الإنسان على جوارحه ومشاعره وشهواته ونزواته، فيتدرب على الامتناع عن الحلال توصلاً إلى الكف عن الشبهات والحرام. فتأتى محظورات الإحرام من الجماع ودواعيه واللغو والرفث الفسوق، ومخاصمة الرفقاء، ولبس المخيط، والامتناع عن التطيب والادهان والخضاب وإزالة الشعر وتقليم الأظافر وستر الرأس للرجل، والتعرض للصيد وإنشاء عقد الزواج وهذا وغيره يجعل المسلم أمام مناسك تلزمه بأن يعيد السيطرة الكاملة على كل تصرفاته وحركاته فلا يجوز له أن يرسل نظره إلى زوجته حتى تثور شهوته أو تشتد رغبته أو يرسل لسانه بكلمات من الرفث بين الرجل وزوجته فلا يملك مشاعره، فيفسد حجه أو عمرته مع وجوب الفداء والقضاء، بل إن حركة اليد تحو شعيرات جسمه أو لحيته ورأسه لتنتفها لا تجوز، هذا وغيره يقوى فى النفس قوة الإرادة، وأن يكون العقل والقلب هما الموجهين لكل حركات ومشاعر المسلم، وليست الأهواء المنفلتة والمشاعر الهابطة، ومع طول أيام الحج وتدرج الإنسان من التحلل الأصغر، وهو أن يفعل كل شىء سوى الجماع إلى التحلل الأكبر هو تدريب على الصبر الجميل وتعويده على عدم الانطلاق مع الانفلات لكل الشهوات والرغبات.

ثانياً: فى أحكام الحج ما يساعد على إحكام هذه السيطرة على كل الجوارح والمشاعر القوية فى النفس البشرية بما فرضه الله تعالى أو نبيه ﷺ من عقوبات مالية على من تجاوز شيئاً من محظورات الإحرام أو واجبات الحج من ذلك ما يلى:

١- من جاوز الميقات دون إحرام فعليه دم.

٢- من قبل فلم ينزل فعليه دم، ومن دون الفرج فلم ينزل فعليه دم، ومن وطىء فى الفرج فسد حجهما وعلى كل بدنة إن طاوعته، وإن لم تطاوعه وغلبها على نفسها فسد حجها معه وعليه وحده بدنة.

٣- من قتل صيداً فى البر أو شيئاً فى الحرم أو دلّ محرماً على الصيد ليقتله فعليه دم.

٤- من نتف أو حلق بعض الشعيرات فعليه بكل شعرة صدقة، وإن تجاوز إلى أربع شعرات عامداً أو مخطئاً فعليه صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة.

٥- من تطيب عامداً غسل الطيب وعليه دم.

٦- من ترك رمى الجمرات أو المبيت بمنى فعليه دم.

٧- إن ظلل رأسه عامداً فعليه دم.

٨- من لبس مخيطاً أو خفاً عامداً وهو يجد النعل خلعه وعليه دم.

هذه العقوبات تضبط بقوة كثيراً من الذين قد لا يقدرون على جوارحهم وتصرفاتهم إلا بإدراك عاقبة أفعالهم، وأنهم سيدفعون على كل تصرف خارج عن دائرة المناسك والمشاعر ما يرهق كاهلهم، ولا يعقل أن يتعمد أحد فعل شىء من ذلك مع تذرعه بقدرته على ذبح الفداء، بل إن المسلم يمتثل لذلك قربة إلى الله وحباً فى شعائر الله تعالى، ورغبة فى محو زلاته وغفران ذنوبه، لكن لا شك أن النفس البشرية تحتاج إلى العقوبات الوقائية والرادعة إذا خالف ما أمر به.

أحسب أن هذا الانضباط الكامل فى نظرات العين، وكلمات اللسان وحركات اليد، وخطرات القلب ورغبات الفرج يفضى إلى تزكية الأخلاق، لأن هذه منافذ مكارم الأخلاق وسفاسفها، فإن تدرب بين الحين والآخر على ضبطها انطلقت كوامن الخير فيه وتفجرت ينابيع البر فى كل تصرفاته وإلا فكم من ذوى رغبات سامية انحدر بهم انفلات زمام التحكم فى جوارحهم وشهواتهم.

ثالثاً: يساهم الحج مع العبادات الأخرى فى تخلق المسلم بالكرم والجود فهو يبذل مالاً كثيراً ابتغاء مرضاة الله تعالى وينفق دون تبرم فى الفداء إن سها أو تجاوز فى شىء من واجبات الحج أو محظورات الإحرام، ويسوق الهدى ويذبح وجوباً متمتعاً أو قارناً، أو تطوعاً إن كان مفرداً؛ ليطعم القانع والمعتر، الصديق والرفيق فى السفر، بل إن من المندوبات فى الحج أن يكثر الإنسان زاده ليعطى رفقاءه فى الحج ويتعود كثرة البذل، وقد بين الأستاذ سعيد حوى أن من آداب الحج التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف. وكثرة البذل لا إسراف فيه، قال ابن عمر رضى الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره.. وقيل إن الحج المبرور يعنى طيب الكلام وإطعام الطعام[٢].

---

(١) «شرح فتح القدير» لابن الهمام (٢/٠-٤١)، «المبسوط» للسرخسى (٤/٧٠، ٨)، «المصنف» الكندى (٨/١٢٤، ١٣٧)، كتاب «الإيضاح» الشماخى (٣/٩-٢٠-٢٨٢).

(٢) «المستخلص فى تزكية الأنفس» ص (٦٦).

رابعًا: تساهم أحكام الحج أيضًا في تزكية خلق العفة عما في أيدي الناس وعدم استشراف ما بأيديهم، وتعلق القلب بما يأكلونه أو يشربونه أو يلبسونه، وفي ذلك يروي البخاري بسنده عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى:

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

وأورد النيسابوري بسنده عن عطاء بن رباح أن الرجل كان يخرج للحج فيكون كلا على غيره فنهاهم الله تعالى[٣].

ويتعلق بهذا النهي عن الحج من القرض فيعمد ذوو المشاعر الطيبة لتحقيق رغبتهم في الحج أو العمرة إلى الاقتراض فيذلون أنفسهم بتعرضها للسؤال، ويعودون بعد العمرة أو الحج يحملون ذلاً بالنهار وهماً بالليل، ومن هنا ندرك القيمة الأخلاقية التي يرسيها الحديث الذي رواه الشافعي بسنده عن عبدالله بن أبي أوفى قال: سألت النبي ﷺ عن الرجل لم يحج أيستقرض للحج؟ قال: «لا».

خامسًا: يتعود المسلم من أحكام الحج على احترام وتقدير مشاعر الآخرين وظروفهم ومن هذه الأحكام:

أ- الغسل للإحرام ولدخول مكة وللطواف والوقوف بعرفة وهي مظنة مجامع الناس، حتى لا يؤذي مشاعرهم بروائحه الكريهة من العرق.

ب- عدم المزاحمة على الحجر الأسود بصورة تؤذي الآخرين ولذا روى عبدالرزاق في مصنفه بسنده أن النبي ﷺ قال لعمر - رضي الله عنه -: إنك لرجل شديد، تؤذي الضعيف إذا طفت بالبيت، فإذا رأيت خلوة من الحجر فادن منه، وإلا فكبر، ثم امض[٤].

جـ- أن من آذاه مرض كالحساسية في رأسه أو جسمه جاز له أن يحلق شعره لما رواه البخاري بسنده عن كعب بن عمرة أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يتساقط على وجهه. فقال: أيؤذيك هوامك؟ قال: نعم. فأمره أن يحلق رأسه وهو بالحديبية[٥]. قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجزه وإتلافه إلا في حالة علة[٦].

د- الإذن بالركوب في الطواف والسعي لمن وجد مشقة في الطواف أو السعي ماشيًا ومنه ما رواه البخاري بسنده عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي. فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة»[٧].

(٣) «أسباب النزول» للنيسابوري ص (٥٧).

(٤) «المصنف» لعبدالرزاق - كتاب الحج - باب الزحام على الركن (٥/٣٦)، وسنن البيهقي، كتاب الحج - باب الاستلام في الزحام (٥/٨٠).

(٥) «صحيح البخاري»، كتاب الحج، باب قوله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه﴾، رقم (١٨١٤).

(٦) «تفسير القرطبي» (الجامع لأحكام القرآن) (٦/٧٠٨).

(٧) «صحيح البخاري»، كتاب الحج، باب طواف النساء مع الرجال رقم (١٦١٩).

هـ- ما ورد من الإذن للضعفاء من الأولاد والنساء بل الرجال أن يترخصوا في المبيت بالمزدلفة، وأن يرموا قبل الفجر جمرة العقبة الكبرى قبل الفجر خوف الزحام عليهم، منها ما رواه الشيخان بسندهما عن عائشة قالت: نزلنا المزدلفة فاستأذنت النبي ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة بطيئة فأذن لها[٨].

يقول النووي: السنة عندنا أن يبقى الحاج في المزدلفة حتى يطلع الفجر إلا الضعفة فيستحب لهم الدفع قبل الفجر[٩].

وقال ابن حجر: روى عن طريق عطاء قال: أخبرني ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للعباس ليلة المزدلفة: «اذهب بضعفائنا ونسائنا فليصلوا الصبح بمنى وليرموا جمرة العقبة قبل أن تصيبهم دفعة الناس، فكان عطاء يفعله بعدما كبر وضعف»[١٠].

و- مراعاة مصالح ذوي الأموال والتجارة في أن يكونوا مباشرين لأموالهم، من ذلك ما رواه مالك وغيره بسندهم عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم عن أبيه أن أبا البداح أخبره عن أبيه أن رسول الله ﷺ أرخص لرعاة الإبل في البيتوتة خارجين عن منى يرمون يوم النحر، ثم يرمون الغد، وبعد الغد ليومين، ثم يرمون يوم النفر[١١].

وقد قاس العلماء على هؤلاء الرعاة كل من له مال أو شيء يخاف عليه خوفًا يفوت مصلحة ضرورية كبيرة أن يترك المبيت بمنى ليرعى مصالحه الضرورية التي قد يصيبها فساد كبير بالمبيت بمنى- حتى قال الشيخ الساعاتي في شرحه للمسند: «ومن الجمود قصر العذر في عدم المبيت على أهل الرعاة والسقاية، بل يتعداه إلى غيرهم». وقد جزم الشافعي بإلحاق من له مال يخاف ضياعه، أو أمر يخاف فواته أو مريض يتعاهده بأهل السقاية[١٢].

هذه الأحكام التي أطلت في عرض أدلتها لو التزم بها المسلمون اليوم لكان حجهم خارجًا عن العنت والمشقة التي ترهق الناس عند الطواف خاصة المزاحمة على الحجر الأسود، والمزاحمة على رمي الجمرات، حيث صار هناك قتلى بسبب هذا الزحام، مما يوجب إعادة الفتوى في وقت رمي الجمرات في ظروف العصر الآن التي يتجمع فيها أكثر من ثلاثة ملايين للحج ومطلوب أن يرمي هؤلاء جميعًا في سبع ساعات

(٨) «صحيح البخاري»، كتاب الحج، باب من قدم ضعفة أهله بليل رقم (١٦٨١)، و«اللؤلؤ والمرجان» فيما اتفق عليه الشيخان رقم (٨١٢).

(٩) «المجموع» للنووي (٨/١٥٠) وراجع أيضاً في نفس المعنى «المبسوط» للسرخسي (٤/٦٣)، «حاشية رد المحتار» لابن عابدين (٢/٥١٦، ٥١٢).

(١٠) «فتح الباري» من (٣/٥٢٨).

(١١) «الموطأ»، كتاب الحج، باب الرخصة في رمي الجمار (١/٤٠٨)، و«سنن أبي داود»، كتاب المناسك باب في رمي الجمار، و«النسائي»، كتاب باب رمي الرعاة.

(١٢) راجع في ذلك «الفتح الرباني» (١٢/٢٢٣، ٢٢٤)، «سبل السلام» للصنعاني (٢/٧٥٤)، «نيل الأوطار» للشوكاني (٥/٨٠)، «زاد المعاد» لابن القيم (٢/٢٩٠).

كما تصدر بعض الفتاوى هنا أو هناك[١٣]، هذا يوجب عصمة لهذه النفوس المحترمة أن ترهق إلى حد الإنهاك أو تزهق إلى حد القتل المهين تحت نعال إخوانهم المسلمين، كل ذلك من أجل المحافظة على الشكل دون المضمون لهذه الشريعة الغراء التي تنتقل بالحكم الشرعي في كثير من القضايا من الإباحة إلى الحرمة إذا أدت الإباحة إلى الاستحباب إلى إزهاق النفس، فلو علم حاج أنه لو دخل في زحام رمي الجمرات قد يموت لضعف جسمه وشدة الزحام فإنه ربما كان آثماً إن فعل، ويجب عليه أن يرمي في وقت واسع من الليل أو قبل الظهر أو يؤجله ليوم آخر، أو ينيب عنه من يرمي بدلاً منه.

* تعلمنا أحكام الحج خُلق الرحمة ليس بالخَلق فقط كما سبق بل الرحمة بالحيوان، حيث يرد الأمر النبوي في ذبح أضاحي الحج فيما رواه الدارمي بسنده عن شداد بن أوس قال: حفظت عن رسول الله اثنتين قال: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[١٤].

سادساً: من أحكام الحج ما يؤكد على دفع الناس إلى المكارم وأخلاق العزة، ومن ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس قال: «مر النبي ﷺ وهو يطوف بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو خيط أو بشيء غير ذلك فقطعه النبي ﷺ بيده، ثم قال: قده بيده»[١٥].

هذا الحديث يبين إلى أي مدى أحس النبي ﷺ بأن ربط الإنسان بيده واقتياده من خلال هذا الخيط يمثل امتهاناً لآدميته وانتقاصاً من كرامته، فبادر إلى تغيير هذا المنكر بيده، ثم أمره أن يقوده بيده وليس كما تقاد الحيوانات والدواب، وهذا الحديث يمثل منهجية واضحة في رفض كل صور الامتهان لكرامة الإنسان، ومعاملته التي تزري به، حتى لو كان متهماً في جناية فيمكن عقابه رغبة في إصلاحه، وتقويم أعوجاجه.

سابعاً: تكاليف الحج ورحلته الطويلة وتغيير العوائد، والسفر جواً أو براً أو بحراً هو قطعة من العذاب وذلك لما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل إلى أهله»[١٦]. هذه الرحلة تعيد الثقة في ملكات النفس، وفي قوة الاحتمال، كي ينهض المسلم للمهمات الجسام، أداء لأمانة الإسلام في عنقه، وسعياً للشهادة على الناس، ليصل إلى النبوغ في كل جوانب الحياة التي تنفعه في آخرته ودنياه.

(١٣) راجع: «رمي الجمرات، وما يتعلق به من أحكام» شرف بن علي الشريف، وفتاوى في الحج، لأصحاب الفضيلة المشايخ الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ صالح ابن عثيمين والشيخ عبدالله بن جبرين. وأظن أن الموضوع يحتاج إلى بحث علمي في موضوعية تحفظ النفوس من العنت أو القتل.

(١٤) «سنن الدارمي» كتاب الأضاحي، باب في حسن الذبيحة (١٩٧٠).

(١٥) «صحيح البخاري» كتاب الحج، باب الكلام في الطواف رقم (١٦٢٠).

(١٦) «صحيح البخاري» كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤).

الخمر والمخدرات في الفقه الإسلامي





للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

من الآفات التي استشرى خطرها، وعم ضررها، وانتشرت بين قطاعات عديدة من فئات المجتمع الإسلامي، بل وأصبحت باباً من أبواب التجارة الرابحة لبعض الدول الإسلامية، حيث تتوطن بها أصنافاً من المخدرات، فتنتج تلك السموم القاتلة عن طريق التصدير إلى دول أخرى لتدمر العقول، وتفسد الإحساس، وتحول أكرم مخلوق إلى هياكل عظمية فقدت أثمن ما لديها، كنز المعرفة في مناقضة صريحة لاحتفاء القرآن بالعقل، وجعله مناط التكليف، حيث لا يمكن فهم النص في القرآن والسنة، ولا استنباط دلالة خطاب الشرع بدون العقل، فهو الملكة الضابطة، والميزان الواعي للإنسان، وبه كان موضع التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات، ومن ثم استحق به الكرامة، وحمل أمانة التكليف.

من أجل ذلك كانت الخمور مؤثمة ومحرمة بالقرآن والسنة والإجماع لإخلالها بمقصد أصلي من مقاصد الشريعة وهو حفظ العقل، وتلحق المخدرات بالخمر ويتعاظم الضرر فيها ويكثر ضحاياها.

ويجدر في هذا المقام أن نعرض لبعض المصطلحات المتعلقة بالخمر والمخدرات، يتعين لفهم الموضوع بيان المصطلحات الخاصة به:

- الشرب: هو عند جمهور الفقهاء مالك والشافعي وأحمد شرب المسكر[١]، سواء سمي خمراً أم لم يسم خمراً، وسواء كان عصيراً للعنب أو لأي مادة أخرى كالبلح والزبيب والقمح والشعير والأرز، سواء أسكر كثيره أو أسكر قليله وهذا المفهوم للخمر، يشمل كل أنواع الخمر المستخرجة من العقاقير الحديثة، طالما كانت شراباً، ومن شأنها الإسكار.

أما أبو حنيفة[٢]: فإن الشرب عنده قاصر على شرب الخمر فقط سواء كان ما شرب كثيراً أو قليلاً، والخمر عنده يؤخذ من العنب والبلح لحديث الرسول ﷺ الخمر من هاتين: بالكرمة والنخل فشرب الخمر يطلق عنده على الخمر المستخرج منهما، أما غيرهما من أنواع العقاقير الحديثة، فلا يعتبر متعاطيها قد شرب الخمر

(١) المغني لابن قدامة، جـ١٠، ص٣٢٦، أسنى المطالب، جـ٤، ص١٥٨.

(٢) بدائع الصنائع للكاساني، جـ٧، ص٣٩.

الواجب فيه الحد إلا إذا سكر منها فعلاً.

والأدلة على تحريم الشرب ما روى عن عبدالله بن عمر: لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه.

ويتوافر الركن المادى لجريمة الشرب عند جمهور الفقهاء، كلما شرب الجانى شيئاً مسكراً، ولا عبرة باسم المشروب ولا بالمادة التى استخرج منها، كذلك لا عبرة بقوة الإسكار فى المشروب فما أسكر كثيره فقليله حرام، ولو كان لا يؤدى فعلا للإسكار.

ومن المتفق عليه أنه لا يشترط لتوافر ركن الشرب، أن يؤدى الشرب للسكر، فيكفى لقيام الجريمة مجرد الشرب، ولو كان من المستحيل أن تؤدى الكمية التى شربت منه للسكر؛ لأن الشرب محرم لعينه.

ويشترط أن تكون المادة المسكرة مشروباً، فإن لم تكن كذلك، فلا يجب الحد فيها، وإنما فيها التعزير كالحشيش والداتورة وغيرها من المواد المخدرة.

- السكر: درجة تأتى بعد الشرب، وهى نتيجة له، ويجب أن تتوفر فى جريمة السكر أركان جريمة الشرب، وأن يؤدى الشرب بعد ذلك إلى السكر، وتحد الجانى على السكر إذا شرب المادة المسكرة، وهو عالم بأن كثيرها مسكر، ولو شرب منها قليلاً، مادام أن الشرب قد أدى فعلا للسكر، ويحد كذلك، ولو لم يقصد من الشرب السكر، مادام قد سكر، وذلك أخذا بقصده الاحتمالى إذ كان عليه أن يتوقع أن الشرب ربما أدى للسكر.

ومعيار السكر الذى يحد به السكران عند أبى يوسف ومحمد، أن يغلب على كلام السكران الخلط فى الكلام ويغلب على حديثه الهذيان. تأسيسا على قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾

(النساء: ٤٣)

فمن لم يعلم ما يقول فهو سكران ورأيهما يتفق مع رأى بقية الأئمة.

والنصوص الواردة فى الخمر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(المائدة: ٩٠)

ومن السنة عن عبدالله بن عمر قول النبى ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام».

وعن ابن جابر قال رسول الله - ﷺ -: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» «مسند أبى داود»، والحديثان يفيدان العموم والإطلاق فى إدراج أصناف العقاقير المعاصرة ضمن الخمر، متى كانت خاصيتها الإسكار.

مفهوم الخمر التى توجب العقاب

عند جمهور الفقهاء كل مسكر خمر، لأنها مأخوذة من ستر العقل، وهو تغييب تفكيره السليم، فهى من خامر العقل وخمره بمعنى ستره، من غير عد ولا إحصاء؛ لأنه وجد من أنواع المسكرات ما لا يحصى عدداً ولا نوعاً، وأن التعميم فى التحريم على مقتضى الحديث فى كل مسكر هو الأنسب لروح العصر، فإنه قد حدثت

أنواع كثيرة من المسكرات لا تحصى ولكن تتفق فى العلة، وهو الإسكار الذى هو سبب التحريم، والمعيار الضابط للسكر هو، الشخص العادى، ذلك أن الشخص المدمن قد لا يسكر بشربها؛ لكونه معاقراً لها على الدوام.

وموجب التحريم يكون بشرب الخمر، أو تعاطى المسكر، ذلك أن ما لا يشمله النص بعينه يدخل فى التحريم، بدلالته وحقيقته واستحقاق العقوبة بالقياس عليها؛ لأنه يتحقق فيه معنى الخمر المحرمة بالنص.

ويمتد التحريم، وإيجاب عقوبة التعاطى والاتجار والإدمان وغيرها من المصطلحات التى يستعملها قانون العقوبات، من منطلق أنها تنطوى على معنى الشرب، ويتورط مرتكبها فى حمأة الشرب المحرم، بل إن درجة ولوغه فى إتيان ركن الجريمة فى بعض المسكرات الحادثة أكبر، وعموم الضرر أفحش، لما طرأ على الخمور المعاصرة من فنون الصنعة، وصور الإغواء.

كما أن المخدرات التى أفرزها العصر، وابتدعها أعداء الإنسان ومروجوا السموم، من الهيروين والكوكايين وغيرها وتؤخذ عن طريق الحقن والشم والبلع.. إلخ هذه القائمة المدمرة للعقل والجسم والشرب والابتذال الناشىء عنها، والتى تجعل متعاطيها فاقدا لآدميته، يحمل صورة الإنسان، وهو مجرد من كل معنى للإنسان -وهى أى هذه المخدرات- أس الجرائم، وأم الخبائث، وتفوق فى ضررها أضعاف الخمر التى جاء النص بتحريمها، فهى بالقطع تخل بمقصد أساسى من مقاصد الشرع الإسلامى، وهو حماية العقل كجوهرة ربانية للإنسان.

ولأن تأثيرها على العقل والكيان الإنسانى أخطر، فإن المخدرات بأنواعها النبط والمنشط والمهلوس والمورفين بمشتقاته والحشيش وبقية المواد المخدرة تحدث أثرها فى تغييب نعمة العقل بشكل واضح لا غموض فيه، تندرج فى نطاق التجريم والعقاب، سواء كانت سائلة أو جامدة أو كانت من المواد الغازية.

مصطلح المخدرات فى الفقه الإسلامى

لم يستخدم الفقهاء لفظ المخدرات إلا فى القرن العاشر الهجرى ولكنهم تحدثوا قبل ذلك بأمد طويل عن البنج (بفتح الباء) ويعتبر البنج هو أول نوع من المخدرات يتكلم عنه الفقهاء. واعتبره الكاسانى[٣] من المباح فيقول: لأن الشرب إذا لم يكن حراما أصلا فلا عبرة بنفس السكر كشرب البنج ونحوه.

البنج لا بأس أن يتداوى به الإنسان، فإذا كان يذهب عقله منه، فلا ينبغى أن يفعل ذلك، والمخدر مادة تسبب فقدان الوعى بدرجات متفاوتة، وقد تنتهى بمتعاطيها إلى غيبوبة تعقبها الوفاة.

وجاء فى المغنى لابن قدامة الحنبلى[٤]:

أنه يباح للتداوى دون العطش؛ بأنها حال ضرورة، فأبيحت فيها لدفع الغصة؛ أما إن شرب البنج ونحوه مما يزيل عقله عالما به متلاعبا، فحكمه حكم السكران فى طلاقه؛ وسائر ما يشطر إليه.

وأساس تحريم المفترات (المخدرات) قوله تعالى:

(٣) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع، جـ٧، ص٤٠.

(٤) المغنى لابن قدامة، جـ٨، ص٣٠٨.

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

وحديث أم سلمة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر.

ويقصد به في الفقه أي: «المفتر هو كل مخدر للجسد، وإن لم ينته إلى حد الإسكار كالبنج ونحوه».

ويقول ابن رجب[٥] السكران بشرب الخمر عمدًا يجعل كالصاحي في أقواله وأفعاله فيما من المشهور في المذهب، بخلاف من سكر ببنج ونحوه.

واتفق الفقهاء على حرمة تناول جميع المواد المؤدية إلى ذهاب العقل واختلاطه وتشوشه؛ سواء كانت تلك المواد جامدة أم سائلة، وسواء كانت مصحوبة بالشدة المطربة أم غير مصحوبة بها.

وجاء في فتوى الشيخ جاد الحق رقم س١٠٥ بتاريخ ٥ / ٤ / ١٣٩٩هـ - ٤ / ٣ / ١٩٧٩م جملة من القواعد:

١- أجمع فقهاء المذاهب الإسلامية، على تحريم إنتاج المخدرات، وزراعتها وتعاطيها طبيعية، سواء كان المقصود بذلك أنها من النباتات، أو مخلقة، بتصنيعها كيميائيا، وعلى تحريم من يقدم على ذلك.

٢- لا ثواب ولا مثوبة لما ينفق من ربحها، والكسب الحرام مردود على صاحبه، يعذب به في الآخرة.

٣- لا يحل التداوي بالمحرمات، إلا عند تعينها دواء، بسبب عدم وجود مباح سواها، وبقدر الضرورة.

٤- المجالس التي تعد لتعاطي المخدرات مجالس فسق وإثم، والجلوس فيها محرم.

٥- على الكافة إرشاد الشرطة المختصة لمكافحة تجارة هذا السموم القاتلة والقضاء عليها، وهذا الإرشاد، هو ما سماه الرسول الأكرم بالنصيحة لله ولرسوله والأئمة المسلمين وعامتهم.

وخلص من فتواه إلى النتيجة التالية: وتخلص مما قدم أن المخدرات بكافة أنواعها وأسمائها طبيعية أو مخلقة، وأن كل مسكر من أي مادة حرام، وهذا الحكم مستفاد نصا من القرآن الكريم، ومن سنة النبي ﷺ وبذلك يحرم تعاطيها بأي وجه من وجوه التعاطي.

في صورة الأكل أو الشرب أو شم أو حقن، بعد أن تعددت أشكالها، وتنوعت مصادرها؛ لتتوسع دائرة التعاطي، ويتزايد الربح للمتعاملين فيها، بتعميق صناعة السموم، وإيقاع الضحايا في حبائل هذه الخبائث، وتغلغل المفاسد في بنيان الفرد والمجتمع. لذلك كانت مواجهة الشرع الإسلامي لها، درءًا للمفاسد، وطردًا للأوهام الناشئة عن تعاطي جرثومة الداء، فجاءت قاعدة: درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

ويجري القرافي المالكي كعادته تفرقة مهمة بين المرقد والمسكر والمفسد ويذهب في القاعدة الأربعين إلى التفرقة بين قاعدة المسكرات وقاعدة المرقدات وقاعدة المفسدات أن هذه القواعد الثلاث تلتبس على كثير من الفقهاء، والفرق بينها أن المتناول من هذه، إما أن تغيب معه الحواس أولاً،

(٥) القواعد في الفقه الإسلامي، ص٢٠٣.

فإن غابت معه الحواس كالبصر والسمع واللمس والشم والذوق فهو المرقد. وإن لم تغب معه الحواس فلا يخلو إما أن يحدث معه نشوة وسرور وقوة نفس عند غالب المتناول له أولاً: فإن حدث ذلك فهو المسكر وإلا فهو المفسد.

فالمسكر: هو المغيب للعقل مع نشوة وسرور كالخمر.

والمزر: وهو المعمول من القمح.

والتبع: وهو المعمول من العسل.

والسكركة: وهو المعمول من الذرة.

والمفسد: هو المشوش للعقل مع عدم السرور الغالب.

ويقول ابن تيمية[٦]: وقد توقف بعض الفقهاء المتأخرين في الحشيشة، ورأى أن آكلها يعزر بما دون الحد، حيث ظنها تغير العقل من طرب بمنزلة البنج، ولم نجد للعلماء المتقدمين فيها كلاما.

ويقول ابن القيم[٧]: إن الخمر يدخل فيها كل مسكر مائعا كان أو جامدا عصيرًا أو مطبوخا، فيدخل فيه عصير العنب وخمر الزبيب والتمر والذرة والشعير والعسل والحنطة واللقمة الملعونة لقمة الفسق والفجور ونعني بها الحشيشة؛ لأن هذا كله بنص رسول ﷺ الصريح، الذي لا مطعن في سنده، ولا إجمال متنه، إذ صح عنه قوله: كل مسكر خمر، وصح عن أصحابة رضي الله عنه الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده، أن الخمر ما خامر العقل، على أنه لو لم يتناوله لفظه ﷺ كل مسكر، لكان القياس الصريح الذي استوى فيه الأصل والفرع من كل وجه حاكما بالتسوية بين أنواع المسكر، في تحريم البيع والشرب فالتفريق بين نوع ونوع تفرقة بين متماثلين من جميع الوجوه.

وقد نهى الرسول ﷺ: «عن كل مسكر ومفتر» «مسند أبي داود»، وهذا النهي على إطلاقه يشمل الخمر وأنواع أخرى من المفترات يندرج ضمنها المخدرات، وقد أجمع أهل العلم على تحريم المسكر والمفتر؛ لأن تحريمها من نوع تحريم الخمر إن لم يكن أشد. بالإضافة إلى أن استخدام القياس الأصولي يجعل من مساواة المخدرات بالخمر في التحريم بجامع تأثيرها على العقل، وتعطيل القوى الذهنية، والملكة الفكرية فيه، وتزيد المخدرات بتحطيمها بنيان الإنسان، وصيرورته شبحا وهيكلا عظميا، مسلوب الإرادة منزوع الكرامة، مؤهل لارتكاب الموبقات والجرائم، مما يجعل تحريمها أشد، ومن قبيل قياس الأولوى، ومن ثم يستحق المتورط فيها أقصى عقوبة؛ لأثرها الضار والمدمر على الفرد والمجتمع على سواء.

وحيث نهى رسول الله ﷺ «عن المسكر ثم عطف عليه في الحكم، والقاعدة الأصولية المقررة تقتضي أنه إذ نهى عن شيئين مقترنين، ثم جاء نص آخر على النهي عن أحدهما من حيث التحريم أو الكراهة، أعطى الآخر ذلك الحكم» «وحيث إنه قد تقرر حرمة المسكر استنادًا إلى ما جاء من أدلة الكتاب والسنة والإجماع مما لا يدع مجالا للشك في حرمة المسكر، وجب أن يعطى المفتر ذلك الحكم.

«يتبع»

(٦) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص٤٤.

(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ٤، ص٣٤٠.

لِتَعَارَفُوا

رؤيـــة معرفيـــة



يحيى رضا جاد
باحث مصري

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات ١٣)

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

خطاب للبشرية كلها بتنوعها وتعددها واختلاف ألسنتها وألوانها، وهو نداء يخاطب «الكينونة الإنسانية» في جميع البشر - ولازم ذلك تساويهم في «المقام»، و«الكرامة»، و«التكريم» - ومن ثم: فهو خطاب «عالمي» و«إنساني» التوجه والوجهة.

٢ - ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾

أ - تذكير بحقيقة «وحدة الأصل» الإنساني للبشرية جمعاء رغم اختلاف الناس وتعددهم وتباعدهم في المكان والزمان والأفكار، فهم - رغم كل شيء - «أسرة واحدة ممتدة زمانيا ومكانيا»، ووحدة الأصل هذه تستلزم التساوي في «المقام» و«الكرامة» و«التكريم»، وتنفي - تحت أي دعوى من الدعاوى - أوهام استعلاء بعض الأجناس أو القوميات أو الأعراق أو الشعوب على بعض.

ب - وتذكير كذلك بعنصر «الزوجية» و«الثنائية» و«التعددية» التي قام ويقوم عليها الكون بكل ما فيه؛ فلا «انفراد» ولا «استفراد»، بل «اجتماع» و«مجامعة» و«جماعية»؛ فتصور الوجود في الإسلام قائم على واحدية وأحدية ووحدانية الله تعالى، وزوجية وثنائية وتعددية كل ما عداه.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

إقرار وتذكير بحقيقة «التنوع الإنساني» العرقي والاجتماعي والتاريخي (ومن ثم: الفكري)؛ فالتنوع في الألسن والألوان والأعراق يؤول - ولابد - إلى تنوع في الدين والمذهب والمرجعية والرؤية الفلسفية والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

٤ - ﴿لِتَعَارَفُوا﴾:

أ - في اللغة: العَرْفُ: الرائحة الطيبة العطرة الزكية.

وعَرَفْتُ الشخصَ؛ أي: أصبتُ عَرْفَه؛ أي: رائحته.

وأعرف الطعامُ؛ أي: طاب عَرْفُه؛ أي: رائحته.

وعرَّفه؛ أي: جعل له عرفًا؛ أي: رائحة طيبة؛ أي: طيَّبه وحسَّنه، يقول تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾

(محمد ٦)

أي: طيَّبها وحسَّنها وزينها لهم وشوقهم إليها.

ومن ثم، فالمعروف هو المستحسن غير المستقبح؛ وهو الأمر بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه (أي لطيبه وحسنه)؛ إنه اسم لكل أمر يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه.

والمعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره (وهو تعريف منبثق عن: إدراك وجود الشيء الطيب بوجود أثر رائحة طيبة له)؛ أي العلم المتوصل إليه بتفكر.

وتعارفوا: أي تعرَّف بعضهم إلى بعض (وفيه إدراك متبادل للوجود والماهية في جو طيب معطر زكي يغلف المكان) وعرف بعضهم بعضًا.

فالتعارف: تفاعل في المعروف، تفاعل فيما هو معروف ومتعارف عليه، أي إقامة العلاقات بين الناس بالمعروف ووفق ما يتعارف عليه الناس. أي إقامة العلاقات بين الناس بالحسنى وفيما هو مستحسن.

والتعارف يقابل التناكر، يقول تعالى:

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾

(يوسف ٥٨)

ويقول ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (متفق عليه). ومن ثم، فالتعارف يستلزم التآلف - وسيأتي لذلك مزيد بيان - بينما التناكر يستلزم التخالف. وبهذا تثبت متتاليتنا الثلاثية: التعارف فالتآلف فالتفاعل والتعاون والتكامل.

ب - ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ إذًا: هو نوع العلاقة التي يجب أن تكون بين البشر - المتنوعين بالضرورة؛ كما أكد الوحي والتاريخ والواقع - ماديًا ومعنويًا، معرفيًا واجتماعيًا؛ ليتم إعمار الأرض واكتشاف كنوزها وخيراتها وتبادل منافعها؛ بأن تكون «بيتًا تعارفيًا تآلفيًا تعاونيًا مشتركًا عامرًا آمنًا حاضنًا» للجميع.

وعالمية التوجه التعارفي هذه من خصائص الإسلام:

- فرب رسول هذا الدين ليس ربًا محليًا أو إقليميًا أو عرقيًا أو عنصريًا، بل هو:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الفاتحة: ٢)

كل العالمين

و﴿رَبِّ النَّاسِ﴾

(الناس: ١)

كل الناس.

- ورسول هذا الدين ذاته، ما أرسله ربه إلا

﴿رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾

(الأعراف: ١٥٨)

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾

(الفرقان: ١)

و«كان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» (متفق عليه).

- وكتاب هذا الدين، ليس للعرب وحدهم

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

(ص: ٨٧)

﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الأنعام: ٩٠)

فهذه هي طبيعة الدين نفسه؛ فهو ليس دعوة عربية ولا شرقية ولا غربية ولا عرقية ولا إقليمية، بل هو دعوة «للعالمين»، كل العالمين.

فكيف يكون الرب عالميًا، ورسوله عالميًا، وكتابه عالميًا، ودينه عالميًا، دون أن يدعو هذا الدين «للتفاعل» مع «العالمين» (ولا يكون «تفاعل» إلا بعد «تعارف»، بكل ما يستلزمه هذا التعارف، على ما سيأتي بيانه تفصيلاً بعد)؟! وكيف بالعالمين «المكرمين»[1].

﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء ٧٠)

٥ ـ و«المعرفة» (والتي لا تكون إلا في جو طيب معطر زكى) لا يمكن ـ بضرورة التعريف والمنطق معًا ـ أن تقوم على النار، وإنما تستلزم النور، ولا يمكن أن تقوم على السيف، وإنما تستلزم الاستماع والحوار، ولا يمكن أن تكون صدامية (فالصدام مآله الإفناء، ومن ثم: فعلى من، ومع من، نتعارف؟!)، وإنما تستلزم أن تكون تآلفية تعاونية تبادلية (ومن ثم: تكاملية)، ولا يمكن أن تتم في جو مشحون بالكراهية وضيق الصدر، وإنما تستلزم المودة واللطف ورحابة الصدر.

٦ ـ وقيام «التعارف» يستلزم ـ من جهة السلب:

- انتفاء نية النزاع والصدام.

- وانتفاء النزعة الاستعلائية وشهوات الهيمنة.

- وانتفاء ازدواجية المعايير في التعامل ـ من قبيل:

﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ (آل عمران: ٧٥)

- ونفى أى ادعاء باحتكار الفضائل في قطاع بعينه دون غيره من البشر، ونفى أى إدعاء بتجمع الشرور والرذائل في قطاع بعينه دون غيره من البشر؛ ذلك أن الفضائل والرذائل (مشاع بين الأمم والشعوب، تتفاوت فيها بالكسب والتدافع، فتتعدل مواريثها منها، وتتفاوت أرصدتها فيها، دون أن تكون حظوظها منها طبعًا وجبلة يستعصيان على التعديل والتغيير)[2].

ويستلزم ـ من جهة الإيجاب ـ:

- الاعتراف المتبادل بالحق في الوجود والتنوع والاختلاف؛ أى قبول التعددية.

- والاستماع المتبادل للأفكار والتصورات

- والتعاون المشترك على فض مغاليق الحياة والكون المادية والمعنوية، ارتياد آفاق البحث والتجريب.

وبتعبير آخر: «التعارف» يستلزم «الرغبة» في اللقيا والتفاعل الحنون معنويًا وماديًا وهذا الاستلزام يستبطن ويؤول معًا إلى «التآلف» الذى يبقى على ذاتية العناصر التي تم التآلف بينها، ويحافظ عليها؛ لتتفاعل معًا دون نفى لأى منها أو تذويب لأحدها في الآخر.

و«تعددية التمايز» هذه (التمايز إلى «ذكر» و«أنثى»، وإلى «شعوب»، وإلى «قبائل»، مع كل ما يستلزمه ذلك ويترتب عليه ويؤول إليه): إنما تقوم في إطار «جامع التعارف» بين بني الإنسان، فليس يجوز في الحكمة أن يكثر / يتعدد / يتنوع الناس ولا يختلفوا، وليس يجوز كذلك أن يكونوا منتسبين إلى جنس واحد ـ هو جنس بنى آدم ـ ولا يأتلفوا!

وإذا كان هذا هو الحال مع المختلف عنا، فما بالنا بمن هو منا!

٨ ـ ومآل «التعارف»:

أ ـ الإدراك الواقعي للآخرين، أفكارًا وأشخاصًا وذوات وماهيات، دون وسائط أو حواجز، ومن ثم، تصحيح الصورة النمطية عنهم، مما يفضى إلى إحسان التعامل معهم.

ب ـ الحوار حول الأفكار.

ج ـ التبادل للخيرات والخبرات، والتعاون والتكامل والتساند في الإنتاج والإعمار.

هـ ـ استباق الخيرات؛ فبقيام التعارف ـ

(١) وكيف «ينبذ» أتباع الدين من كرَّمتهم تعاليم الدين؟! وكيف يدعو أتباع الدين إلى «مقاطعة» و«اجتناب» و«عدم مخالطة» بل و«إهانة» من كرمهم الدين؟! وكيف «يحتقر» أتباع الدين من كرمهم الدين؟! وكيف يقبل فى من كرمهم الدين أن تصنفهم ـ بلسان المقال حيناً وبلسان الحال فى أكثر الأحايين ـ «بشراً من الدرجة الثانية»؟!!

«بنوة البشر لآدم» هى مناط تكريمهم، وهذا وصف ثابت لا يزايلهم ولا يفارقهم أينما وكيفما وحالما وجدوا، وإنما جعلت الإنسانية مناط التكريم لأجل كفالة الله للإنسان حرية الاختيار بين أن يؤمن أو يكفر ـ وهى أم القضايا ـ تلك الحرية التى صانها مانحها ذاته حتى عن تدخله: فأبى أن يكره أحداً على الإيمان، وحرم على عباده الإكراه فى الدين، بإطلاق وتعميم، ابتداء وإبقاء، فتكريمنا للإنسان امتداد طبيعى وابن شرعى للتكريم الإلهى له بالحرية التى كفلها إياه، لقد أكرمه الله وكرمه بالحرية ونحن نكرمه لأجل هذا التكريم الإلهى له (وقبولنا للآخر غير المسلم ليس قبولاً بكفره أو شركه أو وثنه، وإنما هو قبول بالتكريم الإلهى له: قبول بحرية الاختيار التى كفلها الله له، وبنتيجتها كيفما وقعت: إنه قبول شرعى بوجوده على ما هو عليه، لا قبول عقدى قلبى بشرعه أو معتقده)، ولا يستقيم أن أمنح شخصاً الحرية الكاملة ـ فى الدنيا ـ فى أن يؤمن أو لا يؤمن ثم أضيق عليه فيها تضييقاً إن هو اختار شيئاً مما خير فيه، إن لم يكن هذا من الإكراه فى الدين فلا أدرى كيف هو الإكراه؟!، لقد كرم الله الإنسان فى قضية الاعتقاد ـ وهى رأس القضايا ـ بالحرية، فلا يستقيم أن نهينه نحن بالتضييق عليه عند ممارسته إياها، مهما كان اختياره وقراره!

(٢) مقولة لأستاذنا وشيخنا الجليل د. محمد عمارة.

الذى يستلزم انتفاء نزعة الاستعلاء والاستكبار التى تجمد مبدأ الاستباق[3] ـ يفتح الباب على مصراعيه للاستباق، خاصة وأن التنوع والتعدد والاختلاف والتمايز هو «المحفز الكيميائى الأكفأ»، و«داعى التدافع الأعظم» على خوض اختيارات المنافسة والاستباق فى ميادين الإبداع والارتقاء بين الفرقاء المتمايزين المختلفين، يقول تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾)

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

فلولا التعددية والتنوع والاختلاف ـ فى إطار التعارف لا التحارب[4] لضمرت حوافز الاستباق ودواعى التدافع وأسباب التنافس بين الأفراد والأمم والشعوب والأفكار والمذاهب والديانات والفلسفات والحضارات، ولأضحت الحياة سكونًا آسنًا متعفنًا، ومواتًا لا حيوية فيه ولا تجدد ولا نماء.

وجماع الأمر كله أن «التعارف»: «تواصل تفاعلى حنون» فى المعرفة والاجتماع معًا، لا «استئصالى عدوانى» ولا «سكونى سلبى»، لا «انغلاق» فيه ولا «ذوبان» ففلسفة التعارف ـ التى أصلنا لها ههنا ـ رؤية:

- ربانية المصدر (أرشد الوحى إليها وأكد عليها).

- إنسانية الوجهة (تعيد الاعتبار للإنسان وتؤكد على كرامته ومحوريته؛ سيدًا فى الكون لا سيدًا عليه، مستخلفًا فيه لا قاهرًا فوقه).

- تدعو إلى (التفاعل بين الحضارات، والتلاقح بين الثقافات، والمقارنة بين الأنساق الفكرية، والتآلف والتعاون والتساند والتكامل بين الأمم والشعوب والدول، ترى العالم «منتدى حضارات»، بين أعضائه مساحات كبيرة من «المشترك الإنسانى العام» يمكن التعاون فيها والبناء عليها، ولكل منهم «هوية حضارية وخصوصية ثقافية يتميز وينفرد بها»، و«مصالح وطنية وقومية وحضارية واقتصادية وأمنية تخصه، لابد من مراعاتها»[5]، فى إطار من «تكامل المصالح وارتفاقها وتوازنها»، لا «تضادها وتنافيها وصراعها»، وعلى قاعدة المساواة فى الكرامة، والعدالة فى تبادل المنافع، بلا طغيان ولا إخسار، بدلاً من فلسفات ونزعات الصراع والصدام والهيمنة والقهر والاستغلال.

والله أعلم

---

(٣) تدبر قول الله تعالى: ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين﴾ (العنكبوت: ٣٩).

(٤) إذ الأخير مآله الإفناء للآخر، ومن ثم: سيادة النموذج الواحد والوحيد، ومن ثم: ذبول ملكات الإبداع (فالإبداع لا تتقدح شرارته إلا بالمماثلة والتحدى والاختلاف)، ومن ثم: السكون الآسن والتعفن والموات (فالإبداع مثلما العبقرية: لا ينزل من السماء على بنى كسلان).

(٥) مقولة لأستاذنا وشيخنا الجليل د. محمد عمارة.

الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة
مجالات تفعيلها ووظائفها



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب/جامعة المنوفية

مدخل: النور نهائى والتغيير داخلى

هل فكر أحد يومًا فى الربط بين كون الإسلام هو النسخة النهائية والخاتمة من الدين الإلهى وبين آليات تغيير سلبيات الحياة فى رحلة تقدمها فى الزمن؟

و هل فكر أحد يومًا فى حل هذا الإشكال؟ كيف تستقيم حياة الإنسانية وهى تتطور فى ظل شريحة ظاهرة منها جهاز الفساد فى الوقت الذى حكم ربنا سبحانه بتوقف الوحى الواصل من السماء إلى الأرض.

لابد والأمر هكذا أن يكون إجراء التغيير داخلى ذاتى وهو ما نصبوا إلى فحصه الآن.

عرفت الشريعة الاسلامية منذ أعلنت قيامها بواجب إرشاد الحياة، و توجيهها، وقيادتها جهازًا داخليًا ذاتيًا يرعى تصحيح كل خلل يظهر فى حياة الناس.

و هذا الجهاز فى حركته التصحيحية الإيجابية يتحرك فى طريق ـ ترسم معالمه ثلاث خطوات متراكبة يبدأ مسيره من إدراك تصور جلى للحياة والوجود والكون قطره الأصوليون جميعًا فى كليات ظاهرة، و زاد من تقطيرها بعض المعاصرين فى التوحيد والإعمار وتزكية الإنسان، ويتحرك هذا الجهاز على ضوء من هذا الوعى ليراقب حركة الحياة والعمران داعمًا لما توافق مع التصور نافيًا ما يتصادم معه ويعاكسه ويؤخر أثره فى حياة الناس.

وهو الجهاز الذى ابتكره الإسلام وسمته الأدبيات الفقهية والحضارية عند المسلمين باسم الحسبة الإسلامية، وظهور هذا الجهاز إعلان ظاهر على أنه مادام أن النور نهائى فلابد أنه لن ينطفئ ولابد أن التغيير ذاتى وداخلى ومستمر!

ومنطقى أن يتطور عمل جهاز الحسبة الإسلامية بتطور عمران المجتمعات الإسلامية

نفسها، وهو إما يميل بنا إلى أن نقرر أن ثمة آفاقا جديدة ورحبة يملكها هذا الجهاز بطبيعة تكوينه بما هو ذراع في يد الشريعة لتصحيح مسيرة حياة الإنسان في جزء من حركته في الحياة.

الحسبة الاسلامية فى مجال العلم والمعرفة،

من الانكماش الى التمدد والازدهار

الذين يدرسون تراث مصنفات الحسبة في الحضارة العربية الإسلامية يلحظون تضخما واضحا في إجراءات مقاومة الانحراف وأشكاله التي تهدد بدن الإنسان بما أن تأمين هذا البدن غاية كلية ثابتة رعاها الذكر الحكيم منذ بدء نزول الوحي بشهادة القرآن المكي الكريم يقول تعالى:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

(سورة قريش : ١-٤)

أولاً : جاء طلب عبادة الرب بعد تاريخ طويل من تأمين الحياة الإنسانية في بعديها البدني والروحي (طعام/أمن).

ثانيا : أن التكليف والأمر به كان بعد تهيئة أجواء الحصول على عادة تأمين الحياة الإنسانية والوصول بها إلى مرحلة الإلف والعادة:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ ﴾

ثالثا :وربما أمكن أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا بعد تهيئة أجواء الحصول على مادة -إقامة حياة الإنسان وقد أحاط بها وحفها أجواء ترعى قدرا من المتعة والرفاهية (رحلة شتوية/ و صيفية).

وهذا التضخم في إجراءات مراقبة الأسواق ومنتديات العمل وحركة الجماهير المسلمة يبدو واضحا لأهمية حفظ البدن وتقدمه في سلم أولويات الإنسان.

لكن ذلك لا يعني أن الحسبة الإسلامية بما هي حركة لمحاصرة المنكر والخطأ ودعم المعروف والصواب كانت وقفا أو حكرا على حركة السوق بمعناه الواسع العام.

لقد ظهرت ملامح من عناية الحسبة الإسلامية بترشيد حركة الإنسان في ميدان العلم والعقل والتهذيب والمؤسسات القائمة على رعاية أمورها.

مما يصح معه أن نقرر أن الحسبة الإسلامية تملك رصيدا جديدا من الحركة في مجال العلم والمعرفة يمكن استثماره وتطويره والدفع به في آفاق جديدة.

في الكتاب الذى صنفه الماوردى علي بن محمد بن حبيب الشافعي بعنوان (الرتبة في طلب الحسبة)، ما يبرهن على ما نذهب إليه.

لقد توقفت أمام عدد من الفصول في هذا الكتاب يمكن أن تعد بداية صالحة للتطور والبناء عليها لنخرج بتطبيقات معاصرة للحسبة الإسلامية في مجال العلم والمعرفة وهذه الفصول أو الأبواب هي (من السادس والأربعين إلى التاسع والأربعين في ترتيب الكتاب):

أولا ـ في الحسبة على مؤدبي الصبيان.

ثانيا ـ في الحسبة على القومة والمؤذنين.

ثالثا ـ في الحسبة على الوعاظ.

رابعا ـ في الحسبة على المنجمين وكتاب الرسائل.

و التوقف أمام هذه الأبواب الأربعة تعيينا بما ضمه في داخلها من تفصيلات يدخل بعضها في الصميم من العمل العلمي والمعرفي وتوجيه أمره وإنكار المنكر منه ودعم المعروف منه- مدخل صالح للقول بأن تراث الحسبة في التأليف الإسلامي يمتلك البدايات التي يمكن البناء عليها واستثمارها لتطوير نظام إسلامي للحسبة في مجال العلم والمعرفة ينهض بما توافر من وصف أمة الإسلام بالأمة الشاهدة والمصححة لمسيرة الأفكار عند غيرها بحكم وظيفة كتابها الذى نص على قيامها بوظيفة الهيمنة على ما سبق من الكتب.

في هذه الأبواب الأربعة محاولة لرعاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تفصيلات علمية معرفية من مثل:

أ- التدرج في التعليم والبناء التراكمي التدرج للعلم بداية بتعليم المتعلم قصار السور بعد مهارته في معرفة الحروف وضبطها ثم تعليمه أصول الحساب ومنع المتعلم من حفظ الأشعار الماجنة الى غير ذلك.

ب ـ مراعاة قراءة القرآن كما أمر سبحانه ومحاربة تلحين القراءة تلحين الغناء و الأشعار.

جـ ـ مراعاة حال الوعاظ في علمهم وحفظهم ومروياتهم وصحتها.

د ـ محاصرة البدع بالتنبيه على أدلة حرمتها.

صحيح أن هذه الحسبة في مثل ما مرت به من مشكلات كان من باب حياطة النظام العام في المجتمع الاسلامي ،وصيانته بما يحفظ سلامه الاجتماعي وتحقيق سمته وهويته وحفظ مقاصد الشريعة في الدين والعقل والنفس لكن ذلك لا يمنع أنها تفصيلات تأسست على مراعاة الشأن العلمي والمعرفي بما هو ظاهر فيها بشكل أساسي بل ربما أمكن أن نقرر في غير ما شطط أن نشأة علم الجرح والتعديل مثلا من أصرح الأمثلة على تطبيقات الحسبة في مجال العلم والمعرفة.

مجالات تفعيل الحسبة الإسلامية

في مجال العلم والمعرفة

و قراءة جانب من حياة التصنيف العلمي في الحضارة الإسلامية تقود الى إمكان القول بأن ثمة تطبيقات علمية يمكن أن تمثل أساسا لما سميناه بالحسبة الإسلامية في مجالات العلم والمعرفة وفيما يلي : محاولة لرصد هذه المجالات توصلا للعمل على تطويرها واستثمارها وتقنينها في الحياة المعاصرة.

وسأكتفي بمجال واحد ظاهر هو:

- الاستدراك :

التصنيف العلمي في غير مجال علمي ولا سيما في علمي الحديث واللغة مصنفات كثيرة رفعت عناوين مشتقة من الاستدراك، من مثل:

المستدرك لأبي عبد الله الحاكم ،و استدراك الغلط الواقع في كتاب العين لأبي بكر الزبيدى الأندلسي ،و هي ومثلها دليل ظاهر على ما يمكن أن نسميه الأمر بالمعروف في المثال الأول والنهي عن المنكر في المثال الثاني بمعنى أن ما حمل الرجلين على صنيعهما هو إرادة توسيع

دائرة النفع فيما جمعه استدراكا على أصحاب الكتب الحديثية الصحيحة وإرادة محاصرة الغلط بما هو منكر بالمعنى الواسع وإن لم يكن وقوعه مقصودا فى تصحيح أغلاط معجم العين.

و يدور فى فلك هذا الفرع التطبيقى أغصان علمية من مثل:

أ- كتب التكملات فى العلوم العربية الإسلامية كالتكملة للصغانى والتكملة للزبيدى (فى المعاجم).

ب- كتب لحن الخواص وتصحيح ما يقعون فيه من أخطاء لغوية.

جـ- كتب تصحيح الأوهام والأغلاط فى العلوم العربية الإسلامية، من مثل:

إصلاح خطأ المحدثين للخطابى،و غلط الضعفاء من الفقهاء لابن برى المصرى.

د- كتب التنبيه أو التنبيهات فى المجالات العلمية المتنوعة من مثل:

التنبيه على الألفاظ التى وقع فى نقلها وضبطها تصحيف وخطأ فى تفسيرها ومعانيها و تحريف فى كتاب الغريبين لابن ناصر السلامى البغدادى، و كتاب التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه للبكرى وكتاب التنبيهات لعلى بن حمزة الذى نبه فيه على أخطاء الكامل للقالى، والفصيح لثعلب، والغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام الهروى، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والمقصور لابن ولاد.

هـ- كتب الذيول مما يعد داخلا بشكل ما فى المصنفات التى حملت عنوان (التكملة) و لعل التأليف فى الطبقات والتاريخ والرجال أظهر الأمثلة للحسبة العلمية فى هذا المجال تمديدا لعمل الأوائل بما يتمم معروفها والانتفاع بها.

ولو توسع الإنسان وصنع دراسة مسحية لطرائق التأليف عند العرب والمسلمين لأمكن أن تزيد هذة القائمة النوعية بشكل ملحوظ عما هى عليه هنا الآن لكنها دالة بحالها هذه على توافر التطبيقات التراثية للحسبة الإسلامية فى مجال العلوم و المعارف بمعنييها جميعا وأمرا بالمعروف فيما كان من غرضه تتميم عمل اللاحق للسابق تكمله أو استدراكا أو تذييلا ونهيا عن المنكر وتغييره فيما ظهر من إصلاح الغلط أو التنبيه عليه وتصحيحه مما كان مشغلة كثيرين من العلماء فى مواجهة السابقين عليه.

هل هناك إمكان لتطوير تطبيقات الحسبة فى مجال العلم والمعرفة فى العصر الحديث

إن هذا السؤال يبغى الكشف وإقامة الامارات الدالة على عدم انقطاع علامات العناية بالحسبة الإسلامية فى مجالات العلوم والمعرفة فى العصر الحديث وإن جنحت تطبيقاتها إلى محاصرة الأغلاط والأوهام والأخطاء وما انضاف إليها من ملاحقات السرقات العلمية تعيينا.

صحيح أن الكثيرين ممن يقومون بهذا الواجب لم يظهر منهم فى الغالب ربط ظاهر بين عملهم المتابع والمصحح وبين مفهوم الحسبة بما هو نهى عن المنكر ودرء للمفاسد الذى هو عين مفهوم هذا المصطلح الإسلامى.

لكن ذلك لا يعنى غيابه غيابا كاملا يقول الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح فى كتابه (فى اللسانيات العربية المعاصرة :دراسات ومثاقفات)(عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م،ص ١٩٩) : "ولابد أخيرا من إحياء وظيفة الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة".

وهذه الدعوة من هذا العالم الكبير جاءت عن وعي بما يربطها بالفكرة الإسلامية فى عمقها عندما يقرر أن هذه الدعوة من جانبه كانت بسبب من إرادة حماية العقل التى هى من مقاصد الدين بإجماع أهل الأصول.

وفى هذا السياق أمكن أن تتكشف دوائر جديدة تمثل بدايات قوية على طريق هذا الإحياء للحسبة الإسلامية فى هذا الميدان الخطير.

وبعيدا عن قضية استحياء الضمير العلمي بمعنى ضرورة ألايتدخل الإنسان أو يتتبع ما ليس من تخصصه، وعمله العلمي بوازع أخلاقي،وهو الأمر الذى شاعت الدعوة إليه فى أعقاب كل قضية للسرقة العلمية، فإن من المهم هنا تقنين إجراءات الحسبة فى العلم كما كانت مقننة قديما فى مجالات مراقبة الأسواق والمصانع ومؤسسات الدولة.

وفيما يلى محاولة للإشارة إلى بعض من هذه المجالات التطبيقية المعاصرة فى هذا الميدان المهم والفعال فى حياة الأمة:

أ- تقنيه علم نقد التحقيقات وتدريسه والتوسع فيه وهناك أئمة معروفون من المعاصرين بقيامهم بهذا الواجب العلمي من أمثال :محمود شاكر وعبد السلام هارون والسيد أحمد صقر وأحمد شاكر ومحمود الطناحي ورمضان عبد التواب وبشار عواد معروف وغيرهم.

ب- الإشراف الفعال على الكتاب الجامعى حماية من تفشى تشويه المعلومات وهو الأمر الذى دعا إليه سعد مصلوح فى الكتاب المذكور سلفا.

جـ- التقدم فى باب حماية الملكية الفكرية ومقاومة السرقات العلمية بما يمنع من ظهورها فضلا عن تفشيها وبما يردع أصحابها

د- التوسع فى باب المراجعات العلمية والفكرية تدريسا فى مراحل الدراسات العليا، و تدريبا عليها وإقرارا لها فى الخطط البحثية وبرامج الترقيات والتوسع فى الدوريات والأوعية التى تعنى بنشرها وهو ما يعرف بدوريات عروض الكتب ونقدها التى تكاد تنعدم فى الحياة العلمية والعربية المعاصرة إلا من أمثلة نادرة جدا مع شيوعها فى المجتمع العلمى العربى.

هـ- إعادة تقييم المراجعات التى قام بها عدد من الحركات المختلفة إسلامية وغير إسلامية من مثل مراجعات جماعة العنف أو ما يعرف بظاهرة المتحولين إلى الإسلام ولا سيما أن جزءا من وقوعها كان بسبب علمي سواء بسبب النقد الذاتى أو بسبب النقد الخارجى الموجه من غيرهم إليهم.

و- التوسع فى نشر ثقافة التحكيم العلمى الجاد والمسئول للأبحاث العلمية والرسائل الأكاديمية والأوراق والمشروعات البحثية والتأنى والتفصيل فى كتابة التقارير المقومة لها.

وهذه المحاور من جانبنا مجرد أمثلة على ما

يمكن تطويره واستثماره وتفعيله من تطبيقات معاصرة في مجال الحسبة الإسلامية في العلوم والمعارف.

(٥) وظائف الحسبة الإسلامية
في مجال العلم والمعرفة

و الحق يقتضي بأن نقرر أن ثمة وظائف كثيرة جدا تتبدى وتلوح من خلف العناية بإحياء الحسبة الإسلامية بهذا المجال.

و سنحاول فيما يلي رصد أهم هذه الوظائف الظاهرة التي نرى ظهورها وقدرتها على قضية الدفع والدعم لإحياء الحسبة الإسلامية في مجال العلم والمعرفة:

أولا: وظيفة تحقيق مقاصد الشريعة:

كان ظاهرا جدا فيما نقلته عن سعد مصلوح أن دعوته إلى إحياء الحسبة الإسلامية كان لتحقيق مقاصد الدين بما أن حفظ العقل أحد هذه الكليات الكبرى وربما أضيف إليها مقصد حفظ المال.

و جلي أن شيوع المعلومات المشوهة المغلوطة يمثل ضررا بالغا على مسيرة العقل وقدراته على الاستنباط والاجتهاد وترقية الحياة.

ثانيا: القيام بوظيفة التناصح في الأمة:

ذلك أنه مما كان وأمر به المصطفى صلى الله عليه وسلم التناصح بين الناس في مستويات حياتهم المختلفة وبين طبقاتهم جميعا.

و إحياء الحسبة الإسلامية في مجال العلم والمعرفة تطبيق عملي معروف منذ القديم في أروقة العلم عند المسلمين.

ولعل أصرح الأمثلة على تطبيقه وإعلانه ما ظهر في أجواء الجدل حول تجريح الرجال وتصحيح الأقوال وعلاقتهما بالغيبة،ورد العلماء على ذلك بالنفي وانتفاء العلاقة بينهما، قياما بواجب النصيحة لله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم لدرجة حملت على التأليف المستقل في هذا الباب؛إذ كتب ابن رجب الحنبلي كتابه عن الفرق بين النصيحة والتعيير مقررا أن نقد أخطاء العلماء فيما يتعلق بما يقع منهم في العلم لا يدخل في الغيبة ولا في التعيير يقول(ص١٩ من طبعة المكتبة القيمة بالقاهرة سنة ١٤٠٢ هـ=١٩٨٢م بتحقيق الدكتور نجم عبد الرحمن خلف) : "اعلم أن ذكر الإنسان بما يكره محرم إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص فأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين وكان المقصود منه تحقيق تلك المنفعة فليس بمحرم بل مندوب إليه، وقد قرر علماء الحديث هذا في كتبهم في الجرح والتعديل، وذكروا الفرق بين جرح الرواة وبين الغيبة، وردوا من سوى بينهما من المتعبدين

و غيرهم ممن لا يتسع علمه، ولا فرق بين الطعن في رواة حفاظ الحديث، ولا التمييز بين من تقبل روايته منهم ومن لا تقبل، وبين تبيين أخطاء من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنة، وتأول شيئا منها على غير تأويله، وتمسك بما لا يتمسك به؛ ليحذر من الاقتداء به وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضا ولهذا تجد في كتبهم المصنفة في أنواع العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه واختلاف العلماء وغير ذلك ممتلئة من المناظرات ورد أقوال من تضعف أقواله من أئمة السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يترك أحد من أهل العلم، ولا ادعى فيه طعنا على من رد عليه قوله ولا ذما ولا نقصا".

و قد أطلنا في هذا النقل؛لندلل على عمق وضوح آثار العمل بالحسبة الإسلامية في مجال العلم والمعرفة تحقيقا لوظيفة النصيحة لله تعالى ولكتابه الكريم ولنبيه صلى الله على وسلم.

ثالثا: القيام بواجب الأمانة والمسئولية الفردية العلمية:

و الأمر الذي يتصل بالوظيفة السابقة لكن من جانب تعبدي فردي يقوم به صاحبه قياما بالواجب في حق نفسه،ذلك أن من رأى في نفسه قدرة على شئ لزمه الوفاء به دينا وأمانة وتعبدا لله تعالى، ولا سيما أن العلماء في التصور الإسلامي يلزمهم عهد بتبيين العلم.

رابعا: تطوير المعرفة والارتقاء بالحياة العلمية قياما بأمانة العلم:

وقد استقر أن العلم يزكو بالسجال والمناقشة والاختلاف والتحليل وفتح باب القول في المسائل من جهاتها المختلفة، فضلا عن أن تطوير أدوات الباحث رهن في بعض جوانبها بتقدمه في النقد والمتابعة والاستدراك وغير ذلك.

وهذه الوظيفة مهمة جدا نظرا لعائدها على تجديد العلوم وتنقيتها وإثبات حقوق المؤلفين إلى غير ذلك من الكشف عن السرقات في هذا المجال.

خامسا: محاصرة الدخلاء وغير المتخصصين:

وهي وظيفة مهمة جدا لترقية المجتمع العلمي من الأمراض الكثيرة التي تفشت فيه

سادسا: الخوف من الوقوع في إثم كتمان العلم:

فلقد تواتر في الشريعة التشديد على منع كتمان العلم وتأثيم من يكتم العلم بما يترتب عليه من إلجام فاعل ذلك بلجام من نار، فكان ظهور تطبيقات الحسبة الإسلامية في مجال العلم والمعرفة طلبا للنجاة والطهرة من إثم كتمان العلم وعدم تبيينه للناس.

صحيح أن هذه الوظيفة تمثل دافعا محركا للعناية بها، لكنها أيضا وظيفة تتحقق بها.

إن الله عز وجل بما أودعه في هذه الديانة الشريفة من خصائص ذاتية لهي قادرة على تجديد مسيرتها،و محاصرة عمل الغالين فيها، والإثابة على جهاد المجتهدين في ميدان خدمة العلم والمعرفة في أروقتها التزاما بالأمر بالمعروف ودعمه في مجال العلم والتزاما بالنهي عن المنكر والقضاء عليه في المجال نفسه بما حاولنا أن نكشف عنه فيما ذكرنا من تطبيقات القدماء والمعاصرين معا مما يثبت أن الإسلام العظيم يملك قدرة هائلة على تجديد مسيرة المنجز العلمي وتكميلهاو تصحيحها.

شيء من الإنصاف للإسلام



للشيخ: معوض عوض إبراهيم

إن من العجب العاجب أن نجد الذين شدوا العلم من روسيا أو من أمريكا مثلاً يعودون إلى أممهم بعقول ملتوية، ونفوس بينها وبين الإنصاف أبعد ما بين السماء والأرض، إنهم يتحاملون على أمة الإسلام، ويرفعون على كواهلهم بعصبية عمياء كل بلد شرقي أو عربي ينتسبون بثقافاتهم إليه، ويعرفون علماءهم وأدباءهم أكثر من معرفتهم بعلمائنا الأوائل الذين حملوا نور المعرفة وراء الأفق البعيد، وهذا هو المشير التركي «أحمد عزت» يقول:

ودخول أنوار الإسلام والمعارف عن طريق الأندلس والحروب الصليبية وانتشارها فيها حقيقة ليس في وسع أعداء الإسلام تعصباً إنكارها، لقد ورد في مبحث الإسلام في معجم «لاروس» ما يلي:

كان من المسلمين متصوفون ولغويون ومؤرخون وجغرافيون ورحالون وفلكيون وصناع، بيد أنهم لم ينجبوا علماء خليقين بالذكر في الحكمة والكيمياء والعلوم الرياضية، ولكن المشير أحمد عزت يقول وبحق: «إن للعلماء المسلمين كشوفاً في الكيمياء و...... ألم يكن الجبر من مخترعاتهم؟ فإن الذين كتبوه وأدخلوه إلى أوروبا من المسلمين واسمه المستعمل في اللغات الأوروبية «جبر» دليل قاطع على مجيء الأصل من المسلمين، وذكر أسماء ابن سينا، والفارابي، وابن خلدون دليل كاف على نصيب المسلمين في كافة شعب العلوم، ولم يخف دور القرآن في نهضة أوروبا العلمية، فهذا «عمنويل» وهو من علماء يهود يقول:

دخل الفينيقيون أوروبا تجاراً، ودخلها اليهود قومين، ودخلها المسلمون حكاماً، وحملوا بفضل القرآن قبس العرفان إلى أوروبا والحق أن المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة، والطب، والفلك، والشعر، وأحيوا تراث اليونان وعلومهم الميتة، لقد كانت الدنيا محاطة ببحر من ظلمات الجهل فأغرقوا كل أرجاءها في النور، إنهم بهذا الاعتبار واضعوا أساس العلوم الحديثة.

وهذا «جاستن كارمن» من مستشرقي فرنسا المعتبرين يقول:

إن القرآن وهو منبع هذا الدين العقلي ودستوره قد احتوى أسس الخير، إنها أسس تستند إليها حضارة العالم، ففي إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة قد نشأت من امتزاج الأسس التي نشرها الإسلام، كل ما في الأمر أنهم لم يقدروا على مسابقة الغرب في ساحة العلم في الأزمان الأخيرة بعد أن جعلوا ذلك هدفاً لهم، بيد أن جعل الدين مسؤولاً عن هذا التأخر خطأ فاحش لأن جزيرة العرب وما حولها كانت عند ظهور الإسلام في ظلام دامس، ولم ينعم بالعلوم والفنون، ولم تنعم هي كذلك إلا بفضل هذا الدين الإسلامي، والتاريخ خير شاهد، والفضل ينبغي أن يبقى لمن مهدوا السبيل ووضعوا المنهج، وأرسوا القواعد، ولله ولرسوله المنّ والفضل، قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء: ١١٣)

ولقد ذكرت الباحثة الألمانية «كاتارينا مومزن» في كتابها: «جوتة[1] والعالم العربي[2]»، الكثير الطيب وخاصة في عمله - أي جوتة - زائع الصيت، وهو: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي.

إن علاقة جوتة بالإسلام وبنبيه محمد (ﷺ) ظاهرة من أكثر الظواهر مدعاة للدهشة في حياة الشاعر، فكل الشواهد تدل على أنه كان في أعماق وجدانه شديد الاهتمام بالإسلام وأن معرفته بالقرآن الكريم كانت - بعد الكتاب المقدس - أوثق من معرفته بأي كتاب من كتب الديانات الأخرى ولم يقتصر اهتمامه بالإسلام وتعاطفه معه على مرحلة معينة من حياته، بل كانت ظاهرة تميزت بها كل مراحل عمره الطويل، فقد نظم وهو في سن الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالنبي محمد (ﷺ) وحينما بلغ السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على

---

(١) جوتة شاعر ومفكر ألماني، عاش بين (١٧٤٩ - ١٨٣٢م).

(٢) جوتة والعالم العربي، تأليف: «كاتارينا مومزن»، ترجمة د. عدنان عباس علي، مراجعة د. عبدالغفار مكاوي، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت «عالم المعرفة».

النبي.. بل إن دهشتنا لتزداد عندما تقرأ العبارة التي كتبها في إعلانه عن صدور هذا الديوان وقال فيها إنه هو نفسه «لا يكره أن يقال عنه إنه مسلم»[3].

وتذكر الباحثة أيضاً: «لايبنتس» ولسنج وهردر قائلة:

(فهؤلاء على وجه الخصوص الذين قاموا بوحي من تفكيرهم الإنساني المستنير، بإنصاف الإسلام)[4].. فهذا لسنج يشيد بالإسلام قائلاً: «الإسلام ديانة تتصف بالحكمة والعقلانية، وهذا «هردر» قد أثنى على حماسة النبي (ﷺ) لعقيدة التوحيد وطريقة عبادته للإله الواحد الصمد عن طريق الوضوء والصلاة وفعل الخير، ويعتقد «هردر» أن فساد التقاليد اليهودية والمسيحية من ناحية، وفصاحة قومه ومواهبه الشخصية من ناحية أخرى، كانت هي الأجنحة التي حلقت بمحمد (ﷺ) عالياً، ويشيد «هردر» ـ فضلاً عن ذلك ـ بالمستوى الثقافي والحضاري الرفيع الذي بلغه المسلمون، وجعلهم ينظرون نظرة ملؤها الاحتقار لما كان عليه عامة المسيحيين «الأوروبيين» من فجور قط وعادات وحشية، ومن سبل التطهر التي يحرص عليها المسلمون في عبادتهم لله، خالق الكون ومدبره، يبرز «هردر» تحريم شرب الخمر وتناول الطعام غير الطاهر وكذلك الربا والميسر، ويتبين تقدير «هردر» العالي للقرآن الكريم من خلال قوله: «إنه لو توافر للجرمان الذين غزوا أوروبا كتاب شبيه بالقرآن لما غدت اللاتينية أبداً سيدة لغتهم ولا تفرقت قبائلهم وظلت في كل سبيل»[5].

فأين هذا مما قاله ويقوله أعداء النور وعبيد الفتات والقشور والزبد الذي قال فيه رب العالمين:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

(الرعد: ١٧)

وكم يأس الإنسان حين يسمع من بعض أجهزة الإعلام من دكتور درس في روسيا أنه يترجم من الروسية إلي العربية! وسألته صاحبة البرنامج ألم تترجم شيئاً من العربية إلي الروسية؟ فقال ذلك الرجل ـ بصره الله وهداه ـ: «إنه لن يترجم شيئاً من العربية لأنه لم يجد في العربية ما يصلح للترجمة، ولو أن للرجل

(٣) «جوته والعالم العربي» تأليف كاثارينا مومزن ص١٧٧ بتصرف يسير.

(٤) نفس المصدر ص١٨٢.

(٥) نفس المصدر. ص١٨٢، ١٨٣ بتصرف يسير.

شيئاً من البصر البصير والفكر المستنير لقال في أقل القليل بعض ما يقوله علماء الغرب الذين قدمت لك من كلامهم أطرافاً، أولا يجد هذا الرجل شيئاً من أسس علم الاجتماع، وملامح تاريخ البشرية عبر أعصار الحياة، ومكارم الأخلاق التي تطالعك في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة وفي سيرة خير العصور كما جلاها لنا رسول الله (ﷺ) في قرنه وقرون قليلة من بعده. إن بعض الذين عادوا من شرق وغرب بأفكار القوم ومنهجهم في الدرس وتأصيل قواعد النظر والبحث يستثيرون كثيراً من الإعزاز لأنهم أخذوا إلى أحسن ما حصلوه من حقائق الإسلام أحسن ما عند القوم من تطبيق وإخراج وعرض وتشويق وبرهنة وتدليل وهم في ذلك لا يرتفعون إلى مستوى المثل الذي ضربه الرسول (ﷺ) للمعلمين وعلماء النفس، وقد جاءه رجل يقول: «يا رسول الله لقد أتيتك من مسيرة تسع، أسهرت فيها ليلي وأظمأت نهاري وأتعبت راحلتي لأسألك عن خصلتين شغلتا بالي، فسأله النبي (ﷺ): «بعد أن استدناه وقربه منه» ما اسمك قال: «أنا زيد الخيل» فقال صلوات الله عليه: بل أنت زيدُ الخير، فسل فرُب معضلة قد سئل عنها، فقال الرجل يا رسول الله ما علامة الله فيمن يريد وما علامته فيمن لا يريد؟

فسأله النبي (ﷺ): «يا زيد كيف أصبحت؟» قال: أصبحت أحبُ الخير ومن يعمل به، فإن عملت به أيقنت بثوابه وإن فاتني منه شيء حَننتُ إليه فقال له (ﷺ): «هذه علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لم يبالي في أي واد هلكت»[6].

إن هذا المثل من أمثال تؤخذ قدوة وأسوة من القدوة الحسنة (ﷺ) في ميدان التربية وميدان التعليم، وما أجدى ذلك عندما نأخذه من سيدنا رسول الله (ﷺ) حتى يكون العلمُ نافعاً، ولقد كان النبي (ﷺ) يتعوذ بالله عز وجل من علم لا ينفع، فضلاً عن ميادين ومجالات في شتى شؤون الحياة تحفل بها حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فكيف غابت معالي الأمور عمن يتعلقون بالسفاسف ويجرون مع أهوائهم في مجالات الهوى والاعتساف! رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدى به من تشاء، فاللهم أهدنا الصراط المستقيم وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنهلك فأنت الرحمن الرحيم وأنت البر الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج١٠ ص٢٠٢ وأبو نعيم في حلية الأولياء ج١ ص٣٧٦.

طرائف.. ومواقف



لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

موت العلماء

روى عن مجاهد وابن عباس - رضى الله عنهما فى تفسير قول الله - تعالى -:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾

(الرعد: ٤١)

أن نقصانها يكون بموت علمائها وفقهائها، وأهل الخير والصلاح

قال الشاعر:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها
حتى يموت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها
وإن أبى عاد فى أكنافها التلف

العيب.. فينا

قال الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -: وأيم الله ما كان قوم قط فى خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها؛ لأن الله - تعالى - ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد.

قال الشاعر:

يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا وما فسد الزمان

وكفى بالقرآن واعظا، قول الله - تعالى -:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - لما ولى الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن - رحمه الله - بوصية نقتطف منها ما يأتى:

اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة

كل مظلوم والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق بها الذى يرتاد لها أطيب المراعى، ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع ويكنها من أذى الحر والقر.

والإمام العادل، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا يكسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربته طفلا تسهر بسهره، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل، وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم.

والإمام العادل كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكه الله - عز وجل - كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله.

واذكر يا أمير المؤمنين: إذا بعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها والآن يا أمير المؤمنين، وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك، ولا تنظر قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم.

مكارم الأخلاق

قال الشاعر:

مكارم الأخلاق فى ثلاثة
من كملت فيه فذلك الغنى
إعطاء من تحرمه ووصل من
تقطعه والعفو عمن اعتدى

وقال آخر:

كل الأمور تزول عنك وتنقضى
إلا الثناء فإنه لك باق
ولو أننى خيرت كل فضيلة
ما اخترت غير مكارم الأخلاق

مثل هذا الفعل

قال الجاحظ: أخذتنى امرأة إلى نجار، فقالت له: مثل هذا الفعل، فبقيت مبهوتا، وسألت النجار عن ذلك، فقال النجار: هذه المرأة سألتنى أن أعمل لها صورة عفريت تفزع بها ابنها إذا بكى فطلبت منها مثالاً فجاءت بك.

دعاء

يا رب لا تجعل قدمى تزل فى الطريق إليك، ولا قلبى يضل فى التطلع إليك، أنت العون الذى أبتغيه، والخير الذى أتمناه فى الدنيا والآخرة.

تأملات في السيرة



لفضيلة الشيخ/الطاهر الحامدى

تروى كتب السنة أنه بعد هزيمة المشركين فى غزوة بدر الكبرى وما لحق بهم فيها من قتل ساداتهم وكثرة من قتل منهم وهزيمتهم شر هزيمة مع كثرة عددهم وعدتهم وقلة عدد المسلمين وعتادهم أن أبا سفيان بن حرب أقسم ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يثأر لهزيمتهم وجهز فرقة وتوجه بها إلى المدينة المنورة يريد أن يشفى غليله فلقىَ فى طريقه رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حرث فقتلوهما ويقال إن الأنصارى هذا هو معبد بن عمرو، ورأى أبو سفيان أنه برّ بيمينه فرجع إلى مكة وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فكان لابد أن يتتبع القوم الغزاة لكنّ أبا سفيان فرّ هارباً ومن معه ولم يلحقه رسول الله ﷺ.

ولو أردنا أن نزن هذا الحادث بميزان المنطق والعقل فهل يمكن أن نقول إن رسول الله ﷺ هو المعتدى وهل ما فعله يسمي اعتداء؟ وماذا تسمي ما فعل أبو سفيان؟ هل تسميه سلماً ومسالمة؟ وماذا عن فعل القتل الذى ارتكبه هو ومن معه لاثنين فى حقلهما؟

أيها القارىء الكريم لا تعجب مما أقول بل ولا تنزعج فذلك هو ميزان أمريكا والغرب كله الذى يزن به معاملته للإسلام والمسلمين وبعد أن فرّ أبو سفيان هارباً ونجى بنفسه ومن معه، فلو أن رسول الله ﷺ تعقب هذا الجاني وتربص له وقاتله وقتله أيعد النبي ﷺ معتدياً؟ أما وقد فرّ أبو سفيان ومن معه ونجوا فهل أنهوا بذلك قتالاً وشفوا غليلهم ونالوا ثأرهم؟ أم أن الأيام حبلى بما يضمره أبو سفيان والمشركون جميعاً؟ وهل يمكن لرسول الله ﷺ أن يأمن شر هذه الفئة؟ وأن ينام وصحبه آمنين فى المدينة؟ وهل لو أنه استسلم لدواعي الدعة والراحة أيعد ذلك رأياً صائباً منه؟ أم أنه الخطأ بعينه وسوء التقدير والتدبير؟ إن الواجب الذى يفرضه العقل وتوجبه الحيطة أن يتأهب رسول الله ﷺ لرد هذه المطامع الشرسة وهذه الأحقاد الدفينة ولا يلام ﷺ إن هو تأهب أو استعد للحرب فذلك واجب يفرضه شراسة العدو وعناده.

إن النبي ﷺ لم يبدأ غزوة معتدياً ولم يدخل حرباً قاصداً إراقة الدماء إنما كل الحروب وكل الغزوات فرضت عليه فرضاً وكانت مواقفه ﷺ فى كل غزوة هى الدفاع عن النفس أو المال أو رد عدوان أو إقرار مبدأ إنساني، ويصبح رفض الحرب في هذه الحالة نكوصاً، وعدم الدفاع جبناً، وتصبح الحرب لازمة من لوازم الإنسانية النبيلة. فهل يلام ﷺ بعد أن فعل أبو سفيان وصحبه فعلته، وقتل رجلين مسالمين فى حرثهما؟ لو أن النبي ﷺ أدرك فرصة أبى سفيان ومن معه وقتلهما شر قتلة فهل يلام النبي ﷺ بعد هذا أم يحمد؟. القول الحق أنه يحمد على تتبع المجرمين والقراصنة ويلام إن تقاعس - حاشاه - هذا فى ميزان كل منصف أبيّ.

ولا معنى لما يردده الغرب كله، إذ كيف تبرر أمريكا تصرفاتها أو عربداتها فى بلاد العالم، وإذا كانت أمريكا تبرر تدخلها القبيح المدمر فى بلاد العالم بأنها تسعى لنشر الديمقراطية ألا يحق للمسلمين فى عهد النبي ﷺ وفى كل عهد أن يبذلوا كل جهدهم أو جُله فى نشر سماحة الإسلام ويسره وعدالته فى زمن النبي وفى كل زمن؟ على أى حال فإن النبي ﷺ رجع المدينة ولم يلحق بأبي سفيان لكنْ أبا سفيان لم يهدأ وظل يحرّض المشركين ويذكرهم بقتلاهم في بدر وتجهزوا لذلك ومعهم من والاهم من العرب، ويقال إن أبا سفيان رجع بعير كثيرة وتجارة أوقفها بدار الندوة ولم يحركها ولم يفرّقها على أصحابها رغبة منه فى أن يجهز منها جيشاً وطاف رجال من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وصفوان بن أمية - أسلموا بعد ذلك - برجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر يحرضونهم على قتال رسول الله ﷺ فوافقوا على أن يتنازلوا عن تجارتهم لحرب رسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

(الأنفال: ٣٦)

وبعثوا رسلهم إلى العرب يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ فألبوا العرب وأصبحوا قريباً من ثلاث آلاف من قريش والحلفاء وكتب سيدنا العباس بن عبد المطلب - ولم يكن قد أسلم بعد - إلى رسول الله ﷺ يُعلمه بذلك فقرأ الكتاب عليه أبيّ بن كعب واستكتمه رسول الله ﷺ الخبر فذلك من مقتضيات الموقف التكتم والسرية، ثم نزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع وأخبره بكتاب العباس، فقال: «والله إني لأرجو أن يكون خيراً»، واستكتمه الخبر، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد أتته امرأته فقالت: ماذا قال لك رسول الله ﷺ؟ فقال: ما أنت وذاك لا أم لك. كأنه ينهاها عن سؤالها عما دار بينه وبين رسول الله ﷺ قالت: قد كنت أسمع عليكما وأخبرته بما سمعت. فقال لها: لا حول ولا قوة إلا بالله وانطلق بها إلى رسول الله ﷺ فأدركه فأخبره بأمرها، ثم قال: يا رسول الله إني خفت أن يفشو الخبر فترى أني قد خنت

سرك فقال رسول الله ﷺ : «خلِّ عنها».

قد ترى في هذه الكلمة «خلِّ عنها» ما لا يعجبك في مثل هذا الأمر وكُنْت تود أن يأمر النبي ﷺ بحبسها حتى لا يفشو الخبر، لكن النبي ﷺ هو رحيم وهو الرحمة المهداة لم يشأ أن يعنف المرأة؛ لأن الحرب لم تكن هدفا من أهداف النبي ﷺ إنما هي أمر فرض عليه وأرى أن رسول الله ﷺ يدخل الحرب مكرها غير راضٍ وما كان له أن يحيد عن منهجه في الرحمة والرفق إلى العنف والقهر لكنه سلَّم الأمر لله حيث إنه سبحانه وتعالى هو الذي سخر العباس ليخبره وما كان الله أن يفشي له سراً يفسد عليه أمره فالله سبحانه وتعالى قادر أن يُنسي المرأة الخبر كله ببركة الرفق الذي تحلى به ﷺ !!. ومن أجل أن ينشر رسالته ويبلغ أمره.

وخرجت قريش ومن معها من الأحلاف قاصدين المدينة وبعث رسول الله ﷺ اثنين من أصحابه عينين يتتبعان أخبار قريش فأخبرا أن خيل الجيش لم تترك في الوادي خضراء ثم بعث النبي ﷺ الحُباب بن المنذر الذي قدَّر الجيش وعددهم وعدتهم ويبدو أن عدد القوم وعدتهم كانت كثير، فقال له النبي ﷺ : «حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم بك أحول وبك أصول» وبات سادة الأوس والخزرج يحرسون النبي ﷺ خوفاً من مفاجأة من المشركين. فلما أصبح النبي ﷺ جاء أصحابه إليه وأحب أن يأخذ رأيهم في لقاء القوم فحمد الله وأثنى عليه وذكر لهم رؤية رآها، ثم قال: «إن رأيتم أن تقيموا في المدينة وتجعل النساء والذرية في الآطام فإن أقام المشركون أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم» وكان هذا الذي ذكره رسول الله ﷺ رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار. فقال جماعة من المسلمين أكثرهم أحداث لم يشهدوا بدراً وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو وأكرمهم الله بالشهادة يوم أُحد قالوا: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يظنوا أنا جبنَّا عنهم. فقال عبد الله بن أُبيّ يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقام المشركون فهم بشر مقام وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين ويروى أن حمزة بن عبد المطلب ونفر من الأنصار قالوا: إنَّا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله تعالى عليهم ونحن اليوم بشر كثير قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله تعالى به فساقه الله تعالى إلينا في ساحتنا. وهكذا حتى إني أحسب أن النبي ﷺ أكره على الخروج للحرب.

بل وأحسب أن النبي ﷺ أراد أن يمنح قريشا فرصة للتراجع وعدم المضي للحرب حقنا لدماء كان ﷺ يرى أنها ستكون عونا وقوة للإسلام فيما بعد.

فأين هذا المسلك من قوم يسعون في الأرض فسادا ويخلقون للحرب والعنف والقتل أسبابا !!

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

● يقول المولى عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(الأنفال: ٢٤-٢٥)

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يحذر تعالى عباده المؤمنين «فتنة» أي: اختبارا ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، ولا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع.

فلنتدبر طائفة من أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم التي أمرنا المولى عز وجل بالاستجابة لها:

● أخرج البخاري في صحيحه، قال رسول الله ﷺ : «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه. فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به».

● وأخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة». قلت: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد،

ولا تنقضي عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعت به حتى قالت:

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾

(الجن: ١ - ٢)

من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

● وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، عن حذيفة قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج كموج البحر. قال حذيفة: فأسكت القوم فقلت: أنا. قال: أنت، لله أبوك.. قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا. فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه».

● وقال ﷺ: «ستكون فتن فى أمتى حتى يفارق الرجل فيها أباه وأمه وأخاه، حتى يعير الرجل ببلائه كما تعير الزانية بزناها».

● وأخرج البخارى فى صحيحه، قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

● وأخرج البخارى فى صحيحه، قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية».

● وقال صلى الله عليه وسلم: «تكون فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر لايدرون أيها من أى».

● وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى سيفا المسلمين فالقاتل والمقتول كلاهما فى النار، قيل: يا رسول الله: هذا حال القاتل فما بال المقتول؟ قال صلى الله عليه وسلم: «لأنه كان حريصا على قتل أخيه».

وصدق الله العظيم القائل عن نبيه الكريم:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم: ٣، ٤)

وسبحان الله القائل فى محكم تنزيله:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(الحشر: ٧)

وآخر دعوانا:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

أحمد تقى الدين

هيا.. بالحب.. نبنى ونتمى

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار - مدير عام تنظيم وإدارة سابقا - سندنهور - قليوبية:

يقول الله تعالى:

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

«يوسف: ٩٩»

وهذا هو ما أوصى به كتاب الله الكريم، وكذلك أوصى الحبيب محمد ﷺ بمصر وأهلها خيرا.. حيث يحكى لنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، أنه سمع النبى يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا من أهلها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال الصديق: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: إنهم فى رباط إلى يوم القيام».

وإزاء هذا التكريم لمصر وأهلها.. تأمل فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بها بلدنا أن نهيئ أنفسنا للتغيير الذى تهدف إليه الثورة، والذى به تنفض غبار الأيام السوداء التى عشناها وقاسيناها فى ظل العهد الأغبر، الذى ندعو الله سبحانه أن يكتب لنا السلامة من أذنابه وفلوله الذين لازالوا يستفزون حكماء الثورة والثوار ويتمادون فى غيهم وتسلطهم بالوقيعة بين الشعب والجيش بوسائل الدس، وبث الشائعات المغرضة بين صفوفنا لإحداث الفتنة، والانقسام والتقاتل إرضاء لسادتهم سارقى الدولة ومخربى اقتصادها ودينها وعقيدتها وتنفيذا لخطط الفوضى والعنف الذى هددنا به الرئيس المخلوع فى خطاب إعلان تنحيه.

وهم بهذا التحريض وافتعال القلاقل والمشاجرات يوقفون مسيرة التغيير الثورى.. وتبا لهم، فقد أغلق الله قلوبهم وعقولهم فتناسوا قرآنه وعبره فى تحريم قتل النفس إلا بالحق.. كما تناسوا أحاديث معلم البشرية ﷺ: «لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار»

ولو أنهم أيضا علموا عقاب الله لهم ما وقعوا فيما فعلوه لقوله ﷺ: «من أعان على قتل مسلم ولو بشق كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه «آيس من رحمة الله»..

وإن الدين ليس ببعيد عن الأحداث المؤلمة التى يقوم بها المجرمون ضد الثوار بمقذوفات النار والحجارة فلهم الجزاء القاسى لقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

«النساء: ٩٣»

إن النبى ﷺ يتحدث وكأنه يعيش بيننا الآن عن هذا التعامل بين الإخوة فى مصر قلب العالم الإسلامى.. واقرأ قوله فى وداعه للأمة وللحياة حيث يوصى الناس فى حجة الوداع بقوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»... وفى نفس الخطبة

يحذر الأمة من أن يرتدوا من بعده إلى عصر الجاهلية فيعادى بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا بغير حق.. فيقول: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وإن التغيير الذى يتطلبه الضمير الثورى لتجديد سلوكياتنا وعلاقاتنا مع بعضنا البعض هو تغيير واجب لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

«الرعد: ١١»

وإن ما نقاسيه من صراع مع أعداء الثورة وتعدد الانقسامات والاتجاهات، فإننا نأمل أن يكون هذا النقاش هو المخاض الذى ينتج عنه التغيير المطلوب للوصول إلى الأفضل بعد أن أصبح الشعب كله بعد الثورة فى نقاش مستمر مما يبشر بيقظة الوعى والرجوع إلى الحق والصواب.. غير أننا نرى أن التغيير الذى ننشده لن يحدث إلا فى ظل الهدوء والاستقرار وتحكيم العقل والتروى خشية أن تأخذنا زحمة التيارات والنقاشات إلى طريق مسدود يعوقنا عن الوصول إلى الحل المرضى لجميع الأطراف والذى يرسو بنا إلى شط الأمان.

فليكن حلمنا جميعًا هو إنقاذ شعبنا من هذه الانقسامات التى لا نتيجة لها إلا الهلكة والضياع لا قدر الله، ولتجمع أحلى كلمات الحب لبلدنا وأطيب المشاعر نحوها لتكون دفعة قوية إلى طريق الوحدة تحوطها آمال وأحلام المحبين.. ولنبادر بالتحدى للبناء تحت راية العمل الثورى فى حماية جيشنا وفدائية ثورتنا حتى نقيم احتفالات ذكرى ثورتنا فى ظل الأمن والسلام الاجتماعى، ولننزع فتيل الفتنة التى يدبر لها أعداؤنا ولنرد كيدهم فى نحورهم بمرجعيتنا التى تنطلق تحت راية الوحدة الوطنية التى يشهد بها تاريخنا منذ القدم ولنهدأ حتى نتفرغ لبناء الأمجاد، فلن يتراجع قطار الثورة إلى الوراء أبداً.

والله خيراً حافظاً وهو أرحم الراحمين

ومن الأستاذ/ عبدالقادر الادريسى مدير الاعلام بمنظمة الايسيسكو كانت هذه الكلمات:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة،

رئيس تحرير (مجلة الأزهر)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد قرأت باهتمام وتركيز، افتتاحية العدد الأخير من مجلة الأزهر، عن سنة التدرج، فاستفدت منها، وتزودت بالمعرفة، وشكرت لكم فضلكم. فهذه، وأيم الحق، افتتاحية نموذجية بكل المقاييس. زادكم الله توفيقًا.

بين الصحف و المجلات

إعـــداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

أول ميثاق للعيش المشترك

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/١/٢٥م يقول:

قبل أربعة عشر قرنا، وعندما لم يكن هناك من يعترف بالآخر ـ دينيا أو حضاريا كان هذا الآخر ـ وعندما كانت ديمقراطية «أثينا» وقفا على القلة من الفرسان الملاك الأحرار، ومن عداهم من البشر برابرة وأرقاء ليست لهم أى حقوق.

وعندما كان شرف التحاكم إلى القانون الرومانى مدونة «جستنيان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) ـ وقفا على السادة الرومان الأحرار، دون من عداهم من أبناء المستعمرات. فى ذلك التاريخ، ظهر الإسلام الذى جعل التكريم لطلق بنى آدم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

وجعل التعددية والاختلاف فى الشرائع الدينية، وفى الألوان والأجناس، وفى اللغات والقوميات، وفى المناهج والثقافات والحضارات قانونا وسنة ماضية إلى يوم الدين، ليس لها تبديل ولا تحويل:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

(هود: ١١٨ - ١١٩)

أى وللاختلاف خلقهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات: ١٣)

كما جاء الإسلام مصدقًا لما سبقه من الكتب والنبوات والرسالات:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

منذ ذلك التاريخ، وقبل أن تعرف الإنسانية شيئا عن حقوق الإنسان، ومواثيق هذه الحقوق، افتتح الإسلام صفحة جديدة قرر فيها الاعتراف بالآخر - كل ألوان الآخر - وتقديس مقدسات الآخر. وحماية الآخر وعقائده ومقدساته ومعابده بما يحمى به أهل الإسلام

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٤٠)

ولم يقف الإسلام - فى هذا الفتح الجديد - عند الفكر النظرى، وإنما وضع هذه المبادئ والإعلانات والمواثيق الدستورية - مواثيق التعايش - فى الممارسة والتطبيق.

● فمع تأسيس الدولة الإسلامية الأولى سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م نص دستور هذه الدولة على التعددية الدينية لرعية هذه الدولة، وعلى المساواة فى الحقوق والواجبات بين رعية هذه الدولة - على اختلاف دياناتهم - وجاء فى هذا الدستور - عن تكوين يهود المدينة أمة مع المؤمنين بالإسلام: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا تناصر عليهم، وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة (الدستور) وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم. لا يكسب كاسب إلا على نفسه».

● فلما كانت سنة ١٠هـ، ٦٣١م جاء إلى المدينة المنورة - فى «عام الوفود» - وفد نصارى نجران - باليمن - وفيه أمراؤهم وأساقفتهم - فاستقبلهم رسول الله ﷺ وصحابته، وفتح لهم باب مسجد النبوة فصلوا فيه صلاة عيد الفصح. وكتب لهم عهدا دستوريا، لهم ولكل من يتدين بدين النصرانية - عبر الزمان والمكان - جاء فيه: «لنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ﷺ، على أموالهم

وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم، وتبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.

● لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته.

● وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا، بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.

● ولا يحملون من النكاح (الزواج) شططا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا فى ذلك إن منعوا خاطبا وأبوا تزويجا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به.

● وإذا صارت النصرانية عند المسلم (زوجة) فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك فمن خالف ذلك وأكرهها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

● ولهم (أى النصارى) إن احتاجوا فى مرمة بيعهم وصوامعهم أو أى شىء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفد (مساعدة) من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها أن يرفدوا على ذلك ويعاونوا، ولا يكون ذلك دينا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنة لله ورسوله عليهم.

● لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذى استوجبوا حق الزمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذب عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.

● واشترط عليهم أمورا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها، والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: لا يكون أحد منهم عينا ولا رقيبا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة ولا يساعدوا أحدا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم وإن احتيج إلى اختفاء أحد من المسلمين عندهم أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم. ولا يخلوا شيئا من الواجب عليهم.

● ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين.

● ولا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله. لا يجار عليه، ولا يحمل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلف شططا، ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه.

● ولا يكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحروب، فإنه ليس عليهم مباشرة القتال، وإنما أعطوه الذمة على أن لا يكلفوا ذلك وأن يكون المسلمون ذبابا عنهم وجوارا من دونهم.

● ولا يكرهوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب بقوة وسلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا

من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به، حمد عليه، وعرف له، وكوفئ به.

● ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الاسلام :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

● ويخفض لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا من البلاد.

● فمن نكث شيئا من هذه الشرائط وتعداها إلى غيرها فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله.

● ولا ينقض ذلك ولا يغير حتى تقوم الساعة إن شاء الله.

هكذا أعلن الإسلام - منذ ما قبل أربعة عشر قرنا - أول ميثاق للتعايش بين أهل الديانات السماوية. وهو ميثاق ينتظر منا أن ندرسه. وأن نفقه مراميه. وأن نضعه فى الممارسة والتطبيق.

مراكز الفكر الصهيونية..

«عقل الكيان. ومحرك سياساته»

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ ابوبكر خلاف المنشورة بجريدة «الحرية والعدالة» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٢/٤م يقول:

تعتمد المؤسسة الاستراتيجية الإسرائيلية على مراكز الأبحاث والدراسات لرسم وتخطيط سياستها، وتتعدد هذه المراكز من حيث مواقعها وخلفياتها وطريقة عملها وإدارتها وتمويلها، ومراكز الفكر أو ما يطلق عليه (مصانع التفكير) وهو تجمع وتنظيم لنخبة متميزة ومتخصصة من الباحثين تعكف على دراسة معمقة ومستفيضة لتقدم استشارات أو سيناريوهات مستقبلية يمكن أن تساعد أصحاب القرارات فى تعديل أو رسم سياساتهم بناء على هذه المقترحات فى مجالات مختلفة.

ويمكننا أن نقسم مراكز الفكر وفقا لمجال عملها ففى الحقل السياسى (مركز دراسات الأمن القومي اليهودى) الذى تم تصنيفه مؤخرا فى المرتبة الرابعة عالميا فى صنع السياسات العالمية.

وتؤثر مراكز الفكر الإسرائيلية المتخصصة فى مجال التكنولوجيا فى رسم وتحديد شكل التحالفات الاستراتيجية العسكرية فى المنطقة وخاصة بتحالفها مع الولايات المتحدة التى تدعم المراكز الإسرائيلية ماديا وهذا يعكس رؤيا المراكز جميعا من أجل المحافظة على الدائرة الخارجية فى علاقاتها وذلك لعدة أسباب أهمها:

● التبادل المعلوماتى والثقافى بين مراكز الفكر الإسرائيلية، والمراكز المشابهة فى عملها فى الدول المتقدمة وخاصة فى أمريكا الشمالية وأوروبا.

ومن أهم الخواص التى تميز مراكز الفكر الإسرائيلية أنها تعتمد فى صقل وبناء برامجها على متخصصين ذوى كفاءات عالية من بين الباحثين اليهود فى معظمها.

وتنقسم مراكز الفكر الإسرائيلية إلى ثلاثة قطاعات هى:

أولا: القطاع الجامعى

الجامعات الإسرائيلية هى مؤسسات حكومية تحظى باستقلالية منقوصة - إذا صح التعبير - ولهذا فإن أصحاب المراكز العليا ومتخذى القرارات فى الجامعات لهم الحرية فى استثمار

الكفاءات والثروات البشرية وفق تطلعاتهم الشخصية وانتماءاتهم للمدارس الفكرية والإيدلوجية وتعد مراكز الفكر الجامعية من أنشط وأقدم مراكز الفكر فى إسرائيل.

ويعد مركز «هارى ترومان» فى جامعة القدس من المراكز الأولى لمراكز الفكر الإسرائيلية، إذ يقوم طاقم المركز بتفعيل نشاطات وبرامج ومنح دراسية بالإضافة لنشر الأبحاث والدراسات فى التاريخ والسياسة والمجتمع، كذلك يقدم المركز توصيات خاصة وعينية لمتخذى القرارات الإسرائيلية فى قضايا شرق أوسطية وعالمية..

ثانيا: القطاع الخاص

مراكز التفكير الإسرائيلية المستقلة التى تعبر عن توجهات القائمين والداعمين لها فى الأساس، ويعد معهد «فان لير» من المراكز الفكرية المهمة فى مجال الدراسات متعددة المجالات، ومناقشة القضايا المتعلقة بالفلسفة والمجتمع والثقافة والتربية..

ثالثا: القطاع العام

أما القطاع الثالث من مراكز الفكر الإسرائيلية فهو القطاع الحكومى ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن نظام الحكم فى إسرائيل وكيفية تعامله مع مراكز الفكر الحكومية، فيعتمد نظام الحكم المؤسساتى فى إسرائيل على كوادر عمل وقوى بشرية متخصصة ثابتة تعمل فى داخل الوزارات والمؤسسات الحكومية المختلفة؛ حيث نلاحظ وجود مراكز تفكير ملازمة وتابعة لكل وزارة من وزارات الدولة يعمل فيها باحثون متفرغون لرصد وتقديم التوصيات المتعلقة فى الوزارة التى يعمل فيها الطاقم.

ويتمثل أبرز إنتاج تلك المراكز فى الآتى:

أولاً: تطوير الحياة المعرفية والفكرية والعملية فى الوسط العام عن طريق أنشطتها الثقافية ومنابرها الإعلامية المختلفة.

ثانيا: إقامة جسور العلاقة والتواصل بين أطراف متعددة تمثل بمجملها أقطاب إدارة السياسة العامة وتنفيذها والتفاعل معها.

ثالثا: إشاعة روح البحث العلمى، والتعامل مع القضايا بموضوعية، وتعميم ثقافة البحث والتحرى والاستدلال التى تقف بالضد من ثقافة التسطيح والخرافة والأحكام العشوائية؛ ورعاية المبدعين على وجه الخصوص، وتوفير الفرصة المناسبة للراغبين فى البحث والكتابة والتأليف وإبداء الرأى، وإقامة جسور التواصل بينهم وبين الجمهور.

نحن نحرق «الأمس والغد»

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ صلاح حامد المنشور بجريدة «الجمهورية» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٢/٦م يقول:

«الماسادا» من بين تلك العقد التى رسخت فى أذهان اليهود، وهى اسم قلعة كانت آخر مأوى لهم فى فلسطين، قبل أن يبطش بهم الرومان ويطردوهم منها.. تزعم الأسطورة - كما يدرسونها للتلاميذ فى المدارس - أنه فى عام ٦٦ م، أثناء التمرد اليهودى ضد الحكم الرومانى، هربت جماعة من اليهود - الثوار - تدعى «السيكاريين» من القدس، واستولت على قلعة «الماسادا» من الحامية الرومانية، وبعد

٤ سنوات انضمت إليهم مجموعة أخرى وأسرهم، ممن فروا من القدس قبل سقوطها في يد جحافل الجيوش الرومانية.

تقول الأسطورة: إن «السيكاريين» كان عددهم ٩٦ شخصًا - بينهم نساء وأطفال - تحصنوا بالقلعة تحت زعامة «إيليعازر بن يائير»، واستمروا في مقاومة الرومان طوال سبعة أعوام، وعندما شدد الرومان حصارهم لـ«الماسادا»، وأيقن «السيكاريون» عدم قدرتهم على الصمود، واستحالة الهروب، وأن هزيمة نكراء ستلحق بهم لا محالة، وسيكون مصيرهم إما القتل أو الأسر، عندئذ أحرقوا كل شيء داخل القلعة، ثم أقدموا على الانتحار الجماعي، كي يحفظوا كرامتهم.. فالموت عند اليهودي أهون من أن يُذل ويُصبح عبدًا - هكذا تقول الأسطورة -!!

لكن امرأتين وخمسة من الأطفال اختبأوا في قناة للمياه، وهربوا ليسردوا شجاعة «أهل الماسادا» - الذين أصبحت حكايتهم رمزًا لسلوك التضحية بين اليهود!!

الغريب أن هذه القصة الوهمية، مصدرها الوحيد رواية بدون سند للمؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس، وصفتها الباحثة اليهودية ويسي روز مارين بأنها محض خرافة وأسطورة.. لكن اليهود - كعادتهم - لم يضيعوا الفرصة، وحولوا قلعة «الماسادا» إلى معلم سياحي، يأتي في المرتبة الثانية كأشهر موقع أثري سياحي في إسرائيل، بعد الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف - حائط المبكى في المصادر العبرية -، وفي عام ٢٠٠١ أعلنتها هيئة اليونيسكو موقعا أثريا ينتمي للتراث العالمي.

انظر كيف صنعوا من «خرافة» مزارا سياحيا عالميًا، وأسطورة تحكي عن شجاعة مزعومة، وهم الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾

(الحشر: ١٤)

والجدار العازل وخط بارليف أكبر شاهد على ذلك.. كما أن سجلات التاريخ تؤكد، أنهم استسلموا طوال تاريخهم للسبي والنفي، ولم يقتل أحدهم نفسه:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾

- كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز -، فقد أخذهم الملك العراقي «نبوخذ نصر» أسرى إلى بابل مرتين، عامي ٥٩٧ ق.م و٥٨٦ ق.م - حسب ما جاء في العهد القديم.. ثم سحقهم الملك الفارسي «قورش» عام ٥٣٩ - ٥٣٨ ق.م، ثم تعرضوا للتصفية عام ١٣٥م على يد الإمبراطور الروماني هادريان.. فقد اعتاد اليهود وضع أنفسهم تحت تصرف القوى العظمى أيا كانت - كما يحدث الآن -، فكان عليهم أن يدفعوا ثمن أنانيتهم، وتقلباتهم بين حاكم وآخر.

.. أما نحن فنجتهد في «حرق» أنفسنا وتراثنا العتيد.. آخر اجتهاداتنا، في محو الأمس حرق «المجمع العلمي»، ويسعى آخرون باجتهاد لإحراق اليوم والغد.. تاريخنا بالغ الفخامة والفخار.. فهل نعرف الآن من يخطط نحو هذا الماضي العريق، ووأد المستقبل الواعد؟!!

أنباء الأزهر



إعداد الأستاذين:
محمود الفشني - عبد الموجود أمين



د. أحمد الطيب

بيان بشأن تعديلات بعض المواد من قانون الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.. وبعد، يسعدني أن ألتقي بكم اليوم لإيضاح ما تساءل عنه البعض في الأيام الأخيرة بشأن تعديلات بعض المواد من قانون الأزهر.

ولست بحاجة لأن أذكركم بأننا، فيما مرر بنا من ظروف وأحوال، طالما تمنينا وتطلعنا إلى اليوم الذي تتحرر فيه مؤسستنا الدينية الكبرى، مؤسسة «الأزهر الشريف»، وتصبح مؤهلة لأن تنتخب شيخها من بين كبار علمائها، بعد أن تستعيد هيئة كبار العلماء ذات الرصيد التاريخي الغني، علميًا وفكريًا ووطنيًا، ليعود الأزهر الشريف إلى سابق عهده: منارة إسلامية للعلم كله، ومرجعية عليا للعالم الإسلامي، ورمزًا للكرامة الوطنية، وبيتا للعائلة المصرية.

كنا جميعًا نتطلع إلى هذا اليوم الذي يستقل فيه الأزهر بشئونه، يديره علماؤه، وينهض أبناؤه، ركنا ركينًا للمجتمع المصري، وجزءًا عزيزًا من الدولة الوطنية للسلطة التنفيذية، يدعم ويخدم وينصح، ولا يلقن ولا يؤمر فيخضع ويطيع، ولعل الذين يديرون الجدل اليوم حول تعديل بعض المواد في قانون الأزهر، كانوا من أكثرنا تطلعًا لهذه الأهداف، ومن أعلانا صوتا وجدلا حول هذه الأهداف.

وكنت منذ تحملت المسئولية، أسعى بكل صدق وإخلاص لتحقيق الهدفين الكبيرين: استقلال الأزهر وانتخاب شيخه، مع عودة هيئة كبار العلماء، مع أمر ثالث لا يقل عنهما أهمية لديننا ووطننا وأمتنا وهو عودة مناهج الأزهر الأصيلة في الشريعة واللغة والثقافة العميقة، ليستمر الفكر الوسطي الرصين، والفهم العلمي الصحيح للدين، وهو جوهر الرسالة الأزهرية، التي وسدت إلينا الأمة مسئوليتها والقيام بها، خدمة لها وللإنسانية كلها، وأعلنت منذ أكثر من عام وجوب انتخاب شيخ الأزهر، وعملت على استعادة المناهج الأصيلة بالتدريج، وأفدنا، بعد الثورة، من مناخ الحرية العام، فعملنا على تحقيق التطلعات والآمال التي طال عليها الأمد،

وأصبحت الآن إجماعًا وطنيًا، ومطلبًا شعبيًا ملحًا، فأعددنا القانون، وقدمناه للمسئولين للنظر فيه لإصداره، وحرصت على أن ينص فيه على أن تنتهي خدمة شيخ الأزهر ببلوغه سن السبعين، ولكن من قاموا بالمراجعة الأخيرة من الجهات الرسمية غيروا ذلك وأبقوا التعديل على ما جرى به العرف والتقليد، رغم أنى مازلت مقتنعًا برأيي الأول.

وأود أن أعلن بكل صراحة أننا، مع حرصنا على تنفيذ ما أجمع عليه الكافة دون إبطاء، وتأكيدنا أن رجال الأزهر أعرف الناس بدقائقه وشئونه، لا يضيرنا أن يناقش القانون على أى مستوى، ولدى أية سلطة، فنحن جميعًا فى المناخ الديمقراطى نعمل على تلبية مطالب الشعب، بخاصة ما صار منها محل إجماع وطنى، ونثق أن من ينظر فى القانون سيدعمه ويقره، وربما يزيده قوة وتأكيدا، كما أعلن أيضًا أن ما صدر ليس إلا تعديلا لبعض مواد قليلة جدًا من قانون تطوير الأزهر، وهو قانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، لا يتعدى مادتين اثنتين: الأولى لاستقلال الأزهر، والأخرى لقيام هيئة كبار العلماء واختصاصاتها.. أما اللوائح التنفيذية، والإجراءات والأنظمة التفصيلية فسوف يضعها الأزهريون بأنفسهم، بكل شفافية وموضوعية وديمقراطية، ودون إملاء علوى أو تدخل سلطوى، وستشكل هيئة كبار العلماء من كل من تتوافر فيه شروط عضويتها، لا بقرار منفرد، بل عن طريق لجنة علمية محايدة من أكبر المتخصصين المشهود لهم بالعلم والأمانة، ويعلم الله أن شيخ الأزهر الحالى ليس بحاجة؛ لأن ينتقى قومًا من أجل يختاروه فيما بعد، فليس هذا من أخلاقه ولا من تربيته، وهو بفضل الله فى غنى عن مناصب الدنيا بأسرها وعن منافعها، ثم إن القوانين لا تطبق بأثر رجعى، كما هو معلوم، فلماذا يتحسب شيخ الأزهر لمنصب زائل إن عاجلاً أو آجلاً.. وسامح الله الجميع، وحفظ الأزهر ومصر والإسلام.

لقد أردت أيها الإخوة والأخوات أن أفضى إليكم بمكنون نفسى، وأن أصارحكم بحقيقة الأمر فى عملنا فى هذا التعديل المحدود، الذى طالبتم أنتم به أمدًا طويلاً، فلما أذن الله بصدوره أساء البعض الظنون فيما كان وما سيكون، ولن يكون، بمشيئة الله تعالى، إلا الخير وإلا ما فيه مصلحة الأزهر الشريف.

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مشيخة الأزهر فى ٩ من ربيع الأول سنه ١٤٣٣هـ

١ من فبراير سنه ٢٠١٢م

شيخ الأزهر

أ. د/ أحمد الطيب

بيان بشأن الأحداث الجسام التى تمر بها مصر

إخوتى وأخواتى.. أبناء وطنى العزيز:

سلام الله عليكم جميعًا ورحمة الله – تعالى – وبركاته.. وبعد،

إن لمصر العزيزة حقًا علينا يجب أن نرعاه ولا ينبغى أن ننساه فى خضم الأفكار والأحداث الجارية، وإن ما يجترئ عليه بعض المواطنين من قطع الطرق وتعطيل مصالح الناس ووقف القطارات والسفن وتعطيل عمل الإدارات والمؤسسات هو مخالفات شرعية جسيمة لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنين، ولا تتفق من قريب أو بعيد مع تقاليدنا وأخلاقنا المصرية التى نشأنا عليها، بل إنها مخالفات حرمها الله تعالى فى كتابه وشدد بالوعيد والعقوبة على مرتكبيها.. فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٥٦)

كما نهى النبى ﷺ عن تخريب العامر وعن الإفساد فى الأرض.

فاتقوا الله فى بلدكم ووطنكم وأهليكم، وتوقفوا عن ارتكاب هذه المحرمات التى يجرمها الشرع والعقل والأخلاق والتقاليد المصرية العريقة..

واعلموا – إيها الإخوة والأخوات – أنكم مسئولون غدًا بين يدى الله تعالى عن هذه التصرفات وسوف يحاسبكم عليها فى يوم يحساب فيه كل إنسان عما قدمت يداه فى هذه الحياة الدنيا..

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)

أيها المصريون والمصريات:

إنكم، والله، اليوم فى اختبار عظيم، والعالم كله يرقبكم، وينظر ما ستفعلون بوطنكم وأنفسكم، وهذه أيام لها ما بعدها، وقد فتح لكم باب التاريخ، فادخلوه آمنين مرفوعى الرءوس، أعزة كرامًا، لا تستندون إلا إلى فضل الله وحده.

أيها المصريون:

الله الله فى وطنكم، اجعلوه نصب أعينكم وحافظوا عليه بكل ما تملكون من غالٍ ورخيص، واطلبوا حقوقكم بالطرق السلمية التى تليق بمصر ومكانتها فى العالم أجمع.

وفقنا الله وإياكم لخدمة وطننا العزيز والمحافظة على مكتسابته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مشيخة الأزهر فى ٩ من ربيع الأول سنه ١٤٣٣هـ ١ من فبراير سنه ٢٠١٢م

شيخ الأزهر

أ. د/ أحمد الطيب

الشافعي يطالب باستعادة روح ثورة يناير فى كلمة الأزهر بالميدان

ألقى فضيلة الدكتور حسن الشافعي رئيس المكتب الفنى لشيخ الأزهر كلمة الأزهر في ميدان التحرير في الذكرى الأولى لثورة يناير.

وقد ركز الدكتور حسن الشافعي فى كلمته على ضرورة عودة الاستقرار وسلمية الثورة واستعادة روحها وبناء مصر الحديثة وعودة الدور الوطني المصرى فى ريادة المنطقة والإسهام فى السياسة الدولية بقرار حر دون تبعية أو انحياز والمطالبة بضرورة المضى قدما فى البناء الديمقراطي لمؤسسات الدولة وإتمام تسليم السلطة للمدنيين فى موعده المحدد دون إبطاء مع التشديد على ضرورة الالتزام بما أسفرت عنه الانتخابات الحرة النزيهة، من نتائج والتعاون بين شباب الثورة جميعا وممثلى الشعب المنتخبين فى بناء مصر المستقبل تحت مظلة الديمقراطية وعلى أساس من الشرعية البرلمانية والتوافق الوطنى والقضاء على آثار السياسات القمعية والفساد الشامل مع العمل الجاد على بناء اقتصاد مصرى قوى يستثمر كل إمكانات مصر ويحقق العدالة لجميع أبنائها.

بيان الأزهر الشريف عن أحداث بورسعيد الفاجعة

تعبر مشيخة الأزهر، وقد صدمتها أخبار الكارثة التى وقعت فى بورسعيد، عن تعازيها الصادقة للأسر المكلومة، وعن مشاركتها العميقة للإخوة المصابين، عافاهم الله.. وتناشد المسئولين كافة محاسبة المخطئين، ومجازاة المتورطين، وإعمال القوانين بكل موضوعية وحسم؛ لتجنيب وطننا تكرار مثل هذه المآسى، التى وفدت إلينا مع عادات وتقاليد لم يكن لنا بها عهد، وهى الآن تكلفنا من الدماء الزكية والخسائر المعنوية الشيء الكثير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما تناشد كافة المواطنين البعد كل البعد عن إراقة الدماء المعصومة والبغى والعدوان على إخوانهم الأبرياء، وصدق الله العظيم

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

اللهم احفظ مصر وأهلها، واحمها من كل سوء يا رب العالمين.

مشيخة الأزهر فى ١٠ من ربيع الأول سنه ١٤٣٣هـ ٢ من فبراير سنه ٢٠١٢م

أنباء العالم الإسلامى

إعداد: أحمد رضوان، يحيى سليمان

قالوا عن الثورة المصرية

أذهلت الثورة المصرية العالم بسلميتها ونضجها وما كشفت عنه من تلاحم أبناء الشعب المصرى وصمودهم وعزمهم على صناعة تاريخهم بأيديهم. علق معظم قادة وزعماء العالم ومثقفيه على هذه الثورة العظيمة بأقوال هى مثار فخر لكل مصرى ونرصد هنا بعض هذه الأقوال:

> الرئيس الأمريكى باراك أوباما: يجب أن نربى أبناءنا ليصبحوا كشباب مصر..

> رئيس النمسا: شعب مصر أعظم شعوب الأرض..

> وزير الخارجية الألمانى فستر فيله: أتطلع إلى زيارة مصر والحديث مع قادة الثورة.

> رئيس أركان الجيش الإسرائيلى: الأحداث فى مصر أثبتت أنه يتوجب علينا التواضع والحذر فى تقديراتنا للعالم العربى.

> سيلفيو برلسكونى رئيس وزراء إيطاليا السابق: لا جديد فى مصر فقد صنع المصريون التاريخ كعادتهم.

> ستولتنبرج رئيس وزراء النرويج: اليوم كلنا مصريون.

> هاينز فيشر رئيس النمسا: شعب مصر أعظم شعوب الأرض ويستحق جائزة نوبل للسلام.

> رئيس المبادرة الإسلامية في بريطانيا محمد صوالحة: جماهير مصر العظيمة تصنع اليوم التاريخ ليس فقط لشعب مصر بل للعالم العربي والإسلامي.

> المرجع الإسلامي العراقي الشيخ حسين المؤيد: إن الثورة المصرية فتحت صفحة جديدة في تاريخ الأمة وأعادت ثقة الجماهير بنفسها وبرهنت على أن هذه الأمة لم تمت رغم كل محاولات قمعها والفتك بها والإيحاء لها بالهزيمة.

> الروائي البرازيلي الشهير بولو كويلهو والملقب بساحر الصحراء: العالم يتحول للأفضل لأن هناك شعوباً تخاطر بأرواحها لجعله أفضل.. شكراً يا شباب مصر.

ندوة في لندن عن مصر بعد عام من ثورة ٢٥ يناير

شهدت العاصمة البريطانية لندن ندوة حول «مصر بعد عام من ثورة ٢٥ يناير» لاستعراض أهم التطورات على الساحة المصرية بمناسبة الذكرى الأولى للثورة، وبدأت الندوة التي عقدت في نادي «فرونتلاين» بعرض لقطات من الثورة المصرية، وأعرب الكاتب طارق عثمان عن تفاؤله بمستقبل مصر الذي يمكن خلال خمس سنوات أن تستعيد مجدها السابق - على حد قوله ـ وتعود دولة مؤثرة على المستوى الإقليمي والعالمي.

من ناحيته، أعرب الباحث المصري الدكتور حسام عبدالله عن اعتقاده بأن التيار الإسلامي ركز - منذ نجاح الثورة وعزل الرئيس السابق - على الفوز في انتخابات مجلسي الشعب والشورى، ولا يريد الدخول في صراعات في الوقت الحالي، قد تتسبب في إلغاء الانتخابات.

وحول دور القوى الغربية، قال حسام عبدالله: «إن أمريكا ستقبل ما يصل إليه الشعب المصري شاءت أم أبت.. وأنه متفائل بمستقبل أفضل لمصر».

وأشار الرئيس السابق لقطاع الأخبار باتحاد الإذاعة والتليفزيون عبداللطيف المناوي، إلى أن المشكلة التي ستواجهها مصر هي اقتصادية في الأساس.. مؤكداً أن مصر تستطيع مواجهة كل المشاكل إذا كان أبناؤها متحدين.

التعاون الإسلامي تعرب عن قلقها لتدمير مسجد بالصين

أعرب المتحدث لمنظمة التعاون الإسلامي عن بالغ قلقه إزاء التقارير التي وردت عن اشتباك بين القرويين المحليين والشرطة مما أدى إلى سقوط العديد من الضحايا وتدمير مسجد في قرية تأوتا بالقرب من مدينة هيكس في محافظة نونغشين في منطقة نينجياهيو ذاتية الحكم في الصين.. ووفقا للمعلومات المتاحة لمنظمة التعاون الإسلامي، فقد وقع الحادث عندما هاجمت الشرطة تجمعا لافتتاح المسجد وحاول أهل القرية منع تدميره، وقد سبق أن

تم تدمير نفس المسجد عندما شيد في ١٩٨٧م وتم تجديده مؤخراً، وقد أدت الاشتباكات إلى سقوط عدد من القتلى، وإصابة حوالي ٥٠ بجروح، كما اعتقل ١٠٠ شخص.

وأعربت منظمة التعاون الإسلامي عن قلقها الشديد وعميق أسفها إزاء تدمير أماكن العبادة وقتل الأنفس، وتتوقع منظمة التعاون الإسلامي من السلطات في الصين إعطاء المسلمين الحق في بناء أماكن عبادتهم، وأيضا احترام حقوقهم الأساسية وخاصة فيما يتعلق بصلاة الجماعة بحرية كاملة.

كتابة اللغات الافريقية بالحرف العربي بالجامعة الإسلامية بالنيجر

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - واتحاد جامعات العالم الإسلامي التابع لها، بالتعاون مع الجامعة الإسلامية بالنيجر في العاصمة نيامي، ورشة عمل حول وضع المناهج والمقررات الدراسية والتدريب على كتابة اللغات الأفريقية الوطنية بالحرف العربي المنمّط باستخدام الحاسوب. سعت الورشة التي عقدت في الجامعة الإسلامية بالنيجر حول كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي، إلى المحافظة على التراث المكتوب بلغات الشعوب الإفريقية الإسلامية بالحرف العربي، وربط الحرف العربي بتعليم القرآن واللغة العربية والثقافة الإسلامية وتوظيف الحرف العربي ليستجيب لحاجات المجتمع المعاصر، وإكساب الأطر العاملة في المجالات التربوية ومؤسسات النشر الثقافي، تقنيات حديثة في كتابة اللغات الوطنية بالحرف العربي، وإدراج تعليم اللغات الوطنية في المناهج الدراسية على مستوى التعليم العام والتعليم العالي ومحو الأمية، ودراسة مشروع البرنامج الرباعي الذي أعده مركز (اقرأ) للتدريب المهني بالجامعة الإسلامية بالنيجر، وتقديم توصيات بشأنه.

مثل اتحاد جامعات العالم الإسلامي في الورشة، الدكتور مصطفى أحمد علي، مدير الأمانة العامة للاتحاد.

الإيسيسكو ترصد المتاحف في دول العالم الإسلامي

صدر ضمن منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - كتاب جديد باللغة العربية، عن «المتاحف في دول العالم الإسلامي: المنشأة والتطور» لمؤلفه الدكتور شوقي شعث، المدير السابق للآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في سوريا.

قدم الكتاب الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الذي أبرز أن الإيسيسكو تعنى بتطوير العمل الثقافي الشامل الذي يدخل ضمن مجالاته، تحديث المتاحف وصيانة مقتنياتها الأثرية والفنية والحفاظ عليها في الدول الأعضاء، باعتبارها حاضنة للتاريخ، وبيوت الفنون

والآداب لما تحتوى عليه من الآثار والذخائر التى تعكس النتاج الفكرى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى للإنسان عبر العصور التاريخية المتعاقبة، مشيراً إلى أن الإيسيسكو أولت اهتمامها للمحافظة على المتاحف فى دولها الأعضاء، وراعت ذلك فى خططها المتوالية، عناية منها بالتراث المادى بوصفه أحد مقومات الحضارة، والمتمثل أساسا فى المتاحف وموجوداتها الأثرية، وحرصت على إدخال عناصر التراث فى عدد من تلك المتاحف، وسعت إلى تدريب الموارد البشرية على إدارتها بالوسائل المعلوماتية الحديثة، والعمل على استرجاع الممتلكات الثقافية المسلوبة منها، والاهتمام بالمخطوطات فى جوانبها المادية المتعلقة بالصيانة والترميم وتدريب الأطر المتخصصة على استخدام التقنيات الحديثة فى هذا المجال.

اتحاد طلبة فلسطين يستعيد عضويته فى بريطانيا

رحبت منظمات التضامن البريطانية باستعادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين فرع بريطانيا عضويته فى الاتحاد الوطنى لطلبة بريطانيا، بعد أن تم تجميدها مدة خمسة أعوام بذريعة معاداة السامية إثر ضغوط من قبل اللوبى المؤيد لإسرائيل فى بريطانيا. وحصل الاتحاد على العضوية الكاملة بعد لقاءات واجتماعات متعددة مع القيادات الطلابية البريطانية والمجموعات الطلابية الدولية التى تنشط فى المملكة المتحدة. وعقد رئيس اتحاد الطلبة الوطنى جيم ديكنسون اجتماعاً مع رئيس اتحاد طلبة فلسطين فؤاد شعث واثنين من أعضائه هما خالد التميمى وحازم محيسن.

أكد ديكنسون لممثلى طلبة فلسطين موافقة اتحاد طلبة بريطانيا على منح الاتحاد الفلسطينى العضوية الكاملة وإعادة العلاقات وترسيخ التعاون وإعادة تجديد روح الصداقة بين الاتحادين.

قلق أممى إزاء الأزمة البرلمانية بالصومال

عبر ممثل الأمم المتحدة للصومال عن قلقه العميق بخصوص الأزمة البرلمانية الحالية التى تعرض للخطر الإنجازات العسكرية والسياسية الأخيرة لإخراج البلد من حرب أهلية تعصف به منذ أكثر من ٢٠ عاما.

وانتخب البرلمان الصومالى خلال الأيام الماضية مادوبى نونو محمد رئيساً جديداً ليخلف شريف شيخ آدن إثر تصويت تخلله تبادل للضرب، واعتبره الرئيس الصومالى شريف شيخ أحمد على الفور ملغياً وباطلا.

واعتبر ممثل الأمين العام للأمم المتحدة للصومال أوغوستين ماهيغا فى بيان أن هذا النزاع لا يأتى فى وقت مناسب.

system. They became brothers due to Allah's blessings and bounty, and their brotherhood was based on altruism. They spread their Da'wah by recommending one another to truth and patience, propagating virtue and preventing vice, and they believed in Allah.

These teachings liberated the human mind, urged it to look attentively at the heavens and the earth. These teachings equalized between the man and the woman, the ruler and the ruled, the weak and the strong, and the rich and the poor. They declared that the people are equal, and no Arab can be preferred to a non-Arab except by piety. They regarded all the peoples and tribes as equal and called them "O, people" or "O, sons of Adam". These teachings set the principle of the freedom of creed amd that no one is the master of another.

{will you (O Muhammad peace be upon him) then compel mankind, until they y become believers.}

[Yunus: 99]

{And We have fastened every man's deeds to his neck, and on the Day of f Resurrection, We shall bring out for him a book which he will find wide open. '(It will be said to him): "Read your book. You yourself are sufficient as a reckoner against you this Day." 'Whoever goes right, then he goes right only for the benefit of his ownself. And whoever goes astray, then he goes astray to his own loss. No one laden with burdens can bear another's burden. And We never punish until We have sent a Messenger (to give warning).}[Al-Isra'a (The Night Journey): 13-15]

These teachings gave the humanity the right to set legislations in the worldly life. It established that the ruler has no dominance over the nation, and his rule is to serve the nation, being appointed by it. The nation has the right to appoint or depose him.

These teachings urged the people to every virtue and prevented every vice. It set the good legislation and asked the people to follow it to be happy in the worldly life and the Hereafter. These teachings were regarded as treatment and mercy for the world, as it implanted the seeds of good, revived the humanity and took it to a high status.

Then, Allah (Glory be to Him) says:

{When there comes the Help of Allāh (to you, O Muhammad peace be upon him m against your enemies) and the conquest (of Makkah). And you see that the people enter Allāh's religion (Islām) in crowds. So glorify the Praises of your Lord, and ask His Forgiveness. Verily, He is the One Who Ever accepts the repentance and Who forgives.}

[Surah Al-Nasr]

The Muslims should know the greatness of their Prophet Muhammad, whose effects were brilliant all over his life. His greatness was not similar to the greatness of some known people such as the tyrant kings, who hurt and humiliate the human beings. Also, it is not like the greatness of the oppressive leaders, who spread corruption on earth, shed blood, kill the weak, destroy and terrorizing the innocent people. Furthermore, it is not like the greatness of the rich people who are proud and arrogant, abstain from giving charity to the poor and deprived, exploit Allah's Servants to their desires and tendencies belonging to the worldly life.

It is the greatness of mercy and benevolence, guidance, teaching, reform, , peace, and safety. This greatness paves the way for the virtuous life and extends to eternity. The whole world derives from it nourishment for its social and spiritual lives. It united the inharmonious hearts and scattered tribes. They removed grudge and hatred from their hearts. This greatness formed a great nation, who had great aims, fixed personality, and strong system. The nation was able to lead the people of the earth, being based on strong bases such as science, knowledge, wisdom, and fairness.

The effects of his teachings and guidance:

The teachings which surprised the people who spread corruption on earth, distorted the religious laws, spoiled the natures, worshipped deities other than Allah, forgot the Day of Judgment and reward, had bad morals, so that the whole world became disordered. Then, faith filled their hearts, mercy prevailed among them, their evil turned to good, corruption to reform, ignorance to knowledge, and dissolution to

worlds, sent him with truth carrying good tidings and calling for the Path of Allah. He sent with him a religion, which is based on belief in Allah and the day of Judgment and relies on morals and good deeds. {O you (Muhammad peace be upon him) enveloped in garments! Arise and warn! And magnify your Lord (Allāh)! 'And purify your garments! And keep away from Ar-Rujz (the idols)! 'And give not a thing in order to have more (or consider not your deeds of obedience to Allāh as a favour to Him). 'And be patient for the sake of your Lord (i.e. perform your duty to Allāh)!}

[Al-Muddathir (The one enveloped in garments): 1-7]

He stayed afterwards in Mecca, calling his people to monotheism and the creeds of resurrection and reward. He discarded the predecessors' disbelief, paganism, immorality, and bad habits. He had no weapon in his Da'wah except wisdom, with which he enters the hearts and the fair preaching, with which he refined the souls and natures.

His Hijirah to Medina

When he saw that the Da'wah did not enter the hearts of the people in the way he wanted, and that the grudge which the inhabitants of Mecca bore against him and their partiality to their heritage would have grave effects on his Da'wah, he immigrated with his companion to Medina, where the people there welcomed him and promised him to defend him and the immigrants the way they defended themselves, their children, and dear ones. They immigrated to Medina to unite the Muslims. The Da'wah started from this place to many places. Then, Revelation descended frequently with the law, with which they established and organized their life system. Allah saw monotheism spread in the places of disbelief and paganism. Then, He sent down the following verse to show this blessing:{This day, those who disbelieved have given up all hope of your religion; so fear them not, but fear Me. This day, I have perfected your religion for you, completed My Favour upon you, and have chosen for you Islām as your religion.}

[Al-Ma'idah (The Table): 3]

- This represented the coming back of those who were forced to come out of their houses in Mecca to Medina.

- In 6th of Shawwal, 8 A.H./January, 630 A.D. Hunayn Battle – beside Taef to face the union of Huwazen with Thaqif, Bani Sa'd ibn Bakr, Bani Gasham with their horses and money to fight the Muslims after the liberation of Mecca.

- In 9 A.H/630 A.D, Tabuk Battle took place in the Levant against the Romans, which is the last battle, in which no fighting took place. Rather, it was a prophetic declaration to liberate the east, its inhabitants, and religions from the oppression of the Roman Greek battle, which lasted ten centuries. The West conquered the east with regard to civilization, religion, politics, society, and economy. In this battle, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) reconciled with the people of ˋAylah, Jabra'a, Adhrah, and Mina'a.

- As for the Messenger's battles against the Jews(Bani Qainuqa'a) [middle of Shawwal, 2 A.H/April, 624 A.D], were to respond to their breaking of the promise with the Messenger of Allah and Medina state and against the Jews of bani Nadaeer [4 A.H/325] as they broke their promise and attempted to kill the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him). Also, there was a battle against the Jews of Bani Qurayzhah in 5th A.H at Dhul Hijjah/627 A.D, as they broke their promise and allied with the disbelievers who besieged Medina in Al-Khandaq Battle and against the Jews of Khaybar in the end of Muharram in 7 A.H/the end of May 628 A.D to end their betrayal and their alliance with the disbelief and paganism as well as urging the disbelievers to fight the Messenger and financing these wars. They declared to Quraysh: "We will be with you until we get rid of him."

- These are the real reasons for the battles, which were imposed on the Muslims1. It represented the struggle between the pagan disbelief allying with the conspiracy and finance of the Jews along the life of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) in Medina.

- These battles proven by the accurate historic events show that the Islamic attitude was always defensive, as it was a way of refuting the aggression and fighting. The number of the murdered people in the battles did not exeed 386 victims including 183 Muslim and 203 disbelievers.2

---

[1] Rifa'ah Rafi' Al-Tahtawy: Nihayat Al-Ijaz fi Sirat Sakin Al-Hijaz, part 4 of his complete works, pp. 198, 200, 203, 230, 231, 235, 239, 246, 247, 257, 258, 281-283, 285-287, 313, 314, 331, 351, 361, and 362, study by Dr. Muhammad Imarah, Beirut edition, 1977.

[2] Ibn 'Abd Al-Bar, Al-Durar fi Ikhtisar Al-Maghazy wa Al-Siyar, see our book: Al-Fatican wal Islam, p. 77, Cairo edition, 2007; Al-Islam and Al-Akhar, p. 65, Cairo edition, 2001; Rad Iftira'at Al-Jabri 'Ala Al-Qur'an Al-Karim, pp. 129-137, Dar Al-Salam edition, Cairo, 1432 H, 2011 A.D.

*Reminiscence of the Birth of the Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him)...!

By: The Grand Imam Sheikh Mahmoud Shaltout

The late Al Azhar Sheikh

The history of the birth of the Messenger

In the second half of the sixteenth century A.D, and In Mecca, one of the Arab cities, Muhammad was born for honorable parents, whose lineage backed to Ismail (may peace of Allah be upon him). His father, ˋAbdullah ibn ˋAbdul Muttalib died while was still in his mother's womb, and the soul had not yet been blown into him. He stayed with Bani Saˋd until he was five years, as Halimah As-Saˋdiyyah was breastfeeding him.

When he came back from the desert, his mother travelled with him to Medina, and stayed there in the hospitality of Bani An-Naggar, the maternal parents of his father ˋAbdullah. Allah willed him not to stay with his mother for a long time, not to be preoccupied with maternity and he was not preoccupied with paternity. His mother died in their return to Mecca. He was only preoccupied with love of Allah.

Preparation for the Message

Allah cared about him, saved him after being orphaned, enriched him after being poor, and guided him from delusion. Allah continued to grant him blessings and bounties until he grew up and he became prepared for carrying the general eternal message, with which he sealed the divine messages. Allah sent him as a mercy for the two

---

*An article published in Arabic at Al Azhar Magazine.

invasion: Safwan or Badr Al-Ula, in which the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) went out to Karz ibn Jabir Al-Fehry, who attacked the cattle in Medina. Then, Karz fled and no fighting took place. This battle was defensive to chase those who took by force the cattle of Medina.

- In Rajab [2 H\624 A.D] `Abdullah ibn Jahsh (3 A.H.\625] along with eight people went to Nakhlah, which is between Mecca and Taef whose distance from Mecca is one night to inquire about the Quraysh caravan passed by and they took them and captured two disbelievers. Their spoils were the first, which was taken by the Muslims as part of the rights extorted from the Muslims by the disbelievers.

- This is the reality of the confrontations occurring since the Hijirah until Badr Al-Kubra Battle in [17th of Ramadan, 2 A.H \ 15th of March, 624]

- As for Badr Al-Kubra Battle in [Ramadan, 2 A.H], it was defensive, as the Muslims, including Muhajirun and Ansar, went out during it to defend their state and their city from the troops of Quraysh, which came from Mecca to eliminate the Islamic entity in Medina.

- After Badr Al-Kubra Battle, As-Swayeq Battle took place [5th of Dhul Hijja, 2 A. H \ 29th of May, 624 A.D] because Abu Sufyan – avenging to what happened to the disbelievers in Badr – went secretly to Medina and contacted Sayyid ibn Al-Nudair – from the Jews – to attack the Messenger of Allah, his state, and nation, killed two of Al-Ansar and burnt their land. This is to keep his promise of taking revenge from the Muslims due to Badr Al-Kubra. Swayeq Battle was also defensive and for the sake of avenging Abu Sufian's attack to the sanctity of Medina and murder of two of Al-Ansar and burning of their land. Also, no fighting occurred in it.

- At the end of Dhul Hijjah, 2 A.H and the beginning of Muharram [3 A. H \ 624 A.D], Bani Salim Battle occurred. The Messenger of Allah went out intending Bani Salim and Ghatfan, who gathered between Iraq and Mecca to attack Medina. The Messenger of Allah did not find them in this place. Thus, they came back without fighting. This means that it was defensive and was not to attack the trade, as Al-Jabri lied.

- In Jumada Al-Ula, 3 A.H \ October, 624 A.D, Bahran (bani Salim) Battle occurred. This was when the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him0 was informed that Bani Salim gathered once again to re-attack Medina. When he went out to abort this attempt, he found them dispersed and he went to Medina without fighting.

- In 7th of Shawwal, 3 A.H \ 23th of March, 625, Uhud invasion occurred. It was to defend the Muslims against the disbelievers of Quraysh, who moved from Mecca to Medina to destroy Islam and the Islamic nation.

- In 16th of Shawwal, 3 A.H. \ April, 625 A.D, Hamra' Al-Asad Battle, in which the Muslims went out to this place, hurt by what happened in Uhud, announcing the strength of the will and resolution. This is to frighten their enemy, who was happy due to his victory in Uhud. This battle was to prevent the repetition of mutual invasion to Medina.

- In Shawwal, 4 A.H \ March, 625, Badr Battle was the time when the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and the Muslims went out to refute the aggression of Quraysh, whose leader, Abu Sufyan, threatened to re-attack Medina, as he said after Uhud Battle: "Our appointment is Badr in the next year". Thus, it was called "Badr the Appointment". Quraysh withdrew after coming out of Mecca, as the time was not suitable to war. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) came back to Medina without fighting.

- At the last fifty days of Rabi' Al-Awwal, 5 A.H \ August, 626 A.D, Dawmatul -Jandal invasion took place two months and four days after Dhat Al-Ruqa' Battle, which was the first Battle of the Muslims in the Levant. Its reason was the gathering of the Arabs, who lived under the reign of the Romans, who wronged all the passersby. Those people intended to attack Medina. The Muslims' coming out to Dawmatul-Jandal was to terrify the highwaymen and to abort their attempt to invade Medina. When they heard about the coming out of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to it, they fled; and no fighting occurred.

- In Jumada Al-Ula, 5 A.H\October, 626 A.D., Bani Lihyan Battle occurred to take revenge from Hudhail, who killed the Companions of the Messenger of Allah in Ar-Rajeei. When the Muslims found bani Lihyan fleeing, they resorted to their sieges and the Muslims went to Medina without fighting.

- In Shawwal or Dhul Qi'dah, 5 A.H \ April, 627 A.D., Al-Khandaq Invasion, which was defensive against Quraysh, when they besieged Medina severely.

- In 6 A.H \ 627 A.D., Dhul Qird Battle took place – at the distance of two miles from Medina at the road of Khaybar. It was in response to `Oyainah Ibn Hisn's aggression towards the she-camel of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) in the forest in front of Khaybar. This means that it was for the sake of chasing the plunderers.

- In 6 A.H/627 A.D, Bani Al-Mustaliq Battle took place. It was because Al-Harith ibn Dirar – the master of bani Al-Mustaliq – collected as many people as he could to fight the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). The Messenger of Allah came out to get rid of their invasion, perfidy, and aggression. He fought them to defend Medina and its inhabitants.

- In Jumada Al-ula, 8 A.H/629, Mu'tah Battle in the Levant took place, which was the first Muslim's battle against the Roman Byzantines, who occupied the Levant and the east. They subdued them, and its direct reason was the Romans murdering Al-Harith ibn `Umair, the messenger of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) [8 A.H/629 A.D), whom the Prophet set to the King of Busra.

- The Liberation of Mecca took place in 10th of Ramadan, 8 A.H / 1st of January, 630 A.D. after Quraysh broke its promise with the Messenger of Allah and the Muslims in Al-Hudaybiyyah in 6 A.H/628 A.D].

religion is the real truth. They promised him to advocate and defend him in the way they defend their women and offspring. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) commanded his companions to immigrate before him and told them that he would follow them. This happened, all praise be to Allah. The first Islamic state was established in Al-Madinah AL-Munawwarah and defended its existence and raised the banner of Allah.

I can not forget to mention that at these times last year, the Egyptian youth launched 25th of January Revolution. The Egyptian people advocated them including the Muslims, Christians, youth, men, girls, even children and the very old people..

History will continue to remember for the great Egyptian armed forces their protection of the Revolution and the youth. Without the support of the army, the Revolution would have never succeeded. However, Allah willed that Egypt and its people lead a new great victorious and happy life.

In spite of the great role played by the great Egyptian army, the enemies of Egypt repeat slogans against the army and their sincere leaders. Also, the policemen, police Headquarters, and honorable judges did not escape these slogans.

It is worth mentioning that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) relied for establishing the Islamic state and its protection on youth people. The clearest example on the great confidence put by the Messenger of Allah in the youth is that the Islamic army was led by one youth, although it contained the old Companions as normal warriors, who was the genius Usamah ibn Zayd, who at that time did not exceed eighteen years.

*Facts about the most Perfect human being : The Defending Feature of the Battles of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him)...!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar magazine

-2-

There are many claims in the Western writings about the spread of Islam by the sword. Some of them sought evidence on this in the battles that occurred in the Islamic State.

We resort to a historic resource for the sake of knowing its reality. This historic source was written in our modern age by Rifa`ah Rafi` At-Tahtawy [1216 A.H – 1290 \ 1801 – 1873 A.D], who studied the history of the invasions, knew its aims, circumstances, and reasons in his brilliant book "Nihayat Al-Eijaz fi Sirat Sakin Al-Hijaz". We present the reality of the Muslims and their earlier battles in Medina via this source, written by this enlightened pioneer, who should be respected:

- Displaying the Islamic battles in general states:
- The earlier invasions did not take place in the first year after Hijirah, contrary to the lies of Al-Jabri.
- What happened before Badr Battle [Ramadan 2 A.H\624] was for maintaining the security of the borders of Medina and for defending it.
- The first battle was Al-Abwa' Battle in Waddan village [2 H\623 A.D], in which the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) reconciled with Magdy ibn `Amr Al-Juhany and agreed with him that none of them will attack the other, and that he would not help their enemy. He wrote this with the master of bani Damrah. This means that Al-Abwa' Battle was to maintain the security of the borders of Medina and reconciling with the neighbors.
- In the same year [2 A.H\623], Buwat Battle took place in Rabi` Al-Akhar – i.e. more than a year after the Hijirah. It occurred due to hindering the way of Quraysh caravan, which was led by Umayyah ibn Khalaf [2 A.H\624 A.D], who was the master of the disbelievers, and mastered tormenting the Muslims in Mecca, and no fighting occurred in this battle.
- In the same year, Dhul-`Ashirah battle occurred in Jumada Al-Ula, to obstruct the way of Quraysh and its caravan, which headed for the Levant, being led by Abu Sufyan to get back the extorted rights of the Muslims from the disbelievers of Quraysh. When the caravan fled, Quraysh went out to invade the Muslims and to attack Medina. This caused the fourth

---

*leading article in the Arabic section of Al Azhar magazine , Rabiul-Akher, 1433 A.H.

In the Memorandum of the Prophet's birth: Muhammad the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) is the ideal example for mankind...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

-2-

The birth of the Messenger of Allah Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) carried the good tidings of humanity getting rid of slavery and declaring a new era in which faith dominates. Allah (Glory be to Him) says:

{}And thus We have sent to you (O Muhammad peace be upon him) Rûh (a Revelation, and a Mercy) of Our Command. You knew not what is the Book, nor what is Faith? But We have made it (this Qur'ân) a light wherewith We guide whosoever of Our slaves We will. And verily, you (O Muhammad peace be upon him) are indeed guiding (mankind) to a Straight Path (i.e. Allâh's religion of Islâmic Monotheism).}

[Al-Shura (Consultance): 52]

His birth opened the gate to receive the age of liberation of humanity and the minds awakening after a long age of unconsciousness. Mecca became eternal due to the birth of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) in it and it deserves being called "Umm Al-Qura".

Allah (Glory be to Him) says:

{}And this (the Qur'ân) is a blessed Book which We have sent down, confirming (the revelations) which came before it, so that you may warn the Mot`er of Towns (i.e. Makkah) and all those around it. Those who

believe in the Hereafter believe in it (the Qur'ân), and they are constant in guarding their Salât (prayers).}

[Al-An`am (The Cattle): 92]

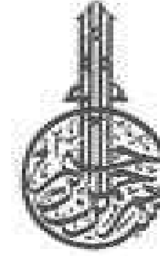
Muhammad (may the blessings and peace of Allah be up[on him) lived in Mecca, where he was born for thirteen years after being burdened with the Da`wah to the new religion, which Allah sent down to him.

He encountered many obstacles and oppression due to the new religion to get rid of the age of ignorance and darkness. The Arabs who were forgotten started a strong nation, which obtained civilization, science, and excellence to gain a sublime status, never obtained by them. The throne of kings and emperors fell before them and they led the world and excelled in science, civilization, and progress. Humanity started to feel the taste of freedom, justice, and equality, as Omar son of Al-Khattab, the second Khalifa after the prophet's Muhammad's death declared that the people are born free. Thus, no one is entitled to enslave any of them.

After the oppression of the disbelievers to the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his companions increased, and they endured all types of torment and harm, which reached murder, Allah (Glory be to Him) permitted to the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to immigrate to Yathrib or Al-Madinah Al-Munawwarah, as it was so called afterwards.

The Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) paved the way for his Hijirah by meeting groups from Yathrib secretly at the seasons of Hajj. He pledges alliance with the groups belonging to the two tribes : Al-Aws and Al-Khazraj to immigrate to them after they were convinced that he is the Messenger of Allah and his

AL-AZHAR MAGAZINE
Rabiul-Akher, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION
March, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

ALAZHAR
MAGAZINE

www.AlazharMag.com

ترقب في العدد القادم

- **المنهاج الإسلامى فى الإصلاح** للأستاذ الدكتور محمد عمارة
- **تفسير سورة البقرة** للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
- **قصص الأنبياء** لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار
- **أدب الدعوة والإصلاح** للشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى



- **هدية العدد**

أمريكا.. هل هى شعب الله المختار

تأليف: هيربرت أرمسترونج تقديم الدكتور: محمد عمارة

السعر 150 قرشا

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ - أبريل ٢٠١٢ م الجزء "٥" السنة "٨٥"

المنهاج الإسلامي في الإصلاح
للأستاذ الدكتور / محمد عمارة

تفسير القرآن الكريم
للإمام محمد عبده

الـديــن
أ. د. محمد عبد الله دراز

حول تطبيق الشريعة الإسلامية
المستشار طارق البشري

اقرأ لهؤلاء



ا. د. عبد الرزاق السنهوري



الشيخ محمود شلتوت

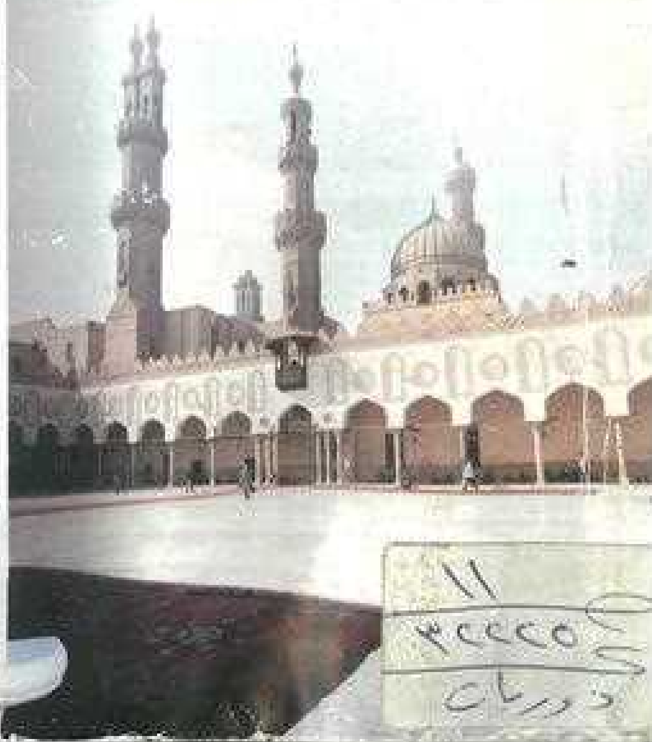


د. عصام البشير

هدية العدد

أمريكا...
هل هي شعب الله المختار ؟

تأليف: هيربرت أرمسترونج
تقديم الدكتور: محمد عمارة



داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحيـــة •

المنهاج الإسلامى فى الإصلاح



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

للإصلاح ـ في الرؤية الإسلامية ـ منهاج متميز عن نظائره في كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التي انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام.

• فالإصلاح الإسلامي ليس تغييراً جزئيا ولا سطحيا، وإنما هو تغيير شامل وعميق، يبدأ من الجذور، ويمتد إلى سائر مناحي الحياة، بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، وإنما يجعل من صلاح الدنيا السبيل إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا.

• وهو لا يقف عند «الفرد» ـ كما هو الحال في المذاهب «الفردانية» ـ كما أنه لا يهمل الفرد، مركزًا على «الطبقة» ـ كما هو الحال في كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية اليسارية ـ الوضعية والمادية ـ وإنما يبدأ الإصلاح الإسلامي بالفرد، ليكون منه الأمة والجماعة. فالإسلام دين الجماعة ـ والجماعة أشمل وأوسع من الطبقة ـ وبدون صلاح الأفراد لن يكون هناك صلاح حقيقي للأمم والجماعات.

ولهذه الحقيقة من حقائق الإسلام جمعت التكاليف الشرعية الإسلامية بين «الفردي» و«الاجتماعي» ـ الكفائي ـ لأن صلاح الفرد هو الذي يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية، والمشاركة في العمل العام، الذي تعود ثمراته على الجماعة ـ المكونة من الأفراد ـ بل لقد رفع الإسلام مقام التكاليف الاجتماعية فوق مقام التكاليف الفردية، عندما جعل إثم التخلف عن التكليف الفردي مقصورا على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن التكليف الاجتماعي شامل للأمة جمعاء، بل ورفع الإسلام ثواب التكاليف الفردية إذا هي أديت في جماعة واجتماع.

ولهذه الحقيقة، كانت رهبانية الإسلام هي الجهاد، أي بذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة في أي ميدان من ميادين العمل الصالح في الحياة. فالجهاد ليس العمل القتالي

وحده. والرهبانية ـ في الإسلام ـ هي على العكس من العزلة الفردية التي تدير ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام.

• وإعلاء لمقام الإصلاح ـ بهذا المعنى ـ في الإسلام، تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره «سنة» من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ و«قانونا» من قوانين الاجتماع الحضاري، لا تبديل له ولا تحويل. فالتغيير الإصلاحي لابد أن يبدأ من «الذات» ليشمل «الذوات».

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

«الرعد: ١١»

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

«الأنفال: ٥٣»

• ولأن الإصلاح «سنة»، لها قوانينها، كانت له «دورات» تصل ما انقطع، وتجدد ما رث، وترتفع بالأمم والحضارات من التراجع والانحطاط، فتعيدها إلى دورات التقدم من جديد، وعن هذه الناحية من سنن الإصلاح يحدثنا رسول الله (ﷺ) فيقول: «لايزال الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره.. ثم يأتي الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره». (رواه الإمام أحمد).

• كذلك حدثنا القرآن الكريم عن أن الصلاح والإصلاح قد كان سنة جميع النبوات

والرسالات، وطريق سائر الأنبياء والمرسلين، فنقطة البدء في سائر الشرائع السماوية على «الإيمان» الذى يعيد صياغة الإنسان صياغة إيمانية، والذى يتجلي ـ من ثم ـ في العمل الصالح والمصلح لكل ميادين الحياة، فبداية الإصلاح إنما تبدأ بالصلاح الذى تتغير به الجذور والأصول والمنطلقات والمبادئ والهويات والفلسفات والثقافات، ورؤية الإنسان للكون، وموقعه من هذا الوجود، ورسالته فيه، ليتحول هذا الصلاح إلى إصلاح شامل لكل ميادين الفروع في سائر مناحى الحياة.

هكذا كانت دعوة رسول الله شعيب «عليه السلام»:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

«هود: ٨٤-٨٦»

فنقطة البداية في الإصلاح الشامل هى الإيمان الذى يعيد صياغة الإنسان، ليمتد الإصلاح بعد ذلك إلى الفروع والسياسات والاجتماعيات والاقتصاديات والعلاقات.

وعلى الضد من هذا المنهاج ـ في الصلاح والإصلاح ـ كان موقف الكافرين من أهل مدين ـ قوم شعيب ـ فلقد استنكروا وجود علاقة ـ عضوية، وجدلية ـ بين الإيمان والصلاة وبين ما كانوا يمارسون في فروع حياتهم ومعاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية من مظالم جعلوها ثمرات للحرية الفردية المطلقة في هذه الميادين:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

«هود: ٨٧»

لكن شعيبا ـ عليه السلام ـ عاد ليؤكد لهم أن دعوته هى الطريق الحق للصلاح والإصلاح:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

«هود: ٨٨»

● وفى سورة المزمل ـ المكية ـ رسم القرآن الكريم لخاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبدالله (ﷺ) منهاج الرياضات والمجاهدات الروحية التى تحقق صلاح الإنسان، والتى تفجّر فيه الطاقات والإمكانات التى تجعل هذا الإنسان ـ وهو الجرم الصغير ـ العالم الأكبر، القادر على حمل المهام الثقال في مختلف ميادين الإصلاح، فبهذه الرياضات والمجاهدات، التى تعيد صياغة الإنسان صياغة إسلامية، يكون هذا الإنسان ـ الذى خُلق ضعيفا ـ هو الأشد وطأ والأقوم قيلا:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾

«المزمل: ١ ـ ٦»

وعلى امتداد المرحلة المكية ـ ثلاثة عشر عاما ـ أى أكثر من نصف عمر الرسالة ـ كانت الصناعة الثقيلة التى أقامها رسول الله (ﷺ) هى إعادة صياغة الإنسان، بإقامة الأصول، وتجسيدها في القلة المؤمنة. وفى دار الأرقم بن أبى الأرقم ـ مدرسة النبوة والمؤسسة التربوية الأولى فى تاريخ الإسلام ـ كانت صياغة القلوب والعقول بخُلق القرآن وقيم الإسلام، فلما تكوّن الجيل الفريد، وتبلورت الجماعة والأمة التى صنعها الرسول (ﷺ) على عينه، جاءت ـ بعد الهجرة ـ مرحلة النشر والانتشار للإصلاح فى ميادين الفروع، جاءت: الدولة، والسياسة، والجيوش، والفتوحات، والنظم والمؤسسات، والقوانين، والعلاقات الدولية إلى آخر ميادين فروع الإصلاح. لقد تقدمت «الدعوة» على «الدولة»، وتقدم تغيير «النفس» على تغيير «الواقع»، ولذلك كان التغيير منطقيا، وحقيقيا، وراسخا كل الرسوخ.

وإذا كانت «الأمة العامة» ـ التى اعتنقت الإسلام، عند وفاة رسول الله (ﷺ) ـ قد بلغ تعدادها ١٢٤,٠٠٠.. فإن «الأمة الخاصة» ـ التى مثلت الأعلام والقيادات والريادات والصفوة التى تخرّجت في مدرسة النبوة - قد أحصى العلماء عددهم فى نحو ثمانية آلاف ـ منهم أكثر من ألف امرأة ـ جاءت تراجمهم فى الأسفار التى رصدت أعلام الصحابة، الذين صنعوا وقادوا ـ من حول الرسول (ﷺ) أعظم نماذج الصلاح والإصلاح فى تاريخ النبوات والرسالات.

● وإذا شئنا إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى عظم الطاقات والإمكانات التى يفجرها هذا المنهاج الإسلامى فى الإصلاح، تغيير الجذور والمنطلقات والتصورات والفلسفات بالإيمان الذى تجسده وتنميه المجاهدات الروحية ليتجلى بعد ذلك صلاحا وإصلاحا فى سائر ميادين الفروع فى جميع مناحى الحياة. إذا شئنا إشارات دالة على صنيع هذا المنهاج فى الإنسان ـ الذى كان فى أغلبه بدويا، وجاهليا، وأميا، وفظا غليظا ـ فعلينا أن نقرأ ما قاله الصحابى جعفر بن أبى طالب (٨هـ، ٦٢٩م) للنجاشى ملك الحبشة ـ واصفا حال هذه الجماعة إبان جاهليتها، وبعد الصلاح الذى صنعه بها الإسلام، لقد قال: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع

الأرحام، ونسىء الجوار، يأكل القوى الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى، فعبدنا الله ـ تعالى ـ وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك»[1].

هكذا صنع الصلاح والإصلاح هذا التغيير الجذرى والعميق والشامل فى نفوس هذه الجماعة المؤمنة، التى ولدت من رحم القرآن الكريم.

ثم لننظر ما صنع الإصلاح الإسلامى بالصحابى حاطب بن أبى بلتعة (٣٥ ق هـ ـ ٣٠هـ، ٥٨٦ ـ ٦٥٠م) الذى حمل رسالة رسول الله (ﷺ) إلى «المقوقس» ـ عظيم القبط بمصر ـ سنة ٧هـ، ٦٢٨م والوارث لمواريث أقدم حضارات الدنيا وأعرقها.

لقد بدأ المقوقس حواره مع حاطب بالتحدى والتساؤل الاستنكارى، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته (ﷺ) فقال لحاطب:

«ما منعه (أى الرسول) ـ إن كان نبيا ـ أن يدعو علىّ فيُسلَّط علىّ؟!

فكان جواب حاطب:

● منعه ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفعَل به ويُفعَل!

(فوجم المقوقس ساعة ـ أى فترة ـ ثم استعاد إجابة حاطب، فأعادها عليه حاطب، فسكت المقوقس).

وهنا استأنف حاطب محاورة المقوقس، فقال:

إنه قد كان قبلك رجل ـ يشير إلى فرعون موسى ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ـ أى من الذين استخفهم فأطاعوه ـ ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك! وإن لك دينا ـ أى النصرانية ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»![2].

إن الناظر فى حوار «البدوى» حاطب بن أبى بلتعة هذا مع المقوقس، إذا سأل نفسه:

(١) مسند أحمد، طبعة الرسالة، باب حديث جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو حديث الهجرة.
(٢) فتوح مصر والمغرب، باب أهم موارد ابن عبدالحكم فى فتوح مصر، بتصرف.

من علم حاطب هذه الفلسفات فى الدين، والدنيا، وفى الحرية، والتاريخ؟ ومن الذى أقدره على أن يكثفها فى كلمات، هى عصارات للحكمة العالية؟؟

إن الناظر فى ذلك، والسائل عنه، لابد أن تنفتح أمام بصيرته وبصره معالم المنهاج النبوى فى الصلاح والإصلاح، ذلك الذى بدأ بالأصول، وبالنفس وبالذات، ليسلك هذه الذات فى سلك الجماعة والأمة والمجموع والاجتماع، ليقيم بها وعليها الدولة والسياسة والنظم والمؤسسات والعلاقات.

وإشارة أخرى دالة على «النوع» و«الكيف» الذى أثمره هذا المنهاج النبوى فى الإصلاح على جبهة صناعة الإنسان تتجلى فى كلمات الراشد الثانى، الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ، ٥٨٤ ـ ٦٤٤م) عندما أرسل مع عمرو بن العاص (٥٠ ق هـ ـ ٤٣هـ، ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) ٤,٠٠٠ جندى ليفتح بهم مصر، فلما وصل عمرو وجيشه إلى «حصن بابليون»، وعلم أن بمصر ١٢٠,٠٠٠ جندى من خيرة جنود الرومان يتدرعون بأوفر العدد والعتاد وأكثرها قوة وفتكا، ويتحصنون ـ كما يقول ابن عبدالحكم (٢٥٧هـ، ٨٧٠م) ـ فى حصون وراءها حصون وراءها حصون!! عندئذ، طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطاب مددا، لهذه المعركة الفاصلة، التى قال عنها «هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م) ـ قيصر الروم ـ:

«إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم»! فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول له: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجلٍ منهم رجلٌ مقام الألف: الزبير بن العوام (٢٨ ق هـ ـ ٣٦هـ، ٥٩٦ ـ ٦٥٦م)، والمقداد بن عمرو بن الأسود (٣٧ ق هـ ـ ٣٣هـ، ٥٨٧ ـ ٦٥٣م)، وعبادة بن الصامت (٣٨ ق هـ ـ ٣٤هـ، ٥٨٦ ـ ٦٥٤م)، ومسلمة بن مخلد (١ ـ ٦٢هـ ٦٨٢م)، وقيل خارجة بن حذافة (٤٠هـ، ٦٦٠م)، ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة»![3].

هكذا بلغ الوزن، والنوع، والكيف لخريجى مدرسة النبوة ومنهجها فى الإصلاح.

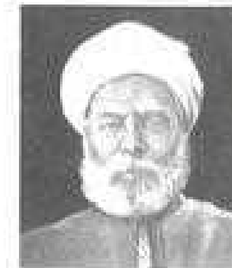
* * *

وهذا المنهاج الإسلامى فى الإصلاح، الذى يبدأ بالعقيدة التى تعيد صياغة الإنسان صياغة إسلامية، لينطلق ـ بعد ذلك ـ هذا الإنسان الصالح لإصلاح سائر ميادين الواقع: الاجتماعى، والسياسى، والاقتصادى... هو الذى ظل منهاج كل دعوات الإصلاح والتجديد عبر تاريخ الإسلام.

وهو المنهاج الذى بعثته وأحيته وجددته مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى فى عصرنا الحديث، تلك التى أوقد شرارتها جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ، ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م)، وهندس بناءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م).

(٣) كنز العمال، الباب الأول فى خلافة الخلفاء، بتصرف يسير.

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ٢١)

فى الناس المنادون هنا وجهان:

● الوجه الأول - أنهم الذين يقولون: آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين ذلك الإيمان الذى يملك القلب ويصرف النفس فى الأعمال، وهو المقبول عند الله تعالى. وإنما هم آخذون بتقاليد ظاهرية، ليس لها ذلك الأثر الصالح فى أخلاقهم وأعمالهم. فهم يخادعون الله تعالى بالتلبس ببعض صور العبادات والأقوال، وإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». والكلام على هذا لا يزال فى الصنف الرابع من أصناف البشر المخاطبين بالقرآن، كما تقدم، فلا حاجة إلى بيان وجه الاتصال بين الآيات.

● الوجه الثانى - وهو الراجح - أن الخطاب عام للناس كافة. ووجه الاتصال بين الآيات على هذا، أنه لما بين تعالى فى أصناف الناس هذا الصنف الذى احتقر أفراده نعم الله تعالى عليهم، واستعظموها وأكبروها على من قبلهم، فحرموا أنفسهم من أجل المزايا الإنسانية، وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية، خاطب الناس عامة بأن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التى تشملهم ومن قبلهم من السلف، فتنظمهم جميعا فى سلك العبودية للخالق تعالى شأنه، وألا يكونوا كذلك الصنف الخاسر الكفور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين، إذا لم يستعملوا عقولهم فى فهم ما أنزل

عليهم، بل اكتفوا بتقليد بعض رؤسائهم وعلمائهم، زاعمين أنه لا يقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم، كأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفرا معدودين فى وقت محدود، ولم يجعلها هداية عامة للأمة، وإنما ألزم سائر الناس فى سائر الأوقات الاكتفاء باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم، وهلم جرا، ثم تركوا أتباعهم اتكالاً على شفاعتهم واكتفاء بالانتساب إليهم، وزعما أن الله أعطاهم ما لا يعطى مثله لأحد سواهم، وإن عملوا مثل عملهم. تعالى الله على الظلم والمحاباة، وهو ذو الرحمة التى لا تنتهى، وذو الفضل العظيم.

هذا النداء الإلهى المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة:- هو الخالق وهم المخلوقون، هو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون - حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا..

وأنا أخص طلاب علوم الدين بالذكر، فينبغى للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن ويحملها على الاهتداء به، فإذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الإسلام التى أشار إليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - بقوله:

أدبنى ربى فأحسن تأديبى

وإنما كان أدبه القرآن. ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال، وصل إلى معرفة أمراض المسلمين الحاضرة، ومنابع البدع التى فشت فيهم، ومثارات الفتن التى فرقتهم، ويعرف علاج ذلك. وإن من ذاق حلاوة القرآن، لا ينظر فى كتاب ولا يتلقى علما إلا ما يفتح له باب الفهم فى القرآن، أو ما يفتح له باب القرآن فيجده مرآته، وما عدا ذلك مبعد عنه، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى، وذلك هو الضلال البعيد.

كل ما أمرنا به القرآن وأرشدنا إلى النظر فيه: فالاشتغال به اشتغال بالقرآن، فإذا قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

(البقرة: ٢١)

فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما فى خلقنا من الحكم والأسرار، وينبغى لنا البحث عنها، كما قال فى آية أخرى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

وإلى الاعتبار بتاريخ من قبلنا، كما قال فى آية أخرى:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾

(الروم: ٤٢)

وأمثال ذلك كثير.

لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتخشع لوعيده إلا إذا عرف معانيه، وذاق حلاوة أساليبه. ولا يأتى هذا إلا بمزاولة الكلام العربى البليغ، مع النظر فى بعض النحو كنحو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر وبعد ذلك يكون له ذوق فى فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن. قال الإمام أبو بكر الباقلانى: من زعم أنه يمكنه أن يفهم شيئا من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه، فهو كاذب مبطل.

فهل يصح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لا يجعل القرآن إمامه، ويتخذه نورا يمشى به فى

الناس – ويهتدى به فى ظلمات البدع؟!

أمامنا عقبتان كئودان لا نرتقى عما نحن فيه إلا باقتحامهما، وهما الكسل وتسجيل القصور على أنفسنا بجهل قيمة نعم الله تعالى علينا. وصاحب هاتين الخلتين يمقت كل من يرشده إلى الخير ويهديه للحق، لأنه يكلفه ضد طبعه، فلا يرى مهربا من الاعتراف بضلاله وغيه، إلا بالقدح بمرشده وناصحه.

على كل منا أن ينظر فى نفسه، وينظر فى القرآن العظيم، ويزن به ما هو عليه من العقائد والأخلاق والأعمال، فإن رجح به ميزانه فهو مسلم حقيقى فليحمد الله تعالى، وإلا فليسع فيما يكون به الرجحان.

لابد لنا من النظر الطويل والفكر القويم فيما نحن فيه، فمن لم يتفكر لم يهتد إلى الحق، ومن لم يهتد إليه فهو ضال:

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾

(يونس:٣٢)

يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾

الذين يدعون الإيمان بالله قولاً بأفواههم ولم يمس الإيمان الحق سواد قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم، ويدعون الإيمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهذيب أنفسهم وإصلاح أعمالهم، وإنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة، وقلوبهم مشغولة عن الله الذى لا تفيد العبادة عنده إلا بالتوجه إليه وابتغاء مرضاته، والشعور بعظمته وجلاله، فهم يخادعون الله بهذه الظواهر التى لا معنى لها، والصور التى لا روح فيها، وإنما يخدعون فى الحقيقة أنفسهم، لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم فى الدنيا عزة وسعادة، ولا تنجيهم فى الآخرة.

و﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الذين لم يرزءوا بهذا الخذلان، ولم يبتلوا بهذا الافتتان، سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان، ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ جميعا عبادة خشوع وإخلاص وأدب وحضور كأنكم تنظرون إليه وترونه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم، وينظر دائما إلى محل الإخلاص منكم وهو قلوبكم. واستعينوا على إشعار نفوسكم هذا الخشوع والحضور والإخلاص فى العبادة باستحضار معنى الربوبية، فإنه هو ربكم الذى أنشأكم فيما لا تعلمون،

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل:٧٨)

وغذاكم بنعمه، ونماكم بكرمه، كما فعل مثل ذلك بسلفكم الصالح فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية، ومعظمين لهذه المنة. فليدع ذلك الصنف احتقار النعم التى هو فيها والاقتصار على تعظيم نعمة الله على السلف فقط، فإن هذا الرب العظيم ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ وخلق ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ قد رباكم كما ربى سلفكم، ووهبكم من الهدايات مثلما وهبهم. فمن شكر منهم ومنكم زاده نعما، ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما، ليكون عبرة ومثلا للآخرين، وذلك من رحمته بالعالمين. وقد أقسم تعالى على ذلك فى كتابه المجيد فقال:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

(إبراهيم:٧)

وفى القصاص حياة لأولى الألباب، وما يتذكر إلا من أناب.

هكذا أمر الله تعالى عباده أجمعين، بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين، وأرشدهم – بإعلامه إياهم أنه ساوى بينهم وبين من قبلهم فى المواهب الخلقية – إلى الاستقلال بالعمل، وقدر نعمته عليهم قدرها، ليعلموا أن كل النعم التى تكتسب بالشكر – وهى ما عدا النبوة – مقدورة لهم، كما كانت مقدورة لمن قبلهم، وأنهم إذا زادوا على سلفهم شكرا يزدادون نعما. وما الشكر إلا استعمال المواهب والنعم فيما وهبت لأجله. فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من الكتاب والسنة، لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة، وإنما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا من آبائنا، لأن عقولهم كانت أقوى، وكانوا على فهم الدين أقدر، بل لا يمكن أن يفهمه غيرهم، أولئك كافرون بنعمة العقل، وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة فى المواهب وسعة الرحمة والفضل.

وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقرب إليه زلفى، بغير ما شرعه لهم من الدين وما جاء به الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهم الوسائل فى الهداية والإرشاد، أو لأجل الشفاعة لهم عنده لينالوا جزاء ما شرعه من الدين، من غير طريق العمل به واتباع المرسلين – قد احتقروا نعم الله تعالى ولم يهتدوا بهذه الآية لأنهم قد جعلوا لله أندادا يبغون أن ينالوا بأشخاصهم ما حكم الله بأن يطلبه الناس بإيمانهم وأعمالهم، فجعلوا هؤلاء الأنداد شركاء لله يغنونهم عن شريعته، شعروا بذلك أم لم يشعروا.

يقول تعالى لجميع عباده: اعبدونى، ملاحظين معنى الربوبية، والمساواة فى المواهب الخلقية التى تؤهلكم للسعادة الحقة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فإن العبادة على هذا الوجه هى التى تعدكم للتقوى، ويرجى بها بلوغ غاية الكمال القصوى.

الشائع أن لعل للترجى فى ذاتها. وإذا وقعت فى كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق. وغرض القائلين بهذا تنزيه – الله سبحانه – عن الترجى بمعناه اللغوى الآتى، ولكنه رمى للكلام بدون بيان. وحقيقته: أن لعل للترجى، ولكنها تستعمل للإعداد والتهيئة للشئ، وفى هذا معنى الترجى. فحيث وقعت (لعل) فى القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير كما فسرناها به آنفا، وهو يستلزم التحقيق، لأن الإعداد بما تأتى «لعل» بعده أمر محقق لا ريبة فيه. فإن العبادة على الوجه الذى أرشدت إليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية، إلخ ما تقدم شرحه، تطبع فى النفس ملكة خشية الله وتعظيمه ومراقبته، وتعلى همة العابد، وتقوى عزيمته وإرادته، فتزكو نفسه وتنفر من المعاصى والرذائل، وتألف الطاعات والفضائل، وهذه هى التقوى، وإذا قلنا: إن الرجاء متعلق بالناس فالإعداد فيه ظاهر ومتحقق، إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد.

ومعنى الترجى فى أصل اللغة توقع حصول الشئ القريب بحصول سببه والاستعداد له، سواء كان الاستعداد كسبيا أو طبيعيا، فاستعملنا «لعل» المعبرة عن التوقع فى سببه، وهو الاستعداد أو الإعداد الذى هو جعل المرء مستعدا. والتعبير عن المسبب بلفظ السبب شائع فى استعمال اللغة. وقد عدوا الترجى والتمنى من الأخبار، وصيغهما صيغ إنشاء فقط.

أقسام السنة النبوية
عند العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور



١ (١٢٩٦-١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩-١٩٧٣م)

التعريف به:

• ولد بتونس، في أسرة اشتهرت بنبوغ عدد من أكابر العلماء والمفتين، والمصلحين والقضاة وشيوخ الإسلام، من مثل: الشيخ أحمد بن عاشور، والشيخ محمد بن عاشور، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور- الجد- (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م) والشيخ محمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧-١٣٩٠هـ/١٩٠٩-١٩٧٠م).

• وتتلمذ على فكر تيار الإحياء والتجديد والإصلاح في اليقظة الإسلامية الحديثة، ونهل من علم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) الذي زار تونس زيارته الأولى (١٣٠١هـ/١٨٨٤م) عندما كان منفيًا من مصر، بعد احتلال الإنجليز لها، وكان يومئذ نائبًا لجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) في رئاسة «جمعية العروة الوثقى» - السرية- والمحرر الأول لمجلتها «العروة الوثقى».

وفي الزيارة الثانية للأستاذ الإمام إلى تونس (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) كان ابن عاشور في الخامسة والعشرين من عمره، فلقي الأستاذ الإمام، وألقى في حضرته خطابًا عبر فيه عن تتلمذه على فكر الإمام- الذي أصبحت له امتدادات في تونس منذ زيارته الأولى- فقال ابن عاشور- مخاطبًا الإمام: «أيها الأستاذ، إن مباديكم السامية التي ترمي سهمها الأفلج[1] شوارد التقدم.. قد أوجبت لنفسي نحو لقياكم كثرة إشراق، مع علو في محبتكم وإغراق، فلا يتعجب

(١) السهم الأفلج: الأكثر إصابة وفوزًا.

الأستاذ- أيده الله- من نفس أظهرت له التعلق عند ملاقاته الأولى، فإنا وإن لم نلق شخصه من قبل فقد لاقين ذكره وفرائده..».

ومنذ هذه الزيارة، توثقت الصلات الفكرية- العميقة- بين الطاهر بن عاشور وبين الأستاذ الإمام، وتبادلا الرسائل التي تضمنت إشارات وألغازًا حول مشكلات الإصلاح والتحرر من الاستعمار والجمود والتقليد- وكانت لابن عاشور شفرة خاصة لحل ألغاز تلك المكاتبات، التي استوجبتها رقابة الاستعمار الفرنسي على المكاتبات!.

كما أشار ابن عاشور إلى تأثيرات تلك التلمذة وهذه الصلات الفكرية في كتابه (أليس الصبح بقريب) والذي بدأ تأليفه منذ ذلك التاريخ (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م).

• ولقد تعلم الطاهر بن عاشور اللغة الفرنسية إلى جانب العربية وعلومها.. ودخل «جامع الزيتونة»- وهو الجامعة الدينية المناظرة للأزهر- (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) وفيها درس وتخصص في علوم الإسلام والعربية وآدابها.. ونال منها- بعد سبع سنوات- «شهادة التطويع» في (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م).

• ولقد أسهم ابن عاشور- بعد تخرجه في الزيتونة- في مختلف ميادين الإصلاح والنهضة والتجديد.. من الإدارة.. إلى القضاء.. إلى الأوقاف.. إلى التعليم.. إلى الإفتاء.. إلى التدريس والمحاضرات.. وذلك فضلاً عن التأليف وتحقيق التراث.. فعين في مجلس الأوقاف (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).. وتولى القضاء (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).. وعين نائبًا للمفتي (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م).. ثم أصبح مفتيًا (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م).. ثم مستشارًا للحكومة في الشئون الدينية، وشيخًا للإسلام، وشيخًا لجامع الزيتونة (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).. وأصبح عضوًا بمجمع اللغة العربية- بالقاهرة- (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م).. وعضوًا مراسلاً للمجمع العلمي العربي بدمشق (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).. وذلك فضلاً عن ممارسة التدريس وإلقاء المحاضرات.. والمشاركة في المعارك الفكرية.. والمؤتمرات العلمية.. وفوق كل ذلك ومعه بناء «هرم فكري» نجد فيما يقرب من أربعين كتابًا- ما بين تأليف وتحقيق- وبعض هذه الكتب موسوعات استغرق تأليف الواحد منها خمسين عامًا.. ولقد طبع من هذه الكتب سبعة عشر كتابًا.. ولاتزال بقيتها مخطوطة حتى الآن..

ومن هذه الآثار الفكرية- التي غطت علوم وفنون القرآن.. والحديث.. ومقاصد الشريعة.. والفقه.. وأصوله.. واللغة.. والنحو.. والأدب.. والنقد.. والشعر.. والاجتماع.. والتاريخ.. ومشروع النهضة.. والتراجم.. والحكمة:

١- تفسير التحرير والتنوير- (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)- وهو الذي استغرق تحريره له خمسين عامًا.. فجاء عملاً عملاقًا ومتفردًا في ميدان التفسير

للقرآن الكريم..

٢ - (مقاصد الشريعة الإسلامية).. وفيه محاولة لتأسيس «علم مقاصد الشريعة»، ليكون بديلا لعلم أصول الفقه، بهدف توحيد مرجعية الاجتهاد الفقهي، خروجا من متاهة الاختلافات الفقهية التي تزايدت في عصور التقليد.

٣ - (حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول) - للقرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).

٤ - (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) وهو دراسة في سنن الله في التقدم والنهوض - نهوض الإسلام الأول.. والنهوض المنشود.

٥ - (أليس الصبح بقريب) وهو وثيقة لمشروع النهضة الإصلاحية - في تونس.. وتأثيرات مدرسة الإحياء والتجديد الديني في هذه النهضة.

٦ - (أصول التقدم والمدنية في الإسلام).

٧ - (كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ) - موطأ الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م).

٨ - (نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم) - الذي ألفه الشيخ علي عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م).

٩ - (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح) - وهو دراسة نقدية في مشروع صحيح البخاري.

١٠ - (رسالة فقهية عن الفتوى الترنسفالية) - التي أصدرها الإمام محمد عبده، عن ذبائح ولباس أهل الكتاب، والتي أثارت جدلا فقهيا وفكريا كبيرا في مطلع القرن العشرين (١٣٢٢هـ.١٩٠٤م).

١١ - (أصول الإنشاء والخطابة).

١٢ - (موجز البلاغة)..

١٣ - (قصة المولد) - عن ميلاد رسول الله ﷺ.

١٤ - (تحقيق ديوان بشار بن برد).

١٥ - (تحقيق ديوان النابغة الذبياني).

١٦ - (تحقيق قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلق).

١٧ - (شرح وتحقيق المقدمة الأدبية للمرزوقي).

أما الدراسات والأبحاث والمحاضرات والتحقيقات التي لم تطبع في كتب حتى الآن.. فمنها:

١٨ - (رسالة في القدر).

١٩ - (قلائد العقيان) - شرح وتحقيق وإكمال.

٢٠ - (الفتاوى).

٢١ - (قضايا وأحكام شرعية).

٢٢ - (مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ومعول في الأحكام عليها).

٢٣ - (تعليق وتحقيق على حديث أم زرع).

٢٤ - (أمالي على مختصر خليل) في الفقه المالكي.

٢٥ - (آراء اجتهادية).

٢٦ - (تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدمة في النحو).

٢٧ - (تعاليق على المطول وحاشية السيلكوتي).

٢٨ - (أمالي على دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م).

٢٩ - (تراجم لبعض الأعلام).

٣٠ - (تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب «الاقتضاب» لابن السيد البطليوسي، مع شرح كتاب «أدب الكاتب».

٣١ - (جمع وشرح ديوان سحيم).

٣٢ - (شرح معلقة امرىء القيس).

٣٣ - (شرح ديوان الحماسة).

٣٤ - (مراجعات تتعلق بكتابي: «معجز أحمد» و«اللامع العزيزي») - اللذين شرح فيهما المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ - ١٠٥٧م) ديوان المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ/ ٩١٥ - ٩٦٥م).

٣٥ - (تحقيق الشرح القرشي على ديوان المتنبي).

٣٦ - (غرائب الاستعمال).

٣٧ - (تصحيح وتعليق على «كتاب الانتصار» لجالينوس، للحكيم ابن زهر).

٣٨ - (كتاب تاريخ العرب).

● وإذا كان ابن عاشور قد تميز وتألق في سماء علماء الأمة - على امتداد القرن الرابع عشر الهجري - حتى استحق أن يطلق عليه الإمام محمد عبده - في بداية القرن العشرين - «سفير الدعوة الإصلاحية في الجامعة الزيتونية».. فلقد استحق أن يصفه الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ - ١٩٩٦م) - في أواخر القرن العشرين - بأنه «رجل القرآن الكريم، وإمام الثقافة الإسلامية المعاصرة»[٢].

***

تمييز

مقامات وأقوال وأفعال الرسول ﷺ[*]

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

للرسول عليه الصلاة والسلام صفات كثيرة صالحة لأن تكون مصادر أقوال وأفعال منه. فالناظر في مقاصد الشريعة بحاجة إلى تطلع تعين الصفة التي عنها صدر منه قول أو فعل، وأول

(٢) انظر في ترجمته: إسماعيل الحسني (نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور)(ص٧٦ - ٩٨). طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي - واشنطن سنة (١٤١٦هـ/١٩٩٥م) و العجب أن موسوعاتنا الحديثة التي أرخت للأعلام ولأعلام المؤلفين، قد غفلت عن الترجمة للطاهر بن عاشور، بما فيها التي ألفت بعد وفاته (١٣٩٣هـ/١٩٧٩م).. انظر: عمر كحالة (معجم مصنفي الكتب العربية) طبعة بيروت سنة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ونزار أباظة. ومحمد رياض المالح (إتمام الأعلام) - ذيل على كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي - طبعة بيروت سنة (١٩٩٩م).

(*) (مقاصد الشريعة الإسلامية)(ص٢٨ - ٣٩) - طبعة الشركة التونسية للتوزيع - تونس.

من اهتدى إلى النظر فى هذا التمييز والتعيين العلامة شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافى فى كتابه «أنوار البروق فى أنواء الفروق» فإنه جعل الفرق السادس والثلاثين بين قاعدة تصرف رسول الله ﷺ بالقضاء وقاعدة تصرفه بالفتوى، وهى التبليغ، وقاعدة تصرفه بالإمامة. وقال: «إن رسول الله ﷺ هو الإمام الأعظم والقاضى الأحكم، والمفتى الأعلم، فهو إمام الأئمة وقاضى القضاة وعالم العلماء. فما من منصب دينى إلا وهو متصف به فى أعلى رتبة، غير أن غالب تصرفه ﷺ بالتبليغ؛ لأن وصف الرسالة غالب عليه، ثم تقع تصرفاته ﷺ منها ما يكون بالتبليغ والفتوى إجماعا، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالقضاء، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالإمامة، ومنها ما يختلف فيه لتردده بين رتبتين فصاعدا، فمنهم من يغلب عليه رتبة، ومنهم يغلب عليه أخرى.

ثم تصرفاته ﷺ بهذه الأوصاف تختلف آثارها فى الشريعة، فكل ما قاله أو فعله على سبيل التبليغ كان حكمـا عاما على الثقلين إلى يوم القيامة، فإن كان مأمورا به أقدم عليه كل أحد بنفسه، وكذلك المباح، وإن كان منهيا عنه اجتنبه كل أحد بنفسه. وكل ما تصرف فيه بوصف الإمامة لا يجوز لأحد أنْ يقدم عليه إلا بإذن الإمام؛ لأن سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دون تبليغ يقتضى ذلك.

وما تصرف فيه بوصف القضاء لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم؛ لأن السبب الذى لأجله تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء يقتضى ذلك.

فهذه الفروق بين هذه القواعد الثلاث؛ وتحقق ذلك بأربع مسائل:

المسألة الأولى: بعث الجيوش، وصرف أموال بيت المال فى جهاتها، وجمعها من محالها، وتولية الولاة، وقسمة الغنائم، فمتى فعل رسول الله ﷺ من ذلك شيئا علمنا أنه تصرف فيه بطريق الإمامة دون غيرها، ومتى فصل بين اثنين فى دعاوى الأموال وأحكام الأبدان ونحوها بالبينات أو الأيمان والنكولات، فنعلم أنه إنما تصرف فى ذلك بالقضاء دون الإمامة، وكل ما تصرف فيه بالعبادات بقوله أو فعله أو أجاب به سؤال سائل عن أمر دينى فهذا التصرف بالفتوى والتبليغ. فهذه المواطن لا خفاء فيها.

وأما مواضع الخفاء والتردد ففى بقية المسائل، وهى:

المسألة الثانية: قوله ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهى له».

اختلف العلماء فى هذا القول هل هو تصرف بالفتوى فيجوز لكل أحد أن يحيى أرضًا ولو لم يأذن له الإمام، وهذا قول مالك والشافعى، أو هو تصرف بالإمامة فلا يجوز لأحد أن يحيى إلا بإذن الإمام، وهو مذهب أبى حنيفة.

المسألة الثالثة: قول رسول الله ﷺ لهند بنت عتبة زوج أبى سفيان لما قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى وولدى ما يكفينا، فقال لها: «خذى من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف».

اختلف العلماء هل هذا تصرف بطريق الفتوى فيجوز لكل من ظفر بحقه أو بجنسه أن يأخذه بغير علم خصمه به، أو هو تصرف بالقضاء فلا يجوز لأحد أن يأخذ جنس حقه أو حقه إذا تعذر أخذه من الغريم إلا بقضاء قاض.

المسألة الرابعة: قول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبُه».

اختلف العلماء هل هذا تصرف بالإمامة فلا يستحق القاتل سلب المقتول إلا أن يقول له الإمام ذلك رأى، ورآه الشافعى تصرفًا بالفتوى فلا يحتاج إلى إذن الإمام، هذا حاصل كلام الشهاب القرافى[3].

***

ومن ورائه نقول: إن لرسول الله ﷺ صفات وأحوالاً تكون باعثًا على أقوال وأفعال تصدر منه. فبنا أن نفتح لها مشكاة تضىء فى مشكلات كثيرة لم تزل تُعنت الخلق، وتشجى الخلق. وقد كان الصحابة يفرقون بين ما كان من أوامر الرسول صادرا فى مقام التشريع وما كان صادراً فى غير مقام التشريع، وإذا أشكل عليهم أمر سألوا عنه.

ففى الحديث الصحيح أن بريرة لما أعتقها أهلها كانت زوجة لمغيث العبد، فملكت أمر نفسها بالعتق فطلقت نفسها، وكان مغيث شديد المحبة لها وكانت شديدة الكراهية له، فكلم مغيث رسول الله ﷺ فى ذلك فكلمها رسول الله فى أن تراجعه فقالت: أتامرنى يا رسول الله؟! قال: «لا، لكنى أشفع»، فأبت أن تراجعه ولم يثربها رسول الله ﷺ ولا المسلمون.

وفى صحيح البخارى عن جابر بن عبدالله أنه مات أبوه عبدالله بن عمرو بن حرام وعليه دين، فكلم جابر رسول الله ﷺ فى أنْ يكلم غرماء أبيه أن يضعوا من دينه، فطلب النبى ﷺ منهم ذلك، فأبوا أن يضعوا منه. قال جابر: «فلما كلمهم رسول الله كأنهم أغروا[4] بى» ولم يثربهم المسلمون على ذلك ونظائر ذلك ستأتى.

على أن علماء أصول الفقه قد تعرضوا فى مسائل السنة النبوية إلى ما كان من أفعال رسول الله ﷺ جبليًا أنه لا يدخل فى التشريع، وما ذلك إلا لأنهم لم يهملوا ما كان من أحوال رسول الله ﷺ أثرًا من آثار أصل الخلقة لا دخل للتشريع والإرشاد فيه.

وترددوا فى الفعل المحتمل كونه جبلّيًا وتشريعيًا كالحج على البعير. وقد يغلط بعض العلماء فى بعض تصرفات رسول الله ﷺ فيعمد إلى القياس عليها قبل التثبت فى سبب صدورها.

يتبع

(٣) (الفروق) للقرافى (١/٢٠٥ - ٢٠٩) طبعة عالم الكتب - بيروت.
(٤) أغروا به: أولعوا به.

الديـن (١٠)



أ.د. محمد عبدالله دراز

المذهب الأخلاقى ونقده

ذهب الفيلسوف الألمانى (عمانويل كانت) Emmanuel kant فى نقده للعقل العملى Critique de la Raison Pratique إلى أن وجود الذات الإلهية ليس موضوع علم ومعرفة، بحيث يثبت بالبرهان أو بالتجربة؛ بل هو موضوع إيمان عقلى، بمعنى أنه مقدمة مسلمة، لا مناص للعقل من أن يعتمدها لتصحيح الفكرة الأخلاقية الراسخة في النفوس، وبيان ذلك حسبما قرره «كانت»(١) ينتظم فى مقدمات ثلاث:

١ ـ أن كل إنسان، حتى الطفل المميز، يجد فى نفسه استحسانا لبعض الأفعال، واستهجاناً لبعضها، ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يُفعل، وبعضها يجب أن يجتنب.. هذا القانون الأدبى يُضاهى القانون الطبيعى، فى أن كلاً منها ضرورة لا مفر منها، ولكنه ليس كالقانون الطبيعى فى التعبير عن شيء واقع بالفعل تحققه المشاهدة والتجربة، بل عن شيء لم يقع بعد وإنما يطلب تحقيقه طلباً مؤكداً، وهو فى الخارج يمكن أن يقع وألا يقع.. بل قد يقال إنه ليس فى الوجود مثال واحد يشهد لوقوعه على الوجه المطلوب؛ فكل بنى آدم خطاءون، وما الطهر والعصمة إلا لله وحده.. حتى إن الذين يؤدون أعمالهم طبقا لقانون الواجب «حرفيا» لا سبيل إلى اليقين بأنهم يؤدونها «روحيا» كما يجب، أى بقصد أداء الواجب خالصاً من شائبة الهوى والغرض، ودون تلقى معاونة عليها من الميول والنزعات الفطرية الشريفة.

فالواجب هو أداء الواجب، للواجب، وبالواجب، أى تحت سلطان «فكرة» الواجب، لا «حب» الواجب.. وكل خدش فى عنصر من هذه العناصر يجعل العمل هباء.. فمن ذا الذى يستطيع أن يجرد نفسه هذا التجريد؟ ومع ذلك فهذا هو حكم قانون الأخلاق الذى يفرض نفسه علينا فرضاً غير مكترث بمعارضة قانون الطبيعة المتسلط على حواسنا وجوارحنا وإرادتنا بصفة قاهرة.. ومنه تعلم أن الإنسان ينتسب إلى عالمين: عالم العقل، وعالم الطبيعة والحس. كلاهما يطالبنا بحاجته، وما القانون الأدبى إلا ترجمان العقل الخالص، ينطق بلسانه متجاهلاً ما للطبيعة من سلطان.

٢ ـ غير أننا لما كان العقل يطالبنا بإلحاح أن نحقق هذا الخير المطلق، كان من الضرورى أن تكون هناك وسيلة لتحقيقه؛ لأن وجوب الشيء بالعقل دليل إمكانه، وإلا لما كان العقل عقلاً.. وإذا لا سبيل إلى تحقيق هذا الخير الكامل فى لحظة من لحظات حياتنا، فلم يبق إلا إمكان تحقيقه على التدريج إلى ما لا نهاية.. وهكذا يجب أن تفرض لنا حياة لا تتناهى، يتم فيها ذلك التقدم اللانهائي، الذى هو الهدف الحقيقى لإرادتنا العاقلة، فكان خلود الروح مطلباً لابد من تسليمه ليصح فى العقل وجود ذلك القانون الأخلاقى، ودعوى أن الإنسان يمكنه فى هذه الدنيا أن يصل إلى القدسية والفضيلة الكاملة دعوى باطلة؛ كدعوى أن الواجب الأخلاقى يكتفى منا بأدنى مراتب الكمال.

٣ ـ فإذا حققنا «الخير المطلق» بتحصيل الفضيلة الكاملة، فقد بقي المطلب الأخير من مطالب العقل، وهو تحقيق «الخير الأعلى»، وليس الخير الأعلى معنى مفرداً، بل هو جماع عنصرين؛ أحدهما الفضيلة، والآخر السعادة، التى هى حصول المرء على ما يرضيه فى الحياة، بحيث يجرى كل شيء فى الوجود على وفق ما يهواه،، ألا وإننا نرى هذين العنصرين يسيران أمامنا فى طريقين منفصلين قلما يلتقيان، فقلما تعيش الفضيلة العاملة الكادحة، الصامتة القانعة، إلا فى زوايا الخمول والنسيان، والتقتير والحرمان، بينما الرذيلة الصاخبة المتبجحة، الملقة الطامحة، لها القوة، والثروة ورغد العيش، والجاه، والنفوذ والسلطان. لكن مقتضى الوضع العقلى السليم أن تكون الفضيلة والسعادة صنوين، والرذيلة والشقاء توأمين، وأن توزع درجات البؤس والنعيم على حسب الأعمال وبواعثها ومقاصدها، فلابد إذاً من مبدء أعلى يحقق هذا التوازن.. مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته، ويسير هو فى تصرفاته على وفق قانون عادل، وما ذلك إلا خالق الطبيعة والإنسان جميعاً، وهو الله تعالى.

فكان وجود الله هو المطلب الأخير، الذى لابد من تسليمه لتصحيح معقولية القانون الأخلاقى.

الناظر فى هذا النسق الفكرى قد يروقه ما فيه من نسيج بديع مبتكر ولكن الذى يُفلى سداه ولحمته سوف يجد فى طياته خيوطاً واهنة.. وعناصر غريبة، سترتها مهارة الصنعة وحسن السبك؛ بل سيجد أن هذه المقدمات الثلاث التى يتألف منها الاستدلال ليست بالمقدمات البديهية، ولا بالمبرهنة، ولا بالتى يتوقف عليها صحة المطلوب.

● أما المقدمة الأولى فلأن القانون الأخلاقى وإن كان فى جملته مركوزاً فى أصل النفوس، ولكنه على الصورة التى يصوره بها «كانت» لا يفرض نفسه على كل العقول، بل تمجه كثير من الطباع السليمة، ليس لأنه عنيف، قاس،

(١)kant, ouv. cite, 2ème partie, iv et v.

فحسب، أو لأنه، يمحو الفروق بين الواجبات الأساسية والواجبات التكميلية، بل لأنه فوق ذلك كله يقلب الأوضاع والموازين المألوفة، إذ يقتضي أن الذي يمتثل الأمر عن أريحية ورضي لا يكون قد أدى واجبه، وإنما يكون ممتثلا إذا فعله وهو كاره له، متبرم به. وهكذا تبعد النفوس الخيرة عن المثل الأعلى للفضيلة، بقدرما تقترب منه النفوس الشريرة حين تحمل نفسها على فعل الواجب حملا.

● وأما المقدمة الثانية فلأن الواجب المطلوب «وهو تحقيق الخير المطلق لذاته غير مشوب بطلب منفعة، ولا مُعاضداً بنزعة شريفة أو غيرها» إن لم يكن ممكناً لم يكن واجباً، كما يعترف به «كانت».. وإن كان يمكن تحقيقه في مرحلة ما من مراحل الحياة المستقبلة لم يبق لفرضية أبدية الروح مستنداً؛ إذ يكون القول ببقائها لحظة واحدة بعد أداء الواجب قولاً بما هو أكثر من المطلوب. وإن كان ليس هناك لحظة واحدة في الحاضر ولا في المستقبل يمكن فيها إخلاص الامتثال، يكون القول بالخلود قولاً بما هو دون المطلوب، لأنه متى فرض أن انضمام أدنى باعثة للخير إلى باعثة الامتثال المجرد يهدم الفضيلة من أساسها، أصبحت المسألة ليست مسألة تدرج يترقى فيها الناقص نحو الكمال، بل هي مسألة أعداد سلبية متتالية؛ وضم السلب إلى السلب لا ينتج إيجاباً، ولو سار إلى غير نهاية، على أن التكمل على الوجه الذي يفهمه «كانت» يفضي بنا إلى صورة عجيبة جداً؛ إذ لابد أن يُفترض أن النزعات الشريفة في تلك الحياة الباقية تأخذ في الاضمحلال شيئاً فشيئاً، لتحل محلها نزعات مقاومة للخير؛ تحتاج إلى مجاهدة عنيفة تزداد عنفاً على مر الزمان، ليكون أداء الواجب معها لمحض الواجب رغم كل مقاومة.. فما أبدع هذا الفردوس الذي لا يتبوأ عرشه إلا الشياطين!

● وأما المقدمة الثالثة فلأنها أدخلت باسم قانون الأخلاق عنصراً غريباً عن قانون الأخلاق، وهو مطلب السعادة بمعناها العامي، (ألا وهو تحقيق الأماني وإرضاء الرغبات الحيوية)، والواقع أن الفضيلة والسعادة بهذا المعنى حقيقتان متباينتان: إحداهما إلزام عقلي يجيء من عل؛ والأخرى نزعة مادية تلتمس وتتضرع لقضاء حاجتها. وطلب النفس الجمع بين هذين الطرفين، تشوفاً إلى قانون أعلى ينتظم القانونين الأدبي والطبيعي، وينسق اتجاههما، إنما هو تشوف إلى حلية شكلية، ووضع هندسي تكميلي، وليس تشوفاً إلى ضرورة عقلية، ولا إلى مطلب أخلاقي.. أما أن هذا الاتساق ليس ضرورة عقلية، فلأنه لا يلزم من فرض عدمه محال؛ ولا أدل على إمكان الانفصال بين القانونين من وقوع هذا الانفصال واستمراره بالفعل.. وأما أنه ليس مطلباً أخلاقياً، فلأننا نعرف أن الفضلاء يغتبطون ـ وهم في أحضان البؤس والشقاء، يقاسون ألوان الحرمان وأنواع التضحيات ـ بمجرد شعورهم بإرضاء ضميرهم وأداء واجبهم، ويجدون في هذا متعة حقيقية لا تدانيها متعة في الحياة.

على أنه إذا كان لابد للفضيلة من مقابل مادي، فلماذا نفرض هذا المقابل في حياة

مستقبلة؟ لماذا لا نُقدر أننا قد استوفينا هذا المقابل مقدماً في أنواع النعم السابقة التي لا تُحصى؟ وبذلك يكون واجب الفضيلة سداداً لدين قديم في أعناقنا لشكر تلك النعم، لا افتتاحاً لمعاملة جديدة تنتظر الجزاء.

كل هذه الفجوات كان يمكن تجنبها لو أن الفيلسوف الألماني اختصر الطريق، بالانتقال مباشرة من القانون الأخلاقي المجمل إلى واضع هذا القانون وغارسه في النفوس؛ كما فعل «ديكارت» في فكرة «الكمال».. ولكن طريقة التعقيد والتحايل والدوران قد أطالت عليه الشُقة، ولم تصل به في النهاية إلا إلى فرض غير محقق «في نظره»، ولا قائم على أساس متماسك.

المذهب الاجتماعي ومناقشته:

يخالف العلامة «دور كايم» Durkheim جميع المذاهب المتقدمة في دعواها أن التدين حالة نفسية تنبع من فطرة الفرد كلما فكر في الآفاق أو في نفسه، ويرى هو أن التدين وليد أسباب اجتماعية(٢)، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فيزعم أن عناصر التفكير، وأسس المعرفة العقلية نفسها، ما هي إلا صور ولدتها حياة الجماعة، وطبعتها على غرار النظم الاجتماعية(٣).. ونحن لا يعنينا هنا نقد فكرته في نظرية المعرفة، بل نريد أن نعرض رأيه في أصل التدين، ثم نعقب عليه.

لقد مهد لمذهبه بتقديم جملة مقدمات، أهمها أن خير وسيلة لتفسير ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن تدرس في بداية نشأتها، قبل أن تخالطها عناصر غريبة عنها؛ وأن ذلك يكون بيئات الأمم «البدائية»(٤)؛ وهي في نظره تلك الأمم التي لا تتميز فيها الأسر الخاصة بخاصية مستقلة، بل تقوم على نظام القبائل Tridus والفصائل Phatries والعشائر Clans.

ومعروف أن العشائر «وهي النواة الصغرى في تلك المجتمعات» قوامها وحدة اللقب المشترك بين أفرادها، وهو لقب يشتق في الغالب من اسم حيوان، أو نبات، وفي النادر من اسم عنصر جمادي، أو كوكب من الكواكب، وتعتقد العشيرة أنها لها بمسمى هذا الاسم صلة قديمة، حيوية أو روحية (إما على أنها تسلسلت عنه، أو أنه كان حليفاً أو حارساً لجدها الأعلى، أو نحو ذلك) ولذلك تعظمه وترسم صورته على مساكنها، وأدواتها، وأسلحتها، وراياتها؛ بل يتخذ الأفراد منه وشماً يطبعونه على أجسامهم، كأنه بطاقة شخصية لتحقيق انتساب كل منهم إلى عشيرته.

(٢) Derkeim, ouv. cite. p. 132.

(٣) Id. Ibid, introduction.

(٤) لقد مضى الزمن الذي كانت فيه كلمة «البدائيين» تستعمل بسهولة ويظن أنها تنطبق على شعوب موجودة بالفعل باقين على فطرتهم الأولى، لم يمروا بطور من أطوار الحضارة.. واليوم وقد زال هذا الوهم من النفوس أصبح كل كاتب يحترم نفسه لا يستسيغ أن يكتب هذه الكلمة إلا إذا وضعها بين أقواس صغيرة للإشارة إلى أنها كلمة اصطلاحية ينقلها عن غيره ولا يحمل هو تبعتها

هذا النظام يسمى نظام التوتيم To-tem(٥) أو اللقب الأسرى، وهو نظام معروف في الشعوب القديمة: (المصرية، والإثيوبية، والعربية، واليونانية، والرومانية، والغالية) وتوجد آثار منه في الأساطير الشعبية في أوروبا الآن(٦)، ولايزال منتشرا في القبائل غير المتحضرة في أمريكا، واستراليا، وهذه الأخيرة - فيما يعتقد (دور كايم) - هي أخصب مكان لدراسة هذه الظاهرة؛ لأن سكانها أقل تطوراً وأقرب إلى الطبيعة الأولى من غيرهم.. ولذلك استمد منها الوقائع التي بنى عليها نظريته.

وخلاصة هذه الوقائع أن تلك الأمم في تعظيمها لألقابها تعظم في الوقت نفسه مسمى تلك الألقاب، ولما كان الاسم مشتركا بين الحيوان، وبين الجد الأعلى وبين أفراد العشيرة، وكانت الصلة بين هذه المعاني الثلاثة في نظرها صلة تجانس تام ترجعها إلى جوهر واحد، شمل التعظيم ثلاثتها.. لكن الحظ الأكبر من التعظيم يدخرونه لهذا الاسم المشترك، أو لتلك الصورة الجامعة وهي الوسم أو الوشم: حتى إنهم نسبوا إلى هذه الصورة خصائص عجيبة فزعموا أن الذي يحملها ينتصر في الحرب على أعدائه، ويوفق في تسديد السهم إلى رميته، وإن وضعها على القروح يسرع في التئامها، إلى غير ذلك.

إلا أن هذا التعظيم في العادة لا يصل إلى درجة العبادة، ولا يوحى فكرة التدين والتقديس والتأليه، ولذلك يقضون جل أوقاتهم في حياة فاترة كل يسعى لقوته، منعزلا في الجبل للاحتطاب، أو على شاطئ البركة للصيد، وليس لهم مظهر من مظاهر التدين في هذه الأحوال العادية سوى التورع عن بعض المحظورات وإنما يأخذ التدين حقيقته ومظهره التام عندهم في مواسم خاصة، تقام فيها الحفلات المرحة الصاخبة، التي يطلقون فيها العنان لحركاتهم العنيفة، وصيحاتهم المنكرة، على إيقاع الطبول، ولحن المزامير، وقد ركزوا السارية التي تحمل علم العشيرة في سرة الحفل، فينتهي بهم هذا الحماس الصاخب إلى الذهول والهذيان، بل يفضي بهم إلى انتهاك سياج الحرمات الجنسية، التي يحترمونها أشد الاحترام في العادة.. وربما نسبوا هذا التطور العجيب إلى حضور سر الأجداد فيهم عن طريق هذا الرمز، وعبادتهم للروح التي يرمز إليها، ظناً منهم أنها هي التي أحدثت فيهم هذا التحول الروحي الغريب.

ها هنا، وها هنا فقط، تتدخل النظرية لتكشف الغشاوة عن أعينهم، وتنبههم إلى ما حدث من تحول شعورهم عن منبعه وهدفه الحقيقيين، وأنهم إذا كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى مصدر هذا الأثر الجديد، فليعلموا أنه ليس هو النصب، ولا ما يرمز إليه النصب، وإنما هو هذا الاجتماع الثائر نفسه؛ فإن من طبيعة هذه الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن مشخصاتها الفردية، وتنمحي كلها في شخصية واحدة هي شخصية الجماعة.. وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته، وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر.

* * *

هذا النظرية تبدى صفحتها لضروب من النقد لا تحصى.. وقبل كل شيء فإنها - ككل النظريات عن العقليات «البدائية» - تقوم على أساس مشكوك فيه، ولابد في قبوله من تحفظ بليغ، واحتراس شديد، ألا وهو تلك المعلومات التي يدونها الرحالة والسائحون عن عقائد الهمج وعوائدهم، والتي يبدو عليها الضعف من وجوه: (منها) أنه ليس كل السائحين على جانب من علوم النفس والمنطق والدين والأخلاق يكفيهم لاستبطان غور الأمور، ووضع الأسئلة الدقيقة المحددة في هذا الشأن، وليسوا في غالب الأمر مزودين بمنهاج معين ديني أو أخلاقي، بل هذا الجانب هو أقل ما يسترعى اهتمام أكثر السائحين.. (ومنها) أن هذه المعلومات لا تستقى من آثار مكتوبة؛ إذ الفرض أن هؤلاء الأقوام محرومون من العلوم والفنون المدونة، وإنما تؤخذ من أفواه قوم لم يصلوا بعد إلى تحليل أفكارهم وتحديد شعورهم في هذه المسائل.. فمن الراجح أنهم يسرعون إلى الإجابة بكلمة: «نعم» أو «لا» من غير مراجعة لعقولهم وإحساساتهم العميقة.. ومهما تفترض الدقة وحسن النية في السائل والمجيب، فقد بقيت عقبة هذه اللغات «البدائية» التي لم تنضج أداتها، ولم تستكمل وسائل التعبير عن تلك المعاني الدقيقة الغامضة، التي يصعب أداؤها حتى في أرقى اللغات وأوسعها، أضف إلى هذا أنه ليس كل فرد هناك يمثل الفكرة العامة للعشيرة أو القبيلة؛ إذا قد تختلف التفاسير بين شخص وآخر، بل الشخص الواحد قد يجمع متناقضات من التصورات، وليس أدل على وهن المعلومات المدونة بهذه الوسيلة من أن الكُتاب أنفسهم قد يتناقضون(٧) في وصفهم لتلك القبائل.

ولنجاوز الآن هذه الملاحظات العامة لننظر في أسس النظرية نفسها:

يقول صاحب النظرية: إنه ينبغي أن ندرس الظاهرة الدينية في أقدم عصورها، وأقربها إلى عهد نشأتها؛ ويقرر أن نظام القبائل والعشائر أقدم وجوداً من نظام الأسر، وأن قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل، فهي أحق بأن يقع عليها الاختيار للبحث والدرس.

- أما المقدمة الأولى فإنها وإن كانت مبدأ سلمياً في الجملة، لمن يعنيه تكملة بحث المسألة من وجهتها التاريخية البحتة، إلا أن اتخاذ نتيجة البحث قاعدة عامة. تعرف منها حقيقة الدين من حيث هو، يعد عملا مجافيا لقانون المنطق السليم. أفيحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول

(٥) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر في امريكا الشمالية، وهو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه، فهو في المشهور totem ولكن يكتب أيضا totam او toodaim او dodaim او ododaim، ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها، وتارة بمعنى العلامة والشعار.
(Reinach, ouv. cite p. 23; Durkheim, ouv. cite, p. 144)

(٦) كما في مدينة برن بسويسرا حيث تعظم الفيلة. وكلمة «برن» أصلها في الألمانية جمع بير، بمعنى فيل Berne

(٧) من أمثلة ذلك أن مستر «مان» Man مكث سنين عديدة في جزائر اندامان Andaman، يدرس فيها عوائد القوم ومعتقداتهم، وكتب عنها في سنة ١٨٨٢.. ثم جاء مستر براون Brown إلى هذه الجزائر نفسها وعاش فيها أمداً طويلاً كذلك، وكتب ملاحظاته سنة ١٩٢٢ فكان معظم كتابه نقضاً لكتاب مستر «مان».
(Denis saurat, Histoire des religions, p. 19)

أطوار الجنين، أو وهو بعد فى الأدوار التى تمر بها سائر الكائنات الحية، قبل أن تتميز أجهزته الخاصة، وتتعين وظائف أعضائه، وقبل أن يحيا حياة مستقلة، وقبل أن تستيقظ فيه ملكات الفهم والبيان وغيرها؟ إن تحديد الدين بذلك المعنى الغامض الذى يتلجلج فى صدر الإنسان فى طور طفولته، وهو بعد لا يستبين حقيقة شعوره، ولا أهداف أعماله، فساد فى المنهج لا يقل عن تعريف الإنسان بالجنين.. ولقد أصاب هوفدنج إذ يقول: «إنه ليس من المستطاع دائماً أن نستقى معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكائن ما، من مجرد النظر فى أصل تكوينه؛ فإن التغييرات والنظم التى تحدث له فى أثناء نموه، قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى منها أدنى أثر فى بدايته.. إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما، إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية»[٨].

● وأما المقدمة الثانية، وهى أن نظام القبيلة يمثل طوراً تاريخياً أقدم من نظام الأسرة، فهى دعوى لاتزال يعوزها الدليل، بل تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكسها؛ فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يتبين منها أنها كانت قائمة على النظام الأسرى، الذى تتضامن فيه أفراد الأسرة فى الحقوق والواجبات، والذى يتمتع فيه الأب بأوسع السلطات على أعضاء أسرته.. وإذا قرأنا الأوصاف التى ذكرها «أرسطو» Aristote و«هوميروس» Homere للشعوب المعاصرة لليونان، والتى كانت أقرب منهم إلى الفطرة والسذاجة، نرى أن المعيار الذى كانوا يميزون به هذه الشعوب عن الشعوب المتحضرة هو أنهم ليس لهم مجالس شورى، وأن كل واحد منهم يتولى الحكم على زوجه وأولاده[٩].

● وكذلك نقول فى المقدمة الثالثة، وهى أن قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل؛ فهى أيضاً مسألة فيها نظر. وهذا «روبرت شميت» من كبار الباحثين، الذين قاموا بدراسات شخصية دقيقة فى استراليا.. يقرر أن القبائل المذكورة هى أحدث القبائل الاسترالية وأكثرها تقدماً، وأن أقدم قبائل استراليا هم سكان جنوبها الشرقى.. وهؤلاء لا يعرفون نظام الألقاب الحيوانية السالفة الذكر، وفى الوقت نفسه توجد عندهم عقيدة «الإله الأعلى» بصفة واضحة، على أن اللوحة التى رسمها «دور كايم» نفسه لحياة قبائل الوسط تكفى وحدها للدلالة على أننا أمام أمة قد بعدت عن سذاجة الفطرة، وقطعت أشواطاً واسعة فى نظامها المدنى والاقتصادى.. يبدو ذلك جلياً فيما عندها من قواعد الزواج، والنسب، والملكية، وتنظيم مواسم الصيد وغيرها.. بل إن نظام التسمية وحده كان يحتاج فى إنشائه وتثبيته إلى عصور متطاولة للتعاقب عليه بين الأمة جيلاً فجيلاً.. حتى وصل إلى هذا الوضع الهندسى الدقيق، الذى يلاحظ فيه دائماً أن تقسيم كل قبيلة إلى فصيلتين اثنتين، لا زائد عليهما وأن يكون لقب القبيلة مشتقاً من جنس عام، وألقاب الفصيلتين من نوعين متقابلين تقابل التضاد تحت هذا

(٨)Hoffding, ouv. cite, p. 126.

(٩) تاريخ القانون لعلى بدوى: ص١٥

الجنس، ثم تتفرع من كل فصيلة عشائرها المتعددة بألقابها المختلفة، كأغصان الشجرة؛ بحيث لا تشترك عشيرتان قط فى لقب واحد.. ولذلك عَد علماء هذا الفن نظام الـ totem نظاماً مدنياً، قضائياً، اقتصادياً، أكثر منه نظاماً دينياً[١٠]؛ بل إن الباحثين «لانج» Lanh و«فريزر» Frazer لم يريا فيه عنصراً دينياً البته، وقررا أن فكرة الدين والألوهية تكونت فى هذه القبائل بعيداً عن نظام اللقب الأسرى المعروف[١١].

ونحن نذهب إلى هذا المذهب الأخير، ولا نرى فى هذه الألقاب والرموز عندهم إلا شعاراً قومياً يعرفهم أنسابهم، وينمى فيهم شعور الوطنية، وباعثة التعاون، واحترام قانون توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة.. فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا مدلولاتها، بل لهم معبود روحى يعتمدون عليه فى جلائل أعمالهم ودقائقها حتى إنهم ليستلهمونه أو يدعونه ليرشدهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم؛ كما أنهم فى تحريمهم لبعض المحرمات إنما يستندون إلى روايات دينية متوارثة عن أسلافهم، ينسبونها إلى أمر الله.

والعجيب أن رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعترف بأن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة «الإله الأعلى» أو «الإله الأحد»، وأنه كائن أزلى أبدى تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذى يثير البرق، ويرسل الصواعق، وإليه يتوجه فى الاستسقاء وفى طلب الصحو، وهو الذى خلق الحيوان والنبات، وصنع الإنسان من الطين ونفخ فيه الروح، وهو الذى علم الإنسان البيان، وألهمه الصناعات، وشرع له العبادات، وهو الذى يقضى فى الناس بعد الموت، فيميز بين المحسن والمسىء[١٢].

ثم يقرر أيضاً أن هذه العقائد كلها ليست مقتبسة من أوروبا كما ظن تيلور، بل إنها قديمة فى هذه القبائل قبل أن يصل إليها المبشرون الأوروبيون، وأنهم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية، ترفع فيها الأيدى إلى السماء بالدعاء[١٣].

يعترف دور كايم بكل هذا، ولكنه عند استنباط نظريته فى الألوهية يضرب الذكر صفحاً عن هذه الصورة الدينية الحقيقية، ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل فى حفلات تضم كل شىء إلا الدين والعبادة، ويترخص فيها بارتكاب أعمال شاذة تنافى قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة بانتظام عندهم، يعمد إلى هذه الحفلات الماجنة، فيرسم لنا منها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلاً: إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه ومظهره.

هكذا وصل الأمر بهذا البحاثة فى تقديره لعقول قرائه إلى حد محاولة إلهائهم عن الحقائق، وتسمية الأشياء لهم بغير أسمائها فهو يريد أن يقول لهم: إن كل حمى جنونية يثيرها مجتمع صاخب، وكل

(١٠)voy H. Hubert, introduction a la traduction de chantepie de la sussake. manuel d' Histoire des religions, P.XXXLX.

(١١)Durkheim, ouv. cite, p. 249.

(١٢)Durkheim, cite, p. 412.

(١٣)id. Ibid,p. 412.

سورة إباحية تنطلق فيها الوجدانيات من عقالها بدعوى المحاكاة، أياً كان هدفها وباعثها. فهي نوع من الدين، ولو كان سيل الشهوات الجامحة فيها يجترف كل ضابط من ضوابط العقول، ويقتحم كل معقل من معاقل الآداب المحترمة في الشعب نفسه.

إننا نرى لزاماً علينا أن ننبه ها هنا إلى خطأ منهجي صريح، وقع فيه صاحب المنهج نفسه:

ذلك أن الذي يريد أن يصور الحالة الطبيعية للجماعة يجب عليه بمقتضى القانون الذي وضعه الرئيس أن يستقرئ هذه الحالة من سلوك غالب أفرادها في غالب أزمنتها وأمكنتها.

فإذا كان من المتفق عليه أن الدين يكاد يسيطر على كل شيء في حياة الجماعات الفطرية، أفلا يكون من أشنع المخالفات القانونية أن تلتمس الظاهرة الدينية عند هذه الشعوب في تلك الحالة النادرة، وذلك المظهر الاستثنائي الذي لا يتكرر في مجرى حياتهم العامة، وأن نهمل ما وراء ذلك من معتقدات وعبادات، وأخلاق وعادات، يتألف منها هيكل الحياة الشعبية؟

لئن كان الفيلسوف قد أصاب حين طلب إلينا أن نميز بين لونين متباينين في حياة الجماعة الفطرية، لقد عكس الوضع بعد ذلك، حيث جعل الشاذ منهما قاعدة للغالب، وأساء الاختيار، حيث أخذ اللون الإباحي اللاديني، فجعل منه حقيقة الدين.

على أنه لم يكن من العسير عليه أن يجد التفسير الحقيقي لهذا اللون الشاذ الماجن لو أنه وضعه في نطاق النظم الاجتماعية والأخلاقية لهذه الشعوب.. وهي نظم تقوم على الفصل التام بين الجنسين، وعدم اطلاع أحدهما على شيء من دخائل الآخر؛ حتى إن المرأة لا يباح لها أن ترى الدم الناشئ عن عملية الختان للصبيان، وكذلك الصبي يبقى مبعداً عن الشئون الخاصة بالرجال إلى أن يحين وقت بلوغه. فهنالك فقط ينبه إلى فكرة الصلة الجنسية، ولا سيما في وقت ختانه، حيث يحتفلون في هذه المناسبة احتفالاً مرحاً، كما كان يحتفل بالختان في بلادنا الشرقية إلى عهد قريب، إلا أن الاستراليين يبالغون في المرح فيقدمون فيه نموذجاً تخيلياً ينبهون به أذهان المراهقين إلى حياتهم المستقبلة، مذكرين إياهم بأن هذه سنة الآباء والأجداد، الذين يدين لهم الشعب بوجوده، ولو أنا تتبعنا تفاصيل ما يجرى في هذه الحفلات لرأيناها كلها تدور على محور هذا اللعب والمجون، ولرأينا بعد الشق بين هذه الملهاة الموسمية، وبين جد الحياة الطبيعية وقدسيتها عندهم.. إنه لمن السخرية والتهكم إذ أن يعرض علينا هذا المسرح المتهتك باسم المحراب المقدس للأديان.. وإنه لمن العجيب حقاً أن الفيلسوف الذي جعل معيار الأشياء المقدسة هو حرمة انتهاكها، يجعل مظهر انتهاكها أو الترخص فيها هو مظهر الدين وجوهره، قائلاً: إنه لا تكاد تلتمس الظاهرة الدينية فيما سواه.

ونعود الآن فنسلم جدلاً جميع المقدمات التي ناقشناها.

نسلم صدق روايات الرحالة والسائحين، ونسلم براءتها من التناقض والاختلاف ونسلم استقامة تفسيرها للوقائع؛ ونسلم صلاحية الديانات البدائية لتعريف فكرة الدين بوجه عام؛ ونسلم أن نظام القبيلة يمثل النظام البدائي، ونسلم أن نظام استراليا الوسطى هو أقدم نظام للقبائل، ونسلم أن النظام التوتمي نظام ديني، ونسلم أن هذه التجمعات والاحتفالات دينية في جوهرها وأهدافها.

نسلم هذا كله، ولكن يبقى أن نعرف هل توصلنا هذه المقدمات مجتمعة إلى النتيجة المطلوبة، وهي أن الدين في جملته نظام اجتماعي، بمعنى أنه خلقته الجماعة ليعود إليها بالعبادة والتقديس؟

إننا نبصر ها هنا هُوةً سحيقة بين النتيجة ومقدماتها. ونرى أن الاستنتاج يطفر بنا من مقدمات نحيلة، إلى دعوى عريضة فضفاضة، ولنسجل في هذا المعنى اعترافاً قيماً لأحد أعضاء المدرسة الاجتماعية نفسها، حيث يقول في مقدمة ترجمته لكتاب في تاريخ الأديان ما نصه:

«إنه لا يكفي أن يقال إن الظواهر الدينية تحدث في جماعة وتختلف باختلاف الجماعات، لإثبات أنها ظواهر اجتماعية حقيقية.. فالظواهر الاجتماعية الحقيقية - كما نشاهده في القوانين والقواعد الاقتصادية - ذات وجود خارجي مستقل عن أفراد الجماعة؛ ونشاط الأفراد فيها إنما يحدده أو يعدله مجرد تجاورهم وتعاونهم من غير أن يكون لهم شعور بها أو موافقة عليها.. فهل الظواهر الدينية ظواهر اجتماعية بهذا المعنى؟

لا شك أن جانباً كبيراً منها يبدو لنا كذلك، وهو جانب الأنظمة والشعائر العملية، التي حددت في قواعد ثابتة، والتي تظل مستمرة على الرغم من إرادة الأفراد وآرائهم.

ولكن هل هذه الحالات الجماعية التلقائية هي الحالات الجوهرية في الدين؟ وهل هي أعظم وأقدم وأشمل ظواهر الدين؟ - إنه قد يغرينا على الجواب بالإيجاب اقتصارنا على اعتبار الديانات القديمة أو البدائية؛ لأن بُعدها عنا يمحو في نظرنا فوارق الأفراد فيها، وينظمهم في الكتلة الاجتماعية للشعب.. أما إذا درسنا الظواهر الدينية وهي ماثلة أمامنا، وفي ديانة يشترك فيها الأفراد بقلوبهم إلى حد ما، فإن ذلك يقودنا بالطبع إلى أن نخصص جانباً عظيماً منها للابتكار الفردي[١٥]».

هكذا استدرك أنصار النظرية على مؤسسها، بأنه ينبغي فيها التقسيم لا التعميم وأنه إذا كان الجانب السطحي من الدين، أعني رسومه ونظمه العملية، يعد ظاهرة اجتماعية؛ لأنه يحمل طابع الإلزام الجمعي، وليس للفرد اختيار في تكوينه، فإن القسم الرئيسي منه، وهو قسم الاعتقادات والتصورات، يأبى بطبيعته أن يكون اعتناق الفرد إياه ضربة لازب من خارج، لا يجد فيها أدنى تجاوب مع أفكاره ووجداناته وأحاسيسه.

ذلك ولو أمعنا النظر قليلاً لرأينا عبء

---

(١٤) رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية، وهو العلامة دور كايم نفسه، في مؤلفه النفيس «قواعد المنهج الاجتماعي»
Les Regles de la methode sociologique, ch. III. p. 69-70.

(١٥)Henri Hubert, Introduction A la traduction de chantepie de la saussaye, manuel d' Histoire des religions, XXVI - XXX.

الإلزام الجمعي في الشعائر الظاهرية نفسها إنما يقاسيه الفرد في ديانة قد تكونت واستقرت، واعتنق هو مبادئها أو انتسب إليها من قبل.. وليس هذا مجال بحثنا، ولا موضوع دراستنا.. وإنما الشأن في نشأة الدين ومبدأ ظهوره.

فهل سمع أحد بديانة ناشئة تحمل تعاليم جديدة، وتدعو إلى شعائر غير مألوفة يكون موقف الجماعة منها موقف حمل الأفراد عليها، وإلزامهم بها؟ أم يكون موقفها موقف المناهضة لها، والمقاومة العنيفة لداعيها؟ حدثينا أيتها التواريخ! وتكلمي أيتها الوقائع! وانطقي أيتها التجارب! لنسمع الذين يبنون نظرياتهم ـ فيما زعموا ـ على التواريخ والوقائع والتجارب.

بل هلم إلى الأعجوبة الكبرى!

إن صاحب النظرية لا يكتفي بأن يكون الدين إلزاماً أدبياً يفرضه المجتمع على الأفراد عقائد وعبادات أياً كان موضوعها وهدفها، إنه يريد أن يكون موضوع العقيدة وهدف العبادة هو الجماعة نفسها؛ وأن يكون الشعور الديني في نفس الفرد ما هو إلا انطباع آلي لصورة الجماعة في وعيه محوطة بهالة من التقديس، لما لها عليه من فضل في قوام حياته والدفاع عن كيانه؛ وأنه من أجل ذلك تختلف فكرة الإله وحدود سلطانه عند الجماعات باختلاف رقعة المجتمع ضيقاً واتساعاً: فإذا اختلطت العشائر واندمجت في فصيلة، ثم الفصائل في قبيلة، ثم القبائل في شعب، تطورت معها فكرة الإله تدريجياً.. حتى يصبح إله شعب برمته(١٦).

فليقل لنا إذاً: من أين جاءت إلينا فكرة «الإله الأكبر» فاطر السموات والأرض؛ وعلى غرار أي جماعة طُبعت هذه الصورة؟ ثم ليقل لنا: كيف قامت الدعوات في أصغر الشعوب إلى تلك العقيدة الإلهية السامية التي ليس لها مثال تقاس عليه في مجتمعاتهم ولا في غيرها؟ إذ لايزال بين الإنسانية كلها، بل بين العالم أجمع، وبين هذه الصورة العليا فراغ لا يمكن أن تملأه جماعة حقيقية، ولا خيالية.

إننا نعود فنسجل اعترافاً أخيراً من أصحاب هذه النظرية.. «إقامة برهان شاف على الطابع الاجتماعي للدين لاتزال أمراً غير ممكن»(١٧).

أما بعد فإننا لا ننكر كل أثر للجماعات في شأن الأديان.

إن الدين (كاللغة، وأسلوب التفكير، وأدوات التعامل، وغير ذلك من مقومات المجتمع) هو أحد أعصاب الحياة الجمعية وشرايينها، بل هو أقوى عناصرها. ومن ذا الذي ينكر أن الجماعة هي حارسة تلك المقومات وأنها هي منهلها المورود للأجيال الحاضرة، وناقلتها إلى الأجيال المقبلة؟

غير أن المسألة في صيانة الأديان القائمة وتخليدها، بل في نشأة الديانات الجديدة وتكوينها.

(١٦)Durkeim, ouvr, cite, p. 412.

(١٧)Une demonstration pleinement satisfaisante du caractere social de la religion n'est pas encore posisble' (Hubert, oure, cite, p. XXVII).

ثم لا ننكر ما للجماعات من أثر خطير في التمهيد لهذه النشأة والتمكين لها؛ فالأمم حين تقف في مفترق الطرق بين القديم والجديد تستطيع في بعض لحظاتها التاريخية أن تغير مجرى تاريخها بقبولها للدين الجديد أو برفضها إياه.. والداعي الذي لا يحسب إمكانيات أمته ومؤهلاتها إنما هو كواضع البذر في أرض سبخة لا يلبث نباتها أن يُجتث من فوقها فلا يبقى له قرار، أو كالذي يعطي المريض طعاماً لا تطيقه أمعاؤه، فلا يلبث أن يلفظه.

إلا أنه لن يسوغ لنا بهذا الاعتبار أن نقول إن العقل الجمعي هو الذي يخلق الأديان ويبرزها إلى الوجود، إلا لو ساغ لنا أن نقول إن المعدة هي التي تخلق الطعام.. وإن البصر هو الذي يُحدث الضياء، وإن المريض هو الذي يبذل الدواء.. تلك كلها لا شك شروط ضرورية؛ ولكنها كما يقول أهل المنطق ليست شروطاً كاملة، أو ليست أسباباً تامة؛ إذ لابد من تعاون متبادل بين الطبيب والمريض، بين الباذل والآخذ، بين الفاعل والقابل.. وإذا صح أن يقال أن الأمم تخلق زعماءها، فمن الحق أيضاً ـ وبالطريق الأحرى ـ أن الزعماء تخلق أممها.. والأمة تلد زعيمها ولادة طبيعية، وتهيء له وسائل تلك الزعامة؛ والزعيم يلدها بعد ذلك ولادة أخرى: روحية، أو سياسية، أو عسكرية، أو فنية، أو غير ذلك.. الأمة تمثل خصوبة التربة، وسلامة الأداة؛ والزعيم يضع البذر ويسقيه، ويتعهده وينميه. والزعيم يحرك الأداة ويوجهها، ويرسم طريقها، ويقف بها عند أهدافها.. بل كثيراً ما يُضيء لها هو تلك الأهداف ويحددها؛ وذلك حيث تكون حاجات الأمة غامضة مشتبكة الطرق، غير واضحة المعالم في العقل الجمعي، فتبقى مُتلهفة إلى رجل الساعة الموهوب.. الذي يتركز فيه وعيها، وتتحدد في نفسه حاجاتها، ويكون له من الحدس أو الإلهام أو الوحي ما يتبشر به وسائل تحقيقها ويملك من العزم والحزم ما يحكم به قيادتها، ويبلغها إلى أهدافها، فإذا ظفرت به وألقت إليه بالمقاليد فقد أصابت رشدها، وفتحت لنفسها صفحة جديدة من القوة والمجد، أما إذا تشعبت عليها الطرق، واختلف الزعماء، ولم يستبن لها وجه الاختيار، أو أنها أساءت الاختيار فأهملت داعيها الرشيد أو أنكرته وقضت عليه بالإخفاق أو الموت ـ لا لأن دعوته تتنافر وطبيعتها، بل لأنها جهلت حقيقة نفسها، وطاشت أحلامها ـ فإنها تكون حينئذ قد سلكت طريق شقائها، وآثرت الانتحار على الحياة من حيث لا تشعر.

وهكذا يكون من المكابرة وإنكار البداهة جحد أثر الأفراد في أديان الجماعة ونظمها؛ كما يكون من المكابرة وإنكار البداهة نفي أثر الجماعات فيها.

غير أن أخشى ما نخشاه من الغلو في إبراز هذا الجانب الجمعي من تلك الحقيقة المزدوجة، أن يبعث في نفوس الأمة نزعة جبرية مثبطة، تحمل أفرادها على القعود والتواكل، انتظاراً لما في الوعي الجمعي من الطاقات الكامنة، والأسباب الغامضة؛ بدل ذلك النشيد الحماسي الذي يُغري الأفذاذ بالنبوغ، ويملؤهم بالأمل في دفع الجماعة إلى الإمام.

يتبع

دعوة الإسلام إلى تأسيس مدنية عالمية فاضلة



للعلامة / محمد فريد وجدى

زيادة بيان فى مبحث المدنية الفاضلة والإسلام

بينا فيما كتبناه فى الفصل السابق تحت عنوان الإسلام يدعو لتأسيس مدنية فاضلة، أن الدين الحق والمدنية الفاضلة يتفقان فى المبدأ والغاية وضاق المقام عن استيعاب كل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع. ولما كان أمر المدنية من الشئون التى تعتبر فى الدرجات العليا من الخطورة لافتتان الناس بها افتتانا سحريا يسلبهم إرادتهم ويدفعهم فى سبل محفوفة بالأخطار دفعا آليا، ونظرا لأن العقبة الكأداء أمام الدين هو ما يفهمه الناس من معنى المدنية، وجب علينا أن نوفى هذه الناحية من البحث حقها من التحقيق.

واليوم نعرض لهذا الموضوع من جديد متوخين تحليل شبهاته الرئيسية تحليلا دقيقا، وحلها حلا علميا؛ لأن بقاءها ماثلة فى بعض الأذهان على حالة شبهات لا تقبل الدحض، وكامنة فى نفسية الدهماء وإن لم يستطيعوا التعبير عنها بألسنتهم، يجعل كل محاولته لإخراجهم من سلطانها عبثا محضا. وما اتهم المدافعون عن الأديان بأشد من كراهتهم مواجهة الاعتراضات، واتقائها بالحيد عن طريقها، وتركها تفتك بالنفوس والقلوب فتكا ذريعا كما هو مشاهد محسوس.

رأى القارئ مما كتبناه فى الفصل السابق أننا دللنا على أن الدين الحق هو المثل الأعلى لمدنية فاضلة جديرة بالنوع الإنسانى الكريم، وسلكنا للوصول إلى هذه النتيجة طريقا واضح المعالم لا ينكره متأمل، ولكننا فى هذه التتمة نريد أن نبلغ هذه الغاية عينها باقتحام معاقل الآراء المخالفة، وشق طريق لهذه الحقيقة الكبرى من خلال خطوطها الدفاعية، مثيرين بذلك كل ما عندنا من قوى وأسلحة، ليكون نجاحنا فى تطويقها بمعونة الله دليلا عمليا على أن تلك القوى المعارضة لا تقوى على حماية مواقعها، فإذا لم نفعل ذلك

خشينا أن يبقى فى بعض النفوس بقية من المزاعم السابقة.

الآن نبدأ ما تصدينا له من هذه المحاولة العلمية فنقول:

إذا كانت المدنية ثمرة الجهود التى يبذلها الإنسان لتحسين حياته المادية، وتسهيل محاولاته المعاشية، والذهاب فى ترقية وسائله الحيوية، وحاجاته الأدبية والفنية، إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه تحت ضوء العلوم والصناعات المختلفة، فما الذى أوجد ما يتخيله بعضهم من التنافى بين الدين والمدنية؟

ليس فى المدنية الصحيحة كما رأيت من كلامنا السابق ما ينافى الدين الحق أو يقف فى سبيله، اللهم إلا فيما تثمره من مذهب فلسفى يرى غير ما يقرره الدين فى مسائل الاعتقادات، وهذا الخلاف مرده العلم، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق فى شيء، فلا يلبث هذا الخلاف العارض أن ينحسم، أو يبقى مقصورا على طائفة، لا يؤثر شذوذها على السواد الأعظم من الناس.

وإذا كان الأمر على ما ترى، فما الذى أوجد هذه الهوة السحيقة بين الدين والمدنية فى نظر بعض الآخذين بمبادىء الحياة العصرية اليوم؟

أوجدها خطأ جلل تسرب إلى عقولهم ولم يفطنوا إليه، وهو أنهم خلطوا بين المدنية بمعناها الصحيح، وبين ما أوجده أهل الإباحة من التعديات المنوعة على العلم والفلسفة والأخلاق الفاضلة، تحت ظل الحرية الشخصية والصقوه بالمدنية، ومصدر هذا الخطأ الفاحش هو ما يراه الناس بأعينهم اليوم فى جرى الأمم المتمدنة قاطبة وراء المتع النفسية من مأكل ومشرب وملبس ومنظر غير متقيدين فيها بغير ما توجبه عليهم تقاليد من العرف تواضعوا على مراعاتها فى المشية والقعدة والسلام والكلام وتناول الشراب والطعام، أما ما وراء ذلك من مخالفة ما يأتونه لأصول العلم والآداب الصحيحة فلا يكترث له أحد، ولا يعتبرونه أمراً ينبغى أن يؤبه له، فالعلم يحرم كل ما يحرمه الدين على مقتضى وجهة نظره الخاصة، فيحرم الخمر والميسر والتبرج والتهتك والزنى والمناظر المثيرة للشهوات، والسماع المميت للقلوب، والتواضع على تقاليد تعتبر أدبية وليست من الآداب الصحيحة فى شيء.. إلخ، ولكن الذين يعتبرون أنفسهم متمدنين لا يقيمون للعلم وزنا، ولا يعتمدون على مقرراته فيما هم مدفوعون إليه من إشباع أهوائهم النفسية، وملاذهم الجسدية، فهذه المدنية على هذا النحو ليست علمية، ولا هى ثمرة أى مذهب فلسفى حتى ولا المذهب المادى نفسه، فإن الملاحدة وإن كانوا يكفرون بالأمور الاعتقادية إلا أنهم لا يبيحون لأحد أن يخرج على مقررات العلم فى شيء مما يختص بسيرته فى نفسه أو حيال غيره.

فهذه الانحرافات الخلقية التى يسميها السطحيون مدنية، محكوم عليها بالتلاشى أو على القليل ببقائها موصومة بأنها خروج على العلم وعدوان على الحكمة.

وإذ ثبت هذا فإن هناك مدنية تتفق والعلم، ومتى اتفقت والعلم فقد اتفقت والدين؛ لأن العلم الصحيح لا يعقل أن يخالف الدين الحق على أى وجه من الوجوه.

فالنزاع القائم الآن هو بين المدنية والعلم أكثر مما هو بين المدنية والدين، وموضوعه: هل لو قام الناس على ما يوصى به العلم من

كبح جماح الأهواء النفسية، والإباحيات البهيمية، والاعتدال فى توفية المطالب الجسدية، لا يؤثر ذلك فى إضعاف العوامل المنشطة للمدنية؟ ووجه الشبهة أن الناس متى لزموا حدود الحكمة فى مطعمهم ومشربهم، وامتنعوا عن كل ما يقرر العلم ضرره بصحتهم وعقولهم، ولم يخرجوا فى ملاهيهم وملاعبهم واجتماعاتهم عما رسمه لهم من آداب وتقاليد، صيانة لأموالهم وأخلاقهم وأعراضهم، بطلت المعاقرة والمقامرة والمخاطرة والمكاثرة وهذه الأمور كلها وإن كانت تستنزف الأموال، وتبيد الآداب والأخلاق، وتفسد القلوب وتهتك الأعراض، إلا أنها تدفع الصناع للإتقان، والفنانين للإبداع، والكتاب والشعراء للإنتاج، وتلهب النفوس كافة إلى التبارى لنيل المال الذى يوصلهم إلى استيفاء جميع ضروب المشتهيات، والمال لا يوصل إليه إلا بالعمل والدأب والإتقان والابتكار، فيكون من وراء هذا النهم الثائر لتحصيل المآرب المتنوعة، دوافع حافزة للتقدم فى جميع نواحى النشاط العقلى والعملى.

ولكن لو اكتفى الناس بتحصيل العيش فى حدود الاعتدال، ووقفوا من المشتهيات عند ما هو مقرر منها فى العلم، خمدت فى نفوسهم هذه النار المتأججة وراء المآرب الإفراطية، وتبع خمودها تصوح زهرة المدنية، وبطلان سحرها الفاتن الخلاب، وربما أدى ذلك كله إلى ارتكاس النوع البشرى إلى عهد الفتور والظلام.

ويزيدون على هذا قولهم: إنه مما يقوى حجتهم أن العلماء والفلاسفة أنفسهم لا يعملون بما ينصحون به الناس، فهم يشربون الخمر ويقامرون ويفسقون، ويرتكبون كل ما يرتكبه الجاهلون من العدوان على الآداب العلمية الصحيحة، والأخلاق الفلسفية السليمة، يقول المعارضون: أتريد دليلا بعد هذا على أن العالم لا يرقى إلا مدفوعا بحوافز من الشهوات مطلقة العنان، راكبة رأسها لا تبالى فى غلوائها بقانون أدبى، ولا ترتبط بعهد علمى على النحو الذى هى عليه الآن؟

هذه شبهة يثيرها الإباحيون على كل من يتصدى للإصلاح الأدبى العام باسم العلم والفلسفة والدين، وهى شبهة مبنية على قصر نظر يؤسف له أشد الأسف، وإنا نبين ذلك فى كلمتين فنقول:

إن الذين يرفعون صرح المدنية ويشيدونه ليسوا هم من تقع عليهم عيناك من المترفين الإباحيين، الذين يأكلون ويشربون ويمرحون، ولكنهم طبقة من الناس شغلهم ما هم فيه من العمل المتواصل، لا أقول عن اللهو والقصف، ولكن عن حاجاتهم الضرورية، فهم يصلون الليل بالنهار دأبا على ما هم فيه، كأن قيم الوجود سخرهم له، فهم قانون فيه لا يستطيعون عنه تحولا. فجمهور الذين يضعون العلوم، ويرتأون النظريات، ويقررون المبادئ الأولية، من العلماء والفلاسفة لا يكادون يجدون فى عمرهم وقتا للاشتغال بغير ما هم فيه، وأكثرهم عاشوا فى لاذعة أغنياء بما اختارهم الله له من الأعمال الخالدة، وجميع العباقرة الفنانين الذين وضعوا المثل العليا للفنون الجميلة والآداب العالية مرضى لا يكادون يسيغون طعاما ولا شرابا، ولا يستبيحون لأنفسهم لهوا من هول ما هم فيه وهؤلاء جميعا مدفوعون بقوة قاهرة لعمل ما يعملون غير ناظرين لما يجره عليهم من الربح الوفير، وكثير منهم بذل فى عمله ماله كله وبات

محتاجا لشروى نقير.

فالمدنية ليست مدنية للذين يتمتعون بطيباتها ويسرفون، ولكنها مدنية لتلك الطبقة من الأفذاذ المنعزلين الذين يبدعون فيما يعملون، ولا يعبأون بالمعجبين واللاحين، بل إنهم يدأبون على ما هم فيه ولو لحقهم بسببه أذى من الجامدين والمتعصبين.

والمدنية لا تتصوح زهرتها إن راعى أهلها الآداب العلمية، ولكنها تزداد بهجة وتأرجا، وتكتسب سطوعا وتألقا، فيتوحد فيها الحق والجمال، ويتآخى الإبداع والجلال وتصبح الحياة جنة وارفة الظلال، يجد فيها الخائف أمنا، والمحتاج عونا، والضعيف ركنا، لا كما هى عليه الآن نار موقدة تلفح وجوه المستمتعين بها والمحرومين منها على حد سوى.

فأما الأولون فلأنهم لا يضعون لمطامعهم حدا، فهم مندفعون فى تيارها اندفاعا جنونيا، لا يبالون بما يصيب المجموع من جراء إفراطهم، ولا بما يثيره إغراقهم من مقتضياته حولهم، من الطبيعة تارة ومن المعايشين لهم تارة أخرى، فأما الطبيعة فقد قامت على العدل المطلق، فهى تحاسب المعتدين فيها على الذرة، فيجدون آثار عدلها فى صحتهم وأموالهم وأولادهم. وأما المعايشون لهم فيضطرون لمقابلة هذه الاندفاع منهم، بالائتمار بهم ليوقفوهم عند حدهم، وما ثمرة هذه الائتمار إلا مبادئ متطرفة يدينون لها وعدوانات موبقة ينتوون القيام بها، ليس ضد مناظريهم وحدهم، ولكن ضد النظم القائمة، والمذاهب السائدة أيضا، مما جعل المتمدنة أشبه بمراجل مؤصدة، تغلى على تنانير موقدة، تهدد بالانفجار فى كل آونة.

فهل هذا كله إلا ثمرة انحلال خلقى ليس له ما يحفظه فى حدوده الطبيعية من عقيدة راسخة أو مثل أعلى، أو وازع من أى ضرب كان؟

فالذين يزعمون أن المدنية لا تزدهر إلا بحوافز من الميول الإباحية التى عليها الناس اليوم يخطئون خطأ جما، ويرتكبون شططا فاحشا. فإذا كان يغرهم أن فى المدنية من المناعة ما يحفظها من توالى أمثال هذه الكوارث عليها، فإنهم يتغافلون عن تنخ المدنيات البائدة.

وإذا سلمنا لهم بقدر هذه المناعة، فـ مصلحة للنوع البشرى فى أن يبقى على هـ النحو من الحياة المضطربة، والميو المضطرمة، والسأم الذى أصبح يغرى بعـ النفوس المريضة بنسف الكرة الأرضية لـ استطاعت إلى ذلك سبيلا.

ألم يقل الفيلسوف الكبير «روبرت دوهارتمن»(١) خليفة «شوبنهور» زعيم المذهب التشاؤمى: إن الحياة الأرضية ما دامت لا تعدو لفساد تركيبها هذه الحالة الشنيعة فليس لها إلا حل واحد، وهو أنه متى وصل الإنسان فى مستقبل الأيام إلى ابتكار مادة مدمرة قوية تصلح لنسف الكرة الأرضية، فإنه ناسفها بها لا محالة ليرتاح العالم من حياة كلها شرور وآثام، ومصائب وأهوال.

بخ بخ: إن مدنية تولد مثل هذا القول على لسان قطب من أقطاب الفلسفة لهى مدنية فى حاجة إلى مثل أعلى تنظم حركتها وترأب صدوعها، وإلا لحقها ما لحق سواها وأصبحت أحاديث.

---

(١) روبرت دوهارتمن: فيلسوف وعالم ألمانى، ولد سنة ١٨٤٢م فى برلين، وتوفى بها سنة ١٩٠٦م.

أدب الدعوة والإصلاح



للشيخ/ أبو الحسن على الحسنى الندوى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(إبراهيم: ٢٤، ٢٥)

سادتى وإخوانى! إن هذه الآية الكريمة بنصها وفصها معجزة كاملة، وكل كلمة فيها معجزة فى مكانها، لا بديل لها ولا عوض، وما يمكن أن يكون تصوير للكلام البليغ الدعوى، والأدب المؤثر الهادف، ليس المغير للتفكير بل المغير للسير والمصير، ولقدرة نفوذه فى القلوب والنفوس والعقول ولاحتوائه على أكبر مساحة مكانية وعلى أكبر مساحة زمانية فى التأثير والنفع من هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

(إبراهيم: ٢٤)

الشرط الأول: أن تكون الكلمة طيبة فلا قيمة لكلمة عند الله وعند رسوله وعند من شرح الله صدره للحقيقة إذا لم تكن طيبة، مهما كانت لبقة، ومهما كانت بليغة، ومهما كانت ساحرة، ولكنها إذا لم تكن كلمة طيبة فلا قيمة لها عند الله وعند رسوله وعند العارفين بالحقيقة، إن تاريخ الأدب العالمى والشعر فى مختلف اللغات والأزمنة والبلاد يدل على إهمال اتصاف الكلمة الأدبية والبيانية بالطيبة بصفة عامة، يبرهن على ذلك تاريخ الأقطار الثقافى التى سلمت لها الزعامة فى الأدب والفلسفة والعلوم الرياضية، كاليونان وإيران، وبلاد الغرب، والهند، قبل أن يصل إليها الإسلام.

فالشرط الأول أن تكون الكلمة كلمة طيبة، يقول الله- عز وجل-:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾

(إبراهيم: ٢٤)

كانت هنالك أشياء كثيرة، كان يمكن أن تشبه الكلمة الطيبة بها، كالمعادن الكريمة والجواهر الغالية وبالآلات، وبالقوى، وبالطاقات السياسية وغير السياسية، والمادية والعسكرية، ولكن الله اختار للتشبيه شجرة طيبة. ففى هذا الوجود المادى، وفى هذا الكون الواسع والعالم الفسيح، أشبه شيء بالكلمة الطيبة، هى الشجرة الطيبة، فالكلمة الطيبة لابد أن يكون لها أصل راسخ فى الأرض، أصل راسخ فى القلب، والشجرة لا تنمو، ولا تثمر، ولا تبقى، ولا تزدهر إلا إذا كان لها أصل ثابت، كلاهما لابد أن يكون لهما أصل ترجعان إليه، وتعتمدان عليه، وكما أن الشجرة الطيبة إذا نبتت ونمت، فإنها تمتد فروعها إلى مكان قد لا يتصور الغارس نفسه أن هذه الشجرة الصغيرة تمتد إلى هذا المكان العالى وإلى هذا المرتفع وتملأ هذا المكان الفسيح، كذلك الكلمة الطيبة تبتدئ من بداية لا ترى حتى بالمكبرة، ولكنها إذا نمت وترعرعت، وإذا ازدهرت وأثمرت فإنها تمتد فروعها إلى آفاق السماء وأرجاء الأرض.

ثم إن الله- سبحانه وتعالى- قد ذكر فى هذه الآية الكريمة المعجزة الخالدة، أن إثمار هذه الشجرة لا يتقيد بزمان دون زمان، وبقرن دون قرن، وببيئة دون بيئة، وبفترة زمانية تاريخية دون فترة زمانية تاريخية، بل إنها تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، فمتى كان ظهور الإسلام؟، ومتى كانت البعثة المحمدية؟، وإلى هذا الوقت لاتزال آثارها ملموسة، ملحوظة موقرة محترمة، وهى التى لم تزل تسيطر على العقول والنفوس أكثر مما تسيطر عليها الحكومات والمنظمات، فتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وكان من غرسها المجتمعات المؤمنة الصالحة الفاضلة، والعلوم النافعة، والمدارس الفكرية السليمة البناءة، والمكتبات الغنية الزاخرة، وعمليات إنقاذ البشرية والتقدم بها، والقضاء على المظالم والاتجاهات الفاسدة ورسوم الجاهلية، والله إنها لمعجزة لو آمن إنسان بسماع هذه الآية فقط كان مصيبا ومحقا.

أيها السادة! إن الدعوة لها أركان ثلاثة فى نظرى ودراساتى القاصرة، «ودراستى لتاريخ الدعوات والنبوات والرسالات»، تحتاج أولا إلى حسن النية، والإخلاص، ثم إنها تحتاج إلى لغة مفهومة لبقة لائقة بمستوى المستمعين، ولائقة بالزمان والمكان، ومؤثرة تشق طريقها إلى أعماق النفوس، وما يكفى أن تكون كلمات مركبة ومجموعة كلمات لبقة، بل يكون فيها سحر وجاذبية نفسية وقلبية، والشيء الثالث أن يرافق هذه الدعوة شيء من التألم والرقة والإشفاق على مصير المستمعين.

وأحكى لكم حكاية حضرتنى الآن، وهى أن أحد أبناء ملوك التتار الذين هاجموا الشرق العربى الإسلامى، ودمروا بغداد كما تعرفون، ودمروا كل المملكات الإسلامية، حتى كان الناس يتصورون أن الإسلام يلفظ نفسه الأخير، وأنه لا مستقبل له فى هذا العالم، فتوزع هؤلاء

المهاجمون في عدة فروع، فرع كان يحكم تركستان وإيران، وكان ولى العهد في ذلك الزمان الذي كان سيتوج في عهد قريب، هو تغلق تيمور، حكى البروفيسر «آرنلد» في كتابه «الدعوة الإسلامية» هذه القصة، والقصة كما حكتها المصادر الفارسية والتركية تختلف قليلاً، فالذى يحكيه «آرنلد»:

هو أن تغلق تيمور خرج للقنص، وعند القناصين كما تعرفون توهمات وبالأصح تشاؤمات وكان عندهم أنه إذا وقع نظرهم على إيراني -كانوا يحتقرون الإيراني إلى آخر نقطة إلى آخر المدى- فإذا وقع نظر أحدهم على إيراني فمعنى ذلك أنه لا يوجد الصيد، والتشاؤم لا أصل له شرعاً، ولكن هو أراد شيئا، والله أراد شيئا آخر، أراد أن لا يدخل إيراني ولا يقع نظره على إيراني، والله أراد أن لا يدخل إيراني فقط، بل يدخل بنفسه ويدخل ولى العهد في الإسلام بل يدخل فرع بتمامه في الإسلام، وذلك تقدير العزيز العليم.

فصادف أن الشيخ جمال الدين وكان صاحب قلب حي وصاحب ضمير وشعور، وصلة بالله قوية وعميقة، دخل على غفلة منه، فقبض عليه الشرطي وجره إلى ولى العهد، فاستشاط غضبا، وجن جنونا، وما وجد شيئا يعيره به ويهينه، إلا أنه كان عنده كلب، فقال: من منكما أفضل؟ كلبي؟ ونسبه إلى نفسه قصدا، فليس كل كلب ككلب الملوك والأمراء المدلل، كلبي أفضل أم أنت؟، فسكت قليلا، قال: لماذا لا تجيب؟ فالذي يحكيه «آرنلد» أنه قال: إذا لم يكرمنا الله بالإسلام فكان ذلك الكلب أفضل، أما إذا أكرمنا بالإسلام، فأنا أفضل، فقال: ما هو الإسلام والإيمان؟ فبدأ يشرح الإيمان بمقدار مناسب وجرعة يسيغها الأمير في ذلك الوقت القصير والفكر المشغول بالقنص واللهو، وبلباقة لم يطنب ولم يقتصر، فوقع كلامه في أعماق قلبه، وحرك شعوره، قال: طيب.

ومن هنا كان الإسلام قد شق طريقه إلى قلبه، فقال: ياسيدي إذا سمعت أن تغلق تيمور تم تتويجه، فلابد أن تشرفوه بالزيارة، قال: طيب إن شاء الله- تعالى- وبدأ ينتظر بما كان عنده من حرص على إسلام التتار الفاتحين الغزاة الذين دوخوا العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه حتى كان من الأمثال السائرة -إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدق- فكان يعد الأيام عدا، ولكن الله أراد أن يسوق هذه الكرامة إلى ابنه. فلما حضرته الوفاة قال: يا ابنى لعل الله قد ادخر هذه الكرامة لك، فإذا سمعت أن تغلق تيمور قد تم تتويجه، فلابد أن تزوره، فزاره.

أما المصادر التركية والفارسية فهي تقول: -وأنا راجعتها- إنه لما سأله الملك أيكما أفضل، كلبي أم أنت؟ قال: والله لا أستطيع أن أرد على هذا السؤال الآن، قال: لماذا؟ السؤال بسيط، والجواب بسيط، إما أن تقول: كلب ابن الملك أو نفسي، قال: لا، هذا يحتاج إلى انتظار، قال الأمير: أي انتظار؟ تعرف الكلب، وتعرف نفسك، قال: لا، إذا ختم لي بالحسنى، ومت على الإيمان، وعلى كلمة الشهادة، فأنا أفضل، وأما إذا لم يختم لي على كلمة الشهادة والإيمان، فالكلب أفضل، هذا كلام له سحر وأي سحر، والله إن مكتبة كاملة لا تستطيع أن تقابل هذه الكلمة الواحدة فإن الذي يخرج من القلب يدخل في القلب، قال ولى العهد: طيب، وأذن له بالانصراف، فذهب، فلما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال: يا ابنى لعل الله ادخر لك هذه الكرامة، إذا سمعت أن تغلق تيمور قد تم تتويجه فلابد أن تزوره، وتذكره بالقصة.

فلما بلغه نبأ تتويجه ذهب يزوره، لكنه لم يسمح له بالدخول في البلاط، فرمى سجادته بعيدا عن القصر، وصار يصلي ويؤذن، وفي غير الصبح ما كان الصوت يصل إلى القصر، ولكن في يوم من الأيام طرق أذنه صوت الأذان، قال: ما هذا الصوت العجيب؟ وفي غير أوانه، كان الرجل شبه مجنون ينادي هكذا، ادعوه لي، فدعاه، فقال: من أنت؟، ماذا تفعل؟ ماذا تصرخ وتقول؟ فقال: يا جلالة الملك، لعلك تذكر أنك كنت في قنص وفاجأ دخول شيخ من العلماء اسمه جمال الدين الإيراني، فتشاءمت بذلك ووجهت إليه سؤالا، أيكما أفضل، الكلب أم أنت؟ فقال: لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال الآن، قال: فماذا تقول؟ قال: أنا أشهد بأنه ختم له بالحسنى، وأنه مات وهو يلفظ بكلمة الإسلام، وهي «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله»، فأسلم ابن الملك التتاري ودعا رئيس الوزراء، وقال: أنت وشأنك، قرر ماذا يكون مصيرك، أما أنا فقد اعتنقت الإسلام، وآمنت بالله وبرسوله، فقال: والله يا جلالة الملك، أنا كنت قد أسلمت قديما، ولكني كنت أخفي إسلامي، فدعا رجال البلاط وقادة العسكر ورجال الحاشية، فكلهم أسلموا.

فلابد أيها السادة! أن يرافق الدعوة كل ما يجب أن تتصف به الدعوة من قوة إفهام وإقناع، ودلائل علمية وبلاغة بيانية وشيء من الألم النفسي وشيء من الشعور الدافق الذي ملك القلب.

وأختم هذه الكلمة المستعجلة بما ذكرته ونوهت به من بعض صفات الداعية وشروط أثر الدعوة وعملها في القلوب، وفي المجتمع المعاصر المكون من طبقات مختلفة من البشر ومستويات مختلفة متفاوتة من العقول والإفهام والاتجاهات والحرف والصناعات ما قلته في الحديث عن الإمام عبدالقادر الجيلاني في الجزء الأول من كتابي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وإلى القراء الكرام هذه السطور المنقولة من الكتاب:

«ويجب أن يكون هذا الداعي صاحب بيان ولسان، يخاطب العلماء والمثقفين في أسلوبهم والعامة في أسلوبها، ويجب أن يكون صاحب نفس زكية، وهمة قوية مؤثرة، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات وكبر النفس، يجد ضعاف الإيمان وضعاف النفوس في مجالسه قوة اليقين، وحرارة الإيمان، ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والإذعان، ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة الهدوء، والعزاء والسلوان، ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات للعلوم الدقيقة والنكت اللطيفة، ويجد أصحاب البطالة والعطلة وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وإيمانا، وما يحفزهم إلى العمل والجهاد، ويجد عباد اللذات والشهوات والمترفون في الحياة الذين تجرأوا على المعاصي والمحارم ما يبعث فيهم الإقلاع والندامة والتوبة والإنابة، وبالجملة يجد كل أحد في مجالسه غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه، ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم في بحر من الظلمات والجاهلية، يأوي إليها الغرقى ويهتدي بها الحائرون، ويخلف الأنبياء في دعاء الخلق إلى الله، ودعوة الناس إلى دار السلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويخلفون الأنبياء في تهذيب النفوس، وتجديد الصلة بالله تعالى، والتذكير بالآخرة، وإيثارها على الدنيا، وتجريد التوحيد، وإخلاص الدين لله- تعالى- وذلك كله من أهم مقاصد بعثة الأنبياء ومن أعظم أهدافهم، ولا يمكن أن يبقى الإسلام كدين ونظام خلقي، وأسلوب للحياة ودعوة مؤثرة حتى يكون له دعاة مجددون من هذا الطراز»[1].

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الأول، ص/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

أومن بالله



للأستاذ الدكتور/ عبدالرزاق السنهورى باشا

كتبت اليوم لصديقى كتاباً ختمته بهذه العبارة: إنى أومن بالله إيماناً لا حد له، فآمن به بكل ما تستطيع من قوة، فإن قلباً كقلبك لا يكون سعيداً بغير هذا الإيمان، نعم، إنى أومن بالله، وليس لى غير هذا الإيمان من ملجأ، فاللهم أدمه علىَّ وإن عينى تغرورقان بالدموع عند كتابتى هذا.

إنى أومن بالله إيماناً لا حد له، ونفس كنفسى تجد نوعاً من السعادة فى هذا الإيمان، اللهم لا تسلبنى هذا الإيمان، وقوه فى قلبى حتى ألقاك وأنا من أكثر الناس إيماناً بك.

لا أشعر أن هناك عاطفة أرقى، ولا أنبل من عاطفة الإحسان، لم أكتب هذا على أثر إحسان قدمته، ولكن على أثر شعور بأن كل ما فى هذه الحياة حقيقته أقل من مظهره، وأن خير طريق لذى العواطف أن يخفف بلوى المبتلين ويسد حاجة المعوزين، وأن يشعر أن كل إنسان على وجه الأرض بائس يحتاج إلى العطف والشفقة مهما ظهر فى وجهه من نضرة النعيم.

خير ما يشكر الإنسان الله به على نعمة أنعمها عليه ألا يتخذها وسيلة للصلف والتكبر.

يتردد فى خاطرى الفكرة الآتية: هى أن الحياة جديرة بغرض أسمى من المادة يسعى الإنسان وراءه، هذا الغرض ينزل فى النفس منزلة لها شىء من التقديس، وفائدته العملية تتوافر إذا وصل الإنسان إليه بالحصول عليه، وإذا لم يصل فبأن يستمد منه العزاء والسلوى، وقد فكرت فى أغراض شتى: خطر فى بالى المجد الشخصى فرأيت دونه مزالق وعثرات لا يخلف له فيها العزاء، خطر فى بالى خدمة الوطن فرأيتها غرضاً نبيلاً غير أن فيه شيئاً من معنى المادية يجعله خليقاً بأن يكون وسيلة لا غرضاً، خطر فى بالى خدمة الإنسانية جمعاء فاعترضنى فيها ما اعترضنى فى أمر الوطن، ثم تراءى لى شىء غير هذا وجدته يصلح أن يكون غرضاً يتوافر فيه ما أريد: رأيت أن الأجدر بالإنسان أن يجعل غرضه فى الحياة الوصول إلى الحقيقة.

إننا لم نخلق عبثاً ولا نموت عبثاً، هناك حقيقة فوق كل المظاهر المادية للحياة، قد نكون أدركنا بعضها ولكن لا يزال أمامنا الجزء الأكبر مجهولاً، أدركنا أن الموت حقيقة، وأستطيع أن أستفيد من معرفتى هذه الحقيقة فائدة عملية، بشرط أن أفهمها فهماً إيجابياً، فإذا علمت أن من الحقيقة أن أموت يوماً لم أحرص على الحياة وأنزلتها دون غيرها مما يستحق السعى لأجله.

أدرك أن هناك قوة غير منظورة تحيطنى وأومن بها، وأنى من صنع هذه القوة الإلهية أو مظهر من مظاهر قدرتها، إننى أستطيع أن أستفيد من معرفتى هذه الحقيقة أيضاً فلا يتولانى اليأس فى عمل أتولاه وهو على شىء من الخطورة؛ لأنى أعلم أن عملى لا ينتهى بانتهاء حياتى المادية مادمت - وأنا الجزء - سأرجع إلى الكل، رأيت من ذلك أنى أستطيع أن أعمل لكل غرض نبيل إذا كان أمامى هذا الغرض، أستطيع أن أخدم وطنى فلا يتولانى اليأس فى خدمته ولا أخشى فيه أن يصيبنى العطب، ثم لا أطمع من وراء تلك الخدمة فى بعض مظاهر الحياة المادية من فخار أو مدح أو جاه أو ثروة، فقد علمت أن الحقيقة فوق كل هذا وهى أن أخدم الإنسانية جمعاء بذلك الاستعداد الذى أخدم به الوطن.

أستطيع أن أخدم مجدى الشخصى البرئ من المظاهر المادية، فإن الحقيقة الإلهية التى هى غرضى لا سبيل لها غير العلم وفيه كل المجد.

«أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»

«إبراهيم: ١٠»

جالت عوامل الضعف بنفسى، وهممت أن أكتب فامتنعت.. ثم نهضت من تلك الفترة، وها أنا الآن أشعر بالإيمان وبالقوة، فاللهم أبقهما لى حتى آخر أيام حياتى.

ولى على الأرض آمال مقدسة

إن يقصنى عنك شىء فهى تدنينى

كلما تقدمت فى السن رأيتنى أحوج إلى الأخلاق منى إلى العلم والذكاء.

الأمل المقدس.. قونى اللهم من أجله وطهر قلبى.

السعادة التى يستمدها الإنسان من خارج نفسه، من حب أو مجد أو مال سعادة دنيوية لها آفة، أما السعادة التى يستمدها من داخل نفسه: شعور بطهارة قلبه، وبتأدية واجبه، وبأنه جزء من كل سيرجع إليه، هذه لمحة من السعادة التى وعدت بها الكتب المقدسة.

فى هذا اليوم أتم العام الثامن والعشرين لى، وقد مضى لي نحو سنتين فى فرنسا أزددت فيهما علماً، إن حاجتى إلى الأخلاق القوية أكثر من حاجتى إلى العلم والذكاء، وإنى أجدد العهد الذى أخذته على نفسى فى العام الماضى، أسأل الله أن يقدرنى على القيام به طوال حياتى، وأن يجعل فى وجودى نفعاً.

اليوم هو اليوم الأول فى العام التاسع والعشرين من عمرى، وأسأل الله فيه أن يقوينى على تنفيذ ما أخذته على نفسى من تقوية أخلاق، وأن يقدرنى على الإحسان.

وددت لو تمكنت قبل موتى من زيارة كل بلاد العالم الإسلامى.

الإيمان بالله هو مظهر من مظاهر القوة

الإيمان والأمل، لا أستطيع السير دون أن أتزود منهما بما يقوى عزمى.

من المتعذر أن نعيش فى الدنيا سعداء،

فلنعش فيها أقوياء، ولنستمد قوتنا من الفضيلة بقدر ما نستطيع.

تغلب الإنسان على كثير من قوى الطبيعة ولكنه لم يتغلب على الموت، وما دام لم يتغلب على هذه القوة فهو خاضع لها، وأكبر ظنى أن العالم سيقف عاجزاً أمام الموت ونرى أنفسنا أمام قوة مجهولة لا تغلب، فلا محيص لنا من الإيمان بالله، فلابد من الإيمان، والعلم مثبت للإيمان.

يقول أوجيست كونت: إن العالم انتقل من الدين أى (ما وراء المادة) إلى العلم.

وأظن أنه فاته أن يختم هذه الحلقة بالرجوع إلى الدين فى النهاية.

يهز نفسى الحب والإحساس والشعور بأنى قوة تعمل.

الإيمان بالله والثقة بنفسى يرفعانى فوق كل الشدائد.

أومن بالله، بتلك القوة الخفية التى تحيط بى والتى أعتمد عليها فى كل الظروف التى لا أستطيع الاعتماد فيها على مخلوق، ليس فيما يحيط بى من أشياء وأشخاص وليس فيما يكمن فى نفسى من ضعف وقوة، ما أستطيع الاعتماد عليه فى قطعى مرحلة هذه الحياة، وشعورى أنى فى سيرى متجه نحو تلك القوة الإلهية الخفية يجعلنى أشد العزم وأستأنف السير كلما تعثرت فى طريقى.

ليس من النادر أن ترى من غُرست فى قلبه عاطفة الإحسان، ولكن من النادر أن ترى من يحسن ويعرف كيف يحسن.

تفوق الرجل بقلبه، ثم بأخلاقه، ثم بذكائه ثم بعلمه، وما عدا ذلك فمظهر قيمته وقتية أو خداعة.

اكتشفت فى نفسى شخصين: شخصاً هو المثل الأعلى، وشخصاً هو نفسى.

قضيت العام التاسع والعشرين من عمرى بالأمس، وأنا اليوم أبدأ العام الثلاثين، أرجو من الله أن يقدرنى على الخير، وأن يجعل لى عوناً من قلبى ثم من أخلاقى، ثم من عقلى، ثم من علمى.

القلب الرحيم يشد أزره خلق قوى، يقوده عقل، يرشده علم، ذلك هو المثل الأعلى للرجل فى هذه الحياة.

أفهم أن هناك قوانين طبيعية، وأفهم إلى جانب هذا أن الله موجود وأنه قادر على خرق هذه القوانين، ويلوح لى أن معنى وجود القوانين الطبيعية لا ينفصل عن مداركنا التى حبانا الله بها، فنحن لا ندرك وجود هذه القوانين إلا بهذه المدارك، والله قادر على خرقها بمعنى أنه قادر على تغيير مداركنا، بحيث نفهم قوانين مغايرة للقوانين الأولى ونتقبلها على أنها طبيعية، ولكن من رحمة الله أن يجعل مداركنا تتفق دائماً مع ما يحيط بنا من قوانين الطبيعة.

اللهم إنى أومن بوجودك، وبصدق نبيك، وأن لى عقلاً أمرتنى أن أحكمه فى أمور هذه الدنيا، وها أنا أفعل.

ألا يمكن تفسير نظرية القضاء والقدر، وأن كل شئ مكتوب ومقدر بفكرة: أن هناك قوانين طبيعية تسرى عليها أعمال الإنسان وعلاقاته الاجتماعية بغيره من الناس، ولا يمكنه أن يحيد عن هذه القوانين، ولكنه فى هذا الحال يكون حر الاختيار فى إيجاد نفسه فى الظروف التى يرى فيها قانون طبيعى آخر؟

لا نستطيع أن نعيش بعقولنا وحدها، فإن العقل نفسه يشعر بعجزه عن إدراك كنه ما حوله، لابد من حرارة الإيمان.

من نعم الله أنه جعل العقل هو الذى يدرك نفسه عجزه وقصوره عن إدراك ما حوله، وبذلك عرفنا عجز العقل بالعقل نفسه، فكان هذا أشد إقناعاً.

إن القلب هو أول مميز لقدر الرجل، وأعنى بالقلب: حب الإنسانية، ويتبعه الإيثار والتضحية والقلب - أيضاً - الإيمان، ولكن ذلك الإيمان لا يكمل حتى يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال النبى ﷺ، فإذا توافر للإنسان هذا الشعور، شعور العطف على أخيه الإنسان الذى يدفعه فى بعض الأحيان إلى التضحية بماله أو بنفسه، استطعنا أن نقول إن القلب الذى ينطوى عليه هذا الشعور هو أكبر مميز لقدر الإنسان.

اللهم إنا ضعاف إليك

الموت حقيقة يعرفها كل الناس، وهم لا يبالون بها بقدر تأكدهم منها، لو أقنع الإنسان عقله بهذه الحقيقة بقدر ما هو مقتنع بقلبه لظهر أثر ذلك الاقتناع فى عمله، وانصرف عن كثير من سفاسف الدنيا من لم يملأ روعه الموت خليق أن يأتى العظيم من الأمور.

خلق الله الشر ثم قال له: اذهب فقد جعلت آية نقمتى منك ألا يتولى تحطيمك إلا أنت، ومنذ ذلك اليوم صار لا يحطم الشر إلا شر مثله.

الصلة بيننا وبين الله تعالى القلب والعقل

يمتاز الإنسان على الحيوان بالعقل، والعقل قوة يستمدها من الحقيقة الإلهية، فالاعتماد عليه اعتماد على الله.

تقدمى فى السن وشئ من الاختبار يخففان من حدة عواطفى، وقد كنت عهدت نفسى جياش العواطف، غير أننى لا أملك إمساك دمعة إذا رأيت أو قرأت موقفاً من مواقف الإخلاص الصادق.

الله يعلم ما عشقت عباده

إلا لأنى أعبد المعبودا

أأرى جمالا ثم أصبو إلى

شىء يؤكد للإله وجودا؟

الإيمان عن تقليد أشد ثباتا

من الإيمان عن اجتهاد

الفكرة المعنوية لا تنتصر فى هذه الدنيا إلا إذا سارت فى خدمتها القوة المادية. فالمسيحية لم تنتصر حتى اعتنقتها الدولة الرومانية، وكذلك الإسلام لم ينتشر إلا بعد أن هاجر النبى إلى المدينة.

على أنه من الحق أن أقول أيضاً إن القوة المادية لا تدوم إذا لم تكن فى خدمة الفكرة المعنوية، فغارات المغول - وكانت جارفة - لم تدم أكثر مما تدوم فقاقيع المياه.

العقل أداة العلم.. والعقل البشرى ناقص، فالعلم حتما ناقص. ولكن كيف أدرك الإنسان أن عقله ناقص؟ أتراه أدرك ذلك بعقل كامل غير عقله الناقص؟ إنه من الممكن أن يدرك الناقص ما انطوى عليه من نقص؟.

● أستقبل غداً اليوم الأول من العام الأربعين فى حياتى. ما أقصر الحياة.. وكأنى بالأمس شاب غارق فى أحلام الشباب لا أكاد أفيق منها. أترى ما أستقبل من الحياة مثل ما أستدبر منها؟ وهل ترانى أفيق من أحلام الشباب العذبة لأقع فى أحلام الكهولة

الصاخبة المضطربة.

اللهم وفقني فيما بقي لي من الحياة إلى ما ترضاه.

من يحاول أن يعتمد على سعادة يستمدها مما حوله لا يثبت أن يشقى. السعادة الحقيقية هي التي يستمدها الإنسان من دخيلة نفسه.

القانون لا يوجد إلا في تنظيم العلاقة فيما بين اثنين متكافئين في القوة أو في الضعف.. أما حيث يتفاوتان قوة وضعفا فالقانون هو القوة.

● باسم الله أفتتح صفحة من حياتي.. اليوم أستهل مرحلة جديدة من مراحل الحياة فهذا هو اليوم من الحلقة الخامسة من عمري.

آخذ نفسي بثلاث: أن أكون قوي الإرادة. وأن أكون مثابراً على العمل. وأن يكون لي مثل أعلى في هذه الحياة.

هذا ما آخذ نفسي به في مستهل هذه المرحلة الجديدة من حياتي معتمداً على الله. وستريني تجاربي المستقبلة - إن قدرت لي الحياة - قوة هذه المبادئ، وقوتي على الأخذ بها.. فاللهم عوناً.

الخير إذا كان ضعيفاً فأولى به ألا يتكلم، وإذا كان قوياً فلا حاجة به إلى الكلام.

يملأ النبي ﷺ نفسي إعجاباً، لأنه بشر مثلي.. وإذا كان فيه من نواحي ضعفي.. فلست في نواحي قوته.

رب إن ضعفي وعجزي يدلان على أنك موجود.

أستعين بالله عند الشدة فأحس القوة تملأ نفسي:

جهودٌ مُنهكاتٌ مُضنياتٌ
وَصلْتُ اللَّيلَ فيها بالنَّهارِ
وكُنْتُ إذا استَبَدَّ اليأسُ يوماً
أسلُّ عزيمةَ الأَسَدِ المُثارِ
إذا افتخرُوا بمالٍ أوْ بجاه
فقانُوني منَ الدُّنيا فخاري

أكتب هذه الكلمة في اليوم الذي أفتتح به العام الثامن والأربعين من عمري، لقد أتممت بالأمس سبعة وأربعين عاماً في هذه الدنيا، وذقت من الحياة حلوها ومرها. ومازلت متعلقاً بالحياة وأنا في مضطرب من الأحداث. وإني آخذ نفسي في هذا اليوم الذي أقطع فيه مرحلة من حياتي بالسعي في تحقيق أمور أربعة أرجو الله أن يهيئ لي وسائل تحقيقها:

١ - أن تتوحد في مصر الحكمة.

٢ - أن تتوحد في مصر المدرسة.

٣ - أن تقوم الصناعات الكبيرة في مصر فيصبح البلد صناعياً بقدر ما هو زراعي.

٤ - أن يؤخذ من التركات ما يكفي لتربية جميع أبناء الأمة تربية تغفل فيها الفروق ما بين الغني والفقير ولا ينظر فيها إلا للاستعداد الشخصي وحاجات البلد.

تحرر من شهوتك، وتحرر من أوهامك، ثم اعتمد على الله، تلق لنفسك قوة تزعزع الجبال.

أحببت الخير للخير، وكرهت الشر للشر وهذا وحده يكفيني في التقدم به إلى الله.

أيها الشباب اللاهي، كنا شباباً مثلكم وأحسسنا ما في الشباب من دفء وحرارة. وستصيرون شيوخاً مثلنا فتعلمون أن الشيخوخة شتاء قارس لا يدفئه إلا العمل الصالح.

أدعو الله أن يعينني وأن يرزقني الصلابة والقوة.

منذ وجدت صلة بين العبد وخالقه، وتغلغلت الفلسفة في الدين، أقبل الناس يتأملون ماهية هذه الصلة، وهل هي إلهية محضة ذات طبيعة واحدة أم هي إلهية بشرية ذات طبيعة مزدوجة.

الإسلام يرشد البشر متى تبينوا أن إعطاء الفقير ليس إحساناً عليه تمليه الرحمة بل هو حق له يفرضه القانون.

الصبر والعزم والتفاؤل، الأول: قوة سلبية، والثاني: قوة إيجابية، والثالث: إشعاع روحي يضيء جوانب القوتين السلبية والإيجابية، هذه هي الأسلحة الثلاثة التي أسأل الله بها العون والتوفيق.

أحدد ما للعقل من سلطان: هو الذي يكشف الحقيقة، ولكنها حقيقة نسبية مقيدة بظروف الزمان والمكان، وهي - بعد - ليست كل الحقيقة، فهناك من الحقائق ما ينبغي أن يسلم العقل بأنها فوق تناوله، وهذه الحقائق هي التي أسميها بما وراء العقل.

وددت لو تمكنت من كتابة سيرة للنبي ﷺ تظهر فيها بوضوح مسألتان:

● أولاهما: أن النبي ﷺ لم يخالج نفسه أي شك في صحة رسالته، كما تشهد بذلك سيرته من أولها إلى آخرها.

● والمسألة الثانية: أن النبي ﷺ رجل مثلنا يجوز عليه ما يجوز على البشر وينتابه ما ينتاب البشر من أعراض القوة والضعف، ولعل ما ينعاه عليه أعداء الإسلام من نواحي الضعف هو أصدق دليل على أنه بشر مثلنا، هو في الوقت ذاته أصدق دليل على قوته النفسية وعلى سمو عظمته.

اللهم ما شككت في وجودك، ولكن شككت يوماً في قرب رحمتك، ولكنك كنت برحمتك أقرب إليّ من نفسي. فحمداً لك، ثم حمداً لك.

إذا ما نابني خَطْبٌ كبيرٌ
أقابلُهُ بعزمٍ منه أكبر
ومن تعركه أحداثٌ شدادٌ
يعاركُها فيكسر أو فيُصهر

يقولون: إن الفضيلة ينبغي أن تتسلح بالقوة، وإن القوة ينبغي أن تتسلح بالفضيلة. وأرى أنه غير ميسور أن تتسلح القوة بالفضيلة، فلم يبق إلا أن تتسلح الفضيلة بالقوة.

أيها الأصحاء ادفعوا زكاة صحتكم للمرضى. أيها الأغنياء، ادفعوا زكاة أموالكم للفقراء. أيها السعداء، ادفعوا زكاة سعادتكم للبائسين.

أكتب هذه الكلمة بعد منتصف الليل، وقد استدبرت العام الخمسين من عمري واستقبلت العام الحادي والخمسين، وقد رجعت إلى ما كتبته في العام الماضي في مثل هذه المناسبة فوجدتني أسأل الله العون والتوفيق بأسلحة الصبر والعزم والتفاؤل.

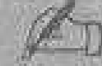
قد صبرت كثيراً وشحذت عزمي في كثير من المواقف وكنت متفائلا في أشد الأوقات ضيقاً، وقد أراد الله أن يجعل بعد العسر يسراً، ثم أن يجعل بعد العسر يسراً. لقد أعطاني ربي فرضيت، فاللهم حمداً وشكراً.

والآن أعاهد الله بعد أن أتممت الخمسين من عمري أن أستقبل ما بقي من حياتي قوي الإيمان بأن أكون نافعا لبلدي.

شدد الله عزمي، وكتب لي التوفيق فيما أنتويه من الخير.

يتبع

ولكنكم تستعجلون ...!



د. حمدى فتوح والى

قال لى: لا أمل، وأردف قوله بما يؤكده من قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

وعذرت محدثى لأنه لا يعلم من حقائق الأمور ما أعلم، وإنما يحكم على ما يراه من ظواهر الأشياء. لكنى رأيت من واجبى أن أرفع عنه هذا الإحساس القاتل وهذا الفهم الخطير.

وقلت له: من أين جاءك هذا الشعور بعدم الجدوى، وغياب الأمل فقال: مما أراه من إصرار وسائل الإعلام وأجهزة الثقافة وحتى مناهج التعليم. فكل ما يتوجه إلى كيان الإنسان ليربيه ويقويه وينميه لا يستهدف فيه شيئا من مقومات الروح، ولا يغرس فى كيانه شيئا من قيم التضحية والفداء، بل على العكس من ذلك فغالبية ما يبث من برامج، وما يعقد من حوارات ومناقشات يدور كله حول إعلاء قيم غريبة عن مجتمعنا وديننا، أو يوجه فى غالبه إلى حوارات تافهة وفارغة عن بعض الفنانين واللاعبين والمطربين، وكأنما أزمة الأمة الخانقة هى أزمة فى عدد المغنين أو الممثلين، أما هموم الأمة الحقيقية من إعلاء القيم الإنسانية وتعميق المعانى الروحية والحفاظ على الهوية الإسلامية فذلك كله مغيب، بل لا أبالغ إذا قلت إنه من المحظورات.

وبرغم ما رأيته لدى محدثى من سوداوية وتشاؤم، فإننى لم أستطع أن أنكر عليه شيئا مما قال؛ لأن ما قاله حق كله، وما أشار إليه صدق كله، وربما خفى عنه كثير، مما لو علمه لكان أكثر تشاؤما واكتئابا، لكنى مع ذلك لم أوافقه على ما ذهب إليه من هذا الشعور، وعرفت أن سبب ما يعانيه الرجل هو أنه بنى نظرته على ما يؤمل فى أجهزة التربية والإعلام والثقافة وما يعتقده من وسائل الترقيع، فإذا لم ير وسائل الإعلام والتعليم والثقافة تنهض أمامه بهذا الدور امتلأ تشاؤما ويأسا.

أما أنا فإن رؤيتى وتصورى للأمور لم

تقم على هذا النحو، وإنما تقوم على سياسة التغيير وإعادة البناء، فكان أول الطريق إلى الأمل هو اليأس الكامل من تلك الأجهزة ونفض الأيدى من أى أمل فى الإصلاح يأتى على أيديهم ثقة منى بقول ربى سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(يونس:٨١)

ومن قول الحكماء: إنك لا تجنى من الشوك العنب، وقولهم فى القواعد العقلية: "إن فاقد الشىء لا يعطيه".

وهذا الشعور باليأس من أن يأتى الإصلاح على أيدى المفسدين؛ كان هو البداية الحقة لكل عمل إصلاحى إيجابى منتج.

وقلت لمحدثى: هب أن كل أبناء الأمة جاهلون ضالون، هل يكونون فى حال أسوأ من حالهم عند قدوم رسول الله ﷺ عندما جاء إلى قومه وهم من فساد عقيدتهم يسجدون للأصنام، ومن فساد سياستهم يفتقدون الاستقلال ويباهون بتبعيتهم للفرس والروم، ومن فساد أخلاقهم يمارسون الزنا والربا ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويتعبدون للأهواء؟!

ومع ذلك لم ييأس رسول الله ﷺ؛ لأنه خطط ودبر وبدأ معهم من الطريق الصحيح، وهو طريق إعادة بناء الشخصية المسلمة على أسس عقائدية صحيحة، وإذن فليعج المجتمع بما شاء من سفاهات وليمارس ما شاء من ضلالات، وليعكف على ما شاء من ألوان العبادات، فإن الشىء من معدنه لا يستغرب، ولنبدأ بانتقاء أفراد يقومون فى هذا المجتمع بدور الأنبياء وأولئك المصلحين، بأن يصبروا على تربية طائفة من الناس على أصول الفهم الإسلامى الصحيح فإذا ما أحسنت الفهم وأدركت الحقيقة الإيمانية عن وعى وشمول، فلتقم هذه الجماعة إلى أهل الأرض كى تتولى فيهم مهمة التربية على هذه الأسس وطبقا لمعايير هذا الفهم الصحيح، وغير عابئة بما تقوم به أجهزة الدولة من تضليل وتجهيل؛ لأنها مهما فعلت لن تفعل بالقوم أكثر مما هم فيه، فلنعتبر أن الكم كله معهم ونبدأ فى الأخذ من هذا الكم أفرادا ننبههم فينتبهوا، ونوقظهم فيستيقظوا، ونعلمهم فيحسنوا التعلم، ونفقههم بأحكام هذا الدين، فإذا استوى فهم الواحد منهم كان مطالبا بأن ينقل فهمه إلى غيره فترى أثره فى أهل بيته أو ذوى رحمه وفى قرابته وجيرانه، أو مع من هم تحت ولايته فى بيته أو عمله، وعند ذلك سترى ولادات جديدة وعقائد سليمة وعبادات صحيحة، وسترى

وقتها أن الكم الغثائى سينقص بمقدار من يهتدى منهم وأن الكم الإيمانى سيزداد بمقدار من ينضم إليه.

وإذا علمت أن كل من يضاف إلى صف المصلحين هو رجل ذو عقيدة صحيحة وعبادة سليمة وإرادة قوية وعزيمة لا تقبل الخمول؛ أدركت أننا أمام كيان يتمرد ويزيد على حساب كيان ينقص ويقل، والأطباء يقولون إذا رأيت المريض ينتقل من ضعف إلى قوة، ومن ذبول إلى نضرة؛ فثق بأنه يؤذن بالشفاء، وإذا رأيته ينتقل من قوة إلى ضعف، ومن نضرة إلى ذبول وضمور؛ فثق بأنه مؤذن بالأفول والموت.

وحالنا الذى صورناه هو حال مجتمعنا المصرى، بل هو حال مجتمعنا العربى والإسلامى، إنه أمام جماعة من العقلاء أخذوا على عاتقهم تربية الأمة تربية إيمانية نبوية على منهاج رسول الله ﷺ، وهم رجال أقوياء فى إرادتهم، ثابتون فى عقيدتهم، مصرون على تحقيق أهدافهم التى من أهمها لديهم

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

ومن هنا تباينت وجهات النظر بين من لا يرى أمامه إلا ما تفعله أجهزة الإعلام والتعليم والثقافة من هدم وتخريب وتضليل وتجهيل، وبين من يرى ويدرك حقيقة ما يتم فى أرض الله من قيام فئة مؤمنة واثقة طاهرة تقوم بالعمل المخلص الصادق الدءوب، هذا العمل الذى أنتج مئات الآلاف، بل عشرات الملايين يقفون فى تحدٍّ شامخ أمام صناديق الانتخابات التى باتت تشهد بعمق ما يتم فى الخفاء، وصدق ما يبذله هؤلاء الدعاة من تربية وتزكية وتأديب وتهذيب، أثمرت هذا التحول الحقيقى فى قيم المجتمع ووضوح تصوراته، وأشارت إلى طبيعة اختياره، وأنه اختار الإسلام هوية وعقيدة ومنهج حياة.

ونظرت فى وجه محدثى فرأيت انفراجة بشوشة، وتهللا واضحا أشعرنى بعمق ارتياحه لما سمع، ودهشته لما أقول لكنه بادرنى قائلاً: وإلى متى سيظل الإسلام مختبئا، والعمل له جريمة، واعتناق مبادئه تهمة تستحق العقاب؟!

وشعرت فى سؤاله بنغمة التعجب والدهشة، فأيقنت أن محدثى صار يتحدث بلسانى، ويتبنى قضيتى، ويشعر مثلى بالغرابة والدهشة لما يقع بالمسلمين فى بلادهم وعلى أيدى إخوانهم الذين يزعمون أنهم يحملون معهم نفس العقيدة وذات المنهج، لكن الفرق كبير من ينتسب الى الإسلام وراثة أو عادة، وبين من يضحى بنفسه ويبذل دمه حتى يتمكن الإسلام ويعلو فى الأرض، وقديما قالوا: "ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة".

وعند ذلك قلت له: "إن الأمر لن يطول كثيرا، فقد انتقل الإسلام من حال الاختباء والاختفاء إلى حال الإعلان عن نفسه والتقدم إلى أهل الأرض بطوق النجاة، وها أنت الآن تشهد هذا المد الإيمانى الجارف، وترى مظاهره فى امتلاء المساجد بالشباب والعودة الصادقة إلى تعاليم هذا الدين سلوكا وأخلاقا ومنهاج حياة، فالنساء محجبات فاهمات واعيات، والشباب مثقفون معتقدون مغيرون، والدعاة صادقون مهمومون غيورون، والناس يشهدون بركة هذا المد المقدس فى القنوات الفضائية والبرامج الثقافية والثورات الإسلامية التى تبشر بخلافة راشدة على منهاج النبوة وفى الانتصارات الميدانية فى فلسطين وفى العراق وفى لبنان وفى أفغانستان، وفى الألوف الذين يتحولون إلى الإسلام فى العواصم الأوروبية كل يوم.

فإذا علمت مع ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض اليوم وحى مقدس إلهى مصون من التحريف سوى القرآن؛ أدركت أى مستقبل ينتظر هذا الدين العظيم.

وإذا علمت أن غالبية المسلمين فى جميع أقطار العالم ما زالوا يحلمون بأيام الإسلام العظيمة وقيمه النبيلة وحضارته الزاهرة، ويحنون إلى هذا الماضى الجميل؛ أدركت أن العودة إلى الإسلام ستكون أسرع مما نتوقع وأقرب مما نظن.

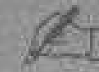
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

ومن قول نبينا ﷺ: عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر"

أخرجه أحمد رقم (١٦٩٩٨) ٤/ ١٠٣، والطبرانى فى مسند الشاميين رقم (٩٥١) ٢/ ٧٩، والحاكم فى المستدرك رقم (٨٣٢٦) ٤/ ٤٧٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

التقويم الهجرى... هوية أمة وتاريخ حضارة



د. وصفى عاشور أبو زيد
دكتوراه فى مقاصد الشريعة الإسلامية

يقترب فى هذه السنوات التى نعيشها الاحتفال بميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مع الاحتفال بهجرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تخطئ عين المتابع للأخبار والأحداث ضخامة الاحتفال بالسنة الميلادية وكمّ الأموال الهائل الذى ينفق فيها، فى الوقت الذى نلحظ فيه ضمورا وخفوتا فى الاحتفال بالعام الهجرى الذى يقتصر على مجموعة من الفعاليات داخل جدران المساجد فى أحسن الأحوال، وبعض البرامج التى تحكى وقائع الهجرة النبوية الشريفة التى نسمعها كما هى كل عام.

ولا يرتضى الإسلام هذه الطرائق من الاحتفال التى يتم فيها التبذير وإنفاق الأموال هباء منثورا بل ربما تطرق الأمر إلى ارتكاب بعض الموبقات، كما أن الاحتفال بالعام الهجرى يحتاج إلى اهتمام وتوعية.

أثر ازدهار الحضارات وتخلفها

والواقع أن الأمة الإسلامية لا ترتبط بتاريخها أو تقويمها الهجرى إلا فى حالات الازدهار والرقى والتقدم، وحينما يتحقق لها واقعيا مرتبة الشهود الحضارى على الأمم كما أراد لها القرآن الكريم.

وإذا تتبعنا تاريخنا وتقويماتنا التاريخية وجدنا أن ما قبل سقوط الخلافة كان يؤرخ له بالتاريخ الهجرى أو قبل سقوطها بقليل حينما توزع ميراث الدولة العثمانية وصارت "رجلا مريضا"، فكان يؤرخ للأحداث والمعارك والوقائع والمواليد والوفيات بالتقويم الهجرى.

وبعد ترهل الحكم الإسلامى وذهاب الخلافة الكبرى تحولت الأمة إلى تاريخ آخر هو التاريخ الميلادى الذى نجله ونحترمه أيضا؛ لأنه ميلاد نبى ورسول من أولى العزم من الرسل، ولا يتم إيمان المسلمين إلا بالإيمان به، لكننا نتحدث هنا عن تاريخنا نحن، وهويتنا نحن، وحضارتنا نحن.

على أن تاريخ النصارى تاريخ رومانى الأصل، عدله بعض الملوك ورهبان النصارى ونسبوه إلى ميلاد المسيح - عليه السلام - بعد مولده بستة قرون أو ثمانية قرون تقريبا، والأشهر الميلادية التى يدور عليها فلك هذا التاريخ تحمل فى اشتقاقها ومعناها معانى وثنية، ذات ارتباط بآلهة الرومان وعظمائهم.

والمغلوب - كما قيل - مولع بتقليد الغالب، فقلدت الأمة الإسلامية - بعد أن صارت شبه أمة - غيرها من الأمم، وكان استخدام التاريخ الميلادى مظهرا من هذه المظاهر، فأصبحت كل الدول العربية والإسلامية تؤرخ بتواريخ أخرى غير الهجرى باستثناء ما نجده فى بلد كالمملكة العربية السعودية.

هوية الأمة فى التاريخ الهجرى

وما من شك فى أن التقويم الهجرى هو هوية أمة، فالعبادات الإسلامية ترتبط بهذا التاريخ؛ حيث نجد الحج أشهره معلومات وهى هجرية، والصيام فى رمضان وهو شهر هجرى، والزكاة يحول عليها الحول الهجرى، وعدة المطلقة بالتاريخ الهجرى، وغير ذلك؛ ولهذا فإن التقويم الهجرى تاريخ حضارة امتدت عبر ثلاثة عشر قرنا من الزمان لم نكن أربعة نؤرخ فيها إلا بهذا التاريخ، ومن هنا ارتبطت أمجادنا وأيامنا ومآثرنا وشعائرنا بهذا التاريخ الذى تحولنا عنه إلى غيره - فيما سوى العبادات لقداستها - نتيجة لأحوالنا وأوضاعنا، وأثرا من آثار الغزو الفكرى الذى امتد فى فراغنا!..

ولا يحسن أحد أن المسألة هامشية أو فرعية بحيث يعد الحديث عنها نوعا من اللهو، أو خوضا فى الباطل، أو ضربا من ضروب الترف الفكرى فى الوقت الذى تعانى فيه الأمة من دماء تسيل وأرواح تزهق وبيوت تهدم وأعراض تنتهك وغير ذلك مما يمكن أن نهون به من هذا الأمر، فقد استمرت المؤامرة لطمس التاريخ الهجرى وإزالته وتجهيل الشعوب الإسلامية به قرونا متوالية؛ ففى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للثامن عشر الميلادى عندما أرادت الدولة العثمانية تحديث جيشها وسلاحها طلبت مساعدة الدول الأوروبية العظمى (فرنسا وألمانيا وإنجلترا... الخ)، فوافقوا على مساعدتها بشروط، منها: إلغاء التقويم الهجرى فى الدولة العثمانية فأذعنت لضغوطهم، وفى القرن الثالث عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى عندما أراد خديوى مصر أن يستقرض مبلغاً من الذهب من إنجلترا وفرنسا؛ لتغطية مصاريف فتح قناة السويس، اشترطتا عليه ستة شروط، منها: إلغاء التقويم الهجرى فى مصر؛ فتم إلغاؤه سنة: ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، واستبدال التقويم القبطى والميلادى به.

فلن تفيق أمتنا إلا إذا استضاءت بهذا التاريخ العريق، واستحضرت كل أيام السنة الهجرية، ونظرت فى أحداثها نظر المتأمل المتفحص الواعى الذى يحيا التاريخ ثم يعبر يحيى إلى واقعه المعاصر بدروس تضىء دروبه وتمهد له السبيل.

من أجل هذا وجدنا المؤرخين والحكماء يقولون: "من وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره، ومن لم يع التاريخ فى صدره لم يدر حلو العيش من مره". وذلك لأن التاريخ تجارب تضيف إلى وعى الإنسان وتجاربه تجارب مضاعفة وتمد فى عمره أعمارا طويلة، وتبين له مواضع العثرات ومكامن الخلل، وتبرز له أسباب القوة وعلامات العافية، فالتاريخ هو الذى نستكشف به ما تحت أقدامنا، ونستبصر به واقعنا، ونستصحبه لنستشرف به مستقبلنا.

الدعاة ووسائل التوعية بالتاريخ الهجرى

وإذا كان البعض يرى الأمة الإسلامية تمر فى المنحنى الحضارى الآن بدرجة متدنية إلى حد ما فى رسمه البيانى، فإن الكثيرين يرون أمارات الصعود تتضح شيئا فشيئا منذ أكثر من نصف

قرن وهذا لا يعنى أن نستكين لهذه السنة الحضارية أو أن نخضع لحتمية تقليد المغلوب للغالب، ثم لا نفعل شيئا أو نحرك ساكنا، بل فيه ما يحفز الهمم، ويبعث على العمل والأخذ بالأسباب.

إن الأدوار التى يجب أن نقوم بها ـ هى أولا ـ تعجل بالصعود فى منحنى الرسم البيانى للحضارات، وتقوّم اعوجاج أمتنا، وتعالج من عللها وأدوائها، وتعرّف الأجيال بواجبها نحو الأخذ بالأسباب فى النهوض بالأمة والرقى بها حتى تصير غالبة لا مغلوبة وشاهدة لا مشهودا عليها.

ومن أهم الأدوار التى نعول عليها هنا ونراهن عليها هو دور الدعاة، بعد أن تضاءل أملنا فى كثير من المؤسسات الرسمية والحكومات العربية والإسلامية، فعلى الدعاة والعلماء يُعقد الأمل، وإليهم يرجع الشباب، وفيهم يثق الناس، وبهم يتم التغيير والإصلاح، متى كان هؤلاء الدعاة ربانيين، فاقهين لدورهم ورسالتهم، خبراء بواقعهم وعلله وأدوائه، متمكنين فى الوحى الأعلى الذى يصفون منه الدواء بعد تشخيص الداء، ومن أهم الأدوار التى يمكن أن يقوموا بها ما يلى:

أولا: إشاعة الاهتمام بالتاريخ الهجرى كأن يوصى الدعاة الناس أن يتواعدوا بالتاريخ الهجرى، وأن يذكروا مواليدهم بالتاريخ الهجرى، وقد أصبح اليوم ميسورا أن تعرف ما يقابل تاريخ المواليد الميلادية من الهجرية، وغير ذلك.

ثانيا: أن يصبغ الدعاة المجتمعات بالصبغة الإسلامية الممزوجة بهذا التقويم، فلا نؤرخ محاضرة تلقى إلا بهذا التاريخ، ونربط دائما بين الميلادى والهجرى ابتداء، وشيئا فشيئا يستقل الهجرى.

ثالثا: الاحتفال بكل مناسبة هجرية كالغزوات وأيام الإسلام فى مواعيدها وتذكير الناس بها، واستخلاص أهم الدروس والعبر منها؛ لتكون وميضا يبرق للدعاة، ونورا يستضىء به العاملون.

رابعا: الاحتفال بالشخصيات ميلادا ووفاة من خلال التقويم الهجرى، فنتناول سير الشخصيات المهمة فى تاريخنا الإسلامى القديم والحديث والمعاصر ونربط وقائع حياتهم بالتقويم الهجرى.

خامسا: تذكير الناس بأن المعتمد فى الأحكام الشرعية هو التاريخ الهجرى، فحولان الحول ـ شرطا من شروط وجوب الزكاة ـ هو الحول الهجرى باتفاق، والصيام يكون مع الهلال فى شهر رمضان، والحج يرتبط بأشهر معلومة فى السنة الهجرية هى: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعدة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تحسب بالتقويم الهجرى، وهكذا فكثير من الأحكام الشرعية مرتبط بهذا التقويم المجيد، يقول الإمام الرازى: "واعلم أن مذاهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية، وهذا حكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - فأما عند اليهود والنصارى فليس كذلك". تفسير الرازى: ١٦ / ٥٠

سادسا: أن هناك أياما نحتفل بها فى تاريخها الهجرى، ويجب أن تُستثمر هذه المناسبات للتأكيد على هذه المعانى، ومنها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وحادث الإسراء والمعراج، وحادث تحويل القبلة، كلها ـ بحمد

الله ـ نحتفل بها فى التقويم الهجرى، وهى مناسبات ربما تمثل الحد الأدنى من استبقاء هذا التاريخ.

سابعا: إحياء حادث الهجرة النبوية بما يتناسب معه؛ فالهجرة حدث غيّر مجرى التاريخ، وحول اتجاه الإنسانية؛ فكانت تاريخا مشهودا وقف عنده التاريخ وتحول لينجه اتجاها آخر؛ حيث أقيمت للمسلمين دولة، فأبرمت الاتفاقيات والمعاهدات، وخاطبت الملوك والأمراء، وغزت البر والبحر، وتحققت لها الزعامة على الناس، والشهادة على العالمين.

ثامنا: عقد مقارنة للناس بين الاحتفالات التى نلقى لها بالا ونتكلف لها الأموال مثل أعياد الميلاد وأعياد الزواج وأعياد الحب وأعياد الأم، وكلها يتم الاحتفال بها من التاريخ الميلادى، فى الوقت الذى نستصغر فيه من يتحدث عن التقويم الهجرى وأهميته فى حفظ هوية الأمة من الانطماس والذوبان، ويمكن البحث عن المقابل للتاريخ الميلادى هجريا، والمقابل للتاريخ الهجرى ميلاديا من بعض المواقع الإسلامية التى خصصت "أيقونات" لذلك، مثل موقع إسلام أون لاين. نت.

تاسعا: كشف المؤامرات التى تهدف إلى طمس هذا التاريخ مع اللغة العربية، مثل المؤامرات سابقة الذكر؛ لأن هذا التاريخ هو الذى يذكر الأمة بأمجادها وأيامها وصفحاتها المشرقة، وتحفظ به هويتها.

عاشرا: مطالبة الآباء والأمهات ببث الوعى فى الأبناء بأهمية هذا التاريخ، وإجراء مسابقات لهم فى أيامه ووقائعه حتى يظل الطفل دائما مرتبطا به، وأن نحفظهم الأشهر الهجرية، ونعودهم أن يكتبوا التاريخ الهجرى فى كراساتهم، وأن ينظموا حياتهم عليها.

حادى عشر: مطالبة المدارس أن تهتم بهذا التاريخ وكتابته، على الأقل بجانب التاريخ الميلادى، وأن يعاقب المدرس على نسيانه، ويكافأ على كتابته.

ثانى عشر: مطالبة الصحف ومواقع الإنترنت ـ وبعضها يقوم بهذا ـ أن تؤرخ لأحداثها وأخبارها ومقالاتها وتحقيقاتها وحواراتها بهذا التاريخ على الأقل بجانب الميلادى.

ثالث عشر: مطالبة الهيئات والمؤسسات المهتمة بالدعوة والأوقاف والإرشاد الدينى بالتوعية بهذا الأمر والاهتمام به، وأن يثمنوا من أهميته لدى الشرائح التى تقوم بالتوعية والتأثير.

رابع عشر: مطالبة المصالح الحكومية أن تؤسس سنواتها المالية وإجازاتها وبنوكها ومستشفياتها بناء على التاريخ الهجرى، وفى هذا ارتباط كبير للناس به.

خامس عشر: وهى نقطة مهمة ولها أثرها فى هذا الأمر، وهى مطالبة الحكومات أن تجعل رواتب الناس مرتبطة بالتاريخ الهجرى لا الميلادى، وعندها سيتيقظ المسلم وغيره لكل يوم فى الشهر الهجرى.

هذه خمس عشرة وسيلة جمعت بين الفرد والأسرة والمؤسسات والحكومات والإعلام والدعاة وغيرها، أعتقد أنها لو تضافرت فيما بينها، وبنى بعضها فوق بعض، وكمل بعضها نقص الآخر، وشد كل منها أزر أخيه فلن تكون هناك أدنى مشكلة فى الاهتمام بهذا التاريخ الذى ينطوى على صفحاتنا المشرقة؛ ويحمل أيامنا المشهودة، ويحفظ هويتنا الإسلامية.

حول تطبيق الشريعة الإسلامية



للمستشار/ طارق البشرى

أشكر للأستاذ الدكتور (...............) التعقيب المهم، الذى أعده تعليقا على مقالين كنت نشرتهما عن مدى قيام الشريعة، كشريعة حاكمة فى التاريخ الإسلامى وأنا أحمد له اعتناءه بتلخيص وجهة نظرى، وأحمد له أنه نقل الحوارخطوة فى طريق الفهم المتبادل، وأبعدنا - مشكورا - عن تلك المنطقة «البور» التى يدور فيها النقاش حول: هل وجدت الشريعة فى حياة المسلمين أم لم توجد؟ وأبعدنا عن «الطريق الإعلامى» الذى آثر استخدام أدوات التحبيب والتبغيض. وقد تكلم عن شروط التطبيق ومجال تأثير التاريخ فى أحكام الشريعة وهنا يكون للحوار خصوبة فيما إخال. هداه الله وهدانا إلى ما فيه الخير لأمتنا.

أولا: يذكر الدكتور (...............) أنه لا تلازم بين تطبيق نظام قانونى فى الماضى وبين صلاحيته للتطبيق فى زمان آخر ولذلك فهو يعيب على المتحاورين الحديث عن تطبيق الشريعة فى الماضى، كسند للمطالبة بتطبيقها فى الحاضر.

والحاصل - فى ظنى - أن الحوار حول تطبيق الشريعة فى الحاضر، قد استطرد إلى الحديث عن مدى تطبيقها فى الماضى، بسبب أن المعطلين لتطبيقها فى الحاضر استندوا فى موقفهم إلى هذه الدعوى العجيبة، وهى أن الشريعة لم تطبق منذ عهد الراشدين. ولم يدُر بخلدى أن يصل الأمر «بالمعطلة» إلى إنكار الماضى بهذه الجسارة، حتى ووجهت به فى إحدى الندوات منذ ثلاث سنوات ولم أتخيل أن يكون لهذا الإنكار رواج، حتى وجدته يتكرر على أقلام كتاب وصحفيين، وحتى وجدته من بعض دعاوى المتطرفين أيضا. فالإنكار لم يقم لدى المطالبين بالشريعة، بقدر ما قام لدى «المعطلة» ولدى الغلاة.

ومن جهة ثانية، فإن للمعطلة وجه حجة فى هذا الإنكار، لأن الزعم بعدم انطباقها بضعة عشر قرنا، وعدم انطباقها فى التاريخ كله إلا خمسين سنة، يجعل «الواقع التاريخى» فى صفهم، ويظهر أن دعاوى المطالبين بها لا تخلو من حماقة أوروبية؛ إذ كيف يصح فى الأذهان أن نعيد للحياة ما لم يصلح للحياة إلا نصف قرن من التاريخ كله؟! وكيف نعيد ما غبر وانقطع وباد بضعة عشر قرنا؟! ثم إن المثبتين للشريعة يقولون إنها كانت قائمة على الشرعية فى مجتمعاتنا طوال القرون الماضية، وإنها بقيت حتى خلعت خلعا فى القرن التاسع عشر بعد أن دهمنا من الغزوات ما نعرف.

لا شك فى أن للواقع التاريخى حجيته، ولا يجوز التهوين من قيمة هذه الحجة إذا كانت فسدت فى أيدى أصحابها ومن جهة أخرى، فإن الواقع التاريخى هو جزء من واقعنا الحاضر، من حيث إنه يمثل شعاعا فى وعينا بالذات الحضارية، وبالخصال المميزة لنا كأمة وجماعة سياسية وحضارية ولا يرضينا بطبيعة الحال أن يقطع من تراثنا عنصر هو من أقوى وأفعل ما عايشناه فى تاريخنا، وكان تفاعلنا معه من أزهى ما تبدت فيه العبقرية الإسلامية والعربية، ألا وهو الفقه الإسلامى الآخذ من الشريعة الإسلامية.

وقد أسعدنى قول الأستاذ المعقب إن الشريعة لم تكن مطبقة «بحسم وصرامة وبلا استثناء طوال عصور ازدهارها»، لأنه يعنى عدم اعتراضه على أنها كانت تطبق، ولو بغير حسم، ولو بغير صرامة، ولو فى بعض عصور ازدهارها. وإن كنت وددت أن يكون إقراره بوجودها التاريخى يرد بتعبير إيجابى تفيده دلالة ظاهرة، وليس «بمفهوم المخالفة» كما شاء أن يعبر.

ثانيا: كنت قد ميزت بين مرحلة التشريع فى زمن الرسالة والراشدين، وبين مراحل التطبيق فيما تلا ذلك من أزمان. ويعترض الأستاذ المعقب بأنه كان فى المرحلة الأولى تطبيق، وفيها ما يخضع للتاريخ وأحواله، فهى لم تكن تشريعا صرفا. كما يذكر أن المراحل التالية تضمنت تشريعا، فلم تكن «تطبيقا» صرفا.

خلاصة القول أنه يقول: إن صبغتى التشريع والتطبيق متداخلتان فى الزمان وفى ظروف الأحوال، وإن فى التشريع تطبيقا وفى التطبيق تشريعا. وقد واجهنا هذا الاعتراض عند الحديث عن الموروث والوافد للتمييز بين السمات المميزة لأوضاعنا الفكرية والعقدية والحضارية، فأثير الاعتراض على ذلك بأن فى الموروث وافدا وفى الوافد موروثا، وهما متداخلان.

وأنا أعرف أن التداخل قائم بين الظواهر المختلفة، وأن من يطالع أول المقالين اللذين يعقب عليهما يتأكد أن فترة التشريع تضمنت ما لا يعتبر قرآنا ولا سنة من أقوال وأفعال الرسول والصحابة. كما أننى لا أغفل عما كتبه أستاذنا الفاضل د. عبدالحميد متولى، ولا عما أفتى به شيخ الإسلام الإمام محمود شلتوت، ولا عما تعلمناه عن شيخنا الأستاذ عبدالوهاب خلاف، ولا أجد فيما قلت ما يتعارض مع أقوالهم. وإذا كان هذا قولى، فهل وجد الأستاذ المعقب فيه ما يدعوه إلى تذكيرى بكل ما ذكرنى به مشكورا؟! وهل وجد فيما قلت أننى أحتاج إلى من يذكرنى بأن وقائع المرحلة الأولى لم تكن كلها أحكاما تشريعية؟!

على أى حال، فحتى فى هذه النقطة لا يكاد الخلاف يظهر بين المقال والتعقيب؛ فلعلنا نتفق فى أن وقائع المرحلة الأولى لم تكن كلها أحكاما تشريعية منزلة قرآنا

وسنة. إنما وجه الخلاف يتراءى فى العبارة التى أكمل بها المعقب حديثه. قال: «بل برز فيها جانب، للتاريخ - لنسبيته - الدخل كل الدخل فيه» وقد لا نختلف فى فهم هذه العبارة من أن ثمة جانبا من الأحكام يخضع للنسبية التاريخية. إنما ما أخشاه أن المعقب لم يحدد أو لم يهتم بتحديد «دائرة» ما يخضع للنسبية التاريخية فى مواجهتها لما يعلو على تلك النسبية. وتركنا نفهم أن ثمة ما لا يخضع لهذه النسبية بطريق مفهوم المخالفة. وللكاتب أن يختار ما يشاء من أساليب التعبير عن فكرته، ولكن الأستاذ المعقب أعرف منى بأن مفهوم المخالفة هذا أضعف أنواع الاستدلال؛ لأنه يحدد المعنى بطريق الاستبعاد، أى بطريق تحديد غيره؛ ولأنه قول صامت، أى أنه معنى يستفاد من سكوت، ولذلك يبقى المعنى غير محدد إلا بما تحدد به غيره، ويبقى ضعيفا يتلاشى مع أول تعبير مختلف.

الخلاف قد لا يتراءى هنا بينى وبين المعقب، ولكنه بين موقفين فكريين. أحدهما، يعتنى ببيان أن ثمة أحكاما - لا تخضع للنسبية التاريخية - يفترض وجودها وجودا مهيمنا على الشرعية فى المجتمع، ويرى ضرورة إيضاحها، لا لأنها تشكل الأصول المرجعية لنظام البشر فقط، ولكن لأن هناك من عوادى الزمان الحاضر ما يتهدد وجودها، والموقف الثانى، يوجه عنايته فى الأساس إلى بيان أهمية الظرف التاريخى فى بناء الأحكام، بحسبان ما تفرضه متغيرات الحياة على فقه النصوص من أحوال، وهو يرى ضرورة إيضاح هذا المعنى لئلا يكون فى ثبات النص تجميد له وللمجتمع الحاضر على حال من أحوال الماضى ويمكن أن يجرى حوار مثمر بين هذين الموقفين، فكلاهما يقف على ثغر من ثغور النشاط الوطنى والإسلامى.

على أن ثمة موقفا آخر نرى واجبا ألا يلتبس فى الموقف السابق. فالبعض يرى أن الأحكام كل الأحكام، والنظم كل النظم، والأفكار كل الأفكار، خاضعة للنسبية التاريخية، إذ وجدت كلها فى زمان ومكان وتتحدد بهما، وتخضع لهما، وتنتهى بانتهائهما، وأنها تخضع دائما للمراحل الكبرى لتاريخ البشرية كقانون حتمى للتغيير، وأن كل شىء مؤقت طارئ وحديث، وهو موقف من التاريخ والمجتمع يصدر عن موقف فلسفى يتعلق بأصالة المادة و«حداثة» الروح. هذا موقف يعارضه موقف إيمانى يقوم على الاعتقاد بالغيب وبالرسالات، وأن ثمة أحكاما يخضع لها البشر لها وضع سرمدى غير تاريخى، يعلو على أوضاع الزمان والمكان وعلمهما. والأمر هنا لا يتعلق بالأصالة والتجديد، ولكنه يتعلق بالموقف الفلسفى فى المثالية والمادية. والمهم، عندما نتحدث فى أمر الشريعة، ألا تختلط الأمور. فللحديث عن الأصالة والتجديد أوضاع فكرية وأدوات جدل تختلف تماما عن الحديث فى الموقف الفلسفى الآخر. وقد قصدت بهذا الايضاح أن نحرر المسائل من اللبس والغموض، عندما نتحدث عن «العامل التاريخى» وأثره فى بناء الأحكام فليس من الصواب أن يعارض الموقف الفلسفى بموقف اجتماعى.

ونحن لا نجادل فى أن من الأحكام ما يخضع للزمان والمكان، ولكننا نطمح فى تحديد تلك الدائرة من الأحكام التى تعلو على اختلافات الزمان والمكان. وأكاد أقول إن التنبيه إلى أثر الزمان والمكان فى تعيين الأحكام أمر يعترف به حتى المحافظون، وذلك متى تحددت دائرة الأحكام المنزلة ولم تتسرب النسبية التاريخية إلى النصوص المنزلة.

لذلك، كان جهدى أن أقيم من هذه النقطة معيار الفصل بين مرحلة «التشريع» وباقى المراحل «التطبيق» أى تحديد الفيصل بين ما هو «نص منزل» وبين ما هو تاريخ من التاريخ.

ثالثا: يعترض المعقب على «الفصل» الصارم بين مراحل التشريع والتطبيق، ويرى أن ناسا كثيرين ينصرفون عن الاهتمام بالشروط التاريخية لتطبيق الأحكام، وهو يقصد بذلك الشروط الاجتماعية العامة كشرط توافر الكفاية من الرزق لتوقيع حد السرقة، وهو يعتبرها شروطا تاريخية لأنها تتغير بتغير الأزمان.

ولا أظن أن عباراتى كانت تتضمن فصلا صارما، فالفصل ليس صارما، ولكن الارتباط أيضا ليس ملزما. وما يسميه سيادته شروطا تاريخية أو اجتماعية، هى مما عرفه الفقه الإسلامى من قبل، وذلك إن كان قصده فى حدود ما أوضح من الأمثلة، وهو يقول إن مرحلة التشريع «لم تكن بعيدة تماما عن التاريخ».

وأنا أخشى من التأكيد الذى تفيده هذه العبارة «المنفية». هل يقصد أن المرحلة التى نزلت فيها الرسالة ليست بعيدة «كلها» عن التاريخ، بمعنى أن بعضها يخضع للتاريخ؟ أم أنها ليست بعيدة «تماما» عن التاريخ، بمعنى أن التاريخ يتغلغل فيها عامة؟ نحن نقبل المعنى الأول، ونخشى مما قد توحيه العبارة حسب المعنى الثانى، لما قد يرد إلى ذهن بعض القراء من لحوق نسبية التاريخ بأحكام ثابتة منزلة. والمعقب فى هذا يلغز ولا يبين، ويورد المتشابه من الأقوال.

إننى أحلل عبارة وردت فى سياق يتعين أن نوليه اهتماما جادا وهادئا، إذا أردنا أن يكون حوارنا ثمرة بيان وجوه الاتفاق وتعيين نقاط الخلاف، بغير شطط وبغير إضمار. وأكرر أن الأمر والحوار هنا لا يتعلقان بخلاف بينى وبين المعقب، ولكنه خلاف عميق بين تيار فكرى وتيار آخر ونحن نعلم أن مقتضى المذهب ليس بمذهب، ولكننا نستطرد فى البيان وفقا لمقتضى النظر لنتوغل بقدر الإمكان إلى حدود فكر القارئين.

وأساس النظر عندى، أن ثمة أصولا وإطارا مرجعيا أرى وجوب الحفاظ عليها، وهى - إن نظرنا إليها على المستوى الفلسفى - وجدناها ذات أساس إيمانى، وإذا نظرنا إليها - على المستوى الاجتماعى والحضارى - وجدناها قوائم ارتكاز تتجمع عليها وجوه إدراك الهوية والشعور بالانتماء لدى الجماعة، حتى إن تعددت الأديان فيها.

واستطرادا فى الحديث، أقول: «إن واحدا من المشكلات الأساسية التى ينتجها مفهوم المراحل التاريخية التى تشمل تاريخ البشرية جمعاء، أنها تختصر الملامح الحضارية لكل جماعة عاشت بمفاهيم وقيم وأسس ولغة حضارية، هى قوام تشكل الجماعة بماضيها وتاريخها وحاضرها، وهى ما يشكل خاصة «الأنا» لديها. وإن تجريد مراحل التاريخ البشرى من تلك الخصائص الحضارية المميزة لكل من الشعوب يطمس ذاتية هذه الشعوب ويفتح الطريق لحضارة الغرب الغالبة التى

تفد بحسبانها تقدما وعصرية وحداثة، وبحسبان تاريخ الغرب هو معيار التاريخ البشرى كله، وبحسبان أن حاضره هو مستقبلنا، وأن واقعه هو مدينتنا الفاضلة.

رابعًا: يذكر الأستاذ المعقب أن مراحل التطبيق لم تكن تطبيقا فقط، بل شملت تشريعا وتأصيلا، وقول المعقب سليم لا أعارضه فيه، إذا نظرنا للتشريع بالمعنى الوضعى للكلمة، بحسبان أن التشريع هو أهم مصادر القواعد القانونية فى الفقه العلمانى المعاصر. والقاعدة القانونية هنا هى ما اتسم بالعموم والتجريد من الأحكام. وبهذا المنطق فإن جهود فقهاء الإسلام فى العصور التالية على التنزيل - أى عصور «التطبيق» - تضمنت بطبيعة الحال عددا ضخما من القواعد القانونية التى تتسم بالعموم والتجريد.

ونحن نعلم أنه فى ظل القانون الوضعى وفقهه، ثمة تداخل بين التشريع والتطبيق يعرفه رجال القانون، وهو تداخل تتدرج به القواعد القانونية من مدارج العموم إلى الخصوص، وذلك بمراعاة مراتب العموم والتجريد، وبمراعاة الأدوات التى تصدر بها القواعد القانونية.

فالقانون تشريع، ولكنه - فى بعض الحالات، وبمعنى من المعانى - قد يعتبر تطبيقا لقواعد قانونية أعم وردت بالدستور. واللوائح التنفيذية تعتبر من بعض وجوهها تطبيقا لقواعد أعم وردت بالقانون... وهكذا بل إن أحكام المحاكم بصورتها التطبيقية الخالصة، قد تتضمن مبادئا عامة، ولها باستقرارها قوة امتثال وهيمنة، لاسيما إن كانت من جهات قضائية عليا، ومن ثم تعتبر فى بعض حالاتها ذات صبغة تشريعية.

وبهذا التصور، فإن اجتهادات فقهاء الإسلام وقضاة الشريعة - فيما أسميته مراحل التطبيق - تتضمن تشريعا، والمعقب مصيب بهذا المعنى، ولكننى عندما تكلمت عن مرحلة التشريع الإسلامى ومراحل تطبيقه، لم أكن أتحدث فى إطار المعنى الوضعى السابق، فقد كان همى أن أورد الفرق الأساسى بين المرحلة التى تنزلت فيها أحكام الإسلام بوصفها المصدر الرئيس للشرعية والاحتكام، وبوصفها الإطار المرجعى الثابت غير المتغير لكل ما عداها، وبين المراحل التى توالت فيها جهود فقهاء الإسلام فى العصور التالية على التنزيل، أى عصور التطبيق. فأحكام مرحلة التنزيل، إنما هى أحكام منزلة غير تاريخية تعلو على الزمان والمكان وتحكمهما، وهى مصدر الشرعية القانونية والنظامية، وهى المسلمة الأولى فى هيكل البناء التشريعى والشرعى، وهى تستمد وضعها المهيمن، لا من التاريخ ولا من القانون الطبيعى ولا من أى فلسفة تاريخية أو وضعية، ولكنها تستمده من البناء العقدى ومن النظرة الإيمانية.

وإن كل نظام تشريعى تتسلسل جذوعه وجذوره حتى تصل إلى أسس عامة ومسلمات وإطار مرجعى شرعى. وهذه الأسس والمسلمات تستمد شرعيتها من خارج الإطار التشريعى، أى من المجال الفلسفى. وأسس التشريع الإسلامى، تستمد فى النهاية من الأساس العقدى الخاص بالغيب والإيمان بالربوبية وبالرسالة المحمدية، كما أنها تستمد من أساس تاريخى حضارى يرد بما جرت به حياة الأمة بضعة عشر قرنا، واستقر فى وعيها وكيانها الجمعى من قيم ومثل

تثبتت وتأصلت وصارت مصدرا للشرعية لديها، فضلا عن كونها واحدة من الركائز التى يقوم عليها الكيان الجمعى للأمة، والشعور بالانتماء المشترك لدى الجماعة، وفضلا عن كونها من أركان البناء الحضارى الذى تكونت به الذات التاريخية للأمة.

وبهذا، فإن التفرقة التى كنت أجريها بين مرحلة التشريع ومراحل التطبيق، إنما جاءت فى مجال بيان الأصل الثابت المرجوع إليه، ولم تكن فى مجال التعريف المدرسى بالقاعدة القانونية، وكنت أحاول به التفرقة بين ما هو ثابت لا يتغير وبين ما هو متغير وتاريخى.

وإن خلافى الأساسى هنا مع ما توحى به عبارات التعقيب، أنها تطمس الفوارق والفواصل المميزة بين الثابت غير التاريخى، وبين المتغير التاريخى.

ولست أتفق مع ما توحى به بعض عبارات التعقيب من امتداد الصبغة التاريخية امتدادا شائعا متغلغلا غير محدد ولا محدود إزاء الأحكام عامة - ومنها الأحكام المنزلة - وتداخل هذه الصبغة عبر مراحل التشريع والتطبيق، دون اهتمام ببذل الجهد للتمييز بين الثوابت والنوابت.

وأنا لم أقل إن الجهد الفقهى هو مجرد تطبيق آلى للتشريع الإلهى، ولم أسبغ عليه قدسية النصوص المنزلة. لذلك، فاجأنى أن يعترض المعقب علىّ بنفى قول لم أقله. وإذا كان هذا من آفات فكر عدد من المفكرين المسلمين المعاصرين، كما قال، فأرجو أن يوافقنى الأستاذ المعقب على قيام آفة أخرى تتعلق بهذا الجهد الدءوب الذى يقوم به بعض المفكرين المسلمين المعاصرين، عندما يسطون نقدهم لآراء فقهية قديمة على الأصل المرجعى الثابت فى القرآن والسنة، ويمدون بردة التاريخ إلى مجال النصوص المنزلة، ويحاولون أن يشيعوا مفهوما بأن الشريعة وأسسها هى محض أحكام أفرزتها تجربة تاريخية منذ ألف وأربعمائة عام.

خامسًا: فهمت من حديث الأستاذ المعقب من هناك أن ينكرون دور العقل فى بناء حضارة الإسلام، وأن هؤلاء المنكرين لدور العقل يؤكدون على دور الشريعة كأساس لهذه الحضارة. ولا أظن أحدا - حتى من غلاة المحافظين - أنكر دور العقل، وإن لفظى «المعقول والمنقول» يجريان مجرى الاقتران على ألسنة الأزهريين من قديم. ومازلت أتصور أننى لست بحاجة لأن أبرئ نفسى من تهمة إنكار العقل، ولا أظن أحدا ينكر ما حض عليه «النقل» من إعمال العقل. وغالب الخلاف القائم الآن ليس بين النقل والعقل، ولكنه بين «العقل والعقل»، أو هو خلاف بين «نقل ونقل». وذلك، أن المخالفين ينقلون من حضارة الغرب ما لم يعملوا فيه عقولهم إعمالا كافيا يلائم أوضاع بيئتنا.

وإذا كان الأستاذ المعقب قد أوجب علينا أن ننظر للتداخل بين مرحلة التشريع ومراحل التطبيق، فهو الآن يوجب علينا العكس، وهو الفصل بين «العقل والنقل». أفلا نقول له على طريقته: إن فى المنقول معقولا، وإن فى المعقول منقولا؟! وقد فصل سيادته بين العقل والنقل: كما لو كانا ضدين لا يجتمعان ولا يرتفعان. وإذا كان العقل والنقل مقترنين، سواء فيما انحدر إلينا من تراث أو ما وفد إلينا من الغرب، فليس من الإنصاف تسمية ما عقلناه فى

تراثنا «نقلا»، وتسمية ما نقلناه عن الغرب «عقلا».

وهنا، كنت أود ألا يتحرك الحوار فجأة من النقيض إلى النقيض، لتتحول العناصر المجتمعة إلى بدائل متنافية. وكنت أود أن نبتعد عن التراشق بالنبال، وألا يدور الحديث حول أننا نتصور أن تقدُّم مجتمعنا المعاصر «رهن فقط بقطع الأيدى»، ولا أظن الغلاة أنفسهم يقولون بهذه ال«فقط»، ولا أدرى أهو يدخلنى فى القائلين بهذه ال«فقط»، لأن حواره معى؟ أم تركها يفهمها من يشاء من القراء بغير تبعة على الكاتب؟ على أى حال، لا أظن أن قضية تحل بهذه النزعة الخطابية المثيرة. وكنت أود أن يدور حوار الأستاذ المعقب مع من يقول إن الشريعة أعم كثيرا من الحدود ومن الربا والحجاب، وإنها شريعة عامة، وإنها ركن ركين فى أى بناء يقوم بالنهضة والاستقلال والوحدة دون أن تكون وحدها مدار ذلك كله، وإنها ركن فى تاريخ وحضارة، وركيزة فى هوية وانتماء، ومادة فى قوة تماسك الجماعة.

إن دراسة الظروف الاجتماعية والتاريخية لانتشار تطبيق الشريعة ولقوة المجتمعات الإسلامية حينا وضعفها حينا، أمر نعترف بأهميته وفائدته. ولكن، هل يغيب عن البال أننا لم نبرح مرحلة المطالبة بالإقرار بأصل وجودها وشرعيتها، لأن هذا الإقرار نفسه منهم، والأصل منكور مجحود، لدى الطرف الآخر من الحوار، وبرغم نص الدستور على اعتبارها مصدر التشريع؟ وهل يرى المعطلون بقاءها منكورة حتى تدرس الظروف الاجتماعية والتاريخية التى أسستها ثم أضعفتها؟

قد يقول قائل إن هذا أمر طبيعى، فلا ننفذ أمرا إلا بعد دراسته. ولكن، هل تصح دعوى الداعى إلى تعطيل المطالبة بالاستقلال، حتى تدرس أسباب انتكاس أحمد عرابى سنة ١٨٨٢م؟ أقصد أن أقول إنه فى المسائل الخاصة بالانتماء وبعناصر الوجود الجمعى، نحن لا نشترط.

الدراسة علينا فرض والإحسان فرض، ولكننا نفعل ذلك ونحن ممتثلون لواجب الانتماء والهوية، باعتبار أن الانتماء والهوية مضروبتان علينا بحكم اللزوم، فلا نختار بينهما وبين غيرهما، ولا نشترط على انتمائنا الشروط. وإننا إذا التزمنا الشروط للاعتراف بأصل انتمائنا، فإننا نكون قد أخضعنا هذا الانتماء للاختيار. نكون قد ألحقناه بنا بدلا من أن نلتحق نحن به. نكون قد حكمنا عليه بدل أن نحكم به. نحن لا نختار مصريتنا ولا عروبتنا ولا نختار أسس جماعتنا. وفى الشريعة عنصر انتماء بحسبانها من مقومات الوجود الجمعى، سواء بحكم المكون الحضارى والتاريخى لنا عربا ومصريين، أو بحكم المكون الدينى الإيمانى لنا كمسلمين.

وبعد أن وافق المعقب على وجود الشريعة بعد عهد الراشدين، أبدى ميلا للتحفظ على هذه الموافقة، وقد أبدى هذا التحفظ بأسلوب أكثر إمعانا فى التعبير المنفى، إذ قال إنه لا يصح القول بأن الشريعة كانت غائبة لمجرد خروج المحكومين عليها. ثم قال إن هذا الذى لا يصح «لا يصح» إذا كان إعلان الخروج عن الشريعة صادرا من الحاكم. ولا أظن أن حاكما قبل القرن العشرين أصدر إعلانا بالخروج عن الشريعة، ومن صنع ذلك بعد هذا التاريخ هو من نناقش اليوم صنيعته، فلا يحتج به علينا. ولعل المعقب يقصد أن ثمة من خالف الشريعة من الحكام السابقين. وهذه النقطة هى ما تعرضت لها فى مقالى بما لا داعى معه للتكرار. على أننى فى هذا الصدد أود أن أسأل الأستاذ المعقب عن قوله فى مبادئ الثورة الفرنسية وما عرفناه، بله عهود روبسبير ونابليون ولويس الثامن عشر ونابليون الثالث على مدى أربعة أخماس القرن. هل ينكرون على الثورة الفرنسية دعوتها إلى الديمقراطية بسبب هذه التجارب التاريخية؟! م نعترف بها وبما قدمت برغم نسبية التطبيق؟!

سادسا: أما عن الدولة العثمانية، فلا أظن أن حديثنا عنها مما يثير الحساسية كما يذكر المعقب، وما كتبته عنها فى مقالى، لم يرد إلا تعليقا على اتهامات مطلقة وجهت إليها، فقصدت أضرب بها مثلا خطأ هذه الأحكام المطلقة، وللمعنى الحقيقى لإعادة كتابة التاريخ. وقدمت لذلك بأن الحديث عن هذه الدولة هو حديث فى التاريخ ولا ينبغى أن يثير جدلا سياسيا، إنما هو تاريخ تستخلص منه العبرة، وأشرت إلى نقاط محددة، وهى أنها دافعت عن ديار الإسلام قرونا، وأن الفساد المطلق الذى تصور به ما كان يقيها ستة قرون، وأن غالب مصادر التاريخ التى بين أيدينا كانت منحازة ضدها، وأن ثمة مؤرخين الآن يعيدون دراستها بمصادر أوسع وبتوازن أدق.

وقد كتب المعقب فى هذا الأمر، فأطال وأطنب، كما لو كان أصل خلافنا حولها، ومع ذلك لم أجده فيما أطال الحديث عنه نقض واحدة من الملاحظات التى كنت ذكرتها. وهو تكلم فى نقاط أخرى لا أجدها تتعارض مع ما كنت كتبته، وقد لا أخالفه فى عديد منها وأعيد القول بأننا فى هذا الموضوع وما يماثله، لا نتدافع ولا نتهاجم، ولكننا نبحث، ولا نكره ولا نحب، ولكننا نستفيد الدرس.

الدولة العثمانية ليست مجال معركة فكرية ،ولذلك، فإننى عازم على وقف الحديث فى هذه النقطة.

ولكننى أشير إلى ملاحظتين: الأولى، أن خلو سجلات المحكمة الشرعية من ذكر لقضاء الحدود أمر تتفاوت فى فى دلالته العقول، وهو لا يفيد باللزوم انتقاصا من أصل قيام الشريعة الإسلامية، ولم يقل أحد فى الماضى ولا فى الحاضر إن مدى تطبيق الشريعة يقاس بعدد من قطعت أيديهم.

ولا يقاس مدى احترام القانون ونفاذه فى أى بلد بعدد المحكوم عليهم بالحبس والإعدام، وإلا كانت الدول الأوروبية أقل البلاد احتراما للقانون. والمعروف أن أحكام الحدود فى التاريخ الإسلامى كانت قليلة، وأن الأثر الرادع يفوق ما عداه منها، حتى فى عهد الرسول ﷺ.

والملاحظة الثانية، أن إنكار قيام الشريعة كمصدر للشرعية على هذا المدى المتطاول من الزمن الذى يقاس بالقرون، لا تقوم معه حجة مستديمة لصالح دعاة النظم الوضعية، فإن قصارى إنكارهم وجود الشريعة فى الماضى أن نظم الماضى كانت وضعية، وبنجاحهم فى إثبات ذلك يكون ما يصورنه من فساد تلك النظم الغابرة، مما يسيء إلى النظم الوضعية بعامة، ويحمل عليها أوزار الماضى، ويبرئ ساحة الشريعة من هذه الأوزار، وتصير أحكام الشريعة - المطلوب تطبيق الآن - هى بديلا مثاليا لم

يجرب بعد في التطبيق الماضي. وإذا كانت عبارات المعقب توحي أن الدولة العثمانية لم تكن تطبق الشريعة، فأتصور أنه يكون بذلك ساق حجة ضد منكري الشريعة، إذ فك التلازم الذي يصورونه ويوحدون به بين حكم الإسلام وبين الدولة العثمانية؛ ليضربوا الإسلام بمقتل هذه الدولة، ويجرحوه بما يسفهونها به.

وليتدبر الأستاذ المعقب أن نفي الإسلامية عن سائر نظم ما بعد الراشدين وعهودهم، أمر يوافقه فيه الغلاة من الحركة الإسلامية ليتدبر في هذا الاستقطاب الحاد الذي تحدثه فكرة واحدة فيضرب بها الاعتدال، ولا يبقى إلا غلاة على الطرفين، معطلون للشريعة يعتبرونها ابنة تاريخ غبر، يقفون في جانب قصي، ومكفرون للمجتمع يقفون في جانب قصي آخر.

سابعا: لا أتفق مع ما يذكره الأستاذ المعقب من أن علاقات القانون العام التي تقوم بين الأفراد والدولة وبين مؤسسات الدولة بعضها وبعض، «كانت بعيدة تماما عن مجال الشريعة الإسلامية»، وإن كنت أسلم بأنها لم تول اهتماما كبيرا من فقهاء المسلمين، وأسلم بأن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسات الواعية لآليات عمل الدولة في المراحل المختلفة، ودراسة فقه الأحكام السلطانية، كما أتصور أن هناك استحسانا عاما وتقبلا للكثير من نماذج التنظيمات التي تولدت في الحضارات الأخرى والحضارة الغربية المعاصرة، وأنه يمكن هضمها في إطار كليات الشريعة وسيادتها.

وقد فرق المعقب بين إعلان الدولة تطبيق الشريعة، وبين التزامها الفعلي. والفرق قائم أقر به. ولكن هناك فرقا آخر لم أر المعقب اعتنى به أي عناية، وهو الفرق بين من يعلن الخروج عن الشريعة وإزاحتها عن مجال الشرعية المهيمنة في المجتمع ونشاط الدولة، وبين من يقر بحاكميتها وسيادتها وإن خالفها. هذا فرق هام جدا لا أظن أن علم الاجتماع القانوني يسقطه من حسابه، وهو في الفقه الإسلامي يماثل الفرق بين المنكر والعاصي، أي بين من يقول بعدم تحريم الخمر أصلا ومن يقول بتحريمها وإن شربها. الأول، يعتبر منكرا لما يعرف من الدين بالضرورة، ولا يعترف بأصل الشريعة القائمة.

والثاني، لا يعتبر من الخارجين على الملة، وإن وجب عقابه وردعه.

ثم يميز بين القانون الرسمي والقانون الشعبي الواقعي. وهو يبتعد بالأول عن الشريعة فلا يجعله حكرا عليها، ويسلم بوجودها في الثاني، أو «لا يرفض هذا القول في «عمومه» ثم يشك في أن «الأمة» التي تطبق هذا القانون الإسلامي كانت تعلو «الدولة» التي لا تطبقه، لأن الأمة في قوله إن علت على الدولة لكانت بلورت «نظرية» مماثلة لنظرية القانون الطبيعي في أوروبا إبان عصر نهضة «البرجوازية». وأنا لم أفهم هذا التعليل برغم أنني دققت فيه كثيرا. هل يمكن أن نجزم بأن أمرا لم يحدث عندنا، لأنه لو كان حدث لنتج عنه ما حدث في أوروبا؟ هل بلغت حتمية الامتثال للتجربة الأوروبية هذا الحد من التطابق الآلي؟ وإذا كانت الأمة التي تطبق القانون الإسلامي تعلو الدولة التي لا تطبقه تماما، فمن المنطقي أن يتبلور فكر الثورات والمقاومة في صيغ إسلامية. ومن المنطقي أن

يبتعد عن المنزع العلماني مثلا. وهذا ما حدث في الحركات الثورية والفكرية الكبرى التي عرفناها منذ ابن تيمية وبخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومن جهة أخرى، فإن حكام اليوم في النظم العلمانية القائمة، سلطانهم نراه أوسع وأنفذ وأوغل في حياة الناس من حكام الأمس وإنسان اليوم لا يستطيع أن يمارس حياته اليومية إلا وفق مجموعة ضخمة من القواعد والعلاقات التي تقيم الدولة طرفا فيها، والتي تسنها مؤسسات الحكم وهذا أثر من آثار النظم الوضعية في مجتمعاتنا لأن القانون الوضعي صار صنوا لقانون الحاكم، ولأن النظم الوضعية حطمت الكثير من المؤسسات الاجتماعية التقليدية التي كانت ذات قدرة على التسيير الذاتي. وكل ذلك على خلاف ما كان عليه مجتمع الأمس بالنسبة لاتساع نطاق النشاط «الأهلي» غير الحكومي وامتداده في المؤسسات الفكرية والتعليمية والقانونية والاقتصادية. وهذا أمر نفعنا فيه بعلمه وذكائه أستاذنا الدكتور توفيق الشاوي، ولذلك، فلا أتفق مع الأستاذ المعقب في غلبة قانون الحاكم على قانون «الأمة» قديما، وإن كنت لا أقره أيضا في مدى ابتعاد الحاكم قديما عن الشرعية الإسلامية.

ثامنا: نقل الأستاذ المعقب عن بحث آخر أن فتوى كانت صدرت في الدولة العثمانية تجيز التعامل بالربا فيما لا يزيد على ١٥٪. ولم أتبين دلالة ذلك فيما نحن كلانا يجادل فيه. والربا موضوع لبحث فقهي خاص، واختلاف الرأي فيه لا يعني بالضرورة إهدار الشرعية الإسلامية. ونحن نرى الآن من يفتي بأن بعض أنواع شهادات الاستثمار لا يعتبر صكوكا ربوية. وقد تختلف أو تتفق مع القائلين بذلك، ولكن الكلام هنا كلام في الفروع وليس في أصل انطباق الشريعة، متى كانت الآراء المتعارضة تستند إلى أصول الشريعة.

فإذا كان الاستاذ المعقب يريد أن يستدل من هذه الفتوى على أن الشريعة لم تكن مطبقة، فهذا يلزمه أن يطالع الفتوى لنرى وجه اتكالها على أصول الشريعة أو استنادها إلى مستند وضعي غير شرعي وإذا سألني سائل عما إذا كنت أعُدّ أي قول «شرعيا» متى ادعى استناده إلى بعض الأسانيد الشرعية، أقول لا بطبيعة الحال. ولكن الحديث يجرى على مستويين: الأول، إقرار أصل قيام المبدأ، والتسليم به. ثم يرد المستوى الثاني، وهو الاجتهاد والإحسان في تطبيق المبدأ بما يحقق أمثل الصور التطبيقية له، الكافلة باستقلال الجماعة وأمنها ونهضتها.

وقد نجد في تحريم الربا والالتزام بهذا التحريم وجوها لمناهضة قوى البغي العالمية ومؤسساتها الاقتصادية. ولكن شريطة ألا يكون منع الربا هو أول الحلال وآخره. شريطة أن يكون منع الربا هو أول الحلال فقط. أما آخر الحلال، فهو في نوع الأنشطة الاقتصادية المنتجة غير الطفيلية التي تبني اقتصادا مستقلا ناهضا يحرر الجماعة من التبعية للقوى الكبرى، ويحرر الإرادة السياسية للدولة من كل ما يضغط عليها ضد التحقيق الأمثل لصالح جماعتها. ولن يقوم أول الحلال بغير آخره. فحق الجماعة حق الله.

أدب السؤال

د. طه جابر العلواني



السؤال دليل حياة، ومادام الإنسان يسأل فذلك يعني أنه حي قارئ، متعلم مستعد لأن يزداد علما ومعرفة، والأسئلة أنواع؛ فهناك السؤال التقريري:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(البقرة: ١٠٦)

وهناك الاستفهام الإنكاري:

﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾

(البقرة: ١٤٠)

وهناك سؤال تقرير وشهادة إلى الغير:

﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

(المائدة: ١١٦)

وهناك السؤال الاختباري، كسؤال الأستاذ لطلابه اختبارا لمعلوماتهم، وللاطمئنان على استيعابهم لما تعلموه، وهناك سؤال التعلم والتأكد من صحة واستقامة ما تعلم، كأسئلة الطلاب لأساتذتهم والعامة لعلمائهم، وهناك أنواع أخرى، مثل سؤال التحدي والتعجيز.

ولكل نوع من هذه الأنواع أسلوبه وصياغته ودلالاته وظروفه، وزمان إثارته وتوجيهه، وكيفية السؤال وصياغته تبين طبيعته وتشير إلى مستوى عقلية من أثاره؛ ولذلك قالوا: «السؤال نصف الجواب»، و«سؤال التعلم» بالذات إذا حسنت صياغته فإنه بذلك يحدد المسئول عنه بدقة، ويبين غرضه والفائدة منه بحكمة، وما قد يسميه القانونيون «بتكييف الواقعة أو المسألة»، أو ما يسميه الأصوليون بتحرير موضع النزاع» ويجعل مهمة المسئول سهلة ميسرة تنحصر في بيان حقيقة ما سئل عنه بحسبه، سواء أكان شأنا سياسيا أو لغويا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو قانونيا أو فقهيا أو شرعيا، وقد يبين قيمة وأهمية ما سئل عنه أو أي شيء أو جانب وجه السؤال نحوه.

وللمجيب أن يحاور السائل حتى يعينه على إيضاح مراده ليحسن ويتقن الإجابة عنه، وللسائل ـ بعد ذلك ـ أن يستوضح حتى يطمئن إلى أنه حصل على الجواب الشافي؛ لأن هناك أجوبة غير شافية، وكلما ارتقى مستوى أسئلة الناس ارتقت إجابات المجيبين، ودل ذلك كله على رقي المستوى المعرفي والثقافي في تلك البيئة، وبين تلك الأمة من الناس.

ومن مظاهر الانحراف الخطيرة هبوط مستوى الأسئلة التي تثار، أو تجاوزها معالي الأمور إلى سفاسفها، وعلى الأستاذ والعالم والمسئول أن يعلم المتعلمين كيف يرتقون ويرتفعون بمستوى أسئلتهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

(المائدة: ١٠١)

وأن يتلطف في تعليم الناس كيف يسألون وعم يتساءلون.

والأمم التي تتوقف عن السؤال، أو لا تعرف كيف تصوغ أسئلتها، لا تعرف أولوياتها، ولا تدرك مآلاتها، جاء بعض الحجاج من أرض السواد ـ العراق ـ إلى الحج فأشار بعض الناس على عبدالله بن عمر ـ صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، وأحد كبار قراء الصحابة ـ فاغتنموا الفرصة وجاءوا إليه يسألونه عن أمور دينهم!! فأقبل عليهم، فإذا بهم يسألونه عن دم «البرغوث» أيُصلي بالثوب إذا أصابه دم البرغوث؟ فأشاح ـ رضي الله عنه ـ بوجهه عنهم، وقال: «أيُقتل ابن بنت رسول الله في أرضكم فلا تسألون عن دمه وتسألون عن دم البرغوث؟»، وحين تهبط الأمة إلى هذا الدرك فإما «التجديد وإما الاستبدال».

وإذا تجاوز الأمر الأفراد والعامة إلى الخاصة فتلك هي الكارثة، وعلى مستوى الأسئلة الفقهية ومجامعها وتدواتها لم تر من بين ما يثار من أسئلة موضوع «وحدة الأمة»، خاصة عند التحديات والمخاطر، ولم نر أسئلة عن المعادن والثروات في باطن الأرض، أهي ملكية خاصة للذين يعيشون على تلك الأرض أم هي ملكية للأمة؟! والتصرف بالأموال وضوابطه وموقف الأمة والشريعة منه، ترى هل أخطأ أبو العلاء المعري حين قال للديك: «استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الأسد؟»! وفي الأسئلة ـ أيضا ـ أسئلة استضعاف واستكبار.

***

الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية

أ. د. السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالزقازيق
Sayeed. Addeeb @ hotmail. com.

ينبغى أن يحرص المسلمون - أينما وجدوا - على وحدة أمتهم، وصيانة معتقداتهم، والدفاع عن أمنهم وممتلكاتهم، ومواجهة الأعداء والخصوم، الذين يتربصون بهم، ويسعون للتفريق بينهم، وأن يكون الحفاظ على العقيدة الإسلامية هدفاً، يجب التمسك به وعدم التخلى عنه، وذلك كله عن طريق الحوار الهادئ البناء.

مظاهر التوحد فى الأمة الإسلامية

لقد كانت حياة الأمة الإسلامية من خلال شعوبها وعقيدتها موضعاً للمد والجزر وللتلاقى والاختلاف، وكانت العلاقة بالآخرين منذ بداية الفتوحات الإسلامية مشوبة بالقلق والحيرة، وعدم الثقة - أحياناً - مما أهل العلماء والمفكرين الإسلاميين من خلال مسيرة التاريخ لشرح مقاصد الشرعية؛ فيما يتصل بوحدة الكلمة ووحدة الصف، والتحذير من الفرقة والاختلاف، وكانت دعوة الإسلام - ولازالت - معنية بأسباب التوحد ومتطلباته، وجاء البيان لذلك فى القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال الإقرار بربوبية الله تعالى، والدعوة لعبادته وحده لاشريك له، وإلى مراعاة تقوى الله، تلك التى تؤهل القلوب المؤمنة؛ للتبصر إلى كل ما ينير الطريق لحاضر الأمة ومستقبلها.

وجاء البيان الأول لذلك من خلال آيتين كريمتين من آيات القرآن الكريم، تتفقان فى المضمون، وتتقاربان فى الهدف والغاية تقول الأولى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وتقول الثانية:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾

(المؤمنون: ٢٥)

وتجلت الدعوة إلى التوحد فى سائر نطاقات العالم الإسلامى، وذلك بوجوب التمسك بكتاب الله الكريم، فهو حبله المتين الذى يجب الحرص عليه والاعتصام به فقال تعالى فى ذلك:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وتكشف بدايات التكوين العقائدى للأمة من خلال مسيرة الإسلام، يوم أن كان دعوة جديدة ظهرت أضواؤها فى مكة المكرمة، وانتشرت فى المدينة المنورة، وزادت قوة الدفع لها، بفتح مكة، حيث توجد الكعبة المشرفة، التى احتمى بها الناس جميعاً، وانتشر العفو والتسامح يوم أن دخلها الرسول والمسلمون، وكان الهتاف بالصوت النبوى من القرآن الكريم وذلك قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الإسراء: ٨١)

وحض الرسول ﷺ على حماية الدعوة وحتمية التوحد ونبذ الفرقة، ونشر المحبة والتسامح، وعدم ممارسة الإكراه فى الدين والحياة، فقال الرسول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[1].

وقد لجأ الرسول فى نهاية هذا الحديث إلى التشبيك بين أصابعه، تدليلاً على حتمية التجمع وعدم التفرق، تلك هى البذور الأول لإنبات المحبة والتلاقى فى بداية الإسلام، وعبّر الرسول فى حديث ثان عن حتمية التوحد والتعاطف والتراحم، وتلك بداية التوجيه البيانى، من خلال الحديث النبوى الذى أورده النعمان بن بشير حيث قال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

وبدأت نطاقات العالم الإسلامى فى الاتساع قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى، وتحركت الجيوش إلى الشام والعراق، وتوالت فى مرحلة تالية من حياة الأمة الفتوحات الإسلامية، بعيداً عن حدود الجزيرة العربية، وكان التحذير دوماً من التفرق والانقسام، ونشر الفتنة، تلك التى تجتاح الأخضر واليابس، والبرّ والبحر فتعم البلوى ويزداد الفساد، قال تعالى فى ذلك:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الأنفال: ٢٥)

أسباب التفرق والشقاق

لقد تولدت الفتن عندما اتسع نطاق الأمة الإسلامية، والتى احتوت أجناساً مختلفة، وكانت السنوات تمر، ويأتى الوفاق الذى لايطول ثم لا تلبث الأحوال إلا أن تتغير، ولا يستقيم الحال، وقد خسرت الدنيا كلها كثيراً بسبب نشر الفرقة بين مكونات العالم الإسلامى، فكان الوفاق يتوارى ويظهر الشقاق، وأصبح واقع الأمة الإسلامية خاضعاً لتوجهات القيادات السياسية فى عصر الدولة الأندلسية بالغرب، حيث تسرب الخلاف إلى الدويلات الإسلامية الصغيرة، التى كانت تتقاتل فيما بينها، مما شجع الأعداء على

١- متفق عليه.
٢- متفق عليه.

اقتناص فرص الضعف، والتفرق بين إخوان الدين والعقيدة واللغة إلى أن هبت الرياح هبتها الأخيرة فاقتلعت آثار الحضارة العربية والإسلامية، بعد مرور ما يقرب من ثمانية قرون، من المجد والتميز، وكان البكاء لذلك الشأن حاراً موجعاً، ونذكر فى ذلك قول الشاعر:

لكل شىء إذا ما تم نقصانُ
فلا يغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هى الأمورُ كما شاهدتها دولٌ
من سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تبقى على أحد
ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

وكانت القيادات فى كثير من أحوال الأمة عبر التاريخ الإسلامى من أسباب الإخفاق والشقاق، والقتال بين الممالك والدويلات، مع أن المنهج الإسلامى ودعوته الرشيدة شديدةُ الحرص على التدقيق فى اختيار القيادات، بحيث يكون الوصول إلى الولاية من غير نزاع وقتال، مع الاحتكام إلى الشورى، وتغليب صالح الأمة مع الرفق والرحمة واللين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم، من ولى من أمر أمتى شيئاً، فرفق بهم فارفق به، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً وشق عليهم فاشقق عليه»(٣). وقال رسول الله ﷺ: «من خرج على الطاعة، وفارق الجماعة فمات مات ميتة الجاهلية»(٤).

ويتهم الإسلام كثيراً ـ فى الوقت الراهن ـ بما ليس فيه مع أن مبادئه ثابتة فى حتمية الالتزام والشورى، وتحقيق العدل والمساواة، وتولية الحاكم الأصلح، الذى ينبغى أن يكون اختياره مبنياً على أسس محكمة، مع التسليم المطلق بحق كل مسلم فى تملك حرية الرأى، ولكن هذه القواعد ـ مع وضوحها ـ شبه مغيبة عن الواقع، ويتم توجيهها أحياناً على غير المراد منها؛ استجابة لتوجيهات وافدة من خارج الأمة على امتداد رقعتها وكثرة المنتمين إليها والحاملين لعقيدتها.

وحدة الأمة بين الماضى والحاضر

إن حرية الرأى مكفولة فى الإسلام، وينبغى أن ينهض بها ويحرص عليها المسلمون فى كل مكان وزمان، ونذكر فى هذا الشأن مقولة أبى بكر عند بدء خلافته للمسلمين حيث قال: «أما بعد فإنى وليت أمركم ولست بخيركم، وقال: «إن أقواكم عندى الضعيف، حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق»(٥)، أى أنه تولى أمر الأمة بعد الاتفاق على خلافته للمسلمين، ولم يكن بدء مهمته بقرار مسبق، أو بشىء بعيد عن الطرح الإسلامى، الذى تم تداوله بحرية ونقاش هادئ، فى سقيفة بنى ساعدة، وكان الاختيار مبنياً على الشورى، ونزولاً على قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٠٥)

٣- أخرجه مسلم.
٤- رواه البخارى
٥- الرياض النضرة للمحب الطبرى ص ٢٩٠.

وتذكر صحائف التاريخ أن عمر بن الخطاب عندما كان فى النزع الأخير طالبه الصحابة بالوصية فقالوا له: «أوص يا أمير المؤمنين استخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر، أو الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبدالرحمن وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شىء»(٦).

ثم واصل وصيته التى أوصى فيها الخليفة من بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل الأمصار، والأعراب، دون أن يستثنى أحداً من مكونات المجتمع، واستقر إجماع الأمة فيما بعد على خلافة عثمان بن عفان.

وكان السعى إلى وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وتأكيد وحدتها وعدم تمزقها، انطلاقاً من الحرية الشاملة التى أقرها الإسلام من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

إن واقع الأمة فى الوقت الراهن يشعر ببعض الألم، ويدعو إلى مراعاة الضوابط والمعايير الإسلامية، بشأن الحوار الهادف البناء، وتطبيق أصول العدل والمساواة وحرية الرأى، ومقاومة كل ما يفت فى عضد الأمة، ويهدد وحدتها، وأن يكون كل ذلك خاضعاً للرحمة التى حضَّ الإسلام عليها فى ضوء قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَرحمُ اللهُ من لا يرحم الناس»(٧).

لقد كانت الصفوة من المسلمين، خلال مسيرة الدعوة إضاءات كاشفة إلى غيرهم من سائر الخلق فى معظم دول العالم الإسلامى، والأمل فى العودة إلى التماسك والترابط وتحقيق الوحدة الشاملة مازالت أحلاماً أو رغبات وطموحات، ينظر إليها سائر المسلمين فى كل بقاع الأمة التى ستبقى ـ بإذن الله تعالى ـ مصانة بالقرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحرص عليها والعمل بها. والله الموفق.

***

٦- نيل الأوطار للشوكانى ج٦، ص٤٧.
٧- رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد.

نحو خطاب إسلامى مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر

أ.د. عصام أحمد البشير
الأمين العام المساعد للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين



الخطاب الإسلامى: دلالة المفهوم والمصطلح

للخطاب مفهومان لغوى واصطلاحى:

المفهوم الأول أصيل، ثابت، بسيط غير مركب، عرفته العرب وورد ذكره فى القرآن الكريم، وفى حديث رسول الله ﷺ، وفى المعاجم اللغوية الأولى.

أما المفهوم الثانى: فإنه معاصر وذو طبيعة تركيبية يتعدى بها الدلالة اللغوية، إلى المدارك الفلسفية، والأبعاد السياسية، والمرامى الإعلامية.

وتتضح الفروق بين الدلالات حسب السياقات التى ترد فيها.

أولا: على مستوى المفهوم اللغوى:

جاء فى لسان العرب: الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان. وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده.

والخطاب كما قيل: هو الكلام الذى يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذى لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا (١).

ثانيا: على مستوى المفهوم القرآنى:

وردت فى القرآن الكريم مشتقات «خَطَب» تسع مرات، وورد لفظ «خطاب» ثلاث مرات وهى قوله تعالى:

﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾

(النبأ: ٣٧)

وقوله:

(١) ابن منظور/ لسان العرب - الجزء (١) - الصفحة ٣٦٠

﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾

(ص: ٢٣)

والذى يعنينا منها الآن مما يناسب المقام هو قول تعالى:

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

(ص: ٢٠)

نلاحظ فى سياق ورود لفظ «خطاب» فى هذه الآية الكريمة أن الخطاب مقرون بالحكمة. وهنا مجال فسيح للتأمل والاستبصار والتدقيق فى اكتناه المعنى العميق للفظ «خطاب» مما يخرج به عن المفهوم اللغوى بحسبانه مراجعة للكلام، أو الكلام الذى يقصد به الإفهام، ويرتقى به إلى مستوى أرفع شديد اللصوق بمعنى الحكمة التى هى وضع الأمور فى حاق موضعها وتدبيرها على ما ينبغى لها.

ويتلاقى المفهومات اللغوى والقرآنى، فى تأكيد الدلالة السامية للخطاب، على اعتبار أن «فصل الخطاب» لا يتم على الوجه الأفضل، إلا إذا اقترن بالحكمة، وكان القصد منه تبيان وجه الحق على أكمل الوجوه وأتمها.

ثالثا: على مستوى المفاهيم الحديثة:

الخطاب اصطلاح فلسفى، يقارب فى الدلالة «المقولة الفلسفية». فالخطاب الفلسفى لفلان هو منهاجه فى التفكير والتصور وفى التعبير عن أفكاره وتصوراته، وهذا الخطاب يتعارض أو يتوافق مع الخطاب الفلسفى لعلان.

ودخل هذا المفهوم فى الفكر السياسى المعاصر، فصار الخطاب السياسى، منطوياً على المنظومة الفكرية والمضمون الإيديولوجى، مما يجعل الخطاب السياسى لهذه الجماعة معبراً عن عقيدتها السياسية واختياراتها المذهبية، فالخطاب فى هذا المقام ليس مجرد أسلوب للتبليغ، وطريقة للتعبير عن الرأى والموقف.. لكنه، أيضا، الوعاء المعبر عن العقيدة والروح والفلسفة والمذهب.

وينطبق هذا المفهوم أيضاً، على الخطاب الثقافى، والخطاب الأدبى، والخطاب الفنى، والخطاب الإعلامى، وإن كان الخطاب الإعلامى أكثر استيعاباً للمضامين الواسعة، بحيث يمكن أن يستوعب المستويات الخطابية جميعاً، فيكون الخطاب الإعلامى الدينى، والخطاب الإعلامى الفلسفى، والخطاب الإعلامى السياسى...إلخ.

وإلى هذا المعنى تنصرف الأذهان عند الحديث عن الخطاب الإسلامى، باعتبار أن المقصود هو الوسيلة التى يخاطب بها المسلمون العالم، والمنهاج الذى يصوغون من خلاله أفكارهم وآراءهم ومواقفهم التى يريدون إيصالها إلى القطاع الأوسع من الرأى العام العالمى، وذلك عبر وسائط الإعلام والتواصل المختلفة، من المقروءة والمرئية والمسموعة.

وبناء على ذلك، فإننا نستطيع أن نقول: إن الخطاب الإسلامى هو الإطار الأوسع للدعوة الإسلامية بالمفهوم العميق والشامل(٢).

تعريف الخطاب الإسلامى

ويمكننا أن نعرف الخطاب الإسلامى تعريفاً أوليا بأنه: الخطاب الذى يستند لمرجعية

(٢) انظر: الخطاب الإسلامى بين الأصالة والمعاصرة، د. عبدالعزيز التويجرى، موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
http://www.isesco.org.ma/pub/arabic/khitab/p2.htm

إسلامية من أصول القرآن والسنة، وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى.. سواء أكان منتج الخطاب جماعة إسلامية، أم مؤسسة دعوية رسمية أو أهلية، أم أفرادا متفرقين؛ جمعهم الاستناد للدين وأصوله؛ مرجعية لرؤاهم وأطروحاتهم، ولإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يحيونها، أو للتفاعل مع دوائر الهويات القطرية أو الأممية أو دوائر الحركة الوظيفية التي يرتبطون بها ويتعاطون معها(٣).

مستويات الخطاب: أمة الدعوة.. وأمة الإجابة

أرسل النبي ﷺ إلى الثقلين جميعاً حتى قيام الساعة، فكل المكلفين من لدن بعثته الشريفة وحتى آخر مكلف تقوم عليه الساعة هم من «أمة الدعوة» باعتبار توجه خطاب الإسلام إليهم أما «أمة الإجابة» فهم من استجاب للدعوة المحمدية وأسلم وجهه لله تعالى.

ولكل من هؤلاء وأولئك أرسل النبي الخاتم رحمة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

وينبغي أيضا أن يكون لكل مستوى ومضمون يخصه في الخطاب الإسلامي.. أما «أمة الدعوة» فيتأسس الخطاب الموجه إليها على هدى عدد من المبادئ ونشير إلى بعضها.. منها:

١- الاعتراف بأن الاختلاف بين بني البشر في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، فقد منح الله البشر حرية الاختيار في الاعتقاد بين الإيمان والكفر.

٢- وحدة الأصل الإنساني والكرامة الآدمية: انطلاقا من قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وقوله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

(الإسراء: ٧٠).

٣- التعارف: لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكما ورد في الحديث: «وأشهد أن العباد - كلهم - إخوة» (رواه أبو داود). فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن بالتعبير العصري، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلا من إهمالها. ومن ثمرات التعارف التي دلت عليها الآية الكريمة، حصول المعرفة وتبادل التجارب وكذلك بذل المعروف الخلاق.

٤- التعايش: إذ أن حياة المتشاركين لا تقوم بغير تعايش سمح: بيعاً وشراء.. قضاء واقتضاء.. ظعنا وإقامة. وتاريخ المسلمين حافل بصور التعامل الراقي مع غير المسلمين. وقد حدد الله سبحانه وتعالى أساس هذا التعايش بقوله:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

٥- التعاون: كثير من القضايا العامة تشكل قاسماً مشتركا بين المسلمين وغيرهم، ويمكن التعاون فيها، كما أن الأخطار التي تتهددهم معا ليست قليلة، ويمكن أن تشكل هذه القواسم المشتركة منطلقاً للتعايش والتعاون.

وأما «أمة الإجابة» فيتلخص ما يجب أن ينصرف إليه الخطاب الإسلامي المعاصر بخصوصها في كلمة: «المصالحة»!

- المصالحة بين العاملين في الحقل الإسلامي، ولاء وقياماً بالفرائض والشرائع، يقول الحق عز وجل:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

● المصالحة بين جماعات العمل الإسلامي والتيارات الوطنية والقومية، تعاونا على البر والتقوى، وتناهيا عن الإثم والعدوان، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(المائدة: ٢)

● المصالحة بين المؤسسات الرسمية والشعبية.

● المصالحة بين الشعوب والأنظمة.

ولنا، بإذن الله تعالى، إلى هذه «المصالحات» الواجبة عود عند حديثنا عن «آفاق الخطاب الإسلامي المعاصر».

امتداد الخطاب: النخبة.. والجمهور

إن تأمل قول الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

(إبراهيم: ٤)

يدل بوضوح على أهمية تخير «اللسان» المناسب لكل قوم ولكل خطاب. فليس ما يصلح تعليماً وتربية لـ«أمة الإجابة» صالحاً بالضرورة داعياً وهادياً لـ«أمة الدعوة» وكذلك.. ما يصلح مثاقفة وتأملا لـ«النخبة» من أهل الفكر والرأي والسلطة بصالح بالضرورة خطاباً عاماً للجمهور.

ولا يعني هذا إحداث نوع من الفصام بين «النخبة» و«الجمهور».. فدين الله تعالى واحد، بيد أن لكل منه نصيباً مقدوراً من الفهم والوعي والتمثل.. وفي المأثور عن الإمام علي - رضي الله عنه -: «حدثوا الناس بما يعرفون.. أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!» (٤)، ومثله ما روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بسند صحيح: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة!» (٥).

«يتبع»

(٣) انظر: الخطاب الإسلامي.. الماهية ودلالات التجديد، وسام فؤاد: http://wessamfouad.modawanati.com

(٤) صحيح البخاري بالرقم: ١٢٧.

(٥) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية د. ط. د. ت - ص١٥٦.

الفتح الإسلامي لمصر (٩)

جيل قرآني فريد



أ.د. محمد سليم العوا

في نحو عشرين عاماً، أو تزيد قليلاً، أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في صحراء شبه جزيرة العرب بصورة لم تكن تخطر على بال أحد، وبعث رسله يدقون أبواب الدول المجاورة لجزيرة العرب(١)، إلى الحد الذي روى فيه الإمام مسلم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ «أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه»(٢). إن كلمة النجاشي لقب لملوك الحبشة في ذلك الزمان وليست اسم علم على ملك بعينه، شأنها شأن كلمة (فرعون) بالنسبة لملوك مصر القديمة، وكلمة (المقوقس) بالنسبة لحكام مصر الذين كانت تعينهم الدولة الرومانية الشرقية.

وأهم من ذلك أنه ربى جيلاً من الصحابة الأخيار الأبرار على وقع تنزل الوحي وهديه، وبرعاية الله لنبيه ﷺ وعنايته به، حتى خرج من هذه التربية النبوية رجال ليس لهم فيمن بعدهم نظير، وصفهم سيد قطب، رحمه الله، بأنهم «جيل قرآني فريد»(٣). استطاعوا أن يكملوا الرسالة من بعده، فخرجوا من الجزيرة العربية ليواجهوا الإمبراطوريتين العظيمتين لا للاستيلاء على مغانم وبلاد وأراض، ولكن ليبلغوا رسالة ربهم ويخرجوا الناس من جور الحكام إلى عدل الإسلام.

كان هدف الفتوح ـ وفتح مصر من بينها ـ هو بناء الإنسان المسلم الذي يعرف ربه حق المعرفة ويعبده كما ينبغي له سبحانه وتعالى، فتلك هي رسالة الإسلام(٤) الحقة الخالدة كما قال القرآن الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

(١) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٨٠.

(٢) رواه مسلم ح (١٧٧٤).

(٣) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣م، ص ١٤.

(٤) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٨١.

ولذلك كان قول المسلم إذا سئل عن إلهه:

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾

«الزمر: ١٤»

وكان محرما عليه أن يعبد سواه:

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

(هود: ٢)

وعلمه القرآن أن الحاكم المستحق للعبادة هو رب العالمين:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

(يوسف: ٤٠).

والآيات في هذا المعنى الكلي عديدة، وقد حكاه القرآن على لسان أنبياء الله ورسله كافة.

وهذه العبادة تتضمن بطريق اللزوم الخضوع لأوامر الله ونواهيه، أي التسليم بما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ.

***

لقد تم فتح مصر في نحو عامين (١٩ هـ ـ ٢١ هـ)، واستقر الحكم الإسلامي فيها بعد هزيمة منويل الخصي سنة ٢٥ هـ، وكانت هزيمته على يد قائد الفتح الأول: عمرو بن العاص الذي عاد إليها من المدينة بأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان: رضي الله عنه، بعد أن كان قد عزله وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فلما دخل منويل الإسكندرية وغلب عليها، أعاد عثمان بن عفان عمرو بن العاص ليقود المسلمين في هذه المواجهة الثانية مع الروم على أرض مصر.

وكان الجيش الإسلامي يضم عشرات من أصحاب رسول الله ﷺ الذين تربوا على يديه، وتعلموا منه، وشاهدوا تنزل الوحي، فكان هؤلاء هم حملة الإسلام إلى مصر وأهلها. نعم، إن الذي يلاحظه بعض دارسي الفتح الإسلامي من أن الجيش المسلم لم يكن معه دعاة ومبشرون ينشرون الإسلام، صحيح، لكن أولئك الصحابة الكرام كانوا حملة الدين والدعوة إليه بعلمهم وخلقهم وسلوكهم، لا بالكلام الذي يكذبه العمل، كما يفعل كثيرون من الدعاة إلى المذاهب والأفكار في كل العصور. كان الواحد منهم يعرف أنه لم يخرج من بلده إلا لنشر هذا الدين، وأنه إذا حيل بينه وبين نشره سيقاتل حتى ينتصر فتفتح له أبواب الدعوة إلى الله أو يموت شهيداً. وكانوا على قول رجل واحد أنهم لا يريدون منازعة أحد في مُلكه أو حكمه ما تركهم يبلغون الناس دعوة النبي ﷺ.

وإذ كان هؤلاء الصحابة هم حملة الوحي والهدى، إلى مصر وأهلها، فإنه يحسن بنا ـ ونحن نختم حديث الفتح الإسلامي لمصر ـ أن نذكر طرفاً من أخبار بعض هؤلاء الصحابة.

ولنقل قبل ذلك إن الصحابة الذين دخلوا مصر بلغ عددهم ٣٥٧ صحابياً وصحابية، وإن الذين شهدوا فتح مصر منهم نحو ١٤٠ صحابياً، والباقون «نزلوا مصر» أو «سكنوا مصر» أو «ماتوا بمصر»، ولكل واحد من هؤلاء أثره، بغير شك، في انتشار الإسلام واستقراره في مصر. وتأكيد هذه الحقيقة يقتضي تأمل قول ابن حزم الظاهري عن الصحابة: «كلهم عدل إمام فاضل رضيٌ فرضٌ علينا توقيرهم وتعظيمهم... وكل امرئ منهم... لاشك أفتى أهله وجيرانه وقومه...»(٥). لكل واحد من هؤلاء الصحابة، إذن، نوع من المشاركة في الدعوة والتعليم وتفقيه الناس، لأن الناس،

(٥) الإحكام في أصول الأحكام، ط الشيخ أحمد شاكر، القاهرة د. ت، ج٥ ص٦٦٣ و٦٦٥، وط دار الكتب العلمية، تحقيق محمد تامر، بيروت ٢٠٠٤، ص٨٢ و ٨٤.

يومئذ، كانوا إذا نزل بهم أمر قالوا: أفيكم أحد من أصحاب محمد ﷺ؟ فإن وجدوه سألوه ولم يخالفوا قوله، فإن لم يجدوا صحابيا سألوا عن التابعين، ولم يكن تعليم أولئك وهؤلاء للناس إلا من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ.

ولا يتسع المقام لذكر بعض أخبار هؤلاء جميعا، فنكتفي بذكر بعض مشاهيرهم الذين كان لهم في الفتح أثر مذكور. وقد ذكرت بعض أخبار عمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو، فيما سلف، فلأذكر الآن غيرهما من الصحابة القواد، رضي الله عنهم أجمعين. ونحن نذكر ذلك لأمرين:

● أحدهما: التعرف على ذوي الفضل على بلادنا بنقلها من الوثنية، واختلاف عقائد الدين الواحد، إلى توحيد الله بالإسلام له.

● وثانيهما: أن نعرف أن الذين يخوضون في حياة هؤلاء الصحابة بالأباطيل والحكايات المخترعة مخطئون، بل جاحدون لفضلهم، وكفى بذلك نقيصة يرمى بها المرء نفسه.

١- الزبير بن العوام بن خويلد، حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أعلام السادة السالفين البدريين، كما يقول الإمام الذهبي في ترجمته.

أسلم وله اثنتا عشرة سنة، وقيل ثمان سنين والأول أثبت. هاجر الهجرتين. وكان طويلا تخط رجلاه في الأرض إذا ركب. وكان له ألف مملوك يؤدون إليه عائد عملهم فكان يتصدق به كله، ولا يدخل بيته شيئا منه. كان أحد الأربعة الذين قال فيهم عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص -رضي الله عنهم- إن كل واحد منهم يعدل ألفا من الجند. قُتل -رضي الله عنه- في أثناء رجوعه من وقعة الجمل مع علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فحزن عليه، وقال: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار، ولما أتي بسيفه قال: إن هذا سيف طالما فرَّج الكُرَب عن رسول الله ﷺ. كان مقتله في جمادى الأولى سنة ٣٦ هـ وله ست وستون أو سبع وستون سنة. كان له بلاء عظيم في فتح مصر، ذكرنا بعضه فيما سلف، وقد اتخذ أملاكا بمصر (٦). وهو أول من سلَّ سيفا في سبيل الله فقد شاع بمكة خبر أن النبي ﷺ بأعلى مكة. فقال مالك يا زبير؟ قال أخبرت أنك أخذت (!). فصلى عليه النبي ﷺ ودعا لسيفه(٧). وقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حواريا، وحواريّ الزبير بن العوام»(٨) والحواري هو الذي ينصر نبيا، ولذلك سمَّى القرآن أصحاب عيسى -عليه السلام- بالحواريين:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٥٢).

٢- المقداد بن عمرو أو ابن الأسود، والأسود ليس أباه، إنما تبناه وهو صغير، قبل تحريم التبني، أبوه هو عمرو بن ثعلبة بن مالك، وهو من قضاعة ولذلك يقال له المقداد بن عمرو والمقداد بن الأسود. وهو قديم الإسلام من السابقين، هاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة، فلم يقدر على الهجرة إلى المدينة عندما هجر إليها إليه رسول الله ﷺ فتربص حتى بعث رسول الله ﷺ، قبل غزوة بدر، عبيدة بن الحارث في سرية، فلقوا جمعا من المشركين

(٦) السيوطي، دُرّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، المكتبة القيمة، القاهرة (د. ت) رقم ١٠١ ص ٦٥.

(٧) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ١٧٣٢، ج٢ ص ٢٤٩. (٨) المرجع السابق، عن علي بن أبي طالب ص ٢٥٠.

عليهم عكرمة بن أبي جهل، وكان في المشركين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان، كانا قد خرجا ليتوصلا إلى المسلمين، ولم يقع بين الفريقين قتال، لكن المقداد وعتبة انحازا إلى المسلمين ورجعا معهم إلى المدينة. وشهد بدرا وكان له فيها مقام مشهود إذ استشار رسول الله ﷺ أصحابه فتكلم أبوبكر ثم عمر فأحسنا، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله أمض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

(المائدة: ٢٤)

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد (٩) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرا، ودعا له».

وهو من أول سبعة أظهروا الإسلام بمكة، قيل لم يكن في بدر صاحب فرس غيره وقيل كان على فرس، أيضا، الزبير بن العوام، أحدهما على ميمنة رسول الله ﷺ والثاني على ميسرته(١٠).

وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وقد ذكره النبي ﷺ في الحديث الذي فيه -إن صح- «إن الله أمرني بحب أربعة، قالوا سمِّهم لنا يا رسول الله، قال: عليٌّ منهم (قالها ثلاثا) وأبوذر والمقداد وسلمان»(١١).

غزا مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح إفريقية فلما رجعوا قال له عبدالله في دار بناها: كيف ترى هذه الدار؟ قال: إن كان من مال الله فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت (!) فقال عبدالله: لولا أن يقول قائل: أفسدت مرتين لهدمتها(١٢)!

وليس معنى هذا القول أن البناء كان من المال العام، وإنما أراد عبدالله بن سعد بقوله «أفسدت» أن الإسراف نفسه نوع من الفساد وهو كذلك بلا مراء (!)

توفي المقداد بالمدينة في خلافة عثمان -رضي الله عنهما- وأوصى إلى الزبير بن العوام «يعني بتنفيذ وصيته» وهذه القصة الصحيحة، وأمثالها، تبين لنا مدى الصلة بين هؤلاء الصحابة الكرام، بعضهم وبعض إنهم لم يكونوا مجرد أفراد ارتبط كل منهم برسول الله ﷺ على حدته، إنما كانوا جماعة عظيمة متآلفة يسطع نورها وهي مجتمعة، ويتآلف أفرادها ويتحابون، مثلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. ثم إن لكل واحد منهم نوره الخاص الذي يضيء لمن حوله ولمن تبعه من الناس طريقهم فيمضوا فيه مهديين هداة وذلك بعض معنى قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم...»(١٣).

***

(٩) برك الغماد بكسر الباء وضم الغين وكسرها والكسر أشهر، قيل موضع على مسيرة خمس ليال من مكة وقيل بلد باليمن، راجع: ياقوت، معجم البلدان، رقم ١٧٩٩، ج١، ص٤٧٥.

(١٠) وفي بعض روايات السيرة أن المسلمين كان معهم يوم بدر ثلاثة أفراس، الشيخ محمود البيلاوي، السابق، ص٥٨.

(١١) خرجه الشيخ شعيب الأرنؤوط في سير أعلام النبلاء، السابق، ج١ ص ٣٨٩، وقال: في سنده شريك بن عبدالله القاضي وهو ضعيف وقد تفرَّد به، وشيخه أبوربيعة الإيادي لم يوثق، والحديث في مسند أحمد وسنن ابن ماجة وسنن الترمذي، وقال عنه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ج(٣٨٠٢)، وقال الحافظ ابن حجر: وسنده حسن والصحيح ما قاله الترمذي وشعيب، والله أعلم.

(١٢) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٥٠٩٦، ج٥ ص٢٥١، ودر السحابة، السابق، رقم ٣٧٣ ص١١٥.

(١٣) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود وعمران بن حصين، البخاري ج(٤٦٢٨) و(٤٦٢٩) ومسلم ج(٢٥٣٣) و(٢٥٣٥).

٣- عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي، واسم أمه قرة العين بنت عبادة بن فضلة بن مالك العجلان قال السيوطي ليس في الصحابيات من هذا اسمها سواها (١٤).

شهد العقبتين، وكان نقيبا على بني عوف بن الخزرج (١٥).

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، واستعمله ﷺ على بعض الصدقات «الزكاة» وقال له: اتق الله، لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رُغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج! قال: فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على اثنين!

حفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكان يعلمه لأهل الصُفة، وأرسله عمر ومعه معاذ بن جبل وأبو الدرداء ليعلموا الناس القرآن بالشام ويفقهوهم في الدين واختلف معه معاوية بن أبي سفيان في شيء أنكره عليه عُبادة فأغلظ له معاوية القول فقال: لا أساكنك بأرض واحدة أبدا! وعاد إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فأخبره، فقال عمر: ارجع إلى مكانك، فقبح الله أرضا لست فيها أنت ولا أمثالك! وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه وهو أول من ولي قضاء فلسطين، وكان مرجع أهلها مدة بقائه فيها، وكان مرجع أهل الشام «دمشق» مدة بقائه فيها. وبايع رسول الله ﷺ على أن لا يخاف في الله لومة لائم(١٦) وهو أمر لا يقدر عليه إلا أولو العزيمة القوية من المؤمنين كما وصف الله تعالى أنبياءه بأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾

(الأحزاب: ٣٩).

توفي -رضي الله عنه- بالرملة، وقيل ببيت المقدس، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة (١٧).

***

٤- مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نيار الأنصاري الخزرجي، ولد عند قدوم النبي ﷺ المدينة مهاجرا وقيل كان له يومئذ أربع سنين فعلى الأول تكون له عشر سنين عند وفاة النبي ﷺ وعلى الثاني يكون ابن أربع عشرة سنة عندئذ.

شهد بعد النبي ﷺ فتح مصر، وسكنها، ثم تحول إلى المدينة، واستعمله معاوية على مصر والمغرب وهو أول من جُمعا له، وجمع له الصلاة والأموال، أي كان واليا على البلدين من الناحيتين السياسية والمالية، وكان المعتاد أن يولي شأن المال جمعا وإنفاقا والٍ مستقل عن حاكم البلد، لكن مسلمة بن مخلد جمع له أمر الولايتين معا.

وكان من أحسن الناس حفظا للقرآن الكريم، قال مجاهد(١٨) كنت أرى أني أحفظ الناس للقرآن، حتى صليت خلف

(١٤) لم يكونوا يخجلون، كما يفعل بعضنا الآن، من ذكر أسماء الأمهات والبنات والزوجات!).

(١٥) يقال لهم القواقل نسبة إلى قوقل وهو غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ابن الأثير ترجمة، رقم ٢٧٨٩، ج ٣ ص ١٦٠.

(١٦) جملة من حديث متفق عليه، البخاري ج (٧١٩٩ و ٧٢٠٠)، ومسلم ج (١٧٠٩).

(١٧) ابن الأثير، السابق، رقم ٢٧٨٩، ج٣ ص١٦٠، والسيوطي در السحابة، رقم ١٤٤ ص٧٨.

(١٨) مجاهد بن جبر التابعي، تلميذ عبدالله بن عباس روى عنه فأكثر وأطاب، وعنه أخذ التفسير والقرآن والفقه وعن عدة آخرين من الصحابة، مات وهو ساجد سنة ١٠٢هـ ولم يكن أحد يسمع قراءته إلا بكى! الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم ٥٥٣، ج٤ ص٤٤٩.

مسلمة بن مخلد الصبح، فقرأ سورة البقرة، فما أخطأ فيها واوا ولا ألفا.

وكتب إليه عقبة بن عامر -رضي الله عنه- وهو أمير بمصر يسأله عن حديث سمعاه من رسول الله ﷺ(١٩) وكان إذا قرأ في المحراب يسمع صوت سقوط دموعه(٢٠) ولم يكن أحد يسمع قراءته إلا بكى، أي من شعور السامع بخشوع القارئ. مات بمصر سنة ٦٢هـ، وقيل مات بالإسكندرية، وقيل بل مات بالمدينة، تحول إليها من مصر وهذا لا يصح فإن قبره بمصر ومسجده معروفان(٢١)، بمذبح الجبل في مصر القديمة، وفيها شارع باسمه(٢٢).

***

٥- خارجة بن حذافة العدوي، وقيل السهمي: وهو ابن غانم بن عامر بن عبدالله القرشي العدوي.

كان أحد فرسان قريش، يقال: إنه يُعدلُ بألف فارس، شهد فتح مصر، وكان قاضيا لعمرو بن العاص، وقيل كان على الشُرط «أي قائدا للشرطة» له بمصر - أي لعمرو - ولم يزل بمصر حتى قتله أحد الخوارج الثلاثة، الذين انتدبوا لقتل علي ومعاوية وعمرو، فأراد الخارجي قتل عمرو، فقتل خارجة وهو يظنه عمرا، فأخذ وأدخل على عمرو، فقال علي من تدخلونني؟ قيل على عمرو قال: ومن قتلت؟ قيل: خارجة، فقال: أردت عمرا وأراد الله خارجة، وقيل إن هذه العبارة من قول عمرو للخارجي وكان سبب ذلك أن عمرا مرض فاستخلف خارجة بن حذافة على الصلاة، فقتله الخارجي في الليلة نفسها التي قتل فيها علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما وفي ذلك يقول الشاعر:

فليتها إذ فدت عمرا بخارجة
فدت عليا بمن شاءت من البشر.

وكان خارجة قد أسلم يوم فتح مكة، ولم يرو عنه حديثه غير المصريين.

وقال ابن الأثير: «وقبره معروف بمصر عند أهلها» وكذلك قال ابن عبدالبر في الاستيعاب(٢٣) ولم أجد من ذكر موضع قبره في قبور الصحابة بمصر والله أعلم أين هو.

***

٦- سعد بن أبي وقاص، وهو سعد بن مالك بن وهيب بن عبدمناف بن زهرة، القرشي، كنيته أبو إسحاق، أسلم بعد ستة، وقيل بعد أربعة، وكان عمره حين أسلم سبع عشرة سنة، وروى عنه أنه قال: أسلمت قبل أن تفرض الصلاة، وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، الذين أخبر عمر -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ.

شهد بدرا وأحدا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أول من أراق دما في سبيل الله، وأول من رمى بسهم في سبيل الله؛ فأما إراقة الدم: فقد كان المسلمون يستخفون في مكة بصلاتهم، فبينما سعد في نفر من المسلمين في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فناكروهم (أي أنكروا

(١٩) ابن حجر، الإصابة، رقم ٧٩٩١، ج٣ ص٣٩٨.

(٢٠) سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٢ ص٣٤، وهي تنقل عن الواقدي.

(٢١) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٤٩١٧، ج٥ ص١٧٤، والسيوطي، در السحابة، رقم ٢٦١ ص١٦٦.

(٢٢) سعاد ماهر، الموضع السابق نفسه.

(٢٣) ابن الأثير، السابق، ج٢ ص٨٣، وابن عبدالبر، الاستيعاب، في معرفة الأصحاب، بهامش الإصابة لابن حجر، ط دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج١ ص٤٢٠.

عليهم عبادتهم) وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل (٢٤) فشجه، فكان أول دم أريق فى الإسلام وأما الرمى بالسهام فكان يوم أحد عندما التقى المسلمون بالمشركين، وهو فاتح القادسية، وفاتح المدائن، وبانى الكوفة، وقال عمر عندما جعله فى أصحاب الشورى: إنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة - وذلك أنه كان عزله عن العراق - فإن ولى الإمارة فذاك وإلا فإنى أوصى الخليفة بعدى أن يستعمله.

وقد قال عنه رسول الله ﷺ قد أقبل على مجلسه: «هذا خالى فليرنى امرؤ خاله» وإنما ذلك لأن أمه زهرية، وأم رسول الله زهرية وهو ابن عمها، يجتمعان فى عبدمناف، وأهل الأم كلهم أخوال.

ودعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» فكان لا يدعو إلا استجيب له، ولم يجمع رسول الله ﷺ لأحد أباه وأمه إلا لسعد، فقد كان يقول له يوم أحد: «ارم فداك أبى وأمى» وروى أنه جمعهما للزبير أيضا.

واعتزل سعد الفتنة لما قتل عثمان، وأبى أن يكون فى أحد الفريقين (٢٥) وكان يقول لمن دعاه إلى المشاركة فيها: «أريد سيفا إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع» (٢٦) واستشاره رجل فى الفتنة: ما يصنع؟ فقال له: ألك غنم؟ قال: لا قال: فاشتر غنما فكن فيها حتى تنجلى (٢٧) قال الإمام الذهبى: «اعتزل سعد الفتنة، فلا حضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم، ولقد كان أهلا للإمامة، كبير الشأن - رضى الله عنه» (٢٨).

نقل السيوطى عن ابن الربيع (٢٩) أنه شهد فتح مصر، ثم دخلها رسولا من قبل عثمان - رضى الله عنه - وكان آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاة، توفى سنة خمس وخمسين ودفن بالبقيع رضى الله عنه (٣٠).

***

٧- عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، ابن عم رسول الله ﷺ كان يسمى البحر لكثرة ما كان لديه من العلم، ويسمى حبر الأمة - أى عالمها، وهى بكسر الحاء وفتحها -، دعا له رسول الله ﷺ مرتين، وقد صح عنه - رضى الله عنه - أن رسول الله ضمه وقال: «اللهم علمه الحكمة» ومن المأثور عن جابر بن زيد - رضى الله عنه - أنه كان يقول: أدركت سبعين صحابيا فاغترفت ما عندهم كلهم إلا البحر، أى عبدالله بن عباس (٣١).

كان عمر إذا جاءته الأقضية المعضلة دعا ابن عباس، وقال له: «إنها قد طرت - أى طرأت - علينا أقضية عضل، فأنت لها ولأمثالها» ثم يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحدا سواه، قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، راوى هذا الخبر، و«عمر عمر» أى فى حذقه واجتهاده.

قيل لطاوس - وهو تابعى جليل - (٣٢) «لزمت هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ»! قال: «إنى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس» ولد - رضى الله عنه - فى شعب بنى هاشم حين حصرت قريش رسول الله والمسلمين فيه، وكان له عند موت رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة (٣٣) وقيل خمس عشرة سنة (٣٤).

حدث عن نفسه أنه لما قبض رسول الله ﷺ قال لرجل من الأنصار: «هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير» قال: «واعجبا لك يا ابن عباس! تظن الناس يفتقرون إليك؟» قال ابن عباس: فترك ذلك - أى الأنصارى - وأقبلت أسأل فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل (٣٥) فأتوسد ردائى على بابه، يسفى على الريح من التراب، فيخرج فيرانى فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلى فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث فعاش الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألونى. فقال: «هذا الفتى كان أعقل منى» (٣٦) وكان عبدالله بن مسعود يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» (٣٧).

قال فيه الحافظ الذهبى: «حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، روى عنه من أهل مصر خمسة عشر نفسا، كان يقول: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال له أبوه، العباس بن عبدالمطلب، يا بنى! إن عمر يدنيك فاحفظ عنى ثلاثا: لا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا يجربن عليك كذبا.

خرج معاوية حاجا ومعه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب (أى من حاشيته من أصحاب الدولة وموظفيها) ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم، أتاه أبو أيوب الأنصارى وهو وال على البصرة لعلى رضى الله عنهم فشكا دينا عليه - كان قد شكاه إلى معاوية قبله فلم ير منه ما يحب! - فقال له ابن عباس: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ - أى كما صنع أبو أيوب -، ففرغ له بيته، ثم قال: كما دينك؟ قال عشرون ألفا فأعطاه أربعين ألفا، وعشرين مملوكا وكل متاع البيت، مسنده ألف وستمائة وستون حديثا، توفى سنة ثمان وستين بالطائف ودفن بها (٣٨) وسوف ترى فى ترجمة أبى أيوب - رضى الله عنه - ما كان فعله برسول الله، مما أحب ابن عباس أن يجزيه عليه.

***

٨- أبو هريرة، عبدالرحمن بن صخر الدوسى، اختلف فى اسمه على أقوال أرجحها: عبدالرحمن بن صخر، وقيل كان اسمه فى الجاهلية عبدشمس (٣٩) والمشهور عنه أنه كنى بأولاد هرة برية، قال وجدتها فأخذتها فى كمى

---

(٢٤) اللحى عظم الفك وهو موضع الأسنان من الإنسان والحيوان. (٢٥) ابن الأثير، السابق، رقم ٢٠٣٧، ج٢ ص٣٦٦.
(٢٦) ابن حجر، الإصابة، السابق، ج٢ ص٣١، والذهبى سير أعلام النبلاء، ج١ ص١١٩.
(٢٧) الذهبى، السابق، ص١٢٠. (٢٨) المرجع السابق، ص١٢٢. (٢٩) السيوطى، در السحاب، السابق، ص٧١.
(٣٠) السيوطى، السابق، والذهبى، السابق، ص١٢٣، وفيه أنه كان آخر المهاجرين وفاة.
(٣١) الشيخ سالم حمود السيابى، إزالة الوعثاء عن اتباع أبى الشعثاء، تحقيق سيدة اسماعيل الكاشف، القاهرة ١٩٧٩، ص١٩.
(٣٢) كان من الزهاد العباد وترجمته فى سير أعلام النبلاء، ج٥ ص٣٨ وفى الحلية لأبى نعيم، ج٤ ص٤ وفى طبقات الصوفية للمناوى، ج١ ص٣٣٥.

(٣٣) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٣٠٣٥، ج٣ ص٢٩٠، وابن حجر، الإصابة، ج٢ ص٣٢٢.
(٣٤) الذهبى السابق، ج٣ ص٣٣٦.
(٣٥) أى نائم وقت الظهيرة.
(٣٦) ابن حجر، الإصابة، السابق، ص٣٢٣ والذهبى، السابق، ج٣ ص٣٤٢.
(٣٧) ابن حجر، السابق ص٣٢٤
(٣٨) الذهبى، السابق، ج٣ ص٣٣١-٣٥٩.
(٣٩) قال ابن الأثير فى أسد الغابة: «كل ما فى هذه الأسماء من التعبد فلا شبهة أنها غيرت فى الإسلام فلم يكن النبى ﷺ يترك اسم أحد: عبد شمس أو عبد غنم أو عبدالعزى أو غير ذلك» ابن الأثير، السابق، رقم ٦٣١٩، ج٦ ص٣١٩ وقال الإمام البخارى: «... لولا الاقتداء بهم لتركنا هذه الأسماء فإنها كالمعدوم، لا تفيد تعريفا، وإنما هو مشهور بكنيته» نقله ابن الأثير، السابق، ص٣٢٠.

فكنيت بذلك، كان يقول: كناني رسول الله أبا هر، فكان يقول: «ثكلتك أمك يا أبا هر، والذكر خير من الأنثى»(٤٠)!

حمل عن النبي ﷺ علما كثيرا طيبا مباركا فيه -لم يلحق في كثرته- وروى عن أبي بكر، وعمر، وأسامة - أي ابن زيد -، وعائشة، والفضل - أي ابن عباس -، وبصرة بن أبي بصرة، وكعب الحبر - وهو المسمى بكعب الأحبار -.

حدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، حتى قال البخاري: روى عنه ثمانمائة راو وأكثر.

وفي الصحيحين عنه -رضي الله عنه- أنه قال: «إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد(٤١) كنت رجلا مسكينا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وقال رسول الله ﷺ: «من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئا سمعه مني» فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه، ثم ضممته إليّ، فما نسيت شيئا سمعته منه»(٤٢) ومعنى «على ملء بطني» أنه كان يكتفي بالقليل من الزاد الحلال، وأنه كان قليل القوت، ولم يكن أكولا شرها، فكان يستغني بهذا القليل الذي يحصله بأدنى جهد في العمل ليصحب النبي ﷺ في أغلب أوقاته ويتعلم منه ويحفظ عنه، وليس هذا من الخدمة بأجرة هي طعامه، ومن قال هذا فهو لم يفهم معنى الكلام.

قال عن نفسه: قدمت المدينة مهاجرا، فصليت الصبح خلف سباع بن عُرفُطة - كان النبي قد استخلفه - فقرأ في السجدة الأولى بمريم وفي الآخرة بـ«ويل للمطففين» فقلت: ويل لأبي! قل رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان: مكيال لنفسه، وآخر يبخس به الناس!(٤٣).

صحب رسول الله ﷺ أربع سنين(٤٤)، وكان الشافعي رحمه الله يقول: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره(٤٥).

روى البخاري عنه أنه قال: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثا عنه مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٤٦). ومع ذلك فإن الحديث المروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص أقل بكثير من الحديث المروى عن أبي هريرة.

وقد قال العلماء إن لذلك أسبابا منها: اشتغال عبدالله بالجهاد، وخروجه في الفتوح أكثر من اشتغاله بالتعليم، ومنها أن أكثر مقامه كان بمصر أو بالطائف، ولم تكن الرحلة إليهما كالرحلة إلى المدينة التي كان أبو هريرة فيها مقيما ومتصديا للفتوى والتحديث، ومنها أن النبي ﷺ اختص أبا هريرة بالدعاء له ألا ينسى ما حدث به، ومنها تحديث عبدالله بن عمرو بما جمعه من كتب أهل الكتاب، التي وجدها في

(٤٠) هذه الجملة الأخيرة من كلام أبي هريرة على الأصح، والله أعلم.

(٤١) يعني أن الله يحاكم بيني وبينكم في هذا الذي تقولونه عني.

(٤٢) البخاري ح(١١٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم ح(٢٤٩٢).

(٤٣) طرقه في سير أعلام النبلاء، ج٢ ص٥٨٩ هامش (١) والهوامش من صنع الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٤٤) الذهبي، السابق، ص٥٩٠.

(٤٥) الذهبي، السابق، ص٥٩٩.

(٤٦) البخاري ح(١١٣).

الشام، فتجنب الأخذ عنه كثير من أئمة التابعين(٤٧). قيل إنه التقى بعلماء النصارى وأحبار اليهود في الشام وحمل من علمهم وقر بعير من الكتب فخشي كبار التابعين أن يختلط ما عنده عن رسول الله ﷺ بما تعلمه من علم أهل الكتاب فتجنبوا الإكثار من الرواية عنه.

دعا أبو هريرة يوما لنفسه، فقال: «اللهم إني أسألك علما لا ينسى» فقال النبي ﷺ «آمين»(٤٨). مسنده خمسة آلاف وثلاث مائة وأربعة وسبعون حديثا؛ وعده ابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» من المتوسطين في الفتيا الذين يجمع من فتاوى كل واحد منهم جزء صغير(٤٩).

قدم مصر على مسلمة بن مخلد، وروى عنه المصريون ثلاثة وثلاثين حديثا(٥٠).

وتوفي أبو هريرة -رضي الله عنه- سنة سبع وخمسين -وقيل ثمان وخمسين- بالمدينة وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان بعد صلاة العصر(٥١).

***

٩- أبو أيوب الأنصاري، واسمه خالد بن زيد ونسبه في بني النجار من الخزرج. شهد بيعة العقبة الثانية وبدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان مع علي بن أبي طالب ومن خاصته.

نزل رسول الله ﷺ في بيته عندما قدم المدينة مهاجرا حتى بنى المسجد وبنى مساكنه فانتقل إليها، فذلك قول ابن عباس له -كما تقدم- لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ، وآخى ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير.

عندما سكن رسول الله ﷺ بيت أبي أيوب ترك له هو وزوجته الغرفة العليا، وقال «ما ينبغي أن نكون فوقك».

لزم الجهاد، وكان يقرأ قوله تعالى:

﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾

(التوبة: ٤١)

فيقول ما أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا، لم يتخلف عن الجهاد إلا عاما واحدا -زمن معاوية- أمر على الجيش رجل شاب، فقعد ذلك العام، فجعل بعد ذلك يتلهف ويقول: وما عليّ من استعمل عليّ(٥٢)؟!

استخلفه عليٌّ على المدينة عندما خرج إلى العراق، ثم لحق به وشهد معه قتال الخوارج.

وهو أحد رواة الحديث الصحيح: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة»(٥٣).

قدم مصر في البحر سنة ست وأربعين(٥٤) غازيا، وكان قد شهد فتحها، ولأهل مصر عنه نحو عشرين حديثا(٥٥).

توفي مجاهدا سنة اثنتين وخمسين للهجرة، فقد كان في الجيش الذي غزا

(٤٧) الذهبي، السابق، ج٢ ص٥٩٩، هامش (٤). وقس على هذه الأسباب، وأضف إليها نظائرها، في شأن سائر الصحابة، تعرف لماذا تفاوتت رواياتهم كمًّا ولم تطرد مع طول الصحبة للنبي ﷺ.

(٤٨) الذهبي، السابق، ص٦٢٨. (٤٩) ابن حزم، الإحكام، السابق، ص٨٥.

(٥٠) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٣٣٧ ص١٣٦.

(٥١) ابن حجر، السابق، رقم ١١٩٠، ج٤ ص٢٠٠ و٢١٨.

(٥٢) ابن الأثير، أسد الغابة، السابق، رقم ١٣٦١، ج٢ ص٩٤ و٩٦، ورقم ٥٧٠٧، ج٦ ص٢٥.

(٥٣) أخرجه أحمد في المسند، والطبراني في معجمه، والمتن متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود، ومن حديث أبي ذر. راجع: الذهبي، السابق، ج٢ ص٤٠٤ هامش (٢).

(٥٤) الذهبي، السابق، ص٤٠٦.

(٥٥) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٢٩٣ ص١٢١.

القسطنطينية، وعليه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فمرض أبو أيوب، فعاده يزيد، فسأله عن حاجته؟ قال: حاجتي إذا أنا مت فاركب ثم سغ - أي ادخل - في أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإن لم تجد مساغا فادفني ثم ارجع، فتوفي، ففعل الجيش ذلك، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية.

ومن الطريف أن القبر الذي أراد أبو أيوب أن يكون في أقصى الروم قد أصبح الآن داخل العمران، وبني عليه مسجد يعتز به الأتراك اعتزازا كبيرا، ويطلقون عليه - رضي الله عنه - سلطان أيوب! إجلالا له وتقديرا. وإذا استسقى أهل القسطنطينية استسقوا عند قبره (٥٦)؛ فخلد الله ذكره في أرض لم يكن لله تعالى فيها ذاكر عندما دفن فيها أبو أيوب، رحمه الله تعالى.

***

١٠- أبو الدرداء: عويمر بن زيد بن قيس، ويقال ابن عامر، الأنصاري الخزرجي. قال فيه الذهبي: «الإمام القدوة، قاضي دمشق، وسيد القراء بها، حكيم هذه الأمة، وهو معدود فيمن تلا القرآن على النبي ﷺ ولم يبلغنا أبدا أنه قرأ على غيره، وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ».

تأخر إسلامه فلم يشهد بدرا، لكنه شهد أحدا وما بعدها. أمره رسول الله - يوم أحد - أن يرد من على الجبل من المشركين فردهم وحده، وقال النبي «نعم الفارس عويمر» (٥٧).

وألحقه عمر في الفريضة بالبدريين لحسن بلائه في الإسلام، وكان الصحابة يقولون أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء.

وكان ابن عمر يقول: حدثونا عن العاقلين، فيقال: من العاقلان؟ فيقول: معاذ وأبو الدرداء (٥٨).

كان يحضر حلقته للقرآن في دمشق أكثر من ألف وستمائة، فكانوا يقرأون عشرة عشرة لكل عشرة ملقن يقرئهم ويصحح لهم، وأبو الدرداء يطوف عليهم واقفا فمن أتم وأجاد انتقل إلى العرض عليه، وهو أول من سن الحلق للقراءة (٥٩). وكان يقول عن نفسه لولا ثلاث ما أحببت البقاء: ساعة ظمأ الهواجر - الهاجرة شدة الشمس وقت الظهيرة، والمقصود بذلك ظمأ الصائم في اليوم الشديد الحر -، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر (٦٠).

آخى الرسول ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي (٦١)، شهد فتح مصر، ولهم عنه خمسة أحاديث (٦٢). رأى صاحب ذنب والناس يسبونه، فنهاهم؛ قالوا أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

توفي في دمشق سنة اثنتين وثلاثين، قبل عثمان بسنتين. ولما حضرته الوفاة دعا ولده بلالا فقال: ويحك يا بلال! اعمل للساعة،

(٥٦) ابن الأثير، السابق، ج٢ ص٩٦؛ والذهبي، السابق، ص٥-٤٠٦؛ والسيوطي، السابق، ص١٢١.
(٥٧) الذهبي، السابق، ج٢ ص٣٣٥ و٣٣٦ و٣٣٨، والحديث مرسل كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في هامش (٣) ص٣٣٨.
(٥٨) الذهبي، السابق، ص٣٤٣.
(٥٩) الذهبي، السابق، ص٣٤٦ و٣٥٣.
(٦٠) الذهبي، السابق، ص٣٤٩.
(٦١) المصادر السابقة.
(٦٢) السيوطي، السابق، ص١٢٣.

اعمل لمثل مصرع أبيك، واذكر به مصرعك وساعتك، فكان قد، ثم قبض.

***

وذكر السيوطي في الصحابة الذين دخلوا مصر أو شهدوا فتحها:

١- أبو رافع القبطي: مولى النبي ﷺ، اسمه أسلم. كان إسلامه قبل بدر ولم يشهدها، شهد أحدا والخندق وما بعدهما، وشهد فتح مصر وله بها خطة، توفي بالمدينة في خلافة علي - رضي الله عنه - وقيل في خلافة عثمان - رضي الله عنه (٦٣).

٢- صالح القبطي: يقال أنه خرج إلى النبي ﷺ مع مارية من مدينتها ثم عاد إلى مصر إما مع جيش الفتح وإما بعده (٦٤).

٣- يعقوب القبطي: مولى أبي مذكور الأنصاري، له قصة في صحيح البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم (٦٥).

٤- جبر بن عبدالله القبطي: وهو رسول المقوقس إلى النبي ﷺ الذي بعث معه مارية القبطية برفقة حاطب بن أبي بلتعة، وكان مولى لأبي بصرة الغفاري ويقال كان مولى لبني غفار، وكان قوم يزعمون أنه منهم - أي من بني غفار -، كان له ذرية بمصر توفي سنة ٦٣هـ (٦٦).

٥- رقب المصري: ذكره السيوطي في در السحابة، ولم أجد ترجمته (٦٧).

وهذا العرض، شديد الإيجاز، لأخبار هؤلاء الصحابة القبط (أصلا) أو المصريين، ينقض بلا ريب مقولة ذاك القائل أن «المسلمين ضيوف على أهل البلد من القبط». إذا كان العرب كذلك - وهو كلام باطل كما بينا في فصول هذا الكتاب - فماذا يقول في هؤلاء «القبط» الذين لهم عقب بمصر؟ هل سيعدهم ضيوفا كسائر العرب عنده؟؟ إن هذا الأمر كله ليس إلا كما قال القرآن الكريم:

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

(غافر: ٥٦)

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(يوسف: ٢١)

***

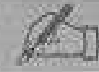
إن مجموع من ذكرنا خمسة عشر، من نحو ثلاثمائة وخمسين صحابيا، شاركوا في الفتح الإسلامي لمصر، أو نزلوها وعلموا الناس فيها دينهم. ولكل واحد منهم فضل على كل مسلم في مصر، ومن الواجب أن يعرف كل منا من استطاع منهم، وشيئا ولو يسيرا من سيرته فإن الآخرين لا يبقون إلا بما غرسه الأولون، ولولا الأول ما كان الآخر.

والحمد لله رب العالمين.

(٦٣) ترجمته في أسد الغابة، السابق، رقم ٥٨٧٦، ج٦ ص١٠٦ وفي الإصابة، السابق، رقم ٣٩٧، في باب الكنى، ج٤ ص٦٨. وتعبير له بها خطة معناه أن له أملاكا عقارية.
(٦٤) ترجمته في الإصابة، السابق، رقم ٤٠٢٦، ج٣ ص١٦٨.
(٦٥) ترجمته في أسد الغابة السابق، رقم ٥٦٣٩، ج٥ ص٥٢٣؛ والحديث في صحيح البخاري رقم (٢١٨٦) و(٢٤١٤) ومواضع أخرى وهو مروي عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه.
(٦٦) ترجمته في أسد الغابة، السابق، رقم ٦٧٥، ج١ ص٣١٧، وفي الإصابة، السابق، رقم ١٠٦٤، ج١ ص٢٢٢.
(٦٧) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٩٩ ص٦٤.

قصص الأنبياء

إسحاق عليه السلام


لفضيلة الشيخ العلامة: عبد الوهاب النجار

قدمنا أن الملائكة بشروا إبراهيم بابنه إسحاق، وأن سارة ضحكت من هذه البشرى عجبا من أن يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر قد بلغت من الكبر عتيا، وأن الملائكة قالوا لها: إن هذا وعد من الله القادر:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾

لم يحل الحول على سارة وهي بنت تسعين سنة حتى حملت بإسحاق، ولما ولدته أسمته «يصحق» وترجمتها «يضحك» تريد أن كل من سمع بولادة هذا الولد من أبويه هذين يضحك لما في هذه الولادة من الغرابة، وقد آل أمره إلى أن يكون نبيا لقوله تعالى:

﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وقوله:

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾

تغرب إبراهيم في أرض أبي مالك.. ملك جرار

قبل أن يرزق إبراهيم بابنه إسحاق كان قد انتقل إلى الجنوب وتغرب في جرار، وسكن بين قادش وشور.

وشور هذه هي الطريق الذي يسلكه من خرج من مصر يريد بلاد العراق، ولما كان في جرار خاف الملك أن يهلكه إذا علم أنه زوج لسارة حتى تخلص له، فقال حين سئل عنها: إنها أختي. وكانت وضيئة، فأرسل الملك فأخذها، وقبل أن يقترب الملك إلى سارة أرى في منامه ما أفزعه، وأنذر أنه ميت بسبب المرأة التي أخذها وهي متزوجة؛ فاحتج في نومه بأنه بريء لا يستحق ما يهدد به من القتل، لأنه قال عنها أختي وهي قالت عنه أخي، وأنه لم يعمل إلا بسلامة قلبه ونقاوة يده ولم يقترف إثما، فأمر برد المرأة إلى زوجها لأنه نبي، وأنه سيدعو له فلا يموت بهذا السبب، وأنه إذا لم يردها فإنه يموت.

فلما هب الملك من نومه أخبر عبيده وخاصته، وأرسل إلى إبراهيم وعاتبه فيما صنع معه حتى كاد يجلب عليه وعلى شعبه غضب الله. وأنه بقوله «أختي» عمل معه ما لا يعمل، وأطال في عتاب إبراهيم؛ فما كان جواب إبراهيم إلا الاعتذار بخوفه من أن يقتلوه لأجل امرأته، وما يظن أن أحدا في هذه الأرض يخاف الله. ثم ترقى في الاعتذار بأنه لم يكذب لأنها أخته حقيقة لأبيه ولم تكن أخته لأمه فلم يقل إلا حقا.

فأخذ الملك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم ورد عليه سارة، وأباح له أرضه يتبوأ منها حيث يشاء، وقال لسارة: إني أعطيت أخاك ألفا من الفضة إكراما لك؛ فدعا له إبراهيم فشفي الملك وجواريه ونساؤه من كل ما كان الله قد ابتلى به الملك ونساءه وجواريه، لأنه كان قد أعقم أرحامهن. وفي تلك الجهة كانت ولادة إسحاق، وقصة ارتحال إبراهيم إلى آخرها لم تذكر في القرآن وإنما ذكرت في التوراة - وقد أعادوا لنا بها القصة التي وقعت في مصر وأنا أستبعد حصولها لأن سارة أيام كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة، وحين كانت في أرض أبي مالك كانت سنها إحدى وتسعين سنة، وليس من المستساغ أن يطمع ملك مترف في بنت سبعين أو تسعين.

مسألتان

● الأولى: إن كان صحيحا ما جاء في عبارة التوراة من أن إبراهيم اتفق مع سارة على أن يقول إنها أختي وتقول هي أنه أخي، وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحريم الأخت على أخيها.. وهذا هو الذي أميل إليه إن كان ذلك حقا، وحينئذ لا حاجة إلى قول «أنها أخته في الدين» لأن أولئك المتأولين ما دعاهم إلى التأويل إلا اعتقادهم أن الشريعة التي كان عليها إبراهيم كانت كشريعة موسى - عليه السلام - من تحريم الأقارب دينا كالأخت والعمة، وهذا ما ليس فيه نص قطعي.

هذا موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب - إسرائيل الله - وأمه يوكابد بنت لاوي؛ فيكون عمران متزوجا بعمته - كما تدل عليه عبارة الآيات **٥٧، ٥٨، ٥٩** من الإصحاح السادس والعشرين من سفر العدد، وهو من الأسفار الخمسة التي يعزونهن إلى موسى - وقد رأيت في تاريخ القضاعي أنه مر بمسألة أخوة سارة ولم يذكرها أصلا، وحسنا فعل. وأنتم تعلمون أني أشك فيها شكا قويا.. وفيه أيضا كانت ابنة عمه.

● الثانية: لا شك أن إبراهيم كان عالما بأنه متى قال عن زوجه إنها أختي، فإن الملك أو غيره من الأمراء سيأخذها زوجة أو جارية له ويفترشها افتراش الزوجة أو الأمة - فكيف تسمح نفس إبراهيم بهذا العمل يؤتى إلى زوجته؟ والرجولة والمروءة تأبيان مثل هذا العمل؛ بل الموت في هذا السبيل فخر وذكر.

وليس لنا جواب بإزاء هذا إلا أن نقول - إذا صح وقوع شيء من ذلك - أن إبراهيم لا يمكن أن يأتي هذا العمل إلا بسابق وعد من الله تعالى أن يحفظها ممن يريد أن يمسها؛ فأتيا هذا الأمر وفي يد إبراهيم وثيقة من إلهه القادر بحفظه فيها وحياطتها من كل من يريد أن يقترب إليها بسوء، وعاقبة ذلك كله الخير لإبراهيم بما بدره الملك عليه وعلى زوجه - كما حصل في هذه الدفعة وفي مصر وهي تشبه هذه تماما - على أني أشك في ذلك كما قدمت.

محمد.. الرسول والرسالة (٢)

للأستاذ الدكتور/ نظمي لوقا

الآيـــة الكبـــرى

وقرأ الفتى كتبه. وأعاد قراءتها في الحين بعد الحين. فقد كانت وثيقة الصلة بأزمة وجدانه وعقله وهو يقلبهما بين السماء والأرض، لا تسكن نفسه من شك، ولا يسكن عقله من تطلع، وأعيا عقله أن يجد تفاوتًا في نسق الكتب الموحى بها وسياقها.

فهي - بلا استثناء - تنتهي إلى ضرورة الإيمان الذي ينبع من القلب ويفرض أضواء على كل معتقد بدين.

وهنا وقف الفتى الذي درج إلى الشباب، وقفة لم يكن منها مناص: إن تكن هذه الأديان صحيحة، فبأي حجة وبأي مقياس يمكن الطعن في صدق رساله محمد؟

ما من نبي حمل إلينا توكيلا موثقًا بأنه ينطق بلسان الوحي، وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به، وأما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهد شهود العيان، وبيننا وبين ذلك أجيال وأجيال؛ فتبقى بعد هذه الآيات المغايرة الآية الكبرى التي لا يثبت بغيرها صدق، ولا يغني عن غيابها ألف دليل مغاير، مهما بلغت درجته من الإعجاز، وهذه الآية الكبرى هي صدق الكلمة من حيث هي، فإن الحقيقة آية نفسها، تحمل برهانها في مضمونها، فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يباينها هزيلا واضح البطلان.

إن موقف الناس من الوحي واحد أيًا كانت الرسالة الموحى بها والرسول المخبر عنها: لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهانًا عيانيًا على وحيه كي يطالب به محمد، فمن اعترف بوحي السماء إلى رسول من البشر، لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحي على محمد من حيث المبدأ، فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه.

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحي من حيث المبدأ، إلا النظر في مضمون ذلك الوحي، فإن كان هذا المضمون حاويًا آية صدقه في ذاته، وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها، فلا مفر من الإقرار بصدقه.

ومن هنا وجب النظر النزيه في رسالة محمد، والبحث في مضمونها، لنلتمس فيها آيات الصدق التي يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين، ولنرى هل فيها ما يدعو للريب، ويبرر دمغها بالزيف أو الدجل أو البطلان.

ذلك هو الحد القوام الذي لا افتئات فيه على إنصاف، ولا ينبغي أن يحيد عنه من له في النزاهة مطمع.

إن السلعة الأصلية هي التي تؤدي للناس مالا تؤديه سلعة أخرى، وإن كانت تشبهها في بعض الوجوه، وليست تقليدًا أو تزييفًا لسلعة سابقة عليها، بحيث يكون غيابها نقصًا واضحًا لا محل فيه للإنكار.

عرف الناس السفينة ذات المجداف، وعرفوا السفينة ذات الشراع، ثم عرفوا السفينة التي تسير بالبخار، وكلها سفن، ولكن الخلاف بينها واضح فيما تؤديه للناس من خدمات.

كذلك العقائد والأديان، كلها عقائد غيبية، تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون، ولكنها تتباين بوجه من الوجوه، وهذا تعليل توالي الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر ومستويات إدراكهم، ووعيهم العمراني.

لزم إذن أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها، وأن يكون هذا الطابع المميز هو سبب وجودها، أو موضوع وجودها.

فهل للإسلام هذا السبب؟ وهذا الموضوع؟

وبعبارة أخرى، إن الوظيفة تخلق العضو، والحاجة تخلق السلعة، فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحددها احتياجات التطور البشري، ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفًا أو فضولاً أو اصطناعًا لجأ إليه مغامر أفاق.

ثم يلزم النظر في الإسلام، وهل جاء مؤديا لتلك المهمة والرسالة؟ فإن صح ذلك، كان عقيدة صحيحة جاءت في ميقاتها الطبيعي لتقوم بدورها أو وظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشري، إن كل من آمن بالأديان ورسالتها، وبالعقائد ووظائفها، لا بد له من اتخاذ هذا القياس الموضوعي الذي يعدل في النظر إلى العقائد بعامة وإلا كان محض وارث لعقيدته متعصب لها عصبية عمياء.

وما على المنكر إلا أن يبين لنا مقياسًا آخر تعرف به وظائف العقائد، ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل دعوة محمد.

إن قال بالوحي هناك، فما هو دليلك على صدق وحي من قبل محمد، بحيث يفتقر وحي محمد إلى ذلك الدليل؟

لم ير أحد ملك الوحي هابطًا على من كان قبل محمد، حتى نطالب بظهور جبريل وهو يهبط بالوحي عليه.

وإن قال: إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من مضمون الرسالة ومؤداها، فقد نفى الحكمة من التعاقب، بل نفى الحكمة من الدين عامة، فإن الشرائع التي تتكرر بغير تعديل قول معاد، في غير حاجة إلى إعادة.

فإذا تذكرنا أن البشر يتطورون ويتقدمون في وعيهم العمراني، كانت الإعادة المكررة تقصيرًا، فلا يبقى إلا أن الشرائع السماوية تساير البشر في تطورهم، كما أن غذاء الإنسان يساير المرء في تدرجه، من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة.

وهذا يردنا إلى تمايز الرسالات الدينية، وتفرد كل منها بخصوصية هي موضوع وجودها أو هي وظيفتها.

ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول: هذا رأيى وكفى!.. ومثله لا يعول له على رأى، لأنه مكابر بغير عقل، فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل.

دين شعب

دين بنى إسرائيل، وإن كان دين توحيد وتنزيه، قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب، فهو إذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة، ويجدون فيه شبع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة.

والدين الذى يختص به شعب بعينه لابد وأن تتمثله سريرة ذلك الشعب، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلا، بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم، وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم. وكانوا أشتاتا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة، فينفسون على أهل البلاد الأصلاء أن لهم وطنا وبأسا وسيادة وغلبة.

والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النقمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة، فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختص بهم، لا يعبده أحد سواهم. وأن يغلبهم من عداهم من الخلق، وأن يمكن لهم فى أرض العباد ورقابهم.

والدين -من حيث هو دين شعب- حرى أن يعنى بسن القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم، فتعوضوا عن أهدافهم التى صدهم عنها أهدافا أخرى، فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها، وليقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الأوثان، مع فارق واحد هو أن من يتوجهون إليه بقرابينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو الإله الواحد الخالق القادر «إله إسرائيل».

ثم أسف الشعب المسف بالتوحيد نفسه حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم، يسمونها «الطرافين»، وحتى أقيمت لصنم البعل وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان.

وشعب هذا شأنه لا يَصُدُّ عن الإسفاف والانتكاس إلا بالتخويف وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد، فامتلأت أقوال أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود، وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب.

ذلك كله يصنو سريرة ذلك الشعب، ويطلعنا على ما تصير إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم المنافع والحرص على الدنيا، فهم لا يبغون رضوان الله خالصا لوجهه، ولا يعبدونه خالصا لوجهه، ولا يجلونه عن هذه المراسم المادية فى تقديم القرابين والذبائح، إذ لا وجود فى إخلادهم إلا للمادة وما يتفرع عليها، أما الروح والضمير، أما النظرة الشاملة لبنى الإنسان كافة، أما الإخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد هو رباط الوجود الحى فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا.

فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا فى المعاملات يستحلون به أموال سواهم من الأمم وطقوسا فى العبادة هى أيضا ضرب من

تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات، فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو أو زيادة فى إدرار الرزق.

دين قلب

ولكن العقيدة حاجة روحية أصلا فلن تطول القناعة بالقعود دون التحليق، ولن يطول الطور الذى يكتفى فيه بعقيدة يختص بها فريق من الناس دون فريق، فليس للروح والضمير وطن ولا جنس، والعقيدة التى يقتنع بها الضمير ويطمئن إليها، لابد أن تفتح الباب لجميع الشعوب، وأن تفتح على الخصوص أمام الناس آفاقا عالية، تتجه خلالها الروح إلى الله، لا لأنه المرهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب، بل لأنه مصدر الحياة والوجود والمثل الأعلى، والمطلب الأسمى للاعتقاد، تتجه إليه النفس مشوقة غير مسوقة، ولا تستغنى بالمراسيم والمجسمات المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذى لا يتجسم ولا يدرك بالحس ففى الاتجاه إليه سبحانه سعادتها الكبرى.

وبهذا، كان الطور الطبيعى للإنسانية أن تتطلب الهداية، فى رسالة المسيحية التى لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب، بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل إنسان، فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه، ولا يبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب، ولا الطقوس قيمة، لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنا.

وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه، لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل.

فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الإنسانى من حيث هو كذلك، بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشعوبية..

ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس، كما خلت من تشريع المعاملات، لأن موضوع المعاملات والحياة الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص.

ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحدا متساوقا، لأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة، هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ، أما السواد من الناس، فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود.

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها دين قلة، هن الأفراد ميسرين لها وكانت نتيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا ومعاناتها، أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية، وعقائدهم المادية طيالس العبادة الجديدة، فتمثلوها كما تصورها لهم عقولهم، واطمأنوا إلى هذا التصوير.

ولهذا لم يستطع السواد الارتفاع إلى المستوى الروحى العالى الذى هو مضمون دعوة السيد المسيح.

ولم يسلموا - لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها على تفكيرهم - من ظهور عقابيل التجسيم والتنطس فى المراسم تتخذ عناوين الدين الجديد وتنزيا بزيه، لأنها نظم تقابل حالات النفس التى لم تنضج بعد لدعوى الروح الخالصة من قيد الجسد وشهواته وأوهاقه.

«يتبع»

نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية

٤

أ.د. نادية محمود مصطفى
أستاذ العلاقات الدولية
ورئيس قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

المحور الثانى

نماذج الهجوم/ الدفاع/ الاستعمار، خلال الهجوم الصليبى والمغولى على القلب الإسلامى والدفاع عنه إلى نماذج خلال تطور الهجمة الأوروبية الحديثة.

من أهم المفاصل التاريخية فى هذا الصدد:

من الحملات الصليبية إلى هجمات الفرنج فى المتوسط إلى الكشوف الجغرافية، إلى غزوة التتار إلى الحملة الفرنسية وبداية الاستعمار الحديث للقلب العربى الإسلامى، إلى التنظيمات والإصلاحات فى مرحلة الضعف والتجزئة.

فما هى النماذج التاريخية الكاشفة عن أنماط من التعارف المتقابلة خلال وعبر هذه المفاصل التاريخية المهمة؟

(١) نموذج تعارف المؤرخ أسامة ابن منقذ الكنانى الشيرازى على الصليبيين فى "رد الاعتبار"[١]

يقدم هذا الكتاب مذكرات أسامة بن منقذ فى حروب الإفرنج التى أسماها الأوروبيون الحروب الصليبية.

ومن الترجمة التى قدمها محقق الكتاب لشخص أسامة وطبيعة الفترة الزمنية التى عايش خلالها الصليبيين[٢] يتضح مدى أهمية هذا الكتاب فى تصوير عادات أهل الشام وفلسطين فى غمرة تلك الحروب والأهم هو رؤيته عن "الصليبيين" خلال معاركهم وخلال تفاعلهم مع المسلمين. والمذكرات على هذا النحو -وفق مقدمة المحقق- تمثل وثيقة حية من وثائق حروب الإفرنج، حيث لم يؤرخ أسامة للمعارك السياسية والعسكرية، ولكنه صور حياة الناس وهم يعاملون هذا العدو. ومن ثم، يرى المحقق:

(١) أسامة بن منقذ الكنانى الشيزرى، رد الاعتبار (مذكرات أسامة بن منقذ فى الحروب الصليبية مع ملحقها فى أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص)، دقق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلق عليها: د. عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامى، بيروت، عمان، ط٣، ٢٠٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص٧-٨.

(بداية الاقتباس) "أن قيمة الكتاب تبدو فى حسن تصويره لمجتمعه الذى كان يضطرب اضطرابا عنيفا بما يلقى من كثرة الفتن، وتفرق الأهواء، وغلبة الأطماع، واختلال الأمن، وفشو بعض التيارات الفكرية المتطرفة فيه، ثم بوصف ما يرزح تحته من ثقل غزو الإفرنج، واتساع أذاه، ونهوض الناس له، ففى هذا الجانب يبدو الكتاب وثيقة حية من وثائق حروب الإفرنج -وهى أطول حروب التاريخ إلى اليوم- لا تعرف لها شبيها...

فإن أسامة لم يكن يعبأ فيه بأخبار المعارك والتأريخ لها، على نحو ما نعرف فى كتب التاريخ التى أرخت لها، ولكنه كان يصور -عن طريق السرد الحكائى واستحضار الوقائع والمواقف- حياة الناس التى تجرى تحت سطح الأحداث الدامية، ويقف عند الصور العميقة المؤثرة منها، وما كان يقع لهم داخل بيوتهم، وفى مواطن جدهم ولهوهم، وما كانوا يقولونه لأنفسهم وهم يواجهون الموت، أو وهم يعاملون هذا العدو الغريب الذى جاءهم من الأرض الكبيرة (أوربة، كما كانوا يسمونها) ويتكلم لغة غريبة لا يفهمونها، ويبدو فظا غليظا لم تصقله الحضارة، جهما ضخما لا تسعه العين.

ومن هنا، يتهيأ لدارسى تاريخ التبادل الثقافى والنمو الاجتماعى لهذه المنطقة، أن يجدوا فى الكتاب صورا دالة من عملية المثاقفة التى تمت بين شعوبها من ناحية، وبينها وبين شعوب الإفرنج من ناحية أخرى[٣].

والجدير بالملاحظة، أن هذه المذكرات قد قدمت صورة للصليبيين تبين افتقار الغرب، فى ذلك الوقت إلى أشياء ثقافية وحضارية كثيرة، فما هى وكيف نقلها أسامة بن منقذ؟

يقول المحقق فى هذا الصدد: إن الكتاب يعد[٤]: "وثيقة حية قل نظيرها فى رصد إحساسنا بالتفوق الحضارى العام فى القرون الوسطى، وخطواته فى رد غزو الإفرنج ديارنا أيام تلك الحروب. أعنى التفوق فى الأسلوب الذى كنا نتناول به حياتنا ونظمها فى السياسة والاجتماع والتربية والعمل، وتتحقق فيه نظرتنا إلى الإنسان والوجود، وما ينتج من نتاج العقل والمادة والروح؛ إذ لم يكن عند هؤلاء الغزاة، على ما يبدو فى الكتاب، ما نتعلم منه، وقد كانوا، فى كثرتهم الغالبة، عساكر وفلاحين يعيشون فى قلاع وحصون مفردة"....

ويشخص لنا أسامة، فى جملة الكتاب، فارسا عربيا مسلما، يحفظ تقاليد الفتوة الإسلامية، فى أحسن مظاهرها وأقوالها (الشهامة والإقدام والجرأة والالتزام الخلقى).

(ويشخص).. لأهم صفات الرجال الكبار الذين يراهم ينتسبون، بحق، إلى أمته، ويظهر أمضى أسلحتها فى المعترك الذى خاضوه: إيمانهم بالله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار، إلى جانب إحساسهم بتفرد شخصيتهم الذى جمعهم على اختلاف الأصول والمنابت، ووقفهم من الغزو والغزاة موقف المؤمن بالنصر، القادر على صنع أسبابه، على امتداد المعركة الطويلة، وعلى ما عانوا فيها من تمزق الشمل وتخاذل القيادات وتغليب مصالحها الذاتية الضيقة، أحيانا كثيرة، قبل أن يشغل الساحة البطل الذى تهيأت الظروف لظهوره فى ليالى المحنة الحالكة.

وبلغ أسامة من قوة هذا الإحساس حدا لم يكن يرى معه، فى الإفرنج الغزاة، أكثر من "بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل!" ويرى أن

(٣) المرجع السابق، ص١٩-٢١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

من تبلد منهم (أى: سكن بلاد المسلمين وعاشرهم) "أصلح من القريبى العهد ببلادهم، لكنهم شاذ لا يقاس عليه" ! ويبلغ أن يسخر من أحكامهم وفقههم وطبهم، ويدين قسوة قلوبهم، وبداوة طباعهم، وجفاء أخلاقهم. ويعجب من ضعف غيرتهم على أعراضهم وقلة نخوتهم: "يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته، يلقاه رجل آخر، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى!" "ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة!".

ويصور، إلى جانب هذا، مشاهد رائعة من ثبات قومه رجالا ونساء، ومن تماسكهم وتدافعهم على الفداء وطلب الشهادة، وشغفهم بالمغامرة واستهانتهم بالخطر، وإيمانهم بقدرتهم على انتزاع النصر، حتى ليناموا بأسلحتهم، ويندفعون إلى القتال لأول بادرة[٥].

(نهاية الاقتباس)

إلا أن هذه الصورة التى قدمها أسامة بن منقذ عن الإفرنج قد تعرضت -وفق مقدمة المحقق[٦]- لانتقادات انطلاقا من العلاقات التى كان يجريها أسامة مع الإفرنج، والتى ساعدته على تبيان هذه الصور عن قرب. ولقد رأى فيها البعض اتجاها للمهادنة مع الإفرنج وموادعتهم، ورأى فيها البعض الآخر انعكاس لمرجعية أسامة وهويته الفكرية المتشبعة بقيم الإسلام وأطره المرجعية فى الوجود والسلوك والعلاقات، وأنه وإن فرض عليه التعامل مع الإفرنج إلا أنه لم يفرط بالأساس الثقافى الذى يؤسس لهويته واختلافه، وفى نفس الوقت لم يجد حرجا فى أن يكون وسيطا نافذا بين المسلمين والإفرنج.

إن هذا النموذج الذى تناوله أسامة بن منقذ بقصصه وذاكرته ليبين نمطا مفروضا من التعارف فى ظل الحرب وهو التعارف بين المعتدى على الأرض وبين المعتدى عليه، وهو تعارف، كانت له دوافعه وأهدافه. فضلا عن تزامن هذا النمط من التعارف خلال الحروب والدبلوماسية مع أنماط أخرى من تبادل الأفكار والحوار ومن العلاقات الرسمية وروابط إنسانية وهدنات واتفاقات اقتصادية وزيارات ومخالطات فى الأسواق والحمامات والبيوت والمزارات[٧].

ومما لا شك فيه أن هذا النمط من التعارف لابد وأن يقدم دلالة بالنسبة لحالة راهنة من الاعتداء الاستيطانى، وهى حالة المشروع الصهيونى فى فلسطين وكيف تطور وتدعم حتى تأسست إسرائيل، وما تلا ذلك من أنماط تعارف (قسرية) بين العرب المسلمين والمسيحيين واليهود وبين الوافدين المستوطنين المعتدين من اليهود الصهاينة. فكيف نوصف هذا النمط من التعارف القصرى؟ وكيف نقرأ أدواته وكيف نحدد عواقبه والأهم كيف نستشرف مآلاته وخاتمته على ضوء ذاكرة النماذج التاريخية الشبيهة؟؟

(٥) حول هذه الصفات انظر على التوالى الفقرات الآتية من كتاب أسامة بن المنقذ (والتى حددها المحقق فى هوامش مقدمته): الفقرات ١٦٦، ١٧٥، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤، ١٦١، ١٦٢، ١٦٧، ١٦٨-٧٤، ٧٥، ٩٣، ٩١، ١١٣، ١٤٩، ١٥٦، ١٧٨، ١٨٣، ١٢٠. انظر أيضاً: آخر الفقرة ١٦٩.

(٦) أسامة بن المنقذ، مرجع سابق، ص٢٨ - ٣٠.

(٧) المرجع السابق، ص٣٢.

(٢) نموذج "الفندق" وتطوره: قناة تعارف التجار بين الحرب والسلم

لم يكن احتكاك المماليك ومواجهتهم مع الإمارات الصليبية فى الشام فى آخر مراحل حياتها وحتى تمت تصفيتها، إلا الوجه الأول لعملة العلاقات مع "الغرب المسيحى"، وكان الوجه الثانى للعملة هو الاحتكاك مع "ممالك الإفرنج". وتقدم الخبرة المملوكية خبرة غنية من التفاعلات عبر حوض المتوسط والتى تشابكت فيها الحروب مع الدبلوماسية مع العلاقات السلمية التعاونية ومن ثم فهى تمثل نمط التعامل المقاوم، فى مقابل نمط الامتداد الذى قدمته التفاعلات العثمانية الأوروبية المتزامنة مع العصر المملوكى ثم التالية عليه أو فى مقابل نمط الاسترداد المسيحى فى الأندلس وفى روسيا والقوقاز وآسيا الوسطى الذى تزامنت بدايته مع العصر المملوكى واستكمل حلقاته مع العصر العثمانى[٨].

وهذا النمط للتفاعلات المملوكية الأوروبية[٩] الذى بدا جديدا لم ينه الصراع السياسى والعقيدى القائم بين العالمين ولكن أفرز أدوات جديدة لإدارته وفى إطار أكثر من الاتجاه للتعارف بين الشعوب تأثر صعودا وهبوطا بحالة الحرب أو السلم حيث أخذت العلاقات السلمية دفعة قوية مع نهاية الحروب الصليبية وعلى نحو أثار التساؤل هل انتهت الروح الصليبية الأوروبية وهل انتهى الجهاد الإسلامى؟ وهل يدخل التعارف مرحلة جديدة. ومع تنوع اتجاهات الإجابة على هذه الأسئلة إلا أن من واقع استقراء وقائع التاريخ الدبلوماسى والمقابلة بين التحليلات المختلفة[١٠]، يمكن القول[١١] إنه فى ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية للطرف الأوروبى فى نهاية العصور الوسطى كان بإمكان الفاعلين الإسلاميين الأساسيين، المماليك، والعثمانيين توظيف هذه الأوضاع لخدمة وحماية الإسلام حيث إن التغير فى طبيعة الصليبية لم يكن يعنى انتهاء الصراع السياسى بين المسيحية والإسلام، وبقدر ما أفرزت المرحلة الجديدة من الصراع أساليب وأدوات صليبية جديدة بقدر ما واجهتها القوى الإسلامية بنمطين من الجهاد الإسلامى: الفاتح والذى ترجمته الدولة العثمانية والجهاد الإسلامى الحامى والذى ترجمته الدولة المملوكية ولو بأساليب سلمية إلى جانب القتالية. فلم تكن تعنى -كما سنرى- انتهاء للجهاد المملوكى ولكن متابعته بأساليب جديدة.

ومن أهم نماذج اختبار آليات هذا النمط من العلاقات (على المستوى غير الرسمى) ما يعرف بالفندق[١٢]:

- وابتداء من القرن التاسع الميلادى حتى منتصف القرن الثانى عشر لم تكن التجارة بين مصر وهذه الدول إلا تجارة ساحلية حيث تكونت جاليات تجارية فى مدن وسواحل وبنادر البحر المتوسط دون أن تتمكن من الحصول على حق إقامة فندق. وكان ينظم مقام هؤلاء التجار عقد أمان إسلامى للفرد أو الجماعة وبالرغم من أن استمرار هذه العلاقات كان يدل على وعى سلاطين مصر بأهمية توطيد العلاقات التجارية على نحو يخدم ولا يضر مصالح مصر السياسية

(٨) د.نادية محمود مصطفى، العصر المملوكى، مرجع سابق، ص٧-١٢.

(٩) المرجع السابق، ص٣٨-٤٠.

(١٠) المرجع السابق، ص٣٨-٤٢.

(١١) المرجع السابق، ص٤٢.

(١٢) المرجع السابق، ص٤٩-٥٠.

والعسكرية إلا أنه لم تظهر جماعات أجنبية مستقرة تتمتع بحقوق مؤسسية الفندق، ولكن ومنذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي تراجعت تدريجيا السياسة الإسلامية التقليدية في قصر نشاط التجار الأوروبيين على السواحل حيث تطورت ثم اكتملت أبعاد المؤسسة الفندقية حتى أصبحت تمثل ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الدولية والعمود الفقرى للمعاهدات التى عقدتها مصر مع الممالك الأوروبية المتوسطية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. ولقد صاغت بنود هذه المعاهدات التصريح للتجار القادمين من دار الحرب بمزاولة أعمال التبادل باعتبار أنها لا تضر الإسلام والمسلمين، كما صاغت حدود هذه الأعمال التى تحكمها القوانين الإسلامية والشروط التى طالبت بها دول هؤلاء التجار. وكان من أهم تلك المعاهدات تلك التى عقدت مع البندقية والتى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ثم تلتها ست معاهدات أخرى فى القرن ١٤م (١٣٠٢، ١٣٤٤، ١٣٥٥، ١٣٦١، ١٣٦٦، ١٣٧٥) وثلاث معاهدات فى القرن الخامس عشر ميلاديا (١٤١٥، ١٤٢٢، ١٤٤٤) وذلك نظرا لازدهار العلاقات التجارية بين مصر والبندقية أواخر القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى وأوائل القرن التاسع هجريا الخامس عشر ميلاديا(١٣).

ومن ناحية أخرى: فإن لطبيعة هذه العلاقات مدلولات مهمة بالنسبة لفهم ما كان لمصر يومئذ من شأن فى الشئون الدولية الاقتصادية والسياسية، وبالنسبة لتكييف طبيعة علاقاتها كطرف مسلم مع أطراف مسيحية أوروبية. بعبارة أخرى، فإن تحليل هذه المدلولات يفرض الإجابة على سؤال هام يعد امتدادا واستكمالا لسؤال سبق طرحه حول مرحلة تصفية الإمارات الصليبية وهو: هل تعد هذه العلاقات الجديدة نقطة تحول في العلاقات الدولية الإسلامية - المسيحية بعيدا عن السياسة الإسلامية التى كانت دعامتها فكرة الجهاد والتقسيم إلى دار حرب ودار إسلام؟ أم أنها ظلت تعبر عن نفس هذه السياسة ولكن بأدوات جديدة لا تنفى طبيعتها السلمية استمرار تفوق وهيمنة دور الطرف الإسلامى؟

وإذا كان البعض(١٤) قد رأى أن معاهدات القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (كما سبق ورأى البعض)(١٥) فى معاهدات المماليك خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى تشتمل على بدايات "الامتيازات الأجنبية" التى وردت فى معاهدات الباب العالى (السلطان العثمانى مع البلاد الصديقة)، وإذا كان البعض الآخر(١٦) قد أشار فى معرض تقويمه لأبعاد قوة المماليك العسكرية والاقتصادية والدينية أنه من الأمور المشكوك فيها بقوة أن المماليك قد رأوا مبدأ الحرب المقدسة (الجهاد) بنفس طريقة الفقه التقليدى إلا أنه بالنظر إلى السياق الزمانى والمكانى لهذه المعاهدات وحالة الطرف المملوكى وأهدافه من ورائها يمكن القول إن هذه الممارسات المملوكية على صعيد العلاقات السلمية التجارية انطلقت من وضع

(١٣) وحول مزيد من التفاصيل، انظر:
- د.صبحى لبيب، الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية قانونية، (فى): د.رءوف عباس (محرر)، مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٨٦-٢٩٨.
(١٤) المرجع السابق، ص ٢٩١-٢٩٢.
(15) p 166 .Holt, The Age of The Crussads.M.P
(16) Aziz Swial Atiy, The Crusade in later Middle Ages (Methuen, London, 1938), p 20-21

القوة والمناورة وليس الضعف والخضوع، كما أنها كانت تخدم وتدعم المصالح السياسية والعسكرية المصرية فى مواجهة الأعداء من الشرق والغرب على حد سواء.

(٣) نموذج تعارف "الفقيه" ابن تيمية على ممالك الإفرنج فى "الرسالة القبرصية"(١٧):

خطاب من شيخ الإسلام ابن تيمية إلى سراجيوش ملك قبرص، من التعارف النقدى للمسيحية، إلى حقوق الأسرى المسلمين والمسيحيين: (دور الفقيه فى التعارف المعرفى والعقيدى والدور السياسى).

إن هذه الرسالة، وفق تقديم المحقق لها(١٨)، يسأل فيها ابن تيمية ملك قبرص مساعدة الأسرى والإحسان إليهم والمعاونة على خلاصهم. ولكن تتضمن الرسالة هدفا آخر هو "فائدة أرادها ابن تيمية للملك خاصة(١٩): "وهو معرفته بالعلم والدين وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر، فهذا خير له من مُلك الدنيا بحذافيرها، وهو الذى بعث به المسيح، وعلمه الحواريين".

والمتصفح لأوراق الرسالة لا بد وأن يستوقفه أمران:

الأول: سعة إطلاع ابن تيمية ومعرفته بعقائد النصارى وفرقهم، وامتلاكه الحُجة البالغة، والدليل الساطع، فى الرد على دعاويهم، وكشف تلبيساتهم ودحض باطلهم.

الثانى: اهتمامه بأمور المسلمين العامة، وتدخله -وهو الشيخ والعالم والإمام- فى واحدة من قضايا السياسة الخارجية للدولة، من خلال سعيه لإطلاق أسرى المسلمين، وحرصه وعنايته بأحوال الرعيّة ومشاكلها، حتى تلك التى تقع فى اختصاص الحاكم ومسئوليته".

إن القارئ لهيكل الرسالة الذى يبدأ بأمور الدين ثم ينتقل إلى شئون الأسرى، ليتضح له حيوية هذا الربط بين أمور فقه الأديان المقارن وبين فقه أمور السياسة والتحرك لخدمتها من جانب شيوخ الإسلام الذين لا يحكمون، فهؤلاء لم يقتصر دورهم فى تاريخ المسلمين على جانب دون آخر، ولكن حيوية الأمة ونهوضها تأثرت بالجمع بين الدورين، سواء تجاه المسلمين وفيما بين بعضهم البعض أو سواء الخارج وغير المسلمين.

وبدأ التدهور والتراجع فى حال الأمة مع الانفصال بين الجانبين وخاصة فيما يتصل بالخطاب تجاه الآخر، على أرض الوطن أو فى الخارج، ومن أهم الدلالات الحضارية لهذه الرسالة أنها تتصل بالأسرى من المسلمين والمسيحيين على حد سواء فهم جميعا "الأهل" فى مواجهة المعتدى.

أن نمط التعارف الذى جسده نموذج العالم ابن تيميه ليدفع إلى التساؤل عن دلالاته الراهنة والمتصلة بدور علماء الإسلام وشيوخه (سلبا أو إيجابا) فى الأزمة القائمة بين المسلمين والمسيحيين فى بعض الدول العربية؟

وتزداد بالطبع أهمية هذا الدور، سواء فى أبعاده السلبية أو الإيجابية، فى ظل تداعيات الثورات العربية على قضية العلاقة بين الدين والمجتمع والدولة.

«يتبـــع»

(١٧) ابن تيمية، الرسالة القبرصية (خطاب من شيخ الإسلام ابن تيمية إلى سرجواس ملك قبرص)، تعليق: علاء الدين دمج، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٨٧.
(١٨) انظر مقدمة المحقق، المرجع السابق، ص ٩-١١.
(١٩) المرجع السابق، ص١٠.

بنوا إسرائيل فى الكتاب والسنة





للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

إذا نظرنا إلى التوراة الحالية من حيث المتن نجدها محشوة بالقصص والعبارات والمتناقضات التى تتنزه الكتب السماوية الصحيحة عن ذكرها، وإليك بعض الأمثلة:

(أ) يقرر سفر التكوين: «أن الله ـ تعالى ـ بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، استراح فى اليوم السابع، وكان يوم سبت، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل»[1].

وهذا الوصف تنزه عنه الخالق ـ تعالى ـ كما تنزه أى كتاب سماوى عن أن يشتمل على هذه العبارة الباطلة.

ولقد بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ خلق السموات والأرض وما بينهما دون أن يناله نصب أو تعب فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

(ق: ٣٨)

وفى الأسفار ـ أيضاً ـ ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا يعتقدون تعدد الآلهة، وأن إلههم يخالف آلهة البشر (وفيها ـ كما يقول بعض الكتاب ـ مواقف كثيرة يبدو فيها الإله أشبه بالإنسان فى أحوال ضعفه وقوته، وفى ضلاله ورشده، وفى حلمه وجهله.. حتى لكأن الإله قد اتخذ له خيمة مع اليهود وعاش بينهم.. ولهذا أمثلة كثيرة، قل أن تخلو منها صفحة من صفحات العهد القديم)[2].

(ب) تنسب التوراة الحالية لبعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أعمالاً قبيحة تتنافى مع العصمة التى منحها الله ـ تعالى ـ لهم، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس. من ذلك ما جاء فى سفر التكوين (عن لوط ـ عليه السلام ـ وابنتيه فهو يذكر أن لوطاً ـ عليه السلام ـ وابنتيه هم الذين نجوا بعد هلاك قومه، وأن ثلاثتهم قد أقاموا عقب ذلك فى غار، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما (إن أبانا قد أصبح شيخاً كبيراً، وليس فى هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذى يفعله ذكور الناس مع إناثهم، وإذا بقى الأمر هذا على تلك الحالة. فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا، وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة أن نسقى أبانا خمراً حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتى منه بذرية تخلد نسله.. ثم أنفذتا ما اتفقتا عليه، وجاءت الكبرى بغلام اسمته (مؤاب) وجاءت الصغرى بغلام اسمته (عمون) ومن هذين الغلامين تكون شعب المؤابيين والعمونيين)[3].

هذا، وفى التوراة الحالية نصوص أخرى فيها تطاول على بعض الأنبياء[4] كآدم، ونوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهرون، وداود، وسليمان ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ـ وفيها وصف لهم بأعمال ذميمة تتعارض مع الخُلُق الكريم، الذى طبعهم الله ـ تعالى ـ عليه.

(جـ) فى التوراة الحالية، كثير من مظاهر التناقض والتضارب فى الأحكام.

فمثلاً: سفر الخروج والتثنية (يقرران أن الإسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه أكثر من ست سنين) بينما يقرر سفر اللاويين فى هذه الصورة نفسها أن رق الشخص لا ينتهى إلا بحلول اليوبيل الإسرائيلى (وهو العيد الذى يجىء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك، فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياماً إذا استرق عقب العيد الخمسين مباشرة[5].

وهناك أمثلة عديدة للتضارب فى الأحكام والأعداد والتشريعات فى التوراة الحالية.

(د) ما اشتملت عليه بعض الأسفار من غزل شهوانى صريح، ومن تعبير ماجن خليع، يجعل العاقل يستبعد أن تكون هذه الأسفار منزلة من السماء، وفى سفر (نشيد الإنشاد) ـ مثلاً ـ كثير من هذا اللون الماجن من الغزل، ففى بعض فقراته يقول: (فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى.. طلبته فما وجدته.. إنى أقوم وأطوف المدينة فى الأسواق والشوارع.. وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت: أرأيتم من تحبه نفسى.. فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدته.. فأمسكته ولم أتركه أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى)[6].

وقد تحدث صاحب (قصة الحضارة) عما يشيع فى الأسفار من عبارات مهيجة للشهوة فقال: «وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين، فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين، ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى، ولسنا

(١) سفر التكوين الإصحاح الثانى.
(٢) المسيح فى القرآن للأستاذ عبدالكريم الخطيب ص٤٦.

(٣) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر.
(٤) ذكر هذه النصوص بإسهاب فضيلة المرحوم الشيخ عبدالرحمن الجزيرى فى كتابه (أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين) من ص٤٣١ ـ ٤٥٤.
(٥) الأسفار المقدسة للدكتور على عبدالواحد وافى ص٣٣.
(٦) سفر (نشيد الإنشاد) نقلا عن كتاب (المسيح فى القرآن) للأستاذ عبدالكريم الخطيب ص٤٦.

ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال (أشعياء) و(أرمياء)»[٧].

وقصارى القول، إن التوراة الحالية ـ فى مجموعها ـ قد كتبت بعد موسى «عليه السلام» بأزمان متفاوتة، وبأفكار مختلفة، وأن اليهود كتبوها انعكاساً لأخلاقهم، وتاريخهم وآمالهم وآلامهم، وكان مقصدهم الأول من وراء ذلك إظهارهم الشعب الإسرائيلى بمظهر الشعب المقرب إلى الله ـ تعالى ـ والمفضل على غيره من الشعوب، ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا فى كتابتها؛ امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات.

ورحم الله الشيخ (رحمة الله الهندى)، «فقد تناول فى الكلام على أسفار العهدين العتيق والجديد ـ أى التوراة والإنجيل ـ كل باب من أبوابهما واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين، ثم تناول بعد ذلك ما فى الكتابين من الاختلاف والأغلاط.. ثم عقد باباً خاصاً لإثبات التحريف فى كتب العهدين القديم والجديد مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾

(المائدة: ١٣)

وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد، وكان يأتى التحريف أحياناً بالزيادة وأحياناً بالنقصان وأحياناً بالتبديل اللفظى، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً، كما ساق على التبديل اللفظى خمسة وثلاثين شاهداً، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهداً.. مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم»[٨].

هذا! وليست الأسفار التى تحدثنا عنها سابقاً هى الكتب المقدسة عند اليهود وحدها، وإنما عندهم كتاب آخر يعتبرونه فى منزلة لا تقل عن منزلة التوراة وهذا الكتاب هو (التلمود).

وذلك أن علماء اليهود ومجتهديهم قاموا بتأليف مجموعات من التفاسير والشروح للتوراة، تتعلق هذه الشروح بشئون العقيدة والشريعة والتاريخ كما قاموا بجمع الروايات الشفوية التى تناقلها أحبار اليهود من جيل إلى جيل وقد بلغ ما جمعه هؤلاء المجتهدون ثلاثة وستين سفراً، ألفت خلال القرنين الأول والثانى الميلادى، وأطلق عليها اسم (المشناة) أى الشريعة المكررة؛ لأن المشناة تكرار وإيضاح وتفسير وتكميل لما ورد فى التوراة.

ثم قام بعد ذلك مجتهدون آخرون من اليهود الذين كانوا يسكنون فلسطين وبابل بشروح «للمشناة» أطلق على هذه الشروح اسم «الجمارا» أى: الشرح والتعليق. وقد تم تأليف هذه الشروح فى فترة طويلة امتدت من القرن الثانى إلى نهاية القرن السادس الميلادى.

(٧) قصة الحضارة لديورانت جـ٣ ص٣٨٨.
(٨) من مقدمة كتاب (إظهار الحق) للأستاذ عمر الدسوقى.

ومن المشناة والجمارا يتكون التلمود الذى هو بمعنى التعاليم والآداب الدينية لليهود، وبهذا نرى أن التلمود يتكون من شيئين:

- ومن (المشناة) التى هى عبارة عن شروح وتفاسير للتوراة.
- ومن (الجمارا) التى هى عبارة عن حواش وتعليقات وتفسيرات للمشناة.

ويطلق على الشروح التى أضافها أحبار فلسطين إلى المشناة اسم التلمود الأورشليمى ويطلق على الشروح التى أضافها أحبار بابل إلى المشناة اسم التلمود البابلى وهو أضخم من التلمود الأورشليمى، وأكثر تداولاً منه، وإذا أبهم على اليهود شىء من التلمود الأورشليمى، راجعوا من أجل معرفته التلمود البابلى؛ لأنهم يعتبرونه دليلهم ومرشدهم.

ويعتقد معظم اليهود أن التلمود كتاب مقدس، ويضعونه فى منزلة التوراة، ويرون أن الله تعالى أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً، وبعض اليهود يضع التلمود فى منزلة أسمى من منزلة التوراة، وقد نسب بعض اليهود إلى (أشعيا) أنه قال: (إن التوراة كالماء، والمشناة كالخمر، والجمارا كالخمر المعطر، فالعالم لا يمكنه الحياة بدون مياه وخمر وخمر معطر والغنى لا يدع واحدة تفوته، ولهذا السبب فإن العالم لا يمكنه الثبات بدون التوراة والمشناة والجمارا؛ فالشريعة هى كالملح، والمشناة كالبهار، والجمارا كالتوابل. إن الذين يدرسون التوراة يحتمل أن يكون عملهم فضيلة أو غير فضيلة، أما الذين يدرسون المشناة فإنهم يمارسون الفضيلة ويثابون عليها، إلا أن الذين يدرسون الجمارا فإنهم يكتسبون أعظم فضيلة وأسماها، وأن من يحتقر كلمات الربانيين يستحق الموت)[٩].

وقد احتوى التلمود على كثير من الأكاذيب، والمفتريات، التى لا يقبلها عقل من ذلك ما جاء فيه (من أن الله ـ تعالى ـ يقسم النهار إلى اثنى عشر ساعة، فى الساعات الأولى الثلاث يدرس شريعة اليهود وفى الساعات الثانية يدين الشعوب، وفى الساعات الثالثة يغذى العالم بأسره وفى الساعات الثلاث الأخيرة يلعب مع ملك الأسماك...)[١٠].

وجاء فيه (أن الله ندم لما أنزله باليهود بالهيكل، وأنه ظل يصرخ ويقول: (الويل لى لأنى تركت بيتى ينهب، وهيكلى يحرق، وأولادى يشتتون...)[١١].

وجاء فيه عن اليهود قوله: (تتميز أرواح اليهود عن باقى أرواح البشر بأنها جزء من الله تعالى كما أن الابن جزء من أبيه وأنه يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض... وأن اليهودى معتبر عند الله أكثر من الملائكة وأن اليهودى جزء من الله، فإذا

(٩) عن كتاب (همجية التعاليم الصهيونية) للأستاذ بولس حنا سعد طبعة بيروت ١٦.
(١٠) المصدر السابق ص٢٤.
(١١) المصدر السابق ص٢٥.

ضرب أمي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود.. وأنه مصرح لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف له أيماناً كاذبة)(١٢).

هذه مقتطفات من الأكاذيب والمفتريات التي امتلأ بها التلمود، وقد قام بجمعها والتعليق عليها عدد كبير من الباحثين، ومن أشهر الكتب التي ألفت في ذلك كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» للدكتور «روهلنج» الذي كان مدرساً بجامعة براج، وقد قام بترجمته الدكتور يوسف نصر الله، وكتاب «التلمود وشريعة إسرائيل»، لأحد الباحثين، وكتاب «همجية التعاليم الصهيونية» للأستاذ بولس حنا سعد.

بعد هذا الحديث الموجز عن أسفار اليهود المقدسة نختم كلامنا عن أحوالهم الدينية بكلمة عن فرقهم فنقول:

لليهود فرق كثيرة تزعم كل فرقة منهم أنها أمثل طريقة، وأشد تمسكاً بأصول الديانة اليهودية من غيرها، ومن أشهر فرقهم:

(أ) فرقة الفريسيين: بمعنى المنعزلين والمنفصلين عن بقية الشعب، وقد نشأت هذه الفرقة في عهد المكابيين، أي في القرن الثاني قبل الميلاد، وهدفهم المحافظة على الشريعة والتمسك بتعاليمها الخرافية، دون أي اجتهاد فيها.

ويرى الفريسيون صحة البعث والحساب والجزاء، وأكثرهم لا يتزوجون ويحافظون على وجودهم عن طريق التبني.

(ويعتقد الفريسيون أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة التي يعتمد عليها، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية، ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير التي تعتبر توراة شفوية، وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.. وتلك الروايات الشفوية هي التي دونت فيما يسمى بالتلمود، ولضمان تقديس اليهود للتلمود أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة عليا، وأنهم معصومون. وأن أقوالهم صادرة عن الله - تعالى - وأن مخافتهم هي مخافة الله)(١٣).

وعن سلوك الفريسيين يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: (ويتضح من التلمود أن الفريسيين لم يكونوا جميعاً على ما يرام، وأن كثيرين منهم كانوا كذلك بحسب الظاهر فقط، أما باطنا فكانوا يخالفون تعاليم فرقتهم وقد قسم التلمود الفريسيين إلى سبعة أقسام، وقال إن ستة من هذه السبعة لا تستحق الاعتبار لمخالفتها الغاية المقصودة، أما السابعة فأفرادها هم الفريسيون الحقيقيون وهم الذين يعملون بإرادة الله لأنهم يحبونه)(١٤).

(ب) فرقة الصدوقيين: سموا بذلك نسبة إلى زعيمهم (صدوق الكاهن) الذي

(١٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود ترجمة للدكتور يوسف نصر الله ص٤٨ وما بعدها.
(١٣) اليهودية للدكتور أحمد شلبي ص١٩٦.
(١٤) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص١٦٩.

عاش في القرن الثالث الميلادي.

وهم ينكرون البعث والحساب والجزاء والجنة والنار، ويقولون إن جزاء الإنسان إنما يتم في الدنيا.

وينكرون كذلك التلمود، وحتى التوراة يرون أنها غير مقدسة قدسية مطلقة، بل للفرد أن يدخل عليها ما يراه مناسباً. ومعظم المنتسبين إلى هذه الفرقة من أغنياء اليهود وأثريائهم ووجهائهم، ويرى بعض الباحثين أنهم إلى الحزب السياسي أقرب منهم إلى الطائفة الدينية.

(حـ) فرقة القرائين: كانت هذه الفرقة في مبدأ أمرها تمثل قلة من اليهود، إلا أنها اتسعت وكثر عدد المنتسبين إليها بعد تدهور شأن الفريسيين.

وهذه الفرقة تعترف بما جاء في التوراة وحدها، ولا تعترف اعترافاً تاماً بأحكام وتعاليم الحاخامات، بل تقول إن ما جاء عنهم قابل للخطأ والصواب والإضافة والتنقيص منه، بخلاف فرقة الفريسيين التي ترى أن كلام الحاخامات له قدسية كقدسية كلام التوراة.

وقد أسست هذه الفرقة في القرن الثامن الميلادي، وتولى رئاستها (داود عنان) أحد علماء اليهود في بغداد.

(د) فرقة الكتبة: وأفراد هذه الفرقة وظيفتهم كتابة الشريعة لمن يريدها، فهم أشبه ما يكونون بالنساخ، وقد نتج عن كثرة مزاولتهم لهذا العمل أن عرف عدد منهم بالإلمام بأحكام شريعتهم، فاتخذوا الوعظ والتدريس مهنة لهم.

وبمرور الأيام تولوا المناصب، وعاونوا الحكام في بلوغ غاياتهم، وأصبحوا هم الرعاة للمدارس والمعابد.

هذه أشهر فرق اليهود الدينية، وهناك فرق أخرى ذكرها علماء الملل والنحل ولا مجال لذكرها هنا وبذلك نكون قد ألممنا بجوانب من أحوال اليهود الدينية.

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الأمر الرابع وهو علاقتهم بالأوس والخزرج - فنقول:

يذكر المؤرخون أن الأوس والخزرج أصلهما من قبيلة الأزد باليمن، وأنهم جاءوا إلى المدينة بعد حادث سيل العرم التماساً لمكان جديد يصلح لمعيشتهم بعد أن غرقت مساكنهم باليمن، وأنهم حين نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة؛ ولذلك رضوا بما حصلوا عليه من أرض ضعيفة ومن رزق شحيح.. وبمرور الأيام اختلط الأوس والخزرج باليهود الذين كانوا يسكنون يثرب، وكانوا أصحاب الثروة والمال والكلمة النافذة فيها.

وقد بقي الأوس والخزرج على ضعفهم، حتى ظهر فيهم رئيسهم (مالك بن العجلان)، الذي استطاع بدهائه ومكره وشجاعته أن يفتك باليهود وأن يجعل الكلمة العليا لبني قومه.

ويصف (الدكتور جواد علي) ما كان عليه اليهود من ضعف وذلة فيقول: «ولكن اليهود مع ما كان لهم من حصون وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين، لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرض التي أنشأوا مستوطناتهم فيها، ولم يتمكنوا من

إنشاء ممالك وحكومات يحكمها يهود، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدون لهم إتاوة فى كل عام مقابل حمايتهم لهم، ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدى عليهم، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب»[١٥].

وقد أشار القرآن الكريم إلى انضمام بعض اليهود إلى الأوس، وبعضهم إلى الخزرج عند القتال، فقال تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ٨٤ - ٨٥)

ومع أن الثابت أن اليهود لم يكن لهم نفوذ يذكر على المدينة من الناحية السياسية والحربية، وأن السلطان من هذه الناحية كان للأوس والخزرج، إلا أن بعض آيات القرآن الكريم تحكى لنا أن اليهود من الناحية الدينية كانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع، وأنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم كانوا يبشرون بمبعث نبى جديد، ويقولون للأوس والخزرج إن نبيا قد أظلنا زمانه، وأننا سنتبعه، ونقتلكم قتل عاد وإرم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قولهم هذا فقال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة: ٨٩)

والخلاصة: إن علاقة اليهود بالأوس والخزرج كانت خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا فى إثارتها فائدة لهم، كما حصل ذلك فى كثير من الحروب التى أنهكت الأوس والخزرج، وأنهم كانوا يهمهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة، وأن حديثهم عن النبى المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام.

وقد استمرت علاقة اليهود بالأوس والخزرج تسير على هذا المنوال، إلى أن هاجر النبى (ﷺ) إلى المدينة فاشتركوا فى استقباله، ثم جرى بينه وبينهم ما جرى من أمور سنتحدث عنها فيما بعد.

«يتبع»

(١٥) تاريخ العرب قبل الإسلام طبعة المجمع العلمى العراقى جـ٦ ص٢٣.

خطابهم الدينى !!

من فتاوى الحاخامات *

عنوان الفتوى: الشعب اليهودى عنصرى لصالح البشرية

مصدر الفتوى: WWW.daatemet.org، ٢٥/٨/٢٠٠٤

فتوى من: هيئة تحرير الموقع

● سؤال: قرأت مقالكم «الشعب اليهودى هو الشعب المختار» وتساءلت هل يعتقد المتدينون الآن أنهم الشعب المختار؟ هل يتفقون مع رأى الخوزرى الذى يقول: إن الشعب اليهودى أسمى من الأغيار؟

● جواب: بعد التحية يا درور.. سنورد فى البداية ما قاله الخوزرى: فهو يعتقد أن هناك درجات رقى بين المخلوقات: النبات والجماد والحيوان والإنسان واليهود. وعلى حد اعتقاده فإن الشعب اليهودى يتمتع بصفة وراثية تتمثل فى القوة الإلهية، وهو ما لم «تحظ» به باقى الشعوب. ويرى الخوزرى أن هذا هو السبب فى أن التجلى والنبوة قد منحا لشعب متميز، شعب لديه جين يطلق عليه اسم «القوة الإلهية» وتنتقل هذه الصفة الجينية بالوراثة - وهذا الشعب هو الشعب اليهودى.

● ورداً على سؤالك بشأن رأى المتدينين الآن، سننقل لك إجابة الحاخام يعقوب أريئيل الحاخام الأكبر لرمات جن [من موقع «يشيفا الإلكترونى WWW.yeshiva. org.il] سؤال: كيف يمكن الرد على من يقول: إن أقوال الخوزرى فيما يتعلق باليهودى «أنه أرقى من الأغيار» هى أقوال عنصرية؟

● جواب: هذا الرقى هو واجب أكثر منه حق، فمكانة اليهود بين الأمم كمكانة القلب بين أعضاء الجسم، فهو عن طريق الدم يدفع الأكسجين إلى جميع أعضاء الجسم، وهو أقوى عضلة؛ لأنه لو توقف عن النبض للحظة واحدة ستموت جميع الأعضاء. فهل يعد مثل هذا «السمو» عنصرية؟ هل به ذرة من العدوانية أو تبرير لإساءة المعاملة أو السادية حاشا لله؟ أم أنه بالكامل، على عكس ذلك، لا يهدف سوى لصالح الإنسانية فقط.

وهكذا فإن الحاخام - الذى يشغل وظيفة عامة يتقاضى عنها راتباً شهرياً - يقول فى الواقع كلاماً يتعارض مع المبادئ الأساسية لدولة إسرائيل دون أن يشعر بأن وجهة نظره مقيتة وبغيضة. لقد وقعت دولة إسرائيل على ميثاق الأمم المتحدة الذى دخل حيز التنفيذ طبقاً للبند ١٩ «مادة ٢» فى يوم ٢ فبراير ١٩٧٩. وجاء فى نص ميثاق الأمم المتحدة ما يلى: «تحقيق أحد أهداف الأمم المتحدة بتشجيع احترام والمحافظة على حقوق الإنسان والحريات الأساسية لجميع البشر على مستوى العالم، دون تمييز بين عرق وآخر، أو بين نوع وآخر، أو بين لغة وأخرى أو بين ديانة وأخرى... لقد ولد جميع البشر أحراراً ومتساوين فى الاحترام والحقوق... وأى نظرية تفوق تقوم على تمييز عرقى هى نظرية كاذبة..». ومن الأمور التى تثير الدهشة والاستغراب الشديدين، أن تقوم الدولة التى تؤيد مبدأ المساواة بين جميع البشر، بتمويل مؤسسات ترفض مبدأ المساواة بين جميع البشر.

مع تحيات: إدارة موقع دعت إمت

* د. منصور عبدالوهاب، فتاوى الحاخامات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠.

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام (٢)



للأستاذ الدكتور/ محمد المختار المهدى
الرئيس العام للجمعيات الشرعية
عضو مجمع البحوث الإسلامية

لا تمييز بسبب اللون

وليس فى الإسلام كذلك تمييز بسبب اللون ، فإنه يعتبر اختلاف اللون فى الإنسان كاختلافه فى الزهور والرياحين ، ويجعل هذا الاختلاف دليلاً على إبداع القدرة الإلهية:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

(سورة الروم: ٢٢)

والرسول ﷺ يغضب بشدة حين يسمع تلميحا بهذا التمييز فى مجتمع كان يعد سواد اللون نقصا وضعة، ويغمط الأسود حقه ولو كان كفئا ، ولا أدل على ذلك من هضم حق الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسى.

عن المَعْرُور قال: لقيتُ أبا ذرٍ بالرَّبذة ، وعليه حُلَّةٌ ، وعلى غُلامه حُلَّةٌ ، فسألتُه عن ذلك؟ فقال: إنى سابَبْتُ رجُلاً ، فعيَّرتُه بأمه ، فقال لى النبىُّ ﷺ : «يا أبا ذرٍ أعيَّرتَه بأمه إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ»[(١)].

ويمثل هذه التوجيهات الحكيمة محيت من نفوس المسلمين هذه التفرقة محوا قاطعا، فقد أرسل (عمرو بن العاص) إلى المقوقس وفدًا وجعل رئيسه (عبادة بن الصامت) وكان أسود اللون ، فغضب المقوقس لسواده، وبسطة جسمه وطلب أن يتكلم غيره، فرفض الوفد قائلاً: «إن هذا أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا».

لا تمييز بسبب الدين

ولا تمييز فى الإسلام كذلك بالنسبة للمعاملة بسبب الدين أو التقوى والصلاح - كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق - ، إن النفس الإنسانية محترمة مكرمة بدون نظر إلى دينها أو جنسها ، فقد مرت جنازة على النبى ﷺ فوقف لها ، فقيل له إنها جنازة يهودى. فقال النبى ﷺ : «أليست نفسا»[(٢)].

فإذا ما حدثت مقاضاة بين اثنين وكان أحدهما أتقى من الآخر ، أو كان أحدهما مسلما وكان الآخر يهوديا أو مسيحيا، فلا اعتبار لشىء من ذلك أمام القضاء.

شكا يهودى «عليًا» إلى «عمر» فى خلافة «عمر» ، فلما مثلا بين يديه خاطب «عمر» اليهودى باسمه وخاطب «عليًا» بكنيته، فقال: يا أبا الحسن، حسب عادته فى الخطاب، فظهر أثر الغضب على وجه «علىّ»، فقال له «عمر»: أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ، وأن تمثل معه أمام القضاء وعلى قدم المساواة؟! فقال «علىّ»: لا ، ولكننى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه ، بل فضلتنى عليه ، إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتنى بكنيتى.

هكذا غضب «علىّ» لهذا التمييز الواهى غير المقصود ، و«علىّ» ليس مسلما فقط وخصمه يهودى.. ولكن من الصفوة الممتازة من صحابة رسول ﷺ.

لا تمييز بين قوى وضعيف

ولا اعتبار كذلك للوضع الاجتماعى، فلا تمييز فى القضاء بين قوى وضعيف، أو شريف وسوقة، أو حاكم ومحكوم.

شفع «أسامة بن زيد» - وكان حبَّ رسول الله ﷺ - فى «فاطمة بنت الأسود» المخزومية عندما وجب عليها حد السرقة إلى رسول الله ﷺ ، فانتهره الرسول ﷺ قائلا: «أتشفعُ فى حدٍ من حُدود الله». ثُم قام فخطبَ وقالَ: «يا أيها النَّاس إنَّما ضلَّ من قَبلكُم أنَّهم كانُوا إذا سرق الشَّريفُ تركُوهُ، وإذا سرق الضَّعيفُ فيهم أقامُوا عليه الحدَّ، وايمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت مُحمد سرقت لقطع مُحمدٌ يدها»[(٣)].

وخطب «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - حين تولى إمارة المؤمنين فقال: «أيها الناس، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه».

وكتب إلى «أبى موسى الأشعرى» فى رسالة القضاء: «آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك».

وكتب إلى الخليفة من بعده: «اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله».

لا تمييز بسبب الرأى

ولا اعتبار كذلك باختلاف الرأى السياسى فى الدولة، فعلى رئيس الدولة أن ينفذ حكم الله - تعالى - بالعدل والقسط على الجميع، لا فرق بين مؤيديه ومخالفيه، استجابة لقول الله تعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

وإذا كان الإسلام لا يضع فى اعتباره أمام المساواة بين الإنسانية كلها عوامل الدين ولا اللغة ولا الجنس ولا اللون ولا الرأى السياسى، فهو كذلك لا ينظر إلى الأصل الوطنى على أنه ميزة تعطى لصاحبها حقًا أفضل من الغريب، فلقد كانت مكة هى الموطن الأصلى لرسول الله ﷺ وللمهاجرين رضى الله عنهم.

ولما ذهبوا إلى المدينة وجدوا فيها بروح الإسلام وطنا وأهلا وأنصارا لم يظفروا بهم فى موطنهم مكة، ذلك أن الإسلام جعل وطن

(١) أخرجه البخارى - كتاب الإيمان - باب المعاصى من أمر الجاهلية - حديث رقم ٣٠.

(٢) أخرجه البخارى - كتاب الجنائز - باب من قام لجنازة يهودى - حديث رقم ١٣١٢.

(٣) أخرجه البخارى - كتاب الحدود - باب كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع إلى السلطان - حديث رقم ٦٧٨٨. وأخرجه مسلم - كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود - حديث رقم ٤٥٠٥.

المسلم ليس هو الأرض التى ولد عليها وعاش عليها فقط، ولكن الوطن الصحيح هو الأرض التى وجد نفسه حرًا عليها فى دينه وعقيدته ويحكمها الإسلام، أيًا كانت هذه الأرض، وأى انحراف عن هذه النظرة نفاق ومرض نفسى.

هذا «عبد الله بن أبى» يثير فتنة فى غزوة «بنى المصطلق» أساسها أن الرسول ﷺ وصحبه المهاجرين غرباء عن المدينة، وأن أهل المدينة هم الذين آووهم ونصروهم، ولو أن أهل المدينة منعوا عنهم المعونة لانفضوا عن هذا الوطن، ومغزاها أن الوطنى أعز من الغريب، ولو كان مشتركًا فى الدين واللغة، وفى هذا يقول الله عز وجل:

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة المنافقون: ٧، ٨)

لا تمييز بسبب الغنى والفقر:

ولا اعتبار فى الإسلام كذلك لفوارق الغنى والفقر، فلا الغنى يعطى صاحبه حقًا، ولا الفقر يبخس صاحبه شيئًا من حقه، ولقد صرح القرآن الكريم بذلك فقال:

﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾

(سورة النساء: ١٣٥)

بل إنه لا يصح فى عرف الإسلام أن يُحترم الغنى لغناه، وأن يُحتقر الفقير لفقره، فمقاييس الرجال لا ينبغى أن تكون رهن المظاهر الخادعة: عن سهل بن سعد الساعدى أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك فى هذا؟». فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع. قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك فى هذا؟». فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»(٤).

بعد هذا البيان الواضح لنصوص الإسلام القاطعة، يتبين إلى أى مدى بلغت قيمة المساواة بين أفراد هذا الجنس البشرى كله فى كنف التشريع الإسلامى.

حق الحرية

الحرية هى الإطار الذهبى الذى يبدو فيه الإنسان وهو يرفرف فى أفقه الإنسانى الرفيع، متميزًا به على ما سواه من المخلوقات.

لقد منح عقلًا وتفكيرًا وإرادة، وفتحت له أبواب الاختيار والتمييز بمقتضى هذا العقل وتلك الإرادة، لا سلطان عليه، ولا جبار يقف بالمطرقة بين يديه.. إن الله تعالى قد جعله سيد هذا الوجود، وجعل الكون كله مسخرًا لخدمته، وجعل المخلوقات جميعًا تطاطئ رأسها لهامته.

إن هذه الحرية التى وهبها الله - تعالى - لبنى

(٤) أخرجه البخارى - كتاب الرقاق - باب فضل الفقر - حديث رقم ٦٤٤٧.

الإنسان منذ أن وطئوا بأقدامهم هذه الأرض شىء نفيس وهبة غالية لا ينبغى التفريط فيها لأى متسلط جبار إن معنى العبودية لله وحده أن يخلع الإنسان كل عبودية لما سواه، وهذا هو أصل العقيدة الإسلامية.. وأن يتخلص الإنسان من كل ذلة أو خضوع لغير الله تعالى، إن الجبين الذى يسجد لرب العباد، لا ينبغى له ولا يتأتى منه أن يخفضه لغير الله تعالى.. من هذا المعنى الحى انطلق صوت «عمر بن الخطاب» يستنكر ما فعله ابن «عمرو بن العاص» قائلًا: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

ومن هذا المعنى كذلك سخر سيدنا «موسى» - عليه السلام - من «فرعون» المتسلط على بنى إسرائيل قائلًا:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(سورة الشعراء: ٢٢)

بل إن هذا المعنى السامى هو الذى يفرض على المسلمين أن يحاربوا المستبدين لإنقاذ المستضعفين:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

(سورة النساء: ٧٥)

ومن هذا المعنى كذلك يفرض الإسلام الهجرة من موطن الذلة والاستضعاف إلى موطن آخر يحصل فيه على أمس حق يتصل بالكرامة الإنسانية، فإذا ما أهمل هذا الذليل المستضعف ولم يهاجر فمأواه جهنم وبئس المصير:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾

(سورة النساء: ٩٧، ٩٨)

بل لقد وصلت قداسة الحرية إلى درجة جعلت من أهداف سيدنا «موسى» - عليه السلام - تخليص الأذلاء من قيود الذل والاستكانة لفرعون:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

(سورة القصص: ٥، ٦)

مفهوم مغلوط للحرية

هكذا يحرص الإسلام على الحرية، ولكن ويا للأسف لقد التبس بهذه الكلمة معان ساقطة هابطة لا تتسق مع سموها ومكانتها، ولقد فهمها البعض حديثًا على أنها الفوضى والتهاون بالقيم والفضيلة والأخلاق، وفهمها البعض الآخر على أنها ممارسة لكل النزوات والشهوات، وانطلاق من كل القيود والضوابط الإنسانية والاجتماعية، فلا يهمه فى سبيل هذه الحرية الزائفة أن يعتدى على حرية الآخرين، وعلى حقوق الآخرين.

إن الحرية لا تعنى أن يفعل الإنسان ما يشاء، ويترك ما يريد، لكنها تعنى ألا يخضع لأحد

سوى ربه، وألا يذل نفسه لمخلوق، وأن يرعى حرية الآخرين، بل إن إيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة من حريته، ذلك أن الحرية معنى اجتماعى لا يتصور وجوده إلا فى مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون، وإذن لابد لها من قيود فى هذا المجتمع حتى لا تتضارب الحريات، ولا تتصادم الرغبات، وكل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها، وإلا كان عدوانا عليها، فتقييد حرية المنفلتين الذين لا يراعون حق المجتمع يكون المبرر له هو المحافظة على حرية المجتمع.

إن النفس الإنسانية حينما تسمو وتشف فإنها تستشعر حرية الآخرين، وتجد فى داخل أقطارها من الحياء ما يمنعها من التعدى والجور، وهذا السمو وتلك الشفافية وذلك الحياء هو ما يهدف إليه الإسلام فى تكوين الشخصية المسلمة المتزنة، وما أروع قوله ﷺ: «إنَّ مما أدرك النَّاس من كلام النُّبوة الأُولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(٥)، أى أنه إذا انطلقت النفس فقد ذهبت الحرية والإنسانية معا، وعاد الناس إلى حياة الوحوش فى الغابات.

الحرية الشخصية

أول مظهر من مظاهر التمتع بالحرية، هى الحرية الشخصية، وهى تتناول حرية الاعتقاد والتدين، وحرية الرأى والتفكير، وحرية العمل والتصرف.

أولاً: حرية الاعتقاد والتدين: بناها الإسلام على عناصر ثلاثة:

الأول: التفكير الحر الذى يرفض التقليد والضغط.

الثانى: منع الإكراه على عقيدة معينة.

الثالث: حماية العمل على مقتضى العقيدة وأداء الشعائر التى تتطلبها العقيدة.

● فأما العنصر الأول: فقد نعى الإسلام وسخر ممن يعتمد على التقليد للآباء فى العقيدة، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(سورة المائدة: ١٠٤)

ودعا الناس إلى التفكير والاستدلال وتعرف الحقائق بعقولهم، فقال سبحانه:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة يونس: ١٠١)

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

(سورة النمل: ٦٠)

● وأما العنصر الثانى: فقد حرم الإسلام إكراه الناس على الدخول فى الدين، قال تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(سورة البقرة: ٢٥٦)

وقال:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة يونس: ٩٩)

(٥) أخرجه البخارى ـ كتاب الأدب ـ باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ـ حديث رقم ٦١٢٠.

وما أبيح القتال فى الإسلام ـ كما تقدم ـ إلا لحماية الحرية الدينية ولمنع الفتنة والاضطهاد والإكراه، قال تعالى:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

(سورة البقرة: ١٩٣)

ولقد كان المسلمون الأولون حريصين على تنفيذ هذه التوجيهات بدقة متناهية.

يروى فى هذا أن عجوزاً نصرانية قابلت «عمر بن الخطاب» لحاجة لها عنده، وبعد أن أداها لها دعاها إلى الإسلام، فأبت فخشى «عمر» أن يكون فى كلامه إكراه لها فقال: «اللهم إنى لم أكرهها».

● وأما العنصر الثالث: فقد حمى الإسلام من يكونون فى ظل حكمه من غير المسلمين فى عباداتهم وشعائرهم. والقاعدة المعروفة التى نفذت على مدى العصور: «إننا أمرنا بتركهم وما يدينون»، ولا أدل على ذلك من معاهدة الرسول ﷺ لليهود فى المدينة على حسن الجوار، وعلى ترك حريتهم الدينية يقيمون شعائرهم كما يحبون.

ولقد عاهد «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ أهل بيت المقدس على هذه الحرية، فكان فى نص معاهدته معهم: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم».

والذى يدعو إلى الدهشة فعلاً أن الإسلام لا يبيح وجود دين آخر معه فى بلد واحد فحسب، بل إنه يبيح وجوده فى البيت الواحد، وعلى مرقد واحد، فأجاز الزواج من اليهودية والمسيحية، على أن يصرح لها الزوج المسلم بأداء شعائر دينها كما تشاء.

بهذه العناصر الثلاثة شيد الإسلام بناء الحرية الدينية على أساس التسامح والمعاملة العادلة النزيهة التى تحترم حرية الآخرين؛ ذلك أنه دين يقف على أرض صلبة متينة، دلائله واضحة، وبراهينه قاطعة، وتعاليمه تساير الفطرة البشرية، وقرآنه الكريم يخاطب نبيه بقوله:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾
(سورة الغاشية: ٢١، ٢٢)

وبقوله:

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾

(سورة آل عمران: ٢٠)

وبقوله:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

(سورة المائدة: ٩٢)

وبقوله:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

(سورة التوبة: ١٢٩)

الردة نفاق وبلبلة

وهنا يثور من البعض تساؤل لابد من الإجابة عليه حتى لا يكون هناك شك أو

ربة تشوه هذا البناء المشيد : لماذا ـ وفى الإسلام هذه السماحة المنقطعة النظير ـ تقتلون المرتد عن الإسلام؟

ونقول : إن الدخول فى الإسلام كما ذكرنا مشروط بالبحث والتفكير والنظر والموازنة بينه وبين ما سواه، فإذا ما دخل أحد هذا الدين بعد هذا النظر المفروض عليه والاقتناع به، ثم أراد الخروج منه فما هو إلا أحد شخصين :

إما متآمر : يدخل فى الإسلام ويخرج منه ليحدث بلبلة فى المجتمع، وخلخلة فى النظام العام كما كان يحدث من أهل الكتاب فى بدء الإسلام، وحكاه لنا القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(سورة آل عمران : ٧٢)

ولا أظن أن مثل هذا العبث يقبله أى نظام يريد لأتباعه الهدوء والاستقرار، إنه فى الحقيقة تعد على الآخرين وإثارة للفتنة والشغب والاضطراب فى المجتمع، وعمل على قلب النظام العام الذى ارتضاه الشعب دينًا وعقيدة.

وإما أنه شخص نفعى مذبذب : لا يستقر على رأى وعقيدة، إذ ما الذى دعاه إلى ترك دينه الأول؟ وما الذى دعاه إلى الدخول فى الإسلام؟ ثم ما الذى دعاه إلى الخروج منه علنًا وأمام الناس؟ إنه من البدهى المعلوم للجميع أن النظام الإسلامى لا يتدخل فى نوايا الناس ولا فى بواطنهم، إن له الظاهر، والله- تعالى- يتولى السرائر. فإذا ما زاغت عقيدة مسلم ما ولم تظهر منه بوادر الكفر والزندقة فى المجتمع فلن يتعرض لمكروه، أى أنه لو اقتصر كفره وضلاله على نفسه، فجزاؤه عند الله- تعالى- على هذا الضلال وليس للدولة الإسلامية عليه من سلطان.. أما إذا دعا إلى الكفر وطعن فى دين الأمة، فإنه يعتبر متعديًا على الآخرين، ومشجعًا على الفساد والكفر، ومحرضًا على نبذ الإيمان وإطفاء نور الله تعالى.

الجزية

وهناك تساؤل آخر يمليه الجهل بطبيعة الإسلام، ولابد من تبديد شبهاته، لماذا إذن يفرض الإسلام على غير المسلمين جزية فى أموالهم؟ أليس فى هذا إذلال لهم وأخذ لأموالهم مقابل عدم إسلامهم؟

ولبيان الحقيقة لابد أن يعرف الجميع أن الإسلام لا يفرض على المخالفين لعقيدته أن ينضموا إلى جيش المسلمين، لأنه ليس لديهم الوازع الدينى الذى يجعلهم حريصين على نصر هذا الدين

أو تعزيز بناء دولته، كما أن إجبارهم على ذلك مناف لطبيعة الأشياء، إذ كيف يطلب من إنسان أن يدافع عن عقيدة غيره؟ ومع هذا لهم حق الأمان من المسلمين، أى إن المسلمين مفروض عليهم حمايتهم من أى عدوان داخلى أو خارجى، فهل من العدالة والإنصاف أن يكون كل الغرم على المسلمين، وكل الغنم لغيرهم على حين أنهم يعيشون فى بلد المسلمين؟

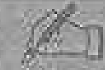
إن الذين حسبوا الجزية بدلاً عن الإسلام واهمون، إنها بدل من الحفظ والحماية والأمان، وإسهام فى إنشاء وصيانة المرافق العامة، كما أنها دليل على أنهم لا يضمرون كيدًا ولا سوءًا بالمسلمين، فهى علامة لخضوعهم للنظام، فإن لم يدفعوها ويسهموا بها فى تكاليف الأمن، فهم غير متعاونين، ولا يحق لهم أن يدخلوا فى ذمة المسلمين ورعايتهم، وهذه نتيجة منطقية لا يشوبها أدنى ظلم ولا إجحاف.

إن المسلمين يؤدُّون زكاة أموالهم فريضة من الله تعالى، وليس على غير المسلمين زكاة، أوليس من العدل أن يسهم غير المسلم فى نفقات مجتمعه بما شرعه الإسلام من جزية على القادر منهم فقط، وليس على المريض أو الفقير جزية.

يتبع

ooo

رسالة إلى طاغية



د. عبد الرحمن العشماوى

قف عن القتل فقد جاوزت حدك
واتق الله الذى إن شاء هدّك
قف عن القتل فإن القتل نارٌ
سوف تصلى رأسك الخاوى وزندك
وستشوى وجهك الممسوخ شويا
وستشوى حزبك الغاوى وجندك
قف عن القتل فقد أسرفت حتى
أصبح الشيطان فى الطغيان ندك
لكأنى ببقاع الأرض تبكى
وتثير الرمل والحصباء ضدك
لست إنسانا رشيداً، قد رأينا
منك غيّا، وفقدنا منك رُشدك
إننى أبصر فى وجهك ذُلاً
أنت من يحمله فى الناس وحدك

إنه ذُل الخطايا والرزايا
والخيانات التى تنقُض عهدك
إنه ذل احتقار الشعب، أمسى
وصمة العار التى تبرز عندك
وصمةٌ ما وجدت فيك جبينا
فاستدارت رقعة تملأ خدك
أيُها المسرف فى القتل، ستلقى
عند بوابتك السوداء لحدك
إن من شدَّك نحو المجد - وهْما
وادّعاء -، هو نحو الذل شدّك
إن إبليس الذى أعطاك وهْما
هو للإجرام والظلم أعدّك
فانتظر عقباك فى الدنيا ضياعا
وانتظر عند إله العرش وعدك

من عيون التراث

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع

تأليف
الشافعى أبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المالطى
قدم له وعلق عليه محمد زاهد بن الحسين الكوثرى.
القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث (١٩٩٣م).

التعريف بالمؤلف:

هو الإمام الشافعى، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبدالرحمن المالطى صاحب المذهب الشافعى، والمتوفى عام (٣٧٧هـ).

عرض الكتاب: قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة ناجية واثنتان وسبعون فى النار» فقد خصص الكتاب الحالى فى ذكر هذه الفرق، بأسمائها، واعتقاداتها والرد عليها من خلال الكتاب والسنة وبغرض إرهاف العزائم وشحذ الهمم، بدأ المؤلف بذكر ما قاساه الرسول والصحابة فى صدر الدعوة، أعقبه عرضا موجزا لأصول السنة.

يقول المؤلف أنه «لا راحة لكذاب»(ص١١) فقد أشارت بحوث علم النفس المعاصر أن الكذب يصاحبه بعض التغيرات الانفعالية مثل التوتر والشعور بالذنب، يعتمد عليها كمؤشرات سلوكية لكشف الكذب. كما يرى أن «العذاب هو الأمراض، والفقر، والآلام، والأوصاب، وما تتأذى به النفوس»(ص٢١) قد يكون ذلك تعريفا لمقابل الصحة النفسية Mental Health

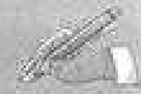
الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الكذب Lie.
- الصحة النفسية Mental Health.

القائم بالعرض
د. أحمد محمد مجرية

هل ثمة حاجة إلى تفسير جديد للقرآن الكريم؟!



أ/د/خالد فهمى
كلية الآداب/جامعة المنوفية

مدخل فى شرعية السؤال

كان مما تواتر في التاريخ وتناقلته الصحف على امتداد الزمان وصف الذكر الحكيم بأنه كتاب لا يخلق على كثرة الرد، وربما صح أن يفهم في أصول التفسير على هامش هذا الوصف الجامع اتساع حدود مرونة النص الكريم، و اكتنازه بما لا يتصور من الدلالة والحكمة معا.

وهو الفهم الذى يؤازره تشجيع نفر من جيل الصحابة، ومن بعدهم أجيال التابعين في مثل القول الذى يقول: "إلا رجلا آتاه الله فهما فى كتابه" وهى مظلة ترقى بأصحاب النظر فى كتابه الكريم إلى منطقة مائزة يحوطها التكريم والحفاوة؛ حتى كان ابن حنبل رحمه الله تعالى فيما أخرجه البيهقى فى كتابه مناقب الشافعي شديد الحفاوة بعمل عقل الإمام الشافعي على حداثة سنه فى كتاب الله تعالى.

و بما يشبه القاعدة في أصول التفسير صك ابن عباس رضى الله عنهما قولته الذائعة الصيت: «القرآن يفسره الزمان»، وهو ما يعنى أن لكل زمان مطالبه التى يوفيها النص حقها مع دوام النظر، والفحص والتفتيش فى الذكر الحكيم.

و في سبيل التمهيد للإجابة عن السؤال الذى تقدم فى عنوان هذا المقال بالإيجاب يحسن بنا أن نسوق الملاحظات التالية:

● أولا: ظهرت ملامح العناية بتفسير الذكر الحكيم ابتداء بما جمعه علماء الحديث النبوى الشريف من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم التى فسر فيها عددا من آيات الذكر الحكيم، وهو ما تجلى فى أبواب التفسير فى كتب الصحاح على ما يظهر مثل له فى صحيح الإمام البخارى رضى الله عنه.

● ثانيا: سرعة ظهور تيار واسع بين الصحابة والتابعين يرعى تفسير القرآن الكريم بغير طريقة رواية الآثار النبوية الكريمة، بمعنى أن عددا من الصحابة والتابعين اجتهدوا فى مواجهة الذكر الحكيم بهدف تفسيره وبيانه ولعل المحاولات المتقدمة على يد ابن عباس رضى الله عنهما فيما عرف تاريخا

بسؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس التى تأسست على إعادة استثمار الشعر العربى الجاهلى القديم، بما هو أساس ودليل وشاهد على صحة ما فسره الصحابى الجليل، وهو نوع من أنواع التفسير المخالف بدرجة من الدرجات لمدرسة رواية الآثار النبوية فى الميدان نفسه.

و لم يكن مجهود ابن عباس رضى الله عنهما فذا وفريدا في هذا السياق؛ ذلك أن جهودا أخرى ظهرت فى السياق الزمنى نفسه من أمثال جهود أبى الدرداء، وابن مسعود، ومجاهد التفسيرية، مع وجود بوادر قليلة لتأويل القرآن الكريم، فيماروى فى سياق التدليل على منزلة ابن عباس فى تفسير القرآن الكريم.

● ثالثا: اتساع تيارات التفسير بالرأى المحمود، وهو اتجاه مخالف لمدرسة المرويات التفسيرية، التى عرفت منهجيا بمدرسة التفسير بالمأثور، وقد اندرج تحت هذه المدرسة التى فسرت القرآن بالرأى مجموعة كبيرة من المدارس الفرعية من مثل:

أ- مدرسة التفسير الفقهى (تفاسير الأحكام).

ب- مدرسة التفسير اللغوى والنحوى (تفاسير معانى القرآن).

جـ- مدرسة التفسير البلاغى أو الإعجازى.

د- مدرسة التفسير العلمي، و هى مدرسة قديمة فى التراث التفسيرى عند المسلمين.

هـ- مدرسة التفسير الحركى وهو اصطلاح صككناه بما لاحظنا من تأمل تفسير الأستاذ / سيد قطب رحمه الله: (فى ظلال القرآن).

و قبول الأمة بهذه المدارس الفرعية على امتداد تاريخ العناية بتفسير القرآن الكريم دليل حاسم على الإيمان بضرورة تجديد التفسير للذكر الحكيم جيلا بعد جيل.

● رابعا: الإيمان بأن القرآن هو الكتاب الخاتم يبعث على وجوب تجديد النظر فيه للوفاء بمتطلبات الأمة التى تتجدد من عصر لآخر.

هذه العلامات الأربعة السابقة تشير من طرف غير خفى إلى أن ثمة اتجاها ظاهرا يقرر أن الأمة أجابت على السؤال المتقدم عنوانا لهذه المقالة بالإيجاب بما كانت تفجره من مدارس واجتهادات فى جانب تفسير الذكر الحكيم.

من التفسير الحركى إلى التفسير الحضارى
السير فى اتجاه مطالب العصر

إن فحص بعض جوانب المنجز التفسيرى للقرآن الكريم فى العصر الحديث أو تعيينا فى القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى يقود إلى أن ظهور فى (ظلال القرآن) تعيينا، وبعض اجتهادات أبى الأعلى المردوى، وسعيد النورسي، وفتح الله كولن فى (أضواء قرآنية) يمثل ظهورا لا يخفى لما يمكن أن يسمى بمدرسة التفسير الحركى؛ ويقصد

به تفسير النص القرآني الكريم بما هو نص كبرى غاياته ضبط حركة الجماعة المسلمة، وهو التعبير المعاصر لغاية الهداية التي تنوع التعبير عنها في الذكر الحكيم، بما هي غاية حاكمة لنزوله، وهو ما يظهر في أمثال قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(سورة البقرة: ٢)

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾

(سورة البقرة: ١٨٥)

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

(سورة النحل: ١٠٢)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة النمل: ٢)

إلى غير ذلك مما هو مبثوث في الذكر الحكيم.

وإذا كان تفسير (في ظلال القرآن) وما ظهر بجواره من محاولات أقل اكتمالا منه أسهمت في نضج الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وما تزال تمارس هذه الجهود التفسيرية الحركية تأثيرها في إلهام أبناء هذه الحركة فإن طبيعة المرحلة التي تطيف بالأمة المسلمة اليوم في مركزها العربي، وما بدأ يظهر من علامات الوعي والإفاقة في هذا الخبط يفرض علينا معاودة النظر في الكتاب الحكيم من زاوية جديدة توائم متطلبات هذا العصر الجديد، ولعل مطالب هذه اللحظة تفرض افتتاح باب جديد نفسر فيه الذكر الكريم تفسيرا حضاريا بما يرعى مراد الله تعالى في أن تكون الأمة المسلمة قائمة بواجبها في الحياة، بما هي الأمة المهيمنة، و الأمة (العليا) التي تستخدم علوها من خبرتها وإيمانها، ولا سيما في ظل ما يعرف عن معاني القرآن الكريم من أنها متزاحمة وليست متخاصمة.

إن مفهوم الحضارة بما هو مواجهة الحياة بكل إيجابية، و بكل ما من شأنه قهر التوحش والهمجية والجفوة، مراد ظاهر من مرادات الإسلام، و غاياته العظمى وقد صح أن القرآن الكريم ضد كل ما هو سلبي والحضارة التي ينشدها هي الحركة في الحياة بإيجابية تامة.

إن الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم تفسيرا حضاريا مطلب ملح، ولا سيما أننا مازلنا نعيش أجواء قرون مظلمة أصبح فيها العالم الإسلامي "مهددا بزوال هويته الحضارية" على حد تعبير (خالص جلبي) في كتابه «النقد الذاتي»: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، طبعة مركز الراية المعرفية، بدمشق ٢٠٠٧م، ص ٣٥) وإن كان، أيضا لم يمت حضاريا.

في التفسير الحضاري: محاولة جديدة للتفسير ويراعى فيها مطالب المرحلة

إن تأمل القرآن الكريم منذ نزوله على قلب النبي ﷺ في مكة المكرمة يمكن من استخراج ركيزتين ظاهرتين لما يمكن أن يسمى بالتفسير الحضاري للقرآن الكريم

يمكن إجمالهما فيما يلي:

أولا -ركيزة تأمين الحياة الإنسانية.

ثانيا- ركيزة تنمية الملكات الإنسانية.

وسنحاول في السطور التالية تأمل الذكر الحكيم تعاطيا مع هاتين الركيزتين بما هما برهان على حاجة الأمة إلى تفسير القرآن تفسيرا حضاريا.

● أولا- تأمين الحياة الإنسانية- محور من محاور التفسير الحضاري للقرآن الكريم.

إن القرآن المكي وفحصه وتأمله يقود إلى ما يمكن التعبير عنه بقولنا إن الله تعالى لم يدع إلى عبادته إلا بعد أن أحاط جيل الدعوة بعلامات ظاهرة ترعى تأمين حياة الإنسان بدنا ونفسا.

و في هذا السياق أرجو أن نتأمل معا النقاط التالية:

١- استقر منذ نزول القرآن المكي محورية رعايته لتأمين الحياة الإنسانية حتى أنه ليصح أن نقرر أن الله تعالى أمر بعبادته بعد كفالة من دعاهم، أليس هو القائل سبحانه:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾

و هو ما يعني أن القرآن المكي يرى أن الأمر بعبادة الله تعالى إنما كان منه بعد استقرار الحياة الإنسانية، واستقرار توفير مادة بقائها، فيما حققه لهم من إجراءات الحصول على الطعام، وجعله عادة مألوفة، ومصحوبة ببعض من نوع المتعة والرفاهية في طريق الحصول عليه من سفر في رحلة شتوية وصيفية.

ولم يكن الحصول على الطعام بما هو مادة بقاء الأبدان معزولا عن مطالب أمن النفس، و إنما كان مشمولا بتحقيق أمن النفس، بما فرضه في الزمان (الأشهر الحرم) وبما فرضه في المكان، حيث أحيطت مكة وقريش بمواقيت مكانية من جهاتها جميعا، لأعماق ممتدة بلغت أحيانا آلاف الأمتار.

٢- و قد استقر كذلك أن تلقي رحلات الجماعة المسلمة الأولى كان لتحقيق مطالب تأمين الحياة الإنسانية بمعنى أن رحلتين من مجموع ثلاث هجرات هي هجرة الحبشة الأولى والثانية كانتا لطلب الأمان وحفظ أبدان المسلمين الأوائل في مقابل هجرة واحدة كانت لطلب الإيمان.

٣- وقد استقر كذلك أن غالب العقوبات المكفرة للجنايات في الشريعة الإسلامية رعت جانب تأمين الحياة الإنسانية، إما بتحرير الرقاب وإما بإطعام الأبدان وإما بكسوتها.

٤- وقد استقر أن عددا من مناسك الإسلام رعت جانب تأمين البدن فجعلت الإطعام سبيلا إلى إقامة الشعائر والمناسك، في الهدى، و الأضاحي، والعقائق، والولائم وغيرها، ثم استقر كذلك امتداح الإنسان المؤمن في الذكر الحكيم بوصف دوار هو إطعام الطعام على حب الله تعالى أصناف العاجزين من خلقه سبحانه.

٥- وقد استقر كذلك أن محورين من

محاور عناية الله تعالى بمحمد ﷺ قبل بعثته توجها إلى إيوائه، وإغنائه، وما الإيواء والإغناء إلا قيام بموجبات تأمين البدن إطعاما وكسوة وإسكانا وتزويجا وتمليكا إلخ.

لقد من الله على نبيه فقال:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

فكان مجموع ما منّ به سبحانه عليه مفضيا إلى تقرير أن القرآن المكى جعل محور تأمين حياة الإنسان أساسا أصيلا فى التصور الإسلامى، شريطة أن نفسر القرآن الكريم تفسيرا حضاريا.

٦- وقد استقر أيضا حفاوة القرآن الكريم بأصل تأمين الإنسانية فى نفسه بما ورد منذ نزول القرآن فى مكة من تعانق حفظ مادة بدن الإنسان بتحقيق أمن نفسه، على ما ظهر من آيات سورة قريش، وعلى ما تواتر فى الشريعة، ونصوصها العالية من حرمة تفزيع النفس، وحياطتها بما يحقق أمنها بكل صنوف الندب والتكريم.

• ثانيا- تنمية الملكات الإنسانية: محور من محاور التفسير الحضارى للقرآن الكريم.

وفى خطوة تالية متعانقة مع صاحبتها يمكننا أن نقرر أن القرآن المكى يقف أمام محور تنمية الإنسان، بما يقود إلى تقرير أنه محور آخر مركزى من محاور قيام الأمة المسلمة بواجب سيادتها وهيمنتها وعلوها، إذا ما تحاورنا مع القرآن الكريم من زاوية منهجية تفسيرية جديدة، وهى زاوية التفسير الحضارى.

وهذا المحور المركزى، نرى أن يوزع على ثلاثة فروع متكاملة غير متنافرة وهى:

أ- تنمية الملكات العملية (عمل الجوارح).

ب- تنمية الملكات العقلية (العلم).

جـ- تنمية الملكات النفسية (التزكية).

وفيما يلى محاولة موجزة للتحشية على بنود هذا المحور من محاور النظر فى الكتاب من زاوية التفسير الحضارى.

أ- تنمية الملكات العملية

إن المتأمل لطبيعة الفكرة الإسلامية، فى نصها الأعلى، وفى تطبيقات صاحب البلاغ ﷺ يجد عجبا فى هذا الباب، إذ قد توافرت العلامات التالية بشكل يبعث عن التأمل الجاد:

١- جاء النبى ﷺ وقد كان شغله منصرفا نحو تغيير ثقافة العرب نحو المهنة والعمل اليدوى، بما رتبه من أجر العمل اليدوى: "من بات كالا (متعبا) من عمل يده بات مغفورا له" وبوصفه لليد الخشنة من أثره بأنها يد يحبها الله ورسوله، وبما عاون فيه صحابته فى الأعمال اليدوية، جمعا للحطب، وحملا لنتائج حفر الخندق، وحطما لصخور خيبر إلخ.

٢- فشا فى الذكر الحكيم الإخبار عن الأنبياء جميعا بأنهم عملوا أعمالا يدوية مهنية فى البناء:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

(سورة البقرة: ١٢٧)

ومنها الحدادة:

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾

٣- ربط الله سبحانه بين أداء العبادات وبين منجز الحضارة من عمل اليد، فشرط ستر العورة فى الصلاة، وطهارة الماء، بل إن الزكاة لن تكون إلا بعد غنى أفراد الجماعة المسلمة، وتراكم الأموال والحيوان وعوائد التجارة وآثار صناعات التعدين وغيرها.

٤- استقر فى بعض القصص القرآنى أثر العمل اليدوى، بما هو منجز حضارى فى تغيير أمم كاملة، والانتقال بهم من الكفر إلى الإيمان، وتأمل قصة مملكة سبأ بعد دخول ملكتهم الصرح رأت تقدم منجز سليمان عليه السلام وقومه حضاريا أقرت بظلمها نفسها، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين والمدهش حقا هو تعقيب سليمان الذى قال:

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾

وهو ترتيب عجيب يستحق التأمل الطويل؛ حيث جاء العلم قبل الإسلام.

وهذه العلامات كفيلة بأن تصحح مسيرة المجتمعات الإسلامية التى تهمش التعليم الصناعى وتؤخر رتبته فى أبناء الأمة.

ب- تنمية الملكات العلمية (العلم)

وفى فرع ثان لتنمية الإنسان فى التصور القرآنى، يظهر العلم أساسا فاعلا فى هذه التنمية لملكات الإنسان، بحيث نراه فى الدعاء والذى دعا به نبينا ﷺ لنفسه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وفى عدد آخر من العلامات، يمكن إيجاز بعضها فيما يلى:

١- جعل القرآن أساسا فى مؤهلات الملك:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

ليتقدم فى الوزن النسبى على القوة والمال معا.

٢- افتتاح الذكر الحكيم بفعل ظاهر معناه طلب العلم فى ﴿ اقْرَأْ ﴾ مع توافر النص من ذكر العلم، وأدواته، وامتداحه، وامتداح طالبيه.

٣- استقرار فضله فى تثبيت قلب النبى ﷺ على ما روى فى حديث البخارى من كلام ورقة بن نوفل، وهو رجل عالم بالكتاب القديم الذى ذكر فيه للنبى ﷺ أن الذى جاءه إنما هو الناموس أو الوحى الذى نزل على من سبقه من الأنبياء.

٤- استقر فهم السلف على سبق العلم للإيمان والعمل، وهو ما استخرجه البخارى فيما ترجم به لباب (العلم قبل الإيمان والعمل).

٥- استقرار تسريته بالحياة بما يظهر من حكم النبى ﷺ على أسرى بدر افتداء أنفسهم بتعليم كل أسير عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

٦- استقرار الحكم بتبعية المتعلم للعالم مع تفاوت المراتب، وهو نص ما فهمه

القرطبي من قوله تعالى:

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

ومن عجيب ما قد يظهر في هذه القصة إن الله رتب للعبد الصالح الاشتراط على موسى، وعتابه، وعقابه، ورتب لموسى أن يتابع ويقبل الشرط، ويعتذر عن النسيان، وينزجر بالعقاب للعبد الصالح.

٧- لقد بعث النبي ﷺ زيدا في بعثه لتعلم لغة من اللغات وفي هذا برهان لهدم من يحاول الانتصار لنوع معرفة في مواجهة إهدار نوع معرفة آخر.

٨- ولقد استقر تقدير القرآن الكريم لأنواع العلم جميعا؛ فقد قدر المعلومات الغفل من التحليل في مثل:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

و قدر رتبة مقاومة الجهالة، وارتقى بمقام الوحي وجعله حاكما ومصححا لغيره من المعارف.

ومجموع هذه العلاقات تقرر أن العلم جناح ظاهر الأهمية على طريق تنمية الإنسان في التصور القرآني منذ تنزل الذكر الحكيم في مكة المكرمة.

جـ- تنمية الملكات الإنسانية النفسية (التزكية).

وإذا كان الغرب قد خطا أشواطا واسعة في البابين السابقين -فإن واحدا من سيناريوهات المستقبل ظاهر في تدمير الكون بالمنجز الحضاري المفتقد إلى التزكية.

ومن هنا فإن فضيلة الحضارة في التصور القرآني ظاهرة في ترشيد تنمية الملكات الإنسانية العملية والعلمية بما يضبط حركتها وآثارها بروح التزكية.

وفيما يلي محاولة لتأمل هذا الفرع الخطير في قائمة صوانع التنمية الإنسانية.

١- لقد أمر الله تعالى بالتزكية بما هي تطهير شامل للنفس الإنسانية، وبأساليب متنوعة في مثل قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾

وقوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

وهذا التنوع يضخم من قيمة الأمر بها، وهي قائمة على جناحين، جناح الهبة الربانية:

﴿ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

و جناح الجهد البشري، وفي هذا السبيل رسم الشرع الحكيم طريقا من إجراءات كثيرة لصناعة التزكية.

٢- يظهر من فحص مقاصد العبادات أنها محققة للتزكية والتطهير؛ فقد جعل الله تعالى العبادات المادية طريقا للتزكية: فالوضوء والصلاة، والصوم، و الحج عبادات مقصود في بعض قوائم مقاصدها تحقيق التزكية لممارسيها، وطلب تحقيق التزكية ظاهر في النص عليها، فالصلاة مرتبطة بنفي البغي والمنكر والصوم لخلق التقوى، والزكاة للطهارة عموما وخصوصا،

والصدقة للتطهير.

٣- وقد جعل الله سبحانه حفظ البدن من المعاصي سبيلا للتزكية والتطهير، وهو ما يظهر من قوله تعالى:

﴿ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾

٤- وجعل الله تعالى التلاوة والعلم والحكمة سبيلا مألوفا لتزكية الأنفس يقول تعالى:

﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

٥- وقد حذر القرآن الكريم من سبيل سلوك التزكية عن طريق اغتيال الطبيعة البشرية، فرعى الغريزة ووضع منهجا لإشباعها فأباح الطعام، وأباح لذاذاته، وأباح الزواج وأثاب على متعه، وقد كان ظاهرا تشديد التطبيقات النبوية في هذا المقام على من يبالغ في اغتيال الطبيعة البشرية، و لو في طريق طلب تحقيق التزكية.

٦- و قد استقر في التصور القرآني منذ مكة أن التزكية لا تعني إسقاط التدبير، وهو ما فهمه المفسرون من قوله تعالى:

﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾

مما يدل على عمل الزاد في الرحلة، والعبد الصالح وفتاه، وليا كان أو نبيا حملا الزاد، ودبرا للرحلة.

٧ - وقد استقر في التصور الإسلامي التسوية بين الرجال النساء في تحقيق مقام الولاية إذ كمل من الرجال كثيرون، وكمل من النساء أيضا عدد منهم مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم.

٨- واستقر في الشريعة أن للطعام الحلال أثرا في تزكية النفس فقد طلب أهل الكهف من صاحبهم أن يمدهم بما هو أزكى طعاما، ورتبت السنة استجابة الدعاء على طعمة من الحلال.

٩- واستقر في السنة حياطة الإنسان بمعية الله تعالى في كل الأحوال بما شرع بما شرعه من الأذكار جميعا، خوفا من انكماش القرآن في مواجهة الإيمان بمرونة القرآن، واكتنازه بالحكمة، والخير والهداية فإن ثمة مخاوف حقيقية من أضداد هذه الأوصاف، وهو ما يعني انكماش القرآن لو منعنا من تجديد التفسير للوفاء بمطالب الحياة المتجددة.

لقد حذر بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين من هذا المعنى، على أنه بعض ما يمكن فهمه من قوله تعالى الذي يحكي شكاة النبي ﷺ قومه الذين اتخذوا القرآن مهجورا وقال الرسول:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

ويقول الدكتور (خالص جلبي) في كتابه سابق الذكر ص(٢٥٥-٢٥٦) فيما عنوانه: انكماش القرآن إن "القرءان وهو يضم مئة وأربع عشرة سورة نرى أنه على لسان خطباء يوم الجمعة قد انكمش إلى آيات معدودة"!

والدعوة إلى التفسير الجديد للقرآن الكريم هي دعوة إيجابية لمقاومة انكماش القرآن الكريم ومقاومة كل محاولات هجرانه.

مصطفى صادق الرافعي
إمام البيان العربي الحديث





بقلم: الدكتور حلمي محمد القاعود

وأبرز ما يميز كتابات (الرافعي)، في المجال الإسلامي؛ هو (العاطفة) القوية الملتهبة التي تكاد تتأجج بين السطور، فهو رجل مسلم، يعنيه أمر الإسلام وما يقال عنه وحوله، وأمر المسلمين وتاريخهم وما يجري لهم وما ينتظرهم.. وكان يعد نفسه بكتاباته الإسلامية واحداً من حراس العقيدة الواقفين على ثغورها يدافعون عنها بكل ما يملكون، وينطلق في ذلك عنيفاً ثائراً مهتاجاً حين يستدعي الأمر الهياج والثورة والعنف، وموضوعياً عاقلاً هادئاً، حين يتطلب الموضوع الهدوء والتعقل والموضوعية.

إن كتابات (الرافعي) جميعها ترتبط بهذه (العاطفة) القوية الملتهبة من قريب أو بعيد، حتى في كتاباته التي تناولت العلاقة بين الرجل والمرأة في العشق والحب، كانت محكومة بمنطق تلك العاطفة الإسلامية تردعها وتردها عن التمادي والاستطراد إلى خارج ما هو معقول ومسموح، إنها في كل الأحوال محكومة بحكم العاطفة الإسلامية، وملتزمة التزاماً بحدود العقيدة الدينية.

وقد خصص كتابه (تحت راية القرآن) للرد على من نادوا بتجديد الدين، ومن قالوا بمذهب الشك في مصادر الشعر الجاهلي من خلال كتاب (طه حسين) في الشعر الجاهلي، فقد لعب الرافعي دورا كبيرا في المعركة الأدبية الكبيرة التي نشبت في بداية الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي، بسبب هذا الكتاب، وتحولت فيما بعد إلى خصومة سياسية بين الأحزاب القائمة آنئذ، مما اضطر الجامعة المصرية إلى سحب الكتاب من التداول، وتراجع مؤلفه عن بعض آرائه، وتغيير اسمه إلى (في الأدب الجاهلي) (العريان، حياة الرافعي، ص١٣٢-١٣٣).

كان الرافعي يرى المسألة دائماً - من جانب هؤلاء الداعين إلى التجديد - حملة ضد الإسلام والمسلمين، ومهما لبست دعاواهم من أزياء فهم على حد قوله يريدون بآرائهم الأمة ومصالحها ومراشدها، ويقولون في ذلك بما يسعه طغيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثرثرة، حتى إذا فتشت وحققت لم تجد في أقوالهم إلا ذواتهم وأغراضهم وأهواءهم يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم، كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك إلا مرضه وأسباب موته!) (الرافعي، تحت راية القرآن، ص٨).

لقد كانت في الرافعي عصبية للدين، ولهذا يفسر محمد سعيد العريان موقف الرافعي من طه حسين، بأن الأخير كان في أول أمره "كاتبا يزعم أن له مذهبا جديدا في الأدب، فعاد مبتدعا مضلا، فكما ترى البدوي الثائر لعرضه أن ينتهك، كان الرافعي يومئذ، فمضى يستعدي الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده، ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة.. وترادفت مقالاته ثائرة مهتاجة تفور بالغيظ، وبالحمية الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب، كأن فيها معنى الدم!" (حياة الرافعي، ص١٥٦).

كان الرافعي يكتب مقالاته حول الشعر الجاهلي في صحيفة شعبية واسعة الانتشار هي "كوكب الشرق" التي كانت لسان الوفد وسعد زغلول، فحققت ما هدف إليه الرافعي من حملته على طه حسين وخصوم الإسلام بصفة عامة، ويشير العريان أنها بعثت روحا دينية كانت راقدة، وأذكت حمية كانت خامدة، وألفت قلوبا كانت متنافرة، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذود عن دين الله (انظر: حياة الرافعي، ص١٥٨).

ومع حدته في هجومه، فإنه كشف كثيرا من الجوانب المتعلقة بالإسلام قد تخفى على كثيرين، وهو منهج اتبعه الرافعي في كتاباته التي دافعت عن الإسلام في مناسبات متعددة تستدعي الدفاع عنه، منها مثلا أنه عندما عرف أن كاتبا يفضل قولا للعرب على آية قرآنية هب للدفاع عن القرآن دفاعا مجيدا، وخصص لذلك أكثر من مقالة (انظر مثلا: وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ٣/ ٣٩٧ وما بعدها).

من ناحية أخرى فقد ركز الرافعي على بيان فضائل الإسلام وأفضاله على الإنسانية، وهو جانب أكثر رقياً في كتاباته بوجه عام، وأكثر إفادة وجمالاً أيضاً. ولعل أفضل ما كتبه (الرافعي) في هذا الجانب هو كتابه (إعجاز القرآن) الذي نشر بوصفه جزءا ثانيا من كتابه (تاريخ آداب العرب)، وفي هذا الكتاب تتألق موهبة الرافعي الأدبية، وعقيدته الدينية، في جلاء أسرار المعجزة الكبرى التي اختص الله بها سيدنا محمد - ﷺ - فيغوص بقلمه إلى أعماق لم يصل إليها أحد قبله، ويذكرنا بعبد القاهر الجرجاني، في كتابه العظيم (دلائل الإعجاز) إن عبقرية الرجلين، أو وحدة ذهنهما، تؤدي دورها بفعالية في استكشاف المكنون من أسرار كتاب العربية الخالد، ولو لم يكتب الرافعي غير (إعجاز القرآن) لكفاه.

لقد خصص الرافعي عدداً كبيراً من مقالاته لبيان فضائل الإسلام وتقديمه إلى المسلمين وغيرهم بفهم واع، وتفسير سديد. وإنه في ذلك ليمثل (المسلم الظافر) الذي يعتز بدينه ويشعر بالقوة في داخله تحركه، وتأخذ بيده إلى مواقع النصر.. فلم يتحدث بضعف أو وهن، ولم يأبه لاعتبارات قد تجعله يتحرز في إبداء عاطفته الدينية، ومشاعره الإسلامية وهو - كأعلام مدرسة البيان في عصره - يربط بين الإسلام والواقع ربطا ناضجا، ويأخذ من الجزئيات الصغيرة التي قد لا يفكر فيها بعض الكتاب، معالم تقود إلى أشياء مهمة وخطيرة في حياة المسلم، من بين هذه الجزئيات مثلا ذكر اسم النبي - ﷺ - في الأذان خمس مرات في اليوم والليلة؛ فيرى في ذلك امتداداً لارتباط المسلمين بنبيهم الكريم - ﷺ - وتواصلاً لبعث الرسالة باستمرار (فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع في

نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض، ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما ترى اليوم، فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم. فهنا المسلم الفرعوني وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي جهة المسلم المعطل.. وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني)(وحي القلم، ٢ / ١١).

إن تناول الرافعي للإسلام وتاريخه، يتجاوز دائرة الرتابة، والإنشائيات المكرورة، إلى أفق أكثر رحابة وبهجة، حيث تبدو مثالية الإسلام وخصائصه الباعثة على معانقة الحياة واستثمارها لصالح الإنسان بقيم الخير والحق والجمال، والتواصل المستمر مع الله.. ولعل أفضل مقالاته في هذا المجال، ما كتبه حول حقيقة المسلم (السابق، ٢ / ١٢ وما بعدها).

لقد اتكأ (الرافعي) على الحوادث التاريخية والمناسبات الإسلامية المختلفة مثل الهجرة والإسراء والمعراج وموقف أمهات المؤمنين والصيام.. ليصحح مفاهيم قاصرة ويضيء معالم جديدة لهذه المناسبات وتلك الحوادث، وإنه في ذلك كله ليربط بين الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون، وبين هدى الإسلام ومنهجه الصحيح، ولا يتباطأ في توجيه النقد واللوم للمسلمين المعاصرين، خاصة إذا كانوا من العلماء المزيفين؛ على تقصيرهم ومجافاتهم لروح الإسلام (نفسه، ٢ / ٢٤٤ وما بعدها، وانظر كتابي، مدرسة البيان في النثر الحديث، ط٢، دار النشر الدولي، الرياض ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، ص ١٨٢ - ١٨٦).

وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية؛ عالج الرافعي القضايا ذات الصبغة السياسية في عصره، مع ملاحظة أنه لم يشتغل بالسياسة، ولم يخض غمارها، بل كان على حد تعبير (محمد سعيد العريان) تلميذه وصديقه، لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها، بسبب علته (فقد السمع) وإقامته في طنطا بعيداً عن العاصمة، وتركيز اهتمامه في قضايا الفكر والثقافة، مما جعل خصوماته الأدبية تنتهي إلى اتهامه في وطنيته ومذهبه السياسي، حتى صار عند بعض القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص في عقيدته)(حياة الرافعي، ص ٢٩٢).

لقد نظر إلى العلاقة بين الحاكم والشعب، والحاكم وعالم الدين وقضايا الاستقلال والحرية والشورى والنهضة الإسلامية نظرة إسلامية، سواء عالجها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ وغالبا ما كان يعالج هذه القضايا من خلال النظرة الكلية والتناول غير المباشر، فإما يتحدث عنها من خلال التاريخ، أو يصنع رمزاً يصب فيه أفكاره، أو يصطنع قصة أو حوارا ليجلو أفكاره وآراءه.

ولعل سلسلة مقالاته (أحاديث الباشا) التي تضمنها الجزء الثاني من (وحي القلم) أبرز الأمثلة وأوضحها على نظرته للساسة المعاصرين له، وعلاقة الأمة بهم، ولأنه يرى أن الأخلاق هي عماد السياسة، وهي عماد الحقيقة على الإطلاق فإنه ينتقد الساسة، وينتقد الجمهور معاً.. ويربط بين الطرفين في رؤية عميقة تتجاوز الانفعال العاطفي السريع الذي تولده الأحداث أحياناً أو يغشى على بعض العقول في بعض الظروف، ومن هنا يصل إلى نتيجة تتلخص في قوله: (ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط، أفلست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه الخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضر على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليقال فقط - فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكومتها أيضاً)(وحي القلم، ٢ / ٢٦٤).

ولعل لجوء (الرافعي) إلى التاريخ، واستدعاء بعض حوادثه الخاصة بعلاقة علماء الدين بالأمراء، كان يعني حديثاً مقنعاً عن الواقع السياسي، يمنعه عن الجهر به لأمور عديدة تخصه سبقت الإشارة إليها، ويضاف إليها أيضاً كونه (شاعر الملك) وهي وظيفة أدبية شرفية؛ تجعل صاحبها ناطقاً باسم السلطة - في شعره على الأقل - بيد أن مقالته القصصية (أمراء للبيع) التي حملت مناقشة حول معنى الإمارة والأمراء، وموقف كل من الشيخ تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد، والشيخ عز الدين بن عبد السلام من أمراء زمانهما - تعني هذه المقالة رفضه للطغيان واستعلاء الحكام (وحي القلم، ٣ / ٥٢ وانظر مقالة الأسد في السابق، ٣ / ٤٥)، وهو ما تناوله أيضا باستفاضة في مقالته (تاريخ يتكلم) التي اعتمدت على أسلوب الرمز، وحمل فيها على (أتاتورك) وتتريكه (تركيا)، ويشير إليه الرافعي بالطاغية، ويتحدث عن سيئاته وجرائمه ضد الشعب والدين والوطن، يقول عنه في بعض أجزاء المقالة والذي سماه (المجلس الخامس):

(يزعم الطاغية أنه يعز قومه، وما أراه يعزهم، لكنه يمتحن ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم، يتجرأ شيئاً فشيئاً منتظراً ما يتسهل، مترقباً ما يمكن، وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا، فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقا.

ولقد سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأة من الورق الذي يشبه الجلد، وألبسوها خفها وإزارها، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية، ثم وضعوا في يدها قصة وأقاموها في طريقه، فلما رآها عدل إليها وأخذ من يدها القصة وقرأها. فإذا بها سب له ولآبائه، وسخرية من جنونه ورعونته المضحكة، فغضب وأمر بقتل المرأة، فكانت هذه السخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق...) (وحي القلم، ٢ / ٢١٦).

وعلى هذا النهج صاغ مقالته (كفر الذبابة)، وإن كان قد اتخذ من (كليلة ودمنة) والحوار فيما بينهما أسلوباً رمزياً آخر لمعالجة فكرة الطغيان والديكتاتورية التي عالجها في حديثه عن (أتاتورك)(وحي القلم، ٢ / ٢٦٢).

ويلاحظ أن الرافعي في هذه اللون من النثر يلجأ إلى حشده بالقصص والحكايات والطرائف التي تؤكد فكرته، وتجلوها، وتحقق غاية (التشنيع) على الحاكم الديكتاتور، و(التجريم) لسلوك الطاغية الظالم.

ونظرة الرافعي إلى الاستقلال تتجاوز ما هو معروف لدى الناس والسياسيين عامة، من خروج جيش الاحتلال، وحكم البلاد بمعرفة شعبها وأبنائه.. إلى أن الاستقلال الحقيقي يعني سلامة مقوماته الثلاثة: اللغة والدين والعادات من التشويه والتغيير والتعديل. فهذه المقومات كانت دائما وما زالت هدفاً للمؤامرات الاستعمارية، وضياعها يعني ضياع الوطن واستقلاله الحقيقي (السابق، ٣ / ٣٢ وما بعدها).

الخمر والمخدرات فى الفقه الإسلامى





٣
للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

عقوبة شرب الخمر وتعاطى المواد المخدرة

لم يحدد القرآن عقوبة لشرب الخمر وتعاطى المخدرات أو الاتجار بها، واقتصر القرآن الكريم على تحريمها وكذلك السنة وإجماع الصحابة، ويقاس على هذا التحريم، المواد المخدرة.

أما بالنسبة للعقوبة، فإن السنة لم تعين حداً للخمر، فكان النبى ﷺ يضرب فيه القليل والكثير، ولكنه لم يزد عن أربعين، وفعل مثل ذلك أبو بكر ولما جاء زمن عمر بن الخطاب استشار عمر الصحابة فى حد الخمر، فقال عبدالرحمن بن عوف: اجعله كأخف الحدود ثمانين فضرب عمر ثمانين، وكتب به إلى خالد وأبى عبيدة بالشام وروى أن عليا قال فى المشورة: نرى أن نجلده ثمانين، فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى وعلى المفترى ثمانون.

فمن رأى من الفقهاء أن حد الخمر ثمانون، وسنده أن الصحابة أجمعوا على ذلك، والإجماع مصدر من المصادر التشريعية ومن رأى أن الحد أربعون، احتج بما فعله الإمام على فقد جلد الوليد بن عقبة أربعين جلدة، وقوله جلد النبى أربعين، وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين. وكل سنة، وهذا أحب إلىّ.

ويرى أصحاب هذا الرأى أن فعل النبى ﷺ حجة يسبق الإجماع لا يجوز تركه بفعل غيره، وأن الإجماع لا ينعقد على ما يخالف فعل النبى وأبى بكر وعلىّ، ويحملون الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز إذا رآه الإمام.

عقوبة التعزير فى المخدرات

التعزير عقوبة غير مقدرة بنص، وليست بحد أو قصاص وتقدر بحسب رأى الحاكم واختياره، تبعا لخطورة الجريمة، وشخصية المجرم، وتتدرج العقوبة فيها من اللوم وحتى القتل، أو الإعدام لعظم ضررها وهذا ما قرره

المحققون من أهل العلم، أن القتل ضرب من التعزير. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن لم يندفع فساده فى الأرض إلا بالقتل قتل، مثل قتل المفرق لجماعة المسلمين الداعى للبدع فى الدين «إلى أن قال: وأمر النبى ﷺ بقتل رجل تعمد الكذب عليه. وسأله ابن الديلمى عن من لم ينته عن شرب الخمر، فقال من لم ينته عنها فاقتلوه.
وفى موضع آخر، قال: فى تعليل القتل تعزيرا ما نصه: وهذا لأن المفسد كالصائل، وإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل».

والغالب فى الفقه إن كل شراب أسكر كثيره حرام قليله وحد شاربه، ويخرج بالشراب ما حرم من الجامدات كالبنج والأفيون، وكثير الزعفران والجوزة والحشيش فلا حد فيه، وأن اذيبت، إذ ليس فيها شدة مطربه، بخلاف جامد الخمر اعتبارا بأصلها، بل التعزير الزاجر له عن هذه المصيبة الدنيئة والمراد أن الكثير من البنج والأفيون، يحد به متناوله، فالكثرة قيد فى جميع المسكرات.

والمسكر والمخدر فيه من تغيب العقل وتعطيل وظيفته ما هو مشاهد ومعلوم فيهما ومن ذلك- أى المسكر أو المخدر- البنج والحشيشة والأفيون كلها مسكرة، ومرادهم بالإسكار تغطية العقل، لا مع الشدة المطربة؛ لأنها من خصوصيات المسكر المائع، فلا ينافى أنها تسمى مخدرة، فما جاء فى الوعيد على الخمر، يأتى فيها، لاشتراكهما فى إزالة العقل المقصود للشارع بيانه.

ومما يقوى القول بأنه يحد إن أكلها؛ لأنه ينتشى ويشتهيها كالخمر وأكثر، حتى لا يصبر عنها، وتصده عن ذكر الله وعن الصلاة، مع ما فيها من تلك القبائح، وعلى أية حال، فهى داخلة فيما حرم الله ورسوله من الخمر المسكر لفظا ومعنى.

الحشيشة فى رأى ابن تيمية[1] من المسكرات المحرمة فهذه الحشيشة حرام، سواء سكر منها أو لم يسكر، يجلد صاحبها كما يجلد شارب الخمر، وهى أخبث من الخمر من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير فى الرجل تخنث ودياثه وغير ذلك من الفساد.

والخمر أخبث من جهة أنها تفضى إلى المخاصمة والمقاتلة وكلاهما يصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

اتفق فقهاء العصر على المنع من تعاطى- المسكرات والمفترات- واختلفوا فى الواجب فيها: الحد أو التعزير بناء على أنها مسكرة أو مفسدة للعقل. وعن كتاب الذخيرة له: أنه يجب فيها الحد والتعزير.

وفى فقه الشيعة: أنه يحد كل من شرب مسكراً مكلفا غير مضطر ولا معذور.. ويكفر مستحل خمر الشجرتين، ويفسق مستحل ما عداهما، وتحريم سائر المسكرات

(١) السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص٩.

بالسبة والقياس فقط، إذ لا يسمى خمر إلا مجازا، وقيل بها وبالقرآن لتسميتها خمرا، حيث قال ﷺ: «إن من التمر خمرا».

الخمر في العصر الحديث

ثمة حقيقة ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار أن المخدرات قد تطورت أشكالها وتأثيراتها، وعظم ضررها، وعم شرها، إلى الحد الذي يمكن معه القول بحق بأن المخدرات أصبحت سلاحا لاغتيال الشباب لما تسببه من ضمور ومرض الخلايا، والهذيان والارتعاش والصرع والهلوسة، والتهابات في المعدة والأمعاء، وارتجاج وتهتك وانضغاط المخ، وهبوط ضغط الدم، وسرطان المعدة والتهابات الأمعاء الدقيقة والغليظة، وأمراض كرات الدم الحمراء.. إلخ هذه السلسلة من الأمراض والعلل الصحية، بالإضافة إلى تأثيراتها الدينية والاجتماعية المدمرة، في إفساد قوى العقل وخلايا الجسد، وضياع المال، فهي تخل بثلاثة مقاصد شرعية العقل والنفس والمال.

فمن الناحية الدينية، فإنها تقطع الصلة بالله وبالقيم والمثل الدينية والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

ومن ناحية تأثيرها في الطباع، فإنها تؤدي إلى أنانية مجحفة تدفع شاربها إلى الاستزادة منها، متلفا في سبيلها كل ما يملك، ومضحيا من أجل الحصول عليها بكل غال وعزيز ولو بنفسه وأهله ووطنه.

ومن الناحية الاجتماعية، فإن الواقع تحت سلطان المخدرات وخاصة الأنواع الجديدة منها مثل الأقراص، والتي تتعاطى عن طريق الشم والحقن، تجعل من يقع تحت سلطانها عبدا لها، يتجرع السموم، وصدق الرسول ﷺ في قوله: «اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث» «مسند النسائي».

وقد شاع من أصناف الخمور الكثير كالهروين والكوكايين وعقاقير أخرى أصبحت آفة للشباب والشيوخ والنساء وشاع ضررها على الأمة حتى صارت من أسلحة الأعداء ضد المسلمين.

لكل ذلك، فإن فرض عقوبة تعزيرية في حدها الأقصى الذي قد يصل إلى حد الإعدام، سائغ ومشروع كما ذهب ابن تيمية، وهو الأجدر لتخليص المجتمع من شرورها، ولدفع ضررها عن الشباب، وللحد من آثارها في إتلاف المال، وإفساد الأخلاق، واستباحة الأعراض، وتحطيم النفس، وهزال البدن، وضياع الكرامة والنخوة، والاندفاع نحو القتل، وفي كلمة، فإن عدم تغليظ العقوبة يخل بمقاصد الشريعة، التي تتمثل في الحفاظ على الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

عقوبة المخدرات في بعض الدول الإسلامية والمجامع العلمية

صدرت القوانين والتشريعات التي تحرم استخدام المخدرات والاتجار بها لغير

الأغراض الطبية في مختلف دول العالم بما فيها الدول العربية والإسلامية.

ففي المملكة العربية السعودية نص الأمر السامي رقم ٣٣١٨ بتاريخ ٩ / ٤ / ١٣٥٣هـ وتعديل مجلس الوزارة رقم ١١ بتاريخ ١ / ٢ / ١٣٧٤هـ، على السجن لمدة سنتين، ويعزر بنظر الحاكم الشرعي، والإبعاد عن البلاد لمن كان أجنبيا.

أما عقوبة تهريب المخدرات في الدول الإسلامية فتتفاوت في شدتها، فلقد طبقت عقوبة الإعدام في ماليزيا وكانت السباقة لتنفيذها في العالم الإسلامي، ثم تبعتها دول أخرى، من أهمها: العراق، وإيران، والمملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، في عام ١٤١٦هـ، ومصر عام ١٩٩٥م على ترتيب تطبيقها.

وقد أصدرت هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية في دورتها التاسعة والعشرين المنعقدة في الرياض بتاريخ ٩ / ٦ / ١٤٠٧هـ وحتى ٢٠ / ٦ / ١٤٠٧هـ جاء في برقية خادم الحرمين: نظرا لما للمخدرات من آثار سيئة، وحيث حظنا كثرة انتشارها في الآونة الأخيرة؛ ولأن المصلحة العامة تقتضي «إيجاد عقوبة رادعة لمن يقوم بنشرها وإشاعتها، سواء عن طريق التهريب أو الترويج، نرغب إليكم عرض الموضوع على مجلس هيئة كبار العلماء بصفة عاجلة، وموافاتنا بما يتقرر.

وقد أصدر مجلس هيئة كبار العلماء بالإجماع قراره رقم ١٣٨ بتاريخ ٢٠ / ٦ / ١٤٠٧هـ، متضمنا عقوبة القتل لمهربي المخدرات، وتعزير من يروجها لأول مرة بالحبس أو الجلد أو الغرامة المالية أو بجميعها، ومن يكرر هذه الجنحة يعزر بالقتل لقطع شره، وقد صدر أمر سامي آخر برقم ٤/ب ٩٦٦٦ بتاريخ ١٠ / ٧ / ١٤٠٧هـ لكل من وزارة العدل ووزارة الداخلية، بالعمل بعقوبة القتل لمهربي المخدرات.

أما المروجون فيعزرون تعزيرا جسيما يقتضيه الردع القضائي. وفي حالة تكرار فعلته فيعزر بقطع شره عن المجتمع، ولو كان ذلك بالقتل، وتم تعميمه على المحاكم وبذلك حلت عقوبة القتل بدلا من الحبس التي صدرت بحق مهربي ومروجي المخدرات، حسب نص قرار مجلس الوزراء رقم ١١ لسنة ١٣٧٤هـ.

وفي مصر نشير إلى أنه قد صدر في سنة ١٩٦٠م قانونا قضى في مادته الأولى: تعتبر جواهر مخدرة في تطبيق هذا القانون «المواد المبينة في الجدول رقم «١» الملحق به، ويستثنى منها المستحضرات المبينة بالجدول رقم «٢» والذي يستفاد منه حصر المواد المخدرة التي يقع متعاطيها تحت طائلة العقاب، وحسنا فعل تطبيقا لقاعدة؛ لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص».

المقاصد التربوية للعبادات

أ.د. صلاح سلطان

المقصد التربوى للزكاة فى الجانب العقلى للفرد المسلم

عند إمعان النظر نجد أن هناك جوانب تؤثر فيها الزكاة فى إصلاح الجانب العقلى للفرد المسلم منها ما يلى :

أولاً : أداء الزكاة يزكي النفس ويطهر القلب من هذا النهم على الدنيا ليفرغ العقل لينهل من العلم ؛ ولذا قال النبى ﷺ : «منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا»[1]، فمن امتلأ قلبه بحب الدنيا لا يجد فى عقله إلا طرائق تحصيل المال، وفنون تجميعه، وطرق حفظه وعدّه وتنميته، هذا العقل لا يصلح للعلم، أما من وضع المال فى موضعه فإن عقله يحتفظ باتزانه ،ويدير أموره فى الدنيا والآخرة بشكل متوازن يتوافق مع قوله تعالى :

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

(البقرة : ٢١٩، ٢٢٠)

ومن يخالط الناس اليوم يجد من صرف كل همّه، وصوّب ملكات عقله لمزيد من الكسب المادى، أو الاستحواذ على مورد للمال لا ينضب، فإذا حدثته فى أمر علمى أو وجهته إلى كتاب نادر أو حكمة بالغة أو فكرة بارعة وجدته كالميت الذى فقد التجاوب مع من حوله، وهؤلاء يتحولون إلى عبيد ملتصقين بالأرض، وليسوا عبادا لرب السماوات والأرضين، إذا لاحت لهم ظنون بعيدة بدنيا قريبة وجدتهم كالحمر المستنفرة، وإذا دعوتهم إلى يقين من ثواب الآخرة وجدتهم أجسادا هامدة وعقولا راكدة.

ثانيا : إذا راجعنا كتب الفقه فى أدلة الخلاف حول أحد فروع أحكام الزكاة، مثل جواز إخراج زكاة الفطر مالاً بدلاً من الحبوب[2]، فسنجد من الثراء العقلى ما يفيض على العقل المسلم بكثير من الوجوه السائغة والعلل الجامعة، التى يخرج منها المسلم وهو على يقين بأن فى تفاصيل الأحكام الشرعية ما يؤهل العقل المسلم – لو أحسن استغلال هذا العقل الحى الباحث عن الحقيقة بين الظنون الشائعة ما يؤهله – لكى يقود البشرية كلها نحو صلاحها، لتكون للعقلية المسلمة تميزها وتفردها وسبقها فى

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية(٢٨/٨).

(٢) راجع رسالة «تحقيق الآمال فى إخراج زكاة الفطر بالمال» للإمام الحافظ أبى الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغمارى الحسنى تحقيق وتعليق نظام بن محمد صالح يعقوبى البحرينى، طبعة هجر ١٩٨٩، وفيها اثنان وثلاثون وجها شرعيا وعقليا لصحة إخراج الزكاة نقودا.

الكشف والاختراع، فى الربط بين الريادة فى الدنيا والشهادة فى الآخرة، فى الجمع بين مطالب الروح والجسد، فى التوازن بين حياة الإنسان وأخيه الإنسان حوله، وهى حركة لا تستمر إلا بعقل يفهم ويستوعب دور الإنسان فى هذه الحياة.

المقصد التربوى للصيام فى الجانب العقلى للفرد المسلم

العقل هو مناط التكليف فى الإنسان، وبه كرمه الله عن غيره من المخلوقات، ولأجله تحمل الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، والصيام ذو أثر مباشر فى تقويم العقل وإذكائه ويبدو ذلك فيما يلى :

أولا : إذا كان الهدف من الصيام هو تحصيل التقوى كما قال الله تعالى :

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

فإن هذه التقوى تفتح على المسلم آفاق العلم والخير لقوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾

إن هذه التقوى تفتح على المسلم آفاق العلم والخير لقوله تعالى :

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

(البقرة : ٢٦٩)

ثانيا : الصيام يجعل عقل الإنسان أكثر نشاطا وإدراكا ؛ لأن البطن إذا امتلأت تذهب الفطنة كما جاء فى الأثر «البطنة تذهب الفطنة»، ومن أكل كثيرا نام كثيرا وحُرم من خير كثير، فمن أراد أن يحصل من أسباب العلم ما يوسع به مداركه فلا يشبع ؛ لأن ملأ بطنه بالطعام سرعان ما ترتخى أعضاؤه ويميل إلى الكسل ويخلد إلى النوم الطويل، لكن صيام رمضان بآدابه من الإقلال من الطعام والشراب وصيام النوافل يعوّد الإنسان على الاقتصاد فى طعامه وشرابه بما يحفظ لعقله فاعليته، ولنفسه القدرة على حدة التفكير وطول السهر تحصيلاً للعلم.

ثالثا : كثرة قراءة القرآن فى هذا الشهر، أو الاستماع إليه فى صلاة التراويح أو غيرها ؛ مما يرسى أصول العلم لدى المسلم أو المسلمة . ففى القرآن أصول العلم التجريبى، وأصول العقيدة الصحيحة، وقواعد التشريع الكاملة، وقصص السابقين من الطائعين والعاصين، وهذا من أكبر موارد النمو العقلى.

رابعًا : لا شك أن مفردات أحكام الصيام تؤثر تأثيراً قويًا فى صياغة العقل الإسلامى صياغة مرنة ويبدو ذلك مما يلى :

أ- لابد للإنسان أن يزن الأمور بميزان العقل لا العواطف فقط ، وفى هذا يقال : «ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول».

ولذا فإن نبينا ﷺ يوصى عبدالله بن عمرو وهو يريد أن يصوم كل يوم، فأمره ألا يزيد عن صيام يوم وإفطار يوم يقول : إنك لا تدرى لعلك يطول بك عمر . قال : فصرت إلى الذى قال النبى ﷺ فلما كبرت وددت لو كنت قبلت رخصة نبى الله ﷺ .

ب- نهى النبى ﷺ عن الوصال، وفى هذا يروى البخارى بسنده أن النبى ﷺ قال : «إياكم والوصال «مرتين» قيل : إنك تواصل . قال : إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى.

فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون»[٣] والحقيقة أن الإنسان يجب أن يدرك طاقته ولا يكلف نفسه إلا على قدر وسعه لقوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

وهذا يقتضي المرونة في التعامل مع المواقف بما يحقق الهدف، دون أن يذل الإنسان نفسه بأن يحملها ما لا تطيق، ثم يتضاعف عنده الشعور بعدم الثقة في النفس في نهاية الأمر، ولذا هناك رواية لمسلم في نفس الباب يقول النبي ﷺ: «لو تمادى لي الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم»[٤]. هؤلاء الغلاة يريد النبي ﷺ أن يعودوا إلى الواقع وألا يبالغوا في تقدير طاقاتهم أو إمكاناتهم، وأن يتعاملوا مع دين الله تعالى بنفس درجات التيسير التي وردت به دون تعمق أو مغالاة.

جـ- إذا تحققت هذه المرونة لم ير واحد لنفسه فضلا على غيره؛ لأن الله تعالى هو أعلم بمن اتقى، ولذا يروى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ لست عشرة مضت من رمضان، فمنا من صام، ومنا من أفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم»[٥].

د- لاشك أيضا أن عقلية المسلم تكون في غاية المرونة وهو يقرأ من أحكام الصيام أن كل ما دخل الجوف مما يستحيل التحرز منه لا يفطر، مثل رائحة الدخان أو الطيب أو الماء الذي يسبق إلى الجوف عند المضمضة مع عدم المبالغة، وما دخل عن طريق السمع عند العطس أو الاستحمام، ومن خرج منه مني بغير شهوة فصومه صحيح، ومن ذرعه القيء فلا شيء عليه ومن أكل أو شرب ناسيا فليتم صومه، والقطر في العين لرمد لا يفطر الصائم، والحقن للتداوي لا تفطر، هذه الأحكام وأمثالها تصوغ العقل المسلم صياغة رائعة مرنة قوية، يضع الحدود ويعرف الأعذار ويراعي الظروف والأحوال التي تخرج عن طاقة كل إنسان فيقدرها بقدرها.

المقصد التربوي للحج

في الجانب العقلي للفرد المسلم

تتجلى أهم الجوانب التي يصلح فيها الحج الجانب العقلي للفرد المسلم فيما يلي:

أولا: إذا كان من المسلمات العقدية أن تقوى الله تعالى تفضي إلى سعة العلم لقوله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

فإن الحج مفض - إذا استوفى أركانه وآدابه - إلى التقوى ويتضح ذلك مما يلي:

أ- أن أداء الشعائر يجب أن يكون مصحوبا في شعائر الحج بتعظيمها؛ لأنها فرائض الله تعالى وسنن نبيه ﷺ وهذا مؤد

(٣) «صحيح البخاري» كتاب الصوم، باب التنكيل بمن أكثر الصيام رقم (١٩٦٦٠)، رواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (١/٤٤٥).

(٤) «صحيح مسلم» نفس الباب (١/٤٤٦).

(٥) «صحيح مسلم» كتاب الصيام، باب جواز الفطر والصوم في شهر رمضان للمسافر (١/٤٥٣).

إلى التقوى لقوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

(الحج: ٣٢)

ب- أن الله تعالى لا يتقرب إليه بالأفعال الجامدة التي لا تنبعث من التقوى وهي مناط القبول لقوله تعالى:

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ ﴾

(الحج: ٣٧)

ويقول سبحانه:

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(المائدة: ٢٧)

جـ- أن الخروج إلى الحج يجب أن يكون مصحوبا بزاد التقوى يقول سبحانه:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

د- أن التأخير في أيام منى لرمي الجمرات يجب أن يكون مصحوبا بالتقوى: يقول الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٠٣)

هذه النصوص وغيرها تؤكد العلاقة الوثيقة بين الحج والتقوى، وهذا مؤد إلى فيوضات الله عز وجل في سعة العلم.

ثانيا: الحج يمثل في بعض أحكامه قمة التميز لعقلية المسلم الرباني الذي يكون الفكر من أكبر روافد الإيمان، فإذا وصل إلى هذا اليقين، وأسلم وجهه لله تعالى، فإنه يتلقى أوامر الله تعالى وينفذها حتى لو لم يدرك العقل الغاية والحكمة من الشعيرة التي يقوم بها، لذا يروي الشيخان بسندهما عن عمر - رضي الله عنه - أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، وقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك[٦].

وسيدنا عمر يشير إلى صفاء عقيدة التوحيد التي توقن أن الله تعالى هو النافع والضار، بيده الأمر كله والأحجار ليست بذاتها قوة فاعلة في شيء من الكون ولا يجوز أن تقدس في حياة الناس، لكن تقبيل الحجر الأسود هو من الاتباع المطلق لرسول الله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى، بل يوحى إليه ويبلغ أمته.

هذا الأمر يعد من خصائص العقلية الإسلامية، حيث يصل المسلم عن طريق النظر العقلي في الكون والتسليم القلبي بالوحي إلى امتزاج إيماني يجمع بين الانطلاق العقلي فيما يفيد ويثري حياة الإنسان، ويتوقف أمام ما يعجز عن إدراك حكمته، وفي كل يمتثل للأمر؛ لأنه من الله رب هذا الكون، أو يوحي الله إلى رسول الله ﷺ دون حماس لما أدركه عقله وفتور لما فاته إدراك حكمته.

ثالثا: أحكام الحج فيها من السعة والمرونة ما يطبع العقل المسلم بهذا الطابع المميز وهو

(٦) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود رقم (٧٩٩)، وسنن الدارمي، كتاب المناسك، باب في تقبيل الحجر رقم (١٨٦٤).

المرونة وسعة الأفق، والتيسير على الناس، وعدم حملهم على ما يؤدى إلى الحرج ويفضى بهم إلى المشقة البالغة، والضيق الشديد، ومن هذه الأحكام ما يلى:

أ ـ أن الله تعالى أباح التجارة للمحروم أيام الحج؛ لأن الله تعالى يعلم أن من عباده من لا تبرحه الرغبة فى الاستكثار من الحلال أيام الحج، فأباحها الله عز وجل وفيه جاء فى كتب التفسير [٧]، عن ابن عباس أن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذى المجاز ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم، فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

(البقرة: ١٩٨)

هذا يعبر عن هذا التوافق الكامل بين الأحكام الشرعية والحاجات الفطرية، وتحكى صورة التدين الصحيح الذى لا يلوى أعناق الرغبات الصحيحة للنفس البشرية كى يبالغ فى الترهبن، بل هو الدين الحنيف الذى لا يدع رغبة فطرية صحيحة إلا لبى رغبتها فى غير ما سرف ولا تقتير.

ب ـ مباحات الإحرام [٨] تؤكد هذا المعنى السابق مثل الاغتسال وتغيير الرداء والإزار وتغطية الرأس ناسياً، وتغطية المرأة وجهها نسياناً أو اتقاء فتنة، أو فقء الدمل ونزع الضرس والجراحات الضرورية، وحك الرأس والجسد، والنظر فى المرآة وشم الريحان، وشد الهميان فى وسط المحرم لحفظ نقوده، ولبس الخاتم والاكتحال وتظلل المحرم بمظلة أو خيمة أو سقف أو الخضاب بالحناء، وضرب الخادم للتأديب، وقتل الفواسق الخمس وكل ما يؤذى، هذه تدل على مدى المرونة فى تشريعنا الإسلامى الذى لا يدع شيئاً مما لا تستغنى عنه النفس البشرية وفيه نفعها ـ إلا أباحته حتى فى الإحرام الذى يكون الأصل فيه هو الحظر للأفعال، لكن الحظر يرد على ما يربى فى الإنسان قوة الإرادة، وتبقى الإباحة لكل المطالب التى لا غنى عنها.

جـ ـ ما ذكرناه من قبل من تيسيرات أحكام الحج مراعاة لمشاعر الناس فى عدم المزاحمة على رمى الجمرات، أو جواز حلق الرأس مع الفداء لمن آذاه هوامه أو أصابته حساسية فى جلده، والإذن بالركوب للمرضى والزمنى فى الطواف والسعى، والإذن للضعفاء من الأولاد والنساء فى الترخص فى المبيت بالمزدلفة ورمى جمرة العقبة الكبرى قبل الفجر، والأمر بالرفق بالآخرين فى رمى الجمرات، والإذن للرعاة والسقاة أن يترخصوا فى المبيت بمنى لرمى الجمرات، وقياس ذوى المصالح الضرورية عليهم، هذا مما يبعث على المرونة العقلية فى تناول المسلم لأية قضية من القضايا بشكل يخلو من الجمود والتحجر الذى يلابس بعض ضيقى الأفق، قليلى العلم، الذين يدفعهم الحماس الأجوف إلى التضييق على أنفسهم أو الناس.

د ـ رفع الحرج عن الناس فى ترتيب مناسك يوم العيد مما يساهم فى بناء العقلية الإسلامية بناء مرناً، ومنه ما رواه مالك بسنده عن عبدالله بن عمر قال: «وقف رسول الله ﷺ للناس بمنى

(٧) راجع: «فتح القدير» للشوكانى (١/٢٠٢)، «احكام القرآن» للجصاص (١/٢٨٦).

(٨) هذه المباحات من كتاب «الإيضاح» للشماخى (٢/٢٨٣ ـ ٢٨٧)، وفقه السنة» للشيخ سيد سابق، ص(٤٧٢ ـ ٤٧٧).

والناس يسألونه، فجاءه رجل فقال له: يا رسول الله لم أشعر فحلقت قبل أن أنحر، فقال النبى ﷺ: انحر ولا حرج، ثم جاءه آخر فقال: يا رسول الله: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمى فقال: ارم ولا حرج، قال: فما سئل رسول الله ﷺ عن شىء قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج».

هذه العبارات الأخيرة تمثل الاستيعاب الواعى للرسالة الإسلامية وهدفها فى رفع الحرج، وهو ما يجب أن يتمثله الكثير ممن يتحدثون فى بقاع شتى عن الإسلام، ليحملوه للناس كما أنزله الله دون تشديد يبعث على التنفير من الصورة الشائهة التى تعرض للإسلام، ولو عُرض الإسلام بهذه الروح لتكالب عليه أهل الشرق والغرب جميعاً؛ لذا أعتقد أن المسلمين هم المسئولون قبل غيرهم عن صورة الإسلام الشائهة التى انطبعت فى ذهن عامة الناس فى الأديان الأخرى.

رابعاً: من النصوص الشرعية ما يدل على سعة الأفق فى التعامل مع الخلافات الفقهية، ومن ذلك ما رواه البخارى بسنده عن عبدالله بن مسعود قال: «صليت مع النبى ﷺ ركعتين ـ أى يوم عرفة، ومع أبى بكر ركعتين، ومع عمر ركعتين، ثم تفرقتْ بكم الطرق، فيا ليت حظى من أربع ركعتان متقبلتان» [٩]، ويقول ابن حجر فى التعليق على هذا الأثر: تبع عثمان كراهة خلافه، وأخبر بما يعتقده [١٠]. هذا مما يدل على منهجية عقلية وخلقية فى آن واحد فى التعامل مع الرأى الآخر، فما دامت المتابعة ليست تقليداً أعمى أو يصير المقلد إمّعة، بل هو نوع من ترك الرأى الراجح إلى المرجوح، لكن لكل أدلته التى يجب احترامها، والحق أن احترام الإنسان لرأى مخالفيه هو احترام لعقله أيضاً؛ لأنه يحترم العقل المفكر، العقل الذى يختار ويرجح وتكون له إضافة على ما تعلمه، هذا عقل يجب احترامه، مهما كانت هوة الخلاف بينه وبين غيره.

خامساً: فى النصوص الشرعية أيضاً ما يوظف العقل فى الأمور الجادلة لا الجدلية، القضايا التى وراءها نفع دينى أو دنيوى، وليس ما يكون استكثاراً لعلم لا ينفع، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا، فسأله سائل: أفى كل عام يا رسول الله؟ فقال ﷺ: دعونى ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» [١١].

هذا السؤال عن فرضية الحج كل عام ربما أحس النبى ﷺ أنه من أنماط الأسئلة التى يثيرها بعض الناس الذى يتكلمون أكثر مما يفعلون، ويكثرون الجدل ويقل منهم العمل، فنهاهم النبى ﷺ، وهو ما يدل على منهجية البحث والتحرى فيما تحته عمل، فيما يفيد الفرد فى خاصة نفسه أو الناس من حوله فيما يزيد المسلم رقياً فى معاشه أو معاده.

(٩) «صحيح البخارى»، كتاب الحج، باب الصلاة بمنى رقم (١٦٥٧).

(١٠) «فتح البارى» لابن حجر (٣/٥٩٥).

(١١) «اللؤلؤ والمرجان» كتاب الحج، باب فرض الحج مرة فى العمر رقم (٨٤٦)، ومن الأمانة أن أذكر أن الرواية المذكورة تبدأ من قول النبى ﷺ: «دعونى ما تركتكم». أما ما قبله فهو ما يستفاد من روايات أخرى ومن ترجمة الباب.

جمادى الأولى ١٤٣٣هـ
إبريل ٢٠١٢م

تعميم الحكم على الناس خطأ صريح



لفضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

شاع وانتشر فى المجتمع الدولى فى العقود الأخيرة من القرن العشرين، وفى مطلع الألفية الثالثة استعمال أسلوب التعميم فى الحكم على الموضوعات.. أو بتعبير آخر أدق استعمال أسلوب التعميم فى الحكم على مَنْ ينتسبون إلى شعوب معينة، أو على مَنْ ينتسبون إلى عقيدة دينية واحدة فى حالة ما إذا فعل أو قال بعض ما ينتسبون إلى هذه الشعوب أو إلى تلك العقيدة الدينية ما يخالف فكر أو منهج أو سلوك أو رأى غيرهم.

فنحن نرى أنظمة حكم بعض دول العالم التى تعتنق فكراً سياسيا معينا، أو التى تطبق نظاما اقتصاديا خاصا، أو التى تتبع منهجا وسلوكا اجتماعيا ترتضيه، أو التى تعتنق دينا معينا.. نراها عندما تتحدث عمن يخالفها فى ذلك تعمم الحكم على الدول والشعوب، وعلى معتنقى الديانات الأخرى.

وإذا جاز استعمال هذا الأسلوب ـ مع التحفظ على هذا الجواز ـ فى المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.. فإنه لا يجوز مطلقاً أن يقبل استعمال أسلوب التعميم هذا فى المجالات الدينية.

فقد تعدى هذا الخطأ الكبير إلى بعض رجال الأديان أنفسهم فوقعوا فيه، وعمموا الأحكام على الأديان الأخرى المخالفة لعقيدتهم الدينية وعلى معتنقيها عندما يقول أو يفعل بعض من ينتسبون إلى دين آخر شيئاً مرفوضاً لدى رجال الدين هؤلاء.. مع أن المفروض فيهم أن يكونوا أكثر دقة فى الحكم، بحكم مسئوليتهم الدينية، وبحكم أنهم قدوة مؤثرة فى أتباعهم ومجتمعاتهم يتأسى الجميع بأقوالهم وأفعالهم.. وكان الواجب عليهم التأنى والروية، والقيام بدراسة موضوعية جادة محايدة لمبادئ وأحكام هذا الدين الذى يعتنقه مخالفوهم لمعرفة عقائده وتشريعاته وأوامره ونواهيه، وتوجيهاته وإرشاداته.. وهل هو فعلا يقر تلك الأقوال والأفعال أم لا؟

موقف الإسلام من تعميم الحكم على الناس

عندما نتحدث عن بيان موقف الإسلام من تعميم الحكم على الناس يلزم أن نوضح أولاً أن الحكم على الناس فى الإسلام ينقسم إلى قسمين:

١ ـ حكم عام لا يختلف فى تطبيقه على الناس جميعا عند ارتكاب أحدهم مخالفة فى العبادات أو جريمة فى الحدود، فيطبق هذا الحكم على المخالف وحده، ولا يستثنى من تطبيق هذا الحكم عليه أحد من الناس فى حالة ارتكابه مثل هذه المخالفة أو الجريمة.

٢ ـ وحكم خاص يتحمل المسئ فقط وزر قوله أو فعله على قدر السيئة التى ارتكبها، ولا ينسب هذه السيئة إلى الدين، ولا إلى بقية معتنقيه.

ولتوضيح القسم الأول نضرب مثالاً من العبادات على ذلك: صيام شهر رمضان فرض على كل مسلم ومسلمة إذا توفرت فى المسلم شروط محددة، وفى حالة إفطاره عامداً متعمداً ـ وهو مستوف لشروط الصيام ـ فإنه تجب عليه الكفارة، هذه الكفارة محددة تطبق على كل من يرتكب هذه المعصية لا يعفى منها أحد ولا تخفف على أحد، فهى عامة فى حكمها.

مثال آخر على ذلك فى الحدود: السرقة فى الإسلام حرام، وأن مَن يسرق حُكم الإسلام فيه أن تقطع يده إذا توفرت فى السرقة شروط إقامة حدها.. هذا الحد يطبق على كل من يرتكب هذه الجريمة بشروطها، لا يعفى منه أحد مهما كان وضعه ومكانته فى مجتمعه، فهو حكم عام، وكلنا يعرف قصة فاطمة بنت الأسود المخزومى، من بنى مخزوم ـ قبيلة قرشية مشهورة ـ وقد سرقت حليا، فاهتم لها قريش لشرفها فيهم، وخافوا الفضيحة من إقامة الحد عليها، وفكروا فيمن يشفع لها عند النبى ﷺ فى عدم إقامة الحد عليها.. فوقع اختيارهم على أسامة بن زيد وقالوا: ومَن يجترئ عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع فى حدّ من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فهذا حكم عام يطبق على كل من يرتكب هذه الجريمة.

هذا هو القسم الأول: وقد حرصت على أن أشير إليه حتى لا يلتبس الأمر على من لم يعرف أحكام الإسلام فيقول ـ عندما أتكلم عن القسم الثانى الذى ينفى الإسلام فيه التعميم ـ الإسلام فيه تعميم للأحكام.

والقسم الثانى: فكلنا نرى ونشاهد، ونقر ونعترف بأن الناس ليسوا سواء.. منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم المطيع ومنهم العاصى، ومنهم الطيب ومنهم الخبيث، وقد يكون الاثنان أخوين شقيقين من أب واحد وأم واحدة، أو يكونان من بلدة واحدة، أو ينتسبان لدين واحد، أو ينتميان لدولة واحدة.. ومع ذلك يوجد هذا التفاوت الشاسع بينهما فى الأخلاق والسلوك والمعاملات.. وحينئذ يجب ألا

يؤاخذ البريء بذنب المذنب، وألا يعمم الحكم على الاثنين، بل يأخذ كل واحد جزاءه حسب عمله.. وقد يحدث أن تسئ جماعة فى أمة من الأمم، ففى تلك الحالة يجب أيضا أن نحكم بالذنب على تلك الجماعة المسيئة فقط، ولا يعمم الحكم على الأمة كلها.. وهذا أمر تقضيه الفطرة السليمة، ويحكم به العقل السليم.

وهنا نجد عدل الدين الإسلامى الحاسم الذى يرفض التعميم، ويقرر بكل وضوح أن كل إنسان مجزى بعمله، محاسب عليه، يقول الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

(المدثر: ٣٨)

أى: كل نفس مرهونة عند الله تعالى بكسبها، مأخوذة بعملها، فإن كان عملها صالحا أنجاها الله من العذاب، بل وجزاها بالحسنات والنعيم، وإن كان عملها سيئا أهلكها وجعلها محلا للعقاب، ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

أى: فى يوم القيامة يخرج الناس من قبورهم متفرقين لا يلوى أحد على أحد، متجهين إلى موقف الحساب على أعمالهم فى الدنيا، فمن كان منهم قد عمل فى دنياه عملا صالحا رأى ثماره الطيبة، حتى ولو كان هذا العمل فى نهاية القلة، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئا فى دنياه رأى ثماره السيئة، حتى ولو كان هذا العمل ـ أيضا ـ فى أدنى درجات القلة.

وقد حرص الإسلام على تأكيد عدل الله فى أن كل نفس مسئولة عن أعمالها فقط فكرر فى القرآن الكريم الآيات التى تثبت ذلك، يقول الله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

أى: أن الله سبحانه وتعالى كلف الإنسان بما تسع قدرته وتستطيعه نفسه، وأن كل نفس لها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة، وعليها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها السيئة.

وحتى لا يترك القرآن الكريم مجالاً لفكر الإنسان بأن يظن أن أعماله السيئة يمكن أن يتحمل عقابها غيره، أو يتحمل جزءا من عقابها نفى القرآن الكريم ذلك نفيا قاطعا، يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(فاطر: ١٨)

أى ولا تحمل نفس غير آثمة إثم نفس أخرى، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التى باشرتها أو تسببت فيها.. وإن طلبت نفس آثمة مثقلة بالذنوب من نفس أخرى غير آثمة أن تحمل عنها شيئا من ذنوبها التى أثقلتها لا تجد استجابة منها، حتى ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها.

وهذا التخصيص بتحمل النفس الآثمة مسئولية قولها وعملها، وعدم تعميمها على الآخرين أو إشراكهم فيها ليس قاصراً على الأفراد فقط، بل على الأمم أيضاً، فكل أمة مسئولة عن عملها ما دام جميع أفرادها مشتركون فى هذا العمل، يقول الله تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ١٤٠)

أى: قل يا محمد لأهل الكتاب: إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها، لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر، ولا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئاتها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم، فعليكم أن تسلكوا طريق الإيمان والعمل الصالح، وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها.

أمثلة من واقع التاريخ الإسلامى سجلها القرآن الكريم تمنع تعميم الأحكام:

فى بدء تكوين الدولة الإسلامية، بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، كان الأعراب الذين يسكنون حول المدينة أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر الكفار والمنافقين؛ لأن ظروف حياتهم البدوية، وما يصاحبها من عزلة وتنقل فى الصحراء، وخشونة فى الحياة.. كل هذه العوامل جعلتهم أقسى قلوباً، وأجفى قولا، وأغلظ طبعاً، وأبعد عن سماع ما يهدى نفوسهم إلى الخير من غيرهم من سكان المدن، وبذلك كانوا أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله ﷺ، وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه ﷺ من شرائع وآداب وأحكام، يقول الله تعالى:

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٧)

غير أن الإسلام الذى يمنع التعميم فى الحكم على الناس أخذ يفصل أحوال هؤلاء، ويعطى كل ذى حق حقه، ويبين أن الحكم ليس عاما على كل واحد من جنس الأعراب، فتناولت الآيتان الكريمتان التاليتان لهذه الآية تفصيل ذلك، تقول الآية الكريمة التى تليها مباشرة:

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٨)

أى: ومن الأعراب منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويعاونون أعداء المسلمين فى حربهم وقتالهم للمسلمين بما يدل على نفاقهم وكذبهم عندما يعلنون إسلامهم، ولذا فى محاولة منهم لستر أمرهم وما يبطنونه من الكفر يعلنون التبرع بالمال ذرا للرماد

فى العيون، وخديعة للمسلمين، وهم فى قرارة أنفسهم يعتبرون ما ينفقونه فى سبيل الله غرامة وخسارة عليهم، لأنهم لا ينفقون ما ينفقونه طمعاً فى ثواب، أو خوفا من عقاب، وإنما ينفقونه تقية ورياء ومداراة للمسلمين، لا مساعدة للغزاة والمجاهدين، ولا حباً فى انتصار المسلمين، ولا رغبة فى إعلاء شأنهم.. بل على العكس إنهم فى حالة قيام الحرب بين المسلمين وأعدائهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتمنون فى أعماق نفوسهم أن ينهزم المسلمون وأن يتبدل حالهم من الخير إلى الشر، ومن الأمن والأمان إلى القلق والاضطراب.. وهؤلاء بكل تأكيد أشد كفراً ونفاقاً.

ثم تقول الآية الكريمة التى تلى هذه الآية:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ٩٩)

أى: ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيماناً صادقاً، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، ويعتبرون أن كل ما ينفقونه من مال هو فى سبيل الله، ووسيلة للتقرب إليه سبحانه وتعالى، ووسيلة للحصول على دعوات الرسول ﷺ لهم بالرحمة والمغفرة، وبحسنات الدنيا والآخرة، وأن هذه النفقات التى يتقربون بها إلى الله مقبولة عنده سبحانه وتعالى قبولا مؤكداً، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجر جزيل، وقد وعدهم الله - ووعده حق وصدق - بأنه سيغمرهم برحمته التى لا شقاء معها.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة تمنع تعميم الأحكام، فذمت من يستحق الذم من الأعراب، ومدحت من يستحق المدح منهم، وبينت مصير كل فريق ليكون عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وذكرى للذاكرين.

إن تعميم الحكم على الناس دون نظر إلى المحسن والمسئ، والصالح والطالح، والبرئ والمذنب خطأ كبير، وظلم فادح لا يقره الإسلام، فلكل إنسان ميزان خاص به حسب مواقفه وحسب أقواله وأفعاله، وحسب سلوكه وتصرفاته، وهو غير مسئول عمن سواه. فالواجب علينا عند تحديد حكمنا على الناس أن نحدد الحكم عليهم بحسب مواقفهم وأقوالهم وأفعالهم وسلوكهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم مع غيرهم، لا بحسب انتسابهم لدولة، أو انتمائهم لعقيدة دينية، فلا نعمم الحكم على الجميع.

وعلى الله قصد السبيل

وحدة الأمة فى مواجهة التحديات



أ.د.أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن أمتنا الإسلامية، فى أمس الحاجة إلى تأكيد وحدة صفها، وجمع كلمتها؛ لتستطيع مواجهة التحديات التى تحدق بها من كل اتجاه.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يوحدوا صفوفهم وأن يعتصموا بحبل الله جميعا وألا يتفرقوا، حيث قال الله سبحانه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

وقال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

(سورة المؤمنون: ٥١- ٥٤)

ونهى رب العزة سبحانه عن التفرق والتنازع:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(سورة الأنفال: ٤٦)

ولما كان الاختلاف الخطير والمريب يعمل على إفساد الدين والدنيا اعتبره الإسلام كفرا حيث قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(سورة الأنعام: ١٥٩)

والناس عندما يختلفون ويتصارعون يرجعون إلى خصال الجاهلية فى ظلمها وظلامها فيصبحون فى خلال من لا دين له قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (رواه الترمذى).

وقد جعل الله تعالى الوعيد الشديد لمن يشق عصا الطاعة ويتبع غير سبيل المؤمنين حيث قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

(سورة النساء: ١١٥)

ومن مات وهو على خلاف إجماع الأمة وكان خارجا عن الطاعة فإنه يموت ميتة جاهلية حيث قال رسول الله ﷺ: «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية» (رواه البخارى).

وقال ﷺ : «من خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه» (رواه مسلم).

فهذا وعيد شديد لمن يخرج على الأمة ويحاول ضرب البارّ والفاجر وأهل العهد والأمان، إن رسول الله ﷺ : يتبرأ ممن كان كذلك ويقول: «فليس مني ولست منه» وتوجيها من الإسلام في وقاية الأمة من غوائل الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ترى الشريعة أن المنكر الذي يلزم تغييره إذا أدى تغييره إلى مفسدة أكبر يرى أهل العلم، أن تركه أولى من إنكاره، وعندئذ رضوا بارتكاب أخف الضررين، كالطبيب الذي لا يجري جراحة في جسد إنسان لا يستطيع تحمل الجراحة فإذا رأى الطبيب في الجراحة خطرا على حياة المريض توقف ولو بقيت العلة اكتفاء بارتكاب أخف الضررين.

وحثّ الإسلام على رد الظلم ودفعه عن المظلوم إذا رآه إنسان وإلا فإنه يأثم إذا لم يدفع عن المظلوم وهو قادر. قال رسول الله ﷺ : «لا يقفن أحدكم موقفا يُضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه» (رواه الطبراني).

وعلى المسلم أن ينتظم في صفوف الجماعة وألا ينفرد حتى لا يكون هدفا للشيطان، عن سعيد بن المسيب قال، قال رسول الله ﷺ : «الشيطان يهمّ بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم» (رواه مالك).

وكما أمر الإسلام بالانتصار للمظلوم بدفع الظلم عنه فإنه أمر أيضا بالانتصار للظالم بدفعه عن ظلمه قال رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، قال: «أنصره مظلوما، فكيف أنصره ظالما»، قال: «تحجزه عن ظلمه فذلك نصره» (رواه البخاري).

لبناء قوة المسلمين وتدريبهم على الاتحاد فيما بينهم شرع الله من العبادات ما فيه وحدتهم واجتماعهم بحيث يضاعف الأجر للصلاة في جماعة على أجر الصلاة على انفراد. وكما جعل الصلوات الخمس يوميا يجمع الناس فيها، فقد جعل الله لهم اجتماعا أسبوعيا لأهل الحي أو البلد في صلاة الجمعة، وجعل اجتماعا أكبر في صلاة العيد وجعل اجتماعا أكبر وأكبر بحيث يجمع المسلمين من أنحاء العالم وذلك في الحج إلى بيت الله الحرام.

ولقد أقام رسول الله ﷺ المجتمع الإسلامي الأول على اتحاد المسلمين في عقيدتهم حين دعاهم إلى الإله الواحد، وإلى قبلة واحدة، وأرسى أسس وحدتهم بالقرآن الذي يدعوهم إلى الاعتصام بدين الله وكتاب الله :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

ثم لما هاجر إلى المدينة كان أول عمل أقامه بناء المسجد ليوثق صلتهم بالله، وآخى بين المهاجرين والأنصار ليوحد بين المسلمين ثم أبرم وثيقة المعاهدة بين المسلمين وغيرهم وبهذا الاتحاد لصفوفهم حققوا بعد ذلك الانتصارات والفتوحات.

إن أعداء أمتنا لم يتمكنوا من غزو بلاد الإسلام إلا بعد أن مهّدوا لذلك بوضع بذور الفرقة، وإضعاف الدول الإسلامية، وتقسيمها إلى دويلات متفرقة ومتباعدة فسياسة الأعداء: «فرق تسد»، فتفرق المسلمين أخطر عليهم من عدوهم.

وقد أمر الله تعالى بالتعارف والتآلف:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(سورة الحجرات: ١٣)

وكما دعاهم القرآن إلى التآلف نهاهم وحذرهم من الخروج على إجماع الأمة.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

(سورة النساء: ١١٥)

وعلى دعاة الإسلام والمرشدين أن يوضحوا للأمة طريق الصلاح وطريق اتحادهم كما كان رسول الله ﷺ يرشد الناس بذلك.

عن أبي ثعلبة: كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال النبي ﷺ : «إن تفرقكم هذا من الشيطان» فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: «لو بسط عليهم ثوب لعمهم» (رواه أبو داود).

ولقد كان في غزوة أحد الدرس القوي، والابتلاء الشديد، بسبب ما حدث من بعضهم من تنازع وانقسام ومخالفة لأمر الله ورسوله. قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾

(سورة آل عمران: ١٥٢)

وحذّر القرآن الكريم من الفرقة التي تأتي نتيجة العلم عندما يفقد أهل العلم الإخلاص فيه لله وحده، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة الشورى: ١٤)

وقال الله سبحانه:

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة البقرة: ٢١٣)

فالقلوب الخالية من الإخلاص تجعل العلم سلاحا للدمار بدل الإصلاح والعمار وقد عاني العالم- قديما وحديثا- من العلم الذي كان أصحابه بعيدين عن الإخلاص فتفرقوا فيه، قال الله سبحانه:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(سورة الشورى: ١٣)

وهكذا عُني الإسلام بالتحذير من الفرقة، وأكد الدعوة إلى الاجتماع والألفة حتى تكون الأمة متحدة وعلى قلب رجل واحد محققة خيريتها على ظهر الأرض.

المسلمون فى موزمبيق وبداية النهاية للتغريب الثقافى

للأستاذ الدكتور/ عبد الله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية

تقع جمهورية موزمبيق (١) فى شرق القارة الأفريقية، إلى الجنوب من تنزانيا ومالاوى، وعاصمتها «مابوتو»، وتملك جمهورية موزمبيق أطول ساحل على المحيط الهندى، ويمتاز هذا الساحل بطبيعة خلابة، حيث تتوفر به الغابات والجزر ذات الطبيعة الساحرة، ويمتاز أيضا بوجود آثار عربية إسلامية وأفريقية ذات أهمية تاريخية كبيرة، مما يوفر إمكانيات سياحية كبيرة لهذه الدولة، وتمتاز موزمبيق أيضا بتنوع طبيعتها، وكثرة خيراتها من جوز الهند والشاى والقطن وقصب السكر والثروة السمكية الكبيرة فى بحارها وبحيراتها.

يتكون سكان موزمبيق من عدة قبائل من أعراق مختلفة وجملة عدد السكان نحو ٢٠ مليون نسمة، ويشكل المسلمون نحو نصف سكانها، ويتركزون فى شمال البلاد، حيث يشكلون نحو ٩٠٪ من سكانه (٢).

يعود دخول الإسلام إلى موزمبيق إلى بواكير انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وذلك بفضل العلاقات التجارية المتميزة والممتدة عبر التاريخ بين العرب والمسلمين، وبين شعوب سواحل شرق أفريقيا، ومن المعروف أن العلاقات بين العرب وساحل شرق أفريقيا وعالم المحيط الهندى علاقات موغلة فى قدمها، ترجع إلى أيام الساميين القدماء وهجراتهم إلى بلاد الساحل، حيث تركوا آثاراً باقية فى حياة السكان حتى اليوم.

كان العرب قد عرفوا أسرار المحيط الهندى قبل الإسلام بزمن طويل، وكثرت رحلاتهم إلى سواحل شرق أفريقيا، وارتادوا أسواقها، وحملوا خيراتها من العاج وزيت النخيل

(١) تؤكد بعض المراجع التاريخية أن اسم «موزمبيق» مشتق من اسم أحد ملوك المنطقة وهو «موسى بن بيك».

(٢) بعض التقديرات تجعل نسبة المسلمين ٦٠٪ من جملة عدد السكان.

وغيره من الحاصلات الاستوائية (٣) وفى العصور الإسلامية ظهرت جاليات إسلامية قوية فى كثير من المدن الساحلية، من «دهك» شمالاً إلى «سوفالا» (مدينة الذهب) فى موزمبيق جنوبا، وتعتبر «سوفالا» من أهم المدن التى نشأت على ساحل موزمبيق، فمنها كان يصدر الذهب المستخرج من روديا (موزمبيق الآن)، وعلى طول الطريق إلى روديسيا وجدت مقرات ومراكز للمسلمين، حيث شهدت الفترة الواقعة بين القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر توطد النفوذ الإسلامى وظهور مدن إسلامية انتشرت على طول الساحل الأفريقى والجزر المتاخمة كأنها العقد أو الطراز(٤).. كانت هذه المدن أسواقاً ضخمة اختلط فيها الوافدون بأهل البلاد، مما ترتب عليه اعتناق الكثيرين منهم للإسلام.



مع بداية عصر الكشوف الجغرافية، وقبل عبور «ماجلان» إلى رأس الرجاء الصالح، ظهرت سفن البرتغاليين فى المحيط الهندى سنة ١٤٨٦م، وجاء «فاسكو داجاما» إلى موزمبيق سنة ١٤٨٧م، واستغل البرتغاليون الصراع القائم بين مدينة «ماليندى» ومدينة «ممباسا»(٥) واغتالوا المدن الإسلامية، الواحدة فى إثر الأخرى، ولم تنج مدينة واحدة من

(٣) راجع وصف الأستاذ «كوبلاند» لهذا النشاط فى كتاب East Africa, P. 10، وراجع أيضا كتاب البحار الإغريقى (الطوف حول البحر الإريترى) W. H. Schoff, The Periplas Of Erythraean Sea

(٤) راجع «المقريزى» الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام. ص ٦٠

(٥) فى جمهورية «كينيا» الآن.

الحرق على أيديهم، حيث ضربوا وأحرقوا مدينة «مقديشيو» في الصومال، واستولوا على جزيرة «سوقطرة» في مدخل البحر الأحمر، كما استولوا على «زيلع» وأحرقوها عام ١٥١٧م، ودخلوا «بربرة» وأحرقوا مدينة «ممباسا» خمس مرات، واستولوا على مدينة «سوفالا» عام ١٥٠٥م وانطلقوا منها إلى جميع أنحاء موزمبيق، ووصلوا إلى مملكة «مونوموتابا» في زيمبابوي، حيث توجد مناجم الذهب وبذلك أصبحت «موزمبيق» أقدم المستعمرات الأوروبية في إفريقيا، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على الساحل كله سنة ١٥١٠م، وجعلوا من «موزمبيق» مركزاً لحكمهم الاستعماري.

ارتكب المستعمرون البرتغاليون مذابح بشعة في موزمبيق منذ وصولهم إليها، وأرهبوا المسلمين، وقاموا بمذابح عديدة منها مذبحة «شينا فان» الشهيرة التي قتلوا فيها آلاف العمال في مزارع قصب السكر، ومذبحة «ميودا» التي قتل فيها العديد من الرجال والنساء والأطفال، ومذبحة ويرييامو وغيرها.

رزح شعب موزمبيق تحت نير هذا الاستعمار البغيض نحو ٨٤ عاما، لم يستسلم المسلمون فيها تماما، بل قاوموا بقدر الإمكان، وقاموا بعبور نهر «زامبيزي» وفتحوا جبهة للقتال ولكن البرتغاليين استخدموا وسائل قمع وحشية ضد السكان في كافة القرى، وقاموا بمذابح يندى لها جبين الإنسانية.

قامت عدة ثورات واجه فيها المسلمون المستعمرين وهزموهم في مواجهة عسكرية شهيرة في معركة Namaroi، وكان المستعمرون يعيثون في البلاد ذبحاً وتخريباً طوال حكمهم البغيض.

أدت السيطرة الاستعمارية للبلاد إلى تهميش دور المسلمين في الحياة السياسية، كما أدت إلى ضعف قدراتهم الاقتصادية حيث تم تشتيت العديد من القبائل من مواطنها، مما أبعدهم عن مصادر أرزاقهم، وعلى الجانب الثقافي ومنذ البداية بدأ المستعمرون عمليات التنصير والتغريب الثقافي، وفرضوا على المسلمين تسمية أبنائهم بأسماء غير إسلامية، بل ومنعوا حتى أداء الصلاة (٦) ولم يراعوا الحقوق الثقافية للمسلمين، حيث حرصوا منذ البداية على الحط من قدر الثقافة الإسلامية والعمل على تشويهها، وحرمان المسلمين من فرص التعليم، وكانوا يشترطون على أبناء المسلمين أن يتنصروا قبل التحاقهم بالمدارس أو الكليات، والأدهى من ذلك أنهم قاموا بتحويل عدد من المساجد إلى كنائس، واستبدال الأسماء العربية بأخرى أجنبية، وتعمدوا عدم تقديم أي نوع من الخدمات التعليمية والصحية للمسلمين.

حاولت البعثات التنصيرية ومن ورائها السلطات الاستعمارية العمل على وقف انتشار الإسلام، بل وإخفاء حقيقة انتشاره، واتهام المسلمين وحدهم بممارسة تجارة الرقيق.

(٦) يضرب «الشيخ عبدالكريم نورالدين ساد» نائب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى مثلا على ذلك بفتاة مسلمة في منطقة «بين امبان» إحدى المحافظات الشمالية، حيث رفضت إدارة المدرسة أن تقيم الصلاة بمقر إقامتها، بل وفرضوا عليها التوجه إلى الكنيسة أيام الآحاد، ويذكر الشيخ عبدالكريم أمثلة أخرى منها رئيس البرلمان الذي تنصر وأبوه مسلم ووزير الدفاع ورئيس الجامعة اللذان فرض عليهما النصرانية وأبواهما مسلمان.

وترسيخ هذه الفكرة في أذهان السكان.

أثمرت تلك الادعاءات، ونجحت إلى حد ما في تنفير مجموعات من السكان الأصليين من المسلمين، وتنمية الشعور بالكراهية نحوهم.

استقلت موزمبيق في ٢٥ يونية عام ١٩٧٥، وكان أول رئيس للجمهورية هو «سامورا ميشيل» وقد دارت في عهده حرب أهلية طاحنة استمرت ١٥ عاماً ثم لجأ الموزمبيقيون إلى السلام وهدأت البلاد منذ نحو ٢٠ عاماً فحسب، ومنذ ذلك بدأ المسلمون عهداً جديدا من الاستقرار والتطلع إلى المستقبل، والعمل على وحدتهم في ظل الإسلام الذي يجمع بينهم رغم اختلافهم عرقيا مابين أفارقة وآسيويين، ورغم اختلاف ثقافاتهم الأصلية.

ومن أبرز مجتمعاتهم القبلية قبيلة «الماكوا» Makua التي تعيش بين لوجاندا Luganda والمحيط الهندي، وهي من أكبر القبائل في البلاد وأكثرها حفاظا على تقاليد المسلمين وعاداتهم، وكذلك «الماتومبي» Matumbi و«الموبرا» Mwera اللتان تعيشان في مقاطعتي «ليندي» وناشينجوا Nachingwa وتوجد مجموعات قبلية من السكان الأصليين الذين يقيمون في الأرياف والقرى وعلى أطراف المدن، وأكثرهم يمتهنون الزراعة والرعي والصيد البحري وبعض الحرف التقليدية.

كان المسلمون في أمس الحاجة إلى إعادة تثقيفهم وتعليمهم وإبراز دور الإسلام في حياتهم بإنشاء المدارس التي تمكنهم من تعلم اللغة العربية، حيث إن هناك تعددا لغويا واضحا يفرق بين قبائلهم، ومن الممكن أن تجمعهم اللغة العربية فيما لو بنيت لهم المدارس، وكذلك المساجد التي افتقدوها طويلا، كما افتقدوا المراكز الإسلامية والمطبوعات العربية والبرامج التثقيفية المناسبة.

لم يكن للمسلمين معاهد تقوم بتدريس العلوم الإسلامية بينما وجدت مراكز وجامعات كاثوليكية تقوم بنشر المسيحية خاصة جامعة IUGM في إقليم «نمبولا» عاصمة شمال البلاد ذي الأغلبية المسلمة.

وفي الأعوام القليلة الماضية ظهرت صحوة إسلامية في البلاد، دعت إلى توحيد المسلمين، وعملت على تمسكهم بدينهم وبمبادئه السامية، وشهدت الفترة الأخيرة بناء عدة مساجد، منها «مسجد حمزة» بمنطقة «ماتولا» ويشرف عليه الآن الشيخ «أمين الدين»، كما يشرف على المدرسة التي ألحقت به في مدينة مابوتو العاصمة. ثم بنيت عدة مدارس أخرى في الجزء المسلم من شمال البلاد ويبلغ عدد الطلاب في بعض هذه المدارس نحو ٢٥٠ طالباً وطالبة.

يقول الشيخ «أمين الدين»: إن بعض هذه المدارس تقوم بالتدريس حتى المرحلة الإعدادية باللغة العربية وكذلك تقوم بتحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين، ومنذ نحو ١٥ عاما تقريبا بدأت الحكومة في بناء بعض المدارس والاهتمام بالتعليم والتدريب على بعض المهارات، بالإضافة إلى بناء بعض المستشفيات في الجزء الشمالي المسلم من البلاد، ثم بدأت بعض الهيئات الإسلامية بناء وتأسيس بعض المدارس الخاصة، حيث قام المجلس الإسلامي بإعداد عشر مدارس موزعة على عدة مناطق.

جمادى الأولى ١٤٣٣هـ
أبريل ٢٠١٢م

أسس المجلس الإسلامي الإسلامي سنة ١٩٨٣م، وهو من أقدم منظمات العمل الإسلامي فى موزمبيق، وتعترف به الحكومة، وهو المؤسسة الوحيدة المعترف بها رسميا، وهو يتكون من المجلس العام الذى يتشكل من مندوبين عن تجمعات المسلمين بالمحافظات، ويجتمعون كل عامين لبحث مشكلات وقضايا المسلمين، ووضع خطط لبرامج العمل الإسلامى، واختيار رئيس المجلس ونوابه، وتتشكل إدارة المجلس من رئيس وأربعة نواب، ثم هناك مجلس للشورى يتولى متابعة قرارات الإدارة، وهو يتكون من الدعاة والمشايخ من مختلف المناطق.

يركز المجلس على البرامج التعليمية، ويحاول القضاء على سياسات التغريب الثقافى، ونشر الوعى بالثقافة الإسلامية فى كل مكان، ويقوم المجلس أيضا بتأسيس دور للأيتام، ويساهم فى حل مشكلات فقراء المسلمين.

لقد بدأت بالفعل نهضة إسلامية شاملة فى هذه البلاد وبدأت حركة واسعة للمطالبة بالحقوق الثقافية والدينية والاقتصادية، ومحاولة رد أملاك المسلمين التى اغتصبت فى الماضى.

ومؤخرا ومنذ بضع سنوات تم إنشاء مركزين إسلاميين ومعهد إسلامى فى الشمال فى «نتمبولا» وفى «بمبا» وقد عمدت هذه المراكز والمعاهد إلى الاهتمام بالشباب، وعقدت دورات لرفع كفاءة الأئمة، وسيرت قوافل ثقافية للتوعية فى كل البلاد لنشر معانى الأخوة والتعاون وتنمية المفاهيم الإنسانية التى جاء بها الإسلام.

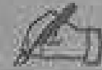
كذلك تم إنشاء محطة إذاعة للمسلمين، وتم أيضا ترجمة بعض المطبوعات العربية والإسلامية، ويعمل حزب «بيمو» Bimo الإسلامى على نشر الوعى الثقافى، ويقوم زعيمه الحالى «يعقوب سيندى» بجهود كبيرة فى هذا المجال، وانشئت بمساعدته جمعية الشباب الموزمبيقى المسلم، وجمعيات نسائية إسلامية، هذا وقد انضمت موزمبيق كعضو فى المؤتمر الإسلامى عام ١٩٩٤م.

يدل كل ذلك على أن المسلمين فى موزمبيق هم الآن على طريق النهضة الإسلامية الشاملة، ويعملون بكل إخلاص على القضاء على نتائج السياسات الاستعمارية التى عمدت إلى تغريب المسلمين فى هذه البلاد وإبعادهم عن مصادر ثقافتهم الإسلامية.

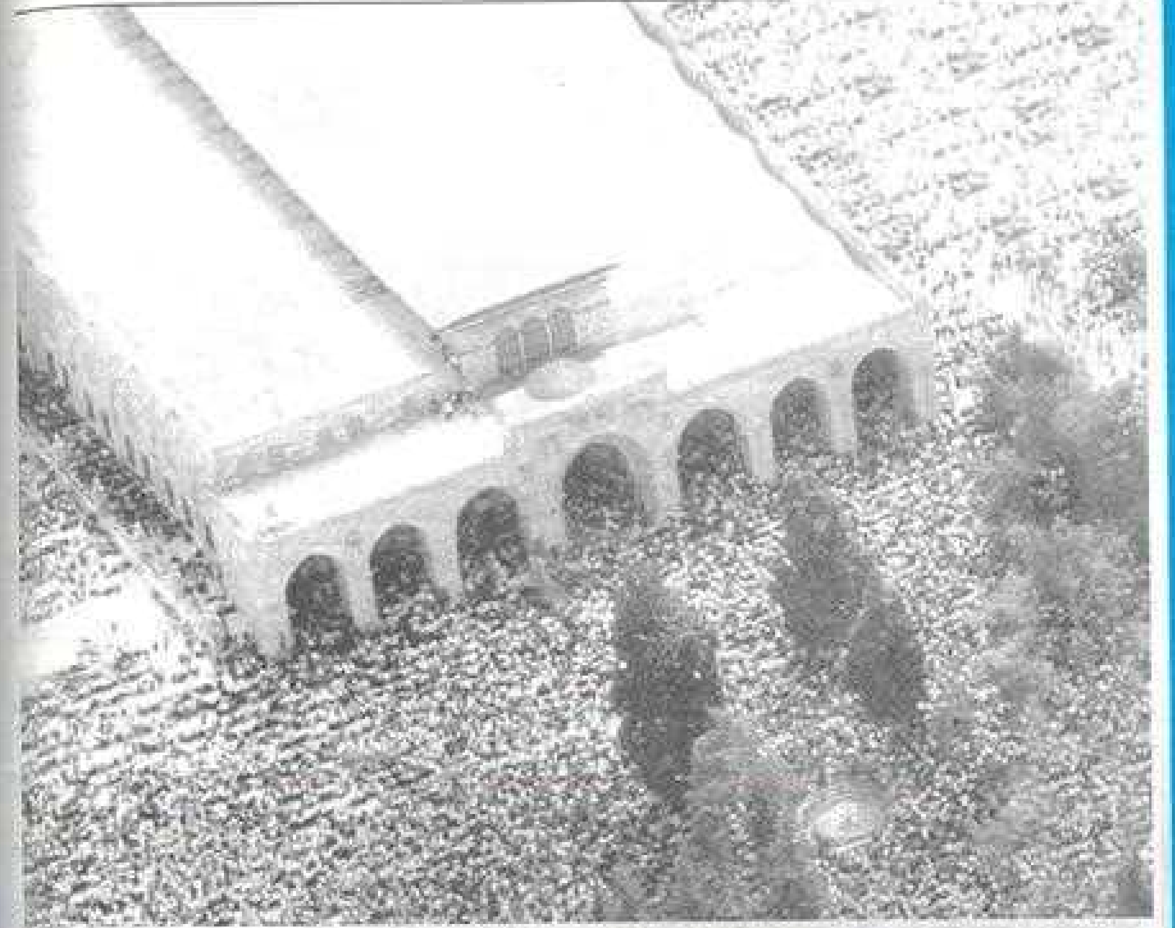
نسأل الله للمسلمين فى هذه البلاد التوفيق والسداد.. والله المستعان.

قصيدة القدس

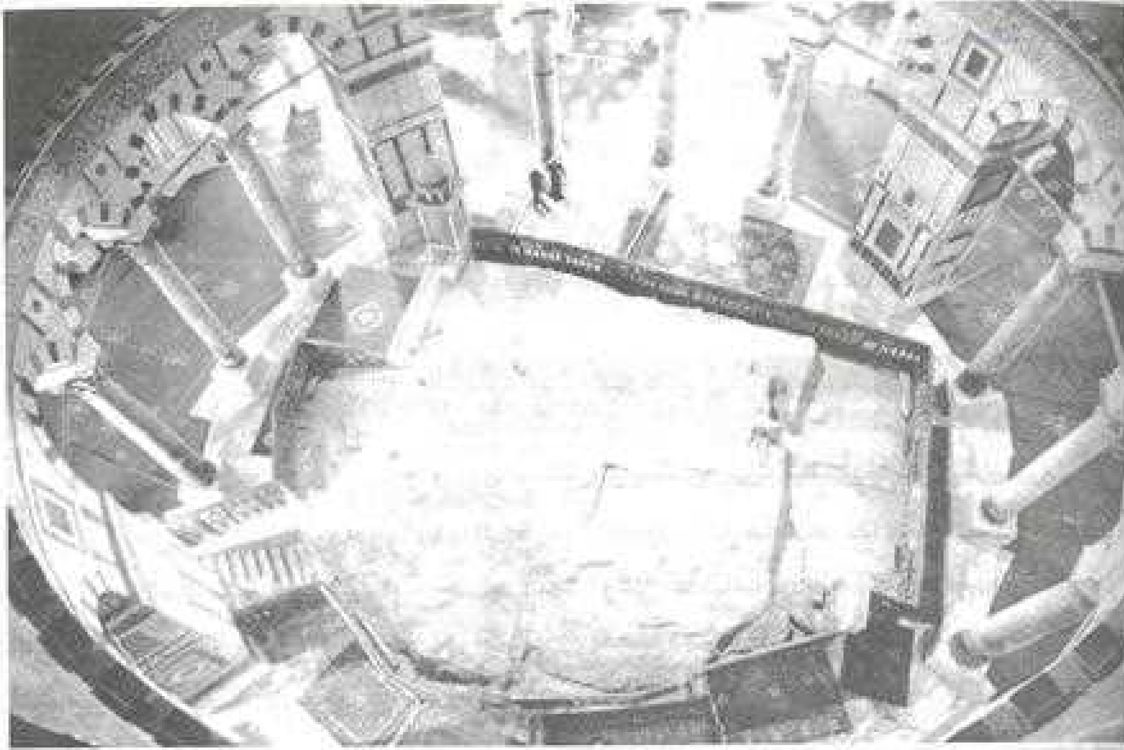
شعر د/ محمد إبراهيم العشماوى
مدرس الحديث الشريف بكلية أصول الدين بطنطا



سمعت صوتًا ينادى وهو مختنق … كأنه صرخة المكلوم تنطلق
فقلت: بالله ذاك الصوت أعرفه … صوت الحبيبة إلا أنه قلق
باتت تنادى وستر الليل منسدل … والعين دامعة والقلب يحترق
من ذا يجيبك يا أرضًا مقدسة … قد لفَّها الطهر واستشرى بها العبق؟
من ذا يجيبك يا جرحًا يؤرِّقنا … يُدمى الفؤاد ويُعيينا به الأرق؟
من ذا يجيبك والأهوال دامية … والقوم حولك موتى ما بهم رمق؟
قالت: كفاك ففتيان الحمى عشقوا … فىَّ الشهادة يالله ما عشقوا
فلو رأيتهمو والشوق يدفعُهمْ … نحو الحياة التى من أجلها خُلقوا
كأنها المرأة الحسناء تعشقهم … وهم إلى الوصل منها عندهم شبق
على وجوههمُ الآمال باسمة … وفى عيونهم الأحلام تأتلق
إذا دجا الليل فالرهبان ساجدة … أو أبلج الصبح فالفرسان تنطلق
خُضر أناملهم حمر مقاتلهم … بيض محاملهم فى الله قد صدقوا
يا ويح شعبك يا مسكين من دمهم … عند اللقاء إذا ما احمرَّت الحدقُ
زُفُّوا إلى الله فى عرس تشيِّعه … ملائك الخلد جذلى حولهم حلقُ
عادوا شظايا وأشلاء ممزقة … على الأعادى فمات القوم وانصعقوا
كأنهم حمم البركان ثائرة … أو شعلة من لظى النيران تنبثق
أعطوا مواثيقهم لله خالقهم … أن ينصروه وما فى غيره وثقوا
ياللشهيد غدا للأم معتنقا … قبل الوداع وقلب الأم ينفلق

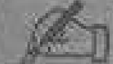


والحور فى لهفة يرقبن مقدمه ... هذى تعانق والأخرى ستعتنق
ولو رأيت فتاة القدس صامدة ... إلى الشهادة تسعى وهى تستبق
بيضاء عاطرة الأردان ناعمة ... فى جيدها العقد فى آذانها الحلق
كأنها ظبية فى القاع ساكنة ... لكنها بحزام الموت تنتطق
أيطمع الوغد أن يحظى بمأمنه ... مهما استبد به فى غيّه النزق!!
وكيف يأمن من فى الغدر قد نشأوا ... وكيف يسلم من للظلم قد حذقوا؟!
من عاش فى قلق أو ماتت من فَرَق ... أين الأمان وهذا الأمن مخترق؟!
كتائب العز أعلى الله رايتكمْ ... يا ألسن الحق لما أسكتوا نطقوا
يا هامة المجد ما للمجد غيركمو ... لا يبلغ المجد إلا من له عنق!!
أنت الكرامة إذ هانت كرامتنا ... أنت النجاه إذا ما عمّنا الغرق
أنت الضياء إذا اسودت حوالكنا ... أنت الطريق إذا ما انسدت الطرق



أرض الكرامة باعتها سماسرة ... للاحتلال فمأجور ومرتزق
ماذا أقول ولا سمع ولا بصر ... ولا كلام ولا حبر ولا ورق؟!
وهل سينفع بين العرْب مؤتمر ... حتى إذا اجتمعوا فيه أو افترقوا؟!
هذا بكرسيّه قد باع أمته ... وكاد يقتله الإملاق والملق
وذاك يسرق من تاريخ أمته ... كى ما يُكافِىء بالتاريخ من سرقوا
يا أمة القدس ما للقدس غيركمو ... متى ستجتمع الآحاد والفرق؟!
ويح العروبة والإسلام فى فرق ... ومن سواهم عليهم راح يتفق
القدس حاضرة الإسلام قِبْلَتُهْ ... مسرى الحبيب ومنها أشرق الأفق
شذا النبوة فى أرجائها عبق ... ماء الحياة بها يجرى ويندفق
اليوم تصرخ: هل حر يخلّصنى ... فلست أبصر إلا أعبداً أبقُوا؟!
لكنْ لى أملاً فى الله يغمرنى ... وكل ذى أمل بالله معتلق
مهما دجا الليل وانداحت جوانبُه ... لابد يذهب والإصباح ينفلق

ميلاد محمد ﷺ
خير إبداع وعطاء للمفكرين والكتاب «٢»



أ. عاطف مصطفى

يوم ميلاد محمد ﷺ نور يتلألأ في ربوع أمة الإسلام من مشرقها إلى مغربها، ومناسبة طيبة نتعرف فيها على صفات الحبيب المصطفى الذي غير وجه العالم، وجاء رحمة للعالمين، كما يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

في هذه الحلقة الثانية نواصل بعض ما تناوله كُتّابُ العدد الخاص من «الهلال» الذي صدر في أغسطس من عام ١٩٧٨م عن «محمد» ﷺ، حيث شارك في الكتابة فيه اثنان وعشرون من كبار الكتاب والمفكرين من بينهم د. زكي نجيب محمود، وخالد محمد خالد، وفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، والإمام الأكبر ـ في ذلك الوقت ـ الدكتور عبدالحليم محمود، وتوفيق الحكيم، وأنيس منصور، والدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ»، ويوسف السباعي وكان من بين كتابات هؤلاء «محمد الإنسان الكامل» من وحي السيرة المحمدية، آية الهجرة، السيرة النبوية في مواجهة تحديات العصر، خصوم رسالة محمد، محمد وخديجة، سيرة محمد عند كتاب الغرب، كل هؤلاء الكتاب تباروا في الحديث عن محمد الداعية والقائد والمعلم، وهي كتابات لو قرأناها جيدا، ووعينا كل مضامينها، وسرنا على هديه وعلى خطاه لتغيرت حياة أمة الإسلام إلى الأفضل، ولعادت لنا الريادة في كل المجالات وفي مقدمتها ريادة علمائنا المسلمين، الذين مازالت ابتكاراتهم ونظرياتهم هي خير عطاء للغرب، ينفذه بدقة بالغة، ويحقق السبق في كل الميادين.

عظة وعبرة

يقول الدكتور حسين مؤنس وهو يتناول محمدا ﷺ برؤية جديدة: إن حياة محمد ﷺ إلى جانب جمالها وجلالها، كانت في نفس الوقت رمزا وعظة وعبرة تنفع المسلمين طوال تاريخهم لو أنهم تدبروها.

لقد كان الله سبحانه وتعالى - قادرا على أن ينصر الدعوة نصرا مؤزرا في الأسابيع الأولى لنزول الوحي، فيؤمن أهل مكة جميعا، ثم يتفق العرب جميعا على الدخول في الإسلام.

ولكن الله - تعالى - عهد بالرسالة إلى الرسول وتركه يخوض معركته مع البشر

لكي يتعلم الناس كيف يخوضون معاركهم، وكيف يثبتون على مبادئهم لا يتحولون عنها قيد شعرة، وكيف يعاملون الخصوم بالصبر والأناة والحلم وحسن الخلق والحجة البالغة، وكيف يواجهون العقبات بقوة العزيمة وعمق الإيمان وثبات القلوب.

وفي علم الله - عز وجل - أن أمة الإسلام ستلقى في تاريخها بعد محمد عقبات مشابهة لما واجه الرسول، وستجد نفسها في نفس المواقف، وأن السيرة النبوية ينبغي أن تكون لذلك خير معين لهم على النصر والخروج من الأزمات.

وبنظرة المؤرخ الفاحصة يقول د. حسين مؤنس مواصلا: «ولو أنك نظرت إلى العرب والمسلمين عن طريق يفضي بهم إلى السلامة من هذه الظروف القاسية، فإنك ستجد هذا الطريق قطعا في سيرة الرسول ﷺ» ومن رأيي أن نقرأ السيرة اليوم في مصادرها الأولى، أي دون أن يجري فيها ابن هشام قلمه فيترك ما لا يرضيه، ويثبت ما شاء مما انتهى إليه حديثه من رواة متأخرين، لأن ابن هشام أدخل تغييرا على السيرة نعتبره كبيرا، بينما نحن نريدها كما رواها أوائل الرواة: عروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وموسى بن عقبة، ثم ابن إسحاق والبلاذري والواقدي وابن سعد في طبقاته.

لنقرأ السيرة في هذه الأصول، فستتجلى لنا في ظروفنا هذه عن نور جديد، وسنعرف محمدا صلوات الله وسلامه عليه في ضوء جديد، وسنرى إدراكا جديدا يعيننا على المسير في طريقنا اليوم... ولكن هذا يقتضي منا أن نفهم السيرة فهما جديدا.

دفاع عن محمد

هذا هو عنوان مقال الأديب توفيق الحكيم وهو يتناول ما كتب فولتير عن نبينا الكريم. يقول الحكيم: قرأت لسنوات خلت قصة فولتير التمثيلية «محمد» فخجلت أن يكون كاتبا معدودا من أصحاب الفكر الحر، فقد سب فيها النبي سبا قبيحا، وعجبت له، وما أدركت له علة، لكن عجبي لم يطل، فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر.. ويقول الحكيم: ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير وأخطائه في حق نبينا الكريم والذي وصفه بأنه «مؤسس ديانة كاذبة بربرية».

ألفيته ردا رقيقا كيّسا لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب، فعظم عجبي لأمر فولتير وسألت نفسي طويلا: أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول؟.. دين تتبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال.. هو في نظره حقا دين كاذب، ومبادئ إنسانية كالتي جاء بها الإسلام، هي عنده مبادئ بربرية، أم أنه التملق والزلفى والنفاق ـ للبابا ـ وأن الزمن والتاريخ يضعان أحيانا أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر!

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي: الإيمان بنزاهة الفكر

الحر، ولقد كنت أحيانا ألتمس الأعذار لفولتير، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق، بل عن عقيدة وحسن طوية استنادا على علم خاطئ بأخبار النبي، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا، لا يدع مجالا للشك في دخيلة أمره.

هي الأطماع التي كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات، ولقد يقدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة أحيانا.. ومنذ ذلك التاريخ وفولتير عندي متهم، ولن أبرئه أبدا، ولكن أعده أبدا من بين هؤلاء العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر، وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلما وزورا.

وأشار توفيق الحكيم إلى كُتاب بعينهم دافعوا عن الإسلام وعن نبي الإسلام في مقدمتهم الأستاذ الإمام محمد عبده الذي رد على جابرييل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسي، وكذلك الدكتور طه حسين في كتابه «على هامش السيرة»، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد».

«إن في كتاب هيكل صفحات تصلح ردا بليغا على فولتير.. إن محمدا هو أعظم من فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا، وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي أنه لا يوجد في الكون معجزات، وأن كل شيء يسير طبقا لنظام دقيق».

إن محمدا كما يبدو في وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيرا، وفكر مليا في نظامها العجيب، فكشف عن بصيرته وبصره، فامتلأ قلبه بالله، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه دينا كاملا، صادقا في نظر القلب والعقل معا، ولئن كان على الأرض نبي أحب العلم، ولم يخش دينه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو «محمد» الذي قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة»(مصنف ابن أبي شيبة).. «اطلبوا العلم ولو في الصين» (روضة المحدثين، الباب ٤٩١٢) وكثير من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه، ذلك أن مصدر إقناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد: الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن يد الخلاق العظيم.

الدفاع عن الإسلام

يختتم توفيق الحكيم مقاله «دفاع عن محمد» بقوله: «إني كلما تأملت شخصية محمد مجردة، ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق، بل إن الدين والعلم شيء واحد، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه، ودلالة ذلك كله على وحدة الخالق، ولم يظهر نبي حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك، إنما الفارق بين العلم والدين في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله، ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة، لا يختلط بعضها ببعض، إنما المصدر واحد والغاية واحدة، فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة، كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية: الله.

إن الإسلام وهو أحدث الأديان، وهو الذي لم يخاصم العلم، وهو الذي اتسع صدره لكل شيء، يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر، الروحية والاجتماعية والاقتصادية، وهو رأي صادق إذ قيض الله للإسلام رجالا أصحاب نظرة نافذة، وذهن مستنير، واطلاع واسع، يبرزون فضائله بأساليب جديدة، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة.

كما يقول الحكيم موجها دعابة جميلة إلى الدكتور محمد حسين هيكل صاحب الكتاب القيم «حياة محمد»: لقد صنع هيكل كثيرا في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في «حياة محمد» ولئن كان قد أثم في دنياه، فلقد اشترى بكتابه هذا آثامه! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له في دخول الجنة! ولسوف يدخلها بإذن الله متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضا من كتاب أدبي جميل «على هامش السيرة» كان له ولا ريب أبلغ الأثر في حمل الناس على استمراء أخبار النبي.

ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الإسلام خير تحية فإني قلتها وأقولها دائما: ليس الأمر أمر عقيدة وديانة إنما هو إلى جانب ذلك أمر حياة تلك الكتلة التي يسميها الغربيون: الشرق، وما الدفاع عن الإسلام إلا الدفاع عن الشرق.

سيرة الرسول عند كتاب الغرب

لو توقفنا عند ما كتبه فولتير عن نبي الإسلام لأحسسنا بغصة من هذا الذي تناوله عن نبينا الكريم، لكننا عند الكاتب محمد



الحديدي - وهو ضمن كتاب العدد الخاص من الهلال «محمد رؤية جديدة» والذي نستعرض بعض ما جاء فيه - وجدناه يشير إلى نموذج محترم من كُتاب الغرب أنصفوا نبينا ﷺ.

فنجده يقول: التقول والافتراء من طبائع البشر، وعلينا أن نعتاد ألا يكون إيماننا سبيلا إلى إغلاق عقولنا دون ما يقول به أي فرد أو أية جماعة، لأن الإيمان لا يتفق مع التزمت والتشنج، إنه نعمة يهبها الله لمن يشاء ويحرمها ممن يشاء.. ومن الناس من وهبها، ومنهم من لم يوهبها.

وقد كتب الباحث الإنجليزي المتخصص مونتجمري وات كتابين هامين في تاريخ الدعوة الإسلامية، أحدهما «محمد في مكة» والثاني «محمد في المدينة».. وواضح من عنوانيهما موضوع كل منهما، ثم ضمهما معا في كتاب موجز هو «محمد نبيا ورجل دولة».

ومما يشوق القارئ المسلم حقا أن يقرأ تاريخا لحياة الرسول ﷺ ودعوته، يكتبه رجل لا ينعم بالإيمان بنبوته، فمثل هذا التاريخ يرينا جوانب من حياته من زاوية جديدة لا نحصل عليها من دراستنا لهذا التاريخ والتي كثيرا ما يجعلها مؤلفوها تتسم بالطابع الديني أو العاطفي لدرجة تخفي أو تقلل من الإحساس بالجانب التاريخي المحض.

التاريخى المحض.

١ - ومن بين ما قاله مونتجمرى وات: إن محمدا كان يؤمن برسالته، وكان يحس أنه يتلقى وحيا هو كلمات الله، وهو لم يكن مبتدعا لشىء من هذا، ولم يكن مجرد زعيم يتخذ من هذا الإدعاء وسيلة لجمع الناس حوله كما قال الكثيرون من كتاب الغرب.

٢ - إن الرسول ﷺ لم يكن مصابا بمرض الصرع كما يزعم الغربيون ومنهم الروائى تيودورد ستويفسكى، ويقول وات: إن الذى يعانى مرضا كهذا لا يمكنه أن يقود أمة ويضيف أيضا: أن محمدا ﷺ كان حاضر الذهن ثاقب الفكر وهو ما لا يتصف به من يمرض بالصرع!

٣ - إن زيجات النبى كلها أو أغلبها إلى درجة كبرى سياسية وهو هنا يدفع عنه كل ما يصفه به زملاؤه الغربيون من الشهوانية، ويبين إلى أى مدى هى ظالمة هذه التهمة وأغلب زوجاته كن أرامل شهداء قتلوا فى الغزوات، أو كبار فى السن لا يغرين أحدا، ولكن الكراهية التى نمت فى النفوس أيام الفتوحات الإسلامية وانتصارات المسلمين وتقلص إمبراطورية بيزنطة، دعت كتاب الغرب للهجوم على نبى الإسلام وهو براء من كل ما يقولون!

ملامح محمد (ﷺ) وصفاته

كما جاء فى حديث أم معبد كلمات قليلة ولكنها ذات معنى كبير نقرؤها فى مقال جاء بهذا العنوان للدكتور محمد عبدالعزيز خاطر يحكى قصة رسول الله ﷺ مع عاتكة «أم معبد» من بين ما جاء فى السيرة الحلبية فى معرض الحديث عن الهجرة «أن الرسول ﷺ لما خرج من الغار بعد أن مكث فيه ثلاثة أيام بلياليها هو وصاحبه أبوبكر، وانضم إليهما الدليل «أريقط بن عبدالله الليثى» و«عامر بن فهيرة» مولى أبى بكر الذى كان يتعهدهما فى الغار، وساروا متجهين إلى وادى قديد، مارين بطريق السواحل.

وتقول السيرة: اجتازوا فى طريقهم «بأم معبد» واسمها عاتكة وكان منزلها بطرف الوادى الذى يلى المدينة، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء بيتها وتطعم وتسقى الناس، وهى لا تعرفهم.

فسألوها لحما وتمرا أو لبنا يشترونه.

فقالت: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزناكم - أى الشراء.

وفى رواية أخرى ما أعوزناكم القرى

فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم معبد هل عندك من لبن؟»

قالت: لا والله!!

فرأى رسول الله ﷺ شاة قد خلفها الجهد عن الغنم، أى لم تطق اللحاق بها لما بها من الضعف والهزال.

قال: هل بها من لبن؟

قالت: هى أجهد من ذلك.

قال: أتأذنين فى حلبها؟

قالت: والله ما ضربها فحل قط، فشأنك - أى افعل - فإن رأيت بها حلبا فاحلبها.

فدعا بها ثم مسح ظهرها بيده الشريفة، وضرعها، وسمى الله - تعالى - وقال:

اللهم بارك لنا فى شاتنا، فدرت، ثم دعا بإناء فحلب فيه فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه، ثم شرب رسول الله ﷺ فكان آخرهم شربا، ثم حلب فيه مرة أخرى وتركه عندها وارتحل.

صفاته ﷺ

قال يونس عن ابن اسحق: إنه دعا ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله وحلب حتى أرغى وقال: اشربى يا أم معبد.

فقالت: اشرب اشرب فأنت أحق به.

فرده عليها فشربت، ثم دعا بحائل أخرى - وهى الواحدة من الغنم إذا قل لبنها ثم يبس - ففعل بها مثل ما فعل ثم شربه.

ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك وسقى الدليل، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك وسقى عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الذى كان يرافقهم.

ولما جاء زوجها «أبومعبد عند المساء يسوق أعنزا عجافا ورأى اللبن الذى حلبه رسول الله ﷺ عجب وقال: يا أم معبد ما هذا اللبن ولا حلوب فى البيت؟

قالت: مر بنا رجل مبارك!

قال: صفيه يا أم معبد.. فقالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة [1]، متبلج الوجه[2] فى أشفاره وطف [3] وفى عينيه دعج[4] وفى صوته صحل[5] لا تشنؤه من طول[6] ولا تقتحمه من قصر[7] لم تعبه ثجله[8] ولم تزريه صعلة[9] كأن عنقه ابريق فضة، إذا نطق فعليه البهاء[10] وإذا صمت فعليه الوقار، له كلام كخرزات النظم، أزين أصحابه منظرا، وأحسنهم وجها، أصحابه يحفون به، إذا أمر ابتدروا أمره وإذا نهى انتهوا عند نهيه.

فلما سمع أبومعبد هذا الوصف قال: هذه والله صفة صاحب قريش ولو رأيته لاتبعته ولأجتهدن أن أفعل.

وفى كلام ابن الجوزى أن «أم معبد» هاجرت وأسلمت هى وزوجها وأخوها حبيش بن الأصفر الذى استشهد يوم الفتح.

››››

إن المسلمين يا رسول الله فى ذكراك العطرة أشد ما يكونون فى حاجة للتأسى بخلقك الحميد، وبعدلك فى وقوف القوى إلى جانب الضعيف يأخذ بيده ويساعده، ويرد المظالم إلى أهلها وبالوقوف صفا واحدا فى مواجهة مشكلات الجهل والفقر والبطالة، وبالعمل الذى يتيح للأوطان نهضة تقيلنا من تلك العثرات التى تحيط بنا من كل جانب.

ويوم يتحقق لنا ذلك تعود إلى المسلمين هيبتهم ومنعتهم من جديد، وترفرف رايات العزة عالية خفاقة.

(١) بادى النور ينبعث من وجهه
(٢) أى يشرق من وجهه النور
(٣) فى أهدابه طول
(٤) شدة بياض البياض، وشدة سواد السواد
(٥) بحة
(٦) لا تبغضه لفرط طوله
(٧) لا تحتقره لقصره
(٨) عظم البطن وقصره
(٩) صغر الرأس
(١٠) أى لازمه الحسن والظرف

التاريخ أكبر ملهم وأعظم معلم

للشيخ/ معوض عوض إبراهيم

صح أن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولا شئ معه وكان عرشه على الماء[١] وخلق الله القلم وقال له: اكتب فقال ما أكتب يارب؟ قال اكتب ما يكون».

ولقد كتب القلم - بإذن الله - ما يكون إلى يوم القيامة وصارت للقلم قيمته التى كرمه الله بها وجعله قسماً من أقسامه تبارك وتعالى حيث قال:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١ - ٥)

وقال تعالى: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

(القلم: ١)

ولقد كانت مشيئة الله - عز وجل - فخلق الأرض ذات الفجاج، والسماء ذات الأبراج، وبث فى كل هذه الأرضين وتلك السماوات ما يناسبها، ثم اقتضت مشيئة الله أن يخلق آدم أبا البشر من قبضة من تراب الأرض، ثم خلق منه أم البشرية حواء، وتوالت أنعم الله بهما فيما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

(النساء: ١)

وكانت الملائكة، وكان الجن، وكان الإنس الذين خلق الله - عز وجل - من أجلهم كل شئ:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩)

وراح بنوا الإنسان إلى جوانب الأرض يؤمن منهم مؤمن ويكفر من يكفر، ويحسن من يحسن، ويغدر من يغدر، وكانت كل تلك عناصر التاريخ: تاريخ الأحداث، وتاريخ الناس، وتاريخ المواقع، وتاريخ الأزمات وفى كل ذلك تبدو حكمة الله ورحمته فى أن نأخذ من

(١) صحيح البخاري - بدء الخلق.

التاريخ أعظم معلم وأكبر ملهم، والله تعالى يقول:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

وأمثال هذه الآية كثير فى كتاب الله تعالى، ولقد نسأل ما هو التاريخ؟

«يعنى التاريخ بدراسة الزمن فيما يتعلق بالإنسان أما بالنسبة لعلم تحديد الأحداث عبر الزمن فهذا علم التاريخ، والتاريخ هو: دراسة الماضى بالتركيز على الأنشطة الإنسانية وبالمضى حتى الوقت الحاضر، وكل ما يمكن تذكره من الماضى أو تم الحفاظ عليه بصورة ما يعد سجلا تاريخيا... ويركز البعض على طرق بعينها مثل علم التاريخ والدراسات الديموغرافية (السكانية) ودراسة كتابة التاريخ ودراسة الإنسان ودراسة الكتابات القديمة ودراسات التاريخ الاقتصادى أو دراسة تاريخ مناطق بعينها»[٢] وعلى الطريقة المعروفة للبيان نذكر أن:

«التاريخ اصطلاحا: جملة الأحوال والأحداث التى يمر بها كائن ما على الفرد أو المجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، يقول محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى[٣].

أما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته، ويذهب سيد قطب - رحمه الله - إلى أن التاريخ فى المكان والزمان من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلم والصنائع، وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعة الأحوال»[٤].

فبذلك نستطيع أن نقول مع الشاعر:

تبنى كما كانت أوائلنا

تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وأين الشعر والشعراء من قول الله عز وجل:

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران: ١٣٨)

ولقد مرت كلمة التاريخ بتطورات عديدة فى الثقافة العربية فقد بدأت بمعنى التقويم والتوقيت فى صدر الإسلام، واحتفظت بهذا المعنى لفترة، ثم صارت بمعنى آخر: وهو تسجيل الأحداث على أساس الزمن لتحل كلمة التاريخ تدريجيا محل ما كان يعرف باسم الخبر، وصارت تطلق على عملية

(٢) نقلاً من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، قسم التاريخ (بتصرف).

(٣) الكافيجى: هو محمد بن سليمان بن سعد الرومى الكافيجى (ت٨٧٩) هـ، له معرفة باللغة والتاريخ والتفسير وعلوم أخرى

(٤) نقلاً من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (بتصرف).

التدوين التاريخى، وعلى حفظ الأخبار، بشكل متسلسل، متصل الزمن والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور فى الخبر والعملية الإخبارية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى، وفى تعريف السخاوى [٥] للتاريخ مسحة ثقافية واجتماعية واضحة فهو يقول :-

«هو التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج، وحفظ وضبط وتوثيق و تجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم» [٦].

والتاريخ بعامة يؤخذ أصدق ما يؤخذ من رسالات الله - تعالى - لأنبيائه ورسله، ومما بقى فى أيدى الناس مما عملت فيه أيديهم وأهواءهم، حتى جاء القرآن الكريم بالصواب، الذى لا صواب وراءه وبالحق الذى قامت به السماوات والأرض:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

(النساء: ٨٧)

وعلى الذين يعنون بالتاريخ تأصيلاً وتنقية وذكرا للذاكرين، ألا يغلبهم على ذلك هوى أنفس ناكبة عن الرشد ولا انحياز عن جادة الصراط السوى، قبل أن ينكشف الزيف ويظهر الاتباع الأعمى، ولقد ذم الله - تعالى - أقواما فقال:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾

(النجم: ٢٣)

ولقد قيل لبعضهم: ما الحكم فى كذا؟ فقال: لا أدرى، فقال: التلميذ لشيخه: فيما استحققت رزق السلطان فقال: «لأقول فيما لا أدرى لا أدرى»!!

وقال بعضهم فى مثل هذا الموقف: «أيزرى بى أن أقول لا أدرى ولو كان لأمك بعدد ما لا أدرى بمثلك لاستغنت»

وصدق الذى قال: «لو سكت من لا يعلم لارتفع الخلاف» ورحم الله الذى قال:

ومن قال لا أدرى بما لم يدره

فقد اقتدى فى القول بالنعمان

هذا الإمام أبوحنيفة - رضوان الله عليه - يتورع عن مثل الذرة مما خر فيه إلى الأذقان الدخلاء على الفتوى المتفيقهون الذى يدخلون إلى سوق العلم وليس معهم أقل شئ مما يشترون ما يشاؤن، وقد جاء فى كتاب مقالات الإمام العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى - رحمه الله - فى مبحث «خطورة التسرع فى الإفتاء»: ذكر للإمام سفيان بن سعيد الثورى كثرة المتحدثين فى عصره، فقال: «إذا كثر الملاحون

(٥) السخاوى: شمس الدين ابوالخير محمد بن عبدالرحمن السخاوى المتوفى ٩٠٢هـ.

(٦) نقلاً من ويكيبيديا - الموسوعة الحرة (بتصرف).

غرقت السفينة» [٧] والعامة تقول: «المركب اللى فيها ريسين تغرق».

ومرحبا بمن يفهمون سر الله - عز وجل - فى أن جعل اللسان وراء سجنى الأسنان والشفاة حتى لا يتكلم اللسان إلا عن صدق وإيمان، ورحم الله الخليفة الراشد أبا بكر، فقد كان يشير إلى لسانه كثيرا وهو يتكلم فيقول: هذا الذى أوردنى الموارد، فلما لقى ربه راضيا مرضيا رآه العباس - رضى الله عنهما - فى منامه فقال له: أين أوردك لسانك، فقال: قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة.

وما أحوج البشرية ومجتمع الإسلام اليوم إلى التاريخ الصحيح ليقرؤه على مكث وحرص على أن يسود الحق ويزهق الباطل.

ولقد ذكر علامة العصر، ومفتى كنانة الله فى أرضه مصر، الدكتور على جمعة فى نصيحته لشباب مصر فى إحدى المؤتمرات: إن الوطن له معنى فى النجاح وله معنى فى البقاء وله معنى فى قابل الأيام، وإذا أردنا أن نعرف ماذا نفعل غدا فيجب علينا أن نقرأ ما الذى حدث بالأمس، وأن نقرأ التاريخ، وأنه لابد علينا أن نتعلم من خطواتنا الصحيحة ومن أخطائنا التى وقعنا فيها أ. هـ.

وللأستاذ الفاضل الدكتور أحمد عزب - الأستاذ بجامعة حلوان بكلية الآداب - بحث باسم: «مصر فى ضوء منهجية ليبنتز، رؤية فى منطق التكتيك»، أقتبس منه قوله: «كيف لا نتعقل ونتفهم يا بنى وطنى دروس الماضى؟ فلن يحدث هذا قبل قراءة التاريخ أولاً، ثم فهمه ثانيا، ثم تطبيق ما فهمناه وتعلمناه ثالثا، فما بالنا إذا كنا لم نقرأ من الأساس [٨] ويردف قائلاً: فالواضح للكافة أن الخطأ الواحد - نفس الخطأ - يتم تكراره عبر ماضينا الطويل، ولذلك فلا مناص من استيعاب حكمة ودروس التاريخ [٩].

والله المستعان على أن نأخذ التاريخ نوراً وهدى مما أسلفت من كلام الله - عز وجل - وكلام المرسلين وكلام البصراء الحريصين على أن يعم النور وينقشع الظلام، والله حسبنا ونعم الوكيل.

(٧) مقالات الكوثرى، دار السلام، ط ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٨) مجلة إبداع، عدد رقم ٢٠ - ٢٠١١م، ص ١٤٤، بحث للدكتور أحمد عزب.

(٩) نفس المصدر ص ١٤٧

فتاوى لها تاريخ

المسلم الذى يقضى بغير حكم الإسلام



للإمام الشيخ محمود شلتوت

ما رأيكم فى رجل يحكم فى قضية ما حكما غير إسلامى هل يعتبر مرتدا عن الدين؟

السؤال لا يختص بالقاضى

هذا السؤال لا يختص بالقاضى الذى يحكم حكما غير إسلامى، إنما يتناول الحكام المسلمين الذين يأمرون بتقنين أحكام غير إسلامية، والمقننين المسلمين الذين يتولون وضع هذه الأحكام، والمتخاصمين المسلمين الذين يتحاكمون إليها ويرضون بها، بل إن حاجة هؤلاء إلى حكم الإسلام فيهم أشد من حاجة القضاة الذين يحكمون بتلك الأحكام، وخاصة من يكونون منهم فى بلد إسلامى، ليس لغيره عليه سلطان فى تشريعه وأحكامه.

وقد شاع على ألسنة كثير من المسلمين المتدينين أن القضاة الذين يحكمون بالقانون الوضعى - الذى تخالف أحكامه أحكام الإسلام - كفار مرتدون عن الإسلام، معتمدين فى ذلك على ظاهر قوله تعالى من سورة المائدة:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

ويلزمهم أن يحكموا بكفر المقننين والآمرين بالتقنين، فإن هؤلاء - وإن لم يكونوا يحكمون بها - قد وضعوها بأنفسهم أو أمروا بوضعها، ولا شك أن واضعيها والآمرين بوضعها تبعتهم أشد من تبعة الحاكمين بها.

الحكم الإسلامى نوعان: قطعى واجتهادى

ولمعرفة الجواب الحق لهذا السؤال يجب أن نعلم أولا أن الحكم الإسلامى نوعان:

• حكم نص عليه القرآن أو السنة نصا صريحا لا يحتمل التأويل ولا يقبل الاجتهاد.

ومثاله فى الأحوال الشخصية: حرمة المطلقة ثلاث مرات على مطلقها حتى تتزوج غيره.

وفى المدنيات حرمة الأرباح التى استغلت فى سبيل الحصول عليها حاجة الفقير المحتاج المستحق للمعونة، وتقسيم الميراث الذى ورد فى القرآن.

ومثاله فى العقوبات: قطع يد السارق الذى توافرت فيه وفى سرقته شروط العقوبة.

• هذا نوع، والنوع الآخر: حكم لم يرد به قرآن ولا سنة، أو ورد به أحدهما ولكن

لم يكن الوارد به قطعاً فيه، بل محتملا له ولغيره، وكان بذلك محلا لاجتهاد الفقهاء والمشرعين، فاجتهدوا فيه، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره. وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادى.

فى النوع الاجتهادى متسع للقاضى

وإذا علمنا هذا استطعنا أن نقول فى الجواب عن السؤال: إن الحكم فى النوع الثانى - وهو النوع الاجتهادى - ولو خالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية فإنه ما دام أساسه تحرى العدل والمصلحة، لا اتباع الهوى والشهوة، فإن الإسلام لا يمنعه ولا يمقته فضلا عن أن يراه ردة يخرج القاضى به عن الإسلام؛ ذلك أن الإسلام ليس له فى هذا النوع حكم معين، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبنى على تحرى المصلحة والعدل، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه.

متى نحكم بالكفر؟

أما النوع الأول - وهو الحكم القطعى المنصوص عليه فى كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة، التى لم يظهر فيها خصوصية الوقت أو الحال - فإن الحكم بغيره وإن كان مبنيا على اعتقاد أن غيره أفضل منه وأنه هو لا يحقق العدل ولا المصلحة، كان ولا شك ردة يخرج به القاضى عن الإسلام.

أما إذا كان القاضى الذى حكم بغيره مؤمنا بحكم الله، وأنه هو العدل والمصلحة دون سواه، ولكنه فى بلد غير إسلامى، أو بلد إسلامى مغلوب على أمره فى الحكم والتشريع، واضطر أن يحكم بغير حكم الله لمعنى آخر وراء الجحود والإنكار، فإن الحكم فى تلك الحالة لا يكون كفرا إنما يكون معصية، وهو نظير من يتناول الخمر وهو يعتقد حرمتها.

الواجب على القاضى المسلم

وإذن يجب على القاضى المسلم أن يرد نفسه عن الحكم متى استطاع إلى ذلك سبيلا، وإذا لم يستطع أن يرد نفسه - خوفا من ضرر فادح يلحقه أو يلحق جماعته - فإن الإسلام يبيح له ذلك، ارتكابا لأخف الضررين، ما دام قلبه مطمئنا إلى حكم الله.

تخريج آية المائدة

أما قوله تعالى

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

فقد جاء فى قوم يملكون أنفسهم وتشريعهم ويعرفون حكم الله ويرفضونه مؤثرين عليه حكم الهوى والشهوة، وفى هؤلاء يقول الله:

﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾

(المائدة: ٤١)

ويقول:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن
يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

ومن هنا يتبين أن الآية الكريمة وهى

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

ليست فى حق كل من حكم حكما غير إسلامى فى قضية ما.

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

مصافحة الرجل للمرأة

● السؤال من : ي.ف.غ: ما حكم مصافحة الرجل للمرأة باليد؟ وهل ذلك ينقض الوضوء؟ وما حكم النظر إلى وجه المرأة؟

●● الجواب: مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية محل خلاف في الفقه الإسلامي؛ فيرى جمهور العلماء حرمة ذلك، إلا أن الحنفية والحنابلة أجازوا مصافحة العجوز التي لا تشتهى؛ لأمن الفتنة، ومن أدلة الجمهور على التحريم: قول السيدة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-: «ما مست كف رسول الله- ﷺ - كف امرأة قط» متفق عليه، وحديث معقل بن يسار -رضي الله عنه- أن رسول الله- ﷺ - قال: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له» أخرجه الروياني في مسنده والطبراني في المعجم الكبير.

بينما يرى جماعة من العلماء جواز ذلك؛ لما ثبت أن عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- صافح النساء لما امتنع النبي- ﷺ - عن مصافحتهن عند مبايعتهن له، فيكون الامتناع عن المصافحة من خصائص النبي- ﷺ -، وأن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه صافح عجوزاً في خلافته، ولما جاء في البخاري عن النبي- ﷺ - أنه كان يجعل أم حرام- رضي الله تعالى عنها -تفلي رأسه الشريف، ولما أخرجه البخاري أن أبا موسى الأشعري- رضي الله تعالى عنه- جعل امرأة من الأشعريين تفلي رأسه وهو محرم في الحج.

وأجابوا عما استدل به الجمهور: بأن حديث معقل بن يسار حديث ضعيف؛ لضعف راويه شداد بن سعيد، وقد تفرد بهذا اللفظ مرفوعاً، ومثله لا يحتمل تفرده لو لم يخالف، وقد خالفه بشير بن عقبة -وهو ثقة من رجال الصحيحين- فأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» من طريق بشير بن عقبة، عن أبي العلاء، عن معقل موقوفاً عليه من قوله بلفظ: «لأن يعمد أحدكم إلى مخيط فيغرز به في رأسي، أحب إلي من أن تغسل رأسي امرأة ليست مني ذات محرم».

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية



وعليه فيمكن لمن ابتلي بشيء من هذا أن يقلد من أجاز ذلك من العلماء، والخروج من الخلاف مستحب.

وأما عن انتقاض الوضوء بمصافحة الأجنبية فهو أيضاً محل خلاف في الفقه الإسلامي؛ فبينما يرى الإمام الشافعي أنه ينقض الوضوء ولو كان من غير شهوة، يرى الإمام أبو حنيفة أن اللمس بنفسه لا ينقض ولو كان بشهوة، ويفصل الإمام مالك القول في ذلك بين ما إذا كان اللمس بشهوة فينقض أو من غير شهوة فلا ينقض، ويروى في مذهبه أقوال أخرى، وعن الإمام أحمد أيضا روايات بكل هذه الأقوال، وكلٌ له أدلته المبسوطة في كتب الفقه.

والقواعد المقررة شرعًا في المسائل الخلافية:

١ - أنه إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه.

٢ - أن من ابتلي بشيء من ذلك فليقلد من أجاز.

٣ - أن الخروج من الخلاف مستحب.

أما نظر الرجل للمرأة الأجنبية فالمعتمد من مذاهب الفقهاء أنه يجوز النظر إلى وجهها وكفيها -وزاد الإمام أبو حنيفة قدميها- من غير شهوة إذا أمنت الفتنة، ويدل على ذلك أن سياق الأمر بغض البصر في الآية ليس كالأمر بحفظ الفرج في إطلاقه، وفي ذلك يقول الزمخشري في «الكشاف» عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ «النور: ٣٠»

(دخلت «من» في غض البصر دون حفظ الفرج دلالةً على أن أمر النظر أوسع؛ ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثُديهن وأعضادهن وسوقهن وأقدامهن، وكذلك الجواري المستعرضات للبيع، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقاً: أن أبيح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه) اهـ.

وما سوى الوجه والكفين والقدمين من المرأة الأجنبية فإنه لا يجوز النظر إليه إلا للضرورة والحاجة العلاجية ونحوها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الوفاء بالنذر

● السؤال من: د.م.ر: نذر ابني نذراً لله ثم توفي في ظروف مأساوية، وأنا أحتاج لثمن النذر حاجة شديدة، فهل يجب عليّ القيام بوفاء النذر مع احتياجي الشديد إلى ثمنه؟

●● الجواب :

أمر الله -عز وجل- بالوفاء بالنذر، فإذا ما نذر الإنسان شيئاً فقد ألزم نفسه به، وعليه الوفاء بما نذر؛ لقول الحق -عز وجل-:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾

«الإنسان : ٧»

ولقول سيدنا رسول الله- ﷺ - في الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها : «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»، وذلك إذا كان فى مقدور الإنسان الوفاء بما نذر، وإلا فلا يجب عليه الوفاء؛ لقوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

«البقرة : ٢٨٦»

ولقوله - ﷺ -: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين».

وعلى ذلك: فلا يلزمك الوفاء بالنذر مع حاجتك الشديدة إلى ثمنه، وإن كنت محتاجا أيضا إلى ثمن الكفارة فلا تلزمك هى أيضا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

سفر المرأة للحج

● السؤال من : ش.ف.ق: هل يجوز للمرأة السفر للحج أو العمرة بصحبة ابن الزوج، وهل يعد محرما ؟

●● الجواب: قال ابن قُدامة فى «المغنى»: (فتحرمُ على الرجل امرأةُ أبيه، قريبا كان أو بعيدا، وارثا كان أو غير وارث، من نسب أو رضاع ؛ لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

«النساء : ٢٢»

وقال البراء بن عازب : «لقيت خالى ومعه الراية، فقلت: أين تريد؟ قال: أرسلنى رسول الله - ﷺ- إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه -أو: أقتله»، رواه النسائى. وفى رواية قال: لقيت عمى الحارث بن عمرو ومعه الراية، فذكر الخبر كذلك. رواه سعيد وغيره.. وسواء فى هذا امرأة أبيه أو امرأة جده لأبيه وجده لأمه، قرب أم بعد. وليس فى هذا بين أهل العلم خلاف علمناه.) .اهـ.

فـعُلم مما سبق أن زوجة الأب محرمة على التأبيد، وأن ذلك محل إجماع من العلماء. وعليه فابن الزوج محرم لزوجة أبيه، ويجوز لك السفر معه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الزكاة على شهادات الاستثمار!!

● السؤال من : أ.ب.ج:

كيف تخرج الزكاة على المبالغ المجمدة فى شهادات استثمار بالبنوك المصرية والتى تعطى عائدا شهريا أو كل ثلاثة أشهر يساعد فى تكاليف المعيشة الشهرية ومطالب ضروريات الحياة المعيشية.

●● الجواب :

زكاة المال المودع فى البنوك على هيئة ودائع أو شهادات تكون بمقدار ربع العشر على المال المودع فى البنك أو الذى تم به شراء الشهادات الذى مر عليه حول قمرى وعلى المال الذى يمر عليه عام قمرى من الأرباح كذلك، وهناك قول آخر لبعض العلماء يجوز إخراج العشر على أى ربح يخرج من هذه الودائع أو الشهادات، دون رأس المال ودون النظر إلى الحول القمرى.

ولك أن تأخذ بأى الرأيين شئت.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المال المحجور عليه

● السؤال من : ص.ب.م :

هل فى مال المحجور عليه زكاة؟

●● الجواب :

يرى جمهور العلماء أن الزكاة واجبة فى مال الصبى القاصر وفى مال السفيه أو المجنون المحجور عليه، وهذا هو الذى عليه الفتوى؛ لأنه حق يتعلق بالمال فلا يسقط بالصغر أو السفه أو الجنون، ويخرجها عنهم أولياؤهم، واستدلوا فى ذلك إلى عموم النصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة التى دلت على وجوب الزكاة فى المال الذى بلغ النصاب وحال عليه الحول، كقوله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

«التوبة : ١٠٣»

وكقوله - ﷺ - فى وصيته لمعاذ بن جبل - رضى الله عنه- حين أرسله إلى اليمن: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم»، رواه مسلم..

والقُصَّر والسفهاء والمجانين ترد فيهم الزكاة إذا كانوا فقراء، فلتؤخذ منهم إن كانوا أغنياء.

كما استدلوا بما رواه الإمام الشافعى عن يوسف بن ماهك أن رسول الله- ﷺ -قال: «ابتغوا فى أموال اليتامى؛ لا تستهلكها الصدقة»، وهو مرسل صحيح يعتضد بما سبق من عموم النصوص، وبما يأتى من طرقه وشواهده، وقد صح هذا اللفظ أيضا موقوفا على عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-.

وروى الطبرانى فى المعجم الأوسط عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «اتجروا فى أموال اليتامى؛ لا تأكلها الزكاة»، وصححه الحافظ العراقى.

وروى الترمذى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - : قال: «من ولى يتيماً فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة».

ولولا أن الزكاة واجبة فى مال القاصر والسفيه والمجنون لما جاز للولى أن يخرجها منه؛ لأنه ليس له أن ينفق ماله أو يتبرع منه فى غير واجب، فأمر النبى - ﷺ - بتنمية أموالهم حتى لا تستهلكها الزكاة الواجبة فيها.

وقد صح إيجاب الزكاة فى مال الصبى والمجنون عن عمر، وعلى، وابن عمر، وعائشة، وجابر بن عبدالله -رضى الله عنهم-، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة إلا رواية ضعيفة عن ابن عباس -رضى الله عنهما- لا يُحتج بها.

وهذا هو الملائم لتشريع الزكاة فى الإسلام من أنها حق فى المال يجب لمستحقه كما قال سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-: «فإن الزكاة حق المال»، كما أن كلا من القاصر والمجنون أهل لوجوب حقوق العباد فى ماله، ولذلك يضمن ما أتلفه بأداء الولى من ماله.

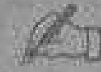
وينوب عن القاصر أو المجنون أو السفيه وليه فى إخراجها، بشرط أن يكون هذا المال فائضا عن نفقة الصبى وحاجته الأصلية وأن يبلغ هذا الفائض النصاب ويحول عليه الحول.

والله سبحانه وتعالى أعلم

يُنسبُ إلى أبى حنيفة غيرُ مذهبه!!

حول الفتوى الشاذة بإباحة شرب الخمر المصنوع من غير العنب

بقلم: حمد الله حافظ الصفتى



com.safti@gmail.hmdallah

نجد لكثير من متفيقهة هذا العصر ولعًا غريبًا بتبنى الآراء الفقهية المهجورة، والعمل على إحيائها تحت دعوى التيسير، وباسم تحقيق المصلحة ورعاية المقاصد الكلية للشريعة، متناسين أن الشريعة كما هى مقاصد وكليات فهى أيضًا أحكام مستقرة ومحررة، جرى عليها عمل الأمة شرقًا وغربًا، ولعل السبب فى هذا الفهم العجيب ما دبَّ على البيئة العلمية التى نشأ بها هؤلاء المتفيقهة من عدم انضباط بما أصله الأئمة السابقون من مناهج الفهم وقواعد الاستنباط وطرق التعامل مع أحكام الشريعة الغراء.

وهؤلاء وأمثالهم أحرار، يرون ما يشاءون تحت مسئولياتهم الأدبية، وجمهور الناس أيضًا أحرار فى مناقشة تلك الآراء، أو الاكتفاء بتسجيلها بأسماء أصحابها؛ لتكون مثالاً واضحًا أمام الأجيال اللاحقة على مدى الشذوذ الفقهى الذى وصل إليه هؤلاء. لكن إذا جاوز الأمر هذا الحدَّ فصدر عن أستاذ فى جامعة الأزهر، بحيث يعزو لإمام من أئمة المسلمين غير مذهبه بدون سند أو حجة، فلا بُدَّ حينئذ من وقفة نطالب فيها هذا الأستاذ - على الأقل - بتصحيح ما قال.

وقد شاهدتُ لقاءً لفضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين الهلالى فى برنامج (القاهرة اليوم) على قناة (أوربت)، خلط فيه وخبط، وأتى بما يُعدُّ من قبيل الشطط، حيث طالب العوام بممارسة الاجتهاد، والتجرؤ على الفتوى، وغمز تعريف الأصوليين للمباح، واعتبر الهرج والمرج فى الفتوى من مظاهر الحرية فى الإسلام، إلى آخر ما ذكره هناك من ترَّهات،

غير أنه أتى بطامة كبرى حين أباح للناس مطلقًا شرب الخمر المتخذ من غير العنب طالما لم يصل شاربه لحالة السُّكْر، مدعيًا أن هذا مذهب الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه، حيث قال فضيلته هناك:

إن قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ «المائدة: ٩٠»

نزلت فى الخمر العنبية، وأما الخمر غير العنبية المتخذة من التمر أو الشعير أو غيرهما، كالبيرة وغيرها، فقد خرج عن كونه خمرًا من العنب، والإمام أبو

حنيفة - رضى الله عنه - يقول: إن الحرام منه هو القدر المسكر، أما القدر غير المسكر فلا، وهذا علم بغض النظر عن قبول الناس له أو لا، فالبيرة ليست متخذة من العنب، ولكن من الشعير، وهذا الشراب كثيره مسكر، فيكون قليله حرامًا عند الجمهور، أما أبو حنيفة فيرى أن القدر المسكر منه فقط هو الحرام، وهذه وجهة نظر أبى حنيفة، وليست مسألة خفية، بل هى من الأمهات المعروفة.. وهذه الأحكام يجب أن تُطرق وتُعرف)، هذا هو نص كلام الأستاذ، بعد تحويله للفصحى، وواضح من سياق الحديث أنه يقصد مذهب الإمام أبى حنيفة، لا مجرد قوله.

وهذا الذى يعزوه الأستاذ إلى الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه - أشنع مما يُعزى إلى مجَّان أصحاب الكلام فى كتب الفقه فى هذه المسألة، وطوبى للأستاذ فقد أدخل السرور بفتواه على شاربى الويسكي والفودكا والتيكيلا، وغيرها مما لا يُتَّخذ من العنب، ولله فى خلقه شئون.

اختلاف الفقهاء فى معنى الخمر

والواقع أن الإمام الأعظم لا يقول بهذا الكلام على إطلاقه كما أوهم الأستاذ الناس، وإنما حاصل الأمر أن الفقهاء اختلفوا فى الخمر المحرَّمة: هل هى ما يصنع من العنب فقط، أم تشمل سائر المسكرات؟ فذهب الجمهور منهم مالك ومحمد بن الحسن والشافعى وأحمد إلى أن الخمر تطلق على كل مسكر، سواء اتُّخذ من العنب أو من غيره [1]، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ: (كل مسكر خمر) [2]، وبقوله: (إن من الحنطة خمرًا، وإن من الشعير خمرًا، وإن من التمر خمرًا، وإن من الزبيب خمرًا، وإن من العسل خمرًا، وأنا أنهى عن كل مسكر) [3].

---

(١) عليش (محمد بن أحمد): منح الجليل بشرح مختصر خليل، ج ٩، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٩هـ، ص ٣٤٩، وابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار، ج ١٠، الرياض، عالم الكتب، ٢٠٠٣م، ص ٣٦، والخطيب الشربينى (محمد بن أحمد): الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع، ج ٢، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ، ص ٥٣٦، والمرداوى (على بن سليمان): الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف، ج ١٠، بيروت، دار إحياء التراث العربى، د. ت، ص ٢٢٨.

(٢) النيسابورى (مسلم بن الحجاج): الجامع الصحيح، ج ٣، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، بيروت، دار إحياء التراث العربى، د. ت، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، ص ١٥٨٧، رقم (٢٠٠١).

(٣) الشيبانى (أحمد بن حنبل): المسند، ج٤، القاهرة، مؤسسة قرطبة، د. ت، ص ٢٧٣، رقم (١٨٤٣٦)، والترمذى (محمد بن عيسى)، الجامع المختصر، ج٤، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربى، د. ت، كتاب الأشربة، باب ما جاء فى الحبوب التى يتخذ منها الخمر، ص ٢٩٧، رقم (١٨٧٢)، وغيرهما.

وذهب فقهاء العراق منهم أبو حنيفة وأبو يوسف إلى أن الخمر حقيقةً لا تطلق إلا على ما اتُّخذ من العنب [٤]، بدليل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ «يوسف: ٣٦»

وقوله ﷺ: (الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنبة) [٥]، وأن إطلاق الخمر على ما سواه - كما في الأحاديث التي استدل بها الجمهور - على سبيل المجاز لا الحقيقة.

تحرير قول الإمام الأعظم

واتفق الفقهاء على أن الخمر الحقيقية يحرم قليلُها وكثيرُها، ثم اختلفوا في المجازية، فذهب الجمهور إلى حرمة قليلها وكثيرها كذلك، لقوله ﷺ: (ما أسكر كثيره فقليله حرام) [٦].

بينما ذهب أبو حنيفة وأبو يوسف إلى الترخيص في قليلها غير المسكر، إذا شُرب للتقوى لا للتلهي والطرب، واستدلوا على ذلك بقول ابن عباس رضي الله عنهما: (حُرِّمت الخمر بعينها والسُّكْر من كل شراب) [٧]، وبأن جمعًا من أصحاب رسول الله ﷺ شربوا النبيذ المتخذ من غير العنب، منهم عمر وعلي وابن مسعود [٨]، وقد ذكر أدلتهم ابن عبد ربه الأندلسي في الجزء الأخير من (العقد الفريد) [٩]؛ وهي مما ينقذهم من موقف المخالفة للأدلة الصريحة، مع ما تقرر من عذر المجتهد إذا جانبه الصواب، فقول الإمام بجواز ذلك مشروط بكونه للتقوى لا للهو، كما يفعله الفسقة، فإن كان للتلهي حرم قليله وكثيره باتفاق.

قال في الدُّر المختار: (والحلال منها أربعة أنواع، الأول: نبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخة؛ يحل شربه وإن اشتد، وهذا إذا شرب منه بلا لهو وطرب، فلو شرب للّهو فقليله وكثيره حرام)، اهـ

(٤) ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار، ج ١٠، مصدر سابق، ص ٣٢.

(٥) النيسابوري (مسلم بن الحجاج): الجامع الصحيح، ج ٣، مصدر سابق، كتاب الأشربة، باب بيان أن جميع ما ينبذ مما يتخذ من النخل والعنب يسمى خمرًا، ص ١٥٧٣، رقم (١٩٨٥).

(٦) الشيباني (أحمد بن حنبل): المسند، ج ٣، مصدر سابق، ص ٣٤٣، رقم (١٤٧٤٤)، وأبو داود (سليمان بن الأشعث): السنن، ج ٣، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ص ٣٦٨، رقم (٣٦٨٣)، والترمذي (محمد بن عيسى)، الجامع المختصر، ج ٤، مصدر سابق، كتاب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرام، ص ٢٩٢، رقم (١٨٦٥)، وغيرهم.

(٧) الطبراني (سليمان بن أحمد): المعجم الكبير، ج ١٢، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٤هـ، ص ٢٤، رقم (١٢٤١٩)، والنسائي (أحمد بن شعيب): السنن الكبرى، ج ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ، كتاب الأشربة، باب ذكر الأخبار التي اعتل بها من أباح شراب المسكر، ص ٢٣٢، رقم (٥١٩٤)، وغيرهما.

(٨) بسط ذكر ما جاء في ذلك من الأحاديث والآثار: الحافظ الزيلعي في كتاب الأشربة، من نصب الراية (٤/٣٦٥)؛ فراجعه.

(٩) ص ٢٦، وما بعدها.

قال ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار: (قال في الدرر: وهذا التقييد غير مختص بهذه الأشربة، بل إذا شرب الماء وغيره من المباحات بلهو وطرب على هيئة الفسقة حرم، قلت: وكان ينبغي للمصنف أن يذكر التقييد بعدم اللّهو والطرب وعدم السُّكْر بعد الرابع؛ ليكون قيدًا للكل) [١٠]، اهـ.

وفي القُهُستاني: (فإن قصد به استمراء الطعام، والتَّقوى في الليالي على القيام، أو في الأيام على الصيام، أو القتال لأعداء الإسلام، أو التداوي لدفع الآلام، فهو الحلّ للخلاف بين علماء الأنام)، اهـ

وفي الدُّر المختار كذلك: (والكل حرام عند محمد، وبه يفتى، والخلاف إنما هو عند قصد التقوى، أما عند قصد التلهي فحرام إجماعًا)، اهـ

قال ابن عابدين في الحاشية: (قال في المعراج: سئل أبو حفص الكبير عنه، فقال: لا يحل، فقيل له: خالفت أبا حنيفة وأبا يوسف! فقال: إنهما يحلانه للاستمراء، والناس في زماننا يشربون للفجور والتلهي، وعن أبي يوسف: لو أراد السكر فقليله وكثيره حرام، وقعوده لذلك حرام، ومشيه إليه حرام) [١١]، اهـ

وفي كتب الفقه المبسوطة والمختصرة نصوص كثيرة تبيّن أن قول الإمام هو هذا - أي: بشرط عدم السكر، وعدم الشرب للهو والطرب - وكلها متوفرة بين أيدي القراء، فلا نطيل بسرد ما جاء فيها.

معنى الشرب للتقوى:

وهذا المعنى يتصوَّر في مشروب به نسبة قليلة من الكحول مثلاً - وهو شراب كثيره مسكر - لكن هذه النسبة غير مسكرة، كما هو الحال في بعض الأدوية؛ فشارب هذا المحلول المحتوي على الكحول هو عند الجمهور شارب لشراب كثيره مسكر فقليله حرام - وهذا بحكم الأصل، وقد يفتي البعض بجواز ذلك للضرورة أو الحاجة على تفصيلات - أما عند الإمام أبي حنيفة فهو شارب لشراب مصنوع من غير العنب، فيحرم الكثير المسكر منه فقط، بينما يجوز شرب قليله ما لم يسكر؛ لأن هذا القليل شرب لا على سبيل اللعب والتلهي، بل لغرض مقصود غير لعب.

فالشرط عند الإمام - كما قدمنا - ألا يكون الشرب للتلهي والطرب، بل يكون لغرض كالتغذي أو فائدة ما، بأن يحتوي على فيتامين أو دواء أو غيرها، أو يكون منشطًا مغذيًا، وهذا موجود في بعض مشروبات التغذية، التي تكون الكيماويات

(١٠) ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار، ج ١٠، مصدر سابق، ص ٣٣.

(١١) ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار، ج ١٠، مصدر سابق، ص ٣٨.

المصنوع منها مذابة فى مادة كحولية قليلة، لا يسكر منها الشارب، ولا تشرب على سبيل اللعب واللهو والتشبه بأهل الفسق، فضلاً عن أن تشرب لقصد السكر، فقد تكون النسبة قليلة كـ ٥ ٪ مثلاً أو ١ ٪.

أما إذا زادت النسبة على ٤ ٪ مثلاً فتسكر غالباً؛ إذ نسبة الكحول الموجودة فى زجاجة البيرة غالباً ٤ ٪، وقد تزيد وقد تنقص، وكثير من الناس قد يسكرون بشرب زجاجة واحدة فقط من البيرة - كما هو مشاهد - فضلاً عن شرب كأس من الويسكى أو التيكيلا أو الفودكا أو الرمّ، التى نسبة الكحول فيها تتراوح بين ٣٠ : ٦٠ ٪.

فنلخص أن الخلاف - بين الإمام والجمهور - فى شراب به نوع من أنواع السائل المسكر من غير العنب والتمر، مع عدم شربه على وجه اللعب واللهو أو التشبه بشاربى الخمر والفساق، بل للتقوى والتغذية، كما مثّل بشراب فيه نسبة كحول غير مسكرة مذاب فيه بعض الأدوية أو الكيماويات المغذية، فهذا هو الذى أباح الإمام شربه، لا سواه.

مذهب الحنفية:

ما أسكر كثيره فقليله حرام

على أن الفتوى فى مذهب الحنفية ليست على هذا القول، بل هى على قول الإمام محمد بن الحسن، وهو موافق للجمهور فيما ذهبوا إليه؛ لقوة الأدلة فى جانبهم، ولأن الشروط التى قال بها الإمام لا يوجد مقدمها فى هذا الزمان.

قال فى الدُّر المختار: (وحرمها محمد)، أى الأشربة المتخذة من العسل والتين ونحوهما (مطلقًا) قليها وكثيرها، (وبه يُفتى) ذكره الزيلعى وغيره، واختاره شارح الوهبانية). اهـ

قال ابن عابدين فى الحاشية: (وبه يفتى)، أى بقول محمد، وهو قول الأئمة الثلاثة... قوله: (الزيلعى وغيره)، كصاحب الملتقى والمواهب والكفاية والنهاية والمعراج وشرح المجمع وشرح درر البحار والقُهستانى والعينى؛ حيث قالوا: الفتوى فى زماننا بقول محمد؛ لغلبة الفساد، وعلل بعضهم بقوله: لأن الفساق يجتمعون على هذه الأشربة ويقصدون اللهو والسُّكر بشربها، أقول: الظاهر أن مرادهم التحريم مطلقًا وسد الباب بالكلية، وإلا فالحرمة عند قصد اللهو ليست محل الخلاف، بل متفق عليها كما مر ويأتى) [١٢]. اهـ.

إلى غير ذلك من نصوص، تعتبر الفتوى معها بقول الإمام تقديمًا للمرجوح وإفتاء بالضعيف غير المعتمد فى المذهب، وهو ما لا يقبله عالم، فضلاً عن عالم ورع، ولعل الأستاذ لا يذكر ما قرره أهل العلم فى هذا الشأن؛ فلنذكره به، والله المستعان.

الفتوى بغير الراجح شذوذ ومخالفة للإجماع:

قال الإمام ابن الصلاح: (اعلم أن من يكتفى بأن يكون فى فتواه أو عمله موافقًا لقول أو وجه فى المسألة ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر فى الترجيح ولا تقيَّد به فقد جهل وخرق الإجماع) [١٣].

وسئل العلامة ابن حجر الهيتمى - رحمه الله تعالى: هل يجوز العمل والإفتاء والحكم بأحد القولين أو الوجهين وإن لم يكن راجحًا، سواء المقلد البحت والمجتهد فى الفتوى وغيره؟ فأجاب بقوله: فى (زوائد الروضة): إنه لا يجوز للمفتى والعامل أن يفتى أو يعمل بما شاء من القولين أو الوجهين من غير نظر. قال: وهذا لا خلاف فيه، وسبقه إلى حكاية الإجماع فيهما: ابن الصلاح والباجى من المالكية) [١٤]. اهـ.

وقال العلامة قاسم بن قطلوبغا: (إنى رأيت من عمل فى مذهب أئمتنا رضى الله عنهم بالتشهى، حتى سمعت من لفظ بعض القضاة: هل ثَمّ حَجْر؟ فقلت: نعم، اتباع الهوى حرام، والمرجوح فى مقابلة الراجح كالعدم، والترجيح بغير مُرجّح فى المتقابلات ممنوع) [١٥]. اهـ

وقال الإمام ابن عابدين: (اعلم أن الواجب على من أراد أن يعمل لنفسه أو يفتى غيره أن يتبع القول الذى رجحه علماء مذهبه، فلا يجوز له العمل أو الإفتاء بالمرجوح إلا فى بعض المواضع، وقد نقلوا الإجماع على ذلك) [١٦]. اهـ

والحاصل أن الإمام أبا حنيفة - رضى الله عنه - لا يقول بحلّ ذلك على إطلاقه، وإنما بشرط شربه للتقوى لا للهو والطرب، وهو شرط لا يوجد مقدمه فى هذا الزمان، ثم الفتوى فى مذهبه ليست على قوله، وإنما على قول محمد الموافق لمذهب الجمهور، فما كان ينبغى للأستاذ أن يتحدث بهذا الأمر أصلاً على مرأى ومسمع من العوام لو صح ما نقله عن الإمام، فكيف به وقد بدله وغيره، وقد قام كثير من الأزهريين الأفاضل باستنكار ما أفتى به، فزادهم الله - تعالى - غيرة على دينه، وألهمنا جميعًا رُشدنا، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١٢) ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار، ج ١٠، مصدر سابق، ص ٣٦.

(١٣) ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن): أدب المفتى والمستفتى، ج ١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧ هـ، ص ٦٣.

(١٤) ابن حجر الهيتمى (أحمد بن محمد): الفتاوى الفقهية الكبرى، ج ٤، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص ٣٠٤.

(١٥) قاسم بن قطلوبغا: التصحيح والترجيح على مختصر القدورى، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٨ م، ص ٦.

(١٦) ابن عابدين (محمد أمين): شرح عقود رسم المفتى، ضمن رسائل ابن عابدين، بيروت، عالم الكتب، د.ت، ص ١٠.

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

عظني

عندما ولي عمر بن عبدالعزيز، خامس الخلفاء الراشدين، الخلافة، دخل عليه السدّي - إسماعيل بن عبدالرحمن - وكان من خاصته، ودار بينهما حوار بدأه عمر، فقال: أسرك ما وليت أم أساءك؟ قال السدّي: سرني للناس، وساءني لك.. قال عمر: أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي، قال السدّي: ما أحسن حالك إن كنت تخاف. فقال عمر: عظني؛ قال السدّي: أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة.

غاية الفخر

دخل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - على يزيد بن معاوية يومًا، فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن كذا وكذا، ولنا من الفخر كذا وكذا، ولنا من الشرف كذا وكذا، والحسين ساكت لا يرد، فحان وقت الصلاة، وأذن المؤذن، فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله. قال الحسين «جد من هذا يا يزيد»؟؟ فخجل يزيد ولم يرد جوابًا.

حوار بين الحق والباطل

تمشى الباطل يومًا مع الحق

فقال الباطل: أنا أعلا منك رأسًا

قال الحق: أنا أثبت منك قدمًا

قال الباطل: أنا أقوى منك

قال الحق: أنا أبقى منك

قال الباطل: أنا مع الأقوياء والمترفين

قال الحق: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

«الأنعام: ١٢٣»

قال الباطل: أستطيع أن أقتلك الآن

فقال الحق: ولكن أولادى سيقتلونك ولو بعد حين.

حسن التفرس

قال أبوالسعيد الخراز: رأيت فى الحرم رجلاً فقيرًا، ليس عليه إلا ما يستر عورته، فأنفت نفسى، فتفرس فىّ وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾

«البقرة: ٢٣٥»

فندمت على ذلك واستغفرت الله فى نفسى، فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾

«الشورى: ٢٥»

ما أكفر الإنسان؟!

اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى:

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾

(عبس: ١٧)

هذين البيتين:

يتمنى المرء فى الصيف الشتا
فإذا جاء الشتا أنكره
فهو لا يرضى بحال واحد
قتل الإنسان ما أكفره

المأمون.. والخادم

نادى المأمون بالخادم، فلم يجبه، ثم نادى ثانيًا، وصاح: أيا غلام!

فدخل غلام تركي يقول: أما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب؟

أكلما خرجنا من عندك صحت يا غلام، يا غلام!!.

فنكس المأمون رأسه، فما شك أحد أنه سيأمر بضرب عنق الغلام، ولكنه قال: إن الرجل إذا حسنت أخلاقه؛ ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، ولا نستطيع أن نسيئ أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا.

سيدنا عمر والشورى

لحافظ إبراهيم:

يا رافعا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرا عن محبيها
وما استبد برأى فى حكومته
إن الحكومة تغرى مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

اختبار جارية

عرض على المتوكل جارية؛ فقيل له: إنها فصيحة شاعرة، فأراد أن يختبرها، وكان أبو العيناء الضرير جالسًا عنده، فطلب منه اختبارها، فقال لها: أجيزى أحمد الله كثيرًا

فقالت: حيث أنشأك ضريرًا

فقال: اشترها يا أمير المؤمنين، فقد أحسنت فى إساءتها.

أعط سيبويه كسرة

●وقف بعض الفقراء على باب «نحوى» فقرعه، فقال النحوى: من بالباب؟

●●فقال: سائل

●فقال: ينصرف

●●فقال: اسمى «أحمد»

●فقال النحوى لغلامه: أعط سيبويه كسرة.

دعاء

اللهم لا ترزقنى رزقا يطغينى، ولا تبتلينى بفقر يضنينى، وأعطنى فى الآخرة حظا وافرا، وفى الدنيا معاشا واسعا.

تكنولوجيا التصوير الضوئى من الغرفة المظلمة إلى كاميرا الفمتو



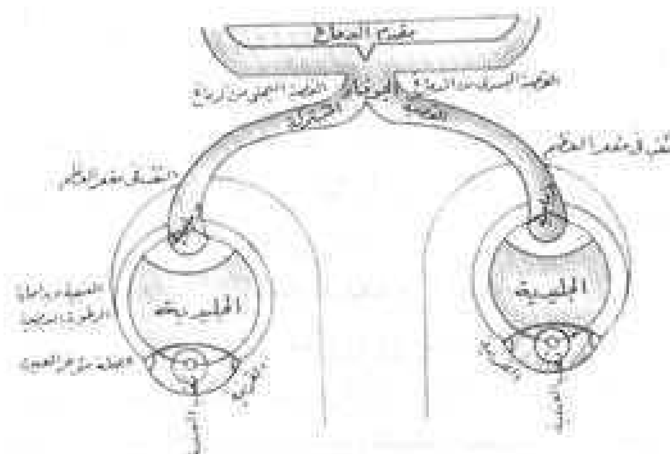
أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء - جامعة القاهرة

آلة التصوير الضوئى (الكاميرا) تشبه العين من حيث إن كلا منهما تعتمد بصورة أساسية على عدسة لتكوين صور حقيقية لجسم على سطح حساس للضوء. وتزود آلات التصوير الحديثة بأدوات خاصة لضمان الحصول على صور واضحة محددة المعالم، كما يمكن استخدام عدسات خاصة لتصوير مجال أكثر اتساعاً، أو لالتقاط صور أجسام بعيدة (تليفوتو Telephoto). وقد كانت فكرة الحسن بن الهيثم فى القرن العاشر الميلادى أول الغيث المنهمر فى تقنية التصوير الضوئى التى أدت، بعد اكتشاف الليزر، إلى تطوير كاميرا الفمتو على يد أحمد زويل مع بدايات القرن الحادى والعشرين.

فى البدء كانت الغرفة المظلمة لابن الهيثم

كان الحسن بن الهيثم أول من استعمل (الغرفة المظلمة) Camera obscure، أو (الكاميرا ذات الثقب) Pinhole camera، فى التجارب الضوئية وقارنها بوظيفة العين فى الإبصار. وقد برهن ابن الهيثم فى كتابه (المناظر) بتجربة الغرفة المظلمة على خاصية انتشار الضوء فى خطوط مستقيمة بقوله: «إذا كان فى موضع واحد عدة سُرج فى أمكنة متفرقة، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد، وكان ذلك الثقب ينفذ إلى مكان مظلم، وكان مقابل ذلك الثقب فى المكان المظلم جدار، فإن أضواء تلك السُرج تظهر على ذلك الجدار متفرقة وبعدد تلك السُرج، وكل واحد منها مقابل واحد من السُرج على السمت (الخط) المستقيم الذى يمر بالثقب، وإذا ستر واحد من السرج بطل من الأضواء التى فى الموضع المظلم الضوء الذى كان يقابل ذلك السراج فقط، وإن رفع الساتر عن السراج عاد ذلك الضوء إلى مكانه».

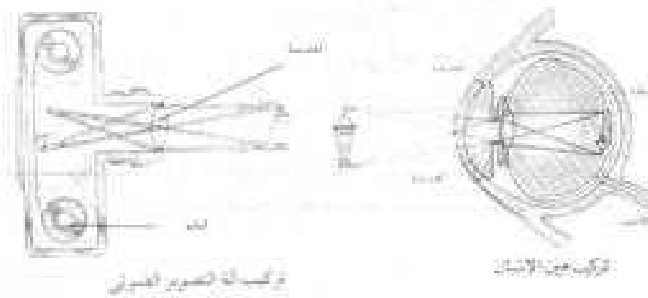
وأوضح ابن الهيثم أن (الضابط) لوضوح الصورة على الجدار هو اتساع الثقب الذى يجب أن يكون وسطا بين الضيق الشديد والسعة الزائدة. وفى تفسيره لعملية الإبصار، ومقارنتها بتجربة الغرفة المظلمة، ذكر أن كل نقطة فى الجسم المرئى تتمثل بنقطة مماثلة على الصورة فى داخل العين، وتظل تلك العلاقة سارية حتى ينتقل الحسّ البصرى إلى منطقة الاستشعار (الإدراك) النهائى فى الدماغ.



رسم يوضح [illegible] عين الإنسان كما تصورها ابن الهيثم

ويعلق مؤرخ طب العيون اهيرشبرغب على هذا الشرح بقوله: لم أستطع أن أجد عبارة تشير إلى أن أحدا من الناس قد سبق ابن الهيثم أو ماثله فى هذا الشرح الواضح لعملية الإبصار.

وفي عام ١٥٨٩م - أى بعد ابن الهيثم بأكثر من خمسة قرون - نشر الفيلسوف الإيطالى اديلا بورتاب Della Porta من مدينة نابولى كتابا أسماه «السحر الطبيعي» Magic Naturalis، كان كشكولاً حاويا موضوعات عديدة فى فروع مختلفة من العلوم، وذكر فيه إمكان الحصول على صور مقلوبة للمرئيات بواسطة ثقب صغير فى حائل، فعدّه بعض المؤرخين لأجل ذلك - دون سند تاريخي - مخترع «الخزانة المظلمة ذات الثقب»، كذلك كان ليوناردو دافنشى قد وصف فى مذكراته ما أسماه «الصندوق المعتم». لكن الراهب الألمانى اجوهان تزانس J.Zahn هو الذى أدخل بعد ذلك أول تعديل على الغرفة المظلمة ذات الثقب، حيث ركّب على فتحتها عدسة لامة ساعدت على استقامة الصورة ووضوح معالمها على الحائل.



تركيب عين الإنسان — تركيب آلة التصوير الضوئى

أفلام التصوير الضوئى

تتكون الصور الفوتوغرافية للأجسام على شريحة أو طبقة من مادة حساسة للضوء، ولم يتحقق ذلك إلا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى عندما نجح «نيسيفور نيبس» Nicephore Niépce، بالاشتراك مع لويس داجير L. Daguerre، فى استخدام مواد كيميائية حساسة للضوء، وسبقا بذلك إلى استخدام الغرفة المظلمة فى تجارب تهدف إلى التسجيل الضوئى الكيميائى للصور وتثبيتها بأملاح خاصة، وأعلن فى عام ١٨٣٩م عن اختراع أول طريقة عملية للتصوير الضوئى عرفت باسم أنموذج داجيرب Daguerre type. فى هذه الطريقة تم تغطية لوح نحاسى بالفضة. ثم عولج ببخار اليود ليكون حساسا للضوء، واستخدم بخار الزئبق لإظهار الصورة. ثم محلول مركز من ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) لتثبيتها. وشاهد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى تجربة الاختراع الذى عرف به الطريق إلى تسجيل صورة الطبيعة. وأعلن أمين المجمع فرانسوا أراجون F. Ara-

gon أن الاختراع لن يعامل معاملة الأسرار، بل ستقدمه فرنسا هبة منها للعالم كله.

وبرغم أن أنموذج داجيرب كان ثورة تقنية في عالم التصوير الضوئي آنذاك، إلا أن مشكلتين أساسيتين أعاقتا انتشاره: إحداهما كانت الكلفة المرتفعة، والثانية عدم إمكانية تكبير الصورة أو طبع نسخ منها. وفي نفس العام الذي نجح فيه اختراع داجير ظهرت في إنجلترا تقنية التصوير الضوئي التي كتب لها النجاح النهائي على يد وليم هنري فوكس تالبوت W.H.F Talbot وحصل على براءة اختراعه عام ١٨٤١م، وعرف نموذجه باسم كالوتيب Calo type وتتلخص هذه التقنية في مرحلتين هما: الصورة السالبة (نيجاتيف)، ثم الصورة الموجبة، وكانت الصورة السالبة تتم على الورق، ثم تطبع على ورقة أخرى حساسة للضوء بتسليط أشعة الشمس على الصورة السالبة الموضوعة فوقها. وكان تالبوت يستعين بمحلول هيبوكبريتات الصوديوم لتثبيت الصورة، استجابة لنصيحة قدمها إليه العالم الفلكي المعروف السير جون هيرشل Sir John Herschel.

ولم يبدأ التصوير الفوتوغرافي في التطور السريع إلا منذ عام ١٨٤٨م عندما فكر (نيبس دي سان فيكتور Niepce de St. Victor) في استخدام لوحات زجاجية بدلا من الورق لصناعة الصورة السالبة، ثم تلا ذلك مراحل من التطور في صناعة الأفلام الجيلاتينية إلى أن تمكن الانجليزيان ريتشارد ليتش مادوكس R.L. Maddox وجوزيف سوان J.W. Swan في عام ١٨٧١م من اختراع لوح جاف حساس عليه طبقة من بروميد الفضة تثبتها مادة جيلاتينية غليظة القوام. وكان هذا الاختراع خطوة حاسمة في التغلب على العقبة الأساسية التي وقفت في طريق التصوير الفوتوغرافي. وكانت الميزة العظمى التي امتازت بها الألواح الجافة هي تخليصها المصورين الذين يريدون التقاط صور في الخلاء من الغرفة المظلمة المتنقلة التي كان ينبغي عليهم حملها معهم لكي يعدّوا لكل لقطة لوحها.

آلات التصوير التلقائية

تحول التصوير في عام ١٨٨٤م إلى تقنية أكثر بساطة وسهولة عندما استخدم الأمريكي (جورج ايستمان G. Eastman) مادة صناعية لدنة تسمى السيللولويد Cel-luloid، بدلا من اللوح الزجاجي، بعد أن كساها بطبقة حساسة للضوء. وتتابعت التحسينات على آلة التصوير، فصنع إيستمان أول آلة تصوير للهواة عرفت باسم الكاميرا الصندوقية Box Camera، لها عدسة ثابتة البؤرة ومغلق (مصراع) Shutter ذو سرعة وحيدة، وأطلق عليها اسم كوداك Kodak وبمرور الوقت تطورت أنواع الكاميرات الآلية، وشهد النصف الأول من القرن العشرين نماذج عديدة منها، مثال ذلك: الكاميرا الصندوقية (براوني Brownie ١٩٠٠م)، الكاميرا لايكا Leica (١٩٢٥م)، الكاميرا (آرجوس Ar-gus ١٩٣٦م)، بولارويد لاند Polaroid Land (١٩٥٥م).

وفي آلات التصوير الأكثر تقدما يمكن

تغيير الفتحة وزمن التعريض ليتناسبا مع كل من ظروف الإضاءة وحركة الجسم (إن وجدت)، أو كليهما معا. ومن الواضح أن السرعات العالية للمغلق (المصراع) تتيح التقاط صور واضحة للأجسام المتحركة بسرعة، وحيث إن المغلق لابد أن يظل مفتوحا لفترة كافية تسمح بقدر مناسب من الضوء أن يسقط على الفيلم، فإن سرعات المغلق العالية تستوجب أن تكون العدسة كبيرة لكي تمر كمية كبيرة من الضوء خلال زمن قصير جدا إلى داخل الكاميرا.

ويوجد بآلات التصوير الحديثة نظام معقد جدا للعدسات، بدلا من عدسة مفردة أو مزدوجة. ودرجة التعقيد هذه ضرورية إذا أردنا للكاميرا أن تلتقط صورا واضحة وبسرعات عالية للمغلق. ويتم تصميم مجموعة عدسات الكاميرا الحديثة ذات الأداء المرتفع عن طريق حسابات معقدة باستخدام الحاسوب.

من ناحية أخرى، شهدت آلات التصوير الرقمية Digital cameras تطورا كبيرا خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وفيها تستخدم العدسة والفتحة المتغيرة لتركيز الضوء على لاقط إلكتروني للصورة، بدلا من الفيلم الكيميائي في (الكاميرات الفيلمية Film Cameras) كما تتميز (الكاميرات الرقمية Digital cameras) بأنها تظهر الصور على الشاشة في الحال بعد تسجيلها، ويمكنها تخزين آلاف الصور، واستعادتها أو نشرها حسب الطلب. ويحظى هذا النوع من التصوير التلقائي بتطبيقات عديدة في مجالات متنوعة.

التصوير الضوئي الملون

يمكن تصنيف الطرق المختلفة للتصوير الضوئي الملون إلى مجموعتين رئيسيتين مختلفتين في التفاصيل: إحداهما تسمى (الطريقة الجمعية) والأخرى تسمى (الطريقة الاستخلاصية)، وكلتاهما توفران الحصول على صور بالألوان الأولية الثلاثة، وتولد عند اتحادها الصورة الملونة المطلوبة. وتختلف العمليات المتنوعة مثلا في أنه قد يجرى تصوير الجسم ثلاث مرات على التتابع بثلاثة ألوان مختلفة، أو بتعريض الأفلام الثلاثة معا في آلة تصوير خاصة مزودة بجملة عدسات ومرايا لتحقيق ذلك، أو باستعمال فيلم واحد مزود بثلاث طبقات متراكبة من المستحلب، كل منها حساسة للون معين مختلف.

وتحتوي طبقات المستحلب على مواد كيميائية تكون عند تعريضها للضوء صبغات متدرجة طبقا لكمية الضوء. وقد طور الدكتور أدوين لاند E. Land في عام ١٩٦٣م طريقة جديدة للتصوير الملون تبدأ بالصورة السالبة وتنتهي بالصورة الموجبة خلال دقيقة واحدة فقط، وفيها يغطى الفيلم بثلاث طبقات حساسة للضوء الملون



تحتوى على بلورات هالوجينات الفضة وثلاث طبقات تحتوى على الصبغات والمظهرات وطبقتين وسيطتين. وتجمع جزيئات الصورة السالبة المواد الكيميائية الحساسة للألوان والمواد اللازمة للتحميض. أما الصورة الموجبة فتتكون من ثلاث طبقات، من بينها طبقة حمضية قلوية تولد فى المرحلة الأخيرة قبل انتهاء الدقيقة الماء اللازم لغسل الصورة.

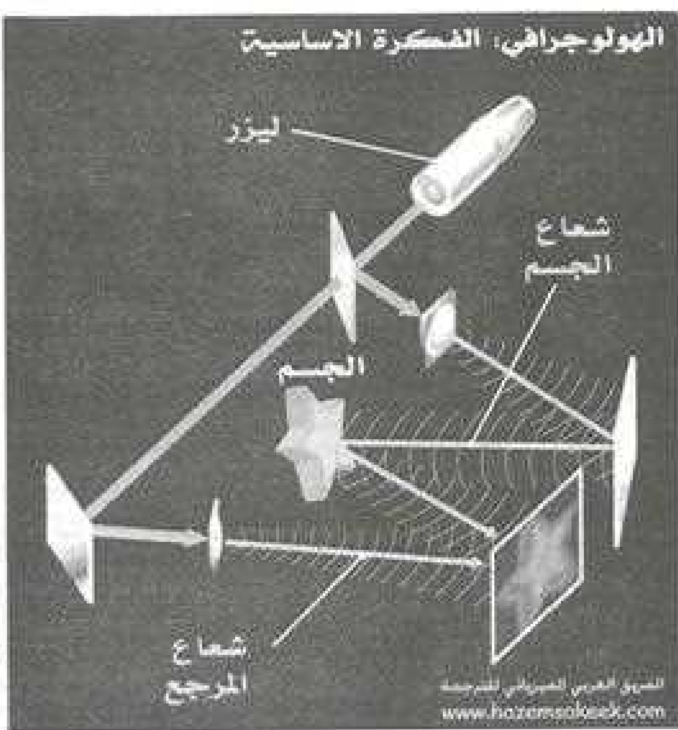
لقطات فوتوغرافية تاريخية

فى عام ١٨٧٢م طلب محافظ كاليفورنيا من المصور الفوتوغرافى الإنجليزى (إدوارد مويبردج E. Muy-bridge) أن يعينه على حسم موضوع تراهن بشأنه مع نفر من أصدقائه وهو: معرفة ما إذا كان يرفع الحصان حوافره الأربعة معا عن الأرض عندما يركض أم لا. فوضع المصور على مضمار حلبة السباق ٢٤ آلة تصوير، الواحدة بجوار الأخرى، وربط فتحاتها بخيوط حتى يتمكن من تشغيلها الواحدة تلو الأخرى أثناء جرى الحصان أمامها. وكلفت التجربة المحافظ كثيرا، ولكنه ربح الرهان إذ بينت الصور أن الحصان الراكض يرفع حوافره الأربعة جميعا عن الأرض لمدة جزء صغير جدا من الثانية فى كل ركضة. ونشر مويبردج الصور الفوتوغرافية التى التقطها للحصان فى كتاب بعنوان (الحصان فى حالة حركة) أثار الاهتمام فى كل الأوساط المهتمة بصور الحركة.

ومثال آخر لأصعب اللقطات الفوتوغرافية فى تاريخ التصوير: هى تلك التى سجلت للناحية الأخرى من القمر، ونقلت إلى الأرض لاسلكيا من المركبة الفضائية الونيكب فى اكتوبر من عام ١٩٥٩م. وكانت هذه المركبة الفضائية تحمل آلة تصوير بعدستين، ومعدات للتحميض والتثبيت، وصماما مهبطيا صغيرا جدا، وعديدا من الأجهزة الإلكترونية مثل كاشفة الصور، ومعدات التحكم التلقائى، وقياس الزمن، وجهاز لإرسال الصور. والتقطت الصور على بعد ٦٥٠٠٠ كيلومتر من القمر، وتم تصوير الفيلم كله فى أربعين دقيقة أثناء إيقاف المركبة الدوارة بواسطة دواميات موجهة بفعل الحاسوب، ثم انتقلت إلى الأرض حيث تناولها جهاز استقبال لاسلكى خاص وترجمها إلى صور مرئية.

التصوير المجسم بالليزر (الضوء المركز)

التصوير المجسم هو الذى يظهر الأجسام بحالتها الطبيعية فى الفراغ ثلاثى الأبعاد، وهو عبارة عن تقنية لتخزين صور الأشكال المختلفة على الفيلم بطريقة تختلف عن الطرق التقليدية المتبعة باستخدام كاميرات التصوير الضوئى، حيث إنه من المعروف فى عمليات التصوير الفوتوغرافى أنه يستعان بمصدر للضوء الأبيض الذى يصدر خليطا من الألوان يمتد طيفه الموجى من الأشعة فوق البنفسجية وحتى مدى الأشعة تحت الحمراء، مارا بباقى ألوان الطيف. ولذلك لا يمكن تسجيل أبعاد العمق



للشئ المنظور، أى: لا يمكن تجسيمه.

أما فى طريقة التصوير المجسم بالليزر (أو الهولوغرافيا Hologra-phy)، فإن تفاصيل المنظور يتم إضاءتها بالضوء الليزرى، حيث يتم احتواء تفاصيل التعرجات النسبية للجسم المنظور وأعماق أجزائه.

ودونما دخول فى التفاصيل العلمية الدقيقة لتفسير عملية التصوير المجسم بالليزر، وتطور التقنيات المتتابعة لتحسين جودة الصورة المجسمة المنتجة التى تتأثر بجسيمات الغبار المترسب على العدسات أو فى الهواء، أو تتأثر بوجود بعض الشوائب فى الزجاج المستعمل، والتغلب على العوامل التى تسبب انحرافا أو انحناء لحزمة أشعة الليزر وتنتج عنه أشكال غريبة، فإن استعمال الزجاج المصقول النقى، واتباع التنظيف الدقيق للعدسات، ساعدا على معالجة بعض العيوب التى تظهر على هيئة بقع مضيئة على الصورة المجسمة.

ومن مميزات التصوير المجسم أنه يكفى إضاءة جزء صغير من لوحة الهولوجرام لكى ترى صورة الجسم بوضوح. ويساعد نظام مسارات الأشعة الليزرية على رؤية الصورة من زوايا إبصار مختلفة، وأيضا يمكن تسجيل أكثر من صورة على لوحة هولوجرافية واحدة، مع ملاحظة أن العين ترى صورة واحدة لكل زاوية إبصار. وهذا عكس ما يحدث عندما يتم إضاءة اللوحة الهولوغرافية بالضوء الابيض، حيث يمكن للعين أن ترى صورة للجسم بألوان مختلفة طبقا لزاوية الإبصار.

ويستعان حاليا بالتصوير الليزرى المجسم فى كافة المجالات، ففى الصناعة يستخدم فى تصميم نماذج الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية والدوائر الإلكترونية، وفى مجالات الإنشاءات يستخدم فى عمل نماذج العقارات، وفى المجال الطبى يستخدم فى تصوير الأجزاء الدقيقة فى الجسم، إلى آخره. كما يستخدم فى مجال صناعة السينما المجسمة، وفى منظومات الاحتراس والأمن، وفى المعاملات المالية حيث تمنح البنوك عملاءها تذكرة الأرصدة بتوقيعات أصحابها المجسمة، والتى لا يمكن تزويرها بسبب دقة الطريقة الليزرية.

كاميـــرا الفمتـــو

في عام ١٩٩٩م حصل أحمد زويل على جائزة نوبل في الكيمياء، وجاء في حيثيات منح الجائزة التي أذاعتها الأكاديمية السويدية للعلوم في مؤتمر صحفي أن أعمال البروفيسور أحمد زويل قد أحدثت ثورة في الكيمياء والعلوم المتصلة بها، واستخدمت تقنية زويل فيما يمكن وصفه بأسرع كاميرا في العالم لرؤية تحركات ذرات المادة بعد أن كنا نتخيلها، وبالتالي لم تعد هذه الذرات أشياء غير مرئية، وكان ذلك باستخدام نبضات الليزر بالمقياس الزمني الذي تتم به التفاعلات الكيميائية بالفعل، وهو مقياس الفمتو ثانية التي تساوي جزءاً من ألف مليون مليون جزء من الثانية.

لقد اقتحم زويل بهذه الكاميرا عالم المتناهيات في الصغر على مستوى الذرة وتفاعلاتها الكيميائية التي تقع في حدود الفمتوثانية، وهي تعادل سُمك شعرة يجتازها شعاع ليزر يقطع المسافة بين الأرض والقمر جيئة ذهابا، أو هي لقطة لصورة snap shot مقدارها ثانية واحدة على شريط سينمائي يستغرق عرضه ٣٢ مليون سنة.

إن مجرد دراسة معدل التفاعلات الكيميائية قبل هذا الاختراع لم يقدم للكيميائيين صورة تفصيلية لسلوك الذرات والجزيئات الداخلة في تلك التفاعلات، ومن ثم فإنه يمكن تتبع التفاعل من خلال الحالات الانتقالية ورؤية ذلك مباشرة باستخدام نبضات ليزر قصيرة في حدود الفمتوثانية، حيث يمكن بدقة تسجيل لقطات متتابعة وتقدير طاقة الوضع السطحي للجزيئات المثارة قبل وأثناء وبعد التفاعل في المسافة بين



الجزيئات المتفاعلة التي تصل إلى بضعة أجزاء من البيكومتر (١٠-١٢م). ويتيح التسجيل الفوري بكاميرا الفمتو لمواقع تساوي الطاقة الانتقالية بين الجزيئات المتفاعلة ونواتج هذا التفاعل فهماً أفضل لديناميكا الروابط الكيميائية.

وقد نجح أحمد زويل مؤخرا، مع فريقه البحثي في معهد كاليفورنيا للتقنية، في استحداث طريقة جديدة للتصوير الليزري على مستوى الذرات في الزمكان (أي في نفس المكان والزمان) رباعي الأبعاد، وبذلك تتحول الصورة الساكنة إلى أفلام ترصد سلوك المادة وهي تتكشف بمرور الزمن. وبإمكان هذه الطريقة الجديدة في المستقبل القريب أن تظهر المنظومات الذرية للبنى النانوية Nano struc-tures، وأن تقتفي حركة الإلكترونات الطوافة ضمن الذرات والجزيئات على المقياس الزمني من رتبة آتوثانية (أي ١٠-١٨ثانية).

ومن يستقرئ تاريخ العلم والتقنية سوف يعرف أن كاميرا الفمتو التي اكتشفها أحمد زويل هي الجيل الأحدث لأول آلة تصوير ضوئي وضع نظريتها سلفه العربي المسلم الحسن بن الهيثم منذ حوالي ١٠٠٠ سنة وسماها (البيت المظلم).

تأملات في السيرة

غـــزوة أحـــد

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدي

رأى النبي ﷺ رؤيا في منامه قصها على أصحابه، ثم قال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتجعل النساء والذرية في الآطام، فإن أقاموا - أي العدو - أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ورماهم النساء والصبية من فوق الصياصي والآطام، وكان هذا رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار، وقال جماعة من المسلمين غالبيتهم أحداث صغار، لم يشهدوا بدرا وطلبوا الشهادة، وأحبوا لقاء العدو: (يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبُنا عنهم)، فقال عبدالله بن أبي بن سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا، فقال حمزة بن عبدالمطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك، في طائفة من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا، ويروى أن النعمان بن مالك قال: (يا رسول الله لا تحرمنا الجنة فوالذي نفسي بيده لأدخلنها، فقال رسول الله ﷺ: بِمَ؟، قال: لأني أحب الله تعالى ورسوله، ولا أفر يوم الزحف فقال رسول الله ﷺ: صدقت)، فاستشهد يومئذ، ثم دخل رسول الله ﷺ بيته ومعه أبوبكر وعمر - رضي الله عنهما - فعمماه وألبساه، وقد صفَّ الناس ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فقال بعضهم استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، وقلتم ما قلتم، والوحي ينزل عليه من السماء فردوا الأمر إليه، فما أمركم به فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى فأطيعوه، فبينما هم على ذلك، إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لامته ولبس الدرع وحزم وسطه بمنطقة واعتم وتقلد السيف، وندم الناس على إكراهه، فقالوا: يا رسول الله استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله ﷺ: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ولا ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه امضوا على اسم الله تعالى فلكم النصر ما صبرتم، ثم دعا ﷺ بثلاثة رماح، وعقد ثلاثة ألوية، لواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر، ويقال سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة بن أم مكتوم، ثم سار رسول الله ﷺ بالجيش وعَرض عليه عسكره فاستصغر غلمانا فردهم وأجاز من هم أكبر منهم سنا، ثم قال

رسول الله ﷺ من رجل يخرج بنا من كثيب لا يمر بنا على الأعداء، فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله. فسلك بهم فى حرة بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك فى ماء مربع بن قيظى، وكان منافقا ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين قام يحثو التراب فى وجوههم، ويقول: إن كنت رسول الله ﷺ فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى، وذكر أنه أخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قال: والله لو أعلم أنى لا أصيب غيرك لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، وأثناء سير النبى ﷺ إلى أرض المعركة انخزل عبدالله بن أبى ابن سلول بثلث الناس، وقال: أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس ها هنا؟ فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب، ويقال إنه نزل فيهم قوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

(آل عمران: ١٧٩)

وبقى رسول الله ﷺ فى سبعمائة مقاتل وفرسه، وفرس بن أبى بردة، وقيل لم يكن مع المسلمين فرس ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصف المسلمين، وحانت الصلاة والمسلمون يرون المشركين، فأذن بلال وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصبح صفوفا، ثم قام رسول الله ﷺ خطيبا، وكان مما قال: (أيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله تعالى به فى كتابه، ومن العمل بطاعته والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه)، واشتملت خطبته ﷺ على مواعظ وعبر، يتضح منها أن النبى ﷺ لم يخرج للحرب وإنما هو داعية ورسول ومبلغ.

وكان مما قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا، وما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، وما أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ومن صلى على صلاة صلى الله عليه وملائكته عشرا)، ثم اختار رسول الله ﷺ خمسين رجلا من الرماة وقال لهم: (انضحوا الخيل عنا لا يأتونا من ورائنا، إن كانت لنا اثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم فالزموا مكانكم لا تبرحوا عنه، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل فى عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم اللهم اشهدك عليهم)، ثم أمر عليهم عبدالله بن جبير، وهو أخو بنى عمرو بن عوف، وهو رام معلم يومئذ بثياب بيض، ورغم أن النبى ﷺ داعيا للحرب ولا راغبا فيها، إلا أنه وقد وجد نفسه ﷺ قد فرضت عليه فرضا فلا بد أن يتأهب لها، ويعد أصحابه ويخوض غمارها جسورا غير هياب، ولقد تأهب ﷺ للمعركة وأعد أصحابه لها وكانت نظرته إلى مسرح العمليات، وموقع العدو وموقع أصحابه يدل على وعى بالحرب وفنونها، واستيعاب كامل لميدان المعركة، وضح ذلك فى وصيته للرماة والتشديد على

ألا يبرحوا مكانهم، مهما كانت الظروف، حيث إنه أدرك أن مكان الرماة هو مفتاح النصر أو الهزيمة، لكن إرادة الله كانت فوق كل تدبير وتحذير، وهو درس استفاده المسلمون فى هذه الموقعة، وفى كل موقعة حتى يوم الدين، وأهم ما فيه - إلى جانب أنه مهم - هو طاعة القائد وعدم الإغترار بالنصر، حتى تضع الحرب أوزارها، ولقد كان النصر مع المسلمين والمعركة تدور فى صالحهم، وقد هزم الأعداء رغم كثرة عددهم وعدتهم، حتى خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وتركوا مواقعهم، فاهتبل الفرصة عكرمة وخالد بن الوليد. ويروى أن النبى ﷺ عرض سيفه يوم أحد، وقال من يأخذ هذا بحقه، فقام إليه رجال فأعرض عنهم، ثم قام أبودجانة فقال: يا رسول الله وما حقه؟، فقال: أن تضرب العدو حتى ينحنى، قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فقال: رسول الله ﷺ: لعلك إن أعطيتكه تقاتل فى الكيول - يعنى يستحسه النبى ﷺ ألا يقاتل به الجبناء الجالسين آخر الصف، بل يدخل به فى غمار الحرب - فقال أبودجانة: لا، فأعطاه إياه، وكان أبودجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب وكانت له عصابة حمراء يعلم بها يعتصب بها عند الحرب فإذا اعتصب بها عرف الناس إنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ أخرج عصابته فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبودجانة عصابة الموت، ثم جعل يتبختر بين الصفين - أى يمشى بعزة وخيلاء - فقال النبى ﷺ حين رآه يتبختر: إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن، وكان يقول وهو يتبختر:

أنا الذى عاهدنى خليلى
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول
أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يمر بشىء إلا قتله وفتك به وفلق بسيفه هام المشركين، وكان السيف إذا كل شحذه بالحجارة، ثم ضرب به العدو كأنه منجل، وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحا من المسلمين إلا أجهز عليه، فالتقى مع أبى دجانة، فضرب المشرك أبى دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبودجانة فقتله، ويروى أنه حمل على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها، فقال له رجل: كل سعيك رأيته فأعجبنى إلا أنك لم تقتل المرأة، فقال: رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول (فإذا امرأة) فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها. ويروى أن رجلا من المشركين خرج فدعا إلى المبارزة فأحجم الناس عنه حتى دعا ثلاث وهو على جمل له، فقام إليه الزبير بن العوام فوثب كأنه طائر حتى استوى معه على بعيره فعانقه، فاقتتلا ووقع المشرك فوقع الزبير عليه فذبحه، فأثنى عليه رسول الله ﷺ، فقال: إن لكل نبى حواريا وحوارى الزبير، وقال: لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه.

هذه بعض مواقف وأحداث فى غزوة أحد، سردناها حتى يعلم المسلمون أولا، والناس ثانيا، أنهم رغم قلة عددهم فإن الله ناصرهم، وقد أبلوا بلاء حسنا رغم قلة عددهم وعدتهم، ومازال التأييد من الله ورسوله.

وإلى لقاء آخر مع حكايات كثيرة وبطولات أكثر إن شاء الله

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ/ محمد جمعة - أ/ علا عبد الرحمن

العثور على إنجيل يحوى نبوءة عيسى بالنبى محمد ﷺ

تحت هذا العنوان جاء التقرير الإخبارى المنشور بجريدة الأهرام المسائى الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٢/٢٧م يتضمن ما يلى:

عثر فى تركيا على نسخة نادرة من الإنجيل مكتوبة باللغة الآرامية وتعود إلى ما قبل ١٥٠٠ عام، تشير إلى أن المسيح عليه السلام تنبأ بظهور النبى محمد ﷺ من بعده حسبما أفاد الموقع الإلكترونى لقناة العربية الإخبارية.

ونقلت العربية عن صحيفة «ديلى ميل البريطانية» أن الحدث يشغل الفاتيكان، حيث طالب البابا بنديكتوس السادس عشر معاينة الكتاب الذى بقى مختفيا أكثر من ١٢ عاما.

وقال وزير الثقافة والسياحة التركى أرطغرل جوناى: إن الكنيسة المسيحية عمدت إلى إخفائه طيلة السنوات الماضية لتشابهه الشديد مع ما جاء فى القرآن الكريم بخصوص ذلك.

وهذه النسخة من الإنجيل تصف المسيح بأنه بشر وليس إلها يعبد وأن عيسى تنبأ بظهور النبى محمد من بعده.

وجاء فى نسخة الإنجيل أن المسيح أخبر كاهنا سأله عمن يخلفه، فقال: محمد هو اسمه المبارك، من سلالة إسماعيل أبى العرب، وذكر جوناى أن الفاتيكان طلبت رسميا معاينة الكتاب الذى أصبح بحوزة السلطات التركية، بعد اختفائه عام ٢٠٠٠ بمنطقة البحر المتوسط فى تركيا، واتهمت حينها عصابة من مهربى الآثار بسرقته خلال الحفريات غير الشرعية وتتم محاكمتهم حاليا.

وقال القس إحسان أوزبك لصحيفة زمان التركية: إن نسخة الإنجيل تعود إلى أحد أتباع القديس برنابا؛ لأنها كتبت فى القرن الخامس أو السادس، بينما عاش برنابا فى القرن الأول للميلاد لكونه أحد تلاميذ المسيح.

والجدير بالذكر أنه نشر فى جريدة البيان الصادرة بتاريخ: ٢٧ / ٢ / ٢٠١٢م تعليقا على خبر العثور على نسخة من الإنجيل الذى يعترف بنبوة محمد ﷺ فجاء تحت عنوان (الإنجيل الذى يعترف بنبوة محمد يتناقض مع القرآن) مايلى:

أهم ما فى خبر الإنجيل الذى «يعترف بنبوة محمد» ونقلته «العربية. نت» عن

صحيفة «ديلى ميل» البريطانية التى قامت بدورها بنسخ بعضه عن «زمان» التركية، أنه «قد» يكون النسخة الأصلية لإنجيل مثير للجدل ومعروف منذ مئات السنين. وهو «إنجيل برنابا» الذى أهمله علماء المسلمين منذ أطلعوا على ترجمته العربية التى صدرت قبل ١٠٠ عام. لما احتواه من تناقضات مهمة مع القرآن.

ومترجم الإنجيل إلى العربية هو اللبنانى الدكتور خليل سعادة، الذى ترجمة لأول مرة فى ١٩٠٨ حين كان مقيما فى القاهرة قبل هجرته إلى البرازيل حيث توفى فى ١٩٣٤ بسان باولو، وهو والد أنطون سعادة مؤسس الحزب السورى القومى الاجتماعى.

وأهم ما ذكرته صحيفة «زمان» أن أحدا لم يقل إن النسخة هى أصلية «إنجيل برنابا» الذى اشتهر عبر التاريخ باعترافه بنبوة الرسول الأعظم، علما بأن المسلمين ليسوا فى حاجة لأن يعترف غير القرآن برسالة خاتم الأنبياء، إنما الذى ورد فى «زمان» التركية تلميح إلى أن هناك «إمكانية» بأن تكون المخطوطات هى أصلية «إنجيل برنابا» الشهير.

كما لم يرد فى «زمان» أيضا أن الفاتيكان طلب نسخة عن المخطوطات، إنما «طلب السفير الفاتيكانى بأنقرة من السلطات التركية فحصها وإعلام الحاضرة الفاتيكانية بحقيقتها». كما ورد فى «زمان» أيضا أن وزير الثقافة، أرتوغرول غوناى، كشف بأن السلطات التركية ضبطت المخطوطات مع عصابة كانت تقوم فى ٢٠١٠م بتهريب ما خف وزنه وغلا ثمنه عبر الحدود فى الجنوب التركى، ومن بينها ما يعتقدون أنه إنجيل برنابا.

وقال أرتوغرول إن وزارته طلبت «نسخة» من المخطوطات التى تم إيداعها قبل عامين فى مخزن تابع لوزارة العدل، واحتفظت وزارته بالنسخة فى متحف لعلم الإنسان التطبيقى «وهى مهترئة وتحتاج إلى ترميم، وعندما ننتهى من ترميمها سنعرضها على الملأ، وفق تصريحه الذى شمل اعتقادا منه بأن يكون عمر المخطوطات ١٥٠٠ عام».

بعض الفلاحين فى قرية أوليدير (كيلابان الكردية) وهى فى منطقة حكارى المعروفة للأتراك باسم «شيرناك»، والواقعة على الحدود مع العراق، عثروا فى ١٩٨١، داخل أحد الكهوف على المخطوطات مكتوبة على رقائق جلدية بأحرف آرامية مذهبة، وهى اللغة التى كانت سائدة زمن المسيح فى فلسطين القديمة، ثم اختفى أثرها إلى أن تم ضبطها مع عصابة التهريب.

وإذا تم التأكد بأن المخطوطات هى النسخة الأصلية لإنجيل برنابا الشهير، وهذا صعب التصديق، لأن معظم الدراسات تؤكد بأنه كتب قبل ٥٠٠عام فقط وهو برغم توافقه مع القرآن فى نقاط كثيرة، وأهمها اعترافه بنبوة محمد، إلا أنه يتناقض مع القرآن نفسه، وأشهر المشككين به كان الكاتب المصرى الراحل، عباس محمود العقاد، فكتب فى جريدة «الأخبار» عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٥٩ موضوعا عنه لخص تناقضاته بإيجاز حاسم.

وأهم ما كتبه العقاد: «إن وصف الجحيم فى إنجيل برنابا يستند إلى معلومات متأخرة لم تكن شائعة بين اليهود والمسيحيين فى عصر الميلاد، وأن بعض العبارات الواردة به قد تسربت إلى القارة الأوربية نقلاً عن المصادر العربية بحسب تعبيره.

وأضاف أيضا أن أخطاء تكررت فى هذا الإنجيل «لا يحملها اليهودى المطلع على كتب قومه، ولا يرددها المسيحى المؤمن بالأناجيل المعتمدة من الكنيسة، ولا يتورط فيها المسلم الذى يفهم ما فى إنجيل برنابا من المناقضة بينه وبين نصوص القرآن».

وهناك دراسات كثيرة تؤكد أن «إنجيل برنابا» هو هرطقة من يهودى فى أوروبا بالعصور الوسطى وكان على شىء من الإطلاع على القرآن وأناجيل المسيحية الأربعة، فكتب خالطا الحابل بالنابل ولا أحد يعرف ماذا كانت نواياه.

إنقاذ الأقصى ونموذج صلاح الدين

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور إبراهيم البحراوى المنشور بجريدة المصرى اليوم الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٢/٢٨م يقول:

فى أعقاب الخطبة التى ألقاها إسماعيل هنية فى الجامع الأزهر، داعيا علماء مصر إلى أن يقودوا تحرير المسجد الأقصى من منبر الأزهر إلى منبر صلاح الدين، قامت قوات الشرطة التابعة للاحتلال الإسرائيلى فى القدس باقتحام المسجد الأقصى وإطلاق قنابل الغاز على المصلين، الذين راحوا يذودون عن الحرم القدسى بما يملكون من قوة الإيمان والحجارة.

وبالطبع اعتبر بعض المراقبين أن عملية الاقتحام جاءت كرسالة للرد على خطبة هنية، وهو أمر غير مستبعد، خاصة أن العقلية الإسرائيلية السياسية يستفزها دائما ذكر صلاح الدين الأيوبى، الذى قاد جيوشه من مصر، ونجح فى تحرير القدس من قبضة الصليبيين.

الساسة الإسرائيليون ومعهم المؤرخون والباحثون الاستراتيجيون يعتبرون الإشارة إلى صلاح الدين تهديداً بإزالة كيانهم، ولأنهم يأخذون الأمر على محمل الجد، فإن جهودهم تنصب على إجهاض الظروف التى يمكن أن تهيئ لظهور قيادة تحمل سمات صلاح الدين وقدراته على توحيد العرب فى مصر والشام، وتجهيز جيش قادر على هزيمتهم.

لقد استخدم «هنية» فى خطبته القياس التاريخى كاملا عندما أشار إلى أنه كلما وقعت فلسطين تحت الاحتلال على مدار التاريخ فإن الله - عز وجل - يسخر لها جيشا من خارجها ليحررها، كما فعل صلاح الدين.

هذا المنطق بالتحديد يخضع للدراسة والتشريح فى إسرائيل منذ زمن بعيد، ويعمل الإسرائيليون على إحباطه فى ساحة الواقع من خلال التركيز على قوة التكنولوجيا العسكرية القادرة على تحييد دور الكثرة العددية لدى العرب، التى كانت أحد عوامل نجاح صلاح الدين، إن العقيدة الاستراتيجية الإسرائيلية الخاصة ببقاء دولة إسرائيل لا تقوم فقط على شراء أو امتلاك

قوة التكنولوجيا العسكرية المتطورة، وباستمرار، بل إنها تسعى بقوة للأهداف التالية:

١ - إرساء البنية الأساسية العلمية والصناعية والبشرية والاقتصادية اللازمة لقيام الإسرائيليين بإنتاج وتطوير الأسلحة المتقدمة بأنفسهم.

٢ - العمل على حرمان الدول العربية والإسلامية من امتلاك التكنولوجيا العسكرية الأكثر تطورا سواء عن طريق الشراء من الأسواق العالمية، أو عن طريق إرساء البنية الأساسية لإنتاج هذه التكنولوجيا.

كما أن هذه المهمة تتم أيضا بسبب فشل النظم الحاكمة فى تطوير الحياة العلمية والبشرية والصناعية فى الدول العربية.

٣ - إحكام المراقبة على الدول العربية والمسارعة إلى تصفية أى منشآت تكنولوجية تنذر بامتلاك أسلحة متطورة، كما حدث فى العراق بتدمير المفاعل النووى، وأيضا المسارعة إلى التخلص من القوى العلمية والبشرية المتفوقة، والقادرة على إنتاج التكنولوجيا العسكرية العربية، ويظهر ذلك فى عمليات اغتيال العلماء الألمان، الذين استعانت بهم ثورة يوليو ١٩٥٢ لبناء منظومة صواريخ، كما يظهر فى اغتيال العلماء المصريين والعراقيين العاملين فى مجال التكنولوجيا النووية، بالإضافة إلى استخدام وسائل الغواية المالية والإغراء العلمى والمعنوى لسرقة العقول العربية المتميزة، ودفعها للهجرة من مجتمعاتها.

السؤال الذى يواجهنا هنا هو كيف يمكننا أن ننطلق إلى مجالات الوحدة الجادة والتنمية العلمية والبشرية والصناعية والتكنولوجية بما يحول الطاقات الكامنة فى مجتمعاتنا إلى قوى فاعلة دون أن تتعرض للإجهاض أو الاصطياد من جانب فخ العقيدة الصهيونية الواعية بخطورة تكرار نموذج جيش صلاح الدين ودولته الموحدة والمنيعة التى ارتكزت على مصر والشام؟

إن الإفلات من مصيدة العقيدة الاستراتيجية الصهيونية التى تشارك فيها القوى الكبرى المؤسسة والداعمة لدولة إسرائيل حتى يومنا هذا مهمة ذات حيوية مطلقة أضعها أمام المفكرين والمخططين الجدد فى عصر الثورات العربية، وإلى أن تنتج العقول المبدعة استراتيجية مصرية وعربية، للتنمية والإنتاج السلمى والعسكرى، قادرة على الفكاك من القيود والفخاخ الصهيونية والدولية، ووضع مصر على الأقل فى مصاف الدول العشرين الأكثر تقدما فى إنتاج التكنولوجيا السلمية والعسكرية، فإننى أدعو إلى الممكن الآن وهو الاعتماد على الجهود الشعبية السلمية لإنقاذ المسجد الأقصى من مخططات الهدم والتدمير، وذلك بإنشاء جمعيات أهلية تختص كل منها بإحدى المهام العاجلة اللازمة لإنقاذ الحرم القدسى من قبضة جمعيات أنصار الهيكل التى تجاوز عددها العشر، والتى تعمل على تفريغ القدس من سكانها العرب باعتبارهم خط الدفاع الأول عن الأقصى، وتسعى إلى تدميره لبناء الهيكل اليهودى

جمادى الأولى ١٤٣٣هـ
أبريل ٢٠١٢م

مكانه، إننى أضع أمامكم حقيقة أن الضغوط الإسرائيلية التى تجمع بين الجمعيات اليهودية المتطرفة والحكومات الإسرائيلية تستهدف إرغام ثلاثمائة ألف عربى مقدسى يملكون دوراً فى المدينة، على الرحيل من خلال التجويع والحرمان الاقتصادى.

ترى هل يمكننا أن ننجح فى تثبيتهم بجمع التبرعات اللازمة لتوفير مصادر العمل والرزق لهم؟

الأقصى المعركة الأخيرة

تحت هذا العنوان جاءت افتتاحية الاهرام العربى الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٣/٣م تتضمن ما يلى:

تخوض إسرائيل معركة جديدة ضد العرب والمسلمين. معركة فاصلة اختارت مكانها وزمانها. عنوانها «المسجد الأقصى». فقواتها المسلحة اقتحمت مسجد قبة الصخرة، ووجدت هناك النساء - قبل الرجال - وهن يدافعن عنه. وحدهم الفلسطينيون فى المواجهة.

وإسرائيل حسب محلليها الاستراتيجيين و أجهزة مخابراتها، ترى أن اللحظة الحالية فرصة سانحة للانقضاض على رمز العرب والمسلمين، وأن اختيار المسجد الأقصى «بالون اختبار» عظيما لبسط نفوذها العملى فى الشرق الأوسط، فأولى القبلتين وثالث الحرمين يهدد بالاحتلال والتهويد، والعرب والمسلمون جميعا فى حروب أهلية خاصة تحت مسمى «ثورات ربيع».

والجنرال عاموس يادلين، جنرال إستراتيجى خطير، ينصح إسرائيل بأن تتخذ إستراتيجية سلبية لا تجزع مما يجرى فى دول الطوق حول إسرائيل، فحسب وصفه إنها ثورات لا تعادى الغرب ولا إسرائيل، بل هى مشغولة بالداخل، ويرى أن الإسرائيليين قد يجزعون فى المدى القصير، لكن على المدى البعيد فهذه الثورات تصب فى صالح إسرائيل، لأنها لا ترفع شعار الحرب أو التخلى عن الاتفاقات السياسية مثل كامب ديفيد أو أى اتفاقات أخرى وقعتها هذه الأنظمة مع إسرائيل فى السابق.

أحد الخبراء الإسرائيليين ينصح قادة الجيش والدولة العبرية بضرورة انتهاز الفرصة السانحة والانقضاض على ما تبقى من فلسطين، أولا الضفة الغربية تذهب إلى الأردن، أى ما تبقى منها تحت سلطة أبومازن الهشة، وثانيا ضم غزة إلى مصر للتخلص من صداعها.

يبدو أن اقتحام باحة قبة الصخرة دون تحرك إعلامى كبير على الأقل فى الصحافة العربية المشغولة بمعارك صغيرة فى الداخل، يعنى أن إسرائيل لم تعد فى حاجة إلى الخوف، فالإستراتيجية السلبية التى تنتهجها آتت بثمارها المرجوة، فلا أحد يهتم بإسرائيل، كما قال يادلين، لأن الشعوب العربية غاضبة من حكامها وليس إسرائيل.

قالوا عن محمد ﷺ

أ.د. عماد الدين خليل



نصرى سلهب

(١) «فى مكة.. أبصر النور طفل لم يمر ببال أمه - ساعة ولادته - أنه سيكون أحد أعظم الرجال فى العالم بل فى التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقاً..»(١).

(٢) «هنا عظمة محمد (ﷺ) لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد فى التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة»(٢).

(٣) «.. هذ الرجل الذى ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج، أن يرسى قواعد دولة، وأن يشرع قوانين ويسن أنظمة، ويجود بالتفاسير والاجتهادات.. ولم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات - كان بذلك كله - عالما قائما بنفسه»(٣).

(٤) «تراثك يا ابن عبدالله ينبغى أن يُحيا، لا فى النفوس والقلوب فحسب، بل فى واقع الحياة، فيما يعانى البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب كل مشكلة، مهما استعصت وتعقدت، تجد لها فى آثارك حلاً»(٤).

(٥) «.. لم يكن النبى (ﷺ) رسولاً وحسب، يهدى الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيماً وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس، وكان له ما أراد»(٥).

أحمد سوسة

(١) «..أى غاية أسمى وأقرب إلى الإنسانية ودين الله من تلكم الغاية التى كان يرمى إليها الرسول ﷺ فى توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟ لنتصور محمدا ﷺ وهو يملى على أهل الكتاب وحى الله قائلاً:

١. فى خطى محمد، ص٤٢.
٢. نفسه، ص١٩٦.
٣. نفسه، ص٢٧٣، ٢٧٤.
٤. نفسه، ص ٢٩٦.
٥. نفسه، ص٤٠٩.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٦]

(آل عمران: ٦٤)

(٢) «.. إن نبى الإسلام شخصية تاريخية مبجلة. وما حياة الرسول ﷺ سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن، نبيلة المرمى، يتجلى فيها مقامه السامى من الحلقة الإنسانية..»[٧].

(٣) «.. كان محمد ﷺ أنموذجاً للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة، بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة، وإن تضحياته فى سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سمو ذاته، ونبل مقصده، وعظمة شخصيته، وقدسية نبوته»[٨].

(٤) «إن التاريخ ينبؤنا أن محمداً (ﷺ) ضحى بكل شيء من أجل رسالته، إذ أتيحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين: أولهما: حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ «دعوته». وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثانى؛ لأن إيمانه برسالته كان قويا وكان قد أوحى إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة إلى الإنسانية جمعاء، فكان ما أراد الله له»[٩].

لويس سيديو

(١) «لقد حل الوقت الذى توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة، التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسية، فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون، ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد (ﷺ)..»[١٠].

(٢) «.. لم يعد محمد (ﷺ) نفسه غير خاتم لأنبياء الله «عليهم السلام» وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة فى الإتيان بالمعجزات، مع أن محمداً (ﷺ) لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجا على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!»[١١].

(٣) «.. إن محمداً (ﷺ) أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق، ومن مفاخر محمد (ﷺ) أن أظهره قويا أكثر مما أظهره أى مشترع آخر..»[١٢].

(٤) «.. ما أكثر ما عرض محمد (ﷺ) حياته للخطر انتصاراً لدعوته فى عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال فى واقعة أحد، حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه.. وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله فى معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيى قوة إرادته ومتانة خلقه.. وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان (ﷺ) حليماً معتدلاً، وكان يأتى بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضج من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً، فلا ينم ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحى فى كل مرة باحترام القوم له.. ودل (ﷺ) على أنه سياسى محنك..»[١٣].

(٥) «بدت فى بلاد العرب أيام محمد (ﷺ) حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرى على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة»[١٤].

هنرى سيروى

(١) «محمد (ﷺ) لم يغرس فى نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب»[١٥].

(٢) «محمد (ﷺ) شخصية تاريخية حقه، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان فى ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل وقبل مماته أراد أن يطهر ضميره من كل هفوة أتاها، فوقف على المنبر مخاطبا: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحدا فهاكم ظهرى فليأخذ ثأره، أو سلبته مالا فمالى ملكه. فوقف رجل معلنا أنه يدينه بثلاثة دراهم، فرد الرسول (ﷺ) قائلا: أن يشعر الإنسان بالخجل فى دنياه خير من آخرته. ودفع للرجل دينه فى التو. وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد (ﷺ) لدوره كنبى يرينا بأن «رينان» كان على غير حق فى نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين براثن الجهل والخرافات..»[١٦].

(٣) «إن المحاولة الإسلامية فى التاريخ ذات أثر كبير، والعبقرية العربية تجد فى محمد (ﷺ) منشئاً لحضارة التوحيد التى تعتبر ذات أهمية كبيرة، إذا فكرنا فى القيمة الفلسفية للتوحيد، وفى تفوقها الكبير الذى جعل كل الشعوب الآرية تمارس أفكار تلكم الفلسفة. وهذه الثروة الروحية الغزيرة فى الأمة العربية، راجعة إلى الغريزة النبوية والتى تعد واضحة لدى الشعوب السامية، فاليهود الذين يستطيعون الفخر بأنبيائهم الكبار، يقرون بأن روح النبوة قد اختفت لديهم بعد هدم معبدهم الثانى، وهذا ما يفسر - بمعنى أكيد - العداوة العنيفة والكثيرة التكرار فى القرآن بالنسبة إليهم»[١٧].

«.. إن الحضارة الفكرية الذهنية الحقيقية لم تظهر وتوجد - لدى العرب - سوى لدى وصول محمد (ﷺ)»[١٨].

«يتبع»

٦. فى طريقى الإسلام، ١/٧٢، ٧٣.
٧. نفسه، ص١/١٧٤.
٨. نفسه، ١/١٧٤ - ١٧٥.
٩. نفسه، ٢/١٣٠.
١٠. تاريخ العرب العام، ص١٥.
١١. نفسه، ص٩٠.
١٢. نفسه، ص٩٣.
١٣. نفسه، ص١٠٢ - ١٠٣.
١٤. نفسه، ص١٢٣.
١٥. فلسفة الفكر الإسلامى، ص٨.
١٦. نفسه، ص١٧.
١٧. نفسه، ص٣٦.
١٨. دفاع عن الإسلام، ص٤١.

مكتبة الأزهر

إعداد: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

«مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلى»..



إصدار: دار رؤية

تعد هذه الطبعة هى المكتملة فى نشر تفاصيل وخبايا حرب أكتوبر ـ وفق رؤية الفريق سعدالدين الشاذلى رئيس أركان القوات المسلحة فى هذه الفترة ـ ابتداءً من السنوات التى تلت النكسة وحتى المفاوضات مع إسرائيل ويكشف الشاذلى فى هذه المذكرات عن كواليس ثغرة الدفرسوار وحقيقة خلافه مع السادات.

«المعرفة فى خدمة الهيمنة»



إصدار: دار سطور الجديدة - تأليف: ماثيو جايكوبز.

ترجمة: د. فاطمة نصر.

يرصد هذا الكتاب نقطة بالغة الخطورة وهو سعى الولايات المتحدة الأمريكية منذ نشأتها لإنجاز ما اعتبرته مهمة مقدسة فى الشرق الأوسط ـ أورشليم القديمة وفق تعبير منظرى الإمبراطورية الجديدة وقتها ـ بالتخلص من «الإسلام وأشكال المسيحية الزائفة الراكدة ونشر الرؤية المسيحية الصحيحة وتطهير أورشليم من الدنس» ويوضح الكتاب تحول هذه الرؤية التبشيرية إلى موقف علمانى فى بداية الخمسينيات حيث عمدت أمريكا إلى إحكام سيطرتها على «أورشليم القديمة» بدعم الرؤى التحديثية واحتواء الحركات الثورية فى العالم العربى.

«الثقافة والمساواة.. نقد مساواتى للتعددية الثقافية»



- جزءان من إصدار عالم المعرفة بالكويت..
- تأليف: بريان بارى - ترجمة: كمال المصرى

يقدم المؤلف نقدا لليبرالية من منظور ليبرالى مبرزا جانبا فى غاية الدقة هو تحول محاربة عدم التمييز ضد الأقليات الثقافية والعرقية إلى تمييز من نوع جديد لصالح الأقلية وضد الأغلبية عبر استثناءات قانونية يتمتع بها أبناء الأقليات وذلك رغم أن المبدأ الليبرالى يقوم على المساواة بين الجميع مع رفض الاستثناءات.

«اليهود فى جنوب أفريقيا»..



- تأليف: د. نجلاء عبدالجواد..
- إصدار: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

تكشف المؤلفة برؤية علمية دقيقة ورصينة مدعمة بالوثائق تفاصيل الدور الذى لعبته الجماعة اليهودية فى القارة الإفريقية وتغلغلها بين النخب الحاكمة مستغلة هذا التغلغل فى دعم الكيان الصهيونى خصوصا فى جنوب أفريقيا التى اعترفت بإسرائيل عام ١٩٤٨م نفس عام قيام الكيان الغاصب وفى العام نفسه فاز الحزب «الوطنى المتطهر» اليهودى الذى قام بتطبيق سياسة الفصل العنصرى.. وترصد المؤلفة الدعم الاقتصادى الذى قدمه هذا الحزب لإسرائيل.

***

قراءة في كتاب

عبقرية محمد (٢)

بقلم: أ. عادل خفاجة

هناك من يعتقد أن العقاد، حين كتب «عبقرية محمد» قد أساء إلى النبي ﷺ وهو لا يدرى، أو أنه دار في مدار غربيين، أطلقوا صفة العبقرية على النبي بغرض نفى صفة النبوة عنه ﷺ.

ولكننا حين نقرأ ما كتب الرجل عن النبي ﷺ حين تكلم عن «عبقرية محمد العسكرية»، نراه يقول: إن محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب، ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وأنه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال، لعجز أو خوف مما يجهله أو لا يجيده، ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة، يلجأ إليها ولا حيلة له لاجتنابها، حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة.

وهذا الكلام الذى يقدمه العقاد ليؤكد على «عبقرية محمد العسكرية»، إنما ينطق بأن محمدا ليس بشرا عاديا، بل هو: مصطفى ومختار ومجتبى. والعقاد حين يتكلم عن «عبقرية محمد العسكرية»، إنما يدافع عن الإسلام كدين يأبى القتل لذات القتل، شأنه في ذلك شأن الديانات السماوية الأخرى، ويقدم عدة حقائق نذكر منها:

الحقيقة الأولى: أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال، إنما يصدق - لو صدق - في بداءة عهد الإسلام، كما أسلفنا، يوم دان هذا الدين كثير من العرب المشركين، ولولاهم لما كان له جند، ولا حمل في سبيله سلاح.

لكن الواقع أن الإسلام في بداية عهده كان هو المعتدى عليه، ولم يكن من قبله اعتداء على أحد.

الحقيقة الثانية: أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع.

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف «سلطة» تقف في طريقه، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه.. لأن السلطة تزال بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة.

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة، وتقاليد لازمة، لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء، وفي عهد الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل مالهم من سطوة الحكم والجاه.

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها، لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة، بعد التجربة، أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية، وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كان يمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية، فيمتنع القتال.

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث، كما دل عليها التاريخ القديم، أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب.

فمحاربة السلطة بالقوة، غير محاربة الفكرة بالقوة، ولابد من التمييز بين العملين، لأنهما جد مختلفين.

الحقيقة الثالثة: أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط، إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها.

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

«البقرة: ١٩٣»

والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا، حيث جاء فيه:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾

«الحجرات: ٩»

وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح، ثم يأتي الصلح والتوفيق، أو يأتي التفاهم بالرضا والاختيار.

ثم اختار العقاد نابليون باعتباره أبرع القادة المحدثين، وهنا يتبادر إلى ذهن القارىء أن من هاجم العقاد وجد ضالته في هذا الجزء من الكتاب، غير أن العقاد بعد أن تكلم عن براعة نابليون وعن خططه وكيف يستفيد منها راح يقول:

وكان النبي ﷺ سابقا إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها، فكان - كما قدمنا - لا يبدأ أحدا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه، جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر، كما حدث في غزوة تبوك والناس مجدبون، والقيظ ملتهب، والشدة بالغة، فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع، وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال، ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي، فلم يحدث ما توقعوه.


العقاد

وكان ﷺ يعمد إلى القوة العسكرية، حيث أصابها، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها، ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه، كما حدث في غزوة الخندق.

لا أعتقد أن من هاجم العقاد حين هاجمه قد قرأ الكتاب قراءة كاملة، أو على الأقل لم يقرأ السطور التالية:

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد، وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة، أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح.

ثم هو يقول في موضع آخر: فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة - يقصد الخبرة والتمكن من فنون القتال - فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول الذي تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية، ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية.

ويزيد هذه الشهادة عظما أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب.

ومما قاله أيضا: ومن خصائص العظمة النبوية في محمد ﷺ أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه، فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تغريه بالقتل وإهدار الدماء البشرية في غير جريرة، وتنزه محمد عن هذا وذاك.

فإذا كانت شجاعته ﷺ تنفي الشبهة في رقة الضعف والخوف المعيب، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفي الشبهة في القسوة والجفاء، إذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التي عز نظيرها في الأنبياء.

أقول: هل قرأ من هاجم العقاد ما اختتم به ما كتبه عن عبقرية محمد العسكرية، حين قال: إن عبقرية محمد في قيادته لعبقريته ترضاها فنون الحرب وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء.

عبقرية محمد السياسية

بعد أن تحدث المؤلف عن السياسة في العرف الحديث يقول: وقد تولى النبي ﷺ أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله، ولكننا لا نعرف عملا واحدا هو أدخل في أبواب السياسة وأجمع لضروبها، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية، أو صفة الوعظ العلني، أو سائر الصفات التي اتصف بها ﷺ من عهد الحديبية في مراحله جميعا، منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج، إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدى قريش.

ففي عهد الحديبية تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد، حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة، حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته، بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية، فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم، فإذا خالفوا قريشا في شيء، فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو بشأن القبائل أجمعين.

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إغضاب العرب على الإسلام، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج، ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها، فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة، كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام، فإذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين.

ويشير المؤلف في هذا الفصل من الكتاب إلى تأكيد النبي في رحلة الحديبية أنه ﷺ خرج حاجا، لا غازيا، وأنه ﷺ ظل يقول ذلك ويكرره، ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح إلا ما يؤذن به لغير المقاتلين.

ثم يؤكد المؤلف على سياسة الرسول الحكيمة حين اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - على التهادن والتعاهد، وأن النبي حين قبل الشروط التي طلبتها قريش كانت سياسته غاية الحكمة والقدرة، أو «الدبلوماسية»، كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين.

ويختتم المؤلف هذا الفصل بقوله: وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور، كما تجلت في قيادة الجيوش، فكان على أحسن نجاح في سياسته، إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته، وإذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة وإقامة الحجة في إنفاذ عزيمته، وإذ قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عشرته، وإذ نظر إلى عقابه ووصل به إلى القصد الذي توخاه.

عبقرية محمد الإدارية

مهد المؤلف للكلام عن الإدارة، فذكر مما ذكره أن ليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى، مستخف بالتبعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك الكبير العقل كبير الهمة، أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام، وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة في محمد ﷺ على أتم ما تكون. كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي، أو العمل الذي يحتاج إلى تدبير، ومن حديثه المأثور: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم».. ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة، إذا أصيب من تقدمه بما أقعده عن القيادة، وكان قوام الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب: «أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين».. «وأيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه».

ثم يعرض المؤلف بعض الأحاديث الشريفة التي تدل على عبقرية النبي الإدارية، حيث يقول: وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان الشريعة والقانون، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلاما هو أجمل لوجوه الصواب في هذه المسألة من قول النبي: «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»، ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت: «... ألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»، ومن قوله: «الإمام الجائر خير من الفتنة، وكل لا خير فيه، وفي بعض الشر خيار»، ومن قوله: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»، إلى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة، والخطط السليمة المستقيمة، بين آمر ومأمور. نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع، ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء.

هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فتلك وصية من ينظر في تدبيره إلى العالم الإنساني بأسره، لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد، إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء في مكانه، من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكنها بتعريض المدن كلها لعدواها.

ويسير المؤلف في بقية فصول الكتاب ليثبت أن محمدا ﷺ كان بليغا، فصيح اللغة، فصيح اللسان، فصيح الأداء، وكان بليغا مبلغا على أسس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين. وأنه ﷺ استحق حب الأصدقاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة والوفاء. وأنه ﷺ كان يعلم أن الرياسة للجميع وليست للموافقين منهم دون المخالفين، فيأمر قومه أن «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنها ليس دونها حجاب».

ويختتم المؤلف هذا الكتاب القيم بفصل يوضح فيه للقارئ أنه إنما قصد أن يوضح مناقب محمد ﷺ التي يتفق من يدين برسالته الدينية ومن لا يدين له برسالته، وأن محمدا ﷺ عظيم في نفسه، بالغ العظمة، وفقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

«نعم» «للحرية... «لا» للفوضى

<u>تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ / محروس عبدالفتاح يس - إمام وخطيب بالإسماعيلية :</u>

من المقولات التي حفرت في ذاكرة التاريخ وسُطرت في كتبه بأحرف من نور على صفحات من ذهب وكان لها وافر الحظ في الذيوع والانتشار تلك المقولة التي خاطب بها «عمر بن الخطاب» واليه على مصر «عمرو بن العاص» - رضي الله عنهما - «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟!

ومادام الإنسان حرا منذ ولادته قالوا جب أن يكون كذلك حتى مماته وليأخذ لنفسه الحذر من الوقوع في مواطن الذلة والصغار وهو المخلوق الذي أحاطه الله بسياج من الإكرام ووهبه قدرا عاليا من الإجلال والإكبار.

ولنا في وصية «علي بن أبي طالب» لابنه «الحسن» - رضي الله عنهما - المنهج القويم الذي يضع أقدامنا على أعتاب التحرر من قيود العبودية وأغلال القهر والذل هذه الوصية التي تقول : «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا». فالحرية حق من حقوق الإنسانية التي كفلتها كل الشرائع السماوية وأقرتها جميع الرسالات الدينية فضلاً عن التشريعات المدنية والقوانين الوضعية. ويأتي الإسلام في مقدمة هؤلاء وأولئك حيث ضمن للبشرية جمعاء حرية الاعتقاد «الإيمان والكفر» فلا يقبل الإسلام بأي حال أن يكره أحد على ترك دين رضيه واعتنقه أو يجبره على إعتناق دين لا يرضاه أو يرفضه ونصوص القرآن الكريم صريحة في ذلك كل الصراحة.

وقال فيما يشبه العتاب - لرسول الله - ﷺ - : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).

فهل بعد إقرار الإسلام لحرية الاعتقاد يمكن لأحد أن ينكر على أحد مطالبته بباقي الحريات كالحرية السياسية أو الحرية الفكرية أو الحرية المدنية أو أي حرية من الحريات الحقيقية؟!

ولقد أفاء الله في - الآونة الأخيرة - على مصر وأهلها بظلال وارفة وقطوف دانية وثمار يانعة من واحة هذه القيمة الإنسانية التي عظم أمرها الإسلام - كما أشرنا - لما لها من أثر طيب وحميد على الإنسان حيث ترفع عنه كل ألوان الضغط والقهر والإذلال.

ومما يؤسف له أن بعضنا قد فهم الحرية فهما غير دقيق وغير عميق فأطلق لنفسه العنان ليقول ما شاء لمن شاء في أي مكان شاء وأي زمان شاء دون مراعاة لمعيار القيم والمبادئ الدينية ودون اعتبار لمقاييس الأخلاق والأعراف الإنسانية، فظهرت على السطح المظاهرات الفئوية والاحتجاجات العمالية والمطالبات النقابية والاعتصامات الطلابية فما تكاد تهدأ طائفة في مكان حتى تنطلق طائفة ثانية في مكان آخر وكل يدعي - زورا وبهتانا - ممارسة حقه في الحرية!!

أي حرية هذه؟! إنها ليست إلا (حرية الفوضى) تلك التي تقوم على العشوائية وتدعو إلى تغليب المصالح الفردية على المصالح الجماعية وتحث على تحقيق المكاسب الذاتية على حساب مكاسب الوطن والأمة فالحرية

الحقيقية مع كونها حقا مشروعًا للإنسان لا يجوز المساس بها ولا يمكن مصادرتها دون وجه حق إلا أنها ليست حقا مطلقا. فلا توجد في الوجود حرية مطلقة للإنسان وإنما حرية منظمة تنظمها القوانين والقيم الأخلاقية والدينية ويقوم المجتمع والدولة على رعايتها وحراستها.

فحرية أي فرد تنتهي عند المساس بحرية أي فرد آخر فالإنسان (حر مالم يضر) فأي تصرف فيه ضرر ما للآخرين يجب الوقوف في وجهه ومنع حدوثه مراعاة للقواعد العامة التي تحكم العلاقات بين الناس فعلينا أن ندعم الحرية بمعناها الجميل الجليل الذي يسع كل الأطراف ويزيل أسباب الخلاف ليبقى الود والصفاء هو سيد الموقف. وأن يدرك كل منا أن الحرية مسئولية ثقيلة وأن الفاصل بينها وبين الفوضى شعرة من السهل أن تنقطع فحافظوا على هذه الشعرة لتحيا مبادئ الثورة.

دعاء النبي لخلفائه من الصحابة

<u>تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ / شعبان عبدالعال إبراهيم المنيا - منى حسن الشروق :</u>

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «اللهم ارحم خلفاءنا» قلنا : «يا رسول الله ومن خلفاؤكم؟» قال «الذين يأتون من بعدي، يروون أحاديثي وسنتي». صدق رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث يدعو رسول الله ﷺ بهذا الدعاء المبارك بالرحمة لخلفائه.. فقال الصحابة ومن خلفائك يا رسول الله، قال : «الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي وسنتي» فلقد اختص الله طائفة من الأمة بحفظ السنة المطهرة قاموا على جمع الأحاديث والسنة خير قيام، وميزوا صحيحها من سقيمها حتى صارت السنة المطهرة وهي المصدر الثاني للتشريع - بعد القرآن الكريم المصدر الأول -، صارت السنة صرحا شامخا تكسرت على أعتابه كل محاولات النيل من السنة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام حتى كان عملهم مشكورا وجهدهم عند الله مأجوراً.

فالسنة موضحة للقرآن العظيم فلذلك كان حملة الحديث خلفاء الرسول ﷺ لأنهم حملة أشرف العلوم وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله «أهل الحديث هم في كل زمان كالصحابة في زمانهم، وقد دعا رسول الله ﷺ لمن بلغ حديثه إلى أمته بقوله : (نضر الله امرءاً أسمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، ورب مبلغ أوعى من سامع). وفي الاشتغال بالحديث عز الدنيا وسعادة الآخرة فيه يعرف الحلال من الحرام، وبه تكون طاعة الله تعالى على أكمل الوجوه فاستحق رجال الحديث الدعاء لهم من الرسول ﷺ، لأنهم الأمناء على أعظم ثروة في الوجود وهي سنة رسول الله وهم أمناء الله على دينه وحفاظ سنة نبيه ما علموا وعملوا.

الخطابة الدينية في ميزان النقد الأدبي

<u>تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ / أيمن عسل - مدرس ثانوي لغة عربية - إدارة المنتزة - الإسكندرية :</u>

تسابق - إلى الخطابة الدينية - المشتاقون تساهلا إلا القليل من الأزهريين النابهين، ومن ساروا على دربهم.

لقد سعى أولئك الذين استثنيت منهم وراء القديم مقلدين، والتجديد محاولين، لكنهم لم يحققوا أصالة ولا تجديدا بغلبة التقليد الأصم لفترات الضعف، فبدت الخطابة سطحية باهتة، فانعكس ذلك على المتلقي الذي امتلأ فكره ووجدانه بالشعارات والخيالات التي تمس الدين لكنها ليست الدين ولعل مرد هذا فقد آلة الخطابة الفنية.

إن فن الخطابة العامة في الأدب العربي الفرع الأعظم بعد الشعر لارتباطها بكنه اللغة العربية التي هي منطوقة قبل كونها مكتوبة، من أجل ذلك قعّد النقاد والبلاغيون القواعد الفنية للخطابة، وعددوا كذلك المآخذ لتجنبها،

لقد كان على رأس السمات الفنية الإقناع والإمتاع، وكان فى مقدمة المآخذ سرعة الأداء التى تقطع التواصل بين الملقى والمتلقى بفقد العلاقات المعنوية بين الألفاظ أولاً، ثم بين الجمل ثانياً.

لقد كانت الخطابة مرآة عصرها سلبًا وإيجابًا، فعبرت عن العصر الجاهلى على قلتها، ثم جاء عصر صدر الإسلام فاحتلت الخطابة الدينية مكانة سامقة لارتباطها بالدين الناشئ، ثم جاء العصر الأموى ومن بعده العباسى فتطورت الخطابة تطورًا بالغًا وافق أحداث العصرين، فلما كان عصر الضعف غرقت الخطابة فى زخرف القول وترديد النصوص الشكلية، فكشف لك عن ضعف علمى وعقل مسه الجمود.

ومع مجئ العصر الحديث نهضت العلوم الحديثة، وفنون الآداب والثقافة لاسيما الأدب العربى الذى واكب النهضة، فمال إلى التكثيف والتركيز وتجلى ذلك فى القصة القصيرة والشعر الواقعى. اما الخطابة الدينية فوقفت مكانها تحتويها النصوص الخطابية القديمة دون طائل وراءها وما كان مبتغاهم إلا السعى وراء الحماسة الخطابية التى توارى المعنى وراءها، وفقد المضمون رونقه إن وجد. ويمر السنين تولّد معنى من معنى، وخرج نص من عباءة نص، فابتعد الخطيب وتاه المستمع!! إن الذين قلدوا على غير هدى لم يدرسوا اللغة ولم يمروا على أسرارها، ولم يصادفوا جمالاً ولا روعة ولم يتشربوا منها رونقًا ولا تعجبًا، فنقلوا النص جامدًا بتفسيره، وإذا ما نقلوا نكتة فنية بلاغية كانت أو نحوية نقلوها باهتة فاقدة لقيمتها الفنية فى شكلها الأدائى وإن احتواها المعنى.

إننا إذا نظرنا إلى منهج الرسل والأنبياء فى الدعوة ومنهج النبى ﷺ ثم الصحابة ومن بعده وجدناه قائماً على الإيجاز والتكثيف.. فلما تباعدت السنون تأثر خطباء العصور المتأخرة بنصوص السابقين عليهم تاركين الأصل والمصدر، ثم جاءت لغة الخطابة بين لغتين إحداهما فصيحة منقولة لا تساير الحاضر، والأخرى عامية مبتذلة تسقط الخطبة وصاحبها من عل، فضاع بين اللغتين هدفا الخطابة «الإقناع والإمتاع». إننا إذا فتشنا فى الجانب الفنى «العلمى» وجدنا أن الداء يكمن فى الجهل ببلاغة العرب وبخاصة فى أهم أصلين من أصولهما وهما «الإيجاز» و«مقتضى الحال» أى مطابقة الكلام للمقام، وهذا ما يسمى بنظرية الاتصال فى الدراسات الإعلامية. إن البلاغة تعنى الوصول إلى الهدف، وما الهدف إلا عقل ووجدان المتلقى.. والخطابة الدينية أشد أنواع الخطب حاجة إلى أصلى البلاغة «الإيجاز» و«مقتضى الحال»؛ لم؟، لارتباطها بالوعظ الذى يبعث السأم فى النفس الخاملة عادة.. إن التأمل لمنهج الأنبياء جميعاً فى الدعوة يجد أنهم صلوات الله عليهم وسلامه قد ساروا على هذين الأصلين البلاغيين للوصول إلى المدعو من أقرب سبيل، وعليه سار النبى ﷺ، ومن بعده صحابته وأولو العلم من بعدهم.. أما خطابة زمننا هذا، زمن الضعف العلمى، والمحاكاة الجوفاء، فقد تصدى للدعوة الدينية فاقدو مقومات العربية وأصولها يصيحون ويتخبطون، فجاءت دعوتهم فاترة باهتة خالية من الرونق والأثر، إننى أدعوا إلى الرجوع إلى أصل الأشياء فى نقاط:

أولاً: الاعتماد على المقدمة الموجزة الجاذبة المقتبسة من العصر الزاهر عصر رسول الله وصحابته إن اللغة البيانية لا تعنى الفصاحة فى كل حين.

ثانياً: عند عرض الآية والحديث يجب أن تمس التفسير مسا خفيفا بذكر معنى الكلمة أو الجملة موجزا مبتعدين عن كثرة التأويلات وكذلك القضايا النحوية والبلاغية التى لها مكانها العلمى إلا إذا دعت الحاجة إلى بيان مع الاهتمام البالغ بقصة أسباب النزول إن وجدت، لأنها تمثل التهيئة والجو الفنى للنص ثم إسقاط ذلك على منقصة مجتمعية دون الإيغال فى النقد.

ثالثا: الاعتماد على دعاء القرآن ودعاء الرسول الذى جمع ووعى.

أنباء الأزهر



إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - عبد الموجود أمين

عتب وبيان

(مناقشة موضوعية لما ورد فى حوار الدكتور القرضاوى)

فى الوقت الذى يتطلع فيه الشعب المصرى إلى مستقبل يبنيه بجهود أبنائه المخلصين، وينهض فيه الأزهر الشريف، كعادته دوما، بدوره الوطنى والعالمى الذى ينتظره المصريون والعرب والمسلمون، وغيرهم من المنصفين فى كل أنحاء العالم، بكل الإعزاز والتقدير، بل بالإعجاب والإجلال - يفاجئنا شيخ كبير من أبناء الأزهر وعلمائه المعدودين - وهو الدكتور يوسف القرضاوى - بما لا يتوقع من مثله، فى علمه وفضله، إذ يورد فى حديثه المنشور بجريدة «الشروق» المصرية يوم الأربعاء الموافق ١٥ / ٢ / ٢٠١٢م، أمورا غير صحيحة على الإطلاق، نود - مع كراهيتنا للجدال والتراشق بالتهم - أن نبين فقط وجه الحق فيها:

أولاً: إن ما قاله عن شيخ الأزهر من أنه استدعى رجال الأمن للقبض على طلاب جامعة الأزهر فى ما عرف بـ«قضية المليشيات» لم يحدث قط، والحقيقة أن فضيلة الإمام - عندما كان رئيسا للجامعة - لم يستدع أيا من رجال الأمن لا فى هذه الواقعة ولا فى غيرها على الإطلاق. بل إن شيخ الأزهر - أثناء القبض على هؤلاء الطلاب - كان بمكة المكرمة يحضر مؤتمرا فى جامعة أم القرى، عن «الوقف فى الإسلام» وكان يشارك فيه الشيخ يوسف القرضاوى نفسه، وعندما عاد د. أحمد الطيب وجد الطلاب قد اعتقلوا، ولو كان موجودا فلربما حماهم - كما فعل مرارا - من هذا الاعتقال، فقد سبق له أن بذل جهدا خاصا - لدى النائب العام المستشار ماهر عبدالواحد - للإفراج عن مجموعة من الطلاب على مسئوليته الشخصية، وأخرجهم من السجن، وكان من بينهم أحد أبناء القيادات الإخوانية بمجلس الشعب آنذاك.. وعندما سئل د. أحمد الطيب فى موضوع ميليشيات الطلاب قرر فى محضر مسجل أنه كان غائبا عن مصر، وأنه لم يحدث أنه رأى أبدا بأيدى طلاب الإخوان أو غيرهم أية أسلحة، وشهد أنهم كانوا يلقونه دائما بما يلقى به الطالب أستاذه من الاحترام والتقدير، وقد كان مكتبه فى الجامعة مفتوحا لهم بصفة مستمرة، ويمكن للشيخ الذى ردد الواقعة التى لم يتثبت من صدقها أو كذبها أن يتحقق الأمر من هؤلاء الطلاب أو من آبائهم، وكما رجونا الشيخ أن يسأل

الطلاب فإننا نرجوه أن يسأل أعضاء هيئة التدريس من الذين يبدى غيرته عليهم الآن، ومنهم من كان عضوا بمكتب الإرشاد حينذاك وهو الأستاذ الدكتور/ عبدالحى الفرماوى الذى عينه الشيخ الطيب ـ الذى تسمح لنفسك بالخوض فى سيرته ـ وكيلا لكلية أصول الدين بالقاهرة برغم معارضة جهات كثيرة لذلك، لعلك تسأله وسيئتك الخبر اليقين.



أ.د. احمد الطيب

وليسمح لنا الشيخ الكبير ـ والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ـ أن نذكره بحديث النبى ﷺ ـ: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» كما أورده الإمام مسلم فى صحيحه. وما روى عن الإمام مالك رضى الله عنه من أن الرجل لا يكون إماما أبدا وهو يحدث بكل ما سمع.

ثانيا: أن الدكتور يوسف القرضاوى ـ الذى كان يستوقف طويلاً فى المطار أثناء دخوله مصر ـ دعاه فضيلة الإمام الأكبر ـ أيام رئاسته الجامعة ـ للمشاركة فى الاجتماع الأول للرابطة العالمية لخريجى الأزهر على مسئوليته الشخصية، واصطحب معه أحد ضباط أمن الدولة إلى المطار، لتأمين استقبال الشيخ هو وزوجته الكريمة وسكرتيره الخاص، وأثناء انعقاد المؤتمر وانطلاق فعالياته، جاء إلى القاعة أحد الضباط يطلب اصطحاب الدكتور القرضاوى فى مقابلة بـ «لاظوغلى» فرفض د. أحمد الطيب ذلك رفضا حاسما، وقال للضابط: سأدخل إلى قاعة المؤتمر ـ لو فعلتم ذلك ـ وأعلن استقالتى من الجامعة، وأذكر السبب للحاضرين، فتراجع الرجل، بعد مراجعة رؤسائه، وهكذا وضع فضيلة الإمام استقالته فى كفة وأى مساس بضيفه الدكتور يوسف القرضاوى فى كفة أخرى، ولم يشأ أن يذكر ذلك للشيخ القرضاوى أبدا، وقد حمله على ذكره اليوم ما يقوله الدكتور القرضاوى ويردده ـ للأسف الشديد ـ عن الرجال الذين عاملوه بكل تقدير ومروءة، وهو يرد لهم الجميل على النحو الذى يراه الجميع ويقرءونه ـ اليوم ـ على صفحات الجرائد.

وقد يتصل بالواقعة السابقة أو يشبهها ما كان أثناء شغل الدكتور أحمد الطيب لمنصب الإفتاء، إذ دعى الشيخ يوسف القرضاوى للمشاركة فى مؤتمر «السلام» الذى أقامه الأزهر، وذهب د/ الطيب مع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور طنطاوى ـ رحمه الله ـ لاستقبال الشيخ القرضاوى فى المطار، وفى هذه الزيارة تدخل رجال الأمن وطلبوا مقابلة الدكتور القرضاوى لبعض القيادات الأمنية فى مكان ما، فما كان من الشيخ طنطاوى رحمه الله إلا أن رفض رفضا قاطعا، وبقى فضيلة الشيخ القرضاوى فى المؤتمر والفندق حتى عاد إلى قطر.. معززا مكرما.

أما ما ذكره الشيخ القرضاوى عن الأزهر وعلمائه جميعا، فسامحه الله وهو الأزهرى الذى منحه الأزهر شهادة العالمية «الدكتوراة» ـ أثناء إمامة الدكتور عبدالحليم محمود ـ ونال ما ناله من

مكانة بفضل الأزهر الذى يشهد له الجميع من علماء المسلمين فى كل بلادهم، بالفضل والتقدم والمرجعية، وقد عين الشيخ بـ «الدرجة الأكاديمية» التى نالها من الأزهر أستاذا فى جامعة قطر، دون أن يتدرج فى الدرجات الجامعية المعروفة من مدرس إلى أستاذ مساعد ثم إلى أستاذ، وربما جاز لنا أن نذكر الدكتور القرضاوى ـ الذى يبدو أنه نسى دينه نحو معهده العريق، ورجاله الذين كرموه ووقفوا بجانبه فى الموطن الخشن ـ بما قاله فى الملتقى الذى تم بالمشيخة يوم ٢٤ يناير ٢٠١١م، قبل الثورة المصرية بيوم واحد، والذى ضم علماء من كل الاتجاهات والأطياف، ومنهم علماء خليجيون بارزون، فأشاد الدكتور يوسف بالأزهر وقيادته، وبدوره التاريخى، ومكانته العالمية، والآن يسمح لنفسه بلمز الأزهر ودوره العالمى، كأن مؤسسة الشيخ القرضاوى التى يرأسها «الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين» هى وحدها المؤهلة للأعمال ذات الصبغة العالمية، وكأن على الأزهر أن يتنحى عن دوره العالمى على مدى قرون متطاولة تزيد على ألف عام لكى يقوم «الاتحاد المذكور» الذى لجأ فى مؤتمره الأخير بالقاهرة حول «الخطاب الإسلامى» إلى الأزهر ليرعاه ويشاركه، وكان لإسهام علماء الأزهر فى مصر ـ مع ضيوف كرام أزهريين أيضا ـ النصيب الأكبر من أنشطة هذا المؤتمر الذى أشار إليه هو نفسه فى حديثه.. بل إن أحد كبار المسئولين بالاتحاد المذكور طلب من الشيخ الطيب أيام رئاسته للجامعة أن يزود الاتحاد بمجموعة من أساتذة الأزهر ليحموه من الاختطاف والذوبان، فهل يكون الأزهر عاجزا عن إدارة شئون نفسه ـ كما يزعم الشيخ الآن؟ وهل يعجز الأزهر عن الأعمال ذات الصبغة العالمية، فليشرح لنا الشيخ كيف يكون «الاتحاد»، الذى قام منذ عقد واحد من السنين، مؤهلاً للأعمال ذات الصبغة العالمية، ورئيسه أزهرى وأمينه العام أزهرى أيضا، أم أن هذه القيادات «الأزهرية» قد اكتسبت الصبغة العالمية والقدرة على الأعمال العالمية لمجرد أنها تحمل جنسية غير مصرية؟!

وهل نذكر الشيخ الذى يتحدث عن الأعمال ذات الصبغة العالمية بمجلة «الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين» التى أسندها الاتحاد إلى أحد المفكرين العرب، الذى اعتذر بعد فترة عن رئاسة تحريرها؛ لهبوط مستوى البحوث التى قدمت وعدم ارتقائها إلى المستوى العالمى، وهل نذكر الشيخ الذى حرم الاتحاد من بعض الكفاءات المصرية، أن الاتحاد سينهار لو تخلى عنه العلماء المصريون والعلماء الأزهريون، وهذا ما لا نحبه ولا نقبله؛ لأننا جميعا نعمل ـ دون منافسة ـ لغاية سامية، وهى خدمة العلم والدين.

وأخيراً ـ ليس للشيخ الذى قضى ما يزيد على نصف قرن فى نعيم الخليج أن يزايد ـ كما سمح لنفسه ـ على الأزهر وشيخه وعلمائه، وهم الذين يكابدون مصاعب الحياة راضين، ويقيمون بميدان التحرير محتسبين، ويقاومون الظلم دون طموحات إلى زعامة أو بروز أو جاه أومال، ويرحم الله شيخنا الغزالى الذى خرج من مصر مضطرا، لفترة قصيرة، عاد بعدها إلى عرينه فى القاهرة وبقى حتى مضى إلى جوار ربه.

وليس للشيخ القرضاوى الذى يزور مصر أياما أن يتكلم عن التردد، وموقف الأزهر من الثورة وبيانات الأزهر التى ساندت حقوق الشباب فى ثورتهم كلها، قبل تنحى مبارك عن الحكم،

وعلى الشيخ أن يرجع إلى هذه البيانات وتواريخها.. وما صدر من شيخ الأزهر من نداء لعدم الخروج للتحرير كان ظهر يوم الجمعة قبل رحيل مبارك بساعات، وبعد أن تأكد رحيل النظام، للكبير والصغير، ولكن خوف شيخ الأزهر وإشفاقه من صدام مسلح بين الثوار والجيش هو الذى دفعه إلى ذلك، وهو اجتهاد يعصم دماء المسلمين.. وشيخ الأزهر أول من وصف ضحايا الثورة «بالشهداء»، وقدم لأهاليهم العزاء، ومبارك باقٍ فى منصبه، وهو الذى بعث ببعض الأزهريين، والميدان الذى لم تره فضيلتك إلا قليلاً، كان مليئًا بالعمائم - بحمد الله -وأنا ممن فوضهم شيخ الأزهر فى الحديث باسمه، وتأييد الثورة والثوار، منذ الثامن والعشرين من يناير، ومبارك مازال فى منصبه، وحديث المزايدات يا شيخنا بغيض، فدعك منه؛ ودعنا نتعرف على تضحياتك فى «الربيع العربى» الذى يمتد الآن إلى الفضاء العربى الكبير، ومرة أخرى سامحك الله.

إن أقل ما يدعو الشيخ إلى الامتناع عن إطلاق الأحكام على الأزهر الشريف، ومكانته العالمية، وإمامه الأكبر، وعلمائه المصريين - أنه غريب عن مصر غائب عن الأزهر لمدة نصف قرن، ويجب أن يعلم أن مصر والأزهر قد تغيرا، وأنه لا يعرف من شئونه إلا ما يتناهى إليه من أخبار بعضها غير صحيح، وحكايات توقعه فى الحرج، كاتهامه للشيخ باستدعاء الشرطة للقبض على الطلاب، بينما كان معه وبصحبته فى مؤتمر واحد بمكة المكرمة، والشاهد على هذا الغياب وتلك الغربة أن الدكتور القرضاوى يعترف بعدم اطلاعه على ما سمى«بقانون الأزهر، وهو فى الحقيقة مجرد تعديل لقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ المشهور بقانون التطوير» فى حدود مادتين اثنتين: إحداهما لتقرير استقلال الأزهر، بحيث لا يكون مجرد إدارة فى الجهاز التنفيذى بل يكون أحد مرافق الدولة وأركانها والأخرى عن قيام هيئة كبار العلماء، ولو كان الدكتور القرضاوى يعيش فى مصر مع الأزهريين لعلم أنهما يمثلان مطلباً شعبياً عاماً ومطلباً أزهرياً كذلك، وأما النواحى الإجرائية فلم يمانع الأزهر ولا أنكر سلطة المجلس المنتخب وقد انتقلت لجنة من لأزهريين لتشارك النواب المحترمين أعضاء اللجنة الدينية فى توضيح كل ما يتعلق بهذا القانون أو بالأحرى تلك التعديلات: فهل يسوء الشيخ القرضاوى أن يستقل الأزهر بشأنه؟! وأن تعود الهيئة المباركة؟! وهل يحتاج الأزهر إلى استيفاء علماء من خارجه لكى يقوى على تدبير شؤونه، ومن يعنى بهؤلاء: طيور الأزهر المهاجرة أم علماء الدولة الشقيقة المتخرجين فى الأزهر الشريف، أم إخواننا الذين عشنا معهم فى أنحاء آسيا وإفريقيا وكلهم تقدير وتقديم للأزهر الشريف ورجاله واعتزاز بهم.

ما كنا نود أن نتعرض لما تعرضنا له لولا ما انخرط فيه الشيخ من تهم غريبة لإخوانه، وجحود لما قدموه من تكريم ورعاية، ولأزهره العريق الذى يتلقى منه اليوم الطعنات والسهام فهل نقول لك يا شيخنا سامحك الله.؟!

أ.د/ حسن الشافعى

رئيس المكتب الفنى لشيخ الأزهر

مشيخة الأزهر - ٢٤ من ربيع الأول ١٤٣٣هـ الموافق ١٦ فبراير ٢٠١٢م

الأزهر يدين اقتحام المسجد الأقصى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.. وبعد؛

فيا أيها المسلمون: لقد أضاف الصهاينة اليوم إلى سجل تصرفاتهم البربرية، التى لا ترعى حرمة لأماكن العبادة، ولا لقواعد القوانين الدولية والإنسانية، أضافوا فعلة شنيعة شائنة، باقتحامهم للمسجد الأقصى، وإغلاق أبوابه بالسلاسل الحديدية على من فيه من المصلين الخاشعين، وأدخلوا برعاية الشرطة وجيش الاحتلال جماعات المتعصبين، المسكونين بالهوس الصهيونى، ليحتلوا الساحات الطاهرة، ويعتدوا على الشيوخ والأئمة، على النحو الذى نقلته الصور الإعلامية، ويدفع بالعار والهمجية دولة البغى والعدوان، ومن يساندونها ويشجعونها بالمال والسلاح، والدفاع عنها بالباطل فى المحافل الدولية.

والأزهر الشريف إذ يدين هذه التصرفات البربرية، لن يتوجه إلى هؤلاء الذين استمرءوا العدوان، واستباحوا المقدسات ومن وراءهم، ولكن يخاطب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ليظهروا غيرتهم على مقدساتهم، وغضبتهم على استهانة الصهاينة بمقدسات أمة كاملة تمثل خمس سكان المعمورة.

ودولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)

بيان الأزهر الشريف بشأن الاعتداء على المصحف الشريف

أغلى ما فى قلوب المسلمين وأعزها مكانة عندهم هو «المصحف الشريف»، كلام الله - تعالى - الذى أنزله على قلب نبيه محمد المصطفى ﷺ، وأى مساس به أو إساءة إليه تعتبر اجتيازا للخطوط الحمراء التى لن يقبلها مسلم ولو بذل فى ذلك حياته ودمه. وقد ارتكب عسكريون من قبل هذه الجريمة، التى هى عدوان على مقدسات التراث الإنسانى وكرامته، فضلاً عن إساءتها لمشاعر المسلمين، حين دخلت خيول المحتلين الفرنسيين الأزهر الشريف وعبثوا بنسخ المصحف الشريف، ولم يكتفوا بتمزيقها، بل أهانوها بصورة بربرية، لا يقبلها إنسان مهذب متدينا كان أو غير متدين مسلماً أو غير مسلم، حين فعلوا ذلك لم يبقوا فى مصر بعدها، بل رحلوا عنها بعد أقل من عام.

إن الأزهر الشريف إذا يعبر عن غضبه وانزعاجه الشديد لهذا التصرف الهمجى يعلن أن التصرف الذى يجب على القوة العسكرية المعتدية الآن هو أن ترحل فورا عن الأرض الأفغانية، وأن توقف تنكيلها بالشعوب الإسلامية، وبخاصة هذا الشعب الذى يدكون معاقله لعشر سنوات كاملة، ومعهم جيوش الحلفاء، تحت ستار الحرب على الإرهاب، وما هو إلا ستار يشبه ورقة التوت، لدعاواهم المخترعة فى غزو العراق التى غيروها أكثر من مرة.

الأزهر يقول لهؤلاء المعتدين:

كفاكم أيها المعتدون، دعوا الشعوب تصرف مصائرها بنفسها، وتختار طريقها، ولا تضيفوا إلى سجل «جوانتانامو»، «وباجرام»، «وأبى غريب» مزيداً من التصرفات المخربة التى لن يغفرها لكم التاريخ.

الرحيل الفورى هو الحل الوحيد لهذه الأزمة، كما كان من أسلافكم فى مطلع القرن التاسع عشر، ولن تكفى الكلمات المعسولة، وشعوب اليوم أذكى وأغير من أن تخدعها الكلمات.

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)

صرخة الأزهر من أجل سوريا الشقيقة

الإخوة العرب: لقد بلغ السيل الزبى فى قطرنا السورى، وجاوز الظلم المدى، وفى كل يوم تزهق فيه الأرواح البريئة، تشكو لربها هذا الطغيان البشع الذى لا يتوقف، وتستصرخ العرب وجامعة دولها أن يفعلوا شيئاً - ولو يسيراً - يوقف آلة القتل والموت والدمار والخراب، وتحملهم - أمام ضمائرهم وتاريخهم - مسئولية هذا العبث، وهذه الهمجية التى طال عليها الأمد فى سوريا، وقست قلوب القائمين عليها والمتورطين فى أوحالها. بعد أن نزعت الرحمة من قلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم..

إن الوضع الآن أيها الأخوة - لم يعد فى حاجة إلى بيانات الإدانة والتنديد، ولكنه فى أمس الحاجة إلى عمل جاد جرئ وعاجل، من قبل العرب والدولة العربية أولاً، ومن أحرار العالم كله ثانياً.

واعلموا أيها العرب الأكارم! - أن من العار علينا أن يسجل تاريخنا المعاصر تدهور القطر السورى الشقيق، وذهابه إلى هذا المصير المشؤوم، وأنتم هانئون وادعون، حكاماً كنتم أو محكومين..

وحيث لم يعد مجديا أن يستصرخ الأزهر هؤلاء الطغاة والمتجبرين، فإنه يوجه صرخته إلى الشعب الصامد فى سوريا الشقيقة، وهو يدق أبواب الحرية والعدالة بيد مضرجة من دمائه الذكية.

أيها الصامدون فى سوريا الشقيقة!

اصبروا وصابروا ورابطوا.. وسيروا فى طريقكم على بركة الله، ولا تستدرجوا إلى عنف أو مواجهة مسلحة فى هذا الصراع البائس الكريه، ولكن دافعوا عن أنفسكم وأعراضكم ونسائكم وأطفالكم.. واعلموا أن من قُتل دون حقه فهو شهيد، كما وعد بذلك رسول الله ﷺ.

هذا وإن الأزهر ليصرخ فى وجوه هؤلاء الذين يستخدمهم الحكام فى قتل إخوانهم المواطنين، مذكراً إياهم بأن مهمة الجيوش هى حماية الشعوب والأوطان، وليس القمع والبطش والعدوان، وعليهم أن يعلموا أن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأن من أكابر الكبائر قتل النفوس بغير حق، وإراقة الدم الحرام، ولن يجديكم أمام ربكم يوم الحساب أن تقولوا: إن أوامر المتسلطين أجبرتنا على ذلك، فلا شرعية لمن يقتل الشعب ويريق دمه ويُيتّم أطفاله ويرمل نساءه، هذا وإن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة..

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢)

شيخ الأزهر
أ. د. أحمد الطيب

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

محكمة إسرائيلية تقر بحق اليهود فى الصلاة بالمسجد الأقصى



فى قرار خطير للمحكمة العليا الإسرائيلية بحق اليهود فى الصلاة بالمسجد الأقصى، وتكرار جديد لمأساة الحرم الإبراهيمى الذى تم اقتسامه بين المسلمين واليهود فى مدينة الخليل.

صدر قرار قضائى إسرائيلى عقب التماس قدمه جرشون سلمون من الحركة اليهودية لبناء الهيكل يطلب فيه السماح له بدخول المسجد الأقصى، حيث قررت المحكمة العليا الإسرائيلية معاودة الإقرار بحق اليهود بالصلاة فى المسجد الأقصى المبارك، واعتبر الحكم أن هذا الحق هو حق مجمع عليه بين جميع الأطراف الإسرائيلية، بل هو من الحقوق الأساسية لهم بحسب تلك المحكمة.

يذكر أن المحكمة العليا سبق وأوقفت مثل هذا القرار، وكذلك الشرطة الإسرائيلية لم تسمح لهذه الجماعة اليهودية المتطرفة باقتحام الأقصى أو الدخول ضمن برنامج السياحة.

حيث يتسرب المستوطنون ويتسللون ضمن السياح لحملهم جوازات سفر أجنبية، ورغم قرار السماح للمستوطنين والمتطرفين أمثال سلمون إلا أن المحكمة العليا الإسرائيلية في الماضي كانت تترك مجالاً للشرطة عبر بند «إذا لم يمس ذلك الوضع الأمني في القدس المحتلة»، بيد أن الخطير أن القرار لم يتضمن هذا البند ولم تتحفظ المحكمة، بل أقرت الاقتحام للأقصى من هذه الجماعة اليهودية المتطرفة.

بدورها أكدت مؤسسة الأقصى للوقف والتراث في بيان لها أن المسجد الأقصى حق خالص للمسلمين، وللمسلمين وحدهم، وأنه لا حق لغيرهم فيه، ولو بذرة تراب واحدة، فيما ذكرت أن ما يصدر من الاحتلال الإسرائيلي ومن أذرعه وإن كان من المحكمة العليا الإسرائيلية بحق المسجد الأقصى من قرارات أو إجراءات فهو باطل، لأن الاحتلال باطل، وما يبنى على باطل فهو باطل.

الأمين العام للأمم المتحدة يحذر من جرائم ضد الإنسانية في سوريا



دعا الأمين الأمين العام للأمم المتحدة «بان كي مون» السلطات السورية إلى الكف عن قتل المدنيين، قائلاً: «إن جرائم محتملة ضد الإنسانية ترتكب في البلاد».

وقال «بان كي مون»: نرى أحياء تقصف بصورة عشوائية ومستشفيات تستخدم كمراكز تعذيب، وأطفالاً لا تزيد أعمارهم على عشرة أعوام يقتلون ويعتدى عليهم. نرى تقريبا جرائم محددة ضد الإنسانية.

وأضاف أنه قرأ عن اعتزام الرئيس السوري بشار الأسد إجراء استفتاء قد يقود إلى انتخابات متعددة الأحزاب، لكنه أوضح أن الأولوية الآن يجب أن تكون لوقف إراقة الدماء في الانتفاضة. وتابع: المهم في هذا الوقت هو ضرورة أن تتوقف السلطات السورية أولاً عن قتل شعبها وضرورة أن يتوقف العنف.

جدل بين العلماء حول قبول توبة كاتب سعودي أساء للرسول

تفجرت موجة من الجدل بين بعض علماء الدين في السعودية حول مدى قبول أو رفض توبة كاتب سعودي أساء للرسول ﷺ على أحد مواقع التواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت بخاصة بعدما اتهمته هيئة الإفتاء السعودية بالكفر.

ودخلت على الخط بعض جمعيات حقوق الإنسان ومنها منظمة العفو الدولية لمنع تسليم الكاتب حمزة كشغري للسلطات السعودية، بعدما فر من بلاده هاربا إلى ماليزيا غير أن السلطات الماليزية قامت بترحيل كشغري إلى السعودية وبالفعل تسلمت السلطات

السعودية كشغري البالغ من العمر ٢٣ عاماً، وهو صحفي من مدينة جدة، وقالت حسيبة حجي صحراوي نائب رئيس المنظمة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا: «إن منظمة العفو الدولية تعتبر كشغري من سجناء الرأي لاعتقاله في ماليزيا بسبب حرية التعبير عن آرائه بشكل سلمي، وتدعو إلى الإفراج عنه فوراً ومن دون شروط».

كانت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء السعودية التي يرأسها مفتي المملكة عبدالعزيز آل الشيخ قد اعتبرت أن كشغري «كافر» و«مرتد» ويجب محاكمته.

وتثير قضية كشغري عاصفة في الإعلام السعودي، وخصوصاً عبر موقعي تويتر وفيس بوك وقد انشئت مجموعة على فيس بوك للمطالبة بإعدامه.

مؤتمر الأوقاف الرابع ضمن فعاليات المدينة عاصمة الثقافة الإسلامية

تنظم الجامعة الإسلامية بالتعاون والتنسيق مع وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية مؤتمر الأوقاف الرابع تحت عنوان «نحو استراتيجية تكاملية للنهوض بالوقف الإسلامي» وذلك ضمن فعاليات: «المدينة المنورة عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠١٣» برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود.

وقال مدير الجامعة الدكتور محمد بن علي العقلا: إن عنوان مؤتمر الأوقاف في نسخته الرابعة يكشف عن وجوه مغايرة هذا المؤتمر لما سبقه من مؤتمرات، إذ أن المؤتمرات السابقة هدفت إلى تنظير الوقف الإسلامي من جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والاستثمارية والإدارية والتنظيمية والحضارية، أما المؤتمر الرابع فإنه يهدف إلى إعداد المؤسسة الوقفية وتحديد اتجاهاتها، وتطوير منظومة تشغيلها وإدارتها وإعادة هيكلتها، وتحديد الخطوات التنفيذية والآليات الواضحة لتوجيه مؤسسة الأوقاف نحو المستوى المرغوب فيه، ومعالجة ثغرات الأداء الحالي لمؤسسات الأوقاف، والوصول إلى الأداء الأمثل المنشود، إضافة إلى تنظيم جهود مؤسسات الأوقاف وتوزيع المسئوليات عن تنفيذها، وتطوير طرق استثمار الموارد الوقفية لتحقيق أفضل النتائج المستهدفة، مع الارتقاء بمستوى الأداء في المؤسسات الوقفية.

افتتاح أول متحف إسلامي في استراليا

افتتح أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، أول متحف إسلامي في استراليا، وذلك خلال حفل رسمي أقيم في موقع المتحف، وحضره عدد كبير من أبناء الجالية المسلمة في استراليا، وممثلون عن الحكومة الاسترالية، بالإضافة إلى مندوبها لدى المنظمة «أحمد فاجور».

وسوف يركز المتحف على تاريخ المسلمين في استراليا، وإسهاماتهم في بناء هذا البلد، بالإضافة إلى اعتباره عاملاً مساعداً في فهم التنوع الثقافي، وتعزيزه في ولاية فيكتوريا، ومدينة ملبورن على وجه الخصوص.

جزء عم بأربع لغات إفريقية بالحرف العربى

صدرت ضمن منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «ايسيسكو» وبالتعاون مع جامعة افريقيا العالمية في السودان، ترجمة معاني الجزء الثلاثين من القرآن الكريم «جزء عم» إلى أربع لغات أفريقية مكتوبة بالحرف العربي المنمط، وهي: الولوف، والصونغاى والماندنكو، واللوكندا.

وتندرج ترجمة معانى هذا الجزء من القرآن الكريم ضمن مشروع واسع يهدف إلى ترجمة سلسلة من كتب الثقافة الإسلامية باللغات الوطنية الأفريقية المكتوبة بالحرف العربى المنمط.

يذكر أن اللغات الأفريقية التى سبق أن ترجم إليها معانى الجزء الثلاثين من القرآن الكريم هى: الهوسا، والفلانى، والصومالى، والسواحيلى، واليوربا.

مشروع لإطلاق اسم منظمة التعاون الإسلامى على ٥٧ شارعاً وميداناً



شرعت بعض الدول الأعضاء فى منظمة التعاون الإسلامى، فى بحث تنفيذ آليات قرار إطلاق اسم المنظمة على أحد الشوارع أو الميادين الرئيسية فى العواصم الإسلامية.

وأوضحت مصادر مطلعة فى الأمانة العامة لمنظمة التعاون الإسلامى التى تتكون من ٥٧ دولة أعضاء، وأن هذه التحركات تأتى فى أعقاب مشروع القرار الذى قدمه الأمين العام البروفيسور، أكمل الدين إحسان أوغلى، إلى مجلس وزراء الخارجية فى دورته الثامنة والثلاثين المنعقد فى العاصمة الكازاخية، لأستانا فى يونيو ٢٠١١ وتم اعتماده هناك.

ويقضى القرار بإطلاق اسم منظمة التعاون الإسلامى على أحد الشوارع أو الميادين الرئيسية فى عواصم الدول الأعضاء أو فى المدن الرئيسية.

وقالت المنظمة: إنما نأمل من الدول الأعضاء أن تسرع فى تنفيذ القرار، تمهيداً لأن يكون هناك ٥٧ شارعاً وميداناً فى العواصم الإسلامية تحمل اسم منظمة التعاون الإسلامى.

وأشادت المصادر إلى أن الهدف من إطلاق اسم المنظمة على تلك الشوارع والميادين، يتمثل فى إبراز أهمية المنظمة وتعزيز دورها السامى الذى تضطلع به من حيث تحقيق التضامن بين الدول الإسلامية وتنفيذ البرامج والمشاريع السياسية والإنسانية والثقافية وغيرها من الأنشطة.

الأمم المتحدة تعلن انتهاء المجاعة فى الصومال

أعلنت الأمم المتحدة رسمياً انتهاء المجاعة التى ضربت أجزاء من الصومال العام الماضى ولكنها حذرت من أن البلاد مازالت تواجه ظروفاً قاسية وأنها قد تشهد نكسة.

وقال المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة «فاو» التابعة للأمم المتحدة جوزيه جرازيانو داسيلفا للصحفيين فى نيروبى بعد زيارة جنوب الصومال: إن هطول الأمطار التى جرى انتظارها طويلاً إلى جانب المحاصيل الزراعية الوفيرة والموارد الإنسانية خلال الأشهر الماضية هى الأسباب الرئيسية لهذا التحسن.

tidings of Muhammad. We call you to the Qur'an in the same way the Jews called to Injil. Also, we do not forbid you from embracing the religion of Christ."[3]

Whoever scrutinizes the dialogue of the nomad Hatib ibn Balta'ah with Cyrus may ask himself: Where did Hatib get this philosophy in religion, freedom, and history? Who enabled him to crystallize this great wisdom in these words?

One should take into consideration the prophetic trend in reform. This trend started with the individual reaching the community, nation, and society. This is to set the state, policy, system, institutions, and relations.

There is another indication to the prophetic trend in reform. This becomes clear in the words of the rightly guided Caliphs, `Umar ibn Al-Khattab (40 B.H. – 23 A.H., 584-644 A.D.) when he sent with `Amr ibn Al-`As (50 B.H – 43 A.D, 574-664 A.D) 4000 soldiers to conquer Egypt. When the troops of `Amr reached Fortress of Babylon and knew that Egypt has 120,000 soldiers of the best of the Roman soldiers, who had great fortresses and equipments, as mentioned by Ibn `Abd Al-Hakam (257 A.H – 879, then `Amr ibn Al-`As asked `Umar ibn Al-Khattab to give him more equipment and soldiers fro this decisive war. Hercules, the Roman Caesar (610-641) said:

"If Alexandria is conquered, the Roman empire will be lost." `Umar ibn Al-Khattab wrote to `Amr ibn Al-`As: "I supplied you with four thousand men, every one of whom is considered a thousand of men such as Al-Zubayr ibn Al-`Awwam (28 B.H – 36 A.H., 596-656 A.D.), Al-Miqdad ibn `Amr ibn Al-Aswad (37 B.H – 33 A.H., 587 – 653 A.D.), `Ibadah ibn Al-Samit (38 B.H. – 34 A.H, 586-654), Musallamah ibn Makhlad (1-62 A.H. – 682 A.D.), and Kharjah ibn Hudhafah (40 A.H., 660 A.D.), as it was said, and twelve thousand soldiers will not be beaten by a few number."[4]

This was the way of weighting and evaluating things and matters in the prophetic trend.

The Islamic trend in reform, starting with creed, which reformulates the behavior of the human being in an Islamic way, prepares the human being for reform in different fields of life: social, political, economic trends. This was the way of reform calls throughout the history of Islam. This is the trend, which was restored and revived by the school of Islamic restoration and revival in the modern history, which was launched by Jamal Al-Din Al-Afghany (1254-1314 A.H., 1838-1897 A.D.), then it was outlined by Shaikh Muhammad `Abdo (1266-1323 A.H, 1849-1905).

---

[3] Conquests of Egypt and Morocco, Chapter on the most important resources of Ibn `Abd Al-Hakam in the conquest of Egypt, with modifications.

[4] Conquests of Egypt and Morocco, Chapter on the most important resources of Ibn `Abd Al-Hakam in the conquest of Egypt, with modifications.

[Hud: 87]

However, Shu`ayb (may peace of Allah be upon him) assured them that his Da`wah is the right way for reform:

{'He said: "O my people! Tell me if I have a clear evidence from my Lord and He has given me a good sustenance from Himself (shall I corrupt it by mixing it with the unlawfully earned money). I wish not, in contradiction to you, to do that which I forbid you. I only desire reform to the best of my power. And my guidance cannot come except from Allâh, in Him I trust and to Him I repent.}

[Hud: 88]

In Surah Al-Muzzamel, which descended in Mecca, the Noble Qur'an outlined to the last of the Prophets Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) the trend of spiritual strife, carrying out the reform of the human being and giving him the abilities and energies. This enables him to carry the loads of tasks in different fields of reform. This spiritual strife reformulates in an Islamic way. Thus, the human being, who was born weak, will become strong.

{O you wrapped in garments (i.e. Prophet Muhammad peace be upon him)! 'Stand (to pray) all night, except a little — 'Half of it or a little less than that, or a little more. And recite the Qur'ân (aloud) in a slow, (pleasant tone and) style. Verily, We shall send down to you a weighty Word (i.e. obligations, laws). 'Verily, the rising by night (for Tahajjud prayer) is very hard and most potent and good for governing oneself, and most suitable for (understanding) the Word (of Allâh).]

[Al-Muzzamel (Wrapped in garment): 1-6]

Throughout the part of the Da`wah spent in Mecca – thirteen years – i.e. more than half of the period of the message, the task undertaken by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was reformulating the behavior of the human being by setting bases in the believers. In the house of Al-Arqam ibn Abu Al-Arqm (the school of prophecy and the first educational school in Islam), hearts and minds were reformulated by the manner of the Qur'an and the values of Islam. When the unique generation made by the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) was formed. This was the phase of spreading reform in different fields such as the state, politics, invasions, systems, institutions, laws, and international relations and other fields of reform. When the Da`wah spread and the individual change takes priority over the change of the reality, the change became logic, real, and firmly established.

The general nation which embraced Islam at the time of the death of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) reached 124,000 people while the nation of the elite which represented the leaders who were educated by the Prophet included eight thousand people, including more than thousand women. The books of the righteous predecessors mentioned their Companions, who represented the models of reform in the history of prophecies and messengers.

We can refer to the greatness of the abilities and energies, caused by this Islamic trend in reform. This is a change in roots, conceptions, and philosophies due to belief

and developing the spiritual strife. Consequently, he becomes reformed in all of the branches of life. If we want to refer to the effect of this trend on the human being, who was illiterate, tough, and Bedouin, we should refer to the saying of the Companion Ja`far ibn Abu Talib (8 A.H. – 629 A.D) to Negus, the King of Abyssinia, describing the status of the human being at the pre-Islamic era and after embracing Islam. He said: "O King, we were ignorant people who worshipped idols, ate meat of dead animals, committed grave sins, break the ties of kinship, mistreat the slaves, and oppress the weak. This was the case until Allah sent to us a Messenger from our people. We know his lineage, truthfulness, honesty, and chastity. He called us to worship Allah only instead of the idols we worshipped. He commanded us to say the truth, to be honest, maintain the ties of kinship, treat the neighbors kindly, and abstain from prohibitions, grave sins, false speech, stealing the orphans, and defaming the chaste woman. He commanded us not to worship any deity with Allah, and to offer Prayer, pay charity, and to observe fast. We believed him and followed the Commands of Allah (Glory be to Him). We abstain from that which Allah forbade and permitted ourselves to that which Allah made lawful for us. Our people tormented us and tried to tempt us in our religion to return to worshipping idols, and make evil deeds. They oppressed us and caused us to get out of our country. We chose you from among others to stay in your country, hoping not to be oppressed."[2]

In this way, reform made radical, deep, and comprehensive change in the soul of the believing community, which was affected by the Noble Qur'an. Then, we may consider the effect of Islam on the Companion, Hatib ibn Abu Balta`ah (35 A.H – 30 A.H., 586-650 A.D) who held the message of the Messenger of Allah to Cyrus, the great of the Copts (7 A.H. – 628 A.D), who inherited the oldest civilization in the world. Cyrus started his dialogue with Hatib with challenge, condemning inquiry about the truthfulness of the prophecy of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him). He told Hatib:

"What prevented the Messenger – if he is really a prophet – from invocating Allah against me?

Al-Hatib said:

He was prevented by that which prevented Ibn ibn Maryam from invocating Allah against those who did not believe him. Hatib went on speaking with Cyrus saying:

There was a man before you – referring to Pharaoh – who claimed that he is Allah. Then, Allah took revenge from his followers, then from him. Thus, learn the lesson! If you embrace a religion – Christianity – do not leave it except foe embracing a better religion: Islam. Mosa carried the good tidings of Isa, and `Isa carried the good

[2] Musnad Ahmad, Al-Resalah edition, Chapter on the speech of Ja`far ibn Abu Talib (may Allah be pleased with him), which is that of Hijirah.

The Islamic Methodology in Reform[1]...!

By: Dr. Mohammed `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

Reform in the Islamic view has a remarkable methodology in many intellectual patterns, philosophies, and civilizations, which spread outside the framework of Islam.

The Islamic reform is not a partial or shallow change, but it is a deep and comprehensive change. It starts from the roots and extends to all of the fields of life. Rather, it does not stop at life fields. However, it makes the reformation of life the way to happiness and reform in the Hereafter.

It is not limited to the individual – as well as the individualism doctrines. Also, it does not ignore the individual and concentrate on the class. This is true to many trends and leftist social philosophies. The Islamic reform starts with the individual, by whom it forms the nation and the community. Islam is the religion of the community, which is more comprehensive than the class. Without the reformation of the individual, there will not be a real reform for the nation and the communities.

Thus, the Islam combines the legal duties of the individual and those of the community, because the reformation of the individual prepares him for the social obligations and participation in the public work, because its outcomes will affect the community, which is formed by individuals. Rather, Islam raised the status of the social duties above the individual duties, as it limited the sin of abstaining from doing the individual duties to the individual. However, the sin of abstaining from the social duty includes the whole nation. Islam raised the reward of the individual duties if they are performed in the community.

Thus, the friary of Islam is Jihad, which is exerting every thing in the field of goodness. Jihad is not in fighting only. Friary in Islam contradicts with the individual isolation, which is heedless to the nation, society, and public welfare.

To raise the status of reform – within this context – in Islam, the Noble Qur'an speaks about it as one of the Commands of Allah (Glory be to Him) and one of the inevitable laws of cultural society. Reform should start from the individual and should be extended to the community.

{Verily, Allâh will not change the (good) condition of a people as long as they do not change their state (of goodness) themselves (by committing sins and by being ungrateful and disobedient to Allah).}

[1] Leading article in the Arabic section in Al-Azhar Magazine.

{That is so because Allâh will never change a grace which He has bestowed on a people until they change what is in their own selves. And verily, Allâh is All-Hearer, All-Knower.}

[Al-Anfal (Battlements): 53]

As reform is a commendable act, which has laws, it has renewing phases, taking the nations and civilizations away from backwardness to advancement. In this respect, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Injustice after my death starts little then becomes gradually large. Whenever it appears, justice disappears gradually with its appearance. Then, it becomes widespread to the extent that nothing is known except it. Then, Allah (Glory be to Him) grants the people justice. Whenever justice appears, injustice disappears gradually to the extent that nothing is known except it." (Reported by Imam Ahmed)

Also, the Noble Qur'an tells us that reform was commanded by all of the prophets and messengers. The starting point in all of the heavenly Shari'ahs is belief, which reformulates the behavior of the human being according to belief. This appears in the good and reforming deeds in all fields of life. The beginning of reform starts with the amendment and change in roots, origins, principles, entity, philosophies, cultures, the human view of the universe, his status in this University, and his message, so that this reform transfers to comprehensive reform in all fields of life.

This was the Da'wah of Shu'ayb (May peace of Allah be upon him):

{'And to the Madyan (Midian) people (We sent) their brother Shu'aib. He said: "O my people! Worship Allah, you have no other ilâh (god) but Him, and give not short measure or weight. I see you in prosperity and verily I fear for you the torment of a Day encompassing. "'And O my people! Give full measure and weight in justice and reduce not the things that are due to the people, and do not commit mischief in the land, causing corruption. "'That which is left by Allâh for you (after giving the rights of the people) is better for you, if you are believers.}

[Hud: 84]

The starting point for comprehensive reform is belief, which reformulates the behavior of the human being to be extended afterwards to other fields, policies, societies, economies, and relation.

Contrary to this trend in reform is the stance of the disbelievers of Madian – the people of Shu'ayb – who denied the existence of physical and argumentative relation between belief and Prayer and the injustice practiced by them in all of the fields of their life and their economical and social transactions and dealings, which they regarded as the outcomes of the absolute individual freedom in these fields.

{They said: "O Shu'aib! Does your Salât (prayer) command that we give up what our fathers used to worship, or that we give up doing what we like with our property? Verily, you are the forbearer, right-minded!" (They said this sarcastically).}

Those who participate in the Conference of supporting Jerusalem declared "The Charter of the Honor of Jerusalem", in which they emphasized that Jerusalem is the city of peace and crossroads of civilizations. Also, it is the heart and capital of Palestine, and should be a model for the human and cultural co-existence as well as a symbol for tolerance and justice.

The huge presence of the praying persons from the occupied Jerusalem and Arabs of 48 in Al-Aqsa Mosque succeeded in frustrating the attempt of the Israeli Likud Party to break into Al-Aqsa Mosque. This party invited thousands of the Jews, headed by Moshe Feiglin to break into Al—Aqsa Mosque and putting the model of the Temple of Soliman, as a sign of building it and destroying Al-Aqsa Mosque. This is days after the Israeli Supreme Court permitted the Jews to pray in Al-Aqsa Mosque.

The Palestine Muslims are called upon the Islamic Body to Supporting Jerusalem and the Sacred Places wherever they are. Also, it called upon the Arab League, the Islamic Cooperation Organization, UNISCO, the people of the Arab countries, and all of the free people in the world to interfere to refute the settlers and the members of the Likud Party as well as Netanyahu extremist government.

This body asserted that the concerns increase gradually with the news of attacking Al-Aqsa Mosque, as this may be the beginning of introducing the idea of distributing it between the Muslims and Jews as a step on the path of building the claimed temple.

As for the reactions to the attempt to break into Al-Aqsa Mosque, the Chief of Staff Sami Annan warned against the circumstances of breaking into Al-Aqsa Mosque. Al-Azhar hurried to announce its refusal for this attempt as well as all of the attempts of judaizing Jerusalem. Also, it warned Israel against thinking that the Arabs and Muslims forgot their right in Al-Aqsa Mosque and Jerusalem, stressing the fact that the Palestian Issue is the first issue for the Arab and Islamic world.

The concluding conference issued a statement of the international campaign of breaking the siege of Jerusalem, stating that being committed to the sacred duty is a firmly established creed for the Islamic nation and the Arab nation including its Muslims and Christians. This is to confront the Zionist occupation and its criminal and aggressive practices, targeting Al-Aqsa Mosque, the Islamic and Christian endowments, and sacred places in Jerusalem.

The statement emphasized that these practices try arrogantly to change the characteristics of Jerusalem

The Christ lived in it and the Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him), the seal of the Prophets, was taken for a journey by night to the blessed Aqsa Mosque. Then, he ascended to heaven

جمادى الأولى ١٤٣٣هـ
أبريل ٢٠١٢م

therefrom, indicating that Jerusalem is linked to the tolerant Message of Monotheism.

{The Messenger (Muhammad peace be upon him) believes in what has been sent down to him from his Lord, and (so do) the believers. Each one believes in Allâh, His Angels, His Books, and His Messengers. (They say), "We make no distinction between one another of His Messengers" - and they say, "We hear, and we obey. (We seek) Your Forgiveness, our Lord, and to You is the return (of all)."}

[Al-Baqarah (The Cow): 285]

The Arab and Islamic nations do not find a substitute for taking back Jerusalem, as it has ever been honored with its Islam and Arab entity along with its spiritual belonging as a symbol of tolerance, religious fraternity, and a model of respecting the religious sacred rituals. Moreover, the Conference stressed its rejection of violating Jerusalem, breaching its rights, or the right of practicing religious rituals therein.

Also, the statement asserts the necessity of confronting the Israeli violation of the national rights of Al-Aqsa mosque as well as those of the Palestinian people. It stresses the necessity of being committed to support Jerusalem and redemption of the Al-Aqsa. This is a firmly established creed for the Islamic nation and the Arab nation including its Muslims and Christians. This is to confront the Zionist occupation and its criminal and aggressive practices, targeting Al-Aqsa Mosque.

The Conference called at the conclusion of its statement to gather the efforts in the Arab and Islamic nation to break the siege of Jerusalem and escalating the international support for Al-Aqsa Mosque and the sacred places.

It added that the International Campaign for breaking the siege of Jerusalem aims at supporting the steadfastness of Al-Aqsa Mosque and escalating solidarity to make fraternity between Jerusalem and all of the international parties engaged in t he campaign at the economic, legal, and political levels and at the level of the Muslim and Christian Arabs from one side and the governmental and international sides for the sake of gathering the Arabs, Muslims, and Christians around the organization of supporting Jerusalem. Also, the efforts of breaking the siege of Jerusalem should be converted from advocacy to actual performance.

{Verily, Allâh will help those who help His (Cause). Truly, Allâh is All-Strong, All-Mighty.}

[Hajj (Pilgrimage): 40]

This was in 15 A.H. (636 A.D). The Muslims and Christians lived in Jerusalem and welcomed the visitors of the believers throughout hundred of years until the beginning of the Zionist occupation, upon which the dangers of judaizing Jerusalem started since June 1967.

As for the status of Jerusalem, there are many Hadiths in this regard. One of which narrated on the authority of Maimoinah bint Sa`d (may Allah be pleased with her) that she said: "O Messenger of Allah, give us your opinion concerning Jerusalem. He said: It is the land of resurrection, and come to offer Prayer in it, as the Prayer offered in it equals a thousand of Prayers. We said: O Messenger of Allah, What if we can not go there? He said: Whoever can not go there may grant it oil to be put in its lamps. Whoever does so seems to be like the one who goes there."

The Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) said in another Hadith:" There is a group of people who conquer their enemy and those who contradict with them do not harm them, and will not be afflicted with distress until Allah wills. They said: Who are they? He said: In Jerusalem and around it."

The majority of Al-Azhar scholars agreed unanimously on the necessity of confronting quickly to the frequent Israeli attempt to destroy Al-Aqsa Mosque and to build the claimed temple on its debris. They clarified that there is no time for weakness, and that the revolutions of the Arab nations should not keep our mind away from our role towards Al-Aqsa Mosque. The threat of demolishing Al-Aqsa Mosque and building a temple on its debris should be taken into consideration seriously. Also, the Palestinian cause concerns creed and religion, and not only a piece of land that was attached.

The Grand Imam, Ahmad At-Tayyib emphasized supporting the campaign of breaking the siege of Jerusalem and confronting the plans of judaizatoin. This is through the General Conference for Supporting Jerusalem, which was held in Al-Azhar in cairo, aiming at launching the campaign of breaking the siege of Jerusalem and sacred places.

The attendees agreed on forming a coordinating body undertaking the role of confronting the conspiracies and plans of Israel concerning judaizing Jerusalem and changing its historical, Arab, geographic, and religious attributes.

Al-Azhar decided to form a committee to support an international campaign for breaking the siege of Jerusalem and Al-Aqsa Mosque officially in April. At the same time, the Grand Sheikh of Al-Azhar declared setting an Islamic endowment for financing the projects of housing in Jerusalem, aiming at establishing 200000 building to face the plans of judaization. This is in addition to launching Arab and international media campaigns to introduce the cause of Jerusalem and inserting in the curricula of the preparatory, secondary and University phases in various Islamic countries.

the sacred people is a creed firmly established for the people of the Arab and Islamic nation including the Muslims and Christians. This is to confront the Zionist Occupation and its criminal aggressive practices, targeting Al-Aqsa Mosque, the Christian and Islamic endowments, sacred places in Jerusalem.

The declaration stressed the fact that these practices try hard to change the apparent characteristics of Jerusalem, the city of the Prophets (may peace of Allah be upon them). The Christ lived in it and the Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him), the seal of the Prophets, was taken for a journey by night to the blessed Al-Aqsa Mosque. Then, he ascended to heaven therefrom, indicating that Jerusalem is linked to the tolerant Message of Monotheism.

{The Messenger (Muhammad peace be upon him) believes in what has been sent down to him from his Lord, and (so do) the believers. Each one believes in Allâh, His Angels, His Books, and His Messengers. (They say), "We make no distinction between one another of His Messengers" - and they say, "We hear, and we obey. (We seek) Your Forgiveness, our Lord, and to You is the return (of all)."}

[Al-Baqarah (The Cow): 285]

The Arab and Islamic nations do not find a substitute for taking back Jerusalem, as it has ever been honored with its Islam and Arab entity along with its spiritual belonging as a symbol of tolerance, religious fraternity, and a model of respecting the religious sacred rituals. Moreover, the Conference stressed its rejection of violating Jerusalem, breaching its rights, or the right of practicing religious rituals therein.

It should be a role model in respecting the religious sacred places and rituals and non violation of its sacredness, and enabling all of the Muslims to practice their religious rituals freely and without any derogation or breaching of the national rights of all the Arab people in Palestine.

It is shared by the Muslims and Christians; and this reveals that there is no place for the Jews in it. There is a document given by Al-Faruq `Umar to Patriarch Syrinos, when he received the city. It states:

"In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful. The Prince of the Believers ` `Umar ibn Al-Khatab let the people of Ailia live peacefully and safely. They will feel safe for their souls, Churches, Crosses including the ill and innocent people as well as all of the people believing in all religions. Their churches will not be inhabited, destroyed, or decreased in space. Also, nothing of their crosses or money will be taken. They will not be forced to embrace a certain religion and none of them will be harmed. Moreover, none of the Jews will stay in this city.

Al-Azhar headed by the grand Imam Prof. Ahmad At-Tayyib confronts the Zionist occupation, settlement, attempts of Judaization and destruction of Al-Aqsa Mosque, preventing the Palestinians from offering Prayer, and the barrier...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Al-Azhar is the most important world institution and Allah willed it to become an Islamic University, visited by people from all over the world. Al-Azhar has been undertaking its responsibilities throughout its long history, which exceeded a thousand years in the best manner. Also, it plays a role in the scientific development and directing the intellectual life in the Islamic world, especially in the modern era, as it is not limited to the coming students. It sent delegation of Al-Azhar scholars to the Universities of the European countries to learn their long ages. Also, these scholars are distributed in Islamic countries and minorities in all of the countries of the world. They are the ambassadors of Egypt with regard to enlightening the people with its religion and refuting the lies said by the enemies of Islam.

All the students who are delegated by Al-Azhar or sent to it assure that it is a minaret that enlightens the whole world before the people could hear about the USA. Undoubtedly, Islam is spreading in all of the countries of the world due to the scholastic efforts exerted by Al-Azhar and the comers to it benefited greatly from it.

Many people come to Al-Azhar, as its curricula include the famous doctrines of Sunnah. It is well known for keeping the heritage and serving the language of Qur'an, in a way that made the people feel happy when attending its lectures whatever the distance is between Cairo and the other Isalmic capitals.

Making journey seeking knowledge is one of the attributes of the scholars who dedicated their souls to studying. Thus, Al-Azhar has a great role in developing the Islamic thinking, spreading science, protecting the creed of the nation even in the hard times faced by this ancient university.

Those who graduated from Al-Azhar from all the parts of the world contributed to maintain the Islamic identity and spreading the Arabic language. They contributed in a scientific way to develop the cultural, scientific, and civilizational life, as they are distributed over various fields. They complete each other in performing the mission in the best way.

Some of them are judges who set justice, teachers who educate the coming generations, ambassadors for their nation in various countries, expressing its status, origin, and attributes, as they do not limit their efforts in political work.

They were, due to their culture, the best heralds and reformers, who represent their religion and nations. Also, they are Imams of mosques, who enlighten the people with the rulings of their religion. Also, some of them call to the Path of Allah, as they dedicated their souls to spreading and defending their religion. Also, some of them help the people memorize the Qur'an, applying the saying of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him): "The best people amongst you are those who learn the Qur'an and teach it."

The Messenger of Allah said: "Allah gives the person to whom he willed goodness more knowledge in religion." Al-Azhar made the scholars who graduated from it and spread its Fiqh among the people the inheritors of the prophets, as they inherited religion and not money.

Jerusalem belongs to the Arabs in origin, history, role, and location, a matter which was denied by the lying Zionist. Canaanites who came from the Arabian Peninsula established Jerusalm in the fourth century before Christ and called it Yaroshalem. Yaro means the place or location, while Shalim is peace. This name is Canaanite and has nothing to do with the Jews, Israel, or the old or current Hebrew. Then Jerusalem was called Jebus. Jebusites were a tribe belonging to Canaanites. Jebusites govered Jerusalem for a long time, and one of their kings Salem Al-Yabusy built his palace on the hill of Suhun overlooking the town in the middle of the third century before Christ.

It was mentioned in the Old Testament: "The children of Judah could not dismiss the Jebusites, the inhabitants of Jerusalem. Thus, they stayed with each other thereafter."

It was mentioned in another text in the Old Testament: "The man did not accept to spend the night and he left until he found Jebus, and the night was approaching."

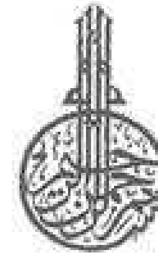
There is much debate around the Temple, as they said in the Old Testament that Dawud rented a house from Arnan, the Jebusite, which contained barns for cows, cattle, and harvest. Arnan emptied it, so that Dawud could set his tent to worship Allah. It is strange that a barn is turned to sacred place.

Shimon Peres, the current Israeli President, asked his friend, the archialogist Tobiah Sagiv to make a study, concluding that Al-Aqsa Mosque and Hebron are Jewish. Then, Sagiv concluded: "I do not find any trace in Al-Aqsa Mosque or the Ibrahimi Mosque proving that their origin is Jewish."

The archeologist, Meir Ben-Dov, said emphasizing: "If we dig in this region, we will find water wills. We find water canals throughout digging and the studies which were conducted during the last twenty five years. We conclude that there is nothing that refers to this period.

The Conference of the International Campaign to break the siege issued a declaration stating that being committed to the sacred duty and the redemption of

AL-AZHAR MAGAZINE
Jumada-Al-Oula, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION
April, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ - أبريل ٢٠١٢ م الجزء "٥" السنة "٨٥"

اقرأ لهؤلاء



ا . د. عبد الرزاق السنهوري



الشيخ محمود شلتوت



د. عصام البشير

هدية العدد

أمريكا...
هل هي شعب الله المختار ؟

تأليف: هيربرت أرمسترونج
تقديم الدكتور: محمد عمارة

- المنهاج الإسلامي في الإصلاح
  للأستاذ الدكتور / محمد عمارة
- تفسير القرآن الكريم
  للإمام محمد عبده
- الديـــــن
  أ. د. محمد عبد الله دراز
- حول تطبيق الشريعة الإسلامية
  المستشار طارق البشري



ترقب في العدد القادم

السعر 150 قرشاً

AL AZHAR MAGAZINE

www.AlazharMag.com



Al Azhar Magazine

- الافتتاحية البابا شنودة يشهد لتاريخ الإسلام
  للأستاذ الدكتور محمد عمارة
- ماذا يعني تطبيق الشريعة الإسلامية
  لفضيلة الشيخ محمد الغزالي
- قصص الأنبياء
  لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار
- بنو إسرائيل في الكتاب والسنة
  لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي
- المقاصد التربوية للعبادات
  أ. د. صلاح سلطان

هدية العدد

المدنية الإسلامية للدكتور عبد الرزاق السنهوري



الأزهر

www.AlazharMag.com

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ - مايو ٢٠١٢م الجزء "٦" السنة "٨٥"

البابا شنودة يشهد لتاريخ الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد عمارة

قصص الأنبياء

لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار

شمولية الشريعة الإسلامية .. عناصر الثبات والتغير..

المستشار طارق البشرى

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام

أ. د. محمد المختار المهدى

اقرأ لهؤلاء



محمد الطاهر بن عاشور



محمد الغزالى



د. عبد الله بن بيه

هدية العدد: المدنية الإسلامية

تأليف أ. د. عبد الرزاق السنهورى باشا

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

• الافتتاحية •

البابا شنودة يشهد لتاريخ الإسلام



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

فى ١١ من أكتوبر ١٩٧٧ م، وأمام الرئيس أنور السادات، وفى مناسبة وضع حجر الأساس لمستشفى «مار مرقس» بالقاهرة، ألقى البابا شنودة خطابًا تجلت فيه ثقافته التاريخية الواعية، حتى لقد جاء شهادة من هذا الحبر الكبير للتاريخ الإسلامى فى الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين، بل وشهادة للقرآن الكريم فى السماحة والإنصاف للنصارى.

ولأن الكثير من وسائل الإعلام تركز الأضواء على عوامل الشقاق، وتتجاهل عوامل الوفاق، ومنها هذه الشهادة الهامة للبابا شنودة، لزم التنبيه على عناصر هذه الشهادة ليقرأها المسلمون والمسيحيون جميعًا، وليتعلموا الاحتفاء بأقوال العقلاء، بدلاً من أقوال الدهماء، ولزم التقديم لمعالم هذه الشهادة، وبالنصوص الحرفية لصاحبها.

• ففى هذا (الخطاب – الوثيقة)، شهد البابا شنودة بأن «القرآن» قد وضع اليهود الذين أشركوا فى ناحية، ووضع النصارى فى ناحية أخرى، مميزًا بينهم وبين المشركين، وأن القرآن حينما يتكلم عن المسيحيين من أهل الكتاب، إنما يطلب أن تكون المجادلة بينهم بالتى هى أحسن.

• وفى هذه الشهادة، أثنى البابا شنودة على تاريخ الإسلام فى السماحة والعيش المشترك بين المسلمين والنصارى، وقدم الصور الرائعة لواقع هذا التاريخ، ووقائعه منذ صدر الإسلام، وعبر مراحل هذا التاريخ، ومما قاله هذا الحبر الكبير – على سبيل المثال –: «فى تلك العصور نجد تمازجًا قد حدث بين المسلمين والمسيحيين، وظل هذا التمازج ينمو شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى حالة من الوحدة.. فلنا فى التاريخ الإسلامى صداقات كثيرة بين حكام المسلمين وبين المسيحيين، ونراهم قد اعتمدوا عليهم فى ميادين عدة، لعل من أبرزها التعليم والطب والهندسة والأمور المالية.

فالتاريخ الإسلامى – بشهادة البابا شنودة – قد صنع نسيجًا واحدًا، امتزج فيه المسلمون والمسيحيون، ووصلت علاقات الحكام المسلمين بالنصارى إلى درجة «الصداقة»، وليس فقط «القبول».

• وتحدث البابا شنودة عن عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ – ٢٣ هـ / ٥٨٤ – ٦٤٤م)، الذى تعرض تاريخه لافتراءات أهل الشقاق، فقدمه كنموذج مثالى للسماحة الإسلامية، فقال: «لقد رأينا فى التاريخ الإسلامى أمثلة واضحة للسماحة الإسلامية، نذكر منها أن الخليفة عمر بن الخطاب حينما اقترب من الموت أوصى من يأتى بعده فى الخلافة من جهة أهل الكتاب بأمرين: الأمر الأول: وفاء العهود التى أعطيت لهم، والأمر الثانى قال فيه: ولا تكلفوهم فوق ما يطيقون».

ثم يمضى البابا شنودة فى الحديث عن عمر بن الخطاب، فيقول: «.. فى إحدى المرات، حينما كان الوليد بن عقبة واليًا على بنى تغلب ومن فيهم من النصارى، ورأى عمر أن الوليد هدد هؤلاء الناس وتوعدهم، عزله عمر من الولاية حتى لا يلقى بهم شرًا. وهناك قصة طريفة تروى عن عمر بن الخطاب، أنه حينما كان خليفة للمسلمين، اختلف على بن أبى طالب مع رجل يهودى، وجاء الإثنان أمام الخليفة عمر، فقال عمر لعلى: يا أبا الحسن اجلس إلى جوار خصمك لنبحث الأمر، فجلس على، وقد تأثر قليلاً. وبعد أن قضى بينهما، قال عمر لعلى:

هل استأت أنى أجلستك إلى جوار خصمك؟ فقال له على: كلا، أنا استأت لأنك ناديتنى بكنيتى - يا أبا الحسن - وفى هذا نوع من التعظيم، خفت أن يشعر معه اليهودى بأنه لا يوجد عدل بين المسلمين، فلم لم تساو بيننا، وإنما رفعتنى عنه بأن ناديتنى بكنيتى؟.

ثم يعقب البابا شنودة على هذا العدل الذى جسده عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، فيؤكد أن ذلك إنما كان خلقا عاما وسائدا فى الحكم الإسلامى، ويقول: «هكذا كان المسلمون يسلكون فى العدل بين رعاياهم، أيا كان مذهبهم».

• ثم يؤكد البابا شنودة على أن هذا العدل الإسلامى لم يقف عند دولة الخلافة الراشدة، وإنما امتد روحا سارية وسنة مرعية عبر تاريخ الإسلام، فيقول: «... لقد انتهت حياة عمر بن الخطاب على الأرض، وانتهت مدة خلافته، لكن الخير الذى عمله لم يمت بموته إطلاقا، وما يزال حيا الآن يملأ الآذان ويملأ الأذهان، ويحيا مع الناس على مدى الأزمان».

• ثم يمضى البابا شنودة فيضرب الأمثال على استمرار السماحة الإسلامية والعدل مع النصارى على امتداد التاريخ الإسلامى، فيقول عن معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق. هـ - ٦٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م)، وعن الدولة الأموية: «لقد كان الطبيب الخاص للخليفة معاوية نصرانيا، واختار رجلا مسيحيا لكى يؤدب ابنه زياد، وزياد هذا اختار كاهنا مسيحيا لكى يؤدب ابنه خالدا، والخليفة عبدالملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ / ٦٤٦ - ٧٠٥ م)، كان يأخذ يوحنا الدمشقى (٥٥ - ١٢٢ هـ / ٦٧٥ - ٧٤٠م) مستشارا له، وقد اختار رجلا معلما مشهورا اسمه (أطاناسيوس) لكى يؤدب أخاه عبدالعزيز، ولما صار عبدالعزيز بن مروان حاكما لمصر أخذ (أطاناسيوس) معه كمستشار له، ونجد أن الأخطل (١٩ - ٩٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٠٨ م) كان من الشعراء المسيحيين المشهورين، واندمج فى مجموعة متلازمة مع جرير (٢٨ - ١١٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٢٨ م)، والفرزدق (١١٠هـ / ٧٢٨ م) واشتهرت هذه المجموعة فى العصر الأموى، وكان الأخطل المسيحى حينما يدخل إلى مساجد المسلمين يقوم المسلمون له إجلالا لعلمه وأدبه - كما يروى التاريخ الإسلامى».

• كذلك يشهد البابا شنودة للخليفة الأموى هشام بن عبدالملك (٧١ - ١٢٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٤٣ م) فيقول: «إنه ابتنى للبطريرك فى أيامه بيتا إلى جوار قصره، وكان يستمع منه إلى صلواته وعظاته».

• ويشهد البابا شنودة لعدل الإسلام فى العصر العباسى، فيقول عن الخليفة أبوجعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م): «إن طبيبه الخاص كان مسيحيا اسمه جرجس بن بختيشوع، وكان الخليفة هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ / ٧٦٦ - ٨٠٩ م) يقول للناس: من كان منكم له حاجة عندى فليكلم فيها جبرائيل، لأنى لا أرد له طلبا، وكان يوحنا مشهورا من أيام الرشيد، إلى أيام المتوكل (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ / ٨٢١ - ٨٦١م)، وكان هؤلاء

الخلفاء يدعونه إلى موائدهم، وما يأكلون شيئا إلا فى حضرته، وكان حنين بن إسحق (١٩٢ - ٢٥٩ هـ / ٨٠٨ - ٨٧٣ م) من أشهر الأطباء فى العصر الإسلامى، حتى قيل عنه إنه أبوقراط عصره وجالينوس دهره، وحنين بن إسحق هذا تعلم كذلك اللغة والفقه على يد الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥ م) وعلى يد سيبويه (١٤٨ - ١٨٠ هـ / ٧٦٥ - ٧٩٦ م) ونبغ فى اللغة العربية نبوغا عظيما.

• وفى شهادة البابا شنودة لعدل الإسلام والتاريخ الإسلامى مع غير المسلمين، حيث امتزجوا أمة واحدة وثقافة واحدة عرج الرجل على التاريخ المصرى والعدل الإسلامى مع الأقباط، فتحدث عن «انتشار اللغة العربية فى مصر، التى تعلمها وأتقنها أقباط مصر، فكانت هذه اللغة مجالا كبيرا للتوحيد بين الناس».

• وتحدث عن أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠ هـ / ٨٣٥ - ٨٨٤ م) «الذى كان من المحبين للأقباط كثيرا، وقد اختار مسيحيا لكى يبنى له مسجده، واختار مسيحيا لكى يبنى القناطر، وكثيرا من منشآته، وكان يذهب كثيرا لزيارة دير القصير، وكان على صلة وثيقة برهبانه هناك، فلقد كانت الأديرة المصرية دائما مجالا لالتقاء الخلفاء والولاة، وكانوا يحبونها، ويقضون فيها الكثير من الوقت، ويصادقون رهبانها وأساقفتها».

• وتحدث البابا شنودة عن عدل الإسلام مع أقباط مصر فى ظل الدولة الإخشيدية، والدولة الفاطمية، «فمحمد بن طغج الإخشيد (٢٦٨ - ٣٣٤ هـ / ٨٨٢ - ٩٤٦ م) كان يبنى الكنائس بنفسه ويتولى ترميمها، وكنيسة أبى سرجة، فى مصر القديمة، اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون، وكنيسة أبى سيفين «القديس مارقريوس - بمصر القديمة - تولى الاهتمام بها الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦ م)، ولا أستطيع أن أذكر مقدار اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكنائس وبنائها وترميمها، وإنما أترك ذلك لعالمين كبيرين من علماء الإسلام، هما «المقريزى» (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ - ١٤٤١ م) فى (الخطط)، و«المسعودى» (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) فى «مروج الذهب»، كما تولى الخلفاء والحكام إقامة الوحدة الوطنية ورعايتها».

هكذا شهد الحبر الكبير البابا شنودة لعدل القرآن الكريم مع النصارى، ولعدل التاريخ الإسلامى مع المسيحيين، منذ عمر بن الخطاب، وكيف أن عدل عمر لم ينقض بموته، وإنما استمر عبر التاريخ الإسلامى، وبعبارة البابا شنودة: «فإن الخير الذى عمله عمر لم يمت بموته إطلاقا، وما يزال حيا الآن يملأ الآذان، ويملأ الأذهان، ويحيا مع الناس على مدى الأزمان».

إنها شهادة - بل وثيقة - تحتاج إلى أن تقرأ مرات ومرات، للتحول إلى دعامة «للتمازج الوطنى»، وإلى سلاح تصد به كيد الأعداء وجهالات الغوغاء.

البابا شنودة الثالث

المسيحيون فى الحكم الإسلامى

«باسم الإله الواحد، الذى نعبده جميعًا، يسرنى نيابة عنكم أن أرحب بالسيد الرئيس أنور السادات.

وفى هذا اليوم الذى يزور فيه مكان البطريركية وموضعها هنا، إنما يذكرنا بعلاقة الإسلام بالنصارى، وزيارة الرئيس اليوم لها مغزاها الكبير.

وسأتحدث فى قليل عن هذه الناحية، الإسلام حينما يتحدث عن النصارى، فإنما يسميهم أهل الكتاب، ولقد ورد فى القرآن الكريم عديد من الآيات فى محبة أهل الكتاب، وفى محبة النصارى، نذكر من بينها ما ورد فى سورة آل عمران:

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(آل عمران: ١١٣)

وهنا نرى القرآن قد تكلم عن أهل الكتاب، كأهل عبادة، وأهل سهر فى الصلاة وأهل معروف وإيمان وصلاح، ولذلك ورد فى سورة البقرة:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (البقرة: ١٢١)

ولهذا نجد أن القرآن حينما يتكلم عن المسيحيين من أهل الكتاب، إنما يطلب أن تكون المجادلة بينهم بالتى هى أحسن، فلقد ورد فى سورة العنكبوت:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

بل أكثر من هذا فقد وضع القرآن أهل الكتاب فى موقف السؤال والمشورة، بل والإفتاء فى الدين، فقد ورد فى سورة يونس:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾

(يونس: ٩٤)

وقد ورد أيضًا فى سورة الأنبياء:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(الأنبياء: ٧)

والقرآن حينما يتكلم عن النصارى يصفهم أيضًا بأنهم أهل رأفة ورحمة، ففى سورة الحديد فى الحديث عن السيد المسيح يقول:

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (الحديد: ٢٧)

وهو أيضًا يجعلهم أقرب الناس مودة للمسلمين فى آية قرآنية فى سورة المائدة يميز فيها القرآن بين المسيحيين والمشركين فيقول:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(المائدة: ٨٢)

وهنا نرى أن القرآن وضع اليهود الذين أشركوا فى ناحية، ووضع النصارى فى ناحية أخرى مميزًا بينهم وبين المشركين بهذا عاش المسيحيون فى الحكم الإسلامى مع الحكام الذين فهموا القرآن على حقيقته وأحبوا السماحة، عاش النصارى معهم عيشة طيبة نريد أن نتوجها بحكم أنور السادات، فى تلك العصور نجد تمازجًا قد حدث بين المسلمين والمسيحيين ظل هذا التمازج ينمو شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى حالة من الوحدة، فلنا فى التاريخ الإسلامى صداقات كثيرة بين حكام المسلمين وبين المسيحيين ونراهم قد اعتمدوا عليهم فى ميادين عدة لعل من أبرزها التعليم والطب والهندسة والأمور المالية.

وفى التعليم نرى أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان اختار رجلاً مسيحيًا لكى يؤدب ابنه زياد، وزياد اختار كاهنًا مسيحيًا لكى يؤدب ابنه خالدا، والخليفة عبد الملك بن مروان كان يأخذ يوحنا الدمشقى مستشارًا له، وقد اختار رجلاً معلمًا مشهورًا اسمه أطاناسيوس لكى يؤدب أخاه عبد العزيز.

ولما صار عبد العزيز بن مروان حاكمًا لمصر أخذ أطاناسيوس معه كمستشار له، نجد أن الأخطل كان من الشعراء المسيحيين المشهورين اندمج فى مجموعة متلازمة مع جرير والفرزدق اشتهرت فى العصر الأموى، وكان الأخطل المسيحى حينما يدخل إلى

مساجد المسلمين يقوم المسلمون له إجلالاً لعلمه وأدبه كما يروى التاريخ الإسلامي.

نرى في التاريخ الإسلامي أمثلة واضحة للسماحة الإسلامية، نذكر منها أن الخليف عمر بن الخطاب حينما اقترب من الموت أوصى من يأتى بعده فى الخلافة من جهة أه الكتاب بأمرين:

- الأمر الأول :وفاء العهود التى أعطيت لهم.
- والأمر الثاني: قال فيه: ولا تكلفوهم فوق ما يطيقون.

عمر بن الخطاب فى إحدى المرات حينما كان الوليد بن عقبة واليا على بنى تغل ومن فيهم من النصارى، لما رأى عمر بن الخطاب أن الوليد بن عقبة هدد هؤلاء النا وتوعدهم عزله من الولاية حتى لا يلقى بهم شراً.

وهناك قصة لطيفة تروى عن عمر بن الخطاب أنه حينما كان خليفة المسلمي اختلف على بن أبي طالب - الذى صار الخليفة الرابع - مع رجل يهودى وجاء الاثنا أمام الخليفة عمر، فقال عمر لعلي: يا أبا الحسن اجلس إلي جوار خصمك لنبحث الأمر، فجلس على وقد تأثر قليلاً، وبعد أن قضى بينهما، قال عمر لعلي، هل استا لأنى أجلستك إلي جوار خصمك، قال له، كلا، أنا استأت لأنك ناديتنى بكنيتى يا أب الحسن، وفى هذا نوع من التعظيم خفت أن يشعر معه هذا اليهودى بأنه لا يوجد عد بين المسلمين.

ولهذا نرى أن الإمام على بن أبي طالب الذى صار من أعظم الخلفاء فى تاري الإسلام يعاتب عمر ويقول له: لم لم تساو بيننا، وإنما رفعتني عنه بأن ناديتن بكنيتي، هكذا كان المسلمون يسلكون فى العدل بين رعاياهم، أيا كان مذهبهم.

ونجد أنه فى التاريخ كثير من الخلفاء المسلمين وولاتهم اهتموا بالمسيحيين من ك ناحية، كان محمد بن طغج الأخشيد يبنى بنفسه الكنائس ويتولى ترميمها، وكنيس أبى سرجة فى مصر القديمة اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون وكنيسة أبى سيفي القديس مارقريوس بمصر القديمة تولى الاهتمام بها الخليفة العزيز بالله الفاطمي، و أستطيع أن أذكر مقدار اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكنائس وبنائها وترميمها ف العهد الفاطمي، إنما أترك هذا الأمر لعالمين كبيرين من علماء الإسلام هما: المقريز فى كتابه القصص، والمسعودى فى كتابه مروج الذهب.

من ناحية الطب الذى بسببه نحن مجتمعون لإنشاء هذا المستشفى نجد أن أو مستشفى فى مصر كان فى عهد أحمد بن طولون وكان أحمد بن طولون من المحبي

للأقباط كثيراً وقد اختار مسيحياً لكي يبني له مسجد أحمد بن طولون، واختار مسيحياً لكي يبني القناطر واختار مسيحياً يبني كثيراً من منشآته وكان أحمد بن طولون يذهب كثيراً لزيارة دير القصير، وكان على صلة وثيقة برهبانه هناك.

والأديرة المصرية كانت دائماً مجالاً لالتقاء الخلفاء والولاة وكانوا يحبونها ويقضون فيها الكثير من الوقت ويصادقون رهبانها وأساقفتها. نسمع أن هشام بن عبد الملك ابتنى للبطريرك فى أيامه بيتاً إلى جوار قصره وكان يستمع منه إلى صلواته وعظاته، ونسمع أن الخليفة العزيز بالله الفاطمي كان على صداقة كبيرة بالبابا إبرام بن زرعا وبالأنبا ساويرس أسقف الأشمونين، وكان يدعوهما إلى قصره مع رئيس القضاة يتفاهمان فى الدين وهما فى حضرته.

وفى الطب نسمع أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان له طبيبه الخصوصي وكان نصرانياً، والخليفة أبوجعفر المنصور كان طبيبه الخاص مسيحياً اسمه جرجس بن بختيشوع، وكان جبريل بن بختيشوع طبيباً لهارون الرشيد، وكان الخليفة هارون الرشيد يقول للناس: من كان منكم له حاجة عندى فليكلم فيها جبرائيل لأنى لا أرد له طلباً.

وكان يوحنا مشهوراً من أيام الرشيد إلى أيام المتوكل، وكان هؤلاء الخلفاء يدعونه إلى موائدهم وما يأكلون شيئاً إلا فى حضرته، وكان حنين بن إسحق من أشهر الأطباء فى العصر الإسلامي حتى قيل عنه أنه أبوقراط عصره، وجالينوس دهره، وحنين بن إسحق تعلم كذلك اللغة والفقه الإسلامي على يد الإمام أحمد بن حنبل، وعلى يد سيبويه، ونبغ فى اللغة العربية نبوغاً عظيماً.

وبانتشار اللغة العربية في مصر التى تعلمها وأتقنها أقباط مصر، كانت هذه اللغة مجالاً كبيراً للتوحيد بين الناس، فكان الأقباط يتكلمون اللغة العربية، وكان المسلمون فى الريف يستخدمون التقويم القبطى فى أمور الفلاحة جميعها.

نرى هذا التعاطف كان موجوداً باستمرار، ونسمع عن كثيرين من الخلفاء والحكام أنهم تولوا هذه الوحدة الوطنية ورعوها.

عمر بن الخطاب انتهت حياته على الأرض، وانتهت مدة خلافته، لكن الخير الذى عمله لم يمت بموته إطلاقاً، وما يزال حياً حتى الآن يملأ الآذان ويملأ الأذهان، ويحيا مع الناس على مدى الأزمان.

أنا لست بمستطيع أن أتحدث طويلاً فى هذا الأمر لكيلا أنسى نفسي، وكلكم

مشتاقون لسماع السيد الرئيس، ولكنى أحب أن أقول: إن الخير يا سيادة الرئيس هو الذى يعيش دائما، ويخلد مع الزمن، ونحن نسعى إلى انتشار الخير بين الناس، ونريد أن يكون الخير الذى يسلك فيه الناس خيراً اختيارياً ينبع من قلوبهم، وليس خيراً إجبارياً يرغمون عليه، صدقوا.. أستطيع أن أقول إن عمل الخير ليس هو الخير، وإنما الخير الحقيقى هو محبة الخير داخل القلب، فالإنسان قد يعمل الخير مضطراً، وقد يعمل الخير خوفاً، وقد يعمل الخير تقليداً، ولكنه لا يكون خيراً فى الحقيقة، إنما الإنسان الخيِّر هو الذى يحب الخير فى عمق أعماقه حتى إن لم يعمله تصير نيته له عملاً والأعمال بالنيات، الإجبار للخير يكوّن عبيداً يخضعون للسلطة، أما الخير الاختيارى فيكوّن قديسين.

ومن هنا نريد أن ننشر الخير بين الناس فى قلوبهم من الداخل، وأن نوطد أعمال الصلاح والبر داخل الإنسان، وليس خارجه.

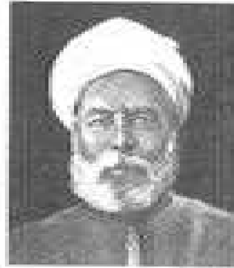
إن يوسف الصديق كانت الخطيئة أمامه سهلة وتلح عليه، وكان ربما يعاقب إن لم يرتكبها، ولكنه فضل ألا يخطئ لأن محبة الخير فى قلبه كانت أقوى من إغراءات خفية.

هذا هو الإنسان الصالح الذى نريده، والذى نريده من تعليم الدين، والذى نريده من الوعظ، والذى نريده من تشجيع الدولة.

ونحن كمسيحيين نحب أن نساهم فى هذا المجال فى إيجاد المواطن الصالح قلباً وتصرفاً، نساهم بكل قوتنا لأننا نحب مصر بلادنا، ونحب ترابها، ونحب ماءها، ونحب تاريخها المجيد، ونحب رجالها العاملين، ونحب أيضاً رئيسها أنور السادات، مصر بالنسبة لنا ليست وطنا نعيش فيه، إنما هى وطن يعيش فينا، يعيش فى داخلنا، مصر هذه نحبها الحب كله، ونحرص على سمعتها كل الحرص فى الداخل وفى الخارج أيضاً، ونبذل كل جهدنا لكى تكون صورة مصر مشرقة فى كل مكان، جميلة عند كل شعوب العالم، تليق بعبارة الكتاب المقدس التى قال فيها: (مبارك شعب مصر).

●●●

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)

لما ذكر الله عباده بنعمة الإيجاد ونعمة المساواة فى المواهب التى تقتضى التقوى وعدم إطراء السلف برفعهم إلى مقام الربوبية كما وقع من الذين

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)

ذكرهم ثانيا ببعض خصائص الربوبية التى تقتضى الاختصاص بالعبودية، فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾

بما مهدها وجعلها صالحة للافتراش والإقامة عليها والارتفاق بها، أى فهو القادر على جلائل الفعال، العظيم الذى يستحق العبادة والإجلال، المنعم بجميع النعم، الجدير بأعلى مراتب الشكر، جعل الأرض بقدرته فراشا لأجل منفعتكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ متماسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم. السماء مجموع ما فوقنا من العالم، والبناء وضع شئ على شئ بحيث يتكون من ذلك شئ بصورة مخصوصة. وقد كون الله السماء بنظام كنظام البناء، وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة، وأمسكها بسنة الجاذبية فلا تقع

على الأرض، ولا يصطدم بعضها ببعض، إلا إذا جاء يوم الوعيد، وبطل نظام هذا العالم ليعود في خلق جديد. والواجب ملاحظته في هذا المقام، هو تصور قدرة الله تعالى وعظمته وسعة فضله ورحمته.

ثم بعد أن امتن بنعمة الإيجاد، ونعمة الفراش والمهاد، ونعمة السماء، التي هي كالبناء، ذكر نعمة الإمداد، الذي تحفظ به هذه الأجساد، وهي مادة الغذاء، التي بها النمو والبقاء، فقال:

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾

والثمرات ما يحصل من النبات نجما كان أو شجراً. يصلح الزارع والغارس الأرض، ويبذر البذر، ويغرس الفسيل، ويتعاهد ذلك بالسقي والعذق، فيكون له كسب في رزقه. ولكنه ليس له كسب في إنزال المطر الذي يسقي به، ولا في تغذية النبات بماء المطر أو النهر المجتمع من المطر، وبأجزاء الأرض، وعناصرها الأخر، ولا في تولد خلاياه التي بها نموه، ولا في إثماره إذا أثمر، وإنما كل ذلك بيد الله القدير. فعلينا أن نتفكر في ذلك لنزداد تعظيما له وإجلالاً، فلا نعبد معه أحدا.

وبعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا، وبنعمته علينا وعلى سلفنا، وبعد أن عرفنا ذاته الكريمة، بآثار رحمته ومنته العظيمة، وصرنا جديرين بأن نعرف أن العبد عبد فلا يعبد، وأن الرب رب فلا يشرك به ولا يجحد، قال تفريعا وترتيبا على ما سبق:

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾

من سلفكم المخلوقين مثلكم، تطلبون منهم ما لا يطلب إلا منه، وهو كل ما تعجزون عنه، ولا يصل كسبكم إليه. لا تفعلوا ذلك، فإنهم في الخلق والعبودية مثلكم.

الأنداد جمع ند (بكسر النون)، وفسر بالشريك، وهو في اللغة المضارع والكفء. يقال: فلان ند فلان، ومن أنداد فلان، أي يضارعه ويماثله ولو في بعض الشئون. والأنداد الذين اتخذوا في جانب الله، هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم في بعض الحاجات، لمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الأنداد أولاً وبالذات، وهم مشركو العرب وأهل الكتاب. فالعرب كانت تسمى ذلك الخضوع والصمد عبادة، إذا لم يكن عندهم وحي ينهاهم عن عبادة غير الله، فيتحاموا هذا اللفظ «العبادة»، ويستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلاً تأويلاً لظاهر نص التنزيل. وأما أهل الكتاب، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداد وأربابا فكانوا يأولون فلا يسمون هذا الاتجاه عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة أو أندادا أو أربابا وفرق بين الاتخاذ بالفعل، والتسمية بالقول. والجميع متفقون على أنه لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله. وإنما كانوا يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلاً واستشفاعا. ويسمون تشريعهم لهم العبادات، وتحليلهم لهم المنكرات، وتحريمهم عليهم بعض الطيبات، فقها واستنباطا من التوراة. إلا أن من النصارى من لا يتحامون التصريح بعبادة السيدة مريم وبعض القديسين استعمالاً للفظ في مدلوله اللغوي.

وصورة العبادة تختلف عند الأمم اختلافا عظيما، وأعلاها عند المسلمين: الأركان الخمسة والدعاء. وقالوا: كل عمل غير محظور، تحسن فيه النية لله تعالى، فهو عبادة. كأن المعنى الذي يجعل جميع الأعمال عبادة هو التوجه إلى الله تعالى وحده، وابتغاء مرضاته. ولها عند أهل الكتاب صور أخرى، والمؤولون يخصون هذه الصورة بالله تعالى، وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر يستحلونها بل يستحبونها به، ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أندادا، كما ذكر الله عنهم في قوله:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ٣١)

ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والأخذ في الدين بقولهم تقليدا لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي، كما صح ذلك عن رسول الله - ﷺ -. وقدماء الفرس جعلوا لله ندا في الخلق والإيجاد، فقالوا: إن للخير إلها هو الإله الأول، وإن للشر إلها يضاده. وليس النهي في الآية عن هذا الند الشريك، لأن المخاطبين لا يدينون به كما قلنا وتدل عليه الآيات الكثيرة.

لذلك وصل النهي بقوله عزوجل:

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أي والحال أنكم تعلمون أنه لا ند له، لأنكم إذا سئلتم: من خلقكم وخلق من قبلكم؟ تقولون الله. وإذا سئلتم: من يرزقكم من السموات والأرض؟ ومن يدبر الأمر؟ تقولون الله. فلماذا تستغيثون إذن بغير الله، وتدعون غير الله؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع، وادعيتم أنهم شفعاؤكم عند الله؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى الله يكون بغير ما شرعه من الدين حتى قلتم:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(الزمر: ٣)

يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم، وخلق وسطاءكم وشفعاءكم، وأعدكم جميعا للتقوى، التي تقربكم إليه زلفى، وساوى بينكم في أنواع المواهب، إلا أنه خص الأنبياء - عليهم السلام - بالوحي ليعلموكم ما أخطأ نظركم ورأيكم فيه، فعليكم أن تهتدوا بما جاءوا به. فإنه صد المرءوسين عن ترك تقاليدهم واتباع الوحي من غير زيادة فيه ولا نقصان منه خوفهم الرؤساء، فقد آثروا رؤساءهم على الله وجعلوهم له أندادا. وإن صد الرؤساء عن هذا الاتباع توقع زوال المنفعة والجاه لدى المرءوسين، فقد اتخذوهم أندادا. فالند هو المكافئ والمثل، وأنتم بترككم الحق خوفهم ورجائهم تفضلونهم على الله تعالى وتجعلونه أقل الأنداد تعظيما. ففروا رحمكم الله إلى الله، ولا تخافوا غيره، ولا ترجوا سواه. فعار على من يعرف الله، أن يؤثر رضاء أحد على رضاه، لا فرق بين رئيس ومرءوس، وتابع ومتبوع. بل هذا لا يقع من مؤمن حقيقي لأن الله تعالى يقول:

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران: ١٧٥)

أقسام السنة النبوية عند العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور



٢

(١٢٩٦-١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩-١٩٧٣م)

عرض لى أن أعد من أحوال رسول الله ﷺ التى يصدر عنها قول منه أو فعل اثنى عشر حالاً، منها ما وقع فى كلام القرافى ومنها ما لم يذكره وهى: التشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهدى، والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرد عن الإرشاد.

فأما حال التشريع: فهو أغلب الأحوال على الرسول ﷺ، إذ لأجله بعثه الله، كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

وقرائن الانتصاب للتشريع ظاهرة، مثل خطبة حجة الوداع، وكيف أقام مسمِّعين يُسمعون الناس ما يقوله رسول الله ﷺ، ومثل قوله ﷺ فى حجة الوداع: «خذوا عنى مناسككم»، وقوله عقب الخطاب: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب».

وأما حال الإفتاء: فله علامات مثل ما ورد فى حديث الموطأ والصحيحين عن عبدالله بن عمرو وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف فى حجة الوداع على ناقته بمنى للناس يسألونه فجاء رجل فقال: لم أشعر فحلقت، قبل أن أنحر، فقال: «انحر ولا حرج»، ثم جاء آخر فقال: نحرت قبل أن أرمى، قال: «ارم ولا حرج»، ثم أتاه آخر فقال: أفضت إلى البيت قبل أن أرمى، قال: «ارم ولا حرج». فما سئل عن شىء قُدِّم ولا أُخِّر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض إلا قال: «افعل ولا حرج».

وأما حال القضاء: فهو ما يصدر حين الفصل بين المتخاصمين المتشادين مثل

قوله ﷺ: «امسك يا زبير حتى يبلغ الماء الجدْر[١] ثم أرسله». ومثل قضائه فى خصومة الحضرمى والكندى فى أرض بينهما، الوارد فى صحيح مسلم. فكل تصرف كان بغير حضور خصمين فليس بقضاء مثل ما فى حديث هند بنت عتبة المتقدم.

ومن أمارات ذلك الخصم قول الخصم للرسول ﷺ: اقض بيننا، وقول الرسول ﷺ: «لأقضين بينكما». مثاله ما فى حديث الموطأ عن زيد بن خالد الجهنى، قال: جاء أعرابى ومعه خصمه فقال: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله، وقال خصمه (وكان أفقه منه): صدق، اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى أن أتكلم، وذكرا قضيتهما. فقال رسول الله: «لأقضين بينكما بكتاب الله..» الخ.

وقد استقصى الإمام محمد بن فرج مولى بن الطلاع القرطبى معظم أقضية رسول الله فى كتاب ممتع[٢].

وقوله حين شكت إليه حبيبة بنت سهل الأنصارى، زوجة ثابت بن قيس، وذكرت أنها لا تحبه، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: كل ما أعطانى هو عندى، فقال رسول الله لثابت: «خذ منها»، فأخذ حديقته وطلقها.

وهذه الأحوال الثلاثة كلها شواهد التشريع وليست التفرقة بينها إلا لمعرفة اندراج أصول الشريعة تحتها.

والفتوى والقضاء: كلاهما تطبيق للتشريع، ويكونان فى الغالب لأجل المساواة بين الحكم التشريعى والحكم التطبيقى، بحيث تكون المسألة أو القضية جزئيًا من القاعدة الشرعية الأصلية بمنزلة لزوم المقدمة الصغرى للكبرى فى القياس، وقد يكونان لأجل عموم وخصوص وجهى بين الحكم التشريعى العام وبين حكم المسألة أو القضية؛ بأن يكون المستفتى قد عرض لفعله عارض أوجب اندراجه تحت قاعدة شرعية، لا لكون الفعل نفسه مندرجًا تحت قاعدة شرعية، بمنزلة لزوم إحدى القضيتين للأخرى فى قياس المساواة المنطقى بواسطة مقدمة غريبة.

مثاله فى الفتوى: النهى عن الانتباذ فى الدُّبَّاء والحنتم والمُزفت والقَيْر[٣]، فإن هذا النهى تعين كونه لأوصاف عارضة توجب تسرع الاختمار لهذه الأنبذة فى بلاد الحجاز، فلا يؤخذ ذلك النهى أصلاً يحرم لأجله وضع النبيذ فى دُبَّاءة أو حنتمة، مثلاً لمن هو فى قُطْر بارد، ولو قال بعض أهل العلم بذلك لعَرّض الشريعة للاستخفاف.

وكذلك القول فى الأقضية مثل قضاء رسول الله ﷺ بالشفعة للجار، فإن ذلك يحمل على أن الراوي رأى جارا قضى له

(١) هو حائط الحوض.

(٢) كتاب (أقضية رسول الله ﷺ) تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي. طبعة دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بيروت، القاهرة.

(٣) الدُّبَّاء: القرع، والحنتم: نوع من الجرار، والمزفت: المطلى بالزفت، والقَيْر: عنب أبيض طويل جيد الزبيب.

بالشفعة ولم يعلم أنه شريك.

وأما حال الإمارة: فأكثر تصاريفه لا يكاد يشتبه بأحوال الانتصاب للتشريع إلا فيما يقع فى خلال أحوال بعض الحروب مما يحتمل الخصوصية؛ مثل النهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية فى غزوة خيبر، فقد اختلف الصحابة: هل كان نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية وأمره بإكفاء القدور التى طبخت فيها نهى تشريع فيقتضى تحريم لحوم الحمر الأهلية فى كل الأحوال؟ أو نهى إمرة لمصلحة الجيش؛ لأنهم فى تلك الغزوة كانت حمولتهم الحمير، وقد تقدم كلام الشهاب القرافى فى الإذن بإحياء الموات.

وقد قال رسول الله ﷺ يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، رواه مالك فى الموطأ ورجاله الصحيح، فجعل مالك تصرفًا بالإمارة فقال: لا يجوز إعطاء السلب إلا بإذن الإمام، وهو من النفل (٤)، وهو خارج من الخمس الذى هو موكول لاجتهاد أمير الجيش، وبذلك قال أبوحنيفة أيضًا، وقال الشافعى وأبو ثور وداود: لا يتوقف ذلك على إذن الإمام، بل هو حق للقاتل، فرأوه تصرفًا بالفتوى والتبليغ.

وأما حال الهدى والإرشاد: فالهدى والإرشاد أعم من التشريع (٥)؛ لأن الرسول ﷺ قد يأمر وينهى، وليس المقصود العزم، ولكن المقصود الإرشاد إلى طرق الخير، فإن المرغبات، وأوصاف نعيم أهل الجنة وأكثر المندوبات من قبيل الإرشاد. فأنا أردت بالهدى والإرشاد هنا خصوص الإرشاد إلى مكارم الأخلاق وآداب الصحبة وكذلك الإرشاد إلى الاعتقاد الصحيح.

وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: «عبيدكم خولكم جعلهم الله تحت إيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق فإن كلفه فليعنه». قال الراوى: لقيت أبا ذر وغلامًا له وعلى غلامه حلة فقلت لأبى ذر: ما هذا؟ فقال: تعال أحدثك، إنى سابيت عبدًا لى فعيرته بأمه، فشكانى إلى رسول الله، فقال رسول الله: «أعيرته بأمه يا أباذر»، قلت: نعم، قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية عبيدكم خولكم..» الحديث

وأما حال المصالحة بين الناس: فهو حال يخالف حال القضاء، وذلك مثل تصرف رسول الله ﷺ حين اختصم إليه الزبير وحميد الأنصارى فى شراج الحرة (٦) كانا يسقيان به، فقال رسول الله للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك»، فلما غضب حميد الأنصارى، قال رسول الله للزبير: «اسق ثم احبس حتى يبلغ الماء الجدر (٧)»، قال عروة بن الزبير: وكان رسول الله أشار

(٤) النفل: الغنيمة.

(٥) أردت من التشريع ما يؤذن به ظاهر الفعل النبوى أو القول من وجوب أو تحريم، مع أن المقصود غير ذلك الحكم، وإلا فإن الهدى والإرشاد يدلان على مشروعية ما، كما تقدم فى آخر ديباجة الكتاب.

(٦) الشراج: هو سيل الماء، والحرة: أرض متسعة تحيط بالمدينة.

برأى فيه سعة للزبير وللأنصارى، ثم استوعى رسول الله للزبير حقه فى صريح الحكم.

ومثل قضية كعب بن مالك حين طالب عبدالله بن أبى حدرد بمال كان له عليه، فارتفعت أصواتهما فى المسجد، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «يا كعب»، وأشار بيده؛ أى: ضع الشطر، فرضى كعب فأخذ نصف المال الذى له على ابن أبى حدرد.

وأما حال الإشارة على المستشير: فمثل ما فى حديث الموطأ أن عمر بن الخطاب حمل على فرس فى سبيل الله، فأضاعه الرجل الذى أعطاه عمر إياه ورام بيعه فرام عمر أن يشتريه وظن أن صاحبه بائعه برخص، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله: «لا تشتره ولو أعطاكه بدرهم، فإن الراجع فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه»، فهذه إشارة من رسول الله على عمر ولم يعلم أحد أن رسول الله ﷺ نهى عن مثل ذلك نهيا علنا، فمن أجل ذلك اختلف العلماء فى محمل النهى، فقال الجمهور: هو نهى تنزيه كيلا يتبع الرجل نفسه ما تصدق به فجعله لله، وحمل على هذا قول مالك فى الموطأ والمدونة لجزمه بأن ذلك البيع لو وقع لم يفسخ، وحمله فى الموازية على التحريم ولم يقل: إن البيع يفسخ مع أنه لو كان نهى تحريم لأوجب فسخ البيع؛ لأن أصل المذهب أن النهى يقتضى الفساد إلا لدليل.

وعلى هذا المحمل يحمل عندى حديث بريرة حين رام أهلها بيعها، ورغبت عائشة فى شرائها واشترط أهلها أن يكون ولاؤها لهم، وأبت عائشة ذلك، وأخبرت رسول الله ﷺ بذلك كالمستشيرة، فقال لها: «لا عليك أن تشترطى لهم الولاء»، وفى رواية: «خذيها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق»، ففعلت عائشة ذلك، ثم خطب رسول الله فى الناس خطبة قال فيها: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله - إلى قوله: «وإنما الولاء لمن أعتق». فلو كان قوله لعائشة تشريعًا أو فتوى لكان الشرط ماضيا ولعارض قوله فى الخطبة «إنما الولاء لمن أعتق»، ولكنه كان إشارة منه على عائشة بحق شرعى حتى تسنى لها التحصيل عليه مع حصول رغبتها فى شراء بريرة وعتقها، وهذا منزع فى فهم هذا الحديث هو من فتوحات الله علىّ، وبه يندفع كل إشكال حير العلماء فى محمل هذا الحديث.

وعلى مثل هذا المحمل حمل زيد بن ثابت نهى رسول الله عن بيع الثمر قبل بدو صلاحه، ففى صحيح البخارى عن زيد: كان الناس فى عهد رسول الله يتباعون الثمار، فإذا جد الناس وحضر تقاضيهم، قال المبتاع: إنه أصاب الدمان (٨)، أصابه مراض، أصابه قشام (٩) عاهات؛ يحتجون بها، فقال رسول الله ﷺ لما كثرت عنده الخصومة: «فإما لا فلا تتبايعوا حتى يبدو

(٧) الجدر: هو محيط الحوض بأصل النخلة.

(٨) الدمن: عفن النخلة وسوادها.

(٩) أى: اليبس.

صلاح التمر»، قال زيد بن ثابت: كالمشورة يشير بها عليهم لكثرة خصومتهم. أ.هـ.

وأما حال النصيحة: فمثاله ما في الموطأ والصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه بشير بن سعد نحل النعمان ابنه غلامًا من ماله دون بقية أبنائه، فقالت له زوجه عمرة بنت رواحة، وهي أم النعمان: لا أرضى حتى تشهد رسول الله، فذهب بشير وأعلم رسول الله بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «أكل ولدك نحلت مثله»، قال: لا، قال: «لا تشهدني على جور»، وفي رواية: «أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء»، قال: نعم، قال: «فلا إذن».

فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي: إن رسول الله نهى بشيرًا عن ذلك، نظرًا إلى البر والصلة لأبنائه ولم يرد تحريمه ولا إبطال العطية، ولذلك قال مالك: يجوز للرجل أن يهب لبعض ولده ماله، وما نظروا إلا لأن رسول الله ﷺ لما لم يشتهر عنه هذا النهي علمنا أنه نهي نصيحة لكمال إصلاح أمر العائلة وليس تحجيرًا، ويؤيد ذلك ما في بعض روايات الحديث أنه قال: «لا، أشهد غيري».

وذهب طاوس وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وسفيان وداود بن علي إلى تحريم مثل هذه النحلة، وقوفًا منهم عند ظاهر النهي.

ومن هذا أيضًا حديث فاطمة ابنة قيس في صحيح مسلم أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال لها رسول الله: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك»، لا يدل على أنه لا يجوز للمرأة أن تتزوج برجل فقير، ولكنها استشارت رسول الله فأشار عليها بما هو أصلح لها.

وأما حال طلب حمل النفوس على الأكمل من الأحوال: فذلك كثير من أوامر رسول الله ﷺ ونواهيه الراجعة إلى تكميل نفوس أصحابه وحملهم على ما يليق بجلال مرتبتهم في الدين من الاتصاف بأكمل الأحوال مما لو حُمل عليه جميع الأمة لكان حرجًا عليهم، وقد رأيت ذلك كثيرًا في تصرفات رسول الله ﷺ ورأيت في غفلة بعض العلماء عن هذا الحال من تصرفاته وقوعًا في أغلاط فقهية كثيرة، وفي محمل أدلة كثيرة من السنة على غير محاملها، وبالاهتداء إلى هذا اندفعت عني حيرة عظيمة في تلك المسائل.

فقد كان رسول الله ﷺ لأصحابه مُشَرِّعًا لهم بالخصوص، فكان يحملهم على أكمل الأحوال من شد أواصر الأخوة الإسلامية بأجلى مظاهرها والإغضاء عن زخرف هذه الدنيا وألا يغال في الإقبال على الدين وفهمه؛ لأنهم أعدوا ليكونوا حملة هذا الدين وناشري لوائه، وقد نوه الله تعالى بهم في آية سورة الفتح:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

«الفتح: ٢٩»

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم»، وقوله:

«لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»

وقوله في مرض سعد بن أبي وقاص في مكة في عام الفتح:

«اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم»

لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله أن مات بمكة؛ لأنه طلب لهم الكمال في حالي الحياة والممات وإن كان موت المهاجر بمكة لا ينقض هجرته.

وأمثلة هذا الحال كثيرة؛ ففي كتاب اللباس من صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي.. ونهانا عن خواتيم الذهب، وعن آنية الفضة، وعن المياثر الحمر والقسية والإستبرق والديباج[10] والحرير، فجمع مأمورات ومنهيات مختلطة بعضها مما علم وجوبه في مثل نصر المظلوم مع القدرة، وتحريمه في مثل الشرب في آنية الفضة، وبعضها مما علم عدم وجوبه في الأمر مثل تشميت العاطس وإبرار المقسم أو عدم تحريمه في النهي مثل المياثر والقسية.

فما تلك المنهيات إلا لأجل تنزيه أصحابه عن التظاهر بمظاهر البذخ والفخفخة للترفه وللتزين بالألوان الغريبة وهي الحمرة، وبذلك تندفع الحيرة في وجه النهي عن كثير مما ذكر في هذا الحديث مما لم يهتد إليه الخائضون في شرحه.

ويشهد لهذا ما رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن لبس القسي، وعن لبس المعصفر، وعن تختم الذهب، وعن القراءة في الركوع والسجود، ولا أقول نهاكم»، يعني أن بعض هذه المنهيات لم ينه عنها جميع الأمة، بل خص بالنهي عليًا.

ومن الأمثلة حديث أبي رافع أن رسول الله ﷺ قال: «الجار أحق بصقبة»، أي: ما يليه، أي أحق بشرائه إذا باعه جاره، فما هو إلا لحمل أصحابه على المواساة والمؤاخاة، ولذلك جعل الجار منهم أحق بالشفعة لأجل الصقب، أي القرب ولولا كلمة (أحق) لجعلنا الحديث لمجرد الترغيب، فلما وجدنا كلمة (أحق) علمنا أنه يعني الجار من الصحابة أحق بشفعة عقار جاره فلا تعارض بينه وبين حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «الشفعة في ما لم يقسم، فإذا حدثت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة».

وكذلك حديث الموطأ والصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا

(١٠) المياثر: جمع ميثرة – بكسر الميم – فراش صغير بقدر الطفطفة تحشى بقطن ويجعلها الراكب على الرحل تحته لتكون اللين له. والقسية ثياب واحدها قسي: ثياب مصرية فيها أضلاع ناتئة كالأترج من حرير. والإستبرق: ثياب من حرير غليظ، والديباج: ثياب رقيقة من حرير.

يمنع أحدكم جاره خشبة يغرزها فى جداره»، ثم يقول أبوهريرة: ما لى أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم، فحمل ذلك أبوهريرة على التشريع، وحمله مالك على معنى الترغيب، فقال فى الموطأ: أن لا يقضى على الجار بذلك، أى؛ لأنه يخالف قاعدة إطلاق تصرف المالك فى ملكه وأن لا حق لغيره فيه.

وعلى هذا النحو يحمل حديث رافع بن خديج عن عمه ظُهير بن رافع أنه قال: لقد نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان بنا رافقا، قال رافع: قلت: ما قال رسول الله فهو حق، قال: دعانى رسول الله فقال: «ما تصنعون بمحاقلكم؟»، قلت: نؤاجرها على الربع وعلى الأوسُق من التمر والشعير؟ فقال: «لا تفعلوا إزْرعوها أو أزْرِعوها أو أمسكوها»، قال رافع: قلت: سمعًا وطاعة.

فتأوله معظم العلماء على معنى أن رسول الله أمر أصحابه أن يواسى بعضهم بعضًا، ولذلك ترجم البخارى هذا الحديث بقوله: باب ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يواسى بعضهم بعضًا فى الزراعة والثمرة.

وأما حال تعليم الحقائق العالية: فذلك مقام رسول الله ﷺ، خاصة أصحابه، ومثاله: ما روى أبو ذر قال: قال لى خليلى: «يا أبا ذر أتبصر أُحُدًا؟ (بضم الهمزة)، قلت: نعم، قال: «ما أحب أن لى مثل أُحُد ذهبًا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»، فظن أبو ذر أن هذا أمر عام للأمة، فجعل ينهى عن اكتناز المال، وقد أنكر عليه عثمان – رضى الله عنه – قول ذلك كما سيجىء.

وأما حال التأديب: فينبغى إجادة النظر فيه؛ لأن ذلك حال قد تحف به المبالغة لقصد التهديد، فعلى الفقيه أن يميز ما يناسب أن يكون القصد منه بالذات التشريع، وما يناسب أن يكون القصد منه بالذات التوبيخ والتهديد، ولكنه تشريع بالنوع أى بنوع أصل التأديب.

ومثال ذلك ما فى الموطأ والصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا أو مرماتين حسنتين [١٦] لشهد العشاء».

فلا يشتبه أن رسول الله ﷺ ما كان ليحرق بيوت المسلمين لأجل شهود صلاة العشاء فى الجماعة، ولكن الكلام سيق مساق التهويل فى التأديب، أو أن الله أطلعه على أن أولئك من المنافقين وأذن له بإتلافهم إن شاء.

ومنه أيضًا ما ورد فى صحيح البخارى عن أبى شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، فقلنا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه»، فخرج الكلام مخرج التهويل لمن يسئ إلى جاره حتى يخشى أن لا يكون من المؤمنين، والمراد نفى الإيمان الكامل.

وأما حال التجرد عن الإرشاد: فذلك ما يتعلق بغير ما فيه التشريع والتدين وتهذيب النفوس وانتظام الجماعة، ولكنه أمر يرجع إلى العمل فى الجِبِلَّة وفى دواعى الحياة المادية، وأمره لا يشتبه، فإن رسول الله يعمل فى شؤونه البيتية ومعاشه الحيوى أعمالاً لا قصد منها إلى التشريع ولا طلب متابعة، وقد تقرر فى أصول الفقه أن ما كان جبليا من أفعال رسول الله ﷺ لا يكون موضوعًا لمطالبة الأمة بفعل مثله، بل لكل أحد أن يسلك ما يليق بحاله، وهذا كصفات الطعام واللباس والاضطجاع والمشى والركوب ونحو ذلك، سواءً كان ذلك خارجًا عن الأعمال الشرعية، كالمشى فى الطريق والركوب فى السفر، أم كان داخلاً فى الأمور الدينية كالركوب على الناقة فى الحج، ومثل الهُوِىِّ باليدين قبل الرجلين فى السجود عند من رأى أن رسول الله ﷺ أهوى بيديه قبل رجليه حين أسنّ وبدن، وهو قول أبى حنيفة.

وكذلك ما يروى أن النبى ﷺ نزل فى حجة الوداع بالمحصب الذى هو خيف بنى كنانة، ويقال له: الأبطح، فصلى فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم هجع هجعة، ثم انصرف بمن معه إلى مكة لطواف الوداع، فكان ابن عمر يلتزم النزول به فى الحج ويراه من السنة ويفعل كما فعل رسول الله ﷺ.

وفى البخارى عن عائشة أنها قالت: «ليس التحصيب بشىء إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ ليكون أسمح لخروجه إلى المدينة»، تعنى: لأنه مكان متسع يجتمع فيه الناس، وبقولها قال ابن عباس ومالك بن أنس.

وكذلك حديث الاضطجاع على الشق الأيمن بعد صلاة الفجر، وفى حديث يوم بدر أن رسول الله سبق قريشًا إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به بالجيش، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته فننزل ثم نغور ما عداها من القُلُب [١٢] فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ «لقد أشرت بالرأى».

وفى جامع العتبية فى سماع ابن القاسم قال مالك: مر رسول الله ﷺ ببعض الحوائط وهم يؤبرون النخل ويلقمونها، فقال لهم: «ما عليكم ألا تفعلوا» فترك الناس الإبار فى ذلك العام فلم تطعم النخل،

---

(١٦) المرماة – بكسر الميم –: ما بين ظلفى الشاة من اللحم من السافلين، ولذلك ثنى فى الحديث.

(١٢) القُلُب – مفردها قليب – : الآبار

فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال: «إنما أنا بشر فاعملوا بما يصلحكم».

قال أبو الوليد ابن رشد في البيان والتحصيل روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة منها أنه قال: «ما أظن هذا يغني شيئا ولو تركوه لصلح» أو «ما أرى اللقاح شيئا»، فتركوه فقَشَم [١٣]، فأخبر بذلك رسول الله، فقال: «ما أنا بزارع ولا بصاحب نخل، لقّحوا».

وبعد، فلا بد للفقيه من استقراء الأحوال، وتوسم القرائن الحافة بالتصرفات النبوية، فمن قرائن التشريع الاهتمام بإبلاغ النبي ﷺ إلى العامة والحرص على العمل به والإعلام بالحكم وإبرازه في صورة القضايا الكلية، مثل قول رسول الله ﷺ : «ألا لا وصية لوارث»، وقوله: «إنما الولاء لمن أعتق».

ومن علامات عدم قصد التشريع عدم الحرص على تنفيذ الفعل، مثل قول النبي ﷺ في مرض الوفاة: «آتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده».

قال ابن عباس: فاختلفوا فقال بعضهم: حسبنا كتاب الله، وقال بعضه: قدموا له يكتب لكم، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فلما رأى اختلافهم، قال: «دعوني فما أنا فيه خير».

واعلم أن أشد الأحوال التي ذكرناها اختصاصا برسول الله ﷺ هي حالة التشريع؛ لأن التشريع هو المراد الأول لله تعالى من بعثته حتى حصر أحواله فيه في قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

فلذلك يجب المصير إلى اعتبار ما صدر عن رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعال فيما هو من عوارض أحوال الأمة صادرا مصدر التشريع ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

وقد أجمع العلماء على الأخذ بخبر سعد بن أبي وقاص، حيث سأل النبي ﷺ أن يوصي في ماله، قال له: «الثلث والثلث كثير»، فجعلوا الوصية بالزائد على الثلث مردودة إلا أن يجيزها الورثة، ولم يحملوه محمل الإشارة والنصيحة مع ما قارنه مما يسمح بذلك، وهو قوله: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، فإنه مؤذن بالنظر إلى حالة خاصة بسعد وورثته وشدة فقرهم، ومع كونه جري بين رسول الله ﷺ وبين سعد خاصة، ولم يفعل به رسول الله ﷺ ولا رواه عنه غير سعد، فكان للفقيه أن يجيز الوصية بأكثر من الثلث لمن كان ورثته أغنياء، ولم يقل به أحد من أهل العلم، أو لمن لم يكن له وارث، وقد قال بذلك بعض أهل العلم فيما نقل ابن حزم في المحلى عن ابن مسعود وعبيدة السلماني وطائفة، وهو قول شاذ[١٤].

(١٣) أي أصابه القشام – بضم القاف – وهو تساقط الثمر قبل أن يصير بُسْرًا.

(١٤) للمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام - القاهرة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

مكانة الصحابة رضى الله عنهم



أ.د/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الصحابة رضى الله عنهم جميعا عدول، وقد ثبتت عدالتهم بالكتاب والسنة قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)

والوسط: الخيار والعدول. قال الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ويدخل في الخطاب الصحابة دخولاً أوليًا. قال الله سبحانه:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

(التوبة: ١٠٠)

وقال رسول الله ﷺ : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»[١].

وقال ﷺ : «لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٢].

وقال ﷺ «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[٣].

وفي هذه الأدلة من الكتاب والسنة ما يثبت عدالة الصحابة رضى الله عنهم، ويفحم المعاندين الذين انتقصوا الكثير من الصحابة، وليستمعوا إلى ما قاله الإمام أبو زرعة الرازي: إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك لأن الرسول حق وما جاء به حق، وإنما أدى ذلك إلينا كله الصحابة، وهؤلاء - أي الزنادقة وأشباههم - يريدون أن

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان.

يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

فالصحابة هم الذين أدوا للأمة الدين وبلغوا القرآن والسنة.

● فتدوين السنة النبوية الشريفة تدوينا رسميا وإن كان على رأس المائة فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، إلا أن الصحابة رضى الله عنهم هم الذين صانوا السنة أقوالا وأفعالا وحفظوها وفهموها وطبقوها وبلغوها منْ بعدهم.

وهم الذين تلقفوا كل أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته، وصانوا ذلك كله فى صدورهم وحوافظهم وفى صحف بعضهم الذين أذن لهم الرسول ﷺ إذنا خاصا بالكتابة، فى الوقت الذى نهى فيه عن التدوين والكتابة مخافة أن يلتبس القرآن بالحديث، وقد أذن بالكتابة للبعض مما لا يلتبس عليهم الأمر ومن يجيدون الكتابة، فكتبها البعض فى صحف خاصة أمثال: عبدالله بن عمرو وأنس وجابر وغيرهم.

بل عرف عن بعضهم الرحلة إلى بعض من أجل طلب الحديث، عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ لم أسمعه منه فابتعت بعيرا، فشددت عليه رحلى ثم سرت إليه شهرا، حتى قدمت الشام، فإذا هو عبدالله بن أنيس الأنصارى فأتيته فقلت له: حديث بلغنى عنك أنك سمعته عن رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحْشر الناس عراة غرلا بهما قلنا وما بهم؟ قال: ليس معهم شىء، فيناديهم الله نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصها منه، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصها منه حتى اللطمة، قلنا كيف؟ وإنما نأتى الله عراة غرلا بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات»[٤].

● بل عرفت رحلة بعضهم فى الاستيثاق والتأكد من الحديث وإن كان عندهم، عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى- رضى الله عنه- رحل إلى عقبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيره، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى- وهو أمير

(٤) رواه البخارى وأحمد والطبرانى والبيهقى واللفظ له.

مصر- فخرج إليه فعانقه ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث رسول الله ﷺ فى ستر المؤمن فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنا فى الدنيا على كربته ستره الله يوم القيامة»[٥]، ثم انصرف أبوأيوب إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر.

فكان الصحابة- رضى الله عنهم- يبذلون أقصى ما فى الوسع الإنسانى لجمع الأحاديث.

وانقضى عهد الصحابة ولم تدون السنة تدوينًا رسميًا اللهم إلا ما كان من بعضهم ممن أذن لهم فى الكتابة. ولقد فكر الفاروق عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- فى تدوين السنة، ولكنه عدل عن ذلك مخافة انشغال الناس عن القرآن الكريم.

عن عروة بن الزبير- رضى الله عنه- أن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- أراد أن يكتب السنن فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: «إنى كنت أردت أن أكتب السنن وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا»[٦].

فالسنة وإن لم تدون فى عهد الصحابة تدوينا رسميًا إلا أنها كانت مصونة فى صدورهم الأمينة وحوافظهم السيالة، وصحف بعضهم التى كتبت منذ العهد النبوى.

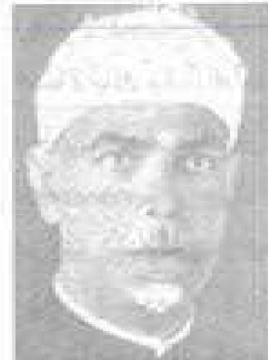
فالصحابة هم الأساس فى تدوين السنة ونقل الوحى وعلوم الدين إلى من بعدهم فهم الصلة بين عهد الوحى وبين العهود التى جاءت بعدذلك فرضى الله عنهم أجمعين.



(٥) رواه البيهقى وابن عبدالبر.
(٦) رواه البيهقى فى المدخل وابن عبدالبر فى جامع بيان العلم وفضله.

الديـــن

نظـــرة جامعــة



للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

والآن وقد طوفنا بك فى مسالك متشعبة من الرأى فى أصل العقيدة ومنشئها، نريد أن نلقى معك نظرة شاملة، نضم بها أطراف البحث، ونحاول فيها التوفيق بين مختلف مذاهبه.

وسيكون سبيلنا فى هذا التوفيق - بعد أن ننحى نظريتين اثنتين[1] من هذه النظريات - أن نحتفظ من كل نظرية بجانبها الإيجابى (أعنى إثباتها لصحة مسلكها) دون جانبها السلبى (وهو إنكارها لسائر المناهج)؛ وبذلك يعود الاختلاف بينها اختلاف تعاون وتكامل، لا اختلاف تعاند وتناقض.

والواقع الذى لا مرية فيه هو أن مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة فى الأنفس وفى الآفاق، وأن بواعثه النفسية مركوزة فى العقول وفى الوجدانات. غير أن الناس ليسوا على درجة سواء فى سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل، ولا فى تيقظ انتباههم بكل هذه الوسائل. فرب امرىء يغلب عليه الانطواء على نفسه فيتأثر بالإيحاء الذاتى أكثر مما يؤثر فيه الإيحاء الخارجى، وآخر على عكس ذلك. والمتأثرون بالأحداث الخارجية فيهم من يأسر لبه جمال المشاهد وجلالها، ومن لا يهز قلبه إلا قوارعها ومروعاتها ورب امرىء يعنى من هذه الأحداث بجانبها النفسى الإنسانى، وآخر يهتم بجانبها المادى العالمى.

والمنطوون على أنفسهم منهم من يغلب تفكيره وجدانه، ومنهم من تغلب عاطفته فكرته.. وإلى ذلك كله، فمن الناس من تلفته نظرة عابرة، أو لمحة خاطفة، ومن لا يتنبه إلا بصدمة عنيفة أو أزمة شديدة، ومن لا تكون عقيدته إلا من تضافر جملة من العوامل المختلفة، ومن لا يمر على كل هذه الدلائل وهو غافل، فلا تستيقظ فيه بواعث الاعتقاد حتى تبين له الدلائل تبينًا، أو يلقنها تلقينًا. وهل الباحثون الذين عرضنا نظرياتهم آنفًا إلا آحاد من الناس، يغلب على كل واحد منهم مزاجه الخاص فى الاستنباط، وأسلوبه المختار فى الاقتناع؟ فكان من الطبيعى أن يبدأ كل منهم عقيدته من الطريق الذى هو أكثر إليه تنبهًا، وأشد له إلفًا، وأقوى به تأثرًا، ثم تتلاحق عليه الدلائل الأخرى بعد ذلك. وهكذا كان منهم من استمد إيمانه من تأملاته فى مشاهد الطبيعة، وآخر كانت عقيدته وليدة تجاربه فى عالم الأرواح، وثالث استيقظ وعيه الدينى من ملاحظة نفسية فى حياته العادية، ورابع من تحليله لبعض المعانى العقلية، وخامس استنتاجًا من القوانين الأخلاقية، وسادسٌ لم يرفع رأسه إلى هذه الحقائق العليا إلا بعد أن تلقاها من طريق التعاليم الدينية، وهذه كلها طرق مؤدية للغاية، وإنما عرض الخطأ لهؤلاء المفكرين الذين شرحنا نظرياتهم آنفًا من جهة أن كل واحد منهم حين وصف الطريق التى سلكها، نسى سائر الطرق، وجعل الأولية التى أحسها من نفسه لبعض الدلائل أولية لها عند الكافة، فاتخذ نفسه مقياسًا عاليًا بغير بينة ولو أن كل باحث وقف بالنتيجة عند ما تثبته مقدماتها، لقرر أن المنهج الذى سلكه إنما يصور نشأة العقيدة عنده وعند من يشاكله فى مشربه، ولكنهم جعلوا هذه الحقائق النسبية حقائق مطلقة، فكان ذلك مثار النزاع والاختلاف.

ولو أننا طلبنا الحق المجرد فى هذه المسألة لألفيناه ينتظم فى كلمتين:

(١) أن آيات الألوهية مبثوثة فى كل شىء.

(٢) أن كل فئة من الناس لها طريق مسلوك فى الاسترشاد ببعض تلك الآيات قبل بعض.

وهذه الحقيقة المزدوجة يقررها القرآن فى أوضح بيان، حيث يقول فى المقدمة الأولى:

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ﴾

(الجاثية: ٣، ٤)

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾

(فصلت: ٥٣)

ويقول فى المقدمة الثانية:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

(البقرة: ١٤٨)

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

(الرعد: ٧).

ولا جرم أنه من أجل هذا الاختلاف فى وسائل الاقتناع عند الناس، تنوعت فى القرآن وسائل الدعوة إلى الله، وصرفت فيه الآيات تصريفًا بليغًا، حتى إن الذى يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية يجدها قد أحاطت بأطراف هذه المسالك، وأشبعت تلك النزعات جميعًا، بل ربما زادت فى كل منهج عناصر جديدة، لم يفطن إليها الباحثون المذكورون.

فإن شئت التحقق فإليك نماذج قرآنية من هذه المناهج على الترتيب:

إقرأ، فى المنهج الطبيعى، أمثال قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

(ق: ٦، ٧)

(١) نعنى بهما نظرية «الرمزية» التى تجعل موضوع العقيدة فكرة خيالية، ونظرية (آلية الجماعية) التى تعترف بأن موضوع الدين حقيقة وجودية، ولكنها تضع مكان الحقيقة التى يتوجه إليها المتدين بعقله وقلبه حقيقة أخرى لا شعورية، فهاتان النظريتان تختلفان عن سائر النظريات اختلافًا جوهريًا يجعل مهمة التوفيق فى شأنهما عسيرة شاقة.

وقوله:

﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾

(الأنعام: ٩٩)

وقوله:

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾

(الأنعام: ٩٦)

وقوله:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(القصص: ٧١، ٧٢).

ويزيد القرآن فى هذا الباب عُنصراً جديداً، وهو عنصر الاختلاف بين المتشابهات، اختلافًا لم يتهيأ للعلم البشرى معرفة أسبابه، ولا التحكم فى عوامله، ولا التنبؤ به قبل ظهوره؛ لأنه - كما يقول (وليم جيمس) - يرتبط بأحوال ذرية دقيقة، لا تخضع لشيء من أنواع الملاحظة؛ ولأنه لا يتبع حالة خاصة من أحوال البيئة الطبيعية ونحوها، بل يجيء مع كل الحالات الممكنة لهذه البيئة، ومع ذلك كله تراه يسير فى نظام غاية فى الإحكام.

هذا الاختلاف البديع من اتحاد البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة، نجد التنبيه على موضع العبرة منه فى قوله تعالى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾

(الرعد: ٤)

وقوله:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

وقوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ﴾

(فاطر: ٢٧، ٢٨)

وأخيراً يُعنى القرآن عناية خاصة، فى هذا الجانب التكوينى، بظاهرة الحياة التى حيرت العلماء فيقول:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾

(البقر: ٢٨)

ويقول:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾

(الواقعة: ٥٨: ٦٤)

ويقول:

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

(الروم: ٥٠)

هذا كله فى الشطر الأول من المنهج الطبيعى:

فإذا انتقلت إلى الشطر الثانى منه تجد أمثال قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(الروم: ٢٤)

وقوله:

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾

(الرعد: ١٣)

ثم لا يكتفى القرآن ها هنا بالتنبيه إلى الحوادث المروعة الواقعة بالفعل، بل يضيف إليها الإنذار بالأحداث المتوقعة أو المحتملة، فيقول:

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٨)

ويقول:

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾

(سبأ: ٩)

أما المنهج الروحى فترى عناصره مبثوثة أيضاً فى كثير من الآيات (فمبدأ) استقلال الروح البشرى وانفصاله عن الجسم وعن الروح الحيوانى فى هذه الحياة، (ومبدأ) بقاء هذا الروح الإنسانى بعد الموت فى حالة برزخية بين الدنيا والآخرة، (ومبدأ) تعلق أرواح الموتى بشئون أهل الدنيا.. هذه المبادئ كلها تراها مقررة فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

(الأنعام: ٦٠)

وقوله:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾

(الزمر: ٤٢)

وقوله:

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾

(آل عمران: ١٧٠)

وقوله فى شأن أهل الشقاوة وهم فى قبورهم:

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾

(غافر: ٤٦)

ذلك إلى ما يقرره القرآن فى غير موضع من وجود أرواح أخرى مستقلة عن العالم الإنسانى، ولكنها تتصل بشئونه، ويسخرها الله فى تدبير أحواله، تارة بالنصر والتأييد، وتارة بغير ذلك. اقرأ قصة الجن فى السورة المسماة بهذا الاسم، وفى سورة الأنبياء، وسورة النمل، وسورة سبأ، واقرأ أخبار الملائكة فى السورة المسماة بهذا الاسم، وهى سورة فاطر، أو السور الأخرى، مثل سورة آل عمران، وسورة الأنعام، وسورة الأنفال، وغيرهن.

وكذلك المذاهب النفسية ترى منهاجها مستعملاً فى القرآن حين يشير إلى قصور الإرادات الإنسانية عن بلوغ أهدافها، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا، وضرورة استلامه لها، فى قوله تعالى:

﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى ۝ أم للإنسان ما تمنى ۝ فلله الآخرة والأولى﴾

(النجم: ٢٤، ٢٥)

وقوله:

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾

(القصص: ٦٨)

وقوله:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ۝ ما لكم كيف تحكمون ۝ أم لكم كتاب فيه تدرسون ۝ إن لكم فيه لما تخيرون ۝ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ۝ سلهم أيهم بذلك زعيم﴾

(القلم: ٣٧ - ٤٠)

ويزيد القرآن فى هذا المعنى عُنصراً آخر عظيم الدلالة على الألوهيـــة، وهو تحـــول الإرادات الإنسانية عن أهدافها، حين تنقلب كراهيتها محبة، وعداوتها ألفة، واستهجاناتها استحسانا، وثورتها سكونا، من غير أن يكون للأسباب الطبيعية مدخل معقول فى هذا التحول، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ويقول:

﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾

(الأنفال: ٦٣)

ويقول

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾

(الفتح: ٢٦)

ويجمع ذلك كله قوله سبحانه:

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾

(الأنفال: ٢٤)

حتى المذهب الأخلاقى نجد لبه وجوهره فى القرآن حيث يقول الله تعالى:

﴿ونفس وما سواها ۝ فألهمها فجورها وتقواها﴾

(الشمس: ٧، ٨)

بل المذهب الاجتماعى نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح، وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على نفوس الأفراد، وما لها من أثر فى تكوين آرائهم وعقائدهم، يسجله القرآن حقيقة واقعة:

﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾

(البقرة: ١٧٠)

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾

(الزخرف: ٢٣)

إلا أن القرآن حين يقرر هذا الأمر الواقع لا يذكره إلا فى معرض التقريع والذم، ناعيا على العامة رضاهم بما فيه من استعباد فكرى، وهبوط عن عرش الكرامة الإنسانية إلى مستوى القطعان من الماشية التى تسير وراء كل ناعق:

﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾

(البقرة: ١٧٠)

﴿فبشر عباد ۝ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾

(الزمر: ١٧، ١٨)

وفى هذا المعنى تقول الحكمة النبوية:

«لا تكونوا إِمَّعة: تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[2].

أما كيف تتحرر العقول من هذا الأسر الاجتماعى القاهر؟ فإن القرآن يعلن أنه ليس لذلك إلا وسيلة واحدة، وهى التفكير الفردى الهادىء، المتحرر من كل القيود إلا قيود البداهة والمنطق السليم:

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾

(سبأ: ٤٦)[3]

وأخيراً نرى المذهب التعليمى ساريًا فى القرآن كله، إلى جانب ما فيه من التوجيه المستمر إلى الاعتبار بتلك الآيات الواضحة، والدلائل اللائحة فى الأنفس والآفاق، فالقرآن يقرر أن الرحمة الإلهيـــة لم تكتف بدلائل العقل، حتى أيدتها بشواهد النقل؛ وأنها قطعت حُجة كل غافل، وكل متواكل، فأرسلت

﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾

(النساء: ١٦٥)[4]

﴿وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾

(الأعراف: ١٧٣)

هكذا يلتقى فى محيط القرآن ما رأيناه قد تشعب عند العلماء من مسالك الاعتبار، ومذاهب البحث والنظر.

وإنه لن يسع الباحث المنصف، متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة، إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود، فمهما تباعد الأقطار والعصور، ومهما تتعدد الأجناس والألوان واللغات، ومهما تتفاوت المشارب والنزعات، سيجد فيه كل طالب للحق سبيلا ممهدا، يهديه إلى الله على بصيرة وبينة.

﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾

(القمر: ١٥)

(٢) رواه الترمذى فى باب الإحسان والعفو، من أبواب البر والصلة، عن حذيفة رقم (٢٠٠٧)

(٣) تأمل جيداً هذه الوصية الحكيمة، ترقيها وصفًا للداء، والدواء جميعاً. فهى قبل كل شىء تقرير ضمنى للحقيقة الواقعة، وهى أن العقل الجمعى يطبع عقول أعضائه بطابعه المشترك، ويجعلهم يفكرون عند اجتماعهم بأسلوب مخالف لتفكيرهم عند الانفراد، ولذلك تدعو الآية الكريمة كل فرد من الجماعة أن يخلو بنفسه أو برفيق واحد «مثنى وفرادى» ليكون فى بعض اللحظات بعيداً عن تأثير البيئة وتيارها الجارف. وإلى جانب هذا الاعتراف بسلطان العقل الجمعى وبقوته الفعلى فى الأفراد، تشير الآية إلى أن ما تقرره هذه العقلية المشتركة ليس هو دائماً أقرب القرارات إلى الصواب، ولذلك تخول كل فرد حقه فى الحرية الفكرية والنقد النزيه لهذه القرارات العامة، استصلاحاً لما فيها من زيغ وانحراف، واستبقاءً لما فيها من خير ورشاد.

(٤) تقول الوصايا التسع إلى آخره

المقصد التربوى للعبادات فى الجانب الجسدى للفرد المسلم

أ.د. صلاح سلطان

الجسد هو الوعاء المادى المحسوس لهذا القلب النابض بالإيمان، أو الذى استولى عليه الشيطان، لهذا العقل المفعم بالحقائق أو الأوهام، هو الذى يحقق مكارم الأخلاق أو سفاسفها ومخازيها، وبنشاط الجسد وحيويته تنشط كوامن الخير فى عباد الرحمن أو تتوارى وراء أهواء النفس عند عبدة الشيطان.

من هنا كان من الثابت اليقينى أن تكون أحكام الشرائع السماوية عامة والإسلام خاصة ذات اهتمام بالغ بحاجات الجسد، وإشباعها فيما لا يعود عليها بضرر أكبر أو بشر "لا يمكن دفعه إلا بفرائض مكتوبة أو محرمات ممنوعة. غير أن الإحاطة بمطالب الجسد، وما يصلح الجسم دون إجحاف بمطالب الروح والعقل لا تكون إلا عند خالق هذا الإنسان العجيب فى صنعه وتكوينه وملكاته ورغباته. قال سبحانه:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤)

ولقد خطت المدنية الحديثة خطوات غير مسبوقة فى إشباع حاجات الجسد واستحداث كل سبل الراحة له، سواء فى مطعمه أو مشربه أو مركبه أو مخدعه، فيضغط الإنسان وهو كامن فى فراشه الوثير على زرٍّ لكى يوقد مصباحاً أو يُطفئه ويضغط على ثان كى يحدث إنساناً فى أقاصى الأرض أو على سطح القمر ويضغط على ثالث كى يسخن له الماء أو يقدم له الغذاء، ويضغط على زر رابع كى يحلق شعره أو يغسل أسنانه، وقد يضغط على زر يفتح له باب سيارته أو بوابة منزله أو تضغط المرأة على زر آخر كى تخرج الملابس نقية جافة، ويحسب الإنسان أنه قد حاز كل ألوان الراحة والمتعة، ولا يدرى أنه عندما بالغ فى إشباع الجسد، دمرت ملكاته، وذَوَتْ قدراته، ولانت عظامه، ومع هذا السعار المجنون فى إشباع هذا الجسد، خوت الأرواح من شفافية الإيمان، والعقول من ثوابت العقيدة والأخلاق والتشريع، فغدا الإنسان فى مجمله صورة شائهة، همه مركب فاره وطعام شهى وسقاء ندى، وفراش وثير، وامرأة وضيئة، وعندما حازها أحس أنه نال السراب، وتبخرت السعادة مع حرارة الرغبة الجامحة والأهواء الغالبة، ولايزال إنسان اليوم يتساءل. أين سعادة الدنيا؟ وهو فى غفلة عن نعيم الآخرة، وليس من جواب إلا فى الإسلام والتزام أحكامه لتأخذ كل ملكة فى النفس حظها، وتتوازن حياة المسلم فى جوانبه الروحية والخلقية والعقلية والبدنية.

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أمين الخولى: إن فلسفة الإسلام لا تدعو إلى قهر الجسد والحط من شأنه وإذلاله فى سبيل حياة روحية خالصة، وتحريم زينة الحياة الدنيا مثلما فعلت طوائف الرهبان فى الزهد فى الدنيا، فأهملت الجسد ولم توفه حقه الفطرى والطبيعى وغالت وبالغت حتى أخذت تذيق الجسد ألوان التعذيب والعنت، الأمر الذى أثمر خللاً فى التوازن الطبيعى فى الشخصية الإنسانية، لحساب الجانب الروحى، وعلى حساب الجانب البدنى[1].

الإسلام إذن هو الوسطية الربانية التى لا تغرق الجسد فى وحل الشهوات، ولا تحرمه من الزينة والطيبات، وفيما يلى سنرى كيف كانت العبادات وهى شعائر روحية بالدرجة الأولى تعطى الجسد قوة تضاعف دوره فى الحياة.

المقصد التربوى للطهارة فى الجانب الجسدى للفرد المسلم.

هناك جوانب كثيرة تؤدى إلى إصلاح الجسد للفرد المسلم عن طريق أحكام الطهارة منها ما يلى:

أولاً: الطهارة هى نظافة من الحدث أو الخبث كما عرفها الكاسانى[2]، وقال ابن رشد المالكى اتفق المسلمون على أن الطهارة الشرعية طهارتان: طهارة من الحدث وطهارة من الخبث[3]، هذه الطهارة فى مسماها اللغوى والشرعى تفوق مصطلح التعقيم فى الواقع المعاصر يقول الأستاذ محمد كامل عبدالصمد: والتاريخ يثبت أن الإسلام هو أول نظام علمى عرفته الإنسانية يأمر بالتعقيم ويحارب التلوث، ألم يطلق الإسلام على الشىء الملوث أو الحامل للميكروبات كلمة النجاسة؟!

واتبع الأسلوب العلمى فحددها فى ثلاث عشرة مادة، وهى التى تعرف فى عصرنا الحديث بالمواد الوسطية أو الناقلة للميكروب، ومنها: القيح والدم المسفوح والبراز والبول والقىء ولعاب الكلب وجسم الخنزير، وكل شىء عفن كبقايا الحيوان الميت، وقد أثبت العلم الحديث أن جميع هذه المواد هى وسط صالح لنمو الميكروبات وتكاثرها... وقرر الإسلام أن أية مادة من هذه تصيب الإنسان فى جسمه أو طعامه أو شرابه أو مكانه أو تغير لون الطعام أو رائحته أو طعمه، فهذا يدل على وجود ميكروب حى يتفاعل، وبهذا يكون نجساً فى نظر الدين، ملوثاً فى نظر الطب الحديث وسمى القرآن الكريم هذه النجاسة أى الميكروب رجساً ورجز الشيطان[4].

ثانياً: أوجب الإسلام الطهارة الحسِّية وحثَّ على الطهارة المعنوية، وألغى العقائد الباطلة التى تؤمن أن تقوية الروح توجب إهمال البدن تماماً حتى عُرف فى بعض الأديان الوضعية أو المحرفة ما اصطلح عليه بـ- القذارة المقدسة - التى

1- الرياضة والحضارة الإسلامية، الشيخ أمين أنور الخولى (ص٥٥).
2- بدائع الصنائع، للكاسانى (٣٣/١).
3- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد (٧/١).
4- الإعجاز العلمى فى الإسلام، د. محمد كامل عبدالصمد ص (١٥، ١٦)، الطب الوقائى فى الإسلام، ص (٦٧، ٦٨).

المقصد التربوى للعبادات فى الجانب الجسدى للفرد المسلم

أ.د. صلاح سلطان

الجسد هو الوعاء المادى المحسوس لهذا القلب النابض بالإيمان، أو الذى استولى عليه الشيطان، لهذا العقل المفعم بالحقائق أو الأوهام، هو الذى يحقق مكارم الأخلاق أو سفاسفها ومخازيها، وبنشاط الجسد وحيويته تنشط كوامن الخير فى عباد الرحمن أو تتوارى وراء أهواء النفس عند عبدة الشيطان.

من هنا كان من الثابت اليقينى أن تكون أحكام الشرائع السماوية عامة والإسلام خاصة ذات اهتمام بالغ بحاجات الجسد، وإشباعها فيما لا يعود عليها بضرر أكبر أو بشر "لا يمكن دفعه إلا بفرائض مكتوبة أو محرمات ممنوعة. غير أن الإحاطة بمطالب الجسد، وما يصلح الجسم دون إجحاف بمطالب الروح والعقل لا تكون إلا عند خالق هذا الإنسان العجيب فى صنعه وتكوينه وملكاته ورغباته، قال سبحانه:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤)

ولقد خطت المدنية الحديثة خطوات غير مسبوقة فى إشباع حاجات الجسد واستحداث كل سبل الراحة له، سواءً فى مطعمه أو مشربه أو مركبه أو مخدعه، فيضغط الإنسان وهو كامن فى فراشه الوثير على زرٍّ لكى يوقد مصباحاً أو يُطفئه ويضغط على ثان كى يحدث إنساناً فى أقاصى الأرض أو على سطح القمر ويضغط على ثالث كى يسخن له الماء أو يقدم له الغذاء، ويضغط على زر رابع كى يحلق شعره أو يغسل أسنانه، وقد يضغط على زر يفتح له باب سيارته أو بوابة منزله أو تضغط المرأة على زر آخر كى تخرج الملابس نقية جافة. ويحسب الإنسان أنه قد حاز كل ألوان الراحة والمتعة، ولا يدرى أنه عندما بالغ فى إشباع الجسد، دمرت ملكاته، وذوَت قدراته، ولانت عظامه، ومع هذا السعار المجنون فى إشباع هذا الجسد، خوت الأرواح من شفافية الإيمان، والعقول من ثوابت العقيدة والأخلاق والتشريع، فغدا الإنسان فى مجمله صورة شائهة، همه مركب فاره وطعام شهى وسقاء ندى، وفراش وثير، وامرأة وضيئة، وعندما حازها أحس أنه نال السراب، وتبخرت السعادة مع حرارة الرغبة الجامحة والأهواء الغالبة، ولايزال إنسان اليوم يتساءل. أين سعادة الدنيا؟ وهو فى غفلة عن نعيم الآخرة، وليس من جواب إلا فى الإسلام والتزام أحكامه لتأخذ كل ملكة فى النفس حظها، وتتوازن حياة المسلم فى جوانبه الروحية والخلقية والعقلية والبدنية.

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أمين الخولى: إن فلسفة الإسلام لا تدعو إلى قهر الجسد والحط من شأنه وإذلاله فى سبيل حياة روحية خالصة، وتحريم زينة الحياة الدنيا مثلما فعلت طوائف الرهبان فى الزهد فى الدنيا، فأهملت الجسد ولم توفه حقه الفطرى والطبيعى وغالت وبالغت حتى أخذت تذيق الجسد ألوان التعذيب والعنت، الأمر الذى أثمر خللاً فى التوازن الطبيعى فى الشخصية الإنسانية، لحساب الجانب الروحى، وعلى حساب الجانب البدنى[1].

الإسلام إذن هو الوسطية الربانية التى لا تغرق الجسد فى وحل الشهوات، ولا تحرمه من الزينة والطيبات، وفيما يلى سنرى كيف كانت العبادات وهى شعائر روحية بالدرجة الأولى تعطى الجسد قوة تضاعف دوره فى الحياة.

المقصد التربوى للطهارة فى الجانب الجسدى للفرد المسلم.

هناك جوانب كثيرة تؤدى إلى إصلاح الجسد للفرد المسلم عن طريق أحكام الطهارة منها ما يلى:

أولاً: الطهارة هى نظافة من الحدث أو الخبث كما عرفها الكاسانى[2]، وقال ابن رشد المالكى اتفق المسلمون على أن الطهارة الشرعية طهارتان: طهارة من الحدث وطهارة من الخبث[3]، هذه الطهارة فى مسماها اللغوى والشرعى تفوق مصطلح التعقيم فى الواقع المعاصر يقول الأستاذ محمد كامل عبدالصمد: والتاريخ يثبت أن الإسلام هو أول نظام علمى عرفته الإنسانية يأمر بالتعقيم ويحارب التلوث، ألم يطلق الإسلام على الشىء الملوث أو الحامل للميكروبات كلمة النجاسة؟!

واتبع الأسلوب العلمى فحددها فى ثلاث عشرة مادة، وهى التى تعرف فى عصرنا الحديث بالمواد الوسطية أو الناقلة للميكروب، ومنها: القيح والدم المسفوح والبراز والبول والقىء ولعاب الكلب وجسم الخنزير، وكل شىء عفن كبقايا الحيوان الميت، وقد أثبت العلم الحديث أن جميع هذه المواد هى وسط صالح لنمو الميكروبات وتكاثرها... وقرر الإسلام أن أية مادة من هذه تصيب الإنسان فى جسمه أو طعامه أو شرابه أو مكانه أو تغير لون الطعام أو رائحته أو طعمه، فهذا يدل على وجود ميكروب حى يتفاعل، وبهذا يكون نجساً فى نظر الدين، ملوثاً فى نظر الطب الحديث وسمى القرآن الكريم هذه النجاسة أى الميكروب رجساً ورجز الشيطان[4].

ثانياً: أوجب الإسلام الطهارة الحسّية وحثّ على الطهارة المعنوية، وألغى العقائد الباطلة التى تؤمن أن تقوية الروح توجب إهمال البدن تماماً حتى عُرف فى بعض الأديان الوضعية أو المحرفة ما اصطلح عليه بـ- القذارة المقدسة - التى

١- «الرياضة والحضارة الإسلامية» الشيخ أمين أنور الخولى (ص٥٥).
٢- «بدائع الصنائع» للكاسانى (٣٢/١).
٣- «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد (٧/١).
٤- «الإعجاز الطبى فى الإسلام» د. محمد كامل عبدالصمد ص (١٥، ١٦)، «الطب الوقائى فى الإسلام» ص (١٧، ١٨).

عرفتها بعض نظم الرهبنة في كل من المسيحية أو الهندوسية، فالرهبان الذين يتجنبون النظافة يشعرون شعورا دينيا أصيلا أن إهمال البدن، بل الإهمال المتعمد لنظافته يقوي العنصر الروحي في الصلاة، مفترضا أنها ستكون صلاة صدق، لهذا تخلصت من أية نظافة أو عناية بالبدن كما يذكر على لسان... رئيس الرهبنة[٥]، أما الإسلام فقد أوجب الطهارة من كل هذه الأدران وحض عليها، وجعلها سبيلا إلى الصفاء الروحي والنقاء النفسي والانشراح القلبي، ونجد هذا المزج بين طهارة البدن وطهارة النفس في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

ولقد وردت مادة (طهر) في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة تمزج بين هذه الطهارة الحسية والمعنوية.

ثالثا: توجه الطهارة في جسم المسلم والمسلمة إلى جميع المواضع التي يمكن أن تكون مناخا خصبا لإيواء الميكروبات والبكتيريا والفيروسات وتكاثرها وبيانها كما يلي:

١ـ الاستنجاء أو الاستطابة والاستجمار، ومنه حلق العانة بين الحين والآخر، للحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما بسندهم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»[٦]. وما رواه مسلم وأبو داود بسندهما عن عائشة قالت: «عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، قال بعض الرواة ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة»[٧].

ومن هنا يأتي الاستنجاء وحلق العانة ليزيل كل علائق البول والبراز، وما ينمو من الميكروبات في شعر العانة خاصة، حيث تتجمع الأوساخ مع العرق، ليجعلها أخصب مكان في الإنسان لهذه الميكروبات، التي تؤدي إلى أمراض جلدية وتناسلية حادة، هذا فضلا عن الروائح الكريهة التي تؤذي مشاعر الآخرين لمن لا يتعودون كلما أخرجوا شيئا من القبل أو الدبر على الاستنجاء، وهؤلاء الذين نراهم يسرقون من أبناء الغرب ومن قلدهم من أبناء الشرق الذين تعودوا على عدم الاستنجاء، والاكتفاء بمسح أدبارهم بالمناديل الورقية، هؤلاء بعد مدة تتضاعف أمراضهم الجلدية والتناسلية، لأن الماء هو الطهور لقوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

(الفرقان: ٤٨)

ومن لم يجد الماء لعلة مرة أو مرتين في سفر

٥ـ [illegible] (ص ٢٩٢).

٦ـ صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب الختان بعد الكبر ونتف الإبط رقم (٥٨٩١) [illegible] بلفظ الفطرة خمس... وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، وسنن أبي داود، كتاب الترجل، باب في أخذ الشارب، والترمذي، باب ما جاء في تقليم الأظفار [illegible] والموطأ، كتاب صفة النبي ﷺ باب ما جاء في السنة من الفطرة (٢/٩٢١)، والمسند (٢/٢٢٩).

٧ـ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة.

أو انقطاع المياه كظرف طارئ هنا يستجمر أي يستعمل الحجارة والتراب طهور حقيقي، لكن إن لم يجد فاستعمال المناديل يكون أمرا عارضا لا شأنا ثابتا لا يستعمل غيره.

ولذا كان مما أصاب الأوروبيين بالدهشة ـ عندما اتصلوا بالمسلمين ـ حرصهم الشديد على النظافة، ولقد هام الصليبيون بهذه النظافة وأدخلوها إلى أوروبا رغم صرخات الاستنكار التي دوت في كل مكان، محاولة منهم في نقل بعض عادات النظافة في الشرق ومن مظاهرها كثرة الحمامات العامة التي يوجد بها ماء ساخن وبارد حتى إن مصر وجدها كان بها مائة وسبعون ألف حمام عام[٨].

ولقد رأيت طبيبا مسلما في رومانيا متخصصا في أمراض طب النساء، قد كبرت سنه ولم يتزوج، وناقشته في سبب تأخير زواجه مع هذه الفتن المتراكمة، فذكر لي أنه بحكم عمله قد أصيب بكراهية حادة للنساء، لأن الواحدة تأتي وقد وضعت المساحيق والعطور، فإذا ما كشفت ثيابها للأغراض الطبية، واجهتني رائحة كريهة جدا عصفت بكل مشاعري تجاه أية امرأة، وذلك لأن هذا ليس حالة أو حالتين، بل هو ظاهرة في أغلبهن، فقلت: إن هذا قد يكون واردا في غير المسلمة، لكن وجوب التطهر لدى المسلم والمسلمة يجعلهما معافين من هذه الأدران المصاحبة للإنسان إذا لم يلتزم بأحكام الإسلام.

٢ـ يظهر عادة في العانة والإبط نوع معين من القمل يسمى «قمل العانة» وينتقل باللمس المباشر، أو المراحيض الملوثة، ويحدث لدغة أو حكة شديدة تزداد بالهرش، وهذا القمل أيضا ينقل بعض الأمراض وعلى رأسها التيفوس، والعجيب أن هذا القمل يزول تماما بحلق العانة أو نتف الإبط[٩].

٣ـ تقليم الأظافر هدى إسلامي، وسنة من سنن الفطرة للحديث السابق وهو يدل على الحفاظ على الصيغة الإسلامية لشكل المسلم والمسلمة، والثابت علميا أن هناك أمراضا تنقلها اليد من خلال الأظافر التي تتراكم تحتها جراثيم تنقل مرض التيفود والدوسنتاريا والنزلات المعوية[١٠]، لكن المسلم الذي يتوضأ خمس مرات ويغسل يده أول شيء، ثم يغسل يده مع كل عضو يغسله أيضا، والحرص على تقليم الأظافر بشكل دائم يكون في حصن وقائي من هذه الأمراض، والحق أيضا أن أي إنسان ذي فطرة فيها أي قدر من الاستواء لا يرضى لنفسه ولو كان غير مسلم أن يبقي واحدا من أظافره على هذا النحو، ولا أدري كيف غلظ حس الأزواج عندما تركوا لزوجاتهم تقليد الغرب في تطويل الأظافر حتى صارت كالحوافر، وصبغوها بالألوان المبطلة للوضوء، الموجبة للقذارة، إنها تدخل للاستنجاء فتحمل جراثيم عديدة في يدها دون أن تدري، ثم تخرج لتدس يدها في الطعام لتؤذي به زوجها وأولادها وضيوفها، وهو أمر يحتاج إلى مراجعة هذا التهوس بتقليد الغرب

٨ـ «الإسلام والرعاية الصحية الأولية»، د. عز الدين فراج (ص ١٢).

٩ـ «الإعجاز الطبي في الإسلام» ص (١٥٢).

١٠ـ نفسه.

في سوء عاداتهم، وانحلال أخلاقهم. أما في الإسلام فتقليم الأظافر كلها واجب لا فرق بين أصبع صغير أو كبير، والحفاظ على اليد، ويستحب اليمنى حتى لا تلامس الفرج من سنن وآداب الوضوء، وفيه يروى الإمام مسلم بسنده عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «لا يمسن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول»[١١]، ويكون الاستنجاء باليسرى ويصب الماء باليمنى إن احتاج إلى صبه، وذلك لأن اليمنى تمتد إلى الآخرين مصافحة، وتمد الأشياء للناس، وبها يأكل المسلم طعامه، ويرفع شرابه إلى فيه، فتكون في مأمن من أي تلوث يصل إلى جوف الإنسان أو أجساد الآخرين، بل هناك احتياط أكثر وهو غسل كلا اليدين بعد النوم، وقبل كل وضوء وقبل كل طعام وبعده، لما رواه البخاري ومسلم بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فليغسل يده قبل أن يدخلها في وضوئه، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده»[١٢].

فربما لا مس النائم فرجه بيده دون أن يدري، أما في اليقظة فاليد هي التي تجول وتمسك بالأشياء التي قد تحمل التلوث فيسن قبل أن يدسها في فمه أو يغسل بها وجهه ويديه أو يمسح رأسه ورجليه أن ينظفها أولاً من العلائق التي يحتمل أن تعلق بها.

٤- من آداب قضاء الحاجة عدم التبول أو التبرز في طريق الناس أو ظلهم أو في الماء الراكد أو تحت الأشجار المثمرة كما يقول النووي[١٣]، في هذا يروى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين، قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»[١٤]، وروى مسلم أيضا بسنده عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد[١٥]. هذه النصوص مع ما فيها من ارتقاء بالمشاعر الأخلاقية لكل فرد مسلم ألا يُؤذى غيره، أو يُؤذى من غيره إلا أن فيها جانبا هاما في الحفاظ على أجسامنا من الأمراض التي تصيب الناس إذا تعلقت هذه النجاسات بأجسامهم فقد ينقل براز أحد المرضى «بالانكلستوما» مرضه إلى هؤلاء عن طريق يرقات «الانكلستوما» ذات الفم المسلح الذي يشبه الأسنان الحادة وتنهش الغشاء المخاطي المبطن للأمعاء فتؤدي إلى القروح والنزيف وفقر الدم[١٦]، أما البول في الماء الراكد فيسبب زيادة نشاط البلهارسيا التي ثبت أنها تنشط جداً عن طريق التبول في الماء وتعرض الآخرين له، وإذا نظرنا إلى الميزانيات التي تُنفق لعلاج مرضى البلهارسيا وآثارها الحادة على الكبد، مما شكل نسبة كبيرة من الوفيات في بعض الدول النامية[١٧] فهنا ندرك أن الالتزام بهذا الهدي النبوي يقي الفرد والجماعة من حوله من هذه الأمراض التي تفتك بأجسادهم، وتستهلك ميزانياتهم.

٥- إذا كان من الثابت علميا أن كل سنتيمتر مكعب من الهواء به ملايين الميكروبات، فإن أكثر الأعضاء تعرضا لهذه الميكروبات هي: الأيدي، والفم، والأنف، والوجه، واليدين، والرجلين؛ لانكشافها طوال الوقت أمام هذا الهواء، فيأتي الوضوء طهارة كاملة من كل هذه الميكروبات التي تعلق قطعا بجسم الإنسان، خاصة هذه الأعضاء الظاهرة في أغلب الأحوال للهواء الذي قد يحمل التراب، أو الدخان، أو تلوثا إشعاعيا، أو غيره من صور التلوث التي امتلأ بها عالم العوادم والنفايات، التي اقتضت عقد مؤتمرات عالمية لعلاج مشكلات تلوث البيئة، وآثارها الحادة على الإنسان بل الحيوان والنبات، وأعضاء الوضوء هي أكثر أعضاء الجسم تعرضا لهذه الأجواء الملوثة، فتحظى عند المسلم بعناية فائقة في التخلص المستمر منها بين حين وآخر في خمس مرات على الأقل يوميا. وفي هذا يقول الأستاذ محمد كامل عبدالصمد: أثبت العلم الحديث أن الوضوء يقلل من حدوث الأورام السرطانية التي تسببها المواد الكيميائية، لأن الوضوء يكفل إزالتها قبل أن تتراكم بكمية تمكنها من النفاذ إلى الجسم عبر الجلد، مما يؤدي إلى حدوث تغيرات سرطانية... ويشير إلى أن سرطان الجلد أكثر شيوعا في المجتمع الغربي والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا رغم ضعف أشعة الشمس هناك وقوتها في بلاد الشرق لكن الوضوء يرطب الجلد ويقلل من آثارها السلبية على الجلد... وأشار كذلك إلى أثر الغسل والوضوء في إزالة العرق الذي يحتوي على أملاح ومواد دهنية، فإن تبخر تبقى هذه الأملاح والدهون وتسد مسام الغدد العرقية[١٨].

٦- المضمضة مع استعمال السواك ذات تأثير رائع في احتفاظ الفم واللثة والأسنان بصحة جيدة، ورائحة طيبة، وإذا رجعنا إلى كتب الفقه فسنجد أن الجمهور على أن المضمضة من مندوبات الوضوء[١٩]، أما الحنابلة فيرون أن المضمضة والاستنشاق من أركان الوضوء؛ لدخولهما في وجوب غسل الوجه[٢٠] وإذا أضفنا إلى ذلك حديث البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قال:

١١- «صحيح مسلم»، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستنجاء باليمين.

١٢- «صحيح البخاري»، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ يده المشكوك في نجاستها في الإناء.

١٣- «المجموع» للنووي (٢/٨٧).

١٤- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال.

١٥- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، و«الجامع الصحيح» للإمام الربيع رقم (١٦٣)، وقد ناقش الشيخ السالمي ابن حزم في إجازته البول في الماء غير الراكد بأن الحكمة من النهي غير التنجيس. «معارج الآمال» السالمي (٣/٩٨-١٠١).

١٦- «الإسلام والرعاية الصحية» د. عز الدين فراج ص(٦١).

١٧- وراجع بحث الشيخ منصور الرفاعي عبيد عن دور الدين في العلاج والوقاية من مرض البلهارسيا في المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي عن الشريعة الإسلامية والقضايا الطبية المعاصرة بالتعاون بين الأزهر الشريف وكلية الطب جامعة عين شمس، راجع ملخصها ص(٣٧).

١٨- «الإعجاز العلمي في الإسلام» ص(٢١، ٢٢)، «الطب الوقائي في الإسلام» ص(٣٠).

١٩- «الأم» للشافعي (١/٢٣-٢٤) ويقول عن السواك: استحب السواك عند كل حال ورد على من قال بوجوب المضمضة بأن العين غائرة عن الفم ولم يقل أحد بوجوب غسلها.

٢٠- «الكافي» لابن قدامة (١/٢٦)، «كشاف القناع» للبهوتي (١/٩٦).

«السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»[٢١]، وقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[٢٢]، فإننا سنجد أن الطب الحديث يزيد المسلم يقيناً بأن كل حكم شرعي وراءه مصلحة يقينية لجسم الإنسان وعقله ووجدانه وقلبه ودنياه وآخرته، ففي المضمضة وهي رج الماء بقوة في الفم حتى يخرج جميع ما يعلق بغشاء الفم أو ما بين الأسنان، هذا يطرد كل المواد التي يتبت على ذراتها السوس الذي يؤذي الأسنان، ويؤثر تأثيراً بالغاً على الجهاز الهضمي كله، فضلاً عن تأثيرها الشكلي على الإنسان نفسه، فإذا تمضمض بشكل مستمر على هذا النحو خلا فمه دائماً من هذه الرواسب التي تغير رائحة الفم وتؤذي أسنانه.

أما استعمال السواك فقد ثبت طبياً أن فيه مواد كثيرة ذات تأثير إيجابي في نقاء الأسنان والحفاظ عليها، منها ما يلي[٢٣]:

أ- مادة الفلورايد تتفاعل مع أحد مكونات السطح الخارجي للأسنان وتسمى الهيدروكسي أباتيت، وهذه تتحول إلى مادة تسمى فلوروأباتيت، وهذا له مقاومة عالية ضد الذوبان الإحماضي الذي تفرزه البكتيريا أثناء وجود مرض التسوس.

كما يقلل من حموضة الإفرازات البكتيرية في داخل الفم، وهذا يقلل من سرعة ذوبان أجزاء الأسنان الخارجية في هذه الأحماض، وله دور آخر في إحباط نمو البكتيريا المسببة للتسوس في الفم، عن طريق تدليك شعيراته باللثة، وتنشيط الدورة الدموية فيها، وهي العملية المسماة بالمساج.

ب- مادة السليكون تزيل الفضلات والألوان المترسبة على الأسطح الخارجية للأسنان.

جـ- القلويات الموجودة في السواك ترطب الفم وتجعل له رائحة طيبة، وتوقف نشاط البكتيريا في الفم، بل الالتهابات في اللثة والأنسجة المحيطة بالأسنان.

د- مادة التانين والمواد الشمعية وهاتان تشدان الأنسجة المخاطية المرتخية للثة والأنسجة المحيطة بها، وتغلف المواد الشمعية الأسنان فتكوّن طبقة عازلة للأسنان تزيد من مناعتها ضد التسوس، وقد أجريت أبحاث طبية عديدة، حول فاعلية السواك في صحة الأسنان واللثة، منها ما أجري في جنوب غانا على ٨٨٧ شخصاً منهم ٤٥٠ رجلاً والبقية نساء، وكانت نتيجة البحث أن ٨٣٫٧٪ من مجموع المشاركين في البحث لا يعانون من فقد أسنانهم، وكانت نسبة التسوس محدودة جداً.

وفي سنة ١٩٨١ أجري بحث آخر في باكستان، أثبت بالتجربة العملية أن استخدام السواك يمنع الإصابة بسرطان الفم.

وفي أمريكا أجرى المعهد الوطني للصحة بحثاً علمياً عن العناصر الموجودة في السواك وانتهى البحث إلى أنها تمنع نمو بعض الأمراض السرطانية، وأن مستعملي السواك أقل عرضة للإصابة بسرطان الفم من غيرهم.

٧- الاستنشاق أو الاستنثار كما يسميه بعض الفقهاء، لا يعني تقريب الماء من الأنف، بل يعني تقريب الماء من الأنف ثم ارتشاف جزء منه في الأنف، ليدخل إلى الشعيرات بالداخل، ثم نثرها بقوة ثلاثاً، حتى لا يبقى في الأنف شيء من العلائق الكثيرة الموجودة في الهواء، ويعد الأنف البوابة الرئيسية للجهاز التنفسي، فإذا لم يقم الإنسان بتنظيفه دائماً فإنه يتلوث بما يتراكم في هذه الشعيرات من أتربة وميكروبات وغيرها، من المواد المتطايرة في الهواء وبهذا تفقد الشعيرات قدرتها على التنقية بسبب هذا التشبع، أو تلاحمها بعضها ببعض، ويدخل الهواء ملوثاً إلى القصبة الهوائية والرئتين مما قد يؤدي إلى الالتهاب السحائي، وأمراض الشعب التنفسية، بل أمراض الأذن الوسطى، والجيوب الأنفية وسطح الجلد.

ولذا ينصح أطباء الأنف بدوام غسل الأنف حتى لا تتراكم البكتيريا والميكروبات وتتكاثر داخل الأنف فتفسد الجهاز التنفسي، وينصح بعضهم بوضع قناع من القماش على الأنف، إلا أن غسل الأنف خمس مرات في اليوم هو أبسطها وأسهلها، وقد أجرى أساتذة من كلية الطب جامعة الإسكندرية على عدد كبير من مئات المواطنين الذين يصلون والذين لا يصلون واستمر البحث لمدة عامين كاملين، وكانوا يأخذون مسحة من أنوفهم جميعاً، ويقومون بعمل مزرعة وتحاليل وفحوص طبية، وكانت النتيجة أن الأنف ظهر عند الذين لا يتوضأون ولا يصلون باهت اللون، دهني الملمس، ويعلو مداخله أتربة وقشور، وفتحة الأنف لزجة الملمس غامقة اللون، يتساقط منها الشعر، وكان الشعر بداخل الأنف متلاصقاً متربا تعلوه قشور حقيقية أما عند المتوضئين، فظهر سطح الأنف لامعاً نظيف الملمس، يخلو من القشور والأتربة وكذلك شعر الأنف الداخلي خال من المتعلقات والإفرازات[٢٤] وهذه النظافة للأنف تقي من أمراض الأنفلونزا، وشلل الأطفال والدفتيريا كما يذكر الدكتور الفنجري[٢٥].

رابعاً: دم الحيض عبر عنه القرآن الكريم أحسن تعبير بقوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

نجاسة دم الحيض مشهورة فقهياً، وعرف قدماء المصريين ذلك قديماً بعد أن أجرى أحد الكهنة تجربة، حيث سقى بعض البذور بماء مخلوط بدم الحيض، ومجموعة أخرى سقاها بالماء العذب، وتأخر نمو المجموعة الأولى وماتت بعدئذ، فساد اعتقاد بوجود السم في دماء

٢١- «المسند» (٦/ ٤٧).

٢٢- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب السواك.

٢٣- راجع «الطب الوقائي في الإسلام»، د. أحمد شوقي الفنجري ص (٢٣، ٢٤)، «الإسلام والتربية الصحية»، د. عائشة البنا ص (٣٣)، «الإعجاز العلمي في الإسلام»، محمد كامل عبدالصمد ص (١١٩، ١٢١)، وهو أكثرها مادة وأحسنها عرضاً.

٢٤- «الإعجاز العلمي في الإسلام»، محمد كامل عبدالصمد ص (١١٦).

٢٥- «الطب الوقائي في الإسلام» ص (٢٤).

الحيض، وإن كانوا قد رتبوا عليها اعتزال النساء تماما في هذه الفترة، ولعل اليهود قد أخذوا هذا عنهم لكن الإسلام أمر بالنقاء منه والاغتسال بعد الانتهاء من هذه العادة، وتتبع آثاره بالقطنة المبللة بالمسك، للقضاء على بقايا الدماء ونفى رائحتها، وقد ثبت أن معاشرة المرأة خلال هذه الفترة قد تؤدى إلى مرض الإيدز، كما يذكر الدكتور عادل رسلان في بحثه بعنوان «العلاقة الجنسية غير السوية وأمراضها» الذى ألقاه في المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي بالقاهرة سنة ١٩٨٧[٢٦] وقد عدد الأطباء الأمراض التي تسببها المعاشرة أثناء الحيض ومنها[٢٧]:

أ- التهاب قناتي الرحم أو سدهما، مما قد يؤدى إلى العقم، أو الحمل خارج الرحم، لعدم تحرك البويضة منها إلى الرحم.

ب- امتداد الالتهاب إلى مجرى البول فالمثانة فالحالبين فالكلى، مما يسفر عن أمراض مزمنة للجهاز الهضمي، وهذا يحدث للرجل والمرأة، وقد يؤدى إلى التهاب غدة كوبر والبروستاتا والحويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ، وقد يتعذر معه البول أو يكون البول مع آلام حادة، ويؤدى إلى إفراز مدى شديد، وهذا قد يؤدى إلى الحمى والقشعريرة والضعف العام.

جـ- قد يمتد الالتهاب إلى المجرى الخلفي، وفيها يكثر التقيح مع الدماء، وغالبا يزمن المرض ويمتد الالتهاب إلى الحشفة والقلفة، ويحدث الغرغرينا فيهما، ولا يوجد في هذه الحالة مفر من بتر الذكر حتى لا يتسمم سائر البدن وإذا وصل التسمم إلى الحالب وقاعدة الكليتين تسمم البدن كله ومات به.

خامساً: نجاسة لحم الخنزير وشحمه مجمع عليها، لقوله تعالى:

﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾

(الأنعام- ١٤٥)

والرجس هو النجس ولكي يزداد يقيننا بمدى حرص الإسلام على صحة البدن لكل مسلم، بل لكل إنسان، يمكن أن نلخص البحث القيم الذى عرضه د. أحمد شوقي الفنجري تحت عنوان: «الأسباب العلمية لتحريم لحم الخنزير» وذكر منها ما يلي[٢٨]:

السبب الأول: يصاب الخنزير عادة بنوعين من الديدان هما:

١- دودة التينيا الشريطية، وتنتقل من لحم الخنزير إلى أمعاء آكله وتخترقها إلى الدورة الدموية، وتتحوصل حتى تصل أحيانا إلى مثل حبة الفول، وتستقر في مكان ما من الجسم فإن وصلت إلى المخ فيصاب قطعا بالجنون والشلل والتشنجات العصبية، وإن أصابت العين أعمتها، وإن كانت في جدار القلب أدت إلى الذبحة الصدرية، وثبت أن ورم المخ كان ٢٥٪ منه بسبب دودة الخنزير، وهذه الحويصلة قد تستمر مع الإنسان ٢٣ عاما.

٢- دودة التركينا وهي موجودة في خنزير واحد من بين كل ستة خنازير، حسب الإحصائيات العالمية، وبلغ عدد المصابين بها سنة ١٩٤٧م ٢٦ مليون مصاب، وهي تؤدى إلى ارتفاع الحرارة، وتورم الوجه، ونزلة معوية حادة وقد تؤدى إلى هبوط القلب.

والغريب أن كل طرق علاج هاتين الدودتين فشلت، ولا يوجد لها علاج إلى الآن حسب ما ذكره د. «ج. جوردن» المتخصص في علاج هذه الأمراض.

السبب الثاني: أكدت نشرة أصدرتها هيئة الصحة العالمية أن مختبراتها في الدانمارك ثبت فيها علميا أن لحم الخنزير هو أكثر أنواع اللحوم قابلية للتلوث ونقل الميكروبات، وأن ٤٠٪ على الأقل من الخنازير الموجودة حاملة للميكروبات المعدية وغير المعدية.

السبب الثالث: أن علماء الحيوان يصنفون الخنزير على أنه من الحيوانات آكلات اللحوم، مثل الأسد والذئب والثعلب والكلب، لأنها ذات أنياب والمعروف بالمشاهدة أن كل خنزير له أربعة أنياب كبيرة، والإسلام حرم أكل كل ذى ناب من السباع، أو مخلب من الطير[٢٩]، لأنها حقا كما تؤكد الأبحاث العلمية تصيب آكلها بالضراوة والعنف، وفي المكسيك يغرمون بقتال الديوك كلعبة، ولوحظ أن مربيها يطعمونها اللحم بدلا من الحبوب، كي تزداد ضراوة وميلا إلى القتل، والمعروف أن الخنزير فيه شراسة وعنفا تزيد كثيرا عن الغنم والأبقار آكلات العشب، وأنثى الخنزير تصاب عادة بحالات هيستيرية بعد الولادة وقد تقتل أولادها كلهم أو بعضهم ثم تأكلهم، ولذا يضطر الآن رعاة الخنزير إلى خلع أنيابه وهو صغير حتى لا تفترسهم الخنازير عند الكبر، وقد لوحظ أن الخنازير إذا أخرجت من المراعي النظيفة في أوروبا وأمريكا إلى الغابات، فإنها تسارع بأكل الفئران الميتة والرمم، وإذا دهست السيارة أحدهم تجمع القطيع من الخنازير حوله ليأكله، وهم الآن يطعمون في بعض مزارع التسمين لحم خنازير ميتة وعفنة أو خيل ميت، وقد لوحظ أن الخنازير لا ترتبط بنظام الأسرة فالذكر له أكثر من أنثى، وقد يعتدى على أنثى غيره، والأنثى لها أكثر من ذكر، ولذا لا نجد العفة في آكلي لحوم الخنازير فقد يسلم أحدهم زوجته أو ابنته إلى رفيقه دون حرج، على حين قد يؤدى بعض هذا في عرفنا العربي والإسلامي إلى قتال عنيف.

السبب الرابع: دهن الخنزير به نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة، منها تريجلسريدز وتبلغ نسبة الكولسترول ١٥ ضعف ما يوجد في البقر، ونسبة الدهن في اللحم ٥٠٪ أما في لحم البقر ٥٪ هذه النسبة العالية تؤدى إلى الإصابة بتصلب الشرايين وارتفاع الضغط والذبحة القلبية وهي القاتل الأول في أوروبا.

السبب الخامس: وباء الانفلونزا يظهر أولا بين المزارعين المشرفين على الخنازير، ثم ينتشر بعد ذلك في الآكلين، ولذا سميت الانفلونزا الخنزيرية، وهو من الأمراض الشائعة الآن في العالم التي لم يجد لها الأطباء علاجا جذريا حتى الآن.

٢٦- راجع ص (٤) من ملخصات أبحاث المؤتمر.

٢٧- راجع: «الإعجاز العلمي في الإسلام» ص(١٢٧، ١٢٨) و«الطب والقرآن» د. محمد وصفي، «الحيض والنفاس وأحكام الطاهرة النساء» إبراهيم محمد الجمل (٦٢/٦٤).

٢٨- «الطب الوقائي في الإسلام» ص (٢٩٠-٢٠٣).

٢٩- الحديث رواه الجماعة: البخاري والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير. راجع «نيل الأوطار» للشوكاني (١١٦/٤).

الله

أ.د. نظمي لوقا

لا يدع القرآن شائبة من ريب في مسألة وحدانية الله، فجاء في سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾

(الإخلاص: ١، ٢)

ولا في تنزيهه عن الشرك والتعدد:

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

(الإخلاص: ٣، ٤)

وفي ذلك نقض لعقائد الشرك، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضًا. فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته، وأنه ابن الله وأن الإله الواحد جوهر واحد له ثلاثة أقانيم هي:

الله الأب، والله الابن - وهو المسيح - والروح القدس. وشبهوا ذلك السر الإيماني المسيحي بالشمس، وكيف أنها حقيقة واحدة، تقع على الحواس قرصًا، ونورًا، وحرارة.

ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات حوارييه، (الأناجيل)، إشارة إلى شيء من ذلك، بل كان يدعو نفسه على الدوام (ابن الإنسان).

وأما البنوة لله - عز وجل، فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق، وبمعنى يشمل البشر كافة، حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم: (يا أبانا الذي في السماء).. وحين طالب أتباعه، وجميع الناس، أن يسلكوا طريق البر؛ كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله. فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا: «إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله»، لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر، وأحبوا الله وأحبوا إخوانهم في الله، حتى أعداءهم.

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل برعاية الله وعنايته، بما يتيحه من الرزق لطيور السماء، ووحش الفلاة. وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل، فلا ينبغي أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجاهها وزخرفها. وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات، وما أبعد هذا أن يكون ذلك (السر) أو (اللغز) المعقد الذي اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت.

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة، بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه، وجمعت المجامع، ووقعت المذابح، وصار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة، لا إلى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع إليها.

وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للأعداء، تكون مثار ذلك كله.

وناهيك بعقول السواد، ممن عبرت لهم في الوثنية جذور عقلية وحسية منذ ألوف السنين، كيف لا تنزلق إلى الشرك من باب هذا (السر) الذي يجعل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم!

لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد، ولابد من نفي اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة، وهو التوحيد مطلق التوحيد.

إذن تعين أن يأتي الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوبيل:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

(الإخلاص: ١ - ٤)

لم يلد ولم يولد، فأقرب إلى العقل أن من يلد أحرى بأن يولد. وما كان سبحانه فردًا في جنس، ولا واحدًا في سلالة من نوعه - حاشا! بل جل عن النظراء والأكفاء. فمن ذا الكفء لله؟.

وكان لابد للدين أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية الله بالخلق، وإلى قدرته، وإلى سلطانه المطلق على الكون كله، فقرر القرآن في عزم وحسم أن:

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(الزمر: ٦٢)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

(الفتح: ٢١)

هو الخالق، وهو المدبر القادر لم يخلق الكون ثم نفض منه يده:

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾

ولا يدع القرآن في ذلك شكًا، فهو يقرر ويكرر في أكثر من موضع تلك الحقيقة الجوهرية، التي تقر سلطان الله على الخلق وتدعوهم للطمأنينة إلى عنايته، والحرص على رضوانه، فجاء في سورة الحديد:

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(الحديد: ٣)

وجاء في سورة الأعراف:

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

(الأعراف: ٨٩)

وجاء أيضًا:

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(الأعراف: ٥٤)

وجاء في سورة يونس:

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾

(يونس: ٦١)

وجاء في سورة يس:

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

(يس: ٧٩)

وجاء في سورة فاطر أنه سبحانه:

﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(فاطر: ٣٨)

وجاء فى سورة المؤمنون:

﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

(المؤمنون: ١٧)

وجاء فى سورة غافر:

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

(غافر: ١٩)

***

وهكذا بدت العقيدة الإلهية فى الإسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته، ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم كانت البشرية قد باتت فى حاجة ماسة إليه بعد الذى انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة.

وأما والمسألة مسألة إيمان، فمن آمن بعقيدة تنزه الله عن كل مشابهة بالخلق، وعن كل تعدد تجسم أو استدق، يكون أقرب إلى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد، ولكنه يحتال على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة، ويحار فى وجه حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم، وقد كانت لعباده غنية عن تلك الحيرة بتمام التوحيد، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل إبهام.

أما صفاته سبحانه، فلا يدركها الحصر، وإنما يتجلى للناس منها ما يعنيهم وما يكون على قدر إدراكهم.

وأول ما يجبه الناس أمر الحياة والممات، فالله هو:

﴿ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(الفرقان: ٥٨)

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

(المؤمنون: ٨٠)

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(القصص: ٨٨)

وتتواكب آلاء الله على عباده، فهو الرازق الوهاب، خالق ما فى الأرحام، العليم، الحكيم، البصير، المنتقم، ذو الجلال.

وقد كان لبنى إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله، تكاد تنفى الطمأنينة وتبعث الهول، وما دين بغير طمأنينة يستقيم بها أمر الناس فى حقهم من الدنيا والآخرة؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله (الرحمن الرحيم)، لا يكتفى من هاتين الصفتين بواحدة دون الأخرى.

ويقول فى سورة فصلت:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

(فصلت: ٤٦)

ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطمئن الناس إلى العدل وإلى الإعذار مع الإنذار، فهو إذ يقول فى سورة البروج:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

(البروج: ١٢)

يردفها بقوله:

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾

(البروج: ١٤)

وجاء فى سورة الإسراء:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(الإسراء: ١٥)

ولئن كان أقوام مؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام الأجدادالغابرين، وأن حصرم

الآباء يضرس به البنون. فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم فيقول فى سورة فاطر:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

(فاطر: ١٨)

ويقول فى البقرة:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ١٤١)

وهو توضيح أو تصحيح كان لا محيص عنه، وإلا وجد العقل البشرى فى ستن الله ظلمات تزعجه وتصده عن الإيمان والتسليم..

وكأنما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين درجوا ألوف السنين على التجسيم، وهو تصوير كل شىء فى صورة الجسم، الذى له موضع محدد وأين معين.

ويأتى القرآن بالجواب حاسماً قاطعا كل شك:

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١١٥)

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام: ١٠٣)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾

(ق: ١٦)

ويحار البشر، فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(الشورى: ١١)

عقيدة واحدة بسيطة، يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة فى كل نفس.

وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وهكذا يجد كل إنسان له مكاناً فى ظل هذه العقيدة الإلهية، على أساس من المساواة العادلة، التى لا تفاضل معها إلا بالتقوى، تقوى الله رب (العالمين).

قصص الأنبياء

إسماعيل عليه السلام

وإقدام أبيه على ذبحه

لفضيلة الشيخ / عبد الوهاب النجار

نذكر قصة إسماعيل لقصرها، ولأنها على التحقيق جزء من قصة إبراهيم، فليس غريباً أن تذكر فى خلالها سورة مريم:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

(مريم : ٥٤ ، ٥٥)

وجاء فى القرآن قصة ذبح إبراهيم لولده، وهمه بذلك، إلى أن نودى بالكف عن ذبحه، وأنه فدى بكبش يذبح عوضاً عنه.

كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة الوحى والأمر المباشر، وقد رأى إبراهيم فى منامه أنه أمر أن يقدم ابنه قرباناً لله ويحرقه، كما تقدم القرابين وتحرق، وكان ذلك الولد إسماعيل - على ما نذكر فيما بعد - فصدع إبراهيم بذلك الأمر الصادر إليه فى المنام، وعرض الأمر على ولده فتقبل القضاء بالرضا وقال:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الصافات : ١٠٢)

ويقول بعض المفسرين، إنه رأى فى منامه أنه يذبح ذلك الولد عملاً، فقص ذلك على ولده، فشجعه ابنه على أن يحقق منامه، فلما حقق العمل، وأهوى بالمدية إلى ذبحه، ناداه الله بالكف، وأن هذا العمل منه يكفى تصديقاً للرؤيا، ورأى إبراهيم كبشاً قريباً منه، فذبحه فدية عن ولده، والآيات الخاصة بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد، ولكن سياق الكلام

وذكر تبشير إبراهيم بإسحاق بعدها لا يكاد يبقى شكاً فى أن الذبيح إسماعيل.

اقرءوا قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾

(الصافات : ٩٩ - ١١٣)

ولا شك أن الضمير فى «عليه» راجع إلى الذبيح، فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح فى أن إسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله إبراهيم بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحاً، يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق، ومعنى «تله» صرعه، وألقاه على عنقه وخده.

أما هذه القصة فى التوراة فبطلها عند اليهود إسحاق، وفى اعتقادى أن لفظ إسحاق حشر حشراً فى غضون القصة، وذلك حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه وهو فى حالة صغره.

ودليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد - أى الذى ليس له سواه - إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد بذبحه امتثالاً لأمر ربه له فى منام، أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله، وهذا هو الإسلام بعينه.

إذ الإسلام هو الطاعة والامتثال، وهو دين الله فى الأولين والآخرين، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لإبراهيم فى يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة - كما هو صريح التوراة - وبقى إسماعيل إلى أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه، وأيضاً فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذى وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل، وستعلمون فيما يأتى أن مسألة الذبح وقعت فى مكة، لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً - كما فى حديث البخارى الآتى.

رحلة إسماعيل وهاجر إلى وادى مكة

رحلة إسماعيل وهاجر إلى مكة لم تفصل فى الكتاب الكريم، ولم يذكر منها فيه سوى قوله تعالى على لسان إبراهيم:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(إبراهيم : ٣٧)

ويظهر لى أن إبراهيم دعا هذا الدعاء بعد بناء البيت.

والوادى الذى لا زرع فيه، هو الوادى الذى به مكة اليوم.

ولم يبن بمكة شىء بعد البيت إلا فى القرن الثانى قبل الإسلام، فى عهد قصى بن كلاب، فإنه بنى دار الندوة وتبعته قريش تبنى حول

المسجد، وكان المسجد ساحة فبنوا حوله وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام - راجع صبح الأعشى صفحة ٢٥٠ جزء رابع - ومكة والحرم الذى حولها لا تنبت شجرا يثمر سوى شجر البادية، ففى صفحة ٢٥٥ من الجزء الرابع من صبح الأعشى، قال ابن حوقل: وليس بمكة والحرم شجر يثمر إلا شجر البادية، أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار.

وفى البخارى: عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء، فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه، فقال:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

حتى بلغ «يشكرون»، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى. ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ «فذلك سعى الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضا. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث؛ فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا. وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه. وأن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين عن طريق كداء. فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بالماء. فأقبلوا، قال: «وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم» قال ابن عباس: قال النبى ﷺ

«فألفت ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس. فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل. يطالع تركته فلم يجد إسماعيل. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن فى ضيق وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته؛ وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشئ؟ قالت: نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك، فطلقها وتزوج أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء» قال النبى ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: «فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه» قال: «فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام - ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشئ؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبى. وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله. ثم جاء بعد ذلك. وإسماعيل يبرى نبلا له قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل؛ إن الله أمرنى بأمر: قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها» قال: «فعندك ذلك، رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى. حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له: فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قال: «فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

اهـ وقد قرأت فى كتاب من كتب الأدب العبرى قريبا من ذلك.

بناء البيت

لما ترك إبراهيم إسماعيل وهاجر بالوادى الذى به مكة اليوم. كان يزور ولده إسماعيل - الحين بعد الحين - ففى إحدى هذه الزيارات أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة. ولما تم بناؤها أمره الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتا لعبادة الله تعالى وأن عليهم أن يقصدوه للنسك. وطلب إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى أن

يريهما المناسك التى يتسكانها. وبقى إبراهيم بعد ذلك زمنا طويلا حيا.

والكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى. فى حين أن بقية الشعوب والقبائل فى سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل.

كان أهل مصر يعبدون آلهة متعددة، تارة فى وقت واحد، وتارة فى أوقات متعددة. فمن عبادة الشمس. إلى عبادة الثور، إلى عبادة الآلهة الثلاثة أزوريس وإيزيس وابنهما حوريس. وكانوا يرمزون بذلك إلى صفات الله تعالى. ويصنعون التماثيل لتلكم الرموز. وكان الأشوريون يعبدون بعل شموش أى الاله الشمس ويصنعون له صنما على نحو أبى الهول له رأس إنسان وجسم أسد وله أجنحة.

وكان الكنعانيون يعبدون البعل، وهو على وصف بعل شموش بدون أجنحة، وقد رأيته مشوها فى معبد بعلبك - المعروف الآن بقلعة بعلبك - وكان أهل نواحى غزة يعبدون داجون ويصورونه إنسانا له جسم سمكة: والعمونيون وأهل باشان كانوا يعبدون بعل فغور. وآخرون كانوا يعبدون العشتارون - أى القمر - صنم على هيئة أنثى.

اقرءوا قوله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٦، ٩٧)

وفى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

استطراد

يريد بعض الناس أن ينفى العرب عن إبراهيم وإسماعيل فيتذرع إلى ذلك بنفى وجود إبراهيم وإسماعيل تاريخيا، بمعنى أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى يدعى لهما من يدون التاريخ ويسطر أحواله. ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب عن إبراهيم وإسماعيل لا ينفى أنهما وردا سجل الحياة، فإن الجد الذى يكمل العشرة من أجدادى، لم أعلم اسمه، ولم يسجله تاريخ، فهل معنى ذلك أن ليس لى جد عاشر؟

وعلى النافى أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة - كبيرها وصغيرها - بيد مؤرخين كانوا فى تلك الأمكنة، فتركهما محدث للريبة، على أن إبراهيم وإسماعيل قد ورد الخبر عنهما متواترا والتواتر حجة قطعية.

يقولون: إن وجود إبراهيم وإسماعيل إنما هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة ليتقربوا إلى العرب المسلمين، وهذا القول حجة داحضة، لأنه يقتضى أن ذكر إسماعيل وأنه أبو العرب المستعربة شئ اخترع زمن البعثة، بعد الهجرة! اخترعه اليهود ليوجدوا صلة بينهم وبين العرب، فى حين أن مسألة إسماعيل موجودة فى سفر التكوين من أسفار التوراة! وقد ترجم فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية، فى عصر بطليموس فيلادلف - وهو بطليموس الثانى - فى الترجمة المشهورة بالسبعينية التى قام على ترجمتها بالإسكندرية سبعون حبرا من أحبار اليهود، وذلك قبل هجرة محمد ﷺ بتسعة قرون، وهو دليل مؤرخ معروف فى التاريخ، وتلك دعوى لا دليل عليها. رجعوا بعد ذلك يقولون: إن إبراهيم لم يبن البيت، وإسماعيل لم يكن ولم يوجد بمكة، وأنه ربما كان هناك بلدة أخرى اسمها بكة خارج بلاد العرب وهى غير مكة، وجد بها ذلك البيت الذى أخبر الله أنه أول بيت وضع للناس، وقد أعياهم أن يجدوا ذلك.

ومعلوم أن لفظ «مكة» عربى والعربية إحدى اللغات السامية، وقد قال جورج زيدان بك فى كتابة العرب قبل الإسلام: إن لفظ «بيك» معناه البيت، وعزا ذلك إلى لغة سامية. ومعلوم أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما وبالعكس. ومن القبائل التى تفعل ذلك مازن، فيقولون فى بكر مكر، وفى مكان بكان. وعندنا فى بلاد الصعيد وغيرها أثر من ذلك إلى اليوم. وفى بلاد العرب كذلك كما نص عليه صديقنا البحاثة الرحالة محمد لبيب البتنونى بك فى رحلته الحجازية.

فمكة هى عين بكة، ومعناها البيت أطلق على ما جاوره توسعا. وهذه كلمة «بعل بك» مركبة من كلمتين «بعل» ومعناه الإله و«بك» ومعناه البيت أى بيت البعل، اسم للمعبد الذى أقيم باسم البعل ووضع به صنمه، وهو به إلى اليوم مشوه الوجه كما رأيته فى سنة ١٩٠٨، وقد أطلق هذا الاسم على المدينة التى فيها بيت البعل - كما هو الواقع بمكة.

هذا وأما وصف الكعبة والحرم ومكة وتاريخ مكة والبيت فقد وفاه صديقنا البحاثة محمد لبيب البتنونى بك فى كتابة الرحلة الحجازية.

أولاد اسماعيل

وقد ذكر فى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين أولاد إسماعيل الذكور وهم أثنا عشر ولدا رؤساء قبائل.

عمر اسماعيل ووفاته

وفيها أن إسماعيل عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة. وفيها أيضا ما يشير إلى أنه مات بفلسطين. ولكن ما عليه مؤرخو العرب أنه بمكة. ويظن أنه دفن بالحجر الذى بجوار البيت هو وأمه.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

منهاج القرآن الكريم فى دعوة اليهود إلى الإسلام ومظاهر إنصافه لهم

الإمام الراحل الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى



كلامنا هنا يتناول موضوعين أساسيين:

أولهما: بيان أهم الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم لحمل أهل الكتاب على الدخول فى الإسلام، والإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

وثانيهما: بيان أهم مظاهر الإنصاف والتسامح التى عامل بها الإسلام أهل الكتاب.

وللحديث عن الموضوع الأول نقول: إن دعوة الناس إلى توحيد الله - تعالى - وإخلاص العبودية له، والخضوع لحكمه، هى القضية الأولى التى من أجلها بعث الله الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يوجهوا الناس إليها فى كل زمان ومكان.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم أن كل رسول بعثه الله - تعالى - كان يأمر قومه بتوحيد الله سبحانه.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾

(الأنبياء: ٢٥)

والدعوة إلى عبادة الله وحده، حكاها القرآن الكريم بصيغة متحدة على لسان عدد من رسله وهم ينصحون أقوامهم.

فقال تعالى - فى شأن نوح - عليه السلام:

﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(سورة الأعراف: الآية ٥٩)

وقال تعالى فى شأن هود عليه السلام.

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(سورة الأعراف: الآية ٦٥)

وقال تعالى فى شأن صالح عليه السلام.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(سورة الأعراف: الآية ٧٣)

وقال تعالى فى شأن شعيب عليه السلام.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(سورة الأعراف: الآية ٨٥)

ولا شك أن كل نبى قد وجه هذه الجملة إلى قومه إما بنصها أو بمعناها؛ لأنها جملة فى استجابة الناس - بإخلاص وطاعة - لمضمونها، سعادتهم وفلاحهم.

ولقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن تكون رسالته عامة للناس جميعاً، وشريعته ناسخة للشرائع التى سبقتها، ومعجزته الكبرى - القرآن الكريم - مصدقا للكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها، ودعوته موافقة فى جوهرها لما دعا إليه الأنبياء السابقون.

وبمقتضى هذه المميزات التى منحها الله - تعالى لنبيه ﷺ دون غيره من الرسل، أخذ يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله تعالى بعزيمة صادقة وبيان واضح، وصبر جميل، وحجة ساطعة وأدلة ناطقة بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

وكان من بين الأقوام الذين وجه إليهم الرسول ﷺ دعوته ليتبعوه ويصدقوه أهل الكتاب بصفة عامة، واليهود الذين كانوا مجاورين لعرب الجزيرة بصفة خاصة.

ولقد سلك النبى ﷺ فى دعوته لهم، كل وسيلة من شأنها إقناعهم بصدقه وتنبيههم إلى حقية دعوته، وساق لهم من آيات القرآن الكريم ما يحملهم على المبادرة إلى الدخول فى دين الإسلام أن كانوا ممن يفتحون قلوبهم للحق، ويخافون مقام ربهم، وينهون أنفسهم عن الهوى.

وهذه بعض الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم فى دعوته بنى إسرائيل إلى الدخول فى الإسلام، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

أولا: إقامة الأدلة لهم على صدق النبى ﷺ وذلك عن طريق:

(أ) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوارة والإنجيل.

(ب) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام.

(جـ) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى كانوا يستفتحون به على الذين كفروا.

(د) تنبيههم إلى أن القرآن الكريم الذى نزل على محمد ﷺ مصدق للكتب السماوية السابقة.

ثانيا: إرشادهم إلى أن - ما دعاهم إليه محمد ﷺ يوافق فى أصوله ما دعا إليه الأنبياء.

ثالثا: ترغيبهم فى اتباع محمد ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة.

رابعا: إنذارهم بالعقوبة العاجلة

والآجلة إذا لم يتبعوا النبي ﷺ .

خامسا: إعلامهم بأن اختلافهم في الدين سببه البغي والحسد.

سادسا: إخبارهم بأن القرآن الكريم يقص عليهم الحكم الحق فيما اختلفوا فيه.

سابعا: إقامة الحجة عليهم عن طريق الاستشهاد بهم على صدق النبي ﷺ .

هذه بعض الأمور التي ساقها القرآن الكريم كأدلة على صدق النبي ﷺ ودعا أهل الكتاب إلى تفهمها بتعقل وإخلاص، ليتسنى لهم بذلك المسارعة إلى الدخول في الإسلام، واتباع نبيه محمد ﷺ . وهاك البيان عنها مفصلا بعد أن سقناها مجملة:

أولا: (إقامة الأدلة- لهم ولغيرهم- على صدق محمد ﷺ)

من بين الوسائل التي استعملها القرآن الكريم لدعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ﷺ إقامة الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه. ومن بين هذه الأدلة تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. وقد جاء هذا التنبيه في قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

تفسير الآيات الكريمة

وصف الله- تعالى- رحمته بأنها:

﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

فهي في الدنيا تعم المؤمنين والكافرين، والمتقين والعاصين، وأما في الآخرة، فقد أخبر- سبحانه- أنها ستخص بمن جمع أوصافا ثلاثة:

- الوصف الأول: تقوى الله في السر والعلن.
- والثاني: إعطاء الزكاة عن سخاوة نفس لأربابها المستحقين لها.
- والثالث: الإيمان بآيات الله تعالى التي أوحى بها إلى أنبيائه ورسله فقال تعالى:

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم زاد من اتصف بهذه الأوصاف الثلاثة بيانا وتوضيحا بأنهم الذين يؤمنون بعبده ورسوله محمد ﷺ وبكتابه عن صدق وإخلاص فقال تعالى:

﴿ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾

وقد وصف- تعالى- رسوله بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به وتعزيزه وتوقيره.

- الوصف الأول: أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا.
- والوصف الثاني: أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين.
- الوصف الثالث: أنه أميٌّ ما قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله- تعالى- أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل- عليه السلام- وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادئ توضح ما أنزله عليه القرآن الكريم، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية، فأميته مع هذه العلوم التي يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحي من الله إليه.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(سورة الشورى: الآية ٥٢)

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(سورة العنكبوت: الآية ٤٨)

الوصف الرابع: أشار إليها بقوله:

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

أي: هذا الرسول النبي الأمي من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. ووجود اسمه ونعته في كتبهم من أكبر الدواعي إلى الإيمان به، وتصديقه واتباعه، ولقد كان اليهود يبشرون ببعثة النبي ﷺ قبل زمانها ويقرءون في كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله- تعالى- نبيه بالهدى ودين الحق آمن به منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى، وأما الذين استكفوا، واستكبروا، وحسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبي ﷺ فيها، أو يؤولونه تأويلا فاسدا، أو يكتمونه عن عامتهم، ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول في كتبهم أو تأويلهم السقيم له، أو كتمانه عن الأميين منهم، أبى الله- تعالى- إلا أن يتم نوره، إذ بقي في التوراة والإنجيل ما يشر بالنبي ﷺ وصرح بنعوته وصفاته بل وباسمه صريحا.

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وجمعوا عشرات النصوص التي ذكرت نعوته وصفاته، وهانحن نذكر طرفا مما قاله العلماء في هذا الشأن.

قال الإمام الماوردي في (أعلام النبوة): «وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء، بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه الله تعالى على غيبه؛

ليكون عونًا للرسول، وحثًا على القبول، فمنهم من عيّنه باسمه، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه، ومنهم من أضافه إلى بلده، ومنهم من خصه بأفعاله، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره، وقد حقق الله تعالى جميعها فيه. حتى صار جليا بعد الاحتمال، ويقينًا بعد الارتياب[1].

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء): «إن نبينا- عليه الصلاة والسلام- قد بشر به الأنبياء السابقون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفًا رفع كل احتمال، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعًا، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان في اسم، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف، لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ليبعُد صدقها على النبي ﷺ فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به، ولم يقدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم، لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها»[2].

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندي) في كتابه (إظهار الحق): «إن الأخبار الواقعة في حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن- أيضًا- مع وقوع التحريفات في هذه الكتب، ومن عرف أولا طريق أخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر. ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى- عليه السلام- جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة»[3].

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين كثيرا من البشائر التي وردت في التوراة والإنجيل خاصة بالنبي ﷺ ومبينة نعوته وصفاته.

ومن أجمع ما جاء في التوراة خاصا بالنبي ﷺ ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: (قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ) محمد رسول الله: عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله[4].

(١) الباب الثامن عشر: فصل (بشائر الأنبياء محمد ﷺ).

(٢) نقلا عن تفسير القاسمي جـ٧ ص ٢٨٧٤.

(٣) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندي.

(٤) صحيح البخاري- باب «كراهة الصخب في الأسواق» في «كتاب البيوع» جـ٣ ص٨٢.

كذلك مما يشهد بوجود صفة النبي ﷺ في التوراة، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال، (حدثني رجل من الأعراب فقال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة النبي ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشيان، فتبعتهم حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال له رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي» فقال برأسه هكذا، أي لا، فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال الرسول ﷺ: «أقيموا اليهود عن أخيكم» ثم تولى كفنه، والصلاة عليه[5].

هذا، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء في ذلك[6].

● ثم وصف الله تعالى رسوله ﷺ بصفة خامسة فقال تعالى:

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

أي: هذا الرسول النبي الأمي الذي يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف، الذي يتناول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، كما يتناول مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور، التي جاء بها الشرع الحنيف وارتاحت لها العقول السليمة، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذي يتناول الكفر والمعاصي، ومساوئ الأخلاق.

● ثم وصف الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بصفة سادسة، فقال تعالى:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾

أي: يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها، بسبب ظلمهم وقسوتهم عقوبة لهم، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله، كلحوم الإبل وألبانها، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم، ولحم الميتة، والخنزير في المأكولات، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل، في المعاملات وفي ذلك سعادتهم وفلاحهم.

● ثم وصف الله تعالى رسوله ﷺ بصفة سابعة، فقال تعالى:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

(٥) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥٦.

(٦) راجع على سبيل المثال: تفسير المنار جـ٩ ص٢٩١ وكتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي وكتاب «أدلة اليقين» للشيخ عبدالرحمن الجزيري.

الأصر: الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله، ويطلق على العهد كما فى قوله تعالى:

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾

أى: عهدى.

قال القرطبى: «وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال، كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض، ومؤاكلتها ومضاجعتها، فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه، وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره»[٧].

والأغلال: جمع غل، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد، والتعبير بوضع الأصر والأغلال عنهم استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة، فقد شبه سبحانه ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة فى العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أثقالا يئن من حملها، وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه. والمعنى: إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف، كلفهم الله بها بسبب ظلمهم؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- جاء بالتبشير والتخفيف، وبعث بالحنيفية السمحة، ومن وصاياه: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا».

قال الإمام ابن كثير: وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل، وقال: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا:

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت»[٨].

إذًا، فمن الواجب على بنى إسرائيل أن يتبعوا محمدا ﷺ الذى هذه صفاته، والذى فى اتباعه سعادتهم، فى دنياهم وآخرتهم، ولهذا ختم الله -تعالى- الآية الكريمة ببيان عاقبة المصدقين لنبيه، فقال تعالى:

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

أى: فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأمى من بنى إسرائيل وغيرهم «وعزروه» بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر

﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾

وهو القرآن، والوحى الذى جاء به، ودعا إليه الناس:

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى ﷺ بأحسن الصفات، وأكرم المناقب، وأقامت الحجة على أهل الكتاب، بما يجدونه فى كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم بأنه ما جاء إلا لهدايتهم وسعادتهم، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه، كانوا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة، فقال تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

أى: قل يامحمد لكافة البشر من عرب وعجم، إنى رسول الله إليكم جميعا، لا فرق بين نصرانى أو يهودى، وإنما رسالتى إلى الناس عامة، وقد جاء فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته.

أما فى القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

وقوله تعالى:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾

أى: وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة، من سائر الأمم، وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ﷺ وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين.

وأما فى السنة فمن ذلك ما رواه البخارى، عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[٩].

(٧) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٠.

(٨) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥٤.

(٩) صحيح البخارى (باب التيمم) جـ١ ص٨٧.

وفي صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي، ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»(١٠).

قال الإمام ابن كثير: «والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم»(١١).

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية.. فقال تعالى:

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

أي: قل -يامحمد- للناس إني رسول إليكم من الله الذي له التصرف في السموات والأرض، والذي لا معبود بحق سواه، والذي بيده الإحياء والإماتة، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره، وأن يترك ما نهى عنه، وأن يُصدَّق رسوله. ثم بني -سبحانه- على هذه النعوت الجليلة التي وصف بها نفسه، الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى:

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

أي: فآمنوا أيها الناس جميعًا، بالله الواحد الأحد، وآمنوا -أيضًا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله، وبما أنزل عليه، وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه، ووحيه، واسلكوا سبيله، واقتفوا آثاره، في كل ما يأمر به، أو ينهى عنه، رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم.

وفي وصفه ﷺ بالأمية مرة ثانية، إشارة إلى كمال علمه؛ لأنه مع عدم مطالعته للكتاب، أو مصاحبته لمعلم، فتح الله له أبواب العلم، وعلمه ما لم يكن يعلم، من سائر العلوم التي تعلمها الناس عنه، وصاروا بها أئمة العلماء، وقادة المفكرين، فأكرم بها من أمية تضاءل بجانبها علم العلماء في كل زمان ومكان.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله ﷺ بأشرف الصفات، وأقامتا أوضح الحجج وأقواها، على صدقه في نبوته، ودعتا اليهود بل الناس جميعًا- إلى الإيمان به؛ لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة، ولأنه ﷺ ما جاءهم إلا بالخير، وما نهاهم إلا عن الشر؛ ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة؛ ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون، ولأن رسالته عامة للجن والإنس، ومن كانت هذه صفاته، وتلك شريعته، جدير أن يتبع، وقمين أن يصدق ويطاع، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى، وآثر الحياة الدنيا.

«يتبع»

(١٠) صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة).
(١١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥٥.

من فتاوى الحاخامات

عنوان الفتوى: من يأخذ بمشورة زوجته مصيره جهنم.

مصدر الفتوى: www.daatemet.org.il ٧/ ١١/ ٢٠٠٥.

فتوى من الحاخام يوفال شارلو

سؤال:

يقلقني أنني في الماضي أخذت بمشورة سيدات، وكانت نصائح حكيمة ومنطقية ومفيدة، إلا أنني أعرف من الشريعة أن كل من يأخذ بمشورة امرأة مصيره جهنم، لذلك فإنني خائف وقلق، وأطلب أن تساعدوني.

موطي شرعابي

جواب:

في البداية نفسر المسألة التلمودية التي ذكرتها:

قال حاخام: كل من يأخذ بمشورة زوجته يدخل جهنم، لكن المثل الشعبي يقول: إذا تكلمت زوجتك فطأطئ رأسك واستمع لها، وهذا المثل ينطبق على الشئون المنزلية فقط، وبمعنى آخر: هذا المثل يقصد به الأمور الدنيوية، أما من يأخذ بمشورة زوجته في القضايا الدينية فيدخل جهنم (بابا متسيعا، ٥٩/ ٧١).

وقد تعامل فقهاء التلمود مع النساء، سواء على المستوى القانوني أو الثقافي، باعتبارهن كيانًا تابعًا للرجل ومساعدًا له، وقد أوضحنا بالتفصيل نظرة الشريعة إلى وضع المرأة في مقالة: «وضع المرأة في الشريعة اليهودية».

ومثال ذلك أن الحاخام شمعون ابن الحاخام يهودا هاناسي (واضع المشنا) عندما أنجب بنتًا «وليس ولدًا» شعر بالغضب، فحاول والده أن يواسيه فقال له: البنت تسارع بإنجاب الأحفاد قبل الابن، وعن كلمات المواساة تلك قال الحاخام بر كبارا: مواساة أبيك لا قيمة لها، فلا يمكن أن يعيش العالم بلا ذكور ولا إناث، ولكن طوبى لمن يرزق بالبنين، وواحسرتاه على من يرزق بالإناث (بابا بترا ١٦/ ٧٢).

وانتبه لأمور ثلاثة:

أ- يروي التلمود من واقع الحياة اليومية لحاخامات المشنا، وهي ليست ضربًا من الخرافة، بل واقعًا ينتشر في ثقافة السلف، أن ولادة البنت كانت تسبب الحزن.

ب- يستفاد من مواساة الحاخام يهودا هاناسي أن كل قيمة المرأة وميزتها هي في الخصوبة الإنجابية فقط.

ت- مقولة عامة وجامعة: «واحسرتاه على من رزق بنات».

وبالنسبة لخوفك من جهنم، فدع عنك هذا الخوف، فكما قال حاخاماتنا بعد التلمود: قال السابقون هذه الأقوال لإخافة الناس (وهذا غير حقيقي)، حتى يخافوا ويهابوا الرب -عز وجل-.

(الحاخام إيفن عزرا)

فتح مصر

وحدة الأصل



أ.د. محمد سليم العوا

تلك هى خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط فى مصر، فماذا تعنى سياسيًا من حيث النسيج والتماسك الجيوبوليتيكى والوحدة الوطنية والسياسية؟ ابتداءً، إن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبًا، أى كلما بعدنا عن مدخل الإسلام من الشمال، فهذا لا يعنى مطلقًا أن الموجة العربية الإسلامية - إذا كان لنا أن نضع الحاضر فى إطار الخلفية التاريخية - قد أزاحت الأساس «القبطى» إلى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد، وذلك كما حدث مثلاً للفرشات الأساسية فى الشام أو المغرب حيث التجأت إلى المعاقل الجبلية والمرتفعات. فالانتشار العربى كان أشبه شىء بعملية الانتشار الغشائى الأسموزى - عالمية وسارية - عملية تغلل لا زحزحة، وتخلل لا زراعة، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى بين «الفلاحين والقبط» فارقًا كالذى بين «العرب والبربر» فى المغرب.

«رأى بعض المؤلفين أن بينهما نفس الاختلافات التى بين من يدعون بالعرب وبين البربر، ولكن علم الأجناس لم يؤيد هذا الرأى، فالأقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئًا واحدًا»[١] وهكذا، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية.

والواقع أن الغريب فى هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أصلاً قيامها، ذلك لأن، وحدة الأصل بين المسلمين والأقباط ليست علميًا إلا تحصيل حاصل ومجرد بديهية أنثروبولوجية، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينها الدينى بنحو ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة على الأقل فالأساس القاعدى لأنثروبولوجيتها أسبق كما رأينا من المسيحية بأكثر من ٣٢٠٠ سنة، ومن الإسلام بأكثر من ٤٠٠٠ سنة، على أقل

(١)Chantre, op. cit. P.149, Vallois, op. cit. P.39

تقدير، أو كما يضعها حزين بكل وضوح لأن «الطابع الجنسى العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون».

وفى هذا، بالمناسبة، رد ضمنى وتوضيحى أيضًا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين، ولا شك ابتداء أن هذا صحيح[٢] وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين وليس كلهم، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية، فهؤلاء إذن لا يقلون قربًا من المصريين القدماء عن الأقباط، والأصح أيضًا أن نقول عن معظم الأقباط لا كلهم ذلك، لأن الأقباط هم أيضًا قد داخلتهم بعض مؤثرات خارجية، وإن تكن غير عربية أو إسلامية بالطبع، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية الأوروبية وغيرها.

بل إن المسلمين الذين انحدروا من الأصل المصرى الأول دون التأثر بالدم العربى هم ببساطة شديدة أضعاف أضعاف أولئك الذين تأثروا به، وهم بالتالى عشرات أضعاف الأقباط أنفسهم، وهم من ثم أيضًا ليسوا «دخلاء» على مصر فى أى معنى ولا هم أقل «مصرية» فى الأصل عن الأقباط، وإلا لكان معنى هذا أن الغالبية العظمى من المصريين «دخلاء»، وهو توهم على النقيض المطلق من الحقيقة العلمية التاريخية وانحراف منطقى على النقيض المطلق مع أوليات العقل.



العقاد

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين المصريين أو الكثير منهم اليوم إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم السابقة، ومن هنا وحده أيضًا قد نستطيع أن نتفهم، إن لم نستطع أن نتقبل، وجهة نظر البعض أو تعبيرهم حين يقولون إن المصريين إما «قبط مسلمون» وإما «قبط مسيحيون»، يقصدون أن كلمة «قبط» إنما هى تحريف أو شكل آخر لكلمة «إيجبت» أى مصر، أى مرادف لكلمة مصرى، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدًا للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين، ولكن الجوهر فيها سليم عمليًا، وهو تلك الوحدة بعينها، وعلى أية حال، فقبل أخوة الدين، والعقيدة وعوضًا عنها، هناك أخوة الوطن والعرق بين الطائفتين، فالكل مصريون قبل الأديان وبعدها، وإذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعى بين أرض مصر وفيضان النيل، فإن من الصحيح أيضًا أن ثمرته هى المصريون جميعًا، فالنيل أبوهم ومصر أمهم[٣].

ولعل العقاد كان عالمًا باحثًا قبل أن يكون

(2) Coon, p.459

(٣) نعمات فؤاد: أعيدوا كتابة التاريخ، ص٨٤.

أديبًا متحمسًا حين لخص الموقف كله في قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع «ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية؛ فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القومية، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد. فإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية. ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي وقبل بعثة موسى.....»[٤].

وبهذه المناسبة، واختتاما للمناقشة، نذكر أن كثيرًا من الأجانب خاصة الأوروبيين يدّعون القدرة على التمييز بين المسلمين والأقباط على نحو ما يفعلون مثلاً في أوروبا بين المسيحيين واليهود. غير أن من الصعب علميًا أن نفهم كيف؟! فحتى المصريون أنفسهم يعجزون، وكم تحدث من مفارقات، ليست غير محرجة أحيانًا، إذا ما هم حاولوا. والمحقق أن هذه الفكرة الشائعة هي إما من أوهام العوام وإما من أوهام الخواص. وتفسيرها العلمي هنا لا يختلف عن تفسير نظيرتها الخاصة باليهود في أوروبا. ولندع سليجمان يلخص، ويحسم، لنا الموقف كله في حالتنا نحن بألفاظه هو:

«يعتقد الأجانب غالبًا»، يقول الأنثروبولوجي الكبير: «إنهم قادرون على التمييز بمجرد النظر بين المسلمين والأقباط. ولكن لما كان التحليل الجسمي لا يشير إلى اختلاف كبير، فإن التمييز إن وجد لابد أن يكون حضاريًا أساسًا، يرجع إلى العادات والسمات التي تعتمد على طريقة الحياة. فالأقباط، وهم مسيحيون وسكان مدن في الدرجة الأولى، هم بصفة خاصة من الكتبة وأصحاب المحلات، في حين أن الأغلبية العظمى من الفلاحين هم من المزارعين، فلعل أثر العادات السائدة والتابعة لكليهما قد أحدث إذن فارقًا ملحوظًا، وصحيح أن فروقًا طفيفة في مظهر الوجه قد وصفت، فللأقباط عيون وبشرة أفتح لونا وأنف أضيق قليلاً، ولكن بالرغم من ذلك فإن من المشكوك فيه ما إذا كان التشخيص بالنظر بين القبطي والمسلم ليس برمته سوى مسألة عوامل مثل المشية والملبس»[٥].

ولنا على نقطة اللون والأنف التي يشير إليها سليجمان هامش تفسيري. فإذا كان لا خلاف على أن هذا الفارق بيئي أساسًا، ومهني بالتحديد، حيث لا يرتبط الأقباط كثيرا بالزراعة والعمل في الخلاء وبالتالي لا يتعرضون للشمس كالفلاح المسلم. فإن لنا مع ذلك أن نضيف أن لون البشرة ومعه سائر الصفات الجسمية المرتبطة به كالشعر والعين تتفاوت بين الأقباط مثلما تفعل بين المسلمين ما بين الشمال والجنوب أو في

(٤) سعد زغلول، القاهرة ١٩٢٦، ص٢٥ وما بعدها.

(5)Races of Arfica, P. 108-9.

المنطقة الواحدة. وعلى سبيل المثال فإن كثيرا من الأقباط هم أشد سمرة من كثير من المسلمين، خاصة منهم أهل الجنوب الأقصى مثل قنا وأسوان، حتى إن بعض من يعمل منهم كبوابين مثلا في العاصمة لا يكادون يختلفون في مظهرهم عن البواب النوبي التقليدي.

هذا على الجانب الجسدي البحت، ولكن حتى على الجانب الحضاري يصعب أن تجد كذلك فارقًا محسوسا ذا بال بين الطائفتين، حتى كرومر نفسه عرف هذا واعترف به فـ«القبطي» كتب هو - في مصر الحديثة - «هو من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، في السلوك واللغة والروح، مسلم وإن لم يدر كيف. فالقبطيات تتشبهن بالمسلمات، والأطفال تكيفوا بصفة عامة، وعادات الزواج والجنائز تشبه ما عند المسلمين»[٦]. ورغم أن كرومر يرد هذا التشابه إلى قانون تأثر الأقلية بالأغلبية وتقليدها لها على نحو ما كان في الهند بين الهندوس والمسلمين، إلا أن أثر البيئة والحضارة والحياة المشتركة لا يمكن تجاهله.

التداخل السكني

وليس أقل خطأ بعد هذا من تلك المحاولات السطحية عند بعض الكتاب الغربيين لتصوير أو تصور «نطاق قبطي» في الصعيد الأوسط حاليًا[٧] وإذا كان هناك تركز مؤكد في هذا القطاع، فهو ليس نطاقًا إلا على المستوى القبطي نفسه، بمعنى أنه


كرومر

قمة تجمع الأقباط في هيكل توزيعهم العام، ولكنه ليس نطاقا قبطيا على المستوى الوطني، بمعنى أنه لا يشكل أغلبية محلية أو إقليمية على الإطلاق في جسم الوطن، فأقصى كثافة لا تعدو خمس السكان، أي يظل أقلية موضوعية بين أربعة أخماس من الأغلبية.

لا، ولا كانت مدينة الفيوم في القرن الماضي ولا مدينة أسيوط في الوقت الحالي[٨] «عاصمة» للأقباط إلا في المعنى المجازي جدا، وعلى أية حال، فإذا كان للأقباط في مصر عاصمة حقيقية فهي العاصمة الوطنية القاهرة، عاصمة الجميع فلعل فيها وحدها الآن أكثر من ربع أقباط مصر جميعا، أي أكبر تجمع منفرد لهم في أي منطقة من القطر، وفي هذا الصدد ربما جاز أن نقول أن حي شبرا بالذات، حيث تحتشد أكبر نسبة من أقباط العاصمة، هو بدوره «عاصمة الأقباط في العاصمة».

فيما عدا هذا، فرغم أن نسبتهم ترتفع بين السكان محليا، فإنهم لا يمثلون الأغلبية في أي مساحة على أي مستوى، فليس ثمة تركزات أو توطنات محلية. وإنما الكل منبثون في تضاعيف وخلايا الجسم الكبير كجزء لا يتجزأ ولا يتميز، والقرى التي تخلو من الأقباط تماما في مصر نادرة

(6)Modern Egypt, p. 158.
(7) Bdnjamin E. Thomas in: world geography. ed. freeman & morris, 1958, p. 409.
(8) Chantre p. 153. stamp. Africa. p. 203

للغاية، وأندر منها جداً تلك التى يمثلون فيها الأغلبية النسبية، بينما لا تعرف مصر قرية ينفردون بها تماماً مثلما تعرف مناطق مختلفة فى الشام مثلاً، وكثير من الحالات التى توصف فى بعض المراجع بأنها مدينة أو قرية «قبطية» يتضح من الأرقام الدقيقة أن هذه الصفة المطلقة إن هى إلا من قبيل التبسيط الشديد على الأقل. فمثلاً يذكر لوران «نقادة» ـ وهى بالصدفة من أعلى نسب الأقباط فى أى مدينة صغيرة بمصر ـ على أنها مدينة «قبطية»[9]، بينما تصل النسبة الإحصائية إلى الثلثين بالتحديد.

ولعل من المفيد هنا أن نتوقف عند بعض الأمثلة والعينات والحالات الخاصة إلى الشمال من المنيا، وعلى الأخص فى الدلتا، يندر أن تتجاوز نسبة الأقباط فى الحالات المختلفة، مدناً كانت أو قرى حوالى ٥٪ كسقف أعلى، أما جنوب ذلك، وبالأخص ابتداء من أسيوط، فيمكن أن ترتفع النسبة فى بعض المدن المتوسطة الحجم إلى الربع أو الثلث، ولكنها تقل عن ذلك كلما كان حجم المدينة أكبر أصلاً، ولا تتجاوزها إلا فى المدن الصغيرة نسبياً، فالنسبة مثلاً نحو الربع فى كل من مدينتى أخميم وجرجا، ولا تزيد على الثلث فى الأقصر، بينما ترتفع إلى الثلثين فى نقادة الصغيرة كما رأينا، وإلى أكثر من ذلك فى بوش «بنى سويف» وتزلة عبيد «المنيا».

هناك بعد هذا مجموعة من الحالات الصغرى تحمل من أسماء الأماكن كلمة «دير» وتقتصر على الصعيد دون الدلتا، وهذه التسمية تشتق من أصولها التاريخية الغابرة حين بدأت بالفعل كأديرة، ولكنها لم تلبث بالتدريج أن تحولت إلى حلات سكنية عادية عامة، وهى من وجهة جغرافية السكن تقابل الحلات التى تبدأ بمقطع «زاوية» أو «مسجد» عند المسلمين والتى تتناثر بالعشرات وربما بالمئات فى كل أنحاء الريف المصرى بلا تمييز أو تحديد جغرافى. ولهذا فليس كل مكان يحمل اليوم اسم دير يعنى أديرة دينية بالطبع، فهذه هى الأقلية المعدودة، بينما تظل الأغلبية العظمى حلات سكنية لا وليست كل حلة سكنية منها تدل اليوم بالضرورة على أغلبية قبطية.

ترجع أصول هذه المجموعة فى الغالب إلى أيام الالتجاء إلى حواف الصحراء من الاضطهاد الرومانى للمسيحية، من هنا فإن نواتها فى الأعم الأغلب بدأت بالسكنى الدينية، ثم تحولت بمرور الزمن إلى سكنى مدنية عادية للأهالى عامة، ولكن بطبيعة الحال للأقباط خاصة، ومن ثم قد يغلبون عليها بدرجة أو بأخرى، غير أن أحجامها بالضرورة محدودة للغاية، بضعة آلاف أو مئات تتألف من عدة عائلات تعيش فى كنف الدير، وحيث تقترب هذه الحلات من المدن الكبرى فإنها تفقد بالضرورة انفصالها وتندغم فى نسيجها العمرانى المترامى، وإن لم تفقد بالضرورة تركز الأقباط بها بدرجة أو بأخرى. مثال ذلك دير الطين ودير الجوابر فى مصر القديمة جنوب

(9) P.47.

مجمع القاهرة، ودير الملاك فى شماله الشرقى.

وفيما عدا ذلك فإن الأصل الدينى القديم يفسر انتخاب كثير منها لحواف الصحراء حيث كانت تنشد العزلة والحماية، فنجدها اليوم إما على أقصى أطراف الأرض الزراعية فى الضفة الغربية من الصعيد، وإما فى فراغ الضفة الشرقية اللامعمور أو قرب جيوبها الزراعية الصغيرة، كذلك فإن بعضها يبدو فى عمارته أقرب إلى الحصون منه إلى الأديرة.

والمجموعة تبلغ نحو العشرين حلة، أغلبها فى أسيوط وسوهاج وبعضها فى بنى سويف والمنيا، وأقلها ما هو اليوم دير حقيقى (+) كما يوضح الجدول الآتى:

بنى سويف

دير الميمون
عزبة دير الحديد
دير الأنبا أنطوان (+)

المنيا

دير سمالوط
دير جبل الطير (أو دير البقرة) (+)
دير أبو حنس
دير البرشا
دير مواس

أسيوط

رزقة دير المحرق
دير درنكة
دير الجنادلة
دير القصير
دير الجبراوى
دير بصرة
دير تاس

سوهاج

نجع دير الملاقطة
نجع الدير
دير مار جرجس
دير الحديد (+)
دير الملاك
الدير الأبيض (دير الأنبا شنودة) (+)
الدير الأحمر (دير الأنبا بشوى) (+)

قنا

الدير

فيما عدا هذه الحالات الخاصة المحدودة يتوزع السكان الأقباط حيثما توزع السكان المسلمون بلا حدود أو تمييز، حتى أسماء الأماكن يندر أن تحمل دلالة دينية. فما أقل القرى والنواحى أمثال كودية الإسلام وكودية النصارى (أسيوط) أو نزلة النصارى وبياض النصارى (بنى سويف) أو أشنين النصارى (مغاغة) أو غيط النصارى (دمياط) أو عزبة الأقباط (سوهاج)، فهذه وأمثالها أقل من القليل على الخريطة، ولها عادة أصول خاصة فى التاريخ، ولذا لا يقاس عليها.

كذلك فى داخل القرى والمدن لا نكاد نعرف تجمعات أو تركزات طائفية سكنية خاصة أو بارزة بل السكن مختلط مشاع، وكثيراً ما تتداخل المساجد والكنائس فى اللاندسكيب المدنى، وقد تتجاور، أما

ظاهرة «الحصة»، «حصة الأقباط» أو «الدرب»، «درب النصارى»، فاستثناء بل شذوذ محلى نادر، وظاهرة تاريخية عند ذلك - معنى هذا - بعيداً تماماً عن أى عزل سكنى - هو التعايش والتداخل الجغرافى على كل المستويات، تماماً كالتداخل والتشابك الاقتصادى والمهنى حيث لا يختص الأقباط بحرف معينة بذاتها وإن كانت نسبة الزراعة بينهم أقل توغلاً والمهن الحرة أعلى توغلاً.

التماسك السياسى

نصل من هذا كله إلى أن ثنائية «المسلمين ـ الأقباط» فى مصر لا تتعارض مع الوحدة الوطنية، بل الدينية، ولا هى تنسخها، فبالأصل الأنثولوجى، كما بالوضع الاجتماعى، كما بالتوزيع السكنى، يعد الأقباط من صميم الكيان المصرى الكبير، وكتلة رصينة رصيفة من جسم الأمة شديدة التماسك فيه والالتحام به، وقد تبدى ذلك سياسياً حتى فى العصور الوسطى، فضلاً عن العصر الحديث فى العصور الوسطى، ربما فرضت بعض حالات فردية عابرة من التمييز فى الملبس والمظهر وما أشبه، مثلما وقعت بعض حوادث مؤسفة انتقامية نتيجة انفلات الأعصاب أثناء الحملات والغارات الصليبية على بعض المدن المصرية، لكن هذا كله لم يكن إلا الشذوذ النادر، وذلك أيضاً فى فترة كانت ما تزال مرحلة انتقال وتحول إلى الإسلام[١٠] وفيما عدا ذلك فإن صلابة الوحدة الوطنية إبان الصليبيات هى مضرب المثل بشهادة المستشرقين أنفسهم.

أما فى العصر الحديث، فالثابت المسجل أنه لم يقع لا أثناء الحملة الفرنسية ولا أثناء الثورة العرابية - بشهادة النديم - أية صدامات أو انفعالات، دعك من ثورة ١٩١٩ التى كانت نموذج الوحدة الوطنية، وبصورة عامة فإن مصر الحديثة لم تعرف التعصب الدينى أو التفرقة الطائفية، ولا كان وضع الأقباط فى يوم غير مريح قط، أما كل ما قيل بعكس ذلك فهو عادة من ترويج المغرضين من أعداء مصر، خاصة الاستعمار «الذى ـ بالمناسبة ـ لم ينفك حتى اليوم يشكك حتى فى صحة أرقام تعدادهم الرسمية المعلنة ونسبتهم الاحصائية من مجموع السكان، ويروج من تزييفه أرقاماً مضخمة قد تبلغ أحياناً ثلاثة أو أربعة أمثال الحقيقة».

ومن الثابت المقرر، مثلاً، أن الأقباط كانوا دائماً يتمتعون بمستوى اقتصادى ومستوى معيشة أعلى عموماً من متوسط الشعب ككل، وكمؤشر واحد إلى هذه الحقيقة، يذكر تقرير المؤتمر القبطى فى أوائل هذا القرن أن الأقباط كانوا يدفعون ١٦٪ من ضريبة الأراضى، رغم أن نسبتهم من السكان ٦٪ فقط[١١]، كذلك فإنهم إلى وقت قريب كانوا يشغلون فى وظائف الإدارة نسبة أكبر وأقوى بكثير من نسبتهم العددية، مثلما انتقلوا بعد ذلك إلى وضع مماثل فى المهن الحرة العالية، فضلاً عن ارتفاع نسبة التعليم

(١٠) عباس حلمى إسماعيل، «التسامح مع أهل الذمة فى عهد الدولة الأيوبية»، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية، ديسمبر ١٩٦٤، ص٥١، ٧٦.

(11) Issawi. p.34.

وانخفاض نسبة الأمية بينهم بالقياس إلى المستوى الوطنى العام[١٢].

ويمكن لأى عابر سبيل فى مصر أن يطالع هذا كله مختزلاً ببلاغة ومنعكساً عملياً فى اللاندسكيب المدنى، حيث تبرز أبراج الكنائس العديدة بكثافة أعلى بكثير من كثافة السكان الأقباط نفسها إلى حد أنه ـ كما يفعل بعض الزوار الأجانب ـ لو اتخذ كثافة الكنائس المرئية مقياساً لكثافة الأقباط غير المرئية لخرج بنسبة بعيدة جداً عن الحقيقة وبعدد هو أضعاف الواقع تماماً، أحياناً ما اتخذه الاستعمار دليلاً مزعوماً على أرقامه المضخمة المكذوبة عن عددهم كأقلية، غير أن هذا كله ومثله إنما يدل على مستوى أعلى من الثراء والدخل، ولهذا فإذا كان هناك حقاً تمييز، فهو بالتمييز لا بالتحيز وبالموجب لا بالسالب، وهذا فى الواقع قانون عام شبه عالمى، إذ من المعروف أن الأقليات عادة تظفر بمزايا عديدة قد لا تتمتع بها الأغلبية أحياناً[١٣].

من هنا جميعاً فلقد فشلت كل محاولات الاستعمار الحديث ابتداء من الحملة الفرنسية إلى الاحتلال البريطانى (هل نضيف الصهيونية الإسرائيلية؟) فى خلق مشكلة الطائفية أو مشكلة الأقليات ليضرب بها الوحدة الوطنية، فمن الثابت المحقق، بل والمعترف به الآن رسمياً، أن الاستعمار فى استراتيجيته التقليدية «فرق تسد» كان يلعب فى مصر دائماً لعبة ثنائية مزدوجة محورها ثنائية الدين، فيضارب كلا من الطائفتين بالأخرى ويوغر ويؤلب كلتيهما سراً ضد الأخرى، موهماً إياها بأخطار ومخططات خيالية تبيتها نحوها، مدعياً فى ذلك كل الانحياز إليها والتعاطف معها وأن موقفه أقرب إليها منه إلى الأخرى إما بحكم ديانته أو بحكم موقعه، بحسب الحالة.

غير أن موقف الأقباط فى وجه هذه الاستراتيجية كان دوراً إيجابياً بناء للغاية فقد رفضوا كل مناورات وإغراءات ودسائس الاحتلال البريطانى لاحتضانهم وفرض حمايته المزعومة عليهم على غرار ما كانت تفعل القوى العظمى من بسط نوع من الحماية والرعاية التقليدية كل منها على إحدى الأقليات الدينية فى الشام مثلاً، وهى نفسها تلك الحماية التى تذرع بها - من بين ما تذرع - لفرض الحماية على مصر نفسها والتى تشبث بها فى التحفظات الأربعة بعد إلغاء الحماية[١٤].

ومن قبل ومن بعد رفض الأقباط مع المسلمين لعبة تحويل ثنائية المسلمين ـ الأقباط إلى ثنائية تركيا الخلافة ـ بريطانيا الاستعمار، وإذا كان بعض المسلمين قد والى الأتراك فى تلك اللعبة، وكان بعض الأقباط قد والى الإنجليز، فلم يكن ذلك عن خيانة بل عن جهالة، ولا عن نقص فى الوطنية ولكن عن نقص فى التفكير «وما منع الإسلام تركيا، ولا المسيحية انجلترا، أن

(12) id, p. 161.

(13) E.E. Berel, Urban sociology, Mc Graw - Hill, 1955, p. 274 ff.

(14) W . B . Fisher, the middle East, p. 104 - 5.

تظلم مصر كلها باستعمارها، ثم باستغلالها، وتعويقها وقهرها»[15] وقد انعكس رد مصر على تلك اللعبة السياسية المزدوجة بصورة رائعة في ثورة ١٩١٩ على الاستعمار حين «تعانق الهلال والصليب» تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع» وفيما بعد في الفترة الأخيرة، وعلى عكس دعاوى الاستعمار، لم يكن الأقباط أقل تحمسًا من سائر المصريين لفكرة القومية العربية ودولة الوحدة العربية، كما ساهموا مساهمة مشرفة في حروب التحرير وفي صنع أكتوبر سواء في الميدان أو في الجبهة الخلفية.

هذا، وإذا كان قد وقع خلال تلك المراحل النضالية كلها بعض «أحداث مؤسفة»، فهي حالات فردية بحتة وثانوية للغاية لا تنفي القاعدة العامة بقدر ما تؤكدها، كما أن أغلبها ينبع لا من سوء النية ولكن من سوء المعرفة إن لم يكن الجهل المخجل حقًا، من ذلك مثلاً صيحة بعضهم العصبية المقلوتة بعد هزيمة يونيو «فليعودوا إلى صحراء العرب التي أتوا منها!» يقصدون المسلمين - وهي دعوة مترتبة منطقيًا على دعوى أن المسلمين «دخلاء» في مصر، تلك الدعوى التي لسنا بحاجة إلى أن نكرر فسادها وخطأها إلى حد يثير الشفقة أكثر مما يثير السخرية، والذي يدعو إلى السخرية في هذه الصيحة الجهول أنها دعوة إلى طرد الأغلبية العظمى والسواد الأعظم من المصريين أبناء مصر الأصلاء.

والغريب بعد هذا أنها تذكر - مع الفارق الهائل - بصيحة الأب سييس الشهيرة في فرنسا إبان الثورة «أعيدوهم إلى مستنقعاتهم الجرمانية التي أتوا منها!»[16] - يقصد طبقة النبلاء والأرستقراطية، الذين هم بالفعل غزاة ومهاجرون معًا في الأصل - ولكن يبدو أنه في الأزمات القومية حين يصبح «الوطن في خطر» أو في مراحل الانحطاط السياسي تنفلت الانفعالات وقد تختلط الأمور والحقائق إلى حد التشويش والاضطراب الفكرى.

ولا شك أن هذا الوضع بلغ، بل تجاوز قمته الدرامية والمأساوية في أحداث أواخر السبعينيات حتى ١٩٨١ فلأول مرة في تاريخ مصر السياسي والوطني الحديث وربما القديم كله وباعتراف الدولة الرسمي علنا للأسف، وصلت المشكلة الطائفية في مصر إلى حد الانفصالية السياسية السافرة، حيث طالبت علنا بدولة قبطية مستقلة داخل مصر وعن مصر، وبغض النظر عن دوافع الدعوة المزعومة من اضطهاد وقهر موهوم أو صدامات عاصفة أو مشاكل متراكمة مكبوتة، فليس من شك أن هذه الدعوة الانفصالية إلى دولة أقلية دينية في الداخل لا أصل لها من الدين ولا العلم لا من التاريخ ولا من الجغرافيا، بل لا من العقل، ولا من المنطق، فمصر لم تنقسم قط داخليًا ولا عرفت التقسيم ولا هي قابلة للقسمة تحت أية ظروف أو ضغوط.

لذا كان حتمًا أن تسقط الدعوة المنحرفة وأن تمنى بالعجز والفشل، بحيث لو عدت الدعوة الانفصالية خيانة وطنية لوجب أن تعد انعكاسًا لما هو أعظم وتصغيرًا لما هو أكبر وقرعًا لما هو أصل - وعلى أية حال - فإن كلتا الظاهرتين أو المظاهرتين، على هولها وبشاعتها كوصمة دامغة وسبة أبدية في سجل التاريخ، لا تعدو في تاريخ مصر العريض العريق أكثر من جملة اعتراضية، وزوبعة في فنجان وانحرافة ضد حركة التاريخ لا يلبث تياره أن يكسحها إلى بالوعته حيث يطويها إلى الأبد.

فيما عدا هذا الاستثناء الوحيد إذن، بل هذا الشذوذ البحت، الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها، فإن مثل تلك الحوادث والأحداث الطائفية العابرة مهما كانت مؤسفة تبقى في النهاية مسألة عائلية بحتة بلا جدال، مسألة - خلافات عائلية - كتلك التي تقوم وتنفجر داخل كل من الجانبين ذاته وحتى عند ذلك فلربما كان لها أيضًا على علاتها بعض الفضل، كالبثور على سطح الجلد، في نزح وتصريف المستنقعات الفكرية الضحلة الآسنة والمفاهيم الخاطئة المنحرفة، الموروثة أو المكتسبة، التي عششت بعض الوقت في عقول البعض من الجانبين.

وأخيرًا فلعلها آخر بقايا عصور التخلف التي تذوب الآن بسرعة في بوتقة التقدم والتقدمية، وقد آن لكل هذه الخرافات الوطنية أن تنقرض إلى الأبد وكما يلخص شارل عيسوى «لقد ربت السنوات الثلاثون الأخيرة من الحرية والتسامح جيلاً من الشبان الذين لا يبدون شيئا من رذائل الاضطهاد، الذين تعاونوا مع المسلمين في النضالات السياسية والاجتماعية في روح من المساواة التامة والاحترام المتبادل، والذين هم مهيأون جيدًا للوصول إلى تفاهم أعمق وأبقى بين كلتا الطائفتين»[17].

وبالفعل فلقد أثبتت التجارب السياسية الأخيرة أنه إذا كانت الأزمات الوطنية «اختبار أحماض» قاسيًا للوحدة الوطنية، فإنها أيضًا اختبار صحي مفيد ودرس عملي فيها، بينما أثبت الأقباط فيها أنهم إذا كانوا لا يزيدون على معظم المسلمين - مصرية - بالأصل الأنثرولوجي، فإنهم لا يقلون عنهم - مصرية - بالحس الوطني وإذ كان ثمة شيء، فلقد خرجت الوحدة الدينية ومعها الوحدة الوطنية من هذه التجارب القاسية أو الأحداث المؤسفة وهي أكثر صلابة ونقاوة منها في أي وقت مضى، كالمعدن تخلص من شوائبه بعد نار الصهر وسندان الطرق، ومصر - نحن نخلص - ليس لها مشكلة طائفية ولا عانت مشكلة أقليات، إلا أن تكون من صنع أو وهم الاستعمار أو من إفرازات عصور الانهيار والانحطاط السياسي، وتظل مصر رمزًا للوحدة الدينية مثلما تخرج علما على الوحدة الوطنية.

(١٥) أعيدوا كتابة التاريخ، ٨٣.

(16) Ripley. p. 157.

(17) P. 162.

الاستعمار التشريعى فى بلادنا



الشيخ محمد الغزالى

أقول فى البداية، بأننى كمسلم أقف دون شك فى صف المطالبين بتطبيق الشريعة، لا فقط لأن ذلك يحقق مصلحة لأمتنا، بل أيضا لأننا كمسلمين مأمورون من قبل الله تعالى. ولا يمكن أن يجرى التعامل مع التعاليم الإلهية حسب أهواء الناس، فينفذ بعضها ويترك البعض الآخر - بهذا المعنى هنالك موقف إسلامى مبنى على الايمان وعلى شمولية النظرة للعالم وللكون، فلا يمكن انتقاء جانب من تعاليم الله دون الجانب الآخر. ففى القرآن:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾

ونحن ملزمون بتطبيق هذه الأوامر. ولكننى سأشرح وجهة نظرى فيما بعد حول الفرق بين الاعتقادات والعبادات والمعاملات.

إن شبكة التعاليم الإسلامية التى ترعى شئون الناس تحتاج إلى توضيح وتمييز بين جوانبها المتعددة، بمعنى أن الإسلام قصد من القوانين التى وضعها أن يصون دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، وهذا ما نفهمه بمقاصد الشريعة. وهذه الصيانة تتطلب أمرين:

الأول: هو أمر عقائدى وأخلاقى، أى إنبعاث الإنسان من داخل نفسه لحماية حقوق الآخرين والمحافظة على حرماتهم ولإتخاذ موقف مبنى على الإيمان والأخلاق إزاء الناس والمجتمع والبيئة. فحقوق الناس مصونة ومقدسة فى الإسلام وكذلك يجب أن تكون فى دخيلة كل مسلم مؤمن. وقد جاء فى الحديث، إن النبى ﷺ نظر إلى الكعبة

وقال: «ما أطيبك وأطيب ريحكم وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند كل منك، حرمة دمه وماله وعرضه»، أى إن حقوق الإنسان قداسة لا يجوز أن تنتهك. وتجلى هذا الموقف فى تعريف الرسول ﷺ للمسلم والمؤمن، فالمسلم هو من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأعراضهم.

لكن هذه التعاليم، على وضوحها، لا يمكن وحدها أن تحفظ العدل والنظام فى مجتمع ما، لذلك وجدت ضرورة تعزيزها بعقوبات رادعة، تردع المجرم الذى ينفلت من الإلتزام العقيدى والإيمانى ليتبع هواه ونزعاته ويؤذى الآخرين والمجتمع، وهذا ما نسميه بالأمر الثانى الذى تتطلبه صيانة حقوق الناس ونظام المجتمع الإسلامى، ففرض العقوبة يجعل المقبل على الإجرام يشعر بالرهبة من القصاص والحد والجزاء.

وقد وضع الإسلام حدوداً دقيقة لهذا الأمر، فأمر بالقصاص فى حالة انتهاك ما هو من حقوق الناس، ووضع حدودا فيما هو مختلط بين حقوق الله وحقوق الناس ولكن حق الله أظهر.. وهذا هو الفارق بين القصاص والحد، فالقصاص مصلحة البشر فيه أظهر بينما الحدود حق الله فيها أكثر.

طبعا لا يوجد مجتمع متحضر دون نظام قانونى للعقاب، ولكن هنالك فرق واضح بين الشريعة والقانون الوضعى المقتبس من شرائع أجنبية فى هذا المجال.

فالشريعة ترى الخمر محرماً، وينطلق هذا الموقف أساساً من ضرورة حماية العقل البشرى من التخدير والتغييب وما ينتج عن ذلك من شطط. فحماية البشر من الخمر والمخدرات من حقوق الله وهنالك حد الخمر الذى فرضته الشريعة. أما القانون الوضعى فيعاقب فقط فى حالة عربدة السكير فى الشارع وإزعاجه للناس مثلا، أو عندما يقدم السكير على جرم آخر وهو فى حالة السكر. بينما الشريعة الإسلامية ترفض السكر وتمنعه صيانة لعقل البشر. وكذلك الموقف من الزنا فالإسلام يحرمه حماية لأعراض الناس وحفظًا للمجتمع. بينما القوانين الوضعية السائدة فى بلادنا والمنقولة أساسًا من القانون الفرنسى تبيح الزنا فى الواقع، فهى لا تعتبره جريمة إذا وقع برضى الطرفين وإرادتهما، وتنتفى الإرادة فى حالة الاغتصاب وفى حالة القاصر حيث لا يعتبر صاحب إرادة حرة ونحن نرى الخلاف واضحًا بين الشريعة والقانون الوضعى هنا ولا يمكن التوفيق بينهما.

وقد أوصل الموقف الوضعى المجتمعات الغربية إلى درجة الإباحة التامة، لا للزنا فقط، بل حتى وصل الأمر لإصدار قوانين تبيح اللواط.

وهنالك أمر آخر يفصل الشريعة عن القانون الوضعى فى قضية الزنا. فزنا الزوجة لا يهم المجتمع إذا لم يقدم الزوج شكوى بذلك، بل لا يحق للأب أو الأخ أن يتدخلوا فى الأمر. وإن موقف القضاء من الزوجة المتلبسة بجريمة الزنا يعتمد

على موقف الزوج، يعفى عنها أم لا، أى لا دخل للمجتمع والقيم السائدة فيه.

أما القتل فقد حرمه الإسلام، وعقوبة القتل العمد هى القصاص إلا إذا عفى ولى الدم. وهنالك بعض الناس من أهل الخير يحاولون فى هذه الحالة إقناع ولى الدم بالعفو وقبول الدية. فإذا قبل وعفى، يسقط القصاص، ويبقى حق الدولة التى تقوم بتعزير المجرم. والواقع أن عقوبة القصاص وحد الزنا لعبا دورا كبيراً فى الردع وفى تقليل عدد الجرائم فى المجتمعات الإسلامية بينما أدى التساهل بشأن هذه الجرائم فى ظل القانون الوضعى والاستعمار التشريعى إلى ازدياد لا مثيل له فى نسبة الجريمة. فمن النظرة الأولى يبدو موقف الشريعة قاسيا وحازما وأقرب لفكرة العقاب.. بينما النظرة المتمعنة تبين بأن هذا الموقف فى الواقع هو أقرب للرحمة بالناس والمجتمع بل وحتى بالإنسان النازع نحو الجريمة.

ولا ننسى أن غياب القصاص الإسلامى، وسع حالات الأخذ بالثأر فأدى ذلك إلى ازدياد حجم الجريمة بشكل عام.

إن الحد من نسبة الجرائم بل والوصول إلى مجتمع فاضل تنتفى فيه الجريمة أو تكاد هو هدف المسلمين على المدى الطويل. ولكن تحقيق مثل هذا المجتمع هو أمر يتطلب إقامة العدل بين الناس لتنتفى أسباب الجرائم، ويتطلب أيضا مزيداً من التوعية وبث القيم النبيلة فى النفوس.

ولكن ما دامت الجريمة موجودة، فلابد من القصاص والعقاب.. ولكم فى القصاص حياة.

إننى عموما مع تطبيق القصاص والحدود. ولكن يجب أن نتفحص موقف الإسلام من الحدود، فالشارع درأها بالشبهات أولا، ثم جعلها فى أضيق نطاق. فحد الزنا ظل حداً رادعاً يساهم فى منع الجريمة، بينما كانت نادرة تلك الحالات التى طبق فيها الحد فعلا، بسبب ما وضع من شروط ومستلزمات لذلك التطبيق. فعندما جاء رجل إلى الرسول ﷺ معترفا بارتكابه الزنا وطالبا توقيع الحد به، أعرض عنه الرسول، ثم طبق عليه الحد بعد إصرار الرجل. ولكن الرسول لم يسأل عن شريكته فى الجريمة وسكت عنها معتبراً الإقرار حجة قاصرة على صاحبها.. فالرجل، كما يقول ابن تيمية، أبى أن تغسله التوبة الشخصية فهو لو تاب واكتفى لكان ذلك مطهراً له، لكنه أبى إلا أن يقتل فى الدنيا.

ولنأت إلى موقف القضاء أو الحاكم، وكيف يكون الأمر عندما يمثل أمام القضاء رجل ثبتت عليه الجريمة. حسب ابن تيمية وابن القيم وما أفهمه أنا من السنن، أستطيع أن أقول بأن القاضى يستطيع وقف التنفيذ فى السابقة الأولى. فلو سرق تلميذ أو شاب، وكانت سرقته الأولى أو عثرة قدم زلت بصاحبها، فإذا وجده القاضى متألما لذلك ونادما أو شاعراً بالخجل، له أن يوقف العقوبة، ويستتيبه ويقبل توبته، وله أن يعزره بالكلام أو بالجلد أو السجن، حسبما يرى. ولكن إذا عاد للجريمة مرة أو مرات

أخرى، تقطع يده.

يبدو هذا الحكم قاسيا، ولكن هل حكم السجن لسنين عديدة هو أرحم من ذلك وأكثر صونا للمجتمع؟ الأيادى ثلاث: يد عاملة من حقها أن تكافأ، ويد عاطلة من حقها أن تعمل وتنتج، ويد فاسدة ثبت فساد صاحبها فى أكثر من جريمة. أفلا نحمى الناس منها؟! إننى أرى أن متعود الإجرام يجب أن ينفذ فيه الحد. طبعا للمجتمع أن يتدخل ويحدد من هو متعود الإجرام.

هنالك حديث كثير عن كون الحدود الإسلامية منافية للحضارة الحديثة. مالى وللحضارة الحديثة؟! وماذا أفعل بناس يشعرون تجاهها بعقدة نقص، فيتركون شريعتهم ليقبلوا استعمارها التشريعى والثقافى. إن الحضارة الغربية المعاصرة حققت تقدما فى مجالات العلم والتكنولوجيا، ولكن ما علاقة هذا التقدم بالتشريع الذى يحكم المجتمعات؟ ولماذا يصبح التعلم من إنجازات الغرب التقنية مرتبطاً باقتباس شرائعه وقيمه وأنماط حياته، لماذا لا يمكننا التمسك بديننا وشريعتنا وثقافتنا مع أخذنا بنتاجات التقدم العصرى فى الدوائر الحضارية الأخرى. إن اليابان حققت تقدما تقنيا هائلا مع تمسك غالبية أهلها بدين خرافى.

إن الاستعمار التشريعى نتاج تطور متعدد الجوانب لدائرة حضارية أخرى، وهذا التطور لم ينسجم حتى مع تعاليم المسيحية، وأقول هذا لأذكر من يعتقدون بأن النظام التشريعى الغربى له أصول مسيحية. فالواقع إن الغرب الأوروبى تنكر للمسيحية الحقة فأصبح ينطبق عليه قول على بن أبى طالب (رضى الله عنه) عن نصارى تغلب: لا يعرفون من النصرانية سوى شرب الخمر!. لقد استخدم الغرب الهاجم المسيحية فى بعض معاركه الخارجية وكأداة تبشيرية رافقت الحملات الاستعمارية وسياسات التتبيع المعاصرة.

لماذا يصر البعض منا على التمسك بمعايير الغير، والحرص على أن يرضى عنا الرأى العام الأوروبى، الرأى العام الذى لا يأخذ مرة فى الحسبان ما نقوله نحن عنه أو نعتقده، بل ولا يحترم أقدس مقدساتنا. لماذا لا تكون معاييرنا نابعة من قيمنا وتراثنا وديننا، ومن مصالح أمتنا بالدرجة الأولى؟

إن العمل من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية يبدأ بالتحرر من نير العبودية الحضارية والاستعمار التشريعى، والوقوف مرة أخرى على أرضية التشريع الإسلامى. وهنا بالضبط تبدأ معركة أخرى، وهى التى تعنينى أكثر من غيرها، أى معركتنا مع العقل الإسلامى الراهن. من يطبق الشريعة، من يفتى، من يعمل فى مجال الفقه المعاصر، من يسن القوانين المستمدة من الشريعة، أى نظام وأى تطبيق؟؟ هذه كلها أسئلة تشغل بالى، وأنا أعرف حق المعرفة بأن معركتنا داخل مجتمعنا ومع أنفسنا ليست معركة سهلة ولا تنتهى بإقرار عام بضرورة تطبيق

الشريعة.

هل العقل الإسلامي المعاصر هو سليم أم مختل؟ في رأيي أن العقل الإسلامي، ومنذ قرون، به خلل ظاهر وخطير، ولابد من علاج هذا الخلل. وقد كتبت في هذا الأمر كتابي: سر تخلف العرب والمسلمين. ولنأت إلى بعض التجليات الفاضحة هذا الخلل. فقط على سبيل المثال:

أولا: الناحية الدستورية

لماذا أصبح الإسلام مرادفًا للماضي، لشئ إسمه «التراث»؟ لماذا يحجم ويجعل سجينا في أسرته الأولى وعهود نشأته الأولى؟.. أي في أسرة بني أمية وبني العباس؟.

طبعًا هنالك موقف العلماء على مر القرون، كان قد شجع هذا الفهم الخاطئ للإسلام، إذ أن ضمير العلماء، عاني، كالضمير التاريخي للأمة ككل، من عقدة صفين، فدفع هذا إلى نوع من الانزواء وترك ساحات الحكم وإدارة المجتمع لسلطات لا تلتزم بالضرورة بأحكام الإسلام كما كان الأمر في العهد الراشدي. ولقد تم لقرون عديدة، نوع من التحييد لقوة الرأي العام الإسلامي، وتفاقم هذا الأمر في العصر الحديث. بحيث عندما نرى قوة الرأي العام الإسلامي المعاصر تدفع مرة أخرى باتجاه إقامة دساتير وشرائع المجتمعات على أساس الإسلام، يبدو الأمر وكأنه مطالبة غريبة، لا كعودة طبيعية إلى صراط مستقيم وحالة طبيعية تنسجم مع تكون الأمة ومصالحها.

ثانيا: وضع النساء، وما يتهم به الإسلام من إجحاف حقوقهن.

ففي عهد الرسول كانت النساء يملأن المساجد، ما خلا منهن مسجد، ينشطن في كافة مناحي الحياة وحضورهن في ميادين العمل والجهاد والحياة الاجتماعية لا يعوقه عائق.

أما الآن فلا ترى وجودًا نسائيًا في المساجد إلا نادرا، وليس هنالك إلا بعض المساجد يسمح فيها بدخول النساء، وذلك أيضًا بشكل محدود وأوقات محدودة وفي زاوية معينة، وحتى هذا الأمر يضيق به بعض الناس.. وذلك باسم الإسلام. ولكن من قال إن هذا هو الإسلام؟ وأي دين هذا الذي يقسم البشر إلى قسمين ويجعل بيت العبادة لأحدهما فقط، إن هذا لا يليق إلا بالوثنيات المتخلفة. ثم كيف يمنع نصف المجتمع من العمل باسم الإسلام.. فيجعل المجتمع مشوها نصف مشلول، يستخدم يدا واحدة ويقف على قدم واحدة؟

إنني أرى بأن تطبيق الشريعة تطبيقًا صحيحا سوف لن يغير المرأة في شئ، بل أرجو أن يعيد ذلك إليها حقوقًا لها مسلوبة، إن هنالك قناعا وعادات سائدة في مجتمعاتنا، هي نتاج تطور تأريخي مشوه في القرون الأخيرة، والناس الذين عاشوا هذه العادات هم الذين خلقوها وربطوها بوعي أو لا وعي بالإسلام.

والمؤسف أن حتى بعض علمائنا أخذوا في هذا المجال ببعض الأحاديث الضعيفة، وتركوا المتواتر والصحيح، وقد حاولت أن أتصدى لهذا الأمر في كتابي الأخير «السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه». لقد حاولت أن أبين انحراف أمتنا، وأعتبر أن هذا الانحراف والانهيار الداخلي هو أخطر من الغزوة الثقافية الأجنبية ومن الاستعمار التشريعي، بحيث أصبحت عقولنا وتصوراتنا المتخلفة لا تستطيع مواجهة تحديات العصر وتقديم بدائل قادرة على الحياة للأنظمة الوضعية المستوردة والمفروضة علينا.

يجب فهم المعادلة بشكل صحيح والنظر في طرفيها. أنا أعرف طبعا مناحي القوة في الحضارة الأوروبية، ولكنني لا أعتقد بأن هذه المناحي تتعلق بقوة روحية أو أخلاقية أو بتماسك داخلي ومنطقي. أعتقد أن حضارة الغرب تسير نحو الانحدار في هذه المجالات. إذ أصبح حتى محاربة الإيدز من جانب الفاتيكان، تجرى باسم حماية الصحة فقط، وليس بالاستناد لوازع أخلاقي. ولكن المشكلة هي ضعف وهشاشة البدائل المطروحة لهذه الحضارة. فخلال التاريخ كان هنالك تعاقب وتوارث للحضارة.. وكان يمكن للعرب والمسلمين أن يرثوا، خلال نهضة متعددة الجوانب، الحضارة الأوروبية القائمة.. ولكن من يرث من؟. ولكن العرب أصبحوا أقل الناس تمسكا بالإسلام، وأقلهم طموحا في نهضة عصرية تعيد للإسلام قوته. وإذا استمر الأمر هكذا، واستمرت خيانة حكام الأمة، فقد يتحول العرب كلهم إلى شتات لاجئين، ليس في بلاد الغرب، بل حتى لاجئين وغرباء في بلادهم وعلى أرضهم. إن السعي يجب أن يتركز على إجراء إصلاح جذري في العقول الخاملة والمتخلفة.

الاجتهاد المعاصر

أنتقل إلى مسألة الاجتهاد المعاصر في حالة تطبيق الشريعة. فالدين الإسلامي يتكون من ثلاثة أجزاء: العقائد والعبادات والمعاملات. فأما العقائد فهي أخبار، وهي تتضمن مبادئ عقيدية: الله واحد، الآخرة حق،..... الأساس في التعامل معها هي الأخبار الإلهية ولا مجال فيها للمناقشة، فالمرء يؤمن بها أم لا. أما العبادات فتتعلق بالصوم والصلاة وتفاصيلها مثلا، وهذه أيضًا ابتدعتها الشريعة ونظمت لها أصولا لا يمكن تغييرها. علما بأن الشريعة حتى في هذه المجالات وضعت شروطًا واستثناءات تراعي إمكانيات البشر وظروفهم. وكل ما هو خارج العقائد والعبادات، ينضوي في مجال المعاملات. وأساس المعاملات هو الإصلاح والمصلحة. هنالك فهم خاطئ يقول بأننا نقبل الشريعة رغم عقولنا، ولا حيلة لنا في مناقشة نصوصها، والواقع أن الشريعة تنسجم مع المصلحة العامة ومع العقل. لننظر في الامر مليا: كان هنالك زواج قبل الإسلام فجاءت الشريعة ومنعت الزواج بالأخت والأم

مثلا، ووضعت قواعد لهذا التنظيم الإنساني. وكذلك وضعت قواعد للتجارة والمعاملات المالية فحرمت الربا وأحلت الربح الحلال.. وهكذا.

وهنالك علاقة النص بالاجتهاد. فما جاء بنص قاطع، لا اجتهاد فيه. مثلا: للذكر مثل حظ الأنثيين، فهذا الحكم يرتبط بما يوازنه: عليه الإنفاق ولها النفقة، فيكون الرجل والمرأة قد تعادلا في هذا. أي، نفهم النص القاطع ضمن هذه المعادلة وبالنظر لما يوازنه من حقيقة اجتماعية فإن لم يتحقق الجانب الآخر من المعادلة، يصبح هنالك خلل في الأمر. أي أن هنالك اجتهاد في فهم النص، وقد يجئ النص محتملا لعدة معاني.

يرى الأحناف بأن حديث الآحاد يوقف العمل به إذا كان يخالف قياسًا قطعيًا، إذ أن القياس القطعي يعتمد على يقين ديني، بينما حديث الآحاد نصه ظني. هذا مثال بسيط لسعة دائرة الاجتهاد في فهم النص أو فيما لا نص قاطع فيه. ولكن المطلوب من المجتهدين: سعة الفهم وصدق الدين. فالخطر أن يسخر المجتهد نفسه خدمة حاكم جائر أو صاحب شهوة مقتدر، أي أن يكون إلى جانب فهمه الفقهي الواسع، ضمير مخلص وإيمان ثابت يضمن عدم انحرافه. ولضمان هذا الأمر نحتاج أيضًا إلى وعي عام، إلى رأي عام يعمل كضمانة لعدم انحراف هذا المجتهد أو ذاك، فهنالك من يجتهد ليلحق المسلمين أكثر فأكثر بركب التبعية؟ فأين الضمير وأين مصلحة الجماعة الإسلامية في هذا الاجتهاد؟.

أما فيما يخص حقوق الجماعات القومية والدينية في مجتمعاتنا، فأولا: لا خوف على الجماعات القومية، فالإسلام ليس لقوم دون آخر، إنه جامع للأقوام والشعوب وجسر للمحبة والتعاون بينهم على أساس العدل. وما يجري من اضطهاد للشعوب والقوميات في بعض بلداننا إنما يجري على أيدي النخب الحاكمة وأكثرها قومية وعلمانية. ولا يمكن لإسلام صحيح تطبق شريعته في المجتمع، إلا أن يعيد لكل صاحب حق حقه، فإذا كان الإسلام يحمي حق فرد واحد ويصونه من العدوان فكيف بحق الجماعات والقوميات؟.

أما الجماعات الدينية غير المسلمة، فلنا معها تاريخ طويل من العيش المشترك، فمنذ أيام الإسلام الأولى عاش الأقباط في هذا البلد، وقد حفظت الشريعة حقوقهم ولم تتدخل في شئونهم. وإذا كان هنالك من ضرر قد لحقهم في بعض العهود على أيدي حكام ظالمين، فقد لحق المسلمين أيضًا على أيدي نفس الحكام المظالم. ولكن المجتمع الإسلامي كان قادرًا على وضع صيغة عادلة للتعايش، صيغة لا تعتمد على موازين القوى بحيث يبدأ المسلمون بذبح المسيحيين عندما يتمكنون من ذلك، وكما حدث أن فعل الإسبان بالمسلمين واليهود بعد أن ضعف شأنهم في الأندلس، أو كما فعلت جموع الصليبيين، وإنما الصيغة كانت تعتمد على العدل.

الجزية!!

نحن لدينا مبدأ قديم - جديد، لا لبس فيه. نقول عن غير المسلمين، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، إن مطالبة بعض الجهلة بفرض الجزية على غير المسلمين، لا يجب أن تحسب على الإسلام. فالجزية كانت على الأغلب كبدل للخدمة العسكرية. فلم يشأ الإسلام أن يفرض على المسيحيين أن يقاتلوا ضمن جيشه، بينما كان هذا القتال يجري أحيانًا ضد إخوانهم في الدين، وذلك حرصًا على مشاعرهم، وكذلك لأسباب أمنية ففرضت جزية لتكون تعويضًا عن إعفائهم من الخدمة العسكرية. أما الآن فالمسيحيون يعيشون معنا في أوطان، نحن وإياهم نعتبر مواطنين متساوين في الحقوق. أما حقوق غير المسلمين في مجال الأحوال الشخصية وعقود الزواج وغيرها فلا حق لأحد التدخل فيها.

ولكني لنرى كيف يفرض أحيانًا حكم الأقلية على الأغلبية. لنرى لبنان حيث الشيعة أكثر السكان عددًا، يليه الموارنة ثم السنة. ثم إن المسلمين كلهم (شيعة وسنة ودروز) يمثلون أكثرية ساحقة، بينما ظلت مقاليد السلطة السياسية والاقتصادية بين الموارنة. وهنالك ضغوط دولية جائرة تمنع أي إصلاح يريد إحقاق الحق وإقامة العدل بين هذه الجماعات.

فعندما نتحدث عن حق الأقلية ونطالب بصونها (وهذا واجبنا) لا يجب أن ننسى حقوق الأغلبية. ومن الخطأ أن يطلب من المسلمين بأن «يخففوا» من إسلاميتهم (أن لا يطبقوا الشريعة مثلا) حرصًا على غير المسلمين. إذًا إذا انتصر هذا المنطق يعني ذلك ظلمًا فاحشًا بحق الأغلبية يفرض باسم الأقلية وباسم الحرص عليها.

في جنوب السودان ١٠٪ من السكان مسيحيون، و١٠٪ مسلمون والبقية وثنيون. الآن يطرح الأمر وكأن جنوب السودان كله مسيحي وهذا الطرح يعيق الحلول المطروحة للأمة ويعرقل جهود الأغلبية المسلمة لإعادة بناء حياتها ودولتها على أساس دينها. يجب أن نراعي كفتي الميزان: نطالب بحق المسلمين الذي لا جدال فيه، بتطبيق الشريعة الإسلامية، ونطالب في الوقت نفسه بصيانة حقوق غير المسلمين وإحقاق الحق في كل المجالات، وهذا من مقاصد الشريعة. ويجب أن نتمسك بالقاعدة الذهبية (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

إن بلادنا لم تشهد حروبًا دينية ولا مجازر كالتي حدثت في أوروبا. أما الآن فيلقى في روعنا بأن تطبيق الشريعة قد يؤدي إلى مضاعفات طائفية وتناحر ديني، وهذا غريب عن تجربتنا التاريخية. ولنتذكر: إن لبنان الذي أصبح رمزًا للتناحر الطائفي، بدأت الحرب فيه وليس فيه حزب إسلامي واحد، ولا أحد يطالب بتطبيق الشريعة، بل إن الأحزاب السائدة والمتنفذة في كل مناطقه كانت أحزابا علمانية: ليرالية وقومية واشتراكية،... وفي ظل هذا التكوين العلماني للدولة والأحزاب جرت الحرب الطائفية المقيتة.

شمولية الشريعة الإسلامية

عناصر الثبات والتغير





المستشار: طارق البشرى

عندما نتكلم عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للزمان والمكان، يتعين علينا أن نميز بين أمرين: أولهما، الشريعة الإسلامية، وثانيهما، الفقه الإسلامي.

والشريعة الإسلامية: هى الأحكام المنزلة من الله - سبحانه - على نبيه محمد بن عبد الله، والتى وردت فى القرآن الكريم وفى السنة الصحيحة.

والقرآن: هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، والذى يضمه المصحف من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، والذى انتقل إلينا بالتواتر جيلا بعد جيل محفوظا من أى تغيير أو تعديل مصداق قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾
(الحجر: ٩)

والسنة: هى كل قول أو فعل أو تقرير ورد عن رسول الله ﷺ، وكان مقصودا به التشريع والاقتداء.

والقرآن كله ثابت ثبوتا يقينيا لا يأتيه الشك أبدا. والسُّنة، منها ما هو ثابت ثبوتا يقينيا لورودها إلينا بالتواتر، مثل شعائر الصلاة وعدد ركعات كل منها. ومنها ما ثبت بالظن الراجح، أى ثبوتا أقل درجة من ثبوت القرآن والسنة المتواترة. ونصوص القرآن والسنة بعضها قطعى الدلالة لا يرد الخلاف بين العقول حول الحكم المقصود من النص، مثل نصيب الزوجة من ميراث زوجها، وبعضها ظنى الدلالة، أى يمكن أن تتباين العقول فى إدراك معانيه.

وأحكام القرآن والسنة لها وضع إلهى، وهى لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل. وهذه الأحكام هى المقصودة بالشريعة الإسلامية، وهى تشمل جملة ما يتضمنه الإسلام من أصول حاكمة للعقيدة الإسلامية، وللعبادات، ولمعاملات البشر.

والفقه الإسلامى، هو اجتهادات البشر فى إدراك أحكام الشريعة، وفى استخلاص المعانى المقصودة، ووصل تلك الأحكام بأحوال البشر فى كل بيئة؛ أى هو اجتهادات العلماء فى إدراك معانى النصوص، والتفريع على الأصول العامة الواردة بالقرآن والسنة، وتطبيق النصوص الثابتة التى لا تتغير على أحوال البشر المتنوعة ووقائعهم المتغيرة مع تغير الأزمان والأمصار. وهذه الاجتهادات ذات وضع بشرى تحتمل الخطأ وتحتمل التغير والتنوع مع اختلاف البيئات والأحوال، وهى كلها تتعلق بتفاصيل الأحكام وبفروع المسائل.

هذا فارق نظرى يتعين أن نلحظه بدقة عند نظرنا فى الأحكام، وعندما نتدبر عنصر الثبات فيها، ووجوه التغير والاختلاف.

فالشريعة ثابتة، وهى ذات وضع إلهى، وأحكامها ونصوصها ليست تاريخية؛ بمعنى، أنها ليست نتاج تاريخ الإنسان، وأنها ليست من الأحداث التى ترد إلى أسباب حادثة وتتغير بتغير أحوال البشر عبر مراحل التاريخ والفقه من حيث إنه اجتهاد الفقهاء والمفكرين يمكن أن يرد عليه التنوع والتغير بتغير الزمان والمكان، فهو ذو وضع تاريخى واجتماعى، كما يرد عليه احتمال الخطأ بحسبانه من جهد البشر.

«٢»

إذا نظرنا إلى عهود الإسلام فى تاريخنا، منذ بعث النبى بالرسالة حتى يومنا هذا، نجد أن هناك عهدا ليس كالعهود، وهو يتميز عنها تميزا جوهريا، وذلك هو عهد الرسالة وما تلاه فى زمان الراشدين تلك الفترة التى لا تجاوز نصف القرن بكثير.

الفارق الأساسى بين عهد الصدر الأول هذا وبين ما تلاه من عهود، يتعلق بأن العهد الأول هو عهد «الشريعة» أى عهد تأصيل الشريعة، بينما أن كل ما تلا ذلك من عهود فهى عهد «تطبيق الشريعة» أى عهود الفقه.

العهد الأول، هو الذى يتضمن فى الزمان المدة التى نزلت فيها الرسالة السماوية، قرآنا وسنة، وهى مدة حياة الرسول بما شرع وسن، وهى كذلك مدة العمل الأول للصحابة، الذين نقلوا لنا بأعمالهم وأقوالهم ما أخذوه عن النبى عليه الصلاة والسلام.

هذا العهد، هو الوعاء الزمنى الذى نزلت فيه أصول الدين، واستخلصت فيه أحكامه فهى فترة التنزيل بالنسبة للقرآن، وفترة صدور السنة عن النبى ثم هى أيضا الفترة التى جمع فيها القرآن وحفظ، وهى كذلك الفترة التى تشكلت فيها الحلقة الأولى من حلقات الأسانيد بالنسبة للسنة النبوية؛ لأن السنة المرفوعة كلها تتصل بالنبى عن طريق الصحابة، وغالب أحاديث السنة ظهر فى هذه الفترة أو فى الأعوام القليلة التالية لها. ومن ثم، فهى تشكل الحلقة الأولى المهمة فى سلسلة ما انتقل إلينا بالرواية والتدوين من أحكام الشريعة.

وهذا العهد نفسه، هو عهد أعمال الخلفاء الراشدين، وهم ومن حولهم كانوا من صحابة الرسول المبرزين، وفيهم المبشرون بالجنة، وعهدهم قريب من عهد الرسول وحياته. لذلك، كانت أعمالهم أقرب إلى ما نسميه اليوم «بالسوابق التشريعية»؛ لأن من أعمالهم ما كانت دلالته تتجاوز حدود الدلالة التطبيقية، وتعلو بالفعل المؤدى إلى مستوى

أنه دليل على قيام حكم تشريعي.

ونحن نعلم أن الشريعة الإسلامي، مصدراها الأصليان هما القرآن والسنة، ولها مصادر فرعية أخرى. وأول هذه المصادر الفرعية: الإجماع. وأقوى الإجماع، هو إجماع الصحابة، بمعنى أنه إذا اتفق الصحابة على حكم في مسألة، ولم يظهر معارض فيهم لهذا الحكم، فإنه يصير في قوة الحكم الشرعي. ولهذا المصدر أهميته، وخاصة في موضوع الإمامة ونظام الحكم. وإجماع الصحابة إذ ينعقد، فإنما ينعقد في هذه الفترة وما تلاها من أعوام قليلة، ويكون للعمل الذي يجمعون عليه قوة السابقة التشريعية.

لذلك، فإن هذا العهد لا ترد أهميته من كونه تجربة تاريخية، ولكن أهميته ترد من قيمته التشريعية الأصولية. وإن مقتضى النظرة الإيمانية، أن ما نستخلصه من هذه الفترة من أصول، إنما يتعلق بما يعتبر لدينا نصوصا وأحكاما ذات دوام، وتعلو على نطاق الزمان والمكان وشأنها في ذلك شأن سوابق التشريع. والمقصود بالسوابق التشريعية، أن هناك تصرفا أو قرارا أو إجراء ما، أو حكما يصدر من محكمة. إن أمرا من هذا إذا حدث في واقعة معينة، فنحن نستخلص من حدوث هذا التصرف أو القرار حكما عاما يعلو على ملابسات تلك الواقعة، ويصير له قوته الملزمة على الوقائع التي تحدث بعد ذلك وتتوافر فيها الأوصاف ذاتها.

مثال ذلك، عندما لم يوقع عمر في عام المجاعة حد السرقة، واستخلص الفقه من هذا التصرف أن من شروط توقيع حد السرقة أن يكون المجتمع قد كفل للناس ضروراتهم.

وكذلك اجتماع الصحابة بالسقيفة فور وفاة الرسول، استخلص الفقه منه وجوب قيام الحكومة في الشريعة الإسلامية.

هناك بطبيعة الحال جانب تاريخي في هذا العهد، أي جانب لا يتعلق بالتشريع ولا بالشريعة الإسلامية أو تأصيل أحكامها، وهو كل ما كان يصدر عن رسول الله بموجب صفته البشرية من حيث إنه إنسان يحيا حياة الناس، ومن حيث إنه يجتهد برأيه فيما يعرض عليه من أمور. فكان يجتهد، ثم يعدل إلى الصواب إن تبين الصواب في غير ما اختار أولا، أي في كل ما ليس مقصودا به التشريع والاقتداء من أعماله ﷺ وكذلك اجتهادات الصحابة ومعايشهم، مما لا يظهر معه دليل أنهم إنما يتبعون سنة عن الرسول، أو يصدرون عن سنة الإسلام والمقصود أن هذا العهد يضم فيما يضم «الوعاء الزمني» لرسالة الإسلام، وأن ما به من نقاء وصفاء إنما يرد من هذا الوضع، ومن أنه كان «وعاء» النصوص. والنص دائما «مثال» يستمد مثاليته من ذاته وليس من غيره؛ فهو قائد وليس مقودا، وهو حاكم وليس محكوما.

أما ما بعد ذلك من عهود وأزمان، فهي تاريخ من التاريخ، وما حدث فيها من تجارب هي من تجارب المجتمعات والبشر، وناسها وعلماؤها هم رجال من الرجال، في كل أحوالهم وأوضاعهم، نحن ندرسهم ونأخذ منهم العبرة ونسترشد بما قالوا وفعلوا، ولكننا نأخذ من أقوالهم وأفعالهم ونترك، حسبما يتراءى لنا وجه الصواب ووجه المصلحة. وكل إنتاج هذه العهود، هو ما ينسب للفقه وليس للشريعة. ولنا أن ندرس اجتهاداتهم من حيث ما استدلوا به من البراهين والأدلة، ومن حيث

ما طبقوه بمراعاة مصالح الناس في أوقاتهم. ولنا أن نقارن ذلك كله بأحوالنا الآن. وذلك في إطار ما تفرضه أصول الدين وأحكام الشريعة من ضوابط وحدود، سواء لفهم النصوص والاستدلال منها، أو لمراعاة مصالح الإسلام والمسلمين، وذلك بغير التزام منا بوجوب اتباعهم.

«٢»

لكي نفهم القدرة الهائلة التي للشريعة الإسلامية على التجدد في فروعها مع المحافظة على أصولها، يمكن أن نتصور حركة سريان الشريعة الإسلامية على مدى القرن الهجري الأول.

إن المصدرين الرئيسيين للشريعة – وهما القرآن والسنة – قد صدرا في مجتمع الحرمين مكة والمدينة، وهما بأرض الحجاز في أرض العرب. ثم مع الفتوحات الإسلامية ودخول الشعوب الأخرى في الإسلام، لم تمض بضع عشرات من السنين حتى انتشر الإسلام، وانطبقت معه الشريعة الإسلامية في رقعة جغرافية تمتد من الهند شرقا حتى الأندلس غربا، ومن الجزيرة العربية جنوبا حتى بحر قزوين شمالا وهي بيئات جد متنوعة ومختلفة في لغاتها وتاريخها وعوائد أهلها وأعراقهم، وفيهم مجتمعات تجارية، وفيهم مسيحيون من أهل الكتاب، وفيهم يهود كتابيون أيضا، وفيهم وثنيون، وفيهم ديانات مختلطة، وفيهم أجواء باردة، وأجواء حارة... إلخ.

هذا التنوع الهائل في كل ظرف وفي كل عنصر من عناصر البيئة الجغرافية التاريخية الاجتماعية السياسية، بدأت الشريعة الإسلامية تنطبق فيها كلها وتحكم كل أوضاع الناس، عقيدة وعبادة ومعاملات. واستطاع الفقهاء في فترة وجيزة أن يلائموا بين الأحكام الكلية للشريعة وبين أوضاع تلك البيئات جميعها، مع المحافظة على أصول الشريعة واحدة ثابتة، راسخة الجذور متنوعة الفروع.

هذا الاختبار التاريخي الواقعي للشريعة الإسلامية، يظهر مدى قدرتها على تمثل أوضاع البيئات المختلفة، ومدى مرونتها في التصدي لكل هذه الظروف والأحوال المتغيرة مع محافظتها على الأصول ثابتة مكينة غير مختلف عليها. هذه القدرة الهائلة على الوحدة مع التنوع، لم تكن مسبوقة في التاريخ، ولا أظن أنها تكررت بعد ذلك.

فأما ما سبقها، فنحن نعرف كيف انقسمت المسيحية كعقيدة وككنيسة، بعد أن امتدت شمالا حتى بلاد الروم وجنوبا حتى شمال إفريقيا، وكيف كان الانقسام العقدي يصل إلى حد التكفير والاضطهاد وسفك الدماء. وأما ما تلا الإسلام، فنحن نعرف ماذا جرى في ماضينا القريب من انقسام البلدان التي تدين بالشيوعية انقساما صار به كل منها «وبخاصة الاتحاد السوفيتي والصين» ينكر على صاحبه وصف الماركسية، وهو نوع من التكفير المتبادل. وليس هذا بسبب مهارة فقهاء المسلمين، فليس فقهاء المسيحية أو فقهاء الماركسية أقل مهارة، ولكن السبب يرجع إلى ما تضمنته شريعة الإسلام المحفوظة المنزلة من قدرة فريدة على المحافظة على ذلك التوازن الدقيق بين الوحدة والتنوع، وبين المحافظة والتجدد.

ويسهل أن نقول إن ذلك كان بسبب أنها صيغت على أساس «إجمال ما يتغير من

الأحكام وتفصيل ما لا يتغير، ولكن يبقى الإعجاز في هذا الضبط الدقيق في التمييز بين ما يتغير وما لا يتغير من أحوال الأفراد والجماعات، وهذا الضبط الدقيق لحدود ما يجمل من الأحكام وما يفصل منها، وهذه المعرفة الناصعة لما هو ثابت من أحوال البشر وما هو متغير مع تغير ظروف البيئة.

قد يقال إن ثمة فرقا نشأت، وحروبا وصراعات سياسية قامت. وهذا صحيح، ولكن لم يحدث - بحمد الله - أن انقسمت الجماعة انقساما يؤدى إلى تكفير كل قسم للآخر. وما حدث من ذلك كان من جماعات محدودة انسلخت دون أن تصدع الجماعة، فهى لا يعول عليها من حيث الحجم، أو من حيث الزمن الذى بقى فيه الخلاف. أما ما بقى من خلافات، فهى إلى التنوع أقرب منها إلى الانقسامات.

ومن جهة أخرى، فإن العلاقات القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية تغطى كل أنواع الأنشطة البشرية فى المجتمع، من المعاملات المالية بالبيع والإيجار والرهن والمضاربة، إلى المراكز القانونية كالملكية وحقوق الانتفاع، إلى وسائل عقاب المجرمين والشذاذ فى المجتمع بالحدود والقصاص والتعازير، إلى علاقات الأسرة ودرجات القرابة مثل الزواج والطلاق والنسب والبنوة، وما يترتب على ذلك من آثار كالميراث والنفقة، وذلك كله فضلا عن أحكام العبادات مثل قواعد الصلاة والصيام وأحكام الزكاة، وكل ذلك مما لا يكاد يقع تحت حصر.

فى هذا المجال العريض المتنوع، لم تفرض الشريعة من عل، إنما نمت مع شيوع الإسلام بين الناس وانتشاره فى الأصقاع والأمصار. ونحن نتذكر أن الخليفة العباسى رغب فى أن يفرض على الناس كتاب «الموطأ» الذى ألفه الإمام مالك وأودعه ثمرة فكره وعلمه فعارضه الإمام مالك نفسه ولم يفرض على الناس حكم فقهى فى تلك الفترة التى نما فيها الفقه، وازدهرت مدارسه ومذاهبه.

وكانت أحكام الفقه الإسلامى تتراكم بالصلة المباشرة التى تنشأ بين الناس وبين الفقهاء، يجلس الفقهاء فى المساجد، يدرسون لتلاميذهم، ويتناظرون فيما يجد من بحوث. ويقصد إلى هؤلاء الناس بمشكلاتهم وأنزعتهم. لذلك ارتبط الفقه على أيدى الفقهاء بالمشكلات العملية، واشتهر بالحس الواقعى، وارتبط بالمقاصد والغايات من جلب المنافع ودفع المضار.

بهذه الروح، نما الفقه الإسلامى وتفرعت عليه التفاريع بما يحقق مقاصد الشريعة من الحفاظ على الأحكام الشرعية العامة ويرعى مصالح العباد ويشيع العدل بين الناس. وهى نشأة ونمو استقلا عن أجهزة الدولة ووجهات نظر الحاكمين. وإن من وقائع أئمة المذاهب وغيرهم ما يؤكد مدى استقلال هؤلاء عن الولاة والسلاطين فى ذلك الوقت الذى نما فيه الفقه ورسخت مناهجه ودونت أحكامه.

وإذا كانت فترات ركود جاءت بعد ذلك، عانى منها الفقه والفقهاء من تسلط الحاكمين خلالها، فقد بقيت الشريعة بصيغتها الفريدة فى ثبات أصولها مع تنوع أحكامها التفصيلية، وبقيت مناهج الفقه فى تخريج الأحكام الفرعية من أدلتها الكلية بقى ذلك كله سليما يمثل الرصيد العظيم لشريعة الإسلام وفقهها.

«٤»

متى صارت لدينا القدرة على التمييز بين ما هو ثابت، أى يشكل وضعا إلهيا - وهى النصوص والأحكام المنزلة قرآنا وسنة - وبين ما هو متغير واجتماعى وتاريخى من اجتهادات الفقهاء، فإننا نستطيع بذلك أن ندرك كيف نحفظ أصول الشريعة، وفى الوقت نفسه نعمل عقولنا فى المجال الفسيح المتاح للاجتهاد فى هذه الأحكام بما يحفظ الشريعة، ويرعى مصالح العباد، وبما يشيع العدل.

وفى هذا المجال الاجتهادى الأخير، المجال الاجتماعى التاريخى فى الفكر الإسلامى وفقهه، ينبغى ربط الحلول الفكرية الفقهية بوظائفها الاجتماعية، التى تعنى الربط بينها وبين مقاصد الشرع الإسلامى فى حفظ الدين وجماعة المسلمين وحفظ العقول والأعراض والأموال. وتجرى هذه المحافظة بمراعاة ملاءمة تطبيق الأحكام لأوضاع المجتمع وظروف العمران.

إن لكل حكم دينى أثرا فى التاريخ والمجتمع، ويمكن أن يتأثر بعمل التاريخ وبتفاعلات المجتمع. والعقيدة نفسها يمكن أن تتأثر قوتها فى قلوب الرجال ونفوسهم بالسياسات التى تتبع فى المجتمع، وبأوضاع الحياة المضروبة على الناس، فتقوى أو تضعف فى نفوس المؤمنين بها، وتنتشر أو تتقلص. ونحن يجب أن نتعامل مع تلك الأسباب. وإن إدراكنا لها، هو ما ييسر علينا معالجة تلك الأوضاع المعالجة الحافظة للدين والجماعة والداعمة لهما.

إن محاولة إضعاف الإسلام فى نفوس المسلمين، خلال القرن الماضى، لم تتخذ شكل محاربة الإسلام من حيث هو عقيدة، ولا اتخذت شكل الهجوم الصريح عليه من حيث هو نظام للحياة، ولم تكن هذه الأساليب مما تنجح بها تلك المحاولات، لأنها كانت ستثير لدى المسلم دوافع التجمع والمقاومة.

إنما كان الأسلوب الأكثر نجاحا، هو تغيير الأوضاع الاجتماعية وأنماط العلاقات بين الناس، بطريقة تجعلها قائمة على تعارض مع تصورات الشريعة الإسلامية وأحكامها، وتغيير سلوك الناس وعادات العيش وأساليب الحياة اليومية، بما يقيم التعارض بين هذه الأساليب وأحكام الشريعة وقد جرى هذا الأسلوب، لا بطريق الإقناع وتبادل الرأى، ولكنه جرى فى الأساس بالترويج والدعاية والإغراء، وإثارة نوازع التقليد والمحاكاة، وذلك فى أساليب المأكل والمشرب والملبس والمسكن وعادات المعيشة.

ولما استتبت قاعدة اجتماعية من هذه العادات والأساليب ونماذج السلوك، بدأ يظهر التعارض بينها وبين فقه الشريعة وفكرها، وبدأ الفقه الإسلامى يحاصر بين بديلين: إما أن يعترف بهذه الأساليب والأوضاع - حتى ولو كان ذلك على حساب الشريعة وأصولها العامة - وإما أن يتهم بالجمود والعجز عن ملاحقة الواقع و«التطور»، ولفظ التطور لفظ لا يدل على مجرد الحركة والتغيير، ولكنه يوحى بأن الحركة والتغيير يجريان للأحسن والأرقى فى مدارج الارتقاء والعمران البشرى والحضارى.

ومناط الحكم على الفقه بالتجدد، لا يتأتى من قدرته على ملاحقة مثل تلك المظاهر، ولا يتأتى أيضا من قدرته على مخالفة أصول الشرعية الإسلامية العامة التى أتت بها أحكام

القرآن والسنة. ولكن مناط التجديد الفقهى، يتأتى من قدرة الفقه على أن يستجيب للتحديات التى يفرضها الواقع والتاريخ - فى زمان ومكان معينين - على الجماعة الإسلامية، وأن تكون هذه الاستجابة مما يحفظ مصالح الإسلام والمسلمين.

ولذلك فإن علينا واجبين:

● الأول: هو أن نحفظ للشريعة الإسلامية - كأصول عامة - سيادتها وفاعليتها على أوضاعنا الاجتماعية ونظم الحياة، مدركين أن الشريعة تؤول إلى الاضمحلال، وأن العقيدة قد تؤول إلى الضعف، إذا قامت الأوضاع الاجتماعية على تعارض وتناقض فى هذه الأحكام والأصول. وعلى سبيل المثال، فإن استبقاء النظام الربوى فى التعامل الاقتصادى للمؤسسات المالية وفى التنظيم القانونى للمعاملات، يقيم هذا التناقض الذى لا يحل إلا بإضعاف أسس الشرعية الإسلامية.

لذلك، يتعين أن نكون متنبهين للمقتضيات الاجتماعية التى يحسن الاستمساك بها، دعما للفاعلية الاجتماعية للأحكام المنزلة. فمثلا، قد يكون نظام الميراث والزواج وحقوق الزوجية ذا فاعلية اجتماعية أعظم وأثبت مع نظام الأسرة الكبيرة الممتدة. لذلك، يحسن الحض على الحفاظ على الأسرة الممتدة، ودعم العلائق الاجتماعية بين أعضائها. ومثل آخر عن حقوق الشفعة والجوار وعن الشيوع، فهى تفيد بمقتضاها الاجتماعى دعم الأواصر وروابط الإنتاج بين الوحدات الاجتماعية المحلية، سواء فى الحى أو القرية. ثم هناك المسجد، كمؤسسة اجتماعية حية، يحسن ألا يقتصر دوره على الصلاة فقط، ويحسن أن تلحق به وتتفرع عنه مجموعة الأنشطة الاجتماعية المحلية.

● وثانى هذين الواجبين: يتعلق بالمجال الذى يعمل فيه الفقه، وهو مجال الاجتهاد فى إدراك معنى الأحكام مطبقة على الواقع المعيشى. وهنا، فإننا إزاء اجتهادات الفقهاء المسلمين فى العصور السابقة، يحسن أن ندرك الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التى لابست الاجتهاد الفقهى فى أى من فروع المسائل والأحكام التفصيلية، لأن ذلك يفيدنا فى إدراك الدلالة الواقعية للحكم المقضى به أو الرأى المفتى به.

ومن ناحية أخرى، فيحسن بالفقه الإسلامى المعاصر أن يدرك وجوه التحدى الواقعى التى تواجه المجتمع الذى نعيش فيه، وأن يعمل اجتهاداته الفقهية بما يحقق الاستجابة لهذه التحديات على النحو الذى يحقق وجوه النفع لدينه ولأمته، وأن يربط بين الحلول الفكرية والفقهية وبين الوظائف الاجتماعية التى تترتب عليها.

والمهم فى ذلك كله، أن تكون لدينا ملكة تركيب الواقع الاجتماعى وفقا للأحكام المنزلة، وأن يكون الواقع على اتساق وانسجام مع هذه الأحكام المنزلة، وأن تكون لدينا أيضا ملكة الإفساح فى الاجتهادات الفقهية لما يطرأ من تغيير فى تركيب الواقع الاجتماعى، وفقا لوجوه الاستجابة للتحديات المطروحة على الجماعة فى كل ظرف خاص.

وبهذا، يجرى التوظيف والتطابق بين الواقع الاجتماعى ومؤسساته وعلاقاته ونماذج سلوكه، وبين الأحكام والأفكار، ويجرى الدمج بين علم الدين وعلم الدنيا، ويترابط العمل والعبادة.

«يتبع»

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام

٣



للأستاذ الدكتور/ محمد الأختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

حرية الرأى والتفكير

إن الرأى منتهى ما يستقر فى الذهن بعد البحث والتفكير، ومن حق المجتمع الذى ربى هذا الذهن وأولاه عنايته أن ينتفع بثمرته، وهو لا ينتفع بذلك إذا كان هناك قيد على نشر هذه الآراء مادامت فى محيط النفع العام، ومادامت فى دائرة العقل، وفى إطار من الاحترام يحجزها عن التعدى على حرمات الآخرين، أو على قدسية الأديان والقانون.

إن الآراء السليمة هى التى تكون الجو المناسب للتقدم الحضارى المنشود، وإن الجو الإسلامى لهو خير الأجواء التى تنمو فيها الآراء السامية الهادية إلى الخير والمصلحة العامة.

فى غزوة بدر الكبرى، وفى أول لقاء بين الإسلام والكفر تخير الرسول ﷺ مكانا للمعركة رأى أنه الموقع المناسب، ومع أن الرسول ﷺ يتمتع بين أمته باحترام وتقدير خاص حيث إنه الوحى إليه، مع هذا ينفسح مجال الإسلام للرأى والمناقشة، قال له سيدنا (الحباب بن المنذر) فى أدب جم وفى حرص شديد على مصلحة المسلمين: «أرأيت هذا المنزل أهو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عليه أو نتأخر، أو هو الرأى والحرب والمكيدة؟» فقال الرسول ﷺ: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» فقال: «ليس هذا بمنزل يا رسول الله، انهض بالناس حتى نأتى على أدنى ماء من القوم، ثم نغور ما وراءه فنشرب ولا يشربون»[1] ولم يسع الرسول ﷺ إلا أن يستجيب لرأى هذا الجندى الباسل المخلص.

وفى غزوة أحد تنازل رسول الله ﷺ عن رأيه وأخذ برأى الشباب الذى صمم على الخروج إلى الأعداء، حتى لا يقول الناس: إنهم حبسوا المسلمين فى ديارهم.

وفى غزوة الأحزاب أخذ كذلك برأى سيدنا (سلمان الفارسى) فى حفر الخندق.

وفى غزوة بنى قريظة لما قال الرسول ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة». فأدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها. وقال بعضهم بل نصلى، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحدا منهم[2].

(1) رواه ابن حبان فى كتابه «الثقات».

الآراء المدمرة مرفوضة

بيد أنه لا ينبغى أن تتخذ هذه الحرية ذريعة لإشاعة المذاهب الهدامة والدعوة إلى الفساد والانحراف. ولابد أن تلتزم الآراء خط الفضيلة والمبادئ، ولابد كذلك أن تلتزم قانون العلم والتمحيص حتى لا يذاع على الناس كل باطل وهراء، ولابد أن يتخذ أصحاب الفكر آلات العلم التى منحها الله تعالى للإنسان فى الوصول إلى الرأى الصائب:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

(الإسراء: ٣٦)

مفارقة واضحة بين ميثاق البشر وشريعة الإسلام:

على أن هناك فارقًا ضخمًا بين التعبير الحديث بحرية الرأى التى تعنى إباحة نشره فحسب، وبين مبدأ الإسلام الذى يفرض إعلان هذا الرأى مادام فى دائرة النفع العام، وفى إطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إن الإسلام يعتبر هذا الأمر وذلك النهى فريضة على كل مسلم مستطيع، وبذلك يفتح الإسلام أقطار العقل والفكر من كل أبوابها ليفكر كل مسلم فيما هو واقع فى المجتمع، ليكون عنه الآراء السليمة، ويعلنها على الناس. وهو بهذا الإعلان يؤدى واجبا لا يفعل مباحا، أى أن إبداء الآراء الصائبة فى الإسلام ليس ترفًا عقليا يباشره من يشاء، ولكنه واجب اجتماعى وفرض دينى، لا يتخلص المؤمن من تبعته الاجتماعية إلا حينما يؤديه على خير الوجوه. قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[3]، ويقول الله - عز وجل - فى وصف المجتمع المسلم:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

ويربط أهلية المسلمين للصدارة والقيادة لكافة الأمم بمدى محافظتها على القيام بهذا الواجب مع الإيمان بالله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

حرية العمل والتصرف

هناك فرق كبير كذلك بين التعبير بحرية العمل الذى يجعل العمل مباحا وجائزا، وبين روح الإسلام التى توجب هذا العمل وتحث عليه بشتى أنواع الأوامر والأساليب؛ إن الحديث عن العمل يتخذ صيغة الأمر فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

(التوبة: ١٠٥)

(٢) أخرجه البخارى – كتاب المغازى – باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة – حديث رقم ٤١١٩.
وأخرجه مسلم – كتاب الجهاد والسير – باب من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر – حديث رقم ٤٧٠١.

(٣) أخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان – حديث رقم ١٨٦.

وفى قوله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

(الملك: ١٥)

ويتخذ صيغة الامتنان بما هيأه الله تعالى من وسائل العمل والإرشاد إلى استغلال الثروات والخيرات التى بثها الله تعالى فى هذا الكون فى مثل قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾

(طه: ٥٣، ٥٤)

وتتخذ صيغة الحث والتأكيد فى وصايا رسول الله ﷺ، يقول ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده»[4].. ويعتبر الرسول ﷺ العمل جهادا فى سبيل الله تعالى ما دام لغرض شريف نبيل.

عن كعب بن عجرة قال: مر على النبى ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»[5].

القضاء على مثبطات العمل

وبجانب هذه التوجيهات الإسلامية إلى العمل نجد الرسول ﷺ يحرم البطالة والتسول، قال ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم»[6]، ويحرم الإسلام وسائل الكسب التى تشجع على الراحة والكسل وتعتمد على المال وحده دون جهد ولا عناء ولا مخاطرة، ويتمثل ذلك فى تحريمه للربا، يعنى أن المال يلد المال دون أن يدخل الجهد البشرى عاملاً فعالاً فى نتيجة الكسب، والقرآن الكريم يعلن حرب الله تعالى ورسوله ﷺ على المرابين فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩)

وكذلك حرم الإسلام جميع الطرق التى تؤدى إلى تضخم الأموال عن طريق غير مشروع كابتزاز أموال الناس، أو غشهم، أو التحكم فى ضروريات حياتهم، واستغلال

(٤) أخرجه البخارى – كتاب البيوع – باب كسب الرجل وعمله بيده – حديث رقم ٢٠٧٢.

(٥) رواه الطبرانى فى الثلاثة، وفى الكبير رجاله رجال الصحيح، والحديث صحيح لغيره – حديث رقم ١٥٦١٩.

(٦) أخرجه البخارى – كتاب الزكاة – باب من سأل الناس تكثرًا – حديث رقم ١٤٧٤ وأخرجه مسلم – كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس – حديث رقم ٢٤٤٥.

عوزهم وحاجتهم، أو عن طريق الانتفاع بالسلطان والجاه. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٨)

وقال ﷺ: «ومن غشنا فليس منا»[7]، وقال: «من احتكر فهو خاطئ»[8]، وعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه فقال: هذا مالكم وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: «فهلا جلست في بيت أبيك وأمك، حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً». ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه، إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»[9].

ولقد صادر (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه - هدايا عماله على البصرة والبحرين، وقاسم مال عماله على الكوفة، وفعل مثل ذلك مع (عمرو بن العاص) حين كان والياً على مصر، فقد كتب إليه: «إنه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر»... فكتب إليه (عمرو): «إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج إليه نفقاتنا». فكتب إليه (عمر): «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إليَّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سئت بك ظنا، ووجهت إليك (محمد بن مسلمة) ليقاسمك مالك فأطلعه وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، برح الخفاء»... وأذعن (عمرو) للأمر وتركه يقاسمه ماله.

بهذه التشريعات الحاسمة رفع الإسلام من قيمة العمل حتى جعله أفضل من الانقطاع لعبادة الله تعالى.

مسئولية الدولة في توفير فرص العمل

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره رئيس الأمة يحاول فتح أبواب العمل وتهيئة وسائله لمن يريد، عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال: «أما في بيتك شئ؟». قال: بلى: حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء قال: «ائتني بهما». فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشترى هذين؟». قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال: «اشتر

(٧) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا» - حديث رقم ٢٩٤.

(٨) أخرجه مسلم - كتاب المساقاة - باب تحريم الاحتكار في الأقوات - حديث رقم ٤٢٠٦.

(٩) أخرجه البخاري - كتاب الحيل - باب احتيال العامل ليهدى له - حديث رقم ٦٩٧٩.

بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به». فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما». فذهب الرجل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة»[10].

حقوق العمال

وحرص الإسلام كذلك على إنصاف العامل وإيفائه حقه كاملاً في الأجرة دون بخس ولا ظلم، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

(الأعراف: ٨٥)

وحث الإسلام كذلك على حماية العامل من الأخطار والعمل على تأمينه في عمله ورعايته رعاية تامة، يقص الله عزوجل قصة الرجل الصالح وهو يساعد عمال البحر ويقيهم من خطر اغتصاب الظالم لسفينتهم فيقول على لسانه:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(الكهف: ٧٩)

وفي هذا توجيه للأمة الإسلامية أن تحذو حذو هذا الرجل الذي يصفه القرآن الكريم بقوله:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

(الكهف: ٦٥)

ولما كان للجسم طاقة محدودة في مواصلة العمل، وللنفس كذلك طاقة ينتابها عند مجاوزتها الملل، فقد أعطى الإسلام للعامل حق الراحة وحق تحديد ساعات عمله بما يتلاءم مع المحافظة على صحته، وما يتفق مع دوام التجديد لنشاطه وقوته، قال ﷺ: «فإن لجسدك عليك حقا»[11]، وقال عن الخادم يوصى به مخدومه: «ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»[12].

وخلاصة ما يهدف إليه الإسلام أن يضمن للعامل حق المعيشة في مستوى لائق من التغذية والملبس والسكن والعناية الصحية، وفي إطار الرحمة التي لا تكلفه ما لا يطيق ولا تفرض عليه ما لا يستطيع، وفي رعايته كذلك لما تتطلبه المصلحة العامة، فإذا كانت قدراته وطاقاته لا تمكنه من كسب ما يفي بكل حاجاته، فإن له حقاً آخر على المجتمع هو حق الفقراء والمساكين من الزكاة والصدقات من بيت المال تكفل له هذا المستوى الكريم من المعيشة اللائقة بقيمة الإنسان.

(١٠) أخرجه أبو داود - كتاب الزكاة - باب ما تجوز فيه المسألة - حديث رقم ١٤٦١.

(١١) أخرجه البخاري - كتاب الصوم - باب حق الجسم في الصوم - حديث رقم ١٩٧٥.

وأخرجه مسلم - كتاب الصيام - باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً - حديث رقم ٢٧٨٧.

(١٢) أخرجه البخاري - كتاب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن - حديث رقم ٦٠٥٠.

فقه الخلافة الراشدة والتحول الديموقراطي في مصر

أ.د. بهاء الدين محمود محمد منصور

شهد عام ١٤٣٢ هجرية (٢٠١١ ميلادية) نجاح ثورة الشعب في تونس ومصر وليبيا وتحرك الشعوب في اليمن وسوريا وغيرهما من الدول العربية الإسلامية في خصومة مُعلنة ضد حكامهم المستبدين: هذه الثورات ليست حدثاً عارضاً بل هي تنبئ عن تأثر قطاع الشباب (حوالى ٦٠٪ من الشعب) بثقافة العصر وقيمه السياسية التي تسيدت العالم كله في عصر ثورة الاتصالات والإنترنت ومحاولتهم اللحاق بعصرهم أو الموت دون ذلك.

هذه الثورات تخلق واقعاً جديداً لا يمكن أن يتجاهله الفقه السياسي الإسلامي: إذا ترك الأمر واكتفى الفقهاء برد الفعل فسوف يُسقط على الأقل الادعاء "بشرعية الحكم بالغلبة": وإذا أخذ الفقهاء المبادرة فسوف يتم إحياء "فقه الخلافة الراشدة" بآليات النظم السياسية الحديثة.

في هذا الخضم يبدو أن هناك استقطاباً بين التيارات ذوات المرجعية الإسلامية؛ وتلك التي تأخذ من الثقافات الناتجة عن تجربة البشر مرجعية لها.

أساس القيم لدى الشعوب العربية عموماً والمصريين خصوصاً مرجعه الأديان السماوية وفي خاتمتها الإسلام، ولكن المُعارضون للأخذ بالمرجعية الإسلامية يخشون التمسك بالنصوص التي وردت في القرآن والسنة النبوية المشرّفة دون إطار أو هدف عام يهذّب مدلول النص أو الواقعة.

يُضاف إلى ذلك التيارات التي تتمسك بأن تقتدي بالسابقين من السلف الصالح وفتاواهم باعتبار أن ذلك واجب ديني بصرف النظر عما يُمكن أن ينتج عن التطبيق على أرض الواقع في القرن الواحد والعشرين، حتى ولو كانت نتائج لا تُحمد عقباها.

إضافةً إلى ما سبق فإن النظر الظاهري لتاريخ الحكم في الدول الإسلامية والفتاوى السائدة نجد أن الخلافة الراشدة لم تستمر أكثر من أربعين (٤٠) عاماً انتهت نهاية دموية بأحداث الفتنة الكبرى لتعقبها دول تأخذ بنظم القرون الوسطى ثم الدكتاتوريات والدول البوليسية في العصر الحديث بينما حكام هذه الدول وأعوانهم لا يجدون أي تناقض بين مُمارسة الاستبداد وقيم الدين الإسلامي؛ مما يضع شكوكاً ظاهرة على صلاحية الدين الإسلامي لأن يكون مرجعاً "للديموقراطية وحقوق الإنسان" بالمعايير الحديثة المتعارف عليها في القرن الواحد والعشرين.

كذلك فإن أدبيات الفكر الإنساني والتجربة البشرية في موضوع "الديموقراطية وحقوق الإنسان" تنسب كلها إلى عصر التنوير (القرن السابع عشر الميلادي) وما بعده مما أشاع ظلالاً من الشك بقصد أو بدون قصد في إمكان إدخالها في ثقافة وقيم الشعوب الإسلامية. هذا على الرغم من أن القراءة الدقيقة للرسالة الإلهية "القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة" تبين غير ذلك تماماً، حيث تبين أن مسار الحياة الإنساني الطبعي على الأرض والهدى الإلهي؛ وكلاهما من الصناعة الدقيقة للخالق وحده؛ يتآزران في اتجاه تزكية أبناء آدم جميعاً إلى فهم وإدراك الاجتماع الأمثل بالمعنى الشامل للسياسة والاقتصاد والاجتماع؛ بما يؤكد مدنية الشريعة الإسلامية وأنها تسبق التجربة البشرية والعلم في ذلك.

التراث هو كل ما تركه لنا المسلمون السابقون؛ و"القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة" لا يُصنّفان ضمن التراث الإسلامي بل هما رسالة الله سبحانه وتعالى إلى البشر جميعاً في كل زمان ومكان أفراداً وجماعات[1]؛ ونحن اليوم في القرن الواحد والعشرين مُطالبون بقراءة "القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة" قراءة دقيقة وإدراك المعاني بأحدث ما لدينا من علوم ومناهج بحثية؛ "القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة" وحيٌ من الله يشتمل على رسالته الخاتمة إلى البشر جميعاً في كل زمان ومكان أما "الفقه" و"علم أصول الفقه" فمن صنع البشر.

قد كان للمسلمين حضارةٌ عظيمة تسيدت العالم وقادت الفكر والعلم الإنساني في الفترة التي بدأت بالقرن السابع الميلادي وهو تاريخ نزول الوحي برسالة الإسلام على سيدنا محمد ﷺ؛ وانتهت بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي وتلك هي الفترة التي كُتب فيها أفضل ما في التراث؛ ثم انتقل مركز الحضارة الإنسانية من بعد ذلك إلى أوروبا والبلاد الغربية وبلاد أخرى، لقد انقضت خمسة قرون منذ ذلك التاريخ حتى اليوم قطعت الحضارة الإنسانية خطوات وحققت طفرات هائلة في التقدم العلمي والتكنولوجي وفي أساليب البحث والعلوم الإنسانية مما أوجد نظماً حديثة في التشريع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الإنسانية لم يكن لها ما يُماثلها في تاريخ البشرية حتى نهاية القرن الخامس عشر مما جعل التراث غريباً عن عالمنا اليوم، وهذا ما وصفه المفكرون بمشكلة "التراث والمعاصرة".

تم نشر ثمانية (٨) مقالات منشورة في "مجلة مركز صالح عبد الله كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر"؛ وهي مجلة علمية مُحكّمة. المقالات تحلّل وتكشف جوانب الموضوع وتمثل مرجعاً تفصيلياً له. للاطلاع عليها يرجى زيارة الموقع الإلكتروني /democracyinislam.net//:http

P.O. Box 109 Helwan, zip code 114211 Cairo Egypt.

e-mail bmansour2003@yahoo.com

(١) (سورة إبراهيم، آية ٥٢) (سورة المزمل، آية ٢٠) (سورة الفرقان، آية ٣٠) (سورة التوبة، آية ٣٦) (سورة الحجر، آية ٩).

فيما يخص موضوع مقالتنا هذه فإن هناك موضوعان هامان قد استجدا واستقرت تطبيقاتهما في العالم الإنساني؛ الأول هو ظهور الدساتير والثاني هو حل مشكلة اختيار ومحاسبة رؤساء الدول على السلطة المفوضة لهم فيما يعرف اليوم بآليات الديموقراطية.

حتى القرن الخامس عشر الميلادى كانت أكثر النظم التشريعية حداثة تقوم على أساس سمو القوانين وسيادتها على ما تحتها من تشريعات وفتاوى وسوابق قضائية؛ أول دستور مكتوب في تاريخ البشرية هو الدستور الأمريكي عام ١٧٧٦ ميلادية حيث تمت كتابته ليضع إطاراً محكماً للتشريعات في الدولة الأمريكية الناشئة بحيث تتسق كلها على فكر واحد ومقاصد واحدة، وإلا تشتت التشريعات والقوانين وتفككت أوصال الدولة، ولا يسمح لأحد أيا كان موقعه بأن يتجاوزه بما يعني إقامة دولة القانون. مكملاً لهذا الدستور المكتوب ظهر فقه الرقابة الدستورية على التشريعات والآليات المصاحبة له.

لم ينشأ "علم أصول الفقه" ولا كتابة "الفقه" بطريقة منهجية إلا في القرن الثاني الهجرى وكان ذلك على يد الأئمة الأربعة المشهورين مالك والشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل؛ ولذلك فإن "علم أصول الفقه" المنقول عن السلف الصالح قد نظر إلى القرآن الكريم باعتباره مصدراً لنصوص قانونية تنظم أعمالاً جزئية بعينها وتضع عقوبات (حدود) لمن يتجاوزها ولم يظهر فيه أي منهجية لإدراك دستورية القرآن الكريم بالمفهوم الحديث للدستورية. "دستورية القرآن الكريم" تعني "بالإطار العام للمعاملات الإسلامية" الذي يحتوي بداخله كل ما هو شرعي ويقع خارجه كل ما هو غير شرعي فنطبق معايير "الرقابة الدستورية" على أي فتوى أو حكم ليس له نص في القرآن الكريم أو السنة النبوية المشرفة فنعرف مدى شرعيته. وفي هذا الشأن يجب أن يكون هذا الإطار قطعي النص قطعي الدلالة جامعاً مانعاً يمنع الخلط بين "ما هو شرعي وما هو غير شرعي"؛ صالحاً لكل زمان ومكان لأن الرسالة السماوية نزلت لكل البشر بلا حدود للزمان أو المكان.

دستورية القرآن الكريم

ليس في الإسلام كهانة ولا كهنوت ولا إمامة ولا مذاهب مستقلة تشرع بما لم يأت به الله ورسوله. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩)

أطراف هذه الآية الكريمة أربعة هم الله، والرسول، وأولو الأمر والمسلمون. وإذا كان الشق الثاني من الآية يتحدث عن تنازع يرد الأمر فيه إلى الله والرسول. فإن هذا يعني أن التنازع هنا هو بين أولي الأمر والمسلمين، وأن المرجعية في من هو على الحق ومن انحرف عنه هو رد الأمر إلى الله ورسوله. وبمنتهى الوضوح أطيعوا الله، فهو مصدر للتشريع، وأطيعوا الرسول، فهو مصدر للتشريع يوحى إليه. ويكمل هذا المفهوم أنه معصوم من الخطأ:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ١-٥)

فالسنة النبوية المشرفة ليست إلا وحياً يوحى من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم لتفصيل ما جاء في القرآن الكريم وتقييد مطلقه ولبيان محكمه.

يبنى الإطار الدستورى للقرآن الكريم على كل ما جاء في الرسالة السماوية قطعي النص قطعي الدلالة؛ كل القرآن الكريم قطعي النص ولكن آياته تنقسم إلى قسمين رئيسين بحسب ما جاء في القرآن الكريم نفسه:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران: ٧)

الآيات المحكمات هن أم الكتاب حيث تنبع منهن المبادئ والأحكام الأساس في الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وعبادات، هذا بينما تشير الآيات المتشابهات لما يمكن أن يختلف فيه الناس باختلاف الزمان والمكان والعلوم والمفاهيم والتفاصيل التطبيقية. أما السنة النبوية المشرفة فهي ليست إلا وحياً يوحى من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم لتفصيل ما جاء في القرآن الكريم وتقييد مطلقه ولبيان محكمه وبالتالي فإن كل ما جاءنا متواتراً عن الرسول الكريم في موضوعات الرسالة الإلهية "العقيدة والشريعة والعبادات" فهو ملزم وجزء لا يتجزأ من الرسالة الإلهية.

الإطار العام للمعاملات الإسلامية

الإطار العام للمعاملات الإسلامية أساساته هي العدل والرحمة والإحسان وتأدية الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل [٢]، [٣]. وبخصوص السلطة والنفوذ فقد حرم الله البغي بغير الحق [٤]. أما بخصوص التعامل في الأموال والتبادل الاقتصادي فقد حرم الله أكل أموال الناس بالباطل [٥]، وحرم التلاعب في الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم لأكل حقوقهم في تبادل السلع الاقتصادية [٦]، وحرم الإدلاء بأموال الناس بالباطل إلى الحكام [٧]، وأوجب أيضاً المحاسبة بين الناس على الأموال حفاظاً على حقوق العباد [٨].

أما آداب التقاضي وواجباته فهي القسط في الشهادة [٩]، [١٠]، [١١]، [١٢]. أما في القصاص فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به [١٣].

وهكذا وضع الله حدوداً للتعامل لا يتعداها أحد مسلماً أو غير مسلم، مثل جرائم القتل أو السرقة أو الزنا والاعتداء على الأنساب دون إقامة الحدود التي أوضحها الله سبحانه وتعالى في شرعه الحنيف، فضلاً عما هو محرم مما يندرج تحت صور البغي والتعدي على الآخرين، فإذا اختلفوا فإن أساس التقاضي العادل وأركانه يرعاها الله بنفسه في آيات محكمات ويتوعد الخارج عن هذه الأسس أشد العذاب، حيث تقع كل هذه المعاملات على أساس متين من وجوب القسط في الشهادة وعدم كتمها وتحريم قول الزور، وتلك أهم أسس إقامة العدل في جميع المعاملات بين الأفراد وفي ساحات القضاء بل تكفي وحدها لإقامة مجتمع العدل والاستقامة.

(يتبع)

(٢) سورة النحل، آية ٩٠. (٣) سورة النساء، آية ٥٨. (٤) سورة الأعراف، آية ٣٣.
(٥) سورة النساء، آية ٢٩. (٦) سورة هود، آية ٨٥. (٧) سورة البقرة، آية ١٨٨.
(٨) سورة البقرة، آية ٢٨٢. (٩) سورة الأنعام، آية ١٥٢. (١٠) سورة البقرة، آية ٢٨٣.
(١١) سورة الحج، آية ٣٠. (١٢) سورة الفرقان، آية ٧٢. (١٣) سورة النحل، آية ١٢٦.

الثقافة العربية والمستقبل

عبدالله بن الشيخ المحفوظ بن بيه*

هذا موضوع من أهم المواضيع الفكرية التى تطرح على الأمة، وبخاصة على المثقفين أسئلتها، وهو موضوع واسع الأرجاء مترامى الأطراف، جلى وغامض واضح ومشكل، حيث أن الصورة العامة لهذه الثقافة مدركة بالحس، وإن كانت معطيات هذه الصورة بعيدة الأغوار مظلمة الجوانب، ولهذا سيكون تعريف بعض المفردات خطوة أولى فى تشرفنا لاكتناه حقيقته.

إن الثقافة بالمعنى الحديث الذى يترجم كلمة culture فإنه مصطلح قد عرف كما يقول (كوبر وكلايكون) بمائة وخمسين تعريفًا لعل أبرزها تعريف لاروس الفرنسي، حيث يقول:

(إن الثقافة هى مجموع النظم الاجتماعية والمظاهر الفنية والدينية والفكرية التى تتميز بها وتحدد بها مجموعة أو مجتمع بالنسبة للآخر).

تعريف موسوعة دار الشروق حيث جاء فيه:

(إن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما يصدر عن الإنسان من إبداع أو إنجاز فكرى أو أدبى أو فنى أو علمى).

تعريف الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى فى كتابه (التنمية الثقافية من منظور إسلامى)، حيث قال: (إنها مجمل النشاط الإنسانى فى حقول الإبداع الفكرى والأدبى والفنى).

ويرى البعض: (أنها حصيلة النشاط الاجتماعى فى مجتمع وأساليب الحياة والسلوك وأنماط القيم السائدة فيه).

لكن التعريف الإنثروبولوجى الواسع الباحث عن المعتقدات واللغة والمؤسسات والعوائد والتقاليد لكل مجتمع، وعلاقات الكائنات البشرية بعضها ببعض هو التعريف الأولى فى نظرى. إلا أن المهم هنا أن نعرف أن مصطلح الثقافة مصطلح مراوغ أو يزعم الاستئثار بمدلوله، إلا أنه من المؤكد دخول الدين، والتقاليد، واللغة فى أفراد هذا المصطلح.

* عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه: وزير المصالح البشرية، ووزير العدل والشئون الإسلامية والتعليم بموريتانيا، والأمين الدائم لحزب الشعب – سابقاً أستاذ بجامعة الملك عبد العزيز – جدة، نائب رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين، عضو المجلس الأوروبى للإفتاء بدبلن – خبير بالمجمع الفقهى العالمى.

وسأبدأ بافتراض مسلمات

الأولى: افتراض أن الدين الإسلامى، واللغة العربية، والتقاليد العربية، والعادات: هى الثقافة العربية. فهذا الثلاثى هو الذى يشكل التخيل العربى وخلقية السلوك ومعيار القيم لدى العربى.

هنا اتفق مع إليوت عندما يقول: (إن الثقافة نتيجة الدين، والدين نتيجة الثقافة حسب الزاوية التى ينظر منها الناظر).

أتفق مع الفقرة الأولى وأعدل الفقرة الثانية لتكون (التدين نتيجة الثقافة).

وإذا كان هذا الدين هو الدين الإسلامى، وهذه الثقافة هى الثقافة العربية، فهما صنوان متلازمان ملازمة اللازم للملزوم والعرض للجرم.

فإلا يكنها أو تكنه فإنه
أخ أرضعته أمه بلبانها

فالإسلام إذن كان ولا يزال هو الآمر الناهى فى حياة العربى بوعى أو بدون وعى.

المسلمة الثانية: أنه توجد سمات مشتركة بين جميع العرب من معتقدات، وشعائر دينية، ولغة تواصل، وعادات وتقاليد، وحاضر مشترك، وطموح إلى نوع مشترك من المستقبل، وهى سمات تسمح بالحكم بوجود ثقافة عربية واحدة، بالرغم من تفاوت العلاقة بالموروث قربا وبعدا، واختلاف أطياف التفكير والممارسة بين مكونات الأمة، هذا فيما يتعلق بالجزء الأول من العنوان.

أما الجزء الثانى من العنوان وهو المتعلق بمستقبل الثقافة العربية، فإن المستقبل وإن كان ما يجرى فيه مجهولاً لا يعلمه إلا من لا يجرى عليه الزمان جل شأنه، وهو يجرى الزمان، ويمكن للإنسان أن يتعامل معه طبقًا للسنن الجارية التى تجعل الحاضر مقدمة للمستقبل؛ ذلك أن الحاضر هو نتيجة ماضينا، كما يقول الكاتب وليام فولكنر من جنوب أمريكا.

إن الحاضر بدأ منذ عشرة آلاف سنة، فإن حاضر ثقافتنا بدأ منذ حوالى أربعة آلاف سنة، منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ومنذ تزوج إسماعيل من قبيلة جرهم القحطانية وتكلم العربية، حيث أصبح للعرب بيت عبادة يحج إليه استوجب احترام الأمم أخرى وأثار فى بعض الأحيان غيرتها، فجالت فى جزيرتهم وصالت، التى لا يحسن اجتياب مفاوزها واصطياد مهاها وظبائها سواهم، فأنشأوا الحواضر فى أطرافها جيرانًا لأمم الفرس والروم، واحتفظوا بأرومتهم البدوية فى قلبها حيث صقلهم شظف العيش وخشونة الصحراء، فامتطوا صهوات الجياد وذللوا النجائب وناحوا على الرسوم والأطلال:

ما بكاء الكبير بالأطلال
وسؤالى وما ترد سؤالى

فأنشدوا أجمل القصائد، وحبروا أبدع الخطب فى عكاظ ومجنة وذى المجاز.

لكن خصائص العروبة قد تأكدت، وقيادتها وريادتها قد تأدبت وتأيدت،

حين انتشر الضياء من جبال فاران من مكة المكرمة، من الأرض عربة على الدنيا ببعث سيدنا محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة من البارى جل شأنه إلى الناس كافة، حيث حمل القرآن إلى العالم قيم الخير ومبادئ العدل والإحسان وأحسن عادات قيس وعبس وذبيان وتغلب وشيبان، فتفتقت لغة الضاد بأروع بيان، فاهتز وجدان الأمة وتشكل كيانها، ومدت أجنحتها على الشرق والغرب فى صحوة دينية وخلقية وفكرية وإنسانية لم يشهد لها التاريخ مثيلا، فقطفوا ثمار علوم من سبقهم من الأمم من غير خجل ولا وهن، فحققوا ونقدوا واستوعبوا وأضافوا وشادوا وأفادوا، وبذلوا خلاصة ما توصلت إليه الإنسانية فى أدق العلوم من فلك ورياضيات وصناعات إلى الإنسانية جمعاء، فأخذ الغرب منها سجلا كان أساس علومه وتقنياته عن طريق معابر البحر الأبيض المتوسط والأندلس.

وبعد قرون عدة تحولت الحركة إلى رتابة والإبداع إلى تقليد واتباع، فامتدت يد الزمان إليها، فاستطال الأعداء عليها؛ فأظلم صبحها وفزع سرحها؛ لأسباب معروفة قد يطول شرحها. ذلك هو ماضينا نحمله على كواهلنا بانتصاراته وهزائمه، بأعراسه ومآتمه، بكل تراكماته فى حاضرنا.

وإنه لقلق وإشفاق فى محله، وإن الأمر ليس حكرا علينا، فهذه فرنسا يرفع رئيسها عقيرته جاهرا بالشكوى أمام مؤتمر هانوى الفرنكفونى قائلا: (يجب ألا نستقى من نبع ثقافى وحيد، وينبغى أن نحترم الخصائص الثقافية لكل أمة). وحتى إن البعض يتخوف من الغزو الثقافى الإسلامى، فيكتب البرتو فى جريدة (بريد المساء) الإيطالية قبل أشهر ليقول: (ماذا لو أصبح نصف إيطاليا فقط مسيحيا والنصف الآخر مسلما؟).

إلا أن قلقنا على مستقبل ثقافتنا مبرر بأكثر من سبب، فهناك عوامل داخلية، أى من داخل ثقافتنا، وعوامل خارجية ترجع إلى تأثير ثقافة الغير فى ثقافتنا، لعل أبرز هذه الأسباب:

أولاً: وجود ثقافة عالمية عاتية عبل صيرها من رؤية التعدد الثقافى والحضارى تحاول تجاوز المراحل، واختزال الزمان والمكان؛ لتجعل من العالم قبيلة واحدة تتكلم لغة واحدة. تحاول أن تصهر القيم والأعراف فى بوتقة واحدة، يكون القدح المعلى فيها للأندى صوتا والأكثر عدة وعتادا وعددا. إنها عالمية تملك الإدارة والتخطيط والوسائل، وتتقمص الشرعية الإنسانية، ومن يراوده أدنى شك فليراجع وثائق مؤتمر السكان فى القاهرة، ومؤتمر المرأة فى بكين، وهى عولمة حملت المجلة الفرنسية revue littu-rair الصادرة فى نوفمبر على المطالبة بضرورة تضافر الجهود بين فرنسا وألمانيا لتثبيت الثقافة الأوروبية فى مواجهة العولمة.

ثانياً: العجز عن اقتراح مشروع ثقافى حضارى شامل يتسلم زمام المبادرة التاريخية، يحوز إجماع العرب ويوحد

قواهم أمام تحديات القرن القادم، وهذا لا يعنى عدم وجود مشروعات حضارية أصيلة وواعدة لدى جهات سوية راشدة من هذه الأمة.

ثالثاً: ردود فعل متباينة ومتضاربة عبر عنها جسم الأمة تجاه الحالتين السابقتين العالمية من خارج الأمة والعجز المحلى، ونعنى بجسم الأمة تلك الفعاليات المنتجة للمادة الثقافية أو المعيدة لإنتاجها، وهذه الردود قد تكون دوافعها حسنة، هدفها خارج عن نطاق السيطرة، إذ تنزع فيها مقود الحافلة وقفز الركاب جميعا إلى مقعد السائق كل واحد يريد أن يكون هو قائد الحافلة، فكانت النتيجة أن انقلبت الحافلة...، كما يقول مانسفلد واصفا الديمقراطية فى الدول النامية فى صورتها النمطية والظواهر المتزامنة مع التحول، لقد غابت روح التسامح وأعلنت حرب داحس والغبراء فى بعض الفضاءات العربية.

رابعاً: عقم الجامعات والمراكز العلمية: فلا إنتاج ولا إسهام فى اختراع، كما تؤكده دراسة أعدها بعض الخبراء، يقول فيها: (إنه فى كل سنة يعد حوالى مليونى بحث علمى، وتطبع مائة ألف مطبوعة علمية، نسبة إسهام المسلمين جميعا فيها ٣٪، فكم ستكون نسبة إسهام العرب فى تلك النسبة؟).

خامساً: ضحالة الإنتاج الفكرى فى مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية، وهى ضحالة لم تستثن الآداب شعرا ونثرا والفنون والعمارة.

سادساً: قصور واضح فى الدراسات الإسلامية لاستجلاء الشريعة نصا وروحا، وتقدم المنهج الوسطى الذى يحتوى على ثقافة الوئام وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وعن تكوين جيل قوى يفهم أمور دينه ودنياه، مما نتج عنه انفصام بين التعليمين الدينى والدنيوى.

سابعاً: انكماش الاجتهاد الفقهى، مما نتج عنه عجز الفقهاء عن مواكبة مستجدات العصر فى المعاملات وحتى فى العبادات.

ثامناً: فقر مدقع فى أكثر البلاد العربية فى وسائل الثقافة.

تاسعاً: أضف إلى ذلك التخلف التنموى الذى يجر موكب الفقر والبطالة وانسداد الأفق بالنسبة لملايين الشباب.

وقد نشأت عن هذه السمات أنساقا اجتماعية واقتصادية وتربوية غير قادرة على إشباع حاجات الإنسان العربى وإحلال الأمة بمجموعها فى مكانتها لتشكل فضاء محترما له مميزاته وخصائصه، منفتحا ومتواصلا مع الفضاءات الثقافية الأخرى، مما يشير إلى وجود خلل ما فى التمثل السلوكى للتراث فى الظرف الراهنة فى التواصل مع مزيج القيم الذى تقترحه المعاصرة على الذات القابلة.

وهو خلل يشترك فيه عاملان: داخلى وخارجى، تداخل فيه الأثر والتأثر والفعل والانفعال مع ما يعنيه من شطط وغلو واستنجاد بشتى السلبيات، إنه

خلل في العوالم الثلاثة كما سماها مالك بن نبي: عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء وفي علاقة هذه العوالم فيما بينها.

إن ثقافة هذا حاضرها وذلك ماضيها ماذا سيكون مستقبلها؟ إن الحديث عن مستقبلها إما أن يكون على أساس استشراف المستقبل من خلال مؤشرات الحاضر وتفاعلات العناصر المؤثرة إيجابا وسلبا، وإما يكون تمنيا واقتراحا على المستقبل، وهذا ما آثرناه في هذه المداخلة بحثا عن الحل للأزمة الثقافية.

فما هو الحل؟ وما هي معالمه وخطابه وأسسه ووسائله؟

لقد سمعنا عن وصفات كثيرة للحل، ولسان حال المستهدفين بها يقول:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع
إذا كان من تهواه ليس بذي وُدِّ

لقد افترضت أكثر الحلول راديكالية وجذرية وتطرفا، فمن داع إلى القطيعة مع التراث وما تصرف من مادة (ورث) فأدار ظهره للتاريخ وقلب له ظهر المجن وانبهر بكل حديث، ولم ير في الثقافة الأصلية إلا عيوب التخلف الاقتصادي والظلم الاجتماعي، فغنى وشدا بديمقراطية الغرب وتقدمه التكنولوجي وضمانه الاجتماعي.. إلخ. لقد جربت ذلك إحدى الأمم فلم تكن تجربتها قمة في النجاح.

ومن داع إلى التمسك بالماضي القريب وذكرياته، ولم ير أصحاب هذا الحل في الغرب إلا الانحلال الخلقي والتفكك الأسري وملاجئ الكبار والمسنين آباء وأجدادا، والتبرم بالحياة الذي يصل إلى حد محاولة الهروب منها بالقتل، فقد أكدت الإحصائيات في فرنسا أنه في كل سنة تسجل ١٦٥ ألف محاولة انتحار تصل منها اثنا عشر ألفا إلى انتهاء الحياة.

إن في كلا الموقفين شططا وغلوا، إن القطيعة مع التراث خطيئة والتقوقع فيه خطأ. إن الذي أقترحه هو مقاربة للحل أو تدرج للحل وليس وهو الحل النهائي الأبدي كما يحلو للكثيرين منا أن يصفوا حلولهم لمثل هذه القضايا، وإن الحل الذي أقترحه يرفع شعارا واحدا هو شعار التجدد.

ومصطلح التجديد ليس غريبا على ثقافتنا، فقد ورد في الحديث:

(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها)[١].

وقد يكون هذا المجدد عالما مجتهدا، كالشافعي مخترع علم أصول الفقه وآليات التعامل مع نصوص الشريعة، وقد يكون ملكا عادلا كعمر بن عبد العزيز، وهذا بنص العلماء الأوائل.

وإن مصطلح التجديد كان معروفا للجاهلية. قال زهير بن أبي سلمى:

هم جددوا أحكام كل مضلة
من العقم لا يلفى لأمثالها فصل

قال الأعلم الشنتمري: يريد بالتجديد أنهم بينوا أمور الحرب، فتجديد تقاليد الحرب والشجاعة هو تجديد الجاهلية.

ومعالم هذا التجديد تتمثل في معادلة: التراث والمعاصرة: فما هي معالمة إذن؟

إنه تعامل جديد مع التراث بالتعمق فيه، والاستنجاد بإيجابياته، وتحريره وتأصيله، والتنقيب في أعماقه، وتجليته بكل إمكانيات الإشراق حتى يصبح حيا، فإن الثقافة الميتة لا يمكن أن تكون إيجابية، ولا يمكن أن تتعامل مع الثقافات الأخرى إلا بخنوع وتبعية.

إنه تعامل جديد كذلك مع التراث يهدف إلى استكشاف فضاءات الالتقاء ومجالات التماس والتقاطع، وتوسيع قنوات التواصل والاندفاع بقوة إلى المعاصرة فكرا وعلما بندية وكفاءة، وذلك باحتكام إلى ثلاث قيم أساسية: (العقلانية - العلم - التسامح).

بناء على هذه الجدلية بين ثقافة أصيلة حية وثقافة عالمية ديناميكية فإن النتيجة ستكون تنسيب المواقف من بعض القيم، ومن بعض الأشياء، ومن بعض الأفكار، وتجسير العلاقة بين الأفكار والأشخاص، فبدلا من واقع قيم تهاجم وقيم تقاوم، سيكون التعاون والتعاضد والتآزر، ولهذا فإن التجديد لن يكون هدما للتراث الأصيل بل سيكون عملا من خلاله، ولن يكون ترميما وتلفيقا بل سيكون دمجا وأخذا وعطاء، فالنهر يتجه إلى مصبه ويظل أمينا لمنبعه، كما يقول فيلسوف غربي.

إنه إحياء لثقافتنا عبر منطلقات جديدة بآليات العصر ووسائله، إن التراث سيكون إطار المرجعية، وإن التجديد هو توسيع وعاء الثوابت لتستوعب الحديث، وقولبة الحديث ليستوعب، إنه انطلاق من عقال الحيرة، وتزحزح عن مفترق الطرق، لسلوك الجادة وولوج الفضاء الرحب في انسجام بين الضمير الجمعي ومتطلبات العصر، إنه مزج الأصالة في أجلى الضمير الجمعي ومتطلبات العصر، إنه مزج الأصالة في أجلى صورها بالمعاصرة في أنجح وسائلها وصيغتها. إن الخيار الاستراتيجي للتجديد، هو التحرك من خلال التراث إلى المعاصرة ليكون التفاعل بين الاثنين أساس الصيرورة الثقافية.

(يتبع)



(١) رواه أبو داود، والبيهقي، والحاكم.

التنوير في إسقاط التدبير

تأليف/ السكندري ابن عطاء الله
(١٢٦٠م-١٣٠٩م)

التعريف بالمؤلف:

هو تاج الدين أبو الفضل بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، ولد سنة (١٢٦٠م) بدأ فتفقه ودرس التفسير والحديث واللغة والأدب على شيوخ له في مصر، ثم توج حياته العلمية بالسلوك التربوي والسعي إلى تزكية النفس على يد عالمين جليلين أحدهما الشيخ أبو العباس المرسي أحمد بن عمر، الذي اشتهر إلى جانب غزارة علمه بالصلاح والتقوى، والآخر أبو الحسن الشاذلي علي بن عبدالله.

من كتبه كتاب «الحكم العطائية»، و«مفتاح الفلاح»، و«تاج العروس» توفي بمصر سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (١٣٢) صفحة من القطع الصغير، يتناول فكرة أن الله سبحانه وتعالى هو المدبر لهذه الدنيا والخلق، ويبين أحكام التكليف والأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد وأحكام التصريف، ويبين فائدة أن الله إذا أراد أن يقوى عبداً على ما يريد أن يورد عليه من وجود حكمة ألبسه من أنوار وصفه وكساه من وجود نعمته ويبين عشرة أسباب توجب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده منها:

١- إنما يعينهم ذلك على حمل الأقدار ورود الأنوار.

٢- إنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام.

٣- إنما يعينهم على حمل البلايا واردات العطايا.

٤- إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره.

٥- إنما صبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه.

٦- إنما صبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود جماله.

٧- إنما صبرهم على القضاء وعلمهم بأن الصبر يورث الرضا.

٨- إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار.

٩- إنما قواهم على حمل أثقال التكليف ورود أسرار التصريف.

وهنا أشار إلى أن الفرد كلما شكر الله على نعمه زاده، وفي هذه الزيادة سبب لمثابرة الفرد Persistence (ص١٠) للاستمرار في شكر الله.

١٠- إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره.

ولتعلم أن الذي يحملك على إسقاط التدبير مع الله والاختيار أمور منها: علمك بسابق تدبير الله فيك، وأن تعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها، وعلمك بأن القدر لا يجرى على حسب تدبيرك بل أكثر ما يكون أنت له مدبر، وأن الله - تعالى - هو المتولى لتدبير مملكته علوها وسفلها، وأنك ملك لله وليس لك تدبير ما هو لغيرك فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره، وأنك في ضيافة الله، لأن الدنيا دار الله وأنت نازل فيها عليه، ونظر العبد إلى قيومية الله تعالى في كل شيء، واشتغال العبد بوظائف العبودية التي هي معناة بالعمر، وأنك عبد مربوب وحق العبد أن لا يحول هما مع سيده مع اتصافه بالأفضال، عدم العلم بعواقب الأمور فربما دبرت أمرا.

ثم عرض تقرير وبيان لذكر قواعد التدبير ومنازعة المقادير، وأن الأشياء تذم وتمدح بما تؤدى إليه، فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله وعطلك عن القيام بخدمة الله وصدك عن معاملة الله والتدبير المحمود ما ليس كذلك.

وبين أن النفس من شأنها التشبه والمحاكاة والتزين بصفات من قارنها والمضاهاة فصحبتك للغافلين معولة على وجود الغفلة، وهو ما يشير إلى أن التعلم يحدث من خلال الاقتداء Modeling (ص٥٣).

وأن هناك أمورا ينبغي للمتسببين أن يلتزموها:

١- ربط العزم مع الله - تعالى - قبل الخروج من المنزل على العفو.

٢- أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه ويسأل الله السلامة في مخرجه.

٣- إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه.

٤- يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول: «بسم الله توكلت على الله».

٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وليجعل ذلك شكرا لنعمة القوة والتقوى.

٦- أن يكون مشيه بالسكينة والوقار.

٧- أن يذكر الله - تعالى - في سوقه.

٨- أن لا يشغله ما هو فيه من المبايعة والمعاش عن النهوض إلى الصلاة.

٩- ترك الحلف والإطراء والسلف.

١٠- كف لسانه عن الغيبة والنميمة.

وإن هم العبد مناجاة مولاه، ولهذا فوائد منها:

- الفائدة الأولى: أن يكون المؤمن طالبا من ربه ما قل.
- الفائدة الثانية: أنه ﷺ نادى متعلقا باسم الربوبية، لأنه المناسب في هذا المكان.
- الفائدة الثالثة: أني لم أنزلت إلى من خير فقير.
- الفائدة الرابعة: أن الطلب من الله لا يناقض مقام العبودية وغيرها من الفوائد الأخرى.

وبين أنه لو توكل العبد على الله حق توكله يرزقه كما يرزق الطير وبين وجوه الإنفاق والادخار ووجوه البخل وما يتعلق به الوجوب كمن أخرج زكاة ماله ثم لم يبذل منه شيئا وبين فضل الله على عبده وكيف للعبد أن يشكر ويطيع ربه ثم أنهى الكتاب بدعاء.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- المثابرة Persistence - الاقتداء Modeling

الملخص والعرض

د. نشوة عبدالتواب

تاريخ الأقليات

(٢)

لفضيلة الشيخ عبد المجيد صبح

لم يعرف ما يسمى (حقوق الأقليات) إلا فى القرن الثامن عشر، حيث نصت المعاهدات التى عقدتها الدول الأوروبية فى هذا القرن على هذا المصطلح، إلا أن تطبيق هذا النظام أثار صعوبات كثيرة لدى (عصبة الأمم) التى تكونت بعد الحرب العالمية الأولى والتى زعم منشؤها أنها أقيمت لحماية الشعوب على اختلافها؛ ولذلك عندما انتهت الحرب العالمية الثانية لم تتضمن معاهدات الصلح نظاما خاصا بحماية الأقليات، ولم ينص ميثاق (الأمم المتحدة) التى تكونت بعد الحرب العالمية الثانية، بديلا عن (عصبة الأمم)- على شيء يتعلق بحماية الأقليات.فيا عجبا ممن أنشأ المصطلح، ثم لم يطبقه، ثم تناساه.

استغلال المستعمرين لهذا المصطلح:

من المعروف فى تاريخ الاستعمار الأوروبى وزحفه على بلاد المسلمين تعلله بدعوى حماية حقوق الأقليات وتعلات أخرى وتاريخ الاستعمار الإنجليزى فى مصر منذ ١٨٨٢ شاهد صدق على استعمالهم لهذا المصطلح مع محاولات إثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط ومحاولتهم استغلالهم له وتظاهرهم بالرغبة فى تأييدهم بحجة وحدة الدين معهم وتحريضهم على الانضمام إليهم تأييدا لاستعمارهم، والحقيقة أنهم على مذاهب تقطع الود بينهم والحروب الدينية بين مذاهبهم الدينية امتدت بينهم عشرات السنين فى قارة أوروبا، فأنا لهم أن يأتوا إلى مصر لحماية أقباطها. إنها تعلة الاستعمار، ثم ورثت أمريكا من الإمبراطورية البريطانية مسألة حماية الأقليات لتضمها إلى كيدها وكذبها لغرض ما سمته (بالنظام العالمى الجديد) حتى جاء وفد الكونجرس مصر ليسأل عن حال الأقباط. فيا ملائكة الرحمة ارحموا أهل العراق وانصروا المظلومين من أهل فلسطين وأهل البوسنة وقيسوا عملكم بهذه الأمثلة من سيرة رسول الإسلام إذ استسقى فسقاه يهودى فدعا له بقوله جملك الله فما رؤى به الشيب حتى مات (صبح الأعشى جـ٩ / ٢٤٧) وبسبب هذا التشريع وهذا المسلك الأخلاقى لم يحصل لليهود ولا للنصارى فى بلاد المسلمين ما حصل لليهود فى بلاد الغرب من المسيحيين ولا مثل ما حصل للمذاهب المسيحية من حروب بلغت أحيانا مائة سنة متوالية، أو قريبا من ذلك، مما استوجب - بحق - كلمة (جو ستوف لوبوت): لم يعرف التاريخ فاتحا أعدل من العرب

عاش الغرب كله على التمييز بين الناس بسبب الجنس أو العقيدة

فكان الأوروبيون إبان نهضتهم ينظرون إلى الجنس الأسود والأصفر على أنهم لم يخلقوا للنهوض الفكرى والعلمى الذى خلق له الأوروبيون بزعمهم.

كما كانوا يميزون بين الناس (بالإيمان والاعتقاد) ومن ثم كان اضطهادهم لليهود فى كل دول أوروبا ولاسيما أسبانيا وانجلترا فى الوقت الذى كان ينعم أصحاب هذه الديانات بل وغيرها كالبوذية وغيرها ممن لا يذكرون أصحاب الكتب السماوية بالأمان فى الدول الإسلامية. هذا ومن الجدير بالذكر أن مؤسس الخلافة العثمانية (عثمان) ودولته إسلامية رشح يونانيه وهى مسيحية زوجة لابنه. ومن مظاهر التسامح فى الدول العثمانية أن جعلت لكل أصحاب دين من ينظر فى أحوالهم وقضاياهم الدينية وأحوالهم الشخصية دون تدخل من الدول.

وذلك على نحو ما فعل الرسول ﷺ مع يهود المدينة وهذا يدل على امتداد التسامح الإسلامى مع الطوائف غير المسلمة حتى خلافة سقوط الخلافة الإسلامية (١٩٢٤م) مما يدل على تأصل هذا التشريع فى الإسلام وتاريخه وبذلك كانت الدولة العثمانية أسبق فى (تقرير) حقوق الإنسان - فى العصر الحديث - من دول أوروبا التى كانت (فى هذا التاريخ نفسه ومن قبله) توجد بها تفرقة دينية.

هذا دينهم أبدا ودينا

فى ندوة فى قناة الجزيرة (السبت ١٨ / ١٢ / ٢٠٠٤م) مع فضلاء من علية رجال الدين المسيحى قرروا ومعهم وزير مسيحى جميعاً أن نصارى فلسطين ولاسيما نصارى (بيت لحم) فى أزمة شديدة بسبب كيد اليهود الصهاينة الإسرائيليين الذين يعملون على إخلاء فلسطين كلها وبيت لحم (مولد المسيح) خاصة منهم وتفريغ أرضهم منهم كما تسع لإحلال اليهود بأرضهم فيطرد أهل الأرض ومالكوها ووارثوها فى تاريخهم الطويل وتعطى لغير مستحق.

هذا دينهم أبدا وذلك الذى تقدم من سماحة الإسلام وتاريخ المسلمين - ذلك هو دينا ! أولا يذكرون رحمة المسلمين بهم وإقرارهم على عقيدتهم وإعطائهم حق المواطنة الذى تساووا به والمسلمون؟! أرأيت إلى ما فعلوا بأهل فلسطين نصارى ومسلمين من القتل والتشريد وهدم البيوت وتجريف الأراضى المزروعة ولم يرحموا شيخا ولا طفلا ولا امرأة.. مما شهد به العالم أجمع ضاربة عرض الحائط بكل القوانين الدولية. وهذا كله يحظى بالتأييد الأمريكى المطلق وتحت صمت العالم كله (دعاة حقوق الإنسان)!

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم فى المنزل الخشن

بيان حقيقة مصطلحين

يكثر اللغو حول مصطلحين إسلاميين متعلقان بأهل الكتاب يهوداً أو نصارى وتعلق بهما كثيرون ممن يطلبون العيب للبرئ ومن يشفى صدورهم الطعن فى الإسلام هذان المصطلحان هما:

أهل الذمة، والجزية ويحسن فى مناسبة هذا البحث أن نكشف الغمة ونزيل الشبهة إحقاقاً للحق ودحضاً للباطل فأقول: عندما تقول العرب فلان فى ذمة فلان: أو الأمر الفلانى فى ذمتى، فمعنى ذلك: الالتزام به، والقيام على رعايته، وبذل كل الجهد فى حفظه وصيانته،

ولذلك جاء في حديث رسول الله (ﷺ)، من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة الرسول، فالمسلم - بنص حديث رسول الله (ذمى) : في رعاية الله ورعاية رسوله وكذلك هو في ذمة الدول الإسلامية.

فاليهودى أو النصرانى الذى ارتضى العيش فى دولة الإسلام، ومع المسلمين (ذمى) له حماية الدولة وعلى المسلمين أفرادا وجماعات مثل ما على دولتهم من واجب هذه الرعاية والحفاظ.

ومن تشريعات هذه الرعاية أن (الذمى) لو اعتدت عليه دولة أخرى أو أسرته ولم يكن هناك حيلة (دبلوماسية أو سياسية) ولم يكن إلا الحرب لتخليصه وجب على المسلمين إعلان هذه الحرب لحمايته وتخليصه. ومن تطبيقات هذا الحكم أن نصارى فلسطين الذين تكيد لهم (الصهيونية الإسرائيلية) بما تقدم أن المسلمين جميعا دولة وأفراد ملزمون بحمايتهم مما يكاد لهم! هذا معنى (الذمى - والذمة) في معنى اللفظ وحكم الشريعة ولكن الكلمات - فى تطورها تعدى معانيها في نفسها إلى معانيها في نفوس الناس وهذا ما حصل للفظ (الذمى) حيث تعدى معناه فى نفسه بمعناه الوضعى، ومعناه الشرعى، إلى معنى فى نفس الناس بما يدل على دونية المنزلة، والإسلام غير مسئول عن هذا التطور الذى يصيب معانى الكلمات كما يصيب غيرها وعلينا أن نستحضر تلك النصوص التى سوت - فى المواطنة - بين جميع المواطنين - والتى قررت حرية الاعتقاد إلى حد أباحت فيه للمخالفين مناظرة المسلمين فى صميم دينهم من غير خوف عليهم ولا تثريب، حتى إن بعض هذه المجادلات والمناظرات كانت تعقد فى مساجد المسلمين.

من ذلك ما ذكره ابن نجيم فى كتابه : (الأشباه والنظائر) من أن ملك الروم أرسل إلى خليفة المسلمين رسولاً ومعه مال كثير وثلاثة أسئلة، إن أجابوا عنها كان لهم المال وإن هم لم يجيبوا فعليهم الجزية لملك الروم وعرضت الأسئلة على العلماء فى مسجد الكوفة فلم يأت أحد منهم بما فيه مقنع، وكان الصبى أبو حنيفة حاضرا مع أبيه فاستأذنه أن يجيب أسئلة الرومى، فلم يأذن له فاستأذن الخليفة فأذن له (أنظر أسلوب التربية لصبى من أعلى مراكز الدولة) وكان الرومى على المنبر (تأمل : نصرانى - يجادل المسلمين ويتحداهم - فى مسجدهم - ويعتلى منبرهم - وفى حضرة الخليفة وبإذن منه) قال أبو حنيفة للرومى : اسئل أنت؟ قال الرومى نعم.

قال أبو حنيفة : انزل : مكانك الأرض ومكانى المنبر، صعد أبو حنيفة المنبر وقال للرومى : سل، فقال الرومى : أى شيء كان قبل الله؟ قال أبو حنيفة : هل تعرف العدد؟ قال : نعم، قال أبو حنيفة : ما قبل الواحد قال : هو الأول ليس قبله شيء! قال أبو حنيفة : إذا لم يكن قبل الواحد اللفظى شيء. فكيف يكون قبل الواحد الحقيقى شئ؟ قال الرومى : فى أى جهة وجه الله؟ قال أبو حنيفة : إذا أوقدت السرج : فإلي أي جهة نوره؟ قال الرومى : ذلك نور تستوى فيه الجهات. قال أبو حنيفة : إذا كان النور المستعار الزائل لا وجه له إلى جهة فنور خالق السموات والأرض الباقى الدائم الفيض كيف يكون له جهة؟! قال الرومى : بماذا يشتغل الله اليوم؟ قال أبو حنيفة : إذا كان على المنبر شبه مثلك أنزله. وإذا كان على الأرض موحد مثلى رفعه، كل يوم هو فى شأن فترك الرومى المال وعاد إلى الروم.

بربك هل علمت مثل هذه الحرية فى الرأى

التى تنال أعظم ما فى عقيدة المسلمين يشيه عليهم فيها من لا يؤمن بها ثم يرحل من بلادهم إلى بلاده آمنا لم يمسه سوء؟! ومثل هذا مدون مسطور يعرفه كل من له صلة وثيقة بالتاريخ الفكرى للمسلمين وحسبك منه كتاب (مناقب الإسلام) لأبى الحسن العامرى المتوفى سنة ٣٨١هـ (٩٩٢م).

الجزية

لقد أطلنا الكلام عن مصطلح الذمة والذمى ما يضطرنا أن نوجز الكلام عن مصطلح الجزية، وما الجزية إلا ضريبة يسيرة يؤديها غير المسلم المقيم بين ظهرانى المسلمين نظير ما يتمتع به من حقوق كثيرة فله حقوقه فى حريته الدينية فلا يفتن فى دينه ولا يعتدى عليه ولا فى ماله ولا فى نفسه. فسارق ماله من المسلمين يقام عليه حد شريعة الإسلام، كما لو سرق مال مسلم وقاتله ظلما من المسلمين يقتل به ولا يحميه إسلامه من القصاص. وإذا قارنا ما يجب على المسلم من فريضة الزكاة والكفارات المالية وفريضة الإنفاق المالى فى الجهاد وبذل النفس فيه، والصدقات المطلقة على المحتاج من المسلمين وغير المسلمين - إذا علمنا ذلك وجدنا غير المسلم فى بلاد المسلمين أسعد حظاً وأيسر تكليفاً من المسلمين، كيف إذا قلنا أن غير المسلمين قبل الإسلام كانوا يؤدون لدولتهم والدول التى تستعمرهم فوق ما يؤدون للمسلمين وهذا من غير التزام للدولة قبلهم برعاية حقوقهم. فشتان ما بين المعاملتين وأنت خبير بما تفعل الدول المنتصرة بالمهزومين من الاستيلاء على مقدراتهم وتكليفهم بتعويض المنتصرين عما بذلوا وخسروا فى الحرب، دع عنك ضياع شخصية المهزوم والتحكم فى حريته وجميع ما يخصه والأمثلة معلومة ومشهورة.

مسألة السامية

لفظ (الساميون) نسبة إلى سام بن نوح مصطلح يتسع ليشمل : العرب الكنعانيين الآشوريين والآراميين ومنهم اليهود وغير هؤلاء. أما جماعة اليهود التى اخترقت به شبه جزيرة سيناء إلى شرق دلتا النيل واستقرت بعد ذلك فى فلسطين فقد كونت أمة دينية جديدة، وما إن بدأت الحروب الصليبية حتى بدأ اضطهاد اليهود مرة أخرى. فى بلاد الغرب واستمر حتى القرن الثامن عشر فحرم عليهم امتلاك الأراضى وكثير من المهن الحرة ولم يترك لهم إلا التجارة الصغيرة وإقراض النقود بالربا، وطرد كثير منهم من فرنسا وانجلترا وأسبانيا والبرتغال فلجأوا إلى هولندا وبولندا وبلاد الدولة العثمانية التى حمتهم وعرفت لهم حقوق الإنسان فلما قامت النهضة (الرأسمالية) وبدأت النهضة الصناعية واحتاجت دول أوروبا إلى مال اليهود - دعا ذلك إلى التسامح معهم. هذا التسامح (النفعى) الذى لم يكن عن إيمان بحق الإنسان لم يعترف به لهم دفعة واحدة فى بلاد أوروبا المختلفة فلم يمنحوا حقوقهم فى روسيا إلا بعد ثورة ١٩١٧م وأدى تحرير اليهود التدريجى إلى ظهور تيارين متعارضين : أولهما يدعو إلى (رسالة ثقافية) وعلى هذا أكثر اليهود، والآخر، (وعليه أقل اليهود) وهم الذين يسمون باسم الصهيونيين يدعون إلى إيجاد (كيان سياسى لليهود) تزعمه هرتزل فى آخر القرن التاسع عشر وهذا الاتجاه الثانى هو الذى قاومته واضطهدته ألمانيا النازية فكان من أسباب النكبة الكبرى على أهل فلسطين والعرب والمسلمين عامة وتحمل وزره غير جارمه وكان هذا (مكافأة) لجميل الخلافة

التركية التى آوتهم من تشريد وآمنتهم من خوف (وجازوا) تاريخ التسامح الإسلامى من بدايته إلى عصرنا ما جوزى به (سينمار).

وما زال (سينمار) العرب و المسلمين يلقى من هذا التيار السياسى الصهيونى ما تقشعر منه الجلود وتشيب له الولدان واستطاعوا - بعد الحركة النازية - أن يجعلوا مصطلح (السامية) خاصاً بأصحاب التيار الثانى وشعاراً على اضطهادهم يستدرون به عطف الدول الغربية ويستحلون به الأموال الألمانية فى حين أن الذين أبادهم الطغيان النازى أو شردهم من غير اليهود أضعاف مضاعفة ممن اضطهدوا من اليهود.

ومن وسائل استغلالهم لجرائم النازية ما هو موجود الآن قريباً من مدنية ميونخ الألمانية: بناية سموها المحرقة تذكيراً مما فعله هتلر وقريباً من هذه (المحرقة) بناية تنتشر على جدرانها لوحات تصور - بحسب رسامها - جوانب من هذا الاضطهاد ويمكنك التحقق من مبالغاتهم واستغلالهم ما أصابهم فى استدرار العطف والتأييد - يمكنك الرجوع إلى كتابى الفيلسوف الفرنسى (جارودى): ملف إسرائيل وكتاب الأساطير المكونة لدولة إسرائيل.

وقريباً من مبنى الكونجرس الأمريكى أقاموا متحفاً لهذا الغرض نفسه على غرار ما هو بمدينة ميونخ واتخذوا من اضطهاد (النازية) لهم وسيلة لما فعلوا ويفعلون بالعرب والمسلمين والمسيحيين بفلسطين واتخذوا الذين اضطهدوهم من الأوروبيين درعاً لحمايتهم أو وسيلة لتثبيت دولتهم على حساب الذين استضعفوا ولا يملكون من الإسلام ما أمرهم الإسلام به من إعداد ما يستطيعون من قوة حماية للإسلام وتحقيقاً للأمان وأكلت الصهيونية سحتاً معروف المسلمين التاريخى.

ولا حرج على الأوروبيين والأمريكان من تأييد الصهيونية فى ذلك ما دام المعتدى عليهم ليسوا من الغربيين. ولا بأس عليهم أن يعالجوا جريمة النازية بجرائم أشد وأنكى. فأين الضمير وأين حقوق الإنسان وأين رعاية الأقليات؟!

فهل ترى فى العجائب - والعجائب جمة - من أن يدفع البرئ صاحب الفضل السابق والتاريخ المنير ثمن اضطهاد لم يفعله. إنها حضارة الغرب ومدنيته وعدالة الصهيونية!!

ومن لطائف الوقائع فى استثمارهم لتاريخ اضطهادهم. أن أحدهم كان يحاضر فى إحدى مدن ألمانيا فيما أصابهم من النظام النازى ويبكى أو تباكى حتى أبكى كثيراً من الحاضرين وفى النهاية قام له رجل باكستانى وقال له: عندى سؤال واحد أرجو الإجابة عليه: لماذا اليهود دون غيرهم هم الذين وقع عليهم الاضطهاد على مر تاريخهم ومن شعوب متعددة ودول مختلفة إلى ما ذكرت مما فعل هتلر. لماذا اليهود دون غيرهم؟! فسقط فى يد المحاضر وخرس لسانه فلم يحر جواباً وجفت دموع الباكين وكفت تعابير وجوههم عن الأسى.

ألا ترى بعد كل ما ذكر أن الإسلام بعقيدته وأحكام علاقاته الدولية وما فرض من أخلاق إنسانية هو النظام الوحيد الذى يحقق للأمم وحدتها وهو النظام العالمى الصالح لحل مشكلات العالم والنهوض به من عثراته التى مزقته إرباً إرباً وفرقت أممه إلى قوى ومستضعف وغنى وفقير وشمال وجنوب وامتهنت كرامته...

هل آمنت بكلمة فيلسوف الإنجليز (برنارد شو): وما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يحل مشكلاته وهو يشرب فنجانا من القهوة.

إلى قداسة بابا الفاتيكان

(صاحب الافتراءات المتكررة على الإسلام)



للشاعر محيى الدين عطية

وأى قداسة نُسبت إليكم ... إذا كانت بضاعتكم سبايا

وكان الحقد فى يدكم مدادا ... يحيل خطابكم ظِفْراً ونابا

أجهلٌ؟ أم رياء؟ أم تُراها ... مؤامرة، وقد لبست حجابا

تُحاك بها الدسائس من بعيد ... وتحصد فى مسيرتها الرقابا

أفى الإسلام شر حين يوصى ... بكم خيراً، ويحترم الكتابا؟!

أفى الإسلام عدوان وحرب؟! ... سل التاريخ، يصدقك الجوابا

وهل كان الجهاد سوى ضمان ... لأهل الأرض أن يروا الشهابا

بلا قهر وإرغام، ولكن ... بنور العقل، قد لبوا رغابا

وهل كان الجهاد سوى دفاع ... نرد به عن الأرض الذئابا؟

ولولا أن دين الله أوصى ... بكم خيراً، لأثقلنا الحسابا

ومن يدرى فقد نلقاك يوما ... وقلبك قد تفتح، واستجابا



نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر



(٢)

أ.د. عصام أحمد البشير
الأمين العام المساعد للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

مضمون الخطاب

الظاهر والباطن: خطاب التزكية

إن الترقي في مدارج العبودية يستلزم مراعاة التلازم بين الظاهر والباطن وتكاملهما.. بإقامة الشعائر والمناسك الظاهرة، ومراقبة الخواطر والمشاعر الباطنة.. وهذا ما يجعل المسلم سائراً إلى ربه سائراً صحيحاً موافقاً للمطلوب منه: ظاهراً وباطناً، بحيث يتوازن كمال الهيئات الظاهرة مع جمال الكيفيات الباطنة، بمراعاة تامة لفقهي الظاهر والباطن وأعمال القلوب والجوارح.. تزكية وإحساناً.

والأمر في هذا هو كما يقول الإمام المربي ابن عطاء الله السكندري: «الأعمال صورة قائمة، وأرواحها: وجود سر الإخلاص (وما إليه من معان وأخلاق رفيعة) فيها!»[1].

وهذا من مكارم الأخلاق العالية التي لم يبعث النبي الأكرم ﷺ إلا ليتممها (كما روى البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد وغيرهما بأسانيد صحيحة).

ويتصل بهذا.. ضرورة أن يعمل الخطاب الإسلامي المعاصر على إزالة حال الفصام النكد الذي لازم أقواماً من أهل الرقائق غير المتحققين بالاقتداء بالهدى المشروع، وأقواماً ممن قصروا الاتباع على الهدى الظاهر الخالي من التزكية للروح والجوهر.

(١) الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري، دار البصائر/ القاهرة ٢٠٠٤، ص٣٠ (الحكمة العاشرة)، ط/١

التنزيل والتأويل: خطاب الدين.. وخطاب التدين

أدى الخلل في إنزال الدين (المطلق الإلهي/ المثالي/ الكلي) على واقع الناس المعيش (النسبي/ الواقعي/ الجزئي) إلى طرفي نقيض: من خفتت في نفوسهم دواعي الدين وكاد حضوره يتلاشى في حياتهم اليومية، ومن ازداد استمساكهم بأحكامه الظاهرة من غير منهج متزن.

وإذ يقع الاتفاق على أن «الدين» محفوظ بكفالة الله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

يبقى الأمر في الكيفية التي تكون بها إثارة النزوع إلى «التدين» وتفجير ينابيعه في النفس البشرية، ومن ثم.. تقويم السلوك الفردي والاجتماعي بنهج الدين القويم.

ومن هنا تأتي أهمية التفات الخطاب الإسلامي إلى «فقه التدين» (منهج تنزيل الدين في واقع الحياة اليومية، يسميه الشاطبي: «الاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط»)[2] بموازاة الاهتمام بـ«فقه الدين» (منهج فهم النصوص الدينية واستنباط الأحكام الشرعية بالتهاون بها.. من جهة، أو بتنزيلها على غير محالها.. من جهة أخرى. وبمثل هذا التوازن في النظر والعمل يتعافى المسلم من علل «التدين المغشوش»[3] (كما كان يسميه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله) التي لحقت بالأمم السابقة: تفريطا وإفراطاً، إسرافاً وتقتيراً.

تراث السلف ومعارف الخلف: خطاب الأصل والعصر

ضرورة احترام تراث الأمة بوصفه إنجازاً بشرياً حاول فيه أسلافنا تقديم أفضل ما عرفوه ورأوه نافعاً للفرد والأمة في زمانهم، والتعامل معه دون تقديس ولا تبخيس، ودون الاستنامة إليه أو القطيعة معه. بل.. بالنظر الفاحص والتأمل الواعي، والقراءة الناقدة.. تقديرا للجهود المبذولة فيه، وتسديدا لخطئها، وإكمالا لنقصها، ولنبني عليها من ثَمَّ – بما يناسب تغير الزمان والأحوال – ثقافة معاصرة تحقق مقاصد الشرع، وترعى مصالح الخلق.

ويقتضي هذا التوسط بين الجمود على الموروث وإيجاب التقليد وغلق باب الاجتهاد – نظرياً أو عملياً – وبين جحود الموروث والخروج عن المذاهب جملة وفتح مصاريع باب الاجتهاد لكل من هب ودرج!

بل (وبناء على ما سبق في «المنهجية: المنهج.. والمذهب»).. احترام المذاهب المتبعة والمدارس العلمية المخدومة دون إغلاق باب الانتقاد الجاد والتجديد الواجب، وإيجاب الاجتهاد على أهله وإيقاعه في محله وتنظيم ما يتعلق بالمصالح والمقاصد الكبرى في هيئات وهياكل منتظمة، ولجم العوام عن التصدر في أمور الأمة العامة، أو الخوض في المسائل الكلامية الفلسفية

(٢) الإمام الشاطبي، كتاب الموافقات، ج٤/ ٨٩ – ٩٠.

(٣) انظر: الشيخ محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص٨٦ وما بعدها.

الدقيقة التي لا تصلح لهم ولا يصلحون لها.. وقديما ألف أبو حامد الغزالي رسالة سماها «إلجام العوام عن علم الكلام»!

والارتباط بالأصل يقتضي الالتزام بالوحي الإلهي مصدرا معرفيا حاكما، واتباع الشرع الحنيف فيما أمر ونهى، وتحقيق مراد الله تعالى في الظواهر والبواطن (كل ذلك عبر منهج علمي موثق استغرق تأصيله وضبطه أعمار وجهود علماء أثبات مخلصين على مر القرون).

والاتصال بالعصر يقتضي كذلك: استحصال روح العصر، وتحصيل أسباب الرقي المادي والتقدم الحضاري، والضرب بسهامنا في بناء الإنسانية بكل ما يمكننا.. وهو كثير!

التجديد والتبديد: خطاب الوعي

يتعين تجديد الخطاب الإسلامي، وإعادة النظر في كثير من قضاياه الفكرية ومفاهيمه الحاكمة، والممارسات السلوكية المرتبطة به، ولكن ليس لأن مصلحة قوى مهيمنة هنا أو هناك تدعو إلى ذلك من خلال تبديد دور الإسلام وحضوره في المجتمعات المسلمة، وليس استجابة لدعوات الاغتراب الحضاري وعلمنة الإسلام وتفريغه من محتواه الجهادي والاجتهادي. ذلك.. أن التجديد الديني سنة كونية وقانون تاريخي على مر القرون السابقة، ولأن الدواعي الموضوعية تدفع إلى التجديد، كي يستعيد الإسلام فعاليته العميقة في إصلاح المجتمعات الإسلامية، وحل المشكلات المعاصرة التي تواجه المجتمعات والإنسان المسلم.


شكيب ارسلان

التجديد لا يعني الهدم والتبديد بل يعني الإبقاء على الطابع الأصيل، والخصائص المميزة، والأسس الثابتة. ولنتذكر كلمة الأمير شكيب أرسلان بهذا الصدد: «إنما يضيع الدين بين جامد وجاحد.. ذلك ينفر الناس منه بجموده، وهذا يضلهم عنه بجحوده!».. ومن لم يتجدد؛ يتبدد! ومن لم يتقدم؛ يتقادم!

المقاصدية والحرفية: خطاب الإبداع والاتباع

الأصل في الدينيات: التوقيف واتباع ما جاء به النبي ﷺ؛ التزاما بما به أمر، وامتناعا عما عنه نهى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾

(الحشر: ٧)

والأصل في الدنيويات وأمور المعاش والحياة: الإبداع والتجديد، وعدم الركون إلى ما سبق علمه أو إنجازه. وقد قال النبي الأكرم – صلوات الله عليه – عندما التزم أصحابه حرفية إشارته إلى أمر من أمور النخل فقلت جودته:

«إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي؛ فإنما أنا بشر».

وفي الواقعة ذاتها قال أيضا: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[٤](*)

وبناء على هذا.. يجب على الخطاب الإسلامي إيلاء مقاصد الشرع الحنيف أهمية قصوى، فهي التي تحدد اتجاه الفقيه عند الاجتهاد، والمفتي عند الإفتاء، والباحث عند إبداء الرأي.. لاسيما في النوازل التي لم تعهد قبلُ؛ لأن من لم يحكم ضبط الكليات يضطرب ولا يحسن فهم وعلاج الجزئيات وإنزالها على الواقع المتجدد، ومعلوم أن النصوص محدودة والوقائع متجددة.

والأمر في هذا يتلخص فيما قاله ابن قيم الجوزيه محققا: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها»[٥]

التهوين والتهويل: خطاب التوازن

إن احترام الحقيقة، وتجنب الإغراق في المبالغة يمثل الميزان المستقيم دون طغيان أو إخسار؛ فالمبالغة دوما قبيحة تشوه الحقيقة: تقرب البعيد، وتبعد القريب، وتظهر غبشا في الرؤية على الطريق، إنها استخفاف بعقل السامع، وسخرية من وجدانه. الإغراق في المبالغة سلبية في حياة عامة الناس، وهي ظاهرة في سلوك المجتمع والأسرة والفرد، فكيف إذا اتسم بها خطاب فكري أو دعوي؟!

وفي المقابل.. يجب على الخطاب الإسلامي المحافظة على الوسطية في تناول جميع القضايا، فالمشكلة دوما في طرفين:

- طرف منسحق بضغط التهويل من كيد الأعداء ومكرهم، والإغراق في «عقلية المؤامرة» إغراقا أقعدهم عن العمل يأسا!
- وطرف مستفز بآلام جلد الذات – كما يسميه فهمي هويدي – استفزازا يدفعهم إلى العمل غير المتروي في حماسة غير منضبطة!

وواجب الأمة التي تحمل أمانة الخطاب الإسلامي أن تكون في مسار الفعل لا ردود الفعل، وهذا يستلزم الاقتدار والإعداد لردع الظلم، ومقاومة العدوان، ونشر العدل وأداء الحقوق.

---

(٤) صحيح مسلم ٤: ١٨٣٦ كتاب الفضائل، باب (٣٨) باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره (صلى الله عليه وسلم) من معايش الدنيا على سبيل الرأي ح١٣٩ – ١٤١، سنن ابن ماجة ٢: ٨٢٥ باب (١٥) باب تلقيح النخل ح٢٤٧٠ – ٢٤٧١.

(*) هو جزء من حديث صحيح، فقد أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بقوم يلقحون النخل فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصا فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا.. قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» كما ذكره ابن خزيمة في صحيحه وابن حبان في صحيحه وغيرهم أيضا بروايات مختلفة.. وقد بوب له النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال: باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي اهـ.

(٥) الإمام محمد بن أبي بكر (ابن القيم) إعلام الموقعين، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م، ج٣ ص١٢، ط١.

العقلانية والخرافة: خطاب السُّنَّة

جعل الله تعالى السنن والأسباب والنواميس والقوانين مطردة وموصلة إلى تحقيق المقاصد وإدراك النتائج، وطلب من الإنسان استيعاب هذه السنن والأسباب بعد أن شرعها له وخاطبه بها، ودلل على فاعليتها بالعبرة التاريخية والحُجة المنطقية والبرهان المُحس، وناط النجاح والفوز في الآخرة بالقدرة على استيعاب هذه الأسباب وحُسن تسخيرها والتعامل معها.

إننا، بنى الإنسان، باعتبار ما.. شيءٌ من الماضى، ومظهرٌ من مظاهر تحققه. ورؤية سنن الله تعالى المطَّردة هى ما يُضفى التنظيم والمنطقية على أحداث التاريخ.

ومع وجوب الإيمان بقدره ـ سبحانه ـ.. فقد حض الشارعُ الحكيم على مدافعة الأقدار بأضدادها، وهذا ما أشار إليه عبد القادر الكيلانى فى كلمته العالية: «كثيرٌ من الناس إذا دخلوا القضاء والقدر أمسكوا (أى: امتنعوا عن الكلام فيهما).. وأنا انفتحت لى فيه روزنة (أى: نافذة معرفة)؛ فنازعت أقدار الحق الحقَّ للحق. والولىُّ من يكون منازعاً للقدر.. لا من يكون موافقاً له»[٦].. وعلق عليها ابن تيمية بكلام نفيس: «وهذا الذى قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية. أى أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به، ويدفع ما نهى الله عنه، وإن كانت أسبابه قد قُدِّرت.. فيدفع قدر الله بقدر الله (...)». فقد قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله.. أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقيا نسترقى بها، وتُقى نتقيها.. هل تردُّ من قدر الله شيئا؟ ؛ فقال: «هى من قدر الله»[٧].

وعندما نوزع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى شيء من هذا قال: «نفر من قدر الله إلى قدر الله».

المضمون والأسلوب: خطاب الجمال

ينبغى أن يكون مضمون الخطاب الإسلامى مبنياً على التأصيل المنهجى المعتبر لدى أهل العلم، والعرض ينبغى أن يكون بأساليب تناسب الأشخاص والأحوال. فلا يُغنى كونُ الفكرة حقاً وخيراً عن ضرورة مراعاة جماليات عرضها وطرحها، وإلا.. فكم من حقٍّ ضيَّعه أهلُه بسوء عرضه! وكم من خيرٍ لم يبق مُجيباً بقُبح الدعوة إليه!

والأمر فى هذا يتلخَّص فيما قال الحكماء: «من حسن القيام: مراعاة المقام».

ومن هنا.. لابد للخطاب الإسلامى من أن يكون متنوعاً: يروى ظمأ أهل الوجدان، ويشفى غُلة أرباب العقل، ويستوعب طاقة أهل الرياضة.

كما يجب أن يخاطب الروح والعقل والجوارح جميعاً... بالتركيز على إظهار القيم الجمالية فى الإسلام وربطها بالعقيدة، وتبيان مظاهر الجمال والزينة فى كل أرجاء الكون.. من سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وحيوانات ذات جمال، ونباتات ذات بهجة؛ إذ أن خالق الكون جميل يحب الجمال.. خلق فأحسن، وصوَّر فأبدع، وقدَّر فهدى.

(يتبع)

(٦) مجموع الفتاوى (٨/٣٠٦-٣٠٧).

(٧) رواه الترمذى ٢٠٦٥ وقال حسن صحيح وابن ماجة ٣٤٣٧ عن أبى خزامة.

التعليم والتنمية.. الهمُّ الجوهرى



أ.د. سيد دسوقى حسن
أستاذ هندسة الطيران والفضاء - جامعة القاهرة

التعليم الجامعى مرتبط ارتباطا وثيقا بالتنمية، سواء كانت تنمية إنتاجية أو تنمية خدمية أو تنمية جمالية وثقافية.

فلسفة التنمية هى إفراز اجتماعى تقوم على رعايته الدولة.. هذه الرعاية يمكن أن تكون فى الحماية التشريعية، ويمكن أن تمتد لتسهم الدولة فى العملية التنموية.

فى ظل الهيمنة الغربية الشهيرة بالعولمة اضطربت منظومة التنمية اضطراباً شديداً، وفقد التعليم أمه الرءوم، وأصبح تائها يتلفت ذات اليمين وذات اليسار، وليس الأمر خاصا فقط بالتنمية الإنتاجية، وإنما بدأ يمتد للتنمية الخدمية والثقافية.

إذن فالمنظومة التعليمية الجامعية محكومة بالوضع التنموى السائد فى الدولة. ومن ثم بدأت تنضب المشاريع البحثية التى كانت تأتى إلى الجامعة سعياً، فينشط حولها الأساتذة وتلاميذهم، وتمتلئ الجامعة بالحيوية والنشاط الذى يؤثر على العملية التعليمية جميعها.

نضبت هذه المشاريع؛ لأن العولمة استأثرت بكثير منها، وحملتها إلى مكان بعيد لتسهم فى تنمية بلاد أخرى.

وبالطبع العولمة لا تعمل منفردة، وإنما لها قرينة شمطاء هى القابلية للعولمة (استعرنا تعبير مالك بن بنى: الاستعمار والقابلية للاستعمار).

والقابلية للعولمة هى الترجمة الحرفية للدناءة والخسة وحب الدنيا وكراهية الموت.

انظر مثلاً لقضية إنشاء المعامل فى مراحل التعليم المختلفة ومنها الجامعات. المفروض أن إنشاء المعامل هو تدريب بسيط يشترك فيه الأساتذة مع طلابهم فى وجود تمويل لشراء بعض الأجهزة الخاصة والمكونات الإليكترونية والميكانيكية، ولكن الذى يحدث عندنا هو أن يفاجئ المسئولون فى الأقسام

والكليات بوجود تمويل للمعامل لابد أن يتفق في خلال شهر من تاريخه، وخاصة أن التمويل قرض من البنك الدولي.

ومع ظهور القرض يظهر في الأفق رءوس الوكلاء التجارية الذين أسميهم (الثموديون الجدد)، عاقرو ناقة التنمية، وخلال الشهر توضع المواصفات التي تناسب شركات الوكلاء التجاريين، ويذهب القرض في معامل تصنع في بدرومات الدول الكبيرة بشركات تتكون من حفنة من المهندسين، حتى الهند دخلت هذا المضمار، وأصبحنا نستورد معامل للثانوي والابتدائي من الهند.. كيف يحدث هذا؟! هذا مثال جيد نتتبع فيه أخطاءنا...

أولاً لا شيء ينشئ نفسه من العدم، نحتاج أولاً: لدراسات عن أنواع المعامل المختلفة، وتجارب الشعوب من قبلنا، وارتباط ذلك بالعملية التعليمية، وأي ظاهرة طبيعية يحللها هذا الجهاز، ومجموعة التجارب المرتبطة به، وبالطبع الظاهرة نفسها نتدرج في فهمها وقياسها بتجارب بسيطة وأجهزة بسيطة، إلى تجارب معقدة بأجهزة متقدمة (مثال: ظاهرة الطفو).. إن إنشاء الأجهزة وتصنيعها يصبح بعد ذلك أمراً سهلاً إذا أعددنا التمويل المناسب، وأعطينا الوقت المناسب لعملية التطوير التي تأخذ وقتاً معلوماً، فإذا فرغنا من التطوير وأنجزنا عينة أولية أعطينا ذلك لبعض المصانع أو الورش لإتمام عمليات التصنيع.

كل ذلك يحتاج لمنظومة بشرية مرتبطة بالمجلس الأعلى للجامعات مثلاً، إن هذه المنظومة البشرية لن تنظر فقط فيما أسلفنا، ولكن ستنظر في السوق العربية والإفريقية، وربما العالمية لتوزيع المعامل المبتكرة والمصنوعة بأيدينا.

نخلص مما سبق أن التعليم العالي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمنظومة التنمية في الدولة، وأن مشاركته فيها بقسط معقول في البحث والتطوير هو فرض عين على الدولة؛ ولذلك ينبغي ألا تكون هذه المهمة عائمة مائعة، إنما ينبغي أن يكون لها في الدولة جهاز راصد، يرصد توجهات الدولة التنموية، ويحدد قدر مشاركة الجامعة في كل ما تقدر عليه، ويفرض ذلك على الداخل والخارج. وأنا أسأل: لو فعلنا هذا في مشروعات الفضاء الكبرى (نايل سات ٢٢١) وطلبنا من الجهات الفرنسية مشاركة فعالة للجامعة المصرية على الصناعة الوطنية في الاطلاع ببعض المهام البحثية.. لو فعلنا ذلك لحققنا عائداً وطنياً ضخماً يقدر بمئات الملايين.

وأختتم بملاحظة هامة حول الإعداد في التعليم الجامعي وعلاقة ذلك بالتنمية:

في الثمانينيات كنت في زيارة لسويسرا، وكان في انتظاري في المطار أخي الأكبر محمد منصور عميد كلية الهندسة الإلكترونية بجامعة زيوريخ (IETH)، وأخذني الدكتور منصور لنركب الترام من المطار لبيته، وفي انتظارنا القصير للترام أقبل صديق له فسلم عليه وعرفني به..

إنه وزير التعليم في سويسرا، وكان هو الآخر سيستقل الترام لمقصده، وبعد أن مضى الرجل سألت الدكتور منصور: هل هذا الوزير مغضوب عليه؟ فضحك منصور وقال: أنت تفكر بعقلية مختلفة، المهم تضاحكنا وحكينا بعض القصص التي تعرفونها جميعاً، ثم دار حديث حول التعليم، أخبرني منصور بهيكلية الإعداد في التعليم السويسري، قال: يدخل إلى التعليم كل الأطفال، وبعد المرحلة الابتدائية والإعدادية يتوجه ٩٠٪ للتعليم الحرفي، بينما يتوجه ١٠٪ للتعليم الثانوي، وبعد الثانوية العامة يتوجه قليل من الـ١٠٪ للتعليم الجامعي، بينما يتوجه الباقون للتعليم الفني، والتعليم هناك من أوله حتى نهايته مرتبط بمنظومة الأعمال التي نشأت عن منظومة التنمية في سويسرا.

ولكن في مصر يريد الناس أن يحشروا أبناءهم في الجامعة؛ ليخرجوا منها إلى الشارع يبحثون إن كانت مؤهلاتهم تصلح لشيء مما هو مطلوب، بينما المهن والحرف التي ينبغي أن يتجه إليها أكثر من ٩٠٪ لا تجد من يعملها ولا من يقبل عليها.

وهكذا وجدت الجامعة نفسها بين سندان الانفجار السكاني ومطرقة العجز عن أن تنشئ الدولة من المؤسسات التعليمية ما يتسق مع منظومة التنمية، إن كانت هناك منظومة للتنمية!! وحشر في الجامعة المتردية والنطيحة وما أكل السبع، مع شيء من ذكاء قليل.

هذا هو هم الجامعة الثقيل، وكل هم آخر نشأ معه، ولن يستطيع وزير وحده أن يزيح هذا الهم، إن الأمر يحتاج إلى فكر على مستوى الدولة ككل، ويحتاج إلى إرادة سياسية من قبل الدولة يترجمها الوزير وإخوانه بعد ذلك إلى خطط وميزانيات.

وأخيراً.. أشهد الله وأشهدكم أننا في كلية الهندسة جامعة القاهرة، خاصة في قسم الطيران حاولنا وما زلنا نحاول أن نحتال حول الضعف العام بجهود فردية، كان همها الأول هو أن نلبي مطالب التنمية الآتية والمتوقعة، والحمد لله رب العالمين وجدت المصانع المصرية والهيئات القومية في خريج قسم الطيران (الغوث والمدد)، ووجد الجيش في أبنائه الذين درسوا فيه دراساتهم العليا نعم الشباب.

إن البذرة المباركة التي وصفها شيخ هندسة الطيران في مصر والعالم العربي إبراهيم أدهم الدمرداش - عليه رحمة الله - قد آتت أكلها بإذن ربها وبجهود أبناء القسم منذ عام ١٩٣٨م وحتى الآن، وإني أحسب أنه بقدر من الثقة في النفس والاعتماد على الله على مستوى الدولة والجامعة يمكن إصلاح أوجه الخلل القائمة في العملية التعليمية بسهولة ويسر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها



للشاعر الكبير حافظ إبراهيم

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي (١)
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي (٢)
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات (٣)
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي (٤)
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي (٥)
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات (٦)

(١) رجعت لنفسي: أي تأملت. والحصاة: الرأي والعقل. واحتسبت حياتي: عددتها عند الله فيما يدخر. يقول على لسان اللغة العربية: إنني عدت إلى نفسي وفكرت فيما آل إليه أمري، فأسأت الظن بمقدرتي، وكدت أصدق ما رموني به من القصور، وناديت الناطقين بي أن ينصروني فلم أجد منهم سميعاً، فادخرت حياتي عند الله.

(٢) العداة: الأعداء. يقول: اتهموني بأني لا ألد، على حين أني في ريعان شبابي، وليتني كنت كما قالوا فلا يحزنني قولهم. وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها.

(٣) الآي: جمع آية.

(٤) الأساة: جمع الآسي، وهو الطبيب.

(٥) تكلوني: تتركوني. وتحين: تحل.

(٦) يقال: هو في منعة، أي في قوم يمنعونه ويحمونه.

أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي (٧)
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات (٨)
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلين قناتي (٩)
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات (١٠)
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة (١١)
وأسمع للكتاب في مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتي (١٢)
أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل برواة (١٣)
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات (١٤)
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي (١٥)
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي (١٦)
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

(٧) الناعب: المصوت بما هو مستكره. وربيع الحياة: أيام الشباب والقوة.

(٨) زجر الطير: هو أن ترمي الطائر بحصاة أو تصيح به، فإن ولاك في طيرانه ميامنه تفاءلت به خيراً، وإن ولاك مياسره تطيرت منه. والعثرة: السقوط. والشتات: التفرق. يقول: لو استبنتم الغيب بزجر الطير، كما كان يفعل العرب، لعلمتم ما يجر في عليكم من السقوط والانحلال.

(٩) القناة: الرمح. ولينها: كناية عن الضعف. ويريد «بالأعظم» من دفن في الجزيرة من العرب الأولين.

(١٠) النخرات: البالية المتفتتة.

(١١) المزلق: مكان الانزلاق، أي السقوط والزلل. والأناة: التأني والإبطاء. ويريد وصف لغة الجرائد إذ ذاك بالضعف.

(١٢) النعاة: جمع ناع، وهو المخبر بالموت.

(١٣) لم تتصل برواة: أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير كما هو الشأن في العربية. ويشير إلى تلك اللغة المرقعة التي كانت مستعملة أيام نشر هذه القصيدة.

(١٤) اللوثة (بالضم): عدم الإبانة. ولعاب الأفاعي: سمها. والفرات: الماء العذب.

(١٥) الشكاة: الشكوى.

(١٦) تبعث الميت: تحييه. والرموس: القبور، الواحد رمس. والرفات: كل ما تكسر وبلي، يريد ما بقي من الجسد بعد الموت.

نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية

(أخيرة)

أ.د. نادية محمود مصطفى
رئيس قسم العلوم السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

نموذج إسلام المغول وتأسيس إمبراطورياتهم بعد التنصر وبعد الحروب مع المسلمين

لم يكن التعارف الحضارى بين عالم المسلمين وغيرهم قاصراً على العالم المسيحى شرقه وغربه، ولكن امتد إلى عالم المغول. ولقد تعارفت الشعوب الإسلامية من غرب الصين وحتى الشام ومصر، بأساليب المغول الوحشية فى القتال والتدمير للأبنية الثقافية والحضارية وليس الجيوش فقط.

واقترن ذلك الهجوم الممتد عبر فترة زمنية طويلة ابتداء من جنكيز خان وهولاكو حتى تيمور لنك، اقترن بسلسلة من التحالفات؛ والتحالفات المضادة بين المغول وبين الدول الأوروبية فى محاولة لاحتواء وحصار المماليك ثم العثمانيين[1]. وكان تنصير المغول هدفاً من أهداف البابوات والإمارات والممالك الإفرنجية. ويقدم تاريخ هذه المحاولات ونمط استجابة بعض المغول لها نموذجاً عن كيفية التفاعل بين الدينى والسياسى بل وتوظيف الدينى التبشيرى من جانب أوروبا المسيحية فى وقت متقدم وسابق على ما حدث بعد ذلك مع موجات الاستعمار الحديث (التجارى ثم السياسى ثم العسكرى) على العالم الإسلامى فى آسيا وأفريقيا[2]. إلا أنه سرعان ما دخل المغول إلى الإسلام وبرزت أنماط من التحالفات بينهم وبين المماليك.

والمهم هنا الإشارة أنه بعد ١٢٦٠م وبعد عين جالوت حدثت خلافات عميقة خطرة على وحدة الإمبراطورية المغولية التى تكونت على يد جنكيز خان وأبنائه ومن ثم توزعت هذه الإمبراطورية إلى أربعة أجزاء: مغول إيران (الإيلخانيون)، مغول القبيلة الذهبية فى الشمال والتى تركزت فى حوض الفولجا جنوب روسيا، مغول آسيا الصغرى (مملكة جغطاى)، ثم أخيراً مغول الصين فى أقصى الشرق. ويهمنا بصفة خاصة أمر الثلاثة الأوائل حيث لعب كل منهم دوره فى العلاقات المملوكية -المغولية، أو المملوكية -الصليبية فى الشام أو المملوكية- الإفرنجية. ولقد تباين تأثير كل من هذه الأطراف المغولية الثلاثة على هذه العلاقات نظراً لاختلاف درجة وتوقيت انتشار الإسلام بينها ونظراً لطبيعة العلائق فيما بينهم.

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: د. نادية مصطفى، العصر المملوكى، الفصل الأول، مرجع سابق.

(٢) انظر التفاصيل فى: د. منذر الحايك، العلاقات الدولية فى عصر الحروب الصليبية (الجزء الثانى)، تقديم أ.د سهيل زكار، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٦.

ويكفى هنا دون الدخول فى تفاصيل تطور انتشار الإسلام بين هذه الأجنحة الثلاثة أو تطور العلائق بينها[3] التذكرة بالأمور التالية:

١- مع بداية القرن الرابع عشر الميلادى وبالتحديد منذ العقد الأخير للقرن الثالث عشر الميلادى كانت الإيلخانية والقبيلة الذهبية قد تحولت إلى الإسلام وكانت الثانية أسبق من الأولى فى التحول وخاصة تحت تأثير حاكمهم الشهير بركة خان (١٢٥٦م-١٢٦٧م/ ٦٥٢هـ-٦٦٥هـ) وتلاهما مغول آسيا الصغرى فى الدخول إلى الإسلام.

٢- لعبت القبيلة الذهبية دوراً مزدوج الأبعاد فى العلاقات الدولية الإسلامية فى هذه المرحلة. فهى التى فتحت أراضى روسيا (٦٣٣هـ-٦٣٥هـ) أى خلال العقدين الثالث والرابع من القرن الثالث عشر الميلادى، ومن ثم كان لها تأثيرها على جذور تفاعل روسيا الحديثة بعد نشأتها مع الإسلام. فمع دخول القبيلة الذهبية إلى الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى تكونت كدولة إسلامية تضم عدة إمارات وتسيطر على الإمارات المسيحية الروسية وعلى أوروبا الشرقية (من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ومن شبه جزيرة القرم وعلى طول حوض الفولجا وحتى وصلت إلى حدود مملكة النمسا وهددت مملكة ألمانيا) ولقد أضحت هذه المناطق -بعد ضعف وتفرق القبيلة الذهبية عواصم لخانات مسلمة مستقلة والتى دخلت بعضها فى مجال التنافسات العثمانية الروسية منذ القرن السابع عشر.

ومن ناحية أخرى، ساعدت القبيلة الذهبية المماليك فى صدامهم الصريح مع الإيلخانيين نظراً للعداء بين بركة خان زعيم القبيلة الذهبية وهولاكو ثم أباقة خان زعيم مغول فارس كما ساعد بركة خان بيبرس فى حربه مع الإمارات الصليبية فى الشام وكان يعادى القوى والممالك الإفرنجية.

٣- مثلت الدولة الإيلخانية أى مغول فارس (والتى أسقطت الخلافة فى بغداد) العدو الرئيسى للمماليك، واستمر الصدام بينهم وتكرر حتى بعد إسلامهم وإن لم يصل إلى معارك حاسمة ومصيرية مثل عين جالوت. كذلك تعاون مغول فارس مع الصليبيين ومع الممالك الإفرنجية ضد المماليك ولقد انهارت دولتهم بعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن من نشأتها.

٤- أما المملكة المغولية الثالثة فى آسيا الصغرى، فكانت فى التأثير المباشر على العلاقات الدولية للعالم الإسلامى إلا فيما يتعلق

---

(٣) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، المكتب الإسلامى، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٤، ص ١٣٥-١٧٧.

- د. رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.

- برتولد شبولر، العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة وتقديم د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٤٠٢-١٩٨٢، ص ١٩-١٠٤.

- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٤٨-٢٧٥.

- Hodgson, The Venture of Islam (University of Chicago Press, Chicago 1971, Vol .G .M .p 410-417 .II)

بحدث جلل ومهم وهي أنها كانت موطن تيمور لنك المغولي المسلم الذي أعاد توحيد المملكة بعد تفككها ثم اجتاح العالم الإسلامي مرة أخرى بعد ما يزيد عن المائة وخمسين عاماً من بداية زحف جنكيز خان وأبنائه. وبقدر ما كان للزحفة المغولية الأولى آثارها العميقة المباشرة وطويلة الأجل، كما سنرى لاحقاً، بقدر ما كان أيضاً للزحفة المغولية الثانية أيضاً آثارها العميقة على توازن القوى الإسلامية وعلى العلاقات الإسلامية المسيحية.

خلاصة القول، إن القوى المغولية الثلاث كانت أعداء تتنازع على حدود الأقاليم بينهم (بين مغول فارس وبين مغول آسيا الصغرى، وبين مغول فارس وبين مغول القبيلة الذهبية) كما تبنت سياسات خارجية متنافسة الأمر الذي أثر على أنماط تفاعلاتهم مع المماليك والقوى المسيحية[٤]، ومن ثم على أنماط التعارف الحضاري بين شعوب الجانبين.

نموذج "صدمة الغرب المباشرة: الحملة الفرنسية وبداية الهجمة الأوروبية الثانية على قلب العالم الإسلامي

وماذا عن النهضة في ظل ضغط الاحتلال العسكري وضغط الوافد الثقافي؟

انظر في هذا الصدد: تأريخ الجبرتي وابن إياس وما يكشف عنه من رؤية للحملة الفرنسية باعتبارها العدو والموقف من مساندة الدولة العثمانية في مواجهتهم باعتبار العثمانيين حكاماً ظالمين وليسوا أعداء:

كذلك انظر: قراءة كل من:

- أبو الأعلى المودودي: نحن والحضارة الغربية[٥].

- طارق البشري: في المسألة الإسلامية المعاصرة[٦].

- تازك سيابارد[٧].

- رضوان السيد[٨].

إن هذه الرؤى الفكرية المعاصرة ترسم خريطة اتجاهات الفكر العربي والإسلامي في استجاباتها لصدمة الاحتكاك الحديث بالغرب في مراحل مختلفة ومناطق عدة من العالم الإسلامي وهي بهذا تقدم لنا قناة من قنوات حالة التعارف في ظل سياق دولي جديد.

والاهتمام بهذه الخرائط: تحديداً وتحليلاً وتقييماً خلال القرون الثلاثة الأخيرة كان محل بحث علمي منظم استهدف دراسة كيفية تفاعل الفكر الإسلامي والعربي مع قضايا وإشكاليات العلاقة مع الغرب خلال هذه القرون الثلاثة[٩] حيث أضحى هذا الغرب جاذباً للاهتمام ومصدر التحدي المولد للاستجابات، سواء باعتباره مستعمراً أو باعتباره مصدراً للعلم ومدنية، وباعتباره

---

(٤) د. نادية مصطفى، العصر المملوكي، مرجع سابق، ص٦٨-٧٢.

(٥) أبو الأعلى المودودي، نحن والحضارة الغربية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٧.

(٦) طارق البشري، سلسلة المسألة الإسلامية المعاصرة، ٨ أجزاء، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩.

(٧) تازك سيابارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة (الصراع الفكري والحضاري)، مؤسسة نوفل، ط٢، ١٩٩٢.

(٨) رضوان السيد، مراحل الخطاب الإسلامي في جوانبه على التحديات خلال قرن، منبر الحوار، العدد ٢٣-٢٤ شتاء ١٩٩٢.

(٩) د. نادية مصطفى، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق.

مصدراً لتحدٍ معرفي وثقافي وعلى نحو غير مسبوق في المراحل السابقة من العلاقات بين المسلمين والغرب وحيث تواجد الغرب - من جديد - على أرض المسلمين ولكن في أثواب جديدة، على نحو كان لابد وأن ينعكس على طبيعة التعارف واتجاهه ونمطه وآثاره. ومن ثم، تولدت الأفكار والحركات والتيارات والخبرات تجاه هذا الغرب، انطلاقاً من درجة ما من المعرفة به. ولكن لأي درجة؟ وما قدر عمق المعرفة اللازمة لتوليد الاستجابة اللازمة التي تحقق الاستقلال والنهضة؟

هل تحقق تعارف حضاري رشيد من جانب دائرتنا الحضارية بالدائرة الزاهرة والمستعمرة لنا؟

أم أن ما تحقق هو تعارف ضال، إما وقع في براثن الانبهار أو وقع في براثن الرفض والانغلاق؟

وهنا، يجدر الإشارة إلى أحد الإسهامات في دراسة الاستشراق[١٠] والتي لم تكتف بنقد الاستشراق وفق التيار السائد التقليدي ولكن سعت لبيان المناطق المضيئة في بعض إسهاماته في دراسة "الشرق".

ومن ناحية أخرى، حاولت تقديم دفاع المستشرقين الجدد عن أنفسهم وكذلك رأيهم في الحوار بين الشمال والجنوب، كما حاولت الإجابة -من خلال آراء استشراقية حديثة- على الأسئلة التالية:

- هل فهم المسلمون الغرب الحديث؟
- هل فهموا أسباب قوته ومكامن ضعفه؟
- لماذا لا يبذلون جهداً علمياً منظماً لتحقيق دراسة أعمق للغرب؟
- لماذا ينتصر الخطاب الأيديولوجي على الخطاب الإبستمولوجي تجاه الغرب؟

ولقد تلخصت إجابات المستشرقين الأكاديميين وفق هذا المصدر في الآتي[١١]:

إن من السهل على المستشرقين الأكاديميين أن يدينوا الضعف المنهجي أو نقص المعلومات لدى نظرائهم من المثقفين العرب والمسلمين. ومن السهل عليهم أن يدينوا التطرف الإيديولوجي لدى بعض المثقفين العرب، سواء كان هذا التطرف قومياً أم إسلامياً أم ماركسياً، من السهل عليهم أن يعيبوا على مثقفينا، إفراطهم في النزعة الذاتية والتبجيلية وعدم قدرتهم على اتخاذ مسافة ما بينهم وبين أنفسهم عندما يدرسون موضوعاً يخص تراثهم أو دينهم أو حاضرهم. من السهل أن يدينوا عدم تقيدهم بالمنهجية العلمية أو عدم قدرتهم على السيطرة عليها كما ينبغي.

ولكن الأمر الذي يبقى مشكلاً، ولا أدري إلى أي حدٍ يوفر أعذاراً لمثقفينا، هو أنهم مثقفون مسؤولون عن مجتمعات مضطربة، خائفة، يطحنها الجوع، مجتمعات مهددة بالنزيف الداخلي والحروب الأهلية. وأنهم ليسوا أساتذة ينعمون بكل أنواع الطمأنينة (المادية والمعنوية) في جامعات السوربون، وهارفارد، وبرنستون، وبرلين، وأكسفورد.. وإنما هم أساتذة في جامعات الرباط والخرطوم والقاهرة ودمشق وطرابلس الغرب، إلخ... هناك حيث يتعرض

---

(١٠) مجموعة باحثين، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، مرجع سابق، ص٩-١٦.

(١١) المرجع السابق، ص٩-١٦.

الأستاذ الجامعي لكل أنواع الهزات والحملات التي يتعرض لها مجتمعه، وحيث يبدو خائفًا على مصيره في كل لحظة. هناك حيث لا يجرؤ الباحث العربي أن يقول كل ما يريد قوله كما يفعل زميله الأوروبي لأنه يظل خائفًا على منصبه ومصدر رزقه، هذا إن لم يكن خائفًا على حياته. كما أنه غير قادر دائمًا على مقاومة ضغط الشارع والأيديولوجيات التي تحتل الساحة والتي يصل ضجيجها إلى أبواب مكتبه".

إن هذه الإجابات الاستشراقية الجديدة لتبين جانبًا من قنوات التعارف الفكري المعرفي الأكاديمي الراهن بين "أهل الاستشراق الحديث" وبين أهل "الاستغراب" المأمول؟!

نموذج التطهير الثقافي الراهن بعد عودة الاحتلال العسكري في العالم العربي والإسلامي مع بداية القرن الواحد والعشرين

يمثل احتلال أفغانستان ٢٠٠١ ثم احتلال العراق ٢٠٠٣ حدثين ذا دلالة بالنسبة لدخول "التعارف بين الغرب والإسلام" في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، نقطة حرجة حيث اقترن الاحتلال العسكري بأدوات ثقافية وفكرية تتجه لشعبي الدولتين وشعوب العالم العربي والإسلامي برمته. واشتقت هذه الأدوات من إطار أوسع وهو ما سمي "استراتيجية الحرب الأمريكية العالمية على الإرهاب" التي ضفرت بين أدوات الحرب والدبلوماسية وبين تغيير العقول والقلوب من خلال عمليات متعددة تتجه للشعوب أساسًا. وقد أفرز هذا السياق التاريخي خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين (وكامتداد للعقد الأخير من القرن العشرين) لقطات عدة ومتراكمة، اختلف المراقبون والمحللون في تفسيرها؛ هل هي مؤشر على عداء حضاري أم هي مؤشر على توظيف بارع للديني والثقافي لتحقيق مصالح استراتيجية منها المادي وغير المادي، أم أنها مؤشر على ما أضحى عليه الجدل بين الجانبين الحضاري والسياسي التقليدي.

ومن اللقطات ذات المغزى تلك المتصلة بما أسماه "إدموند بيكر" في كتاب شارك في تحريره بهذا الصدد "التطهير الثقافي في العراق"(١٢).

وفي هذا، يصف المترجم الحرب التي تلت الغزو العسكري الأمريكي بالحرب الحضارية(١٣) والتي تهدف محو الذاكرة الثقافية أو اغتيال العقل الفاعل لشعب من الشعوب مع كل ما يرتبط بذلك العقل من كوادر بشرية ومنجزات فكرية وأبنية ومؤسسات. والحرب الحضارية التي يتحدث عنها المترجم هي حرب على حضارة تستهدف تصفية الوجود المعنوي للخصم الذي تمت هزيمته عسكريًا حتى يسهل تشكيله بعد ذلك. والحرب الحضارية على العراق بهذا المعنى لها سوابق تاريخية ممتدة سواء في التاريخ البعيد (في ظل نماذج الاسترداد السابق عرضها) أو في ظل سوابق أكثر معاصرة مثل ما حدث في البوسنة والصراع العربي -الإسرائيلي- مستهدفًا تدمير عناصر الذاكرة البشرية والمادية.

ومن ثم، فإن الكتاب يذخر بالوقائع والتفاصيل المتصلة بدلالة العدوان على تاريخ

(١٢) ريموند بيكر، طارق إسماعيل، شيرين إسماعيل (محررون): التطهير الثقافي.. التدمير المتعمد للعراق، ترجمة: د. محمد صفار، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠١٠.

(١٣) انظر في هذا المفهوم: د. المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥.

العراق وذاكرته الجمعية، التراث الأركيولوجي، قتل الذاكرة الجمعية، قتل الطبقة المثقفة والأكاديميين، تطهير السجلات، القتل أو التهجير أو الفرار، تطهير العقول، الضحايا من الأقليات.

خلاصة القول بعد هذا المحور الثاني:

إن النماذج التاريخية التي يضمها المحور إنما تعكس مداخل وآليات ومناطات متنوعة جرى التعارف حولها ومن خلالها. ومثلها مثل نماذج المحور الأول "الكلية" تعكس التقابل بين خصائص نموذجين معرفيين حضاريين، إسلامي وغربي مسيحي، وهذه المقابلة تمتد عبر التاريخ ومن خلال مراحل مختلفة من حيث سياقات الحرب أو الدبلوماسية.

كما أنها ذات امتدادات، حديثة ومعاصرة وراهنة، إلا أن هذه النماذج وعكس نماذج المحور الأول، فهي ليست أفقية كلية ممتدة، ولكنها نماذج تتصل بسياق زمني ومكاني محدد ناهيك عن اتصالها بقضايا محددة، هي مناط التعارف، مهما كان نمطه.

محاور أخرى مقترحة:

وأخيرًا، وإلى جانب نماذج المحورين السابقين، ذوي الصلة المباشرة لسياقات حربية عسكرية ودبلوماسية بين شعوب الحضارتين الإسلامية والغربية، فإنه يمكن التفكير في محورين آخرين يحتاجان إلى رصد وتحليل نماذجهما للتعارف بين شعوب هاتين الحضارتين.

واكتفي هنا برسم خريطة هذه النماذج ومحتواها على النحو التالي:

المحور الثالث: التعارف وتشكيل الهويات في ظل تجديد القوة الإسلامية الفاتحة: من هيمنة الدولة العثمانية إلى سقوطها

وهنا، يمكن رصد النماذج التالية:

(١) نموذج التعارف في ظل الامتيازات للأجانب ونموذج المراسلات الدبلوماسية والمعاهدة من موقع القوة العثمانية (القرنين السادس عشر والسابع عشر)، ثم نموذج التعارف في ظل نفس هذه الأنماط ولكن في إطار الضعف والتراجع العثماني (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)(١٤).

(٢) نموذج تشكل الهوية الأوروبية في ظل تحدي الفتوح العثمانية من الشرق(١٥).

(٣) نموذج أزمة العلمانية وتحديات مراجعة الهوية الأوروبية في ظل إشكاليات: التعددية الثقافية، الاندماج، المواطنة الناجمة عن تزايد الوجود المسلم في أوروبا والولايات المتحدة خلال القرن العشرين. وتتعدد محطات اختبار آثار هذا الوجود المسلم، ومن أشهرها ما يتصل بالحجاب والمآذن، والإرهاب(١٦).

(١٤) د. نادية مصطفى، العصر العثماني، مرجع سابق.

(١٥) في هذا الصدد انظر:
-Tomaz Mastna, Islam And Creatian Of European Identity, University Of Westminster, 1994

(١٦) انظر على سبيل المثال:
- د. نادية محمود مصطفى (محرر)، الهوية الإسلامية في أوروبا: إشكاليات الاندماج قراءة في المشهد الفرنسي، أعمال الندوة التي عقدت في ١٨-١٩ فبراير ٢٠٠٤، جامعة القاهرة: برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد، ٢٠٠٥.
- أعمال ندوة "المسلمون في أوروبا: قراءة على ضوء المشهد السويسري"، ٢٧ يناير ٢٠١٠، (في): د. نادية محمود مصطفى ود. سيف الدين عبد الفتاح (تنسيق علمي وإشراف)، وسام الضويني (مراجعة): أزمات حوار الثقافات والأديان، سلسلة ندوات الموسم الثقافي، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، القاهرة، ٢٠١٠، ص٤٧٦-٥٢٠.

المحور الرابع: نماذج من الصور والرؤى المتبادلة بين أعلام الفكر الإسلامي، وأعلام الفكر الاستشراقي القديم والحديث عن مسارات تطور التعارف المعرفي والفكري (الخصائص المقارنة بين الحضارتين الإسلامية والغربية ومن خلال الرؤى عن قضايا الجهاد والحداثة والديمقراطية والمدنية والتنمية... إلخ).

ومن هذه الصور المتبادلة نذكر وجهي العملة التالية: من ناحية الرؤى المقارنة لكل من برنارد لويس، مجيد خدوري، توماس أرنولد، مارسيل بوازار، رودولف بيترز، ومن ناحية أخرى رؤى إسلامية حول كيفية تطور استجابات الفكر والحركات الإسلامية للتحديات الغربية الحديثة[١٧].

خلاصة القول:

بعد القراءة في هذه النماذج التاريخية يمكن الإشارة إلى الأبعاد الثلاثة التالية:

من ناحية: أن تناول "التعارف" تأصيليًا أو كعملية لا يمكن أن يكون مرسلاً فلابد من تحديد السياق، والمجال والقضية. ذلك لأنه من الخطورة التعميم في المقولات عن آثار التاريخ على تشكل الصور النمطية المتبادلة. فإذا كان لا يمكن إنكار هذه الصور، فلا يمكن أيضا قبول الدعوة إلى تجاوزها كما لو لم تكن قائمة أصلا. ولذا فنحن في حاجة إلى رصد النماذج التاريخية المتنوعة والقراءة المقارنة في دلالاتها التاريخية والراهنة، دون الوقوع في خطيئة إعادة قراءة أو كتابة التاريخ لأغراض سياسية محددة.

وهذه القراءة في النماذج التاريخية لابد وأن تبحث عن مجالات التعارف وسبله وآلياته وكذلك وظيفته.

فلقد تبين لنا من النماذج المقدمة - على سبيل المثال - أن من مجالات التعارف: التجارة والدعوة، وتبادل الأفكار والمعارف وتبادل الصور، والتعارف بين المعتدي والمعتدى عليه. أما عن سبل التعارف فلقد تبين لنا، أنها تتغير بتغير الزمان والمكان، وأنها طريق ذو اتجاهين من حيث المكاسب والمزايا أو الخسائر والقيود، وإن التعارف البشري لا يمنع الجهاد العسكري ولا ينقطع خلال هذا الجهاد، كما أن العلماء يلعبون دورهم في هذا التعارف إلى جانب أدوار أصحاب الحركة. وأخيرا فإن وظيفة دراسة نماذج التعارف. هي اكتشاف أن الاختلاف فيما بين رؤى العالم والنماذج المعرفية يلعب دوره في نمط التعارف. والأهم هو أن إدراك الذات الحضارية وثوابتها، يتأكد من خلال عمليات التعارف، ويصبح هذا الإدراك من عدمه منطلقًا إما لمقاومة حضارية أو خضوع حضاري أو استلاب حضاري.

من ناحية ثانية: إلى جانب التعارف بين الحضارات، فإن التعارف يمتد أيضًا إلى الثقافات التي تنتمي لنفس الحضارة. ومما لا شك فيه، أن نماذج التعارف بين أقوام وشعوب وثقافات الحضارات العربية الإسلامية الجامعة لا تقل أهمية عن نماذج

(١٧) انظر: د. نادية مصطفى، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق.

التعارف بين الحضارات إلا أنها لابد وأن تنطلق من مقولات وافتراضات أخرى. فما هي؟ وكيف نختبر هذه النماذج؟ وما القواعد العامة التي يمكن استخلاصها؟ وما أوجه الاختلاف مع نظائرها بالنسبة للتعارف بين حضارات مختلفة؟

واكتفي هنا بالأمور التالية:

● إن النماذج التاريخية للعلاقات بين شعوب وأمم وثقافات الحضارة العربية الإسلامية تتنوع باختلاف السياق الحضاري الشامل: قوة أو ضعفا وحدة أو تجزئة، فتوحا أو استعمارا.

● إن النماذج التاريخية للعلاقات بين الأقوام التي كونت أركان الأمة تاريخيا، تقدم دلالات واضحة ومهمة لابد من دراستها ومقارنتها في سياقات متنوعة لنعرف هل التعدد والتنوع في ذاته موجبا للصراع أم أنه محرك لتدافع وفق طبيعة الأطر القائمة، هذه الأقوام هي: العرب، والترك والفرس.

● أن تجديد الوعي الحضاري للأمة يستوجب الاهتمام بهذا النمط من التعارف، فالتعارف البيني مثل الحوار البيني من أهم الشروط المسبقة للتعارف والحوار مع الآخر[١٨].

ومن ناحية ثالثة: أن النماذج التاريخية لا تكتسب أهميتها لذاتها، ولكن بقدر القدرة على التدبر في دلالاتها بالنسبة للأوضاع الراهنة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية، وخاصة في ظل ثورات الشعوب العربية، التي تقدم نموذجا تاريخيا يقتضي الرصد والتدبر.

(١٨) من الدراسات المعاصرة التي اهتمت بهذا المجال من منظور حضاري إسلامي انظر:
- د. نادية محمود مصطفى، د. باكينام الشرقاوي (تنسيق علمي وإشراف)، أسامة أحمد مجاهد (تحرير ومراجعة)، إيران والعرب المصالح القومية وتدخلات الخارج (رؤى مصرية وإيرانية)، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بجامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٩.
- د. باكينام الشرقاوي، د. نادية مصطفى (تنسيق وإشراف)، أسامة مجاهد (تحرير ومراجعة)، تركيا جسر بين حضارتين، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، ومؤسسة أيانت للحوار بتركيا، (تحت الطبع).
- د. ابراهيم البيومي غانم، د. باكينام الشرقاوي (محرران)، أعمال مؤتمر: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن (أكتوبر ٢٠٠٩)، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، القاهرة، (تحت الطبع)
- د. نادية مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (تنسيق علمي وإشراف)، أ. محمد كمال محمد (مراجعة وتحرير)، ثقافات متنوعة في حضارة جامعة (أعمال دورة التثقيف الحضاري الرابعة ٢٠٠٨)، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠١٠.
وفيما يتصل بنماذج التعارف التاريخية بين هذه الشعوب يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى المصادر التالية:
- د. سيار الجميل، العرب والأتراك... الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧.
- د. وجيه الكوثراني، الفقيه والسلطان: دراسة في تجربتين تاريخيتين: العثمانية والصفوية - القاجارية، منشورات المركز العربي الدولي، القاهرة، ١٩٩٠.
- العلاقات العربية الإيرانية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٣.
- مجموعة باحثين، العلاقات العربية - الإيرانية: الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠١.

وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا

للأستاذة الدكتورة/ حورية توفيق مجاهد

الزعامات الدينية ـ السياسية والجهاد الإسلامى (١)

منذ دخول الإسلام للقارة الأفريقية وعلى مراحل انتشاره ظهرت الزعامات الدينية الأفريقية، وسينصب تناولنا فى هذا المجال لنماذج من الزعامات الدينية السياسية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتى واكب ظهورها الجهاد ضد القوى الاستعمارية باسم الإسلام مما أسهم فى زيادة انتشاره.

وقد ظهرت فى أفريقيا العديد من الزعامات الدينية ـ السياسية التى تميزت بسمات مشتركة: حيث جاءوا جميعاً من عائلات عارفة بالإسلام وجميعهم أفريقيون ولكن يرجعون عادة أصلهم وأنسابهم للأماكن المقدسة بالحجاز. كما أنهم ضالعون فى اللغة العربية والشريعة الإسلامية، ومن السمات المشتركة بينهم أيضاً أنهم كانوا زعماء روحيين صوفيين وأن كلاً أسس طريقة خاصة به. وقد أمضوا جميعاً ـ فيما عدا عثمان دان فوديو ـ فترة من التعلم والتعليم فى مكة والأماكن المقدسة ومروا بمصر والأزهر ومعظمهم مكث هناك لسنوات باستثناء ماء العينين القلقمى الذى لم يبق فى الأماكن المقدسة إلا لثلاثة أسابيع، وفى مصر لشهور قليلة. كما أنهم جميعاً كانوا بناة دولة، وواجهوا الغزو الاستعمارى ـ فيما عدا عثمان دان فوديو الذى توفى قبله واستمر ابنه محمد بللو بعده. فالاستعمار الغربى فى أفريقيا واجه بصفة عامة مقاومة من جانب الزعامات الإسلامية ولم يستقر له المقام إلا بعد أن قضى على تلك الدول والزعامات الإسلامية عامة.

وقد توافرت فى حالة كل من الزعامات مقومات النجاح السياسى: حيث القيادة الواعية، والعقيدة الراسخة والتنظيم السياسى. فالإسلام كحضارة وكثقافة وكأيديولوجية أعطى دفعة كرست من النجاح السياسى للزعامات الكاريزمية. أى توافر الإطار العقائدى والإطار التنظيمى اللازم لنجاح الدولة التى استخدمت الإسلام كقوة دافعة.

وإذا كانت الكتابات الغربية فى مجال دراسة الإسلام وانتشاره فى أفريقيا كثيراً ما تشير لتلك الحركات الدينية السياسية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر باسم المهدية، إلا أن ذلك الإطلاق لا يتسم بالدقة حيث إن مفهوم المهدية بالنسبة لغالبيتها يقتصر على قلة قليلة منها لا يجوز التعميم على أساسها.

(١) انظر: Martin, op.cit.

ومن المراجع العربية الأساسية، انظر: الألورى، الإسلام فى نيجيريا، وقد اعتمدنا اعتماداً كبيراً على هذين المرجعين.

عثمان دان فوديو، وجهاد الفولانى فى شمال نيجيريا (٢)

كان عثمان دان فوديو ـ والمعروف بالعربية باسم عثمان بن فودى أو عثمان بن فوديو وفى بلده شيخو (الشيخ وتنطق سيكو) ـ من أهم الزعماء المسلمين فى غرب أفريقيا (٣). وهو من المصلحين الدينيين: فقد كان زعيماً روحياً وكاتباً، وكانت تعاليمه وكتاباته (٤) ومازالت واسعة الانتشار والتأثير فى غرب أفريقيا. وكان عالماً وفقيهاً وأديباً ومجتهداً فى العلوم الشرعية التى برز فى تعلمها وتعليمها حتى تخرج على يديه نحو المائة من العلماء ممن بلغوا مرتبة الاجتهاد المذهبى فى الفقه المالكى الواسع الانتشار فى غرب أفريقيا (٥). وقد كان لزعامته وتعاليمه الفضل فى قيام دولة إسلامية للفولانى فى مناطق الهوسا، كما كانت مصدر إشعاع لغيرها فى المناطق المحيطة.

وقد تزعم جهاد الفولانى الذى كان وراءه الصراع السياسى التقليدى بينهم وبين الهوسا. وساعده فى جهاده ابنه محمد بللو وأخوه عبدالله (٦). وقد اعتبر البعض تلك الحركة صدى لرد الفعل الصوفى فى الشرق الأوسط للحركة الإصلاحية الوهابية فى الجزيرة العربية، إلا أنها مثلت بدرجة أكبر جهوداً محلية ترمى للإصلاح الإسلامى كرد فعل لتردى أوضاع المسلمين فى المنطقة. وذلك بتطبيق نظام قيم إسلامى جديد أساسه التركيز على المصادر الأصلية للشريعة مع الأخذ فى الاعتبار البعد الثقافى المحلى. ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن عثمان دان فوديو ـ على خلاف الزعماء الإسلاميين الأفريقيين الذين نهضوا فى القرن التاسع عشر ـ لم يقم بزيارة الأراضى المقدسة، ولم يكن له احتكاك بالحركة الوهابية بل إن حركته فى انتشارها سبقت

(٢) ومعناها بالفولانية الفقيه. انظر ولمزيد من المعلومات: المرجع السابق، ص٩٤. انظر أيضاً: Martin, Op. cit, p.p. 12-13.

(٣) ولد عثمان دان فوديو فى شمال مناطق الهوسا فى مراتا بجوار جالى بأراضى غوبر وذلك فى عام ١٧٥٤م وتوفى عام ١٨١٧ (وقد جاء فى الألورى أنه ولد عام ١٧٤٤م/ ١١٦٩هـ). أما أخوه عبدالله فقد ولد عام ١٧٦٦، أما ابنه محمد بللو فقد ولد عام ١٧٨١. وقد دخل أجدادهم من عشيرة التورودبى أراضى الهوسا فى القرن الخامس عشر حيث تخلف جده الأكبر فى تلك البلاد وهو فى طريقه للحجاز.

(٤) من مؤلفاته: «أصول الولاية»، و«إحياء السنة» و«بيان البدع»، و«ترغيب العباد»، و«مرآة الطلاب»، و«حصن الأفهام»، و«المسائل المهمة»، و«مصالح الأمة»، و«نور الأولياء».

(٥) الألورى، الإسلام فى نيجيريا ... مرجع سابق، ص٩٦،٩٥.

(٦) د. السر سيد أحمد العراقى، «عبدالله بن فودى، محمد بللو بن الشيخ عثمان دان فودى: من علماء غربى أفريقيا فى القرن التاسع عشر»، فى: ندوة العلماء الأفارقة، ص ٣٥٧ - ٣٦٥.

ومن أهم كتابات الشيخ عبدالله «تزيين الورقات»، انظر لمزيد من المعلومات: عمر أحمد سعيد، «تزيين الورقات بين التاريخ والأدب (الشيخ عبدالله بن فوديو)»، دراسات أفريقية، المركز الإسلامى الأفريقى، الخرطوم، العدد الأول، رجب ١٤٠٥هـ - أبريل ١٩٨٥م، ص١٥٢ - ١٦٩.

الحركة الوهابية، وهناك العديد من الاختلافات بين الحركتين [٧].

وقد اعتمدت الحركة أيديولوجياً على الطريقة القادرية ولقيت تأييداً من المسلمين الذين ينتقدون الاتجاهات الدينية التي عملت على التكيف مع نظم ومعتقدات غير المسلمين: أي الذين عارضوا التوليف الديني والثقافي بين الإسلام والديانة التقليدية، كما عارضوا أيضاً قهر الهوسا لهم وغزوات قنص الرقيق والضرائب العشوائية التي فرضوها عليهم.

وعثمان دان فوديو ينتمي لعشيرة تسمى توروديى، أو تورنكا، أو توررود ـ حيث يسميهم جيرانهم الهوسا ـ والكلمات اعتبرت مرادفة للفولاني [٨]. وقد كانت تلك العشيرة النواة الأساسية للدولة الإسلامية المترامية التي تأسست بزعامة عثمان دان فوديو في مناطق الهوسا. وقد تميزت العشيرة بتفوقها العلمي بفضل دراسة أفرادها للدين الإسلامي وتماسكهم السياسي. وكان مثقفوها على صلة بالتطورات السياسية والثقافية في المناطق الإسلامية الأخرى في العالم. ومن ثم طوروا لأنفسهم تقاليد ثقافية إسلامية قومية ووصل بعضهم إلى مستوى عال في التفقه، وسافر الكثير منهم للأراضي الحجازية للحج وبقي بعضهم في مصر لفترة طويلة حيث استوعبوا الأفكار الإسلامية من تلك المناطق، وبالتالي فإن ثقافتهم لم تكن بحتة حيث انفتحوا على الحضارة الإسلامية. ومع تفوقهم العلمي والحضاري إلا أنهم كانوا خاضعين لغيرهم من الشعوب حيث كانوا أقلية بين الهوسا. فقد كانت الحياة صعبة بالنسبة لهم بحكم الظروف مما دفع البعض منهم إلى التصوف والبعض الآخر إلى النشاط السياسي: وقد جمع بن فوديو بين الاتجاهين. وكان وضعهم باختصار هو وضع أرستقراطية روحية محرومة من وضعها الصحيح في المجتمع. وكان هناك تنسيق بين متعلمي الفولاني ومتعلمي توروديى كما أنهم تماسكوا سياسياً. وقد شغلت التوروديى الظروف الاجتماعية المحيطة: من ذلك الأوضاع غير المستقرة للمجتمع نتيجة وجود بحر من الهوسا الذين يدينون بالديانة التقليدية أو المسلمين إسلاماً سطحياً يحيطون بجزر صغيرة من المسلمين (الفولاني، والطوارق والعرب وبعض الهوسا المسلمين إسلاماً حقاً)، وهؤلاء تطلعوا في المستقبل لحكومة مسلمة ومؤسسات اجتماعية إسلامية في ظل زعامة إسلامية. ورأى البعض منهم الأخذ بفكرة العودة للدولة الإسلامية في الماضي (مثل الدولة في ظل الخلفاء الراشدين الأربعة أو الدولة العباسية). وقد تزايد عدد المناضلين

(٧) لمزيد من المعلومات انظر: الأليري، الإسلام في نيجيريا، مرجع سابق، ص٩٩ - ١٠٢، حيث يتناول بالتحليل أوجه الخلاف بين الحركتين. وعن تأثير الحركة الوهابية في أفريقيا انظر: Cardaire, op. cit. pp. 100 - 144
وعن الاتجاه المعارض لها انظر: ص١٤٥ - ١٦٢.

(٨) وموطنهم الأصلي في السنغال وغينيا في منطقة فوتاتورو وفوتاجالون، ومثلت تحركاتهم البشرية من تلك المنطقة نحو الشرق واحدة من أهم التحركات البشرية في أفريقيا، حيث ينتشرون في كل غرب أفريقيا. وقد تميزوا تقليديا بالثراء وامتلاك الأبقار كما عانوا كثيراً من الجفاف الذي عم المنطقة في السنوات الماضية.

من المسلمين في مناطق الهوسا خاصة في القرن الثامن عشر نتيجة هجرتهم من الغرب. ومع اضطهاد الهوسا وإجحاف الضرائب والممارسات المسيئة للإسلام، تطلعوا للقيام بالثورة لإقامة النظام الإسلامي الذي يرغبون فيه.

وقد وجد هؤلاء المناضلون في عثمان دان فوديو غايتهم في الزعامة. فهو يأتي من عشيرة توروديية معروفة كما سبق ذكره وقد جعله والده يحفظ القرآن صغيراً وتفوق في اللغة العربية وفقه فقه الإمام مالك والتعاليم الإسلامية كما درس الشريعة الإسلامية والأدب العربي. ويرجع الفضل في تدريس عثمان دان فوديو وأخيه عبدالله وابنه محمد بللو لأقاربه خاصة جبريل بن الأقدس [٩] الذي قام بالحج مرتين والذي أدخلهم في ثلاث طرق صوفية مختلفة هي القادرية والخلوتية والشاذلية. وقد كان لجبريل تأثير كبير على آراء وحياة عثمان دان فوديو رغم أن الأخير اعتبره أقرب إلى الخوارج والمعتزلة نتيجة راديكالية آرائه، إلا أنه اتفق معه في الحملة على الممارسات المسيئة في أراضي السودان الغربي - أو ما يعرف ببلاد التكرور [١٠].

وتأثراً بآراء جبريل فقد بدأ عثمان دان فوديو في التفكير في الإصلاح الإسلامي مع القضاء على الممارسات الضارة السائدة. وبدأ الدعوة لذلك من سن العشرين، وبدأ السفر من موطنه في دجل قرب سوكوتو مهاجماً المسيئين لنقاء الإسلام. وشاركه أخوه عبدالله كثيراً بعد حوالي ١٧٧٤م.

وقد بلور الشيخ عثمان دان فوديو أيديولوجية تقوم على أن أصول الإسلام هي الكتاب والسنة والإجماع. فالحلال والحرام هو ما اتفق عليه علماء السلف والاجتهاد يكون واسعاً فيما اختلفوا فيه. ومن ثم رأى أنه لا يشترط اتباع أي من المذاهب الفقهية فجميعها على حق. وقد نظر إلى العادات المحلية التي تُخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أنها بدع يجب إزالتها، واعتبر المزج بين تعاليم الإسلام والمعتقدات الوثنية الموروثة المنافية له نوعاً من الشرك يستوجب الجهاد مثله: مثل الوثنية المحضة. كما ربط بين إسلام وكفر حاكم البلاد بإسلام وكفر شعبه، عملاً بأن «الناس على دين ملوكهم». وفي حالة بلاد الكفر يستوجب الأمر إعلان الجهاد عليها أو الهجرة منها إلى بلاد الإسلام. واعتبر من عداد بلاد الكفر التي يجوز إعلان الجهاد عليها تلك التي لا تحكم بالشرع [١١].

(٩) لمزيد من المعلومات عن الشيخ جبريل وتأثيره على دان فوديو ومراحل تطور جهاده انظر: أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، ورقة ثقافية، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، ود. عمر عبدالرازق النقر، «دراسة أولية في أسانيد الشيخ عثمان بن فودي»، في: ندوة العلماء الأفارقة، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

(١٠) وقد كتب الكتاب العرب كثيراً عن بلاد التكرور في القرون الوسطى وقدم الكثير من أهالي تكرور إلى مصر للالتحاق بالأزهر أو في الطريق للحج في مكة واستقروا في حي بولاق الدكرور الذي يستمد اسمه من تكرور الذي أصبح دكرور مع مرور الزمن. ولايزال الإفريقيون في المملكة العربية السعودية معروفين عامة بالتكارنة نسبة للتكرور.

(١١) محمد أحمد الحاج، الشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحادية، ندوة العلماء الأفارقة، ص٣١٢.

ولقد ذاع صيته بين حكام الهوسا نتيجة تعاليمه ودعوته وتحقيقه للعدل بين شعبه. وقد تدعمت صورته بعد فشل محاولة حاكم غوبر - باو - فى قتله وبعد أن أصبح معروفا أنه هو وأتباعه يراكمون الأسلحة والعتاد. ولم يتوقف عن الكتابة بالعربية (والتى كانت موجهة للفئات الأكثر تعليماً) والفولفولدى (وهى اللغة الشائعة بين الفولانى).

ويقول عن نفسه إنه عندما بلغ السادسة والثلاثين من عمره رفع الله عنه الحجاب وأصبح يرى الأشياء البعيدة قريبة ويسمع الأصوات البعيدة كما أصبح يشم الرائحة الطيبة لمن يعبدون الله والرائحة السيئة للمخطئين. وفى سنة ١٧٩٤م كانت له تجربة أخرى أقنعته بأنه يمتلك تأييداً إلهياً حيث يذكر أنه «بعد أن بلغ الأربعين - بخمسة شهور وعدة أيام - أخذه الله إليه وأنه وجد سيدنا محمداً مع الصحابة والأنبياء والقديسيين ثم جاء عبدالقادر الجيلانى - مؤسس القادرية - يلبس رداء أخضر مكتوباً عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنه قلده سيف الله ليستخدمه ضد أعدائه»[١٢].

ومنذ ذلك التاريخ أصبح عثمان دان فوديو مقتنعاً بضرورة المواجهة العسكرية مع حكام الهوسا، خاصة حاكم غوبر الذى قام عام ١٧٩٧م بإيقاف الدعوة الإسلامية وتقييد حرية المسلمين. وهو ما أوضحه محمد بللو ابن عثمان دان فوديو فى رده على محمد الكافى - أحد علماء عصره وهو من برنو - الذى أرسل لعثمان دان فوديو يلومه على ما سمع من محاربته لحكام غوبر وبرنو وغيرها رغم إسلامهم مخالفة لشروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. حيث ذكر: «فلم يرعنا إلا إنذار من أمير غوبر بثلاثة أمور: أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما عليه آباؤه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها»[١٣]. وكان هذا الإنذار وما يتضمنه بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، حيث قرر عثمان دان فوديو - الذى كان قد سلح أتباعه - الهجرة مستناً بالرسول وتمشياً مع قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾

«النساء: ٩٧».

فنقل مقره إلى جودو وهى إلى الشمال الغربى من موطنه كما أنها على حدود غوبر.

وقد تبع الهجرة إعلانه الجهاد الذى بدأ فى ١١ فبراير عام ١٨٠٤م واستمر أربع سنوات. وقد حقق بالفعل نصراً كبيراً على حاكم غوبر. وأعلن الخلافة فى الدولة الإسلامية التى أنشأها تطبيقاً لأيديولوجيته التى بلورها، على نمط الخلافة فى صدر الإسلام وعاصمتها صكت[١٤].

(١٢) انظر: MARTIN, OP. CIT. P. 20

(١٣) انظر: الألورى، الإسلام فى نيجيريا، مرجع سابق، ص١٢٧.

وعن الرد كاملا، انظر: ص ١٢٥ - ١٢٦، وعن أصل رسالة الكانمى التى كان الرد السابق عليها، أنظر: ص ١٢٣ - ١٢٥.

(١٤) د. محمد أحمد الحاج، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

وجاء النصر بحلفاء جدد لعثمان دان فوديو خاصة من الرحل الفولانى ممن كانوا يراقبون الأحداث لينضموا للمنتصر سعياً وراء الغنائم أكثر منه تحمساً للجهاد. هذا وقد قام الكانمى بمحاربة جيوش فوديو واستطاع استرداد برنو ونصب نفسه حاكماً عليها كدولة إسلامية. وقد ظل أبناؤه يحملون لقب شيخ حتى الآن.

وقد أسهم جهاد (الفولانى) فى ظل عثمان دان فوديو إسهاماً كبيراً فى نشر وتعميق الدين الإسلامى فى نيجيريا والمناطق المحيطة فى القرن التاسع عشر، وقد دامت دولته التى أسسها على النظام الإسلامى مائة عامة قبل الاستعمار الانجليزى لنيجيريا. حيث استمرت من بعده فى ابنه محمد بللو الذى تولى الخلافة من بعده وفى آل بيته من بعده[١٥]. وقد استطاعت الإدارة البريطانية أن توقع معه معاهدة صداقة فى ١٨٢٦م، ولكن توسعها فى المنطقة لقى مقاومة من السلطان سلطان بن محمد بللو، الذى ما لبث أن هزم وهاجر، ولكن تتبعته القوات البريطانية وقضت عليه وعلى معظم أعوانه والعلماء المصاحبين له؛ مما أدى إلى سقوط الخلافة فى أيدى البريطانيين عام ١٩٠٣م.

ولكن لم يتم القضاء على الدعوة الإسلامية ولا على صورة عائلة دان فوديو. فمن الجدير بالذكر أن أحمد بللو - رئيس وزراء شمال نيجيريا الأسبق - وهو من ذرية عثمان دان فوديو - قد ختم حياته بالدعوة الإسلامية، وتحولت على يديه مناطق كبيرة وقرى بأكملها ممن يدينون بالديانة التقليدية والمسيحية فى شمال نيجيريا للإسلام، الأمر الذى كانت تنشره الصحف اليومية والإذاعات المحلية فى شكل أرقام خيالية[١٦].



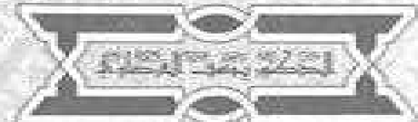
(١٥) لمزيد من المعلومات عن دولة بن فوديو انظر: د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم، الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١.

(١٦) الجاسى، مرجع سابق، ص ٤٠ - ٤١.

قراءة فى كتاب



الحل الإسلامي
فريضة وضرورة



بقلم أ. عادل خفاجة

سبق أن عرضنا للمؤلف كتاب «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا»، وهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو استكمال لهذه السلسلة... غير أنه صدر متأخرا مدة ثلاثة أعوام؛ لانشغال المؤلف بالعمل الرسمى، حتي يسّر الله له الأسباب، وتأخرنا – نحن أيضا – فى عرض هذه الكتب فى هذه الآونة، بل فى وقت هى أشد حاجة إلى الاطلاع على كل فكر جاد يضيئ لها الطريق.

ونذكر القارئ الكريم – فى عجالة – أن المؤلف أثبت فى كتابه الأول فشل كل من الحل الليبرالى والحل الاشتراكى، وأشار إلى أن الحل الإسلامى إنما هو الحل البديل الفذ المنشود.

المؤلف: هو الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى، ولد المؤلف ونشأ فى مصر وحفظ القرآن وجوده وهو دون العاشرة، وأتم تعليمه فى الأزهر الشريف، حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣ م، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤ م، وحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ م، وقد قدمت مجلة الأزهر تعريفا بفضيلته عند الكلام عن الجزء الأول من كتابه هذا تحت عنوان «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا»، نشر بعدد ذى القعدة ١٤٣٢هـ، ص ١٩٦٩.

الكتاب: يقع الكتاب فى مائتين واثنتين وسبعين صفحة من قطع ١٧ × ٢٤ سم، الناشر بنك التقوى.

ويشمل عدة أبواب، الأول منها تحدث فيه عن الأسباب الداعية لنبذ الحلول المستوردة وأن أمتنا ترفض الحل الشيوعى شكلاً وموضوعًا، إجمالاً وتفصيلاً، أما إجمالاً فلأن الشيوعية ضد عقيدتنا، لأنها مذهب مادى ينكر كل ما وراء الحس وما بعد الطبيعة، ونحن قوم نعتبر الإيمان أساس وجودنا، ومحور حياتنا.

ثم هى – أى الشيوعية – ضد شريعتنا، فهى تنكر التملك الفردى بأى طريق كان، وكل ما يترتب عليه من حقوق وأنظمة: كنظام الزكاة، كما تنكر نظام الزواج والطلاق.

ولأنها ضد قيمنا الأخلاقية والاجتماعية؛ فهى لا تؤمن بقيم ثابتة، فكل شيء فى فلسفتها قابل للتغيير، بل واجب التغيير، فما كان حرامًا بالأمس قد يكون حلالاً غدًا أو بعد غد، أما نحن فنؤمن بأن ما أحله الله فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرمه فهو حرام إلى يوم القيامة.

ولأنها ضد طبيعتنا، فهى مذهب متطرف ونحن أمة وسطًا، نؤمن بالإخاء وهى مذهب يدعو إلى الصراع الطبقى، نحن ندعو إلى الرفق وهى تدعو إلى العنف والدم، شعارنا «وكونوا عباد الله إخوانًا»، وشعارها «يا عمال العالم اتحدوا»، أى ضد الطبقات الأخرى، وما أعظم الفرق بين الشعارين.

ونترك العديد من الفوارق التى أثبتها المؤلف لنتحول إلى معالم وملامح الخطوط العريضة للحل الإسلامى، وهو ما تناوله فى الباب الثانى.

يرفض المؤلف تلك الصورة التى تتبادر إلى أذهان الكثير، أن الحل الإسلامى يتمثل فى قطع يد السارق وجلد الزانى أو رجمه والقصاص من القتلة.

ويشير المؤلف إلى أن «الحل الإسلامى» أن يكون الإسلام هو الموجه والقائد للمجتمع فى كل الميادين وكل المجالات، مادية ومعنوية، وأن تكون عقيدة المجتمع إسلامية، ومفاهيمه إسلامية وأفكاره ومشاعره ونزعاته إسلامية، ثم يأتى أخيرًا أن تكون قوانينه وتشريعاته إسلامية.

وقد تناول المؤلف فى هذا الفصل – بشيء من التركيز – عدة عناصر يفتقدها مجتمعنا فى كافة النواحي: الأخلاقية والروحية – التربوية والثقافية –الاجتماعية والاقتصادية – العسكرية والسياسية، الداخلية والخارجية، والتشريعية.

ونتوقف عند بعض ما قاله المؤلف عن الناحية الاقتصادية، إذ يرى المؤلف أن ما يدعيه الكثيرون أن الدين لا يعنى بالجانب المادى الذى هو مجال الاقتصاديين، إنما هو محض توهم، وإن صح ذلك فى أديان أخرى فإنه لا يصح فى الإسلام لأن القرآن اعتبر المال قوامًا للحياة فقال:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾

(النساء: ٥)

وغيرها كثير..

وقال ﷺ: «يا عمر نعم المال الصالح مع الرجل الصالح»، إسناده قوى على شرط مسلم، وأخرجه أحمد ١٩٧ / ٤

وأشار القرآن والسنة إلى أهمية المؤثرات الاقتصادية فى السلوك البشرى فى مثل قوله:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

وفى مثل قوله ﷺ: «إن الرجل إذ غرم حدث فكذب ووعد فأخلف»، صحيح البخارى (١ / ١٦٦)، باب الدعاء قبل السلام.

ويشير المؤلف إلى أن الإسلام أقام نظامه الاقتصادى على إقرار الملكية الفردية، ووضع لها أسبابًا لاكتسابها، وقيودًا لتنميتها، وقبل ذلك اعتبر المالك الحقيقى للمال هو الله تعالى، والناس أمناء عليه أو وكلاء فيه، وبتعبير القرآن مستخلفين فيه.

من أجل ذلك يرى المؤلف ضرورة عناية الحل الإسلامى بالناحية الاقتصادية، أن أبرز ما يراعى فيها:

١ - إتاحة العمل الملائم لكل مواطن قادر باعتبار العمل حق له وواجب عليه.

٢ - إعطاء الأجر العادل لكل عامل بما يكافئ عمله ويغطى حاجته بالمعروف، فقد أعطى النبى فى الفىء العزب حظًا والآهل حظين، وهناك العديد من الشواهد التى تؤكد ذلك من أفعال النبى ﷺ، وهو ما يميز الإسلام عن النظرية الاشتراكية التى تعطى كلا حسب عمله فقط.

٣ - جباية الزكاة من كل الأموال: ظاهرة كالثروة الحيوانية والزراعية، وباطنة كأموال التجارة والنقود.

٤ - كفالة المعيشة الكريمة، التى تتوافر فيها الحاجات الأصلية لكل مواطن عجز عن العمل عجزًا أصليًا أو طارئًا عقليًا أو جسميًا، أو كان قادرا عليه ولم يجد عملا ولم تستطع الدولة أن تهيئ له سبيلاً للعمل المناسب، أو وجد عملا ولكن كان دخله لا يكفيه لكثرة أعبائه العائلية، أو لظروف عارضة زادت فى معدل نفقاته، كمرض ألم به أو لغلاء الأسعار.. إلخ

٥ - مصادرة كل مال حصل عليه حائزه بطريق من طرق الحرام وأكل أموال الناس بالباطل بشرط أن يثبت ذلك بتحقيق نزيه وأن يفصل فيه قضاء عادل.

٦ - أن يخضع موظفو الدولة - بخاصة الكبار منهم - لقانون «من أين لك هذا».

٧ - محاربة السرف والترف فى المجتمع بالتشريع والتوجيه.

٨ - تقريب الفوارق الاقتصادية بين الأفراد والفئات والعمل الدائب على الحد من طغيان الأغنياء ورفع مستوى الفقراء.

٩ - تقريب الفوارق بين القرية والمدينة.

١٠ - تطهير المؤسسات الاقتصادية من رجس الربا، ومن كل معاملة تخالف شريعة الإسلام.

١١ - وضع خطة - على أساس علمى وإحصائى - لزيادة ثروة الأمة وتنمية إنتاجها، كما ونوعا، والاستفادة من التكامل بين البلدان الإسلامية للعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتى فيما بينها.

شروط الحل الإسلامى

أما الباب الثالث من هذا الكتاب فنجد المؤلف وقد وضع شروطًا للحل الإسلامى تتمثل فى:

١ - ضرورة الدولة المسلمة

٢ - الاستمداد من مصادر الإسلام

٣ - أن يكون الحل متكاملاً لا يقبل التجزئة

٤ - لابد من عنوان الإسلام

٥ - أن يكون الإسلام غاية لا أداة ومطية

ونتوقف أمام هذا الشرط: «لابد من عنوان الإسلام»

إذ يذهب المؤلف إلى أنه لا يكون الحل إسلاميًا إلا إذا أخذ باسم الإسلام، وتحت عنوان الإسلام، ويفترض المؤلف أن قومًا حكموا بتعاليم الإسلام وشرائع توافق شرائعه، ولكنهم أطلقوا عليها أسماء وعناوين أخر، ولتكن الديمقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية، ويتساءل: هل تعد حكم هؤلاء إسلاميًا؟

ويجيب: أن لا، ثم لا، لأن الله تعالى تعبدنا بأحكام هذا الدين، فلابد أن نشعر فى كل أمر تنفذه أننا تحكم ديننا ونعمل بهديه لنفوز برضوانه سبحانه وتعالى.

الإسلام غاية لا أداة ومطية

ونتوقف - أيضًا - عند النقطة الخامسة من هذا الباب، حيث يؤكد فيه أن الحل الإسلامى لا يكون حلا إسلاميا إلا إذا كان الإسلام نفسه هو الغاية وإليه المنتهى وأن تجند كل الأنظمة والمناهج والوسائل والإمكانات لخدمته هو.

أما أن يتخذ الإسلام وسيلة لتثبيت حكم معين أو لكسب قيمة معينة عسكرية أو سياسية أو أداة للدعاية لبلد أو أسرة أو حزب أو عهد أو نظام أو مذهب، فهذا يعد إهانة عظمى للإسلام وهو انحراف به، وتمريغ لوجهه فى الطين، حيث جعلناه خادمًا وهو السيد المطاع، وجعلناه آلة وهو الهدف المنشود، والوجهة التى يشد إليها الرحال.

مكاسب من وراء الحل الإسلامى

وفى الباب الرابع: يرد المؤلف على من يزعم أن المناداة بضرورة العودة إلى الإسلام هدفها الأوحد الفوز بالجنة.

فيؤكد لهم أن الفلاح فى الآخرة أعظم ربح، ولكن فى المناداة بضرورة الأخذ بالحل الإسلامى حل وعلاج لمشكلاتنا ومصدر لتنظيم حياتنا ومنار لهداية أمتنا.

ويثبت فى هذا الباب عددًا من الفوائد منها:

١ - تحقيق إيماننا ووجودنا الإسلامى.

٢ - إقامة التوازن فى حياتنا.

٣ - علاج المشكلات من جذورها.

٤ - تكوين الإنسان الصالح.

٥ - تحقيق الاستقرار والطمأنينة فى حياة الأمة.

٦ - حفظ وحدة الأمة والإخاء بين أبنائها.

٧ - جمع كلمة الأمة العربية والإسلامية.

٨ - تجديد روح الحياة والقوة فى الأمة.

٩ - تحقيق الأصالة والاستقلال للأمة.

ويخلص المؤلف إلى أن الحل الإسلامى هو الحل الذى جرب فى هذه الأمة من قبل فأعطى نتائج باهرة وحقق نجاحًا منقطع النظير وسعدت به وتحت سلطانه بالطمأنينة والعدل والاستقرار وأطعمها الله به من جوع وآمنها من خوف، وأعزها بعد ذل، وعلمها بعد جهل، وهداها بعد ضلال واجتمعت عليه بعد فرقة، وتآخت فى ظله بعد عداوة وشحناء، ومن أنكر ذلك فقد كذب التاريخ ونفى الواقع وجحد نعمة الله، وتنكر لآيات الله فى كتابه على المؤمنين، ويدلل المؤلف على صدق قوله مستشهدا بقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

وقوله سبحانه:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

بهذه الشواهد وغيرها يؤكد المؤلف أنه لا صلاح لهذه الأمة التي كانت على شفا الهلاك والدمار إلا بالتمسك بمنهج الله حتى تخرج من الظلام إلى النور.

السبيل إلى تحقيق الحل الإسلامي

ينهي المؤلف هذا الكتاب بحديث عن السبيل إلى إقامة ذلك المجتمع الإسلامي المتكامل وهذا المجتمع المنشود وكيف ننتقل به من عالم الأحلام والأماني إلى عالم الحقائق والواقع ويشير إلى أن هناك عدة سبل لكل منها دعاته وأنصاره وهي:

١- سبيل القرارات الحكومية.

٢- سبيل الانقلابات العسكرية.

٣- سبيل الوعظ والارشاد.

٤- سبيل الخدمات الاجتماعية.

هذه عدة أفكار لها دعاة وأنصار، ولاشك أنها لا تخلو من صواب وإن لم يكن كل الصواب.

فأما السبيل الأول وهو القرارات الحكومية فإن المؤلف يرى أن من يدعون إلى ذلك هم قدوم حسنو النية، ولكن غابت عنهم حقائق مهمة في هذا المجال وهي:

١- معنى أو مدلول مجتمع إسلامي وسعته.

٢- مدى التخريب الذي أحدثه الاستعمار في ديارنا وما خلف من آثار.

٣- مدى قدرة الحاكم الفرد على تغيير مجتمع ما، وبنائه من جديد.

٤- مدى إرادة الحكام الحاليين لتطبيق الإسلام، وإقامة مجتمع إسلامي حقيقي.

٥- مدى خطورة قيام مجتمع إسلامي حقيقي في عصرنا، وأثره في العالم.

ويلقي المؤلف الضوء على كل عنصر من العناصر الخمسة، ليخلص في النهاية إلى صعوبة هذه المهمة لأي حاكم لأنه سيواجه مؤامرات على المستوى العالمي، فما لم يكن للحكم «عصبية» تحميه وتفديه وشعبية تناصره وتعضده تجاه المؤامرات والفتن لم يستطع الثبات والصبر طويلاً أمام ضغطها.

اما السبيل الثاني وهو سبيل الانقلابات العسكرية، فقد ذكر المؤلف عشرة أدلة لأصحاب هذا الرأي أهمها:

١ - ان تغيير المنكر باليد أي بالقوة المادية واجب لا يسقط إلا بالعجز عنه.

٢ - ان القوة هي أضمن طريق لإحقاق الحق.

ثم يكر على هذا الرأي بعدة أمور أسقطها أصحاب هذا الرأي برغم ما له من بريق من هذه الأمور التي سقطت من الاعتبار.

١ - أن النجاح في الاستيلاء على السلطة بالقوة لا يعني النجاح في تطبيق المبادئ التي قام من أجلها الانقلاب، وكم من فئات حزبية انقضت على السلطة، وظلت تحكم عدة سنين وهي معزولة عن الشعب مبغضة إليه.

سبيل الوعظ والارشاد

وعن السبيل الثالث يرى المؤلف أنه وسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله، لا يستغني عنها بحال، ولا يجوز التهوين من أثرها على كثير من الناس، ثم يسجل مآخذه على هذه الوسيلة فيقول:

«ولكن هذه الوسيلة وحدها برغم جلالها وتأثيرها - لا تكفي لتحقيق الهدف المراد، ويذكر من أسباب ذلك.

١ - أن تأثيرها محدود لأنه محصور في رواد المساجد وأشباههم ممن لا يزالون على اتصال بالتدين والعبادة.

٢ - ان تأثير الواعظ محدود من حيث المكان والزمان فالمستمعون يتأثرون بالواعظ عند السماع، وقد تذرف أعينهم الدمع ثم ينصرف الواعظ لا يملك متابعة موعوظيه، وسرعان ما يتبخر أثر الوعظ اذا دخل الناس في لجة الحياة.

وهكذا يعرض المؤلف السبيل الرابع وهو سبيل الخدمات الاجتماعية ويذكر على بعض مجالاتها ثم يبين أن في هذه القضية اتجاهين متناقضين الاتجاه الأول يبالغ في تقدير الأعمال والخدمات الخيرية والاتجاه الآخر يرفض مجرد المشاركة في هذه الأعمال ويرى أنها صارفة عن الهدف الأساسي وهو إقامة الدولة الإسلامية.

ثم يتكلم في بقية الباب عن ضرورة الحركة الإسلامية ومتى تكون القيادة شرعية، ثم يمتد حديثه عن ضرورة التخطيط - وعناصر التخطيط المرجو - وما لا يدخل في التخطيط ثم يتكلم عن التخطيطي والقدر ثم مهمة الحركة الإسلامية - والمعوقات من جهة الشعب والمعوقات من داخل الحركة نفسها - ثم يتحدث عن ضعف التنظيم والتخطيط وينهي الكتاب بحديث عن الحركة الإسلامية بالأمس والحركة الإسلامية غداً.

وفي هذا الجزء الأخير من الكتاب عن الحركة الإسلامية غداً يكتفي المؤلف بوضع الخطوط العريضة التي تمثل الملامح والقسمات المعبرة عن وجه الحركة الإسلامية المنشودة والمرجوة لغد الأمة الإسلامية كما يتصورها فيذكر أربعة وعشرين ملمحاً هي تلخيص وتفريغ للمعاني التي ذكرها في هذا الفصل نكتفي أن نذكر منها:

١- أن تعمل وتحافظ وتحرص على تقوية الرابطة بين أبنائها فكريا بتنمية المفاهيم المشتركة وروحيا بتعميق معنى الأخوة في الله وأخلاقيا بتثبيت فضائل التسامح وخفض الجناح وترك المراء والتماس الأعذار.

٢- أن تغلب العمل للحاضر والتخطيط للمستقبل على التغني بأمجاد الماضي.

٣- أن تهتم بالتربية والتكوين على قدر اهتمامها بنشر الفكرة.

٤- أن تربي أبناءها على أن العمل للإسلام هو في ذاته واجب ديني وعبادة وقربة إلى الله.

٥- أن تحاول ملء الفراغ عند أفرادها بما ينفعهم.... إلى آخر ما ذكره الشيخ الجليل من نقاط يرى أنها ملامح وقسمات للحركة الإسلامية المنشودة، وقد ذكرها على وجه الإشارة والإجمال حتى ييسر الله له التوضيح والتفصيل فيما بعد أو يتولاه غير من دعاة الحركة ومفكريها.

وبعد فقد كانت هذه قراءة سريعة في بعض ما جادت به قريحة رجل فذ من أفذاذ أمتنا الإسلامية، نقدمها لنلفت أنظار قرائنا إلى هذا الجهد الصادق وهذا المنهج الجدير بالتأمل في وقت تتسارع فيه العقول إلى الاطلاع على العديد من الأيدولوجيات وربما تعثرت في الاختيار فلعل هذا الكتاب يكون ضياء ومرشداً.

فتاوى لها تاريخ

الشريعة تنظم الغريزة





الشيخ/ محمود شلتوت

الغناء والموسيقى

جاءتنى رسالة من شاب يقول فيها: إنه يهوى الموسيقى منذ نعومة أظفاره، وأنه يدرسها ويجتهد فى تعلمها، وقد فاجأه أحد أصدقائه بأنها حرام، لأنها لهو يصرف عن الصلاة وعبادة الله، وكل لهو حرام، فقال لصديقه: إنى أصلى الصلوات الخمس فى أوقاتها وأعبد الله تماماً، وأذهب إلى النادى فى أوقات الفراغ، لأسرى عن نفسى عناء العمل نهاراً والمذاكرة ليلاً، فلم يقتنع صاحبه بذلك، وأصر على أن الموسيقى حرام، وأخيراً اتجها إلى التحكيم، وبعث إلىَّ الشاب هذه الرسالة ملتمساً بيان الحكم الشرعى فى الموضوع.

حيرة بين المحللين والمحرمين

أرجو أن يجد إخواننا المسلمون فى هذه الفتوى ما ينفعهم فى معرفة حكم الله، بالنسبة لكثير من الأشياء التى يجرى على بعض الألسنة أن حكمها الشرعى هو التحريم، ويجرى على البعض الآخر أن حكمها هو الحل، وبذلك وقع الناس فى حيرة نفسية وارتباك دينى، ولم يجدوا ما يرجح لهم أحد الجانبين، وظلوا فى تردد بين الحل والحرمة، وفيه من البلبلة ما لا يتفق وشأن المؤمنين.

ومن أمثلة ذلك هذه الرسالة التى جاءتنى فى شأن «تعلم الموسيقى وسماعها»، فهى كما سمعتم تصور رأيين مختلفين فى حكم الموسيقى، يستند أحدهما إلى كلمات تقرأ فى بعض الكتب الشرعية، أو تسمع من بعض الناس الذين يلبسون ثوب الورع على غير الوجه الذى يلبس عليه، وينبع الرأى الآخر من العاطفة الإنسانية المحكومة بالعقل الدينى السليم:

يرى الأول، بالكلمات التى قرأها، أو التى سمعها، أن تعلم الموسيقى وسماعها حرام.

ويرى الثانى بعاطفته الإنسانية البريئة، أن تعلمها وسماعها حلال لا حرمة فيها.

فطرة الإنسان تميل إلى المستلذات

والأصل الذى أرجو، أن ينتبه الناس إليه فى هذا الشأن وأمثاله، مما يختلفون فى حله وحرمته، هو أن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التى يجد لها أثراً طيباً فى نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه ينشرح صدره بالمناظر الجميلة، كالخضرة المنسقة والماء الصافى الذى تلعب أمواجه، والوجه الحسن الذى تنبسط أساريره، ينشرح صدره بالروائح الزكية التى تحدث خفة فى الجسم والروح، وينشرح صدره بلمس النعومة التى لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذة المعرفة فى الكشف عن مجهول مخبوء، وتراه بعد هذا مطبوعاً على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث.

الشرائع لا تقضى على الغرائز بل تنظمها

ولعل قيام الإنسان بمهمته فى هذه الحياة ما كانت لتتم على الوجه الذى لأجله خلقه الله إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية، توجهه نحو المشتهيات، وتلك المتع التى خلقها الله معه فى الحياة، فيأخذ منها القدر الذى يحتاجه وينفعه.

ومن هنا قضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه، بعد أن خلقه هذا الخلق، وأودع فيه حكمته السامية هذه العاطفة، نزعها أو إماتتها أو مكافحتها فى أصلها، وبذلك لا يمكن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية، فى أى مرحلة من مراحل الإنسانية، طلب القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التى لابد منها فى هذه الحياة.

نعم، للشرائع السماوية بإزاء هذه العاطفة مطلب آخر، يتلخص فى كبح الجماح ومعناه: مكافحة الغريزة عن الحد الذى ينسى به الإنسان واجباته، أو يفسد عليه أخلاقه، أو يحول بينه وبين أعمال هى له فى الحياة ألزم، وعليه أوجب.

التوسط أصل عظيم فى الإسلام

ذلك هو موقف الشرائع السماوية من الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقصد، لا موقف الإفراط، ولا موقف التفريط، هو موقف التنظيم، لا موقف الإماتة والانتزاع، هذا أصل يجب أن يفهم، ويجب أن توزن به أهداف الشريعة السماوية، وقد أشار إليه القرآن فى كثير من الجزئيات:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾

(الإسراء: ٢٩)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

(الأعراف: ٣١)

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾

(لقمان: ١٩)

وإذن، فالشريعة توجه الإنسان فى مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط، فهى لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، إنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا جشع فيه ولا إسراف، وهى لم تنزل لانتزاع الغريزة فى حب المناظر الطيبة، ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر، وهى لم تنزل لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا هلع فيه ولا جزع، وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز.

وقد كلف الله العقل، الذى هو حجته على عباده، بتنظيمها على الوجه الذى جاء به شرعه ودينه، فإذا مال الإنسان إلى سماع الصوت الحسن، أو النغم المستلذ، من حيوان أو إنسان، أو آلة كيفما كانت، أو مال إلى تعلم شىء من ذلك، فقد أدى للعاطفة حقها، وإذا ما وقف بها مع هذا عند الحد الذى لا يصرفه عن الواجبات الدينية، أو الأخلاق الكريمة، أو المكانة التى تتفق ومركزه، كان بذلك منظمًا لغريزته، سائرًا بها فى الطريق السوى، وكان مرضيا عند الله وعند الناس.

بهذا البيان يتضح أن موقف الشاب فى تعلم الموسيقى، مع حرصه الشديد على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها وعلى أعماله المكلف بها، موقف - كما قلنا - نابع من الغريزة التى حكمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته، وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس فى هذه الحياة.

رأى الفقهاء فى السماع

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف فى معرفة حكم الشرع فى الموسيقى، وفى سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته، لولا أن كثيراً من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه فى معرفة الحلال والحرام، وإنما يقنعهم عرض ما قيل فى الكتب وأثر عن الفقهاء، وإذا كان ولابد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع فى إثارة الشوق إلى الحج، وفى تحريض الغزاة على القتال، وفى مناسبات السرور المألوفة كالعيد، والعرس، وقدوم الغائب وما إليها، ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين: يقرر أحدهما الحرمة، ويستند إلى أحاديث وآثار ويقرر الآخر الحل، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار.

وكان من قول القائلين بالحل: «إنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا فى معقولهما من القياس والاستدلال، ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات

الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات، وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة، وقالوا: إنه لم يصح منها شىء.

رأى الشيخ النابلسى

وقد قرأت فى هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادى عشر المعروفين بالورع والتقوى رسالة هى: «إيضاح الدلالات فى سماع الآلات» للشيخ عبدالغنى النابلسى الحنفى، قرر فيها أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم، على فرض صحتها، مقيدة بذكر الملاهى، وبذكر الخمر والقينات، والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك، وعليه كان الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشىء من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع فى المحرمات كان حراما، وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحا فى حضوره وسماعه وتعلمه، وقد نقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرم، وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء، وهو يوافق تماما فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.



ولع الشيخ العطار بالسماع

وكان الشيخ حسن العطار، شيخ الجامع الأزهر فى القرن الثالث عشر الهجرى، ذا ولع شديد بالسماع وعلى معرفة تامة بأصوله، ومن كلماته فى بعض مؤلفاته: من لم يتأثر برقيق الأشعار تتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، وفى ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار.

الأصل فى السماع

الحل والحرمة عارضة

وإذن فسماع الآلات، ذات النغمات أو الأصوات الجميلة، لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة، أو صوت إنسان، أو صوت حيوان، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم، أو اتخذ وسيلة إلى محرم، أو ألهى عن واجب.

وهكذا يجب أن يعلم الناس حكم الله فى مثل هذه الشئون ونرجو بعد ذلك ألا تسمع القول يلقى جزافًا فى التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يحرمه الله أو تحليل ما حرمه الله كلاهما افتراء وقول على الله بغير علم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف: ٣٣)

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم قراءة القرآن الكريم على الموتى

● ما حكم قراءة القرآن الكريم على الموتى؛ بما في ذلك قبل الدفن وبعده؟ حيث يدّعي بعض الناس أن ذلك بدعة؟

●● الجواب:

جاء الأمر الشرعي بقراءة القرآن الكريم على جهة الإطلاق، ومن المقرر أن الأمر المطلق يقتضي عموم الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأحوال؛ فلا يجوز تقييد هذا الإطلاق إلا بدليل، وإلا كان ذلك ابتداعًا في الدين بتضييق ما وسعه الله ورسوله ﷺ.

وعلى ذلك فقراءة القرآن الكريم عند القبر على الموتى قبل الدفن وأثناءه وبعده مشروعة ابتدا بعموم النصوص الدالة على مشروعية قراءة القرآن الكريم، بالإضافة إلى أنه قد وردت أحاديث عن النبي ﷺ وآثار كثيرة عن السلف الصالح في خصوص ذلك ذكرها الإمام أبو بكر الخلال الحنبلي «ت ٣١١ هـ» في جزء «القراءة على القبور» من كتاب «الجامع»، ومثله الحافظ شمس الدين بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي في جزء ألفه في هذه المسألة، والإمام القرطبي المالكي «ت ٦٧١ هـ» في كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، والحافظ السيوطي الشافعي «ت ٩١١ هـ» في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور»، والحافظ السيد عبد الله بن الصديق الغماري «ت ١٤١٣هـ» في كتابه «توضيح البيان لوصول ثواب القرآن»، وغيرهم ممن صنف في هذه المسألة.

١ - فمن الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك:

ما رواه عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه قال: قال لي أبي - اللجلاج أبو خالد -: يا بني! إذا أنا مت فالحدني، فإذا وضعتني في لحدي فقل: بسم



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـى جمعـة
مفتي جمهورية مصر العربية

الله، وعلى ملة رسول الله، ثم سن علي التراب سنا - أي ضعه وضعا سهلاً -، ثم اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، قال الهيثمي: ورجاله موثوقون.

وقد روى هذا الحديث موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما، كما أخرجه الخلال في جزء «القراءة على القبور» والبيهقي في «السنن الكبرى» وغيرهما، وحسنه النووي، وابن حجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة الكتاب، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة في قبره»، أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، وإسناده حسن، كما قال الحافظ في الفتح، وفي رواية «بفاتحة البقرة» بدلاً من «فاتحة الكتاب».

وفي المسألة أحاديث أخرى، لكنها واهية الأسانيد:

منها حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه عن النبي ﷺ قال: «من مر على المقابر، وقرأ «قل هو الله أحد» إحدى عشرة مرة، ثم وهب أجره للأموات، أعطي من الأجر بعدد الأموات» أخرجه الخلال في «القراءة على القبور» والسمرقندي في «فضائل قل هو الله أحد» والسلفي.

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل المقابر، ثم قرأ فاتحة الكتاب و:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

و

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾

ثم قال: اللهم إني قد جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات، كانوا شفعاء له إلى الله تعالى» خرجه أبو القاسم الزنجاني في «فوائده».

ومنها حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر، فقرأ سورة يس، خفف الله عنهم، وكان له بعدد من فيها حسنات» خرجه عبد العزيز صاحب الخلال.

قال الحافظ شمس الدين بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي في جزئه الذي ألفه في هذه

المسألة: وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة، فمجموعها يدل على أن لذلك أصلاً، وأن المسلمين مازالوا في كل مصر وعصر يجتمعون ويقرأون لموتاهم من غير نكير؛ فكان إجماعاً» أ هـ..

٢- وجاءت السنة بقراءة سورة (يس) على الموتى، في حديث معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اقرءوا (يس) على موتاكم» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وصححه ابن حبان والحاكم.

قال الإمام القرطبي في «التذكرة: وهذا يحتمل أن تكون هذه القراءة عند الميت في حال موته، ويحتمل أن تكون عند قبره» أ هـ..

قال الحافظ السيوطي في «شرح الصدور»: «وبالأول قال الجمهور كما تقدم في أول الكتاب، وبالثاني قال ابن عبد الواحد المقدسي في الجزء الذي تقدمت الإشارة إليه، وبالتعميم في الحالتين قال المحب الطبري من متأخري أصحابنا» أ هـ..

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى»: «أخذ ابن الرفعة وغيره بظاهر الخبر، وتبع هؤلاء الزركشي فقال: لا يبعد - على القول باستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه - أنه يندب قراءتها في الموضعين» أ هـ..

٣- كما جاء الشرع الشريف بقراءة سورة الفاتحة على المتوفى؛ وذلك لأن فيها من الخصوصية في نفع الميت وطلب الرحمة والمغفرة له ما ليس في غيرها، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها» رواه الدارقطني وصححه الحاكم، وبوب لذلك الإمام البخاري في صحيحه بقوله (باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة)، وهذا أعم من أن يكون في صلاة الجنازة أو خارجها: فمن الأحاديث ما يدل على أنها تقرأ في صلاة الجنازة، ومنها ما يدل على أنها تقرأ عند الدفن أو بعده كحديث ابن عمر السابق عند الطبراني وغيره، ومنها ما يدل بإطلاقه على القراءة على المتوفى في كل حال؛ كحديث أم عفيف النهدية رضي الله عنها قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ حين بايع النساء؛ فأخذ عليهن أن لا تحدثن الرجال إلا محرماً، وأمرنا أن نقرأ على ميتنا بفاتحة الكتاب» رواه الطبراني في المعجم الكبير، وحديث أم شريك رضي الله عنها قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ على الجنازة بفاتحة الكتاب» رواه ابن ماجة.

٤- واستدل العلماء على قراءة القرآن عند القبر أيضاً بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير» ثم قال: «بلى؛ أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله» قال: ثم أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» متفق عليه.

قال الإمام الخطابي: «فيه دليل على استحباب تلاوة الكتاب العزيز على القبور؛ لأنه إذا كان يرجى عن الميت التخفيف بتسبيح الشجر، فتلاوة القرآن العظيم أكبر رجاء وبركة» أ هـ..

وقال الإمام القرطبي في «التذكرة»: «وقد استدل بعض علمائنا على قراءة القرآن على القبر بحديث العسيب الرطب الذى شقه النبي ﷺ باثنين... قالوا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن» قال: «ولهذا استحب العلماء زيارة القبور؛ لأن القراءة تحفة الميت من زائره» أ هـ..

وقال الإمام النووي في «شرح مسلم»: «واستحب العلماء قراءة القرآن عند القبر لهذا الحديث؛ لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد فتلاوة القرآن أولى، والله أعلم» أ هـ.

٥- وقد صلى النبي ﷺ صلاة الجنازة على القبر غير مرة، كما جاء في الصحيحين وغيرهما، والصلاة مشتملة على قراءة الفاتحة والصلاة على النبي ﷺ والذكر والدعاء، وما جاز كله جاز بعضه.

كما أخذ العلماء وصول ثواب القراءة إلى الميت من جواز الحج عنه ووصول ثوابه إليه؛ لأن الحج يشتمل على الصلاة، والصلاة تقرأ فيها الفاتحة وغيرها، وما وصل كله وصل بعضه، وهذا المعنى الأخير وإن نازع فيه بعضهم إلا أن أحداً من العلماء لم يختلف في أن القارئ إذا دعا الله تعالى أن يهب للميت مثل ثواب قراءته فإن ذلك يصل إليه بإذن الله؛ لأن الكريم إذا سئل أعطى وإذا دعي أجاب.

٦- وعلى ذلك جرى عمل المسلمين جيلاً بعد جيل وخلفاً عن سلف من غير نكير، وهذا هو المعتمد عند أصحاب المذاهب المتبوعة، حتى نقل الحافظ شمس الدين بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي الإجماع على ذلك - كما سبق -، ونقله أيضاً الشيخ العثماني في كتابه «رحمة الأمة في اختلاف الأئمة»، ونص عبارته في ذلك: «وأجمعوا على أن الاستغفار والدعاء والصدقة والحج والعتق تنفع الميت ويصل إليه ثوابه، وقراءة القرآن عند القبر مستحبة» أ هـ..

ومن الآثار في ذلك عن السلف الصالح:

ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» عن الإمام الشعبي رحمه الله قال: «كانت الأنصار يقرأون عند الميت سورة البقرة»، وأخرجه الخلال في «القراءة على القبور» بلفظ: «كانت الأنصار إذا مات لهم ميت اختلفوا إلى قبره يقرأون عنده القرآن».

وأخرج الخلال عن إبراهيم النخعي رحمه الله قال: «لا بأس بقراءة القرآن في المقابر».

وأخرج أيضاً عن الحسن بن الصباح الزعفراني قال: سألت الشافعي عن القراءة عند القبور، فقال: «لا بأس بها».

وأخرج أيضاً عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: يا هذا!! إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن

حنبل : يا أبا عبد الله !! ما تقول في مبشر الحلبي ؟ قال : ثقة ، قال - يعني أحمد - : كتبت عنه شيئا ؟ قال : نعم ؛ أخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه : أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يوصي بذلك . فقال له أحمد : فارجع وقل للرجل يقرأ وأخرج أيضًا عن العباس بن محمد الدوري أنه سأل يحيى بن معين عن القراءة على القبر ، فحدثه بهذا الحديث .

وقد نص أصحاب المذاهب المتبوعة على ذلك :

- فجاء في «الفتاوى الهندية» على مذهب السادة الحنفية : «ويستحب إذا دفن الميت أن يجلسوا ساعة عند القبر بعد الفراغ بقدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ؛ يتلون ، ويدعون للميت» أهـ ، وذكر أن ذلك قول الإمام محمد بن الحسن رحمه الله ، وأن مشايخ الحنفية أخذوا به .

- وأما السادة المالكية : فالمحققون منهم - وهو المعتمد عند متأخريهم - على جواز ذلك وأن ثواب القراءة يصل إلى الميت ؛ ففي حاشية العلامة الدسوقي على الشرح الكبير : (وفي آخر نوازل ابن رشد في السؤال عن قوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(النجم : ٣٩)

قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت ، جاز ذلك وحصل للميت أجره . أ . هـ .

وقال ابن هلال في نوازله : الذي أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا الأندلسيين أن الميت ينتفع بقراءة القرآن الكريم ويصل إليه نفعه ، ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له ، وبه جرى عمل المسلمين شرقًا وغربًا ووقفوا على ذلك أوقافًا واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة ، ثم قال : ومن اللطائف أن عزالدين بن عبدالسلام الشافعي رؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال : هيهات وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن) أهـ .

وجاء في «النوازل الصغرى» لشيخ الجماعة سيدي المهدي الوزاني المالكي : وأما القراءة على القبر : فنص ابن رشد في «الأجوبة» ، وابن العربي في «أحكام القرآن» له ، والقرطبي في «التذكرة» على أنه ينتفع بالقراءة ، أعني الميت ، سواء قرأ في القبر أو قرأ في البيت) أهـ ، ونقله عن كثيرين من أئمة المالكية ؛ كأبي سعيد بن لب ، وابن حبيب ، وابن الحاجب ، واللخمي ، وابن عرفة ، وابن المواق ، وغيرهم .

- أما السادة الشافعية : فقد قال الإمام النووي في «المجموع» : قال أصحابنا : ويستحب للزائر أن يسلم على المقابر ، ويدعو لمن يزوره ولجميع أهل المقبرة ، والأفضل أن يكون السلام والدعاء بما يثبت في الحديث ، ويستحب أن يقرأ من القرآن ما

تيسر ويدعو لهم عقبها ، نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب ، أ هـ .

- وقال في «الأذكار» : ويستحب أن يقعد عنده بعد الفراغ ساعة قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ، ويشتغل القاعدون بتلاوة القرآن ، والدعاء للميت ، والوعظ ، وحكايات أهل الخير ، وأحوال الصالحين ، قال الشافعي والأصحاب : يستحب أن يقرأ عنده شيئًا من القرآن : قالوا : فإن ختموا القرآن كله كان حسنًا ، أ هـ .

وقال في «رياض الصالحين» : قال الشافعي رحمه الله - : ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن ، وإن ختموا القرآن عنده كان حسنًا ، أ هـ .

- وكذلك السادة الحنابلة ؛ صرحوا بجواز ذلك .

قال العلامة المرداوي في «الإنصاف» : قوله : (ولا تكره القراءة على القبر في أصح الروايتين) ، وهذا المذهب ، قاله في «الفروع» ، ونص عليه - يعني الإمام أحمد - ، قال الشارح : هذا المشهور عن أحمد ، قال الخلال وصاحبه : المذهب رواية واحدة : لا تكره ، وعليه أكثر الأصحاب ؛ منهم القاضي ، وجزم به في «الوجيز» وغيره ، وقدمه في «الفروع» ، و«المغني» و«الشرح» ، و«ابن تميم» ، و«الفائق» ، وغيرهم أهـ .

والمتصفح لكتب السير والتراجم والتواريخ يرى عمل السلف على ذلك وتتابع الأمة عليه من غير نكير ، بما في ذلك السادة الحنابلة وأصحاب الحديث ، ويكفينا في ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة أبي جعفر الهاشمي الحنبلي (ت ٤٧٠ هـ) ، شيخ الحنابلة في عصره ، قال : ودفن إلى جانب قبر الإمام أحمد ، ولزم الناس قبره مدة حتى قيل : ختم على قبره عشرة آلاف ختمة) أهـ .

حتى إن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى - وهو الذي ادعى أن قراءة القرآن على القبر بدعة مخالفًا بذلك ما عليه عمل السلف والخلف - قد ذكر أهل السير في ترجمته أن الناس اجتمعوا لختم القرآن له على قبره وفي بيوتهم كما ذكره ابن عبدالهادي الحنبلي وغيره ، والتاريخ محنة المذاهب ، كما يقولون .

وبناءً على ذلك : فقراءة القرآن على الموتى من الأمور المشروعة التي وردت بها الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة ، وأطبق على فعلها السلف الصالح وجرى عليها عمل المسلمين عبر القرون من غير نكير ؛ سواء أكان ذلك حال الاحتضار ، أو بعده ، أو عند صلاة الجنازة ، أو بعدها ، أو حال الدفن ، أو بعده ، ومن ادعى أنه بدعة فهو إليها أقرب .

والله سبحانه وتعالى أعلم

◦◦◦

الرد على الرافضين لفقه أبى حنيفة فى المسكرات

وكان من دعائه:

«اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له»[١]

بقلم أ.د. سعد الدين هلالى
أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر

اطلعت على مقالات وبحوث مجلة «الأزهر» فى عددها الصادر بتاريخ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ - إبريل ٢٠١٢م الجزء «٥» السنة «٨٥» وأدهشنى قبول هيئة التحرير نشر مقال بعنوان «ينسب إلى أبى حنيفة غير مذهبه - حول الفتوى الشاذة بإباحة شرب الخمر المصنوع من غير العنب» بقلم: حمد الله حافظ الصفتى، ص ١١٦٤:١١٦٩، وذلك لعدم صلاحيته للنشر شكلاً وموضوعاً من وجهة نظرى.

أما الجانب الشكلى للمقال فقد اشتمل على جمل وألفاظ مسيئة ينكر الشرع الحنيف أن تكون بين الناس فضلاً عن أن تكون بين أهل العلم منهم، وقد ذكر بالاسم من عمد إلى التشهير به لجريمة فى خيال صاحبه تتمثل فى إفشاء الفقه وتعليمه الناس ونشر أقوال الفقهاء المعتبرين وأدلتهم، وهى أقوال يتباهى بها أصحابها أن وفقهم الله إليها؛ لتكون صدقة جارية لهم فيمن يقتنع بدليلهم، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

إن الذى استهدفه بالتشهير يعتقد قيامه بواجبه الدينى وأمانته العلمية، فهو أقدم أستاذ عامل فى الفقه المقارن بجامعة الأزهر حالياً، ويشغل منصب رئيس القسم بكليته، وكان قد تولى عمادة كليتين من كليات جامعة الأزهر ورئاسة قسم الفقه والأصول بكلية الشريعة بالكويت فى إعارته، وحاز على العديد من الجوائز الدولية والمحلية، وله العشرات من المؤلفات الفقهية الموسوعية، وليس له مطلب من الدنيا إلا توفيق الله فى

١. الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ١٣/٣٥٢، دار الكتب العلمية.

إظهار كمال الإسلام بسعة أوجهه التى تجمع قناعـــات الناس فى ظل دلالات النص الشرعى. فقد أخرج الشيخان عن معاوية، أن النبى ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين».

وأما الجانب الموضوعى للمقال فقد تضمن الرد على نفسه من النصوص التى أوردها عن الإمام ابن عابدين المتوفى سنة ١٢٥٢هـ من حاشيته المسماة: «رد المحتار على الدر المختار» دون حاجة إلى نصوص داعمة من فقه السادة الحنيفة وبخاصة المتقدمين منهم كالإمام السمرقندى المتوفى سنة ٥٣٩هـ فى كتابه «تحفة الفقهاء» وشارحه الإمام الكاسانى الملقب بملك العلماء المتوفى سنة ٥٨٧هـ فى كتابه «بدائع الصنائع»، والإمام المرغينانى المتوفى سنة ٥٩٣هـ فى كتابه «الهداية» وشرحه تكملة شرح فتح القدير المسماة «نتائج الأفكار فى كشف الرموز والأسرار» لقاضى زادة المتوفى سنة ٩٨٨هـ، وغير هؤلاء أعلام الحنفية الذين أجمعوا على صحة نسبة القول لأبى حنيفة وأبى يوسف أنهما يفرقان فى الحكم بين الخمر وبين المسكرات من غيرها على الوجه الذى أجملته فى برنامج «القاهرة اليوم» على قناة «أوربت» مع الإعلامى «عمرو أديب» بتاريخ ٢ / ١ / ٢٠١٢م.

وقد حاول صاحب المقال إنكاره ووصفه بالشذوذ، وذلك بفرض وصايته على فقه أبى حنيفة الذى أكرم الله تعالى به الأمة، وكان سبباً فى دخول الملايين فى دين الله أفواجاً، وبخاصة فى دول شرق آسيا وأوربا، وقد أرفقت صوراً من نصوص من سبق ذكرهم من الفقهاء الحنفيين فيما عقدوه تحت عنوان «كتاب الأشربة»؛ لتكون بين يدى هيئة التحرير للاستيثاق دون النشر إلا أن تريد.

ويشتمل ردى بعد هذا الموجز على مقدمة وموضوع وملحق؛ لتغطية عناصر المقال المسئ.

أما المقدمة فمن تنبيهين:

● التنبيـــه الأول: فى إجلال مقام وإمامة أبى حنيفة؛ لأن المناسبة توجب التذكير بأنه يعد من التابعين (٨٠-١٥٠هـ)، وحسبه أنه أول من مذهب الفقه ـ أى جعل له منهجاً وأصولاً علمية ـ حتى قال عنه الإمام الشافعى: «الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة»[٢].

بعد موت شيخه حماد بن أبى سليمان آلت إليه رئاسة حلقة الفقه وكان عمره أربعين سنة بعد أن بلغ أشده وتجاوز مرحلتى التكوين والمراهقة اللتين استثمرهما فى التحصيل والتهذيب. فقد بلغ عدد شيوخه أربعة آلاف، ولقى من الصحابة عبدالله بن أبى أوفى المتوفى ٨٧هـ، وسهل بن سعد الساعدى المتوفى ٨٨هـ، وأنس بن مالك المتوفى ٩٣هـ، وأبا الطفيل عامر بن واثلة المتوفى ١٠٢هـ[٣].

٢. الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٦/٤٠٣، السيوطى فى طبقات الحفاظ ١/١٣.
٣. المكى الخوارزمى فى المناقب ١/٢٤، السيوطى فى تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة ص٦، الإمام محمد أبوزهرة فى كتابه أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه الفقهية ـ دار الفكر العربى ص٥٩، ٦٠.

وفى سن الثانية والعشرين من عمره بدأ رحلة التهذيب بملازمة شيخه حماد مدة ثمانية عشر عاما؛ ليتحلى بأجمل الصفات منطقاً وسلوكا. يقول أبو يوسف عن شيخه أبى حنيفة: كان يعولنى و عيالى عشرين سنة، وإذا قلت له: ما رأيت أجود منك. يقول: كيف لو رأيت حماداً؟ ما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه[٤].

وقال أبو يوسف: كانوا يقولون: أبو حنيفة زينه الله بالفقه والعلم والعمل والسخاء والبذل وأخلاق القرآن التى كانت فيه[٥].

التنبيه الثانى: فى الاستعانة بالمتخصصين والإعراض عن غيرهم فى المسائل الفقهية الدقيقة؛ لأن المناسبة توجب التذكير بخطورة أن يتحدث فى فقه أبى حنيفة غير أهل الاختصاص مع وفرة المتخصصين بالأزهر الشريف الذى حفظ الله تعالى به العلوم الشرعية ومنها علم الفقه بمذاهبه المشهورة، والذى يقوم عليه متخصصون لهم كوادر مالية ودرجات علمية هرمية من معيد إلى مدرس مساعد إلى مدرس إلى أستاذ مساعد ثم أستاذ، وذلك فى الفقه الحنفى، وأخرى فى الفقه المالكى، وهكذا فى الفقه الشافعى، وفى الفقه الحنبلى، وفى الفقه المقارن، وفى أصول الفقه بشعبتيه.

وعندما يتكلم أهل الاختصاص فى المذهب الحنفى عن فقه أبى حنيفة سيعرف الناس الحق الذى قاله وهدف إليه، وليس الذى يريده الناقلون غير المتخصصين.

وقد جاء التحذير عن عموم التبديل فى مقصود القائل، وذلك فى قوله سبحانه بمناسبة الوصية:

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

(البقرة:١٨١)

كما جاء التحذير من ترك أهل الاختصاص عند وجودهم؛ والتنبيه بأن ذلك تضييع للأمانة الذى هو سبب الهلاك والنذير بنهاية الشىء، فقد أخرج البخارى فى كتاب العلم عن أبى هريرة، أن أعرابيا جاء مجلس النبى ﷺ فسأله متى الساعة؟

فقال ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذ وسد - وفى رواية أسند - الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وأما موضوع القضية

فهو تحقيق قول أبى حنيفة فى حكم المسكر من غير الخمر، وليس فى حكم شرب الخمر المصنوع من غير العنب، كما جاء فى عنوان الهجوم والرفض.

والفرق ما بين هذين العنوانين هو الفرق ما بين قراءة المتخصص فى الفقه الحنفى وبين قراءة غير المتخصص فيه.

٤: مصطفى الشكعة، فى الأئمة الأربعة صـ١-٦٠، دار الكتاب المصرى، موقع ويكيبيديا فى شخصية أبى حنيفة.

٥: القاضى أبو عبدالله حسين بن على الصيمرى فى كتابه أخبار أبى حنيفة وأصحابه صـ١٩، دار عالم الكتب - بيروت - ١٩٨٥م.

حيث يتجه غير المتخصصين فى الفقه الحنفى إلى قرض فقيهم ووصايتهم عليه بتسمية المسكر من غير الخمر خمراً حقيقة لا مجازاً.

أما المتخصصون فيرون أن أبا حنيفة ومن وافقه يفرقون بين الخمر وبين المسكر من غيرها، كما ورد هذا الفرق فى السنة الصحيحة وفى لغة العرب المشهورة، فقد أخرج النسائى بإسناد صححه الألبانى وغيره عن ابن عباس قال: «حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب». وأخرج مسلم عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنبة». وفى رواية «الكرمة والنخلة». يقول الكاسانى فى «بدائعه» مبينا جهة الاستدلال من هذا الحديث: «ذكر عليه الصلاة والسلام الخمر بلام الجنس فاقتضى اقتصار الخمر على ما يتخذ من الشجرتين» (بدائع الصنائع ٦ / ٢٩٤٦ -مطبعة الإمام بالقلعة).

والعجيب أن مجلة «الأزهر» فى عددها المذكور نفسه ص ١١٢٣ قد أوردت مقالاً للأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى - وهو حنفى المذهب فيما أعلم - عن الخمر والمخدرات، وفيه نقل يشير إلى تقرير تلك الحقيقة فى التفرقة بين الخمر وبين المسكرات من غيرها، فجاء فيه: «وفى فقه الشيعة: أنه يكفر مستحل خمر الشجرتين، ويفسق مستحل ما عداهما. وتحريم سائر المسكرات بالسنة والقياس فقط؛ إذ لا يسمى خمراً إلا مجازاً، وقيل بهما وبالقرآن؛ لتسميتها خمراً، حيث قال ﷺ: «إن من التمر خمراً».

بل جاء فى المقال الرافض لفقه أبى حنيفة فى المسألة نص لابن عابدين فى «حاشيته» يؤكد ذلك بما يخالف عنوان المقال، فجاء فى ص١١٦٦ عن «الحاشية»: «وذهب فقهاء العراق منهم أبو حنيفة وأبو يوسف إلى أن الخمر حقيقة لا تطلق إلا على ما اتخذ من العنب»، ثم نقل صاحب المقال نصوصا من «الدر المختار» والحاشية عليه تظهر قول أبى حنيفة على الوجه الذى أوجزته فى برنامج «القاهرة اليوم» سالف الذكر بكل أمانة وليس بما وصف من ألفاظ احتفظ بحقى الدينى والقضائى فيها إلا أن يعتذر بالوجه اللائق شكلاً وموضوعاً.

تفنيد اتهامى بحل بعض المسكر

كان من شدة ظلم صاحب المقال المهاجم أن نسب إلىّ بأنى أبحت للناس مطلقا شرب الخمر المتخذ من غير العنب طالما لم يصل شاربه لحالة السكر. وأعجب كيف بلغ ضميره الإنسانى وصفته الإسلامية أن يتقول علىّ ما لم أقله. فقد كان الحديث عن فقه أبى حنيفة وما يثمره من أحكام تطبيقية على واقع الناس. وليس مثلى يصل إلى فصل الفتوى فى مسألة قتلت بحثا وكان فارسها الأئمة الأعلام.

أما اختيارى الفقهى فى المسألة فقد أثبته فى كتابى «موسوعة فقه الخمر والمخدرات» الذى قدمته مع طلب ترقيتى إلى درجة أستاذ مساعد فى الفقه المقارن بجامعة الأزهر سنة ١٩٩٠م، وأعيد

نشره في المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت سنة ٢٠٠١م. وعقدت في الجزء الأول من تلك الموسوعة عنوانا في الترجيح والتعريف المقترح للحقيقة الشرعية للخمر ص (١١٤ - ١١٦)، كما أعلنت اختيارى الفقهي هذا في قناة الحور في برنامج «٩٠ دقيقة» مع الإعلامي عمرو الليثي بتاريخ ٤ / ١ / ٢٠١٢م، وقنوات فضائية أخرى منها الرحمة وأزهرى. وقلت: إن الذى أدين الله به في هذه المسألة هو ما عليه الجمهور من تحريم كل ما فيه خاصية السكر قليله وكثيره. ولكن ما أدين الله به من حكم فقهي لا يلزم غيرى إلا بقناعته أو إلزام ولى الأمر له. فلا أدرى ما مقصد صاحب المقال المهاجم من نسبة قول أبي حنيفة إلى اختيارى مع وضوح المسألة بكل جوانبها؟!

قيد عدم اللهو والطرب

أما إضافة صاحب المقال - نقلاً عن الدر المختار - قيد أن يكون شرب المسكر من غير الخمر بالحد الذى لا يبلغ الإسكار عند أبي حنيفة وأبي يوسف بلا لهو وطرب، فالعجيب أن صاحب المقال أبطل هذا القيد بنفسه وهو يعلم أو لا يعلم - الله بذلك أعلم - ولكن ليتأكد للقارئ الكريم أمانة طرحى لقول أبي حنيفة، فقد أعقب ذكر ذلك القيد بقوله ص ١١٦٧: «قال ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار: قال في الدرر: وهذا التقييد غير مختص بهذه الأشربة، بل إذا شرب الماء وغيره من المباحات بلهو وطرب على هيئة الفسقة حرُم».

قيد استمراء الطعام والتقوى في الليالي على القيام

وأما القيد الذى نقله صاحب المقال ص ١١٦٧ من حاشية ابن عابدين عن القهستاني وهو: أن يقصد به استمراء الطعام والتقوى في الليالي على القيام، أو في الأيام على الصيام، أو القتال لأعداء الإسلام، أو التداوى لدفع الآلام.. فهذا قيد مرسل يصلح ادعاؤه في كل حال غالبا، وحسبه من النكارة - عند من يرى التحريم - أن يتعاطى ذلك في موطن العبادة، ثم إنه قيد محل للخلاف بين علماء الأنام - كما ورد في نص القهستاني - وليس قيداً مجمعا عليه، فلم يرد به ذكر في فقه المتقدمين من الحنفية كالسمرقندى والكاساني والمرغيناني المشار إليهم سابقا.

المسكرات التي لا تسمى خمرا عند أبي حنيفة

بقى أن نسأل صاحب المقال المهاجم عن باقى الأنواع الأربعة الحلال من المسكر غير الخمر الذى شوق القارئ إلى معرفتها عندما قال في ص ١١٦٦: «قال في الدر المختار: والحلال منها أربعة أنواع، الأول: نبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخة يحل شربه وإن اشتد، وهذا إذا شرب منه بلا لهو وطرب، فلو شرب للهو فقليله وكثيره حرام».

إن عدم ذكر باقى الأنواع الحلال عند أبي حنيفة إن كان عن عمد فهو فرض وصاية على فقه السادة الحنفية، وإن كان عن خطأ أو سهو فهذا لا يفوت المتخصصين الذين يحرصون على الأمانة العلمية.

ملحق الموضوع في حق العلم واختيار العمل

إن من حق كل مكلف أن يتعلم ما يمكن تعلمه مما يعد علماً، بل يجب على كل عالم أن يبذل علمه ولا يخفيه مهما اختلف مع قناعته، فربما استطاع الغير أن يحسن توظيف العلم الذى يحمله البعض ولا يحسن توظيفه، فقد أخرج أحمد وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن النبى ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». وأخرج الشيخان عن أبي بكرة، أن النبى ﷺ قال في خطبة الوداع: «فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع».

وأما العمل بالعلم أو بوجه من وجوهه فهو اختيار الناس؛ ليتحملوا مسئوليتهم، وذلك لعموم قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٤٤)

وأخرج أحمد بإسناد حسن عن وابصة ابن معبد، أن النبى ﷺ قال له: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك».

فهل كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الفوضى في الفتوى، أم كان ينقل الناس من عبوديتهم للناس - ولو كانوا وجهاء أو علماء - إلى عبودية الله الخالصة؟

جاء في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر - الطبعة الأولى ٢٠٠٣م الصادر عن مؤسسة الريان ودار ابن حزم ٢ / ١٦٢ - عن الشعبى قال: اجتمعنا عند ابن هبيرة في جماعة من قراء أهل الكوفة والبصرة، فجعل يسألهم حتى انتهى إلى محمد بن سيرين فجعل يسأله فيقول له: قال فلان كذا، وقال فلان كذا، وقال فلان كذا. فقال ابن هبيرة: قد أخبرتنى عن غير واحد فأى قول آخذ؟ قال: اختر لنفسك.

وأخرج الخطيب البغدادى في «الفقيه والمتفقه» ١ / ٤٠٤ عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة».

وعن القاسم بن محمد قال: «كان اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ مما نفع الله به، فما عملت منه من علم لم يدخل نفسك منه شيء».

ويقول ابن خلدون في «مقدمته» ١ / ١١٣ عن اختلاف الصحابة: «إن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة؛ ليقتدى كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله إمامه وهاديه ودليله».

وذكر ابن قدامة في خطبة كتابه «المغنى» ١ / ٢ أن من فضل الله أنه «جعل في سلف هذه الأمة أئمة من الأعلام مهد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مشكلات الأحكام، اتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة».

انتشار المذاهب والانتقاء منها

إن الفقه يسود حيث تتحقق القناعة والمصلحة، وليس بالسوط والعصا، أو بالتخويف والإرهاب الفكرى. لقد ساد

الفقـه الحنفي عند ستين بالمائة من المسلمين من أهل السنة كما هو معروف في دول شرق آسيا وأوروبا، كما ساد الفقه المالكي والشافعي في دول أفريقيا، والفقه الحنبلي في شبه الجزيرة العربية.

وفي هذا العصر الذي تداخلت فيه الأعراف والثقافات تحول الناس من الالتزام بالمذهب الواحد إلى التنوع والأخذ من المذاهب المخالفة بحسب المصلحة التي جعلها الإسلام من مقاصده الكلية.

وعلى سبيل المثال:

١- اتجه الناس إلى إنشاء المساجد أسفل العمارات والصلاة فيها، ولم يقل بجواز ذلك مطلقا أو بدون كراهة إلا الحنفية؛ خلافا للجمهور.

٢- اتجه الناس إلى تولية الحكام من غير القرشيين، ولم يقل بجواز ذلك إلا أبو بكر الباقلاني الأشعري المالكي؛ خلافا للجمهور.

٣- اتجه الناس إلى تحريم الاحتكار في مواد البناء وغيرها من السلع التي يحتاجها الناس غير القوت، ولم يقل بتحريم ذلك إلا المالكية وأبو يوسف من الحنفية؛ خلافا للجمهور.

٤- اتجه الناس إلى الانضمام في الفرائض بالمتنفل، ولم يقل بجواز ذلك إلا الشافعية؛ خلافاً للجمهور.

٥- اتجه الناس إلى قرار المسح على الجوربين من النسيج الساتر بدلاً من غسل القدمين في الوضوء، ولم يقل بجواز ذلك إلا الحنابلة والصاحبان من الحنفية خلافا للجمهور.

٦- اتجه الناس إلى قبول شهادة غير المسلمين على المسلمين في القضاء، ولم يقل بذلك أحد قبل ابن تيمية خلافا للإجماع الفقهي السابق.

٧- اتجه الناس إلى قبول وإقرار الوصية الواجبة لفرع من يموت في حياة والديه إذا لم يكن وارثا أو كانت له منهما وصية اختيارية، ولم يقل بمشروعيتها أحد قبل الفقهاء المصريين المعاصرين تخريجاً على مذهب الظاهرية.

وهكذا مئات المسائل ترك الناس فيها مذهب الجمهور وأخذوا بقول مخالفه طالما كان له وجه من دليل شرعي، وهذه سعة الإسلام ورحمته، وليس الهرج أو الفوضى كما يصفه من يريد تنصيب نفسه وصياً على الناس.

وقد تناولت تلك الموضوعات ولازلت في مقال أسبوعي تحت عنوان «فقه المصريين» بجريدة «أخبار اليوم» التي تصدر كل سبت منذ قرابة السنة وحتى تاريخه، من أجل المساهمة في تنوير الرأي العام بحقهم الشرعي في الاختيار الفقهي طالما صدر عن أهل الذكر المختصين، وحتى يتخلى من تطوعوا بتنصيب أنفسهم جلادين وأوصياء على المجتمع بفرض قناعاتهم وفقههم على قناعات وفقه غيرهم من أهل العلم والذكر.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

دكتور سعد الدين هلالي

٢٨/٣/٢٠١٢م

٥ جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ

التصوير.. إشكالات ومقترحات (١-٢)

للشيخ / خالد بن مبارك الوهيبي

فجرت ثورة الملتيميديا تساؤلات عديدة، بما أفرزته من منجزات بدأت بالقدرة في الحصول على صورة ثابتة لأي شيء يمكن رؤيته، ثم تطورت إلى الحصول عليها حية متحركة، ولا تزال ثورة الملتيميديا مستمرة، تقذف لنا بالمزيد من اكتشافاتها المذهلة.

وقد تركبت الحياة المعاصرة على تقنيات التصوير من التعليم والإعلام والتجارة وغيرها من القطاعات، بحيث صارت الصورة من المكونات الأساسية في تركيبة الدولة المعاصرة.

وهذه القضية ناقشها الفقه الإسلامي منذ وقت مبكر، واختلفت آراء الفقهاء فيها وتأرجحت بين المنع والجواز والكراهة.

وهذا الخلاف الفقهي سببه:

١- ما جاء من روايات وأحاديث في ظاهرها التعارض.

٢- الاختلاف في تفسير هذه الروايات وتوجيهها.

والبعد الغائب في كثير من الأحيان هو الرؤية القرآنية لقضية التصوير، والتي لو استحضرها الفقهاء لأراحوا أنفسهم من عناء طويل في فك شفرات مختلف الحديث ومشكله.

التصوير في اللغة والاصطلاح

جاء في القاموس المحيط: «الصورة بالضم الشكل وقد صوره فتصور، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة».

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث: «التماثيل جمع تمثال، وهو اسم للشيء المصنوع مشبها بصور الحيوانات»، وفي كتاب الله تعالى:

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾

(غافر: ٦٤)

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

(آل عمران: ٦)

وتأتى الصورة بمعنى التمثال، ففى لسان العرب (التصاوير التماثيل).

وفى "النهاية فى غريب الأثر": (والأصنام وهو ما اتخذ إلها من دون الله تعالى، وقيل هو ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن).

مما سبق يتضح أن الصورة فى اللغة تشمل المجسم والمرقوم من الصور، كما أن الصورة والتمثال يأتيان بمعنى واحد، أما الصنم فيكتسب معنى عقائديا مخالفا لعقيدة التوحيد، ولذا عبر القرآن بالتمثال فى بعض الأحيان عما كان مباحا، قال الله تعالى عن سليمان عليه السلام:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾

(سبأ: ١٣)

وفى أحيان أخرى بما كان مكتسبا للطبيعة الوثنية قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام فى معرض مخاطبته لقومه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ٥٢)

أما الأصنام والأوثان فى التعبير القرآنى من أوله إلى آخره كانت تعبر عن مضامين عقدية وثنية مخالفة لعقيدة التوحيد.

قال تعالى:

﴿ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾

(الأعراف: ١٣٨)

وقال تعالى:

﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

(إبراهيم: ٣٥)

وقال تعالى:

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(الحج: ٣٠)

الأحاديث الواردة فى الموضوع:

وردت فى التصاوير عدة أحاديث أهمها:

١- روى الربيع (٢٧٤): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبى سعيد الخدرى قال: اشترت عائشة- رضى الله عنها- نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ وقف بالباب ولم يدخل، فلما رأت فى وجهه الكراهية قالت: يا رسول الله ﷺ أتوب إلى الله ورسوله مما أذنبت، فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه النمرقة؟

فقالت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون بها فى النار ويقال لهم أحيوا ما خلقتم.

ثم قال: إن البيت الذى فيه تصاوير لا تدخله الملائكة عليهم السلام.

وهذا الحديث رواه أيضا البخارى من طريق السيدة عائشة فى عدة مواضع: (١٩٩٩)، (٣٠٥٢)، (٤٨٨٦).

٢- روى البخارى (٤١٧)، ومسلم (٥٢٨)، عن السيدة عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى ﷺ فقال: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).

٣- روى الربيع (٢٧٦): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغنى أنه اشتكى أبو طلحة الأنصارى، فدخل عليه أناس يعودونه، فأمر رجلا أن ينزع قميصا تحته، فقيل له: نزعته يا أبا طلحة. فقال: لأن فيه تصاوير وقد قال رسول الله ﷺ ما قد علمتم. فقال رجل منهم ألم يقل: (إلا ما كان رقما فى ثوب). فقال: بلى، ولكنه أطيب لنفسى وأحوط من الإثم.

والحديث بهذا السياق من قصة مرض أبى طلحة الأنصارى رواه أيضا النسائى فى السنن الكبرى (٩٧٦٦)، والترمذى (١٧٥٠)، وابن حبان (٥٨٥١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٤٣٦٢).

وورد بسياق آخر من قصة مرض زيد بن خالد الجهنى عند البخارى (٥٦١٣)، ومسلم (٢١٠٦)، من طريق بسر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: "إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة"، قال بسر: ثم اشتكى زيد فعدناه، فإذا على بابه ستر فيه صورة، فقلت لعبيد الله ربيب ميمونة زوج النبى ﷺ: ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟، فقال عبيد الله: ألم تسمعه حين قال: (إلا رقما فى ثوب) وقال ابن وهب أخبرنا عمرو هو ابن الحارث حدثه بكير حدثه بسر حدثه زيد حدثه أبو طلحة عن النبى ﷺ.

٤- روى البخارى (٣١٧٤) وابن حبان (٥٨٦١) عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام- بأيديهما الأزلام، فقال: (قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط).

٥- روى مسلم (٩٦٩) عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى على بن أبى طالب: (ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ، أن لا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته).

٦- روى مسلم (٢١٠٧) من طريق القاسم بن محمد عن عمته السيدة عائشة قالت: دخل النبى ﷺ علىّ وقد سترت نمطا فيه تصاوير فنحاه، فاتخذت منه وسادتين.

٧- روى النسائى فى السنن الكبرى (٨٩٥٠) وأبو داود (٤٩٣٢) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت: قدم النبى ﷺ من غزوة وقد نصبت على باب حجرتى عباءة وعلى عرض بيتها ستر إرمينى، فدخل البيت فلما رآه قال لى: (يا عائشة مالى وللدنيا؟)، فهتك العرض حتى وقع الأرض وفى سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية عن بنات لعائشة لعب فقال: (ما هذا يا عائشة؟) قالت: بناتى ورأى بين ظهرانيهن فرس له جناحان قال: (فرس لها جناحان!) قالت: أوما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة، فضحك حتى رأيت نواجذه.

ومن خلال المناقشات الفقهية فى كتب

الفقه القديمة والحديثة، يتضح أن هناك عدة اتجاهات فى التعامل مع هذه المسألة:

١- الاتجاه الأول: غلّب الروايات الدالة على منع تصوير ذوات الأرواح بكافة أشكالها وهى الأحاديث (١) و(٢) و(٤) و(٥).

ورأى أن هناك وعيداً وارداً فى شأنها لأن فيها مضاهاة لخلق الله، وقد بين الرسول ﷺ أن أصحاب الصور يعذبون بها فى النار ويطالبون بأن يحيوا ما صنعوا، وهذا دال دلالة صريحة على التحريم.

وهذه الروايات رواها جمع من الصحابة منهم السيدة عائشة وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدرى.

٢- الاتجاه الثانى: القائلون بالجواز، وهؤلاء فريقان:

- فريق غلب الروايات الدالة على جوازها وإباحتها، وحمل ما روى فى المنع على النسخ لقوله ﷺ: (إلا رقماً فى ثوب) واعتباره أمراً اقتضته ظروف حداثة الناس بالإسلام.

- وفريق رأى انطلاقاً من رؤية قرآنية أن التصوير المذموم هو الذى ينحى منحى مخالفاً لمقتضيات عقيدة التوحيد، وأن المضاهاة والمماثلة لخلق الله تعالى غير ممكنة من أساسها.

٣- الاتجاه الثالث: حاول الجمع بين الروايات المجيزة والمانعة بأن حمل المنع على الكراهة، وهناك آراء أخرى فى المسألة لم أتعرض لها، لكن هذه الاتجاهات هى مدار أكثر المتعاطين للمسألة.

التصوير الفوتوغرافى والمجسم

عندما غلبت النظرة الفقهية التى ترفض التصاوير بكافة أنواعها فى المجتمعات الإسلامية، أدى ذلك إلى ضمور كافة أشكال التصوير، وصار التصوير أحد الأمور المستهجنة، أما الآراء التى استجازت بعض أشكال التصوير فتقلصت مع الأيام وصارت من قبيل الآراء المخالفة للسنة فى نظر الكثيرين.

ومع بدايات الثورة الصناعية وتعدد المنجزات الإنسانية وتنوعها وغزوها للمجتمعات الإسلامية وقع النظر الفقهى فى معضلات لم يكن يحلم بالوقوع فيها حتى فى أكثر كوابيسه بشاعة، ومن تلك المعضلات التصاوير بمختلف أنواعها، ومنها التصوير الفوتوغرافى.

لقد احتار الفقهاء فى تكييف هذا اللون الجديد من التصوير واحتاروا أكثر فى تطلب الحياة المعاصرة للتصوير الفوتوغرافى واليدوى والمجسم فى مجالات التعليم والشؤون القانونية والأمن والصحة والتنظيم الإدارى وغيرها من الأمور التى تعود على الناس بالنفع، وهذه الحيرة أوقعتهم فى مقولات غاية فى الغرابة والبعد عن أصولهم المعتمدة، لنأخذ التصوير الفوتوغرافى على سبيل المثال، فعند ظهوره تبنى أكثر الفقهاء تحريمه على اعتبار أن التصوير ورد ذمه فى الحديث وورد الوعيد على فعله، ولكن الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية ألف فى عام ١٣٤٥هـ رسالة بعنوان "الجواب الشافى فى إباحة التصوير الفوتوغرافى" ذهب فيها إلى إباحة التصوير الفوتوغرافى لأنه (عبارة عن حبس الظل بالوسائط المعلومة لأرباب هذه الصناعة ليس من التصوير المنهى عنه فى شىء، لأن التصوير المنهى عنه هو إيجاد صورة وصنع صورة لم تكن موجودة ولا مصنوعة من قبل يضاهى بها حيواناً خلقه الله تعالى، وليس المعنى موجوداً فى أخذ الصورة بتلك الآلة) على حد تعبير المطيعى، أى أن التصوير الفوتوغرافى غير التصوير المتوعد عليه فى الحديث! لأنه حبس للظل فقط، وقد أخذ كثير من العلماء بعد ذلك بكلام المطيعى وحججه فى هذا الموضوع، والغريب فى هذه الحجة أنها عين ما ظلوا يجلدون به الضمير المسلم قروناً طويلة من ذم المعتزلة فى تقديمهم العقل على النقل واعتدادهم بالحجج العقلية فى مقابل النقل، مع العلم أن المعتزلة لم يكن لهم فقه يذكر مارسوا فيه تقديم العقل على النقل!! فكانوا فى الفقه شافعية أو أحناف، أما من قال بذلك من الفقهاء فناقضوا أنفسهم واعتمدوا حجة عقلية صريحة فى الإفلات من قبضة النصوص الحديثية، مع أنه يلزمهم القول بدخول كافة أنواع التصوير فى الحرمة، إذ لم يرد مخصص يستثنى التصوير الفوتوغرافى من هذا العموم حسب رؤيتهم.

ووقوعهم فى هذا المطب سببه الحقيقى ضغط الحياة وإلحاحها فى ضرورة إيجاد مخرج "شرعى" لمسألة التصوير، فكان المخرج فى أصل نُسب للمعتزلة شعروا بذلك أو لم يشعروا، وبعض من القائلين بجواز التصوير الفوتوغرافى يمنعون التصوير باليد أى الرسم، وهذا يعكس أزمة أخرى فى فكرة أن التصوير جائز لأنه حبس للظل، لأن التصوير باليد أيضاً عبارة عن حبس للظل لكن بصورة أقل دقة وكفاءة من التصوير الفوتوغرافى، فكيف تحرم الصورة الأقل دقة وتباح الأكثر دقة؟!!

وبعض الفقهاء، خاصة المشتغلين بالحديث منهم، أدرك هشاشة الحجج التى استند إليها القائلون بالجواز، واعتمد على قاعدة الضرورات فى إباحة المحظورات، فتحولت الحياة التى تركبت على التصوير إلى ضرورة من أولها إلى آخرها، فالمجلات والصحف التى تصدر بالصور ضرورة، والتصوير السينمائى والتلفزيونى ضرورة، والصورة فى الجواز والبطاقة ضرورة وقس على ذلك بقية الضرورات، وعليه تحكم الحياة بقانون الطوارئ، أى أن تتحول الحياة بكاملها إلى ضرورة، وتخيلوا مقدار الضرورة التى نمارسها كل حين ولا ندرى متى سترتفع هذه الضرورة وخط الحياة متجه إلى "ضرورات أشد وأنكى"؟!!

القضية إلى الآن لم تحل فى نظرى، ولا يزال الموضوع يحتاج إلى معالجة أخرى تتجاوز هذه الإشكالات وإلا فإننا قد نتراجع مع اتجاهات تعيد عقارب الساعة للوراء.

قصيدة العدد

من وحي مكة



للشاعر/ أسامة كامل الخريبي

أيامُ (مكة) هزّ القلبَ ذكراها
وأرضُ (مكة) يَسبي العينَ مرآها

مُذ مسّ جبريلُ باسم الله جانبها
أفاض منها على الدنيا فأغناها

وخصّها اللهُ بالتنزيل فأتلقتْ
بها الروابي.. رسولُ الله يغشاها

خطا الحبيبُ على حصبائها فمضتْ
بالشكر تلهجُ إذ مسّت خُطى (طه)

حتى تلألأ من أنواره قمرٌ
مازال يُشرقُ في الدنيا ويرعاها

نورٌ تفجر من عينيه داعبها
وآخرٌ مسّ من كفيه مغناها

فعانقتهُ شجيراتٌ وأروقةٌ
وظللتهُ سحاباتٌ فماشاها

نورٌ على النور يخطو النورُ منطلقةً،
والنُّور مطهرةٌ، والنُّور آتاها

والعطرُ مخبرةٌ، المسكُ جوهرةٌ،
والطيب يصحبه أنى تغشاها

سبحان رب أفاض النور في بلد
واختاره آية للخلق سواها

ربٌّ تفيض عطاياهُ فتغمرنا
وكان منه بناءُ البيت أزكاها

هنا (الخليل) و(إسماعيل) قد وقفا
حتى أتمّا بناءً كان أعلاها

فكانت القبلةُ العُظمى لأمتنا
ويا (محمدُ) أنى جئت ترعاها

وأذنا في فضاء الكون فانتفضتْ
منا القلوبُ: أجل يارب نهواها

سرٌّ عجيبٌ يسوق القلب مندفعاً
ما كاد يسمعهُ إلا ولياها:

لبيك.. لبيك يا رباهُ تعلنها
منا الحناجرُ والأرواحُ نجواها

بيتٌ حرامٌ إذا ما مس طائرةً
أو غيلَ زائرةً، فالله الله!

الأمنُ سائدهُ والطهرُ رائدهُ
والسلم.. يغمرُ من يحظى بمرآها

لا جنس، لا لون، لا نُطقٌ يفرقنا
فالكل ذاب مع التهليل أو تاها

الله عظمها.. واللهُ حرمها..
واللهُ نورها.. والقلبُ يهواها

يا أرض مكة، تيهي في الدنا شرفاً
فأنت أطهرُ أرض الله أمواها

أهيمُ فيها.. كأن القلبَ يسكنها
والجسمُ يسرحُ في الدنيا ويغشاها

عشنا بها لحظات طاب مسكنُها
مهما تناءت دياري لستُ أنساها

أكادُ أغفو على حلم بعمرتها
وأستفيقُ على طيف لمرآها

حتى كأني أخطر في شوارعها
وأطرقُ الحي تلو الحي تياها

ما بين (أجياد) حتى حي (مسفلة)
إلى (الشبيكة) أياماً قضيناها

يا زائر الكعبة الغراء أمنيتي
بدعوة عند بيت الله ترعاها

ودمعة في خشوع عند (مُلتزم)
وقد تعلقت بالأستار أوّاها

بأن أعود لحج البيت ثانيةً
وأغسل النفس من أدران بلواها

جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ
مايو ٢٠١٢م

التفكير الإبداعى مجالاته وضوابطه



الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف

موضوع التفكير التقدمى والإبداعى ودورهما فى المجتمع، يدفعنا إلى الحديث فيه الواقع المؤلم الذى نعيشه ونعانيه من حيث اختلاط المفاهيم، وتداخل الاصطلاحات، وعدم تحديد المعانى، ودعوة التحرر المطلق فى الكتابة والتأليف والفن دون قيد أو شرط.. إن الذى يتأمل فيما تخوض فيه كثير من الأقلام من أحاديث عن حرية الكاتب والفنان المطلقة فيما يكتب أو يعبِّر، وضرورة أن توفر هذه الحرية له كى يتمكن إبداعه من الانطلاق فينتج ما يعبر به عن مشاعره الذاتية، وأفكاره الشخصية بالأسلوب الذى يختاره والكلمات التى تروق له. من يتأمل ذلك يتصور أن هناك من يمنع الكاتب والفنان عن ممارسة الحرية الإيجابية الهادفة التى تبنى ولا تهدم، وتعمر ولا تخرب، وتجمع ولا تفرق، أو منْ يقف حائلا دون تصوير المشاعر الإنسانية تصويرا راقيا.. بل يزيد الأمر خطورة حين ينشر هؤلاء ويدّعون أن رجال الدين يقفون أمام الحرية الأدبية للكاتب، وأنهم يعيدون عهود الحجر الأدبى القديمة!!

إن الواقع غير ذلك تماما ،فالإبداع الأدبى الهادف هو ما يحرص عليه ذوو الرسالات السامية من المفكرين والأدباء، وأصحاب الدعوة إلى الرقى الأخلاقى والأسلوب السامى العالى من الكُتّاب، وهو ما نجده فى صحف الأدب الرفيع.

وكتاب الله عز وجل هو الصورة الأدبية الرائعة للبيان العربى فى التعبير عن قصة خلق الكون، وعن الدعوة إلى النظر فى إبداع مكوناته وانسجامها وعظمتها، وعن الدعوة إلى عمارة الأرض، وعن التفكير الهادف، وعن التوحيد وعبادة الله، وعن

قصص الأنبياء والأمم السابقة، وعن العبادات والتشريعات والأخلاق، وعن الحياة والموت، وعن البعث والنشور، وعن الثواب والعقاب.. إلخ، ما تضمنه القرآن الكريم من معان ومقاصد وعبادات ومعاملات، وأحكام وتشريعات، وأخلاق وفضائل، وتوجيهات وإرشادات.

ولا ينكر أحد أنه نمط فريد من الأسلوب الأدبى الراقى، والبلاغى المعجز يحاول أدباء العربية الأصلاء احتذاءه والاقتباس من سموه. هذا الإبداع الربانى يضرب المثل الحقيقى لكل من يحاول الإبداع البشرى فيسموا بالقارئ إلى معارج الكمال.

إن الذين يدَّعون أن الإبداع الفكرى مُحارب من بعض الأفراد والمؤسسات والهيئات، لا يقصدون بالإبداع الفكرى ما يصور خوالج النفس الشريفة، وما يدعو إلى الارتقاء بالقارئ إلى عالم من الإحساس الشريف الذى يُريح أعصابه، ويسمو به إلى مثل من الشعور الإنسانى تجذبه إلى الكمال، وتدعوه إلى الفضائل، بل يقصدون ناحيتين مهمتين هما موضوع الاحتجاج على ما يكتبون:

أما الناحية الأولى: فاتجاههم - بتعمد وإصرار، وبأسلوب مباشر صريح وغير صريح - إلى تحقير المثل الرفيعة، وإلى الانحطاط الأخلاقى، وإلى الحياة البهيمية الحيوانية، وإباحة مظاهر الشذوذ الإنسانى فى تصوير النوازع الهابطة، والإسفاف الشائن، وجعل الأدب صورة من أحاديث المنحرفات والمنحرفين فى المخادع المريبة بدعوى أن الفن للفن، وأن كل من يُصوِّر لحظات السقوط أديب فنان.

وهذا فى الواقع انحراف عن مُثل الأمة وأهدافها، ودعوة إلى إشاعة الإباحة الهابطة على نحو ينذر المجتمع بالسقوط والتردى إلى مدارك الرذيلة، وظلم لمفهوم التفكير الإبداعى، ومعناه، وغايته.

وقد عرفنا من كبار الأدباء والكتاب فى الجيل الماضى من كتبوا: القصة، والقصيدة، والمسرحية، والمقالة...، وعالجوا مشكلات العاطفة، ومعضلات الحياة الوجدانية دون أن ينحدروا إلى الإسفاف الدنىء، متأدبين بآداب الفضائل الدينية، وقيم المجتمع الأخلاقية، ولم تظهر عند أدباء الجيل الماضى كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وعلى أحمد باكثير، والمنفلوطى، والرافعى، وغيرهم كثير.. ما يدل على انحدار فى تصوير العواطف، أو إسفاف فى أسلوب التعبير على نحو ما نراه الآن.. مما سبب فى اعتراض الشرفاء الغيورين على قيمهم الدينية، وأخلاقهم الاجتماعية، ومثلهم العليا، اعتراضهم على ما يُطبع وينشر من قصص وكتب مليئة بالانحدار والإسفاف والإلحاد الذى يدافع عنه من يظنون أن حديث الجنس الساقط أدبا، وأن الإباحية تقدما، وأن الإلحاد فكرا، وأنه يجب أن يُذاع وأن ينتشر دون اعتراض..

أما الناحية الثانية: فهى الهجوم على المثل العليا فيما يتحدثون به عن أنبياء الله المرسلين، وعن الصحابة المكرمين. فقد تركوا كل احترام وتقدير لهذه المثل، واندفعوا يسوقون على ألسنة أبطالهم فى كتبهم ومقالاتهم ما يبرأ منه الواقع الحقيقى لهؤلاء

الكرام، بل يزيدون في غيهم وانحرافهم وسقوطهم فيتحدثون عن الذات الإلهية حديث الساخر العابث، ويجعلون هذه الأحاديث مثالا لحرية الفكر! كأن حرية الفكر لا تكمن عندهم إلا في الهجوم على المقدسات الدينية، وأصحاب المثل العليا من أتباع الرسالات السماوية، فإذا قامت هذه الثورة الغاضبة، وجدنا من أرباب الأقلام من يدّعى ويُعلن في صوت عال بلا حياء ولا خجل أن في ذلك محاربة لحرية الفكر والإبداع، وأن الأديب لا يتقيد بأفكار يحترمها المجتمع. وربما خجل أحد هؤلاء المدافعين فحاول أن يبرر هذا السقوط بقوله: إن هذا الإلحاد قد جاء على لسان بطل لا يُصوّر عواطف الكاتب.

هل رسالة صاحب القلم أن يرقى بمستوى قارئه أم يهبط به؟ وأيهما أجدى على المجتمع وأنفع للناس، أن يقرأ الإنسان قصة تُصوّر الهبوط الجنسي في مراحله المتدنية، أم أن يقرأ صورة مهذبة تحببه في الطهارة والعفة، وتدفعه إلى تصور عالم فاضل تكون فيه الأسرة الإنسانية سعيدة بالتعاون المخلص، والتحاب الشريف، واحترام الحقوق والحدود، فيشرئب ويسعى إلى تحقيق ما يقرأ، ويرتفع بنفسه إلى مستوى ينأى به عن تخيل المفاسد المنحدرة؟

إن رسالة الأديب الحق هي رسالة الأنبياء والمرسلين والمصلحين، فإذا كانت مادة القراءة منحدرة مسفة فإنها شيطان أخرس يوسوس للقارئ بما يؤذيه ويكدر حياته، ثم إن الحياة ليست جنسا فقط حتى يتكالب كتاب القصة والمقالة على تصوير الجانب الحيواني من هذا الاتجاه!

إننا لا ننكر قوة الغريزة ودافعها الذي يتطلب الإشباع، ولا ننكر على الأديب أن يصور هذه الدوافع تصويرا نبيلا، ويستطيع كل كاتب أن يُعبّر عن أحرج المواقف وأشدها حساسية بما لا يؤذي الشعور الإنساني، وبما يجعله محترما أمام قارئه.

والقرآن الكريم قد عبّر عن أدق العلاقات الجنسية تعبيرا نبيلا يضرب به المثل الراقي لمن يريد أن يتحدث عن العواطف الإنسانية في اتجاهها الجنسي، يقول الله - عز وجل - في محكم كتابه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

(الأعراف: ١٨٩)

فماذا يرى القارئ في هذا النص القرآني الشريف؟ لقد تحدث عن أدق العلاقات الجنسية في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾

كما تحدث عن متاعب الحمل وآلام الحامل في قوله:

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾

ولم يترك الأمر دون الاتجاه إلى السماء فقال - جل شأنه:

﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

وهذا مثل يحتذى بين الكتاب النابهين، فقد كنا في عهد الدراسة الثانوية نقرأ آثار المنفلوطي - رحمه الله - وقصصه العاطفية

من نحو: «ماجدولين»، و«الشاعر»، و«الفضيلة»، وغيرها فنرى العفاف في أجمل مظاهره، ويشعر قارئ الفضيلة - مثلا - أنه قرأ كتاب أخلاق وقصة أدب معا.

والقصة مترجمة عن الفرنسية، أي أنها لكاتب أوروبي كبير لم يشأ أن يتحدر في تفكيره انحدار من ترسم خطاهم من الإباحيين.. فإذا كنا نحرص على تقليد أدباء الغرب فلماذا لا نقلد الموهبين منهم ذوي الالتزام الخلقي، كما في رواية الفضيلة...، وما ترجمه الأساتذة: أحمد حسن الزيات، ومحمد عوض، وخليل مطران.. وغيرهم وغيرهم من روائع القصص الأوروبي النبيل!!.

نحن لا ننكر أن يعالج الكاتب المشكلات العاطفية والجنسية، ولكننا ندعو أن يعالج الكاتب هذه المشكلات من ناحية تحقيقها للأهداف النزيهة، والغايات النبيلة، والفضائل الرفيعة، التي تعلو على الرذائل، وتسمو على الإسفاف والتدني والانحطاط.

وإذا قال قائل إن الواقع الفعلي يجب أن نُعبّر عنه، فنحن نقول له: إن كثيرا من شئون الحياة لا يستحسن التعبير عنها، وليس معنى الحرية الإنسانية أن تمشي عاريا في الطريق، كما ليس معناها أن تسيء إلى الناس بألفاظ كريهة تستدعي المؤاخذة، فإذا كان للسلوك الإنساني ضوابط مقررة يفرضها الواجب الاجتماعي، ويلتزم الكل بتطبيقها وعدم الخروج عنها، فلماذا لا يكون للتعبير الأدبي هذه الضوابط؟ أتراعى الأدب في مجالس السمر، وفي المجتمعات العامة بحيث يصير من يخرج عنها (هُزأة) بين الناس، منبوذا منهم غير مرغوب في الجلوس معهم، ثم نتحلل من ذلك كله حين نكتب قصة ماجنة وندعي أننا نُعبر عن الواقع! أي واقع هذا؟ هل تجلس عاري العورة في الطريق العام وتقضي حاجتك أمام الناس ثم تقول: هذا أمر ضروري لا سبيل إلى إنكاره؟!

أين تعاليم الأديان؟ وأين دروس الأخلاق؟ وأين آداب الاجتماع؟ وأين الأدب والحياء؟!

إن مشكلات المجتمع التي تتطلب: الفكر الإبداعي، والإفصاح الروائي، والتعبير الشعري، والمقالة الأدبية أكثر من أن تعد وتحد، ولكننا للأسف لا نلجأ إلا إلى الإغراء الجنسي فإذا تجاوزناه فلا إلحاد الساقط.

والمجتمع يعم بشتى المشكلات: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، ومشكلة التعليم التي صارت مشكلة المشكلات.. ويعاني المجتمع التخلف في كثير من هذه النواحي، فلماذا لا يكون الفكر الإبداعي مصباحا وضاء ينير الطريق في هذه النواحي حتى يساهم في حل هذه المشكلات، ونأخذ مكاننا في دول العالم المتقدم، بدلا من تصنيفنا ووضعنا في دول العالم المتخلف الذي يتضحكون عليه بتهذيب لفظه وقولهم: دول العالم النامي!

ولماذا لا يكون الاهتمام إلا بالجنس في أحط صوره، وبالإلحاد في أخس نواحيه؟

طرائف.. ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

«فذلك الذى أبكانى»

قال يونس بن محمد المكي:

زرع رجل من أهل الطائف زرعًا، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق فدخلنا عليه تسليه فبكى.

وقال: والله ما عليه أبكي، ولكن سمعت الله - تعالى - يقول:

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ١١٧)

فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة فذلك أبكاني.

«فقد كنت للدنيا مذلا.. وللآخرة معزا»

حدث الزبير، قال: قامت السيدة عائشة - رضى الله عنها - بعد ما دفن أبوها أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلا، وللآخرة معزا بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله - ﷺ - وأكبر الأحداث بعده، فإن كتاب الله قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له فى الصبر فأقول:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا زارئة على القضاء فيك.

«أنا ابن نفسى»

تكلم رجل عند عبدالملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبدالملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك، قال: صدقت، فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

مالي عقلي وهمتي حسبي،
ما أنا مولى ولا أنا عربي
إذا انتمى منتم إلى أحد
فإنني منتم إلى أدبي

«حقا»

وكم لله من لطف خفي
يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتى بعد عسر
وفرج كربة القلب الشجي
وكم أمر تساء به صباحا
وتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوما
فثق بالواحد الصمد العلي

«أوحش المواطن»

أوحش ما يكون ابن آدم فى ثلاثة مواطن: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه،

لذلك قال الله - تعالى -: في حق سيدنا يحيى عليه السلام:

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

(مريم: ١٥)

«حقيقة»

قال الإمام الشافعي - رحمه الله:

«من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه» وفى هذا يقول:

تعمدني بنصحك في انفرادي
وجنبني النصيحة فى الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع
من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي
فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

«وكان المريض بخيلا»

حكى الهيثم بن عدى، قال: ماشيت الإمام أبا حنيفة - رضى الله عنه - فى نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض «بخيلا»، وتواصينا على أن نعرض بالغداء، فلما دخلنا وقضينا حق العيادة، قال أحدنا:

﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾

(الكهف: ٦٢)

قال: فتمطى المريض وقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾

(التوبة: ٩١)

فقال أبو حنيفة لأصحابه: قوموا فمالكم هنا من فرج.

«دعاء»

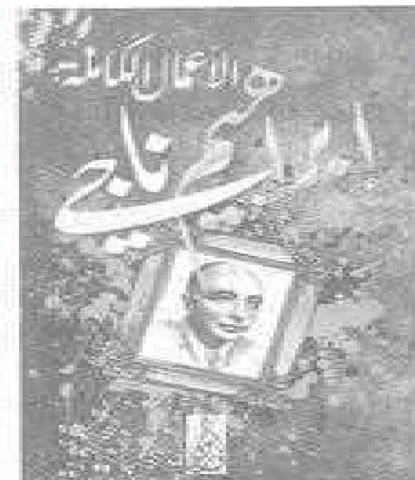
إلهى لست للفردوس أهلا
ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى
فإنك غافر الذنب العظيم

مكتبة الأزهر

إعداد: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

الأعمال الكاملة لشعراء العربية القدامى والمحدثين فى ثوب جديد



فى خطوة جادة قامت دار فاروس للنشر والتوزيع بجمع وطباعة الأعمال الكاملة لشعراء العربية المحدثين والقدامى بإخراج متميز ومقدمات ضافية حول كل مبدع، وتشتمل المقدمة عرضا لمولد الشاعر فضلا عن إبراز بعض السمات الخاصة بشعره واتجاهه الفنى. الدار أصدرت حتى الآن أعمالا لكل من: المتنبى، والبحترى والفرزدق، أحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وناجى، وأحمد مطر، ومحمد مهدى الجواهرى، وغيرهم.

«السلفيون من الظل إلى قلب المشهد».. قراءة فى تأثير الواقع العربى على الخطاب السلفى المعاصر



يقدم الباحث ممدوح الشيخ فى كتابه الأخير «السلفيون من الظل إلى قلب المشهد» الصادر عن دار أخبار اليوم قراءة متشعبة وموسعة لخطاب التيار السلفى المعاصر من خلال رصده لسياق الواقع العربى والعالمى. الكتاب لم يقف فقط عند قراءة جزئية للفكرة السلفية بل توقف كذلك عند أثر مفهوم وطبيعة «الدولة العربية الحديثة» فى نشأة هذا الخطاب - من حيث كون الدولة الحديثة إفرازا غربيا محضا له قيمه وتصوراته المتناقضة فلسفيا مع الرؤية السلفية. كما يقف «الشيخ» عند أثر وتأثير الجدل بين «الموروث» و«الوافد» - الذى شهدته المنطقة العربية ومصر فى منتصف السبعينات - على تطور هذا الخطاب السلفى.

«المشاركة لا المغالبة».. محلل أمريكى يقرأ مستقبل الحركات الإسلامية بعد الثورات العربية



فى كتابه «المشاركة لا المغالبة» الصادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، يحلل ناثان براون - الباحث الأمريكى المتخصص فى الحركات الإسلامية - واقع ومستقبل هذه الحركات بعد الثورات العربية، رغم رفضه لفكر هذه الحركات أصلا وفرعا، يرى براون هذه الحركات ليست مخيفة جدا كما يشاع، بل ويعترف بميزة لديها هى أنها فى أغلب الأحيان تقدم المبادئ على الأشخاص. إلا أن المؤلف يرصد أمرين غاية فى الخطورة عن مستقبل هذه الحركات حيث يؤكد أنها ستقدم خطاب معتدلا للمعارضة دون أن تكشف عن برامج تفصيلية لها نظرا لسنوات التهميش التى عاشتها، كذلك يرى المؤلف أن أجواء الديموقراطية التى ستشهدها البلدان العربية ستجعل هذه الحركات تقدم تنازلات إيديولوجية وتنظيمية كانت تتجنبها سابقا.

«مرحبا فى صحراء الواقع».. مفكر ماركسى غربى يعترف:

سجل الإسلام فى حقوق الإنسان أفضل من الغرب



يشتبك المفكر السلوفينى سلافوى جيجيك فى كتابه الممتع «مرحبا فى صحراء الواقع» - الصادر عن دار العين أخيرا - مع السياسات والرؤى الغربية، التى تقدم باعتبارها مخاطر تواجه البشرية، جيجيك الماركسى ينطلق من التحليل النفسى لمدرسة «جاك لاكان» كاشفا عن حقيقة أساطير مثل: «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات» و«١١ سبتمبر» و«الحرب على الإرهاب» التى يراها حالة من السعى الغربى الحثيث لخلق عدو دائم لضمان استقرار الرأسمالية. وعلى الرغم من أن المؤلف تتبع حيل الغرب فى خمسة فصول إلا أن موقفه من الإسلام وصراع الحضارات جدير بتسليط الضوء عليه، حيث يقول نصا فى صفحة ٧٨: «إن نظرة سريعة إلى التاريخ المقارن للإسلام والمسيحية تبنئنا بأن سجل حقوق الإنسان للإسلام أفضل بكثير من سجل المسيحية، ففى القرون الماضية كان الإسلام أكثر تسامحا بشكل ملحوظ تجاه الأديان الأخرى من المسيحية».

نحو فلسفة إسلامية فى العمران:

الهجرة من الريف إلى المدينة وآثارها المدمرة



أ.د. طه جابر العلوانى

منذ ثلاثينات القرن الماضى، بدأت عمليات الهجرة من الريف إلى المدينة فى مختلف أقطار العالم الثالث، وفى مقدمتها عالمنا العربى والإسلامى، والأسباب كثيرة: أهمها إهمال الريف من قبل معظم الحكومات التى وجدت فى العالم الثالث، والتركيز على المدن وخاصة العواصم، فكأن تلك الحكومات عكس تلك النفسية المحتاجة لكثير من التسديد والترشيد، ألا وهى نفسية العناية بالمظهر وليكن المخبر ما يكون، فكثير من الأسر والأفراد يركزون عنايتهم على المظاهر ولا يكادون يلتفتون الى غيرها أو ما يجاوزها، فالمظهر هو الذى يراه الناس ويرون أنهم لا يقيمونهم إلا من خلال المظهر، وقد يحرم الناس أنفسهم من أمور هامة جداً فى سبيل العناية به.

وهذا النوع من الانحراف الثقافى والمزاجى الذى يفتقر إلى تسوية وتعديل فى كثير من حكومات العالم العربى، التى بها أرياف أو بادية لم تولها أية عناية، وركزت جميع الخدمات فى العواصم، وإذا فاض شىء فربما يجودون به على عواصم المحافظات والأقاليم، فالفلاح مهمل لا يجد طبيبا، وإذا وجده فهو من النوع الذى يطلق عليه طبيب الأرياف، الذى يشعر كأنه منفى خارج دائرة عمله الطبيعى فى العواصم، ويقال مثل ذلك عن الخدمات الأمنية والاجتماعية والثقافية، فالجامعات والمستشفيات وإدارات الأحوال المدنية والمطارات وما إلى ذلك لا تتوافر إلا فى العواصم.

ولما بدأت بعض الحكومات تعنى ببناء جيوش حديثة وأجهزة أمنية، فإن المنابع الرئيسية للأفراد - من جنود أو شرطة أو من إليهم - لم تكن مصادرها فى الغالب إلا الأرياف؛ ولذلك فإن كل من وجد فرصة للعيش فى المدينة صار يترك الريف، وكأنه هارب من جحيم، صحيح أنه يحبه ويحتفظ بأجمل الذكريات عنه، ويتمنى لو أتيح له العيش فيه بتوفير ولو نصف الخدمات التى يجدها فى المدينة، ولكن الواقع يدفعه دفعاً إلى المدينة.

كما أن مدننا - حين بنيت - لم تجر أية

دراسات حول استيعابها وتقدير الخدمات ووسائلها، فقد تبنى المدينة وتنظم شوارعها وخدماتها لتستوعب مليونا من البشر، لكنها بعد أشهر أو سنوات قليلة تجد نفسها وقد جاءها ثلاثة ملايين أو خمسة أو عشرة فى بعض الأحيان، فتبدأ عمليات بناء ما يعرف بالعشوائيات، لتتحول تلك العشوائيات فى بعض المدن إلى حزام من الفقر وقلة التنظيم وانعدام الخدمات، بحيث يصبح عبئاً لا تحتمله المدينة التى يغلب أن يعمل فيها (٩٥٪) من سكان العشوائيات ويعودون ليلا إلى عشوائياتهم المحرومة، هنا تصبح عملية بناء ثقافة موحدة للشعب، وذوق عام، ورأى عام، ومجتمع تسوده علاقات التواصل والتكافل والتضامن أقرب إلى المستحيل، وهذا ما يحدث اليوم نتيجة لذلك، وهؤلاء الذين اقتلعوا من الأرياف ووجدوا أنفسهم فى محيطات المدن، لو أنهم وفرت لهم خدمات فى غاية البساطة، وقلت الاتجاهات المركزية لدى الحكومات؛ فأحسنت توزيع دوائر الخدمات وربطت الريف والمدينة بمواصلات متميزة، وحققت الأمن، وساعدت الفلاح وابن الريف على أن يبنى سكنًا لائقًا بالإنسان، وبجواره ما يستطيع أن يربى فيه مواشيه أو دواجنه بشكل سليم، وإذا أراد السفر فإنه يستطيع أن يستخرج وثائق السفر فى قريته، وإذا أراد ابنه أو ابنته الالتحاق فى الجامعة فإنه لا يحتاج إلا أن يكون قريباً منها أو تكون قريبة منه، أو تكون مدينة جامعية تضم إضافة إلى الجامعة وسائل عيش تسمح لأبناء الريف أن يعيشوا فى أريافهم ويحققوا ذواتهم ويصلوا إلى طموحاتهم، لما وقعنا فى مشاكل أخشى أن أقول إن كثيراً منها قد أصبحت معالجته فى غاية الصعوبة، إن لم تكن متعذرة.

إننا فى حاجة ماسة إلى إعادة بناء المفاهيم التى جاء الإسلام بها، وتأسست حضاراتنا وعمراننا على قوائمها وقواعدها حين عنى رسول الله ﷺ أول ما عنى بالمدينة، بل قبل ذلك نجد القرآن المجيد قد حدد حدود أم القرى (مكة) وبين حدود الحرم، وأشار إلى آثار البيئة فى الخلق والسلوك، فقال عن الأعراب:

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٧-٩٨)

وحفل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكثير من الإشارات التى لو اعتنينا بها خرجنا بتصور قرآنى نبوى نتحدى العالم به فى قضية العمران المشوب بالقيم، ولاستطعنا أن ننقذ شعوبنا من كثير من الأزمات الهائلة التى صار بعضها يهدد الوجود؛ مثل المخدرات والزنا والعلاقات المتوترة بين الناس وشيوع الجريمة بأنواعها.

إن لدينا بفضل الله عناصر معمارية وهندسية كثيرة يعج بها العالم العربى الإسلامى، لا يعجزها أن تؤسس منظومة عمرانية إسلامية، فيها كل آداب السكن المناسب للأسرة المسلمة وللمجتمع المسلم، والمناسب للبيئة والمناخ، والذى يمكن أن يعتمد فى عمليات بنائه وإعداده على المواد المتوافرة فى البيئة، فليت قادة الرأى والفكر ورؤساء الدول والحكومات عندنا يلتفتون إلى هذه الناحية الخطيرة قبل وقوع الطوفان.

من تراث الهلال

المرأة فى الأزهر بين الأمس واليوم

للأستاذ عاطف مصطفى

ظلت مجلة الهلال منذ بداياتها وعلى مدى رحلتها الطويلة فى عالم الثقافة التى بلغت ١٢٠ عاما [١٨٩٢ -٢٠١٢م] واحة خصبة وارفة الظلال، تفيأها مشاهير علماء الأزهر الشريف، فعطروا صفحاتها بتلك الكلمات الطيبة الفواحة؛ من خلال مقالات رصينة هى بمثابة غذاء الروح للعقل والوجدان المسلم. وعشت بنفسى مدى حرص كل رؤساء التحرير الذين عملت معهم على مدى رحلة العمل بها لمدة ٤٦ عاما، على أن تزدان صفحاتها فى كل عدد من أعدادها بكل ألوان ثقافة الإسلام ووسطيته بما تحمله من عذوبة الحرف وغنى اللغة العربية وسديد الرأى.

أسماء كثيرة من هؤلاء العلماء والمفكرين الكبار أسهمت على مدار عمر هذه المجلة الثقافية كان فى مقدمتهم أصحاب الفضيلة: الشيخ محمد الخضر حسين ،والشيخ مصطفى المراغى ،والشيخ مصطفى عبد الرازق، والدكتور محمد الفحام ،والدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور أحمد الطيب والشيخ محمد أبو زهرة ،والشيخ محمد الغزالى ، والدكتور محمد رجب البيومى ،والدكتور محمد عمارة ،والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، والمرأة فى الإسلام عاشت معززة مكرمة، وكان ينبغى أن يكون لها نفس المكانة التى يحظى بها الرجل بعد أن أنصفها ديننا الحنيف وأعلى قدرها.

لذا نقدم واحدة من المقالات البديعة التى نشرتها «الهلال» فى الأول من فبراير عام ١٩٣٤م تحمل عنوان «المرأة فى الأزهر.. سيدة تتقدم إلى الشهادة العالية بقلم الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون ننشرها بنصها:

«لم تحرم المرأة في الإسلام من التحلى بحلية العلوم والمعارف والآداب، وما بلغ الرجل منزلة فى ذلك إلا نالته وضربت فيه مثلا يحتذى.

كانت المرأة فى صدر الإسلام تحضر مجلس رسول الله ﷺ وتسأله عن الشيء كما يسأل الرجل وكان يجيبها، وكانت تروى الحديث وتصدر الفتوى فى مسائل الفقه كما يروى الرجل وتفتى. واشتهر فى ذلك العهد كثير من النساء كعائشة أم المؤمنين فى الفقه والرواية، وفاطمة وسودة وأم سلمة وغيرهن فى الحديث، ومازال الأمر كذلك من فجر الإسلام إلى اليوم، تختلف النساء إلى العلماء فيأخذن عنهم؛ ويختلف العلماء ورجال الأدب إلى قصور الخلفاء وبيوت الأمراء وذوى الجاه،

فيعلمون الأميرات والجوارى والقيان ما هو سائغ فى العصر من فنون العلم والأدب وقرض الشعر.

وفى العهد الحاضر اكتظت المدارس والكليات برائدات العلم يستفتنه متعطشات، ويتخرجن فى تلك المعاهد متضلعات من كل فنون الحياة، وظهرت المؤلفات الحديثة، وامتلأت الصحف والمجلات والموسوعات بآثارهن الرائعة فى مصر وشقيقاتها من الأقطار العربية وغيرها».

ويضيف الشيخ محمود أبو العيون: «ذلك ما حدثنا به التاريخ فى عهده الغابر وما شاهدناه فى عصرنا الحاضر، ولم يحدثنا التاريخ عن نساء اختلفن إلى الأزهر نفسه وتلقين العلم فى حلقاته.

والذى شاهدناه بأنفسنا وسمعناه من شيوخنا أن كثيرا من النساء كن يتحلقن حول بعض الوعاظ فى المساجد الأخرى لسماع الوعظ، وفى رمضان على الأخص، وكن يسألن الشيوخ عن مسائل النساء فى الفقه، وكن يشهدن الصلوات متحجبات حجابا كثيفا، فلا يطمع فيهن العابث ومريض القلب»!!

نساء تعلمن على يد شيوخ الأزهر

ويقول مواصلا مقاله: «وعرفنا أن نساء كن يتلقين العلم في الجامع الأزهر إلى عهد غير بعيد، وكان من شيوخهن الأساتذة: الشيخ القويسنى والشيخ السقا والشيخ على الصعيدى العدوى والشيخ الخضرى وغيرهم من العلماء المشهورين. والظاهر أن النساء فى ذلك العهد كانت رغباتهن فى العلم محدودة، فلم يطلبن الشهرة ولا الشهادات التى يسعى فى نوالها زملاؤهن الرجال، ولهذا لم يتركن أثرا، ولم نسمع عنهن شيئا سوى أحاديث تروى فى المجالس، وقد يكون من حسن المناسبات أن نذكر عن السيدة عائشة التيمورية الشاعرة المعروفة أنها كانت تتلقى العربية والآداب على فضيلة الأستاذ الشيخ حسن الطويل - رحمه الله- وعن بعض النساء اللاتى حضرن العلوم اللغوية والشرعية فى الأزهر كالسيدة فاطمة الأزهرية أو السيدة ستينة الطيلاوية وقد درست عليهما جانبا من النحو والعروض».

براعة الشيخة فاطمة العوضية

ويأخذنا المقال إلى السيدة التى تتقدم إلى الشهادة العالية بمدينة طنطا فى ذلك الوقت فيضيف الشيخ أبو العيون: وسمعنا كذلك أن نساء كن يتلقين العلم فى الجامع الأحمدى بمدينة طنطا، واشتهرت من بينهن الشيخة فاطمة العوضية، كانت تدرس على الشيخ الحفناوى، وكانت الدراسة فى ذلك العهد، وإلى عهد قريب، على الطريقة التحاورية البحتة. قال صاحبى: فكانت الشيخة فاطمة العوضية أجودنا منطقا وفهما، وأكثرنا نقاشا وحوارا، وأصبرنا على صعوبة الدرس، ومشقة التحصيل، وأرادت الشيخة فاطمة العوضية أن تنال الشهادة العالية من الجامع الأزهر، وكانت لجنة الامتحان تطوف على المعاهد الملحقة بالأزهر لامتحان طلبة الشهادة فيها، فسافرت اللجنة من علماء الأزهر إلى معهد طنطا سنة ١٩١١م لامتحان طلبته ومن ثم تقدمت الشيخة فاطمة العوضية للامتحان، وكان موضوع درسها فى علم الأصول «لا تكليف إلا بفعل» من كتاب «جمع الجوامع» وهو باب عويص ثقيل، وفيه إشكالات وتعاقيد، وقليل من الطلبة النابهين من يحذقه أو يجوزه بسلام.

وما إن أخذت الشيخة فاطمة العوضية مقعدها في اللجنة حتى أمطرها أعضاؤها وابلا من الأسئلة المعقدة في الباب المعين لها، وتاهيك بامتحان الأزهر في القديم، فقد كان مرهقا حقا، وكان السبيل في نجاح الطالب أن يكون ملما بما كتب في الحواشي والتقارير، وأن يكون قادرا على الجمع بين الآراء والخلافات، وتصحيح المسائل المختلف عليها بلباقة وحصافة، وأن يؤيد المذاهب المختارة بالأدلة والبراهين الواردة من العلماء المعروفين، والعبرة في ذلك كله بعمق الفهم والقدرة على الترجيح، لا بكثرة الحفظ ونقل الأقوال والمسائل، وشرط آخر لابد منه مع ما ذكرنا، وهو أن يكون لأغلب أعضاء اللجنة اتجاه نحو إنجاح الطالب وفوزه، لاستقامته وشهرته وحسن سمعته مثلا.

فكان طالب الامتحان يلاقى من ذلك عنتا وجهدا، وكان كثيرا ما يصيبه. الإعياء والإغماء فيبوء بالحرمان!

جلست الشيخة فاطمة العوضية تجيب عن أسئلة الامتحان، واللجنة تهاجمها بمعضلات المسائل.

ولقد سألها فضيلة الأستاذ الشيخ دسوقى العربى مغالطًا: «هل الاسم والحرف يكلف بهما الفعل؟

فأجابت: «ده بشأه وده بشأه» أى (دا شىء ودا شىء» وهى كلمة تركية، أى أن الفعل هنا هو فعل المكلف المخاطب بالأحكام وهو غير الفعل قسيم الاسم والحرف، فأعجب أعضاء اللجنة لهذا الجواب الظريف: تقول: [ومازال صاحب المقال يواصل]. ومع أن أعضاء اللجنة لم يكن اتجاههم تخريج «امرأة» تحمل شهادة العالمية فهى أيضا قد أصابها الخور والضعف، ولم تستطع إكمال الامتحان، فلم تنل من ذلك مغنما، فكان لرسوبها أسف عميق في نفسها قضى عليها بعد قليل من الزمان».

نصير المرأة في الأزهر

ولم يدر إلا الله ماذا كان يكون لها من الحظ لو أنه قدر لها النجاح في الامتحان، وأصبحت «عالمة» بين علماء الأزهر والمعاهد، أكانت تطالب بحقوق النساء في الأزهر؟.. أكانت تطالب بإنشاء فرق لهن خاصة بهن؟ أكانت تطالب بحقوقهن في القضاء الشرعي والتدريس والإمامة؟.. ولكن إذا كان القدر المتاح لم يهيئ لها الظفر بالفوز لتتمكن مما عسى أن تطالب به المرأة المتعلمة من حقوق المرأة في باحات الاجتماع ودور العلم وهامات المناصب العلمية الدينية، فهى لم تقدم نصيرا من بعد، ذلك أن صديقنا المغفور له الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش كان من نصراء المرأة في الأزهر، وكان ينادى في خطبه وفي محادثاته بوجوب إنشاء فرق في المعاهد الدينية لتعليم المرأة الدين والعربية ووسائلهما، ولقد كان رحمه الله متحمسا لذلك الرأى، وكان حين يتحدث في ذلك يكون عميق الإحساس، قوى الإيمان بتحقيق هذه الرغبة، وسمعته يخطب في ذلك على مسرح متروبول بالقاهرة، وهو شديد التأثر، ولقد قلت له ذات مرة: «ألا تكفى المدارس في تعليم الفتيات ما يكمل دينهن، ويثقف خلقهن، ويهذب عقلهن؟.. فقال: إن هذه المدارس مدنية لا تعلم الدين بل تفسده، ولا تفيد تربية بل تعدمها.

أما الأزهر فهو خير كفيل بتخريج نساء يعرفن الدين والتربية والخلق.

قلت: أليس أقرب من ذلك أن تهذب برامج تعليم الدين والأخلاق في مدارس الحكومة، وتنظم طرق الدراسة فيها لتكون محققة للغرض الذى تنشده، ثم وأنت رجل كبير من رجالات التعليم في وزارة المعارف، قد يكون لك نفوذ يمكنك من تلك المحاولة الطيبة.

قال: «إن يد التخريب والغناء تلعب في الوزارة من وراء ستار فالمحاولة في سبيل الإصلاح الديني عبث وضلال. أما الأزهر فقد يكون بعيدا عن تلك الأيدى اللاعبة.

يقول الشيخ أبو العيون: هذا كان رأى المرحوم الأستاذ عبد العزيز جاويش، ولقد كان شديد الحرص عليه، قوى العقيدة بلزومه في الأزهر، عظيم الأمل بتحقيقه؛ لأن الظروف التى كانت محيطة به في ذلك العهد، كانت مواتية، وكادت تمهد له منصبا رفيعا في المعاهد الدينية، ولقد كان يعمل له دائبا، ولكن الله عجل به، ولم يبلغ ما أمله من ذلك الحلم اللذيذ.

وقد يكون لرأى الأستاذ الفقيد قيمة قيِّمة، لو تقدم جيلا أو أكثر من جيل وقت أن كان طلب العلم لوجه الله ولإسعاد المجتمع، ووقت أن كانت الحياة هنية، قليلة التكاليف، لم تغمرها المدنية، والمشكلات العصرية، فقليل من التعاليم الدينية تتلقاها المرأة في حلقات الأزهر، أو في المساجد الأخرى كانت تكفى لصيانتها وتهذيبها، وتربية بنيها، والقيام بواجب بعلها. أما الآن والحياة البيتية التي هى أساس التعليم للمرأة تقوم على نظريات تتصل بالدين والأخلاق والتربية وعلم النفس والاقتصاد والاجتماع، فإن المرأة الحاضرة لا ينفعها أزهرنا ومعاهدنا الدينية بشىء، وإن قيام صف ومائة صف من النساء بجانب صفوف الناشئين في المعاهد مقضى عليها بالفشل، ولو بعث الله إليها خيرة العلماء قادة ومعلمين.

يختم الشيخ مقاله المنشور في الهلال منذ ثمانية وسبعين عاما قائلا:

إن الأزهر في حاضره لا يستطيع أن يؤدى هذه الرسالة إلى المرأة الحديثة، وليست وزارة المعارف بمستطيعة تأديتها أيضا. المرأة الحديثة في حاجة ملحة إلى تأسيس معاهد خاصة بها للتربية والثقافة لتخريج فتيات صالحات للاضطلاع بأعباء الأمومة الصالحة والزوجية والمنزل، وهذه المواد الثلاث هى سلاح المرأة في حياتها الجديدة، وبدونها لاتتم حياتها ولا يستقيم شأنها ولا تصلح لشىء في الوجود.

أرجح كثيرا أن الأزهر الحاضر لو توجهت عناية أولى الأمر فيه إلى وضع سياسة تعليمية دائمة، تتفق وروح العصر، لاستطاع بعد ثلث قرن - لا أقل - أن يعيد للدين بهجته وللإسلام جدته، ولأدى الرسالة للعصريين كاملة على وجهها الصحيح.

ولقد تحققت - بالفعل - أمنيات شيخنا العلامة الجليل وأصبح للمرأة في أزهرنا الشامخ العتيد كليات في جامعته منتشرة في أنحاء الجمهورية في شتى مجالات العلوم: في الطب والهندسة والعلوم والدراسات الشرعية والفقهية وعلوم الاجتماع والإنسانيات.

ورأينا المرأة عميدة وأستاذة وفقيهة ووزيرة وقاضية، وأصبح للمرأة في مصر دورا لا يقل شأنا عن الرجل، وتتحمل مسئولية ضخمة في العناية بالنشء، داخل المنزل، والأمل كبير فيما تقدمه المرأة الآن دعما لوطن يحتاج إلى جهد كل أبنائه المخلصين.

بين الصحف والمجلات

إعداد/أ. محمد جمعة

فكر النهضة: المغزى.. والتوقيت

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ محمد عمارة المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٤ / ٤ / ٢٠١٢ يقول فيه:

قبل حملة بونابرت على مصر ١٢١٣هـ ١٧٩٨م كانت بلادنا - ومعها الشرق الإسلامي تعاني من التخلف الموروث عن العصور المملوكية - العثمانية.. وكانت تتلمس النهوض من قيود هذا التخلف الموروث، فلما جاءت الحملة الفرنسية كانت البداية لتحدى الهيمنة الغربية - العسكرية.. والاقتصادية.. والفكرية.. التحدى الذى لا يقف عند احتلال الأرض ونهب الثروات، وإنما يسعى لاحتلال العقل وتغريب الوجدان، لتأبيد وتأييد احتلال الأرض ونهب الثروات.. ومع تزايد تأثيرات هذه الهيمنة الغربية - عبر القرنين التاسع عشر والعشرين - قرنى هيمنة الإمبريالية الغربية على عالم الإسلام - عملت هذه الهيمنة على إجهاض بوادر التجديد التى سبقت الحملة الفرنسية، وعلى حراسة تخلفنا الموروث لتتمدد فى فراغه فكرية التغريب والاستلاب الحضارى الغربى، فوقع الشرق الإسلامى فى المأزق الحضارى الذى تمثل فى تحديات جناحي التخلف الموروث والهيمنة الغربية لكن العقل الإسلامى لم يستسلم أمام هذه التحديات.. بل كان أمينا على خصوصية الحضارة الإسلامية التى بنت أمجادها التاريخية فى مواجهة التحديات.. فكان أن قاوم هذا العقل الإسلامى تحديات التخلف الموروث والهيمنة الغربية بالإبداعات الفكرية التى مثلت معالم النهضة الإسلامية المنشودة، تلك التى تتطلع إلى طى صفحة التخلف الموروث مع بعث ثوابت الاعتقاد الإسلامى ومعالم الشريعة الإسلامية وروح الحضارة الإسلامية، كما اجتهد هذا العقل الإسلامى فى التمييز بين ما هو مشترك إنسانى فى الوافد الغربى وبين ما هو خصوصية غربية تحاول مسخ هويتنا الحضارية وتشويهها ولقد تمثل فكر النهضة هذا فى العديد من الإبداعات الفكرية العربية والإسلامية، التى أبدعها أعلام العرب والمسلمين على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين.. هذه الإبداعات التى ظل بعضها حبيس الأدراج، أو محدود الانتشار، أو متفرقا لا يمثل مشروعاً نهضوياً متكاملاً، إلى أن نهضت مكتبة الإسكندرية بجمع هذا التراث النهضوى وتحقيقه ودراسته وتقديمه فى صورة فريدة لم يسبق أن قامت بها مؤسسة من مؤسسات الفكر والنشر فى عالم الإسلام.

ولقد شاء الله أن يواكب هذا المشروع لنشر الفكر النهضوى قيام ثورات الربيع العربى التى تفجرت خلال عام ٢٠١١م.

وهى الثورات التى فتحت باب النهضة الحضارية أمام الشرق الإسلامى ليتجاوز المأزق الحضارى الذى عاشته الأمة لعدة قرون، حتى لكأن نشر هذا التراث النهضوى الذى مثل ويمثل معالم طريق النهضة قد كان الإرهاص لثورات هذا الربيع النهضوى وجدول الأعمال الذى يمثل دليل العمل لأمتنا على طريق التقدم والنهوض والانعتاق لقد وصف السيناتور الأمريكى جون ماكين- إبان زيارته القاهرة فى ٢٠ فبراير ٢٠١٢ - ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م فى مصر بأنها الحدث الأهم فى الشرق منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية.. وأن التغييرات التى ستشهدها مصر فى المرحلة المقبلة هى التى سترسم مستقبل المنطقة كلها.. وأن ثورات الربيع العربى التى أذهلت العالم بأكمله قد تحولت إلى مصدر إلهام للعالم كله.. وأن هذا الحدث سيؤثر على العالم بأسره. فماذا تعنى هذه الكلمات المدروسة بعمق، والمختارة بدقة وعناية؟.. إنها تعنى أن ثورات الربيع العربى وخاصة فى مصر قد فتحت أبواب النهضة الإسلامية التى أوصدها الغرب الاستعمارى عندما أسقط الخلافة العثمانية، وكسر الوعاء الجامع والرمز المعبر عن الهوية الإسلامية لأول مرة منذ أربعة عشر قرنا.. وأن استبعاد المرجعية الإسلامية كخيار شرقى للنهضة الذى نجح فيه الغرب الاستعمارى فى عشرينيات القرن العشرين قد بدأت موجته فى التراجع والانحسار وأن خيار النهضة الإسلامية قد فتحت أمامه الأبواب من جديد وعلى غرار رؤية السيناتور الأمريكى جون ماكين جاءت تصريحات رموز الكيان الصهيونى التى قالت: إن نجاح ثورات الربيع العربى فى الامتداد إلى دول المشرق العربى إنما يعنى قيام بحيرة إسلامية تغرق فيها إسرائيل!

إذن نحن نعيش لحظات تاريخية، تمثل بدايات نهضة عربية إسلامية، وليس مجرد ثورة لتغيير نظام فاسد فى نطاق قطرى وجغرافى محدود - كما يظن الذين لا يفقهون وفى ضوء هذه الأبعاد للأحداث الثورية التى تعيشها أمتنا، نبصر معنى هذا المشروع العملاق الذى تفردت بإنجازه مكتبة الإسكندرية.. مشروع اختيار ما يمكن أن تسميه موسوعة الفكر النهضوى التى أبدعها العقل العربى المسلم على امتداد القرنين الماضيين، والتى حوت معالم النهضة الحضارية التى تغالب - لتغلب - المأزق الحضارى المتمثل فى جناحى التخلف الموروث وهيمنة الغزو الفكرى الغربى. ففى هذا المشروع تقدم مكتبة الإسكندرية (دفاع عن الشرعية) للعلامة المغربى

علال الفاسى ١٣٢٨ - ١٣٩٤ هـ و ١٩١٠ - ١٩٧٤م الذى كان قائداً فى معركة الاستقلال السياسى والاستقلال الحضارى معاً.. كما تقدم (مقاصد الشريعة) للعلامة التونسى محمد الطاهر بن عاشور ١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٩١ - ١٩٧٣م الذى قاد تيار الإحياء والتجديد فى تونس - البلد الذى انطلقت منه شرارة ثورات الربيع العربى.. كما تقدم مكتبة الإسكندرية (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) للعلامة الشهيد عبدالرحمن الكواكبى ١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٣م الذى فتح عقول الأمة على مكامن الداء، ورسم لها طريق تحطيم القيود، حتى تعى أن إسلامها قد جاء ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، وأن الحرية هى الحياة، وأن الاستبداد والعبودية هى الموت، وإذا كان التخلف قرين الجمود والتقليد، وإذا كان التقدم والنهوض مشروطين بالتجديد فإن مكتبة الإسكندرية تقدم للعلامة محمد إقبال ١٢٩٣ - ١٣٥٧ هـ ١٨٧٧ - ١٩٣٨م كتابه الفذ (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام وفى مواجهة الذين يريدون تحويل التدين إلى أشكال وطقوس خالية من الروح، تقدم مكتبة الإسكندرية فى مشروع كتب النهضة للعلامة المجاهد الشيخ عبدالعزيز جاويش ١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ ١٨٧٦ - ١٩٢٩م رائعته (الإسلام دين الفطرة والحرية).. وإذا كانت النهضة التى فتحت ثورات الربيع العربى نافذتها أمام الأمة إنما تعنى أول ما تعنى العودة إلى الذات الحضارية للأمة فإن كتاب (على شريعتى) ١٣٥٢ - ١٣٩٧ هـ ١٩٣٣ - ١٩٧٧م (العودة إلى الذات) إنما يقدم دلالة ذات مغزى فى هذا المقام وحتى لا تكون نهضتنا الإسلامية تقليداً للفلسفات الوضعية والمادية والغربية، وحتى يتم البعث لذاتنا الفلسفية الإسلامية ولعقلانيتنا المؤمنة، يقدم مشروع مكتبة الإسكندرية للعلامة الشيخ مصطفى عبدالرازق كتابه الفذ (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامى).. وإذا كان رفاعة رافع الطهطاوى ١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م قد ارتاد ميادين التنوير لشعوب الشرق فى العصر الحديث، فإن كتابه (مناهج الألباب المصرية ومباهج الآداب العصرية) إنما يمثل معلما ذا دلالة فى هذا المشروع. تلك أمثلة - مجرد أمثلة - لموسوعة فكر النهضة التى تقدم عشرات الكتب التى تمثل معالم على طريق النهضة العربية الإسلامية.. والتى حظيت - بعد التحقيق والتعليم - بالدراسات العلمية التى مهدت للقارئ المعاصر طريق التعامل السلس مع نصوص الأعمال الفكرية لهذا المشروع. ويزيد من أهمية هذا الإنجاز الرائع لمكتبة الإسكندرية شبكة الباحثين المتميزين والممتازين الذين قاموا ويقومون على تقديم هذا المشروع.. والذين يمثلون مختلف أقطار عالم الإسلام وقومياته.. فكتب هذا المشروع هى ثمرات ناضجة لعقل الأمة الإسلامية وإبداعات علمائها، والباحثون الذين نهضوا بالدراسات

العصرية لهذه الثمرات إنما يمثلون هم الآخرون كل قوميات جامعة الإسلام.

وبهذا المشروع تبوأت مكتبة الإسكندرية مكانتها الطبيعية.. مكانة المنارة التى لا تقف فقط - عند تعريف الشرق بثمرات الفكر الغربى وإنما تقدم - كذلك - أفضل ما لدى الشرق الإسلامى.. تقدمه لأمتنا أولا.. وللعالم من حولنا ثانيا، لتجسد المعنى الحقيقى لدورها ورسالتها فى التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات.

إنه مشروع معالم النهضة الإسلامية تقدمه مكتبة الإسكندرية لثورات الربيع العربى التى فتحت نافذة النهضة الحضارية العربية الإسلامية فى مناخ عالمى سقطت فيه الشيوعية سنة ١٩٩١م ودخلت فيه الليبرالية والرأسمالية المتوحشة - التى حسبوها نهاية التاريخ، نفقا مظلما لن تخرج منه سالمة أبدا.. الأمر الذى جعل ويجعل خيار الإسلام فى النهضة ونموذجه فى التقدم متفردا بالصلاحية للتألق، ولإعادة الشرق الإسلامى إلى مكان الريادة والقيادة بين الأمم والحضارات من جديد.

محاولة للفهم

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ محمد هزاع المنشور بجريدة المساء الصادرة بتاريخ: ٤/٤/٢٠١٢م يقول فيه:

لا أعرف من أى مدرسة أو معهد أو كلية أو حتى مركز تدريب يتخرج هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أو يسميهم غيرهم بال «ناشطين والناشطات»، ولا أعرف كذلك أين يعمل هؤلاء وما المهنة التى يتكسبون منها قوتهم حتى يمكن نسبتهم إليها والتعريف بها كالمحامى والصحفى والطبيب والمهندس والكناس والسباك وهكذا وربما يكون ذلك بسبب جهلى وتخلفى بحقيقة هذا المصطلح الذى تطفح به الآن وسائل الإعلام المصرية والعربية والدولية بدون تحديد مفهومه تحديدا جامعاً مانعاً - كما يقول المناطقة - فيمكن حينئذ التعرف ولو مبدئياً بأصحاب هذه المهنة التى تعاظم شأنها فى الفترة الأخيرة وخاصة أن العامة من البشر أمثالى يعلمون بالفطرة أن كافة بنى آدم يفترض أنهم نشطاء وناشطات بدرجة أو أخرى فى مجال أو آخر على الأقل للوفاء بالحد الأدنى من احتياجات الإنسان إلى درجة تجعل من الشواذ الذين يخالفون هذه الفطرة الطبيعية موصوفين على سبيل الاستثناء بالكسل أو الخمول.

فإذا كان المقصود بهؤلاء الذين يهتمون بالشأن العام كالسياسة والاقتصاد والاجتماع وما يتبع ذلك كحقوق الإنسان والديمقراطية وخلافه.. فهل يمنع ذلك نسبة هؤلاء لمهنهم الأصلية حتى نتعرف عليهم ونعرف مؤهلاتهم وإمكانياتهم التى تتيح لهم الحديث بل و«التنظير» فى هذه المجالات العامة وحتى نعرف أنهم من «أهل الذكر» فنسألهم عن مئات الألغاز والأحجيات التى لا يفهمها أمثالى فى هذه المجالات العويصة على أفهامنا والتى تفوق ثقافتنا المتواضعة جداً؟!

عن العلاقة التاريخية
بين الفوضى والحرية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ- حسن محمد شافعي المنشور بجريدة الحياة الصادرة بتاريخ ٣٠/٣/٢٠١٢م يقول:

أشار تاريخ الفكر السياسي إلى تحفظ بعض الفلاسفة تجاه الديمقراطية واعتبارها من أسوأ أنواع النظم السياسية، منهم على سبيل المثال- أفلاطون الذي رأى أن أثمن ما يعتز به أنصار النظام الديمقراطي، وهو الحرية، قد يكون هو علة أمراضها؛ لأنها ستكون دافعاً إلى حال الفوضى التي يصعب التحكم فيها وعلة التحول إلى الحكم المطلق أو الطغيان. إذ أن الرغبة المفرطة في تحقيق هذه الغاية، وتجاهل كل ما عاداها قد يؤديان إلى تغيير هذا النظام، ومن ثم المطالبة بالطغيان كحل للخروج من حال الفوضى.

فإذا كان التخلص من الاستبداد هو تحد للآخر السالب للحرية والمهيمن على السلطة، فإن إدارة ممارسة الحرية هي تحدى الذات للمجتمع بأسره. وحال الارتباط بين الحرية والفوضى تنفك في حالة الاستثمار الجديد للحرية وما يجعلها مصدر أمن واستقرار للمجتمع.

لذلك يمكن القول إن النظام الديمقراطي وفق تعريف أرسطو للفضيلة هو وسط بين رذيلتين، فالديمقراطية تحتاج إذاً إلى مصل مضاد لها من أجل عافيتها واستمرار بقائها وضمان تأثيرها الفعال في المجتمع.. فهي ليست تكوين أحزاب وانتخابات وصندوق اقتراع فحسب، بل هي عملية تنظيم لممارسة الحرية.. وهو ما يجعل بعض التجارب الديمقراطية مجرد فسيفساء سياسية تصبح مجالاً لصراعات إثنية ومشاحنات بين القوى السياسية.

ومن هنا تأتي الحاجة إلى عامل آخر يتمثل في أن تتحول الديمقراطية إلى ليبرالية دستورية، ما يعني تقييد الحريات عبر سيادة القانون في شكل يضمن عدم طغيان الأغلبية على الأقلية أو سيطرة فصيل بعينه على شرائح المجتمع الأخرى.. ولعل هذا ما جعل مونتسكيو يسمي مصنفه الشهير عن الحرية «روح القوانين»، وهو ما عبر عنه بأن الحرية هي ما تجيزه القوانين، كما أنه أبدى إعجابه بعبقرية النظام الإنجليزي الليبرالي في تقييد الحرية ممثلة في تقسيم الحكم بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم. فسلطة واحدة لا يمكنها أن تنمو وتصبح قوية أكثر مما ينبغي.. ويمكن القول إن الديمقراطية تبدو في تاريخ الفكر السياسي كترياق تصاحبه سموم الفوضى والاضطراب في جسد واحد، فهي تحتاج إلى طبيب حاذق في استخراجها وضخها من جنبات المجتمع في شكل منظم يضمن عافيته وأمنه.

غزوة أحد

٢

لفضيلة الشيخ/الطاهر الحامدي

يعلمنا التاريخ دائما أن كل حرب تقوم لابد أن تكون لأطرافها أهدافا.. وقد تختلف أهداف المشتركين في الحرب، فهي غالبا ما تتباين بين مشعل الحرب ومسعر أوارها وبين المدافعين، ومهما اختلفت أهداف المحاربين فإنها في كل الأحوال تكون أهدافا دنيوية، بمعنى أنها تكون إما بهدف الغلبة والتأديب أو الاستحواذ على الثروة أو التوسع وضم أراضي دول أخرى، أما أهداف النبي ﷺ في الحرب فنستطيع أن نقول بكل ثقة: إن الحرب عند رسول الله ﷺ لم تكن هدفا للكسب أو للاستعلاء على الإطلاق... ولا وسيلة على الإطلاق فالنبي ﷺ يلخص دعوته في كلام محدد واضح في أكثر من مناسبة وحديث. يقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ويقول أيضا: «إنما بعثت معلما» ويصفه صحابته فيقولون لم يكن بذيئا ولا لعانا ولا شتاما فكان ﷺ يبلغ رسالة ربه بالحسنى لكنه كان يجد عنتاً وطغيانا من الآخرين أصحاب السلطة والمال الذين لم يروا في دعوته أيَّ شيء معاب ولا في عرضه أي شيء يلام إنما هو الخوف على المكانة والسلطان والمال والجاه والسيادة والتحكم في الآخرين فقاوموا دعوة النبي ﷺ لأنهم رأوا فيها هدمًا لكل استبداد يرونه من حقهم مشروعا. وسيرة النبي ﷺ تخبرنا بأن وقائع كل غزواته بحساب أهل الحرب والغزو غير مقبولة حيث إن كل غزوة كان عدد المسلمين فيها أقل من عدوهم وما كان لأحد يبغي النصر أو الغلبة أن يجازف بما معه من رجال في معركة هي في ظاهر الأمر خاسرة بكل المقاييس باستثناء غزوة حنين. لكن من قال لك أن النبي ﷺ يبغي غلبة أو استحواذا؟! إنه ينشر مبادىء الخير والرحمة والعدالة والمساواة هذا بعد أن ينتزع من قلوب العباد أثر الشرك والوثنية كما قال ربيعة بن عامر رضي الله عنه لملك الفرس عندما سخر من هيئته وسأله: لماذا جئتم إلينا؟!، فقال في أنفة وعزة: جئنا لنخلص الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد.

هذا بالإضافة إلى أن رسول الله ﷺ رغم تخلف أسباب النصر في الظاهر واختلاف موازين القوة لصالح أعدائه إلا أن الله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب وخالقها هو الذي كان يؤيد رسول الله ﷺ بما تعجز عنه الأسباب، ففي غزوتي بدر وأحد نصر الله سبحانه وتعالى جنده بوسائل غير عادية كانت من

تأملات في السيرة:

أسباب النصر حيث ففي غزوة بدر أنزل الله سبحانه وتعالى قوله سبحانه :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾

أرأيت إلى جيش ينام في المعركه ؟! تخيل جنديا يغفو حتى يسقط سلاحه، فماذا يفعل القائد وماذا يقول المحللون ؟! هذا الجيش بميزان البشر جيش خاسر وقائده مهزوم، لكن الله سبحانه وتعالى قال وحكم بأن النعاس أمنة وأنه يثبت به القلوب و الأقدام.

و في غزوة أحد وقد انهزم المسلمون لما تركوا وصاية النبي ﷺ وخالفوا أمره وتفرق الجيش واستمر القتل بالمسلمين واختلت موازين القوى ولا مجال للنصر في نظر كل المحللين العسكريين والقادة الخاربين ينزل النعاس على الجيش المقاتل فيكون هو الأمان والطمأنينه يقول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾

وهو هو النعاس حيث إنه أمنة المؤمنين المجاهدين وهو حسرة وندامة على المنافقين.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وهكذا نرى أسباب النصر لطائفة المؤمنين الموحدين تختلف عن أسباب النصر لغيرهم شريطة أن يتمسك المؤمنون بالعروة الوثقى ألا وهي الإيمان بالله والعمل بشريعته، ألا تسمع لقوله ﷺ :«إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم» فمن أسباب النصر وأسباب الرزق رعاية الضعفاء وذلك منهج قويم مستقيم في شريعة الإسلام وهويختلف عن منهج غير المؤمنين فللإسلام أسلوبه في رعاية المعاقين، فليس ذو العاهة المعاق عالة على المجتمع إنما هو وسيلة إلى الرزق وسبيل إلى النصر، ألا ترى إلى التعبير المهذب من رسول الله ﷺ حين يقول وهو يسير في جماعة مسرعة وفيها ضعيف لا يقدر على مسايرة الركب في سيرهم إلى أن هذا الضعيف يجب أن يراعي حاله ويحفظ له قدره ومكانته فيقول ﷺ : «الضعيف أمير الركب» أرأيت إلى المكانة الرفيعة التي نالها هذا الإنسان بضعفه، وأي مجتمع يرتقي فيه الضعيف لينال هذه المنزلة إلا في مجتمع النبوة الطاهرة ،إنه مجتمع الإسلام، ولن يكون فلاح للمسلمين إلا إذا تجردوا وتخلصوا من براثن الأنانية والأثرة وارتقوا إلى هذا المستوى الطيب الرشيد لا أظن أننا طوّحنا بعيداً عن غزوة أحد لكنا ما زلنا نرفل في ثنايا نهجها القويم.

وتعال إلى ذلك النبيل حنظلة زوج جميلة بنت أبي بن سلول، حنظلة دخل المعركة في صبيحة عرسه لما سمع نداء الحرب واستشهد رضي الله عنه وذُكر لرسول الله ﷺ فقال ﷺ «إني رأيت الملائكة تغسّله بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة فاسألوا أهله ما شأنه» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتف، فقال ﷺ : «ولذلك غسلته الملائكة» لأن الشهيد لا يغسل وإنما يدفن بثيابه .فذلك حنظلة غسيل الملائكة.

وكان ممن أبلى بلاء حسناً واستشهد يوم أحد عمرو بن الجموح رضي الله عنه وقد كان أعرج شديد العرج ولم يكن عليه قتال لقوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

إلا أنه أصر على دخول المعركة وكان له بنون أربعة أشداء مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا إن الله قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال :«إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ويمنعوني من الخروج معك فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة» أرأيت إلى الإيمان واليقين والاستبسال وطلب الشهادة؟ فقال له رسول الله ﷺ :« أما أنت فقد عذرك الله تعالى فلا جهاد عليك» ثم قال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ؟!» فخرج مجاهداً وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً. ويروى أن عمرو بن الجموح قال لرسول الله ﷺ : أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم. فقتل هو وابن أخيه ومولى لهم فمر عليه رسول الله ﷺ فقال: كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة فأمر بهم رسول الله ﷺ فجعلوا في قبر واحد.

وهذا هو أنس بن النضر -رضي الله عنه- غاب عن بدر وتخلف عن المعركة فشق عليه ذلك وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه لإن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين- ثم مضى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم من سلاح وجلسوا! فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال في فدائية وشجاعة: وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم فلقيه سعد بن معاذ، فقال سعد: أنا معك ،يقول سعد: فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع ثم قال: يا سعد واهاً لريح الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد .ثم تقدم فقاتل حتى قتل ،ووجدوا في جسده بضع وثمانين ضربة، يقول: ووجدناه قد مثل به المشركون فما عرفه أحد منا إلا أخته ببنانه، فكنا نرى أو نظن أن قوله تعالى:

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

نزل في أنس بن النضر .وممن أكرمه الله تعالى بالشهادة في أحد: أسد الله حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ . وتلك ملحمة تستحق أن نفرد لها حديثاً آخر في لقاء آخر إن شاء الله.

شغب المستشرقين وجهود العلماء

للشيخ/ معوض عوض إبراهيم

إن الذين قضيت إليهم آجالهم، بعد أن أمضوا حياتهم فى الكيد للسنة النبوية، ابتغاء أن ينطلقوا منها إلى أن يشغبوا الشغب على القرآن الكريم كما أخبر الله تعالى عن أوائلهم، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

«فصلت/٢٦»

قد أحبط الله سعيهم وأزهق باطلهم، وصدق الله العظيم:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

«الأنبياء/١٨»

لقد ذهب هؤلاء وأولئك، وبقى القرآن طلق المحيا، ندى الراحة وبقيت السنة المطهرة كما قال الله تعالى:

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

«النحل/ ٤٤»

وجعل الله هؤلاء وأولئك أحاديث مستوجبين الاتهام والملام وسوء الأحدوثة، وأحاديث يستبين من خلالها الأسوياء عصراً بعد عصر إن من هؤلاء من انفعل فى افتراءاته بحقده الموروث على الإسلام، ومنهم من ألغى عقله، وعطل فكره، وحصر فيما رأى الآخرون نظرة، وردد كالببغاوات كلام من غرهم فكرهم الوافد من وراء الحدود، دراسات سميت بالاستشراق، وهى وهم كبير، وفهم غير مستنير، ودعاوى لا يسندها برهان صحيح فهم منها كما قيل:

«والدعاوى إن لم تقيموا عليها
بينات دعاتها أدعياء»

وفى التراث الجليل كفاية واقتدار على تعرية أدعياء العلم من المستشرقين ومن لف لفهم.

وفى علمائنا المعاصرين، من أفضى منهم إلى مولاه، ومن نسأ الله فى حياتهم حتى اليوم، من كروا على ضلالات المضلين، فمزقوا عنها أغشية الزور فبدت على هوانها وراء ثوب هو أشبه شىء بثوب الرياء الذى يشف عما تحته.

ورحم الله الدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز، والدكتور الشيخ مصطفى السباعى، فقد تركا أبرك الأثر فى الدراسات القرآنية والحديثية، وخلفا أكرم الحوار فى مؤتمرات دولية، وفى ندوات وبحوث يذكرها لهما الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وما أنسى حديث العلامة أبى زهرة - نضر الله وجهه فى جواره- وهو يروى خبر اليوم الأخير من حياة الدكتور دراز فى مؤتمر لاهاى بباكستان عام ١٩٥٨م فقد كان فيه سيفا سله الله على أعداء السنة فى جلسة صباحية، وأخرى مسائية لم يلبث أن انتهى منها وصلى العشاء وأسند ظهره إلى سريره حتى استأثرت به رحمة ربه - رضى الله عنه - وما أكثر ما غفلنا عن «السنة» بخاصة وعن «التراث العامة» حتى استنسر بيننا البغاث، وسطا على كراسى الأستاذية فى جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية دخلاء على علوم القرآن والسنة واللغة والأدب والتاريخ.

ومنحهم الاستعمار الذى منيت به بلاد الإسلام وديار العروبة ردحا من الزمن، قدرة على التسلل والتغلغل والاجتراء على مصادرنا الكريمة، وتراثنا العظيم، والاتشاح بأردية التحقيق والبحث العلمى، وما وراء ذلك من ألقاب عششت فى رؤوس لا تمتنع أمام المغريات، وماذا أذكر وماذا أدع؟.. إن أحدوثة غريبة تخايلنى كلما ذكرت فترة عملى فى بيروت بين عامى «١٩٥٦ - ١٩٦٢م» فقد زرت مع صديقى أبى هشام الشريف أحد القضاة الأفاضل، وكان مع مركزه الكبير ومكانته فى المجتمع البيروتى يستكمل دراسات عليا فى الجامعة اللبنانية، ولا بأس فنحن فى الإسلام نطلب العلم من المهد إلى اللحد، ونأخذ الحكمة أنى وجدناها فنحن أحق بها.

لكن الغريب فى الأمر أن محاضرات فى «السنة النبوية» كانت تلقيها عليهم أستاذة يهودية، قد عرفنا أثرها المنكر، من خلال حديث دار بيننا وبين القاضى الفاضل فيما يردده من كلامها عن «تدوين السنة»!!

وحقيقة هذا الموضوع مقنعة للذين ينصفون الحق من أنفسهم، وكيف تطلب الشىء ممن لا يجده - وفاقد الشىء لا يعطيه - كما قالوا!.

ورضى الله عن الإمام البخارى فقد أخرج بسنده من حديث معاوية - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وفى موازين حسنات «ندوة العلماء فى لكهنو - الهند - العددان: الأول والثانى من المجلد السابع والعشرين من مجلة البعث الإسلامى فقد أفردت «الاستشراق» بالدراسة وتناولته من أكثر جوانبه، وإن كان فى اعتبارها ذلك فى أعداد سلفت على نحو يقدم الأضواء الضرورية للذين يريدون أن يكونوا على بينة من مؤامرات الأعداء وأفراخهم على مقرراتنا الإسلامية، وأمتنا الوارثة».

وقد ألمح إلى كل ذلك الأستاذ «سعيد الأعظمى» فى مقدمة المجلد الآنف الذكر، وأجمل بحوث «مجمع الهند الإسلامى».. و«دار المصنفين» فى الاستشراق وأبرز أنصاف العلامة السيد أبى الحسن الندوى لمن أنصفوا الإسلام وكتابه، والسنة وعلومها وكيف سلط أضواء الحقيقة على الذين خانوا أمانة العلم، وخالفوا وسائل النظر واتبعوا أهواءهم:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

«القصص/ ٥١»

. يقول الأستاذ الأعظمى فى مقدمته: «لا ننكر أن عددا من المستشرقين قد تكشفت بصائرهم من خلال أعمالهم الدراسية وتغلب نور الإيمان على ظلام التحريف والتضليل، فاهتدوا بتوفيق من الله تعالى إلى هدى الإسلام، وصدرت عنهم دراسات تمثل واقع الإسلام الصحيح فى جميع مناحى الحياة، ونفت عن التاريخ الإسلامى، والسيرة النبوية جميع الأكاذيب والأباطيل التى حرص عليها المستشرقون وأمثالهم». وقال: «إن الجهود الاستشراقية قلما خلت من النيل من قضية الإسلام الخالدة، وتاريخه الناصع، وهو ينظر فى كل ذلك إلى قول السيد الندوى فى حديثه فى الندوة ومنه: «وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون فى كتاباتهم مقدارا خاصا من السم» ويحترسون فى ذلك، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر.

وقرر العلامة الندوى أن أسلوبهم ذلك أشد خطرا من أولئك الذين يستعلنون بآرائهم الحاقدة الواجدة وافتراءاتهم التى تجوز على البسطاء وأوساط الناس.

وقد سمى السيد الندوى طائفة من المنصفين، وأسماء نفر من الأدعياء، وذكر جهودا كبيرة واجهت الاستشراق من غير المسلمين ومن علماء هنود وعلماء عرب، مازال بعضهم يمتشق السلاح ويمسك بالقلم لدحض الباطل، وإحقاق الحق والتعريف البصير بالإسلام، بعد أن أفضى إلى دار الخلد سلف لا يجزى على عطائهم للقرآن والسنة إلا الله تعالى، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يظلم مثقال ذرة،

﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

«النساء/ ٤٠»

إن الهجمات الشرسة على القرآن والسنة وعلومهما، وعلى الرسول والرسالة والمسلمين فى خير العصور لم تتوقف من أزمان سحيقة، وإن كانت تستخفى أحيانا لإعادة الكرة وإحكام الوثبة، واختيار الموقع الأنسب، ولكنها لم تزد مصادرنا ومواريثنا الزاكية إلا تألقا وإشراقا وحفزا لهمم الأبرار، وشحذا لعزائم الأكفاء على التصدى لأعداء الحق ودحض مفترياتهم، فى بحوث تسارق الزمن وتجددها الأيام بما أصابت من بركات القرآن ويمن السنة ووفاء مؤلفيها لدينهم كتابا وسنة، وهى تضاعف من إكبار العارفين، وتستوجب أن نتقبلها بقبول حسن وهى تعمق فينا إيماننا بجلال القرآن وكمال السنة وشرف إلهيتهما على التفاوت بينهما فى ذلك، إلى ميزة الإسناد ودراسة الرواة وضرورة الجرح والتعديل بمنهجهما الإسلامى المنبثق من إحقاق الحق:

﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾

«النساء/ ١٣٥»

لا لمجرد المدح والقدح، وإشفاء أنفس لا تهتدى بهدى الله، من ليس له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر.

كما قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل رضى الله عنه..

والحاجة ماسة إلى تناول كتب علوم القرآن والسنة لنرى أعاجيب ما أعان الله عليه، وهدى إليه أوائلنا ومن تبعوهم بإحسان فى

أشرف ميدان، مما يدع دعاوى الأدعياء هباء تذروه الرياح، فما تركوا طعنا إلا وجهوه للقرآن، ولا تشكيكا إلا تناولوا به السنة، رواية ودراية، متنا وسندا، وحديثهم عن السند مراد للمتن الذى يجدون عليه فى قلوبهم كحز المدى، وقد توسلوا بأساليب ووسائل لا تعرف دلالات الألفاظ، ولا قيم النصوص التى أخذوا بعضها وتركوا بعضها، كالذين جعلوا القرآن عضين وشبيه بهذا التقطيع للكلام، وأخذ ما يحسبون أنه يخدم مرادهم، تعويلهم على مصادر لا يؤبه بها من صنيع من لا يتقون الله، ومرة أخرى تعود بى الذاكرة إلى عهدى فى بيروت حين نمى إلينا خبر بعض المحاضرين فى التفسير وعلومه، وهو نصرانى كان يومئذ يشغل منصبا مرموقا فى الإعلام.

فلما روجع فى هذا اعتذر بمراجع، لم يقع له غيرها، ولو أراد الحق لوجد دلائله ووسائله ولكنها الأغراض والأمراض والهوى المتبع والعياذ بالله..

وإنها لدعوة إلى الاعتصام بالسنة التى تأذن الله بحفظها وهو سبحانه يتأذن بحفظ القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

«الحجر/ ٩»

وجلت أنعم الله الذى قيض لحفظه حراس الأرض فيما قال الإمام الثورى «الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض».

ورحم الله الإمام الدار قطنى فهو يبرز معنى حراسة علماء الحديث فيقول: يا أهل بغداد لا تظنوا أن أحدا يستطيع أن يكذب على رسول الله وأنا حى!!

وهى أثر من آثار اقتبسها الدكتور نور الدين عتر أستاذ التفسير والحديث بجامعة دمشق فى كتابه «منهج النقد» فى علوم الحديث.

ابتدأها بقوله: ولقد كان حقا ما شهد به العلماء من تحقيق هذا الغرض العظيم: وهو تقديمهم تراث السنة النبوية صافيا نقيا..

فقال عبدالله بن المبارك حين سئل: هذه الأحاديث الموضوعة؟!

فقال تعيش لها الجهابذة:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

«الحجر/ ٩»

ورحم الله الأستاذ محمد أسد النمسوى المسلم فقد قال فى كتابه:

«الإسلام على مفترق الطرق: لقد كانت السنة مفتاحا لفهم النهضة الإسلامية فى أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونحن الآن فى العصر الأول من القرن الخامس عشر للهجرة ـ فلماذا لا تكون مفتاحا لفهم انحلالنا المعاصر؟!

وقال: إن العمل بسنة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام، لقد كانت السنة هى الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الإسلام، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما أفيدهشك بعدئذ أن يتقلص ذلك البناء وكأنه بيت من ورق..!!؟

وطوبى لمن يحيون بالقرآن والسنة ويمضون فى أيمن ركب بين الساهرين على ثغورهما، الذائدين عن حدودهما بما يملكون من حول وإمكان!!..

جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ
مايو ٢٠١٢م

قالوا عن محمد (صلى الله عليه وسلم)



أ.د. عماد الدين خليل

لورافيشيا فاغليرى

[١] «.. كانت حملة كبيرة على سوريا رهن الإعداد، عندما أسكت الموت إلى الأبد صوت النبى ﷺ الذى كان قد أحدث هذه الهزة العميقة فى تلك القلوب كلها، والذى كان مقدرا له أن يستهوى عما قريب شعوبا أخرى تقيم فى مواطن أكثر إمعانا فى البعد، وكان فى السنة الحادية عشرة من الهجرة» (١).

[٢] «كان محمد ﷺ المتمسك دائما بالمبادئ الإلهية، شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعا الأناة دائما، اعتقادا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيدا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشرى» (٢)

[٣] «حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبى الله ﷺ ببعض التهم المفتراة، لقد نسوا أن محمدا كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته، ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد ﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين، فى بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك «وحاشاه» رجلا كذابا؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثا موصولا؟ كيف استطاع أن يستهل صراعا كان يبدو بائسا؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، فى مكة، فى نجاح قليل جدا، وفى أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنا إيمانا عميقا بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا فى الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالى إلى مجتمع مؤلف فى كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا فى كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا فى حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد ﷺ كان عميقا وأكيدا» (٣)

[٤] «دعا الرسول العربى ﷺ بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين إلى أصفى عقيدة توحيدية، وارتضى أن يخوض صراعا مكشوفا مع بعض نزعات البشر الرجعية التى تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى» (٤)

[٥] «.. إن محمدا ﷺ طوال سنين الشباب التى تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش فى مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقودا أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلا إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحدة ليس غير، هى خديجة – رضى الله عنها – التى كانت سنها أعلى من سنه بكثير، وأنه ظل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج مرة ثانية، وأكثر من مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره، لقد كان لكل زواج من زواجاته هذه سبب اجتماعى أو سياسى، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتى تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء شق طريق جديد لانتشار الإسلام وباستثناء عائشة – رضى الله عنها – ، ليس غير، تزوج محمد ﷺ من نسوة لم يكن لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟ لقد كان رجلا لا إلها، وقد تكون الرغبة فى الولد هى التى دفعته أيضا إلى الزواج من جديد، لأن الأولاد الذين أنجبتهم خديجة – رضى الله عنها – له كانوا قد ماتوا، ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائما سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعا، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفارق مع أى منهن، لقد تصرف متأسيا بسنة الأنبياء القدامى – عليهم السلام – مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحدا من الناس يعترض على زواجهم المتعدد، فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية، على حين نعرف كل شىء عن حياة محمد ﷺ العائلية؟» (٥)

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٢.
(٢) نفسه، ص ٧٢.
(٣) نفسه، ص٣٧ – ٣٧.
(٤) نفسه، ص ٤٣.
(٥) نفسه، ص ٩٩ – ١٠٠.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد تقى الدين

تضمن بريد المجلة لهذا الشهر رسالة نعتز بها كثيرا بقلم الأستاذ/ عبد القادر الادريسى مدير الإعلام بالمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «إيسيسكو» تضمنت من الإشادة بما وصلت إليه «مجلة الأزهر» شكلا ومضمونا ما يدفعنا إلى العمل على بذل المزيد من الجهد لنكون عند حسن ظن قرائنا الأعزاء، وفيما يلى نص الرسالة:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة رئيس تحرير «مجلة الأزهر»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فيسعدنى أن أهنئكم بتكريمكم فى حفل كبير من طرف المعهد العالمى للفكر الإسلامى، تقديرا لجهودكم المتميزة، اعترافا بفضلكم، وإقرارا بأياديكم البيضاء على الفكر الإسلامى المعاصر.

تمنيت لو كنت حاضرا فى الحفل، فهنيئا لكم.

أما كلمتكم فى الحفل وحديثكم عن حياتكم فى القرية قبل ثورة ١٩٥٢ م، مما أسعدنى جدا، ووددت لو حصلت على النص الكامل لهذه الكلمة.

هدية مجلة الأزهر لهذا العدد كانت مثار قبول وترحيب من القراء هنا فقد نفدت النسخ من الأكشاك فى يوم توزيعها. وعلمت أن أحدهم صور الكتيب ووزعه على الأصدقاء وقد اطلع معالى الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجرى على هذا الكتيب، فقرأه بإعجاب كبير، مشيدا بكم ومقدرا لكم.

هل فى الإمكان الحصول على نسخة من هذا الكتيب/ الهدية حتى أحتفظ به فى مكتبتى؟

العدد الجديد رائع شكلا ومضمونا لقد ازدهرت «مجلة الأزهر» فى عهدكم وموضوع الافتتاحية يدخل فى صميم قضايا هذه المرحلة واختياراتكم من كتب الرواد «شلتوت، والسنهورى، ودراز، والندوى، ووجدى» حكيمة ومفيدة جدا؛ لأن مؤلفات هؤلاء الأعلام قد اختفت من السوق.

بارك الله فيكم وزادكم توفيقا، وزاد مجلتكم تألقا

ومع وافر التقدير وبالغ الاحترام وخالص محبتى

عبدالقادر الإدريسى

● كما تلقت المجلة أيضا رسالة مماثلة من الأستاذ/ عبد العزيز محمد شريف. محافظة الغربية. قطور. طريق الشين يقول فيها:

الأستاذ الدكتور/ رئيس تحرير

مجلة الأزهر «المحترم»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبارك قيادتكم لتحرير مجلة الأزهر شكلا وموضوعا، وتطويرا الأداء المجلة فى ثوبها الجديد فقد ربطتنا بثقافتنا العربية والإسلامية الشامخة من خلال تراثنا العربى والإسلامى، وذكرتنا بقافلة العلماء الأفاضل، ورواد الأدب والفكر الإسلامى الأوائل وندعوا الله أن يجعل هذا الإنتاج الخالد، والعطاء المثمر فى ميزان حسناتكم وقراكم لخدمة الإسلام والعربية، وأنتم لذلك أهل.

ولقد توّجتم ذلك كله بهدايا رائعة مع المجلة «كتاب ملحق بالمجلة الأم يكون مكتبة إسلامية عربية لقارئ المجلة الشهرية».

سيدى الدكتور/ لى اقتراح أرجو أن تلبوه، ليكون فائدة لقارئ مجلتنا «الأزهر» ورافداً من روافد الأزهر العظيمة.

ألم يكن فضيلة الشيخ الشعراوى أزهريا؟ ألم يكن جامعة وموسوعة علمية عربية وإسلامية؟ ألم يكن شمسا مشرقة فى سماء الثقافة العربية الإسلامية ولماذا تحرمون قراء المجلة من تاريخه، وخواطره حول القرآن الكريم، إن قنوات التليفزيون، وإذاعة القرآن الكريم، وصحفا أخرى تزين برامجها بأحاديث الشعراوى إنكم تفسحون المجال لعلماء غير أزهريين والشيخ أزهرى والمجلة أزهرية فكيف لا تُزين بخواطره وأحاديثه؟

هل يقل الشيخ الشعراوى علما ولغة عن الطنطاوى وشلتوت ومحمد عبده؟ سيدى الدكتور/ نوروا عقولنا وقلوبنا ومكتباتنا بأحاديث الشعراوى بارك الله فيكم وأعانكم على حسن اختيار نماذج العلم النافع من علماء ربانيين.

● ونقول لقارئنا العزيز: تراث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ملء السمع والبصر نشاهده على الفضائيات ونقرأه فى مقالات وكتب عديدة كان لها ولازال دورها فى إنارة القلوب والعقول كما قلت، فقد كان رحمه الله ـ ولايزال ـ علماً من أعلام الدعوة الإسلامية.. وقد سبق لمجلة «الأزهر» أن نشرت مقالات لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى وهدايا من تأليفه، وقامت كذلك بنشر ترجمة وافية عنه، وكما قلت فإن أعمال فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى مازالت ملء السمع والبصر.. والمجلة جعلت من صميم رسالتها إحياء تراث لعلماء أفذاذ أفنوا حياتهم فى خدمة الدعوة الإسلامية سواء كانوا أزهريين أو غير أزهريين وهو تراث يوشك على الاندثار وهدفنا كان ولازال خدمة الدعوة الإسلامية، وستجد على صفحات مجلة الأزهر قريباً ـ إن شاء الله ـ نفحات من مدرسة إمامنا فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ.

الرئيس القادم.. وشئون الدنيا والدين

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار ـ مدير عام تنظيم وإدارة سابقاً ـ سندنهور ـ قليوبية

إن اختيار الرئيس القادم يحتاج إلى حسابات دقيقة من الصعب ملامستها مما يجعلنا نتقلب فوق صفيح ساخن.. فهناك أمور كثيرة تختلف التوجهات نحوها. فإذا ولينا وجهنا شطر التيارات الدينية مثلاً نجدها حتى الآن هي التي بدأت تجذب الأضواء إليها وتبشر بأن الاختيار سيكون من بين رموزها.. وهذا حسبما تتمخض عنه صناديق الانتخابات ويحسم الأمر بها فستكون كلمة الشعب الفاصلة ليتوحد الجميع أمام اختيار الرئيس المختار الذي يتحمل مسئولية رأب الصدع وترميم ما أصاب بلدنا وأدمى قلوبنا لإعادة بناء باقي مؤسساتنا حتى ننفض عن كاهلنا غبار الماضي البغيض ولنملأ أعيننا وقلوبنا بفرحة الأمان والنور مع الرئيس الذي اخترناه.

وإذا كان الكلام في هذه الأجواء يجنح إلى الحديث عن تأثير الدين وقيمه في الاختيار فيصحبنا ذلك إلى الحديث عن الدولة الإسلامية التي أرسى دعائمها النبي الكريم ﷺ وسار على هديه من بعده الخلفاء الراشدون حيث كانت تسير شئون كل من الدين والحياة في مسار واحد دون أي تناقض بينهما أو اختراق.. وقد كان ذلك بفضل الورع والتقوى والفهم الصحيح للدين ولأمور الحياة.. وانظر إلى توصيات الرسول ﷺ لقواده وجنود جيشه عند ذهابهم إلى غزواتهم بألا يقطعوا شجرة أو يهدموا بيتاً أو صومعة بها راهب أو ديراً به ناسك وأن لا يروعوا الأطفال والنساء بالرغم من أن كل هؤلاء ليسوا على ملة الإسلام.. ثم انظر إلى معاملته ﷺ لجاره اليهودي الذي كان يؤذيه ويتحمله إلى أن مرض هذا اليهودي فعاده النبي في مرضه فتعجب من سماحة النبي فنطق بالشهادتين وانضم إلى جماعة المسلمين.

فهل يا ترى إذا تم اختيار الرئيس القادم من بين أصحاب التيارات الإسلامية هل سيعامل غير المسلمين بهذه السماحة؟.. ولاشك أن هذه هي قيم الإسلام التي التزم بها أبوبكر الصديق عند ترشيحه للخلافة حيث قال: «أيها الناس: إني وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني إلا أن الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله.. فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم».

فما أعظم إيمان القائد وإنسانيته مع رعيته ولا غرابة في ذلك فهو أبو بكر المعروف باللين والتواضع رغم شدته وقوته في حربة ضد المرتدين وانتصاره عليهم.. وإننا نأمل أن يكون الرئيس القادم يلتمس هديه اللين والشدة كما يملك شعرة معاوية – رضي الله عنه – في معاملته مع الآخرين.

إننا نحلم برئيس عادل مثل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي يذكر التاريخ أنه اعتلى المنبر وخطب المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا..؟ فينهض رجل يشق الصفوف إليه

ويقول وهو ملوح بذراعه كأنها حسام ممشوق إذن نقول بالسيف هكذا! فيقال عمر: إياي تعني بقولك؟ فيجيب الرجل بلا خوف ولا وجل: نعم إياك أعني بقولي!! فيضيء الفرح وجه عمر ويقول له: رحمك الله والحمد لله الذي جعل منكم من يقوم عوجي».

فياليت يكون الرئيس القادم في مثل موقف سيدنا عمر – رضي الله عنه – فلا يدق عنق الرجل أو يسجنه.. وكلنا يذكر شهادة الزائر الأجنبي الذي وجده نائماً آمناً تحت شجرة فقال له: «حكمت فعدلت.. فأمنت فنمت يا عمر».. فما أعظم هذه الشهادة لعمر وأمثاله من حكام المسلمين.

ولا يتسع المقام هنا لمواصلة الحديث عن فضائل عثمان وعليّ وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم – رضي الله عنهم أجمعين – آملين أن نجد من يرى في نفسه الخبرة والكفاءة ليرشح نفسه ولنختاره ونؤيده بكل ثقة واحترام.

الأمـــة.. والحضـــارة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ يحيى السيد النجار:

●● الأمة الإسلامية شاهدة على الأمم الأخرى بما تملك من قيم القرآن الكريم والسنة المطهرة.. قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)

والأمة لها منهج الوسطية بميزان الاعتدال.. لقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)

وعلى كل مسلم أن يدرك قيمة الرسالة.. ويتحرك بنموذج القدوة للرسول ﷺ. قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)

والرسول ﷺ القدوة حذر الأمة من حالة الوهن والضياع وقال ﷺ: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «لا.. بل أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» رواه أبوداود.

وغثاء السيل يعني: افتقاد الأمة القوة والإرادة..

● الأمة الإسلامية.. تعاني من التخلف الحضاري.. والضعف السياسي والثقافي وكأنها لا تجيد رؤية المستقبل.. برغم أن حركة التاريخ تمثل: المختبر الحقيقي للأفكار.. والعقائد.. والسياسات.. وكيفية ترجمتها إلى واقع؛ لأن المعرفة هي التي تمكن من اكتشاف آلية النهوض والسقوط.. وسنن الكون.. وكشف نقاط الخلل ضرورة حياتية.. حتى لا يحدث التخلف والسقوط.. والغفلة عن البناء والتنمية.

قال تعالى:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩)

وسياسات بلدان الأمة بحاجة لتبصر.. لأن سنن الكون لا تتبدل ولا تتحول.. قال تعالى:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

● الأمة الإسلامية.. عقيدتها قائمة على حماية قيم الأمن والحق والعدل.. واحترام حقوق الإنسان.. وتحقيق كرامته.. لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

والأمة هي أمة العقيدة.. والله عز وجل منح الإنسان عقلا وإرادة.. كي يفكر ويدبر.. ثم يتخذ القرار.. إن كان صوابا فله أجره.. وإن كان خطأ فعليه وزره، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٦)

وقيل: إذا فقدت الأمانة فانتظروا الساعة.. ومن علامات الساعة: ضياع الأمانة.. وأن تتخذ الأمانة مغنما.. كما أن من علامات المنافق: إذا أؤتمن خان..

وفي تاريخ المجتمع البشرى تدافع بين الحق والباطل.. الخير والشر.. الإنسان والشيطان..

وقال الرسول ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس» رواه السيوطي.

● الأمة الإسلامية.. غيابها الحضارى عن امتلاك خصائص النهضة طال.. وهي بحاجة إلى اجتهادات متجددة.. لأن التاريخ الإنساني في حقيقته ما هو إلا نتاج الإنسان.. قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

كتمان السر

ومن الأستاذ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية إدارة الدقى التعليمية - جيزة - كانت هذه الكلمات:

قال تعالى:

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾

(التكوير: ٢٤)

أى بمتهم، وفي الحديث: (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود).

● قال الإمام علىّ كرم الله وجهه:

«سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره».

● واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وأحراز الأسر بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر، وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا.

● وكان عمر بن الخطاب يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذ كان صدرى به أضيق.

● وقال عمر بن عبدالعزيز: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

● وقال صالح بن عبدالقدوس: لا تودع سرك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن.

● وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساه كأنى لم أسمعه.

● ويقال: أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه.

● وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

● وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلا فيخون.

● وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه.

سباب المسلم فسوق وقتاله كفر

ومن الشيخ/ مصطفى الأزهري - خطيب بوزارة الأوقاف - مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة.

عن عبد الله بن مسعود قال قال: رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» رواه مسلم

لم يحظ عضو من أعضاء جسد الإنسان باهتمام الإسلام كما حظي هذا العضو الخطر، ألا وهو اللسان وذلك لأنه آلة التعبير والإفصاح عن مكنون النفس خيراً كان أو شرا؛ بل هي إحدى الآيات الكبرى التي امتن بها الخالق العظيم - سبحانه وتعالى - على بني آدم بقوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

فمفتاح الدخول إلى الإسلام (كلمة الشهادة) وبكلمة الكفر يخرج المرء من الملة - عياذا بالله، والإيمان والنذور وعقود الزواج والطلاق وغير ذلك معقودة على النطق باللسان؛ بل إن مصير المرء في الآخرة مرتبط بما يقول، وذلك مفهوم إجابة النبي ﷺ

على معاذ بن جبل - رضي الله عنه - إذ قال له الحبيب ﷺ: «.. ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم».

● كان من دعاء النبي ﷺ «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ...» فالعزيمة والثبات إشارة إلى قوة الأخلاق على صراط الله المستقيم ودينه القويم الذي يأمر بكل فضيلة وينهى عن كل رذيلة، ومن هنا فإن الدين لم يحثّ على فضائل الأخلاق فقط بل يحضنا على قوة الأخلاق ويجعل إحدى علامات هذه القوة: إمساك اللسان عن اللغط «ويحذر من القيل والقال، ويجعل - كذلك - من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ..

● وكثيراً ما أتوقف عند قول النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»، هي - إذن - معطيات ونتائج غاية في الأهمية لأنها تتعلق بعضو آخر يرتبط به مفهوم الصلاح ألا وهو القلب «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»، والذي هو وعاء الإيمان فلن يستقيم هذا الإيمان ويستقر في مكانه إلا إذا استقام القلب وكان مشدود الأركان غير مريض ولا عليل بكفر أو فسوق أو عصيان، ولن يستقيم هذا القلب حتى يستقيم اللسان، فمن اللسان يستقيم القلب، ومن استقامة القلب يستقيم الإيمان وبالإيمان الحق تكون هداية القلوب كما قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾

● ومن الأمثال الشعبية الجميلة والتي تلخص كثيرا مما جاء في الحث على إمساك اللسان عن الزلات والهفوات والسب واللعن قولهم: «لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن هنته هانك»، وتلك حقيقة نراها في حياتنا، فكم من جرائم ارتكبت، وأسر تشردت، وظلم وظلمات ومفاسد وقع فيها من انفلتت ألسنتهم بالسوء والفحشاء، ولذا فما أجمل أن يضرب الله مثلاً للخير والشر، بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

***

أنبـــاء الأزهـــر

للأستاذين / عبد الموجود أمين، محمود الفشني

بيان مجمع البحوث الإسلامية

على ضوء ما ناقشه المجمع بجلسته يوم الخميس الموافق ٦ جمادى الأولى الموافق ٢٩ مارس ٢٠١٢ وتحفظه على تمثيل الأزهر الشريف تمثيلاً مناسباً، مما يهمش دوره في قضية وطنية محورية هي: إعداد مشروع الدستور، فإن الأزهر الشريف يعلن اعتذاره عن عدم المشاركة في الجمعية التأسيسية لوضع مشروع الدستور.

وجامعة الأزهر تؤكد:

أ. د. أحمد الطيب

أوفياء لأزهرنا ومنهجه الوسطي

هذا وقد أصدر عدد من قيادات وعمداء وأساتذة جامعة الأزهر بيانًا في ٢ / ٤ / ٢٠١٢ لتأييد قرار مجمع البحوث الإسلامية برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - لانسحابه من الجمعية التأسيسية للدستور والتحذير من تهميش دوره أو الافتئات عليه، جاء فيه:

من منطلق تقديرنا لدور الأزهر وعراقته وريادته في العالمين العربي والإسلامي ودوره العلمي والدعوي في العالم كله شرقه وغربه، فإننا نستنكر أي محاولة لتهميش دوره أو الافتئات عليه ونؤيد ونبارك ما أقدم عليه مجمع البحوث الإسلامية برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - من الانسحاب من تأسيسية الدستور.. نظرا لأن تمثيل الأزهر في هذه اللجنة لم يكن مناسبا على الإطلاق لتاريخه وعراقته في الماضي ودوره وأثره في الحاضر، كما أن الأزهر ينبغي أن يقدم من أبنائه من يختار القوى البرلمانية المخولة بالاختيار من بينهم لا أن تختار هي بنفسها من يمثل الأزهر دون الرجوع إلى قيادته وعلى رأسها فضيلة الإمام الأكبر.

كما أننا في جامعة الأزهر نستنكر ونرفض أي محاولات لاختراق الأزهر أو محاولة إخراجه عن مساره في فكره الوسطي وكونه قبلة للعالم كله وملاذا للأمة العربية والإسلامية وللمصريين بكل أطيافهم، مما يجعلنا نرفض بشدة محاولة أي تيار اختراقه أو السيطرة عليه أو توجيهه أو التدخل في شئونه الخاصة.

ونؤكد أننا أوفياء لأزهرنا ومنهجه الوسطى وأننا سندافع عن هذه الوسطية بأرواحنا ودمائنا فضلا عن جهدنا ووقتنا وفكرنا وأقلامنا ولن نسمح بالنيل منه أو المساس به أو رموزه التى نكن لها كل احترام وتقدير.

الإمام الأكبر لن يترشح لرئاسة الجمهورية

أصدر الأستاذ الدكتور محمد العزب مستشار فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى ٢٦ / ٣ / ٢٠١٢ بياناً جاء فيه:

يؤكد الأزهر الشريف نفيه القاطع لكل ما يشاع أو ينشر أو يذاع حول ما يسمى «ترشيح الإمام الأكبر، شيخ الأزهر لرئاسة الجمهورية». وإذ يرفض الأزهر ذلك رفضاً تاماً يؤكد على استمراره فى أداء رسالته الوطنية والعالمية من خلال الأزهر منارة للعلوم والحضارة ونشر الإسلام الوسطى، كما كان دائماً منذ ولد على أرض مصر.

والأزهر ليس طرفاً فى أى نشاط سياسى أو حزبى داخل الوطن ولا خارجه، ولا يطمح من قريب ولا من بعيد إلا بالقيام بواجبه فى دوره الوطنى، ومهمته أوسع وأشمل، وهو ملتزم بالمبادئ والقضايا العليا للنهوض بالوطن وبالإسلام والارتقاء بعلومه لا ينضم لطرف ولا يعادى طرفاً، وهو يهيب بوسائل الإعلام أن ترتفع عن الزج باسمه فى أى عمل من هذا القبيل، حفظاً لكرامة الأزهر وعلمائه وبالإسلام والمسلمين.

نور يطالب بضرورة الاعتماد على وثيقة الأزهر فى صياغة الدستور


أيمن نور

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر - فى ٨ / ٣ / ٢٠١٢ الدكتور أيمن نور رئيس حزب غد الثورة.

وطالب نور فى تصريحات عقب اللقاء بضرورة الأخذ بما جاء فى وثيقة الأزهر التى أقرتها القوى السياسية عند صياغة الدستور الجديد، والتى جاءت بنودها معبرة عن فكر الأزهر ووسطيته واعتداله التى بدأت منذ عهد الإمام محمد عبده وتمسك بها سعد زغلول.

وأضاف أنه طلب من شيخ الأزهر الموافقة على رعاية المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى بالقاهرة، مشيراً إلى مطالبة مفتى لبنان الدكتور محمد رشيد قبانى والرموز الإسلامية المسيحية فى لبنان بأن يكون المؤتمر تحت رعاية الأزهر.

النسيج الوطنى.. غرة فى جبين كل مصرى

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - أن الدنيا لم تعرف فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث، متانة فى العلاقات، وقوة فى الوحدة، وعمقاً فى الألفة والمحبة بين أبناء أمة من الأمم، مثلما عرفها فى شعب مصر مسلميه ومسيحييه، وليس هذا بمستغرب على شعب عرف بفطرته النقية طريقه إلى التوحيد والإيمان قبل أن تصله رسالة الأديان، وليس بمستغرب عليه أن ينصهر أبناؤه جميعاً فى بوتقة واحدة، وأنها تمثل النموذج الأسمى والمثل الأعلى فى وحدة نسيجها وروعة مظهره وجوهره - جاء ذلك خلال استقبال فضيلة الإمام الأكبر لنيافة الأنبا باخميوس قائم مقام الكرسى البابوى، والوفد المرافق لنيافته، والذى ضم نيافة الأنبا بيشوى سكرتير المجمع المقدس ونيافة الأنبا هدرا مطران أسوان ونيافة الأنبا موسى أسقف الشباب وذلك يوم الأربعاء ٤ / ٤ / ٢٠١٢.

وقال فضيلة الإمام الأكبر: إن الشعب المصرى برهن عبر تاريخه الطويل على قدرته الفذة فى التغلب على المحن والمصاعب التى تواجهه، وأن مصر بفضل إخلاص أبنائها ستتعافى من الآثار السلبية والمشاكل التى واجهتها عقب الثورة، وهذا شىء طبيعى فى أثناء الثورات، ومصر ليست بدعا من ذلك.

وقال نيافة الأنبا باخميوس: إن مصر نسخة فريدة صاغها الخالق سبحانه وتعالى أرضاً، ومكاناً، وتاريخاً، وأن قوة النسيج الوطنى الذى انفردت به مصر دون العالم أجمع، يبهر أنظار المراقبين والمحللين والفلاسفة، لأن الله حبا المسلمين والمسيحيين بالعيش على تلك الأرض الطيبة، التى أنبتت شعباً طيب الأعراق، فسعدت مصر باستقبال المسيحية ومعها فضائل المحبة والسلام، ومن بعدها استقبلت رسالة الإسلام، ومعها شريعة الرحمة والوئام، ليعيش فى مصر أتباع الديانتين - فى مودة وأخوة ووفاق وتلاحم، وليتشكل من شعب مصر مسلميه ومسيحييه نسيج قوى وفريد من نوعه لم تفلح كافة محاولات القوى الاستعمارية أن تنال من قوته.

وشكر نيافة الأنبا باخميوس، الشعور النبيل للمسلمين عقب وفاة قداسة البابا شنودة الثالث، والذى برهن على عمق الروابط والألفة والمحبة، التى تجمع بين نسيج هذا الوطن الغالى، متمنيا لمصر دوام الازدهار، والاستقرار، ومثمنا الدور الريادى للأزهر الشريف على مدى تاريخه، وبخاصة تحت قيادة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - الذى أعاد له هيبته ومكانته فى الحفاظ على الفكر الإسلامى الوسطى السمح، والذى حافظ على لحمة الوطن.

مجمع اللغة العربية.

الأزهر الشريف هو الخلافة العلمية للدول الإسلامية

وكان فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - قد استقبل يوم ٣٠ / ٣ / ٢٠١٢ شيخ الأزهر - وفدا من أعضاء مجمع اللغة العربية، يتقدمهم الأستاذ الدكتور/ عبدالهادى التازى، والأستاذ الدكتور/ محمد بن شريفة وحرمه الدكتورة/ عصمت دندش من المغرب، والأستاذ الدكتور/ عمار طالبى من الجزائر، والدكتور/ عبدالكريم خليفة من الأردن.

وتطرق الحديث إلى وضعية اللغة العربية فى العالم العربى، فأبدى الوفد استياءه من تجاهل العالم العربى للغته فى كل الميادين عكس جل الدول الناهضة فى العالم.

وانتقد الدكتور خليفة ما يثار من أن اللغة العربية ليست صالحة للعصر الحالى، ودعا إلى أن يكون الأزهر قائدا للأفكار العربية لاستعادة اللغة العربية فى كل ميادين الحياة.

كما أبدى الدكتور محمد بن شريفة ابتهاجه بالأزهر الجديد، وبتوجهه الإصلاحى الذى سيساهم بدون أدنى شك فى فك الاشتباك الموهوم بين الأصالة والمعاصرة، والأزهر الشريف مؤهل للعب هذا الدور الريادى المنشود.

وقال الدكتور عبدالهادى التازى: إننا لا نعادى اللغات الأخرى ولكننا نعتز بلغتنا العربية التى كانت ركيزة من ركائز النهضة الأوروبية فى العصور الوسطى.

أما الدكتور عمار طالبى فقد طالب بأن يكون الأزهر الشريف هو الرائد لتدريس العلوم التقنية والطبية باللغة العربية، فالأزهر هو المؤهل لهذا بما يحمل من تاريخ طويل فى هذا الميدان، فعلوم الفلك والرياضيات كانت تدرس إلى عهد قريب فى أروقة الأزهر الشريف. كما ذكر الدكتور طالبى أن شيخ النهضة الجزائرية عبدالحميد بن باديس كتب رسالة إلى شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد مصطفى المراغى، ذكر له فيها: أن الأزهر الشريف هو الخلافة العلمية للدول الإسلامية بعد غياب الخلافة الإسلامية.

ورحب فضيلة الإمام الأكبر بفرسان العربية والمدافعين عنها، وذكر أن الأزهر يعيش همّ النهوض باللغة العربية فى عالمنا العربى المعاصر، وأبدى فضيلة الإمام أسفه واستياءه من غزو اللهجة العامية لقاعات الدرس الجامعى، ومختلف قنوات الإعلام المسموع والمرئى، وهو أمر لا يليق بمصر العروبة والإسلام، وأضاف فضيلة الإمام الأكبر: إن المهام الملقاة على عاتق المجامع العربية كثيرة وعلى رأسها الوقوف دون زحف اللهجة العامية فى محيطنا العربى فى كل مستوياته، وانتقد فضيلة الإمام الأكبر لجوء المثقفين إلى العامية، وعدم تمكنهم من الإعراب عما يريدون بلغة عربية مبينة.

وأضاف فضيلة الإمام الأكبر قائلا: من الأسف فإن اللغة العربية الآن مهانة فى ديار العروبة، ونفتقد إلى المنهج التربوى السليم لتعليم العربية، فالأمة التى تفقد لغتها ستفقد بالضرورة هويتها وأصالتها وإذا استمر هذا الوضع البائس للغة العربية فى بلادنا، فإن الأمر ينذر بخطر كبير يهدد العقل العربى.

وأضاف الإمام: لابد من تحليل أسباب انهيار العربية، وعلى مجامع اللغة العربية فى العالم العربى مسئولية معرفة عوامل الانهيار والضعف.

والأزهر يدق ناقوس الخطر، فالأمر جلل، ولابد من الإسراع بخطوات ثابتة نحو معالجة الموضوع بجدية كاملة، وعلى الكل التعاون من أجل إيجاد الحل الأمثل الذى يليق بعراقة الأمة.

وعرض شيخ الأزهر على الضيوف فكرة إقامة مؤتمر علمى لمعرفة أسباب ضعف اللغة وكيفية النهوض بها.

وثمن الضيوف هذه الدعوة، وتمنوا أن يكون الأزهر الشريف هو حامل لواء استعادة اللغة العربية فى العالم العربى.

الإمام الأكبر يناشد المجتمع الدولى سرعة الاعتراف الرسمى بالدولة الفلسطينية


ابو مازن

ناشد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - المجتمع الدولى بسرعة الاعتراف الرسمى بالدولة الفلسطينية.

وقال فضيلة الإمام الأكبر خلال استقباله الرئيس الفلسطينى محمود عباس أبو مازن والوفد المرافق لسيادته يوم الثلاثاء ٣ / ٤ / ٢٠١٢: إن المصالحة الفلسطينية أصبحت ضرورة قصوى لرأب الصداع بين أطياف الشعب المناضل لاستعادة حريته وأرضه من براثن الاحتلال الصهيونى، الذى يعمل ليل نهار لتعميق هوة الخلاف بينهم، مما يتطلب تضافر جهود المخلصين من أبناء الشعب الفلسطينى للوصول بالقضية إلى بر الأمان وتغليب المصلحة العليا فوق أى خلافات.

ومن جانبه استعرض الرئيس الفلسطينى الجهود المبذولة لإنهاء ملف المصالحة بين حركتى فتح وحماس، مشيدا بالدور الريادى الذى يقوم به الأزهر فى رأب الصدع بين أبناء الشعب الفلسطينى خلال هذه المرحلة الفارقة فى تاريخ الأمة، موضحا أن هذا ليس بغريب على الأزهر الذى كان عبر تاريخه المديد الحصن الحصين والملاذ الآمن لأبناء أمته عند اشتداد المحن والأزمات، يهرعون إليه ليقود سفينتهم إلى بر الأمان، فكان دائما على مستوى ثقتهم وآمالهم.

الإمام الأكبر يشيد بالدور المحورى الذى تلعبه تركيا فى خدمة قضايا الأمة

أشاد فضيلة الإمام الأكبر د/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - خلال استقباله يوم ٢٦ / ٣ / ٢٠١٢ وفدا تركيا رفيع المستوى برئاسة د/ سردار اتشام - رئيس الوكالة التركية للتعاون والتنسيق «تيكا»، والسيد/ حسين عونى سفير تركيا بالقاهرة، د/ أنور أرما - رئيس دائرة الشرق الأوسط بالوكالة بعمق الروابط التاريخية بين الأزهر وتركيا قديما وحديثا، وأشاد فضيلته بالدور المحورى تلعبه تركيا فى خدمة قضايا الأمة.

وقد وقّع الإمام الأكبر والوفد التركى على اتفاقية بروتوكول التعاون بين الجانب التركى والأزهر الشريف ووزارة الأوقاف ووزارة الآثار وذلك بحضور الشيخ/ فؤاد عبدالعظيم محمد - وكيل وزارة الأوقاف والأستاذ/ محسن على - ممثلا عن وزارة الآثار، والذى ينص على قيام الجانب التركى بأعمال الترميمات اللازمة فى «جامع الأزهر الشريف»، و«جامع أبو الذهب»، وتكية السلطان محمود، وجامع

الإمام الشافعي بالقاهرة، وجامع الشوربجي، وجامع ابراهيم تربانه، ومقبرة النبي دانيال - عليه السلام - بالإسكندرية، وتجديد فرش جامع سيدنا الحسين وتحديث شبكته الكهربائية.

وقد وافق فضيلة الإمام الأكبر على منح مؤسسة «تيكا» التركية خمس منح دراسية بالأزهر الشريف لدراسة اللغة العربية مجانا.

وقد شكر رئيس الوفد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر على جهوده العظيمة لخدمة قضايا الأمة، وخاصة في الظروف الراهنة التي تمر بها، والتي كان لها أثر كبير في بث روح الوعي في نفوس أبنائها وذلك لما يتميز به الأزهر الشريف من وسطية المنهج الذي يجسد روح الإسلام وسماحته مما جعله على مدار التاريخ كعبة للعلم والعلماء.

السفير الأردني بالقاهرة

الأزهر استعاد ثقله الكبير في كافة الأوساط العالمية

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - خلال استقباله للسفير الأردني بشير الخصاونة يوم ٤-٤-٢٠١٢ أن الظروف التي مرت بها مصر، والأمة العربية مؤخراً جعلتنا أكثر إصرارا على استعادة الأزهر لدوره الريادي، والنهوض به من أجل مساندة آمال وطموحات، وتطلعات الشعوب الإسلامية من أجل تحقيق أسس الديمقراطية والسلام. وقال فضيلة الإمام الأكبر: إن الأزهر الشريف سيظل دائما وأبدا ضمير الأمة من خلال منهجه الوسطي المعتدل الذي لم ولن نحيد عنه أبدا، والمعبّر عن طموح الشعوب من أجل تحقيق رسالة السلام والاستقرار.

ومن جانبه، نقل السفير الأردني لفضيلة الإمام الأكبر التحية والشكر من جلالة الملك عبدالله الثاني للدور الرائد والمؤثر الذي اضطلع به الأزهر على مدى تاريخه العريق لمساندة الشعوب الإسلامية ونشر قيم العدل والسلام والاستقرار.

وأشاد السفير بدور مصر الريادي على الساحة الإقليمية والدولية، وأنها بمثابة البوصلة التي تحدد مسار الأمة صعوداً وهبوطاً، فكل حدث في مصر، سلباً أو إيجاباً يؤثر في باقي الأمة.

وأضاف بأن الأزهر قد استعاد في الآونة الأخيرة ثقله الكبير في كافة الأوساط العالمية، وبخاصة بين المسلمين من خلال وثائقه ومبادراته التي لبت طموحات وآمال الشعوب.

شيخ الأزهر يجتمع برؤساء الكنترولات

عقد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر - اجتماعاً يوم ٢ / ٤ / ٢٠١٢ مع رؤساء كنترولات الشهادات الأزهرية هذا العام لبحث الترتيبات الخاصة بالعمل.

وقال الشيخ عبدالتواب قطب، رئيس قطاع المعاهد: إن الاجتماع تناول الترتيبات الخاصة بالعمل في الكنترولات هذا العام والتأكيد على ضرورة مواصلة العمل بما يحقق الاستقرار وإعلان النتائج في وقت مناسب دون وقوع أخطاء وأهمية تنفيذ المعايير التي تم الاتفاق عليها هذا العام والخاصة بتحديد نسب لمشاركة المناطق في أعمال الكنترولات مع تحديد العمالة هذا العام بنسب تحقق تنفيذ الطموحات الخاصة بإعداد كوادر جديدة للعمل في الكنترولات مستقبلاً.

سفيرة باكستان بالقاهرة:

الأزهر استطاع أن يجمع شمل القوى الوطنية

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - أن الأزهر الشريف لا يألو جهداً في مد يد العون للمسلمين في جميع الأقطار لتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، جاء ذلك خلال استقباله لسفيرة باكستان بالقاهرة السيدة/ سيما نقوى - والوفد المرافق لها وذلك يوم ٢٦ / ٣ / ٢٠١٢، متمنيا لسيادتها كل توفيق بمناسبة قرب انتهاء عملها كسفيرة لبلادها بالقاهرة.

وأثنت السفيرة على الدور الريادي للأزهر الشريف على الساحة المحلية والإقليمية والدولية، خصوصا بعد ثورة ٢٥ يناير المجيدة، الذي استطاع بحكمة ورصانة إمامه الأكبر أن يجمع شمل كافة التيارات والائتلافات والأحزاب والقوى الوطنية في رحاب الأزهر الشريف، حيث انبثقت وثائقه التاريخية التي تعتبر النبراس الذي يضيء للوطن والأمة طريقها للخروج من الأزمة الراهنة.

واستعرض الجانبان، وسائل دعم العلاقات الثنائية بين الأزهر الشريف ودولة باكستان الشقيقة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ، وعرضت سيادتها على فضيلة الإمام الأكبر مشروع إنشاء المدرسة الباكستانية الدولية بمدينة ٦ أكتوبر، ورحب فضيلة الإمام بهذا المشروع، وأبدى كامل استعداد الأزهر الشريف لتقديم أي إسهامات علمية أو تعليمية أو توجيهية في هذا الصدد.

الإمام الأكبر يناشد الدول الأوروبية بضرورة مساندة الشعب السوري

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - أن الشعب المصري برهن عبر تاريخه الطويل على قدرته في التغلب على المحن والمصاعب التي تواجهه، وأنه يتميز بترابط نسيجه الوطني، وهو ما ظهر جلياً في ثورة ٢٥ يناير المجيدة، مشدداً على أن مصر ستتعافى من الآثار السلبية والمشاكل التي واجهتها عقب الثورة وهذا شيء طبيعي أثناء الثورات ومصر ليست بدعا من ذلك.

وقال فضيلة الإمام الأكبر خلال استقباله/ كارل شوارتسبرج نائب رئيس الوزراء التشيكي ووزير الخارجية يوم ٣ / ٤ / ٢٠١٢ والوفد المرافق لسيادته: إن انسحاب الأزهر من الجمعية التأسيسية للدستور المصري جاء نتيجة عدم تمثيل الأزهر تمثيلا متكافئا وهو ما أعلنته الكنيسة أيضاً.

وناشد فضيلة الإمام الأكبر الدول الأوروبية بضرورة مساندة الشعب السوري في محنته والعمل على وقف آله القتل اليومية.

ومن جانبه عبر وزير الخارجية التشيكي عن انبهاره بسلمية الثورة المصرية مقارنة بما يحدث في بعض دول الربيع العربي، داعياً الدول الأوروبية إلى الوقوف بجانب مصر حتى تتعافى من مشاكلها الاقتصادية، مشيراً إلى ما حدث في الثورة التشيكية وما واجهته عقب الثورة أيضا من مشاكل اقتصادية واجتماعية استطاعت التغلب عليها بعد فترة وجيزة.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

فى: مؤتمر دولى بالعاصمة العمانية مسقط.

العلماء يطالبون بتجديد الفقه الإسلامى

أكد فقهاء وعلماء من ٢٤ دولة عربية وإسلامية، على ضرورة تبنى المجامع الفقهية استراتيجية لتجديد الفقه الإسلامى، لمواكبة تطورات العصر ومتغيراته.

جاء ذلك فى افتتاح مؤتمر تطور العلوم الفقهية وعنوانه: «النظرية الفقهية والنظام الفقهى» الذى انطلقت فعالياته بالعاصمة العمانية مسقط فى ٢٠١٢/٤/٧.

وفى كلمته أمام المؤتمر أكد الدكتور على جمعة مفتى مصر أن زماننا تفرد بسرعة الحركة والاتصال ولابد أن نساير هذا الواقع ونحقق مقاصد الشريعة الإسلامية، التى جاءت لجلب الخيرات والمصالح للناس.

وأضاف بأن أحكام الشريعة وهى التى تأسست عليها المصالح، استندت إلى أسس ثابتة ومتغيرة فى الفقه الإسلامى موضحا أن الحكمة أو المقصد الشرعى لا يفهمه إلا المتخصصين والدارسين للفقه الذين ينظرون للأحكام بنظرة شاملة ويدركون حكمة الشرع فيما أمر وفيما أبطل وأجاز.

من جانبه قال الشيخ عبد الملك بن عبد الله الخليلى وزير العدل العمانى فى الكلمة التى ألقاها نيابة عنه د. عبدالرحمن بن سليمان رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر: إن الأمة تمتلك موروثًا أخلاقيًا، وتشريعيا هائلا غنيا بإمكاناته وقدراته للوصول لمنابع


الجلسة الافتتاحية للمؤتمر

التواصل وإخراج الجديد النافع للأمة، فعجلة الحياة لن تتوقف، فالقضايا متجددة والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان والعقول تتفاوت فى استخراج الأحكام.

كما أكد الشيخ أحمد سيد حمد الخليلى مفتى عام السلطنة أن الحفاظ على اللغة العربية هو صون للعلوم الشرعية، فمن العار أن تتقن لغة الآخرين ولا نتقن لغتنا

فالواقع الذى نعيش فيه متغير وعلى الفقيه أن يدركه ادراكًا واقعيا.

مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر بالمدينة المنورة

نظمت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برعاية الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز، المؤتمر الدولى الأول حول اللغة العربية ومواكبة العصر فى ٢٠١٢/٤/٩، بمشاركة أكثر من ٢٠٠ عالم وباحث بينهم ٣٠ عالما وباحثا مصريا وذلك، سعيا لتأصيل الهوية اللغوية العربية لأهلها من العرب والمسلمين، ومناقشة حال العربية وما يعترض سبيلها من تحديات متنوعة، كزحف العامية وتعدد اللهجات وغزو اللغات الأجنبية.

قال الدكتور محمد بن على العقلا مدير الجامعة:



إن المؤتمر يهدف إلى تأصيل الهوية اللغوية العربية وترسيخها، فى ضوء مناقشة واقع اللغة العربية وما يعترض سبيلها من تحديات مختلفة. وبيان مدى إسهام الدراسات اللغوية الأكاديمية فى خدمة الفصحى، والوقوف على المناهج اللغوية الحديثة وتطبيقاتها والإفادة منها.

أشار العقلا إلى أن المؤتمر يناقش خمسة محاور رئيسية هى دور أقسام اللغة العربية فى الجامعات فى النهوض بالعربية وآدابها، واللهجات والتأصيل اللغوى، واللغة العربية ووسائل التقنية والاتصال الحديثة، ودور الآثار الأدبية المعاصرة، وهموم اللغة العربية فى عصر العولمة.

لجنة عربية إسلامية لدعم القدس

شهدت مدينة جدة السعودية خلال مارس الماضي - الإعلان عن إنشاء لجنة عربية إسلامية، لدعم مدينة القدس وذلك في ختام اجتماع اللجنة المشتركة المعنية بمتابعة تنفيذ بنود اتفاقية التعاون بين منظمة التعاون الإسلامي، وجامعة الدول العربية- وذلك في دورتها الثانية.

بحثت اللجنة جملة من القضايا المشتركة، وتصدرت الأزمة السورية جدول أعمالها، بالإضافة إلى القضية الفلسطينية، وملفات السودان والصومال وحوار الحضارات ومكافحة الإرهاب، وتشكيل لجنة مشتركة لوضع تصور للتحرك على الساحة الدولية، بغية تفعيل دور البرلمانات العربية والإسلامية، ومنظمات المجتمع المدني للدفاع عن القدس الشريف، وبحسب التوصيات تعنى اللجنة بمقابلة ممثلين عن كل من القطاعات المختلفة العاملة في القدس الشريف، ومنظمات المجتمع المدني لمعرفة احتياجاتهم الفعلية، وكيفية إيصال المعونة لهم، بالإضافة إلى أهمية مخاطبة الدول الأعضاء لدى المنظمتين، للوفاء بما تم الالتزام به من تعهدات مالية بهدف دعم صمود الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وبشكل خاص المقدسيين منهم، وكان الأمين المساعد للشئون السياسية السفير عبدالله بن عبدالرحمن عالم، قد ترأس جانب المنظمة في الاجتماع الذي ترأس جانب الجامعة العربية فيه، السفير محمد صبيح، الأمين العام المساعد لشئون فلسطين.

في غضون ذلك، استعرض الجانبان الأوضاع الحالية في سوريا والجهود المبذولة من قبل المنظمتين من خلال التحرك العاجل بهدف وقف العنف الدائر ضد المدنيين الأبرياء، وتقديم الدعم الكامل للمبادرة العربية لحل الأزمة السورية، واستمرار التشاور والتنسيق بين الجانبين في التحرك المستقبلي في الأزمة السورية وبصفة خاصة على صعيد مجلس الأمن، كما استعرض الطرفان نتائج اجتماع المجلس الوزاري العربي في القاهرة، بالإضافة إلى جولة المبعوث المشترك للأمم المتحدة والجامعة العربية الأخيرة.

تدفق اللاجئين السوريين إلى تركيا هرباً من الموت

واصل اللاجئون السوريون تدفقهم إلى تركيا هرباً من الموت في بلادهم. ويعيش نحو ١٦ ألفاً من اللاجئين السوريين المسجلين في مخيمات داخل تركيا. ويشكل هؤلاء اللاجئين نحو نصف أعداد اللاجئين الذين فروا من سوريا، منذ بدء الصراع قبل عام، وعددهم ٣٤ ألفاً حسب تقديرات الأمم المتحدة. ويعتقد أن هناك مئات الآلاف من النازحين داخل سوريا.

وتخشى تركيا من حدوث تدفق للاجئين مماثل لعشرات الآلاف الذين عبروا من العراق خلال حرب الخليج عام ١٩٩١. وقالت: إن إقامة منطقة عازلة داخل سوريا يعد أحد الخيارات التي تبحثها لحماية المدنيين الفارين.

على صعيد آخر أعلنت عدة فصائل من المعارضة السورية عن تشكيل تحالف جديد، مما يكشف عن وجود انقسام خطير بين خصوم الرئيس السوري بشار الأسد. ولم تحدد الفصائل اسم التكتل المعارض الجديد بعد، وقالوا إن التكتل الجديد لن يكون معارضاً للمجلس الوطني السوري، لكنهم انتقدوا المجلس الوطني السوري، لاهتمامه بالسياسة أكثر من اهتمامه بالثورة على الأرض.

دول غربية تطلب تعزيز علاقاتها مع «التعاون الإسلامي»

ذكر مصدر مطلع في منظمة التعاون الإسلامي أن ثلاث دول غربية تسعى إلى توطيد علاقاتها مع المنظمة، وذلك في إطار دور المنظمة المتزايد في الساحة الدولية، وقال المصدر إن كلا من كندا والسويد بالإضافة إلى أستراليا طلبوا توطيد علاقاتهم مع التعاون الإسلامي.

وأضاف المصدر بأن بعض هذه الدول قد طلب صراحة عضوية «مراقب»، في ظل وجود طلبات متزايدة لهذه العضوية من قبل الكثير من الدول من آسيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا وبخاصة بعد إقرار قانون عضوية «مراقب» في مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي في كازاخستان منتصف العام الماضي.

وأشار المصدر إلى أن بعض هذه الدول عرض تعيين مبعوث خاص لدى المنظمة، وبعضها طلب إرسال وفود إلى مقرها في جدة بغية تعزيز العلاقات والتعاون الثنائي، لافتاً إلى أن هذه الطلبات تقدم إلى أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام للمنظمة في جولاته وزياراته إلى مختلف دول العالم.


أوغلو

يذكر أن روسيا كانت قد انضمت للعضوية كـ«مراقب» إلى المنظمة في عام ٢٠٠٥، بينما رفعت الولايات المتحدة سقف العلاقات مع التعاون الإسلامي، في عام ٢٠٠٨، عندما عينت إدارة الرئيس جورج بوش، سادة قمبر مبعوثاً خاصاً لها، ليخلفه رشاد حسين، الذي يشغل المنصب حالياً، فضلاً عن مبعوثين لكل من بريطانيا واستراليا باشرا عملهما بالفعل، فيما عززت الصين من علاقاتها مع المنظمة، في الوقت الذي طلبت فيه البرازيل رسمياً عضوية «مراقب».

وأوضح المصدر بأن التوسع الذي تشهده المنظمة من خلال علاقاتها الدولية، يؤكد ثقة المجتمع الدولي بالدور المنوط بالمنظمة، والنجاحات التي حققتها على الساحة الدولية.

الأمم المتحدة تنتقد تقصير حكومة جنوب السودان في حماية السكان

وجهت الأمم المتحدة انتقادات شديدة اللهجة لحكومة جنوب السودان على خلفية تعاملها البطيء مع الأزمة التي راح ضحيتها المئات في إقليم جونقلي.

وقال أمين عام المنظمة الدولية بان كي مون: «إن نشر قوات عسكرية لحماية السكان لا يعد سوى تدبير مؤقت، وثمة حاجة ماسة إلى حلول دائمة من خلال تطوير قدرات مؤسسات الدولة على توفير الخدمات وحماية السكان». مشيراً إلى أن المجتمع الدولي قدم الكثير الذي كان من الممكن أن يسهم في تفعيل الأداء الحكومي، وأعرب مون في تقريره الذي عرضته رئيسة البعثة الأممية بالجنوب هيلدا جونسون، أمام مجلس الأمن عن قلق بالغ بشأن تدهور العلاقات بين جوبا والخرطوم، وحمل حكومتي البلدين مسئولية إيقاف طبول الحرب التي علا صوتها في الفترة الأخيرة، وحذر من أن فقدان ما يزيد على ٩٠٪ من إيرادات الحكومة من النفط نتيجة إغلاق أنابيب البترول، سيفرض

تحديات غير مسبوقة على جوبا، وسيحد من قدرتها على مواجهة الأزمتين الأمنية والإنسانية، فضلا عن إضعاف قدرتها على التقدم فى خططها الإصلاحية بما فى ذلك نزع السلاح والتسريح وإعادة الاندماج وإصلاح القطاع الأمنى وسيادة القانون ومحاربة الفساد، إلى ذلك دعت الأمم المتحدة حكومة الجنوب إلى الوفاء بوعودها ووقف تجنيد الأطفال فى مؤسستها العسكرية، مشيرة إلى أنه لا يزال هناك نحو ألفى طفل مجند بصفوف الجيش النظامى، وقالت الممثلة الخاصة بالأطفال والصراعات المسلحة راديكا كوماراسوامى للصحفيين: من المهم للغاية تسريح هؤلاء الأطفال من الخدمة العسكرية بأقصى سرعة ممكنة. وأضافت أنه فى حال استمرار الانتهاكات، فهناك احتمال لفرض عقوبات عليهم.


بان كى مون

خطة سعودية لرصد الإساءة للدين فى مواقع التواصل الاجتماعى

تعكف وزارة الثقافة والإعلام السعودية على سلسلة من الدراسات التشخيصية لمواقع التواصل الاجتماعى على شبكة الإنترنت بهدف معرفة التحركات والاتجاهات التى تتشكل داخل تلك المواقع، إضافة إلى الوقوف على المخالفات.

وكشف الدكتور عبدالعزيز الملحم وكيل وزارة الثقافة والإعلام المساعد للتخطيط والدراسات والمشرف العام على تقنية المعلومات، أن دور الثقافة والإعلام فى مجال مواقع التواصل الاجتماعى، برعاية د.عبدالعزيز خوجه وزير الثقافة والإعلام يعد رقابيا ومشروعا، مشددا على أن الدور الرقابى يظهر فى حال وجود مخالفة صريحة مثل التعرض للدين أو ما هو منصوص عليه فى الأنظمة.

وكشف الملحم عن وجود مبادرات متاحة على مواقع التواصل الاجتماعى فى الوقت الراهن تستهدف فئة الشباب فى مجال الإعلام الجديد، وتمثل قنوات تواصل مع هذه الفئات، مشيرا إلى أن هذه الدراسات أفرزت أرقاما وإحصائيات تبين كيفية تعامل الشباب مع تلك المواقع، بالإضافة إلى الفرص الموجودة فى الواقع الافتراضى.

ولفت الملحم إلى أن آخر الدراسات التى خرجت من وزارة الإعلام كانت نحو القنوات التى تنشأ على موقع «اليوتيوب»، وهى التى عرّج القائمون عليها للحديث عن مواضيع تمس المجتمع، بالإضافة إلى التعليق على آخر الأخبار التى ترد فى الصحافة الورقية، مبينا أن تلك الدراسات أظهرت الاتجاهات التى تسير نحوها تلك القنوات، إضافة إلى معرفة إلى ماذا يهدف الشباب منها.

منظمة التحرير تدين بناء أكثر من ١٠٠٠ وحدة استيطانية بالقدس وحماس تواصل هجومها على سياسات أبو مازن

أدانت منظمة التحرير الفلسطينية طرح إسرائيل عطاءات لبناء مئات الوحدات الاستيطانية الجديدة من بينها ١٠٥٢ وحدة فى محيط مدينة القدس المحتلة.

قالت دائرة العلاقات الدولية بالمنظمة فى بيان: إن حكومة الاحتلال تعمل جاهدة على تسريع تهويد مدينة القدس من خلال تعزيز استيطانها غير الشرعى القائم على سرقة الأرض الفلسطينية وبناء المستوطنات فوقها وتهجير سكانها الشرعيين منها وتزوير التاريخ الحضارى والإنسانى العربى فى المدينة لفرض أمر واقع على الأرض.

● أضافت أن قرارات الاستيطان الجديدة تشكل تحديا جديدا للإرادة الدولية المنددة بالاستيطان، وعامل تدمير لجهود المجتمع الدولى لإحلال سلام عادل وشامل فى المنطقة وخطوة إضافية للقضاء على إمكانية حل الدولتين.

أوضحت الدائرة أن خطط الاستيطان الإسرائيلية منافية للقانون الدولى وقرارات الشرعية الدولية التى أكدت مرارا أن القدس الشرقية أراض محتلة تنطبق عليها كافة القرارات والاتفاقات الدولية،مؤكدة أن كافة الاجراءات التى نفذتها وأحدثتها قوة الاحتلال الإسرائيلى على الأرض لاغية وباطلة.

كانت وزارة الإسكان الإسرائيلية طرحت عطاءات لبناء ١١٢١ وحدة استيطانية غالبيتها فى القدس الشرقية المحتلة والباقى فى الضفة الغربية وهضبة الجولان المحتلين. وسيتم بناء ٨٧٢ فى مستوطنة جبل أبو غنيم جنوب القدس الشرقية و١٨٠ وحدة فى مستوطنة أخرى شمال القدس.

وفى غزة انتقدت حركة حماس عزم الرئيس الفلسطينى محمود عباس توجيه رسالة سياسية إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو بشأن تطورات عملية السلام واستحقاقات استئنافها.

وقال فوزى برهوم المتحدث باسم حماس: إن رسالة عباس مستغربة ومستهجنة وتعبر عن إفلاس سياسى لدى السلطة وتحديدا فى ظل التعنت الإسرائيلى وما يجرى فى القدس من تهويد واستيطان واقتلاع وجرائم يومية.

واعتبر أن الرسالة بمثابة مغازلة واستجداء لنتنياهو للعودة إلى المفاوضات التى أثبتت فشلها وألحقت الدمار بالشعب الفلسطينى.

محكمة سويسرية تقرر تغريم أسرة مسلمة بسبب دروس سباحة مختلطة

قررت المحكمة الفيدرالية السويسرية غرامة ١٤٠٠ فرانك على أسرة مسلمة بمدينة بازل لأنها منعت أبناءها من المشاركة فى دروس السباحة المختلطة مخالفة ذلك لتعاليم الإسلام.

وقد أشارت المحكمة الفيدرالية فى حيثيات إقرار حكم المحكمة الإدارية أن إجبار الطلاب على المشاركة فى دروس السباحة المختلطة لا يمثل اعتداء كبيرا على حريتهم الدينية.

مدرسة فرنسية تمنع دخول أم.. مدرسة أبنائها لارتدائها الحجاب

نشر موقع التليفزيون الفرنسي على موقعه بشبكة الإنترنت أن أماً لأربعة أولاد تم منعها من دخول مدرسة «شال هندري» الابتدائية في مدينة باستيا الفرنسية، بحجة أنها ترتدي الحجاب والملابس السوداء، وقد جاء قرار الرفض عن طريق إدارة المدرسة المدعومة برئيس أكاديمية كورسيكا، وقالت المرأة إن إدارة المدرسة فضلت أن ارتدي مثل النساء الأخريات، ومن جانبها فقد حاولت إدارة المدرسة تبرير قرارها بالمخاوف الأمنية، وكذلك بمبدأ العلمانية.

بالوثائق ... الولايات المتحدة تتجسس على المسلمين

كشف اتحاد الحريات المدني الأمريكي أن المباحث الفيدرالية بمدينة سان فرانسيسكو كانت تسيئ استغلال مشروعات التواصل مع المساجد والمراكز الإسلامية في جمع وتخزين المعلومات الخاصة بمسلمي الولايات المتحدة بصورة غير قانونية، فيما يعد انتهاكاً لحقوق وحرية ممارسة المعتقدات والشعائر الدينية.. وأكدت الوثائق الحكومية التي صدرت مؤخراً في إطار القضية التي رفعها الاتحاد أمام القضاء في إطار قانون حرية جمع المعلومات أن المباحث قد سجلت الخطب والدروس وبيانات هوية المسلمين ومعلوماتهم الشخصية، إضافة لآرائهم وممارساتهم الدينية.

وقد أشارت الوثائق التي نشر موقع ويكليكس جزءاً منها كما نشرت الخبر وكالة الأنباء الإسلامية إلى أن المباحث قامت بنشر المعلومات بين وكالات حكومية أخرى دون أن تشير إلى معرفة المسلمين بقيام المباحث بتسجيل تلك المعلومات أو تداولها.

قاض ألماني يلجأ للشريعة الإسلامية في قضية زواج

أخذ أحد القضاة بمدينة ليمبورج آن دير لاهن الألمانية بما اعتبره الإعلام مراعاة لأحكام الشريعة الإسلامية، وذلك خلال دعوى قضائية رفعها مسلم تركي يطالب زوجته السابقة برد مجوهرات ذهبية كصداق عقب انفصالهما بعد شهرين من زواجهما.. وقد أشار القاضي إلى أن الصداق من حق الزوجة ليساعدها على النفقة بعد الطلاق بغض النظر عن مدة الزواج، مؤكداً اعتماده في الحكم على أحكام سابقة للقضاء التركي.

***

Ahmad ibn Hanbal [164-241 A.H/780-855 A.D] and Sibawih [148-180 A.H/ 765-796 A.D.] He mastered greatly the Arabic language.

When the Arabic language spread in Egypt, and was learnt and mastered by the Copts in Egypt, this contributed to unite all the people in Egypt, as the Copts in Egypt got used to speaking in Arabic. The Muslims in the Egyptian villages were using the Coptic Calendar in matters related to cultivation.

This empathy existed continuously; and we hear that many Caliphs and rulers took care of this national unity. The life and caliphate of `Umar ibn Al-Khattab ended, but the goodness he did not come to an end. His behavior and manners are still alive in the souls of the people.

I am not able to talk for a long time about this matter, not to speak at great length. Your Excellency, Mr. President, I want to say that goodness lives eternally, and we want to spread goodness among the people. We want that the people accept this goodness willingly not forcibly. I may say that doing good is not the real goodness; rather, it is loving goodness, as the person may be forced to do goodness, or may do it out of fear or tradition, but this is not actually goodness. However, the good person is the one who likes to do goodness from the bottom of his heart, even if he does not do it, he has the intention to do it, as deeds depend on intentions. Forcing to do goodness is done by the slaves, while loving to do it is done by the priests.

Thus, we want to spread goodness in the hearts of the people and to support good and benevolent deeds inside, not outside, the human being.

The sin was easy to be done in front of Prophet Yusuf, and he might be punished if he did not do it. However, he preferred not to commit this sin, because loving goodness and virtue lies in his heart and is stronger than the invisible temptations.

This is the good person whom we want. This is also the instructions of religion and the encouragement of the country we need. We, as Christians, want to contribute in this field and want to find the real good citizen. We will exert every effort in this regard because we love our country, its honorable history, and its President, Anwar Al-Sadat, from the deepest of our hearts. We take care of its reputation inside and outside it, and we do our best to brighten its reputation in every place. We want all the peoples of the world regard Egypt as beautiful and to conform with the words mentioned in the Bible "The people of Egypt are blessed."

The Qur'an puts the Jews who associated others with Allah in divinity on one side and the Christians on the other side. The Christians lived in the Islamic rule with the rulers, who understood the Qur'an truly and liked the Islamic rule. The Christians lived with the Muslims in peace. In these ages, we find mixture between the Muslims and Christians, which was increasing gradually until it reached the national unity. In the Islamic history, we can find friendship between the Muslim rulers and the Christian rulers. Also, they depended on them in many fields such as education, medicine, engineering, and finance.

"The private physician of Mu`awiyah was Christian, and he chose a Christian man to educate his son Ziyad, who chose a Christian priest to educate his son Khaled. Also, Caliph Abdul Malek ibn Marwan (26-86 A.B/ 646-705 A.D) selected Yuhanna Al-Dimishqy [55-122 A.H/640-708 A.D] as his consultant. He chose a famous teacher called Atanasios to educate his brother Abdul Aziz. When Abdul Aziz ibn Marwan became the ruler of Egypt, he appointed Atanasios as consultant. We find Al-Akhtal [19-90 A.H/640-708 A.D.] who was a famous Christian poet, and he joined a group of poets parallel to Al-Farazdaq. When Al-Akhtal, the Christian poet, used to enter the mosques, the Muslims used to salute and honor him for his knowledge, as it is narrated in the Islamic history.

We find many examples of the tolerance of Islam, one of which is that when the Caliph `Umar ibn Al-Khattab was about to die, he advised the coming Caliph with regard to the People of the Book with two matters: First, keeping the promises given to them. Second, he advised not to overload them with burdens they can not tolerate.

Pope Shenouda proceeded to say: "At one time, when Al-Walid ibn `Uqbah was the ruler of Bani Taghleb including the Christians, and `Umar knew that Al-Walid threatened those people, he removed him from office not to hurt them.

Also, there is a funny story about `Umar ibn Al-Khattab. When he was the Caliph of the Muslims, `Ali ibnn Abu Taleb disagreed with a Jew. When both of them came in front of Caliph `Umar, he said to `Ali: Abul Hasan, sit beside your opponent to discuss this matter. Ali was slightly affected. After he judged the matter, he said to Ali: Was you annoyed as I asked you to sit beside your opponent? Ali said: No, I was affected because you called be Abul Hasan, and this is a kind of honoring, and I feared that the Jew think that the Muslims are not fair, as you did not treat us equally and called me with my nickname.

Then, Pope Shenouda commented on the justice, being represented by `Umar ibn Al-Khattab and Ali ibn Abu Taleb. He emphasized that these were the dominant morals in the Islamic rule.

This was the justice, by which the Muslims used to treat their subjects, whatever their religion is. We find in history that the Muslims Caliphs and rulers took care of the Christians in many parts of the country. Muhammad ibn Tang Al-Ikhshid [268-334 A.H.] used to build and restore churches. The Muslim rulers gave due care to building Abu Sirga Church in Misr Al-Qadimah. The Fatimid Caliph Al-Aziz Billah [365-386 A.H.] paid due care to building Abu Sifin Church and Marqirus Church. The Fatimid rulers paid due care to building and restoring the churches. Al-Maqrizy [766-745 A.H./ 1365-1441 A.D.] in Al-Khitat and Al-Mas`udy in Muruj Al-Dhahab tackled this matter in their books.

As for medicine, for which we are gathered today, we find that the first hospital in Egypt was built at the tine of Ahmad ibn Tolon. He loved the Copts very much and chose a Christian man to build his mosque, Ahmad ibn Tolon. Also, he chose a Christian man for building the vaults and many buildings. He used to visit Al-Qusair Monastery, and he was closely linked to the priests. Also, the Egyptian monasteries were a place for the meetings of the ruler.

Hisham ibn `Abdul Malek had a house built to the Patriarch beside his palace, and he used to listen to his sermons. The ruler Al-Aziz Billah, the Fatimiad, has a great friendship with Pope Ibram ibn Zar`a and the priest Sawiras, the bishop of Al-Ashmonin. He used to invite them to his palace with the chief justice to talk about religion in his presence.

As for medicine, we hear that the private physician of Mu`awiyah ibn Abu Sufian was Christian. Also, Abu Ja`far Al-Mansur's private physician was Christian and his name was Girgis ibn Bakhtishu`. Jibril ibn Bakhtishu` was the physician of Caliph Harun Al-Rashid. He told the people that whoever needs me to do something should tell Jibra'il, as I do not refuse any of he requests.

Yuhanna was famous from the time of Al-Rashid to the time of Al-Mutawakkel [206-247 A.H/821-861 A.D.]. All of these Caliphs used to invite him to their banquets and used not to eat except when he came. Hunayn ibn Ishaq [192-259 A.H/808-872 A.D] was one of the famous physicians at the Islamic age, and he was called Abuqrat and Galinus of his age. Hunayn ibn Ishaq learned the Arabic language from Imam

Muruj Al-Dhahab tackled this matter in their books. Also, the rulers undertook establishing national unit among the subjects.

Also, Pope Shenouda testified the justice of the Noble Qur'an with the Christians and the justice of the Islamic history with the Christians since the time of `Umar ibn Al-Khattab and the way the justice of `Umar Ibn Al-Khattab did not end with his death, but it continued throughout history. Pope Shenouda said: "The goodness of `Umar did not come to an end with his death, but it was alive in the minds and souls of the people along history. This document needs to be read many times, as it calls for national union, which is a weapon against the ignorance of the people.

The Christians in the Islamic Rule

In the Name of Allah, Whom we all worship. [1]I am pleased on your behalf to welcome President Anwar Al-Sadat. On this day, the President visits the Patriarchy, and this reminds me with the relation of Islam with the Christians. I will talk about this point. When Islam refers to the Christians, it refers to them with the People of the Book. There are many Qur'anic verses, which carry love for the People of the Book and the Christians. One of these verses is an Ayah in Surah Al-Imran:

{ They believe in Allâh and the Last Day; they enjoin Al-Ma`rûf (Islamic Monotheism, and following Prophet Muhammad peace be upon him) and forbid Al-Munkar (polytheism, disbelief and opposing Prophet Muhammad peace be upon him); and they hasten to (all) good works; and they are among the righteous.}(Al-Imran "The Household of Imran": 114)

It referred to the People of the Book as the people who worship Allah, offer Salah (Prayer), devote themselves to goodness, belief, and reform. Also, it is mentioned in Surah Al-Baqarah:

{ Those (who embraced Islâm from Banî Israel) to whom We gave the Book [the Taurât (Torah)] [or those (Muhammad's peace be upon him companions) to whom We have given the Book (the Qur'ân)] recite it (i.e. obey its orders and follow its teachings) as it should be recited (i.e. followed), they are the ones who believe therein. And whoso disbelieve in it (the Qur'ân), those are they who are the losers. (Tafsîr Al-Qurtubî).}(Al-Baqarah "The Cow;"121)

[1] From the speech delivered by Pope Shenouda the third, the Patriarch of the Orthdox Copts in October, 1977 at the occasion of putting laying the corner stone of MarMorqus Hospital.

Also, we find that when the Qur'an refers to the Christians, it asked the people to debate with them leniently. It is mentioned in Surah Al-`Ankabut:

{ 'And argue not with the people of the Scripture (Jews and Christians), unless it be in (a way) that is better (with good words and in good manner, inviting them to Islâmic Monotheism with His Verses), except with such of them as do wrong; and say (to them): "We believe in that which has been revealed to us and revealed to you; our Ilâh (God) and your Ilâh (God) is One (i.e. Allâh), and to Him we have submitted (as Muslims)."}(Al-Ankabut "The Spider": 46)

Also, the Noble Qur'an put the People of the Book in the position of consultancy and giving religious legal opinion. It is mentioned in Surah Yunus:

{'So, if you (O Muhammad peace be upon him) are in doubt concerning that which We have revealed to you, [i.e. that your name is written in the Taurât (Torah) and the Injeel (Gospel)], then ask those who are reading the Book [the Taurât (Torah) and the Injeel (Gospel)] before you. Verily, the truth has come to you from your Lord. So be not of those who doubt (it).} (Yunus "Jonah" : 34)

Also, it is mentioned in Surah Al-Anbia':

{'And We sent not before you (O Muhammad peace be upon him) but men to whom We revealed. So ask the people of the Reminder [Scriptures — the Taurât (Torah), the Injeel (Gospel)] if you do not know.}(Al-Anbiya "The Prophets": 7)

When Islam refers to the Christians, it describes them as being merciful. It is mentioned in Surah Al-Hadid about the followers of Christ:

{We ordained in the hearts of those who followed him compassion and mercy.} (Al-Hadid "The Iron":27)

Also, the Qur'an describes them as the people who love the Muslims more than any people else. There is a verse which differentiates between the Christians and the disbelievers, saying:

{'Verily, you will find the strongest among men in enmity to the believers (Muslims) the Jews and those who are Al-Mushrikûn, and you will find the nearest in love to the believers (Muslims) those who say: "We are Christians." That is because amongst them are priests and monks, and they are not proud.}(Al-Maidah "The Table":82)

ibn Al-Khattab was about to die, he advised the coming Caliph with regard to the People of the Book with two matters: First, keeping the promises given to them. Second, he advised not to overload them with burdens they can not tolerate.

Pope Shenouda proceeded to say: "At one time, when Al-Walid ibn `Uqbah was the ruler of Bani Taghleb including the Christians, and `Umar knew that Al-Walid mistreated those people, he removed him from office not to hurt them.

Also, there is a funny story about `Umar ibn Al-Khattab. When he was the Caliph of the Muslims, `Ali ibn Abu Taleb disagreed with a Jew. When both of them came in front of Caliph `Umar, he said to `Ali: Abul Hasan, sit beside your opponent to discuss this matter. Ali was slightly affected. After he judged the matter, he said to Ali: Was you annoyed as I asked you to sit beside your opponent? Ali said: No, I was affected because you called me Abul Hasan, and this is a kind of honoring, and I feared that the Jew think that the Muslims are not fair, as you did not treat us equally and called me with my nickname.

Then, Pope Shenouda commented on the justice, being represented by `Umar ibn Al-Khattab and Ali ibn Abu Taleb. He emphasized that these were the dominant morals in the Islamic rule. He said: "This was the Muslims' attitude towards justice among their subjects.

Then, Pope Shenouda emphasized that the Islamic justice was not dominant merely in the earlier Muslim Caliphate, but it extended throughout the history of Islam. He said: "The life and caliphate of `Umar ibn Al-Khattab ended, but the goodness he did not come to an end. His behavior and manners are still alive in the souls of the people.

Then, Pope Shenouda proceeded to give examples about the continuation of the Islamic tolerance and justice practiced towards the Christians along the Islamic history. He said about the Caliphe Mu`awiyah ibn Abu Sufian [20 B.H. – 60 B.H/ 603-680 A.D] and the Umayyad State: "The private physician of Mu`awiyah was Christian, and he chose a Christian man to educate his son Ziyad, who chose a Christian priest to educate his son Khaled. Also, Caliphe Abdul Malek ibn Marwan (26-86 A.B/ 646-705 A.D) selected Yuhanna Al-Dimishqy [55-122 A.H/640-708 A.D] as his consultant. Also, Al-Akhtal [19-90 A.H/640-708 A.D.] was one of the famous Christian poets and joined a group of poets parallel to Jarir [28-110 A.H/640-728 A.D] and Al-Farazdaq 110 AD-728 A.D]. This group was very famous in the Umayyiad State. When Al-Akhtal, the Christian

poet, used to enter the mosques, the Muslims used to salute and honor him for his knowledge, as it is narrated in the Islamic history."

Also, Pope Shenouda said about the Umayyiad Caliph, Hisham ibn `Abdul Malek [71-125 A.H. – 690-743 A.D.): "He had a house built to the Patriarch beside his palace, and he used to listen to his sermons.

Also, Pope Shenouda testified the justice of Islam in the Abbasi era.

Saying about Caliph Abu Ja`far Al-Mansur [136-158 A.H – 757-774 A.D]: "His private physician was Christian and his name was Girgis ibn Bakhtishu`. Caliphe Harun Al-Rashid told the people that whoever needs me to do something should tell Jibra'il, as I do not refuse any of he requests. Yuhanna was famous from the time of Al-Rashid to the time of Al-Mutawakkel [206-247 A.H/821-861 A.D.]. All of these Caliphs used to invite him to their banquets and used not to eat except when he came. Hunayn ibn Ishaq [192-259 A.H/808-872 A.D] was one of the famous physicians at the Islamic age, and he was called Abuqrat and Galinus of his age. Hunayn ibn Ishaq learned the Arabic language from Imam Ahmad ibn Hanbal [164-241 A.H/780-855 A.D] and Sibawih [148-180 A.H/ 765-796 A.D.] He mastered greatly the Arabic language.

Also, Pope Shenouda said that justice was dominant with the non-Muslims, as they were one nation and one culture. He confirmed the Islamic justice practiced in the Egyptian history with the Copts. He talked about the spread of the Arabic language in Egypt, which was mastered by the Copts in Egypt. This language contributed greatly to unite the people.

He talked about Ahmad ibn Tolon [220-170 A.H./ 835-884 A.D.] saying: "He loved the Copts very much, and he chose a Christian person to build a mosque for him. Also, he chose a Christian to build many buildings. He used to visit Al-Qusair Monastery, and he was closely linked to the priests. Also, the Egyptian monasteries were a place for the meetings of the rulers. They used to spend time in them and befriend the priests.

Also, Pope Shenouda talked about the Islamic justice with the Egyptian Copts at the time of the Al-Ekhshid and Fatimid States. Muhammad ibn Tang Al-Ekhshid [268-334 A.H.] used to build and restore churches. The Muslim rulers gave due care to building Abu Sirga Church in Misr Al-Qadimah. The Fatimid Caliph Al-Aziz Billah [365-386 A.H.] paid due care to building Abu Sifin Church and Marqirus Church. The Fatimid rulers paid due care to building and restoring the churches. Al-Maqrizy [766-745 A.H./ 1365-1441 A.D.] in Al-Khotat and Al-Mas`udy ibn

Pope Shenouda praises the Islamic History...!

By: Dr. Muhammad `Imarah
Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine

On 11th of October, 1977 and in front of President Muhammad Anwar Al-Sadat and in the occasion of laying the foundation stone of St Mark's Hospital, Pope Shenouda the third delivered a speech, which implied his watchful historical culture. He praised in his speech the national unity of the Muslims and Christians in the Islamic history and praised the Noble Qur'an in its tolerance with the Christians.

As media focuses on the aspects of disunity and ignore the aspects of unity and harmony – including the speech of Pope Shenouda – we found it necessary to shed light on the main points of this speech, so that all the Muslims and Christians read them and learn to attaché due care to the sayings of the wise people instead of the ignorant people. Thus, we should present the text of this speech.

In this speech, Pope Shenouda confirmed that put the Jews who worshiped other than Allah in one side, and the Christians in the other side, as it distinguished them from the disbelievers. Also, the Quran asks the Muslims to debate with the Christians, who are from the People of the Book, in a lenient way.

In this point, Pope Shenouda praised the Islamic history for its tolerance with the Christians. He presented many aspects of this tolerance in the Islamic history since its beginning. For example, Pope Shenouda said: "In this age, we find harmony and mixture among the Muslims and Christians, which grow gradually until it reached unity. In the Islamic history, we can find friendship between the Muslim rulers and the Christian rulers. Also, they depended on them in many fields such as education, medicine, engineering, and finance."

Pope Shenouda said that the Islamic history is marked with unity, as the Muslims and Christians mixed with each other. The relation between the Muslim rulers and Christian rulers reached friendship not only acceptance.

Pope Shenouda talked about `Umar ibn Al-Khattab [40 B.C – 584-644 A.D.], whose history faced lies and fabrications, as the ideal example of the Islamic tolerance. He said: "We knew in the Islamic history clear examples for the tolerance of Islam. He said that when the Caliph `Umar

select three of them. Then, a structural lots was done so that Pope Shenouda can be choosen a general bishop for education and to be a patriarch. He was numbered the 117th Pope in the manner of Saint March and he was the third one named as Shenouda. The ceremonies of appointing him as a patriarch were held on 14th of November, 1971 and he became the 117th Pope.

On Tuesday, the 19th of March, 2012, the dead body of Pope Shenouda the third, the Pope of Alexandria and the See of Saint Mark, who died on Saturday, 17th of March, 2012, aged 89 years, reached the Cathedral in Abbasiyah. His funeral was officially, nationally, and internationally attended in a great procession. Then, a private car carried him to Almazah Airport, where a military plane transported him to the Monastery of Saint Bishop in Natrun valley. The military police supervised the organization of the funeral until it reached the monastery. It exerted great effort due to the attendance of ten thousands of people in this funeral.

The Egyptian military leadership attached due care to this funeral and Field Marshal Muhammad Hussein Tantawy, the General Commander, and the head of the Military Council received many Presidents, who came to offer condolences for the death of the Pope. The Grand Imam, Dr. Ahmad Al-Tayyib, the Sheikh of Al-Azhar, headed a high-level official delegation to offer condolences for the death of Pope Shenouda.

Many international figures praised him, as the Secretary-General of the Cooperative Islamic Association, as he was an international figure who devoted his life to serve the citizens. The German Foreign Minister said that he was the voice of mediation, who played a very important role in the Egyptian history. Also, the Foreign Minister of Austria said that Pope Shenouda left a great effect in his soul.

Pope Shenouda, who shared with his nationals their hopes and pains, departed...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Pope Shenouda, the person for whom Egypt is in dire need, departed at a very critical time. This implies a warning. Pope Shenouda the third was an example for mediation and reasonability.

No doubt that the person who will succeed Pope Shenouda will find an extremely heavy burden. However, the policy, which is based on patience, wisdom, and reasonability and which helped Pope Shenouda push the rescue ship for a long time, is still the only way for passing through the evil storms, being launched by the foreigners whenever they want.

The death of Pope Shenouda the third raises once at a time all the questions related to sharing the same homeland in Egypt and in all of the parts of the Arab nation immediately after his death on Saturday, 17th of March, 2012.

No doubt that the history of Christianity, which started in Egypt were resisting the Roman Occupation continued its challenge to whoever may endanger the national unity and independence at the time of the reign of Pope Shenouda. Also, the Muslims, even before the Christians, are grateful for him for his attitude towards Jerusalem and his call for the Christians not to perform their pilgrimage to it until it gets rid of the

Israeli occupation. These situations, which occurred at a critical time formed the remarkable partnership of the Muslims and Christians in struggling against the Zionist dominance and against the effacement of the Arab entity of the Palestinian people. This is at a time when the entities are effaced for the sake of the ambitions of Israel, America, and the European Union in the fortunes of the region. Whatever the period we live in this world is, certainly we will depart this life, but our sayings and deeds will remain. History will remember for Pope Shenouda his bright words about his love for his homeland, as he said: "Egypt lives in our souls, not we live in it."

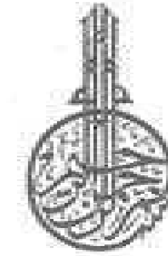
This becomes clear in his national attitude when he refused to agree to participate in the conference of the minorities in 1994, based on the fact that the Copts are not minorities, but the people of Egypt are similar to a piece of cloth, consisting of Muslims and Copts.

Pope Shenouda the third was born in 3rd of August, 1923. When he got (Al-Thanawiyyah Al-`Ammah) secondary school certificate, he joined Fuad I University now (Cairo University), history department. He started with studying the Pharaonic history, then the Islamic and modern history. He received the BA with honors in 1947. He worked for many years as an editor, then the editor-in-chief of one of the magazines.

At the same time, he continued his post graduate studies in archeology. Then, he completed the military service as a lieutenant in the army. He devoted his time to reading the archeological manuscripts and was appointed as a priest on 31st of August, 1958.

In 1962, Pope Cyrl VI appointed him as a private secretary. Also, he was chosen as a patriarch on 9th of March, 1971. Five priests were chosen to

AL-AZHAR MAGAZINE
Jumadal-Akherah, 1433 A. H.



ENGLISH SECTION
May, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



السعر 150 قرشا

في العدد القادم

www.AlazharMag.com

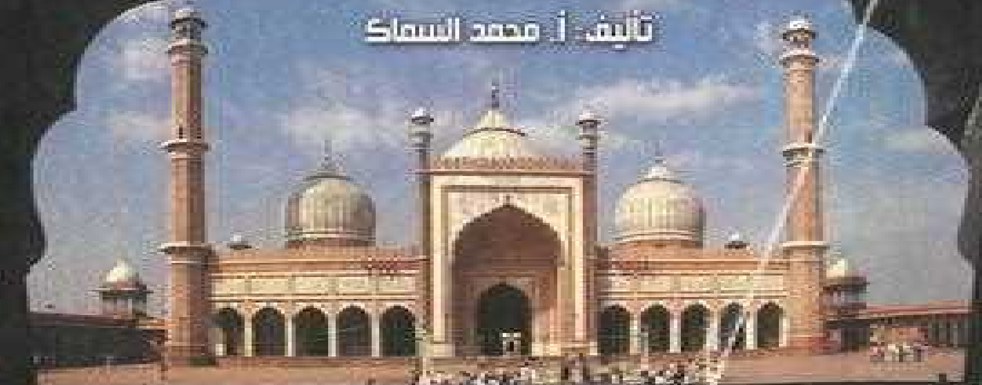
AL AZHAR
MAGAZINE

 facebook.com/Al-Azhar-Magazine

هدية عدد رجب

الديـــن فى القرار الأمريكى

تأليف: أ. محمد السماك



الأزهر

www.AlazharMag.com

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

رجب ١٤٣٣ هـ - يونيو ٢٠١٢ م الجزء ٧ السنة ٨٥

الإسلام والسياسة

للأستاذ الدكتور محمد عمارة

نحو خطاب إسلامى مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر

أ. د. عصام البشير

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

أ. د. محمد سيد طنطاوى

أؤمن بالله

أ. د. عبد الرزاق السنهورى

اقرأ لهؤلاء



الشيخ محمد المدني



الشيخ محمد عبده



أ. نظمى لوقا

هدية العدد: الدين فى القرار الأمريكى

أ. محمد السماك

ص ١١
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعي خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

الاشتراك السنوي
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

• الافتتاحيــة •

الإســلام والســياســة



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

-١-

ليس هناك خلاف فى فكرنا القديم منه والحديث ـ على تعريف «الإسلام».. فهو الخضوع والانقياد لله، سبحانه وتعالى، وفق ما جاء به وأخبر عنه الرسول (ﷺ) من الشرائع والأحكام[1].

أما «السياسة»، فإن فى مضمون مصطلحها خلافًا!..

فقبل الاحتكاك الفكرى بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية، بعد الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لديار الإسلام، وعندما كانت المضامين «العربية ـ الإسلامية» هى الوحيدة والسائدة والشائعة فى معاجمنا وقواميسنا وموسوعاتنا، لم يكن هناك خلاف فى مضمون مصطلح «السياسة»؛ لأن هذا المضمون الإسلامى كان تعبيرًا أمينًا عن صورة الإنسان كما صورها وتصورها الإسلام.. الإنسان: الخليفة عن الله، سبحانه وتعالى.. الحامل لأمانة عمران الحياة الدنيا كابتلاء وامتحان ومعيار للحياة الآخرة، التى هى خير وأبقى.. فسياسته لعمران الدنيا ليست هى المقاصد والغايات، وإنما هى السبل والوسائل للدار الآخرة.. وهو، بحكم خلافته عن الله، ليس سيد هذا الكون، وإنما هو عبد لسيد هذا الكون، وإن كان سيدًا فيه.. هو عبدالله وحده، وسيد لكل شىء بعده!.. ومن ثم كانت حرية هذا «العبد ـ السيد» محكومة بشريعة خالقه، التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف، الأمر الذى جعل المضمون الإسلامى للسياسة فى العمران الإسلامى لا يقف عند المعايير المادية فى حدودها الدنيوية معزولة عن معايير الصلاح الأخروى.. وإنما ربط هذا المضمون الإسلامى لمصطلح السياسة بين المعايير الدنيوية والأخروية بعروة وثقى!

لقد عرفت القواميس الإسلامية «السياسة» ـ انطلاقًا من هذه «الصورة الإسلامية» للإنسان، بأنها: «هى استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل.. وتدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة..»[2].

فهى ليست مطلق طلب الصلاح والمصلحة الدنيوية والعاجلة.. بل الصلاح والمصلحة التى تجعل نجاة الدنيا محققة للنجاة فى الآخرة.. وهى ليست مطلق تدبير المعاش وتنميته وفق المعايير الدنيوية وحدها، بل التدبير المحكوم بمعايير سنن العدل والاستقامة التى وضعها الخالق لخليفته إطارًا وفلسفة حاكمة لسياسة العمران.

ولما كان العمران البشرى فى الدنيا هو ميدان «السياسة»، وفيه من «المتغيرات» و«المستجدات» أكثر مما فيه من «الثوابت».. جاءت نصوص الدين والشرع الإلهى متناهية، بينما لا تتناهى متغيرات العمران الدنيوى ومستجداته.. فكان أن وقفت النصوص الشرعية، فى سياسة العمران، عند الثوابت والكليات والفلسفات والقواعد والمبادئ والأطر الحاكمة، تاركة للعقل الإنسانى والاجتهاد البشرى حرية التفريع والبناء والتفصيل والإبداع فى إطار القواعد والمبادئ والأطر الحاكمة، تحقيقًا لإسلامية العمران المتجدد، بمد فروع إسلامية من الأصول والقواعد لتظلل بالإسلام هذه المتغيرات والمستجدات.. فتتواصل الصبغة الإسلامية للعمران، دونما جمود.. ودونما قطيعة مع الأصول.

ولتحقيق هذه الخصيصة التى اقتضاها ختم الرسالات الإلهية برسالة محمد (ﷺ)، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى على أن «شرعية» السياسة لا تقف عند ما نص عليه الشرع، وإنما هى «الشرعية» ـ متحققة فيما يبدع المسلمون من السياسات، طالما أنها لا تخالف ما شرعه الله..».. فالسياسة: ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن

(١) انظر «التعريفات» للجرجانى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م، و«معجم ألفاظ القرآن الكريم» ـ وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة طبعة سنة ١٣٧٠هـ سنة ١٩٧٠م.

(٢) أبو البقاء «الكليات» تحقيق د. عدنان درويش، محمد المصرى طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م.

الفساد، وإن لم يشرعه الرسول (ﷺ)، ولا نزل به وحي.. فهي لا تنحصر فيما نطق به الشرع، وإنما تشمل ما لم يخالف ما نطق به الشرع، والسياسة العادلة غير مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع.. وتقسيم بعضهم الحكم إلى: شريعة، وسياسة، كتقسيم غيرهم الدين إلى: شريعة، وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى: عقل، ونقل.. وكل ذلك باطل، بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قيم لها، والباطل ضدها ومنافيها.. ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها، ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة.. فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها..»[3].

هكذا، استقر في الفكر الإسلامي الإخاء بين «إسلامية» مضمون مصطلح «السياسة»، انطلاقاً من صورة الإنسان في الإسلام - صورة الإنسان الخليفة عن الله - ومن كون سياسته للعمران البشري هي الأمانة التي حملها والتكليف الإلهي الذي اختاره، كرسالة محكومة حريته في أدائها بالشريعة الإلهية، التي هي بمثابة بنود عهد وعقد الوكالة والاستخلاف.. ولم تقف هذه «الإسلامية» لـ «السياسة» عند حدود ما نصت عليه النصوص المتناهية، بل امتدت - باستصحاب ضوابط النصوص وروحها وفلسفة قواعدها - امتدت، بالاجتهاد الإسلامي، إلى ما لم ترد به النصوص.

ذلك هو مضمون مصطلح «السياسة» في فكر الإسلام: استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل.. والأفعال التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد.. وتدبير المعاش على سنن العدل والاستقامة الإسلامية..».

وعلى هذا النحو ظلت السيادة لهذه المضامين في معاجمنا وقواميسنا إلى أن جاء الاحتكاك الحضاري بين أمتنا وبين فكر الغرب وحضارته، فدخلت في معاجمنا وقواميسنا المعربة المضامين الغربية المتميزة لمصطلح «السياسة» لتصب في نفس الوعاء.. الأمر الذي أحدث ازدواجية في المفهوم والمضمون، رغم وحدة المصطلح والوعاء.. وهي مشكلة تواجه العقل المسلم في بحثه عن المضامين الإسلامية المتميزة في قواميس ومعاجم خلطت مضامين الغرب بمضامين الإسلام عندما عرّفت الكثير من المصطلحات!

(٣) ابن القيم «إعلام الموقعين» ج٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ص ١٧ - ١٩، ٥ تحقيق: د. جميل غازي طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

فإذا كانت «السياسة»، في العرف الإسلامي لا تقف عند استصلاح الخلق في العاجلة - «الدنيا» - وحدها؛ لأن صورة الإنسان في الإسلام هي صورة الخليفة عن الله، والذي يعمر الدنيا كمعبر للآخرة، التي هي خير وأبقى.. فإن «السياسة» في الحضارة الغربية، ذات الطابع الوضعي، إنما تقف عند تدبير الإنسان لحياته الدنيا وحده.. فهو في عرف تلك الحضارة سيد هذا الكون، ومقاصد عمرانه لدنياه هي تعظيم اللذة في هذه الحياة، وتنمية الوفرة المادية، وتكثير القوة، دونما رابط يربط ذلك بالدار الآخرة، أو ضابط ديني ولا معيار شرعي يتخذه إطاراً حاكماً لهذه التدابير والسياسات.. فالواقع المحسوس هو المنطلق.. والعقل والحواس هي سبل المعرفة..

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤)

إنها سياسة دنيوية المحتوى والمقاصد، لا تبغيا شيئاً خارج العمران الدنيوي، ولا تحكمها أية معايير غير دنيوية، ولا دخل فيها لسنن الدين وفلسفته وضوابطه!..

ولهذه النظرة الدنيوية الخالصة للإنسان، ولسياسته للعمران البشري، كانت علمانية الحضارة الغربية فصلاً للدين، لا عن «الدولة» وحدها - كسلطة تنفيذية - وإنما فصلاً له واستبعاداً لمعاييره من كل شئون العمران البشري، المعرفية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، والأخلاقية، والفلسفية.. إلخ.. فإنسانها «دنيوي» ذو مقاصد «دنيوية»، تحكم سياسته للعمران المعايير الدنيوية وحدها.

وعندما يكتب أستاذ مسيحي معرفاً مصطلح «العلماني» - Secular - فيقول: إنه «نسبة إلى العَلْم «مصدر غير قياسي» بمعنى العالم، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي، وهذه تفرقة مسيحية لا وجود لها في الإسلام، وأساسها وجود سلطة روحية هي سلطة الكنيسة، وسلطة مدنية هي سلطة الولاة والأمراء.. والعلمانيون يحكّمون، بوجه عام، العقل، ويرعون المصلحة العامة دون تقيد بنصوص أو طقوس دينية..»[4].. فإنه يقدم شهادة - غير متهمة - على أن العلمانية الغربية - فضلاً عن أنها خصيصة غربية هي فصل للدين عن الدنيا، واستبعاد لمعاييره عن أن تكون حاكمة في سياسة العمران.. كل العمران..

ولذلك، كان طبيعياً في حضارة علمانية أن تكون السياسة علمانية هي الأخرى، فهي تدبير «الإنسان - الدنيوي» لحياته «الدنيا»، وصولاً إلى مقاصد «دنيوية» صرفة - ولقد صاغ ميكافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) في كتاب «الأمير» فلسفة السياسة في الحضارة الغربية العلمانية، باعتبارها: «الممكن من الواقع» - دونما ضوابط أو معايير دينية لهذا الممكن من هذا الواقع.. وتحدثت القواميس عن هذه السياسة - Policy - فقالت: «إنها أسلوب معين للعمل اختير بطريقة مقصودة بعد استعراض كافة البدائل الممكنة..».. دونما إشارة إلى الصلاح

(٤) د. حنا رزق انظر: «معجم العلوم الاجتماعية» تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الدينى الذى يربط سياسة الدنيا بمقاصد الآخرة.. ولذلك جاهرت التعريفات الغربية بأن «القوة» وعلاقاتها، والصراع بين مالكيها هو محور هذه «السياسة».. «فالتعريفات الحديثة للسياسة ـ Politics ـ تذهب إلى أن محور السياسة: هو الصراع حول طبيعة الحياة الخيرة، وعلاقة مصالح الجماعة بها. أما العناصر التحليلية الرئيسية فهى: الصراع، والقوة.. والفعل السياسى: هو الذى يحدث من خلال منظور القوة.. التى تمارس من خلال عملية الحكم وفى إطار الدولة. ودراسة السياسة: هى تحليل لعلاقات القوة..»[٥].

فالإنسان دنيوى فقط.. والحضارة دنيوية ـ علمانية ـ فقط.. ومن ثم فالسياسة فيها هى من الممكن ـ الدنيوى ـ من الواقع ـ الدنيوى ـ.. دونما علاقة بين هذه الدنيا وبين الآخرة، ولا علاقة بين تدبير المعاش وسياسة العمران وبين الاستقامة الدينية.

ذلك هو جوهر ومنطلق الخلاف بين مضمون «السياسة» فى الحضارة الإسلامية ومضمونها فى الحضارة الغربية.. يبدأ من الخلاف حول تصور كل حضارة لـ«الإنسان».. أخليفة هو عند الله، سبحانه وتعالى، فتكون دنياه معبراً إلى الآخرة، التى هى خير وأبقى، فيسوس عمران الدنيا بشريعة الدين، قياماً بتكاليف عقد وعهد الاستخلاف.. على النحو الذى يجعل هذه «السياسة»: «سياسة ـ شرعية»..؟؟.. أم أن هذا الإنسان هو سيد هذا الكون، الذى تقف معارفه وعلومه عند ظاهرة الحياة الدنيا.. والذى تتغيا سياسته للعمران تحقيق المقاصد الدنيوية ولا شىء وراءها.. حتى ليفصل الدين عن العمران كله، وليس فقط عن «الدولة»، كسلطة تنفيذية؟؟..

هكذا وجدنا ونجد أنفسنا أمام مضمون واحد لمصطلح «الإسلام».. وأمام مضمونين متميزين لمصطلح «السياسة»، اختلطا فى المعاجم والقواميس التى صبت المعانى الغربية المتميزة فى أوعية المصطلحات التى اتفقت فيها الحضارات!..

***

وإذا كنا نلح اليوم، ونحن نسعى إلى صفاء الرؤية الإسلامية، وإلى تحرير العقل المسلم من الغبش الذى ألحقه به عدم التمييز بين «أوعية» ـ مصطلحات ـ لا مشاحة فى وضعها واستخدامها، وبين «مضامين» تحمل خصوصيات حضارية متميزة بتميز الحضارات والثقافات.. إذا كنا نسعى إلى ذلك، فنحن لا نبتدع اختراعا غير مسبوق.. فالعلامة ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) عندما تحدث عن «الدولة»، و«الملك» ـ الذى تشترك فيه كل ألوان الاجتماع البشرى ـ ميز بين «السياسات» التى تطبع وتصبغ الدول وسلطات الملك.. فتحدث عن تميز «السياسة الإسلامية» عن «السياسة الدنيوية».. فالأولى سياستها شرعية، تربط صلاح الدنيا بصلاح الآخرة، بينما لا تربط الثانية بين الصلاحين.. فالسياسة الدنيوية هى التى تقف مرجعيتها عند العقل، كملكة للإنسان الدنيوى.. بينما تجعل السياسة الإسلامية من الشريعة

(٥) قاموس علم الاجتماع، تحرير ومراجعة: د. محمد عاطف غيث طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

إطاراً حاكماً لحركة العقل المسلم، وصولا بالسياسة إلى تغير سعادة الدنيا والآخرة كليهما.. بل لقد ميز ابن خلدون بين هذين اللونين من ألوان «السياسة»، وبين «سياسة القهر» والاستبداد، التى لا قانون لها، ولا مرجعية تحكمها إلا شهوة استبداد المستبدين!..

لقد تحدث ابن خلدون عن أنواع السياسات هذه، فقال: «.. وحقيقة الملك: أنه الاجتماع الضرورى للبشر.. ويجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها.. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولا يتم استيلاؤها:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ (الأحزاب: ٣٨)

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله، بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل، إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم:

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥٣)

فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم، من عبادة ومعاملة، حتى فى الملك، الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى، فأجرته على منهاج الدين، ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال[٦] القوة الغضبية فى مرعاها، فجور وعدوان ومذموم عنده، كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها، فمذموم أيضاً؛ لأنه نظر بغير نور الله:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠)

لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم، من ملك أو غيره، قال ﷺ: «إنما هى أعمالكم ترد عليكم»[٧].

وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط:

(٦) أى إطلاقه.

(٧) وفى صحيح مسلم: «إنما هى أعمالكم أحصيها لكم».

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الروم : ٧)

ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة.

والملك الطبيعى: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

والسياسى: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

والخلافة: هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به..»[٨].

فالسياسة.. كالملك.. والدولة.. مصطلحات عامة فى كل النظم والحضارات.. لا مشاحة فى وضعها ولا فى استعمالها.. لكن المضامين، فى هذه المصطلحات، تتمايز بتمايز النظم والحضارات.

فالسياسة الشرعية هى التى تتغيا بتدبير عمران الدنيا تحقيق سعادة الآخرة.. وإنسانها خليفة عن الله، يتعبده بسياسة العمران الدنيوى.. فهو عبدلله وحده، وسيد لكل شىء بعده!

بينما السياسة الدنيوية ـ العلمانية ـ التى تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بصرائها، فإنها تتغير ـ بتعبير ابن خلدون أيضا ـ «مصالح الدنيا فقط»:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

وهكذا تتميز مضامين «السياسة» بتميز صورة ومثال «الإنسان»:

أخليفة عن الله فى هذا الوجود؟؟..

أم السيد فى هذا الوجود؟؟!

-٢-

شيئًا فشيئًا.. ومع ما يشهده عالمنا، بحضاراته المختلفة، فى السنوات الأخيرة، من سقوط وتراجع «الإيديولوجيات» العلمانية الوضعية، تلك التى ناصبت الدين والإيمان الدينى العداء، أو تلك التى عزلته عن سياسات العمران.. شيئا فشيئا يدرك عقلاء العالم، من مختلف الحضارات، وتدرك فطرة الجماهير حاجة العمران البشرى إلى العامل الدينى وإلى النظرة المؤمنة والمعايير الدينية فى شئون الحياة الدنيا.. فبعد تراجع الموجة المادية للعلم

(٨) «المقدمة» ص ١٥٠ - ١٥١ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

الغربى، تلك التى قامت على أسسها الوضعية الغربية، بمدارسها المادية والمنطقية، والتى أوهمت إنسان الحضارة الغربية أنه سيد الكون، القادر على فض كل أسرار الغيب واكتناه كل جوانب وحقائق المجهول.. يعود الإنسان مرة أخرى إلى اكتشاف صدق الحقيقة القرآنية

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥)

وذلك عندما يكتشف التلازم بين إحساسه باتساع مساحات الغيب والمجهول كلما اتسعت مساحات المعلوم والمعروف؟!![٩].

وهذه التحولات الجديدة، فى إطار صفوة العقلاء، وفطرة الجماهير، لابد وأن تلفت أنظار الكافة إلى عظمة الصدق فى المذهبية الإسلامية التى ظلت صامدة أمام فتنة مادية الغرب ووضعيته وعلمانيته، معلنة عن أن الإسلام إنما هو منهج شامل لكل مناحى الحياة، وعن أن إسلامية العمران الإنسانى وتدينه هى السبيل إلى توازن الإنسان مع نفسه، ومع معارفه وعلومه، ومع مجتمعاته وأقرانه، ومع الطبيعة التى سخرت له، ومع الكون الذى هو حامل أمانة إعماره، كخليفة عن الله، سبحانه وتعالى، وعن أن هذه النظرة الإيمانية التى تتأسس عليها الفلسفة الإنسانية، فى النظر إلى «المبدأ».. وإلى «المسيرة» ومعناها.. وإلى «المصير» والغايات منه.. هى السبيل لانتشال الإنسان من قنوطه

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر : ٥٦)

وهى السبيل إلى تحقيق سعادته الحقيقية فى دنياه، والتى عليها تتأسس سعادته فى دار البقاء!

إن إسلامية العمران الإنسانى، إنما تحقق هذه السعادة الإنسانية، بتحقيقها لتوازن الإنسان والذى بدونه ـ التوازن ـ يختل كل شىء فى الوجود فالتوازن هو سر قيام كل ما عدا الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء.

ونقطة البدء فى طريق هذا التوازن، الذى تحققه إسلامية العمران البشرى، هو تحقيق توازن المعرفة الإنسانية، التى يتأسس عليها العمران، وذلك بإقامتها على حقائق ومعارف ستن كل من «كتاب الوحى» المقروء و«كتاب الكون المنظور» كمصدرين للمعرفة والعلوم.. فهما «الساقان» المحققان لتوازن مصادر المعرفة للإنسان.. وأيضا تحقيق التوازن فى سبيل المعرفة وأدواتها باعتماد «العقل والحواس» و«النقل والأدلة السمعية» مع «الوجدان والفؤاد والذوق» سبلًا متعاونة ومتكاملة فى تحصيل المعارف الإنسانية..

(٩) انظر: روبرت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو «العلم فى منظوره الجديد» ترجمة: كمال خلايلى طبعة الكويت - عالم المعرفة - سنة ١٩٨٩م.

إن عقول العقلاء، وقطرة قطاعات واسعة من الجماهير، خارج دائرة التدين بالإسلام، تدرك أكثر فأكثر - وخاصة بعد سقوط وتراجع الإيديولوجيات المادية والوضعية والعلمانية - أن السبيل الإيمان والنظرة الإيمانية - التي ظل الإسلام رافعاً لأعلامها - هي سبيل «المنفعة - الحقة» و«السعادة الحقيقية» للإنسان في هذه الحياة.

وهنا.. يضيف الإسلام إلى هذا الذي بدأت الإنسانية اكتشافه والاتجاه نحوه.. عندما يؤكد على أن معيار «سعادة الدنيا» هو «سعادة الآخرة».. لأن الوقوف عند «سعادة الدنيا» هو وقوف عند «المادة» و«اللذة» و«الشهوة».. أي أنه، في الحقيقة، «الخلل» الذي لا علاقة له «بالتوازن» المنشود؟!..

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (الروم: ٧)

لابد وأن تكون دنياهم، فقط:

﴿لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾

(الحديد: ٢٠)

بل ويضيف الإسلام، في تأكيد هذا المنهاج - منهاج إسلامية العمران البشرى ما هو أبعد من «منفعة - التوازن» المحققة «للسعادة - الإنسانية» عندما يعلمنا أن هذه الإسلامية - أي إقامة العلاقة بين «سنن الله» المبثوثة في «كتاب الوحي» وبين «سنن الأنفس والآفاق» المخلوقة في الاجتماع الإنساني وفي الكون المادي.. إنما هي فريضة دينية وواجب إلهي وتكليف شرعي، بدون الالتزام به يكون الإنسان عاصيا للخالق، وناقضا لعقد وعهد خلافته عن الله في إقامة العمران الدنيوى، وخائنا للأمانة التي حملها وهو حر مختار.. فالصيغة الإسلامية، والطابع الإيماني، والمعايير الشرعية للعمران الإنساني، ليست مجرد خيار واختيار محقق للتوازن، ومن ثم للمنفعة والسعادة، وإنما هي تكاليف وفرائض وواجبات دينية لا يصح الإيمان الديني بإنكارها وجحودها، ولا يكتمل بتعطيلها.. إنها عبادة المخلوق للخالق في شئون العمران الدنيوى، كما أن الصلاة والصوم - وغيرهما من التكاليف الفردية - هي عبادة المخلوق للخالق، بها تؤدى شعائر التكاليف الدينية!..

تلك هي إسلامية العمران الإنساني.. وفيها يرد كل «البلاغ القرآني» وكل «البيان النبوى» لهذا «البلاغ القرآني» - وليس فقط آيات الأحكام - في القرآن -... والسنة التشريعية - في الحديث النبوى -.. وهذه الإسلامية للعمران كله هي المدخل لموضوع هذه الصفحات: إسلامية سياسة الدولة، كما يراها الإسلام، ومعنى هذه الإسلامية وأطرها ومعاييرها التي تضمن تحقيق الإسلامية في مؤسسات الدولة التشريعية والقضائية.. والتنفيذية.

***

في القرآن الكريم آيات أجملت قواعد وبنود التعاقد بين «الرعية» وبين «الرعاة».. بين «الأمة» وبين «أولى الأمر» فيها.. ومن هذه الآيات قول الله، سبحانه وتعالى، في سورة النساء:

﴿إن الله يأمركم
أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن
تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا
بصيرا (٥٨) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩)
ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت
وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم
ضلالا بعيدا (٦٠) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل
الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك
صدودا (٦١) فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما
قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا
إحسانا وتوفيقا (٦٢) أولئك الذين يعلم الله ما
في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في
أنفسهم قولا بليغا (٦٣) وما أرسلنا من رسول إلا
ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم
جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول
لوجدوا الله توابا رحيما (٦٤) فلا وربك لا يؤمنون
حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء: ٥٨ - ٦٥)

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(الشورى: ١٠)

ففى هذه الآيات القرآنية - التى آثرنا الاكتفاء بالنظر فيها تحقيقاً للإيجاز - مع الوفاء والحسم - نجد بنود التعاقد بين «الرعية» و«أولى الأمر» واضحة ومحددة غاية الوضوح والتحديد.

● فعلى أولى الأمر أن يؤدوا الأمانات.. أمانات السلطات التى فوض إليهم الناس أمر القيام بها نيابة عنهم.. أن يؤدوا هذه الأمانات إلى أهلها المستحقين لها.. كل الأمانات، وكاملها، فى كل ميادين السلطات.

● ولقد بدأت بنود التعاقد بما هو مفروض على أولى الأمر، لما لسلطاتهم وسلطاتهم من خطر فى شئون الدولة والعمران.. وللتأكيد على أن وفاءهم بما فرض الله عليهم هو الشرط والمبرر لطاعة الأمة والرعية لهم!

● وزيادة فى التنبيه على خطر مسئولية ولاة الأمر، نبهت الآية على أن هذا الوفاء فى تأدية الأمانات هو أمر الله وفريضته.. فهو ليس شأناً دنيوياً صرفاً بين الرعاة والرعية.. وإنما هو فريضة إلهية، أمر بها الله، وهو يعظهم بالامتثال لأمره فيها.

● ومع الشمول الذى يدل عليه مصطلح «الأمانات» خصت الآية بالذكر «الحكم بالعدل بين الناس» وفيه التأكيد على إسلامية سلطات «التشريع» و«القضاء»!.

● وفى مقابل وفاء أولى الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل بين الناس، تكون طاعة الرعية.

● على أن اللافت للنظر فى هذه الآيات، أن الطاعة الواجبة على الرعية ليست لمطلق «أولى الأمر».. فالطاعة أصلاً إنما هى لله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾

ثم للرسول، فيما يبلغ عن الله:

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

- وطاعة الله ورسوله تعنى التزام الأمة بالبلاغ الإلهى - القرآن الكريم - وبالبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى - السنة النبوية الصحيحة فى التشريع - وبهذه الطاعة يتحقق إيمان الأمة، فتستحق خطاب:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

- ثم تأتى الإشارة إلى طاعة أولى الأمر، فتذكرهم بصيغة الجمع، تأكيد على نفى الاستبداد والانفراد بالسلطة والسلطان - فهم: ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ لا «ولى الأمر»؟!

ولابد وأن يكونوا من الأمة المؤمنة، التى معيار إيمانها هو طاعة الله والرسول.. أى لابد وأن يكون أولوا الأمر ملتزمين بالطاعة لله والرسول، فتكون الشريعة هى الحاكمة فى علاقاتهم بالمحكومين.

﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

● وتمضى الآية لتحدد وتفصل فى بنود هذا التعاقد، فتجعل المرجعية، عند حدوث التنازع والاختلاف، بين طرفى التعاقد - الرعية.. والرعاة - لله ورسوله.. أى للبلاغ القرآنى والبيان النبوى لهذا البلاغ:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

● ولا تكتفى الآية بهذا التحديد لهذه المرجعية - وهو التحديد الذى يؤكد على إسلامية المرجعية للدولة الإسلامية، وحاكمية الشريعة الإلهية فى مختلف ميادين سياساتها - لا تكتفى الآية بهذا التحديد الواضح والجلى.. وإنما تصنيف الإعلان الإلهى عن أن الوفاء ببنود هذا التعاقد - المحدد لإسلامية الدولة.. وإسلامية علاقة الحكام بالمحكومين - هو شرط الإيمان بالله واليوم الآخر.. فإسلامية «الدولة» هى الشرط فى تحقيق الإيمان «بالدين»؟!.. وإذا انتفت هذه الإسلامية، بالإنكار والجحود، انتفى إيمان المنكرين والجاحدين لها بالله واليوم الآخر:

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

فمعيار الإيمان بالله واليوم الآخر، هو جعل الشريعة الإلهية المرجعية للدولة، وللتعاقد بين الرعية والرعاة!.

● ثم تمضى الآيات فى ضرب الأمثال.. وفى إيراد المؤكدات على أن هذه هى حقيقة طبيعة التعاقد - الدولة - فى النظرة الإسلامية.

فالذين يتحاكمون إلى الطاغوت، لا إلى الشريعة الإلهية، ليسوا بمؤمنين بالدين، رغم أنهم «يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك».. فحاكمية الشريعة فى «الدولة» شرط لتحقق الإيمان «بالدين»!.

والإسلام ليس بالدين الذى نزل ليقف الرسول به عند حدود «البلاغ».. وإنما هو دين جاء ليقيمه الناس معياراً حاكماً للعمران، وليجسدوه نظماً وسياسات فى الدنيا، وأعمالاً ترد عليهم يوم القيامة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

ثم يأتى ختام السياق بقسم الله، سبحانه وتعالى، بذاته، إن الإيمان الدينى منفى عن الذين لا يحكمون الشريعة الإلهية قانوناً لقضاء الدولة والمجتمع.. لا كواقع يذعنون له.. بل وعلى النحو الذى لا تجد فيه نفوسهم منه حرجاً:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

تلك هي بنود التعاقد القرآني بين «الأمة وبين «أولى الأمر» على إقامة «الدولة الإسلامية».

«أمة» ملتزمة بالكتاب والسنة.. و«أولو أمر» منها، ومثلها في هذا الالتزام بالكتاب والسنة.. والمرجعية الإسلامية لهذا التعاقد هي الشرط لتحقق الإيمان بالله واليوم الآخر لكل من الحاكمين والمحكومين!

فإسلامية «الدولة» شرط لتحقيق الإسلام في «الدين».. فهي ليست مجرد سبيل لتحقيق «المصلحة» الدنيوية، وإنما هي تكليف من تكاليف الدين!

ولقد كانت لمحة عبقرية من شيخ الإسلام ابن تيمية «٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م» عندما رأى في هذه الآيات القرآنية - التي حددت بنود التعاقد بين الرعية والرعاة - رأى فيها «جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة».. أي جماع السياسة الشرعية، وإسلامية السياسة.. فكتب في رسالته «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» يقول: «هذه الرسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

(النساء: ٥٨، ٥٩)

قال العلماء: «نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية، من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلية لذلك، في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يؤمروا بمعصية الله تعالى، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[١٠].

أما الإمام محمد عبده «١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م» فلقد نبه، عندما وقف أمام هذه الآيات، على شمول مصطلح «أولي الأمر» لكل القيادات والسلطات و

(١٠) ص ١٥ - ١٦ تحقيق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

المؤسسات في المجتمع، الأمر الذي يجعلها نصاً قاطعاً في «إسلامية العمران الإنساني» وليس في إسلامية «الدولة» - بسلطاتها الثلاث - وحدها كما نبه على الشروط التي تجعل السلطات «أولي الأمر» هؤلاء حجية شرعية ومشروعية إسلامية.. فقال: «إن المراد بأولي الأمر: جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم الأمراء - «أي السلطة التنفيذية»، والحكام - «أي السلطة القضائية» - العلماء - «أي السلطة التشريعية» - ورؤساء، «وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة - «أي قيادات كل مؤسسات المجتمع» - فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا منا، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله ﷺ التي عرفت بالتواتر، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة، وهو ما لولي الأمر سلطة فيه ووقوف عليه، وأما العبادات وما كان من قبل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط، ليس لأحد رأي فيه إلا ما يكون في فهمه..»[١١].

فالإسلامية فريضة في مطلق سلطات قيادات ومؤسسات الاجتماع الإنساني، وليس في نطاق الدولة وحدها.. والآيات تختص بالحديث عن سلطات ومؤسسات العمران البشري - السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والمعرفية والحربية.. إلخ - وليس عن ميادين «الدين - الخالص»، من العقائد والعبادات، فهذه إنما تؤخذ مباشرة عن الله ورسوله، دونما وساطة سلطات أو مؤسسات!.. إنها ميادين الإنسان الخليفة، في إعمار الحياة الدنيا، تلك التي حمل أمانة إعمارها بالحرية والاختيار.. حددت معايير الإسلامية لها شريعة الله، التي مثلت وتمثل بنود عقد وعهد الاستخلاف.

***

(١١) «الأعمال الكاملة» جـ٥ ص٢٢٨ تحقيق ودراسة: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

قال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣-٢٤)

قلنا: إن الكلام من أول السورة في القرآن وتفصيل أحوال الناس في الإيمان به وعدمه. وهذه الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع في كل ما تقدم. فالآيات متصل بعضها ببعض كحبات من الجوهر نظمت في سلك واحد. فإنه بعد ما ذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن، وعلاماتهم، وبين خصائصهم وصفاتهم. وذكر الجاحدين المعاندين، وما هم عليه من العمى عن جلية الحق المبين، وما رزئوا به من الصمم المعنوي حتى إنهم لا يسمعون الحجج والبراهين، وما أصيبوا به من البكم بالنسبة لقول الحق أو سؤال المرشدين. ثم ذكر المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وذكر فرقهم وأصنافهم، وبين خلائقهم وأوصافهم، وضرب لهم الأمثال، ونضلهم في ميدان الجدال، بسهام الحجج النافذة، وسيوف البراهين القاطعة - بعد هذا كله. تحداهم بالكتاب الذي يدعو إليه ويناضل عنه ويكافح دونه:

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾

(البقرة: ٢)

فقال:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾

أي يأيها الناس: عليكم بعد أن تسلوا من مضيق الوساوس، وتتسللوا من مآزق الهواجس، وتنزعوا ما طوقكم به التقليد من القلائد، وتكسروا مقاطر ما ورثتم من العوائد، أن تهرعوا إلى الحق بذاته. فهذه آية من أظهر آياته، وهي عجزكم عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن من رجل، أي مثل الذي جاءكم به، وهو عبدنا ورسولنا محمد ﷺ. وإن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله تساوي سورة في هدايتها، وتضارعها في أسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة، وعصركم أرقى عصور الفصاحة، وقد اشتهر كثيرون منكم بالسبق في هذا الميدان، ولم يكن محمد ﷺ ممن يسابقكم من قبل في هذا الرهان؛ لأنه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه، ولم يتمرن عليه أو يتكلفه لمباراة أهله، فاعلموا أن ما جاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلا بوحي إلهي، وإمداد سماوي، لم يسم عقله إلى علمه، ولا بيانه إلى أسلوبه ونظمه.

وعبر عن كون الريب بـ﴿ وَإِن ﴾، للإيذان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه؛ لأن الحق فيه ظاهر بذاته، ويتلألأ نوره في كل آية من آياته، ولكن:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة
فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

والتنزيل من مادة النزول كالإنزال، وتقدم تفسيره، إلا أن صيغة (التفعيل) الدالة على التدريج أو التكثير، تفيد أن القرآن نزل نجوما متفرقة، وهو الواقع، وصيغة أنزل لا تنفيه.

وقوله تعالى: ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ فيه وجهان:

(أحدهما): أن الضمير في «مثله» للقرآن المعبر عنه بقوله: ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا ﴾

(والثاني): أنه لعبدنا.. وهو أرجح بدليل ﴿ مِّن ﴾ الداخلة على ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ الدالة على النشوء، أي فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل. قال تعالى:

﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾

الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله، وهؤلاء الشهداء هم غير الله تعالى بالضرورة، أي ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

أو ادعوا كل أحد غير الله تعالى ليؤيد دعواكم كما أيد الله تعالى دعوة عبده ﷺ، وانظروا هل يغنيكم دعاؤكم شيئا ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم أن عندكم فيه ريبا. وإنما يصدق المرتاب في ريبه إذا خفيت الحجة، وغلبت الشبهة، وكان جادا في النظر. فهو يقول: إن كنتم صادقين في أنكم مرتابون، فلديكم ما يمحص الحق، فجدوا في الفكر، ولا تتوانوا في النظر، وتدبروا هذا الكتاب. وها هو ذا معروض عليكم، وأتوا بسورة واحدة من مثل هذا النبي الأمي. فإذا أمكن لكم ذلك، فللخاطر الريب أن يمر بنفوسكم، وإلا فما وجه إعراضكم عن دعوته، وإبطائكم عن تلبيته؟ أي إذا تجردت نفوسكم وخلصت عقولكم مما أنتم عليه من التقاليد والأهواء، ونظرتم في القرآن نظر إنصاف، فلا يمكن أن يحوم الريب حولكم، ولا أن يدنو الشك فيه منكم. ولو فرضنا أن طائفا منه مس قلوبكم، فإن أمام أعينكم ما يدفعه، وهو إعجاز القرآن.

ثم قال تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾

أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله، وتجتثوا دليله من أصله، وما أنتم بفاعلين، لأن هذا ليس في طاقة المخلوقين: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي ﴾ أعدت لأمثالكم من الكافرين، الذين يجحدون الحق بعد البرهان المبين. وقوله تعالى:

﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ جملة معترضة بين الشرط

وجوابه، وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجزهم بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة. ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبي ﷺ في أمر ممكن عقلا، لولا أن أنطقه الله الذي خصه بالوحي، وهو الذي يعلم غيب السموات والأرض، بأنه غير ممكن لأحد.

وعبر عن نفي وقوع الفعل منهم بـ﴿وَإِن﴾ التي يعبر بها عما يشك في شرطه، أو يجزم المتكلم بعدم وقوعه. ومقتضى القاعدة، أن يكون الشرط هنا بإذا لأن المحقق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية، مع القطع بأن الله تعالى منزه عن الشك. ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة، قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يلقه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه. فهاهنا يخاطب الله المرتابين، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالواثقين الموقنين، خطابا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما تحداهم به مشكوك فيه، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم، وداخلة في حدود إمكانهم. خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي تومئ إلى القدرة على المعارضة، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة. ثم كر على هذا الإيذان، بل الإبهام، بالنقض، بلا تلبث أو تريث، وأبطل مراعاة الظاهر، بل حولها إلى تهكم، بالنفي المؤكد الذي ذهب بذلك الذماء، واستبدل اليأس بالرجاء، كأنه يقول: إن إعراضكم عن الإيمان، بعد سماع هذا القرآن، الذي أفاض العلوم على أمي لم يترب في معاهد العلم، وأظهر معجزات البلاغة على من لم يكن يعرف منه التبريز بها في نثر ولا نظم، يدل على أنكم تدعون استطاعة الإتيان بسورة من مثله، وما أنتم بمستطيعين، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

(الإسراء: ٨٨)

كان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة التي تثير النخوة، وتهيج الغيرة، مع علو كعبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها، في عصر ارتقت فيه دولة الكلام، ارتقاء لم تعرف مثله الأيام، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون، ويباهون ويفاخرون، ويعقدون لذلك المجامع، ويقيمون الأسواق، ثم يطيرون بأخبارهم في الآفاق. ومع هذا، لم يتصد أحد منهم للمعارضة، ولم ينهض بليغ من مصاقعهم إلى المناهضة. فلا شك في أن الله قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرقى البشر إليها، وهو - تعالى جده - العالم بمبلغ استطاعتهم، المالك لأعنة قدرتهم. قال المتكلمون في بلاغة القرآن: إننا نجده لم يلتزم شيئا مما كانوا يلتزمون بسجعهم ورسائلهم، ورجزهم، وأشعارهم، بل جاء على النمط الفطري، والأسلوب العادي، الذي يتمنى لكل إنسان أن يحذو مثاله، ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتي غيرهم بسورة من مثله. ثم نلاحظ أيضا أن القرآن بهذا الأسلوب قد تحدى به كل من بلغه من العرب على تفرق ديارهم، وتنائي أقطارهم. وأرسل الرسول إلى الأطراف يدعو الناس إلى الإيمان به، فعمت الدعوة وبلغت مبلغا، ولم ينبر أحد للمعارضة كما قلنا. ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه، وإحساس كل بليغ بالضعف في نفسه عن الانبراء لمباراته، والتسامي لمحاكاته، وعلى أن الله تعالى جعله فوق القدر، خارقا لما يعتاد من كسب البشر؟ بلى، وإن لهذا الإعجاز وجهين:

أحدهما: كونه معجزا بذاته، لأنه في مرتبة لا يمكن لبشر أن يرتقي إليها.

وثانيهما: أنه جاء على لسان أمي لبث أربعين سنة

لم يوصف بالبلاغة، ولم يؤثر عنه شيء من العلم.

وقد ذكروا وجوها أخرى للإعجاز ينطوي عليها القرآن، منها قوله هنا:

﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ بناء على أن المخبر هو الله تعالى عالم الغيب وما يكون في المستقبل. ومن فائدة هذا القول في عهد نزوله، وقبل ظهور تأويله، أن قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضي أشد التحريض على المعارضة التي يظهر بها العجز ويقوم البرهان، بالإعجاز المقتضي للإيمان لولا مكابرة المستكبرين لوجدانهم، وجحود ألسنتهم لما استيقنته قلوبهم:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

(النمل: ١٤)

وأما من يؤمن بالغيب ويعتقد الخوارق، فما عليه إلا أن ينتهي إلى عجزه ويبادر إلى الإيمان به وبرسالة من أنزل عليه، للعلم القطعي بأنه لا يمكن لعاقل أن يجزم بذلك إلا إذا كان مطلعا على الغيب، فهو خبر عن الله عز وجل.

ثم قال تعالى مخاطبا للفريقين بعد تسجيل العجز عليهم: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ وهي موطن عذاب الآخرة، نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر الله تعالى به، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا نقول إنها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بها، وإنما نثبت لها جميع الأوصاف التي وصفها الله تعالى بها، كقوله:

﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

المراد بالحجارة الأصنام، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾

(الأنبياء: ٩٨)

ولا يسبق إلى الفهم أنها لا توجد إلا بوجود الناس والحجارة، إذ يصح أن يكونوا وقودها بعد وجودها. والوقود بالفتح ما توقد به النار، وبالضم مصدر وقد، وسمع المصدر بالفتح أيضا. وقال بعضهم في تفسير ﴿وَقُودُهَا﴾: إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضا وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم، والحجارة بعبادة الناس لها - سببان في إيجاد النار وإعدادها لهم، فبذلك كانوا كالوقود الذي تضرم به النار. وفي الكلام، تقديم السبب - وهو الناس والحجارة - على المسبب وهو قوله تعالى:

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

وبهذا التفسير يظهر الحصر في جملة:

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

فإنها إسمية معرفة الطرفين. وخص الحجارة بالذكر، لأنها أظهر المعبودات عند العرب. والمراد بالكافرين: الذين لا يجيبون دعوة الأنبياء عليهم السلام، والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها، وتقاليد يحدثونها، وتأويلات يلفقونها. فهؤلاء هم الذين أعدت وهيئت النار لهم، لأنهم الذين يستحقون الخلود فيها. ومن وردها ورودا وانتهى إلى موطن آخر، فذلك الموطن هو الذي أعد له وليس بعد الدنيا موطن إلا الجنة، جعلنا الله من أهلها بالتوفيق للتقوى، أو النار نعوذ بالله منها ومما يقرب إليها من قول وعمل.

أقسام السنة النبوية

العلامة الشيخ على الخفيف

١ (١٣٠٩-١٣٩٨هـ/١٨٩١-١٩٧٨م)

التعريف به:

- ولد بقرية «الشهداء» بمحافظة المنوفية - بدلتا النيل - بمصر.
- وتخرج فى «مدرسة القضاء الشرعى» سنة «١٣٣٣هـ/١٩١٥م»، وكانت مدرسة القضاء مع «دار العلوم» منبع التجديد والاجتهاد فى الفكر الإسلامى الحديث.
- وعين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى سنة (١٣٣٩هـ/١٩٢١م).
- وتولى القضاء بالمحاكم الشرعية.
- ثم عمل محاميا شرعيا بوزارة الأوقاف المصرية.. فمديرا للمساجد بها سنة (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م).
- وتولى أستاذية التدريس بكلية الحقوق - جامعة فؤاد الأول - القاهرة سنة (١٣٦٣هـ/١٩٤٤م).
- وكان عضوا «بمجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف - «هيئة كبار العلماء» - منذ إنشائه.. وعضوا بالمجلس الأعلى للأزهر منذ سنة (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).
- وانتدب لتدريس الشريعة الإسلامية والقانون بجامعة بغداد.. وجامعة الخرطوم.
- وكان عضوا بهيئة إخراج (موسوعة الفقه الإسلامى) بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بمصر.
- كما تولى عضوية لجنة وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية - بمصر.
- ونال عضوية «مجمع اللغة العربية» منذ سنة (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

من آثاره الفكرية

١- (الخلافة).

٢- (أحكام الوصية).

٣- (الشركات فى الفقه الإسلامى).

٤- (نظرية النيابة عن الغير).

٥- (أحكام المعاملات الشرعية).

٦- (أسباب اختلاف الفقهاء).

٧- (الحق والذمة).

٨- (البيع فى الكتاب والسنة).

٩- (الملكية فى الشريعة الإسلامية).

١٠- (الشركة والحقوق المتعلقة بها).

١١- (الإرادة المنفردة فى الفقه الإسلامى)[1].

١٢- «السنة التشريعية» وهو البحث الذى عرض فيه لأقسام السنة النبوية.

والناظر فى عناوين وموضوعات هذه الكتب والأبحاث، يدرك أن الشيخ على الخفيف كان من أئمة الاجتهاد والتجديد فى «فقه الواقع.. والمستجدات» فى ضوء «فقه الأحكام الشرعية».. الأمر الذى جعله يحتل مكانا بارزا فى تهيئة الفرص لعودة الشريعة الإسلامية إلى عرش الحاكمية فى القانون وتنظيم الاجتماع بالواقع الإسلامى المعاصر.

***

السنة التشريعية للعلامة الشيخ على الخفيف

من فضل الله على عباده ورحمته بهم، وتمام نعمته عليهم، أنه لم يتركهم لعقولهم، ولم يكلهم إلى ضمائرهم، فى إقامة أسس صلاحهم فى حياتهم، وإرساء قواعد أمنهم واستقرار وجودهم وسلامة مجتمعهم.

فالعقول متفاوتة، وأسباب انحرافها متعددة، وموازين الضمائر مختلفة تبعا لاختلاف البيئات وتغاير العادات. وكثيرا ما تضطرب هذه الموازين أمام نوازع النفوس، وتيارات الأهواء، واختلاف المصالح. وذلك ما نشاهده ونحسه فى زماننا وفيما مضى من دهور، وفى كثير من الحالات؛ مما فرق بين الناس، وجعلهم أمما وشيعا، لكل وجهته إلى ما يرى أن فيه الخير لنفسه، وإن كان فيه الدمار والهلاك لغيره.

لذلك وقد كتب الله على نفسه الرحمة، إذ يقول فى كتابه العزيز:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

(الأنعام: ٥٤)

. أرسل رسله إلى الناس ليكونوا أعلام الطريق وهداة السبيل، هداية لهم من الضلال، ووقاية لهم من الشكوك والحيرة، وإخراجا لهم من الظلمة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، بوحى من السماء وتعليم من العليم الحكيم. فكانوا فيه مبلغين ومعلمين

(١) د. نزار أباظة، محمد رياض المالح (إتمام الأعلام) طبعة بيروت سنة (١٩٩٩م).

ومبينين، وبه منذرين ومبشرين، ومنزهين فيه عن الخطأ، ومعصومين فيه من الضلال، طاعة الله في طاعتهم، وفلاح الناس وسعادة مجتمعهم في متابعتهم والاهتداء بنورهم.

لم يترك الله سبحانه وتعالى الناس سدى، فما من أمة إلا خلا فيها نذير أرسله إليهم بشريعته، كما قال في كتابه العزيز:

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾

(المائدة: ٤٨)

وعلى هذا أرسل إلينا محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب، وخاطبه بقوله فيه:

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾

(الجاثية: ١٨)

هذا ومن شريعته: عبادة يتقرب بها إلى الله – سبحانه وتعالى – وإليه وحده، تعريف الناس بوسائل قربه وطرائق رضاه فإليه بيانها وليس للعقول في ذلك مدخل. ومن ثم نيط أمرها بما يبلغه رسوله ﷺ دون أن يكون للعقل في بيانها وتحديدها مجال. ومنها معاملة هي الوسيلة إلى حياة سليمة صالحة مستقيمة، خالية من الشرور والفحشاء والمنكر، لا يهدف بها إلا إلى ذلك، علة وضع أمين يقوم على التوجيه الإلهي، مع الاسترشاد بالنظر والتجربة ومن ثم كان للعقل والنظر فيها وظيفة الهداية والإرشاد، وكانت الشريعة فيها عاصما ومسددا، ومن ثم كانت الرسالة على العموم ضرورية لهداية الناس في المجالين: أما في المجال الأول فهي السبيل الوحيد لبلوغ الغاية والقصد، وأما في المجال الثاني فهي للإرشاد والعصمة من الخطأ وتجنب الزلل.

وقد عصم الله رسوله ﷺ من الخطأ فيما أمره بإبلاغه وبيانه، ومن ثم وجبت طاعته وعدم الانحراف عما يأمر به في المجالين، إذ لم يكن فيما بلغه من ربه في الحالين من ناحية وجوب الطاعة فرق، سواء أكان إبلاغه بالقول أو بالفعل أو بالإقرار - فكان بيانه ملزما في دائرة التشريع التي أقامه الله فيها معلما ومبلغا، بشيرا ونذيراً.

وعن هذا كانت السنة - التي نحن بصدد بيانها - هي ما أثر عن رسول الله ﷺ في مجال التشريع: قول أو فعل أو تقرير، لما رآه أو بلغه ممن آمن به، أو كان في ظاهر حاله ممن التزم بطاعته، لا في نطاق الأعمال الطبيعية والأفعال العادية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾

(المائدة: ٦٧)

وقوله:

﴿ وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾

(الأنعام: ١٩)

وقوله:

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾

(النحل: ٤٤)

وآيات أخرى عديدة واضحة الإشارة والمعنى في ذلك، وعلى هذا كان ما جاءنا به محمد ﷺ وبلغنا إياه في هذا النطاق، إما قرآنا أنزله الله عليه بلفظه ومعناه، فكان أصل الدين وأساس الإيمان واليقين، وإما بيانا له أوحى الله به إليه بمعناه أو أقره عليه، وهو ما يراد بالسنة، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿ وما ينطق عن الهوى ۝ إن هو إلا وحي يوحى ۝ علمه شديد القوى ﴾

(النجم: ٣ - ٥)

وذلك ما يعم القرآن والسنة.

واسم السنة يطلق في اللغة على السيرة حسنة كانت أم سيئة، ومن ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه مسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»، كما تطلق فيها على تدبير الله أمر خلقه، ومنه قوله تعالى:

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

ويريد بها رجال الحديث عند استعمالهم إياها - وبخاصة من يكتب في السير والمغازي - كل ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو سيرة أو خلق أو شمائل أو صفات خلقية أو إخبار، دون نظر إلى صلاحية ذلك لإثبات حكم شرعي أو عدم صلاحيته.

ويطلقها علماء الأصول على أقواله وأفعاله وتقريراته مما يدل على حكم شرعي.

ويستعملها الفقهاء في الدلالة على ما ليس واجبا، مما روى أن رسول الله ﷺ قد فعله ولم يداوم عليه، كسنة الصبح وسنة الظهر.

وقد يطلقونها في مقابلة البدعة كقولهم طلاق السنة هو الطلاق في طهر لا مساس فيه.

ونريد بالسنة في موضوعنا - كما ذكرنا - ما أثر عن النبي ﷺ في محيط التشريع من قول أو فعل أو تقرير لأمر رآه أو بلغه عمن يعد في ظاهر حاله ممن آمن له. وهي بهذا المعنى لا تكون إلا فيما كان لرسول الله ﷺ فيه اختيار بين أمرين أو أكثر، فيختار ما يرى أنه الأفضل خلقا وسلوكا، ولا تكون فيما كان يأتيه ﷺ بطبيعته وإنسانيته مما لا اختيار له فيه، أو فيما كان يأتيه اختيارا بحكم العادة والميل الطبيعي الوقتي، وعلى الجملة لا تكون فيما يأتيه كل الناس بحكم خلقتهم وطبائعهم مما يعد من مقومات الحياة وضرورات الوجود والعادات، كالأكل والشرب والنوم واللباس والحركة والتخاطب والتفاهم والسعي إلى الطعام واتخاذ المسكن، ونحو ذلك.

فقد كان رسول الله ﷺ بشراً كسائر الناس:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ١١٠)

فكان يحيا كما يحيا الناس، وُلد كما يُولد الناس ومات كما يموت الناس، وكان يأكل كما يأكل الناس وينام كما ينامون ويلبس كما يلبسون، ويعيش في مجتمعهم يزور ويزار ويرضى ويغضب ويُسر ويحزن ويمشى إلى المتاجر والأسواق، ويساوم ويساوم، ويمرض ويصح ويطلب العلاج كما يطلبه الناس، ويشفع بين المتنازعين ويصالح بينهم، له وزنه وحكمه وله عاداته وله هواه. وليس عمله العادى ولا أقواله المألوفة المتكررة في هذا المجال شريعة تتبع، وإنما يفعل ذلك بحكم العادة والطبيعة، لا بحكم الرسالة والتبليغ.

أما ما يتعلق بهذه الأفعال والعادات وما يتصل بها من كيفيات وأوضاع وأشكال ووسائل ونحو ذلك فإن منه ما قد يعد سنة تشريعية يؤخذ الناس باتباعها إذا كان له ﷺ فيه اختيار كان من أثره تفضيل وضع على وضع، وصورة على صورة، وطريقة على أخرى، قصدا إلى فعل ما هو الأفضل والأنفع الذى يرجى منه الصلاح. وهذا منه ﷺ إرشاد وهداية وتشريع، وبخاصة إذا اقترن بأمر أو نهى، ما دام لم يتبين أنه ﷺ قد فعله بحكم العادة الجارية والإلف الوقتى، انقيادا للعادة والظروف والملابسات مما يبعده عن أن يكون من قبيل الإرشاد والتشريع، وذلك موضوع خطير وأمر جليل جدير بالتأنى والتريث والعمق فى النظر، وقد يضل فيه من لا علم له بما كان فى زمنه ﷺ من أعراف وعادات لها سلطانها ورسوخها وعمومها، وبما كان لرسول الله ﷺ من سيرة وطريقة وخلق ومنهج، وإنما يعرف ما يراد منه التشريع بالنظر والاجتهاد وسعة الاطلاع والتعرف على شمائله ﷺ.

ومن أمثلة ذلك ما صدر منه ﷺ من أفعال وهيئات فى حجه: مثل نزوله ﷺ فى بعض الأماكن أثناء سيره، ومدة إقامته فيها ومبيته بها، ومثل إسراعه أو عدم إسراعه فى طوافه وفى سعيه، مما يكون قد فعله تشريعا يتناول قوله ﷺ: «خذوا عنى مناسككم» (السنن الكبرى للبيهقى رقم ٩٥٢٤) أو فعله للاستجمام وأخذ الأهبة، أو لغرض آخر من أغراض الحياة. ولذا كان فعله هذا موضع خلاف ومثار نزاع بين الفقهاء؛ منهم من رآه من قبيل التشريع، ومنهم من لم يره كذلك، ولم ير فى تركه حرجا، وعلى الجملة فكل ما نطق به الرسول - صلوات الله عليه - من قول أو أتاه من فعل أو صدر عنه فى شأنه إقرار هداية للناس وشريعة لهم، أو وصل إليه بنظره واجتهاده فأقره الله عليه مما ليس بقرآن هو ما يراد بالسنة التى هى المصدر الثانى لشرع الأحكام بعد القرآن.

يتبع...

موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها



للأستاذ الدكتور / محمد عبدالله دراز

إذا أخذنا كلمة «الإسلام» بمعناها القرآنى نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام فى لغة القرآن ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء، هكذا نرى نوحا يقول لقومه:

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(سورة يونس: ٧٢)

ويعقوب يوصى بنيه:

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(سورة البقرة: ١٣٢)

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم:

﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٣)

وموسى يقول لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

(سورة يونس: ٨٤)

والحواريون يقولون لعيسى:

﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(سورة آل عمران: ٥٢)

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن:

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾

(سورة القصص: ٥٣)

وبالجملة نرى اسم الإسلام شعارًا عامًا يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها فى قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ﷺ، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديداً، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(سورة الشورى: ١٣)

ثم تراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة لها إله واحد كما لها شريعة واحدة:

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾

(سورة الأنبياء: ٩٢)

ما هذا الدين المشترك الذى اسمه الإسلام، والذى هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟ إن الذى يقرأ يعرف كنه هذا الدين: إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين فى خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله.

هكذا يقول القرآن:

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾

(سورة البينة: ٥)

ويقول:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾

(سورة البقرة: ١٣٦)

نقول -إذاً- إن الإسلام بمعناه القرآنى الذى وصفناه لا يصلح أن يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية، إذ لا يُسأل عن العلاقة بين الشىء ونفسه، فها هنا وحدة لا انقسام فيها ولا التثنية.

غير أن كلمة (الإسلام) قد أصبح لها فى عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد ﷺ، أو التى استنبطت مما جاء به، كما أن كلمة اليهودية أو الموسوية تخص شريعة موسى، وما اشتق منها، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى وما تفرع منها.

فالسؤال الآن إنما هو عن الإسلام بمعناه العرفى الجديد، أعنى عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن تقسم البحث إلى مرحلتين:

* (المرحلة الأولى): فى علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة وهى فى صورتها الأولى لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شىء بفعل الزمان ولا بيد الإنسان.

* (المرحلة الثانية): فى علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شىء من التطور.

أما فى المرحلة الأولى:

فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، قد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب:

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ۝ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ۝ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾

(المائدة: ٤٦ - ٤٨)

غير أن هاهنا سؤالاً يحق للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلى بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة إنما هى تجديد للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدل فيها معنى، ولا تغير حكماً، وإلا كيف يقال إنها تصدق إلخ، بينما هى تبدل وتعدل، وإذا كان من قضية التصادق الكلى بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئاً من المتقدم، فهل الواقع هو ذلك؟

الجواب: ليس الواقع ذلك، فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة إذ أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم:

﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾

(آل عمران: ٥٠)

وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة إذ أعلن أن محمداً ﷺ جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾

(الأعراف: ١٥٧)

ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه فى إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر.. مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن، وجاء الثانى إلى الطفل فى مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً وطعاماً نشوياً خفيفاً، وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها، فأذن له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه.. نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة، ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذا لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق فى ضربين: تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية، ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات: (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع)[1] ونحوها، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله أى أعادت مضمونه تذكيراً، وتأكيداً له. (وتشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها، وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة وهذا - والله أعلم - هو تأويل قوله تعالى:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾

(البقرة: ١٠٦)

(١) تقول الوصايا التسع إلى آخره.

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشرى: عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها وعنصر الإنشاء والتجديد، الذى يعد الحاضر للتطور والرقى اتجاهًا إلى مستقبل أفضل وأكمل.

ونحن إذا نظرنا نظرة فاحصة إلى سير التشريع السماوى من خلال الشرائع الثلاث، نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح، إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التى أرستها الشريعة السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته.

نرى شريعة التوراة مثلاً قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك «لا تقتل» و«لا تسرق».. إلخ. ونرى الطابع البارز فيها هو طابع تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها، ثم نرى شريعة الإنجيل تجىء بعدها فتقرر هذه المبادىء الأخلاقية وتؤكدها، ثم تترقى فتزيد عليها آدابًا مكملة:

«لا تراء الناس بفعل الخير، أحسن إلى من أساء إليك»، ونرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان وأخيرا تجىء شريعة القرآن فتراها تقرر المبدأين كليهما فى نسق واحد:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

(النحل: ٩٠)

مقدرة لكل منهما درجته فى ميزان القيم الأدبية مميزة بين المفضول منهما والفاضل:

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾

(الشورى: ٤٠)

ثم تراها وقد أضافت إليهما فصولاً جديدة صاغت فيها قانون آداب اللياقة، رسمت بها مناهج السلوك الكريم فى المجتمعات الرفيعة فى التحية والاستئذان، والمجالسة والمخاطبة إلى غير ذلك. كما تراه فى سورة النور والحجرات والمجادلة.

هذا مثال من أمثلة الجمع فى سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح، والأمثلة كثيرة لا يتسع لها نطاق هذا البحث.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء. وصدق الله وصف خاتم أنبيائه بأنه:

﴿ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

(الصافات: ٣٧)

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتمامًا للنعمة وإكمالاً للدين:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(المائدة: ٣)

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير:

«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» (البخارى، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين). عن أبى هريرة رقم (٣٢٧١).

إنها إذًا سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار.

وننتقل الآن إلى المرحلة الثانية: فى بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد على هذه الشرائع، فنالها شىء من التطور والتحرر.

رأينا فى المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائما أنه جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب. ونرى الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضًا (مهيمنًا) على تلك الكتب:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى حارسًا أمينًا عليها، ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب ألا يكتفى الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذى عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب:

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٣)

كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغى تبيينه مما كتموه منها:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

(المائدة: ١٥)

وجملة القول إن علاقة الإسلام بالديانات السماوية فى صورتها المنظورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليه من البدع والإضافات الغريبة عنها.

هذا الطابع الذى تتسم به العقيدة الإسلامية، وهو طابع الإنصاف والتبصر الذى يتقاضى كل مسلم ألا يقبل جزافًا، ولا ينكر جزافًا، وأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة فى قبوله ورده، ليس خاصًا بموقفها من الديانات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأى وعقيدة، وكل شريعة وملة، حتى الديانات الوثنية نرى القرآن يحللها ويفصلها، فيستبقى ما فيها من عناصر

الخير والحق والسنة الصالحة، وينحى ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

(أما بعد) فهذا هو موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية، وقد بقى أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية.

هل يقف منها موقف السكوت عليها والإغضاء عنها اكتفاء بالأمر الواقع؟

أم هل يقف موقف المحارب المقاتل الذى لا يهدأ له بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول، حتى قال قائل منهم (جوتييه فى كتاب أخلاق المسلمين وعوائدهم): إن المسلم أنانى، وإن الإسلام يشجعه على هذه الأنانية، فالمسلم لا يعنيه ضل غيره أم اهتدى، سعد أم شقى، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير.

وأكثر الكاتبين يجيبون بالشق الثانى، فالإسلام فى نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف، والقرآن فى نظرهم يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما لقيه.

الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة فى تصوره لموقف الإسلام.

ليس الإسلام فاترا ولا منطويا على نفسه كما زعم الأقلون فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام، والنشاط فى هذه الدعوة فريضة مستمرة فى كل زمان ومكان، يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه، وبأن يبذل جهده فى هذا التبليغ:

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

(الفرقان: ٥٢)

والقرآن يحرض المؤمنين على هذه الدعوة:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾

(فصلت: ٣٣)

بل يجعل الفلاح والنجاة وقفا على هؤلاء الدعاة:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

ولكن الإسلام فى الوقت نفسه ليس كما يزعم الأكثرون، عنيفا ولا متعطشا للدماء، وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام ﷺ هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة، بل هى مقاومة لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

(هود: ١١٨)

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة فى القرآن قاعدة حرية العقيدة

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومناهجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾

(النحل: ١٢٥)

على أن الإسلام لا يكتفى منها بهذا الموقف السلمى السلبى، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا

خطوات إيجابية نكرم بها الإنسانية فى شخص غير المسلمين.

هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التى يوصينا بها القرآن فى معاملة الوثنية التى هى أبعد الديانات عن الإسلام، فضلا عن الديانات التى تربطنا بها أواصر الوحى السماوى؟ اقرأ فى سورة التوبة:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾

(التوبة: ٦)

فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة.

ثم هل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التى لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». شرح سنن النسائي للسندى.

ثم هل ترى أوسع أفقا، وأرحب صدرا، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولى والتعايش السلمى بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها، ولا تتحاكم إلى قوانينها، لا تكتفى فى تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم:

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

(الأنفال: ٦١)

بل تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر وعدل، وقسط

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

ليس هذا هو كل شىء فى تحديد الموقف الإنسانى النبيل الذى يقفه الإسلام عمليا من غير أتباعه، ولضيق المقام نكتفى بكلمة واحدة.

إن الإسلام لا يكف خطة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة فى سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف. ناهيك! بالمثل الرائع الذى ضربه لنا رسول الله ﷺ فى هذا المعنى حين قال فى الحديبية: «والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» - البخارى - عن المسور بن مخرمة ومروان كتاب الشروط باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب رقم (٢٥٢٩).

هذا هو مبدأ التعاون العالمى على السلام، يقرره نبى الإسلام، ورسول السلام.

منهج السنة فى الاعتدال والوسطية (١)



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

للسنة النبوية المطهرة- على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- مكانتها فى التشريع، فهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم، ولها منزلتها من القرآن الكريم، فهى المفصلة لمجمله، المقيدة لمطلقه المخصصة لعامه، الشارحة لأحكامه.

وللسنة النبوية دورها فى الاعتدال والوسطية من حيث البيان والتفصيل لما جاء فى القرآن الكريم، ومن حيث توضيح منهج الاعتدال والوسطية، من خلال الأحاديث النبوية، ومن تطبيقات الرسول «ﷺ» لها فى المجتمع الإسلامى، ومع المسلمين، فكرا وسلوكا.

وقد كان للتوجيهات النبوية أثرها فى إرساء أسس الاعتدال فى الأمور كلها.

وكان للاعتدال والوسطية أعظم النتائج فى نشر الإسلام وفضائله، وحب الناس له، ودخولهم فى دين الله أفواجا، بسبب اعتداله ووسطيته، وعظمته وسماحته.

ولقد كان رسول الله «ﷺ» يوجه المسلمين إلى منهج الاعتدال، عن أبى هريرة «رضى الله عنه»، عن النبى «ﷺ» قال: «دعونى ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». رواه البخارى ومسلم

وكان الرسول «ﷺ» يوجه أصحابه إلى أن من أراد الاستمرار فى العبادة والعمل فعليه ألا يغالى أو يتشدد، عن عبدالله بن عمرو بن العاص «رضى الله عنهما»: «قال: قال لى رسول الله «ﷺ»: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل». رواه البخارى ومسلم.

أى: كان التشدد سببا فى عدم استمراره على عبادته وقيامه الليل، بسبب ضعفه، فالأخذ بالاعتدال والوسطية فيه الاستمرار، والمحافظة على دوام العمل والعبادة.

وكان ﷺ ينهى عن التشدد، عن ابن مسعود- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ

قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا، رواه مسلم.

والمتنطعون هم الذين يتشددون فى غير موضع التشديد.

وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبة، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشئ من الدلجة» رواه البخارى.

والمعنى: استعينوا على طاعة الله بأداء العبادة فى وقت النشاط، و«الغدوة» هى: أول النهار، و«الروحة» هى: آخر النهار، و«الدلجة» هى: آخر الليل.

وكان رسول الله ﷺ إذا علم أن أحدا من الناس يتشدد أو يغالى حتى ولو كان فى العبادة ينهاه عن ذلك، ويوضح أن أحب الدين إلى الله تعالى مادوام عليه صاحبه.

عن عائشة- رضى الله عنها- أن النبى ﷺ دخل وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة، تذكر من صلاتها قال: «مة عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه». رواه البخارى ومسلم

وعن أنس- رضى الله عنه- قال: دخل النبى ﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبى ﷺ: «حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد» رواه البخارى ومسلم.

وسطية الإسلام

مفهوم الوسطية

يتحدد مفهوم الوسطية ببيان معناها اللغوى، ومعناها الاصطلاحى، فأما المعنى اللغوى: فوسط الشئ هو ما بين طرفيه.

وأما المعنى الاصطلاحى: فالمراد بالوسطية: التوازن والتعادل بين الطرفين بحيث لا يطغى طرف على آخر، فلا إفراط ولاتفريط، ولا غلو ولا تقصير، وإنما اتباع للأفضل والأعدل، والأجود والأكمل.

ولا نريد بالوسطية أن يكون الإنسان فى درجة المتوسط فى عبادته أو عمله أو سلوكه، ولا أن يكون متوسط العلم أو العمل أو السعى أو الخلق أو أنه لا يكون متقدما ممتازا فى هذه الأمور، بل نريد بالوسطية الأجود والأفضل، والأكمل والأعدل، وخير الأمور أوسطها أى: أعدلها.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

أى: عدولا خيارا.

قال تعالى:

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾

(آية ٥ سورة العاديات)

أى: تتوسط الصفوف فى المعركة.

وقال سبحانه:

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾

(آية ٨٩ سورة المائدة)

وقال جل شانه:

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾

(آية ٢٨ من سورة القلم)

أى: قال أعدلهم وأصلحهم.

وقال سبحانه:

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾

(آية ٢٣٨ سورة البقرة)

وأرجح الآراء أنها صلاة العصر، لقوله ﷺ فى يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم وقبورهم ناراً».

وسطية الأمة

لقد وصف القرآن الكريم الأمة الإسلامية بأنها الأمة الوسط قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

والوسط: الخيار والأجود، ولما أنعم الله على هذه الأمة بنعمة الوسطية فكانت خير الأمم، خصها سبحانه وتعالى بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأيسر التكاليف وأوضحها، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(آية ٧٨ سورة الحج)

وفيما رواه الإمام أحمد- بسنده- عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله- ﷺ- «يدعى نوح- عليه السلام- يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، أو ما أتانا من أحد. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته»، فذلك قوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

قال: الوسط العدل: فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم، رواه أحمد

وفيما رواه أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يجئ النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا، فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟

فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

رواه أحمد.

والآية الكريمة تشير إلى أن الله تعالى حين حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم - عليه السلام - واختارها لهم ليجعلهم خيار الأمم، ليكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لهذا الأمة بالفضل.

وواضح أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهل المدينة اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا، وكان قبلة إبراهيم، فكان يتوجه بالدعاء إلى ربه - سبحانه وتعالى - وينظر إلى السماء؛ فانزل الله تعالى قوله:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

(آية ١٤٤ سورة البقرة)

وكان «عليه الصلاة والسلام» قبل هجرته- قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس.

وكان الأمر باتجاهه إلى بيت المقدس من الله تعالى، وكان التحويل إلى الكعبة من الله، ووافق رغبة رسول الله ﷺ، فقد شرع الله التوجه إلى بيت المقدس ثم شرع التحول إلى الكعبة، ليظهر من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى ﴾

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

يتبع

الإنسان

د. نظمى لوقا

الإنسان، وقف بعد اليهودية والمسيحية موقفًا لا يُحسد عليه كثيرًا. بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى، وخطيئة باقية موروثة، لا بد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة.

وإن أنس لا أنس ما ركبنى صغيرًا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى، وما سيقت فيه من سياق مروع، يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران، جزاء وفاقًا على خطيئة آدم، بإيعاز من حواء، وأنه لولا النجاة على يد المسيح، الذى فدى البشر بدمه الطهور، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين.

وإن أنس لا أنس القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح، أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة، وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم، أو تزر الولد بوزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة.

ويحسم القرآن هذا الأمر، حين يتعرض لقصة آدم، وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة، فيقول فى سورة طه:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

(طه: ١٢١-١٢٢)

ويقول فى سورة البقرة:

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة: ٣٧)

وآدم أبو البشرية، كرمه الله فخلقه على صورته، وفضله على الملائكة، وقد جاء فى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾

(البقرة: ٣٤)

ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشر.

وليس كالملائكة التى لا قدرة لها إلا على الخير، فله عليها فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات.

أما بنو آدم، فتقول سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ويخاطب الناس فى سورة الحج بأن:

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾

(الحج: ٦٥)

وفى سورة لقمان أن:

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾

(لقمان: ٢٠)

إن المسئولية هى أساس الكرامة الإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق ممكنة، وهذا ما قطع به الإسلام، ووضع به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم، فيقول فى سورة النجم:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾

(النجم: ٣٩-٤٠)

ويقول فى أكثر من سورة، على سبيل التأكيد:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(الأنعام: ١٦٤)، (الإسراء: ١٥)

(فاطر: ١٨)، (الزمر: ٧).

وهو القائل فى سورة التين:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(التين: ٤)

هذه المسئولية هى التى يسميها القرآن الأمانة: تلك الأمانة التى جاءت فى سورة الأحزاب:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾

(الأحزاب: ٧٢)

ثم نجد فى سورة الإسراء:

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾

(الإسراء: ١٣)

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة، التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًا، ورد اعتبار لا شك فيه، إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه.

والناس فى كرامة البشرية أمة واحدة، بغير تفريق، فقد جاء فى سورة الأنبياء:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وجاء فى سورة الحجرات:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

أجل، لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون أو اللغة، وهذه سورة الروم تقول:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٠-٢٢)

وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط، أكرمهم عند الله أتقاهم، ثم:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾

(المجادلة: ١١)

و:

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾

(الزمر: ٩)

ألا مَنْ له أذنان للسمع فليسمع

***

وإن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق ويجهر به ويحتمل فى سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية.

وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق، أو كما جاء فى سورة العصر:

﴿إن الإنسان لفي خسر ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

(العصر: ٢، ٣)

وأن الغلبة للحق فى نهاية المطاف على كل حال.

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾

(الأنبياء: ١٨)

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾

(الإسراء: ٨١)

أجل وينبغى أن يقر الإنسان الكريم بالحق لو على نفسه والأقربين، كما ورد فى سورة النساء:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾

(النساء: ١٣٥)

إن الحق مقدس، ولو كان فيه نصرة عدوٍّ أو مغنم له، فذلك هو لباب التقوى، فقد جاء فى سورة المائدة:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾

(المائدة: ٨)

ثم جاء فى ختامها:

﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾

(المائدة: ١١٩)

وتشيد سورة الفرقان بالصادقين:

﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾

(الفرقان: ٧٢)

وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه لصبور على المكاره إن أُوذى فى سبيل الحق:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾

(البقرة: ١٥٣)

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾

(آل عمران: ٢٠٠)

﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾

(إبراهيم: ١٢)

هى الشجاعة فى الحق، والشهادة لله، والصبر على الإيذاء فى سبيل الحق، إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا، ولكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن:

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ۝ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ۝ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ۝ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ۝ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾

(البقرة: ٤٢-٤٦)

﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ۝ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾

(لقمان: ١٨، ١٩)

﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾

(غافر: ٣٥)

﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ (النحل: ٢٣)

وأشهد! كم تمعت نفسى وغثيت كلما رأيت عتلا من المستكبرين الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان، وما دروا لغفلتهم أن السلطة فى ذاتها ليست شيئا، وأن الولاية على الناس جذوة من النار، أما الشىء حقا، فهو رعاية الله فى حقوق الناس، واستخدام السلطان للخير والعدل فى غيرة على الحق، وحماسة لنصرته، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون، وأكاد أقذف فى وجه هؤلاء بما جاء فى سورة الإسراء:

﴿ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ۝ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾

(الإسراء: ٣٧، ٣٨)

ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق، الصادق فى القول، الصابر فى الهول، الخاشع للرحمن، إلا بأن يكون صادق الوعد، موفيا بالعهد والعقد:

﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾

(الإسراء: ٣٤)

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾

(المائدة: ١)

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾

(النحل: ٩١)

وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق، وقد أنحى عليه القرآن إنحاءً عنيفا:

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ۝ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾

(النساء: ١٤٢، ١٤٣)

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾

(النساء: ١٤٥)

﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾

(آل عمران: ١٦٧)

فالإنسان الكريم حقًا لا ينافق، ولا يخشى فى الحق شيئا، ينصر الله، والله ناصره، ذلك جوهر إيمانه، وأنه بذلك لعزيز المكان فى الدنيا والآخرة، لا يسعى فى دنياه سعى الغريب الذليل:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾

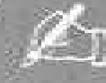
(القصص: ٧٧)

وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب، لا يشكو «فصام» الروح والجسد، ذلك الفصام، الذى عانى منه الكثيرون، ولا يعرف «الفصم» إلا من يكابده... وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا، لا ينظر إلى طيباتها نظرة الحسير، ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير، ولا يثقل كاهله الخزى من توازعه، فى يده زمام نفسه، وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم، تقر به عينه فى غير حرج ولا غضاضة.

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام (٤)

الحرية المدنية





للأستاذ الدكتور/ محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

هذا الاصطلاح الحديث يعنى في العرف الدولى صفة الرشد التى تجعل الشخص أهلا لأن يتحمل الالتزامات، ويعقد باسمه مختلف العقود المشروعة من بيع وشراء وهبة ورهن ووصية، وما إلى ذلك، ويقابل هذه الحرية حالة الرق التى تحكم على الشخص بالقصور والعجز عن مباشرة هذه الحقوق، وعن تحمل هذه الالتزامات.

قضية الرق

ألغى الرق حديثًا باتفاق دولى، وبعد هذا الإلغاء الحدث كثر الكلام واتسع النقد للإسلام.. يعنى أنه إذا كان الإسلام يهدف إلى الحرية والمساواة بين الناس فى جميع الحقوق، فلماذا لم يلغ الرق من أول الأمر حتى يتم له هذا الهدف؟

وحتى نستطيع تصور الملابسات التى اتصلت بهذا الموضوع ينبغى لنا أن نعرف أنه ليس هناك دين ولا قانون سبق الإسلام فى تحريم هذا الرق، أى أن الشريعة اليهودية لم تحرمه، بل قسمت البشر إلى قسمين: بنو إسرائيل قسم، وسائر البشر قسم آخر، وأباحت استرقاق غير الإسرائيليين إلى الأبد، لأنهم سلالات كتب عليها الذلة من الأزل، أما المسيحية فلم يرد فيها نص واحد يستنكره أو يحرمه، بل إن رسائل الرسل كانت توصى بإخلاص العبيد فى خدمة سادتهم.

أما الدول قبل الإسلام فقد كانت معاملاتها قائمة على اعتبار رعايا الدول الأخرى غنيمة تستولى عليهم متى استطاعت، تسترق من تشاء، وتبيع من تشاء.

ويروى فى هذا أن (أفلاطون) الفيلسوف اليونانى قد جرى عليه الرق فى إحدى رحلاته، وأن (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه قد استرقه قبل الإسلام شخص فى إحدى رحلاته إلى الشام، فاستسلم له (عمر) ابتداءً حتى تمكن من الانفراد به فقتله.

ولقد كان يحيط بالعرب دولتان كبيرتان لهما حضارة، وفيهما علم وفى إحداهما ميراث زاخر من الفلسفة والحكمة وهما دولتا الروم والفرس، ولقد كان قانون الرومان - الذى مازالت بعض قوانينه مقدسة عند أوروبا حتى الآن - يعطى للأشراف الرومان حقوقًا ليست لغيرهم ممن هم فى ظل الحكم الرومانى، فالعبيد لا يعاملون معاملة الآدميين، فليس على السيد مسئولية فيما يفعل مع عبده، حتى إن قتله فلا تبعة عليه، وجريمة العبد تضاعف لها العقوبة، وجريمة الرومانى يخفف فيها العقاب، والدائنون لهم حق استرقاق المدينين إن عجزوا عن الوفاء.

أما الفرس فقد كان الحكم للأشراف خاصة وما كان هناك دين سماوى أو أخلاق سائدة تحمى من الظلم والاستعباد.

والخلاصة

أن الإسلام قد ظهر في عصر كان نظام الرق فيه شرعًا سائدًا، وعرفًا دوليًا قائمًا، وكانت منابعه كثيرة، ومنافذه قليلة، وكانت أهم روافده سبعة:

١- الحرب بجميع أنواعها.

٢- الخطف والسبى.

٣- ارتكاب بعض الجرائم كالقتل والسرقة.

٤- عجز المدينين عن السداد.

٥- سلطة الوالد على أولاده، فله أن يبيع من يشاء بيع الأرقاء.

٦- سلطة الشخص على نفسه، فله أن يتنازل عن حريته لقاء ثمن معين.

٧- تناسل الأرقاء.

فلما جاء الإسلام حرم كل هذه الروافد، ولم يبق منها سوى رافدين اثنين هما: رق الوراثة، ورق الحرب، بل إنه قد وضع على هذين الرافدين من القيود ما يكفل نضوب معينهما:

فقيد النوع الأول: بأن لا يكون تناسل بين جارية وسيدها.

وقيد النوع الثانى: بأن تكون الحرب شرعية غير أهلية، والحرب الشرعية - كما بينا فيما سبق - حدودها ضيقة، كما أجاز الإسلام فى أرقائها المن والفداء، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة جاء فيهما عشرات الأوامر بالعتق والإحسان والمن والفداء، قال تعالى:

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾

(محمد: ٤)

وقال تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

(البلد: ١٢-١٣)

ووصى بالإحسان إلى الأسرى فقال تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

(الإنسان: ٨)

وقال ﷺ فى حديث قدسى عن الله

عزوجل: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه، ولم يعط أجره»[1]، وقال ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العانى»[2].

وتاريخ الرسول ﷺ فى غزواته يشهد بهذه الروح التى تهدف إلى حرية العبيد، ففى (بدر) قبل المسلمون الفداء، وفى (الفتح) عفا عن أهل مكة وهو قادر على الانتقام منهم، وفى (بنى المصطلق) تزوج النبى ﷺ أسيرة من هذا الحى ليرفع مكانته (أى الحى)، فتحرج المسلمون من استرقاق الأصهار الجدد.

والقاعدة الفقهية المشهورة: «الشرع يتشوف إلى الحرية»، وقد بلغت حدا من المحافظة عليها لدرجة جعلت بعض الفقهاء يحكم بنسب الولد إلى أب كافر حر ويرفض الحكم عليه بأنه عبد مسلم.

فماذا ينتظر أعداء الإسلام منه أن يفعل أكثر من ذلك؟ هل كانوا يريدون منه ألا يسترق أعداءه على حين أنهم يسترقون أبناءه؟!

منافذ الشرع لتحرير العبيد

إن الإسلام لم يلغ الرق، لأن أعداءه لا يستجيبون لذلك فكانت المعاملة بالمثل..

ومع هذا فقد وضع فى تشريعاته مناف[ذ] كثيرة لو سارت فى طريقها الصحيح عب[ر] التاريخ لانتهى الرق من زمن بعيد، منه[ا] أن العتق يلزم باللفظ ولو مزاحًا، كذلك التدبير، ومنها أن السيد إذا أتى [من] جاريته بولد عتقت عليه، ومنها نظ[ام] المكاتبة الذى يبيح فيه السيد لعبده [أن] يتاجر ويعمل حتى يوفيه ثمنه، وقد ح[ث] الإسلام على مساعدته، بل جعل له نصي[با] من مصارف الزكاة فى كل عام، قا[ل] تعالى:

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾

(التوبة: ٦٠)

ومنها نظام الكفارات، فالقاتل خط[أ] عليه أن يعتق رقبة، والحانث فى يمينه علي[ه] أن يعتق رقبة، والمظاهر من زوجته عليه [أن] يعتق رقبة، هذه كفارات مفروضة.

وهناك عتق مرغوب فيه تطوعًا بلا إيجاب من الشرع.. قال ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»[3]، وفضلاً عن كل ذلك فإن الإسلام قد ضمن لهم معاملة كريمة مع سادتهم.. قال ﷺ: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[4]، وكان من آخر وصايا رسول الله ﷺ قوله: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[5].

(١) أخرجه البخارى – كتاب البيوع – باب إثم من باع حرًا – حديث رقم ٢٢٢٧.

(٢) أخرجه البخارى – كتاب الأطعمة – باب قول الله تعالى «كلوا من طيبت ما رزقناكم» – حديث رقم ٥٣٦٣.

(٣) أخرجه البخارى – كتاب كفارات الأيمان – باب قول الله «أو تحرير رقبة» وأى الرقاب أزكى – حديث رقم ٦٧١٥.

(٤) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب فى حق المملوك – حديث رقم ٥١٦٨.

(٥) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب فى حق المملوك – حديث رقم ٥١٥٦.

ومن توجيهاته النبوية ألا يقول السيد لمملوكه: يا عبدى، ولا: يا أمتى، بل: يا فتاى ويا فتاتى. ومن مآثره ﷺ أنه جعل العبيد إخوة لسادتهم، فقال: «إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس»[6].

ولقد طبق صحابة رسول الله ﷺ مع عبيدهم مبدأ هذا الإخاء، فلقد وعى سمع التاريخ وهو مطأطئ الرأس إكبارا عن سيدنا (عمر بن الخطاب) وهو ذاهب إلى الشام لعقد المعاهدة مع أهل بيت المقدس بعد انتصار المسلمين أنه كان معه غلامه ولم يكن معهما سوى ناقة واحدة، وتنفيذا لمبدأ الإخاء كان أمير المؤمنين المنتصر يتعاقب الركوب مع غلامه على الناقة.. وأراد الله إظهار تلك الأخوة والعدالة والمساواة فجاء الدور حين دخول المدينة للغلام فما استنكف (عمر) أن يدخل المدينة ماشيا وغلامه راكب.

إنها عظمة الإسلام تتجلى على رءوس الأشهاد تدمغ أباطيل الحاقدين وأكاذيب الناقمين.



عن المعرور بن سويد قال: دخلنا على أبى ذر بالربذة فإذا عليه برد وعلى غلامه مثله فقلنا: يا أبا ذر لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حلة وكسوته ثوبا غيره؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه»[7].

بل إن الإسلام قد بلغ الذروة فى إبراز كيان الرقيق فأباح لهم أن يكونوا أسرة بالمعنى القانونى السليم، بل إن حق القود والقصاص قد أعطاه لهم الإسلام، ولو كان مع حر بل ولو كان مع رسول الله ﷺ.

عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيتى، وكان بيده سواك، فدعا وصيفة لى فلم ترد عليه حتى استبان الغضب فى وجهه، فخرجت إلى الحجرات فوجدتها تلعب، فقلت: أراك تلعبين ورسول الله ﷺ يدعوك! فقالت: لا والذى بعثه بالحق، فقال الرسول ﷺ: «لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك»[8].

«يتبع»

(٦) أخرجه البخارى – كتاب العتق – باب قول النبى عن العبيد «إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون» – حديث رقم ٢٥٤٥.

(٧) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب فى حق المملوك – حديث رقم ٥١٥٨.

(٨) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد.

شموليّة الشريعَة الإسْلاميّة

عناصر الثبات والتغير

٢





المستشار: طارق البشرى

إذا أردنا أن نجمل مجالات الثبات والتغير فى الأحكام الشرعية، أى مجالات التغيير والإفساح التى يجد الفقيه نفسه إزاءها، فإنه يمكن بيان ذلك فيما يلى:

من الثوابت التى لا تتغير، ما يعتبر حدودا من الأحكام الشرعية، كعدد مرات الطلاق وأنصبة الورثة فى التركة والعقوبات المنصوص عليها كحد الجلد مثلا.

ومن الثوابت أيضا، سائر الفروض الواجبة، ومنها العبادات. فالصلاة والصوم والزكاة والحج، كل ذلك لا يتغير. والجهاد فرض على المسلمين لا يتغير. وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يتعلق ببر الوالدين ووصل الأرحام والحكم بالعدل.

ومن هذه الثوابت أيضا، جميع المحرمات، كالشرك والقتل والسرقة والربا وشرب الخمر والزنا وقصف المحصنات وشهادة الزور.

أما ما ينفسح فيه المجال أمام الفقيه، فهو يتعلق بمنطقتين أساسيتين:

● الأولى، هى: المنطقة التى تبتعد عن الحدود والفروض والمحرمات، وهى منطقة واسعة أعمل فيها الفقيه أدوات للاستنباط كثيرة ومتعددة، وسلك عديدا من المناهج والطرق لاستخلاص الحكم الشرعى الذى ينطبق على كل حالة خاصة. وفى هذه المنطقة، غالب الخلافات التى قامت بين الفقهاء والآراء المختلفة، وذلك بسبب يرجع إلى اختلافهم فى مناهج استنباط الأحكام والاستدلال عليها. كما أنها هى المنطقة التى يرد الخلاف فيها، بسبب يرجع إلى ظروف الزمان والمكان بالنسبة لانطباق أى من الأحكام الفرعية المعنية.

وكانت أدوات استنباط الأحكام والاستدلال عليها، هى ما يعرف بكونه المصادر الفرعية أو الثانوية للتشريع الإسلامى التى ترد بعد القرآن والسنة، ومنها: القياس والاستحسان والمصلحة المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع وفتح الذرائع واعتبار العرف. وليس ثمة وجه الآن للتفصيل فى هذا المجال. إنما المقصود هو بيان أن هذه المنطقة، وإن انفسح فيها مجال الاجتهاد أمام الفقيه، فقد كان نشاطه فيها مرتبطا بأصول الشريعة الإسلامية، ومرتبطًا بمناهج للتفسير تضبط هذا النشاط.

وقد اختلف الفقهاء فى اعتماد كل منهم لأى من هذه المصادر. فمنهم من اعتمد القياس، ومنهم من لم يعتمده. ومنهم من أجاز الاستحسان، ومنهم من لم يجزه. ولكن كانت لكل منهم أدواته المعتمدة فى استخلاص الأحكام على وجه يستجيب لمتطلبات الأوضاع المتغيرة.

● والمنطقة الثانية، هى منطقة النصوص المتشابهة؛ إذ ترد النصوص مصوغة بألفاظها وعباراتها على نحو يحتمل أكثر من معنى، ويسع أكثر من رأى ويضرب الشيخ يوسف القرضاوى مثلا لهذا النوع من الأحكام المتشابهة بما اختلف فيه الفقهاء بالنظر إلى وسائل استغلال الأرض. فمن الفقهاء من أباح المؤاجرة ومنع المزارعة ومنهم من منع المؤاجرة وأباح المزارعة، ومنهم من أباح الأمرين وكل ذلك تتسع له نصوص الأحكام، وكل ذلك يتسع به مجال اختيار الحكم الذى يستجيب أكثر من غيره لضرورات الواقع المعيشى فى أى ظرف، وفى أى قطر.

واتساع الحكم على هذا النحو: إما يكون مصدره اختلافا فى فهم المعنى اللغوى للفظ المستخدم أو العبارة المستعملة، أو يكون اختلافا فى فهم المعنى الاصطلاحى أو المجازى لهذا اللفظ أو العبارة. وإما أن ينتج عن إعمال عدد من النصوص بعضها مع بعض، وما قد ينشأ عن التنسيق بينها من اختلاف فى فهم الحصيلة النهائية التى تسفر عن الحكم المقصود.

وفى كتاب أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، أثبت الإمام ابن القيم فى صدر الجزء الثالث فصلا عن تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال، وذكر ما نصه: «هذا فصل عظيم النفع جدا، وقد وقع - بسبب الجهل به - غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج

يوسف القرضاوى

والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يُعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لا تأتى به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، فى المعاش والمعاد، أو هى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها.

فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل..»

والإمام الطوفى شرح الحديث الشريف «لا ضرر ولا ضرار» بقوله: إنه واجب التطبيق والالتزام به عند تطبيق كل حكم من أحكام الشريعة، وإنه يحدد مقاصد الشارع من تنزيل الأحكام بحيث يراعى هذا القصد فى كل حالة. كما أن الإمام أبا إسحاق الشاطبى أكد فى كتابه (الموافقات على مقاصد التشريع الإسلامى من جلب المنافع ودرء المفاسد) بما لا مزيد عليه. وكل ذلك مما تتشكل به أدوات الفقيه فى الاجتهاد وتفسير الأحكام.

إن شمول الشريعة الإسلامية واستجابة أحكامها وقواعدها للتطور الحضارى المعاصر، هما أمران يتصلان بإدراك عناصر الثبات والتغير بشأنها، وهذا مما سبقت الإشارة إلى

وجوه مختلفة منه فى هذه الورقة. إن استجابة الأحكام للتطور الحضارى أو للواقع المعيشى هو ما نعبر عنه بحركة التجديد.

وحركة التجديد فى الفقه الإسلامى ليست ممكنة فحسب، ولكنها كانت متحققة على مدى زمنى طويل من حياة الأمة الإسلامية. لقد عرف الفقه الإسلامى مجددين كبارا منذ القرن الثامن عشر، أمثال: محمد بن عبدالوهاب، والشوكانى، والألوسى، والدهلوى، والسنوسى، والمهدى، وغيرهم.

ثم مع نهايات القرن التاسع عشر، تأتى الموجة التالية من المجددين أمثال: الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا. ثم ترد وجوه النشاط الفقهى المختلفة على مدى القرن العشرين، نراها فيما يمكن جمعه من آراء تجديدية من فتاوى دور الإفتاء وأحكام المحاكم الشرعية حينما وجدت فى أقطارنا. ثم ترد مجموعات التقنينات الآخذة عن الشريعة، ثم مؤلفات أساتذة كبار فى الشريعة الإسلامية كالشيوخ: زيد الإبيارى، وأحمد إبراهيم، وعبدالوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومصطفى الزرقا، وعبدالكريم زيدان ودراسات أساتذة القانون الوضعى فى فقه الشريعة، كالدكتور عبدالرازق السنهورى، والدكتور عبدالحميد متولى، وغيرهما. ثم العدد العديد من الرسائل الجامعية والبحوث التى أعدت فى الفقه المقارن بين فقه الشريعة وفقه القوانين الوضعية.

وهذه نماذج لجهد دءوب جرى على مدى عشرات السنين فى عدد لا نكاد نحصيه من المسائل الفرعية، والقضايا الكلية والجزئية التى تتعلق بالمعاملات وبالتقاضى وغيرهما.


رشيد رضا

ونحن نلحظ عددا من الملحوظات فى هذه الحركة، نشير إليها فى البنود التالية:

أولا: وهى ما أشرنا إليه من قبل، وهى أن التجديد يتأتى من كيفية استجابة الأحكام الشرعية لتحديات الواقع المعيشى. وهذه الحركة قائمة منذ الأفغانى فى الوجوه الثلاثة لتحديات العصر الكبرى، التى تواجه جماعة العرب والمسلمين: مقاومة الأجنبى، ونظم الحكم، والتقدم العلمى.

ومفاد الاستجابة لتحديات الواقع، أن مقياس التجديد إنما يستخلص من واقع مجتمعنا المعاصر وقضاياه الحيوية، فهو ليس مقياسا نستخلصه من واقع مجتمع آخر، ولا من نماذج مجتمعات الغرب المعاصرة، وهو ليس مقصودا به إسباغ بردة الدين وبردة الشريعة الإسلامية على أنماط السلوك الغربية ووقائع حياة الناس هناك. وهو كذلك ليس مقياسا صوريا مقصودا به مجرد التخفيف من الأحكام الشرعية، إفساحا للرخص وتضييقا للعزائم. فلقد تتطلب الاستجابة لتحديات «عصرنا» ومتطلباته مزيدا من الضبط والتضييق فى بعض الأمور. وهذه الاستجابة الشرعية يتعين أن نعتبر تجديدا. وهذا ما نراه مثلا فى بعض فتاوى ابن تيمية التى راعت ظروف عصره فى مجتمعه، وكانت تتهدد جماعة المسلمين، من غزوات التتار وما كان يشكو منه المجتمع من أمراض ووهن، وهو ما نراه فى بعض الفتاوى الحديثة التى حرمت شرعا التجنس بجنسية المستعمرين، مقاومة لسياسة الاستيعاب الاستعمارى لبلادنا وجماعتنا. وهو ما يمكن أن نتوقعه من مواقف فقه الشريعة فيما يتعلق بقضايا التنمية والنهضة المستقلة ومقاومة التبعية، وقد نجد مثالا له فى مجال استثمار المال فيما ينفع الجماعة الوطنية وتقييد الاستيراد مثلا، وغير ذلك من استيعاب لفقه الشريعة لمتطلبات البناء الاقتصادى السياسى المستقل.

ثانيا: مع القابلية للتجدد، ترد القابلية للتنوع داخل الوعاء الفسيح للفكر الإسلامى، تنوعا من هذا الذى سموه قديما باختلاف الزمان والمكان. ويمكن أن نضيف إليه وجوها للتنوع مما يقوم داخل الجماعة السياسية الواحدة، تعبيرا عن وجوه الاختلاف فى الأوضاع السياسية والاجتماعية داخل هذه الجماعة.

ومن ذلك - على سبيل المثال - الاجتهادات المتنوعة حول حق الملكية، ومدى ما يتيح للمالك من سلطات اقتصادية واجتماعية. وإن إمعان النظر فى توجهات الفصائل المختلفة للجماعة، يظهر أن هذا التنوع قائم بينها فعلا، وهو مردود فى بعض التحليلات إلى اختلاف يعبر عن أوضاع سياسية واجتماعية متباينة، ولكنها كلها يجمعها جامع عام واحد، وتهيمن عليها أصول شرعية واحدة، تقوم بمثابة الوطن الفكرى والثقافى والعقدى بها جميعا.

قد لا تكون هذه التنوعات ظاهرة ظهورا سافرا الآن، ولكنها فيما يبدو مضمرة وسبب الإضمار - فى ظنى - الشعور العام بأن الأصول الفكرية والعقدية معرضة لهجمات الاجتثاث، ولكنه إضمار لا ينفى قيام الخلاف بين مواقف الأزهر مثلا - مواقف عديدة - من الجماعات الإسلامية.

ثالثا: إن التنوع فى الآراء والاختلاف فى الاجتهادات مما يقتضيه اختلافات الزمان والمكان، وتنوع الأوضاع السياسية والاجتماعية. هذا التنوع يجد حده فى النطاق الصارم لثوابت الشريعة الإسلامية، حسبما أشير إليها فى الفقرات السابقة. كما أنه يجد حده فى الإطار الصارم أيضا للصالح العام للجماعة الإسلامية الوطنية. فحيثما استخلصنا حكما بجواز شرعى لنوع نشاط اجتماعى معين، جوازا لا يصل إلى الفرض ولا يدنو من المنع، فإن الخلاف حول مدى هذا الجواز يجد حده الشرعى فى القدر المقدور من الإباحة المحافظة لصالح الجماعة ونفعها، بمعنى أنه جواز يرد عليه القيد مما توجبه السياسة الشرعية فى كل ظرف خاص.

ونحن إذا وجدنا خلافا بين الفقهاء حول مسألة، كالتأجير بالأجرة النقدية بين مانع ومجيز، أو حول المزارعة بين موجب ومجيز، وكان هذا الخلاف مما يتعلق بالفروع، ومما تحتمله ثوابت الشريعة، إذا وجدنا ذلك، فإنه

يفضى بنا إلى موقف لا أدرى بين وجهات النظر الفقهية المتاحة، ولا يجعل وجهات النظر المتباينة على ذات المستوى من الحجية فى كل آن، ولا يجعلها ثابتة الرجحان والمرجوحية بين بعضها وبعض فى كل حين، ولا يجعلها متعلقة فقط بحجية الاستنباط من النصوص فى إطار الحجة والبرهان. إنما يتعين قياس وجوه الرجحان بين المنع والإيجاب والجواز بالنظر لصالح المجتمع والجماعة فى كل حين. فالحكم الشرعى متصل الأواصر بالمقاصد العليا للشريعة والمصالح الحفيظة لها. وجلب النفع، ودفع الضرر عن جماعة المسلمين وأفرادهم أمر متضمن فى صميم حكم الشريعة، ومتضمن باللزوم فى اجتهادات الفقه. والحكم يدور فى هذا المدار. وما دامت ثوابت الشريعة تسع تلك الوجوه جميعا، من منع وجواز وإيجاب، فإن صالح الجماعة فى كل حين هو ما يرجح - فيما يرجح - وجه الحكم المنصوص فى كل حين.

رابعا: مع القابلية للتجدد والتنوع، فإنه عند التفكير فى إقرار تطبيق الشريعة الإسلامية، يكون من حق الجميع - بموجب حقهم فى المواطنة - أن تبسط أمامهم وجهات النظر الإسلامية، وأن يبين الفارق بين الأحكام القطعية الثابتة وبين الآراء والاجتهادات الفقهية التى يمكن أن يؤخذ منها ويترك، والتى يمكن أن تتعدل بمراعاة الزمان والمكان، وأن يجرى الحوار الفقهى حثيثا حول الجوانب التطبيقية والتفسيرية، لإمكان الوصول إلى الصياغات التى يمكن أن تحتضن غالب إيجابيات تجاربنا التاريخية وخبراتنا، وذلك فى الإطار العام للشرعية المهيمنة الآخذة من الشريعة، وبما يستجيب لحاجات البيئة والعصر ويتوخى جلب المصالح ودفع المفاسد، وبما ينسجم مع الأعراف وعادات التعامل الجارى.

خامسا: إن ثوابت الشريعة الإسلامية وسعت فى القديم أنماطا من العادات والأعراف كانت قائمة فى البلاد التى دخلها الإسلام، وأمكن لفقه الشريعة أن يستوعب ما يصلح من هذه العادات والأعراف مما يمكن انضواؤه تحت بردة الشرعية الإسلامية، واغتنى فقه الشريعة بهذه التجارب كثيرا. وبالمثل، فليس ما يمنع من اغتناء فقه الشريعة الآن بالعديد من نماذج الحاضر، حتى ما نتج من هذه النماذج من حضارات أخرى وتقضد من النماذج تلك الأصناف المستحدثة والأنماط العديدة من العلاقات بين البشر ومن أبنية المؤسسات التى تلائم أنواع الأعمال المطلوبة وضروب الأنشطة الاجتماعية المبتغاة فى مجتمعاتنا فى هذا الزمان.

على أنه فى هذا المجال، ينبغى الاعتناء بأمور ثلاثة:

- أولها: أن يكون «النموذج» المطلوب استحضاره مما يفيد حقيقة بيئتنا المحلية، فلا يرد بحسبانه محض تقليد لمجتمعات أخرى أو حضارات غازية. ووجه الفائدة الحقيقية نقيسه بمدى حاجتنا لهذا الأمر فى إطار دوره الفعال فى الاستجابة لواحد من التحديات الأساسية التى تواجه جماعتنا.

- وثانيها: أن يفصل بين النموذج التنظيمى المطلوب استدعاؤه، وبين الأساس العقدى والأيديولوجى الذى تولد عنه فى بيئته الأصلية. فالنظام النيابى هو نموذج تنظيمى يمكن استدعاؤه، ولا وجه لأن يشمل هذا الاستدعاء الأساس الأيديولوجى الذى قام هذا النموذج عليه فى الغرب، «وهو الأساس العلمانى المتضمن فى فكرة سيادة الأمة بالمعنى الغربى والمقصود منها».

- ثالثها: وصل هذا النموذج التنظيمى وربطه فى السياق العقدى والحضارى السائد فى البيئة المستدعى إليها.

إننا نجد مثالا على ما نعنيه فى «ثانيا» فى الجهد الذى بذله التقنين المدنى المصرى الصادر فى سنة ١٩٤٩؛ إذا استدعى عديدا من الأحكام من القانون المقارن ثم فصل تماما بين الحكم وبين مصدره. ولكنه لم يربط هذه الأحكام بالفكرية المستفادة من الشريعة الإسلامية.

ونجد مثالا لهذا الربط بين نماذج ومفاهيم كلية استدعيت من بيئات وحضارات أخرى وبذل الجهد لاستيعابها وامتصاصها فى أنسجة الشرعية والحضارة السائدة، نجد ذلك أول ما نجده فى جهود فكرية قام بها رفاعة رافع.

سادسا: إن تطبيق الأحكام يتعلق بإنزال حكمها الثابت على الوقائع المتغيرة. والتفسير والاجتهاد هما تحريك النص الثابت ليطبق على الوقائع المتغيرة. وهذه العملية تشمل أمرين: أولهما، استخراج دلالات النص بطرق الاستدلال المعروفة فى علم أصول الفقه وفى علم المنطق، ووفقا للمذاهب التفسير المعروفة. وثانيهما، تكييف الواقعة التى ينطبق عليها حكم النص، أى صياغة الواقعة الحادثة صياغة قانونية، والتعبير عنها حسبما يتجمع لها من خصائص، أى من المفاهيم القانونية المطروحة، فهى تعبير قانونى أو فقهى عن الواقعة، أى رفع الواقعة الحادثة بتفصيلاتها إلى مرتبة من مراتب التجريد القانونى: وبهذين العملين، يمكن أن يلتقى حكم النص الثابت مع النص المتغير.

لذلك فإننا عندما نفكر فى تجديد الفقه الإسلامى، يتعين أن نبحث فى هذه الصلة، وأن يكون الواقع مصوغا فى هياكله وعلاقاته ومؤسساته على نحو يتقبل تلقى حكم النص الشرعى. إننا لا نستطيع أن نتكلم عن أحكام الميراث أو تحديدها فى مجتمع لا يعرف نظام الأسرة مثلا. لذلك، فتجديد الفقه الإسلامى يقتضى وصله بالواقع، ووصله بالواقع يقتضى أن نمكن له فى الأرض. وإن صياغة الواقع ومؤسساته وعلاقاته، وفقا لأسس الفلسفات الوضعية، لن تؤدى فى التطبيق إلا إلى ذلك الانفصام الحادث بين نصوص جامدة لأنها لم تعد تطبق، وبين واقع منفلت عنها لا يعبر عن قيمها وأسسها العامة. وهذا ما سبق أن أشرت إليه.

تلك هى الملاحظات، التى عنّت لى فى إطار الموضوع المطروح، وهو شمولية الشريعة واستجابة أحكامها للتطور الحضارى المعاصر. إن شمولية الشريعة تتعلق باستكشاف عناصر الثبات والتغير فيها، وهى ليست شمولية بمعنى أنها تغطى مجالات النشاط الاجتماعى المختلفة فقط، ولكنها أيضا شمولية بالمعنى الزمانى للشمول ولا يتأتى ذلك الشمول إلا بتجلية عناصر الثبات والتغير فى الشريعة الإسلامية وفقهها.

نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر

(٣)



أ.د. عصام أحمد البشير
الأمين العام المساعد للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

حيوية الخطاب

الثابت والمتغير: خطاب المرونة

يمكننا أن نردَّ مكونات الخطاب الإسلامي إلى نوعين:

المكون الشرعي: وهو ما جاء به الوحي الإلهي من قرآن وسنة نبوية صحيحة.. وهو أصل الخطاب الإسلامي ومنطلقه ومرجعيته الثابتة الدائمة؛ لكونه صادرا عن الله سبحانه الذي أبدع الوجود كله.

والمكون البشري: وهو ما فهمه واستنبطه البشر من النصوص الشرعية وما نتج عن ذلك فكراً كان أو فقهاً أو علوماً وأدباً. لذلك فهو فرع للمكون الأول ومؤسس منه وإليه.

وبما أن المكوّن الشرعي قد أكسبه مصدره الرباني خصائص الربانية والشمول والثبات والتوازن والمرونة والصلاحية لكل زمان ومكان؛ فباستطاعتنا أن نكتشف بمعاييره كلَّ خلل واضطراب في واقع الحياة القائم.

وإذا كان الخطاب الإنساني ـ بوجه عامٍ ـ عُرضة للتطوير والتبديل؛ فإن خطابنا الإسلامي سمةً خاصة، فهو لا يتغير ولا يتبدَّل في جوهره، أي في ثوابته الأساسية المرتكزة على مكونه الشرعيّ مهما تغيرت عوارض الزمان والمكان والأحوال والأشخاص. أما المكوّن الآخر؛ ففيه يكون الاجتهاد والتطوير بما يراعي المخاطبين وظروفهم العامة والخاصة زماناً ومكاناً وأحوالاً.. يقول شيخنا العلاّمة الدكتور يوسف القرضاوي: «وإذا كان المحققون من أئمة الدين وفقهائه قد قرَّروا أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، والفتوى تتعلق بأحكام الشرع؛ فإن هذا المنطق ذاته يقول: أن تغيير الدعوة ـ أو الخطاب ـ بتغير الزمان والمكان والعرف والحال أحق وأولى»[١].

المبدئي والمرحلي: خطاب الحكمة

على الخطاب الإسلامي أن يميز بين المبدئي والمرحلي، وهذا على مستوييه: الفكري والعملي جميعاً.

وقد أدى عدم التمييز بين هذين المعنيين الحيويين إلى كثير من السلبيات التي أعاقت تطور الخطاب الإسلامي، كما أعاقت عن الوصول به إلى حد التطبيق الواقعي الذي يحقق الوصول إلى حياة طبيعية مستقرة. فقد قامت «الصحوة الإسلامية خلال عقود طويلة مما لحق الإسلام الحركي» في نزاله السياسي مع بعض السلطات القائمة في بلاد إسلامية عدة، ولقد نالت سياسة تجفيف المنابع الدينية من مواطن التدين في عدد من المجتمعات الإسلامية، وفتكت بأوصاله وألحقت به أوجاعا وضربات كادت تودي به!

ولابد للخطاب الإسلامي أن يركز في سعيه إلى إبلاغ رسالة الله تعالى للعالمين على المبدئي من الثوابت والأصول التي تمثل «هوية الإسلام» (والتي سبقت الإشارة إليها في تضاعيف ما سبق)، وأن يضع في تصوراته «المرحليات» المرنة التي يجب أن يجتازها ويتكيف معها في جميع مستويات البلاغ على وِفْق سنة الله تعالى في الخلق والشرع. كما يجب أن يُبتنى هذا وذاك على رؤى موضوعية ودراسات علمية.. تنظر إلى الشرع الحنيف بعين، وإلى الواقع المعيش بأخرى.

وعليه أن ينطلق من قاعدة الثبات في الأهداف، والمُرونة في الوسائل.. فالأهداف ثابتة لثبات مصادرها وتحدُّدها، والوسائل مَرنة لارتباطها بالزمان المتغير والبيئة المختلفة. فالأهداف الكبرى هي: إقرارُ الإيمان، واحترامُ الإنسان، وتوطيدُ العمْران. وكلُّ ما أدّى إلى تحقيقها؛ وجب اتخاذُه؛ إذْ تقرَّر وجوبُ ما لا يتم الواجبُ إلا به، وكلُّ ما تقاصر عن توفيتها؛ فلا قُدْسية.. بل يجب تجاوزُه إلى الأصلح والأنفع.

الإصلاح الكلي والتغيير الجزئي:

خطاب النهضة

الشريعة الإسلامية ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ «مبنية على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين»، حتى يُقدِّم عند التزاحم خير الخيرين ويدفع شر الشرين»[٢].

ولذا... فإن من القواعد المهمة في الأمر

(١) د. يوسف القرضاوي، خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، ص ٦٧.

(٢) شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض ـ ج ٦ ص ١١٨.

بالمعروف والنهي عن المنكر اعتبار المصالح، فيشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من المنكر أو مثله. فإن كان إنكار المنكر يستلزم حصول منكر أعظم منه؛ فإنه يسقط وجوب الإنكار، بل لا يسوغ الإنكار في هذه الحالة.

وهذا ليس في باب الأمر والنهي وحسب. بل.. إنه القاعدة في باب «الإصلاح» بوجه عام. وهذا المعنى قرره شيخ الإسلام بوضوح في قوله «ومما ينبغي أن يعلم: أن الله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الناس على غاية ما يمكن من الصلاح، لا لرفع الفساد بالكلية، فإن هذا ممتنع في الطبيعة الإنسانية، إذ لابد فيها من فساد»(٣).

وفي هذا يجب على الخطاب الإسلامي أن يجعل على رأس أولوياته الأمهات الحفاظ على الثوابت الشرعية، والسعي إلى إصلاح ما يعتور الطريق أحياناً من زلل أو تقصير أو تجاوز.. مع إقرار سلم الكلمة والممارسة، وعدم الانزلاق إلى أي من أشكال العنف.. والدعوة المستمرة إلى الحق والخير دون استعلاء أو وصاية متوهمة. مبتغياً في هذا كله وجه الله تعالى أولاً وأخيراً، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصالح البلاد والعباد والنهوض العام.

التنظير والتطبيق: خطاب الواقعية

على الخطاب الإسلامي أن يبني تصوراته ورؤاه على أسس متينة من الواقع، وعليه أن يتجنب الاستغناء بالتنظير عن التطبيق، كما أن عليه ـ بالضرورة ـ ألا يؤسس إلا ما هو قابل للتحقق بحسب سنن الله تعالى في الخلق وفي الأنفس. ومن مقتضيات هذا:

ـ استيعاب الواقع المعاصر استيعاباً سليماً من خلال منهج علمي موضوعي، يتتبع جذور هذا الواقع ومساره، ويكشف جوهره وروحه، ويميز حقائقه الموضوعية عن أوهامه الخيالية أو المؤقتة، ويستشرف آفاقه وتوجهاته المستقبلية.

ـ بلورة معالجة تكون مناسبة للواقع المعاصر والتنظير له فقهياً وفكرياً، بناء على قراءة مباشرة لأصول الشرع الحنيف ووفق مناهج الاستنباط المعتبرة.

الخصوصية والكونية: خطاب العالمية

كانت «عالمية الدعوة الإسلامية» واضحة الملامح منذ سنوات الدعوة النبوية الأولى، منذ أمر النبي الأعظم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن يتجاوز مرحلتي السرية ودعوة العشيرة الأقربين، ليتوجه برحمة الرسالة الإسلامية إلى العالمين ـ وحتى قيام الساعة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ، ٢٨)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف، ١٥٨)

وبناء على هذا.. على الخطاب الإسلامي المعاصر أن يوازن بين خصوصية كل بيئة ومتعلقاتها الظرفية وبين عموم الرسالة،

(٣) السابق ج٦ ص ١١٤.

وذلك بإعادة بعث نوعية جديدة من الخطاب العالمي، الكامن أساساً في بنية الخطاب الديني الإسلامي العالمي، الذي يستطيع تخطي حدود العالمية الإسلامية، إلى العالمية الكوكبية باتجاه الآخرين من غير المسلمين.

وعليه بالضرورة أن يعرف كيف يجتذب «الآخر» إليه، ليرتبط به على قاعدة القناعة التي ترتكز على الفكرة والإحساس.

العلاقات البينية

فقه الائتلاف وأدب الاختلاف: خطاب الإعذار

يجب أن يؤسس الخطاب الإسلامي المعاصر في حياة المسلمين اليومية فقه الائتلاف الذي يعمل على تعميق المشترك، وتعزيز الجوامع، وتوسيع قاعدة المتفق عليه.. تحقيقاً لموجبات الوحدة، والتضامن الاجتماعي، والوئام المدني، والسلم الأهلي.

كما أن عليه أن يكرس أدب الاختلاف.. انطلاقاً من مبدأ إقرار حق كل صاحب مذهب أو رأي معتبر في تبنيه والدعوة إليه ـ وفق الأصول العلمية والعملية ـ، مع مراعاة أن «الحق يقبل من كل من تكلم به» (كما قال ابن تيمية رحمه الله)(٤)، ومع ملاحظة أن «البصير الصادق يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها»(٥)، (كما قال ابن القيم رحمه الله).. مع رعاية رحم الأخوة، وحفظ الحرمات، وعدم التشنيع على المخالف والسعي بالإرجاف.

ويبقى الأمر في هذا على ما أخبر به النبي الأكرم ﷺ من ثبوت ثوابين للمجتهد المصيب وثواب كامل للمجتهد المخطيء، في الحديث «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»(٦)، وفي هذا يوجز ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لا يحل التشنيع والإرجاف بسبب مسائل تحتمل وجوهاً في الفهم ومتسعاً من الرأي.. فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ؛ فإن الله يغفر خطأه كائناً ما كان.. سواء أكان في المسائل النظرية العلمية، أم المسائل الفروعية العملية. هذا الذي عليه أصحاب النبي وجماهير أمة الإسلام»(٧).

(٤) قاله شيخ الإسلام في «الفتوى الحموية»، ونصه «الحق يقبل من كل من تكلم به» وكان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه الذي رواه أبو داود في سننه: اقبلوا الحق من كل من جاء به، وإن كان كافراً ـ أو قال فاجراً ـ واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نوراً أو قال كلاماً هذا معناه». أ هـ وقال في «منهاج السنة» (٢/٣٤٢): وأمرنا بالعدل والقسط فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق. أ هـ.

(٥) الإمام ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ٣٩/٢.

(٦) رواه البخاري بالرقم ٦٩١٩.

(٧) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٩/ ١٧.

وحي الوجدان.. ووازع السلطان:

خطاب القيم

لابد أن ينزع الخطاب الإسلامي المعاصر إلى تغليب قيمة الضمير على حكم القانون، وإلى تقديم ضوابط المجتمع على قبضة الدولة، وإلى الاهتمام بالإصلاح قبل الردع والعقاب، وإلى التأليف قبل التعريف.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى النفس البشرية وهي تحمل نوازع الخير والشر::

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(الشمس، الآيات ٦ : ١٠).

وجعل سبحانه الفلاح والخيبة مرهونة بسعي الإنسان لتزكية نفسه أو الانحطاط بها، والإنسان منذ بدء الخليقة خُيِّر بين طريقين طريق الخير أم طريق الشر، ومن ذلك تبدأ رحلة المعاناة التي يعيشها الإنسان بين نوازع الخير والشر في نفسه.

وإذا أصبح الإنسان رقيباً على نفسه كان أبعد عن الحرام شرعاً، والممنوع قانوناً، والمعيب عرفاً. إنه لا يغدو ملاكاً معصوماً.. ولكنه يصير إنساناً ربانياً متحققاً: يخطيء.. لكنه لا يُصرّ، يتعثر.. لكنه ينهض، يذنب.. لكنه يستغفر!

النقد والتقويم.. لا الانتقاص

والتخوين: خطاب المراجعة

هذا باب يجب على الخطاب الإسلامي أن يتبناه بقوة لعظم دوره..

والأصل في إنزال الناس منازلهم دون بَخْس أو شطط، وتقديرهم بما يستحقون دون إفراط ولا تفريط.. بناءً على قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

مع التنبُّه إلى أن ليس مما يَحْسُن أن يشغل المرءُ نفسه بمراقبة الناس ليحكم عليهم سلباً أو إيجاباً، فمما رُوي من كتب الأنبياء السابقين ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ أن «على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله؛ قلَّ كلامُه إلا فيما يَعنيه!».

وإذا لم يكن بُدٌّ من انتقاد شخص أو جماعة أو فكرة؛ فليكن بالإنصاف والاعتدال، ومعرفة الرجال والأفكار بالحق ـ لا العكس والانطلاق من أنه لا معصوم إلا من عصم اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ.

ومع أن عندنا ـ نحن المسلمين ـ منهجاً إلهياً، وهدياً نبوياً، وسيرة تاريخية طويلة توضح لنا كيف نتعرف إلى الخطأ في أنفسنا أو في غيرنا، وكيف نستطيع تصحيح الخطأ؟ سواء أكان خطأنا نحن أم خطأ الآخرين.. فإن من المؤسف جداً أن هذا المنهج القويم أفاد منه الغرب ـ في الناحية الدنيوية ـ أكثر مما أفدنا نحن! فأرسوا قواعد النقد بين الحاكم والمحكوم، ووضعوا أسسه وضوابطه (سواء في المجال الإعلامي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو غيرها من المجالات).. بحيث أصبح كل فرد منهم يعرف: كيف ينتقد، وكيف يوجِّه، وكيف يشارك برأيه في كل قضية صغرت أم كبرت دقَّت أم عظمت، فأصبح كل إنسان منهم يُحث على أن يشارك مشاركة فاعلة في إدارة دفَّة المجتمع، وفي تصحيح الأخطاء، وفي توجيه الناس. أما المسلمون؛ فإن كثيراً من سلوك المنتسبين إلى الإسلام أقرب ما يكون إلى سلوك من يدَّعي امتلاك الحقيقة المطلقة!

التواصل.. لا التقاطع، التكامل..

لا الذوبان: خطاب التعارف

يجب أن يؤسس ويعمق الخطاب الإسلامي العالمي خطاب «التعارف الإنساني»، الذي مبدؤه: الإيقانُ بأن الله ـ تباركت أسماؤه ـ خلق كونه متنوعاً، وفطر خَلْقه على الاختلاف الحميد أصلُه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

(هود، ١١٨، ١١٩)

وليس هذا التنوع مقصوراً فيما بين الدوائر الحضارية، بل إن من القسط الإقرار بأن الدائرة الحضارية الواحدة تنطوي على قَدْرٍ غير قليل من التنوع والتعدد. ولذا.. فإن أية محاولة لتنميط الكيانات الحضارية ضمن قوالب أحادية جامدة، وتجاهل ما تضم الحضارة الواحدة من تفاعلات متعددة.. هي نوع من التعسف، الذي يقود حتماً إلى مغالطات في التصور، وتجاوزات فيما يتفرع عن هذا التصور المغلوط من أحكام وقرارات وسياسات.

ومن شأن هذا الاختلاف المتنوِّع أن يعاظم من ضرورة توثيق عُرى التعارف والتكامل بين خلق الله جميعاً:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات، ١٣)

وأحد أهم الاشتراطات التي ينبغي تحقيقُها في واقع التفاعل المتبادل بين الحضارات: السعي إلى تحقيق «التكافؤ» و«النِّدِّيَّة» (غير الصادمة ولا المهيمنة) بين الأطراف الحضارية الفاعلة.

ويعني هذا التكافؤ وهذه النِّدِّيَّة أن يسود الاعتقاد بأن هذه الأطراف كافة شريكة في الإرث الإنساني العامّ، وأن بوسعها جميعاً المساهمة بجدارة في صنع الحاضر والمستقبل، وأن يتم التفاعل بمقتضى هذه الحقيقة ـ دون إلغاء أو إقصاء أو تهميش ـ باعتبارها إثراءً للتجربة الإنسانية المشتركة.

فالتواصل بين خلق الله كافة واجب.. لكن دون استعلاء طرف وذوبان آخر. واعتزاز كل طرف بهويته مطلوب.. لكن دون تقوقع ولا انغلاق.. والتسامح بين الشعوب مستحب فيما وقع خلال التاريخ من مثالب وأخطاء، لكن دون تهاون في الحقوق ونسيان للدروس الإيجابية!

الإسلام بين السلف والخلف



لفضيلة الشيخ محمد المدنى

يرجع الإسلام فى أصل دعوته وتفاصيل شريعته إلى قسمين:

(١) العقائد وما يلحق بها من أنواع العبادات.

(٢) الأحكام العملية التى ينظم بها شئون الحياة. وللعلماء فى بحث هذين القسمين طريقتان:

(١) طريقة السلف من العلماء الأولين الذين تلقوا دعوة الإسلام من معينها الصافى، لم تشبها الشوائب، ولم تتحكم فيها الأهواء ولا المذاهب؛ ولم تفرقها الفرق ولا الطوائف.

(٢) طريقة المتأخرين الذين خلفوا من بعدهم، بعد أن دخل فى الإسلام ما ليس منه؛ وطغت على عقول المسلمين فلسفات أجنبية، وأفكار طارئة لا عهد لهم بها من قبل ونريد أن ننظر فى هاتين الطريقتين؛ لنعرف أيتهما هى الطريقة القويمة التى يصلح بها شأن المسلمين فى حاضرهم.

طريقة السلف

تمتاز هذه الطريقة بالبساطة المطلقة فى العقائد وما يتصل بها، فهى لا تعرف التعقيد، ولا تتكلف التأويل، ولا تنزل على أساليب الفلسفة الملتوية ولا المنطق المركب، ولا تتصيد الأخبار والروايات لتضخيم العقائد أو تركيب العبادات. إيمان بالله لا يعدله إيمان، مصدره الاقتناع النفسى، والاطمئنان القلبى، الناشئان من النظر فى ملكوت السماوات والأرض، والتأمل فى بدائع هذا الكون، وإدراك أسراره والإذعان لقدرة خالقه، وإيمان برسوله الذى أيده بوحيه، وأنزل عليه كتابه يتلى عليهم بكرة وعشيا، ويهديهم للتي هي أقوم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. ورضا فيما وراء ذلك بما يخبرهم به الله أو الصادق الأمين عن عالم الغيب، لا يكلفون أنفسهم بحثه أو التعمق فيه، أو الوقوف على تفاصيله، علما منهم بأن الغيب لله لا يظهر على غيبه أحدا وبأن للعقل حدا يجب أن ينتهي إليه، ويقف عنده.

١- كانوا يؤمنون بأن لله ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم بعد ذلك الوصول إلى حقيقة هؤلاء الملائكة، ولا تعرف كنههم، وهل هم أجسام نورانية، أو أرواح علوية أو نحو ذلك؟!

٢- وكانوا يؤمنون بيوم الحساب، وبأن الله سيخرج للناس كتبا فيها أعمالهم، يلقونها منشورة، وبأنه سيضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، ولكنهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم ما وراء ذلك من معرفة كنه هذا الكتاب، ولا أين تكون ساحة هذا الحساب، ولا حقيقة هذه الموازين، وكيف تقام، وهل لها كفتان ولسان، أو

هي على شكل ميزان القبان، وهل هى من حديد أو نحاس، وهل تجسد الأعمال ثم توزن بها، أو تكتب فى صحف ثم توضع فى كفتيها؟

٣- وكانوا يؤمنون باللوح المحفوظ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم أن يثيروا نقاشا أو جدالا حول هذا اللوح؛ ليعلموا أنه فوق السماوات السبع أو تحتهن؛ أو أن مساحته كذا وكذا، أو أن قلمه كيت وكيت.

٤- وكانوا يؤمنون بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، لكنهم لا يتطلعون إلى معرفة كنه هذه الحياة، ولا نوع هذا الرزق.

٥- وكانوا يؤمنون بأن الرحمن على العرش استوى:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١١٥)

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(الفتح: ١٠)

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾

(المجادلة: ٧)

ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالبحث فى الاستواء وكيف كان، ولا بالسؤال عن اليد، أو الوجه أو تأويل معناهما، ولا يتطلعون إلى معرفة حقيقة هذه الصاحبة وعلى أى حال تكون.

سئل مالك - رضى الله عنه - عن معنى الاستواء المذكور فى القرآن فغضب وقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وسئل على رضى الله عنه: كيف يحاسب الناس يوم القيامة، وهل يكون ذلك دفعة واحدة؟ فأجاب: يحاسبون كما يرزقون.

وكان عمر - رضى الله عنه - يضرب أمثال هؤلاء بالدرة ويعنفهم ويتعقبهم، وقد مر رسول الله ﷺ بقوم، فسمعهم يخوضون فى القدر، فغضب حتى احمرت وجنتاه وقال: (أفبهذا أمرتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال).

هذه طريقة السلف الصالح فى الإيمان بالله وما أخبر به من الغيب؛ لم يكونوا يكلفون أنفسهم شيئا من التفاصيل التى لم يذكرها الله فى كتابه ولم ترد عن الصادق الأمين من طريق يعول عليه فى إثبات العقائد، لأن العقائد إيمان ويقين لا يغنى فيهما الظن:

﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(يونس: ٣٦)

وقد أدركوا بما لهم من العقول الصافية أن قياس الغائب على الشاهد لا يستقيم وأن الله كلفهم بالإيمان بالغيب كما يريده غيبا يحتفظ به لنفسه ولا يطلع عليه أحد من خلقه:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(الأنعام: ٥٩)

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾

(آل عمران: ١٧٩)

وعلموا أن الاشتغال بما لم يأذن به الله من هذه التفاصيل هجوم على الغيب وتعقيد للعقيدة وتشتيت لأفكار المسلمين، وصرف لهم عما يجب من العمل بمقتضى إيمانهم إلى أنواع من الجدل ليس فيها فائدة فى العقيدة ولا فى العمل.

وقد كان لهم فى العبادات شأن كهذا الشأن، يعبدون الله كما يريد الله، لا ينظمون ذلك علي ما يشاءون، ولا يبتدعون فيه أو يحدثون، علما بأن العبادة أنواعها ورسومها وهيئاتها شأن يرجع فيه إلي المعبود - سبحانه - وحده، ويؤخذ فيه بما ارتضاه لنفسه وإذا كان الملوك والحكام لا يستحيون لأنفسهم ولا يرضون من رعاياهم أن يخرجوا عن تقاليدهم أو يعدلوا

فيها، بل يوجبون في تشريفاتهم أوضاعًا خاصة وملابس خاصة وأوقاتا خاصة، فهل يجوز للناس أن يبتدعوا أو يخترعوا في عباداتهم ما لم يأذن به ملك الملوك؟

لهذا كله سلم الدين في عهد الأولين من الابتداع واتباع الهوى وسلم المسلمون من التفرق بالأهواء؛ ولم يدخل على العقائد والعبادات ما دخل من بعد ولم يكثر الزيغ والإلحاد، ولم تتحير العقول، ولم يتقاذف الناس في الدين والعقيدة تُهم الكفر والزندقة والفسوق تجرى على ألسنتهم بغير حساب!!

أما سنة الأولين في النظر إلى المعاملات وأحكام الحياة واستنباط ذلك من شريعتهم، فقد فهموا أن الشريعة، إنما وضعت لإسعاد العباد وتحقيق مصالح الناس وأنها تقوم على أساس العدل والرحمة، وأن السياسة الصالحة جزء من أجزائها وفرع من فروعها. فهموا ذلك، فلم يتعنتوا ولم يتزمتوا، ولم يضيقوا واسعا ولم يحجروا على العقول والأفكار، ولم يصادروا حرية الرأى، ولم يفرضوا على الناس مذهبا بعينه، ولم يقفوا أمام أحداث الزمن جامدين، بل وضعوا لكل مشكلة حلها، ولكل قضية قضاءها، وفتحوا باب الاجتهاد والرأى والنظر؛ ليجاروا سنة الله في الحياة التي لا تعرف الركود ولا الجمود والتي لا تنتظر المتخلفين والمترددين؛ ورسموا لذلك حدودا لا يقصد بها تقييد العقول ولا التضييق على الأفكار، ولكن يقصد بها تنظيم الفكر وتقويم الرأى، وتجنب الزلل وضمان الصواب.

استمدوا كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن مقاصد الشريعة الكبرى التي هي رعاية المصلحة وتحقيق معنى العدل والرحمة وتطبيق ما تقضي به السياسة الرشيدة والقياس الصحيح. وقد أوسعوا بذلك دائرة الشريعة علما وعملا، ولبوا بها مطالب عصورهم، ونهضوا بحاجات قومهم وأوطانهم، واشتركوا مع رجال الحكم والرأى في تدبير شئون الأمة والحفاظ عليها وحياطة دينها وشريعتها، وكان لهم في ذلك مفاخر ترفع الرءوس وتكرم شأن العقول، وتحدث عنهم بأنهم عرفوا لأنفسهم حقها ومتعوا عقولهم بلذات النظر والفكر.

انخصبت في ظل هذه الحرية الفكرية عقول المسلمين، واتسع نطاق الرأى والنظر في جميع علوم الإسلام، وكثر المجتهدون والمستنبطون لأحكام الشريعة، وانبثوا في كل قطر من أقطار المسلمين؛ وصاروا يعدون بالمئات لا بالآحاد ولا بالعشرات؛ ووجد الخلفاء والأمراء والقضاة والحكام حاجتهم من المبادئ والأحكام والنظم والقوانين في الشريعة، فلم يحاولوا الخروج عليها، ولم تحدثهم نفوسهم بنبذ أحكامها أو استبدال غيرها بها؛ واحتفظت الشريعة بما ينبغي لها من الاحترام والمكانة والكلمة العليا في المراكز العملية وقصور الحكم والسلطان ودور الإدارة.

هكذا كان شأن علمائنا السالفين في فهم العقائد وإدراك المقاصد وتطبيق أحكام الله، تسليم فيما يتصل بالعقائد والعبادات أغناهم عن الجدل والتفرق بالأهواء والبدع، وحرية واجتهاد في فقه الحياة، فتحا أمام الناس أبواب الحياة. فماذا فعل الخلف من بعدهم؟

طريقة الخلف

لقد عكسوا طريقة السلف، ففصّلوا ما كان مجملا، وأجملوا ما كان مفصلا، وضيّقوا ما كان واسعا، وظلموا أنفسهم بتجاوز حدودهم، وجنوا على شريعتهم بتفريطهم:

١ - جروا في العقائد على تفصيل أدخل على المسلمين الفرقة والانقسام، وفتح أمامهم أبوابا من الجدل الفضى إلى التشاحن والتدابر كانوا في غنى وسلامة منها، وشوهوا أمام الناس علم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتجرأوا على الغيب يستطلعون خباياه ويستكشفون أسراره، وزحموا العقائد الصافية في زحمة الروايات الموضوعة والأخبار الملفقة والإسرائيليات المدسوسة.

وصفوا لنا عالم الأرواح وما يدور فيه من أقوال وأفعال، وحدثونا عن حياة الأولياء في قبورهم، والشهداء عند ربهم، فذكروا أنها حياة حقيقية يأكلون فيها ويشربون، بل يتمتعون فيها ويتزاوجون!

وصفوا لنا الملائكة وأصنافهم وأحوالهم وأجنحتهم ومقاييس أجسامهم وما يقولونه في تسبيحهم حين غدوهم أو رواحهم، وما يكون من حوارهم بعضهم وبعض!!

وصفوا لنا أرض المحشر وساعة الحساب ومواقف الأولين منها والآخرين؛ وحدثونا في تفصيل دقيق عن الصحف المنشورة والموازين المنصوبة وعن الحوض ومياهه وأكوابه وسقاته وتدافع الناس من حوله وازدحامهم بالمناكب عليه، كأنما كانوا شهودا لكل ذلك إذ يفيضون فيه، أو كأنما أطلعهم الله على برنامج هذا اليوم المشهود فهم يقرأون منه على الناس كتابا مفصلا!!

وحدثونا عن اللوح والقلم والعرش والكرسي، أيها خلق قبل الآخر وأيها يصعد إليه أمر الله أولا، وكيف يكتب القلم وما عدد أسنانه، وما عدد ما سطر في الكتاب من آيات الله وكلماته؛ ونسوا أن ذلك كله من عالم الغيب، وأنهم يتهجمون منه على ما احتفظ الله به، ويتعدون حدود بشريتهم ودائرة عقولهم، ويركبون متن الشطط والغرور!!

ثم صوروا للناس قضاء الله وقدره بصورة تدفعهم إلى التواكل وتعلمهم الركود والإخلاد، وتوهمهم أنهم مكبلون من فوق هذا الكون بقيود أو أغلال لا سبيل إلى تحطيمها ولا إلى التخلص منها!!

٢ - وأدخلوا على العبادات أنواعًا من البدع لم يأذن بها الله يتصيدون لذلك من الأحاديث الضعيفة ما يؤيدون به شهواتهم ويحاجون به ناصحيهم، حتى اختلط على الناس أمر الدين ولم يعد أكثرهم يميز بين ما شرعه الله وما شرعته الأهواء، ففي الصلاة بدع، وفي الصيام بدع، وفي الحج بدع، وفي الذكر بدع وفي الأذان بدع، في تشييع الجنائز وزيارة القبور بدع، بل استباحوا لأنفسهم أن يركبوا أنواعا من العبادات لم يكن يعرفها المتقدمون، وألوان العبث الهازل الذي لا يليق بأمة دينها الإسلام وكتابها القرآن.

٣ - أما في الفقه والتشريع وتطبيق أحكام الله على مشكلات الحياة وأمراض المجتمع وأحداث الزمن، فهناك الجمود والخمول: جمود لواهم عن التفكير، وباعد بينهم وبين إدراك روح التشريع، وتقدير المصالح ودراسة فقه الحياة؛ وخمول زواهم عن الناس وأنساهم أنفسهم، وصرف العقول عنهم، وأيأس المفكرين منهم، وأضعف ثقة أهل الحكم والسياسة بهم وبشريعتهم؛ فذهبوا يلتمسون أحكام الحياة والمعاملات ونظم المال والاقتصاد والعقوبات من شرائع أوروبا، ويحكمون في بلاد الإسلام بغير ما أنزل الله.

تركوهم لذلك وأشباهه يدرسون منه ما يدرسون، ويتركون منه ما يتركون، وينقطعون عنه ما ينقطعون؛ ومراكز الفقه والتشريع والإدارة والقضاء في أيدى غيرهم، وكراسى الحكم والنيابة خالية منهم، وبيئات العلم والأدب جاهلة بهم معرضة عنهم؛ والأمة لا تراهم إلا حيث يكون الاحتفال والأعياد.

مسئولية الحاكم



الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف

تشهد مصر حاليا صراعاً محموماً على الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية، وترى تجاوزات من بعض المرشحين فى سلوكياتهم وأقوالهم، بل ووصل بعضهم إلى التهديد والوعيد واستخدام السلاح فى وجه من يخالف تأييدهم.. وإلى اتصاف بعضهم بصفة الكذب فى أحاديثهم وتصريحاتهم، مع أن الكذب من أخس صفات الرذائل، فالمتصفون بها يعيشون على خديعة الناس، قال رسول الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها، إلا الخيانة والكذب»[١].

وسُئل رسول الله ﷺ: «أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا...»[٢].

فالكذب كبيرة من الكبائر، وقد توعد الإسلام من يفعله بالعذاب الأليم يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الصف: ٢، ٣)

والولاية التى يهرول المرشحون إلى تقلدها مسئولياتها كبيرة، وأعباؤها جسيمة، وأوزارها ثقيلة، وحسابها عند الله عسير، فزمام الأمور كلها بيد الحاكم، وهو حمى الله فى بلاده، وظله الممدود على عباده، به ينتصر مظلومهم، ويرتدع ظالمهم، ويأمن خائفهم، ويقوى ضعيفهم، ويضعف قويهم، ويشبع جائعهم.

وهى أمانة يتحمل تبعاتها أمام الله، من فرّط فيها ولم يعطها حقها فويل له من يوم عظيم بأسه شديد، وحسابه عسير:

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

(الحج: ٢)

ويصف لنا رسول الله ﷺ الإمارة فى الحديث الذى يرويه عوف بن مالك – رضى الله عنه – فيقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن شئت أنبأتكم عن الإمارة وما هى؟ فناديتُ بأعلى صوتى: وما هى يا رسول الله؟ قال: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل، وكيف يعدل مع قريبه؟»[٢].

(١) أخرجه الإمام أحمد

(٢) – أخرجه الإمام مالك.

ولثقل مسئولية الولاية والخوف من تبعاتها وعاقبتها عافها كثيرٌ من الصحابة وابتعدوا عنها، فقد رُوى عن أبى وائل شقيق بن أُسامة أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – استعمل بشر بن عاصم – رضى الله عنه – على صدقات هوزان، فتخلف بشر، فلقيه عمر فقال له: ما خلّفك؟ أما لنا سمعا وطاعة؟ قال: بلى، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسناً نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر «انشق» فهوى فيه سبعين خريفا «سنة»، قال: فخرج عمر –رضى الله عنه– كئيباً محزونا، فلقيه أبو ذر – رضى الله عنه – فقال: مالى أراك كئيبا حزينا؟ فقال: مالى لا أكون كئيبا حزينا؟ وقد سمعتُ بشر بن عاصم يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسناً نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفا، فقال أبو ذر: أو ما سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال – عمر –: لا، قال أبو ذر: أشهد أنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من ولى أحد من المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفا، وهى «جهنم» سوداء مظلمة فأى الحديثين أوجع لقلبك؟ قال: كلاهما قد أوجع قلبى، فمن يأخذها «الولاية» بما فيها؟ قال أبو ذر: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، أما إنا لا نعلم إلا خيرا، وعسى إن وليتها من لا يعدل فيها أن لا تنجو من إثمها.

إن الحاكم راع وهو مسئول عن رعيته كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»[٣].

ولقد أدرك سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – مسئولية الرعية وعرف عموم مسئوليتها فقال كلمته المشهورة: لو أن بغلة عثرت بأرض العراق لسألنى الله عنها يوم القيامة لم لم تسوى لها الطريق؟

فحق على من قلده الله أزمة حكمه، وملكه أمور خلقه، واختصه بإحسانه، ومكّن له فى سلطانه أن يكون بالغ الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته، بحيث وضعه الله فى منزلة من الكرامة، وأجرى عليه من أسباب السعادة، قال الله عز وجل:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

(الحج: ٤١)

ومن مسئولية رعاية الحاكم أن يتابع أعمال ولاته على الأقاليم والأمصار، فلا ينشغل هو وولاته بأنفسهم عن الرعية، وبقضاء مصالحهم الشخصية على حساب مصالح الرعية، وبتملك الأراضى والعقارات، والمؤسسات المالية والشركات، وجمع الأموال بطرق غير مشروعة

(٣) البخارى ومسلم

وتهريبها للخارج؛ لأن في هذا الانشغال عموم البلاء والفساد، وضياع الرعية وتحكم الأعداء.

ولَّى أميرُ المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الصحابي الجليل سعيد بن عامر إمارة حمْص بالشام، وكان مشهورا بالورع والتقوى والزهد في الدنيا، فأقام العدل بين أهل حمص، وساد الأمن والأمان ربوع البلاد، وأصبح الجميع في أحسن حال وعلى خير ما يرام.

وفي يوم من الأيام وصلت شكوى إلى الخليفة عمر بن الخطاب من أهل حمص يشكون فيها واليهم الصحابي الجليل سعيد بن عامر فسافر أميرُ المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه إلى حمص ليحقق في الشكوى، واستدعى الشاكين وجمعهم مع الوالي وبدأ التحقيق، فقام أحد الشاكين يتحدث باسمهم فقال:

يا أمير المؤمنين: إنا نشكو امنه أربعة:

الأولى: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

الثانية: لا يجيب أحدا بليل.

الثالثة: له في الشهر يومان لا يخرج فيهما إلينا ولا نراه.

الرابعة: تصيبه حالة لا حيلة له فيها لكنها تبعث فينا الضيق والقلق.. ذلك أنه تأخذه الغشية بين الحين والحين.

ثم جلس الرجل، فالتفت سيدنا عمر بن الخطاب إلى الصحابي الجليل سعيد بن عامر وقال له: ما لديك للدفاع عن نفسك؟ فقال الصحابي الجليل سعيد بن عامر: والله لقد كنتُ أكره ذكر الأسباب أما ولابد من ذلك فسأشرح الأمر.

أما قولهم: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار فإنه ليس لأهلي خادم فأنا أعجن عجيني ثم أدعه حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ للضحى وأخرج إليهم.

وأما قولهم: لا أجيب أحدا بليل. فإني جعلت النهار لهم والليل لربي عز وجل.

وأما قولهم: إن لي في الشهر يومين لا أخرج فيهما فليس لي خادم يغسل ثوبي وليس عندي ثياب أبدله، فأنا أغسل ثوبي ثم أنتظر حتى يجف وفي آخر النهار أخرج إليهم.

وأما قولهم: إن الغشية تأخذني بين الحين والحين فذلك لأني شهدت مصرع خبيب بن عدي الأنصاري – وأنا مشرك قبل أن يهديني الله إلى الإسلام – وقد بضعت قريش لحمه وحملوه على جذع شجرة وهم يقولون له – وخبيب غارق في دمه: أتحب أن محمدا مكانك وأنت سليم معافى؟ فيقول خبيب: والله ما أحب أني في أهلي وولدي آمنا بينهم وأن محمدا تصيبه شوكة.. فإني و الله كلما تذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أن الله لن يغفر لي فأرتجف خوفا من عذاب الله ويغشاني الذي يغشاني.

فلم يتمالك سيدنا عمر بن الخطاب نفسه وصاح بأعلى صوته وهو في قمة فرحته وسعادته ونشوته بتوفيق الله له في اختيار واليه قائلا: الحمد لله الذي لم يخيب فراستي.

رحم الله الصحابي الجليل سعيد بن عامر فقد ضرب بتقواه ونزاهته وزهده وخشيته من الله المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه مَنْ يلي أمرا من أمور المسلمين من التقوى والنزاهة والزهد والورع.

إن من مسئوليات الحاكم الكبيرة والتي يترتب عليها صلاح أمره أو فساد حكمه تحري الدقة في اختيار بطانته ومعاونيه، لأن الحاكم إذا كان في حاجة إلى قوة الإرادة، وبعد النظر، والاتصاف بالحكمة وحسن الخلق، ورجاحة العقل، ونفاذ البصيرة.. فهو في أشد الحاجة إلى من يقف إلى جانبه يبصره بمواقع أقدامه، ويكشف له عن وجه الحق فيما يعرض عليه من شئون، ويكون شجاعا مخلصا في توجيه النصح والإرشاد إليه.

ومن ذكاء الحاكم وحكمته أن يكون عاقلا ذا فراسة في اختيار رجاله الذين يعينونه على إدارة دفة الحكم، وعلى قضاء مصالح الرعية.. فهم محسوبون عليه يتحمل تبعة أعمالهم وتصرفاتهم.

لما وجّه عمر بن هُبَيرة مُسْلم بن سعيد إلى خراسان قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك فإنه وجهك الذي به تلقى الناس إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء، وصاحب شرطتك.. فإنه سوطك وسيفك حيث وضعتهما فقد وضعتهما، وعمال القدْر «ذوو الشرف والحسب»، قال: وما عمال القدْر؟ قال: أن تختار من كل كورة «مدينة أو بقعة» رجالا لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

إن بطانة الحاكم وحاشيته قوة مؤثرة في توجيه دفة الحكم فإن كانت صالحة، صلح الحاكم وإن كانت فاسدة فسد الحاكم.

لقد شاهدنا سلوك أنصار بعض المرشحين إلى منصب رئيس الجمهورية وتعصبهم الأعمى له، ورفضهم الانصياع لصوت العقل والمنطق عند الحديث معهم، ورفضهم تطبيق أحكام القضاء، وقيامهم بقطع الطرق واحتلال الميادين وتعطيل مصالح الناس.. فدفعونا إلى طرح سؤال: كيف نأمن على أنفسنا من مرشح حوّله أنصاره إلى طاغية مستبد كذاب قبل أن ينتخب ويحكم، قبل أن يكون الجيش والشرطة والأمن المركزي في قبضة يده تحت أمره ورهن إشارته؟ لأنه من المسلم به أن بطانته وحاشيته ومستشاريه ومعاونيه وعماله سيكونون من هؤلاء المتعصبين له، الذين لا يعترفون بالرأي الآخر، ولا يسلمون بحرية التعبير لغيرهم..

إن صوتك أيها الناخب أمانة سيحاسبك الله عليها، وشهادة ستسأل عنها، وتزكية المرشحين للمناصب العامة نوع من الشهادة، والحَيف في الشهادة من أشنع الكذب، فمن انتخب المغموط في كفايته وأمانته فقد كذب وزوّر، ولم يقم بالقسط، والله تبارك وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(النساء: ١٣٥)

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر – ثلاثا – قلنا: بلى، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس.. وكان متكئا فجلس، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!»[١].

إن التزوير كذب كثيف الظلمات، إنه لا يكتم الحق فحسب، بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل، وخطره على الأفراد في القضايا الخاصة، وخطره على الأمم في القضايا العامة شديد مبيد.. ومن ثم خَوف الرسولُ منه على هذا النحو الصارخ.

---

(١) أخرجه البخاري.

الثقافة العربية والمستقبل ٢

خطاب التجديد



عبدالله بن الشيخ عبدالمحفوظ بن بيه

خطاب التجديد موجه إلى الجميع، إلى كل من يبحث عن صالح هذه الأمة انطلاقاً من قناعته أن مستقبل الأمة هو ما سيصنعه الجميع.

خطاب التجديد خطاب متأنٍ متئد حينما يتعلق الأمر بالمقولات والمفاهيم الإنسانية والاجتماعية التى تقترحها المعاصرة، بل إنه يتعامل بشيء من البطء والتروى إلى حد الانتفاء فى الوقت الذى يبذل فيه كل جهد لاستيعاب الجانب العلمى والتكنولوجى بأكبر قدر من السرعة المحكمة، مندفعاً للمنافسة فى هذا الجانب بكل قوة.

خطاب التجديد خطاب حضارى واعٍ لا يوجه اللوم إلى أحد، إذ يعتبر الجميع بفضائلهم ونقائصهم ومزاياهم ورزاياهم ثمرة ثقافة هذه الحقبة التى نعيشها.

إنه دعوة إلى بناء إنسان جديد فخور بأصالته، متفاعل مع عصره، وهو يهدف إلى تنشئة جيل عربى فاعل وليس مفعولاً به، يستطيع بكفاءته الروحية والخلقية والنفسية والعلمية المنافسة فى ميدان الحياة ومواجهة القرن القادم بتحدياته ومجهولاته.

خطاب التجديد يوجه تحذيراً واحداً: هو أن الإشاحة بوجوهنا، والصدوف والعزوف عن التجديد من منطلق استنطاق ثقافتنا ومنطق اليأس منها، وكذلك الانكفاء على الذات ومنطق اليأس من خير المعاصرة سيخلفان ويخلدان التمزق والضياع.

وبالعكس فإن أى خطوة جادة نحو فكر التجديد وممارسته ستنعكس إيجابياً على الإنسانية ومردود الإدارة والإنتاج وقيمة الوقت والعلاقات الإنسانية والأمن البشرى، وسيكون المردود إيجابياً على العالم كله حيث سنوفر معبراً إلى رحاب التنوع الثقافى لما لعالمنا من صلات تاريخية بنفس التواصل، ولما لموقعنا الجغرافى بين العالم الأصفر والأبيض وتشابك علاقتنا الثقافية مع هذه العوالم.

فما هى أسس التجديد فى المكونات الثقافية الثلاث فى تعاملها مع بعد المعاصرة؟

إنه سنكون فى الشريعة تجلية قيمها وفضائلها، قيم التسامح والعدل والشورى والتعايش والتواصل والروحانية والوحدة والتعدد فى إطار الثوابت وهو تعدد تجليه مرونة الفقه وسعة أفقه وتنوع دلالته وتوسع نطاق أدلته الإجمالية فى ضوء الزمان؛ لتحقيق مقولة هى بالتأكيد حق: إن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان؛ وذلك بتسلط الاجتهاد على الربط التواصل بين الزمان وبين الشريعة نصوصاً ومقاصد وأصولاً وقواعد، انطلاقاً من مبدأين: العقل، والمصلحة. وترجمة لثلاثة مقاصد: الضرورى، والحاجى، والتحسينى، وتطبيقاً لخمس قواعد:

١- إلغاء الشك لليقين.

٢- تحكيم أعراف الزمان.

٣- إزالة الضرر وضرورة الإنسان.

٤- رفع المشقات وإحلال اليسر فى التكليف محل العسر.

٥- الجريان فى التكليف على المقاصد لا على الصور.

بالإضافة إلى الأدلة التى تستند إلى معقول الشرع كالقياس والاستحسان وسد الذرائع والمصالح المرسلة، أضف إلى ذلك التعامل مع سلم الضرورات والحاجات العامة التى تغير مقتضى الأوامر والنواهى فى الشريعة طبقاً لما يسمى بالرخص بأنواعها.

فى اللغة: فى إحيائها وتعميمها وتفجير معين قواعدها الذى لا ينضب، وغرس شجرتها التى لا تذوى، انطلاقاً من غناها وثرائها فى غناها وثرائها فى المفردات والتعبير والاشتقاق وأوزان الجموع. فلنا فى لغتنا العربية ثلاثون جمعاً يقابلها جمعان فى اللغة العبرية التى تعلمت نحوها، وصاغت نفسها وأحدثت الشكل والنقط اقتباساً من العربية فى القرن الثامن الميلادى بالأندلس. فهل يغلب جمعان ثلاثين جمعاً؟

فى الآداب: بإحيائها نثراً وشعراً بمختلف بحوره فى أجمل صوره وفى شتى مقاصده، يجب أن تصدح النوادى والبيوت بجماله وفنونه، وتشدو طير الخمائل من جديد على أزهارها المونقة فى رياضه المورقة بأنغامه ولحونه.

فى العادات والتقاليد: بإحياء الصناعات والتقليد والفنون الجميلة، وباتخاذ كل الطرق التربوية لاستمرار التماسك الأسرى، وحب الأدنى، وبر الوالدين، والشهامة والكرم، وإسعاف الآخرين، والوفاء، والبر، والسماحة، كما قال امرؤ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً
من خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا
ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

يجب أن نقدم هذه العادات والتقاليد

فى مقابل الإنسان الأخير، وهو صورة لإنسان الغرب المستقبلى عند فوكوياما اقتباسًا من الفيلسوف نيتشه، حيث يرى أن إنسان الديمقراطية الليبرالية سيكون حرًا بأخلاق العبيد، تذلا لا قيم له ولا خلق ولا غيرة، أنانيا لا يهتم إلا بمصلحته الشخصية وشهوته المنحطة، سيخلع إنسانيته! إنه (الهلباحة)[1].

إننا بهذه التقاليد النبيلة التى هى قيم ديننا وتراثنا سنسهم فى تقديم أنموذج بشرى سوى. إن هذه المكونات الثلاث متجددة فى نفسها، باحثة فى أعماقها، ستعيد صياغة ذاتها متفاعلة مع بعد المعاصرة فى حيويته ومقولاته الإنسانية وبخاصة فى علومه وتقنياته التى تقترح آفاقًا جديدة يجب أن تغزى، وتكشف أغوارًا عميقة يجب أن تسبر.

وسائل هذا التجديد

حيث إن خطاب التجديد مسالم، بل متعاطف مع كل فعاليات الأمة، فعلى الجميع حكومات وأفراد وجمعيات أن تجد الوسائل الكفيلة بتنفيذه، فالصيغ التنظيمية لا قيمة لها فى حد ذاتها إلا بقدر ما تؤديه من وظيفة نافعة، إلا أن العلماء والمفكرين يتحملون عظم مسئوليته، فهم الذين سيقع عليهم عبء ترجمته من سماء النظريات والرؤى الفكرية إلى أرضية التطبيق ليصبح برنامجا علميا يصلح للتنفيذ فى ظروف الأمة الزمانية والمكانية، وفى ظروف كل جزء منها على حده.

لهذا فإن الكليات التى أشرنا إليها فى الشريعة ملامسة جوانب واسعة من جهة، وضبط المسار بشوابت شرعية ليست وظيفتها رفع الحرج عن ضمير الفرد والجماعة حتى يصبح أكثر انسجاما مع ما تتطلبه مقتضيات العصر فحسب، ولكن ليكون العمل أكثر إيجابية ولصوقًا بالواقع، يصبح وضع الخطط العلمية ضرورة لقيام ورشة أو ورشات عمل لدراسة تلك المبادئ والأصول والقواعد والكليات فى ضوء مقترحات المعاصرة، وعلى خلفية تطوير الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، ولا يكتفى أن نستنبط من هذه المبادئ بل علينا تكوين عقليات اجتهادية جبارة كأبى حنيفة وأضرابه، وهذه الخطوة وسيلتها المجامع الفقيهة والجامعات والمراكز الحكومية والخاصة، كما يجوز لأى كان أن يسهم فى وضع مفرداتها وتفصيلاتها.

كما أن دارسة التاريخ والسير لن تسمح بتجلية العبقريات فقط، ولكن بمحاولة الإفادة من كيفية تعامل هذه العبقريات السياسية والقيادية مع ظروفها التاريخية.

كما أنه يجب إدماج الدراسات الإنسانية بالدراسات الإسلامية، بخاصة علم النفس الحديث؛ لتكوين الشباب المؤهل نفسيا لمواجهة التجديد.

---

(١) تراجع مقدمة فوكوياما، نهاية التاريخ، الترجمة الفرنسية.

وفى اللغة ستكون المجامع اللغوية خير وسيلة، وكذلك النوادى، وكل الهيئات والجماعات ذات الصلة.

وإن الصحافة والجامعات والمراكز العلمية يجب أن تكون أكثر نشاطًا وحيوية، ويجب التركيز على البحوث العلمية المتكيفة مع البيئة المحلية.

إننى فى النهاية لست متشائمًا، فإن مستقبل ثقافتنا هو ما ستكون، ومستقبلنا هو ما سيكون، وهو ما نريد جميعًا بإذن الله- إذا تم الاتفاق وإذا اتفقت حكوماتنا على خطوط محددة فى بناء الجسور الثقافية وتحديد معالم استراتيجية ثقافية، ووضع خطط زمنية لتنفيذ مراحلها، طال الزمن أم قصر، فإن من شأن ذلك أن يشكل منعطفًا تاريخيا فى غاية الأهمية، وقد تكون أهمية مساوية لأهمية اتفاق السوق الاقتصادية الذى برزت تباشيره بإعفاء جزئى لبعض السلع، وإنشاء بعض المناطق الحرة للتبادل التجارى.

إن الثقافة العربية قوية البناء الداخلى، راسخة الجذور، خبرت أزمات التاريخ فحولت جبابرة المغول والأتراك إلى أتباع وخدام أوفياء. إن أجزمة أمنها منتشرة فى العالم الإسلامى.

وأخيرًا

إن التجديد الذى نريده سيكون انطلاقًا من القوى المعنوية والتاريخية عبر معادلات ومرتكزات جديدة تنشئ فكرًا خلاقًا مستوعبًا ومضيفًا متجاوزًا الاستجابة والتكيف إلى الاحتراف والإبداع، والأخذ والعطاء، والشراكة الحضارية والندية.

إنه تطور نابع من عبقرية الأمة وحاجتها، شامل لكل ميدان على مستوى التحديد التاريخى، مبلورا المشروع الحضارى الواعد الواعى، مدمجًا القيم والتاريخ فى بوتقة الحاضر والمستقبل، وفى تناغم وتناسق، فى خطاب قديم فى مضامينه، جديد فى طروحاته، أصيل فى مقارباته، ولهذا فهو الجديد بالنوع، القديم بالجنس الذى يجعل من التراث حافزًا، ولا يقيم منه حاجزًا.



ما أحوجنا إلى التجديد




المستشار حسن حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

كثيراً ما يقرأ المسلم عن الخواص المميزة لشريعته الغراء، ومنها خاصية صلاحيتها للتطبيق فى كل زمان ومكان، وقد لا يشغل باله بما يحقق هذه الخاصية، ولكن فى لحظة تأمل، قفزت إلى الذهن فكرة، فيها تبيان لهذه الحقيقة، وهى أن نصوص الشريعة من الكتاب والسنة ثابتة، محفوظة كما أنزلت، لا تتغير ولا تتبدل، ولكن فى المقابل ظروف واقع الحياة، هى دائمة التغير والتبدل، حسب الزمان والمكان، ونظراً لمرونة فهم هذه النصوص، فإنه بإعمال العقل فيها، يمكن الوصول لأفضل التطبيقات، التى تتناسب مع كل زمان ومكان.

وفى هذا الإطار، يمكن فهم الحديث الصحيح، الذى رواه أبو داود والحاكم والبيهقى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن الرسول ﷺ، قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها»، وفى رواية: «أمر دينها». وليس المقصود بهذا التجديد، هو الإتيان بنصوص جديدة، يقام عليها صرح الإسلام، فهذا ما أتمه الله ورضيه لعباده، كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾

(المائدة: ٣)

ولكن التجديد المقصود هنا، هو إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وبالتأكيد فإن الأداة المستعملة فى تحقيق هذا التجديد، لابد أن تكون هى العقل، يربط المبادئ بالواقع، ليصل إلى الحكم الشرعى المنطبق، ومن ثم فإن أهم ما يميز المجدد، أن يكون مستعملاً لعقله، ليأتى بما هو جديد، مواكباً لما يستجد فى حياة الناس.

وعلى العكس من ذلك، إذا أصاب الجمود أمة الإسلام، فإن مرده هو تعطل استعمال ملكات العقل عند أصحابه من أبنائها، وهذه جريمة لا تغتفر فى حقها، وهنا تجدر الإشارة إلى ما قاله أحد مفكرى الإسلام المعاصرين، من أن الدين الإسلامى يتميز بمرونة تحببه إلى النفس البشرية،

وإذا كانت بعض فترات من التاريخ، نسب الإسلام فيها - ظلما - إلى الجمود، فإن ذلك لم يكن للإسلام ذنب فيه، وإنما الذنب، كان ذنب بعض المسلمين، الذين جمدوا وتحجروا، فالتصقت التهمة بالإسلام، وكيف يكون الإسلام جامداً وهو الصالح لكل زمان ومكان؟!، وآية ذلك اعترافه بالعقل وتقديسه، وهو فى ذلك وحيد بين الأديان جميعاً سماويها وأرضيها، ففى الحديث الصحيح: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل، يهدى صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد، ولا استقام دينه، حتى يكمل عقله»، ومن ثم فلا غرابة فى أن تجعل شريعة الإسلام العقل مناطاً للتكليف، سواء فى العقائد أو العبادات أو المعاملات، ولهذا يرفع التكليف عن ذاهب العقل بجنون أو عته، لقول الرسول ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: وذكر منهم: «والمجنون حتى يفيق»[1].

ومن الأمور التى تقف عثرة أمام فكر التجديد، ما يحلو للبعض إثارته من حين لآخر، حول البدعة فى الدين، استمساكاً بما ورد بالحديث الشريف القائل: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار» ولإزاحة هذه الثغرة من طريق الدعوة الخالصة لدين الله تعالى، يتعين الرجوع إلى الفكر الواعى لعلماء الأمة الثقاة، وأخذ الرأى الصائب عنهم فى مثل هذا الأمر الدقيق، الذى يتطلب الفهم العميق لما جاءت به الشريعة الغراء، من أحكام تجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما نحاول بيانه، من خلال تناول النقاط الآتية:

أولاً: تحديد مفهوم البدعة

فكما قال صاحب القاموس، البدعة هى: الحدث فى الدين بعد الإكمال، وما استحدث بعد النبى ﷺ من الأهواء، وقال غيره هى: اسم من ابتدع الشئ، أى اخترعه وأحدثه، ثم غلبت على ما لم يشهد الشرع لحسنه، وعلى ما خالف أصول أهل السنة والجماعة فى العقائد، وأن يكون الحامل عليه مجرد شهوة.

وفى هذا الإطار يمكن فهم الأحاديث النبوية، التى تشير إلى ذم البدعة، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن غضيف بن الحارث رضى الله عنه، أن الرسول ﷺ، قال: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة»، وفى رواية أخرى عند الطبرانى: «ما من أمة ابتدعت، بعد نبيها، فى دينها بدعة، إلا أضاعت مثلها من السنة» فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة. وقد قال العلماء: لأنهما متناوبان فى الأديان تناوب المتقابلات، ولأن المسلمين لما تركوا السنة، فى تهذيب أنفسهم، بالاقتداء فى الاهتداء بهدى نبيهم، تولاهم الشيطان، وسلك بهم سبل البهتان، وما كذب أحد بحق إلا

(١) أخرجه أحمد فى مسنده.

عوقب بتصديقه بباطل، وما ترك سنة إلا أحب بدعة وقوله مثلها، تفيد جعل أحد الضدين مثل الآخر، لشبهة التناسب بينهما، كما في قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الإسراء: ٨١)

وقد تكفل الله تعالى بحماية دينه الحنيف من البدع الضالة المضلة، فقد روى عبد الرحمن السلمي صاحب حلية الأولياء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ، قال: «إن لله تعالى عند كل بدعة، كيد بها الإسلام وأهله، وليا صالحا يذب عنه، ويتكلم بعلاماته، فاغتنموا حضور تلك المجالس، بالذب عن الضعفاء، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلاً».

وبذلك تكون البدعة على خلاف السنة، والتي هي ما شرعه النبي ﷺ من الأحكام، فقد تكون فرضا كزكاة الفطر، وقد تكون غيره، كصلاة العيد والجماعة. فقد روى مسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد عن جرير رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شئ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شئ».

ثانيا: هل حقا كل بدعة ضلالة؟!

إن الأساس الذي يستند إليه دعاة الذم في كل ما هو جديد، الحديث النبوي الشريف، الذي رواه مسلم والنسائي والإمام أحمد عن جابر قال: كان رسول ﷺ، إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه، كأنه منذر جيش، يقول: «أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أتتكم الساعة بغتة، بعثت أنا والساعة هكذا، صبحتكم الساعة ومستكم، أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دينا أو ضياعا فإليّ وعليّ، وأنا ولي المؤمنين».

إلا أن هذا الحديث يحتاج في فهمه إلى عقل متفتح، يتدبر معاني جوامع الكلم، ومقاصد من أوتيها صلى ﷺ، من هذا الكلم، فإذا كانت عبارة «كل بدعة ضلالة»، تفيد الاستغراق، أي تشمل جميع البدع، فإن العقل والمنطق يقضيان بأن يكون ذلك، واردا على البدع المحدثة في أمور الدين، من العقائد والعبادات، دون البدع المحدثة في العادات أو المعاملات، التي تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تتعارض مع صحيح الدين، فليس من العقل أو المنطق في شيء، أن يقول قائل: إن بناء السدود وتشييد القناطر ومناهج التعليم وغير ذلك، من البدع التي تدخل تحت هذا الاستغراق، فتكون ضلالة، وتكون هي وصاحبها في النار والعياذ بالله، بل إن من العلماء من قال: إن المراد بالمحدث الذي هو بدعة وضلالة، ولو كان من العبادات، ما لا أصل له في الشرع، والحامل عليه مجرد إرضاء شهوة النفس، أو جاء على خلاف محدث لا أصل في الشرع، إما بحمل النظير على نظيره، أو لغير ذلك.

وللخروج من هذا الإشكال، أطلق العلماء على الأعمال المستحدثة، التي لها أصل في الدين، ما يمكن تسميته بالبدعة الحسنة، وذلك على نحو ما روى الترمذي وابن ماجة، عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ، قال: اعلم يا بلال «ابن الحارث»، قال ما أعلم يا رسول الله؟ قال: إنه من أحيا سنة من سنتي، قد أميتت بعدي، كان له من الأجر، مثل من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضالة لا يرضاها الله ورسوله، كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا، وقد قال العلماء: في الحديث إشارة إلى أن بعض البدع غير ضلالة، أي في العادات، وقد يكون في العبادات، على نحو ما يروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، عندما جمع المسلمين على صلاة التراويح في شهر رمضان، وقال: نعمت البدعة هي.

ثالثا - متى تبدع هذه الأمة

على ما يبدو أن هناك خصاما، بين بعض المنتسبين للإسلام وعقارب ساعة الزمن، فالناس من حولنا، أيا كان انتماؤهم من حيث الدين أو الجنس أو الوطن، أو غير ذلك، يتعاملون مع هذه الساعة، وفق دوران عقاربها، في حركة منتظمة، على مر الأيام والسنين، واحترام الجديد الذي تنتجه هذه الحركة، مع المحافظة على ثوابت الحياة التي ألفوها، المستمدة من الدين والقيم الأخلاق، التي لا خلاف حولها، ومن ثم فقد تحقق لهم، قدرا لا يستهان به من التقدم في شتى مجالات الحياة، على الرغم من أن ديننا، حمل ما لا يحصى من أسباب هذا التقدم، وأمرنا بالأخذ بها..

وكثيراً ما كنت أجد نفسي في حيرة، عند سماع كلمات يرددها بعض أهل الفكر من الشرق أو الغرب على السواء، فحواها أن المسلمين موقعهم، خارج التاريخ منذ أكثر من أربعة قرون، وكنت أشعر أن هذه الكلمات، تحمل اتهاما مبالغا فيه، لأمة دينها يضعها في قلب التاريخ، ولكن هذا الشعور يأخذ في الانحسار، عندما أجد علماء هذه الأمة، قد شغلوا أنفسهم بأمور، أبسط ما يقال عنها: إنها من المسلمات، التي لا تقبل الجدل حولها، بأي حال من الأحوال، ولكن البعض من هؤلاء العلماء، لا يفتأ يطلق الحكم عليها بالبدعة، رغم أنها من صميم أعمال العادات، ولا تمت للعبادات بصلة، كالأمور المتعلقة بالبحث العلمي في المجالات المختلفة، من طب وهندسة وفلك وغيرها.

إن من أوجه العظمة في دين الإسلام، أنه احترم التخصص في العلوم، ولم ينكر على المسلم أن يأخذ بعلوم الدنيا، كما هو الشأن في علوم الآخرة، فقد روى مسلم والإمام أحمد والبيهقي عن أنس بن مالك والسيدة عائشة رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ، قال: إذا كان شيء من أمر

دنياكم، فأنتم أعلم به، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإليَّ». وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد عن أبي قتادة رضي الله عنه: «ما تقولون؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإليَّ».

وقد ضرب الرسول ﷺ المثل الرائع، في احترام هذا التخصص، فقد روى مسلم عن أنس بن مالك والسيدة عائشة رضي الله عنهما، قالا: مر النبي ﷺ بقوم يلقحون النخيل، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصا، فقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، وقد قال العلماء: إن الرسول ﷺ أراد أن يقول أنتم أعلم بأمر دنياكم مني، وأنا أعلم بأمر أخراكم منكم، فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا لإنقاذ الخلائق من الشقاوة الأخروية، وفوزهم بالسعادة الأبدية، وهذا يؤكد حرص الإسلام على انطلاق البحث العلمي في شتى فروع المعرفة، دون أن يحصر أتباعه في عبادات لا تكفي وحدها، لتحقيق رسالتهم الجليلة في الحياة.

والإبداع الذي نتطلع أن تأخذ به أمة الإسلام، لا يقتصر على ناحية واحدة في الحياة، كالعبادات الراتبة، من صلاة وصوم وحج وعمرة وغيرها، ولكن يجب أن يمتد حتى يشمل كل مناحي هذه الحياة الدينية والدنيوية، فيكون هناك الإبداع العلمي والتقني والثقافي والاقتصادي وغير ذلك، على نحو ما أدرجه سالف علماء الإسلام، الذين برعوا وأبدعوا في الطب، فكان منهم ابن سينا، والخوارزمي، وجابر بن حيان، وغيرهم الكثير والكثير، مما يعجز الحصر عن الإحاطة بهم، ومن العيب والعار على أحفاد هؤلاء العلماء النجباء، أن يتخاذلوا في السير على منوالهم، ويتحجروا في دائرة البدعة والضلالة، فيما هو خارج هذه الدائرة.

وفي بعض الأحيان ينظر المرء حوله، فيعجبه ما يراه من إقبال كثير من المسلمين على أمور العبادة، ويتوقف عند الكثير من أحوال هؤلاء العباد، ويسأل نفسه بين الحين والآخر: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نحن على هذه الدرجة من التخلف في شتى مجالات الحياة؟!، وربما تسيطر الحيرة على النفس من هذا الأمر، ولا سيما والعلم اليقين أن الدين، الذي طلب من أتباعه القيام بهذه العبادات، هو ذاته الذي أمرهم بعمارة الأرض، واتخاذ كل الوسائل، التي تحقق لهم الرقي والتقدم في كل هذه المجالات، حتى قيل: إن التفكير فريضة إسلامية.

إن اعتدال الميزان في يد المسلم، يقتضي منه تحقيق الاستواء بين كفتيه، وذلك بالتعامل مع الدنيا والآخرة على قدم المساواة، بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى، وهذا ما لفت إليه النظر الرسول ﷺ، بقوله الذي رواه صاحب الفردوس عن أنس رضي الله عنه: «أصلحوا دنياكم، واعملوا لآخرتكم، كأنكم تموتون غدا»، وذلك كما قال العلماء: أي أصلحوا معاش دنياكم، بتعهد ما في أيديكم، بتنميته بحلال المكاسب لمعونته على دينكم، ومكارم أخلاق الإسلام.

في ذكرى الإسراء



للشاعر/ عمر بهاء الدين الأميري

يا أمة العرب والإسلام هات يدا ... وهاكها، حلقًا شُدت إلى حلق
نحيي ونحيي لإسراء الرسول وللمعراج ... ذكرى من الإيمان والألق
وفي الحنايا جراح لا شفاء لها.. ... وفي الحناجر وخز الهم والأرق
فالقدس نهب وتنكيل ومجزرة ... وفي فلسطين حرب الفتك والزهق
والمسجد الحرم «الأقصى» يلوثه ... من اليهود عُرامُ البغي والشبق
يا عالم العرب والإسلام حي على ... الكفاح، جلجل أمر الله أن أفق
أعدد بعزم ليوم الروع عدته ... وأعلن العهد في إيمان معتنق
عهد الجهاد، ويوم «الفتح» مرتقب ... فمد «عاصفة» الإسلام وامتشق
إن «الفداء» حياة للألى بذلوا ... أرواحهم في سبيل الله من رمق
وطالب الحق لا يخشى غوائله ... في الله، كم طال للمحق فيه لق
هي الطرق، طريق الله، واحدة ... وأشقياء غرور العقل في طُرُق
يا أمة العرب والإسلام في بلد ... الأحرار في مغرب الأمجاد والسبق
يستنجد «المسجد الأقصى» لنصرته ... في يوم إسراء خير الخَلْق والخُلُق
يارب، فابعث له منا نواجده ... وانصر جنودك واحم «الفتح» من زلق
عليك نقسم بالقرآن، تلبية ... يا رب، يا خالق الإنسان من علق

أومن بالله



٢

للأستاذ الدكتور/ عبد الرزاق السنهوري باشا

• أتممت العام الحادى والخمسين من عمرى بالأمس. واليوم أستقبل العام الثانى والخمسين. وأنا الآن فى مدينة دمشق أنجز عملاً وددت منذ ثلاث سنوات لو أننى أنجزته.. أضع قانوناً مدنياً لسوريا كما وضعت هذا القانون لمصر وللعراق. وهكذا يحقق الله الأمل ولو تراخى الزمن.

دعاء:

اللهم هبنى قوة وعزماً.. فلا قوة إلا بك، ولا عزم إلا منك. اللهم كما حققت أمل اليوم، حقق أمل الغد..

الآمال المقدسة:

ولى على الأرض آمالٌ مقدسة
إن يقضنى عنك شىء فهى تدنينى

اللهم وفقنى فى تحقيق هذه الآمال المقدسة التى أخذت نفسى بتحقيقها منذ الصغر، اجعل فيما بقى من عمرى ما يعيننى على تحقيق هذه الآمال التى أتقرب بها إلى وجهك الكريم.

قرأت مقالاً لأحد الكتاب يصف فيه النبى ﷺ وهو فرح عندما يولد له إبراهيم، حزين متكول عندما يرزأ بفقده، ويقول الكاتب فى ختام مقاله: «وهكذا أراد الله أن يكون نبيه إنساناً ليكون قديراً على فهم الإنسان، وجديراً بتبليغ الرسالة إلى الآدميين».

فكرت قليلاً، ولم أملك إلا أن أكتب فوق المقال هذه العبارة: «هو نبى لهذا.. لا هذا لأنه نبى».

• بالأمس ختمت الثانية والخمسين من عمرى، واليوم افتتح الثالثة والخمسين، وأحمد الله على أننى فى هذا اليوم أتعاون مع زملائى فى وفد مصر لدى مجلس الأمن، نطالب بحقوق البلاد العادلة المقدسة. وفقنا الله إلى تحقيق مطالب الوطن (٢٨).

لا أشك فى وجود الله. فإن الخير والشر إذا اصطرعا وانتصر الخير، فذلك لأن الله موجود. قاسيت كثيراً من المصاعب والأهوال فى وضع مشروع القانون المدنى مع الرفقة الذين عملوا معى، وفى النضال عنه، وكنت أحس أن قوى الشر قد تجمعت للقضاء على الخير. فاستعنت بالله، وقلت إن الخير -لا شك- منتصر فى النهاية. والحمد لله، فها هو قد انتصر.. اللهم حمداً وشكراً.

• أتممت بالأمس الثالثة والخمسين من عمرى، وبدأت اليوم الرابعة والخمسين. وإنى أكتب هذه الكلمات جرياً على عادتى فى بدء كل سنة جديدة تنفتح فى حياتى. ثلاثة وخمسون عاماً قضيتها فى هذه الحياة كسبت فيها حسنات، واكتسبت سيئات، ولى ما كسبت وعلىّ ما اكتسبت، فهل ترى الحسنات قد أذهبن السيئات؟

اللهم وفقنى إلى العمل الصالح، وسدد خطاى، واهدنى إلى ما يرضيك، واجعل هذا العام عاماً مباركاً حافلاً بالخير أحققه بمعونتك وهداك..

اللهم أنت تعلم ما بنفسى وأنت منى قريب، اللهم أقل عثرتى وقوِّ من عزيمتى واشدد لى أزرى ويسر لى أمرى وحقق لى ما أرجو من أمل، وهبنى من لدنك رحمة واجعلنى فى عبادك الصالحين.

اليوم حلفت اليمين لتوليتى منصب رئيس مجلس الدولة. اللهم تولنى بهداك وتوفيقك فى هذا العمل الجديد.

• أكملت بالأمس الرابعة والخمسين من عمرى، وأستقبل اليوم الخامسة والخمسين.. تنقضى الأيام سراعاً ولا تنقضى الآمال.. وهأنذا أنتقل من أمل تحقق إلى أمل أدعو الله أن يحقق.

وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

• والآن، وأنا على باب الخامسة والخمسين أتوجه إلى الله تعالى سائلاً إياه أن يمدنى بقوته، وأن يشد من عزمى، وأن يسدد خطاى، وأن يجعل ما بقى من حياتى سبباً ممدوداً لتحقيق آمال مقدسة تجول فى نفسى وألحها فى خاطرى.. وإذا كانت بعض آمال الأمس قد أصبحت بين حقائق اليوم، فإن الله سبحانه وتعالى القادر على أن يجعل آمال اليوم حقائق الغد، وهى آمال إن يقضنى عنها شىء فهى تدنينى.

إنى ختمت بذلك القانون
عهداً قد مضى وبدأت عهدا
وأقمت للوطن العزيز
مفاخراً وبنيت مجدا

هو الله إن نبعد دنا فجلاله
محيطٌ بنا فى البعد كنا أو القرب
إذا الناس لم تؤمن برب مهيمن
رحيم فهل تستطيع عيشاً بلا رب؟!

أحب شىء إلى نفسى أن أكون عادلاً رحيماً.

اللهم أودعتنى قلباً وعقلاً فاحفظهما لى، أكن فى خدمة الخير، خدمة خير إنما هى خدمتك.. اللهم آمين.

عن الشر حولت قلبى وهمتى
وللخير يا رب نذرت حياتى
فهب لى حولاً يصرع الشر بأسه
ويقضى على طاغ بجور وعات

اللهم إنى قد اجتهدت فى قضائى هذا. فإن كنت مخطئاً فاغفر لى، وإن كنت مصيباً فقد هديتنى.

• أتممت بالأمس العام الخامس والخمسين من عمرى، وأبدأ اليوم العام السادس والخمسين. وأرانى كبير الأمل فى الله، مؤمناً به أقوى الإيمان.

العمل والصبر والتفاؤل، هذه هى أدوات النجاح، يسندها ويدعمها الإيمان بالله. وإنى لأدعو الله أن يزودنى بكل ذلك فيما أنا آخذ به من أمرى، وفى هذه المرحلة التى بلغتها من عمرى.

اللهم لا قوة إلا بك، فاشدد أزرى، وأعنّى على أمرى. فأنت خير مؤازر، وخير معين. وأنت نعم المولى، ونعم النصير.

إنى أؤمن بالله إيماناً عميقاً، هو الذى ينير لى طريقى فى هذه الحياة، وهو الذى غرس فى نفسى حب الخير، وهو الذى جعل الدنيا تصغر فى عينى، كلما اقتربت من النهاية وأصبحت أكثر إدراكاً لحقيقتها.. وأرانى بعد ذلك فى حاجة إلى أن أسألك يا الله -وقد بلغت هذه المرحلة من

عمرى ـ أن تثبت فىّ الخلق القوى، خلقاً يتمثل فى العزيمة القوية، والإصرار على الحق، والصبر على المكروه، والاعتداد برضاء الضمير قبل الاعتداد برضاء الناس، وتطهير النفس مما يداخلها من الحقد والغيرة وحب الانتقام والغرور والزهو، ومؤازرة الخير حتى ينتصر، ومناضلة الشر حتى يندحر.

اللهم ارزقنى اطمئنان النفس وهدوء الطبع وسعة الصدر وقوة الصبر والنزعة إلى التفاؤل، اللهم قونى فى الإيمان بك، وأطمعنى فى كرمك، وشد من عزيمتى، إبعث فى نفسى الثقة، اجعلنى أرقب رضاءك، وقربنى إليك، فأمامى عمل فى هذه الدنيا أبتغى به وجهك فى الآخرة.

ولى على الأرض آمـــال مـــقـــدســـة

إن يقصنى عنك شىء فـهى تدنينى

وسأعمل بحولك يا ربى على أن تتوافر لى أسباب القوة، وأن أنبذ أسباب الضعف، وأن أهيئ أسباب النصر. فاللهم القوة القوة، والنصر النصر. القوة فى الحق، والنصر فى سبيلك يا الله.

أنت موجود لأنك خلقتنى.

اللهم لا قوة إلا منك، ولا حول إلا بك.

ماذا أفعل إذن؟ أتجه إلى الله، منه أتيت، وإليه أرجع.

● هذا عام آخر قد انقضى من عمرى، أستقبل اليوم عاماً جديداً. اللهم اجعله عاماً مباركاً ميموناً، ووفقنى فيه إلى عمل الخير.

ويسعدنى أن أحضر اليوم أول جلسة لبحث تحديد الملكية الزراعية فى مصر. وقد شاء الله أن أبدأ مع اللجنة المعهود إليها فى ذلك بحث هذا المشروع الخطير فى هذا اليوم المبارك الميمون.

اللهم وفقنى إلى عمل الخير.

اليوم أتممت الثامنة والخمسين من عمرى. اللهم اجعل الباقى من حياتى بركة ورحمة، وهب لى من لدنك قوة. اللهم لا حول إلا بك، ولا قوة إلا منك، اللهم زدنى إيماناً ويقيناً، وثبت قدمى، واهدنى سواء السبيل.

● اليوم أستقبل العام التاسع والخمسين من عمرى، وهذا أول يوم لى فيه، وإنى إذ أستدبر حياتى أدعو الله أن يوفقنى فيما بقى من عمر أن أعمل صالحاً.

وقد شاء الله أن يكون هذا العام هو الذى يفتتح فيه معهد الدراسات العربية العالية، فاللهم وفقنى إلى خدمة الفقه الإسلامى فى هذا المعهد، واجعل جهودى فى خدمته ـ نواة لغرس عظيم.

يقول شوقى فى رثاء المرحوم أحمد أبو الفتح:

يا أحمدُ القانونُ بعدك غامضٌ

قلقُ البنودِ مجلّلٌ بسوادِ

لما خرج النبى ﷺ من الطائف، وقد أصم من فيها آذانهم عن دعوته، وقذفته الأولاد بالحجارة قال يخاطب ربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى. ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك».

● أتممت من عمرى التاسعة والخمسين، وهأنذا فى اليوم الأول من الستين، وأحس وأنا على عتبة الستين أننى أستدبر الحياة، ولايزال

أمامى من الأعمال ما أعده مقدساً نذرت لله أن أقوم به.

اللهم هبنى من الصحة والصبر والأمل والتوفيق ما أستطيع به أن أنجز ما أخذت على نفسى إنجازه، واجعلنى أنظر إلى الحياة على أنها وسيلة لا غاية.

اللهم اجعل سنتى المقبلة هذه سنة سعيدة مباركة موفقة. واجعلنى يارب قادراً على عمل الخير، ووفقنى إلى عمله. فأنت وحدك الملاذ والمستعان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

● بلغت اليوم الستين من عمرى. فما بقى لى من العمر لابد أن يكون قليلاً.. وعلى كل حال فالوقت الذى أستطيع فيه الإنتاج محدود.

ويجب أن أذكر هذه الحقيقة دائماً، فأعمل لدنياى كأنى أعيش أبداً، وأعمل لآخرتى كأنى أموت غداً، تتعلق نفسى بالحق، وتحب الخير، والإيمان يغمر قلبى، فلا خوف ولا تهيب بإذن الله.

وهذا ما أقدم لآخرتى.

أما ما أقدم لدنياى فجهد موصول، يهدف إلى غاية أدعو الله أن يعيننى على تحقيقها، ويتفرع بوسائل أدعو الله أن يجعلنى متوفرا عليها.

● أكملت بالأمس العام الستين من عمرى، وأستقبل اليوم عاماً جديداً، جعله الله خيراً وبركة.

أؤمن بالله كل الإيمان. وأؤمن بأن لى رسالة فى الحياة لم أتمها، وأستعين على إتمامها بالله. وأسأله تعالى أن يهبنى القوة والقدرة، وأن يجعل البقية من حياتى مباركة سعيدة حتى أستطيع أن أتم رسالتى. يقف عائقاً أمامى أمران: الغريزة والمرض.

لا سبيل إلى مقاومة الغريزة، ولكن يستطاع تهذيبها، ويجب أن أتذكر دائماً أنها وقتية تزول، فلا يجوز أن تترك أثراً، وأن فى الإمكان كبحها.

أما المرض، فلا تقبل للحى به، ولكن التخلص من الوهم واجب، والوقاية واجبة، ثم إن قوة الروح قد تتغلب على ضعف الجسد.

اللهم بك أستعين فقونى، وقدرنى على إتمام رسالتى، وهب لى من لدنك رحمة، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

ما أنا.. إذا لم أؤمن بك؟.

اللهم إنى أسألك أن تخذل الشر على يدى، وأن تنصر الخير على يدى.

فقل لمن رام خلدا

أنى له الخلود؟

من التراب أتينا

وللتراب نعود

ثم من بعد هذا

يقوم خلق جديد

فهل ترى الكون إلا

سلالة لا تبيد

***

إذا أنا مت وهيل التراب

على جسد دب فيه الفنا

فماذا يكون مصير حياتى

وكيف أحس وأين أنا

اللهم إنى منك وإليك.

● هأنذا أقضى عاماً بعد الستين. اللهم ارزقنى فيما بقى من عمرى الصحة والعافية، ومكنى من عمل الخير، وهيئ لى من سبلك ما يرضيك، وما

أستحق من أجله الحياة، فإن الحياة في السن التي وصلت إليها تكون فارغة إذا لم يملأها الأمل والعمل.

● بدأت اليوم الثانية والستين من عمري. اللهم بارك لي في هذا العام الذي أستقبله، واجعله في عمري عام خير وفير ونفع عميم، وسدد خطاي، ووفقني إلى ما يرضيك.

● أتممت اليوم السنة الثانية والستين من عمري، وأسأل الله العافية والتوفيق فيما بقي من حياتي.

● أشرق اليوم الأول من السنة الثالثة والستين من عمري، ولئن قسم الله لي بقية من الحياة ووافرًا من العافية، وجعل لي حظًا من المساهمة في الحياة العامة، لأبذلن الجهد في خدمة بلدي مسترشدًا بمبادئ ثلاثة:

المبدأ الأول: يتصل بالحياة الاجتماعية، وهو تكافؤ الفرص بين الناس من يوم أن يولدوا إلى أن يتم إعدادهم لمعترك الحياة.

والمبدأ الثاني: ويتصل بالحياة الاقتصادية، وهو العمل على تنمية الإنتاج إلى الحد الواجب لنشل البلاد من وهدة الفاقة.

والمبدأ الثالث: يتصل بالحياة السياسية، وهو العمل على دعم الديمقراطية، وما تستتبعه من وجوب سيادة القانون وحماية الحريات العامة.

ولعل هذه المبادئ الثلاثة ترسم الخطوط الرئيسية لبرنامج داخلي لحزب اشتراكي ديمقراطي للعمال والفلاحين في مصر. أسأل الله الكريم -وأنا في مستهل العام الجديد من حياتي- أن يجعل من حظي المساهمة في إنشاء هذا الحزب، وأن يرزقني العافية والقوة والتوفيق في البقية الباقية من حياتي حتى أرى هذا الحزب يترعرع ويقوى إلى أن يصبح ذا أثر كبير في حياة مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الصبر والأمل، وقبل ذلك الإيمان بالله، هذه هي عدتي فيما بقي لي من حياتي.

أطلقوه كوكبًا نحو الفضاء
فانظروا في الجو: هل راح وجاء
أترى جبار هذى الأرض قد
صعر الخد لجبار السماء
أيها الإنسان لا تزه فما
أنت في الأصل سوى طين وماء
كان عهدنا أمس عهد بخار
ثم أصبح اليوم عهد الفضاء
أيها المؤمنون بالله هذى
آية الله نورها في السماء
وصلت إلى الستين ثم تركتها
وهاأنذا أمشي لمرحلة أخرى
ومازلت أخطو خطوة بعد خطوة
وئيدًا إلى أن أخطو الخطوة الكبرى
متى ينفذ الصبر الطويل وتنقضي
ليال توالت كلها ظلمات
تعاليت! هذا النور يعقب ظلمة
ويعقب موت المستكين حياة

اللهم أعني على إتمام رسالتي

تحملتها أيام كرب وشدة
ولم أتزحزح في التفاؤل عن عهدي
فيارب صبرًا ثم فرجة
فعندي من الإيمان بالحق ما عندي.

من نعم الله على خلقه أن جعلهم محكومين بقوانين طبيعية لا تتغير، فلا استبداد ولا تحكم، ولكنها سنة الله تجري على جميع الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلا.

● اليوم أتم العام الثالث والستين من عمري. اللهم أحمدك على نعمتك وأشكرك على ما قدرتني عليه من فعل الخير، وما منحتني من صحة وعافية.

● اليوم استقبل العام الرابع والستين من عمري. اللهم أسألك، فيما قدرت لي من بقية في حياتي الصحة والعافية، أن توجهني إلى عمل الخير، وأن تجعلني قادرًا عليه.

الصبر والإيمان والأمل: هذا هو شعاري بالأمس واليوم والغد أبقى الله لي هذا الشعار مادمت حيا.

● أتممت اليوم الرابعة والستين من عمري. وإني أسأل الله، وأنا أتقدم في السن، أن ييسر لي أمري، وأن يفسح لي في عمل الخير.

● أبدأ اليوم الأول من الخامسة والستين من عمري، معتمدا على الله في كل خطوة أخطوها. اللهم إليك أتوجه، فامنحني الصحة والعافية، ومد لي في أسباب الإيمان والصبر والأمل، وقدر لي فيما بقي من حياتي أن أعمل الخير، وأن أكون سعيدًا بما أعمل.

● أختم اليوم الخامسة والستين من عمري، وأدعو الله أن يقف البقية من حياتي على عمل الخير.

● قد بلغت اليوم السادسة والستين من عمري. فاللهم وفر لي الصحة والعافية، وارزقني السعادة، واجعل البقية من حياتي ميمونة مباركة، أصرفها في عمل الخير وفيما يرضيك.

● اليوم أتممت السادسة والستين من العمر. مرحلة طويلة قطعتها وذقت فيها الحلو والمر، وتولاني الله برعايته، فأحمده تعالى على نعمته.

● هذا أول يوم لي في السابعة والستين. فاللهم سدد خطاي، وتولني برعايتك، وارزقني الصحة والعافية، واجعلني قادرًا على عمل الخير.

● اليوم أتممت السابعة والستين من عمري. وأحمد الله على نعمته، فقد هيأ لي من أمري رشدا.

● استقبل اليوم الأول من الثامنة والستين من عمري متفائلا، داعيا الله دعائي في الأعوام السابقة، وأن يوفر علي نعمة الصحة والسعادة والقدرة على عمل الخير، وسائلا إياه -جل وعلا- أن يجعل هذا العام مستهل البركة والخلاص لنفسي ولبلدي، إن الله قريب يجيب الدعاء.

وهل لي وأنا أستقبل هذا العام المبارك أن أضرع إلى الله عز وجل ضراعة رسوله ﷺ فأقول مع النبي الرسول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

هذا هو الله.. لابد منه. ومن نحن إذا لم يكن هو؟.

● أتممت اليوم الثامنة والستين من عمري. وأحمد الله على ما أولاني من نعمته، وأسأله تعالى أن يكلأني برعايته فيما يبقى لي من العمر.

● استقبل اليوم الأول من السنة التاسعة والستين من عمري. وأرجو الله تعالى أن يجعلها سنة سعيدة مباركة موفقة. وقد تولدت في نفسي أمنية منذ وقت غير قصير، هي أن أقوم بدراسة منظمة مفصلة لما يزدحم في الوطن العربي من اتجاهات سياسية واقتصادية، ويكون عنوان هذه

الدراسة: **«الوحدة العربية والأسس التى ينبغى أن تقوم عليها»** فأسأل الله عز وجل أن يمدنى بعونه حتى أتمكن من إنجاز هذا العمل على الوجه الذى يرضيه، وأن يحقق به النفع لهذه الأمة العربية الكريمة. كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينعم علىَّ بالصحة والعافية والسعادة فى خدمة الحق.

● اليوم أتممت العام التاسع والستين من عمرى، وإنى أحمد الله على نعمة الصحة والعافية، وأسأله تعالى السعادة فى الدنيا والآخرة، وأن يوفقنى فى تحقيق مشروع أخذت على نفسى السعى فى تحقيقه مادمت حيا، موقنا أن الخير فى ذلك.

هذا هو اليوم الأول من العام السبعين من عمرى، وأمامى مشروع عزيز علىَّ فكرت فيه منذ وقت طويل وبدأت فى تحقيقه منذ بضعة شهور، وهأنذا أوالى جهدى فى إتمامه البقية الباقية من عمرى.

أضع كتاباً فى الوحدة العربية وكيف تتحقق فى ضوء تجارب الأمم الغربية. ومن ثم أعقبه ـ بعون الله تعالى ـ بكتاب آخر فى الوحدة العربية والأسس التى ينبغى أن تقوم عليها فى ضوء تجارب الأمم الغربية. وإذا تم وضع الكتابين نظرت فى إمكان تكتيل جبهة من الرأى العام العربى تؤمن بالديمقراطية والاشتراكية والقومية العربية، وتعمل على أساس برنامج مدروس ونشاط مخطط لخير البلاد العربية عن طريق السعى فى توحيدها على أساس ديمقراطية راسخة واشتراكية رشيدة. حقق الله الآمال وأمدنى بعونك.

● أتممت اليوم السبعين من عمرى، وأحمد الله على ذلك كل الحمد.. والآن أقلب صفحات الماضى بحسناته وسيئاته، وسأبقى أقلبها حتى يطويها الموت. وقد قلت فى الحياة، وكنت فى السابعة عشرة من عمرى، ما أقوله اليوم وأنا فى السبعين:

إن الحياة لصفحات نُقَلِّبُها
المرء ينشُرُها والموت يطْوِيها

● اليوم أبدأ الحادية والسبعين من عمرى، وأقول بعد أن بلغت السبعين وتركتها، ما قلته عندما بلغت الستين وتركتها:

وَصَلْتُ إلى السَّبعين ثُمَّ تركتُها
وهأنذا أمشى لمرحلة أخرى
وما زلتُ أخْطُو خُطْوةً بعد خَطْوةٍ
وئيداً إلى أنْ أخْطُو الخُطْوةَ الكُبْرى

وقبل أن أخطو الخطوة الكبرى، أسأل الله تعالى أن يرزقنى الصحة والعافية فيما بقى من عمرى، وأن يجعل حياتى نافعة، ومنذ نشأت وأنا أعيش بالأمل، ولن ينقطع أملى فيما يهيئه الله تعالى للعالم من سعادة وفيما يوليه إياه من رشد.. لن ينقطع أملى فى الخير، فإنى أشعر فى أعماق نفسى بأنى خير أحب الخير.. ولاتزال آمال تجول فى نفسى وتستقر فى أعماقها، وأنا فى هذه السن المتقدمة، وأرجو من الله تعالى أن يوفقنى إلى تحقيقها قبل أن أموت.

ولا أزال وأنا فى السبعين أقول ما سبق أن قلته وأنا فى العشرين:

لا هَمُّ ثبت فؤادى بعد زعزعة
ووقنى شر نفسى فهى تغوينى
ولى على الأرض آمال مقدسة
إن يقصنى عنك شىء فهى تدنينى
لا أحب أن أكون طاغية، ولكن أحب أن أحطم الطغيان.

● اليوم أتممت العام الحادى والسبعين من عمرى، وهو عمر طويل بارك الله لى فيه. وقد بدأت أخط ـ فى وضوح ـ التجاعيد ترتسم فى وجهى، كأن السنين تضع طابعها عليه وهى تولى سنة بعد أخرى. ولكنى أشعر مع ذلك بأنه لاتزال لى رسالة فى الحياة، أعيش من أجلها، فأشد لها قوتى وأشحذ لها عزمى، وهى التى تجعل عندى للحياة معنى، وأنا فى هذه السن المتقدمة التى لا يعيش فيها الإنسان، إلا بالأمل.

● اليوم أطل علىَّ الثانية والسبعين من عمرى، وهذا أول يوم لى فيه. فماذا عسى أن يخبئه لى القدر فى هذا العام؟ أرجو الله تعالى أن يكون خيرا. فمازلت ـ كما ذكرت بالأمس ـ أحس أنه لاتزال لى رسالة فى الحياة، أعيش من أجلها، وأحشد لها القوة والعزم. أدعو الله تعالى أن يحقق آمالى فى أدائها على خير وجه.

اللهم أسألك أن تجيب دعائى، وألا تخيب رجائى، وأن تهبنى من لدنك القوة على أداء هذه الرسالة، فأقضى البقية من عمرى قرير العين بها، طيب النفس بأدائها.

● اليوم أتم العام الثانى والسبعين من عمرى. وقد توالت الأعوام إلى أن بلغت هذه السن، ومازال عام يسلمنى إلى عام، وأنا أشق طريقى فى الحياة، فلا أكاد أودع أملا زائلا حتى يخايلنى أمل جديد.. والآن، وفى هذا العام الثانى والسبعين، بعد روحات وغدوات وبعد يأس ورجاء، وبعد تشوف وتطلع، وبعد أن قادنى العمر إلى هذه السن المتقدمة، لاح لى فى الأفق بريق الأمل الصادق. اللهم اجعله أملا يتحقق، ويتحقق فى أقرب الأوقات. ولك الأمر من قبل ومن بعد.

● ها أنا أستقبل ـ بحمد الله وعلى بركته ـ اليوم الأول من العام الثالث والسبعين من عمرى، أستقبله بأمل مشرق يعمر قلبى ووجدانى. اللهم اجعله هذه المرة أملا لا يخيب، وحقق لى فيما بقى من عمرى الصحة والسعادة، ومد لى فى القدرة على عمل الخير. والخير الذى أبغيه هو الخير الذى يرضيك. أنت يارب لا ترضى بالفساد، وإزالة الفساد لا شك ترضيك. أنت يارب تحب الصلاح، فارفع لواء الصلاح ليظل هذا البلد. واقشع هذه السحابة التى طال أن تلبدت غيومها، وأخرج من الظلمات نوراً، واجعل الشمس تشرق من جديد.

● اليوم هو آخر يوم فى العام الرابع والسبعين من عمرى، جعله الله يوما مباركا، وجعلنى نافعا طوال حياتى لخدمة الحق والعدل والوطن.

● اليوم هو أول يوم فى العام الخامس والسبعين من عمرى.. جعله الله يوما مباركا ميمونا، وجعل حياتى كلها نافعة لخدمة الحق والعدل والوطن. رب ارزقنى طول العمر، والعمل على خدمة الحق مادمت حيا، وكلل حياتى بالنجاح والتوفيق فى خدمة بلدى خدمة تتفق مع الحق والعدل، واجعل هذا العام والأعوام التالية أعواما مباركة ميمونة للوطن المصرى، وللوطن العربى، وللإنسانية جمعاء.

رب يسِّر لى عمل الخير، واجعل حياتى نموذجاً صالحاً لمن يحب بلده الأصغر، ويحب بلده الأكبر، ويحب الناس جميعاً[1].

---

(١) القاهرة فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٦٦م وكانت هذه السطور هى آخر ما دون فى أوراقه الشخصية. فلقد أصاب الشلل يده. وكان ختام دعائه فى هذه السطور أن يجعل الله حياته نموذجا صالحا لمن يحب بلده الأصغر، ويحب بلده الأكبر، ويحب الناس جميعاً. وأحسب أن الله عز وجل قد استجاب دعاءه. فلقد توفى السنهورى فى ٢١/٧/١٩٧١م. ولاتزال حياته نموذجاً صالحا لمن يحب وطنه الصغير والكبير والإنسانية جمعاء، عليه رحمة الله «الأوراق الشخصية» ص٣٢٣ ، ٣٢٤. إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى طبعة القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

حكم ابن عطاء الله (٨٤٦هـ-٨٩٩هـ)

شرح العارف بالله الشيخ زروق

تحقيق الإمام الأكبر الدكتور/ عبدالحليم محمود
د. محمود بن شريف
القاهرة: دار البصائر (٢٠٠٤م) الطبعة الأولى

التعريف بالمؤلف:

كتاب «الحكم العطائية» ألفه الإمام الجليل «ابن عطاء الله السكندرى» المولود فى يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة، ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة، فكان عالمًا مشترعا متحققا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

أخذ العهد على الإمام الكبير «أبى العباس المرسى» ذلك القطب الذى قال عنه «أبو الحسن الشاذلى»: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض». ويقص «ابن عطاء» فى كتابه القيم «لطائف المنن» قصة صلته «بأبى العباس» ولازمه، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلى. و«ابن عطاء» كان له الفضل الكبير فى بيان ما نعرفه الآن من آثار «أبى العباس المرسى»، وفى بيان الكثير أيضًا عن القطب الكبير «أبى الحسن الشاذلى». أما الشيخ «زروق» فإنه «أحمد بن أحمد بن محمد الفاسى» المعروف بـ«زروق»، قمة من قمم التصوف أيضًا، وسار فى الطريق الذى سار فيه «ابن عطاء».. يقول «المناوى» عنه: «عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، وتحلى بعقود القناعة والعفاف، وبرع فى معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف، خطبته الدنيا فخطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها»، وولد فى يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، ومات أبوه قبل تمام أسبوعه، فنشأ يتيمًا.. وولد فى «فاس»، وحفظ بها القرآن، وكانت حياته دراسة وسياحة وتجردا.. أما التجرد فإنه يعنى: أنه استخلص نفسه لله تعالى.. وأما السياحة فتعنى: الأسفار المتلاحقة فى طلب العلم، وللخلوة فى العبادة، وكتب عن الحكم نيفا وثلاثين شرحا، وعلى القرطبية، وعلى رسالة «ابن زيدون القيروانى» عدة شروح كلها مفيدة، وشرح حزب البحر للشاذلى، وألف كتاب «قواعد التصوف»، وكانت وفاته سنة (٨٩٩هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب فى «٦١٥» صفحة من القطع المتوسط ويشتمل الكتاب على مقدمة الناشر، والمحققين، ومقدمة الكتاب، ويحتوى أيضًا على خمس وعشرين بابا بالإضافة للمكاتبات والمناجاة.

تناول فى الباب الأول:

- من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.. الاعتماد: حصر القوة فى الشىء، وهو باعث النفس لما تريد فى تحصيل المقصود منه.. وعلامة حصوله إيثار المعتمد والنظر إليه فى الإقبال والإدبار.

وأوضح أن الناس ثلاثة: معتمد على عمله، وموقفه التقصير، وغايته التشمير، ومقامه الإسلام، لدورانه مع العمل رجاء أو خوفا.. ومعتمد على فضل الله تعالى، وموقفه شهود المنة، وغايته التبرى من الحول والقوة، ومقامه الإيمان، لدورانه مع القدرة فى إقباله وإدباره.. ومعتمد على سابق القسمة وماضى الحكم، وموقفه شهود التصريف، وغايته الفناء فى التوحيد، ومقامه الإحسان لما شهد به حاله من المشاهدة والعيان، وقيامه بتصنيف الناس لثلاثة أنواع وهو ما يشير إلى مفهوم «التصنيف Classification» انظر (ص٣٥).

- إرادتك التجريد مع إقامة الله تعالى إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية.. وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية.. والناس ثلاثة: مقام فى الأسباب، وحكمه: الرضا والصبر والاستسلام، وعلامته: استقامتها له بحصول فوائدها العادية، واستقامته فيها بالقيام بالحقوق الشرعية.. ومقام فى التجريد، وحكمه: الشكر والتشمير، وعدم الفترة والتقصير، وعلامته: القيام بالحقوق والإعراض عن كل مخلوق.

- سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، بل هى تدور مع القدر كيفما دار، حسبما دلت عليه العقول وقضايا الشرع والنقول وأوضح أن الهمم ثلاثة: الهمم القواصر: وهى التى تقتضى العزم والحزم من غير فعل ولا انفعال.. والهمم المتوسطة: وهى التى توجب مع العزم فعلا، ومع الحزم كمالا، سواء وقع انفعال أم لا، والهمم السوابق: وهى قوى النفس الفعالة فى الوجود بلا توقف.. وهو ما يشير إلى مفهوم (الدافعية Motivation) انظر (ص٣٩).

- أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك.. والتدبير تقدير شؤون تكون عليها فى المستقبل مما يخاف أو يرجى وهو ما يشير إلى مفهوم (التخطيط Plaining) انظر (ص٤١)، ويشير إبراهيم الخواص إلى أن «العلم كله فى كلمتين: لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت».

- اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك عبر الاجتهاد؛ لأن الطلب دونه لا يقدح بل ربما كان مطلوبا، وبالضمان ليشعر بسبق القسمة، وبالتقصير؛ لأن الترك أعظم، وبالطلب ليشمل الواجب.

- لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد.. أى التكرار فى الدعاء لحاجة من وجه واحد على سبيل الطلب، وهو مطلوب فى الدعاء، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء، فإذا قمت بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس

من الإجابة وهو ما يشير إلى مفهوم «المثابرة Persistence» انظر (ص٤٤).

– لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه، لئلا يكون ذلك قدحا في بصيرتك، وإخمادا لنور سريرتك.

يرى أن التشكك: التردد بين إيقاع الشك ونفيه لاضطراب النفس في موجبه وهو ما يشير إلى مفهوم «عدم اليقين Uncertainty» انظر «ص٤٨».

– إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك.. ألم تعلم أن التعريف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه.. وذلك مشاهد من حالها، إذ لم تأت إلا بالتعريف وهو بساط المعرفة التي لا تصل إليها إلا به ولا تبلغها إلا بمنته، والتعريف من عنده، وهو أورده، والوجهة بساطه، فإذا وجهها لك فقد وجه لك التعريف الذي تتضمنه وبه تصل للمعرفة التي هي غاية المطالب، ونهاية الآمال والمآرب.

– تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال.. التنوع: التلون، والأعمال: عبارة عن الحركات الجسمانية، والأحوال، عبارة عن الحركات القلبية، فحركات الأجسام تبع لأحوال القلوب.

– الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها والإخلاص حصن الأعمال فالخمول حصن الإخلاص وهو طرح النفس فيما يليق بها من النقص والدناءة وبحسب هذا فهو دفن لها.

– ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه. وكما لا يصح دفن الزرع في أرض رديئة لا يصح الخمول بحالة غير مرضية، وهو ما كان محرما متفقا عليه؛ لأن ما كان ظلمة بالذات لا يصح أن يكون نورا بالعرض، فقياس الخمول بالمحرم بمن غصب لقمة لا يجد لها مساغا إلا بجرعة خمر لا يصح؛ لأن المحرم لا يباح لنفي مكروه ثم إن الوصل للإخلاص وتحقيق الخمول إنما هو العلم الوافي عن الفكر الصافي، ومقدمته إنما هي العزلة، ثم الخلوة فلذلك أتبعها به فقال:

– ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة؛ لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار وبالفكرة يستجلي الأنوار وكل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها، والفكرة لا تصح بدون العزلة؛ فالعزلة منزل الفكرة «وفي بيته يؤتى الحكم» وهو ما يشير إلى مفهوم أهمية «العزلة Isolation» انظر (ص٥٩) والناس ثلاثة: منفرد بقلبه لا بشخصه، وهذا كائن بائن، راحل قاطن، وحاله حال الأقوياء وأهل الكمال. ومنفرد بالشخص دون القلب، ومنفرد بهما وهو المتخلي وأنواعه ثلاثة: معتزل ليسلم، ومعتزل ليغنم، ومعتزل لينعم.

– كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جناية غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار، وهو لم يتب من هفواته؟ قيل «للجنيد» ـ رحمه الله ـ: «كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟» «قال»: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل قيل له: فبم يصل العبد إلى هذا؟ قال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.

– الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله ،أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار.

شبه المعارف بالشموس؛ لأنها تذهب بكل ظلمة ونور، وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها.

– مما يدلك على وجود قهره سبحانه، أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه استدلال القوم مراد لتمكين الحقيقة من النفس، لا لطلق الإثبات وهو ما يشير إلى مفهوم «الاستدلال Reasoning» انظر (ص٧١).

– كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء، وفي كل شيء، ولكل شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء، وهو أظهر من كل شيء، وهو الواحد الذي ليس معه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء، ولولاه ما كان وجود شيء؟

الباب الثاني:

– ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه، الوقت هنا هو الزمان وقال «أبو القاسم القشيري»: ومن كلامهم «الوقت كالسيف» أي كما أن السيف قاطع، فالوقت بما يقتضيه الحق تعالى ويجريه: حاكم. وقيل: «السيف لين مسه قاطع حده، فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم»، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى وهو ما يشير إلى مفهوم أهمية «إدارة الوقت Time Management» انظر «ص٨٠»

– إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس، الناس ثلاثة: رجل ساعده القدر فعمل في فراغه وشغله وهذا من الموفقين المغبوطين. ورجل وجد الفراغ ولم يعمل وهذا من البطالين المغبونين؛ إذ جاء «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1] ورجل: لم يجد الفراغ وجعله علة في التسويف فأحال عليه العمل، وهذا من المغتربين.

– لا تطلب منه أن يخرجك من حالة، ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

– ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾
«البقرة: ١٠٢»

– طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه.

– ما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه.

– لا تترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه. لا تنتظر بعملك فراغا من الأغيار والأفكار فإن ذلك التوقف قاطع لك عن عبودية الوقت

١- سنن الترمذي، باب الصحة والفراغ.

وحكمه، ولكن قم له بما تقدر عليه كما أنت. ومترقب الفراغ للعمل كمن يقول: لا أتداوى حتى أجد الشفاء، فيقال له: لن تجد الشفاء حتى تتداوى، فلا يتداوى ولا يجد الشفاء كذلك هذا يقول: لا أعمل حتى أتفرغ، ولا يتفرغ حتى يعمل، فهو لا يعمل ولا يجد الفراغ.

– لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها.

– ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك الطلب بالله تعالى هو الاستناد إليه في تيسير المطلب وعلامته ثلاثة: التفويض في المراد، والتوكل في التحصيل، والاستقامة في التوجه، فإذا تمت هذه فالطلب متيسر.

– من علامة النجاح في النهايات، الرجوع إلى الله في البدايات. من علامة الخسران في النهايات الرجوع إلى النفس في البدايات؛ لأنها إذا كانت البداية بالله تعالى كانت النهاية إلى الله تعالى.

– من أشرقت بدايته أشرقت نهايته أي من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله أشرقت نهايته بالوصول إلى الله.

– ما استودع في غيب السرائر، ظهر في شهادة الظواهر. أي ما استودع في غيب السرائر من معرفة الله ظهر في شهادة الظواهر بالعمل على مقتضى ما هناك.

– شتان بين من يستدل به، ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه؟ وهو ما يشير إلى مفهوم «الاستدلال Reasoning» انظر «ص٩٩».

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾

(الطلاق: ٧)

الواصلون إليه:

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾

(الطلاق: ٧)

السائرون إليه، يقول العارفون: وسعت عليهم أرزاق العلوم والمعارف فأنفقوا على مقدار ما وصل إليهم إذا استدلوا به.

– اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم، لأنهم لله لا لشيء دونه فأنوار التوجه أنوار العمل، والمعاملة. وأنوار المواجهة: ما يرد من حقائق المواصلة. فمظاهر الأولى ثلاثة: الاستدلال للتوصل، والعمل للتوسل، والتعلق للتقرب. ومظاهر الأخرى ثلاثة: التوفيق للهداية، والإلهام للعناية، والتحقق للولاية.

الباب الثالث:

– تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خير لك من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب.

– الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه؛ إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرا، وكل حاصر لشيء فهو قاهر له.

– اخرج من أوصاف بشريتك، عن كل وصف مناقض لعبوديتك؛ لتكون لنداء الحق مجيبا، ومن حضرته قريبا، وأوصاف البشرية قسمان: أوصاف موافقة للعبودية: كالطاعة، والعفة، واليقظة، وأوصاف مناقضة للعبودية: كالمعصية، والشهوة، والغفلة، فالخروج من المناقضة بالعمل بالموافقة.

– أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ وهو ما يشير إلى مفهوم: «الرضا عن الذات Self Satisfaction» انظر (ص١١٥).

– شعاع البصيرة يشهدك قربة منه، وعين البصيرة تشهدك عدمك؛ لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده، لا عدمك ولا وجودك.

– كان الله ولا شيء معه، وهو الآن ما عليه كان.

الباب الرابع:

– لا تتعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال.

– لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعًا؟

من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا؟

– أن تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه، حسن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل عودك إلا حسنًا؟ وهل أسدى إليك إلا مننًا؟

- عجبًا ممن يهرب مما لا انفكاك لها عنه، ويطلب ما لا بقاء معه.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج: ٤٦)

- لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير، والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢].

الباب الخامس:

- لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. ويقول أبو الحسن الشاذلي: «لا تصحب من يؤثر نفسه عليك، فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم، واصحب من إذا ذُكر ذكر الله، فالله يغنى به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب» وهو ما يشير إلى مفهوم شروط (الصداقة Friendship) انظر (ص١٣٩).

- ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك.

- ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب.

٢- السنن الكبرى للنسائي، باب النية في اليمين

ـ حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقيق في مقامات الإنزال.

ـ لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور.

الباب السادس:

ـ من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من الزلات. وهو ما يشير إلى مفهوم الحالة الوجدانية (الحزن Sadness) انظر (ص١٥١).

ـ لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه.

ـ لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله.

ـ لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده.

ـ أورد عليك الوارد؛ لتكون به عليه واردًا، وليتسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار، وليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك.

ـ الأنوار مطايا القلوب والأسرار، والنور جند القلب، كما أن للظلمة جند النفس فإذا أراد الله أن ينصر عبده أيده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار.

ـ النور له الكشف والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإدبار والإقبال. ولا تفرحك الطاعة؛ لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك. قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم، أما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون؛ فلأنهم غيبهم بشهوده عنها.

الباب السابع:

ـ ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع. وما قادك شيء مثل الوهم.

ـ أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع. ومن لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان. ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. وخف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجًا لك.

الباب الثامن:

ـ من رأيته مجيبًا عن كل ما سئل، وذاكرًا كل ما علم، ومعبرًا عن كل ما شهد؛ فاستدل بذلك على وجود جهله. إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين؛ لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها. ومن وجد ثمرة عمله عاجلًا، فهو دليل على وجود القبول آجلًا. ومتى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة.

الباب التاسع:

ـ الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار، والحزن انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه فيهيجه حسرة خوف الفوات، وهو عذاب حاضر ونكد حاصل، لا فائدة له إلا التلهف على السالف، والتشمير في المستأنف.. وهو ما يشير إلى مفهوم (الحزن Sadness) انظر (ص٢٠٦).

– أما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه في وجوده، وانطوائه في شهوده.

– الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية.. مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية.. والعارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل.. وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.. الأكوان ظاهرها غرة، وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.. والطي الحقيقي أن تطوى مسافة الدنيا عنك، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك، العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله عز وجل إحسان.

الباب العاشر:

– كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلًا.. وكفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته.. ومتى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.. وإنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. وربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب، فكان سببًا في الوصول.

– معصية أورثت ذلاً واحتقارًا، خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.. فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض، والفاقة شدة الاحتياج وهو ما يشير إلى مفهوم (الحاجات Need) انظر (ص٢٤٤).

الباب الحادي عشر:

– يخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، ولا يخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك.. لا تطالب ربك بتأخير مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك.. ومتى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم المنة عليك.

الباب الثاني عشر:

– ورود الإمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار–

الغافل إذا أصبح نظر فيما يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به ـ أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته، وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته ـ علم منك أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه ـ الصلاة طهارة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب، ومحل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار.. علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها.

الباب الثالث عشر:

– كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً، وبأوصاف عبوديتك متحققاً.. وأوضح أن أوصاف الربوبية أربعة، هى: الغنى، والعز، والقدرة، والقوة، والتعلق بها أن تكون ناظراً إليها معتمداً عليها دون النظر إلى سواها.. وأوصاف العبودية أربعة، هى: الفقر، والذل، والعجز، والضعف. والتحقق بها: أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها فى حال من أحوالك.

الباب الرابع عشر:

– لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول ـ أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته ـ الستر على قسمين: ستر عن المعصية، وستر فيها؛ فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق.

الباب الخامس عشر:

– الناس يمدحونك لما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك، لما تعلمه ـ أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس ـ الزهاد إذا مدحوا انقبضوا؛ لشهودهم الثناء من الخلق، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحق.

الباب السادس عشر:

– إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك ـ مطالع الأنوار القلوب والأسرار ـ نور مستودع فى القلب، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب.

الباب السابع عشر:

– من اطلع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية، كان اطلاعه فتنة عليه، وسبباً لجر الوبال إليه.

ـ حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى، وحظها فى الطاعة باطن خفى، ومداواة ما يخفى صعب علاجه.

ـ استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك.

ـ من عرف الحق شهده فى كل شىء، ومن فنى به غاب عن كل شىء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً.

الباب الثامن عشر:

ـ لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك، لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية ـ إلى المشيئة يستند كل شىء، لأن وقوع ما لم يشأ محال، وليست تستند هى إلى شىء.

الباب التاسع عشر:

ـ إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وينبه من يمكن منه الإهمال ـ تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته.

الباب العشرون:

ـ تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير، من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته.

ـ عباراتهم إما لفيضان وجد، أو لقصد هداية مريد، فالأول: حال السالكين، والثانى: حال أرباب المكنة والمتحققين.

الباب الحادى والعشرون:

ـ إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً. قيد الطاعات بأنواع الأوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع الوقت عليك كى يبقى لك حصة فى الاختيار.

ـ من لم يعرف قدر النعم بوجدانها، عرفها بوجود فقدانها.

ـ لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

الباب الثانى والعشرون:

ـ فرّغ قلبك من الأغيار، يملأه بالمعارف والأسرار ـ حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إنه ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضى فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه؟! فالحقوق التى فى الأوقات: هى أنواع العبادات، كالصلاة والصوم وغيرهما مما يتسع زمانه فيمكن قضاؤه إن فات وقته. وحق الأوقات هى ما يلزم العبد من العبودية المترتبة على حركاتها وسكناتها وهى متتابعة.

ـ ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له ـ لا تنفعه طاعتك، ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك بهذه، ونهاك عن هذه؛ لما يعود عليك.

الباب الثالث والعشرون:

ـ لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور، فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً.

ـ لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة وجود الإمطار، وإنما المراد منها وجود الإثمار.

الباب الرابع والعشرون:

ـ النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وتمام النعيم بالنظر إلى وجه الكريم.

ـ ما تجده القلوب من الهموم والأحزان؛ فلأجل ما منعت من وجود العيان ـ ومن تمام النعمة عليك، أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك ـ إن أردت أن لاتعزل،

فلا تتول ولاية لا تدوم لك.

ـ اعلم أن العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه، ويكشف عن القلب قناعه ـ وخير علم ما كانت الخشية معه ـ والعلم أن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك.

الباب الخامس والعشرون:

ـ من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا؛ إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر، وليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. والتواضع الحقيقى ما كان ناشئا عن شهود عظمته، وتجلى صفته، وهو ما يشير إلى مفهوم (التواضع Modesty) انظر (ص٤٨٧).

المكاتبات:

ـ وذكر فيها بعض ما كتبه لبعض إخوانه منها:

من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه. ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع إليه بالتوكل عليه.

المناجاة: وتناولها فى فصلين، وهى بعض الأدعية فى مناجاة مولاه وتضرعه بين يديه بما أولاه.

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

ـ التصنيف Classification.
ـ الدافعية Motivation.
ـ التخطيط Planning.
ـ المثابرة persistence.
ـ عدم اليقين Uncertainty.
ـ العزلة Isolation.
ـ الاستدلال Reasoning.
ـ إدارة الوقت Time Management.
الرضا عن الذات Salf Satisfaction.
ـ الصداقة Friendship.
ـ الحزن Sadness.
ـ الحاجات Needs.
ـ التواضع Modesty.

القائم بالعرض:

أشرف محمد على شلبى

قصص الأنبياء:

قصة إسحاق «عليه السلام»



لفضيلة الشيخ العلامة عبد الوهاب النجار

قدمنا ما كان من تبشير الملائكة إبراهيم وزوجه سارة بولدهما، وأنها أسمته إسحاق. ولم يذكر فى القرآن الكريم من قصصه إلا البشارة، وأنه غلام عليم، وأنه نبى من الصالحين، وأن الله بارك عليه. وقدمنا أن اليهود والنصارى يدعون أنه الذبيح مع تكذيب التوراة لهذه الدعوى أيضا. ودليلهم هو الإصحاح الثانى والعشرون. وقد تقدم فى قصة إسماعيل.

زواج إسحاق

ومما لم يقصه القرآن من أمر إسحاق. زواجه من ابنة بتوئيل بن ناحور. وإنما قصته التوراة فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين، وملخصها أن إبراهيم لما شاخ أتى بعبده المستولى على بيته «لعازر» وأحلفه على أنه لا يأخذ لابنه إسحاق زوجة من بنات الكنعانيين الموجودين فى فلسطين، بل يأخذ له زوجة من عشيرته وبنى أبيه. وأنه لا يرد ابنه إلى الأرض التى خرج هو منها إذا تأبت عليه الزوجة وامتنعت من الإنتقال. فذهب ذلك العبد وهيأ ما يصلح أن يكون هدية للزوجة، وأخذ من الجمال والأموال ما أحب، وذهب إلى آرام وأناخ جماله خارج المدينة التى بها أسرة ناحور - أخى إبراهيم - وإذا هو بفتاة حسنة المنظر خرجت من المدينة وجرتها على كتفها، فملأت الجرة فقال لها العبد: اسقنى! فأنزلت الجرة وأعطته إياها ليشرب وقالت: اسق لجمالك أيضا، فتفرس فيها إلى أن فرغت من سقى الجمال، وحلى أنفها بخزامة من ذهب ويديها بسوارين من الذهب وسألها: بنت من هى؟ وهل عند أبيها مكان لمبيته وجماله فأخبرته بأنها بنت بتوئيل بن ناحور وأن عندهم مبيتا وعلفا لماشيته وأسرعت إلى البيت وأخبرت بما رأت، وكان اسم الفتاة «رفقة» وقام لابان بن بتوئيل فى الحال إلى حيث عبد إبراهيم وأضافه وأكرم مثواه. وفى الحال أخبرهم عبد إبراهيم بما جاء لأجله، وأنه يريد «رفقة» لابن سيده. فأجابوه إلى ما طلب وأعطاها آنية من ذهب وفضة وثيابا وتحفا لأخيها

وأمها. ثم طلب إليهم أن ينصرف سريعا، ووافقته «رفقة» على التعجيل بالمسير. فذهب بها إلى ديار سيده.

وكانت عزاء لاسحاق بعد موت أمه. ثم إن رفقة ولدت توأمين هما: عيسو ويعقوب، وكان خروجهما من بطنها بهذا الترتيب.

وكان عيسو في كبره مغرما بالصيد، ويعقوب وادعا، فأحب إسحاق عيسو، وأحبت رفقة يعقوب. وكان في ذلك الزمن للبكر امتياز على غيره في الميراث بحق البكورية. فجاء عيسو يوما متعبا لم يظفر بصيد. وقد هيأ يعقوب طعامه من عدس فأراد عيسو أن يأكل منه، فأبى عليه ذلك إلا أن ينزل له عن حق البكورية ففعل.

وأن إسحاق - لما كبر - أراد أن يدعو لولده عيسو ويبارك عليه، وطلب إليه أن يصيد صيدا ويهيئه للأكل، حتى إذا أكل منه خصه بدعواته. وسمعت رفقة فأحبت أن تكون البركة ليعقوب، فأمرته فصنع طعاما من جدى ذبحه وقربه إلى والده، وأوهمه أنه عيسو، وكان اسحاق قد كبر وساعدته أمه على ذلك، فأكل ودعا له، فحقدها عليه عيسو فهرب إلى خاله «لابان» في فدان أرام وخدمه وتزوج ابنتيه: ليئة وراحيل. وجاريتهما: زلفا وبلها.

تغرب إسحاق

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذى كان ذكر في القرآن: أنه حصل جوع في الأرض - كما حصل في عهد إبراهيم - وتغرب في جرار عند أبي مالك. وقالت رفقة عن زوجها إسحاق: إنه أخى وهو أيضا، قال: أختى. ورأى الرجل إسحاق يلاعبها فعلم أنها زوجته، فعاتب إسحاق. وحصل ما حصل في شأن إبراهيم وسارة.

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذى كان في عهد إسحاق هو الذى كان في عهد إبراهيم، كما هو المتبادر من عبارة الإصحاح السادس والعشرين تكوين. لأن ذلك كان رجلا كبيرا قبل. أن تحمل سارة بإسحاق. وإسحاق كان قد جاوز الأربعين في تغربه.

ومما ذكر أيضا أن إسحاق قد كثرت أمواله وعبيده وحفر آبارا، وكلما حفر بئرا نازعه عليها أهل جرار فيتركها لهم ويحفر بئرا أخرى. وأن الملك ورؤساء جنده صالحوا اسحاق أخيرا وعقدوا معه صلحا.

موت إسحاق

وفيها أن إسحاق عاش مائة وثمانين سنة، ودفن في حبرون - وهي مدينة الخليل اليوم - بمغارة المكفيلة. هذه الحكاية - مع احتمال وضعها - تفيدنا معرفة الفكر العام في أحوال هؤلاء الناس وأنهم من الشر بحيث يصلحون أن تسند إليهم أمثالها.

قدمنا في قصة إبراهيم أن الملائكة أخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل سدوم وعامورة.

وأن إبراهيم خاف أن يمس لوط بأذى، فأخبر بأنه ناج هو ومن آمن معه ثم أخبر في آخر القصة بأن وقوع العذاب بالقوم أمر حتم، لا تقبل فيه شفاعة ولا يغنى جدال:

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

ذكرت قصة لوط بتمامها في عدة سور باختلاف يسير. وبعضها يكمل بعضا وتتلخص في أن قوم لوط كانوا من الشر بمكان، وأنهم كانوا يقطعون الطريق على السابلة، وقد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقبحون قبيحا ولا يرغبون في حسن. كما قال الله تعالى حكاية عن لوط:

﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾

وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله. وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء. يستعلنون بذلك ولا يستترون ولا يرون في ذلك سوءا أو قبحا. وأن لوطا قد وعظهم ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا. فلما ألح عليهم بالعظات والإنذار هددوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج من بينهم. إلى أن جاء إلى لوط الملائكة - الذين مر ذكرهم في إبراهيم وبشروه بابنه إسحاق - وقد جاءوا إلى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه، فجاء أهل القرية إلى لوط طالبين ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة. وقد جهد لوط في ردهم وبالغ في ذلك حتى طلب إليهم أن يأخذوا بناته فلم يصغوا إليه. حينئذ التفت لوط إلى الملائكة وقال:

﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

أى لجاهدتهم بكم وأوقعت بهم ما يستحقون، وكان لا يعلم أنهم ملائكة إلى ذلك الحين، وحينئذ أعلمه الملائكة بحقيقة أمرهم، وأنهم جاءوا للتنكيل بأولئك القوم. ولما حاول أهل القرية أخذ أولئك المردان بالقوة وهجموا على بيت لوط، طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا إلى مكان يقتحمون منه عليه وعلى من معه. ثم أخرج الملائكة لوطا وابنتيه وزوجه من القرية وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد وأن يحضروا حيث يؤمرون، فصدعوا بالأمر إلا امرأته فانها التفتت إلى القرية لترى ما يحل بها: وكان هواها في أهل القرية دون لوط فحل بها من السخط والعذاب ما حل بهم، وكانت كافرة غير مؤمنة، فأمطر الله عليهم حجارة من سجيل، وقلبت ديار القوم وجعل عاليها سافلها.

وأعتقد أن البحر الميت - المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط - لم يكن موجودا قبل هذا الحادث وإنما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر وقد جاءت الأخبار بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

منهاج القرآن الكريم فى دعوة اليهود إلى الإسلام ومظاهر إنصافه لهم



٢

الإمام الراحل الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

تنبيههم إلى أن محمدا ﷺ هو النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام

ومن بين الوسائل التى استعملها القرآن الكريم فى دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام إفهامهم أن محمدا ﷺ الذى دعاهم إلى توحيد الله- تعالى هو النبى الذى بشر به عيسى- عليه السلام- وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الصف:

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾

(سورة الصف: الآية ٦)

ومعنى الآية الكريمة: واذكر- يامحمد لهؤلاء اليهود قول عيسى بن مريم لهم: يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم، وإنى مصدق بالتوراة التى جاء بها أخى موسى- عليه السلام- وإنى مصدق- أيضا- بأحمد الرسول النبى الأمى العربى الذى سيأتى من بعدى، فأنا أبشركم به، وأدعوكم إلى تصديقه عند مجيئه، بالهدى ودين الحق.

ثم بين القرآن الكريم موقف بنى إسرائيل من الرسول الذى بشرهم به عيسى فقال تعالى:

﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾

أى: فحين جاءهم أحمد المبشر به قبل ذلك بالدلائل الواضحات، والمعجزات الباهرات، قابلوا دعوته بالعناد والجحود، وقالوا له: إن ما جئت به ما هو إلا سحر واضح، وباطل بين البطلان.

فالآية الكريمة تذكر أن عيسى بن مريم- عليه السلام- خاتم أنبياء بنى إسرائيل قد بشرهم بالنبى ﷺ الذى لا رسالة بعده ولا نبوة، وذكره لهم باسمه، لكى يؤمنوا به ويصدقوه عند ظهوره، ولكنهم عند ظهوره:

﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾

وفى ذلك إقامة للحجة عليهم، وتوبيخ لهم على استكبارهم وجحودهم.

هذا: وقد وردت أحاديث متعددة بيّن فيها النبى ﷺ أن من أسمائه أحمد، وأن عيسى بشر به، ومن هذه الأحاديث ما جاء فى صحيح البخارى، عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «إن لى أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى، الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»[1].

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر عددا من الأحاديث فى أسماء النبى ﷺ، وفى البشارات التى جاءت بشأنه: والمقصد أن الأنبياء- عليهم السلام- لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره، ومؤازرته إذا بعث، وكان ما اشتهر من الأمر فى أهل الأرض، على لسان إبراهيم الخليل، والد الأنبياء، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان ابن مريم، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك، يعنى: فى الأرض قال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمى التى رأت» أى: ظهر فى أهل مكة أثر ذلك الإرهاص فذكره (صلوات الله وسلامه عليه)[2].

وبذلك تكون الآية الكريمة قد دعت اليهود إلى الإيمان بالنبى ﷺ، بأسلوب يحمل الدليل الواضح القوى على صدقه إذ أن آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام- قد بشر به، ودعاهم إلى تصديقه واتباعه، ولكنهم عموا وصموا عن الحق، وكفروا بهذين النبيين الكريمين كما كفروا بغيرهما من الأنبياء.

«إفهامهم بأن محمدا ﷺ هو النبى الذى كانوا يستفتحون به على الذين كفروا»

كذلك من بين الحجج التى أقامها القرآن الكريم على اليهود لحملهم على الاعتراف بصدق النبى ﷺ واتباعه، إنباؤهم بأنه هو الرسول الذى كانوا يستنصرون ببعثته، قبل مجيئه على أعدائهم من المشركين، وقد وضح القرآن الكريم هذا المعنى فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾

(البقرة: ٨٩)

والمعنى: وحين جاء اليهود:

﴿ كتاب من عند الله ﴾

هو القرآن الكريم:

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ١ ص٢٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤- ص٣٦٠.

﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾

موافق للتوراة التى أنزلها الله، لهدايتهم فيما يختص ببعثة النبى ﷺ ونعته:

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أى: كان اليهود يستنصرون على أعدائهم من المشركين بمحمد ﷺ قبل بعثته فيقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبى الذى نجد نعته فى التوراة.

ثم بين القرآن الكريم موقفهم من النبى ﷺ بعد مجيئه فقال:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

أى: فحين جاءهم ما عرفوا صدقه، وهو نبوة النبى ﷺ لانطباق علاماته، التى يجدونها فى كتابهم عليه وحده، كفروا به لأنه ليس منهم:

﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ ﴾

إبعادهم وطردهم من مواقع رحمته

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

الذين عرفوا الحق فكتموه وهم يعلمون.

هذا، ولقد كان مما دعا الأوس والخزرج إلى الدخول فى الإسلام، كثرة سماعهم من اليهود عن قرب بعثة النبى ﷺ، وأنهم ينتظرون ذلك؛ ليؤمنوا به فيرتفع شأنهم معه.

ولقد روى العلماء كثيراً من الآثار فى هذا[٣] المعنى، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا: «مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه أنا كنا نسمع من رجال يهود، حين كنا أهل شرك، وكانوا هم أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً من عند الله، أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله تعالى[٤]:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

فهذه الآية الكريمة نبهت اليهود إلى نوع من ضلالهم وجحودهم، لكى يتركوا ذلك، ويثوبوا إلى رشدهم، يتبعوا النبى ﷺ الذى بشرت به كتبهم، والذى كانوا يستنصرون ببعثته قبل مجيئها على أعدائهم المشركين.

إرشادهم إلى أن القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية السابقة، ومهيمن عليها

ومن بين الوسائل التى جاء بها الإسلام لدعوة أهل الكتاب للانضواء تحت لوائه،

(٣) ساق الإمام ابن تيمية عند حديثه عن هذه الآية الكريمة أكثر من عشرة آثار فى هذا المعنى، وذلك فى كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» جـ٣ ص٢٨٢ وما بعدها.

(٤) (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جـ٣ ص٢٨٤ للإمام ابن تيمية.

واتباع نبيه ﷺ، إرشادهم إلى أن القرآن الكريم- وهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ- مصدق للكتب السماوية السابقة، ومهيمن عليها، وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى[٥]:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

أى: كما أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى- عليهما السلام- أنزلنا إليك يامحمد- الكتاب وهو القرآن الكريم:

﴿ بِالْحَقِّ ﴾

بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله:

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أى: مؤيداً ومؤكداً لما تقدمه من الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل.

وعبر عن الكتب الإلهية السابقة على القرآن الكريم بأنها بين يديه؛ لأن ما تأخر عن الشئ قد يكون وراءه وخلفه، وما تقدم عليه قد يكون قدامه وبين يديه.

ثم بعد أن وصف الله- تعالى- القرآن الكريم، بأنه أنزله:

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أضاف إليه صفة أخرى فقال تعالى:

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

قال ابن عباس: المهيمن: الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله وقال مجاهد وقتادة: مهيمناً: شهيداً، وفى رواية عن ابن عباس: مهيمناً أى: حاكماً وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

قال الإمام ابن كثير: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، وجعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه فقال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

وقال فضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز: «أضاف القرآن الكريم إلى كونه، مصدقا لما بين يديه من الكتاب صفة أخرى إذ أعلن أنه جاء- أيضا- مهيمنا على تلك الكتب، أى: حارسا أمينا عليها، ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب، ألا يكتفى الحاس بتأييد، ما

(٥) تفسير ابن كثير جـ١ ص٦٥

خلده التاريخ فيها، من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل، الذى عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس الحاجة إليه من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى، وجودها فى تلك الكتب:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغى تبينه مما كتموه منها[6]:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾

ومن الآيات التى بينت أن القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية السابقة قوله تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

(سورة الأنعام: الآية ٩٢)

وقوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(سورة يوسف: الآية ١١١)

وقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(سورة يونس: الآية ٣٧)

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن الكريم الذى نزل على محمد ﷺ مصدق للكتب السماوية، التى أنزلت على الأنبياء من قبله، ومهيمن عليها، فعلى أهل الكتاب أن يؤمنوا به، لأنه قد أتاهم بما يؤيد ما فى كتبهم، من الأحكام الصحيحة والمعانى الخفية، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل، ويظهر ما أخفاه منها أحبارهم ورهبانهم بغير حق، ويفصل ما جاء به الشرع من حلال وحرام، وخير وشر.

وأن كتابًا هذا شأنه لا يكون إلا من عند الله - تعالى - ولا ينبغى لعاقل إلا أن يؤمن بما اشتمل عليه إيمانًا عميقًا، ويصدق ما جاء فيه تصديقًا قويًا.

●●●

(٦) مجلة لواء الإسلام السنة ١١ ص ٦٨.

من فتاوى الحاخامات

صوت المرأة

عنوان الفتوى: صوت المرأة

مصدر الفتوى: www.moriya.org.il، نوفمبر ٢٠٠٥ - فتوى من الحاخام شموئيل زعفرانى

● سؤال: الحمد للرب، الذى أنعم علىّ بموهبة الغناء. أحيانا أشعر بالغضب؛ لأن تحريم صوت المرأة يخنق الموهبة؛ لأن «صوت المرأة عورة»، هل يمكن من فضلك أن تبلغنى بمغزى هذا التحريم بالضبط، وما التشريعات المرتبطة به؟ «وهل يحظر سماع صوت فتاة عبر مكبر الصوت؟ أو عبر شريط تسجيل؟»

●● جواب: إليك ما كتبه الحاخام مردخاى إلياهو - أطال الرب عمره - فى هذا الشأن فى كتابه كتاب الشريعة الجزء الثانى ١٤/ ٤٢: ٤٦.

٤٢: غناء المرأة سواء كانت غير متزوجة، أو متزوجة وغير طاهرة، وسواء كانت شابة أو عجوزا، جميلة أو قبيحة يعتبر عورة ومحرم سماعه، كما يحرم القراءة أو الدراسة أو الصلاة عند سماع هذا الصوت، وكذلك مُحرم سماع صوت المرأة التى تغنى عبر الراديو أو عبر شريط تسجيل وحذار أن يدرس المرء أو يصلى أو يقرأ صلاة التوحيد عندما تغنى زوجته للطفل الرضيع أو ما شابه ذلك، حتى ولو كانت طاهرة.

٤٣: لا يجب الخوف أو التوقف عن ممارسة الأمور المقدسة عندما تقوم طفلة يقل عمرها عن ست سنوات بالغناء لطفل رضيع.

٤٤: عندما يسمع المرء نساء يغنين أو يسمع أغانى عبر الراديو، ولا يمكنه التوجه للاستذكار فى مكان آخر، يمكنه أن يتأمل فيما جاء فى التوراة، حتى ولو كان ذلك بمطالعة هذا الكتاب، ويمتنع عن إصدار أى صوت، وكل ذلك عند الضرورة فقط.

٤٥: هناك من يتشددون ويرون أن صوت المرأة عورة، حتى ولو كانت لا تغنى، بل تروى قصصا أو ما شابه ذلك بشكل مطوّل، ولكن فيما يتعلق بالأشياء القصيرة وبالذات عندما تكون لمتطلبات العمل فلا خوف من ذلك.

٤٦: من الأفضل ومن الصواب لكل امرأة صالحة تخشى الرب سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة، ألا تغنى فى مكان به رجال، كما يجب عليها أن تحرص على ألا تنشد حتى ترانيم السبت بصوتها، بل تحرك شفتيها فقط دون أن تحدث صوتا.

وهكذا يتضح لنا أنه يحرم سماع صوت النساء اللاتى يشاركن بالغناء فى فرقة غنائية وكذلك فى الراديو أو الاسطوانات المسجلة، وما شابه ذلك.

ذكرى تعود

لفضيلة الشيخ: معوض عوض إبراهيم

هى ذكرى الإسراء والمعراج بالنبى (ﷺ) جسداً وروحاً يقظة فى جزء من الليل الذى يعنيه قول الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

ذكرى تعودُ ونورها يتجدد   يتمثل الأقصى وفيه محمدُ
والأنبياءُ به تحفُّ ولم يغبْ   عن ليلة الإسراء منهم سيدُ
وكأننى أصغى إليهم مجدوا   ربى وأثنى بعد ذلك أحمدُ
فمضى بما أثنى إمامهمُ الذى   شهد الكتابُ له بذاك وأشهدوا
سبحان من أسرى به ليلاً إلى   مهد الرسالات التى لا تُجحدُ
لنعيش فى أعناقنا أرضَ الهدى   حرماً تطيبُ به النفوسُ وتسعدُ
حرماً مآذنه تشدُّ عُرى السما   والأرض بالتكبير إذ يترددُ
الناسُ فى جنباته فى أمنهم   مثلٌ شرودٌ للسلام ومفردُ

تلك «القيامةُ» منذُ نادى ربَّهُ   فيها أبو حفص رعاها الرُّشدُ
و«المهدُ» مع أقداس عيسى لم ترُعْ   إلا وأسيافُ الحنيف تجردُ
فتطيحُ أعناقَ الغزاة سيوفُهُ   هاتيك رأسٌ فى الفلاة وذى يدُ
فى «الغور» فى «بيسان»[1] درسٌ نافعٌ   رمضانُ ينشدُهُ ونعم المنشدُ
واستنبئوا التاريخَ أصدقَ شاهدٍ   فلسوف ينطق بالجلال وتشهدُ
أفذلك الأقصى فأين ضياؤه؟   ويحى وأين الراكعون السُّجَّدُ؟
والقبلةُ الأولى خلتْ من قائمٍ   لله يجلو حقَّهُ.. ويوحِّدُ
كان البراقُ هُنا يضوعُ[2] عبيرُهُ   فقضى وكنتُ أظنُّهُ لا ينفدُ
يا صخرة المعراج حيَّاك الحيا   وجفاك ذيَّاك اللئامُ الأسودُ
أو ذلك القدسُ المباركُ لا أرى   روضاته وبه الطيورُ تغرِّدُ؟
وبنوه أين مضوا وفيم أراهمُو   قد روَّعوا عنه الغداة وشُرِّدوا؟
ونِعِمْ سمعى منه صوتُ حرائرٍ   يصرخن واغوثاهُ هل من ينجدُ
جاء التتارُ شديدةً أحقادهم   أو غيرَ صهيونٍ يكيدُ ويحقدُ
لا تذكروا التاري فأين فعاله   من فعل من مكروا بنا واستأسدوا؟
أختاهُ قد جئنا لنصرك شيبُنا   وشبابُنا وسعت إليك الخُرَّدُ
باعوا النفوسَ لربهم كى يثأروا   لك، يا حمى المسرور أو يستشهدوا
وعدَ الإلهُ بنصره من آمنوا   وتدرعوا بالصالحات وجاهدوا

---

(١) منطقتين لوقعتين حربيتين.

(٢) يضوع: يشيع وينتشر.

فتاوى لها تاريخ

حلق اللحى


الشيخ/ محمود شلتوت



ما حكم الشرع فى حلق اللحى؟

آراء الفقهاء:

تكلم الفقهاء على حلق اللحى، فرأى بعضهم أنه محرم، ورأى آخرون أنه مكروه، ومنهم من شدد فوصفه بأنه من «المنكرات»، وبأنه «سفه وضلالة أو فسق وجهالة».

ونحن لا نشك فى أن إبقاءها وعدم حلقها كان شأن النبى ﷺ، وأنه كان يأخذ من أطرافها وأعلاها بما يحسنها، ويجعلها متناسبة مع تقاسيم وجهه الشريف، وأنه كان يعنى بتنظيفها وتخليلها بالماء، عملا على كمال النظافة. وكان الأصحاب رضوان الله عليهم يتابعونه فى كل ما يختاره ويسير عليه فى مظهره وهيئته، حتى مشيته.

من سنن الفطرة

وقد وردت عنه ﷺ أحاديث ترغب فى توفيرها ضمن أمور تتصل كلها بالنظافة، وتحسين الهيئة وإظهار الوقار، وعرفت تلك الأحاديث عند العلماء بأحاديث (خصال الفطرة أو سننها) والكلمة تعنى الآن الأشياء التى تتفق وخلق الإنسان فى أحسن ما شاء الله من الصور، وكان من هذه الخصال الواردة مع إعفاء اللحية فى تلك الأحاديث (السواك، وقص الشارب والأظافر، وغسل البراجم: وهى عقد الأصابع ومعاطفها، واستنشاق الماء وإزالة شعر الإبط والعانة والختان) وقد أخذت هذه الخصال عند كثير من الفقهاء الباحثين عن أحكام الشريعة حكم السنية أو الاستحباب، وأخذت حكم الكراهة. وإعفاء اللحية واحدة من هذه الخصال لا يعدو حكمه حكمها وهى السنية والاستحباب.

على أن كلمة سنة أخذت فى دور الاجتهاد الفقهى غير معناها فى زمن التشريع، فهى عندهم ما يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه. وقد كان معناها الطريقة العملية التى يستحسنها

الناس، ويرى فيها النبى ما يرون فيها، فيسير عليها ويرغب أصحابه فيها.

عادة قديمة

وقد أرشدنا تاريخ العرب القديم وغيرهم إلى أن إعفاء اللحية كان عادة مستحسنة، ولا يزال كذلك عند كثير من الأمم فى علمائها وفلاسفتها، مع ما بينهم من اختلاف فى الدين والجنسية والإقليم. يرون فيها مظهرا لجمال الهيئة، وكمال الوقار والاحترام.

والرسول عليه السلام من دأبه إرشاد أمته إلى ما يجعلهم فى مقدمة أرباب العادات المستحسنة، التى توفر بحسب العرف مظاهر الوقار، وجمال الهيئة، ومن ذلك جاءت أحاديث الترغيب فى توفير اللحية. كما جاءت أحاديث الترغيب فى السواك وتنظيف عقد الأصابع ومعاطفها.

الأمر بمخالفة المشركين

نعم جاء فى أحاديث خاصة باللحية الأمر بالإعفاء والتوفير؛ وعللت ذلك بمخالفة المجوس والمشركين، ومن هنا فقط أخذ بعض العلماء أن حلق اللحية حرام أو منكر.

والذى نعرفه فى كثير مما ورد عن الرسول فى مثل هذه الخصال أن الأمر كما يكون للوجوب لمجرد الإرشاد إلى ما هو الأفضل، وأن مشابهة المخالفين فى الدين إنما تحرم فيما يقصد فيه التشبه من خصائصهم الدينية، أما مجرد المشابهة فيما تجرى به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها ولا كراهة فيها ولا حرمة.

وقد قيل لأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة: ـ وقد رئى لابسا نعلين مخصوفين بمسامير ـ إن فلانا وفلانا من العلماء كرها ذلك لأن فيه تشبها بالرهبان فقال: كان رسول الله ﷺ يلبس النعال التى لها شعر، وإنها من لباس الرهبان.

ونحن لو تمشينا مع التحريم لمجرد المشابهة فى كل ما عرف عنهم من العادات والمظاهر الزمنية لوجب علينا الآن تحريم إعفاء اللحى؛ لأنه شأن الرهبان فى سائر الأمم التى تخالف فى الدين، ولوجب الحكم بالحرمة على لبس القبعة. وبذلك تعود مسألتها جذعة بعد أن طوى الزمن صفحتها، وأخذت عند الناس مسلك الأعراف العامة التى لا تتصل بتدين ولا فسق ولا بإيمان وكفر.

والحق أن أمر اللباس والهيئات الشخصية ومنها حلق اللحية من العادات التى ينبغى أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة، فمن درجت بيئته على استحسان شىء منها كان عليه أن يساير بيئته، وكان خروجه عما ألف الناس فيها شذوذا عن البيئة.

والله الموافق للسداد

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

الزكاة في أموال القصر!!

● هل يجب إخراج الزكاة في أموال القصر المودعة لدى النيابة الحسبية إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول؟

●● الجواب: يرى جمهور العلماء أن الزكاة واجبة في مال الصبي القاصر وفي مال السفيه أو المجنون المحجور عليه، وهذا هو الذي عليه الفتوى؛ لأنه حق يتعلق بالمال، فلا يسقط بالصغر أو السفه أو الجنون، ويخرجها عنهم أولياؤهم، واستندوا في ذلك إلى عموم النصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة التي دلت على وجوب الزكاة في المال الذي يبلغ النصاب وحال عليه الحول؛ كقوله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٠٣)

وكقوله ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، حين أرسله إلى اليمن: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم»، رواه مسلم، والقصر والسفهاء والمجانين ترد فيهم الزكاة إذا كانوا فقراء، فلتؤخذ منهم إن كانوا أغنياء.

كما استدلوا بما رواه الإمام الشافعي عن يوسف بن ماهك أن رسول الله ﷺ قال: «ابتغوا في أموال اليتامى؛ لا تستهلكها الصدقة»، وهو مرسل صحيح يعتضد بما سبق من عموم النصوص، وبما يأتي من طرقه وشواهده، وقد صح هذا اللفظ أيضا موقوفا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وروى الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتجروا في أموال اليتامى؛ لا تأكلها الزكاة»، وصححه الحافظ العراقي.

وروى الترمذي من حديث عمرو بن



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «من ولي يتيما فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة».

ولولا أن الزكاة واجبة في مال القاصر والسفيه والمجنون لما جاز للولي أن يخرجها منه؛ لأنه ليس له أن ينفق ماله أو يتبرع منه في غير واجب، فأمر النبي ﷺ بتنمية أموالهم حتى لا تستهلكها الزكاة الواجبة فيها.

وقد صح إيجاب الزكاة في مال الصبي والمجنون، عن عمر وعلي وابن عمر وعائشة وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة إلا رواية ضعيفة عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يحتج بها.

وهذا هو الملائم لتشريع الزكاة في الإسلام من أنها حق في المال يجب لمستحقه، كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فإن الزكاة حق المال»، كما أن كلا من القاصر والمجنون أهل لوجوب حقوق العباد في ماله، ولذلك يضمن ما أتلفه بأداء الولي من ماله.

وينوب عن القاصر أو المجنون أو السفيه وليه في إخراجها، بشرط أن يكون هذا المال فائضا عن نفقة الصبي وحاجته الأصلية وأن يبلغ هذا المال النصاب ويحول عليه الحول القمري ويخرج عليه ربع العشر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

العمرة بدون محرم!!

● ما حكم الشرع في ذهابي لأداء العمرة بدون محرم وفي جمع آمن من الرجال والنساء (فوج)، علما بأنني أبلغ من العمر أربعين عاما.

●● الجواب: يجوز للمرأة أن تسافر بدون محرم بشرط اطمئنانها على الأمان في دينها ونفسها وعرضها في سفرها وإقامتها وعودتها، وعدم تعرضها لمضايقات في شخصها أو دينها، فقد ورد عنه ﷺ فيما رواه البخاري وغيره عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال له: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة - أي المسافرة - ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله»، وفي رواية الإمام أحمد: «والذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد».

فمن هذا الحديث برواياته أخذ جماعة من الفقهاء المجتهدين جواز سفر المرأة وحدها إذا كانت آمنة، وخصصوا بهذا الحديث الأحاديث الأخرى التي تحرم سفر المرأة وحدها بغير محرم؛ فهي محمولة على حالة انعدام الأمن التي كانت من لوازم سفر المرأة وحدها في العصور المتقدمة.

وقد أجاز جمهور الفقهاء للمرأة في حج الفريضة أن تسافر بدون محرم إذا كانت مع نساء ثقات أو رفقة مأمونة، واستدلوا على ذلك بخروج أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بعد وفاة رسول الله ﷺ للحج في عهد عمر رضي الله عنه وقد أرسل معهن عثمان بن عفان ليحافظ عليهن رضي الله عنه.

قال الإمام أبو الحسن بن بطال في «شرح البخاري» (٤/ ٥٣٢، ط. مكتبة الرشد): قال مالك والأوزاعي والشافعي: تخرج المرأة في حجة الفريضة مع جماعة النساء في رفقة مأمونة وإن لم يكن معها محرم، وجمهور العلماء على جواز ذلك، وكان ابن عمر يحج معه نسوة من جيرانه، وهو قول عطاء وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن البصري، وقال الحسن: المسلم محرم، ولعل بعض من ليس بمحرم أوثق من المحرم ا. هـ.

وقال الإمام الباجي المالكي في «المنتقى شرح الموطأ» (٣/ ٩٥): ولعل هذا الذي ذكره بعض أصحابنا إنما هو في حال الانفراد والعدد اليسير، فأما القوافل العظيمة والطرق المشتركة العامرة المأمونة فإنها عندي مثل البلاد التي يكون فيها الأسواق والتجار، فإن الأمن يحصل لها دون ذي محرم ولا امرأة، وقد روى هذا عن الأوزاعي ا. هـ.

وقال العلامة الحطاب المالكي في «مواهب الجليل شرح مختصر خليل» (٢/ ٥٢٣، ط. دار الفكر): قيد ذلك الباجي بالعدد القليل، ونصه: هذا عندي في الانفراد والعدد اليسير، فأما في القوافل العظيمة فهي عندي كالبلاد، يصح فيها سفرها دون نساء وذوي محارم. انتهى، ونقله عنه في الإكمال وقبله ولم يذكر خلافه، وذكره الزناتي في شرح الرسالة على أنه المذهب، فيقيد به كلام المصنف وغيره.

ونص كلام الزناتي: إذا كانت في رفقة مأمونة ذات عدد وعدد، أو جيش مأمون من الغلبة والمحلة العظيمة فلا خلاف في جواز سفرها من غير ذي محرم في جميع الأسفار: الواجب منها والمندوب والمباح، من قول مالك وغيره إذ لا فرق بين ما تقدم ذكره وبين البلد، هكذا ذكره القابسي، ا. هـ.

والذي عليه الفتوى أن سفر المرأة وحدها عبر وسائل السفر المأمونة وطرقه المأهولة ومنافذه العامرة؛ من موانئ ومطارات ووسائل مواصلات عامة، جائز شرعًا ولا حرج عليها فيه؛ سواء أكان سفرًا واجبًا أم مندوبًا أم مباحًا، وأن الأحاديث التي تنهى المرأة عن السفر من غير محرم محمولة على حالة انعدام الأمن، فإذا توفر الأمن لم يشملها النهي عن السفر أصلًا.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فيجوز للمرأة أن تسافر لأداء العمرة مع صحبة آمنة من غير أن يكون معها محرم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الوفاء بالنذر

• نذر ابني نذرًا لله ثم توفي في ظروف مأساوية. وأنا أحتاج لثمن النذر حاجة شديدة. فهل يجب علي القيام بوفاء النذر مع احتياجي الشديد إلى ثمنه؟

•• الجواب: أمر الله عز وجل بالوفاء بالنذر، فإذا ما نذر الإنسان شيئًا فقد ألزم نفسه به، وعليه الوفاء بما نذر، لقول الحق عز وجل:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾

(الإنسان: ٧)

ولقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصه فلا يعصه»، وذلك إذا كان في مقدور الإنسان الوفاء بما نذر، وإلا فلا يجب عليه الوفاء، لقوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

ولقوله ﷺ: «من نذر نذرًا لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين».

وعلى ذلك: فلا يلزمك الوفاء بالنذر مع حاجتك الشديد إلى ثمنه، وإن كنت محتاجًا أيضًا إلى ثمن الكفارة فلا تلزمك هي أيضًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

مصافحة الرجل للمرأة

• ما حكم مصافحة الرجل للمرأة باليد؟ وهل ذلك ينقض الوضوء؟ وما حكم النظر إلى وجه المرأة؟

•• الجواب: مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية محل خلاف في الفقه الإسلامي، فيرى جمهور العلماء حرمة ذلك، إلا أن الحنفية والحنابلة أجازوا مصافحة العجوز التي لا تشتهى، لأمن الفتنة، ومن أدلة الجمهور على التحريم: قول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «ما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط» متفق عليه، وحديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له» أخرجه الروياني في مسنده والطبراني في المعجم الكبير.

بينما يرى جماعة من العلماء جواز ذلك، لما ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه صافح النساء لما امتنع النبي ﷺ عن مصافحتهن عند مبايعتهن له، فيكون الامتناع عن المصافحة من خصائص النبي ﷺ، وأن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه صافح عجوزًا في خلافته، ولما جاء في البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يجعل أم حرام رضي الله تعالى عنها تفلي رأسه الشريف، ولما أخرجه البخاري أن أبا

موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه جعل امرأة من الأشعريين تفلى رأسه وهو محرم فى الحج.

وأجابوا عما استدل به الجمهور: بأن حديث معقل بن يسار حديث ضعيف، لضعف راويه شداد بن سعيد، وقد تفرد بهذا اللفظ مرفوعًا، ومثله لا يحتمل تفرده لو لم يخالف، وقد خالفه بشير بن عقبة - وهو ثقة من رجال الصحيحين - فأخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» من طريق بشير بن عقبة، عن أبى العلاء، عن معقل موقوفًا عليه من قوله بلفظ: «لأن يعمد أحدكم إلى مخيط فيغرز به فى رأسى، أحب إلىّ من أن تغسل رأسى امرأة ليست منى ذات محرم».

وعليه فيمكن لمن ابتلى بشىء من هذا أن يقلد من أجاز ذلك من العلماء، والخروج من الخلاف مستحب.

وأما عن انتقاض الوضوء بمصافحة الأجنبية فهو أيضًا محل خلاف فى الفقه الإسلامى، فبينما يرى الإمام الشافعى أنه ينقض الوضوء ولو كان من غير شهوة، يرى الإمام أبو حنيفة أن اللمس بنفسه لا ينقض ولو كان بشهوة، ويفصل الإمام مالك القول فى ذلك بين ما إذا كان اللمس بشهوة فينقض أو من غير شهوة فلا ينقض، ويروى فى مذهبه أقوال أخرى، وعن الإمام أحمد أيضًا روايات بكل هذه الأقوال، وكل له أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

والقواعد المقررة شرعًا فى المسائل الخلافية:

١- أنه إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه.

٢- أن من ابتلى بشىء من ذلك فليقلد من أجاز.

٣- أن الخروج من الخلاف مستحب.

أما نظر الرجل للمرأة الأجنبية فالمعتمد من مذاهب الفقهاء أنه يجوز النظر إلى وجهها وكفيها - وزاد الإمام أبو حنيفة قدميها - من غير شهوة إذا أُمنت الفتنة، ويدل على ذلك أن سياق الأمر بغض البصر فى الآية ليس كالأمر بحفظ الفرج فى إطلاقه، وفى ذلك يقول الزمخشرى فى «الكشاف» عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾

«النور: ٣٠»

(دخلت «منْ» فى غض البصر دون حفظ الفرج دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وسوقهن وأقدامهن، وكذلك الجوارى المستعرضات للبيع، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها فى إحدى الروايتين، وأما أمر الفرج فمضيّق، وكفاك فرقًا: أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه) ا.هـ.

وما سوى الوجه والكفين والقدمين من المرأة الأجنبية فإنه لا يجوز النظر إليه إلا للضرورة والحاجة العلاجية ونحوها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المقصد التربوى للصلاة فى الجانب الجسدى للفرد المسلم



للأستاذ الدكتور: صلاح سلطان

الصلاة فى أصلها عبادة روحية، لكنها مدرسة أخلاقية، وعقلية، وبدنية فى نفس الوقت ويتضح ذلك مما يلى:

الصلاة رياضة بدنية

أولا: الصلاة رياضة بدنية يقوم المسلم لصلاة الفجر نشطًا يشم الهواء النقى ويسعى إلى المسجد بهمّة وعزيمة، يحدوه حديث النبى (ﷺ): «بَشّر المشائين فى الظلم إلى المساجد بنور تامّ يوم القيامة»[1]، ويصلى الصلوات الخمس ما استطاع فى المسجد، ويقوم ويجلس فى هيئة معتدلة، يركع ركوعًا مستقيمًا يشد رجليه ويديه وظهره، وفى سجوده وقيامه منه، يخشع فى قلبه لا فى جسمه ورقبته؛ ولذا رأى سيدنا عمر رجلا يتماوت فى الصلاة فقال له:

لا تُمت علينا ديننا أماتك الله.. ورأى آخر يطأطئ الرأس والرقبة مُظهراً الخشوع والذل فقال له: ارفعْ رأسك فإن الخشوع فى القلوب وليس الخشوع فى الرقاب.

وإذا بلغ حب العبد للعبادة مبلغًا عظيماً أحب طول الوقوف بين يدى الله تعالى وكره النوم بالليل، فيقوم من الليل كما قال الله تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

«السجدة: ١٦، ١٧»

وهذا الوقوف والبكاء والتضرع لله تعالى يعطى الجسم قوة وصلابة ويجلى من العين الأذى، ومن القلوب الصدى، فينطلق الجسد من أسر الكسل والخمول وفى ذلك يروى البخارى ومسلم أن النبى (ﷺ) قال: «يعقدُ الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على

(١) سنن ابن ماجة، كتاب المساجد، باب المشى إلى الصلاة رقم (٧٨٠).

مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[2].

والحديث يضع صورتين متقابلتين للمصلي وتارك الصلاة، فالأول نشيط طيب النفس والآخر كسلان خبيث النفس، ولذا يجب كل مسلم أن يكون على هذه الصورة الأولى التي يحبها الله ورسوله.

قمة الإعداد البدني الصحيح

ثانياً: الصلاة بأركانها وهيئاتها تمثل قمة الإعداد البدني الصحيح في كل الفلسفات المطروحة لإعداد الفرد حيث كانت اللياقة البدنية تعتد بالجانب الجسماني دون النفسي لذا يقول الشيخ أمين الخولي: يتأسس مفهوم اللياقة البدنية الآن على مفهوم أشمل وأعمّ هو مفهوم اللياقة الشاملة التي تعبر عن حالة من الكفاية البدنية والصحية عضوياً ونفسياً.

ويعرض الدكتور لأثر الصلاة في هذا الامتزاج الروحي والبدني بقوله: من خلال فريضة الصلاة يتربى الإنسان روحيا وبدنيا، فالحكمة يعلمها الخالق الحكيم كلف الإنسان بأداء الصلاة التي تجمع بين الخشوع الروحي والنشاط البدني في آنٍ واحد.

وذكر أن حركات الصلاة وأدواتها البدنية التي تتمثل في خمسة فروض يومياً، بمجموع عام سبع عشرة ركعة في اليوم، تشتمل كل ركعة على القيام والركوع والسجود والقيام منه، بالإضافة إلى لفت الوجه يميناً ويساراً للتسليم في ختام كل صلاة، كل هذه الحركات تعبر عن نشاط بدني لا ينبغي تجاهل قيمته وفوائده، ويقدر بعض خبراء الطب الطبيعي والتربية البدنية، أن هذه الحركات في مجملها من شأنها أن تعمل على الحفاظ على النغمة العضلية وتنشطها، والنغمة العضلية هي الانقباضات العضلية في حدها الأدنى للعضلات الهيكلية الكبرى التي تعمل في المحافظة على القوام المنتصب للإنسان بشكل متواز، وأي ضعف في أحد جوانب أو سطح الجسم يعرضه للانحراف والتشوه القوامي، الذي يُفضي إلى قصور في بعض الوظائف الحيوية للجسم.

فإذا أضفنا المشي في رواح الإنسان للمسجد لأداء الصلاة في مواقيتها فإننا بذلك نضمن حداً أدنى للياقة العضلية للإنسان تكفل قدراً مناسباً من الصفات والقدرات البدنية، كالمرونة والمطاطية العضلية والتوافق العضلي العصبي المتمثل في أداء أركان الصلاة بشكل جماعي موقوت ومتناغم ومنضبط[3].

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، رقم (١١٤٢).

(٣) «الرياضة والحضارة الإسلامية» ص(٦٣).

مراعاة الفروق البدنية

ثالثاً: أحكام الصلاة تراعي الفروق البدنية بين المسلمين، فلا تكلف المريض المتهالك أن يقف في الصلاة وإلا بطلت صلاته كالشاب المتماسك، ولكن من عجز عن القيام يصلي قاعداً أو راقداً أو يومئ برأسه ومن جهده السفر قصر صلاته وجمعها.

وإذا اشتد الحر فيُسنّ الإبراد بالصلاة، وإذا هبت العواصف تكاد تُهلك الحرث والنسل صلى الناس في مساكنهم لما رواه البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر قال: «إن رسول الله (ﷺ) أذن بالصلاة في الرحال في ليلة ذات مطر وبرد وريح»[4].

وإذا اشتد المطر صلوا في بيوتهم مخافة أن تنزلق الأرجل ويصاب المسلم بكدمات أو كسور أو آلام في الظهر أو الأرجل، ونهى النبي ﷺ عن قيام كل الليل وحذر عبدالله بن عمرو من هذا التشديد على نفسه بقوله: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل. قلت: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صُمْ وأفطرْ، وقُم ونَم، فإن لبدنك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزوارك عليك حقاً»[5].

هكذا يرد النبي ﷺ إلى الجسد اعتباره عندما يرى من يعطي للروح حقاً مطلقاً وإن طغى على حق الجسد، يتعبد بها العبد بين يدي ربه.

هذه الواقعة التي ترجم لها البخاري باب ما يكره من التشديد في العبادة هو ما انتهى إليه العلم الحديث في التربية الجسدية واللياقة البدنية ولذا يعقد الشيخ أمين الخولي في كتابه «الرياضة والحضارة الإسلامية» فصلا بعنوان: التوازن بين الراحة والنشاط، يرى فيه أن الراحة مفهوم مكمل للنشاط في سياق مفهوم اللياقة البدنية؛ لأن الإجهاد قد يؤدي إلى الإصابة البدنية والإرهاق والتوتر الزائد، وهنا يبرز مفهوم تقنين الراحة، وهو ما أصبح إحدى سمات التدريب الرياضي الحديث، وتتراوح درجات الراحة فمنها السلبي كالنوم والاسترخاء، ومنها ما هو إيجابي كالراحة النشطة بتشغيل مجموعة عضلات أخرى، ولكل جسم قدرات وطاقات لا ينبغي تخطي هذه القدرات واستدل بحديث عبدالله بن عمرو بن العاص[6]، هذا المفهوم الحديث للتربية البدنية تؤكده كل الأحكام الفقهية في العبادات كلها وفي الصلاة خاصة، حيث يؤمر الإنسان بالراحة السلبية وهي النوم وترك القيام وقتا حتى لرسول الله ﷺ باعتباره بشراً حيث أمره ربه بالقيام مع فرصة من النوم قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(المزمل: ١، ٢)

وقال سبحانه:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾

(الإسراء: ٧٩)

(٤) «صحيح البخاري»، كتاب الأذان باب الرخصة في المطر، والعلة أن يصلي في رحله رقم (٦٦٦).

(٥) «صحيح البخاري»، كتاب الصوم، باب صوم داود عليه السلام رقم (١٩٧٦).

(٦) «الرياضة والحضارة الإسلامية»، د. أمين الخولي (٧٠).

أى بعض الليل وليس كله؛ لأن حرف «من» هنا للتبعيض، وهناك الراحة الإيجابية بتغيير دور العضلات سواء فى حركات القاعد الذى لا يقدر على القيام أو بتغيير هيئة القاعد لمن يجسمه ألم يوجعه إذا جلس للتشهد وفق الهيئة المسنونة، أقول: إن سماحة الإسلام هنا تظهر البون الشاسع بينها وبين صلف الرهبان فى إجهاد الأبدان فى الصلوات يقول الأستاذ «ليكى» عن تاريخ أخلاق أوروبا: عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة [٧].

مراعاة مطالب الجسد وتلبيتها

رابعا: من الصور الرائعة التى تدل على مراعاة الإسلام لمطالب الجسد وتلبيتها ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «إذا حضر العشاء، وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء، وفى رواية لابن عمر أن النبى ﷺ نهى عن التعجل فى العشاء ليدرك الصلاة» [٨].

هذا يمثل التوافق الشرعى بين مطالب الجسد التى تلح على الإنسان فتفسد عليه خشوعه واستجماع قلبه، وتؤدى إلى شتات عقله، وهنا يعجل المسلم بالعشاء إذا حضر واشتد جوعه ويأكل كل مهله، ولا يترك العشاء للعشاء، أو يتعجل فى طعامه ليدرك الصلاة.

خامسا: يرى الأستاذ محمد كامل عبدالصمد أن أوقات الصلاة هى أنسب الأوقات التى يوصى بها علماء الرياضة، فصلاة الفجر قبل الشروق حيث الجو النقى المنعش، وفى الظهيرة يحل بالجسم التعب وهذا يحتاج إلى إعادة توازن القوى الحيوية فيه، وفى المغرب يستعد المسلم لنشاط جديد فى المساء، وفى العشاء يتطلب الجسم شيئاً من الحيوية للتعويض عما فقده من حيوية [٩]، وذكر أن هناك علماء قاموا بأبحاث علمية أثبتت أن للصلاة فوائد كثيرة للجسم منها:

أ- تنشيط الدورة الدموية التى تنشط الجسم كله.

ب- الحفاظ على عظام السلسلة الفقرية فى الوقوف المعتدل وقد رأى طبيب عظام فرنسى مشهور حركات الصلاة فى مصر، وقرر حركات الصلاة على مرضاه فأتت النتائج كلها إيجابية.

جـ- الركوع فالسجود والقيام يقوى عضلات الظهر والمعدة ويزيل الدهون المتراكمة على جدار المعدة، ويقى من مرض تمدد المعدة.

د- السجود يقوى عضلات الفخذين والساقين، ويساعد على وصول الدم إلى أطراف الجسم وينبه حركات الأمعاء ويحرك الحجاب الحاجز.

(٧) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أبو الحسن الندوى ص (١٦٨)، «العبادة فى الإسلام» د. القرضاوى (١٨٣).
(٨) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب كراهية الصلاة بحضرة الطعام.
(٩) راجع نفس المعنى لدى على عزت بيجوفيتش فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» ص (٢٩٤).

هـ- الصلاة قبل الأكل تقى من أمراض المعدة؛ لأن راحة الأعصاب تخفض ضغط الدم.

و- الصلاة تقى من مرض الاضطراب العصبى، وينقل عن الدكتور «توماس هاويسلب» أن أهم مقومات النوم التى عرفتها من خلال ستين طويلة من الخبرة والتجريب هو الصلاة، وهى أهم وسيلة لبث الطمأنينة فى النفوس وهدوء الأعصاب.

ز- علاج الأمراض المستعصية، وينقل عن الدكتور أدون فردريك أستاذ الأمراض العصبية بالولايات المتحدة الأمريكية: هناك ألوف الحالات التى لم يجد فيها أشهر الأطباء وأكثرهم فطنة أدنى أمل، ومع ذلك تم شفاؤها واستعادتها لصحتها من خلال معجزة تسمى الصلاة.

ويؤكد ذلك بما نقله عن الدكتور القسيس «كالليل» الحائز على جائزة نوبل فى الطب قوله: إن الصلاة تحدث بعض النشاط فى أجهزة الجسم وأعضائه، بل هى أعظم مولد للنشاط عرف إلى يومنا هذا، وقد رأيت -بوصفى طبيبا- كثيراً من المرضى أخفقت العقاقير فى علاجهم فلما رفع الطب يديه عجزا وتسليما، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم.. إن الصلاة كمعدن اليورانيوم مصدر للإشعاع ومولد ذاتى للنشاط، فقد شاهدنا تأثير الصلاة فى الحالات الباثولوجية إذ برئ كثير من المرضى من أمراض مختلفة متعددة كالدرن البريتونى، والتهاب العظام والجراح المتقيحة والسرطان وغيره [١٠].


على عزت بيجوفيتش

ولذا أجدنى أتفق تماما مع ما ذكره رئيس البوسنة والهرسك على عزت بيجوفيتش: الصلاة ليست قاصرة على الجانب العقلى فيها أو على الجانب الروحى المجرد، وإنما يضيف إليها النظام والصحة معا، فهى ليست تأملا صوفيا فحسب، بل نشاطا علميا أيضا، يوجد بالتأكيد شىء من روح العسكرية فى الوضوء فجرا بالماء البارد، وفى صفوف الصلاة المتلاحمة، ولم يغب هذا المعنى عن ذهن واحد من دوريات استطلاع جيش الفرس قبل معركة القادسية، عندما رأى الجنود متراصين فى صفوف صلاة الفجر، فقال لقائده انظر إلى جيش المسلمين، إنهم يؤدون تدريباتهم العسكرية اليومية، والحركات الخارجية للصلاة بسيطة إلى حد ما لكنها تشمل جميع أعضاء الجسم تقريبا.. إن خمس صلوات فى اليوم مع الوضوء أو الغسل أولها يجب أداؤها قبل بزوغ الشمس والأخيرة فى المساء وسيلة فعالة ضد الخمول والاسترخاء [١١].

(١٠) «الإعجاز العلمى فى الإسلام» محمد كامل عبدالصمد ص (٢٢ - ٢٥)، وراجع أيضاً: «العبادة فى الإسلام» القرضاوى ص (٢٢٩).
(١١) «الإسلام بين الشرق والغرب» ص (٢٩٣ - ٢٩٤).

من مقاصد حرية الاعتقاد فى التشريع الإسلامى

١

أ.د. وصفى عاشور أبوزيد

من أسماء الله تعالى "الحكيم"؛ ومقتضى هذا الاسم أن الله تعالى لا يخلق شيئا باطلاً ولا يشرع شيئا عبثا، إنما شرع كل شيء لحكمة وأمر بكل أمر لغاية، ونهى عن كل نهى لمقصد، وخلق كل شيء فقدره تقديرا، وحرية الاعتقاد التى حرص عليها الشرع لا تخرج عن هذا الإطار.

وإذا كانت الحرية منحة إلهية أوجدها الله مع خلق الإنسان، وجعل قيمتها تعدل قيمة الحياة حين قال تعالى:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾

(النساء: ٩٢)

فيقرر القرآن أن تحرير رقبة من العبودية هو بمثابة إحيائها من موات؛ لأنها توازى نفسا مؤمنة حرة ماتت بطريق الخطأ، فكأن القرآن يريد أن يقول: إن العبودية موت والحرية حياة، كما يقرر ذلك - بحق - الطاهر بن عاشور فى تفسير هذه الآية فيقول: "وقد جعل هذا التحرير بدلاً من تعطيل حق الله فى ذات القتيل، فإن القتيل عبد من عباد الله ويرجى من نسله من يقوم بعبادة الله وطاعة دينه، فلم يخل القاتل من أن يكون فوت بقتله هذا الوصف، وقد نبهت الشريعة بهذا على أن الحرية حياة، وأن العبودية موت؛ فمن تسبب فى موت نفس حية كان عليه السعى فى إحياء نفس كالميتة وهى المستعبدة"[1].

أقول إذا كانت هذه هى قيمة الحرية بإطلاق فإن حرية الاعتقاد فى الإسلام مكانة كبيرة، بل إن الإسلام لا يقف عند مجرد إقرار هذه الحرية فحسب، قال تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٢)

وإذا كان الأمر كذلك وجب علينا بيان

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٥/١٥٩، وانظر: ٦/١٦١-١٦٢، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

مقاصد هذه الحرية التى تكفل للإنسان أن يختار ما يشاء من معتقد، ويقيم على ما يشاء من اعتقاد فى ظل الإسلام الذى يكفل له هذه الحرية، ومن هنا فإن حرية الاعتقاد مقاصد، كما للعقيدة مقاصد، كما للشريعة كذلك مقاصد[2]، ونذكر أهم مقاصد من مقاصد حرية الاعتقاد فى التشريع الإسلامى فيما يلى:

أولا: تحقيق إنسانية الإنسان والتأكيد على كرامته

ليس هناك مخلوق نال من التكريم الإلهى مثلما نال الإنسان، فقد خلقه الله - تعالى - بيده، وسواه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وشرفه وكلفه، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٠)

فكل ما ناقض مبدأ تكريم الإنسان، وأهدر كرامته، أو أضعف فيه إنسانيته كان للإسلام منه موقف صارم، فحرم إهانته، وخدش مشاعره، وإهدار كرامته، فضلا عن تعذيبه، وهضم حقوقه، وقتله بغير حق.

حتى وصل هذا التكريم وتلك الإنسانية إلى قضية الدين والاعتقاد فيه، فنفى أن يكون فى الدين إكراه، بل يعتنق الإنسان ما يعتقده عبر التفكير والتأمل بإرادة كاملة وعقل واع ودون أدنى إكراه من الداخل أو الخارج، قال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ولصاحب الظلال كلام فى هذه الآية لا يمكن أن نتجاوزه فى سياق تكريم الإنسان وتحقيق إنسانيته، يقول وما أحسن ما قال: "وفى هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنسانى، التحرر الذى تنكره على الإنسان فى القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة؛ لا تسمح لهذا الكائن الذى كرمه الله - باختياره لعقيدته - أن ينطوى ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها؛ فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا - وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون - وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب!

إن حرية الاعتقاد هى أول حقوق (الإنسان) التى يثبت له بها وصف (إنسان). فالذى يسلب إنسانا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء، ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة، وإلا فهى حرية

(٢) انظر كتابنا: الحرية الدينية ومقاصدها فى الإسلام: ٤٩، وما بعدها، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة.

"والإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء - هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين.. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!".

ثم يشير الأستاذ سيد قطب إلى معنى لغوي نحوي وهو أن "لا" هنا نافية وليست ناهية، يقول: "والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.. نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداء. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهي عن مزاولته. والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعا وآكد دلالة"[٣].

وبناء على إدراك نوعية "لا" هنا، وأنها نافية للجنس، فإن الإكراه على العقيدة والإيمان شيء مستبعد "من عالم الوجود والواقع" يعني نظريا وتطبيقيا، فكرا وممارسة؛ فلا يمكن أن يكون للإكراه على دين أو عقيدة وجود في التصور الإسلامي أصلا، كما في الواقع العملي سواء بسواء؛ لأنه إذا مورس في الواقع العملي فلا ينبت إلا إنسانا واهن العقيدة، ضعيف الإيمان، لا يعرف حقيقة دينه، ولا يؤمن به حق الإيمان، فضلا عن أن يدعو إليه، ثم يكون الانزلاق والتحول والردة عن هذا الدين عند أول اختبار يمر به، أو شبهة تعرض له:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(التوبة: ١٠٩)

ويجعل قطب حرية العقيدة والاختيار والتفكير لدى الإنسان أهم من الطعام والشراب حين يقول: "إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس.. بل هي أعلى منها في الاعتبار؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان. أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته! والتي بإهدارها تهدر آدميته!

ومن ثم لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل الإنتاج وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية كما يقررها الله للإنسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية"[٤].

بل إن صاحب الظلال يذهب أبعد من ذلك حين يقرر أن حرية العقيدة هي أكرم ما يملكه إنسان، وإن سلبت منه فذهاب حياته أهون، يقول: "وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد. فالذي يسلبه هذه الحرية، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة، يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته"[٥].

وهذا حق؛ فحياة إنسان في ظل الإكراه على اعتناق عقيدة معينة يحيل حياته إلى صراع نفسي وتمتلئ نفسه بما يكون معه الموت أكرم وأهون، ومن هنا ندرك أن حرية العقيدة تهدف إلى تحقيق إنسانية الإنسان، وتقصد إلى حفظ كرامته، حتى في أمر العقيدة والإيمان، ومن باب أولى فإن الشريعة ترعى ذلك وتحفظه وتشرع له الشرائع والأحكام في ميادين العبادة والمعاملة وغير ذلك من مجالات.

ثانيا: تأكيد معنى الضمير الفردي والمسئولية الفردية

"وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني"؛ أن تحترم إرادته وفكره ومشاعره؛ وتترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.

ومبدأ المسئولية الفردية - الذي يبعث من ثم على الإيجابية والمشاركة والعمل - قرره القرآن الكريم في كثير من الآيات، من ذلك:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

(الأنعام: ٩٤)

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾

(مريم: ٩٣-٩٥)

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(النساء: ١١١)

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾

(المدثر: ٣٨)

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

(الزلزلة: ٧-٨)

ولقد وضح الله للإنسان طريق الحق، وبين له طرق الباطل، ووهبه العقل، وأرسل له الرسل وأنزل له الكتب؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك، ومنحه قدرة التفكير، وأعطاه حرية الاختيار، يختار عقيدته بعد تفكير كامل عبر كتابين: الكتاب المسطور (القرآن)، والكتاب المنظور (الكون) دون أدنى قيد أو إكراه من الداخل أو الخارج.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: "الاختيار يقتضي الحرية، فلا اختيار حيث لا حرية، والاختيار يجر بالضرورة إلى المسئولية؛ لأنه ضروري لإمكان الفعل"[٦].

ومن هنا فهو مسئول مسئولية كاملة عن هذا الاختيار الذي اختاره بحريته الكاملة

---

(٣) في ظلال القرآن: ١/٢٩١، دار الشروق، ط العاشرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/٢١٤٤.

(٥) في ظلال القرآن: ١/١٨٩.

(٦) دراسات في الفلسفة الوجودية: ٧٧، القاهرة، ط ثانية: ١٩٦٦م.

بعد تفكير ونظر، وبعد أن بين الله له الطريقين والسبيلين، وذكر له عاقبة كل طريق أو سبيل، ومن هنا فحرية اختيار العقيدة تؤسس فى الإنسان معنى الضمير الفردى والمسئولية الفردية.

وهذا الضمير الفردى والمسئولية الفردية نوع من تكريم الإنسان أيضا وتحقيق إنسانيته، فلم يجعله هملا يساق ويقاد بعد أن خلق له العقل وأنزل له ما يهديه من رسل وكتب، ولم يجعل لأحد عليه من سبيل بعد أن قال الله لنبيه:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾

(البقرة: ٢٧٢)

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾

(الشورى: ٤٨)

فهى حرية كاملة للإنسان تهدف إلى إشعاره بالمسئولية وتحقق فى الوقت ذاته إنسانيته وكرامته.

ثالثا: الإعلاء من شأن العقل

"الإيمان مبنى على الحرية؛ ولذلك فالمكره لا إيمان له" يمكننا أن نقول على هذه العبارة إنها قاعدة؛ فالله تعالى أنزل للإنسان النص عبر رسل تبين وتوضح له، ثم أعطاه العقل ليقرأ به النص، ثم جعله حرا بعد ذلك فى اختيار ما يشاء.

والنص الذى يقرؤه الإنسان موثوق به، ليس لأنه عن طريق الوحى، وإنما اهتدى إلى ذلك عبر التأمل العقلى والفكر العقلى والقرائن المادية والروحية التى من خلالها وصل إلى أن هذا النص الوحى به هو موضع ثقة العقل، ثم هو بعد ذلك يختار ما يختار بناء على المصلحة المجردة التى بينها الله فى نهاية الطريقين، فالاختيار مبنى على وعى حر.

ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن أكبر قضيتين فى الإسلام استدل عليهما بالعقل عبر المعجزات والقرائن والكون الفسيح، وهما قضية الألوهية، وقضية النبوة.

وإذا قال الله تعالى:

﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فهل يختار الراشد غير الرشد؟ فالعاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه، ولا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة كما قال أهل السلوك.

وفى رواية معبرة فى هذا المقام يسوقها القرافى فى فروقه أن شيخا قام إلى علىّ - رضى الله عنه - بعد انصرافه من صفين فقال: أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله تعالى وقدره؟

فقال: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا ولا علونا تلة إلا بقضاء وقدر.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائى ما أرى لى من الأجر شيئا.

فقال له: مه أيها الشيخ! عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين.

فقال الشيخ: كيف والقضاء والقدر ساقانا؟

فقال: ويحك! لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهى، ولم تأت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها.

ثم قال الإمام على: إن الله أمر تخييرا، ونهى تحذيرا، وكلف يسيرا، لم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار(٧).

فلولا حرية الاختيار عن طريق العقل لما كان هناك معنى للثواب والعقاب، والأمر والنهى والوعد والوعيد، ولا يقول بغير ذلك إلا "أهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها" كما قال على رضى الله عنه.

ومن هنا رأى المعتزلة أن أول واجب على الإنسان هو النظر والتفكر، أما أهل السنة فيرون أن أول واجب هو معرفة الله تعالى.

حتى بعد أن يدخل الإنسان فى الإسلام عن قناعة واقتناع وبعد تفكير وروية، لا يتصور أبدا أن يخرج من هذا الدين أو يرتد عنه؛ لأنه لا يتصور عقلا، فالعاقل كما ذكرنا لا يرضى لنفسه ثوابا إلا الجنة؛ ولأنه بخروجه من الإسلام قد خسر خسرانا مبينا إذا ما أخضعنا هذا الخروج للتفكير العقلى المصلحى المجرد بعيدا عن الوحى والنصوص الشرعية.

وهذا كله يعزز الإعلاء من شأن العقل، والتنويه به، ويلتقى مع مئات الآيات التى ذكرت التفكر والتذكر والتدبر والنظر فى القرآن الكريم، ويلتقى أيضا مع ما ذكره المقاصديون من حفظ العقل وجعله ضمن كليات الضروريات فى منظومة مقاصد الشريعة، فلا شك أن حرية اختيار العقيدة تترك للعقل مجاله وتعلى من شأنه وتنوه به ومن قدره، وهو أمر مقرر فى شريعة الإسلام.

وليس معنى الإعلاء من شأن العقل أن يقدم على النص، أو أن كل ما خالف العقل من نصوص - ولو بادى الرأى - نطرحه جانبا، ثم نقدم العقل حتى لو كان قاصرا عن إدراك الحكمة من بعض النصوص، وفى الوقت نفسه لا نغيب العقل إزاء النص؛ لأن العقل هو رائدنا فى فهم النص والتفاعل معه؛ وإنما الوسط فى هذه القضية أن نفهم الشرع بالعقل، وأن نحكم العقل بالشرع.

«يتبع»

(٧) الفروق مع هوامشه للقرافى: ٤/ ٣٩١، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

التصوير.. إشكالات ومقترحات (٢-٢)

للشيخ / خالد بن مبارك الوهيبى

التصوير.. رؤية قرآنية

القرآن هو الأصل والمرجع فى تأصيل الأحكام، والسنة والحديث تابعان له تبعية الفرع للأصل قال تعالى:

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنعام: ٣٨)

فلم يفرط الله تعالى فى الكتاب من شيء، فلا توجد فى السنة أو الحديث مواضع لا تدور فى فلك الكتاب العزيز أو هى مبتوتة الصلة به، فـ (مناهى النبى ﷺ مقتبسة من مناهى الله عز وجل) العدل والإنصاف، ج١، ص ٩٧، والكتاب العزيز:

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤٢)

روى الربيع (١٠٣): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغنى عن عثمان بن عفان أنه جلس على المقاعد، فجاء المؤذن فأذن لصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدثكم حديثا لولا أنه فى كتاب الله ما حدثتكموه ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه لصلاته ثم يصليها إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها».

قال الربيع: يريد بقوله: "لولا أنه فى كتاب الله" قول الله عز وجل:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(هود: ١١٤)

يستفاد من هذا الحديث:

- أن السنة من الكتاب.
- أن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ كانوا لا يحدثون إلا بما وافق القرآن.
- رواية الحديث فى مسند الربيع تدل على أن الإباضية منذ مرحلة التأسيس كانوا مدركين لأبعاد قضية الانفلات الروائى عن القرآن الكريم، وهذا ما أكد عليه تلميذ الربيع وائل بن أيوب عندما قال: (لا نقل عن النبى ﷺ إلا ما وافق كتاب الله، وأن سنة النبى ﷺ موافقة لكتاب الله لا يخالفه ﷺ) ابن جعفر "الجامع"، ج١، ص ١١١.

وقضية كقضية التصوير كان علينا أن نفهمها ابتداء من خلال دلالات الكتاب العزيز ثم تعامل بقية المفردات على ضوئها، لكن ما أصاب المسلمين من بعد عن استلهام مضامين القرآن وفشو الرواية وضغطها غيّب ذلك كله وحرمنا من الانتفاع به فى كثير من القضايا.

وفى موضوع التصوير الذى نحن بصدده، ورد فى كتاب الله أنه تعالى:

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾

(الحشر: ٢٤)

وأنه:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

(آل عمران: ٦)

فالله تعالى هو الذى صور المخلوقات على ما هى عليه.

والتصاوير لم يرد ذمها لذاتها فى القرآن الكريم ولم تعتبر مضاهاة لخلق الله، إنما ذمت لأجل ما يصنعه الناس بها من الانحراف عن عبادته وإفراده تعالى بالوحدانية، والتصاوير المذكورة فى القرآن الكريم هى:

- الأصنام.
- التماثيل.
- الأوثان.

وقد ذكرنا سابقا أن القرآن عبر بالتمثال فى بعض الأحيان عما كان مباحا، قال الله تعالى عن سليمان ـ عليه السلام ـ:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾

(سبأ: ١٣)

وفى أحيان أخرى بما كان مكتسبا للطبيعة الوثنية، قال الله ـ تعالى ـ على لسان ـ إبراهيم عليه السلام ـ فى معرض مخاطبته لقومه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ٥٢)

أما الأصنام والأوثان فى التعبير القرآنى من أوله إلى آخره كانت تعبر عن مضامين عقدية وثنية مخالفة لعقيدة التوحيد.

قال تعالى:

﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾

(الأعراف: ١٣٨)

قال تعالى:

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

(إبراهيم: ٣٥)

قال تعالى:

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾

(الحج: ٣٠)

فيما عدا ذلك لا يوجد فى كتاب الله ـ تعالى ـ أى اعتبار لذم التصاوير فى ذاتها أو اعتبارها من المضاهاة لخلق الله

تبارك وتعالى، بل في القرآن الكريم اعتبار التماثيل (أى التصاوير) من النعم التى تستوجب الشكر والحمد للمولى تبارك وتعالى، قال الله تعالى:

﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾

(سبأ: ١٣)

– فى الآية نماذج وأمثلة مما سخره الله -تعالى- واستغلال الإنسان له: محاريب وتماثيل وجفان وقدور.

– واعتبار هذه الأشياء من جملة النعم التى تستوجب الشكر عليها.

– والتماثيل: (جمع تمثال وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان)، وقد أشكلت هذه الآية على كثير من المفسرين بسبب ما فهموه من الروايات والأحاديث التى جاء فيها تحريم التصوير، لذا ذهبوا مذاهب شتى فى تفسير (وتماثيل) الواردة فى الآية ذكرها القرطبى فى تفسيره:

١- قيل كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا قال ﷺ: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور»، أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا فى ذلك الزمان ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ.

٢- وقيل التماثيل طلسمات كان يعملها ويحرم على كل مصور أن يتجاوزها فلا يتجاوزها فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح فى مكان ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما.

٣- وقيل إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يحيك فيهم السلاح ويقال إن اسفنديار كان منهم، وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما.

٤- وقيل: التمثال على قسمين حيوان وموات، والموات على قسمين جماد ونام وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه، لعموم قوله (وتماثيل) وفى الإسرائيليات أن التماثيل من الطير كانت على كرسى سليمان.

وهذه الوجوه فى تفسير الآية لا تصلح أن يعول عليها:

● أولاً: أن تفسير التماثيل فى الآية: بأنها صور الأنبياء والعلماء وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً يرده مما جاء فى الرواية عن النبى ﷺ عند البخارى (٤١٧) ومسلم (٥٢٨) عن السيدة عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى ﷺ فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» ورواه الربيع (٩٨٠) عن جابر بن زيد عنه عليه السلام قال: «لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وهذا المعنى معنى صحيح تماما، إذ أنه الباب الذى ولجت منه الوثنية إلى الناس.

● ثانيا: وأما ما ورد من الإسرائيليات - كما هى عبارة القرطبى- من أن التماثيل عبارة عن مجسمات لحيوانات كالأسود والنسور وغيرها توضع على كرسى سليمان -عليه السلام- فغير سليم أيضا لعدة أسباب:

– أن نقلتها هم بنو إسرائيل وهؤلاء قوم ابتلوا بنسبة الكفر والموبقات فى حق الأنبياء عليهم السلام.

– ثم كيف يمكن أن يكون حال سليمان -عليه السلام- كحال الأقوام الوثنيين من حوله كالمؤابيين والعمونيين وغيرهم فى بناء وتشييد التماثيل المجسمة لغرض الترف والتفاخر وإظهار أبهة الملك؟ وهل يعقل أن نبى الله سليمان -عليه السلام- وهو يعيش وسط هذا الحزام الوثنى أن يتخذ من عرشه مكانا لاستعراض تماثيل الأسود والنسور؛ بحيث لا يفترق فى نمطه وسلوكه الاجتماعى عن هؤلاء الوثنيين؟، بل إن بنى إسرائيل أنفسهم كانت لهم سوابق مع التماثيل المجسمة التى سرعان ما عبدوها عندما احتكوا بالأقوام الوثنيين كما حكى القرآن الكريم لنا فى قصة عبادتهم للعجل.

● ثالثا: أما ما قيل من أن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يحيك فيهم السلاح ويقال إن اسفنديار كان منهم؛ وكذا ما روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما؛ فعبارة عن تصويرات أسطورية لا دليل عليها من وحى الله تعالى، وهى بلا ريب - باعتراف القرطبى - من بقايا الإسرائيليات التى تسربت للمسلمين وما أكثرها!

وقد ذكر الطاهر بن عاشور فى "التحرير والتنوير" أنه (لم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال فى الشرائع السابقة، وقد حرمها الإسلام؛ لأن الإسلام أمعن فى قطع دابر الإشراك من نفوس العرب وغيرهم، وكان معظم الأصنام تماثيل فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة فى ذاتها، ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك).

وهذا التفسير هو التفسير الشائع لهذه الآية، لكن هناك عدة تساؤلات نطرحها فى مقابل هذا الرأى: ما هو الدليل على أن التماثيل المجسمة لم تكن محرمة الاستعمال على الإطلاق فى

الشرائع السابقة ولو كانت ذريعة للشرك والوثنية؟.

- وهل أصول الشرائع السماوية واحدة منبثقة من أصل الديانة أم أنها مختلفة؟

● إن المتدبر للكتاب العزيز يعلم أن الرسل - عليهم السلام - جاءوا بعقيدة التوحيد الصافية النقية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

وكلهم عليهم الصلاة السلام دعوا إلى عبادة الله وحده:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(الأعراف: ٥٩)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(الأعراف: ٨٥)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

(هود: ٥٠)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

(هود: ٦١)

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(العنكبوت: ١٦)

من كل هذا نعلم أن ما يمكن أن يعكر صفاء التوحيد ويكون سلمًا للوصول إلى الوثنية والشرك هو من المحرمات في كل الشرائع المنبثقة من أصل الإسلام الذي جاء به الأنبياء والرسل من عند الله تبارك وتعالى:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٣)

فعلى هذا ما يمكن أن يكون معكرًا لصفو عقيدة التوحيد فأصول الشرائع جميعًا ترفضه؛ لأنها منبثقة من أصل واحد وهو الإسلام، فعندما يقول شعيب عليه السلام:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(الأعراف: ٨٥)

فهو يتحدث عن قيم مطلقة لا تخضع لخصوصية الزمان والمكان وهي تشريع

منبثق من أصل الإسلام، وكذا عندما يقول الحق تبارك وتعالى في وصف النبي - عليه السلام - في التوراة والإنجيل:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

فحلية الطيبات وتحريم الخبائث هي من القواسم المشتركة بين الشرائع السماوية، ولا يمكن أن نقول: إنه مما انفردت به شريعة دون الأخرى.

وبناء على هذا؛ فلا يمكننا القول دون أي دليل معتبر بأن التماثيل كانت مباحة في شريعة النبي سليمان - عليه السلام - ولو كانت ذريعة للشرك، وأن الشريعة الإسلامية جاءت بتحريمها لكونها كانت ذريعة للإشراك، فما كان معبرًا عن هذه الطبيعة المعكرة لصفاء العقيدة من باب أولى أن تشترك الشرائع جميعًا في تحريمه؛ لا سيما وأن الشرك في كثير من تلك الأزمنة كان الأقوى تأثيرًا والأكثر انتشارًا.

إذن الوجه اللائق في تفسير الآية:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

(سبأ: ١٣)

بأن ننظر في القاسم المشترك بين الأمور التي قرنت بالتماثيل في الآية والتي عدت من النعم التي تستوجب الشكر والحمد.

فالمحاريب جمع محراب وهو (البناء المرتفع الممتنع، ومنه يسمى المحراب في المسجد؛ لأنه أرفعه).

والجفان هي: (أكبر الصحاف).

والجواب جمع جابية وهي (الحوض العظيم المصنوع).

والقدور هي (قدور ثابتات لا تحركن عن أماكنهن ولا تحولن لعظمهن).

والتماثيل: (جمع تمثال، وهو اسم للشيء المصنوع مشبهًا بصور الحيوانات).

والقاسم المشترك بينها هو كونها مما ينفع الناس في حياتهم ويستعينون بها في دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لديهم، وهذا الأمر ليس خاصًا بسليمان - عليه السلام -، فهو مما تشترك فيه كل الشرائع الأخرى، وهو من القواسم المشتركة بين المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان، ولذلك نقل القرطبي عن فقهاء لم يسمهم قالوا: إن (عمل الصور جائز لهذه الآية) تفسير القرطبي ج١٤، ص٢٧٢.

إذن نستخلص من هذه الآية أن

التصاوير من جملة المباحات التى تستوجب الشكر من العباد ومن مستلزمات هذا الشكر استعمالها فيما يخدم الإنسان ويرضى المنعم تبارك وتعالى.

لكن كيف يستقيم هذا التأويل وما جاء فى الأحاديث عنه ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون بها فى النار، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم»؟! وقد قال كثير من الفقهاء بأن هذا الوعيد؛ لأجل أن فى التصوير (مضاهاة خلق الله)، وقال شراح الأحاديث: (إنما نسب خلقها إليهم تقريعاً لهم بمضاهاتهم ـ الله تعالى ـ فى خلقه؛ فبكتهم بأن قال إذا شابهتهم بما صورتم مخلوقات ـ الله تعالى ـ فأحيوها كما أحيا هو من خلق)، والمضاهاة هى المشابهة.

نتساءل: هل فى ذات التصوير مضاهاة لخلق الله؟!

هل نقل الصورة من الواقع إلى الورق أو على الأفلام أو البطاقات يعد مضاهاة لخلق الله، ويستحق الوعيد بالنار والعياذ بالله؟!

دعونا نقرأ آيات من القرآن حول هذه القضية لنختبر ما جاء فى الرواية على ضوئها.

قال تعالى:

﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾

(فاطر: ٤٠)

فى معرض الخطاب للمشركين يتحداهم الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يظهروا ماذا خلق شركاؤهم أو أى دليل يدل على ذلك، وما ذلك إلا لأن الخالق لكل الموجودات وأسبابها هو الله تعالى، فما يملك غيره من شىء يخلقه، إنما تستثمر المخلوقات كل ما هو موجود من خلق الله تعالى، فمهما فعل الإنسان فلا يصل إلى ذرة من عظمة صنع الله تعالى، فالمضاهاة هذه بعيدة كل البعد عن التصور.

وقال تعالى:

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾

(الرعد: ١٦)

(أى أجعل هؤلاء المشركين مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؛ أى ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٠٨، فالله ـ تعالى ـ ينفى أن تكون هناك قدرة لأحد أن يخلق

كخلقه، فهو (استفهام إنكار، والمعنى ليس الأمر على هذا؛ بل إذا فكروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق وغيره لا يخلق شيئاً)، فليست هناك قدرة للمخلوقين على مضاهاة خلق الله على الإطلاق؛ لأنهم غير قادرين على إيجاد الأشياء من العدم، فهم يستثمرون ما يوجد فى الكون من طاقات وخامات فحسب.

وقال تعالى:

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾

(الحج: ٧٣)

أى أن (جميع ما تعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو جمعت لم يخلقوا ذباباً فى صغره وقلته؛ لأنها لا تقدر على ذلك ولا تطيقه ولو اجتمع لخلقه جميعها) تفسير الطبرى، ج ١٧، ص ٢٠٣.

وما يعبد الناس من دون الله يشمل الآلهة المزعومة من البشر والحجر والأجرام السماوية وغيرها، فكل هذه عاجزة عن خلق ذبابة صغيرة، بل إن سلبها الذباب شيئاً صعب عليها استنقاذه منه، فكيف للإنسان (وهو أحد من الذين يمكن أن يؤلهوا) أن يضاهى (يشابه) بالتصوير خلق الله؟!

وإذا وعينا كل ذلك علمنا أن المذموم فى التصوير هو البعد عن التوحيد والجنوح إلى الشرك بمختلف صوره وأشكاله، يقول ناصر بن أبى نبهان (ت: ١٢٦٢هـ): (قد مر بيان منا فى الصور، وأنه المراد الحيوانية لا النباتية ولغير معنى، ولكن لا يبلغ به هلاك إذا لم يكن ليعبد من دون الله، كالذى يصور خيلاً للأطفال من المسلمين، وإنما توجه الوعيد لمن يصور للمشركين أصناماً على صور الحيوان والشجر أو غير ذلك ليعبدوها) قاموس الشريعة، ج١١، ص٧٣.

وعندما نقول: إن المذموم فى التصوير هو البعد عن معانى التوحيد لا نحصر ذلك فى أصنام ثابتة، بل الأمر يتعداها إلى أصنام متحركة ترى لنفسها ما لله تعالى من اختصاصات، قال تعالى:

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾

(التوبة: ٣١)

وكذلك لابد من التقيد بالضوابط الأخلاقية فى التصوير:

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاى ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾

(النحل: ٩٠)

نخلص من كل ذلك:

- الرؤية القرآنية للتصوير تنتظم فى إطار ذم التصوير البعيد عن معانى التوحيد والمتلبس بروح الوثنية بكافة أشكالها وصورها، وعليه تحمل الأحاديث التى وردت فى ذم التصوير، فمثلاً حديث أبى سعيد الخدرى عند الربيع وغيره أن عائشة - رضى الله عنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ وقف بالباب ولم يدخل، فلما رأت فى وجهه الكراهية قالت: يا رسول الله ﷺ أتوب إلى الله ورسوله مما أذنبت: فقال رسول الله ﷺ: «ما بال هذه النمرقة؟»

فقالت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتتوسدها فقال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون بها فى النار ويقال لهم أحيوا ما خلقتم».

ثم قال: «إن البيت الذى فيه تصاوير لا تدخله الملائكة - عليهم السلام -».

هذا الحديث يُحمل على كون تلك التصاوير فى النمرقة مما يحمل مضامين عقدية مخالفة للتوحيد بشكل أو بآخر، ومن هنا قال فيها النبى ﷺ ما قال.

- ورد فى القرآن الكريم أن التصاوير النافعة مما يستوجب الشكر لله تعالى.

- لا يمكن للناس أن يضاهوا (يشابهوا) خلق الله - تعالى - مهما فعلوا:

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(الرعد: ١٦)

لأنهم فى الأول والأخير لا يُوجدون أى شىء من العدم، فكل ما يستعملونه من خلق الله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(الرعد: ١٦)

- التصوير اليدوى والفوتوغرافى والمجسم جائز للأغراض النافعة للناس، بشرط الانسجام والتوافق مع أصول التوحيد والأخلاق وهذا ما يراه العلامة ابن أبي نبهان عندما قال (كالذى يصور خيلا للأطفال من المسلمين)، ولقد جاءت بعض الأحاديث التى تروى مجيزة للمجسم من التصاوير فى الأغراض النافعة كلعب الأطفال، روى النسائى فى السنن الكبرى (٩٤٧) وغيره عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كنت ألعب بالبنات فربما دخل علىَّ رسول الله ﷺ وصواحباتى عندى فإذا رأين رسول الله ﷺ فررن فيقول رسول الله ﷺ: (كما أنت وكما أنتن).

***

قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم



أ.د. دكتور عماد الدين خليل

ليوبولد فايس

(١) "... إن العمل بسنة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام. لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وأنك إذا أزلت هيكل بناء ما، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء، كأنه بيت من ورق؟"[١].

(٢) "... إن السنة هي المثال الذي أقامه لنا الرسول ﷺ من أعماله وأقواله. إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلغ الوحي"[٢].

(٣) "... إنه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدي الحديث على أنه نظام ما، فإن أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي. وأنه من الصعب أن يفعل أحد ذلك؛ لأن الجامعين لكتب الحديث الأولى، وخصوصاً الإمامين البخاري ومسلماً قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد كثيراً من ذلك الذي يلجأ إليه المؤرخون الأوروبيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم"[٣].

(٤) "... إن رفض الأحاديث الصحيحة، جملة واحدة أو أقساماً، ليس حتى اليوم، إلا قضية ذوق، قضية قصرت عن أن تجعل من نفسها بحثاً علمياً خالصاً من الأهواء.."[٤].

(٥) "... إن العمل بالسنة يجعل كل شيء في حياتنا اليومية مبنياً على الاقتداء بما فعله الرسول ﷺ وهكذا نكون دائماً، إذا فعلنا أو تركنا ذلك، مجبرين على أن نفكر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حد بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طوال الحياة.."[٥].

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٨٧. (٢) نفسه، ص٨٨. (٣) نفسه، ص٩٢.
(٤) نفسه، ص٩٧. (٥) نفسه، ص١٠٩.

كارلايل[6]

(١) "... هل رأيتم قط... أن رجلاً كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجبا.. إنه لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب! فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته.. كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيلوه حقا.. ومحنة أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل.."[7].

(٢) "... إن محمداً ﷺ لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد آنذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً ﷺ لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية.. أنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره.. أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها


كارلايل ‏ ‏ ليوبولد فايس

لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد ﷺ من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور - من كان بين محمد ﷺ وبينه أدنى صلة وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء.. بين الطبيعة وبين أفكاره"[8].

(٣) "لوحظ على محمد ﷺ منذ - صباه - أنه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب.. وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤوفا تقيا فاضلا حرا، رجلا شديد الجد مخلصا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.. وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد.. عظيما بفطرته، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غني عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء"[9].

(٤) "... ومما يبطل دعوى القائلين أن محمداً ﷺ لم يكن صادقا في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة - مع خديجة رضي الله عنها - لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة.. ولم يكن إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلاً وشأنا عظيما"[10].

(٥) "... لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ﷺ ابن القفار والفلوات العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟ فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة. إذ نرى محمداً ﷺ لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السر يناجيه: ها أنذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية. وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء.."[11].

(٦) "إني لأحب محمداً ﷺ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبرا ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها.. وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد.."[12].

كاهن[13]

(١) "اصطبغت شخصية محمد ﷺ بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أي مؤسس آخر من

(٦) توماس كارلايل (١٧٩٥ – ١٨٨١) Carlyle. Th الكاتب الإنجليزي المعروف. من آثاره: الأبطال (١٩٤٠)، وقد عقد فيه فصلاً رائعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، (الثورة الفرنسية).. إلخ.

(٧) الأبطال، ص ٤٣. ‏ (٨) نفسه، ص ٥.

(٩) نفسه، ص ٥٠ – ٥١. ‏ (١٠) نفسه، ص ٥١. ‏ (١١) نفسه، ص ٥١ – ٥٢.

(١٢) نفسه، ص ٦٤.

(١٣) كلود كاهن Cahen .Cl ولد عام ١٩٠٩، وتخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا، وعين محاضراً في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (١٩٣٨)، وأستاذاً لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة ستراسبورغ (١٩٤٥)، وفي جامعة باريس. من آثاره: عدد كبير من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة، وحقق العديد من النصوص التاريخية المهمة، كما أنجز عدداً من المؤلفات عن الحروب الصليبية.

مؤسسي الديانات الكبرى"[١٤].

(٢) "يبدو للمؤرخ المنصف أن محمداً ﷺ كان في عداد الشخصيات النبيلة السامية التي سعت في كثير من الحماس والإخلاص إلى النهوض بالبيئة التي عاش فيها أخلاقياً وفكرياً، كما استطاع في الوقت نفسه أن يكيف رسالته حسب طباع الناس وتقاليدهم بمزيد من الفهم والتنظيم بحيث كفل البقاء والخلود للرسالة التي بشر بها. وحتم علينا أن نلقى محمداً ﷺ بعواطف الإجلال والاحترام لما تحلى به من سمو الإلهام ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانية عامة والتغلب على مصاعبه الشخصية خاصة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئاً من الارتياك تبعاً لعقليتنا المعاصرة. فقد أكدت المهاترات على شهوات الرسول ﷺ الدنيوية وأشارت إلى زوجاته التسع اللائي اتخذهن بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها -.. لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسي، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف وبعض الأفخاذ. ثم إن العقلية العربية تقر الإنسان إذا استخدم طبيعته على نحو ما خلقها الله"[١٥].

(٣) ".. الحق أننا نتجاوز النقد العلمي الصحيح إذا نحن أنكرنا على كل حديث صحته أو قدمه. ولقد باشر العلماء بمثل هذا التمحيص منذ عهد بعيد فوجدوا أن التحريف أو التلفيق قد لا يعمّان على نسق واحد واستندوا في ذلك إلى بعض الأحاديث التي يمكن اعتبارها سابقة أو حجة يعتد بها. بمعنى أن الموقف النقدي مفروض على الباحث المنصف. وفقهاء المسلمين أنفسهم هم قدوة لنا في هذا المضمار لأنهم - على طريقتهم - قد التزموا بذلك الموقف منذ العصر الوسيط"[١٦].

هاملتون جب

(١) ".. اقتضى الأمر نشوء علم جديد غايته جمع الحديث ونقده وتصنيفه وتنسيقه والحصول في النهاية - بقدر الإمكان - على مجموعة متفق عليها يتقبلها الجميع. وقد استأثرت هذه المهمة بالكثير من طاقات الفقهاء والعلماء في القرن الثالث، ولكن القائمين عليها أحرزوا نجاحاً حتى أصبح حديث الرسول ﷺ يعتبر مرجعاً ثانياً معتمداً للفقه والعقيدة"[١٧].

(٢) ".. يكاد يكون من المؤكد أن الآراء التي تعبر عنها الأحاديث - التي تم جمعها في القرن الثالث - تمثل تعاليم القرآن ومبادئه الخلقية تمثيلاً صادقاً"[١٨].

(٣) "إن بدايات التاريخ العلمي بالعربية تقترن بدراسة سيرة الرسول ﷺ ودراسة أعماله. وعليه فإننا نجد مصدر هذه الدراسة في جمع الحديث النبوي وبخاصة الأحاديث المتعلقة بمغازي الرسول ﷺ. وكان موطن هذه الدراسة هو المدينة.. ويفسر لنا ارتباط المغازي بالحديث، هذا الارتباط الذي ترك طابعاً لا يمحى في المنهج التاريخي باستخدام هذا المنهج للإسناد، ما طرأ من تغير هائل ظهر منذ هذه اللحظة في طبيعة الأخبار التاريخية عند العرب، ودقتها المؤسسة على النقد. ويمكننا أن نشعر لأول مرة بأننا نستند إلى أساس تاريخي قويم حتى وإن اعترفنا بوجود بعض العناصر المشكوك فيها في أخبار الفترتين، المدنية والمكية، من حياة الرسول ﷺ"[١٩].

(٤) "ومهما نقل في قوة النزعة الإسلامية نحو محمد ﷺ وفي آثارها فإنها لا توصف بالغلو. فقد كان إجلال الرسول ﷺ شعوراً طبيعياً محتوماً في عصره وفيما بعده، غير أن ما نومئ إليه شيء يتجاوز الإجلال. فإن العلاقات الشخصية من الإعجاب والحب اللذين بعثهما في نفوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرآن، والفضل في ذلك يعود إلى الوسائل التي أقرتها الأمة لتستثير بهما مجددين في كل جيل"[٢٠].

(٥) ".. لولا الحديث لأصبح - محمد صلى الله عليه وسلم - في أقل تقدير صورة معممة - إن لم نقل بعيدة - في أصولها التاريخية والدينية. أما الحديث فقد صور وجوده الإنساني في مجموعة وفيرة من التفصيلات الحية المحسوسة، وبذلك قدم للمسلمين حين ربط بين المسلمين وبين نبيهم بنفسه الروابط الذاتية الوثيقة التي كانت تصله بأصحابه الأولين، وهي روابط نمت على مر القرون وكانت أقوى من أن تصاب بالضعف. ولم يصبح شخص محمد ﷺ أبداً ذا صبغة مرسومة مقررة، ويكاد لا يكون من الغلو أن نقول إن حرارة ذلك الشعور الشخصي نحو الرسول الحبيب ﷺ كانت أبداً أقوى عنصر حيوي في دين الجماهير الإسلامية أو كانت كذلك بين أهل السنة، على الأقل"[٢١].

".. ما تزال الاحتفالات العائلية تختم بأدعية وأناشيد في تمجيد الرسول ﷺ وكل الأمة تراعيها وتشهدها بحماسة في ذلك اليوم المجيد، يوم مولد النبي ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول. هنالك ترى المجددين والمقلدين والصوفية والسلفية والعلماء وأفراد الجمهور يلتقون جميعاً معاً على بقعة واحدة، وقد يكون بين نزعاتهم العقلية تنوع واسع متباين، ولكنهم جميعاً وحدة متآلفة في إخلاصهم وحبهم محمد ﷺ"[٢٢].

---

(١٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١/ ١٤.
(١٥) نفسه، ١/ ٦٨.
(١٦) نفسه، ١/ ٩٥.
(١٧) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٠.
(١٨) نفسه، ص ٢١.
(١٩) نفسه، ص ١٤٧.
(٢٠) نفسه، ص ٢٥٧.
(٢١) نفسه، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
(٢٢) نفسه، ص ٢٥٩.
(٢٣) البحث عن الله ص٣٩ - ٤٠.

قصة العدد



حديث النخلتين



للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى

قال لى صديقى: أتعرف الشاعر مطيع بن إياس، وإذا كنت تعرفه فما رأيك فيه؟

أطرقت قليلاً قبل أن أجيب، ثم قلت فى تؤدة: عفا الله عن أبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى فابتسم، وقال فتحت للقول باباً واسعاً، فأفض فيما تريد!

قلت: هذا الرجل جعل من وكده أن يجمع من أخبار الشعراء وأحداثهم كلَّ ما يستطيع العثور عليه، سواء كان جيداً أو رديئاً، أما الأخبار فمنها الشريف الذى يتخذ قدوة فى دنيا الأخلاق، ومنها الهابط الشنيع الذى يستحى المتحدث من ذكره، ولن يفيد القارئ فى شىء، بل قد يفتح له باباً يلج به إلى المفاسد الشائنة والنزوات المريضة! وهذا ما فعله مع مطيع بن إياس وعشرات من أمثاله، الذين تركوا من المثالب ما يقذى العينين، وما كان لهم أن يذكروا بين النابهين الفضلاء! لنزعة أبى الفرج فى تسطير المثالب وإذاعة الموبقات!

لو كان صاحب هذه النزوات شاعراً مفتناً ذا مقام رفيع فى الأدب، وكانت له مآثر شعرية ذات طابع فنى جاذب، لعذرنا أبا الفرج فى حديثه عن مثل أبى نواس؛ لأن مقاله الشعرى لا ينكر ولكن إذا كان هذا الهابط فى سلوكه، متوسطاً أو أقل من المتوسط فى شعره، فلماذا نشغل القراء به، أذكر أن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، كتب فى (المراجعات) فصلاً عن شاعر عباسى هو (ابن هرمة) وقد تعجب فيه لمن خصّه بالتاريخ، واختار شعره نموذجاً للقراء! وقال إن مثله فى تواضعه الشعرى لا يجوز أن يحتل من صحف الأدب ما يشغل القارئ! وابن هرمة أحسن من مطيع بن إياس فناً، وأجود قريحة، وليس فى سلوكه معابة خلقية تنحدر به إلى الوهد السافل،

وقد أنكر العقاد احتفاء أبى الفرج به، فماذا يقول إذن فى مطيع بن إياس؟ وأشباه مطيع، وهم يعدون بالعشرات فيما سجله أبوالفرج فى أجزاء الأغانى وقد قاربت خمسة وعشرين؟

على أن الله جعل لمطيع بن إياس سيرورة فى الذكر بحديثه عن نخلتى حلوان، إذا قال عنهما ما جعل اسمه يتردد، فيتناقل الناس شعره فى هاتين النخلتين فقط، دون الساقط من شعره الماجن الخليع!

وشعرت أنى استطردت فى الحديث بعض الشىء فسكت، فقال صاحبى! لقد فتحت على نفسك بابين لا باباً واحداً، فأنا أحب أن أسمع بعض الحديث عن مطيع نفسه أولاً، ثم عن قصة النخلتين ثانياً، فابدأ بما تعرفه عن الشاعر وثنّ بحديث النخلتين!

قلت: لم أعرف من حديث مطيع إلا ما ذكره أبوالفرج، وقد حكى أنه عاصر نهاية الدولة الأموية، وصدراً من العهد العباسى، وكان لله ذكر فى العصرين معاً!

أما فى العصر الأموى، فقد صاحب الخلعاء والمجان، ونظم فى الخمر ومجالس اللهو والغناء مقطوعات ترددت على أفواه عارفيه، لا لقوة الأسلوب، بل لانحدارها إلى التبذل، وقد انتهت بعض مقطوعاته إلى أمير المؤمنين الوليد بن يزيد، فأعجب بها، وسأل عن قائلها، فقيل إنه مطيع، فأرسل يدعوه، وحظى برضاه، وأغدق عليه مالاً وعقاراً، ولو استمر عهد الوليد لبلغ مطيع أقصى ما يأمل من الجاه والرخاء، ولكن الوليد قد قتل، وولت من بعده الدولة الأموية،



العقاد

وعُرف بين الناس أنه كان صنيعة الوليد، فهواه أموى لا محالة، وقد خاف على نفسه فآثر الاختفاء.

ثم سنحت فرصة لظهوره، سنحت له حين أخذ يُفكر فى استرضاء الخليفة أبى جعفر المنصور، وقد عرف أن أبا جعفر يريد البيعة لولده المهدى من بعده، دون ولده جعفر لضعف لاحظه عليه، وقد أمر بإحضار الناس فى الغد ليعلن ذلك، وحين التأم الجمع، وتقدم الشعراء فنظموا فى مديح المهدى ما تزلفوا به إلى المنصور، لم يشأ مطيع أن يكون شاعراً فماذا يبلغ من مديحه مع فحول الشعراء، ولكنه اتجه إلى المنصور فقال يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان أن النبى ﷺ قال المهدى منا محمد بن عبدالله وأمه من غيرنا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، واتجه إلى العباس أخى جعفر، وقال له أنشدك الله هل سمعت؟ فخاف العباس على نفسه من غضب المنصور، وقد لحظه الخليفة بنظر مخيف فقال نعم، ففرح المنصور وأمر الناس بالبيعة بعد سماع الحديث، ولما انتهى المجلس خرج العباس غاضباً، يقول لمطيع: لم ترض أن تكذب على رسول الله ﷺ حتى استشهدت بى على كذبك، فشهدت خوفاً، فقال مطيع، ولم خالفت الحق أيها الأمير، فقال

العباس سنكون معاً يوم القيامة فى موقف خزى عظيم.

استراح مطيع تماماً من شجونه السياسية بعد أن نال رضى المنصور، وآثر حياة اللهو والعبث مع فريق من أمثاله كحماد عجرد وبشار ويحيى بن زياد من هواة العبث والتبذل، وأعجب شيء أن يذكر أبوالفرج الأصبهانى مع هؤلاء عبدالله بن المقفع وهو من مروءته وترفعه فى منزل عال تؤكده سيرته الشخصية، وملفاته الأدبية فأين هذه الشراذم الضالة من رجل وقور حكيم كابن المقفع، إنها كبوة يحاول بها بعض الناس أن يلوثوا ذوى الطهارة ليكون الإثم مشتركاً بين الجميع! وهيهات فللتاريخ حكمه الصائب! لقد استراح مطيع من شجونه السياسية، ولكنه لم يسترح من شجونه العاطفية، حيث ألف جارية حسناء بادلته الود، وصارت معبدة بينه، ولكن أزمة مالية طارئة أجبرته على بيعها، وقد ظن أنه سيستردها حين تسمح له الأيام بالرخاء! ولكنها ما وفدت على النخاس حتى سارع ببيعها لمن رغب فى شرائها، وفوجئ مطيع بما أرق مضجعه فضاقت عليه بغداد، وارتحل إلى حيث تحمله قدماه دون وعى، ورأى نفسه فى بلدة آهلة تسمى حلوان، وسأل عن رفاق اللهو، فلم يجد من يعرفه، فالتجأ إلى نخلتين يستظل بهما، وقد راقه تآلفهما، وتعاطفهما حين يهب النسيم فيميل بفروعهما، ويتعانقان عناقاً، كان يجد الأثر فى نفسه، وتخيلهما كاثنتين حبيتين تحسان ما يحس من لواعج الشوق، فتشتفيان بالعناق، وكان الظن به أن يتعاطف معهما، ولكنه شعر بغيرة تنهش قلبه، فأنذرهما بالفراق، وأن نحس الأيام لن يبقى على صفائهما المتخيل؛ لأن الشؤم الذى قد تعقبه لابد أن يحل بهما، وقال فى ذلك أبياتاً أخذت تذيع وتتردد، ومنها قوله:

أسعدانى يا نخلتى حلوان
وابكيا لى ريب هذا الزمان
أسعدانى وأيقنا أن نحساً
سوف يأتيكما فتفترقان
ولعمرى لو ذقتما ألم الفُر
قة أبكاكما الذى أبكانى
قد رمتنى صروف هذى الليالى
بفراق الأحباب والخلان
جارة لى بالرى تذهب همى
ويسرى دنوها أحزانى
وبرغمى أن أصبحت لا تراها العين
عن، منى، وأصبحت لا ترانى

شاعت الأبيات، وعرفت النخلتان من بين عشاق الأدب بما تحدث عنهما مطيع، ثم كان من النوادر أن يفد أبوجعفر المنور إلى حلوان، فيرى النخلتين الطريق تعترضان سبل القوافل، ومن بينها ما تحمله الدواب من الحجارة القادمة، من بقايا الآثار الفارسية لتكون بعض الجدران فى بغداد فأشار باجتثات النخلتين ليسهل المرور دون عائق، ولكن أديباً طريفاً تقدم للمنصور، فقال له يا أمير المؤمنين، إن العامة يعتقدون هنا أن يتولى إزالة النخلتين سيكون هو النحس الذى قال عنه مطيع.

أسعدانى وأيقنا أن نحساً
سوف يأتيكما فتفترقان!

فعض المنصور على شفتيه، وقال، قاتل الله العامة، فهم لا يشبعون من الأراجيف، ولن أضيف إليهم ما يشمت الناس بى، ونهى عن اجتثاثهما فى غيظ.

ويتكرر الموقف مع ولده المهدى! فقد اتجه إلى حلوان فى رحلة علاجية حيث وصف له هواؤها، وأخذ معه من الندماء والأخصاء من راق له أن يكونوا فى صحبته، ونصب السرادق قريباً من نخلتى حلوان، وانطلقت إحدى المطربات، فغنت.

أيا نخلتى وادى بوانة حبذا
إذا نام حراس النخيل جناكما

فاستمعت، وسأل المهدى عن نخلتى وادى بوانة، فقال المجيب إنهما لا تبلغان هاتين النخلتين، وأشار إلى نخلتى حلوان، وقال آخر إن أمير المؤمنين أبا جعفر كان قد عزم على استئصالهما فخاف أن يكون هو الشؤم الذى عناه مطيع، فقال المهدى: أيبلغ بوالدى التطير إلى هذا الحد، فيزعجه عن عزمه قول شاعر مغمور، سأزيلهما أنا؟ فوجم القوم، وسأل المهدى هما نزل بهم من الوجوم، فقال قائل، ولماذا تكون يا أمير المؤمنين حديث العامة، حين تهم بالنخلتين؟ وهم ذوو إرجاف نحن فى غنى فيه، ففكر قليلاً وقال فى هدوء، لكم رأيكم لن أكون موضع الإرجاف.

وما حذر منه أبوجعفر والمهدى قد وقع فيه طبيب الرشيد، إذ نزل حلوان فى بعض رحلاته، وهاج به الدم حتى خشى عليه، ورأى طبيبه أن يداوى بجمار النخل، وأسرع فاستدعى من استأصل إحدى النخلتين ليأتى بجمارها، ثم شُفى الرشيد، ونظر فوجد نخلة واحدة لا نخلتين، فسأل مستنكراً؟ إذ كان يعلم حديث النخلتين مع أبيه وجده، فقيل: لقد احتاج الأمر إلى علاجك بالجمار، فاستئصلت النخلة وهنا فزع الرشيد، وقلب كفه فى أسف وقال: لقد حذر أبوجعفر والمهدى أن يكونا الشؤم الذى عناه مطيع، ووددت أن يستمر هياج الدم فى دون أن أكون أنا النحس، وطوى مجلس السمر، وانفرد بنفسه آسفاً، وكأنه ارتكب جرماً سيحاسب عليه، وعلم القوم بما نزل بالرشيد من ألم، فأقبلوا يواسونه ويلتمسون عزاءه بما يتهيأ من الكلمات، ولكنه قال: هو شؤم وقع، وسيردده الناس ما تردد شعر مطيع!!



مصطفى صادق الرافعى
إمام البيان العربى الحديث

٣



أ.د. حلمى محمود القاعود

إن الرافعى يرى أن الاستقلال الحقيقى للأمة العربية من الناحية الإنسانية والحضارية، لا يقوم إلا على أساس من الدين الإسلامى واللغة العربية، وبذلك ينفتح الطريق إلى الوحدة العربية.. ويلاحظ أن "الرافعى" كانت له لمسة فى غاية الدقة حين أشار إلى أن الساسة فى الغرب، قد ساعدوا فى توضيح صورتنا أمام أنفسنا، وأننا ينبغى أن نفيد من مخططاتهم لإصلاح واقعنا، ومواجهتهم بما يتلاءم مع قدرنا، وطبيعتنا وهويتنا: "فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها" (وحى القلم: ٢/١٧٤).

وعلى كل، فإنه ينبغى ملاحظة أن «الرافعى» قد جعل «الدين الإسلامى» محور الحركة والتطور فى كتاباته السياسية، وفى كتاباته عموما، وهذا المحور هو الذى يفسر به الأحداث المختلفة داخل الوطن وخارجه، ويطرح من خلاله العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين المسلمين وغيرهم من دول الأرض، مستعمرين وغير مستعمرين.

ومهما يكن من شىء، فإن «الرافعى» بعاطفته الدينية القوية، قد استطاع أن يؤكد على أكثر من حقيقة، تقول بعظمة الإسلام وتفوقه، من خلال كتابه الخالد وفضائله العظيمة، وأفضاله الجمة، وإنه - أى الرافعى - بكتاباته الإسلامية قد قدم المثل للكاتب المسلم حين يملك الوعى بأصول عقيدته وتراثه فيهب للدفاع واثقاً من نفسه ومن إيمانه.. ولعل هذا يغفر له بعض حدته التى تجاوزت أحيانا ما هو مقبول فى قواعد النقاش والجدل.

(انظر كتابى، مدرسة البيان فى النثر الحديث، ص ١٩٧ - ٢٠١).

وكان تناول «الرافعى» للقضايا الاجتماعية، مثل تناوله للقضايا الإسلامية والسياسية، يدور فى دائرة تصوره الإسلامى للمجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده.. ومن ثم، فقد كان حريصا على أن يبرز هذا التصور بوضوح وحسم فى كل قضية يتناولها أو يعالجها.

ويمكن القول: إن أهم القضايا الاجتماعية التى تناولها دارت حول الغنى

والفقر، والزواج، والطفولة، وشئون المرأة والحجاب، والصراع بين الحضارة الإسلامية والمدنية الغربية فى مرحلة النهضة الحديثة، والصراع الإنسانى والتكالب على الحياة.

فإذا نظرنا إلى الغنى والفقر مثلا، سنجد قضية لها مدلولها المهم فى مصر على عهد الرافعى، وربما فى عصرنا أيضا، ولكنها فى أيامه كانت الشغل الشاغل لكثير من الكتاب، فالتفاوت الطبقى الرهيب، وانتشار ثالوث الفقر والمرض والجهل جعل من قضية الغنى والفقر، مسألة حيوية بالنسبة للكتاب.. وقد تناولها الرافعى من زاوية التأمل الذى يرى فى «الفقر» وصمة على جبين الإنسانية عامة، والأغنياء الشرهين خاصة، وقد نجح «الرافعى» - لاسيما عندما يستخدم أسلوب الحكاية - فى إدانة هؤلاء الأغنياء الذين يسخرون الدنيا - ومنها الفقراء - لخدمتهم والحدب عليهم والوقوف إلى جانبهم حتى ولو كانوا على خطأ وضلالة. ومن أنضج الأمثلة على ذلك مقالته القصصية.. «الطفولتان» التى تدور حول الطفل «عصمت» ابن أحد الأغنياء، و«جعلص» الولد الفقير، وإن كان الحوار الذى أجراه الرافعى بين الطفلين يفوق مستواهما العقلى، ويحسن هنا إثبات بعض الحوار، الذى تأتى أهميته فى مضمونه، مع ملاحظة ما فيه من تورية وتصوير طريف:

قال جعلص: ما اسمك؟

قال (أى عصمت): أنا ابن المدير..!

قال جعلص: لا تبك يا بن المدير تعلم أن تكون جلدا، فإن الضرب ليس بذل ولا عار، ولكن الدموع هى التى تجعله ذلاً وعارا: إن الدموع لتجعل الرجل أنثى. نحن يا بن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب من الفقر أو ضرب من الناس، هذا من هذا، ولكنك غنى يا بن المدير، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخم منتفخ، ولكنه ينكسر بلمسة، وحشوه مثل القطن... (وحى القلم، ١ / ٧٦-٧٧).



الرافعى

ويبدو أن «الرافعى» فى فلسفته للأمور، كان يريد أن يذكر الطرف الظالم بأنه ناقص ويحتاج إلى الكمال الذى يتوفر عند الطرف المظلوم بالضرورة.

وهذا ما جعله يعقد لواء البطولة للفقراء: «وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة، فليس غنى بطل الحرب فى المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات فى جسمه وتاريخه (السابق، ١ / ٧٧)، بل إنه يرفع الفقر إلى درجة السمو حين يتحدث عن فقر الرسول الأعظم - ﷺ (السابق، ٢ / ٤٦ - ٥٨). وهو فى تناوله للقضايا المتعلقة بالغنى والفقر، مثل البخل والتشرد واليؤس والانتحار، لا يشذ عن منهجه كثيراً الذى يعتنى بناحية التأمل فى جوانب النقص والكمال لدى كافة الأطراف، مع إدانته الصريحة والواضحة للخروج عن القواعد التى أرساها الإسلام فى هذا المجال» (انظر مثلا: وحى القلم، ١ / ٥١ مقالة «حديث قطين»، ١ / ٧٨ مقالة «أحلام فى الشارع»، ١ / ٨٥ مقالة «أحلام فى قصر»، ١ / ٣٠٦، ٢ / ٨٧- ١٤٠ مقالات «الانتحار»).

لعلها سمة عامة عند «الرافعى»، وهى تناوله للقضايا المختلفة - ومنها قضايا المجتمع

- بنظرة تأملية، تتجاوز الأحداث ووقائعها إلى مغزاها ومدلولها وتأثيرها.. ولعل هذا أيضاً، ما جعل «الرافعى» لا يلح على قضايا بعينها. وأحداث محددة بقدر ما يلح على مضمون قيم معينة ودلالات مخصوصة.

لقد كان يرى الحدث أو القضية، فلا يتوقف عند سرده وتفاصيله كما يفعل غيره، ولكنه كان يقدح زناد فكره، ويغوص إلى أعماق الأمور. فيتناولها ويفلسفها، ويعلق عليها، ويربطها بحلقة متينة من القيم أو الأخلاق.

وقد اهتم «الرافعى» بصفة خاصة بموضوع «الزواج» وأفرد له عدداً من الصفحات تناول فيه مشكلات الزواج والمهر، وعالج عزوف الشباب عن الزواج وأسبابه المختلفة على ضوء الواقع الجديد، الذى أصبحت فيه المرأة متعلمة وعاملة وتخرج إلى ميدان العمل مثل الرجال، وقد تناول هذه القضايا على هيئة حوار يعرض لوجهات النظر المختلفة (انظر مثلاً: وحى القلم ١ / ١٦١، مقالات «الطائشة» ١ / ٢٠٠، مقال «س. أ. ع» ١ / ٢١٤، مقالة «أرملة الحكومة»).

كما حظيت الطفولة والمرأة بنصيب وافر فى كتابات «الرافعى» الاجتماعية، وله فى الطفوله كلام عذب رقيق حيث يرى فيها كمال الإنسانية وبراءتها (وحى القلم ١ / ٢٩، مقالة «اجتلاء العيد»)، أما المرأة فقد شغلته بقضاياها التى سادت المجتمع آنئذ. خاصة مسألة الحجاب، وقد كان الرافعى حريصاً على تناول المسألة بمنطق يعنى المرأة قبل أن يعنى الرجال، وقد نجح منطقه نجاحاً ملحوظاً، خاصة عندما يقول مثلاً: «وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها فى الاجتماع وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها فى حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم قانون العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها فى مدارج الطرق والأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الوردية، الشفاة الياقوتية. الثغور اللؤلؤية. الأعطاف المرتجة، النهود الـ.. أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرون فى الطرق إلا لتنادى أجسامهن بمثل هذا» (وحى القلم، ١ / ٣٩).

وهذه الوقفة من «الرافعى» مظهر من مظاهر الاحتجاج ضد غزو المدنية الغربية، بأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وسلوكياتها، وهى وقفة تحرص كل الحرص على خصائص الشخصية الإسلامية ومقوماتها فى مصر، دون أن تتنكر لمعطيات المدنية الغربية فى جانبها المادى الخاص بالعلم وما يسمى فى هذه الأيام «بالتكنولوجيا» وقد أشار إلى ذلك الرافعى فى بعض مقالاته بوضوح (وحى القلم، ٣ / ٣٢ وما بعدها).

وقد سجل الرافعى تطبيقاً لهذه الوقفة فى موضوع «الربيطة» عن أولئك الذين تأثروا بالحياة الأوروبية وتشبعوا بها، وأداروا ظهورهم لمجتمعهم المسلم وقيمه، فيخاطبهم قائلاً:

«... ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوروبا بمحاريث، بدلاً من هذه المواريث.. وجئتم بالسماد بدلاً من هذا الوساد (كناية عن الزوجة الأجنبية)، وبالبهائم للسوانى (السواقى) لا بالحلائل والغوانى، وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت...» (السحاب الأحمر، ص٦٦).

وقد تناول الرافعى ظاهرة الصراع الإنسانى والتكالب على الحياة - جشعاً وطمعاً - بالتأمل الذهنى الذى يرى فى الحيوان أعقل وأشرف من الإنسان، حيث أراح نفسه واكتفى بأن يأكل ويشرب دون صراع، ثم يسلم أمره أخيراً لله دون أسى على ما كان أو ما سيكون (وحى القلم ١ / ٥٩ وما بعدها، وانظر كتابى: مدرسة البيان فى النثر الحديث، ص١٦٦-١٧١).

مؤلفات الرافعى

- تاريخ آداب العرب (ثلاثة أجزاء)، صدرت طبعته الأولى فى جزأين عام ١٣٢٩هـ، ١٩١١م. وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق محمد سعيد العريان، وذلك عام ١٣٥٩ هـ الموافق لعام ١٩٤٠م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (وهو الجزء الثانى من كتابه تاريخ آداب العرب)، وقد صدرت طبعته الأولى باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عام ١٩٢٨م.
- كتاب المساكين، صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٧م.
- السحاب الأحمر.
- حديث القمر.
- رسائل الرافعى، وهى مجموعة رسائل خاصة كان يبعث بها إلى محمود أبى رية، وقد اشتملت على كثير من آرائه فى الأدب والسياسة ورجالهما تحت راية القرآن، مقالات الأدب العربى فى الجامعة، والرد على كتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين.
- على السفود، وهو رد على عباس محمود العقاد.
- وحى القلم، (ثلاثة أجزاء) وهو مجموعة فصول ومقالات وقصص كتب المؤلف أكثره لمجلة الرسالة القاهرية بين عامى ١٩٣٤ - ١٩٣٧م.
- أوراق الورد.
- رسائل الأحزان.
- السمو الروحى الأعظم والجمال الفنى فى البلاغة النبوية، وهو بحث نفيس أنشأه الرافعى إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق؛ لتنشره فى ذكرى المولد النبوى سنة ١٣٥٢هـ. وقد صدر به محمد سعيد العريان الجزء الثالث من وحى القلم، ونشره منفصلاً وائل حافظ خلف.
- ديوان الرافعى (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٠م.
- ديوان النظرات (شعر) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨م.
- ملكة الإنشاء ١٩٠٥م.

وفاته:

فى اليوم السابق على رحيله، قام الرافعى ببعض الزيارات الخاصة لأصدقائه، وأداء بعض الواجبات الاجتماعية، وفى فجر يوم الإثنين العاشر من مايو لعام ١٩٣٧م استيقظ فيلسوف القرآن لصلاة الفجر، ثم جلس يتلو القرآن، فشعر بحرقة فى معدته، تناول لها دواء، ثم عاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض وسار، فلما كان بالبهو سقط على الأرض، ولما هب له أهل الدار، وجدوه قد فاضت روحه الطيبة إلى بارئها، وحمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر إلى جوار أبويه فى مقبرة العائلة فى طنطا. ومات مصطفى صادق الرافعى عن عمر يناهز ٥٧ عاماً (انظر وصفاً تفصيلياً للوفاة فى: حياة الرافعى، ص٣٤٠ وما بعدها) -رحمه الله.

التـــراث العربـــى

مفهومـه وخصائصـه



أ.د. خالـــد فهمـــى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

(١) التراث العربى: مقال فى الهوية:

مدخل:

يعد مصطلح التراث من أكثر المصطلحات التى تناوشتها الجماعات المختلفة، وتفرقت بهم السبل مدحاً وقدحاً، وتوزعت دعواتهم، فريقاً يدعو إلى العناية به، وصيانته، وتوسعة آفاق خدمته والإفادة منه، وفريقاً يلح فى إهماله، والزراية به، وإغلاق المجال أمام ظهوره أو إعادة إحيائه.

والتراث بين الفريقين جميعاً لم ينل ما يستحقه من العناية، أو الحفاوة، أو الفحص والدراسة، وبيان ما ينطوى عليه من خير عميم، وفوائد جلية؛ ذلك أنه استقر فى تاريخ الحضارات جميعاً أن التراث واحد من أعمدة مختلفة تقوم بعبء تأسيس النهضة، ومن أجل ذلك فشا فى تاريخ النهضات العناية بما تراه هذه النهضة أو تلك مرجعية مؤسسة لها.

وقد استقرّ فى الأدبيات مجموعة من القواعد الفاحصة للتراث المختلفة، حملت عنواناً جامعاً هو: فقه اللغة أو (الفيلولوجى) وفق المفهوم الأوروبى، بما هو دراسة جامعة للنصوص، وقد واكب هذا العلم، وسار فى ركابه ما عرف كذلك بتحقيق التراث ونشر نصوصه، وسبق الأوروبيون إلى وضع قواعده، وأصوله فى العصر الحديث، على ما نراه فى عمل المستشرق الألمانى الشهير: (جوتلف برجشتراسر) المقتول سنة ١٩٣٢ م، وهو العمل الذى كان مجموعة محاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية فى عام رحيله، وقد نشر أكثر من مرة، إذ نشر سنة ١٩٩٦ م، بعناية الدكتور/ محمد حمدى البكرى، بدار الكتب المصرية، ثم نشرت طبعة ثانية عنها ١٩٩٥ م.

وفى الفترة الممتدة بين هذين التاريخين نشر الدكتور/ عبدالستار الحلوجى طبعة من الكتاب نفسه مع تصحيح عدد من الأوهام التى وقعت من المرحوم الدكتور/ محمد حمدى البكرى، وكان ذلك سنة ١٩٨٢ م.

والحق أن معرفة العرب لأصول تحقيق النصوص أمر قديم وعريق جداً، وقف أمام ملامحه، وأصل تاريخه العلامة الراحل

الدكتور/ رمضان عبدالتواب المتوفى سنة ٢٠٠١ م، رحمه الله تعالى، فى كتابه الفريد: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين.

وفى هذا الملمح الأول من هذا المدخل نجمل القول فنقرر أن الثقافات الإنسانية المختلفة قدرت أن طريق بناء نهضات أممها المختلفة يمتد عبر أنبوب ضخم يسمى بالهوية التى رأوا أن غذاءها موصول بحبل التراث.

(٢) مفهوم التراث: قراءة فى الأدبيات

وقف عدد كبير من الدارسين أمام مصطلح التراث بغرض تشريح مفهومه، وبيان الموقف منه وتنوعت أشكال هذه الوقفات، وتنوعت كذلك المراجع والكتب التى عالجت هذا المفهوم، ولعل أكثر أنواع الكتب عناية بمعالجة مفهوم التراث، وبيان حدوده المعرفية كانت هى:

أ- كتب أصول نقد الكتب، وتحقيق النصوص، ونشرها.

ب- كتب علم اجتماع الثقافة فى قضية الموقف من التراث، وينضم إلى هذه القائمة المؤلفات التى كتبها دارسو الفلسفة فى القضية نفسها.

ج- كتب مراجعات النهضة، وتقييمها، والتأريخ لأصول نشأتها.

د- المعجمات المختصة والموسوعية.

وهذه الأربعة أنواع، وإن لم تكن هى كل الأنواع التى نذرت جزءاً من عنايتها للوفاء ببيان مفهوم المصطلح، فهى أكثرها ظهوراً، وهو الأمر المهم هنا.

ومن المهم أيضاً ألاّ يصرفنا أمر ظهورها عن إدراك أن ثمة مصادر أخرى اعتنت بهذا المفهوم، وأخلصت فى مناقشته، وتشقيق القول فى ملامحه.

وفيما يلى محاولة للوقوف أمام ملامح هذا المفهوم، يطلعنا على مدى العناية التى صرفت إليه من خلال الكتابة المعاصرة فى الثقافة العربية، وستقف الورقة هنا أمام أربعة من العلماء المعاصرين، اخترتهم بعناية، وفق معايير موضوعية ترعى الأصالة العلمية فى معالجة المسألة من جانب، وترعى التنوع المعرفى كذلك، وترعى ذيوع مساهمتهم فى هذا الميدان بتحكيم ما يسمى بكثافة الاستشهادات المرجعية فى صف بعضهم.

أولاً - وأشهر الذين وقفوا أمام مصطلح التراث فناقشوا مفهومه كان العلامة المرحوم/ عبدالسلام هارون المتوفى سنة ١٩٨٨ م.

وقد عالج هذا المفهوم معالجة قصد إليها بما يجعلها هدفاً مرتين كما يلى:

أ- سنة ١٩٥٤ م فى كتابه (تحقيق النصوص ونشرها)، حيث تحدث بدءاً من مقدمة الكتاب بما يشعر أن التراث عنده هو كل ما خلّفه الأسلاف مكتوباً فى المجالات المعرفية المختلفة.

ويرى الراحل الكريم أن العناية بإعادة هذا الذى كتبه علماء الأمة فى الميادين العلمية المختلفة باب جيد لإعادة إحياء الأمة، وأن جزءاً من الأزمة أن هناك حركة معوقة تهمش هذا التراث، وتؤخر رتبته، وتزرى بمكانته.

ب- سنة ١٩٧٨ م فى كتابه (التراث العربى)، وفيه ينطلق عبدالسلام هارون فيقرر أن هذا اللفظ انحدر بطريق الاشتقاق

من الجذر اللغوى: (ورث) الذى يدور حول ما يخلفه الإنسان لمن بعده من أهله.

ويقف فى محاولة تأريخية ليقرر أن ظهور الكلمة قديم ظهر فى الذكر الحكيم فى قوله تعالى

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾

(الفجر: ١٩)

ثم ظهرت فى الشعر الإسلامى فى مثل قول سعد بن ناشب الذى يقول:

فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها
تراثُ كريم لايبالى العواقبا

وهى فى استعمالها القديم الممتد حتى العصر الحديث دائرة مع الميراث فى علاقة ترادف تام.

وخلص العلامة الراحل إلى أن المعنى المعاصر الدائر فى المجال الذى نقصده هو: (التراث الفكرى المتمثل فى الآثار المكتوبة الموروثة التى حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة).

ويقرر الرجل أنه ليس ثمة نطاق زمنى يحيط بهذا المفهوم كما يحدث من بعض المؤسسات المعنية بشأن التراث، ذلك أنه: (ليست هناك حدود معينة لتاريخ أى تراث كان، فكل ما خلفه مؤلف من إنتاج فكرى بعد حياته ـ طالت تلك الحياة، أو قصرت ـ يعد تراثًا فكريًا).

والأمر الذى يشير قدرًا غير قليل من الأهمية هو ما سماه الراحل الكريم باسم الإيمان بالتراث؛ إذ يقرر أن التراث يمثل وطنا معنويا للإنسان يقف على قدم المساواة مع الوطن بمعناه المادى، ويمثل التراث


د. عبدالسلام هارون

الفكرى مهدًا أول لتفكير الإنسان، ومهدًا أول لنفسه ووجدانه، وهو الأمر الذى يؤدى إن انفك الارتباط به إلى الضياع وفقدان النفس.

وفى سبيل استعادة الإيمان بهذا التراث يدعو الراحل الكريم إلى السير فى طريق مزدوج من: الدفاع عما يثار ضد هذا التراث، والعمل على إحيائه فى خطوة تالية.

وقد قصدتُ قصدًا إلى تفصيل القول فى معالجة عبدالسلام هارون لمفهوم التراث؛ لريادته وأهميته، وموقعه الفكرى فى هذا المجال.

ثانيًا - ويأتى الراحل الكريم الدكتور/ حامد عبدالله ربيع المتوفى سنة ١٩٨٩م، فيناقش مفهوم هذا المصطلح، ويذهب بعيدًا فى تقدير ماهيته عندما يقرر فى مقدمة تحقيقه كتاب: (سلوك المالك فى تدبير الممالك) (لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع) (١ / ٩١) قائلا: (التراث حقيقة أكثر تعقيدًا من أن تتصور أنها تبدأ وتنتهى عند مجموعة من أمهات الفكر)، وهو بهذا التعميق لقضية مفهوم التراث، يخطو خطوات عميقة يقر فيها ما سبق، وقرره عبدالسلام هارون ـ رحمه الله تعالى ـ ولكنه يضيف إليه أبعاد أخرى أعمق، لدرجة يصل فيها إلى أن النظر إلى التراث على أنه هو فقط ما سبق بيانه عند الرائد عبدالسلام هارون يعد خطأ صريحًا،

يقول (١ / ٩١): "لقد درجت تقاليدنا على أن تنظر إلى التراث ـ وبغض النظر عن تعريف مدلول هذه الكلمة ـ على أنه يتمركز حول مجموعة من النصوص المتداولة التى تركها كبار المفكرين والفلاسفة ومن فى حكمهم، وهذا غير صحيح"، وأرجو أن نقف طويلا أمام الجملة الأخيرة فى الاقتباس هنا، حيث يظهر حكمه الحاسم والمنحاز إلى ضرورة تعميق النظر إلى مفهوم التراث، وعدم حبسه فيما يحبسه عادة المعنيون بإحصائه، ونشره، ودراسته.

وفى إحصاء مبدئى نلمح تكرارًا ظاهرًا لوجهة النظر هذه، أرجو أن يتفهم القارئ الكريم حرصنا على جمعها هنا:

١ / ١٩س١٠: "الفكر ليس فقط تلك الأمهات المتداولة التى تركها كبار المفكرين والفلاسفة ومن فى حكمهم".

١ / ١٩س١٢: "إن التراث يجب أن يحمل على أنه كل ما تركه السلف للخلف، لابد وأن يتسع ليشمل الفكر والنظم والمؤلفات".

١ / ١٩س١٥: "إن الفكر (التراث) يجب أن يفهم على أنه مرادف للتصور؛ أى لمجموعة المدركات السائدة أو المرتبطة بحضارة معينة".

١ / ١٩س٢٥: "التراث حقيقة أكثر تعقيدًا من أن نتصور أنها تبدأ وتنتهى عند مجموعة من أمهات الفكر".

١ / ١٩س٢٦: "إن إحياء التراث لا يعنى مجرد نشر أمهات الفلسفة أو اللغة".

١ / ١٩س٢٧: "إن إحياء التراث له مسالك متعددة".

١ / ١٩س٢٨: "والواقع أن وظيفة إحياء التراث تتنوع وتتوزع".

ثم يعود ويلح حامد ربيع ـ رحمه الله تعالى ـ على أهمية هذا الطرح ليقرر قائلا (ص ٧٠): "والخلاصة أن التراث هو مرادف لكل ما قدمه السلف للخلف، ولكن كنموذج للتعامل الفكرى وغير الفكرى هو مبادئ وقيم، ولكنها مبادئ وقيم طبقت أو احترمت، ولو فى لحظة معينة، وهو معاناة وتعامل، ولكن من حيث كون هذا التعامل يمثل تكرار ثابتا ولو بنسبة معينة، وهو نظم وقواعد، لا تعنينا دلالة التراث فى الإسهامات الحضارية ولكن يجب أن نقف إزاء دلالة تكرارية ذلك التراث وترابطه.. إن التراث يتناول كل ما قدمه السلف للخلف، حتى لو لم يكن يعنى أو يتضمن خطوة جديدة فى التقدم الإنسانى".

وهذا الطرح الذى يقدمه حامد ربيع مفهوم فى ضوء غايات أساسية ظاهرة عنده منها: غاية فهم الذات بالعودة إلى جذورها، وهى أهم الغايات جميعا، صحيح أن هذا المفهوم وثيق الصلة بمفهوم الإسلامى لسياسة المجال المعرفى الأصيل لحامد ربيع، لكن ذلك لا يعنى أن يغفل المحققون بالمعنى الشائع الذى يسميه حامد ربيع بالوظيفة اللغوية، أنهم حلقة من حلقات ينبغى أن تدخل دائرة الاهتمام عند فحص وظائف التراث.

وهو الأمر الذى نلمحه فى اعتماده على من سبق ممن رصد مفهوما لمصطلح التراث، حيث ظهرت منه إحالة على: التراث العربى؛ لعبد السلام هارون، بما يعنى أنه لاينكر

المفهوم الذى قدّمه الأخير، ولكن يدعو إلى النظر إليه على أنه وظيفة أو حلقة أولى تتلوها وظيفتان أو حلقتان، هما الوظيفة التاريخية، والوظيفة السياسية (أو الحضارية) التى تسعى إلى استحضار التراث.

ثالثًا- ثم يأتى من الناحية الزمنية محاولة العلامة الراحل الدكتور رمضان عبدالتواب المتوفى ٢٠٠١ م، رحمه الله تعالى.

ويدخل رمضان عبدالتواب إلى تناول مفهوم مصطلح التراث ببحث علمى يرى فيه تمهيدًا لازمًا للبناء المنهجى لواحد من أكثر أدبيات تحقيق التراث إتقانًا وشمولاً فى الوقت نفسه، وهو كتاب (مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، القاهرة سنة ١٩٨٦ م).

وثمة ما يشعرنا بالضبط المنهجى فى الكتاب عند تناوله للمصطلح بالبيان؛ ذلك أن الرجل يفتتح معالجته بتقييدها بمجالها المعرفى الضيق المتعلق بمجال تحقيق النصوص، حيث يقول ص(٨): "والتراث فى مجال تحقيق النصوص :هو كل ما وصل إلينا مكتوبًا فى أى علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو هو بالتالى : كل ما خلفه العلماء فى فروع المعرفة المختلفة، ولهذا فالتراث ليس محددًا بتاريخ معين".

وعلى الرغم من أن هذا التعريف يكاد يتطابق مع تعريف العلامة الراحل عبدالسلام هارون فيما يقدمه من مفهوم، وفيما يحدّه من نطاق زمنى، فإنه يزيد عليه وضوحًا وانضباطًا منهجيا، تجلى من خلال استعمال القيد اللغوى المتمثل فى عبارة (فى مجال تحقيق النصوص)، وهذا القيد يسمى فى المعجمية المختصة بتعيين مستوى الاستعمال Usage label، أو المجال الاستعمالى، مما يجعله واعيا بحدود وظيفته ابتداء، ومدركًا أن ثمة وظائف أخرى ممكنة بعده انتهاء.

وفحص هذه المحاولات الثلاثة يلمح فيما بينها مجموعة من عناصر الاتفاق، ذلك أنها جميعًا نظرت إلى التراث على أنه كل ما خلفه السلف للورثة الذين هم عموم الخلف، ثم اختلفوا جميعا بعد ذلك، وظهر الخلاف على مستويات يمكن الإشارة إليها فيما يلى:

أ- بدا ظاهرًا أن المعنيين بصناعة تحقيق النصوص، ونشرها يرون التراث منجزًا فكريًا أو علميًا وصل إلينا فى صورة مدوّنة أو مكتوبة، (مفهوم عبدالسلام هارون ورمضان عبدالتواب)، وهو المفهوم المحدد بتعبير حامد ربيع.

ب- تميز مفهوم حامد ربيع بالاستيعاب، والعمق، واتساع الدائرة؛ لأن له غاية كبرى تتعلق ببناء الذات.

وهو المفهوم الذى لم يهمل مفهوم المنجز المكتوب، كما فى معالجة عبدالسلام هارون ورمضان عبدالتواب، ولم يتوقف عند حدوده كذلك.

ومن هنا فإن التعامل مع التراث مهنيا يستلزم تحصيل أصول صناعة التحقيق، ووعى المحقق بهذا المعنى بحقيقة كونه مقدمة لأعمال خطيرة تتلو مهمته، سيقود إلى إتقان هذه الأصول الفنية، وعدم البخل بإجراء من شأنه أن يعين على تحصيل فوائد الوظائف الأخرى التى تتبدى عند فريق توسيع النظر إلى التراث.

رابعًا- ويأتى فى خاتمة هذه المحاولات المختارة التى تمثل تطورا نوعيا على طريق معالجة مفهوم مصطلح التراث، الدكتور/ عبد الوهاب علوب، الذى صنع قائمة موسعة لألفاظ الحضارة والتراث والفنون والأدب، جعل عنوانه: (التراث، القاهرة ٢٠١٠ م).

وهذا المعجم الذى: "يضم، بين دفتيه كثيرا من الألفاظ والمصطلحات والتراكيب الخاصة بأفرع الحضارة والتراث المتعددة، فيشتمل على ألفاظ الحضارة والعلوم الإنسانية، بمختلف أفرعها من أديان وآثار وفنون وفلسفة ولغة وعمارة" (ص٥).

وبهذا تكون هذه المحاولة بارة بالمفهوم الغربى لمصطلح التراث الذى" هو تعبير عن تجرد وانطلاق فى عالم المقارنات الحضارية، أكثر من أن يكون أساسا لخلق بناء نموذج للتعامل". على حد تعبير حامد ربيع، رحمه الله تعالى(ص٨٦).

وتبعا لهذين المفهومين لمصطلح التراث تتحدد النطاقات أو الحدود الزمنية للتراث؛ فالمفهوم الضيق المرتبط بصناعة التحقيق يوافقه توسيع النطاق الزمنى، الذى يرى فى كل إنتاج فكرى مدون رحل صاحبه، منضويا فى دائرة التراث، وهو الأمر الذى صرح به عبدالسلام هارون، ونقله عنه رمضان عبدالتواب، يقول عبدالسلام هارون فى(التراث العربى ص٥): "ولقد أصبح شعر البارودى، وشوقى، وحافظ، وحديث عيسى بن هشام، وآثار المنفلوطى، والمازنى، والعقاد- تراثًا له حرمته التاريخية، وله مقداره الأثرى".

وهو المعنى نفسه الذى يقرره رمضان عبدالتواب فى (مناهج تحقيق التراث ص٨)، فيقول إن: "التراث ليس محددًا بتاريخ معين؛ إذ قد يموت أحد العلماء فى عصرنا هذا، فيصبح ماخلفه مكتوبا تراثا بالنسبة لنا، فما كتبه شوقى، وحافظ، وطه حسين، والعقاد، ومحمد مندور وأمين الخولى، وغيرهم، يعد تراثا لايقل فى أهميته عما خلفه لنا أبو تمام، والمتنبى، والبحترى، وسيبويه، والأصمعى، والمبرد، وثعلب، مثلا".

وهذا التوسع يبدو مفهومًا ومقبولاً فى إطارهذا المعنى لمصطلح التراث.

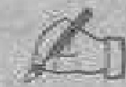
غير أن النظر إلى التراث بمفهوم التأسيس لبناء الذات، واستجماع عناصر الشخصية على هدى مما ورثته من أسلافها، لايناسبه فيما يبدو التوسع فى تعيين النطاق الزمنى، ولكننا نرى والأمر كذلك أن القول بتضييق النطاق الزمنى، والوقوف به عند حدود قديمة يصبح هو اللائق والأولى.

ذلك أن القرب من عصور القوة المتمثلة لعناصر بناء الذات العربية المسلمة، وهى العصور الأولى التى تمتد نسبيا إلى قريب من حدود القرن الخامس الهجرى بإطلاق، والممتدة بعدها إلى حدود القرن الثانى عشر الهجرى بتقييد، وشروط.

وهو القيد أو التضييق الزمنى له ما يسوّغه من وجهة نظرنا؛ذلك أن صفاء الفكرة الإسلامية فى التراث المدوّن، أو فى التراث التطبيقى، والسلوكى كان أمره ظاهرا، قبل رياح عاصفة هبت على عالمنا فنالت من درجات هذا الصفاء.

«يتبع»

الوظائف والحرف في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصدر الإسلام



د. سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

من القضايا التى تشغل عدداً كبيراً من الباحثين والمسئولين عن قطاعات الأعمال المختلفة، القضية الخاصة بما أصبح يعرف بـ «توصيف المهن»، والتى أصبحت محل اعتبار لعدد من العلوم الإنسانية، مثل إدارة الأعمال، والتخطيط، وعلم النفس الصناعى، وعلم الاجتماع الصناعى، وعلم النفس التربوى... إلخ.

ومضمون هذه القضية أن لكل مهنة وحرفة، مواصفات بعينها، وعناصر، وكفاءات لابد أن تتوافر فيمن يمارسها، وقدرا من المعلومات والمعارف المتصلة بكل هذا، وعدداً من المستويات التى تحدد المنزلة التى يمكن أن يحتلها هذا وذاك فى سلم التدرج بالمهنة والحرفة.. وهكذا، وكل هذا يحدد «الراتب» الذى يستحق العامل أن يتقاضاه.

وتوافر مثل هذا التوصيف يفيد أطرافا أربعة هى:

● أولها: صاحب المهنة أو الحرفة نفسه، حتى يعرف ما هو مقبل عليه ومدى استعداده له.

● وثانيها: صاحب العمل، حتى يساعده هذا فى اختيار العنصر المناسب، ومن ثم لا تنفق أمواله هدرا، وإنما العكس هو الصحيح.

● وثالثها: هو «المستفيد» الأخير، وهو ما تسميه بعض الأدبيات «الزبون».

● ثم يجىء دور الطرف الرابع ألا وهو «المربى» الذى يخطط للمناهج وطرق التعليم، والأجهزة والمعدات، والأجواء المناسبة، والكتب، والمكان، بحيث يمكن له أن يُعلم الطالب أصول المهنة العلمية وقواعدها وممارساتها، وآدابها، وكل ما هو لازم لحسن ممارستها.

وقد اشتدت الحاجة إلى هذا الدور الأخير فى القرون الأخيرة، حيث تعقدت المهن والحرف، وارتقت مستوياتها، وتعددت وظائفها، مما اقتضى قيام مؤسسات تعليمية متخصصة مثل كليات الهندسة، وكليات الطب، وكليات الصيدلة، وكليات الزراعة، وكليات التربية.. وهكذا، بينما لم يكن الأمر كذلك، منذ عشرات قرون خلت، حيث كان الأمر يتم بالتقليد والمحاكاة، وما تراكم من خبرات عملية.

لكن، ومع تنالى التقدم الحضارى الإسلامى، بدأ الاهتمام بدراسة المهن والحرف المختلفة، من حيث توصيفها وبيان أصولها وقواعدها، وإن كان هذا لا يعنى الدراسة العلمية المنتظمة، التى لابد منها لممارسة مختلف المهن والحرف المتوافرة.

ولو نظرنا كمثال لما كان قد بدأ يتوافر من دراسات لبعض المهن والحرف، فسوف نجد مجالا مثلا «الفلاحة»، فمن حيث النظر إليها كحرفة، نجد ابن خلدون يكتب عنها فى مقدمته قائلا: «هذه الصناعة ثمراتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها واستزراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقى والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك» (طبعة الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٦٥).

وإذا تأملنا هذه العبارة جيدا «وإحكام الأعمال لذلك» نجد أنها لا تختلف فى المضمون والمعنى عما يتنادى به كثيرون فى أيامنا هذه من ضرورة مراعاة معايير «الجودة»!!

وكان للمسلمين تصانيف فى الزراعة والنبات، مما يدخل فى أربعة صنوف أساسية، يتداخل أحيانا كتب الصنف الواحد بكتب غيره، وهى (سعيد إسماعيل على: النبات والفلاحة والرى عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٧) كما يلى:

الكتب الزراعية التى تتناول العلوم الزراعية المختلفة وكيفية الاعتناء بها، ومقاومة آفاتها.

الكتب التى تتناول النباتات الطبية وفوائدها، وخصائصها، وهى تعرف قديما بكتب المفردات الطبية والعقاقير.

الكتب التى تتناول الرحلات النباتية وما شاهدوه خلال رحلاتهم من نباتات، مع ذكر أوصافها ورسمها بالألوان الطبيعية.

الكتب اللغوية التى تتناول فى بعض فصولها شيئا عن النباتات، ومفرداتها، وخصائصها.

ومما يشير إلى عبقرية الحضارة الإسلامية، تأمل تلك البذور الأولى لإقامة عالم المهن والحرف على أسس وقواعد تساعد على تقدمها وتطويرها المستمر، وإعداد العناصر البشرية التى يمكن أن تقوم بكل منها، وتفعيل كفاياتها الإنتاجية، مما يساعد بدوره فى تنشيط الاقتصاد الوطنى، وتفعيل القوى الإنتاجية فيه.

أما هذه البذور الأولى فهى مما أرسى تنوعها وتعددها ووظائفها وكفاءاتها، رسول الله (ﷺ)، وسار على هديه ونهجه صحابته (ﷺ)، وتابعيه بإحسان، وهذا وذاك، تمثلا لتلك الإشارات المهمة فى القرآن الكريم، لأمثلة من بعض المهام والوظائف، وما تتطلبه من مواصفات، لعل أبرزها، ما جاء فى سورة البقرة، خاصا بمن يتولى أمر الإدارة الكلية للجماعة وحكمها، فيما -رواه سبحانه وتعالى- عن بنى إسرائيل:

﴿ ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ۝ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾

فلقد تصور القوم أن من يصلح للحكم هو من توافر لديه المال الكثير، فيجئ المولى ـ عز وجل ـ ليبينه إلى المواصفات الحقيقية الكفيلة بنجاح الحاكم، وهنا تجئ هاتان الصفتان البارزتان: العلم، وفقا لمستويات ومقاييس العصر الذي يكون فيه متولي أمر الجماعة، وكذلك صحة وسلامة الجسم، لا مجرد حسن المنظر ووجاهة الهيئة الخارجية، وإنما بما تتضمنه الصحة الجسمية من سلامة الحواس، وأن يبرأ من الأمراض، نظرا لثقل المهام التي سوف يكلف الحاكم بها.

وفي سورة يوسف، بيان لما تمتع به يوسف ـ عليه السلام ـ من كفايات وقدرات، أهلته لأن يستأمنه عزيز مصر كي يكون مسئولا عن الشئون المالية والاقتصادية، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ۝ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ۝ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾

ومما ورد في القرآن الكريم أيضا ما جاء عن قصة ابنتي شعيب ـ عليه السلام ـ مع موسى ـ عليه السلام ـ في سورة القصص:

﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ۝ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ۝ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ۝ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ۝ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ۝ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾

فقد دلت مساعدة موسى ـ عليه السلام ـ لابنتي شعيب على توافر خاصيتين مهمتين، تتيح لشعيب أن يستأجره، ألا وهما: القوة، و الأمانة.

ومن حسن فاعلية الحضارة الإسلامية، أن نجد من العلماء من يحرصون على تسجيل المواقف الدالة على البذور الأولى في الحياة الإسلامية، للوعي بأهمية توافر مواصفات بعينيها لكل من تولى وظيفة أو مهنة أو حرفة.

ولقد دلنا على ذلك، أحد الرموز العلمية البارزة في الحضارة الإسلامية، ألا وهو أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود، المعروف بالخزاعي، نشأ في الأندلس، وولد بتلمسان في العام ٧١٠هـ الموافق ١٣١٠ ميلادية، وذلك من خلال مصنفه الفذ حقا (كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (ﷺ) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية)، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٤٠١ للهجرة، الموافق ١٩٨٠ م، محققا عن طريق الشيخ أحمد أبو سلامة، ويصل عدد صفحاته إلى ما يزيد عن ثمانمائة صفحة من القطع الكبير.

ومما يتسم به المؤلفون البارزون: إدارة مقدمتهم لعملهم العلمي بمقدمة تجيب عن سؤال أساسي، وهو: لماذا هذا الكتاب؟ وهو ما أجاب عليه شيخنا الخزاعي بتحديد الأهداف التالية:

إثبات النسبة الشرعية للحرف والصنائع والعمالات الشرعية.

تعديل فهم الذين يحسبون من دفع إلى النظر في كثير من تلك الأعمال في هذا الأوان (أي القرن الثامن الهجري، حيث كان يعيش شيخنا) مبتدعا، ومتوغلا في خطة دنية، وليس عاملا في عمالة سنية.

في ذكر الوظائف ومن تولاها من الصحابة رضوان الله عليهم دافع لمن يليها الآن أن يشكر الله ـ عز وجل ـ على أن استعمله في عمل شرعي كان يتولاه صاحب من أصحاب النبي (ﷺ)، وأقامه في ذلك مقامه، ويجتهد في إقامة الحق فيه بما يوصيه الشرع ويقتضيه، فيكون قد أحيا سنة وأحرز حسنة.

ومما يسعد الإنسان حقا أن يهرع باحث متميز مثل الأستاذ «سعيد هارون عاشور» إلى خطوة تيسر لكثيرين الاطلاع على هذا العمل الفذ، باختصاره، واستكمال ما يجب من حيث التحقيق والتوضيح، (نشر مكتبة الآداب بالقاهرة، ٢٠٠١)، وهو ما يتبين لنا من خلال ما أثبته باحثنا في مقدمته للمختصر، حيث تحدد جهده من خلال:

- إثبات بعض الآثار التي جاءت في الأصل، والتي يتحقق بها النسبة الشرعية للوظائف والعمالات الشرعية التي أوردها المؤلف.
- تخريج بعض الأحاديث التي لم يعزها المصنف إلى مصادرها.
- ذكر أسماء الرجال الذين أسندت إليهم هذه الوظائف والأعمال التي قاموا بها، مع إغفال التراجم التي اهتم بإثباتها المؤلف.
- توضيح لبعض المفردات الواردة في الآثار مع بعض التعليقات في الهوامش.

عند قراءة الأصل تبين للباحث أن به بعض الأخطاء المطبعية والتصحيفات، وسقطا في بعض الآثار، مرجعا ذلك احتمالا ـ إلى الظروف التي اكتنفت مراجعة التجارب الطبعية للكتاب، والتي أشارت

إليها لجنة إحياء التراث بالمجلس في تقديمها للكتاب، فكان لزاما على باحثنا المجتهد الرجوع إلى هذه الآثار في مصادرها، وإثبات الصواب في مختصره هذا.

ويتكون الكتاب الأصلي من عشرة أجزاء تتضمن ١٧٨ بابًا، بحيث يستحيل علينا في مقالنا الحالي أن توفيها حقها من حيث البيان، ومن ثم فسوف نقتصر على أمثلة منها، وخاصة تلك التي نرى أنها أقرب إلى المجال التربوي، وهو موضع عنايتنا في هذه السلسلة من المقالات.

ففي الجزء الثاني، الخاص بالعمالات الفقهية وأعمال العبادات، وما ينضاف إليها من عمالات المسجد، وعمالات آلات الطهارة، وما يقرب منها، وفي الإمارة على الحج وما يتصل بها، نجد أن شيخنا قد خصص الباب الأول عن (معلم القرآن)، وفيه ما أشار إليه أبو الفرج بن الجوزي في كتابه مشكل الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ)، وكان يعلم أهل الصُّفة القرآن، وهو أحد النقباء الإثنى عشر.

وفي مصدر آخر، عن عبادة بن الصامت، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد وجهه إلى الشام قاضيا ومعلما. وفي السير لابن إسحاق أن رسول الله (ﷺ) بعث مع الذين بايعوه في العقبة الأولى، وهم اثنا عشر، بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرئ بالمدينة. وفي مصدر آخر: استخلف رسول الله (ﷺ) عتّاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن. وورد أيضا في مصدر آخر أن رسول الله (ﷺ) استعمل عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي، على نجران، وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن.

أما الباب الثاني فقد خصصه شيخنا لمعلم الكتابة، وهنا يشير إلى ما ورد في بعض المصادر من أن عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية، كان اسمه في الجاهلية «الحكم» فسماه رسول الله (ﷺ) عبد الله، وأمره أن يُعلم الكتاب بالمدينة، أي القراءة والكتابة. وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: علّمت ناسا من أهل الصُّفة الكتابة والقرآن. وفي مصدر آخر: كان في أسرى يوم بدر من يكتب، ولم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، فكان منهم من لا مال له، فيُقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة، ويُخلي سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت، في جماعة من غلمان الأنصار.

وروى أبو داود في كتاب الطب باب ما جاء في الرُّقى عن الشفاء بنت عبد الله قالت: «دخل عليّ النبي (ﷺ) وأنا عند حفصة فقال: «ألا تعلمين هذه رُقية النملة كما علمتها الكتابة» والنملة بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيتسع.

وعقد شيخنا كذلك بابًا (في ذكر الفقه في الدين)، حيث يعني الفقه اصطلاحا: العلم بالأحكام الشرعية العملية بالاستدلال، وقد روى مسلم قول النبي (ﷺ): «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين». ومن الصحيح أيضا ما رواه أحمد وابن ماجة عن النبي(ﷺ) قال: «نضّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه إلى فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»... وكان الناس يسألون رسول الله (ﷺ) ويجيبهم، وقد سألته النساء أن يجعل لهن يوما يعظهن فيه، فأجابهن إلى ما طلبن. وقد بعث النبي (ﷺ) بعضا من أصحابه مُفقّهين في الدين، كمصعب بن عُمير إلى المدينة قبل الهجرة، ومُعاذ بن جبل إلى مكة بعد الفتح وعمرو بن حزم إلى نجران.

وفي الباب الخامس، بيان لضرورة أن يعتمد المسلم على أهل العلم يقولون له بالرأي المُرضي لله بالنزول على أحكام المولى ـ عز وجل ـ وإذا كانت الواقعة المستشهد بها في التالي أمرا يخص أحكام الشريعة، إلا أنها تشير إلى مبدأ العام، ألا وهو ضرورة الاستناد إلى أهل العلم، وفقا لكل تخصص:

فقد روى مالك في موطئه (كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم) أن رجلين اختصما إلى رسول الله (ﷺ)، فقال أحدهما: يارسول الله، اقض بيننا بكتاب الله، وقال الآخر، وهو أفقههما: أجل يا رسول الله: اقض بيننا بكتاب الله، وأذن لي في أن أتكلم، فقال: تكلم، قال: إن ابني كان عسيفا (أي أجيرا) على هذا، فزنا بامرأته، فخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة، وجارية، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني: جلد مائة وتغريب عام، وأخبروني إنما الرجم على امرأته. فقال رسول الله (ﷺ): «أما والذي نفسي بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله. أما غنمك وجاريتك فرد عليك». وجلد ابنه مائة، وغرّبه عاما، وأمر أنيسا الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر- يسألها- ، فإن اعترفت رجمها، فاعترفت فرجمها.

ومن هذه الواقعة نلاحظ أن الرجل، على الرغم من تميزه في العلم، إلا أنه أراد أن يطمئن قلبه إلى ما تصوره من حكم، فذهب إلى بعض من هو أفقه منه فأخبروه بحكم يختلف بعض الشيء عما قال به هو. ولم يكتف الرجل بذلك، فأراد أن يزداد اطمئنانا ويقينا، وكيف لا؟ ونبع الحكمة الدينية موجود على قيد الحياة بينهم، ألا وهو رسول الله ـ ﷺ ـ الذي قضى بما يختلف بعض الشيء عما تصوره الرجل... وهكذا، ليس أهل العلم والمعرفة بمستوى واحد، فعلى المسلم أن يتأكد ويستوثق، بمزيد من السؤال، ومزيد من الاستشارة لأهل المعرفة الصحيحة ممن يوثق بهم من علماء التخصص.

وفي الجزء الثالث، عدة أبواب تتناول عددا من المهام التي يتكفل بها نفر يختصون بالكتابة لأولي الأمر، الذين يتولون مسئولية إدارة شئون الأمة، وكان نموذجهم الأول بطبيعة الحال هو رسول الله (ﷺ)، حيث بدأت المسألة باستشعاره الحاجة إلى من يكتبون عنه ما يوحى به إليه من لدن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وهم من عُرفوا بكُتّاب الوحي، حيث قال القضاعي: كان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب يكتبان الوحي، فإن غابا: كتب أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، فإن لم يحضر أحد من هؤلاء الأربعة كتب من حضر من الكتاب وهم: معاوية بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وحنظلة بن الربيع.

وقال ابن عبد البر: كان زيد ألزم الصحابة لكتاب الوحى. وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب الوحى أيضا، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، وإن كان قد عاد وأسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه.

وتذكر المصادر أن أول من كتب لرسول الله (ﷺ) مقدمه المدينة: أبىّ بن كعب، وهو أول من كتب فى آخر الكتاب: وكتب فلان. وكان أبىّ وزيد يكتبان الوحى بين يديه (ﷺ)، ويكتبان إلى الناس، وقال أبو عمر: وكان من المواظبين على كتابة الرسائل: عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب الزهرى.

وذكر ابن إسحاق: كان زيد بن ثابت يكتب الوحى، ويكتب إلى الملوك أيضا.

وكان الكاتب لعهوده (ﷺ)، إذا عهد، وصلحه إذا صالح: على بن أبى طالب. وروى البخارى فى كتاب بدء الخلق باب عمرة القضاء: وكان ذلك فى صلح الحديبية بين المسلمين وقريش، وفيه: فأخذ يكتب الشرط بينهم على بن أبى طالب. وروى البخارى أيضا بخصوص مطاردة سراقة بن مالك للنبى (ﷺ)، فلما ساخت يدا فرسه فى الأرض حتى بلغت الركبتين، نادى طالبا الأمان من النبى (ﷺ)، فأمر عامر بن فهيرة فكتب له. وعند ابن إسحاق أن الذى كتب أبو بكر.

وفى الجزء الثالث أيضا نجد فى الباب السابع حديثا عن «الترجمان» وفى الترجمان لغات ثلاث: الأولى: فتح التاء والجيم معا، والثانية ضمهما معا، والثالثة فتح التاء وضم الجيم.

وفى البخارى باب ترجمة الحكام عن زيد بن ثابت أن رسول الله (ﷺ) قال له: «تعلم كتاب يهود، فإنى ما آمن يهود على كتابى» فتعلمت فى نصف شهر حتى كتبت إلى يهود، وأقرأ له إذا كتبوا له.

وفى مصدر آخر أن زيداً كان يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبى (ﷺ)، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وتعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن.

ولعلنا نقرأ ونسمع كثيراً فى سنواتنا الأخيرة عن «الشفافية» و«المحاسبة» و«المساءلة» حيث تشتد الحاجة إلى أن يتسم الحكم والإدارة بأعلى قدر من الشفافية التى تتيح حق معرفة الحقيقة لعموم الناس، فضلا عن أهمية مساءلة الحكام عما يحدث فى عهودهم، وهو ما بدأت بذوره فى عهد رسول الله (ﷺ)، ففى البخارى، فى كتاب الهبة، عن أبى حُميد الساعدى قال: استعمل رسول الله (ﷺ) رجلا من الأزد على صدقات بنى سليم يدعى: ابن اللُّتبية، فلما جاء حاسبه.

وروى مسلم مثله بزيادة، قال: هذا ما لكم، وهذا هدية، فقال رسول الله (ﷺ): فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك، إن كنت صادقًا ثم خطبنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتينى فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أُهديت لى، أفلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا؟ والله لا يأخذ أحد منكم منها شيء بغير حق إلا لقى الله - عز وجل - يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رُئى بياض إبطه، يقول «اللهم هل بلغت بصر عينى وسمع أذنى».

وهذا الذى تشير إليه هذه الواقعة يمكن أن يكون إحدى أهم المواصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الحاكم العادل، فأحيانا ما ترى قريبا للحاكم، من الدرجة الأولى أو الثانية، يثرى ثراء مذهلا، ويقولون أن هذا نتيجة تجارة، ونشاط اقتصادى حر للرجل، وهنا نتساءل تساؤل رسول الله (ﷺ)، هل إذا لم يكن له هذا الموقع من الحاكم كان سيجنى مثل هذه المكاسب والأرباح الطائلة، أم أن موقعه شجع آخرين على أن يسهلوا له وييسروا؟!

ويتناول الجزء الرابع «العمالات الأحكامية وما يتضاف إليها» حيث نجد الباب الخامس مختصا بـ «الشهادة وكتابة الشروط» فقد أمر الله - عز وجل - بالكتابة والإشهاد فى بيوع الآجال، فقال فى الآية ٢٨٢ من سورة البقرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾

فشرط توافر «العدل» فى الكاتب واضح وصريح، وفى الإشهاد، فى الآية نفسها:

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾

.. وفى بيوع النقد قال تعالى، فى الآية نفسها:

﴿ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾

وأمر الله - عز وجل - بالإشهاد فى الوصية فقال فى سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ﴾

وكذلك فى بلوغ اليتيم رشده وإعطائه حقه فقال تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

وكذلك فى الإشهاد بالطلاق والرجعة، فقال تعالى فى سورة الطلاق:

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾

وأشار الباب الحادى عشر إلى وظيفة لعبت دوراً مهما فى تاريخ الدولة الإسلامية، ألا وهى وظيفة المحتسب، حيث كان المتقلد لها يقوم عموما على المحافظة على النظام العام، ومراقبة ما يجرى فى الأماكن العامة، من أسواق وكتاتيب وحمامات عامة، ومراقبة الأسعار والموازين والمكاييل، والمحافظة على الصحة العامة عند الجزارين والخبازين، والسقائين. وكان من حق المحتسب التحقيق والفصل الفورى فى المنازعات، مما لا يدخل فى اختصاص القاضى الذى يحكم فى المظالم. وكذلك لا يدخل فى اختصاص صاحب الشرطة الذى

ينفذ الأحكام (حسب شرح الباحث سعيد هارون في هامش ص ٣٦).

وإرساء لدعائم هذه الوظيفة في عهد رسول الله (ﷺ)، روى الترمذي في أبواب البيوع عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) مر على صبرة طعام (أي كم من الطعام لا يعرف وزنه ولا كيله، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا فقال: «يا صاحب الطعام، ما هذه؟» فقال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس»، ثم قال: من غشنا فليس منا.

أما الجزء التاسع، فهو ثري بالعديد من الحرف والصناعات، ولذلك عنونه شيخنا بأنه (في ذكر حرف وصناعات كانت في عهد النبي(ﷺ)، وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم، ويكفي أن نشير إلى أبرزها فيما يلي:

في التجارة في الأسواق - في ذكر من كان بزازا في زمن النبي من كبار الصحابة- في العطار- في الصراف - في بائع الرماح - في بيع الطعام- في التمار- في بائع الدباغ - في الحطاب - في الدلال وهو السمسار- في النساج - في الخياط - في النجار - في ناحت الأقداح - في الصوّاغ - في الحداد - في البناء - في الدبّاغ - في الخواص - في الصياد في البر - في الصياد في البحر - في العامل في الحوائط (الحدائق) - في السقاء يحمل الماء على ظهره - في الحجام - في اللحام، وهو الجزار والقصاب أيضا - في الطباخ - في الشواء - في الماشطة - في القابلة - في الخافضة - في المُرضعة - في المغنين - في الحفار - فهذا الجزء وحده أشار إلى أربع وثلاثين حرفة!

وإذا كان عهد رسول الله (ﷺ) عهد بذر البذور، والتأسيس مجموعة من الحرف والمهن التي لا قوام للأمة بغيرها، فقد كان طبيعيا أن يتم الإعداد لكل منها عن طريق المحاكاة والتقليد، كما قلنا.

وفي المرحلة التالية من التطور، بدأت تظهر الكتب والدراسات التي تسعى إلى وضع الأصول والقواعد، وترسي المبادئ وتعمق المفاهيم.

أما المرحلة الثالثة، الخاصة بتأسيس معاهد ومؤسسات لإعداد العاملين في هذه المهن والحرف، عن طريق التعليم والتدريب، فهو لم يظهر إلا في مرحلة تالية من التطور والتقدم.



من تراث الهلال:

مكتبة الأزهر
درة ثمينة وتاج على جبين مصر وبلاد الإسلام


للأستاذ عاطف مصطفى

بعد أن انتهى جوهر الصقلي من بناء القاهرة شرع في تأسيس الجامع الأزهر في ١١ شعبان سنة ٣٥٨هـ/ يوليو ٩٦٩م، وأتمه في شهر رمضان سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م.. وكما تشير المراجع التاريخية استغرق بناء الجامع عامين، وأقيمت فيه أول صلاة جمعة في ٧ رمضان من نفس العام وهو أول جامع أنشئ في مدينة القاهرة.

وقد حرص صالح جودت رئيس تحرير مجلة «الهلال» على الاحتفال بمرور ألف عام على إنشاء الجامع الأزهر بتخصيص عدد من المجلة وبعض الكتب التي تصدرها سلسلة كتاب الهلال، وهي ذكرى تستحق كل هذا الاهتمام لمن يعرفون دور الأزهر التعليمي ودوره السياسي في مواقفه المشهودة في التصدي لظلم الحكام وتحريك الثورات ضد المحتل الأجنبي ومن بين المقالات التي كتبت في عدد الهلال الصادر في أكتوبر ١٩٧٢م «مكتبة الأزهر منارة العلوم الإسلامية والإنسانية»، وكانت المكتبة في ذلك الوقت منتشرة داخل أرجاء المسجد الكبير، وذهبت لعدة أيام أتجول في جنباتها، يملؤني الفخر بتلك الكنوز التي تضمها من مراجع فريدة وكتب ومخطوطات نادرة.

تناول الموضوع في مقدمته أن أول من أنشأ مكتبة في العصر الإسلامي هو خالد بن يزيد الأموي في دمشق، وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية، كما انتشرت المكتبات العامة في بغداد والأندلس ومصر، واهتم الحكام في كل بلد إسلامي بإنشاء المكتبات، ووصل الأمر إلى حد المنافسة في اقتناء الكتب، وتقريب الأدباء إلى مجالسهم والاهتمام بأمورهم، وقد بلغ عدد المكتبات في غرناطة وحدها سبعين مكتبة.

وقد اقتدى الفاطميون بمصر بخلفاء

بغداد والأندلس فى إنشاء المكتبات، والاهتمام وتنشيط الحركة العلمية، فأنشأوا مكتبة «خزانة الكتب»، و«مكتبة دار الحكمة»، ومكتبة «الجامع الأزهر» ونالت المكتبات فى ذلك الوقت اهتماما شديدا من العزيز بالله فكان يجرى الأرزاق على العلماء والأطباء، ويهتم بكل ما من شأنه رفع الثقافة وزيادة المعرفة بين أهل مصر.

صراع من أجل البقاء

يشير المقال إلى أن المكتبة الأزهرية الموجودة الآن (١٩٧٢) ليست هى مكتبة الأزهر القديمة التى أشار إليها المؤرخون فى كتبهم، وإنما هى مكتبة حديثة قامت على أطلال المكتبة القديمة، فقد قال ابن ميسر فى كتابه «أخبار مصر» سنة ٥١٧هـ «إنه قد أسند إلى داعى الدعاة أبى الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب».

وقد ذكر المقريزى (خطط جـ٢ ص٢٧٢، ٢٧٥) «أن الحاكم أمر بنقل نصف الكتب التى كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر، والباقى إلى مسجده، ومسجد المقس».. ويتضح من هذا أن مكتبة الأزهر كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب (فى ذلك الوقت).. وقد وزعت كتب مكتبة الأزهر على الأروقة التى بلغ عددها زهاء الثلاثين رواقا وزاوية، وأشهرها رواق الشوام والمغاربة والأتراك، والشراقوة، والأروام، وآخرها الذى أنشئ قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل وهو الرواق العباسى، وذلك لإطلاع الطلبة عليها، وخصص منهم من يقوم على هذه الكتب وحفظها.


صالح جودت

تسرب الكتب وضياعها

ولكن اتضح أن كثيرا من نفائس الكتب التى كانت مودعة بمكتبات الأروقة تسرب على أيدى علماء أوروبا ومكتباتها الشهيرة، وذلك عن طريق سماسرة الكتب الذين استغلوا الجهل والضعف الخلقى فى نفوس بعض القائمين على هذه المكتبات فى بعض الفترات.

وإلى جانب تسرب الكتب وبيعها بأبخس الأثمان، فقد أهمل البعض وترك فى سراديب طعاما سائغا للحشرات، وتكومت فوقه الأتربة، فتلفت أوراقها، وبليت ومزقت وقطعت جلودها وكاد لا يوجد منها كتاب سليم إلا ما ندر!

كما أن الفرنسيين حينما اقتحموا الأزهر بخيولهم أثناء الحملة الفرنسية على مصر نهبوا كثيرا من هذه الكتب التى يوجد البعض منها بمكتبة باريس حتى الآن (ومن حق مصر أن تطالب باستعادتها مرة أخرى).

دور مهم للشيخ محمد عبده

ويشير المقال إلى أن تعرض كتب الأروقة للضياع والتسرب إلى أيدى المتربصين بها ممن يعرفون أقدارها، والذين تخصصوا فى الحصول عليها وإرسالها إلى أوروبا، هو الذى أوحى للشيخ محمد عبده بفكرة إنشاء مكتبة الأزهر، بعد أن راعه أن هذه الكنوز العلمية مبعثرة لا يهتم بها أحد، وكان ذلك ضمن برنامجه الإصلاحى للأزهر والذى أخذه على عاتقه.

وقد تقدم الشيخ محمد عبده بفكرته هذه إلى مجلس إدارة الأزهر، فنالت الفكرة القبول من أعضائه، وبخاصة الشيخ حسونة النواوى شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت، والذى وهب مكتبته الخاصة لهذا المشروع الجليل دون تردد ليقتدى به الآخرون.

واجتمع مجلس إدارة الأزهر لدراسة هذا المشروع، وما لبث أن وافق عليه واختار المكان المناسب لعمل مكتبة الأزهر.

وكتب لديوان الأوقاف الذى كان يتولى الإشراف على شئون الأزهر للإعداد لتنفيذ هذه الفكرة.

وتم تنفيذها فعلا فى أول المحرم سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م.

وقد لاقى الإمام محمد عبده كثيرا من الصعاب فى إقناع القائمين على الأروقة بفائدة مكتبة الأزهر، وضرورة تنفيذها، حفاظا على التراث الإسلامى من


حسونة النواوى — محمد عبده

الضياع، وتجمعه فى مكان واحد ليكون أكثر فائدة، وأعم نفعا لطلاب الأزهر فى كل بلاد العالم الإسلامى.

ولم يكتف محمد عبده بتكوين المكتبة بما جمع من مكتبات الأروقة، بل دعا الأغنياء والعلماء إلى المشاركة فى تكوينها، مستعينا فى ذلك بمدى حبهم له ومكانته عندهم، فاستجاب البعض لذلك وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوى وورثة سليمان باشا أباظة.

مكتبة مبعثرة

حينما تجولت فى أرجاء المكتبة فى ذلك الوقت لم تكن مكتبة الأزهر - كما يتبادر إلى الذهن - مكانا محدد المعالم، تستطيع أن تجد فيه بغيتك من قاعات مجهزة للقراءة، كافية الإضاءة، لكنها تشمل أماكن كثيرة، فهى تشمل أربعة أمكنة متفرقة داخل الجامع الأزهر، وهى المدرسة الأقبغاوية والمدرسة الطيبرسية ورواق الأحناف والرواق العباسى.

والمدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل إلى الأزهر من بابه الغربى الكبير، وقد أنشأها الأمير أقبغا عبدالواحد على نظم المدارس الإسلامية فى ذلك الوقت.. وفى

المدرسة الأقبغاوية توجد المكتبة العامة بجميع فنونها التى تبلغ اثنين وستين فنا.

أما المدرسة الطيبرسية فهى على يمين الداخل إلى الأزهر من بابه الغربى، وقد أنشأها علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش المصرية، وأتم بناءها سنة ٧٠٩هـ.. وقد شغلت المكتبة أولاً المدرسة الأقبغاوية، وعندما ضاقت بالكتب ضمت إليها المدرسة الطيبرسية حتى تستوعب الكتب الكثيرة والمخطوطات التى أمكن تجميعها بعد جهود شاقة بناء على اهتمام الشيخ محمد عبده بجمع التراث والاحتفاظ به لكل طالب علم.

ربع مليون كتاب

ضمت مكتبة الأزهر حتى عام «١٩٧٢» ربع مليون كتاب ومخطوط، وتشمل اثنين وستين فنا.

وتعد ثانى مكتبة فى مصر بعد دار الكتب، ويوجد بها أكبر مجموعة فى العالم من التراث العربى الإسلامى، منها مخطوطات ثمينة لا توجد فى أية مكتبة سواها، برغم السرقات والإهمال الذى لحق بها حقبا طويلة من الزمن، وبعض هذه المخطوطات بخط مؤلفيها الكبار.

ولو طبعت هذه المخطوطات وتداولها الباحثون، لغيروا رأيهم فى كثير من مفكرى العرب والمسلمين، ولعرفوا قدرهم فيما توصلوا إليه بثاقب علمهم، وغزير إنتاجهم لشتى النظريات فى الطب والفلك والرياضيات.

كنوز بمكتبة الأزهر

تضم المكتبة التى ورثت خلاصة الثقافة الإسلامية فى الشرق ممثلة فى مؤلفات علماء الجامع الأزهر بصفة خاصة وعلماء الإسلام بصفة عامة.

فالأزهر قبلة العلماء، وصفوة النابهين من المسلمين لأكثر من ألف عام مضت، وكان ولايزال مصدرا من مصادر الثقافة الإسلامية الرشيدة لراغبى العلم من كل بلاد العالم.

وفى المكتبة بعض مؤلفات السيوطى بخطه، وبعض مؤلفات ابن حجر وبها جزء من القاموس بخط مؤلفه الفيروزبادى، وبها نسخة ينقصها جزء من شرح ابن بطال على البخارى، ولا تعرف هناك نسخة أخرى فى جميع مكتبات العالم غيرها.

وبها مخطوطات ترجع إلى نحو ما يقرب من ألف سنة مثل: كتاب غريب الحديث لابن سلام، وكتاب البعث لابن داود السجتانى.

ومن الكتب النادرة بها كتاب رسوم دار الخلافة الذى نشر أخيرا محققا نظرا لأهميته.

وأهم ما يلفت نظرك فى المكتبة، المصاحف المختلفة الأحجام والتى كتبت بماء الذهب، ومنها المصحف ذو الحجم الضخم الذى وقفه أقبغا صاحب المدرسة

عام ٧٤٠هـ، ومصحف شريف فى تسع عشرة ورقة مهدى إلى المكتبة من عباس حلمى، ومصحف بالخط الكوفى مكتوب على ورق الغزال يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الرابع الهجرى.

ويوجد أيضا صندوق صغير غاية فى الروعة ودقة الصنع به «ربعة قرآن» وهو باسم الناصر محمد بن قلاوون، وهذا الصندوق من أندر روائع الفن الإسلامى الباقية حتى الآن.

هذا بالإضافة إلى مجموعات نادرة من المخطوطات فى علوم اللغة والتاريخ والفلك وبعضها يحتوى على «حواش» بخط المؤلف نفسه.

تناول مقال الهلال: نشاط مكتبة الأزهر، وبسبب نشاطها العلمى البارز ضم إليها الرواق العباسى، لكى تستوعب أكبر عدد من الكتب، وكذلك محاولة إنجاز فهرس المكتبة والذى طبع منه ــ فى ذاك الوقت ــ سبعة أجزاء وكان الثامن تحت الطبع.

إضافة إلى العناية بتصنيف وإعادة إبراز الكتب المجهولة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتى من شأنها أن تلقى ضوءا على الكثير من التيارات الفكرية التقدمية التى تشيع لها الأزهر فى فترات الاحتلال، وفى عهود التخلف العثمانى.

وكان الأزهر مليئا بأصحاب النزعات والأفكار التجديدية والتى اهتم بعضهم بالعلم فى حد ذاته، فألفوا أهم المراجع فى أبواب العلم والمنطق والتفسير، واهتم بعضهم الآخر بجوانب التجديد الاجتماعى.


عبدالحليم محمود

طالب المقال بتطوير هذه المكتبة كما جاء فى تلك الكلمات: «إن مكتبة الأزهر بكل ما تحويه من هذه الكنوز، وهذا التراث العلمى الفريد الذى يحتاج إلى مراجع كثيرة لحصره، ونقله إلى محبى التراث العربى والإسلامى لتحتاج إلى تغيير جذرى فى كل شىء وبأسرع ما يكون، ولابد لوزارة الأوقاف وشئون الأزهر وعلى رأسها فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود بأن تسرع بإنشاء مبنى يتناسب وهذا التراث الإسلامى العريق، وتجند كل القوى المحبة للعلم، والتى لها إلمام بتراث تلك المكتبة، فتضاعف من الكتب والمخطوطات المتناثرة هنا وهناك، حتى تحفظ تلك الدرة الثمينة التى تعد تاجا على جبين مصر والشرق العربى.

* * *

وقد تحقق هذا الرجاء وللأزهر الشريف مكتبة شامخة بحق فى مبنى رائع مستقل فى رحاب مشيخة الأزهر.. ونرجو أن تفرد لها صفحات فى عدد قادم بإذن الله.

بين الصحف والمجلات



إعداد: أ. محمد جمعة

إلى أين تتجه المنطقة؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ عبد العزيز التويجرى المنشور بجريدة «الحياة» الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢م يقول:

ماذا يجرى فى العالم الإسلامى اليوم؟ إنه وضع غريب ومريب. ففى الوقت الذى تفاقمت فيه حدة المأساة الإنسانية المروعة فى سوريا، ويستمر النظام القمعى فى سفك دماء شعبه، تهاجم قوات جنوب السودان حقل هجليج النفطى الواقع فى أراضى جمهورية السودان، وتحتله بالقوة مهددة بنشوب حرب جديدة فى المنطقة، ويقوم الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد -بزيارة مفاجئة- هى الأولى من نوعها من زعيم إيرانى، إلى جزيرة أبو موسى الإماراتية المحتلة من طرف إيران مع جزيرتين أخرتين، ويتفاقم الوضع الأمنى فى ليبيا على نحو يهدد باتساع رقعة المعارك القتالية التى تنشب بين أطراف ليبية يناصب بعضها بعضاً العداء، ويزداد الوضع سوءاً وتدهوراً فى اليمن، وتدخل مصر نفقاً مظلماً لا أحد يعرف له مخرجاً، وتشتد النزاعات المسلحة فى الصومال الذى لم يعد أحد يعرف هل هو دولة لها سيادة أم مجرد مناطق متناحرة لا تملك مقومات الدولة، ويصر بعض مواطنى البحرين من الشيعة على استمرار التوتر فى بلدهم رغم كل المبادرات الجادة التى قامت بها الدولة، سائرين فى مخطط يخدم أطماعاً خارجية أضحت واضحة لكل منصف.

وتأتى الأحداث القلقة التى تقع فى جمهورية مالى لتزيد من حالة التوتر التى تسود هذا الجزء من العالم العربى الإسلامى؛ لأن مالى ترتبط بحدود مع دول عربية من شمال أفريقيا، ومع دول إفريقية كلها دول أعضاء فى منطقة التعاون الإسلامى.

فليس صحيحاً أن نفصل بين ما يقع فى سوريا والعراق واليمن ومصر والخليج، وبين ما يحدث فى السودان والصومال وليبيا ومالى وتونس. فهذه خريطة واحدة مترابطة الأجزاء جغرافيا وبشريا وأمنيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا -أو من المفروض أن تكون كذلك- لأن منظومة الأمن العربى الإسلامى لا يمكن أن تنفصل إلى أجزاء متفرقة.

إن هذه القلاقل التى تهدد الأمن العربى الإسلامى، وهذه الأزمات التى لا تزيدها الأيام إلا تفاقما بشكل مرعب، يجب أن تدفعنا إلى العمل السريع لمواجهة من يحركها ويستفيد من تداعياتها.

كما لا ينبغى أن تصرفنا هذه القلاقل والأزمات عن الاهتمام بقضايا التنمية وتطوير الواقع وإصلاحه إصلاحا شاملا متكاملا.

فهل سنظل غارقين فى بحر الأزمات المتلاحقة فى منأى عن ساحة العمل الجدى الهادف لإصلاح الأحوال وللنهوض بالمجتمعات العربية الإسلامية من النواحى كافة، ننتظر الذى يأتى ولا يأتى، بينما شعوبنا تتطلع إلى حياة جديدة فى ظل الحرية والعدالة والكرامة والحكم الرشيد.

فوق كل المؤامرات

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور هاشم عبده هاشم المنشور بجريدة «عكاظ» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٤/٣٠م يقول:

عندما تقحم الشعوب فى قضايا لا مصلحة لها فيها.. وعندما يزج بالأوطان فى «متاهات» خانقة.. لا ذنب لها فيها. فإن ذلك التصرف اللامسئول. يؤدى لا محالة إلى «احتقانات» أمنية وسياسية خطيرة..

والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية بلدان كبيران ومحوريان.. ولابد أن يكونا فوق كل خلاف مصطنع.. أو استدراج مبيت.

إن قدر المملكة ومصر هو أن يكونا قوتين أساسيتين فى ترسيخ دعائم الأمن والاستقرار فى المنطقة، بحكم موقعهما الأبرز فى الإقليم، وكذلك بحكم الروابط المتينة التى تجمع شعبيهما.. وهى روابط لا يمكن أن تضعف أمام الكثير من الهزات والاختبارات. والمحاولات اليائسة للتشويش عليها.

ولست هنا بصدد استعراض الأزمات والمشكلات المفتعلة، التى أطفأها وعى الشعبين.. وإرادة البلدين المدركة لما يدور حولهما.. وما ينصب لهما من شراك لإضعاف أواصرهما.. وشحن نفوس الشعبين ضد بعضهما البعض لأسباب وحجج واهية، وقضايا عرضية ومفتعلة.

هذا الكلام يقوله كل مصرى واع ويؤكد عليه كل مواطن سعودى مدرك لأهمية أن يبقى البلدان قوة توازن فى منطقة تكاد تفقد هذه الميزة بفعل الاستهداف لركائز قوتها. وتماسك بنيانها.. وصلابة إرادة قيادتيهما..

وإذا كان هناك ما يجب أن يلفت النظر إليه.. فهو انزلاق النخب التى يفترض فيها أن تكون عامل بناء. ومصدر قوة.. ودرع حماية للدولتين ضد كل ما يحاك ضدهما.

وكلى ثقة بأن الجميع يدركون مدى حاجة البلدين.. وجمهورية مصر العربية على وجه التحديد، لمزيد من الهدوء والتعاون، والتكاتف، لكى يتجاوز البلد المرحلة الراهنة.. ويتجنب تعريض السلامة العامة للبلاد والعباد - لا سمح الله - لأخطار داهمة ومدمرة.

المسلمون وصعود اليمين المتطرف فى أوروبا

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور محمد حسين اليوسفى المنشور بجريدة البيان الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٥/٣م يقول:

لعل الجولة الأولى من الانتخابات الفرنسية قد دقت ناقوس الخطر، إذ استطاعت ممثلة الجبهة الوطنية اليمينية المتطرفة مارين لوبن، أن تحصد حوالى ١٨٪ من أصوات الناخبين الفرنسيين.

والمعروف عن لوبن موقفها المتشدد من الهجرة ومن المسلمين، وكان من تصريحاتها المشهورة تشبيهها صلاة المسلمين فى الشوارع؛

بسبب قلة المساجد، بـ«الاحتلال النازي لفرنسا»! ووجهة نظر لوبن المتشددة تعكس النظرة العامة السائدة في أوروبا، وبالذات في فرنسا التي يعيش فيها ٥ إلى ٦ ملايين مسلم، وألمانيا التي تضم ٤ ملايين مسلم أيضاً.

فقد أظهر استطلاع للرأي في كلا البلدين قبل أكثر من عام، تبعاً لما نشره موقع فضائية فرنسا ٢٤ في الرابع من يناير ٢٠١١م أن حوالي ٤٠٪ ممن استطلعت آراؤهم في البلدين رأوا إن المسلمين يشكلون «تهديداً»، وحوالي ٦٨٪ من هؤلاء من الفرنسيين و٧٥٪ من الألمان رأوا أن المسلمين لم يندمجوا في مجتمعهم الأوروبي الجديد.

وفي سياق الاندماج الاجتماعي، نشر مسئول سابق في البنك المركزي الألماني، واسمه ثيلو سارازين، كتاباً عن الهجرة ذاع صيته إذ بيع منه مليون وربع المليون نسخة، انتقد فيه مقاومة المهاجرين المسلمين للاندماج في المجتمع الأوروبي. وقد ردد صدى هذا الرأي كبار قادة أوروبا، وعلى رأسهم ساركوزي وميركل وديفيد كاميرون البريطاني، حينما اعتبروا أن «التعددية الثقافية قد فشلت» (نفس المصدر، ١١/٢/٢٠١١م).

ثم يقول الكاتب:

وقد أججت تلك المشاعر العمليات الإرهابية بدءاً من حادثة الحادي عشر من سبتمبر التي مضى عليها أكثر من عقد، إلى أعمال القتل التي ارتكبت مؤخراً في مدينة تولوز الفرنسية على يد أحد أبناء المسلمين. فالإرهاب الذي ضرب أوروبا جاء للأسف باسم الإسلام، فأظهر هذا الدين وكأنه دين حرب وعنف في نظر الشارع الغربي عموماً.

خلاصة القول: إن صعود اليمين يشكل تهديداً لكل الجاليات في المهجر الأوروبي، لكنه يخص أكثر ما يخص الجالية المسلمة في هذه المرحلة التاريخية، وبالتالي فإن علاج ذلك هو أن تتكاتف قوى الجاليات الإسلامية المستنيرة مع الجماعات التقدمية والإنسانية والداعمة لحقوق الإنسان، وإقامة جبهة عريضة لتقف كسد أمام المد اليميني.. أما تقوقع المسلمين على أنفسهم فهو الخطر الماحق لهم.

الإسلام ينتشر في أوروبا

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور جمال رجب، المنشور بجريدة «اللواء الإسلامي» الصادرة بتاريخ: ٣/٥/٢٠١٢م يقول:

أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عبر موقعها الإلكتروني وشبكة سي إن إن على شبكة الإنترنت أن الإسلام هو أكثر وأسرع الأديان انتشاراً بشكل يثير الدهشة، لاسيما بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م والواقع أن هذا التحليل ليس بجديد، فالإسلام بمنهجه القذ الرباني قادر بقوته الذاتية على الوصول إلى أعماق النفس البشرية.

إن الكتابات الغربية غير المنصفة تؤثر بالسلب على نفسية الإنسان الغربي، وتطفح آراؤهم بهذا السلوك، مثلاً برنارد لويس المستشرق الأمريكي الذي ذهب بكل مذهب للتشهير بالمسلمين في المجتمع الغربي، فمن مبادئه:

– لا تدخر أي جهد في إلحاق أية وصمة عار بالإسلام والمسلمين.

– تحسين صورة إسرائيل لدى الرأي العام. إن كتابات هذا الرجل تطفح بالكره للإسلام ونبي الإسلام، هذا في الوقت الذي نجد فيه مفكراً آخر هو جون اسبوزيتو الذي اشتهر بمواقفه المدافعة عن الإسلام والمسلمين ورغم كتابات الرجل الموضوعية إلا أنها لم تستثمر الاستثمار الأمثل.. إن الوقت أصبح مناسباً لنشر دعوة الإسلام في الغرب، والأمر يحتاج إلى خطط علمية مدروسة ومجهودات إسلامية منظمة لنشر كلمة الحق.

تغيير جغرافيا الأقصى، وكيمياء العقل الإسلامي

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور محمد حسين أبو العلا المنشور بمجلة «أكتوبر» الصادرة بتاريخ: ٨/٤/٢٠١٢م يقول:

الانتهاكات الآنية الصارخة لاقتحام الأقصى مجدداً وتنفيذ مخطط اللوبي لبناء مبنى ضخم في ساحة البراق ليستوعب نحو ثمانية ملايين سائح، وقد اعتمدت آليات كثيرة تمهيداً لإقامة ذلك الصرح منها: تسخير الكتيبة الإعلامية والدعائية لنشر صور مروعة للمسجد وقد أزيلت منه قبة الصخرة، وتخصيص كاميرات للمراقبة داخل باب المغاربة ترصد كل مصلي، ذلك بجانب إغلاق أبوابه كاملة بالسلاسل الحديدية على من فيه من المصلين. وانطلاقاً من ذلك فقد طرحت خارطة طريق ليستبصر بها الساسة العرب وقد تبلورت نقاط هذه الإستراتيجية في ضرورة الوقف الفوري لقرار الحكومة الإسرائيلية بضم نحو مائة وخمسين موقعاً أثرياً فلسطينياً لقائمة الآثار اليهودية، وسد جميع الأنفاق أسفل الأقصى مع الوقف الفوري أيضاً لكل أعمال الحفر والهدم للمباني والمنازل الأثرية بالقدس، والسماح للبعثات الآتية من الدول العربية والإسلامية بترميم كل ما خلفته أعمال الحفر من هدم وتخريب بالأقصى وإدخاله مرة أخرى ضمن قائمة التراث الحضاري العالمي بعد شطبه آنفاً، كما تحتوي تلك الاستراتيجية على عدد من المحاور الأخرى يتصدرها مراجعة كل القرارات الدولية لاسيما قرارات اليونسكو المتعلقة بحماية التراث والتي تخالفها إسرائيل متحدية المجتمع الدولي واتخاذ الإجراءات القانونية عن طريق اتحاد المحامين العرب والمنظمات الحقوقية، وتبقى آخر هذه المحاور متضمنة لتوثيق عروبة القدس بإنشاء مركز علمي خاص بجامعة الدول يحوي كافة الكتب والوثائق والدراسات الخاصة بالقدس بجانب الوثائق الخاصة باجتماعات لجنة التراث العالمي سنوياً وتبادلها عربياً وإسلامياً.

ثم يقول الكاتب:–

إن القراءة الصحيحة لمفردات القضية كانت تقتضي وتستوجب استخدام لغة الواقع بحيثياتها المتعددة وليست اللغة الافتراضية المثالية التي تفتقر لوجود آليات تعد محققة للأهداف المرجوة، فاللحظة المعاصرة لها ظروفها وشرطياتها بل وقوانينها التي لم تغفل أبداً أن الأقصى هو أكثر الأماكن في العالم شهوداً لتحولات جيوبولوتيكية نظراً لقوة وضعف واحدة من الدول المجاورة وهو ما كان مبرراً للقتال من أجل التوسع والانتهاك وتغيير الجغرافيا..

وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا (٨)



للأستاذة الدكتورة/ حورية توفيق مجاهد

الحاج عمر التل[1]، وجهاده فى غرب إفريقيا:

استمد الحاج عمر - أيضاً - إلهامه فى أفكاره من حركة النهضة الصوفية فى الشرق الأوسط فى القرن ١٨. وقد أصبح زعيماً وبطلاً فى غينيا والسنغال ومالى انطلاقاً من منطقة فوتاتورو. وتميز بالطموح السياسى فضلاً عن زعامته الدينية للتيجانية وقد حقق نجاحاً كبيراً فى الأمور العسكرية وفى التوسع لنشر الإسلام، واستطاع بناء إمبراطورية كبيرة لكنه لم يعش ليتمم أعماله بنجاح، حيث تحالفت ضده جماعات المسلمين المعادين له، كما وجهت فرنسا ضرباتها له ولم تستطع فى الواقع أن تقر سيطرتها الاستعمارية إلا بعد القضاء على حكمه ودولته الإسلامية التى أنشأها. وكان تأثير الحاج عمر كبيرا على كثير من الجماعات المسلمة وغير المسلمة خاصة البمبارا، وقد اعتقد بعض أتباعه والمؤمنون به بأنه مهدى أو واسطة للمهدى ووكيل عنه.

وقد جاء من التورودبى مثله مثل دان فوديو، من أسرة متدينة عارفة بالإسلام: حيث درس منذ صغره على يدى والده - معلم الدين - العربية والعلوم الإسلامية وحفظ القرآن وصحيح البخارى ومسلم. ثم غادر موطنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ودرس على يد العديد من المعلمين المحليين. كما قرأ الكثير من كتب القانون والشريعة. وعمل منذ سنة ١٨١٤ معلماً للقرآن وأصول الدين خاصة فى منطقة ساتينا حيث ذاع صيته قبل سفره لأداء الحج.

وقد التحق الحاج عمر بالتيجانية - التى تميزت باتجاهها الإصلاحى - وهو فى العشرينات من عمره قبل سفره لأداء فريضة الحج عام ١٨٢٥م يصحبه أخوه علىّ. وفى طريقه سيراً على الأقدام وصل إلى سوكوتو وبقى عند أميرها محمد بللو - ابن الشيخ عثمان دان فوديو وخليفته - عشرة أشهر حيث أكرم وفادته وأعطاه جارية رُزق منها بولد. وعند وصوله القاهرة قابل مسئولاً مصرياً مختصاً بوفادة الزوار الآتين من الغرب الذى قام باستدعاء العلماء الذين سألوه فى أمور الدين واللغة العربية والقانون والمنطق وغيرها.

وقد نجح فى إثبات تفقهه فى الدين وتمكنه من اللغة العربية، فزودته السلطات المعنية بما يحتاجه لإتمام رحلته إلى مكه. وفى مكة قابل ممثل التيجانية فى الحجاز - محمد غالى[2] - وقدم نفسه وماله وخدمته له، وظل معه ثلاث سنوات فى المدينة يدرس على يديه. وقد تلقى على يديه تعاليم خاصة فى طقوس التيجانية وأدخل فى أسرار الطريقة وكان بمثابة سكرتير «للغالى». وفى نهاية تلك السنوات أخذه الغالى لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاه إجازة تؤكد أنه عامل باسم التيجانية برتبة عالية يعتقد أنها رتبة خليفة وفى نفس الرتبة التى شغلها الغالى نفسه. وكانت إجازة الغالى لعمر تنص على أن عمر هو «أفضل من لديه فى الدنيا والآخرة»، وأنه «مخول السلطة لإعطاء تعاليم التيجانية وذلك لكل من يسألها من المسلمين: صغارا أم كبارا، مطيعا أم ثائرا، رجلا أو امرأة، عبداً أو حراً». كما أكد على أن «التيجانية طريقة محمدية وأنه يجب ألا يخلط بينها وبين الطرق الأقدم غير الإصلاحية مثل القادرية، وأنها عالية بحيث إنها ضمت إليها النساء والعبيد». كما أعطته الإجازة سلطة تعيين رؤساء أقاليم للطريقة فى حدود ١٦ شخصا برتبة مقدم، كل منهم يعتبر مقدما لأربعةآخرين وفقاً للتقاليد المحلية ويكون كل مقدم مسئولا عن رعاية الأمور الدينية والدنيوية فى منطقته[3].

وفى طريق عودته بقى فترة فى القاهرة لتكملة دراسة تفسير القرآن فى الأزهر. ثم غادرها سنة ١٨٣٠ إلى غرب إفريقيا متجها أولا إلى بورنو، حيث كان أميرها الكانمى قادريا ومعاديا للتيجانية. وبالتالى معاديا للحاج عمر الذى اعتبره راديكاليا كما اعتبره منافسا له فى بورنو. ولكن العلاقات تحسنت بينهما إلى حد أن الأمير قد زوج ابنته من الحاج عمر. وكان الحاج عمر يردد ما يراه من رؤى يرى فيها عادة الشيخ التيجانى توحى بأن لديه هبة إلهية أو قدرات استثنائية.

ومن بورنو سافر لسوكوتو حيث جدد علاقته القوية بمحمد بللو وغادرها بعد موته مباشرة[4]. وطوال فترة إقامته عمل على نشر التيجانية بين شعوب الهوسا (الحوصا) وبين النخبة الحاكمة فى سوكوتو، وهو مالم يقم به عند زيارته الأولى فى طريقه للحج. وقد مكنته إقامته بسوكوتو وعلاقته بالأسرة الحاكمة من اكتساب دراية وخبرة بما يجرى

---

(١) وللمزيد من المعلومات، انظر: MARTIN, OP. CIT. PP. 68 - 98.
هو عمر بن سعيد بن عثمان الفوتى التورى الكيديو [من جيدى]. وقد ولد فى هلوار قرب بودور فى جيدى من مناطق شمال السنغال. ومدن هلوار وبودور مازالت مدنا هامة قرب موريتانيا وبالتالى مفتوحة لنفوذ العرب شمالاً. ويُعتقد أنه وُلد سنة ١٧٩٤. وتوفى فى ١٢ فبراير عام ١٨٦٤ الثالث من رمضان ١٢٨٠هـ.

(٢) كان مغربياً درس على التيجانى فى كيزه الذى عينه ممثلاً له فى الحجاز.

(٣) لمزيد من المعلومات عن الحاج عمر وعن الإجازة انظر:
MARTIN, OP. CIT. P.P 71-72 & HOREYA T. Megahed Mali in Iransition Study of Continuity & Innovaation in Nation - Building, Ph. D. Dissertation. Indiana University. Oct. 1965. pp. 46 - 67.57 - 63.

(٤) كان بللو قبل وفاته قد أعطى عمر شهادة يلقى بموجبها تعيين ابنه كخليفة له ويعين بدلاً منه عمر ولكن هذا الأخير رفض الدخول فى صراع سياسى مع عتيقو بن بللو وبالتالى قرر العودة لوطنه.

داخل الخلافة الفولانية مما ساعده عند تأسيس دولته وحكمها. وكانت إقامته في سوكوتو تكملة لفترة الثراء الفكرى التى قضاها فى المدينة والأزهر حيث قام بكتابة بعض آرائه ومؤلفاته.

كما قال عن نفسه أنه تعلم القتال فى منطقة الهوسا حيث طور اهتماماً كبيراً بالأمور العسكرية: فقد وضعه الهوسا على رأس جيوشهم وعاد منتصراً فى كل مرة مما عاد عليه بالعديد من الممتلكات والنساء والعبيد. فضلاً عن هذا فإنه أحضر معه من مكة نسخاً كثيرة من القرآن والكتب الدينية وباعها، والبعض يقول أيضاً إنه كان يبيع الأحجبة. ومن ثم يمكن القول بأنه كانت لديه القدرات المالية التى مكنته من التفرغ لأمور الدين والتخطيط للحرب والدعوة للطريقة التيجانية.

وقد غادر الحاج عمر سوكوتو إلى موطنه عام ١٨٣٨ تتبعه أعداد كبيرة من أتباعه فى التيجانية بالإضافة إلى مؤيديه وعبيده. وفى طريقه بقى شهراً بماسينا حيث استطاع أن يجذب أعواناً كثيرين للطريقة.

وقد جرت عدة محاولات لقتله من مناهضى التيجانية، وقد اتهمه الكثيرون بأنه ينشد سلطة دنيوية ويحمل راية القوة، ولكن البعض رآه مجدداً للإسلام فى المنطقة. وما لبث ملك البمبارا - وكان يدين بالديانة التقليدية - أن سجنه فى سيجو لفترة وتركه بعدها وغادرها إلى كنجابا - المعروفة أيضاً باسم ماندى كابا - وكانت مركزاً إسلامياً شهيراً، حيث أكرمت وفادته ومنها انتقل إلى غيرها من المناطق المجاورة. ثم إلى منطقة فوتا جالون.

وقد أمضى الحاج عمر ما تبقى من حياته من ١٨٥٥ إلى ١٨٦٤ فى الحرب. وكان لاتساع نطاق الحرب والسرعة المذهلة لغزواته وفتوحاته الانطباع الواضح على أنه نظم جيشاً كبيراً وأحسن إعداده بالأسلحة وقد قدر عدده بـ١٢ ألف رجل وإن كان فى بعض المعارك الهامة قد زاد عدد رجاله إلى ٣٠ ألف شخص[٥].

لقد واكب تغلغل الجيوش الفرنسية لداخل إفريقيا انطلاقاً من السنغال بناء إمبراطورية الحاج عمر وتوسعه بين من يدينون بالديانة التقليدية وللدعوة للإسلام ونشره. حيث وصل نفوذه وسلطانه إلى المناطق التى وصل إليها الفرنسيون وأقاموا تجارتهم ونفوذهم فى أعالى السنغال.

هذا ويؤكد الاحتكاك بين جيش الحاج عمر والجيوش الفرنسية أن جيشه لم يكن يقل عن الجيوش الأوروبية خاصة وأنه كان يحارب على أرضه ويتمتع أفراده بروح معنوية مرتفعة. وقد كانت أكبر مجموعة متماثلة ومتماسكة عرقياً هى التى جاءت من موطنه الأصلى فوتاتورو سواء من المواطنين أنفسهم أم من حلفاء توروديى فى حروب سابقة وبعض العرب والبربر من جنوب موريتانيا، فضلاً عن بعض جماعات من فوتاجلون وقلة من المسلمين السوننكى (السراكولى) والولوف. كما أن الأسلحة

(٥) MARTIN, OP. CIT. P. 86

وللمزيد من المعلومات عن جيش الحاج عمر وجهاده وتقييمه انظر المرجع السابق، ص ٨٥ - ٩٨.

تنوعت وتضمنت بنادق ومسدسات وربما بعض المدافع القليلة مع ذخيرة ومعدات من المناطق الساحلية فى سيراليون أو منطقة السنغال، وهى أسلحة أوروبية الصنع جاءت من إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال. وقد حرص الحاج عمر على تخزين أسلحة ومعدات ضخمة قبل بدء جهاده. كما كان لديه ما يكفى من الذهب ليدفع مقابل ما يريد. كما استخدم العبيد لهذا الهدف أيضاً. ولم يكتف بشراء الأسلحة والذخائر بل حرص على تصنيعها حيث عمل على تعيين فريق من صناع البنادق والمتخصصين فى إصلاح الأسلحة. وقد استطاع رجاله تصنيع المفرقعات من المواد المحلية.

وفى توسع الحاج عمر ودخوله كارتا اقترب من المركز الفرنسى الجديد فى باكل على نهر السنغال. وقد سعى لمهادنة الفرنسيين فى مقابل دفعهم الجزية وفى مقابل مدهم له بالمعرفة الفنية، الأمر الذى لم يتقبله الفرنسيون فى مخططاتهم الاستعمارية فى ذلك الوقت. وكان هدف عمر البعيد أن يصبح إماماً أو سلطاناً على فوتا تورو، أما هدفه القريب فكان غزو البامبارا - الذين يدينون بالديانة التقليدية والذين ينظر إليهم عامة باعتبارهم وثنيين. ومن ثم بدأ مخططه بالهجوم على دولة البمبارا فى كارتا وسيجو. وولى ابنه حاكماً على الأخيرة. كما استولى على مملكة الفولانى المسلمة فى ماسينا وجعل عاصمتها «حمد الله» عاصمة له[٦].

ولكنه فشل فى مواجهة الفرنسيين عند مهاجمته حصنهم فى «مدين»[٧] الذى أنشأوه عام ١٨٥٦، ووضح له أن الفرنسيين توسعوا عن مجرد ما ذكروه من أن هدفهم التجارة. وبالتالى فإن المواجهة بينهم أكثر من ذلك قد تكون خطراً على مخططاته وعلى دولته. وقد سعى لإبرام اتفاق معهم ولكنه فشل.

وقد وصلت إمبراطورية الحاج عمر التى ارتكزت على منحنى نهر النيجر إلى قمتها عام ١٨٥٧ وامتدت من تمبكتو إلى أعالى السنغال، وكانت العقبة الحقيقية لتوسع القوات الفرنسية فى منطقة باميوك[٨]. وقد توفى فى النهاية على أثر هجوم من قوى مختلفة بعد حصار استمر أربعة أيام على قواته. ومن الأقاويل الشفهية المتداولة أنه انتحر فى النهاية بتفجير نفسه ببرميل بارود بعد قيامه بالصلاة، وذكر أن ابنه (أحمدو) هو خليفته من بعده فى الدولة التى أسسها. وقد استمرت إمبراطورية الحاج عمر من بعده بزعامة أبنائه الذين اختلفوا فيما بينهم على الخلافة ومن ثم زادوها ضعفاً وتمكنت فرنسا من غزوها فى عام ١٨٩٣[٩].

(٦) idid.,p.7100

(٧) كان السبب المباشر لغزو مملكة ماسينا المسلحة هو أن الحاج عمر قد لام حكامها على رفض مساعدته ضد الفرنسيين عند هجومه على «مدين» التى تحصن بها هؤلاء الفرنسيين. أما السبب الظاهر أو المعلن فكان نشر التيجانية التى تزعمها. انظر وللمزيد من المعلومات:

Megahed, Mali in transition.. op. cit.. p.58

(8) R.Deloiganette, Chapter on Faidherde, in Andre Julien (edit). Les Techniciens de La Colonisation. Paris: Presses Universitaires de France. 1947. PP. 100-3

(9) Martin. op. cit. P. 98

ماء العينين القلقمي: وانتشار العينية في موريتانيا[١٠]:

وُلد محمد مصطفى ماء العينين القلقمى قرب ولاتا فى منطقة الحوض فى جنوب شرق موريتانيا سنة ١٨٣١، وقد توفى فى جنوب المغرب سنة ١٩١٠. وكانت أمه مغربية ووالده - محمد فاضل ولد مامن[١١] - موريتانياً متفقهاً فى الدين وكان زعيماً للطريقة الفاضلية التى تفرعت عن الطريقة القادرية فى موريتانيا فى القرن١٩. حيث درس على يد أكبر شيخ قادرى فى السودان الغربى وهو سيدى المختار الكونتى الذى توفى سنة ١٨١١، والذى كان له دوره الكبير على الطريقة القادرية فى المنطقة وأثر أيضا على عثمان دان فوديو فى منطقة الهوسا. وقد أصبح محمد فاضل فيما بعد أهم منافس للكونتى ولفرع القادرية المنسوب إليه والمعروف بالمختارية. أى أصبحت الفاضلية منافساً أساسياً للمختارية وإن كان كلاهما فرعاً من القادرية. ولكن الفاضلية كانت أكثر نجاحاً فى جذب الانتباه ما أدى إلى حنق الكونتى الذى انتقد فاضل لعدة أمور منها أن أسس اختيار الأعضاء متسيبة، ولأنه ظل مرتبطاً بثلاث طرق أخرى بما فيها التيجانية على الرغم من أنه لم يفضل الحاج عمر، زعيما مطلقا. كما أن الفاضلية كانت تتميز بالشعبية وبشعائرها التى تمارس بضجة. وخاصة استخدام الطبول (التم تم) المعروفة فى إفريقيا. وقد كانت الأساليب الصوفية والاتجاهات المتبعة من أهم ما جذب إليها الأتباع وبالتالى فإن ماء العينين وجد فيما اتبع فى ظل والده أكبر ضمان لتحقيق الشعبية والنجاح بين الرحل المحليين. ونظرا لما أكده والده من أنه من الأشراف (الأمر الذى يشاركه فيه العديد من الزعمات الدينية السياسية الإفريقية) فقد ازداد جذب الأتباع والموالين إليه.

وعليه فقد نشأ فى أسرة متدينة، ودرس أصول الدين منذ صغره وتميز بأنه كان كاتباً ذا نظرة سياسية ثاقبة. كما كان صوفيا انتمى إلى الطريقة الفاضلية التى أصبحت تعرف باسم «العينية» من بعده.

وقد تحالف تحالفاً شخصياً مع الأسرة المالكة الشريفة فى المغرب، ومن ثم فقد جذب فى مقاومة مسلحة ضد فرنسا نتيجة فرض سيطرتها فى المنطقة مما أدى إلى فقد العديد من أبنائه حياتهم الأمر الذى كان له أثره فى حياته وعجّل بوفاته.

وقد نشط ماء العينين القلقمى فى بناء الزوايا الصوفية. وكان من بين اهتماماته ممارسة السحر والحصول على أسرار الكون، مما عاد عليه ببعض النفع من الناحية السياسية وذلك لتأثيره على جذب تلاميذه وأتباعه، فضلا عن تميزه فى الفروسية وحفر الآبار. وقد كان ثرى العطاء الفكرى فقد ألف نحو ٣١٤ كتاباً فى مختلف المجالات: كالفلسفة، والقانون والعلوم الدينية والفلك والرياضيات وغيرها[١٢].

وعندما بلغ ماء العينين الثمانية والعشرين، وكان قد أتم تعليمه، ثم فرض على نفسه العزلة للتأمل والقراءة. وخرج منها إلى الحج فى ربيع ١٨٥٨ حيث مر بالمغرب وزار السلطان وريث الأشراف. وبدأت بهذه الزيارة علاقات صداقة قوية بين ماء العينين وسلاطين المغرب قائمة فى الحقيقة على المصلحة المتبادلة: فقد كانت المغرب تسعى لتأكيد نفوذها فى موريتانيا وضمان دعم علاقتها بكبار شخصيات موريتانيا، الذين يستطيعون مساعدتها فى حالة الحرب خاصة فى ظل تبلور المصالح الأوروبية فى شمال إفريقيا (وكانت الحرب التى قامت بين فرنسا والمغرب سنة ١٨٤٤ آخر الأمثلة). وكان ماء العينين باعتباره ابن أحد كبار رجال الدين فى موريتانيا من تلك الشخصيات التى حرصت المغرب على دعم علاقاتها بها. أما من جهة ماء العينين فقد رأى أنه من المفيد أن يكون له مؤيدون أقوياء حتى ولو لم يكونوا موريتانيين.

ومن الجدير بالذكر أن ماء العينين بقى ثلاثة أسابيع فقط فى مكة والمدينة، أى لم يبق فى الحج والأماكن المقدسة سنوات مثلما فعل غيره من الزعماء الصوفيين مثل الحاج عمر والسنوسى الكبير. وفى طريق عودته زار مصر حيث مرض بالجدرى فى الإسكندرية وبقى بها فترة النقاهة ثم رحل إلى المغرب بحرا ومنها عاد أدراجه إلى وطنه برا فى مارس ١٨٥٩.

ومع أن ماء العينين لم يمض وقتاً فى الدراسة فى مصر أو فى مكة لعدم توافر الإمكانيات المالية أو لظروفه الصحية، إلا أنه سعى للدراسة فى تندوف على يد اثنين من المعلمين المشهورين أحدهما فى اللغة العربية وهو محمد مولود، والآخر زعيم قادرى هو محمد الجكانى وكانوا قد جذبوا إليهم العديد من الطلبة فدرس لفترة فى مكتبة جكانى قبل أن يترك تندوف سنة ١٨٦١ ويعتقد أن إقامته كانت بمساعدة ملكية من الأسرة الحاكمة فى المغرب. وبعودته خلع عليه والده محمد الفاضل عمامة ولقب شيخ[١٣].

ولقد سعى ماء العينين إلى توسيع نفوذه الدينى والسياسى فترك موطنه - بمنطقة الحوض فى جنوب موريتانيا - واتجه شمالاً إلى - منطقة الحدود بين شمال موريتانيا وجنوب المغرب - لنشر دعوته وتعاليمه حيث انتشر نفوذه تدريجياً، وقد ساعده هذا الانتقال على تحاشى المواجهة مع إخوته غير الأشقاء «ويذكر أن عدد أشقائه يلغ ثمانية وأربعين» الذين ورثوا نفس الاتجاهات الدينية لوالدهم حيث سعى ثلاثة منهم إلى خلافته فى زعامة الطريقة الفاضلية.

وقد ركز أحدهم «وهو سعد» نشاطه فى - منطقة جنوب أدرار ومنطقة ترازا - أما «سيدى الخير» فقد بقى فى ولاتا، والثالث، وهو «الحضرمى ولد محمد» فقد استمر فى منطقة الحوض، حيث ترك الشيخ فاضل قبل وفاته مسئوليات الطريقة الفاضلية ومسئوليات عشيرته لأبنائه الأربعة، وكان ماء العينين أقربهم إليه وأحبهم وكان قد بدأ يظهر كزعيم وعمل على مد نفوذه عن طريق الزواج، فبلغ عدد زوجاته وفقاً لبعض الآراء ٧٦ زوجة،

١٠- حيث اعتمد على هذا المصدر فى هذا الموضوع: Ibid.pp.125-136

١١- (١٧٩٧-١٨٧٠م)

١٢- المرجع السابق ص ١٤٥

١٣- المرجع السابق ص ١٢٨.

الأزهر

ولكنه بالطبع كان حريصاً على أن يحتفظ فقط بأربع نساء في وقت واحد فقد كان يتزوج ثم يطلق فكان له الكثير من الأولاد، ومن المعروف أن كثرة الزواج والطلاق كانت النمط العادى في الصحراء في ذلك الوقت ولم تترك حساسيات، أي أن كثرة زواجه كانت لأهداف سياسية في تدعيم علاقته مع العائلات المختلفة وبالتالي نشر نفوذه.

وقبل عام ١٨٧٠م انتقل إلى الساقية الحمراء وأقام هناك كشيخ - ولى - مقيم للطريقة مما يدل على استقرارها وانتشارها، ولقد استطاع تقليص الخلافات بين الرُّحل وتقليل الثأر المحلى بينهم والتقليل من التحلل الاجتماعي أو الأناركية وقد أطلق عليه بعض الأوروبيين الأوائل اسم «زعيم رحل الصحراء»[١٤]، فقد كانت له الكلمة العليا المسموعة وقد استطاع أن يحقق تماسك سلطته السياسية في شمال موريتانيا.

وقد استفاد مع بعض الظروف التي واكبت الغزو الفرنسي للمنطقة: حيث أدى جهاد الحاج عمر إلى اضطرابات وتحرك بشرى على جانبي نهر السنغال، وعندما فرض الفرنسيون السلام توقفت مؤقتاً الغزوات الموريتانية التي قام بها البراكنة والترزا في نهاية الخمسينات من القرن التاسع عشر.

ورواكب ذلك توجيه التجارة الأوروبية على طول النهر، نحو سواحل المحيط ومن ثم تدهورت التجارة التقليدية «تجارة القوافل» نحو الشمال، فلأول مرة منذ القرن السابع عشر أغلقت الموانئ بجنوب الصحراء التي كانت مزدهرة من قبل في ظل التجارة مع الشمال وهددت المصالح الاقتصادية والمبادئ الدينية، مما أدى إلى صعوبات وتدهور في موريتانيا، وخلق جواً من عدم الرضا والعداء للفرنسيين[١٤]، وقد وجد ماء العينين فرصته في نشر أفكاره في ظل هذه الظروف حيث تولى قيادة الرأى المناهض للوجود الفرنسي.

وقد طور ماء العينين دوره خلال الستينيات من القرن التاسع عشر ليصبح باعثاً وموجهاً وزعيماً للرأى الإسلامي المحلى ضد التدخل الأوروبي، وقد ركز في سياسته على تدعيم علاقات قوية مع الحكام الأشراف في الشمال حيث جمعه معهم هدف إيجاد مستودع مغربي للدفاع عن المنطقة ضد التدخل الأوروبي المرتقب من فرنسا.

ولكن بدأ أول تدخل أوروبي، ليس من جانب فرنسا ولكن من جانب مستثمر إسكتلندي يدعى دونالد ماكينزى الذى أقدم عام ١٨٧٤ على إقامة مشروع يرمى لإنشاء طريق مائى من الأطلنطى إلى الصحراء فقام ببناء رأس جوبى (Cape Juby) «طرفايا» في وادى نون التي اعتبرها منطقة مناسبة متقدمة لمشروعه ثم اشتراها بالفعل عام ١٨٧٨ هى وميناءها من أهم منافس للشيخ ماء العينين وهو الشريف محمد

١٤- Martin.op cit.p 130



ولد بيروك الذى كان رئيس دولة صغيرة دينية قرب تزاروالت في وادى نون، وقد أكد هذا الشراء مخاوف كل من ماء العينين والسلاطين المسلمين في الشمال، كما بعث من جديد المصالح الأسبانية في ساحل موريتانيا ومن ثم أرسلت الحكومة الأسبانية بعثة إلى موريتانيا لتجد مكاناً ملائماً لإقامة مستعمرة أسبانية، وقد قرر السلطان الحسن الأول - سلطان المغرب - إرسال جيش على وجه السرعة إلى سوس ووادى نونل لمنع قيام أى تنازلات أخرى للأجانب.

وحضر بنفسه على رأس رجاله من مراكش واتصل بمحمد ولد بيروك وجعله مسئولاً في المستودع كموظف به، كما دعم السلطان اتصاله بماء العينين وكان تحرك السلطان يهدف «الطرد المسيحيين واقتلاع جذور هذا الشر»[١٦].

وبنزول قوات مولاى الحسن الأول إلى رأس جوبى أمر ماكينزى بالمغادرة سنة ١٨٨٨م ولكن المشكلة لم تنته إلا سنة ١٨٩٥م عندما اشترى السلطان عبد العزيز رأس جوبى مرة أخرى من الإنجليز بمبلغ ٥٠ ألف جنيه استرليني، وأقام حامية دائمة بها لتأكيد الوجود المغربي هناك، وقد كان لتعاون ماء العينين مع السلاطين الأشراف أثره: فقد أعطى رسمياً من قبل الحسن الأول مسئولية الحدود الجنوبية حتى رأس جوبى في سنة (١٨٩٢ - ١٨٩٣م) وكان ماء العينين يتنقل مع عشيرته وراء المرعى في المنطقة قرب الساحل والداخل في الصحراء، ولكن في بداية عام ١٨٧٠م استقر في منطقة وادى تيجرت عند الساقية الحمراء.

وقد أسهم القلقمى في الإسراع بالقومية وتقويتها في كل من موريتانيا والمغرب، ولكنه لم يتمكن من التعامل مع التفوق العسكرى التكنولوجى للاستعمار الفرنسي وضغوطه الدبلوماسية رغم تقاربه مع سلاطين المغرب، إذ - على خلاف الحاج عمر - لم تكن لديه الموارد اللازمة والإمكانيات المالية والمادية لمواجهة ذلك الاستعمار.

يتبع.

١٥- المرجع السابق، ص١٣٦

١٦- انظر المرجع السابق، ص١٣٦

طرائف.. ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

نصائح عمرية

من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، اعرف الأشياء والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة وإلا استحالت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات؛ فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته.

حقيقة العبادة

● أتى أعرابي أبا جعفر بن محمد، فقال له: هل رأيت ربك حين عبدته؟

●● قال: لم أكن لأعبد شيئا لم أره.

● فقال: كيف رأيته؟

●● قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(الحشر: ٢٣)

استغفروا الله

روى أن رجلا أتى إلى الحسن فشكا إليه الفقر، وأتى آخر فشكا إليه الجدب، وأتى آخر فشكا إليه جفاف بستانه، وجاء آخر طالبا الولد، فقال لكل منهم: «استغفروا الله»، فقيل له في ذلك رجال يشتكون إليك ألوانا مختلفة، ويسألون أنواعا، فأمرتهم كلهم بالاستغفار؟

فقال: ما قلت من قبل نفسي شيئا، ولكني

أخذت ذلك من قول الله ـ تعالى:

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾

(نوح: ١٠-١٢).

أخاف أن أحبس لكثرة مالي

لما حضرت الوفاة عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ بكى بكاء شديدا، فسئل عن بكائه، فقال: إن مصعب بن عمير كان خيرا مني، توفي على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن له ما يكفن فيه، وإن حمزة بن عبدالمطلب كان خيرا مني توفي على عهد رسول الله ﷺ ـ ولم يجد كفنا، وإني أخشى أن أكون ممن عجلت له طيباته في حياته الدنيا، وأخاف أن أحبس عن أصحابي لكثرة مالي.

كفى بالمرء سرفا

● من حكم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه:

كفى بالمرء سرفا ألا يشتهي شيئا إلا اشتراه فأكله

● وفي سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

● وفي الحكمة العربية:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت
ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي
دعته إليه من حلاوة عاجل

● ومن حكم معاوية ـ رضي الله عنه:

قال لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي.

ثلاثة

ثلاثة لم يسأل الله ـ عز وجل ـ بمثلهم أن تقول: «اللهم فقهني في الدين، وحببني إلى المسلمين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين».

كيف أصبحت؟

● قال حكيم لآخر: يا أخي كيف أصبحت؟

●● قال: أصبحت وبنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثير ما نعصيه؟ فما ندري أيهما تشكر أجميل ما ينشر أو قبيح ما يستر.

حقا

والقلب إن مات لم تنفعه موعظة
كالأرض إن سبخت لن ينفع المطر

أى زحام

جلس رجل مع زوجته يأكلان فقال: ما أطيب هذا الطعام، لولا الزحام!!

قالت: أي زحام ههنا، إنما هو أنا وأنت فقط!!

قال: كنت أحب أن أكون أنا والطعام فقط!!

دعاء

اللهم اجعل القرآن لقلوبنا ضياء، ولأبصارنا جلاء، ولأسقامنا دواء ولذنوبنا ممحصا، ومن النار مخلصا.

أُحد.. نهاية مطاف

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

أنا لا أكتب سيرة ولا أسطر تاريخًا ولا أسجل وقائعًا، لكنى وللأمانة أنمنم خيوطًا تغزل نسجًا حول وقائع حدثت أريد إظهارها وتوضيحها.. وأسجل حقًا حاول المغرضون طمسه وتزييفه، إظهارًا للحق وأمانة للتاريخ، ولا أكتمك أيها القارئ الكريم أننى من خلال تتبعى لسيرة النبى الكريم ﷺ أريد أن أبين لك كيف أنه ﷺ لم يدخل غزوة معتديًا وأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، كما يزعمون ويروجون فكل حروبه وغزواته ﷺ كان يدخلها مكرهًا، إما لصد عدوان أو نصرة مظلوم أو دفاعًا عن مبدأ إنسانى مهدر.

ويظهر هذا واضحًا جليًا لكل منصف يقرأ السيرة بلا ضغينة أو حقد على الرسالة والرسول، ولا يظهر ذلك فى الأسباب الداعية لدخول الحرب فحسب، وإنما يظهر واضحًا حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها، يبيننا تاريخ الحروب بما يحدث فى نهاية كل الحروب، سواء انتصر فيها المحارب أو هزم، فنهاية صاحب المطامع مسعر الحرب ومشعل نارها والعامل على تأجيج أوارها تبدوا أن أهمها نفسه، وطمعه من أفعاله وردود أفعاله هى هى فى نهاية النصر، كما فى نهاية الهزيمة - جشع وطمع وزهو وغرور أو حسرة وتخبط - لكن نهاية حروبه ﷺ تختلف فى كل الحالات عن نهاية حروب أصحاب المطامع مسعرى الحروب من أجل القهر والطمع فترى النبل كله والسمو والرفعة والرضا وليس بغضًا من حول الرسول ﷺ الداعية الحكيم ولا ترى أثرًا لزهو منتصر أو حسرة مهزوم، إنما النبى ﷺ فى كل حالاته نبى كريم منيب إلى ربه متواضع مبتهل أرأيت إلى هيئته حين دخوله مكة منتصرًا يوم الفتح العظيم كيف طأطأ رأسه حتى حاذت لحيته الشريفة قربوس فرسه تواضعًا وخضوعًا لمالك الملك جل جلاله.

لا أعرف مؤرخًا سجل أو كتب أن المسلمين انتصروا فى غزوة أحد، وكل المؤرخين والباحثين أجمعوا على أن النصر لم يكن حليف المسلمين، فما فعل النبى ﷺ بعد أن وضعت الحرب أوزارها؟ وقبل أن تجيب، أرجوك أن تخبرنى ماذا يفعل القائد المهزوم بعد الحرب؟ اسمح لى أن أجيب عليك من واقع معلوماتى المحدودة: إن كان مغرورًا مهزومًا فإنه يلجأ إلى إنزال النقمة على بعض قواده وأفراد جيشه أو أن يكره شعبه وجيشه على تجهيز جيش آخر يكرس له كل إمكانات شعبه لكى يسترد النصر لو استطاع.

وفى كل الأحوال يلجأ إلى أساليب ووسائل متهورة منفعلة كثيرًا ما تفتقد التعقل والاتزان، وقد يكون القائد المنهزم رزينًا متزنًا لم يبدأ قتالاً ولم يسع إليه، فإنى أحسب أنه يسعى إلى البحث عن أسباب القصور فى المعركة وأسباب التهاون فى الاستعداد، ومهما كان أمر القائد المنهزم ومهما كانت نشأته فلن يستسلم للأمر أو يتقبله فى هدوء وروية، وما ذاك إلا لأن هؤلاء القادة يسعون وراء دنيا زائلة ناهيك عن شهوة الغلبة والقهر والاستحواذ فهذا هو الهدف الذى يسعون إليه، ولكن تعال إلى الحبيب ﷺ لتعرف كيف يكون اللجوء إلى الله تعالى - وكيف يكون التواضع لجلال الله وعظمته ولا يخطرن ببالك أن ذلك خضوعًا للهزيمة منه ﷺ لما انهزم جيشه، إنما هو تواضع لله فى كل حال لأن جلال الله واهب النصر هو هو تواضعه لله ساليه وموقع الهزيمة!!!! أرأيت ماذا فعل النبى ﷺ لما انتهت المعركة؟.

يروى الإمام أحمد والنسائى والحاكم على شرط الشيخين أن رسول الله ﷺ لما فرغ من دفن أصحابه ركب فرسه وخرج المسلمون حوله، عامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة فلما كانوا بسفح أحد قال: «اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل، فاصطف الرجال خلفه صفوفًا خلفهم النساء، فقال: «اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول اللهم إنا نسألك النعيم يوم العيلة اللهم إنا نسألك الأمن يوم الخوف والغنى يوم الفاقة اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك وأنزل عليهم خزيك وعذابك اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق)).

هذا الدعاء كان دعاء النبى ﷺ فى ساحة المعركة قبل أن يصل إلى بيته، فماذا كان يمكن أن يقول المرجفون؟

إنه اللجوء إلى الله العلى والتواضع السخى لعظمة الله المعطى المانع وليس

ذلك في الهزيمة فقط، إنما هو في النصر أيضًا فكل من عند الله النصر والهزيمة أرأيت إلى رسول الله ﷺ كيف وهو داخل مكة البيت الحرام منتصرًا يوم فتح مكة وهو مطأطئ رأسه حتى لامست لحيته قربوس فرسه لا زهوًا ولا خُيلاء، أرأيت إليه ﷺ حين سمع نداء واحدٍ من المسلمين: "اليوم يوم الملحمة" نهاه ﷺ وقال: «اليوم يوم المرحمة» وأي مرحمة يا نبي الرحمة صدق شوقي حين قال:

فإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان في الدنيا هم الرحماء

إن رحمتك يا سيدي يا رسول الله فاقت توقعات شانئيك ومبغضيك لكنهم بكل تأكيد هم يطمعون في كرمك وسعة خلقك ورحمتك لقد قلت: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فهرعوا إلى سعة رحمتك وعظيم عفوك وصفحك الجميل، فقلت في تواضع سخي رفيع وكرم وافر عميم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وتعال أخي القارئ إلى حوارات جرت بين رسول الله ﷺ وبين بعض أفرادٍ من جيشه، فيروى أنه ﷺ بعد أن فرغ من دفن أصحابه ركب فرسه فخرج والمسلمون حوله راجعين إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش، وقد قتل في المعركة أخوها وخالها وزوجها، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمن - وهو في اللغة العربية نداء فيه ترخيم حذف آخره ويقال في المواساة وإظهار التعاطف ويقال للمداعبة في السلم والدعة - احتسبي. فقالت: من يا رسول الله؟ قال: - وكأني به يتألم ويكلم نفسه من بأس الفراق - خالك حمزة بن عبد المطلب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون - غفر الله له - هنيئًا له الشهادة، ثم قال لها ثانية: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: أخوك عبد الله بن جحش، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون - غفر الله له - هنيئًا له الشهادة، ثم قال: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال لها: زوجك مصعب بن عمير، قالت: واحزناه - وفي لفظ واعقراه - وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان، يعني أن زوج المرأة عندها في مكان خاص لا يشاركه غيره مهما كانت قرابته، لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها وكأن رسول الله ﷺ رأى عجب القوم لما سمعوا مقالتها على زوجها وتثبتها عند سماع نعي أخيها وخالها وكأن في نظراتهم عتب، فأراد النبي ﷺ أن يرفع الملامة عنها ويبين لأصحابه أمر ما عجبوا له - فقال لها: لمَ قلت هذا؟ قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ لها ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم.

ويروى أن رسول الله ﷺ سار بفرسه حتى طلع على بني عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال: لكنّ حمزة لا بواكي له!!

فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله ﷺ فلما اطمئنت قلوبهن عليه وعلى سلامته، قالت أم عامر الأشهلية: كل مصيبة بعدك جلل، ثم مر رسول الله ﷺ بامرأة أصيب أبوها وزوجها وأخوها فلما نُعوا إليها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ قالوا: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله، كما تحبين قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير بها إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، ويروى الطبراني عن أنس بن مالك أنه قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة، وقالوا: قتل محمد حتى كثر الصراخ في ناحية المدينة، فخرجت إمرأة من الأنصار محزّمة فاستقبلت أباها وابنها وزوجها وأخاها، فلما مرت على آخرهم قالوا: أبوك وزوجك وأخوك وابنك فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ فقالوا: أمامك فدفعت إلى رسول الله ﷺ وأخذت بناحية ثوبه ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا أبالي إذا سلمت من عطب!!

أرأيت أيها القارئ الكريم إلى هذه الحوارات الدافئة الحنونة الحزينة، قل لي بالله عليك هل سمعت أو رأيت إلى مثل هذه الحوارات النبيلة الحانية في معركة أيًا كانت نهايتها؟ اللهم إلا أن تكون خمر ونساء وخلاعة ومُجون في النصر أو البكاء والحسرة في الهزيمة، وبعد أن رجع رسول الله ﷺ ودخل بيته أذن بلال بصلاة المغرب فخرج رسول الله ﷺ وهو يتوكأ على السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، ثم عاد إلى بيته فرجع سعد إلى نسائه ونساء قومه حتى لم تبق إمرأة، إلا أن جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بن عبد المطلب بين المغرب والعشاء ثم أذن بلال العشاء، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله فهب رسول الله ﷺ من نومه وخرج فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل وسمع بكاء النسوة، فقال: ما هذا فقيل نساء الأنصار يبكين حمزة بن عبد المطلب، فقال ﷺ: ارجعن يرحمكن الله لقد واسيتُنّ - رحم الله الأنصار - إن المواساة فيهم ما علمت قديمة. فرجعن بليل مع رجالهن.

أرأيت إلى فعل رسول الله ﷺ وقوله وكتمه لغيظه وحزنه، لم يفقده حزنه على حمزة رباطة جأشه كأني به لا يستطيع أن يمنع نفسه عن البكاء وأن يرى البواكي يبكين حمزة رضي الله عنه، لعل ذلك يطفئ حر فؤاده، ولعلي لم أشف غليلك ولا غليلي بالحديث عن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولا أظن أني مهما كتبت عن سيد الشهداء حمزة سوف أشفي غليلك أو غليلي حسبي وحسبك ما قالته صفية بنت عبد المطلب أخته رضي الله عنهم:

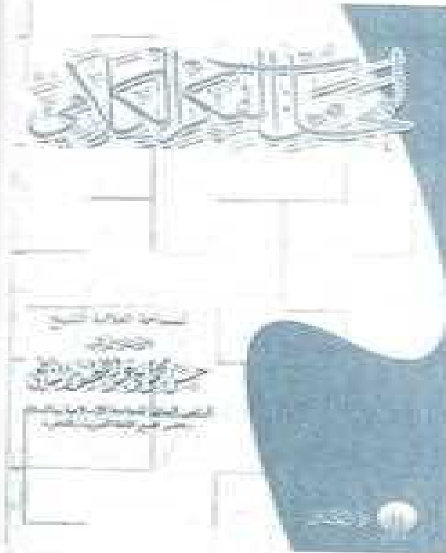
أسائلة أصحاب أحدٍ مخافة
بنات أبي من أعجم وخبير
وقال خبير إن حمزة قد ثوى
وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوة
إلى جنة يحيى بها وسرور
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
بكاءً وحزنًا محضري ومسيري

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

مكتبة الأزهر


إعداد: محمد شعبان

تسعى "الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يقدم الدكتور حسن الشافعى، رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة ورئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية، فى كتابه "بحثات من الفكر الكلامى" الصادر أخيراً عن دار البصائر بالقاهرة عرضاً مكثفاً وشاملاً لبعض قضايا علم الكلام، مبرزاً الطابع العقلى الممتزج بالوحى الإلهى للفكر الإسلامى قديماً وحديثاً، ويتميز الكتاب بعدة أمور.. أولها وضوح العبارة والفكرة بما يناسب القارئ المعاصر والبعد عن الإطالة والتشعب فى قضايا جانبية وغير ذلك من الأساليب التى تملأ كتب علم الكلام القديمة وتخلق مشقة فى التعامل معها، الميزة الثانية فى الكتاب هو ضمه الأغلبية العظمى لآراء المتكلمين من مختلف المدارس والتيارات، سواء كانوا أشاعرة أو ماتريدية أو أهل حديث أو صوفية أو شيعة أو معتزلة أو فلاسفة - فضلاً عن آراء بعض المتقدمين مثل الإمام محمد عبده - بعد تنقيحها من الغموض، الأمر الذى يجعل الكتاب يغنى فى أغلب الأحيان عن العودة إلى المصادر ذاتها.



يستعرض د. توفيق السيف فى كتابه "رجل السياسة: دليل فى الحكم الرشيد" الصادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر بالقاهرة أبرز معالم الثقافة السياسية الجديدة عن طريق عرض أبرز قواعد التنظيم السياسى والاجتماعى للمجتمع، ويركز الكتاب على مكانة الفرد وعلاقته بالجماعة ومفهوم الدولة وعلاقتها بالمجتمع وآلية اتخاذ القرار وحل المشكلات. الكتاب فى فصوله التسع يتوقف عند المحطات الأساسية التى مر بها الفكر السياسى، [illegible] فكرة الدولة فى شكلها الأول عند اليونان وحتى صورتها الحديثة، كما يعرض الكتاب بالتفصيل فكرة العقد الاجتماعى الذى تقوم عليه الدولة الحديثة، مشيراً إلى التطورات السياسية التى أسهمت فى إبراز أطروحات رواده توماس هوبز وجون لوك وروسو، ويتوقف المؤلف أمام فكرة الحرية أحد مرتكزات الفكر السياسى الحديث من خلال رصد ترابطها مع مبدأ "سيادة القانون" ومدى الصلة التى تجمع بينهما [illegible]، ثم يحاول الكتاب [illegible] التراث الإسلامى فى النظرية السياسية، متوقفاً عند أعمال الماوردى والشريف المرتضى والجوينى والفارابى وابن سينا.



يرصد د. محمد فتحى فرج فى كتابه "فرسان الثقافتين: أدباء علماء" تجارب كوكبة من العلماء والأدباء المعاصرين الذين حملوا رايتى العلم والأدب، فأضافوا إلى المكتبة العربية تراثاً زاخراً تنهل منه الأجيال المتعاقبة، بدأ الكتاب بمقدمة تمهد للفكرة المحورية بعنوان "الثقافتان والتكامل المعرفى المنشود"، حيث أكد على الالتحام بين ما هو أدبى ثقافى وما هو علمى متخصص، مشيراً إلى التراث العربى الذى مزج بين الثقافتين فى بوتقة واحدة تنطلق منها القارئ علماً وأدباً فى الوقت ذاته. ويتوقف المؤلف عند الأديب أبى عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ وصاحب كتاب الحيوان، كما تحدث عن القزوينى وابن سينا وغيرهم من أعلام حضارة الإسلام الذين جمعوا بين الثقافتين العلمية والأدبية. أما الأدباء العلماء الذين تحدث عنهم الكتاب، فتشمل أهم مصطفى نظيف، وأحمد زكى، ومصطفى مشرفة، وحسين فوزى، وحامد جوهر، وعبد الحليم منتصر، ومحمد رشاد الطوبى، ومحمود حافظ، وجمال الفندى، وأحمد مستجير، ومصطفى محمود، وعبد المحسن صالح، وعبد العظيم أنيس، وآخرين.



يسلط د. إبراهيم شاهين فى كتابه "عبد الحميد سعيد.. أسد البرلمان الثائر" الضوء على عبد الحميد سعيد (١٨٨٢ - ١٩٤٠) الذى يعد واحداً من أبرز رموز العمل الوطنى والقومى والإسلامى فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، والذى لقب فى الصحف وقتها بأسد البرلمان الثائر لنضاله المستمر، ويعد سعيد أول رئيس لجمعية الشبان المسلمين وأول رئيس لها منذ تأسيسها عام ١٩٢٧م، وحتى وفاته، حيث خاض خلال هذه الفترة غمار معارك سياسية للدفاع عن عروبة مصر ودورها فى الذود عن الإسلام، ويستعرض الكتاب بداية عبد الحميد سعيد بالعمل السياسى والوطنى وهو فى الخامسة عشر من عمره عندما التقى مصطفى كامل واستلهم منه النضال والجهاد فى سبيل القيم الوطنية التى تعلمها مصطفى كامل من الإمام محمد عبده.

يكشف كتاب "مالكوم إكس.. الزعيم الشهيد لمسلمى أمريكا السود.. سيرة ذاتية" والصادر عن مكتبة جزيرة الورد أخيراً بترجمة مميزة للدكتور أحمد عبدالرحمن عن دور مالكوم إكس المناضل الأمريكى وزعيم ثورة السود فى منتصف القرن الماضى فى نشر الإسلام فى أمريكا والدفاع عن حقوق المسلمين والمستضعفين. إكس الذى أسلم وأصبح اسمه بعد ذلك الحاج مالك شباز عاش حياة عاصفة ومتقلبة، حيث يحكى عن قصة تعرفه على الإسلام فى منتصف أربعينيات القرن الماضى، حينما كان مسجوناً بتهمة السطو فى سجن شارلستان بولاية ماساتشوستس، والتقى أحد أعضاء "حركة أمة الإسلام" -التى تزعم أن السود أفضل من البيض- ويدعى ريجنالد وعرفه على زعيم الحركة "صاحب الشرف الايجا محمد" الذى أعلمه أن من طقوس الإسلام ترك الخمر وترك لحم الخنزير، فأعلن إكس عن إسلامه، وفى عام ١٩٦٢ سافر إكس إلى المملكة العربية السعودية والتقى الملك فيصل وأعلمه أن حركة أمة الإسلام خارجة عن الدين، فأعلن إسلامه من جديد وفق المذهب السنى، ثم جاء إلى مصر والتقى شيخ الأزهر وقتها الشيخ حسنين مخلوف.

ابن سينا والطب السيناوى


أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء وتاريخ وفلسفة العلوم
كلية العلوم جامعة القاهرة

نبذة تاريخية

نشأ الطب الفطرى عند الإنسان منذ القدم، عندما كان يحتاج إلى معاجة الجروح والكسور التى تلحق به من جراء المعارك والمنازعات، أو لكثرة تعرضه للوحوش المفترسة.. وكان طبيعيًا أن تتطور صناعة الطب ونظرياته مواكبة تطور العقل البشرى عبر عصور التاريخ البشرى الطويل.. فقد بلغت بعض فروع الطب، خاصة فى مجال الجراحة والتشريح والتحنيط، منزلة رفيعة عند المصريين القدماء، ويدل على ذلك آثار عمليات جراحية فى الأطراف والصدر والجمجمة تظهر فى هياكلهم العظمية ومومياءاتهم الباقية، وتوجد برديات تؤكد براعتهم فى مجالات عديدة، وتحتوى على شرح الكثير من الوصفات الطبية والإشارة إلى بعض الأمراض، واقتبست الأجيال المتعاقبة طب المصريين، بما فيه من وسائل العلاج بالسحر والشعوذة التى لايزال أثرها باقيًا حتى الآن.

وفى بلاد ما بين النهرين نظمت صناعة الطب فى لوحة حمورابى التى حددت مسئولية الأطباء الإنسانية نحو مرضاهم، كما اكتشفت لوحات تحوى العديد من الوصفات الطبية التى كانت سائدة عند البابليين والآشوريين.

وفى الشرق الأقصى كان الصينيون يعتمدون على العقاقير الطبية والوسائل الطبيعية، وينسب إليهم السبق إلى دراسة خواص شجرة الأفيدرا واستخلاص مادة الأفيدرين التى تستخدم فى أغراض طبية عديدة، أما الهنود فكانوا يفضلون الوقاية من المرض أو المداواة بالوسائل الطبيعية، واعتمدوا على رياضة اليوجا فى المحافظة على صحة البدن والتغلب على بعض الأمراض.

وفى اليونان يعتبر أبقراط (٤٦٠ – ٣٦٥ق.م) أول من علم الطب ونشره على الناس حتى لا تنقرض صناعته. وقد أفاد الطب اليونانى من الحضارات السابقة، وكان يأخذ بنظرية الطبائع الأربع فى الجسم، وهى البرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة، ويمثلها الأخلاط الأربعة: البلغم والدم والسوداء والصفراء، التى تناظر العناصر (الإستقصات) الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار، فالجسم يكون صحيحًا إذا كان امتزاج العناصر محكمًا فى

الكيفية والكمية، أما إذا زاد أحد العناصر أو نقص، أو امتنع عن الامتزاج بالعناصر الأخرى، فإن الصحة عندئذ تنحرف ويحدث المرض، ولايزال "عهد أبقراط" الذى كان يأخذه على تلاميذه قبل أن يبوح لهم بأسرار التطبيب هو مضمون القسم الذى يؤديه الأطباء بعد تخرجهم من كليات الطب الحديثة.

وتقضى نظرية الأخلاط الاربعة The four humours theory باعتبار أن أكبر عملية تحدث فى الجسم، إنما هى تحويل المواد التى فى الغذاء إلى مواد حيوية تصلح لتغذية الأعضاء، كل على حسب تركيبه، وتبدأ عملية تحويل الغذاء بهضمه فى المعدة والأمعاء، فتصعد الأبخرة إلى أعلى ويهبط الثفل إلى أسفل، أما ما يصلح للغذاء فيمتص وينتقل بواسطة العروق إلى الكبد فتحوله إلى "دم"، وتحول جزءًا منه إلى "الصفراء"، وينتقل جزء آخر إلى الطحال فتتكون منه "السوداء"، وأما الذى يذهب إلى المعدة والرئة فيتحول إلى "بلغم".

وهذه هى السوائل أو الأخلاط الأربعة، وهى أساس تصور القدماء لوظائف الجسم ومزاج الأعضاء، فالدم له خواص الهواء "الحار الرطب"، والصفراء لها خواص النار "الحارة الجافة"، والبلغم له صفات الماء "البارد الرطب"، وإفراز الطحال من السوداء له خواص التراب "البارد الجاف".

وكان جوهر ذلك التصور للعمليات الحيوية أنها عملية طبخ، حيث تعمل الحرارة الطبيعية فى المواد التى امتصها الدم على إنضاج هذه المواد، فإذا تم النضج أصبحت صالحة لغذاء الأعضاء، كل على حسب ما يناسبه، أما إذا لم تنضج هذه المواد، فإن العضو يعجز عن الاغتذاء بها، وإذا زاد نضجها وقع له ما يشبه الاحتراق فيصيب الأعضاء منها الضرر.

وإذا كان القدماء قد ظنوا أن فساد الأخلاط، أى السوائل الكامنة فى الأعضاء والمحيطة بها والخارجة منها، هو الذى يحدث المرض ويفسد المزاج الذى ينعكس فى السلوك والتصرفات والصفات النفسية، فإن علماء الطب الحديث، من ناحية أخرى، يرون أن الأمراض التى تصيب الأعضاء هى التى تحدث فساد الأخلاط، ويكون الأمران متلازمان فى أغلب الأحوال.

والواقع أن مزاج العضو ليس إلا قدرته على أداء وظيفته، فإذا قيل عن عضو أنه أصابه سوء مزاج، فمعنى ذلك أنه فى حالة لا يؤدى فيها وظيفته على الوجه الصحيح، ولما كانت الأعراض وفساد الإفرازات والعجز عن أداء الوظيفة، كلها أمور متلازمة، بحيث لا يمكن تحديد أيها يكون سببًا وأيها يكون نتيجة، فإننا نجد أن هذا الفرق فى الواقع ليس بالغ الأهمية، والنظر إلى مزاج كل عضو على أنه قدرته على أداء وظيفته، وإلى فساد الأخلاط على أنه فساد تركيب السوائل والإفرازات التى تتعلق بهذا العضو، يمكن أن يساعد كثيرًا على فهم وتوضيح مسائل عديدة غامضة فى الطب القديم.

أما جالينوس (٢٠١ – ١٣٠ق.م) فيرجع إليه الفضل فى جعل الطب علمًا تجريبيًا مبنيًا على أسس عقلية، وكان يعالج كل مريض بالطريقة التى تناسبه، طبقًا لما يستنتجه من فحص نبضه وبوله، لكنه تكلم فى ذلك –

ابن سينا والطب السيناوى

كما ذكر ابن سينا - من جهة أنه فيلسوف لا من جهة أنه طبيب.

وعند الفرس والرومان كان الطب خليطًا من الطب المصرى والطب الهندى والطب اليونانى، وأهم ما اشتهر به الرومان كانت عملية الولادة عن طريق شق البطن، والمعروفة باسم "العملية القيصرية"، نسبة إلى يوليوس قيصر إمبراطور الروم (١١٠ - ٤٤ ق.م) الذى ماتت أمه أثناء ولادته فشقوا بطنها وأخرجوه جنينًا من رحمها، وأصبح لقب قيصر الروم يطلق على كل إمبراطور يأتى بعده، أما أول مدرسة للطب فقد أنشئت فى "الرها" فى عام ٢٧٢م، ثم أنشئت بعد ذلك مدرسة للطب فى مدينة جنديسابور، وألحق بها بيمارستان (مستشفى) كبير حصل على شهرة واسعة.

وفى الجاهلية كان العرب يعتمدون فى العلاج على الكهانة والعرافة والكىّ بالنار ونصائح العجائز والخبرة المتوارثة ببعض الأمراض، واستفاد بعض أطباء الجاهلية من أسفارهم إلى الشعوب المجاورة.

وبظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم نشأ ضرب جديد من الطب يعرف بالطب الإسلامى، ويعنى بالكشف عن أسرار القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فى العلاج والشفاء، وكان لتعاليم الإسلام الحنيف أكبر الأثر فى إيقاظ العقول وتحريرها، ورفع من قدر العلم والعلماء، وكان طبيعيا أن تبدأ النهضة العلمية فى العصر الإسلامى بنقل معارف السابقين، وسرعان ما حلق العقل الإسلامى فى سماء المعرفة الرفيعة، وبلغ التأليف بعد ذلك قمته كما وكيفا بفضل عدد كبير من المبرزين فى العلوم المختلفة، بما فيها علم الطب والصيدلة، من أمثال: جالينوس العرب أبى بكر الرازى، وعميد الجراحة العربية أبى القاسم الزهراوى، وأرسطو الإسلام وأبقراطه الشيخ الرئيس ابن سينا، وغيرهم.

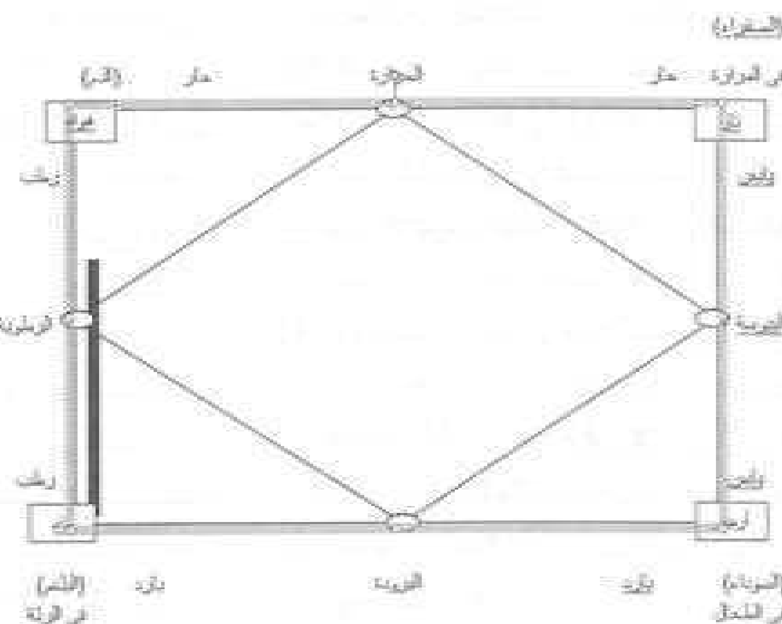
وقد بذل مؤرخو العلوم جهدًا بالغا فى دراسة تاريخ الطب العربى والإسلامى، ووصفوا كيف نما وازدهر حتى بلغ أوجه فى عهد الرازى وابن سينا، وكيف كانت رحلته بعد ذلك إلى الأمم اللاتينية، ويعتبر "الطب السيناوى" من خير ما تتيه به الحضارة العلمية الإسلامية فى هذا الفن، ويمكن التعرف عليه من خلال الدراسة المتأنية لعملين عظيمين صنفهما ابن سينا هما: "كتاب القانون فى الطب" الذى قدر ما فيه بنحو مليون كلمة، ويقع فى أكثر من ١٥٠٠ صفحة، و"كتاب الأرجوزة فى الطب" التى تقع فى نحو ١٣٣٤ بيتا من الشعر جمع فيها كل المعلومات الطبية، ذكر فيها مثلا عناصر (استقصات) نظرية الأركان، كما يلى:

أما الطبيعيات فالأركانُ
تقوم من مزاجها الأبدانُ
وقول بقراطَ بها صحيحٌ
ماءٌ، ونارٌ، وثرى وريحٌ
دليلهُ فى ذاك أن الجسما
إذا ثوى عاد إليه رغما
ولو يكون الركنُ منها واحدا
لم تر بالآلام حيًّا فاسدا

ثم يقول فى ثانى الأمور الطبيعية، وهو المزاج:

وبعدَ ذاكَ العلمُ بالمزاج
أحكامهُ تُعينُ فى العلاج
أما المزاجُ فقواه أربعْ
يُفردها الحكيم أو يجمعْ
من ساخنٍ وباردٍ و يابسِ
ولينٍ ينالُ حسَّ اللامسِ
توجد فى الأركان والأزمان
وفى الذى ينمى وفى المكان
والاستقصُ آخذٌ فى الغاية
من مفرد المزاج والنهاية
الحرُّ فى النار وفى الهواء
و البردُ فى التراب ثم الماء
واليبْسُ بين النار والتراب
واللينُ بين الماء والسحاب
بين جواهر لها اختلاف
تقضى لنا بالكون والائتلاف

ويوضح الرسم التالى توافق الأخلاط المكونة للعناصر (أو الأركان) وتوازنها فى البدن:



حياة ابن سينا وفلسفته ومنهجه فى الطب

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس، والمعلم الثالث للإنسانية بعد أرسطو والفارابى، ولد فى قرية أفشنة من ضياع بخارى عام (٣٧١هـ - ٩٨٠م)، وعاش حياة حافلة فى فترة من أزهى الفترات فى عصر الحضارة العربية الإسلامية حتى توفى فى همذان عام ٤٢٨هـ (١٠٣٧م)، جمع بين مختلف العلوم، فبرع فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك، وألف بالعربية، وأحيانا بالفارسية.

انتقل مع آله فى السنة الخامسة من عمره إلى بخارى - وكان من طائفة الإسماعيلية، وهى يومئذ صاحبة مذهب فى الخلق والوجود وتفسير الشرائع بالظاهر من ألفاظها والباطن من معانيها، فنشأ الحسين الصغير وهو يستمع إلى المناقشات الفلسفية والتأويلات الدينية فى "النفس" و"العقل" وأسرار الربوبية والنبوة، وحفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره، وتعلم اللغة على أبى بكر أحمد بن محمد البرقى الخوارزمى، وتعلم الفقه على إسماعيل الزاهد، واشتغل الحسين بالسياسة واستوزره شمس الدولة، وعرف بالشيخ الرئيس.

ومؤلفات ابن سينا بصفة عامة تمتاز بالدقة والتعمق والسلاسة وحسن الترتيب، وهى

كثيرة ومتنوعة، ولكن أشهرها على الإطلاق هو كتاب "القانون" فى الطب، وكان يقول لتلاميذه عن تحصيله لعلم الطب: ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علىّ علم الطب، وتعهدت المرضى فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة....."

ويؤخذ من هذا النص أن ابن سينا كان يفضل الفلسفة والرياضيات لأنه يشعر فى دراستها بكل قواه، ويستغرق بها جهد ملكاته، فيلذ له مراسها، ويستمتع منها برياضة ذهنية لا يستمتع بها من غيرها، وهو أيضا يشتغل بالطب، فلا يستغرق جهده كله فيه، لأنه يفرغ له جانب الملاحظة وجانب الذاكرة من تفكيره، ويستسهله من أجل ذلك، وليس هو بالسهل على سواه، وعالج ابن سينا أمير بخارى وهو فى السابعة عشرة من عمره، وكان – على حد قوله – يحب الحياة عريضة قصيرة، ولا يحبها ضيقة طويلة!!!!

وإذا كانت نظرية الأخلاط الأربعة هى أحد المبادئ العامة المشتركة فى فلسفة العلاج عند الإغريق وأطباء وصيادلة المسلمين، فإن المسلمات العقدية لتطبيق هذا النظرية كانت مختلفة ومتباينة عند فلاسفة الإغريق، عنها عند علماء المسلمين ذلك أن أهم مسلمات نظرية الأخلاط عند الإغريق تقضى باعتبار أن هناك مبدأ واحدا فى ذاته، متعددا بمفعوله، هو الطبيعة، وهذا المبدأ – بحسب زعمهم – هو الذى يشرف على جميع الوظائف الحيوية، ويقاوم العوامل الهدامة للجسم – وعلى الطبيب والصيدلانى أن يساعد هذه الطبيعة لكى تقوم بعملها، ويستند هذا المبدأ الطبيعى Naturism، الذى يحاكى الطبيعة فى المعالجة، على ما أسموه بالقوة الطبيعية الشافية "Vis medicatrix naturae" التى اعتبروها حجر الزاوية فى الفكر الطبى الأبقراطى، ولذا فإنهم حذروا الطبيب من التسرّع فى التدخل فى سير المرض خوفًا من أن يحول دون عمل الطبيعة، وهذه – كما نرى – فلسفة مادية إلحادية سافرة، يقابلها عند المسلمين مبدأ عقلانى إيمانى يستمد أصوله من الإسلام، وإسلام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فيعزى القوة الشافية إلى الخالق الواحد جلّ وعلا القائل فى محكم التنزيل:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

(سورة الشعراء: ٨٠)

وجاء عن "جابر" عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل" (صحيح مسلم – كتاب السلام – باب لكل داء دواء)

وانطلاقًا من هذه المسلمة الإيمانية، اتخذ أطباء المسلمين منهجًا علميًا واضحا يعتمد فى العلاج بصفة عامة على أثر التغذية فى الإسقام والإبراء، وكان كثيرًا ما يُفضّل أن تكون الأدوية من جنس الأغذية، اعتقادا بأن الأمة، أو الطائفة، التى غالب أغذيتها من الأطعمة البسيطة المفردة تكون أمراضها قليلة، ويعتمد طبّها على المفردات، فأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة، لأن أمراضهم فى الغالب مركبة، بينما تكفى الأدوية المفردة لعلاج أهل الصحارى والبوادى لأن أمراضهم مفردة.

وتظهر هذه الفلسفة الإيمانية واضحة جلية عند ابن سينا فى تعبيرات عديدة ورد ذكرها فى كتاب القانون معبرة عن المبدأ الأساسى المتمثل فى أن الأشياء كلها، على تفاوت ذواتها ودرجاتها، تستند إلى المصدر الأول للوجود، وهو "واجب الوجود" لله تعالى، وأن استظهار مناهضة الطبيعة للمرض، بحسب اختيار الوقت واعتبار الحال، يكون "بإذن الله تعالى"، وأن القوة الطبيعية المولدة فى الإنسان "هى التى يصدر عنها بإذن خالقها تخطيط الأعضاء وتشكيلاتها وتجويفاتها...".

ويتضح من التراث الطبى للحضارة العربية الإسلامية أن المنهج التجريبى فى أدق تفاصيله المعروفة لنا حاليًا كان هو أسلوب الأطباء العرب والمسلمين فى ممارسة الطب وتدريسه ودراسته، وينقسم الأطباء من هذه الزاوية فى رأى مؤرخ العلم المعاصر جورج سارتون إلى مجموعتين: الأولى مجموعة الممارسين الذين اهتموا فى المقام الأول بالمرض والتشخيص والعلاج، معتمدين على المشاهدات والملاحظات، والفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية، ويمثل هذه المجموعة أبو بكر الرازى الطبيب الفيلسوف، أما الفريق الثانى فهو فريق المدرسيين الذين درسوا الطب على أنه جزء من المعرفة لا غنى عنه، وسعْيهم إلى استكمال المعرفة هو الذى دفعهم إلى الطب وممارسته بأسلوب منطقى، ولهذا أطلق عليهم الفلاسفة الأطباء، ويمثلهم ابن سينا، وجلىّ أن كلا الفريقين يتبع المنهج التجريبى ويعتمد عليه، بصرف النظر عن أنه غاية أو وسيلة فالتقدم نحو إدراك الحقيقة أو الاقتراب منها لايتحقق إلا بالتجربة العملية.

وكان لهذا الاتجاه التجريبى أثره البالغ فى محاربة الشعوذة ومكافحة المشعوذين وتجار الطب الذين كانوا يدعون معرفة المرض والتنبؤ بمستقبل المريض بمجرد النظر إلى بوله، ويستعينون على ذلك بإرسال الجواسيس لاستكشاف أخبار مرضاهم البسطاء، والتقاط أسرارهم، حتى إذا ما جاء هؤلاء المرضى إليهم أسرّوا إليهم بما عرفوه، مدعين أن البول فضّاح الأسرار.

ويؤكد ابن سينا على أهمية اتباع المنهج التجريبى والتريث قبل استخلاص النتائج، فيقول: علينا ألا نثق بنتائج تحليل البول إلا إذا توافرت الشروط التالية: "أن يكون البول أول بول من المريض، أى بول الصباح، على ألا يكون المريض قد شرب ماء بكثرة، أو أكل ما يمكنه تلوين بوله كالزعفران، كذلك يجب على المريض ألا يقوم بحركات خاصة، أو يتبع نظامًا على غير عاداته، لأن كل هذا يؤثر كثيرًا فى تركيب البول... والنتائج التى نصل إليها من تحليلنا للبول تعتمد على لونه وكثافته ومدى صفائه أو تعكره، وعلى رائحته ورغوته...." وعن الاستدلال على المرض من البراز يرى ابن سينا أن البراز يدل بلونه ومقداره وقوامه ورائحته ووقته.

من ناحية أخرى، أشار ابن سينا الى أهمية التجربة والقياس لتعرف قوى الأدوية، وساق أمثلة تدل على أنه أجرى التجارب بنفسه، وسجل أفعال الأدوية وخواصها فى جداول – سماها ألواحا –، والفنّ فى ملاحظة هذه الأفعال وارتباطها بالصفات، وبحث فى أحكام تعرض الأدوية من الخارج وتغير كيانها، مثل الطبخ والسحق والإحراق بالنار والغسل والإجماد فى البرد، والوضع فى جوار أدوية أخرى، والمزاج، وطريقة التقاط الأدوية وادخارها.

– يتبع –

في العاصمة العمانية مسقط، انطلقت ندوة تطور العلوم الفقهية في نسختها الحادية عشرة التي جاءت بعنوان: (النظرية الفقهية والنظام الفقهي)، معلنة بداية العقد الثاني من عمر هذه الندوة المباركة التي تحقق ما تصبو إليه أمتنا، وذلك باستفراغ وسع كوكبة من العلماء والفقهاء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم حيث جاءوا من مصر، وسوريا، واليمن، والمملكة العربية السعودية، وقطر، والجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولبنان، والمملكة المغربية، وتونس، وتركيا، والجزائر، وليبيا، والبوسنة والسويد، بالإضافة إلى السلطنة وأعضاء المجامع الفقهية والخبراء والباحثين، وطلاب العلم من مختلف المذاهب والمدارس الفقهية يحدوهم حرصهم على أداء أمانة العلم، لمعالجة ما استجد للناس من قضايا ومعاملات، بأحكام واضحة رائقة لا يلفها ضباب الخلاف؛ لرفع الحرج عن أبناء هذه الأمة مقتدين في ذلك بالسلف الصالح في استنباط الأحكام من الدلائل الشرعية.



تابعها من مسقط: عادل خفاجة
تصوير: عبد الله سالم الخروصي

وقد استهلت هذه الندوة بحفل افتتاح تكلم فيه عدد من رجالات الفكر الإسلامي، حيث

ألقى الدكتور عبد الرحمن بن سليمان السالمي

رئيس اللجنة المنظمة للندوة كلمة وزارة الأوقاف والشئون الدينية، قال فيها:

مرّ عقد من الزمن منذ إقامة ندوة تطور العلوم الفقهية التي تنظمها الوزارة في كل عام، وكانت تجربة العقد الماضي من الثراء واتساع الآفاق، بحيث تسمح بالمضي قدمًا في قراءة التاريخ الفقهي وقراءة النظرية الفقهية والنظام الفقهي برؤى جديدة ومناهج متطورة.

وأضاف أن: اختيار موضوع هذه الندوة جاء تعبيرًا عن الثقة والتطلع إلى المزيد من الإنتاج من قبل العلماء المشاركين من سائر أنحاء العالم الإسلامي، كما شكّل هذا الاختيار دافعًا يمضي بنا قدمًا إلى آفاق جديدة تتيحها التجربة من جهة وتساندها المناهج والقراءات النقدية المعاصرة من جهة أخرى.

وأوضح أن: خطة هذا المؤتمر تأتي ضمن ندوات الفقه العماني، التي تعنى ببحث خمس

قضايا كبرى وهي: النظرية الفقهية العامة، والنظريات الموضوعية والموضعية المتفرعة منها مباشرة، والقواعد والوسائط المعبرة في الاستنباط في النظام الفقهي التاريخي، والأصول المؤسسة في سائر المذاهب وما يتصل بالفقهاء الكبار الذين أسهموا إسهامات بارزة في النظريات، والنظام والتجربة الحديثة للفقهاء والعلماء والمستشرقين مع النظرية والنظام فهمًا أو نقدًا ومتابعة، وأخيرًا النظام الفقهي في قديمه وحديثه.

أما سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة فقد ألقى كلمة ضافية قال فيها:

من المعلوم أن عجلة الزمان لم تتوقف ولن تتوقف حتى يرث الله الارض ومن عليها وفي كل دورة من دورانها تفرز مشكلات متنوعة وقضايا مستجدة لا بد من تسليط الضوء عليها من خلال تدارس شريعة الله سبحانه وتعالى الواسعة فإن الله عزّ وجل انزل هذه الشريعة سمحة صالحة لكل زمان ولكل مكان وفي طواياها كل ما تحتاج اليه البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها وانما فهوم الناس تتفاوت في استخراج الحلول من أعماقها ولا ريب أن هذه الحاجة الملحة إلى فهم حكم الله سبحانه وتعالى المنزل وإنزاله على الواقع أمر يحتاج إلى استنفاد كل الجهود من أجل أن يوجد في كل جيل من الأجيال وفي كل قطر من الأقطار من يقومون بحل هذه المشكلات أولئك الذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة: ١٢٢)

فوجود طائفة متشبّعة بالشريعة الإسلامية جامعة بوسائل تجعلها قادرة على الغوص في أعماق الشريعة واستخراج الحلول منها لوضعها بلسمًا شافيًا لكل علة من العلل، ولا ريب أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم كتابًا يشتمل على كل ما نحتاج إليه لتتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء، هذا الكتاب العزيز أُنزل بلسان عربي، وقد جاء النبي ﷺ ليخاطب هذه الأمّة بهذا اللسان العربي، ومعنى ذلك أنّ العربية هي وعاء الشريعة، ولم تعد حكرًا على العرب وحدهم، وإنما هي لغة عالمية لغة الدين تربط بين فئات عباد الله المؤمنين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم وأقطارهم، واللغة هي الرباط، كما أنّ الفكر رباط، غير أنّ اللغة هي الجسر الذي يعبر عليه الفكر.

والعربية كانت لغة قومية قبل أن ينزل بها القرآن، أما بعد أن اختارها الله تعالى لأن تكون وعاء للكلام الذي أنزله بها للهداية والإعجاز أصبحت لغة يجب أن نحافظ عليها، فالحرص على دراسة العربية هو السبب للدخول إلى فهم الشريعة ومقاصدها؛ لأنّ ذلك هو الوسيلة إلى فهم الكتاب العزيز والسنة النبوية، كما أنّ اللغة العربية والشريعة توأم لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وأضاف سماحته: أنّ حرصنا في تدارس اللغة من باب التعصب، لا التعصب للقوميات


د. عبدالرحمن السالمي — الشيخ احمد الخليلي



الضيقة فهذا أمر نرفضه لأنه يشتت ولا يجمع؛ وإنما نحرص على ما يجمع الحكم لنا جميعا، وليس هناك لغة ترشح لجمع شتات الأمة كاللغة العربية، وإنه من العار على المسلم أن يتقن لغة المستعمر الذى استعبده وفرض لغته عليه دون أن يتقن لغته الأم.

موقع الأمة الإسلامية أعلى الجبل

وقال فضيلة الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية فى كلمته خلال افتتاح المؤتمر: هذه الندوة اجتمعت على علم شريف، أعطى ولا زال يعطى وسوف يعطى للبشرية أنوارا تستضيء بها.

وقال: إن الفقه فى لغة العرب هو الفهم، أو هو فهم السامع للمتكلم ليعرف غرض كلامه أو هو فهم الشيء الدقيق وعلى كل حال فإن الوعى دائما يكون قبل السعى حتى لا نهرف بما لا نعرف فالفقه لا بد منه حتى نسير فى طريق منير واضح نعبد فيه ربنا ونعمر فيه كوننا ونزكى فيه أنفسنا ونحقق بذلك مراد ربنا سبحانه وتعالى من خلقه.

والفهم ينبغى أن يكون لمصادر الشريعة الغراء والفهم ينبغى أن يكون لتلك الآراء التى صدرت من الأتقياء الأنقياء عبر العصور من المجتهدين العظام والفهم يجب أن يكون أيضا للواقع المعاش وهو يتغير من لحظة إلى لحظة هذا الواقع بعوالمه عالم الأشياء والأشخاص والأحداث والأفكار والنظم يجب على الفقيه أن يدركه إدراكا واعيا ونحن نريد أن نعرف كيف نصل بين فهمنا للمصادر وبين واقعنا حتى نحقق مقاصد الشريعة الغراء ومصالح العباد والبلاد وحتى نلتزم بما تركوه لنا من إجماعات لم يختلف فيها اثنان ولم يتناطح فيها كبشان وحتى نصل بذلك إلى التمكن والتمكين فى الأرض ولذلك فهذا المؤتمر أتى فى وقته، أتى من أجل أن يسير خطوة إلى الأمام، أتى من أجل أن نجتمع على الخير فى الدنيا وحتى نجتمع على الخير فى الآخرة.

نحن نريد أن نكون أمة وسطا

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

والوسط هو أعلى الجبل لأنه وسط السائر إلى أعلاه حتى ينزل من الطرف الآخر فإذا كنت أعلى الجبل فأنت شاهد ومشاهد اسم فاعل واسم مفعول فأنت شهيد، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء وشهداء جمع شهيد، كما أن علماء جمع عليم، وفعيل يصلح للدلالة على الفاعل والمفعول كما هو مقرر فى موضعه فأنت شاهد ومشهود ولذلك نريد هذه المكانة التى وضعنا الله فيها فلا نريد أن نقصر فى أعمالنا وفكرنا وفهمنا فنتخلى عنها فنكون قد تركنا التشريف بعد أن تركنا التكليف.

نريد أن نكون شهداء بحق وأول ذلك هو أن نطور هذه النظريات وأن نستعمل وأن نستغل وأن نسير وأن نكمل تلك القواعد:

خمس محررة قواعد مذهب
للشافعى بها تكون بصيرا
ضرر يزال وعادة قد حكمت
وكذا المشقة تجلب التيسيرا
والشك لا ترفع به متيقنا
وخلوص نية أن أردت أجورا

نظمها الناظم فى المذهب الشافعى، ثم اتفقوا عليها فصارت القواعد الخمسة الكبرى التى بنيت عليها الأشباه والنظائر.

نريد أن نأخذ مناهج السلف وإلا نقف عند أزمانهم فإن الزمن يتغير وإن الواقع يتطور، ولذلك كان هذا المجهود الذى يبذل وهذا الاجتماع الذى يذكر فيشكر.

وأما فضيلة الشيخ وهبة الزحيلى

رئيس رابطة علماء الشام فقد طالب بجمع حصاد الندوات العشر الماضية للاستفادة منها وناشد الذين بيدهم القرار العمل على تفعيل آثار ونتائج هذه الندوات ليستفيد منها الآخرون وألا تكون حبيسة الأدراج، وأشار فى كلمته إلى



وهبة الزحيلى — د. على جمعة

أن اجتماع العلماء يهدف إلى تفعيل وتقنين الشريعة الإسلامية، حيث قال: إن اجتماعنا يأتى للتباحث فيما يحقق لهذه الأمة من الخير والتقدم والازدهار والحاكمية، وهذا المعنى الأخير المفقود فى حياتنا، حيث تغلبت القوانين الوضعية على الفقه الإسلامى، فأُقصى الفقه بدرجات متفاوتة بين قطر وقطر وبلد وبلد.. وهذه النصوص الكريمة التى نعتز بها والتى استمعتم إليها من الأساتذة الأفاضل تحتاج إلى تفعيل وتحتاج إلى دفاع مستميت عن بقاء حيوية الشريعة وتطلعاتها؛ لأن فى ذلك إعمالاً لعالمية القرآن الكريم الذى أنزله الله رحمة للعالمين.

وأضاف: كنت دائماً وما زلت استغل لقائى بالرؤساء وأطالبهم بهذا الطلب الكريم، فلا أجد أذناً مصغية.

ثم أردف: ديننا خير دين يحقق للناس قاطبة هذه المعانى الكريمة دون فتح أى مجال لنظرة عنصرية أو طائفية كل فقهائنا ترمق أنظارهم إلى مثل هذا فلذلك فإننا سنسير على الدرب والكل يدرك أن الحضارة السامقة وأن الوسطية والاعتدال وحفظ حقوق الآخرين أيا كانت انتماءاتهم أو نحلهم أو أديانهم. فالإسلام كفيل بتحقيق العدل بين الجميع، ولذلك أسعد ما سمعت أستاذا كنت معه فى ليبيا عندما درست هناك قال لى فى كلمة صامتة: (نحن أشد

الناس حماسة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وهو قبطي، لأن الشريعة تكفل حقوقا لا نجدها في ظل القوانين الوضعية).

فطريقنا جميعا تفعيل هذا الهدى الإلهي والعمل على أن يكون فقهنا في الطليعة، ومن هنا نجد ما سمي بالربيع العربي ونجد أناسا يشككون فيما إذا كان هؤلاء الإسلاميون سيتفردون بوضع الدساتير أما علموا الظلم لمدة أكثر من خمسين عاما:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

(القصص: ٥)

هذه كلها هروب لبعض المرشحين من هنا وهناك؛ لأنهم وجدوا أن آمالهم الشيطانية لن تجد مجالا في ظل العمق الإسلامي النبيل الذي يحقق للناس جميعا آمالهم وتطلعاتهم.

أما فضيلة آية الله أحمد مبلغي من علماء حوزة قم فقد أشار إلى دقة العنوان المختار للندوة، لأنه جاء من منطلق رؤية واعية واستيعابية، حيث إن التنظير يتضمن عناصر أهمها الإكثار من جمع المفاهيم والتلاقح والتوالد بين هذه المفاهيم، لأن وقوع التلاقح بين المفاهيم تتضح أبعاده في الفقه، وتؤدي النظرية فيه إلى إيجاد التوالد بين المفاهيم والقضايا الاجتماعية التي تريد إعطاء حكمها في الفقه.

وقال فضيلته: دور النظرية الفقهية هو تهيئة الأرضية لإيجاد حالة المواجهة بين مفاهيم القضايا حتى لا يفهم مفهوم بشكل مستقل عن فهم مفهوم آخر.

إن التنظير الذي يتضمن إيجاد التلاقح والتوالد والتزاوج بين الأفكار والمفاهيم بحاجة إلى مشاركة جميع العلماء من جميع المذاهب وليس المفاهيم محصورة في مذهب ما لأن المذاهب كلها عندها تجارب وأفكار ومفاهيم، خاصة ومن هذا المنطلق يجب أن ننطلق من فقه الأمة الإسلامية.

احمد مبلغي

وعلى مدى أربعة أيام متصلة ناقش العلماء ستين بحثا، تناول بعضها كتب التراث مثل: كتاب الأحكام وكتاب الجامع لابن بركة وكتاب العدل والانصاف وكتاب طلعة الشمس وكتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي.

وتناول البعض الآخر شخصيات كان لها دور في التنظير، مثل: أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجمال الدين عطية ومحمد أبوزهرة وغيرهم، وتناول البعض الآخر التركيز على مراحل التاريخ الفقهي وإلقاء الضوء على تلك الكتابات التي شكلت البدايات لنشوء النظرية الفقهية.

نشأة الفقه

في اليوم الأول قدم فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة ورقة عمل حول "أصول الفقه والنظريات الفقهية" قال فيها: إن علم أصول الفقه هو علم يبحث عن أدلة الفقه الإجمالية وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد (المجتهد).

والمراد بالإجمالية: أي القواعد العامة مثل

قولهم الأمر للوجوب والنهي للتحريم، والصحة تقتضي النفوذ فيخرج بذلك الأدلة التفصيلية، فلا تذكر في أصول الفقه إلا على سبيل التمثيل على القاعدة.

والمراد بكيفية الاستفادة منها: أي معرفة كيف يستفيد الأحكام من أدلتها بدراسة أحكام الألفاظ ودلالاتها من عموم وخصوص، وإطلاق، وتقييد وناسخ، ومنسوخ وغير ذلك فإنه بإدراكه يستفيد من أدلة الفقه وأحكامها.

والمراد بحال المستفيد: معرفة حال المستفيد وهو المجتهد، وسمي مستفيدا لأنه يستفيد (يستنبط) بنفسه الأحكام من أدلتها لبلوغه مرتبة الاجتهاد، فمعرفة المجتهد وشروط الاجتهاد وحكمه ونحو ذلك يبحث في أصول الفقه.

وقال: يمكن تعريف علم (أصول الفقه): أنه علم يبحث في القواعد العامة (الكلية أو الإجمالية) التي يقع في طريقتها استنباط الأحكام الشرعية.

وأضاف: كان الصحابة بعد عهد النبي ﷺ إذا استنبطوا أحكاما شرعية لتطبيقها على وقائع جديدة، يصدرون في استنباطهم عن أصول مستقرة في أنفسهم، علموها من نصوص الشريعة وروحها، ومن تصرفات النبي ﷺ التي عايشوها وشاهدوها.

وفي عهد التابعين ومن بعدهم، كثرت الحاجة إلى الاستنباط، لكثرة الحوادث التي نشأت عن دخول بلاد شاسعة تحت الحكم الإسلامي، فتخصص في الفُتيا كثير من التابعين، فاحتاجوا إلى أن يسيروا في استنباطهم على قواعد محددة، ومناهج معروفة، وأصول واضحة، وكان لبعضهم كلام واضح في أثناء كلامهم في علم الفقه.

غير أن علم الأصول لم يتميز عن غيره إلا في القرن الثاني الهجري، وكان للإمام الشافعي الدور الأساسي في جمع مباحث الأصول في كتابه "الرسالة" إضافة إلى تحديد وإضافة القواعد الأساسية في علم الأصول حتى تم تعديله وشرحه، وإضافة القواعد الأخرى على يد العلماء العاملين من مختلف المذاهب الإسلامية.

تأصيل النظرية الفقهية

كما قدم الشيخ أفلح بن أحمد الخليلي ورقة عمل حول تأصيل النظرية الفقهية قال فيها: الفقه أشهر علوم الحضارة الإسلامية، وأكثرها تأليفا، وبه يسلم المؤمن جوارحه لله تعالى؛ وبه تتحقق مظاهر الاستخلاف الرباني للبشر في تعاملاتهم المالية أو عقود نكاحهم، وهو يشمل جوانب القضاء والسياسة وغيرها، فهو يجمع أحكام الأفراد وأحكام الأمم، وهو من ألصق علوم الشريعة بالواقع الخاص والعام، فيه يتمازج الدليل مع واقع الحياة، وقد تباينت أنظار الناس للتجديد في علوم الشريعة عامة؛ فمنهم من يعلق آماله عليه، ويرى فيه النور المشرق الذي يضيء للإنسانية درب الخير ويبدد عن طريقهم الظلمات، ولعل بعض هؤلاء من يزدري القديم لقدمه، ويعجب بالجديد لجدته لا لدليله، ولا أنكر أهمية التجديد وحاجة الأمة إليه، لكن أن يجعل هو الأصل الذي تدور في فلكه الثوابت الشرعية فلا، والأدهى من ذلك والأمر أن يفسر التجديد بأنه نقل مضامين الحضارات الأخرى، وتفسير مبادئ الإسلام بها، حتى تحاكم القواطع الدينية بما عند الآخر، وثمة فريق آخر عصب عينيه عن النظر في الحقائق وكبل نفسه في قيود التقليد، وحبس فكره وعقله في دوائر ضيقة لا يخرج عنها.

هذه إشارة لما تم مناقشته في الندوة وأرجو الله أن يوفقنا إلى عرض بعض هذه الأبحاث في العدد القادم بإذن الله تعالى.

التوصيات:

وقد أنهت الندوة أعمالها بالتوصيات التالية:

• أولاً: الفقه الإسلامي فقه قادر على استيعاب المستجدات ومعالجة الأحداث على ضوء الكتاب والسنة وسائر أصول التشريع الإسلامي، وعلى المسلمين أن يستعيدوا الثقة في فكرهم وتراثهم ومشروعهم الحضاري، وأن تعكس برامج الفقه والدراسات الإسلامية هذه الثقة في التواصل والمتابعة والأمل بحاجة الأمة ومستقبلها.

• ثانياً: العناية بالنظريات الفقهية ومعرفتها لما تمثله من تأصيل علمي مهم، إذ تسهل التعامل مع المستجدات وتيسر عملية الاجتهاد واستنباط الأحكام، من خلال استقراء أبواب الفقه وأدلته، وإحكام صلة هذه النظريات بمقاصد الشريعة وتوحيدها لتحديد آليات توظيفها في الاجتهاد المعاصر.

• ثالثاً: ربط النظريات الفقهية من جانب أساتذة الدراسات الإسلامية بالواقع المعاصر في المنهجية وطرق التناول والنماذج والأمثلة التطبيقية، بما يجعلها قادرة على التفاعل مع العلوم الاجتماعية والإنسانية في تطورها المعاصر.

• رابعاً: دراسة القواعد الفقهية المتعلقة بكل نظرية على حدة دراسة نظرية وعملية؛ حتى يجرى تفعيلها في فقه الحياة المعاصرة.

• خامساً: قراءة الاجتهادات الفقهية في الفتاوى وأحكام القضاة وقرارات المجامع الفقهية، وتمكين كل منها في مكانه من النظريات الفقهية والنظام الفقهي في القديم والحديث.

• سادساً: تدريب الباحثين والمعنيين بالدراسات الشرعية على الاعتماد على النظريات الفقهية باعتبارها وسيلة للفهم الشامل الذي لا يقتصر على الجزئيات والتفاصيل دون ردها إلى الكليات والأصول، وأكبر المستفيدين من ذلك أساتذة الأصول والسياسة الشرعية في أقسام الإسلاميات بالجامعات.

• سابعاً: ضرورة عناية الباحثين والمشتغلين بالدراسات الفقهية بدراسة اللغة العربية وإتقان علومها وتراثها الأدبي، باعتبار ذلك شرطا ضروريا للاجتهاد وضبط استنباط الحكم من محله، ولذلك لا بد من التبادل والتعاون والتآزر بين أقسام اللغة العربية وأقسام الدراسات الفقهية والإسلامية العامة بالجامعات.

• ثامناً: العناية بالتراث الفقهي في كل المذاهب تأصيلاً وتطبيقا في ضوء التنظير الفقهي، مع المقارنة بين المذاهب الإسلامية المختلفة لبيان القواسم المشتركة والأصول الواحدة؛ ليعطي ذلك مزيداً من التفاعل الفكري والترابط العقلي.

• تاسعاً: ربط النظريات الفقهية الجزئية مثل نظرية الاحتياط ونظرية الاستطاعة بمصادرها الأصولية ودراسة قواسمها المشتركة وتطبيقاتها المتنوعة في كل المذاهب الإسلامية.

• عاشراً: دراسة النظريات الفقهية باعتبار مجالاتها بما يفرق بين نظريات الأحوال العادية، كنظرية العرف ونظرية الضرر، وبين نظريات الأحوال الاستثنائية، كنظرية الضرورة ونظرية الظروف الطارئة.

• الحادي عشر: العناية بالنظريات ذات التأثير العالمي لبيان تقدم التشريع

الإسلامي، ومن أمثلة هذه النظريات نظرية التعسف في استعمال الحق وتطبيقاتها في القانون الخاص والقانون العام.

• الثاني عشر: تقديم نظرية العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، وربطها بأصولها المنهجية وقواعدها الفقهية، مع الإشارة إلى الكتابات التراثية في هذا المجال، والاهتمام بوضع ذلك في تصرف أقسام العلوم السياسية والعلاقات الدولية بالجامعات.

• الثالث عشر: الاهتمام بدراسة مناهج الأصوليين باعتبارها أساسا في البحث العلمي، وسبيلا لدراسة التراث الإسلامي عامة والإباضي خاصة، ووسيلة للتفكير النقدي في عدد من القضايا الأصولية، ولهذا الأمر أهمية كبرى في أقسام أصول الفقه وفقه الكتاب والسنة.

• الرابع عشر: تعد الموسوعات الفقهية وكتب الفتاوى موردا خصبا للتاريخ، فقد عنيت بدراسة القضايا الفقهية في ظل الظروف التاريخية التي تشكلت في وقتها، لذا ينبغي الاهتمام بهذه الموسوعات لبيان واقعية الفقه وتأريخ بعض نظرياته، ومن ثم إنجاز دراسات تهتم بتأريخ النظريات الفقهية وتطورها، وأثر الوعاء الحضاري في تشكل تلك النظريات، وطبيعة العلاقة بين تلك النظريات ضمن منظومة التشريع الإسلامي الشامل، واستخدامها في كتابة صحيحة لتأريخ المسلمين الحضاري اجتماعيا وثقافيا، إن التاريخ الثقافي والفقهي لتجديد الإسلامية الوسطية أمر شديد الأهمية وينبغي أن تعنى به أقسام التاريخ والآداب والدراسات الإسلامية في الجامعات.

• الخامس عشر: هناك دراسات رائدة في مجال التنظير الفقهي، تحتاج إلى إعادة رصد ومعالجة وتحليل، وفي مقدمتها نظرية العرف عند ابن بركة في كتابيه التعارف والجامع، ونظرية العلاقات الدولية في كتاب السير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ومسائل الأحوال الشخصية من كتاب الجناوني، ومن المهم تنبيه المشتغلين بالفقه من الأساتذة والدارسين للاهتمام بهذا التراث العلمي المتخصص، وهذه مسائل تهم دارسي الشريعة وفقهها ونظرياتها كما تهم دارسي الحقوق والقانون.

• السادس عشر: ضرورة مراجعة كتابات المستشرقين المتعلقة بالتراث الفقهي، وتصحيح ما فيها من تأويل مجانب للصواب، في إطار المنظومة الفقهية من حيث المبادئ والأصول والمقاصد، دون إهمال الاستفادة من الجوانب الجادة والإيجابية في هذه الكتابات، ثم إن الاستمرار في الإفادة من عناية الآخرين بتراثنا الفقهي تقتضي القيام بقراءات نقدية للبحوث الجديدة عند المستشرقين.

• السابع عشر: العمل على التعاون بين الأقسام المختصة بالفقه والقانون الخاص والمقارن لتعديل مناهجها باتجاه حضور النظريات الفقهية كل في مجاله في ميدان الدرس الجامعي، ويعد ذلك مقدمة ضرورية للربط بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية.

• الثامن عشر: الاهتمام بالدراسات النظرية في الأصول والعلل والمقاصد وذلك لما تمثله من نزوع للمراجعة والنقد والتصحيح واتجاه لصنع الجديد.

بين المجلة والقارئ


للأستاذ / أحمد تقي الدين

الإسراء والمعراج .. تأملات في مفردات

تحت هذا العنوان جاءت كلمة د. السيد أحمد هندية - إمام وخطيب بالأوقاف - عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين - قال:

قبل الدخول إلى الحدث ذاته لتفكيك مفرداته، لابد من الوقوف أمام ثلاث حقائق لعلها تصحح خطأ، وهذه الحقائق هي:

● إن هناك خلافًا كبيرًا حول توقيت الحدث، وهل وقع مرة واحدة أم أكثر من مرة؟ كل هذا مختلف فيه؛ لأن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لم يضبطوا التاريخ الذي وقع فيه الحدث وإنما ضبطوا الحدث نفسه بالتفصيل، وهذا لا يقدح فيهم بل هو ما يميزهم عن غيرهم من أجيال الأمة، فالقوم ما كانوا ينشغلون إلا بما ينبني عليه عمل، وما يترتب عليه حلال أو حرام.

● إن الإسراء قد ذكر صريحًا في القرآن، أما المعراج فلم يذكر صريحًا وإنما ذكر في سورة النجم ضمنًا وبالإشارة؛ لأجل هذا ذهب علماؤنا ومشايخنا إلى أن منكر الإسراء يكفر لأنه كذب بصريح القرآن، أما منكر المعراج فهو مسلم عاص لكنه لا يخرج عن حظيرة الإيمان.

هذه بعض الحقائق بين يدي الحدث، أما الحدث ذاته إذا قمنا بتفكيكه إلى مفردات للاستفادة منها فسوف تطالعنا المفردات الآتية:

١ - شق الصدر: جاء في رواية البخاري عن أنس أنه (ﷺ) قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم» ودلالة شق الصدر بالنسبة لنا كأمة أن يطهر كل منا قلبه، وأن ينظف نفسه من الأحقاد والمطامع، إنه التغيير في النفس ليتغير على أثره الواقع، وتلك مسلمة قرآنية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

سورة الرعد: ١١

٢ - المسجد الحرام: لقد كان المسجد حاضرًا في المشهد على طول الرحلة، ولعل هذا يذكر بدور المسجد ومكانته، وإذا كانت الأمة تحتاج إلى مصانع للسلاح لتدفع عن نفسها وتدافع عن بقائها، فإنها إلى مصانع الرجال أحوج، ومصانع الرجال هي المسجد، ولا شك أن الأمة اليوم في حاجة إلى مراجعة علاقتها بالمسجد؛ لتضبط واقعها على هديه، وترشد مسارها في ضوء أنواره.

٣ - البراق: وهو وسيلة المواصلات، إنه رمز للسرعة والإنجاز، وهو مشتق من البرق، فأين معنى البراق في حياتنا اليوم؟ أين السرعة في الأداء والإنتاج؟ أين السرعة في عمل الخيرات، إن المسلم عداء من طراز فريد، فهو في مسارعة ومسابقة ليحقق الهدف في أسرع وقت وأقل جهد استجابة لأمر ربه:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(آل عمران: ١٣٣)

٤ - الليل: لقد كان الليل هو الوعاء الزمني للإسراء والمعراج:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾

(الإسراء: ١)

قال علماؤنا: ذكر الليل منكرًا ليدل علي البعضية فهو تعبير عن قصر الزمن الذي تمت فيه الرحلة ذهابًا وإيابًا، والليل في الإسلام للسكن والراحة:

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾

(القصص: ٧٣)

فبعد عناء السعي بالنهار يأتي الليل بالراحة والسكن، هذا ليل الناس، أما ليل المؤمن فهو طاعة وذكر،

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾

(سورة الفرقان: ٦٤)

فمتى تدرك الأمة قيمة الليل؟

كانت القدس فيما مضى عاصمة الإيمان، وقبلة الأنبياء، ولاتزال في الحاضر زهرة المدائن وريحانة البلاد، وكان بنو إسرائيل هم حملة ميراث النبوة، وفي أيديهم مفاتيح الأرض المقدسة بحكم وراثتهم للأنبياء، فلما شاء الله تعالى وبعث النبي الخاتم صلوات ربي عليه، انتقلت العهدة إلى المسلمين، وحملوها تكليفًا لا تشريفًا، وجاء الإسراء ليقول لنا: إن القدس أصبحت حرمًا مسلمًا، وأن التفريط فيها لا يقل جرمًا عن التفريط في مكة، وأن المسجد الأقصى لا يقل في حرمته ومكانته في حس المسلم عن المسجد الحرام، ولقد دخل المسجد الأقصى النبي (ﷺ) وعمر وصلاح الدين وصلوا فيه جميعًا، فهل يليق اليوم أن نترك بيريز وباراك ونتنياهو يعيثون فيه؟ إننا اليوم أمناء على القدس، ولا يحق لنا أن نحتفل بالإسراء إلا يوم أن نطهر القدس من دنس اليهود، ويومها نحتفل كما نشاء

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

ما قبل الإسراء والمعراج

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ إبراهيم أحمد جاد الكريم - واعظ بالأزهر - فرشوط - قنا:

رحلة الإسراء والمعراج جاءت بعد عناء طويل وكفاح مرير مر به النبي ﷺ منذ بداية الدعوة إلى ربه ولقد حدثت عدة أمور قبل رحلة الإسراء والمعراج على فترات متتابعة فمن هذه الأمور على سبيل الإجمال ما يلي:

١ - صحيفة المشركين الظالمة التي تدعو إلى مقاطعة المسلمين وكان أهم ما جاء فيها:

(أ) - أنهم لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم.

(ب) - لا يبيعون لهم ولا يبتاعون منهم.

(ج) - لا يقبلون صلحًا مع بني هاشم وبني عبد المطلب.. حتى يسلموا رسول الله ﷺ

للقتال.

فكان من نتائج هذه الصحيفة الظالمة حصار المسلمين في شعب أبي طالب ثلاث سنين. حتى بلغ بالمسلمين الجهد وازدادت عليهم الأزمات ولكنهم صبروا وتحملوا من أجل دينهم فعلى قدر الشدائد والأزمات يظهر مقدار الثبات.

(٢) - مـوت (أبي طالب) عم النبي ﷺ - الذي كان يحميه من إيذاء قريش وعنتها.

وموت (خديجة) - رضي الله عنها - التي كانت تواسيه وتسانده.

(٣) شدة إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ ولأصحابه فتعددت أساليبهم في إيذاء المسلمين والتي كان منها:

أ- أسلوب الإنكار والتكذيب.

ب- أسلوب الاستهزاء والسخرية.

ج- أسلوب المفاوضة والمساومة.

د- أسلوب الاضطهاد والمطاردة.

هـ- أسلوب الاتهام بالباطل.

و- أسلوب الامتحان والاختبار.

فهذه أساليب وصور تعرض لها النبي ﷺ فصبر وتحمل فلما ضاقت الأرض بنكران أهلها لرسالة النبي ﷺ اتسعت السماء بالعرفان لدين الله تعالى واستقبال رسول الله ﷺ.

فجاءت رحلة الإسراء والمعراج ترويحاً عن رسول الله - ﷺ - وليرى من آيات ربه الكبرى، ومن خلال ماتقدم نتعلم: الثبات على دين الله، الصبر على المكاره والصمود في وجه الطغيان ونعلم أن بعد العسر يسرا وأن بعد الضيق فرجا وأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

المعجزة الخالدة .. الإسراء والمعراج

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية بنين:

* قال تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(الإسراء/ ١)

تلك معجزة طوت الزمان والمكان، وكانت تكريما إلهيا من الله لرسوله - ﷺ.

* ولقد جاء النسق القرآني بألفاظه الكريمة يحمل معنى عظيما، فكلمة «سبحان» تدل على تنزيه الله وتقديسه، ومن هنا وجب التصديق بما جاء به القرآن عن أمر تلك المعجزة، كما أن لفظة «ليلا» جاءت نكرة وذلك لبيان أن الإسراء برسول الله ﷺ كان في جزء من الليل، وهذا الجزء القليل دليل الإعجاز، حيث إن ما قطع من مسافات لا يدركها العقل وتعجز عن قياسها الأفهام فدل ذلك على ما سيكون عليه موقف القوم من تكذيبه.

* ولما كان الإسراء ليلاً، اختلف القوم حول حالة الإسراء أكانت في النوم أم في اليقظة ولذلك عندما أخبر رسول الله ﷺ قريشا بأمر تلك الرحلة المعجزة كذبوه حيث استغرابهم كيف يقطع النبي الكريم تلك المسافة في جزء من الليل وهم يقطعونها في أربعين يوما.

* وجاءت لفظة «عبده» فالإضافة إلى الذات العلية تدل على أنه ﷺ أرفع الخلق منزلة، وبينت أنه عليه الصلاة والسلام ذلك المصطفى الكامل فهو المدعو بكيانه كله إلى ضيافة الرحمن.

* قال ﷺ: «إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله» ويؤكد ﷺ على صفة العبودية تلك الصفة التي رفعته مكانة عالية، وقوله ﷺ: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنما أنا عبدالله».

* كان كل من الإسراء والمعراج في اليقظة فقد أثبت الله سبحانه وتعالى رؤيا العين في قوله:

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾

(النجم/ ١٧: ١٨)

كما جاءت الرؤيا القلبية في قوله تعالى:

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾

(النجم/ ١١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ لا رؤيا منام».

* ورحلة الإسراء والمعرج حقيقة معجزة أجراها الله سبحانه وتعالى تأييداً لرسوله ﷺ حيث حدثت في السماء حتى وصل الرسول الكريم إلى سدرة المنتهى فهي معجزة تختلف عن بقية المعجزات التي أجراها الله سبحانه وتعالى لأنبيائه حيث حدثت كلها على الأرض ورآها الناس، ومن ثم تصبح تلك المعجزات حسية، أما الإسراء والمعراج فهي رحلة وجدانية وحسية.

الفتنة نائمة!

وآخر ما نختم به رسائل هذا العدد رسالة الشيخ مصطفى الأزهري - خطيب مسجد (سوق الحمام) وزارة الأوقاف - السيدة عائشة - القاهرة، وهي رسالة حوت تحذيرا من الفتنة وشرورها وقانا الله وإياكم منها:

الفتنة كلمة تفوح منها رائحة القلق والخوف والاضطراب واختلاط الأوراق وضبابية الرؤية، كما تنذر الفتنة حين تطل بشر مستطير يوشك أن يفرق الناس ويأتي - إن غاب الحكماء - على الأخضر واليابس، ومن خطورة شأن الفتنة أنها سريعة متتابعة لا تترك وقتا يتبين فيه العقلاء الحق من الباطل والخطأ من الصواب؛ لا سيما إذا تنادى لها بعض الناس تحت شعارات دينية، أو صاحوا فيها باسم الحق، فهنالك تشتعل المشاعر في اتجاهات غامضة وتأخذ المتفاعلين معها إلى واد سحيق بعدما تكون دماء سالت وأرواح أزهقت وهنا لا يجد الشيطان إلا أن يزهو وينتفخ أن حقق هدفه ونال مبتغاه بإيقاع الناس في تلك الفتن؛ ولذا فإن النبي ﷺ كان كثيرا ما يستعيذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، بل ويعلمنا الاستعاذة من جميع أنواع الفتن؛ فكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال، ومن فتنة القبر ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات»؛ كما حذرنا من حدوث الفتن ليستعد لها الراشدون بالاعتصام بحبل الله المتين، وعدم الجري والانسياق وراء الشعارات الجوفاء، والصيحات الخرقاء التي ربما يكون لأصحابها مآرب خاصة، وأطماع ذاتية، وأهواء شخصية، لا يدفع ثمنها إلا البسطاء أو المأجورون البلهاء، ومن شدة اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بشأن الفتن أنهم كانوا يتذاكرونها ويتساءلون عنها قبل أن تقع حذار منها؛ فقد صح عند البخاري من حديث حذيفة أنه قال: (بينما نحن جلوس عند أمير المؤمنين - عمر رضي الله عنه - إذ قال: أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا يا أمير المؤمنين! قال: ماذا قال؟ قال: إن فتنة الرجل في بيته وأهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والزكاة والحج. فقال عمر: ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن الفتنة التي تموج موج البحر. فقال حذيفة: مالك وإياها يا أمير المؤمنين! إن بينك وبينها بابا. فقال أمير المؤمنين: أيكسر أم يغلق؟ فقال: بل يكسر. قال: لا أبا لك. قل: يغلق، قال: لا يا أمير المؤمنين! بل يكسر، فقيل لحذيفة: ما هذا الباب؟ قال: عمر).

وإذا كانت الأمور كلها بمقادير، ولا يكون في كون الله إلا ما أراده الله ومع ذلك فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم؛ فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾

فنحن في دنيا الأسباب ، والحياة تجري وفق سنن وقوانين فلا يصح بحال أن يسعى المرء عامدا متعمدا إلى خرق نواميس الحياة وقوانين الدنيا فإن ذلك يحدث خللا واضطرابا ويفتح باب فتنة وشر لا يعلم الناس ما وراءها :

- و الفتنة تكون عامة : قال تعالى.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(الأنفال : ٢٥)

- والفتنة تفرق الناس وتفتت الجماعة وتنال منها . فيصبرون فريقين أو أكثر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾

(الأنعام : ٥٣)

فأول ضحاياها الجماعة وأول ثمارها المرة هي الفرقة .

- الفتنة يكثر فيها الهرج وهو كثرة القتل : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يفيض المال وتظهر الفتن ويكثر الهرج) قالوا وما الهرج يا رسول الله؟ قال (القتل . القتل . القتل) ثلاثا . رواه ابن ماجة واللفظ للبخارى.

- وفى الفتنة كلٌ يقاتل عصبية وقبلية .
- و الأثر السلبي للفتنة يؤثر سلباً على شرع الله ، ويرتفع فيها شأن دين غير دين الإسلام واعتقاد غير الاعتقاد الصحيح قال تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة : ٤٩)

- والفتنة تقع في الأمر المتشابه ؛ فتحدث بلبلة بين الناس حتى يلتبس فيها الحق بالباطل قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران : ٧)

- والفتنة يكون فيها ترصد وترقب وتدبير وتطلع إلى منفعة :

﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

(الحديد : ١٤)

- و الفتنة تقترن بمعصية ؛ قال تعالى:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

(طه : ١٣١)

- أما الهدف من الفتنة فهو اختبار أعمال الناس وابتلاؤهم في خلق الصبر:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

(الفرقان : ٢٠)

فالفتنة تفرز الناس وتبين معادنهم وتنقي صفوفهم من الغبش والدهماء والعملاء وخونة الوطن والدين ليبقى الخير والحق والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ قال الله تعالى :

«فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »

.. فاللهم احفظ مصر وبلاد العرب والمسلمين من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن يا رب العالمين .

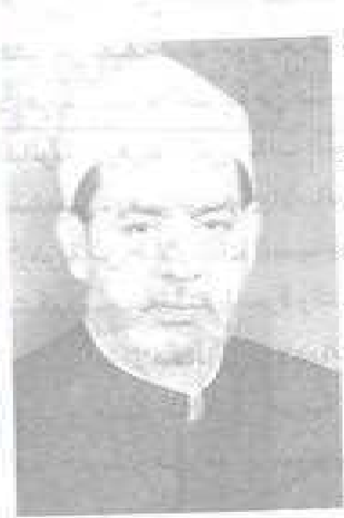
أنباء الأزهر

للأستاذين / عبدالموجود أمين . محمود الفشنى

الرؤية المستقبلية للأزهر الشريف

شهدت قاعة المؤتمرات الكبرى بمركز الأزهر للمؤتمرات بمدينة نصر انعقاد المؤتمر العلمى الأول للأزهر الشريف حول: « الرؤية المستقبلية للأزهر الشريف » ، وذلك يوم الثلاثاء الموافق ١٠ من جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ/ الأول من مايو ٢٠١٢م وذلك برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر.

كلمة أ . د / أحمد الطيب شيخ الأزهر:


أ . د . أحمد الطيب

الحمد والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وبارك عليه وعلى آله وبعد :

فقد كنت أتطلع منذ أمد بعيد إلى مثل هذا اللقاء ، الذى يجمعنى بإخوانى الأزهريين ، فى حقول العمل المختلفة : تدريساً وتعليماً وتربية ، وعلى كل المستويات : الجامعية ، وما قبل الجامعية ، وفى دوائر علماء الوعظ ، والدعوة والإمامة ، الذين يسهمون من خلال خطابهم الدينى فى بناء الفكر المعاصر وتشكيل الوجدان الوطنى ، وقبل ذلك وبعده : كنت دائم التطلع إلى لقاء شباب الأزهر وطلابه والعاملين به حفظهم الله جميعاً وألهمهم السداد والتوفيق . أهلا وسهلا بكم جميعاً فى هذا الملتقى الأخوى الأزهرى الخالص ، وأود أن أقول لكم فى البداية : نحن أولا وقبل كل شىء دعاة إلى الله ، وخدام لعباده ، وهذا هو شرفنا وولاؤنا الحقيقى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

وكل الولايات الأخرى إنما تأتى بعد ذلك ، والأعمال فيها مرهونة بنيات أصحابها . إن عملنا الشريف - أيها الإخوة ! - يتضمن : رسالة ، هى الدعوة والعمل الصالح ، وأصحاب رسالة ، أو عاملين عليها ، وهم الأزهريون بكل فئاتهم ، ثم إمكانات وأدوات ، وأنظمة وسياسات ، تمكنهم من أداء عملهم على الوجه الأكمل . ويسعدنى - مع إخوانى وزملائى العاملين فى المشيخة - أن نستمع إليكم اليوم فى صراحة تامة حول هذه العناصر جميعاً ، قصداً لتوحيد الفكر والموقف ، وخدمة للأهداف العليا للدين والوطن إعمالاً لمبدأ الشورى والمشاركة ، وتحسيناً للأداء الأزهرى ، وتنظيم أركانه الأربعة ، وتعاونه : قمة وقاعدة ، دون إقصاء أو مزايدة .

١ـ أما الرسالة ـ أيها السادة العلماء ! ـ فهى مناط الشرف لهذا الأزهر الشريف، الذى يمثل ظاهرة فريدة فى عالم اليوم، منذ احتضنته هذا البلد النبيل، مصر المباركة المحروسة دائماً بفضل الله وعنايته، والأزهر الشريف فى هذا البلد الطيب، لم يتوقف يوماً واحداً عن التعليم والدعوة، اللهم إلا ليقاوم غازياً، أو يصد معتدياً أو يدفع طاغية متجبراً. هذه الرسالة الأزهرية هى فوق كل التغيرات والتقلبات السياسية وغير السياسية، إذ هى تكليف إلهى كما دلت الآية التى تلوناها آنفاً، بل هى تشريف نبوى كريم: «نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وبهذه الوضعية التاريخية أصبح الأزهر مرجعية نهائية للعالم الإسلامى.

٢ـ وأما أصحاب هذه الرسالة وحاملوها ـ وهم علماء الأزهر ـ فإن تجربة ألف عام ـ بل تزيد ـ لابد أن تكون من الغنى والثراء، بحيث تحافظ على ثوابتها وتطور آلياتها، وتتقن صنع منتجها النهائى، وأعنى به «الخريج الأزهرى» الذى من أجله يضحى هذا الشعب المصرى النبيل بالغالى والرخيص، ويبذر أبناءه وفلذات أكباده له، ويحتضن بالحب والترحاب طلاب العالم الإسلامى، وطالباته، من أقصى الأرض إلى أقصاها، كأمانة بين أيدينا نحرسها ونقوم على خدمتها ليل نهار، فى التعليم وفى الدعوة وفى العمل الإدارى. ولابد أن نتصارح فى ثقة، أيها الإخوة ـ وبعيداً عن عقد التعالى أو الشعور بالدونية ـ نتصارح بأن الخريج الأزهرى لم يعد اليوم كما كان من قبل: تمكناً من أحكام دينه، وعلماً بجوانب تراثه، وحقائق عصره، وتملكاً لناصية البيان العربى الذى ظل حفيظاً عليه فى أقسى الظروف والأحوال، وإدراكاً لهذا الوقع المؤلم الذى أدت إليه، منذ أكثر من نصف قرن أمور تعرفونها، فقد عملنا من خلال مجلس الأزهر الأعلى لإعادة النظر فى المناهج الأزهرية ـ بعد ما أصابها من ضمور وتسطيح وخلل ـ فتقرر إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية والعربية، فى الثانوية الأزهرية، إلى جانب الشعبتين العلمية والرياضية، حتى تهيئ المرحلة الثانوية الأزهرية أبناء المسلمين ـ وهم الوديعة والأمانة التى اؤتمنا عليها ـ كلا لما تيسر له وخلق من أجله، وحتى تعود المناهج الأزهرية من خلال تلك السياسة الجديدة تدريجياً إلى ما كانت عليه من خصوبة وغنى رجاء أن تقل الشكوى، من أجهزة الدعوة والتعليم، فيما يتعلق بنوعية «الخريج» ومستوى ثقافته.

٣ـ وأما الإمكانات والأدوات: فقد أمن الشعب المؤمن مؤسسته التعليمية والدعوية، التى جعلت مصر عاصمة الثقافة العربية والإسلامية على مدى القرون ـ أمنها بالأوقاف الثابتة، التى عصفت بها أحداث وظروف تعلمونها أيضاً، وإن كانت الدولة المصرية قد تعهدت بالوفاء بكل متطلبات الأزهر وهيئاته، وهو ما نفذ أحياناً ولم ينفذ تماماً أحياناً أخرى، ونحن نثق بأن الشعب وممثليه وقادته سيكونون دوماً أوفياء، ويجب أن يعلم الجميع أن الوقف متى خرج من ذمة صاحبه فهو على ملك الله ـ عز وجل ـ لا يجوز التصرف فيه على أى نحو إلا من الأوصياء الشرعيين، وأن إرادة الواقف كنص الشارع، وقد وقفت هذه الأعيان على الأزهر ورسالته، ولاتزال هناك عقبات كبرى تقف فى طريق عودة الجانب الأكبر من هذه الأوقاف إلى الأزهر الشريف، فلايزال له فى ذمة «وزارة الزراعة والإصلاح الزراعى» نحو ١٥٠,٠٠٠ فدان، يجب أن تعاد إلى الأزهر كما أعيدت أوقاف مماثلة إلى أربابها وأصحابها.. هذا ويجب على المسئولين أيها الإخوة، وعلى مختلف المستويات أن يسارعوا بإقرار المساواة الكاملة بين طالب جامعة الأزهر وزملائه فى الجامعات الأخرى، وأن يقتلعوا من الجذور هذه التفرقة بين المتساويين، فهى تفرقة جائرة وقسمة ضيزى، لا تتناسب الآن مع مصر الثائرة، ورجالها الأحرار. وفى كل الأحوال والظروف أؤكد لحضراتكم أن الجانب المادى لم ولن

يقف أبداً عقبة أمام العمل النافع الجاد فى الأزهر الشريف، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

٤ـ أما السياسات والتنظيم أيها الإخوة: فكما تعلمون هى دوماً متطورة فى كل المؤسسات، قابلة للتغير طبقاً للظروف والمستجدات، وقد كان الهدف من التعديلات التى درست عاماً كاملاً فى المشيخة، وأقرها مجمع البحوث الإسلامية، وأدخل عليها بعض التعديلات، وأصدرتها السلطة المختصة، ونوقش مضمونها وهدفها فى بعض لجان مجلس الشعب: كان الهدف الأول من ورائها هو تحقيق استقلال الأزهر بشئونه فعلاً وواقعاً، مع بقاء الأزهر مؤسسة كبرى ضمن مؤسسات الدولة.. مؤسسة يملك فيها الأزهريون أمرهم، ويضعون أنظمتهم ويطبقونها فى كل مجالاتها بالخبرة والتضافر والشورى، ويستعيدون هيئاتهم التقليدية، ذات الرسوخ والمصداقية، كهيئة كبار العلماء، وغيرها من الهيئات والأنظمة، ويستحدثون ما يرونه لازماً للعمل النافع، والرسالة المقدسة.

وأنتهز هذه الفرصة لأقول لإخوانى من علماء الدعوة، وأئمتها: نحن جميعاً فى زورق واحد، بل نغرد فى سرب واحد، ونعمل لله على قلب رجل واحد وسنعمل على زيادة التضافر والتنسيق على المستوى الدعوى، وعلى دعم الخطاب الدينى الوسطى، وحماية كرامة الدعاة وحقوقهم، بحيث لا يتدخل فى شئونهم غيرهم ممن لا يعى حقيقة مهمتهم، وسوف يتواصل التضافر والتعاون مع وزارة الأوقاف تدريجياً بإذن الله.

أيها الأزهريون: إن المشهد الآن ـ فى مصر والعالمين العربى والإسلامى ـ قد تغير، وإن وضعية الأزهر ودوره قد عادتا كالعهد به أن يكون فى مقدمة الصفوف، ويكفى أن وثائق الأزهر الخمس قد نالت القبول العام من كل الأطياف فى مصر، وكثير من علماء العالمين العربى والإسلامى.. بل من دول أوروبا أيضاً، غير أن الدعم الحقيقى لهذه المكانة ولذلك الدور إنما يتمثل أولاً وقبل كل شىء فى ترتيب البيت من الداخل وهو الهدف الجامع للقاء اليوم.

وفقكم الله لما فيه الخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة رئيس جامعة الأزهر أ.د. أسامة العبد



فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر – أيها العلماء الأجلاء والأبناء الأعزاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

إن رسالة الأزهر الشريف رسالة سامية تتناسب مع جلال وتمام الدين الإسلامى عقيدة وشريعة، فهو قبلة العلم لمن يفد إليه من كافة بلاد العالم من المسلمين، ولمن أراد الاهتداء إلى الدين القويم وجامعة الأزهر أحد الجناحين المهمين للعملية التعليمية، وتضم ما يقرب من نصف مليون من الطلاب والطالبات، ولاشك أنه إذا قامت العملية التعليمية على الوجه اللائق بقيمة وقامة الأزهر الشريف، سوف يكون المردود على الأزهر وعلى الوطن وعلى الوافدين وبلادهم مردوداً طيباً مباركاً فيه، يخدم المجتمعات، ويقيم الحياة على نهج الوسطية والاعتدال، دون تعصب أو تطرف أو غلو أو إفراط أو تفريط، ومجازف من يقول: إن مواصفات الخريج الآن مواصفات تليق بقيمة الأزهر على المستوى المحلى أو الإقليمى أو العالمى فالأمر يحتاج إلى وقفة طويلة، ونظرة متأنية، وهذا المؤتمر وإن كان قد جاء فى ظروف صعبة تمر بها البلاد ـ نسأل الله السلامة لمصر ولأهلها ـ إلا أنه دعوة للبدء فى الإصلاح، وتقويم النفس، والمؤسسات، وهناك محاولات جادة على الطريق الصحيح لتصحيح مسار

العملية التعليمية من رجالات الأزهر الشريف المخلصين الذين لا يبغون سوى الإصلاح ورضى المولى عز وجل، وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر، وقد اقترح بعض السادة العمداء نظامًا متكاملاً لتطوير العملية التعليمية، ومن ذلك على سبيل المثال: تجديد وتطوير المناهج وذلك برصد القصور الحاصل فيها، إذ لم تعد قادرة على الوفاء بحاجات أمتنا المعاصرة حق الوفاء، فلابد من إعادة النظر فيها، وتطويرها حتى تكون قادرة على استيعاب كل جوانب الحياة الحديثة. وهو جدير بالأخذ به للوصول إلى خريج صالح في نفسه، مُصلح لمجتمعه ولأمته، يتحلى بخلق الإسلام وآدابه، ويتخلى عن كل طريق مخالف لذلك.

فضيلة الإمام الأكبر - أيها العلماء الأجلاء - أيها الأبناء الأعزاء إن الأزهر الشريف بعبقه التاريخي الذي فاق الألف عام وبصحوة ثورة الخامس والعشرين من يناير، ويعيد مجده وسؤدده وقوته بدراسة المتون في العقيدة والشريعة واللغة العربية وأن يقدم حفظة القرآن ترتيلاً وتلاوة ودارسي السنة المطهرة وأن يقدم الداعية الواعي الفاهم لمعنى المعاصرة.

فعلينا جميعًا أن نتق الله قولاً وعملاً، وأن نخلص النية له، ونستشعر جلال المهمة، وعظمة المسئولية، وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



كلمة الأستاذ الدكتور حسن الشافعي
رئيس مجمع اللغة العربية ومستشار فضيلة الإمام الأكبر

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

شيخنا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر السادة الحضور - أيها الإخوة الأزهريين، لقد دار الزمان دورته واعتدل الميزان في مصر أو كاد أن يعتدل، وأمسك الأزهريون بزمام معهدهم، وسيرى التاريخ ماذا هم فاعلون.

أيها الأزهريون: لي معكم علامات موجزات:

أولاً: درس التاريخ، هناك أربع لحظات في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام، فكلما مرت بمصر شدة أو أراها الله يوما ماجدا من أيام الله:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

كلما جاء يوم من هذه الأيام سرت في أعطاف الأزهر هزة وقامت في ربوعه نهضة:

أولاً: بركات المقاومة المجيدة والأنفس الشهيدة أمام الحملة الفرنسية الباغية حين ركب الغازي رأسه وعلبه يأسه فضرب مسجد السلطان حسن، ما تزال آثارها باقية، ودخلت خيله الأزهر الشريف وعبث جنوده البرابرة بأوراق المصحف الشريف، وقاد الشيوخ ثورات القاهرة الثلاث ضد هذا الطاغية، ودس سليمان الحلبي خنجره في قلب كليبر قائد الحملة بعد نابليون، ودفع حياته شهيداً بعد أن عذبوه تعذيباً قاسياً وهم خريجوا ثورة الإخاء والحرية والمساواة!! كانت نهضة الشيخ العطار بشئون الأزهر من ثمار هذه المقاومة وكذلك كان تلميذه الشيخ الطهطاوي ثم تأتي ثورة عرابي الذي كان هو نفسه طالباً أزهرياً، دخل إلى جيش مصر، وتجلت تضحيات الشيوخ في معارك الثورة العرابية ثم بعد فشلها بعد أن عاد لها الخونة يقول

المؤرخون: عندما شكل المحتل محكمة لمحاكمة الثوار وجئ بالشيخ العدوى وسأله رئيس المحكمة: هل وقعت على هذه الورقة التي تخلع خديوي مصر توفيق. فقال له بكل هدوء: «في الحقيقة أنا لم أوقع ولكن لو جئتم بها الآن سأوقعها أمامكم ولا يستطيع واحد منكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن توفيقا قد خان وطنه ودينه وأمته»، وحوكم الشيخ، ولكن سجل التاريخ مواقفه.

وأخيراً .. إن الإصلاحات الأولى في تاريخ الأزهر التي عرفت بالنظام وكانت من ثمار هذه الثورة - ثورة عرابي - والتي وقعت أحداثها في أخريات القرن التاسع عشر، وكانت النهضة الفكرية لمصر كلها على يد الشيخ محمد عبده فنفي من أجل هذه الثورة، ولكنه عاد ليغرس أفكاره في الأزهر لكي تثمر بعد حين.

وثورة ١٩١٩ التي قادها وفجرها أزهري اسمه سعد زغلول وشارك فيها شبابه وعلماؤه، خرج الأزهريون من أروقتهم إلى ميدان الكفاح، وكانت من ثمار هذه الثورة في نطاق الأزهر إصلاحات الشيخ المراغي التي قام عليها من بعده الشيخ أبو الفضل الجيزاوي، ثم عاد الشيخ المراغي ليتم رسالته لكن كل هذا كان من بركات اشتراك الأزهريين في ثورة ١٩١٩م.

وتأتي ثورة الخامس والعشرين من يناير ومشاركة الأزهر فيها شبابا وشيوخا وما قدموه لها من مواقف ودماء - ولا ننسى (الشيخ عماد عفت) - ومن أفكار كانت الحاجة إليها أشد وقد كاد يختل الزمام وتتفرق الصفوف وكادت الفتن تعصف بالثورة ذاتها ولم تجد مصر إلا الأزهر برجاله يخطبون الناس في كل مكان وفي كل مسجد من منبر الأزهر إلى ميدان التحرير وأمسك شيخه - الحصيف الواعي الزاهد الطاهر الحبيب - بزمام اللحظة التاريخية، وجمع أبناء الوطن على كلمة سواء في وثائق الأزهر الخمس التي تلقتها الأمة بالقبول وأخذت شعوب عربية تزور الأزهر يوماً بعد يوم تعلن قبولها لها، وانعقدت راية الريادة الفكرية والعملية بفضل التضحيات وبفضل الحكمة والإخلاص والوعي، وكان لابد أن يولد قانون استقلال الأزهر من ثمار هذه التضحيات ومن ثمار هذه المشاركة .. ومازال الأزهر يحمل هموم الأمة في مصر وغيرها.

فيا أيها الأزهريون: اذكروا هذه المواقف الأربعة فلا شيء يأتي من فراغ وإنما هي استحقاقات ثورية في كل هذه المواقف التاريخية الأربعة.

أقول ثانياً: إذا كان الأزهر قد عاد إلى قلب الحياة العامة لممارسة دوره المعتاد على مر التاريخ يشارك في توجيه أمور مصر والعالم العربي والإسلامي بجهوده وفكره فإن ذلك لا ينبغي أن يلهينا أبدا عن واجبنا الأول وهو: التعليم والدعوة، الطالب الأزهري، الكتاب الأزهري، الشيخ الأزهري، الدرس الأزهري.

وأخيراً فإن الاستقلال الذي حصل عليه الأزهر من استحقاقات ثورية ينبغي أن يفعل بمشاركة الجميع في حقول العمل المختلفة تعليما ودعوة وإدارة وبحثاً وخدمات اجتماعية بالشورى والمشاركة.

أيها الأزهريون لعلكم تحفظون كلمات شوقي:

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع مليا واقض حق أئمة
طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانا وأبهى منظرا

وفقكم الله لما فيه الخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بيان من مجمع البحوث الإسلامية بشأن ما أثير في بعض الصحف بشأن الأزهر الشريف

● ناقش مجمع البحوث الإسلامية فى نهاية جلسته الشهرية المنعقدة بمشيخة الأزهر الشريف الخميس الخامس من جمادى الآخرة سنة ١٤٣٣هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ٢٠١٢م، تناقش تطاول البعض على رموز الأزهر الشريف فى خلط صارخ بين السياسة والإمامة الدينية، وتذرعاً بتفسير مغلوط للقانون، ومساساً غير مقبول بالمرجعية الدينية الأولى للعالم الإسلامى. هذا ومجمع البحوث الإسلامية إذ يرفض أى مساس برموزه الدينية، فإنه يؤكد للأمة الإسلامية نأيه عن الصراعات السياسية، وتمسكه بإمامته وعلمائه، ويهيب بالجميع أن يحفظوا للأزهر الشريف مكانته الرفيعة فى الأمة الإسلامية.

● وقرر مجمع البحوث الإسلامية فى جلسته المنعقدة فى ٢٦ من أبريل عام ٢٠١٢م عدم قبول أى مصنف متعلق بموضوعات: السحر - العلاج بالقرآن الكريم - الرقية الشرعية، للفحص من قبل الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة.

● كما ناقش المجلس فى جلسته المنعقدة فى ٢٦ أبريل ٢٠١٢م الكتاب الوارد إلى مكتب فضيلة وكيل الأزهر من مكتب رئاسة مجلس الوزراء والمتضمن التوصية الصادرة عن اجتماع لجنة التعليم والبحث العلمى لمناقشة البيان العاجل المقدم من العضو محمد طلعت محمد بشأن اعتراض المنتقبات عند دخولهن الامتحان.

قرر المجلس: أنه من المسلم به أنه يتحتم التأكد من شخصية الممتحن قبل مثوله فى لجان الامتحانات «شفوية وتحريرية» ويتم التأكد من شخصية الطالب بمطابقة بطاقته الجامعية أو الشخصية على صورته الطبيعية، فإذا كان الممتحن من الفتيات المنتقبات تستدعى إحدى السيدات - بواسطة أحد مسئولى الامتحانات - لمطابقة بطاقتها على شخصيتها. كما أنه يخصص للجان الفتيات مراقبات يقمن بالمراقبة عليهن، وفى هذه الحال للمراقبة أن تطلب من الطالبة الكشف عن وجهها خاصة إذا شكت فى أنها تستخدم النقاب فى أمر غير مشروع فى الامتحان.

حفل تكريم اسم المرحوم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أقامت لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حفل تكريم المرحوم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى بقاعة الاحتفالات بمركز صالح كامل بجامعة الأزهر وذلك فى ٢٤ من شهر أبريل ٢٠١٢م وشارك فيه كل من: الأستاذ الدكتور طه مصطفى أبو كريشة مقرر لجنة الإعجاز للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والأستاذ المستشار محمد عبد العظيم الشيخ رئيس هيئة قضايا الدولة، والأستاذ المستشار حامد عبد الدايم رئيس محكمة الاستئناف سابقا رئيس جمعية الساعى المشكورة، والأستاذ الدكتور سالم عبد الجليل وكيل وزارة الأوقاف، والأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى عضو اللجنة، والأستاذ الدكتور رفعت العوضى عضو اللجنة والأستاذ المستشار سعيد عبد الوهاب الزهرى عضو اللجنة.

وفى نهاية الحفل تم توزيع جوائز المسابقة العالمية التى نظمتها اللجنة تحت عنوان الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

مفتى القدس ووزير الأوقاف الفلسطينى يشيدان بزيارة الدكتور على جمعة للقدس

على الرغم من ردود الأفعال الغاضبة والعاتية على زيارة الأستاذ الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية للقدس إلا أن الزيارة وجدت مؤيدين من قيادات دينية فلسطينيـــة، وثمن وزير الأوقـــاف الفلسطينى محمود الهباش، زيارة مفتى مصر والأمير الأردنى غازى بن محمد، للمسجد الأقصى وقال الهباش: إن تلك الزيارة تأتى فى ســياق تعزيز ودعم صمود أهالى المدينة ومشاركتهم آلامهم التى يعـانونهـا من قبـل الاحـتلال الإسرائيلى.

وأضاف: إن السلطة الفلسطينية تثمن هذه الزيارة المهمة من قبل شخصية دينية كبيرة بحجم مفتى مصر الشيخ على جمعة، الذى جاء لزيارة القدس باعتبارها فضيلة دينية وضرورة سياسية تحتمها الهجمة الاستيطانية الشرسة التى تتعرض لها المدينة المقدسة من قبل المستوطنين.

وأوضح أن صنيع مفتى مصر، والأمير غازى، ومن قبلهما الشيخ الداعية الحبيب على الجفرى والأمير هاشم بن الحسين، بزيارة القدس، هو تحد وإغاظة للاحتلال الإسرائيلى الذى يسعى إلى إفراغ ساحات المسجد الأقصى من زائريه العرب والمسلمين.

ودعا الهباش علماء المسلمين إلى شد الرحال إلى المسجد الأقصى، والصلاة فيه، والتأسى بما قام به العالمان مفتى الديار المصرية، والجفرى، ليحلا ضيوفا على القدس وعلى الشعب الفلسطينى المرابط فى بيت المقدس.

• وقال الشيخ محمد حسين المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية: إن زيارة مفتي مصر دينية في المقام الأول، وليست تطبيعا مع الكيان الصهيوني، وأنه قام برفقة الشيخ على جمعة، بزيارة المسجد الأقصى تلبية لدعوة الرسول ﷺ في الحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا».. ودافع عن موقف الحكومة الأردنية بتنظيم هذه الزيارة والدعوة إليها بأن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، محمود عباس، دعا خلال القمة العربية الأخيرة في بغداد، كافة المسلمين من أجل زيارة المسجد، ودعمه وإعماره البشري والروحي بالمصلين والحجاج.


الشيخ على جمعة

٢٠ ألف سوري يفرون إلى تركيا مع استمرار أعمال القمع

كشفت هيئة الإغاثة من الكوارث وإدارة الطوارئ بتركيا أن عدد اللاجئين الفارين من القتال في سورية ارتفع إلى أكثر من ٢٠ ألفا.

وأوضحت الهيئة أن أعداد الفارين هي الأعلى منذ ١٥ مارس الماضي حين دخل ألف سوري تقريبا تركيا في يوم واحد.. ومنذ ذلك الحين يفر ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ سوري يومياً، وكان زعماء أتراك قد قالوا: إن فرار طوفان من اللاجئين أو ارتكاب قوات الحكومة السورية مذابح على حدود تركيا يمكن أن يضطرها إلى التحرك لمنع كارثة إنسانية.

من ناحية أخرى تواصلت الاشتباكات التي تنفذها القوات السورية وتدعمها الدبابات مع مقاتلي المعارضة قبيل موعد انسحاب القوات الذي وافق عليه الرئيس بشار الأسد في إطار خطة وضعها المبعوث الدولي كوفي عنان لوقف إراقة الدماء المستمر طوال عام.

واندلعت أعمال العنف بعد إعلان الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون أن الصراع في سورية يتفاقم وأنه لا يوجد أي مؤشر على انحسار الهجمات على المناطق المدنية رغم تأكيدات دمشق أنها بدأت سحب قواتها وفقا لخطة السلام.

وقال المبعوث الخاص للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية كوفي عنان إن هناك حاجة ماسة إلى مزيد من العمل لوقف كل أشكال العنف وسحب الأسلحة الثقيلة وقوات الجيش من المدن.

.. وبرنامج إنساني إسلامي للمتضررين في سوريا بقيمة ٧٠ مليون دولار

أعلن الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، عن برنامج عمل إنساني تعده منظمة التعاون الإسلامي لمساعدة المتضررين في سوريا، وذلك في أعقاب وصول نتائج جولة البعثة الإنسانية التي أرسلتها المنظمة بالاشتراك مع الأمم المتحدة إلى سوريا.

وقال: إن البعثة قدرت تكلفة الاحتياجات الإنسانية وفق هذا البرنامج بنحو سبعين مليون دولار، تشمل قطاعات ضرورية تتمثل في توفير الغذاء والمساعدات الطبية العاجلة، وإعادة تأهيل القطاعات المتضررة في بعض مناطق الريف السوري من مزارعين وثروة حيوانية، بالاضافة إلى تقديم مساعدات مالية لتمكين النازحين من استئجار منازل.


اوغلى

للمرة الثانية: القس «جونز» يحرق نسخا من المصحف

أقدم القس الإنجيلي الأمريكي تيري جونز على حرق نسخ من المصحف الشريف وبث المشهد عبر الإنترنت، احتجاجا على اعتقال رجل الدين المسيحي يوسف نادرخاني في إيران.

وذكرت هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» أن عملية حرق المصحف لم تحظ بتغطية إعلامية تذكر في الولايات المتحدة.

وكان المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» ويليام سبيكس قد قال في وقت سابق إن القس تيري جونز يخطط لحرق نسخ من المصحف.. يذكر أن القس جونز كان قد أشرف على حرق نسخة من المصحف خلال «محاكمة صورية للإسلام» في شهر مارس من العام الماضي، وهو ما أدانه الرئيس الأمريكي باراك أوباما، وأثار ذلك العمل آنذاك ردود فعل غاضبة وعنيفة في العالم الإسلامي، منها هجوم على مقر للأمم المتحدة في أفغانستان أسقط عددا من القتلى.

١٠٠ كتاب تدعو لمعاداة الإسلام بأمريكا.. خلال عام!!

كشف عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود الدكتور صالح المانع، عن وجود نحو ١٠٠ كتاب جديد، أصدرتها دور النشر في أمريكا، تدعو إلى محاربة الإسلام، في المجتمع الأمريكي والمؤسسات المدنية، وذلك خلال عام واحد فقط.

وأوضح المانع في الندوة السعودية الفرنسية لحوار الحضارات في دورتها الثالثة بجدة، والتي جاءت تحت عنوان: «الفكر العربي الإسلامي في أوربا.. الواقع والدروس» وجود عدائية ممنهجة ضد الشريعة الإسلامية في المحاكم والقوانين والأنظمة المدنية بأمريكا، لافتا إلى أن الإصدارات من الكتب، كانت جميعها ضد الإسلام ومفهومه، ولفت إلى أن الحملة المنظمة التي ترعاها جهات أمريكية تحت مسمى «الحملة ضد الشريعة» تعمل على محاربة الاعتماد على الشريعة كتطبيق في أنظمة الحياة الاجتماعية.

٥ ملايين دولار تعويضا لأمريكية أهينت لاعتناقها الإسلام

في سابقة تشهدها الولايات المتحدة، حكمت إحدى محاكم مقاطعة جاكسون على إحدى شركات الاتصالات العملاقة في الولايات المتحدة، بدفع تعويض قدره خمسة ملايين دولار لموظفة في الشركة، بسبب تعرضها لمضايقات من مديريها بعد أن تحولت من المسيحية إلى الإسلام قبل سبع سنوات.

وأكدت المحكمة أن الموظفة وتدعى سوزان بشير ٤٢ عاما وهي متزوجة وأم، قد تعرضت لبيئة عمل عدائية بعد اعتناقها الإسلام مما أثر بالسلب على نفسيتها.

وجاء حكم المحكم بعد أن رفعت سوزان بشير دعوى قضائية ضد الشركة، ذكرت فيها أنها تعرضت «لسلوك عدائي» من مشرفيها عندما اعتنقت الإسلام في ٢٠٠٥، وقالت محاميتها آمي كوبمان: بعد أن ارتدت سوزان الحجاب وأصبحت تؤدى صلاة الجمعة، أطلق عليها المديرون وزملاؤها في العمل أسماء، من بينها «الإرهابية»، وقالوا إنها ستدخل النار.

وجاء في الدعوى أن أحد المديرين طلب من سوزان خلع الحجاب أكثر من مرة، وأهانها لارتدائها إياه، وفي إحدى المرات جذبها وحاول تمزيق الحجاب من على رأسها.

خبراء الإيسيسكو يدرسون تحديات الإساءة للإسلام والمسلمين

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو ـ واتحاد جامعات العالم الإسلامي، بالتعاون مع جامعة الزيتونة بتونس، اجتماعاً للخبراء لمناقشة سبل تفعيل مشروع برنامج العمل الجامعي لمواجهة تحديات الإساءة للإسلام والمسلمين.

سعى الاجتماع إلى مناقشة الصيغة النهائية للمشروع واعتماده، ووضع خطة عمل لتنفيذه، وتعزيز التعاون والتنسيق بين المنظمات والهيئات والجمعيات الإسلامية في العالم الإسلامي والمجتمعات الإسلامية في الغرب من أجل تصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، والإسهام في عرض العطاء الحضاري للإسلام لمواجهة تحديات الإساءة للإسلام ورموزه ومقدساته.

شارك في الاجتماع أساتذة جامعيون وخبراء متخصصون في مجالات الإعلام والاتصال والعلوم الإسلامية والإنسانية من الأردن والسعودية وتونس والمغرب وليبيا، ومن خارج العالم الإسلامي، من هولندا وروسيا.

يذكر أن المؤتمر العام الخامس لاتحاد جامعات العالم الإسلامي «باكو، ١٢ـ١٤ مايو ٢٠١٠» قد صادق على الخطوط العريضة لمشروع برنامج العمل الذي تقدمت به الأمانة العامة للاتحاد، وكلفها بدراسته واقتراح آليات تنفيذه بالتعاون مع الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية في ليبيا.

worldly policy with the aims of the Hereafter. The Western definitions declared publicly this power and its relations and the struggle among its owners are the bases of this policy.

The modern definitions of politics hold the opinion that the core of politics is: "Struggle over the nature of the good life and the relations between the interests of the communities. As for the main analytical factors, they are: struggle and power. The political actions are that which occurs throughout the perspective of power, which is practiced throughout reign and within the framework of the state. The study of politics is an analysis of the relations of power."

The human being is related to the worldly life only, and the civilization is only secular and worldly. Therefore, politics is worldly, and there is no relation between this worldly life and the Hereafter, and there is no relation between the management of the human affairs and the policy of reconstruction and the religious uprightness.

This is the core of controversy between the implication of "politics" in the Islamic civilization and its implication in the Western civilization. The controversy starts with the perception of every civilization to the human being, i.e., whether he is Allah's successor and his life is the path leading to the Hereafter, which is better and eternal. In this way, he will govern the reconstruction of the worldly life with the Shari'ah, undertaking the duties of the contract of succession. Therefore, politics becomes Shar'i. The other opinion is that the human being is the master of the universe, whose knowledge and sciences are limited to the worldly life. His policy of reconstruction is limited to achieving the worldly objectives only. In this way, religion is separated from reconstruction and not merely the state as an executive authority.

This is the implication of the expression "politics" in the Islamic thinking: Setting the affairs of the human beings right by guiding them in the near and far future to the acts which reform the people and keep them away from mischief as well as managing the affairs of the human beings according to the rules of justice and righteousness in Islam.

As such, these implications were dominant in our dictionaries until the cultural contact between our nation and the thinking and civilization of the West occurred. The Western implications of the expression "politics" poured into the same vessel, the matter that caused duplicity in concept and implication in spite of the unity of the expression and vessel. This problem faces the Muslim's mind in his search for remarkable Islamic implications in dictionaries that mixed the implications of the West to the implications of Islam upon defining many expressions.

As "politics" in Islam is not limited to setting right the affairs of the human beings in the worldly life only, as the human being in Islam is the successor of Allah on earth and he populates and reconstructs the earth in this worldly life to reach the Hereafter, which is eternal and better. Politics in the Western civilization is positivistic and is limited to the human being managing his life only in this world. According to this civilization, he is the master of this universe, and the aim of populating and reconstructing earth is to increase the pleasure of this life, develop the material abundance, and increase the power without linking all of these things to the Hereafter and without taking any religious or Shar'I criterion as ruling framework of these arrangements and policies. The surrounding reality is the starting point while the mind and senses are the ways to gain knowledge.

{There is nothing but our life of this world, we die and we live and nothing destroys us except Ad-Dahr (the time). And they have no knowledge of it: they only conjecture.}

It is worldly policy in content and aim which has nothing to do with anything outside this worldly reconstruction. It is not governed by criteria that are not worldly. Also, it has nothing to do with religion, its philosophy and basics.

For this entirely worldly view and the policy of the human population, the secularism of the Western civilizations means separating religion, not only from the state – as an executive authority – but separating all of its criteria from the cognitive, social, educational, economic, moral, and philosophic affairs of the human reconstruction. The human being has worldly aims, and his policy of reconstruction is governed by worldly criteria.

A Christian professor wrote about secularism saying: "This meaning belongs to science – which is not an analogical source – and differs from religion. This separation exists in Christianity, and has nothing to do with Islam. Its basis is the existence of spiritual authority, which the authority of the Church and a civil authority, which is the authority of the rulers and princes. The secularists resort to reason in general and take care of the common interest without being limited to a certain text or religious rituals. This professor confirms without an accusation that the Western secularism belongs to the West in addition to separating religion from the worldly life and setting aside its criteria from the policy of reconstruction and population.

Thus, it is natural to find secularist policy in a secularist civilization. It is the management of the human being to his worldly life, just to reach worldly aims. Machiavelli formulated in his book entitled "Al-Amir" the philosophy of politics in the secular Western civilization, as it is "what is possible in the real life" without any religious criteria for it. Dictionaries tackled this policy saying: "It is a certain style of work, being selected on purpose after displaying all the possible substitutes..." without any reference to the religious reform, which links the

criteria of the righteousness leading to a good end in the hereafter. The Islamic conception of "politics" linked strongly the worldly to the Hereafter criteria.

The Islamic dictionaries defined "politics", being based on this "Islamic figure" of the human being as: "Setting right the affairs of the human beings by guiding them to the way, through which they will be saved in the worldly life and the Hereafter. This is also by guiding the human beings to the rules of justices and righteousness.

This conception is not only related to the demanding worldly reform and instant interest. Rather, it is the reform and interest, which make the salvation in the worldly life achieve salvation in the Hereafter. Also, it does not seek managing the affairs of the human beings according to worldly criteria only. Rather, it is management, which is controlled by the criteria of justices and righteousness, set by the Criteria to His successor as a framework and philosophy for the policy of population.

As the population of this worldly life is the field of "politics", which includes amendments and developments more than firmly established matters, the religious texts and the divine Shari`ah are finite, whereas the changes and developments of the population are infinite. The texts of Shari`ah with regard to the policy of population handled the firmly established matters, generalities, philosophies, and the ruling basics, principles to achieve the up-to-date Islamic reconstruction by the Islamic rules which cover the changes and developments.

To achieve this special point, which is linked to sealing the divine messages with the Message of Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him), the Islamic political thinking settled on the point that the "legislation" of politics is not limited to a certain text from the Shari`ah. Rather, it is achieved by the policies created by the Muslims as long as they do not contradict with Allah's Shari`ah. "....Politics is the acts, by following which the people come closer to the

reformation and farther from mischief even if the Messenger of Allah did not set it nor did the Revelation descend with it.

It is not limited to the text of Shari`ah, but it includes matters that do not contradict with Shari`ah. The fair politics does not contradict with the Shari`ah, but part of it. Calling it as "politics" is a matter of expression, and if is its fair, it becomes part of Shari`ah. Dividing regime to Shari`ah and politics is like dividing religion to Shari`ah and reality or dividing it to reason and text. All of this is null and void, because politics, reality, method, and reason are divided into sound and corrupt sides. That which is sound is considered as part of the Shari`ah and not its value. However, that which is null and void contradicts with the Shari`ah. Whoever scrutinizes the Shari`ah and its handling of the interest if the human beings in the worldly life and the Hereafter and the justice it has can include all of the human beings, as there is no justice which can transcend it or an interest which is not included in it will know that the just politics is one of its parts. Also, whoever gets informed with its aims and applies it in the right way will never need any other politics. There are two kinds of politics: unfair politics, which is prohibited by Shari`ah and fair politics, which takes the Truth from the unjust tyrant. It is part of Shari`ah and derives its knowledge from it. This is one of the most important branches of Shari`ah.

Compromising the Islamic implication of politics, being derived from the figure of the human being in Islam – the figure of the human being as the successor of Allah on earth – and the fact that his policy of population as the trust being held by the human being and being granted to Allah. His freedom in applying it is controlled by the divine Shari`ah, which acts as the terms of the contract of succession. The Islamic side of politics is not limited to the texts of the finite texts, but is extended – by associating the texts, their spirits, and the philosophy of their rules – to areas where there is not text by Ijtihad.

[*]Islam and Politics...!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine

This is no disagreement in our old and new thinking over the definition of Islam. It is full submission to Allah (Glory be to Him) according to the Shari`ah and rulings conveyed by the Messenger.

As for politics, there is disagreement over the implication of this expression.

Before the intellectual contact between our Islamic civilization and the Western one after modern Western colonization of the Islamic countries, at a time when the Islamic and Arab implications were the only dominant and common ones in our dictionaries and encyclopedia, there was no disagreement over the concept of politics. This is because the Islamic implication expresses honestly the human being, as was conceived in Islam. The human being is placed by Allah on earth to carry the trust of the construction of the worldly life to be a trial and a criterion for categorizing him in the Hereafter, which is better and eternal. Thus, the policy of the construction of the worldly life is not an aim in itself, but a way to the Hereafter. He, as a successor on earth, is not the master of this world. Rather, he is the servant of the Creator of this world. Even if he is a master on earth, he is the Servant of Allah and the master of anything else.

Therefore, the freedom of this "slave master" is governed by the Shari`ah of the Creator, which includes the terms of the contract of succession on earth, the matter that made the Islamic concept of politics in the Islamic construction is not limited to the material criteria in the worldly life. Rather, it is not separated from the

(*) Leading article in the Arabic section at Al-Azhar Magazine.

Amidst all the ordeals and sorrows suffered by the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) due to the opposition of the people, Allah granted him the miracle of the Night Journey to make him feel at ease.

Allah wanted to lessen the hardships experiences by Muhammad and support him in his Da`wah. He experienced protection from Allah that increased his belief in the success of his Da`wah, spreading the Da`wah, and his victory over his enemies. The matters that Allah exposed to him filled his soul with satisfaction, his heart with light, and his chest with belief.

The first part of the Night Journey took place on earth from the Inviolable Mosque to Al-Aqsa Mosque. Both of the two places are sacred and visited by the Messenger, and they were the source of light to the whole humanity.

The second part of the Night Journey was heavenly and started from Al-Aqsa Mosque to the seven heavens until Sidrat Al-Muntaha (a lote-tree of the utmost boundary over the seventh heaven beyond which none can pass), as Muhammad heard the pencils writing the destinies of the human beings by the angels.

To sum up the Night Journey: Allah (Glory be to Him) commanded Jibril and Mika'el to accompany the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) in his journey from Mecca to Medina, to which the Prophet immigrated. Then, they went to Tour Sinai, where Mosa spoke to his Lord. Then, they went to Bethlehem where Isa was born. Then, Allah exposed to His Messenger unseen matters related to the affairs of the human beings. These examples include many lessons and good tidings. This affected the Messenger of Allah (may he blessings and peace of Allah be upon him).

The first part of the Night Journey to Jerusalem ended with the great reception of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him), as Allah gathered all of the Prophets, messengers, and honored angels.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) dismounted Al-Buraq, and was accompanied by Jibril, as he welcomed him. Then, Jibril announced the Adhan and let the Prophet lead all of the Prophets and Messengers in prayer.

miracles granted to our Messenger are greater and more wonderful than those granted to any other Messenger.

The two parts of the night journey are granted to our Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) are two signs and miracles from Allah to His Beloved Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him). Why did Allah grant His Prophet and Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) specifically this Night Journey?

Allah is not to compliment a certain person even if this person is the most beloved person to Him. In fact, our Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) tolerated for the sake of his Lord great suffering, which was never tolerated by any person else. Also, he tolerated much hurt and insult which were never tolerated by any prophet else. Thus, he deserved this great grant. This matter is explained by Ibn Ishaq, as he said that Khadijah bint Khuwailid, the wife of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and Abu Taleb, his uncle, died in the same year. Thus, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) endured many hardships, as Khadijah tried to protect Islam and she was the most ideal model of wife, because she tended to tranquilize the Messenger of Allah when he was upset. She believed him when the people accused him of lying and consoled him with her money and efforts. Thus, her death was a great ordeal experienced by the Messenger of Allah. Thereafter, his uncle Abu Taleb supported him against his people. After Abu Taleb's death, Quraysh harmed the Prophet in a way they could have never done during his life to the extent that one of the foolish people belonging to Quraysh dared to throw dust on the head of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him). When he entered his house, one of his daughters dusted off his head while weeping. Then, the Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "O my daughter, do not weep, Allah will protect your father.

These hardships followed each other and the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) lost hope in the people surrounding him embracing of Islam. Then, he called the people of Taif to Islam, but they accused him of lying and treated him rudely. One of them said to the Messenger: If you were good and you call to something good,

your people would believe you. He said: If you do not want to embrace Islam and believe me, let this person stop speaking to me. But they did nothing; rather, they ordered their slaves to insult and stone him until his honorable feet bled and Zayd ibn Harithath tried to protect him in every possible way. Then, he sat to relax while his feet were still bleeding, sought his Lord's help, and supplicated to Him saying: "O Allah to You alone, I make complaint of my helplessness, the paucity of my resources and my insignificance before mankind. You are the most Merciful of the merciful. You are the Lord of the helpless and the weak. O Lord of mine! Into those hands would you abandon me: Into hands of an unsympathetic distant relative who would sullenly from at me, or to the enemy who has been giving control over my affairs? But if your wrath does not fall on me, there is nothing for me to worry about. I seek protection in the light of Your Countenance, which illuminates the heavens and dispels darkness, and which controls all affairs in this world as well as in the Hereafter. May it never be that I should incur Your wrath, or that you should be wrathful at me. And there is no power nor resource, but yours alone."

The angels felt the harm the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) was suffering from and Allah sent Jibril and the Angle of Mountains. He saluted the Messenger and told him: Allah has sent me at your disposal; and if you want me to destroy these tow mountains over them, I will do. Then, the Prophet at this point forgot all of his pains and bleeding and his mercy is crystallized when he said: Please do not do that, because they may beget a servant who will worship Allah Alone. O Allah, forgive my people, as they are ignorant. Jibril was astonished and said: Truthful is the One who called you the kind and merciful.

The people of Mecca insisted on preventing Muhammad from entering it after he went to complaint to the people of Taif. No one responded to Him except Mut'em ibn 'Uday, as he ordered the members of his family to get armed. Then, they went with their weapons to the mosque. Then, he told to the Messenger of Allah: Enter, Muhammad. Then, he entered and started to offer Salah (Prayer) and entered his house.

The Night Journey and Ascension….!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Allah (Glory be to Him) supported His Prophets and Messengers with magnificent miracles, which attract the attention and capture the hearts. It is worth mentioning that we should refer to a miracle.

The miracle is a supernatural phenomenon, by which Allah supported His Prophets. This occurs in a way that others cannot do. When one of the miracles occurs to one of the Prophets according to his need, this proves that he is sent down by Allah. Also, this is not to give a chance to liars to claim that they are Prophets. However, Allah did not support them with miracles. For example, Musaylamah, the liar, claimed that he was a Prophet, and he was asked for his miracles. They asked him: What is your miracle? It was authentically reported that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) healed an diseased eye. Musaylamah said: I can do what Muhammad did. The people brought him someone who had a diseased eye and a wholesome one. When he tried to cure the diseased eye, the wholesome eye became blind. Allah supports only His beloved and chosen people.

Allah's Wisdom willed that the miracles of the previous prophets to be perceived by senses such as Mosa's stick which turned to a snake. In addition to this, there is the miracle of `Isa, as he was able to raise the dead from death. However, there miracles ended with the elapse of the time of these Prophets. However, the major miracle of our Prophet Muhammad is that it was moral because the messages of the previous prophets belonged to certain people and certain time. However, the message of the last of the Prophets is for the whole people and will continue to the Day of Resurrection. Allah (Glory be to Him) says:

{And We have not sent you (O Muhammad peace be upon him) except as a giver of glad tidings and a Warner to all mankind} [Saba': 28]

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Every prophet was given miracles which made his people believe him. However, I was granted

Revelation from Allah (Glory be to Him). Thus, I hope that I become the one who has the greatest number of followers on the Day of Judgment.

Allah (Glory be to Him) wanted to give His Prophet and Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) perceivable miracles in addition to the moral miracle: The Qur'an. He had as many miracles as the other Prophets. Allah gives His Bounty to whomever he wants and He is the One who has the Greatest Bounty.

There is wisdom: people differ with regard to their perception, some of them consider only the miracles perceived by the senses and are not convinced with the moral and intellectual ones. Thus, Allah willed that some of the miracles of the Messenger of Allah become perceivable and others are intellectual. Al-Baihaqy narrated on the authority of Imam Al-Shafi`y (may Allah be pleased with him) that he said: Our Messenger was given more miracles than any other prophet. Prophet `Isa was granted the miracle of resurrecting the dead, but the miracle of our Messenger Muhammad is greater than him as he revived a trunk, which is a solid with no life, as reviving a solid is stronger than restoring the life of a person who was previously alive. It was authentically reported that the Messenger of Allah used to deliver sermons in his holy Mosque, leaning his back against a trunk. When many people gathered, they told him to stand on the pulpit; and when he did, the trunk emitted a sound similar to the voice of a mother who lost her child. Then, the people cried loudly, and the sound continued until the Messenger of Allah went to the trunk and hugged it; then the sound stopped.

Al-Shafi`y said: The sea was split into two parts for Mosa, the miracle which is parallel to the splitting of the moon. The latter is greater and more wonderful, as it is a heavenly miracle. It may be said that split so that water flows from it. We may say that water flowed from the fingers of our Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him), which is a stranger miracle, as the water flowing from stone is normal, but the flowing of water from flesh and blood is amazing.

When he was asked about subjecting the winds to Suliman, but the night Journey is greater and more wonderful. Al-Bayhaqy (may Allah be merciful to him) said: If we follow the methodology of Imam Al-Shafi`y (may Allah be pleased with him), we will find that the

AL-AZHAR MAGAZINE
Rajab, 1433 A.H



ENGLISH SECTION
June, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



www.AlazharMag.com

AL AZHAR
MAGAZINE



facebook.com/AlAzharMag

في العدد القادم

- التنصير الأمريكى حرب عالمية ضد الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد عمارة

- فتاوى لها تاريخ

الشيخ محمود شلتوت

- ابن سينا والطب السيناوى

أ. د. أحمد فؤاد باشا

- الدين

أ. د. محمد عبد الله دراز

- قصص الأنبياء

الشيخ عبد الوهاب النجار

هدية عدد شعبان

روح الحضارة والثقافة الإسلامية

للشيخ ابن عاشور

و الشاعر محمد إقبال



السعر 150 قرشاً

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
شعبان ١٤٣٣ هـ - يوليو ٢٠١٢ م الجزء "٨" السنة "٨٥"
www.AlazharMag.com

الأزهر

هدية العدد روح الحضارة والثقافة الإسلامية
للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، وفيلسوف الإسلام: محمد إقبال

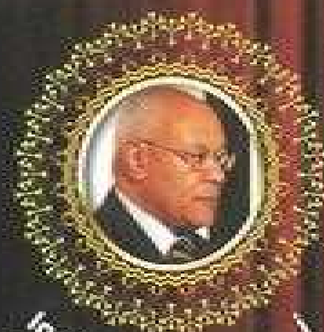
التنصير الأمريكي .. حرب عالمية ضد الإسلام
للأستاذ الدكتور محمد عمارة

المجتمع المدني في ضوء المقاصد العامة للشريعة
أ. د. إبراهيم البيومي غانم

الأخلاق والعقل
أ. علي عزت بيجوفيتش

منهج النظر في دراسة القانون
المستشار طارق البشري

اقرأ لهؤلاء


أ. د. محمد سليم العوا


أ. د. خالد فهمي


الشاعر الكبير حافظ إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

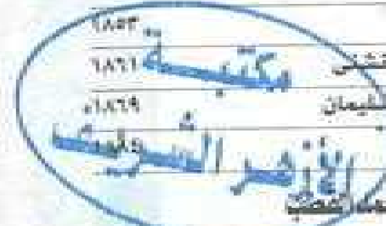
مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

الاشتراك السنوي
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ١٠٠ دولار أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب



٣٥ عاماً على مؤتمر كولورادو

التنصير الأمريكى.. حرب عالميــــة ضد الإسلام



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

قديم هو طمع الكنائس الغربية فى تنصير المسلمين.. وفى سبيل تحقيق هذه الأطماع تعددت موجات التنصير.. وتنوعت جنسيات المنصرين ومذاهبهم.. وتوالت المؤتمرات التى عقدتها الكنائس الغربية، لتدارس المسيرة، ولتقييم النجاحات والإخفاقات.. ولتعديل المسارات..

وبعد تصاعد ظاهرة اليقظة الإسلامية فى المجتمعات الإسلامية، التى أعادت الأمة إلى ذاتيتها الإسلامية، بعد سقوط الخيارات والنماذج التحديثية الغربية، منذ هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧م.. فزع المنصرون الغربيون ـ والأمريكان فى مقدمتهم ـ من هذه الصحوة ـ التى سموها «الأصولية الإسلامية».. والتى عرفها الرئيس الأمريكى الأسبق ـ المفكر الاستراتيجى ـ «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣ ـ ١٩٩٤م) ـ فى كتابه «الفرصة السانحة» ـ عندما قال:

إن هؤلاء الأصوليين، هم المصممون على:

ـ استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى.

ـ والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

ـ وينادون بأن الإسلام دين ودولة.

ـ وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار(١)!

منذ تصاعد ظاهرة الصحوة الإسلامية هذه ـ فى عقد السبعينيات من القرن العشرين ـ ودعوة «نيكسون» إلى تحالف غربى، يضم أمريكا وأوروبا.. ويشمل البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس.. والليبرالية الرأسمالية والشيوعية الشمولية!!.. لمواجهة هذه «الأصولية الإسلامية».. ولسد الطريق أمامها، ولدفع العالم الإسلامى إلى طريق «العلمانية الأتاتوركية»، التى تلحق الشرق الإسلامى بالغرب.. منذ ذلك التاريخ تصاعدت المواجهة بين الغرب والإسلام..

وفى إطار هذا التصعيد استنفرت الكنائس الغربية ـ والأمريكية خصوصاً ـ جهودها وطاقاتها لتنصير المسلمين، وذلك قطعاً للطريق على الصحوة الإسلامية، التى تريد إخراج الأمة الإسلامية من «الاستضعاف» وإعادتها إلى مكانتها الريادية بين الأمم والحضارات.

وبعد أن كان المنصرون الغربيون ـ عبر تاريخهم الطويل ـ يحلمون بالتنصير بين المسلمين.. رفعت الكنائس الأمريكية سقف مطامعها، وتحدثت عن تنصير كل المسلمين، أى طى صفحة الإسلام من الوجود..

وفى سبيل ذلك، تم التحضير لعقد أخطر مؤتمرات التنصير ـ مؤتمر كولورادو ـ فى ١٥ مايو سنة ١٩٧٨م ـ فى ذكرى قيام إسرائيل!..

ولقد ناقش المؤتمرون ـ من كبار خبراء التنصير.. وأهل التخصص فى مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ ناقشوا أربعين بحثاً، أحاطت بقضية تنصير المسلمين من جميع جوانبها.. وانتهت إلى التوصيات التى تحدد معالم الممارسة والتطبيق.. والتى توفر إمكانات التنفيذ - تنفيذ مخطط تنصير كل المسلمين!

ولقد نشر القائمون على هذا المؤتمر أبحاثه ومناقشاته وتوصياته ـ بعد أن حذفوا منها ـ كما قالوا ـ «المسائل الحساسة» ـ نشروها بالإنجليزية.. ثم ترجمت إلى العربية فيما يقرب من ألف صفحة..

●●●

(١) نيكسون «الفرصة السانحة» ص ١٤١ ترجمة: دكتور أحمد صدقى مراد ـ طبعة دار الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م.

وإذا شئنا في هذه الصفحات، التي نقدم بها لهذه الطبعة من وثائق «مؤتمر كولورادو ـ التي تمثل ـ بحق ـ للبروتوكولات قساوسة التنصير».. والتي نشاهد ونواجه تطبيقاتها على امتداد عالم الإسلام.. إذا شئنا الإشارة إلى معالم هذه «البروتوكولات».. فيكفي أن نقول:

● إن قساوسة التنصير وخبراءه وكهنته قد أرادوا للمؤتمر هذا أن يكون مؤتمراً يغير مجرى التاريخ.. وعن ذلك قالوا:

«يجتمع المؤتمرون في كثير من المؤتمرات، فيتبادلون الرأي، ويعلنون بعض القرارات، ثم ينفضون فتصبح قراراتهم حبراً على ورق.. ولكن بعض المؤتمرات تغير مجرى التاريخ.. ولا ريب أن هذا المؤتمر قد أصبح واحداً من المؤتمرات القادرة على تغيير مجرى التاريخ..

فهذه هي المرة الأولى، خلال جيلين، يعقد فيها مؤتمر يضم هذا العدد من قادة النصارى، ليناقشوا عملية تنصير المسلمين»[٢].

● وتحدثوا عن توقيت عقد هذا المؤتمر، الذي أرادوا به مواجهة «المظاهرات التي يقوم بها المسلمون في مصر وإيران وباكستان، مطالبين بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية.. وإلى الجانب الثوري للإسلام ـ الذي نسينا وجوده!!.. وعن الصراع الذي استرعى اهتمام وسائل الإعلام العالمية بين الإسلاميين والاتجاهات العلمانية، والذي كاد أن يفرض تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.. ويمزق إيران.. كما ستقوم باكستان بتطبيق الدستور الإسلامي لأول مرة في تاريخها ابتداء من مارس ١٩٧٨م..»!..

● وقام المنصرون ـ في هذا المؤتمر ـ بنقد الطرق القديمة للتنصير.. وقالوا: «لا يمكننا بعد اليوم اعتماد الأساليب القديمة للتنصير في مواجهة الإسلام الذي يتغير بسرعة وبصورة جوهرية.. لقد كانت استراتيجية التنصير الأوروبية الأمريكية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقلية الاستعمارية.. وإن الغرض من عقد هذا المؤتمر هو الإيمان بعدم جدوى وفعالية الطريقة التقليدية لتنصير المسلمين».

● وتحدث قساوسة التنصير وكهنته عن مؤهلات المنصر المطلوب لتنصير المسلمين.. المنصر الفعال في صفوف المسلمين.. وذكروا من هذه المؤهلات:

- التمكن من اللغة العربية، والقرآن، والمصادر اللاهوتية الإسلامية.
- والتحلي بالصبر والحزم في النقاش.
- والشعور المتعاطف الذي يمكنه أن يقود المسلم من الحقائق التي يؤمن بها إلى المسيح.
- والاستعداد لنبذ الطرق القديمة البالية التي تثير الكثير من الجدل.
- وأن تكون لديه روح الأمل.

---

(٢) من كلمة رئيس المؤتمر: د. ستانلي مونيهام.

ثم طلبوا من ربهم أن يرزقهم نماذج من المنصرين مثل «صموئيل زويمر» (١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م) الذي أتقن اللغة العربية، وكان عالماً محترفاً في الإسلاميات، ومنصراً مقنعاً.. لقد عمل لمدة ٢٣ سنة منصراً في الجزيرة العربية، وستة عشر عاماً مديراً لمركز الدراسات الإسلامية والمطبوعات في القاهرة، واستطاع في الوقت نفسه أن يشرف على تحرير أهم مجلة نصرانية عن الإسلام لمدة ٣٦ سنة، وهي مجلة «العالم الإسلامي».

● وأعلنوا عن عزمهم على إشراك الكنائس الوطنية في العالم الإسلامي في عملية تنصير المسلمين.. أي دفع هذه الكنائس إلى خيانة أمتها وأوطانها، والانخراط في تنصير المسلمين مع إرساليات التنصير الأمريكية.. وقالت بروتوكولات قساوسة التنصير في هذا المقام:

«.. وحيث إن إرساليات أمريكا الشمالية مبعدة عن بعض أجزاء العالم الإسلامي، ومقيدة في أجزاء أخرى، وبما أن التجمعات النصرانية المحلية موجودة داخل أجزاء العالم الإسلامي وفي أقطار العالم الثالث الأخرى المحيطة به، فإنه يجب علينا أن ندرك الاحتمال القوي وإمكانية أن يقوم المسيح خلال العقود القادمة باستخدام كنائس العالم الثالث ووكالاته التنصيرية لتحل محل ـ أو على الأقل ـ لتكمل سعي إرساليات أمريكا الشمالية، وإذا كان الأمر كذلك، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين..

لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي، إن النصارى البروتستانت في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا منهمكون بصورة عميقة ومؤثرة في عملية تنصير المسلمين.

ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم، وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين».

● ولنشر التنصير في كل أرجاء عالم الإسلام، بما في ذلك البلاد التي تمنع حكوماتها دخول أو عمل المنصرين الرسميين.. أو البلاد التي ليس فيها نصارى أصلاً.. قرر قساوسة وكهنة التنصير ـ في مؤتمر كولورادو ـ تدريب العمالة المدنية الغربية ـ من المهندسين والخبراء والعمال ـ على عملية التنصير، والاستفادة من انخراطهم في تنصير المسلمين، خصوصاً وأن أعدادهم تفوق أعداد المنصرين الرسميين بنسبة (١٠٠ إلى ١).. وعن هذا المقصد قالت بروتوكولات قساوسة التنصير:

«إنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت من أمريكا الشمالية في الخارج أكثر من أي وقت مضى، فإن عدد الأمريكيين الفنيين الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد

المنصرين بأكثر من (١٠٠ إلى ١).

وإن الأفراد الذين يملكون الخبرة الفنية يمكنهم أيضاً أن يعملوا من أجل المسيح.. وهذا أمر مهم، وبخاصة في البلاد التي تمنع حكوماتها التنصير العلني.. إنهم يستطيعون ويجب أن يتمموا عمل المنصرين، وذلك بالعمل معاً جنباً إلى جنب لتنصير العالم الإسلامي».

● ولعجز هؤلاء المنصرين عن مواجهة الإسلام ـ إسلام القرآن الكريم والسنة النبوية ـ قرروا سلوك طريق الخداع لاختراق الإسلام!.. وعن ذلك قالوا:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وإن النظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة، اجتماعياً وسياسياً.. إنه ـ الإسلام ـ حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر.

ونحن بحاجة إلى مئات المراكز تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام في صدق ودهاء»!!

● كما أعلنت بروتوكولات قساوسة التنصير ـ في مؤتمر كولورادو ـ عزمها على خلط النصرانية بالثقافة الإسلامية.. أي دس المفاهيم النصرانية في الأوعية الإسلامية.. وعن هذا الهدف قالوا:

«إن هدفنا هو غرس روح المسيح وتعاليمه في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية.. وبهذه الطريقة تصبح عملية التنصير مثل الخميرة التي تعمل داخل الكيان كله.. لتتمكن الروح النصرانية وتعاليمها من إحداث التغيير الطبيعي.

وبهذه الطريقة أيضاً يمكننا أن نستوعب في الحظيرة النصرانية «مسلماً ـ نصرانياً» و«لاهوتياً ـ إسلامياً» و«مسجداً ـ عيسوياً» و«جماعة صوفية ـ نصرانية» ونمطاً من أنماط «الإسلام ـ النصراني المنظم»!!

«ومن المهم استغلال أوجه الشبه بين مفهوم الخلاص النصراني وبين الموقف اللاهوتي لبعض الطرق الصوفية، وإلى ما يمثله هذا الشبه من فجوة داخل الأمة السنية يساعد على فهم الكنيسة وحتى تقبلها، على شرط أن تكون نماذج الكنيسة مشابهة لنماذج «الطريقة» التي يتبعها أولئك المسلمون..»!

● ولقد اعترف قساوسة التنصير أنهم لا قبل لهم بمواجهة المسلم الذي يفهم إسلامه، ومن ثم فلابد وأن يبحثوا عن ضحاياهم بين الذين اختلط إسلامهم بالخرافات والخزعبلات.. ففي هؤلاء تتمثل البيئة الخصبة للتنصير!.. وعن ذلك قالوا:

«إن غالبية المسلمين الذين يحتمل أن يتنصروا هم الذين يعتنقون ما يطلق عليه الإسلام الشعبي «أو إسلام العامة»، وهم أرواحيون يؤمنون بالأرواح الشريرة والجن، ويعرفون القليل جداً عن الإسلام الأصيل.. كما يؤمن هؤلاء بدرجة كبيرة بالتعاويذ التي يعتقدون أنها

تمدهم بالقوة بمواجهة شرور الحياة وتحدياتها.. والباب الذي يمكن من خلاله التأثير في هؤلاء وتنصيرهم هو أن يقوم شخص بتقديم منافع دنيوية لهم، مثل ممارسة العلاج الروحي، وطرد الأرواح الشريرة.. أما فهم حقائق الكتاب المقدس الأساسية فهو مرحلة تأتي بعد..»!

● وامتداداً لمنهاج التنصير من أبواب الجن والعفاريت!.. دعا قساوسة التنصير إلى سلوك هذا الطريق لتنصير النساء المسلمات.. وقالوا:

«بدلاً من البحث عن صراع مباشر بين الكتاب المقدس والقرآن.. دعونا نعلّم المرأة المسلمة كيف تعيش في سلام من ضغوط السحر.. ونقدم المسيح بديلاً نصرانياً للتأثير الشيطاني الذي يهاجم النساء في المجتمعات الإسلامية.

إن النساء هن المفتاح لزرع الكتاب المقدس في المجتمعات الإسلامية.. ويجب أن نقدم قوة روح المسيح بديلاً نصرانياً لتأثير الشيطان في حياة النساء المسلمات.. أما تحديد النسل ـ وهو عامل رئيس ومؤثر وله أهمية كبيرة ـ فمن الأفضل عدم تناوله خلال المراحل المبكرة من العمل مع المسلمين»!.

● ودعا قساوسة التنصير ـ في هذا المؤتمر ـ إلى اصطياد واقتناص الشباب المبتعثين إلى البلاد الغربية.. والذين يعيشون في بيئات غير إسلامية، لجعلهم «مشاتل» يزرعون فيهم النصرانية، وذلك تمهيداً لإعادة استنباتها بواسطتهم عندما يعودون إلى بلادهم الإسلامية.. وفي ذلك قالت بروتوكولات هؤلاء المنصرين:

«يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب، ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدي الذي توفره المجتمعات الإسلامية، ويعيشون نمطاً من الحياة مختلفاً ـ في ظل الثقافة العلمانية المادية ـ فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثر.

وإذا كانت تربة المسلمين في بلادهم هي ـ بالنسبة إلى التنصير ـ أرضاً صلبة.. ووعرة، أفليس بالإمكان إيجاد مزارع خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم، حيث يتم الزرع والسقي والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية في تربة أوطانهم كمنصرين؟!».

● ولقد تحدث قساوسة التنصير ـ في هذه البروتوكولات ـ عن أساليب التنصير للمسلمين، فقالوا:

«إن للتنصير ثلاثة أساليب:

١ ـ الأسلوب المباشر عن طريق المنصرين والدراسات الإنجيلية.. وهذا الأسلوب لم يجتذب سوى عدد قليل جداً من المسلمين.

٢ ـ الأسلوب الشامل، مثل المدارس والكليات والجامعات الأمريكية في القاهرة وبيروت واستانبول، التي فتحت باباً عظيماً للتنصير، لكنه فقد تأثيره الإيجابي الذي خطط له مؤسسوه لعيوب في الإدارة والتوجيه.

٣ ـ الأسلوب غير المباشر أو أسلوب التسلل بالكلمة المذاعة، والصورة المرئية، والصفحة

المكتوبة، والرسوم المتحركة.. إلخ.. وهذا هو المنصر الحاضر دائماً، والقوة الصامتة، وغير المرئية.. التى لا تدخل فى أى جدال، ولا تقبل أى اعتذار.. وعلى الرغم من ذلك تنتقل من خلال العقل إلى القلب والضمير لتحدث معجزة التنصير»..

● ولقد وصل قساوسة التنصير إلى ذروة اللاأخلاقية.. وقمة الميكافلية.. عندما أعلنوا ـ فى هذه البروتوكولات ـ أن صنع الكوارث فى البلاد الإسلامية ـ مثل المجاعات.. والحروب.. والفوارق الفاحشة بين الطبقات.. والصراعات الداخلية.. وحتى الزلازل والفيضانات.. إلخ.. أعلنوا أن هذه الكوارث هى «نعم إلهية» تجعل المسلمين من ضحايا هذه الكوارث يمدون أيديهم لعون المنصرين لقاء عقيدتهم الإسلامية! وتجعل الحكومات الإسلامية التى لا تسمح بدخول المنصرين إلى بلادها، تفتح أبوابها ـ تحت ضغط الحاجات إلى المعونات ـ أمام هؤلاء المنصرين!.

نعم.. أعلن هؤلاء القساوسة عن قمة اللاأخلاقية فى أساليبهم لتنصير المسلمين فقالوا:

«لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشكلات وعوامل تدفع الناس ـ أفرادا وجماعات ـ خارج حالة التوازن التى اعتادوها!

وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى!

وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية وإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمراً مهماً فى عملية التنصير.

وإن إحدى معجزات عصرنا أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!

هكذا بلغت بروتوكولات قساوسة التنصير - فى وثائق مؤتمر كولورادو - لتنصير المسلمين - قمة اللاأخلاقية وذروة الميكافيلية.. عندما جعل «رجال الدين» - «نعم الدين» - من الكوارث التى تصيب المسلمين «إحدى معجزات العصر»؛ لأنها هى السبيل لاختلال توازن هؤلاء الضحايا، والسبيل لمد أيديهم لمعونات المنصرين، ومن ثم بيع عقيدتهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء»!!..

●●●

وعلى الرغم من أن كل كنيسة من الكنائس شاركت فى مؤتمر كولورادو هى «مؤسسة».. وعلى الرغم من الحماس الشديد لدى هؤلاء المنصرين للانخراط فى تنصير المسلمين.. فإن المؤتمرين - فى كولورادو - لم يتركوا أمر تنفيذ هذه البرتوكولات لحماس المنصرين - وهو شديد - ولا للكنائس - ذات الإمكانات الهائلة - وإنما أنشأوا «معهد صموئيل زويمر»، ليكون - كما قالوا - بمثابة «مركز الأعصاب» القائد لجيش المنصرين ومراكزه ومؤسساته عبر العالم الإسلامى.

فهذا المعهد «مركز الأعصاب» هو - فى عالم التنصير - أشبه ما يكون «بالبنتاجون».. الأول يقود الجيوش المحاربة لتنصير المسلمين، والثانى يقود الجيوش الغازية لديار الإسلام!.

ولقد أشاروا إلى أن من مهام هذا المعهد:

- إعداد الأبحاث وتدريب العاملين فى تنصير المسلمين.

- وتعزيز مهمة التنصير للمسلمين.

- وربط مراكز التنصير المنتشرة حول العالم الإسلامى، وتسليم إدارة كل مركز إقليمى إلى عالم منصر ذى خبرة واسعة، على أن يساعده خبراء يمثلون مختلف التقاليد الكنسية، مع خبراء فى علم الأجناس البشرية والشئون والدراسات الإسلامية.

- وتجنيد المستشارين الذين يزورون كنائس العالم ويجمعون المعلومات عن المسلمين.

- وتكوين «أرشيف» يحوى مكتبة غنية بالمعلومات وسبل الاتصال.

- وإصدار نشرة لإيصال المعلومات إلى مراكز التنصير فى مختلف البلاد الإسلامية.

- وتشجيع جميع المدارس والجامعات ومراكز البحث فى أمريكا من أجل زيادة دراساتها التى تخدم مقاصد تنصير المسلمين.

- وإقامة اتحاد عالمى بجميع المراكز والمعاهد العاملة فى تنصير المسلمين لتنسيق المعلومات التى لها علاقة بتنصير المسلمين.

● وفور إقامة هذا المعهد - وزارة حرب التنصير للمسلمين - وضعت بين يديه الإمكانات الهائلة المرصودة لتنصير المسلمين.

ويكفى أن تشير إلى بعض مفردات هذه الإمكانات - كما كانت قبل عشرين عاماً - والمؤكد أنها قد تضاعفت الآن:

- ١٢٠,٨٨٠ مؤسسة وإرسالية ووكالة عاملة فى ميدان تنصير المسلمين.

- ٤,٢٠٨,٢٥٠ منصراً محترفاً يعملون على رأس العمل التنصيرى.

- ٨٢,٠٠٠,٠٠٠ كمبيوتر مخصصة للعمل التنصيرى.

- ٢٤,٩٠٠ مجلة تصدر لتنصير المسلمين.

- ٨٨,٦١٠ كتب للتنصير صدرت فى عام واحد.

- ٢,٢٤٠ محطة إذاعة وتلفاز بث مواد التنصير.

- ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ نسخة من الأنجيل وزعت فى عام واحد.

- ١٠,٦٧٧ مدرسة لرياض الأطفال تابعة لمؤسسات التنصير.

- ٩,٠٠٠,٠٠٠ طالب يدرسون فى المدارس التابعة لإرساليات التنصير.

- ١٠,٦٠٠ مستشفى تابعة لإرساليات التنصير.

– ٦٨٠ داراً لإيواء العجزة والأرامل تابعة لإرساليات التنصير.

– ١٠,٠٥٠ صيدلية تابعة لإرساليات التنصير.

– ١٦٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ميزانية خدمة المشاريع التنصيرية.

– ٩,٣٢٠ مليار دولار، وهو دخل الكنائس العاملة في تنصير المسلمين.

– ٨,٩٠٠ مليار دولار، هو دخل الإرساليات العاملة لتنصير المسلمين.

– ١٥٧ مليونا من الدولارات هو حجم التبرعات للكنيسة في عام واحد – سنة ١٩٩٠م.

● ولقد خص إفريقيا وحدها من هذه المؤسسات التنصيرية:

– ١١٩,٠٠٠ منصر محترف.

– ١٦,٠٠٠ معهد للتنصير.

– ٤٠٠ مدرسة لاهوتية.

– ٦٠٠ مستشفى تابعة لإرساليات التنصير.

تلك إشارات إلى بعض الإمكانات التي وضعت لتنصير المسلمين، والتي يديرها «معهد زويمر» – مركز الأعصاب – ووزارات الحرب لتنصير المسلمين.

وإذا كان هذا هو إسهام الكنيسة الأمريكية وحدها.. فكم تكون الصورة إذا نحن أضفنا إليها رصيد الفاتيكان.. ورصيد الكنائس الإنجليكانية الأخرى؟!.

وكم تكون الصورة إذا نحن أضفنا الإمكانات المرصودة لتنصير المسلمين لدى الكنائس المحلية، التي استدعتها الكنائس الأمريكية للانخراط في عملية تنصير المسلمين؟!

لقد قامت الكنيسة الأمريكية – على سبيل المثال – بتنصير ربع سكان كوريا الجنوبية، وتأسست فيها كنيسة «صيمول»، وانخرطت هذه الكنيسة الكورية – على نحو مثير – في عملية التنصير، حتى أن عدد المنصرين الكوريين هو التالي لعدد المنصرين الأمريكان»!!.. و٦٨٪ من المنصرين الكوريين يعملون في أنحاء العالم الإسلامي!!.. ولقد قتلت المقاومة الأفغانية عدداً منهم، ضبطوا متلبسين بتنصير الأفغان تحت ستار العمل الإغاثي!!.. ونشرت صحيفة الأهرام أن عدداً من هؤلاء المنصرين الكوريين يعملون في عشر محافظات مصرية تحت ستار تعليم اللغة الكورية للمصريين في بلد الأزهر الشريف!!

●●●

يبقى أن نقول: إن الدوافع الحقيقية التي تحرك هذه الكنائس الغربية لتنصير المسلمين هي الحقد على الإسلام.. والخوف منه.. والحرص على معاجلة يقظته وصحته وليس الإيمان الحقيقي برسالة المسيح – عليه السلام –.

لقد أفلست هذه الكنائس الغربية في بلادها.. وخانت مسيحيتها.. وتركت رعاياها

نهباً للفلسفات الوضعية والمادية واللاأدرية والإلحادية.. ولو كانت هذه الكنائس مخلصة حقاً لمسيحيتها لعملت على تنصير شعوبها بدلاً من تنصير الشعوب الإسلامية.. ولانخرطت في إنقاذ رعاياها من المادية والإلحاد بدلا من إخراج المسلمين من إيمانهم الإسلامي، الذي لا يفرق بين أحد من رسل الله.

إن المشهد الديني في أوربا وأمريكا – حيث تعيش هذه الكنائس – يشهد على إفلاسها في بلادها، وعلى خيانتها لشعوبها، كما يشهد على حربها ضد الإسلام إنما هي حرب لا أخلاقية، يحركها الحقد على الإسلام، والكراهية له، والخوف منه، ولا تحركها في هذه الحرب التنصيرية أية قيم دينية لأي دين من الأديان.

● إن الذين يؤمنون بوجود إله – حتى ولو لم يعبدوه – أقل من ١٤٪ من الأوروبيين.

● و الذين يذهبون إلى القداس مرة في الاسبوع، في فرنسا – بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها – أقل من ٥٪ من سكانها – أي أقل من ثلاثة ملايين – وهم نصف الفرنسيين المسلمين الذين يواظبون على صلاة الجمعة، وهم في جمهورية التشيك أقل من ٣٪ من السكان!

● وهناك نقص في الرهبان – بسبب العزوف عن العزوبية – حتى أصبح هناك راهب واحد لكل ١,٢٠٠ مسيحي أوربي!.

● وفي أمريكا يواجه ٣,٠٠٠ قسيس تهم التحرش الجنسي بالاطفال.. ولقد شاعت الانحرافات الجنسية بين القساوسة والرهبان – وخاصة في الاعتداء على الأطفال – حتى أفلست الكثير من الإبراشيات بسبب التعويضات التي تدفعها لضحايا هذه الاعتداءات الجنسية!.

● وفي أمريكا انخفض حضور قداس الأحد بنسبة ٤٠٪ عن خمسينات القرن العشرين.. وثلثهم هم الذين يواظبون على حضور القداس الأسبوعي، وكانوا ضعفي هذا العدد قبل جيل من الزمان!.

● و٧٠٪ من كاثوليك أمريكا يطلبون السماح باستخدام موانع الحمل – لانتشار الزنى – على خلاف تعليمات الكنيسة!

● و٧٠٪ من كاثوليك روما – حيث الفاتيكان – يوافقون على ممارسة الجنس قبل الزواج!.

● وكثير من الكنائس الأوروبية وغير الأوروبية تزوج الشواذ – المثليين – وبها قساوسة شواذ!.

● والقوانين التي تحكم الاتحاد الأوروبي – الذي يعتبرونه «ناديا مسيحيا» – والتي هي شرط في دخوله – تعتبر الشذوذ الجنسي حقاً أصيلاً من حقوق الإنسان.. وللشواذ مؤتمرات سنوية، ومظاهرات ومهرجانات احتفالية تجوب الشوارع والميادين في كثير من

المدن الأوروبية.. تحت سمع الكنائس وبصرها!.

● ولقد شرعت حكومة بلدية «بوينس أيرس» - عاصمة الأرجنتين الكاثوليكية - زواج المثليين!.

● وفى استطلاع أجرته مؤسسة «جالوب» - فى إبريل سنة ٢٠٠٥ - ظهر أن ٧٤٪ من الكاثوليك يتصرفون فى المسائل الأخلاقية بناء على ضمائرهم، على عكس تعاليم الكنيسة.. ولا يلتزم بتعاليم الكنيسة - فى المسائل الأخلاقية - سوى ٢٠٪ فقط.

● وفى ألمانيا توقف القداس فى نحو ثلث كنائس إبرشية «أيسن» بسبب قلة الزوار!.. وهناك ١٠,٠٠٠ «عشرة آلاف» كنيسة مرشحة للإغلاق وللبيع لأغراض أخرى!

● وتفقد الكنائس الألمانية - الإنجيلية والكاثوليكية - سنويا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ «مائة ألف» من أبنائها.

● وفى إنجلترا، لا يحضر القداس الأسبوعي سوى مليون فقط.. ولقد صنفت ١٠٪ من كنائسها رسميا باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومرشحة للبيع مطاعم وملاهى وحتى علب ليل.. وأعلن الكاردينال «كورنك ميرفى» رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا وويلز: «أن المسيحية أوشكت على الانحسار فى بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرا فى حياة الناس»!.

● وفى إيطاليا - بلد الفاتيكان - تتحول الكنائس إلى مطاعم وملاه.. ولقد غنت «مادونا» فى كنيسة تاريخية، بعد أن تحولت إلى مطعم.. وتحول «المذبح» إلى فرن للبيتزا!.

● وفى كوبنهاجن - عاصمة الدنمارك - عرضت عشر كنائس للبيع.. وصرح «كاء بولمان» - الأمين العام للكنائس فى الدنمارك -: «إنه إذا لم تستعمل الكنيسة للعبادة، فالأجدر أن تستعمل كاصطبل للخنازير!» - فى محاولة لحظر بيعها مساجد للمسلمين الدنماركيين!-.

● وفى جمهورية التشيك، حيث لا يذهب إلى القداس الأسبوعي سوى ٣٪ من السكان - هناك اتجاه إلى بيع ١٠,٠٠٠ كنيسة - أى نصف كنائس التشيك - بسبب قلة الزوار!.. ولقد بيعت كنيسة - القديس ميخائيل - فى وسط براغ - والتى يعود تاريخها إلى القرن الثانى عشر، وتحولت إلى ناد للعراة وموسيقى للتكنو!.

●●●

تلك مؤشرات - مجرد مؤشرات - على الخراب الذى أصاب المسيحية الغربية.. وعلى الإفلاس الذى أصاب الكنائس الغربية.. ومن ثم على المفارقة المجنونة التى جعلت هذه الكنائس بدلا من أن تشتغل بإصلاح بيتها الخرب، وتعمل على تنصير رعاياها وشعوبها.. تنخرط فى حرب محمومة وضروس لتنصير المسلمين!!.. وتعقد المؤتمرات وتقيم المؤسسات.. وتنفق المليارات لتخريب الشرق الإسلامى كما خربت الغرب المسيحى.

لقد أفلست الكنائس المسيحية فى الغرب، حتى لقد عبر بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر - وهو خصم لدود عنيد للإسلام - عن «خوفه من أن تصبح أوربا جزءاً من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»!

لكن هذه الكنائس الغربية، بدلاً من أن تسلك طريق العقل والحكمة، فتتعلم من الإسلام - بدلا من التخويف منه ومحاربته - فتنخرط فى تنصير الغرب، وإخراج أهله من المادية واللاأدرية والإلحاد.. نراها تنخرط فى حرب ضروس لتنصير المسلمين.. مستعينة بجيوش الغزو الغربي لعالم الإسلام.. وباللا أخلاقية والميكافيلية التى صاغتها فى بروتوكولات مؤتمر كولورادو لتنصير المسلمين.

لكن لله سننا تحكم التدافع بين الحق والباطل.. وهذه السنن إنما تعمل عملها بجهاد المؤمنين الذين استخلفهم الله وأنعم عليهم بأعظم نعمه.. نعمة الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه!. وصدق الله العظيم:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ «التوبة: ٣٢، ٣٣»

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ «الأنفال: ٣٦، ٣٧»

●●●

تلك إشارات إلى عناوين بعض «بروتوكولات قساوسة التنصير» - التى قررتها وثائق «مؤتمر كولورادو» - أخطر مؤتمرات التنصير للمسلمين -.. وهى البروتوكولات التى توضع فى الممارسة والتطبيق على امتداد عالم الإسلام.. آثرنا أن نقدم بها لهذه الطبعة من وثائق هذا المؤتمر (٣).

سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن تكون هذه الطبعة لهذه الوثائق أداة لإيقاظ مؤسسات العالم الإسلامى إلى هذا الخطر السرطانى، الذى يتهدد أعظم نعم الله علينا: نعمة الإسلام.

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق.

---

(٣) فى تفصيل ذلك انظر - مع وثائق المؤتمر - كتابنا «الغارة الجديدة على الإسلام» ص ٣٥، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٧، ٦٣، ٧٦، ٩٢، ٩٣، ١٠٠، ١٤١، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٧، ١٧١، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٧ - طبعة مصر - القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

قال تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(البقرة: ٢٥).

لما بين تعالى فى الآية السابقة ما أعده للكافرين الذين قامت عليهم الحجة فجحدوا بها، أراد أن يبين فى هذه الآية نصيب مقابل هؤلاء، وهم الذين ظهر لهم الدليل فآمنوا، ولاح لهم نور الهداية فاهتدوا.. فالكلام متصل بعضه ببعض، ولذلك عطف الجملة على ما قبلها، لأنها متممة لفائدتها، إذ لابد بعد بيان جزاء الكافرين، من بيان جزاء المؤمنين، والإرشاد ترهيب وترغيب. والخطاب يصح أن يكون للنبى ﷺ خاصة، وأن يكون عاما لكل من يسمع الأمر من أهله.. وقالوا إن الأخير هو المعروف فى لسان العرب، والمفهوم عندهم من أمثال هذا الخطاب كقوله تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾

(الحجر: ٤٩)

وقوله:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾

(الكهف: ٣٢)

فهو فى عمومه جار مجرى الأمثال، والمخاطب الأول به هو الرسول على كل حال.

قال تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الإيمان كان معروفا عند المخاطبين، وهو الله - تعالى - وصفاته التى ورد بها النقل الصريح، وأثبتها العقل الصحيح، والوحى ومن جاء به، والبعث والجزاء.. فهذه هى الأصول التى كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فمن صدقهم فيها كان مؤمنا ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل.. ولابد فى تحقق الإيمان من اليقين، ولا يقين إلا ببرهان قطعى لا يقبل الشك والارتياب.. ولابد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا، وإن كان الإرشاد إليها سمعيا. ولكن لا ينحصر البرهان العقلى المؤدى إلى اليقين فى تلك الأدلة التى وضعها المتكلمون. وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون، وقلما تخلص مقدماتها من خلل، أو تصح طرقها من علل، بل قد يبلغ أمى علم اليقين بنظرة صادقة فى ذلك الكون الذى بين يديه، أو فى نفسه، إذا تجلت بغرائبها عليه. وقد رأينا من أولئك الأميين، ما لا يلحقه فى يقينه آلاف من أولئك المتفننين، الذين أفنوا أوقاتهم فى تنقيح المقدمات وبناء البراهين، وهم أسوأ حالا من أدنى المقلدين. فإطلاق الإيمان، وذكر المؤمنين وما أعد لهم، من غير وصله بذكر المؤمن به، معهود فى القرآن، لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا بما دعاهم إليه النبى ﷺ إجمالا من الأصول، وأما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا.

ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله: «وعملوا الصالحات». وأطلق فى هذا أيضا كما أطلق فى كثير من الآيات، لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال، وذلك كاف فى الترغيب فيه وجعله تابعا للإيمان متصلا به، ولازما من لوازمه. وبين الأعمال الصالحة بالتفصيل فى آيات كثيرة، كقوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

... وكالآيات فى أول سورة «المؤمنون» وآخرها وآخر سورة الفرقان وأوائل سورة المعارج وغير ذلك. كأن الله - تعالى - يقول: إن العمل الصالح معروف عند الناس، لأنه أودع فى نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطرى، ثم يضل بضلاله آخرون، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هى الميزان عند الضالين فى معرفة الصلاح والفساد والخير والشر، لا أصل الهداية الفطرية. ولذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١). يعنى أن الإنسان لو ترك ونفسه لاهتدى إلى الحق ما دام بعيدا عن التقاليد والعادات.

وقد بلغ فساد الطباع وانحراف الفطرة فى بعض الأمم مبلغا كادوا يخرجون به عن طور البشر، كمتنطعى البراهمة، إذ ذهبوا إلى أن كمال الأرواح وسعادتها إنما هو فى تعذيب الأبدان وحرمانها من لذاتها، ولذلك جدوا فى البعد عن اللذات الجسمانية بأنواعها، فمالوا عن سنن الاعتدال، ومنوا أبدانهم وعقولهم بالفساد والاعتلال. وكبعض كفرة العرب وطائفة من البراهمة، إذ زعموا أنه لا خير إلا فى اللذة البدنية، ولا شر إلا فى الألم الجسدانى، فالسعادة والكمال عندهم فى البعد عن الآلام البدنية، والتمتع بالشهوات الحسية.

فمثل هؤلاء المرضى النفوس، المحرومين من

(١) صحيح البخاري باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه

الكمال الروحى والعقلى، كمثل من غلبت عليه الصفراء فصار يذوق الحلو مرا. وإن من المرضى من يشتهى فى طور النقه ما لا يشتهى فى حال الصحة والاعتدال، وكذلك الحبالى فى مدة الوحم.

يرى الجبناء أن الجبن حزم
وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالخير والرذيلة والصلاح والفساد والحق والباطل والفضيلة والرذيلة، كل ذلك معروف فى الجملة حتى عند الأشرار، ولذلك يدعون الخير والصلاح، وينكرون ما هم عليه.. فإطلاق القول بذكر الأعمال الصالحات ليس مبهما عندهم، ولا خطابًا بغير مفهوم. وإنما يحتاج معتل الفطرة إلى التفصيل فى ذلك، وذكر الأمارات والدلائل التى تميز بين الصالحين والفاسقين، والمحقين والمبطلين، ولهذا نزلت آيات البيان والتفصيل التى أشرنا إلى بعضها آنفًا، وبها ينقطع تلبيس الأغبياء، واعتذار الجهلاء. وحق القول بأن الذى يستحق هذه البشارة هو من جمع بين الإيمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة، ويهدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة.

بشرهم ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ ورد لفظ الجنة والجنات كثيرا فى مقابلة النار. والجنة فى اللغة: البستان، والجنات جمعها، وليس المراد بهما مفهومهما اللغوى فقط، وإنما هما دار الخلود فى النشأة الآخرة. فالجنة دار الأبرار والمتقين، والنار دار الفجار والفاسقين، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث فى حقيقة أمرهما، ولا نزيد على النصوص القطعية فيهما شيئًا لأن عالم الغيب لا يجرى فيه القياس.

ومما وصف الله – تعالى – به الجنات قوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾. والمناسبة ظاهرة، فإن البساتين حياتها بالأنهار.. وهل سميت دار النعيم جنة وجنات على سبيل التشبيه، وذكرت الأنهار ترشيحا له؟ أم سميت بذلك لأنها مشتملة على الجنات تسمية للكل باسم البعض؟ الله أعلم بمراده.

ألم تر إلى ربك كيف ذكر من شأن أهل تلك الجنات فيها أنهم: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ﴾؟ كلمة «من» الأولى للابتداء والثانية للتبعيض، أى رزقوا من الجنات رزقًا من بعض ثمارها،

﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾

أى هذا الذى وعدنا به فى الدنيا جزاء على الإيمان والعمل الصالح، فهو كقوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾

(الزمر: ٧٤)

وذهب «الجلال» وغيره إلى اختيار أن معناه تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا، لأنها مثلها فى اللون والشكل والرائحة، وإن كانت تفضلها فى الطعم واللذة. فقوله تعالى:

﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

بيان لسبب القول على هذا التفسير، أى أتوا بما ذكر من الرزق فى الدنيا والآخرة متشابها بعضه يشبه بعضا.

ومحصله أنهم عندما يؤتون برزق الجنة، يبادرون إلى الحكم بأنه غير ما وعدوا به، وأنه عين رزق الدنيا، لأن التشابه يكون سبب الاشتباه عليهم، ولكنهم يعرفون الفرق بعد ذلك بالطعم لأن فرقا عظيما بين لذة رزق الدنيا ورزق الجنة.

والتعبير بـ ﴿ كُلَّمَا ﴾ ينافى هذا التفسير، لأن الاشتباه إنما يكون فى المرة الأولى، ثم يعرفون التفاوت معرفة تذهب به وتمنع من

الحكم بأن هذا عين ذاك: أما بالنسبة لأفراد النوع الواحد من الثمار فبالاختبار، وأما بالنسبة لما بعد النوع الأول من الأنواع فبالقياس عليه. وما ذهب إليه «الجلال» مناف للبلاغة فى المعنى أيضًا، لأن تشابه رزقى الدنيا والآخرة فى الألوان والروائح واختلافه فى الطعم فقط ليس فيه كبير تشويق لأن اللذة فى التنقل. ثم إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا، والتشويق للناس إنما يكون بحسب ما عهدوا واعتادوا وألفوا. وإننا نعلم أن الأكل فى الدنيا لأجل حفظ البنية من الانحلال، ولا انحلال فى دار الخلد والبقاء، فلابد أن يكون الأكل والشرب هناك على ما ورد لحكمة أخرى، أو هو لتحصيل لذة لا نعرفها لأنها من أحوال عالم الغيب، وإنما نؤمن بما ورد ونفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى، وما ورد أنه لذة أعلى من لذات الدنيا.

وذهب بعض المفسرين إلى ما قلناه أولاً من أن ذلك الرزق هو عين ما وعدوا به جزاء على أعمالهم. فكلما رزقوا ثمرة منه، يذكرون الوعد الإلهى شكرا لله على توفيقهم لذلك العمل الذى له أعد هذا الجزاء، كما تفيده آية:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

(الزمر: ٧٤)

التى ذكرناها آنفا، فهو من قبيل ارتباط الموعود به بالموعود عليه، كأن الأعمال عين الجزاء:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

تأكيد وتقرير لما تضمنه قولهم.

وهذا هو الراجح. وهنالك قول ثالث، وهو أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته، ويختلف فى طعمه ولذته، وهو المتبادر من اللفظ ثم قال:

﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

أى مبالغ فى تطهيرهن وتزكيتهن، فليس فيهن ما يعاب من خبث جسدى، حتى ما هو فى الدنيا طبيعى كالحيض والنفاس، ولا نفسى كالمكر والكيد وسائر مساوئ الأخلاق، لأنهن طهرن كل نوع من أنواع الطهور. ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات، وهن المعروفات فى القرآن بالحور العين. وصحبة الأزواج فى الآخرة كسائر شئونها الغيبية، نؤمن بما أخبر به الله – تعالى – منها، لا نزيد فيه ولا ننقص منه، ولا نبحث فى كيفيته، وإنما نعرف بالإجمال أن أطوار الحياة الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا، كما تقدم. ونحن نعلم أن الحكمة فى لذة الأزواج بالمصاحبة الزوجية المخصوصة هى التناسل وإنماء النوع، ولم يرد أن فى الآخرة تناسلا، فلابد أن تكون لذة المصاحبة الزوجية هناك أعلى، وحكمتها أسمى. وإننا نؤمن بها ولا نبحث فى حقيقتها كما تقدم فى بحث رزق الجنة ثم قال:

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

الخلود فى اللغة: طول المكث. ومن كلامهم: خلد فى السجن، كما فى الأساس. وفى الشرع، الدوام الأبدى، أى لا يخرجون منها، ولا هى تفنى بهم فيزولوا بزوالها، وإنما هى حياة أبدية لا نهاية لها. وفقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من العلوم الصحيحة، والأعمال الصالحة، التى ترتقى بها الأرواح، وتستعد لذلك الفلاح.

«يتبع»

شعبان ١٤٣٣هـ
يوليو ٢٠١٢م

رسم المصحف الشريف وأثره فى التفسير



للأستاذ الدكتور رضا عبد المجيد المتولى
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

(الرسم) كلمة تطلق على الأثر والعلامة والكتابة والخطوط التى فى الثوب، وتأتى هذه الكلمة بالمعنى الحقيقى والمعنى المجازى كقولك: المكارم عفت رسومها، وقولك: أنا أرتسم مراسمك أى: لا أتخطاها. ويراد برسم المصحف: الكيفية أو الهيئة التى وضعت عليها كلمات القرآن وحروفه وكتبت بها[١].

قال الزرقانى: رسم المصحف يراد به الوضع الذى ارتضاه عثمان ـ رضى الله عنه ـ فى كتابة كلمات القرآن وحروفه[٢].

ومذهب جمهور العلماء أن رسم المصحف الشريف توقيفى لا تجوز مخالفته، واستدلوا بأن النبى ﷺ كان له كتاب يكتبون الوحى، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم، وأقرهم الرسول على كتابته، ومضى عهده ﷺ على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل[٣].

وإقراره حجة شرعية: لأنه نوع من السنة النبوية، إذ السنة: «ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة»، ومن هنا قال العلماء: «الرسم سنة متبعة»[٤]. و«خط المصحف سنة متبعة لا يقاس عليه»[٥].

---

١. مذكرة فى رسم المصحف أ. د. إبراهيم توفيق الديب. صـ١.

٢. مناهل العرفان للزرقانى ١/٣٦٩ ط دار إحياء الكتب العربية.

٣. المرجع السابق ١/٣٧٧.

٤. الدر المصون فى علم الكتاب المكنون السمين الحلبى ٨/ ١٠، ٣٢٩/٤، ٧٠٤ ط دار القلم.

٥. الدر المصون فى علم الكتاب المكنون السمين الحلبى ٤/ ١٨٤.

كما أثرت أقوال لعلماء السلف ـ رضى الله عنهم ـ تدل على وجوب اتباع هذا الرسم، فقد سئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ هل يُكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: «لا، إلا على الكتبة الأولى» قال أبو عمرو الدانى: ولا مُخالف له فى ذلك من علماء الأمة.[٦] وهذا يدل على إجماع الأمة على رسم المصحف. هذا ونبه الإمام السيوطى أنه «على الناظر فى كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره أن يراعى رسم الكلمة القرآنية»[٧].

ويمكن إبراز أثر رسم المصحف الشريف فى التفسير فيما يلى:

إفادة بعض المعانى الخفية الدقيقة فى تفسير الكلمة القرآنية

وذلك كزيادة الياء فى كتابة كلمة (أيد) من قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾

(الذاريات: ٤٧)

إذ كتبت هكذا ﴿بِأَيْيدٍ﴾ وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهى: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.[٨]. قال ابن البناء المراكشى: كتبت ﴿بِأَيْيدٍ﴾ بياءين فرقاً بين الأيد الذى هو القوة، وبين أيدى جمع يد. ولاشك أن القوة التى بنى الله بها السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من الأيدى فزيدت الياء لاختصاص اللفظة بالمعنى الأظهر فى الإدراك الملكوتى فى الوجود[٩] ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو، وهى:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾

«الإسراء: ١١»

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾

«الشورى: ٢٤»

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ﴾

«القمر: ٦»

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾

«العلق: ١٨»

قال المراكشى: «والسر فى حذفها من هذه الأربعة الدلالة على سرعة وقوع الفعل، وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود، مثل:

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾

«العلق: ١٨»

فيه سرعة الفعل وسرعة إجابة الزبانية وقوة البطش. وكذلك:

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾

«الشورى: ٢٤»

حذف منه الواو علامة على سرعة الحو وقبول الباطل له بسرعة، يدل على هذا قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

«الإسراء: ٨١»

وكذلك:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾

«الإسراء: ١١»

---

٦. المقنع فى معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للدانى صـ ١٦٤ وما بعدها، ط التدمرية.

٧. الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٦٦، مطبعة المشهد الحسينى.

٨. مناهل العرفان للزرقانى ١/٢٤٧.

٩. عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل لأبى العباس أحمد بن البناء المراكشى صـ٩١، ط دار الغرب الإسلامى.

حذف الواو يدل على أن هذا الدعاء يسهل على الإنسان، ويسارع فيه كما يسارع إلى الخير، وإتيان الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير.

وكذلك:

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ (القمر: ٦)

حذف الواو لسرعة الدعاء وسرعة الإجابة.[١٠]

ومن هذا القبيل أيضا كلمة:

﴿ الرِّبَوٰا ﴾ (البقرة: ٢٧٨)

فقد كتبت بالواو للتفخيم على لغة من يفخم، وزيدت الألف بعد الواو تشبيها بواو الجمع فصار اللفظ به على طبق المعنى فى كون كل منهما مشتملا على زيادة غير مستحقة؛ فأخذ لفظ (الربا) الحرف الزائد وهو الألف بسبب اللفظ الذى يشابهه وهو واو الجمع حيث زيدت فيه الألف كما يأخذ معنى لفظ (الربا) زيادة فى مقابل الأجل.[١١]

الترجيح بين أقوال المعربين فى بعض كلمات القرآن الكريم.

إذا تنازع المعربون فى إعراب لفظة من كتاب الله ـ تعالى ـ وكان أحد الأقوال موافقا لرسم المصحف، ولا يقتضى مخالفة له، وآخر يقتضى مخالفته، فأولى الأقوال فى إعرابها ما وافق الرسم العثمانى، الذى أجمع عليه الصحابة، الذين هم أعلم الناس بتفسير القرآن ولغته[١٣].

●● قال تعالى:

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣)

يرى بعض المعربين أن «هم» مبتدأ، وما بعدها خبر، وهذا الإعراب يخالف رسم المصحف؛ لأن النون فيها متصلة بالهاء، وهذا الإعراب يفصلها.[١٢]

والصواب أن «هم» ضمير فى محل نصب مفعول به؛ بدلالة رسم المصحف الشريف.

●● قال تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْـَٰٔنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

قوله:

﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾

﴿ الَّذِينَ ﴾ مجرور المحل عطفا على قوله:

﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ﴾

أى: ليست التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء، فسوى بين من مات كافرا وبين من لم يتب إلا عند معاينة الموت فى عدم قبول توبته، والمراد بالعاملين السيئات المنافقون.. وأجاز أبو البقاء فى «الذين» أن يكون مرفوع المحل على الابتداء، وخبره «أولئك»

١٠ـ عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل صـ٨٨ وما بعدها.

١١ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى ٣/٤٨، ط دار الفكر.

١٢ـ انظر علم إعراب القرآن تأصيل وبيان د. يوسف العيساوى صـ ٢٥٠، دار الصميعى.

١٣ـ القرآن والقراءات والأحرف السبعة أ. د. عبدالغفور محمود مصطفى ٢/٥٠، ط دار السلام.

وما بعده، معتقداً أن اللام لام الابتداء، وليست بدلا، النافية.. وهذا الذى قاله من كون اللام لام الابتداء لا يصح إلا أن يكون قد رسمت فى المصحف لام داخلة على «الذين» فيصير «وللذين»، وليس المرسوم كذلك، إنما هو لام وألف، «لا» والف لام التعريف الداخلة على الموصول، وصورته: ولا الذين.. وأوجز ذلك السيوطى فقال: ومن قال فى:

﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

إن اللام للابتداء، والذين مبتدأ والجملة بعده خبره؛ فهو باطل؛ فإن الرسم «لا»[١٤].

>> قال تعالى فى سورة مريم:

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٦٩)

قال السيوطى: «ومن قال فى «أيهم أشد»: إن «هم أشد» مبتدأ وخبر، وأى مقطوعة عن الإضافة؛ فهو باطل برسم «أيهم» متصلة»[١٥].

●● قال تعالى فى سورة المطففين:

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين: ٣)

فى ضمير «هم» قولان:

الأول: أنه فى موضع نصب، فيكون مفعولاً به، ويعود على الناس، أى: وإذا كالوا الناس أو وزنوا الناس.. فالفعل «كالوا» ـ وكذلك «وزنوا» ـ تعدى إلى المفعول «هم» بنفسه، بعد حذف اللام، والمفعول الذى تعدى إليه الفعل بنفسه وهو المكيل والموزون محذوف، أى: كالوا لهم الطعام أو وزنوا لهم الطعام.. وعلى هذا فالأصل فى هذين الفعلين التعدى لاثنين، لأحدهما بنفسه بلا خلاف، وللآخر بحرف الجر، ويجوز حذفه.

الثانى: أن «هم» فيهما ضمير رفع مؤكد للواو؛ والضمير عائد على المطففين، أى: كال ـ هم ـ، أى: المطففون.. وهذا القول الثانى خطأ لرسم الواو فيهما بلا ألف بعدها، فالصواب أنه مفعول.. فالذى رجح القول الأول سقوط الألف بعد الواو من رسم المصحف الشريف، فهو دال على اتصال الضمير.

ونبه على ذلك السيوطى فقال: «ومن قال فى «وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»: إن «هم» ضمير رفع مؤكد للواو فقوله باطل برسم الواو فيهما بلا ألف بعدها، والصواب أنه مفعول»[١٦].

٣ـ الترجيح بين المعانى الواردة فى الكلمة القرآنية.

● قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

قال الإمام فخر الدين الرازى فأما «ما»

١٤ـ راجع إملاء ما من به الرحمن فى إعراب القرآن للعكبرى، الدر المصون للسمين الحلبى ٣/٦٢٦، الإتقان للسيوطى ٢/٢٦٧.

١٥ـ الإتقان للسيوطى ٢/٢٦٧.

١٦ـ راجع الدار المصون للسمين الحلبى ١٠/٧١٦ وما بعدها، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية

هنا فيمكن أن تكون استفهامية للتعجب، والمعنى: فبأي رحمة من الله لنت لهم؟!

وقال القرطبي عن هذا القول: «وفيه بعد، لأنه لو كان كذلك لكان «فبم» بغير ألف» وفصّل الشيخ خالد الأزهري ما ذكره الإمام القرطبي فقال: والتوجيه المذكور للإمام الرازي في الآية باطل لأمرين:

أحدهما: أن «ما» الاستفهامية إذا خفضت وجب حذف ألفها فرقا بين الاستفهام والخبر، نحو:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾

«النبأ: ١»

و«ما» في الآية ثابتة الألف، ولو كانت استفهامية حذفت ألفها لدخول حرف الخفض عليها.

وأجيب بأن حذف ألف «ما» الاستفهامية إذا دخل الخافض أكثري لا دائمي، فيجوز إثباتها للتنبيه على إبقاء الشيء على أصله، وعورض بأن إثبات الألف لغة شاذة لا يحسن تخريج التنزيل عليها....[17]

قال تعالى:

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾

(الإنسان: ١٨)

قال بعض المعربين: «سلسبيلا» أمر للنبي «صلى الله عليه وسلم» بسؤال السبيل إليها، والمعنى على هذا - كما قال القفال: تلك عين شريفة فسل سبيلا إليها، ووصف الزمخشري هذا القول بأنه تكلّف وابتداع.

وقال أبو حيان: ويجب طرح هذا القول من كتب التفسير، وعلة ذلك ذكرها الإمام السيوطي فقال: «وخطأ من قال في «سلسبيلا» أنها جملة أمرية، أي: سل طريقا موصلة إليها؛ لأنها لو كانت كذلك لكتب مفصولة، أي: هكذا «سل سبيلا»[18].

قال تعالى:

﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾

«القصص: ٨٢»

ذهب «قطرب» إلى أن معنى «ويكأن»: «وي» كلمة تفجع، «وكأن» حرف تشبيه وذهب ابن برهان أن «وي» للتعجب، والكاف للتعليل، والمعنى: أعجب لأنه لا يفلح الكافرون ورد هذا القول بأن كلمة «ويكأن» رسمت في المصحف موصولة، قال الفراء: ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة فرسمها في المصحف الشريف موصولة يمنع هذا القول[19].

قال تعالى في سورة الأعلى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾

(الأعلى: ٦)

قيل في «لا» قولان: الأول: أنها نافية، والمعنى: سنقرئك فلا يقع النسيان منك وهذا قول الجمهور.

للشيخ سليمان الجمل ٤/٢٠٠، ط دار المنار، الإتقان للسيوطي ٣/٢٦٧

١٧. مفاتيح الغيب للرازي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٢٤٨، ط دار الغد، موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب ص١٧٦ للشيخ خالد الأزهري تحقيق وتعليق د. عبدالكريم مجاهد ط مكتبة الفيصلية بمكة المكرمة

١٨. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/١٤٢، الكشاف للزمخشري ٤/١٧٠، ط دار الريان، البحر المحيط لأبي حيان ٨/٣٩٨، ط دار الفكر، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٦/١٨٦

١٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٦/٤٤٨، ط دار الريان، شرح الكافية الشافية لابن مالك ٢/٧٩٠، ط دار المأمون، معاني القرآن للفراء ٢/٣١٢، ط عالم الكتب.

الثاني: أنها ناهية، أي: ينهى الله رسوله عن نسيان شيء من القرآن الكريم.

وأولى القولين بالصواب القول الأول؛ وذلك لموافقته رسم المصحف في إثبات الألف في ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، فدل عدم حذفها على أنها ليست «لا» الناهية؛ إذ لو كانت ناهية لحذف الألف علامة للجزم.

قال القرطبي المفسر: «والأول هو المختار؛... لأن الياء مثبتة في جميع المصاحف، عليها القراء»[20]

الترجيح بين الأقوال الواردة في توجيه القراءات المتواترة

● قال تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

(طه: ٦٣)

جاء في بعض القراءات الصحيحة المتواترة:

«إنّ هذا لساحران»، ومما قيل في توجيه هذه القراءة: أن اسم «إن» ضمير القصة وهو «ها» التي قبل «ذان» وليست بـ«ها» التي للتنبيه الداخلة على أسماء الإشارة، والتقدير: إن القصة ذان لساحران وضعف هذا القول من جهة مخالفة خط المصحف الشريف، وهو أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن تكتب «إنها» فيصلوا الضمير بالحرف قبله؛ كقوله تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

(الحج: ٤٦)

فكتبهم إياها مفصولة من «إن» متصلة باسم الإشارة يمنع كونها ضميرا وهو واضح[21].

إبراز الدخيل في تفسير بعض كلمات القرآن الكريم

فسر بعضهم «ن» في أول سورة القلم بالحوت، و«ق» في أول سورتها بأنها جبل محيط بالأرض، وهذا تفسير دخيل، رده ابن العربي في قانون التأويل بأنه لو كان كذلك لرسم هكذا: «نون»، و«قاف»[22]

وهذا ما أكده الشيخ عبدالقادر المغربي فقال: «المراد من «ن» أحد حروف الهجاء: افتتح تعالى هذه السورة بحرف النون ثم أقسم بالقلم. كما افتتح سورة أخرى بحرف القاف ثم أقسم بالقرآن قال تعالى:

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾

(ق: ١)

والدليل على أن المراد بالنون هنا حرف الهجاء المعروف كتابتها بصورة الحرف هكذا «ن» وسكون آخرها، فلم يقل «نونٌ أو نونًا أو نونٍ» بالتنوين، ولو كان المراد بها مسمى آخر لكُتبت بالحروف هكذا «نون» ولدخلت عليها علامات الإعراب كما دخلت على «والقلم» المجرورة بحرف القسم[23].

---

٢٠. راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/٦٣٥٦، علم إعراب القرآن تأصيل وبيان د. يوسف العيساوي ص٢٥٢.

٢١. راجع البحر المحيط لأبي حيان ٧/٢٤٩ ط دار الفكر، الدر المصون للسمين الحلبي ٨/٦٦ ط دار القلم

٢٢. راجع قانون التأويل لابن العربي ص٢٣٤، دراسة وتحقيق محمد السليماني ط دار القبلة للثقافة الإسلامية بالسعودية. التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد أ. د. عبدالغفور محمود مصطفى جعفر ص٢٢٦ ط دار السلام.

٢٣. تفسير جزء تبارك للشيخ عبدالقادر المغربي ص٢٨ ط المطبعة الأميرية بالقاهرة

أقسام السنة النبوية عند العلامة الشيخ على الخفيف

(١٣٠٩-١٣٩٨هـ ١٨٩١-١٩٧٨م) ٢

انتهينا فى المقال السابق إلى أن كل ما جاء به محمد ﷺ بيانًا لعقيدة أو تعليمًا لعبادة أو إرشادًا إلى قربة أو تهذيبًا لخلق أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو إصلاحًا لمعاملة أو إبعادًا عن فساد أو تحذيرًا من سوء يُعَد شريعة يُطلب إلى الناس اتباعها.

أما ما لا يتصل بذلك فلا يُعَد شريعة يُطلب إلى الناس اتباعها، وإن صح أن يعد من السنة بمعناها العام. ذلك أنه إنما صدر منه ﷺ بحكم أنه بشر على أنه من الأقوال والأفعال العادية المتكررة المباحة التى تدعو إليها طبيعة الإنسان وغايات البشر، وإن عَدّ صدورها منه ﷺ دليلاً على إباحتها، لأنه ﷺ لا يقارف معصية ولا يصر عليها.

ومن هذا القبيل أمور عرض لها رسول الله ﷺ فى هذا النطاق، وفيما يلى بيان لبعضها على حسب ما جاءت به الروايات الصحيحة، نذكره للبيان والتوضيح والمقايسة:

١ ـ ما عرض له رسول الله ﷺ من الإشارة إلى عدم تأبير النخل، وحاجةُ النخل إلى التأبير من الأمور التى تعرف بالتجربة والخبرة والممارسة، وفى ذلك وأمثاله يعد رأيه ﷺ فيه إرشادًا تجريبيًا استظهره بحسب ظنه، يصيب فيه ويخطئ كغيره من الناس، ولا يعد شريعة تتبع ولا وحيًا أوحى به إليه، وإذا أخطأ فيه لم ينبه الوحى إلى خطئه.

ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن رافع بن خديج، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يأبّرون النخل، فقال: «ما تصنعون؟» قالو: كنا نصنعه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا». فتركوه لذلك فنفضت النخل، فذكروا له ذلك، فقال ﷺ: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر». ومعنى ذلك أنه فيما يصدر منه عن رأيه فى مثل هذا يصيب ويخطئ، وقد يكون غيره فيه أعرف به. وذلك ما تدل عليه رواية أنس ـ رضى الله عنه ـ لهذا الحديث، إذ جاء فيها أنه قال لهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». وجاء فى رواية جابر بن عبدالله لهذا الحديث أنه قال لهم: «إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا أخبرتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإنى لن أكذب على الله».

ومدلول هذه الروايات: أن ما يصدر منه ﷺ فيما يتعلق بأمور الدنيا رأى يرتئيه وظن ظنه دفعه إليه نظره. وهو فيه كسائر

البشر يصيب ويخطئ، وقد يكون غيره فى مثل ذلك ـ إذا عرضت له ـ أكثر تجربة وأعظم خبرة. ولكن التمييز بين ما يعد من أمور الدنيا التى لا يُعتبر تنظيمها وتدبيرها تشريعًا، وما ليس كذلك مما يعد التدبير فيه تشريعًا يجب على الناس مراعاته واتباعه، فذلك ما يرجع فيه إلى النظر والاجتهاد، ومن ثم يكون الخلاف فيه بين الفقهاء، وكان من المواضيع الخطيرة الجديرة بإمعان النظر فيها.

ويؤيد ما أشرنا إليه أنه كان فى كثير من الأحوال ينزل على رأى أصحابه حين يستشيرهم فى خطة حربية، أو فى ملاقاة عدو مفاجئ، كما يعدل عن رأى يرتئيه فى ذلك إذا ظهر له صواب ما عُرض عليه من رأى آخر. كما يدل على ذلك متابعته ﷺ لما رآه الحباب بن المنذر حين أشار عليه فى غزوة بدر بأن ينزل على أدنى ماء من القوم بدلا عن نزوله ﷺ بالناس حيث نزل، فقد قال له: يا رسول الله! أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الحرب والرأى والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فقال الحباب: ليس هذا لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارته وصفاءه فننزل ونغوّر ما عداه من الآبار ثم نبنى حوضًا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون. فقال ﷺ: «لقد أشرت بالرأى». وانتقل الناس إلى حيث أشار. ذلك، لأن رأيه ﷺ فى مثل ذلك لا يكون له من وجوب الطاعة إلا ما لرأى غيره من الأمراء والقواد الذين يصدرون فى ذلك عن نظر وموازنة فيصيبون مرة ويخطئون أخرى، ولا يكون رأيهم دينًا يجب اتباعه، وإنما يكون محلا للنقد والوزن انتقالاً منه إلى ما هو أحكم وأصوب.

٢ ـ ما كان يعرض له من مساومات إذا باع أو اشترى إذ كان ما يطلبه من صاحبه فى أثناء ذلك أو يعرضه عليه من ثمن لا يُعد أمرًا دينيًا ولا حكمًا تجب طاعته. يدل على ذلك ما كان بينه وبين جابر بن عبدالله حين طلب إليه ﷺ أن يبيعه بعيره فأبى إذ لم يكن معه غيره، ولم ير رسول الله ﷺ إباءه هذا معصية لأمر دينى.

أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر أنه كان يسير على بعير له قد أعيا فأراد أن يسيبه، قال: فلحقنى رسول الله ﷺ فدعا لى وضربه فسار سيرًا حسنًا لم يسر مثله فقال: «بعنيه بوقية» قلت: لا. فكرر الطلب، فبعته له بوقية واستثنيت حملانه إلى أهلى، فلما بلغت أتيته بالجمل فنقدنى ثمنه، ثم رجعت، فأرسل فى إثرى فقال: «ترانى قد ماكستك لآخذ جملك، خذ جملك ودراهمك فهو لك».

٣ ـ ومن ذلك أيضًا ما يجرى عادة بين الناس من طلب معونة أو تحقيق رغبة وقتية دعت إليها حاجة عارضة، كالذى كان منه ﷺ مع سلمة بن الأكوع حين أصاب امرأة من سبى فزارة فى غزوة غزاها مع أبى بكر رضى الله عنه ـ وكان بنو فزارة أحلافًا لقريش ـ فاستوهبها منه رسول الله ﷺ حين عاد بها إلى المدينة فأبى، ثم استجاب بعد أن أعاد عليه الطلب.

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن سلمة

بن الأكوع قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرّسنا[1] ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل وسبى من سبى، وأنظر إلى عنق[2] من الناس فيهم الذرارى فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فرميت السهم بينى وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت أسوقهم وفيهم امرأة من بنى فزارة ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنفّلنى بنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا.. فلقينى رسول الله ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة هب لى المرأة» فقلت: والله لقد أعجبتنى وما كشفتُ لها ثوبا، ثم لقينى مرة أخرى فقال: «يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ماكشفتُ لها ثوبا. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدا بها أناسا من المسلمين كانوا أسرى بمكة.

٤ ـ ومن ذلك أيضًا ما يجرى بين الناس من شفاعات.. ومنه أمره ﷺ بريرة حين شفع إليها لترجع إلى زوجها مغيث حين اختارت نفسها عندما عتقت وهى تحته، وعز عليه أمر فراقها فأبت معتذرة بكراهتها إياه.

أخرج البخارى في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لبريرة: «لو راجعته» فقالت: يا رسول الله أتأمرنى؟! فقال: «أنا أشفع» فقالت: لا حاجة لى فيه.

٥ ـ ومن ذلك ما كان يسير به في معالجة بعض الأمراض، فقد كان لا يصدر منه شيء في ذلك عن وحى يجب اتباعه، إذ لم يبعث إلى الناس طبيبا يطب أجسامهم ـ وإن بعث إليهم طبيبا يطب نفوسهم وأرواحهم ـ وإنما كان يشير بالعلاج وبالدواء لتجربة مارسها أو لمعرفة اكتسبها من بيئته.

أخرج أبو داود عن أسامة بن شريك قال: أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت وقعدت، فجاء الأعراب من هنا وهنا فذكروا له المرض وقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال لهم: «تداووا فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم».. وكان ﷺ يعود المرضى من أصحابه ويبعث إليهم بالطبيب.. وذلك ما يدل على أن ما كان يشير به ﷺ في بعض الحالات من دواء أو علاج لم يكن شريعة وإنما كان التماسا للشفاء، بناء على تجربة أو ظن. وليس ببعيد أن يكون شيء من ذلك قد صدر منه عن وحى. وإذا حدث فلا يكون من قبيل التشريع وإنما يكون إرشادًا ورحمة دون أن يقتضى قصر الشفاء على ما أشير به، وأنه لا شفاء في غيره، ودون أن يقتضى وجوب المعالجة به دون غيره، ولا الشفاء به في مريض آخر.

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال: إن أخى يشتكى من بطنه فقال له ﷺ: «اسقه عسلا» ثم أتاه الثانية فقال له: «اسقه عسلا» ثم أتاه الثالثة فقال: فعلت ومازال

(١) أى لزمنا القتال لا نبارحه.

(٢) أى جماعة.

يشكو. فقال له ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا» فسقاه المرة الرابعة فبرأ، وما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «صدق الله» قد يكون إشارة إلى قول الله ـ تعالى ـ في سورة النحل:

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾

(النحل: ٦٩)

وأنه ﷺ أراد الدعاء له بأن يشفى بالعسل بعد أن لم يفد شربه له أكثر من مرة فاستجاب الله دعاءه، ولا يمكن أن يكون لها دلالة على أن العلاج بالعسل في هذه الحال كان وحيا وإلا ما تخلف الشفاء لأول مرة شرب العسل.

٥ ـ وكذلك الحال في لباسه ﷺ من حيث هيئته وصورته وكيفيته وتأليفه، وفى طعامه العادى من حيث نوعه وطعمه وطريقة تناوله فمرجع ذلك إلى عادات قومه، ومقتضيات وطنه ومتطلبات جوه ولو عاش رسول الله ﷺ في بلد آخر غير جزيرة العرب، أو في جو آخر، أو كان من غير العرب، لتغير لباسه وطعامه تبعا لذلك.. وما كان الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ يحيون على طعام واحد ولا على لباس واحد، وإنما كانوا في ذلك على مثال أقوامهم، ألا ترى أنه ﷺ حين قُدّم إليه لحم الضب عافه ولم يأكل منه، فلما قيل له: أحرام هو، قال: «لا، ولكن لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه»، ويقول خالد بن الوليد في روايته لهذه الحادثة فيما أخرجه البخارى: فعند ذلك اجتررت هذا اللحم فأكلته والرسول ينظر إلىّ ولا ينهانى.

فمثل هذه الأمور وما يشبهها من هيئات جلوسه ونومه ومشيته وطريقة حديثه وتناوله طعامه كان ﷺ مما يفعله بمقتضى عادته وطبيعته وكونه بشرًا يحيا حياة قومه ويعيش عيشتهم وينقلب متقلَّبهم، ولم يكن فيها شارعا، ولا تعد أعماله فيها شرعا يؤخذ الناس باتباعه في كل زمان ومكان وبيئة. وما قد يروى في هذا النوع من أمر أو طلب أو نهى، فإنما هو مجرد إرشاد إلى الحفاظ على التقاليد القومية والعادات المرعية التى يكون لها حُسنها وخيرها في بيئتها، بينما قد يكون لها عكس ذلك في بيئة أخرى. وذلك، مادام لم يتبين أن أمره ﷺ بشيء من ذلك لم يكن للحفاظ على خُلق أو مروءة أو لتجنب فساد أو ضرر أو إثم.

وجملة القول في ذلك كله أنه ﷺ كان يجمع بين عدة صفات، أو يقوم في عدد من المقامات والمراكز، فقد كان ﷺ بشرا، إنما يمتاز عن سائر البشر باصطفائه والإيحاء إليه. ثم كان إلى ذلك رسولاً إلى الناس مبلغا دينهم وداعيا إلى الله سبحانه وتعالى، وكان في الوقت نفسه زعيما ورئيسا وواليا بحكم زعامته الدينية وولايته العامة، وكان لذلك قاضيا يفصل فيما يرفع إليه من الخصومات. وكان قائدًا، له قيادة الجيوش وبعثها وتدبير أمورها. وكان له في كل هذه المراكز أقوال وأفعال وتدبيرات وسياسات صدرت منه بحكم مركزه ومقامه الذى كان يقومه. فما صدر منه من ذلك بوصف أنه رسول مبلغ لما أوحى إليه فذلك ما يجب اتباعه، ويعد شريعة باقية إلى يوم القيامة، وذلك كأن يبين مجملاً في الكتاب أو يخصص عاما أو يقيد مطلقا أو يفصل عبادة أو يأمر

بواجب أو ينهى عن منكر.

وما صدر منه بوصف أنه والٍ أو قائد واجب الطاعة فى محيطه، وفى ظرفه، وفى بيئته، وحين تتماثل الأمور؛ وليس بالشريعة الدائمة التى لا تتغير ولا تتبدل ولا تتخالف، لأن مثل ذلك إنما صدر ليكون وسيلة إلى غاية خاصة وهدف معين اقتضاه الوضع والزمن وتطلبته المصلحة. فإذا تغيرت الأوضاع وتطور الزمن واقتضت المصلحة تبديلاً أو تغييراً، كان ذلك ما يُتبع من ناحية أنه أصبح السبيل إلى الغاية المرجوة. ويتناول ذلك ترتيب المصالح وتنظيمها وتنويعها وطرائق قيامها وطريقة جمع الأموال وحسن توزيعها وصرفها فى مصارفها، وتأليف الجيوش وتسليحها وتدريبها وما إلى ذلك من المصالح العامة التى لم يكن لها على عهد رسول الله ﷺ سوى وجود بدائى يناسب الحال فى عهده.

وما صدر منه ﷺ بوصف أنه قاضٍ كان له جانبان: جانب يعد من قبيل التشريع الواجب الاتباع، وذلك يتمثل فيما قضى به رسول الله ﷺ من حقوق رتبها على أسبابها الشرعية التى استوجبتها، فكان شريعة ماضية يقضى بها فى كل حادثة، ويفتى بها عند كل استفتاء، متى تحقق السبب الذى استوجب الحق. وجانب آخر لا يعد قضاؤه فيه إلا عملاً إجرائياً تنظيمياً إدارياً يؤسس على التوثيق أين يوجد الحق. وهذا يعتمد على الظاهر الذى يبدو وعلى ما يقدَّم من وسائل الإقناع، ويتمثل فى اختصاص أحد الخصمين بالحكم له دون صاحبه، وذلك لظهور أن الحق فى جانبه بتمكنه من إقناع من يسمعه؛ لأنه ألحن بحجته وأقدر على البيان والتأثير من صاحبه، وقد لا يكون الحق مع ذلك فى جانبه. وفى ذلك ما روى عن أم سلمة أم المؤمنين -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار». رواه أبو داود، وفى رواية: «إنى إنما أقضى بينكم برأيى فيما لم ينزل علىّ».

ومما ينبغى مراعاته أن قضاءه ﷺ مع ذلك يجب أن يكون محل تسليم ورضا من الخصمين إيماناً بنزاهته واتباعاً لما ظهر له من حق قام لديه دليله بحسب ما سمع وظهر له، ولا يجوز أن يحدث حرجاً فى النفوس، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(النساء: ٦٥)

وأود أن أشير فى هذا المقام إلى أمر هام، هو أن الجانب التشريعى من قضائه أو من فتاويه، هو إلى تطبيق ما نزل عليه على الوقائع والحوادث أقرب، وأن ذلك لا يتم إلا مع مراعاة ظروف الحادثة المعروضة وملابساتها واتصالها بالعادات والأعراف؛ فإن للعرف والعادة أثرهما فى معاملات الناس وتصرفاتهم إطلاقاً وتقييداً، وإجازة ومنعاً، ولا يتم العدل فى القضاء ولا الإصابة فى الفتيا إلا بمراعاة ذلك وملاحظته. وهذا ما لا يصح أن يكون محلاً لريبة أو شك.

وبناء عى ذلك فإن قضاءه ﷺ أو فتياه فى حادثة معينة عرضت عليه قضاء أو رأى روعى فيه ظروفها على ما بينا. ومن ثم ذكر العلماء أن ليس لهذا القضاء عموم، ووصفوه بأنه واقعة حال لا عموم لها، ومن هنا يجب على الراوى الذى يقوم برواية مثل هذا، أن يكون شديد الملاحظة ملماً بظروف الحادثة عالماً بملابساتها وألا يغفل فى روايته إياها ما يدل على ذلك مهما رآه أمراً ظاهراً واضحاً، إذ قد يخفى هذا الظهور بمضى الزمن وتغير العادات وتطور الأحداث، وهذا ما يضع تطبيق قضائه وفتاويه ﷺ موضع النظر والحذر والتثبت من المماثلة بين ما عرضه على الرسول -صلوات الله عليه- وما أريد الحكم له حتى لا يقضى فى شىء بغير ما قضى به رسول الله ﷺ.

ألا ترى أنه ﷺ حين سأله شاب عن تقبيل زوجته وكان ذلك السائل شاباً أجابه بالمنع وحين سأله آخر وكان شيخاً أجابه بأن لا حرج، ولم يكن اختلاف الإفتاء إلا مراعاة لحال السائل فأراد بالمنع، إلى سد الذريعة بالنظر إلى السائل الأول ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك بالنظر إلى السائل الثانى، ويجب أن يراعى أن ما أشرنا إليه من ذلك لا وجود له فى قيامه ﷺ بتبيان الكتاب، إذ لم يجيء الكتاب إلا بتبيان الأصول العامة والأسس الكلية الواجب مراعاتها فى كل زمان ومكان وفى كل أمة. وبهذا البيان يتحدد ما يعد من السنة شريعة باقية واجبة الطاعة لا انحراف عنها فى استنباط الأحكام.

ما نيط بالسنة

لبيان السنة التشريعية هدفان:

-أولهما: بيانها القرآن؛ فقد فصلت أحكامه، وبينت مجمله، وخصصت عامه، وقيدت مطلقه، ووضحت مُشْكَله، ويتجلى ذلك فى الصلاة والزكاة والحج من حيث البيان، وفى الوصية من تقييدها بالثلث، وفى بيان ما أحل الله من النساء بعد ذكره المحرمات فى قوله تعالى:

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾

(النساء: ٢٤)

من حيث تخصيص ذلك بحرمة الجمع بين المرأة وعمتها ونحو ذلك، وتخصيص قوله تعالى:

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾

(الأنعام: ١٤٥)

بتحريم لحم الحمر الأهلية.. وهكذا.

-وبهذا النظر كانت السنة فى منزلة تلى منزلة القرآن، إذ كان القرآن أصلاً لها وكانت تابعة له ومبيِّنة والمبيَّن يتبع المبيِّن والمفسِّر يتبع المفسَّر، ثم تلا ذلك أن أصبحت السنة مصدراً ظنياً، بينما بقى القرآن على قطعيته، والقطعى مقدم على الظنى.

إن السنة والقرآن كلاهما مصدر للشريعة أسست عليهما أحكامها. وما كان كل منهما

إلا وحيًا أوحاه الله إلى رسوله ولم يكن ﷺ ينطق فيهما عن الهوى وكانت طاعته فيهما طاعة لله ومعصيته فيهما معصية لله :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء : ٨٠)

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (النساء : ٥٩)

ولم يكن وجوب الطاعة فيما نزل قرآنًا بأوثق وآكد من وجوبها فيما نطق به رسول الله ﷺ سنة. وقد كانت السنة في عهده ظهيرًا للقرآن، تفسره وتبينه على ما ذكرنا، دون أن يُعد ذلك خلافًا لما أنزل الله، بل تحديدًا له وتعريفًا. وليس أدل على هذه المظاهرة والمساندة من رجمه ﷺ الزاني مع نزول الآية بجلده، ومن تجويزه المسح على الخفين مع نزول آية غسل الرجلين. وعلى هذا كان المصدران في زمنه ﷺ متظاهرين غير متعارضين ولا متخالفين، ينسخ آخرهما أولهما عند التعارض وعدم إمكان الجمع. وبذلك يظهر انتهاء زمن الأول منهما بظهور الآخر منهما. وعلى هذا كانا من ناحية وجوب الطاعة في درجة واحدة، وذلك لا ينفي، ولا يتعارض مع جعل القرآن أصلاً للسنة من ناحية اشتماله على أصول الدين وقواعده الكلية التي يجب أن تدور السنة في فلكها.

وليس في حديث معاذ -رضي الله عنه- حين جاء فيه أنه عند القضاء في حادثة، ينظر أولاً في كتاب الله، فإذا لم يجد نظر في السنة، وأن رسول الله ﷺ قد أقره على ذلك - معارضة لما ذكرنا؛ إذ المعنى فيه أنه حينما ينظر في كتاب الله بحثًا عن الحكم، ينظر في الوقت نفسه إلى ما يبين له هذا الكتاب، وهو السنة، عسى أن يكون فيها بيان ما يدل عليه الكتاب فيما هو بصدد البحث عنه، حتى يكون ما يصل إليه هو ما طلب بالكتاب وأريد منه، وإلا كان ما قد يصل إليه غير ما جاء به الكتاب. وما كان الاقتصار على أحدهما في تعرف حكم من الأحكام إلا حيث يخلو من بيانه الآخر. ومن ثم فليس بينهما في عهد رسول الله ﷺ من تفرقة إلا من حيث أريد الإعجاز والتحدي بأحدهما واتخاذه دالاً على رسالة رسول الله دون الآخر.

ولكن الوضع بعد وفاة رسول الله ﷺ قد تغير؛ إذ لم يعد في الإمكان القطع بصحة ما نسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل بعد أن كان ذلك ميسورًا في زمنه بالرجوع إليه واقتصر الأمر على روايات تروى وأقوال أو أفعال تنسب إليه ﷺ دون أن يقوم في أكثر الأحوال دليل قطعي على صحة ذلك، بينما ظلت للقرآن قطعيته بسبب ما حيط به من وسائل حفظه، والتثبت منه على أوضاع شتى حفظت له قطعيته إلى اليوم، وكان من نتيجة ذلك أن القرآن الكريم ظل مقطوعًا به جملة وتفصيلاً، بخلاف السنة فإنها وإن بقيت لها قطعيتها بالنظر إلى جملتها فقد أصبحت مظنونة بالنظر إلى ما تتكون منه من أحاديث، عدا المتواتر منها وهو قليل، وكان أكثرها ظنيًا وبذلك انخفضت منزلتها من ناحية الوثوق بها تفصيلاً عن منزلة القرآن. وكان القرآن مقطوعًا بوروده عن الرسول جملة وتفصيلاً، وكانت السنة مقطوعًا بورودها عن الرسول جملة، مظنونة الورود عنه تفصيلاً، إلا بالنسبة إلى المتواتر.

وعن هذا ثار الخلاف بين الفقهاء عند التعارض بينهما وعدم إمكان الجمع، أيجوز نسخ أحدهما بالآخر؟ وماذا يعد بيانًا وماذا يعد نسخًا، ومتى يصلح الحديث مبيِّنًا ومتى لا يصلح، وهو خلاف مشهور لا يتسع الوقت لتفصيل القول فيه.

وجوب العمل بالسنة

ليس في وجوب العمل بالسنة بعد أن يتبين أنها سنة صدرت من رسول الله ﷺ نزاع إذ العمل بها واجب بصريح القرآن الكريم، وذلك على أوضاع مختلفة وأساليب متعددة ودلالات متنوعة مما ثبّت هذا الوجوب ووثّقه وأكّده.

وقد بينا أن السنة من حيث جملتها مقطوع ورودها عن رسول الله ﷺ، ومن ذلك كان وجوب العمل بها، واعتبارها مصدرًا للتشريع أمرًا لا ريبة فيه. ولكن الأمر يختلف بالنظر إلى ما روى منها على وجه التفصيل: فمنها المتواتر وهو ما رواه عن رسول الله ﷺ جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، ثم رواه عن هذا الجمع مثله وهكذا إلى أن وصل إلينا بالتدوين الذي لم يقاربه شك وتوافر له جميع شروط الاستيقان، وذلك ما يجب العمل به لقطعيته.

ومنها ما لم يتواتر، ومنه الصحيح وغير الصحيح. فالصحيح ما رواه عن رسوله ﷺ العدل الضابط الثقة الحافظ إلى آخر ما ذكر من شروطه ورواه مثله عنه، وهكذا إلى أن وصل إلينا، ولم تتوافر فيه شروط المتواتر، ولما شرط فيه من شروط يورث توافرها فيه ظنًا راجحًا بصحة وروده عن رسول الله ﷺ وجب العمل به أيضًا لقيام الدليل القطعي على إناطة التكليف بغلبة الظن دون القطع. وليس إناطة التكليف بغلبة الظن محلاً للنزاع، وبيان ذلك وتفصيل القول يعرف في موضعه من كتب أصول الفقه.

أما غير الصحيح وهو ما لم تتوافر فيه شروط الصحة فمنه الضعيف، ولا يعمل به في التشريع، ولا تجب فيه الطاعة، ولا يعد ما يحويه شريعة لانعدام غلبة الظن بصحته. وإنما يعمل به في فضائل الأعمال عند بعض العلماء، وخالف في ذلك آخرون إلى القول بأنه إذا عمل به كان ذلك على أساس أنه حكمة لا حديث عن رسول الله ﷺ. ومنه ما هو دون ذلك وهو الموضوع وذلك لا يعد بتاتًا من السنة، ولا يجوز العمل به مطلقًا وواضعه كاذب يتبوأ مقعده من النار.

وقد ذكرنا أنه لم يكن لهذا النوع ظهور على عهد رسول الله ﷺ؛ وذلك لتيسر الرجوع إليه فيما يُشك في نسبته إليه. فكانت السنة مقطوعًا بها على التفصيل. ولم يدم ذلك بعد وفاته بل اختلف الحال، إذ لم يكن من سبيل إلى الاستيثاق من حديث بالرجوع إليه إذا ما بدا الشك أو التردد. ولم يكن كل راو محلاً للثقة والاطمئنان، فبدأ الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة يستوثقون من الرواة ويطلبون منهم ما يؤيد رواياتهم من شاهد أو يمين. وقد لا يطلب ذلك من بعض الرواة لما له من الصحة والعلم والثقة ما يغني عن مطالبته بمثل ذلك.

ولو تيسر لأصحاب رسول الله ﷺ أن يعنوا بالسنة وحفظها العناية التي تجنبها الزيادة فيها والنقص منها والتغيير وإدخال ما ليس منها عليها، وعلى الجملة، تجنيبها

الريب والشبهات، وأن تظفر منهم بما ظفر به القرآن كتابة وتدوينًا وحفظًا وتلقينا ومراجعة ومدارسة ما كان للبلبلة فيها وجود، ولكان ما يعد منها شريعة واجبة الطاعة معروفًا لا اختلاط له بغيره، وما وجد فيه ما يلاحظ فيها الآن من تعارض، ولم يقع خلاف فى الناسخ منها والمنسوخ؛ ولكن ذلك لم يتيسر لأسباب شتى، فظلت السنة لا طريق لحفظها إلا صدور بعض أصحاب رسول الله ﷺ على مقادير مختلفة باختلافهم، إذ كانت موزعة بينهم يعرف منها بعضهم ما لا يعرفه الآخرون، ويحفظ منها بعضهم ما لا يحفظه غيرهم.

ثم لم تدون تدوينًا يصح أن يتصف بأنه تدوين علم منظم قام على التحرى والبحث الدقيق إلا فى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثانى، وذلك بعد أن أدخل فيها الوضاعون ما أدخلوا، وبعد أن ظلت قرنًا عرضة للنسيان أو لذهاب بعضها بوفاة حفظته، أو للزيادة فيها والتغيير والنقص بسبب ما قد يراد من اختصار أو يراد من شرح وتفسير أو نتيجة لسوء الحفظ فيما لم تتعدد طرقه، مما اقتضى من رجالها جهدًا عظيمًا مشكورًا دائبًا لم يلحقه كلل ولا ملل فى تخليصها من كل ما شابها وعلق بها. ولقد وصلوا فى ذلك إلى ما لم تصل إليه أية أمة من الأمم، ولكن ذلك لم يَحُل دون اختلاف الأقطار اختلافًا كان من نتائجه اختلاف عظيم فى الأحكام.

ونتيجة ما تقدم: وجوب العمل بالحديث المتواتر، وبالحديث الصحيح غير المتواتر.

أما المتواتر فللقطع بوروده عن رسول الله ﷺ كما تقدم، وأما الصحيح الذى لم يتواتر فلغلبة الظن بوروده منه ﷺ. وذلك كاف فى إيجاب العمل على من قام به، ذلك كما قدمنا، وكذلك على من قلده. وليس يقدح فى غلبة الظن أوهام وشبهات واحتمالات لا تقوم على دليل ولا تستند إلا إلى مجرد الجواز الفعلى، وإلا امتنع العمل بالسنة بتاتًا، وهذا فضلا عن أن قيام الدليل القطعى على إيجاب العمل بغلبة الظن، ينفى أن يكون لمثل هذه الأوهام اعتبار لوجودها فى كل عهد وفى كل حال دون أن يحول وجودها من وجوب العمل عند وجود الظن الغالب.

هذا، ومما يجب ملاحظته أن وجود حديث معين يُرى أنه موضوع مدسوس لا يترتب عليه الطعن فى غيره ولا فى السنة جملة، كما يجب أن يلاحظ أن وزن كلام رسول الله يجب أن تكون مقاييسه فوق مقاييس كلام الناس، فللرسول - صلوات الله عليه - صلته بربه وصفاء روحه وعلمه ومعرفته وبصره وصلته بالوحى مما يجعله فى مستوى - إذا تكلم أو حكم - فوق مستوى الناس.

أما الحديث الضعيف فقد اختلف الرأى فيه؛ فمن الفقهاء من ذهب إلى جواز العمل به فى فضائل الأعمال، ومنهم من لم ير ذلك من حيث هو حديث.

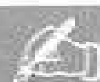
هذا ما أردت بيانه فى هذا الموضوع والله الموفق الهادى إلى سواء السبيل [٣].

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

منهج السنة فى الاعتدال والوسطية (٢)

وسطية العقيدة




أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تعنى وسطية العقيدة أنها عقيدة خيرة، سمحة واضحة، مستقيمة عادلة، لا إكراه فيها، ولا تعقيد، يؤمن العباد فيها بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ويؤمن العباد فيها إيمانا لا تمثيل فيه ولا تعطيل؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - ليس كمثله شئ وهو السميع البصير.

وكما تتجلى وسطية العقيدة فى عدم التمثيل والتعطيل فى الصفات فإنها تتجلى أيضا فى الإيمان بالقدر فترى أهل السنة لا يقولون إن الإنسان مجبور على عمله، ولا ينكرون القدر، وإنما وقف أهل السنة والجماعة الموقف الوسط، فيؤمنون بالقدر خيره وشره ولا ينفونه، وفى الوقت نفسه لا يقولون بأن الإنسان مجبور على كل الأعمال مسلوب الإرادة.

إنهم يثبتون أن الله تعالى خالق كل شئ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويؤمنون أيضا بأن للعبد قدرة واختيارا، فيقفون موقفا وسطًا بين الذين ينفون اختيار العبد، والذين ينفون القدر، فيؤمنون بأن الله على كل شئ قدير، وأنه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد، ويؤمنون بأن للعبد قدرة واختيارا.

كما تتجلى وسطية العقيدة بعدم الإغراق والتوسع فى الإيمان بكل شئ سواء أكان حقا أو غير حق، قام عليه دليل أو لم يقم، وأيضا بعدم الركون إلى الماديين الذين يقولون: الحياة مادة، ولا يؤمنون إلا بالمحسوسات والتى يدركونها بحواسهم، فلا يؤمنون بالغيب ولا بما قامت الأدلة على وجوب الإيمان به، وإنما يؤمنون بالغيب وبما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

(آية ٣ سورة البقرة)

وتتجلى وسطية العقيدة فى الإيمان «بالملائكة» وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون،

فلا ننزلهم عن مكانتهم كما فعل بعض المخالفين ممن حقروهم وقالوا عنهم إنهم إناث، ولا مغالاة في شأنهم كالذين عبدوهم وألهوهم، فكلا الفريقين على خطأ، وإنما هم عباد الله خلقهم لمهمة سامية وجعل لهم وظائف كلفهم بها منهم ملك الوحي ومنهم ملك الموت ومنهم حملة العرش ومنهم السياحون في الأرض ومنهم الحفظة إلى آخر الوظائف التي خلقوا لها.

وفي الإيمان بالرسل تتجلى الوسطية في عدم الغلو في الإيمان بهم، كمن غالى حتى ألههم ولا تفرط فنساويهم بسائر الناس، بل إنهم معصومون ويوحى إليهم من ربهم، فالذين قدسوا الأنبياء وعبدوهم ورفعوهم إلى مرتبة الألوهية على باطل، والذين كذبوهم أو قتلوهم- كبعض الأمم السابقة على باطل، فالأنبياء بشر ولكنهم يتميزون بالوحي الإلهي لهم وبعصمتهم قال الله تعالى:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(آية ١١ سورة إبراهيم)

وقال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» رواه أحمد والبخاري والدارمي.

وجملة القول أن دعوة الإسلام إلى العقيدة الحقة التي تؤمن فيها بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، دعوة فيها التوجيه الإسلامي، وليس فيها الإكراه عليها، كما قال الله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(آية ٢٥٦ - سورة البقرة)

الوسطية في العبادة

من العبادات التي تتجلى فيها الوسطية: الصلاة، فليست كثيرة شاقة ولا قليلة لا تترك أثرا، بل هي خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا تعارض بين أدائها وبين العمل في الحياة، والسعي في الرزق، فالمسلم يعمل ويكدح، ويسعى، فإذا نودي للصلاة، أجاب ثم يعود إلى عمله.. وهكذا فهو يعمل لدنياه ويعمل لآخرته وفي يوم الجمعة يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(الآيتان ٩، ١٠ - سورة الجمعة)

ولا تستغرق مساحة كبيرة من اليوم، وإنما حددها رب العزة سبحانه في مواقيت معينة دون إفراط ولا تفريط، ولا مشقة في أدائها ولا حرج:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(آية ٢٨٦ - سورة البقرة)

وقال سبحانه تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

(آية ١٦ سورة التغابن)

وفي أداء الصلاة والقراءة فيها لا يجهر

بها ولا يخافت، كما قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾

(آية ١١٠ - سورة الإسراء)

وألا يؤدي صلاته بسرعة دون طمأنينة، ولا يطيل بالمصلين إذا كان إماما إطالة تشق عليهم، بل عليه أن يؤدي صلاته بكامل أركانها مطمئنا بها خاشعا لله وألا يطيل بالناس.

وعندما أطال معاذ في صلاته، شكا منه بعض المسلمين قال له الرسول ﷺ «أفتان أنت، قالها ثلاث مرات، ثم قال: فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة» رواه أحمد والجماعة.

وقد وجه الرسول ﷺ بعض الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم بعد أن سمعوا موعظته وجههم إلى الوسطية وعدم المغالاة.

عن أنس - رضي الله عنه - أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه مسلم.

وقد أمرنا الله تعالى أن نقتدي برسول الله ﷺ حيث قال:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(آية ٢١ - سورة الأحزاب)

وهكذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه- وهو الأسوة الحسنة والنبي المعصوم المقتدى به- يحث على الوسطية وينهى عن المغالاة، والتشدد، وقد قال رب العزة سبحانه.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

(آية ١٩٥ - سورة البقرة)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون» وهم المتعمقون الذين يتشددون في غير موضع التشديد، والحديث رواه مسلم.

إن رحمة الإنسان بنفسه لها أهميتها وأثرها، حتى ولو كان ما يأتيه الإنسان عملا من أعمال العبادة- فالإسلام يدعو الإنسان إلى إعطاء جسده قسطا من الراحة، ليستطيع القيام بأعماله وعباداته.

عن أبي ربعي حنظلة بن الربيع أحد كتاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟، قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذ خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات (أي: مارسنا ولاعبنا) نسينا كثيرا، قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يارسول الله، فقال ﷺ: وما ذاك؟ فقلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو

تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة، ساعة وساعة، ساعة وساعة» رواه مسلم.

تلك هى رحمة الإنسان شرعها الإسلام وجعل تعاليمه تنادى إليها وتحرص عليها.

وكما نلاحظ الوسطية فى الصلاة نلاحظها أيضا فى الزكاة فلم تفرض فى كل وقت، ولكن:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(آية ١٤١ - سورة الانعام)

وعند بلوغ النصاب وفى النقدين بعد مرور حول، وإذا كان الجهد المبذول أكثر كان ما يدفع أقل، وإذا كان الجهد أقل كان ما يدفع أكثر فما سقى من الزروع والثمار بماء السماء أو بدون آلة أو تعب ففيه العشر، وما كان بتعب أو آلة ففيه نصف العشر، وما كان فيه تعب أكثر وجهد أكثر ففيه ربع العشر كزكاة النقدين وعروض التجارة، وما جاء بلا تعب كالركاز ففيه الخمس.

وإذا نظرنا إلى الصيام وجدنا أنه يرخص بالفطر للمريض والمسافر والحامل والمرضع، وعليهم القضاء بعد ذلك، وأن الحج إنما يجب مرة واحدة فى العمر كله وهو على المستطيع.

وهكذا نرى أن العبادات لا مشقة فيها ولا حرج، قال تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وقال الله سبحانه:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

(الحج: ٧٨)

كما قال الله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا

بين سلمان وأبى الدرداء

قال الإمام البخارى - رحمه الله: «حدثنا محمد بن بشار، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العميس عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال: آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال له: كل، قال: فإنى صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، قال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبى ﷺ: صدق سلمان» رواه البخارى.

فى هذه القصة عدة دلالات على وسطية الإسلام، وعلى دقة التشريع السماوى، حيث كفل الحقوق التى يجب أن يراعيها الإنسان المسلم، فهناك حق الله تعالى الذى يجب على الإنسان أن يؤديه، وهناك حق للأهل على الإنسان يجب أن يقوم به، وهناك حق للنفس على صاحبها يجب أن

ينتبه إليه، وأن يعطى كل ذى حق حقه، بحيث لا يشغله جانب على آخر، وبحيث لا يقصر فى حق على حساب الآخر.

ولقد بدأت هذه القصة ببيان صورة المؤاخاة التى عقدها رسول الله ﷺ، وقد ذكر أصحاب المغازى أن المؤاخاة بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد وقعت مرتين: الأولى قبل الهجرة بين المهاجرين، خاصة على المواساة والمناصرة، فكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة، وحمزة بن عبدالمطلب، ثم آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر، وذلك بعد قدومه المدينة فأرسى منهج الوسطية الاستمرار.

وهنا نموذج لأخوين ممن آخى بينهم رسول الله ﷺ، وهما سلمان وأبو الدرداء، لقد ربط الإسلام بينهما برباط وثيق، فكانا يتناصحان على الخير، ويوجه أحدهما صاحبه إلى طريق الإسلام وهداه، وإلى ما ينبغى أن يكون على الإنسان المسلم من أداء حق ربه سبحانه وتعالى، وأداء حق نفسه وحق أهله.. ولقد زار سلمان أبا الدرداء فوجد امرأته رثة الهيئة، متبذلة، تلبس ثياب المهنة، تاركة للبس ثياب الزينة.

فقال لها: ما شأنك؟، وفى رواية الترمذى، يا أم الدرداء أمتبذلة؟ فأجابته قائلة: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، وذلك لأنه يجهد نفسه فى العبادة، ويعزف عن طيبات الحياة، وعن التمتع بزينتها الحلال، ويعزف عن النساء.

ولما جاء أبو الدرداء، وصنع لسلمان الطعام، وقدمه إليه ليأكل، قال له سلمان: كل، فقال أبو الدرداء: إنى صائم، وأبى سلمان - وهو الضيف - أن يأكل من طعام أبى الدرداء حتى يأكل معه، وهدفه من وراء ذلك أن يصرفه عن رأيه وخطته التى يسير عليها فيما يصنعه من إجهاد نفسه فى العبادة، وفى غير ذلك مما شكته إليه امرأته، لقد قال سلمان له: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، وهذه ناحية من النواحى التى كان يلزم بها نفسه، وذلك بالصيام.

وهنا ناحية أخرى، وهى قيام الليل، إنه كان يأخذ بالقيام ولا يعطى جسده قسطا من الراحة، ولا يعطى نفسه حقها فى النوم، ولا يعطى أهله كذلك، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، وبهذا التصرف العملى أراد سلمان توجيهه إلى ما ينبغى أن يتبعه من حق الله وحق نفسه وحق أهله، وعندئذ واجهه بالحقيقة وأرشده إلى ما يحسن اتباعه قائلا له: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه.

إن مقاييس التقوى والخوف من الله، ليست بأن يكلف العبد نفسه ما لا طاقة لها به، وليست فى الانهماك فى العبادة، فقد يورث هذا عدم الاستمرار أو التقصير فى الحقوق الأخرى ويقطع على الإنسان مواصلة السير فى الطاعة، ولكن مقياس الخشية والطاعة فى المداومة، وفى الإقبال على العبادة بمحبة ورغبة، وتذوق حلاوة الإيمان، ولما ذكر أبو الدرداء ذلك لرسول الله ﷺ قال له: «صدق سلمان».

وفى رواية الترمذى وابن خزيمة: «ولضيفك عليك حقا»، وعند الدارقطنى: «فصم وافطر وصل ونم، وائت أهلك».

إن الإسلام دين اليسر فلا عسر فيه، إنه دين الرحمة فلا حرج معه:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

المسئولية المجتمعية للمرأة المسلمة

١

أ.د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

نحسب أن الجدل حول مسلمات شرعية وحقائق مجتمعية من غير التوصل إلى وفاق حول مراد الشرع وصالح الجماعة يعد من قبيل اللغو والسفسطة ومذمة فى القول والخطاب، وإثارة الشبهات والشكوك فى قضايا حسم أمرها، واستقرت فى الوجدان والضمائر السليمة.

يتبادر إلى الذهن ذلك بمناسبة التكرار فى الاختلاف حول أحقية المرأة وجدارتها فى المشاركة فى التنمية بنصيب مناسب يحتاجه المجتمع، وتشعر فيه بذاتها واستحقاقها الكرامة الإنسانية الكاملة كالرجال، باعتبارهما نوعان جنس واحد لا يستقيم أمر الجماعة بدون جهودهما معاً، كل بقدر طاقته واستعداده، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

(النساء: ٣٢)

أساس ذلك المنطق، بعض الحقائق المشاهدة والملموسة، منها أن المرأة نصف المجتمع، ومصدر الخصوبة والنماء فيه، فهى وعاء الثروة البشرية، ومنجبة الأجيال، ومهد الطفولة والذرية، ومحضن التربية والتهذيب وصانعة الرجال، ونبع الأمومة، فهى المعلمة الأولى، فلا غرو أن تكون كما قال الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق

وبسبب طبيعتها وما تتمتع به من العطف والحنو، فقد تعرضت عبر المسيرة البشرية لصنوف من الأذى والاضطهاد، وقد نهى الإسلام عن ذلك، فقد بوأها الإسلام مكانة رفيعة تعلو بها على الأب وتسبق منزلته، وشدد عليه فى حديث الرسول (ﷺ) بقوله: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات»[1].

أما إكرام الأم والأب، والإحسان إليهما، والبر بهما، فهو فريضة وواجب شرعى، انتظم فى عقد فريد مع فريضة عبادة الله، وعدم الإشراك به، اهتماما بأمرهما، والتزاماً بحقهما فى التكريم والرعاية، وهو ما جاء فى مواضع عدة، نخص منها قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(الإسراء: ٢٣)

لكن الأم اختصت بالمقام الأعلى، والمكانة الأوفى، فقدمت على الأب فى الصحبة، ووجب لها الرعاية والتكريم، لما لها من عظيم الدور فى مراحل الحمل والوضع والتربية والتهذيب، وهو ما علمه الصحابة وأيقنوه عندما سأل رجل الرسول (ﷺ): «من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أبوك».. رواه البخاري، متفق عليه.

وليس تكريم المرأة قاصراً على حالة الأمومة، وإنما يعم وجود المرأة فى كل مراحل حياتها، طفلة أو فتاة عند الأب والأم، ومع الزوج، وفى المجتمع. لكن مما يسترعى النظر أن يوجد من بين المسلمين من يبخس منزلتها ويقلص دورها، ويهمش وجودها، ويجعل شخصيتها منقوصة، تحيط بها المفاهيم المغلوطة، تتعلل بمنطق سقيم فى تقدير وعيها، وإضعاف قدرتها، وحصرها فى دائرة التبعية للرجل، وأن تكون ظلا له لا تراوح مكانها، وليس فى مكنتها أن تتحمل مسئولية اجتماعية، ولا تتمتع بشخصية قيادية، لضعف فى تكوينها وقصور فى عقلها، وأنها لا تقدر على فعل شىء بسبب حاجتها إلى الرجل ودورانها فى فلكه، وتبعيتها له، بتأويل غير سائغ للنصوص وعدم اكتراث بالمصلحة العامة.

ومن الطبيعى أن يكون للمرأة، وقد وضعت فى الموضع الذى يحفظ لها حقها كأم وبنت وزوجة وأخت وامرأة أن يقرر الشرع مسئوليتها عما تقوم به، وفى نطاق الدور الذى عهد به إليها، فقد أناط بها الإسلام وعهد إليها بالمسئولية وقرن مسئوليتها جنبا إلى جنب الحاكم والرجل. فقد روى عن الرسول (ﷺ): «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[2].. وقد نص الحديث على أبرز عمل فى نطاق المسئولية الاجتماعية، مما يفتح الباب أمام القيام بأعمال أخرى، إعمالا للقاعدة الأصولية: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وهو ما يوسع من مدى مسئوليتها ويمتد بها إلى آفاق وميادين تتجاوز الدور المعترف لها به على نطاق الأسرة وفى دائرة الأمومة والطفولة.

معالم الصورة وأبعادها تتحدد فى الدور المجتمعى للمرأة

تموج الساحة العربية بالعديد من الأفكار والأطروحات حول تقرير الدور المجتمعى للمرأة واضطلاعها بمسئوليات شأنها شأن الرجل، أو الاعتراف لها بهذا الدور وقدرتها على القيام به، وهو جزء من الجدل حول حق المرأة المسلمة فى صنع مصيرها، وتفعيل وجودها وأهمية دورها فى عملية التنمية المجتمعية فى مختلف المجالات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومهما كان اختلاف الرأى والتناصل بين

(١) حديث متفق عليه، رواه أبو عيسى المغيرة بن شعبة.

(٢) حديث ابن عمر، متفق عليه، وهذا لفظ البخارى.

المؤيدين والمعارضين للمشاركة النسوية في الشأن العام، فإن المشهد الراهن حول القضية يكشف عن حراك اجتماعي غير مسبوق ليس من صناعة المرأة وحدها التي وجدت لها منظمات تدافع عن وجودها وأهليتها في منافسة الرجل وحمل الأعباء والمسئوليات المجتمعية.. وإنما من جانب رجال يدعمون تواجد المرأة مجتمعيًا في أحداث الوطن والقضايا العامة، وكذا المساهمة في تقديم المبادرات وصنع القرارات القومية.

وعلى الجانب الآخر، فإن هناك فكرًا واتجاهًا آخر يعتصم بالرفض أو التحفظ تجاه الدور المجتمعي للمرأة، ولا ينبغي التهوين من أفكار ومناشط الجبهة المعارضة لاستقلالية المرأة فضلا عن تحملها لأعباء العمل العام، فهذا الاتجاه يمثل قوة لا يستهان بها بالنظر إلى الأيديولوجية التي يستند إليها، والخطاب الديني الانتقائي الذي توجهه إلى الرأي العام وتعتبره حائط الصد تجاه خصومها الذين لا يفتأون عن الإلحاح المستمر بضرورة إشراك المرأة في المناشط الحياتية المختلفة، وانتزاع حقوق جديدة لها، يؤكد على جدارتها في حصولها عليها واكتسابها لها.

ولا شك في ضراوة المواجهة بين أنصار الجبهتين المؤيدة والمعارضة لمشاركة المرأة في عملية التنمية، والعمل العام على الرغم من أن فقه نصوص الشرع، ومصلحة الأمة يتطلب أن تكون القضية مجال حوار، في إطار التبصر بدلالات النصوص والتعرف على دور المرأة المسلمة في العصر الأول، ومصلحة المجتمع في إشراكها في عملية التنمية بمفهومها الشامل.. فإن الناظر الفاحص والمتابع لحصيلة المواجهة يتبين له حصول الجبهة المؤيدة على مكاسب وإنجازات تمهد للطرح الذي تعرضه وللقضية التي تنحاز لها على أرض الواقع، مما يجعلها في موقع المبادأة أو الهجوم، وخصومها في موقع الصد أو الدفاع.

ومع ذلك فمن الصعب في أجواء المبارزة بين الجبهتين التقرير الحاسم بأن هذا الطرف أو ذاك هو المنتصر الذي حسم المعركة لصالحه، ذلك أن لكل طرف أسانيده، وأنصاره، المشايعين لفكره ولكل وجهة هو موليها، وطريق يسلكه للوصول إلى هدفه.

ونظرًا لأن قضية مساهمة المرأة، هي قضية لا تخص المرأة وحدها، فهي قضية مجتمعية بالأساس، فإن حسم الرأي حولها يتطلب مؤيدات تشريعية واجتماعية تكون هي حجر الأساس، والمعلم الفارق في الإبقاء على الفكر السائد المدافع بقوة عن الإبقاء على وضع المرأة داخل المنزل وحصرها فقط في مهمة تربية النشء والخدمة المنزلية.. بمقولة أنه الدور الطبيعي لها الذي ينبغي المحافظة عليه، وفي ذات الوقت يحشد الطرف الثاني فكره ومرئياته حول تطوير دور المرأة ومداه إلى خارج المنزل باعتبارها عضوًا أساسيا في الجماعة، ولها دور لا يجوز إغفاله أو تجاهل وجوده باعتبارها نصف المجتمع ولديها إمكانيات وقدرات يتعين الاستفادة منها، وهي مع الرجل يشكلان صرح المجتمع الإسلامي.

وينبغي التنويه في سياق المشاركة التنموية للمرأة العربية إلى أن مفهوم التنمية هو ذلك المفهوم الشامل الذي يعم مناحي الحياة المتسعة فهي في عمومها تتراوح بين التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا تنحصر في منحى أو مجال بعينه دون آخر، بحسبان أن التنمية بأبعادها المختلفة إنما تتكامل وتتعاضد من أجل رفعة الفرد والمجتمع، وهو ما يتطلب قيام كل إنسان بدوره فيها على قدر استعداده ووفقا لقدراته، الرجل والمرأة على سواء، فإن لكل طرف إسهاما بما يتفق مع طبيعته وقدراته وملكاته التي حباه الله بها.. على سند أن على المرأة مسئولية مجتمعية في ظل التطورات الحادثة التي تقتضي مشاركة كل فرد للنهوض بالوطن والمجتمع.

وبخصوص القضية المطروحة، فإن المطلع على أبعادها، يتبين له الإطار الذي تدور فيه، وهو إطار تشريعي واجتماعي، وحيث إن التشريعات الحاكمة لأوضاع المرأة في العالم العربي والإسلامي مستمدة من الشريعة الإسلامية في الغالب الأعم فضلا عن أن الهوية الإسلامية هي التي تشكل الأيديولوجية العربية، وهي أساس الهوية والنظام في وضعيتها في الوقت الراهن، لذلك فإنه من المهم أن تنحو الدراسة هذا المنحى، بقصد أن تتوصل إلى حقيقة كل اتجاه ومدى تعبيره عن الإسلام الإنساني والعالمي، ومصلحة الوطن والأمة، على أسس رصينة وموضوعية.

القضية قديمة حديثة

ونقطة البدء في الجدل المثار حول القضية تفرض حقيقة أولية في هذا الصدد تبرز في أنه لا يجوز الإدعاء بأن قضية مشاركة المرأة في شؤون المجتمع هي جزء من بنية الفكر المعاصر، وأنه ينفرد وحده بأهمية القضية، حتى لو سلمنا بصحة ما حققه هذا الفكر من خطوات ملموسة، ومشاركات فعالة للمرأة على طريق التنمية والمشاركة في العمل العام.. إذ تظل القضية من المسائل محل اهتمام والتي أثارت ولاتزال تثير الجدل منذ ظهور الإسلام، ونشأة المجتمع الإسلامي في دولة المدينة التي شيدت بموجب عقد اجتماعي، حيث تأسست على بيعة العقبة الأولى والثانية، شارك فيها رجال ونساء، وأرست أساس النظام الاجتماعي في دولة الإسلام، وأقامت نهضتها بجهود الرجال والنساء، كل بحسب استعداده، ومن ثم قامت المرأة بقوة على تحقيق الأهداف التي جاء بها الإسلام في إصلاح الدين والدنيا، وتكامل الحياة الروحية والمادية للفرد والجماعة بلا تمييز بين رجل وامرأة بحسب طبيعته وإمكانياته، أو بين مسلم وغير مسلم.. فالكل في الحقوق سواء في إطار الفلسفة والنظام الإسلامي.

أولا: الاتجاه المعارض لخروج المرأة للعمل العام والتنمية

يبلور هذا الاتجاه رؤيته على أن الله تعالى خلق المرأة للبيت، وخدمة الأسرة، فهي سيدة البيت وملكته المتوجة ومن أكبر الحجج التي يشهرها أنصار المعارضين لحقوق المرأة في التنمية وتحمل المسئولية، أن القرآن حدد وظيفة المرأة في حدود البيت لا تفارقه إلا بإذن من الرجل، فهي حبيسة المنزل لا تبرحه إلا بالطلاق أو الموت:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾

(الأحزاب: ٣٣)

فيعممون هذا الخطاب على نساء المسلمين، ويعتبرون أن خروجها من المنزل يجعلها متبرجة تعرض نفسها للمارة وتمتهن شرفها وكرامتها، وينافي الحياء والفضيلة والتصون الذي يأمرها به الإسلام.

أضف إلى ذلك أن فيه إخلالا بحق الرجل في

القوامة عليها، بمقتضى أنه رب البيت، والتصرف في شؤونه، فهو يتمتع بالتفضيل عليها، باعتباره القائم على الإنفاق والولاية، وهي الدرجة التي رفعته عليها:

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ويخلصون من ذلك إلى أن مهمة المرأة ورسالتها في المنزل والأسرة، ومهمة الرجل العمل والسعي لاكتساب الرزق.

وعلى أساس هذا التصنيف للعلاقة بين الرجل والمرأة تظل المرأة في مركز أدنى من الرجل، آية ذلك أنها تحت ولاية الرجل في أطوار حياتها، حيث تخضع كبنت للأب وتكون في كنفه منذ فترة الطفولة وحتى الزواج ثم تنتقل لتكون تحت إمرة الزوج طوال حياتها الأسرية وهي حياة ممتدة تستمر كل عمرها في غالب الأحوال.

وعلى وفق الأحكام الشرعية المؤكدة لهذا المنحى في القوامة وإبرازًا لدور المرأة في الأسرة جاءت نصوص قوانين الأحوال الشخصية في البلدان العربية، فهي تجعل من مهام الزوجة القيام على الشؤون المنزلية والتربية العائلية، تربي الأولاد وترعاهم وتطيع أوامر الزوج، وتتولى إرضاع الصغار وحضانتهم، في ظل القوامة التي تقررها القوانين للرجل على المرأة، ذلك أن رعاية الزوجة للأسرة وحق الاحتباس الواجب عليها يوجب على المرأة أن تتفرغ لها ولا تنشغل بشيء عنها[٣]

وهي فضلاً عن ذلك، فإن وزن الشهادة المثبتة للحقوق يميل تجاه إعطاء قيمة أكبر للرجل، بما ينطوي على عدم التسوية بين الرجل والمرأة، إذ الحقوق تثبت بشهادة رجلين عدلين، أو رجل وامرأتين، فكأن شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

وفي ذات الاتجاه، فإن المرأة تأخذ نصف نصيب الرجل في الميراث وهذا هو الأعم الأغلب بل هو القاعدة العامة التي ترد عليها بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة ولا تهدمها وهذا ما تتبناه التشريعات العربية التي تأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية في الأسرة (الزواج والطلاق) والميراث والوصية، وبعضها في الشهادة والإثبات القضائي، وهي في مجملها تجعل للرجل أسبقية على المرأة.

ومما يؤكد على وضعية المرأة على هذا النحو، الذي يجعل للرجل الدور الأساسي في البناء والتنمية، وأنه صاحب الدور الفعال في وضع القوانين، وإصدار الأحكام، وأن الدساتير العربية في معظمها تنص على أن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي، أو أحد مصادر التشريع وهو ما يعطي الهيمنة لفلسفة الشريعة في تمييز الرجل على المرأة في المنزلة والكسب وتجعل له الصدارة في داخل الأسرة وفي الحياة العامة.

وتدور القوانين والتشريعات العربية في فلك هذا النصف، ويكتفي المدافعون عن إبقاء المرأة في المنزل على تفسيرات ضيقة للنصوص يدورون في فلكها، ولا يأخذ أنصار هذا الاتجاه بإعمال النصوص الأخرى، ولا يحتكمون إلى المقاصد العامة للشرع والفلسفة الحاكمة للقوانين، وإنما يتعصبون لحرفية النصوص، والتفسير الضيق دون الاحتكام إلى رحابة نصوص الشرع، ومبادئه العامة المؤكدة على أن الحياة الأسرية تقوم على الثنائية والتكامل بين الذكر والأنثى، لا الفردية التي تصادر حق المرأة، وتقصيها في الرأي والوضعية كطرف أصيل، وعنصر أساسي في الكيان الأسري، والعلاقة الزوجية، وهذا هو مقتضى الخلق والتكوين الاجتماعي والواقع الحياتي، فالرجل والمرأة عماد الأسرة وأساس النظام الاجتماعي، والحياة كلها لا قيام لها بدونهما مجتمعين، وهو ملحظ في قوله تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(الذاريات: ٤٩)

ويمضي أصحاب هذا الاتجاه في تعميق فكرهم القائم على التمييز بين الرجل والمرأة إلى حد اعتبار ذلك أصلاً مقررًا وتنظيمًا عامًا، وحكمًا قطعيًا يستند إلى اجتزاء النصوص المتعلقة بالولاية والقوامة والشهادة والميراث، واعتبارها مبادئ دينية ثابتة قاطعة لا تقبل نقاشًا ولا تحتمل تفسيرًا آخر في معزل عن دستور وتشريعات الإسلام الحاكمة للزواج وتشييد نظام الأسرة على أساس التعاون والتوازن بين الحقوق والواجبات، ورعاية صالح الأسرة والمجتمع بتقرير أحقية الطرفين، فدستور الزواج في القرآن:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

وفي السنة «النساء شقائق الرجال»، وهي درجة الرعاية والتوجيه والتقويم بما فيه مصلحة الأسرة وليس الأثرة والتحكم أو التسلط أو الاستبداد الذي قد يفهم من بعض التفسيرات التحكمية والمغلوطة حول تلك المكانة الشرعية، ويسيء بسببه بعض الرجال في علاقتهم مع النساء.

ولو أنهم تعمقوا في الاحتكام إلى مجموع النصوص المنظمة للأسرة في الإسلام، ولطبيعة العلاقات بين النوعين الرجل والمرأة، وفلسفة الإسلام في الاجتماع البشري؛ لأدركوا أن النصوص قطعية في ثبوتها، وإنما قد تكون الدلالة فيها ظنية، تحتمل الرأي والرأي الآخر، فضلاً عن أنها خاصة أو بحسب التعبير الفقهي واقعة عين في تلك المسائل التي تنظمها، ولا تنسحب إلى سائر أنواع العلاقة بين الرجل والمرأة، ولا يجوز تعميمها على كافة الأحكام في مسائل الزواج والطلاق الأخرى، وكذا الشهادة كوسيلة إثبات للحقوق أمام القضاء.

وبناء على فهم هذا الاتجاه المضيق للنصوص، الذي يقصي العديد من الحقوق الشرعية الأخرى المقررة للمرأة، ولا يتعمق في فقه النص ولا دلالات الشرع والحكمة المقصودة منه، كما سنبينه في حينه، نجد أن هناك خلطًا تجاوز أحكام القوامة والشهادة والميراث والدية والقصاص التي يستشهد بها كمؤيدات على صحة قوله ورجاحة رأيه، مما يرتكن إليه هذا الاتجاه إلى مصادرة دور المرأة في العمل العام، وتنحيتها عن مسئوليتها المجتمعية، وعدم أهليتها في القيام بواجبها الاجتماعي، كعضو فاعل في مجتمعها، يحتاج المجتمع إلى جهودها جنبًا إلى جنب الرجل، في نطاق الضوابط الإسلامية والتنظيم العام.

(يتبع)

(٣) د. مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، دار السلام، ص١٠٦.

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا

للأستاذ الدكتور/ مصطفى رجب
كلية التربية جامعة سوهاج

قال تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾

(البقرة: ٢٣٣).

تحدثت هذه الآية الكريمة عن أحكام الرضاعة، وللفقهاء والمفسرين جهود كبيرة فى تفصيل تلك الأحكام وتفسيرها فمن شاء الاطلاع عليها فليراجعها فى تلك التفاسير ذات الطابع الفقهى مثل: أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربى المالكى، وفى تفسير القرطبى بالإضافة إلى كتب الفقه المعروفة.

أما ما يعنينا هنا فهو التماس وجه من وجوه الإعجاز التربوى القرآنى من خلال تقليب وجوه النظر فى جملة

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾

وقد اخترنا الوقوف عند هذه الجملة لأسباب منها:

١ - أن إيقاع الضرر بالآباء والأمهات فى عصرنا، اتسع نطاقه، وزاد انتشاره مع كثرة الاختلاف بين الأزواج، وما تشهده مجتمعاتنا المسلمة من تفكك أسرى، وتحلل خلقى فى بعض الحالات. وعند انتقال الخلافات الأسرية من نطاق الأسرة إلى أروقة المحاكم ودور القضاء والشرطة يكثر استخدام الأطفال الأبرياء وسائل ضغط يستغلها طرف ضد طرف من الوالدين و يتجاهل الوالدان هذا الحكم الإلهى الصارم المحرِّم لإضرار طرف بطرف باستغلال المولود.

٢ - أن فى هذه الجملة ثلاث قراءات صحيحة. ولكل قراءة توجيهها اللغوى وتأثيرها الدلالى..

٣ - أن لهذه الجملة حالتين من الإعراب ترتيبا على اختلاف القراءات من جهة وسيرا على نهج العربية من جهة أخرى. ولكل من الحالتين تأويل، مع أنهما فى النهاية تؤديان إلى حكم واحد وهو: الزجر عن هذا المسلك المشين: الإضرار المتعمد باستخدام الولد.

٤ - أن هذه الجملة وما يبنى عليها من أحكام مما لا يلتفت إليه الخطباء والعلماء والوعاظ فى أحاديثهم ودروسهم وكتاباتهم فصار هذا الحكم كالمنسى.

• والقراءة الثانية: قراءة أبى عمرو وابن كثير، ويعقوب بالرفع: ﴿لَا تُضَارُّ﴾ وعلى هذه القراءة تكون ﴿لَا﴾ نافية، والفعل المضارع بعدها ﴿تُضَارُّ﴾ مرفوع بالضمة الظاهرة.

وتكون جملة ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ كأنها مرتبطة بالآية السابقة عليها:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وكأنها تفسير لها، وهذا ما ذهب إليه الزمخشرى فى الكشاف (١/ ٢٧٩) والآلوسى فى روح المعانى (٢/ ٢٢٠) فالنفى فى الجملتين:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾

﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾

له علاقة بقوله تعالى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وكأن الجملتين اللتين وردتا بعد قوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ تفسير وبيان لهذا المعروف وعلى هذا الفهم تكون جملة:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾

نفيا فى موضع النهى، «فكلاهما (أى الزوجين) منهى عن أن يكلف صاحبه فوق ما يستطيع، فالزوج منهى عن أن يكلف الأم ما ليس فى وسعها فتلزم الإرضاع ولا تعطى حقها، وهى منهية عن أن تكلف الأب ما ليس فى وسعه، فتمتنع من الإرضاع، أو تطلب فوق ما تستحق».

وأما القراءة الثالثة - وهى قراءة صحيحة عشرية -فقد انفرد بها أبو جعفر المدنى، وهذه القراءة بتسكين الراء من الفعل على أن ﴿لَا﴾ ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها. فإذا وقف القارئ على الفعل وقف عليه ساكنا، وقد أجرى أبو جعفر المدنى الوصل مجرى الوقف فوقف على الراء وهى ساكنة مجزومة، ووصلها أيضاً وهى ساكنة مجزومة:

﴿لَا تُضَارْ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾

ولكن المعنى - فى نهاية المطاف - يؤول إلى المعنى المفهوم من القراءة الأولى، وهى قراءة الأكثرين، فاللام فى الحالين للنهى، فالقراءة الثالثة لا تؤدى معنى جديدا.

المعنى العام

وخلاصة أوجه الإعراب المختلفة، وأوجه القراءات المختلفة، أن جملة:

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾

نهى عن تبادل إيقاع الضرر بين الزوجين باستغلال الأبناء، سواء أكان هذا النهى نهيا صريحا باستعمال (لا) الناهية، أم كان باستعمال النفى مرادا به النهى، وهو أقوى دلالة من النهى الصريح.

أوجه الإعجاز التربوى فى الآية

إن التربية البشرية التى أصبحت علما يضم علوما متعددة، تفرعت اهتماماتها وأصبحت تتوزع إلى ما يخص العملية التعليمية من مناهج وأساليب تدريس، وطرائق للقياس والتقويم، والنزوى الهدف الرئيسى للتربية وهو «تعديل السلوك» فى جانب واحد هو جانب الصحة النفسية، وفى تخصصات أصبح لها آلياتها وبرامجها المعقدة فيما يعرف بالعلاج والإرشاد النفسى وأكثر آليات تلك التخصصات وبرامجها تعتمد اعتمادا كبيرا على نتائج البحوث التجريبية،

والدراسات الإحصائية الصماء.

ولكن التربية الإسلامية لا تستمد آلياتها وبرامجها من بحوث تجريبية أجريت على القرود والقطط والكلاب - كما هو الحال فى علم النفس الوضعى - بل تستمدها من معين إلهى حكيم هو القرآن الكريم. فالذى أنزل هذا الكتاب الحكيم، هو - جل وعلا - الذى خلق النفوس، ويعلم ما فيها من علل وأمراض. وما الذى تصح به النفوس والأبدان.

لذلك كله، يصعب أن يوصف ما تصل إليه التربية البشرية - مهما تبلغ دقته - بأنه إعجاز. بل غاية ما يوصف به أنه قد يكون ناجحا أو غير ناجح، فعّالاً أو غير فعّال. هذه ناحية.

والناحية الثانية أن بحوث السلف فى مجال إعجاز القرآن وقفت أمام الإعجاز البيانى لا تكاد تتجاوزه، وذلك فى معرض دفاعها عن إلهية المصدر فى مواجهة أولئك الذين يتهمون محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه هو الذى كتب القرآن الكريم، ثم أضاف العلماء العصريون أبوابا من الإعجاز العلمى، والإعجاز العددى.

وبقيت الكتابات التى تناولت مفاهيم التربية القرآنية وآفاقها خارج أسوار مباحث الإعجاز لأسباب لا مجال للخوض فيها هنا.

ولكننا فى ظلال هذه الجملة:

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا ﴾ نقف خاشعين أمام ضرب جديد من الإعجاز التربوى والنفسى، تتنوع منه وجوه التربية الإلهية للبشر تنوعا عجيبا، فتغيير حركة حرف واحد من حروف كلمة فى جملة فى آية: هذا التغيير يحمل وجوها للتأثير النفسى ذات دلالة يعجز عن الإتيان بها أساطين التربية البشرية. فكل قراءة، وكل وجه إعرابى: فيه ما فيه من معان وآثار تربوية عميقة، فمثلا:

١. الإعجاز التربوى باختيار كلمة دون غيرها:

فى قوله تعالى ﴿ بِوَلَدِهَا ﴾ إضافة للولد إلى أمه، وفى قوله ﴿ بِوَلَدِهِۦ ﴾ إضافة للولد إلى والده. فالعدول عن لفظ (أم) أو (مرضعة) إلى لفظ ﴿ وَٰلِدَةٌ ﴾ والعدول عن لفظ (ابن)، أو (رضيع) أو (طفل). إلى لفظ: ولدها، وولده.. فى هذا الاختيار قدر كبير من الاستعطاف والتحنن وإثارة الجانب الخيّر من الطبيعة الإنسانية. إذ إن تلاوة الآية، والاستماع إليها، وتدبر بنائها بقلب سليم وعقل متفتح، من شأنه أن يصرف القارئ أو السامع عن هذا السلوك الشائن المنهى عنه: أعنى الإضرار باستغلال الرضيع، فالأم إذا فكرت فى إيذاء زوجها عن طريق الضغط على الإبن أو إيذائه بأى وجه من الوجوه، لو فكرت هكذا ثم استمعت إلى الآية أو تدبرتها، لوقفت أمام كلمة ﴿ بِوَلَدِهَا ﴾ وكلمة ﴿ بِوَلَدِهِۦ ﴾ وثابت إلى رشدها، وخافت أن يتمادى الأب - فى سياق المضارة والعداوة - إلى إيذاء الطفل من جانبه. فإذا بها تنتهى عما انتوت.

٢. الإعجاز التربوى بإيقاظ الفطرة السوية:

إن تلاوة الآية على القراءة الثانية:

﴿ لَا تُضَآرُّ ﴾ معناها كما قلنا: النفى، أى أن الاصل فى السلوك الإنسانى السوى: ألا يتضارّ الوالدان باستخدام الابن. والبلاغيون يقفون عند هذه القراءة وقفة إعجاب وتقدير. لكن كل ما يعنيهم هو أن النفى هنا أبلغ من النهى، وأن قراءة الآية على صورة النفى (وهو أسلوب خبرى) تتفق مع صدر الآية:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾

لكننا كتربويين ننظر إلى استخدام النفى على أنه أعظم تأثيرا فى السلوك الإنسانى لأنه يُشعر القارئ أو السامع بأن هذا المسلك هو أصل الفطرة الذى لا يصح مخالفته. وقد التفت إلى هذا الملمح بعض البلاغيين على ما نراه فى بعض التفاسير القديمة كنظم الدرر والكشاف.

٣. الإعجاز التربوى بتنشيط الإرادة:

إن استعمال كلمة ﴿ لَا تُضَآرَّ ﴾ أو (يضار) يحمل توجيهًا تربويًا كامنا لكنه ملموس، بالفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، وسواء أكان المتلو أو المسموع نهيًا أو نفيًا فى مقام النهى، فإن المضمون التربوى يلازمه: فالثواب والعقاب إنما يكونان نتيجة الإرادة والاختيار، والإضرار - فى الحال أو المستقبل - إنما هو إرادة واختيار. فكأنه سبحانه وتعالى ينهى عن سلوك بفعل يتضمن بالضرورة إنذارا بالعقاب. وهذا غاية الإعجاز فى تنشيط الإرادة البشرية وتفعيلها.

٤. الإعجاز التربوى بمراعاة الأصل:

إذا كان أصل الزواج هو السكينة والرحمة، وأساس تكوين الأسرة هو التكامل والتواد وإعمار الأرض، فإن كل ما يعكر صفو ذلك الأصل أو يعطل رسالته، مخالف لإرادة الله سبحانه وتعالى - وهو بهذه المثابة يعد إضرارا وإفسادا. فسياق الآية يشير إلى أن خرم الأصل، ومعاداة الإرادة الإلهية، هو إضرار بالمجتمع كله الذى يتكون من مجموعة من الأسر. فإذا نشب خلاف بين زوج وزوجته، وتضارا باستخدام الأبناء، فستنشأ أسر كثيرة مستقبلا من صلب هؤلاء الأبناء الذين عانوا مرارة خلافات والديهم.

وتلك الأسر سيكون حظها من الاضطراب النفسى عظيما، فبناء الجملة على مفردات الوالدية والإضرار يدل على أن الأمثل فى علاقات الوالدية التعاضد والرحمة لا الشقاق.

٥. الإعجاز التربوى بثراء التعبير:

أصل الإضرار المقصود فى الآية يتعلق بالخلاف بين الوالدين على أجرة الرضاع وكسوة المرضع. ولكن الإعجاز فى قوله:

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا ﴾ حمل من الإعجاز كل صور الإضرار التى يمكن ان يساء فيها استعمال الأبناء، كورقة ضغط من طرف على طرف. وهنا كان للغة القرآن أثر بالغ فى تحقيق الإعجاز التربوى بالإيجاز التعبيرى. والله أعلم.

❊❊❊

أدب الاختلاف



ا.د/ عبدالله بن بيه
وزير العدل الموريتانى سابقا

الاختلاف هو التباين فى الرأى والمغايرة فى الطرح، وقد ورد فعل الاختلاف كثيراً فى القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ (مريم: ٣٧)

وقال تعالى:

﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (البقرة: ١١٣)

وقال تعالى:

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ (البقرة: ٢١٣)

وقال تعالى:

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الشورى: ١٠)

أما الخلاف فهو مصدر من خالف إذا عارضه، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود: ٨٨)

وقال تعالى:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ (النور: ٦٣)

وجاء بصيغة المصدر قال تعالى:

﴿ لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٦)

وقال تعالى:

﴿ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ﴾ (المائدة: ٣٣)

والاختلاف قد يوحى بشىء من التكامل والتناغم كما فى قوله تعالى:

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ (فاطر: ٢٧)

وأما الخلاف فإنه لا يوحى بذلك وينصب الاختلاف غالبا على الرأى؛ اختلف فلان مع فلان فى كذا والخلاف ينصب على الشخص.

ثم إن الاختلاف لا يدل على القطيعة بل قد يدل على بداية الحوار فإن ابن مسعود اختلف مع أمير المؤمنين: عثمان فى مسألة إتمام الصلاة فى سفر الحج ولكنه لم يخالف، بل أتم معه وقال: الخلاف شر.

قد يدل الخلاف على القطيعة.

هذه الإيحاءات والظلال جعلتنا نفضل كلمة الاختلاف، التى قد تكون مقدمة للتفاهم والتكامل على كلمة الخلاف وإن كان العلماء يستعملون كلتا الكلمتين لتأدية نفس المعنى باعتبارهما من الترادف فتتعاوران وتتعاقبان.

الكلمات ذات العلاقة

هناك كلمات قوية فى دلالتها على اشتداد الخلاف كالنزاع والشقاق وهو الوقوف فى شق أى فى جانب يقابل ويضاد الجانب الآخر.

الاختلاف ظاهرة لا يمكن تحاشيها باعتبارها مظهراً من مظاهر الإرادة التى ركبت فى الإنسان إذ الإرادة بالضرورة تؤدى إلى وقوع الاختلاف والتفاوت فى الرأى.

وقد انتبه لذلك العلامة ابن القيم عندما يقول: «وقوع الاختلاف بين الناس أمر ضرورى لا بد منه لتفاوت أغراضهم وأفهامهم وقوى إدراكهم ولكن المذموم بغى بعضهم على بعض وعدوانه» (إعلام الموقعين)

فإن الشقاق يمكن تفاديه بالحوار الذى من شأنه أن يقدم البدائل العديدة لتجنب مأزق الاصطدام فى زاوية الشقاق.

ونحن فى ورقتنا هذه إنما نبحث عن البدائل انطلاقاً من الشريعة الإسلامية نصوصاً ومقاصد وأصولاً وفروعاً وتطبيقات بنماذج تاريخية.

الباعث: إن الباعث على هذه الورقة هو ملاحظة لا تعزب عن بال أحد بل لا تغرب عن حواسه؛ تتمثل فى اختلاف كثير تصديقاً لقوله ﷺ: «وإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً».

وهو اختلاف انتشر فى الأمة أفقياً وعمودياً فى كل الفئات وعلى مختلف المستويات. تعددت أسبابه وتنوعت ألوانه واستعملت فيه كل الوسائل من تكفير وتفسيق وتبديع وتشويه وتسفيه وما شئت من مصدر على وزن تفعيل.

واستعمل فيه الخصوم كل أدوات الدفاع والهجوم، وضاقت بالحياد فيه الأرض بما رحبت، فالكل متهم والكل براء وأعجز داء الأمة الدواء فحضر الشهود إلا شاهد العقل، واستحضرت الحجج إلا حجة الإنصاف (وما أبرئ نفسى).

ونحن هنا لا نحاول إصدار فتاوى فى مسائل الاختلاف، ولا نحضر بلسم سحرى يبرء الأوصاب، لأن ذلك ليس فى مقدورنا ولا فى طاقتنا فقد نتكلف شططاً ونكلفكم عناء وعنتا لو حاولنا ذلك، وقد يكون من المفارقات أن أطلب من الآخرين التواضع والنسبية فى الحكم، وفى الوقت نفسه أصدر أحكاما باتة فى قضاياهم.

إن محاولتنا تعنى بحثاً عن كيفية تعقيل أو عقلنة جدلنا وتنظيم اختلافاتنا وترتيب درجات سلم أولوياتنا وتحسين نياتنا وإرادتنا على ضوء ما يستخلص من نصوص شرعية حاكمة وآثار عن السلف شارحة وممارسات رشيدة هادية. إذ من شأن ذلك أن يقلل من الخلاف أو ينزع فتيل ناره لتصبح برداً وسلاما.

يقول العلامة ابن القيم: «فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدى إلى التباس والتحرى وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمر لا بد منه فى النشأة الإنسانية لأنه إذا كان الأصل واحدا والغاية المطلوبة واحدة والطريقة المسلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف،

وإن وقع كان اختلافًا لا يضر، كما تقدم من اختلاف الصحابة» (الصواعق المرسلة ج ٢ ص ٥١٩)

كيف نجعل اختلافنا من هذا النوع الذي أشار إليه ابن القيم؟ فإذا كان ذلك غرضنا فلننتقل إلى تأصيل أهمية الألفة وإصلاح ذات البين.

تأصيل الألفة والاعتصام بحبل الجماعة

إنه من المعلوم ضرورة من الدين قال تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦)

قوتكم وجماعتكم ونصركم.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (آل عمران: ١٠٥)

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)

أوامر بالاعتصام بحبل الله تعالى وإقامة دينه مقرونة بنواه عن التفرق والنزاع مع التنبيه إلى النتائج الحتمية المتمثلة في الفشل الذي يعني العجز عن الوصول إلى غاية معينة وهنا فشل الأمة وعجزها عن القيام بوظيفتها في هداية البشر والخلافة الراشدة في الأرض:

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

وقد بين ﷺ ذلك خير بيان، وهو المبين للذكر المبلغ للوحي في نواه صريحة «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا» أخرجه مسلم من حديث أنس

إصلاح ذات البين:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ (الأنفال: ١)

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء: ١١٤)

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (الحجرات: ٩)

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ (المائدة: ٧)

وحديث «ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله تعالى»، أخرجه مسلم من حديث أنس وفي حديث أبي هريرة «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا» (مسند أحمد)، وخرج أحمد وأبوداود والترمذي من حديث أبي الدرداء عنه عليه السلام: «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

وفي ثاني خطبة له بالمدينة بعد الهجرة كما يروي ابن إسحاق دعا إلى حب الله تعالى قائلا: «أحبوا ما أحب الله أحبوا الله من كل قلوبكم»، ثم دعا المسلمين إلى الحب فيما بينهم قائلاً: «وتحابوا بروح الله بينكم»

استخلص العلماء رحمهم الله تعالى من ذلك أن الجماعة والألفة أصل من أصول الدين يضحى في سبيله بالفروع.

عبر عنه خير تعبير ابن تيمية حيث يقول: «الاعتصام بالجماعة والألفة أصل من أصول الدين والفرع المتنازع من الفروع الخفية فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع»، (الفتاوى ٢٢ ص ٢٥٤). وهو كلام صحيح فيه فقه وبصر بأحكام الشرع ولقد اعتذر نبي الله هارون لأخيه موسى - عليهما السلام - في عدم اتباعه له عندما عبد بنو إسرائيل العجل بالمحافظة على وحدة بني إسرائيل فلو تفرقوا لحملتني مسئولية ذلك:

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه: ٩٢، ٩٤)

تسويغ الاختلاف:

إن الاختلاف بين أهل الحق سائغ وواقع، وما دام في حدود الشريعة وضوابطها فإنه لا يكون مذمومًا بل يكون ممدوحًا ومصدرًا من مصادر الإثراء الفكري ووسيلة للوصول إلى القرار الصائب، وما مبدأ الشورى الذي قرره الإسلام إلا تشريعًا لهذا الاختلاف الحميد ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، فكم كان النبي ﷺ يستشير أصحابه ويستمع إلى آرائهم وتختلف وجهات نظرهم في تقرير المضي في حملة بدر ونتائج المعركة وكان الاختلاف من الموقف من الأسرى.

فعندما استشار في المضي قدمًا لنزال المشركين بعد أن تبين كثرة جيوشهم بالنسبة للمسلمين وكان النبي ﷺ ينصت إليهم وما ليم أحد على رأي أبداه أو موقف تبناه وما تعصب منهم أحد ولا تحزب بل كان الحق غايتهم والمصلحة رائدتهم.

وقد يقر النبي ﷺ كلاً من المختلفين على رأيه الخاص، وبدون أن يبدي أي اعتراض أو ترجيح. كما في مسألة أمره ﷺ بصلاة العصر في بني قريظة فقد صلاها بعضهم بالمدينة ولم يصلها البعض الآخر إلا وقت صلاة العشاء، ولم يعنف أحدًا منهم كما جاء في الصحيحين.

وفي السفر كان منهم المفطر والصائم. وما عاب أحد على أحد كما جاء في الصحيح حتى في الاختلاف في القراءة في حديث ابن مسعود.

إنها التربية النبوية للصحابة ليتصرفوا داخل دائرة الشريعة حسب جهدهم طبقا لاجتهادهم. وبعده ﷺ كانت بينهم اختلافات حسمت أحيانًا كثيرة بالاتفاق كما في اختلافهم حول الخليفة بعده ﷺ.

وكما في اختلافهم حول قتال مانعي الزكاة، وحول جمع القرآن الكريم، ورجوع عمر إلى قول عليّ في مسألة المنكوحة في العدة

وتارة يبقى الطرفان على موقفهما وهما في غاية الاحترام لبعضهما البعض.

- قصة عمر مع ربيعة بن عياش.
- قصة الأرض الخراجية.
- قصة عائشة وابن عباس في رؤيته ﷺ

للبارى جل وعلا.

- وبين عائشة وبين الصحابة فى سماع الموتى.
- وبين عمر وبين فاطمة بنت قيس فى مسألة سكنى المبتوتة ونفقتها.
- وابن مسعود وأبى موسى الأشعرى فى مسألة إرضاع الكبير.
- وأبى هريرة وابن عباس فى الوضوء مما مست النار.
- واختلاف عمر مع أبى عبيدة فى دخول الأرض التى بها وباء.
- ويدخل التابعون فى بعض الأحيان فى حلبة الخلاف كأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف مع ابن عباس فى عدة الحامل المتوفى عنها.

وتقف عائشة إلى جانب ابن عباس قائلة لأبى سلمة إنما أنت فروج رأى الديكة تصيح فصاح معتبرة أنه لم يبلغ بعد درجة الاجتهاد ولكن الأمر لا يتجاوز ذلك.

وموضوعات الخلاف كثيرة جداً ولكنها تحسم بالتراضى إما بالرجوع إلى رأى البعض، ويسجل لعمر رضى الله عنه كثرة رجوعه إلى آراء إخوته من الصحابة واعترافه أمام الملأ وتأصيله القاعدة الذهبية وهى: «أن الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد»، وهى قاعدة تبناها العلماء فيما بعد فأمضوا أحكام القضاة التى تخالف رأيهم واجتهادهم حرصاً على مصلحة إنهاء الخصومات وحسم المنازعات وهى مصلحة مقدمة فى سلم الأولويات على الرأى المخالف الذى قد يكون صاحبه مقتنعاً به.

أقوال العلماء فى الاختلاف

يقول الحافظ بن رجب: «ولما كثر اختلاف الناس فى مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم وكل منهم يظن أنه يبغض لله وقد يكون فى نفس الأمر معذوراً وقد لا يكون معذوراً بل يكون متبعاً لهواه مقصراً فى البحث عن معرفة ما يبغض فإن كثيراً كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق وهذا الظن قد يخطئ ويصيب وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى والألفة أو العادة وكل هذا يقدح فى أن يكون هذا البغض لله فالواجب على المسلم أن ينصح لنفسه ويتحرز فى هذا غاية التحرز وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرم.

وها هنا أمر خفى ينبغى التفطن له وهو أن كثيراً من أئمة الدين قد يقول قولاً مرجوحاً ويكون فيه مجتهداً مأجوراً على اجتهاده فيه موضوعاً عنه خطؤه فيه ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته فى هذه الدرجة لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدين لما قبله ولا انتصر له ولا والى من يوافقه ولا عادى من خالفه وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك فإن متبوعه إنما كان قصد الانتصار للحق وإن أخطأ فى اجتهاده.

وأما هذا التابع فقد شاب انتصاره لما يظن أنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته وأنه لا ينسب إلى الخطأ وهذه دسيسة تقدح فى قصده الانتصار للحق فافهم هذا فإنه مهم عظيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

انتهى كلام الحافظ وهو كلام فى غاية الفضل.

قال الشافعى: «ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق فى مسألة».

وقال: «ما ناظرت أحداً إلا قلت اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه فإن كان الحق معى اتبعنى وإذا كان الحق معه اتبعته» قواعد الأحكام

رفض مالك حمل الناس على الموطأ!

قال مالك: للخليفة العباسى حينما أرد حمل الناس على الموطأ - وهو كتاب مالك وخلاصة اختياره فى الحديث والفقه - لا تفعل يا أمير المؤمنين معتبراً أن لكل قطر علماءه وآراءه الفقهية فرجع الخليفة عن موقفه بسبب هذا الموقف الرفيع من مالك فى احترام رأى المخالف وإفساح المجال له.

قالت عائشة عن بعض الصحابة وقد اختلفت معه: أما إنه لم يكذب ولكنه نسى أو أخطأ.

- كان الذهبى مثل العالم المتفتح المنصف.

فقد قال الذهبى عن الشيخ عبد الستار المقدسى الحنبلى رحمه الله تعالى: «أنه قل من سمع منه لأنه كان فيه زعارة وكان فيه غلو فى السنة»، وقال عنه: «وعنى بالسنة وجمع فيها وناظر الخصوم وكفرهم وكان صاحب حزبية وتحرق على الأشعرية فرموه بالتجسيم ثم كان منابذاً لأصحابه الحنابلة وفيه شراسة أخلاق مع صلاح ودين يابس».

اعتبر الذهبى ذلك حزبية.

وقال الذهبى عن القاضى أبى بكر بن العربى: «لم ينصف القاضى أبو بكر رحمه الله شيخ أبيه فى العلم ولا تكلم فيه بالقسط وبالغ فى الاستخفاف به وأبو بكر على عظمته فى العلم لا يبلغ رتبة أبى محمد ولا يكاد فرحمهما الله وغفر لهما».

وكان الذهبى يثنى ثناء عاطراً على تقى الدين السبكى مع أنه شيخ الأشاعرة الذى كان بينه وبين شيخه الشيخ تقى الدين بن تيمية من الخلاف ما هو معروف. ثم يعتذر الذهبى عن الظاهرية قائلاً: «إن ما تفردوا به هو شىء من قبيل مخالفة الإجماع الظنى وتندر مخالفتهم الإجماع القطعى».

ثم ذكر أنهم ليسوا خارجين عن الدين.

وقال عنهم: «وفى الجملة فداود بن على بصير بالفقه عالم بالقرآن حافظ للأثر رأس المعرفة من أوعية العلم له ذكاء خارق وفيه دين متين وكذلك فقهاء الظاهرية جماعة لهم علم باهر وذكاء قوى فالكمال عزيز والله الموفق».

ويقول الذهبى: «ونحن نحكى قول ابن عباس فى المتعة وفى الصرف وفى إنكار العول وقول طائفة من الصحابة فى ترك الغسل من الإيلاج بغير إنزال وأشباه ذلك ولا يجوز تقليدهم فى ذلك».

وقال: «كل فرقة تتعجب من الأخرى ونرجو لكل من بذل جهده فى تطلب الحق أن يغفر له من هذه الأمة المرحومة».

ويقول ابن تيمية: «وأمرنا بالعدل والقسط فلا يجوز لنا إذا قال يهودى أو نصرانى فضلاً عن الرافضى قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله».

وقال أيضاً: «الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين والفرع المتنازع فيه من الفروع الخفية فكيف يقدح فى الأصل بحفظ الفرع». (الفتاوى ٢٢، ص: ٢٥٤)

المعاداة بين المختلفين

في الاجتهاد اتباع للهوى

يدخل الخلل في الموالاة والمعاداة حين يكون الاتباع للهوى وحيثما وجد التفرق كان مبعثه الهوى لأن أصل الاختلاف الاجتهادى لا يقتضى الفرقة والعداوة وقد جعل الشاطبى هذا الأصل مقياساً لضبط ما هو من أمر الدين وما ليس منه فقال: «فكل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء وأنها التي عنى رسول الله ﷺ بتفسير الآية وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾

(الأنعام: ١٥٩)

فيجب على كل ذى دين وعقل أن يجتنبها.. فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك بحدث أحدثوه من اتباع الهوى وهو ظاهر في أن الإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف فكل رأى أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين».

ووصف الشيخ تقى الدين ابن تيمية من يوالى موافقه ويعادى مخالفه ويكفر ويفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ويستحل قتال مخالفه بأنه من أهل التفرق والاختلاف (الفتاوى ٧ - ٣٤٩).

ويرى ابن تيمية ترك بعض المستحبات تأليفاً قائلاً: «لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا كما ترك النبى ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب».

وأنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً وقال الخلاف شر. (الفتاوى ٢٢ - ٤٠٧)

رأى النووى في الطائفة المنصورة:

«ويحتمل أن هذه الطائفة تفرقت بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من أهل الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض».

ويقول الذهبى في ميزان الاعتدال في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصفهاني: «كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ولا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد لا ينجو منه إلا من عصم الله وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين».

قال أحمد: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً».

آداب عامة ينبغي للمختلفين أن يراعوها ليعذر بعضهم بعضاً:-

١ - العذر بالجهل!

يقول ابن تيمية: وكثير من المؤمنين قد يجهل هذا فلا يكون كافرا (الفتاوى ١١ - ص ٤٦١).

وفي حديث ابن ماجة عن حذيفة «يدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها، فيقول صلة بن زفر: لحذيفة - راوى الحديث - ما تغنى عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة فأعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار. ثلاثاً «رواه الحاكم».

وقد وقع في الديار الشيوعية وأيام سقوط الأندلس أشياء من هذا القبيل والله المستعان.

٢ - العذر بالاجتهاد:

يقول ابن تيمية: أعذار الأئمة في الاجتهاد فليس أحد منهم يخالف حديثاً صح عن النبى ﷺ عمداً فلا بد له من عذر في تركه. مضيفاً: وجميع الأعذار ثلاثة أصناف أحدها: عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ (الفتاوى ٢٠ - ص ٢٣٢).

وعذر المقلد من نوع عذر الجاهل يقول ابن عبد البر: ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها (جامع بيان العلم وفضله).

ويقول ابن تيمية: وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور (الفتاوى ١٩ - ص ٢٦٢).

ويقول ابن القيم: فالعامى لا مذهب له لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال.

٣- العذر باختلاف العلماء:

عدم الإنكار في مسائل الاختلاف ومسائل الاجتهاد، يقول ابن القيم: إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم تنكر على من عمل فيها مجتهداً أو مقلداً. (إعلام الموقعين ٣ - ٣٦٥).

ويقول العز بن عبد السلام: من أتى شيئاً مختلفاً في تحريمه إن اعتقد تحليله لم يجز الإنكار عليه إلا أن يكون مأخذ المحلل ضعيفاً (قواعد الأحكام ١-١٠٩).

قال إمام الحرمين: ثم ليس للمجتهد أن يعترض بالردع والزجر على مجتهد آخر في موقع الخلاف إذ كل مجتهد في الفروع مصيب عندنا ومن قال إن المصيب واحد فهو غير متعين عنده فيمتنع زجر أحد المجتهدين الآخر على المذهبين (الإرشاد ص ٣١٢).

٤- الرفق في التعامل:

والرفق أصل من أصول الدعوة ومبدأ من مبادئ الشريعة ففي حديث الرجل الذى بال في المسجد وزجره أصحاب النبى ﷺ فنهاهم ﷺ قائلاً: لا تزرموه أى لا تقطعوا بوله وأتبعوه ذنوبا من ماء وقال للرجل إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذه القاذورات. (صحيح مسلم)

وحديث خوات بن جبير رضى الله عنه حين رآه مع نسوة فقال: ماذا تبغى هاهنا؟ قال: التمس بعيرا لى شاردا. ثم حسن إسلامه وخلصت توبته فمازحه ﷺ قائلاً: ماذا فعل بعيرك الشارد؟ قال: قيده الإسلام يا رسول الله.

وحديث الأعرابى الذى أعطاه فقال له: أحسنت عليك!! فقال كلاماً غير لائق فهم به الصحابة فنهاهم ﷺ وأدخله في البيت فأعطاه ثم خرج به، وقال: هل أحسنت؟ فقال: أحسنت علي وفعلت وفعلت. فضحك ﷺ وضرب مثلاً بصاحب الراحلة الشاردة.

٥- أن لا يتكلم بغير علم

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(الإسراء: ٣٦)

لا بد من الإحاطة بما في المسألة قبل أن تخالف:

قل للذى يدعى علمًا ومعرفة
علمت شيئًا وغابت عنك أشياء

فالعلم ذو كثرة في الصحف منتشر
وأنت يا خل لم تستكمل الصحفا

٦- أدب مراعاة المصالح الشرعية في الإنكار:

فإذا كان النهي سيؤدى إلى مفسدة أكبر أو سيضيع مصلحة أعظم فلا نهى ولا أمر ويفصل ابن تيمية ذلك في الفتاوى (٢٠ / ٥٨).

ولو كان قوم على بدعة أو فجور ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك ولم يمكن منعهم منه ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينهوا عنه (١٤ / ٤٧٢).

فحيث كانت المفسدة للأمر والنهي أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به وإن كان قد ترك واجبا وفعل محرمًا إذ المؤمن عليه أن يتقى الله في عباد الله وليس عليه هداهم. (الاستقامة ٢ - ٢١١).

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليه آخرون إنكارًا منهيًا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم فيحصل التفرق والاختلاف والشر وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا إذ الإنسان ظلوم جهول (٢٦ / ١٤٢).

ولكن ما هي أسباب هذا الاختلاف؟

إنها أسباب موضوعية ترجع إلى بلوغ الأخبار والآثار إلى العلماء والقواعد التى يلتزم بها العالم في تصحيح وتضعيف الأخبار وبالتالى مسألة اختيار معايير التعامل مع السنة وقرائن نسخ الأخبار وإحكامها.

وإلى اللغة وضوحًا وجلاءً وغموضًا وخفاء، كما هو مفصل في كتب أصول الفقه في أبواب دلالات الألفاظ كعموم النصوص وخصوصها وظهورها وتأويلها ومجملها ومبينها.

كما يرجع الاختلاف إلى الأدلة المتعلقة بمعقول النص ومقاصد الأحكام كأنواع القياس والمصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب وسد الذرائع.

كما يرجع الاختلاف إلى الأعراف المعتبرة وتغير الأحكام بتغير الزمان والمكان والموازنة بين المصالح والمفاسد.

فهذه العناوين الأربعة يرجع إليها اختلاف العلماء.

وفي الختام

فإنه لا بد من إحياء روح التسامح في الأمة فتتجنب التباغض وبث روح الأخوة والمودة بين المسلمين في أنحاء العالم

- ولا بد من تأكيد أدب الاختلاف وتجنب سلبيات الخلاف.

-لا بد من التأكيد على أن للاختلاف أسبابًا موضوعية مشروعة ووجيهة يجب إبرازها واستثمارها لرأب الصدع وإصلاح ذات البين.

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام (٥)

الحرية السياسية



للأستاذ الدكتور/ محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

وهى تعنى حق الإنسان فى ولاية الوظائف الإدارية فى الدولة إذا كان كفئًا لها، وهى تعنى كذلك حقه فى إبداء رأيه فى سير الأمور العامة، وهى بشقيها تعنى أن الحكم وسيلة لخدمة المجتمع، لا وسيلة للسيطرة عليه.. أى أن الحاكم خادم للأمة فى تحقيق مصالحها وآمالها، والإسلام لا يتصور حكمًا.. يسير على منهجه.. يحيد عن هذه الحرية بشقيها قيد أنملة.. ذلك أن الإسلام يعتبر الخلافة الصحيحة ما كانت نتيجة لانتخاب حر وبيعة عامة للأكفأ والأجدر بتولى هذا المنصب الخطير ضرورة أن نبيه العظيم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الأمر شورى بين المسلمين.

بل إن الإسلام قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين فرض على الرئيس أن يستشير المرءوس في مهمات الأمور، قال تعالى مخاطبًا نبيه المعصوم:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وقال تعالى في صفة المؤمنين:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشوري: ٣٨)

ولقد وقف الرسول ﷺ في غزوة أحد يرسي دعائم الحكم الشورى، ويسمع التاريخ قواعد الديمقراطية السليمة من خلال سياسته العملية فيها.

لما علم الرسول ﷺ أن قريشًا قد زحفت بجيوشها من مكة إلى المدينة جمع أصحابه يستشيرهم في الأمر، وبدأ حديثه معهم بقوله: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها» ومع هذا الرأى الصريح الذى أبداه الرسول ﷺ، ومع حرص الصحابة على تنفيذ أوامره.. مع كل هذا ينفسح المجال في الجو الإسلامي الصحيح للتناقش والشورى، وينقسم المجلس إلى فريقين: فريق مع الرسول ﷺ ويمثله معظم المهاجرين وبعض

زعماء الأنصار، وفريق آخر يمثله شباب الأنصار المتحمس وبعض المهاجرين. قال بعضهم: يا رسول الله، إنا كنا نتمنى هذا اليوم، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يروا أنا جبنا وضعفنا.. وقال آخرون: إنا لا نحب يا رسول الله أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه مجرئة لقريش، وهاهم أولاء قد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن حوضنا لم يرع.

وهكذا احتد النقاش وأدلى كل بحجته والجميع لا ينقصه الإخلاص، ولو شئنا أن نقارن بين وجهات النظر لوجدنا الرسول ﷺ على رأى أحكم وأصوب، إذ رأى أن جيش مكة ليس كله من قريش، ولكن من أحلاف مستأجرين كالأحابيش، فلن يلبثوا أن يدب الخلاف بينهم ويعودوا، فإن دخلوا المدينة دافع عنها الرجال والنساء والأطفال، ولكن رسول الله ﷺ لما رأى الأكثرية تؤيد رأى الخروج لم يشأ أن يهدم قاعدة الحكم الشورى لئلا تكون نواة للدكتاتورية الفردية، إذ هو نبراس وقدوة لجند الإسلام إلى أن يأذن الله تعالى للعالم بالفناء.. وصلى الجمعة ودخل منزله ولبس لأمة الحرب.. وبينما هو يتجهز كانت صفوف المسلمين متراصة.. فأحس بعضهم أنهم أساءوا التصرف مع رسول الله ﷺ، وقالوا: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه.. وهنا يقرر الرسول ﷺ مبدأ آخر من مبادىء الشورى: مادام المجلس قد قرر رأياً وانفض فلا يجوز العدول عنه بأية حال حتى لا يؤدى إلى اضطراب الأمر، وفتور العزائم، وضعف الهمم، وبالتالى إلى الفشل.. لذلك يرد الرسول ﷺ عليهم قائلاً: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[1].

ويؤكد التطبيق الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين هذه الحقيقة التى تعتبر الأمة مصدر السلطات، قال (عمر): «لوددت أني وإياكم فى سفينة تذهب بنا شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم، فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه». فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن تعوج عزلوه، فقال (عمر): «لا: القتل أنكل لمن بعده»، وكتب لأبى موسى الأشعرى واليه على الكوفة: «يا أبا موسى، إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً.. إن من ولى أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده».

وقال (أبوبكر) حين ولى الخلافة: «يا أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم».

وقال (عثمان بن عفان): «إنى أتوب وأنزع ولا أعود لشىء عابه المسلمون، فإذا نزلت عن منبرى فليأتنى أشرافكم فليرونى

(١) أخرجه البخارى - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

رأيهم، فوالله إن ردنى الحق عبداً لأذلن ذل العبيد».

الفرق بين الشورى والديمقراطية:

بيد أنه يجب التنبيه إلى أن هناك فرقاً بين النظرة الحديثة للديمقراطية، وبين نظرة الإسلام.. فإنه ليس للشعب فى عرف الإسلام ولو بأكثرية وغالبية أن يلغى حداً من حدود الله تعالى، أو أن يعدل بعض قوانين الإسلام إلا أن يجد له سنداً من النصوص، بحكم أن الدستور الإسلامى ليس من وضع البشر، حتى يعدلوا فيه ما شاءوا، ولكنه من وحى الله تعالى الذى لا تخطئه المصلحة، أى أنه لو تعارضت ظاهرياً مصلحة مع النص فالمقدم النص، والشك فى النظر إلى المصلحة، إذ محال أن يكون فى الإسلام تعارض حقيقى بين المصلحة الحقيقية والنص القطعى، والحق حق ولو خالفه الجميع، والباطل باطل ولو قدسه الجميع، قال تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(الأنعام: ١١٦)

هذا فيما يتعلق بالشطر الأول من هذه الحرية.. والأدلة واضحة فى أن الحاكم خادم للأمة، مختار منها، مؤتمر بأمرها، خاضع لشورتها، وهو أكفؤها، وموضع ثقتها.. أما الشطر الثانى وهو النقد، فإن الإسلام لا يعبر عنه بأنه حرية، ولكنه داخل فى مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما فريضة على المسلمين، بل إن نقد الحاكم الظالم يسمو إلى مرتبة أفضل من الجهاد.

ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم لا يخشون فى الحق لومة لائم.. وما كانوا يخافون من قول الحق جهاراً نهاراً أمام الحاكم مهما كانت قوته وبأسه.

رأى (عمر بن الخطاب) ـ أثناء خلافته ـ رجلاً وامرأة على فاحشة فجمع الناس وقام فيهم خطيباً وقال: «ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلاً وامرأة على فاحشة؟»، فقام (علىّ) فأجابه بقوله: يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين، ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾

(النور: ٤)

فسكت (عمر) ولم يعين شخصى المجرمين.

وقال رجل من المسلمين لـ (عمر): اتق الله! فاستنكر عليه أحد الحاضرين، فغضب (عمر) وقال: «ألا فلتقولوها.. لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذ لم نسمعها».





من مقاصد حرية الاعتقاد في التشريع الإسلامي

٢

أ.د./ وصفي عاشور أبوزيد

سابعًا - إظهار سلم الإسلام وسماحته

تشريعات الإسلام في كل مجال تنبئ عن إنسانية هذا الدين وعن سماحته حتى مع الأعداء:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾

(التوبة: ٦)

ولعل ما سبق بيانه من وصايا الرسول للصحابة قبل الحرب بعدم التعرض لشيخ ولا طفل ولا امرأة ولا عابد في صومعته، وفي علاقة المسلم بزوجته غير المسلمة ما يؤيد ذلك.

إن الإسلام جعل من مقاصد القتال الحفاظ على دور العبادة للآخرين، وإعطاءهم الأمن وتوفير الأمان لهم، وقدم ذلك على المساجد:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾

(الحج: ٤٠)

والإسلام يراعي طبيعة الإنسان، ولا يناقض فطرته بل يؤيدها ويشهد لها ويحفظها ويرشدها، فلا يحمله فوق طاقته، ولا يصادم طبيعته، ويحترم عقله وحريته، بل يدعوه إلى كل ما يحقق كرامته، ويحفظ إنسانيته، وهذه هي قمة الإنسانية في هذا الدين.

حتى المقاصد الشرعية التي استنبطها العلماء عبر الاستقراء للأحكام الشرعية هي مقاصد إنسانية بالدرجة الأولى تشترك فيها كل الديانات، فحفظ العقل والنفس والمال والعرض كلها مقاصد إنسانية وكليات تشريعية قامت من أجلها جميع الديانات.

وكذلك القواعد الفقهية نلمح فيها هذا البعد الإنساني السمح المسالم الذي يحفظ الإنسان، مطلق الإنسان، ويبعد عنه الضرر: "لا ضرر ولا ضرار"، "دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح"، "الضرر يزال"، "المشقة تجلب التيسير"، "يرتكب أخف الضررين، ويجلب أعظم المصلحتين"، "كلما ضاق الأمر اتسع"، كلها قواعد تمثل السماحة والسلم الإسلاميين، وهي قواعد لا يختلف عليها عاقلان من أي دين.

إن الدين الذي يتعايش مع غيره من الديانات، ويسمح بالتعددية الدينية تحت سقف مجتمع واحد، ويفرض لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات كما يفرض على المسلمين تمامًا، ولا يكره أحدًا على الدخول فيه إلا عبر الاقتناع التام والقناعة الكاملة، ويوصي نبيه ﷺ المسلمين جميعًا بالإحسان إلى أهل الكتاب والبر بهم والإقساط إليهم ما داموا مسالمين، وقبل ذلك يوصي به القرآن، وكما شهد له تاريخ الإسلام لهو دين إنساني بالدرجة الأولى، سمح في تشريعاته، سلم في معاملاته.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الأرض لم يعرف لها نظير في القارات الخمس، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ومنح مخالفيه في الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام"[1].

ولا يوجد دين يؤمن - عقيدة وسلوكًا - بالدين الآخر ورسوله سوى الإسلام، ويعتبر المسلمون الإيمان بالرسالات الأخرى ورسلها جزءًا من عقيدتهم لا يتم إيمانهم إلا به، فنحن نؤمن باليهودية والتوراة وموسى، ونؤمن بالنصرانية والإنجيل وعيسى، لكنهم لا يؤمنون بالإسلام ولا القرآن ولا محمد ﷺ.

يقول الغزالي: "إننا إذا وصفنا الإسلام بأنه دعوة إلى الوحدة الدينية العامة ما عدونا الصواب، إنه دعوة إلى الإيمان بالله رب العالمين، وإلى احترام الرسالات التي جاء بها من لدنه جميع الأنبياء والمرسلين، أي أن المسلم مكلف أن يؤمن بموسى مثل إيمانه بمحمد، فإذا كفر بواحد منهما أو تناوله بقول سوء فقد انسلخ عن الإسلام"[2].

ولا يحمل كلام الشيخ هنا على "وحدة الأديان" التي يتنادى بها البعض اليوم، والتي مقتضاها أن نقوم بإلغاء كل الخصوصيات لكل أهل دين، ونبقى على مجموعة من الشعائر والشرائع يؤمن بها الجميع، فهذا مرفوض عقلاً وشرعًا ومنطقًا، ويتناقض قطعًا مع سنن الله الجارية في الخلق والأمر؛ حيث شاء الله تعالى أن يكون الناس مختلفين، وهذا من مقاصد الله في الخلق.

ثامنًا - نفي التقليد في الاختيارات العقدية

وإذا كان التقليد في الأمور الفقهية الفرعية مرفوضًا على الأقل لمن يقدر على النظر، وحق الاجتهاد فيها مكفول بشروطه، فأولى أن يكون التقليد في أمور العقيدة مرفوضًا وباطلاً لكل الناس، مجتهدين وغير مجتهدين، فمن شرط العقيدة الصحيحة أن تكون بعد تفكير كاف واقتناع تام، ولا تكون كمن قالوا:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾

(الزخرف: ٢٢)

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ٧٢، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.

(٢) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ٧٦.

وما كفلته الشريعة الإسلامية من حرية فى اختيار العقيدة لهو مما يعزز إبطال هذا التقليد الذى ينتفى مطلقا بما تفرضه هذه الحرية التى يكفلها الإسلام من تفكر وتدبر بعيداً عن أى ضغط أو إكراه، وبمعزل عن الترغيب أو الترهيب.

يقول الشيخ محمد الغزالى: "إن الجو الذى ينتظر ميلاد الإيمان الصحيح فيه جو الحرية النبيلة والطمأنينة الشاملة، وهو ما ينشده الإسلام للناس كافة، قد يؤمن بعض الناس بالرشوة، وبعض آخر بالسيف، وقد ينتقل الإيمان بطريق التوارث من الأسلاف إلى الأخلاف، لكن المثل الأعلى الذى رسمه القرآن الكريم للإيمان، هو تفكير هادئ واعٍ فى آفاق الأرض والسماء، يعود المرء منه وهو معلق القلب برب الأرض والسماء"[٣].

التقليد فى العقيدة

فالتقليد فى العقيدة له خطره من وجوه:

الأول: أن الإنسان بالتقليد فى معرفة ربه لا يحقق الإيمان مقاصده فى حياته ولا حياة المجتمع.

والثانى: أنه بالتقليد يعطل عقله، وقد أمر الله بحفظه إيجاداً واستمراراً، وجعل من أسباب ذلك التعلم والتدبر والتفكر.

والثالث: أنه من السهل على المبشرين والمنصرين أن يقنعوه بأى كلام، فيتحول عن دينه إلى دين آخر؛ لأنه لم يدخل عن فكر وقناعة، ومن ثم يكون خروجه بلا فكر ولا قناعة غير الشهوات والشبهات.

وحسبنا ما قاله الإمام ابن القيم عن منقصة التقليد وذمه بشكل عام، قال: "وكانوا يسمون المقلد الإمعة ومحقب دينه، كما قال ابن مسعود: الإمعة الذى يحقب دينه الرجال، وكانوا يسمونه الأعمى الذى لا بصيرة له، ويسمون المقلدين أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، كما قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة، وكما سماه الشافعى حاطب ليل، ونهى عن تقليده وتقليد غيره"[٤].

تاسعاً - تعزيز السنن الإلهية

لله تعالى قوانين وسنن جارية ثابتة، فى كونه وفى خلقه، من هذه السنن والقوانين: تدافع البشر، والأخذ بالأسباب، ومداولة الأيام والدول، ومن هذه السنن اختلاف البشر، اختلافهم فى كل شىء، فى اللون واللغة والطباع والعادات والتقاليد والأفهام والتصورات والأخلاق حتى جعل هذه السنة فى الدين والمعتقد:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

(هود: ١١٨-١١٩)

وترك حرية اختيار العقيدة للناس يتوافق مع هذه السنن؛ حيث الناس متفاوتون فى الإدراك وفى العقل، ومن ثم تتعدد

(٣) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: ١٥٨.

(٤) إعلام الموقعين: ٢/ ٢٤٩، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣م.

اختياراتهم وقناعاتهم، وتتنوع انتماءاتهم وعقائدهم، وهذا يتناسب ويتجارى مع مشيئة الله تعالى فى خلقه كما سبق فى الآية الكريمة.

عاشراً - إبطال دعوى الوصاية الدينية ونفى نظرية الحق الإلهى

ففى العصور الوسطى كان البابوات هم ظل الله فى الأرض، ويصادرون الحقوق والحريات، ويسلبون إرادة الناس، كل هذا يتم - كما زعموا - باسم الله وبالتوقيع عنه.

ومن تفصيلات ذلك أنه فى المرحلة السابقة للإسلام - كما يقول الدكتور سفر الحوالى - كان الملوك يستعبدون الناس لأنفسهم زاعمين أن لهم سلالة عرقية خاصة أسمى من العنصر البشرى المشترك، وغلا بعض الطواغيت، فادعى أنه إله أو من نسل الآلهة كما فعل أباطرة الروم، ولم يكن ليدور فى خلد أى منهم أن للأمة عليه واجبات وحقوقاً، وأن الكرسى والمنصب تكليف لا تشريف، بل كانوا يرون أن ما تقدمه لهم الأمم من مراسم الخدمة والولاء والخضوع الذل والتضحية بالنفس والنفيس لأجلهم ليس إلا واجبا مقدسا يقومون به تجاه العرش المحروس!

جاء الإسلام فنسف هذه الفكرة من أساسها، ورد العبودية كلها لله وحده، وفرض على الحكام تبعات ومسئوليات تناسب مركزهم فى الأمة، فرأى الناس فى معظم أنحاء المعمورة الولاة المسلمين يرعون مصالحهم، وينهضون بأعباء المسئولية كاملة فى الوقت الذى لا يتميزون فيه عن الأمة بكبير فرق[٥].

وهذه النظرية ألحقت بالدين ضرراً بالغاً بتمسحها به وانتسابها اللفظى إليه وادعاء أن طواغيتها يستمدون سلطتهم من تفويض الله لهم، إذ نجم عن ذلك رد فعل عنيف ضد الدين من قبل من يسمون دعاة الحرية الذين وجدوا فى هذه الدعوى فرصة لمهاجمة الأديان متذرعين بأنها تبارك الطغيان وتقدس الدكتاتورية.

والحق الذى لا مرية فيه أن الحكام الذين مارسوا الطغيان متسترين بهذه الدعوى هم أبعد ما يكون عن تنفيذ القانون الإلهى أى الحكم بما أنزل الله، فوق أنهم لا يستطيعون إقامة الدليل على أن الله منحهم الحق فى التسلط على الأمم وإذلال الشعوب باسمه[٦].

وتأتى حرية الاعتقاد لتحطم كل هذه الأوهام والأساطير التى ما أنزل الله بها من سلطان، عبر فريضة الجهاد التى ترفع سلطان الله فى الأرض، فيتحرر الإنسان من عبادته لغير الله، وخضوعه لأحد سواه، وفى هذا إبطال كامل لهذه السلاطين، وهؤلاء الآلهة الذين يشرعون للناس ما لم يأذن به الله، وتحرير لإرادة الإنسان وعقله ليكون حراً فى اختيار ما يشاء.

(٥) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة: ٢١٦، دار الهجرة، بدون بيانات.

(٦) السابق: ٢١٨.

حادي عشر - إقامة الحجة على الإنسان

ومن مقاصد حرية الاعتقاد أن تقام الحجة على الإنسان كاملة، فقد أرسل الله له الرسل، وأنزل معهم الكتب، ووهب لهذا الإنسان العقل الذي يقرأ به النص، ثم تركه حراً في اختيار ما يشاء؛ كل ذلك لكيلا يكون للناس على الله حجة.

ولأن الله تعالى لو حاسبه على ما علمه من حاله أزلا لقال ظلمت، فترك الحرية له إقامة للحجة عليه لئلا يعترض هذا الاعتراض:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

(فاطر: ٤٢)

وإلا كان في مقدور الله تعالى أن يحمل الناس على الإيمان حملا بعيدا عن هذه الأسباب، وقد منحه نعمة العقل الذي يقرأ به النص الصحيح، قال تعالى:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾

(الشعراء: ٤)

وكذلك حتى لا يعترض بأنه أكره على اعتناق أي معتقد بفعل الله تعالى، لكن جعله حراً مختاراً غير مقيد بأي قيد حتى يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن اختياره، محاسباً به أمام الله تعالى، وهذا المقصد له ارتباط واضح بالمقصد الثاني: تأكيد معنى الضمير الفردي والمسئولية الفردية؛ فإقامة الحجة كاملة على الإنسان تقتضيها الحرية في اختيار المعتقد، ومن ثم تؤكد المسئولية الفردية للفرد عما يختاره.

ثاني عشر: التأكيد على نورانية معالم الحق ووضوح أمارات الهدى:

فمعالم الحق واضحة، وأمارات الهدى ظاهرة بحيث يصل إليها كل حر، ويدركها كل سليم الفكر، متى كان نظره وتفكيره حراً طليقاً بعيداً عن القيود وفي حل من الإكراه، ذلك أنه كلما وجدت تضييقاً أو تقييداً تستطيع أن تحكم بضعف بضاعة من يفرضه، أما البضاعة القوية فهي ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى توضيح ولا إلى إظهار لأنها تستمد قوتها من وضوحها وظهورها وسلامتها، وبناء عليه فإن العاقل لا يحتاج إلى كثير عناء للوصول إليها.

روى ابن عبد البر بسنده عن ابن شهاب أن معاذ بن جبل كان يقول في مجلسه كل يوم قل ما يخطئه أن يقول ذلك: الله حكم قسط، هلك المرتابون، إن وراءكم فتنا يكثر المال ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق والمرأة والصبي والأسود والأحمر؛ فيوشك أحدهم أن يقول قد قرأت القرآن فما أظن أن تتبعوني حتى ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به فإن على الحق نورا، قالوا وكيف زيغة الحكيم؟ قال هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذه، فاحذروا زيغته، ولا يصدنكم عنه، فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق، وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة فمن ابتغاهما وجدهما"[٢].

وإطلاق حرية الاعتقاد من شأنه أن يؤكد على هذه الحقيقة، وهي أن الفكرة الإسلامية فكرة قوية ظاهرة واضحة يهتدي إليها كل من أعمل فكره الذي منحه الله إياه وميزه به على سائر الخلق.

ومن الطريف هنا أن الله تعالى بعدما ذكر حرية العقيدة.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

قال بعدها مباشرة:

﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

فالراشد لن يرتضي سوى الرشد، ولا يرتكب خطيئة ما كان عاقلاً متوازناً حراً طليقاً بعيداً عن الإغراءات والإغواءات، ومطلقاً من سلطة الترغيب والترهيب.

كلمة أخيرة

هذه بعض مقاصد حرية الاعتقاد في الإسلام، وليست كلها قطعا، ومع التأمل والتدبر وطول النظر وإمعان الفكر لا سيما في التدابير الشرعية التي شرعها الإسلام قرآنا وسنة، يمكننا أن نستنبط مقاصد أخرى تضاف إلى المقاصد السابقة.

وإذا كانت هذه المقاصد مستنبطة من أحكام الإسلام وشرائعه في مجال الحرية الدينية، فإنها مقاصد إنسانية عامة تبرز عظمة الإسلام وإنسانيته، وسلمه وسماحته، ومدى تقديره للإنسان مطلق الإنسان، وما أحوجنا إلى إبراز جانب الإنسانية في الإسلام في هذا العصر الذي بات فيه الإسلام متهما بالإرهاب والعدوانية.

وأود أن أؤكد في النهاية ما قلته في المقدمة، وهو أننا لا يجوز بحال من الأحوال أن نتبع كل ناعق، ونسير خلف كل زاعق مهما كان مصدره، بل الواجب علينا أن ننطلق من أصولنا إلى غيرنا في غير ذوبان، ونحافظ على هويتنا وأصالتنا في غير انغلاق، مستفيدين من كل قديم نافع، ومرحبين بكل جديد صالح، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

***

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١١١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

الأخلاق والعقل



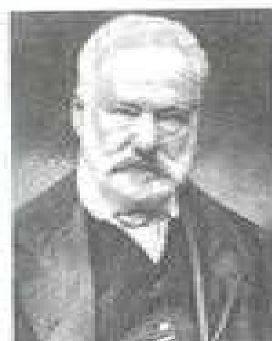
للفيلسوف المسلم علي عزت بيجوفيتش

مفهوم الحرية الإنسانية لا ينفصل عن فكرة الأخلاق. فبالرغم مما خضعت له هذه الفكرة من تحورات، ظلت الحرية هي «الثابت» عند كل تحول أو تطور خلال تاريخ علم الأخلاق. فمثل ما للمكان والكمّ من أهمية في علم الطبيعة، كانت أهمية الحرية بالنسبة لعلم الأخلاق[1]. يدرك العقل المكان والكمّ ولكنه لا يفهم الحرية. وهذا هو الخط الفارق بين العقل والأخلاق.

وظيفة العقل أن يكتشف الطبيعة والآلية، وعلم التفاضل والتكامل. بمعنى آخر إن العقل يكتشف نفسه في كل شئ. ولهذا السبب، فإن العقل يدور دائما في مكانه. فهو لا يكتشف في الطبيعة إلا ذاته.. أعني الآلية. ومن هنا، يأتي التناقض البيّن في بعض النظريات الأخلاقية التي تُنهي جدلها المنطقي المعقد بنتائج، مثل أن الغيريةَ تساوي الأنانية، وإنكار اللذة يساوي اللذة وهذا هو التناقض نفسه الذي جعل «فولتير» يستخلص رأيه الغامض الشهير «تضحية الإنسان بنفسه بوازع من مصلحته الذاتية»[2].

إن التحليل (المنطقي) العقلي للأخلاق يختزلها - ربما لدهشة الملاحظ - إلى طبيعة وأنانية وتضخيم للذات. يكتشف العقل في الطبيعة مبدأ السببية العامة الكلّية القدرة. ويكتشف في الإنسان الطبيعة: الغرائز أو (القوة ذات السيدين: اللذة والألم) التي تؤكد عبودية الإنسان وانعدام حريته. إنها آلية التفكير نفسها التي حولت الألوهية إلى «السبب الأول» (المحرك الذي لا يتحرك)، واختزلت الروح إلى نفس، والفن إلى عمل وتكنيك. إن محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلي لا تستطيع أن تتحرك أبعد مما يسمى بالأخلاق الاجتماعية، أو قواعد السلوك اللازمة للمحافظة على جماعة معينة، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي.

إن الأخلاق - بسبب ذلك - لا يمكن القول بأنها نتاج العقل. فالعقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء ويحددها، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكما قيميًا عندما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقي. مثلاً، يفهم كل إنسان أن المبدأ الذي يسعى إلى صب أرواح الناس في قوالب متماثلة، لا ينبغي السماح به. ولكن هذا المبدأ نفسه لا يمكن تبريره أو البرهنة عليه عقليًا. فمن المستحيل التبرير العلمي بأن شيئاً ليس خيّراً بالمعنى الأخلاقي للكلمة، مثلما أنه من المستحيل أن تصل إلى تفرقة علمية دقيقة بين الفن و«الكيتش» (أي الأعمال الهابطة المنسوبة إلى الفن)، أو بين الجميل والقبيح. الطبيعة والعقل على السواء لا يمكنهما التمييز بين الصح والخطأ، بين الخير والشر. فهذه الصفات ليست موجودة في الطبيعة. فماذا يعني الإنسان - كشخصية متفردة لا تتكرر - بالنسبة للعلم؟ لا بد أن يكون العالم شيئا أكثر من علمه، أن يكون إنسانا لكي يفهم هذه الحقيقة. إن المثل السائر الذي يقول بأن الإنسان الخيّر سعيد دائما، وأن الإنسان الشرير تعيس، لا يمكن فهمه بطريقة عقلية. وتستعصي الأخلاق المسيحية على التعلم بمصطلحات علمية؛ لأن جميع دعواها الأخلاقية متجسّدة في شخصية مثالية، وهي شخصية المسيح. كذلك، فإن المبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية (الحرية والإخاء والمساواة) لا يمكن استنباطها علميًا، ولا يمكن الوصول إليها بطريقة علمية. إنما الأرجح أن يقرر العلم ثلاثة مبادئ مضادة، هي: عدم المساواة، والنظام الاجتماعي المطلق، وتغريب الوحدات الإنسانية في مجتمع كامل التنظيم.



فيكتور هيوجو

هل كان يستطيع «جان فالجان»[3] أن يلجأ للعلم كي يحل له المشكلة الأخلاقية التي اعترضته؟ هل كان عليه أن يضحّي بمصلحة عدد كبير من الناس في سبيل إنقاذ إنسان برئ بسيط؟ أي إجابة كان العلم سيتخذها؟ ألم يكن العلم ينحاز إلى ما يسمّى بالمصلحة المشتركة؟ إن المشكلة المطروحة ليست من اختصاص العلم، وما كانت إجابة العلم - لو أنها ممكنة - لتعكس رغبة أي إنسان. وما وصفه «فكتور هيجو» بطريقة مثيرة في «عاصفة في جمجمة»[4] (La Tempete dans un crane) ليس صراعًا في عقل إنسان، وإنما هو صراع بين العقل والروح، صدام مدمّر من الحجج ينتمي إلى جانبين متعارضين في الشخصية الإنسانية، إنه حوار بين العقل والضمير في أساسه. حوار يتناوب فيه نوعان مختلفان من الجدل. ولذلك، لا يمكن مقارنتهما لأنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين، عالم الأرض وعالم السماء. ولا يستطيع إلا الإنسان وحده أن يقوم بالاختيار لنفسه وفي نفسه وهو يواجه هذه المعضلة. والقرار الذي اتخذه «جان فالجان»، كان هزيمة للعقل وانتصاراً للإنسان، وهو انتصار لا يمكن تفسيره أو تبريره عقليًا. ولكنه قرار

(١) جوهر الروح هي الحرية وجوهر المادة هو الكمّ. انظر: هيجل Sämtliche Werke.. (Stuttgart: F. Frommann, 1961)

(٢) انظر: «فرانسوا ماري أروي دي فولتير» Francois Marie Arouet de Voltaire: Oeuvres Completes de Voltaire, Vols 17-20: Dictionnaire philosophique (Paris: Garnier freres 1885)

(٣) انظر: «فكتور هيجو» Victor Hugo: Les miserables (Paris: Garnier - Flammarion, 1972)

(٤) انظر: الكتاب السابع من رواية «فكتور هيجو» (المصدر السابق) مجلد رقم ١، صفحات ٢٤٧ - ٢٦٤.

يسانده جميع الناس ويستحسنونه بالإجماع صامتين.

إننا جميعًا قد يكون لدينا شعور داخلي مؤكد بحريتنا، فهل نستطيع أن نفسّر أو نبرهن بطريقة علمية على هذا الشعور المؤكد، وإن كان غامضًا يصعب تحديده. جميعنا يوافق على أنه ليس من الصواب معاقبة الشخص الذى تسبّب صدقة في جريمة. ومع ذلك، فهذا الموقف المنطقى الواضح لا يمكن تبريره علميًا، فما يقبله القلب لا يستطيع العلم أن يبرهن عليه أو يفسّره؛ فهل تستنتج القيام بواجبنا الأخلاقى؛ لأن العقل لا يستطيع أن يبرر أو يساند هذا الصوت الجوّانى؟ إننا لا نفعل هذا، وإذن فنحن نحتفظ بموقف دون أن نعلم لماذا نحتفظ به رغم أنه ضد عقلنا، والسبب هو ثقة نابعة من داخلنا، بسبب إيماننا.

فما علاقة العقل بالقرارات الأخلاقية؟ يجيب «هيوم» على هذا السؤال بوضوح ودقة، فيقول: «الجريمة بالنسبة لعقولنا ليست أكثر من عدد من الدوافع والأفكار أو الأفعال منسوبة إلى شخص معيّن وموقف معيّن. ويمكننا أن نبحث هذه العلاقة ونفسّر أصل هذا الفعل وطريقة أدائه. فقط، في اللحظة التى ندع لعواطفنا تتحدث يظهر الاستهجان، وإذا بنا نصف العمل بأنه شر أخلاقى». ويمضى هيوم قائلاً: «كل ما فى قدرة عقلنا أن نستعرض العلاقات بين الأشياء. أما في الحكم القيمى، فتنبثق لحظة جديدة تمامًا، وهى لحظة لا تتوافر فى الأحكام الحقائقية. ولا يمكن تفسيرها إلا بواسطة القوة المؤثرة لمشاعرنا»[٥].

قال «فرانسيس هتشسون» فى كتابه «نظام الفلسفة الأخلاقية»: «كما أن القيمة العليا في المتعة الفنية والعلمية واضحة كل الوضوح بمقارنتها بمتعة الطعام، فكذلك الأمر بالنسبة للاختلاف بين «الخير» وغيره من المفاهيم الأخرى..»[٦] ويفهم من كلام «هتشسون» أن القدرة على التعرف على القيم الخلقية لا يعتمد على الذكاء أو التعليم، فالأحكام الخلقية لا تأتى عن طريق العقل، وإنما هى أحكام داخلية مباشرة.

التّعارض بين العلم والأخلاق ينعكس فى الحياة اليومية، فالعلم - مثلاً - يقبل الإخصاب الصناعى لأطفال الأنابيب، هذه الأمور لم يكن فى الإمكان تخيّلها بدون العلم، فهى من نتاجه. ومن ناحية أخرى، نجد أن كل أخلاقىّ - بصرف النظر عن موقفه الأسمى من الدين - يرفض هذه الأمور باعتبارها مناقضة للمبدأ الذى تقوم عليه الحياة الإنسانية. فى هذا الصدد، تشترك الأخلاق والدين والفن جميعًا فى الفكرة نفسها، وإن كان كلّ منها يفسّر الأمر بطريقته المختلفة. فالدين لا يمكن أن يقبل الحياة الصناعية أو القتل، لأن الحياة والموت ملك لله لا للإنسان. ومن وجهة النظر الأخلاقية، يعتبر الإخصاب الصناعى و«القتل الرحيم» جريمة ضد الإنسانية، لأن فيهما حطًا بالإنسان إلى مستوى الأشياء؛ وهذا يؤدى إلى التلاعب بالإنسان والإساءة إليه. وبالنسبة للفنان: الحياة والموت أسرار يجب أن تبقى على حالها. إن أشهر ثلاثة أحاديث «لهاملت» مكرّسة للموت. ولكن العلم يعتبر الموت شيئًا عاديًا.. حدثًا بيولوجيًا فى عالم المادة. إن الهوّة كاملة والمقارنة مستحيلة.

التجارب التى تجرى على الإنسان، والإخصاب الصناعى، جميعها أمور عقلانية ومنطقية تمامًا، ولا توجد حجج علمية أو عقلانية ضدها. فكيف يستطيع العلم أن يمنع سوء تطبيقها؟ إنه لا يستطيع. ولقد أرادت الأكاديمية الفرنسية للعلوم الأخلاقية والسياسية أن تعلن موقفها ضد الإخصاب الصناعى، فجاءت بحجج لا علمية حيث قالت: «.. إن الإخصاب الصناعى جريمة ضد قاعدة الزواج والأسرة والمجتمع». وعبّر «كينو» عن فكرة مماثلة فقال: «إن الشعور باحترام الحياة والأمومة ليس بينه وبين المنطق شيء مشترك.. وأنا أعتقد أن مسألة القتل الرحيم التى تفرض نفسها في بعض الأحوال، لا يمكن السماح بها قانونيا أبدًا»[٧].

إن القتل الرحيم، والإخصاب الصناعى، والإعقام، واستزراع الأعضاء، والإجهاض وغيرها، إنّما هى مجالات للعلم من الناحية التقنية فقط. أما تطبيقاتها، فقضية أخلاقية. وليس للعلم أن يتخذ قرارًا في هذا المجال. «إن أى خطة لمعاملة الإنسان معاملة القطيع تبدو مثيرة للاشمئزاز، وفى الوقت نفسه تجرح فينا مشاعر الكرامة الشخصية»[٨] ولا ننسى أن الإخصاب الصناعى تسلل إلينا من الطب البيطرى. وتبقى القضية قائمة فى الصراع بين الإنسانية والبيولوجيا، أو بين الفردية والمادية. إنها المعضلة نفسها التى واجهها الإنسان منذ البداية: المصلحة أم الواجب الروحى؟ تمنح البيولوجيا للإنسان التقدم على حساب روحه ونبله الإنسانى. «ويرفض الإنسان التقدم المتاح إذا كان عليه أن يحصل عليه بوسائل تحط من إنسانيته. ولكن هل سيرفضه غدًا.. وهل سيرفضه دائمًا؟»[٩].

إنه لمن الطبيعى أن يتخذ المسيحيون والشعراء والفنانون الموقف نفسه تجاه هذا النوع من التقدم، فهو، فى نظر المسيحيين «المذهب الشيطانى الطبيعى»، وعند الشعراء «رُكام من القسوة المبرمجة»[١٠] ومن الطبيعى أيضًا أن يبتهج الماديون بالتقدمات الواعدة التى تتيحها التطورات الحديثة فى علم البيولوجيا.

إن التقدم العلمى مهما كان واضحًا بارزًا، لا يمكنه أن يجعل الأخلاق والدين غير ضروريّين. فالعلم لا يعلّم الناس كيف يحيون، ولا من شأنه أن يقدّم لنا معايير قيميّة. ذلك لأن القيم التى تسمو بالحياة الحيوانية إلى مستوى الحياة الإنسانية تبقى مجهولة وغير مفهومة بدون الدين. فالدين مدخل إلى عالم آخر متفوّق على هذا العالم، والأخلاق هى معناه.

(٥) انظر: «دافيد هيوم» David Hume: Treatise on Human Nature

(٦) انظر: «فرانسيس هتشسون» Francis Hutcheson: A System of Moral Philosophy (New York: A. M. Kelley, 1968), vol. 1, part VI.

(٧) انظر: «لوسيان كينو» Lucien Cuenot: (L'Euge'nique) Revue d'Anthropologue: 1935-36

(٨) انظر: «جان روستاند» jean Rostand: Humanly Possible: A Biologist's Notes on the Future of Mankind, trans. Lowell Boir (New York: Saturday Review Press, 1973

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) انظر: «ريمى كولين» Re'my Collin: Plaidoyers pour al vie humaine (n.p.n.d) and Voznesensky و«فوزنيسنسكى» فى قصيدته «أوزا».

المقصد التربوى للزكاة فى الجانب الجسدى للفرد المسلم

للأستاذ الدكتور: صلاح سلطان

قد تؤدى النظرة العابرة إلى أحكام الزكاة إلى اعتبارها عبادة روحية اجتماعية فقط لكن عند التأمل نجد جوانب كثيرة يراعى فيها الجانب الجسدى فى تشريع الزكاة منها ما يلى:

أولاً: من المعروف فقهيًا أن لكل مال تجب فيه الزكاة نصابًا وذلك للحديث الذى رواه أبو داود بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «ليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون أوسق صدقة»[1]، هذا النصاب يوفر الحد المعقول من المعيشة التى ذكرها الله تعالى فى قوله:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

(طه: ١١٨، ١١٩)

هذه الثوابت التى يجب أن تتوفر لكل إنسان فلا تجوع بطنه ولا يتعرى جسمه، ولا تظمأ شفته، ولا ينام أو يعيش فى العراء بل لابد من مسكن يقيه من المطر، ويظله من الحر، وهذه كلها مطالب جسدية أوجب الإسلام توفيرها لكل إنسان، ولا يلزم بإخراج الزكاة إلا إذا وجد النصاب مع حولان الحول عليه خاصة فى الأموال السائلة ليدل على امتلاكه كل ما يحتاج إليه هذا البدن من طعام وشراب وكساء ومسكن، وهو الحد الذى لا يجوز أن يعيش إنسان دونه.

النصاب إذن عبارة عن تكريم للجسد، ولا يجوز إهمال مطالبه أو التوانى عن تلبيتها، ولقد كانت وستظل الشريعة الإسلامية ذات تفرد وتميز فى هذه الكفالة الواجبة للمطالب التى تكرم الإنسان فى جسده ونفسه ومكانته، فيلبس لبس مثله، ويسكن فى مسكن يوازى أمثاله، فإن فاض عنه ما يبلغ نصابًا أخرج الزكاة وإلا لم يجب عليه شىء.

وعندما حاولت الأنظمة الوضعية وضع حل لهذا الأمر وضعت حدًا للإعفاء لكل مواطن فيكون الإعفاء للعازب مثلاً مائة جنيه، وللمتزوج مائة وعشرين ولمن يعول مائة وأربعين[2]، هذا عندما يطبق على الناس كافة انطوى على ظلم فادح لأن العازب المريض قد يحتاج إلى مؤن وعلاج لا تكفيه الألف، وقد ينفق نصفه المتزوج العائل، فتحديدها بحد أدنى للإعفاء فيه افتراض تساوى جميع الخلق فى ظروفهم وإنفاقهم، أما الإسلام فقد خرج بالناس من هذا المأزق حيث أرشد الإنسان إلى الإنفاق المعتدل قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

(الفرقان: ٦٧)

ثم ما فاض عنه من نصاب حال عليه الحول يخرج عنه زكاة فى نسبة محدودة لتبقى كل مطالب الإنسان فى الإمكان تلبيتها مادامت حلالاً.

ثانيًا: أما الفقير الذى لا تتوافر له مقومات الحياة الضرورية الحاجية والتى تليق بمثله فتجب كفالته حتى قال ابن رجب: المسكن والخادم والمركب المحتاج إليه ليس بمال فاضل يمنعه أخذ الزكوات، ولا يجب فيه الحج والكفارات، ولا يوفيه منه الديون والنفقات..

وقد ذكر عدد من الفقهاء والعلماء من له دار واسعة وأثاث وفرش وخادم وملابس سرية ومحتاج للزكاة لاتباع هذه الأشياء ويأخذ من الزكاة[3].

هذه أظهر الأدلة على مراعاة حاجات الجسد كلها، دون تقصير فى شىء منها، بل إن الحديث أخرج الإنسان عن آداب الإسلام كلها فيما روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما آمن بى من بات شبعانًا، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»[4].

هذه النصوص تضمن لكل جسد عار كساء، ولكل بطن خار غذاء، ولكل ظمآن سقاء، ولكل ذاج إيواء فى مسكن يناسب وضعه الاجتماعى والأدبى فإذا افتقر القاضى يسكن فى مسكن يكافئ نظراءه من بيت مال الزكاة ولا يلزم أن يسكن مسكن الفقراء، ولا أن يركب مركبهم، هذه الأحكام تراعى الحاجات الجسدية والنفسية فى آن واحد.

ثالثًا: هذا الوجوب الشرعى لسد كل حاجات الجسد والنفس لا يقتصر على أموال الزكاة بل يجاوزها إلى جواز فرض الوظائف المالية على الأغنياء إذا قصروا فى كفالة الفقراء يقول ابن حزم: وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك،

(١) «أبو داود» كتاب الزكاة، باب ما تجب فيه الزكاة رقم «١٥٥٨»، وصححه السيوطى فى «الجامع الصغير». راجع «فيض القدير» للمناوى رقم «٧٦٤٥».

(٢) راجع دراسة تفصيلية فى ذلك فى: سلطة ولى الأمر فى فرض وظائف مالية، صلاح سلطان ص «٤٣٠ ـ ٤٤٤».

(٣) «المغنى» لابن قدامة «١١٧/٤ ـ ١٢٣»، «أحكام القرآن» للجصاص الحنفى «٤٦١/١٠»، «ونيل الأوطار» للشوكانى «٢٢٣/٤ ـ ٢٢٨»، «شرح كتاب النيل» لأطفيش «٢٢٦/٣»، «والنفقات العامة فى الإسلام» د. يوسف إبراهيم يوسف ص «٢٢٧ ـ ٢٢٩»، «وفقه الزكاة» للقرضاوى «٦٦١/٢ ـ ٦٦٣».

(٤) «فيض القدير» للمناوى «٤٠٧/٥»، الحديث رقم «٧٧٧٦»، وقال عنه المنذر فى الحديث حسن. وقال الهيثمى: إسناد البزار حسن.

ويمكن يكتنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة(٥).

الواضح أن عبارة ابن حزم وغيرها الكثير تؤكد على مطالب الجسد التي لا صبر للإنسان على فقدها، إذا قابلت هذا بما آل إليه الوضع في القرن العشرين فستجد أن ثلث العالم لايزال يعاني نقصا مزمنا في التغذية فهل يرجع هذا إلى نقص في الغذاء أم إلى نقص في الشعور؟ كما يقول الرئيس علي عزت بيجوفيتش(٦)؟ وقد نشرت سلسلة الأمة كتابا بعنوان «الحرمان والتخلف في ديار المسلمين»، وذكر فيه أن هناك ثلاثة عشر مليون مسلم يموتون كل عام بسبب الجوع والفقر، ونشرات الأخبار تطالعنا بمآسي المرضى والزمنى والأطفال والشيوخ والنساء والأرامل والجرحى من المسلمين في بنجلاديش والبوسنة وكشمير والصومال، وفي كثير من دولنا العربية فقراء يعضهم الجوع وتنهكهم الأمراض ولا يجدون الكفاف، فأي عذاب للجسد، وغياب للضمير الإنساني، وجفاف في المشاعر الإنسانية أدى إلى هذا؟ إنه الضياع، فلا الغني بعد ذلك آمن على نفسه من سطو الفقير، ولا الفقير يأمن على لقمته من التهام الغني لها واستحواذه عليها، هناك حرب باردة تسخن درجتها في كل الجرائم اليومية، وقد نشر في عدد ٤ من سبتمبر ١٩٦٩ من جريدة «الجمهورية» المصرية أن مكتب التحقيقات الفيدرالي بأمريكا أفاد بأن عدد الجرائم الخطيرة أربعة ملايين ونصف مليون جريمة كل عام وتقع في كل دقيقتين جريمة سرقة بإكراه، وسرقة سيارة كل ٤١ ثانية وسرقة منزل كل سبع عشرة ثانية(٧).

أليست هذه السرقات أكبر خطراً على الأجساد عندما يصاحبها إكراه على السرقة؟.. وإذا لم يحدث إكراه أليست اعتداء على حقوق الأمن والملكية والنفس في نفس الوقت؟.. إن الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يحل هذه المعضلات.

فاحترام الإنسان من ثوابت الإسلام لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

«الإسراء: ٧٠».

مهما اختلفت أديانهم، وإطعام الطعام للفقير ذي المسغبة أو اليتيم ذي المقربة، أو ابن السبيل الحائر كل ذلك يمثل للإنسان حدا طيبا من المعيشة التي لا تعرف العنت لهذا الجسد، واستقر في العرف الفقهي الإجماع على وجوب بذل الطعام للمحتاج إليه والكساء والسكن لمن اشتدت حاجته إذا فاض عن حاجة المنفق وإذا تركه فمات ألزم دفع ديته(٨).

رابعا: إذا كانت الزكاة تلبي كل مطالب

(٥) «المحلى» لابن حزم ٦/١٥٦، المسألة ٧٢٥»، وراجع في الموضوع كله كتاب: سلطة ولي الأمر في فرض وظائف مالية، صلاح الدين سلطان.

(٦) «الإسلام بين الشرق والغرب» ص ٢٩٦».

(٧) «مقومات الاقتصاد الإسلامي» عبدالسميع المصري، ٢٣٠».

(٨) راجع هذا الإجماع في: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٢٥/١)، و«الموافقات» للشاطبي ٦/٩٧، ٩٨»، و«المنتقى» للباجي ٦/٣٩»، و«المبسوط» للسرخسي ٢٤/٢٩»، و«الأشباه والنظائر» لابن نجيم ٨٥ - ٩١»، «المجموع» للنووي ٦/٣٢ - ٣٥»، «الطرق الحكمية» لابن قيم الجوزية ص ٢٤»، «إعلام الموقعين» لابن القيم ٣/١٠»، «شرح الأزهار» لابن المرتضى ٢/٥٤٤»، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية ٢٨/٢٩».

المسلم الجسدية والنفسية فإن التشريعات المالية الأخرى قد أخذت روح الزكاة في كفالة الإنسان حتى لو لم يكن مسلما، وسد حاجته الجسدية والنفسية، ولقد أسف عمر عندما وجد شيخا يهوديا يتسول فأعطاه من سهم المصالح ما يسد حاجته، ولما بعث عبدالملك بن مروان عامله الضحاك بن عبدالرحمن الأشعري إلى أهل فارس ليقرر عليهم مقدار الجزية والخراج، حسب ما يكسبه العامل في السنة، وطرح النفقات كلها من طعام وشراب وإدام وكسوة وسكن، بل حسب الحذاء ثم وضع الجزية والخراج على ما كسبه بعد ذلك، وحذر سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عامله عثمان بن حنيف، وحذيفة بن اليمان أن يحملا أهل الخراج غير المسلمين تكاليف مالية في الخراج والجزية فوق ما يطيقون، ولما سألهم قال عثمان بن حنيف: وضعت عليهم شيئا ما فيه كثير فضل، وقال أبو عبيد: وهذا عندنا مذهب الجزية والخراج، إنما هما على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ولا إضرار بفيء المسلمين(٩).

خامسا: لقد زاد الإسلام الإنسان في العطاء في الأعياد فالنفس البشرية تتطلع إلى أن تعيش أفراح العيد في سعة من العيش، فلا يخرج الميسورون وأولادهم في رغد من العيش، ويعيش الفقير طاويا أو يأكل طعاما عاديا، بل سن الإسلام قبل عيد الفطر فريضة من الزكاة هي صدقة الفطر وذلك لإغناء الفقراء من السؤال في هذا اليوم، ويظهر هدفها حديث أبي داود والحاكم بسندهما أن النبي ﷺ فرض زكاة الفطر طهرة للصيام من اللغو والرفث وطعمة للمساكين(١٠).

وتعدى هذا الحس المرهف فقراء المسلمين إلى فقراء أهل الذمة فروى أبو يوسف أن الضحاك بن عبدالرحمن الأشعري لما وضع الجزية على أهل فارس وقدر خراجها خصم مصاريف أعيادهم من جملة مكاسبهم ضمن النفقات العادية لكل فرد(١١).

نستطيع أن نقول: إن توافر الأموال بيد الفقير هو أكبر ضمان أن يتغذى الفقير غذاء متنوعا يحفظ جسده من الاعتلال. فالجسم يحتاج إلى النشويات والبروتينات والأملاح والسكريات وغيرها، وهذه تحتاج إلى غذاء متنوع، والأنيميا التي تصيب الجسد تأتي غالبا من الطعام الذي لا يسد حاجات الجسد كله، والملابس تحفظ الإنسان من ضربات الشمس والأمراض الجلدية التي يتعرض فيها الجلد لحرارة الشمس، أما البرد فهو كاف لإنهاك الجسد، والإصابة بالنزلات المعوية، والأنفلونزا، والتهاب الشعب الهوائية، والنوم في العراء يعرض الإنسان لدواب الأرض، وهوام الطرق، وهذه قد تنهش جسده، ويتسمم دمه، وتوفير سكن صالح هو العاصم من هذه الهوالك.

(٩) «الخراج» لأبي يوسف ص ٤١»، «الأموال» لأبي عبيد الفقرة ١٠٦».

(١٠) «سنن أبي داود»، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم ١٤٢٠»، و«المستدرك على الصحيحين» للحاكم النيسابوري، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر طهرة للصيام ص ١/٤٠٩»، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(١١) «الخراج» لأبي يوسف ص ٤١».

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

منهاج القرآن الكريم فى دعوة اليهود إلى الإسلام ومظاهر إنصافه لهم

٣

الإمام الراحل الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

ثانيا: «إرشادهم إلى أن ما دعاهم إليه محمد ﷺ يوافق ما دعا إليه الأنبياء السابقون»:

هذه وسيلة أخرى اتبعها القرآن الكريم فى دعوة أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، وتتلخص هذه الوسيلة فى أن القرآن الكريم ذكر لهم أن دين الإسلام، الذى دعاهم إلى الدخول فيه محمد ﷺ هو فى أصوله ومقاصده ولبه وجوهره يوافق ما دعا إليه جميع الأنبياء السابقين، وقد وردت آيات كثيرة من القرآن الكريم، فى هذا المعنى منها قوله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى: ١٣)

والمعنى: أن الله - تعالى - شرع لكم - يا معشر المسلمين - من الدين ما شرعه لنوح ومن بعده من الأنبياء إلى زمن محمد ﷺ.

وتخصيص نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بالذكر، لعلو شأنهم، وعظيم شهرتهم، فهم ومعهم النبى ﷺ أولو العزم من الرسل، وإلا فكل نبى جاء بمثل ما جاء به هؤلاء الأنبياء، من الدعوة إلى توحيد الله، والإيمان بكتبه، ورسله، واليوم الآخر قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

ثم بين - سبحانه - ما أمرهم به جميعا فقال تعالى:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

أى: اجعلوا هذا الدين، وهو دين التوحيد، وإخلاص العبودية لله، قائما دائما مستمرا، واحفظوه من التغيير والتبديل، واحذروا أن يقع فيه ما لم يأذن به الله، ولا تتفرقوا فيه بأن تأخذوا ببعض أصوله، وتتركوا البعض الآخر.

والنهى عن التفرق إنما هو فى أصول الدين وأسسه، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، أما ما عدا ذلك من الفروع والتفاصيل، فيجوز أن تختلف فيها شريعة عن الأخرى كما قال تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من دين التوحيد، فقال تعالى:

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾

أى: شق وعظم على المشركين ما تدعوهم إليه، من توحيد الله، وترك عبادة سواه، لأنهم توارثوا ما هم عليه من شرك كابرا عن كابر، وهم كانوا عندما يدعون إلى الدين الحق يقولون - كما حكى القرآن عنهم:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣)

ثم بين - سبحانه - من هو أهل لرضاه وهدايته، فقال تعالى:

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

أى: الله - تعالى - يصطفى من يشاء من عباده، ويقربهم إلى محل كرامته، ويوفق للعمل بطاعته من ينيب إليه، ويتوب من ذنبه توبة صادقة نصوحا.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وضحت أن رسالة الأنبياء جميعا واحدة فى أصولها وجوهرها، ولبها ومقاصدها.

وقد ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - اللذين يدعى اليهود اتباعهما - قد وصيا بنيهما باتباع ملة الإسلام، وذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾

معناه: لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها، وظلمها بسوء رأيه، حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة ثم بين الله - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

أى: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد فى سفهه، وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التى رفعته إلى المنازل العليا، فقال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

أى: اصطفى الله - تعالى - إبراهيم لأنه أمره بطاعته، وإسلام وجهه إليه فى كل حال

فبادر إلى الامتثال وقال:

﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

أي: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعا، كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الأنعام: ٧٩)

وبعد أن بين الله ـ تعالى ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان كاملا في نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان ـ أيضا ـ يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى فقال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

الضمير في ﴿ بِهَا ﴾ يعود إلى الملة التي ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته، ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال كل منهما لأبنائه: يا بني أن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينا سواه.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي: فاثبتوا على الإسلام واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت، وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف.

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب، وزعمهم أنه كان على اليهودية، التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام، فقال تعالى:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾

روى أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة[1].

والمعنى: ما كنتم ـ يا معشر اليهود ـ حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾

فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب ـ عليه السلام ـ من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكي يسعدوا في دنياهم وأخراهم وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا:

﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهي ملة لا تثليث فيها، ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هي إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبودية، والاستسلام له بالخضوع والانقياد.

ثم حذر الله ـ تعالى ـ أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه، أي: أن

(١) أسباب النزول للنيسابوري ص٢٢ طبعة مصطفى الحلبي

إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا، فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا؟، وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها، فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذي هو دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى دينه وملته.

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه، وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير، وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر: وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام، وأنه هو ويعقوب ـ عليهما السلام ـ قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته، أن يستمروا على ملته، وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم، فنوح قال لقومه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(يونس: ٧٢)

وموسى قال لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

(يونس: ٨٤)

والحواريون قالوا لعيسى عليه السلام:

﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٥٢)

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته، وقالوا:

﴿ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾

(القصص: ٥٣)

وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدت إلى أن ما جاءهم به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة، وهي أن ما جاء به النبي ﷺ يطابق ـ كما قلنا ـ ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين وكلياته كتوحيد الله – واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به، عن الله تعالى والإيمان بالبعث، وما يكون فيه من نعيم وعذاب، والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات، وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام، حسب ما يتناسب، وحالة الأمة التي بعث الله إليها رسولا من لدنه كما قال تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجودا في الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمدا ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث، ووضعت عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم، وشرعت لهم أمورا تتعلق بعباداتهم،

ومعاملاتهم، امتازت باليسر والتخفيف.

ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبدالله دراز: «يجب أن يفهم أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة ليس نقضا لها، وإنما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك مثلا ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني في مرحلته التالية فقرر له طعاما لينا، وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوي كامل لا ريب أن هاهنا اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم، بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق في علاج الحالة، التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الإنسان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات:

- (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).
- (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، وتجئ الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقتل) (لا تسرق) فطابعها البارز تحديد الحقوق، وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجئ بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آدابا مكملة. (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيرا تجئ شريعة القرآن فنراها تقرر كلا المبدأين في نسق واحد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾
(النحل: ٩٠)

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق، وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان، وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية، الذي يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[٢].
صحيح البخاري رقم ٣٥٣٥ باب خاتم النبيين.

وبذلك يتبين لنا: أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة، إنما هي في الأصول والكليات، لا في الفروع والجزئيات.

(٢) من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبدالله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة ١١ ص٦٨١ وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه في الندوة العالمية للإسلاميات، التي انعقدت في لاهور في أواخر سنة ١٩٥٧، إلا أن المنية عاجلته قبل الانتهاء من الندوة - فرحمة الله عليه ورضوانه.

من فتاوى الحاخامات

صوت الطفلة!!

مصدر الفتوى: www.nrg.co.il
٤ / ٤ / ٢٠٠٦ - بقلم: أفيشاي بن حاييم

سيقف للحظة مئات الآلاف من الأطفال في سائر أنحاء إسرائيل حول موائد وليمة عيد الفصح، وسيرددون نشيد «ماذا تغير» الشهير الخاص بعيد الفصح، ومع ذلك، وفقا لفتوى الحاخام يوسف شالوم إليشف، يحتمل أن تصاب الصغيرات اللاتي تزيد أعمارهن على ثلاث سنوات بخيبة أمل؛ لأن الغناء حرام عليهن. أفتى الحاخام إليشف، زعيم الطائفة الليتوانية بأنه: «يجب الحرص على ألا تقوم الصغيرات فوق سن الثالثة بترديد نشيد «ماذا تغير». وقد نشرت هذه الفتوى في كتاب صدر بمناسبة عيد الفصح، باسم «أسطورة عيد الفصح مع تفسيرات وشرائع أدلى بها معلمنا وحاخامنا، وحاخام جميع أبناء المنفى، ومدرسنا العلامة الحاخام يوسف شالوم إليشف أطال الرب عمره، وسجلها المستمعون». ورد في الكتاب أن صاحب الفتوى يحذر من قيام الصغيرات فوق سن الثالثة بترديد نشيد «ماذا تغير» حتى لو كان إنشادا بصوت هادئ، بحيث لا يعد إنشادا. ومع ذلك أكد الحاخام إليشف أنه يمكن التساهل «إذا لم يكن هناك آخرون سوى أشقاء الصغيرات ومحارمهن، وعلى حد قول مصدر حريدي، فإن هذه فتوى تربوية خلفيتها هي تحريم سماع أغاني النساء».



قصص الأنبياء:

لوط عليه السلام

لفضيلة الشيخ العلامة/ عبدالوهاب النجار

هو لوط بن هاران ـ أخي إبراهيم ـ بن تارح. آمن بإبراهيم واهتدى بهديه وتبع إبراهيم عمه في رحلاته فكان معه بمصر وأغدق عليه ملك مصر كما أغدق على إبراهيم. فكثر ماله ومواشيه. ثم افترق من إبراهيم عن تراض لأن الأرض لم تتسع لمواشيهما، ونزل إلى سدوم في دائرة الأردن.

أهل سدوم

كان أهل سدوم ذوى أخلاق رديئة لا يستحون من منكر ولا يتعففون عن معصية يأتونها على رؤوس الأشهاد. كما قال تعالى على لسان لوط وهو يعظهم وينهاهم وتأتون في ناديكم المنكر قرأت في كتاب من كتب الأدب العبرى وصفا لهم، وهو أنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل أوب، ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئا قليلا حتى لا يبقى في يده شيء. فإذا جلس حزينا وجأر بالشكوى. يأتي الواحد منهم ويقول كل هذا لأني أخذت هذا الشيء اليسير؟ دونكه، فيقول: ما عسى أن ينفعني ما جئت به بعد أن ذهبت بضاعتي. اذهب عني بهذا الذي جئت به. فإذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه يريد رده عليه، فيتركه الرجل لزهادة ما أتى به وينصرف. وهكذا يخسر الرجل بضاعته بتفرقها في الأيدى الكثيرة.

من دلائل ظلمهم واستغراقهم فيه: أن سارة زوج إبراهيم أرسلت إلى لعازر كبير عبيد إبراهيم ليأتيها بسلامة لوط. فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد إلى لعازر بحجر ضربه به في رأسه فأسال منه دما كثيرا. ثم تعلق به قائلا: إن هذا الدم لو بقي لأضر بك، فأعطني أجرى. ثم آل الأمر بينهما إلى الترافع إلى قاضي سدوم. فلما سمع للخصمين حكم على لعازر بأن يعطي للسدومي أجر ما ضربه بالحجر وأسال دمه، فلما رأى لعازر الجور من القاضي والخصم في أمره، عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضي فأسال دمه وقال له: الأجر الذى وجب لي عليك بإسالة دمك ـ عليك أن تعطيه لضاربي السدومي جزاء ضربه إياى وإسالة دمي. ولقد كنت أقرأ قول المعرى:

وأى أمرئ في الناس ألفي قاضيا

ولم يمض أحكاما لحكم سدوم

فلم أفهم ما يعزوه بهذا البيت، ولم أعرف ما سدوم حتى قرأت هذه القصة ففهمت معنى البيت.

أنظروا إلى قوله في سورة هود:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾

«هود: ٧٧-٨٣»

كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبى معصوم من المعصية كما هو معتقد جمهور المسلمين في عصمة الأنبياء؟ وهذه المسألة لها عدة أجوبة:

أولها: أن لوطا لم يعرض عليهم بناته الصلبيات، وإنما عرض عليهم بنات القرية وهن أزواجهم، لأن كل نبى أرسل إلى قوم فأولادهم أبناؤه ونساؤهم بناته ـ مجازا ـ وهذا جواب سخيف إذ كيف يكون لوط أبا لهؤلاء الكافرات غير المؤمنات؟ وكيف يعبر عنهن ببناتي وهن يأبين أبوته ويكفرنه ويجحدون نبوته ورسالته؟ فهذا الجواب لا أرضاه ولا تطمئن له نفسي.

ثانيها: أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة. ولا يعقل أن يكون كل واحد من أهل القرية ـ الذين جاءوا إليه يزفون ـ يأمل أن ينال حاجته منهم، وأهل القرية يبلغون ألفا أو يزيدون. ولكن المعقول أنه كان هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة في القوم ـ وهم الذين يطلبون الملائكة ـ وإنما عبر بأهل القرية لظاهرتهم لهم حتى يتم مرادهم، فعرض لوط على القوم بنتيه الصلبيتين ليأخذوهما بطريق التزوج لا على سبيل الزنا. وهذا الجواب قابل لأن يحوز مكان القبول. ولكن الذى أشرحه فيما يأتي أولى منه بالقبول. فقد نص على هذا الجواب أبوالسعود في سورة هود.

ثالثها: أن لوطا عرض على القوم بناته عرضا سابريا[1] ـ أى عرضا غير مؤكد ـ لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا. ولكن عرض بنتيه اعتمادا على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزايته في ضيفه ـ كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه: دعه واضربني أنا. لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لا يضربك. ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة ـ وهذا القول قد أورده كثير من المفسرين كأبي السعود والفخر الرازى والأصفهاني وغيرهم. وهذا الذى أرضاه وأختاره.

ذكرت قصة لوط في التوراة على النحو الذى ورد في القرآن، ولا تخالفه إلا في شيء واحد وهو أنها لم تذكر عرض بناته على القوم. وذكرت أن زوج لوط وهي سائرة للابتعاد من المدينة التفتت فصارت عمود ملح، وأن لوطا التجأ إلى قرية تسمى صوعر ـ أى الصغيرة ـ ونجا هو وابنتاه ولم تمس صوعر بضرر.

(١) السابرى وهو بز صفيق النسج متلاحم، وبائعه لايلح في عرضه ولا يزينه للمشترى.

المجتمع المدنى فى ضوء المقاصد العامة للشريعة

١

أ.د. إبراهيم البيومى غانم

لدينا فى هذا الموضوع مفهوم ومصطلح: أما المفهوم: فهو «المجتمع المدنى»، وأما المصطلح: فهو «المقاصد العامة للشريعة»، فما الذى يربط نظرياً أو عملياً بين مفهوم سياسى واجتماعى حديث الورود فى الثقافة السياسية العربية الإسلامية، ومصطلح أصولى قديم الوجود فى التراث العربى الإسلامى؟ وهل من علاقة بين هذا المفهوم وذلك المصطلح حتى نضعهما فى عنوان واحد؟ هذا هو السؤال الرئيسى الذى نحاول الإجابة عليه، ونسعى لإلقاء بعض الأضواء حول جوانبه المختلفة، دون أن نزعم أننا سوف نقدم الجواب الكافى لكل مسائله وتفريعاته.

لقد ورد مفهوم «المجتمع المدنى» بمعناه الحديث إلى الثقافة السياسية العربية والإسلامية قبل نحو عقدين من الزمان تقريباً، واشتغلت به الأوساط الفكرية والسياسية والإعلامية وبالجدل حوله ولا تزال منشغلة به؛ وذلك سعياً للوقوف على مضامينه التى يحتويها، ومعرفة دلالاته التى يشير إليها على أرض الواقع الاجتماعى فى هذا البلد أو ذاك، ومن ثم معرفة الدور الذى يمكن أن يسهم به فى عملية الإصلاح التى تحتاجها المجتمعات الإسلامية عربية وغير عربية، فى مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبالرغم من حداثة استعمال مفهوم «المجتمع المدنى» فى الخطاب العربى الإسلامى الراهن، إلا أن المضمون الذى يشير إليه هذا المفهوم قديم، بل ضارب فى القدم، وجذوره ممتدة إلى عصر النبى محمد ﷺ، وبأيسر نظر فى البدايات الأولى لتكوين الجماعة الإسلامية على عهد النبى ﷺ، يتضح أن أصول هذا التكوين مدنية بكل المعانى التى تحملها كلمة «مدنى»، حسب ما يشير إليه جذرها اللغوى العربى؛ فكلمة «مدنى» لها نفس المادة اللغوية لكلمة «دينى» تقريباً، الأمر الذى يجعل الكلمتين ذواتى وقع متقارب لدى من يسمعهما، كلمة «الدين» فى لغة العرب تشير إلى علاقة بين طرفين أحدهما «دائن»، والآخر «مدين»، فإذا وصفنا بها الطرف الأول كان قصدنا صاحب الأمر والسلطان، وإذا وصفنا بها الطرف الثانى كان قصدنا المأمور الخاطب من السلطان، أما إذا نظرنا إلى العلاقة التى تربط بين الطرفين فإن قصدنا بكلمة «الدين» يتجه إلى المبادئ المنظمة

لتلك العلاقة، أو الصيغة التى تعبر عنها.

وتقترب تلك المعانى لكلمة الدين اقتراباً كبيراً من معانى كلمة «المدنى»؛ وإنه لأمر ملفت للنظر غاية الإلفات أن يكون تغيير اسم يثرب إلى اسم «المدينة» من أوائل أعمال الرسول ﷺ بعد هجرته إليها من مكة المكرمة، وكانت الدلالة الأساسية لهذا التغيير من الناحية السياسية هى أن يثرب أضحت «تدين» لسلطة جديدة، هى سلطة الرسول ﷺ، ومن ثم فهى فى تكوينها وتأسيسها الجديد وبما أصبحت عليه، مدينة إلى شرع الله الذى جاء به رسوله. المدنية إذن لا تنشأ بلا دين، والدين لا يتحقق بدون مدينة، وكانت «المدينة المنورة» هى النموذج الأول لنشأة وتطور المدن الإسلامية فيما بعد، وكان دستورها الأول الذى عرف باسم «صحيفة المدينة» مثالاً يقتدى به فى كيفية تأسيس الحياة المدنية على أصول الشرعية الإسلامية، وكان قانونها الأول هو إقرار مبدأ «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»، وهو أصل من أصول تكوين المجتمعات المدنية فى مختلف التجارب الإنسانية بلا خلاف.

أما مصطلح «المقاصد العامة للشريعة»، فهو مصطلح أصولى قديم الوجود فى التراث العربى الإسلامى، عميق الجذور، كثيف الفروع، وله نظرية شديدة التماسك، ولا سبيل إلى زحزحتها، ولكنه رغم عراقته وقدمه، يكاد يكون غائباً عن الواقع المعاصر للمجتمعات الإسلامية، يكاد يكون غائباً عن الخطاب، والمؤسسات، ومناهج النظر والتحليل.

فى ميدان الدراسات الإسلامية ذاتها نجد أن حضور نظرية «المقاصد العامة للشريعة» ضعيف، وباهت، وتقليدى؛ يسعى فى كثير من الحالات فقط إلى إعادة إنتاج ما سبق أن قدمه السلف من العلماء، وفى ميدان العلوم الاجتماعية، نجد أن غياب نظرية المقاصد شبه تام، ولا يسأل عن هذه النظرية إلا القليل النادر من الأساتذة، وإلا الأقل الأندر من الطلاب، وأسباب هذا الغياب كثيرة؛ بعضها يرجع إلى ظروف نشأة العلوم الاجتماعية الحديثة فى بلادنا وبعضها يرجع إلى الانفصال بينها وبين العلوم الإسلامية الموروثة، وتقودنا هذه الملاحظة إلى تساؤل جوهرى هو: هل يمكن البحث فى العلوم الاجتماعية من منظور المقاصد العامة للشريعة؟ أمن الممكن أن تكون نظرية المقاصد أداة منهجية توجه البحث فى موضوعات العلوم الاجتماعية الحديثة بفروعها المختلفة، ومشكلاتها المتجددة؟، ومرة أخرى: هل سيختلف البحث فى العلوم الاجتماعية من منظور مقاصد الشريعة أم لا؟ وهل سيختلف النظر فى مقاصد الشريعة من زاوية العلوم الاجتماعية وما تثيره من أسئلة أم لا؟

قد تبدو محاولة الإجابة على تساؤلات من هذا النوع قفزاً فى المجهول، وقد يبدو الخيال فى هذه المحاولة أكثر مما يتراءى فيها شىء من الواقع، ولكن لا بأس من المحاولة، ولا خطر من الاجتهاد، فتساؤلات من هذا النمط من شأنها أن تقودنا محاولة الإجابة عليها إلى ميدان الصناعة الثقيلة للعلم، وأقصد هنا العلم النافع للناس فى معاشهم ومعادهم، ونحن نلاحظ أن العلوم الاجتماعية الحديثة معنية بمنافع المعاش دون منافع المعاد؛ بل لا تدرك معنى لمنافع المعاد أصلاً، ولا توجه إليها جهداً إيجابياً يذكر، وفى الجهة الأخرى نجد أن العلوم الإسلامية – حالياً ومنذ فترة ليست قصيرة – معنية فى أغلب الأحوال بمنافع المعاد دون منافع المعاش، بعد أن كانت معنية بهما معاً على نحو متزن ومتوازن فى الأزمنة السابقة، وكان الجمع

بين شئون الحياة الدنيوية وأمور الحياة الأخروية على هذا النحو المتوازن سراً من أسرار القوة المدنية، وقانوناً من قوانين الازدهار الحضارى الإسلامى، وكان الفصل بينهما أيضاً سراً من أسرار التدهور والضعف.

وفيما يلى سوف نسعى لقراءة مفهوم المجتمع المدنى من منظور «المقاصد العامة للشريعة»؛ لنعرف أمن الممكن أم لا التوصل إلى فهم أفضل للمجتمع المدنى من هذا المنظور؟ وبصياغة أخرى: ما مقاصد المجتمع المدنى؟ وكيف تتحقق من جهة، وأين تتحقق مقاصد الشريعة فى الواقع وكيف تجرى عملية التحقق على أرض الواقع من جهة أخرى؟

أولاً: المقاصد والمجتمع المدنى

بين منهجية العلوم الاجتماعية ومنهجية العلوم الشرعية

إذا كانت نظرية المقاصد العامة للشريعة تخضع لمنهجية البحث فى العلوم الشرعية، فكيف يمكن تطبيقها على «المجتمع المدنى» الذى يخضع لمنهجية العلوم الاجتماعية؟. هذا السؤال يفتح باب الجدل حول تعريف النوعين من العلوم، وما المقصود بالعلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية؟ وهل يمكن حقاً تمييز مجموعة من العلوم ووصفها بأنها شرعية، وتمييز مجموعة أخرى ووصفها بأنها اجتماعية؟

فى تصورنا أن مثل هذه التساؤلات تحيلنا إلى معضلات النشأة الحديثة للعلوم الاجتماعية فى البلدان العربية والإسلامية قبل قرن ونصف فقط من الزمان على الأكثر، ومن أولى هذه المعضلات: وفود العلوم الاجتماعية الحديثة على يد نخبة من الأكاديميين الذى تلقوا تعليمهم فى معاهد وجامعات أوروبية، وكان معنى هذا الوفود هو أن العلوم الاجتماعية التى باشرتها المعاهد والجامعات العربية والإسلامية الحديثة لم تنشأ من داخل مجتمعاتها، ولم تمتلك منذ البداية الأولى لها أدوات منهجية خاصة بها، وإنما اعتمدت على آليات النقل والترجمة والتقليد، أكثر من اعتمادها على آليات الاجتهاد والابتكار والتجديد، وكانت المعضلة الثانية هى أن الناقلين الأوائل لتلك العلوم الاجتماعية لم تكن لديهم دراية بأصول «العلوم الشرعية» ومنهجيات البحث فيها، أما طبقة العلماء «الشرعيين»- فى ذلك الوقت- فلم تكن لديهم عناية بتجديد مناهج وأدوات البحث فى علومهم الموروثة، ومن ثم لم تظهر أية جهود ذات قيمة تستهدف إحياء أو تطوير المناهج الشرعية فى التعامل مع القضايا والموضوعات التى بدأ حملة العلوم الاجتماعية الحديثة يهتمون بها، ومن هنا ظهرت معضلة ثالثة هى: انفصال العلوم الوافدة عن العلوم الموروثة بمناهجها وموضوعاتها وقضاياها التى تهتم بها، والنتائج التى تتوصل إليها، وأضحت لدينا علوم اجتماعية حديثة ولكنها غير وظيفية، كما أضحت لدينا علوم شرعية أصيلة ولكنها غير فاعلة فى التطور الاجتماعى، وإضافة إلى ذلك كانت مدرسة العلوم الاجتماعية الحديثة أكثر قدرة من مدرسة العلوم الشرعية على ملء الفراغ الذى أوجده جمود العلوم الشرعية وعجز القائمين عليها عن استيعاب القضايا المستحدثة وإخضاعها للمنهجيات الشرعية، ووجدت مدرسة العلوم الاجتماعية داعماً قوياً لها فى الدولة الحديثة من جهة، وفى الدوائر الأكاديمية الغربية من جهة أخرى، وبعد مرور ما يقرب من قرن على نشأة العلوم الاجتماعية الحديثة - المنقولة، ثبت أنها لم تسهم فى تقدم أو نهضة المجتمعات العربية والإسلامية، وأن حصيلة ما أنتجه أساتذة العلوم الاجتماعية - بمختلف فروعها - لم يعد كونه مجرد نظريات واهية الصلة بمشكلات المجتمع الذى ينتمون إليه، واتضح أنهم كانوا فى أغلبهم وسطاء مترجمون، ولم يكونوا علماء حقيقيين، ولم يظهر لواحد منهم نظرية اجتماعية أو نفسية أو سياسية أو اقتصادية تنسب إليه هو وإلى اجتهاده الذاتى.

ولسنا هنا بصدد تحليل الأسباب النظرية التى أدت إلى الفصل بين منهجيات العلوم الاجتماعية ومنهجيات العلوم الشرعية، حتى بات من الشائع السائد أن لا سبيل إلى الجمع بينهما، وأن أى جهد يبذل فى سبيل البحث عن روابط الوصل بينهما لا جدوى منه، والذى نراه هو أن منهجيات العلوم الاجتماعية الحديثة ليست غريبة عن طريقة التفكير ومناهج البحث التى ابتكرها العلماء المسلمون السابقون، بل منها ما هو امتداد لها فى بعض الجوانب.

ولنأخذ مثالاً على ذلك من الإمام أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ)، الذى ذهب إلى أن العلم إما أن يكون علم تصور، أو علم تصديق، ويتعلق علم التصور بذوات الأشياء؛ كالعلم بالنبات والحيوان، والجمادات، أما علم التصديق فيتعلق بنسبة هذه الذوات إلى بعضها بعضاً؛ إما بالسلب أو بالإيجاب، وهذا يسمى تصديق، لأنه يتطرق إليه التصديق والتكذيب، وكل بحث نظرى - حسب رأى الغزالى - يتجه إلى تصور أو تصديق، والبحث الموصل إلى تصور يسمى قولاً شارحاً، ومنه حد ورسم، والبحث الموصل على تصديق يسمى حجة، ومنه قياس ومنه استقراء، وهذا الذى تحدث عنه الغزالى هو عين المنهجية الحديثة فى العلوم الاجتماعية، وإذا تأملنا أكثر فى أصول المنهجية لدى «الشرعيين»، سيتضح لنا أن علومهم الشرعية كانت فى الوقت نفسه اجتماعية، وأن العلوم الاجتماعية ليست صنفاً آخر مختلفاً عن العلوم الشرعية.

والوضع الطبيعى هو أن تكون العلوم الشرعية اجتماعية، والعلوم الاجتماعية شرعية وفقاً لأصول منهجية وأدوات تحليلية ذات مرجعية معرفية واحدة.

وفى ضوء هذا التصور، تكون «المنهجية» البحثية ذات أصول واحدة، ولكن الأسئلة يمكن أن تكون مختلفة، وبل يجب أن تكون مختلفة فى مساريها النظرى والعملى، بين مجال البحث الشرعى - وبالأحرى الأصولى - ومجال البحث الاجتماعى كأحد تطبيقات المنهجية الشرعية، ولنأخذ مثالاً على ذلك لنوضح به الفرق بين الحالتين: من منظور البحث الأصولى الشرعى، يكون السؤال عن مقاصد الشريعة على النحو التالى: كيف نستدل علي مقاصد الشريعة استدلالاً منهجياً منضبطاً بقواعد الاستدلال الشرعى المعروفة فى أصول الفقة مثلاً؟.

أما من منظور البحث الاجتماعى، فإن السؤال عن مقاصد الشريعة نفسها هو: ما الذى يحدث عندما يبدأ مقصد شرعى ما فى الانتقال من الحيز النظرى المجرد إلى حيز الواقع العملى المتحرك؟ ما الذى يحدث عندما تغادر الفكرة، أو المبدأ، أو المقصد أوراق الكتب وتشتبك مع وقائع الحياة اليومية؟، السؤال من منظور البحث الاجتماعى الذى ينطلق من نظرية المقاصد الشرعية ويلتزم منهجيتها، هو: كيف يتحول تشريع المقصد، إلى مشروع مقصود منه تحقيق مصلحة أو منفعة؟ ما قوانين وإجراءات الانتقال من مستوى الوعى والإيمان والتصديق النظرى، إلى مستوى الواقع

والعمل والتطبيق العملي؟

مثال آخر: من منظور البحث الأصولي الشرعي، يكون السؤال عن «الحكم الشرعي» - الذي هو خطاب الله للمكلفين اقتضاء، أو تخييراً، أو وضعاً -بهدف معرفة مستويات هذا الحكم، أو التمييز بين أقسامه وأنواعه: فرائض، وسنن، أو واجبات، ومندوبات، ومحرمات، ومكروهات، ومباحات، أما من منظور البحث الاجتماعي الذي ينطلق من نظرية المقاصد الشرعية ويلتزم منهجيتها فهو: ما علاقة أقسام الحكم الشرعي ببعضها، وما الذي تنتجه من آثار في الواقع الاجتماعي؟ وبعبارة أخرى: كيف تتجلى أقسام الحكم الشرعي في الممارسة الاجتماعية؟

وهنا نجد أن من اليسير الحصول على عديد من المؤلفات والبحوث التي تتناول التكاليف الشرعية وأدلتها التفصيلية، وكيفية استمدادها وإثباتها منهجياً، كيف أنها تشكل - بكل مكوناتها - منظومة يفضي بعضها على بعض، وأنها تعبر عن نظام متناسق تحت مظلة المقاصد العامة للشريعة، ولكن من العسير العثور على بعض المؤلفات والبحوث التي تبحث مثلاً في علاقة المندوب بالواجب كما تتجلى، أو كيف تجلت - هذه العلاقة - في الممارسة الاجتماعية في فترة زمنية معينة في مجتمع معين.

إن الثراء النظري الخاص بالمنهجية الأصولية التي ابتكرها الفقهاء - على اختلاف تخصصاتهم - لم يستفد منه كمرجعية معرفية لبناء وتطوير منهجية للعلوم الاجتماعية، تكون قادرة على الإجابة عن تساؤلات لا تزال غير مطروقة حول الدور الذي أسهمت به الممارسات الاجتماعية للتكاليف الشرعية وليس التكاليف الشرعية المجردة - في إحداث درجات من التطور الاجتماعي، والاقتصادي، والتقني، والحضاري بشكل عام. لماذا - مثلاً - ارتبطت معظم الفروض الكفائية بممارسات اجتماعية ذات طابع مؤسسي، بينما لم تأخذ معظم الفروض العينية هذا النمط المؤسسي؟ وما علاقة المسئولية الجماعية التي ولدتها الفروض الكفائية بالمسئولية الفردية للفروض العينية؟. مثل هذه التساؤلات توفر ميداناً فسيحاً لتطوير العلوم الاجتماعية من منظور منهجي نابع من المرجعية المعرفية الإسلامية، ونأمل أن تتجه البحوث والدراسات في العلوم الاجتماعية وجهة البنى المؤسسية والممارسات الجماعية والفردية من منظور مقاصد الشريعة، وهي قيد التطبيق، لا أن تقتصر الدراسات كما هو حادث حالياً على النظر في المقاصد بشكل نظري مجرد.

ثانياً: كيف نفهم المجتمع المدني من منظور مقاصد الشريعة؟

ثمة عدد من الخطوات التي تساعدنا على فهم المجتمع المدني في ضوء نظرية المقاصد العامة للشريعة، وهذه الخطوات هي: أن نعرف مقاصد المجتمع المدني أولاً، ثم نعرف كيف تتحقق مقاصد المجتمع المدني وأين تتحقق ثانياً، وأن نعرف - ثالثاً - كيف تتحقق مقاصد الشريعة وأين تتحقق؟

١ - مقاصد المجتمع المدني

من المهم أن نعرف المجتمع المدني كي نعرف مقاصده، وثمة منازعة فكرية وعملية، نظرية وتطبيقية، حول مفهوم المجتمع المدني منذ وروده إلى السياق العربي والإسلامي عامة قبل حوالي عقدين من السنين كما أسلفنا، وهذه المنازعة تدور حول توصيف حالة المجتمع في علاقته بالدولة، وإلى أي مدى يتمتع بقدر من الاستقلالية النسبية تجاهها، ونظراً لأن الأصول الغربية لهذا المصطلح تجعله ملتبساً وربما غامضاً عند استعماله في السياق العربي الإسلامي الحاضر، فقد انقسمت الآراء بشدة بين عدد من الاتجاهات منها:

- فريق ذهب إلى أن «المجتمع المدني» مفهوم يشير إلى مجموعة المؤسسات والتنظيمات التي تستند إلى أسس مدنية اجتماعية من وضع البشر أنفسهم؛ أي أنه نقيض مباشر لكل ما هو ديني أو ذا مرجعية دينية.
- وفريق آخر ذهب إلى أنه يشير إلى تلك المؤسسات والتنظيمات التي تنبع من المجال الاجتماعي، وتعمل لصالحه، أيا كان الأساس الفلسفي الذي تقوم عليه؛ دينيا أو اجتماعيا وأن هذه المؤسسات والتنظيمات تستهدف، أيضاً، وضع مجموعة من الكوابح والروادع التي تحد من سلطة المجتمع السياسي، أو العسكري الذي تمثله الدولة؛ وبهذا يصبح المجتمع المدني نقيضاً لما هو سياسي أو عسكري، أو لكل ما هو حكومي.
- وذهب فريق ثالث إلى تحديد المقصود بالمجتمع المدني من خلال عدد من القرارات الإجرائية التي تصف مؤسساته ومنظماته وفاعلياته المختلف، ومن هذه القرارات مثلاً: أن تلك المؤسسات والمنظمات تحتل موقعاً وسطاً بين العائلة؛ واعتبارها الوحدة الأساسية التي ينهض عليها البنيان الاجتماعي، والنظام القيمي الأخلاقي في المجتمع من جهة، والدولة ومؤسساتها وأجهزتها البيروقراطية الحكومية من جهة أخرى.

البعض يعرف المجتمع المدني بأنه تعبير عن حالة تصف المجتمع كله، بمعنى أنه مجال للحرية أو الاستقلال النسبي عن الدولة، والبعض يعرفه بأنه مجال يشتمل على كافة الظروف التي تكفل الحياة الاجتماعية الجيدة، ويكون الناس فيه شكلا يتواصلون من خلاله، ويرتبطون ببعضهم؛ وآخرون يقولون إنه مجال للتفاعل الإيجابي ما بين الدولة من جهة والمجال العام بما يضمه من تنظيمات طوعية من جهة أخرى، والسوق بما يشمله من اتحادات وشركات خاصة من جهة ثالثة».

ويرى فريق آخر أن للمجتمع المدني مفهومين فقط:

- الأول يتصوره قطاعاً من المجتمع الأوسع، ويضع له خصائص أو مواصفات، مثل الاستقلال النسبي عن المجال الحكومي، وأنه غير هادف للربح، ويتمتع بوضع قانوني منظم، ويقوم على أساس طوعي... إلخ.
- والاتجاه الثاني يتصور مفهوم المجتمع المدني على أنه حالة المجتمع الأوسع ذاتا، وليس قطاعا منه فقط، وأن صفة المدنية فيه تفترض حضور الفرد وقبوله الطوعي الحر للمشاركة في اتخاذ القرارات التي تتعلق بمستويات مختلفة من الحياة العامة انطلاقاً من قناعاته الذاتية، وليس من التزاماته القبلية أو الدينية.

وطبقاً لهذا التصور فإن المجتمع المدني يشير إلى منظومة من العلاقات التي تحكم الحركة الكلية للمجتمع وعلاقاته.

ومثلما انقسمت الآراء بصدد تعريف مضمون «المجتمع المدني»، تباينت المواقف من الحكم على وجود ما يصدقه من مؤسسات وتنظيمات في الواقع الاجتماعي. فالبعض أنكر وجوده بأي شكل من الأشكال، وذهب إلى أنه إنجاز حضاري غربي بحت؛ وأن علينا استزراعه في بلادنا

وتنميته في تربة مجتمعاتنا التي لم تعرف ما يشبهه في تاريخها الطويل، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن هناك عديداً من المؤسسات والهيئات التي يمكن تصنيفها مجازاً ضمن «المجتمع المدني»، وهي تضرب بجذرها في أعماق التاريخ الإسلامي، وفي مقدمتها المساجد الجامعة، والأوقاف، والمدارس الأهلية ومكاتب تحفيظ القرآن، والبيمارستانات، وصور أخرى متعددة من أعمال الخير والمنافع العمومية.

وفي ضوء المعاني السابقة، يمكن القول أن من أهم مقاصد المجتمع المدني الآتي:

أ- أن يكون ساحة لتطوير فضائل وقيم أخلاقية تسهم في تطور المجتمع، وتدعم السلم الأهلي بين فئاته وجماعاته.

ب- أن يكون مجالاً للتنافس الأيديولوجي بغرض فرض نمط معين من الهيمنة الفكرية أو السياسية.

جـ- أن يسهم في كبح جماح سلطة الدولة، ويمنعها من التغول على المجتمع.

د- أن يكون بمؤسساته وتنظيماته وسيطاً بين المجتمع والدولة.

هـ- أن يسهم في تمكين الأفراد من الوصول إلى المنافع العامة، بعيداً عن البيروقراطية الحكومية.

و- أن يشكل قوة أخلاقية أو عاطفية وروحية تسهم في المجال العام، وتحقق قدراً من التوازن بين المصلحة الأنانية (القطاع الخاص)، والنزعة العقلانية الرشيدة (القطاع العام أو الحكومي).

ز- أن يمكن المواطنين من المشاركة في مراقبة السلطة الحاكمة بمختلف مستوياتها، ومحاسبتها على أدائها.

ح- أن يسهم في رفع وعي المواطنين بحقوقهم، ويجعلهم أكثر إخلاصاً في أداء واجباتهم، وأكثر شجاعة في الدفاع عن حرياتهم.

ط- أن يوفر مجالاً لممارسة الحريات الفردية والجماعية.

تلك هي أهم مقاصد المجتمع المدني من الناحية النظرية، فكيف تتحقق عملياً؟

٢- كيف تتحقق مقاصد المجتمع المدني في تصوره الغربي، وأين؟

يقول أصحاب النظريات الخاصة بالمجتمع المدني: إن مقاصده، أو أهدافه، تتحقق بالوعي والإرادة؛ أي ببناء ثقافة المجتمع المدني من جهة أولى، وبالعمل والإدارة، أي لتحويل تلك الثقافة إلى تشريعات، ومشروعات، ومؤسسات، وبرامج من جهة ثانية.

فلكي تتحقق أية مقاصد يجب أن تسبقها ثقافة، تعرف بها، وتدعو إليها، وتحض عليها، وتبين منافعها، وتحذر من مغبة تضييعها وتسهم في بناء مثل هذه الثقافة مؤسسات التنشئة التربوية، والدينية، والتعليمية، والسياسية، كما تسهم وسائل الإعلام في نشرها، وتساعد في رفع الوعي العام بها.

ولا يكفي الوعي بمقاصد المجتمع المدني حتى تتحقق على أرض الواقع، بل لابد من عمل دءوب يحولها إلى تشريعات قانونية تقررها، وتحميها، وتحدد طريقة ممارستها، ولابد من جهد إداري يصوغ التشريعات في أنماط مختلفة من المشروعات، والمؤسسات، والبرامج التي تتخصص كل منها في تلبية حاجة أو أكثر من الحاجات الاجتماعية.

وتشير جهود السعي لتحقيق مقاصد المجتمع المدني في عديد من تجارب الأمم والشعوب المعاصرة، إلى أن عملية التحقق تسهم فيها عدة أنواع من الهيئات والمنظمات ذات الطابع المؤسسي، وفي مقدمتها:

أ- الجمعيات الأهلية التي تقوم على أساس تطوعي، وتهدف إلى تقديم خدمة عامة على نطاق محلي أو على نطاق وطني يشمل المجتمع كله.

ب- التنظيمات النقابية التي تقوم على أساس الانتماء إلى مهنة معينة كالطب، أو الهندسة، أو المحاماة مثلاً، وتهدف إلى المشاركة في تطوير المهنة، وحماية مصالح أعضائها وعائلاتهم بالدرجة الأولى.

ج- الأحزاب السياسية التي تسعى للحكم كي تطبق برامجها الإصلاحية، وتهدف إلى أنها كفيلة بتحقيق مصالح القطاعات الأكبر من المجتمع.

د- الأندية الاجتماعية والرياضية التي تسهم في توفير مجال للترفيه والترويح النفسي والرياضة البدنية، وتسهم في دعم ثقافة السلم الأهلي، والجدية في المنافسة بروح تعاونية.

ويضاف إلى ما سبق، عديد من أشكال العمل الجماعي، والمبادرات الشعبية، والحركات الاجتماعية، التي تنخرط في المجال العام بهدف الإسهام في تحقيق مقصد أو أكثر من مقاصد المجتمع المدني التي سبق ذكرها.

ولكن: أين تتحقق مقاصد المجتمع المدني؟

طبقاً للنظرية الغربية المعاصرة في المجتمع المدني، نجد أن مقاصده تتحقق في فئات اجتماعية معينة تستهدفها مشروعاته ومؤسساته وتنظيماته المختلفة، إنها تتحقق في جهة المجتمع بصفة أساسية ولفائدته في مواجهة الدولة، وبالتحديد في مواجهة السلطة السياسية التي تمسك بزمام الدولة وتنطق باسمها في آن واحد. وثمة ميدان آخر خارجي تتحقق فيه بعض مقاصد المجتمع المدني «الغربي»؛ هذا الميدان هو مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وبعض مجتمعات أخرى في بلدان آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وتعبر عنها المنظمات غير الحكومية عابرة القطرية، أو ذات الصفة العالمية المنطلقة من عمق المركز الحضاري الأطلسي (الأوروبي الأمريكي) المهيمن حالياً على العالم.

٣- أين تتحقق مقاصد الشريعة وكيف تتحقق؟

هل تتحقق مقاصد الشريعة بمجرد العلم بها؟ هل يجني المجتمع ثمرتها إن هي أصبحت جزءاً من الوعي العام لمعظم أبنائه، أو إذا تشكلت في ضوئها أغلب جوانب الثقافة السائدة؟، هل تتحقق مقاصد الشريعة في فضاء التأمل النظري الذي يتيح مجالاً واسعاً للحديث عن البنيان الأصولي المتماسك لمكوناتها؟

إن الإجابة على مثل تلك التساؤلات هي النفي القاطع، وبدون تردد؛ إذ لا يكفي العلم النظري لإدراك الفائدة العملية، ما لم يقترن بالعمل والاجتهاد في تحويل الفكرة أو التشريع إلى برنامج أو مشروع، ومن أسف، أن نظرية المقاصد العامة للشريعة قد آلت في وضعها الراهن إلى أن أصبحت تصوراً نظرياً مفارقاً لملابسات الواقع، والاجتهادات والجهود التي تبذل من أجل وصلها بالواقع، وقياس أحواله بمعاييرها قليلة وغير منتظمة.

لا توجد - مثلاً - منهجية لتقييم أداء المؤسسات الأهلية أو الحكومية والرقابة عليها

بمعايير المقاصد العامة للشريعة، وأين هي النظريات التي طورها أساتذة الإدارة، أو العلوم السياسية في ميدان «صنع القرار واتخاذه» انطلاقا من قاعدة «مقاصد الشريعة»، وأصولها التي تتناول: الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وتميز في كل منها بين ما هو أصلي وما هو مكمل، وما هو عام وخاص، وشامل وجزئي، وتوازن بين المصالح والمفاسد، ولماذا تغيب مثل هذه المنهجيات عن علومنا الاجتماعية بمختلف فروعها؟، لابد أن نرجع مجدداً إلى ما بدأنا به بشأن معضلات نشأة العلوم الاجتماعية في بلادنا العربية والإسلامية، وانفصالها قبل أكثر من قرن من الزمان عن العلوم الشرعية الموروثة.

لا تتحقق المقاصد العامة للشريعة بمجرد وجودها في بطون الكتب والمؤلفات القديمة، ولا حتى عندما تصبح جزءاً من الوعي الثقافي السائد في المجتمع، وإنما تتحقق عبر تشريعات، ومشروعات، ومؤسسات، وبرامج تنفيذية تشق طريقها وسط الواقع الاجتماعي المعاصر بكل تعقيداته ومعطياته.

وقبل الاستطراد في الإجابة على: كيف تتحقق مقاصد الشريعة؟ من المهم أن نجيب أولاً على سؤال: أين تتحقق؟، ولدينا ثلاث إجابات محتملة على هذا السؤال الأخير، وهي:

● الأولى: هي أن مقاصد الشريعة تتحقق في مجتمع ديني، تحكمه سلطة دينية قادرة على تحقيق تلك المقاصد بوسائل مختلفة.

● الثانية: هي أنها تتحقق في مجتمع بدائي، أو بدوي، تنقله نقلة نوعية إلى الأمام ثم لا تكون ثمة حاجة إليها بعد ذلك؛ إذ يتجاوزها الزمن وتصبح عديمة الجدوى.

● الثالثة: هي أنها تتحقق في مجتمع مدني نموذجه الأول - وليس الأخير - هو مجتمع المدينة الذي تشكل بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب، وبادر بتغيير اسمها إلى المدينة على نحو ما أسلفنا.

تلك هي الاحتمالات النظرية الثلاثة التي تقدم إجابات مختلفة على السؤال الذي نناقش فيه طبيعة التكوين الاجتماعي والسياسي الأنسب لتحقيق مقاصد الشريعة.

● أما الإجابة الأولى فلا تقدم تكويناً اجتماعياً وسياسياً مناسباً لتحقيق مقاصد الشريعة؛ ذلك لأن من بديهيات شريعة الإسلام وأولياتها نقض السلطة الدينية وتقويض أركانها وتجفيف منابعها، ومن ثم فإن المجتمع الديني ذا السلطة الدينية لا يصلح لتحقيق مقاصد الشريعة، بل إنه سيكون مقيداً لها، مانعاً لتحققها. ومقصودنا بالسلطة الدينية هنا هو: تلك السلطة التي تدعي أن لها حقاً صغر أم كبر في التدخل في ضمير الفرد أو الرقابة عليه أو معاقبته أو الحكم عليه بالكفر أو الإيمان بدعوى أن صاحب هذه السلطة - فرداً كان أو مجموعة أو طائفة أو حزباً أو فئة - ينطق باسم الله، أو مبعوثاً من لدنه، أو واسطة بينه وبين الناس، أو مفوضاً من الله تعالى بهذا المعنى جاء الإسلام ليحارب مثل هذا النمط من السلطات ويخلص البشرية من شروره، ويفتح المجال لتكوين مجتمع حر، يهيئ للأفراد والجماعات الازدهار والنمو في وعيهم وعقولهم، وأنفسهم، وأموالهم، ونسلهم، ويهيئ لهم أيضاً إمكانية التفتح الروحي والعقيدي بمحض اختياراتهم.

● وأما الإجابة الثانية فلا تقدم أيضاً تكويناً اجتماعياً أو سياسياً ملائماً لتحقيق مقاصد الشريعة، فالمجتمع البدائي، أو البدوي، من حيث تركيبته الاجتماعية المحدودة، ومن حيث حاجاته الاقتصادية البسيطة، ومن حيث مستواه الفكري والثقافي أسير العادات والتقاليد والجهل، لا يتسع لتلك المقاصد أصلاً، وهي تتجاوزه بمراحل، وقد جاء الإسلام بتحرير العقل من كل قيد، وخاصة قيود التقليد، والخرافة، والأمية، ودعا لإطلاق حرية التفكير وإعمال العقل باعتباره النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على بني الإنسان، وجعل التفكير فريضة إسلامية التقصير فيها كالتقصير في الصلاة والزكاة وسائر فرائض الإسلام، وكان خضوع مثل تلك المجتمعات البدائية أو البدوية للشريعة واقتدائها بمقاصدها عاملاً جوهرياً في تقدمها ونقلها إلى حالة أكثر تطوراً ضمن «مجتمع مدني» حضاري.

● الإجابة الثالثة، إذن، هي وحدها التي تقدم التكوين الاجتماعي والسياسي الأنسب؛ ذلك لأن مقاصد الشريعة الإسلامية لا تتحقق إلا في مجتمع مدني، وهذه هي الأسباب:

أ- إن جملة المقاصد الشرعية - كما عرفها مؤسسو نظرية المقاصد على تعاقب الأزمان - لا يمكن تصورها متحققة خارج نطاق مجموعات من البشر بينهم شبكة كثيفة من العلاقات، والمصالح، والاختلافات في العقائد والمذاهب والثقافات؛ فإن لم تكن هذه الشبكة موجودة، فستوجدها السيرورة الاجتماعية للمقاصد وهي تنتقل من حيز التجريد النظري، إلى مستوى التطبيق والممارسة العملية، وهو عين ما حدث في التاريخ الإسلامي؛ بدءاً بعهد النبي ﷺ، وبخاصة مع نشأة مجتمع المدينة المنورة، وكتابة وثيقة المدينة، التي هي أول وثيقة دستورية مكتوبة عرفها التاريخ، وفيها جرى تشريع كيفية تحقيق مقاصد الشريعة في إطار اجتماعي محدد زماناً ومكاناً، وجرى الاقتداء به بعد ذلك في تأسيس المدن والأمصار التي أنشأها المسلمون في مناطق العالم القديم الذي وصلوا إليه.

ب- إن مقاصد الشريعة هي التي وفرت الشرط الضروري واللازم لوجود المجتمع المدني ذاته، ويتمثل هذا الشرط في وجود «مجال عام» محدد المعالم ويمكن تمييزه عن المجال الخاص، ولكنه غير منبت الصلة به، وبدون وجود مجال عام فلا وجود لمجتمع مدني أصلاً. ونظرية المقاصد هي التي أوجدت الرابطة بين العام والخاص، هي التي أوضحت، مثلاً، أن من قتل نفساً واحدة، فكأنما قتل الناس جميعاً، من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً. ومن هنا كان «حفظ النفس»، على حد تعبير الفقهاء أحد الضروريات الخمس ضمن المقاصد العامة.

ج- في المجتمع المدني، وبدءاً بالنموذج الذي أسسه الرسول ﷺ في المدينة، يمكن الجمع بين مصلحتي الدنيا والآخرة، أو المعاش والمعاد. أما في المجتمع الديني بالمعنى السابق شرحه، فلا مجال لرعاية مصالح الحياة الدنيا؛ إذ يتجه الجهد كله إلى الحياة ما بعد الموت لا قبله، وفي المجتمع البدائي لا يكاد الوعي ينصرف إلى أكثر من تدبير شئون العيش، مع بعض التصورات البدائية عن قوى خارقة، أو آلهة موهومة يجد الإنسان البدائي نفسه مضطراً للإيمان بها لا لشيء إلا لتأمين حياته الدنيوية حسب اعتقاده، أما الإسلام فقد جاءت مبادئه التشريعية ومقاصده العامة تحمل في طياتها قوة تمدينية هائلة، وعندما وجدت طريقها إلى التطبيق أدت إلى نشوء مدن ومجتمعات مدنية متطورة، ومستجيبة ما يقتضيه الإسلام من ضرورة الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة؛ فالحياة

في الإسلام مقدمة على الدين، ولم يقل الرسول ﷺ «بع ما تملك واتبعني»، لكنه قال لمن استشاره فيما تصدق به من ماله «الثلث، والثلث كثير» والرخص في الصوم والصلاة والزينة والطيبات من الرزق، والاقتصاد في الإنفاق والتوسط، والنهي عن الغلو في الدين، كل ذلك يؤكد أن التكوين الأنسب لتحقيق مقاصد الشريعة هو «مجتمع مدني»، كالذي وضع نواته الرسول ﷺ نفسه في المدينة المنورة وليس مجتمعا دينيا مغلقا تقبض عليه سلطة دينية مستبدة كالذي عرفته أوروبا في عصورها الوسطى المظلمة. ولا مجتمعاً بدائياً كالذي مرت به البشرية، وهي مراحل تطورها الباكر من تاريخها.

كيف تتحقق مقاصد الشريعة في المجتمع المدني؟

إن وضوح المقاصد على المستوى النظري المجرد شرط ضروري لتحقيقها في الواقع الاجتماعي ولكنه غير كاف؛ فلكي تتحقق واقعياً لابد من أن تتحول إلى تشريعات تستوعبها وتعبر عنها، أو تصاغ في ضوئها وتتخذ من تلك المقاصد معياراً لها، ثم تتحول تلك التشريعات إلى مشروعات تترجم المقاصد في ضوء احتياجات المجتمع المتغيرة من مرحلة إلى أخرى، مع إدراك أن هذا التغير لا يصيب فقط حجم الاحتياجات، وإنما يطرأ أيضاً على نوعياتها؛ فما يصنف في مرحلة زمنية معينة على أنه من الحاجيات، قد يصنف في مرحلة أخرى على أنه من التحسينيات، وما ينظر إليه على أنه كلي وعاجل، قد يتحول بعد حقبة من الزمن إلى جزئي وآجل، وهكذا، والذي يبت فيما إذا كانت هذه الحاجة أو تلك كلية أو جزئية، عاجلة أو آجلة، تحسينية أو حاجية هي نتائج البحوث والدراسات التي يقوم بها خبراء ومختصون، وتعتمد - ضمن ما تعتمد - على الإحصاءات الاجتماعية والحيوية التي تسهم في التشخيص الدقيق لأوضاع المجتمع ونوعية وكمية المطالب التي يسعى لتحقيقها.

كي تتحقق المقاصد الشرعية أيضاً فإنها تحتاج إلى «مؤسسات» متطورة، ترعى وتدير تلك المشروعات، كما تحتاج إلى برامج تفصيلية تستجيب لمقتضيات كل مقصد وضرورات تنفيذه.

تتحقق المقاصد إذن بالعمل والإدارة الفعالة، والمؤسسات الكفؤة من جهة، وبالوعي والإرادة، من جهة أخرى.

٤- الحاجة إلى تجديد ثقافة المقاصد

في رأينا أن ضمور المعرفة بفكرة من الأفكار، أو نظرية من النظريات، أو بأمر من الأمور، هو مقدمة لتلاشيه من الواقع إن كان موجوداً من قبل، وسبب من أسباب إزاحته وانسحابه من الممارسة الاجتماعية، وتراجع تأثيره في السلوكيات وأنماط الحياة، وهذا هو الحادث بالنسبة لنظرية المقاصد العامة للشريعة؛ فهي تكاد تكون غائبة عن البرامج التعليمية والثقافية، والجهد اليسير الموجه للاهتمام بها يكاد ينصب - كما أسلفنا - على إعادة تكرار ما قاله السابقون دونما أدنى محاولة لإعادة قراءة هذه النظرية وضخ ماء الحياة في أوصالها من جديد لتصبح عاملاً مؤثراً في صوغ الوجدان الفردي، والوعي الجماعي، ولتصبح معياراً مرشداً لصناع القرار، ومعياراً رئيسياً من معايير المتابعة والرقابة والمحاسبة.

أحد الجوانب التي تستأهل إعادة النظر هي ما نسميه «ثقافة المقاصد»، وهي ثقافة أصيلة بلا

مراء، ولكنها تحتاج إلى ضخ ماء الحياة فيها بعد أن جمدت على ألفاظ وتعبيرات ليس في التمسك بها فائدة كبيرة، ولا في تجاوزها خسارة ثقيلة، وتحتاج إلى جهود لتقريبها من أفهام أبناء هذا العصر، بعد أن انقطعت معطيات تاريخية وثقافية كثيرة عاشها أبناء العصر الذي صيغت فيه نظرية المقاصد أول مرة.

ومن ذلك مثلاً: أنه قد استقر في الأذهان ومنذ أحقاب متطاولة من الزمن مفهوم «الحفظ» كبادئة عند الحديث عن الضروريات الخمس، فنقول إن للشريعة مقاصد كلية، أو ضرورية تتمثل في: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ المال، ولا نرى ضرورة أصولية أو منطقية تحتم التمسك بكلمة «الحفظ»، بل هناك ما يوجب إعادة النظر فيها واستبدال كلمة أخرى بها.

باستشارة قواميس اللغة بشأن المعاني التي يشير إليها لفظ «الحفظ»، وجدنا أن هذا اللفظ يعني: الصيانة من التلف، والإبقاء على الشيء بمنأى عن الخطر، ويعني أيضا دفع التحريف عن الشيء المحفوظ، ورعايته بما يضمن استمراره على ما هو عليه، تلك هي الحقول الدلالية التي يتجه إليها معنى الحفظ، ومن تلك الحقول تتشكل الشحنة المعنوية للفظ لدى مستقبله وسامعه وقارئه، وهي شحنة تميل كل الميل نحو السكون والدفاع والصيانة والترميم في أحسن التصورات فإذا أضفنا إلى ذلك اقتصار مؤسسو نظرية المقاصد على ذكر أمثلة ردعية وزجرية لبيان كيفية تطبيق «حفظ» هذا المقصد أو ذاك، سنجد أننا بإزاء مظلومية تاريخية تعاني منها نظرية المقاصد حتى اليوم، فقد اشتقت الأمثلة التي ضربها مؤسسو المقاصد - في أغلبهم وليس جميعهم - من الحدود الخمسة: فمثال حفظ الدين هو عقوبة الردة لمن بدل دينه، مثال حفظ العقل هو عقوبة شارب الخمر، ومثال حفظ النفس هو حد القصاص، ومثال حفظ النسل هو حد الزنا، ومثال حفظ المال هو حد السرقة، ولم يأت ضربهم لتلك الأمثلة جزافاً؛ إذ يقف خلفها منطق متماسك وموصول بالجهود النظرية الأولى التي ظهرت باكراً في تاريخ ابتناء نظرية المقاصد ذاتها، فقد انطلقت تلك الجهود من مفهوم «الزجر»، و«المزجرة»، وهذا هو ما نجده عند أبي الحسن العامري (ت ٣٨١ هـ)، وهو أحد الأوائل المؤسسين كتابة لنظرية المقاصد، وهو أول من سبق إلى صوغ الضروريات الخمس الكبرى، التي - كما يقول الريسوني - أصبحت على مر العصور محور الكلام في مقاصد الشريعة، قال العامري: وأما المزاجر فمدارها على خمسة أركان، وهي:

- مزجرة قتل النفس، كالقود والدية.
- مزجرة أخذ المال، كالقطع والصلب.
- مزجرة هتك الستر، كالجلد والرجم.
- مزجرة ثلب العرض، كالجلد مع التفسيق.
- مزجرة خلع البيضة، كالقتل عن الردة.

هذه هي أصول الكليات الخمس التي جرى تنقيحها وضبطها لاحقًا على يد إمام الحرمين، ومن بعده الغزالي، ومن بعدهما الشاطبي، وهلم جرا.

نرى إمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨ هـ)، ينص في كتابه البرهان على أن: الشريعة متضمنها مأمور به، ومنهي عنه، ومباح. فأما المأمور به فمعظمه العبادات، وأما المنهيات فأثبت الشرع في الموبقات منها زواجر، وبالجملة الدم معصوم بالقصاص، والفروع

معصومة بالحدود، والأموال بالقطع.

ثم نرى حجة الإسلام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، يؤكد في كتابه «شفاء الغليل» على أن المقصود ينقسم إلى ديني ودنيوي، وكل واحد ينقسم إلى تحصيل وإبقاء، وقد يعبر عن التحصيل بجلب المنفعة، وقد يعبر عن الإبقاء بدفع المضرة، وبهذا فتح الغزالي الباب أمام نظرية المقاصد لتتنفس شيئا إلى جانب «مزجرة» كل مقصد، وتشير إلى كيفية تحصيل المقصد أولاً قبل الحديث عن مزجرته، وهو ما عبر عنه بقوله «جلب المنفعة» إلى جانب دفع المضرة؛ أي المزجرة.

ولما جاء الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، طفق يؤصل ويقعد نظرية المقاصد، حتى استوت على سوقها، وتسامى بناؤها، ووجدناه يشير إلى ما أشار إليه الغزالي من أن كل مقصد لابد من حفظه من جهة الطلب؛ أي كيفية تحصيله أولاً، ولابد من حفظه من جهة الدفع، ولكنه اهتم وهو يضرب الأمثلة على كل مقصد شارحا وموضحا له بإيراد أمثلة الزجر، أكثر بكثير من اهتمامه بإيراد أمثلة على كيفية تحصيل المقصد ابتداء، وقبل أن يحتاج إلى زاجر يحفظه ويزجر من يعتدى عليه.

ومرت خمسة قرون كتب فيها عدد من العلماء في نظرية المقاصد كتابات يغلب عليها التقليد واقتفاء أثر السابقين دون إضافات نوعية إلى بنيانها المتين الذي شيدوه، وبقيت النظرية أسيرة النشأة الأولى، وظلت تحمل في ملامحها آثار فكرة «الزواجر» الدافعة، أكثر مما تحمل فكرة الدوافع المحفزة على تحصيل كل مقصد من مقاصدها.

وانتظر العالم الإسلامي مدة تلك القرون المتطاولة إلى أن جاء الشيخ الطاهر بن عاشور ليقوم بمحاولة جادة وشاقة لتجديد نظرية المقاصد وفتح آفاقها، ومدها إلى منتهاها الذي يجب أن تصل إليه، فأضاف عدة مقاصد إلى المقاصد الكلية الخمسة التي استقرت قرونا، وأهم ما أضافه - بعد أن قعد ما أضاف تقعيدا أصوليا - مقاصد: أحكام العائلة، ومقاصد التصرفات، مقاصد المعاملات، مقاصد العقوبات، مقاصد التبرعات، مقصد الحرية، وما أطلق عليه «مقصد حفظ نظام العالم».

انفتحت إذن نظرية المقاصد مرة أخرى شيئاً قليلاً - بعد الشاطبي - ولكنه انفتاح بالغ الأهمية، خرجت به هذه النظرية العظيمة نسبيا من محبسها الذي استكنت فيه قرونا طويلة، وبفضل جهود بن عاشور أضحى من الممكن اليوم المضي قدما خطوات أخرى لتجديدها وتطويرها، لتصل إلى غايتها القصوى، وإلى أعلى مراحلها، وأعلى مراحل نظرية المقاصد في نظرنا هي «العالمية»، أي عندما نتمكن من صياغة المقاصد العامة للشريعة صياغة تستوعب المعاني والمبادئ التي بها تتحقق عالمية رسالة الإسلام، ومخاطبته لبني آدم أجمعين وكون شريعته «عدل كلها، ومصلحة كلها، ورحمة كلها»، آنئذ، وآنئذ فقط تصل نظرية المقاصد العامة للشريعة إلى غايتها التي نزلت رسالة الإسلام من أجلها.

ماذا يضير نظرية المقاصد لو وضعنا كلمة «تنمية» مكان كلمة «حفظ»؟، أليس من الأجدر بنا أن نركز خطاب المقاصد باتجاه كيفية تحصيل كل مقصد طرائق تحقيقه في الواقع، خاصة أن أكثر المقاصد أضحت غائبة أو ضامرة على مستوى الممارسة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية السائدة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة؟ ولنجرب ونحاول أن نقلب الطريقة القديمة التي كانت تبدأ بالحفظ والصون، أو الدفع والزجر أولاً، ثم تأتي لماما وبكلام مجمل على جانب الطلب أو التحصيل، - ربما لأن أهل تلك الأزمنة السابقة (العامري، والجويني، والغزالي، والشاطبي)، كانوا يرون أن جهة التحصيل متحققة، وأن الأهم هو جهة الدفع والحفظ، لنحاول قلب تلك الطريقة، أو ذلك الأسلوب، ونقدم صياغات للكليات الخمس انطلاقا من كيفية تحصيلها أولاً، ثم كيفية صونها وحفظها ثانيا، فنقول مثلا: إن من المقاصد الكلية العامة للشريعة، الآتي:

- تنمية الدين: وذلك بنشر تعاليمه، وتعليمه للأجيال الجديدة، وللفئات الاجتماعية المختلفة، حتى يشكل وجدانهم في ضوء مبادئه، ويتشقق وعيهم بقيمه وأحكامه، وتثبت دعائمه في نفوسهم وقلوبهم، حتى يروا أن مصلحتهم هي في التزام مبادئه وأحكامه في قوانينهم وتشريعاتهم، وتكون تنمية الدين أيضا تشجيع العلماء على الاجتهاد والتجديد، وصون حرية التدين، وحرية الإيمان، وحرية الاعتقاد، إلى جانب التحذير من مخالفة أحكامه، أو الخروج على مبادئه، وتطبيق العقوبات على من يقترف جريمة منصوص عليها وعلى عقوبتها في هذا المجال.

- تنمية النفس: وذلك عن طريق الإسهام في توفير مقومات الحياة الكريمة بوسائل متنوعة، وسياسات عامة تتبناها الدولة في مختلف مستويات الحكم والإدارة الحكومية والمؤسسات الأهلية: من رعاية صحية، وتعليميه، ورعاية بدنية ورياضية، ومحافظة على البيئة التي تعيش فيها هذه النفوس، ومقاومة الأمراض التي تفتك بها، إلى جانب صون النفس من العدوان عليها بتطبيق العقوبات الشرعية المنصوص عليها في هذا المجال.

- تنمية النسل، وذلك باتخاذ سياسات تضمن للمواطن، رجلاً كان أو امرأة، حق تكوين أسرة على أسس شرعية قويمة، وتوفير فرص العمل، وأماكن صحية للسكن، ومدارس لتربية وتعليم أبنائهم، وغذاء وكساء وكل ما يؤدي إلى تحسين نوعية الحياة جيلاً بعد جيل إلى جانب صون الأسرة من العدوان عليها، أو من أن تنتهك حرمتها، وتطبيق العقوبات الشرعية المنصوص في هذا المجال.

- تنمية العقل، وذلك بتثقيفه، وتهذيبه، وتشغيله، وتوفير مناخ الحرية اللازم كي يفكر ويبدع ويبتكر، ويتثقف، ويعبر عن آرائه، دون خوف، أو تردد. وتسهم في ذلك مؤسسات الدولة التعليمية والإعلامية، والثقافية، كما تسهم منظمات المجتمع الأهلي وأنشطته وبرامجه المختلفة هذا إلى جانب تطبيق العقوبات الشرعية المنصوص عليها في هذا المجال.

- تنمية المال؛ وذلك باتخاذ سياسات تشجع على العمل والكد والكسب، وتحض على الاتقان والتفوق والسبق، والابتكار وفتح أسواق جديدة، ومجالات استثمار تسهم في عمران البلاد وتحقق مصالح الناس وصون الملكية الناتجة عن العمل والكدح هذا إلى جانب تجريم العدوان على أموال الناس، ومعاقبة من يرتكب جريمة بحق مال الغير أو المال العام بالعقوبة الشرعية المنصوص عليها.

- يتبع -

سورية ومصر



لشاعر النيل/ حافظ إبراهيم

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلب الهلال عليها خافق يجب (1)
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ... ولا تحول عن مغناهما الأدب (2)
أم اللغات غداة الفخر أمهما ... وإن سألت عن الآباء فالعرب (3)
أيرغبان عن الحسنى وبينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب (4)
ولا يمتان بالقربى وبينهما ... تلك القرابة لم يقطع لها سبب؟ (5)
إذا ألمت بوادي النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب (6)
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرا لبنان منتحب (7)
لو أخلص النيل والأردن ودهما ... تصافحت منهما الأمواه والعشب (8)
بالواديين تمشى الفخر مشيته ... يحف ناحيتيه الجود والدأب (9)
فسال هذا سخاء دونه ديم ... وسال هذا مضاء دونه القضب (10)
نسيم لبنان كم جادتك عاطرة ... من الرياض وكم حياك منسكب
في الشرق والغرب أنفاس مسعرة ... تهفو إليك وأكباد بها لهب (11)
لولا طلاب العلا لم يبتغوا بدلا ... من طيب رياك لكن العلا تعب (12)
كم غادة بربوع الشام باكية ... على أليف لها يرمي به الطلب (13)
يمضي ولا حيلة إلا عزيمته ... وينثني وحلاه المجد والذهب (14)

(1) وجب يجب وجبا ووجيبا: اضطرب، وهو هنا كناية عن الإشفاق على كلتا الأمتين والرعاية لهما والحرص عليهما. والهلال: شعار الدولة العثمانية.

(2) الضاد: كناية عن اللغة العربية. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله، أي أقاموا. (3) يريد أن الأمتين تجمع بينهما أمومة واحدة.

(4) يرغبان عن الحسنى: ينصرفان عن حسن الجوار. ورائعات المعالي: ما ظهر منها ووضح.

(5) مت إليه بكذا: توسل إليه به. (6) ألمت: نزلت. وراسيات الشام: جبالها. (7) ذرا لبنان: مرتفعاته وأعاليه، الواحدة ذروة.

(8) الأردن: نهر بفلسطين معروف. والأمواه: جمع ماء. (9) الدأب (بالتحريك): الجد والاجتهاد.

(10) الديم من السحب: جمع ديمة، وهي الدائمة المطر. والقضب: السيوف القواطع، الواحد قضيب، فعيل بمعنى فاعل. يشير بالشطر الأول إلى وادي النيل، وبالشطر الثاني إلى وادي الأردن.

(11) مسعرة: ملتهبة من الشوق. وتهفو: تميل. ويشير إلى حنين رجال لبنان النائين عن وطنهم في أنحاء الأرض طلبا للرزق.

(12) الريا: الرائحة الطيبة. (13) الغادة: الفتاة المتثنية لينا ونعومة.

(14) يقول: إن هذا الطالب يذهب على وجهه غير مزود إلا بعزيمة صادقة، ويعود متحليا بحلى المجد، موفور الثراء والغنى.

يكر صرف الليالي عنه منقلبا ... وعزمه ليس يدري كيف ينقلب (15)
بأرض (كولب) أبطال غطارفة ... أسد جياع إذا ما ووثبوا وثبوا (16)
لم يحمهم علم فيها ولا عدد ... سوى مضاء تحامى ورده النوب (17)
أسطولهم أمل في البحر مرتحل ... وجيشهم عمل في البر مغترب (18)
لهم بكل خضم مسرب نهج ... وفي ذرا كل طود مسلك عجب (19)
لم تبد بارقة في أفق منتجع ... إلا وكان لها بالشام مرتقب (20)
ما عابهم أنهم في الأرض قد نثروا ... فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرهم سراء في مناكبها ... فكل حي له في الكون مضطرب (21)
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا ... إلى المجرة ركبا صاعدا ركبوا (22)
أو قيل في الشمس للراجين منتجع ... مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا (23)
سعوا إلى الكسب محمودا وما فتئت ... أم اللغات بذاك السعي تكتسب (24)
فأين كان الشآميون كان لها ... عيش جديد وفضل ليس يحتجب
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على ... ربوعها من بنيها سادة نجب (25)
لولا رجال تغالوا في سياستهم ... منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا (26)
إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم ... فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا (27)

(15) «يكر صرف الليالي عنه» الخ. يقول: إن نوائب الأيام ترتد عنه منقلبة وعزمه ثابت ماض في سبيله لا يتغير ولا يتبدل.

(16) أرض كولب: أمريكا أضيفت إلى مكتشفها. والغطارفة: السادة الشرفاء، والسراة من الناس، الواحد غطريف وغطراف. يريد رجال لبنان المهاجرين إلى أمريكا. وإذا ما ووثبوا وثبوا، أي إذا ما اعتدي عليهم انتصفوا لأنفسهم. والمواثبة بين الخصمين: أن يثب كل منهما على صاحبه.

(17) تحامى: تتحامى، فحذف إحدى التاءين للتخفيف. ويريد بقوله «لم يحمهم علم»: أنهم ليسوا أصحاب سفارة يحتمون بها وإنما يحتمون بمضائهم وعزمهم اللذين ترتد عنهما نوائب الأيام كليلة مهزومة.

(18) يقول: إنهم لا أسطول لهم ولا جيش غير الأمل البعيد والعمل للرزق في كل مكان.

(19) الخضم: البحر. والمسرب: الطريق. والنهج من الطرق (بتسكين الهاء): الواضح المسلوك منها، وحرك الهاء بالفتح لضرورة الوزن. «وذرا كل طود» أي أعالي كل جبل.

(20) المنتجع: مكان الانتجاع، أي طلب الرزق.

(21) السرى (مقصورا وقد تمد للشعر): السير بالليل. ومناكب الأرض: نواحيها. والمضطرب: المذهب يضطرب فيه الناس، أي يذهبون ويجيئون.

(22) رادوا: طلبوا. والمناهل: الموارد. (23) انتدب فلان للأمر: خف إليه.

(24) يريد بقوله «وما فتئت» الخ. أنهم ينشرون اللغة العربية حيثما حلوا، وفي ذلك كسب لها.

(25) عاج على المكان: مال إليه.

(26) يقول: لولا جماعة الفريقين من القطرين وتغاليهم في ذلك، لما وقع بيننا ما يوجب اللوم منا ولا العتاب منهم.

(27) الضمير في «مودتهم» للسوريين.

منهج النظر فى دراسة القانون مقارنًا بالشريعة (*)



المستشار/ طارق البشرى

١- الموضوع الذى تتعلق به هذه الدراسة هو عن مناهج دراسة القانون مقارنًا بالشريعة، ومناهج تدريسها تدريسًا مقارنًا، ومدى صلاحية كل منها، وقد بدأت بالمعتاد والمتوقع، وهو مطالعة عينات للدراسات وكتب التدريس التى اتبعت الأسلوب المقارن، ووقفت كثيرًا بين إمكان اختيار العينات لذلك وبين إمكان "المسح" بالقدر المتيسر للجهد الفردى، كما ترددت بين التقاط الظواهر العامة فى هذا الشأن وبين محاولة التدقيق فى تفاصيل العملية الفعلية التى تتبع فى وضع المقارنة.

ثم فجأة ألقي فى ذهنى السؤال عما تريد من هذه الدراسة، وما هو معيار التقويم لصحة هذه المناهج أو فسادها؟ ومعيار التقويم هنا يتوقف علي إدراك ما تريد ومن جهة أخري فإن معيار التقويم لا ترد الحاجة إليه فقط لمعرفة مدى الصواب والخطأ، وإنما هو لازم لاختيار المادة المبحوثة، فنحن لا نستطيع أن نجمع مادة أى بحث إلا إذا كان لدينا معيار مسبق لما تأخذه وما نتركه، مما نرى له وجه دلالة فى السياق المبحوث فنأخذه، أو لا نرى له دلالة مؤثرة فى المجال المبحوث فنتركه، وبمعني آخر، إننا لا نستطيع أن نجيب فى أمر ما قبل أن يتجلي لنا السؤال عن هذا الأمر.

أول الأسئلة، ما الذى نريد من هذه المقارنة التى نجريها بين القانون والشريعة؟ وإن ما نريده وما نحدده كهدف لنا هو ما يتوقف عليه تقدير مدى صواب منهج المقارنة أو خطئه وتقدير أفضلية منهج على غيره، لأن المنهج طريق ينتسب إلى الغاية منه. ما الذي نريده من المقارنة فى مرحلة ما إذا أردنا إثبات أن الشريعة «أفضل» من القانون الوضعي، من حيث الاستجابة لحاجات الناس. وفي مرحلة غيرها إن أردنا إثبات أن الشريعة «أسبق» من القانون الوضعي فيما يزهو به هذا القانون من أحكام، وفي مرحلة أخري إن أردنا إثبات أن الشريعة لا

(*) بحث قدم لندوة انعقدت بجامعة قطر فى ديسمبر سنة ١٩٩٥، ونشر بصحيفة الحياة اللندنية على ثلاث حلقات فى الأسبوع الأول من مارس سنة ١٩٩٦.

تقل عن القانون الوضعي، في تحضر أحكامها، وما أكثر ما جمع باحثونا بين هذه الدلالات يستخلصونها من مقارناتهم.

بدأت المقارنة مع الشك الذى أصاب العقل المسلم من قدرة الفكر السائد فى مجتمعه على تحقيق النهضة المرجوة، بعد أن بهره التفوق الغربى وانتصاره على المسلمين بحكوماتهم ونظمهم، وبعد أن بهره ما رآه من نظم وممارسات فى المجتمعات الأوروبية، فقام يستنهض أمته بعقد المقارنة وباستخلاص ما قدّر نفعه لدى الغرب ينقله ويستخلصه ويعمل على ضمه واستيعابه فى أطره المرجعية الإسلامية ومعايير احتكامه المستمدة من هذه الأطر، نجد هذا بما يظهر لنا من اجتهادات الشيخ محمد عبده ومن يشاكله.

وقد تعدلت القوانين والنظم إلى ما صارت به مأخوذة عن قوانين الغرب ونظمه وإلى ما جرت به فى إطار المرجعيات الغربية، وكان لابد لتسويغ هذه النقلة الخطيرة من أن تجرى الكتابات والأقوال بعدم جدارة الشريعة الإسلامية لأن تحكم مجتمعًا يريد النهوض وهو فى القرن العشرين، وإن أحكامها التى ظهرت منذ بضعة عشر قرنًا قد صارت من تراث الغابرين، وجاء رد العقل الإسلامي على ذلك بعقد المقارنة بين أحكام الشريعة وأحكام القانون، لإثبات أفضليتها وأسبقيتها، أو بالأقل لإثبات أنها لا تزال صالحة لحكم مجتمعات تعيش فى القرن العشرين، ومن هنا جرت البحوث المقارنة لإثبات هذه الصلاحية، وهذه المواكبة الزمنية لما اعتبر من ملامح المعاصرة فى القرن العشرين، نجد هذا فى ما يظهر لنا من اجتهادات أمثال أساتذتنا: الشيخ عبد الوهاب خلاف، والشيخ على الخفيف ممن درسوا فى مدرسة القضاء الشرعى ومن على شاكلتهم.

إننى هنا لا أؤرخ، ولكننى أكتفى بالإشارة إلى السياق العام، آملا أن يساعد ذلك على أن يظهر فى النهاية وجه ما أريد أن أطرحه، وأنا فى صدد رسم ملامح هذا السياق العام، إنما يجرى منى القول بتعميمات قد لا تخلو من عدم الدقة، لأن التعميم يوجب قدرًا من التجريد يتخفف من التفاصيل ومما يعتبر أوضاعا عارضة، لذلك كان التعميم دائما لا يخلو من مجازفات ومن تعرُّض الصورة الكلية للعديد من التفصيلات العارضة.

٢- لما ساد التشريع الآخذ عن قوانين الغرب ونظمه، ظهر مطلب العودة إلى الشريعة الإسلامية، ظهر بالتدريج، لأن العقل المسلم لم يكن يتصور فى البداية أن تلك القوانين والنظم الغربية وضعت لتسود المجتمع كله ولتحل محل الشريعة الإسلامية، نظر إليها فى البدايات على أنها نظم وافدة تقف بجوار الشريعة ولا تعقبها، يشهد علي ذلك فى مصر مثلاً أن القوانين الآخذة عن الغرب عندما صدرت فى سنة ١٨٨٣م وأنشئت المحاكم الأهلية لتطبيقها، لم يتضمن كل ذلك أن المحاكم الأهلية هى جهة القضاء ذات الولاية العامة، وأن الناس استصحبت مع هذا السكوت أن الولاية القضائية العامة باقية للقضاء الشرعى، كما يشهد به أن وزيرين منهما على مبارك وافقا علي سن تلك التشريعات وإصدارها إقناعًا للأجانب بأن يستغنوا بها عن المحاكم المختلطة لأنها تطبق قوانين آخذة من مواردهم، فتكون مصر بهذا

الإصدار قد استردت سيادتها القضائية وبعضا من سيادتها التشريعية وإن بقيت مقيدة، لأن القضاء الأصلي تقيمه حكومة مصر دون مشاركة للحكومات الأجنبية فى التقنين، ولأن القانون الأصلي تصدره الحكومة المصرية دون توقف على مشيئة الدول صاحبة الامتياز، وإن كانت إرادة الحكومة المصرية مقيدة بأن تصدر تلك التشريعات من موارد الغرب وتشريعاته، ثم اكتسبت تلك المحاكم الأهلية الولاية العامة بعد إنشائها بعدد من السنين. وكان الاستعمار البريطاني قد مد جذوره فى الأرض المصرية مع خواتيم القرن التاسع عشر، وكان الفكر العلماني قد صارت له مؤسساته ودعاته، سواء فى مدارس الدولة أو فى دوريات الثقافة أو فى الصحف السيارة.

من هنا بدأت المطالبة بالعودة إلى الشريعة الإسلامية كشريعة حاكمة، وإلى القضاء الشرعى الذى يطبقها بوصفة صاحب الولاية العامة. بدأت هذه المطالبة فيما قبل الحرب العالمية الأولى كمطلب، لا أقول مطلبا مهنيا، ولكن أقول: إنه كان يدور على أسس فقهية وفكرية واجتماعية، ويتردد الحديث بشأنه بين رجال الصفوة من العلماء وغيرهم، ثم تطور الأمر بعد الحرب العالمية الأولى وبعد قيام ثورة ١٩١٩م، وبعد انكشاف أن التحول الذى يجرى فى المجتمع المصرى، وغيره من مجتمعات المسلمين، لا يقتصر على استبدال قوانين بقوانين، ولا على الاستعاضة عن تنظيم قضائي بتنظيم آخر، ولكنه يمتد تحويلا لأسس الشرعية والمرجعية كلها في المجتمع، فالجامعة الإسلامية تسقط والهوية التي تقوم علي أساس الإسلام تزوي، والتكوين العلماني يسود، وبدا أن الشريعة الإسلامية -وهي ركن النظم الإسلامية- إنما أريد إقصاؤها لا لعوار أو نقص أو قصور فى تنظيمها للمجتمع وتنقيفها للبشر، ولكن أريد بإقصائها تغييب شعور الجماعة بذاتها، وتفكيك


علي مبارك

قوى التماسك لها بوصفها جماعة ذات هوية وموقف حضارى وتاريخ ممتد، ومن هنا بدأ مطلب العودة إلى الشريعة الإسلامية يتحول من مطلب فقهى مهنى اجتماعى إلى مطلب سياسى، وجرى ذلك على أيدى الحركات السياسية الإسلامية التى ظهرت مع نهاية العشرينات من القرن الحالى، وهو لا يزال كذلك.

لقد صار تطبيق الشريعة الإسلامية، أو العودة إلى الاحتكام إليها، صار "مسألة" أو "قضية"، وصارت هذه المسألة تعالج فى مجالين: مجال فكرى يقوم بإعداد البحوث والدراسات وبذل الجهود للمواءمة بين أحكام الشريعة الإسلامية وأوضاع الواقع المعاش ومطالبه، وبإجراء المقارنات بين أحكام القوانين الوضعية والأحكام التى تفتق عنها الفقه الإسلامى أو التى يمكن أن يتفتق عنها، ومجال سياسى يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية ويحشد النفوس للمطالبة بها، ويقف حارسا على هذه الدعوة، ويبين مدى ارتباط الشريعة والاحتكام إليها بالموقف العقدى الإسلامى، ومدى ما يطرأ من نقص على إسلامية المسلم إن ابتعد عن الاحتكام إلى شرع الله، وما يلحق المجتمع الإسلامى من عوار فى هذه الحالة، ومن الطبيعى أن كلا المجالين

يؤثر فى الآخر ويتأثر به، وهو يغذيه ويتغذى بنتاجه.

على أنى أجازف بالقول: إنه وإن كان كلا النشاطين، كل فى مجاله، يتجه إلى جمهور يتلقى عنه، وكل منهما يستخدم الأدوات الصالحة لهذا التوجه، سواء بالبحث العلمى بالنسبة للنشاط الفكرى، أو بالدعوة بالنسبة لمجال النشاط السياسى، فإن كلاً منهما كان يستبطن فى وعيه أن الغاية المرتجاة هى أن تتبنى الدولة هدف العودة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وأن يستعيد المجتمع المسلم شريعته بواسطة سلطة الدولة وعن طريق قراراتها الملزمة القادرة وحدها على تحقيق هذا الأمر.

كان ولا يزال الهدف المستبطن هو تقنين الشريعة الإسلامية، أى صياغة أحكامها صياغة قانونية معاصرة، لتصدر بها قوانين وقرارات من الدولة، وتكتسب شرعية سيادتها من إقرار الدولة لها وإصدارها لأحكامها، ووقوفها كافلة تطبيقها، حارسة على حسن إعمالها، وهنا ظهرت العقبة الكؤود التى تزداد كل حين امتناعا، كلما ازدادت مع الوقت المطالبة بعودة الشريعة الإسلامية إلحاحا وانتشارا.

وهنا أحاول أن أقترب من لب ما أردت من هذه الورقة أن تطرحه، وهو في ظني ما يتوقف عليه تقرير منهج الدراسة المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانوني الوضعي.

٣- يجدر بنا أن نفرق ونميز بين الدولة من حيث هى هيئة وهيكل تكوين وأسلوب أداء وبين العاملين بها من ناس متخصصين تتوزع عليهم التخصصات، كل فيما تأهل له، وتتقسم بينهم الأعمال نوعيات ومستويات، ليتجمع الأداء الكلي بعد ذلك من مجمل ما أفضت إليه تلك الأعمال، وهو يتجمع مصطبغًا بالهدف الكلي أو بواحد من الأهداف الكلية التى نيط بالدولة أداؤها وتحدد بها الغرض من قيامها، مثال ذلك المدرسة أو المعهد العلمى، تتوزع الدراسة فيه أقساما وفروعا معرفية، ويقوم بذلك رجال متخصصون كل فى مجاله، ولكن الأداء العام الإجمالى هو ما يصوغ عقل الطالب ويشكل الحصيلة العامة أو المنتج النهائى، ومن هنا يجرى التمييز بين المدرسة بعامة وبين أفراد قائمين عليها، فهم ليسوا سواء، وما يصدق عليها يتعلق بالغرض المقصود، وبحصيلة الأداء العام، وهو لا يصدق بالضرورة علي العاملين بها أفرادا وفرقا.

بهذا التمييز الواجب، يمكن القول بأن الدولة الحديثة فى مثل بلادنا الشرقية عامة، قد بلورتها الصناعة التاريخية منذ وجدت فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وبلورتها حصيلة العلاقة العضوية مع النفوذ الغربى المهيمن، بلورتها وواحد من أهدافها الأساسية المتضمنة فى أدائها الوظيفى وصياغتها الفكرية، أن تكرس النزعة القطرية والإقليمية، وأن تؤكد الوجه العلمانى الوضعى للمشرب الفكرى، وأن تصفى المؤسسات الاجتماعية التقليدية التى كانت تتشكل بها وحدات الانتماء الاجتماعية، محلية كانت أو مهنية أو مذهبية، والتى كانت تحفظ التوازن الاجتماعي للجماعة، وأن تحل السلطة المركزية محل التكوينات الجماعية الفرعية، وأن تحتكر العمل العام من دون هيئات الإدارة الذاتية كالطوائف والنقابات والملل وغيرها، وأن تمتلك -على سبيل الاختصاص- المحجوز سلطة

إدارة المجتمع وشئون الأمة بغير شريك لها من دونها من هيئات المجتمع المنظمة لجماعاته الفرعية.

وليس غير التوجه العلماني الوضعي هو ما يكفل للدولة إمكان تحقيق كل هذه الوظائف لأنها لابد لقيامها بكل هذه المهام، لا أن تمتلك السلطة منفردة فقط، ولكن أن تمتلك مصدر السلطة، لا أن تمتلك مكنة التشريع فقط، ولكن أن تمتلك مصدر التشريع، أي أن تكون هي مصدر الشريعة لما تقيمه في المجتمع من نظم وهيئات ولما تسنه من قيم وأحكام، والدولة الحديثة تنظر إلى علاقتها بالجماعة وبالمجتمع بوصفها قوامة عليهما وذات وصاية، وهذا أمر إن لم يظهر في الصياغات الفكرية النظرية لقيامها وتكوينها، و لا يظهر في الفكر السياسي والفكر الدستوري الذي تستند إليه، إلا أنه يظهر واضحًا في ممارستها لوجوه أنشطتها المختلفة، فهي أبدًا مصدر الشرعية لأي من أنواع النشاط التي تمارسها العامة والجماعات المختلفة، سواء في التعليم أو الصحة أو البناء أو العمل أو ممارسة المهن أو الزراعة أو الصناعة أو الري أو فتح المحال العامة من فنادق أو مطاعم أو متاجر .. إلخ، وسواء نشاط التبرع أو أعمال الخير أو إقامة الجمعيات أو طبع الكتب أو إنشاء الصحف أو الخطابة .. إلخ، لاشيء من ذلك إلا ويحتاج إلى ترخيص من جهة ما من جهات الدولة، ويصدر ذلك بواسطة قانون ينظمه، والقانون تصدره الدولة ذاتها من الهيئة المختصة بالتشريع فيها.

والقانون يصدر مستندًا في مرجعيته إلى إجراءات إصداره عن طريق أجهزة الدولة، وإلى ما تقدره هذه الأجهزة من مصلحة في الإصدار، ومن ثم فإذا كانت الدولة الحديثة ذات سلطة فقيرة فيما تذكره النظريات الدستورية ونظريات علم السياسة، فهي مقيدة بما تنشئه من قوانين، أي هي مقيدة بعضها من بعض، أي سلطتها التنفيذية بسلطتها التشريعية، بواسطة سلطتها القضائية التي تنظر إلى ممارسات السلطة التنفيذية في ضوء ممارسات السلطة التشريعية لتقضي بما تنفذه السلطة التنفيذية، والدولة باعتبارها جماع تلك السلطات الثلاث فهي مقيدة بإرادتها ومشيئتها الذاتية، ولا يرد عليها القيد من خارجها من إطار مرجعي عام خارجي يهيمن عليها مثل ما يحدث عندما نتكلم عن وجوب تقيد الدولة بأحكام الشريعة الإسلامية، إذ تصير الدولة محكومة بمرجعية خارجة عنها لم تصنعها الدولة بذاتها، ومن ذلك يظهر وجه القول بأن العلمانية هي من خصائص الدولة الحديثة في مجتمعاتنا، وهي من مقتضيات هذه الدولة ومن أركان تكوينها، وهي خاصة لصيقة متضمنة في مواد بنائها، ومن هنا استطاعت الدولة أن تحول المجتمع إلى أن يصير من ممتلكاتها وأصولها الثابتة، ومن هنا صار المجتمع تابعًا وملحقًا بالدولة وليس العكس، لأنها تملك عليه لا سلطة التشريع له فقط، ولكنها تملك مصدرية سلطة التشريع تلك.

من هنا يظهر التعارض الرئيسي بين مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية و بين الدولة بالصياغة التي تقوم عليها هياكلها وبالوظائف التي تقوم بها هيئاتها الحديثة.

٤- نحن نلحظ من متابعة وقائع حركة المطالبة بالعودة إلى الشريعة الإسلامية، أنه كلما توجهت هذه الحركة إلى الدولة كلما تعثرت وارتدت على آثارها، وكلما توجهت إلى الجماعة سواء في خاصتها أو عامتها كلما ازدهرت وزهت، وموقف "الدولة الحديثة" ليس مرجعه إلى أنها لم تؤمن بالتوجه إلى الشريعة الإسلامية بعد، ولكن مرجعه إلى أنها بمركزيتها الطاغية وامتلاكها للمجتمع لا تستطيع إلا أن تمتلك مصدر الشرعية في المجتمع، فلا تكتفي بامتلاك سلطة التشريع، كما لا تستطيع إلا أن تكون لديها القدرة على صياغة القيم وامتلاك الأساس الذي تقوم عليه القيم، بمعنى أنه متى وجدت دولة تمتلك المجتمع وتعمل على السيطرة المنفردة على مقدراته لتكون هي المؤسسة الوحيدة ولتحطم ما دونها وما يماثلها وما قد يعلوها من وحدات الانتماء الأخرى الجامعة للبشر على اختلاف مشاربهم وتنوع أنشطتهم، متى وجدت دولة بهذه المواصفات فلا بد أن تكون علمانية لتصير شرعيتها مستمدة من ذاتها، ونشاطها صادرًا عن محض مشيئتها.

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يقوم رجاء معتبر في تحقق له شأنه في أن تبادر الدولة الحديثة في بلادنا وتأخذ على عاتقها مهمة إعادة الشريعة الإسلامية كشريعة حاكمة وشريعة مسيطرة على الأفعال والأقوال والنظم إنما الرجاء جله في السعي بهذه المطالبة لدى جماعات الأمة، فهي مطالبة في هذا المجال أنفذ وأفعل، لأنها تستثير فيهم تراثًا يحفظونه وعقيدة يتعلقون بها وقيم سلوك وتعامل يألفون الاحتكام إليها، وقوة تماسك يترابطون بها مع بعضهم البعض، وبقدر ما يشيع تبني هذه المطالبة بين أفراد الأمة وجماعاتها، بقدر ما يهيئ ذلك وجوه الضغط على الدولة لتعدل من طبيعتها والتخفف من غلواء تفردها، وإن أفعل ما يقوم به هذا الأثر هو تخلل الأمة هيئات وجماعات وطوائف، ثم ما يشيعه ذلك من تغلغل في أبنية الدولة الحديثة من خلال العاملين بها كل في مجاله ومحيطه، وأفعل ما يكون هذا الصنيع في أجهزة الدولة الحديثة ذات الهيمنة المركزية وذات الضخامة والتوغل في شئون الجماعة، لأنها دول ذات أجهزة كبيرة تضم أعدادًا غفيرة من المواطنين، بما تنضح به عقائدهم وآرائهم، وبما يرشح من ذلك من آثار بقدر كثافتهم وقوة اقتناعهم.

إن لنا في تجربة أحداث ١٩١٩م في مصر عبرة، يمكن استدعاؤها في هذا الصدد، فإن مطلب الاستقلال عندما ارتفع وشاع بما يشبه الإجماع، استطاع أن يحمل مؤسسات الدولة والإدارة إلى ما صارت به تزاور عن حركة شعب أعزل، سلاحه تماسكه، وأداته وقوفه صفًا كالبنيان المرصوص، فصار ذلك الجهاز محايدًا ثم متعاطفًا ثم مشاركًا، وهذا ما أكسب حركة المصريين وقتها صيغتها السلمية، ومضاء عزيمتها في الوقت ذاته. عبّر اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني في مصر عبّر من وجهة نظره عن موقف جهاز الدولة المصري وقتها بقوله: "إن الحكومة صارت مستحيلة"، وفي الحقيقة إن الحكومة صارت مصرية، نضح عليها مجمل شعور الرأي العام المصري بما يطلب وما يبغي، وكان جهاز الدولة ذاك هو عينه الذي حكم الإنجليز المصريين به ما يجاوز خمسًا وثلاثين سنة سبقت، فامتنع في ١٩١٩م على حاكميه وسلس للمحكومين به، في لحظات حاسمة، وتعدلت طبيعة الدولة وتنوع أداتها من بعد إلى

درجة لا بأس بها بالقياس إلى سابق عهدها، وقد قصدت بذكر هذا المثال، بيان أن التوجه إلى الأمة من شأنه أن يفضى إلى التأثير بالتعديل فى طبيعة الدولة وتنوع أدائها، ما دامت اجتمعت الأمة بهذا التوجه على مطلب معين.

ومن جهة أخرى فنحن نتابع -فى خبرة الواقع المعاش - حركة المناداة بالحجاب بعد السفور، ولنا أن نتصور لو أن حركة العودة إلى الحجاب بين النساء كانت توجهت إلى الدولة لتعميم الحجاب أو تزكيته فى المدارس وأماكن العمل.

● فأولاً: كان الأمر الواقع سيكون فى صالح السفور، وكان الحجاب سيقوم بمثابة دعوة لتغيير الواقع.

● ثانياً: كان سيلقى من الصدود ما لا يمكنه من الإقناع بدعوته.

● وثالثاً: كان سيولد نقطة احتكاك بينه وبين الدولة لأنه ينازعها على قرارها ولأنه يريدها على الخروج من علمانيتها، ولكن الحادث أن دعوة الحجاب توجهت إلى جمهور الأمة، ولم تشاهد القول بها بقدر ما شاهدنا الفعل لها، الذى صار إلى الانتشار والتغلغل فى المجتمعات التى اعتادت بعض أوساط النساء فيها على السفور منذ عشرينات القرن العشرين، حتى صارت الأزياء حاسرة عما لا يجوز كشفه، ثم آل الأمر إلى العكس، فدنت الجلابيب وتغطت الشعور، وآتت المحاكاة آثارها، وتغير الوضع المحيط وانسدلت الملابس، وصارت الحاسرة تفاجأ من أمر نفسها بأنها قد صارت أقرب إلى الانكشاف والعرى، رغم ثبات زيها طولا وسعة، لأن "الوسط" قد تغير وكشف لها من أمر نفسها ما لم تكن تلحظ، واكتسب الحجاب الأمر الواقع، وجاءت دعوة التغير من دعاة السفور وظهرت الدولة حيية مترددة تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وتلزم بالسفور فى المدارس ثم تعود، وتعدل وترمى بأنصاف الأقوال وتواقض القرارات.

هذا ما قصدت بيانه من التوجه إلى الأمة، واكتساب قدم راسخة فيها قبل التوجه إلى الدولة، والتوجه إلى الأهالى بالنصيحة وبالفعل الفردى والجمعى، قبل التوجه إلى الحكومة لإصدار القرارات.

-٥- إلى أى مدى يمكن التوجه بطلب العودة إلى الشريعة الإسلامية التوجه به إلى الأمة لممارسته، وهو متعلق بتطبيق القانون النافذ فى المجتمع مما تملكه الدولة، ومما يعتبر جوهر سيادتها؟ وهل يمكن ممارسة الأهلية للتحاكم بالشريعة الإسلامية فى ظل سيادة الدولة القائمة والنظام القانونى الوضعى السائد؟ إننى أحاول أن أضع السؤال بهذا الأسلوب الملتبس حتى يمكننا تحريره واستخلاص حقيقة المقصود، فليس المقصود تحدى سلطة الدولة، وليس المقصود إيجاد قانون بطريقة تأباها نظم الدولة السائدة، إنما المقصود الذى أريد أن أوضحه هو كيفية تخلل الشريعة الإسلامية للنظام القانونى السائد، وهذا ما يجعلنا نحدد فى البداية ما هو المقصود من "الشريعة الإسلامية".

عندما عدلت تشريعاتنا من الأخذ عن الشريعة الإسلامية إلى الأخذ عن القوانين الأوروبية، فرنسية أو إنجليزية أو غيرها، لم يكن قصد النفوذ الغربى من ذلك- فى ظنى- استبدال أحكام محددة فى القانون المدنى أو التجارى بأخرى، فقد كان ذلك ممكنا فى إطار حاكمية الشريعة الإسلامية بما تسع من تعدد وتنوع فى الاجتهادات والمذاهب والآراء، ولم يظهر أن مسع من ذلك جرت محاولته قبل إدخال القوانين الأجنبية، ولا أن هذه القوانين الغربية أدخلت بعد اليأس من محاولات تجديد الشريعة الإسلامية، لم يظهر أى من ذلك، إنما كان القصد- فى ظنى- هو العدول عن الإطار المرجعى الشرعى إلى إطار مرجعى آخذ عن الغرب وقوانينه بما يقضى على استقلالنا التشريعى ويكرس التبعية للغرب فى نظمنا التشريعية واجتهادات قضاتنا ومفتينا وشراح القوانين عندنا. وهذا ما حدث فقد صرنا بعد أن كنا نقول: قال الله وقال الرسول، صرنا نقول: قال قانون نابليون، وقال القانون الرومانى من قبله، وبدل أن نستدل بمالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل، صرنا نستدل بـ: "بلانيول" و"دوجى" و"اسمان" و"كابيتان".. إلخ، وبدل أن نلجأ للفتاوى الهندية ومبسوط السرخسى، صرنا نلجأ "لداللوز" وأحكام النقض الفرنسية.

لا تثريب علينا أن نطلب العلم من كل مكان، ولو من الصين و لم تكن من أهل العبادات السماوية، ولكن التثريب أننا لم نضف علما إلى علم، إنما استبدلنا بعلمنا علم الآخرين والإثم الأعظم أننا فصلنا تنظيماتنا عن عقيدتنا كأصل للشرعية ومعيار للاحتكام، وأخذنا من عقائد الآخرين أصل شرعيتهم ومعايير احتكامهم. لم يكن المقصود إذا استبدال حكم فرعى فى واقعة أو نازلة محل حكم آخر، وإنما كان المقصود العدول عن أصول الشريعة الإسلامية إلى أصول شرعية وضعية غربية وافدة. ويقال إن القانون المدنى الذى أعد لمصر من القانون الفرنسى وصدر فى ١٨٨٣م كان قد عرضت نصوصه على بعض علماء الشريعة، فتحدث بعضهم عما وجده من وجوه الشبه بين أحكام هذا القانون وبين اجتهادات الفقه المالكى فى عديد من المسائل، وهذا يؤكد أن لم يكن المقصود العدول عن الأحكام، إنما هو العدول عن المصدر الشرعى للحكم، وهذا ما تحقق فعلا فيما تلا ذلك من عقود، حتى ظهرت الدعوة لاستقلال القانون المصرى من القانون الفرنسى بمجموعة التقنينات التى صدرت فى الأربعينات، وكان أساس حركة الاستقلال هذه هو الفصل بين أحكام هذه التقنينات وبين الأصل المرجعى لها، سواء كان قانونا فرنسيا أو قانونا ألمانيا أو غير ذلك.

وبهذا يظهر أن حركة العودة للشريعة الإسلامية، إنما تجد أساسها وحقيقة مقصودها فى العودة للإطار المرجعى والمصدر التشريعى لأحكام الشرعية التى ولدها الفقه الإسلامى بأساليب الاجتهاد المعروفة من الأصلين الثابتين للشريعة الإسلامية، وهما القرآن الكريم وسنة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، لذلك أخال أننا أخطأنا أحيانا عندما استدرجنا للحديث عن الأحكام التفصيلية، كان طبيعيا ومطلوبا أن نثبت بالحديث عن الأحكام الفرعية قدرة الشريعة الإسلامية على البقاء والتجدد وتنظيم حياتنا المعاصرة ووجوه النفع الاجتماعى من تطبيقها، ولكن هذا السعى للإثبات غلا أحيانا وجعل البعض يظن أن طلبتنا أحكام فرعية محددة بموجب كونها كذلك، مع أن طلبتنا هى إعادة أصل الشرعية الإسلامية لتكون حاكمة ومعيار احتكام ومصدرا تشريعيا للمعاملات والنظم، فضلا

عن قيم السلوك الضابط للأخلاق. المطلوب هو المرجعية، هو المورد والمشرع وعين الماء، المطلوب ليس الموزون مجردا، بل الميزان فى الأصل والأساس، ونحن نطلبها كإطار فسيح يسع -كما وسع دائما على مدى تاريخى طويل وفى مجال جغرافى عريض- العديد من الاجتهادات وتنويعات الأحكام واختلافاتها وتغيرها، نطلبها ونعلم أنها تسع اجتهادات وتنوعات بقدر ما تسع وطبقا لمناهج التفسير وأصوله المعروفة والمعترف بها.

٦- المقصود هنا بالتوجه إلى الأمة بالمطالبة بعودة الشريعة الإسلامية، لا يبغى تحدى سلطة الدولة، ولا يصل إلى إيجاد قانون وتنظيم بديل على غير ما سنت الدولة، ولا يبلغ الخروج على قوانينها، وفى الوقت ذاته ليس المقصود فقط هو عموم الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وتزكية أطرها المرجعية ومعاييرها فى الاحتكام بها بين الناس، إنما المقصود هو منزلة بين هاتين المنزلتين، وهذا ما أحاول عرضه فى هذه الورقة حول "منهج دراسة القانون مقارنا بالشريعة الإسلامية".

المقصود ليس فقط الدعوة "للمطالبة" إنما هى دعوة تفيد الحث على "الممارسة"، ولكنها ممارسة مقصود أن تجرى لا لتغيير الأحكام القائمة (فهذا أمر تبقى بالنسبة له الدعوة إلى المطالبة بتغيير ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية وتشريع ما توصيه مما لا يزال غير نافذ بسلطان الدولة) ولكنها "ممارسة" تجرى لتغيير "الأطر المرجعية" أى تعديل قواعد الاحتكام للنصوص والأحكام السارية الآن، ليصير مصدر الشرعية لها هو اتفاقها مع الشريعة.

المطلوب هنا هو النظر فيما تسعه الشريعة الإسلامية من أحكام تقوم بها القوانين والتشريعات السارية والنافذة فى المجتمع الآن، ورد هذه الأحكام إلى أطرها المرجعية من الشريعة الإسلامية، وإسنادها إلى ما يمكن أن تستند إليه من مصادر التشريع الإسلامى وفقا لما تفتق عنه اجتهاد الفقهاء المسلمين قديما وحديثا، وهذه المسألة هى ما أحاول عرضه: أن يتجه رجال القانون والفقه والعاملون بالقانون من المحامين والقضاة والشارحين والدارسين والأساتذة المعلمين، أن يتجه كل هؤلاء إلى بيان الإسناد الشرعى لأحكام القوانين القائمة، فى حدود ما تطيق الشريعة الإسلامية وفقهها بإسناده من أحكام تلك القوانين.

وأبادر فأذكر أن الأمر هنا لا يعنى إضفاء بردة الدين والشرع الحنيف على نظام قانونى وضعى (علمانى)، ولكنه هو أمر تخلل للنظام القانونى القائم الذى لا أستطيع إبداله، تخلله بالتخريج لرد أصول مرجعيته لمصادر التشريع الإسلامى، والفرق بين العمليتين بناتى من وجوه ثلاثة هى ما يأتى:

أولاً: إن إضفاء بردة الإسلام على ما ليس منه، مقصود به تثبيت الوضع القائم وإبقاء المصدرية الوضعية (العلمانية) للتشريعات القائمة، وهى تبغى إذابة الفروق بين الصيغة (العلمانية) الوضعية والصيغة الشرعية الإسلامية، وهى تنكر مبرر قيام دعوة إسلامية تهدف إلى تطبيق الشريعة وإقرار حاكميتها فى المجتمع، باعتبار أن الشريعة قائمة ونافذة فعلا.

بينما التخلل المطلوب للنظام القانونى يستبقى وضوح الفروق لديه بين أحكام ونظم وقوانين ذات مصدر (علمانى) وضعى حسب أصل نشأتها وتقريرها، وبين أحكام ونظم

وقوانين ذات مصدر شرعى إسلامى، وهو يدعونه إلى تخلل النظام القانونى لا ينكر وجوب قيام الدعوة العامة بإقرار مرجعية الشريعة الإسلامية، فهو يضيف وسيلة إلى وسائل، ولا يستعيض بوسيلة مقترحة عن الوسائل القائمة الآن فعلا، فهو يضيف ولا ينقص.

ثانياً: إن إضفاء بردة الإسلام على ما ليس منه، إنما يصطنع فقها واجتهادا لا يجريان وفق أصول التفسير والفقه التى يجريها علماء الشريعة، إنما يؤولون الأحكام الشرعية بما يخرجها عن وجوه القياس الصحيحة إلى ما ليس مقصودا به إلا إضفاء الصيغة الشرعية على أحكام تتعارض معها، فهو باجتهاده يصل فى الحقيقة إلى "التعطيل" وليس إلى "الإعمال".

بينما القائل بالتخلل للنظام القانونى، لا يبغى أن يصطنع فقها يخرج عن مألوف ما تجرى به مناهج الفقه الإسلامى وسوابق اجتهادات المجتهدين من داخل الفقه الإسلامى وبمادته، وهو بذلك يخضع نصوص الأحكام الوضعية لهيمنة الشريعة الإسلامية مصادرا وفقها، ولا يخضع أحكام الشريعة لهيمنة النظر الوضعى (العلمانى).

ثالثاً: إن من يضفى بردة الإسلام على الأحكام الوضعية (العلمانية)، إنما يبذل الطاقة ليخفى الفارق بينه وبين دعاة الشريعة الإسلامية، وهو ينشط لإثبات أن المطالبين بالشريعة الإسلامية إنما يطلبون أحكاما فرعية مما يتعلق بوقائع الحياة الجارية وتوازنها، ويحاول أن يثبت ألا فرق فى تلك الأحكام إلا فى النذر اليسير.

بينما القائل بالتخلل يحاول -بما يبذل من طاقة- رد الأحكام السارية إلى إسنادها الشرعى، أن يكشف عن أمرين هامين، أحدهما أن الفارق بين الموقفين هو فارق يتعلق بمصدرية الحكم وليس بالحكم ذاته، وأنه إذ يوافق على الحكم الفرعى فهو يؤكد اختلافه فيما يتعلق بمصدرية هذا الحكم، ويصر على التمسك بالمصدرية الإسلامية لأصل شرعية الحكم الفرعى، وهو لا يتبناه إلا مشروطا بارتباطه بهذه المصدرية الشرعية، فهو موقف يكشف عن جوهر المسألة المختلف عليها ولا يمانع فى الجزئيات.

والأمر الآخر أنه بصرامة التزامه بالحدود للشرعية والضوابط المنهجية، إنما يقوم بعملية فرز تشريعى بين ما يتفق من القوانين الوضعية السارية مع أحكام الشريعة الإسلامية وما لا يتفق، وكل ذلك يفضى من بعد إلى فرز الأحكام المخالفة للإسلام فرزا دقيقا، وتنجلى للناس بذلك مجالات المخالفة واضحة بينة، وكما أن السيدة الحاسرة ازداد مع الوقت انكشاف محاسرها لقلة الحجبات من حولها، كذلك سيزداد الحكم المخالف للشريعة انحسارا بعملية انكشاف ما يتفق مع الشرعية من الأحكام الأخرى.

والأمر كله هنا هو التوسل إلى استرداد الشريعة الإسلامية للشرعية فى المجتمع بهذا التخلل للنظام القانونى، كوسيلة تمكن من الاستفادة بالمتاح وبأقل جهد صدامى، وفى إطار السعى للحركة الإسلامية بعامة لاستكمال استرداد كل الشرعية الإسلامية وسيادتها الكاملة، فهو مجال لا ينفى غيره ولا يستبعده ولا يستعيض عنه، ولكنه يكمل ويتمم ويقوم مساعداً وميسراً.

يتبع

شعبان ١٤٣٣هـ
يونيه ٢٠١٢م

الوسطية السياسية





أ.د. محمد سليم العوا

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فهذا النص يحاول أن يرسم صورة للوسطية الإسلامية فى جانبها السياسى.. والوسطية خصيصة هذه الأمة التى ميزتها عن غيرها من الأمم، وحفظت لها دينها عدلاً لا غلو فيه ولا تفريط.

والوسطية روح يسرى فى جميع أجزاء الفقه، وفى جميع تجليات الفكر التى يقيمها أصحابها على الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أو يستصحبونه فى علمهم وعملهم.

وما يتضمنه هذا النص لا يمكن أن يعد القول الأخير فى فهم الوسطية الإسلامية فى جانبها السياسى، وإنما هو محاولة لتوجيه الانتباه إلى ضرورة البحث فى معنى الوسطية، وعلاقتها بمختلف جوانب الحياة التى تدعو الناس إلى إقامتها على أساس الإسلام: فقهه وفكره، وأحكامه وقيمه، وعباداته وتوجيهاته.

ولا يستطيع الدعاة إلى الإسلام أن يبلغوا مرادهم من دعوة الناس إليه إلا إذا حببوهم فى هذا الدين العظيم، وقربوا أحكامه إليهم، واتخذوا التيسير وسيلة إلى تأليف القلوب، وتحبيب الناس فى دين الله الخاتم. وأكثر ما يجب على ذلك فى الأحكام الاجتهادية التى ليس فيها نصوص قرآنية أو نبوية، أو التى تحتمل نصوصها من التأويل والتفسير ما يجعل اختلاف الرأى بشأنها أمرا يقبله منهج البحث الإسلامى، وهو اختلاف يحقق السعة والسماحة، وهما لازمتان من لوازم تشريع الإسلام وفقهه.

والمرجو أن يتنبه شباب العلماء وناشئة الباحثين فى الفقه والفكر والإسلاميون إلى ضرورة تنوع البحوث القائمة على تحقيق معالم الوسطية ومناهجها فى مجالات الحياة كافة؛ أداء لواجب الدعوة والتبليغ من ناحية، وتيسيراً لتطبيق أحكام الإسلام لمن يهديهم الله إلى ذلك من ناحية أخرى.

والأمل كبير أن يكون المركز العالمى للوسطية نقطة إشعاع ومحور عمل مستمر لخدمة هذه الغاية النبيلة بجميع الوسائل المتاحة لهم. ولا ريب أن القائمين على هذا الأمر، والذين يسروا إنشاء هذا المركز مثابون ومأجورون بإذن الله.

معنى الوسطية

الوسطية المعاصرة تيار يسرى فى الجسد الفكرى والثقافى للأمة العربية الإسلامية، تيار يستنهض العزم نحو التقدم، ويقاوم الاستكانة إلى حال التخلف والجمود فى مجالات الحياة كافة وهو تيار يستلهم الطبيعة الأصيلة للأمة العربية الإسلامية، كما يعبر عنها تاريخها[1]، وكما قررها القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وأهل التأويل يقولون فى هذه الآية ما لخصه الإمام الطبرى بقوله: وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم. «والوسط فى كلام العرب الخيار»[2].

ونقل صاحب لسان العرب عن الزجاج أن الوسط هو العدل والخير: «فاللفظان مختلفان والمعنى واحد؛ لأن العدل خير، والخير عدل»[3]، وهو المعنى نفسه الذى رضيه أهل التأويل، كما قال الإمام الطبرى.

الأمة الوسط

والأمة الإسلامية أمة وسط باعتدالها واستقامتها على الأخلاق والقيم التى بثها فيها الإسلام؛ لتبتعد بها فى كل شىء وفى كل شأن من شئون حياتها عن الإفراط والتفريط، وما يتبع كلا منهما من غلو أو تقصير.

وهى لا تكون وسطا حتى تحمل هذه القيم وتحافظ عليها، وتعمل بها وتسعى إلى تحقيقها؛ لتستحق بذلك أن توصف بأنها:

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما وصفها ربها تبارك اسمه فى كتابه العزيز[4].

هو المعنى الذى استظهره الطبرى عندما قال: «وأرى أن الله -تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم (وسط) لتوسطهم فى الدين، فلا هم أهل غلو فيه: غلو النصارى الذى غلوا بالترهب، وقيلهم فى عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه: تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه؛ فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[5].

وأهل هذه الوسطية هم العدول الذين وصفهم رسول الله - ﷺ - بأنهم ينفون عن العلم الإسلامى تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال

١ ـ د. عبدالحميد إبراهيم، الوسطية العربية مذهب وتطبيق، الكتاب الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٦ وما بعدها.
٢ ـ ابن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير آى القرآن (تفسير الطبرى)، طبعة شاكر، ج٣ ص١٤١، ١٤٢.
٣ ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة (وسط).
٤ ـ محمد الطالبى، سلسلة الأمة الوسط، الإسلام وتحديات معاصرة، تونس، ١٩٩٦م، ص٢٧.
٥ ـ ابن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير آى القرآن، مرجع سابق، ص١٤٢.

المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٦].

والوسطية العربية الإسلامية تبدأ من الواقع، وهو نقطة الوصل بين الماضي والحاضر؛ إذ البشر وما يفعلون نتاج الآباء: كما يحملون خصائصهم الوراثية يحملون تجاربهم التاريخية، والوسطية وهي تبدأ من الحاضر تستصحب الماضي ـ تجارب وخبرات ـ لتتطلع إلى المستقبل عاملة ـ أو آملة على الأقل ـ أن يكون أفضل من الماضي والحاضر معا؛ ولذلك يسمي بعض الباحثين مقام الوسطية مقام الكمال، وينقل ذلك عن ابن قيم الجوزية، ويشرحه بأنه يجمع بين مقامي الجلال والجمال؛ فالجلال للتاريخ، والجمال للحاضر، والمستقبل يحتاج إلى مقام ثالث يحتفظ فيه الإثنان بخصائصهما دون أن يندمجا، ودون أن يذوب أحدهما في الآخر، وهذه الوسطية الإسلامية العربية ـ عنده ـ لم تتبلور بعد على هيئة محددة، ولم تقطع مراحل مسيرتها كلها، وإنما هي في مرحلة التكون والتخلق؛ فهي محتاجة إلى كل جهد بناء في مناحي الحياة كافة: فكراً وثقافة وسياسة وفنا وأدبا ولغة وأخلاقا... وما شئت من تفصيل[٧].

وبهذا الفهم للوسطية باعتبارها تياراً في طريق التشكل النهائي، أو باعتبارها تيارا يستمر في التشكل جيلا بعد جيل، وعصراً بعد عصر حتى تبلغ الجماعة الإسلامية في كل عصر مقام الكمال، تنظر إلى الوسطية السياسية باعتبارها فرعا من فروع الوسطية الواجبة على هذه الأمة بجعل الله إياها ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ فنراها تتمثل في معالم عدة نحاول أن نوجزها بالقدر المناسب لمقام هذه الورقة.

تحرير مفهوم الدين والدولة

المعلم الأول من معالم الوسطية الإسلامية السياسية أنها تنظر إلى مسألة العلاقة بين الدين والدولة على أنها علاقة اجتهادية، توجب على العلماء المؤهلين للبحث السياسي على أساس فقهي إسلامي استمرار الاجتهاد في كل عصر ـ وربما صح أن نقول: في كل دولة إسلامية ـ في المسائل السياسية التي تتصل بسلطات الدولة الثلاث، أو بعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول.

فالإسلام دين يتعبد به ويتقرب إلى الله بفعل مأموراته وترك منهياته، ويطلب الثواب الإضافي بالحرص على مندوباته ونوافله، وشريعة قانونية تحكم تصرفات الناس وأفعالهم من بيع وشراء وزواج وطلاق وميراث ووصية وجرائم وعقوبات وما إليها؛ بحيث لا يكون بالمسلمين حاجة إلي استيراد القانون من غيرهم، وإلى العيش في تنظيم حياتهم عالة على سواهم، كما هو حالهم اليوم.

فالمقصود بكلمة (دولة) في هذا المقام هو الشريعة التي أقلها نصوص صريحة قطعية الورود والدلالة، وأكثرها ظني فيهما أو في أحدهما، والفقه المبني على النوعين معا هو الاجتهاد البشري في فهم النصوص القرآنية والنبوية؛ ولذلك عرفه الإمام الغزالي في المستصفى بأنه «عمل المجتهد»، وبأنه «بذل المجتهد الوسع في طلب العلم بأحكام الشريعة»[٨]، وعرفه ابن حزم الظاهري بأنه «استنفاد الطاقة في طلب حكم

٦ ـ روى عن أبي هريرة وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال عن ابن عدي والبيهقي وابن عساكر وغيرهم، ونقل قول الخطيب البغدادي عن أحمد أنه قال عنه: «وهو صحيح، سمعته من غير واحد».

٧ ـ د. عبدالحميد إبراهيم، الوسطية العربية، الكتاب الثالث نحو وسطية معاصرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٤ ـ ٢٠.

٨ ـ الإمام الغزالي، المستصفى من علم الأصول، طبعة التجارية، القاهرة، ١٩٣٧م، ج١ ص١٠١.

النازلة حيث يوجد ذلك الحكم»[٩].

فيكون المراد من كون الإسلام (دينا ودولة) هو قبول المرجعية الإسلامية العامة التي تسمح بتعدد الآراء وتنوعها في الشأن السياسي، كما تسمح بتعددها وتنوعها في كل شأن إسلامي آخر؛ وبهذا الفهم يتجنب المسلم المعاصر الوقوع في القول بالفصل التام بين الدين والسياسة، وهو فصل غير صحيح نظريا، وغير واقع عمليا مع فهم معنى (الدين) على أنه الشريعة الحاكمة لمعاملات الناس الدنيوية، ويتجنب الوقوع في وهم أن النظام السياسي المقبول إسلامياً هو نظام بعينه، لا يصح الاختلاف حوله ولا الاجتهاد في تفاصيله.

المدلول الدستوري للخلافة

ولا يعترض على هذا المذهب بما يتداوله كثير من الباحثين والكاتبين، ويلقنه بعض مسموعي الكلمة لآلاف الشباب الحركيين، من أن للإسلام نظاما للحكم واحدا، يجب على الجميع السعي إلى استعادته، والعمل على تهيئة المناخ لإقامته؛ أعني نظام الخلافة..

لا يعترض على ما قلناه بمسألة نظام الخلافة؛ لأن هذا اللفظ ـ الذي أصبح منذ تدوين العلوم الإسلامية علما على نظام الحكم في الدولة الإسلامية ـ لا يعني في مدلوله السياسي أو الدستوري أكثر من تنظيم رئاسة الدولة الإسلامية تنظيما يشمل اختيار رئيسها وتحديد حقوقه وواجباته، على نحو يشير إلى محاولة الصحابة ـ الذين ابتكروا لفظ الخلافة ـ السعي إلى محاولة اتباع المثل الأعلى الذي كان قائما في بداية نشوء الدولة الإسلامية التي تولى رسول الله ـ ﷺ ـ رئاستها؛ ولذلك لم تستقر التسمية نفسها؛ حيث لقب أبوبكر بالخلافة ـ خليفة رسول الله ـ، ثم لقب عمر بإمرة المؤمنين ـ أمير المؤمنين ـ ثم استعمل الفقهاء لفظ (الإمام) في بحوثهم المتعلقة بالتولية والعزل والخروج على الحاكم (البغي) وما إليها[١٠].

من المدلول الدستوري للخلافة ـ كما اتفقت كلمة الصحابة عليها ـ أمرين:

أولهما: أن (ترشيح) من يصلح لتولية الخلافة يتم بناء على ما تنتهي إليه (شورى المسلمين).

وثانيهما: أن (تولية) هذا المرشح تتم بناء على (بيعة المسلمين) له[١١].

وعلى هذا النحو تمت تولية الخلفاء الراشدين جميعا، وإن اختلفت الطريقة التي تمت بها الشورى والبيعة أو ما يقوم مقامهما، وأصبح كل منهم رئيسا للدولة الإسلامية، يجب عليه الالتزام في أداء مهامه بأحكام الشريعة الإسلامية، وأن يبذل جهده كله لتحقيق مصالح الناس، وعلى المسلمين أن يبذلوا له النصح، ويلتزموا بطاعته فيما لا معصية لله ورسوله فيه، وعليهم أن يأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر.

ومرجع هذه الحقوق والواجبات كلها إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وإلى الاجتهاد في فهمهما والعمل بهما، وهو اجتهاد يتعدد بتعدد مذاهب المجتهدين في عشرات المسائل الأصولية، وفي مسائل من علوم الرواية والدراية، وفي مسائل لغوية مما يتعلق به تفسير

٩ ـ ابن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، طبعة المنيرة، القاهرة، ج٥ ص١٢٢.

١٠ ـ محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٩٦ وما بعدها.

١١ ـ محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ص١١٨.

النصوص وفهمها وتنزيلها على الواقع الذى يجرى الاجتهاد فى ظله[١٢].

الاجتهاد المعاصر فى الفقه السياسى

ومؤدى ما نقول به - فى هذا الشأن - هو وجوب التزام المرجعية الإسلامية فى شأننا الدينى التعبدى، وفى شأننا الدنيوى أيا كان مجاله؛ فإن كان ثمة نص تفصيلى قطعى الثبوت والدلالة وجب تطبيقه كما ورد عن الله أو رسوله ﷺ. وإن لم يكن - بأن كان النص ظنيا فى دلالته أو ثبوته - وجب الاجتهاد فى الأمرين أو أحدهما. وإن شئت قلت: إن مذهبنا هو تنزيل أحكام الشرع الإسلامى منزلها؛ فحيث كانت قطعية الورود والدلالة التزمنا بها، وحيث كانت ظنيتهما، أو ظنية فى أحدهما اجتهد المؤهلون للاجتهاد فى فهمها؛ ووسعهم أن يختلفوا بالشروط المقررة للاجتهاد والاختلاف فى علم الأصول - أعنى علم أصول الفقه - وفى هذا الاجتهاد الذى قد تتباين نتائجه سعة وتيسيرا لما تضمنته مبادئ الشريعة بلا خلاف.

والاجتهاد الفقهى المعاصر يرى أن مسألة النسب القرشى كانت متصلة بزمان نشأة الإسلام، والظروف القبلية التى أحاطت بهذه النشأة، وما كان لقريش من مكانة عند العرب فى تلك الظروف، لكنها ليست شرطًا أبديا - لا تصح التولية إلا لمن حازه، وإلا لقلنا: إن كل حكام المسلمين منذ انقطاع الخلافة القرشية حكمهم باطل، وتصرفاتهم على الرعية غير مشروعة، وهذا لا يقول به أحد.


السنهوري

والاجتهاد الإسلامى المعاصر يذهب إلى أنه لا يلزم المسلمين أن يبايعوا من يختارونه لحكمهم بيعة أبدية؛ بل يجب أن تكون هذه البيعة لمدة محدودة؛ لأن الذى تتضمنه كتب تراثنا السياسى الإسلامى عن أبدية البيعة كان تصويرا لواقع الناس فى العصور التى كتبت فيها هذه الكتب، أو كان اجتهاد فقهاء تلك الأزمان، ولكنه ليس قاعدة تشريعية ملزمة للناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد تطور هذا الاجتهاد على مدى طويل؛ فبدأ الأستاذ السنهورى - رحمه الله - بتجويز أن تكون الولاية - أى تنصيب الخليفة - لمدة محدودة من الزمن[١٣].

ثم جاء الدكتور توفيق الشاوى ليعلق على كلام الأستاذ السنهورى متقدما بفكرة تأقيت الخلافة خطوة إلى الأمام؛ ليقول: «إنه من الصواب أن يتضمن عقد البيعة مدة محددة؛ ليتمكن الناخبون من أهل الحل والعقد من مزاولة حقهم فى الإشراف على أعمال الحكومة وسياسة الحاكم الذى اختاروه»[١٤].

وإذا كان السنهورى لا يرى (مانعا) من تحديد مدة ولاية الحاكم، والشاوى يرى ذلك من (الصواب) فإن مبنى التحفظ الواضح فى كلام كل منهما هو ما تقرره النصوص الفقهية والكلامية التقليدية من أن الخليفة لا يجوز عزله، وبعضها لا يجيز عزله ولو فسق وجار وخرج عن العدالة الواجبة عند تعيينه.

والصحيح أنه ليس لهذه الآراء الكلامية والفقهية سند صحيح من الكتاب أو السنة يتصل بمسألة بقاء الحاكم حاكما مدى حياته، والأسانيد المقبولة - من حيث الرواية - التى يستند إليها بعض الفقهاء والمتكلمين تشير إلى ضرورة تجنب الفتنة، ومنع وقوع الفوضى، ودرء خطر إراقة الدماء، وهذه المعانى وأمثالها توجب علينا - لا أقول تجيز أو تصوب - أن نجعل للحاكم، فى الاجتهاد الإسلامى العصرى، مدة معينة لا يتجاوزها؛ فذلك هو الذى يمنع الفوضى والفتنة، ويحول بين الاستبداد والفساد وبين أن يستشريا فى جسد الأمة وينهبا ثرواتها، ولو لم يكن إلا ما تعانيه الأمة الإسلامية من الطغيان والظلم المترتبين على تأبيد الحكم - فى معظم أقطارها - لكان هذا وحده كافيا لتصويب ما نذهب إليه من وجوب تأقيت مدة الحاكم.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المقصد الأسمى للحكومة الإسلامية هو تحقيق مصالح المحكومين، وتمكينهم من القيام بواجب الخلافة فى الأرض؛ فكل طريق تحقق هذا المقصد يجب سلوكها، وكل اجتهاد قديم أو حديث يقعد عن تحقيقه، فى وقت من الأوقات، ولو كان قد حققه فى زمن سابق، يجب العدول عنه، ولا يصح التمسك به.

وليس فى النظم التى عرفتها البشرية نظام يحول بين الحكام وبين الجور والظلم - وهما من المحرمات القطعية فى الإسلام - ويحول بين الاستبداد والاستئثار بالسلطة والثروة، ويحول بين الحاكمين وقمع المخالفين بالقوة الغاشمة.. ليس هناك نظام يحول بين الناس وهذه المآثم جميعا إلا نظام يتقرر فيه وجوب تداول السلطة بالطرق السلمية.

وهذا التداول يؤدى إلى ألا ينفرد شخص أو حزب أو جماعة أو طائفة بحكم الناس إلى ما لا نهاية، أو إلى أن يقع انقلاب عسكرى يأتى بمستبدين جددا، أو إلى أن تغزو ديار الإسلام قوة أجنبية - كما وقع فى العراق - تستبيح المحرمات، وتحكم بالحديد والنار، وتدخل الأمة فى مسلسل مقاومة الاستعمار من جديد!.

ولا يتحقق هذا التداول للسلطة إلا باتباع النظام المعروف بين الناس اليوم بنظام (الانتخاب) شريطة أن يكون حرا لا شبهة فيه، وألا تزور إرادة الناس بعد إبدائها، وأن يتولى الحاكمون المنتخبون سلطتهم - أو ولايتهم - إلى أمد معلوم، ولا يعترض علينا فى ذلك بقول بعض القائلين عن الانتخاب: إنه بدعة أجنبية تقليدها حرام!، فإنه أشد حرمة من ذلك أن يبقى الظلمة الغشمة متسلطين على رقاب العباد بدعوى (أمن الفتنة)، وقديما قال ابن قيم الجوزية - لله دره -: «إن أى طريق أسفر بها وجه الحق والعدل فثم شرع الله ودينه»[١٥].

وإذا كان الفقه السنى المعاصر قد انتهى إلى اجتهاد مغاير فى مواضع عديدة للاجتهاد القديم فى شأن الخلافة، أو بوجه عام فى الشأن السياسى الإسلامى؛ فإن الفقه الشيعى الإمامى مضى فى الطريق نفسه، يبغيا الغاية نفسها؛ أعنى تحقيق مصالح الأمة.

---

١٢ - محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسى فى الإسلام، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م، ص١٠٩.

١٣ - الأستاذ السنهورى، فقه الخلافة وتطويرها لتصبح عصبة أمم شرقية، رسالة بالفرنسية سنة ١٩٢٦م، ترجمها وعلق عليها ابنته الدكتورة نادية السنهورى، وزوجها أستاذنا الدكتور توفيق الشاوى، ونشرتها الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة سنة ١٩٩٠م، راجع ص١٩٦ من الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

١٤ - الدكتور توفيق الشاوى تعليقا على كلام الأستاذ السنهورى، هامش الصفحة السابقة نفسها.

١٥ - راجع كتابنا: الفقه الإسلامى فى طريق التجديد، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٨م، ص٤١ - ٥٥.

فالأصل عند إخواننا الإمامية - وفق الفقه الموروث المدون - أن الحكومة الإسلامية لن تقوم حتى يعود الإمام الغائب: محمد بن الحسن العسكري - المهدى المنتظر - من غيبته؛ فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

وجاء الإمام آية الله الخمينى - رحمه الله - وكتب بحثه الأساسي في - ولاية الفقيه - ضمن محاضراته التي ألقاها على طلاب الحوزة العلمية في النجف عام ١٩٦٩م في أثناء نفيه من إيران إلى العراق، وفي هذه الدروس قرر الخمينى أنه من غير المعقول أن يبقى المسلمون بلا حكومة إسلامية منذ الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر إلى أن يعود فيقيم حكومة العدل التي تملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وقد تمر ألوف السنين قبل هذه العودة؛ فهل تبقى أحكام الإسلام معطلة في طول هذه المدة؟

ويجيب الإمام الخمينى على هذا التساؤل بقوله: «إن الذهاب إلى هذا الرأى أسوأ في نظرى من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ»[16].

وبنى الخمينى على هذا الاجتهاد ضرورة قيام الحكومة التي تنفذ الشريعة، وأن الذي يتولاها هو الفقيه الجامع للشرائط، العادل، وأنه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبي - ﷺ - منها، «ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا»[17].

على أساس هذه النظرية الاجتهادية في الفقه الإمامى قامت الثورة الإسلامية في إيران، وتأسست الدولة الإسلامية فيها[18].

وقابل هذا الاجتهاد الشيعي الإمامي اجتهاد آخر، من داخل المذهب نفسه، هو الذي انتهى إليه صديقنا العلامة آية الله محمد مهدى شمس الدين - رحمه الله - في كتابه: «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، حيث يبدأ الشيخ شمس الدين من ضرورة متابعة الفقهاء للاجتهاد المفتوح على القواعد المقررة للاجتهاد كما رسمها أئمة آل البيت - عليهم السلام - وكما تقتضى بذلك القواعد العقلية، وأنه - مع إغفال الرأى الفقهى الشيعي القائل بعدم جواز إقامة الحكومة الإسلامية في عصر الغيبة - فإن جماهير السنة والشيعة متفقون على مشروعية تشكيل دولة إسلامية وإقامة حكومة إسلامية، حيث يمكن ذلك في أى مجتمع سياسي للمسلمين، ويناقش مصدر نظرية ولاية الفقيه في المذهب الإمامي، لينتهي إلى اقتراح صيغة بديلة عن الخلافة السنية وعن ولاية الفقيه الشيعية، يسميها - ولاية الأمة على نفسها -، وهي تقتضى أن يقيم كل شعب مسلم لنفسه نظام حكمه الخاص، في إطار وحدة الأمة الإسلامية[19].

ونحن نجد في هذا التنوع الفقهي المعاصر دليلاً صحيحاً على ما قرره الجويني من قديم من أن المسألة السياسية كلها - أو جلها - مسألة اجتهادية ظنية، وهي بذلك تقتضي اجتهاداً متجدداً في كل عصر تتحقق به مصالح أهلها[20].

---

١٦ - آية الله الخمينى، الحكومة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ص٤٠.

١٧ - المصدر السابق، ص٤٦.

١٨ - أوفى تأصيل لنظرية ولاية الفقيه هو الذي كتبه آية الله العظمى حسين علي منتظري في كتابه: دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٨م.

١٩ - آية الله محمد مهدى شمس الدين، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، المؤسسة الدولية، بيروت، الطبعة ١٩٩٥م، ص٤١٩.

٢٠ - إمام الحرمين الجويني، غياث الأمم والتياث الظلم، طبعة صديقنا العلامة الدكتور عبدالعظيم الديب، أصدرتها الشئون الدينية بدولة قطر ص٦١، ٧٥.

مسئولية العلماء



فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

العلم أمانة استودعها الله لدى العلماء الذين اصطفاهم من خلقه، وكرمهم بحملها، وتود بقدرهم ومكانتهم ومنزلتهم، وأشاد القرآن الكريم بهم في كثير من سوره مبينا وموضحا صور تفضيلهم.. فتارة يحكم بنفى التسوية بينهم وبين غيرهم، فيقول سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر: ٩)

فقد نفى - سبحانه - المساواة بين العالم والجاهل، فلا يستوى عند الله العلماء الذين يعلمون بمقتضى علمهم، والذين لا يعلمون ويعملون بمقتضى جهلهم..

وتارة يقصر خشية الله على العلماء، فيقول - جل شأنه -:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

(فاطر: ٢٨)

أي: إنما يخاف الله ويخشاه العالمون بما يليق بذاته وصفاته من تقديس وطاعة، وإخلاص في العبادة، وإدراك وفهم لما يحيط بهم من أسرار خلق الله في كونه، واستيعاب وتحصيل علوم الدين والدنيا، والعمل في طاعة الله بمقتضاها.. وكفى بهذه الآية الكريمة مدحا للعلماء، حيث قصر - سبحانه وتعالى - خشية الله والخوف منه على العلماء.. وتارة يقصر الفهم السليم، والإدراك العميق لمعاني آيات القرآن الكريم، وفهم المقاصد والغايات والأهداف من الأمثلة التي يضربها في القرآن الكريم على العلماء، فيقول - عز وجل -

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٣)

ساق القرآن الكريم أمثلة كثيرة ومتنوعة في آيات سوره على سبيل التوضيح والإرشاد، والتنبيه والتحذير، والترغيب والترهيب.. غير أنه لا يعقل هذه الأمثال، ويفهم معانيها ومقاصدها، والهدف والغاية من ضربها إلا الراسخون في العلم، المتدبرون في خلق الله، الفاهمون لما يتلى عليهم.. وتارة يقصر توريث القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام، وعبادات ومعاملات، وآداب وتوجيهات على الذين اصطفاهم من عباده،

فيقول – سبحانه:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

(فاطر: ٣٢)

أى: أعطينا العلم لمن اخترناهم من عبادنا المؤمنين، فهم مختارون من الخيار.

وتارة يعظم العلماء ويشرفهم بأن يقرنهم باسم الله واسم ملائكته، يقول الله – تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

(آل عمران: ١٨)

فبدأ – تعالى – بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولى العلم.... فهذا شرف عظيم للعلماء لايدانيه شرف، ودليل على فضل العلماء وعلى مكانتهم ومنزلتهم وقدرهم عند الله، فلو كان يوجد أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من علوم ومعارف فى خدمة دينهم وعقيدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصوا لله فى عبادتهم، وصدقوا فى أقوالهم وأفعالهم، فاستحقوا أن ينالوا هذا الشرف العظيم.. إذن فمسئولية العلماء كبيرة، فهم مأمورون بحفظ هذه الأمانة وأدائها بنشر العلم وتعليم الناس، وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، وحثهم على عمل ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، ولن تؤدى هذه المسئولية على وجهها الصحيح إلا إذا كان العلماء قدوة حسنة فيما يأمرون به وفيما ينهون عنه.. وجزاؤهم عند الله كبير فى حالة قيامهم بأداء واجباتهم بإخلاص لله من غير كبر ولا غرور ولا نفاق ولا رياء، ولا تطلعا لشهرة، ولا جريا وراء الحكام للحصول على منصب أو جاه، ولا إراقة لماء وجوههم لتحصيل كسب مادى..

عن أبى أمامة الباهلى قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم، ثم قال ﷺ: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير».

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد»، وعن عثمان– رضى الله عنه– عن النبى ﷺ قال: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء».

وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى».

وللبيهقى: يبعث العالم والعابد، فيقال للعابد: «ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم».

ومن سمات العلماء العاملين الذين يتقون الله ويخشونه، ويؤدون أمانة العلم التى أئتمنهم الله عليها، أنهم يقدمون النصيحة والموعظة إلى الحكام ولا يتهيبونهم، ولا يخشون فى قول الحق لومة لائم..

دخل ابن السماك يوما على الرشيد، فلما وقف بين يديه قال له الرشيد: عظنى يا بن السماك وأوجز، قال ابن السماك: كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين، قال الله – تعالى – بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(المطففين: ١–٦)

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف فى الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله!!

لقى أبوجعفر سفيان الثورى فى الطواف ـ وسليمان لا يعرفه ـ فضرب بيده على عاتقه، وقال: أتعرفنى؟ قال: لا، ولكنك قبضت على قبضة جبار، قال: عظنى أبا عبدالله، قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إن الله نهى عنكم فقال ـ تعالى ـ:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾

(هود: ١١٣)

فمسح أبوجعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال: ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارا.

هذه هى مكانة العلماء العاملين الذين يقدرون مسئوليتهم فيؤدون أمانة العلم، ولا يخشون أحدا إلا الله.

أما إذا قصر العلماء فى أداء واجباتهم، وخانوا الأمانة التى أئتمنهم الله عليها، واشتروا الدنيا بالآخرة، وتملكهم الكبر والغرور، ونسوا فضل الله عليهم فحجبوا علمهم عن الناس، أو استعملوه فى غير ما يرضى الله، أو تملقوا الحاكم ونافقوا السلطان، وأهدروا كرامة العلم والعلماء جريا وراء تعيينهم فى مناصب دنيوية زائلة، وغرتهم الدنيا فوقعوا أسرى فى زينتها وشهواتها.. فإن حسابهم ـ فى تلك الحالة ـ عند الله عسير، وجزاؤهم فى الآخرة النار وبئس المصير.. يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

(آل عمران: ١٨٧)

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»، وعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ قال: «من طلب العلم ليجارى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»، وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «من تعلم علماء مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

وذكر عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ما أقبح بالعالم يؤتى إلى منزله فيقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالم؟ فيقال: عند القاضى، ما للعالم وما للقاضى، وما للعالم وما للأمير؟ ينبغى للعالم أن يكون فى مسجده يقرأ فى مصحفه.

أما العلماء الحافظون لأمانة العلم، والمؤدون حقها كما أمر الله، العاملون بعلمهم، المخلصون فى أداء رسالتهم، المتعففون عن جاه ومناصب الحكام، الزاهدون فى تواضع فلا تغرنهم الحياة الدنيا بزينتها ومفاتنها.. فهنيئا لهم بما يدخره الله لهم من ثواب، وما يجازيهم به من حسنات..

من عيون التراث

كتاب الحلم و كتاب التوكل على الله

• تأليف ابن أبي الدنيا أبي بكر عبد الله بن محمد (٢٠٨هـ،٢٨١هـ).
• تحقيق / مجدي السيد إبراهيم.
• القاهرة، مكتبة القرآن (٢٠٠٤م).

يقع كتاب «الحلم» في (٦٠) صفحة، مقسمة إلى فصول. يليها كتاب «التوكل على الله» والذي يقع في (٣٥) صفحة مقسمة إلى فصول جميعها من القطع المتوسط مشتملة على الفهارس.

يبدأ «كتاب الحلم» بجزء عن حلم النبي ﷺ وما جاء فيه من أحاديث مختلفة، ثم عرض حلم أصحابه رضوان الله عليهم.

● وجاء الفصل الأول في طلب العلم والصبر عليه، وأشار فيه إلى أن العلم يكون بالتعلم Learning (ص١٤).

● ثم الفصل الثاني في طلب الرفعة عند الله بالحلم.

● أما الفصل الثالث فجاء في شرف الحلم في يوم القيامة.

● أما الفصل الرابع فورد فيه وصف الحليم وأعوانه.

● وأشار الفصل الخامس إلى خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة.

● وعرض الفصل السادس لفضيلة السكوت عن السفيه.

● أما السابع فجاء في أن الناس رجلان عاقل وجاهل، وبين لنا صفات كل منهما. وتناول الفصل الثامن لأشعر الناس.

● وعرض التاسع لأجمل الحكم والشعر الذي جاء في ذكر الحلم.

● أما الفصل العاشر فجاء فيما ذكره وهب بن منبه من حكم في الحلم.

● وأشار الفصل الحادي عشر لوصية لقمان لابنه عن الحلم وذكر من بين وصاياه خصال من تمسك بالحلم، وكيف أنه لو تمسك بهذه الخصال أصبح واستمر سيداً على قومه، وتناول الفصل الثاني عشر محبة الله للحليم.

● ثم عرض الفصل الثالث عشر لفضل أهل الحلم يوم القيامة، وكيف تتلقاهم الملائكة وتوجيههم إلى الجنة.

● وجاء الفصل الرابع عشر في فضل مجالسة الحلماء.

● وعرض في الفصل الخامس عشر لوصية أبي الدرداء بالحلم، وأشار إلى أن السفهاء يهلكون قومهم.

● أما الفصل السادس عشر فجاء في أن الصبر على المكروه من علامة الحلماء، وأن زينة المرء في الحلم.

● وذكر الفصل السابع عشر ما جاء من الشعر في هذا المقام.

● أما الفصل الثامن عشر فعرض لوصايا لقمان.

● وذكر بعد ذلك أن السيادة لأهل الحلم وذلك ما جاء به الفصل التاسع عشر.

● وعرض الفصل العشرون لكون الناس معادن وفي هذا إشارة إلى الفروق الفردية Individual Differences (ص٥٤) بين الأفراد.

● وبين الفصل الحادي والعشرون في ستر زلة الكريم من الحلم، وأن سلاح اللئام قبيح الكلام.

● وانتهى الكتاب الأول «الحلم» بالفصل الثاني والعشرين ثواب الحلم يوم القيامة.

التوكل على الله

● تناول الكتاب الثاني «التوكل على الله» بداية المعنى الحقيقي للتوكل، وما جاء على لسان النبي من دعاء في التوكل، وأن التوكل على الله من جماع الإيمان، وأن أربع يعطيهن الله لمن أحب وهن: الصمت، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد.. ثم عرض لوصايا الإمام علي - كرم الله وجهه - ووصايا لقمان لابنه في التوكل، وكيف أن التوكل هو سر قوة الناس، وعرض لكيفية قضح عمر بن الخطاب أساليب المتواكلين، وكيف أن من أنفق على أهله من غير سرف قضى الله عنه دينه، وأن العز والغنى يجولان في طلب التوكل.

وحددت أحاديث أخرى مفهوم التوكل، وكيف أنه عند التوكل على الله يكفلك الله، وأن التوكل في معناه ثقة بالله عز وجل، والمتوكل راض لا يسخط، وأن الرضى يبعد الشيطان عن الفرد، وذكر ما يقال كشكل من أشكال التوكل عند الخروج من البيت، والخروج من المسجد، وما كان يقول الرسول ﷺ إذا خرج من بيته، وما صفة من يدخلون الجنة بغير حساب، وفضل حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم عرض لوصية معروف الكرخي، وذكر فضل أمة الإسلام.

وانتهى الكتاب الثاني بذكر أن الطيرة والتشاؤم Pessimism (ص٢٧) من الشرك. وبين لنا درجات التوكل وأنها ثلاث درجات أولها ترك الشكاية، والثانية الرضى، والثالثة المحبة، وأن أهل التوكل هم أهل الراحة، فالتوكل خير زاد.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- التعلم Learning.
- الفروق الفردية Individual Differences.
- التشاؤم Pessimism.

القائم بالعرض

د. نشوة عبدالتواب حسين

التــــراث العربــــى

مفهومــه وخصائصــه



أ. د. خالــــد فهمــــى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

المفهوم المتسع للتراث والتطبيقات المعاصرة

ليس مستغربًا أن يسعى حامد ربيع وهو يستكشف أبعاد النظرية السياسية الإسلامية إلى بيان وجاهة الدعوة، إلى تبنى مفهوم التراث فى أقصى اتساعه الوظيفى، الذى يستثمر الوظيفة اللغوية (الصناعية) والوظيفة التاريخية لمصلحة الوظيفة السياسية، أو البنائية المؤسسة للإنسان العربى المسلم المعاصر، اعتمادًا على مجموعة من المعانى التى ترعى الترابط، والاستمرار.

ولكن وجهًا آخر من تطبيقات هذا المفهوم المتسع لمصطلح التراث يظهر فى تطبيق مهم جدًا، لم أجد من ربطه بمفهوم التراث، وإن وجدت من يعرفه من زاوية تخصصه.

القصة تبدأ من استقرار المحدثين على حقيقة أن حفظ السنة اتخذ أشكالاً تدوينية مكتوبة، وإن جاءت متعددة المناهج، وظهر تبعًا لذلك ضوابط معيارية لتدوين الحديث، وحفظه.

غير أن الدكتور سيد كشك يلح على أن ثمة طريقًا آخر أسهم فى حفظ السنة، لا يقل عن وسائل حفظها المعروفة المتداولة، إن لم يتفوق عليها، يعبر عنها الصديق الكريم باسم التطبيق، وملخص رأيه أنه يرى فى دوام تطبيق السنة فى أجيال الناس المتتابعة دليلاً ظاهرًا على أعلى أشكال حفظ السنة عمليًا.

وفى هذا الوجه واحدٌ من التجليات المهمة لتطبيق المفهوم المتسع لمصطلح التراث.

وهو الملمح الذى يمكن استثماره فى دعم الأفكار والنظم والسلوك التى يمكن أن توصف بأنها من محددات الذات العربية المسلمة.

خصائص التراث العربى

يعد المدخل المتعلق بفحص خصائص التراث العربى مشغلة تخصصات كثيرة ومتنوعة، وتصور الخصائص يأتى تابعًا - بلاشك - للمفهوم الذى يتعين لمصطلح التراث ضيقًا واتساعًا.

وإذا كان الفريقان جميعًا اللذان عالجا مفهوم التراث متفقين على أنه لابد وأن ينصرف ابتداء إلى المنجز الفكرى فى صورته المدوّنة، بما هو بهذا المفهوم مشغلة المهتمين بتحقيق النصوص؛ لأنه صناعة مستقرة الأصول علميًا، ابتداء وانتهاء، وبما هو خطوة أولى وأساسية لمن يوسع مفهوم التراث؛ إذ ليس من سبيل إلى الوصول إلى تحقق الوظائف التاريخية والسياسية من دون إنجاز الوظيفة الأولى المتمثلة فى استيحاء المنجز الفكرى المتراكم فى صورته المدونة.

ومن هنا فإن فحص خصائص التراث العربى المدوّن أو المكتوب يعد نقطة اتفاق لازمة لعمل الفريقين جميعًا.

وفيما يلى محاولة تسعى إلى إجمال القول فى الخصائص التى يمكن ملاحظتها لهذا التراث العريق الممتد الذى يرجى من وراء تنامى العناية بفحصه، وخدمته، واستيحائه أن يسهم فى وعى الذات العربية المعاصرة بهويتها.

الارتباط بالقرآن الكريم والدوران حوله

ثمة إجماع منقطع النظير على أن القرآن الكريم هو مفجر الحركة العلمية فى الحياة العربية، فهو بما احتواه من نصوص جامعة وقاطعة معًا يرقى بمنزلة التدوين العلمى إلى أعلى المنازل بدرجة غير مسبوقة فى التاريخ.

لقد كان مدهشًا أن يفتتح التنزيل بأمر جامع ظاهر الدلالة فى قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ ﴾ بما ينضوى تحته من علامات واضحة حول الكتابة والتدوين.

ومن عجب أن التراث العربى المدوّن، وهو يسعى فى طريق تفهم هذا الكتاب الكريم حفظ لنا تراث الجاهلية، بكل ما يحمله من أفكار ومعتقدات وقيم، وإن كانت هذه الأفكار مرذولة، أو كانت هذه المعتقدات فاسدة وثنية، أو كانت هذه القيم ماجنة فاجرة!

وفى هذا السياق تبدو حقيقة التأثير الإيجابى لخدمة الذكر الحكيم على التراث العربى المدوّن ظاهرة جدًا، يدرك أمرها الدارس العربى المسلم، لا بحكم انتمائه فقط، وإنما بحكم سطوع هذه الحقيقة، ويدعمها إدراك الدارس الغربى كذلك.

وربما كان كافيًا فى هذا السياق أن نلتقط نصًا دالاً على الوعى بهذه الخصيصة يقرر واحد من المتخصصين فى المخطوط العربى، بما هو التجلى الأصرح للتراث العربى المدوّن.

يقول آدم جاسك فى كتابه: (تقاليد المخطوط العربى: الببليوجرافية ص٥١ / ترجمة محمود زكى، معهد المخطوطات، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م): "الحضارة العربية الإسلامية حضارة، الكتاب فيها ذو قداسة خاصة، اكتسبها من الدين الإسلامى ذاته، وتحديدًا من كتاب هذا الدين (القرآن الكريم) الذى لا ينافسه أىّ كتاب آخر لدى العرب والمسلمين.

هذه المكانة العالية التى يشغلها الكتاب حفزت الجهود على إنتاجه مبكرًا، حتى ليمكن القول: إنه وهذه الحضارة قرينان بدا معًا، فما كان القرن الهجرى الأول (السابع الميلادى) ينتصف حتى جرى القلم بالمعرفة، ورأينا صحائف وكتبًا تتوالى، بعد أن اقتصر سابقًا على تدوين القرآن والسنة.

وقد تسارع هذا التراكم المعرفى من خلال الكتب، فأنتجت الحضارة الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) عشرات الآلاف من الكتب باللغة العربية فى مختلف العلوم والمعارف، الدينية والعلمية متمثلة فى مئات الآلاف من المخطوطات".

وهذه السمة الفارقة للتراث العربى خلقت عددًا من السمات الملازمة من مثل: إنسانية هذا التراث، وحيويته، وأخلاقيته.

الشمول والاستغراق

كان لطبيعة الفكرة الإسلامية التى وجهت التراث العربى، وحفزت جهوده بما هى فكرة جامعة مستوعبة شاملة للمتطلبات الإنسانية، بما

(*) وقع خطأ غير مقصود فى نشر صورة الأستاذ الدكتور خالد فهمى ونتقدم لأستاذنا ولقرائنا بخالص الاعتذار عن هذا الخطأ غير المقصود.

يوصف عادة بعبارة شمول الإسلام أثرا جبارا في اتجاهات الفكر العربي المدوّن، المسمى بالتراث، وهو الأمر الذي صح معه وصف هذا التراث بالشمول والاستغراق، بمعنى أن المنجز الفكري المدوّن غطى جغرافية المعارف الإنسانية جميعا، وهو الأمر الذي يظهر جليا في أبعاد تصنيف العلوم عند القدماء من توزعها على مجموعات ثلاثة هي: العلوم الشرعية، والعلوم العربية، والعلوم الحكْمية.

ولعل أظهر الأدلة على فكرة شمول التراث العربي وتغطيته للمعارف الإنسانية جميعا، ما يمكن أن يسمى بأوليات التراث العربي الإسلامي، وهو ما يقصد به ما استطاع أن يصل إليه المنجز الفكري المدوّن من ابتكارات واكتشافات لم يسبق إليها.

وهذه الحقيقة الاستيعابية الشاملة تتجلى في الوصف الجامع الذي رصده كثير من دارسي هذا التراث العربي من أمثال: عبدالسلام هارون، الذي وصف هذا التراث بالعبقرية، حيث صنع عنوانًا جانبيا يقررفيه: (عبقرية التأليف العربي، وهو العنوان الذي وسعه الدكتور كمال نبهان، وجعله عنوانًا على كتاب الفريد: (عبقرية التأليف العربي)، القاهرة سنة ٢٠٠٦م).

حيث تنبه إلى ملمح آخر من ملامح الاستيعاب والشمول والاستغراق يمثل أهمية بالغة القيمة يمكن أن نعبر عنها باستغراق الوظائف المعرفية، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بما يلي: "وعلى سبيل المثال نجد وظيفة الحفظ تتحقق في أشكال المختصرات والمنظومات، ووظيفة متابعة التغطية في الذيول والصلات، والتصحيح وتكملة النص في الاستدراك، والفهم في الشروح والمعارف الفكرية في الردود والمحاكاة، ومفاتيح الاسترجاع من النصوص في الأطراف والكشافات، وكانت المؤلفات تتفرع على الأصل وفروعه".


د. عبد السلام هارون

وهذا النقل الذي اقتبسناه من كمال عرفات نبهان (ص٥٢/م) دال على هذه السمة المحورية للتراث العربي الممتد المستوعب للظاهرة الإنسانية المتشعبة، وهو انعكاس طبيعي لطبيعة الفكرة الإسلامية في تصوراتها للحياة والوجود.

اقتران المنجز التراثي بالدليل

تمتع المنجز التراثي العربي باستصحابه الدائم للدليل، أو ما به تتحقق الحجية لما يورده من حقائق أو آراء في المعارف والعلوم المختلفة.

وقد حرص القرآن الكريم على ذلك الأمر بما استقرّه في نفوس قارئيه عندما دعاهم إلى تدبره، وعندما أقر في قوائم تدبره فضيلة التحدي المعرفي والعلمي للمخاطبين، على ما يقرره الصديق الكريم الدكتور/ محمد إقبال عروي في كتابه (ملكة التدبر في القرآن الكريم، الكويت٢٠١٢م ص٢٤)، وبإزاء هذا التحدي ارتقى التراث العربي في واحد من قمم خصائص احتشاده بالدليل المتنوع خدمة للمجالات المعرفية المختلفة التي تورط في معالجتها.

وقد ظهر في تاريخ المعرفة العربية علوم بأعيانها ترعى خدمة قضية الدليل كليا وجزئيا، فظهر علوم أصول الفقه وأصول النحو –على سبيل المثال– تؤصل لقضايا الأدلة، وتقسيماتها، وأنواعها نقلاً وعقلاً وإجماعًا واستصحابا، وناقشت قضايا التعارض والترجيح.

وقد عرفت أجواء التراث المدوّن في أنواعه المختلفة مصادر الأدلة والاحتجاج، وظهرت تفاصيل كثيرة في هذا السياق تشير في صراحة تامة إلى أن التراث العربي احترم العقل الإنساني في استصحابه الدليل بأنواعه طلبا لتحقيق الحجية للقضايا الفكرية والمعرفية التي يطرحها ويناقشها.

الانضباط المنهجي

ووصلاً بالسمة السابقة مباشرة يتسم التراث العربي الإسلامي المدوّن بخصيصة واضحة ومهمة جدا هي الانضباط المنهجي، بمعنى أن إجراءات تصميم المنجز الفكري الذي جاء عن سلف الأمة راعت الانضباط والمنهجية.

ومن اليسير بعد فحص نماذج من كتب التراث المختلفة أن يخرج الدارس بعدد من الإجراءات والعلاقات الدالة على هذه السمة الفاشية في منجز التراث العربي، ومن الممكن إجمالها فيما يلي:

أ- جمع المادة العلمية من مظانها المختلفة، واستقرارها.

ب- ملاحظة المادة المجموعة، أو الظاهرة موضع الدراسة.

ج- تصنيفها في أصناف، وأنماط جمع كل صنف منها جوامع، ومشترك خاضع لطبيعة القضية المدروسة.

د- المناقشة والتحليل.

هـ- الترجيح بين الآراء إثباتًا ونقدًا، وتوثيقًا ونقضًا، تضعيفًا وتقوية.

و- استخراج الأحكام المدعومة بالأدلة.

ز- تعميم القواعد الحاكمة والضابطة.

وقد تنبه كثير من الدارسين المعاصرين إلى خصيصة الانضباط المنهجي في دراستهم لمناهج العلوم عند العلماء التراثيين، وفيما كتبه فرانتز روزنتال وغيره دليل ظاهر على هذا الذي نقرره الآن.

امتداد التراث العربي زمنيا ومكانيا

يعرف دارسو القومية العربية الإسلامية أن الأمة العربية الإسلامية لم تغب أو تنقطع من الوجود الإنساني، فهي أمة ممتدة موصولة الأجيال، ومن ثم فإن تراثها الفكري المدوّن ممتد موصول من الناحية التاريخية، لم يشهد انقطاعا في جيل من أجيال هذه الأمة.

صحيح أن ثمة تفاوتًا في الكمية المنجزة في صورة مكتوبة من عصر إلى عصر آخر، زيادة ونقصا تبعا للوضعية الحضارية للأمة عموما، وصحيح أن ثمة تفاوتًا في القيمة المنجزة من هذا التراث المدوّن زيادة وتقليدًا– لكن الغياب للمنجز الفكري لم يكن قط.

ومن الملاحظات المهمة في هذا السياق أن نقرر مجموعة من العلامات المستقرة، ومع استقرارها تبقى الخصيصة صحيحة في جوهرها حاكمة على قيام الشعوب العربية جميعا على المستوى الجغرافي، والزماني بواجبهم في دعم تراكم التراث العربي.

وإن كان ثمة تفاوت بين المشرق والمغرب العربيين في دعم حركة تنامي التراث زيادة في صف الأول، وقلة في صف الثاني، وريادة في الأول وتبعية في العموم في الثاني، وكثافة تنوع في الأول، وانحسار تنوع في الثاني.

إن مفهوم التراث العربي الإسلامي، وخصائصه المختلفة مدخل مهم له ما بعده، بحيث نستطيع أن نقرر في ثقة تامة أن الوعي بمرونة هذا المفهوم من جانب، وخصائصه المحورية من جانب ثان، والإدراك الكامل لأهميته في تأسيس النهضة، واستعادة المكانة من جانب آخر، أصبح أمرًا ضروريًا وواجبًا في الحياة المعرفية المعاصرة في ظل صراعات الاستقطاب المتكاثرة.

خالد محمد خالد: مفكر مسلم شجاع



بقلم: أ. د. حلمى محمد القاعود

-١-

فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى التقيت به لأول مرة. كان يحضر مهرجان الجنادرية فى الرياض بالسعودية، وجاءت جلستنا قلوا متجاورين، عرفته بنفسى، فتذكر على الفور مجلة الاعتصام - رد الله غربتها - التى كنت أشارك فى تحريرها، وعلت وجهه الابتسامة التى تحولت إلى ضحكة عالية صافية. استمرت وهو يراجع ذكرياته فى الاعتصام كاتبًا ومحررًا، مع الحاج حسن عاشور مدير تحريرها - رحمه الله. قضينا وقتًا غير قصير والرجل تحكمه السماحة والرضا ورقة التعبير وفكاهته، وكان يرافقه فيما أذكر أحد أبنائه، وتمنيت أن ألقاه فى وقت لاحق، ولكن لم تتح لى الفرصة، فقد كنت مرتبطًا فى الرياض ببعض الالتزامات التى جعلتنى لم أتمكن من تكرار اللقاء، وبعد شهور قليلة، صحوت ذات يوم على خبر رحيله عن دنيانا، فكتبت مقالاً قصيرًا نشرته فى جريدة الوفد، وأشرت فيه إلى هذا اللقاء، وأثنيت على شجاعته فى تراجعه عن بعض أفكاره التى أثارت الرأى العام فى أوائل الخمسينيات من القرن الماضى، واعترافه أن ما قاله كان نتيجة لظروف ما؛ سوف أشير إليها بشىء من التفصيل فيما بعد.

كان خالد محمد خالد (١٩٢٠ - ١٩٩٦م) من الكتاب المخلصين الذى أنجبهم الأزهر الشريف، وكان حبه للإسلام والوطن دافعا له كى يشارك بالكلمة فى المطالبة بالحرية وصناعة مستقبل أفضل لهذا الوطن وذلك الدين فى ظل احتلال شرس، وحكومة ظالمة مستبدة، وفساد كبير يصنعه التفاوت الطبقى والمحسوبية والقهر والقمع، وكان هذا الحب للوطن جارفًا جعله أحيانًا يجنح إلى بعض الآراء والأفكار التى خالفت التصور الإسلامى الصحيح، فتحمل مسئوليتها ومضاعفاتها، ولكنه فى أوج شهرته؛ لم يجد حرجًا أن يفىء إلى الصواب، ولم يستنكف أن يعلن تراجعه عن الخطأ، وعودته إلى الحق وإعلانه بكل شجاعة ووضوح وبيان مستقيم أن الإسلام دين ودولة، دنيا وآخرة، علم وعمل.

لقد كان خالد محمد خالد شجاعًا حين واجه النظام العسكرى لانقلاب يوليو ١٩٥٢ بدعوته إلى الديمقراطية. وإصداره كتابه "الديمقراطية أبدًا" من أجل أن يحصل الشعب على حريته وكرامته وحقه فى المشاركة فى تقرير مصيره ومستقبله.

كانت هذه الدعوة امتدادًا لمواجهته النظام الملكى الفاسد الذى قضى عليه ضباط يوليو، ورفضه للاستبداد والفساد والاستكانة للغزاة المستعمرين الذين حكموا مصر بالحديد والنار.

وكان خالد محمد خالد شجاعًا فى موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الانقلاب، ولكنه بعده، وبعد أن تكل بهم الانقلابيون ومزقوهم كل ممزق، طُلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى، ولم يخضع للإغراء أو التهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان. أما اليوم وهم فى المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ "ألا نجهز على جريح" (قصتى مع الحياة، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤١٧).

وكان خالد محمد خالد شجاعًا حين واجه جمال عبد الناصر بمطلب الحرية نفسه فى المؤتمر القومى، عام ١٩٦١، ولم ينافق من كان يحكم الوطن بالحديد والنار والمخابرات..

مواقف الشجاعة التى بذلها خالد محمد خالد - وسوف أشير إلى بعضها تفصيلاً فيما بعد - لم تلفت نظر بعض المفلسين فكريا فى أيامنا، ولكن الذى لفت نظرهم هو موقفه القديم الخاطئ الذى دعا فيه إلى فصل الدين عن الدولة، وانبهاره بالتجربة الشيوعية فى الاتحاد السوفياتى، ولم يذكروا أنه تراجع عن ذلك واعترف بالخطأ فى شجاعة مفكر أصيل، غير مفلس!

لقد بدا لبعض الناس فى أيامنا أن يقدموا "خالد محمد خالد" للشباب والأجيال فى صورة الرجل الذى توقف عند مقولاته الأولى التى دفعت إليها حماسة الشباب واندفاعاته ورغبته فى الإصلاح، دون أن يذكروا تحولاته وتصويباته وشجاعته فى التراجع، وصوروه وهو المفكر المسلم؛ أنه يشاطرهم مقولاتهم المنحرفة لتنحية الإسلام وإقصائه والتعتيم عليه بل استئصاله، وهذا تدليس وتضليل نبرئ الرجل منه.



خالد محمد خالد

لقد كابر هؤلاء المفلسون كما سماهم "خالد محمد خالد" فى تراجع الرجل عن أفكاره، بل حاولوا إدانة من يتحدث عن هذا التراجع، وأسمعونا دروسا فارغة فى أمراض الثقافة المعاصرة، وزعموا - أننا نكاد لا نعرف الأفكار إلا من خلال أصحابها، ولا نميز القول إلا بقائليه! وأننا نعانى صعوبة موروثة فى التعامل مع الأفكار الفلسفية المجردة بعيدا عن أسماء من نادوا بها أو روّجوا لها! وهكذا - كما يزعمون - تظل الفكرة لدينا شخصانية الطابع، فنحن نقبلها ونتحمس لها، ونحن نسألهم: هل التشريعات الإسلامية الربانية أفكار فلسفية؟ وهل تراجع خالد عن مقولاته التى خالفت التشريع وأسسه بناء على فهم ووعى ونضج فكرى أو لا؟

لم يكتف هؤلاء المفلسون بذلك بل أدانوا علماء الإسلام لأنهم يقومون بشخصنة الأفكار؛ كما يزعمون، فضلاً عن اتهامهم لهم بحفظ الثقافة الموروثة دون أن يفكروا فيها، حيث لا مجال وفقًا لتصورات المفلسين لإعمال العقل نقدًا وتحليلاً!

إنهم يزعمون أن علماء الإسلام يفتقدون النظرة النقدية العقلانية إلى التراث، كما تمثلت - من وجهة نظرهم - فى كتابات على عبد الرازق وطه حسين ومن حمل راية هذا النهج بعدهما مثل خالد محمد خالد، دون ذكر الفارق بين الأخير

والأولين في الفكر والسلوك!

ثم يزعمون أن الحديث عن تحولات خالد خروج من (تاريخ الأفكار) التي لا عهد للمتحدثين بها، إلى سير الرجال التي يألفونها، كما يتجاهلون الظروف السياسية القاهرة التي أدت بجيل من اليساريين، خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧، ثم زيارة السادات للكيان الصهيوني، ثم الغزو السوفييتي لأفغانستان، وغيرها من النكبات التي حاقت بالعالم العربي والإسلامي إلى الإحباط واليأس، فتخلوا عن طريق الخلاص العلمي والعقلاني، ليرتموا في أحضان الخلاص الديني كما يسمونه! وكأن الخلاص العلمي والعقلاني ضد الخلاص الإسلامي أو العكس!

إن المفلسين يتحدثون عن واقع فكري موهوم في أذهانهم، ويرمون علماء الإسلام وكتابه بالقصور، ويتصورون أن تاريخ الأفكار مسألة غربية وبعيدة عن الكتابات الإسلامية، مع أن العرب المسلمين من أوائل من تناول تطور الأفكار عبر صيغ متنوعة لغوية ودلالية وفكرية في كتب موسوعية عديدة تشير إلى تقليب الأفكار والتصورات والدلالات سبقت ما قاله الغربيون بأزمان..

إن تاريخ الأفكار هو أحد الفروع العلمية المعاصرة الذي يبحث في تاريخ الأفكار البشرية وتطورها وتغيرها أو الثبات فيها عبر الزمن، كما يمكن اعتباره تخصصا شقيقا للتاريخ الثقافي intellectual history، أو مقاربة من مقارباته، والعمل في مجال تاريخ الأفكار قد يرتبط بإجراء أبحاث غير تخصصية في مجالات تاريخ الفلسفة، وتاريخ العلوم، وتاريخ الأدب، الجدير بالذكر أن علم تاريخ الأفكار يعد من المواضيع العلمية القائمة بذاتها في السويد منذ ثلاثينيات القرن الماضي، كان ذلك عندما تم تعيين العلامة "جوهان نورد ستورم" أستاذا في هذا التخصص في جامعة أوبسالا، أما اليوم، فهناك الكثير من الجامعات التي توفر دورات وحصصا تدريسية في مجال تاريخ الأفكار، وغالبا ما يكون ذلك ضمن برنامج تعليم عال.

لقد قام المؤرخ آرثر لوفجوى بصك مصطلح "تاريخ الأفكار" ولقن طرق دراستها في العقود الأولى من القرن العشرين، عمل لوفجوى أستاذا للتاريخ في جامعة جون هوبكنز منذ ١٩١٠ وحتى ١٩٣٨، وهناك أشرف على اجتماعات (نادي تاريخ الأفكار) الذي قام بتأسيسه لعدة عقود.

وهناك مجموعة من الكتب التي عالجت موضوع تاريخ الأفكار منها الفكر الأوربي الحديث -علم تاريخ الأفكار- لمؤلفه فرانكلين باومر، وهو من أهم الكتب الثقافية التي أثنى عليها النقاد ويدور الكتاب حول علم تاريخ الأفكار وأشهر رواده إرنست كاسيرر، وميشيل فوكو، وإدوارد سعيد.

وهناك كتاب صغير بالعربية اسمه "علم تاريخ الأفكار" لمؤلفه عصام عبد الله، ونشره مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٢م). وهناك كتاب آخر بعنوان علم التاريخ لعبد الرحمن الشيخ، يتضمن تناولا لموضوع تاريخ الأفكار.

وقد تطورت فكرة تاريخ الأفكار لتشكل منهجا يعنى بالأفكار الكامنة في ضمائر الشعوب والجماعات، فتكون باعثا لها على الحركة واتخاذ المواقف. و يوظف الأعداء الأذكياء عادة الأفكار الكامنة في توريط خصومهم في اتخاذ مواقف ليست في صالحهم (أي ليست في صالح هؤلاء الخصوم)، وبذر الأفكار الكامنة التي نقصدها هنا، لا يكون عن طريق الخطابة، أو الإعلام المباشر، وإنما يستغرق بثها عشرات السنين أو مئات السنين، بل أحيانا تكون هذه الأفكار عبارة عن تراكمات تظل تتراكم طبقة فوق طبقة حتى تصل في ضمير الأمة إلى ما يشبه العقيدة بحيث لا تخضع لمقاييس المنطق أو لا يقبل أحد أن يخضعها لذلك، فهي تعني الأفكار أو الافتراضات السابقة التي يمتصها الناس امتصاصا مشابها لامتصاص النبات، ولقد وصف باحث مهتم بتاريخ الأفكار "الأفكار المقصودة هنا" بأنها الفلسفة غير المدونة تلك الكامنة في عمق أعماق الجماعات التي لا تعد مجرد أفكار وإنما يؤمن بها الناس لأسباب غامضة أو بفعل البث المستمر سواء أكان ذلك البث بوعي أم بدون وعي.

لا أريد الاستطراد في تناول تاريخ الأفكار أكثر من ذلك، ولكني أردت أن أشير إلى أن القضية التي نحن بصددها وهي تناول تحولات خالد محمد خالد، لا علاقة لها بما يسمي تاريخ الأفكار، لأنها ببساطة شديدة تتحرك في مسار الأفكار البشرية وتحولاتها وما يعتريها من قصور ونقصان، أما ما نحن بصدده فهو عودة إلى الصواب في إطار آخر يتعلق بالوحي والعقيدة وارتباط الأمة بدينها وشريعتها، ولذا كانت عودة خالد محمد خالد إلى الصواب شجاعة يثاب عليها، وموقفا فكريا محترما يستحق الوقوف أمامه بالتقدير والتبجيل، وليس مجرد حلقة في سياق تاريخ الأفكار تقتضيه طبيعة التطور والتغيير.


محمد الغزالي

وسوف نبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى، مع مواقف أخرى تكشف عن شجاعة عالم الدين حين يتصدى لقوى سياسية واجتماعية قاهرة مسلحة بالجبروت والقوة الغشوم، فيكون إرضاء الله - وليس الخضوع لتحولات التاريخ - هو الغاية الكبرى التي تحكم مواقفه وتحولاته، وذلك بعد أن نطل إطلالة سريعة على ملامح بارزة في نشأته وعلمه وثقافته وعطائه، وهو ما أهله ليكون علما بارزا في سياق الشجاعة الفكرية والعلمية والعدول عن الخطأ.

لقد كانت مواقف خالد محمد خالد ميدانا رحبا يجد فيه بعض الباحثين والكتاب نموذجا للكاتب أو الباحث الذي يستحق أن تتناوله أقلامهم بالكتابة والنقد والتقويم، وهو ما يعني أن الرجل يملك شيئا ذا قيمة فكرية وعلمية في كل الأحوال.

لقد كتب عنه من الإسلاميين الشيخ محمد الغزالي والعلامة محمد فريد وجدي والشيخ محمود شلتوت والأستاذ أحمد الشايب والشيخ الخراشي والشيخ صالح عشماوي ومحمود غزلان وأشرف عبد العتيلي، كما كتب عنه شاكر النابلسي ورجاء النقاش وآخرون من اليساريين والماركسيين والعلمانيين الذين هللوا لمواقفه الأولى وتجاهلوا مواقفه الجديدة، وهو ما يشير إلى تأثير الرجل الواضح في حركة الفكر الإسلامي في العصر الحديث.

إعرف نفسك أيها الإنسان

لفضيلة الشيخ: معوض عوض إبراهيم

إن أوجب الواجبات علينا وعلى ذوى العقول والقلوب على سواء أن نعرف الله تعالى بقدر ما وهبنا من وسائل الإدراك، ومنافذ العلم، التى تحسن بها تأمل آيات الله المتلوة فى كتابه، وتحسن بها استكناه أسراره وشواهد وجوده ووحدانيته وعلمه المحيط وقيوميته على كل شىء فى آياته المجلوة فى الآفاق والأنفس.

والله تعالى يلفتنا إلى ذواتنا مم خلقت؟ وإلى أغذيتنا كيف وجدت؟ وإلى الآفاق علواً وسفلاً، لنرى بديع صنع الله وباهر قدرته، وظاهر إحكامه وحكمته وسابغ إحسانه، وبالغ جوده وإنعامه فى كل ما تراه عين، وتسمعه أذن، ويبلغه فكر، وتناله يد، ونحن نقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠-٢١)

وقوله:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

(الطارق: ٥)

والله تعالى يردد هذه الحقائق ويؤكدها فى مجال الإخبار والحديث عن خلق الإنسان فيقول:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(المؤمنون: ١٢-١٤)

ويجعل سبحانه تأمل هذه الحقيقة دليلاً على المعاد وبعث الأرواح والأجساد:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم: ٢٧)

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(ق: ١٥)

فيبدد الله ذلك اللبس فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾

(الحج: ٥-٧)

فالحياة الأولى منقضية، والساعة آتية لا ريب فيها، والحى بينهما مستخلف مكلف مسئول «عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» (رواه الترمذى والدارمى من حديث أبى برزة الأسلمى)، فهو يسلف من دنيا العمل، ومن مزرعة الآخرة، ما يجده هناك خيراً بخير وشراً بشر:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة: ٧-٨)

إن الإيمان بالله هو المعتصم من أن تزل بنا فى الإثم قدم، ومعرفة حق الله فى أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر هى موجبة عدة الله تعالى فى قوله:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(البقرة: ١٥٢، ١٥٣)

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾

(التغابن ١١)

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(آل عمران: ١٠١)

والصراط المستقيم فى الآية، وهدى القلب موعود الله لمن آمنوا به يستجليهما المؤمن فى الحياة ثم يجدهما فى المصير إلى الله وعداً عليه حقاً

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

(الرعد: ٢٨-٢٩)

وإنما يذكر الله بحق، من رضى بقضائه، وعلم أن الخير كله فيما قدره سبحانه ورضيه لعباده، فهو أرحم بهم من الوالدة بولدها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

فاعرف نفسك أيها الإنسان على حقيقتها حتى تكون ممن قيل فيهم (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وحتى تكون أحرص شئ على الاستجابة لأمر ربك واجتناب ما نهى سبحانه عنه وأنت منطلق بين مبتدئك ومنتهاك خليفة بحق مع أمثالك عن الله عز وجل فى إصلاح كونه وناس زمانه ومن يليهم ممن نوه الله عز وجل بهم فى قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

ولتكون بذلك أهلاً لأن تناجى ربك بما ناجاه به الإمام الشافعى رضى الله عنه وهو يقول:

أذقنــا رحـــــيق الحب
يـا مـن إذا مـــــــــــقى
مـــــحـبــا شـــربا
لا يـجــــــوع ولا يـظـمــا

وجل الله الذى يعصمنا بفضله وحوله وطوله من أولئك الذين توعدهم بقوله:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

(طه: ١٢٤-١٢٧)

وأنت أيها الإنسان قد خلقك الله - عز وجل - من مادة وروح، وبطاقات وقوى متعددة تعين على المعرفة الحقة بخالق الخلق ومالك الملك، واحداً أحداً فرداً صمداً لا شريك له فى تدبير أمور من خلق بعد أن خلقهم وحده بغير مساعد ولا معين.

وكم مر بك قوله تعالى:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢١)

وقوله:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

(الطارق: ٥)

وقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

(الانفطار: ٦-٨)

وأراني أمام كلمات للدكتور روبرت هورتون كاميرون فى مقاله الإنسان ذاته هو الدليل فى كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» ص ١٢٩، يقول: «إننى أعتقد بوجود الله لأنه وهبنى التميز الأخلاقى، فالجنس البشرى لديه إحساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب، وكما يقول لويس فى كتابه «قضية المسيحية»: «قد تختلف أفكارنا ومع ذلك فإننا جميعاً ندافع عن حقوقنا وننشد العدل».

إن اعتقادى فى الله يقوم أيضاً على حرية الإرادة وذكائها، الإرادة الإنسانية التى وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التى تقود الإنسان إلى اتخاذ قرار معين، الإرادة التى هى إحدى الأقسام الكبرى التى يقسم علماء النفس قوى العقل إليها (القوتان الأخريان هما الإدراك والشعور)، فأنا عندما أرغب أو أريد شيئاً معيناً يتخذ عقلى قراراً به، وإرادتى هى التى تنفذه.

ثم أردف يقول: إن الإنسان خليفة الله فى الأرض واستأنس لذلك بما عرفه عن الكتب السماوية وبما قرره يكاد يقنعنا بأنه انتفع بالقرآن الكريم وهو يذكر الكتب السماوية من أن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين: البصر والبصيرة.

● أما البصر: فهو ما نتعلم فى حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة.

● وأما البصيرة: فهى ذلك النور الذى يقرعه الله فى قلوبنا فيكشف لنا به ما لا نعلم.

واستأنس لذلك الدكتور «الفندى» مترجم هذا الكتاب بقول الله تعالى:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

ومن المفيد أن أذكر هنا قول الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

(الرعد: ٢٨-٢٩)

وتابع الكاتب كلامه النافع فقال: وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بوجود الله، إذ لابد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر كتلك التى أشرنا إليها سابقاً، ثم نلتجئ بعد ذلك إلى الله لكى يكمل إيماننا ويدعمه.

إن رجال العلوم يعتمدون على التجربة، وأنا مقتنع بوجود الله اعتقاداً يستند إلى أدلة تجريبية، ولكنها تجارب شخصية صرف، ومع ذلك فهى أقوى لدىّ من كل دليل، وأشد إقناعاً لى من أى برهان رياضى، لقد لمست هذا الدليل فى نفسى منذ اثنتين وثلاثين سنة، عندما كنت بحجرتى فى القسم الداخلى بجامعة كورنل يوم جاءنى البرهان وأغدق الله على قلبى نور الإيمان، لقد أصبح الله لدىّ أكبر من كل ما سواه، حتى أننى أرضى أن أفقد كل شىء فى هذا الوجود، ولا أرتد إلى حالتى السابقة، لقد كان هو سبحانه صاحب الفضل فى هذا البرهان فهو الذى أنزل على قلبى وجعلنى أعتقد فى وجوده. (ا. هـ)

هذا كلام أقوام بصرهم الله عز وجل بحقيقة وجوده تعالى على نحو يجعلنى أوقن أنهم لو حدوا أبصارهم قليلاً لاهتدوا إلى مزيد بصيرة نيرة تتأدى بهم إلى الاعتقاد للدين الخاتم، ومن خلال هذا النذر اليسير مما حواه كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» تبرز حقيقة وحدة الدين التى يقول الله عز وجل فيها:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

ويقول:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

وجزى الله الدكتور الفندى خيراً فهو يقول فى آخر ذلك الكتاب: كان لزاماً أن يضم إلى ذلك الكتاب فصل أغفل عن آخر كتاب مقدس نزل حين اكتملت الإنسانية ونضجت عقول البشر واستعدت للبحث والتفكير والتدبر والتأمل، وذلك بطبيعة الحال، بالإضافة إلى ما أوردنا - تحت الهوامش - من آيات ذلك الكتاب البينات فى بعض المناسبات كتعقيب على ما جاء فى بعض الصفحات.

وتلك أمنية لا ريب نودها مع الدكتور الفاضل والكمال لله وحده، والحق دائماً تؤازره وتظاهره مشيئة الله الذى يقول:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾

(الأنبياء: ١٨)

قالوا عن محمد ﷺ



د. عماد الدين خليل

ايفلين كوبولد

(١) ".. هذه هي مدينة الرسول ﷺ، تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية"(١).

(٢) "كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً.."(٢).

(٣) ".. لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول ﷺ روعة ما يستطيع لها تفسيراً، وهي روعة تملأ النفس اضطراباً وذهولاً ورجاء وخوفاً وأملاً، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم، إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية"(٣).

(٤) "لقد استطاع النبي ﷺ القيام بالمعجزات والعجائب، لما تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية، لقد وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً ونقلهم من الظلمات إلى النور"(٤).

(٥) "مع أن محمداً ﷺ كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريماً باراً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه"(٥).

كولد تسيهر(٦)

(١) ".. إن محمداً قد بشر بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفتر ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة الخاصة، وقد كان في ذلك كله مظهراً لإنكار الذات برغم سخرية الجمهور"(٧).

(٢) ".. الحق، أن محمداً ﷺ كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية"(٨).

(٣) "في هذا العصر نرى النبي ﷺ يستخدم حنكته المفكرة ورؤيته الدقيقة وتبصره العالي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده وغاياته في داخل موطنه وخارجه"(٩).

عبد الله لويليام

(١) "كان محمد ﷺ على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحساس، وكان حائزاً القوة إدراك عجيبة وذكاء مفرط وعواطف رقيقة شريفة، وكان على خلق عظيم وشيم مرضية مطبوعاً على الإحساس.."(١٠).

(٢) ".. إن بعض كتاب هذا العصر الحاضر كادوا أن يعرفوا بأن الطعن والقدح والشتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان فسلموا بذكر كثير من صفات النبي ﷺ السامية وجليل أعماله الفاخرة.."(١١).

(٣) "..ما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد ﷺ الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستوراً لن يضلوا بعده أبداً وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم وخير آخراهم.."(١٢).

(٤) "لما شرف محمد ﷺ ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى اعتلاء النوع الإنساني وترقيه في درجات المدنية أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة، ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله ﷺ وما كانوا عليه من الضلالة، ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقي العظيم رأى بين الحالين فرقاً عظيماً كما بين الثريا والثرى"(١٣).

(٥) "..امتدت أنوار المدنية بعد محمد ﷺ في قليل من الزمان ساطعة في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب حتى إن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العالية من المدنية قد حير عقول أولي الألباب، وما السبب في ذلك إلا كون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة"(١٤).

روم لاندو

(١) ".. لم ينسب محمد ﷺ في أيما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية، على العكس، لقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس"(١٥).

---

(١) البحث عن الله، ص ٣٩ - ٤٠.　(٢) نفسه، ص ٤٦.　(٣) نفسه، ص ٥٢.

(٤) نفسه، ص ٦٦ - ٦٧.　(٥) نفسه، ص ٦٧.

(٦) كولد تسيهر [١٨٥٠-١٩٢١م] Y. Goldziher تخرج باللغات السامية على كبار أساتذتها في بودابست وليبزج وبرلين وليدن، ولما نبه ذكره عين أستاذاً محاضراً في كلية العلوم بجامعة بودابست (١٨٧٢) ثم أستاذ كرسي (١٩٠٦). رحل إلى عدد من البلدان العربية وتضلع بالعربية على شيوخ الأزهر، انتخب عضواً في عدد من المجامع العلمية وحضر عدداً من المؤتمرات الاستشراقية. من آثاره: كتب سيلاً من المقالات والأبحاث في المجلات الآسيوية والغربية بأكثر من لغة، وكتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) (باريس ١٩٢٠)، ودروس في الإسلام) في جزئين كبيرين، كما حقق العديد من النصوص القديمة.

(٧) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢ - ١٣.　(٨) نفسه، ص ١٣.

(٩) نفسه، ص ٢١ - ٢٢.　(١٠) العقيدة الإسلامية، ص ٩٦ - ٩٧.　(١١) نفسه، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(١٢) نفسه، ص ٣٨ [عن لوازون في خطبته المذكورة].　(١٣) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢١ - ٢٢.

(١٤) نفسه، ص ٢٢ - ٢٣.　(١٥) الإسلام والعرب، ص ٣٢.

(٢) "كان محمد ﷺ تقيًا بالفطرة، وكان من غير ريب مهيئًا لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها، وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في جوهره رجلا عمليا عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطا وإلى المدنيين الوثنيين، في آن معا، على نحو تدريجي، وفي الوقت نفسه كان محمد ﷺ يملك إيمانا لا يلين بفكرة الإله الواحد، وعزما راسخا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب"[١٦].

(٣) "كانت مهمة محمد ﷺ هائلة، كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية (وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المنكرين الرسول العربي ﷺ) أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي، إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأي ضرب من الخداع المتعمد، ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلا، والإسلام لم يعمر حتى الآن ما يربو على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام، أتباعا جددا، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلا واحدا على محتال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلا"[١٧].

(٤) "كانت مهمة محمد ﷺ هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسؤولا عن اندلاع نار الحرب، على نحو موصول تقريبا، بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة، كان عليه أن يعطي الناس قانونا كليا يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والإذعان له، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش على العنف القبلي والاقتتال الدموي لضروب من المظالم بعضها واقعي وبعضها متوهم، كان عليه أن يحل الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محل القوة الخالصة"[١٨].

(٥) "عندما توفي محمد ﷺ عام ٦٣٢م كان في نجاح الإسلام ما زكى إيمان خديجة (رضي الله عنها) بالوحي الذي تلقاه زوجها، وكانت العقيدة التوحيدية الجديدة في سبيلها إلى القيام بفتح روحي ومادي لا يضارعه أي فتح في التاريخ البشري"[١٩].

---

(١٦) نفسه، ص ٣٣.

(١٧) نفسه، ص ٣٣ – ٣٤.

(١٨) نفسه، ص ٣٤.

(١٩) نفسه، ص ٣٥.

لايتنر[٢٠]

(١) "بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباسا بل قد (أوحي إليه به)، ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم، وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة القصد، والإيمان القوي الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنه قد أوحي إليه"[٢١].

(٢) "إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد ﷺ إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح (عليه السلام) تخالف التعاليم السرية التي أذاعها بولس والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى، ولقد كانت آمال محمد ﷺ وأمانيه أن لا تختص بركة دين إبراهيم (عليه السلام) لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعا، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام"[٢٢].

(٣) "..لما بلغ ﷺ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها أربعين عاما، وهذه تشابه امرأة عمرها خمسين عاما في أوربا، وهي أول من آمن برسالته المقدسة، وبقيت خديجة (رضي الله عنها) معه عشرين عاما لم يتزوج عليها قط حتى ماتت (رضي الله عنها)، ولما بلغ من العمر خمسا وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى، لكن ليس من الاستقامة والصدق أن تنسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذلك العمر بالطهارة والعفاف، فلا ريب أن لزواجه بسن الكبر أسبابا حقيقية غير التي يتشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ ولا ريب هي شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا."[٢٣]

(٤) "..مرة، أوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ وحيا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلا غنيا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذلك الوحي، فلو كان ﷺ كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذلك الوحي من وجود.

(٥) "..إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح (عليه السلام) احتراما عظيما وذلك باحترامهم محمدا ﷺ، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد ﷺ وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق."[٢٤]

---

(٢٠) لايتنر Lightner باحث إنجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراة في الشريعة والفلسفة واللاهوت وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها.

(٢١) دين الإسلام، ص ٤–٥.

(٢٢) نفسه، ص ١٢ – ١٣.

(٢٣) نفسه، ص ٥.

(٢٤) نفسه، ص ٦.

وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا «٩»



أ.د. حورية توفيق مجاهد

ماء العينين القلقمى وانتشار العينية فى موريتانيا[1]

وُلد محمد مصطفى ماء العينين القلقمى قرب ولاتا فى منطقة الحوض فى جنوب شرق موريتانيا سنة ١٨٣١، وقد توفى فى جنوب المغرب سنة ١٩١٠. وكانت أمه مغربية ووالده - محمد فاضل ولد مامن[2] - موريتانيا متفقهًا فى الدين وكان زعيمًا للطريقة الفاضلية التى تفرعت عن الطريقة القادرية فى موريتانيا فى القرن١٩. حيث درس على يد أكبر شيخ قادرى فى السودان الغربى وهو سيدى المختار الكونتى الذى توفى سنة ١٨١١، والذى كان له دوره الكبير على الطريقة القادرية فى المنطقة وأثر أيضا على عثمان دان فوديو فى منطقة الهوسا. وقد أصبح محمد فاضل فيما بعد أهم منافس للكونتى ولفرع القادرية المنسوب إليه والمعروف بالمختارية. أى أصبحت الفاضلية منافسا أساسيًا للمختارية وإن كان كلاهما فرعًا من القادرية. ولكن الفاضلية كانت أكثر نجاحا فى جذب الانتباه ما أدى إلى حنق الكونتى الذى انتقد فاضل لعدة أمور منها أن أسس اختيار الأعضاء متسيبة، ولأنه ظل مرتبطًا بثلاث طرق أخرى بما فيها التيجانية على الرغم من أنه لم يفضل الحاج عمر، زعيمًا، مطلقا. كما أن الفاضلية كانت تتميز بالشعبية وبشعائرها التى تمارس بضجة. وخاصة استخدام الطبول (التم تم) المعروفة فى إفريقيا. وقد كانت الأساليب الصوفية والاتجاهات المتبعة من أهم ما جذب إليها الأتباع وبالتالى فإن ماء العينين وجد فيما اتبع فى ظل والده أكبر ضمان لتحقيق الشعبية والنجاح بين الرحل المحليين. ونظرًا لما أكده والده من أنه من الأشراف (الأمر الذى يشاركه فيه العديد من الزعامات الدينية السياسية الإفريقية) فقد ازداد جذب الأتباع والموالين إليه.

وعليه فقد نشأ فى أسرة متدينة، ودرس أصول الدين منذ صغره وتميز بأنه كان كاتبًا ذا نظرة سياسية ثاقبة. كما كان صوفيا انتمى إلى الطريقة الفاضلية التى أصبحت تعرف باسم «العينية» من بعده.

وقد تحالف تحالفًا شخصيًا مع الأسرة المالكة الشريفة فى المغرب، ومن ثم فقد جذب فى مقاومة مسلحة ضد فرنسا نتيجة فرض سيطرتها فى المنطقة مما أدى إلى فقد العديد من أبنائه حياتهم الأمر الذى كان له أثره فى حياته وعجّل بوفاته.

وقد نشط ماء العينين القلقمى فى بناء الزوايا الصوفية. وكان من بين اهتماماته ممارسة السحر والحصول على أسرار الكون، مما عاد عليه ببعض النفع من الناحية السياسية وذلك لتأثيره على جذب تلاميذه وأتباعه، فضلا عن تميزه فى الفروسية وحفر الآبار. وقد كان ثرى العطاء الفكرى فقد ألف نحو ٣١٤ كتابا فى مختلف المجالات: كالفلسفة، والقانون والعلوم الدينية والفلك والرياضيات وغيرها[3].

وعندما بلغ ماء العينين الثمانية والعشرين، وكان قد أتم تعليمه، ثم فرض على نفسه العزلة للتأمل والقراءة. وخرج منها إلى الحج فى ربيع ١٨٥٨ حيث مر بالمغرب وزار السلطان وريث الأشراف. وبدأت بهذه الزيارة علاقات صداقة قوية بين ماء العينين وسلاطين المغرب قائمة فى الحقيقة على المصلحة المتبادلة: فقد كانت المغرب تسعى لتأكيد نفوذها فى موريتانيا وضمان دعم علاقتها بكبار شخصيات موريتانيا، الذين يستطيعون مساعدتها فى حالة الحرب خاصة فى ظل تبلور المصالح الأوروبية فى شمال إفريقيا (وكانت الحرب التى قامت بين فرنسا والمغرب سنة ١٨٤٤ آخر الأمثلة). وكان ماء العينين باعتباره ابن أحد كبار رجال الدين فى موريتانيا من تلك الشخصيات التى حرصت المغرب على دعم علاقاتها بها. أما من جهة ماء العينين فقد رأى أنه من المفيد أن يكون له مؤيدون أقوياء حتى ولو لم يكونوا موريتانيين.

ومن الجدير بالذكر أن ماء العينين بقى ثلاثة أسابيع فقط فى مكة والمدينة، أى لم يبق فى الحج والأماكن المقدسة سنوات مثلما فعل غيره من الزعماء الصوفيين مثل الحاج عمر والسنوسى الكبير. وفى طريق عودته زار مصر حيث مرض بالجدرى فى الإسكندرية وبقى بها فترة النقاهة ثم رحل إلى المغرب بحرًا ومنها عاد أدراجه إلى وطنه برا فى مارس ١٨٥٩.

ومع أن ماء العينين لم يمض وقتًا فى الدراسة فى مصر أو فى مكة لعدم توافر الإمكانيات المالية أو لظروفه الصحية، إلا أنه سعى للدراسة فى تندوف على يد اثنين من المعلمين المشهورين أحدهما فى اللغة العربية وهو محمد مولود، والآخر زعيم قادرى هو محمد الجكانى وكانوا قد جذبوا إليهم العديد من الطلبة فدرس لفترة فى مكتبة جكانى قبل أن يترك تندوف سنة ١٨٦١ ويعتقد أن إقامته كانت بمساعدة ملكية من الأسرة الحاكمة فى المغرب. وبعودته خلع عليه والده محمد الفاضل عمامة ولقب شيخ[4].

ولقد سعى ماء العينين إلى توسيع نفوذه الدينى والسياسى فترك موطنه بمنطقة الحوض فى جنوب موريتانيا. واتجه شمالاً إلى منطقة الحدود بين شمال موريتانيا وجنوب المغرب لنشر دعوته وتعاليمه حيث انتشر

(١) حيث اعتمدنا على هذا المصدر فى هذا الموضوع: Ibid. PP. 125 - 136

(٢) (١٧٧٦ - ١٨٧٠م)

(٣) المرجع السابق، ص١٤٥.   (٤) المرجع السابق، ص١٢٨.

نفوذه تدريجيا، وقد ساعده هذا الانتقال على تحاشى المواجهة مع إخوته غير الأشقاء «ويذكر أن عدد أشقائه بلغ ثمانية وأربعين» الذين ورثوا نفس الاتجاهات الدينية لوالدهم حيث سعى ثلاثة منهم إلى خلافته في زعامة الطريقة الفاضلية.

وقد ركز أحدهم «وهو سعد» نشاطه في منطقة جنوب أدرار ومنطقة ترازا أما «سيدى الخير» فقد بقى في ولاتا، والثالث، وهو «الحضرمى ولد محمد» فقد استمر في منطقة الحوض، حيث ترك الشيخ فاضل - قبل وفاته - مسئوليات الطريقة الفاضلية ومسئوليات عشيرته لأبنائه الأربعة، وكان ماء العينين أقربهم إليه وأحبهم وكان قد بدأ يظهر كزعيم وعمل على مد نفوذه عن طريق الزواج، فبلغ عدد زوجاته وفقا لبعض الآراء ٧٦ زوجة، ولكنه بالطبع كان حريصا على أن يحتفظ فقط بأربع نساء في وقت واحد فقد كان يتزوج ثم يطلق فكان له الكثير من الأولاد، ومن المعروف أن كثرة الزواج والطلاق كانت النمط العادى في الصحراء في ذلك الوقت ولم تترك حساسيات، أى أن كثرة زواجه كانت لأهداف سياسية في تدعيم علاقته مع العائلات المختلفة وبالتالى نشر نفوذه.

وقبل عام ١٨٧٠م انتقل إلى الساقية الحمراء وأقام هناك كشيخ - ولى - مقيم للطريقة مما يدل على استقرارها وانتشارها، ولقد استطاع تقليص الخلافات بين الرحل وتقليل الثأر المحلى بينهم والتقليل من التحلل الاجتماعى أو الأناركية وقد أطلق عليه بعض الأوروبيين الأوائل اسم «زعيم رحل الصحراء»[٥]، فقد كانت له الكلمة العليا المسموعة وقد استطاع أن يحقق تماسك سلطته السياسية في شمال موريتانيا.

وقد استفاد من بعض الظروف التى واكبت الغزو الفرنسى للمنطقة: حيث أدى جهاد الحاج عمر إلى اضطرابات وتحرك بشرى على جانبى نهر السنغال، وعندما فرض الفرنسيون السلام توقفت مؤقتا الغزوات الموريتانية التى قام بها البراتكا والترزا في نهاية الخمسينات من القرن التاسع عشر.

وواكب ذلك توجيه التجارة الأوروبية على طول النهر، نحو سواحل المحيط ومن ثم تدهورت التجارة التقليدية «تجارة القوافل» نحو الشمال، فلأول مرة منذ القرن السابع عشر أغلقت الموانئ بجنوب الصحراء التى كانت مزدهرة من قبل في ظل التجارة مع الشمال وهددت المصالح الاقتصادية والمبادئ الدينية، مما أدى إلى صعوبات وتدهور في موريتانيا، وخلق جوا من عدم الرضا والعداء للفرنسيين[٦]، وقد وجد ماء العينين فرصته في نشر أفكاره في ظل هذه الظروف حيث تولى قيادة الرأى المناهض للوجود الفرنسى.

وقد طور ماء العينين دوره خلال الستينيات من القرن التاسع عشر ليصبح باعثا وموجها وزعيما للرأى الإسلامى المحلى ضد التدخل الأوروبى، وقد ركز في سياسته على تدعيم علاقات قوية مع

٥- Martin.op cit.p 130

٦- المرجع السابق، ص١٣١

الحكام الأشراف في الشمال حيث جمعه معهم هدف إيجاد مستودع مغربى للدفاع عن المنطقة ضد التدخل الأوروبى المرتقب من فرنسا.

ولكن بدأ أول تدخل أوروبى، ليس من جانب فرنسا ولكن من جانب مستثمر إسكتلندى يدعى دونالد ماكينزى الذى أقدم عام ١٨٧٤م على إقامة مشروع يرمى لإنشاء طريق مائى من الأطلنطى إلى الصحراء فقام ببناء رأس جوبى(Cape Juby) «طرفايا» في وادى نون التى اعتبرها منطقة مناسبة متقدمة لمشروعه ثم اشتراها بالفعل عام ١٨٧٨م هى وميناءها من أهم منافس للشيخ ماء العينين وهو الشريف محمد ولد بيروك الذى كان رئيس دولة صغيرة دينية قرب تزاروالت في وادى نون، وقد أكد هذا الشراء مخاوف كل من ماء العينين والسلاطين المسلمين في الشمال، كما بعث من جديد المصالح الأسبانية في ساحل موريتانيا ومن ثم أرسلت الحكومة الأسبانية بعثة إلى موريتانيا لتحديد مكان ملائم لإقامة مستعمرة أسبانية، وقد قرر السلطان الحسن الأول - سلطان المغرب - إرسال جيش على وجه السرعة إلى سوس ووادى نوتل منع قيام أى تنازلات أخرى للأجانب.

وحضر بنفسه على رأس رجاله من مراكش واتصل بمحمد ولد بيروك وجعله مسئولا في المستودع كموظف به، كما دعم السلطان اتصاله بماء العينين وكان تحرك السلطان يهدف «لطرد المسيحيين واقتلاع جذور هذا الشر»[٧].

وبنزول قوات مولاى الحسن الأول إلى رأس جوبى أمر ماكينزى بالمغادرة سنة ١٨٨٨م ولكن المشكلة لم تنته إلا سنة ١٨٩٥م عندما اشترى السلطان عبد العزيز رأس جوبى مرة أخرى من الإنجليز بمبلغ ٥٠ ألف جنيه استرليني، وأقام حامية دائمة بها لتأكيد الوجود المغربى هناك، وقد كان لتعاون ماء العينين مع السلاطين الأشراف أثره: فقد أعطى رسميا من قبل الحسن الأول مسئولية الحدود الجنوبية حتى رأس جوبى في سنة (١٨٩٢ - ١٨٩٣م) وكان ماء العينين يتنقل مع عشيرته وراء المرعى في المنطقة قرب الساحل والمداخل في الصحراء، ولكن في بداية عام ١٨٧٠م استقر في منطقة وادى تيجبرت عند الساقية الحمراء.

وقد أسهم القلقمى في الإسراع بالقومية وتقويتها في كل من موريتانيا والمغرب، ولكنه لم يتمكن من التعامل مع التفوق العسكرى التكنولوجى للاستعمار الفرنسى وضغوطه الدبلوماسية رغم تقاربه مع سلاطين المغرب، إذ - على خلاف الحاج عمر - لم تكن لديه الموارد اللازمة والإمكانيات المالية والمادية لمواجهة ذلك الاستعمار.

٧- انظر المرجع السابق، ص١٣٢

السنوسى الكبير[٨] وزعامته الكاريزمية فى ليبيا والصحراء

يعتبر محمد على السنوسى[٩]، ويعرف بالسنوسى الكبير، مكملاً لجهود الانتفاض الصوفى المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر، حيث أسس الطريقة السنوسية كفرع للطريقة الإدريسية أو الأحمدية كما يطلق عليها البعض، وتدين فى كثير من أفكارها للصوفية الجديدة الممثلة فى آراء أحمد بن إدريس الفاسى الذى تزعم الطريقة الإدريسية الأم، والتى تعتبر من الناحية المذهبية فى منتصف الطريق بين الصوفية التقليدية من جهة والسلفية والإصلاح الوهابى من جهة أخرى.

وكان السنوسى مؤرخًا وكاتبًا ومفكرًا إسلاميًا وهو يتشابه مع كل من عثمان دان فوديو والحاج عمر التل فى المناداة بالتمسك بالمصادر الأصلية للشريعة مع إعمال العقل وفتح باب الاجتهاد.

وكان هدف السنوسية نشر الدعوة الإسلامية وبالتالى كان انتقالها من ليبيا إلى الصحراء جنوبها، ثم جنوبًا نحو داخل القارة الإفريقية، وقد ظلت علاقة السنوسى وخلفائه بالأتراك العثمانيين الحاكمين طيبة عامة، فلم تخرج على الحكم العثمانى بعكس كثير من مثيلاتها من الحركات المعاصرة، فقد انفرد السنوسيون بالحكم داخل بلادهم[١٠] واعتمدت عليهم السلطة العثمانية فى ذلك، ومن أهم ما استطاعت الطريقة السنوسية تحقيقه بعد توليها السلطة هو تحقيق الاستقرار والأمن والقضاء على الخلافات الداخلية بالقضاء على الثأر المحلى الذى كان سائدًا بين القبائل والعشائر.

والسنوسى الكبير جزائرى الأصل ولد سنة ١٧٨٧م فى بلدة مستغانم فى محلة الواسطة قرب الحدود المغربية، وقد جاء من أسرة متدينة متعلمة تتوارث تقاليد العلم رجالاً ونساء وبالتالى فقد مثلوا طبقة العلماء وهو يؤكد أن أصله يرجع لسيدنا على بن أبى طالب وأنه من سلالة كل من الحسن وسيد إدريس مؤسس الدولة الإدريسية وهى أول دولة إسلامية فى المغرب وبالتالى فقد تمتع تلقائيًا بهيبة كبيرة بحكم أصله[١١]، وفى صغره تربى يتيمًا وحفظ القرآن ودرس التشريعات والشريعة الإسلامية والفقه المالكى والتقاليد والمبادئ الصوفية، وكانت تعتبر أساسيات فى التعليم الإسلامى فى المغرب فى القرن التاسع عشر، كما أمضى وقتا يتدرب على الفروسية والرماية.

ثم سافر سنة ١٨٠٥م وهو فى الثامنة من

٨- لمزيد من المعلومات انظر: Martin,op cit,p-124
انظر أيضاً عن السنوسية وآرائها: شكيب أرسلان، مرجع سابق، الجزء الثانى ص ٢٩٩ وما بعدها، د. أحمد صدقى الدجانى، الحركة السنوسية نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ١٢٠٢هـ - ١٣٢٠هـ، الطبعة الثانية، القاهرة د.ن. ١٩٨٨م.

٩- واسمه كاملاً: محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى.

١٠- انظر ولمزيد من المعلومات: د. محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٤٨م، ص١.

١١- انظر: شكيب أرسلان، مرجع سابق، ص١٠٠، ولمزيد من المعلومات عن سيرته الذاتية انظر د. محمد فؤاد شكرى، مرجع سابق، ص١٠.

عمره للدراسة بفاس «محروسة» حيث جامعة القرويين الشهيرة التى اعتبرت من شقيقات الأزهر وأحد مراكز الإشعاع الثقافى والإسلامى فى إفريقيا، وقد أمضى بها ١٤ عاما.

حصل بعدها على إجازة، وكان محور دراسته فيها فقه مالك، ولكنه درس أيضا الرياضيات والفلك العام، وقد درس على يد أفضل معلمى ذلك الوقت فى المنطقة ومنهم: العربى الدرقاوى: مؤسس الطريقة الدرقاوية، وأحمد التيجانى: مؤسس الطريقة التيجانية، وقد زادت اهتماماته بالصوفية فانتمى إلى القادرية، والشاذلية، والحبيبية وغيرها ولكنه كان مهتما بمجالات أوسع من ضمنها القانون والسياسة، وكان شاغله الأساسى إصلاح حال العالم الإسلامى.

وفى نهاية وجوده فى فاس بدأ يقوم بالتدريس فى الأمور الدينية والقانونية وقد استطاع بالفعل أن يجمع حوله العديد من الطلبة والمهتمين بعمله وبشخصيته الكاريزمية، الذى أصبح بعضهم من أهم المريدين والإخوان فى الطريقة السنوسية بعد تركه فاس سنة ١٨١٩م.

وقد كانت آراء السنوسى وأفكاره أقرب إلى آراء الشيخ محمد عبده خاصة فيما تشده من إصلاح وتجديد[١٢] وقد سافر لطرابلس سنة ١٨٢٢م ومنها إلى القاهرة لاستكمال دراسته العليا فى فقه مالك فى الأزهر، ولكنه لم يستكمل دراسته نتيجة لاختلافه فى الرأى مع زملائه ومع بعض من لهم نفوذ فى الأزهر، لمناداته بالإصلاح وبتوسيع الإجماع الضيق مع رفضه المطلق للتقليد وتأييده التام للاجتهاد[١٣]، واعتبر أن الخروج من المشكلات القانونية بالعودة لآراء الأئمة الأربعة - مؤسسى المدارس الفقهية الإسلامية الأربع - دون إعمال العقل والاجتهاد الشخصى يمثل جهلا يجب محاربته، مما أدى إلى صدور بيان من سلطات الأزهر سنة ١٨٢٣م بعد تركه له بإدانته.

فانتقل إلى مكة فى آخر العام التالى حيث قابل الكثير من رجال العالم والدين ومنهم مؤسس الطريقة الإدريسية الأم: أحمد بن إدريس الفاسى[١٤]، وكان له تأثير ونفوذ كبير عليه، حيث اعتبره السنوسى المعلم الصوفى الأكبر الذى كان يبحث عنه، وأصبحت علاقتهم الشخصية قوية للغاية،

١٢- لمزيد من المعلومات عن أفكار محمد عبده ومكانه فى الفكر السياسى انظر د. حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص ٤٢٢ - ٥٠٣، ود. محمد فؤاد شكرى، مرجع سابق، ص١٦-٢٢، والمقارنة انظر ص٩.

١٣- لمزيد من المعلومات وعن مؤلفاته راجع ص١٠٩-١١٢ من نفس المرجع.

١٤- وقد ولد الفاسى فى بلد قرب فاس ١٧٦٨م، وكان فى وقت لقائه السنوسى فى الخامسة والستين من عمره ويصحبه عدد يخلفه فى الطريقة الأحمدية أو الإدريسية ويعتبر أحد مؤسسى الصوفية الجديدة، ولكن اختلف الفاسى عنهم فى شئون أخرى حيث كان أقل راديكالية وكان له تقدير كبير لابن حنبل وابن تيمية=

وكان من نتيجة كراهية العلماء التقليديين في مكة للفاسي أن تركها ومعه السنوسي إلى اليمن وأقام في عسير على حدود الحجاز، حتى توفي سنة ١٨٣٦م، ومن المعتقد أنه قبل موته اختار السنوسي ليكون خليفته كرئيس للأحمدية الإدريسية، ولكن هذا الاختيار لم يوافق عليه البعض في المستويات العليا للطريقة حيث كان هناك منافسان آخران هما عثمان الميرغني وإبراهيم الرشيدي، مما أدى إلى انقسامها إلى ثلاث طرق فرعية هي: السنوسية - وهي أكبرها، والميرغنية والرشيدية.

وقد عاد السنوسي إلى مكة وأنشأ أول زاوية له في غرب المدينة على جبل أبي قبيس عام ١٨١٤م[١٥]، وقد وجهت للسنوسي كراهية المحافظين المحليين التي كانت موجهة للإدريسي من قبل، كما زادت كراهية كل من عائلة الميرغني وشريف مكة له، وقد بدأ السنوسي الدعوة للطريقة وبدأ يجذب لها الأتباع خاصة من المغرب ومن طرابلس بليبيا، ولكنه ووجه بمعارضة سياسية ودينية لآرائه مما اضطره إلى الرحيل مع عائلته وأصدقائه ومستشاريه المقربين إلى القاهرة إلى حي بولاق بالذات - والذي تركز فيه أهالي تكرور - ومنها للفيوم وواحة سيوة ومنها لليبيا بهدف الوصول إلى الجزائر، ولكن حال دون ذلك احتلال فرنسا للجزائر - وهو الأمر الذي تم أثناء وجود السنوسي بالحجاز - وموقفها المعارض لعودته نتيجة اتصالاته مع الحجاج الجزائريين، وخوفها من إثارته انتفاضة ضدها أو تحالفه مع الأمير عبد القادر الجزائري الذي قاد أيضا الجهاد ضدها بالجزائر، فقررت إلقاء القبض عليه وسجنه إذا وطأت قدمه الجزائر، وبالفعل لم ير السنوسي موطنه الأصلي ثانية وإن كانت بعض المصادر تذكر أنه ظل يرسل الأسلحة والأموال للجزائر عن طريق بعض أتباعه واستمر تأييده المعنوي للثوار.

وبالتالي اختار السنوسي بني غازي كمقر جديد لطريقته حيث أقام زاوية كبيرة عند قرية البيضاء[١٦] التي كانت تحتل موقعا استراتيجيا بحيث يمكن الدفاع عنها بسهولة فهي صعبة الاختراق[١٧]، كما لم تكن بها طرقا صوفية منافسة بعكس طرابلس، فضلا عن أنها كانت مزارا للكثيرين لقربها من ضريح الشيخ رافع بن ثابت الأنصاري، كما أرادت القبائل المحلية أن يقيم السنوسي مقره هناك ليقرب بينها في حل الخلافات، وظلت مركزا لنشاط السنوسية لخمسة عشر عاما من (١٨٤٢م - ١٨٥٧م).

ومن موقعه في البيضاء أرسل السنوسي بعثاته ورسله إلى أجزاء ليبيا المختلفة للدعوة لعودة الناس إلى الأفكار الإسلامية الأصلية - وفقا لما أطلقه عليها الفاسي - مع الدعوة

ونهجوا نهج ملهمي الوهابية السلفية. فالصوفيون الجدد وإن احتفظوا بالهيكل التنظيمي الصوفي القديم إلا أنهم غيروا المضمون كثيراً.

١٥- ١٢٥٧هـ انظر: د. محمد فؤاد شكري، مرجع سابق، ص٧.

١٦- والبيضاء مع أنها كانت آنذاك تحت السيطرة العثمانية إلا أنها كانت بعيدة عن التدخل المباشر للسلطة العثمانية لبعدها مئات الأميال عن طرابلس، فضلاً عن أن الاتصالات كانت سهلة ومفتوحة مع الغرب ومصر والحجاز، كما كان الطريق مفتوحاً للجنوب لقلب أفريقيا عن طريق التجارة - تجارة القوافل - وباختصار كانت البيضاء مكاناً آمناً.

١٧- تقع بالقرب من شاطئ البحر المتوسط وتقع على مرتفع بين درنا وبنغازي.

للانضمام للسنوسية، وقد نجحت الدعوة للطريقة لقيام دعاتها بتطويع عملها ووظائفها للتنظيمات القبلية والنظم المحلية خاصة ما تعلق منها بالأرض والاستيلاء عليها وبالتالي استطاعت السنوسية أن تدمج نفسها بشدة في حياة الشعوب ولاءمت متطلباتها.

ومن ثم تحققت الدولة الدينية التي تصورها السنوسي واعتبرت بمثابة ازدواج للإدارة العثمانية في ليبيا، وبعد أن حقق نجاحا كبيرا واطمأن على الأمور، ترك السنوسي الشئون الليبية في يد نائبيه وسافر إلى مكة سنة ١٨٤٦م حيث بقي حتى سنة ١٨٥٣م، محققا الكثير من الإنجاز العلمي والفكري مستفيداً من مكتبة مكة، فكتب ٤٤ مؤلفا في الرياضيات والتشريع، وفي الأمور الدينية بالإضافة إلى القصائد وغيرها وقد أراد بلورة أفكاره وأفكار الفاسي عن الإصلاح، والإحياء والتجديد مع ممارسة نفوذه في نشر السنوسية.

وأصبح السنوسي في تلك الفترة على درجة عظيمة من التقدير في مكة بعد أن هدأ عداء العلماء المحافظين له، وتبلورت آراؤه في الجهاد حيث أراد حماية المناطق من خطر التوسع الفرنسي والأوروبي الاستعماري واعتبر أن ما حدث في الجزائر ما هو إلا خطوة على هذا الطريق وقد كان بعيد النظر في ذلك، ونظر إلى نشر السنوسية كأحد الحواجز الدينية الثقافية ضد ذلك التوسع، كما اعتبر المستكشفين في شمال إفريقيا مجرد جواسيس وسعي لعرقلة نشاطهم، وقد جذبت آراؤه الحجاج الذين نشط في الدعوة بينهم على أمل أن يتولوا هم نشر الدعوة عند عودتهم لديارهم، وعلى الرغم من أن السنوسي الكبير كانت له آراؤه السياسية القومية إلا أنه كان ضد الحرب والعنف، وقد تمشى هذا الجانب مع طبيعته الروحية: فقد كان مهتما في موطنه بتنظيم الزوايا وكتابة الكتب.

وفي طريق عودته من مكة سنة ١٨٥٣م مر بالقاهرة ولم يستجب لمحاولات عباس باشا والي مصر لإبقائه بها مفضلاً مواصلة الطريق إلى ليبيا إيمانا منه بالرأي الصوفي المنادي بضرورة ابتعاد رجل الدين الحق عن الحكام.

وقد اختار جغبوب كمقر جديد لطريقته بعد عودته لليبيا وهي على بعد عدة أميال جنوب شرقي البيضاء قرب الحدود الليبية المصرية وواحة سيوة وفي ملتقى طرق التجارة الداخلية، وقد كانت تلك المنطقة مقرا لقطاع الطرق قبل أن تنتشر بها السنوسية وتنشر بها الأمن الداخلي، ثم ما لبث جغبوب أن أصبحت مركزا دينيا وثقافيا هاما وأكثر أهمية من البيضاء في وقتها، فقد كانت مقرا لجامعة إسلامية نظر إليها على أنها تلي الأزهر، وبها مكتبة تضم ٨٠٠٠ مجلد، وفيها قام بتدريب تلاميذه «الإخوان» الذين جاءوا من المناطق المحلية ومن كافة أنحاء العالم الإسلامي، فضلا عن التخطيط لبعثاته.

فقد رأى السنوسي الكبير عامة أن الأمل الأكبر للسنوسية هو في انتشارها جنوبا ومن ثم فقد بدأ في إرسال بعثات نحو بحيرة تشاد إلى دارفور، وأقيمت الزوايا هناك، وقد استطاعت الطريقة أن تجذب الكثيرين ممن أعجبوا بتماسكها وعدم فسادها أو تحللها مثل غيرها من الطرق الأخرى.

وكان من أساليبه في تقوية انتشار الطريقة شراء العبيد من وادي من القوافل المارة

وتعليمهم وتدريبهم على الطريقة السنوسية ثم تحريرهم وإعادتهم للدعوة للطريقة فى موطنهم الأصلى مما ساهم فى نشر الطريقة ونشر الإسلام، هذا وقد انتشرت الزوايا فى ليبيا كما وجدت الزوايا أيضاً فى سيوه والواحات البحرية والفرافرة كما انتشرت فى طرابلس ووصلت إلى جنوب تونس سنة ١٨٦٠م ودخلت الزوايا أيضاً إلى فزان وقد انتشرت جنوباً ووصلت إلى شمال الكاميرون.

وقد توفى السنوسى فى جغبوب سنة ١٨٩٥م، وتولى الطريقة من بعده مجلس وصاية من أصدقائه القدامى وزملائه ومبعوثيه حتى بلغ ابناه المهدى ومحمد الشريف رشدهما حيث عملا معاً فى تناسق مثل رغبة والدهما، حيث يحمل الأول السيف مع الاحتفاظ بمجلس والده والذى يضم أهم الشخصيات فى السنوسية ويجتمع مرة كل عام فى العادة، ويحمل الثانى القلم كنما يرأس المجلس، وقاما من بعده بمد نفوذ الطريقة فى الصحراء على طريق تجارة القوافل إلى بحيرة تشاد ومملكة وادى، وذلك بنشر الزوايا على مساحة واسعة حيث سعى السنوسيون إلى عرقلة أى تحول إلى المسيحية بين شعوب الصحراء التى تدين بالديانة التقليدية، ومن ثم اشتبكوا سنة ١٩٠٠م مع بعثة عسكرية فرنسية قرب بحيرة تشاد ولكنهم اضطروا للاتجاه ثانية إلى الشمال.

وما لبثوا فى عام ١٩١١م أن اشتركوا مع الأتراك فى صراع قوى ضد الغزاة الإيطاليين فى ليبيا، وقد مثل زعماء السنوسية معارضة مستمرة للإيطاليين حتى عام ١٩٤٢م عندما أصبحوا ملوك ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد انتقل مقر السنوسية فى ظل محمد المهدى جنوباً إلى واحة كوقرا، ثم انتقل ثانية فى سنة ١٨٩٩م إلى منطقة كيروا وغورو (فى جمهورية تشاد حالياً)، وفى فترة زعامته للسنوسية تضاعفت الزوايا أربع مرات منتشرة فى كافة أنحاء الصحراء وحتى منطقة الساحل، وربطت بنظام كفء حملة المراسلات الذين تنقلوا على طريق القوافل القائمة كما قاموا ببناء طرق جديدة، وقد كان اسم سيدى محمد المهدى فى حد ذاته وراء انتشار الطريقة السنوسية بين شعوب الصحراء حيث مثل الاسم برنامجاً سياسياً.

وبعد وفاة السنوسى كانت أغلبية الإخوان فى الطريقة يعتقدون أن محمد المهدى هو فعلاً المهدى المنتظر، ويبدو أنهم قد تأثروا باختيار السنوسى الكبير لهذا الاسم لابنه على أمل أن يصبح ابنه المهدى المنتظر، وقد ساعد على ذلك الظروف السيئة التى واجهها المجتمع الإسلامى نتيجة الغزو والتوسع الأوروبى والتطلع لظهور المخلص أو المهدى كوسيلة لتحريك عقول الناس ومواجهة الغزو، وكان لبداية قرن هجرى جديد ١٣٠٠هـ-١٨٨٢م، أثره فى نمو تلك الفكرة بين المسلمين، ويلاحظ أن المهدية فى السودان قد أعلنها المهدى قبل سنوات قليلة من بداية نفس القرن، ولقد تأكدت الآراء عندما جاء لمحمد المهدى رسالة من مهدى السودان «محمد أحمد بن عبدالله» تفيد أنه إذا اعترف بزعامته فإنه يرحب به فى الخرطوم كخليفة[18].

وقد رفض السنوسى هذا الأمر وخاف من الكلام عن الحركة المهدية بالسودان وتأثيرها

١٨- Martin,op cit.p 188

على الإخوان مما قد يؤدى إلى اختلافهم بل وحتى إلى اختفاء نفوذه، وقد أعطى محمد المهدى تعليماته لحكام باغيرمى ووادى الذين كان لهم نفوذ كبير بمعارضة وعرقلة انتشار حركة الخرطوم - المهدية - فى أراضيهم.

ولقد اصطدم توسع فرنسا فى الصحراء وفى ليبيا بالوجود والنفوذ السنوسى اللذين لم يمثلا مقاومة فعالة للقوات الفرنسية فى الصحراء وتقدمها العسكرى، حيث استخدمت الأسلحة النارية ضد الزوايا الليبية وأدت إلى الكثير من الخسائر فى الأرواح وقبضت على بعض كبار رجال الطريقة ومن ثم كانوا تحت ضغط القوات الفرنسية بعد أن كانوا قد حققوا الكثير من النفوذ بين قبائل أولاد سليمان فى الفترة من ١٨٩٥م إلى ١٨٩٩م. كما انسحبوا أيضاً من المناطق الأكثر تعرضاً للضغط الفرنسى فى تبستى وغيرها وذلك بناء على نصيحة العثمانيين، ثم كان هجوم فرنسا قوياً على زاوية بير علالى ثم كانم سنة ١٩٠٢م وبعدها بستة أشهر مات محمد المهدى وكان أخوه الأصغر محمد الشريف قد مات فى جغبوب قبلها بسنوات، وبموتهما انتهت الفترة البطولية فى تاريخ السنوسية، وقد جاء بعده أحمد شريف وتدهورت فى ظله الطريقة على الرغم من محاولة حماية الزوايا الجنوبية من الفرنسيين، وعلى الرغم من محاولته تنظيم المعارضة المسلحة، إلا أن جهوده لم تنجح لا فى مواجهة الفرنسيين ولا فى مواجهة الإيطاليين عام ١٩١١م الذين كانوا يعدون لمواجهة السلطة العثمانية فى ليبيا، وقد نجح كل من الفرنسيين والإيطاليين فى تقليص القوة الروحية للطريقة وإجبارها فى النهاية على أن تعيد تشكيل نفسها كوسيلة للمعارضة الإسلامية ضد الاستعمار وكأداة للقومية الليبية النامية، وبقيام الحرب العالمية الأولى أخضع أحمد الشريف الجوانب الدينية للطريقة لصراعها من أجل البقاء، فقد صارعت الإيطاليين ثم البريطانيين ثم مرة أخرى الإيطاليين بعد الحرب العالمية الأولى. وقد أدى الاستعمار الإيطالى لليبيا بعد تلك الحرب إلى تدعيم وجود السنوسية باعتبارها التنظيم الوحيد القادر على معارضة النشاط الاستعمارى الأجنبى فكان للسنوسيين الباع الطويل نتيجة أيديولوجيتهم وتنظيمهم وزعامتهم فى الكفاح ضد الاستعمار فى الحرب العالمية الثانية، كما كان فى الحرب العالمية الأولى، بل كافحوا القوى الاستعمارية المختلفة فى المنطقة من إيطالية إلى فرنسية إلى بريطانية مما دعم تماسكهم.

وهكذا كان السنوسى الكبير، صاحب الإيديولوجية التحررية الإصلاحية، الأب الروحى للقومية الليبية التى قضت فى النهاية على حكم الأسرة المالكة السنوسية نفسها فأطاحت بها بعد ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩م، كما كان رمزاً للكفاح ضد الاستعمار والتسلط الأجنبى.

وكان من الطبيعى قيادة ليبيا لتجمع الساحل والصحراء الذى يعد أحد الثمار الهامة لنشاط الزوايا السنوسية ودعم العلاقات مع الصحراء وجنوبها فى الساحل وللنشاط الليبى فى الدعوة الإسلامية فى الماضى والحاضر.

يتبع ..

أربعة عشر عاماً من التعذيب والاضطهاد قبل الإذن بالقتال



بقلم: أ.د/ عبد الحليم عويس
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

طيلة السنوات التي أمضاها الرسول ﷺ في مكة المكرمة وهي ثلاثة عشر عاماً قمرياً (٦١٠-٦٢٢م) تعرض والمسلمون معه لأبشع أنواع التعذيب والإيذاء، ولم يحاول يوماً أن يرد السيئة بمثلها؛ بل كان يصبر الصبر الجميل، ويسأل الله لقومه الهداية فإنهم قوم لا يعلمون.

وعندما مرّ الرسول على آل ياسر، وهم يعذبون، لم يملك إلا أن يقول لهم: صبراً آل ياسر، وفي رواية: أبشروا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، ومات ياسر شهيداً تحت وطأة التعذيب، أما سمية فقتلت بحربة أبي جهل، وأما عمار ابنها فقد صبر على التعذيب[1]، ولشدة وطأته سمح له الرسول بمداراة الكافرين عملاً بقوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(النحل: ١٠٦)

- وعندما اشتد التعذيب والتنكيل بعد وفاة عمه (أبي طالب)، وزوجه (خديجة بنت خويلد) - رضي الله عنهما - سأله (خباب بن الأرت) أن يسأل الله أن يدعو لهم، وأن يستغفر الله ليرفع عنهم هذا البلاء، وأظهر الرسول ﷺ شيئاً من الغضب قائلاً: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[2].

- وحتى الذين كانوا يرغبون من صحابته الأبرار في الهجرة من مكة إلى الحبشة أو المدينة؛ فإنهم كانوا يتعرضون للملاحقة والتفريق بين أعضاء البيت الواحد، كما حدث لبيت أم سلمة حيث حيل بين أبي سلمة وزوجه وابنه، ثم حيل بين أم سلمة والهجرة هي وابنها حيث فُرّق بينه وبينها، وظلت تبكي ما شاء الله لها أن تبكي، إلى أن رقت قلوب بعضهم لها فأعادوا إليها طفلها وخرجت به وحدها مهاجرة من مكة إلى المدينة..

وهكذا تعرض المسلمون في مكة لمختلف أصناف الظلم؛ بل حرموا حتى من حق الحياة، وقد تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتهم وأولادهم؛ حيث وقعوا في الأسر، فقد كان هناك من قضى نحو ثماني سنوات وهم مقيدون بالسلاسل.. وحتى عندما لجأ بعضهم إلى ملك الحبشة؛ لأنه - كما وصفه الرسول ﷺ ملك لا يُظلم عنده أحد... لاحقهم المشركون وحاولوا تأليبه عليهم، حتى يسلمهم إياهم ليعذبوهم أو يقتلوهم - غير عابئين بحق اللجوء السياسي الذي يمثل قاعدة من قواعد القانون الدولي... لكن النجاشي كان رجل عدل وصدق، فبحث في الأمر وتبين له صدق المسلمين، فرفض تسليمهم وردّ الهدايا التي قدموا بها إليه.

وعندما هاجر الرسول ﷺ بعد معاناة شديدة من مكة إلى المدينة، وأقام دعائم الدولة الجديدة التي تحتاج إلى هيبة وقوة ردع، حتى يستطيع أفرادها من المسلمين وغيرهم أن يعيشوا في أمن وسلام، لم يكن قد أذن للمسلمين بعدُ في الدفاع عن أنفسهم.

فلما بدأت الملاحقات القرشية تسعى للتكتل مع اليهود والمنافقين في داخل المدينة (وهم عناصر من الدولة تعيش في داخلها) من أجل الإجهاز على الدولة الناشئة، وشعر الرسول ﷺ والمسلمون بذلك، لدرجة أنهم كانوا يبيتون ليلهم في المدينة خائفين لا يعرفون من أين يُهاجمون، وبأية كيفية سيأتيهم الخطر الذي يمكن أن يغتالهم - مهاجرين وأنصاراً - وأن يقوّض بناء دولة المدينة الإسلامية الناشئة.

في هذا الوقت العصيب جاء (الإذن) من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم كأفراد، ودفاعاً عن العقيدة التي آمنوا بها، ودفاعاً عن دولة الإسلام الناشئة التي لا يمكن أن تستمر - دولة لها هيبة - إلا إذا كانت قادرة على الدفاع عن نفسها من جانب، وعلى إقناع الآخرين بأنهم أمام دولة قادرة على تأديبهم إن اعتدوا عليها من جانب آخر...

ومرة أخرى نؤكد على مصطلح "الإذن بالقتال"، لدلالته الكبيرة؛ فإن مجرد التعبير القرآني (بالإذن بالقتال) كما جاء في قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(الحج: ٣٩ - ٤٠)

(١) علي سامي نشار - شهداء الإسلام في عهد النبوة، ص ٤٢، ط٣، دار المعارف - مصر.

(٢) رواه البخاري، في باب المناقب، رقم (٣٣٤٣)، والإمام أحمد في مسنده.

مجرد هذا التعبير يدل - بوضوح - على المنع قبل نزول الآية، ويدل على طروء القتال في الإسلام، وأنه ظل ممنوعاً طيلة أربع عشرة سنة قمرية.

ويعلق العلامة الأستاذ (محمد فريد وجدي) على هذا الإذن - بعد هذه المدة من تحمل العذاب والأهوال بقوله: "هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن - موطن الدفاع عن النفس والدين - أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان؛ لأن الإذن خاص بحماية (حق) لا موضوع (انتقام) ولا (شفاء حزازات الصدور)، وهذا من مميزات الحكومة النبوية، فإن القائم عليها نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله، والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليماً قوياً"[٢].

ولعل الآية الكريمة التي يقول الله فيها في كتابه الكريم:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

(البقرة: ٢١٦)

تدل على النزعة السلمية عند المسلمين، فالأصل عندهم الرغبة في السلم، والجنوح إلى السلم إن وجدوا إليه أدنى فرصة، حتى ولو بشيء من التنازل المقبول!!

وفي هذا السياق الذي يؤكد أصالة السلم يقول الله تعالى لنبيه محمد - عليه السلام - وللمسلمين:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(الأنفال: ٦١)

ويقول - أيضاً -:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

(النساء: ٩٠)

ويقول:

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٩٢ - ١٩٣)

- ومعروف أن المسلمين عندما خرجوا في غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ) لم يخرجوا للحرب... وعددهم، ووسائلهم، وطبيعة اتفاقية العقبة الثانية (الكبرى) (٦٢١م - ١٢ بعد البعثة) من المؤكدات الدالة على ذلك... كما أن القرآن الكريم صريح في تأكيد هذا المعنى السلمي النفسي عند الرسول والمسلمين... يقول تعالى:

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

(الأنفال: ٧)

(٢) محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص١٦٣، وانظر د. علي جمعة: شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام، ص٤٤، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر.

فهم ما خرجوا إلا استخلاصاً لبعض أموالهم المصادرة في مكة، وإلا تأكيداً لقريش أنهم دولة، وأن عليها قبول السلام معهم والاعتراف بهم، وهو الأمر الذي لم يتحقق إلا في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة في صلح الحديبية الذي رضي فيه الرسول ﷺ ببعض الشروط المجحفة إيثاراً للسلام.

إطار الجهاد الأخلاقي والحضاري

وحتى (مصطلح الجهاد) يدل بذاته على أن الأمر فيه مشقة لا تنزع إليها النفس إلا إذا فرض عليها، فالجهاد (لغةً): يعني المشقة، فيقال جاهدت جهاداً أي بلغت المشقة، و(شرعاً) بذل الجهد في قتال الكفار والمنافقين عند وجود الدواعي لذلك، وهو في هذه الحالة ليس طريقاً لفرض الهيمنة ولا السيطرة ولا لسرقة ثروات الآخرين، أو احتلال بلادهم؛ بل هو نوع من العبادات يجب أن تلتزم فيه آداب العبادة، ونحن نلمح هذا في الآيتين الكريمتين التاليتين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾

(الحج: ٧٧، ٧٨)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الصف: ١٠، ١٣)

فالجهاد يأتي ضمن منظومة عبادية أساسية.

- وثمة ملمح آخر يعطي (الجهاد) معنى عبادياً وإنسانياً وحضارياً، ويبعده عن أن يكون مجرد وسيلة للغلبة على الأعداء واغتصاب أرضهم أو قهرهم على الدخول في الإسلام... هذا الملمح يقودنا إليه المعنى - أو الإطار العام - لمعنى الجهاد ومجالاته... فالجهاد ليس حرباً فقط؛ بل الجهاد جهد متعدد الآفاق؛ فهو جهد (أولاً) مع النفس لكبح الشهوات، وجهد جماعي (ثانياً) لفرض الخير ومنع الشر في قلب المجتمع، وجهد مسلح أخيراً مفروض على المؤمن بمفرده، أو على الجماعة بأسرها، تبعاً للظروف.

- ولا يمكن أن يتخذ الجهاد (طابعاً عسكرياً) إلا في الحدود المنصوص عليها في الشريعة القرآنية، وعندئذ يصبح قتالاً مقدساً ودينياً، عادلاً في الدافع إليه وفي مباشرته وفي غايته.

والحروب العادلة الوحيدة المقبولة في

الإسلام هي المرخص بها في التنزيل، والتي تشن في (سبيل الله) [٤]، ولنلاحظ هنا التعبير عن الجهاد بمصطلح (سبيل الله)، ومعنى هذا أنّ كل حرب أو جهد يبذل ـ في غير سبيل الله ـ لا يمكن أن يكون جهاداً ولا حرباً مشروعة... بل هو (حرب مادية) استعلائية أو مصلحية ليس لها صلة بالقتال الإسلامي الذي حارب في إطاره رسول الله ﷺ بعد أربعة عشر عاماً منعه الله فيها ومن معه من أية محاولة للدفاع عن النفس والمعاملة بالمثل... وهي المرحلة المكية، وطليعة المرحلة المدنية بعد الهجرة الشريفة.

ـ ولئن كان (القتال) في الإسلام محاطاً بالدائرة (العبادية)، و(الإيمانية) انطلاقاً من قوله تعالى ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على أساس أن القتال إذا لم يكن في سبيل الله فليس جهاداً إسلامياً، فإنّ ثمة إطاراً آخر يعمّق هذه الوظيفة للجهاد، ويربطها بآداب الإسلام وقيم الإسلام، فوظيفة الرسول ﷺ والمسلمين ابتداء، إنما هي (البلاغ لا الحرب)، وإنما هي (التيسير) وليس (التعسير والتنفير)، وهي (الدفاع عن المستضعفين) من الرجال والنساء والولدان الذين تصادر حقوقهم الإنسانية، ويحرمون من حرية الفكر والعقيدة؛ بل تفرض عليهم الفتنة ـ بالترغيب والترهيب ليكفروا بالله ـ وهي ـ مع كل ذلك ـ وظيفة (الشهادة على الناس) بما تتضمنه من نشر الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف مع موازين الحق والعدل بالنسبة للإنسانية كلها.

ـ والنصوص القرآنية الكريمة تؤكد هذه الوظائف المنوطة بالأمة المسلمة، وهي تؤكد على أن حركة المسلمين (الحربية) أو (السلمية) لابد أن تكون محاطة بسياج من القيم والأخلاق والآداب الراقية التي ترى فيها الإنسانية (سفينة النجاة) التي تحلم بها، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

(المائدة: ٦٧)

وقال تعالى:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

(الحج: ٧٨)

ويستلهم العلامة (محمد فريد وجدى) من وظيفة الشهادة على الناس أنّ المسلمين مطالبون بحكم هذا التقدير السماوي الكبير لهم بالمداومة على مراقبة ذاتهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، والثبات على

(٤) فرانسو بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٢٩٢، بيروت.

الطريق السوى في رغباتهم ونزعاتهم، والقيام على القسطاس المستقيم في معاملاتهم ومنازعاتهم... ثم إنّ هذه المكانة العالية التي أعطاها الله لهذه الأمة تفرض عليها أن تكون نزّاعة إلى التفوق في كل فضيلة، سباقة إلى التحلي بكل خصلة نبيلة، وهذا يفسّر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر في معاملة المخالفين، ورحب الذرع في حماية المستضعفين، مما كان له أثره في نشر دينها، وإحياء لغتها، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة، ولا الدعايات القائمة على أشد الوسائل الإرهابية [٥].

وقد حقق الرسول ﷺ هذا الكمال الأسمى، وحققه السلف الصالح معه، عندما جاء أوان استعمال القوة والظروف المناسبة له، فقد استعمل الرسول القوة بعد حساب دقيق ومنطقي، وحسبنا أن نقول هنا إن جميع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي في خلال أكثر من سبعين غزوة وسرية كان مائة ونيفاً من الشهداء فقط، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فهو في حدود الثلاثمائة إنسان أو أقل، أي أنه خلال عشر سنوات وأكثر من سبعين غزوة وسرية لم يقتل من المسلمين والمشركين إلا أقل من أربعمائة إنسان، بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً من القتلى نتيجة الصراع الوحشيّ بين الطرفين، وهذا بالطبع دون حساب الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين مات معظمهم بعد ذلك، وكذلك فإنه لكي يستقر نظام باطل في روسيا قتل ما يقارب مائة مليون إنسان، كان من الممكن إبحار سفن على الدماء الراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم، كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه (الشيوعية).


محمد فريد وجدى

وهكذا ـ بالإحصائيات ـ أثبت العصر النبوي ـ في سلمه أو في حربه ـ أنه عهد احترام لإنسانية الإنسان، واحترام لأفكاره، ومشاعره، ولم تصل دعوة الإنسانية الحقّة عبْر كل العصور إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبداً، ذلك لأن الرسول محمداً (هو صاحب ذلك العهد..!!

فالمؤمن ـ حسْب تعليماته ـ عليه السلام ـ يقاتل ويحارب، ولكنه لا يسدّ أبداً أبواب الصلح، ولا يزيّف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أيّ إنسان دون سبب، ودون حق، ولا يحتلّ البلدان الأخرى، ولا يمتصّ خيرات الأمم الأخرى [٦]..

(٥) محمد فريد وجدي: من معالم الإسلام، ص ٨٢، الدار المصرية اللبنانية، مصر ـ ط١/١٩٩٤.

(٦) محمد فتح الله كولن: الرسول ﷺ قائداً ـ التنظير والتطبيق، ص ٦٩/١٨، ترجمة أورخان محمد علي ط٣/١٤٣٥، دار النيل للنشر ـ إسطانبول تركيا.

بين الصحف والمجلات

إعداد أ. محمد جمعة


المستشار أحمد رفعت

المحكمة تسجل شهادتها على عصر مبارك

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٦/٣م الكلمة التمهيدية للمستشار أحمد رفعت قبل النطق بالحكم جاءت فيها:

لا شك إنه مع بزوغ صباح يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ م أطلت على مصر شمس فجر جديد لم تره من قبل. أشعته بيضاء حسناء وضاءة تلوح لشعب مصر العظيم بأمل طال انتظاره ليتحقق مع نفاذ أشعتها شعاع وضاح وهواء نقي زالت عنه الشوائب العالقة فتنفس الشعب الزكي الصعداء بعد طول كابوس ليل مظلم ولكنه أخلد لثلاثين عاما من ظلام دامس حالك أسود، أسود، أسود، اسوداد ليلة شتاء قارس بلا أمل ولا رجاء أن ينقشع عنها إلى صباح مشرق بضياء ونضارة وحياة.

وهكذا كانت إرادة الله في علاه، إذ أوحى إلى شعب مصر وأبنائها البواسل الأشداء تحفهم ملائكة الحق سبحانه وتعالى، لا يطالبون برغد العيش وعلياء الدنيا، بل يطالبون ساستهم وحكامهم ممن تربعوا على عرش النعم والثراء والسلطة أن يوفروا لهم لقمة العيش، يطلبون ممن يطعمهم من جوع ويسد رمقهم ويطفيء ظمأهم بشربة ماء نقية، ويسكنهم بمسكن يلملم أسرهم وأبناء وطنهم من عفن العشوائيات وانعدام آدميتهم بعد أن افترشوا الأرض وتلحفوا بالسماء وشربوا من مياه المستنقعات وفرصة عمل لعاطلين بالمئات والملايين تدر عليهم رزقا كريما حلالا، سالمين سالمين منادين سلمية سلمية ملء أفواههم، حين كانت بطونهم خواء وقواهم لا تقوى على المناضلة والجهاد صارخين مستصرخين ارحمونا يرحمكم الله أنقذونا أغيثونا.. وقد كواهم تردى حال بلدهم ووطنهم مصر العزيزة عليهم اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وتعليميا وأمنيا وانحدرت بها الحال إلى أدنى الدرجات بين الأمم وهي التي كانت شامخة عالية يشار إليها بالبنان مطمع الغزاة والمستعمرين لموقعها وخيراتها ،فأصبحت تتوارى خلف أقل وأبسط الدول المتخلفة في العالم الثالث.

ماذا جرى لك يا مصر؟ يا من ذكرك الله في كتابه العزيز بالأمن والسلام لقد تآلفت قلوب أبناء مصر الشرفاء وشعبها العظيم. ألف الله بين قلوبهم وصاغها في قلب واحد بقدرته سبحانه وألهمهم القوة والرباط والعزيمة وظللهم بظلال الحق فزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا..

الحكم على مبارك

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عماد الدين أديب المنشور بجريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٦/٣ م يقول فيه:

الأحكام التي صدرت من محكمة جنايات القاهرة برئاسة المستشار أحمد رفعت ضد الرئيس السابق محمد حسني مبارك ونجليه ووزير الداخلية الأسبق اللواء حبيب العادلي و٦ من مساعديه أثارت قدرا هائلا من الجدل وردود الفعل داخل المجتمع المصري، وهناك بعض النقاط يمكن التركيز عليها:

١- إن مبدأ المحاكمة لأكبر رأس في النظام السياسي هو مبدأ غير مسبوق يجعل كل شخص قابل للمساءلة وكل ملفاته قابلة للمحاسبة.

٢- إن الرئيس السابق ومن معه تمت محاكمتهم أمام قاضيهم الطبيعي وليس أمام محكمة سياسية أو استثنائية وهو أمر لاقى استحسانا أمام الدوائر العالمية وعلى رأسها جماعات حقوق الإنسان الدولية.

٣- إن الحكم استند إلى الأدلة المادية وشهادات شهود النفي والإثبات ومرافعات النيابة العامة والدفاع وليس إلى موقف سياسي خاص بالمحكمة، وليس استنادا إلى ترضية سياسية لأي فريق من فرقاء المجتمع المصري.

الحكم في نهاية الأمر لم يسعد أحداً، والقاضي المحترم المستشار أحمد رفعت ليس مطلوبا منه أن يرضي أحدا سوى الله وضميره كقاض..

لا.. للحســــينيات

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عبدالعزيز السيد المنشور بجريدة الجمهورية الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٥م يقول:

خرجت علينا هذه الأيام جماعة تطلق على نفسها الشيعة وتريد لنفسها مساجد خاصة يطلق عليها الحسينيات، هذه الجماعة مدعومة خارجيا ومن جهات بعينها من أجل شق وحدة الصف الإسلامي، كما ترغب أن تهدد وحدة المسلمين خصوصا بلد الأزهر الشريف الذي ظل شامخا أكثر من ألف عام، محافظا على الإسلام ووحدة المسلمين في مصر وكل ربوع العالم الإسلامي شرقا وغربا.

إن الذين يزعمون التشيع هذه الأيام أصحاب فكر ضعيف ونفوس مريضة لا يعرفون شيئا عن عقيدتهم، وتدعمهم دول بعينها من أجل أن يجعلوا من مصر عراقا مقطعا ومتشرذما.. إنهم بحق يريدون إشعال فتيل الأزمة والصراعات في بلد الأمن والأمان.

أهل مصر الكنانة يحبون آل بيت رسول الله ﷺ. لكن الشيعة الجدد الذين ظهروا هذه الأيام فجأة ما جاءوا إلا للطعن والسب في آل البيت بقصد إحداث نوع من القلاقل والفتن البغيضة بين المسلمين من أجل إشعال نار الفتنة وإخماد دور الأزهر الشريف الذي سيظل قبلة العلم والعلماء إلى يوم الدين.

لا ننسى دور الأزهر الرائد في الحفاظ على عقيدة أهل السنة من تحريف المغالين لها على مر السنين ولقد لمست ذلك بنفسي وأنا واحد من أبناء الأزهر الذين تعلموا فيه الدين الصحيح، ولقد حذر فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر من حسينيات الشيعة التي تهدد الوحدة وتشق الصف فهذه وقفة شجاعة وجريئة ومحسوبة للأزهر ولشيخه ولمجمع البحوث الإسلامية وكل القوى الإسلامية الأصيلة.

سوريا تنزف..

تحت عنوان «خط أحمر» جاء مقال الأستاذة/ مها النحاس المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٦/٢م:

إلى متى يظل نزيف الدماء مستمرا في سوريا، وكل ما يفعله المجتمع الدولي والعربي هو إدانة الممارسات السورية؟ فبعد قرابة أربعة عشر شهرا على قيام الثورة السورية وانضمامها إلى مسيرة دول الربيع العربي.. ومقتل أكثر من ١٣ ألفا أغلبهم من المدنيين، لا يزال النظام السوري مستمرا في ارتكاب المذابح بحق المواطنين.

حيث أفاق العالم على مجزرة جديدة يشتبه في أنها إعدام جماعي لمنشقين عن الجيش السوري بدير الزور، وذلك بعد أيام من مجزرة الحولة التي استخدمت في قصفها القوات الحكومية السورية الدبابات والمدفعية الثقيلة، وراح ضحيتها أكثر من مائة شخص من بينهم ٤٩ طفلا و٣٤ امرأة، في جريمة أقل ما يمكن أن توصف به أنها جريمة ضد الإنسانية.

نتمنى أن يختار الرئيس السوري الحل اليمني، وهو أفضل كثيرا من النموذج الليبي والذي أوصل القذافي بعناده إلى نهاية بشعة.

الحل الغائب والمجازر المستمرة

تحت هذا العنوان نشرت جريدة القدس العربي كلمة بعددها الصادر في ٢٠١٢/٦/٢م تتضمن ما يلي:

معظم التصريحات التي صدرت عن مسئولين غربيين كانت تحذر من حرب أهلية طائفية في سوريا، ولكنها لم تقدم أي مخارج حقيقية من الأزمة تضع حدا لأعمال القتل الإجرامية التي تستهدف الشعب السوري.

بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة قال: إن المجازر التي وقعت في الحولة قرب حمص، وراح ضحيتها أكثر من مائة شخص، نصفهم من الأطفال قد تدفع بسوريا إلى حرب أهلية كارثية لن تنهض منها أبدا، وكرر مطالبته الحكومة السورية بتطبيق التزاماتها بموجب خطة كوفي عنان.

فلاديمير بوتين رئيس روسيا الاتحادية كرر الشيء نفسه تقريبا في المؤتمر الصحافي الذي عقده في برلين مع المستشارة الألمانية إنجيلا ميركل، وقال: إن بلاده لا تؤيد أي جانب «في الأزمة السورية» قد يكون مثار خطر نشوب حرب أهلية.

النظام السوري المتهم الرئيسي بارتكاب هذه المجزرة، سواء بشكل مباشر، أو من خلال فرق «الشبيحة» التابعة له أو المدعومة منه، يراهن بدوره على النسيان، ويواصل تنفيذ حلوله الأمنية بشراسة أكبر مطمئنا إلى ضعف احتمالات التدخل الدولي.

الرئيس الأمريكي باراك أوباما، لا يريد تدخلا عسكريا في سوريا في ذروة الحملات الانتخابية الرئاسية؛ ولأنه يعلم أيضا أن مثل هذا التدخل لو حدث سيكون مكلفا؛ لأن سوريا قوية وتملك جيشا مسلحا تسليحا جيدا، خاصة بصواريخ مضادة للطائرات روسية الصنع من طراز «إس ٣٠٠» قادرة على إسقاط طائرات مغيرة على عكس الحال في ليبيا التي كانت صيدا سهلا لغارات طائرات حلف الناتو.

بوتين الرئيس الروسي الداعم الرئيسي للنظام السوري اتفق مع مضيفته المستشارة ميركل على أن الحل السياسي هو الطريق الأمثل للخروج من الأزمة السورية، وأشار إلى مهمة كوفي عنان المبعوث الدولي والعربي كطريق وحيد للوصول إليه، ولكن عنان نفسه محبط وبات يعتقد أن مهمته هذه وصلت إلى طريق مسدود.

المؤكد أن مجازر كثيرة ستحدث قبل أن يتم الوصول إلى حل سياسي يبدو سرابا في الوقت الراهن.

«الأطفال» هزموا «بشار»!

تحت هذا العنوان جاء مقال أ/ صيغة الشمري المنشور بجريدة «عكاظ» الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٦/٣م يقول:

الذي حدث من قتل للأطفال في «الحولة» السورية أصاب كل شعوب العالم بالصدمة والحزن عدا النظام الحاكم في سوريا، فهو يرى بأنها تكتيك حربي وخطة من خطط الحرب التي قد تبقيه لأطول وقت ممكن على كرسي الحكم، كل الحروب التي حدثت على مر التاريخ لم تضع قتل الأطفال ضمن خططها أو حتى تفكر بذلك، فالحكومة التي لا تستطيع المحافظة على الأرواح البريئة هي حكومة ضعيفة وهشة لا تستحق البقاء يوما واحدا في قيادة دفة بلد مثل سوريا، عرفنا الحكومة السورية منذ عشرات السنين، والتي أحالت البلد إلى بلد استخباراتي يعيش فيه الأخ متوجسا من أخيه، تفعل به الاستخبارات ما يحلو لها دون وازع أو ضمير، هدم المساجد وقتل الأطفال يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن بشار الأسد ما هو إلا ديكتاتور ومجرم حرب، إن لم يجد عقابه على أرض الميدان سيجد نفسه في قفص الاتهام الأممي ومطارد من قبل جميع دول العالم كمجرم حرب، إن الأطفال الذين استشهدوا في الحولة لن تمر حادثة ذبحهم مرور الكرام، بل إنها قاصمة الظهر لنظام ديكتاتوري لا يقرأ تاريخ الدول الديكتاتورية جيدا ولا يريد أن يعتبر.

ليست طائفية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة/ أميمة الخميس المنشور بجريدة «الرياض» الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٨م:

ما يحدث في سوريا الآن ليس له علاقة بالطائفية من قريب أو بعيد، الثورة السورية هي ثورة شعب بجميع أطيافه، انتفاضة طلاب حرية ضد النظام العسكري الدموي الذي كان يقبض على خناق سوريا لعقود، سوريا موئل أقدم حضارة بالتاريخ، تجلد بالحديد والنار وتسحل على مذبح الطاغية، هذا الشعب العريق لم يتبن الطائفية، هو فقط نهض وثار ضد رموز الطغيان العسكري والفساد الذين اختطفوا السلطة عبر فوهة الدبابة، وهم الآن يرجهون فوهة هذه الدبابة نفسها إلى صدور ونحور نساء وأطفال الشعب السوري.

- ثم تعرض الكاتبة عدة أسئلة:

- هل ما يحدث الآن في سوريا حالة تواطؤ عالمي على مشهد ومسمع من قوات حفظ الأمن الدولية؟
- هل هو حقا هذا الصمم الذي لا بد منه لتمرير صفقة مقايضة كبرى بين أسلحة حزب الله مقابل نجاة النظام الحالي في سوريا؟
- هل هي نفس المقايضة القديمة بين صمت العالم عام ١٩٨٢م على مجزرة صبرا وشاتيلا مقابل الصمت على مجزرة حماة؟

طرائف.. ومواقف


عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

فما تزود مما كان يجمعه!!

وبينما المرء أمسى ناعما جذلا
فى أهله معجبا بالعيش ذا أنف
فما تزود مما كان يجمعه
إلا حنوطا وما واراه من خرق

نصيحة

كتب عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- إلى ابنه عبدالله: أما بعد: فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه؛ فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك؛ فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.

الاجتهاد عند أئمته

● قال أبو حنيفة -رضى الله عنه-: حرام على من لا يعرف دليلى أن يفتى بكلامى.

وكان إذا أفتى يقول: هذا رأى أبى حنيفة، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

● وكان مالك -رضى الله عنه- إذا استنبط حكمًا قال لأصحابه: انظروا فيه فإنه دين، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة يعنى النبى ﷺ.

● وقال الشافعى -رضى الله عنه- للربيع: يا أبا إسحاق لا تقلدنى فى كل ما أقول، وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين.

● وقال أحمد بن حنبل -رضى الله عنه-: انظروا فى أمر دينكم، فإن التقليد لغير المعصوم مذموم، وفيه عمى للبصيرة.

الخصومة فى الدين

قال الإمام الباقر -عليه رضوان الله- متألمًا من واقع المسلمين: إياكم والخصومة فى الدين فإنها تحدث الشك، وتورث النفاق، والخصومة تؤدى إلى الافتراق والإعراض وضيق الفكر.

أفضل الناس

الناس بالناس ما دام الحياء بهم
والسعد لاشك تارات وهبات
وأفضل الناس ما بين الورى رجل
تقضى على يده للناس حاجات
لا تمنعن يد المعروف عن أحد
مادمت مقتدراً والعيش جنات
قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم.. وهم فى الناس أموات

إجابة مقنعة

سُئل سلمان الفارسى: ما الذى يبغض الإمارة إلى نفسك؟

فأجاب: حلاوة رضاعها، ومرارة فطامها.

الصبى أخوف منا

كان شيخ يمشى على شفا نهر، فرأى صبيًا يتوضأ وهو يبكى.

فقال الشيخ: يا صبى ما يبكيك؟

فقال الصبى: قرأت القرآن حتى جاءت هذه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(التحريم: ٦)

فخفت أن يلقينى الله فى النار.

قال الشيخ: يا صبى أنت معصوم؛ فلا تخف، إنك لا تستحق النار.

فقال الصبى: يا شيخ أنت عاقل، ألا ترى الناس إذا أوقدوا نارا لحاجتهم، وضعوا أولا صغار الحطب، ثم وضعوا الكبير؟!

فبكى الشيخ بكاءً شديداً، وقال: إن الصبى أخوف منا من النار، فكيف يكون حالنا؟!!

ثلاثة ليس لها حيلة لإصلاحها

● فقر يمازجه كسل.

● وعداوة يداخلها حسد.

● ومرض يقارنه هرم.

دعوة إلى القضاء

قال ابن سيرين: كنا عند أبى عبيدة بن أبى حذيفة فى قبة له، وبين يديه «كانون» له فيه نار، فجاءه رجل وجلس معه على فراشه فساره بشىء لا ندرى ما هو.

فقال له أبو عبيدة: ضع لى إصبعك فى هذه النار.

فقال له الرجل: سبحان الله!! تأمرنى أن أضع لك إصبعى فى هذه النار!!.

فقال له أبو عبيدة: أتبخل علىّ بإصبع من أصابعك فى نار الدنيا، وتسألنى أن أضع لك جسدى كله فى نار جهنم!!.

قال: فظننا أنه دعاه إلى القضاء.

تأن.. ولا تعجل

تأن ولا تعجل بلومك صاحبا
لعل له عذرا وأنت تلوم

أتدرى من أنا؟!

● خرج الحجاج مرة، فلقى أعرابيا فقال له: كيف سيرة الحجاج فيكم؟

●● فشتمه أقبح شتم.

● فقال: أتدرى من أنا؟

●● قال: ومن عسيت أن تكون؟

● قال: أنا الحجاج..

●● قال: أوتدرى من أنا؟

● قال: ومن أنت؟..

●● قال: أنا مولى بنى عامر أجن فى الشهر مرتين؛ هذه إحداهما. فضحك وتركه.

هل تخاف الله

قال بعض العلماء: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت لأنك إن قلت لا؛ فقد كفرت، وإن قلت نعم فقد كذبت.

«دعاء»

اللهم اجعلنى شكوراً، واجعلنى صبوراً، واجعلنى فى عينى صغيراً، وفى أعين الناس كبيراً.

دور الأزهر فى السياسة المصرية

الشيخ الشرقاوى لنابليون بونابرت:
اعتنق الإسلام لأنك لو فعلت لبادر إلى الانضواء تحت لوائك مائة ألف عربى


للأستاذ / عاطف مصطفى

للأزهر فى التاريخ المصرى الوسيط والحديث مكانة ربما لم تحظ بها مؤسسة أخرى فى مصر إذا استثنينا ، المؤسسة العسكرية ، فقد كان للأزهر دور بارز فى قيادة الحركة الوطنية فى مصر ضد قوى الاستغلال والاستعمار.

وكان للأزهر كذلك دوره البارز بالنسبة للثقافة المصرية: فقد مثل ، ثريا ، فى صدر الثقافة الإسلامية ، رضعت منه الثقافة المصرية ، فاكتسبت بذلك الكثير مما كان له أثره فى إثرائها وأصالتها.

والأزهر الشريف على مدى أكثر من ألف عام ، يظل هو المرجعية الإسلامية لكل المسلمين ، وحامل لواء الوسطية وحامى الأمة بفضل جهود علمائه التى لا تتوقف.

وخير ما نقول هذا المشهد السياسى الذى تموج به مصر الآن وما يقدمه الأزهر من مبادرات تتمثل فى وثيقة الأزهر التى تلقى قبول واحترام كل أبناء الوطن.

ولأن مجلة الهلال وشقيقاتها ، كتاب الهلال ، ورواية الهلال ظلت تحتفى بجهود الأزهر وما يقدمه علماؤه من فكر مستنير وقضايا تحقق للأمة نهضتها وعلو مكانتها.

فقد وقع بين يدى كتاب الهلال والذى صدر فى نوفمبر عام ١٩٨٦م بعنوان «دور الأزهر فى السياسة المصرية» لمؤلفه المفكر التربوى الدكتور سعيد إسماعيل على ، أستاذ التربية المعروف ، يتناول على مدار أحد عشر فصلاً العديد من القضايا من بينهما : «الأصول السياسية لنشأة الأزهر» ، «موقف الأزهر من المذاهب الحاكمة» ، «ظهور زعامة الأزهر» ، «الأزهر يقاوم الاستبداد والظلم» ، «مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسى» ، «دور الأزهر فى حركة اليقظة القومية» ، «من الإصلاح التربوى إلى الثورة السياسية» .

ولا شك أن استعراض أحد عشر فصلاً فى صفحات محدودة يكون فيه صعوبة شديدة ، لكننى توقفت عند الفصل الخامس بعنوان «مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسى» ، وكيف استقبل الأزهريون هذا الغزو ، ودور علماء الأزهر فى رفع الروح المعنوية والتعبئة النفسية بالنسبة لجماهير الناس فى تلك الفترة.

الأزهر هو الكيان المتميز لهذه الأمة

وتحت عنوان «الأزهر يقود الثورة» يشير الدكتور سعيد إسماعيل على بأن الأزهر كان وقت الاحتلال الفرنسى هو رمز سيادة الأمة ومركز قيادتها ، وما أن سقطت «الدولة» المصرية فى معركة إمبابة ، حتى أصبح الغازى المحتل والأزهر وجها لوجه ، فقاد الأزهر مقاومة الأمة على مستويات عدة : من المقاومة السلبية التى قادها معظم الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون وداخل التشكيلات الإدارية التى أقامها لحكم البلاد ، إلى المقاومة الوطنية العنيفة التى قادها الشيوخ الصغار ، بتنظيم حركات سرية ، وأعمال المقاومة الشعبية التى وصلت ذروتها بتنفيذ أهم ثورتين عرفهما الشرق فى ذلك الوقت - إلى أعمال الاغتيال التى نظمها ونفذها بنجاح طلبة الأزهر .

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة ، يمثل ذاتها ، وتراثها ، وإمكانية مستقبلها ، وأدرك المحتلون ذلك كله ، لذا نراهم فى نفس الوقت الذى يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالى بهدف التفاهم معه ، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك ، ويصبح كبيرهم «مراد» بك بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسى ، فى نفس الوقت كان الصدام يتصاعد يوميا بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر .


نابليون

الاحتفاظ بصلابة الإسلام

ويقول الدكتور سعيد إسماعيل على : ومن مظاهر المقاومة السياسية ما يرويه الجبرتى فى حوادث يوم السبت أول سبتمبر ١٧٩٨م ، حيث عقد اجتماع بين نابليون وعلماء الأزهر ؛ فقد جاء نابليون بإشارات تمثل علم الثورة الفرنسية ذا الألوان الثلاثة الأبيض والأحمر والأزرق ، ووضع منها وحدة واحدة على كتف الشيخ الشرقاوى ، فما كان من الشرقاوى إلا أن رمى بها إلى الأرض ، مما أثار نابليون ، فقال المترجم للمشايخ «أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم برايته وعلاماته ، فإن تميزتم بذلك ، عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم .

فقال المشايخ له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين ، فتضايق نابليون من ذلك ، ونقل عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : إنه لا يصلح للرياسة .

ولقد حاول نابليون أن ينتزع الاعتراف بشرعية احتلاله ، وبتشكيل الديوان ، ثم باستصدار فتوى من المشايخ «أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة لى» .

ورغم أن المشايخ كانوا يعلمون أنهم جميعا - كما قال الجبرتى - «فى القبضة مأسور» إلا أنهم كانوا يحتفظون ببقية من صلابة الإسلام: «فاصفرت وجوههم لهذا الطلب فأنبات برعب دفين، ثم غلبهم الوجوم والارتباك، وطلب الشرقاوى الكلمة.

وقال بعد أن استجمع شجاعته، لا، إنك تطلب رعاية الرسول الذى يحبك، وتريد العرب المسلمين أن يتضوروا تحت رايتك، وترغب فى استرداد أمجاد العرب، وأنت لست مشركا ولا وثنيا، فاعتنق الإسلام إذن، لأنك لو فعلت، لبادر إلى الانضواء تحت لوائك مائة ألف عربى من بلاد العرب، ومن مكة والمدينة ولاستطعت وأنت قائدهم ومنظمهم أن تفتح بهم الشرق، وتسترد وطن الرسول بكل أمجاده.

فلما قال الشيخ الشرقاوى هذا، علت الابتسامات وجوه الشيوخ، وركع الجميع ضارعين إلى الله أن يسبغ عليهم حمايته، وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال.

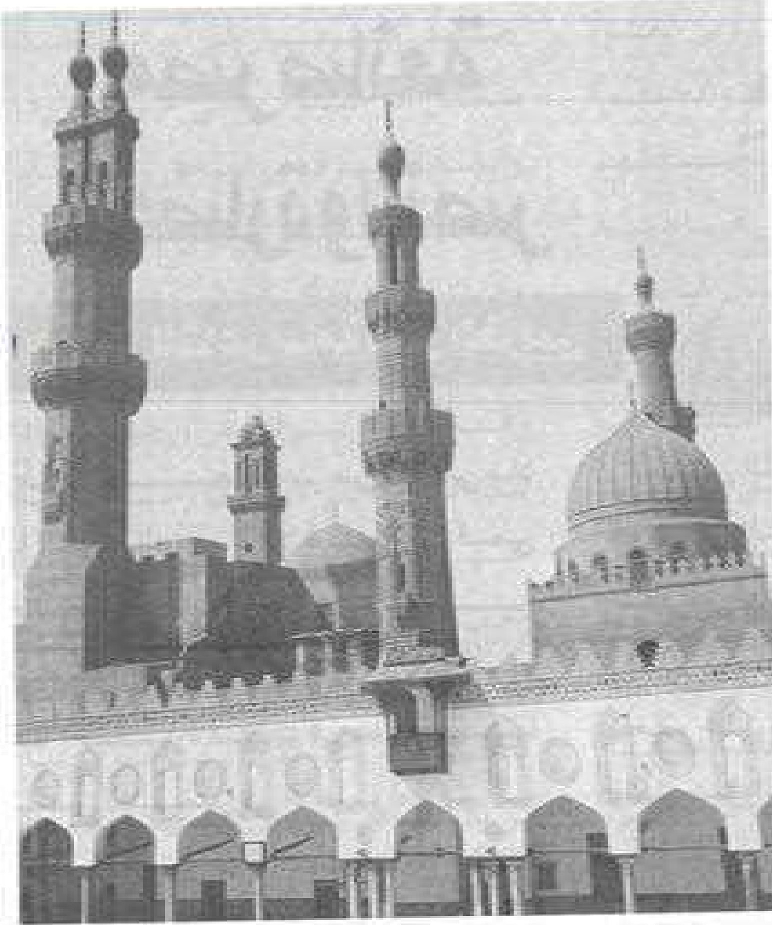
ولعل فى الموقف الذى وقفه عمر مكرم من الغزو الفرنسى بداية المقاومة الفعلية العنيفة، فإنه لما رأى أن رجال الدولة لم يحققوا الأمل فيهم، ولم يحسنوا القيام بالغرض الواجب عليهم، نادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع، وأخذ يدعوه، ويحرضه ويحمسه لعله يستغنى بنفسه فى الدفاع، وكان الجواب، جواب الشعب باهرا نبيلا، إذ لبى جميعه نداء الواجب، فخرج كل من فى القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان، حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء، وجاء كل منهم بما عنده من مال قليل، دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم، وجاءوا بها ليشتروا سلاحا وخياما وذخيرة.

ولكن هل كانت النية وحدها وصدق الرغبة لتغنى عن العدة والسلاح؟ فإن شعب مصر وإن صدقت عزيمته فى الجهاد قد خانته المقدرة، وعصته الحيلة، وعزت عليه الوسيلة.

الأزهر وثورة سنة ١٧٩٨م

يقول الدكتور سعيد: كانت الأسباب التى تبرر قيام الثورة قد بدأت تتجمع منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسى، حتى إذا جاء يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م أى بعد احتلال مصر بثلاثة أشهر فقط.

انفجر البركان، وانطلق رجال الأزهر - شيوخه وطلابه - فى شوارع منطقة الأزهر، يتنادون إلى الثورة، ويلهبون مشاعر الأهالى بخطبهم الحماسية ويدعونهم إلى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين، ويطلبون منهم التجمع فى الجامع الأزهر، وأظهر الثوار ما كانوا يخفونه من الأسلحة، وذهب وفد إلى قاضى القضاة يطلبون منه الذهاب معهم إلى نابليون لعرض مطالبهم وشكواهم، ولكن الرجل أبصر الجماهير المحتشدة فى الخارج، فخشى أن ينساق وراءهم، وفضل البقاء فى بيته، فأخذ الثوار يقذفون بيته بالحجارة، وحاول الهرب فلم يفلح ولما علم الجنرال ديبوى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة بالتحرك الثورى، انتقل إلى بعض الشوارع الثائرة، إلا أن الثوار حاصروه، وكان معه وكيل محافظة القاهرة برتلمى اليونانى، أو فرط الرمان - المعروف بالقسوة والتهور، فأطلق عيارا ناريا على أحد الثوار فأرداه قتيلا، فازداد هياج الجماهير وهجموا على ديبوى



فجرح جرحا خطيراً أدى به إلى الموت.

وتجمع الوثائق - وثائق الحملة الفرنسية - على أن الأزهر كان له الدور الأكبر فى هذه الثورة، كما تؤكد وجود تنظيم دبّر وخطط له، فقد نقل رجال المخابرات العسكرية الفرنسية إلى الجنرال جون، أن الجامع الأزهر هو موئل زعماء الثورة، وأنه يضم خمسة عشر ألف ثائر يرابطون فى داخله وفى ساحته الخارجية وفى الأزقة اللاصقة له والجهات المجاورة، فأرسل إلى بونابرت التقرير التالى:

«إن مركز الثورة لا يزال فى حى العرب، حيث يوجد أكبر جامع - الأزهر - وقد أقام الثوار متاريس صغيرة فى جميع الشوارع المؤدية إليه، وهذه الشوارع ليست مضاءة على الإطلاق، وقد تعرضت دورياتنا لطلقات الرصاص برهة، والمعتقد أن هذه الحشود التى تتخذ من هذا الحى مكانا للتجمع، لن تتفرق غدا فى الصباح، وأرى فى هذه الحالة أن تأمروا باتخاذ إجراءات عنيفة جداً».

ويحدثنا «رينو» عن لجنة تدبير الثورة فيقول:

«لقد اجتمع إلى جانب تذمر الأهالى واستيائهم، نشر الدعاية إلى الثورة، فكان فى الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على الكراهية فى نفوس الناقمين ويقول نابليون فى مذكراته: إن الشعب قد انتخب «ديوانا» للثورة ونظم المتطوعين للقتال، واستخرج الأسلحة المخبوءة، وأن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان، وذكر فى تقرير إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة أن لجنة الثورة كانت تنعقد بالأزهر.

ومن الطبيعى أن تكون قيادة الثورة، أو اللجنة التنفيذية للديوان من المشايخ؛ القيادة الشرعية للأمة.. لكن عضوية الديوان لم تكن قاصرة على الشيوخ، بل على جميع ذات الشعب.

يتبع

مصر صانعة الحضارة والنصر

للشاعر أسامة كامل الخربيى



أطاردُ الشعر من ناد إلى ناد   وأقتبس اللحن من حاد ومن شاد
يا صائد العيد هلا قد وهبت فمي   قوسًا من الشعر أو سهمًا من الضاد
حتى أزيِّن أوطانى بِرائعةٍ   تثير لوعة نقادى وحسادى
مصر الحضارة تاج فوق مفرقها   وذلك التاج من آثار أجدادى
هنا الحضارة قامت فى مواكبها   تخطو على النيل فى زهو وإسعاد
تنافس الشمس فى الأضواء لامعة   وتسبق السحب فى رفع وإمداد
كأن الأصيل يحييها إذا خطرت   بألف لون بديع الحسن وقاد
حتى كأن لياليها إذا اكتملت   عرش لبلقيس فى الأحلام أو ناد
والخير يمشى سعيدًا فى معاطفها   عم البلاد بأفراح وأعياد
ويزدهى من آثار ما صنعت   فيما تمناه فى أهرامنا باد
هنا تعيد «خوفو» فى معابده   وقاد «موسى» جيوشًا تعبر الوادى
صوت من الله من آثاره خشعت   جبال سينا وطاب الماء للصادى
وأثمر التين والزيتون وانطلقت   ربوع أرض سقاها الغيث بالزاد
حنت «لعمرو» غداة الفتح وابتسمت   منها الفتوح لآفاق وآماد
حتى اطمأن بنور الله من قطعوا   نهر الحياة على خوف وإجهاد
يا أيها الشرق إنا أمة وضعت   قواعد المجد فى صبر وإعداد
نحن الذين جعلنا النصر أغنية   بكل ثغر طروب اللحن ميَّاد
نحن الذين جعلنا الموت عاصفة   لكل باغ عتا فى الأرض أو عاد
فسل «صلاحا» لدى «حطين» ما صنعت   جنود مصر بصلبان وأطواد
وكيف صدت جيوش البغى فاندحرت   بعد الفداء بفرسان وأجناد

وسل «كتبغا» و«هولاكو» ومن بعثوا   جيش التتار إلى أبواب بغداد
وكيف دكوا أصول الملك وانطلقوا   مثل الوحوش على عُزْلٍ وزهَّاد
من ذا أتاهم بمن أفنى جحافلهم   وأنقذ الشرق من محق وإفساد؟
حتى أتانا يهود الأرض قاطبة   يبغون محو ثرياتى وأمجادى
قد دنَّسوا القدس حتى قال قائلهم: (هنا سيحكم أبنائى وأحفادى
من الفرات وحتى النيل دولتنا   ومن عليها عبيد عند أسيادى)
من ذا الذين أحاطوا ليل أمتهم   وقد أزالوا كرى يأس وإجهاد؟
من غير مصر بيوم النصر إذ عبرت   شط القنال على شوق وميعاد
يوم هو البعث.. من إشراقه انتفضت   كهزة الروح فى أوصال أجساد
عشر كرام بشهر الصوم توجها   زحف الأسود إلى أوكار أوغاد
الله أكبر كانت خير فاتحة   للزاحفين على بغى وإلحاد
الله أكبر كانت وقع صاعقة   كصيحة الموت إذ دكت قرى عاد
نحن الذين سحقنا كل ما نسجُوا   من الأساطير عن جيش وقواد
نحن الذين جعلنا من سواعدنا   جسرًا إلى المجد باسم الواحد الهادى
هى انتفاضة شعب ظل يصنعها   وسوف يلهمها للموكب الغادى
تهدى الإباء إلى الأجيال ما بقيت   عبر الزمان فما تُمنى بإخماد
كل يردد فى زهو بآيتها   بين المواكب فى عرس وأعياد
«بإذن ربى ستبقى مصر مقبرة   لكل باغ خبيث القصد منقاد»



فتاوى لها تاريخ

زواج المتعة

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ محمود شلتوت

ما هو زواج المتعة؟ وهل هو مباح الآن، كما يشيع بعض الكاتبين؟

زواج المتعة ـ ومنه الزواج إلى أجل ـ هو أن يتفق رجل مع امرأة خالية من الأزواج على أن تقيم معه مدة ما، معينة أو غير معينة، فى مقابل مال معلوم.

وهذا زواج لا يقصد به سوى قضاء الحاجة، وينتهي دون طلاق بمضى مدته، أو بالمفارقة إن لم تضرب له مدة ولا ريب فى أن هذا الزواج ليس هو الزواج الذى شرعه الإسلام ونزل به القرآن.

أساس الزواج فى القرآن:

فالقرآن يرشد إلى أن أساس الزواج السكن والمودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين، وإلى أن ثمراته تكوين الأسر، وتحصيل الأبناء والأحفاد، والتعاون على تربيتهم وما أبعد زواج المتعة عن هذا الأساس وهذه الثمرات.

والقرآن قد ربط بعنوان الزوجية أحكاما كثيرة كالتوارث، وثبوت النسب، والنفقة، والطلاق، والعدة، والإيلاء، والظهار، واللعان، وحرمة التزوج بالخامسة وغير ذلك مما يعرفه الناس جميعا، وليس شيء من هذه الأحكام بثابت فيما يعرف بزواج المتعة.

والقرآن قد عرض للزواج بلفظه تارة وبلفظ النكاح أخرى فى آيات كثيرة، ولا يفهم منها ناطق بالضاد سوى الزواج الذى جعل أساسه الدوام، وتكوين الأسر، وربطت به تلك الأحكام التى أشرنا إليها، واقرأ فى ذلك مثل قوله تعالى:

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾

(البقرة: ٢٣٠)

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾

(النور: ٣٢)

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(النساء: ٢١)

اقرأ هذه الآيات وأمثالها لتعلم أنها ـ على رغم ما يحاول المفتونون بمشروعية زواج المتعة من تحريفها عن مواضعها ـ بعيدة كل البعد عن زواجهم الذى يعلنون أنه مشروع لغاية فى نفوسهم، أو تعصبا لآراء لا تعرفها حجة.

أبيحت المتعة لحكمة ثم حرمت:

نعم ثبت أن النبى ﷺ أباحه للمحاربين فى بعض الغزوات. وثبت أيضا بما لا شك فيه أنه نهى عنه نهيا عاما وحرمه تحريما مؤبدا. وقد جمع مسلم فى صحيحه، والحافظ ابن حجر فى شرح البخارى أحاديث النهى، فليرجع إليها من شاء.

وما كان نهى عمر عنها ـ وتوعده فاعلها أمام جمع من الصحابة، وإقرارهم إياه ـ إلا عملا بهذه الأحاديث الصحيحة، واقتلاعا لفكرة مشروعيته من بعض الأذهان. وقد كان النبى ﷺ يتخذ قرب عهد الناس بالإسلام فى أوقات الضرورة سبيلا للترخيص فيما يخفف عنهم تلك الضرورة، حتى إذا ما أنسوا الإسلام وأحكامه عاد فجرمه التحريم الذى يريده الله، وهو التحريم العام المؤبد.



محمود شلتوت

وبهذا القدر من البيان يتضح أن الرأيين فى زواج المتعة لا يمكن أن يوضعا فى ميزان واحد فضلا عن تساوى كفتيهما. وأن الترخيص فى زواج المتعة لم يخرج عن أن يكون ترخيصا بأخف المحرمين فى وقت الضرورة، وحداثة عهد الناس بالإسلام، ومثل هذا الترخيص لا يصلح دليلا على المشروعية.

وإن الشريعة التى تبيح للمرأة أن تتزوج فى السنة الواحدة أحد عشر رجلا، وتبيح للرجل أن يتزوج كل يوم ما تمكن من النساء، دون تحميله شيئا من تبعات الزواج، إن شريعة تبيح هذا لا يمكن أن تكون هى شريعة الله رب العالمين، ولا شريعة الإحصان والإعفاف.

***

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

ليلة النصف من شعبان

● قد تعودنا منذ القدم في ليلة النصف من شعبان، على تأدية ست ركعات بعد صلاة المغرب مباشرة في جماعة إحياء لهذه الليلة، وفي هذا العام خرج علينا أناس يقولون إنها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. فهل ما يقولونه صحيح أم ما نفعله نحن هو الصحيح؟

●● الجواب: ورد الترغيب النبوي الكريم بإحياء ليلة النصف من شعبان في جملة من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ؛ ومنها قوله: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها؛ فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر لي فأغفر له ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلع الفجر» أخرجه ابن ماجة، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف إلا أنه قد وردت أحاديث وروايات كثيرة تدل على أن لذلك أصلا، وقد ساقها العلامة المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٣ / ٤٤٢، ط. دار الفكر) ثم قال: (فهذه الأحاديث بمجموعها حجة على من زعم أنه لم يثبت في فضيلة ليلة النصف من شعبان شيء) اهـ.

ومشروعية إحياء ليلة النصف من شعبان ثابتة عن كثير من السلف، وهو قول جمهور الفقهاء، وعليه العمل في بلدان المسلمين.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في «الأم» (١ / ٢٦٤، ط. دار الفكر): (وبلغنا أنه كان يقال: إن الدعاء يستجاب في خمس ليال: في ليلة الجمعة، وليلة الأضحى، وليلة الفطر، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان) اهـ.

وقال الفاكهي (ت ٢٧٢هـ) في كتابه «أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» (٣ / ٨٤، ط. دار خضر): (ذكر عمل أهل مكة ليلة النصف من شعبان واجتهادهم فيها لفضلها: وأهل مكة فيما مضى إلى اليوم إذا كان ليلة النصف من شعبان خرج عامة الرجال والنساء إلى المسجد، فصلوا، وطافوا، وأحيوا ليلتهم حتى الصباح بالقراءة في المسجد الحرام حتى يختموا القرآن



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

كله ويصلوا) اهـ.

وقال العلامة زين الدين بن نجيم الحنفي في «البحر الرائق» (٢ / ٥٦، ط. دار المعرفة): (ومن المندوبات إحياء ليالي العشر من رمضان وليلتي العيدين وليالي عشر ذي الحجة وليلة النصف من شعبان، كما وردت به الأحاديث، والمراد بإحياء الليل قيامه) اهـ.

وقال الشيخ ابن تيمية الحنبلي - كما في الفتاوى الكبرى (٥ / ٣٤٤، ط. دار الكتب العلمية) -: (وأما ليلة النصف من شعبان ففيها فضل، وكان في السلف من يصلي فيها) اهـ.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص: ٢٦٣، ط. دار ابن كثير):

واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين:

أحدهما: أنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد كان خالد بن معدان ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه على ذلك وقال في قيامها في المساجد جماعة: ليس ببدعة، نقله عنه حرب الكرماني في «مسائله».

والثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها لخاصة نفسه، وهذا قول الأوزاعي. اهـ.

فتحصل من ذلك مشروعية إحياء هذه الليلة، وأن الصلاة فيها جماعة محل خلاف بين العلماء، والراجح الجواز؛ لأن الأمر بالإحياء أمر مطلق يشمل كل أنواع العبادة المشروعة، فإذا قام به المسلمون فرادى أو جماعات فهو حسن، ولكلٍّ منهم سلف فيما يفعله، وكلهم داخل لذلك في فضل إحياء هذه الليلة.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فما تقومون به من الصلاة هو باب من أبواب إحياء ليلة النصف من شعبان، ولكم الأجر الجزيل إن شاء الله تعالى، وليس في ذلك بدعة، إنما البدعة أن يتعامل العامة مع مسائل الخلاف من غير استحضار لأدب الخلاف عند السلف الصالح؛ فلا إنكار في مسائل الخلاف، ولا يعترض بمذهب على مذهب، والصواب في ذلك ترك الناس على سجاياهم؛ لأن أمر الذكر والإحياء مبناه على السعة، وقد تنوع فعل السلف في ذلك؛ فليسعنا ما وسعهم.

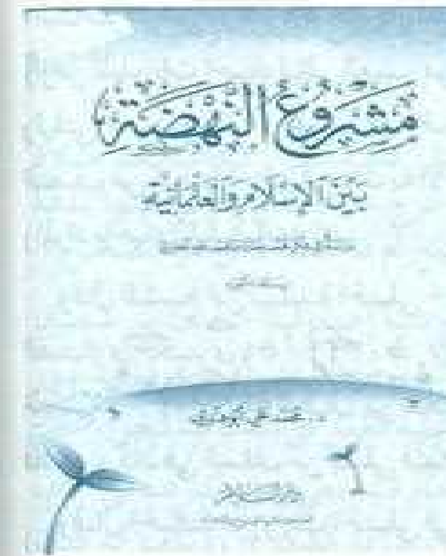
والله سبحانه وتعالى أعلم

مكتبة الأزهر



إعداد: أ. محمد شعبان

تسعى "الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



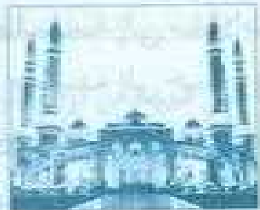
يقارن د. محمد على أبوهندى فى كتابه «مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية .. دراسة فى فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابرى» بين الرؤية الإسلامية والموقف العلمانى تجاه مشروع النهضة فى العالم العربى والإسلامى. يقدم الكتاب الصادر عن دار السلام بالقاهرة ـ وهو بالأساس رسالة دكتوراة ـ دراسة عينية وتفصيلية لمشروعى النهضة فى العالم العربى وهما المشروع الإسلامى ممثلا فى كتابات د. محمد عمارة والمشروع العلمانى ممثلا فى كتابات المفكر المغربى الراحل د. محمد عابد الجابرى. ويعلل مؤلف الكتاب سبب اختياره لعمارة والجابرى بعدة أسباب أهمها انتشار مشروع كل منهما فى الأوساط الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى فضلا عن العمق المستقبلى فى المشروعين. ويحفل الكتاب ـ من خلال ٥٥٦ صفحة ـ بتقديم نماذج متعددة من إبداعات المفكرين التى عالجت مفاهيم مثل التراث والحداثة والمواطنة والعولمة وغيرها



رغم أن تداعيات الأزمة المالية العالمية والتى وقعت عام ٢٠٠٧م مستمرة حتى الآن إلا أن الكثيرين لا يعلمون أسباب هذا الانهيار الاقتصادى الضخم لكن ما يقدمه د. صلاح عبد الكريم فى كتابه «الأزمة المالية الأمريكية العالمية .. مصيبة أم جريمة؟» يوضح بجلاء خبايا وخفايا هذا الطوفان الاقتصادى وتفاصيله بطريقة شيقة ومبسطة للقارئ العادى. الأزمة كما يرصدها المؤلف ليست نتيجة أمر عابر سيتم تجاوزه بل هى ناشئة عن مشكلة متأصلة فى بنية النظام الرأسمالى الأمريكى والغربى حيث تحولت النقود من مجرد وسيلة للحصول على السلعة إلى سلعة فى ذاتها تتم المتاجرة بها عبر قروض ولذا يتم إنتاج عملات تورق ـ من أجل القروض وليس بناء على نمو اقتصادى واقعى كما هو متعارف عليه فى النظم التقليدية. نقطة أخرى بالغة الخطورة يرصدها الكتاب ـ الصادر عن دار سفير الدولية للنشر ـ هى سيطرة حفنة قليلة على مصاريف القروض والتى هدفها الوحيد هو الإقراض إلى ما لانهاية



من خلال رحلة تتبع تاريخ العلوم الطبيعية فى العصر الحاضر يأخذك كتاب «قصة الكون» لمؤلفه جون جريبين وترجمة مصطفى إبراهيم فهمى إلى أحدث النظريات المستقرة ليس فقط حول نشأة الكون بل كيفية ظهور العناصر والمجموعة الشمسية وأصل الحياة. يبدأ الكتاب ـ الصادر عن دار كلمات عربية بالقاهرة ـ باستعراض النظريات المختلفة حول طبيعة المادة والذرة ومكونات كل منهما لكن يؤكد المؤلف على أن مقياس نجاح وفشل أى نظرية علمية يقوم بالأساس على القدرة التفسيرية على هذه النظرية للواقع فلا توجد نظرية جاهزة ومكتملة تفسر كل شىء. الكون كما يرصده جريبين بدأ ككرة نارية متناهية الصغر منذ ١٤ مليار عام تبعه نشأة الكواكب والمجرات.



يقدم د. محمد عبد الفتاح الخطيب فى كتابه «القيم الحضارية فى الإسلام .. نحو حداثة إسلامية جديدة» والصادر عن دار البصائر اجتهادا جديدا للخروج من المأزق الحضارى الذى تمر به الأمة الإسلامية حيث يهدف إلى تأسيس خطاب حداثى إسلامى كبديل للمشروع الحداثى الغربى. ينطلق هذا المشروع الجديد من مقدمة مفادها أن الإسلام يمتلك منظومة قيمية ليست ضرورة للمسلمين فقط بل ضرورة لحداثة إنسانية جديدة. لكن يعود المؤلف ليؤكد أن هذا التصور لا يهدف إلى إحلال المركزية الإسلامية محل المركزية الغربية، لأن حداثة الإسلام تقوم على قيم العدل والإحسان والتعارف والتراحم والمجاهدة وهى أمور تمنع قيام مركزية. ثم يوضح المؤلف أن أبعاد هذه الحداثة الإسلامية تعتمد على ثلاثة مفاهيم هى «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستقامة».



ست قراءات نقدية جادة يقدمها د. إبراهيم عوض فى كتابه «ست روايات مصرية مثيرة للجدل» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد. الروايات الست هى «أشواك» لسيد قطب و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ و«عزازيل» ليوسف زيدان و«واحة الغروب» لبهاء طاهر و«البشمورى» لسلوى بكر و«العمامة والقبعة» لصنع الله إبراهيم.. الجامع بين هذه الدراسات بل والجديد فى الكتاب هو بعده عن النمطية النقدية التى سيطرت على ميدان النقد الأدبى وخصوصا فى التعامل مع هذه الروايات. فالمتابع للدراسات النقدية يرى أن هناك ما يشبه الإجماع على عظمة وعبقرية هذه الروايات باستثناء «أشواك» لسيد قطب لكن المؤلف يكسر هذا الاحتكار أو التواطؤ النقدى بقراءة رصينة تختلف الأعمال مقيما إياها بما يراه مستحقا دون التماشى مع ثقافة القطيع التى تهيمن على النقد الأدبى فى مصر

ابن سينا والطب السيناوى



٢



أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء وتاريخ وفلسفة العلوم
كلية العلوم جامعة القاهرة

محتويات القانون وأهميته:

يقع كتاب القانون فى خمسة أجزاء – سمى كلاً منها كتابا – تتناول علوم التشريح ووظائف الأعضاء وطبائع الأمراض والصحة والعلاج، وينقسم كل جزء (أو كتاب) إلى أبواب أسماها ابن سينا فنونا، والفنون مقسمة إلى مقالات أو تعاليم، والتعاليم مقسمة إلى جمل وفصول، وقد أخذ البعض على المؤلف أنه لم يكن يهتم بنسبة الرأى إلى صاحبه، فاختلطت أقواله بأقوال غيره، وعاب "أوليرى" على هذا الكتاب كثرة التقسيمات والتفريعات، لكن هذه المآخذ لم تمنع أن يشار إلى كتاب القانون لابن سينا على أنه نموذج رائد فى فن التأليف من ناحية التبويب وجودة العرض ومنطقية الترتيب، وذلك بالمقارنة مع الكتب الطبية الحديثة، وإن المرء لينبهر حقا عندما يصنع لوحة كبيرة تبين البناء الداخلى للكتاب فى جملته، ثم إذا هو أقبل على القراءة وجد نفسه أمام فيلسوف عالم كبير، يفكر، فيتأمل الواقع، ويحلل ويعلل، على منهج العقل، من غير أن يبعد عن التفسير الطبيعى للوقائع، أو يترك أمرا معلقا غير مرتبط بمبدأ عام أو قانون كلى.

فالكتاب يبدأ بالتشريح، ويثنى بعلم وظائف الأعضاء، ويتبع ذلك بعلم طبائع الأمراض، أو الباثولوجيا، وأخيرا ينتهى بعلم العلاج، ولقد عرض ابن سينا نفسه مضمون هذا المنهج – الذى قصده قصدا – فى مقدمة كتاب القانون.

وشرح الطابع الفلسفى لهذا المنهج ومحاولة تطبيق الاعتبارات الفلسفية على الطب بقوله: "رأيت أن أتكلم أولاً فى الأمور العامة الكلية فى كلا قسمى الطب، أعنى القسم النظرى والقسم العملى، ثم بعد ذلك أتكلم فى كليات أحكام القوى المفردة للأدوية، ثم جزئياتها، ثم بعد ذلك فى الأمراض الواقعة بعضو عضو: أبتدئ أولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته، ثم إذا فرغت من ذلك ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلال عليها وطرق معالجتها بالقول الكلى أيضا.. فإذا فرغت من هذه الأمور أقبلت على الأمراض الجزئية ودللت أولا فى أكثرها أيضا على الحكم الكلى فى حده وأسبابه ودلائله، ثم خلصت إلى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلى للمعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية".

والكتاب كله على هذا النسق يبدأ بدراسة الكليات ثم الجزئيات، وهو يتناول الأمراض مرضا مرضا، ويذكر أعراضها الكلية، ثم يتناول تدبير علاجها، ولعل هذا التنظيم المحكم من أكبر الأسباب فى شهرة كتاب القانون وكثرة تداوله، وهو يعكس حقيقة أن شيئا من الفلسفة ضرورى لتقدم الطب.

ويدل كلام المؤلف فى المقدمة على أنه قصد من كتابه – إلى جانب هدفه الأكاديمى – أن يكون لتعليم الطب وللعلاج فى وقت واحد، ومما له دلالته فى هذا الصدد أنه يقسّم فنون الكتب إلى "تعاليم"، وأنه يرى فى محتويات الكتاب أنها تشتمل على أقل ما لابد منه للطبيب الذى يدعى معرفة صناعة الطب، ويريد مزاولتها ليتكسّب بها، فلا يسعه "إلا أن يكون جلّه معلوما محفوظا عنده، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط".

من ناحية أخرى، يدل كلام ابن سينا فى مواضع عدة من كتاب القانون على إحساسه وإلمامه الواعى بالفرق بين التصورات الفلسفية، وبين الممارسات العملية ودراسة الواقع الملموس، ويريد من الطبيب، من حيث هو طبيب، ألا يدخل فى غير موضوع بحثه المحدد، فهو مثلا فى مناقشته لقضية

ابن سينا

ROMAE.
In Typographia Medicea.
M.D.XCIII.

"الأخلاط" وما قيل فيها من آراء يقول: "هذا ما نقوله فى الأخلاط وتولدها، وأما مخاصمات المخالفين فى صوابها فإلى الحكماء دون الأطباء" يعنى أنها شأن الفلاسفة.

على أن المؤلف لم يفته أن ينبه إلى أن هناك معلومات يأخذها الطبيب مسلّمة من علوم أخرى، وموضوعات عليه أن يبحثها بنفسه، فالطبيب يأخذ من العلم الطبيعى موضوعات لا يحتاج إلى أن يبرهن عليها، باعتبار أنها محققة عند غيره، مثل: نظرية الأركان التى تحدد جملة العناصر الأربعة التى يتركب منها البدن فى الماء والهواء والتراب والنار، ونظرية الأمزجة – أى الكيفيات التى تحصل من تركيب العناصر

وتفاعلاتها في البدن بوجه عام، ونظرية الأخلاط – أى السوائل التى يتحول إليها الغذاء قبل هضمه وتمثيل البدن له، ونظرية القوى والأرواح (أى الجواهر اللطيفة التى تتولد فى البدن) وعددها ومكانها، وأنواع الأسباب فى أحوال الثبات والتغير فى الصحة.

ويكفى الطبيب فى هذه الأمور أن يتصور الموضوع "بالماهية فقط تصورًا علميًا – أى بفكره – ويصدق بهليته (أى بأنه موجود)، تصديقًا على أنه وضع له مقبول من صاحب العلم الطبيعى"، وعليه بعد ذلك أن يبحث بنفسه فى الأعضاء ومنافعها، وهو يعرف بالحس والتشريح، وكذلك عليه أن يدرس الأمراض وأسبابها الجزئية وعلاماتها وكيفية حفظ الصحة وإزالة المرض، وأن يبرهن على صحة تصوراته.

ويحدد ابن سينا منهجه فى العلاج عمومًا بأنه يتم من أشياء ثلاثة: "أحدها التدبير، والآخر استعمال الأدوية، والثالث استعمال اليد"، والتدبير عبارة عن "التصرف فى الأسباب الضرورية المعدودة التى هى جارية فى العادة، والغذاء من جملتها، وأحكام التدبير من جهة كيفيتها مناسبة لأحكام الأدوية، لكن للغذاء من جملتها أحكام تخصه.." وعن المعالجة بالدواء يقول ابن سينا أن لها ثلاثة قوانين: "أحدها قانون اختيار كيفيته، أى اختياره حارًا أو باردًا أو رطبًا أو يابسًا، والثانى قانون اختيار كميته، وهذا القانون ينقسم إلى قانون تقدير وزنه، وإلى قانون تقدير كيفيته، أى درجة حرارته وبرودته وغير ذلك، والثالث قانون ترتيب وقته".

ثم يفصل ابن سينا الحديث عن كل واحد من هذه القوانين والقواعد الأساسية للمعالجة، فيقول: "أما قانون اختيار كيفية الدواء على الإطلاق، فإنما يهتدى إليه بالوقوف على نوع المرض، فإنه إذا عرف كيفية المرض وجب أن يختار من الدواء ما يضاده فى كيفيته، فإن المرض يعالج بالضد، والصحة تحفظ بالمشاكل، وأما تقدير كميته فيعرف على سبيل الحدس الصناعى – أى الحدس الناشئ عن الخبرة العملية وممارسة المهنة – من طبيعة العضو، ومن مقدار المرض، ومن الأشياء التى تدل بموافقتها وملاءمتها، التى هى الجنس والسن والعادة والفصل والبلد والصناعة والقوة والسحنة، أما وقت المرض فيجب معرفة فى أى وقت هو من أوقاته: فإن كان الورم مثلاً فى البداية استعمل الطبيب الدواء الرادع وحده، وإن كان فى منتهاه استعمل الدواء المحلل وحده، أما فيما بين ذلك فيخلط الدواءين.. وإن كان المرض مزمنا لم يلطف فى الابتداء تلطيف الانتهاء".

وفى باب معالجة الآلام بوجه عام يرى ابن سينا أن تسكين الوجع يكون "بمضادة الأسباب"، أى بمقاومتها وإزالتها: إما بشئ يؤثر فى مزاج موضع الألم، أى بتبيته، أو بشئ يحلل، أى يذيب، المادة التى تسبب الألم، أو بشئ مخدر، والمواد المرخية من جملة ما يحلل المادة برفق، وكذلك المسهلات والمستفرغات وجميع ما ينضج الأورام أو يفجرها.

ويستطرد الفيلسوف الطبيب موضحًا عوامل أخرى تسكن الأوجاع، فيقول: "ومن مسكنات الأوجاع المشى الرقيق الطويل الزمان، لما فيه من الإرخاء Relaxation، وكذلك الشحوم اللطيفة والأدهان التى ذكرنا، والغناء الطيب، خصوصًا إذا نوم به، والتشاغل بما يُفرح مسكن قوى للوجع".

ولم يفت الشيخ الرئيس أن يضمن كتاب القانون قواعد وإرشادات دقيقة تتعلق بتدبير المولود منذ ساعة ولادته، من الناحيتين البدنية والنفسية، وبرعاية الصبى والفتى، وبتدبير المشايخ، كما لم يفُته كطبيب فسيولوجى أن يهتم بدراسة القوى النفسية المدركة والمحركة، الظاهرة والباطنة، وأن يحدد مراكزها فى الدماغ.

واشتهر كتاب القانون فى أوروبا شهرة عظيمة لدرجة أن السير "وليم أوسلر" قال عنه إنه كان الإنجيل الطبى لأطول فترة من الزمن، فقد طبعت ترجمته كاملاً إلى اللاتينية ست عشرة مرة فى الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى، ثم أعيد طبعه عشرين مرة فى القرن السادس عشر الميلادى، أما الطبعات التى تقتصر على جزء أو أجزاء منه فهى كثيرة ويصعب حصرها لأنها تتجاوز التصور عدداً، وطبع القانون بالعبرية فى نابلى عام ١٤٩٢م، كما طبع بالعربية مرتين: الأول بروما عام ١٥٩٣م والثانية بالقاهرة عام ١٨٧٧م.

وكانت كليات الطب فى الغرب حتى أوائل القرن العشرين تنشر فى رسالاتها أجزاء من كتاب القانون هذا، بينما لم تنل مؤلفات اليونان الطبية إلا قدرا ضئيلا من الحظوة يتمثل فى الأقوال والحكم المأثورة عن أبقراط وجالينوس.

من مآثر ابن سينا الطبية فى كتاب القانون:

– يعتبر ابن سينا أول من اخترع المخدّر قبل الجراحة وسماه "المُرقد"، وكذلك اخترع أول محقن لحقن الأدوية فى الجسم وسماه "الزرّاقة"، وابتكر أول جراحة للأعصاب المقطوعة، واكتشف مرض شلل عصب الوجه Facial Palsy وميز بينه وبين الشلل فى الدماغ.

– اكتشف ابن سينا طفيلية الانكلستوما وقدم وصفها التفصيلى لأول مرة فى الفصل الخاص بالديدان المعوية من كتاب "القانون فى الطب" وسماها "الدودة المستديرة"، وتحدث عن أعراض المرض الذى تسببه.

وعن هذا الفتح الكبير فى عالم الطب كتب الأستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق مقالاً فى مجلة "الرسالة" جاء فيه: ".. قد كان لى الشرف فى عام ١٩٢١م أن قمت بفحص ما جاء فى كتاب القانون فى الطب، وتبين لى أن الدودة المستديرة التى ذكرها ابن سينا هى ما نسميه الآن بالإنكلستوما، وقد أعاد "دوبينى" اكتشافها بإيطاليا عام ١٨٣٨م أى بعد اكتشاف ابن سينا لها بتسعة قرون تقريباً، ولقد أخذ جميع المؤلفين فى علم الطفيليات بهذا الرأى فى المؤلفات الحديثة، كما أخذت به مؤسسة "روكفلر" الأمريكية التى تعنى بجمع كل ما يكتب عن هذا

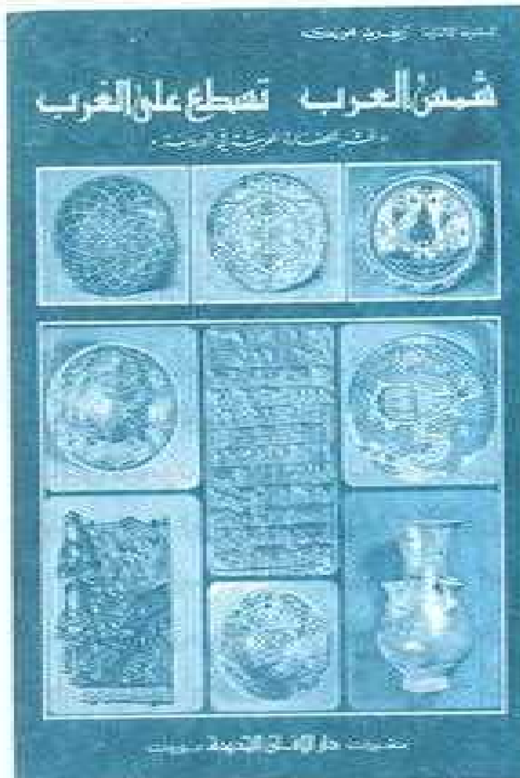
المرض...".

- درس ابن سينا النبض وحالاته دراسة واقية، وبيّن أثر العوامل النفسية فى اضطرابه، وتوسع فى دراسة الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية وعالجها عن فهم ودراية وقال: "علينا أن نعلم أن أحسن العلاجات وأنجحها هى العلاجات التى تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض، وتجميل محيطه وأسماعه بما عذب من الموسيقى، وجمعه بالناس الذين يحبهم".

- تكلم ابن سينا عن جراحات الأعصاب وعلاجها فقال: "إن كان العصب مكشوفا وكان طولاً فاجتهد أن تغطيه وتضع عليه الأدوية الوخزية التى ذكرناها وتشده بخرق عريضة شدا ضاما جامعا، وأما إن كان الجرح عرضا فلابد له من الخياطة"، ويصف طرق إيقاف النزيف إما بربط أو بإدخال فتائل أو بالكى بالنار أو بدواء كاو، وإما بضغط من اللحم حول العرق.

- وصف ابن سينا فى علل المقعدة علاج البواسير والناصور الشرجى، وتحدث عن حصاة الكُلى، وتكلم عن استعمال القساطر وطرق صناعتها.

- فرق ابن سينا بوضوح بين قروح المرئ والمعدة والأمعاء، وقال عن أحد مصادر قئ الدم أنه كثيرا ما يكون عقيب القئ الكثير، وهو وصف لما يعرف اليوم باسم "لزمة مالورى وفايس" Mallory-Weiss Syndrome، وفيها يبدأ القئ بلا دم، من أى سبب كان، ولكن ما يلبث المرئ أن يتقطع



غشاؤه الخاطى من أسفل من شدة القئ، فيأتى القئ بعد ذلك مخضبا بالدم.

- وتحدث عن أمراض الكبد والطحال والاستسقاء موضحا ما تعرفه اليوم عن مرض "بانتى" Banti - disease من أن تضخم الطحال قد يسبق مرض الكبد ويكون سببا له.

- عن التخدير الموضعى للأسنان وصف ابن سينا خصائص المادة المخدرة التى توضع على السنّ الوجعة، كما تحدث عن التخدير بالبرودة قائلا: "ومن جملة ما يخدر من غير أذى، الماء المبرد بالثلج تبريدا بالغا، أخذا بعد أخذ حتى يخدر السن فيسكن الوجع البتة، وإن كان ربما زاد فى الابتداء، وأرجع ابن سينا أوجاع الأسنان إلى "وجع يكون فى جوهرها.. وقد يكون لسبب وجع فى العصبة التى فى أصلها، وقد يكون لسبب

يكون فى اللثة، وقد تكون من الحميات".

- تناول ابن سينا فى "القانون" دراسة بعض الحيوانات والمعادن التى تستخلص منها عقاقير نافعة، ودراسة النباتات التى تتخذ منها الأدوية، شارحا ما هيتها، مع وصف دقيق لأجزائها الأساسية من أصل وجذور وزهر وثمر وورق، ثم يتناول اختبار طبعها وخواصها.

- نجح ابن سينا فى تغليف الأدوية بالذهب والفضة المفيدين للقلب، مثلما نجح غيره من أطباء المسلمين، مثل أبى بكر الرازى، فى تغليف الأدوية المرة بغلاف من السكر أو عصير الفاكهه لكى يستسيغها الأطفال. واتصالاً بهذا الإنجاز تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه، فى كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب".

"إن كل مستشفى، مع ما فيه من ترتيبات ومختبرات، وكل صيدلية ومستودع أدوية فى أيامنا هذه، إنما هى فى حقيقة الأمر نُصب تذكارية للعبقرية العربية، كما أن كل حبّة من حبوب الدواء، مذهّبة أو مسكّرة، إنما هى كذلك تذكار صغير ظاهر يذكرنا بأثنين من أعظم أطباء العرب ومعلمى بلاد الغرب" - تقصد ابن سينا والرازى.

وفى الأيام الأخيرة من حياة ابن سينا علم أن قوته قد سقطت وأنها لا تفى بدفع المرض، فأهمل مداواة نفسه، وأخذ يقول: المدبّر الذى كان يدبر بدنى قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة، وتذكر مصادر المؤرخين أن الشيخ الرئيس لما يئس من العلاج اغتسل وتاب، وتصدق بما بقى معه على الفقراء، وردّ المظالم إلى من عرفه من أربابها، وأعتق غلمانه، وكان يحفظ القرآن ويختمه كل ثلاثة أيام، وظل على هذه الحال حتى مات فى الجمعة الأولى من رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودفن فى همذان، "تحت السور من جانب القبة"، ثم شُيّد حول قبره بناء كبير يليق بذكرى معلم رائد من معلمى الإنسانية وبُناة مسيرتها الفكرية والعلمية.

أهم المراجع:

١- كتاب القانون فى الطب لابن سينا.

٢- زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، الترجمة العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١م.

٣- الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة، إشراف د. محمد كامل حسين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (د.ت)

٤- د. محمد عبدالهادى أبوريدة، الطب السيناوى، فلسفته ومنهجه (من كتاب القانون)، مؤتمر الطب الإسلامى، الكويت، ١٢-١٦ يناير ١٩٨١م.

٥- عباس محمود العقاد، الشيخ الرئيس ابن سينا، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة (د.ت).

٦- د. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى - دراسات تأصيلية، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧م.

٧- د. جلال شوقى، العلوم العقلية فى المنظومات العربية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، الكويت، ١٩٩٠م.

تأملات علمية فى آيات من القرآن الكريم



أ.د سلامة عبد الهادى
كلية هندسة الطاقة بأسوان

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾

(فاطر: ٩)

محور التأمل

جاء في كتاب الحق - سبحانه وتعالى - في آيتين منفصلتين فى سورتي فاطر والروم أن الله يرسل الرياح فتثير سحابا، وهذه الكلمات لها مدلول علمي معجز يمكن أن نفطن إليه عندما نراجع قوانين الديناميكا الحرارية للهواء الرطب أو مخلوطات الهواء والماء، والتعرف على ظاهرة تشبع الهواء ببخار الماء عند مروره على سطح الماء، وهذه العملية هي الأساس في معظم عمليات تكييف الهواء، وكذلك في الطرق الحديثة لتحلية مياه البحر، وفي هذه التأملات نرى كيف تنبهنا هذه الكلمات المعجزة من أن حركة الرياح كما جاء في الآيات الكريمة بأدق الكلمات هي المثير الرئيسي، لأن يطلق البحر بخار الماء المكون للسحاب.

تغطي محيطات المياه المالحة حوالي ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، أي حوالي ٣٦١ مليون كيلومتر مربع، وتصل أعماق معظم هذه المياه إلى بعد يزيد عن ٣٠٠٠ متر، وتصل ملوحة مياه المحيطات في المتوسط إلى ٣٥ جزءا في الألف، بينما تتراوح ملوحة مياه البحار بين ٣١ - ٣٨ جزءا في الألف، وتعمل هذه الأملاح على حفظ الماء دون أن يفسد في هذه الأعماق السحيقة للمحيطات، ففي هذه الأعماق يظل الماء ساكنا لفترات طويلة، ولولا هذه الدرجة من الملوحة العالية والتي تتدرج في زيادة التركيز من السطح إلى الأعماق لفسدت مياه البحار، وهكذا يحفظها خالقها ومدبر أمرها من التعطن والتعفن لو كانت بدون أملاح خلال الملايين التي انقضت من عمر الأرض، وإلى الملايين القادمة التي يشاء الخالق أن تحياها الأرض.

وقد قدر الخالق أن تكون هذه البحار المالحة مخزنا دائما للمياه العذبة المطلوبة للبشر وجميع الأحياء على وجه الأرض، حيث لا يمكن تخزين المياه عذبة لفترات طويلة، وإلا أصابها العفن وأفسدتها أنواع كثيرة من البكتيريا والطفيليات، ولكن وجود الملح في الماء يحفظها دهورا دون أن يصيبها أي تلوث.

عمليات تشبع الهواء ببخار الماء

طبقا للنظريات الحديثة للديناميكا الحرارية، فإنه عند مرور الهواء الجاف على أسطح المياه المالحة، شكل رقم (١)، فإن هذا الهواء الجاف يثير هذه المياه كي تطلق كمًا من بخار الماء العذب، فيعلو سطحها كمًا من البخار حتى يصبح الهواء المار على أسطح المياه هواء مشبعا بالبخار أو تسمى الرطوبة، والرطوبة هي بخار الماء العذب، وعند تشبع الهواء يصل إلى درجة من الاتزان تسمى الاتزان الديناميكي، عندها لا يستطيع الهواء تحمل كم آخر من البخار، بحيث أنه في هذه الحالة يتعادل ما يتبخر من البحر مع ما يتكثف من البخار الموجود في الهواء، وفي الشكل رقم (١) حتى يصل إلى نسبة من الرطوبة ١٠٠ ٪، عندها لا يمكن لسطح المياه أن يطلق كمًا آخر من بخار الماء ولا فرصة أمام هذه العملية من أن تتجدد إلا إذا يأتي هواء جاف جديد كي يعيد إثارة المياه كي تطلق كمًا آخر من بخار الماء.

تكوين السحاب

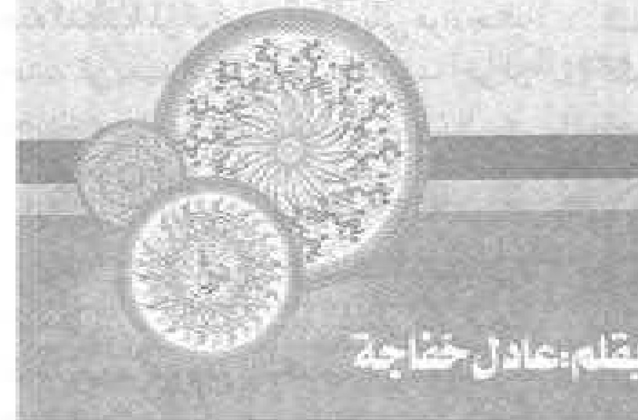
وخلال الدورة التي يطلق عليها العلماء دورة المياه في الأرض، تتسلط أشعة الشمس على البحار المالحة، فيتصاعد بخار الماء العذب، وتستقبله طبقة الهواء الملامسة لسطح البحر، والتي تستوعب قدرًا محدودًا من هذا البخار، حتى يصل هذا الهواء إلى التشبع والبخار، أو حالة الاتزان الديناميكي، حيث تتعادل كمية البخر الصاعد من سطح الماء أو المحيطات المالحة مع كمية تكثف بخار الماء في الهواء الملامس لسطح البحر، وتزيد قدرة الهواء على امتصاص كمية بخار الماء عند درجة التشبع بزيادة درجات الحرارة، ولهذا يزيد البخر عند سطوع أشعة الشمس.

وعندما يرسل الحق - سبحانه وتعالى - الرياح لتجوب أسطح المحيطات، تزيل الرياح هذه الطبقة من الهواء المشبع بالبخار والملامسة للبحار وتحملها معها، ونظرا لأن كثافة هذا الهواء المشبع تكون أقل من كثافة الهواء الجاف، فإن هذا الهواء المشبع بالبخار يتصاعد بتأثير الرياح إلى طبقات الجو العليا حيث تقل درجات الحرارة، وفي هذه الارتفاعات يتكثف بخار الماء ويتجمع على شكل قطرات من الماء مكونة السحاب المعلق بين الأرض والسماء، وعندما تدفع الرياح هذه الطبقات المشبعة والملامسة لأسطح البحار والمحيطات على مدى هذه المساحات الشاسعة لهذه الأسطح، يحل محلها بفعل الرياح هواء جاف أي غير مشبع بالبخار، وهنا تثار أسطح البحار والمحيطات بهذا الهواء الجاف مرة أخرى وتدفع بكميات أخرى من الماء على شكل بخار ليتشبع الهواء الملامس لأسطح البحار مرة أخرى، ليصل مرة أخرى إلى الاتزان الديناميكي، وهذا البخار يرتفع مرة أخرى بفعل الرياح ليستمر تكوين السحاب، وهكذا يتكرر هذه الدورة مرات ومرات، ينشأ السحاب الثقال الذي يسبب المطر من هذا البخار الذى تثيره حركة الرياح الدائمة، ففي كل مرة تحدث إثارة الرياح لأسطح البحار لتصنع هذا السحاب، وتقدر كمية البخار التي تحملها الرياح من البحار سنويا بمقدار ٣٦١,٠٠٠ كم٣ كما تقدر كمية بخار الماء الذي يختزنه الغلاف الجوى في أي وقت بمقدار ١٣٥,٠٠٠ كم٣ سنويا.. أما كمية البخار المخزونة في البحار والمحيطات فمقدارها ١,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كم٣.

ملخص التأمل

من كان يدرى في عصر رسول الله ﷺ أن الله يرسل الرياح فتثير سحابًا أي بخار ماء عذب من مياه البحار المالحة، وأن كل ما يأتينا من ماء عذب إلى الأرض ينشأ من إثارة هذه الرياح للبحار والمحيطات المالحة عندما تنزع عنها طبقة الهواء المتشبعة ببخارها والمتزنة بدرجة محددة من التشبع، فتأتي الرياح بهواء جاف متجدد لتثير البحار كي تطلق كمًا آخر من بخار عذب يصنع السحاب، فسبحان الله رب العالمين في آياته التي فصلت من لدن حكيم عليم.

قراءة فى أبحاث



بقلم: عادل خفاجة

ستون بحثا هى حصاد هذه الندوة وقد تكلمنا فى العدد السابق عن حفل الافتتاح والكلمات التى ألقيت به وما انتهت إليه الندوة من توصيات وأشرنا إلى محاور العمل ونقدم للقارئ الكريم اليوم عرضا لبعض الأفكار التى حوتها بعض هذه الأبحاث ونبدأ ببحث:

«نظرية التدرج فى الأحكام الشرعية: المفهوم والمشروعية» للأستاذ الدكتور محمد كمال الدين إمام الأستاذ بكلية الحقوق - جامعة الإسكندرية

الذى استهل بحثه بالتأكيد على أن التدرج من أكثر المفاهيم - على الساحتين الفقهية والفكرية - التباسا، حيث جرى التعامل معه - حديثا - فى سياق تداولى لم يفصل بدقة بين التدرج، والنسخ، والتغيير والتأجيل، ولم يفصل بدقة أيضا بين التدرج بقصد التفهيم والتعليم، والتدرج فى إطار التنظيم، وليس التدرج من أجل الإعلام، والتدرج القائم على الإلزام، ولم يفصل أخيرا بين التدرج فى الخطاب والتدرج فى التطبيق والتنزيل، وهو ما أطلق عليه التدرج فى التشريع.

ويوضح المؤلف أن التدرج فى الخطاب الإلهى لم يكن قاعدة عامة فى عصر الرسالة، فإذا كانت التشريعات المتعلقة بتحريم الخمر، وتقسيم الميراث، وفريضة الجهاد والقتال جاءت متدرجة لتهيئ النفوس وتجتاز عقبة الأعراف والعادات، فإن تشريعات أخرى تتعلق بقيم الجماعة العليا جاء التحريم فيها قاطعا من أول وهلة، كما فى القتل والسرقة والزنا وأكل أموال الناس بالباطل.

ويستطرد الباحث قائلا: صحيح أن آيات التهذيب والتوحيد جاءت فى التشريع المكى، وأغلب آيات الأحكام الجزئية جاءت فى التشريع المدنى، إلا أنه ينبغى - كما يقول صبحى الصالح بحق - أن نفرق بين تأخير البيان لوقت الحاجة وبين تدرج التشريع، فقد أخر الله بيان أحكام كثيرة من حرام وحلال، وأوامر ونواه، ولكنه حين أراد بيانها أمضى حكمه فيها مرة واحدة، ولم يدع فيها للتدرج مجالاً، فالتدرج والقطع كلاهما من منهج القرآن الكريم والسُّنة النبوية فى الخطاب، وكلاهما من رحمة الله بعباده الذى يقول جلّ فى علاه:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾
[البقرة: ١٨٥]

ويشير الباحث إلى أن التدرج ارتبط فى مرحلة الوحى بفكرة النسخ، ومعظمه وقع فى المدينة لمقاصد أشار إليها الإمام الشاطبى..

ومكمن الخطأ والخطر فيما يقول «طه محمود طه»: أنه شريعة جديدة وصل إليها بالتفكير المحض، الذى أخلى من مسالكه كل أحكام الشريعة، وكل قواعد القرآن فى الفهم والتفسير والتأويل، ليقدم لنا مفاهيمه الذاتية، باعتبارها إسلاما ينبغى أن تدين الله به، وفهما نهائيا لشريعة الإسلام. فى محاولة منه لإيجاد «ميتافيزيقا» فكرية هى من شطحات الفكر، وغلو العداء لأحكام الإسلام، فهل من دليل واحد عنده على أن الآيات المكية هى الأصل والآيات المدنية هى الفرع؟ وهل من دليل واحد عنده أو عند شيعته على أن النسخ يبقى بعد عصر الرسول؟ وهل من دليل واحد عنده أو عند شيعته على أن الإنسان هو الذى يصنع جميع الأحكام حسب مصالحه وهواه؟ أسئلة كثيرة يفرضها العقل المسلم بل العقل السليم وليس لها من إجابات فى منظومة التدرج الممنوع عند «محمود طه» أو غيره.

إن التدرج الذى أعطته الشريعة صفة المشروعية هو ما أشار إليه «المودودى» فى كتابه «تنفيذ القانون الإسلامى» حيث يقول: إذا كنا نريد حقاً أن يحالفنا التوفيق فى إلباس هذه الفكرة حلة العمل والتنفيذ لا ينبغى أن نغفل عن قاعدة للفطرة لا تقبل التغيير، هى أنه لا يحدث الانقلاب فى الحياة الاجتماعية إلا بالتدرج،... ولابد لكل نظام راكز المبادئ والأصول أن يجرى تغييراً فى كل جهة من



د. محمد كمال الدين

جهات الحياة، وناحية من نواحيها باتزان تام، حتى تساند كل ناحية منه نواحيها الأخرى.

وفى هذا السياق «ليس من حرج على المسلمين - كما يقول «عبد المجيد النجار» - فى أن ترد خطة شرعية تطبق فيها بعض الأحكام وترجأ أخرى، فتجرى الواقع على غير ما تقتضيه، إذا ما كان ذلك مندرجا ضمن تقدير زمنى تتكامل فيه الشريعة لتبلغ أجلا تتم فيه، وتبسط سلطانها على الواقع كله، فذلك إجراء اجتهادى يقره الدين، وتقره المصلحة العملية فهذه الخطة من باب أنه لبلوغ الكل لابد من البدء بالجزء، فهى لا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، بل تؤمن بالإسلام كله ولكنها تحاول أن تطبق منه ما تيسر، بدءا بما توافرت شروط تطبيقه، ثم تتدرج إلى ما سواه مما تتوافر شروطه تباعا، فيتم بذلك التدرج الزمنى للشريعة كما يراد تطبيقها فى الواقع الراهن للمسلمين، وهو عنصر من عناصر التكامل فى بناء الشريعة كمنهج تقتضيه معطيات هذا الواقع لتطبيق الشريعة.

***

أما الأستاذ الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي الأستاذ بكلية الشريعة - جامعة دمشق فقد جاء بحثه عن نظرية الضرورة وتطبيقاتها.

ويتلخص هذا البحث في أن بعض المفتين وبعض الناس العاديين يتعلقون بمظلة الضرورة أو الحاجة أو الأخذ بالسماحة ودفع الحرج في الإسلام، فيأخذون ببعض الأحكام الاستثنائية أو الرخص الشرعية حتى لكأن الاستثناء صار هو الأصل، والأصل صار هو الاستثناء، وهذا قلب للمعايير ونسف لأحكام الشريعة العامة، وتصيد للحيلة، سواء أكانت مشروعة أم ممنوعة.

فليس كل من ادعى الضرورة يغتفر له العمل بها، لعدم انطباق معايير الضرورة أو الحاجة العامة أو ضوابطها على المسألة المعروضة.

وليس الترغيب في الشريعة هو الأصل، فقد ينقلب الأمر، ويصبح التهاون ذريعة للتحلل من أحكام الشريعة، وحينئذ يريد منا أصحاب المصالح أن نفتيهم بأهوائهم.

ويحذر المؤلف من الوقوع في هذا المنزلق الخطير بقوله:

فليتق الله تعالى أهل الفتوى الوالغون بالأخذ بالقواعد العامة وترك تفاصيل الأحكام الشرعية المنصوص عليها صراحة. أما التأويل وذريعة التيسير فأغلب الحالات غير مقبول فيها التهاون أو الترخيص.

فالضرورة: هي ما يترتب على مخالفتها خطر أو احتمال الوقوع في الهلكة.

والحاجة العامة قريبة الشبه بالضرورة وهي التي يترتب على الاستجابة لها الوقوع في الحرج والمشقة أو العسر والصعوبة.

والمصلحة المرعية: هي المنفعة التي تكون من



د. وهبه الزحيلي

جنس المصالح التي بنى الشرع الحكم عليها من حفظ الدين والنفس والعقل والنسب أو العرض والمال.

إننا حريصون على مراعاة ظروف المضطرين في أساسيات الحياة من المطعم والمشرب، والملبس، والكسوة، ولكن ضمن معايير الشريعة ودون تفلت منها.

ويترتب على وجود الضرورة أو الحاجة إذا توافر مفهوم كل منها بدقة هو رفع الإثم عن المضطر، ومنح المضطر أو المحتاج العمل ببعض الرخص الشرعية؛ لأن الضرورة أو الحاجة تقدر كل واحدة منهما بقدرها.

وعلى العالم التقيد مبدئياً بما يترتب على الإكراه - أحد حالات الضرورة - من الأحكام الأربعة المذكورة في البحث. وللإكراه أحد حالات الضرورة - ظروف خاصة وأحكام يجب التقيد بها:

وكذلك للمشقة أثر في تيسير الأحكام ضمن ضوابط وقواعد، وفقه الموازنات بالتعبير الحديث ثم الترجيح، هو ما أبانه علماء أصول الفقه من بيان قواعد التعارض وأساليب

الترجيح بينها، وعلى المفتي المرجح التزام القواعد الشرعية، والاستنارة بمقاصد الشريعة، لا التفلت من أحكام النصوص، قطعية كانت أم ظنية، فلكل اتجاه قواعد وضوابط.

والعسر (وهو مشقة تجنب الشيء) وعموم البلوى (وهو شيوع البلاء بحيث يصعب على المرء التخلص أو الابتعاد عنه) كلاهما من أسباب التخفيف، ويحكم ذلك قواعد الضرورة القصوى سواء في العبادات أو المعاملات.

ويقدم الباحث شاهده من القرآن والسنة ليثبت أن الضرورة أو الحاجة تقدر بقدرها، مما دلت عليه نصوص الشريعة من مشروعية الأخذ بالضرورات في الغذاء والدواء ونحوهما، ومنها:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾

البقرة: [١٧٣]

وتراعى المصالح العامة في ضوء مقاصد الشريعة المعروفة، ومعيار المصلحة بتقدير الشرع، لا بحسب الأهواء أو عقول بعض الناس، لقوله تعالى:

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

المؤمنون: ٧١

وللإكراه الملجئ - أحد حالات الضرورة - أحكامه من إباحة الفعل مؤقتاً، كتناول الخمر، أو الترخيص من غير إباحة، كالنطق بالكفر، لقوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

النحل: [١٠٦]

وقد تتوقف الإباحة على إذن صاحب الحق كإتلاف المال.

وقد لا يباح الشيء أصلاً كالقتل والجرح وارتكاب الفاحشة، والإضراب عن الطعام حتى الموت.

***

وننتقل من نظرية الضرورة إلى بحث تأصيل منهج النظريات للشيخ أفلح بن أحمد الخليلي الذي يستهل بحثه بقوله: من الحكم التي تذكر عن المناطقة «أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، والظاهر أن نسبة هذه الحكمة إلى المناطقة تهميش لدور غيرهم من أرباب العلوم الأخرى فهذه حكمة فطرية تعد من بدهيات العلوم، وقد أكدها الشرع بصور متعددة ليس هذا موضع ذكرها، ولهذا فإنه قبل الحديث عن النظريات لا بد من تقريب صورتها للقارئ الكريم.

ويسرد الباحث عددا من تعريفات المدلول الاصطلاحي للنظريات

منها تعريف الدكتور وهبة الزحيلي بأنها: «المفهوم العام الذي يؤلف نظاماً حقوقياً موضوعياً تنطوي تحته جزئيات موزعة على أبواب الفقه المختلفة.

ومنها تعريف الدكتور مصطفى الزرقا الذي يقول: «نريد من النظريات الفقهية الأساسية تلك الدساتير والمفاهيم الكبرى، التي يؤلف كلٌ منها على حدة نظاماً حقوقياً موضوعياً منبثاً في الفقه الإسلامي، كانبثاث الجملة العصبيّة في نواحي الجسم الإنساني، وتحكُم عناصر ذلك النظام في كل ما يتصل بموضوعه من شعب الأحكام».

وفي معرض حديثه عن نشأة النظريات يسوق

الباحث عبارة شهيرة مفادها أن العالم الإسلامي لم يدرك ولم يفطن للنظريات إلا بعدما لقط فتاتا من الموائد الغربية، لكن الباحث يكر على هذه القولة - وإن لم يهدمها فقد هز أركانها - حيث وجد اللبنات الأولى لمثل هذه النظريات، في كتاب «الأموال» للإمام أبي عبيدة القاسم بن سلام الذي جمع شتات مسائل الأموال من أبواب متعددة، فيه بدايات تطبيقية لا نظرية فحسب، ويشير أيضا إلى كتاب العلامة الكبير ابن بركة «التعارف»، وهو على صغر حجمه يشتمل على جملة كبيرة من الفوائد الجمة، وقد شكل الكتاب اللبنات الأولى لنظرية العرف، وبعد مدة من الزمن جمع العلامة ابن السبكي والحافظ السيوطي في أشباههما جملة من القواعد المهمة المتعلقة بالعقود وبعض القضايا الكلية التي يمكن أن تبرز جانبا من الظهور الأولى للنظريات.

ويخلص الباحث من كل ذلك إلى أننا لا يمكننا أن نغض الطرف عن جهود جبارة قدمها فقهاء كبار عبر عصورهم المختلفة، وإن كانت مختلفة بعض الشيء في أسلوبها، لكنها أصلب المكونات لبناء النظريات، ودورها أكبر مما جناه المسلمون من غيرهم في الحقيقة والمضمون بغض النظر عن المظاهر.

وينتهي الباحث إلى أن النظريات تعد رافدا علميا مهما؛ فهي تسقي بسلسبيل مائها الفقيه نفسه؛ لأنه يتسنى له نقد جهده بها، كما يرتوي منها طالب العلم بالنهل من معينها بتسهيلها له تلك المعارف، وهي تخدم علوم المقاصد والقواعد والفروق، وتلك العلوم ترد الجميل بمثله، وبذلك تندفع عجلة العلم إلى الأمام، بل يمكن أن توجه إلى غير المسلم لتوضح له المثل الإسلامية العامة، فتكون أمثال هذه النظريات وسيلة دعوة إلى الله


الشيخ أفلح بن أحمد الخليلي

تعالى. من أجل ذلك أنهى بحثه بأهمية التوصية على العناية بالنظريات، والعمل بجد في تشييد النظريات حتى تحقق مطلوبها.



أما بحث الاجتهاد الإجرائي في الفقه الإسلامي للأستاذ الدكتور أحمد هندي أستاذ قانون المرافعات وعميد كلية الحقوق جامعة الإسكندرية فقد ذهب فيه إلى أن الفقه الإجرائي الإسلامي عالج أهم الأفكار التي تحكم عملية حصول صاحب الحق على حقه من القضاء، ونظم كيفية التقاضي وسلطات القاضي وشروطه وكيفية فصله في النزاع، كما عالج الدعوى والحكم والطعن والتنفيذ، وأرسى المبادئ الإجرائية المهمة، مثل مبدأ المساواة أمام القضاء، وكفالة حق الدفاع ومبدأ المواجهة، ومدى حكم القاضي بعلمه الشخصي. كما نظم حجية الحكم القضائي وتسجيله وتنفيذه، بالإضافة إلى التحكيم. ولم يكتف بتنظيم هذه الأفكار وإجراءات التقاضي، وإنما عالج كذلك عملية الإثبات أمام القضاء بجانب معالجته للجرائم أو العقوبة والسياسة الشرعية.

وأن هذا التراث الإجرائي المهم الذي تركه الفقهاء المسلمون يعتبر رصيدا مهما للفقه الإجرائي الحديث، فقد استفاد منه الفقه الغربي، واستعان به واضعو تقنين نابليون، فنقلوا عن المسلمين هذه الأفكار الإجرائية المهمة، ونقلوا عنهم كذلك نظرية الظروف الطارئة ونظرية التعسف في استعمال الحق، حيث تأثر واضعو القانون الفرنسي بالمذهب المالكي. وللفقه الإجرائي الحديث أن يستفيد من هذه الثروة المهمة التي تركها الفقهاء المسلمون ويضيف إليها ويجدد فيها على ضوء مبادئ الأمة الإسلامية، وبما لا يخالف الثوابت من الشريعة الإسلامية. ولعل ما يزيد من أهمية الفقه الإسلامي الحديث - والفقه القانوني - أن مجال الاجتهاد في المسائل الإجرائية واسع؛ لأن أغلب الأحكام الإجرائية ظنية وأمور عديدة لا نص فيها، وأن أغلب اجتهادات الفقه الحديث حتى الوضعي - لا تخالف هذه الثوابت في شيء.



وتختتم هذه الجولة بين أبحاث تلك الندوة القيمة ببحث: الذرائع فتحا وسدا مساهمة في علم اجتماع الفقه الذي قدمه الأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم أستاذ العلوم السياسية بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية (القاهرة).

وقد تناول البحث عددا من النقاط المهمة فألقى الضوء على نشأة قاعدة «الذرائع فتحا وسدا» وأوضح أن أول السوابق البحثية الجادة في هذا الموضوع هو ما كتبه الشيخ أبو زهرة عن أئمة الفقه وهم: أبو حنيفة، ومالك، وابن حنبل، والشافعي، وابن تيمية، وابن حزم، وزيد، والصادق


د. أحمد هندي

وثاني السوابق هو كتاب وائل حلاق عن «تاريخ النظريات الفقهية في الإسلام: مقدمة في أصول الفقه السني»

وأن ثالث السوابق، وهو الأحدث والأهم من منظور الدرس الاجتماعي، هو ما قدمه على محمد حاضري تحت عنوان «الفقه وعلم الاجتماع: دراسة في الروابط والصلات»

ويتساءل الباحث: لماذا تبدو «الأمثال الشارحة» المضروبة في أغلب كتب الفقه وأصوله هزيلة؛ قياسا على قوة القواعد والنظريات التي ترد تلك الأمثال في سياق شرحها، وتقريب معانيها؟.

وفي نقد لاذع لهذا التشبث بالأمثال القديمة يقول: وفي ذرائع المعاملات الاقتصادية نجد باستمرار أمثال: حفر بئر في طريق المسلمين، وجميع بيوع الآجال التي يمثلون لها إلى اليوم «بحمار ربيعة» كما عند المالكية، وبيع السلاح في زمن الفتن، وبيوع الغرر التي يمثلون لها إلى اليوم: بيع السمك في الماء، والطير في الهواء، وبيع المرء ما في كمه، وبيع «عسب الفحل» وشاة من قطيع، وما درى معاصرونا أن «الهاتف النقال» قد أزاح أكثر من ثلاثة أرباع الحاجة إلى «فقه بيوع

القرر»؛ حيث خففت الاتصالات الحديثة وسهولتها احتمالات «الجهالة» وما يترتب عليها من «ضرر».

ولعل أفضل ما حواه هذا البحث هو ما جاء في شأن فتاوى مظاهرات الربيع العربي حيث عرض عددا من الفتاوى تتعلق بأحداث الساعة منها فتوى الشيخ عبد العزيز الراجحي:

السؤال: ما رأيكم فيمن يجوّز المظاهرات للضغط على ولي الأمر حتى يستجيب له؟.
الجواب: المظاهرات هذه ليست من أعمال المسلمين، هذه دخيلة، ما كانت معروفة إلا من الدول الغربية الكافرة.

وأوضح أن تلك الفتاوى التي تمنع المظاهرات والاحتجاجات السلمية إنما تستند إلى قاعدة «سد الذرائع» خشية وقوع ما أشار إليه المفتون من مفاسد. أما الأضرار والمظالم التي يئن منها الناس فعلاجها هو «الصبر». وعندما يرد الحديث عما هو واقع من المفاسد وليس «المتوقع» يأتي رد أولئك المفتين باستدعاء تراث «السياسة الشرعية»، مع تكثيف التركيز على ما فيه من وصايا «الصبر» على الحاكم مهما كان ظلمه وفسقه وفجوره؛ «حتى يستريح برٌ، أو يستراح من فاجر». ثم يصف هذا المشهد «الإفتائي» في مجمله بأنه مشهد «سوريالي» فحجج كل فريق منقوضة عند الفريق الآخر، لا حجر منها يبقى على حجر.

وفي النهاية يشير الباحث إلى غياب الفتاوى بشأن «ذرائع» قوانين الطوارئ العربية.

حيث لاحظ أن «قوانين الطوارئ العربية» لم تحظ بعناية أي مرجع إفتائي؛ لا مجمع فقهي، ولا مفت مفرد؛ لكي يبحثها وفق قاعدة «سد الذرائع وفتحها» وغيرها من القواعد الأصولية


د. إبراهيم البيومي غانم

ذات الصلة برعاية «المصلحة» و«دفع الضرر».

وأثبت في هذا الشأن ثلاثة أسباب تدعو المجامع الفقهية وعلماء الفقه وأصوله بصفة عامة إلى البحث في قوانين الطوارئ وإعلان الرأي الشرعي فيها:

السببُ الأولُ هو دخول هذه القوانين بأكملها تحت قاعدة «سد الذرائع» وغيرها من القواعد الأصولية الخاصة برعاية المصالح

والثاني هو أن الفكرة الأساسية لهذه القوانين متجذرة في كتب «السياسة الشرعية».

وقد احتاط لهذا القول بأنه مجرد «افتراض» منه؛ وهو بحاجة إلى «أصولي نابه» يقوم بالتثبت من صحته.

والسببُ الثالثُ هو أن تأثيرات هذه القوانين أسهمت في تشكيل مسارات ووقائع التغير الاجتماعي والسياسي في عديد من المجتمعات العربية خلال نصف القرن الأخير، ومن ثم فإن دراسة الآثار والنتائج التي ترتبت عليها دراسة أصولية ستساعدنا في سد النقص الحاصل في دراسات «علم اجتماع الفقه».

يتبع

بين المجلة والقارئ


ا. أحمد السيد تقي الدين

لنكن.. مظلة.. لليتيم

من الأستاذ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار- مدير عام تنظيم وإدارة «سابقًا»- سندنهور- قليوبية كانت هذه الكلمة

يجب علينا أن نكون شجرة وارفة يستظل بها اليتيم ويتحتم علينا تكريم اليتامى أبناء شهداء الثورة ومعهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم وأولياءهم لأسباب قهرية أخرى مثل شهداء حوادث الطرق وما أكثرها في بلدنا.. وغيرهم ممن هم في عداد اليتامى من مجهولي النسب فلنحرص على احتضانهم وتأمين مستقبلهم وهي مسئولية تقع على المجتمع كله حيث يقول سبحانه:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

(البقرة - ٢٢٠)

فالخلط في الآية مقصود به اندماج اليتيم في أسرة ترعاه وتكفله خير له من أن تتركه نهبًا لعزلة قد تورثه عقدًا نفسية تعكر عليه صفو حياته وتصده عن الطريق المستقيم بالنفور من الناس وتجنبهم بينما الهدف هو اكتساب خبرات التعامل مع الآخرين والاندماج مع من يعايشونه.. ويؤكد هذا ما رأيناه في حياة المصطفى (ﷺ) وأسلوبه في تربية المجتمع الصحابي وتوجيهاته في رعاية اليتيم ويقول عليه السلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا.. وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى» (رواه البخاري).. ويحكي لنا أبو هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً شكا إلى النبي (ﷺ) قسوة قلبه فقال له: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين».. (الإمام أحمد).

ومن مظاهر حرصه (ﷺ) على رعاية اليتيم حيث كان عبدالله بن جعفر بن أبي طالب طفلا صغيرًا إلا أنه يحكي لنا فيقول: أحفظ عن رسول الله أنه حين دخل على أمي ونعى إليها استشهاد أبي وأنا أنظر إليه وهو يمسح بيده على رأسي وعيناه تهرقان بالدموع تقطر على لحيته، ثم قال: يا أسماء ألا أبشرك.. قالت: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمي قال: إن الله قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة.. قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فأعلم الناس بذلك.. فأخذ بيدي حتى لاقى المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى ثم نزل فدخل بيته وأدخلني معه وأمر بطعام فصنع لأهلي وأرسل إلى أخي

فتغدينا معه غذاء طيبًا مباركًا وأقمنا معه ثلاثة أيام ندور معه كلما صار في بيوت نسائه.. ثم رجعنا إلى بيتنا.. وهذا منهج طيب يجب أن نتوخاه وقد سبقنا إليه أصحابه.. وتلك هي مسئولية الدولة في احتضان أفراد تدخرهم لمستقبل الأمة إذا هي أحسنت إليهم وبسطت عليهم ثوب رعايتها ليس هذا فحسب فإن رعاية اليتيم كانت أبعد مدى عند رسول الله (ﷺ) حيث يقول أنس رضي الله عنه: «قدم رسول الله إلى المدينة المنورة وليس له خادم فانطلق بي «أبو طلحة» إلى النبي لأكون في خدمته.. قال: فخدمته في السفر والحضر ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا.. ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا..» (البخاري)..

وهكذا نشأ أنس اليتيم في تلك التربة الصالحة رجلاً قويًا وكان مقاتلاً يجيد الرمي وقد نشأ أبناؤه مثله كذلك.

وهكذا تتم مواهب اليتيم الذاتية في التربة الصالحة الطيبة وإذا كان هذا هو حرص الإسلام على مصلحة من فقد أحد أبويه فإنه أيضا يحرص على مجهول النسب «اللقيط» إذ يعيشون في رعاية المسلمين إخوة لهم.. وقد كان عمر رضي الله عنه إذا أتي باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقا يأخذه وليه كل شهر.. وكان يوصي بهم خيرا ويجعل ارضاءهم ونفقتهم في بيت المال.

ولذلك نرى «أبا بكرة» نفيع بن الحارث «وهو من رواة الحديث» يعلن جهالة نسبه وقال كما روى الطبري: «أنا من لا يعرف أبوه.. فأنا أخوكم في الدين ومولاكم».. وبهذا كانت مبادئ الإسلام تحكم هذا المجتمع فجاءت بأطيب الثمار إلى حد أن وجد مجهول النسب في ظلها نفسه وحقق ذاته بفضل حسن رعاية التربوي العظيم محمد (ﷺ) ومبادئ دينه الحنيف.

والله يتولى الصالحين

النصوص القرآنية بين المعاني والدلالات

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ ـ محمد عباس محمد عرابي:

نصوص القرآن الكريم دقيقة في صياغتها، جليلة في معانيها، مترابطة في أهدافها ومراميها، متينة في أدائها، قوية في تأثيرها، غنية في دلالاتها ومعانيها، ساحرة في صورها وظلالها.

والناظر المتأمل في تلك النصوص لا يرى فيها عوجًا ولا أمتا، ولا مبالغة ولا عبثا، ولا زيادة ولا إطنابا، فكل آية أصيلة في مكانها، وكل كلمة محكمة في نسجها وبنائها، وكل حرف أخذ موضعه الذي لا يناسب غيره.

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبّروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول وأرق تعبير وأجمله، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة، والإيقاع والظلال والجو.. ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن بحيث لا يغني

لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال ويبلغ ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد.

وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات.. وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها بحيث يُستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا الموضع! وهي ظاهرة قرآنية لا تحتاج منا أكثر من الإشارة إليها.

لكل مقام مقال

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ عاصم سيد -المحامي- محكم بكلية الحقوق جامعة عين شمس:

بينما نحن نتلقى درسا من دروس العلم إذ سمعنا ثرثرة من أحدنا؛ حتى وصل همسها لشيخنا وهو يشرح لنا ما يرشدنا في حياتنا.. حينئذ أوشك المعلم أن ينزل به عقابا أمامنا، ولكن بحكمة وتريث منه أراد أن يقومه بطريقة أخرى وهو يعلم مقدار قوام تحصيله للدروس، فطلب منه أن يبتهل لنا ابتهالا يدعو للرجاء والتوسل إلى الله عز وجل على نهج الآية الكريمة قال تعالى:

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

(سورة الإسراء الآية ٥٧)

وإذا به يتنحنح ثم ينشد نشيدا بعيدا كل البعد وينشد ما يدعو للفرح والسعادة فرده الشيخ وقال له: يا هذا لكل مقام مقال ولكل مقال مقام ثم سمح الشيخ له بالجلوس.

واسترسل الشيخ في هذا المقام حيث وجهنا أن نحسن اختيار ما نقول ونتحين الوقت المناسب لإلقاء ذلك لاسيما وأن كلمة مقال وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بمعان مختلفة وشرح لنا معنى كل منها على حدة كما في قول الله تعالى:

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

(البقرة ١٢٥)

وقال تعالى:

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

(الدخان: ٢٦)

وقال تعالى:

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

(الفرقان: ٧٦)

وقال تعالى:

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾

(الأحزاب: ١٣)

وقال تعالى:

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾
(الصافات : ١٦٤)

وقال تعالى:

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾
(النمل : ٣٩)

وغيرها الكثير من الآيات التى لا يسع وقت مقامنا أن نذكره.

فبعد ما انتهينا من الدرس تفتق ذهن نفس الطالب، واستأذن فى استفسار مع طرح اقتراح، فسمح شيخنا له فقال الطالب: بما أن مقام آيات الله ذات منزلة عليا لا يضاهيها منزلة أخرى فلماذا تحمل مقامات التلاوة نفس أسماء مقامات اللهو الغناء؟ لذلك اقترح أنه لابد أن تكون هناك مسميات أخرى تميز المقامات التى تستخدم فى تلاوة القرآن الكريم لاسيما أن تعلم المقامات يأتى أساسا على السمع فى المقام الأول ويأتى بعد ذلك المسمى أليس كذلك؟ فتوقف عقلنا جميعاً عن التفكير وظللنا برهة فى تمعن من كلامه ثم بادر الشيخ وتحدث واتفق مع كلام تلميذه قائلا: سوف أعرض اقتراحك هذا وأيده بالفعل وقال أيضا: سيدنا داود كان يسبح الله بصوت جميل حتى أطلق على تسابيحه مزامير داود ولذا قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾
(سبأ : ١٠)

وقال تعالى:

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾
(سورة الأنبياء : ٧٩)

مما دفع جمال صوته الطير أن تسبح معه والجبال أيضا دون أن يتعلم فن أية مقامات.. فهذا هو العلم اللدنى الذى لا يضاهيه علم ولهذا لما مر النبى (ﷺ) على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود.

وقال النبى (ﷺ) يوما لعبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: اقرأ علىّ، فقال: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فاستفتح سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾
(سورة النساء : ٤١)

قال: حسبك الآن، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله (ﷺ) تذرفان من البكاء.. لذلك نصحنا شيخنا بكثرة سماع الرعيل الأول من مشاهير القراء وأن كثيرا منهم لم يتعلموا المقامات بل ميزهم وحباهم الله بالصوت الجميل وحسن الأداء ولا يأتى ذلك إلا بتدبر الآيات بإخلاص ليأتى معها الخشوع والإحساس بتعمق فيما تتلوا من آيات حينئذ نجد أنفسنا ينطلق لساننا بأعذب وأفضل قراءة بطريقة لا إرادية يحرك المولى لساننا كيفما يشاء دون أن تدرى كيف ولماذا قرأنا هذه الآية هكذا، وهذا ما نراه كثيراً من

بعضنا خاصة فى صلاة الفجر.

حينئذ شعر زميلنا بالاطمئنان والسكينة تجاه شيخنا مما دفعه أن يقترح عليه مسميات لمقامات إسلامية تليق بمنزلة القرآن عند إطلاقها لكى تليق بمنزلة القرآن الكريم المكنون وأثناء كل هذا شت ذهنى بعيدا حيث اشتقت أن أسمع صوت سيدنا داود وكيف كان يقرأ فى الزبور باليتنى كنت فى عصر الصحابة وأرى وأسمع سيدنا عبدالله بن مسعود وهو يتلو القرآن على رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وتنبهت على ختم شيخنا الدرس بالدعاء لنا ولكافة المسلمين وقول زملائى «آمين» حيث قال أسوة بدعوة سيدنا يوسف حينما قال تعالى:

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾
(سورة يوسف : ١٠١)

فى حدود الأدب

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ إبراهيم أحمد محمد جاد الكريم ـ واعظ بالأزهر ـ فرشوط ـ قنا:

أدب الدين يرتقى بالإنسان إلى مراتب العز والفضيلة والكرامة فإذا تعاملنا فى حدود الأدب الإسلامى.. ما سمعنا يوما عن سرقة أو اعتداء أو قتل أو رشوة أو خيانة أو تدليس أو تزوير أو أى عمل يضر بمصلحة الناس أو يخل بالنظام العام فى أى مجتمع من المجتمعات.

فالأدب للإنسان عامة وللمسلم خاصة من أهم السمات الأخلاقية بل ومن أهم السمات البشرية الإنسانية.

فالأدب تظهر كرامة الإنسان.. وكرامة الإنسان هى التى فضل بها على غيره من المخلوقات.. يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾
(الإسراء : ٧٠)

والأدب هو اجتماع صفات الخير فى الإنسان.. والتى يتعامل بها مع غيره من الناس.

● والأدب قد يتقدم على العلم.. يقول عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: (نحن إلى القليل من الأدب أحوج إلى كثير من العلم).

● والأدب علم وعمل.. سئل الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عن أنفع الأدب فقال: (التفقه فى الدين والزهد فى الدنيا والمعرفة بما لله عليك).

● والأدب تصفية وتخلية للنفس البشرية.

قال عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: (قد أكثر الناس القول فى الأدب ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها وتجنب تلك الرعونات).

● والأدب من العبادة:

قال سهل بن عبدالله ـ رحمه الله ـ: (من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله تعالى بالإخلاص).

فعلى المسلم فى أى مكان وفى أى وقت أن

يلتزم حدود الأدب الإسلامي فبالأدب والأخلاق تستقيم الحياة.. وتتصلح الأوضاع.

يقول الشاعر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه

فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والأدب يكون مع الله تعالى ومع الرسول (ﷺ) ومع جميع الخلق.

(أ) الأدب مع الله تعالى: يقول عنه ابن القيم -رحمه الله-.

(ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله تعالى إلا بثلاثة أشياء:

معرفة أسمائه وصفاته - ومعرفة دينه وشرعه وما يحب وما يكره - ونفس مستعدة قابلة لينة مهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا).

(ب) الأدب مع الرسول (ﷺ): وهذا يتمثل في توقيره وتفضيله وتعظيمه.. والعمل بسنته والسير على خطاه وكثرة الصلاة والسلام عليه.

(ج) الأدب مع الخلق: وهذا يتمثل في تجسيد الأخلاق في المعاملة مع الناس جميعا.. أخرج الترمذي عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله (ﷺ) قال: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

والله من وراء القصد

الغرب والإسلام

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ أحمد علي الأمير - وكيل وزارة الأوقاف الأسبق محافظة قنا:

رسالات السماء كلها دعوة للخير والبر والمعروف والحب والإخاء والتعاون.

ورسالات السماء كلها تنهى عن الفحشاء والمنكر والقسوة والغلظة، والعدوان وسفك الدماء وتنهى عن الكذب والتباهي بالقوة لإرهاب الناس وظلمهم والاعتداء على مواردهم والسيطرة على توجهاتهم وصدق الله حين يقول في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) رسالات السماء كلها دعوة للفضيلة ومكارم الأخلاق والبعد عن الكذب والنفاق، والبعد عن العري والفجور وكشف العورات وتتبع العثرات

ومن طريف ما قرأت: مر الأوزاعي يوما وهو إمام وفقيه أهل الشام في القرن الثاني الهجري وكان عالما فقيها زاهدا يجهر بكلمة الحق ويقف في وجه الحكام ولا يخشى في الله لومة لائم، توفي سنة ١٧٥ هجرية ببيروت ودفن بها وأخذ العلم من فقهاء الشام ومصر والعراق ومكة والمدينة وشهد له العلماء بالاجتهاد المطلق.

مر بالسوق يوما فرأى حانوتا يبيع العسل وبجواره حانوت آخر يبيع البصل، فسمع صاحب حانوت البصل يقول (أحلى من العسل يا بصل) فغضب الإمام الفقيه وقال: سبحان الله ألا يظن هذا أنه يكذب؟ هكذا كان الإحساس بجريمة الكذب مع أنه

مجرد إعلان لترويج سلعة لم ولن يغير الحقيقة ولن يضيع معه حق لأحد - لكنه كره ذلك وأنكره.

لكننا نجد اليوم الذين يدعون الرقي والتقدم. ويدعون أنهم أصحاب مبادئ وحضارات. وينصبون من أنفسهم حماة للفضيلة والحق. ويدافعون عن حقوق الإنسان في المشارق والمغارب يكذبون بالقول والفعل وتصدقهم الدنيا. إنهم يريدون أن يفرضوا الوصاية على الدنيا كلها وفي مقدمة هذه الدول أمريكا ونسيت أمريكا: أن حضارتها قامت وتقوم على إبادة الشعوب وسفك الدماء وطمس الحضارات. ونسيت أمريكا: أنها أول دولة اعتمدت سياسة العنصرية فهي حتى اليوم تحتقر اللون الأسود من البشر فلا يتساوى عندها الأبيض مع الأسود فحرب الأجناس والألوان عندهم أشدها فأين هم من حضارة الإسلام؟ رسولنا ﷺ يقول عن سلمان الفارسي (سلمان منا آل البيت) ومؤذن رسول الله طوال حياته للصلاة هو بلال الحبشي، وصهيب الرومي حين هاجر من مكة إلى المدينة استقبله رسول الله بالبشر والترحاب قائلا (ربح البيع أبا يحيى) وعمر بن الخطاب حين طعن وأيقن أنه ملاق ربه لا محالة أوصى أن يصلي عليه صهيب الرومي.

ونسيت أمريكا: أنها أبادت ثلاثة ملايين في حربها مع فيتنام وسممت الأرض وأهلكت الحرث والنسل.

ونسيت أمريكا: أنها باعت دولة فلسطين لليهود ليقيموا عليها دولتهم فكانت سببا في تشريد سبعة ملايين لاجيء هدمت قراهم ومساجدهم لتمكن لإسرائيل في المنطقة.

ونسيت أمريكا: أنها أضاعت دولة العراق باغتيال رئيسها وتدمير دولتها وتفجير الفتن الطائفية بها وتجني العراق أشواكها حتى اليوم وكانت سببا في تشريد عشرة ملايين من العراق وتحويلهم إلى شهداء ويتامى وأرامل وثكلى ولاجئين ونسيت أنها ساعدت إسرائيل في حربها على غزة في ديسمبر ويناير سنة ٢٠٠٩ وكانت حصيلة هذا العدوان ١٣٠٠ شهيد، ٤٥٠٠ جريح ومصاب معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، وتدمير ٢٢ ألف مبنى. (مدارس ومعاهد ومستشفيات ومساجد وكنائس)

وكانت النتيجة خمسين ألف مواطن بلا سكن ولا مأوى ونسيت أمريكا أنها أنفقت وتنفق المليارات على جمعيات حقوق الإنسان والنشطاء الحقوقيين ليكونوا معاول هدم وتخريب وتحريض ونشر الفتن والمؤامرات في الدول العربية والإسلامية بالذات. أمريكا التي تحدثت الدنيا عن سجونها السرية والمعتقلات اللا إنسانية التي تمارس فيها أشد أنواع التعذيب.

هل يجوز لها بعد ذلك: أن تتحدث عن حقوق الإنسان أو عن الحرية والديمقراطية. أنها الديمقراطية الزائفة التي تنادي بها من خلال الثورات على الحكام لتصل إلى الفوضى الخلاقة التي تنادي بها وتريدها في العالم العربي والإسلامي (الفوضى الخلاقة).

كذبا تقول وجرائم تفعل وفتنا تنشر

لتمزيق الدول وتقسيمها إلى دويلات صغيرة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ـ وما فعلته فى السودان خير شاهد وما تفعله فى أفغانستان والصومال ليس ببعيد عنا. ويغفل الشباب الثائر أن ديمقراطية أمريكا تبيح أن يتزوج الرجال بالرجال والنساء بالنساء.

إنها ديمقراطية بهائم تريدها للعالم بهذا المفهوم؛ إنها بهذا المفهوم حرب على الشرائع السماوية كلها. وبعدها يتهمون الإسلام بالإرهاب ـ ويشوهون تعاليم الإسلام التى جاء بها محمد لاسعاد البشرية كلها دنيا وأخرى ويصفونها بأنها سيف وقتل وجزية وحدود تقطع فيها الأيدى والأرجل.

ونحن نقول: هل فعل الإسلام بتعاليمه فى أربعة عشر قرنا ما فعلته أمريكا فى العراق الجريح؟ إن محمداً عليه السلام حين بعث رسالة لعظيم القبط فى مصر يدعوه فيها للإسلام قال له (لسنا ننهاك عن دين المسيح لكنا نأمرك به).

وما جاء به عيسى عليه السلام من حب وإخاء وتعاون ورحمة ضاع مع فجور الدول المسيحية وغطرستها فهى تبعد الدين نهائيا عن الدولة والسياسة وترفع هذا الشعار (دع مال قيصر لقيصر وما لله لله) إنه الإسلام المظلوم من هؤلاء وأولئك.

إن الإسلام الذى جاء به محمد عليه السلام هو الحب هو الإخاء هو التعاون هو نصرة الضعيف هو الحرية هو العدالة هو الديمقراطية الحقة هو دستور الخالق لإصلاح الخلق والتاريخ خير شاهد.

والوثيقة التى أعطاها محمد عليه السلام لنصارى نجران نجد فيها الحقة والعدل نجد فيها حقوق المواطنة فى حرية العقيدة وفى الحقوق المدنية حين قررت أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا وأن لا إكراه فى الدين.

والديمقراطية الحقيقية التى نريدها اليوم تتمثل فى العودة لتعاليم الإسلام الراشدة لا نستورد دستوراً من أحد ولا نطلب أسلوب حياة ومنهج سلوك من الغير؛ لأن الإسلام يأخذ الحق ويعطى الحق ويدعم الشورى ويعمل لصالح الجماعة إنها ديمقراطية الإسلام: أمانة وشورى وعدل ومساواة وحفظ حقوق لا يبغى فيها أحد على أحد.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾

(البقرة ـ ١٣٨)

صدق الله العظيم وبلغ رسول الكريم والحمد لله رب العالمين.

***

أنبــاء الأزهــر

إعداد: عبدالموجود أمين. محمود القشنى

نشاط مكثف للأزهر فى أفريقيا:

الأزهر يدعم مشروعا لتعليم ونشر اللغة العربية فى القارة الأفريقية

بحث فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف مع الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل، مستشار الرئيس السودانى ورئيس مجلس أمناء جامعة إفريقيا العالمية بالسودان، أوجه العلاقات الثنائية، وبخاصة فى المجالات العلمية والثقافية.



حيث طلب مستشار الرئيس السودانى الحصول على دعم ومساعدة الأزهر فى وضع مشروع لتعليم اللغة العربية على مستوى القارة الإفريقية بصفة عامة، وتشاد بصفة خاصة، وذلك بعد قرار الرئيس التشادى بجعل اللغة العربية لغة رسمية لتشاد فى وقت تعانى فيه من ضعف الإمكانيات والكوادر البشرية لهذا الغرض.

وقال: إن السودان بلد سنى، ولا يقبل بغير عقيدة أهل السنة مذهبا، ولذلك تلجأ إلى الأزهر الشريف لتدعيم هذه العقيدة الوسطية؛ فوجود الأزهر فى الجامعة يجعلنا جميعا مطمئنين على مسارها السليم.

وأضاف بأن الجامعة الإفريقية العالمية قامت بتشكيل لجنة متخصصة لدراسة وثائق الأزهر؛ للاستفادة منها فى وضع تصور واضح لمستقبل السودان، لاسيما وأن ما ورد فى الوثائق لا يهم مصر وحدها إنما يهم العالم العربى كله مما سيسهم فى توجيه الربيع العربى إلى طريق الرشاد.

وذلك انطلاقًا من تقديرنا للدور الوطنى الذى يقوم به الأزهر الشريف فى هذه المرحلة الراهنة.

مركز ثقافي لتعليم اللغة العربية في تشاد

وقال فضيلة الإمام الأكبر إن الأزهر جامعًا وجامعة يمد يد العون لجميع الدول من خلال زيادة المنح الدراسية للطلاب خاصة من دول إفريقيا، وعلى استعداد للمساهمة فى إنشاء مركز ثقافى لتعليم اللغة العربية بتشاد لإعداد الكوادر المؤهلة لتدريسها بكافة المراحل الدراسية هناك وبخاصة المرحلة الابتدائية، مؤكدًا أن اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية؛ بها تحافظ الأمة على هويتها وثقافتها ووحدتها، ومكانتها بين الأمم.

وأوضح مصطفى عثمان إسماعيل، أن بعض الدول الكبرى استغلت الساحة الإفريقية فى تحقيق مصالحها الخاصة؛ وذلك بإقامة مؤتمرات ومشاريع تهدف من خلالها إلى تحقيق مصالحها وعلى سبيل المثال المؤتمر الصينى الإفريقى والمؤتمر الروسى الإفريقى، بينما الدول العربية بعيدة عن الساحة الإفريقية وهمومها.

قافلة طبية تنطلق إلى السودان

وفى السياق ذاته شهدت مشيخة الأزهر الشريف الإعلان عن انطلاق قافلة الأزهر الطبية المتجهة إلى السودان الشقيق فى مؤتمر صحفى عقد برعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، بحضور كل من: كمال الدين حسن على، سفير السودان بالقاهرة، ووفد اتحاد منظمات المجتمع السودانى، ونقيب الصيادلة، ورئيس مجلس إدارة شركة النيل للأدوية، بالإضافة إلى فريق الأطباء المسافر.



وقال فضيلة الإمام الأكبر: لقد سبق للأزهر الشريف أن أرسل قوافله الطبية وغيرها إلى بعض بلاد إفريقيا؛ مثل الصومال والنيجر، وها هو اليوم يقوم بواجب الأخوة نحو السودان الشقيق، والتى يتلوها - إن شاء الله - قوافل عديدة إلى إخواننا فى إفريقيا وآسيا.

وقد أشاد سعادة السفير السودانى بالدور العربى والإسلامى والعالمى، والاجتماعى والإنسانى الذى يقوم به الأزهر الشريف الذى يتقدم يومًا بعد يوم، حيث يتفاعل الأزهر كعادته مع هموم المسلمين فى مختلف ربوع العالم، وهذا ليس غريبًا على الأزهر الذى احتضنته أفئدة أبناء الأمة قبل أن تحويه الأماكن والأبنية، فضلاً عما تمثله هذه القافلة الطبية من تعزيز لأواصر العلاقات بين الشعب المصرى والشعب السودانى الشقيق.

وأعلن أن القافلة تضم فريقًا طبيًا رفيع المستوى من الإداريين ومن أساتذة وأطباء جامعة الأزهر فى جميع التخصصات، بالإضافة إلى أدوية ومستلزمات طبية تبلغ تسعة أطنان.

ودراسة زيادة المنح الدراسية المخصصة لجمهورية غانا

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر الحاج سعيد سينارى، سفير غانا بالقاهرة، والذى أشاد بالعلاقات التاريخية بين مصر وغانا؛ حيث كانت مصر أول دولة تسهم فى تنمية غانا بعد استقلالها بتقديم كافة الخدمات فى مختلف المجالات وكان فى طليعتها الأزهر الشريف الذى تعلم وتخرج فى رحابه آلاف الطلاب الغانيين. وصرح سيادته أن والده كان أول مبعوث غانى تعلم فى الأزهر، ومن حبه لمصر وأزهرها تزوج بمصرية؛ فكنت ثمرة هذه الزيجة المباركة التى تمثل الرباط الوثيق بين الشعبين.



ولذلك فقد ناشد سيادته الإمام الأكبر بزيادة المنح الدراسية المخصصة للطلاب الغانيين بالأزهر، وتمكينهم من الدراسة بكليات: الطب والهندسة والصيدلة، وعدم قصر دراستهم على الكليات النظرية.

وقد أبدى فضيلة الإمام الأكبر استعداد الأزهر لزيادة المنح الدراسية للطلاب الغانيين التى وصل عددهم حاليًا إلى ٢١ منحة يتحمل نفقاتها الأزهر الشريف، فضلاً عن ٧٨ طالبًا يدرسون على نفقتهم الخاصة، بمختلف المراحل الدراسية، وكذلك أبدى فضيلته حرص الأزهر الشريف على تلبية رغبات الطلاب الغانيين وغيرهم من المبعوثين، وتذليل كافة العقبات التى تقابلهم أثناء الدراسة.

تايلاند تساهم فى إنشاء مبان سكنية لطلابها بمدينة البعوث

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - الأستاذ شاليت مانيتا يكول، سفير تايلاند بالقاهرة، حيث أبلغ سيادته شكر وتقدير الحكومة التايلاندية للأزهر الشريف على ما يلقاه طلاب تايلاند وعددهم حاليا ١٦٧٠ طالبًا و ٥٥٠ طالبة، يسكن منهم فى مدينة البعوث ٣٦٥ طالبًا؛ مما حدا بالحكومة التايلاندية أن تدرس تحمل جزء من هذا العبء، وذلك عن طريق المشاركة



فى بناء بعض المبانى السكنية بمدينة البعوث الإسلامية بالأزهر الشريف ؛ وذلك لحرص الكثير من طلاب تايلاند على الدراسة فى الأزهر الشريف ؛ لما يتميز به من تأصيل علمى ، وعقيدة وسطية ، وعلماء أجلاء ؛ حتى يعودوا إلى بلادهم دعاة مستنيرين يشاركون فى نهضة بلادهم وتقدمها .

وكانت هذه المبادرة قد نوقشت فى ندوة عقدت فى العاصمة بانكوك وشارك فيها العديد من المسئولين التايلانديين ، حيث أيدت وزارة الخارجية التايلاندية الفكرة ؛ لأنها ستسهم فى حل مشاكل الطلاب التايلانديين وأهلهم الذين يسكن معظمهم فى جنوب تايلاند ؛ مما سيؤدى إلى تخفيف حدة المشاكل العرقية فى جنوب البلاد .

وقد رحب فضيلة الإمام الأكبر بهذه المبادرة ، وقدم الشكر لسيادة السفير وحكومة تايلاند ؛ لهذا العمل الذى يعتبر نموذجا يحتذى به فى التعاون ؛ مما سيكون له أثر طيب على المستوى التعليمى للطلاب .

وفى ختام اللقاء جدد سيادة السفير الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة تايلاند ؛ لما تمثله هذه الزيارة لمسلمى تايلاند من أهمية قصوى ؛ لمكانة الأزهر وإمامه الأكبر فى وجدان الشعب التايلاندى بصفة عامة ، ومسلميهم بصفة خاصة .

الإمام الأكبر يستقبل سفراء فرنسا وكوريا والجزائر ولبنان



● استقبل فضيلة الإمام الأكبر كيم يونغ سو ، سفير كوريا الجنوبية بالقاهرة ، بمناسبة تعيينه سفيرا لبلاده بالقاهرة ، حيث أشاد برقى الشعب المصرى وتحضره ، وروح الأخوة بين أبنائه التى برزت فى الانتخابات التشريعية وتأكدت فى الانتخابات الرئاسية ، والتى أبهرت كافة المحللين والمراقبين الدوليين ، الذين أثنوا على نزاهة العملية الانتخابية ، والإقبال الكثيف من الشعب المصرى على صناديق الاقتراع ، وهذا ليس بغريب على الشعب الذى يعتبر رائدا فى الحضارة الإنسانية ؛ فلا توجد أى دولة فى العالم لها علم يدرس فى المعاهد والجامعات العالية يختص بالآثار مثل مصر (Egyptology) .

وقال فضيلة الإمام الأكبر : إن الأزهر الشريف يرحب بالسفير ، ويشيد بالتقدم الاقتصادى والصناعى والاجتماعى الذى حققته كوريا فى السنوات الأخيرة ؛ بفضل إخلاص أبنائها واجتماعهم على كلمة واحدة ، وإعلاء مصلحة وطنهم فوق المصالح الشخصية والحزبية .

● وفى استقباله للسفير الفرنسى أكد فضيلة الإمام الأكبر د . أحمد الطيب - شيخ الأزهر - أنه متفائل بمستقبل مصر رغم هذا الجو المتحرك الذى تتعاقب فيه الأحداث بسرعة ، وأنه على يقين أن المولى - عز وجل - سيلهم الشعب المصرى الصواب والسداد للخروج بمصر الكنانة منتصرة قوية عزيزة ، كما أكد فضيلته قناعته الكاملة بأهمية تعددية التنوع فى مصر لا تعددية الصراع والفرقة .



ووجه فضيلة الإمام الأكبر الشكر إلى السفير على الجهود التى بذلها فى مجال إنجاز الاتفاقيات بين الأزهر والمركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، والذى أثمر عن العديد من الإنجازات فى مجال التبادل الثقافى والعلمى .

وقد استعرض الجانبان آفاق التعاون العلمى والثقافى والبحثى ، والتبادل الطلابى ؛ لتنمية المهارات والاستفادة من الخبرات ، ومن المقرر أن يسافر ثلاثة من الأزهريين العاملين بمركز اللغة العربية بالأزهر الشريف فى منحة تدريبية لمدة ثلاثة أشهر إلى فرنسا .

● واستقبل فضيلة الإمام الأكبر سعادة الأستاذ نذير العرباوى ، سفير الجزائر بالقاهرة ، بمناسبة تسلم عمله بالقاهرة ؛ حيث بحثا الأوضاع الثقافية والتعليمية فى الجزائر ومصر ، وسبل دعم التعاون .

وأشاد السفير بالدور الثقافى لمصر - وخاصة الأزهر الشريف - من خلال إتاحة الكتاب العربى والإسلامى الذى ينشر الثقافة الوسطية الهادفة ؛ مما يؤدى إلى نشر الفضيلة والقيم الأخلاقية والسلوكية الرفيعة بين مختلف قطاعات الشعب .

وقال فضيلة الإمام الأكبر : إن العلاقة بين الجزائر ومصر علاقة تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ؛ لأنها علاقة مصير مشترك بين بلدين شقيقين ، متمنيا مزيدا من العلاقات الثقافية والدينية بين مصر والجزائر .



• عبر سفير لبنان بالقاهرة السيد خالد زيادة، عن خالص شكره لفضيلة الإمام الأكبر على دور الأزهر الشريف في تلك اللحظة الفارقة من تاريخ الأمة. حيث استطاع أن يجمع الفرقاء والأحزاب والتيارات والائتلافات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في رحابه، وما انبثق عن ذلك من وثائق تاريخية حددت الملامح المستقبلية للدولة المصرية المنشودة، والتي أشاد بها العديد من قادة الدول على مستوى العالم؛ مما نأمل معه، أن يستمر هذا الدور المحوري للأزهر على مستوى أمته العربية والإسلامية، وهو حق للعرب والمسلمين على الأزهر؛ للمشاركة الفعّالة في رسم ملامح المنهج القويم للأمة في هذه اللحظات الفارقة من تاريخها.

فضيلة الإمام الأكبر يتلقى دعوة رسمية لزيارة المملكة المغربية



تلقى فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف، دعوة من صاحب الجلالة الملك محمد السادس، لزيارة المغرب، قام بتسليم الدعوة سعادة السيد/ محمد فرج الدكالي السفير المغربي بالقاهرة، وقد وعد فضيلة الإمام الأكبر بتلبيتها، في القريب العاجل ـ إن شاء الله.

الإمام الأكبر يستقبل وفدا من جماعة التبليغ والدعوة

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر - وفداً من جماعة «التبليغ والدعوة» برئاسة د. سعيد عرفة، الأستاذ بكلية التجارة جامعة القاهرة، حيث عرضوا على فضيلة الإمام الأكبر أنشطة جماعة التبليغ والدعوة داخلياً وخارجياً، وكيف أن هدف الجماعة هو دعوة كل فرد من أفراد الأمة أن يتحرك بماله ونفسه لتجديد إيمانه، ولدعوة الناس إلى طاعة الله - عزّ وجلّ - بالحكمة والموعظة الحسنة، كل قدر طاقته وجهده، وتعريف الناس بالله

- سبحانه وتعالى - لامتثال أوامره واجتناب نواهيه، على نهج النبي ﷺ.

وقد رحب فضيلة الإمام بوفد جماعة التبليغ وأبدى سعادته باستقبالهم، وأوصاهم بالثبات على طريق الدعوة، مع مراعاة فهم الواقع، وفقه الأولويات، وتجديد الخطاب الديني، والعمل على بناء الوطن والأمة.

تفعيل دور مركز الأزهر الشريف للسنة النبوية

كما ناقش مجلس مجمع البحوث الإسلامية تفعيل دور مركز الأزهر الشريف للسنة والسيرة النبوية بالمهام المنوطة به على المستوى القومي والعالمي وتم احالة الموضوع إلى لجنة السيرة والسنة للدراسات في ضوء المناقشات التي دارت بالجلسة على أن تدعو من تراهم من أعضاء المجمع ومن خارجها لهم رؤى مبتكرة تسهم في النهوض برسالة المركز مع توجيه.

الدعوة إلى فضيلة الدكتور محمد عمارة عند مناقشة الموضوع.

قناة خاصة بالقرآن الكريم

وورد الى مجمع البحوث الإسلامية الكتاب الوارد من المهندس علاء الدين محمد عيسى.. رئيس إدارة كايرو للقنوات الفضائية بشأن إنشاء قناة خاصة بالقرآن الكريم حيث قرر المجمع في جلسته المنعقدة في اخر شهر مايو ٢٠١٢ بعدم الاختصاص بهذا الموضوع.

الإساءة للرسول (ﷺ) على المواقع الإليكترونية والفيس بوك

كما بحث مجمع البحوث الإسلامية في في ذات الجلسة الكتاب الوارد من مجلس الشعب بشأن طلب الإحاطة المقدم من النائب محمود عبد النبي حول الإساءة للرسول (ﷺ) على المواقع الإليكترونية والفيس بوك وضرورة التصدي لهذه الظاهرة.

حيث أُحيط المجلس علما بالموضوع ويتم مناقشته.

منكرات لا يقرها الإسلام

ناقش مجمع البحوث الإسلامية في جلسته المنعقدة في ٣١ من شهر مايو ٢٠١٢ الكتاب الوارد من المحامية سلوى الفارسي إلى مجمع البحوث الإسلامية بشأن الإساءة إلى القرآن الكريم باستخدام بعض ألفاظه في الشعر.

وقد استعرض مجمع البحوث الإسلامية النماذج الشعرية المنسوبة للشاعر «هشام الجخ»، وتبين له أنه قد استخدم ألفاظًا وعبارات ذات مدلولات إسلامية مقدسة في معان خادشة للحياء، كما استعمل في وصف محبوبته صفات خاصة بالله عز وجل ولا ينبغي أن يوصف بها سواه.. ولهذا يرى المجمع أن ذلك من المنكرات التي لا يقرها الإسلام

الإمام الأكبر يسلم شهادات التخرج لدارسي دورة «حديثي الإسلام»



قام فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر - بتوزيع شهادات تخرج الطلاب الدارسين بدورة «حديثي الإسلام» التي نظمتها الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، والتي استمرت شهرا كاملا، لأربعة وعشرين دارسا من أمريكا والمكسيك وكولومبيا وتشيلي والأرجنتين، درسوا خلالها مبادىء الإسلام السمحة من خلال مواد العقيدة، والفقه، والسيرة، والحديث، والتاريخ والاقتصاد الإسلامي، على يد نخبة مختارة من كبار أساتذة جامعة الأزهر.

د. ممدوح حمزة: فخورون بالأزهر لأنه مصدر لقوة مصر والأمة الإسلامية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - المهندس الاستشاري د. ممدوح حمزة، في لقاء ودي تناول دور الأزهر الشريف، على الصعيد الوطني والعربي والإسلامي والعالمي، حيث عبر الدكتور ممدوح حمزة عن فخره واعتزازه بالأزهر الشريف كمصدر لقوة مصر والأمة الإسلامية.

وطرح سيادته دراسة إمكانية استخدام مبنى مشيخة الأزهر القديم كمتحف لتراث الأزهر عبر تاريخه، الأمر الذي يمثل قيمة حضارية وتاريخية ينهل منها جموع المصريين وكافة الشعوب العربية والإسلامية، والعالم أجمع.

الأزهر الشريف يطالب الإعلام بتحري الصدق والأمانة

نفى الأزهر الشريف ما نُشر بجريدة «الوطن» في العدد الصادر يوم الأربعاء الموافق ٣٠ / ٥ / ٢٠١٢م، تحت عنوان: «الأزهر يطالب مرسي وشفيق بتعهدات مكتوبة تفاديا للطائفية»، موضحا أن هذا الخبر عار عن الصحة، ولم يرسل الأزهر الشريف أي مكاتبات أو اتفاقات لمرشحي الرئاسة، والأزهر إذ يكذِّب هذا الخبر جملة وتفصيلاً يطالب جميع وسائل الإعلام بتحري الدقة والالتزام بالضوابط المهنية من الصدق والأمانة والموضوعية.

وفق الله الجميع لما فيه الخير لمصر وشعبها

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

الإعلام الدولي يشيد بنزاهة أول انتخابات رئاسية ديمقراطية في مصر

قامت الهيئة العامة للاستعلامات قطاع الإعلام الخارجي برصد ردود فعل الإعلام الدولي حيث أكد السفير إسماعيل خيرت رئيس الهيئة اهتمام كل وسائل الإعلام الأجنبية والعربية بمتابعة الانتخابات الرئاسية في مصر فقد وصفت صحيفة «وول ستريت» الأمريكية أن ما يحدث في مصر سيحولها إلي دولة ديمقراطية بعد نظام الحكم الديكتاتوري وعلى الصعيد العربي ذكرت الصحف الجزائرية أن المصريين يدهشون العالم للمرة الثالثة بعد الثورة حيث أكدت صحيفة «الخبر» أن الانتخابات المصرية انطلقت وسط إقبال كبير من المصريين الذين كان لسان حال قطاع واسع منهم يقول «ربنا يولي من يصلح».

اكتشاف مخطوطة مسيحية بتركيا تبشر بنبوة سيدنا «محمد ﷺ»

كشفت صحيفة بريطانية أن السلطات في تركيا عثرت على ما يظن أنه النسخة الأصلية لإنجيل برنابا الذي بشر برسول يأتي من بعد المسيح عليه السلام - اسمه أحمد، مما سيثير جدلاً في المعتقدات المسيحية السائدة.

وذكرت صحيفة «ذي ديلي ميل» أن المخطوطة المكتشفة من إنجيل برنابا مكتوبة على جلد حيوان ويعود تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي، لكن عثر عليها قبل ١٢ عاما فقط.

ونسبت الصحفية إلى وسائل إعلام إيرانية القول: إن الإنجيل المكتشف ينص صراحة على أن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب، وأنه يبشر بمجيء النبي محمد ﷺ ليكون خاتم الأنبياء.

وقد عثرت السلطات التركية على مخطوطة الكتاب المقدس عام ٢٠٠٠ عندما داهمت مقر عصابة تخصصت في تهريب الآثار والتنقيب عنها بطريقة غير مشروعة وحيازة متفجرات غير أن قمة الإثارة

في هذا الاكتشاف حدثت في شهر فبراير هذا العام، عندما قيل إن دولة الفاتيكان مقر القيادة الروحية للكنيسة الكاثوليكية في العالم تقدمت بطلب رسمي للاطلاع على الإنجيل المذكور.

وتقول الصحيفة البريطانية: إنه لا يعرف حتى الآن ما إذا كانت تركيا وافقت على الطلب أم لا وتنسب الصحيفة إلى الإعلام الإيراني القول: بأن النسخة المكتشفة في إنجيل برنابا كتبت باللغة السريانية المشتقة من اللغة الآرامية، وأن العالم المسيحي ينكر وجود مثل هذا الإنجيل.

وتشير «ذي ديلي ميل» إلى أن أصل المخطوطة غير معروف، إلا أن صحيفة «ناشيونال تيرك» التي تصدر باللغة الانجليزية في تركيا – أوردت أن النسخة كانت محفوظة بقصر العدل في العاصمة أنقرة قبل أن تنقل تحت حراسة متشددة إلى متحف الأنثوغرافيا.

البرلمان العربي يناشد دول العالم التدخل لوقف مذابح الأطفال في سوريا

ناشد علي سالم الدقباس، رئيس البرلمان العربي، في بيان له، دول العالم، والأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي ومنظمات حقوق الإنسان الإقليمية والدولية – إلى التحرك الفوري والعاجل لوقف ما يرتكبه النظام السوري في مجازر ومذابح ضد أطفال سورية، والتي تصاعدت باستخدام النظام السوري للصواريخ والطائرات الحربية بقصف مدينة الحولة السورية والتي سقط فيها جراء هذا القصف العنيف العديد من الشهداء الأطفال والنساء الأبرياء.

ووصف الدقباس، النظام السوري بأنه نظام قاتل للأطفال وأبدى دهشته واستغرابه، أن تتواصل عمليات المذابح والمجازر، تحت سمع وبصر مراقبي الأمم المتحدة.

وأضاف قائلا: إنه في الوقت الذي انتظرت فيه الشعوب العربية والإسلامية، أن تسفر جهود ومبادرات كوفي عنان، المبعوث الدولي والعربي، عن وقف فوري لإطلاق النار في سوريا، فإن واقع الأمر يشير إلى تدفق السلاح، خاصة الروسي، على النظام السوري، الأمر الذي أفقد شعوب العالم العربي والإسلامي الثقة في مهمة ومبادرة عنان.. وأشار إلى أن الأزمة السورية قد طال أمدها لمدة ١٥ شهرا دون بارقة أمل في الخروج من النفق المظلم، وتساءل، إلى متى يقف العالم ساكناً أمام ما يجرى من مذابح في سوريا؟ ومتى يتمتع الشعب السوري بالحرية والديمقراطية والعدالة؟!

كما حذر رئيس البرلمان العربي الأشقاء في لبنان من بوادر فتنة بين أبناء الشعب اللبناني تعدها جهات معروفة.

ودعا الدقباس في بيان له الأشقاء في لبنان إلى الارتفاع فوق الخلافات العارضة والحرص على وحدة لبنان الوطنية والسلم الأهلي وتفويت الفرصة على القوى التي لا تريد للبنان وشعبه الأمن والاستقرار والازدهار وأضاف: إن الجميع يعرف تماما من يقف وراء إثارة التوتر ونشر الفوضى في لبنان خاصة بعد مقتل الشيخ أحمد عبد الواحد يوم ٢٠ / ٥ / ٢٠١٢م، وما أدى إليه مقتله من تزايد التوتر ونشر الفوضى في منطقة عكار شمالي لبنان.. وألمح إلى أن هناك من يهدف إلى إثارة القلاقل في لبنان بغية تخفيف الضغوط الإقليمية والدولية عليه، وتحويل الأنظار عما يجرى في سوريا من قتل وعنف متصاعد ضد أبناء الشعب السوري الشقيق الذي تتصاعد ثورته.. كما دعا الدقباس المواطنين العرب

عموما إلى عدم الانجراف في اتجاه الطرح الطائفي من أى جهة كانت وعدم إقصاء الآخر وإلى تركيز الجهود في دفع مسيرة تعزيز الحريات واحترام حقوق الإنسان في العالم العربي.

خريطة طريق تنفيذية لاستراتيجية مواجهة الكوارث بالبلدان الإسلامية

بعد مناقشات مستفيضة ومعقدة بين وفود الدول الإسلامية حول سبل التعاون المشترك في مجال مواجهة الكوارث – اعتمد المؤتمر الإسلامي لوزراء البيئة مشروع الخطة التنفيذية لاستراتيجية الحد من مخاطر الكوارث وإدارتها في البلدان الإسلامية والتي تعد بمثابة خريطة طريق في هذا المجال.. وحث المؤتمر الدول الأعضاء على جعل الحد من مخاطر الكوارث أولوية في سياساتها الوطنية، والعمل على تفعيل وإنشاء المؤسسات المرجعية والتنسيقية لضمان تنفيذها، من خلال إعداد الخطط والدراسات التشخيصية الضرورية والقيام بعمليات التقييم اللازمة.

وشدد المؤتمر على ضرورة تكثيف الجهود لجمع البيانات المتعلقة بالحد من مخاطر الكوارث وتصنيفها، وتوفير الآليات اللازمة لاستثمار هذه البيانات واستغلالها وتأكيد تبادلها وإدارتها بشكل ناجع، بما في ذلك المبادئ التوجيهية والسياسات ذات الصلة، لضمان تقنين وسائل تشخيص هذه المخاطر وتوحيدها وتقييم حجم آثارها بشكل موثوق.

..وأكاديمية إسلامية للبيئة والتنمية المستدامة

نجح وزراء البيئة بالعالم الإسلامي في بلورة مشروع إنشاء الأكاديمية الإسلامية للبيئة والتنمية المستدامة بصفتها إضافة نوعية لتعزيز الإطار المؤسس للعمل الإسلامي المشترك في مجال البيئة والتنمية المستدامة، مع أخذ ملاحظات أعضاء المؤتمر بعين الاعتبار.

وتم الاتفاق على تشكيل شبكات خبراء الأكاديمية من الدول الأعضاء تكون نواة لشبكة إسلامية للبيئة والتنمية المستدامة ومركزا لتوجيه برامج الأكاديمية، والدعوة إلى ضرورة التنسيق بينها وبين المؤسسات والهيئات البيئية الموجودة في الدول الأعضاء.

واتفق الوزراء على دعوة الدول الإسلامية الأعضاء بالإيسيسكو وكذلك المنظمات إلي التعاون معها خلال مرحلة الإنشاء وتعزيز قدراتها لتمكينها من الاضطلاع بمهامها على الوجه الأكمل.. وأشاد الوزراء بالجهود التي بذلتها المملكة المغربية، ممثلة في وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة، لإنشاء الأكاديمية وتوفير أدوات العمل والمرافق والوسائل الضرورية لذلك.

وكلف المؤتمر المدير العام للإيسيسكو بمتابعة تنفيذ هذا المشروع مع الجهات المسئولة في المملكة المغربية وتقديم تقرير حول ما يتم من خطوات بشأن إنشاء الأكاديمية.

وثائق ويكليكس تفضح مجلة معادية للعرب والمسلمين في البرازيل

تقوم الجهات القضائية البرازيلية بالتحقيق مع المسئولين في مجلة «فيجا» المعادية للعرب والمسلمين بعد أن أكدت وثائق ويكيليكس تقاضيهم مبالغ من خارج البرازيل وتعاملهم مع مافيا القمار وتبييض الأموال في العالم لتحقيق أهداف ومصالح شخصية لهم بالاشتراك مع القائمين على المجلة.

وأوضحت الشرطة البرازيلية أن هذه الحقائق تم كشفها بعد التنصت على المكالمات الهاتفية المسجلة بإذن من القضاء، حيث تبين وجود صلة بين رجل الأعمال كارليتوس كاشويرا وهو أحد المتورطين بقضايا قمار وتبييض أموال وبين إدارة المجلة، بالاضافة إلى علاقات مشبوهة مع عدد من السياسيين والبرلمانيين الذين سيتم استجوابهم قريبا في أكبر فضيحة إعلامية تشهدها البرازيل.

خبراء سودانيون لا يستبعدون إقدام إسرائيل على مهاجمة الخرطوم

أعلن خبراء سياسيون وعسكريون سودانيون أن إسرائيل تدير مخططًا كبيراً وخطيراً أسمته الشرق الأوسط الجديد في المنطقة والقرن الأفريقي لتغيير الأنظمة في الخرطوم وطهران ودمشق، وأشاروا إلى أن تل أبيب تقف وراء كل المؤامرات التي تحاك ضد دول المنطقة عبر عدة إستراتيجيات، منها شد الأطراف، والغارات الجوية على مناطق البحر الأحمر بحجة استهداف تجار السلاح التي تزعم إسرائيل أنهم يهددون أمنها القومي عبر مد حركة حماس الفلسطينية بالعتاد العسكري. ولم يستبعد الدكتور خالد حسين الخبير الاستراتيجي إقدام إسرائيل على مهاجمة الخرطوم حال اقتناع أمريكا بضرورة التدخل العسكري في السودان، لكنه عاد وقال إن الخطوة مستحيلة في ظل تعقد المنظومة الدولية الحالية.

«العفو الدولية»: مجلس الأمن فشل في قيادة العالم

انتقدت منظمة العفو الدولية ـ التي تراقب أوضاع حقوق الإنسان حول العالم ـ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة أمس قائلة إنه غير كفء في أداء مهمته في قيادة العالم لفشله في اتخاذ إجراءات فورية وفعالة للحفاظ على الأمن والسلم الدوليين، مشيرة إلى أن الأحداث الصاخبة التي شهدها عام ٢٠١١ شكلت نقطة تحول في الصراع من أجل حقوق الإنسان حيث تحدى المتظاهرون حكوماتهم ليثبتوا أن التغيير ممكن. وقالت العفو الدولية في تقريرها السنوي: إن فشل القوى الدولية في اتخاذ إجراءات أكثر قوة تجاه سوريا تدل على أن مجلس الأمن تعرقل عمله مصالح راسخة.

قبور وهمية لتهويد محيط الأقصى

كشفت مؤسسة الأقصى للوقف والتراث الفلسطيني، النقاب عن نية سلطات الاحتلال الإسرائيلي لزرع آلاف القبور اليهودية الوهمية حول المسجد الأقصى المبارك والبلدة القديمة بالقدس على مساحة كبيرة من الأراضي، في إطار مشروع يهدف إلى تهويد كامل محيط المسجد الأقصى والقدس القديمة.

في غضون ذلك، ندد أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ ياسر عبد ربه ـ بإقرار الكنيست الإسرائيلي قانونا للإعفاء الضريبي لصالح تشجيع البناء الاستيطاني في الضفة الغربية بشكل ينذر بتدمير حل الدولتين بشكل كلي. وأقر الكنيست الإسرائيلي قانون الإعفاء من الضريبة لمن يتبرع بالأموال لمنظمات الاستيطان الإسرائيلية وهو ما دفع بعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الدكتور صائب عريقات بدعوة المجتمع الدولي للكف عن التعامل مع إسرائيل كدولة فوق القانون الدولي، وشدد على إدانة منظمة التحرير للسياسات الاستيطانية لحكومة إسرائيل.

to transfer this understanding to the seekers of Christianity to penetrate into Islam in a truthful and cunning way.

The protocols of the priest concerned with Christianization declared in Colorado Conference their intention to mix Christian culture with the Islamic one by foisting the Christian concepts into Islam. They said about this objective:

"Our objective is to implant the soul and instructions of Christ in the Islamic live and thought. Accordingly, Christianization process will act like yeast inside the Islamic entity, so that the Christian soul and instructions will be able to make natural change.

In this way, we can include in Christianity "Muslim-Christian", "theological-Islamic", "Sufi –Christian community", and other forms of "coordinated Islamic-Christian forms".

"It is important to exploit the aspects of similarity between Christian salvation and theological stance of some Sufis and gap this similarity causes inside the Sunni nation, which can help understand and accept the Church, on the condition that the models of churches become similar to the "way" adopted by those Muslims."

- The priests concerned with Christianization confessed that they cannot withstand a real Muslim, who understands his religion well. Thus, they started to search for their victims from among those who religion is mixed with superstitions, as they are regarded as a fertile soil for Christianization. They said in this regard:

"Most of the Muslims who may be Christianized are those who embrace "the folk Islam" or "Islam of common people". They believe in evil spirits and Jinn, and hardly know anything about the real Islam. They believe in the incantations, which provide them with power enabling them to face the evils and challenges of life. They can affect and Christianize those people by presenting worldly benefits to them such as spiritual treatment and expelling the evil spirits. As for understanding the facts of the Sacred Book, this matter will come later on…".

3- Sympathy, which may lead the Muslim from the facts he believes in to Christ.

4- Readiness to refute the old methods, which raise controversy.

5- Being optimistic.

They asked Allah to grant them a model of Christianization, such as Samuel Zwimmer [1867-1952]

Who mastered the Arabic language and was an eminent scholar in Islamic studies. He was one of the persuasive seekers of Christianization. He was in this career for 23 years in the Arabian Peninsula and he worked for 16 years as a manager of the Center for Islamic studies and Publications in Cairo. He was the supervisor of one Christian magazines about Islam for 36 years, which is "The Islamic World".

They declared their attempt to let the national churches in the Islamic world take part in the process of the Christianizing the Muslims by pushing theses churches to betray their nations and to be engaged in Christianizing the Muslims along with the American consignments of Christianization. The protocols of the priests concerned with Christianization said in this regard:

"As the consignments of North America are detached from many parts of the Islamic world and restricted in some other parts, and the national Christian communities exist in some parts of the Islamic world and the countries of the third world, we should realize the most likely possibility, which is the use of the churches of the third world in the coming decades and their Christianizing agencies to replace or at least to continue mission of the consignments of North America. The managers of the consignments of North America as well as other leaders of concerned with Christianization should find and make use of new methods of cooperation and participation with the churches of the Third World to reach the Muslims.

We made this idea firmly established by interdependence with all of the Christians and all of the churches that exist in the Islamic world. The Protestant Christians in the Middle East, Africa, and Asia are deeply and effectively busy with the process of Christianizing the Muslims.

We should take the national churches out of their seclusion and to break newly through the cultures and communities of the Muslims, which seek Christianizing them. The Christian citizens in the Islamic countries should cooperate with the Christianization consignments for the sake of interdependence and mutual cooperation in Christianizing the Muslims.

To spread Christianization all over the Islamic world including the countries, which their governments prevent the seekers of official Christianization from entering or working, the priests concerned with Christianization in Colorado Conference decided to train the Western civil employees – such as engineers, experts, and workers – on the process of Christianization and benefit from them in this regard, especially that their numbers surpass the number of the official seekers of Christianization by 100 to 1. About this objective, he protocols of the priests concerned with Christianization said:

"Although the number of Protestant seekers of Christianization from North America exceeds their number in any previous time, the number of American technicians who live overseas exceed the number of the seekers of Christianization by 100 to 1.

The individuals who have the technical capability can work also for the sake of Christ. This is an important matter, especially in the countries whose governments prevent public Christianization. They can and should complete the work of the seekers of Christianization by working side by side with them to Christianize the Islamic world.

- Due to their inability to confront Islam – the Qur'an and the prophetic Sunnah – they decided to adopt the method of deception to penetrate into Islam. They said in this regard:

"Islam is the only religion, whose original sources contradict those of Christianity. The Islamic system is the most coherent system with regard to social and political fields. Islam is a religious anti-Christianity movement, which is planned in a way that is beyond human ability.

"We need to establish many centers all over the world by the Christians to focus on Islam, not only to understand Islam better and to deal with Christianity, but

- Although they look at the past, they seek guidance from it to the future. They are not conservatives, but they are revolutionists.

Since the growth of the phenomenon of the Islamic vigilance in the seventies of the twentieth century, Nixon's call for Western alliance that includes the USA, Europe, the Protestant, Catholic, and Orthodox churches, capitalist Liberalism, and communist totalitarianism to confront the Islamic fundamentalism and to push the Islamic world to Orthodox secularism, which makes the Islamic world follow the West aggravated the confrontation between the West and Islam.

Within the framework of this escalation, the Western churches, especially the American ones, exerted every effort to Christianize the Muslims to cut the path of the Islamic rise, which wants to take the Islamic nation out of "weakness" and to restore its rank among the nations and civilizations.

After the Westerners seeks of Christianization – throughout their long history – were dreaming of Christianizing the Muslims, the American churches raised its requests and aspired at eradicating Islam. For this sake, a conference – Colorado Conference – on 15th of May, 1978 was held to commemorate founding Israel.

The attendees of the conference including the specialists of Christianization and other human and social sciences discussed forty researches, which encompassed the issue of Christianizing the Muslims from all of its sides. It reached recommendations which define the aspects of practicing the plan of Christianizing the Muslims.

The people concerned with this conference circulated and published in English its researches, discussions, and recommendations after deleting the sensitive issues, as they called them. Then they were translated into Arabic in about a thousand of pages.

We may present an edition of the documents of Colorado Conference, which actually represent the protocols of the priests concerned with Christianization. We will refer to these protocols. It is sufficient to say:

- The priest and specialists of Christianization wanted for this conference to change the track of history, about which they said:

"The attendees of many conference meet, exchange views declare some decisions, and then separate and their words turn to mere sayings."

However, some conferences change history. No doubt that this conference became one of the conferences that are able to change the track of history.

This is the first time throughout two generations to hold a conference including this number of the Christian leaders to discuss the process of Christianizing the Muslims.[1]

- They talked about the timing of holding this conference, by which they wanted to confront "the demonstrations of the Muslims in Egypt, Iran, and Pakistan, asking for resorting to the Islamic Shari`ah and the revolutionist aspect of Islam, which we forgot. They also talked about the struggle, which attracted the attention of the world media among the Islamists and the secularists, and which was about to impose the application of the Islamic Shari`ah in Egypt and divide Iran. Also, Pakistan would apply the Islamic constitution for the first time in its history starting from March, 1978.
- The seekers of Christianizing the Muslims in this conference criticized the old methods of Christianization, saying: "We cannot nowadays depend on the old methods of Christianization to confront Islam, which changes rapidly and substantially. The European and American Christianization strategy is strongly linked with the imperialist mentality.

The objective behind holding this conference is the belief in the futility and ineffectiveness of the traditional method of Christianizing the Muslims.

- The priests of Christianization handled the qualifications of the person sought to practice Christianization of the Muslims and to become effective in this mission, and some of these qualifications are:

1- Fluency in Arabic Language, Qur'an, and Islamic references.

2- Patience and resolution in discussions.

[1] Part of the speech of the head of the conference: W. Stanly Monihan.

him. However, I found him prostrating and saying: "My whole body prostrates to You. My heart believes in You. I did not wrong myself with my hands. O Great Lord sought for every serious matter. O Great Lord, forgive me. My face prostrates to his Creator, the One Who created its eyes and ears. Then, he raised his head and prostrated again. He said: "I seek refuge with Your Content from Your Wrath, I seek refuge with Your Forgiveness from Your Punishment, and I seek refuge with You from You. I say as my brother Dawud said: "I prostrate placing my face on dust for the sake of my Lord, Who deserves prostrating to Him. Then, he raised his head saying: "O Lord, grant me a pious heart free from evil, neither tough nor wretched. Then, he entered with me our room and said: This is the night of the middle of Sha`ban Month, in which Allah descends to the lowest heaven and looks at His worshippers except the disbeliever and the quarreling.

The wisdom behind the Prophet's observance of fasting in Sha`ban and offering optional Prayer at night is to express practically his gratitude and praise to his Lord for answering his supplication of transferring the Qiblah. Also, the wisdom behind fasting many days in this month is to practice ourselves to observe fasting in preparation to Ramadan. Thus, the Companions of the Prophet and those who followed their guidance used to celebrate this month and Allah honored them.

One of the most important incidents that took place in Sha`ban is the victory of Saladin over the Crusaders and his restoration of Jerusalem as well as establishing the Friday Prayer in it. This took place on the 4th of Sha`ban, 583. This victory took place with sincere belief to Allah, the Lord of the Worlds and the unity of the Muslims.

Allah willed that Sha`ban of 1433 to come after the Presidency elections, as the people chooses a President. Praise be to Allah, to Whom we supplicate to grant us many returns in this month, to restore Jerusalem, and to liberate Palestine from occupation. This is not difficulty for Muslims to carry out by helping of Allah.

*In Remembrance of Holding Colorado Conference, since 35 years: The American Christianization (Tanseer) is a Real world war against Islam...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine

The Western churches aspired to Christianize the Muslims. For the sake of carrying out these aspirations, the trends of Christianization varied as well as the approaches and nationalities of those who aspire to Christianization. There were many conferences held by the Western churches to evaluate the aspects of success and failure and to modify the paths.

After the growth of the phenomenon of the Islamic vigilance in the Islamic communities, which restored to the Islamic nation its entity after the western modernizing models and options declined since the defeat of June, 1976. The seekers of Christianization in Europe and America were terrified of this rise, which they called "the Islamic resort to its fundamentals", which is defined by the previous US President, Richard Nixon [1913-1994] in his book "The Available Opportunity" in his saying:

Those fundamentalists insist on:

- Restoring the previous Islamic civilization through reviving the past.
- Aiming at applying the Islamic Shari`ah (law).
- Saying that Islamic Shariah is a religion and a state.

*For the Arabic version look at the leading article of Arabic Section.

(prayers) to be lost (i.e. your prayers offered towards Jerusalem). Truly, Allâh is full of Kindness, Most Merciful towards mankind.} [Al-Baqarah (The Cow):143].

{ Verily, We have seen the turning of your (Muhammad's peace be upon n him) face towards the heaven. Surely, We shall turn you to a Qiblah (prayer direction) that shall please you, so turn your face in the direction of Al-Masjid-Al-Harâm (the sanctuary Mosque at Makkah). And wheresoever you people are, turn your faces (in prayer) in that direction. Certainly, the people who were given the Scripture (i.e. Jews and the Christians) know well that, that (your turning towards the direction of the Ka'bah at Makkah in prayers) is the truth from their Lord. And Allâh is not unaware of what they do.} [Al-Baqarah (The Cow):144].

Then, the heart of the Prophet was pleased when Allah responded to his supplication and when he realized that Allah elected him to bestow love and bounty upon him. When the Qiblah was transferred during Sha`ban in the second year of Hijirah, this month was honored and glorified. Whenever this month comes, we remember this great Islamic event that Allah pleasing His Prophet by transferring the Qiblah to the Ka`bah. Allah who inspired His Prophet with the transfer of the Qiblah and turning his face towards Heaven revealed that the Creator of heavens and earth extremely love and estimate our Prophet.

The transfer of the Qiblah, in addition to pleasing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), is glorification for the Prophet and the Muslims, which means glorification and support for His religion. Also, it is humiliation for the enemies of the Muslims. Also, one of the secrets behind this transfer of the Qiblah for the Muslims who face the Ka`bah in Prayer that whenever their enemy or the Jews launch war against them and try to spread mischief on earth, Allah supports the Muslims and let them conquer this oppressing enemy.

History witnesses the secret behind the transfer of the Qiblah. Sha`ban Month passes in many years before the time of the Messenger and it is not gain this eternal commemoration, which makes it one of the most important months. We should mention the fasting and supplications offered by Muslims in this month following the guidance of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) according to the reports mentioned in the authentic Hadiths about the Prophet in Sha`ban. Usamah ibn Zaid went to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and said: I do not see you fasting in any other month more than you do in Sha`ban. He said: People neglect this month occurring between Rajab and Ramadan. In this month, the deeds are raised to Allah, the Lord of the Worlds, and I like my deeds to be raised while I am fasting. (Related by Al-Nasa'y and Abu Dawud ranked as Sahih by Ibn Khuzaymah) Al-Bukhari and Muslim narrated on the authority of the mother of the believers `Aishah (may Allah be pleased with her) that she talked about the Messenger of Allah saying: "He did not fast in any moth more that he did in Sha`ban, as he used to fast all of Sha`ban except few days."

It was mentioned with regard to the merit of the night of the middle of Sha`ban the Hadith related by Ibn Majah on the authority of `Ali son of Abu Taleb (may Allah be pleased with him): "When the night of the middle of Sha`ban comes, stay awake at its night worshipping Allah and fast its day. Allah (Glory be to Him) descends at the time of sunset saying: "Is there any person asking Me for forgiveness and I will forgive him? Is there any person asking Me for sustenance and I will give him? Is there any afflicted person and I will grant him well-being? This is until the rise of the dawn.

It was narrated on the authority of (Ummul-Momeneen) the mother of the believers `Aishah (may Allah be pleased with her) that she said: The night of the middle of Sha`ban was the night in which the Prophet spends with me, but I did not find him at the last part of the night. Then, I felt jealousy like any other woman. I put on my coat and went to his other wives to search for

Sha`ban Month and the Transfer of Qiblah (Prayer Direction)...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Allah, the Most High, the All-Wise willed to send His Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) supported by the noblest miracle: The Qur'an, which does not ever contain any false lies. Also, Allah made our Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) the seal of Prophets, who saw as many major signs of the Glory of Allah as no other messenger saw. This Arab Prophet was taken for a journey at night from the Sacred Mosque to Al-Aqsa Mosque where he led the other prophets and messengers in Prayer. This occurred at the twenty seventh night of Rajab, which is the month in which the Islamic nation was glorified in the East and the West. The incident which occurred in this month is called the Night Journey and Ascension to heaven, and Prayer was enjoined in heaven on our Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him).

This month is honored insomuch as Allah bestowed mercy and bounty on His Messenger and the Islamic nation. Then, Allah willed to bestow more of His Bounty and Grace on His Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him), responded to his supplication, and transferred the direction of Qiblah from Al-Aqsa Mosque to the Ka`bah.

The Messenger of Allah after his immigration and the immigration of the earlier Muslims prayed towards the direction of Al-Aqsa Mosque, where the messengers of Bani Israel were sent to the people. It was supposed that some of the People of the Book of the Jews of Al-Madinah to support the Da`wah of the Arab Prophet, because he followed the acts of worship they were accustomed to such as performing Prayer towards Al-Aqsa Mosque, the Qiblah of their prophets. However, these Jews showed rejection, denial, and

oppression. Also, our honorable Prophet did not pay attention to acts and sayings of those people and continued to offer Prayer towards Al-Aqsa Mosque for sixteen or seventeen months. However, his heart and honorable soul were directed to the heaven supplicating to Allah (Glory be to Him), after the oppression he faced from those people, to please him by transferring the Qiblah from Al-Aqsa Mosque to the Sacred Mosque, where the Ka`bah, the place of Ibrahim's Da`wah, exists.

Then, Allah pleased His Messenger and transferred the Qiblah in the middle of Sha`ban Month, the matter which caused trial and sedition. Those who loved Allah, His Messenger Muhammad the Prophet and truly believed in Islam followed him while praising Allah. Those who did not truly love Allah or believed in his religion were affected by the fabricated lies of the Jews, as they thought that the first Qiblah is better than the second one. This occurred in Sha`ban Month in the second year of Hijirah. Allah (Glory be to Him) says:

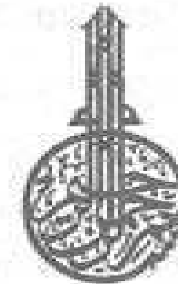
{The fools among the people (pagans, hypocrites, and Jews) will say, "What t has turned them (Muslims) from their Qiblah (prayer direction towards Jerusalem) which they used to face in prayer." Say (O Muhammad peace be upon him), "To Allâh belong the east and the west. He guides whom He wills to a Straight Way."} [Al-Baqarah (The Cow):142].

Then, Allah (Glory be to Him) says:

{ Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islâmic c Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad peace be upon him) be a witness over you. And We made the Qiblah (prayer direction towards Jerusalem) which you used to face, only to test those who followed the Messenger (Muhammad peace be upon him) from those who would turn on their heels (i.e. disobey the Messenger). Indeed it was great (heavy) except for those whom Allâh guided. And Allâh would never make your faith

AL-AZHAR MAGAZINE

Sha'ban, 1433 A.H



ENGLISH SECTION

July, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية رمضان ١٤٣٣ هـ أغسطس ٢٠١٢ م

الأزهر

يحيى رضا جاد - طارق البشري - مونتجمري وات - مصطفى محمود - الحارث المحاسبي - محمد المختار المهدي - عمر بهاء الدين الأميري - فريد وجدي - مونتجمري وات - طارق البشري

اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم

هدية العدد

حواران متعادلان عند أهل السنة والشيعة الإمامية

عدد تذكاري عن القرءان الكريم

WWW.ALAZHARMAG.COM



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

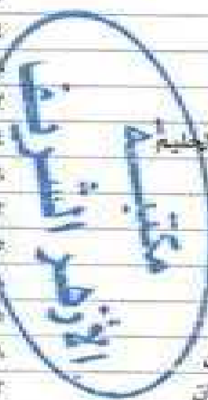
الاشتراك السنوى

داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد



الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

• الافتتاحية •

فى فقه المنهجية القرآنية

لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة



المنهاج.. والمنهج.. والنهج.. هو، الطريق الواضح البين.. وقسطاس النظر المستقيم.

وفى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى ترككم على طريق ناهجة» أى واضحة بينه مستقيمة.

ولأن هذا الذى صنعه رسول الله ﷺ من القول والفعل والإقرار هو البيان النبوى للبلاغ القرآنى، والخلق والسجايا والإنجازات العملية التى حولت القرآن الكريم إلى حياة معيشة ومنهاج شامل للفرد والأسرة والأمة، للذات والآخر، للدين والدولة، للعبادات والمعاملات، للثقافة والمدنية والحضارة، لآداب السلوك وعلم القلوب وفلسفات العقول، لفقه الكتاب المسطور والوعى بسنن كتاب الله المنظور.

لأن منهاج النبوة هذا كان البيان النبوى للبلاغ القرآنى؛ فإن هذا القرآن الكريم قد مثّل - ومازال يمثل وسيظل يمثل - الكتاب الجامع لكل مناهج النظر والعمل للإنسان الراشد فى جميع ميادين الحياة وفى سائر الأعمال التى تؤدى إلى الرشاد والسعادة فى المعاش والمعاد.

إنه كنز المنهجية الذى لاينفد، وجماع آفاق النظر المنهجى التى تتسع دائماً وأبداً أمام خطرات القلوب ونظرات العقول وتجارب المشاعر والحواس.

وإذا كانت كلمات الله ومخلوقاته لا نهائية، تبعاً للانهائية طلاقة القدرة الإلهية والإبداع الربانى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾

(لقمان ٢٧)

فإن آيات الله المسطورة، وكلماته التى نزل بها الروح الأمين على قلب الصادق الأمين - ﷺ - هى مجمع بحار النظر ومناهج الفكر فى كل ميادين الحياة وسائر عوالم الأحياء.

***

وإذا نحن شئنا فى هذا الحيز الموجز أن نشير - مجرد إشارات - إلى نماذج من المناهج التى يمكن للعقل المسلم أن يلمحها ويستخرجها ويبلورها من القرآن الكريم؛ لترسم له معالم المنهج الذى يعين ويحدد سبل الرشاد فى المواقف المختلفة، والطرق المتباينة، ووفق مقتضيات الأحوال، وبحسب فقه الواقع المعيشى؛ تحقيقاً للمقاصد والثوابت الكبرى التى جاء لها الدين: هداية الإنسان إلى السعادة فى المعاش والمعاد.

إذا نحن شئنا - فى هذا الحيز الموجز - إشارات إلى بعض الآيات القرآنية التى تمثل إضاءات منهجية، والتى تمثل نماذج تفتح الأبواب لهذا العلم من علوم القرآن الكريم - علم المناهج القرآنية - فإننا نشير إلى هذه النماذج التى تمثلها هذه الآيات:

١ - المنهاج القرآنى الذى يعلم المسلم عدم الجمود على طريق واحد من الطرق المتعددة التى توصل إلى ذات المقاصد والمصالح الشرعية المعتبرة؛ فالمقاصد الشرعية المعتبرة واحدة، لكن المناهج والطرق إلى تحقيقها تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف الواقع المعيش ووفق الموازنات بين المصالح والمفاسد فى هذا الواقع المعيشى:

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(يوسف: ٦٧)

٢- ومنهاج التلطف، عندما يكون السبيل إلى الحفاظ على الذات التي ستسعى لتحقيق المقاصد الشرعية المعتبرة:

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

(الكهف: ١٩، ٢٠)

٣- ومنهاج الغلظة الرادعة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(التحريم: ٩)

٤- ومنهاج الإغاظة للكفار المعتدين:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(التوبة: ١٢٠)

٥- ومنهاج الجدال والحوار بالتي هي أحسن، إلا مع الذين ظلموا:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

٦- ومنهاج الصبر على مقولات الشرك وإحالة أمر رؤوس المكذبين إلى القادر القاهر:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴾

(المزمل: ١٠، ١١، ١٢)

٧- ومنهاج بذل المعرفة والعلم للكافة، حتى للمشرك الطالب للمعرفة:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة ٦)

٨- ومنهاج التمييز بين فضائل الآخرين وتياراتهم ومذاهبهم:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران ١١٣ - ١١٥)

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٠٠-١٠١)

٩- ومنهاج نسبية العلم الإنسانى، وجزئية المعرفة الإنسانية، تبعًا لنسبية مدركات العقل الإنسانى، بالقياس إلى العلم الإلهى الكلى والمطلق والمحيط:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

(يوسف: ٧٦)

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

(طه: ١١٤)

وقصة موسى عليه السلام مع صاحب العلم اللدنّى فى سورة الكهف شاهد على الفارق بين النسبى وبين اللدنى فى المعارف والعلوم:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً
مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

(الكهف ٦٥)

فالعلم الإنسانى ثمرة للوجود والموجود، بينما العلم الإلهى مصدر للوجود والموجود؛ ولذلك يوصف الله تبارك وتعالى بأنه عالم ولايوصف بأنه عارف لنسبية المعرفة وجزئيتها ولسبق الجهل لها. كما يقال: عرفتُ الله، ولايقال: علمتُ الله؛ لاستحالة إحاطة الإنسان بعلم ذات الله وكنهه، كما يوصف الله جلت قدرته بأنه الشارع للشريعة الإلهية، التى هى علم إلهى كلى، ووضع إلهى مطلق ومحيط.. ولا يوصف الله ـ سبحانه ـ بأنه فقيه؛ لأن الفقه معرفة جزئية، متغيرة، يثمرها التفكر والتعقل فى فقه الواقع وتنزيل الشريعة على هذا الواقع المعيش.

١٠- ومنهاج التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى: الخلق، والشرائع، والملل، والنحل، والثقافات، واللغات، والقوميات، والحضارات، والأنواع، والأجناس، والألوان، والقبائل، والأمم والشعوب. ودوام هذه السنة فى التعدد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

(الليل: ٤)

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

(طه: ٥٣)

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

(البقرة: ١٤٨)

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(المائدة: ٤٨)

١١- ومنهاج التدافع، والحراك الفكرى والاجتماعى.. الذى يصحح الخلل، ويزيل المظالم، ويعيد العلاقات بين الفرقاء المتمايزين إلى مستوى العدل والتوازن:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

(البقرة: ٢٥١)

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٤٠)

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩٦)

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(فصلت: ٣٤)

وهذا المنهاج القرآني في التدافع هو البديل لمنهاج الصراع الذي يصرع فيه القويُّ الضعيفَ؛ فينهي سنة التعددية والتمايز والاختلاف:

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾

(الحاقة: ٧، ٨)

١٢- ومنهاج الضرورات المبيحة للمحظورات، والتي تقدر بقدرها:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٧٣)

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(النحل: ١٠٥، ١٠٦)

﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

(آل عمران: ٢٨)

١٣- والمنهاج الوسطي في التعامل مع الأنبياء والمرسلين - كبشر يوحى إليهم - فهم بشر، تسري عليهم سنن الله في البشر، وهم معصومون فيما يُبلّغون عن الله من نبأ السماء العظيم؛ فأرواحهم - كما يقول الإمام محمد عبده، ممدودة من الجلال الإلهي (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥) بما لايمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية يشرفون بها على الغيب بإذن الله، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين. نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. أما فيما عدا ذلك، فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده (الأعمال الكاملة جـ٣ ص ٤٠٠، ٤٠٦).

وهذا المنهاج هو الذي يعصم من غلوي الإفراط والتفريط. يعصم من تأليه الأنبياء والمرسلين وعبادتهم من دون الله، كما يعصم من تكذيبهم وقتلهم على نحو ما صنع الغلاة!

***

تلك إشارات - مجرد إشارات - لنماذج من المنهجيات القرآنية، التي مثلت - وتمثل - أبوابًا متعددة، وطرقًا متمايزة يفتحها فقه المنهجية القرآنية أمام العقل المسلم؛ ليتخير هذا العقل المنهاج الذي يقود إلى تحقيق المقاصد الشرعية المعتبرة، في ضوء فقه الواقع المعيش.

تفسير سورة البقرة

للأستاذ الإمام الشيخ / محمد عبده

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

(البقرة: ٢٦)

الآيات متصلة بما قبلها، لم يختلف النظم، ولم يخرج الكلام عن الموضوع الأصلي، وهو الكتاب الذى لا ريب فيه، وحال الناس فى الإيمان به وعدم الإيمان، ولا فصل فى صحة هذا الوصل بين أن يكون الكلام ردًا على اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس، أو ردًا على المنافقين الذين أنكروا الأمثال فى الآيات السابقة بمستوقد النار والصيب من السماء، زاعمين أنه لا يليق بالله ضرب الأمثال، أو يكون المراد بالمثل القدوة تقريرًا لنبوة النبى ﷺ أما على الأول، فيقال إنه إنما نص هنا على نفى الاستحياء من ضرب أى مثل، ولم يذكر ذلك هناك عند تمثيل الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت، لأن المقام هنا مقام ذكر الاعتراض الموجه على القرآن، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه.

وأما على الثاني والثالث، فهو أظهر، على أنه لا حاجة فى فهم الآية إلى ما قالوه فى سببها، فإن لم تكن ردًا لما قيل فهى ردٌ لما قد يقال، أو يجول فى خواطر أهل المكابرة والجدال، والمجاحدة والمحال.

والاستحياء، قال صاحب الكشاف: إنه من الحياء، وهو انكسار وتغير فى النفس يلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه، وفى الحالة الثانية يكون مانعًا من الفعل الذى يعرض، يقال فلان يستحى أن يفعل كذا، أى إن نفسه تنكسر فتنقبض عن فعله، ويقال إنه استحيا من عمل كذا، أى إن نفسه انفعلت وتألمت عندما عرض عليه عمله فرآه سيئًا أو نقصًا، ويقال حيى

بهذا المعنى كأنه أصيب فى حياته، كما يقال نسى إذا أصيب فى نساه - هو عرق يسمونه عرق النسا بفتح النون - وحشى إذا أصيب فى حشاه، وقالوا: إن الحياء ضعف فى الحياة بما يصيب موضعها وهو النفس، فمعنى عدم استحياء الله تعالى، لأنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال، ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف فيمتنع من ضرب المثل، بل هو يضرب من الأمثال الهادية والمطابقة لحال الممثل به ما يعلم أنه يجلى الحقائق ويؤثر فى القلوب، ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلاً على اتصاف الله تعالى بالحياء، فقالوا إن النفي خاص، ومثله إذا ورد على شئ يدل على أن ذلك الشئ قابل للاتصاف بالنفي، فمن لا قدرة له على شيء لا ينفى عنه: لا تقول إن عينى لا تسمع وأذنى لا ترى. وقالوا إن معنى نفى الاستحياء هو أن الله تعالى لا يرى من النقص أن يضرب مثلاً بعوضة فما دونها، لأنه خالق كل شيء.

وقد ورد فى الحديث نسبة الحياء إلى الله تعالى والنافون له يؤولون ما ورد بأثره وغايته.

والمثل فى اللغة الشبه والشبيه، وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه، وهو فى الكلام أن يذكر حال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيًا، ولما كان المراد به بيان الأحوال، كان قصة وحكاية، واختير له لفظ الضرب لأنه يأتى عند إرادة التأثير وهيج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهى إلى أعماق نفسه، ولكن فى الكلام قلبًا، حيث جعل المثل هو المضروب وإنما هو مضروب به.

وإذا كان الغرض التأثير، فالبلاغة تقضى بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التى جري العرف بتحقيرها، واعتادت النفوس النفور منها، ومثل هذا لا يخفى على بليغ، ولا على عاقل أيضًا، ولذلك قال بعضهم: إن المنكرين لم يروا فى القرآن شيئًا يعاب فتحملوا بقولهم هذا:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها
حسدًا وبغضًا إنه لدميم

وجروا فى ذلك على عادة المتحذلقين المتكيسين، إذ يتحامون ذكر الألفاظ التى مدلولاتها حقيرة فى العرف، وإذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم: «أجلكم الله». وإذا كان شأن المثل ما ذكرنا، كان ذكر الأشياء التي ينفر منها من ذكرنا فى الأمثال التى يراد منها التنفير، هو الأبلغ فى التأثير الذى هو روح البلاغة وسرها، وكان قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

مبينًا لشأن من شئون كماله عز وجل فى كتابه العزيز، وقاضيًا على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها بنقص العقل، وخسران ميزان الفضل، والمراد بما فوق البعوضة ما علاها وفاقها فى مرتبة الصغر، ومنها جنة النسم (المكيروبات) التى لا ترى إلا بالنظارات المكبرة (ميكروسكوب)، وكانوا يضربون المثل بمخ النملة، وفى كلام بلغائهم: أسمع من

قراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوضة، والمعنى أن الله تعالى لا يترك ضرب مثل ما من الأمثال حياء منه، سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجماً، وأقل عند الناس شأناً.

ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

لأنه ليس نقصاً في حد ذاته، وقد جاء في كلامه تعالى، فهو ليس نقصاً في جانبه، وإنما هو حق لأنه مبين للحق ومقرر له، وسائق إلى الأخذ به، بما له من التأثير في النفس. وذلك أن المعاني الكلية للذهن مجملة مبهمة، فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها، والمثل هو الذي يفصل إجمالها، ويوضح إبهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، مشكاة الهداية ونبراسها، ورحم الله تعالى عبدالقاهر الجرجاني، إمام البلاغة، والواضع الأول لعلمي المعاني والبيان، ومؤلف (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لتحقيق إعجاز القرآن، حيث قال في كتابه الأول:

«واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً.

«فإن كان مدحاً، كان أبهى وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

«وإن كان ذماً، كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد، وحده أحد.

«وإن كان حجاجاً، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

«وإن كان افتخاراً، كان شأوه أبعد، وشرفه أحد، ولسانه ألد.

«وإن كان اعتذاراً، كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسل، ولغرب الغضب أفل، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث.

«وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيابة، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل... إلخ».

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

فيجادلون في الحق بعد ما تبين، ويمارون بالبرهان وقد تعين، فيخرجون من الموضوع، ويعرضون عن الحجة، ويتتبعون الكلم المفردة، حتى إذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتطرفين، ولا تدور على ألسنة المتكلفين، أظهروا العجب منها، وطفقوا يتساءلون عنها:

﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

ولو أنصفوا لعرفوا، ولكنهم ارتابوا في الحق فانصرفوا:

﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

(الكهف: ٥٤)

يذهب به جدله إلى قياس رب العالمين، بمنطقي المتأدبين، وينكر على ربه المثل والقياس، ولا ينكره على نفسه وعلى الناس.

قال تعالى في جوابهم:

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾

أي يضل بالمثل أو بالكلام المضروب فيه المثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب، ويهدي به الذين يقررون الأشياء بغاياتها، ويحكمون عليها بحسب فائدتها، وأنفع الكلام ما جلى الحقائق، وهدى إلى أقصد الطرائق، وساق النفوس بقوة التأثير إلى حسن المصير:

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٣)

فهؤلاء العالمون هم المؤمنون الذين يعملون أنه الحق من ربهم، وهم المهديون به، وأما الذين قالوا:

﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ ﴾

أي الذين ينكرون المثل لكفرهم، فهم الضالون به، وقد بين شأنهم بقوله تعالى:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

فعرفت علة ضلالهم وهي الفسوق، أي الخروج عن هداية الله تعالى في سننه في خلقه، التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وبكتابه بالنسبة إلى الذين أوتوه، وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف في الاصطلاحات الشرعية، وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي، فإنه لا يصح هنا، وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل، وقد كان التعبير مشعراً بأن المثل هو منشأ الإضلال والهداية بذاته، فنفى ذلك بهذه الجملة ليبين أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفي أعمالهم وأحوالهم.

ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين في الكثرة كالضالين، مع أن هؤلاء أكثر، وكأن الحكمة في التسوية إفادة أن المؤمنين المهديين على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم، لأن المؤمنين كما قيل: «قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا».

ولذلك، جعل الواحد في القتال بعشرة في حال القوة والعزيمة، وباثنين في حالة الضعف، قيل هو ضعف البدن، وقيل بل ضعف البصيرة، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين، أن سادوا جميع العالمين.

لم أر أمثال الرجال تفاوتا
إلى المجد حتى عد ألف بواحد
إن الكرام كثير في البلاد وإن..
قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

وأما وجه تقديم الإضلال على الهداية، فلأن سببه ومنشأه من الفكر متقدم في الوجود. وإنما جاءت الآيات المبينة بالأمثال لإخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق، فزادت الفاسقين رجسا على رجسهم، لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم، بتماديهم في نقض العهد، وقطع الوصل والإفساد في الأرض، كما في الآية التالية لهذه:

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾

(البقرة: ٢٧)

وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفا ونشرا غير مرتب، فإن الضلال ذكر أولا وهو للفريق الثاني، والهدى ذكر آخرا وهو للفريق الأول.

هذا، وإن ما تقدم تقريره في ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين، هو مبني على أن المراد به المثل الكلامي كما عليه الجمهور، أخذا مما ورد في سبب النزول. وتقدم عن بعضهم، أن المراد بالمثل في الآية القدوة الذي يؤتم به ويهتدى بهديه. وهذا المعنى للمثل معروف، وقد نطق به القرآن في قوله تعالى:

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾

(الزخرف: ٥٦)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

(الزخرف: ٥٧)

وقال فيه:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(الزخرف: ٥٩)

فهذه الآية تهدينا إلى فهم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾

وإن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلا يقتدى به، وهي أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهم المشركون، والذين أنكروا أن يكون من العرب، وهم اليهود.

وقد حكى هذه الشبهة عنهم في آيات كثيرة، كأنهم يقولون: إذا كان بشرا مثلنا، فكيف يدعي أنه رسول من الله يجب اتباعه، ومثل كامل ضرب للاقتداء به؟

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾

(ص: ٨)

ولأي شيء لم يرسل الله ملكا؟ ومنهم من قال:

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾

(الفرقان: ٧)

وقد أقام الله الحجة على هؤلاء بقوله:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾

(البقرة: ٢٣)

وأتبعها بوعيد من أعرض عن الإيمان بعد قيام البرهان وهم الكافرون، وبشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون. وبعد تقرير الحجة وهي تحديهم بسورة من مثله، كر على شبهتهم بالنقض وهي استبعاد أن يكون بشر رسولا من عنده، ومحصله أن الله تعالى خالق كل شيء، فيجعل ما شاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خلقه، ويضرب به مثلا للناس يهتدون به، وليس هذا نقصا في جانب الألوهية، فيستحي من ضربها مثلا، بل من الكمال والفضل أن يجعل من المخلوقات الضعيفة والمحتقرة في العرف كالبعوض فوائد ومنافع. فكيف يستنكر أن يجعل من الإنسان الكامل الذي كرمه وخلقه في أحسن تقويم مثلا وإماما يقتدى به قومه ويهتدون بهديه؟ وبقية الكلام في الآية على هذا الوجه في معنى المثل هو نحو ما تقدم تقريره، أو ظاهر منه أتم الظهور، فإن الذين آمنوا يعلمون أن هذا الإمام الذي نصبه للناس، مهما يكن ضعيفا قبل أن يقويه ببرهانه، هو الحق الذي ثبت تأييده من ربهم، والكافرون يقولون لم لم يبعث إلى الناس من هو خير منه في نظرهم؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة في أضعفهم وأهونهم؟ وهكذا تقول في قوله:

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ﴾

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات، والاستفادة من خصالها وأعمالها، ويحكى عن بعض كبار الصوفية، أنه قال: تعلمت المراقبة من القط.

وعن بعض حكماء المسلمين، أنه قرأ كتابا نحوا من ثلاثين مرة فلم يفهمه، فيئس منه وتركه، فرأى خنفسة تتسلق جدارا وتقع، فعد عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانتهاء إلى حيث أرادت، فقال: لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت مني وأقوى عزيمة، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه.

ويقال إن «تيمورلنك» كانت نفسه تحدثه بالملك من أول نشأته، على ما كان من فقره ومهانته، فسرق مرة غنما - وكان لصا - ففطن له الراعي فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فعطلاهما، فأوى إلى خربة وجعل يفكر في مهانته ويوبخ نفسه على طمعها في الملك، ولكنه رأى نملة تحمل تبنة وتصعد إلى السقف، وعندما تبلغه تقع ثم تعود، وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت في الصباح، فقال في نفسه والله لا أرضى بأن أكون أضعف عزيمة وأقل ثباتا من هذه النملة. وأصر على عزمه حتى صار ملكا وكان من أمره ما كان.

المبشرون نقاد القرآن



للأستاذ الكبير/ عباس محمود العقاد

إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة في وقت واحد، فإن تقبل العقل ذلك فلابد من سبب يوقعه في الاضطراب باختياره، وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضًا من أمراض الجنون أو هوى دفينا يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها، أو خداعًا مقصودًا يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه.

ولسنا نخطيء في جماعة المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات، فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط في التفكير، كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية، أو يملكه التعصب النعيم، فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه، أو يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل، ولا يعنيه إلا أن يعرض بضاعته ويهيئ لها أسباب النفاق في السوق، وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج!

عرفنا في القاهرة منذ بضع عشرة سنة علمًا من أعلام التبشير كانوا يلقبونه «بالرسول المختار إلى العالم الإسلامي»، ويريدون بذلك أنه تكفل أمام جماعات التبشير بتحويل العالم الإسلامي عن عقيدته ولم يكن يستكثر على همته أن يتصدى لتحويل مكة والمدينة في مقدمة المعاقل الإسلامية، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت عليه من معاهد الإسلام وذكرياته الباقية.

ذلك الرسول المختار إلى العالم الإسلامي هو رئيس المبشرين في الشرق الدكتور صموئيل زويمر، وقد بلغ الخامسة والثمانين وتوفي منذ تسع سنوات ولم يترك بعده واحدا من «المهتدين» بتلك الرسالة يقال فيه بحق إنه تحول من الإسلام عن يقين وإيمان، لأن تلميذه الذي اجتباه في القاهرة كان له مرتب يتقاضاه، ولم يرتفع له صوت بعد اعتزال أستاذه وظائفه المتعددة في صناعة التبشير!

ذكرنا بهذا «العلامة» كلام قرأناه له في كتابه «بلاد العرب مهد الإسلام» وكتاب ظهر أخيرًا في موطنه «عن الطب الطبيعي» كأنما وضعوه عمدا ليردوا به على ذلك الكلام الذي نشره زويمر وأعاد نشره خلال ستين سنة ولا يزال مرجعا من مراجع التبشير بين أيدي التلاميذ المتخرجين على يدي ذلك الرسول.

قال هذا الرسول إلى الإسلام في فصله عن العلوم والفنون العربية: «إن الشهد لم يزل معدودا

(*) نشر هذا المقال في مايو سنة ١٩٦١.

كالترياق في بلاد العرب استنادًا إلى القرآن والحديث، وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب في وحي محمد هذه الكلمة الغبية التي يقول فيها عن النحل إنه:

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٦٩)

وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذي وصفه الله في كتابه!

إن الدجل المتعمد ظاهر في قول هذا العلامة «الغبي» إن القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو الشهد، فإن المعنى الذي تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة أن الشهد شفاء ولم تقل إنه كل الشفاء ولا أنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية، كما يوصف أي عقار من العقاقير في الصيدليات.

ومثل هذا الادعاء «التبشيري» لا يعتسف اعتسافًا على هذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمسًا للحقيقة مع سوء النية.

أما حكم العلامة بالغباوة على وصف «الشهد» بالشفاء فليس له معنى غير غباوة مطبقة في القائل إن كان مصدقًا لما قال، لم لا يكون «الشهد» دواء من الأدوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار؟

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جدا في كل أمة، وهو قوام العلاج إلى اليوم في أكثر الأدوية التي يصفها الأطباء العصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة.

وهذا قبل شيوع الكلام عن «الفيتامينات» وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها.

فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء الشهد بوصف غير الغباوة؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع «الفيتامينات» والحيويات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض؟

إن «الغباوة» هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لتصورها على كل احتمال.

وإلى هنا قد تكون الغباوة مفهومة إذا هي تشابهت في سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره، ولكنها «غباوة» تنزل إلى ما دون مستوى الفهم؛ إذا كان صاحبها يرفض الشهد علاجا ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سرورا للإله، ويتقبل أمثال ذلك من أوصاف الكتب التي يتلوها على الناس ويقدسها صباح مساء.

بعد وفاة زويمر ببضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه عن الشهد، ما كان زويمر يدعيه على القرآن الكريم، ويعقد المؤلف لخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله «صيدلية» واقية تغني عن عشرات من العقاقير.

وليس المؤلف واحدًا من أولئك المتطببين الجهلاء يتعاطى علاج الأمراض بوصفات الأقدمين من قبيل تذكرة داود الأنطاكي في اللغة العربية، بل هو الدكتور جارفس الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية التي سمعها زملاؤه العظماء المصريون وأشاروا عليه بجمعها للإفادة منها، فجمعها ونقحها وأودع فيها صفوة التجارب التي حققها

نحو أربعين سنة إلى أن جاوز الثمانين، وسماها بطب الجمهور Folk medicin، كما تسمى من قديم الزمن بين الغربيين.

وهو لا يعلل فائدة الشهد فى العلاج «بالبركة» ولا بالتأثير النفسانى المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التى تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية، ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الأطباء والصيدليون فى تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها، ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن الشهد خاصة: إنه لا يتكلم عن «نظرية» معروضة للامتحان، بل يقرر التجربة المحققة التى أثبتت أن «البكتريا» لا تعيش فى الشهد لا حتوائه على مادة «البوتاس» وهى تحرم البكتريا تلك الرطوبة التى هى مادة حياتها.

قال: «إن الدكتور ساكيت أستاذ البكتريا بكلية الزراعة فى فورت كولنز.. وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض فى قوارير مملوءة بالعسل الصرف فماتت جراثيم التيفويد بعد ثمان وأربعين ساعة، وماتت جراثيم النزلات الصدرية فى اليوم الرابع.. وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات، وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات..»

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفورة فى الشهد فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه ونقل تقرير الأستاذ شويت Schuette العالم الكيماوى الذى يقول فيه إن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان الشهد، فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى الشهد الضارب إلى السواد، والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين، ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية، وعلاقتها بألوان هذا الشراب، كما جاء فى القرآن الكريم، وهو يشير إلى اختلاف ألوانه، وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى الشهد فعدد منها:

(١) أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية.

(٢) أنها سريعة التمثيل فى البنية.

(٣) أنها تتحول سريعا إلى طاقة بدنية.

(٤) أنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة.

(٥) أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين.

(٦) أنها مهدئة ملطفة.

(٧) أنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلاً عن سهولة الحصول عليها.

ومضى الطبيب فى بيان خصائص الشهد النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار وتفسير ذلك بالأسباب العلمية فأجملها فى خمس وعشرين صفحة، ولم يذكر فى سائر الفصول دواء «طبيا» آخر له مثل هذه الخصائص أو خصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل والمشتغلين بالتطبيب. تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعي فذكرت كلمة زويمر عن الآية القرآنية ووجدتها مثالاً أصلح من كل مثال لإبراز «عقلية المبشر» بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة، مع عيوب الفدامة والعى فى كثير من الأحيان. ولاح لى أن نصيب زويمر من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير، إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوة، بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها لو أراد بها تثبيت المسلمين على عقائد الإسلام.

هــذا القــرآن





للشيخ/ محمد الغزالى

ما كان الله يخلق الناس عبثا، ولا ليتركهم فى هذه الأرض سدى.

والراشد من يعرف حكمة وجوده، ويسير فى الحياة على بصيرة من أمره، حتى يخلف هذه الدنيا وراءه دون أن يذل أو يخزى. ومن قديم دارت فى الخواطر وعلى الألسنة هذه الأسئلة: من أين جئنا؟ وكيف نعيش؟ وإلى أين المصير؟. إن الكثيرين لم يهتموا بأية إجابة على هذا التساؤل المتتابع، وخرجوا من الدنيا كما دخلوا فيها، لا يعقلون شيئا.!!

وبعض الناس أجهد نفسه فى البحث وراء الحقيقة، وقضى أغلب عمره وهو يطلبها ولا يبلغها، أو لعله انتهى إلى قرار يظنه ما يبغى.. مع أن بينه وبين الحق ألف ميل!.

وقليل أولئك الذين وصلوا إلى أطراف من الحق، ثم تشبثوا بها، واستراحوا إليها.. لكن الله لا يترك عباده لهذه الحيرة، وهو أبر بهم، وأحنى عليهم من أن يدعهم يعتسفون الطرق إليه، أو تتعثر جمهرتهم فلا تكاد تهتدى إلى الصراط المستقيم.

من أجل ذلك بعث الله المرسلين يحملون للناس الحق الواضح، ويشرحون لهم سبيله فى غير غموض أو تعقيد، ويوفرون على الأذكياء والأغبياء عشرات السنين قد يقضونها فى تعرف سر الحياة، فإما شردوا، وإما انقطعوا، وإما أدرك لما من الحق نفر لا يعدون..

نعم، منذ وجد فى الحياة من يفهم الخطاب، بعث الله من يعرف به، ويشرح مراده من خلقه، ويذكر بالمصير الذى سوف ينتهى إليه العالم، ويبشر المتقين بالخير، وينذر الفجار بالشر!!.

ومن ثم يقول الله لنبيه محمد ﷺ:

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(فاطر: ٢٣، ٢٤)

والقرآن الكريم هو صوت الحق الذى قامت به السماوات والأرض!!

ومعانيه هى الأشعة التى تألق فيها الوحى الأعلى، وتعرض لها الأولون والآخرون، واستطاعوا بها - إن شاءوا - أن يعرفوا: من أين جاءوا.. وكيف يحيون. وإلى أين يصيرون!!

صحيح أن القرآن الكريم لم ينزل إلا منذ أربعة عشر قرنا، بيد أن معانيه قديمة جديدة، ففيها خلاصة كاملة للرسالات الأولى، وللنصائح التى بذلت للإنسانية من فجر وجودها، فالقرآن ملتقى رائع للحكم البالغة التى

قرعت آذان الأمم فى شتى العصور، واستعراض دقيق للأشفية السماوية التى احتاجت إليها الأرض جيلاً بعد جيل.. !!

إنه لذلك مجمع الحقائق الثابتة، ومجلى عناية الله بعباده مذ خلقوا، وإلى اليوم وإلى أن تنفض هذه الدنيا.

وإظهارا لهذا المعنى يقول الله عز وجل وصفًا لبعض عظات القرآن:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

(الأعلى: ١٨ - ١٩)

ويقول بعد سرد لتاريخ الأمم والمرسلين أحصى عددًا كبيرًا منها ومنهم:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾

(الشعراء: ١٩٠ - ١٩٦)

ويقول: - شارحًا هلاك الأمم البائدة -:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(الصافات: ٣٥ - ٣٧)

والنبى الذى جاء بهذا الكتاب، يعلم أنه جدد الدين الأول، وأقام ما انهدم من أركان، وأوضح ما حال من معالمه، ومن ثم يقول: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو أن موسى حى ما وسعه إلا اتباعى»!!

نعم.. ولو كان عيسى حيًا ما سعه إلا اتباعه، وكذلك يطرد الحكم مع سائر الأنبياء، فإن الرسول الخاتم ﷺ جاء متقفنًا لتراث الذين سبقوه، وبانيًا على قواعده، وملتئمًا مع أهدافه.

وكتابه أدق تعبير وأصدقه فى بيان ما قال نوح لقومه وما قال إبراهيم لقومه، وما هدى به كل نبى فى الأولين أمته.

إن القرآن هداية الله للحياة كلها.

إن كانت آيات الكون صامتة يستنبط الناس منها الفكرة، ويستخلصون منها العبرة، فآيات القرآن ناطقة تعرف الناس بربهم، وتتولى إليه قيادهم..

وإن كان الله قد خلق هذه العالم الكبير، وأسكن أبناء آدم جانبًا منه، ومنحهم الأبصار النافذة المشتاقة إلى تعرف ما بين يديها وما خلفها، فهو - جل شأنه - لم يتركهم حيارى يخبطون فى بيداء ليس لها دليل، كلا، إن معهم الدليل الهادى إلى الخير، الخبير بالمشابه والدروب، الذى لا يضل ولا يزيغ.

نعم، معهم هداية الله التى توارث الأنبياء إبلاغها، وأجهدوا أنفسهم فى نصح الناس بها.

تلك الهداية التى صحبت الركب الإنسانى من بداية الطريق، ثم تدرجت فى أطوار شتى مع التاريخ السائر الدؤوب، ثم انتهت إلى صيغتها الأخيرة ووضعها الثابت فى ذلك الكتاب العزيز، ثم كتب لها الخلود لتبقى أبدًا منارة الحق، ومثابة الرشد !! أن الذى خلق الحياة مغلقة بأسرار كثيفة أبى أن يجعل الحياة لغزًا معضلاً لمن يمرون بها، فجعل «الدين» مفتاح الأغلاق، وجعل «القرآن» مصدر الدين، وجماع تعاليمه من الأزل إلى الأبد.

والتطابق بين حقائق القرآن، ومعارف الكون

مفروض ابتداء، فإن منزل الكتاب هو مجرى السحاب.

ويستحيل أن تختلف حقيقة كونية وحقيقة قرآنية، كما لا يختلف قول العاقل وعمله، والواقع أن القرآن فى الدلالة على الله: «كون» ناطق، كما أن هذا الكون الضخم: «قرآن» صامت وكلاهما ينبثق من ذات واحدة، ويهدف إلى غاية واحدة.

ولعل ذلك سر الأقسام التى جاءت منوهة بهذا المعنى مثل قول الله سبحانه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الواقعة: ٧٥ - ٨٠)

والخلف بهذه الكواكب فى فضائها الوسيع حيث تشرق وتغرب يومئ إلى المنزلة التى ينبغى أن تحفظها لهذا القرآن! كأنما هو عالم من المعانى يضارب فى جلاله هذا العالم المادى الذى نحبو على كرة منه.

وقد تكرر هذا القسم فى صورة مشابهة، كان الحلف فيها بالمنظور وغير المنظور من خلق الله.

وما نرى من هذا الوجود أضعاف ما لا نراه، وبكل أقسم الله على روعة هذا القرآن وصدوره منه وحده، وتنزيهه أن يصدر من مخلوق ما:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الحاقة: ٣٨ - ٤٣)

ويظهر هذا القسم فى ثوب آخر، يتناول المكان والزمان جميعًا، ويضم فى طياته مواكب الأحياء وهى سائرة إلى مصيرها العتيد، تخرج من ظلام الليل لتبرز وضح النهار، وتودع حركة النهار لتستقبل هدأة الليل، وتدور بها الأرض لتستقبل صفحات النجوم بعدما سبحت فترة فى أشعة الشمس.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾

(التكوير: ١٥ - ٢٢)

هذا القرآن المقسم عليه قول رسول كريم، أرسله به ذو العرش جل جلاله كى تعرف الحياة طريق الحق فلا تشرد عنه، وإن طال المدى، أو اتسعت أرجاء السعى فى طول الدنيا وعرضها، وامتداد الزمان وتراخيه.. !!

ولما كان القرآن الكريم أساس حضارة إنسانية كبرى ومبعث ثورة نفسية وعقلية نقلت تاريخ العالم كله من طور إلى طور، فنحن نريد أن نلمع على عجل إلى بعض خصائص الحركات التى لها فى الحياة آثار غائرة.

إن نجاح النهضات وبقاءها يرتبطان بمقدار ما تستند إليه من مشاعر وأفكار، بل إن الارتقاء الصحيح لا يكون إلا معتمدًا على خصب المشاعر ونضارة الأفكار.

ولذلك لابد فى الثورات الاجتماعية الكبرى من ثورات أدبية، تمهد لها، وتملأ النفوس والعقول إيمانًا بها..

وقد تعترى الأمم هزات موقوتة، أو انكسارات وانتصارات سريعة، وقد يصيب

الحضارات مد وجزر لأسباب شخصية أو محلية.

وذلك كله ينظر إليه المؤرخون نظرة عابرة، ولا ينتظرون من ورائه نتائج بعيدة المدى. أما النهضات التى تصحبها يقظات إنسانية واسعة، وتحف بها عواطف جياشه ونظرات عميقة. فهى أمر له خطره. وله ما بعده !!

فنحن مثلا ننظر إلى صنيع «محمد على باشا» - والي مصر منذ قرن - فنرى الرجل أحدث تغيرا شاملا في البلاد، وبلغت فتوحه العسكرية حدا لم تعرفه مصر بضعة قرون، حتى إن الرجل ملأ قلوب أعدائه بالفزع، فألبت الدولة الكبرى وساقت عليه قواها مجتمعة، فهزمته برا وبحرا.

وما إن مات الرجل حتى ماتت معه النهضة التى صنعها !

لماذا؟ لأنها نهضة لم تنبجس عن المشاعر العامة، ولم يمش بين يديها وخلفها حشد من الأقلام الباعثة، والألسنة الناصحة، ولم يلتف حولها العلماء والأدباء، يصلون جذورها بالتربية التى تحفظ عليها الحياة، إن لم تحفظ عليها النماء والامتداد. قارن بين هذه الحركة التى قام بها الجندى التركى [1] «محمد على باشا» وبين الحركة التى عاصرته أو سبقته بستين، أعنى حركة حقوق الإنسان التى قامت فى فرنسا [2]، والتى مهد لها، وأشرف عليها كتاب وخطباء غرسوا فى الدماء حب الحرية، وكراهية الظلم، وكانت مقالاتهم لهبا يؤجج الجماهير، وينير لها المستقبل إن عزت إنارة الحاضر..!!

بل قارن بين هذه الحركة، وبين ثورة الطبقات التى أشعلها الروس [3] وجعلوا الدعايات المغرية تسبقها أو تلحقها، حتى إنهم ليجعلون من مبادئهم أمانى للمحرومين، وأهدافا للطامحين، فما تنالهم هزيمة إلا هاجت حميتهم لكفاح جديد وأمل بعيد.. إن ذلك يؤكد الحقيقة التى أشرنا آنفا وهى أن النهضات الكبرى لا تستوى وتستمر على الزمن إلا بمدى ما تمت به إلى المشاعر والأفكار وتنفذ به إلى النفوس والعقول.

والنهضة التى اقترنت بالقرآن الكريم اقتران النهار بالشمس، وجدت أسباب الحياة والازدهار فى هذا الكتاب العزيز، على نحو يروع الألباب..

بل إن هذا القرآن وفر للنهضة الإسلامية من عناصر الوجود والاكتمال، ما لا تستطيع صنعه ألف وزارة للدعاية تجند فيها لتغذية العواطف والآراء آلاف الأقلام الواعية، والألسنة الحادة.

كان هذا القرآن للحركة الإسلامية صحافتها، وإذاعتها، وكتابتها، وخطابتها، ومن آياته وحدها اهتزت الأجيال الهامدة اهتزازة الحياة، وتخلصت بقوة وعزم من عقابيل الجاهلية الأولى لتنشئ نهضة جديدة متميزة بحقائقها وشاراتها: نهضة لم تنبعث من نفس رجل واحد فتموت بموته، بل نهضة تنبعث من أعماق النفوس التى آمنت عن يقين جازم، واقتناع محض، وكأن كل واحد من حملة هذه الرسالة هو الذى اختص بهذه الآيات:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣)

إن الإسلام عقد الأواصر فأحكمها بين رسالته السماوية، وبين الآخذين بها، والحياة التى يريدونها، وقد كان هذا القرآن الكريم السناد النفسى والعقلى لجهاد الأتباع وعملهم الرتيب فى توجيه الحياة، وإعادة تخطيطها على أسس أرقى.

وعندما نتجوز ونترخص وندخل فى باب المقارنة بين الدعائم الأدبية للثورات المختلفة، نجد رباط المسلم بالقرآن أوثق وأزكى من رباط الشيوعيين بكتاب «ماركس» وغيره، ومن رباط الديمقراطيين بكتابات «روسو» وغيره، بل إن الفيوض المعنوية التى تنساب مع القرآن، وتشرح الصدور به، وتضاعف الحماس له، أجل من أن تدخل فى موازنة ما مع أى سناد أدبى لنهضة فى الأولين، أوفى الآخرين.

ألم تر أن السيف يزرى بقدره
إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

ونجاح الدعاية النفسية والفكرية التى أحدثها القرآن هو الذى قذف بالوهن فى قلوب خصومه، فحاربوه، وفى نفوسهم ريبة من موقفهم وشك فى قضاياهم، بل إن الألوف خاصموا الإسلام، وهم يخفون فى طواياهم احترام حقيقته، وتصديق رسالته.

ذلك أن الأدلة التى بسطها القرآن الكريم والأساليب التى ساقها حسمت جميع الشبه التى يمكن أن تهجس فى النفس، وجعلت دعوته عالية لا تعال، وليس أنجح لرسالة من أن خصمها يحس فى أعماق ضميره أنه مبطل فى جفائها، وليس أنجح لدعاية من أنها تبلغ فى التأثير على عدوها درجة تفرق بين المرء ونفسه!!

وبلوغ القرآن هذه الغاية من التأثير فى الأصدقاء والأعداء بعض أسرار الإعجاز التى نوه بها العلماء وبعض أسرار الخلود التى كتبها الله لآياته..

وقد كره عشاق المعجزات المادية أن تناط بكتاب ما هذه الآثار، وقالوا متطلعين:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(الرعد: ٣١)

لا.. هذا قرآن تسير به الرجال، وتصلح به الأرض، ويكلم به الأحياء، هذا كتاب يصوغ الحياة فى قوالب جديدة، ويرد النفوس إلى نظراتها السليمة، ويذود عن البشر فتن الشياطين، ولوثات الأغبياء، وتقاليد الجاهلين والجاحدين.

هذا كتاب الوجود، يعرفه من عرف نفسه، وعرف الغاية من محياه، ومن مبتدئه ومنتهاه:

أما الجاحدون له، فسيعلمون غدا وجه الحق إن لم يعرفوه اليوم.

﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

(الرعد: ٣١)

(١) كان محمد على، تركيا من أصل ألبانى تولى حكم مصر ١٨٠٥ ومات ١٨٤٩ وهو واليا عليها.
(٢) مصاحبة للثورة فرنسا الكبرى ١٧٨٩م والتى أطلقت شعارها الحرية والإخاء والمساواة.
(٣) قامت الثورة الروسية ١٩١٧ تنادى بحقوق العمال والفقراء، ولم تحقق شيئا من أهدافها بعد.

دولة القرآن



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

القرآن كتاب الكون، لا تفسره حقَّ التفسير إلا حوادث الكون. والقرآن كتاب الدعوة، لا تكشف عن حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر. والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها. والقرآن، لا يبلى جديده، ولا تنقضي عجائبه».

جاء القرآن لهداية البشر وإسعادهم، والاهتداء به متوقِّف على فهمه فهمًا صحيحًا، وفهمه الصحيح متوقف على أمور: منها فقه أسرار اللسان العربي فقهًا ينتهي إلى ما يُسمَّى ملكة وذوقًا، ومنها الاطلاع الواسع على السنة القولية والعملية، التي هي شرح وبيان للقرآن، ومنها استعراض القرآن كلّه عند التوجه إلى فهم آية منه أو إلى درسها؛ لأن القرآن كلٌّ لا يختلف أجزاؤه، ولا يزيغ نظمه، ولا تتعاند حججه، ولا تتناقض بيِّناته، ومن ثَمَّ قيل: إن القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، بمعنى أنَّ مبيَّنه يشرح مجمله، ومقيَّده يبيِّن المراد من مطلقه، إلى آخر الأنحاء التي جاء عليها القرآن في نظمه البديع، وترتيبه المعجز، ومنها الرجوع في مناحيه الخصوصية إلى مقاصده العامة، لأن خصوصيات القرآن وعمومياته متساوقة يشهد بعضها لبعضها، وكلُّ هذه الأمور لا تتهيأ إلَّا لصاحب الفطرة السليمة، والتدبُّر العميق، والقريحة اليقظة، والذهن الصافي، والذكاء الوهاج.

والقرآن حُجَّة على غيره، وليس غيره حجَّة عليه، فبئس ما تفعله بعض الطوائف الخاضعة للتمذهب من تحكيم الاصطلاحات المذهبية، والآراء الفقهية، أو العقلية فيه، وإرجاعه بالتأويل إليها إذا خالفته. ومن الخطل، بل من الخذلان المفضي بصاحبه إلى ما يُستعاذ منه أن يجعل الرأي الاجتهادي غير المعصوم أصلًا، ويجعل القرآن المعصوم فرعًا، وأن يعقد التوازن بين كلام المخلوق وكلام الخالق، إنَّ هذا لهو الضلال البعيد.

ما أضاع المسلمين، ومزَّق جامعتهم، ونزل بهم إلى هذا الدرك من الهوان إلا بُعدهم عن هداية القرآن، وجعلهم إياه عضين، وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس ليكفكف منها، وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها، وفي نواجم الفتن ليُجلي غماءها، وفي معترك الشهوات ليكسر شِرَّتها، وفي مفارق سُبل الحياة ليهدي إلى أقومها، وفي أسواق المصالح والمفاسد ليميِّز هذه من تلك، وفي مجامع العقائد ليميِّز حقَّها من باطلها، وفي شعب الأحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب، وإنَّ ذلك كلَّه لموجود في القرآن بالنصِّ أو بالظاهر أو بالإشارة والاقتضاء، مع مزيد تعجز عنه عقول البشر مهما ارتقت، وهو تعقيب كلِّ حُكم بحكمة، وكلِّ أمر بما يثبِّته في النفس، وكلِّ نهي بما ينفِّر عنه؛ لأنَّ القرآن كلام خالق النفوس، وعالم ما تكنُّ وما تُبدي، ومركِّب الطبائع، وعالم ما يصلح وما يفسد، وبارئ الإنسان وسطًا بين عالمين:

أحدهما: خير محض.

والآخر: شر محض.

فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيًا فيه، ليبتليه أيشكر أم يكفر، وليمتحنه أي الطريقين يختار؛ كلُّ ذلك ليجعل سعادته بيده، وعاقبته باختياره، وتزكيته أو تدسيته من كسبه، وحتى يهلك عن بيِّنة، أو يحيا عن بيِّنة.

***

ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحًا بالجبلَّة والطبع، فالرعيل الأول منهم - وهم الصحابة - كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعروته، واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكَّموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تُقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف، ولا يصلح المسلمون ويسعدون إلا إذا رجعوا إلى القرآن، يلتمسون فيه الأشفية لأدوائهم، والكبح لأهوائهم، ثم التمسوا فيه مواقع الهداية التي اهتدى بها أسلافهم. وإذا كان العقلاء كلُّهم مجمعين على أن المسلمين الأولين صلحوا فأصلحوا العالم، وسادوه فلم يبطروا، وساسوه بالعدل والرفق، وزرعوا فيه الرحمة والحب والسلام، وأن ذلك كله جاءهم من هذا القرآن؛ لأنَّه الشيء الجديد الذي حوَّل أذهانهم، وهذَّب طباعهم، وثبَّت الفضائل في نفوسهم، فإن الإجماع على ذلك ينتج لنا أنَّ سبب انحطاط المسلمين في القرون الأخيرة هو هجرهم للقرآن، ونبذه وراء ظهورهم واقتصارهم على حفظ كلماته. وحفظ القرآن - وإن كان فضيلة - لا يغني غَناء ما لم يُفهم، ثم يُعمل به.

وهجر المسلمين للقرآن يُردُّ إلى أسباب، بعضها آتٍ من نفوسهم، وبعضها آتٍ من خارجها.

فمن الأوَّل: افتتانهم بآراء الناس، وبالمصطلحات التي تتجدَّد بتجدُّد الزمان، ومع طول الأمد رانت الغفلة،

وقست القلوب، وطغت فتنة التقليد، والعصبية للآباء والأجداد، وغلت طوائف منهم في التعبد، فاختلت الموازنة التي أقامها القرآن بين الجسم والروح، وغلت طوائف أخرى في تمجيد العقل، فاستشرف إلى ما وراء الحدود المحددة له، وتسامى إلى الحظائر الغيبية، فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده، ونجمت لذلك ناجمة علم الكلام، وما استتبعه من جدل وتأويل وتعطيل، وتشابهت السبل على عامة المسلمين؛ لكثرة هذه الطوائف، فكان هذا التفرق الشنيع في الدين أصوله وفروعه. وفي غمرة هذه الفتن بين علماء الدين، ضاع سلطانهم الديني على الأمة، فاستبد بها الملوك، وساقوها في طريق شهواتهم، فأفسدوا دينها ودنياها، وكان ما كان من هذه العواقب المحزنة.

ومن الثاني: تلك الدسائس الدخيلة التي صاحبت تاريخ الإسلام من حركات الوضع للأحاديث، إلى هجوم الآراء والمعتقدات المنافية للقرآن، إلى ما ادخر لزماننا من إلقاء المبشرين والمستشرقين للشبهات في نصوص القرآن عن عمد؛ ليصدوا المسلمين عن هديه، وإن خطر هذه الفتنة الأخيرة لأعظم مما يتصوره علماؤنا، ويقدره أولياء أمورنا.

هذه العوامل مجتمعة ومفترقة، وما تبعها أو لازمها من عوامل فرعية هي التي باعدت بين المسلمين وبين قرآنهم، فباعدت بينهم وبين الخير والسعادة والعزة، وأصبحوا - كما يرى الرائي - أذلة مستعبدين، ولا يزالون كذلك ما داموا مجانبين لسنن القرآن، معرضين عن آياته وإرشاداته، غافلين عما أرشد إليه من السنن الكونية. ولو أنهم تواردوا على الاستمساك به في هذه القرون الأربعة عشر، لكانوا هم السابقين بإرشاده إلى اكتشاف أسرار الكون، واختراع هذه العجائب الآلية، ولم يكن موقفهم منها موقف المكذب أولاً، المندهش آخراً. ففي القرآن آيات للمتوسمين، وإرشاد للعقل البشري، يتدرج مع استعداده، وفيه من الكشف عن غرائب النفوس وألوانها، وعن حقائق الكون وأسرار مواليده، ما يسير بمتدبره رويداً رويداً، حتى يضع يده على الحقيقة، ويكشف له عن وجهها، ويكاد يكون من البديهيات فيه ما يقرره في أطوار الأجنة، وتزاوج النبات، وتكون المطر، وتصاريف الرياح، وتكوير الليل على النهار، وإثبات الصلة بين علويات هذا الكون وسفلياته، ولكن المسلمين ظلوا غافلين حتى عن هذه البديهيات، إلى أن جاءتهم من غير طريق قرآنهم، ثم دلهم القرآن على نفسه، فلاذوا بالفخر الكاذب، وربما دلهم على مواقع هذه الأشياء في القرآن من ليس من أهل القرآن، وإن هذا لهو الخذلان المبين.

وما زاد المسلمين ضلالاً عن منبع الهداية وعماية عنها إلا فريق من العلماء، وضعوا أنفسهم في موضع القدوة والتعليم، انتحلوا وظيفة التربية والتقريب من الله. فهم الذين أبعدوهم

عن القرآن، وأضلوهم عن سبيله، بما زينوا لهم من اتباع غير سبيله، وبما أوهموهم أنه عال على الأفهام، وما دروا بأن من لازم هذا المذهب كفر، وهو أنه إذا كان لا يفهم فإنزاله عبث، وأنى يكون هذا؟ ومنزله - تعالت أسماؤه - يصفه بأنه عربي مبين، وأنه غير ذي عوج، وأنه ميسر للذكر، ويبعثه بأنه يهدي للتي هي أقوم، وكيف يهدي إذا كان لا يفهم؟ ومن عجيب أمر هؤلاء وهؤلاء أنهم يصدرون في شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة، فبينما يسدون على الناس باب الاهتداء به في الأخلاق التي تزكي النفس، والعقائد التي تقوي الإرادات، والعبادات التي تغذي الإيمان، والأحكام التي تحفظ الحقوق، وكل هذا داخل في عالم التكليف، وكله من عالم الشهادة، بينما يصدون عن الاهتداء في ذلك بالقرآن، وتراهم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه، وهي التي استأثر الله بعلمها، فيخوضون في الروح والملائكة والجن وما بعد الموت، ويتوسعون في الحديث عن الجنة والنار، حتى ليكادون يضعون لهما خرائط مجسمة، وسبيل المؤمن القرآني العاقل في هذه الغيبيات أن يؤمن بها كما وردت، وأن يكل علم حقيقتها إلى الله، ليتفرغ لعالم الشهادة الذي هو عالم التكليف.

وما زلنا نرى من آيات حفظ الله لدينه أن يقوم في كل عصر داعٍ أو دعاة إلى القرآن، وإمام أو أئمة يوجهون الأمة الإسلامية، ومفسر أو مفسرون يشرحون للأمة مراد الله منه، ويتناولون تفسيره بالأدوات التي ذكرناها في أول هذه الكلمة، ويجعلونه حجة على المذاهب والاصطلاحات، ومنازع الرأي والعقل، وحكماً بينهما، وأصلاً ترجع إليه ولا يرجع إليهما، ومن المبشرات بالخير، ورجوع دولة القرآن، أن الدعوة إليه قد تجددت في هذا الزمان على صورة لم يسبق لها مثيل، وأن أصوات الدعاة المصلحين قد تعالت بذلك، وتجاوبت وتلاقت على هدى، تدعو إلى دراسته، واستخراج ذخائره، وإحياء دعوته إلى الفضيلة والخير والمحبة، وأخذ العقائد والعبادات وأحكام المعاملات منه، والاستعانة على ذلك بمفهوم السلف الصالح وتطبيقاتهم، وتحكيمه في كل ما يشجر من خلاف في الدين والدنيا، وكان من آثار ذلك أن أصبح العلماء المستعدون للعمل، والعوام المتهيئون للعلم يرددون الجمل الآتية، وتجول في نفوسهم معانيها، وهي: لماذا نهجر دستور القرآن، وهو من عند الله، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتبدل ولا يتغير، ثم نلتجئ إلى دساتير الغرب وقوانينه وهي من أوضاع البشر القاصرة، يظهر في كل حين تناقضها ومنافاتها للمصلحة، فتبدل وتغير، ولا تزال تبدل وتغير، مع أن واضعيها والموضوعة لهم من جنس واحد، وعلى طبيعة واحدة ومصلحة واحدة؟ لقد بؤنا بالصفقة الخاسرة مرتين.

إن هذا الغليان في أفكار المسلمين

وكثرة حديثهم عن القرآن، وإقبالهم على دعاته ومدارسه، وتحدى أساليبه فى الوعظ وفى الكتابة. كلُّ ذلك بشائر برجوع دولته، وإصلاح البشرية به من جديد، واتخاذه مرجعًا وملاذًا للأمم الأجنبية التى لم يستقرَّ لدساتيرها الوضعية قرار، فاضطربت حياتها، واستشرفت نفوسها إلى قانون سماوى يحفظ حقوقها، ويحدد للفرد حقّه، وللجماعة حقّها. ولعمرى إن هذه المطالب كلّها لفى القرآن، لو وجد القرآن من أهله من يقيمه، ويبلّغ دعوته، وينشر هدايته.

ثم ما هذه النغمات الناشزة عن هذا الإيقاع اللذيذ، إيقاع الدعوة إلى إقامة الدستور القرآنى؟ ما هذه النغمات المعوجة المترددة التى تصوِّر أنَّ الدستور القرآنى يتحيَّف حقوق الأقليات الساكنة للمسلمين أو يجحف بها؟.. إنها نغمات صادرة عن مصدرين:

- أعداء القرآن ينصبون بها العواثير فى طريق الدعوة إليه.
- وضعفاء الصلة بالقرآن الجاهلين آثاره وتاريخه فى إصلاح الكون كلّه.

فليقل لنا الفريقان: متى ظلم القرآن غير المؤمنين به؟ ومتى أضاع لهم حقًّا، أو استباح لهم مالاً، أو انتهك لهم عرضًا، أو هدم لهم معبدًا، أو حملهم على مكروه فى دينهم، أو أكرههم على تغيير عقيدة من عقائدهم، أو حملهم فى أمور دنياهم ما لا يطيقون؟!...

بلى، إنه عاملهم فى كلِّ ذلك بما لم يطمع فى معشاره الأقليات ولا الأكثريات من شعوب اليوم الواقعة تحت حكم الدول العالمة المتحضرة الخاطئة الكاذبة، التى تزعم لنفسها الفضائل كلّها، ولا تتخلّق بواحدة منها.

من أصول الإسلام أنه لا إكراه فى الدين، وأين موضع هذا عند هذه الدول الباغية؟ ومن أصول الإسلام الوفاء بالعهد فى السّلم والحرب، وأين هذا مما تفعله هذه الدول الطاغية؟ ومن أصول الإسلام أن لا يكلّف من دخل فى ذمته بالدفاع الحربى، وأين هذا مما تفعله هذه الدول الظالمة التى تجنّد المحكومين بالإكراه؛ ليموتوا فى سبيلها من دون جزاء، ولا شكر؟ ومن أصول الإسلام أن لا يقتل فى الحرب إلا المقاتل، وأن لا يقتل الأعزل المعتزل، والشيخ الكبير والمرأة والطفل، والمنقطع للعبادة، وهذه الأصناف هى ثلثا الأمم الحاربة، فأين هذا مما ترتكبه الأمم المتمدنة فى حروبها اليوم من الإبادة للكبير والصغير، والمرأة والرجل، والطفل والجنين، وما تتفنن فيه من وسائل الاستئصال؟ وكفى بواقعة (هيروشيما) اليابانية شاهدًا لا يكذب.

إن الإسلام يعامل المخالفين بالرحمة؛ لأن قرآنه هو دستور الرحمة، ويضعهم فى أربع مراتب، لكلّ مرتبة حكمها العادل: الذّمى المقيم فى وطن الإسلام له كلّ ما للمسلم، وليس عليه كلّ ما على المسلم، فهو محمى النفس والمال والعرض، حرٌّ فى التصرفات المالية، آمن فى الظعن والإقامة، وليس عليه ما على المسلم من أعباء القتال والدفاع. والمستأمن آمن على حقوقه حتى يبلغ مأمنه، والمعاهد موفى له بعهده من غير ختر ولا غدر، والحربى يعامل بما رضيه لنفسه من غير أن يجاوزه إلى غيره من أهله أو بنى ملّته، فإذا شذَّ أمير مسلم أو قائد عن هذه القواعد الأساسية فى الإسلام، وظلم طائفة من هذه الطوائف أو فردًا من أفرادها- فقد خرج عن حكم الإسلام، وإذا حكى التاريخ عن ملوك مسلمين ظلمة، فهؤلاء بطبيعة حالهم يظلمون المسلمين قبل أن يظلموا المخالفين، وليست أعمالهم حجة على القرآن، بل للقرآن الحجة عليهم، وأيسر أحكام الإسلام فيهم أن يعزلوا، وأعلاها أن يقتلوا.

أين هذا من قوانين اليوم، ومعاملة اليوم، أيها الناطقون بغير علم، الصادرون عن غير فهم وأين عدل القرآن من جوركم، أيها الجائرون فى الحكم، المحاربون للحقيقة فى الحرب والسلم، البانون لحياتهم فى الظلام على الظُّلم؟ وأين تجدون الرحمة والعدالة إذا لم تجدوها فى ظلال القرآن، أيتها الأقليات غير الوفية، المدفوعة من الخلف بالأيدى الخفية؟

***

أثمرت الحركات الإصلاحية منذ أكثر من مائة سنة ثمرات زكية، وفتحت الأذهان لحقيقة، وهى أنّ القرآن يُفهم، وأنّه ميسّر للفهم، فانفتحت للدارسين أبواب كانت مقفلة، وكثر جريانه على ألسنة الخطباء والمرشدين، منزّلة آياته فى منازلها من الأحداث الطارئة، متجاوبة مع العلم، مقسمة على المواضيع المتجددة، وكثر جريانه على أقلام الكتاب فى المباحث الدينية والأخلاقية والاجتماعية والكونية، يقيمون منه شواهد على كلّ حقيقة، وأدلاء على كلّ طريق، وأعلامًا هادية إلى كلّ غاية، فإذا هو يفسّر نفسه بنفسه وتتسابق معانيه الواضحة إلى الأذهان، وأعان على ذلك هذه النهضة الأدبية التى لم تر العربية أعمق منها غورًا، ولا أوسع منها دائرة، فأصبح بها القرآن قريبًا إلى الأفهام، مؤثرًا فى العقول، وأصبحنا نسمع من تلامذتنا الذين ربيناهم على القرآن حفظًا وفهمًا وعملاً، وروضناهم على الغوص وراء معانيه، آراء فى الاجتماع الإنسانى، سندها القرآن، ما كانت تزيغها أفكار الشيوخ، وآراء فى الدستور القرآنى، وتطبيقه على زماننا ومكاننا ومصالحنا، ما كانت تسيغها عقول الأجيال الماضية. وهؤلاء التلامذة لم يزالوا بعد فى المراحل العلمية المتوسطة، فكيف بهم إذا أمدتهم الحياة بتجاربها، وأمدهم العلم باختباراته؟ لعمر أبيك إنّه القرآن حين تتجلّى عجائبه على الفطر السليمة، والعقول الصافية.

***

القرآن الكريم سيد الكتب السماوية

«الدّرّة الحسناء من نونيّة أبى الخنساء»



عثمان انجوغو تياو - السنغال

آمنتُ بالكُتبِ الّتي قد أُنزلت ... وحيًا على من أرسلُوا ببيانِ

كُتبُ السّماءِ تقدّستْ وتنزّهت ... عن كُلّ عيبٍ ثُمّ عن نقصانِ

آمنتُ بالصُّحُفِ الّتي قد أُنزلت ... هديًا على يدي الخليلِ الدّاني

وأقرُّ ما نزلتْ على موسى من ... التّوراةِ إرشادًا من الرّحمانِ

وكذاكَ ما نزلتْ على عيسى من ... الإنجيلِ للإرشادِ والإعلانِ

وزبُورُ داودَ أقرُّ بأنّهُ ... عمرُ القلوبِ لغايةِ العُمرانِ

أمّا مُحمّدُنا شهدتُ بأنّهُ ... قد جاءَ بالتّبيانِ والفُرقانِ

فكتابُهُ روحٌ ورحمةُ ربّنا ... وهُدى وموعظةٌ مع الرّيحانِ

فكتابُهُ نورٌ لنا وسلامةٌ ... وشفاءُ ما في القلبِ من أدرانِ

قد داخلتْ كُتبَ السّما زمنًا يدُ ... التّبديلِ والتّحريفِ والإدهانِ

حتّى أتى القرآنُ وهو مُحصّنٌ ... من ربّهِ ومُحافظٌ بضمانِ

فهو الكتابُ المُعجزُ الخالي عن ... الأخطاءِ والأغلاطِ والألحانِ

وهو الكتابُ الكاملُ النّائي عن ... التّبديلِ والتّحريفِ والنّقصانِ

عجزَ الأولى كفروا عن الإتيانِ ما ... هو مثلُهُ من سورةٍ لقرانِ

والجنُّ مثلُ الإنسِ لو جمعُوا على ... إتيانهِ اجتمعُوا على عجزانِ

إنّ النّبوّةَ صادفتْ أيّامَ ما ... قد فاقتِ البُلغاءُ في العرفانِ

لكنّهم علموا يقينًا أنّهم ... عجزوا عن التّعريضِ والإتيانِ

أنّى لغيرهم وكانوا عندهم ... في غايةِ الإفصاحِ والسّيلانِ

قل أخطأ النّظّامُ مثلُ المرتضى ... قالا بقولِ الصّرفِ وابنُ سنانِ[1]

فاللهُ يجزي أمّةً قد ألجأوا ... أقوالَ أهلِ الصّرفِ للكذبانِ

بل ألّفوا كتبًا تفنّدُ رأيهم ... في مثالِ الإعجازِ للقرآنِ

فاق الخطابي في "البيان" ففيه ما ... يشفي غليلَ الباحثِ الهجفانِ[2]

والباقلاني أيّدَ الإعجازَ في ... «إعجازه» وكذا أبو عثمانِ[3]

قد جاء في "الأسرار" أبلغُ حجّةٍ ... و«دلائلِ الإعجازِ» للجرجاني[4]

والرّافعيُّ لهُ بحوثاتٌ ... حسانٌ في مؤلّفهِ العليِّ الشّانِ[5]

إعجازُهُ الأعلى أتى في نظمهِ ... مبناهُ مع معناهُ متّسقانِ

بل كلُّ لفظٍ في النّصوصِ يطابقُ ... المعنى المرادَ لهُ بلا ميدانِ[6]

---

(١) هو إبراهيم بن سيّار النّظّام، أستاذ الجاحظ أحد زعماء الاعتزال، أشهر من عرف بقول «الصّرفة»، وإن لم يكن أوّل من تكلّم بها. ومصطلح «الصّرفة» يعود إلى الفكرة التي تقول بعدم إعجاز القرآن في النّاحية اللّغويّة والبلاغيّة، وتؤكّد تمكّن العرب من أن يأتوا بمثله لولا أنّ الله قد صرف عقولهم عن ذلك حتى امتنعوا عن استفراغ الجهد واستنزاف القوّة للقيام بمعارضة القرآن.
والمرتضى: هو عليّ بن الحسين المعروف بالشّريف المرتضى علم من أعلام الطّالبيين ومن أهل بغداد. ويفسر «الصرفة» بأنّ الله قد سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة.
وابن سنان: هو الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ذكر مثل ذلك في كتابه الشّهير "سرّ الفصاحة" أثناء ردّه على أبي الحسن عليّ بن عيسى الرّمّاني صاحب «النكت في إعجاز القرآن» حيث قال: «لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه».

(٢) والخطّابي: هو المحدّث الأديب أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابيّ البستيّ، وعنوان رسالته التّامّ "البيان في إعجاز القرآن". والهجفان: هو الظمآن.

(٣) والباقلاني: هو أبوبكر محمد بن الطّيّب متكلّم أشعريّ، وكتابه «إعجاز القرآن» من أشهر ما ألف في هذا الفنّ إن لم يكن أشهره.
وأبو عثمان: هو عمرو بن بحر الجاحظ له كتابٌ عن هذه المسألة مفقودٌ اسمه "نظم القرآن" ردّاً على رأي الصرفة وتأييدا الحقيقة الإعجاز، ورسالة موسومة بـ "حجج النّبوّة" أو "تثبيت حجّة النّبوّة" مع أنّه يُتّهم بالاضطراب وعدم الصّراحة في مسألة "الصّرفة".

(٤) هو أبوبكر عبد القاهر الجرجانيّ صاحب "دلائل الإعجاز" ذلك الكتاب الّذي يعدّ أساس علم المعاني و"أسرار البلاغة" الّذي يعتبر أصل علم البيان. وله إلى جانب هذين الكتابين "الرّسالة الشّافية" كان هدفه فيه تثبيت إعجاز القرآن ومعارضة فكرة الصرفة لا تبيين أسراره وإبراز وجوهه.

(٥) هو مصطفى صادق الرّافعيّ صاحب كتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة»، ولعلّه أبرز من تصدّى لهذا الموضوع من المحدثين.

(٦) الميدان: الاضطراب والزّيغان، من: ماد، يميد، ميدًا، وميدانا.

حتى ولو حاولت تعويضاً بما ... قالوا يرادفه على الإمكان
لأتيت نظماً ساقطاً لا شك أو ... أحدثت في المبنى اضطراب معان
فـ "وقيل يا أرض ابلعي ماء السما ... هي آية فخمت على التبيان[7]
هي آية تعلو بلاغتها على ... الجوزاء والمريخ والكيوان
هي آية بجمالها وجلالها ... كسيت من الذهبان والمرجان
كسيت من الذهبان والمرجان ... والعقيان والشهبان والفرقان
هي ظاهر إعجازها الأعلى به ... خرست شقاشق مفصح ببيان[8]
هذا مثال ظاهر فتأملوا ... إن كنتم أهلاً لهذا الشان
بل إن فيه فصاحة وفخامة ... وجزالة تبدو لذي إزكان
وطلاوة وحلاوة وطلاقة ... ونضارة وأناقة البنيان
هذا مثال بين أمثلة فما ... من آية إلا أتت كجمان
والمعجزات من الكتاب عديدة ... فالغيب والأخبار معجزتان
هذا الكتاب كلام ربي غير ... مخلوق بلا شك ولا نكران
من قال غيره فهو أكذب كاذب ... فاهجر لقول الكاذب الخوان
إن الكلام معلق بكماله ... والضد منقصة لدى الأذهان
قل إن ربي لم يزل متكلما ... ما شاء أنى شاء غير جبان
في سورتي "كهف" أتاك و"توبة" ... لفظ الكلام بأوضح البرهان[9]

(٧) في آية سورة هود: يقول الرماني: وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾
وقيل بأنه قد أفردت لها تآليف، ومن بين من خصص لها تأليفاً فيما ذكر: برهان الدين إبراهيم البقاعي.
وقد وقف على تفصيل الآية وتحليلها كما اعتنى بإبراز مزاياه البلاغية عبد القاهر في "الدلائل".
(٨) الشقاشق: جمع شقشقة، شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج، ويقولون للخطيب: هو شقشقة، يشبهونه بالفحل. كما يقولون للفصيح: هدرت شقشقته.
(٩) في سورة الكهف (١٠٩) قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾، وفي سورة التوبة (٦) قوله: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾. وقد ورد لفظ الكلام منسوبا إليه سبحانه في غير هذين الموضعين:
﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ (البقرة: ٧٥)
﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ (الأعراف: ١٤٤).

قد قال بالقرآن وهو كلامه ... ومدادنا والرق مخلوقان
فالصوت صوت القارئين حقيقة ... لكن ما نتلو من الرحمان
فكلام ربي ليس يشبه قوله ... الشعراء والرجاز والكهان
أترى كلامه يشبه الشعر الذي ... قد قاله الضليل في الأوزان[10]
أو يشبه النظم الذي قد صاغه ... صوغاً عبيد الشعر في جهدان[11]
أو قول عنترة بن شداد ... وقول مهلهل والنابغ الذبياني[12]
أو يشبه السجع الذي قد قاله ... قس وسطيح من الكهان[13]
أترى يباريه قريض سموأل ... في نوعه والأخطل النصراني[14]
أترى يعارض ما لشعر أمية ... في الحكم والأخبار والتبيان[15]
كلا وحاشا أن يجيء بمثله ... قول اللسان ومنطق الإنسان
لم يخل قولهم من الأغلاط في ... الأوزان والأخطاء والألحان
وتنافر الكلمات مثل ركاكة ... وتكلف وتصنع السلطان[16]
لكن قوله قد أتى متنزها ... عن أيما لحن لدى الآذان
سبحان رب قال بالقرآن ... وهو كتابنا المحفوظ جد مصان

﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (الفتح: ١٥).
﴿لا مبدل لكلماته﴾ (الأنعام: ١١٥). إلى غير ذلك... فلا مسوغ للتأويل والتمحل.
(١٠) الضليل: أو «الملك الضليل» لقب لامرئ القيس أكبر وأشهر شعراء الجاهلية بلا نزاع.
(١١) عبيد الشعر: هم أصحاب الحوليات ومدرسة زهير بن أبي سلمى، أولئك الذين كانوا ينقحون أشعارهم ويقضون في سبيل تجويدها وتحسينها حولاً كتيعاً.
(١٢) عنترة بن شداد: هو الشاعر الشهير صاحب المعلقة التي مطلعها:
هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم
والمهلهل: لقب عدي بن ربيعة، شاعر جاهلي، وقيل: لقب بالمهلهل لأنه هلهل الشعر - أي: أرقه.
والنابغة الذبياني أو نابغة بني ذبيان من فحول شعراء الجاهلية صاحب «الاعتذاريات» يقال عن شعره بأنه امتاز بقوة الخيال ورقة الشاعرية.
(١٣) قس: هو قس بن ساعدة الأيادي، خطيب جاهلي من حكماء العرب.
وسطيح: من أشهر كهان العرب في الجاهلية المعروفين بفن السجع مع زميله شق.
(١٤) السموأل: هو ابن عاديا، شاعر جاهلي يهودي، يضرب به المثل في الوفاء، لأنه ضحى بابنه في سبيل الحفاظ على وديعة لامرئ القيس.
والأخطل: هو غياث التغلبي ند جرير والفرزدق، شاعر نصراني أموي.
(١٥) هو أمية بن أبي الصلت الذي قال عنه النبي ﷺ - فيما روي -: «آمن شعره وكفر قلبه»، وفي رواية أخرى: «آمن لسانه وكفر قلبه».
(١٦) السلطان: كالسليط من الرجال، أي: الفصيح اللسان الذرب، والتصنع نوع من التكلف.

اقرأ باسم ربك الذي خلق

فضائل القرآن

للحارث بن أسد المحاسبي (١)

إن العاقل عن الله عز وجل، بدلائل الكتاب مستبصر، وبحيله من كل هلكة معتصم، ولربه بتلاوته في الخلوات مناجٍ لأنه بنجاة نفسه مهتم، ففزع إلى فهم كلام الرب جل وعز، ليحيي به قلبه، وينجو به من عقابه، في يوم يندم فيه الغافلون، وينحسر فيه المبطلون، فكفى بكتاب الله - عز وجل - عن غيب الآخرة مخبراً، وببصائره للعوام موضحاً، لأنَّ من فهم عن الله عز وجل، ذاق طعم حلاوته، وخالط فهمه لذة مناجاته، إذ عرف من تحاوره، فعقل عن الله عزّ وجل ما به خاطبه، فاتخذه معاذاً فسكن إلى الله جل وعز، وأنس به من كل وحشة، فلم يؤثر شيئاً عليه، فكان للمتقين الماضين قبله في الدنيا خلفاً، وللآخرين المريدين من بعده سلفاً، فتدبر القرآن أيام حياته، فصار الله - جل وعز - به مستفيداً، لأنه الدليل الهادي للعباد قبل نزول المحل، وحادي المشتاقين إلى جوار الكريم.

فيه نطق الحكماء، وبه أنس المنفردون إلى إدمان الفكر في معانيه.

لا يضل السالك باتباع دلائله، لأنه النور الذي استضاء به الموقنون، والغاية التي يتسابق إليها المتسابقون، والمنهج الذي لا يضل السالك إلا باتباع دلائله، ولا يعلم له طريق النجاة إلا مع الاستضاءة بنوره، ولا يصاب الحق إلا في محكم آياته.

شفيع في القيامة لمن تقرب إلى الله - جل وعز - برعايته، وحفظ حدوده، وصبر لله - جل وعز - على أحكامه، وهو الماحل لمن لم يكن في قلبه منه إلا حفظ حروفه، وفي جوارحه منه إلا تلاوته.

هو القول الذي فصلت آياته، والفرقان الذي يميز بين الحق والأباطيل بشواهد بيناته.

حكمة بالغة منزلة من حكيم الحكماء، وعليم العلماء، أنزله الله - تعالى - دواء للقلوب شافياً، ولمن حرم حرامه وأحل حلاله عن النار عادلاً، ولمن حذر مخاوفه في مقيل الجنان نازلاً.

فأهل العلم بكلام ربهم - عز وجل - هم أهل الصفاء من الأدناس، وأهل الخاصة من الله - جل وعز - الذين أشعروا فهمه قلوبهم، وتدبروا آياته عند تلاوته بألبابهم، فتزودوا لبعد سفرهم إلى معادهم، وفهموا منه شدة إجهادهم يوم القيامة، ففزعوا، وذكروا به السؤال من الله عز وجل، فاستعدوا للجواب عما عملوا، فتابوا إلى الله - جل وعز - عن كل ذنب، وتطهروا له من كل دنس، وأخلصوا له النيات في أعمالهم ليجيبوه عما سلف من ذنوبهم بالتوبة. وعن إرادتهم في طاعته بصدق النية. فاستعدوا بالقرآن للعرض والسؤال، (منقادين)[٢] له بذلتهم (وخاشعين)[٣] له باستكانتهم. لأنهم وقروه لإجلال المتكلم به. غير مغيبين عن تلاوته لطلب حقائق معانيه. ولا مستهينين بحرماته. فانتعشوا به من كل صرعة. وجبر الله لهم به من كل مصيبة.

فما زال ذلك دأب العاقلين عن ربهم عز وجل. لأنه ربيع قلوب الموقنين.

وراحة الراجين. ومستراح المحزونين. لا ينقص نوره لدوام تلاوته. ولا يدرك غور فهمه. ولا يبلغ له غاية نهاية تاليه أبداً. لأنه كلام الله جل ثناؤه. الذي تعلق المتقون بعروته. والملجأ الذي أوى الراهبون إلى كنف رحمته.

قلتُ: كيف لي بفهم ما قال الله - جل وعز - في كتابه؟ لعلي أدرك منازلهم أو أقارب مقامهم؟

قال: بأن يعظم عندك قدر ما تنال بفهمه من النجاة وما في (الإعراض)[٤] عن فهمه من الهلكة. لأنَّ الله جل وعز. أنزل في كتابه كلامه مع الروح الأمين إلى محمد المصطفى برسالته، والمنتخب لإنذار عباده ﷺ. فوصف تعالى نفسه بأحسن الصفات.

ودل خلقه ونبههم فيه لمعرفته بما وضع في سماواته وأرضه: من آثار صنعته، ونفاذ قدرته. وذكرهم فيه أياديه عندهم، وكثرة نعمه، وتعهده إياهم، من ابتداء خلقهم، وحسن تقديرهم وإجراء أرزاقهم. ودفاع البلايا عنهم، والآفات المهلكة لهم، وحسن ستره عليهم، وإقالتهم، والعفو عما استوجبوا من تعجيل العقوبات، ونزول النقم بهم.

فأمرهم فيه بالمكارم، ونهاهم عن الآثام والمحارم، ووعدهم فيه جزيل الثواب، وضرب لهم فيه الأمثال، وفصل لهم فيه المعاني الدالة على سبيل النجاة، وأبان فيه المشكلات، وأوضح لهم فيه الشواهد على علم الغيوب. وجعل فيه حياة قلوبهم، وعزهم وشرفهم، والغنى به عن جميع العباد.

ثم أخبرهم أنه أنزل كتابه ليدبروا آياته بعقولهم، ويتذكروا ما قال بألبابهم، وقال:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾
(ص: ٢٩)

فسماه بالبركة، ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة، وينالون باتباعه الزلفى والكرامة. ثم قال:

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾
(ص: ٢٩)

فأخبر أنه أنزله للتذكر والتفكر فيه، وخصّ بالتفكر والتذكر أهل العقول، أولي الألباب.

قال: حدثنا سنيد بن داود، قال: حدثنا عبدالله بن المبارك [5]. قال: أخبرني معمر بن يحيى بن المختار [6] عن الحسن [7] أنه تلا هذه الآية:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(ص: ٢٩)

فقال: وما تدبر آياته إلا اتباعه بعقله، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن، فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.

ثم أخبرهم أن اتباع ما فيه، سلوك للصراط المستقيم، والنور المبين، والعصمة لمن تمسك به من كل هلكة وشفاء لما في الصدور.

قال الرب جل ثناؤه:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة: ١٥، ١٦)

فضمن الله - عز وجل - لمتبعه الهدى لطريق السلامة، والسلوك للطريق المستقيم، ووصف المتبعين له كيف قلوبهم، وما ورثهم من خشيته، فقال جل وعز:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ ﴾

(الزمر: ٢٣)

فأخبرهم أنه لا حديث يشبهه في حسنه، وأخبر أنه متشابه غير مختلف فيه، ثم أخبر أن فيه التكرار عن معاني ما قال إن تنحت قلوبهم عند تلاوة ما في سورة عن فهم معانيه، تكرر في سورة أخرى فتفهموه فقال (مثاني).

حدثنا سنيد، قال: حدثنا سفين [8] عن معمر عن قتادة [9] في قول الله جل وعز:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾

(الزمر: ٢٣)

في حلاله وحرامه لا يختلف شيء منه. تشبه الآيةُ الآيةَ، والحرفُ الحرفَ.

حدثنا إسماعيل [10] عن أبي رجاء [11]، عن الحسن:

﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾

(الزمر: ٢٣)

قال: ثنى الله فيه القضاء، تكون السورة فيها الآية، وفي السورة الأخرى آية مثلها.

قال أبو رجاء: وسئل عنها عكرمة [12] فقال: ثنى الله فيه القضاء.

قال: حدثنا حجاج [13] عن ابن جريج [14]، عن مجاهد [15] في قوله: ﴿ مُّتَشَابِهًا ﴾ قال: يصدق بعضه بعضا قال: القرآن كله مثاني، أبو سعيد [16].

فتثنية القرآن تعود للشيء قد قاله.

قال حدثنا سفين عن معمر عن قتادة: مثاني. قال: قد ثناه الله تعالى.

قال: حدثنا وكيع [17] عن سفيان [18] عن منصور [19] عن أبي مالك [20] قال: القرآن كله مثاني.

قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج قال:

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

(الزمر: ٢٣)

قال: إذا سمعوا ذكر النار والوعيد، اقشعروا ثم تلين جلودهم إذا سمعوا ذكر الجنة.

قال: حدثنا أبو سفيان عن معمر قال: تلا قتادة:

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

(الزمر: ٢٣)

فقال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل، هذه صفة الذين آمنوا، وكيف حزنهم ورجاؤهم.

ووصف الذين أوتوا العلم، علم كتابه من قبل أن ينزل القرآن، فقال جل وعز:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

(الإسراء: ١٠٧، ١٠٩)

وقال عزّ وجلّ:

﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾

(مريم: ٥٨)

يخبر تبارك وتعالى، أن وجل الذين أوتوا العلم من قبلنا ومخافتهم كانت عن فهم آياته في كتابه وتدبر قوله، وقد ضمن جل وعز لأمة محمد ﷺ، أن لمن اتبع منهم ما في كتابه من الهدى، الإجارة من الضلالة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، والنجاة من الشقاء، وقال جل وعز:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣)

قال: حدثنا أبو النضر [21] قال: حدثنا عيسى بن المسيب البجلي [22] قاضي خالد، قال: حدثنا خالد بن عبدالله [23] عن إبراهيم النخعي [24] قال: قال ابن عباس [25]، أجير صاحب القرآن من الضلالة في الدنيا، والشقاء يوم الحساب، ثم تلا:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣)

وعظمت العلماء بالله - عز وجل - ما أنزل في كتابه لتعظيمه له، إذ سمعوه يقول تبارك وتعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(الرعد: ٣١)

قال: حدثنا الحسن بن محمد [٢٦] قال. حدثنا شيبان [٢٧] عن قتادة في قوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(الرعد: ٣١)

قال: ذكر لنا أن قريشًا قالت للنبي ﷺ: إن سرك أن نتابعك، فسير لنا جبال تهامة، ووسع لنا في حرمنا نتخذ قطايع وبساتين، وأحي لنا فلانًا وفلانًا، أناسًا ماتوا في الجاهلية، فإن تابعوك، وآمنوا بك تابعناك وآمنا بك، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية. فلو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم هذا، وكلم به الموتى. وسماه برهانًا، ونورًا، ورحمة، وموعظة وبيانًا، وحقًا، ومجيدًا، وبصائر وهدى، وفرقانًا، وشفاء لما في الصدور.

فعظمه عند المؤمنين، ليعظموا قدره ويفهموه، لينالوا به شفاء قلوبهم.

وقال جل وعز:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الحشر: ٢١)

وأخبر جل وعز، بعظيم قدره، وضرب الجبل مثلًا لقلوب المستمعين له، ليعقلوا فيتدبروا آياته، ويتفكروا في عجائبه. فضرب هذا المثل فدل به أن من لم يفهم عنه ما أنزل في كتابه، أن قلبه أقسى من الحجر الأصم، وأن ما فيه تتصدع الجبال لو فهمته، خشية للمتكلم به، يعظم بذلك قدره وقدرنا فيه، ويبين لنا أن القلوب تخشع لفهمه، وتخاف الله جل وعز؛ لعقلها ما أخبر به وأخبرنا، أن الجبال الرواسي لو أنزل عليها كلامه لتصدعت خاشعة لتعظيمه.

وأخبرنا أنه أحسن من كل حديث ومن كل قصص، وقال:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

(يوسف: ٣)

ثم أخبرنا جل وعز أنه قد انتهى في الحكمة، فقال:

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

(القمر: ٥)

وأخبر أنه لا مبدل لكلماته، وأخبر أنه لا يفنى ولا ينفد، فقال جل وعز:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾

(الكهف: ١٠٩)

وسمى الله عز وجل نفسه فقال:

﴿ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

(الشورى: ٥١)

وسمى كلامه فقال:

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

(الزخرف: ٤)

حدثنا سنيد، قال: حدثنا سفيان عن معمر عن قتادة قال: فإن استخففتم به فإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم.

وسماه بأحسن الأسماء وأعلاها، إنما سمى به نفسه فقال:

﴿ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾

(فصلت: ٤١)

ثم أخبر أن ما قبله من الكتب مصدق له، وشاهد له، وأنه لا يأتي من عنده كتاب أبدًا يبدل حكمه، ولا ينسخ أمره ونهيه، فقال عز وجل من قائل:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤٢)

فأخبر أنه منعه من الخلائق أن ينقصوا منه أو يزيدوا فيه، أو يحرفوه كما حرفت الكتب من قبله.

حدثنا سنيد قال: حدثنا سفين عن معمر عن قتادة في قوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤١، ٤٢)

قال: الشيطان لا يستطيع أن يبدل منه حقًا ولا يحق به باطلًا.

قال حدثنا حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد، قال: الباطل الشيطان.

قال ابن جريج: (لا يأتيه الباطل من بين يديه)، قال: ليس فيما قصصنا على محمد ﷺ فيما كان قبله باطل، ولا من خلفه مما قصصنا عليه مما هو كائن بعده من الدنيا والآخرة.

قال حدثنا حجاج عن حمزة الزيات[٢٨]، عن أبي مختار الطائي [٢٩] عن ابن أخي الحارث، عن الحارث [٣٠] قال: دخلت المسجد، فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث فأتيت عليًا [٣١] رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين: إن الناس قد وقعوا في الأحاديث قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم.

قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنها ستكون فتنة) قلت: وما المخرج يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله عز وجل، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس فيه

الألسن، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن رد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

(الجن: ١)

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم». قال: خذها إليك يا أعور.

قال: وإنما احتاج التالي له إلى الأحاديث عن قول العلماء الحكماء بالحكمة والموعظة الحسنة، حين ضيع منهم كتابه وطلب معانيه، ولولا ذلك لكان كأحد العلماء الذين يقولون بالحكمة، ويتعظون بالتقوى، لأن فيه معاني التعظيم، وما ينال به اليقين، ويستدل به على كل خلق كريم.

قال: حدثنا خلف بن هشام البزار[٣٢]، قال: إسماعيل بن عياش عن حجاج عن مروان الكلاعي[٣٣]، وعقيل بن مدرك[٣٤] السلمي يرفعانه إلى أبي سعيد الخدري[٣٥]، أن رجلا أتاه، فقال: يا أبا سعيد، أوصني، فقال: سألت رسول الله ﷺ من قبلك، فقال: (أوصيك بتقوى الله عز وجل؛ فإنها رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض، وعليك بالصمت إلا في حق، فإنك تغلب الشيطان).

قال: وحدثنا يزيد بن هارون[٣٦] قال: أخبرنا حماد بن سلمة[٣٧] عن عاصم بن بهدلة[٣٨] عن معتب[٣٩] عن كعب[٤٠] قال: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عز وجل.

قال: وحدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا زياد[٤١]، قال: حدثنا الحسن، قال: لما أحس جندب[٤٢] بقدوم طلحة والزبير[٤٣] وخاف القتال فخرج يريد الحجاز، فتبعه قوم، أو قال ناس، فجعلوا يقولون: أوصنا، فقال: اقرأوا القرآن، فإنه نور الليل المظلم، وضياء النهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة.

قال: وحدثنا إسحاق بن عيسى[٤٤]، قال: حدثنا محمد بن طلحة[٤٥] عن معن بن عبدالرحمن[٤٦] عن عبد الله بن مسعود[٤٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كل مؤدب يحب أن يؤدى أدبه، وإن أدب الله القرآن».

وحدثنا خلف بن هشام، قال: حدثنا عبدالوهاب الخفاف[٤٨] عن سعيد[٤٩] عن قتادة في قوله:

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

قال: القرآن.

قال: وسمعت الكلبي[٥٠] يقول: هي النبوة، قال: فذكرت ذلك لداود بن أبي هند[٥١]، فقال: إن النبوة لحسن، ولكنه القرآن[٥٢].

هوامش المقال

١- الحارث بن أسد المحاسبي (١٦٥ - ٢٤٣ هـ / ٧٨١ - ٨٥٧م) إمام جمع بين التصوف والسلفية والعقلانية.

٢- في الأصل: منقادون.

٣- في الأصل: خاشعون.

٤- في الأصل: الأعمال.

٥- عبدالله بن المبارك (١١٨ - ١٨١ هـ) ابن واضح الحنظلي التميمي مولاهم، أبو عبدالرحمن المروزي، إمام، ثقة. روى عن الأعمش وهشام بن عروة والثوري وشعبة والأوزاعي وابن جريج ومالك والليث وخلق كثير. وعنه: الثوري وابن عيينة وفضيل بن عياض وابن مهدي والقطان وابن راهويه وابن معين وابناء أبي شيبة. أجمع الأئمة على جلالته في العلم والورع والزهد. قال الأسود بن سالم: إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام. له ترجمة في: ابن سعد ٧/١٠٥، مشاهير علماء الأمصار ١٩٤، العبر ١/٢٨٠، الحلية ٨/١٦٢، تهذيب التهذيب ٥/٣٨٢.

٦- ربما كان معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي، روى عن محمد الباقر، وفاطمة بنت علي وعنه وكيع وأبو أسامة وأبو نعيم، له حديث في البخاري. قال أبو زرعة: ثقة. تهذيب التهذيب ١٠/٢٤٩.

٧- الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ) عالم الإسلام العظيم. مشاهير علماء الأمصار ص٨٨.

٨- سفين هنا سفيان الثوري، الذي نترجم له فيما بعد. ولنا على ذلك دليلان:

(١) أنه في تفسيره المطبوع في الهند، والذي اطلعنا عليه يذكر اسمه في أول الإسناد دائماً بصيغة التصغير «سفين».

(٢) أن الحديث هنا مروي بطريق سعيد بن داود عن سفين، ولا نجد بين شيوخ سعيد من يسمى «سفيناً»، بل نجد سفيان الثوري. تهذيب التهذيب ٤/٢٤٤. أما ما يرويه الحارث في الصفحات القادمة عن معمر بطريق أبي سفيان، فالمقصود به: طريف بن شهاب البصري، الذي ضعفه العلماء. تهذيب التهذيب ٥/١١.

٩- قتادة بن دعامة السدوسي (٦١ - ١١٧ هـ). كان ثقة مأموناً حجة في الحديث، وكان يقول بشيء من القدر. ترجمته: ابن سعد ٧/٢، مشاهير علماء الأمصار ص٩٦، العبر ١/١٤٦، الميزان ٤/٣٨٥، تهذيب التهذيب ٨/٣٥١.

١٠- إسماعيل (-٢٣٦ هـ) ابن إبراهيم البغدادي تتلمذ عليه أيضاً أحمد بن الحسن بن عبدالجبار الصوفي، تلميذ المحاسبي. كان صاحب سنة وفضل وخير كثير. تهذيب التهذيب ١/٢٧٦. أو هو إسماعيل بن عياش (-١٨٢ هـ) الذي روى عنه الحارث فيما بعد بطريق خلف بن هشام البزار.

١١- أبو رجاء (-١٠٠ هـ) العطاردي، عمران بن تيم التميمي. أسلم شاباً، وروى عن الصحابة. ترجمته: ابن سعد ٧/١٠٠.

١٢- عكرمة: مولى ابن عباس، أحد أوعية العلم، تكلم فيه لرأيه لا لحفظه، فاتهم برأي الخوارج، فاختلف العلماء في شأنه اختلافاً شديداً. ميزان الاعتدال ٣/٩٣.

١٣- ابن حماد بن سلمة، المحدث المشهور.

١٤- ابن جريج (٨٠ - ١٥٠ هـ) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الرومي، مولى بني أمية، أخذ عن عطاء وطبقته، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز. قال أحمد: كان ابن جريج من أوعية العلم. العبر ١/٢١٣.

١٥- مجاهد (٢٠ - ١٠٣ هـ) ابن جبر، أبو الحجاج المكي، أخذ عن ابن عمر وابن عباس. كان أعلم أصحابه بالتفسير. العبر ١/١٢٥.

١٦- أبو سعيد: الحسن البصري.

١٧- وكيع بن الجراح (-١٩٧ هـ) كان ثقة، مأموناً، رفيعاً، كثير الحديث، حجة. ابن سعد ٦/٢٧٥.

١٨- سفيان (٩٧ - ١٦١ هـ) ابن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث، ومن أعاظم العلماء في كل العصور. ابن سعد ٦/٢٥٧، تهذيب التهذيب ٤/١١١، العبر ١/٢٣٥، مشاهير علماء الأمصار ١٦٩، الحلية ٦/٣٥٦، سفيان الثوري. د. عبدالحليم محمود.

١٩ ـ منصور بن المعتمر (ـ ١٣٢ هـ) كان ثقة مأموناً كثير الحديث، رفيعاً عالياً. ابن سعد ٦/٢٣٥.

٢٠ ـ أبو مالك الأشجعي (ـ ١٤٠ هـ) سعد بن طارق، روى عن أنس وصحابة آخرين، وعنه يزيد بن هارون وشعبة والثوري وعباد بن العوام. مشاهير علماء الأمصار ١٠٧، ميزان الاعتدال ٢/١٢٢، التهذيب ٣/٤٧٢.

٢١ ـ أبو النضر (١٣٤ ـ ٢٠٧ هـ) هاشم بن القاسم بن مسلم الليثي البغدادي، روى عن شعبة وسفيان وابن الماجشون وخلق. وعنه: إسحق، وابن حنبل، وابن المديني، وابن معين، وابن أبي شيبة، وأبو خيثمة، وكان ثقة ثبتاً. وكنا قد ترجمنا له بين شيوخ الحارث بحسبانه «أبا نصيرة»، والصحيح ما أثبتناه هنا. استناداً إلى تهذيب التهذيب ٦٨/١١.

٢٢ ـ عيسى بن المسيب البجلي الكوفي. قال يحيى والنسائي والدارقطني: ضعيف. وتكلم فيه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. وقال أبو داود: هو قاضي الكوفة، ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/٣٢٣.

٢٣ ـ خالد بن عبدالله بن أسد القسري، والي العراق لهشام بن عبدالملك، من (١٠٦ ـ ١٢٠ هـ) قتل سنة ١٢٠ هـ على يد يوسف بن عمر، الذي خلفه على ولايته. البداية والنهاية ١٠/١٧.

٢٤ ـ إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي (٤٦ ـ ٩٦ هـ) قال الشعبي: والله ما ترك بعده مثله لا بالكوفة ولا بالبصرة ولا بالشام ولا بالحجاز، كان إماماً ـ ثقة، ثبتاً، شديداً في دينه طبقات ابن سعد ١٨٨/٦.

٢٥ ـ عبدالله بن عباس (٣ ق. هـ ـ ٦٨ هـ) الإصابة ٤/٩٠.

٢٦ ـ الحسن بن محمد بن عثمان الكوفي: منكر الحديث، روى عن الثوري وشريك وعافية القاضي، وعنه إسماعيل بن بهرام، والنضر بن سعيد الحارثي. الميزان ١/٥٢١، التهذيب ٢/٣١٩.

٢٧ ـ شيبان بن عبدالرحمن (ـ ١٦٤ هـ) التميمي مولاهم، النحوي، أبو معاوية، البصري، المؤدب، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى بغداد، روى عن خلق منهم قتادة، رضيه الأئمة: طبقات ابن سعد ٦/٣٦٢، تاريخ بغداد ٩/٢٧١، ميزان الاعتدال ٢/٢٨٥، تهذيب التهذيب ٤/٣٧٣.

٢٨ ـ حمزة بن حبيب (٨٠ ـ ١٥٦ هـ) أبو عمارة الكوفي الزيات، شيخ القراء، أحد السبعة الأئمة. إليه المنتهى في الصدق والورع والتقوى، وهو صدوق في الحديث لكنه يخطئ فيه. طبقات ابن سعد ٦/٢٦٨، مشاهير علماء الأمصار ١٦٨، ميزان الاعتدال ١/٦٠٥، تهذيب التهذيب ٣/٢٧.

٢٩ ـ أبومختار الطائي، قيل اسمه سعد الكوفي، روى عن ابن أخي الحارث الأعور، وشريح القاضي، وسعيد بن جبير، وأبي البختري، وعنه حمزة الزيات وشريك القاضي لم يعرفه ابن المديني، وأبوزرعة والترمذي. تهذيب التهذيب ٨/٢٢٦.

٣٠ ـ الحارث (ـ ٦٥ هـ) بن عبدالله الأعور، من كبار علماء التابعين على ضعف فيه. كان له قول سوء، وهو واه في رواياته. قال الشعبي: حدثني الحارث الأعور، وكان كذوباً. وقال حصين: ما كذب على أحد من هذه الأمة ما كذب على. ورجح الذهبي أنه كان يكذب على عليّ فقط لا على رسول الله. طبقات ابن سعد ٦/١١٦، ميزان الاعتدال ١/٤٣٥. وابن أخي الحارث: عن الحارث عن علي. وعنه أبو المختار الطائي، لم يسم هو ولا أبوه. تهذيب التهذيب ١٢/٣١٧.

٣١ ـ علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين (٢٣ ق. هـ ـ ٤٠هـ): ابن سعد ٦/٦.

٣٢ ـ خلف بن هشام البزار (ـ ٢٢٩ هـ) روى عن جماعة من الثقات، وروى عنه كثيرون. قال عنه الإمام أحمد، هو عندنا الثقة المأمون. تهذيب التهذيب ٣/١٥٦.

٣٣ ـ مروان الكلاعي الهمداني ابن سالم المقفع، روى عن ابن عمر وغيره من الصحابة. ذكره ابن حبان في الثقات: تهذيب التهذيب ١٠/٩٣.

٣٤ ـ عقيل بن مدرك السلمي: روى عن لقمان بن عامر الوصابي، وجماعة. وروى عنه: صفوان بن عمر، وإسماعيل بن عياش، وبقية بن الوليد: تهذيب التهذيب ٧/٢٥٥.

٣٥ ـ أبو سعيد الخدري، الصحابي الجليل: سعد بن مالك بن سنان (١٠ ق. هـ ـ ٦٥ هـ): الإصابة ٣/٨٥.

٣٦ ـ ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث. ص١٦ ـ ١٧.

٣٧ ـ حماد بن سلمة (ـ ١٦٧ هـ) الإمام، العلم. كان إماماً في العربية، فقيهاً وفصيحاً، مفوهاً مقرئاً شديداً على المبتدعة. له مؤلفات. طبقات ابن سعد ٧/٣٩، مشاهير علماء الأمصار ١٥٧، الميزان ١/٥٩١، العبر ١/٢٤٨، التهذيب ٣/١١، البداية والنهاية ١٠/١٥٠.

٣٨ ـ عاصم بن بهدلة (ـ ١٢٨ هـ) هو ابن أبي النجود المقرئ المشهور، كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في الحديث: تهذيب التهذيب ٥/٣٨.

٣٩ ـ معتب: قيل إن اسمه مغيث، وهو مولى جعفر الصادق، وكان كذاباً: الميزان ٤/١٤٢.

٤٠ ـ كعب الأحبار (٧٢ ق. هـ ـ ٣٢ هـ) يهودي، أسلم في خلافة عمر، وكان كثير النقل عن أهل الكتاب، فاتهم بالكذب. ابن سعد ٧/١٥٦، التهذيب ٨ / ٤٤٠.

٤١ ـ زياد بن حسان بن قرة الباهلي البصري، وهو زياد الأعلم، روى عن أنس والحسن البصري، وثقه العلماء، وهو من قدماء أصحاب الحسن: تهذيب التهذيب ٣/٣٦٢.

٤٢ ـ جندب بن عبدالله (ـ ٦٥ هـ) بن سفيان البجلي ثم العلقي، يكنى أبا عبدالله، له صحبة، روى عن حذيفة، وعنه: الحسن وابن سيرين وغيرهما. تهذيب التهذيب ٢/١١٧.

٤٣ ـ طلحة بن عبيد الله، (٢٨ ق. هـ ـ ٣٦ هـ) الصحابي الجليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة: الإصابة ٣/٢٩٢، والزبير بن العوام (١٢ ق. هـ ـ ٣٦ هـ) الصحابي الكبير، قال فيه عمر: الزبير ركن من أركان الإسلام. الإصابة ٣/٥.

٤٤ ـ إسحاق بن عيسى (١٤٠ ـ ٢١٥ هـ) البغدادي، روى عن مالك والحمادين وشريك وهشيم، وعنه جماعة، وثقه العلماء. ابن سعد ٧/٨٣، التهذيب ١/٢٤٥.

٤٥ ـ محمد بن طلحة (ـ ١٦٧ هـ) بن مصرف، روى عن أبيه وجماعة، وقد ضعفه بعض العلماء. الميزان ٣/٥٨٨.

٤٦ ـ معن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، روى عن أبيه وعن جده بالواسطة وعن أخيه القاسم، وكان قاضياً على الكوفة كان ثقة، ديناً: ابن سعد ٦/٣٦٣.

٤٧ ـ عبدالله مسعود (ـ ٣٢ هـ) صحابي جليل، أسلم قديماً، قال فيه رسول الله: إنك لغلام معلم. الإصابة ٤/١٢٩.

٤٨ ـ عبدالوهاب بن عطاء الخفاف (ـ ٢٠٤ هـ) أبو نصر العجلي البصري، سكن بغداد، وكان مستملي سعيد بن أبي عروبة. أكثر العلماء على قبوله: التهذيب ٦/٤٥٠.

٤٩ ـ سعيد بن أبي عروبة (ـ ١٥٥ هـ) كان ثقة، كثير الحديث، ثم اختلط في آخر عمره، وهو من أوائل من ألفوا في الحديث. طبقات ابن سعد ٦/٣٢، مشاهير علماء الأمصار ١٥٨.

٥٠ ـ محمد بن السائب الكلبي، الكوفي، المفسر، النسابة، الإخباري، ضعفه الأئمة، وردوا حديثه. ميزان الاعتدال ٣/٥٥٧.

٥١ ـ داود بن أبي هند (ـ ١٣٧ هـ) واسمه أبي هند دينار. كان من أهل الورع والفضل روى عن أنس بالواسطة. مشاهير علماء الأمصار ١٥١.

٥٢ ـ من كتاب (فهم القرآن ومعانيه) للحارث المحاسبي تحقيق: د. حسين القوتلي. طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م.

***

سرائر القرآن



للعلامة مصطفى صادق الرافعي

خرج في الأستانة القديمة.. كتاب جليل للقائد العظيم والعالم الرياضي الفلكي المشهور الغازي أحمد مختار باشا رحمه الله، أسماه «سرائر القرآن»، وبناه على سبعين آية من كتاب الله تعالى فسرها بآخر ما انتهى إليه العلم الحديث في الطبيعة والفلك، فإذا هي في القرآن منطق السماء عن نفسها، لا يتكذب ولا يزيغ ولا يلتوي، وإذا هي تثبت أن هذا الكتاب الكريم سبق العقل الإنساني ومخترعاته بأربعة عشر قرناً إلى زمننا، وما ذاك إلا فصل من الدهر، وستعقبه فصول بعد فصول[1].

ومعلوم أن الزمن تقسيم إنساني محض يلائم وجود الإنسان وفناءه على هذه الأرض المحدودة بمادتها وأجلها، وإلا فليس في الحقيقة أزمان تبتدئ، أو تنتهي، فإذا ثبت للقرآن المجيد سبقه ما تتوهمه زمناً وتقدمه حدوداً من آخر حدود العقل الإنساني، على حين أنه أنزل في حدود غيرها بعيدة ضعيفة لا علم فيها ولا آلات علم - فحسبك بذلك وحده برهاناً على أن هذا الكتاب جملة من الأزل تحولت في معنى ومنطق، وجاءت لغرض وغاية، ولا مست الناس لتكون فيهم سبباً لرسوخ الإيمان، ثم نظاماً للإيمان نفسه، ومتى رسخ الإيمان فقد رسخ العالم كله في النفس الإنسانية. وهذا عندنا من بعض السر فيما جاء في الكتاب الكريم من آيات السموات والأرض والنظر والاستدلال، ومن طرق التعبير، التعبير النفسي بالأمثال والقصص ونحوها.

ثم إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلاً على إعجاز آخر فهو بذلك يومئ، إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل، وأن الإنسانية ذاهبة في أرقى عصورها إلى هذا المذهب، وأن الدين سيكون عقلياً، وأن العقل هو آخر أنبياء الأرض، فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك في الزمن بأربعة عشر قرناً، شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة، فإن أسفر الصبح وبقي بعض الناس نياماً لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمى النوم في أعينهم. وآخرون لا يرونه من نوم العمى في أعينهم والصبح فوق هؤلاء وهؤلاء

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾

(الأنعام: ١٠٤)

قال الغازي في مقدمة كتابه[2]: «وفي القرآن غير ما يكفل للهيئة الاجتماعية سعادتها وسلامتها في معاشها ومعادها مما حواه من الدساتير الأخلاقية والقضائية والإدارية والسياسية وعظة الأمثال والقصص - فيه إشارات وآيات بينات في مسائل ما برحت العلوم الطبيعية تحاول الكشف عن كنهها منذ عصور، ولاسيما في علم التكوين والتخريب «القيامة» الذي دل الآن بنظريات الإخصائيين من علماء الفلك ومباحثهم ومشاهداتهم في طور التقدم والارتقاء وإنك لا تكاد تقلب من المصحف الشريف بضع صفحات حتى تجد آية في أسرار الكائنات وأحوال السماء منظومة في نسقها بمناسبة من أبدع المناسبات.

قال: «وقد فهموا من علم الهيئة السماوية عظمة الله تعالى بعظمة الأجرام التي كانوا يحسبونها نقطاً صغيرة منثورة في السماء، خذ لذلك مثلاً: إدراك عظمة الشمس وكوكب الشعرى بالنسبة إلى الأرض، فإن هذه الأرض إذا نحن فرضناها فرضاً بحجم الحمصة، تكون مساحة الشمس بالنسبة إليها كمساحة مائدة مستديرة طول قطرها ذراع فرنسية، ومساحة سطح كوكب الشعرى الذي قال الله فيه

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾

(النجم: ٤٩)

تبلغ مائة ذراع فرنسية بالقياس إلى تلك الحمصة[3].

ومما أفدناه من تلك المباحث أن عالمنا الناسوتي الذي تسميه «العالم الشمسي» - وتؤلفه طائفة مستقلة من الأجرام السماوية تعد بالمئات أهمها شمسنا المنيرة وأرضنا وأخواتها من السيارات وما يتبعهن من النجوم ذوات الأذناب - يدور بسرعة عشرين ألف ذراع فرنسية في الثانية الواحدة، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له، كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾

(يس: ٣٨)

وأن المجرة العظمى المحيطة بالسماء[4][5]

---

(١) انظر كتاب «الإسلام والطب الحديث» للطبيب المصري الشهير عبدالعزيز إسماعيل باشا.

(٢) وضع هذا الكتاب النفيس بالتركية، وقد أخذ ترجمته صديقنا الأستاذ البحاثة محب الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء والفتح، ومن خطه لخصنا هذه الكلمات.

(٣) من هذا الشرح تعلم عظمة الإضافة في هذه الآية الكريمة وسرها.

(٤) قلنا: تأمل هذا التنكير في قوله «لمستقر» فهو يشعرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتومة، فما الشمس بمؤلة إذا كان لها استقرار، فهي محطة فانية، ثم قوله «لها» هو الذي يعني أنها تجري في اللانهاية؛ لأن المستقر غير مطلق بل هو لها ثم التعبير بالفعل «تجري» دون غيره «من نحو تسير أو تدور إلخ» هو الذي ينطوي إلى الحقيقة الفلكية التي أثبتتها الأرقام، فكل كلمة من الآية إعجاز وحده.

(٥) المجرة: سطح هائل في غاية العظم تسبح فيه ألوف ومئات من العوالم.

تحتوى مئات الألوف من العوالم الأخرى.. إلى أن قال: «إن القرآن الكريم آيات بينات عن تكوين العالم، وكيف كان هذا التكوين، وعن الأطوار التى تنقل فيها، وعن خلقة الموجودات، وأسباب الحياة، وعن آخرة كرتنا الأرضية وعاقبتها التى ستصير إليها فى النهاية، ولقد كانت معانى هذه الآيات الشريفة منظوراً إليها فيما مضى من جهة العقائد حسب، ولم يكن أحد يستطيع أن يذهب فى تأويلها مذهباً يصدر فيه عن علم، ولكن هذه الحالة قد تغيرت الآن؛ لأن الحكماء الذين نبغوا فى العصرين الأخيرين قد أبانوا بمباحثهم العلمية وما كشفوه من الغوامض الدقيقة عن قدرة الله بأجلى بيان، حتى أصبحت نظريات علم التكوين صالحة لتفسير آيات الله سبحانه وتعالى تفسيراً بديعاً، مع أنها هى فى حالتها الراهنة لم تبلغ بعد حد الكمال.

وبعد أن وصف همم علماء الفلك والرياضة، ووسائلهم ومعرفتهم المسائل الدقيقة: عن الكواكب والشموس والعوالم، وعن حقيقة هذه الكرة التى نعيش عليها، وما أفاده المجتمع البشرى من ذلك، قال:

«وأفدنا نحن معشر المسلمين فوائد عظيمة خاصة بنا؛ لأن هذه المخترعات والمستحدثات وما أدت إليه من أدلة ونظريات - قد جاءتنا ببرهان جديد على إعجاز القرآن الذى ندين الله عليه، فقرت بذلك أعين المؤمنين، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.. قال: «وسيرجع الفلكيون موحدين إذا علموا أن الأسرار العلمية التى يحسبونها جديدة، هى فى القرآن كما ظهرت لهم، ومثل من ذلك أن العالم الفلكي م. بوانكاريه، قال فى مقدمة كتابه المطبوع فى سنة ١٩١١م وهو يبحث فى دقة نظام هذه الكائنات وما فيها من مظاهر الكمال، ليس ذلك من الأمور التى يمكن حملها على المصادفة والاتفاق، وأحسب أن القدرة التى لا أول لها ولا آخر سنت للكائنات هذا النظام فى عهد ما على أن يستمر حكمه إلى الأبد، فأذعنت الكائنات لإرادتها راضية طائعة. قال الغازى رحمه الله: فأمعن أنت النظر فى هذه الكلمات وسياقها، ثم اقرأ قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

(فصلت: ١١)

وتأمل ما فى الآية من معان ورموز؛ ثم تصور ما فى ذلك من ذوق وجدانى لأهل العرفان، وقل: «تبارك الله والمنة لله».

كتاب سرائر القرآن ثلاثة فصول: الأول فى كيفية تكوين العالم ووجود الحياة، والثانى فى يوم القيامة أو خاتمة عمر الأرض، والثالث فى المباحث والآيات القرآنية المتعلقة بإعادة الخلق، وكل ذلك مطبق على نظريات وآراء الحكماء الأولين والآخرين إلى عصرنا، ثم ما يؤيد حقيقة ما انتهوا إليه من آيات القرآن الكريم. وكان الغازى يفكر فى هذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً، فرحمة الله عليه كفاء ما أحسن إلى أمته.

مع آداب القرآن



للعلامة الدكتور/ محمد عبدالله دراز

تصافح وتسامح، تواضع وتنازل، تسابق إلى الفضل والإيثار، قبول للقليل، وبذل للكثير.. ذلك هو معنى الإحسان، وذلك هو أدب المعاملة فى القرآن. شرعه الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء، وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة، التى تستحق حمده وثناءه، وتستوجب عنده جميل جزائه.

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية، على عظم قيمتها، وجزالة نفعها، سوف تبقى عملاً سطحياً، وعرضاً وقتياً، لا ثبات له ولا استقرار، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل، ما لم تصدر طوعاً واختياراً عن نفس راضية مطمئنة، غير كارهة ولا مكرهة. ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم، بل قال لهم:

﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾

[التوبة: ٥٣]

ثم بين الأسباب التى منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان من تلك الأسباب أنهم كانوا:

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

[التوبة: ٥٤]

فلكى تكون هذه الفضيلة الاجتماعية: فضيلة حقيقية، لابد إذاً أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية، مركوزة فى نفس العامل، مغروسة فى قرارة قلبه.. تلك هى فضيلة الطهر وسلامة الصدر، فضيلة الصفاء والنقاء الذى لا يشوبه غل ولا دخل، ولا حقد ولا حسد.

فضيلة المحبة الشاملة، والرحمة السابغة، التى تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم، قريبهم وبعيدهم، عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم، بل أقول مؤمنهم وكافرهم.

رحمة تقتبس من رحمة الله الذى وسعت رحمته كل شىء وشملت الكافر والمؤمن على السواء، وتتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، وتهتدى بهدى أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان.

رحمة تتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، الذى كان مضرب المثل فى شفقته على أعدائه، وحرصه على خيرهم، وخشيته من نزول العذاب عليهم. حتى كان يدعو لهم إذا آذوه، ويستغفر لهم إذا كذبوه، بل كان يبكى إذا سمع قارئاً يقرأ قول الله:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾

[النساء: ٤١]

لا أحدثك في هذا عن إحسانه إلى فقيرهم، وعيادته لمريضهم، وصلته لجيرانه منهم، وسائر أنواع بره ومواساته لهم، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها، ولسنا بصدد إثباتها وإنما أحدثك عن منبع هذه الفضيلة في نفسه الشريفة، ومدى تمكن أصلها في قلبه الكريم.. أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق، السخي الودود، هذا القلب الإنساني العالي، الذي استحق به شهادة الله له في كتابه حين يقول:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾

[التوبة: ١٢٨]

فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع، وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الأكبر، والحظ الأوفر:

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الإنسانية، شهد بها للمؤمنين الأولين، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعداؤهم لا يحبونهم. ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾

[آل عمران: ١١٩]

لا تظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا يحبهم، لا يستقيم في نسق الآية الكريمة:

﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

[آل عمران: ١١٩]

أتراه يلومنا كذلك على الإيمان بكتابهم ما داموا لا يؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقًا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فكذلك لا لوم علينا في محبتهم.

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حبًا بحب.. هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاهًا واحدًا وتسير في نظام متناسق، غير ممزق ولا متعاكس، إذ تجعل محط استنكارها في كلا شطريها آخر جزء من الكلام. على منهاج قوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾

[البقرة: ٤٤]

فليس المستنكر هو أن نأمر الناس بالبر إذا كنا لا نعمل به، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذي نعمله للغير. كذلك المستنكر ها هنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم.

ومهما يكن من أمر في تأويل هذا النص الكريم، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله في غير موضوع من كتابه المجيد، وهو أن هذه المحبة الشاملة، والرحمة السابقة، خلق من أخلاق النبوة المحمدية، وأن نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

[الأحزاب: ٢١]

ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التي نقررها، وهو أن هذه المحبة الشاملة هي الخلق الذي يرضاه الله لسائر المؤمنين. لكأني بمن يقرأ هذا البحث في هذه المحبة والرحمة النافذة العامة، يظنه حديثًا عن حلم من الأحلام، أو عن شريعة غير شريعة الإسلام، أو عن عالم غير عالم الإنسان.

نعم لكأني به يهمس الآن في أذني قائلاً:

أليس كل بشر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالي ويعادي. دلني على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادي أحدًا، أقل لك إنه إذا لا يحب ولا يوالي أحدًا، إنه ليس من البشر.. هبه خيرًا محضًا، فهو إذا يحب الحق والخير، وبالتالي يحب أهل الحق والخير ويواليهم، وهو إذا يكره الإثم والباطل، وبالتالي يكره أهل الإثم والباطل ويعاديهم. فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس الإنسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسنا تجريدًا كاملاً عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق، أليست هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا، وتكليفًا لنا بما ليس في وسعنا، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية، كيف تتفق مع واقعية الإسلام. بل مع وصايا الإسلام؟ أليس من علامة الإيمان الحب في الله، والبغض في الله؟!

****

إن في أدب القرآن، مبدأين متعارضين، أو بعبارة أدق يبدوان متعارضين في بادىء الرأي؟

المبدأ الأول:

مبدأ الفضيلة الإنسانية، والتي تتقاضانا أن نشمل الناس جميعًا برحمتنا ومحبتنا تخلقًا بأخلاق الله، الذي وسعت رحمته كل شيء، وتأسيًا برسول الله، الذي كان مضرب المثل في الشفقة على الجميع، والحرص على خير الجميع، وانتظامًا في سلك المؤمنين الأولين، الذين كانوا يحبون أهل الديانات السابقة وإن كان هؤلاء لا يحبونهم، وأخيرًا عملاً بتوجيه القرآن الكريم الذي عقد بين الناس جميعًا رحمة الأخوة النسبية، ثم جعل التذكرة بهذه الأخوة وسيلة لاستدرار عاطفة الرحمة على كل من يشاركنا فيها فقال عظمت حكمته:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾

[النساء: ١]

فوصى بصلة الأرحام كلها قريبها وبعيدها، رحمة العقيدة، ورحمة الإنسانية الجامعة.

هذه الفضيلة الإنسانية، إذا كانت فضيلة حقيقية، منبعثة عن نفس راضية مطمئنة، فإنها تقتضينا أن نحب فلا نبغض أحدًا وأن نوالي فلا نعادي أحدًا.

هذا هو المبدأ الأول. مبدأ المثالية العليا.

المبدأ الثاني:

مبدأ الواقعية العملية، الذي تتسم به وصايا القرآن في شئون التشريع عامة، وفي شأن الحب والبغض خاصة.. فالقرآن يقرر ويكرر أنه دين الفطرة، وأنه لا يحمل أحدًا فوق طاقته، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها. ومعلوم أن النفس البشرية - وقد طبعت على نزعتي الرضا

والغضب، وجبلت على غريزتي المحبة والكراهية، لا يمكنها أن ترضى عن النقيضين ولا أن تجمع بين محبة الشيء وكراهيته، كما ليس في وسعها أن تتحول من العداوة إلى المودة بمحض اختيارها. ألم يقرر القرآن نفسه أن هذا التحول ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع الله وحده؟

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾

[الأنفال: ٦٣]

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾

[الممتحنة: ٧]

فانظر كيف اعترف بوجود العداوة بيننا وبين فريق من الناس، ثم لم ينهنا عنها، ولم يأمرنا بالتخلص منها، ولكنه بعث في نفوسنا الأمل بأن عدو اليوم قد يكون حبيب الغد، إذا شاء الله. «وأنه قدير، وإنه غفور رحيم».

وتدبر كذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

[المائدة: ٨]

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٢)

فقرر وجود البغض والشنآن، ولم ينهنا عنه، وإنما نهانا أن نتخذه ذريعة للجور والعدوان، بل هناك ما هو أوضح من ذلك دلالة، ففي هذه الأمثلة ترى القرآن يكتفي بأن يترك نزعة العداوة والبغضاء على سجيتها فلا يأمر بها ولا ينهى عنها، وإنما ينهى عن لواحقها، التي تقع في حدود إرادتنا وقدرتنا، ولكننا نرى القرآن في مواطن أخرى، يأمرنا بعداوة من يستحق العداوة، وينهانا عن موادة من يستحق المودة:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(المجادلة: ٢٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

(الممتحنة: ٤)

وكذلك ترى الرسول - ﷺ - يجعل من علامة الإيمان: الحب في الله. والبغض في الله.

***

كيف نوفق إذًا بين هذه النصوص الصريحة المفصلة، وبين تلك الوصايا العامة التي تناشدنا أن نسبغ ثوب عفونا وصفحنا، وأن ننشر جناح رحمتنا ومحبتنا على الإنسانية كلها برها وفاجرها. هذه هي المشكلة الأخلاقية التي سنحاول بمشيئة الله حلها. بطريقة تلتقي بها المثالية والواقعية في هذه الوصايا المختلفة. مع بقاء المثالية فيها على عمومها وشمولها، دون أن تنقص الواقعية

منها جزئية واحدة في أي وضع فرضناه من أوضاع حياتنا الاجتماعية.

فالناس معنا في هذه الحياة على أحد أوضاع ثلاثة:

- إما أن يكونوا سلمًا لنا ولمبادئنا، كافين أذاهم عنا وعن أمتنا.
- وإما أن تبدو منهم بادرة أذى تنال أشخاصنا فحسب.
- وإما أن ينتهكوا حرمة من حرماتنا المقدسة في حق الله أو في حق الجماعة.

فلنعالج هذه الأوضاع الثلاثة، لننظر كيف نستطيع أن ننطوي على محبة الناس جميعها في كل وضع منها.

لنبدأ من هذه الأوضاع بأيسرها وأطوعها لمبدأ المحبة المثالية العالمية، ألا وهو الوضع الأول: المسالم المحايد.

قدر في نفسك أنك قد استيقظت في الصباح من نومك، وأخذت تستعد لخوض غمار الحياة في يومك.. فسل نفسك إذًا: على أي قاعدة تريد أن تخالط الناس وتعاشرهم؟ أتريد أن تتخذهم مقدمًا عدوا لك تبدؤهم بالعداوة قبل أن يبدءوك؟ أتعجل عداوتهم ارتجالاً؟ أتبيعهم أياها بالمجان؟

ليت شعري كيف ينطوي على هذه النية إنسان؟

اللهم إلا أنى كون أحد رجلين:

«رجل أفسد سوء الظن فكره وخياله، فجعل يتصور نفسه أمام قطيع من الوحوش الكاسرة، فلابد له أن يأخذهم قبل أن يأخذوه. وأن يرميهم بالشر قبل أن يرموه»..!

ورجل أعماه الطمع، وأكل قلبه الجشع، فجعل يظن أن كل نعمة في يد الناس إنما هي انتقاص من نعمته، وأن كل حظ ينال أحدا من الناس إنما هو استلاب من حظه، وأنه لن يكون له نصيب في الحياة إلا باسترداد ما سبقوا إليه من حظ ونعمة.. نظرات مريضة، ترى الإنسانية من خلال منظار أسود قاتم! هذا ينظر إليها نظرة القانص إلى فريسته، وذاك ينظر إليها نظرة الفريسة إلى قانصها.

كلا! ما هكذا ينظر أرباب الطباع الكريمة، ولا أصحاب العقول السليمة. وإنما ينظرون إليها نظرة الطير إلى عشه الذي يؤويه، وإلى أجنحته التي يطير بها.

فكذلك فلتكن نظرتنا إلى أفراد أسرتنا الإنسانية، نظرة كل فرد منا في أسرته الخاصة إلى أمه وأبيه، وأخوته وبنيه، نظرة قوامها الحنان والرحمة والاستبشار والتفاؤل، والعطف وحسن الظن، نظرة إن خالطها الحذر حينا، فإنها في انطلاقتها الأولى نقية بريئة، سليمة من كل غل وضغينة.

هذه النظرة المحبة الرحيمة، الشاملة السابغة، ليست داخلة في حدود الإمكان وحسب، ولكنها واقعية عملية تعرفها القلوب الراضية المطمئنة، وإنها عند الله لأفضل من كثير من الصلاة والصيام.

إن رسول الله بشر رجلاً من الأنصار بالجنة ثلاث مرات في ثلاثة أيام متواليات. فأخذ عبدالله بن عمرو يحتال لمعرفة سيرة الرجل وعمله الذي استحق به هذه البشارة. فلم يجد له امتيازًا في نوافل العبادات. فسأل الرجل عن شأنه فقال له:

«يا عبد الله.. هو ما قد رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد..»!

الوحى القرآنى



للمستشرق الإنجليزى/ مونتجومرى وات

إن جزءاً من أهداف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين بمفهوم الإسلام للوحى، وتعريف الذين لم يدركوا منهم حتى الآن أن الوحى الإسلامى مسألة لابد من تناولها بجدية.

إن القرآن الكريم ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين، وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجّه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبله بشر من كل الأجناس تقريباً.

وهذه الفكرة نفسها عن «الوحى» اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون، فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس هى كلمات الله نفسه، إلا أنهم - عادة - لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كتّاب الأناجيل، وإنما يلقى فى روع هؤلاء الكتاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقاً، فالأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد: «هكذا يقول الرب»؛ لذا، فلابد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات إنما هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقاً.

إننى أعتقد أن القرآن بمعنى من المعانى صادر عن الله، وبالتالى فهو وحى..

وكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد «حواراً» بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين، فإن هذا يعنى أنه من المستحيل الاستمرار فى الأداء بوجود «وحى» أو «رسالة» أو «ديانة» مسيحية دون الاعتراف «بشىء» من الصحة «للوحى» أو «الرسالة» أو «الديانة» الإسلامية.

والمنهج الذى أتّخذه فى هذه الدراسة، هو أن أصل بقدر ما أستطيع إلى مستوى الحقيقة الخالصة، ولن أتعرض للقرآن باعتباره من إنتاج محمد، وإنما باعتباره وحياً.

***

كيف وصلت هذه الكلمات التى كونت التجربة الأولى إلى وعى محمد أو شعوره؟

إننا نؤمن بصدقه وإخلاصه، عندما يقول إنها ليست نتيجة أى تفكير واعٍ منه.

إن التجربة النبوية مع الوحى يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١- محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، أن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢- وإن هذه الكلمات والأفكار لم تكن قط نتيجة أى تفكير واعٍ من جانبه.

٣- إنه يعتقد أن هذه الكلمات أُلقيت فى روعه «عقله» من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجى يتحدث إليه كملك.

٤- إنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

هذه الملامح الأربعة الرئيسية موجودة فى كل حالات الوحى، كما وردت فى القرآن الكريم.

إن الكلمات المنزّلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى، وأن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك، وأن يقيناً جازماً كان يمتلك فؤاده بأن هذه الكلمات هى من الله.

لقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهى حاضراً فى وعيه، فلما تمت كتابته شكل النص القرآنى الذى بين أيدينا.

وكان محمد واعياً تماماً أنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله، وبتعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز «أو يفصل» بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعى، الأمر الذى يعنى أن القرآن الكريم لم يكن -بأى حال من الأحوال- نتاج تفكير محمد. وهذا يعنى أنه سيكون من الخطأ أن نقول، فى مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم: إن محمداً قال.

إلا أن بعض الدارسين الأوروبيين فى الماضى تحدثوا كما لو أن محمداً قد فعل ذلك، وهذه الطريقة فى الحديث تدعو للأسف، فهى طريقة غير علمية، لم تضع فى اعتبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد فى تلقى الوحى.

لكن فى مجتمعنا المعاصر، الذى يسوده جو التداخل بين الأديان، يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذه النحو.

إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية.. وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى؛ لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن كلمة «آية» تعنى علامة على القدرة الإلهية وتعنى أيضاً فقرة من الوحى.

>>>

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق

(١) مونتجومرى وات: الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر، ص ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٥٥ - ٨٢، ٦، ٢-٦، ١٧.

محمد، تمامًا كما فعل «ورقة بن نوفل» (١٢ ق. هـ/ ٦١١م) (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد)، ومن هنا يمكن أن نقول : إن إشارة القرآن إلى «تحريف» لحق اليهودية والمسيحية – بصورتهما الموجودة أيامه – قول صحيح) .

ثراء القرآن.. وجدته.. وأصالته.. وحفظه ومحوريته فى الثقافة الإسلامية

ثمة عدة نقاط تعد بمثابة عناصر أصالة وتميز فى القرآن، نظرًا لأن فكرة الوحى وتلقى الرسالة قد تطورت فى القرآن.

إنه إذا اكتشفنا شيئًا من عدم التناسق المنطقى Inconsistency فى القرآن، فهذا دليل على ثرائه وخصوبته، ودليل على سمو مشعر (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر، أو غير المجدى Barren Conceptual Thoughtومن هنا قد نجد «معنيين» أو «تقريرين» مختلفين -Incosis tentلأن أحدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة «موضة» تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوروبا الغربية – التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام – أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

وإذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخى، حتى بصدد مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل، لوصلنا إلى نتائج خاطئة، وعلى أية حال، فافتراض أن محمدا قام بدعوته فى فراغ، أى دون مراعاة لظروف العالم وقتها، فرض غير علمى، عندما ننظر للقرآن والعهدين «القديم والجديد» فى السياق التاريخى، نجد أن الأمور تسير فى اتجاه آخر، أو تصل بنا إلى نتائج أخرى، أو تتخذ ملامح مختلفة، فنبى العهد القديم – هو بدوره – لم يحدثنا من فراغ عقلى، إنما راعى الحياة العقلية والثقافية السائدة، وبالقياس نفسه يجب أن ننظر إلى محمد ودعوته، فالرسالة الأصيلة والجديدة لكل نبى هى تلك الرسالة التى تتوائم مع كثير من الأفكار، وتعبر عن نفسها باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة، وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها.

وهكذا يُظهر القرآن أصالته، ولو لم يكن إلا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلا على الأصالة.

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان، أن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية، وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة.

يؤكد القرآن الكريم أن الرسالة التى حملها محمد لشعبه كانت هى نفسها الرسالة التى حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم، وعلى أية حال، فإن هذا التماثل ينطبق على أساسيات الرسالة، كالإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة، وحتى الأفكار التى اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية، فإنها قد اتخذت شكلا عربيًا واضحًا.

إن القرآن كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد «الإسلام».

على أن تفحُّص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تمامًا للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم ولم تكن مجرد عقائد سابقة «يهودية أو مسيحية».

وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم فى مرحلة نقائه الأولى. إن القرآن يقرر لنا أن الإسلام هو دين مطابق لدين إبراهيم الخالص، وهو قول يستحق النظر إليه بجدية.

***

إن كلمة (جمع) «فى الحديث عن جمع القرآن» قد استخدمت فى آيات قرآنية مهمة

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

(القيامة : ١٦ – ١٩)

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعى لهذه الآيات أن محمداً ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التى أوحى بها فى أوقات مختلفة ليجعلها فى سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتَّب القرآن بناءً على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور زيدا «زيد بن ثابت» (١١ ق. هـ – ٤٥ هـ / ٦١١ – ٦٦٥م) أو أى مسلم آخر يقوم بهذ العمل، ومن هنا، فإن كثيراً من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه، إن القرآن كان يُسجل فور نزوله، وقد جُمع رسميًا حوالى سنة (٦٥٠ م).

ورغم كثرة القراءات، فإن أيًا منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى.

والشىء نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان، فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن، بحيث تُحدث ردود أفعال مختلفة فى المجتمع الإسلامى.

***

ومهما كان الطريق الذى دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية فإن المجتمع الإسلامى لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن، وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور.

ولقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلكية واللاسلكية إلى أن أصبح إسلام المناطق البعيدة عن المركز مترافقا ومتوائما مع إسلام المناطق المركزية أو الوسطى»[٢].

(٢) مونتجومرى وات: الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر ص ٦٦، ٨١، ٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١٠٦، ١١١، ١١٢، ١٠٤، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١٢٦، ٦٠، ٦٦، ١٢٨، ٦٣، ١٧٦، ١٧٨).

اقرأ باسم ربك الذى خلق

الوحى المحمدى



للعلامة/ محمد أسد

كان محمد (ﷺ) يتعبد وحيداً، كما اعتاد أن يفعل، وعندما ظهر له الوحى فجأة.. أمره قائلاً: «اقرأ»، كان محمد (ﷺ) شأنه شأن أهل عصره وموطنه، لم يتعلم أبداً القراءة، وفضلاً عن ذلك، لم يعرف ما الذى يريده الوحى أن يقرأ، أجابه فى روع: «ما أنا بقارئ».. حينئذ، ضمه الوحى ضمة قوية شعر محمد (ﷺ) معها أنه فقد قواه، ثم أطلقه الوحى وأعاد عليه الأمر: «اقرأ»، ومرة ثانية يجيبه محمد (ﷺ): «ما أنا بقارئ»، فضمه الوحى ضمة أخرى حتى خارت قواه، وظن أنه ملاق حتفه، ثم أطلقه، ومرة ثالثة يأتيه الأمر كالرعد: «اقرأ»، وعندما أجابه محمد (ﷺ) للمرة الثالثة فى روع: «ما أنا بقارئ»، قال الوحى[1]:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١ - ٥)

وهكذا، بإشارة ضمنية من القرآن الكريم إلى وعى البشر وفكرهم ومعرفتهم، بدأ نزول القرآن الكريم على محمد (ﷺ)، واستمر نزوله على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، حتى توفى الرسول (ﷺ) فى المدينة المنورة فى سن الثالثة والستين.

إن قصة تجربته الأولى مع تجلى الوحى له، تذكر المرء بشكل ما، بمغالبة يعقوب ملاك الرب كما جاءت فى سفر التكوين من التوراة.. بينما قاوم يعقوب الملاك، واشتبك معه فى صراع، أسلم محمد (ﷺ) نفسه لضم الوحى له فى خشية ورهبة وفزع حتى «خارت قواه»، ولم يبق فيه قدرة إلا على سماع صوت لا يستطيع معه أن يحدد أكان الصوت يأتى من خارجه أم من داخله، لم يكن يعلم أن عليه منذ تلك اللحظات أن يكون ممتلئا وفارغا فى الوقت نفسه، فالبشر تملؤهم الاحتياجات والرغبات البشرية والوعى بحياتهم وذواتهم، وفى الوقت نفسه خالية متلقية لتعاليم الرسالة من الوحى، لقد تجلى أمامه كتاب الحقيقة الأزلية غير المرئى - الحقيقة التى تضفى وحدها قيمة ومعنى على كل شىء مدرك وكل حدث فى الوجود؛ طلب منه الوحى أن «يقرأ» ما يدركه البشر، وما لا يمكن أن يعرفوه بأنفسهم.

ارتاع محمد (ﷺ) من المضامين العظيمة التى تضمنتها تلك الرؤية فى أول آيات نزلت عليه، كان مثله مثل موسى عليه السلام أمام الأيكة المحترقة فى الصحراء، يشعر أنه دون ما يطلب منه، وأنه لا يستحق وضع النبوة السامى، ويرتعد أمام فكرة أن الله اختاره هو من دون غيره من البشر وقيل: إنه عاد مرتجفا إلى مكة المكرمة، ودخل بيته وهو ينادى زوجه خديجة، رضى الله عنها، قائلا وهو يرتعد: «زملينى، زملينى»، كان يرتعد مثل غصن شجرة فى مهب الريح، فدثرته بدثار، حتى سكن روعه، ثم أخبرها بما وقع له، وقال: «أنا خائف»، إلا أن خديجة، رضى الله عنها، بوضوح رؤيتها الذى لا ينتج إلا من حب، أدركت على الفور أنه خائف من عظم المسئولية التى ألقيت على عاتقه، وقالت له مطمئنة خوفه: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»، ثم انطلقت به إلى ورقة، وهو ابن عم خديجة كان يدين بالمسيحية، وكان يقرأ الكتاب المقدس بالعبرية، كان ورقة بن نوفل فى ذلك الوقت رجلاً مسناً، وكان بصره قد كف.. قالت خديجة رضى الله عنها لورقة: «اسمع من ابن أخيك»، وعندما أعاد عليه محمد (ﷺ) ما وقع له، رفع ورقة ذراعيه فى روع وخشية وقال له: «هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران، ليتنى فيها جذع! ليتنى أكون حيا لأساعدك حين يخرجك قومك!»، سأله محمد (ﷺ) فى دهشة! «أَمُخرجيَّ هم؟»، قال ورقة: «نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودى»[2].

وبالفعل، عاداه قومه على مدى ثلاثة عشر عاماً، حتى هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فقد كان أهل مكة المكرمة غلاظا قساة القلوب.

***

وعلى أى حال، هل من العسير أن نتخيل قسوة القلب التى أظهرها أهل مكة المكرمة عندما أنبأهم محمد (ﷺ) بدعوته أول مرة؟ كانوا مجردين من أى دوافع روحية، ولا يعرفون إلا النوازع المادية والحسية: لم يؤمنوا إلا بأن الحياة الجيدة لا تتحقق إلا بكسب المال والمزيد من المال، لمثل أولئك الناس تبدو فكرة تسليم أنفسهم بلا مساومة إلى دعوة أخلاقية ودينية - فكلمة إسلام تعنى حرفيا الاستسلام والتسليم بإرادة الله - دعوة مستحيلة لا يمكن قبولها.. عدا ذلك، كانت دعوة محمد (ﷺ) تهديداً مباشراً للنظام القائم

(١) ومعنى الحديث رواه البخارى فى كتاب بدء الوحى، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله (ﷺ) ج١/٢، ومسلم فى كتاب الإيمان، باب بدء الوحى إلى رسول الله (ﷺ) ج١/١٣٩ حديث رقم ٢٥٢، وأحمد فى المسند ٣/٢٢٥ و٢٧٧، و٢٣٦ و٢٣٣.

(٢) انظر التخريج نفسه فى الصفحة السابقة.

ولتقاليد القبائل، وترتيب السلطة، وكان ذلك عزيزاً على أهل مكة المكرمة.. وعندما بدأ بالدعوة إلى التوحيد، وأعلن أن عبادة الأصنام إثم عظيم، لم يروا في ذلك تهجماً على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأسلافهم فقط، بل رأوا فيها محاولة لتدمير نظامهم الاجتماعي.. على وجه الخصوص، لم يعجبهم، ولم يرضهم تدخل الإسلام في شئونهم «الدنيوية» التي رأوا أنها خارج نطاق الدين والعبادات ـ مثل الشئون الاقتصادية، والمساواة بين البشر، والسلوك الاجتماعي العام ـ وكان تدخل الدين الجديد في تلك الجوانب لا يتفق مع مصالحهم المادية، ونسق حياتهم كما يعيشونه، ومصالح قبائلهم.. كانت العقيدة جانباً شخصياً، مسألة موقف فردي أكثر من أن تكون سلوكاً اجتماعياً.

كان ما يرونه على النقيض تماماً لما دعا إليه النبي العربي (ﷺ) من إيمان.. فقد شملت دعوته الممارسات والمؤسسات والسلوكيات الاجتماعية، وكانت تصيبه الدهشة عندما يقولون له: إن الدين ليس إلا وعياً شخصياً فقط، ولا دخل له بالسلوك الاجتماعي.. كان ذلك الجانب من دعوته مكروهاً لهم أكثر من أي جانب آخر.. ولو لم تتدخل العقيدة التي يدعو إليها محمد (ﷺ) في الجوانب الاجتماعية، لربما كانت عداوتهم ورفضهم للدعوة أقل حدة.

تضايقوا بلا شك من الدعوة إلى الإسلام، لأن مضامينه الدينية تناقض معتقداتهم الوثنية؛ إلا أنه كان من الممكن لهم أن يؤمنوا بها بعد القليل من المقاومة والتذمر ـ تماماً كما استسلموا وتواءموا مع الدعوات الفردية لاعتناق المسيحية قبل ذلك ـ لو اتبع الرسول (ﷺ) نمط التبشير المسيحي وجمع نفسه فقط لدعوة الناس إلى عبادة الله، وإلى الصلاة له من أجل خلاص نفوسهم، وأن يسلكوا سلوكاً حسناً في أمورهم الشخصية؛ إلا أنه لم يتبع النمط المسيحي، ولم تقتصر دعوته على الإيمان بالله، ولا القيم والمعنويات الفردية.. فكيف يجرؤ؟ ألم يأمره ربه أن يقول في صلاته:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

(البقرة: ٢٠١)

لقد سبقت:

﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾

ثم تبعتها:

﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾

، وذلك لأن الحاضر يسبق المستقبل، وثانياً، لأن الإنسان مكون من مركبات تتطلب الإشباع البدني الدنيوي قبل أن يكون لديه قدرة على التطلع إلى نداء الروحانيات وخير الآخرة.. لم تكن دعوة محمد (ﷺ) تدعو إلى جوانب روحية منفصلة ومستقلة عن حياة البشر المادية الدنيوية: كانت الدعوة ترتكز كلياً على مفهوم: أن الروح والبدن ليسا إلا وجهين للوجود البشري.. لم تقتصر دعوة محمد (ﷺ) على الاهتمام بالجانب الروحي وحده لدى أفراد منفصلين، وكانت دعوته تهدف إلى منهج اجتماعي يضمن لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أكبر قدر من الإشباع البدني والمادي، وبذلك يوفر له أسباب النمو والتطور الروحي.

بدأ يدعو الناس إلى أن أعمالهم جزء من الإيمان: فالله لا يأمر البشر بالإيمان فقط، ولكن يأمرهم أيضاً بالعمل الطيب، ودعا بقوة إلى مساندة الضعيف إذا تعرض لظلم ممن هو أقوى منه، ودعا إلى ما لم يسمع به أهل مكة المكرمة من قبل من أن المرأة والرجل متساويان أمام الله، وأنهما مكلفان بالتساوي؛ ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك حين أعلن ـ وهو ما أرعب كفار مكة المكرمة ـ أن للمرأة حقوقاً، لا بانتسابها إلى الرجل كأم أو أخت أو زوجة أو ابنة، بل ككيان إنساني مستقل بذمته المالية، أي أن تكون لها ملكيتها الخاصة، وأن تقوم بالأعمال المالية والتجارية بنفسها ولنفسها، وأن تكون مسئولة عن نفسها في أمور زواجها، وأدان الميسر والخمور وحرمهما؛ لأنهما كما ذكر القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(المائدة: ٩٠)

ونهى الإسلام عن استعباد البشر بعضهم بعضاً؛ ونهى عن الربا، والاحتكار والمتاجرة باحتياجات الناس الأساسية ـ وهو ما يسمى في عالمنا المعاصر المضاربة ـ كما نهى عن الحكم بصحة السلوكيات أو خطئها متأثرين بمنزلة الفرد من قبيلة أو أمة، ودعا إلى أن الشرعية الوحيدة ـ المقبولة أخلاقياً ـ تهدف إلى مصلحة الجماعة التي تسبق مصلحة الفرد، وأنها لا تتحقق إلا بحرية البشر وقبولهم المشترك والواعي للهدف من الحياة المعتمد على مقاييس أخلاقية، لذلك أصر النبي على إعادة النظر إلى كل المفاهيم الاجتماعية التي كانت حتى ذلك الوقت منيعة وفوق أي مراجعة، وهكذا، كما تقول في عصرنا: «أدخل الدين في السياسة»، وقد كان ذلك توجهاً ثورياً في ذلك الوقت.

كان مشركو مكة المكرمة، شأنهم شأن البشر في كل مكان وزمان، على اقتناع تام بأن ما نشأوا عليه من نظم اجتماعية، وعادات فكرية وسلوكيات، هي الأفضل؛ لذلك كان طبيعياً أن يرفضوا تدخل الدين الجديد في نمط العلاقات القائمة، أي رفضوا أن يكون الوعي والإيمان بوحدانية الله مرتبطين بتغيير اجتماعي جذري، فاتهموا دعوته بأنها غير أخلاقية، وتحريضية، «وتناقض كل أعراف الملكية السائدة».. وعندما تأكد لهم أنه ليس مجرد حالم، بل يعرف كيف يلهم الناس، لجأوا إلى مواجهته بالعنف، وراحوا يؤذونه وأتباعه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

تحدى جميع الأنبياء بطريقة أو بأخرى، «القيم الراسخة» التي كانت سائدة في عصورهم، لذلك نجد أنهم قد سُخر منهم جميعاً، واضطهدوا من أقوامهم. وآخرهم وخاتمهم محمد (ﷺ)، مازال يسخر منه في الغرب حتى اليوم.

اقرأ باسم ربك الذي خلق

قصص القرآن



للعلامة الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور

امتن الله على رسوله (ﷺ) بقوله:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

(يوسف: ٣)

فعلمنا من قوله «أحسن».. أن القصص القرآنية لم تسق مساق الإحماض[1] وتجديد النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر؛ لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص.

والقصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم.. وجمع القصة قصص بكسر القاف، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سمي به المفعول، يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر.

وأبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصراً على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل..

إن في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للأمة؛ ولذلك ترى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها..

من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما

(١) من أحمض القوم أفاضوا فيما يؤنسهم.

يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها؛ لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه.. وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها؛ فكان أسلوبه قاضيا للوطرين وكان أجل من أسلوب القصاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة التبيان ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبيها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص، مثال ذلك قوله تعالى في سورة القلم:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾

(القلم: ٢٦-٢٨)

فقد حكيت مقالته هذه في موقع تذكيره أصحابه بها لأن ذلك محز حكايتها ولم تحك أثناء قوله:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

وقوله:

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾

(القلم: ٢١، ٢٢)

ومن مميزاتها طي ما يقتضيه الكلام الوارد كقوله تعالى في سورة يوسف:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

(يوسف: ٢٥)

فقد طوى ذكر حضور سيدها وطرقه الباب وإسراعهما إليه لفتحه، فإسراع يوسف ليقطع عليها ما توسمه فيها من المكر به لتري سيدها أنه أراد بها سوءا.. وإسراعها هي لضد ذلك لتكون البادئة بالحكاية فتقطع على يوسف ما توسمته فيه من شكاية.. فدل على ذلك ما بعده من قوله:

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾

(يوسف: ٢٥)

ومنها أن القصص بث بأسلوب بديع إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع فتوفرت من ذلك عشر فوائد:

الفائدة الأولى: أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديا عظيما لأهل الكتاب، وتعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾

(هود: ٤٩)

فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن

المسلمين فى نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين.

الفائدة الثانية: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها فى التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلا لهامة التشريع الإسلامى بذكر تاريخ المشرعين، قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

(آل عمران: ١٤٦)

وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضا..

وقد رأيت من أسلوب القرآن فى هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة فى رسوخ الإيمان وضعفه وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان.. وفى هذا الأسلوب لا تجد فى ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم.. وكذلك مواضع العبرة فى قدرة الله تعالى فى قصة أهل الكهف:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾

(الكهف: ٩-١٣)

فلم يذكر أنهم من أى قوم وفى أى عصر.. وكذلك قوله فيها:

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾

(الكهف: ١٩)

فلم يذكر أية مدينة هى لأن موضع العبرة هو انبعاثهم ووصول رسولهم إلى مدينة إلى قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

(الكهف: ٢١)

الفائدة الثالثة: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها فى الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدى الأمة وتحذر، قال تعالى:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾

(النمل: ٥٢)

وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا فى الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التى عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين قال تعالى:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٦)

وقال:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(يوسف: ١١١)

وقال:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

وهذا فى القصص التى يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة.

الفائدة الخامسة: أن فى حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيئه فى القرآن ابتكار أسلوب جديد فى البلاغة العربية شديد التأثير فى نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس فى الجنة والنار والأعراف فى سورة الأعراف، وقد تقدم التنبيه عليه فى المقدمة الخامسة فكان من مكملات عجز العرب عن المعارضة.

الفائدة السادسة: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدى عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه فقعدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذى علموا أسماءه فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعى لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان فى ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال مشيرا إلى غفلتهم قبل الإسلام:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾

(إبراهيم: ٤٥)

الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

(فصلت: ١٥)

فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة: أن يُنشئ فى المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذى كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العافى أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس والروم، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس.. والشام ومشارقه تبع لسيادة الروم.. وبقى الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم فى رحلاتهم وتجاراتهم.

الفائدة التاسعة: معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، وأنهم إن أخذوا بوسيلتى البقاء: من الاستعداد والاعتماد؛ سلموا من تسلط

غيرهم عليهم.. وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير، وكيف ينصرهم الله تعالى كما فى قوله:

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(الأنبياء: ٨٧، ٨٨)

الفائدة العاشرة: إنها يحصل منها بالتبع فوائد فى تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية كقوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾

(يوسف: ٧٦)

فى قراءة من قرأ دين بكسر الدال، أى فى شرع فرعون يومئذ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق.. وقوله:

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾

(يوسف: ٧٩)

يدل على أن شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل فى الاسترقاق، وأن الحر لا يملك إلا بوجه معتبر.. ونعلم من قوله:

﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

(الشعراء: ٣٦)

﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

(الشعراء: ٥٣)

إن نظام مصر فى زمن موسى إرسال المؤذنين والبريح بالإعلام بالأمور المهمة. ونعلم من قوله:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُم لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾

(يوسف: ١٠)

إنهم كانوا يعلمون وجود الأجباب فى الطرقات وهى آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها.. وقول يعقوب:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾

أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم..

وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيت خطر لكثير من أهل اليقين والمتشككين وهو أن يقال: لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة فى حصول المقصود منها.. وما فائدة تكرار القصة فى سور كثيرة؟ وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد فى القرآن.. والذى يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم أن القرآن ـ كما قلنا ـ هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتآليف.. وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هى معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان فى مناسبات أخرى.. كما لا يقال للخطيب فى قوم، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا فى مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته

السابقة ـ إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته.. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابى.. ثم تحصل معه مقاصد أخرى:

• **أحدها:** رسوخها فى الأذهان بتكريرها.

• **الثانى:** ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام فى الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن فى المعانى باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية.. وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل: ولئن رددت، ولئن رجعت، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من الحدود القصوى فى البلاغة، فذلك وجه من وجوه الإعجاز.

• **الثالث:** أن يسمع اللاحقون من المؤمنين فى وقت نزول القرآن ذكر القصة التى كانت فاتتهم مماثلتها قبل إسلامهم أو فى مدة مغيبهم، فإن تلقى القرآن عند نزوله أوقع فى النفوس من تطلبه من حافظيه.

• **الرابع:** أن جمع المؤمنين جميع القرآن حفظا كان نادرا بل تجد البعض يحفظ بعض السور فيكون الذى حفظ إحدى السور التى ذكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة.. كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة.

• **الخامس:** أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر فى بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر فى بعضها الآخر وذلك لأسباب:

ـ منها تجنب التطويل فى الحكاية الواحدة فيقتصر على موضع العبرة منها فى موضع ويذكر آخر فى موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها فى القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها، وفى بعضها ما هو شرح لبعض.

ـ ومنها أن يكون بعض القصة المذكور فى موضع مناسبا للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكرا لبعض القصة فى موضع وتجد ذكرا لبعض آخر منها فى موضع آخر لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذى سيقت له، فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء فى حالة خاصة، ثم تساق إليها فى حالة أخرى.. وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات، ألا ترى قصة بعث موسى كيف بسطت فى سورة طه، وسورة الشعراء.. وكيف أوجزت فى آيتين فى سورة الفرقان:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ۝ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴾

(الفرقان: ٣٥، ٣٦)

ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك.

فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة، وربما كانت بعض معانيها فى كلام السابقين غير صريحة.

رمضان ١٤٣٣هـ
أغسطس ٢٠١٢م

اقرأ باسم ربك الذى خلق

فى ظلال القرآن





للشهيد سيد قطب

الحياة فى ظلال القرآن نعمة. نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. والحمد لله.. لقد منّ علىّ بالحياة فى ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط فى حياتى. ذقت فيها هذه النعمة التى ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله - سبحانه - يتحدث إلىّ بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أى تكريم للإنسان هذا التكريم العلوى الجليل؟ أى رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أى مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أنظر من علو إلى الجاهلية التى تموج فى الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال. ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هؤلاء الناس؟! ما بالهم يرتكسون فى الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوى الجليل. النداء الذى يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟

عشت أتملى - فى ظلال القرآن - ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود.. لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنسانى.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التى تعيش فيها البشرية، فى شرق وغرب، وفى شمال وجنوب.. وأسأل.. كيف تعيش البشرية فى المستنقع الآسن، وفى الدرك الهابط، وفى الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكى، وذلك المرتقى العالى، وذلك النور الوضىء؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله.. ثم أنظر.. فأرى التخبط الذى تعانيه البشرية فى انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التى تملى عليها وبين فطرتها التى فطرها الله عليها. وأقول فى نفسى: أى شيطان لئيم هذا الذى يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟ يا حسرة على العباد!!!

وعشت - فى ظلال القرآن - أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. أكبر فى حقيقته، وأكبر فى تعدد

جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة، لا عالم الشهادة وحده. وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها.. والنشأة الإنسانية ممتدة فى شعاب هذا المدى المتطاول والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة فى الطريق وما يناله الإنسان من شئ فى هذه الأرض ليس نصيبه كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب. وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك. فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع. على أن المرحلة التى يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هى رحلة فى كون حى مأنوس، وعالم صديق ودود. كون ذى روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذى تتجه إليه روح المؤمن فى خشوع:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴾

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

أى راحة، وأى سعة وأى أنس، وأى ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.. إنه إنسان بنفخة من روح الله:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

وهو بهذه النفخة مستخلف فى الأرض:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

ومسخر له كل ما فى الأرض:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التى يتجمع عليها البشر هى الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة. جعلها آصرة العقيدة فى الله.. فعقيدة المؤمن هى وطنه، وهى قومه، وهى أهله.. ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج!.

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب فى شعاب الزمان. إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد.. عليهم الصلاة والسلام..

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

هذا الموكب الكريم، الممتد فى شعاب الزمان من قديم، يواجه - كما يتجلى فى ظلال القرآن - مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغى والتهديد والتشريد. ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا فى كل

لحظة وعد الله الصادق الأكيد:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

موقف واحد وتجربة واحدة، وتهديد واحد، ويقين واحد.. ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف. وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد.

>>>

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾

وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة:

﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء:

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها. والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجوة من الهواجس والوساوس:

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

ومن ثم عشت - في ظلال القرآن - هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير.. عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر. عشت في كنف الله وفي رعايته. عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها..

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾

﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء. فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة.. والله يخلق ما يشاء ويختار. كذلك تعلمت أن يد الله تعمل. ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها؛ ولا أن نقترح على الله شيئا. فالمنهج الإلهي - كما يبدو في ظلال القرآن - موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة، وهو موضوع لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض، آخذ في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتريه.. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره في الأرض، أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته، سواء وهو فرد أو وهو عضو في جماعة. كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه.. ولا يفترض في كلتا الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرة قلم!.. الإنسان هو هذا الكائن بعينه. بفطرته وميوله واستعداداته، يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله. ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل - الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن - ومن ثم لم يكن متعسفا ولا عجولا في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج. إن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فان، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر، وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور. ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة. فأما الإسلام فيسير هينا لينا مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو

الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف.. فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة. ثم يكون دائما ما يريده الله أن يكون.. والزرعة قد تسفى عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ. وقد يغرقها الري. ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل؛ فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود.. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله..

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود. ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة غير مقصودة.. إن الله سبحانه هو الحق. ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

وقد خلق الله هذا الكون بالحق لا يتلبس بخلقه الباطل:

﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾

والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك:

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر، ولا بد للباطل أن يزهق.. ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق، باقية بقاءه في الأرض:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

﴿ فِيهَا سَلَامٌ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في

الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟

>>>

وانتهيت من فترة الحياة - في ظلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم.. إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.. والرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شئونها. وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان.. أو.. فلا إيمان:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

والأمر إذن جد.. إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها.

إن هذه البشرية - وهي من صنع الله - لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله؛ ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها.. ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة.. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه:

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة. البشرية المسكينة الحائرة. البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير!

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثًا هائلا في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات.

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور.. فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم؛ كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء.. نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق.. بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها.. في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة. ونحي الإسلام عن القيادة. نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة. صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية. يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى؛ ثم يقولون لها: اختاري!!! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار العرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!! وهذا خداع لئيم خبيث. فوضع المسألة ليس هكذا أبدا.. إن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني. إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة.. ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه؛ وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه؛ ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع.. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة؛ وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله. فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى.. فهم سيئو النية، شريرون، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال، وهمت أن تسمع لصوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة وأن تطمئن إلى كنف الله.

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية؛ ولكن ينقصهم الوعي الشامل، والإدراك العميق.. هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية، وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة. فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية، وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة؛ ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالا، وللقيم الإيمانية مجالا آخر؛ ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا. اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه. حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس!

هذا وهم.. إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما في حقيقتهما غير منفصلين. فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء. ونتائجها مرتبطة ومتداخلة؛ ولا مبرر للفصل بينها في حس المؤمن وفي تصوره.. وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن. ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾

وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

إن الإيمان بالله، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض.. كلها إنفاذ لسنن الله. وهي سنن ذات فاعلية إيجابية، نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار.

ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق؛ ولكنها تظهر حتما في نهايته.. وهذا ما وقع

للمجتمع الإسلامى نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية فى حياته مع القيم الإيمانية. وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما. وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعاً.

وفى الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالطائر الذى يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقى فى الإبداع المادى بقدر ما يرتكس فى المعنى الإنسانى. ويعانى من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس هى طرف من قانونه الكلى فى الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لابد أن يكون له أثر إيجابى فى التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون.. والشريعة إن هى إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهى موضوعة لتنفذ فى مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتساهم فى بناء المجتمع المسلم. وهى متكاملة مع التصور الإسلامى كله للوجود الكبير وللوجود الإنسانى، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى فى الضمير، ونظافة فى الشعور، وضخامة فى الاهتمامات، ورفعة فى الخلق، واستقامة فى السلوك.. وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما تسميه القوانين الطبيعية وما تسميه القيم الإيمانية.. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود.

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود. وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته ونشاطه.. هى كذلك قوى ذات آثار إيجابية فى هذا الوجود وهى مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود.. وكلها تعمل متناسقة، وتعطى ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق، بينما تفسد آثارها وتضطرب وتفسد الحياة معها، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين مجريات الأحداث فى نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع. ولا يوحى بتمزيق هذا الارتباط، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى؛ وينبغى لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم.

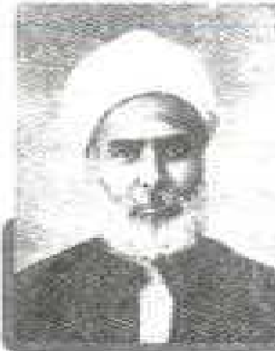
>>>

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة فى ظلال القرآن. لعل الله ينفع بها ويهدى.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

***

القرآن



للأستاذ الإمام:
الشيخ محمد عبده

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة، أن النبى (ﷺ)، كان فى نشأته وأميته على الحال التى نعرفها. وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه. وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم. كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها. ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم.

أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرفوا، بالتأويل، فى كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم.

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب، وأغزرها مادة فى الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل، ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب فى القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من

الحرص على معارضة النبى (ﷺ) ، والتماسهم الوسائل ، قريبها وبعيدها ، لإبطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكبارا عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنافهم ، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب ، أو بعشر سور من مثله . وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ، ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ، ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة .

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميع الأحاكم ، أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى ، صلوات الله عليه .

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر فى قوله :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾

(الروم : ٢ - ٤)

وكالوعد الصريح فى قوله :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(النور : ٥٥)

وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ، ووفرة سكانها ، وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع أنه لم يسبق له (ﷺ) السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى ، عادة ، عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا

بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب ، بل من المتعذر ، أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ، وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم : إن العجز حجة على من عجز ، فإن العجز هى حجة الإفحام وإلزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا : القوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه .

ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمد (ﷺ) ، رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

❊❊❊

من مقاصد القرآن:

إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية



للإمام الشيخ: محمد رشيد رضا

كانت النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم وفى جميع شرائعها وقوانينها حتى عند أهل الكتاب إلى أن جاء الإسلام وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فأعطى الله النساء بكتابه الذى أنزله عليه وبسنته التى بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل جميع الحقوق التى أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها حتى كان النبى ﷺ يقول: «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث على ـ كرم الله وجهه ...

كان كبار العقول من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يرون ما أصلحه الإسلام من فساد وظلم ورذيلة فى الأمة العربية فيكبرونه إكبارًا ويعدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشىء من العلم ولا البلاغة، بل بالأخلاق وسلامة الفطرة فقط. ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الأعظم لسياسة الإسلام وهدى محمد ﷺ من بعده فى الفتوح والعدل وإدارة شئون الشعوب يقول: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية» ولو كان ـ رضى الله عنه ـ واقفًا على تواريخ الأمم والشعوب لعلم أن ما جاء به الإسلام إنما هو إصلاح لشئون البشر كافة، وثنيهم وكتابيهم، همجيهم وحضريهم، لا فى شىء واحد بل فى كل شىء، وإننى أشير

هنا إلى أهم أصول الإصلاح النسوى التى بسطتها فى كتاب وسيط فى حقوق النساء فى الإسلام سميته «نداء للجنس اللطيف» بينت فى مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الأرض إجمالاً بقولى:

«كانت المرأة تشترى وتباع كالبهيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورث ولا ترث وكانت تملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل وكانوا يرون للزوج الحق فى التصرف بما لها من دونها وقد اختلف الرجال فى بعض البلاد فى كونها إنسانًا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفى كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفى كونها تدخل الجنة أو الملكوت فى الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع فى رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ولكن يجب عليها العبادة والخدمة وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق فى قتل بنته، بل فى وأدها «دفنها حية» أيضًا، وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل فى قتل المرأة ولا دية».

وكتبت فى مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية فى الإسلام ما نصه:

«قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن فى التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها، وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك، ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى وغيره من الأعمال المشروعة، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها فى جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية»، وإننى ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالإيجاز، ولمن شاء مراجعتها فيه بطولها:

(١) كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك فى ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(النساء: ١)

(٢) كان بعض البشر فى أوروبا وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة

الكتب المقدسة رسميًا، فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معًا بلقب المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، والآيات في ذلك معروفة.

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة، وهي زوجه خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن، ثم بايع الرجال بما جاء فيها، ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعًا رسميًا وضع عند امرأة، هي حفصة أم المؤمنين، وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنهم فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الأمصار لأجل النسخ عنها والاعتماد عليها.

(٣) كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة ـ وهذا الزعم أصل لعدم تدينها ـ فنزل القرآن يقول:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

(النساء: ١٢٣، ١٢٤)

ويقول:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾

(آل عمران: ١٩٥)

وفيها الوعد الصريح بدخولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الأدبية ولا في غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٧١)

فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين، وتدخل فيها ولاية النصرة في الحرب، ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال، فكان حظهن من النصرة تهيئة الطعام والشراب للمقاتلين ومداواة جرحاهم، وكن يصلين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم، ويأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر حتى إن بعضهن كن ينكرن على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله جهرًا، فيرجع عنه إذا كان خطأ، وهو الذى كان يهابه الرجال كالنساء.

وقد قفى الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية في جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجثماني والنعيم الروحاني، وهي:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(التوبة: ٧٢)

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن، فأبطل الإسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهم في دائرة الشرع، قال الله تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾

(النساء: ٧)

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن.

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربًا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقداً دينيا مدنيًا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد على ما أرشد إليه قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الروم: ٢١)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية، يقول الله عز وجل في الزوجات:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

(النساء: ٣٤)

فجعل من واجبات هذه القيامة على الزواج نفقة الزوجة والأولاد لا تكلف الزوجة منه شيئًا، ولو كانت أغنى منه، وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهرًا عاجلاً مفروضًا عليه مقتضى العقد، حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي على حين نرى بقية الأمم حتى

اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل.

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقًا إن كان زوجها وطلقها فحرم الإسلام ذلك، والنصوص فى هذا معروفة فى كلام الله وكلام رسوله وسنته.

(٨) كان الرجال من العرب وبنى إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد ولا مشترط عليهم فيه العدل فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع وأن من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع فى أحوال: منها أن تكون الأولى عقيمًا أو تدخل فى سن اليأس من الحمل، أو تكون ذات مرض مانع منه، أو من إحصان الرجل، وقد يكون التعدد من مصالح النساء، خاصة إذا كثرن فى أمة أو قبيلة، كما يكون فى أعقاب الحروب أو هجرة كثيرة من الرجال لأجل الكسب وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه فهل من مصلحة النساء أو الإنسانية أن تبقى النساء الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الأزواج ومن نعمة الأمومة؟ وهل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التى تراهن مرهقات برجسها فى بلاد الإفرنج والبلاد التى ابتليت بسيطرتهم عليها أو تقليدها لهم؟

وقد فصلنا ذلك فى تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه فى كتاب «حقوق النساء فى الإسلام» ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام فى التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر كافة والنساء خاصة، فهو قد أباح ذلك بشرطه الشديد ولم يوجبه وهن فى شريعته مخيرات فى قبول العقد على رجل متزوج وعدمه بل تجيز الشريعة للمرأة أن تشترط فى عقد نكاحها جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها إذا شاءت، بناء على ما ذهب إليه بعض أئمة الفقه فى صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعى فى الكتاب والسنة ولا سيما شروط الزوجية عملا بحديث «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج» رواه البخارى فى مواضع من صحيحه وأصحاب السنن.

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف وكان مشروعًا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذى لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به ثم اضطروا إلى إباحته فأسرفوا فيه إسرافًا منذرًا بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة ومما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل فى إرساله أو قصه وحلقه وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتب أو الصحف فى الدار وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التليفون) ومثله كثير[1].

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات فى عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشًا وأشد صبرًا على ما يكرهون وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ١٩)

وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجال وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التى لا يحل لها فيها الزواج وذم النبى ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه - إلى غير ذلك من الأحكام التى بيناها فى تفسير الآيات المنزلة فيها وفى كتابنا الجديد فى حقوق النساء فى الإسلام (نداء للجنس اللطيف).

(١٠) بالغ الإسلام فى الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى وأكد النبى ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ثم بالغ فى الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ومن ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها، وقد أثبتنا فى ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا.

وجملة القول: أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم أعطى نساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحى الله العليم الحكيم الرحيم إلى محمد النبى الأمى المبعوث فى الأميين؟ بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين.

(١) نشرت جريدة الأهرام فى «المحرم سنة ١٩٥٤ هـ=١٩٣٥م» انتقاداً للقاضى لندسى الشهير قضاة الطلاق فى «لوس أنجلوس» من ولاية «كاليفورنيا» خلاصته: أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم «أمريكا الشمالية» وتحل محلها الإباحة والفوضى فى العلاقة بين النساء والرجال فى زمن قريب وهى الآن كشركة تجارية يفصمها الشريكان لأوهى الأسباب، خلافًا لهداية جميع الأديان إذ لا دين ولا حب يربطهما بل الشهوات والتنقل فى وسائل المسرات. الطبعة الثالثة.

دفع شبهات عن القرآن الكريم



للعلامة محمد فريد وجدى

يقول صاحب كتاب «مسائل فى الدين» فى شبهته الأخيرة عن القرآن الكريم، إنه مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل، وأنه ينقصه البيان والترتيب، وهذا من أعظم علل الإملال والارتباك لهذا الكتاب مما جعله غذاء عقيماً لذويه!

ونحن نطلق كلمة شبهة على مثل هذه العبارات تسامحاً، لأن التهم فيها غير معينة تعييناً واضحاً، فكل كتاب سماوى أو إنسانى يمكن رميه بهذه الوصمات بحق أو بباطل، والذى يتصدى للرد عليها يضطر أن يجلو عنها الغموض الذى يحيط بها أولا ثم يعنى بمناقشة قائلها.

فهل يعنى صاحب كتاب «مسائل فى الدين» بقوله إن القرآن مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل، أنه يكثر من ذكر الملائكة والجن والوحى والثواب والعقاب الآخر وبين... إلخ.

إن كان يعنى هذا فكل الكتب المعتبرة أنها سماوية تذكر كل هذه الأمور، ومنها ما توسع فيها إلى حد بعيد؛ إذ أثبتت أن لله جسداً وتحيزاً، وأنه قابل بعض الأنبياء وجهاً لوجه وتحدث إليهم، وأن منهم من أمسك به ولم يفلته حتى حباه بلقب جديد، وقد وصفت هذه الكتب الخالق بأوصاف المخلوقين، فأسندت إليه الضحك والبكاء والندم والمحاباة والقسوة... إلخ.. على حين أن الإسلام قد قرر أنه دين العقل، وأنه لا يذكر شيئا يصعب فهمه، ولم يكلف الآخذ به إلا بما يعقله ويستطيع التدليل على صحته، وهذه ميزة ليست لدين غيره.. فقد زعم حفظة تلك الأديان أن فيها ما هو فوق العقل، وأنه يجب على الآخذ بها إهمال مواهبه الإدراكية فى الأمور الاعتقادية، والبون لاحد له بين الفريقين.

فالأجدر بنا مادامت هذه الشبهة من الغموض بهذه المنزلة أن ندعها حتى يعين صاحبها مراده منها.

أما قوله أن القرآن ينقصه البيان، فهذا من أغرب ما سمعناه من الشبهات على هذا الكتاب الكريم. فإن ساغ لمنكر أن يرميه بكل ما يطوف بخياله من التهم، فلا يسوغ له أن يرميه بالتجرد من البيان. أما بلغة أن هذا الكتاب قد اعتبره العرب معجزا فى نظمه ومعناه معاً، وأنهم قد قصروا عن الإتيان بمثل سورة منه وقد تحداهم بذلك تحديا، فقال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

(البقرة: ٢٣، ٢٤)

قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

(الإسراء: ٨٨)

وقد سلم العرب بإيمانهم به بأنه معجز حقا.. وقد ساد هذا الرأى حتى فى العهد الذى بلغت فيه البلاغة العربية أوجها الأعلى لدخول الأساليب الفارسية واليونانية والهندية إليها فى القرن الثالث للهجرة، وقد وضعت مؤلفات تكشف عن أسرار بلاغته من فحول البلاغة أنفسهم، وكل ما ألفه المؤلفون فى علوم البيان والبديع والمعانى اعتمدوا فيه على أمثلة من القرآن، باعتبار أنه ينبوع لا ينضب معينه لجميع ضروب البلاغات اللفظية والمعنوية، فهل مؤلف كتاب «مسائل فى الدين» يمزح بقذفنا بهذه الشبهة، أم هو يقول ما يعتقده فيدلنا بذلك دلالة ناطقة على أنه لا يعرف العربية، وأنه لا يحسن النقل عن المستشرقين الذين عرفوها، وشهدوا للقرآن ببعض ما يستحقه من هذه الناحية؟

بقى قوله إنه خال من الترتيب، يريد بذلك أنه غير مرتب على فصول وأبواب كسائر الكتب، فلم توضع أغراضه كل في الفصل أو الباب الخاص به، بل مزجت مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف.. قال وهذا سبب الملل الذى يعترى سامعه وقارئه، وعلة للارتباك فى فهمه، مما جعله غذاء عقيما لذويه.. وفاته أن هذا الكتاب لو كان مختلقا لتوخى فيه مؤلفه الترتيب الذى يتطلبه صاحب كتاب «مسائل فى الدين».. فقد جرت العادة أن يجلس الذى يريد أن يضع كتابا إلى ناحية ويفكر فى نظامه وأغراضه، فيجعل لكل طائفة من المواد فصلا، ولكن القرآن ليس بكتاب وضعى، ولكنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارئ، فمنه آيات نزلت للدعوة إلى الدين، وأخرى للرد على المنكرين، وغيرها للإجابة على السائلين، وسواها للفصل بين المتنازعين، وطائفة للحث على الجهاد، ومثلها للحض على مكارم الأخلاق.. إلخ مما لا يكاد يحصى، وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية.. فلقد كان الوحى لدى الطائفة التى أخذت بالإسلام لأول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها، تستهدى به فى المشكلات، وتسترشد به فى تذليل العقبات، وتتحرك تحت إملائه نحو ما جل وما حقر من الأغراض، إلا ما ترك لإرادتهم فى بعض الشئون، تمرينا لهم على الاكتفاء بعقولهم متى استعدوا له بعد حين.. فهو مجموع إشراقات من الوحى اقتضتها الحوادث وقت حدوثها، وهذه الحوادث تتكرر فى كل جيل، وتتردد فى كل مجتمع، وكثير من آيات القرآن نزلت فى إصلاح القلوب، وتهذيب النفوس، وتقويم الأخلاق، وبعث الهمم إلى جلائل

الأعمال، وتثبيت العاملين في جهادهم، وتفث روح المثابرة في كيانهم، فهذا المجموع من إشراقات الوحي متى قرئ أو سمع استولى على جميع مآخذ النفوس، وتسلط على كل مسارب العقول، وتحكم على جمهرة مواطن الاقتناع من الصدور، فلا يجد تاليه أو سامعة محيصا من الإذعان إليه، والاستخذاء له، لأنه يحرك جميع الأوتار في الروح الإنساني دفعة واحدة، فيؤخذ سامعه به أخذا، كأنه قد غمرته موجة من السحر فلم تدع له متنفسا في غيره من الأمور، ولم تترك له متملصا إلى سواه من الشئون.. وقد شعر بتأثير القرآن هذا كل من قرأه ومن سمعه سواء أكان من أهل هذا الدين أم لم يكن، فهل هذا التأثير السحرى هو الذى يعبر عنه صاحب كتاب «مسائل في الدين» بأنه موجب للإملال، وباعث إلى الكلال! إن كان هو هذا فيكون قد سمى الشيء بغير اسمه، وأطلق عليه ما يدل على عكسه.

أما أنه غذاء عقيم للآخذين به، والمعولين عليه، فهذا من أعجب ضروب المنطق.. فإن المعلوم بالضرورة أن هذا الكتاب نزل في قبائل متفرقة الأهواء، مشتتة الهموم، موزعة الجهود، متنافرة المطالب، لا هم لها إلا التناحر والتناهب، ولا عهد لها بنظام اجتماعي، ولا بغرض سياسي، ولا بوحدة اقتصادية، ولا بنزعة عمرانية، ولا بعاطفة علمية، فجمع متفرقها، ووحد وجهتها وغايتها، ونظم شئونها، ثم رمى بها ككتلة مندمجة الأجزاء، حاصلة على جميع مقومات الحياة وعوامل التطور، في بهرة المجتمعات البشرية، حيث مزدحم المطامع، وملتطم المصالح، ومعترك الأهواء، وحيث التناحر العاشي يسوق الجماعات للتآخذ بالأيدى والمناكب، وللترامي بالحديد والنار، فلم تلبث أكثر من ثمانين سنة حتى أوجدت لنفسها ملكا لا تغرب عنه الشمس، لم يتسن لأكبر الأمم الفاتحة مثله ولا الرومانيين، ولا اتفق لأوسع الأمم المعاصرة استعمارا شبيهه إلى اليوم، فانتهت إليها خلافة الأرض في العلم والفلسفة والفنون والسياسة، وكانت سببا في إنهاض العالم من كبوته، وإقالة المدنية العالمية من عثرتها، شهد لها بذلك الأقربون والأبعدون، واعترف لها به الموالون والمعادون، فهل هذا أثر الغذاء العقيم الذى أتى به القرآن لذويه، كما يقول صاحب كتاب «مسائل في الدين»؟ وهل هو جاد أو هازل فيما يقول؟

❊❊❊

القرآن كائن حىّ



للدكتور مصطفى محمود

اللغة القرآنية تختلف عن لغتنا التى نكتب بها أو نتكلم بها فى أنها محكمة لا خطأ فيها ولا نقص ولا زيادة.

وقد كثر الكلام عن الآيات الكونية التى تحدثت عن النجوم ومساراتها والأرض وخلقها والحياة وبدايتها.. وكيف جاءت العلوم الحديثة بالجديد المبهر من الحقائق خلال مئات السنين التى أعقبت التنزيل القرآنى، فلم تخرق حرفا قرآنيا واحدا، ولم تنقض آية، بل توافقت جميعها مع كلام القرآن وزادته توكيدا.

كما جاء القرآن فى نظم الحكم وفى الاقتصاد، وفى الأخلاق وفى حقوق الإنسان، وفى الأسرة وفى الزواج والمرأة، والشرائع بالكلمة النهائية الجامعة.

كما انفرد بذروة فى البلاغة، وقمة فى البيان وجمال فى الأسلوب لم يطاوله فيه كتاب، وقد أفاض القدماء فى هذا وأغنونا.

لكن يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن، ربما كان أهم من كل هذه الوجوه، يحتاج إلى وقفة طويلة، وهو ما أسميته بالمعمار أو البنية الهندسية، أو التركيب العضوى أو الترابط الحى بين الكلمة والكلمة.

وما أشبه القرآن فى ذلك بالكائن الحى، الكلمة فيه أشبه بالخلية، فالخلايا تتكرر وتتشابه فى الكائن الحى، ومع ذلك فهى لا تتكرر أبدا، وإنما تتنوع وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية لا تتكرر أبدا، وإنما تتنوع وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر فى السياق القرآنى ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبدا برغم ذلك، إذ هى فى كل مرة تحمل مشهدا جديدا، وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل، وأنها تتفرع تفرعا عضويا، تماما مثل البذرة التى تعطى جذرا وساقا، ثم أغصانا ثم أوراقا ثم براعم ثم أزهارا ثم ثمارا، وهى فى كل مرة لا تخرج عن كونها نبات البرتقال، ولكنها عبر هذا التفصيل تعطينا فى النهاية حقيقة نبات البرتقال، وذلك هو الترابط العضوى أو المعمار الحى، والقرآن بهذا المعنى يشبه جسما حيا، والكلمة القرآنية تشبه كائنا حيا أو خلية جنينية حية، فهى تتفرع عبر التكرار الظاهر لتعرض مشاهد يكمل بعضها بعضا تماما، كما تنقسم خلية الجنين لتعطى خلايا الرئتين والقلب والكبد والأحشاء والعظام والجهاز العصبى إلى أن تعطينا فى النهاية إنسانا كاملا، وقد جاء كل هذا التنوع من

خلايا متشابهة، فذلك هو التفصيل الذى كان مجملاً فى الخلية الأولى للجنين.

وكمثال نأخذ كلمة «العلم» فى القرآن.. فنجد أن العلم يأتى فى البداية مجملاً بمعنى النظر فى خلق السماوات والأرض، ثم نجد هذا النظر يأتى بعد ذلك مفصلاً..

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۝ وإلى السماء كيف رفعت ۝ وإلى الجبال كيف نصبت ۝ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾

(الغاشية: ١٧ - ٢٠)

وهذه هى علوم الأحياء والفلك والجيولوجيا والجغرافيا كما نعرفها الآن.

ثم ينقلنا القرآن إلى نظر من نوع آخر.

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾

(الروم: ٤٢)

وذلك هو النظر فى التاريخ ثم تنوع آخر:

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

وذلك هو النظر فى التطور وعلم الأجناس

ثم كيف كانت بداية هذا كله؟

﴿ خلق كل دابة من ماء ﴾

(النور: ٤٥)

﴿ والله خلقكم من تراب ﴾

(فاطر: ١١)

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾

(المؤمنون: ١٢)

ذلك هو الأمر كما ورد مجملاً فى البداية

ثم جاء بعد ذلك التفصيل:

﴿ من نطفة ﴾

(عبس: ١٩)

ثم تفصيل أكثر:

﴿ نطفة من منى يمنى ﴾

(القيامة: ٣٧)

ثم نرى النطفة تأتى فى أكثر من عشرة مواضع، فنجدها كل مرة تأتى بمشهد تفصيلى مختلف، فهى:

﴿ نطفة أمشاج ﴾

(الإنسان: ٢)

أى أخلاط من صفات وخصائص متنوعة.

وذلك هو ما نعرفه الآن بالجينات الوراثية.

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر بأن النطفة المنوية هى التى تحدد جنس المولود إن كان ذكراً أم أنثى.

﴿ خلق الزوجين الذكر والأنثى ۝ من نطفة إذا تمنى ﴾

(النجم: ٤٥ - ٤٦)

ثم تفصيل ثالث وهو أن هذه النطفة مقدرة بتركيبها هذا من الخالق وليست شيئاً عشوائياً من تدبير المصادفة:

﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾

(عبس: ١٩)

ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد مكانى:

﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾

(المؤمنون: ١٣)

تلك النطفة مستقرها الرحم.

ثم ينقلنا إلى مشهد زمانى، فيضع هذه النطفة فى سياقها التاريخى ويربطها ببدئها الأول السحيق من التراب:

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ﴾

(الحج: ٥)

ثم يعطينا تفاصيل أكثر لما حدث فى هذا السياق التاريخى، إن النطفة كانت فى البداية نطفاً غير جنسية تتكاثر بالانقسام الخضرى بدون تزاوج، ثم تنوعت بعد ذلك إلى ذكر وأنثى وظهر التكاثر التزاوجى. تأتى هذه الإشارة فى الآية:

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾

(فاطر: ١١)

فجعل الأزواج تأتى متأخرة بعد النطف، مما يدل على أن النطف المقصودة هنا هى نطف أولية لم يتعين فيها ذكراً أو أنثى وهو ما يعرف بالتكاثر اللا تزاوجى: Asexual Reproduction.

ثم يعطينا مشهداً آخر تفصيلياً عن تسلسل النطفة فى سياقها فى مراحل خلق الجنين:

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾

(المؤمنون: ١٤)

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبى:

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾

(يس: ٧٧)

وذلك الإشهاد حدث فى الغيب قبل أن نولد:

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

هذا موقف إشهاد حدث للنفوس قبل أن تنزل فى الأرحام ثم مشهد عتاب ومؤاخذة.

﴿ أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾

(الكهف: ٣٧)

بعد كل هذا تكفر بخالقك!!

وهكذا تتكرر كلمة النطفة فلا تتكرر أبداً، وإنما تحمل فى كل مرة مشهداً جديداً بحيث يتكامل معناها فى الذهن كما يتكامل كائن حى من بذرة تنمو شيئاً فشيئاً إلى نبات كامل.

ثم ينتقل فى مدارج العلم من النطفة نزولاً حتى أصغر شىء يصل إليه العلم، الذرة ومثقال الذرة، فيلفت النظر إلى أن هناك ما هو أصغر من مثقال الذرة:

﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾

(سبأ: ٣)

ثم يعود فيلفت نظرنا إلى أن كل هذه العلوم التى أشار إليها، إنما هى علوم كونية خاصة بالكون الخارجى الموضوعى، وما فيه من نبات وحيوان وإنسان، وجبال وأنهار وأقمار وشموس ونجوم، ولكن هناك نوعاً آخر من العلم مطلوب منا أن ننظر فيه وذلك هو العلم بالنفس:

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

(الذاريات: ٢١)

ثم نوع أكبر من العلم بالنفس هو العلم بالله:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾

(محمد: ١٩)

وبطول صفحات القرآن وسوره يعرفنا بهذا الإله، بوحدانيته وصفاته وأسمائه وأفعاله وذاته)

ثم يتكلم عن علم آخر هو العلم بالغيب .وغيب الغيب هى ذات الله ولاطاقة لأحد بعلمها، فالله:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(الشورى: ١١)

وكذلك العلم بالساعة:

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(الأعراف: ١٨٧)

لكن هناك غيبا آخر هو الملائكة والجن والسماوات السبع وسدرة المنتهى، واللوح المحفوظ والعرش، وذلك غيب يطلع الله عليه من ارتضاه من رسله:

﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(الجن: ٢٦ - ٢٧)

وهكذا تتكرر كلمة العلم فى القرآن فلا تكرر وإنما تتفرع وتتنوع، وتتفصل مثل شجرة تعطى الجذور والسيقان، والأغصان والأوراق والأزهار والثمار، فهناك علم بالكون وعلم بالنفس وعلم بالله، ثم تنفصل هذه العلوم بحدودها وأنواعها فى رحلة الكلمة داخل القرآن.

والعلوم الكونية وحدها لا تصنع من الإنسان عالما، فالعلم بظواهر الأشياء، ومقاديرها وعلاقتها هو دائما علم ناقص، وأهل الغفلة هم الذين يقتصرون على هذه العلوم الظاهرة:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

(الروم: ٧)

وهؤلاء هم الذين:

﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾

(غافر: ٨٣)

وكذبوا الرسول وكفروا بالغيب وأنكروا الله فهلكوا.

ولا يكون العلم كاملا إلا إذا أوصلك إلى العلم بنفسك ثم إلى العلم بالله، فذلك هو العلم حقا.

بهذه الرحلة لكلمة «العلم» فى القرآن وانتقالها من الإجمال إلى التفصيل، ثم إلى تفصيل التفصيل لا تقع على تكرار أبدا، وإنما تجد نموا عضويا يتكامل فى الذهن عبر السياق القرآنى، كما تنمو البذرة إلى جذر وساق وفروع، وزهر وشجرة كاملة مثمرة، وكما يفتح المفتاح الواحد على غرف النوم وقاعات انتظار وقاعات للأكل، وكافتيريا وصالة استقبال ومكاتب للإدارة، فتجتمع للذهن صورة كاملة لفندق، وذلك ما أسميته بالعمار القرآنى، أو البنيان العضوى أو الترابط الحى، بحيث تجد كل كلمة تكمل الأخرى وتشرحها، وتفصلها دون تكرار

ودون زيادة ودون نقصان، وبحيث يصبح القرآن وكأنه جسم مؤلف من خلايا أو معمار هندسى مبنى من لبنات محسوبة مدروسة، أو كون مترابط متماسك ليس فيه فضول أو لغو أو تكرار أو اختلاف أو تناقض.

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ٨٢)

وهذا هو القرآن، حكمه حكم بدن فيه روح .ولهذا يقول المولى لنبيه عن القرآن:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(الشورى: ٥٢)

فيسمى القرآن روحا، وهذه الخصائص تشهد بالفعل أنه روح .وذلك هو الكمال المعجز.

وكمثال آخر نجد كلمة «الجنة» تتكرر كثيرا فى القرآن، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أنها تقدم فى كل مرة مشهدا مختلفا.

فهى مرة جنات وعيون، ومرة جنات ونهر، ومرة جنات من نخيل وأعناب.

وبعد عرض مشاهد الحرير والاستبرق والذهب والفضة والحور العين، والأزواج المطهرة والعسل والخمر، واللبن والكئوس التى مزاجها الكافور والزنجبيل، والمساكن الطيبة فى جنات عدن والغرف التى من فوقها غرف مبنية، يفاجئك القرآن بعوالم من الأسرار، فيقول مشيرا إلى الجانب الغيبى من الجنة:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾

(السجدة: ١٧)

وفى مكان آخر يقول إنهم:

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(القمر: ٥٥)

وفى مكان آخر:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(الأعراف: ٤٣)

وفى مكان ثالث:

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾

(التحريم: ٨)

وكل هذه أسرار.

ثم هو بعد أن يصف كل المشهيات فى عالم المادة وعالم الغيب يعود فيقول:

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

(ق: ٣٥)

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

(التوبة: ٧٢)

أكبر من هذا كله.

تلك هى رحلة كلمة الجنة فى القرآن، عالم خلاب من الصور لا تكرار فيه، يخاطب الجوع المادى، ويخاطب الجوع الروحى، ويخاطب الوجدان الفلسفى، ويخاطب عرائس الخيال والأحلام، ويخاطب طموح الإنسان الذى لا يرضى بشىء فيطمئنه فى النهاية.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾

(الضحى: ٥)

ولقد سبق أن قلنا فى مقالات سابقة: إن كلمات القرآن كلمات منفردة بذاتها

وبخصائصها، لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات فى مجال مغناطيسى محكم، حتى الحرف لا يأتى فى القرآن إلا لضرورة، ولا يمكنك أن ترفع حرفًا من مكانه أو تستبدله بحرف آخر.. يقول القرآن عن الصبر على المصيبة:

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(لقمان: ١٧)

ثم تراه يضيف حرف (اللام) للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤٣)

لماذا أضاف حرف «اللام» فى الآية الثانية؟

لأن الصبر على أذى الغريم الذى تستطيع أن ترد عليه بأذى مثله يحتاج منك إلى عزم أكبر، فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة لك فيها وبالمثل نرى الله يقول لليهود الماديين:

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾

(البقرة: ٢٤)

ويقول للمؤمنين أولى الألباب:

﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

لأن العقليات المادية لا تخاف إلا النار المادية، أما أولو الألباب فإنهم يعرفون أن خالق النار أخطر شأنًا من النار، ولهذا نراه يضيف الضمير فيقول:

﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

وهكذا نرى أن الحروف فى القرآن لا ترد اعتباطًا، وإنما تأتى بحساب وحكمة.

ومثال آخر نرى القرآن يقول:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾

(التكاثر: ١، ٢)

فلماذا، زرتم، لماذا لم يقل سكنتم المقابر، أو دخلتم المقابر، أو حللتم فى المقابر، أو ملأتم المقابر؟ ولماذا قال: (زرتم)؟

ليلفت النظر إلى أن المقام فى القبر مقام مؤقت، وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا دخول سكنى. تدل على ذلك آية ثانية عن الموت:

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾

(آل عمران: ١٥٤)

فيصف رقدة الموت بأنها مجرد ضجعة وأن القبر مجرد مضجع، والضجعة بعدها انتباه وقيام. وتلك دقة بالغة فى التعبير تجعل كل كلمة مقصودة لضرورة ولا يمكن استبدالها.

ثم نرى القرآن يختار الفعل المتعدد المعانى للمناسبة المتعددة المعانى. فهو يقول عن الأرض:

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾

(النازعات: ٣٠)

والفعل «دحى» هو الفعل الوحيد فى القاموس العربى الذى يعنى البسط والتكوير معا، ولا يصلح للتعبير عن حال الأرض إلا هذا الفعل، لأن الأرض منبسطة فى الظاهر مكورة فى الحقيقة. ثم إن

تكويرها يعنى أشبه بتكوير «الدحية» أو البيضة.

ولا يوجد فى المعجم العربى أى لفظ آخر يعطى هذه المعانى المتعددة، ويستوفى الوصف الظاهر والوصف المستتر للأرض غير هذا اللفظ. فنحن أمام لفظ ليس له بديل.

وبالمثل نراه يصف الرياح أنها «لواقح»

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾

(الحجر: ٢٢)

والرياح تلاقح بين السحب الموجبة والسحب السالبة التكهرب، وهى أيضًا تحمل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث فى الزهر، ثم هى أيضًا تحمل بخار الماء الذى ينزل مطرًا على الأرض فيلقحها ويخصبها.

ثم هى تحمل ذرات التراب التى تنمو حولها القطيرات وذلك أيضًا تلقيح.

فانتفاء اللفظ هنا انتفاء مطلق، بحيث لا يصلح فى القاموس لفظ غيره، فلا يمكن استبداله بحال.

ثم إنك لا تستطيع أن تؤخر أو تقدم كلمة من مكانها فى السياق لأن التأخير والتقديم فى الكلمات القرآنية هو الآخر محسوب، وهو دائمًا لوظيفة ولهدف.

فالزانية تأتى قبل الزانى فى الآية:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

(النور: ٢)

فى حين نرى السارق يأتى قبل السارقة فى الآية:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(المائدة: ٣٨)

ذلك لأن المرأة هى التى تبادر بالخطوة الأولى فى الزنى منذ أن تقف أمام المرآة لتضع المكياج وتلبس العريان.. أما فى السرقة فالرجل هو الأكثر إيجابية.

وبالمثل نجد السمع مقدمًا على البصر فى ستة عشر موضعًا، ومعلوم الآن أن جهاز السمع أدق تشريحيا من جهاز البصر، وأن السمع أرهف، وأن تنوع النغمات أكثر من تنوع الألوان، وأن موهبة السمع تصل إلى إمكان الاستماع إلى الوحى من الملائكة.. ولقد علمنا أن موسى سمع ربه ولكنه عجز عن أن يراه، وذلك بسبب محدودية الجهاز البصرى.

وهذا هو القرآن.. بنيانًا محكمًا من الألفاظ لا تستطيع أن ترفع فيه كلمة أو تبدلها أو تؤخرها أو تقدمها.. تتكرر كلماته بحساب وحكمة ولهدف، لكى تكشف عن مكنونها وتبوح بأسرارها وثرائها، ثم إن التنوع والتفصيل ينتهى بالقارئ إلى كمال مراد مقصود، وإلى تمام فى الفهم والتصور.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾

(الأنعام: ١١٥)

فذلك هو التمام المقصود. ولا يقدر على هذا اللون من تركيب الألفاظ بشر.

اقرأ باسم ربك الذى خلق

ثبوت النص القرآنى



للمستشار طارق البشرى

إن دينا سماويا أو غير سماوى، لم تثبت وقائعه ثبوتا يقينيا لاظن فيه بمثل ما كان فى الإسلام. ولا أعمل العقل فى دين من الأديان بمثل ما أعمل فى الإسلام. وما من دين اشترط لثبوت وقائعه أشد مناهج الإثبات وأدق أساليب تحقيق الوقائع والنصوص بمثل ما حدث فى الإسلام.

(١) إننى قاض يعمل بالقضاء من بضع وأربعين سنة، وصناعتى تحقيق الوقائع إثباتا ونفيا وإثبات التصرفات والأفعال وإنزال حكم القانون فى ضوء من هذا التحقيق، وقد قرأت فى التاريخ ومارست التأريخ من بضع وثلاثين سنة، وعرفت كيف يتثبت المؤرخ من وقائعه ويستجمع الأحداث، ومن مقارنة مناهج تحقيق الوقائع والتصرفات والأفعال فى مجال القضاء والحقوق، بمناهج هذا التحقيق فى التاريخ والسياسة، يتبين أن تلك المناهج فى القضاء والحقوق أدق وأصعب مما لا يقاس عنها فى التاريخ والسياسة، لأن القاضى فيما يفعل إنما ينتهى إلى قرار بتجريد شخص من حياته أو من زوجه أو من ماله أو من عمله أو غير ذلك، بينما المؤرخ يحلل وقائع ويدرسها وينتهى إلى رأى قد تقف إزاءه آراء معارضة.

أكاد أقول إن ما شرط فى علوم القرآن والحديث للتثبت من وجود النص هو أكثر دقة وآكد فى التيقن مما يشرطه القاضى عند إثباته للواقعة المطروحة عليه، وإن شاهدين ليكفيانه متى كانا عدلين؛ ليتيقن من شخص قاتل أو سارق أو من وقوع زواج أو من انبرام دين، بما يقضى إليه أى من ذلك من إعدام القاتل أو ثبوت النسب أو إفقار مدين، فى حين أننا نحتاج إلى ما هو أكبر من ذلك للتثبت من النص الشرعى.

أكاد أقول إننى كقاض، وبوسائل التحقيق القضائى للوقائع التى تفضى إلى حكم على شخص فى حياته أو فى حريته أو فى ماله وملكه أو فى زواجه ونسبه وولده، بهذه الوسائل أستطيع أن أقضى من باب أولى بثبوت القرآن الكريم ثبوتا قطعيا، لأنه ثابت بالتواتر، والتواتر هو انتقال الخبر أو النص من جمع لا يتفق على كذب إلى جمع مثله، وهكذا تكون كل حلقات نقل الخبر أو النص حتى يصل إلى المتلقى الأخير. وهذا الأسلوب أشد كثيرا من شهود الدعاوى ومن خبرات ذوى الخبرة كنظر طبيب واحد أو مضاهاة خبير خطوط. ومن جهة أخرى فإننا كمؤرخين إذا التزمنا بمناهج علماء مصطلح الحديث الشريف فى تحقيقهم الأحاديث، إذا التزمناها فى تطبيقها على وقائع التاريخ، فلن يبقى لنا من التاريخ المكتوب والمروى إلا أقل القليل، وإذا التزمنا التواتر فلن يبقى من وقائع التاريخ عشر معشارها، لن يبقى مثلا من وقائع القرن العشرين إلا الأحداث التى من نوع تواريخ قيام الحروب وموت

القادة وإعلان نشأة الدول.

أكاد أتجاسر بالقول بأن الله سبحانه وتعالى أنعم علينا نحن المسلمين بوقائع الفتنة الكبرى على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، ووجه كونها نعمة أن عثمان هو من جمع المسلمين على مصحف واحد، وهو نفسه الذى قام على المسلمين من أفضت قومتهم إلى قتله، فكان الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء وقتها يبلغ من الجسامة حد قتل أمير المؤمنين وبقى الخلاف حلقات بعد ذلك حسبما هو معروف ومشتهر، وتوافر لدينا بهذا القيام عنفا وسعة وشمولا واستمرارا، بين مسلمين من جيل الصحابة وحفظة القرآن الكريم، توافر لدينا ما نستطيع به القول باستحالة اتفاق على كذب فى أى شأن من شئون الحياة، بله أن يكون هذا الشأن هو نص كلام الله تبارك وتعالى الوارد فى المصحف بدءا بسورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس. فكانت الفتنة الكبرى مما يدعم قطعية ثبوت نص كتاب أنزل من الغيب، ومنه نتجت أمة الإسلام كله.

(٢) لو أعملنا مناهج الإثبات القضائى القديمة أو الحديثة، الجنائية أو المدنية، لثبت بها القرآن بأفصح وأقطع مما تثبت به الحقائق الواقعية الأخرى المعاصرة أو غير المعاصرة، مما تقوم به الحقيقة القضائية ذات الحجية التامة. وبرؤية العيان للكافة، مسلمين وغير مسلمين يثبت وجود الكعبة وقبر الرسول، وبالتواتر غير المنقطع على مدى خمسة عشر قرنا يثبت استمرار بقائهما، وكل ذلك أسانيد معنوية ومادية محسوسة على حقيقة الدعوة الإسلامية، وهى تقوم بدلائل يقبلها ويعملها المنهج الوضعى والعقلى الصرف، وكل ذلك يوفر للحقائق الإسلامية الأساسية ما لم يتوفر مثيل له لأى من الأديان الأخرى السماوية وغير السماوية، بل أكاد أقول إنه لم يتوفر لأى من وقائع التاريخ البشرى قبل البعثة المحمدية.

(٣) ونحن بوصفنا مسلمين، لدينا وحدنا أقدم وثيقة ثبتت ثبوتا يقينيا بالأدلة والبراهين الواقعية والعقلية، لدينا وحدنا أقدم وثيقة من هذا النوع تؤكد على وجود الأنبياء والرسل السابقين وكتبهم، وتؤكد وجود موسى والتوراة واليهودية، ووجود المسيح والإنجيل والمسيحية، وكلاهما ثابت لدينا واقعا وعقلا بأكثر مما هما ثابتان واقعا وعقلا لدى معتنقيهما اليوم.

أردت من كل ذلك أن أوضح أننى عندما أشرت إلى ما يتعين مما يتحلى به المؤمن من تسليم وتصديق ومن أن يبدأ سعيه الفكرى بالمسلمات الإيمانية، لم أكن بهذا أشير إلى الابتعاد عن مناهج التحقيق العقلى والواقعى، ولم أكن أتهرب من إعمال هذه المناهج، لأننا نحن المسلمين أكثر من أعملها من ذوى الأديان والعقائد، بل هى فى الصميم من ركائز الممارسة الإيمانية لدينا.

ولكننى كنت أقصد الإشارة إلى أنه ما من منهج عقلى أعمله الإنسان ويعمله إلا ويعتمد على مجموعة أصلية من المسلمات الفلسفية تشكل لديه المنطلق الفكرى ونقطة البدء، حتى العلمانى وحتى الوضعى وحتى اللاأدرى لدى كل منهم من فلسفته مجموعة من المسلمات الأساسية عن أصل المعرفة، بها يبدأ ومنها يجدل كل مواقفه الفكرية.

والقرآن الكريم، يستخرج منه الأصوليون مبادئ علم أصول الفقه بدقتها العقلية الصارمة، ويستخرج منه المفسرون ما يستخرجون من سخاء المعارف الروحية. ونحن أمة خرجت من هذا الكتاب، ولاتزال تنهل منه. والله سبحانه أسأل أن يجعل أمته هذه أمة قرآنية، وأن يبقيها على القرآن.

كيف نقرأ القرآن مع على عزت بيجوفيتش؟



أ. محمد يوسف عدس

(١) كم من المسلمين فى هذا العالم لا يقرأون القرآن..؟ وكم منهم يقرؤه بدون محاولة لفهمه..؟ وكم منهم إذا فهم معانى الكلمات يقرأ القرآن ولكن بدون تدبّر حقيقى ولا استيعاب؟ وكم منهم قد يفهم ويعى ما يقرأ ويجتهد فى الاستيعاب، ولكنه لا يحرك ساكناً نحو تطبيق القرآن فى حياته ..؟ عن هذه المشكلة المعقدة يتحدث على عزت بيجوفيتش من واقع خبرته الشخصية وتأملاته فى القرآن.



الغزالى

كانت مشكلة فهم معانى القرآن ومقاصده حاضرة فى عقل العالم الشيخ محمد الغزالى وهو يضع كتاب «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم» وكتابه «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» و كتابه «نظرات فى القرآن» كذلك كانت هذه المشكلة حاضرة فى ذهن العالم الشيخ يوسف القرضاوى فى كثير من كتبه.. ومنها: كتاب «كيف نتعامل مع القرآن العظيم» وكتاب «تفسير سورة الرعد»، وكتاب «العقل والعلم فى القرآن»، وكتاب «المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة: ضوابط ومحاذير فى الفهم والتفسير».



القرضاوى

لم يكن أىّ من هذه الكتب موجوداً أمام على عزت بيجوفيتش عندما شرع يكتب عن هذه المشكلة فى مايو سنة ١٩٧٧، ولم تكن قد تم تأليفها ونشرها بعد.. ولكنه أدرك المشكلة وعاناها، وفكر فيها ـ بالتأكيد قبل هذا التاريخ ـ ولسنا نتوقع أن يأتى بشىء جديد يمكن أن يضاف إلى ما قاله كلّ من الشيخين الجليلين.. لكن الجديد فيها (ربما) هو أنه يكتب من واقع تجربته الشخصية.. وتأملاته الخاصة فى القرآن الكريم.. فهو يعترف بأنه قرأ القرآن مرات ومرات.. ولكنه لم يتساءل من قبل: كيف ينبغى عليه أن يقرأ القرآن..؟ ولا بد أنه أدرك أن هذه ليست مشكلته وحده بل مشكلة الكثيرين من أمثاله ممن يتعاملون مع القرآن.. ومن ثم رأى أن يكتب ليشرك الآخرين فيما توصّل إليه من أفكار وخواطر حول هذا الموضوع..

وفى ذلك كتب مبتدئاً بتوجيه النظر إلى حقيقة محورية هى من أخصّ خصائص القرآن.. قال: «يجب أن نضع نصب أعيننا، قبل كل شىء، أن القرآن الكريم كلٌ لا يتجزأ. وكل آية فيه إذا أُخذت منفردة أو مُنتزعة من السياق العام لا تقدّم حقًا كاملا، بل تقدم جزءاً من الحق، فنحن لا يمكن أن نعرف الحق كاملا إلا إذا أخذنا القرآن كاملا.. أما سرد بعض الآيات منفردة ـ وهو أمر لا مفرّ منه فى الدرس أو الاستشهاد أو فى أى تعامل آخر مع القرآن ـ فلا بد أن يُفهم على خلفية فهمنا الكامل لمجمل القرآن، فالأمر هنا شبيه بلوحة الفسيفساء، كل قطعة فيها يتوقف معناها وقيمتها الجمالية على ما تعنيه فى انسجامها مع بقية قطع اللوحة الكاملة. أما إذا أخذنا كل قطعة بمفردها فإنها لا تقدم إلا جزءاً أو لا تقدم شيئاً حقيقياً من جمال اللوحة الكاملة.....»

ومن أجل مزيد من الإيضاح يضرب بيجوفيتش هذه الأمثلة:



بيجوفيتش

آية قرآنية تشرّع للقصاص:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾

(البقرة: ١٧٨)

وآية أخرى تدعو إلى العفو والصفح:

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

(الشورى: ٤٠)

أو آية تقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(المائدة: ٨٧)

وآية أخرى تقول:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(طه: ١٣١)

إلى غير ذلك من الأمثلة .. يقول بيجوفيتش:

«إن من يقرأ القرآن قراءة عابرة قد يخيل إليه وجود تناقض فيه، بينما الأمر ليس كذلك قطعًا .. فحقيقة الأمر أن المسألة تتعلق بأبدع وأرفع ميزة يمتاز بها القرآن والإسلام بصفة عامة .. وهى التجانس التام بين الأمور التى تبدو متناقضة للناظر إليها لأول وهلة .. إذ يجب أن نلاحظ ونفهم أن القرآن لا يطالبنا هنا بأمر واحد .. بل يطالبنا بأمرين معًا .. فهو لا يريد منا القصاص فقط لأنه يطالبنا أيضًا بالعفو .. والعكس بالعكس، كما لا يفرض علينا السعى للآخرة وحدها لأنه يريد منا السعى لهذه الدنيا أيضًا، أى لا يطالبنا أبدًا بالسعى لحياة دون أخرى. لذلك لا يتحقق كمال الإسلام فى المسلمين الذين لا يعرفون غير العقاب ولو كانوا على الحق لأنهم لم يعفوا .. كما لا يتحقق كمال الإيمان فى الذين لا يعلمون غير العفو ولا يجازون عن سيئة بسيئة مثلها .. ويمكن أن نستنتج هنا ـ ببساطة شديدة ـ أن المسلم الكامل هو الذى يعرف مقدارًا معتدلًا للأمرين معًا .. هو الذى يذهب إلى القصاص ويطلبه فى موضعه وهو الذى يسمح بالعفو ويمنحه فى موضع استحقاقه ....».

هذا الأسلوب عند بيجوفيتش هو الأسلوب الأمثل فى فهم القرآن وتطبيقه .. وهو أفضل وسيلة يمكن أن نرتقى بها إلى مستوى الفهم الكامل لحقيقة الإسلام وجوهر رسالته .. وفى الزمن الذى نحن فيه اليوم هناك أناس بل مؤسسات إعلامية كبرى ومؤسسات دينية دعويَة وسياسية تجعل كل رسالتها و تكرّس كل جهدها للترويج لفكرة السلام والسماحة والتعاون على البر والتقوى مع الآخرين من غير المسلمين دون اعتبار لموقفهم منا .. وهل هو موقف سلام أو موقف حرب وعدوان .. إلى آخر هذه الدعاوى التى تصوّر الإسلام وكأنه الدين الذى يدعو الإنسان إلى أن يدير خده الأيمن لمن ضربه على خده الأيسر .. فإذا لم يشفه ذلك استدار ليسلمه قفاه الذى اعتاد على الصفع واستمرأه .. ثم يدعو لضاربه بالهداية وطول العمر ... !!

وهناك قلّة من الناس لا يرون فى الإسلام إلا العنف والسيف فى التعامل مع الأعداء والمخالفين فى العقيدة على السواء .. ويزعمون أن آية السيف ـ كما يسمونها ـ قد نسخت كل الآيات الأخرى التى تأمر بالبر والقسط للذين لم يقاتلوا ولم يعتدوا ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم .. وفى مناخ التشدد والتنطّع من كلا الجانبين تضيع الحقيقة ويلتبس على الناس الأمر فيتساءلون: أين الحقيقة .. ولاشك أن الإسلام يدعو إلى السلام كأساس للتعامل بين البشر .. وهو دين تعاون وسماحة لا ترتقى إليها كل ما فى هذا العالم من سماحة مُدّعاة .. هذا كله حق لا لبس فيه ولا جدالَ .. ولكنه ليس كل الحق .. لأن الدين الذى يؤكد على هذه القيم الرفيعة يعلم مُوحيه سبحانه وتعالى أن هناك فى هذا العالم أشرارًا طامعين معتدين ومجرمين عتاة لا يرتدّون عن عدوانهم و لا يرتدعون إلا باستخدام العنف والقوة .. ومن ثمّ شرع القتال للدفاع عن النفس .. وشرع الاستعداد للقتال دائمًا حتى يرتدع الطغاة الطامعين فلا يفكرون فى العدوان على المسلمين مرة أخرى ..

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(الحج: ٣٩)

والذين يقاومون اليوم العدوان الظالم على أوطانهم فى فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان، وغيرها من بلاد العالم المسلم .. يقفون فى قلب الإسلام الصحيح .. أما أعداء المقاومة من أنصار ـ أسلو ـ والذين يسجدون الإسرائيليين لمجرد الجلوس معهم على مائدة مفاوضات ـ للمنظرة وأخذ الصور وتبادل القبلات ليقال إن هناك عملية سلام مستمرّة بينما القوات الصهيونية تواصل العدوان على الفلسطينيين واغتيال أرضهم بنشر المستوطنات وتهديد القدس العربية وفرض الحصار والتجويع وتمديد الجدار العازل فى قلب فلسطين، فموقعهم فى الإسلام مشكوك فيه، فليبحثوا لأنفسهم عن موقع آخر!

(٢) ينتقل على عزت بيجوفيتش إلى النقطة الثانية فى تأمّلاته حول الطريقة المُثلى لقراءة القرآن حيث يوصى بالمداومة على التلاوة، مع فواصل زمنية لازمة للتفكير والتأمل فيما تمت قراءته من قبل .. ويرى أن هذا أضمن طريقة لاكتشاف ما يسميه هو «بإشعاع النور القرآنى» .. إذ يكتشف القارئ المداوم على التلاوة أن هناك شيئًا جديدًا فى كل قراءة جديدة .. وهنا ينبّهنا بيجوفيتش إلى حقيقة أن القرآن نفسه لم يتغيّر ولكن شيئًا آخر هو الذى تغير على حدّ قوله: «تغيّرنا نحن .. أو تغيرت الظروف المحيطة بنا .. أو تغير العالم الذى نعيش فيه؛ فهو يرى أن هذه التغيّرات هى التى مكّنتنا من الغوص فى أعماق جديدة كنّا قد غفلنا عنها أثناء قراءاتنا السابقة للقرآن الكريم .. ثم نشعر فجأة بأصداء تتردد فى قلوبنا لآيات لم نركز على معانيها فيما سبق .. يقول على عزت بهذا الصدد: «يمكن لكل واحد منا أن يتأكد بنفسه من هذا المعنى بمداومته على تلاوة القرآن، ثم يضرب أمثلة لتأكيد هذه الفكرة من تجربته الشخصية حيث يقول:

«منذ زمن بعيد وأنا ما أزال فى مقتبل عمرى كنت أتوقف أثناء قراءة القرآن الكريم عند آيات تتحدث عن العمل والجهاد والعدالة. وكنت أسجل هذه الآيات فى دفتر صغير ـ شاءت إرادة الله له أن ينجو من عبث رجال الأمن ـ وهم يفتشون فى كتبى و دفاترى الأخرى .. أذكر جيدًا أن آيات وجوب ردّ العدوان

والظلم والاستبداد كانت قد ملكت علىّ عقلى . عندما يتحدث القرآن الكريم عن سمات شخصية المسلم السوية يذكر ـ من بينها ـ

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾

(الشورى: ٣٩)

وكنت أنتهز كل فرصة للحديث عن هذه الآية . أما اليوم فتستحوذ على الآيات التى تتحدث عن الله سبحانه وتعالى وعن زينة هذه الدنيا وسرعة زوالها .. أى الآيات التى تحثّ على التأمل وليس على الحركة .. و أذكر جيداً أن الآية التى تدل على زوال كل شىء ما عدا وجه الله ـ عز وجل ـ قد أثرت فى تفكيرى تأثيراً بالغاً لأنه وحده سبحانه هو الحقيقة التى لا تنقضى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

(الرحمن: ٢٦ ، ٢٧)

أى أن الله وحده كان قبل النجوم والكون كله وهو باق بعد زوال كل شىء .. فهو الحق وحده والحقيقة الوحيدة الباقية إلى الأبد .. وعندما انتقلت أمى إلى رحمة الله وكان قلبى يعتصر ألماً وحزناً كنت لا أفارق سورة الفجر .. وأقف دائماً عند هذه الآية البديعة :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝ ﴾

(الفجر: ٢٧ - ٣٠)

وفى كل مرة كانت عينىّ تذرف دمعاً ولكننى لم أجد من السلوى لنفسى خيراً من هذه الآية الكريمة .. وكنت أتساءل من يمكنه أن يقدم للإنسان كلمة عزاء أبلغ من هذه الكلمات إذا قُدّر له أن يقبل وجه ولده المتوفى؟

وهكذا يصل بيجوفيتش فى مجال تأملاته القرآنية وتأثير آيات القرآن على حياته النفسية والعملية إلى حقيقة أن القرآن الكريم كما هو شريعة وتكبيرة جهاد فى ظرف ما ، هو أيضاً وفى ظروف أخرى سلوان لما لا مفر منه من نوائب الدهر .. والأمر يتوقف على حالتنا الشخصية والعقلية ففى موقف معيّن يجذب القرآن انتباهنا إلى شىء ما .. وفى حالة أخرى أو موقف آخر يجذب انتباهنا إلى حقيقة أخرى.

فإذا تركنا الجانب الفردى الشخصى من ناحية (زاوية الاهتمام) واتجهنا إلى ما يتعلق بظروف تاريخية معينة على مستوى المجتمع .. حينئذ سوف تتركز أنظارنا على إبراز بعض الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الظرف أو ذاك وفقاً للحالة القائمة .. ففى المجتمع الذى تمزقه التفرقة العنصرية تبرز الأولوية للآيات الدالة على مساواة جميع الناس وعلى النشأة المشتركة للإنسانية كالآية الأولى فى سورة النساء:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(النساء: ١)

وفى مجتمع تُنتهك فيه الحقوق الدينية .. أو تمزقه أى نوع من التفرقة لا بد أن تبرز هذه القاعدة الصارمة المكونة من ثلاث كلمات فقط :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وفى ذلك يقول على عزت : «لا نفاضل نحن المسلمين بين الآيات القرآنية .. ولكن غير المسلمين يكادون يجمعون على أن هذه الآية القصيرة عن التسامح الدينى هى أرفع وأبدع آية قرآنية ، وهكذا يمكننا مواصلة التأمل فى هذا الاتجاه..»

(٣) إذا كنا فى معرض الحديث عن كيفية قراءة القرآن الكريم فإنه لا بد لنا أن نشير إلى ما يُعرف بترتيل القرآن أو الاستماع إلى تلاوة القرآن .. إذ يرى بعض الناس أن مثل هذا الترتيل المنغّم قليل الفائدة أو غير جائز .. بزعم أن أغلبية المسلمين لا يفهمون ما يتلى عليهم ومن ثم فهم يركزون فقط على نغمات الترتيل وجمال الصوت فقط .

يقول على عزت : «أرانى هنا ملزماً بالقول بأننى لا أوافق على هذا الرأى .. ولا يسعنى إلا أن أذكر حادثة لا أظننى سأنساها أبداً : فقد أتيحت لى فرصة المشاركة فى مؤتمر دولى قبل عدة سنوات كان يناقش موضوع مشكلات وعوائق النهضة الإسلامية ، وتم عقد هذا المؤتمر فى مدينة كبيرة من مدن أوربا ، حيث شارك فيه عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين قدّموا بحوثاً وآراء عن تجديد الفكر الدينى فى العالم الإسلامى .. وكان كل يوم من أعمال المؤتمر يُفتتح ويختتم بتلاوة من آيات القرآن الكريم .. كان يقوم بها واحد من أشهر قُرّاء القرآن فى العالم....».

ويمضى على عزت فى وصف الأجواء التى كانت سائدة فى المؤتمر فيقول : «كان الحاضرون يستمعون باهتمام إلى كلمات المحاضرين والعلماء ، ولكننا كنا نشعر بوجود مئات الحاضرين فى القاعة من خلال الهمسات والحركات فهذا يهمس إلى جاره وذاك يحرك كرسيه وآخر يتصفح أوراقه ، وهكذا .. ولكن بعد لحظات من شروع القارئ فى تلاوة القرآن تتوقف كل الحركات والأصوات فجأة ويسيطر الهدوء الشامل .. حتى أثناء توقف القارئ للتنفس لم يكن يُسمع فى القاعة صوت .. بل خُيّل إلىّ أن جميع الحاضرين قد توقفوا عن التنفس أيضاً .. إنه الهدوء الذى يستطيع الناس فيه أن يستمعوا إلى خفقان قلوبهم بشكل منتظم .. كانت كلمات القرآن الكريم تنساب من فم هذا القارئ كنهر متدفق .. يجرى هادئاً مترقرقاً حيناً ثم لا يلبث أن يتحول إلى شلالات هادرة لتأخذك وتحملك بعيداً .. ولكن قمة الحدث الذى لا يمكن وصفه بالكلمات كانت فى اليوم الأخير ، عندما اعتزم القارئ الشيخ أن يتحفنا بهدية خاصة قبل الفراق ، لذلك اختار تلاوة سورة الرحمن .. هذه السورة بديعة رائعة متميزة بجمال أسلوبها وتناسقها ..

أظننى إلى الآن لا زلت عاجزاً عن وصف الحالة التى كنت فيها وأنا أنصت إلى التلاوة.. لم أكن قبل ذلك الوقت أفهم معنى آيات هذه السورة فهماً كاملاً سوى الآية المتكررة:

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(سورة الرحمن)

ولكننى بتأثير قوة التعبير الصوتى وجماله شعرت بأنى أفهم آياتها تماماً، أنا وجميع المستمعين..»

بعد الانتهاء من التلاوة فى كل يوم من أيام المؤتمر كنت أجد نفسى أقترب شيئاً فشيئاً من الآخرين، وكنت أقرأ هذا الإحساس نفسه فى وجوه الحاضرين، كأنهم يريدون أن يقولوا: ألا ترون.. ألسنا جميعاً أخوة فى الإسلام..!؟» كان على عزت وهو لا يزال شاباً فى العشرينات من عمره يعترض على الاهتمام المبالغ فيه بتلاوة القرآن بصوت رخيم وبدون فهم لمعانيه.. ويعتبر هذا عائقاً عن الاهتمام الواجب بتطبيق القرآن فى حياة الناس.. ولذلك يقول: «بعد هذه الواقعة لن أجرؤ على تقليل أهمية الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بدون فهم.. لأن قلوب جميع المسلمين تفهم القرآن بشكل أو بآخر من خلال التجويد المنضبط والتلاوة الجميلة المعبّرة عن المعانى.. وسيجد كل إنسان فى القرآن من المعانى بقدر ما فى عقله وقلبه من رحابة وبقدر إيمانه وقوة تعلقه بالقرآن العظيم..».

(٤) ما لم يذكره بيجوفيتش فى هذه المقالة فيما يتعلق بسورة الرحمن بالذات أنه كانت له ذكريات معها فى طفولته المبكرة.. ففى مذكراته التى نُشرت له قبل وفاته ببضعة أشهر يتحدّث عن حبه لأمه.. ويصفها بأنها رقيقة عطوف.. وعلى جانب عظيم من التديّن والتُقى.. فقد كانت حريصة على قيام الليل وقراءة القرآن حتى يحين موعد صلاة الفجر فتوقظه ليذهبا معاً إلى صلاة الجماعة فى المسجد القريب من منزلهم.. يقول: «كنت فى ذلك الوقت صبياً بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرى ولم يكن من السهل علىّ مغادرة فراشى الدافئ فى ذلك الوقت المبكر، فكنت أقاوم فى بادئ الأمر.. ولكنى كنت أشعر بعد العودة من المسجد بانتعاش كبير وسعادة غامرة من هذه الخبرة المثيرة».. خصوصاً فى فصل الربيع، حيث تكون الشمس قد أشرقت وغمرت المكان بأشعتها الدافئة، ولمّا تزل آيات القرآن حلوة نديّة ترقرق فى مسامعى، فقد اعتاد الإمام الشيخ قراءة سورة الرحمن كاملة فى الركعة الثانية بصوته العذب، وكان هو نفسه شخصية محبوبة من جميع أهل البلدة.. كنت أعود من المسجد دائماً سعيداً منشرح الصدر.. وقد استقر هذا الانطباع فى أعماق نفسى قوياً مشرقاً فى وسط ضباب كثيف من الخبرات الأليمة التى أحاطت بحياتى عبر السنين..».

التجرؤ المذموم على كتاب الله المجيد

رؤية تحليلية / د. يحيى رضا جاد
طبيب بشرى وكاتب وباحث مصرى

تناولُ المسلمين المعاصرين لكتاب الله أنواع، منها: تناولٌ خامل خامد سلبى، وتناول محمود جرىء رصين، وتناول مذموم متجرئ متهور. وحديثنا ها هنا سيقتصر على النوع الثالث.. فلنبدأ باسم الله:

لظاهرة «التناول المذموم المتجرئ المتهور» لكتاب الله العظيم أسباب، منها:

١ - أنها رد فعل طبيعي لظاهرة (الإحجام) عن الاجتهاد - الصادر من أهله وفى محله - فى فهم وتفسير كتاب الله. وظاهرة (الإحجام) هذه: قصور ذاتى فى المجتمع العلمى.

٢ - الغلو فى تعطيل النصوص باسم المقاصد كرد فعل طبيعي للغلو فى تعطيل المقاصد باسم النصوص.. وهذا خلل منهجى.

٣ - شيوع «قراءة التَّعضية» - «القراءة التجزيئية التقطيعية» - التى تُفتت وتُبعثر كتاب الله.. وبتعبير آخر: غياب «الرؤية الشمولية» للقرآن الكريم، وغياب منظار «الوحدة الموضوعية» عند التعامل مع كتاب الله.. وهذا - كسابقه - خلل منهجى.

٤ - التعصب للرؤية التى نشأ عليها صاحب هذا التناول المذموم المتجرئ المتهور.. والتعصب هوى، و«الهوى يعمى ويصم».. وهذا خلل نفسى.

٥ - الجهل بأوليات وأبجديات وأساسيات علوم الآلة (خاصة أصول الفقه وعلوم اللغة).. وهذا خلل تحصيلى.

٦ - الجهل بأساسيات علم القواعد «القواعد الفقهية وعلم مقاصد الشريعة وكلياتها».. وهذا - كسابقه - خلل تحصيلى.

٧ - الإحساس باحتكار الحقيقة؛ بلسان المقال حيناً، ولسان الحال فى أكثر الأحايين.. وهذا خلل عقلى.

٨ - النظرة «التقديسية» - فى اللاوعى - للحضارة الغربية ورؤيتها الكونية وأدواتها المعرفية.. وهذا خلل معرفى.

٩ - النظرة «التحقيرية» - والمُشوَّهة والمشوِّهة فى ذات الوقت - للحضارة الإسلامية ورؤيتها الكونية وأدواتها المعرفية، وللتاريخ الإسلامى بكافة مكوناته وعناصره.. وهذا - كسابقه - خلل معرفى.

١٠ - وجود مؤسسات تدعم وترعى وتروِّج لـ(التناول المذموم المتجرئ المتهور)؛ مما يغرى

الأغرار والقُصَّر بالسير في هذا الركب.. بينما التناول المحمود الجرىء الرصين (لا بواكى له ولا أب!.. وهذا خلل اجتماعى.

١١ ـ وظلمة فوق ظلمة: اجتماع أمرين معاً: وجود المؤسسات الداعمة لـ«التناول المذموم التجرئ المتهور»، ووجود النفس الشرهة للمال والجاه والشهرة من أسرع وأقصر طريق!.. وهذا خلل اجتماعى نفسى مشترك.

إذن، هناك عدة أنواع من الخلل تقف وراء هذه الظاهرة: قصور ذاتى فى المجتمع العلمى ـ خلل منهجى ـ خلل نفسى ـ خلل تحصيلى ـ خلل عقلى ـ خلل معرفى ـ خلل اجتماعى.

وفى الخلفية من ذلك كله تقف - عند كثير من أرباب «التناول المذموم التجرئ المتهور»: «عقلية مادية شرسة»، تؤمن بالإنسان وتنحى الله جانباً (وكأنهما نقيضان؛ مع أن الإيمان بالله فى الإسلام هو الذى يجعل الإنسان سيداً فى الكون وفق بنود عقد وعهد الخلافة)، وتؤمن بالدنيا وتنحى بالآخرة (مع أن المسلم لا يعلم طريقاً للآخرة إلا ويمر بالدنيا).

ولأجل إعمال سكين «العقلية المادية الشرسة» فى جسد النص المقدس - أقصد القرآن الكريم - اعتمدوا «الهرمينوطيقا»[١] سبيلاً للتعامل مع القرآن المجيد.

والهرمينوطيقا - التى هى: «منهج التأويل الغربى ما بعد الحداثى للنصوص؛ مطلق النصوص» - تقوم على دعامتين - كلاهما تقود إلى الأخرى:

● الأولى: «نسبية فهم الألفاظ والمصطلحات» نسبيةً سائلة هلامية، مرجعها الوحيد: قارئ النص ذاته.. وهذا إحلال لقارئ النص محل مبدع النص (مما يعنى: إحلال الإنسان محل الله)، ونسفٌ لمرجعية اللغة؛ كأداة تواصل وحيدة بين البشر!

● والثانية: «موت المؤلف» حيث لا مكان لمقاصد تُغيا من وراء ما كُتب، ومن ثم: الحرية المطلقة فى فهم النص كيف شاء قارئه! (وهذا المفهوم كسابقه يحل الإنسان محل الله).

والحقّ - والحقّ أقول - أن «مقصود» كتابة النص، أى نص: أن يحمل رسالةً من (مبدع النص) إلى (قارئ النص) وهذا يستلزم:

١ ـ وجود لغة تفاهم وتواصل (مشتركة معلومة معروفة محددة) بين القارئ والكاتب؛ حتى تصل الرسالة.

٢ ـ وأن يسعى قارئ النص - من خلال قراءته وتدبره - إلى تحصيل ومعرفة مقاصد مبدع النص الكامنة فى النص.

وبتعبير آخر: أن يُفهم النص وفق مقاصد مبدع النص؛ لأنه إنما يحمل رسالة منه إلى الغير.

٣ ـ ومن ثم: ألا يكون النص رسالة يفهمها من شاء كيف شاء؛ وإلا انخرم مقصود كتابة النصوص.. ولو انخرم لاستلزم ذلك توقُّف البشر عن الكتابة؛ لاستحالة حمل النص - والحال كما ترى - لأى مضمون أو رسالة يبتغياها منه مبدعه!

وبهذا يتضح بطلان (المذهب الهرمينوطيقى)؛ لمناقضته ومضادته لمقصد كتابة النص - أى نص -.

ويقف وراء هذه (الهرمينوطيقا) نموذج معرفى كامن، نرصده ونفككه فى الآتى:

١ ـ «تأليه للإنسان» و«أنسنة للإله»؛ ليتمكن من إحلال «دين طبيعى» محل «الدين الإلهى».

٢ - وسعىٌ لصبغ الوحى بصبغة «البشرية» ومن ثم: نزع القداسة عنه، ومن ثم: ادعاء نسبيته، واحتماله للتصويب والتخطئة، ومن ثم: التخلص من قيمه وأوامره ونواهيه، مع فتح الباب للهوى والشهوات لتطل برأسها عبر إلباسها بردة الشرعية، أو بالأقل: عبر نزع صفات (التحريم) و(السوء) عنها.

٣ - وتحويلٌ للواقع إلى مطلق يتمركز حوله الإنسان؛ وصولاً إلى حضارة «ها هنا والآن» المادية الشهوانية الاستهلاكية!

وبعبارة أخرى - رصداً وتفكيكاً - نقول:

١ - التمركز حول الإنسان من خلال تنحية الله جانباً (مع أن الإسلام - كما قال البعض - إنسانية كاملة؛ فبقدر ما تقل إنسانيتك يقل إسلامك.. ومع أن مفهوم الألوهية لا يلغى الإنسانية بل يؤكدها ويرعاها؛ حيث الإنسان مُكرَّمٌ فى ظل الألوهية؛ لأنه يجمع بين كونه عبداً لله وحده، وسيداً فى كل شىء بعده، وفق مبدأى الاستخلاف والتسخير).

٢ - ومن ثم: التمركز حول الذات من خلال الكفر بالمعايير والمطلقات (مع أن ذلك إحلال للذات كمطلق محل المعايير والمطلقات التى سبق الكفر بها).

٣ ـ والتمركز حول الدنيا من خلال تنحية الآخرة جانباً (مع أن المسلم لا يعرف طريقاً للآخرة لا يمر بالدنيا، ومع كون الإيمان بالآخرة هو المحفز الأمثل والأقصى على الإبداع واستباق الخيرات فى الدنيا).

٤ ـ والتمركز حول الواقع من خلال تنحية الغيب جانباً، مع أن الغيب - فى الإسلام - لا يهدف إلا إلى الارتقاء بالواقع، إقراراً بالصالح منه وتدعيماً له، وتغييراً للطالح منه بالهوينا، مع مراعاته - فى ذات الوقت - لمطلق الواقع:

أ- عبر سنة التدرج فى التعامل معه.

ب- وعبر مراعاة الضرورات والأعذار والظروف الاستثنائية.

ج- وعبر تغير الفتوى الشرعية بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف.

د- وعبر وجود منطقة العفو التشريعى المتروكة قصداً - ورحمةً بالناس وللناس - لتغطى متغيرات الواقع.

هـ- وعبر قابلية كثير من نصوص الوحى لتعدد الأفهام؛ حتى يسعهم جميعاً على اختلاف أفهامهم وعقولهم وظروفهم وأحوالهم وطباعهم وأماكن معيشتهم وأزمانهم.

والله أعلى وأعلم.

---

(١) الهرمينوطيقا إنما نبتت ونشأت وترعرعت فى البيئة الغربية تحديداً، لتبلغ [illegible] عدة أمور:

١ ـ التخلص من السلطة الروحية والدنيوية للكنيسة التى تفرض على الناس - روحياً وسياسياً - فهمها للنص الدينى المسيحى، ورؤيتها فى معالجة واقعهم، كحُكم إلهى قاطع بات، من خالفه تعرض لأشد العذاب.

٢ ـ التخلص من التناقض بين النصوص الدينية المسيحية والحقائق العلمية الكونية التى توصل إليها الغربيون.

٣ ـ التخلص من سلطة النصوص الدينية المسيحية ذاتها بعد شيوع النموذج المادى الشهوانى العلمانى والإلحادى، وبيِّنٌ تماماً أنها من تربة غير تربتنا، وسياق غير سياقنا؛ فهى إنما ابتدعت لمواجهة وعلاج مشكلات لا وجود لها عندنا. فكيف ينقلها العاقل إلينا إلا أن يكون صاحب «عقل أعور»؟!

القرآن الكريم:
تأملات فى بعض شهادات الغربيين المنصفين



د. ناصر أحمد سنة

ليس بمستغرب تلك الحملات والانتهاكات والدعوات المسعورة. القديمة، الجديدة، المتجددة. للنيل من القرآن الكريم.. حرقًا، أو تدنيسًا، أو تكذيبًا، أو تشويهًا، أو تحريفًا، أو تسفيهًا، أو تشكيكًا.. إلخ. فلقد كان. منذ نزوله، ومازال، وسيظل. «كتابًا مقلقًا للغربيين، ومحيرًا لهم، ومبلبلا لأفكارهم»، وتاريخ تعاملهم معه حافل بالمتناقضات. ما يستلزم تدخلا فاعلا لحلها. يقول المستشرق الفرنسى «ريجيس بلاشير»: «قلما وجدنا من بين الكتب الدينية الشرقية كتابًا بلبل بقراءته دأبنا الفكرى أكثر مما فعله القرآن»[١].

- **كتب المستشرق الفرنسى «إميل درمنغم»:** «كان محمد، وهو البعيد عن إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحى أحيانًا على غير جدوى، فيألم من ذلك، كما رأينا فى فصل آخر، ويودُّ لو يأتيه الملكُ متواترًا»[٢].

- **يقول المستشرق «شيبس»:** «يعتقد بعض العلماء أنَّ القرآن كلام محمد، وهذا هو الخطأ المحض، فالقرآن هو كلام الله تعالى الوحى على لسان رسوله محمد. وليس فى استطاعة محمد، ذلك الرجل الأمى فى تلك العصور الغابرة أنْ يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ويهدى به الناس من الظلمات إلى النور. وربما تعجبون من اعتراف رجل أوروبى بهذه الحقيقة. لكن لا تعجبوا فإنى درست القرآن فوجدت فيه تلك المعانى العالية والنظم المحكم، وتلك البلاغة التى لم أر مثلها قط، فجملة واحدة تغنى عن مؤلفات»[٣].

١- «ريجيس بلاشير» «القرآن: نزوله، ترجمته وتأثيره»، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٧٤، ص: ٤٦.

٢- إميل درمنغم: «حياة محمد»، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ط٢ - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٨م، ص ٣٦٧.

٣- محمد أمين حسن محمد بنى عامر: «المستشرقون والقرآن الكريم» إربد: دار الأمل ٢٠٠٤م، ص ٣٢٣، نقلا عن محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى: سيرة سيد المرسلين - القاهرة: دار نهضة مصر ص ٦٨ - ٦٩.

- **الأب «روبير كاسبار» يقول:** «إن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبدًا، بل لم يحاول ذلك مطلقًا. حتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون على مقربة من الإسلام أمثال «يوحنا الدمشقى» و«تيودور أبى قرة» أو «بولس الصيدونى» إلخ، لم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام وعظمته. ولعل ذلك يرجع أساسًا إلى أن الغرب المسيحى اكتفى قرونًا طويلة بتشويه صورة الإسلام ونبيه (ﷺ) من دون أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة. فأول ترجمة لمعانى القرآن لم تظهر إلا فى القرن الثانى عشر أى بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وقمت بناء على مبادرة من «بطرس المبجل». كما إن غالب الترجمات لم يكن لها هدف سوى توجيه المزيد من الإدانات للقرآن. تلك الإدانات التى امتدت سلسلتها على مدى قرون تتناثر عليها بعض أشهر الأسماء»[٤].

- **«فى كتابها «دفاع عن الإسلام»، تقول «لورا فيشيا فاغليرى»:** «كيف يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد وهو العربى الأمى؟. وعلى الرغم أنَّ محمدًا دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب مثل كتابه، أو على الأقل بسورة من مثل سوره:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣)

وعلى الرغم من أنَّ أصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا غير قلائل فى بلاد العرب، فإنَّ أحدًا لم يتمكَّن من أنْ يأتى بأى أثر يضاهى القرآن. لقد قاتلوا النبيَّ بالأسلحة، لكنَّهم عجزوا عن مضاهاة السموّ القرآنى»[٤].

- **المفكر الألمانى (هوبرت هيركومر):** «يبدو أن الصليبيين جنودًا وضباطًا، رفضوا الاعتراف بحقيقة أنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد القريبة من دياناتهم. كانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جدًا. صحيح أن أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن ظهرت سنة ١١٤٣م لكن الأوروبيين كانوا يتطلعون إلى توظيفها للطعن المستمر فى الإسلام. ولا شك فى أن الترجمة الدقيقة لمعانى القرآن بينت للغرب اللاتينى أمورًا كثيرة، ومع ذلك لم يفكر أحد حينئذ فى التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق والفهم والتفاهم مع الإسلام. عندما قام السويسرى (يوحنا أوبورين) سنة ١٥٤٢م بطبع الترجمة اللاتينية سارعت بلدية مدينة «بازل» بحظر نشرها، ولم تسحب الحظر إلا بعد تدخل مكثف من «مارتن لوثر» مؤسس الكنيسة البروتستانتية. بيد أن حجة «لوثر» كانت: (لقد استيقنت أنه لا يمكن عمل شىء أكثر إزعاجًا لمحمد أو الأتراك، ولا أشد ضررًا - من جميع أنواع السلاح - من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن.. ملىء بالأكاذيب والخرافات والفظائع) إن «لوثر» البروتستانتى كان ينظر إلى قرآن مترجم إلى اللاتينية فى عصر الحروب مع الدولة العثمانية على أنه وسيلة مثالية لتسليح القلوب اليائسة

٤- أ.د. زينب عبد العزيز: محاضرة وإبانة: موقف الغرب من الإسلام، ص: ٤٠.

٥- لورا فيشيا فاغليرى: «دفاع عن الإسلام»، نقله إلى العربية منير البعلبكى، ط ٥ - بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨١م، ص ٥٧ - ٥٨.

للمسيحيين ورفع روحهم المعنوية، حيث أعلن قائلا: بعد ظهور الأتراك على حقيقتهم، أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن قطائع محمد حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وإيمانا بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم»[6].

- **اشتهر الطبيب الفرنسي «موريس بوكاي»** بوقفاته الموضوعية العلمية مع الكتب السماوية، وخرج من دراسته بعدد من النتائج ضمنها كتابه المشهور: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، أو «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» إذ يقول: «كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أميًا - ثم أصبح فضلا عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟»[7].

- **الصحفية الأمريكية «ديبرا بوتو»** التي اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠م تقول: (كيف استطاع محمد الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل)[8].

- **يؤكد مونتجمري واط ١٩٠٩-٢٠٠٦م** في كتابه المتأخر «الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر»: «إن القرآن ليس بأي حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه ومن بعدهم.

ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولا، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين. وهناك إشارات في القرآن إلى أنه موجه للجنس البشري قاطبة. وقد تأكد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام في العالم كله، وآمن به، وقبله بشر من كل الأجناس تقريبا»[9] ويمضي «واط» ذلك المستشرق الانجليزي الذي أمضى في دراسة القرآن والإسلام أكثر من ثلث قرن - وهو قسيس انجليكاني وابن قسيس! - «بأن القرآن كان يسجل فور تنزوله».. ويؤكد في أكثر من موضع من كتابه سالف الذكر على صدق الجمع والتدوين والتوثيق فور النزول والتنزيل للقرآن في عهد الوحي والتنزيل وبإشراف الرسول عليه الصلاة والسلام[10]، ولقد جاءت شهادته هذه تعليقًا على الآية القرآنية التي تقطع بأن الجامع الأول للقرآن الكريم هو الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

(القيامة: ١٦-١٩)

٦- ثابت عيد: «ترجمة معاني القرآن للألمانية بين سموم المستشرقين وجهود المسلمين بحث (ص: ٣١) جريدة الحياة العدد ١١٩٩٠.
٧- موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - ط٤ - القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧م - ص ١٥٠.
٨- نقلا عن: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام - الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ص٥٥.
٩- انظر: محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء، وإنصاف العلماء - القاهرة: دار الشروق ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م - ص ١٦٢.
١٠- مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر/ ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة: مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١، نقلا عن محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية - مرجع سابق، ص١٥٩.

فقال: «إن التفسير الطبيعي لهذه الآيات، هو أن محمدًا ما دام يتبع تلاوة جبريل فإن الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التي أوحي بها في أوقات مختلفة لجعلها في سياق واحد، وإذا لم يكن محمد هو الذي رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور أي مسلم آخر يقوم بهذا العمل»[11].

- «هذا القرآن كتاب حكيم فمن أجال الطرف فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مقيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبا كذلك يرى موافقا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين. وإذا نظرنا إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهيا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلا عن القول»[12].

- **في كتابها «الحج إلى مكة»، أو «البحث عن الله» تقول الليدي» إفيلين كوبولد»** النبيلة الإنجليزية التي أسلمت: «وذكرت ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله -سبحانه وتعالى- قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالا عديدة».

- «كم من الأجيال ستكابد الخوف والشقاء، قبل أن يبزغ فجر الإسلام العظيم الذي يبدو، أن التاريخ بأكمله يتجه صوبه، وسلام يومئذ يغمر الدنيا، وسلام يغمر القلوب» (هربرت ويلز)[13].

جملة القول: تناول المستشرقون القرآن الكريم بالدرس والبحث والتحليل، واعتنوا بترجمته إلى لغاتهم. ترجمات اختلف في تقويمها.. قدحا ومدحا، اتهاما وإنصافا، وتمييزا بين صحيحها وسقيمها، وحسنها وقبيحها، ورصدا للأخطاء التي ارتكبت عمدا، أو بغير عمد. «ما أشبه الليلة بالبارحة».. فوسط مواقف وأحداث ونظريات تتشح بوشاح استعلائي/ عنصري/ إقصائي/ تصادمي.. تبقى الحاجة ماسة لتسليط الأضواء أمثال تلكم الشهادات المنصفة من عقلائهم التي من شأنها أن تثري «المعرفة المنصفة»، و«المثاقفة المتبادلة»، وتعدل من «الصور الذهنية النمطية»، وتجسر جسور التعارف والتعايش والتعاون، و«يلتقي الغرب والشرق»، فيعلو الحوار الفعال، على الخنجر القتال. وتبقى الضرورة ملحة لتوفير ترجمات صحيحة سليمة لمعاني القرآن الكريم بكل لغات العالم المقروءة.

١١- راجع د. محمد عمارة: «جامع القرآن» بصحيفة المصريون. http://new.almesryoon.com/news.aspx?id=42655
١٢- عبد الله كويليام: العقيدة الإسلامية، ص ١٤٠ - ١٣٩.
١٣- من كتاب ربحت محمداً ولم أخسر المسيح للدكتور عبد المعطي الدالاتي.

القرآن الكريم في عيون غربية منصفة

د. عبد المعطى عز الدين الدالاتى
طبيب وشاعر سورى

رؤى غربية منصفة التقطتها من أقلام مفكرين غربيين درسوا الإسلام فراعهم جماله، وأعجبتهم مبادئه، ولكنهم لم ينزلوا قناعاتهم من سماء العقل إلى أرض القلب، ولم يسقوها بماء الوجدان، فلم تنم غراسها ولم تثمر!

وفشلوا في أن يحولوا الاقتناع بالحق إلى اعتناق له، والإعجاب بالإسلام إلى عقيدة تجرى في العروق، وبذا فقد فشلوا في أن يحققوا السلام الداخلي في أعماقهم.. نعم لم يبق أمامهم إلا ضربة معول واحدة كي يصلوا إلى النبع الثر الزلال، فلم يفعلوا.. حاموا وهم الظمأى حول الماء ولم ينهلوا!! وإنما أعرض أقوالهم لأولئك المهزومين أمام الغرب، الذين لا يشربون الكأس الروية إلا إذا كانت بيد غربية! ولا يجرعون الدواء إلا من تلك الصيدلية!!

على أن بعض هذه العبارات كانت في سياقها شركاً تُنصب للعقل المسلم، ولا حرج علينا - أظن - إن لقطنا الحبة، ومزقنا الشبكة، وطرنا بسلام.

يقول المستشرق آرثر آربرى: «عندما أستمع إلى القرآن يتلى بالعربية، فكأنما أستمع إلى نبضات قلبي»[1]

ويقول غوته: «إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة.. فالقرآن كتاب الكتب، وإني أعتقد هذا كما يعتقده كل مسلم.. وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي»

ولما بلغ غوته السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بليلة القدر التي أنزل فيها القرآن على النبي محمد..

وفي يوم أبصر غوته ريشة طاووس بين صفحات القرآن فهتف: مرحباً بك في هذا المكان المقدس، أغلى كنز في الأرض[2].

وفي ديوانه «الديوان الشرقي للشاعر الغربي» يقول غوته: هاجر إلى الشرق في طهره وصفائه، حيث الطهر والصدق والنقاء، ولتتلقى كلمة الحق منزّلة من الله بلسان أهل الأرض.

القرآن ليس كلام البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله، فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله!»[3]

وتقول المستشرقة الألمانية أنا ماريا شميل، في مقدمتها لكتاب «الإسلام كبديل» لمراد هوفمان: «القرآن هو كلمة الله، موحاة بلسان عربي مبين، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحي، فمن ذا الذي يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأي لغة؟!».

ويقول الباحث الأمريكي مايكل هارت في كتابه المعروف «المائة الأوائل»: «لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقي بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن.

«بين أيدينا كتاب فريد في أصالته وفي سلامته، لم يُشك في صحته كما أُنزل، وهذا الكتاب هو القرآن»[4].

ويقول المستشرق بارتلمي هيلر: «لما وعد الله رسوله بالحفظ بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(المائدة: ٦٧)

صرف النبي حراسه، والمرء لا يكذب على نفسه، فلو كان لهذا القرآن مصدر غير السماء لأبقى محمد على حراسته!»..

ويقول المستشرق «فون هامر» في مقدمة ترجمته للقرآن: «القرآن ليس دستور الإسلام فحسب، وإنما هو ذروة البيان العربي، وأسلوب القرآن المدهش يشهد على أن القرآن هو وحي من الله، وأن محمداً قد نشر سلطانه بإعجاز الخطاب، فالكلمة لم يكن من الممكن أن تكون ثمرة قريحة بشرية».

«القرآن وحي من الله، لا يحده زمان، ومتضمن للحقيقة المركزة»[5]

ويقول البروفسور يوشيودى كوزان - مدير مرصد طوكيو - نقلاً عن كتاب (إنه الحق): «إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود... إن الذي قال هذا القرآن يرى كل شيء في هذا الكون، وكل شيء مكشوف أمامه».

ويحاول المفكر مارسيل بوازار أن يصل إلى سر التأثير العجيب للقرآن فيقول: «القرآن يخاطب الإنسان بكليته... من منظور تستطيع نسبته إلى علم النفس التطبيقي»[6].

قلت: إن الذي خلق النفس البشرية والخبير بدروبها ومنعطفاتها وآفاقها، هو الذي أنزل القرآن ليهديها السبيل

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الملك: ١٤)

---

(1) نقلاً عن «حتى الملائكة تسأل» د. جيفري لانغ ص(٢٠٦)، وكتاب «وبحث محمداً لو لم أخسر المسيح» د. عبدالمعطى الدالاتى.

(2) نقلاً عن «غوته والعالم العربي» كاتارينا مومزن ص (١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٦١).

(3) البروفسورة نبيا أبوب، نقلاً عن كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوى ص (٣٥).

(4) المستشرق بوبلي، نقلاً عن (البحث عن الحقيقة) ص(٥٢٢).

(5) د. بول شفارتسنا في كتابه «القرآن - دليل المسيحيين» نقلاً عن (يوميات مسلم ألماني) د. مراد هوفمان ص (١٢٢).

(6) نقلاً عن (القرآن الكريم من منظور غربي) د. عماد الدين خليل ص(٢٨).

لغة القرآن بين المجهر والمرقاب (حمالة أوجه) أم (موشور[1] المعانى)؟



د. أحمد خيرى العمرى
كاتب وباحث عراقى

تتصل اللغة العربية اتصالا وثيقا بمعجزة الإسلام الوحيدة والمستمرة فى آن: القرآن الكريم. ولقد كان القرآن وسيلة من وسائل حفظ هذه اللغة واستمرارها، و مما لا شك فيه أن اللغة العربية ما كانت ستكون موجودة بشكلها الحالى لولا القرآن الكريم (ولا نعرف طبعًا على وجه اليقين إن كان سيبقى هناك عرب على الإطلاق لولا هذا القرآن، ولا نعرف كذلك كيف سيكون شكل العالم لو حذفنا التأثيرات الحضارية التى أسهم فيها تفاعل القرآن مع العالم).

اللغة العربية إذن هى الوعاء الذى تنزل فيه القرآن الكريم، وبسبب كون القرآن هو المعجزة فإن تداخل اللغة العربية مع هذه المعجزة سيجعلنا مضطرين لتفحص خصوصية هذه اللغة وتميزها بالشكل الذى جعلها مهيئة لتكون وعاء للمعجزة.

لا ريب أن عرب الجاهلية باعتبار انحطاطهم التاريخي وباعتبار أنهم كانوا فى المرتبة الأدنى حضاريا، كانوا النموذج الأمثل للمعجزة، لأن مجرد نجاح القرآن فى نقلهم تلك النقلة كان دليلا على إمكان تكرار هذه المعجزة مع أمم أخرى، كانت فى الأساس فى مرتبة أفضل من العرب.

لكن ذلك لا ينفى بالضرورة وجود خصوصية لغوية فى العربية تساهم فى جعل هذه المعجزة مستمرة.. أو على الأقل تجعل من إمكانية استمرار هذه المعجزة قائمة.

ما هذه الخصوصية الكامنة فى اللغة العربية التى يمكن أن تجعل من القرآن منجما لا ينضب من المعانى الفاعلة التى تحرك الأمة وتساهم فى نقلها من أدنى المرتبة إلى أعلاها؟

تملك اللغة العربية خاصية تميزها عن سواها، وهو امتلاك كل لفظ فيها تدرجا من المعانى أفقيا

١. الموشور: بفتح الميم وسكون الواو - مجسم من بلور تكون قاعدته مثلثة الأضلاع

وشاقوليا[2] دون وجود تعارض حقيقى فى هذه المعانى.

يوجد لكل جذر اشتقاقات متعددة قد تمتلك استخدامات قد تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة، وهى غير مترابطة فعلا فى البعد الأفقى المباشر لها.. لكن فى البعد الآخر (الشاقولى) سنجد شبكة داخلية من المعانى التى تتصل ببعضها بطريقة تجعل المعانى ممتدة ومتدرجة دون تعارض.

وأنا هنا أقصد حصرا كل لفظ ورد فى القرآن الكريم، وكل من حاول التنقيب عن ألفاظ القرآن الكريم مستخدما المعجم اللغوى بمعزل عن كتب التفسير المباشر سيجد أولا المعنى المباشر للجذر الأصلى، وسيجد معه حزمة من المعانى التى قد تبدو غير مترابطة فيما بينها من ناحية استخدامها، لكن الباحث لو أعاد النظر لوجد فعلا شبكة من المعانى التى تتصل بعضها ببعض فى عمق شاقولى فيما يبدو أولا أنه غير مترابط، والفرق فقط سيكون فى أسلوب النظر والآلة التى ننظر من خلالها، بعض المعانى يمكن رؤيتها بالعين المجردة، بعضها الآخر لا يرى إلا بالمجهر، وبعضها الآخر لا يرى إلا بالتلسكوب (المرقاب).

وبين ما هو مجهرى وما هو تلسكوبى سيكون هناك ذلك الأفق المتمدد من المعانى التى أشدد على أنها لا تلغى بعضها البعض، هناك ستكون تلك الخاصية المميزة للغة القرآن، التى تجعل من المعانى كنزا غير قابل للنضوب، وعبرها يصير القرآن مصدرا دائما لهذه المعانى التى تتدرج لتتكامل.

بهذا المعنى لن تكون لغة القرآن الكريم (حمالة أوجه) كما هو شائع أحيانا بطريقة سلبية، بل سيكون تعدد المعانى مرتبطًا ببنية داخلية عميقة، كما ترتبط حافات متعددة لبلورة واحدة.. خاصية اللغة العربية هى أنها تكون بمثابة موشور للألفاظ، يقدم معانٍ متدرجة دون تناقض.

كل ما سبق سيكون مجرد تنظير إنشائى إن لم يأت بأمثلة توضيحية لعلها لن تكون كافية هنا لكنها أمثلة عملية على الخاصية الموشورية هذه.

أوضح مثال على ما أقول هو أول لفظ أنزل من القرآن الكريم: كلمة (اقرأ) التى شكلت نقطة الانطلاق لمسيرة التنزيل كما شكلت علامة مهمة حضاريا ونهضويا، خاصة أنها تداخلت مع لفظ القرآن، وشكلت الجذر الأساس للكتاب الذى صار الركن الأساسى لكينونة الأمة.

اللفظ ﴿ اقرأ ﴾ له معانٍ واستخدامات قد تبدو مختلفة للوهلة الأولى، مثل: الجمع والضم، الحمل بالجنين، الحيض، الجهر، الإبلاغ، الفقه، التنسك.. وكلها استخدامات لها شواهد فى لغة العرب، وبعضها لها شواهد قرآنية.

قد تبدو هذه المعانى مختلفة للوهلة الأولى، قد تبدو مجرد اشتقاقات مختلفة لجذر واحد، فما دخل القراءة بالحمل أو بالحيض؟.. لكن التعمق بالنظر عبر قراءة مجهرية-تلسكوبية.. سيؤدى فعلا إلى إعطاء أفق متدرج للمعانى، أفق يحقق التكامل والانسجام دون أن يلغى كل معنى المعنى الذى سبقه.

فالقراءة بحسب هذا التدرج تصير جمعًا وضمًا.. هل من معنى يوحى بالقراءة الشمولية التى تتجاوز القراءة الجامدة الحرفية، إلى ما بين السطور وما قبلها وما وراءها أكثر من هذا؟ إنها

٢. الشاقول: ميزان البنائين.

القراءة التي تجمع النصوص مع بعضها وتضمها دون أن تنفرد بنص معين، دون أن تقتصر على نص واحد..

أليس هذا الجمع أو الضم هو الذي يؤدي إلى أن القراءة تحمل ناتجا ما؟ أليس «الحمل» هو الذي ينتج عن تزاوج (جمع - اقتران) بين فردين اثنين؟ أليست القراءة الحقيقية هي ذلك التزاوج بين النصوص بمجملها الذي ينتج فكرة جديدة أو فهما جديدا يكون مثل الجنين أول الأمر، ثم تكبر لتصير مولودا بعد انقضاء الحمل؟ أليس هذا هو عين الفقه؟ أليس الفقه هو هذه القراءة الجامعة التي تنتج فهما جديدا تسعى لبناء واقع جديد.. وهل يمكن لذلك كله أن يتحقق إلا بالجهر، بإبلاغ كل ذلك إلى الآخرين، بنقل تلك الفكرة من عقل فرد واحد لتصير جزءا من منظومة عقل جمعي كامل؟

هل يمكن الآن أن نعتبر أن معان مثل الحمل والحيض في اشتقاقات الفعل «قرأ» بعيدة حقا عن المعنى العميق للقراءة.. أي بالمعنى الذي يريده القرآن الكريم.. والذي كانت اللغة العربية بخصوصيتها هذه الوعاء الذي تمكن من حمله؟ ألا نجد بهذا كل معاني الاشتقاقات من الفعل قرأ التي تبدو أفقيا متباعدة، وتبدو الآن مرتبطة في عمق ما بشكل يثرى المعنى الأصلي ويزيده خصوبة وعطاء؟

مثال آخر مماثل، جذر الفعل فلح الذي يعني في مفهومنا السائد «الفوز» لكن استخداماته واشتقاقاته في لسان العرب لها معان قد تبدو على المستوى الأفقي غير مرتبطة بمعنى الفوز، مثل القطع - الشق - البقاء.. متابعة المعاني مجهريا وتلسكوبيا سيوضح لنا المعنى العميق للفوز، بالذات المعنى القرآني للفوز، حيث يعتمد ذلك أساسا على بذل الجهد في الأرض (القطع والشق مثالا على ذلك) وهو المعنى الذي أنتج ارتباط الفعل بالفلاحة والزراعة، ولكن القطع والشق سيرتبط حتما بكل استثمار لكل ثروة موجودة في باطن الأرض.. هل يحتاج الأمر أن نذكر أن الفلاح الدنيوي للأمم ارتبط بشق ما في الأرض واستثماره، وأن الفلاح الأخروي مرتبط حتما بفلاح دنيوي مع منظومة أخلاقية.. وهل يحتاج الأمر أن أذكر أن الأمم لا يكتب لها البقاء إلا عبر ذلك كله؟ ألا تبدو اشتقاقات الفعل «فلح» الآن مترابطة؟ ألا تعمق معنى الفوز دون أن تحذفه؟ ألا تجعل من فلاح المؤمنين في:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(المؤمنون: ١)

مخططا للعمل والنجاح يربط الدنيا بالآخرة دون أن يمس المعنى السائد الذي يجعل من فلاح المؤمنين ذهابهم إلى الجنة؟.

هذه عجالة تحتاج حتما إلى المزيد من التأصيل ومن الأمثلة والاستنباط لكي لا نظل أسرى لنظرة أحادية ووجه واحد من حافات البلورة متعددة الوجوه، تلك البلورة التي لو أحسنا استخدامها لصارت موشورا يقدم من المعاني القرآنية مثنى وثلاث ورباع..

وكذلك لكي لا نصر أن كل نظرة جديدة عليها أن تلغي كل ما سبق.

المعاني تتصادم أحيانا، لكن ذلك ليس حتما مقضيا.. إنها أحيانا تتراكم وتتكامل ولا تتم إلا بهذا.. لا تعطي المعنى الكامل إلا بتفاعلها المتراكم هذا.. وهذا كله خصوصية مميزة للغة العربية، ولعله السبب الأساسي الذي جعل تلك اللغة وعاء تلك المعجزة.. المعجزة التي يجب أن تكون مستمرة.. التي نستطيع أن نجعلها مستمرة.. أو بالأحرى: يجب أن نجعلها كذلك.

نزول القرآن في رمضان دلالات وواجبات

د. وصفي عاشور أبو زيد
Wasfy75@gmail.com

القرآن الكريم هو الكتاب الخالد لهذه الأمة، ودستورها الشامل، وحاديها الهادي، وقائدها الأمين، كما أنه الكتاب الخالد للدعوة الإسلامية، ودليلها في الحركة في كل حين، وله أهمية كبيرة في حياة الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي حياة المجتمع، وفي حياة الأمة؛ فهو يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، ويشرع من التشريعات ما يحفظ كيان الأسرة؛ تظللها السكينة وتحفها المودة وتغشاها الرحمة، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام الطاقات الكامنة في المجتمع، وينشد الأمة القوية المتماسكة الشاهدة على العالمين.

في القرآن الكريم نجد المناهج الثابتة، والسنن الجارية، والقيم السامية، والمثل العالية، والموازين العادلة، والقواعد الراسخة، والأفكار السامقة، والتصورات الراشدة، وغير ذلك مما جعل القرآن الكريم كتابا خالدا شاملا محكما يخاطب الإنسان والزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا القرآن الكريم أنزله الله تعالى في شهر رمضان الفضيل، وتحديدا في ليلة القدر التي كانت واضحة ثم أخفاها الله تعالى لحكمة يعلمها، ولا يظهر لنا منها إلا الاجتهاد في العبادة وتحريها بالتهجد والاعتكاف والقيام والذكر والدعاء، والمسارعة في العبادة والخيرات.

وسوف يكون حديثنا من خلال آيات ثلاثة في القرآن الكريم، أو ثلاثة مواضع فيه.

● الموضع الأول: في سورة البقرة من قوله سبحانه:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(سورة البقرة: ١٨٥-١٨٦)

والموضع الثاني: من سورة الفرقان، مطلعها، قال تعالى:

﴿ حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾

(سورة الدخان: ١-٤)

● والموضع الثالث: سورة القدر كاملة، وهو قول الله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

(سورة القدر)

دلالات الزمان ومعالم بركاته

لنزول القرآن الكريم فى شهر رمضان دلالات ومعان عقدية وإيمانية ونفسية وروحانية وأخلاقية وسلوكية، تحدث عنها علماؤنا حديثا ممتعا فى تناولهم لتفسير الآيات المشار إليها قبل قليل؛ فهذا الإمام محمد أبو زهرة يقرر أن "اختصاص شهر رمضان بالصوم؛ لأنه نزل فيه القرآن، فيه تذكير بمبدأ الوحى، واحتفال بأكبر خير نزل فى الأرض وهو بعث النبى ﷺ فإنه نور الأرض وإشراقها، والاحتفال به احتفال بنعمة الهداية، ونعمة الخروج من الظلمات إلى النور، ونعمة إرسال نبى الرحمة، وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه هدى للناس، لأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهو معجزة الله تعالى الكبرى، وهو بهذا هداية وتوجيه إلى مقام الرسالة المحمدية، وهو مع ذلك فيه آياته البينات، أى أن آياته بينات واضحة من الهدى وهو الشريعة التى جاء بها، والفرقان أى الأمر الفارق بين الحق والباطل، والظلم والعدل، والشورى والاستبداد، والإصلاح والإفساد، وعمران الأرض وخرابها"[1].

وهذه دلالات أغلبها عقدية وحضارية؛ فهو تذكير بابتداء الوحى، واحتفال بإرسال النبى وما يقتضيه ذلك ويستتبعه، وإنعام بما فى القرآن من بينات واضحة، وأمور فارقة بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والظلم والعدل... إلخ.

وقد أكد على هذه المعانى من قبل الإمام ابن كثير بقوله: "وقوله:

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد لمن آمن به وصدقه واتبعه ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أى: ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال، والرشد المخالف للغى، ومفرقًا بين الحق والباطل، والحلال، والحرام"[2].

وليس رمضان هو الزمان المختار لنزول القرآن فقط بل هو زمان نزول الكتب السماوية جميعا، وفى هذا ما فيه من تشريف للزمان، يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره: "يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء"[3].

ويربط الشيخ محمد متولى الشعراوى بين الصيام باعتباره مدرسة للتربية، وبين التشريع باعتباره منهجا للتربية وترقية الإنسان، وهذه دلالة تربوية مهمة، يقول: "يعطى له - أى لشهر رمضان - سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمى، إنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم، والصومُ امتناع عن الاقتيات،

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٥٥٦، دار الفكر العربى، القاهرة.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٥٠٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٥٠١.

فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

ويؤكد العلامة عبد الرحمن السعدى أن هذا الشهر العظيم قد حصل لنا فيه خير عميم بنزول القرآن فيه، فيقول: "الصوم المفروض عليكم، هو شهر رمضان، الشهر العظيم، الذى قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر، هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام"[4].

وقد حدد القرآن أن نزول القرآن كان فى ليلة القدر التى يشملها شهر رمضان، وفيها من الشرف والمجد والفضل، ومن البركات والفيوضات والتنزلات والرحمات - ما لا تدركه الإشارة ولا تلحقه العبارة، يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "فبركةُ الليلة التى أنزل فيها القرآن بركة قدرها الله لها قبل نزول القرآن؛ ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها ملابسًا لوقت مبارك؛ فيزداد بذلك فضلا وشرفا، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التى أنبأنا الله بعضها"[6].

أما فى سورة القدر فيأخذ بأيدينا صاحبُ الظلال فى حديث شفاف منير يجعل النفس تسجد من عظمة القرآن، والقلب يخضع لسلطان كلام الله تعالى فيتحدث عن دلالات الليلة المشهودة الموعودة: ليلة القدر، قائلا: "الحديث فى هذه السورة - يعنى سورة القدر - عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التى سجلها الوجود كله فى فرح وغبطة وابتهال، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﷺ ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته، وفى دلالته، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعا، العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

والنصوص القرآنية التى تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير، بل هى تفيض بالنور الهادئ السارى الرائق الودود؛ نور الله المشرق فى قرآنه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

ونور الملائكة والروح وهم فى غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملأ الأعلى:

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾

ونور الفجر الذى تعرضه النصوص متناسقا مع نور الوحى ونور الملائكة، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية فى هذا الوجود:

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

(٤) تفسير الشيخ الشعراوى: ٢/ ١٧٦، بترقيم الكتبة الشاملة.

(٥) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان: ٨٦، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٦) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٠٨، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧) فى ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٤٤، دار الشروق، القاهرة.

ويشير العلامة ابن عاشور إلى معنى طريف حينما يطابق بين شرف الزمان المنزول فيه، وهو شهر رمضان وليلة القدر تحديداً، مع شرف النازل فيه، وهو القرآن الكريم؛ فيقول: "والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيها على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفا مباركا؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى، وأعيد اسم (لَيْلَةُ الْقَدْرِ) الذي سبق قريبا في قوله:

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾

(القدر: ١)

على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن مقتضى الظاهر الإضمار، فقصد الاهتمام بتعيينها، فحصل تعظيم ليلة القدر صريحا، وحصلت كناية عن تعظيم ما أنزل فيها، وأن الله اختار إنزاله فيها ليتطابق الشرفان"[٨].

وليس معنى إنزال القرآن في ليلة القدر أنه نزل على المسلمين في ليلة واحدة كما هو معلوم، وإنما نزوله إلى بيت العزة من اللوح المحفوظ، ثم نزل بعد ذلك منجما مفرقا على رسول الله ﷺ؛ ليربي الأمة ويعلمها بحسب الوقائع في زمن امتد لثلاث وعشرين سنة.

واجبات هذا التشريف ومقتضياته

ما دام نزول القرآن الكريم – أو بداية نزوله – كان حدثا فاصلا في حياة البشرية، عاد عليها بالنور والعلم والهداية، وإنشاء الإنسان خلقا آخر، وإيصال الأمة المسلمة لمنزلة الشهادة على العالمين، وغير ذلك من فضل وتشريف...، وما دام هذا التشريف وذاك الفضل نزل في شهر رمضان – فإن لذلك واجبات ومقتضيات؛ لأنه ليس هناك تشريف دون تكليف، وليس هناك واجبات دون مقتضيات.

● وأول واجب علينا نحو هذا الفضل الغامر أن نعظم أيام الله تعالى، يقول العلامة ابن عاشور: "هذا تعليم للمسلمين أن يعظموا أيام فضلهم الديني وأيام نعم الله عليهم، وهو مماثل لما شرع الله لموسى من تفضيل بعض أيام السنين التي توافق أياما حصلت فيها نعم عظمى من الله على موسى، قال تعالى:

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

(إبراهيم: ٥)

فينبغي أن تعد ليلة القدر عيد نزول القرآن"[٩]، فالإمام ابن عاشور هنا يريدنا أن نعظم أيام الله بأن نجعل ليلة القدر عيداً لنزول القرآن، وهذا متفق مع أصل شرع من قبلنا، وهو ما جاء في رسالة موسى عليه السلام.

● ومن هذه الواجبات: إكمال العدة؛ لأن الله تعالى يسر لنا تشريع الصيام، وذلل لنا الإتيان به في كل حال؛ حال الصحة والمرض، وحال السفر والحضر

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾

● ومن هذه الواجبات تكبير الله تعالى وحمده وشكره على هذه النعم وتلك المنن التي لا توجد لأمة من الأمم في كتاب من الكتب، ولا تشريع من التشريعات:

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

● ومن هذه الواجبات عبادة الله تعالى، والدعاء هو جوهرها وروحها، بل هو هي؛ ولهذا جاءت آية الدعاء في آخر آيات الصيام:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

يقول العلامة عبد الرحمن السعدي في بيان معاني الدعاء والقرب، وأنواعهما: "والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق، فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال:

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة؛ ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم"[١٠] كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩)

● ومن هذه الواجبات: الاستجابة لأمر الله تعالى والإيمان به الذي يترتب عليه حصول الرشاد والفلاح في الدنيا والآخرة كما سبقت الإشارة في كلام السعدي:

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

وإنما تكون هذه الاستجابة بصيام هذا الشهر الذي أكرمنا فيه بنزول القرآن: "والقرآن هو كتاب هذه الأمة الخالد، الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأنشأها هذه النشأة، وبدلها من خوفها أمنا، ومكن لها في الأرض، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، ولم تكن من قبل شيئا، وهي بدون هذه المقومات ليست أمة وليس لها مكان في الأرض ولا ذكر في السماء، فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذي نزل فيه القرآن"[١١].

● والاستجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ بقيام ليلة القدر التي شرفنا الله تعالى بإنزال القرآن فيها؛ ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"[١٢].

إن نزول القرآن في هذا الشهر الكريم وفي هذه الليلة المباركة، يدعونا في واقعنا المعاصر إلى إعادة النظر في تكويننا العقدي والروحي والأخلاقي والسلوكي، كما يدعونا إلى النظر لواقع أمتنا والاستجابة لأمر ربنا بما يعيدنا كما كنا، وما يحقق لنا مقام قيادة الأمم ومنزلة الشهادة على العالمين!.

(٨) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٣-٤٠٤.
(٩) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٧.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٨٦.
(١١) في ظلال القرآن: ١/ ١٧٦-١٧٧.
(١٢) صحيح البخاري رقم (١٩٠١)، وصحيح مسلم رقم (٧٦٠).

اقرأ باسم ربك الذي خلق

خصوصية التربية القرآنية وفاعليتها


أ.د. مصطفى رجب

إن التربية القرآنية للأفراد والجماعات تتضمن منظومة قيمية رفيعة المستوى، تتناغم مفرداتها فى وحدة متسقة: اجتماعيا، ونفسيا، وخلقيا. ومن ثم فإنها تسير فى طريقين متوازيين لا ينفكان أبدا:

أولهما: يبدأ بالتنفير من السلوكيات الشائنة المستهجنة.

والثانى: يبدأ بالجذب إلى السلوكيات الرشيدة المستحسنة.

والتربية القرآنية تختلف عن التربية البشرية - مع اتحادهما فى الهدف إلى حد كبير - فى عدة جوانب أهمها:

أولاً: أن التربية القرآنية صياغة إلهية محكمة:

لا تقبل جدلاً، ولا يجرى عليها تغيير. وهناك فرق كبير بين كونها (محكمة) وبين كونها (جامدة) فالتربية التى لا تقبل جدلاً ولا تغييرا لا تستطيع وصفها بأنها جامدة إلا إذا كانت بشرية المصدر وصمم منتجوها على رفض التغيير، فتصبح أطروحاتهم جامدة يلفظها الزمن، ويتجاوزها التطور الإنسانى الحتمى المستمر.

وأما رفض التغيير والجدل لأن منظومة التربية (محكمة) بمعنى أنها صياغة إلهية، فذلك لأنها تحمل فى طياتها من المواصفات ما لا ينفك - بالطبيعة - عن صفات البشر الذين هم - بطبيعتهم أيضاً - صناعة وصياغة إلهية.

فالتربية القرآنية بهذه الثابة تتماسّ مع الخواص النفسية المركوزة فى فطرة البشر، فكأنها - بشكل أو بآخر - صمام أمان للسلوك الإنسانى إذا ما حاول الخروج على الفطرة (شروط ومواصفات خلق الإنسان).

ثانياً: أن التربية القرآنية (كاملة) والتربية البشرية (متكاملة):

بمعنى أن التربية القرآنية وحدة واحدة تحمل كل مقومات البقاء والعطاء. ولا توجد بها ثغرة واحدة - منذ وجدت - فهى كاملة بحكم القدرة الإلهية المطلقة التى أوجدتها.

أما التربية البشرية فهى (متكاملة) بمعنى أنها لم تنشأ بوضعها الحالى، وإنما بدأت على هيئة نظريات أخلاقية، ثم تحولت إلى نظريات نفسية: سلوكية ثم عقلية، ثم معرفية.

وأصبحت الآراء فيها تتقارب وتتباعد، تلتقى وتفترق، تتوازى وتتقاطع. ومن ثم فقد اعتراها الاضطراب والتناقض واحتاجت - على مدى رحلتها كعلم - إلى الترقيع والترقيق والتلفيق من حين لآخر حتى تستطيع الاستمرار.

ثالثاً: التربية القرآنية تستغنى بنفسها عن العلوم الأخرى:

ذلك أن القرآن الكريم جاء صالحًا لكل زمان ومكان ومن ثم فإن تشريعاته - بما فيها التربية الإنسانية - لا تحتاج إلى أية مساعدة بشرية، أما التربية البشرية فهى تحتاج إلى نتائج العلوم الأخرى وتستفيد منها، فكلما حدث تغير فى مناهج علم الاجتماع أو علم النفس أو علوم السياسة والاقتصاد والفلسفة، تبع ذلك تطور حتمى فى مناهج البحث التربوى أدى بالتالى إلى تغير فى نظريات التربية وافتراضاتها ووسائطها وأساليبها.

رابعًا: التربية القرآنية كلية، والتربية البشرية جزئية:

والفرق الجوهرى الرابع أن التربية القرآنية (كلية) لمعنى أنها تنظم سلوك الإنسان من حيث هو إنسان ومن هنا جاء وصفها بأنها (محكمة) لا تتشابه ولا تتناقض ولا تحتاج إلى ترقيع واستكمال. فإذا وصف (الإنسان) فى القرآن الكريم بصفة من الصفات (ظلوم، جهول، عجول، جاحد.. إلخ) فمعنى ذلك أن كل صفة من تلك الصفات توجد فى كل إنسان من جنس البشر بدرجة من الدرجات قد تزيد أو تنقص، فالطبيعة البشرية - فى نظر القرآن - واحدة، وبقدر ارتفاع الصفات وانخفاض أخرى، ترتسم ملامح الإنسان، وتتحدد معالم سلوكه، وتتألف صورة شخصيته.

أما التربية البشرية فإنها جزئية، بمعنى أنها أنتجت لتعالج جزءا واحدا من سلوك الإنسان فعلم النفس التربوى يدرس عقل الإنسان: قدراته وإمكاناته، ومواهبه. ومن ثم فهو يهتم بالذكاء والتحصيل وما يعترى التحصيل المعرفى للإنسان من معوقات. ويحصر نفسه فى هذا المجال، أما علم الصحة النفسية فهو يهتم بالنفس الإنسانية من حيث السواء والاضطراب، فيدرس الهوس والجنون والوسوسة والكذب والصدق وفلتات اللسان وما يتصل بذلك من مشاعر داخلية كالإحساس بالذنب والقهر، و تأنيب الضمير.. إلخ.

وعلى الرغم من التجاور المعنوى بين (النفس) و(العقل) فإن مجالات البحث فى هذين العلمين التربويين متباعدة، ولكل منهما اختباراته ومقاييسه وأساليبه التقويمية الخاصة.. وتبقى مساحة مثل (الخيال) أرضا مشاعًا بين العلمين!!

هذه التجزئة لا نلمسها فى التربية القرآنية ولا نجد لها أثرا لأنها تقوم على (الكليات) لا على (الجزئيات).

خامسًا: التربية القرآنية كونية عالمية، والتربية البشرية إقليمية محلية:

وإذا كانت التربية القرآنية مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان فإنها تتخطى حواجز المكان ولا تخضع للعوامل القومية والجغرافية والأيديولوجية التى تخضع لها نظم التربية البشرية، فالتربية البشرية تستمد مقوماتها من الدساتير والقوانين والعادات والتقاليد والأعراف بين الناس وهى عوامل متغيرة من زمان لزمان، ومن مكان لمكان.

ففى الدولة الواحدة إذا انتقل نظام الحكم من الشمولية إلى الديمقراطية لاحظنا تغيرا تابعا فى نظم التعليم وأهداف التربية، ومناهج الدراسة، وطرق التعليم، وأساليب الإدارة.

وهذه العوامل كلها تختلف من دولة إلى أخرى، ومن حضارة إلى حضارة ومن بيئة إلى

بيئة، ويكون لكل منها شخصيته الثقافية الخاصة ذات السمات المختلفة عن الأخرى.

أما التربية القرآنية فهي تصلح لكل البشر مهما اختلفت دياناتهم وثقافاتهم، فالتربية القرآنية حين تحرم الحسد والغيرة المبالغ فيها، والظلم والسرقة، والكذب، والغش، والخداع، فإنها تستجيب بذلك لما يمكن أن نسميه بـ(مقومات الإنسانية الحقة) بقطع النظر عن أية عوامل أخرى يخضع لها الإنسان موضوع التربية. وإذا تحولت هذه الكليات السلوكية إلى تطبيقات عملية في الإدارة ونظم التعليم وطرق التدريس ومناهج الدراسة أصبح هذا كله لونا من الإعجاز التربوي التشريعي الذي لا يدانيه إعجاز.

سادسًا: التربية القرآنية لا تعرف العشوائية:

إن تقسيم التربية البشرية - أيا كان مصدرها - إلى تربية مقصودة وتربية غير مقصودة Formal and Non - Formal أو شكلية وغير شكلية، يجعل للممارسات التي تتم في الشارع وعبر جماعات الرفاق وضعية تربوية مقننة معترفا بها، وهذا ليس واردا في مجال التربية القرآنية لأنها تحسم سلفا مصادر التوجيه السلوكي، ولا تترك الإنسان - موضوع التربية - هدفا لأنماط سلوكية عشوائية وغير مقصودة تتقاذفه رياحها على غير هدى ويتقبلها راضيا على أنها مصدر من مصادر تربيته.

وسائط التربية القرآنية

وتستخدم التربية القرآنية وسائط متعددة في سبيل تحقيق أهدافها منها:

١ - الكلمة:

حيث تجد الكلمة في السياق القرآني تؤدي وظيفة نفسية ذات أبعاد متعددة، مثل بعد الترغيب، بعد التنفير، بعد إثارة الفزع، بعد إثارة العطف والحنو، وتتعاون تلك الأبعاد المختلفة للوظيفة النفسية فتفعل فعلها في شحن النفس بتيارات انفعالية جارفة تقوم بدور فاعل في تعديل السلوك الإنساني.

٢ - المثل:

وقد تناولت دراسات متعددة العطاء التربوي للمثل القرآني وما يفيض به من عوامل تأثير خاصة، قد يكون بعضها من خلال قصة يتضمنها المثل، وقد يكون بعضها من خلال عبارة المثل ذاتها.

٣ - القصة القرآنية:

إن أسلوب القصة من أقوى أساليب التربية تأثيرا، وأسلسها عرضا، فالإنسان بفطرته ميال إلى حب الاستطلاع وتقصي أخبار الآخرين، ومولع بمتابعة الأحداث والانفعال بها معها، ولاشك في أن أعظم سرد للقصة في القرآن الكريم، وقد أورد القرآن الكريم أخبار الأمم السابقة بطرق مثيرة للعواطف الخيرة، صارفة عن النوازع الشريرة، داعية إلى التبصر والتأمل والتماس العبرة، ولاشك في أن قصص القرآن الكريم فيه - من الناحية الفنية - معظم ما اتفق عليه دارسو الآداب من عناصر فنية كالزمان والمكان والأحداث والصراع والأشخاص، وله - من الناحية الموضوعية - أهداف كثيرة، لعل الهدف التربوي من أهمها، لما ينطوي تحته من قيم ثمينة، وعطاء سام متجرد للدعاة والمربين والهداة والمصلحين.

القرآن الكريم مصدر للفكر التربوي

لا خلاف بين المشتغلين بالعلوم الإسلامية والعربية على كون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المصدرين الأولين لتلك العلوم مهما تختلف مناهج البحث فيها. ولا خلاف بينهم كذلك على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول من هذين المصدرين. وفيما يتعلق بدراسة الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم، هناك أكثر من مدخل يمكن في رأينا إجمالها فيما يلي:

١ - دراسة الفكر التربوي من زاوية فلسفية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يعقد موازنات بين عطاء القرآن الكريم في مجال فلسفة التربية وما قالت به الفلسفات التربوية البشرية. ويدرس الباحث هنا الجوانب المعروفة لأية فلسفة تربوية مثل: رؤيتها للطبيعة البشرية، والقيم، والوجود، والحرية.. إلخ.

٢ - دراسة الفكر التربوي من زاوية اجتماعية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يركز على مشكلات المجتمع وكيف تناولها القرآن الكريم. ويتعمق الباحث في تحليل الأبعاد المختلفة لتلك المشكلات، وأثرها في الفرد، كما يتناول البحث في هذا الميدان قضايا العمل والإنتاج والاقتصاد والعلاقات الإنسانية بوصفها من «القوى والعوامل» المؤثرة في أي نظام تربوي.

٣ - دراسة الفكر التربوي من زاوية فردية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يبحث وضعية «الإنسان الفرد» في القرآن الكريم بوصفه المحور الذي تدور حوله عملية التربية، فيرى كيف عرض الإنسان في القرآن: خلقا وتكوينا وتنشئة. وكيف بيّن القرآن أحوال نموه المختلفة وطباعه المختلفة.

٤ - دراسة الفكر التربوي من زاوية القصة القرآنية:

وفي هذا الإطار يدرس الباحث قصص القرآن الحافلة بالعطاء التربوي المكثف بحيث يكشف عن مسالك التربية بالقصة في القرآن، ويحلل كيف استخدم القرآن عناصر القصة المختلفة: الشخصيات - الحوار - الزمان - المكان - الأحداث، في إبراز الفكرة الأساسية للقصة.

الأهداف العامة للقصص القرآني

أولاً: تأكيد العقيدة الإيمانية:

فالقرآن الكريم حين يقص علينا أنباء الأنبياء السابقين، وما حدث ممن أرسلوا إليهم من جحود ونكران. وعدوان على شريعة الله، فهو بهذا يدعو أمة الإسلام إلى الاستمساك بحبل الله المتين، ودينه القويم، ودعوة الأنبياء جميعا واحدة وإن اختلفت الظروف التاريخية لكل نبي عمن جاء بعده.

وخلاصة تلك الدعوة كما يتضح من استعراض قصص الأنبياء في القرآن هي تأكيد عقيدة توحيد الله عز وجل. ويمكن تتبع دلالة حروف مادة (س.ل.م) ومشتقاتها المختلفة: أسلم، أسلمت، مسلم،

إسلام، فى قصص القرآن - وعلى ألسنة الأنبياء جميعاً فى القرآن الكريم.

ثانياً: كشف أحوال النفس الإنسانية:

أكد القرآن الكريم فى عدة مواضع الطبيعة الثنائية للنفس الإنسانية، فهى مزيج من الخير والشر معاً:

فقال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

(الشمس: ٧ - ٨)

وقال أيضاً:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد: ١٠)

وكشف عن تنكر الإنسان للنعمة وتغير أحواله إزاءها فى عدة مواضع من القرآن الكريم بطريقة مباشرة واضحة.

ولكن القصص القرآنى يوضح لنا خبايا تلك النفس فى صورة سلوكية، تتجلى فى مواقف الحياة المختلفة ففى قصة ابنى آدم (قابيل وهابيل) وفى قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف تقف الطبيعة الخيرة عاجزة أمام الطبيعة الشريرة، وهى فى عجزها تلجأ إلى القوة العليا القادرة: قوة الخالق القادر المقتدر فيأتى نصر الله سريعاً كما هو الحال فى قصة صاحب الجنتين. أو يأتى وعد الله ووعيده كما فى قصة ابنى آدم، وفى الحالتين تبوء النفس الشريرة بالندم والخيبة والخسران، وهذا هو شأن كل القصص القرآنى فى غوصه العميق فى أغوار النفس الإنسانية.

ثالثاً: تصويب السلوك الإنسانى:

يؤكد القصص القرآنى دائماً أن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة هى دار البقاء والخلود. والصراع الذى يدور دائماً بين الخير والشر فى قصص القرآن يدل على أن الذى يختار الخير العاجل وهو خير الدنيا، يبوء بالخسران المبين.

ومن ثم، فالواجب على قارئ هذا القصص ومستمعه؛ أن يكون حصيفاً فلا يؤثر الفانى على الباقى، وأن تكون اختياراته كلها قائمة على التمسك بالجوهر، وأن ينأى بنفسه عن السعى وراء المظاهر الخداعة. والإنسان إذا سلك هذا السلوك، اقترب من مراد الله تعالى فلا غرو أن يجيئه نصر الله، وتأييده سريعاً قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

وقال سبحانه وتعالى فى صفة الذين يصبرون وينتظرون دار البقاء:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

(الرعد: ٢٢)

ووازن سبحانه وتعالى بين الذين يختارون الدنيا ويفرحون بما فيها من متاع زائل، وأولئك الذين يختارون الآخرة وما فيها من نعيم مقيم فقال جل شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

(التوبة: ٣٨)

مما سبق يتضح أن هناك مداخل متعددة لدراسة الفكر التربوى فى ضوء القرآن الكريم، أشرنا إلى نماذج منها، وهناك غيرها الكثير. ومع ذلك فإن الدراسة الحالية هذه لن تتطرق إلى دراسة مفصلة للفكر التربوى من خلال أحد المداخل السابقة. ولكنها تطمح إلى إثارة «نقاط» بحثية يمكن لمن يرغب فى دراسة العطاء التربوى القرآنى أن يتخذ إحداها نقطة انطلاق يبنى عليها خطة بحثية متكاملة. ونعتقد أن ذلك أجدى من تركيز البحث فى نقطة واحدة قد لا يجد فيها القارئ ما يبحث عنه من «إثارة» لمشكلات بحثية تهمه.

وفيما يلى نقدم عدة تصورات أكثر تحديداً لدراسات يمكن أن تتعرض للفكر التربوى فى ضوء القرآن الكريم:

التصور الأول: الأهداف التربوية فى ضوء القرآن الكريم:

يقول أحد المربين المعاصرين: «إذا لم تكن متأكداً من المكان الذى تسير إليه؛ فإنك ستنقل إلى مكان آخر».

وهذه الجملة البسيطة، توضح بشكل عملى أهمية تحديد الأهداف فى حياة الإنسان العادى، فالذى يمشى مكباً على وجهه؛ محكوم عليه حتماً بأن يضل طريقه. ولما كانت نظم التعليم الحالية وأشكالها المؤسسية أصبحت مسئولة اجتماعياً عن تنشئة الأجيال وتهيئتها لحمل راية التقدم بالمجتمعات وقيادتها، فقد أصبح لزاماً على تلك المؤسسات التعليمية أن تبذل جهداً واضحاً من أجل تحديد ماهية رسالتها أو بتعبير آخر: أهدافها التى تسعى إلى تحقيقها.

ومنذ ظهور تصنيف «بلوم» الشهير للأهداف التربوية فى أوائل الخمسينيات من هذا القرن، ظهرت مئات من الكتب والدراسات التربوية حول موضوع الأهداف، صياغتها واستخدامها، وبشكل عام تحتدم الخلافات بين الكتاب حول:

- مستويات الأهداف التربوية: ويقصد بها الغايات التربوية، والأغراض، والأهداف العامة، والأهداف الخاصة، ويختلف ترتيبها تصاعدياً أو تنازلياً من مؤلف إلى آخر.
- مصادر اشتقاق الأهداف التربوية: يختلف حولها الباحثون التربويون كثيراً، ولكنها (عند الجميع) لا تخرج عن ثلاثة مصادر تشتق منها أهداف التعليم وهى: المتعلم «من حيث نموه وحاجاته وميوله»، والمجتمع «من حيث طبيعته، ونظمه، ومشكلاته»، والمادة الدراسية «من حيث مجالاتها ومكوناتها وطرق تدريسها».

سلطة وضع الأهداف التربوية:

ويقصد بها الجهة المنوط بها تنفيذياً تحديد الأهداف التربوية المرجوة: أهى السلطات السياسية، أم السلطات التعليمية؟

والحقيقة التى نؤمن بها: أن كثيراً من التخبط الذى تعانى منه نظم التعليم فى البلدان العربية والإسلامية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتخبط تلك النظم فى صياغة أهدافها التربوية: وتبنى المشروع الغربى فى تناول

تلك الأهداف تحت تأثير عوامل عديدة، منها: التبعية الثقافية، وبخاصة التبعية التربوية، للغرب، ويمكن حل هذه الإشكالية ببساطة إذا ما اتجهت دراسات تربوية تتناول صياغة أهداف تربوية فى ضوء القرآن الكريم للمجتمعات الإسلامية. وتأتى هذه الخطوة من عدة منطلقات أهمها:

● ثبات الأهداف إذا ما اشتقت من مصدر لا يتغير كالقرآن الكريم بحكم كونه نصا إلهيا لا يأتيه الباطل. وثبات الأهداف يحقق للنظم التعليمية القدرة على إنجاز مهامها فى ظل وضوح رؤية نابعة من وضوح الأهداف واستقرارها. أما الأهداف الموضوعة باجتهادات بشرية فهى تخضع للأهواء السياسية المتقلبة، وحسابات المصالح قصيرة الأمد، مما يسبب قلقا دائما للنظم التعليمية.

● إبراز الهوية الإسلامية فى ارتكازها على كتابها السماوى فى تشريعها التربوى، الذى هو جزء من النظام الاجتماعى العام الذى ينبغى له أن يخضع - فى شتى منظوماته الداخلية للتشريع الإلهى.

● التصدى للاتهام الشائع للتربية الإسلامية بأنها مجرد «مواعظ» وتوجيهات خطابية جوفاء لا تناسب العصر الحاضر.

والذى نتصوره فى هذا الصدد: أن تأخذ عدة دراسات حديثة على عاتقها مهمة اشتقاق أهداف تربوية من القرآن الكريم مصنفة فى مستويات تلائم المستويات المعروفة حاليا فى الأوساط التربوية. ولكن أسس تلك الأهداف مأخوذة من عطاء القرآن الكريم. وحتى لا نتهم بالخطابية فإننا نضرب مثالا على ذلك: فإذا اعتبرنا «التقوى» مثلاً غرضا تربويا عريضا، أو هدفا أو غاية استنادا إلى قوله تعالى:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة: ٥٣)

أو:

﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة: ٢)

فمن الممكن فى الخطوة التالية أن نضع تعريفا جامعا مانعا للتقوى مستخلصا من صفات المتقين بعد تحليلها موضوعيا من جميع أماكن ورودها فى القرآن. وفى خطوة تالية نحول ذلك التعريف إلى خطوات إجرائية ملموسة يمكن قياسها. وفى الخطوة الأخيرة نوزع تلك الخطوات الإجرائية على مناهج المواد الدراسية المختلفة أو على المراحل التعليمية المختلفة.. وهكذا.

التصور الثانى: الطبيعة البشرية فى ضوء القرآن الكريم:

الإنسان هو محور العملية التربوية الذى تدور حوله، فالطفل المتعلم «إنسان» بالدرجة الأولى يفرح، ويألم، ويحب، ويكره، وله طموحاته، وميوله، ويختلف كل فرد عن الآخر بدرجات متفاوتة من الاختلاف فى كل ناحية من نواحى شخصيته. ومن هنا تأتى أهمية دراسة الطبيعة البشرية كجزء أساسى من أى دراسة تخوض فلسفة التربية باعتبار الإنسان هو «الخامة» الأساسية للعمل التربوى.

وتتناول دراسة الطبيعة البشرية عناصر

عديدة أهمها:

١ - أثر كل من الوراثة والبيئة فى تكوين الإنسان.

٢ - الاختلاف بين الذكور والإناث: أنواعه - اتجاهاته - آثاره.

٣ - هل الإنسان مسير أو مخير؟

٤ - أيهما أكثر تأثيرا فى السلوك: الجسم أم العقل؟

وقد قدمت الفلسفات التربوية المعاصرة آراء كثيرة لها فى كل ناحية من هذه النواحى، وتناول تلك الآراء كثير ممن كتبوا فى فلسفة التربية. ولكن الدراسات التى تعرضت لدراسة الطبيعة البشرية فى القرآن الكريم ماتزال محدودة جدا. وفى تصورنا أن من الضرورى قبل الشروع فى وضع أسس للفكر التربوى الإسلامى تخصيص دراسة مستقلة لتجلية هذا الجانب المهم الذى هو - كما فى البداية - محور العملية التربوية، فقد عرض الإنسان فى القرآن منظورا إليه من زاوية طبيعته البشرية من خلال:

أ - حديث القرآن عن الحواس: وظيفتها الأصلية، وإساءة استخدامها.

ب - حديث القرآن عن النفس: أنواعها - ودورها فى السلوك.

ج - حديث القرآن عن دوافع السلوك: الوراثية، والبيئية.

د - حديث القرآن عن الحرية والاختيار فى حياة الإنسان: وهى قضية نالت حظها من الدراسة على أيدى علماء الكلام ورجال الفرق والمفسرين.

التصور الثالث: الجوانب المعرفية فى القرآن الكريم:

تتناول مباحث نظرية المعرفة الجوانب التالية بوجه عام:

١ - طبيعة المعرفة (ماهيتها).

٢ - مصادر المعرفة: (العقل - الحواس - الوحى - الحدس - العقل والحواس معا).

٣ - أنواع المعرفة.

وتأتى أهمية دراسة نظرية المعرفة كجزء أساسى من أى فلسفة تربوية، من كون التربية بطبيعتها عملية «نقل معارف» إلى جانب كونها عملية اكتساب مهارات وعملية خلقية.

والملاحظ حاليا أن الاتجاه المسيطر على النظم التربوية المعاصرة هو تغليب الجانب المعرفى على الجانبين الآخرين: المهارى والخلقى على الرغم من النداءات المتكررة لرجال التربية الحديثة بضرورة إيجاد «توازن ما» بين الجوانب الثلاثة.

ومع الانفجار المعرفى السائد حاليا تصبح عملية «اختيار» ما يقدم فى المناهج المدرسية عملية فى غاية الصعوبة. ففى العصر الحاضر «يتضاعف العلم فى أوروبا كل خمسة عشرة سنة، وفى الولايات المتحدة الأمريكية كل عشر سنوات، وفى روسيا كل سبع سنوات، وفى الصين كل خمس سنوات؛ مما يدل على أن التنافس العلمى العالمى حاليا أصبح يجرى بصورة تشبه السباق إن لم نقل الصراع».

والحقيقة أن البحث عن «نظرية» للمعرفة فى القرآن الكريم أمر لازم لإبراز الهوية الحضارية للمجتمعات الإسلامية، وأمر

حتمى لإبراز «الذات» الخاصة للتربية فى الشعوب الإسلامية.

وفى تصورنا أن مثل هذا البحث يمكن أن يتناول الجوانب التالية:

أ - طرق اكتساب المعرفة فى القرآن (الدعوة إلى إعمال العقل - عدم إنكار دور الحواس فى اكتساب المعرفة - التركيز على دور الوحى والإلهام.. إلخ).

ب - ماهية المعرفة فى ضوء القرآن (فتح المجال أمام جميع العلوم مع مراعاة المعيار الشرعى فى النفع والضرر على نحو ما توضحه كتابات التربويين القدامى كالغزالى وغيره).

ج - تصنيفات المعرفة القرآنية:

١ - القرآن وعلوم الحياة (البيولوجيا: الحيوان والنبات والحشرات).

٢ - القرآن وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

٣ - القرآن وعلوم اللغة.

٤ - القرآن والبحث التاريخى.

٥ - القرآن وعلم الطبيعة (الفيزياء: الجوامد، الحرارة، الطاقة، الكتلة، الزمن.. إلخ).

٦ - القرآن والعلوم الرياضية (الحساب - الفلك - النجوم.. إلخ).

التصور الرابع: التربية فى القصص القرآنى:

على الرغم من أن هذا الجانب نال قسطًا أوفر من الدراسات التربوية الحديثة إذا قورن بالجوانب السابقة، فإنه مازال يفتقر إلى دراسات أكثر عمقًا تتناوله من عدة زوايا جديدة لم تطرق حتى الآن مثل:

١ - دراسات تربط بين عطاء علم اللغة الحديث الذى يدرس «الأسلوب» وفقًا للمناهج الحديثة «التركيب النحوى والصرفى والصوتى والدلالى» وعطاء علوم النفس والتربية من أجل استنباط محتوى تربوى أكثر عمقًا.

٢ - دراسات تتناول القصص القصيرة جدًا فى القرآن والتى لم تتوقف عندها الدراسات السابقة كثيرًا مثل قصص (سبأ وسيل العرم - الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - الصافنات الجياد - بناء الكعبة - القوم الجبارين - أصحاب الجنة (سورة ن) - صاحبى الجنتين (سورة الكهف) - وغيرها).

٣ - دراسات تتناول القصص النبوى الذى جاء لتوضيح قصص قرآنى مجمل، أو القصص النبوى الذى جاء تفسيرًا لآيات قرآنية غير قصصية أو بها إشارات سريعة.

٤ - دراسات تتناول القصص القرآنى موضوعيا مقارنًا من خلال عدة تفسيرات ذات اتجاهات (تفسير بالمأثور - تفسير بالرأى - تفسير إشارى - تفسير إجمالى).

أما بعد:

فلعل فى السطور السابقة إشارة كافية للإمكانات البحثية التى ماتزال بكرًا فى مجال القرآن الكريم والفكر التربوى. أردنا بها فتح الباب أمام طلاب البحث العلمى الصابرين الصادقين، الذين سيجدون صعوبات جمة فى هذا الطريق، ولكن إيمانهم بقيمة ما سيصلون إليه من نتائج قيمة مفيدة يعصمهم من الملل والزلل.

خبرات تطبيقية فى تقريب معانى القرآن الكريم للأطفال

د. أيمن الفايش

حفظ القرآن وسيلة لحب القرآن

لا يخلو بيت من بيوت المسلمين من طفل يسعى والداه أن يجعلاه من حفظة القرآن الكريم، لما فى ذلك من فضل فى الدنيا باكتساب السلوك القويم والسعادة وفى الآخرة من رفع الدرجات وإكرام والديه وغيرها من الآثار العظيمة لحفظ القرآن الكريم.

وقد لاحظنا أن العديد من الأطفال يبدءون فى الانقطاع عن دروس القرآن فى سن ١٠-١٣ سنة خاصة الذكور، ثم يتبعه بعد قليل الإناث، مما يشكل ثقلاً على الوالدين.

كما أن أثر القرآن الكريم فى حياتهم ربما يتراجع فى فترات لاحقة وذلك بسبب عدم ربط حفظ القرآن الكريم بالفهم والتطبيق.

اجتهادات فى تفسير القرآن الكريم للأطفال

ومن هنا اجتهد العديد من المهتمين بالدراسات القرآنية أن يقدموا محاولات عديدة فى مجال تقريب معانى القرآن الكريم للأطفال، وعندما تطلع على جل هذه المحاولات، تجدها تصب مباشرة فى مجال التفسير المباشر وأقصى ما يصبو إليه أصحاب هذا الاجتهاد هو اختيار كلمات بسيطة ومباشرة ومتوافقة مع اللغة والسياق العام للآيات حتى يدونها فى كتابه، وكان اعتماد الكثير من هذه الأعمال على الجانب الفنى مثل اختيار الخط والألوان لجذب الطفل دون رعاية لمرحلته العمرية واهتماماته وبيئته التى يمارس فيها حياته الطفولية.

كما أن بعض هذه المحاولات كانت تخلط بين ما يستهدف الطفل وما يستهدف الوالدين أو المعلمين.

وعلى الرغم من هذه السلبيات المنهجية إلا أن هذه المبادرات حفظت هذه

الفكرة وهي أهمية تقريب معاني القرآن الكريم للأطفال وقدمت حلولاً فى الكثير من المواطن القرآنية التى يحتاجها الآباء والمعلمون لتحقيق هذه الرسالة المهمة من فهم وتطبيق آيات القرآن الكريم للأطفال.

لماذا نحتاج إلى هذا العمل؟

ولكل هذه الأسباب شرعت مجموعة من المتخصصين فى مجالات متعددة، فى التعليم والتربية والأنشطة والعلوم الشرعية والوسائل التعليمية وتقنية المعلومات ليقدموا عملاً يمكنه أن يتناسب مع احتياجات الطفل ومتطلبات العصر ومتوافقاً مع أصول التفسير وملتزماً بالقواعد التربوية.

● واعتمد البرنامج على إيصال المفاهيم الأساسية فى كل سورة من سور القرآن الكريم للطفل عن طريق استخدام الوسائل المناسبة لكل موضوع على حدة، والتى تتوافق مع الأعمار المختلفة، وهذه الوسائل المعينة مثل: القصة - النشاط - اللعبة - المناقشة - المحاضرة - الرحلة - الفيلم - الصورة - الزيارة - الرسم - الأناشيد - المسرحية، وقد اخترت هذه الوسائل لأنها محببة إلى الطفل بفطرته ويمكن أن تطبق بشكل تفاعلى بين المعلم والطفل ليستوعب المعانى والقيم والسلوكيات والأهداف والمقاصد المرجوة.

أمثلة تطبيقية ونماذج استرشادية:

- عندما ندرس للطفل مثلاً سورة العاديات، فإننا نستهدف أن نوصل للطفل معنى الشجاعة والتضحية وتحمل الغبار والمخاطرة ونستخدم لذلك وسائل مثل الرحلة إلى مزرعة للخيول، حوار مع أحد مربى الخيول العربية عن صفات الإباء والكرامة لدى الخيول العربية، صور عن مواصفات الخيول ومن خلال ذلك يتعلم الطفل كيف يتحلى بهذه الصفات التى لا تجعله كنوداً وفى النهاية نعطيه واجباً عملياً بأن يختار لنفسه أحد الصفات الإيجابية فى الخيل ويضع خطة كيف سيتحلى بها ويتابعه المعلم أو الوالد فى ذلك.

- عندما ندرس للطفل سورة الشرح، فإننا نستهدف أن نوصل للطفل معانى الأمل وأن لكل أزمة مخرج وذلك من خلال مسرحية اسمها الغارة وهى تحكى عن ثلاثة دخلوا غاراً وأغلق عليهم وجعلوا يستعينوا بأعمالهم الصالحة التى كانت سبباً فى نجاتهم، ثم مناقشة كيف تحول التحدى إلى فرصة وفى النهاية يكون هناك واجب عملى من خلال تحديد أحد العقبات التى سيجتازها خلال الأسبوع.

- وعند دراسة سورة الإخلاص نستعين بالأناشيد التى ترسخ معانى الوحدانية عند الطفل وبعض الألعاب التى تظهر له الفارق بين أن يتقرب الإنسان إلى رب واحد وبين أن تتعدد وجهته إلى آلهة متعددة ثم نتطرق إلى فضل الله على

أمة الإسلام بالتوحيد وفى النهاية نتواعد معه أن يقرأ هذه السورة عند النوم كل يوم.

هل هذه الطريقة بدعة مستحدثة؟

وقد وجدنا أن هذه الطريقة من استخدام الوسائل فى تقريب المعانى لم تكن بدعاً مادامت منضبطة بميزان الشرع، فقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

ضوابط الوسائل

١- أن تكون متوافقة مع أصول التفسير وقواعد اللغة.

٢- ألا تؤدى إلى تأثيرات سلبية على نفسية الطفل سواء فى الحاضر أو المستقبل.

٣- أن تلتزم بالمرجعية الإسلامية من القرآن والسنة فى جانب الغيبيات دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل يؤدى إلى تصورات خاطئة عند الطفل.

٤- أن تكون متوافقة مع لغة الطفل وبيئته واهتماماته.

٥- أن تساعد فى بناء شخصية الطفل بناء متكاملاً فى الجوانب الإيمانية والإجتماعية والشخصية.

التوجهات التى يراعى غرسها عند الطفل عند فهم الآيات القرآنية:

وينبغى أن تراعى هذه الأنشطة غرس ثلاث معان أساسية لدى الأطفال والناشئين وهى:

١- القدرة على النقد والتمييز بين الصواب والخطأ لإعطاء صورة حقيقية عن الواقع ليعين الطفل ليس فقط على فعل الخير والثبات عليه ولكن أيضاً مدافعة الشر ومقاومته.

٢- تغليب الجانب العملى والابتكارى على الجانب القولى والخطابى والسعى إلى إتقان العمل وجودته والتعاون مع الآخرين من أجل تحقيقه والتوازن فى هذه الأعمال بين ما يعود مردوده عليه شخصياً أو المجتمع المحيط به ووصولاً للعالم والكون.

٣- التفكير المستقبلى الذى يجعل الطفل متطلعاً إلى الأفضل دائماً ومقدماً أحسن ما لديه من أجل حياة أفضل فى الدنيا وثواباً أعظم فى الآخرة.

المناخ الذى نريد أن نصنعه عن مدارسة القرآن مع الأطفال

أما المناخ الذى نريد أن نصنعه فهو مناخ عام يسوده مشاعر الفرح والابتهاج، والإكرام والحب، والمشاركة والانطلاق، ثم الأمان والثقة ليساعد

الطفل على أفضل فرص التحصيل والتعلم والتطبيق لمعانى القرآن الكريم وكذلك التعلق بمنهاجه ومحبته.

محتويات البرنامج الذى نسعى لتحقيقه لتقريب معانى القرآن الكريم للأطفال

أولا: حقيبة الآباء والمعلمين:

١- تفسير سورة الفاتحة والجزء الثلاثين للأطفال، نموذج استرشادى للآباء والمعلمين:

وهو كتاب للآباء والمعلمين؛ ليعينهم على تقريب معانى القرآن الكريم للأطفال من خلال دراسة سورة الفاتحة والجزء الثلاثين، ويتناول بعض ما ترشدنا إليه السور ومعانى بعض المفردات والوسائل المعينة على ذلك بالإضافة إلى توقعات التعلم والأهداف المرجوة ثم الواجبات العملية.

٢- دليل الآباء والمعلمين ... المفاهيم والأهداف:

وهو كتاب يناقش تساؤلات تدور حول تفسير القرآن الكريم للأطفال ومناقشة مفاهيم تتكرر أثناء مدارسة القرآن الكريم مع الأطفال بالإضافة إلى أهداف البرنامج وعلامات تحققها عند الأطفال

٣- دليل الآباء والمعلمين ... فهارس البرنامج:

وهو إصدار يقدم نوعين من الفهارس، فهرسا موضوعيا ليسهل للمعلم أو الوالد متابعة دراسة موضوعات معينة مع الأطفال مثل (الإيمان - الأخلاق والتزكية - قصص الأنبياء - .....) وفهرسا للأنشطة مثل (الرحلات - الأفلام - الصور - المسرحيات - .....إلخ).

٤- المحتوى الإلكترونى للآباء والمعلمين:

وهو يحوى الوسائل التى يحتاج إليها الآباء والمعلمين سواء من الأنشطة أو التدريبات.

٥- الدورة التدريبية لإعداد الآباء والمعلمين لتقريب معانى القرآن الكريم للأطفال:

وهى عبارة عن دورة تدريبية تهدف إلى تمكين الآباء والمعلمين من تقريب معانى القرآن الكريم وأساسيات واستراتيجيات التعلم وضوابط تقريب معانى القرآن الكريم.

٦- نموذج دروس سورة الفاتحة وسور الجزء الثلاثين من القرآن الكريم:

وهو نموذج للدروس معد تفصيليا لدروس تقريب معانى القرآن الكريم للأطفال وهى على ثلاثة مراحل ٦-٧ سنوات والمرحلة الثانية ٨-٩ سنوات والمرحلة الثالثة ١٠-١٢ سنة.

٧- كراسة التدريبات حياتى بالقرآن (نموذج المعلم):

وهى كراسة تحوى تدريبات على فهم وتطبيق سورة الفاتحة والجزء الثلاثين وهى موجهة لمراحل التفكير المختلفة، وإضافة

إلى ذلك يوجد إجابات مقترحة للآباء والمعلمين وكيفية توظيف كل تدريب تجاه علاقة الطفل بالله أو بالكون أو بالآخرين أو فهمه لذاته.

ثانيا: حقيبة الطفل

١- المحتوى الإلكترونى:

وهو يحوى تدريبات ومسابقات لتقييم استيعاب الأطفال لفهم الآيات القرآنية.

٢- كراسة التدريبات حياتى بالقرآن (نموذج المعلم): وهى تحوى تدريبات للأطفال تختبر مدى استيعابهم للبرنامج كما تعطيه فرصة للتعبير عن نفسه وتحقيق الواجبات العملية ومتابعتها.

٣- قصص البرنامج:

وهى قصص تغطى بعض الأهداف التربوية المطلوبة من خلال دراسة القرآن الكريم ومثال ذلك:

- كنود ومسعود أثناء دراسة آية:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الفاتحة - آية ٢)

- الحمامة والثعبان، أثناء دراسة آية:

﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾

(سورة الناس آية ٤)

- هانى المتباهى، أثناء دراسة آية:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾

(سورة التكاثر - آية ١)

- سامر الساخر، أثناء دراسة آية:

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾

(سورة الهمزة آية ١)

التغيرات الإيجابية المتوقعة بعد فهم وتطبيق القرآن من خلال البرامج التفاعلية

١- أكثر محبة للقرآن الكريم ومقدرة على تطبيق معانيه وربطها بالواقع المعاصر.

٢- أكثر فهما لآيات سورة الفاتحة وسور الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

٣- أعظم تقديرا للقيم وتعظيما للشعائر وأكثر عملية فى تطبيقها فى حياته المعاصرة.

٤- أكثر رعاية لحق الله ومراقبته فى أعماله.

٥- أكثر تقديرا لرسول ﷺ والسعى إلى تطبيق سننه بطريقة عملية.

٦- أكثر ولاء للصالحين ومحبتهم.

٧- أكثر تعاونا مع أفراد أسرته وتواصلا بالعائلة.

٨- أكثر احتراما للجنس الآخر وانفتاحا للتعامل مع الخلاف.

وفى النهاية فإن هذه التجربة وشبيهاتها تفتح المجال فى دراسة هذا الملف الهام من علاقة أبنائنا بالقرآن الكريم وكيفية الاستفادة من الوسائل الحديثة فى تقريب معانيه إليهم وطرق تطبيقه فى حياة الطفل.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الكريم وأن يفتح لنا بابا فى خدمة نشره وتطبيق معانيه وإحياء الأمة بهديه العظيم.

أثر الإسلام والقرآن الكريم فى شعر جوتة



د. طلعت عبد العزيز أبو العزم
الأستاذ بكلية الآداب بسوهاج

ولد (جوهان ولف كانج فون جوتة) فى عام ١٧٤٩م، وكان فى العاشرة من عمره حين زحفت القوات الفرنسية على مدينة (فرانكفورت) فى عام ١٧٥٩م، واحتلتها لمدة أربع سنوات، وقد أفاد فى خلال هذه الفترة من جنود الاحتلال الفرنسى حيث تعلم اللغة الفرنسية، وتعلم اللغة العربية من عام ١٧٦٣م إلى عام ١٧٦٥م على يد معلم العبرية (البرشت)، وفى هذه المدة ترجم إلى الألمانية نشيد الإنشاد عن العبرية، وبين عامى ١٧٧٠م و١٧٧١م أثناء إقامته فى (ستراسبورج) اتصل بـ (هردر) وقرأ معه (سفر أيوب)، وكان (هردر) أحد المتخصصين فى التوراة، وكان يرى أنه سفر عربى وليس عبريًا.

وفى عــام ١٧٧٢م وهو فى الثــالثــة والعشرين من عمره، ظهر لأول مرة اهتمام جوتة بالقرآن الكريم، فقرأ - أولاً - ترجمة ألمانية له قام بها المستشرق (مرجولين)، ثم قرأه - مرة ثانية - فى ترجمة لاتينية كانت قد سبقت الترجمة الألمانية فى الظهور، حيث ظهرت فى القرن السابع عشر، ثم أعيد طبعها فى (لايبزج) فى عام ١٧٦١م.

وفى عــام ١٧٧٣م وهو فى الرابعــة والعشرين من عمره، توجه اهتمام جوتة إلى شخصية النبى محمد ﷺ حيث قرأ كتاب (تاريخ محمد.. مشرع العربية) للمؤلف الفرنسى (فرانسوا هنرى توبين)، ثم حاول أن يحول بعض قصص التوراة والقرآن إلى مسرحيات، ووضع مشروع مسرحية عن حياة الرسول الكريم ﷺ، ولم تتم المسرحية، بل يوجد بعض قطع منها توفر عليها الدارسون للأدب المقارن، وأكدوا من خلالها تأثر جوتة بالقرآن الكريم والإسلام.

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن اطلاع جوتة على القرآن الكريم قد تأخر إلى عامى ١٧٨١م و١٧٨٢م بعد أن اعتراه السأم

والملل من الحضارة الغربية فى عام ١٧٧٦م، وحاول أن يعالج ذلك بالسفر والتغرب أو الهروب بذهنه إلى الشرق، وكان جوتة فى هذه الفترة قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره.

وفى سنة ١٧٨٣م وفى الرابعة والثلاثين من عمره، بدأ جوتة أول تجربة فى قراءة الأدب الجاهلى، حيث اتصل بجامعة (جوتنجن)؛ كى ترسل إليه من مكتبتها نسخة من ترجمة المعلقات باللغة الإنجليزية، وكان جوتة قد تمكن من اللغة العربية حتى استطاع قراءة العربية بمساعدة المعجم.

وفى سنة ١٧٨٦م ترك عمله ومتابعته للأدب العربى، وسافر إلى إيطاليا تحت اسم مستعار، وبقى فيها حتى عام ١٧٨٨م، ثم سافر إليها ثانية فى عام ١٧٩٠م، وفى عام ١٧٩١م وفى الثانية والأربعين من عمره توجه جوتة إلى قراءة الآداب الهندية والفارسية، واستمر فى استشراقه حتى عام ١٨١٤م، وفى عام ١٨١٤م التقى - وهو فى الخامسة والستين - بالسيدة (زليخا) كما يسميها فى (الديوان الشرقى) واسمها الحقيقى هو (مريانه فون فليمير).

وفى هذا العام - ١٨١٤م - بدأ ظهور الديوان الشرقى، وانتهى منه جوتة فى عام ١٨١٩م، أما التعليقات التى كتبها على الديوان - كشروح وتفسيرات إضافية - فقد كتبت بين الأعوام من ١٨١٦م إلى ١٨١٨م، ولا شك أن عددًا من الأسباب قد ساعدت على توجه جوتة إلى الشرق فى ثقافته وقراءاته، فإن الجو الأدبى الذى كان سائدًا فى أوروبا كان قد اكتشف فى الشرق وكنوزه الأدبية ينبوعًا جديدًا فى فكره، يختلف عما ورثته أوربا عن الحضارة الهلينية والرومانية، فنقلت قراءة أدب الشرق الغربيين أبناء الحضارة التعبة والحروب والمآسى إلى عالم رومانسى يبعد به عن الحياة اليومية، وكانت علاقة الشاعر بزليخا قد بعثت كل هذه الذخائر النفيسة من أدب الشرق إلى أشعار جوتة، فظهر مقدار ما دان به جوتة للشرق فى هذا الكتاب.

إسلاميات الديوان:

فى شهرى مايو ويونيو من عام ١٨١٤م، دبج جوتة القصائد الأولى من الديوان الشرقى، وهى القصائد الأولى من ذلك المؤلف الذى تنفس أجواء الفكر الإسلامى، وأنجز كله بوحى من معالم الإسلام، وما كان هذا الديوان يقدر له أن يظهر للوجود إلا بفضل اتخاذ جوتة موقفًا إيجابيًا من الإسلام منذ سنوات شبابه، وهذه حقيقة لا يمكن الاختلاف عليها، وإلا فكيف تفسر هذه الألفة الحميمة للتصورات الدينية فى العالم العربى، وهذه المودة الصافية التى جعلت الشاعر يتنقل فى رحابه، لو لم يكن قد شعر نحو الإسلام بتعاطف عميق، واطلع على أحواله اطلاعًا واسعًا؟ إن هذا الارتباط وحده هو الذى مكن جوتة أيضًا من التحرك بحرية بين الجد والمزاح عند تناول الموضوعات الدينية.

تأثيرات قرآنية على قصائد (الديوان الشرقى) لجوتة:

إن عدد قصائد (الديوان الشرقى) المستلهمة من القرآن الكريم مباشرة ليس بالقليل، بل إن جوتة يضمن البعض منها صراحة آيات قرآنية، معتمدًا فى ذلك على

الترجمة التي قام بها (فون هامر)، والمنشورة في مجلة (كنوز الشرق)، وخير شاهد على هذا هو الآية (١١٥) من سورة البقرة:

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وكان جوتة قد اطلع على ترجمة هذه الآية الكريمة في الأجزاء الستة من (مجلة كنوز الشرق)، إذ اختارها (فون هامر) شعارًا يتصدر المجلة، وهكذا ألهمته هذه الآية الرباعية الشعرية التي يقول فيها جوتة:

لله المشرق
لله المغرب
والأرض شمالاً
والأرض جنوبًا
تسكن آمنةً
ما بين يديه.

ومن الواضح أن جوتة قد ضمن البيتين الأولين الآية القرآنية صراحة، ثم أضاف إليها البيتين الأخيرين جريًا على الأسلوب الذي تعود عليه، وسوف نصادفه، من الآن فصاعدًا باستمرار في اقتباسات جوتة من القرآن الكريم، وحرصًا منه على التوسع في الفكرة المستقاة من الآية الكريمة، وتحويلها إلى رباعية، أضاف إليها الشمال والجنوب رغبة منه في تأكيد أن العالم كله يستظل بالعناية الإلهية، وهذه الرباعية هي المطلع الذي استهل به مقطوعته الشعرية المسماة (طلاسم) في الكتاب الأول من الديوان الشرقي، والواقع أنه لم يعمد فحسب إلى التضمين الصريح في مطلع هذه القصائد والمقطوعات، وإنما تشتمل رباعية أخرى على أصداء قوية تذكرنا بترجمة (فون هامر) للقرآن الكريم، الذي وجد فيه جوتة الآيتين التاليتين من سورة الفاتحة:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾

وهنا أيضًا شعر جوتة بدافع قوي يحفزه لتحويل معنى هاتين الآيتين إلى مقطوعة شعرية حكمية، فنظم رباعية حرص فيها على الالتزام بالنص، وإضفاء صيغة الدعاء عليه:

"يريد الضلال أن يربكني.
لكنك تعرف كيف تهديني.
فإن أقدمت على عمل أو أنشدت شعرًا.
فأنر أنت لي جادة الطريق".

وربما يشق على القارئ إدراك مدى تأثر هذه الرباعية الشعرية بالآية القرآنية، بسبب الفعل (يربكني) الذي أتى به الشاعر في الرباعية، ولا وجود له في النص القرآني، إلا أن الأمر سيكون يسيرًا متى ما أخذنا الحقيقة التالية بعين الاعتبار: أن المسلم قادر على تحديد السلوك الضال - أي المنافي للصراط المستقيم - بسهولة؛ لأن القرآن الكريم يشمل القواعد والمبادئ الأساسية التي تبين للمسلم ما يهديه إلى الصراط المستقيم وما يضله عنه، وبهذا المعنى يكون لهذه القواعد والمبادئ تأثير لا ينقطع على حياة المسلم اليومية.

وقد يقول قائل بأنه كان يقصد بـ (الضلال) الهيام دون هدف وعلى غير هدى، إلا أن كلمة (تهديني) تقطع الشك باليقين، فالهداية بلا ريب من الله تعالى، وهو الهادي إلى سواء السبيل، ومن هنا تراه يتوسل إليه أن ينير له جادة الطريق في حياته كلها، وقد توسع الشاعر في هذه الفكرة أيضًا، فأضاف من عنده فكرة التوسل إلى الله أن يهديه إلى الرشاد في كل ما يعمل به، وما يبدع من شعر.

وتوجد مقطوعة شعرية أخرى في كتاب (المغني) كان جوتة قد ضمنها صراحةً الآية الكريمة رقم (٩٧) من سورة الأنعام:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

فهذه الآية الكريمة تنبه المؤمنين إلى نعم الله عليهم، ففي الظلمات حيث تتعذر الرؤية، يستطيع الإنسان سواء أكان في البر أو في البحر، أن يهتدي بالنجوم، ولعل ضرب المثل بالبحر أن يكون خير تأكيد لذلك، ولا ريب في أن لهذه النعمة جانبًا آخر، وهو الاهتداء عن طريق رفع البصر نحو السماء المرصعة بالنجوم، وهو جانب ينطوي كذلك على معنى أخلاقي، أي السير على هدى الشريعة السماوية، وقد استلهم جوتة هذا كله في مقطوعته، ولكنه يشعر بدافع قوي يحفزه لإضافة عنصر آخر أوحاه إليه وجدانه الشعري، ولم يشتمل عليه التنبيه القرآني، فالإحساس بالتسامي عند رفع البصر إلى (السماء المرصعة بالنجوم من فوقنا) كما تقول عبارة كانط الشهيرة، يزداد عمقًا من خلال ما يجنيه المرء من مشاعر الغبطة والسرور، ولذلك وجد جوتة نفسه يقول:

"هو الذي جعل لكم النجوم.
لتهتدو بها في البر والبحر.
ولكي تنعموا بزينتها.
وتنظروا دائمًا إلى السماء".

ولم يكتف جوتة بالتضمين الصريح، بل عمد أيضًا إلى تقفية بيته الثالث بكلمة Ergetzt الألمانية (لكي تنعموا) تماشيًا مع كلمة gesetzt الألمانية (جعل) في البيت (وهو الذي جعل لكم النجوم)، التي قفى بها المترجم النص الألماني.

وإذا كانت الآية الكريمة قد لفتت نظر الناس إلى أن الله قد (جعل) النجوم هاديًا لهم على طريق العمل الصالح، فإن الشاعر يضيف الجانب الجمالي من واقع إحساسه بنص الآية، وقد صور هذا الإحساس أن رؤية السماء المرصعة بالنجوم تضبغ على الإنسان متعة فائقة، تبهره وتفتنه وتجعله على الدوام يرنو ببصره إلى السماء، وليست هذه في الواقع سوى إحدى الإضافات المميزة لشاعرية جوتة؛ لأن نغمة الابتهاج والسرور بروعة النجوم تتردد في العديد من قصائده، وهناك مثل استقاه الدارسون لشعر جوتة من قصيدته المسماة **(التعزي بالدموع)**، المنظومة عام ١٨٠٣م، وفيها يقول جوتة:

"النجوم لا يهواها الإنسان.
إنه يسر بجلال رونقها.
ويرنو إليها بافتتان.
في كل ليلة صافية".

وفي الديوان الشرقي أيضًا نجد الإشادة بـ (رونق) سماء الليل المرصعة بالنجوم، فهي

تخلب لب شاعرنا الذى دأب على النظر للأمور من منظور دينى.

وفى كتاب (سوء المزاج) من الديوان الشرقى نجد مقطوعة شعرية تنطوى على شىء من الغرابة؛ إذ تعود بجذورها أيضا إلى القرآن الكريم على نحو ما، وربما كان التعبير الأدق هو أن الشاعر جوتة قد اعتقد أنه أخذ معناها من القرآن الكريم، بدليل أنه أشار فى أسفلها إلى الآية رقم (١٥) من سورة الحج، والحقيقة أنه لم يستقها من القرآن مباشرة، وإنما وقع عليها فى السيرة النبوية التى كتبها (أولزنر)، الذى كان قد ذكر فحوى الآية الكريمة فى أحد هوامش كتابه على هذا النحو:

"إذا اغتاظ أحد لأن الله.

قد منح محمداً الأمن والعون.

فليضع حبلاً على عماد داره.

ويربط نفسه به.

وسوف يشعر بأن غيظه.

قد سكن".

فنص الآية الكريمة رقم (١٥) من سورة الحج التى كتبها (أولزنر) على النحو السابق فى أحد هوامش كتابه عن السيرة النبوية، واطلع عليها جوتة هى:

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾

وسواء ترجم (أولزنر) نص الآية القرآنية بدقة، أم بالصورة السابقة، فإن جوتة قد اطلع على ما كتبه (أولزنر) فى السيرة النبوية، وقد ألهمت هذه الفقرات شاعرنا الأبيات التالية:

"النبى يقول:

إذا اغتاظ أحد من أن الله قد شاء.

أن ينعم على محمد بالرعاية والهناء.

فليثبت حبلاً غليظًا بأقوى عارضة فى قاعة بيته.

وليربط نفسه فيه، فسوف يحمله ويكفيه.

ويشعر بأن غيظه قد ذهب ولن يعود".

وربما أعطت هذه المقطوعة الشعرية- وكان جوتة قد سماها فى بادئ الأمر (تحدى الأنبياء)- الانطباع بأن القرآن الكريم قد دعا أولئك الذين حسدوا النبى على النعمة التى حباه الله بها، إلى أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم أو ينتحروا، ولكن مثل هذا الاستنتاج لا يتفق مع الحقيقة؛ لأن الإسلام لا يقر فكرة الانتحار على الإطلاق، فالمسلم يعتقد أن كل ما يصيبه فهو من الله، وعليه أن يسلم به ويتقبله راضيا، وحقيقة الأمر - كما وضحنا- أن ترجمة هذه الآية كانت ترجمة خاطئة، ولذلك وقع جوتة ضحية المصدر الذى اعتمد عليه، ومع هذا فلم يخلُ هذا الخطأ من جانب إيجابى فى الديوان الشرقى يحسب له، فهل هناك قارئ للديوان لم يشعر بروعة هذه المقطوعة؟

بالإضافة إلى هذه الحالات التى ترك فيها القرآن آثارا مباشرة على شعر جوتة، فهناك شواهد أخرى على آثار قرآنية غير مباشرة، فالقصيدة المسماة (الخلق والإحياء)، وهى قصيدة طويلة اشتمل عليها (كتاب المغنى) من الديوان الشرقى، وقد تناول فيها جوتة

خلق آدم، ومطلعها هو:

"آدم كان فلذة من صلصال مسنون،

أحالها إلى إنسان رب العالمين".

فهذه القصيدة استلهمت بلا ريب إحدى قصائد حافظ الشيرازى، لكن أبيات حافظ نفسها كانت مستوحاة بغير شك من الآية الكريمة رقم (٢٦) من سورة الحجر، ونصها:

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾

وهناك قصيدة أخرى فى (كتاب حافظ) اسمها (شكوى) ما كان لها هى الأخرى أن تظهر للوجود لولا الآية الكريمة رقم (٢٢١) من سورة الشعراء، وما بعدها من الآيات حتى الآية رقم (٢٢٧):

﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ۝ تنزل على كل أفاك أثيم ۝ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ۝ والشعراء يتبعهم الغاوون ۝ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

وكان جوتة قد قرأ هذه الآيات الكريمة فى مجلة (كنوز الشرق) من ترجمة (فون هامر)، فاقتبسها وكتبها بمداد أحمر تحت عنوان (شكوى)، ومن المرجح أن يكون جوتة قد دون هذه الآيات يومى ٧، ٨ مارس من عام ١٨١٥م إذ كتب فى مذكراته اليومية أنه كان يطالع القرآن الكريم فى هذين اليومين، وفى يوم ١٠ مارس من عام ١٨١٥م أى بعد يومين أو ثلاثة أيام من هذه المطالعة، نظم قصيدته (شكوى) التى ضمنها فيما بعد (كتاب حافظ)، والتى نصها:

شكوى

أتدرى لمن يقوم الشيطان بالمرصاد

فى الفيافى بين الصخور والأسوار؟

وكيف يحيل فيهم النظرات الحداد

مقتاداً إياهم إلى أبواب النار؟

إن هؤلاء هم الكذابون الأشرار

والشاعر، لماذا لا يرتاع

من الدخول فى زمرة هؤلاء الرعاع!

هل يعرف من يرافق ويصاحب

هذا الذى لا يعمل إلا فى حال من الجنون غالبة؟

إنه سيهيم على وجهه فى القفار والبيد

لا يحدوه غير حب عنيد.

وأغانيه الشاكية المسطورة فى الرمال

ستجعلها الريح أبداً فى ترحال

إنه لا يعى ما يقول

ولا يفعل ما يهذى به.

إن الناس سيتركون قصيده يذهب حيث شاء.

لأنه لا يتفق والقرآن.

فعلموا الناس أيها الراسخون فى العلم

والمتدثرون بدثار الحكمة

علموا المسلمين المخلصين واجبهم المتين".

ويشير تقسيم القصيدة إلى أربعة مقاطع إلى أن هناك أصواتا عديدة ترتفع شاكية، ولكن مضمون القصيدة اعتمد اعتماداً

واضحا على النص القرآنى.

فالمتحدث فى الفقرة الأولى التى تشتمل على خمسة أبيات، يكرر صراحة مضمون الآيتين (٢٢١، ٢٢٢) من سورة الشعراء، وفى النص القرآنى وفى القصيدة أيضا تتم إدانة الشعراء بسبب خضوعهم لغوايات الأشرار، وبسبب غوايتهم هم أنفسهم للآخرين، أما المتحدث فى الفقرة الثالثة فإنه يفترض- اتفاقا مع الآيتين (٢٢٥، ٢٢٦)- أن الشعراء لا ينشدون الشعر إلا فى حالة من (الجنون)، أى أنهم لا يعون ما يقولون، وأما الفقرة الرابعة فإنها تحث الحكماء والمتدثرين بأردية العلم على أن يجدوا الدواء الناجع الذى يمنع انتشار هذه الأشعار المخالفة لروح القرآن الكريم.

وإلى جانب هذه القصائد، هناك قصائد أخرى عديدة كان جوتة قد استوحاها من القرآن الكريم، كما سيتضح فيما بعد.

التسليم بمشيئة الله

فى الديوان الشرقى لجوتة:

لا شك أن قراءة جوتة للإسلام والقرآن الكريم قد أثرت فيه تأثيرا عمليا، فقد آمن الشاعر الألمانى بأن كل شىء مكتوب ومقدر من قبل الخالق، ويؤكد هذا الآيات التى أخذها الشاعر من القرآن الكريم فى شعره، فضلا عن رسائله العديدة وتصريحاته الشفهية، ولهذا ليس بمستغرب أيضا أن نجد فى (الديوان الشرقى) عبارات يمكن وصفها بأنها (قدرية)، وللدلالة على هذا نسوق فيما يلى عددا من الأمثلة بادئين بقصيدة من (كتاب الحكم):

ماذا تريد أن تصنع بالعالم؟ لقد تم صنعه.

ورب الخلق دبر كل شىء.

تحدد نصيبك.

فاتبع السبيل.

بدأ الطريق، فأتم الرحلة.

لن تغير منه الهموم والأحزان.

بل ستظل تطيح بك بعيدا عن الاتزان.

وكما كانت الحال فى مناسبات أخرى، يدعو الشاعر المولع بنشر (الطلاسم) بين قصائد ديوانه الشرقى إلى تحقيق حالة يسودها التوازن الروحى، فالهموم والأحزان والمخاوف من المصائب الممكنة لن تغير شيئا ولن تدفع شرا، بل ستظل تخرج المرء عن الاتزان، أما إذا تقبل المرء المكتوب له، ورضى عنه واقتنع به، وراح يتم رحلة حياته المرسومة سلفا وهو مؤمن بأن العقل الإلهى قد دبر بحكمته كل شىء، عندئذ تغمر الناس حالة انسجام وطمأنينة روحية شبيهة بتلك الحالة التى أنعم الله بها على المسلمين؛

وهذا الإيمان بالقدر يورده الشاعر جوتة على لسان الصبى الذى يرد ذكره فى كتاب (الساقى)، ففى قصيدة بعنوان (ليلة صيف) يكرر الصبى بسذاجة الأطفال ما كان قد علمه إياه الشاعر العجوز: إذا كان النجم كبيرا أو صغيرا، متوهج البريق أو أقل توهجا، فكل شىء قد قدر سلفا بإرادة الله، وبهذا الإيمان يرفع الطفل بصره إلى السماء المرصعة بالنجوم قائلا لمعلمه:

لأنى أعلم أنك تحب النظر إلى الأعالى.

فى سعيك للتطلع إلى اللانهائى.

حين تتنافس هاتان الناران المتوهجتان فى زرقة السماء.

فى الإشادة كل منهما بالأخرى.

وتكتفى الأنصع بريقا بقولها:

"إنى لأتوهج فى مكانى هذا.

ولو شاء الله أن يزيد من أجلك.

لسطعت أنت أيضا مثلى".

وهكذا يخضع كل شىء عند جوتة للإرادة الإلهية العلية، فالتدبير الإلهى الذى يدلل عليه الشاعر فى حديثه عن السماء المرصعة بالنجوم، يتحكم حتى فى حياة النجوم وحياة الطيور، أليست هى الحكمة الإلهية التى شاءت للعش أن يكون كبيرا أو صغيرا؟ أجل! كل شىء يخضع لإرادته، يتضح هذا فى المقطع التالى من القصيدة:

"ألا إن كل شىء شاءه الله رائع،

لأنه سبحانه هو الخير الأعظم،

وهكذا تنام كل الطيور،

فى أوكارها الصغيرة والكبيرة،

هذا ما علمتنى إياه،

أو شىء مثل هذا،

وما سمعته منك،

لن يفلت من قلبى"

والحقيقة هى أن ما (علمه) الشاعر للفتى- كما يتضح فى الأبيات السابقة- ليس سوى العقيدة الإسلامية التى ترى أن كل شىء محدد ومقدر سلفا، ولا ريب فى أن الوعى بأن العناية الإلهية تحيط بكل ما فى الوجود، قد منح الفتى الشعور بالطمأنينة والأمان، ولكن لا ينبغى أن يغيب عنا أن الصدى الساذج- فى سذاجة الطفولة- يعكس هنا شعورا إسلاميا عميق التأصل فى حياة شاعر الديوان.

والواقع أن الشاعر جوتة لم يأل جهدا فى شعره أو رسائله فى التذكير بضرورة التسليم بمشيئة الله وإرادته، وفى كتاب الحكم من (الديوان الشرقى) يربط جوتة موضوع التسليم بمشيئة الله بالدعوة إلى التسامح، إذ يقول:

من حماقة الإنسان فى دنياه.

أن يتعصب كل منا لما يراه.

وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم.

فعلى الإسلام، نحيا ونموت أجمعين.

وهناك شاهد آخر من (كتاب الحكم) نفسه لجوتة، خلاصته التسليم بمشيئة الله:

إذا امتحنك القدر، فهو يعلم جيدا لماذا.

إنه يريد منك القناعة، فأطع دونما اعتراض.

وليس من قبيل المصادفة أن يجعل جوتة هذين البيتين شعارا لطبعة (سنوات تجوال فلهلم مايستر)، وهى رواية تدعو بلا انقطاع إلى الزهد والقناعة والرضا.

فالبيتان ينسجمان انسجاما تاما مع الهدف الذى ترمى إليه هذه الرواية التى كتبها جوتة فى سنوات الشيخوخة، يدعوان إلى رياضة النفس على القناعة، أى إلى التخلى عما لم يقسمه لنا القدر، والرضا من الأعماق بما نبتلى به دونما اعتراض.

التوحيد فى الديوان الشرقى:

معظم الآيات التى استشهد بها جوتة من القرآن الكريم ، واقتبس معانيها فى شعره تشير إلى التقدير العظيم الذى كان الشاعر يكنه لعقيدة التوحيد ، والحقيقة أن جوتة قد أثنى كثيراً على هذه العقيدة ، وعاد إلى الحديث عنها فى "التعليقات والأبحاث" ، التى كتبها موضحة تأثره بالإسلام والقرآن الكريم ، فقد كتب فى الفصل المسمى (محمود الغزنوى) من "التعليقات والأبحاث" على سبيل المثال قائلاً:

"والإيمان بالله الواحد يسمو.

بالروح دائماً ، لأنه يرد

الإنسان إلى وحدة ذاته" .

وقد تحدث جوتة عن هذه العقيدة أيضاً فى قصائد (الديوان الشرقى) ، التى نشرت بعد وفاته ، إذ نجد فيها قصيدة تشيد إشادة لا تنسى بعقيدة التوحيد ، وهى القصيدة التى يقول فى مطلعها : (أيتها الطفلة الرقيقة ، هذه الأسماط من اللآلئ) ، ففى هذه القصيدة يتحدث جوتة من منظور إسلامى بحت ، ويعرب عن مناصرته للنبى الذى نشر عقيدة التوحيد ، وهى عقيدة الإله الواحد ، وخلصها من كل ما ألحقته بها اليهودية والنصرانية من شوائب ، مستشهداً باستمرار على أن إبراهيم نفسه كان مسلماً حنيفاً ، وكما يتضح من المقطع الرابع من قصيدة (أيها الطفلة الرقيقة) ، التزم جوتة فى سياق دفاعه عن عقيدة التوحيد بنصوص القرآن ، إذ نجده يقول :

"لقد اختار إبراهيم سيد النجوم.

إلهاً لنفسه.

وموسى في تيه الصحراء.

صار عظيماً بفضل الواحد الأحد.

كذلك داود ، بعد أن ارتكب العديد من المعاصى.

بل والعديد من الجرائم.

استطاع أن يبرئ نفسه بقوله :

لقد عبدت الواحد الأحد" .

وتذكرنا صورة إبراهيم عليه السلام وهو يتعرف على الله الحق من خلال مشاهدته للسماء المرصعة بالنجوم ، بما جاء فى سفر التكوين (الإصحاح ١٥ الآية ٥) ، ومع هذا ، لم يستلهم جوتة أبياته من هذا المصدر ، بل استوحاها من القرآن الكريم (راجع الآيات من ٧٥ إلى ٧٩ من سورة الأنعام) ، وقد سبق أن بينا كيف شغف جوتة منذ أيام الشباب– أى منذ بداية اقتباسه لبعض الآيات القرآنية ووضعه الخطوط العريضة لمسرحيته المسماه (تراجيديا محمد)– بالآيات القرآنية التى تتحدث عن اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان الصحيح بالله عندما رنا ببصره إلى السماء المرصعة بالنجوم ، وتتأكد هذه الحقيقة عندما نأخذ بعين الاعتبار تطابق رأى جوتة بشأن السيد المسيح عليه السلام مع المنظور الإسلامى.

ففى حين يلقى محمد باللائمة على النصارى فى المقام الأول لكفرهم بالحقيقة الأساسية التى تقوم عليها ديانة التوحيد وعقيدتها ، وزعمهم أن المسيح عليه السلام هو ابن الله ، نرى جوتة يؤكد أن السيد المسيح نفسه قد أقر (بالله الواحد الأحد) ، وهكذا اتفق جوتة مع المنظور الإسلامى ، عندما أطلق على السيد المسيح لقب (نبى) ، وليس ابن الله فى قصيدته المسماة (أهل الكهف) .

وفضلاً عن هذا ، فقد أقر جوتة – فى المقطعين السادس والسابع من قصيدة (أيتها الطفلة الرقيقة / هذه الأسماط من اللآلئ)– الرفض الإسلامى للاعتقاد القائل بأن المسيح عليه السلام هو ابن الله ، هذا الاعتقاد الذى يمثل جوهر الخلاف القائم بين الإسلام والنصرانية ، إذ قال فى هذين المقطعين صراحة :

ويسوع كان طاهر الشعور ، ولم يؤمن.

فى أعماقه إلا بالله الواحد الأحد .

ومن جعل منه إلهاً ،

فقد أساء إليه ، وخالف إرادته المقدسة .

وهكذا ، فإن الحق

هو ما نادى به محمد

فبفكرة الله الواحد الأحد ، ساد الدنيا بأسرها"

وبعد ، فلعل ما سقناه من أمثلة وشواهد يوضح تأثر جوتة بالإسلام والقرآن ، والواقع أن القارئ للديوان الشرقى لجوتة يكاد يخرج برأى قاطع على أن جوتة كان يؤمن بالقرآن الكريم ، كما يؤمن المسلم الورع ، ويظهر هذا الإيمان وهذا الورع على درجات متماثلة لدى الشاعر سواء فى شعره أو تعليقاته على الديوان الشرقى ، وكان من الممكن جداً أن نتهم جوتة بأن آراءه ما هى إلا آراء شاعر حين تظهر فى القصائد ، فالشعر قد يجرى على لسان الإنسان ، فيقول ما لا يؤمن به ، ولكن ما قاله جوتة فى تعليقاته على الديوان الشرقى يصور خلاصة فكر جاد مسئول ، يكتب ليبلغ القارئ برأى علمى راسخ ، فهو يتكلم عن أسلوب القرآن فى التعليقات فيقول :

(وأسلوب القرآن يتفق مع مضمونه وغرضه ، محكم ، سام ، كثير الدهشة ، وفى مواضع عديدة يبلغ قمة السمو حقاً ، ولهذا ينبغى ألا يندهش أحد من التأثير الهائل الذى لهذا الكتاب) .

ويرى جوتة أن هدف القرآن إنما هو توحيد البشرية ولم شعث الأديان الأخرى ، ولذلك فهو يقول : «وكان على القرآن أن يوحدهم جميعاً فى معرفة وعبادة الله الواحد الأحد الصمد الذى لا تراه الأبصار ، والذى خلق كل شىء بقدرته البالغة ، ويمكن أن يخلق ما لم يوجد بعد الله الحاكم العلى ، الذى يفصل بين الناس رب الأرباب» .

وكانت وفاة جوتة فى عام ١٨٣٢م ، بعد أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره ، ولا شك أن شاعر الألمان الأكبر جوتة يتربع على إحدى القمم الكبرى فى الأدب الغربى بجوار هوميروس ودانتى وشكسبير ، وهو ليس مجرد شاعر وروائى ومسرحى ومفكر وعالم طبيعى فحسب ، إنما هو ظاهرة إنسانية كبرى ، استحقت عن جدارة أن يطلق اسمها على عصر أدبى كامل هو "عصر جوتة" .

أهم المصادر والمراجع:

١– القرآن الكريم.

٢– كاتارينا مومزن : جوتة والعالم العربى ، ترجمة : د. عدنان عباس على ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٥م.

٣– جوتة : الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م

مختارات شعرية

للشاعر الكبير
عمر بهاء الدين الأميرى

(١)
قرآن

أنزلت يا ربى كتاب الهدى
في رمضان الخير فرقانا

أنار دنيا الخلق حتى إذا
ما هجروه كان ما كانا

واليوم قدْرت وجودى وقد
ران على الأيام ما رانا

وها أنا فى رمضان به
يفيض قلب الكون بهتانا

فأنزلنْ ربى علىَّ الهدى
من نور قرآنك قرآنا

كراتشى ١٠ رمضان سنة ١٣٧١هـ

(٢)
ليلة القدر

يا رؤى الإشراق فى الليل المنير
يا شذا الرضوان فى الخلد النضير

هل لنفسى أمل فى نفحة
من فيوض الله إن لجَّ مسيرى

هذى روحى حامت ولهْا
وتسامت فوق أجواء الأثير

تبتغى من ليلة القدر سنا
ليتها تنعمْ منها بعبير

بغداد ٢٧ رمضان لسنة ١٣٧١هـ

(٣)
فى العشر الأواخر

حذار يا شيطان جسمى حذار
فهذه أيام شد الإزار

يدنو بها المذنب من ربه
فى غمرةٍ من خشيةٍ وأذكار

يعتزم التوبة من ذنبه
مستغفراً فى ذلة وانكسار

يذكر باللوعة آثامه
مؤملاً بالعفو، والدمع جار

وتوبة القلب طهور الفتى
وفى رحاب الله للحر دار

حلب ٢٦ رمضان سنة ١٣٧٥هـ

القرآن

للأستاذ / شبلى شميل

دع من محمد فى سُدى قرآنه
ما قد نحاهُ للحمة الغايات

إنى وإن أكُ قد كفرتُ بدينه
هل أكفرنَّ بمحكم الآيات

أو ما حوتْ فى ناصع الألفاظ من
حكم روادع للهوى وعظات

وشرائع لو أنهم عقلوا بها
ما قيدوا العمران بالعادات

نعم المدبر والحكيم وإنه
ربُّ الفصاحة مصطفى الكلمات

رجل الحجا رجل السياسة والدها
بطلٌ حليف النصر فى الغارات

ببلاغة القرآن خلب النهى
وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الأبطال فى كل الورى
من سابق أو لاحق أو آتى

***

مكتبة الأزهر



إعداد: ا. محمد شعبان

تسعى "الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

يبحر الدكتور محمد عمارة بكتابه "حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم" فى مختلف فروع العلوم الإسلامية قديما وحديثا، عبر مناقشة لغوية وشرعية وكلامية حول حقيقة وطبيعة النسخ فى القرآن الكريم. الكتاب الصادر عن دار السلام ينقسم إلى جزءين؛ الأول: دراسة تفصيلية حول المعنى اللغوى والاصطلاحي للنسخ عند الصحابة وعلماء التفسير والأصول، ثم يأتي الجزء الثاني ليقدم النصوص التوثيقية للعديد من العلماء قديما حديثا، فى مقدمة الكتاب يوجز المؤلف الموقف من النسخ عبر عشر اقتباسات للإمام الشافعي وأبوحامد الغزالي والجصاص والزركشي والشاطبي وابن حزم والقرافي وابن القيم والنيسابوري والاتقاني الحنفي، وتلخص هذه النصوص الموقف الذى اتفق حوله جمهرة علماء الإسلام من إن النسخ لا يعني محو آيات قرآنية ورفعها، كما هو شائع لدى البعض، بل يعني بنص كلام الشافعي "تأخير إنزال الحكم على المكلف فهو من قبيل بيان الأحكام لا من قبيل إلغاء النصوص وإزالتها".



يقدم كتاب "تاريخ القرآن" الصادر عن دار الاعتصام للدكتور عبد الصبور شاهين - رحمه الله - عرضا موثقا لتاريخ القرآن الكريم منذ نزول الوحي وحتى وفاة الرسول ﷺ مع عناية خاصة بنقد مذاهب المستشرقين والملاحدين التى تشكك فى النص القرآنى وحفظه، كما يستعرض المؤلف قضية الأحرف السبعة ومعنى "المكي" و"المدني" و"إعجاز القرآن" و"القراءات" و"أسباب النزول" و"أحكام التلاوة"، ويخصص المؤلف الفصل الثاني لمعالجة قضية النص القرآنى بين التسجيل والمشافهة ودور كتاب الوحي، ثم يعرج الكتاب فى فصله الثالث لمشكلة الخط الذى كتب به الوحى فى عهد النبى ﷺ، كما يطالع القارئ مناقشة لموضوع المصاحف المنسوبة للصحابة والتابعين.



يفند السيد أحمد أبو سيف فى كتابه "دفاع عن القرآن والرد على مدعى التحريف" الصادر عن مكتبة الإيمان ومكتبة جزيرة الورد الشبهات التى أثيرت وتثار حول القرآن الكريم منذ القديم وحتى يومنا هذا، ويقارن المؤلف بين حفظ القرآن والتحريف فى الكتب السابقة "التوراة والإنجيل"، عارضا لنماذج من التحريف فى إنجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا. يتوقف الكتاب كذلك عند مزاعم بعض غلاة الشيعة تحريف القرآن ناقدا وناقضا لهذه الروايات، كذلك يرد المؤلف عما أثير بوجود أخطاء لغوية فى القرآن وعدم تناسب بعض آى القرآن مقدما التوجيه اللغوى والبلاغى الدقيق لهذه الادعاءات، كما يكشف الكتاب عن مزاعم تناقض القرآن مع بعضه البعض مبينا أنها مجرد أوهام.

يكشف الراحل الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية عن علاقة اللهجات ولغات العرب بالقرآن الكريم من خلال كتابه "الكلمات الحسان فى الحروف السبعة وجمع القرآن" الصادر عن دار البصائر وقرأه، وعلق عليه الدكتور محمد توفيق النحاس والمعنى الذى يرجحه المؤلف "للحروف السبع" هو الوجوه المختلفة للنطق بألفاظ القرآن من خلال عرض واستعراض للنصوص وآراء العلماء، ويشدد المؤلف على أنه لا علاقة بين القراءات السبع والأحرف السبع التى يتحدث عنها الحديث، كما يخصص المؤلف فصلاً للرد على من قال إن مصحف عثمان كتب بلغة قريش مفندا ذلك بالأدلة.



يقدم الدكتور عبد العلى المسئول فى كتابه "معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية" الصادر عن دار السلام تعريفا شافيا لـ ٧٨٣ مصطلحا فى علوم القرآن وما يتعلق بها من أمثلة ورسم وضبط وعد للتوضيح والتقريب، ويشير المؤلف إلى اعتماده على عدد من المعاجم الاصطلاحية فى هذا الفن مثل "التعريفات" للجرجاني و"كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوى وغيرهما من المعاجم معتمداً على التبسيط والبعد عن الغموض، يبدأ الكتاب بمدخل عام لمعنى المصطلح عند القرائين وما يرتبط بهذه المصطلحات من علاقات دلالية متنوعة كالتباين والترادف والاشتراك، ثم يعرض الكتاب للمصطلحات وفق ترتيبها الأبجدى.

المقصد التربوى للصيام في الجانب الجسدى للفرد المسلم

للأستاذ الدكتور: صلاح سلطان

لعل الصيام من أكثر العبادات التى تتوجه آثارها إلى الجوانب الروحية والخلقية والبدنية فى آن واحد، وتتضح آثاره على الجانب البدنى مما يلى:

أولاً: يبدأ الصيام بسُنَّة مستحبة هى السحور، ومن السُّنَّة تأخير السحور إلى ما قبل الفجر قدر خمسين آية كما جاء فى صحيح البخارى ومسلم فى حديث زيد بن ثابت[١]، وروى مسلم وابن ماجة بسندهما عن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال: «تسحروا فإن فى السحور بركة»[٢]، وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله (ﷺ) قال: «السحور أكله بركة، فلا تدعوه، ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»[٣]، وروى أبو داود بسنده عن العرباض بن سارية قال: دعانى رسول الله (ﷺ) إلى السحور فى رمضان فقال: «هلُمَّ إلى الغداء المبارك»[٤].

هذه النصوص تحشد المسلم لإصلاح جسده طوال يوم الصيام بتناول وجبة السحور ولو أن يجرع جرعة ماء لشدة حاجة الجسم إليها، ويزداد حرص المسلم على هذه الوجبة رغبة فى صلاة الله وملائكته عليه، وأن ينال طعمة من الغداء المبارك، كل هذا

(١) «صحيح البخارى»، كتاب الصوم، باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر رقم «١٩٢١»، و«صحيح مسلم»، كتاب الصيام، باب فضل السحور (١/٤٤٣).
(٢) «صحيح مسلم»، كتاب الصيام، باب فضل السحور (١/٤٤٣)، و«سنن ابن ماجه»، كتاب الصوم، باب ما جاء فى السحور رقم (١٦٩٢).
(٣) «المسند» (٣/٣٢).
(٤) «سنن أبى داود»، كتاب الصيام، باب من سمى السحور الغداء المبارك رقم (٢٣٤٤).

من أجل عدم الإرهاق الجسدى من الصيام دون تسحر، مما قد يصيب الجسد بالإعياء الشديد، وهو أمر منافٍ لأهداف الصيام.

ثانيًا: تظهر أهمية العناية بالجسد فى سُنَّة أخرى من مستحبات الصيام وهى تعجيل الفطر، لما رواه البخارى ومسلم بسندهما عن سهل بن سعد أن رسول الله (ﷺ) قال: «لايزال الناسُ بخير ما عجلوا الفطر»[٥]، وهذا يقلل من المدة الزمنية للصوم، فما دام الصيام من الفجر إلى المغرب فليكن آخر عهده بالفجر هو السحور وأول عهده بالمغرب هو الإفطار، والمسنون أن يفطر على تمر وماء ليس غيره؛ لحاجة الجسم إلى مادة سكرية، وإلى ماء يرطب جسمه ويعيد إليه حيويته.

ولعل علماءنا عندما اجتهدوا فى صيام المسلمين الذين يطول عندهم النهار حتى ليكاد يصل إلى عشرين أو اثنين وعشرين ساعة، ومنهم من يظل النهار عندهم أيامًا وشهورًا لا يأتيهم الليل فى بعض البلاد القطبية إلا أربعة شهور، هذا جعل العلماء يقربون الأمور باجتهادهم إلى أقرب البلاد المعتدلة بجوارهم فيصومون وفق مواعيد فجرهم ومغربهم، أما البلاد التى لا يأتيها الليل، فيقدرون من النهار اثنتى عشرة ساعة أو أكثر قليلاً ويصومون[٦]، وكل ذلك راجع إلى التيسير ورفع الحرج عن الإنسان أن يرهق جسده إرهاقًا يذهب بنضارته ونشاطه.

ثالثًا: يؤكد ما سبق أيضًا النهى عن صيام الدهر، وهو من يتابع صيام الأيام وراء بعضها مع فطره وسحوره، ولكن هذا التوالى والتتابع الذى فعله عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره فنهاهم النبى (ﷺ) وكانت العلة كما جاء فى صحيح البخارى: «إنك إن فعلت ذلك هجمت له العين، ونفهت له النفس، لا صام من صام الدهر»[٧]، وهجوم العين أى دخولها إلى داخل الوجه وذلك يعبر عن حالة ضعف حادة فى الجسم كله، وفى الإبصار خاصة، أما نفهت له النفس أى ضعف القلب، وأعييت وكلّت، ونفه الحيوان ذل بعد عتو[٨]، وهذا دليل قطعى على حرص الإسلام على قوام الجسم، وقوته، وقد كان النبى (ﷺ) يلاحظ قوة أجساد أصحابه أو ذبولهم فعندما رأى رجلاً أنكره، فقال: يا رسول الله أنا الرجل الذى أتيتك عام الأول، قال: فما لى أرى جسمك ناحلاً؟ قال: يا رسول الله ما أكلت طعامًا بالنهار، ما أكلته إلا بالليل، فقال: (ﷺ): «مَن أمرك أنْ تعذب نفسك»[٩]، فالرجل لقى النبى (ﷺ)، وذهب مبالغًا فى التعبد، ولم يفطر يومًا واحدًا عامًا كاملاً فذبل جسمه ونحل بدنه، فأنكره النبى (ﷺ) واعتبر ذلك

(٥) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، كتاب الصيام، باب فضل السحور رقم (٦٦٧).
(٦) «الصيام محدثاته وحوادثه»، د. محمد عقلة ص (٣٤٦ ـ ٣٥٧).
(٧) «صحيح البخارى»، كتاب الصوم، باب صوم داود عليه السلام (١٩٧٩).
(٨) «المعجم الوسيط»، مجمع اللغة العربية، باب النون ثم الفاء ثم الهاء.
(٩) «سنن ابن ماجة»، كتاب الصوم، باب صيام أشهر الحرم رقم (١٧٤١).

تعذيبًا للنفس، خارجًا عن دائرة التعبد؛ لأن هذا غير مقصود في الإسلام بل القصد أن يكون الصيام سببًا في زيادة القوة والفتوة، وفي إحدى روايات حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن سيدنا داود كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفرّ إذا لاقى[10]، أي في الحرب شجاع مقْدام لم ينهكه الصيام ويحوله إلى راهب في صومعة، بل مقاتل في الميدان.

رابعًا: جمع د. فيحان المطيري الأعذار المبيحة للفطر في هؤلاء[11]:

المسافر، المريض، الصغير، من زال عقله، العاجز لكبر سنه، الفطر لإنقاذ معصوم، من غلبه الجوع والعطش، من أكره على الإفطار، الحامل، والمرضع، الحائض، والنفساء.

وزاد ابن القيم الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى؛ لأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر، واستند إلى أن سيدنا عمر رخص في الإفطار عند لقاء العدو[12].. هذه الأعذار كلها تصبُّ في هدف واحد هو الحفاظ على الجسد قويًا لا تُنهكه مشقة السفر أو آلام الداء وآثار الدواء، أو الصغير الذي لم يكمل نضجه، ويحتاج إلى طعام مستمر لبناء هيكله، والكبير الذي فنيت قدرته على الصبر والمجاهدة، ومن رأى معصومًا تهدم فوقه جدار أو منزل، ولا يستطيع إنقاذه إلا بأن يفطر ليدفع عنه الأنقاض أو من اشتد به الجوع والعطش إلى حد يكاد يغشى عليه، أو من خشي من تعرض جسمه أو نفسه لضرر بالغ إن لم يفطر كمن يسجن عند أهل الحرب أو ذوي البطش والطغيان فيكرهونه بالإيذاء البدني إذا لم يفطر، أو الحامل المرضع التي تذهب عصارتها، وخلاصة طعامها وشرابها لجنينها أو وليدها أو الحائض والنفساء التي تكون على درجة عالية من الإعياء الذي اتفق عليه جميع الأطباء.

هذه الحالات كلها مرجعها الأساسي إلى حفظ الجسم، وصون البدن عن كل ما يجهده وينهكه، وهو من أوسع أبواب التيسير في فقهنا الإسلامي.

خامسًا: من آداب الصيام عند الجمهور الإفطار على تمر وماء، ويرى ابن حزم أن الإفطار يجب أن يكون على التمر أو الرطب قبل الماء إذا وجدا معًا، وإذا وجد الماء فقط أفطر عيه قبل أي طعام وجوبًا، ويبدو لي صحة رأي الجمهور أنه سُنة وليس واجبًا كما يرى ابن حزم[13]، ومع ذلك فنحن نجد في الالتزام بذلك مزيد عناية بالجسد؛ لأن الصيام يؤدي إلى قلة السكر في الدم، وهذا قد يؤثر على الجسم كله وعلى العينين خاصة، وبالتالي فإن أكل التمر يؤدي إلى سرعة وصول نسبة جيدة من السكر إلى الدم فتعود للصائم عافيته كلها أحسن مما كانت، فإن أكل شيئًا غيره أخذ وقتًا طويلًا

(١٠) «صحيح البخاري»، كتاب الصوم، باب صوم داود عليه السلام رقم (١٩٧٩).

(١١) «الصوم والإفطار لأصحاب الأعذار»، راجع فصول الكتاب الأربعة الأولى.

(١٢) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٣٢ ـ ٣٣٣).

(١٣) «المحلى» لابن حزم (٦/ ٣٦) المسألة رقم (٨٠٦).

حتى يتحول جزء من البروتينات والنشويات إلى مواد سكرية بعد عملية هضم طويلة ربما تضاعف إحساس الإنسان بالضعف، أما التمر والماء فيعيدان الجسم سريعًا إلى كامل نشاطه[14].

سادسًا: هذه النصوص الشرعية والأحكام الفقهية، أثارت الباحثين من مسلمين وغيرهم فإذا بالعلوم الطبية وغيرها تؤكد أن في الصيام فوائد صحية مباشرة للجسم منها ما يلي:

أ ـ الصوم يساعد الجسم على التخلص من كل الخلايا الضعيفة أو الميتة والسموم المتراكمة من الأغذية والأدوية، وفي هذا ألّف «ماك فادت» (من كبار علماء الصحة في أمريكا) كتابًا بعنوان «كتاب الصيام»، يرى فيه أن الصوم نافع للجسم حيث يصفّيه من رواسب السموم التي توجد في الأغذية والأدوية.. وأن كل إنسان يحتاج إلى الطعام ولو لم يكن مريضًا؛ لأن سموم الأغذية والأدوية تجتمع في الجسم فتجعله كالمريض، وتثقله ويقل نشاطه، فإن صام خفّ وزنه، وتحللت هذه السموم ويسترد عافيته بعد عشرين يومًا[15].

لذا يقول الشيخ محمد رشيد رضا: من فوائد الصيام الصحية أنه يفنت المواد الراسبة في البدن ولاسيما أبدان المترفين أولي النهم، وقليلي العمل، ويجفف الرطوبات الضارة، ويطهر الأمعاء من فساد السموم التي تحدثها البطن، ويُذيب الشحم أو يحول دون كثرته في الجوف، وهو شديد الخطر على القلب، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوة على الكر والفر، قال (ﷺ): «صوموا تصحوا»[16]، رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة، وأشار في «الجامع الصغير» إلى حسنه، وقال بعض أطباء الإفرنج: إن شهر واحد في السنة يذهب بالفضلات الميتة في البدن مدة سنة[17].

ب ـ يُفصل الدكتور محمد علي البار عملية الإذابة للمواد الفاسدة في الجسم بأن هناك ثلاث مراحل تحدث للطعام:

الأولى: هي أخذ الطعام وهضمه وتحويله إلى طاقة ينتفع بها، ويشترك فيها الجهاز الهضمي والكبد، وتوزع على الجسم بنظام دقيق حسب حاجة كل خلية فيه.

الثانية: تحويل الفائض من هذه الطاقة على هيئة جلوكوز أو أحماض دهنية إلى مستودعات الطاقة التي تترسب في الجسم بين الأعطاف والعجز والأرداف والبطن، ويقوم به الكبد وهرمون الأنسولين الذي يفرزه البنكرياس، وإذا كان الفائض من الجليكوجين يختزن في الكبد والعضلات.

الثالثة: عند عدم وجود الطعام تقوم الغدة الكظرية والدرقية والبنكرياس والغدة

(١٤) «الطب الوقائي في الإسلام» للفنجري ص(٦٦).

(١٥) «الصيام في الإسلام» محمد محمود الصواف ص (٢٥ ، ٢٦).

(١٦) «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» الشيخ إسماعيل العجلوني رقم (١٥٠٥) (٣٩/٦) ونسبه إلى الإمام أحمد إلى أبي هريرة مرفوعًا، ولما رجعت إلى المسند (٢/ ٣٨٠) وجدت نص حديث أبي هريرة «سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا».

(١٧) «تفسير المنار» محمد رشيد رضا (١٩٩/١) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

النخامية بتحويل الجليوكين والدهون إلى سكر جلوكوز وأحماض دهنية مفيدة للجسم(١٨).

ويقول الدكتور أحمد شوقي الفنجري: إن الجسم في حالة الصوم يبدأ باستهلاك المواد الغذائية المخزونة فيه، فإذا نفدت يبدأ في استهلاك أو إحراق أنسجته الداخلية، وأول الأعضاء التي يتغذى عليها الجسم هي الأعضاء المريضة بأي مرض فهذه أول ما يتأكسد من أنسجة الجسم، وتحترق ويتخلص الجسم منها، فالصوم يقوم مقام الجراح الذي يزيل الخلايا التالفة أو الضعيفة من كل عضو مريض فيقيه من الزيادات مثل الحصوة، والرواسب الكلسية واللحمية وأنواع البروز والأكياس الدهنية والأورام الخبيثة، وقد لوحظ بالأشعة أن جميع هذه الزوائد يصغر حجمها أثناء فترة الصوم(١٩).

جـ ـ الصيام فرصة للمعدة والأمعاء أن تهدأ حركاتها وإفرازاتها وهذا يعطي فرصة لعلاج القروح والجروح بالأغشية المخاطية، ويتوقف الامتصاص من الأمعاء، فلا تصل إلى الكبد أحماض أمينية أو جلوكوز أو أملاح، فلا تكون خلايا الكبد مركبات الجيلكوجين أو البروتينات أو الكلسترول؛ لعدم وصول مكوناتها فتتخلص هذه الخلايا مما يكون قد ترسب في داخلها من دهنيات(٢٠).

د ـ الصوم أكبر وسيلة فعالة وبسيطة لعلاج السمنة وأمراضها وقد عد منها د. محمد علي البار أمراض جلطات القلب وموت الفجأة وبول السكري، وضغط الدم، والتهاب المرارة وحصاتها، والتهاب المفاصل، وصعوبات الجهاز التنفسي، وزيادة المضاعفات للعمليات الجراحية وزيادة حالات السرطان(٢١)، وأمراض النقرس وسرطان القولون والمستقيم والبروستاتا للرجال، وسرطان الرحم والثدي للنساء وسرطان المرارة(٢٢).. وقد نقل عن مراكز أبحاث طبية عالمية بعض نسب الوفيات في ذوي السمنة إضافة إلى غيرهم وكانت كالتالي:

١ ـ في جميع الأعمار تزيد وفيات ذوي السمنة ٥٠٪ مقارنة مع ذوي الوزن الطبيعي.

٢ ـ في سن ٢٠ ـ ٢٩ تزيد ٨٠٪.

٣ ـ في سن ٣٠ ـ ٣١ تزيد ٦٩٪.

٤ ـ في سن ٤٠ ـ ٤٩ تزيد ٥٢٪.

٥ ـ في سن ٥٠ ـ ٦٤ تزيد ٣٢٪.

أما الأمراض التي تسببها فالأمر أشد خطورة، عندما نجد مرض البول السكري يزيد نسبة الوفيات بذوي السمنة بنسبة ٣٨٣٪ للنساء و٣٧٢٪ للرجال، وتليف

(١٨) «الصوم وأمراض السمنة» ص (١١ ، ١٢).

(١٩) «الطب الوقائي في الإسلام» ص [٦٣ ، ٦٤].

(٢٠) «الإعجاز العلمي في الإسلام» ص (٣٧).

(٢١) «الصوم وأمراض السمنة» ص (٣٢).

(٢٢) نفسه ص (٥٥).

الكبد تزيد نسبة الوفيات ٢٤٩٪ للنساء و١٤٧٪ للرجال، وأمراض القلب ١٤٩٪ للنساء و١٧٧٪ للرجال، وهكذا(٢٣).

ولأثر الصوم الفعال في السمنة وتوابعها تعالج أشهر مصحة في العالم للدكتور «هنريج لاهمان» في سكوتيا عن طريق الصوم، وتبعها وتبعتها مصحات أخرى على غرارها.. ويقول الدكتور «روبرت بارتولو»: لا شك في أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكروبات، ومن بينها ميكروب الزهري لما يتضمنه من إتلاف للخلايا، وإعادة بنائها من جديد، ويرى د. «بيلر سرتير» أن صوم شهر واحد في السنة هو أساس الحياة وأساس الشباب، ويؤكد ذلك البروفيسور «نيكولايف ونيلوف» في كتابه «الجوع من أجل الصحة» بأن المواطن الذي يريد أن يتمتع بصحة جيدة، يجب عليه أن يخلص الجسم من النفايات والمواد السامة بأن يقوم بصفة دورية بجوع تام لمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع ولا تزيد عن أربعة(٢٤).

هـ ـ في الصوم حماية من مرض السكر الذي ينتج عن زيادة كميات الطعام على كمية الأنسولين الذي يفرزه البنكرياس ليحول الزيادة من السكر إلى مواد دهنية ونشوية تخزن في الأنسجة وعند عجز البنكرياس عن مواجهة الكمية الكبيرة يتحول السكر إلى الدم مباشرة ليكون منه مرض السكر، والحل العملي هو الصوم المتكرر الذي يقلل كمية السكر في الدم ويعطي البنكرياس راحة حتى يستطيع الاستمرار في نشاطه.

ز ـ الصيام يقي المعدة والأمعاء من أمراض الالتهاب المزمن، حيث يرمم الخلايا الملتهبة خلال فترة خلوها من الطعام، ويخفف سوائلها المخاطية، وبهذا يتخلص من كثرة التجشؤ أو أمراض القولون، أو الغازات والروائح الكريهة، وسوء الهضم والتخمر في المعدة والأمعاء.

جـ ـ يعالج الصوم الأمراض الجلدية نظراً لراحة الجهاز الهضمي، وعدم دخول أطعمة تؤدي إلى الحساسية والحكة، كما يقل إفراز السموم والتخمر الذي يطرأ بسبب الدمامل في الجلد، وعدم شرب الماء يؤدي إلى جفاف نسبي في الجلد يزيد من مناعته ومقاومته للميكروبات، ويخفف أمراض الحساسية وأمراض البشرة الدهنية.

ط ـ يقي الصوم المسلم من داء النقرس الناتج من كثرة أكل اللحوم، مما يؤدي إلى زيادة أملاح البول في الدم ثم ترسب في العضلات فتسبب آلاما تشبه الروماتيزم، أو ترسب في الكلى فتسبب الحصوة، أو ترسب في المفاصل الصغيرة فتسبب تورمها، ولا علاج مثل الحمية عن الطعام ومن خلال الصيام.

(٢٣) «الصوم وأمراض السمنة» ص [٤٠ ، ٤١].

(٢٤) «الإعجاز العلمي في الإسلام» محمد كامل عبدالصمد (٢٦ ـ ٢٩)، «الرياضة والحضارة الإسلامية» الشيخ أمين الخولي ص (٧٦ ـ ٧٧).

عطاء يتجدد ولا ينفد

فضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

قيمة الشهر الكريم فى أن عطاياه تتجدد ولا تنفد فلو أنصف الناس الحق من أنفسهم وعرفوا الأمور على وجهها الحق لعلموا أن انتهاء رمضان فى حساب الفلك أمر لا مرية فيه، وهو كسائر الشهور من حيث إنه يتراوح بين التسعة والعشرين والثلاثين يوماً نصومها لرؤية هلاله، ونفطر بعدها لرؤية هلال شوال الذى يليه، ثم لايكون شوال مُنهياً رمضان فى معطياته وهداياته، ولكنه يجيء والشهور التى تعقبه مرآة يتراءى فيها رمضان بسلوكنا الربانى، وفعالنا التى نلحظ فيها قول القائل:

إذا ما المرء صام عن الدنايا
فكل شهوره شهر الصيام

إن العبادات فى الإسلام ـ والصوم واحد من تلك العبادات ـ ليست شكلاً فحسب، ولكنها مع ذلك روح وانفعال وتأثر يدنينا من رحاب القدس، ويجعلنا من عباد الله حقاً.. ومرة أخرى، فالرسول «صلوات الله عليه» يقول: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من قيام إلا السهر». (رواه ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة).

ورحم الله أستاذنا الشيخ «على محفوظ» فقد كان يحدثنا عن الحج الذى لم يستتبع فى بعض الناس أثره ولم يحصلوا ثمره ويضرب لنا من واقع الناس الأمثال، وكم كان يتمثل بقول القائل:

حججت البيت ليتك لم تحج
ذهبت ومعك زنبيل الخطايا
وعدت ومعك زنبيل وخُرج

والذين يصومون وهم يعرخون ويجرحون حرمة هذا الشهر، هم بسبيل من أولئك الذين فاتهم الأجر، وعلى غرارهم الذين لم يرتفعوا بالصلاة إلى المستوى الذى تنهاهم بأثرها فيهم عن الفحشاء والمنكر، الذين وسع الإله عليهم فأغناهم وحرم من سواهم ولم تخفق قلوبهم، ولم تخفق أقشدتهم يوماً بنبضة حنان أوخفقة إحسان على إنسان.

وقد أسلفت أنهم سألوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ما ينبغى أن ننسى أن رمضان قد رد الله به إلينا إنسانيتنا التى استحوذت

عليها أنانيتنا، وعبادتنا لذواتنا، ونحن لا نتبع أنفسنا هواها ولكننا نجعل هواها فى هدى الله، فالنبى «ﷺ» يقول: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» (رواه ابن ماجة عن شداد بن أوس).

ويقول: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (رواه مسلم عن أنس).

والشاعر الجاهلى يقول:

(إن الأمانى والأحلام تضليل)

والفيصل فى هذا السياق قول الله تعالى:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

(النساء: ١٢٣، ١٢٤)

ومن كلام الحجاج بن يوسف الثقفى: «إن امرءاً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ولم يستغفر من ذنبه أويفكر فى معاده لجدير أن تطول حسراته يوم القيامة»

ويا حسرة على العباد كم تغلبهم الغفلة وينصرفون بآرائهم وشهواتهم عن الله وذكره وهو أنيس من يذكره ووليه وحافظه وهو يقول:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(البقرة ٢٥٧)

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

(الأعراف: ١٩٦)

وفى الحديث القدسى: «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه».

وفى الحديث الذى يرفعه معاذ بن جبل: ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عزوجل فيها.

وقد أخرج الإمام البخارى فى صحيحه: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت» والنبى «صلوات الله عليه» كما تقول أم المؤمنين عائشة: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»

ويذكر الحديث القدسى بسنده: «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه» أى: قرينه وصاحبه.

أورد صاحب الظلال «يرحمه الله» قول الحسن البصرى: «إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ماأردت بكلمتى؟ ما أردت بأكلتى؟ ما أردت بحديث نفسى؟ وإن الفاجر يمضى قدماً مايعاتب نفسه».

تلك هى النفس اللوامة التى أقسم بها الله تعالى، وهى لا ريب ثمرة رحلة الإيمان بالله، يعصم الله بها عن التردى فى مساخط الله أو الخوض فى قول أوعمل حتى يتبين رشده، ومن كلمات

الإمام الغزالي في كتابه «معارج القدس في مدارج النفس»: «إن النفس اللوامة حالة أكثر الناس. فهم بها في عراك مستمر موصول بينها وبين أشواق الإنسان ونزغات الشيطان والأهواء الملحة، تنتصر هذه مرة، وتنتصر تلك أخرى، ولا يتخلى الله عمن غلبت عليه إرادة هذه النفس وسلطانها.

- ولا أظنك تسألني: أين نحن من الصوم؟ وما كان الصوم إلا مدرجة التقوى التي لم تبعد عنها بهذا الحديث المسترسل.

وذكر الله يعني حبه وخشيته والمسارعة في موجبات رضاه، وما عرف الله قيد شعرة ولا مثقال ذرة من لم يطع ربه، ولم يستعظم ذنبه، ولا انتهى من الخلاف عن أمر الله في جانب من جوانب الحياة إلى ضرب آخر من الخلاف عن أمره «تبارك وتعالى»، وربه مع كل ذلك يناديه إليه في خطابه لمصطفاه «صلوات الله عليه»:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

(الحجر ٤٩، ٥٠)

وأين الخلف من السلف؟ هذا عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - يقول لابنه: «يا بني ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن تعقل عن الله ثم تطيعه». فماذا نقول لأنفسنا وماذا نقول لأبنائنا؟

وكان غازي بن العمار - كما قال الأهدل في مخطوطه - ولي زبيد باليمن وعدن وكان فاضلاً ذا مروءة، يقرأ ويعظ الناس ويذكرهم بالله ولما توفي وجدوا تحت رأسه ورقة فيها:

وشيخ سوء له ذنوبٌ
تعجز عن حملها المطايا
قد بيضت شعره الليالي
وسودت قلبه الخطايا

إن عفو الله أكبر من ذنوبنا إذا نحن طلبناه بحق من دين الله الحق الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحب التوابين ولا يرد باب مغفرته دون المستغفرين وجل الله الذي يقول:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾

(طه ٨٢)

ولقد أذنب الإمام الزهري يوماً - وكم يذنب أقوام، وكأن شيئاً لم يكن، فلا يخشون جلال الله الذي أحاط بكل شيء علماً، ولا يرجون لأنفسهم بعض غفران الله - ، واستعظم الزهري ذنبه، ومضى هائماً على وجهه يقول:

ذنبي أكبر من السماء، ذنبي أكبر من الهواء، ذنبي أكبر من الماء، فبلغ ذلك أحد أبناء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فقال: لقد ارتكب الزهري ذنباً أعظم إذ ظن أن رحمة الله لا تتسع لغفران ذنبه!! قالوا: فلما بلغ الزهري هذا القول اطمأن قلبه وسكنت نفسه.. وقال:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

نصر الله للمسلمين

الشيخ/ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يقول الله - تعالى -:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

[النساء: ١٢٣، ١٢٤]

في القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد، وعلو الكلمة ونفوذ السلطان، وقهر أعداء المسلمين ودحرهم... وإذا تدبرنا هذه الآيات بفكر مستنير وفهم سليم نجدها لم تجعل هذا الوعد منحة ربانية تهبط على المسلمين من السماء بمجرد أن يقولوا: ربنا الله، أو بمجرد أن ترتفع حناجرهم بالدعاء قائلين: اللهم انصر المسلمين، أو بمجرد أنهم ينتسبون إلى دين الإسلام ويعلنون بألسنتهم أنهم يؤمنون بالقرآن وأن محمداً نبي الله ورسوله.

وإنما جعلت هذه الآيات الكريمة هذا الوعد متحقق الوقوع، ثابت التنفيذ لمن عرف واجب الإيمان بالله ورسوله في حق نفسه، وفي حق جماعته، وفي حق وطنه.. وقرن القول بالعمل، والأحكام بالسلوك، ثم أخلص في القيام بهذا الواجب، والتزم بهذا السلوك، فطهر نفسه وجنبها المعاصي، وعاون جماعته، واجتهد في رفعة شأن وطنه بما رسمه الله في كتابه، وبما حدده الرسول الأمين في أحاديثه.. وعندئذ يكون المسلم قد أوفى بعهده لله، فيوفي الله له بعهده، يقول الله - تعالى -:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

(البقرة: ٤٠)

العهد: ما من شأنه أن يراعى ويحفظ وأن يلتزم بتنفيذه، ويضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً، يقال: أوفيت بعهدي، أي: بما عاهدت غيري عليه، وأوفيت بعهدك، أي: بما عاهدتني عليه، وعهد الله: أوامره ونواهيه، وتشريعاته وأحكامه، والوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، أي: أوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي في كل ما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين في الأرض في الدنيا والسعادة في الآخرة، وخافوني في جميع ما تأتون وما تذرون.

ويؤكد الله ـ تعالى ـ حتمية تنفيذ وعد الله وتقريره في قوله ـ جل شأنه ـ:

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

[التوبة: ١١١]

أي: لا أحد أوفى بعهده من الله ـ تعالى ـ لأنه إذا كان خُلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق ـ مع إمكان صدوره منهم ـ فكيف يكون الحال من جانب الخالق ـ عز وجل ـ المنزه عن كل نقص، المتصف بكل كمال.

وعلى هذا الأساس جاءت الآيات الكريمة في القرآن الكريم التي تعد المؤمنين بالنصر والتأييد، يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

[الحج: ٤٠، ٤١]

فالله ـ سبحانه ـ يؤكد سُنّةً من سننه التي لا تتخلف في أي زمان أو مكان، وهي: نصر الله لمن ينصر الله، أي: لينصرن الله مَن ينصر دينه وأولياءه، لأنه ـ تعالى ـ هو القوي على كل فعل يريده، العزيز الذي لا يُغالبه غالب، ولا ينازعه منازع.. ثم بيّن ـ سبحانه ـ نصر الله كيف يكون؟ فوصف المؤمنين الذين ينصرون الله فوعدهم بنصره بأنهم هم المؤمنون الصادقون الذين إذا مكّن الله لهم في الأرض أقاموا الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص، وقدموا زكاة أموالهم في مصارفها الشرعية التي حددها الله، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر، ولله ـ تعالى ـ وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها في الآخرة، فيجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب وعقاب.

ومفاد ذلك أن مَن يتخلى عن طاعة الله، فلا يلتزم بأداء أوامر الله، ولا يتجنب نواهيه، ولا يطبق شرع الله على نفسه، فقد تخلى عن نصر الله فاستحق أن يتخلى الله عن نصره.. ولقد أكد ـ سبحانه ـ هذا المعنى في أكثر من آية في القرآن الكريم، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

[محمد: ٧]

أي: يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان، إن تنصروا الله بأن تستقيموا على أمره وعلى طاعته، وتتبعوا الرسول – عليه الصلاة والسلام – في كل ما أمركم به، أو نهاكم عنه، ينصركم الله على أعدائكم، ويثبت أقدامكم عند قتالكم أعداءكم، ويوفقكم إلى كل ما فيه الخير لكم في دنياكم وأخراكم.

ولقد نفى القرآن الكريم أن يتحقق النصر والإنعام من الله بمجرد التمني، أو بمجرد الانتماء إلى دين أو كتاب.. يقول الله ـ جل شأنه ـ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

[النساء: ١٢٣: ١٢٤]

تبين الآية الكريمة أن الوصول إلى رضوان الله وإلى تحقيق نصره وإلى الفوز برضاه وإسباغ نعمه لا يكون بالأماني والأوهام.. وإنما يكون بالإيمان والعمل الصالح وصِدق الأفعال مع الأقوال.. والأماني: جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه ويشتهيه من أشياء متنوعة: كحصوله على الخير الوفير في الدنيا من الصحة والمال والأولاد.. وعلى النصر على الأعداء في شتى المجالات.. وعلى الجنة في الآخرة.

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات متعددة.. والخطاب في الآية الكريمة يخاطب الناس جميعا، سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب وهو ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله ـ فقال: «والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كلّ من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه، ولا كلّ من قال إنه على الحق سُمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال ـ سبحانه ـ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله ـ سبحانه ـ واتباع ما شرعه على ألسنة رسله، ولهذا قال بعد ذلك: «من يعمل سوءا يجز به» كقوله:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[الزلزلة: ٧، ٨][1]

وأن مَنْ يعمل السوء سيجازى به ولا يجد وليًا يلي أمره ويحامي عنه، ولا نصيرا ينصره ويحاول إنجاءه من عقاب الله.

ثم بيّن ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين، أي: ومن يعمل من الأعمال الصالحات سواء أكان العامل ذكرا أم أنثى مادام متحليا بصفة الإيمان، ملتزما بأداء ما كلف به، فأولئك العاملون الأعمال الصالحة يدخلون الجنة جزاء عملهم، ولا ينقصون شيئا من ثواب عملهم، حتى ولو كان هذا الشيء نقيراً ـ وهو النقطة التي تكون في ظهر النواة ـ ويضرب بها المثل في القلة والحقارة.. لقد طلب الإسلام من المسلم أن يتغلغل الإيمان في قلبه، وأن يستكمن في فؤاده، وطبيعة الإيمان في تلك الحالة أنه يضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كله: فإذا عَبد الله كان مخلصا في عبادته، وإذا تكلم كان صادقًا واثقًا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخًا في أداء عمله، وإذا اتجه كان واضحًا في هدفه.. ومادام مطمئنا إلى الفكرة التي تملأ عقله، وإلى العاطفة التي تغمر قلبه، فقلما يعرف التردد سبيلا إلى نفسه، وقلما تزجره العواصف العاتية عن موقفه.. وذلك كله يجعله في الحياة رجل مبدأ متميز، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره، إن رآهم على الصواب تعاون معهم، وإن وجدهم مخطئين نأى بنفسه عنهم، واستوحى ضميره وحده.. ويوجهنا رسول الله ﷺ إلى تحقيق ذلك في حديثه الشريف: «لا يكن احدكم معة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت!!

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٥٧.

ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا اساءتهم» ، والمسلم في تلك الحالة يكون قد نصر الله فحقق الشرط المطلوب لنصر الله له.

لقد انتصر المسلمون الأوائل وهم قلة قليلة على أعدائهم وهم كثرة كثيرة، وعَزّوا وحققوا من المجد والرفعة ما جعلهم قادة وسادة، لأنهم لم ينشغلوا بالدنيا، ولم يفتتنوا بها، ولم يركنوا إليها، باعوا الدنيا واشتروا الآخرة، صدقوا ما عاهدوا الله عليه فصدقهم الله، وبذلك قام سلطانهم في وجه الهوى والشهوة، وكانوا إذا دعوا الله استجاب سبحانه لدعائهم، لأنهم حققوا شروط قبول الدعاء التي أعظمها: طهارة الباطن والظاهر وفعل الواجبات والبعد عن المحرمات، وأكل الحلال والبعد عن الحرام، تصديقا للحديث: «إذا أردت أن تستجاب دعوتك فأطب طعمتك» فإذا كان واقع الحال أن الذي يدعو ربه مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام.. فأني يستجاب لدعائه!! وكيف يتحقق له نصر الله وهو لم ينصر الله!!

يجب أن يكون المسلم شاعراً بقوة اليقين في شخصه، وروعة الإيمان في نفسه. فإن لم يستطع فرض ذلك على مَن حوله بقي كالطود الأشم، لم تجرفه الغمار السائدة، ولم تطوه اللجج الصاخبة، وماذا عسى أن يفعل الناس لا مرئ اعتز بإيمانه، واستشعر القوة لصلته بربه، واستقامته في دينه؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعا ما نالوا منه قليلا ولا كثيرا.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك، جفت الأقلام وطويت الصحف»

إن المسلمين اليوم للخروج من حالة الضعف والهوان التي يعانونها، ولإحداث تغيير في وضعهم الذي هم فيه في المجتمع الدولي.. كي يستردوا مكانتهم الضائعة، ومنزلتهم المسلوبة، في حاجة ملحة إلى أن يتبدل حالهم الذي يعيشونه.

وسُنّة الله في خلقه التي لا تتخلف أبدا اقتضت أنه -سبحانه- لا يُغيِّر ما بقوم من ضيق إلى فرج، ومن عسر إلى يسر، ومن ضعف إلى قوة، ومن ذل إلى عزة، ومن هزيمة إلى نصرة ومن نقمة إلى نعمة.. إلا إذا غيّروا ما بأنفسهم من معصية إلى طاعة، ومن فساد إلى صلاح، ومن ظلم إلى عدل.. يقول -جل شأنه-:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: «قال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قُل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا من أهل بيت يكونون على طاعة الله، فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون.. ثم قال: إن مصداق ذلك في كتاب الله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

[الرعد: ١١]

وعن عمير بن عبدالملك قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة فقال: كنت إذا سكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه -عز وجل- قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي».[٣]

أيها المسلمون: عودوا إلى دينكم، وطبقوا مبادئه وتعاليمه وأحكامه قولا وعملا، قفوا في وجه التفرق والتمزق والانحلال، وفي وجه الظلم والطغيان، وفي وجه المفاسد كلها التي عمت بلاد المسلمين فسرت الوهن إلى القلوب، فضعف الشعور بالمسئولية المشتركة، ونبتت بين المسلمين نابتة السوء فأفسدت عليهم تصورهم للحياة التي حددها ورسمها لهم القرآن الكريم.. واقتحمت حرمات مقدسة، وتوارت الفضيلة خلف حجب الرذيلة، ووجدت الرذيلة أتباعا وأنصارا يفسحون لها الطريق باسم الرأي وحريته، وما كانت الرذيلة في عهد ما برأي!!، وما كان الدفاع عنها في عهد ما بحرية!! ولكن هكذا قدر.. وإلى هذا صرنا.. وإلى تلك الحال وصلنا!!

أيها المسلمون: يظلنا الآن شهر رمضان، شهر الانتصارات والفتوحات، شهر الخير والبركات، شهر القنوت والتسابيح، شهر الدعاء والاستغفار.. فانتهزوا هذه الفرصة وعودوا إلى دينكم، وحققوا شروط قبول الدعاء، فطهروا القلوب من درنها، وابتعدوا عن أكل الحرام، وعن أكل مال اليتيم، وعن شرب الحرام، وعن الكذب وشهادة الزور، وعن النفاق والتزلف للحكام.. واجتهدوا في رضا الله وحده، ولا يهمكم سخط الناس، لأن الله -سبحانه- سيكفيكم سخط الناس ما دمتم أرضيتم الله، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه!! ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه من أسخطه في رضاه!! حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينيه»[٤] وفي تلك الحالة سيستجيب لدعائكم بطلب النصر على الأعداء.

أيها المسلمون: عودوا إلى الله وانصروه ينصركم الله:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

[محمد: ٧]

(٢) الترمذي.

(٣) - تفسير ابن كثير: مجلد ٤ ص ٣٦٣

(٤) الطبراني.

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

إفطار المريض

● هل يجوز لامرأة توفي زوجها إثر مرض طويل، ولم يكن قد قضى ١٧ يوما من رمضان كان قد أفطرها نظرا للمرض الذي لازمه إلي يوم وفاته، فزوجته لا تعرف إن كان قد صام هذه الأيام أم لا، فهي تقدمت في السن أيضا، ولا تتذكر وتخشى عليه، وهذه الزوجة تسأل: هل تقضي هي الأيام التي بقيت لزوجها من الصوم عنه أم تخرج عنها مقدارا من المال لتبرىء ذمته؟

●● الجواب: المقرر فقهيا أن من أفطر في شهر رمضان لعذر من الأعذار ثم مات قبل زوال هذا العذر سقط عنه القضاء، ولا يلزمه أن يوصي ورثته بإخراج فدية، ولو أوصاهم بإخراج فدية فهو من قبيل التصدق؛ لأن الطاعة علي قدر الطاقة، فإن زال عذره قبل موته بمقدار يسع قضاء ما فاته لزمه القضاء، ولا يسقط عنه بالموت؛ لأنه عاش بعد زوال العذر وقتا يسع أن يقضي فيه ما أفطره، قال تعالي:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

(البقرة: ١٨٤)

وعلي ذلك وفي واقعة السؤال:

إذا كان زوج المرأة المسئول عنها قد أفطر لعذر ولم يقض ما أفطره قبل موته، وجب عليها أن تخرج الفدية بأن تطعم عن كل يوم مسكينا؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه مكان كل يوم مسكينا» أخرجه الترمذي وابن ماجه.

وقال جمهور الفقهاء: لا يصام عن الميت مطلقا، ويطعم عنه وليه، ويؤيد ما ذهبوا إليه ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة»، وروي عبدالرزاق والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أنها



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

قالت: «لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم».

ومما ذكر يعلم الجواب.

والله سبحانه وتعالي أعلم

حكم صيام المرأة الحامل

● السؤال من: س. أ. ن: ما حكم صيام المرأة الحامل؟

●● الجواب: إذا كانت المرأة تستطيع الصيام مع وجود الحمل بغير ضرر يقع عليها أو علي جنينها فيجب عليها الصيام، أما إذا خافت علي نفسها من ضرر يلحقها أو يلحق جنينها بسبب الصيام فلها أن تفطر وتقضي بعد ذلك الأيام التي أفطرتها.

ومما ذكر يعلم الجواب

والله سبحانه وتعالي أعلم

صيام رمضان بلا صلاة

● السؤال من: ش. م. ح: ما الحكم فيمن صام رمضان ولكنه لا يصلي، هل ذلك يفسد صيامه ولا ينال عليه أجرا؟

●● الجواب: لا يجوز لمسلم ترك الصلاة، وقد اشتد وعيد الله تعالي ورسوله - ﷺ - لمن تركها وفرط في شأنها، حتي قال النبي - ﷺ -: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، ومعني «فقد كفر» في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي في معناه: أي أتي فعلا كبيرا وشابه الكفار في عدم صلاتهم، فإن الكبائر من شعب الكفر، كما أن الطاعات من شعب الإيمان، لا أنه قد خرج بذلك عن ملة الإسلام - عياذا بالله تعالي - فإن تارك الصلاة لا يكفر حتي يجحدها ويكذب بها، ولكنه مع ذلك مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

والمسلم مأمور بأداء كل عبادة شرعها الله تعالي من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها مما افترض الله عليه إن كان من أهل وجوبه، وعليه أن يلتزم بها جميعا كما قال الله تعالي:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾

(البقرة: ٢٠٨)

وجاء في تفسيرها: أي التزموا بكل شرائع الإسلام وعباداته، ولا يجوز له أن يتخير بينها ويؤدي بعضا ويترك بعضا فيقع بذلك في قوله تعالي:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾

(البقرة: ٨٥)

وكل عبادة من هذه العبادات المفروضة لها أركانها وشروطها الخاصة بها، ولا تعلق لهذه الأركان والشروط بأداء العبادات الأخرى، فإن أداها المسلم على الوجه الصحيح مع تركه لغيرها من العبادات فقد أجزأه ذلك وبرئت ذمته من جهتها، ولكنه يأثم لتركه أداء العبادات الأخرى، فمن صام وهو لا يصلي فصومه صحيح غير فاسد؛ لأنه لا يشترط لصحة الصوم إقامة الصلاة، ولكنه آثم شرعًا من جهة تركه للصلاة ومرتكب بذلك لكبيرة من كبائر الذنوب، ويجب عليه أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى.

أما مسألة الأجر فموكولة إلى الله تعالى، غير أن الصائم المصلي أرجى ثوابًا وأجرًا وقبولا ممن لا يصلي.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

يوم الشك

● السؤال من: ج.ج.ص: ما هو يوم الشك؟ ولماذا يحرم صومه؟

●● الجواب: هذه المسألة فيها ثلاثة أحاديث شريفة:

الأول: عن صلة بن زُفَر قال: «كنا عند عمار بن ياسر رضي الله عنه، فأتي بشاة مصلية فقال: كلوا، فتنحى بعض القوم فقال: إني صائم، فقال عمار: من صام اليوم الذي يشك فيه الناس فقد عصى أبا القاسم ﷺ» رواه أبوداود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمه وابن حبان والدارقطني والحاكم، قال الترمذي: «حديث عمار حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من التابعين، وبه يقول سفيان الثوري ومالك بن أنس وعبدالله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق؛ كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذي يشك فيه، ورأى أكثرهم إن صامه فكان من شهر رمضان أن يقضي يومًا مكانه» أهـ.

والثاني: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم» رواه الجماعة، قال الترمذي: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول شهر رمضان لمعنى رمضان، وإن كان رجل يصوم صومًا فوافق صيامه ذلك فلا بأس به عندهم» أهـ.

والثالث: حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له» متفق عليه.

وبناء على ذلك فقد اختلف العلماء في تحديد يوم الشك: فعند جمهور العلماء من الحنفية والشافعية: يوم الشك هو اليوم الثلاثون من شهر شعبان إذا تحدث الناس بالرؤية ولم تثبت، أو شهد بها من ردت شهادته لفسق ونحوه، فإن لم يتحدث بالرؤية أحد فليس يوم شك حتى لو كانت السماء مغيمة؛ وذلك عملا بظاهر قول

عمار بن ياسر رضي الله عنه: «الذي يشك فيه الناس» من غير التفات إلى وجود غيم أو انتفائه، أما المالكية فإنهم يجعلون مناط الشك هو الغيم، فلو كانت السماء مصحية فليس يوم شك؛ لأنه إن لم ير الهلال كان من شعبان جزمًا، ويجعلون قوله ﷺ: «فإن غم عليكم فاقدروا له» تفسيرًا ليوم الشك، واعترض ذلك ابن عبدالسلام من المالكية بأن قوله ﷺ: «فإن غم عليكم فاقدروا له» أي: أكملوا عدة ما قبله ثلاثين يومًا - يدل على أن أن صبيحة الغيم من شعبان جزمًا، ويقابلهم الحنابلة الذين يوافقون الجمهور، لكنهم يرون في ظاهر المذهب عندهم أن وجود الغيم ينفي كونه يوم شك؛ لأنه حينئذ يعد من رمضان، ويجعلون قوله ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له» مسوقًا لبيان التفرقة بين حكم الصحو والغيم، فإذا كانت رؤية الهلال شرطًا للصوم في الصحو فالمغايرة تقتضي عدم كون الرؤية شرطًا في الغيم، ومعنى «فاقدروا له» عندهم: أي: فضيقوا له وقدروه تحت السحاب؛ عملا بمذهب راوي الحديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - في ذلك. وتوارد روايات الحديث الصحيحة الصريحة على تفسير «فاقدروا له» بإكمال عدة شعبان ثلاثين يرجح مذهب الجمهور في ذلك حملا للمطلق على المقيد، والسنة هي أولى ما تبين به السنة، ولذلك اختار كثير من محققي الحنابلة والمالكية مذهب الجمهور، قال الإمام النووي في المجموع: «فالصواب ما قاله الجمهور، وما سواه فاسد مردود بصرائح الأحاديث السابقة» وقد صنف بعض العلماء في تحديد يوم الشك، كما فعل مفتي مكة المكرمة العلامة الشيخ إبراهيم بن حسين بن بيري الحنفي ت: ١٠٩٩هـ في رسالته التي سماها: «إزالة الضنك في المراد من يوم الشك».

أما حكم صوم يوم الشك فله حالتان:

الأولى: أن يصام عن رمضان بنية الاحتياط له، فهذا هو المراد بالنهي عند جمهور العلماء، ثم منهم من جعله حرامًا لا يصح صومه كأكثر الشافعية، ومنهم من رآه مكروهًا كالحنفية والمالكية والحنابلة، فإن ظهر أنه من رمضان أجزأه عند الليث بن سعد والحنفية، ولم يجزئه عند المالكية والشافعية والحنابلة.

وهذا عند الحنابلة في غير الغيم، فأما يوم الغيم فإنهم أوجبوا صيامه عن رمضان في ظاهر الرواية عندهم ولم يجعلوه يوم شك؛ عملا بمذهب راوي الحديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - كما سبق، وللإمام أحمد رواية أخرى توافق الجمهور أخذ بها كثير من محققيهم؛ لتوارد الروايات الصحيحة الصريحة على ذلك، حتى قال الإمام ابن تيمية الحنبلي رحمه الله تعالى - فيما نقله عنه الحافظ ابن عبدالهادي الحنبلي في «تنقيح التحقيق»: «الذي دلت عليه الأحاديث في هذه المسألة - وهو مقتضى القواعد - أن أي شهر غم أكمل ثلاثين؛ سواء في ذلك شهر شعبان أو شهر رمضان أو غيرهما» أ.هـ. وقد سبق نقل كلام الإمام النووي في ذلك.

الثانية: أن يصام عن غير رمضان، فالجمهور أنه يجوز صومه إذا وافق عادة في

صوم التطوع كما هو نص حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ، ويلتحق بذلك عندهم صوم القضاء والنذر، أما التطوع المطلق من غير عادة فهو حرام على الصحيح عند الشافعية إلا إن وصله بما قبله من النصف الثاني فيجوز، ولا بأس به عند الحنفية والمالكية.

وقد صنف الأئمة في هذه المسألة، منهم: الحافظ الخطيب البغدادي الشافعي ت: ٤٦٣هـ في كتابه «النهي عن صوم يوم الشك»، والحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده الحنبلي ت: ٤٧٠هـ في كتابه «صيام يوم الشك» خالف فيه ما هو المذهب عند الحنابلة من صيام يوم الغيم، والحافظ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي ت: ٥٩٧هـ في كتابه «درء الضيم واللوم في صوم يوم الغيم»، والعلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ت: ١٠٣٣هـ في كتابه «تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك من رمضان».

أما عن الحكمة في النهي عن صومه: ففيها خلاف يذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» بقوله: «والحكمة فيه: التقوّي بالفطر لرمضان ليدخل فيه بقوة ونشاط، وهذا فيه نظر؛ لأن مقتضى الحديث أنه لو تقدمه بصيام ثلاثة أيام أو أربعة جاز.. وقيل: الحكمة فيه خشية اختلاط النفل بالفرض، وفيه نظر أيضاً؛ لأنه يجوز لمن له عادة كما في الحديث، وقيل: لأن الحكم علّق بالرؤية؛ فمن تقدمه بيوم أو يومين فقد حاول الطعن في ذلك الحكم. وهذا هو المعتمد». اهـ.

وهذا الذي اعتمده الحافظ في حكمة النهي يزيد وضوحا عند معرفة منهج الإسلام في رؤية الهلال؛ فإن الحاكم هو الذي يقضي بصحة بينة الرؤية - عند إمكانها فلكيا - ، فإذا حكم بعدم ثبوت الشهر فإن حكمه هذا يرفع النزاع في الأمر الظني ظاهراً وباطناً، ويحسم مادة الخلاف فيه، وليس المسلم مكلفاً - تحت أي سقف معرفي يعيش فيه - بالوصول إلى ما في الواقع ونفس الأمر، بل المظنة في ذلك تنزَّل منزلة المئنة، والأخذ بغلبة الظن واجب شرعي، وهذا يعلم المسلمين القوة والثبات في دينهم، والجدية في أمر عباداتهم، ويحذرهم من أن يكونوا نهبا لخطر الشائعات بين أهل البلد الواحد عن طريق تحدث بعض الناس بينهم بالرؤية وإحداثهم للبلبلة والفوضى في ذلك مع عدم الحكم بثبوتها، وإذا كان هذا عصياناً للمصطفى - ﷺ - في حق من دعا إلى رؤية لم تثبتها البينة الصحيحة وترك الأخذ بالظن الغالب إذا قضى به الحاكم، فما بالنا بمن يخالف الجماعة ويشق عصا الطاعة ويزرع بذور الفرقة والاختلاف بالتشبث والدعوة إلى رؤية قطع الحساب الفلكي القطعي ببطلانها ولم يعتمدها أهل بلده، كما يفعله كثير من المتعالمين في هذا الزمان في زيغ عن الحق من غير حجة ولا برهان من عقل أو نقل، واقعين بذلك في محظورين: تفريق الجماعة، والأخذ برؤية موهومة علم بطلانها بالضرورة. وناهيك بذلك خروجاً عن الجادة وعصياناً لسيدنا النبي المصطفى أبي القاسم - ﷺ - .

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الصائم المسافر بالطائرة

• السؤال من ط. ع. غ : على أي توقيت يفطر المسافر بالطائرة؟

•• الجواب: علق الشرع الشريف الإفطار والإمساك بتبين الصائم غروب الشمس وطلوع الفجر، فقال تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾

[البقرة: ١٨٧]

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ - : «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»، وفيهما أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا رأيتم الليل قد أقبل من هاهنا - وأشار بيده نحو المشرق - فقد أفطر الصائم»، وهذا كله يدل على أن العبرة في الإفطار تحقق الصائم من الظلمة إما حسا برؤيته هو أو خبراً بتصديق من يعتد بإخباره في ذلك، وكذلك الحال في الإمساك العبرة فيه بتحقق المكلف من طلوع الفجر الصادق إما حساً أو بإخبار من يعتد بإخباره، ومن المعلوم أن الإنسان كلما ارتفع عن سطح الأرض كلما تأخر غروب الشمس في حقه، وهذا مشاهد لمن يقطنون الأدوار العليا، وذلك بسبب كروية الأرض، وحينئذ فمقتضى القواعد الشرعية أنه لا إفطار حتى تغرب الشمس في حق الصائم نفسه، قال الإمام فخر الدين الزيلعي الحنفي في «تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق»: «روى أن أبا موسى الضرير الفقيه صاحب «المختصر» قدم الإسكندرية، فسئل عمن صعد على منارة الإسكندرية فيرى الشمس بزمان طويل بعدما غربت عندهم في البلد، أيحل له أن يفطر؟ فقال: لا، ويحل لأهل البلد، لأن كلا مخاطب بما عنده». اهـ.

وقال العلامة ابن عابدين في حاشيته: «قال في «الفيض»: ومن كان على مكان مرتفع كمنارة إسكندرية لا يفطر ما لم تغرب الشمس عنده، ولأهل البلدة الفطر إن غربت عندهم قبله، وكذا العبرة في الطلوع في حق صلاة الفجر أو السحور». اهـ.

وبناء على ذلك: فالإفطار المعتبر في حق المسافرين بالطائرة إنما هو برؤيتهم غروب الشمس بالنسبة إليهم وفي النقطة التي هم فيها، ولا يفطرون بتوقيت البلد التي يحلقون عليها، ولا التي سافروا منها، ولا التي يتجهون إليها، بل عند رؤيتهم غروب الشمس بكامل قرصها، فإن طالت مدة الصيام طولا يشق مثله على مستطيع الصوم في الحالة المعتادة فلهم حينئذ أن يفطروا للمشقة الزائدة المركبة في السفر وليس لانتهاء اليوم، وعليهم أن يقضوا الأيام التي أفطروها، وعلى ذلك فإن ما يقوله بعض قواد الطائرات من الإفطار على ميقات البلد الأصلي أو البلد الحالي غير صحيح شرعاً.

وهناك حالة تغيب فيها الشمس ثم تخرج مرة أخرى من جهة المغرب لسرعة الطائرة، وهنا يفطر الصائم عند غيابها الأول ولا يلتفت لردها وعودتها.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

يارب

للشاعر أسامة كامل الخريبى

أقلب فى ظلام الأفق وجهى   وأطرقُ فى أكُف الحزن رأسى

لعل الأفق يمنحنى شعاعًا   يزيل ظلام أحزانى ويأسى

فما ألفيت غير بريق نبع   من الإيمان فى أرجاء نفسى

وأفرغ من هموم الأمس كأسًا   فيسقينى الزمان بألف كأس

كأنى والهموم ولدت طفلا   فما تنفك عن كيدى ورحسى

وحين أفر من خطر وشيك   يطاردنى الزمان بظل أمسى

فيا رباه قد فاضت شجونى   فما ترتد عن رجمى وحبسى

هموم المسلمين أعيش فيها   وغيرى همه رقص بعرس

إذا ما قلتُ عن جرح سيشفى   رمانى الجرح من ثقب بخمس

يحيل الومضة العذراء موتًا   ويحرق فى أتون الغيب حدسى

وأعسرُ ما لقيتُ طوال عمرى   بوارُ الطب أو فقد المؤسى؟

يمر القرن والأعوام تجرى   تحطم فى القلاع بكل بأس

تقيم لدولة الإلحاد صرحًا   وتمحو من بلاد الأرض قدسى

وتنبت فى جنان العرب رعبًا   وتنزع من رياض الحق غرسى

وما تدرى أتتركنا لنحيا؟   ولا أين الزمان بنا سيرسى؟

كأنا فى سفين الموت نمضى   إلى الجب العميق بغير قلس[1]

(١) القلس: حبل تسحب به السفينة إلى الشاطئ.

أتلك نهاية الأيام؟ ويلى   إذا ختم الزمان بيوم نحس

فيا رباه لطفًا إن قومى   عن القرآن فى صد ونكس

حيارى والهدى منهم قريب   وظمأى والعيون بغير مس

وصم والنداء يصيح هيا   وعمىٌ والضياء بغير قبس

وقد نشط العدو بهم ليغرى   شقيق الأمس فى غدر بأمس

تفرقت الدروب بكل شعب   كأنا فى الحساب يقول: نفسى

«تميم» فى أتون الثأر تغلى   و«بكر» تستبيح ذمار «عبس»

و«خيبر» للسلاح تريد سوقًا   لكم راشت بها سهما لقوس

فمن يهدى القلوب إلى إخاء   ويجمع للقلوب ولا يُقسى؟

ويا رباه من يحمى ربانا   ويوقف زحف طوفان ورجس؟

فيا رباه أنت بنا عليم   ولا يخفى عليك حديث نفس

وبالعاصين إن تابوا رحيم   فهبنا رحمة تمحو وتُنسى

وهبنا النصر فى حلك الدياجى   وهبنا العفو عن حزن ويأس



حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام

٦

أ.د. محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

حرية التنقل وحق الهجرة واللجوء

هذا الفرع من الحرية ما اضطرت هيئة الأمم المتحدة للتنبيه عليه إلا نتيجة للأوضاع المستحدثة فى نظم الدول بعد انهيار نظام الخلافة الإسلامية، فقد كانت بلاد المسلمين كلها وطناً واحداً، لها جنسية واحدة هى الإسلام، ولا يحظر على إنسان أن يتنقل من بلد إلى بلد، فهو مأمور بذلك.. قال تعالى:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

وله أن يقيم حيث يطيب له المقام، ولا يتصور أن يفرض الإسلام على حرية التنقل والإقامة قيوداً ورسول الله ﷺ نفسه قد هاجر وانتقل من مكة إلى المدينة، وأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلاً لهم: «تفرقوا فى الأرض إن الله سيجمعكم»..

بل إن القرآن يفرض الهجرة فى سبيل الله تعالى وترك الأرض التى يشعر فيها المسلم باستضعاف وذلة، بحيث لو لم يهاجر مع استطاعته كان آثماً. فإذا ما هاجر وكانت وجهته الحفاظ على دينه وعقيدته، فإن الله تعالى يعده على ذلك أن يهيئ له سبيل الراحة والسعادة فى مهجره الجديد.. قال تعالى:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾

(النساء: ١٠٠)

وروى عبد الله بن عمرو قال: مات رجل بالمدينة ممن ولد بها فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «يا ليته مات بغير مولده»

قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة»[1].

وطبيعى أن الإسلام الذى يفرض الهجرة على المضطهد يفتح صدره مرحبا

(١) أخرجه النسائي - كتاب الجنائز - باب الموت بغير مولده - حديث رقم ١٨٣٢.

بالمضطهدين من دول أخرى شريطة ألا يكونوا مجرمين أو مفسدين، ومن هنا يتبين حكم الإسلام فى الهجرة واللجوء السياسى للمضطهد.. وقد طبق ذلك فى ظل الحكم الإسلامى على أن من حق الإمام أن يعطى الأمان للوافد على بلد الإسلام، ولو كان مشركاً، استجابة لقول الله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾

(التوبة: ٦)

بل إن الإسلام ليوسع الدائرة ويعطي هذا الحق لكل مسلم.. قال ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم»[2].

حق الكرامة

الكرامة حق لكل إنسان من ذكر وأنثى، وهذا ثابت وممنوح له من الخالق جل علاه، فهو الذى فضله على كثير من خلق الله تعالى، وقد أشير إلى كل ذلك فى بدء هذا البحث.

ومن مقتضى هذه الكرامة مراعاة حرمته في دمه وماله وعرضه، ولقد بلغ الإسلام مبلغ التغليظ والتأكيد لدرجة جعلت رسول الله ﷺ يتحين فرصة الاجتماع الضخم فى يوم الحج الأكبر وفى وصايا الوداع ليعبر عنها أمام الملأ بأسلوب فريد فى تنبيه الأذهان، وتذكير العقول، وتوعية النفوس.. قال لهم ﷺ: «أتدرون أى يوم هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس يوم النحر؟». قلنا: بلى. قال: «أى شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس ذا الحجة؟». قلنا: بلى. قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليست بالبلدة الحرام؟». قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت». قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

وإضافة إلى ما سبق من نصوص تؤكد حق الحياة، نجد الإسلام يحذر من الاعتداء على هذه الحرمة في عديد من النصوص التي تحمل معنى التغليظ، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٩٣)

ووقف الرسول ﷺ أمام الكعبة العظيمة وقال: «ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا»[4].

(٢) أخرجه أبو داود - كتاب الجهاد - باب فى السرية ترد على أهل العسكر - حديث رقم ٢٧٥١.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب الحج - باب الخطبة أيام منى - حديث رقم ١٧٤١.

(٤) أخرجه ابن ماجه - كتاب الفتن - باب حرمة دم المؤمن وماله - حديث رقم ٣٩٣٢.

وإذا كانت هذه النصوص تؤكد هذه الحرمة بالنسبة للمسلم، فإن رسول الله ﷺ يؤكدها كذلك بالنسبة لغير المسلم المسالم.. قال ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة»(٥)، وقال ﷺ: «من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة»(٦).

ومن مقتضى هذه الكرامة كذلك أن يحترم شرفه وسمعته، فلا يجوز التجني عليه وإشاعة الفاحشة عنه في المجتمع، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

(النور: ١٩)

ومن أجل هذه الحرمة، ولقطع ألسنة السوء، أمر الإسلام ألا يكتفى في البينة على القذف بشهادة رجلين مع أنه يكتفى في القتل بهما، بل جعل الشهادة التي تثبت هذا القذف أربعة من الرجال المؤمنين العادلين، فإن لم يأت القاذف بهذا العدد من الشهود كان هو الفاسق وأقيم عليه الحد ثمانين جلدة، وسقطت عدالته من المجتمع، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(النور: ٤)

المحافظة على المشاعر والأحاسيس:

ومن مقتضى هذه الكرامة أيضًا ألا يجرح مشاعر أخيه وإحساساته، فليس لأحد أن يسب أحدًا أو يشتمه أو يحقره، قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(٧)، وقال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»(٨)، بل إن النظرة أو الإشارة التي يشم منها رائحة السخرية والتهكم حرام، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(الحجرات: ١١)

ولقد ذهب الإسلام إلى حد بعيد في المحافظة على شعور الإنسان والإبقاء على حبل المودة والمحبة، فنهى ﷺ عن مجرد فتح أية ثغرة قد يشم منها الصديق رائحة الإهمال وعدم الاكتراث.. قال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، أجل أن يحزنه»(٩).. بل ندب الإسلام للمسلم أن يغتسل ويتنظف ويتطيب عند الاجتماع بإخوانه في صلاة الجمعة حتى لا يؤذيهم برائحة العرق.

(٥) أخرجه البخاري – كتاب الجزية – باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم – حديث رقم ٣١٦٦.
(٦) أخرجه النسائي – كتاب القسامة – باب تعظيم قتل المعاهد – حديث = رقم ٤٧٥٠.
(٧) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة – باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله – حديث رقم ٦٧٠٦.
(٨) أخرجه البخاري – كتاب الإيمان – باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر – حديث رقم ٤٨.
(٩) أخرجه البخاري – كتاب الاستئذان – باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة – حديث رقم ٦٢٩٠.

ومن مقتضى هذه الكرامة كذلك ألا يعتقل إنسان أو يحبس أو يعزر أو يعذب أو يهان أو يروع أو يخوف في غير حق شرعي مستند إلى قوانين الإسلام.. إنه فيما عدا التعزير المباح شرعا للحاكم حين يرتكب الفرد ما يوجبه الحق للحاكم في الاعتقال أو الحبس أو التعذيب أو الإهانة..

قال ﷺ: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار»(١٠).. وليس ذلك مختصا بالمسلم كذلك، فإن تعذيب غير المسلم له نفس الحكم، مادام ذميا أو معاهدا أو مؤمنا.. فله حق الحياة الآمنة التي تشيع في أكنافها الطمأنينة. حدث زيد بن سعنة وهو من أحبار اليهود أنه أقرض النبي ﷺ قرضا كان محتاجا إليه ليسد به خللا في شئون نفر من المؤلفة قلوبهم.. ثم رأى أن يذهب قبل موعد الوفاء ليطالبه بالدين، قال: أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ، قلت له: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا مطلا، ولقد كان لي بمخالطتكم علم.. ونظر إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى؟ فوالذي نفسي بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، فقال النبي ﷺ: «يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا.. أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه.. اذهب به يا عمر فأعطه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روعته»، ففعل (عمر).

هكذا يعطي الرسول ﷺ عوضا ليهودي روع من (عمر) بعد أن أساء الأدب في معرض الطلب.

مراعاة حرمة البيوت:

ومن مقتضى هذه الكرامة أيضًا مراعاة حرمة البيت والأسرة، فلا يحل لأحد أن يتهجم على المسكن، أو أن يدخل البيت بغير إذن صاحبه، أو يتجسس على من فيه من الخارج، أو يتبصص من ثقب فيه على من فيه من الخارج.. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾

(النور: ٢٧)

وقال:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾

(الحجرات: ١٢)

بل إن من أدب الإسلام ألا يأتي الإنسان بيت أخيه مواجهة حتى لا يكشف عورة عند فتح الباب.

ومن مقتضى هذه الكرامة ألا يعتدى على حرمته في نفسه بتفتيشه أو فتح مراسلاته إلا إذا كان بوجه حق، وكان في سلوكه ما يريب.. فلقد مضى تاريخ الإسلام على أن الرسائل تختم بالخاتم حتى لا يتلاعب بها أحد.. ولقد نظم سيدنا (عمر) مرفق البريد تنظيما حضاريا صار المنظمون من بعده عالة عليه.

«يتبع»

(١٠) أخرجه البخاري – كتاب الفتن – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ حمل علينا السلاح فليس منا – حديث رقم ٧٠٧٢.

الحرية الدينية

أ. د أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

كفل الإسلام الحرية الدينية لغير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، فلم يكره أحداً على الدخول في الإسلام، قال الله تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

كما صان الإسلام حرمة غير المسلمين، وجعل من حقهم أن يبدوا رأيهم، وأن يناقشوا، وأمر المسلمين ألا يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، قال سبحانه:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

كما أحل الإسلام طعام الذين أوتوا الكتاب للمسلمين وأحل طعام المسلمين لهم والزواج من نسائهم فقال الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾

(المائدة: ٥)

كما دعا الإسلام إلى حسن معاملة غير المسلمين، وزيارتهم وعيادة مرضاهم، وتبادل المنافع معهم والتعاون على الخير، والبيع والشراء، وسائر المعاملات، وكان رسول الله ﷺ القدوة في ذلك في الكثير من المعاملات؛ لدرجة أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي في دين له عليه، وكان بعض أصحاب الرسول ﷺ إذا ذبح شاة، يقول لخادمه: ابدأ بجارنا اليهودي.

وعندما مرت على رسول الله ﷺ جنازة، قام لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي، قال: "أو ليست نفساً؟" وكان التوجيه الإسلامي داعياً إلى عدم التضييق عليهم في ممارسة شعائرهم، وألا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب، إلى آخر التعاليم التي تحمي حريتهم الدينية والتي هي أكبر شاهد على سماحة الإسلام وعلى قبول التعددية الدينية التي تلتزم بالتعاليم ولا يكون منها عدوان ولا خروج على الشريعة والحق.

وإن حب الوطن من الإيمان، وإن المحافظة عليه والدفاع عنه يستوجب أن يكون أبناء الوطن الواحد على قلب رجل واحد، ولا يتأتى لهم ذلك إلا إذا قامت بينهم وحدة وطنية، متجردة من الأهواء، بعيدة عن التعصب؛ لأن ديننا الإسلامي دين عالمي، ختم الله بشريعته الشرائع السابقة، وختم بالقرآن الكريم الذي أنزله على سيدنا محمد ﷺ جميع الكتب السماوية السابقة، وختم برسولنا ﷺ جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا الدين عالمي الدعوة، ليس لقطر دون قطر، ولا لزمان دون زمان، ولكنه خالد إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ومن أجل ذلك جاءت دعوته العالمية لا تخاطب فئة دون فئة، بل جاءت تخاطب الناس جميعاً وتأمرهم أن يعبدوا ربهم، وأن يؤمنوا به، وطبق رب العزة سبحانه وتعالى هذه الدعوة العالمية تطبيقاً عملياً ليطلع كل الفئات والطوائف في المجتمعات البشرية إلى قيام الساعة، وليبين لها أن هذا الدين يجب اتباعه وأن هذا الرسول ﷺ يجب الإيمان به، طبق ذلك عملياً في ليلة الإسراء والمعراج حين حشر الله جميع الرسل والنبيين أيقاظاً أحياء بأجسادهم وبلحمهم ودمهم وهو على كل شئ قدير فهو المحيي والمميت وهو الذي يبعث من شاء متى شاء في أي وقت شاء حشرهم في ليلة الإسراء والمعراج، وأوجدهم أحياء، واجتمعوا في المسجد الأقصى، جمع هؤلاء الرسل جميعاً، وجاء جبريل وأخذ بيد الحبيب المصطفى ﷺ وقدمه للقبلة ليصلي بهم إماماً، وتقديم جبريل هو تقديم بوحي إلهي وأمر رباني، فصلى بهم ﷺ إماماً، فكانت إمامته لجميع الرسل والنبيين إعلاناً لأتباعهم في كل الأرض وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين، وأنه إذا كان الرسل والنبيون اقتدوا به واتبعوا هذا النبي، فأولى بأتباعهم في كل الأرض أن يتبعوه إلى أن تقوم الساعة.

وكان إعلاناً في الوقت نفسه إلى وحدة الدين السماوي وعدم التفرقة بين نبي ونبي، وبين رسول ورسول، وشريعة وشريعة، وجاء الإسلام ليعلن أن الواحد منا لا يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً كامل الإيمان إلا إذا آمن بالنبيين والرسل أجمعين:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

أي أن الإنسان لا يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً حق الإيمان إلا إذا آمن بالرسل جميعاً من لدن آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ ليس في هذا تعصب، بل في هذا إيمان بالرسل جميعاً، كما امتاز الإسلام أيضاً بأنه لا يكره أحداً على الدخول فيه، بل إن من اقتنع بهذا الدين ودخله مؤمناً صادقاً فأهلاً ومرحباً ومن لا يقتنع.. فله دينه:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

(الكافرون: ٦)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

(ق: ٤٥)

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

(الغاشية: ٢٢)

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

(القصص: ٥٦)

إن مبادئ الإسلام التي قررها القرآن الكريم وأعلنها بأنه لا إكراه في الدين وأعلن حقوق المسلمين وحقوق غير المسلمين جاءت تعلن العدالة والحرية والسماحة والوفاء والعدل بين الناس جميعا في الحقوق والواجبات، وقبل أن يدخل الإسلام مصر وقبل الفتح الإسلامي، كان الأقباط في مصر يعيشون تحت نير الاستعمار الروماني ويتجرعون من الروم العسف والشدة والعنف والقتل والحرب والإيذاء والاضطهاد الذي ما بعده وما قبله اضطهاد، حتى إن أقباط مصر استجاروا بهذا الدين الذي سمعوا عنه أنه لا إكراه فيه، وسمعوا أنه دين العدالة ودين الرحمة، وأنه الدين الذي يسوى بين الحاكم والمحكوم، وبين الغني والفقير، وبين القوى والضعيف، الدين الذي ينصف المظلوم، والذي يعطي لكل ذي حق حقه، سمعوا بهذا الدين فتنادوا إليه ورحبوا به وتمنوا أن يأتيهم، فما إن نزل الإسلام مصر وجاءها الفتح الإسلامي حتى كان الأقباط أول المرحبين بالدين وأول الفرحين به لأنه أخرجهم من الظلمات إلى النور وأعطاهم حقوقهم، ووقف بجوارهم وأنصف المظلوم منهم ورد عنهم كيد الرومان. فأحبوا دين الله، وأعلن القرآن حبهم أيضا كما أعلن عداوة اليهود للمؤمنين حين قال:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

(المائدة: ٨٢)

جاء القرآن بهذه الآيات حتى لا تحدث فتنة بين الطوائف، وكان أول من طبق هذه الوحدة الوطنية سيدنا المصطفى ﷺ فعندما هاجر من مكة إلى المدينة.

● كان أول عمل قام به بناء المسجد ليوثق الصلة بالله أولا.

● والعمل الثاني أنه آخى بين المهاجرين والأنصار ليوحد الصفوف المسلمة.

● والعمل الثالث أنه قام بتوحيد الصف والتعاون ووضع وثيقة للعلاقات الإنسانية والدولية بين المسلمين وبين غير المسلمين من أهل الكتاب الذين كانوا يسكنون المدينة، فتعاهد معهم أن يكون المسلمون وغير المسلمين يدا واحدة في مواجهة أعدائهم، لولا أن اليهود هم الذين نقضوا العهد كما هو طبعهم في كل مرة ينقضون العهود، الشاهد أن الرسول ﷺ هو أول من أقام نسيج هذه الوحدة الوطنية حين أعلن دستور المدينة: يتعاون الجميع في مواجهة الذين يحاولون أن يغدروا بالمسلمين أو أن ينقضوا على مدينة رسول الله ﷺ وقرر حقوق غير المسلمين لحقوق المسلمين في المواطنة وفي عدم الظلم، وقرر الإسلام حقوقا للمعاهد الذي بيننا وبينه عهد، أي لم يناصبنا الحرب ولم يقف في ميدان الحرب ليقاتلنا ويناصبنا العداء، لقد أعطيناه عهد أمان ليعيش معنا في أمان، فما دام قد أخذ عهد الأمان واتفقنا على أن يأتينا أو يعيش بيننا فالرسول ﷺ يقول: "إلا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس أو كلفه ما لا طاقه له به فأنا حجيجه يوم القيامة" صلوات الله وسلامه عليك، يامن بعثك الله رحمة للعالمين، إن رحمته ليست للمسلمين فقط بل لغير المسلمين حتى بالنسبة للمشرك، يقول الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

(التوبة: ٦)

والقرآن حين يقرر هذا يريد من المجتمعات البشرية ألا تشعل فتنا دينية ولا حربا أهلية في أوطانها، وإنما يريد أن يعيش الناس في سلام وأمان وفي استقرار وهدوء، فإذا ما حاول دعاة الفرقة والفتنة أن يبثوا سمومهم في الصفوف الإسلامية فعلى المسلمين أن ينتبهوا لذلك وأن يطبقوا تعاليم دينهم الحنيف التي لا تسمح لهذه الفتن من المسلمين أو من غير المسلمين أيضا، فنحن جميعا نركب سفينة واحدة، لو قام أحد ركاب السفينة فأحدث فيها خرقا فغرقت لن يغرق الذي أحدث الخرق، بل سيغرق كل ركاب السفينة.

من هنا كانت معاملة المسلمين لغير المسلمين منذ الفتح الإسلامي، وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حدثت هذه الواقعة، عندما تسابق ابن أحد النصارى مع ابن عمرو بن العاص، وسبقه القبطي، فضربه ابن الوالي وقال له، أنا ابن الأكرمين، وحين رفع الأمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه استقدم عمرو بن العاص واستقدم القبطي وأباه، وفي موسم الحج على ملأ من الناس يعلن عدالة الإسلام ومساواته ويقول له: اضرب ابن الأكرمين، وأعطاه الدرة، فضربه، ثم قال: أمررها على صلعة عمرو، فقال القبطي: ضربت من ضربني يا أمير المؤمنين. قال: ما ضربك إلا بنفوذ أبيه، ثم التفت قائلاً رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا؟

وحين رأى رجلاً عجوزاً من أهل الكتاب كفيفا لا يرى ويسأل ويطرق الأبواب يطلب الحاجة قال: «من؟ قال من أهل الكتاب، قال: من أى أهل الكتاب؟ قال: يهودى. قال: ما أنصفناك حين أكلنا شبيبتك وتركناك في كبرك، فأسرع وأعطاه ما يحتاج، وقال لخازن بيت المال: أنظر مثل هذا وأضرابه واجعل له حقا في بيت مال المسلمين» هذه هي تعاليم الإسلام التي تدعو إلى السماحة على هذا النحو الذي قرر أنه دين سمح لا تعصب فيه، ولا إكراه فيه، ليطلع هذا العالم الذي نعيش فيه وليطلع هؤلاء الذين يعيشون في هذا العالم المضطرب الذي يموج بالفتن.

صوت الحبيب (*)



شعر د/ محمد إبراهيم العشماوي
مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بطنطا

عن غير صوتك قد أصممت آذاني ... هذا حديثك مسطور بوجداني
وكيف يا سيدي أصغي لغيركمو ... وأنت في الحسن فرد ما له ثان؟!
لا شيء يعدل ما قد صغت من درر ... يا أفصح العرب من أبناء عدنان
فيا عذوبة لفظ في سلاسته ... وجودة السبك في حبك وإتقان
ويا بديع تراكيب وحسن أسا ... ليب ورنة أنغام وألحان
ويا شريف معان قد تضمنها ... ويا عظيم هدى في مثل قرآن
«أوتيت ذكرا عظيما مثله معه» (1) ... هذا كلامك نرويه بإحسان
وقد رواه أبو داود في سنن ... كذاك أحمد يا نعم الإمامان!
لا فرق بين كتاب الله فهو هدى ... وسنة المصطفى فالكل سيان
حدث بعذب حديث منك أسمعه ... حتى أشنف(2) بالتسميع آذاني

(*) هذه القصيدة خلاصة بحث عن ضرورة التجويد لحديث المصطفى ﷺ أثبت فيه الأدلة العلمية الموثقة على أن الحديث الشريف ينبغي قراءته مجوداً كتجويد القرآن فالله يقبله بحرمة حبيبه ومصطفاه ويجعله لي ذخراً في يوم اللقاء.

1. إشارة إلى قوله ﷺ فيما رواه أبوداود في سننه وأحمد في مسنده بإسناد صحيح «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة النبوية.

2. أشنف: أمتع

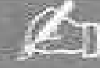
إني أكرمه إني أعظمه ... كي لا يضيعه تصحيف لحان
إني أحب حديثا أنت قائله ... وفي تدارسه روحي وريحاني
إني أبجله إني أقبله ... وما قصدت به تقبيل جدران
قد كان سهل بن عبدالله يفعله ... لما ترشف من ريق السجستاني(3)
لما عجزت عن التقبيل من فمه ... قبلت نورا بدا منه فأحياني
وددت لو أنني أبصرت طلعته ... حتى أقبله في ثغره الحاني
جود حديث حبيب الله إن له ... في الجود منزلة ليست لإنسان
وانو المقام به في قدس حضرته ... وأنت تسمعه يتلوه للآن
لازال غضا فليس الأرض تأكله ... وجسمه ليس بالبالي ولا الفاني (4)
يا سيد الرسل ذا بحث أقدمه ... هدية لك ممزوج بتحناني
عساك ترضاه أو ترضى مؤلفه ... فأنت باب الرضا بل باب رضوان
إني أحبك يا ذخري ويا سندي ... أرجو بحبك تثقيلا لميزاني
فاسأل إلهك يا مولاي لي فرجا ... وحسن حال وتثبيتا لإيماني
ويا شفيع الورى في يوم زحمتهم ... كن لي شفيعا إذا ما طار ديواني
إن لم تكن للذي قد ذاب فيك هوى ... فمن يكون إذن للمذنب الجاني؟!



3. كان الإمام سهل بن عبدالله التستري من سادات القوم يأتي إلى الإمام المحدث العظيم أبي داود السجستاني صاحب السنن فيقول له: أخرج لي لسانك الذي تروي به حديث رسول الله ﷺ حتى أقبله فيخرجه له فيقبله!! ذكره الذهبي في تاريخه في ترجمة سهل.

4. إشارة إلى قوله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» (رواه أبوداود بإسناد صحيح)

طرائف.. ومواقف


لفضيلة الشيخ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

«الأمة خمسة أصناف»

علماء ثم زهاد ثم غزاة ثم ولاة أمور ثم تجار.

فالعلماء ورثة الأنبياء.

والزهاد ملوك الأرض.

والغزاة أنصار الله.

والأمراء رعاة الله على خلقه.

والتجار أمناء الله.

فإذا طمع العلماء في جمع المال فبمن يهتدي؟

وإذا راءى الزهاد فبمن يقتدي؟

وإذا غل الغزاة فبمن يكون الظفر؟

وإذا خان التجار فبمن يؤتمن؟

وإذا كان الرعاة كالذئاب فبمن تحاط الرعية؟

«فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

«الجهاد ضربان»

كان العز بن عبدالسلام، يقول للسلطان نجم الدين حين أكرم وفادته، وطلب منه المهادنة:

الجهاد ضربان: ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان، وسلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، وكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم.

«أخي»

لا تمنعن يد المعروف عن أحد ... ما دمت مقتدرا فالسعد تارات

واشكر فضائل صنع الله إذ جعلت ... إليك لا لك عند الناس حاجات

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس أموات

«معدم يغني ملينة»

كان الحكم بن حنطب من سراة الناس وأجوادهم؛ قيل لنصيب بن رباح: لقد خرف شعرك أبا محجن -يريد أنه نضب- قال: لا، ولكن خرف الكرم، لقد رأيتني ومدحت الحكم ابن حنطب فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة

وسأل أعرابي الحكم بن حنطب فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك؟

قال: لا والله ولكن أبكي لما أكل الأرض منك؛ ثم أنشأ يقول:

وكأن آدم حين حان وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحوباء

ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... فكفيت آدم عيلة الأبناء

الحكم بن حنطب هذا قال عنه رجل من أهل منبج: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا، فسأله سائل: كيف أغناكم وهو مملق؟

قال: علمنا المكارم، فعاد غنينا على فقيرنا.

«وأين.. هي»

قيل إن خالد بن صفوان مر على جماعة بالبصرة.. فسأل عن سبب اجتماعهم، فقالوا له: هناك امرأة تدل على النساء، فأتاها، فقال لها: أبغيني امرأة.. قالت: صفها لي.. قال: أريدها بكرا كثيب، أو ثيبا كبكر.. حلوة من قريب، فخمة من بعيد؛ كانت في نعمة فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذل الحاجة.. فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا.. وإذا افترقنا كنا أهل آخرة، قالت: قد أصبتها لك

قال: وأين هي؟!

قالت.. في الرفيق الأعلى من الجنة.. فاعمل لها!!

«أنت.. حر»

كان حاتم الطائي- كريم العرب وجوادها- إذا جنه الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في بعض المواضع من الأرض، لينظر إليها من أضله الطريق، فيأوي إلى بيت حاتم فيكرمه ويبيته وكان يقول لغلامه:

أوقد فإن الليل ليل قر ... والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا، فأنت حر

«انصرف فإنه صادق»

دعا رجل صديقا له إلى منزله، قائلا: تعال نأكل خبزا وملحا، فظن الصديق أن ذلك كناية عن طعام شهي، وشراب سائغ، فمضى معه فلم يزد على الخبز والملح، وبينما هما يأكلان إذ وقف بالباب سائل، وألح في السؤال، فقال صاحب البيت: اذهب وإلا كسرت رأسك.

فقال الضيف: انصرف فإنه صدق في وعده، وسيصدق في وعيده.

«أعجبتني نفسي»

جلس مقاتل بن سليمان يوما فأعجبته نفسه فقال: سلوني عما دون العرش

فقال له رجل: آدم لما حج من حلق رأسه؟

وقال آخر: أمعاء النملة في مقدمها أومؤخرها؟ فلم يدر ما يقول!!

ثم قال: هذا ليس من علمكم ولكن أعجبتني نفسي فابتليت

«لا تركن»

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسي ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا ... فقل: يارب إن العيش عيش الآخرة

«دعاء»

اللهم إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي للؤم، وإن تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز.

إلهي: كم تحببت إليك بنعمتك، وأنت غني عني وكم أتبغض إليك بذنوبي، وأنا فقير إليك

سبحان من إذا توعد عفا، وإذا وعد وفى.

بين الصحف والمجلات

 إعداد/أ. محمد جمعة



لن أخون وطني أبداً

عقب أداء سيادة الرئيس د/ محمد مرسى اليمين الدستورى فى ٣٠ - ٦ - ٢٠١٢م ألقى خطاباً من جامعة القاهرة كان محور اهتمام جميع وسائل الإعلام نقتطف منها ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، الله أكبر فوق الجميع

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

الشعب المصرى العظيم، الحفل الكريم، الحضور الكرام، السيدات والسادة، أحييكم جميعاً بالتحية الخالدة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السيدات والسادة لقد أنجز الشعب المصرى ـ بفضل الله تعالى، ثم بتضحيات شهدائه الأبرار ـ إنجازات عظيمة سنحافظ عليها، ولن نفرط فيها أبداً، لأنها ولدت من رحم

المعاناة، وتكبد الشعب فيها مئات الأرواح وآلاف الجرحى والمصابين، لقد فرض الشعب المصرى إرادته وسيادته، ومارس لأول مرة فى تاريخه الحديث سلطته الكاملة، فانتخب مجلسا للشعب ومجلسا للشورى فى انتخابات حرة نزيهة، عكست تمثيلا حقيقيا لكافة مكونات المجتمع المصرى، واختار البرلمان المنتخب جمعية تأسيسية لصياغة دستور جديد لمصر، بدأت عملها، وستستعين ـ وأنا على يقين من ذلك ـ بكافة الخبراء فى كل الاتجاهات، ليعبر الدستور عن التوافق الوطنى ويرسخ للدولة الوطنية الديمقراطية الدستورية الحديثة، ومحافظا على هوية الأمة والمقومات الأساسية للمجتمع، وحارسا للحريات العامة والخاصة.

سيكون فى مصر الجديدة الحاكم فيها أجير وخادم للشعب، وهذه من أولى مهماتى معكم، أكون حكما بين السلطات، راعيا للدستور والقانون، وبعد أن أولانى الشعب ثقته فى الانتخابات، وأشرف عليها القضاة، وحرستها القوات المسلحة ورجال الشرطة الأمناء، وأعلن شيوخ القضاء المصرى نتيجتها النزيهة التى جاءت بها صناديق الانتخاب، ها أنا ذا أبدأ معكم ولايتى الرئاسية، أعاهد الله وأعاهدكم.

السيدات و السادة، سوف أبذل كل جهدى للحفاظ على أمننا القومى وحماية حدود هذا الوطن مع القوات المسلحة درع الوطن وسيفه، الذى يردع كل من تسول له نفسه المساس بمصر أو تهديد أمنها القومى، إننى من موقعى هذا أتعهد أمام المصريين أن تقوم الدولة بكامل مسئولياتها تجاه المجتمع وتجاه أبناء مصر، وتسهر على ما يخص أمنه واستقراره وسلامته وترعى كل فئات المجتمع.

سأبذل كل وسعى لدعم وشائج المحبة بين أبناء المجتمع وتفعيلا للمواطنة بين المواطنين.

إننا بحاجة ماسة لإزالة آثار الفوضى فى كل المجالات وخاصة فى المجال الاقتصادى، هذه الفوضى التى أسهم فيها النظام السابق. لابد أن تحقق عدالة اجتماعية بمفهومها الشامل ليتحقق الاستقرار والأمن للمجتمع المصرى.

أيها الشعب المصرى العظيم، إن النظام السابق فرّط فى أمننا القومى وأدى إلى تقزيم الدولة وستبنى مصر القوية.

إننا نحمل رسالة سلام للعالم ونحمل رسالة حق وعدل، كما تعهدنا دوما. نؤكد على احترام الدولة للمعاهدات والاتفاقيات. وأعلن أن مصر الشعب والأمة والحكومة ومؤسسة الرئاسة تقف مع الشعب الفلسطينى، حتى يحصل على كافة حقوقه، وسنعمل على إكمال المصالحة الفلسطينية ليكون الشعب الفلسطينى صفا واحدا.

المصريون لا يصدرون الثورة ولا نتدخل فى شئون أحد ولا نسمح لأحد أن يتدخل فى شئوننا، إذا كنا الآن فى مصر نبنى مصرنا الجديدة، فإننا لا ننفك عن أمتنا العربية والإسلامية، ولا نعادى أحدا فى هذا العالم. سنعمل على تشجيع الاستثمار واستعادة السياحة لدورها، بما يعود بالخير على الاقتصاد وكل مواطن فى مصر.

سنرسم مستقبلا زاهرا لأولادنا وأحفادنا، مسلمين ومسيحيين، لتعود مصر عزيزة قوية،

ولتستكمل أهداف ثورتها، ولنستكمل معاً أهداف ثورتنا ولنحقق الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، أرسل لكم جميعاً أحبائي في كل مكان تحية إلى القلب، وأعاهدكم أن لا أخون الله فيكم.

لن أخون وطني أبداً، لن أخون أهلي أبداً، سأكون عند ظنكم وإرادتكم.

إن دماء الشهداء وأنات الجرحى والمصابين، حق في رقبتي، حتى يؤخذ القصاص العادل لهم.

ننظر إلى الأمام ولا ننظر إلى الخلف، ونمضي إلى العمل والإنتاج، وإنَّ غداً لناظره قريب، «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردود فعل واسعة في الإعلام الغربي حول تسلم مرسي السلطة في مصر

تحت هذا العنوان جاء تحقيق الأستاذة/ علياء عبدالفتاح المنشور بموقع «بوابة الحرية والعدالة» في ٢٠١٢/٧/١م جاء فيه:

قالت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية: إن الرئيس محمد مرسي أدى اليمين الدستورية السبت كأول رئيس مدني منتخب ديمقراطياً في مصر، حيث تبدأ مرحلة سياسية جديدة لتحديد مستقبل البلاد بعد ستة عقود من الحكم العسكري المستبد، مؤكدة أن الرئيس الجديدة اكتسب قوة وأرضية في الشارع المصري واعتبرت الصحيفة أن مرسي استمر في جهوده الواضحة لبسط هيبة منصبه الجديد، حيث أثنى على البرلمان المنتخب ووصفه بأنه انتصار للديمقراطية، ووجه تحية إلى المجلس العسكري لدوره في المرحلة الانتقالية، مؤكداً في الوقت ذاته علي عودة الجيش لثكناته وحماية الحدود، وعودة المؤسسات المنتخبة لممارسة دورها، متعهداً بالحفاظ على القوات المسلحة قوية للعمل مع غيرها من مؤسسات الدولة ضمن الدستور والقانون.

وأضافت الصحيفة أن خطابات الرئيس مرسي لم تكن بلهجة إسلامية ولكنها كانت خطابات سياسية.

من جانبها، ذكرت وكالة «الأسوشيتدبرس» ان الكاريزما الشخصية للرئيس المصري د. محمد مرسي تتصاعد منذ فوزه، مشيرة إلى أنه فرض هيبته على المصريين جميعاً بعد تنصيبه رسمياً لرئاسة الجمهورية عقب حلفه اليمين الدستورية أمام المحكمة الدستورية العليا، واحتفال القوات المسلحة بتسليم السلطة ليصبح مرسي أول رئيس مدني منتخب في تاريخ مصر والعالم العربي.

وأشارت الوكالة إلى التطمينات التي بعث بها خطاب الرئيس بجامعة القاهرة حول اتفاقية السلام، حينما تعهد بدعم الحقوق المشروعة للفلسطينيين وقال إن إدارته ستواصل احترامها للمعاهدات الدولية.

وقالت صحيفة «لوس انجلوس تايمز» الأمريكية إن أداء الرئيس محمد مرسي - الذي ينتمي لجذور ريفية - اليمين الستورية كأول رئيس مدني سينقل البلاد من الحكم العسكري إلى الحكم الديمقراطي، مشيرة إلى أن أداء الرئيس مرسي يتسم بروح العهد الجديد الذي تشهده مصر

بفضل الثورة.

ولفتت الصحيفة إلى عظم حجم التحديات التي تواجه مرسي من تعميق البرامج الاقتصادية والاجتماعية وإعادة تنظيم البيروقراطية الواسعة في مصر ومواجهة الفساد.

وقالت صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية إن المصريين شهدوا أول تسليم ديمقراطي في تاريخ بلادهم مع أداء الرئيس مرسي اليمين الدستورية.

مرسي رئيساً

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ حمود ابو طالب المنشور بجريدة عكاظ الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٦/٢٧ م جاء فيه:

الرئيس محمد مرسي مواطن مصري حصل على أعلى درجات التعليم وجاء من بيئة مدنية ووصل إلى ما وصل إليه بعد رحلة كفاح علمية، وخاض غمار السياسة من خلال انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين، لكنه الآن رئيساً لمصر، مصر بكل أطيافها وتراكماتها ومتاعبها، وأيضاً محوريتها عربياً وإقليمياً. وحين قال في خطابه أنه سيكون رئيساً لكل المصريين فذلك ما نتمنى خاصة وأنه الرئيس المدني الأول في تاريخ مصر الحديث.

شعارات العدالة والحرية يجب تحويلها إلى برنامج عمل هذا هو التحدي الكبير الذي يجب أن يضعه الدكتور مرسي نصب عينيه كل لحظة. عليه البحث عن كل الكوادر الوطنية المؤهلة المخلصة لمشاركته بناء مصر.

كان الله في عونه وعون مصر..

مخاوف إسرائيلية

تحت هذا العنوان «إسرائيل ومصر إسلامية» جاء مقال أستاذة/ رندى حيدر المنشور بجريدة النهار الصادرة في: ٢٩/ ٦/ ٢٠١٢ م

تقول:

راوحت ردود الفعل الإسرائيلية على فوز مرشح «الإخوان المسلمين» محمد مرسي بالرئاسة المصرية بين الحذر المشوب بالقلق والخوف.

ولئن كان فوز مرسي متوقعاً في إسرائيل منذ نتائج الدورة الأولى، إلا أن تحقق هذا الفوز أيقظ المخاوف وأقض مضاجع المسئولين السياسيين والقادة العسكريين على حد سواء، وخصوصاً أمام موجة الفرح العارم التي عمت قطاع غزة، بحيث بدا واضحاً حجم الترابط الوثيق بين السلطة الجديدة في مصر وحركة «حماس» في غزة.

منذ الآن بدأت تظهر انعكاسات فوز رئيس إسلامي في مصر على السياسات الإسرائيلية على أكثر من صعيد، فعلى الصعيد العسكري، بدأت إسرائيل تعيد النظر في إمكان تجدد نشوء خطر الجبهة المصرية، وذلك بعد سنوات طويلة من السلام مع مصر قلصت خلالها عدد قواتها العسكرية على الحدود مع مصر. ومن المعلوم أن الجيش المصري هو أقوى

الجيوش العربية وأكثرها عددًا وأحدثها تسلحًا، هو يملك سلاحًا أمريكيًا حديثًا متطورًا قد يشكل خطرًا حقيقيًا على إسرائيل فى حال نشوب حرب. وهكذا بات على الجيش الإسرائيلى اليوم أن يأخذ فى الاعتبار فى تدريباته وفى موازنات تسلحه خطر هذه الجبهة من جديد، الأمر الذى من شأنه - وفق التقديرات الإسرائيلية - أن يكلف عشرات المليارات من الشيكلات.

على الصعيد السياسى، وعلى رغم كل التطمينات التى أطلقها مرسى بأنه سيلتزم بالاتفاقات التى وقعتها مصر، فإن إمكان مطالبة القاهرة بإعادة النظر فى معاهدة كمب ديفيد واردة جدًا.

ولعل الأهم بالنسبة إلى إسرائيل هو الارتدادات الإقليمية لفوز الإخوان بالرئاسة المصرية على الساحة الفلسطينية. فالتطور المصرى سيجعل من الصعب بعد اليوم القيام بعمليات عسكرية طاحنة ضد الفلسطينيين مثل عملية «الرصاص المصبوب» فى غزة سنة ٢٠٠٨. ولا مجال لاستمرار الحصار المفروض على القطاع منذ سيطرة «حماس» هناك عام ٢٠٠٧؛ لأن من شأن السلطة السياسية الجديدة فى مصر ألا تسمح بعد اليوم بذلك، كما من المنتظر أن تقوم هذه السلطة بفتح حدودها مع غزة وأن تحرر أبناء القطاع من السجن الذى عانوه طوال السنوات الأخيرة.

اليونسكو تنتصر للتراث الفلسطيني

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ إبراهيم عباس المنشور بجريدة المدينة الصادرة بتاريخ ٢٠١٢/٧/١م يقول:

دخلت بيت لحم مرحلة جديدة فى تاريخها العريق بصدور قرار اليونسكو إدراج كنيستها الكبرى «كنيسة المهد» التى تعتبر أقدم كنيسة فى العالم، على قائمة التراث العالمى بأغلبية ١٣ صوتًا من أصل ٢١ مقابل ستة أصوات معارضة وامتناع اثنين عن التصويت وبما يعتبر أول ثمرة من ثمار قبول فلسطين فى عضوية منظمة اليونسكو فى أكتوبر الماضى.

أهمية تلك الخطوة تكمن فى توثيق هذا الأثر العريق باعتباره أثرًا عربيًا فلسطينيًا، واعتباره معلمًا من معالم التراث العالمى وما يتيحه ذلك من التمتع بحماية اليونسكو، وحيث لم يعد خافيًا أن قوات الاحتلال الإسرائيلى لم تستثن الأماكن المسيحية المقدسة من اعتداءاتها ما يدعو إلى الاستغراب فى أول رد فعل دولى على القرار إعراب الولايات المتحدة الأمريكية عن خيبة أملها من إدراج الكنيسة على لائحة التراث العالمى.. فهكذا قرار ليس له أى علاقة من قريب أو بعيد بأمن إسرائيل، كونه شأنًا فلسطينيًا محضًا يتعلق بمدينة فلسطينية وأثر فلسطينى عربى داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة فى حرب يونيو ٦٧.. لكن سرعان ما يزول هذا الاستغراب إذا عدنا بذاكرتنا إلى شهر أكتوبر الماضى عندما كان رد فعل واشنطن على قبول اليونسكو فلسطين عضوًا فيها وقف مساهمتها للمنظمة التى تشكل ربع ميزانيتها.

لا شك أن اليونسكو انتصرت مرة أخرى للتراث الفلسطينى الذى يعتبر مكونًا أساسيًا من مكونات عروبة فلسطين، ويبقى هنالك خطوات أخرى مهمة أمام السلطة

الفلسطينية قيد الانتظار، أهمها الطلب من اليونسكو وضع المقدسات الإسلامية فى القدس ضمن قائمة التراث العالمى.

أهينت لما هانت

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ فهمى هويدى المنشور بجريدة الشروق الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٧/٢م يقول:

ما صدر عن الرجل الفريق ضاحى خلفان، كان رأيًا أبداه عبر حسابه الشخصى على تويتر، وبدا فيه أنه لم يكن سعيدًا بفوز الدكتور محمد مرسى الذى اعتبره تراجعًا لمصر، حيث لم يعجبه أن يُنتخب عضو فى الإخوان المسلمين لرئاسة مصر، لكن أسوأ ما قاله: إن الرئيس المصرى لن يفرش له السجاد الأحمر إذا جاء إلى ا لإمارات وأنه سيأتى إلى الخليج حبوا.

معركته مع الإخوان شأن خاص بالجماعة، وانتقاده لفوز الدكتور مرسى ودفاعه عن منافسه الفريق أحمد شفيق هو حر فيه، رغم أن كلامه يمكن أن يعد تدخلا غير مرحب به فى الشأن الداخلى المصرى.

لكننى أفهمه وأمرره لأن رئاسة مصر تعد رئاسة لكل العرب.. ومن ثم فلكل عربى فيها نصيب وحق، ناهيك عن أن الذى قيل بحق الرئيس المنتخب فى داخل مصر أضعاف ما قاله قائد شرطة دبى.. لكن الذى بدا جارحًا ومحزنًا كان قوله: إن الرئيس المصرى سيأتى إلى الخليج زاحفًا ليطلب العون المادى. وهو الشق الذى استفز الرأى العام المصرى وأغضبه، وربما كان ذلك هو السبب فى إعلان الرئيس مرسى مرتين أن مصر لا تتدخل فى شئون أحد، وأنها ترفض مساس أى أحد بكرامتها أو كرامة رئيسها.

فى ضوء هذا! فلست أجد فى مجمل الملابسات التى ذكرتها ما يمكن أن يشكل سببًا كافيًا لتعكير العلاقة بين البلدين، وما دامت تلك العلاقة قائمة على الاحترام المتبادل لاختيار الشعب، فإن ذلك الاحترام يوفر مناخًا مواتيًا لاحتمال الهنات والأخطاء الصغيرة، التى يدخل ضمنها كلام الفريق ضاحى خلفان. ذلك أن الحفاظ على العلاقة الإيجابية بين الأشقاء العرب من موجبات الرؤية الاستراتيجية الصائبة، وحين يكون طرفا العلاقة هما دولة كبرى مثل مصر، وشقيقة صغرى مثل الإمارات فإن الحرص على إيجابية تلك العلاقة يصبح أوجب.

أكثر ما يهمنى فى المشهد هو ما أصاب مصر من هوان قلل من شأنها، وشجع البعض على التطاول عليها. لذلك فإننى أزعم أن المشكلة الحقيقية ليست فيمن تطاول ولكنها فيمن هان أمره وتصاغر.

الأمر الذى يجعل من استعادة مصر لقيمتها وقامتها أولوية عاجلة. وهذه الاستعادة تتحقق بتعافى البلد سياسيًا واقتصاديًا وبإصراره على الاعتماد على طاقات شعبه وإبداعه الذى يغنيه عن سؤال الآخرين، مع انتهاج سياسة مستقلة تليق بوزن ذلك البلد وكبريائه وعطائه التاريخى والحضارى. ذلك أن احترام البلد لنفسه وحده الذى يفرض على الآخرين أن يبادلوه الاحترام.

وبعد أحد

حمراء الأسد



لفضيلة الشيخ/الطاهر الحامدى

إن الذى يطالع السيرة النبوية من بداية ظهور الإسلام حتى دخول النبى ﷺ مكة منتصرا يوم الفتح الأكبر لابد أن يلاحظ أن دور أبى سفيان ابن حرب فى مقاومة الإسلام ورسوله، كان دورا بارزا عنيدا شرسا حقودا لدودا وكثيرون كانوا يكرهون الإسلام ويقاومونه لكن أكثرهم لم يكن فى شراسة أبى سفيان وكثيرون قاوموا الدعوة لكنهم لم يكونوا فى عناد أبى سفيان وكثيرون وقفوا فى وجه الإسلام لكنهم لم يكونوا فى حقد أبى سفيان وكثيرون كرهوا الإسلام؛ لأنه يحد من شهواتهم ونزواتهم لكنهم لم يكونوا فى لدد أبى سفيان.

والعجيب فى أبى سفيان أنه رغم كل ذلك ورغم بغضه ورفضه للرسالة والرسول إلا أنه يعرف قدر صاحب الرسالة ومكانه ومكانته وأحسب أنه يتحسس مكانة الرسول فى قلوب أصحاب النبى ﷺ حين سأل سؤالا لم يسأله سواه حين قال لابن الدثنة أتحب أن محمدا مكانك يقتل وأنك فى أهلك؟ فكان جوابه طعنة فى قلب أبى سفيان حين قال: والله ما أحب أنى فى مكانى أقتل ورسول الله تصيبه شوكة يشاكها.. لكن الرجل تقبلها على مضض وكأنه ينتظرها ويتوقعها فقال مبديا حقيقة يعرفها ويمارس أسبابها فقال: (ما رأيت أحدا يحب أحدا مثل حب أصحاب محمد محمدا) قال ذلك؛ لأنه يعرف قدر هذا الحب. لكنه يجهل أسبابه وليس فى حسابه فهو يعرف الحب المادى والدوافع المحركة له لكنه لا يعرف حب الإيمان الكامن فى الأفئدة وجوانح القلوب. لقد كان أبوسفيان يبغض رسول الله ﷺ بغضا شديدا ويبغض رسالته ولم يكن فريدا فى هذا الأمر أو وحيدا بين الناس لكن كثيرا من المشركين كانوا على شاكلته وثمة حوادث كان فيها أناس يشاركون أبا سفيان هذا البغض وربما يزيدون عليه لكن جمعتهم برسول الله ﷺ مواقف تحولوا فيها بنظرة من رسول الله ﷺ من النقيض إلى النقيض فكان رسول الله ﷺ أحب الناس إلى قلوبهم فهذا ثمامة بن أثال كيف تحول من النقيض إلى النقيض فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة بن أثال؟ فقال: عندى يا محمد خير إن تقتلنى تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله ﷺ حتى الغد ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندى ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فقد أصبح

دينك أحب الدين كله إلىّ ووالله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى وإنّ خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا ولكن أسلمت مع محمد ﷺ رسول الله، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

وها هو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتأمل كيف أن سماعه للقرآن من قارئه فى بيت أخته حول الرجل من جبار عنيد شرس إلى هين لين يرجوا أن يلقى رسول الله ﷺ وليسلم على يديه وما أجمل وما أبدع حافظ إبراهيم حين قال يصف هذا التحول العظيم فيقول:

سمعت سورة طه من مرتلها
فزلزلت نيّة قد كدت تنويها

وفضالة بن عمير بن الملوح عندما أراد قتل النبى وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله قال: ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء كنت أذكر الله فضحك النبى ثم قال: أستغفر الله ثم وضع النبى ﷺ يده على صدره فسكن قلبه فكان فضالة يقول والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلىّ منه فلما رجعت إلى أهلى مررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا ثم انبعث يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا
يأبى على الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله
بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّناً
والشرك يغشى وجهه الإظلام

إنه شيء يبعث على التساؤل لماذا يجرى مع أبى سفيان ما جرى مع من ذكرنا؟ ولماذا كل هذا الحقد وهذا البغض لرسول الله ولرسالته من أبى سفيان؟ على أى حال قد مارس أبو سفيان ضغائنه فى إثارة الحروب ضد رسول الله فلم يكفه ما وقع من هزيمة للمسلمين فى معركة أحد لم يكفه هو ولا جموع قريش فيروى أنه لما رجع جيش المشركين من أحد لقيهم آخرون يسخرون منهم ويحرضونهم قائلين: لا محمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئس ما صنعتم ارجعوا، ويروى أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد يوم السبت بات على داره جموع من الأوس والخزرج يحرسونه خوفا من كرة العدو فلما طلع الفجر من يوم الأحد أذن بلال وجلس ينتظر خروج النبى ﷺ فأتى عبدالله بن عمرو بن عوف المزنى يطلب النبى ﷺ فلما خرج قام إليه وأخبره أنه أقبل حتى إذا كان بملل (موضع بين مكة والمدينة) إذا قريش قد نزلوا فسمع أبا سفيان وأصحابه يقولون ما صنعتم شيئا أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم فقد بقى فيهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول: يا قوم لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا (يعنى أصابهم جراح وشدة) وإنى أخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخروج فارجعوا والدولة لكم فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم فقال رسول الله ﷺ أرشدهم صفوان وما كان برشيد ثم دعى ﷺ أبا بكر وعمر فذكر لهما ما أخبره به المزنى فقال: يا رسول الله أطلب العدو ولا يقتحمون على الذرية فلما انصرف رسول الله ﷺ الصبح ندب الناس وأمر بلالا أن ينادى أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال

بالأمس فقام أسيد بن حضير وبه تسع جراحات وهو يريد أن يداويها لما سمع النداء قال سمعاً وطاعة لله ولرسوله ولم يعرج على دواء جرحه وخرج من بنى سلمة أربعون جريحاً منهم الطفيل بن النعمان به ثلاثة عشر جرحاً وخراش بن الصمة به عشر جراحات وكذلك كعب بن مالك وقطبة بن عامر ورتب المسلمون إلى سلاحهم وما عرجوا على جراحتهم ويروى أن عبدالله بن أبى بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال: أنا راكب معك فقال: لا. ثم دعى رسول الله ﷺ فرسه «السكب» على باب المسجد ولم يكن مع أصحابه ﷺ بحمراء الأسد إلا فرس غيره وتلقاه طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه وقد سمع المنادى فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمغفر وما يرى منه إلا عيناه فقال يا طلحة أين سلاحك قال: قريب يا رسول الله ثم قال رسول الله ﷺ أين ترى القوم الآن؟ قال هم بالسيالة «موضع» فقال رسول الله ﷺ ذلك الذى ظننت أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا.

وبعث رسول الله ﷺ طليعة فى آثار القوم فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد وبصروا برجلين فعطفوا عليهما فقتلوهم ومضوا فعسكر رسول الله ﷺ بحمراء الأسد فدفن الرجلين فى قبر واحد وهما القرينان.

وكان رسول الله ﷺ يأمر الجيش فى النهار بجمع الحطب فإذا أمسوا أمر أن توقد النيران فيوقد كل رجل ناراً فلقد أوقدوا خمسمائة نار حتى رؤيت من مكان بعيد وزاع ذكر خبر المسلمين ونيرانهم فى كل وجه وكان ذلك مما كبت الله به عدوهم وأقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد الاثنين والثلاثاء والأربعاء.

ويروى أن ابن أبى معبد الخزاعى أتى أبا سفيان ومن معه بالروحاء «مكان» وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا أصبنا خير أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: هذا معبد وعنده الخبر ثم قال ما وراءك يا معبد قال: تركت محمداً وأصحابه قد خرجوا فى طلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا وقد اجتمع معه من تخلف معه من الأوس والخزرج وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم وغضبوا لقومهم غضباً شديداً وندموا على ما فعلوا فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط قالوا ويلك ما تقول قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل فقال: والله لقد اجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم قال معبد: فإنى أنهاك عن ذلك ووالله لقد حملنى على ما رأيت أن قلت فيهم أبياتا من شعر قال وما قلت فذكر له ما قال من شعر فثنى ذلك مع كلام صفوان أبا سفيان ومن معه وفت أكبادهم فانصرفوا سراعاً خائفين من الطلب ومر ركب من عبدالقيس بأبى سفيان إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وأنا فى آثاركم فانطلق أبو سفيان وقدم الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد فأخبروا بالذى قاله أبو سفيان وأصحابه فقال رسول الله ﷺ حسبنا الله ونعم الوكيل فنزل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

﴿آل عمران: ١٧٣﴾

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

قراءة إيمانية فى كتاب الكون والحياة



أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة

كيف بدأ الخلق؟

إن قضية أصل الكون ونشأته تمثل تحديا مستمراً للعلم البشرى مهما تطور وتقدم، وهى تعتبر من أمور الكون التى يعلم الله وحده حقيقتها الكاملة، مصداقا لقوله- تعالى:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

(سورة الكهف: ٥١)

لكن غيبة هذه القضية لم تمنع العلماء بحكم تعاليم الإسلام- أن يواصلوا البحث والتنقيب عن آيات الله فى الكون ليزداد الإنسان إيماناً بقدرة الخالق المبدع ووحدانيته، قال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾

(سورة العنكبوت: ٢٠)

ولقد حقق العلم البشرى نجاحاً محدوداً على طريق البحث عن أصل الكون فاستعان العلماء بتقنيات متقدمة فى الرصد والقياس لدراسة مسائل عديدة تتصل بتطور النجوم، وخصائص موجات الراديو (اللاسلكى)، وطبيعة الأشعة الكونية، وحقيقة الجسيمات الأولية فى الذرة، وغيرها.

وكان من بين ما تنبه إليه الفلكيون، من خلال دراسة المجرات البعيدة، أن الكون بأكمله فى حالة توسع هائلة مما يعنى أن هذه المجرات كانت فى الماضى أكثر قرباً من بعضها، وكلما توغلنا فى عمق الزمن شيئا فشيئا كانت أكثر قربا حتى تصل اللحظة التى كانت فيها المادة الموجودة فى الكون مركبا أكثر تركيزا من أى مادة موجودة اليوم، أكثر تركيزا حتى من نواة الذرة، وعند درجة حرارة عالية جدا كافيه لحدوث جميع التفاعلات النووية ويعتقد العلماء أن هذه المادة الكونية المركزة قد انفجرت منذ ١٢- ٢٠ بليون سنة

لأسباب غير معروفة وانتشرت دخانا وسديما، وبردت شيئا فشيئا مع انتشار أشعة كونية تحول دون اتحاد العناصر الخفيفة حتى يتم توزيع الأجرام السماوية فى أماكنها المقدرة لها- وأصبحت درجة حرارة الكون وكثافة مادته وحجمه من أهم العوامل التى تعين دراستها على فهم طبيعة الكون وظروف نشأته.

ومن الأسئلة الكثيرة المحيرة فى علم الكونيات المعاصر: ماذا كان هناك قبل الانفجار الكبير؟ وإلى أين يتمدد الكون ويتوسع؟ وهل هذا الكون مفتوح فى كل الاتجاهات ويحتوى عدداً لانهائيا من المجرات، أم أنه مغلق وذو فضاء محدب يجعله ينطوى على نفسه؟ وهل بإمكان الإنسان يوماً ما أن يرى أبعد من أفق الكون المرصود؟ وهل توجد هناك أكوان أخرى غير هذا الكون الذى نعيش فيه ونسعى لرصد مسافات أبعد فى أعماقه؟

وهكذا نرى أن الإنسان فى سعيه الحثيث لفهم الكون وحقائقه يزداد أمامه هذا الكون عمقا واتساعا لكى تبقى النتائج العلمية التى يحصل عليها مجرد خطوة على طريق المعرفة اللانهائى نحو حقيقة بدء الخلق.

البحث عن الحياة على أرض أخرى

أشار القرآن الكريم إلى تعدد العوالم فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الفاتحة: ٢)

كما أشار إلى وجود سبع أرضين كما فى قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(سورة الطلاق: ١٢)

وأشار كذلك إلى وجود كائنات تدب وتتحرك فى السموات والأرض، وهذه الكائنات عاقلة وذكية وعابدة وليست قاصرة على الملائكة، وإلى أن الله -سبحانه وتعالى- قادر على جمع هذه الأحياء وحدوث الالتقاء بينها أثناء الحياة الدنيا أو فى الآخرة، قال تعالى

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾

(سورة الشورى: ٢٩)

وهذه القضية المتعلقة باحتمالات وجود كائنات حية ذكية غير الإنسان فى كواكب أخرى فى هذه الكون الفسيح أصبحت من الموضوعات التى تجذب اهتمام الناس وتستحوذ على تفكيرهم فى هذا العصر الذى نعيشه، حيث يلهث العلم وراء البحث عن أسباب تسمح بوجود حياة على الكواكب الأخرى غير الأرض فى مجموعتنا الشمسية، أو على الكواكب التى تدور بتأثير الجاذبية حول نجوم أخرى، وعادة مايكون اكتشاف أى آثار تدل على وجود الماء من أبرز الأسباب التى ترجح الاعتقاد بوجود حياة، حيث إن الماء هو الأصل والضرورى لنشأة الحياة واستمرارها، باعتراف

علماء البيولوجيا أنفسهم، وبتقرير القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

(سورة الأنبياء: ٣٠)

كذلك لابد من توفر درجة حرارة مناسبة لحياة الأحياء، بالإضافة إلى ضرورة توافر عنصر الكربون الذى يمتاز بقابليته للاتحاد بالعناصر الأخرى فى مركبات أساسية للحياة.

وقد أكدت رحلات الفضاء وأبحاث العلماء استحالة وجود حياة كالتى نعرفها على أى كوكب آخر غير الأرض فى مجموعتنا الشمسية، وأصبح مطلوباً البحث عن وجود هذه الحياة الذكية المحتملة بعيداً عن المجموعة الشمسية على كواكب (أو أرضين) شبيهة بأرضنا وتابعة لنجوم (شموس) أخرى غير شمسنا فى عوالم أخرى فى مجرتنا أو المجرات الأخرى.

وتوجد بعض الدلائل التى تشجع العلماء على مواصلة البحث عن الحياة فى الكواكب البعيدة عن مجرتنا.. من ذلك اكتشاف عدة أحماض أمينية فى قطع مختلفة من نيازك سقطت على الأرض حديثا، واكتشاف مايشير إلى احتمالات وجود بخار ماء وأمونيا فى السحب الباردة الموجودة بين نجوم مجرتنا ومجرات أخرى كذلك تمدنا نظرية الاحتمالات الرياضية بأن الفرصة ممكنة لوجود كواكب صالحة للحياة من بين الكواكب التى تتبع هذا العدد الهائل من النجوم (أكثر من مائة بليون نجم) فى الكون المعروف لنا، وخاصة أن تركيب النجوم وقوانينها متشابهة مع نجم الشمس، وبهذا يتضح أنه من المنطقى أن توجد الحياة بأى صورة على كواكب أخرى غير أرضنا.

وقد بذل الإنسان حديثا محاولات للاتصال بالعوالم الأخرى، منها إرسال المركبة الفضائية الخالية من البشر "بايونير-١٠" فى عام ١٩٧٢م، وزميلتها سفينة "فويجر-٢" التى أطلقت عام ١٩٧٧م وتحمل أجهزة متفوقة، وطاقة نووية تمكن من مغادرة المجموعة الشمسية، ومواصلة السير بحثا عن العوالم الأخرى.

ولقد زودت هذه السفن برسائل رمزية وصورة رجل وامرأة من أهل الأرض يرفعان أيديهما رمزاً للسلام، ورسائل صوتية مسجلة بلغات مختلفة وموجهة من شعوب الأرض إلى سكان العوالم الأخرى لتحيتهم وحثهم على الاتصال بنا، لكن.. هل سيتحقق هذا الذى يبحث عنه العلماء.. العلم عند الله وحده القائل فى محكم التنزيل..

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(الشورى: ٩)

قراءة فى كتاب



بقلم: عادل خفاجة

"هذا الكتاب.. هو رسالة دكتوراه أعدتها الباحثة "زينب عبد السلام أبو الفضل" المدرس المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة طنطا، وقد نوقشت هذه الرسالة من قبل لجنة علمية برئاسة فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة مفتى الديار المصرية وحصلت الباحثة إثر مناقشتها على درجة الدكتوراه سنة ٢٠٠٨.

ثم أعدتها الباحثة للنشر فصدرت سنة ٢٠١٠ فى طبعة فاخرة عن دار الحديث بالقاهرة، فى جزءين مجموع صفحاتهما (ألف وأربع) صفحات من قطع ١٧×٢٤ سم.

ويتكون الكتاب من مقدمة وتمهيد وتسعة فصول وقد حظى الكتاب بتقديم لكل من فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة مفتى مصر وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ والحضارة رحمه الله.

ولأن الكتاب ينصب على عناية القرآن بحقوق الإنسان فقد تم تخصيص صفحات المقدمة للكلام عن الحقوق سواء ما كان حقا لله أو ما كان من حقوق العباد وما اجتمع فيه حق الله وحق العبد.

ثم جاءت فصول الكتاب التسعة على النحو التالى:

الفصل الأول: الإنسان فى القرآن

تناولت فيه المؤلفة النزعة السماوية والنزعة الأرضية فى الإنسان ثم ما استتبع ذلك أن تكتب شيئاً عن مظاهر حب الذات عند الإنسان وكذا العلاقة بين الإنسان والكون.

الفصل الثانى: الحقوق الدينية للإنسان

وقد تناولت فيه المؤلفة: حق الاعتقاد ومسالك القرآن فى تقرير هذا الحق ونفى الإكراه فى الدين وتحرير العقل من سلطة التقليد وعدم قبول الإيمان إلا من قلب مطمئن به.

ثم حق الدفاع عن العقيدة وتناولت فيه حكم القتال فى سبيل الله والحكمة من مشروعية القتال.

الفصل الثالث: الحقوق السياسية للإنسان

فى هذا الفصل عدة أمور تذكر منها: حرية الرأى والتعبير وكيف حارب القرآن المستبدين، وكيفية تكوين رأى عام قوى ناقد، وفى هذا الصدد تناولت الباحثة تعريف المنكر الواجب تغييره وشروطه ولمن تكون سلطة التغيير، ومتى يشرع السكوت على المنكر؟ ومتى يباح الخروج على الإمام؟

وناقشت الباحثة تحت عنوان حق الشورى عدة مسائل منها:

هل الشورى واجبة؟ كيفية تطبيق واجب الشورى وطريقة اختيار أهل الشورى والفرق بين الشورى والديموقراطية الغربية، ثم هل الشورى ملزمة للإمام؟

حق العدل:

أما عن حق العدل فقد تناولته الباحثة من خلال عدة مبادئ هى:

المساواة بين الناس فى الكرامة الإنسانية.

وتحريم الظلم وحق الفرد فى محاكمة عادلة.

كما تناولت ضمانات عدالة الحكم فى الإسلام: ما يتصل بالقاضى وما يختص بالمتهم.

بالإضافة إلى ما تناولته من إجراءات وقائية كتحريم أخذ الناس بالظلم والشبهة وتقرير مبدأ: "المتهم برئ حتى تثبت إدانته".

وتقرير مبدأ: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ومنح المتهم الحق فى الدفاع عن نفسه.

والدراسة بحق تستحق كل الإنصاف لما حوته من بحوث فقهية متميزة وإننا نقف مع القارئ عند طريقة اختيار أهل الشورى إذ تقول الباحثة: "إن الله سبحانه وتعالى يقول: فى امتداح جماعة المؤمنين: «وأمرهم شورى بينهم» ولم يحدد لنا من هم أهل الشورى وإن كان ظاهر الآية يفيد أن المراد: المجموع، وليس فئة من الناس دون فئة، كما يدل على ذلك التعبير ب(هم).

لكن ما ورد عن النبى ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم فى تطبيقهم للشورى، يدل إلى أن أهل الشورى لديهم، كانوا يختلفون بحسب مقتضى الحال. فنرى رسول الله ﷺ يتبع ما يسمى فى عصرنا بـ(الانتخابات) فى أول مجلس للشورى يستعين به، كما حدث فى العقبة، حين اختار الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج وفدا عند رسول الله ﷺ، يتكون من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، وهؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ فى العقبة الثانية، وبعد أن تمت البيعة، قال لهم رسول الله ﷺ: "أخرجوا إلى منكم أثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس" حرصا منه ﷺ على أن يكون التمثيل دقيقا حسب تعداد كل قبيلة.

ثم نراه ﷺ يتبع أسلوب آخر فى الاستشارة، وهو عرض الأمر على ذوى الرأى والمكانة من المسلمين، حين يكون الأمر الذى يراد عرضه على أهل الشورى يحتاج إلى معرفة رأى خاصة الناس، أو من الأمور التى يضر إفشاؤها بمصلحة المسلمين، كما حدث يوم بدر حين علم ﷺ باستعداد قريش بالحرب، فلم يبرم الأمر حتى جمع رؤوس المهاجرين والأنصار واستشارهم، قائلا: "أشيروا على أيها الناس، وكان يريد الأنصار خاصة، خشية أن تكون مبايعتهم له ﷺ فى العقبة الثانية على أن يحموه فى بلدهم مانعا لهم من الخروج معه لملاقاة قريش.

ولما اطمأن النبى ﷺ إلى اجتماعهم معه على القتال، وكانوا أكثر عددا من المهاجرين، بدأ

بتنظيم جنده.

أما يوم أحد، فقد نهج رسول الله ﷺ نهجا آخر، حيث جعل الشورى عامة، لأنها كانت في أمر يخص الجميع، أعني: أن يبقى ﷺ ومن معه بالمدينة لملاقاة قريش، أو يخرج عنها إلى أحد؟ وكان رأى الأكثرية هو الخروج، فنزل ﷺ على رأيهم.

ويأتي الفصل الرابع للحديث عن الحقوق الاجتماعية للإنسان

وفيه تناول: حق التكافل الاجتماعي ومنهج القرآن في إرساء مبدأ التكافل في المجتمع عن طريق بناء الفرد المتكامل، وإلزام جماعة المؤمنين بأن يكونوا متكافلين فيما بينهم وكذلك من خلال تشريع موارد للتكافل منها: الزكاة والكفارات والنذور والصدقات والأضحية والوصية... إلخ.

ثم يأتي حق تكوين الأسرة ثم حقوق الزوجين وتفصيلا أوردت الباحثة أربعة حقوق للزوجة

الأول: كفالة حقوق الزوجة المالية: وتضم الصداق والمتعة والنفقة والتوارث.

والثاني: حق المعاشرة بالمعروف، وذكرت عددا من صور المعاشرة بالمعروف.

الثالث: حق الخلع، وتناولت فيه عددا من المسائل منها:

● مقدار ما تخالع به المرأة نفسها، التضييق على الزوجة مقابل المخالعة.

● إذن القاضي في الخلع، الخلع فسخ أم طلاق، والرابع: حق التفريق للضرر

وتناولت فيه ثلاث نقاط هي:

- طلب التفريق لسوء العشرة
- التفريق لعدم الإنفاق
- التفريق لعدم الكفاءة.

أما عن حقوق الأزواج فقد أثبتت الباحثة للزوج سبعة حقوق وهي:

حق القوامة، حق الطاعة، حق التعدد، حق تأديب الزوجة الناشز ووسائل ذلك، حق الطلاق، وأوضحت فيه الإجراءات التي قصد إليها الإسلام لتضييق فرص وقوع الطلاق، حق الرجعة، حق الزوج في العدة.

أما الفصل الخامس:

فقد خصصته الباحثة للكلام عن حقوق خاصة ببعض الفئات، مثل: حقوق الوالدين - وحقوق الأبناء فتناولت فيه: بر الوالدين في حياتهما وبعد موتهما ورعاية الحقوق المعنوية والمادية للأبناء مثل: ثبوت النسب وحق الإرضاع وحق الحضانة وحق التربية والتهذيب وحقوق الأطفال غير الشرعيين.

وتقدم الباحثة حق الحضانة في عبارة مركزة مستعينة بآراء الفقهاء، إذ تقول: لما كان للأم دورها الخطير في حياة الطفل، لا سيما ما يتصل بحمله وإرضاعه، رتب الفقهاء على ذلك أنها أحق بحضانته من أبيه، في حال تنازعهما على حضانته. وقد أكد قول الفقهاء: ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن امرأة قالت: يا رسول الله: إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله ﷺ: "أنت أحق به ما لم تنكحي".

قال ابن القيم: دل الحديث على أنه إذا افترق الأبوان، وبينهما ولد: أن الأم أحق به من الأب، ما لم يقم بالأم ما يمنع تقديمها، أو بالولد وصف يقتضي تخييره، وهذا ما لا يعرف فيه

نزاع، وقد قضى به خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر ولم ينكر عليه منكر، فلما ولى عمر قضى بمثله.

قال الشيخ أبو زهرة: وإذا كانت الحضانة حق للأم دون الأب، فقد اقتضى القياس أن تكون للنساء أولا دون الرجال. واقتضى أن تكون قرابة الأم مقدمة على قرابة الأب، ويتقدم فيها الأقرب فالذي يليه من هؤلاء.

وقد اشترط الفقهاء في الحاضنة: أن تكون حرة بالغة عاقلة، أمينة على الطفل، قادرة على القيام بشئونه، فإذا توفرت هذه الشروط، ولم يجز إسقاط حضانتها.

ثم انتقلت الباحثة إلى حقوق النساء ومنها:

١- حق المرأة في اختيار شريك حياتها

٢- حقها في التعليم

٣- حقها في تولي الوظائف العامة،

ولم تغفل الباحثة - عند الكلام عن هذه النقطة - ذكر بعض الضوابط التي يجب أن تلتزمها المرأة عند الخروج للعمل.

٤- حقها في تولي الولايات العامة كالقضاء وعضوية المجالس النيابية وحقها في الانتخاب وحقها في تولي الوزارة.

وقد أحسنت الباحثة إذ عقدت مقارنة بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية في التشريع لحقوق المرأة، إذ تقول: "مما سبق يتضح لنا أن عطاء الإسلام للمرأة في مجال التشريع لحقوقها، كان عطاء واسعا شاملا، وأن قضية تحريرها من المظالم الواقعة عليها، ومساواتها بالرجل في القيمة الإنسانية والكرامة البشرية، كانت من أهم القضايا التي بدأ التأسيس لها منذ طور الدعوة الأول في مكة، بحيث إذا نظرنا إلى منتهى ما وصل إليه الجهد البشري في مجال التشريع للمرأة وحقوقها بدءا من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨، ثم مرورا بصدور الإعلان العالمي للقضاء على التميز ضد المرأة عام ١٩٦٧، وانتهاء باتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة عام ١٩٧٩ - والتي تعد أهم وأشمل الاتفاقيات الدولية فيما يخص بحقوق المرأة حتى وصفت بأنها بمثابة إعلان حقوق المرأة - وإذا نظرنا إلى هذه التشريعات لوجدنا أن المرأة المسلمة في مجتمعه الشريف ﷺ، كانت قد مارست فعليا خير ما سطرته العقول البشرية نظريا في تشريعاتها هذه، ثم عجزت عجزا بينا عن تطبيقه على أرض الواقع في حياة المرأة سنين عددا".

وبعد أن طوفت الباحثة بين حقوق الزوج وحقوق الزوجة وأوضحت ما لكل منهما من حقوق وما عليه من واجبات لم تنس أن تقدم شهادتها في هذا الشأن، لتنفي ما يدعيه بعض الغلاة من الغربيين والمستغربين فتقول:

"فليس صحيحا أبدا أن الزوج في الإسلام له كل الحقوق، والزوجة عليها كل الواجبات، بل هما أكفاء تماما، حتى في حق إنهاء العلاقة الزوجية. فللمرأة حق الخلع، وحق طلب التفريق للضرر، مقابل ما للرجل من حق، الذي وضعت له الشريعة ضوابطه الخاصة، بحيث لا تضار المرأة، على النحو الذي تقدم.

وما كان للإسلام أن يحابي في النظام الأسري طرفا على حساب آخر، وهو الذي جاء لإصلاح الإنسان، وإصلاح أحوال العالم الذي يعيش فيه، والأسرة هي الحضن الطبيعي لهذا الإنسان، وهي المنبت الذي يستمد منه أخلاقه وفضائله، فصلاح الإنسان والعالم مرهونان بصلاحها،

وهذا ما يفسر لنا سر هذه العناية القرآنية بالزواج وأحكامه، التي شملت العلاقة الزوجية من مبدئها حتى منتهاها، وبها يضمن حياة مستقرة آمنة في إطار من المودة والرحمة، والتساوي بين الحقوق والواجبات.

فالزواج في نظر التشريع الإسلامي هو السبيل الشرعي الوحيد لقيام نظام أسرى مستقر صالح ينصلح بصلاحه أحوال الإنسان، والعالم الذي يعيش فيه".

الفصل السادس:

ثم تناولت الباحثة في الفصل السادس حق العمل، وحقوق العامل والمبادئ التي وضعها القرآن لصيانة حقوق العامل. وحق تملك المال وقيود تملكه وحق ولي الأمر في التدخل لضبط الملكية أو نزعها ونقف في هذا الفصل أمام " حق تملك المال " إذ تقول الباحثة:

"والمذاهب الاقتصادية الحديثة من رأسمالية وشيوعية، لم تفلح في أن تعالج تلك الفطرة في الإنسان علاجا صحيحا، فعلى حين تبيح الرأسمالية للإنسان أن يتملك من الأموال ما يشاء دون قيد أو شرط ؛ لتبيح له بذلك معها عللا كثيرة أبرزها: السيطرة، والاحتكار، واستغلال الإنسان للإنسان، وتضخم الثروات لدى فئات بعينها، والطبقية، والتحكم في السوق والأسعار، والكسب غير المشروع ونحو ذلك، نرى الشيوعية تتجه وجهة أخرى عكس تلك الوجهة، حيث حظرت على الأفراد تملك المال مطلقا، على اعتبار أن الملكية الفردية هي رأس الشرور وأساس الصراع الطبقي في المجتمع.

وقد تباينت مواقفها بالنسبة لحق التملك الفردي بتباين أنواعها، فمنها ما حظر التملك مطلقا، ومنها ما اتجه وجهة أقل تطرفا، حيث أباح التملك الفردي للمال، ولكن في حدود معينة تمنع تملك وسائل الإنتاج كالمصانع والأراضي، كما تمنع استخدام الغير أجراء لدى صاحب المال، والهدف: هو منع استغلال الإنسان للإنسان، ومحو أسطورة الملكية المشئومة مع المحرومين البائسين من الأذهان.

لم يشأ الإسلام أن يكون كأي من هذه الأنظمة، ولكنه - كعادته دائما - أتى بمنهج فريد جديد، فلم يترك الإنسان فريسة لنهمه الفطري لجمع المال، ولم يصادر هذه الفطرة كلية بحظر التملك، ولم يحدد للإنسان ما يملكه ليقف نشاطه في الحياة عند هذا الحد، أو ليحصل على أقل مما يبذل فيشعر بالغبن. سلك الإسلام مسلكا فريدا مختلفا عن هذه الأنظمة كلها، حين أباح تملك المال بقيود عديدة، أراد بها تخليص الملكية من شرورها، ثم توجيهها الوجهة الصحيحة، حتى تنقلب خيرا لنفع الفرد والمجتمع، فمصلحة الجماعة كامنة وراء هذه القيود التي يمكن إجمالها فيما يلي: أن يكون مصدر المال حلالا، وأن يتم ترشيد الكسب، وإخراج حق الله منه، وتحريم الإسراف والبخل وألا يستخدم في الرشوة وأن يتداول بين الناس.

الفصل السابع:

وتخصص الباحثة الفصل السابع للحديث عن الحقوق البيئية، والصحية للإنسان وعقاب الله للمفسدين في البيئة وحديث القرآن عن الهواء والماء والغذاء وكائنات البيئة، كما تتحدث عن الحقوق الصحية.

الفصل الثامن:

وتفرد الفصل الثامن للحديث عن حقوق غير المسلمين وتتناول فيه المبادئ التي وضعتها الشريعة كي تحكم علاقة المسلم بالآخر، كما تناولت فيه حقوق أهل الذمة. فناقشت -في هذا الصدد- حق الاعتقاد بحرية، وحق الحماية وتناولت بالتفصيل حماية الحياة والعرض والممتلكات وحمايتهم من الفقر والحاجة.

وكذلك حق العمل والتنقل، وتولي الوظائف العامة، وعضوية المجالس التشريعية وحق التقاضي والحماية من الظلم.

وتتوقف في هذا الفصل أمام قولها: إن الأصل في علاقة المسلم بغيره هي السلم لا الحرب.

فلا يجوز الاعتداء على الآخر المسالم بحال، وأن القتال له مسوغاته التي لا يجوز بغيرها، وله أيضا آدابه التي تحكمه، والمسلم يجب أن يكون أسرع الناس إلى السلم

لقوله تعالى:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

وأن الناس جميعا متساوون في أصل الكرامة الإنسانية، فالله سبحانه وتعالى قال:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

ولم يقل: ولقد كرمنا المسلم.

ثم إن مظاهر هذا التكريم من الرب جل وعلا للإنسان أن نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، مظاهر هذا التكريم كان لجنس الإنسان بصفة عامة وليس للمسلم فقط كما أخبر سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

ومن الأمثلة العملية على ذلك: ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفا، فقيل له: يا رسول الله: إنها جنازة يهودي، فقال: (أليست نفسا)

وأنه لا ينبغي أن يحتكر خير هذا الكون قوم دون قوم ؛ لأن الله سبحانه سخر منافعه للجميع، ولم يمايز بين جنس وآخر في العطاء، فالمعاملة الإنسانية على هذا يجب أن تكون واحدة ؛ لأن الطبيعة الإنسانية واحدة، والإله واحد، والكون مسخر لخير الجميع.

ثم تشير الباحثة إلى ارتقاء القرآن الكريم بأتباعه ارتقاء كبيرا حين يربيهم على ضرورة التمييز بين فصائل الآخر وتياراته، وأن لا يأخذوا الكل بجريرة البعض، فليس كل مسيحي صاحب أفكار صليبية عدوانية، وليس كل يهودي صاحب توجه صهيوني استعماري عنصري، فالعدالة في الحكم مقصد شرعي أصيل، وفي المقابل: فإن التعميم في الحكم آية من آيات الظلم الذي لا تقره الشريعة، ومن ثم كان هذا الإنصاف في كثير من الآيات التي تحدثت عن الآخر:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

فأصحاب النظرة العنصرية البغيضة التي تقر ارتكاب المنكرات والقبائح - التي يتفق عقلاء البشر جميعا على أنها قبائح - مع الآخر هم بعض أهل الكتاب وليسوا كلهم كذلك فمنهم - كما ذكرت

الآية - الذين لا يقرون المنكر ولا يفعلونه مع الناس جميعا، فهم أمناء حتى ولو على قنطار من المال - وهو الذى يمثل به على الكثرة - وهذا قمة الإنصاف لهذه الطائفة أما الطائفة الأخرى التى زعمت أن التوراة تبيح لهم أكل أموال الأميين العرب أو الأغيار، فلم تقف عنصريتها عند الآخر عند حد أكل أمواله بالباطل، ولكنها فرقت بين اليهودى وغيره من حيث حرمته وكرامته كإنسان بدليل هذا العموم فى الحكم الذى حكاه عنهم القرآن: (ليس علينا فى الأمين سبيل)

وبذا حولوا اليهودية - كما يقول الدكتور محمد عمارة - عن روح الدين الإلهي، إلى نسق فكرى عنصرى يرفض الآخر على مر التاريخ، ثم راحوا يتغذون من هذه الروح التلمودية العنصرية التى صارت موجها لتصرفاتهم ضد الآخر بشكل عام، وفى كل العصور وحتى يومنا هذا.

أما الفصل التاسع و الأخير

فتناولت فيه العقوبات الرادعة لمنتهكى حقوق الإنسان.

وأخيراً نقول: إنه على مدى صفحات البحث التى تربو عن الألف صفحة استطاعت الباحثة أن تجمع وتناقش وتثبت العديد من الحقوق التى سبق الإسلام إليها جميع التشريعات واستطاعت كذلك أن تثبت أن القرآن الكريم والشريعة الإسلامية بعامة فاقت بنظرتها العليا كل ما توصل إليه مجموع البشر حتى الآن.

وكذلك فقد أثبتت الباحثة احترام الإسلام لعقل الإنسان وإرادته وحرية تفكيره واعتقاده وأن رسالة الإسلام هى رسالة العدل الكامل المطلق والمساواة التامة بين بنى البشر وأن مظلة التكافل الاجتماعى فى الإسلام تحمى جميع أفراد المجتمع،

وبعد... فقد أجادت الباحثة أيما إجادة، فقدمت عملاً موسوعياً وأضافت للمكتبة العربية كتاباً يثرى ما بها من إبداعات.

ثم أما بعد

لقد توقفت أمام الإهداء الذى كتبته الباحثة فى صدر كتابها القيم والذى ضم توسلها إلى النبى ﷺ قائلة: " إليك يا سيدى يا رسول الله أهدى هذا العمل رجاء أن تتقبله بيمينك، فتسقينى من حوضك شربة لا أظمأ بعدها أبداً. آمين "

أقول: لقد توقفت أمام هذه الكلمات وتساءلت هل يمكن للغرب أن يفهم هذه المعانى التى يتشوف إليها كل مسلم؟.... هل يمكن أن نجد فى الغرب من يقدر أن تأليف كتاب تربو صفحاته عن الألف صفحة على مدى سنوات هى عمر هذا البحث وما بذل فيها من جهد بين متون الكتب وحواشيها تقدمه الباحثة طمعا فى شربة ماء؟

إن الفارق الكبير بين الشرق والغرب فى التفكير والاعتقاد هو ذاته ما يجعل الغرب يتيه فخراً بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان - برغم وجوده النظرى فى العالم وبعده عن التطبيق المحايد النزيه - ويغمض عينيه عن المنهل الأصيل لحقوق الإنسان وعن ريادة القرآن فى هذا المجال لا لشىء إلا لأنه إسلامى!!

بين المجلة والقارئ

أ. أحمد السيد تقى الدين

غضب الصائمين

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام. السيدة عائشة. القاهرة .. قال فيها:

ما أطيب نفوس الصائمين في شهر رمضان، حيث تنكسر العادات السيئة وتقل الرذائل وتصفد الشياطين، ويكون الناس أقرب إلى روح السماحة والعفو، وأدنى إلى البساطة ونسيان الإساءة والاعتذار بأننا في شهر كريم؛ غير أن الامتناع عن الطعام والشراب بالصيام يبدأ معه صراع الإرادة وقوة النفس أو ضعفها، وعلوها أو ترديها، ومن هنا جاءت الأوامر القرآنية والتوجيهات النبوية لتحيط العبادات ولا سيما الفرائض بسياج من التحذيرات من ضياع الأجور الكبيرة المرجوة من تلك الفرائض بسبب المخالفات التي تحبط العمل الصالح وتفرغه من مضمونه، وتقطع الطريق المودية إلى تحقق هدفه ومقصده من ترقية النفوس وتهذيب الأخلاق وصناعة الذوق العالي والأدب الجم مع الله تعالى ومع الناس.

وللغضب عموماً آثار لا تحمد عقباها، وخسارة الإنسان بسببها ضخمة وكبيرة، على النفس والجسم؛ بل والحياة أيضاً؛ لذا يقول أحد الأطباء: (إذا اعترى الصائم غضب وانفعال وتوتر ازداد إفراز الأدرينالين في دمه زيادة كبيرة وقد يصل إلى ٢٠ أو ٣٠ ضعفاً عن معدله العادي أثناء الغضب وبهذا تستهلك الطاقة بغير ترشيد كما إن بعض الجلوكوز قد يفقد من البول إن زاد عن المعدل الطبيعي وبالتالي يفقد الجسم كمية من الطاقة الحيوية المهمة دون فائدة تعود عليه)؛ لذا جاءت وصية المصطفى ﷺ لتوفر طاقات المسلم (الصائم) وتدربه على توفيرها والاحتفاظ بها في خزينة الصيام: فقال رسولُ الله ﷺ: « إذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يرفُثْ، ولا يَسْخَبْ، فإن سابَّهُ أحدٌ أو شاتمَهُ أو قاتلَهُ فليَقُلْ: إنِّي امرؤٌ صائمٌ » البخاري

وكذلك صوم شهر رمضان يعلمنا السكينة ويبعث في النفوس الطمأنينة ويجعلنا أكثر هدوءاً وأقرب للاستعلاء على سفاسف الأمور وصغائر الأحداث، لأنه شهر القرآن كما بين رب العزة والجلال بقوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

فإذا كان المولى جل جلاله أنزل القرآن ونزله تنزيلا من لدن حكيم خبير، فإنه سبحانه أنزل كذلك شيئا عظيماً يخرج من مشكاة واحدة، تلك هي السكينة والتي هي أثر من آثار رحمة الله تعالى بعباده وثمرة من ثمرات الإيمان الصيام، فقال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

فهناك رباط وثيق بين السكينة والقرآن تبينها الرواية الآتية : عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : «تلك السكينة تنزلت للقرآن» .. فليكن صومنا كما قال النبي ﷺ : «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» وكذلك صحبة القرآن الكريم ومعايشته وتدبره يظللان المسلم الصائم بسكينة تجعله أبعد الناس عن الغضب والانفعال وتحفظ عليه صوم نهاره وقيام ليله وتجعله يتمتع بسمو أخلاقي وهدوء نفسي لا مثيل له ، وأعظم من ذلك وأجل تجعله قريبا من ربه مسموع الدعاء..

اللهم إنا نسألك صياماً يفتح لنا باب حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا لرضاك عنا يا أرحم الراحمين..

حدث في رمضان

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ أحمد عبد المحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية للبنين ـ إدارة الدقي التعليمية ـ جيزة:

شهر رمضان شهر العزة والنصر ينتصر فيه المؤمنون الصائمون على أنفسهم فينتصرون على أعدائهم في جميع معاركهم ، فالإيمان بالله أقوى أسلحة النصر :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد كانت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل ، كانت على موعد مع القدر في رمضان ففي هذا الشهر المبارك وقعت أهم أحداث هذا التاريخ الظافر ، ومن صفحات الماضي الزاخر بالأمجاد الخالدة نقدم فيما يلي سجلا لأبرز الأحداث التي شاء القدر الأعلى أن يربطها بشهر الصوم ، وأن يكون مسرحا لها على وجه الحياة :

● ففي رمضان اتصلت الأرض بالسماء بأول خيط من النور ومست وجهها أولى قطرات الوحي المبارك فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

● فقد ابتدأ نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ وهو في غار حراء بأول آية من هذا الكتاب العزيز ، تأمر بالقراءة ، وتدعو إلى العلم وتسمو بالمعرفة ، وتعالي بقيمة العلماء :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

● وفي السنة الثانية للهجرة ، وقعت في رمضان غزوة بدر الكبرى ، لسبع عشرة ليلة خلت منه ، وكان خروجه ﷺ من المدينة ، لثمان ليال خلون من رمضان : على ما ذكره ابن هشام ، وكان في هذه الغزوة أول انتصار حاسم للإسلام على قوى الشرك .

● وفي رمضان من العام نفسه ـ الثامن للهجرة ـ بعث الرسول ﷺ عدة سرايا لهدم الأصنام الشهيرة حينئذ ، فبعث خالد بن الوليد لهدم (العزى) وعمرو بن العاص لهدم «سواع» ، وسعد بن زيد الأشهلي لهدم «مناة» فأدى كل منهم مهمته بنجاح .

● وفي السنة التاسعة من الهجرة شهد رمضان غزوة «تبوك» وعاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة في رمضان نفسه .

● وفي رمضان من السنة التاسعة أيضا قدم وفد الطائف إلى المدينة ، واعتنقوا الإسلام على يدي رسول الله ﷺ ، فأدوا الفرائض وصاموا رمضان مع المسلمين في المدينة .

● وفي الشهر نفسه من العام التاسع كذلك قدم وفد ملوك «حمير» يعلنون إسلامهم ، فأكرم الرسول الكريم وفادتهم ، وكتب لهم كتابا حدد فيه الحقوق والواجبات ، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة مهمة من وثائق التاريخ المتمدن .

● العام العاشر من الهجرة ، وفي رمضان منه ، بعث الرسول ﷺ الإمام عليا كرم الله وجهه في سرية من المسلمين إلى بلاد اليمن ، وقد حمل الإمام معه كتابا نبويا إلى أهل اليمن ، وخاصة قبيلة «همدان» التي أسلمت جميعها في يوم واحد ، وصلوا جميعا خلف الإمام علي .

● وفي رمضان سنة ٥٣ هجرية فتح العرب جزيرة «رودس» .

● وفي رمضان سنة ٩١ هجرية نزل المسلمون إلى الشاطئ الجنوبي لبلاد الأندلس وغزوا بعض الثغور الجنوبية .

● وفي رمضان سنة ٩٢ هجرية ، انتصر القائد المسلم طارق بن زياد على الملك «رودريك» في معركة فاصلة .

● وفي رمضان سنة ٣٦١ هجرية تم بناء الجامع الأزهر بالقاهرة للعبادة وتدريس العلوم العربية والشرعية .

● وفي رمضان سنة ٥٨٤ هجرية كان صلاح الدين الأيوبي قد أحرز انتصارات كثيرة على الصليبيين حتى استخلص منهم معظم البلاد التي كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح في شهر الصوم ، ولكنه تخوف من انقضاء الأجل قائلا : «إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون» وواصل زحفه حتى استولى على قلعة «صفد» الحصينة في منتصف رمضان .

● وفي رمضان سنة ٦٥٨ هجرية ، هزم المماليك جيوش التتار في «عين جالوت» وأوقفوا زحف الدمار التتاري نهائيا على باب مصر ، وكان التتار يستهدفون القضاء الشامل على العالم الإسلامي .

● وفي رمضان سنة ١٣٩٣ هجرية ، الموافق السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، استطاع الجيش المصري الباسل أن يقضي على أسطورة الجيش الذي لا يقهر وذلك بإنزال هزيمة زلزلت كيان جيش الكيان الصهيوني وأعادت للأمة العربية كرامتها .

ثقافة الاختلاف أين ذهبت؟!

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ محمد عباس عرابي:

المتابع للتغيرات التي حدثت في حياتنا في مصرنا الحبيبة حفظها الله وأدام عليها سبحانه نعمة الأمن والأمان يجد أن هناك حرية كبيرة بنسبة ١٠٠٪ في التعبير عن الرأي والكل يقول ما يريد ، ولكن ما يحتاج التوقف عنده هو ظن الكثير أن رأيهم هو الصواب ورأي غيرهم يجب أن يهاجم بكل السبل وإظهاره في صورة مشينة ، وإظهار مثالب صاحبه بعيدا كل البعد عن احترام الرأي الأخرى فهل هذه هي ثقافة الاختلاف؟ كلا إنه التعصب للرأي والانتصار للذات والرأي ولا يهم إن كان صوابا أو إن كان خاطئا والسؤال إلى أين ذهبت الموضوعية في الحوار وأين آداب الحوار؟ وأين ذهبت ثقافة الاختلاف؟!

إن على المؤسسات التربوية والإعلامية دورا كبيرا في غرس آداب ثقافة الاختلاف في نفوس الجماهير والأجيال ، فقنا الله القول الحق ، ورحم الله القائل : رأيي خطأ يحتمل الصواب ، ورأي غيري صواب يحتمل الخطأ!!

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد: عبدالموجود أمين، محمود الفشنى

مواجهة الغزو الشيعى


د. أحمد الطيب

لمواجهة موجة التبشير بالتشيع فى المجتمعات السنية، والتى تتمثل فى سيل الكتب التى تسئ إلى أمهات المؤمنين وصحابة رسول الله ﷺ والتى بدأت فى افتتاح ما يسمى بالحسينيات.

والتى تتوسل بزواج المتعة لجذب بعض الشباب.

ولما لهذا الأمر من تأثيرات سلبية على الوحدة الفكرية للمجتمعات السنية، بتحويلها إلى مجتمعات طائفية بأسها بينها شديد، الأمر الذى يعجزها عن حمل مشروع النهضة الإسلامية المنشودة، ويحقق - من ثم - مقاصد الإمبريالية الغربية والصهيونية العنصرية.

لمواجهة هذا الخطر دعا الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر إلى لقاء حضره لفيف من العلماء الذين يمثلون مختلف تيارات الفكر فى الساحة الإسلامية.

وتم تدارس هذا الأمر، وطرق مواجهته، وسبل التحصين الفكرى لمجتمعات أهل السنة والجماعة - وفى المقدمة منها المجتمع المصرى - ضد هذه المخاطر، والواجب الملقى على كاهل العلماء والدعاة.

ولاتزال الجهود مبذولة، والتحضيرات قائمة لمواجهة هذا الوافد الضار، وذلك لوضع هذا التخطيط فى واقع الممارسة والتطبيق إن شاء الله.

وكان مجلس مجمع البحوث الإسلامية قد بحث فى جلسته المنعقدة بتاريخ ٨ من شعبان ١٤٣٣ هـ الموافق ٢٨ من يونيو ٢٠١٢م الظاهرة التى تشهدها البلاد حاليا فى الآونة الأخيرة من دعوات توجه إلى بعض الأئمة والخطباء بمصر لزيارة ما يسمى بالعتبات المقدسة فى إيران، وقد صاحب هذه الدعوات توزيع كثير من الكتب التى تروّج للعقائد الشيعية المرفوضة من أهل السنة والجماعة.

والأزهر الشريف يحذر من الاستجابة لهذه الجهود التى تسعى إلى تمزيق وحدة المجتمعات السنية وتحويلها إلى مجتمعات طائفية يكون بأسها بينها شديدا، وبما يحقق مقاصد أعداء الأمة.

بيان إلى الأمة حول المادة الثانية من الدستور



أصدر فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب بيانا حول المادة الثانية من الدستور جاء فيه:

لقد ثار جدل كثير خلال الفترة الماضية، حول المادة الثانية من الدستور، وجرى الحديث عنها فى وسائل الإعلام مسموعة ومقروءة ومرئية، وهو جدل رأى فيه الأزهر خروجا على ما تم الاتفاق عليه فى وثيقة الأزهر، وما سبق أن وقع عليه كافة ألوان الطيف السياسى فى مصر من أحزاب وتيارات وجماعات، وافق عليه بيت العائلة المصرى. وفى ظل هذا الجدل الذى قد يشوش فكر الأمة، ويحول دون وصولها إلى الاستقرار المنشود، فإن الأزهر الشريف يرى من موقع مسئوليته الشرعية - والوطنية والتاريخية، أن يعلن أن موقفه كان ومازال هو إبقاء المادة الثانية على صياغتها التى وردت فى الدستور المصرى وهى: «الإسلام دين الدولة الرسمى واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع».

إن هذه المادة بصياغتها الحالية هى عنوان توافق بين جميع القوى السياسية فى مصر التى اجتمعت فى رحاب الأزهر الشريف حول وثيقة الأزهر.

والمادة بصياغتها الحالية توجه أكثر من خطاب على النحو التالى:

أولا: توجه خطابا إلى المشرّع المصرى للعمل على صناعة القوانين المصرية فى كل فروع القانون على أن تكون مستمدة من الشريعة الإسلامية، بمذاهبها المعتبرة أو مستفيدة من التراث القانونى العالمى شريطة ألا يتعارض مع الشريعة، وبما يحقق مصالح الناس.

ثانيا: توجه خطابا إلى القضاء المصرى ممثلا فى المحكمة الدستورية العليا باعتبارها الجهة الوحيدة التى أناط بها الدستور أمانة النظر فى دستورية القوانين وإلغاء كل نص قانونى يخالف الشريعة الإسلامية، وهذا ما درجت عليه المحكمة الدستورية العليا فى أحكامها الصادرة بإلغاء النصوص القانونية المخالفة للمادة الثانية من الدستور.

ويهيب الأزهر الشريف بكل الإخوة الفضلاء المعنيين بهذه المادة الإبقاء على هذه المادة كما وردت فى دستور ١٩٧١م؛ لأنها تمثل عقيدة الأمة والمصدر الأهم لهويتها. ومبادئها وأصولها هى المصدر الرئيسى لتشريعاتها، وهى فى هذا الموقع الرفيع من البناء الدستورى للأمة لا تقبل الجدل ولا تسمح لأحد أن يجر الأمة باسم خلافات لفظية إلى خلافات تبدد الطاقات وتثير المخاوف وتفتح أبواب الفرقة والفتنة التى تشغلنا عن الالتفات إلى عظائم الأمور، وتعطل ما نرغب فيه من اكتمال صياغة الدستور المصرى فى هذا الوقت التاريخى والحرج وحتى يتحقق - بمعونة الله - استقرار الوطن وتلبى طموحات الأمة جميعا.

وخلاصة القول: إن موقف الأزهر الشريف الذى دافع وحافظ على الشريعة الإسلامية طيلة ألف عام ومايزال، إن موقفه النهائى والحاسم هو عدم المساس بالمادة الثانية من الدستور بصيغتها الحالية زيادة أو حذفا.

هذه مسئوليتنا أمام الله وأمام الأمة، اللهم إنى قد بلغت، اللهم فاشهد.

نشر الشائعات يضر بالأمة ومصالحها العليا

أصدرت إدارة الإعلام بمشيخة الأزهر بياناً تنفي فيه ما تناقلته بعض وسائل الإعلام والاتصال على شبكات الإنترنت، بشكل يوحي بأن السيد رئيس الجمهورية الدكتور/ محمد مرسي لم يصافح الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ خلال تواجدهما في منصة المعهد الفني للقوات المسلحة، يوم ٩ يوليو ٢٠١٢م.. أوضح البيان أن كل ما ذكر ما هو إلا إيماءات لا أساس لها من الصحة على الإطلاق. وكشف البيان أن لقاء قد تم بين السيد الرئيس وفضيلة الإمام الأكبر قبل هذا اللقاء ببضع دقائق في حفل مماثل بالكلية الفنية العسكرية؛ حيث تم اللقاء والمصافحة والترحيب المتبادل بينهما، كما شاهده الملايين على شاشات التلفاز.

وناشد البيان الإعلاميين وكل من يتواصلون على شبكات التواصل الاجتماعي توخي الحقيقة والدقة في هذه الأمور، وعدم افتعال أزمات لا لزوم لها؛ إذ أن نشر الشائعات في هذه المرحلة يضر بالأمة ومصالحها العليا.

وقد تلقى فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ اتصالاً تليفونياً من فخامة الرئيس محمد مرسي ـ رئيس الجمهورية ـ أبدى خلال تقديره واعتزازه بالأزهر الشريف وشيخه وهيئة كبار العلماء، وأشاد بالدور المتميز للأزهر الشريف على المستوى الوطني والعربي والإسلامي والعالمي، والذي يجسد سماحة الإسلام وعظمته ووسطيته؛ كما أعرب سيادة الرئيس عن استيائه البالغ من تصرف القائمين على بروتوكول رئاسة الجمهورية خلال احتفالية جامعة القاهرة.

من جانبه عبّر الإمام الأكبر خلال الاتصال التليفوني عن شكره وتقديره للسيد رئيس الجمهورية، معرباً عن أمله أن يوفقه الله ويسدد خطاه في جمع المصريين على كلمة سواء، حتى تتفرغ جميعاً للعمل والبناء واستكمال أهداف الثورة.. وكان فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - قد توجه على رأس وفد رفيع المستوى من أعضاء هيئة كبار العلماء ومجمع البحوث الإسلامية لزيارة فخامة الرئيس المنتخب الدكتور محمد مرسي رئيس الجمهورية، للتشاور مع سيادته.

وفي ذات السياق نفى الأزهر انسحاب ممثليه من اللجنة التأسيسية لكتابة الدستور، حيث صرح مصدر إعلامي مسئول بالأزهر الشريف بعدم صحة ما تناولته بعض وسائل الإعلام عن انسحاب ممثليه من اللجنة التأسيسية لوضع الدستور، ويؤكد الأزهر الشريف على استمرار عمل أعضائه باللجنة التأسيسية؛ للقيام بدورهم الوطني مع باقي أطياف المجتمع، للعبور بالوطن إلى بر الأمان في تلك اللحظة التاريخية لمصر.

أفاد بذلك فضيلة الدكتور محمد مصطفى جميعة مدير عام الإعلام بمكتب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

الإمام الأكبر يؤكد: التيارات التي كانت محظورة جزء أصيل من النسيج الوطني

أكد فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - خلال استقباله للسفير الفرنسي بالقاهرة السيد/ نيكولا جاليه أن مصر بدأت على درب الاستقرار بوصول رئيس الجمهورية عن طريق الانتخاب الحر المباشر وهذا مكسب كبير في هذه المرحلة الفاصلة في حياة المصريين؛ وهو ما يعدّ أساساً راسخاً للديمقراطية والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، مما يتطلب سرعة التعامل مع المشكلات الحادة التي تواجه المجتمع، سواء في مجالات الأمن والبطالة والتعليم والطاقة وكافة القضايا الأخرى.

ومن جانبه أشاد السفير الفرنسي بالدور المهم الذي يلعبه الأزهر الشريف في تاريخ مصر الحديث وخصوصاً بعد ثورة ٢٥ يناير والذي جعل أنظار العالم متجهة إلى هذا الدور المتميز آملاً في تدعيم أواصر العلاقات التعليمية بين هذا الصرح الشامخ والمؤسسات التعليمية في فرنسا وفي مقدمتها المركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة وتبادل الزيارات والبرامج التدريبية وبخاصة لأئمة فرنسا للاستفادة من الفكر الوسطي للأزهر الشريف بما يعود بالنفع على المجتمع الفرنسي.

وعن أسباب ظهور السلفية بعد الثورة قال فضيلة الإمام الأكبر: إن جو الحريات والديمقراطية التي تعيشها مصر بفضل الله ثم بفضل الثورة قد جعل كل التيارات والمشارب والتجمعات التي كانت محظورة بالقوة أو بالفعل، تخرج لتؤدي دورها في جو ديمقراطي كان غائباً لعقود والحمد لله أننا ننعم بهذا الجو الصحي الذي ستخرج به مصر قوية بإذن الله، مؤكداً أن إخواننا السلفيين وكل الفصائل والتيارات جزء أصيل من النسيج الوطني الذي سيسهم في بناء مصر الحديثة.. وحول دور الأزهر في الوقت الراهن أوضح فضيلة الإمام الأكبر أن الأزهر بما له من رصيد في نفوس الشعب المصري يحاول أن يلم الشمل ويلتقي مع كافة أطياف الشعب وتياراته المختلفة للتوافق والبعث برسائل طمأنينة إلى المصريين جميعاً مسلمين ومسيحيين؛ حتى تعبر مصر هذه المرحلة الفارقة من تاريخها الحديث إلى آفاق التقدم والازدهار والاستقرار والأمان. صرح بذلك فضيلة الدكتور محمد مصطفى جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر الشريف.

الإمام الأكبر يستنكر التطهير العرقي وحملات الإبادة لمسلمي بورما

استنكر فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ بشدة حملات الإبادة والترويع التي تعرض لها مسلمو «بورما» في إقليم «أراكان» المسلم، حيث يتعرضون لحملات من القتل والتشريد والاضطهاد بالإضافة إلى تهجيرهم وتدمير منازلهم وممتلكاتهم ومساجدهم على يد الجماعة البوذية الدينية المتطرفة «الماغ» بدعم من الأنظمة البوذية الديكتاتورية في بورما، وهو ما يتنافى مع كل الأديان السماوية والقيم الإنسانية وحقوق الإنسان التي أقرتها سائر المبادئ والاتفاقيات الدولية. ويهيب الأزهر الشريف بحكومات العالمين: العربي والإسلامي، وكل القوى المحبة للسلام والهيئات والمؤسسات الخيرية والإغاثية وهيئة الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان في كل أرجاء العالم أن تعمل على رفع الظلم الواقع على هؤلاء المضطهدين الذين يعانون من التمييز العنصري وحرمانهم من حقوقهم، وأن تقدم الحكومات كافة أشكال الدعم لهم، لمنحهم حقوق المواطنة كاملة، وتمكينهم من العيش على أراضيهم في أمن وسلام.

ملك اليمين ردة وعودة إلى الجاهلية!!

أكد فضيلة الشيخ/ علي عبدالباقي شحاتة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في بيان أن ملك اليمين حالة من أحوال النكاح خاصة بنظم الرق والعبودية التي كانت منتشرة في العالم قبل الإسلام، وقضى عليها الإسلام بالتدريج في التشريع، بل عمل الإسلام على التخلص من كافة صورها والتي تشكل إحدى صور الاستعباد، وذلك من خلال فرض عتق رقبة في كل الكفارات، وكذلك صدرت القوانين الدولية والمواثيق بتحريم الاسترقاق وتقييد حرية الإنسان، فانتهى بهذا ملك اليمين، وأصبح غير موجود بلا رجعة، فالحديث عنه في هذه الأيام هو ردة وعودة إلى عصر الجاهلية، ودعوة إلى العلاقات الجنسية الآثمة والمحرمة، ولا يسمى زواجاً على الإطلاق، لفقده الأركان والشروط الواجبة في الزواج.

لا يجوز انفاق أموال الزكاة على إنشاء المعامل

ناقش مجلس مجمع البحوث الإسلامية في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٨ من شهر يونيو ٢٠١٢م الطلب المقدم من د. حازم علي عطية عميد كلية الهندسة جامعة الفيوم بشأن طلب الرأي الشرعي في قبول تبرعات من زكاة المال وذلك لاستغلالها في إنشاء معامل أو مراكز علمية أو صيانة ما هو قائم منها لتخدم الطلاب بصفة عامة والطلاب غير القادرين بصفة خاصة. وقرر المجلس أنه لا يجوز الإنفاق من أموال الزكاة على إنشاء المعامل والمراكز العلمية وصيانة ما هو قائم منها، وإنما ذلك متروك للتبرعات التطوعية الزائدة عن الزكاة من أهل الخير.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

الإيسيسكو تناشد الضمير الإنسانى للعناية بشئون اللاجئين فى العالم الإسلامى

وجهت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - بمناسبة يوم اللاجئ العالمى، نداء إلى الضمير العالمى للعناية بملايين اللاجئين فى العالم الذين يزيد تعدادهم على أربعين مليون لاجئ من الأطفال والنساء والشيوخ ومن مختلف الفئات، أكثرهم من دول العالم الإسلامى. وقالت الإيسيسكو فى ندائها: إن اللاجئين من الشعوب الإسلامية هم ضحايا الحروب والنزاعات المسلحة التى فرضت على بعض دول العالم الإسلامى، أو الصراعات الدامية والأزمات الداخلية التى تتسبب فى نزوح الملايين من المسلمين من ديارهم إلى الدول المجاورة، فرارا من القتل والقمع والبطش، والتماسا للأمن والأمان والسلام، ومنهم اللاجئون الفلسطينيون الذين أخرجوا من وطنهم فلسطين المحتلة، وأرغموا على النزوح والاغتراب والتشتت فى مناطق كثيرة من العالم، نتيجة للعدوان الغاشم الذى تمارسه إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى منذ أكثر من ستة عقود. وأبرزت الإيسيسكو فى ندائها أن المفوضية السامية للأمم المتحدة لشئون اللاجئين، تقوم بجهود كبيرة لخدمة الملايين من اللاجئين فى جميع أنحاء العالم، وأن جل الخدمات التى تقدمها توجه إلى اللاجئين المسلمين. وناشدت الإيسيسكو المجتمع الدولى تقديم الدعم للمفوضية السامية التى تعنى بشئون اللاجئين وعديمى الجنسية والنازحين داخليا من أجل توفير الموارد المالية لتلبية الاحتياجات المتزايدة للاجئين ومنها حوالى عشرين مليونا من المسلمين. ودعت الإيسيسكو دول العالم الإسلامى إلى تكثيف الجهود لتوفير الدعم اللازم من أجل العناية باللاجئين والنازحين من الشعوب الإسلامية.

إسرائيل تواصل تحدى العالم بإنشاء آلاف الوحدات الاستيطانية

اتخذ رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو سلسلة قرارات لتعزيز الاستيطان فى الأراضى المحتلة، خاصة فى مدينة القدس. حيث أصدرت الحكومة الإسرائيلية قراراً بإقامة أكثر من ٨٠٠ وحدة استيطانية جديدة، فيما صادقت بلدية القدس الغربية على مخطط كبير لتوسيع مستوطنة (غيلو) بإقامة ٢٥٠٠ وحدة. من جانبها طلبت القيادة الفلسطينية من الولايات المتحدة واللجنة الرباعية الدولية التدخل، وقال عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير صائب عريقات: لا توجد حكومة فى تاريخ إسرائيل دعمت الاستيطان كما فعلت حكومة نيتانياهو، وبالتالى فإنه يعترف بأن حكومته تدعم المستوطنين وتأمل أن تكون أقواله بمثابة رسالة واضحة للمجتمع الدولى بأنه آن الأوان للكف عن التعامل مع إسرائيل كدولة فوق القانون، وأضاف: واشنطن أكدت أن الاستيطان عقبة فى طريق حل الدولتين وكذلك فعلت اللجنة الرباعية والعالم أجمع، وبالتالى فإن السؤال المطروح الآن هو: ماذا بعد الإدانة؟

.. والشيخ سلامة: يستنكر قرار الاحتلال الإسرائيلى اعتبار ساحات المسجد الأقصى المبارك ساحات عامة

استنكر الشيخ الدكتور يوسف جمعة سلامة خطيب المسجد الأقصى المبارك النائب الأول لرئيس الهيئة الإسلامية العليا بالقدس قيام مجموعات من جيش الاحتلال الإسرائيلى والمستوطنين باقتحامات متكررة للمسجد الأقصى المبارك، ورفع الأعلام الإسرائيلية على أسواره.

كما استنكر الشيخ سلامة التصريحات الصادرة عن سلطات الاحتلال الإسرائيلى، والتى تعتبر ساحات المسجد الأقصى المبارك جزءا من الساحات العامة التى تقع تحت تصرف بلدية الاحتلال فى المدينة المقدسة، وقال سلامة: لقد أعلنا مرارا وتكراراً أن المسجد الأقصى المبارك مسجد إسلامى بقرار ربانى، وأن هذا القرار لن يلغيه أى قرار يصدر من هنا وهناك.

وناشد سلامة منظمة التعاون الإسلامى ولجنة القدس ورابطة العالم الإسلامى وجامعة الدول العربية بضرورة التحرك السريع والجاد لإنقاذ المسجد الأقصى المبارك، ووقف الاعتداءات الإسرائيلية فى مدينة القدس، وسائر الأراضى الفلسطينية، وضرورة العمل على تثبيت المقدسيين فى مدينتهم من خلال إقامة المشاريع الإسكانية لهم، ودعم مؤسساتهم الصحية والتعليمية والثقافية والتجارية، ودعم صمود أهلها بكل الطرق التى تؤهلهم للوقوف أمام هذه الهجمة الإسرائيلية الشرسة لصبغ المدينة المقدسة بالصبغة اليهودية الاحتلالية.

اليونسكو تدرج كنيسة المهد فى بيت لحم على قائمة التراث العالمى

أدرجت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو) كنيسة المهد ببيت لحم فى الأراضى الفلسطينية على قائمة التراث العالمى أثناء اجتماع فى سان بترسبورج بشمال غربى روسيا.

وأدرج "مهد ولادة المسيح" الذى يضم أيضا مسار الحج بغالبية ١٣ صوتا من أصل ٢١ مقابل ستة أصوات معارضة وامتناع اثنين عن التصويت أثناء جلسة تصويت أعضاء لجنة التراث المجتمعين فى مدينة سان بترسبورج.

وكنيسة المهد هى أول موقع فلسطينى يدرج ضمن لائحة التراث العالمى لمنظمة اليونيسكو، وتقدم الفلسطينيون فى إجراء "عاجل" بطلب إدراج الموقع بعد حصولهم على عضوية منظمة اليونيسكو فى أكتوبر ٢٠١١م.

وكانت إسرائيل قد أكدت أنها لا تعترض على إدراج الموقع فى التراث العالمى، لكنها احتجت على استخدام الإجراء العاجل معتبرة أنه "طريقة للتلميح إلى أن إسرائيل لا تحمى الموقع".

ومدينة بيت لحم، التى ولد فيها المسيح تعتبر من أبرز أماكن الحج لدى المسيحيين لوجود كنيسة المهد المبنية فى القرن الرابع إبان عهد الإمبراطور الرومانى قسطنطين، وهى تاريخيا منطقة مسيحية.

وبفعل الهجرة المستمرة فى القرنين الماضيين من بيت لحم إلى إمريكا اللاتينية، بات معظم سكان المدينة من المسلمين، ولكنها ما زالت مركزا مهما للطوائف المسيحية.

مسلمو روسيا ينتقدون حظر بعض الكتب الدينية بحجة التطرف

انتقد مجلس مفتى روسيا بشدة قيام السلطات بحظر بعض كتب الدين الإسلامى بحجة أنها متطرفة، معتبراً ذلك رجعة إلى زمن سيطرة الأيديولوجية الواحدة مثلما كان الحال إبان العهد الشيوعى السابق، وإجراء منافيا للديمقراطية وإنذارا لمواطنى روسيا.

جاء ذلك فى بيان أصدره المجلس احتجاجا على حكم كانت قد أصدرته مؤخراً محكمة جزئية بمدينة أو دنبرج بشأن حظر تداول ٦٥ كتابا دينيا وتاريخيا من إصدارات معظم دور النشر الإسلامية فى روسيا.

وأشار البيان الذى نقلته وكالة أنباء «نوفوستى» إلى أن الحكم الذى أصدرته المحكمة فى جلسة سرية بدون الرجوع إلى واحد من مؤلفى أو مترجمى أو ناشرى هذه الكتب، ثم تطبيقه وتعميمه على مكتبات بيع الكتب بمعرض الكتاب الذى أقيم مؤخرا بمدينة «قازان» عاصمة جمهورية «تترستان» الروسية.

وجدد البيان حرص مجلس مفتى روسيا على مكافحة التطرف بكافة أشكاله، داعيا إلى عدم مصادرة الكتب الدينية، بحجة أنها قد تكون مسئولة عن شيوع مشكلات اجتماعية أو سياسية فى المجتمع، مشددا فى الوقت ذاته على ضرورة قمع كل من ينتهك قوانين البلاد.

التعاون الإسلامى تشجب هدم المواقع التاريخية فى مالى

شجبت منظمة التعاون الإسلامى، فى بيان صحفى ـ هدم المواقع التاريخية فى «تيمبكتو» فى مالى، من قبل جماعات متطرفة.

وقال الناطق الرسمى باسم المنظمة فى البيان: إن المواقع كانت جزءا من التراث الإسلامى الغنى فى مالى، وكان يجب عدم السماح بهدمها أو الإضرار بها من قبل جماعات متطرفة.

وأضاف الناطق الرسمى، أن المنظمة دعت لاتخاذ الإجراءات الضرورية والخطوات المناسبة من أجل حماية المواقع التاريخية والحفاظ عليها.

وكانت مجموعة متشددة أطلقت على نفسها «أنصار الدين» فى مالى قد شرعت فى هدم أضرحة الأولياء فى «تيمبكتو» التى أدرجت على لائحة التراث العالمى المهدد بالخطر، وذلك فى الوقت الذى توعدت فيه المحكمة بملاحقة أنصار الدين واصفة هدم الأضرحة بأنها «جرائم حرب».

المفتى يهيب بالمسلمين حكومات وشعوبا نصرة مسلمى بورما المضطهدين

استنكر الدكتور على جمعة، مفتى الجمهورية، بشدة حملات الإبادة التى يتعرض لها مسلمو بورما فى إقليم أراكان المسلم هذه الأيام، حيث يتعرضون لحملات من القتل والتشريد والاضطهاد، بالإضافة إلى تهجيرهم وتدمير منازلهم وممتلكاتهم ومساجدهم، على يد الجماعة البوذية الدينية المتطرفة (الماغ) بدعم ومباركة من الأنظمة البوذية الدكتاتورية فى بورما.

وأهاب جمعة بحكومات المسلمين وكل القوى المحبة للسلام والهيئات والمؤسسات الخيرية والإغاثية وهيئة الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان فى كل أرجاء العالم، الإسراع لنصرة مسلمى بورما الذين يعانون من الاضطهاد والتمييز العرقى وحرمانهم من حقوق المواطنة منذ ستين عاما، وتقديم كافة أشكال الدعم لهم، ومنحهم حقوق المواطنة كاملة ومساواتهم بكل مواطنى بورما.

وحذر من خطر استمرار قتل واضطهاد المسلمين فى بورما، مؤكدا أن الجميع يرفض سياسة التمييز البوذية التى أدت إلى حملات الاضطهاد الأخيرة، حيث قتل عدد من العلماء والدعاة المسلمين بجانب اعتقال الأبرياء، مما أدى إلى هروب آلاف المسلمين إلى بنجلاديش المحاذية للإقليم.

يذكر أن الإسلام وصل إلى إقليم أراكان فى بورما فى القرن التاسع الميلادى وأصبحت أراكان دولة مسلمة مستقلة، إلى أن احتلها الملك البوذى البورمى (بوداباى)، فى عام ١٧٨٤م وضم الإقليم إلى بورما خوفا من انتشار الإسلام فى المنطقة، ويبلغ عدد سكان بورما أكثر من ٥٠ مليون نسمة، منهم ١٥٪ مسلمون، حيث يتركز نصفهم فى إقليم أراكان- ذى الأغلبية المسلمة.

ومع حلول الديمقراطية فى ميانمار (بورما) أعلنت الحكومة بأنها ستمنح بطاقة المواطنة للروهنجيين (المسلمين) فى أراكان، فكان هذا الإعلان بالنسبة للماغين (البوذيين) بمثابة صفعة على وجوههم؛ لأن من شأنه أن يساهم فى انتشار الإسلام فى أراكان، حيث إن الماغين يحلمون بأن تكون أراكان منطقة خاصة بهم لا يسكنها غيرهم.

مجلة ديرشبيجل: الإسلام جزء لا يتجزأ من ألمانيا

أكدت مجلة ديرشبيجل الألمانية أن الإسلام جزء لا يتجزأ من المجتمع الألمانى وسلطت الضوء على الجدل الذى حدث مؤخرا فى أوساط السياسيين الألمان حول انتماء الإسلام للمجتمع الألمانى واعتبرت المجلة أن هذا الجدال والنقاش دليل واضح على نقص الفهم للتاريخ لدى هؤلاء السياسيين نظرا لأن الشواهد التاريخية والثقافية تؤكد أن الإسلام جزء لا يتجزأ من ألمانيا.

وأشارت المجلة إلى آراء سياسيين ألمان بشأن الإسلام فى برلين بعد الجدل الذى صاحب بحث المسلمين هناك عن هويتهم ففى الوقت الذى أدلى فيه وزير المالية فى مقاطعة بافاريا ماركوس سودرس بتصريح أدهش جمهوره من المهاجرين الأتراك حين قال: إن الإسلام جزء لا يتجزأ من بافاريا قام الرئيس الألمانى زيواكم جاوكس باستخدام تصريح الرئيس الألمانى السابق زكريستيان فولفس بأن المسلمين الذين يعيشون فى ألمانيا ينتمون لها.

وأوضحت مجلة دير شبيجل أن مسلمي ألمانيا الذين هاجروا إليها من الشرق يعلمون الحقائق السابقة نظرا لالتحاقهم بالمدارس والجامعات الألمانية وهم يشعرون بالدهشة من تجاهل مثل هؤلاء السياسيين للجوانب المظلمة في الغرب في الوقت الذي ينسون جوانبه المضيئة لأنفسهم فقط متجاهلين حقيقة أن العالم الغربي يقف على أرجل شرقية مسلمة حسب تعبير رئيس المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا أيمن مزياك.

ملتقى تربوي لحفاظ القرآن الكريم في طاجيكستان

نظمت جامعة الإمام أبو حنيفة الإسلامية في طاجيكستان، الملتقى التربوي لحُفّاظ القرآن الكريم في مدينة دوشنبة، عاصمة طاجيكستان، بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - والهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم.

ناقش المشاركون في الملتقى طرق تحفيظ القرآن الكريم، وسبل تطوير خبرات الحُفّاظ وتعزيز كفاءتهم، وتعزيز دورهم في ترسيخ قيم الوسطية والاعتدال، وتشجيع التواصل وتبادل الخبرات والتجارب بين المهتمين والمختصين في مجال تحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه.

دعوة إلى إنشاء مركز عالمي لتطوير برمجيات القرآن الكريم

دعا المشاركون في الملتقى القرآني التربوي لإعداد وثيقة مرجعية حول الضوابط العلمية والتقنية والشرعية لتعليم القرآن الكريم باستخدام المستجدات التكنولوجية، الذي عقد في العاصمة الأردنية عمان، إلى إنشاء لجنة تابعة للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - للاطلاع على ما ينشر من البرمجيات المتعلقة بتعليم القرآن الكريم، ومراقبة وتدقيق صحة ما ورد فيها من معلومات، وتعميم الملاحظات والتوجيهات اللازمة إلى من يهمهم هذا الأمر.

ودعوا إلى ضرورة الاهتمام بتطوير طرق تدريس القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا في المراكز والحلقات القرآنية من خلال التوظيف الأمثل للحاسب الآلي وتقنيات الوسائط المتعددة في التدريس من خلال إعادة النظر في صياغة المناهج والمقررات الدراسية الحالية وتضمينها البعد التكنولوجي، وتدريب معلمي القرآن الكريم على كيفية استخدام البرمجيات التعليمية وتوظيفها في عملية التدريس، وإجراء بحوث ودراسات ميدانية تقنية متخصصة في مجالات تدريس القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا، والاستفادة من التقنيات المتطورة في هذا المجال.

وأوصوا بتأسيس مركز عالمي لتطوير برمجيات القرآن الكريم بالتعاون مع الإيسيسكو ووزارات الأوقاف في الدول الأعضاء يعمل على ابتكار برمجيات خدمة القرآن الكريم وإنشاء الجائزة العالمية لبرمجيات القرآن الكريم، وإنشاء وقفية لبرمجيات القرآن الكريم، وإعداد فهرس إلكتروني لحصر كل الدراسات والبحوث العلمية المتعلقة بالقرآن الكريم.

ودعوا إلى إنشاء مختبرات تحفيظ القرآن الكريم في المدارس من أجل تدريب المتعلم على القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، وحفز المتعلم على حب المادة وحفظ النص القرآني بطريقة مسلية وفاعلة.

[Taha: 114]

The story of Mosa (may peace of Allah be upon him) and the one endowed with divine knowledge in Surah Al-Kahf is an evidence on the difference between the relative and divine knowledge:

{'Then they found one of Our slaves, on whom We had bestowed mercy from Us, and whom We had taught knowledge from Us.}

[Al-Kahf (The Cave): 65]

The human knowledge is the outcome of existing things. However, the Divine knowledge is the source of existence and things existed. Thus Allah (Glory be to Him) is described as "Al-`Alim" (the All-Knower) not Al-`Arif (Acquainted) because acquaintance is relative and incomplete. We may say "I am acquainted with Allah" but not "I know Allah", as no one can know fully the Divine Entity. Also, Allah (Glory be to Him) is described as "Al-Shari`" (Legislator) of the Divine Shari`ah, which is a complete Divine Knowledge set by Allah. We do not describe Allah as "jurist" because jurisprudence is changing incomplete knowledge, which is the outcome of contemplating, deep thinking, reasoning of reality and the decadence of Shari`ah to this reality.

10- Methodology of various, diversity, and difference in Shari`ahs, creeds, cultures, sects, languages, nationalities, civilizations, kinds, colors, tribes, nations, and people, and the continuation of this norm forever until Allah inherits the earth and everything existing on it:

{'Certainly, your efforts and deeds are diverse (different in aims and purposes);}

[Al-Layl (Night): 4]

manner, inviting them to Islâmic Monotheism with His Verses), except with such of them as do wrong; and say (to them): "We believe in that which has been revealed to us and revealed to you; our Ilâh (God) and your Ilâh (God) is One (i.e. Allâh), and to Him we have submitted (as Muslims).")

[Al-`Ankabut (Spider): 46]

6- Methodology of tolerating the sayings of the disbelievers patiently and referring the matter of the belying people to the All-Able and the Irresistible:

{'And be patient (O Muhammad peace be upon him) with what they say, and keep away from them in a good way. 'And leave Me Alone to deal with the deniers (those who deny My Verses), those who are in possession of good things of life. And give them respite for a little while.}

[Al-Muzzamil (The Enshrouded One): 10-11]

7- Granting knowledge and science to all of the people, even the disbelievers who seek knowledge:

{'And if anyone of the Mushrikûn (polytheists, idolaters, pagans, disbelievers in the Oneness of Allâh) seeks your protection, then grant him protection so that he may hear the Word of Allâh (the Qur'ân), and then escort him to where he can be secure, that is because they are men who know not.}

[Al-Tawbah (Repentance): 6]

8- Methodology of differentiating between the categories, trends, and approaches of people:

{'Not all of them are alike; a party of the people of the Scripture stand for the right, they recite the Verses of Allâh during the hours of the night, prostrating themselves in prayer. 'They believe in Allâh and the Last Day; they enjoin Al-Ma'rûf (Islâmic Monotheism, and following Prophet Muhammad peace be upon him) and forbid Al-Munkar (polytheism, disbelief and opposing Prophet Muhammad peace be upon him); and they hasten to (all) good works; and they are among the righteous. 'And whatever good they do, nothing will be rejected of them; for Allâh knows well those who are Al-Muttaqûn (the pious - see V.:).}

[Al-Imran (The Household of Imran): 113-115]

{'Is it not (the case) that every time they make a covenant, some party among them throw it aside? Nay! (the truth is:) most of them believe not. 'And when there came to them a Messenger from Allâh (i.e. Muhammad peace be upon him) confirming what was with them, a party of those who were given the Scripture threw away the Book of Allâh behind their backs as if they did not know!}

[Al-Baqarah (The Cow): 100-101]

9- Methodology of the relativity of the human science and incompleteness of human knowledge according to the things realized by the human mind – compared with the Divine Knowledge – which is complete, absolute, and encompassing:

{But over all those endowed with knowledge is the All-Knowing (Allâh).}

[Yusuf (Joseph): 76]

{And say: "My Lord! Increase me in knowledge."}

and deeds, which lead to guidance and happiness in the worldly life and Hereafter.

It is the "treasure of methodology" which will never become depleted. Also, it includes all of the methodologies which are suitable for the hearts, minds, feelings, and senses.

If the words and creatures of Allah are numerous, then Allah's Ability and Creativeness are absolute

{And if all the trees on the earth were pens and the sea (was ink wherewith to write), with seven seas behind it to add to its (supply), yet the Words of Allâh would not be exhausted. Verily, Allâh is All-Mighty, All-Wise.}

[Loqman: 27]

Allah's Verses and Words, which were sent down by the Revelation to the heart of the prophet Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) contain all methodologies in all fields of life and creatures.

We may refer in this summed up area to some Qur'anic verses, which shed light on the methodologies contained in the Qur'an and represents the gates to the Qur'anic sciences "Qur'anic methodologies science". We will refer to the examples contained in theses verses:

1- The Qur'anic methodology which teaches the Muslim to abstain from adopting only one path, but to adopt the various paths leading to considered legal aims and objectives. However, the methodologies and ways of carrying out them vary according to the reality we live in and according to the benefits and mischief in this reality:

{'And he said: "O my sons! Do not enter by one gate, but enter by different gates, and I cannot avail you against Allâh at all. Verily, the decision rests only with Allâh. In Him, I put my trust and let all those that trust, put their trust in Him."}

[Yusuf (Joseph): 67]

2- Methodology of kindness throughout maintaining the soul, which seeks carrying out these considered legal goals:

{And let him be careful and let no man know of you. "For, if they come to know of you, they will stone you (to death or abuse and harm you) or turn you back to their religion; and in that case you will never be successful."}

[Al-Kahf (The Cave): 19-20]

3- Methodology of refuting toughness:

{'O Prophet (Muhammad peace be upon him)! Strive hard against the disbelievers and the hypocrites, and be severe against them; their abode will be Hell, and worst indeed is that destination.}

[Al-Tawbah (Repentance): 73] [Al-Tahrim (Forbiddance): 9]

4- Methodology of infuriating the aggressing disbelievers:

{'It was not becoming of the people of Al-Madinah and the bedouins of the neighbourhood to remain behind Allâh's Messenger (Muhammad peace be upon him when fighting in Allâh's Cause) and (it was not becoming of them) to prefer their own lives to his life. That is because they suffer neither thirst nor fatigue nor hunger in the Cause of Allâh, nor they take any step to raise the anger of disbelievers, nor inflict any injury upon an enemy but is written to their credit as a deed of righteousness. Surely, Allâh wastes not the reward of the Muhsinûn.}

[Al-Tawbah (Repentance]: 120]

5- Methodology of debate and argument with kindness except with the wrong doers:

{'And argue not with the people of the Scripture (Jews and Christians), unless it be in (a way) that is better (with good words and in good

{Say (O Muhammad peace be upon him): "Verily, my Salât (prayer), my living, and my dying are for Allâh, the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists). He has no partner. And of this I have been commanded, and I am the first of the Muslims.}

[Al-An`am (The Cattle): 162-163]

We should receive this month with true resolution for fasting and offering optional night Prayer out of faith and seeking Allah's reward not to show off or to imitate the other people. Also, our senses should abstain from prohibited speech, gaze, hearing, food, and drink to attain forgiveness and setting free from hell-fire. We should observe the etiquette of fasting such as delaying the pre-dawn meal until the last part of night and hastening to break fast soon after sunset. Also, we should increase our good deeds, as the fasting person should say of another person insults him "I am fasting." He should not respond to a misdeed with another misdeed, but with better word and deed, so as to have his fasting and deeds accepted. We should be sincere to Allah (Glory be to Him) in our Prayer, fasting, and all of our deeds. Allah accepts only the deeds which are done for His sake, and the good deed is the one which is done only for the sake of Allah and in compliance with the Sunnah of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

The Muslim should observe Tarawih Prayer (optional Prayer offered in Ramadan) following the Sunnah of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him), his Companions, and the Rightly-Guided Caliphs, and seeking the reward. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever offers optional night Prayer in Ramadan out of faith and seeking reward from Allah has his previous sins forgiven."

(Agreed upon its authenticity)

Also, "When the worshipper offers Prayer with the Imam until the later finishes the Prayer, the reward of spending a night in Prayer is recorded for him." It is the Hadith narrated by Abu Dharr and related by Ahmad and At-Tirmidhy who ranked it as Sahih.

Jurisprudence (Fiqh) of Qur'anic Methodology...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar magazine

Methodology means the clear and straightforward path. It was narrated on the authority of Ibn `Abbas (may Allah be pleased with him) that: "The Messenger of Allah (peace and blessings of Allah be upon him) died after leaving a clear methodology for you."

This is because the methodology of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), which includes saying, acts, and approvals, is "the prophetic clarification of the Qur'an. Also, his morals, attributes, and achievements made the Qur'an represent life style, comprehensive methodology for the individual, family, and nation, the worldly life, the Hereafter, religion, state, acts of worship, transactions, culture, civilization, etiquette, heart's knowledge, and philosophies.

As this prophetic methodology was the clarification of the Qur'an, the Quran represented, still represents, and will represent the book encompassing the methodologies of deeds for the guided and righteous person in all fields of life

has two moments of joy, one when he breaks his fast and one when he meets his Lord. And the odor that comes from the mouth of a fasting person is better before Allah than the fragrance of musk.'"

The month of Ramadan is the month in which the doors of paradise are opened and the doors of Hellfire are closed. Victory is attained by the person who seizes this opportunity before it becomes too late. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Ramadan, the blessed month, comes to you. Allah enjoined fasting it in it, the doors of heaven are opened, the doors of hell-fire are closed, and the jinn and devils are chianed up. It has a night which is better that a thousand of months, the person who does not attain its blessings is really wretched."

Blessed is the person who fasts in the day of Ramadan and offers optional night Prayer. Allah singled out this month with doubling the reward of good deeds, as He (Glory be to Him) forgives the previous sins committed by the fasting person. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The person who fasts Ramadan out of faith and seeking its reward will have his previous sins forgiven."

This month comes once every year to remind us with the blessings and bounties of Allah, one of which is that we lived until this month comes, while others may become ill or died and we hoped for attaining its reward. Thus, we should seize the opportunity of living until this moth comes. We should praise Allah for this.

The righteous predecessors of the companions of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) as well as their followers in piety and benevolence attached due care to Ramadan and rejoiced with its coming. They used to supplicate to Allah to cause them to live until it comes. Then, they used to supplicate to Him to accept their fasting and offering optional night Prayer. They used to fast its day, offer optional night Prayer, and safeguard their fasting from that which nullifies or decreases its reward such as play, amusement, backbiting, gossip, and lies. They spend its nights in offering optional night Prayer and reciting the Qur'an. Also, they used to give the poor and needy charity, alms, and food, and to strive against their souls by offering acts of obedience to Allah and to strive against the enemies of Allah

for His sake to raise the Word of Allah and to make all the acts of obedience for the sake of Allah. Badr Battle in which they conquered their enemy was on seventeenth of Ramadan and Makkah Conquest was on 20[th] of Ramadan. On this day, many people embraced Islam and Makkah became the place of Islam.

Ramadan is not a month of sluggishness, sleep, and laziness, as some people may think that. Rather, it is the month of striving and worship. Thus, we should receive it with diligence and doing many good deeds. We should do that, as it is the month chosen by Allah for the obligation of fasting and for the descending of Qur'an to guide the people and to take them from darkness to light. We should be happy with this month, in which the doors of paradise are opened, and the doors of Hellfire are closed, the devils are chained up as we already mentioned, the rewards of good deeds are doubled, and the levels are raised, and the sins are forgiven.

We should seize the opportunity of life, health, and youth to do acts of obedience to Allah and to worship Him. We should repent sincerely to Allah at all times of all sins and misdeeds. Also, we should obey Allah (Glory be to Him) all through our life and to avoid the things forbidden by Allah to be the victorious on the Day on which money and children do not benefit except those who come to Allah with a pure heart. Allah, the Ever Truthful, says:

{And whosoever obeys Allâh and His Messenger (peace be upon him), he has indeed achieved a great achievement (i.e. he will be saved from the Hell-fire and will be admitted to Paradise).}

[Al-Ahzab (The Allied Party): 71]

We should do desirable and good deeds and avoid forbidden and prohibited deeds, applying the Saying of Allah (Glory be to Him):

{And worship your Lord until there comes to you the certainty (i.e. death).}

[Al-Hijr: 99]

Allah (Glory be to Him) says:

Ramadan is the month of Qur'an, obedience, donations, and blessings…!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

No one can deny that Ramadan has a special status in the heart of every Muslim, as it is the month of mercy, forgiveness, and setting free from Hell-Fire. This month includes all blessings and bounties from Allah (Glory be to Him).

Allah (Glory be to Him) says in His Holy Book, as He is the Most Truthful:

{'The month of Ramadan in which was revealed the Qur'ân, a guidance for mankind and clear proofs for the guidance and the criterion (between right and wrong). So whoever of you sights (the crescent on the first night of the month) (of Ramadan i.e. is present at his home), he must observe (Saum) fast that month, and whoever is ill or on a journey, the same number [of days which one did not observe (Saum) fast must be made up] from other days. Allâh intends for you ease, and He does not want to make things difficult for you. (He wants that you) must complete the same number (of days), and that you must magnify Allâh [i.e. to say Takbîr (Allâhu Akbar; Allâh is the Most Great)] for having guided you so that you may be grateful to Him.

[Al-Baqarah (The Cow): 183-185]

Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) said that the Messenger of Allah (peace and blessings of Allah be upon him) said: "When the first night of Ramadan comes, the devils and mischievous jinn are chained up, and the gates of Hell are closed, and none of its gates are opened. The gates of

Paradise are opened and none of its gates are closed. And a caller cries out: 'O seeker of good, proceed; O seeker of evil, desist.' And Allah has people whom He frees (from the Fire), and that happens every day." [Narrated by Al-Tirmidhy, Ibn Majah in his Sahih, and Al-Bayhaqy].

Ramadan is the month of benevolence and charity, as the righteous people welcome it, as it is the season of showing acts of obedience to Allah. So, welcome to the best of months. Blessed is the one who welcomes Ramadan. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "O Allah, bless Rajab and Sha'ban as well as Ramadan." Praise be to You Allah that You cause us to live until Ramadan comes, and we ask You to help us observe fast and optional Night Prayer in it and to accept our deeds in it.

Blessed is the person who receives Ramadan with welcome, as it is not like the other months of the year. It is the month in which mercies descend from heavens. We carry glad tidings of its coming as it is the best season of doing acts of obedience to double the reward of good deeds and to expiate the sins. It is the month of blessings and bounties. Allah enjoined its fasting and made it a chance for changing the bad attitude of the self. Allah (Glory be to Him) says:

{'O you who believe! Observing As-Saum (the fast) is prescribed for you as it t was prescribed for those before you, that you may become Al-Muttaqûn.}

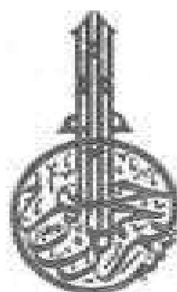
[Al-Baqarah (The Cow): 183]

Attaining piety is the objective and aim of fasting. It is the month of benevolence and charity, which returned with joy and happiness to spread its goodness in the whole world and to spread mercy and affection among the Muslims. The Slaves of Allah compete to attain reward and blessing from

Allah, as the reward in this month is not like that of the other months. Allah singled out this month with special reward. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The reward of every deed by the son of Adam is doubled from ten folds to seven hundred folds. Allah (Glory be to Him) says: 'Fasting is for Me and I shall reward for it. He gives up his desire and his food and drink for My sake. Fasting is a shield, and the fasting person

AL-AZHAR MAGAZINE

Ramadan, 1433 A.H



ENGLISH SECTION

August, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

AL AZHAR
MAGAZINE


facebook.com/AlAzharMag

في العدد القادم



هدية عدد شوال

في فقه مقاومة الاستبداد
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي

دراسة وتقديم : أ.د /محمد عمارة

السعر جنيهان

www.AlazharMag.com

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية شوال ١٤٣٣ هـ سبتمبر ٢٠١٢ م الجزء "١٠" السنة "٨٥"
www.AlazharMag.com

الأزهر

هدية العدد
فى فقه مقاومة الاستبداد
(الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) الجزء الأول

التعصب المذهبى والخيانة الوطنية
أ.د. محمد عمارة

دور القيم الإسلامية السياسية
أ. د. محمد سليم العوا

الإسلام والدولة الحديثة
أ. منير شفيق

الحركة الإسلامية ومنهج التغيير
الشيخ راشد الغنوشى

المجتمع المدنى فى ضوء المقاصد العامة للشريعة
أ. د. إبراهيم البيومى غانم


أ.د. أحمد فؤاد باشا


أ. د. أحمد عمر هاشم


أ. نظمى لوقا

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

الاشتراك السنوى

داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

التعصب المذهبى.. والخيانة الوطنية



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

إذا كانت نكبة فلسطين هى مأساة القرن العشرين، فإن نكبة الاحتلال الأمريكى للعراق ـ سنة ٢٠٠٣م ـ قد مثلت مأساة القرن الواحد والعشرين.

• لقد تحالفت الصهيونية العنصرية مع الصليبية العالمية والمسيحية الصهيونية والإمبريالية الغربية على اقتلاع الشعب الفلسطينى من وطنه، والقذف به إلى المهاجر والشتات، لإحلال شذاذ الآفاق الصهاينة على الأرض الفلسطينية المباركة، قاعدة عسكرية للإمبريالية الغربية، تقسم وتقطع وحدة أرض الأمة العربية، وتقوم بدور كلب الحراسة الذى يعمل على إجهاض التقدم العربى الإسلامى.

• وفى مطالع القرن الواحد والعشرين، تحالف «التشيع الصفوى الإيرانى» مع الإمبريالية الأمريكية ـ ومعها الصهيونية ـ على تدمير العراق، وتفتيته، والخلاص من القوة الأولى التى تخشاها الصهيونية فى المشرق العربى، ولتأجيج الصراع المذهبى بين الشيعة والسنة، لجعل بأس المسلمين بينهم شديداً، كيلا يتحقق النهوض الإسلامى المنشود.

إن علينا أن نتحلى بالأمانة العلمية والشجاعة الفكرية التى تجعلنا نعلن:

أن المأساة العراقية قد مثلت أكبر الزلازل التى أصابت العلاقات الشيعية السنية منذ قرون.. فهناك أحزاب شيعية تكونت وتدربت وتسلحت فى ظل ولاية الفقيه الشيعية الإيرانية.. ثم تواطأت وتحالفت مع الصليبية الأمريكية، المدفوعة بالصهيونية اليهودية فى القضاء على قوة العراق ووحدته.. ثم عادت هذه الأحزاب مع الغزو الأمريكى للعراق سنة ٢٠٠٣م.. ودخلت عمائم كبيرة وكثيرة ـ ومعها الميليشيات التابعة لها ـ إلى بغداد على ظهور دبابات الأمريكان وطائراتهم!..

وهناك مراجع شيعية كبرى يقلدها الملايين من عامة الشيعة، صمتت صمت الرضا، عن الغزو الأمريكى.. وأفتت بعدم المقاومة، فأفسح أنصارها الطريق وفتحوا أبواب الجنوب العراقى أمام جحافل الغزو الزاحفة من الكويت.. بينما أغلق البرلمان التركى، فى تركيا العلمانية، أبواب شمال العراق أمام الغزاة الأمريكان!..

ومنذ اليوم الأول لاحتلال العراق ـ فى أبريل سنة ٢٠٠٣م ـ ولقيام المقاومة السنية للغزو والاحتلال، قام التنسيق الكامل والتعاون الدائم بين هذه المراجع الشيعية الكبرى ـ ومعه الأحزاب الشيعية ـ وبين سلطات الاحتلال.. لا ضد المقاومة السنية وحدها، وإنما أيضاً ضد المقاومة حتى ولو كانت شيعية عربية..

لقد ظهر التمايز فى داخل الصف الشيعى بين ما يسمى «بالتشيع الصفوى» وبين «التشيع العربى»..

ولقد شهدت مذكرات «بول بريمر» ـ أول حاكم أمريكى للعراق المحتل ـ على هذه العلاقات بين هذه المراجع الشيعية وبين الغزاة الأمريكان، والتى ـ كما قلنا ـ مثلت أكبر زلزال أصاب العلاقات الشيعية ـ السنية فى الصميم..

• لقد مثل «بول بريمر» ـ الذى حكم العراق المحتل ما بين ١٢ مايو سنة ٢٠٠٣ وحتى ٢٨ يونيو سنة ٢٠٠٤م ـ «المندوب السامى الأمريكى فى العراق المحتل» ـ أو «ماكارثر بغداد» ـ كما سماه البعض..

ولقد أنجز ـ خلال هذه الشهور الأربعة عشر ـ تدمير كل مقومات العراق، المادية والبشرية..

• وفى مذكراته، التى نشرها بعنوان «عام قضيته فى العراق» ـ والبالغة صفحاتها بالترجمة العربية التى قام بها عمر الأيوبى ـ ونشرتها دار الكتاب العربى ـ بيروت سنة ٢٠٠٦م ـ ٤٩٦ صفحة ـ.. فى هذه المذكرات.. نقف أمام العديد من الوقائع ذات الدلالات الخطيرة فى موقف آية الله العظمى السيد على السيستانى من الاحتلال

الأمريكي للعراق:

١- فالسيستاني - وهو أكبر المراجع الشيعية المعاصرين - لم يصدر فتوى بمقاومة الاحتلال للعراق المسلم - كما صنع أسلافه مراجع الشيعة مع الإنجليز سنة ١٩٢٠م.. وإنما - على العكس من ذلك - رفض إصدار مثل هذه الفتوى حتى عندما طلبها منه الرئيس السورى بشار الأسد.. بل وأفتى بعدم مقاومة الغزو والاحتلال!.

ولقد كتب بريمر - فى مذكراته ص٢٥٤:

«لقد أذهلنى مُوفّق الربيعى بمعلومة أخرى، فقد أخبره السيستانى بأن الرئيس السورى بشار الأسد بعث برسالة سرية تقترح أن يصدر آية الله فتوى تدعو إلى الجهاد ضد الائتلاف» - «أى الاحتلال» -..

فالرجل لم يمتنع - فقط - عن الإفتاء بمقاومة الاحتلال.. وإنما «بلّغ» بريمر بفحوى الرسالة السرية للرئيس السورى بشار الأسد!!..

٢- ولقد كتب بريمر - ص٧٥ -:

«إن القادة الشيعة، بمن فيهم آية الله العظمى السيستانى، قد شجعوا أتباعهم على التعاون مع الائتلاف منذ التحرير»!!..

٣- وعندما شذ موقف التيار الصدرى - المعبر عن التشيع العربى - عن هذا الموقف - موقف التشيع الصفوى.. المتحالف مع الغزو والاحتلال.. تعاونت المرجعية الشيعية ومجلس الحكم - الذى أقامه بريمر بالاتفاق مع المرجعية ضد التيار الصدرى.. وكتب بريمر - فى مذكراته ص٤٠ - يقول:

«تلقيت تحذيراً من مجلس الحكم بأن مقتدى الصدر يستعد لإصدار فتوى أثناء صلاة الجمعة يدعو فيها إلى الجهاد ضد قوات التحالف.. وأن أنصاره يحاولون إثارة الفوضى فى كركوك..».

ثم يعود بريمر للتحدث عن موقف السيستانى من التيار الصدرى، إبان انتفاضة الصدر بكربلاء، واعتزامه إنشاء حكومة - فى ١٠ أكتوبر سنة ٢٠٠٣م - فيقول ص٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٠، ٢٤٥ -: «إن آية الله يخشى التهديد الذى يشكله مقتدى.. وإن الخيار المفضل للسيستانى هو أن لا يبقى مقتدى - وافترضت بذلك أنه يريد أن يقتل الشاب.. وعلمنا أن السيستانى أرسل ٢٠٠ مسلح إلى كربلاء لمواجهة قوات مقتدى.. وأفيد عن أن بعض مقاتلى السيستانى أعضاء فى ميليشيات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق - فيلق بدر.. وعَبْر الوسطاء، سألت آية الله السيستانى عن رأيه فى إجراء محادثات مباشرة مع مقتدى، فجاء رده سريعاً وواضحاً: نحن لا نعرف سبب التفاوض مع مقتدى أو فائدة ذلك»..

ولقد انتهى الأمر بترك مقتدى الصدر - وتياره - لقوات الاحتلال وميليشيات بدر..


بريمر

فتم «تأديب» مقتدى وأنصاره، بينما السيستانى يقوم برحلة علاج فى لندن!

٤- وفى البرهنة على موقف السيستانى من الاحتلال.. وتعاونه مع بريمر لتحقيق «الأهداف المشتركة!» نطالع فى مذكرات بريمر:

أ- فى ص٢٧٩ مكالمة هاتفية من وزير الخارجية الأمريكى «كولن باول» مع بريمر يقول له فيها:

«عليك أن تحصل على مباركة السيستانى. أرسل أحدهم إلى النجف، أو توجه إليه بنفسك، إذا دعت الضرورة.. لا يمكن أن أطلب من حكومتى المصادقة على مسار بدون بعض الضمانات بأن النجف «السيستانى» موافق عليه»!..

أى أن «مباركة» السيستانى لاحتلال العراق ودماره كانت «ثابتاً» من ثوابت الأمريكان!

ب- وحتى يتم التعاون بين السيستانى وسلطات الاحتلال، دون إخلال بهيبة المرجعية أمام الجمهور - وخاصة التيار الصدرى - تم الاتفاق، الذى كتب عنه بريمر - ص٤٢ - فقال: «.. ولقد أبلغنا السيستانى، بعد التحرير مباشرة، ومن خلال قنواته الخاصة، أنه لن يقابل أحدا من التحالف - ولذلك لم أطالب بعقد اجتماع شخصى معه.

وقال لى «هيوم» - الذى يفهم العالم العربى جيداً -: «إن السيستانى لا يمكن أن يقبل بأن يظهر علانية بأنه متعاون مع قوة احتلال، كما أنه يريد أن يحمى جماعته من آخرين من أمثال مقتدى الصدر. ولكنه سيعمل معنا، فنحن نشترك معه فى الأهداف ذاتها»!.

جـ- ولقد استعمل بريمر ثلاث قنوات للاتصالات المنتظمة مع آية الله السيستانى:

الأولى: عبر موفق الربيعى - مستشار الأمن القومى فى مجلس الحكم -..

والثانية: عبر آية الله حسين إسماعيل الصدر - المقرب من السيستانى -..

والثالثة: عبر عماد ضياء الخرسان - وهو أمريكى الجنسية، عراقى الأصل، شيعى المذهب.. كان المسئول عن لجنة إعادة الإعمار الأمريكى للعراق.. وهو الذى قال لبريمر - عقب إحدى زياراته للسيستانى:

«إن آية الله العظمى معجب بك، ويحترمك، وهو يقدر الفرصة للعمل معك من أجل مستقبل العراق»!..

د- ولقد تحدث بريمر - فى مذكراته ص٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨ - عن مراسلاته مع السيستانى فقال:



كولن باول — إياد علاوى

«.. وبينما كانت وسائل الإعلام العربية والأجنبية تتحدث عن الصلات المقطوعة بيننا وبين السيستاني، فإنني كنت على اتصال مستمر معه حول القضايا الحيوية، من خلال الوسطاء».

وكان هيوم ـ «هوران ـ السفير والخبير في الثقافة واللغة العربية» ـ محقاً في تحليله، فقد أرسل لى السيستانى ذات يوم يقول: إن عدم لقائه بنا ليس ناتجاً عن عداء للتحالف، وإنما لأنه يعتقد أنه بذلك الموقف يمكن أن يكون أكثر فائدة لتحقيق أهدافنا المشتركة، وبأنه سيفقد بعض مصداقيته لدى أنصاره لو تعاون بشكل علنى مع مسئولى التحالف، كما فعل بعض العلمانيين من الشيعة والسنة أو رجال دين شيعة ذوى مرتبة منخفضة..

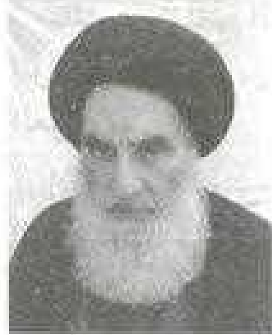
.. لقد تبادلت مع السيستانى الرسائل بشكل منتظم حول الوضع الأمني في النجف، ولاسيما فى أغسطس سنة ٢٠٠٣ حين أصبح مقتدى «الصدر» يمثل تهديداً لنا..

وخلال الفترة من يوليو إلى منتصف سبتمبر فقط، تبادلت أكثر من عشرة رسائل مع السيستانى، الذى عبر، غير مرة، عن امتنانه لقوات التحالف لما فعلته للشيعة والعراق..

.. ولقد بعثت رسالة تحذير إلى السيستانى، كما أرسلت بعض مساعدى للقاء كبير المسئولين الأمنيين فى النجف لتقديم المساعدة لحمايته خلال احتفالات عاشوراء، حيث تزدحم المدينة بحوالى مليون زائر ـ «عندما قدم مسئول محطة الاستخبارات فى وقت متأخر من يوم ٢٨ فبراير سنة ٢٠٠٣م ما وصفه بأدلة ذات مصداقية تقول إن الزرقاوى يخطط لاغتيال السيد السيستانى» ـ..

... وفى يوم ٨ يونيو ـ سنة ٢٠٠٤م ـ اعتمد قرار مجلس الأمن ١٤٥٦ بالإجماع، وتضمن ترحيبا بالحكومة الانتقالية فى العراق، باعتبارها تمثل مرحلة جديدة لانتقال العراق إلى حكومة منتخبة بشكل ديمقراطى، بالإضافة إلى تأييد صريح للجدول الزمنى المنصوص عليه فى قانون الإدارة المؤقت، ولتنظيم الانتخابات فى ٣١ يناير سنة ٢٠٠٥م، وأرفق القرار برسائل من «إياد» علاوى والوزير «كولن» باول تحدد دور قوات التحالف متعددة الجنسيات ـ «وهو القرار الذى قنن الاحتلال الأمريكى للعراق».

وبعد ظهر ذات اليوم أتى ضياء ـ «عماد ضياء الخرسا» ـ برسالة أكثر تعبيراً عن الرضا من آية الله السيستانى، وبدا أنه كان «مسروراً» بما آلت إليه الأمور فى العتبات المقدسة، وبالحكومة الجديدة، ورئيس الوزراء، ولكون قرار الأمم المتحدة لم يذكر صراحة قانون الإدارة المؤقت، وأيد موعد تنظيم الانتخابات فى يناير سنة ٢٠٠٥م،



على السيستانى

وختم رسالته بقوله: «إن حوارى مع السفير بريمر خلال العام الماضى كان مفيداً للغاية، وآمل أن يستمر هذا».

«ورغم أن آية الله كان رافضاً للالتقاء بسلطات الاحتلال، فإننى تبادلت معه طيلة الشهور الأربعة عشر الماضية ما يزيد على ٣٠ رسالة عبر وسطاء عديدين، وهى رسائل أعتبرها من ناحيتى أيضاً «مفيدة جداً»..»

●●●

هكذا تحدث «بريمر» ـ المندوب السامى الأمريكى فى العراق المحتل ـ الذى قاد تدمير العراق ـ الدولة بجميع مؤسساتها ـ من الجيش إلى شرطى المرور ـ وتدمير كل مقومات الحياة بالنسبة للشعب العراقى ـ.. هكذا تحدث عن «التحالف.. والتعاون» مع أكبر المراجع الشيعية.. ومع الأحزاب الشيعية ذات التوجه الإيرانى..

ولقد علق مكتب آية الله السيستانى على ما أورده بريمر فى مذكراته هذه عن العلاقات والمراسلات بينه وبين السيستانى، فلم ينكر ما ذكره بريمر من وجود قنوات الاتصال، وإن كان قد نفى وجود رسائل «مكتوبة» ـ وعلى وجه الدقة تساءل لماذا لم ينشرها بريمر إذا كانت فى حوزته؟!..

لقد جاء فى «تعقيب» مكتب السيستانى ـ المنشور على موقع سماحته «منتدى الفكر العراقى فى ١٤ من شوال سنة ١٤٢٧هـ ٧ من نوفمبر سنة ٢٠٠٦م»:

«إن سماحة السيد دام ظله بحكم موقعه ومسئوليته فى رعاية الأمة كان ولايزال يستقبل كافة الشخصيات العراقية ـ السياسية والدينية والثقافية والعشائرية وغيرهم.. يستمع إلى وجهات أنظارهم واستفساراتهم، ويستمعون إلى رؤاه وتوجيهاته.

وكان فى عداد زواره خلال المدة التى حكم العراق فيها السفير بريمر أعضاء من مجلس الحكم ومجلس الإعمار وسائر المسئولين فى الحكومة العراقية، ومن هؤلاء من كان ينقل إلى سماحته موقف وآراء وتصورات سلطة الاحتلال وممثلها بريمر، بتكليف منه أو من تلقاء نفسه، وكان سماحته يعلق على ما يسمعه منهم فى كل القضايا التى لها مساس بالمصالح العليا للشعب العراقى، كقضية الدستور والانتخابات وقانون إدارة الدولة وتشكيل الحكومة المؤقتة، وغيرها..

ولم تكن هناك (رسائل متبادلة) بين المرجعية الدينية وبين بريمر. ولو كان قد تلقى من سماحة السيد دام ظله رسالة واحدة لكان ينبغى له أن يثبتها بنصها فى كتابه توثيقا لما ادعاه.

●●●

تلك هى وقائع العلاقة بين المرجعية الدينية العظمى وبين بريمر ممثل هولاكو القرن الواحد والعشرين فى بغداد ـ كما ذكرها بريمر فى مذكراته (عام قضيته فى العراق)..

إن آية الله السيستانى لم يكن ـ ولا يمكن أن يكون ـ عميلا لأمريكا.. وإنما استعان الرجل بالاحتلال الأمريكى لتحكم الشيعة العراق.. أو تحكم معظمه، بعد تفتيته بالفيدرالية..

وإن أمريكا لم تكن فى خدمة السيستانى، وإنما استعانت به ـ وبالأحزاب الشيعية الموالية لمرجعيته ـ على احتلال العراق..

لقد جمعت «المصالح التكتيكية» بين الطرفين ـ فكان الزلزال الذى أصاب العلاقات الشيعية السنية فى الصميم ـ وإن بقيت التمايزات والاختلافات حول «المصالح الاستراتيجية» لدى كل طرف من الأطراف..

لقد اعتبرت المرجعية الشيعية العظمى ـ السيستانى ـ الاحتلال الأمريكى للعراق تحريرا لبلاد الرافدين.. وذلك على الرغم من أن العراق ـ قبل الاحتلال:

كان أكثر من ثلث سكانه ـ ٢٠٠٠,٠٠٠ (مليوني أسرة) متزوجين زواجًا مختلطا يجمع بين السنة والشيعة.

● وكان أكثر من نصف الجيش العراقى ـ الذى سرحه بريمر ـ من الشيعة..

● وكان ثلثا رؤساء الفروع الحزبية ـ بحزب البعث الحاكم ـ من الشيعة..

● حتى إن نسبة كبيرة من القيادات البعثية التى اختفت عند الاحتلال، والتى رصدت أمريكا المبالغ الطائلة لمن يرشد عنها، كانت من الشيعة أيضًا.

● لكن الاحتلال الأمريكى قد استعان بالأحزاب الشيعية التى تكونت فى إيران.. والتى تدربت ميليشياتها وتسلحت فى إيران.. بل والتى حاربت لحساب إيران ضد العراق لثمانى سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م) أى ضد الجيش العراقى ذى الأغلبية الشيعية!!.. استعان الاحتلال «بالتشيع الصفوى» ـ ومرجعيته العظمى ـ ضد أهل السنة وضد «التشيع العربى» لتدمير العراق وتفتيته.. باعتبار هذا القصد هو المحقق لمخططات الفرقاء المختلفين: أمريكا.. والصهيونية.. وإيران!!..

فكان الزلزال الأشد الذى أصاب العلاقات الشيعية السنية على أرض العراق ـ وخارج أرض العراق..

•••

● لكن الذى لم يستطع هذا المخطط تحقيقه هو قمع المقاومة العراقية لجيوش الاحتلال.. ولقد كتب بريمر فى مذكراته ـ ص٥٧ ـ: «.. وعبرت ـ فى التالى للرئيس «بوش» ـ عن خيبتى إزاء عجزنا عن خلق بيئة آمنة، فقد أثبتت المجموعات المتمردة أنها

أكثر تنظيما، وإن اختراقها أصعب مما كنا نتوقع.. لقد استطاع الإرهابيون ـ (هكذا يسمى المقاومة) ـ أن يحولوا العراق إلى الخط الأمامى لحربهم الشيطانية»!

وصدق الله العظيم:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾
الأنفال: ٣٠


برنارد لويس

● كذلك سعت هذه المراجع إلى تمزيق النسيج الوطنى للشعب العراقى، وذلك بإحلال «الفصل المذهبى» محل الوحدة الوطنية.. فجمهور غفير من أبناء الشعب العراقى ـ شيعة وسنة ـ قد تجاوزوا حواجز «الفصل المذهبى»، إما بالاستنارة والتسامح، أو للعلاقات القبلية والعشائرية، فقامت المصاهرات والزيجات المشتركة ـ الشيعية السنية ـ بين ثلث أبناء الشعب العراقى وبناته ـ مليونى أسرة.. فإذا بهذه المراجع تفتى بأن هذا الزواج المختلط إنما «يغضب الله»!.. الأمر الذى «هدد أكثر من مليونى أسرة عراقية قائمة على الزواج المختلط بين السنة والشيعة ـ وهو ما يمثل نحو ثلث عدد أسر المجتمع العراقى» بالدمار.. الأمر الذى أسهم فى زيادة التوتر الطائفى، والفصل المذهبى، والقتل والتهجير على أسس مذهبية وطائفية.. وأحدث ما يشبه «غسيل الدماغ» عند البعض.. بل ودفع العديد من الأطفال.. فى هذه الأسر المشتركة والمختلطة ـ إلى محاولات الانتحار للحيلولة دون الانهيارات الأسرية التى دعت إليها فتاوى هذه المراجع المتعاونة مع الأمريكان![1]

فالاحتلال ـ بواسطة ما سمى «بالعملية السياسية» ـ يقنن ـ فى الدستور الذى أشرف «بول بريمر» على وضعه ـ لتمزيق وحدة الأرض العراقية بما يسمى «بالفيدرالية».. والمراجع الشيعية المتعاونة على الاحتلال تبارك ذلك، وتفعله على أرض الواقع بإقامة «الفصل المذهبى» بين أبناء الشعب العراقى!..

● كذلك علينا أن ندرك ـ ونعلن ـ أن ما يشهده العراق اليوم ـ بمباركة هذه المراجع ـ هو التنفيذ لمخطط «إمبريالى ـ صهيونى» قديم، رسمه ـ لكل العالم الإسلامى ـ وأعلن عنه المستشرق الصهيونى «برنارد لويس Bernard Lews» ـ ونشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكى البنتاجون Intelligonce reseurchpojeet عند قيام إسرائيل ـ فى أربعينيات القرن العشرين ـ.. وفى هذا المخطط التفتيتى للعالم الإسلامى دعا «برناردلويس» إلى إعادة رسم الخريطة السياسية لعالم الإسلام ـ من باكستان إلى المغرب ـ وإنشاء اثنين وثلاثين «كيانا سياسيا» جديدا، على أسس دينية ومذهبية

(١) انظر ما نشرته صحيفة (الأهرام) ـ المصرية ـ فى ٦/١١/٢٠١٠م ـ فى صفحتها الأولى تحت عنوان (إطلاق ثلث العراقيين تحاشياً «لغضب الله».) وذلك نقلا عن «الشبكة الاتحادية الإقليمية للأنباء (إيرين) ـ التابعة للأمم المتحدة ـ والتى نقلت ذلك عن (جمعية)

وعرقية.. وقال:

«إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق:

على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة في هذه الدول، بل ولا تعتبر ان هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة..

ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثة.. إلخ.

ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل..»!!..

وفي تطبيق هذا المخطط على العراق.. قالت المنظمة الصهيونية العالمية في (استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات) - التي نشرتها مجلتها (الاتجاهات) «كيفونيم» kivuhim في عدد ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨٢م.

«إن العراق الغني بالنفط.. هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل. إن تفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا.. فالعراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل في المدى القصير خطرا على إسرائيل أكثر من أي خطر آخر.. وهكذا تقوم ثلاث دول (أو أكثر) حول المدن العراقية الرئيسية: البصرة، وبغداد، والموصل، إذ تنفصل مناطق شيعية في الجنوب عن الوسط السني، والشمال الكردي. وإنه في - العصر النووي - لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدا بعثرة السكان، وهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود..»[٢].

هذا هو المخطط الصهيوني، المرسوم والمنشور - قبل أكثر من ستين عاماً! - والذي ينفذه الغزاة الأمريكان - اليوم - على أرض العراق.. بالتعاون مع الأحزاب الشيعية ذات الولاءات الإيرانية.. وبمباركة عدد من كبار المرجعيات الشيعية!.. وعلى رأسهم، وفي مقدمتهم آية الله علي السيستاني (المولود سنة ١٣٤٨هـ سنة ١٩٣٠م) بمدينة «شهد» الإيرانية.. والفارسي الجنسية - حتى هذه اللحظات!..[٣]

(٢) انظر: محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص١٣١ - ١٣٣، ١٤٠، ١٤٤ طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م. وانظر كتابنا (الإسلام والتعددية) ص٢٥٧ - ٢٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٣) وتتكرر هذه المأساة الطائفية اليوم على الأرض السورية، عندما تقاتل قوات الحرس الثوري الإيراني وجيش المهدي العراقي، وحزب الله اللبناني، مع النظام «النصيري - العلوي» ضد الشعب السوري، فتسيل الدماء، ويتم التدمير لسوريا، ويتحول كثير من أهلها إلى لاجئين. ويمول النظام الطائفي في العراق هذه المأساة بمليارات الدولارات، وذلك حتى يمتد الحزام الشيعي من إيران إلى لبنان عبر العراق وسوريا!!

إنني أعلم يقينا أن الكثيرين من شيعة العراق قد وقفوا موقف الرفض من الاحتلال الأمريكي - الصليبي.. الصهيوني - للعراق سنة ٢٠٠٣م.. ولقد انخرط كثير منهم في صفوف المقاومة السياسية والمسلحة - لهذا الاحتلال..

ولهؤلاء الشيعة - الوطنيين.. العروبيين المقاومين - تراث وسلف وتاريخ، لعل أقربه إلى ذاكرة الحاضر هؤلاء الشيعة الذين شاركوا سنة ١٣٣٨هـ سنة ١٩٢٠م في الثورة الوطنية العراقية ضد الاحتلال الإنجليزي - يومئذ - «ثورة العشرين»..

لذلك، علينا أن نميز - في المذاهب التي نختلف معها - بين «الفكر» - حتى ولو كان «مغاليا.. ومتطرفا» - وبين تحول هذا «الفكر» إلى «فعل وعمل» لشق وحدة الأمة، ويمكن لأعدائها الألداء.

إن «الفكر المتطرف والمغالي» - دينيا كان أو سياسيا - إنما يعالج بالحوار الفكري الموضوعي والصبور.. بينما «العمل الخياني»، الذي يسعى «للسلطة المذهبية والطائفية» عبر التحالف مع الأعداء، وعلى أنقاض الوطن والوطنية والعروبة والمصالح العليا للأمة.. هو لون من «الخيانة» للدين والوطن على حد سواء!..

واذا كان لشيعة العراق - الوطنيين العروبيين - سلف صالح في التضامن مع إخوانهم السنة ضد الغزو والغزاة.. فإن للشيعة الذين سلكوا طريق الخيانة، عندما «غلوا» التعصب المذهبي والطائفي على المصالح العليا للوطن والأمة.. إن لهؤلاء الشيعة - الذين سلكوا هذا الطريق، وسقطوا في هذا المستنقع - هم الآخرون - سلف - غير صالح - وتراث وتاريخ في العار والسقوط!.

• فبعد أن فتح الضعف الشيعي الفاطمي الإسماعيلي الباطني الثغرات التي أدت إلى احتلال الصليبيين للشام وفلسطين، واجتياحهم للقدس (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م).. تعاون قطاع من هؤلاء الشيعة الإسماعيلية - بقيادة الوزير الفاطمي «ضرغام» (٥٥٩هـ ١١٦٤م) - مع الصليبيين سنة ٥٥٩هـ/ سنة ١١٦٣م..

• وفي سنة ٥٦٤هـ / سنة ١١٦٨م تكررت هذه الخيانة والاستعانة بالصليبيين من قبل الوزير الفاطمي «شاور» (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) - الذي سمى الصليبيين بـ«الفرج».. بدلا من «الفرنجة»!!.. ورأى فيهم «الفرج.. والإنقاذ» من دخول مصر تحت سلطان الدولة السنية المجاهدة.. دولة نور الدين الشهيد (٥١١ - ٥٦٩هـ/ ١١١٨ - ١١٧٤م).

• وبعد أن انتهت هذه الصراعات وهذه الخيانات الشيعية الفاطمية بزحف جيش الدولة النورية - بقيادة «أسد الدين شيركوه» (٥٦٤هـ ١١٦٩م) وصلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ ١١٣٧ / - ١١٩٣م) على مصر، وتخليصها من مراكز الخيانة الشيعية الفاطمية، وتوحيدها مع المشرق العربي.. وطي صفحة الدولة

الفاطمية من التاريخ.. شرعت بقايا هذه الدولة فى التآمر مع الصليبيين ضد السلطة السنية - الأيوبية - التى حكمت مصر فى ذلك التاريخ!..

لقد تحركت أصابع هذه الخيانة الشيعية الفاطمية - ممثلة فى بقايا جند وقيادات هذه الدولة - الذين كانوا «مخالفين فى المذهب» لجمهور الأمة - فأرسل قائدهم «جوهر الخصى مؤتمن الخلافة» رسالة سرية إلى الصليبيين، يستعين بهم ويستنجد بجيوشهم ضد الدولة السنية وجيشها!!.. ولقد ضبط صلاح الدين الأيوبى هذه الرسالة، وقبض على «مؤتمن الخلافة» وأعدمه فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ / سبتمبر سنة ١١٦٨م.. واتبع ذلك بهزيمة جند «مؤتمن الخلافة».. وفى ذلك قال الشاعر عماد الدين الكاتب (٥١٩-٥٩٧ هـ/ ١١٢٥-١٢٠١م) مخاطباً صلاح الدين الأيوبى:

مـــؤتمن القـــوم خـــان حـــتى
غـــالتـــه من شـــره غـــوائل!

• وبعد طى هذه الصفحة من صفحات التآمر والخيانة.. فتحت صفحة أخرى على أيدى قطاع من أركان الدولة الشيعية الفاطمية المنهارة، الذين كاتبوا الصليبيين - سراً - مستنجدين بهم ضد دولة وسلطة صلاح الدين الأيوبى..

ولقد التقى رءوس هذه الخيانة مع رسول الفرنجة الصليبيين «جورج» الذى كان يزور القاهرة - فى الظاهر - كرسول للصليبيين وسفير لهم.. والذى كان يسعى - فى الحقيقة - للالتقاء بالخونة المتآمرين!

وعندما اكتشف صلاح الدين الأيوبى أركان هذه المؤامرة، التى قادها الشاعر عمارة اليمنى (٥٦٩ هـ / ١١٧٤م) قبض على هؤلاء الخونة، وأعدمهم فى ٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ / ٦ إبريل سنة ١١٧٣م - فطويت بذلك هذه الصفحة من صفحات الخيانة، التى قدمت «المصالح» المذهبية والطائفية على المصالح العليا للوطن والأمة، التى كانت تواجه الاجتياح الصليبى فى ذلك التاريخ[٤].

* * *

• وقبل هذه الصفحة من صفحات «الخيانة» ذات الدوافع المذهبية والطائفية، التى أراد أصحابها فتح أبواب مصر والقاهرة للاجتياح الصليبى، ليحكموا الوطن على أنقاض الوطنية، كراهة فى السلطة السُنّية الأيوبية التى امتدت لإنقاذ مصر وضمها إلى أحضان المشرق العربى الإسلامى.

(٤) انظر أخبار هذه الوقائع فى: أبو شامة (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) جـ١ ص ٤١٠، ٤٥٠، ٤٥٣، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٦١، ٦٦٤، ٦٦٨. تحقيق: د. محمد حلمى محمد أحمد. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م. وانظر كتابنا «عندما أصبحت مصر عربية إسلامية» طبعة دار الشروق - القاهرة.

قبل هذه الصفحة السوداء.. شهد التاريخ الإسلامى صفحة أشد سواداً، وأكثر بؤساً، وأمعن فى الدموية والإيلام، فتحت فيها الخيانة المذهبية الطائفية الشيعية أبواب بغداد والعراق والمشرق العربى أمام الاجتياح المغولى الذى قاده هولاكو (٦١٤-٦٦٣هـ / ١٢١٧-١٢٦٥م) فى المحرم سنة ٦٥٦هـ/ يناير سنة ١٢٥٨م - مقدمة - بتلك الخيانة الطائفية - الصورة الكالحة السوداء، التى تكررت على أرض العراق - بالتآمر والتواطؤ والتعاون بين التشيع الصفوى وبين الاحتلال الأمريكى - الصليبى.. الصهيونى - الذى قاده الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» - هولاكو القرن الواحد والعشرين!

* كان ابن العلقمى (٥٩٣-٦٥٦هـ/ ١١٩٧-١٢٥٨م) وزيراً شيعياً فى دولة الخلافة العباسية.. وكان خبيراً بأدوات السياسة.. ومحباً للرياسة.. ولقد نشأ فى بيت علم شيعى، وقصده كثيرون من العلماء والأدباء والشعراء.

ولقد ولى الوزارة (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م).. وتربع عليها أربعة عشر عاماً.. ثم انتهى به المطاف إلى خيانة الدولة والخلافة والأمة.. بل والحضارة الإسلامية كلها.. فتآمر مع التتر، وفتح أبواب بغداد لهولاكو، وذلك طمعاً فى أن يحكم الشيعة بغداد والعراق، بدلاً من السُنّة، بعد فتنة طائفية وقعت بين السنة والشيعة فى بعض أحياء بغداد.

ويقول المؤرخ الحجة الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١-٧٧٤هـ ١٣٠٢-١٣٧٣م) - عن خيانة ابن العلقمى:

إنه مهد لاستقدام التتار بقطع أعطيات الجند حتى تقلص حجم الجيش من قرابة مائة ألف مقاتل إلى نحو عشرة آلاف!.. ثم استقدم التتار - الذين بلغ تعداد جيشهم نحو مائتى ألف مقاتل..!

وبعبارة الحافظ ابن كثير - صاحب (البداية والنهاية):

«فإن ابن العلقمى أطمع التتار فى أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه فى أن يزيل السُنّة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين.. ولقد أشار الرافضة على هولاكو أن لا يصالح الخليفة «المستعصم» (٦٤٠-٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) - وحسنوا له قتله، فأمر بقتله.. وجرت المذبحة للعلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد.. ثم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان.. ودخل كثير من الناس فى الآبار، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم

بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة!!

وقد بلغت كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة مليونى نفس فى أربعين يوما، أصبحت بغداد بعدها خاوية على عروشها، والقتلى فى طرقاتها كالتلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير.. فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون...»!(٥)

وتنقل «دائرة المعارف» عن المؤرخ ابن الوردى ــ أبو حفص زين الدين عمر بن المظفر (٦٨٩ ــ ٧٤٩هـ / ١٢٩٠ ــ ١٣٤٨م) ــ صاحب «تتمة المختصر فى أخبار البشر» ــ وصفه لخيانة ابن العلقمى.. والذى يقول فيه:

«لقد أراد ابن العلقمى نصرة الشيعة، فنصر عليهم، وحاول الدفع عنهم فدفع إليهم، وسعى، ولكن فى فسادهم، وعاضد، ولكن على سبى حريمهم وأولادهم، وجاء بجيوش سلبت عنه النعمة، ونكبت الإمام والأمة، وسفكت دماء الشيعة والسنة، وخلدت عليه العار واللعنة..

وأتى الخائن الخبيث بمُغْل
هكذا ينصر الجهول أخاه
طبق الأرض بغيهم تطبيقا
ومن البر ما يكون عقوقا»(٦)

ذلك أن نهاية هذه الخيانة «الطائفية ــ المذهبية» كانت وبالا على الأمة كلها ـ شيعة وسنة ــ لأن التتار لم يفرقوا بين ضحاياهم وفق المذاهب والطوائف.. بل إن الدمار قد تعدى البشر والحجر والشجر إلى كنوز الفكر والحضارة ببغداد، فحدث الدمار لمكتباتها التى لم يكن لها نظير فى العالم إبان ذلك التاريخ.. الأمر الذى أصاب الذاكرة الحضارية الإسلامية بشرخ غائر وكبير!

بل إن دائرة الخيانة قد دارت على ابن العلقمى ذاته.. فلم يهنأ بثمرات خيانته، ولم يعمر بالوزارة إلا عدة أشهر، إذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ـ فى شهر جمادى الآخرة ـ بعد شهر من رحيل هولاكو عن بغداد.. وخلفه فى الوزارة ابنه عز الدين بن الفضل محمد ــ الذى لحق بأبيه فى بقية نفس العام».

هكذا كانت خيانة ابن العلقمى لوطنه ودينه وأمته ـ التى انطلقت من التعصب الأعمى للمذهب والطائفة ــ وبالا ونكالا على الوطن كله.. والأمة بأسرها..

(٥) ابن كثير «تهذيب البداية والنهاية» جـ٤ ص٣٠٦ ـ ٣٠٧ طبعة دار الفكر العربي ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

(٦) «دائرة المعارف» ـ بإشراف: فؤاد افرام البستاني ـ المجلد الثالث ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٠م.

والحضارة بكاملها.. حتى لكأننا نقرأ فيها التراث البائس والسلف غير الصالح لهذا الذى صنعه أحفاد ابن العلقمى بالعراق ودولته وشعبه ـ شيعة وسنة ـ بواسطة الغزوة الصليبية الصهيونية ـ فى مطالع القرن الواحد والعشرين!

* * *

• وإذا كان البعض ــ من غلاة السلفيين ـ يتخذ من هذه المآسى ــ التى صنعتها الخيانات الطائفية والمذهبية ـ منطلقا لتبرير مذهبه فى تكفير الشيعة واستحلال دمائهم.. فإننا نرفض هذا الغلو التكفيرى.. وذلك التعميم والإطلاق فى الحكم على الشيعة كمذهب وفرقة وطائفة.. ونرى أن هذه المأساة يجب أن تكون دافعا يضاعف الجهود الفكرية والعلمية والسياسية التى تميز بين ألوان الطيف الشيعى، فلا نأخذ الوطنيين بجريرة الخونة، ولا نضع جمهور البسطاء فى سلة رءوس الخيانة.. ولا نسوى بين الذين أضيروا من الغزو وبين الذين جاءوا على دبابات الغزاة.. كما أننا يجب أن نعمل على إدارة حوار فكرى موضوعى وصبور مع العقلاء العلماء الحكماء حول جوهر الخلاف بين الشيعة والسنة.. وسبل التقريب بينهما.. ففى ذلك طوق النجاة من هذه المأساة، والتحصين الحقيقى لجدار الأمة ضد الاختراق.. والضمان كى لا تتكرر هذه المأساة فى مكان آخر من عالم الإسلام.. وأيضا السبيل الحقيقى لإخراج العراق من «العار.. والدمار» الذى صنعته به هذه المأساة.

إن الأزهار كثيراً ما تنبت فى أرض المجازر!

وإن الشروق الساطع لا يأتى إلا بعد ظلام الليل البهيم!

وإن الأمم العظيمة هى التى تبحث عن معدنها النفيس فى مواجهة أشرس التحديات!

• وعلينا أن نلح دائما وأبدا على الالتزام بالمنهاج القرآنى.. منهاج

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ آل عمران: ١١٣

فالشيعة ليسوا سواء..

وأهل السنة والجماعة ليسوا سواء..

وكذلك حال غير المسلمين مع المسلمين، فهم ــ أيضا ـ ليسوا سواء!

وفى مواجهة المراجع والأحزاب و«ميليشيات» فرق الموت ـ الذين دربهم وسلحهم التشيع الصفوى ـ والذين تواطئوا مع «الصليبية.. الصهيونية»، وتعاونوا مع «بول بريمر» وخلفائه.. علينا أن نبنى ـ وخاصة فى المجال العلمى والفكرى ـ جبهة الوحدة الإسلامية ضد أعداء الإسلام والمسلمين.. تلك الجبهة التى لن تقوم لها قائمة إلا بتحقيق التقارب الحقيقى بين الشيعة والسنة.. لأن الخلاف بين الفريقين قد كان ـ ولايزال ـ أعقد وأعمق وأخطر الخلافات التى حدثت فى أمة الإسلام.

تفسير سورة البقرة

للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

قال الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧)

وصف الضالين بالفسوق، ثم بين من حال فسوقهم نقض العهد الموثق، وقطع ما يجب أن يوصل، والإفساد في الأرض، وسجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم في مضيقه بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه.

العهد هنا لفظ مجمل لم يتقدم في الآيات ما يشعر به، ولم يتل فيما تلاها ما يبينه، وكذلك:

﴿ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾

ليس في سابق الآيات ولا في لاحقها ما يفسره ويبين المراد منه، فما المعنى الذي يتبادر منها إلى أفهام المخاطبين، ويصح أن يؤخذ من حال أولئك الفاسقين، الذين أنكروا على الله أن يضرب مثلا يقتدى به من البشر أو من العرب، أو الذين أنكروا الوحي لمجيء الأمثال القولية فيه بما يعد حقيرا من المخلوقات في عرف المتكبرين والمتطرفين منهم؟

دل ذكر العهد والسكوت عما يفسره، وإطلاق ما أمر الله به بأن يوصل بدون بيان ما يفصله، على أن الله - تعالى - ما وصفهم إلا بما هم متصفون به، ولا حاجة إلى بيان المجمل بالقول إذا كان الوجود قد تكفل ببيانه، والواقع قد فسره بلسانه.

يرشد إلى فهم العهد الإلهي هنا ما قلناه في معنى الفسوق، فإن الفاسقين هم:

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾

فإذا كان معنى الفسوق الخروج عن سنن الله - تعالى - في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة، فعهد الله - تعالى - هو ما أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار، والتجربة والاختبار، أو العقل والحواس المرشدة إليها، وهي عامة، والحجة بها قائمة على كل من وهب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس، ونقضه عبارة عن عدم

استعمال تلك المواهب استعمالاً صحيحًا حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها كما قال - تعالى - :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وكما قال فيهم أيضًا:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ١٧١)

هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل، والأساس للقسم الثاني المكمل الذي هو الدين، فالعهد فطري خلقي، وديني شرعي، فالمشركون نقضوا الأول، وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الأول والثاني جميعا، وأعني بالناقضين من أنكر المثل من الفريقين.

والميثاق: اسم لما يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه، والله - تعالى - قد وثق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لإدراك السنن الإلهية في الخلق، ووثق العهد الديني بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات والأحكام المحكمات، وقد وثق العهد الأول بالعهد الثاني أيضا، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سننه في تقويم البنية البشرية ونمائها، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الإنساني الممكن لها. وأما قوله:

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾

ففيه من الإجمال نحو ما في نقض العهد، وليس هو بمعناه على طريق التأكيد، وإنما هو وصف مستقل جاء متمما لما سبقه، وهذا الأمر نوعان:

أمر تكوين: وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحكمة، وقد سمى الله - تعالى - التكوين أمرا بما عبر عنه بقوله: (كن)

وأمر تشريع: وهو ما أوحاه إلى أنبيائه وأمر الناس بالأخذ به.

ومن النوع الأول ترتيب النتائج على المقدمات ووصل الأدلة بالمدلولات، وإفضاء الأسباب إلى المسببات، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات، فمن أنكر نبوة النبي بعد ما قام الدليل على صدقه، أو أنكر سلطان الله على عباده بعد ما شهدت له بها آثاره في خلقه، فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطري، وكذلك من أنكر شيئا مما علم أنه جاء به الرسول؛ لأنه إن كان من الأصول الاعتقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول، وإن كان من الأحكام العملية ففيه القطع بين المبادئ والغايات؛ لأن كل ما أمر الدين به قطعا فهو نافع ومنفعته تثبتها التجربة والدليل، وكل ما نهى عنه حتما فلا بد أن تكون عاقبته مضرة.

فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل غايته، أما بالنسبة إلى الإيمان بالله - تعالى - وبالنبوة فيقطعون ما أمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطري، وأما بالنسبة إلى الأحكام فيقطعون ما أمر به في كتبه أمر تشريع وتكليف، وصلة الأرحام تدخل في كل من القسمين.

إذا كان مشركو العرب قد نقضوا عهد الفطرة وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل بمقتضاها بتكذيبهم النبي ﷺ وإيذائه وهو

ذو رحم بهم، فالمكذبون من أهل الكتابين قد قطعوا صلات الأمرين كما نقضوا العهدين؛ فإن الله – تعالى – قد بشرهم فى الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبى ﷺ؛ لأنه ذكر للمبشر به صفات وأعمالا وأحوالا تنطبق عليه أتم الانطباق، فحرفوا وأولوا واجتهدوا فى صرفها عنه وهم متعمدون

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٤٦)

ومنهم من يحمل تلك الصفات والعلامات على غيره، ومنهم ينتظر مبعوثا آخر يجىء الزمان به.

التعبير بالقطع هنا أبلغ من التعبير بالنقض، ولذلك جاء بعده متمما له؛ كأن عهد الله – تعالى – إلى الناس حبل محكم الطاقات موثق الفتل، وكأن هذا الحبل قد وصل بحكمة أمر التكوين وحكم أمر التشريع بين جميع المنافع التى تنفع الناس، فلم يكتف أولئك الفاسقون المنكرون للمثل الذى ضربه الله لعباده بنقض حبل العهد الإلهى وحل طاقاته ونكث فتله حتى قطعوه قطعا، وأفسدوا بذلك نظام الفطرة ونظام الهداية الدينية أصلا وفرعا، ولذلك عقب هذا الوصف بقوله:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

وأى إفساد أكبر من إفساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين، وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج، وبين المطالب والأدلة والبراهين؟! من كان هذا شأنه فهو فاسد فى نفسه ووجوده فى الأرض مفسد لأهلها؛ لأن شره يتعدى كالأجرب يعدى السليم. ولذلك ورد فى السنة النهى عن قرناء السوء، والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها خصوصا إذا قعدوا فى سبيل الله يصدون عنها ويبغونها عوجا، فإن إفسادهم يكون أشد انتشارا وأشمل خسارا.

ولما كان إفساد هؤلاء عاما للعقائد والأخلاق والأعمال لأن علته فقد الهدايتين؛ هداية الفطرة وهداية الدين، سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، أما خسرانهم فى الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الصافية والفضائل السامية، ولكنه يخفى على الأكثرين بالنسبة إلى الأغنياء من أولئك الخاسرين، يرونهم متمتعين بلذات الدنيا وشهواتها فيحسبون أنهم مغبوطون سعداء بها، فيكون هذا الحسبان من آلات الإفساد، ولو سبروا أغوارهم وبلوا أخبارهم لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الأخلاق ينغص عليهم أكثر لذاتهم، ويقذف بهم إلى الإفراط الذى ولد الأمراض الجسدية والنفسية، ويثير فى نفوسهم كوامن الوساوس، ويجعل عقولهم كالكرة تتقاذفها صوالجة الأوهام، وأن حب الراحة يوقعهم فى تعب لا نهاية له، وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطرارى.

ومن لا يذوق لذة العمل الاختيارى لا يذوق لذة الراحة الحقيقية؛ لأن الله – تعالى – لم يضع الراحة فى غير العمل، وإنما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذى يرشد إليه الدين، فمن فقد هذه الأشياء فقد خسر الدنيا والآخرة و

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

(الحج: ١١)

أقسام السنة عند العلامة الشيخ عبدالجليل عيسى

التعريف به

● هو العلامة الشيخ عبدالجليل عيسى أبوالنصر (١٣٠٦-١٤٠١هـ-١٨٨٨-١٩٨١م).. من أعلام علماء المالكية فى عصره، وكبار المجددين.

● ولد بعزبة الرملة، التابعة للخادمية، مركز كفر الشيخ - محافظة الغربية حينذاك - ومحافظة كفر الشيخ الآن.

● وبعد حفظ القرآن وتجويده التحق بالمعهد الأحمدى الدينى بطنطا (١٣٢١هـ-١٩٠٣م).. ودرس - بالأزهر - على النظام القديم حتى (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م).. ثم درس على النظام الحديث حتى تخرج ونال شهادة العالمية (١٣٣٢هـ-١٩١٤م).

● وعقب تخرجه عين مدرسا بالمعهد الأحمدى الدينى - بطنطا - فى سبتمبر سنة ١٩١٤م.. ثم نقل إلى الأزهر بالقاهرة مدرسا بالقسم الثانوى.. ثم بالقسم العالى.. ثم بقسم التخصص.. إلى أن عين مفتشا بالأزهر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٥م.. ثم عين شيخا لمعهد دسوق الدينى فى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧م. ثم شيخا لمعهد شبين الكوم الدينى فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٨م، عندما اختاره الشيخ المراغى (١٢٩٨-١٣٦٤هـ-١٨٨١-١٩٤٥م) كأول شيخ لهذا المعهد.. ثم تم تعيينه شيخا لكلية أصول الدين فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٦م.. ثم شيخا لكلية اللغة العربية فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧م.

● وكان الشيخ عبدالجليل عيسى أحد أعلام مدرسة الإحياء والتجديد التى كان الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ-١٨٤٩-١٩٠٥م) رائدها.. كما كان تلميذاً للإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى، وأحد معاونيه فى الإصلاح الفكرى والتعليمى.

● وإبان ثورة مصر الكبرى (١٣٣٧هـ-١٩١٩م) كان الشيخ عبدالجليل عيسى أحد علماء الأزهر الذين انخرطوا فى الثورة، وشاركوا فى أحداثها عملياً وفكرياً.

● وبسبب اشتراكه - مع لفيف من علماء الأزهر - فى الاحتجاج على الوحشية الفاشية الإيطالية ضد الحركة الجهادية الليبية (١٣٥٠هـ-١٩٣١م) وإعدام البطل المجاهد عمر المختار (١٢٧٥-١٣٥٠هـ-١٨٥٨-١٩٣١م) تم فصله - مع عدد من العلماء - بتوجيهات من الملك فؤاد (١٢٨٤-١٣٥٥هـ-١٨٦٩-١٩٣٦م) إبان وزارة إسماعيل صدقى باشا (١٢٩٢-١٣٦٩هـ-١٨٧٥-١٩٥٠م).. وذلك مجاملة من الملك فؤاد لملك إيطاليا - صاحب الأفضال عليه وعلى والده الخديوى إسماعيل (١٢٤٥-١٣١٢هـ-١٨٣٠-١٨٩٥م).. فتمت إحالة الشيخ عبدالجليل عيسى إلى المعاش قبل أن يصل إلى السن القانونى للمعاش!.. ثم أعيد إلى

الأزهر - مع زملائه - بحكم قضائي (١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م).. وفي (١٣٧٠ هـ ١٩٥١م) تكرر الأمر، فصدر مرسوم ملكي بإحالته إلى المعاش قبل السن القانونية للمعاش، ولقد أعاده قضاء مجلس الدولة عميدا لكلية اللغة العربية (١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م) مع تعويضه ماليا، والثناء على علمه وفضله في حيثيات الحكم.

● ولقد نال الشيخ عبدالجليل عيسى عضوية لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.. وأصبح عضواً بمجمع البحوث الإسلامية «١٣٩٠ هـ ١٩٧١م» كما شغل عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.. والمجلس الأعلى للثقافة.. ومجمع اللغة العربية.

● ولقد نال العديد من الجوائز في العهدين الملكي والجمهوري منها:

١ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثالثة - أثناء عمله مفتشا بالأزهر.

٢ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثانية - أثناء عمله شيخا لمعهد شبين الكوم.

٣ - جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى سنة ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م.

٤ - نوط الامتياط من الطبقة الأولى.

● ولقد كانت سجاياه الخلقية تنافس عبقريته العلمية شجاعا في الرأي.. شديد الوفاء لعارفيه.. يتمثل دائما كلمات الإمام مالك «٩٣ - ١٧٩هـ ٧١٢ - ٧٩٥م»: «لا تسل: من قال؟ ولكن سل: ماذا يقول؟». كما كانت رسالة حياته العمل على تنقية التراث الإسلامي من آثار الجمود والتقليد والخرافات.

● ولقد صعدت روحه إلى بارئها في يوم الجمعة أول رمضان ١٤٠١هـ - ٢ يوليو سنة ١٩٨١م - عن عمر ناهز الثالثة والتسعين.

● وغير إسهاماته في الإصلاح التعليمي، كان له عطاء علمي متميز في المحافل العلمية، وفي الصحف والمجلات - بمصر والعالم الإسلامي - كما خلف تراثا فكريا نفيسا يشهد على عبقريته.. ومن هذا التراث كتب:

١ - «ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين».

٢ - «اجتهاد الرسول ﷺ».

٣ - «صفوة صحيح البخاري» في أربعة أجزاء - ٧٠٠ حديث مع شرح مستنير لها - درسه طلاب القسم الثانوي بالمعاهد الأزهرية لسنوات طوال.

٤ - «تيسير التفسير» - الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٧م.

٥ - «المصحف الميسر» - تفسير لمعاني كلمات القرآن الكريم.

● ولقد قال عنه تلميذه العالم الإسلامي محمد عبدالله السمان: «إنه كان يذكرنا بعلماء السلف: عمق إيمان، وصحة عقيدة، وسعة أفق، وقوة حجة، وسلامة رأي والتزام بالمبدأ، واعتزاز برسالة العلماء وورثة الأنبياء».

● ووصفه إمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي «١٣٢٩ - ١٤١٩هـ ١٩١١ - ١٩٩٨م» - في تقديمه للجزء الثالث من كتاب «التيسير الميسر للقرآن الكريم» فقال: «إنه أستاذ أجيالنا. ناصر السنة، وقاهر البدعة، وميسر كتاب الله وسنة رسوله للقارئ والدارس.. علم من أعلام الإسلام الذين ربوا دعاة الدين ومهدوا طريق الدعوة إلى الله.. ولقد كان كتابه هذا أول مراجعي الذي عرفني كيف أجمع شتات الآيات جمعا يستوعب كل ما قيل فيها».

● عليه رحمه الله[10].

(١٠) انظر: «الأزهر في ألف عام» ج٣ ص٤٥٧ - ٤٥٩ - للدكتور عبدالمنعم خفاجة. ومجلة «الأزهر» مجلد ٦٧ ص٥٠ - ٥٣ - خيري عبدالجليل - «إتمام الأعلام» طبعة بيروت سنة ١٩٩٩م.

اجتهاد الرسول ﷺ
للعلامة الشيخ عبدالجليل عيسى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فإن كل من اطلع على كتاب الله الكريم، وعلى سنة رسول الله ﷺ، يدرك في وضوح عنايتهما بعقيدة «التوحيد»، وحرصهما الشديد على إفراد الله بالكمال في عالم الوجود، واستحقاقه وحده دون غيره من الموجودات تقديس المخلوقين له، وعبادتهم إياه، ولتفرده بالكمال كانت ذاته الحق وقوله الوحي لا يشوبه خطأ ولا وهم. وقد ظل رسول ﷺ يجاهد جل حياته الشريفة في سبيل عقيدة التوحيد حتى أرسى أصولها، ودعم بناءها وأحاطها بسياج قوي من قوله وعمله، ولم يشغله شاغل عنها طول حياته، ولم يصرفه عن تذكير المؤمنين والناس بها كافة صارف ما، مهما عظم شأنه، وأخذ من نفسه مأخذاً قويا، ذلك أن في عقيدة التوحيد وحمل البشر على عبادة إله واحد أولى دلائل الصدق على أن صاحب الدعوة إليها رسول الله حقًا، وعلى أن الدين القائم عليها دين الله صدقًا، فما كانت تقدسه البشرية أيام سيطرة الجهل والبدائية عليها من آلهة متعددة لم يكن إلا وليد المصادفة أو انقياديًا لعصبية تتصل بالبيئة أو الجنس بصلة، وما كان الشرك بعد إرسال رسل الله إلا نتيجة لعناد الإنسان أو غروره، أو حرص بعض الناس على استغلال بعضهم لبعض ممن يتملكه ضعف الشخصية أو يستهويه بعض متع الدنيا، وكانت دعوة التوحيد أمارة صدق الداعي إليها على أنه رسول الله، ودليل صدق الدين المؤسس عليها على أنه دين لما تنطوي عليه من جملة مظاهر:

أولاً: أن الداعي لذلك على هذا النحو لا يطلب لنفسه ميزة خاصة غير أنه رسول الله، ولا يطلب لنفسه تقديسا من التابعين لدعوته، كما لا يطلب لقوله في غير حدود الرسالة التي أمر بتبليغها إلى الخلق عصمة مطلقة، ولتصرفاته في غير دائرة هذه الرسالة تنزيها عاما، فعناية الداعي متركزة في تبليغ رسالة الله، ليس له وراء هذا التبليغ مطمع شخصي، ولا هدف يجلب من ورائه زخرف الحياة الدنيا من جاه أو مال أو سلطان.

وثانيا: أن حمل الجماعة البشرية على الاعتقاد بإله واحد هو صاحب التدبير المطلق في الوجود، وعلى قصر العبادة عليه، والطاعة له رفع لهذه الجماعة من ظلمة خرافات المصادفة وأساطير الزعماء الإنسانيين.. وتوجيه سديد لها في الحياة، تعمل على تثبيت فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا عائق لها من جهل بالواقع أو من تغرير إنسان يحول بينها وبين أن تهتدي بنور الله في عالمه.

وثالثا: أن هذا الاعتقاد نفسه يؤدي إلى شعور الفرد المؤمن بحريته الفردية، وكرامته الإنسانية، في حدود وصايا الله من أوامر

ونواه، ووصايا الله الرب المعبود وحده، الكامل كمالاً مطلقًا، لا تنطوى إلا على خير الفرد وخير الجماعة، فرسالة الله الحقة تتجه إذًا إلى تعريف الأفراد بقيمهم الذاتية وكراماتهم الشخصية، ودفع استغلال الناس بعضهم لبعض، وذلك لا يكون إلا عن طريق نقل التقديس والعبودية من دائرة الإنسان وعالمه إلى من هو أرفع من الإنسان، ومن عالمه إلى الذى خلقه فسواه، وبالتالى عن طريق خلق روح المساواة بالكرامة الإنسانية فى الجماعة البشرية، ولأن محمدًا ﷺ كان رسول الله حقًا لم يستهوه أن يرى من المؤمنين به وبدعوته نوعًا من الإكبار لشخصه يسمو به عن منزلة الإنسان، وبعدم انقياده لذلك كان وفيًا لدينه، ولكتابه الكريم، وآياته التى ينطق بعضها بقول الله العظيم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ١١٠)

كما كان بذلك أيضا كارها حب الظهور.

وكان يمقت هذا الإكبار غير العادى لشخصه، ويدعو إلى تجنبه، خشية أن يؤدى إلى ثغرة فى دين الله ينفذ منها إلى هذا الدين الحنيف ما نفذ منها من قبل إلى دين عيسى عليه السلام مما خرج برسالته عن أن تكون رسالة الله الخالدة، لذلك بصر عليه السلام أمته بأمر هذه الثغرة، وحذر وشدد فى التحذير من أن يجر تعظيمه إلى الوقوع فى الشرك، دخل عليه يومًا رجل يرجف خوفًا، وهم بالوقوع على قدميه ﷺ فقال له: «رويدك يا هذا! إنما أنا بشر، أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد[٢]

ومن هذا القبيل ما رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الجمعة (باب تخفيف الصلاة والخطبة). عن عدى بن حاتم أن رجلا خطب أمام النبى ﷺ فكان من خطبته قوله: (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) فقال ﷺ: بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله). يريد ﷺ أن مجرد جمعه مع الله فى ضمير واحد فى قول الخطيب (يعصهما) ربما يوهم بعض السامعين مساواته لله سبحانه وتعالى، وهو ﷺ حريص على الحذر من ذلك أشد الحرص، ولذلك رد على من قال أمامه (إذا شاء الله وشئت يا رسول الله) فقال له: (أجعلنى لله ندًا؟! قل إذا شاء الله ثم شئت).

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم! فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله»، قال ابن حجر: وسبب قوله ﷺ هذا ما وقع من معاذ بن جبل، فقد روى أحمد فى مسنده عن معاذ بن جبل أنه لما رجع من اليمن قال: يا رسول الله رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض، أفلا نسجد لك؟ فقال ﷺ: «لا تطرونى....» إلى آخر ما تقدم.

وكثيرًا ما كان ﷺ يكرر قوله:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ﴾

(٢) اللحم المجفف يحفظ ليؤكل عند عدم وجود الطرى. يريد أنها كانت غير مترفة.

كلما شعر بمبالغة المؤمنين فى تعظيمه. ولم يشغله عن التنبيه على خطر ما تؤدى إليه هذه المبالغة شاغل ما. وكيف يشغله شاغل عن ذلك وهو رسول الله. لا يبغى إلا أن يعيش فى حدود الرسالة لله. ونطاقها لا يحتمل تعظيم موجود آخر سواه ربما يؤول تعظيمه إلى الاعتقاد بمساواته به جل جلاله. لذا كان ﷺ حتى وهو فى سكرات الموت يؤكد بشريته، ويحدد تبعًا لذلك منزلته من الله الواحد الذى لا رب غيره.

روى مسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاكم عن ذلك». وفى رواية البخارى عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل[٣] برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا، ذلك حال الرسول ﷺ مع نفسه إزاء ربه وجماعة المؤمنين به. لم يدع شائبة غموض تعترو علاقته بخالقه.

فوضح أنه رسول الله ومع ذلك هو إنسان، لا يسمو به اختيار الله له إلى أن تصير له قدسية الله وعظمته، وقوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٧٩ - ٨٠)

من آيات رسالته التى حملها للناس كافة، وكما أكد هذه العلاقة فى حياته الشريفة طلب أن يرعاها المسلمون بعده حتى لا يكون مصيرهم مصير النصارى واليهود الذين استحقوا لعنة الله بسبب ما حرفوا فى دين الله مما يتعلق بمنزلة أنبيائهم فاتخذوا قبورهم أمكنة للعبادة.

لكن المؤمنون بدين ما من الأديان لا يبقى إيمانهم به على حال واحدة ولا فهمهم له على نمط واحد.

ولو بقى إيمان الجماعة البشرية بأصول الأديان جميعًا من لدن نوح إلى آخرهم، وهذه الأصول هى الإيمان بإله واحد، وبكل رسول يرسله ربه مؤيدًا بأدلة صدقه، وباليوم الآخر، وبالجملة بكل ما يجب الإيمان به مما جاء فى هذه الأصول - لو بقى إيمانهم على حال واحدة من المحافظة على ما اتفقت عليه الأديان جميعًا من عناصر الدين المهمة التى لا تختلف فى عصر عن عصر، ولا فى قطر عن قطر، كالمحافظة على العقول، والأعراض، والدماء، والأموال، المشار إليه فى قوله تعالى:

(٣) بالبناء للفاعل والفاعل محذوف أى الموت، والمراد مقدماته. وفى رواية بالبناء للمفعول ويكون نائب الفاعل الجار والمجرور.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١)

نقول: لو بقي إيمان الجماعة البشرية على هذه الأصول ثابتاً لا يتغير، ولو بقي فهمها للدين على نمط لا يتغير، لما احتاج دين الله إلى رسل يأتي الواحد منهم تلو الآخر، لتعديل ما طرأ على هذه الأسس، ولكانت مهمتهم أيسر من هذا، ولما احتاج دين خاتم الرسل إلى تجديد الدعوة إليه، ومحاربة ما طرأ عليه من الفهوم الخاطئة.

كما نصح القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ «آل عمران: ١٠٤»

الدين في أساسه واحد لا يتغير. وأفهام المؤمنين به فيه هي التي تتبدل وتتغير، حسب العوامل التي توحي بذلك من بيئة ثقافية، واجتماعية ومواطن جغرافية. إلى غير ذلك مما يؤثر في اختلاف الناس باختلاف ميولهم واتجاهاتهم. وقد يُنكر الدين في أساسه فهم بعض المؤمنين به لمبادئه أو لمهمته الرئيسية إذا اتسعت الفجوة بينهما، ومقياس ذلك أن يبدو انحراف هذا الفهم عن أصول الدين التي بشر بها الرسول ﷺ وأتباعه الذين صاحبوه في المحن وضحوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل نصرته وإعزازه.

فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم، ويرون أن الدنيا والآخرة من فضل جوده ﷺ، أو يعتقدون أنه كان يعلم كل ما كان وما يكون، يعكسون آية رسالته ويضعونه فوق الرسول ويشبهونه بالله أو يجعلونه شريكاً له. وليس ذلك مما دعا إليه الرسول ﷺ في تحديد منزلته كما أمره ربه. وليس ذلك مما يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠)

لكن هذا الذي يتنافى مع مثل هذه الآية الكريمة آمن به بعض المسلمين اليوم وبالأمس وربما في الغد أيضاً. وإيمانهم به لا يزيد في قدسية الرسول ﷺ فحسب، بل يجعل لقوله وعمله العصمة حتى ما كان منهما خارجاً عن دائرة رسالة ربه. ويصبح محمد بن عبدالله بناء على ذلك ليس ذلك الإنسان المصطفى الذي كلف برسالة الله. بل يؤول أمره إلى ما آل إليه أمر عيسى عليه السلام حينما نظر إليه بعض أتباعه على أنه إنسان حلت فيه روح الإله وأن له طبيعة فوق طبيعة الإنسان، له طبيعة الإله والإنسان معاً. فصورته الظاهرة صورة إنسان، وما كان وراءها يرجع إلى الله

ويتفرع عنه وكانت هذه النظرة إلى عيسى سبب تقديسه فتأليهه من مسيحيي القرن الرابع الميلادي. كما كانت سبباً في أن عد الاتجاه المسيحي الذي ينصح بها تحريفاً للمسيحية التي هي دين الله؛ لأن دين الله لا يدعو إلى عبادة غير الله.

ومن الدعوة إلى الخير التي طلبها القرآن الكريم أن يكون في كل جيل إنساني من بين الخاصة المؤمنين قبل عامتهم أهداف الإسلام الرئيسية. وفي مقدمتها علاقة الرسول ﷺ بالله جل جلاله. وتحديد هذه العلاقة بالذات كما جاء بها القرآن كانت من الآيات الواضحة كما أسلفنا على أن الإسلام دين الله الحق لا دخل لإنسان فيه. ووجودها واضحة في جيل من أجيال المسلمين أمارة على أنهم لم ينحرفوا عن الإسلام الذي هو دين الله. كما أن وجودها مشوهة في جيل آخر علامة على أن هذا الجيل له من الإسلام اسمه فحسب.

لهذا حرصت على أن أتناول جانباً من جوانب هذه العلاقة في حدود ما جاء به القرآن وصح من الحديث الشريف.

هذا الجانب هو قول الرسول وعمله خارج دائرة الرسالة الإلهية لأؤكد ما أكده الإسلام الذي هو دين الله من أن محمد بن عبدالله كان رسول الله ﷺ، ومع ذلك فيما وراء الرسالة كان إنساناً. فله العصمة فيما أرسل به للناس من قبل الله من وحي متلو وغير متلو، وله حكم الإنسان المجتهد فيما أتى به من قول أو فعل بعد ذلك.

وسأعرض إلى أن هذا الشأن لنبينا الكريم كان شأن الأنبياء والرسل السابقين لا يختلف في شيء عنه لأن الوضع عند الجميع سواء. كلهم رسل الله وكلهم أناسي من مخلوقات الله اختيروا في أزمنة مختلفة وفي أجيال متعددة لأداء رسالة الله الواحدة الخالدة التي لا تختلف في زمن عنها في زمن آخر ولا في جيل عنها في جيل آخر.

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ «سورة الأحقاف: ٩»

وهذا الازدواج في النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه. فلم يزل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادي. كرمه ربه باختياره لأداء رسالته، فكرمه المؤمنون به لما له من منزلة خاصة عند الله. لكن من جهة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين به أن يعرفوا حدود هذه المنزلة، فلا يشركوه مع الله في درجة واحدة عن طريق إغفال المعنى الإنساني فيه.

فالرسول ﷺ إذا أضيف إلى الخلق كان في السماكين وكان الجميع يدب على سطح هذه الغبراء. وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفضل عليه كان بشراً ككل البشر خاضعاً لقوة القاهر الغالب الذي اختص بالكمال وحده.

والله الموفق والمعين



النبـــوة الإســـلامية

أ.د/ نظمى لوقا

لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الإسلامية. وهى مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، أو بنسب من الأنساب. فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشرًا كسائر البشر، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء.

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا فى آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ما جاء فى سورة الكهف:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾

(الكهف: ١١٠)

وفى تخير كلمة ﴿ مِّثْلُكُمْ ﴾ معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال.

بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾

(الشورى: ٤٨)

وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التى كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها.

بل كأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة، فجاء فى (سورة ق):

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(ق: ٤٥)

ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى (سورة الغاشية):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: ٢١، ٢٢)

***

رسول بشر. ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه - ولا زيادة..

وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب، بل هو

معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها، وتاريخ الرسول كله.

إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب. فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم «مثلهم» حقًا وصدقًا كما جاء فى سورة الكهف. لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون. وليس له من سلطان عليهم. وإنما الأمر إليهم، كى يكون اهتداؤهم تابعًا من قدراتهم البشرية، وعن اقتناعهم الذاتى، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير.. فيكون اهتداؤهم إيمانًا ليست فيه شائبة استهواء أو توريط.

وما توالى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه فى جعبة كل صاحب نبوة، وما أرادوا بذلك إلا الملهاة:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾

(سورة يونس: ٢٠)

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(الأنعام: ٥٩)

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٨٨)

حقًا! وما أكثر ما أوذى، وما أشد ما أساءوا إليه به، وهو لا يملك لذلك دفعًا، إلا الصبر على البلاء: حقًا! بل وتخطف الموت فلذات أكباده.. ليكون ذلك إيذانًا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم. فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به. فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول، فأين هم منه؟ وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به؟.

بل هو «مثلكم» لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا. ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة.. ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء.

وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى، فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده. وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد.

كذلك العقل السوى يجد امتهانًا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى، فإن كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها. فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك.

لهذا كان لابد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف، يحترم فطرته وبداهته.

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعى للبشرية تاريخًا، ونضوحًا، ورشدًا.

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحرا ولا كاهنا ولا مجنونا ممن بهم لوثات الصرع.. وينبه إلى المعجزة الخارقة لا تفيد في إقناع مكابر، وفي ذلك ما جاء بسورة الحجر:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

(الحجر: ١١-١٥)

ومن أنعم النظر في هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار على بشرية الرسول، وأن آيته الوحيدة هي صدق رسالته. وذلك حسبها من سند، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين. فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا من الملائكة، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

(الإسراء: ٩٠-٩٦)

>>>

ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا ما قاله الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه «الإسلام والنصرانية»:

«فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري. فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة. ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.

«وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه، على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله. فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة. فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولاً».

رحم الله الأستاذ الإمام!

إن الحقيقة باقية والبشر زائلون.

الرسالة إذن هي الباقية، وما هي بمتوقفة في شيء على بقاء هذا الرسول:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

إنها حقيقة. ولكن كان لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول.. وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين، من أن إماما مثل عمر بن الخطاب، على رجاحة عقله، وقوة إيمانه، وهو من هو من الإسلام ورسوله، أبى أن يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت..

ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس هذه الآية لقطع عمر أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات:

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

كان من الجائز أيضا أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته وما أكثرهم، وما كان ذلك لينفي شيئا أو يثبته. فإن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها، عاش الرسول أو مات أو قتل.

هذا إذن هو مكان النبوة في ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية.. يتنزه الله في تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر وأشباه جوبيتر. وليس أنبياؤه كهانا ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين.. وإنما هم بشر يأتيهم الوحي من الروح الأمين.. وليس عليهم إلا البلاغ المبين.

ولكن هل تكررت تلك النبوة على ذلك الأسلوب؟

لا حاجة للبشرية بذلك التكرير. فإن طور الأسلوب العقلي المجرد هو آخر أطوار البشرية. ومن تفتح عقله، وبلغ رشده، فطائره في عنقه، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره، وقد تسلم قياد نفسه.

للرسالة خصوصية هي إتمام ما سبق. ومتابعة البشر في أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح. فما هي الخصوصية التي يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام؟.

لقد تمت فكرة التوحيد. وتم خطاب العقل. وتم البلاغ إلى الناس كافة، أحمرهم وأسودهم، وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه، وبدنياه. وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور. فكل رسالة بعد ذلك قول معاد، ليس فيه جديد يستفاد:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

(المائدة: ٣)

وبسبب من طبيعة الرسالة، ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها، كان من الطبيعي أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل؛ لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات.

***

قصص الأنبياء

يعقوب عليه السلام

لفضيلة الشيخ العلامة عبد الوهاب النجار

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام من «رفقة بنت بتوئيل» أخى إبراهيم.

كان يعقوب أثيرا عند أمه . فلما دعا إسحاق ليعقوب وهو يظنه عيسو - وجاء عيسو وقد علم بذلك أخذ منه الغيظ مأخذه، وخشيت رفقة على يعقوب أن يبطش به عيسو .فأشارت عليه أن يذهب إلى خاله «لا بان» فذهب إلى فدان أرام، وأقام عند خاله يخدمه فى نظير تزويجه بابنته راحيل. ولكن خاله أدخله على ابنته ليئة التى لا يريدها يعقوب. فكلم خاله فى ذلك فقال له اخدمنى عشر سنين أخرى لأزوجك راحيل ففعل وتزوج أيضًا من جاريتيهما :زلفا وبلها . ومنهن كان أولاده وقد ولد له أولاده جميعًا فى أرام إلا «بنيامين» ثم جاء إلى فلسطين بمال كثير ونعم جليلة وأهدى إلى أخيه بعضها وهو خائف أن يبطش به .ولكن عيسو قابله مقابلة حسنة «١».

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب - إسرائيل الله - بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

إن قصة يوسف عليه السلام تتصل بقصة عليه السلام، وقد مر بعضها فى قصة إسحاق عليه السلام وسيمر بنا فى قصة يوسف عليه السلام قدر وافر من قصص يعقوب عليه السلام.

أولاد يعقوب عليه السلام

كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولدا ذكرا وهم «١» رأوبين :بكر يعقوب «٢» شمعون لاوى «٤» يهوذا «٥» ويساكر «٦» زبولون - من ليئة بنت خاله لابان «٧» يوسف بنيامين - من راحيل بنت خاله لابان «٩» دان «١٠» نفتالى - من بلها جارية راحيل جاد «١٢» أشير - من زلفا جارية ليئة.

(١) هذه الحكاية لم تذكر فى القرآن ولكن هذا ملخص صغير بما فى التوراة.

وهؤلاء الأولاد ولدوا له وهو فى فدان أرام يرعى غنم خاله لا بان فى نظير تزوجه ابنتيه ليئة ورحيل . وعاد بهما بعد انقضاء الأجل - وبعد أن أخذ من غنم خاله نتاج سنة - إلى أرض كنعان الابنيامين فقد ولد فى كنعان.

يوسف عند أبيه

كان يوسف جميل الصورة أثير عند أبيه يخصه بقسط عظيم من محبته . وكان ذلك سببا فى حقد إخوته عليه وسببا فى محنته التى كانت خيرا وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر ، وقد ذكرت قصة يوسف مطولة فى سورة يوسف .فسبب نزول هذه السورة فى القرآن الكريم أن كفار مكة لقى بعضهم اليهود وتباحثوا فى محمد صلى الله عليه وسلم .فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام.

والقصة أن يوسف كان صغيرا .وتقول التوراة كانت سنه سبع عشرة سنة «ومن كان فى هذه السن يبعد أن يصنع معه ما صنع إلى يوسف» فرأى فى منامه أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدوا له والذى فى القرآن الكريم يفيد أن قصه هذه الرؤيا على والده كان فى غيبة أخوته. وأن أباه قال له:

﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وتفيد عبارة التوراة أن ذلك كان بحضرة أخوته وأن أباه انتهره على هذا القول. وقال: لعلنا نسجد لك أنا وأمك وأخوتك! متهكما . وما فى القرآن هو حق .

رأى أبناء يعقوب من إيثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه مالم يكن منه لواحد منهم فغاظهم ذلك .وهم فى سن الشباب وطيش الحداثة .فأضمروا له الشر فقالوا لأبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

وكان يعقوب قد أحس الشر الذى يضمره بنوه لأخيهم ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم فقال:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾

ثم ترقى فى تعليل ظنه به قائلا:

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب .لم يع أبناء يعقوب بجواب .بل أجابوه جوابًا لا يبقى له علة يتشبث بها، فقالوا:

﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾

وهنا تخالف التوراة القرآن فى هذه القصة وتقول إن يعقوب هو الذى أرسل يوسف إلى إخوته من تلقاء نفسه ليذهب إليهم فى المرعى ثم يعود ويطالعه بأحوالهم وكانوا قد أبعدوا فلما جاء وعليه قميص مخطط - قد حباه به والده - قالو :قد جاء صاحب الأحلام لابس البجاد المخطط، ثم

اتمروا به ما يصنعون ؟ ثم انتهوا إلى أن يلقوه في الجب بعد أن يعروه من قميصه ولا يسفكوا دمه، وأن يخبروا أباهم بأن مفترسا افترسه

والقرآن على أنهم تسلموه من يد أبيه :

﴿ ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ ﴾

ثم :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ ﴾

أي في النضال بالسهام :

﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾

ولما كان المريب يشعر من نفسه بالتهمة ويتخيل أن كل واحد قد اطلع على خبيئة أمره قالوا لوالدهم:

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ ﴾

فلم يخف عليه شأنهم .وكان كمهرة المحققين في القضايا في هذه الأيام، فأخذ القميص ،ولما لم يجد به تمزيقا ولا قطعا قال لهم متهكما :ما أحلم هذاالذئب الذي افترس ولدي ولم يمزق عليه قميصه ولم يعمل في قميصه نابا ولا ظفرا . وقال لهم:

﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

بعدأن ترك يوسف في الجب « البئر » وكانت قليلة الماء جاءت سيارة «قافلة» فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا غلام وسيم تعلق بها فاستبشر الرجل وقال :

﴿ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾

ويقول المفسرون : إن الذين كانوا على الماء ادعوا في القافلة أنهم اشتروه من سادته ،وأسروه بضاعة حتى وردوا إلى مصر وشروه أي باعوه بثمن بخس وكانو فيه من الزاهدين وكثير من الناس حتى بعض العلماء يقولون :إن أخوته هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه للسيارة وعبارة التوراة لا تساعدهم ونظم القرآن لا يساعد على ذلك لأنه ذكر السيارة وواردهم ولم يعد إلى ذكر أخوة يوسف في هذا المقام .

والذي في التوراة آن أخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب جلسوا للطعام .ورأوا قافلة من الإسماعيليين تقصد مصر ومعهم الكثيراء والبلسان والطيب .وجاءت قافلة أخرى من المديانيين فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للإسماعيليين وأن يهوذا أشار على أخوته لا يتركوا يوسف في الجب وأن يبيعوه، ولما جاء رأوبين إلى الجب لم يجد يوسف فمزق ثيابه وبكى .وهذاكله ينفي ما اشتهر من أنهم باعوه، والمفسرون يخبطون في هذا كثيرا .

وباع الإسماعيليون يوسف في مصر وكان من رأى رأوبين من الأول عدم إهلاك يوسف، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في الجب لكي يخالفهم إليه ويأتي به إلى أبيه.

يوسف عند سيده

بيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر ولم يعين البلد الذي كان عاصمة الملك في

البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنه مدينة «صان» ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة .وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول إبراهيم، وكان منهم الملك الذي أكرم مثوى إبراهيم وأعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة، التي منها «أحمس» الذي طرد العمالقة من مصر ولما حصل يوسف عند سيده ألقى الله على سيده محبته فقال لامرأته :

﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾

وكان سيده رئيس شرطة المدينة واسمه «فوطيفار» ويعبر عن منصبه في العبرية ب«سرها طباحيم» أي رئيس شرطة فكان يوسف أثيرا لديه فجعله صاحب أمره ونهيه، والرئيس على خدمه والمتصرف في بيته بحيث لم يكن لأحد ممن في الداركلمة أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته. وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق وعلمه من لدنه علما عظيما .كما قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

محنة يوسف

كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمنا لمحنته، ومحنته مكمنا للمنة العظيمة عليه وعلى آله وعلى أهل مصر وجميع الأمم التي تقرب من مصر، كما قال ابن عطاء الله السكندري: «ربما كمنت المنن في المحن»، وكانت تلك المحن أن امرأة العزيز نظرت إلى يوسف وما هو عليه من الخلق السوي والجمال المفرط فأشعل ذلك في نفسها جذوة الحب.

وصار ذلك يزداد بتكرار رؤيتها له إلى أن غلبها الحب على حيائها، فأخذت تداعب يوسف وهو يعرض عنها لعاملين يكفي كل واحد منهما لعزوفه عما تريد :

- أولهما : إيمانه بالله وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية تلك الطهارة التي وجد عليها أباه وجده وجد أبيه.
- ثانيهما : أن بعلها سيده الذي حدب عليه، وأكرم مثواه، ومكن له في بيته، وجعله المتصرف في أمواله وخدمه، ووثق به ثقة ليس لها حد، فلا ينبغي أن يقابل نعمته بالكفران، فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافيا لحفظ سيده في أهله، والبعد عن تدنيس فراشه.

كان ذلك دأب يوسف معها، إلى أن هاج بها هائج الغرام، واعتزمت على شفاء ما في نفسها من الصبابة فصارحته القول، ودعته إلى نفسها دعوة لا هوادة معها، واحتاطت للأمر وأخذت عدتها له، وغلقت الأبواب، وقالت ليوسف:

﴿ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾

فأبى وقال : (إنه) أي بعلها :

﴿ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

وفي هذا الموقف العنيف، شاب في ريعان

شبابه وغضارة الفتوة تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها فيغلبه دينه ويعصمه رعى الذمام لسيده، ثم يولى وجهه شطر الباب يطلب النجاة من شيطان غوايتها، وهى تجاذبه ثوبه وهو العصى حتى تمزق من خلفه، إلى أن يغلبها ويفلت من يدها فيستبقان الباب، هو يريد فتح مغلقه وهى تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهى من الإفلات من يدها دون قضاء لبانتها، وحينئذ يجد أن بعلها عند الباب(٢).

تدبروا واقرءوا قوله تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾

(يوسف: ٢٣-٢٥)

وللعلماء فى تفسير هذه الآيه آراء، فقوم يقولون إن امرأة العزيز قد همت بيوسف ليضاجعها وهو هم بها وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، فلما لم يبق شىء دون تمام ما قصده وقصدته جاء جبريل وأخبره بأنه سيكون نبيا، وهذا العمل لا يليق من الأنبياء فكف عنها وهذا برهان ربه، ومعنى الآية لولا أن رأى برهان ربه لفعل.

وقال آخرون: إن البرهان الذى رآه وهو على هذه الحال أن نظر فرأى وجه أبيه وهو يؤنبه على هذا العمل عاضا على أنامله.

وقال آخرون: إن يوسف وهو فى تلكم الحال نودى من الله: يا يوسف إنك مكتوب فى ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، إلى غير ذلك من الأقوال الباردة، والقائلون بذلك لم يفقهوا قول الله تعالى فى تلك ابيه:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف: ٢٤)

فكيف يكون قد صرف عنه السوء وهو قد تهيأ لفعل الفاحشة وأصغى إلى شيطان الغواية، ولم يرجع كما يقولون إلا بعد أن رأى من الزواجر والروادع ما يكفى لصرف أعظم الفسقة والمستهترين عن الغى ومتابعة الشهوة! وكيف يوصف بأنه من المخلصين من كان انصرافه على هذا الوجه؟

وأعرق هذه الأوجه فى البعد قول من يعتذر عن هم يوسف بأن ذلك كان قبل النبوة، أى فعل المعصية فى هذا الدور غير ممتنع على الأنبياء، فإن صاحب هذا القول غافل عن قوله تعالى:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

فإن الرسالة إنما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية ولا يختار الله رسله من أهل

(٢) ساقت التوراة هذه القصة فى سفر التكوين فى الإصحاح ٣٩ وهى لا تختلف عن القرآن إلا فى شىء واحد، وهو أنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها، فنادت الخدم وأخبرتهم بأن بعلها جاء برجل عبرانى يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خاليا طلب أن يضاجعها فأبت وصرخت بصوت عظيم، وكان قد خلع ثوبه استعدادا للأمر فخاف حين استغاثت وهرب وترك عندها قميصه.

الفسق، وهو تعالى يرشحهم لما يضطلعونه من رسالته فهو يعصمهم عن الخسائس وسائر ما يعير به الناس، وأى عار أكبر من أن يذهب الشخص إلى المعصية ثم لا يرجع إلا بعد الزجر والنهى؟

ويقول آخرون: إنه هم هم الطبيعة وهو أمر لا اختيار للمرء فيه، وهؤلاء أخف قولا مما تقدم.

ويقول آخرون: إنه هم، هم ترك ولست اطمئن إلى هذا القول وأنه وجد منه هم على حال وتكلف آخرون فقالوا: إنه هم ليضربها.

والقول الذى لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾

(يوسف: ٢٤)

ومع قوله فى الآية نفسها:

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف: ٢٤)

إن همه عليه السلام لها امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، وأن قوله:

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾

لا يصلح جوابا لأن ﴿لَوْلَا﴾ لها الصدارة: لأنا لا نقول إن هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب، ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(القصص: ١٠)

(لأن ﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، امتنع الهم لوجود البرهان وامتنع ابداء أم موسى بما فى نفسها على ابنها لوجود:

﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾

والجواب محذوف تقدم دليله على ﴿لَوْلَا﴾.



«بعث رسول الله ﷺ رجلا على صدقات بني سليم، يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: (فهلا جلست في بيت أبيك وأمك، حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا). ثم خطبنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر). ثم رفع يده حتى رئي بياض إبطه، يقول: (اللهم هل بلغت). بصر عيني وسمع أذني» (البخارى)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



أ. محمد سيد طنطاوى

ثالثا: «ترغيبهم فى اتباع محمد ﷺ بالأسلوب اللين الحكيم»

رغب القرآن الكريم أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام بشتى ألوان المرغبات فقد بين لهم أن فى اتباعهم للنبى - ﷺ - عزتهم وسعادتهم، وعصمة أموالهم ودمائهم فى الدنيا، وفوزهم وفلاحهم، ورضا الله عنهم فى الآخرة، كما بين لهم أن ما يدعوهم إليه محمد - ﷺ - أمر تتقبله العقول السليمة، وتنشرح له القلوب المستقيمة، وتطمئن إليه النفوس الطيبة، ولا يختلف عاقلان فى أنه خير وبر ورحمة.

ومن الآيات التى رغب القرآن الكريم فيها أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

والمعنى قل - يا محمد - لأهل الكتاب:

﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف، بيننا وبينكم ولا يختلف فيها القرآن، والتوراة، والإنجيل، وهذه الكلمة هى:

﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾

من خلقه، بل نبرأ من كل معبود سواه:

﴿ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

أى: ولا يدن بعضنا لبعض بالطاعة، فيما أمر به من المعاصى، بأن نطيعهم فيما حرم الله، وإنما ندين جميعا لشرع الله تعالى فيما أمر ونهى، وأحل وحرم.

ثم بين الله تعالى للمؤمنين ما يجب أن يقولوه لأهل الكتاب إذا لم يستمعوا لكلمة الحق فقال تعالى:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

أى: فإن تولى الذين تدعونهم إلى كلمة التوحيد عنها، فقولوا أنتم - أيها المؤمنون لهم: اشهدوا - يا أهل الكتاب - بأنا مسلمون، خاضعون لله وحده، مذعنون

لكلمة الحق، وقد أنصفناكم بالدعوة إليها فلم تطيعونا، فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

هذا، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة، أسمى الأساليب الحكيمة فى الدعوة الحق، لدعوتها أهل الكتاب إلى توحيد الله، الذى جاءت به الكتب السماوية كلها، ولاشتمالها على ما يقنع العقول، ويطمئن القلوب بألطف بيان، وأبلغ أسلوب، ولذا كان يتخذها النبى - ﷺ - منهاجه فى دعوته إلى الله، وكان يذكرها فى كتبه إلى الملوك والأمراء، وهو يدعوهم إلى الإسلام، كما حصل فى رسالته إلى هرقل ملك الروم.

ومن الآيات التى دعا القرآن الكريم فيها أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام، بأسلوب هادئ حكيم قوله تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة: ١٥، ١٦)

ومعنى الآيتين الكريمتين:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد - ﷺ -

﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أى: يظهر لكم أيها اليهود كثيرا من الأحكام والمسائل التى ذكرتها كتبكم ولكنكم كتمتموها الناس، وأخفيتموها عنهم، كإخفائكم صفة النبى - ﷺ - التى تجدونها فى كتبكم، وكتمانكم أمر البشارات به، وكتمانكم الحكم برجم الزانى المحصن، وغير ذلك من الأمور التى أخفيتموها عن العامة، وتولى الرسول - ﷺ - إعلانها، إظهارا للحق، ووضعا للأمور فى نصابها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك أن الرسول - ﷺ - قد سكت عن أشياء كتموها فلم يظهرها فقال تعالى:

﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

أى: مما كنتم تخفونه فلا يبينه، بل يسكت عنه؛ لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففى السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة.

وفى إظهار الرسول - ﷺ - للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة له؛ لأنه لم يقرأ كتابا، ولم يجلس أمام معلم. فإخباره بأسرار ما فى كتابهم، إخبار عن الغيب، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان، به وتصديق دعوته، والانضواء تحت لوائه.

ثم مدح الله تعالى ما جاء به رسوله من

الخير والهدى فقال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾

أى: قد جاءكم من الله يا أهل الكتاب ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ هو القرآن الكريم الذى يكشف ظلمات الشرك، ويهدى الناس إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم.

ثم بين سبحانه لأهل الكتاب مزايا هذا النور، الذى جاءهم من الله، والفوائد التى تعود عليهم باتباعه فقال تعالى:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أى: يهدى الله من استضاء بهذا النور إلى طريق السلامة من كل سوء وشقاء.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾

أى: يخرجهم سبحانه من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام وضيائه، بتوفيقه وإرادته.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أى، يرشدهم ويسددهم إلى الدين القويم والمنهاج السليم، الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد دعتا اليهود إلى اتباع محمد ـ ﷺ ـ بأهدى أسلوب، وأكمل بيان، وأوضح برهان، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه من منافع جليلة، وفوائد عظيمة، تجعلهم يسارعون إلى تصديقه، إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ومن الآيات الكريمة التى دعت أهل الكتاب إلى تصديق محمد ـ ﷺ ـ وأزاحت كل عذر لهم قوله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(المائدة: ٩١)

ففى هذه الآية يبين الله تعالى مقام الرسالة المحمدية، وأنها جاءت والعالم فى أشد الحاجة إليها، فيقول سبحانه مخاطبا أهل الكتاب:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾

والمعنى: يا أهل الكتاب ـ يا من معرفتكم الكتاب توجب عليكم الطاعة ـ قد جاءكم رسولنا محمد يبين لكم ما أمرتم به، وما نهيتهم عنه، على حين فتور من إرسال الرسل، وبعد وقت لم يكن فيه بيان ولا إرشاد، إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسول ولا نبى، كما جاء فى الحديث الشريف «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى»[1].

فالله تعالى قد بعث محمدا ـ ﷺ ـ وقد انطمست معالم الشرائع، وحرفت الأديان، وكثرت عبادة الأوثان، فكانت النعمة به أتم النعم.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «بدء الخلق» جـ ٤ ص ٢٠٣ طبعة صبيح.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك ما يقطع عذرهم فقال تعالى:

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾

أى: قد جاءكم رسولنا محمد يا أهل الكتاب على فترة من الرسل، يبين لكم الطريق المستقيم، لكيلا تعتذروا، وتقولوا يوم الحساب ما جاءنا بشير يبشرنا بالخير على الطاعة، ولا نذير يحذرنا من العقوبة عند المعصية. والمقصود من الجملة: قطع عذرهم، وإبطال حجتهم، إذا ما تذرعوا بالجهل ادعوا يوم القيامة أنهم لم يأتهم رسول يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ولذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾

أى: أرسلناه إليكم لئلا تعتذروا، وتقولوا ما جاءنا من بشير ونذير، فقد جاءكم محمد ـ ﷺ ـ بشيراً ونذيراً، ليبشركم بحسن العقبى إذا آمنتم، وعملتهم صالحا، وينذركم بسوء المصير إذا بقيتم على كفركم وجحودكم للحق فعليكم أن تؤمنوا به، لأنه يهديكم إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان قدرته وسلطانه، فقال تعالى:

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها، وأنها جاءت، والناس فى أمس الحاجة إليها، فعلى اليهود أن يؤمنوا بهذا الرسول النبى الأمي، الذى بشرهم وأنذرهم، وأزاح عذر الجهل عنهم، لينالوا رضا الله تعالى.

***

«عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ (الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين، كانت أرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها، كان ذلك له حسنات، ورجل ربطها تغنيا وسترا وتعففا لم ينس حق الله في رقابها وظهورها فهي له كذلك ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي وزر.»

رواه البخاري

المجتمع المدنى فى ضوء المقاصد العامة للشريعة

٢

للأستاذ الدكتور/ ابراهيم البيومى غانم

ثالثا: نماذج تحقيق مقاصد الشريعة فى المجتمع المدنى

تتحقق مقاصد الشريعة فى مجتمع مدنى كما سبق أن أكدنا أكثر من مرة. وفى المجتمع المدنى ـ الذى كان نموذجه الأول هو مجتمع المدينة المنورة على عهد الرسول ﷺ ـ سعى المسلمون إلى إدراك مقاصد الشريعة عبر مشروعات ونظم وبرامج ومؤسسات. وكان من الطبيعى أن تبدأ تلك المشروعات بسيطة ومحدودة الحجم، وغير معقدة، ولكنها أخذت فى الاتساع والامتداد، وأخذت نظمها الإدارية والمؤسسية تنمو وتتعقد، وخضعت لكثير من التحولات والتطورات.

وظهرت عدة نماذج تاريخية ـ أقصد أنها ارتبطت بظروف مرحلة زمنية محددة، وبأوضاع اجتماعية وسياسية فى منطقة جغرافية معينة ـ وكان من أهمها: بناء المدن والأمصار الجامعة، من جهة، ومن جهة أخرى تطوير عدد من المؤسسات والنظم الاجتماعية الفرعية داخل المدينة أو المصر الجامع، مثل: نظم الحسبة، والأوقاف، والطوائف الحرفية. وتكشف المصادر التراثية – وخاصة تلك التى تصنف ضمن كتب الحكمة السياسية، أو الأدب السلطانى – عن أن المسلمين الأوائل قد أدركوا الأهمية البالغة لعملية تأسيس المدن والأمصار كشرط ضرورى لإمكانية تحقيق مقاصد الشريعة.

نموذج المدن والأمصار: أصول بنائها وقواعد تأسيسها فى ضوء مقاصد الشريعة

لنأخذ مثالاً واحداً يوضح كيف أدرك المسلمون الأوائل علاقة المقاصد ببناء المدن وتأسيس الأمصار الجامعة. هذا المثال هو ما أورده أبو الحسن الماوردى فى كتابه المعروف باسم «تسهيل النظر، وتعجيل الظفر، فى أخلاق الملك وسياسة الملك»، وذلك فى معرض كلامه عن قواعد تأسيس السلطة الشرعية. وخلاصة كلامه هى أن تأسيس السلطة الشرعية يقوم على أمرين:

تأسيس وسياسة، أما التأسيس فعلى الدين، أو القوة، أو المال. وأما السياسة فهى تفرض على من يتولى مسئولية السلطة أن يراعى أربع مسئوليات هى:

١- عمارة البلدان.

٢- حراسة الرعية.

٣- تدبير الجند.

٤- تقدير المال.

ويرى الماوردى أيضاً أن الذى يراعى فى عمارة البلدان ستة أمور، كلها تفضى إلى تحقيق مقاصد الشريعة فى حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال، وهى:

١- سعة المياه المستعذبة.

٢- إمكان الميرة المستمدة.

٣- اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة.

٤- قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعى والأحطاب.

٥- تحصين منازله من الأعداء والزعار.

٦- أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده.

ويشدد الماوردى على خصائص الأمصار التى تساعد فى تحقيق مقاصد الشريعة، فأكد على أن تلك الأمصار (المدن) هى أوطان جامعة، وأن المقصود بها خمسة أمور:

أحدها: أن يستوطنها أهلها طلباً للسكون والدعة.

والثانى: حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة.

والثالث: صيانة الحريم والحرم من انتهاك ومذلة.

والرابع: التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.

الخامس: التعرض للكسب وطلب المادة. فإن عدم فيها أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار، وهى منزل قيعة ودمار، على حد تعبير الماوردى.

ويحدد الماوردى ملامح السياسة العامة التى يتعين على منشئ المصر، أو المدينة، أن يتبعها حتى يكون مؤدياً ما عليه من الواجبات نحو ساكنى هذا المصر أو تلك المدينة، وهذه السياسة تفرض عليه القيام بالآتى:

١- أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما فى أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل الوقوف عليه من غير تعسف.

٢- تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها؛ فيستضر المار بها.

٣- أن يبنى جامعاً للصلوات فى وسطه ليقرب على جميع أهله ويعم شوارعه.

٤- أن يقدر أسواقه بحسب كفايته وفى مواضع حاجته.

٥- أن يميز خطط أهله وساكنيه، ولا يجمع بين أضداد متنافرين ولا بين أجناس مختلفين.

٦- إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه فى أفسح أطرافه، وأطاف به جميع خواصه، ومن يكفيه من أمر أجناده، وفرق باقيهم فى بقية أطرافه ليكفوه من جميع

جهاته، وخص أهله بالعدل، وجعل وسطه لعوام أهله.

٧- أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدواً أو خافوا اغتيالاً.

٨- أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم والصنائع ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرهم.

فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فقد أدى حق مستوطنيه وصار أكمل الأمصار وطناً وأعدلها سكناً». انتهى كلام الماوردى. ومن الواضح أنه أراد أن يقول: إن منشئ المصر أو المدينة إذا طبق تلك السياسة فإنه يكون قد وفر البنية الأساسية الأنسب لإدراك مقاصد الشريعة وتحقيقها على أرض الواقع بأفضل ما يكون التحقيق. ثم إن عليه أن يضع خططاً وبرامج تمكن أبناء الرعية (المواطنين) من أن يسعى كل منهم ويكد أن تتاح له أفضل الفرص كى يحقق ذاته، ويؤدى واجباته، وينعم بثمرات عمله فى ظل هذا الإطار العام الذى ترسمه مقاصد الشريعة. يقول الماوردى إن على الملك. أو ولى الأمر فى حقوق الاسترعاء على الرعية عشرة أشياء يلزمه القيام بها وهى:

١- تمكين الرعية من استيطان مساكنهم وادعين.

٢- التخلية بينهم وبين مساكنهم آمنين.

٣- كف الأذى والأيدى الغالبة عنهم.

٤- استعمال العدل والنصفة معهم.

٥- فصل الخصام بين المتنازعين منهم.

٦- حملهم على موجب الشرع فى عباداتهم ومعاملاتهم.

٧- إقامة حدود الله تعالى وحقوقه فيهم.

٨- أمن سبلهم ومسالكهم.

٩- القيام بمصالحهم فى حفظ مياههم وقناطرهم.

١٠- تقديرهم وترتيبهم على أقدارهم ومنازلهم فيما يتميزون به من دين وعمل وكسب وصيانة.

من النماذج المدنية الفرعية:

نظام الوقف

إذا دققنا النظر فى السجل التاريخى لنظام الوقف الذى عرفته مجتمعاتنا منذ فجر الإسلام سيتضح أنه كان نظاماً فرعياً بحد ذاته متكامل الأركان الإدارية، والتشريعية، والوظيفية. وكان موظفاً بكامل أركانه فى خدمة تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية، وكان أيضاً قاعدة مادية ومعنوية لبناء كثير من مؤسسات المجتمع المدنى ودعم سياسات التنمية الدائمة؛ وذلك على امتداد مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وبالرجوع إلى تراث الوقف الفقهى وسجله التاريخى يتضح كذلك أن فعاليات الوقف قد غطت مختلف المجالات العلمية والتعليمية، والصحية، والخدمية؛ وحتى الترفيهية. والذى لا يقل أهمية عن هذا وذاك هو أن التجارب التاريخية أثبتت أيضاً أن نظام الوقف كان أحد الابتكارات المؤسسية الإسلامية التى جسدت الشعور الفردى بالمسئولية الجماعية، ونقلت هذا الشعور من المستوى الفردى الخاص إلى المستوى

الجماعى العام، وذلك بملء الإرادة الحرة للمحسنين وفاعلى الخير من أبناء الأمة، ومن ثم يمكن القول أن مهمات التنمية كانت مسئولية مشتركة بين المجتمع بفاعلياته المختلفة، وبين الدولة بمؤسساتها وأجهزتها المتنوعة.

إذا رجعنا إلى الشاطبى ـ مؤسس علم المقاصد ـ ستجد أنه قد أكد على أن المصالح المعتبرة هى مقاصد الشريعة، أو هى مضمون هذه المقاصد، دنيوية كانت أو أخروية، كلية تتعلق بمصالح الجماعة أو بعض فئاتها، أو جزئية تتعلق بأفرادها أو ببعضهم. وأن لكل مصلحة أو مقصد وسيلة أو وسائل لتحقيقه. وقد عرفنا المقاصد الشرعية بأنها هى المتضمنة للمصالح والمفاسد فى أنفسها، أما الوسائل فهى «الطرق المفضية إليها»، أو هى: «الأحكام التى شرعت لأن بها تحصيل أحكام أخرى.. إذ بدونها قد لا يحصل المقصد، أو يحصل معرضاً للاختلال والانحلال». ومن هذا يتبين بجلاء أن الوقف ـ وسائر عقود التبرعات ـ هى من وسائل المصالح (المقاصد)، الضرورى منه، والحاجى، والتحسينى، ومن هنا كان تعلقه بنظرية المقاصد، ومن هنا أيضاً تلقته الأمة بالقبول، وانتشر العمل به فى مختلف الأقطار والأمصار بالرغم من أن التوجيه الشرعى الخاص به قد جاء على سبيل الندب، وليس على سبيل الوجوب أو الفرض. وما كان هذا القبول وذلك الانتشار إلا أثراً من آثار تعلقه بمقاصد الشريعة السمحة. ولعلنا نزيد فنقول إن قوة الوقف وفاعليته ارتبطت بنضج الوعى الاجتماعى بالمقاصد الإنسانية للشريعة، فكان ازدهاره مؤشراً على مراعاة تلك المقاصد وما تتضمنه من مصالح والعكس كان بالعكس.

ولعل من أهم ما أسهم به «الفقه» فى بناء نظام الوقف هو إرساء أسس فاعلية هذا النظام؛ من خلال تأصيل الفكرة المجردة للوقف، وهى فكرة الصدقة الجارية، وأيضاً من خلال تفصيل الأحكام المتعلقة بالإجراءات والتنظيمات المشخصة لهذه الفكرة فى الواقع الاجتماعى.

والملاحظ أن «باب الوقف» هو من الأبواب الثابتة فى جميع مصادر الفقه الإسلامى بجميع مذاهبه ـ السنية والشيعية ـ وهو ملىء بالاجتهادات والآراء والأفكار التى عالجت مسائل الوقف من مختلف الجوانب، وبالبحث فى التاريخ المعرفى لفقه الوقف تبين لنا أنه كان أول فرع من فروع الفقه الإسلامى يستقل بذاته، وتفرد له مؤلفات خاصة به، وذلك منذ منتصف القرن الثالث الهجرى على يد هلال بن يحيى المعروف بهلال الرأى (ت ٢٤٥هـ) ومن بعده بقليل من السنوات أبو بكر الخصاف الحنفى (ت ٢٦١هـ) الذى ألف أشهر كتاب فى هذا الموضوع وهو كتاب «أحكام الأوقاف».

ويستفاد من فقه الوقف ـ بدون الدخول فى تفاصيله وتفريعاته ـ أن الفقهاء قد بذلوا جهوداً مضنية لوضع أصول البناء المؤسسى لنظام الوقف على النحو الذى يحافظ على حرمته، ويضمن له استمرار النمو والعطاء؛

اللذان يكفلان تحقيق الغاية منه فى تحقيق مقاصد الشريعة. وتتلخص تلك الأصول فى ثلاثة مبادئ كبرى هى:

١ - احترام إرادة الواقف:

و«إرادة الواقف» المقصودة هنا هى التى يقوم بالتعبير عنها - فى وثيقة وقفه - فى صورة مجموعة من الشروط التى يحدد بها كيفية إدارة أعيان الوقف، وتقسيم ريعه، وجهات الاستحقاق من هذا الريع، ويطلق على تلك الشروط فى جملتها اصطلاح «شروط الواقف»، وقد أضفى الفقهاء عليها صفة الإلزام الشرعى فقالوا: إن «شرط الواقف كنص الشارع» فى لزومه ووجوب العمل به. وعلى ذلك نظروا إلى وثيقة الوقف (الحجة) باعتبارها «دستورا» واجب الاحترام، وأن أحكامه واجبة التطبيق، ولكنهم حددوها بأن تكون محققة لمصلحة شرعية، وموافقة للمقاصد العامة للشريعة، وأبطلوا كل شرط يؤدى إلى إهدار مصلحة معتبرة؛ وبذلك توفرت للأوقاف ومؤسساتها حماية شرعية، وحرمة معنوية؛ وكانت - هذه وتلك - من عناصر فاعليتها. ومن أهم أسباب زيادة الطلب الاجتماعى لها.

٢- اختصاص السلطة القضائية بالولاية العامة على الأوقاف

حيث قرر الفقهاء أن الولاية العامة على الأوقاف هى من اختصاص السلطة القضائية وحدها دون غيرها من سلطات الدولة، وتشمل هذه الولاية، ولاية النظر الحسبى أو ما يسمى بالاختصاص الولائى، وولاية الفصل فى النزاعات الخاصة بمسائل الأوقاف، أو ما يسمى بالاختصاص القضائى. ويشمل الاختصاص الولائى الذى يشمل شئون النظارة على الوقف وإجراء التصرفات المختلفة المتعلقة به؛ بما فى ذلك استبدال أعيانه عند الضرورة - والإذن بتعديل شروط الواقف - أو بعضا منها - والحكم بإبطال الشروط الخارجة عن حدود الشرع وفقا لمقاصده العامة.. إلخ.

ومن الواضح أن مثل تلك التصرفات من شأنها التأثير فى استقلالية الوقف، ومن ثم فى فاعلية الأنشطة والمؤسسات التى ترتبط به، وتعتمد فى تمويلها عليه، ولهذا أعطى الفقهاء للقضاء - وحده دون غيره - سلطة إجراء التصرفات فى الحالات التى تعرض للوقف بما يدفع عنه الضرر ويحقق له المصلحة؛ باعتبار أن القضاء هو المختص بتقدير مثل هذه المصالح، ولكونه أكثر الجهات استقلالية، ومراعاة لتحقيق العدالة وعدم تفويت المصلحة العامة والخاصة، وأيضا لعدم تمكين السلطة التنفيذية للدولة من التدخل فى شئون الوقف، وعدم إتاحة الفرصة لها لاتخاذ بعض الحالات الطارئة التى تعرض له ذريعة للاستيلاء عليه، أو إساءة توظيفه، أو إعاقة فعاليته.

ويمكن القول أن بقاء نظام الوقف تحت الاختصاص الولائى للسلطة القضائية كان أحد عناصر ضمان استقلاليته واستقراره وفعاليته، وبالتالى فإن هذا الاختصاص، أو إخراج الوقف من تحت مظلته يضعف

استقلاليته ويقضى على فاعليته.

٣- تمتع الوقف بالشخصية الاعتبارية

يستفاد من أحكام فقه الوقف وتفاريعه - لدى جميع المذاهب الفقهية - أن الوقف يصبح محلاً لاكتساب الحقوق وتحمل الالتزامات متى انعقد بإرادة صحيحة صادرة من ذى أهلية فيما يملكه، ومتى كان متجها لتحقيق غرض مشروع من أغراض البر والمنافع العامة أو الخاصة.

إن إقرار الشخصية الاعتبارية للوقف كان بمثابة ضمانة تشريعية وقانونية تدعم الضمانتين السابقتين، وتضاف إليهما للمحافظة على استقلاليته واستمراريته وفعاليته فى آن واحد، وذلك لأن وجود ذمة مستقلة للوقف لا تنهدم بموت الواقف كان من شأنه دوما - أن يحفظ حقوقه فى حالة تعرضه للغصب، أو الاعتداء، حتى ولو كان من قبل السلطات الحكومية، ومن ثم كان من الصعب جدا إقدام تلك السلطات على إدماج أموال الوقف ومؤسساته فى الإدارة الحكومية أو إخراجها عن إطارها الشرعى والوظيفى الذى أنشئت من أجله.

العالمية هى أعلى مراحل تحقق مقاصد الشريعة:

إن الأفق الطبيعى والواسع الذى تفتحه نظرية المقاصد هو أفق ما يسمى «المجتمع المدنى» على المستويين المحلى والعالمى، وما يتعلق بذلك من مهمات تنموية وعمرانية، وستجد كلما أرسلنا النظر إلى أبعاد هذا الأفق أن النزعة الإنسانية العميقة الكامنة فى نظام الوقف ومنظومة العمل الخيرى المستندة إلى أصول الشريعة ومقاصدها هى ما تسعى إليه نظرية المجتمع المدنى المحلى والعالمى، أو هى ما يجب أن تسعى إليه فى تجلياتها المعاصرة على المستوى المعرفى أو الفلسفى على الأقل، وستجد أيضا أن بالإمكان أن نسهم فى بلورة هذه النظرية بإظهار الأبعاد الإنسانية فى النظم الإسلامية، ومنها الوقف ومنظومة العمل الخيرى ومقاصدها الشرعية؛ وذلك إذا أعدنا فهم نظرية مقاصد الشريعة، وسعينا لربطها بالواقع، وتغذية الوعى بها، والالتزام بتوجيهاتها فى التشريعات، وفى المشروعات والبرامج وفى بناء الأولويات ورسم السياسات؛ حيث إن مقاصد الشريعة مبنية على الفطرة الإنسانية، وهدفها العام هو حفظ نظام العالم واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان.

وختاما أقول: إن ما قدمته فى هذا البحث ليس إلا فاتحة للكلام فى موضوع على درجة كبيرة من الأهمية من الناحيتين النظرية والتطبيقية. وأن علينا أن نبذل كل ما فى وسعنا للكشف عن المعانى المدنية والإنسانية العميقة لنظرية المقاصد العامة للشريعة.

وإذا كان هدف المقاصد هو حفظ نظام العالم واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان، فإن مقاصد الشريعة لا يمكن أن تبلغ كمال تحققها إلا على مستوى عالمى، وإن موضوع المجتمع المدنى، على المستويين المحلى والعالمى، هو أحد الموضوعات التى تتجلى فيها مقاصد الشريعة بكل أبعادها المدنية والإنسانية. وإنسانية الإسلام هى جوهر

منهاج النظر فى دراسة القانون مقارنا بالشريعة

٢



المستشار/ طارق البشرى

(٧) أمران أخالهما لازمين ليتفهم رجال الدعوة بعضهم بعضا، أولهما أن لكل مجال نشاط أسلوب العمل فيه بما يتناسب مع طبيعته وأوضاعه، ولكل مجال نشاط رجاله بما يتفق معه، وهذا قول لا جديد فيه ولا يضيف إلى قارئ فضل معرفة، ولكن مناسبة ذكره أن النشاط الإسلامي يحتاج إلى وجوه عمل كثيرة متنوعة، منها ما يتعلق بالتدريس، وما يتعلق بالدعوة بين العامة، ومايتعلق بالفقه وأحكام المعاملات، وما يتعلق بالعمل السياسي والعمل الاقتصادى وغير ذلك، تنوع المجالات يولد تنوعا فى الرؤى وفى المنظور أو الوجهة التى ينظر منها إلى الجماعة وأوضاعها، والتنوع قد يولد الخلاف لاختلاف الرؤى ونوع الثقافة ومطالب النشاط النوعي فى كل مجال، فالتعليم مثلا يحتاج إلى الصبر وطول النفس والاستقرار والبعد عن المخاطر وتكرار ماهو المعروف عاما وراء عام، والسياسة تحتاج لخصوبة ذهنية وسرعة تفهم لما يتغير ونوع مخاطرة، وهكذا.

وأحرى بنا أن يدرك كل منا فى مجاله ما يقتضيه اختلاف الثغور واختلاف المهام المطلوبة من صلاحيات مختلفة ووجهات نظر مختلفة، وما يترسخ من ذلك من تباين فى التكوين النفسى وعادات العمل، كل ذلك لكى يمكن لنا أن ننظر نظرة التكامل لهذه الأوضاع المتباينة، وندرك ما يمكن أن يجرى به التنسيق بينها والتجميع، فلاتتنافى أنواع النشاط ولا ينقض بعضها من بعض.

ومن هنا عندما نشير إلى أن الجهد الفقهى الشرعى الرامى إلى تخلل النظام القانونى القائم، إنما يتعين وضعه فى إطار التكامل مع المطالبة لسيادة التشريع الإسلامى كاملا من حيث جوانب الدراسة الفقهية من جهة، والمطالبة السياسية من جهة أخرى.

وثانى الأمرين، أنه مامن فكرة إلا ولها حدود، وما من فقه إلا وله ضوابط، والفقه يتعلق ببيان شرعية السلوك والتصرف والتكامل، فهو يتعلق ببيان الحد الفاصل

بين المشروع وغير المشروع، وبين الجائز والممنوع، وبين الواجب والجائز، وهو بيان الفروق بين الأمر وغيره و«الموافقات» بين الأمر وغيره، حسبما أسمى كل من القرافى والشاطبى كتابيهما.

ونحن عندما نجدد فى الأحكام بفقه جديد، إنما نعدل فى الحكم المستفاد من النص الثابت بموجب ما طرأ على الواقع من تغير فى الأوضاع، مما يقتضى لهذا الواقع وصفا جديدا أووضعا جديدا يتزحزح بسببه عن منزل الأحكام ومهبطها، عندما نصنع ذلك فإن الكثير منا وهو يصرف همه للانفعال من الحدود والضوابط التى كان الفقه أحاط بها حكم النص، وهو يفعل ذلك مبينا وجوه الاختلاف فى الوضع المحكوم بالنص بين الماضى والحاضر، وإنما يغفل عن بذل الجهود الضابطة لحكم النص فى الواقع الجديد، وبيان محددات هذا الحكم وفروقه بين حلال وحرام أوصحيح وفاسد، وهو فى إغفاله هذه المسألة تنفلت منه أحكام النصوص وتتميع، لأنه لا فقه بغير ضوابط ولا تجديد يزيح الحدود والضوابط، إنما يكون التجديد بتحريك تلك الحدود والضوابط، لتظل فارقة بين أمرين مختلفين وموفقة بين أمرين مجتمعين.

ومن هنا فعندما يقوم البعض بعملية الإسناد الشرعى للأحكام الوضعية، عليه أن يفطن إلى أنه لا يرفع من أحكام الشريعة ضابطا ولا حدا، ولكنه دائما يحفظ لها ضوابطها ويستعين بفروقها وموافقاتها فى تبين حدود الحكم الشرعى الواجب المراعاة، وهو هنا لا يسبغ الشرعية على واقع غير مشروع، وإنما يحاكم الأحكام الوضعية بما تسعه شريعة الله عز وجل، وما وسعته الشريعة أسند إليها، ومالم تسعه بقى خارجها لا يسنده إلا سلطان الدولة العلمانية الحديثة، بما يمنحه هذا السلطان من إمكان نفاذ وقضاء بالقوة والتغلب.

(٨) فى ضوء هذا التصور يمكن فى ظنى أن تجرى دراسة القانون مقارنا بالشريعة الإسلامية، وهذا يفضى إلى أن تتجه الدراسات إلى الأحكام التفصيلية، وذلك لتمد العاملين بالقانون بالمادة المقارنة التى تساعدهم على إجراء هذا الإسناد الشرعى للأحكام الوضعية فى الحالات المخصوصة التى تعرض لهم فى نشاطهم المهنى، والأمر بطبيعة الحال ليس بهذه البساطة التى يتصور معها أن الشارع يختار من آراء الفقه الإسلامى ما يتناسب مع الحكم الوضعى المعنى، ويكرر هذا الصنيع فى كل ما يتعرض له من أحكام، الأمر ليس بسيطاً هكذا وليس سهلا، لأن الدارس سيواجه باختلاف المفاهيم بين النظر الفقهى الوضعى، والنظر الشرعى، وسيواجه باختلاف دلالة المصطلحات بين المجالين أيضا، وهذا من شأنه أن يستلزم جهدا جهيداً فى الملاءمة بين الأحكام والتقريب بين المفاهيم، وهو يقتضى من الباحثين تعمقا تنظيريا لتلك المفاهيم لتبين وجوه المفارقة والتشابه بين مفاهيم المجالين.

أذكر أنه عندما كان مشروع القانون المدنى الجديد يعد فى مصر وتناقش أحكامه المقترحة فى اللجان المختلفة، وذلك خلال الأربعينات، تصاعدت بطبيعة الحال الدعوة

إلى صياغة القانون كله من الفقه الإسلامي، وتشكلت لجنة من بعض رجال القانون فيهم أساتذة جامعيون ومستشارون من محكمة النقض كالأساتذين محمد صادق فهمي وحسن الهضيبي، وأعدت صياغة تقنينية للباب الخاص «بالعقد» في نظرية الالتزام، أعدته أخذا من الفقه الإسلامي، وقدمت مشروعها إلى لجنة مناقشة التقنين ووزعته على المهتمين بالأمر من المتخصصين، وأذكر ما تضمنته الأعمال التحضيرية للقانون المدني، من مناقشات حول هذا المشروع، وكان من أهم ما وجهه الدكتور عبدالرزاق السنهوري إلى هذه المحاولة، أنها شرعية الشكل وضعية المحتوى، إذ اتبعت في اختيارها للأحكام الشرعية تصنيفات الفقه الغربي ومفاهيمه، مثل «البطلان»، «القابلية للبطلان».

وذكر السنهوري أن الأولى هو أن يجرى تفهم التصورات العامة للفقه الإسلامي من مادة هذا الفقه ذاته، وما ذكره السنهوري هنا، وإن كان لايؤثر على الجهد الفقهي الحميد الذي بذلته لجنة إعداد مشروع العقد من الفقه الإسلامي، إلا أنه يصدر عن نصيحة مخلصة ونظر ثاقب، فإن أي مفهوم جزئي لا تستفاد دلالته إلا في ضوء علاقته بالمفاهيم الجزئية الأخرى وفي ضوء الأداء العام لهذه المجموعة من المفاهيم، فالعقد مفهوم عام ولكنه ينقسم إلى مرحلة نشوء وتنفيذ وانتهاء، والنشوء له أركان وشروط انتفاء موانع، ثم هناك البطلان والفساد أو القابلية للإبطال وعدم النفاذ وغير ذلك، وكل تلك العناصر أوالمفاهيم الفرعية قد تختلف دلالتها من نظام قانوني إلى نظام آخر، ولكن الأداء العام للنظام القانوني العام يبقى واحدا ومتماثلا، وهذا مايتعين أن نعيه وندركه عندما نقارن الأحكام الجزئية، أي نقارنها في إطار المفاد العام الكلي لها جميعا.


السنهوري

لا تقوم في ظني صعوبة كبيرة في هذا الشأن، لأن حركة الدراسة المقارنة سارت خطوات واسعة، سواء في التأليف أو في الرسائل الجامعية، على مدى العقود الأخيرة، وذلك في غالب مباحث القانون المدني، وأساس النظرية القانونية الوضعية، ثم تلك الدراسات العديدة التي صدرت في معاملات المصارف، ومباحث القانون التجاري، وكذلك المجال الدستوري ونظم الحكم، وإن هذه الدراسات العديدة التي أنتجتها قرائح الباحثين في الفقه المقارن، يمكن أن تكون موردا في عمليات إسناد الأحكام الوضعية إلى المرجعية الفقهية الإسلامية، فيما تسعه هذه المرجعية من تلك الأحكام، بمراعاة ما يقتضيه هذا الأمر من تأصيل وتعقيد نظري يبعدان عملية الإسناد عن الشطط والسطحية والتأويل الخاطئ..

(٩) إذا كان التنظير الفقهي مما تدرك به الأحكام الكلية في أدائها العام، ومما يبعد عن الزلل عند مقارنة الأحكام الفرعية في نظام قانوني بما يشابهها في نظام قانوني آخر، فإن هذا التنظير الفقهي يصير ضروريا ويجاوز حدود الاحتياج، وذلك عندما يطرق الباحث مجالات قانونية حديثة لم

يتعرض لها الفقه الشرعي القديم، وذلك فيما جد من مجالات تتعلق بنشاط الإنسان في الأجواء وأعماق البحار وأمور البيئة، وفيما زادت أهميته عن أقصى ما كان يمكن أن يتوقع في الماضي، فيما يتعلق بنظم الإدارة وتكوين المؤسسات الإدارية والاقتصادية وتنظيم علاقات الدول، وغير ذلك مما لا يخفى على قارئ.

إن المتابعة التاريخية للتنظير الفقهي وتعقيد الأحكام تكشف أنه قد تراخى التنظير في الفقه الإسلامي قرونا، ولا يعني ذلك أنه لم يبدأ إلا متراخيا، فالحقيقة أنه بدأ منذ كتب الشافعي رسالته في أواخر القرن الهجري الثاني، ولكن وجه القول بالتراخي إن لم تكن حركة التنظير مواكبة في سرعتها ومداها لحركة فقه الأحكام التفصيلية، ويبدو لي أن بمثل ماتراخت به حركة التنظير بالمعنى السابق، إنما كان بسبب عدم إلحاح الحاجة إليها، بمثل ماتكون الحاجة ملحة إلى التنظير في الفقه الوضعي العلماني، ذلك أن الفقه الإسلامي بارتباطه بإطار مرجعي عقدي، إنما يكتسب شرعية أحكامه وتقبل الناس لها ورضاءهم بالانصياع لها والطاعة، إنما يكتسب ذلك من أصل الموقف الإيماني بالله وبرسوله ووجوب الطاعة لله سبحانه ولرسوله الكريم، وما يتفرع عن ذلك من تقبل الاندراج في حاكمية القرآن والحديث.

لذلك خضع الناس لأحكام القرآن والسنة في سلوكهم وتعاملاتهم التفصيلية وصرفوا أهم جهودهم الأولى في رصد الأحكام، بتدوين القرآن وجمعه أولا ثم جمع الحديث وتحقيقه، وكانوا يقيسون ما لا نص فيه من وقائع شئونهم بما ورد فيه نص قرآن أوحديث، قياس حكم فرعي على حكم فرعي، والقياس يعني الصعود إلى أصل مشترك هو العلة في الواقعة المنصوصة ثم الهبوط منها إلى الواقعة المنظورة، فهو يتضمن وجه تنظير ولكنه تنظير يحدث في أقرب المستويات إلى الأحكام التفصيلية، دون أن يصل إلى أحكام كلية عامة، ثم مع التدريج ومع مرور الزمن وصل التنظير إلى مستوياته العليا، بمثل ما وصل لدى الشاطبي في موافقاته واعتصامه، من استقراء لعموم المصالح الشرعية ومقاصد الأحكام، استقراء يرد من المصادر الأولية للشريعة قرآنا وسنة.

تلك حركة تنظير سارت سيرها الوئيد عبر القرون، والناس تبدأ من الجزئي إلى الكلي، ومن الخاص إلى العام ومن الفرع إلى الأصل، وهي تمارس ثم تنظر، هكذا صنعوا في الشعر وتغنوا به قرونا ثم أتى الخليل يستخلص علم العروض ويقوم بتنظير نظم الشعر، في البحور، استقراء مما كان يجري عليه المنوال، وهكذا صنعوا في علم النحو، إذ جرت لغتهم فيما يتحدثون به وما يكتبون صحيحة مرتبطة المعنى بالإعراب، ثم أتى سيبويه يقعد من ممارساتهم القواعد التي صيغ بها علم النحو بعد قرون .. وهكذا أيضا في علم الفقه قاسوا قبل أن يسموه قياسا وأعملوا القياس صحيحا قبل أن نستخلص مناهج القياس في علم الأصول، كما كان العرب لا يخطئون في الحديث قبل أن تقعد قواعد النحو..

ومن هنا يمكن القول: إن تراخي التنظير في الفقه، كان ظاهرة طبيعية وليست سلبية، وهو تنظير وتقعيد يأتيان في حينهما بعد الممارسة ويستخلصان من تجارب الصواب والخطأ في هذه الممارسة ويستخلصان من الأحكام التفصيلية بعد نضج التأمل فيها والمقارنة والتمحيص. ومن جهة أخرى فإن ما أدى إلى هذا التراخي أن لم توجد ضرورة ملحة توجب سرعة التنظير، بمثل ما نراه في الفقه الغربي الوضعي، لأنه لم تقم مشكلة تتعلق بشرعية الأحكام في الفقه الإسلامي، مادامت شرعيتها مستمدة من المصدر العقدي الإيماني للمسلمين في وجوب الطاعة لأوامر الله سبحانه ونواهيه. أما الفقه الوضعي العلماني، فهو يستمد شرعية الأحكام مما يسميه «القانون الطبيعي» أو «قواعد العدالة» مما تجتمع الجماعة عليه من قيم ومبادئ وأصول أو مما تراه فيه محققا «لمصلحتها العليا»... إلخ. وكل ذلك تبلور في عملية التنظير التي تشكل الأحكام الكلية مستقرأة من جهود البشر التاريخية في وضع الأحكام وسن التشريعات ومراعاة مصالحهم، والنظرية هنا ليست مجرد تعميم كلي، ولكنها تقوم كمصدرلشرعية الحكم، ولهذا السبب مثلا تبلورت نظرية العقد في القانون المدني الفرنسي لتقوم على مبدأ سلطان الإرادة وأن العقد شريعة المتعاقدين ... إلخ.

ونحن في التصدي لمجالات النشاط البشري والتكامل الاجتماعي التي لم تكن حظيت من فقهاء المسلمين بفضل اهتمام لعدم قيام بواعث هذا الاهتمام في ظروف زمانهم ومكانهم، وذلك لما أشرت إلى أمثلته بصدر هذه الفقرة من أحكام تتعلق بنظم الإدارة والحكمة ومعاملات الأجواء والبيئة، نحن في هذا التصدي نحتاج إلى الجهد التنظيري الفقهي الإسلامي ليمكن منه استخلاص أصول الشرعية والشريعة الإسلامية التي تبتغي فيها تشكيل الأحكام المنظمة لهذه المجالات.

ومن الجلي أن ما تفتقت عنه نظم الغرب في هذه المجالات، هو مما لابد أن يحظى بأكبر الاهتمام في دراساتنا القانونية، إنما ما يتعين بذله من جهد في هذا المجال إنما يكون بإجراء عملية هضم حضاري وفقهي لهذه النظم والأحكام، مما يمكن أن أشير إليه في الفقرة الأخيرة أن شاء الله.

(١٠) ترد هنا الإشارة إلى النظم والمؤسسات وكيفية بنائها وأساليب إدارتها، وهذا المجال من أهم مجالات النظر في الفقه المقارن بين الشريعة والقانون، ذلك أن ثمة انقطاعا مؤسسيا جرى في كل مجالات التنظيم المؤسسي للمجتمع، جرى ذلك على مدى القرنين الأخيرين، مع اختلافات تفصيلية بين كل قطر وقطر ولا يتسع المجال للشرح هنا، وقد لا يحتاج لذلك، وتكفي الإشارة إلى أن نظاما كان يقوم على سلطات دولة جامعة هي دولة الخلافة، انفك إلى نظام جماعات سياسية قطرية تقوم على حدود جغرافية أملاها الواقع أو أملتها نظرة وضعية أو استعمارية ثم جرى تنظيم مؤسسات الحكم أخذا من نظم الغرب بطريقة معزولة عن السياق الحضاري الغربي وعن السياق التاريخي والفكري هناك، وانهدم ما كان قائما في مجتمعاتنا، وعايشنا مزقا من بقايا قديم وفسائل جديد معوق. لم يبق إلا الأسرة كمؤسسة حفظ الله سبحانه لنا نسقها المؤسسي الفقهي والسلوكي مرتبطا بأصول المرجعية الإسلامية.

ومن هنا وجب علينا أولا إحياء الفكر المؤسسي الذي تفتق عنه تاريخ الأمة الإسلامية على مدى القرون الماضية، من حيث سلطات الدولة. ووظائفها المتعددة وجوانب نشاطها، ومن حيث التكوينات المؤسسية للأنشطة الاجتماعية كالأوقاف والنقابات وتكوينات المذاهب والملل. ومع هذا الإحياء للفكر المؤسسي القديم، يمكن إجراء المقارنات بين وجوه الأداء الوظيفي لكل مؤسسة قديمة أو حديثة، وذلك في علاقاتها بالمؤسسات المعاصرة لها التي تحيا بينها وتجرى نشاطها بالعلاقات المتبادلة معها.

وتجب ملاحظة أن الفكر المؤسسي هنا لن يستخلص من كتابات الفقهاء فقط فهي من التجريد بما لا يتضح معه حقيقه الدور المؤسسي الذي كان يقوم به كل تشكيل مؤسسي في المجتمع من حيث خريطة توزيع السلطات والأنشطة وتبادل الخدمات المؤداة إنما الأمر يحتاج إلى دراسة لوقائع التاريخ أيضا بحيث يمكن استخلاص الأدوار الفعلية للنشاط المؤسسي في علاقاته الواقعية وفي توظيفه الفعلي. ومن هنا وجب بعد البحث الفقهي التاريخي الذي يكشف عن الأداء الواقعي للنظر الفقهي، وجب بعد ذلك أن تجرى المقارنة بين المؤسسات المثيلة أو المتقاربة في كل من فقه المؤسسات القديم وفقه المؤسسات الذي يدرس في معاهدنا العلمية وذلك بملاحظة أن أداء أي هيئة أو مؤسسة لا يظهر إلا في إطار وجوه أعمالها في سياق علاقاتها مع الهيئات المعايشة لها، والنشاط الجزئي لن يظهر معناه ودلالته إلا في ضوء مجمل النشاط الكلي فليس من الصواب مقارنة دور القاضي قديما بدوره حديثا إلا من خلال إدراك علاقة كل منهما بهيئات عصره، والقاضي القديم لم يكن فاصلا في أنزعة فقط، إنما كانت له وظيفة اجتهادية تصل به إلى مشارف التشريع الا جتهادي بأكثر مما يصل إليه قاضي النظم الجارية الآن في معظم بلادنا، وكانت له قديما وظيفة ولائية تزيد عن وظائفه اليوم، من حيث توزيع الصدقات ومراقبة الأوقاف وغير ذلك.

ومن ناحية ثانية، فقد صرنا اليوم على أوضاع مؤسسية واقعية يتعين عند النظر فيها وفيما نظن أن حياتنا تجود به، يتعين علينا أن نبدأ منها إصلاحنا أو بالأقل أن ندخل واقعها في حسابنا، ولكننا ننظر في هذا الأمر مبدئين من عيوب الانبهار بالغرب ومحاكاته ومن أوزار مالم ينفعنا من بقايا الماضي، شريطة أن تنظر في مؤسسات الماضي التي جرى إضمارها أوصارت آفلة بسبب انصرافنا عنها محاكاة للجديد الوافد من الغرب، أولظن خاطئ بأنه في تركنا لها نفعا لنا، أقول يتعين أن نعيد النظر في شأن هذه المؤسسات ونعيد تقويم دورها في المجتمع لنعيد إليه مايصلح لنا منها، أو نقوى ونعتني بما ضعف منها لدينا، ومثال ذلك مؤسسة «الوقف» التي كانت تقوم بدور فعال في تجميع المبادرات الفردية والأهلية والقيام بأعمال الخدمات الاجتماعية من حيث التعليم والمداواة وسد حاجات المحتاجين في شئون الحياة المختلفة. ومن هنا فإن الدراسة

المقارنة الفقهية يحسن في ظني أن تدخل في اعتبارها جانبا من بيان الأداء الاجتماعي لهذه المؤسسات والمقارنة بينه وبين المؤسسات الاجتماعية الحديثة، ووجوه التطوير الفقهي للمؤسسات التقليدية بما يجود به أداؤها الوظيفي في الأطر الاجتماعية المعاصرة، ووجوه الأخذ في هذه الإصلاحات من التنظيمات الوافدة وأساليبها في بناء المؤسسات.

ومن ناحية ثالثة، فإن من أوضاع المؤسسات العاملة في المجتمعات الإسلامية الآن ما جرى اقتباسه من نظم الغرب وهيئاته، وقد أثبت قدراً من الفاعلية وإمكان تحقيق الرشد من خلاله في الأنشطة الاجتماعية المختلفة، مثل النظام النيابي ونظم النقابات المهنية والعديد من أساليب الإدارة ومناهج تقسيم العمل وتوزيعه على العديد من المؤسسات مع أساليب اتخاذ القرارات الجماعية وتشكيل النظم المجلسية التي تتخذ فيها القرارات بالأغلبية ولا تنسب إلى من وافق على القرار، وإنما تكون منسوبة إلى الهيئة بمجملها بما تحتوي من أغلبيات وأقليات، كل هذه التكوينات إنما يجرى بذل الجهد الفقهي الشرعي لإجراء عمليات الهضم الفقهي والعقدي لها، بطريق الاستيلاء الشرعي لأحكامها ونظمها، ما تيسر ذلك وما أمكن.

ومن ناحيه رابعة، فإنه يحسن في ظني، تفريعا عن دراسة المؤسسات، دراسة المراكز القانونية التي تنجم عن النشاط المؤسسي، أو من النشاط فيه، كما قد تنجم عن العلاقات العقدية ونظم المعاملات الخاصة، ذلك أن النظم المؤسسية تبنى على قواعد وأحكام لائحية منظمة لأساليب عمل المؤسسة وأوضاعها ووجوه نشاطاتها وتوزيع الاختصاصات بداخلها وطريقه تتابع أدائها الداخلي حتى تستقيم أداء عاما مناسبا وعلاقات أجهزتها بعضها ببعض وعلاقات العاملين بها بهيئاتها.. وهكذا. كما أن النظم العقدية في العلاقات الخاصة إنما تقيم أنماطاً من العلاقات التي تخضع لأسلوب تعامل نمطي شبه مقنن بمثل ما نسميه في فقه القانون الحديث بالقواعد والأحكام الآمرة، وبمثل ما يسمى في الفقه الشرعي، لأحكام الجعلية، هذا النمط من العلاقات القانونية والشرعيه المنظمة، من شأنه أن يكون مراكز قانونية، أي وضعا يفيد تجميعا لمجموعة من العلاقات القانونية ومجموعة من الولايات والصلاحيات مما يكون مجموعة من الحقوق والواجبات الملائمة لتفصيل تلك العلاقات و الولايات، وأظن أنه يحسن إجراء الدراسات المقارنة بين القانون والشريعة من هذه الزاوية، زاوية المراكز القانونية أي مجموعة الحقوق والواجبات التي تتجمع عن وضع شرعي أو قانوني معين، سواء في مجال نظم الدول والمجتمع أو في مجال العلاقات الخاصة، وما يجوز من مراكز قانونية تفتق عنها فقه القانون الغربي من جوانبه التنظيمية المختلفة، يمكن بذل الجهود الفقهية الشرعية لإجراء عمليات الهضم الفقهي و العقدي له بطريق الإسناد الشرعي وبطريقة التعديل في هياكل المركز القانوني بما يلائم التصورات الشرعية الأساسية.

(١١) أشرت في الفقرتين السابقتين إلى موضوع الهضم الحضاري والعقدي، عن طريق الإسناد الشرعي للأحكام والنظم ذات

الأصل الوضعي أو التي وفدت لدينا من أصول حضارية وعقدية أخرى، وأحاول هنا أن أجمع من ثنايا هذه الورقة ما أقصده من ذلك.

يتعين في ظني أن نبدأ ننظر في المفهوم الوافد أو نظام المؤسسة الوافد أو المركز التعاوني أو أسلوب منظم واحد من أصناف المعاملات، ننظر في أي من هذه الأمور من وجهة نظر الشريعة الإسلامية وأحكامها الكلية، وننظر فيما إذا كانت تسع هذا الأمر الوافد أم لا من حيث الغاية من أدائه ووجه الحاجة الشرعية التي يستجيب إليها ويحققها، مثال ذلك المجالس النيابية أو المصارف أو الشيك.. إلخ.

ثم نعمل على أن نفصل أو بالأقل نميز بين ما هو «نموذج تنظيمي» وبين النظام القانوني العام، أي نميز بين الجزء المراد الاعتناء به وبين التنظيم الأشمل الذي يشمل ما يحيط بالنظام من أفكار ومعتقدات وتصورات عامة وقيم ومبادئ ومثل وأجهزة أو نماذج تنظيمية أخرى يجرى التبادل بينها جميعا، إن الشجرة جذور و جذوع وأغصان و فروع وأوراق وأزهار وثمار، ونحن عندما نجد لنا حاجة في أوراقها لا يتحتم أن نأخذ الشجرة كلها من جذورها، إنما نستخرج منها ما لنا فيه حاجة ونضمه إلى ما نرى لنا نفعاً منه لدينا، فالنظام النيابي مثلاً يعتمد في الغرب على مبدأ هو سيادة الأمة التي تشير إلى إطار مرجعي علماني، ونحن عندما نحتاج إلى النموذج النيابي ننظر فيما إذا كان يمكن استخلاص هذا النموذج وانتزاعه من الفكره الفلسفية الكامنة وراءه فإن أمكن (وهو ممكن) لزم تميزه عنها وفصله، كما يلزم قطع ما بين الحكم المطلوب استخلاصه وبين مصدره التشريعي في النظام الأخير، وإذا كان يعلق به بعض ما لا تسعه أصول الموقف الإسلامي عقيدة وأحكاما، وجب العمل على تخليصه من ذلك الأمر إن أمكن وإلا خرج كلية، مثل وجوب التخلية بين المصارف المالية وبين النظام الربوي، فهناك تخليص من الموانع الشرعية وتخليص من العقائد المخالفة وتخليص من السياق التاريخي والواقعي غير المناسب.

ثم نعمل على وصل الحكم المأخوذ أو النموذج التنظيمي المستعار، وصله بأصول العقيدة الإسلامية و بالأحكام والتنظيمات السائدة في المجتمع، أي أن يجرى هذا الوصل على طريقين:

● أولهما: وصل فكري بحيث تكون مجموعة الأحكام أو النماذج المأخوذة مرتبطة في أفكارها وأحكامها مع الأصول العقيدة والفقهية السائدة في المجتمع والمنظمة لعلاقات البشر فيه والمتصلة بالتطوير بأنساقه الثقافية ومفاهيمه الكلية.

● وثانيهما: وصل تنظيمي يتعلق بربط هذا الحكم أو النموذج التنظيمي بالهياكل التي تنظم التعامل بين الناس، بحيث يمكن ضمان أن إعمال هذا الحكم أو النموذج لن يؤدي إلى اضطراب في النسق التنظيمي العام لنظام المعاملات أو هياكل المؤسسات المنظمة لأنشطة المجتمع.

وبعد فهذا ما عن لي من ملاحظات في هذا الموضوع أسأل الله سبحانه أن يكون فيها بعض ما ينفع.

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام



٧

أ.د. محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

حق العدالة

إن العدالة حين تسود مجتمعا تنصرف كل طاقاته إلى العمل المثمر والنتاج الصالح فى جو من الاطمئنان على وصول كل حق إلى أربابه الشرعيين دون جور أو إجحاف.

ومن أجل ذلك أعطى الإسلام لكل إنسان حقه فى التمتع بظلال هذه العدالة.. ورسم القرآن الكريم مناهج تحقيقها، وحين يحدد القرآن الكريم ذلك - وهو من الله تعالى وتسرى أحكامه على الحاكم والمحكوم - فإنه لا يتأتى معه استبداد ولا ظلم، فالاستبداد يأتى حين يكون هوى الحاكم هو القانون:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

«النساء: ٥٨»

ولقد أمر القرآن الكريم بالعدالة مع الوالدين والأقربين.. ومع الأعداء والمخالفين على السواء، بل أمر بها مع نفس الإنسان:

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

«النساء: ١٣٥»

وأمر بها مع اليهود وبنى إسرائيل المسالمين.. قال تعالى:

﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

«المائدة: ٤٢».

وقد طبق صحابة رسول الله ﷺ ذلك على أنفسهم، فها هو «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - يصدر منشورا إلى الناس يقول فيه: «إنى لم أبعث عمالى ليضربوا جلودكم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل ذلك فليرفعه إلىّ لنقتص منه»، فقال «عمرو بن العاص»: لو أن رجلاً أدب بعض رعيته أتقتص منه؟ قال «عمر»: «إى والذى نفسى بيده لأقتص منه، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه».

وكان «جبلة بن الأيهم» سيداً وأميراً فى الجاهلية - وكان نصرانيا فأسلم - وطاف بالكعبة يوما، فزاحمه أعرابى من العامة، وداس ثوبه غير قاصد، فاستشاط الأمير غيظًا، ولطم الأعرابى على وجهه، ورفعت القضية إلى «عمر» فأمر بالقصاص إلا أن يعفوا الأعرابى.. فقال «جبلة»: كيف وهو سوقة وأنا ملك؟ فقال «عمر»: إن الإسلام سوى بينكما، فطلب الأمير مهلة فر فى أثنائها على أرض الرومان راجعًا إلى النصرانية.

ولقد بلغ الإسلام حداً من العدالة لم يبلغها ولن يبلغها قانون سواه، فقد ورد عن بعض الفقهاء: «إذا بعث الحربى عبداً له متاجراً إلى دار الإسلام بأمان فأسلم العبد بعد دخوله دار الإسلام بيع، وكان ثمنه للحربى مالكه».. هكذا تصل عدالة الإسلام إلى حد يحتفظ فيه بحق الحربى فى ثمن العبد الذى أسلم.

المتهم برىء حتى تثبت إدانته

وانطلاقًا من هذه العدالة التى بلغت هذا الحد من السمو لا يمكن أن يعتبر شخص مدينا بدون ثبوت الدعوى عليه، بل إن الإسلام - الذى يعتبر من اتهم بالزنا بريئا حتى يشهد عليه أربعة عدول، بحيث إذا نقص هذا العدد اعتبر المدعى والشهود فسقة، واعتبر المتهم بريئا - إن هذا الإسلام لا يمكن أن يجيز لأى سلطة أن تعامل أى متهم معاملة المجرم قبل ثبوت الدعوى عليه.

كما أن الإسلام قد أعطى للعامل حرية فى اختيار نوع العمل الذى يتناسب مع مقدرته ومواهبه، فلا يحكم على إنسان بعمل معين، أو يعاقب على تركه إلا إذا ترتب على هذا العمل أو الترك مضرة عامة، أو حدث من جرائه خلل، أو تضارب مع مصلحة الجماعة، فالقاعدة الإسلامية: «لا ضرر ولا ضرار».

كما أنه لا يتأتى فى جو الإسلام أن يضيع حق أو تنظر قضية بغير نزاهة وتحر وتدقيق، فإن الإسلام يستغرق فى تفاصيله أحوال القاضى: من غضبه ورضاه، وضيق نفسه وانبساطها، فلا يجيز له أن يحكم فى قضية ما وهو غاضب، أو جائع، أو قلق، أو مشغول.

ميزان العدالة

كما أن الإسلام يضع فى ضمير المسلم ميزانًا للعدالة بينه وبين الله من الخشية والتقوى ومراقبته تعالى، قال ﷺ: «إنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»[١٠]، ويشير القرآن الكريم إلى هذا الميزان الدقيق فيقول:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

«البقرة: ١٨٨»

«١٠» أخرجه البخارى - كتاب الشهادات - باب من أقام البينة بعد اليمين - حديث رقم ٢٦٨٠.

حق الملكية

من الحقوق المقررة في الإسلام حق الملكية الفردية؛ إذ هو يتعلق بغريزة حب التملك المركوزة في الطبائع البشرية، والإسلام يهذب هذه الغرائز ولا يكبتها، ويوجهها ولا يحاربها، غاية ما هنالك أن يكون هذا التملك من أبواب مشروعة، ومن طريق حلال، فإذا كان كذلك كانت حرمته في الإسلام حرمة الأعراض التي يدافع عنها المرء حتى آخر رمق في الحياة، وقد مرت نصوص كثيرة تؤكد هذا، قال ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس»[٢].

إن تملك المال ليس مباحًا في نظر الإسلام فقط، لكنه أمر مرغوب فيه، مطالب به، ولا يتنافى تملكه مع الورع والتقوى والزهد.. قال ﷺ: «يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح»[٣] وكان الرسول ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[٤].

إن المال عصب الحياة وقيام الناس، ولا يعقل أن يذم الإسلام ما به قيام الناس، بل إنه لينهى عن الإهمال فيه وإعطائه للسفهاء، قال تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾

«النساء: ٥»

والإسلام حين يعطي الإنسان هذا الحق فإنه بذلك يحفز الهمم لتثميره، وتنميته، والانتفاع به في حدود ما شرع.

لقد أباح التملك والانتفاع الكامل بثمرة العمل فقال ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»[٥] ولقد ترك كثير من الصحابة أموالًا طائلة بعد الموت.

وقد وضع الإسلام نظام المواريث بحكمة ودقة وعدالة تحول دون الظلم والاختلاف والشقاق بين الوارثين، عكس ما يحدث عن بعض أنظمة الغرب التي تنقل جميع الثروة أو معظمها إلى الولد البكر.

ويحرم معظم الفقهاء أن يوصي المالك لأي وارث استنادًا إلى قول الرسول ﷺ: «لا وصية لوارث»[٦] كما يحرم الإسلام أن يوصي المالك لغير ورثته إلا في حدود الثلث من التركة، وذلك بعكس ما يجري في بعض نظم الغرب التي تجعل المالك حرًا في التصرف، بحيث يحق له أن يوصي بتركته كلها لمن يشاء، مما أثار حفيظة أصحاب الحق الشرعي، وخلق تفاوتًا ضخمًا بين الناس، وفتح أبوابًا واسعة للمذاهب المتطرفة الهدامة التي اعتمدت على الثورات والانقلابات العنيفة التي سادت أوروبا في العصور الحديثة.

فلو لم يكن للملك مكانته المحترمة في الإسلام فكيف يفسر اهتمامه الشديد بتنظيم ثرواته وتداولها؟!

إن حق الملكية الفردية له من الحرمة والحماية ما يجعله أصلًا وأساسًا لبناء النظام السليم لاقتصاديات الأمة التي تسير على هدى الإسلام.

بيد أن كل مالك في عرف الإسلام مسئول عن تصريف ماله حسب أوامر الشرع وتعاليمه، أي أنه مسئول عن هذا المال من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ ومسئول عن أداء الواجبات الاجتماعية المفروضة فيه من قبل الخالق، ومسئول عن كل تصرف سيئ يخل بأغراض الشرع الحنيف.

والإسلام بعد هذا يضع لهذا الحق من الحفظ والرعاية ما يجعله يفرض أقسى العقوبات على من يعتدي على حرمته بسلب أو نهب أو اختلاس أو قطع طريق، ففرض قطع يد السارق، قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

«المائدة: ٣٨»

وفرض القتل أو الصلب أو النفي أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف لقطاع الطريق الذين يرهبون الناس بالاعتداء على حرمات أموالهم وأعراضهم ودمائهم، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

«المائدة: ٣٣»

***

عن طلحه بن عبيد الله التيمي أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس، فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة، فقال: الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئا. فقال: أخبرني ما فرض الله علي من الصيام، فقال: شهر رمضان إلا أن تطوع شيئا. فقال: أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة، فقال: فأخبره رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، قال: والذي أكرمك، لا أتطوع شيئا، ولا أنقص مما فرض الله علي شيئا. فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق، أو: دخل الجنة إن صدق.

(صحيح البخاري)

[٢] أخرجه الدارقطني - كتاب البيوع - باب ١٠ - حديث رقم ٢٩٢٤.

[٣] أخرجه أحمد - حديث عمرو بن العاص - حديث رقم ١٨٢٣٦.

[٤] أخرجه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل - حديث رقم ٧٠٧٩.

[٥] أخرجه مالك - كتاب الأقضية - باب القضاء في عمارة الموات - حديث رقم ١٤٢٧.

[٦] أخرجه البخاري - كتاب الوصايا.

دور القيم الإسلامية السياسية

٢



أ.د. محمد سليم العوا

إذا كان الجمود قد أوقف الاجتهاد السياسي الإسلامي قرونًا عن التجديد والإبداع والابتكار، فإن من فضائل الصحوة الإسلامية المعاصرة أن كسر المجتهدون والمفكرون هذا الجمود في المدرستين السنية والشيعية الإمامية على سواء، وإذا كانت الخلافة بصورتها العالمية المنصوص عليها في فقه أهل السنة غير ممكنة الوقوع في عصرنا، أو في المستقبل المنظور، وكانت الإمامة المعصومة، كما نصت عليها كتب إخواننا الإمامية، تمر منذ ألف وثلاثمائة سنة بعصر الغيبة، وكانت ولاية الفقيه لا تلقى إجماعًا شيعيًا ولا سنيًا، فإن نظرية (ولاية الأمة) التي انتهى إليها اجتهاد العلامة محمد مهدي شمس الدين - رحمه الله- ترضى الأطراف كافة من الناحية الفقهية أو الاجتهادية. فهي ترضى السنة: لأنهم يقولون بمبدأ حق الأمة في الاختيار والتولية، ويقبل بها الشيعة ما دام الإمام المعصوم غائبًا.

وهكذا تصبح الحكومة الإسلامية المقيمة للشريعة حكومة توليها الأمة وتغيرها الأمة بإرادتها وهذه الفكرة الاجتهادية تلتقي مع ما صح - من حيث الرواية - من اتفاق الحكمين: أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص - رضي الله عنهما - من رد الأمر إلى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، أي إلى الأمة [١] وهي تتيح للمسلمين تنظيما يحقق المصلحة العامة للأمة، وهي تفتح الباب لجواز اختلاف النظم السياسية من قطر إلى قطر، وفي ذلك كله رفع لإصر الجمود عن الناس، وتيسير لإعمال أحكام

١- محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص١٠٢، والرواية الشائعة في كتب الأدب وبعض كتب التاريخ لا تصح من حيث السند ولا من حيث العقل، راجع ذلك تفصيلاً في كتابنا المذكور.

الإسلام الكلية والتفصيلية، دون انتظار الإقامة دولة الخلافة أو عودة الإمام الغائب المعصوم [٢].

ويضبط إيقاع الاجتهاد الإسلامي، السياسي، الالتزام بالقيم السياسية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية وما بُني على هذه القيم من قواعد فقهية.

فأما القيم السياسية الإسلامية فنعني بها أحكامًا ملزمة للحكام والمحكومين، والفقهاء والمجتهدين على السواء. ذلك أنها كلها محل نصوص صريحة في القرآن الكريم والسنة النبوية. والالتزام بها موضع إجماع من الأمة على امتداد العصور. وأما القواعد الفقهية المستنبطة من هذه القيم فهي قوانين كلية تستخرج منها أحكام المسائل التفصيلية كمثل قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) وقاعدة (وجوب جلب المصلحة ودرء المفسدة) وأن (دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة) وأن (تصرف الإمام على الرعية منوط بتحقيق مصلحتهم). وهذه القواعد كما يقول شيخنا - رحمه الله - العلامة مصطفى الزرقا هي (أصول فقهية كلية في نصوص موجزة دستورية تتضمن أحكامًا تشريعية عامة في الحوادث التي تدخل تحت موضوعها) [٣].

والقيمة الأساسية التي تتفرع عنها سائر القيم السياسية الإسلامية هي مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو المبدأ المقرر في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

وقوله:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

ففي الآية الأولى أمر صريح بممارسة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقييد الفلاح بفعل ذلك، وفي الآية الثانية توقفُ وصف الأمة بالخيرية على كونها آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، وربطٌ لهذه الخصيصة بخصيصة الإيمان بالله. ويصف القرآن الكريم مهمة الرسول ﷺ بأنه:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

٢- للتفصيل انظر: محمد سليم العوا، الفقه الإسلامي في طريق التجديد، مرجع سابق، ص٦٩ - ٧٢.

٣- الشيخ مصطفى أحمد الزرقا، المدخل الفقهي العام، الطبعة الجديدة المطورة، دار القلم، دمشق، ج٢ ص٩٦٥. وراجع تحقيقه لشرح والده الشيخ أحمد الزرقا لقواعد المجلة، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩م.

وفي التنزيل الكريم نعي متتابع على أهل الكتاب وأحبارهم رهبانهم؛ لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

(المائدة: ٦٣)

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨ - ٧٩)

والعلماء يقررون أن أي أمة تركت هذا الواجب فإنها تستحق ما استحقه تاركوه من الأمم السابقة من غضب الله عليهم ولعنه إياهم.[٤] وفي السنة النبوية طائفة كبيرة من الأحاديث الصحيحة التي تأمر الأمة بأداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكفي هنا أن نذكر منها قول ﷺ: (من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان)[٥] والترتيب في هذا الحديث غير مراد، فإن محل الإنكار الأول هو القلب، ثم يكون النهي عن المنكر بأخف الوسائل وهو الكلام باللسان، ثم يكون التغيير باليد لمن فُوِّض فيه من سلطات الدولة، وبشرط أمن الفتنة، أو كما يقول الفقهاء (بشرط ألا يترتب على تغيير المنكر منكر أكبر منه) وذلك تطبيقاً لقاعدة (يرتكب أخف الضررين)[٦].

وقد وصف الإمام الغزالي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنه: (القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين).

والقيمة السياسية الإسلامية، التي تلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأهمية هي الشورى. وقد ذكرها القرآن الكريم في آيتين كريمتين، إحداهما مكية، نزلت قبل أن تكون للمسلمين دولة ولا حكومة، لتدل على أصالة هذه القيمة في البنيان الإسلامي، وأنها من خصائص الإسلام التي يجب أن يلتزمها المسلمون سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة، كما كانت حالهم في مكة، أم كان لهم دولة قائمة بالفعل، كما كانت حالهم في المدينة. فالآية المكية هي قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

(الشورى: ٣٨)

٤- شيخنا العلامة محمد مصطفى شلبي - برد الله مضجعه - في رسالته: تعليل الأحكام، طبعة ١٩٤٧م، ص١٩.

٥- رواه مسلم في صحيحه بلفظ: «من رأى منكم منكرا فليغيره...»، واللفظ هنا لابن ماجة. وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «والتغيير بالقلب ليس تغييراً على الحقيقة لكنه هو الذي في وسعه» ج٢ ص٢٢.

٦- الإمام الغزالي، الإحياء، ج٢ ص٢٦٩. وهو يرتب الإنكار ثلاثة مراتب: التعريف ثم الوعظ بالكلام اللطيف ثم التعنيف، ج٢ ص٢٧٧.

والشورى هنا هي واسطة العقد بين الإيمان والصلاة والزكاة، فهي في المرتبة نفسها التي تقف هذه الأركان فيها، وإلا ما كان لائقاً ببلاغة القرآن ونظمه الرباني أن ترد في مورد هذه الأركان وسياقها.

والآية الثانية المدنية، هي قول الله تبارك اسمه، في سورة آل عمران مخاطباً الرسول ﷺ:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في أعقاب غزوة أحد، وما أصاب المسلمين فيها من القرح:

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١٤٠)

وقد بينت أحداث غزوة أحد أن ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يميل إليه من البقاء داخل المدينة كان أصوب مما نزل عليه من رأي أصحابه من الخروج؛ ومع ذلك نزل القرآن في أعقاب ذلك يأمره بالعفو عن أصحابه والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر كله. والنص بهذه الصورة وفي هذه الظروف قاطع في أن الشورى قيمة ملزمة لكل ذي سلطان، في وضع إسلامي لا يسعه التخفف منه تحت أي سبب كان.

وفي السنة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ [٧]

ويربط الإمام محمد عبده بين واجب الشورى، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله:

(إن آية سورة الشورى تتضمن مدحاً للمؤمنين بأخذهم بالشورى، وآية سورة آل عمران توجب على الحاكم المشاورة، ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للأمر فماذا يكون إن هو تركه؟ إن آية آل عمران:

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدون وأقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو عام في الحكام والمحكومين، ولا معروف أعرف من العدل، ولا منكر أنكر من الظلم)[٨]

والصحيح من أقوال الفقهاء، وبه نأخذ، هو وجوب الشورى ابتداءً، ولزومها أو إلزامها انتهاءً، بحيث لا

٧- سنن الترمذي، طبعة القاهرة، ١٩٦٤م، ج٤ ص٣٧٥. وإن يكن في إسناد الخبر مقال فإن معناه يكاد يكون متواتراً عن الرسول ﷺ. انظر سيرة ابن هشام مع شرحها: الروض الأنف للسهيلي، ج٢ ص١٦، ١٢٧، ١٩١.

٨- رشيد رضا، تفسير المنار، طبعة المنار، مصر، ١٣٧٦هـ، ج٤ ص٤٥.

يجوز للحاكم تركها وإلا كان (عزله واجبا بلا خلاف). وأنها تشمل الشئون العامة كافة، وأن خلو النصوص من تحديد من يستشارون، وكيف تتم الاستشارة، والمدة التى يشغلها المشيرون فى التنظيم الذى يدار به أمر الشورى (كالبرلمان ونحوه) كل ذلك من المسائل التفصيلية المتروكة لاجتهاد أولي الرأى من العلماء والفقهاء والمنظرين فى الأمة الإسلامية؛ الذين يؤدون باجتهادهم - واختلافهم فيه - إلى أن تختار الأمة أصوب الآراء وأدناها إلى تحقيق المصلحة وتعدل عنه - إذا أرادت - إلى سواه تحقيقا للمصلحة أيضا [10].

وثمة قيم كثيرة أخرى متصلة بالمقام السياسى نترك الحديث فيها طلبا للاختصار، ونحيل إلى مظانها التفصيلية فى الكتب المعنية بالشأن السياسى الإسلامى[11].

والتعددية السياسية أصل من الأصول التى تسلم بها المدرسة الوسطية فى الفكر الإسلامى المعاصر. والتعددية تعنى فى جوهرها: التسليم بالاختلاف: التسليم به واقعا لا يسع عاقلاً إنكاره، والتسليم به حقًا للمختلفين لا يملك أحد، أو سلطة حرمانهم منه.

وهى توصف بالموضوع الذى يكون الاختلاف حوله والذى ينحصر فيه نطاقه، فتكون سياسية أو اقتصادية أو دينية أو عرقية أو لغوية أو ثقافية أو غير ذلك.

والتعددية (بمعنى الاختلاف) فى أنواع الخلق، وبين أفراد كل نوع من حقائق الإبداع الربانى المسلمة: وليقرأ من شاء قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

(الأنعام: ٩٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(فاطر: ٢٧-٢٨)

والتعددية فى نوع الإنسان وانتمائه، ومستوى أدائه لواجباته وممارسته لمكانته أجلى وأوضح: وليقرأ من أراد قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾

(الروم: ٢٢)

٩- الإمام القرطبى، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى)، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج٤ ص٢٤٩ - ٢٥١، والفخر الرازى، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) طبعة القاهرة، ج٣ ص ١٢٠ - ١٢٢.

١٠- فى تفصيل ذلك انظر: محمد سليم العوا، فى النظام السياسى، مرجع سابق، ص١٥٩ - ٢٠٥.

١١- انظر فى تفصيل ذلك كتابنا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية سالف الذكر، والمصادر المشار إليها فيه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

وفى هذه الآية يعبر القرآن بلفظى: أكرم وأتقى، وهما يدلان لغة على وجود التقى والكريم، أى يدلان على أن الاختلاف حقيقة واقعة، وأن التعدد فى المراتب تقدير ربانى، ولايعنى قبول أهل مرتبة واحدة منها دون سائر المراتب، أعنى مراتب التقى والكرامة المترتبة على صدق الإيمان ووضوح اليقين.

والتسليم بالتعددية البشرية تبعًا للتسليم بحق الاختلاف يقود بغير جهد كبير إلى التسليم بحق التعددية فى المذهب السياسى.[12]

ولا يجوز للدعاة إلى إصلاح سياسى يستند إلى الإسلام أن تغيب عنهم حقيقة يشهد بها تاريخ البشرية فى مختلف أديانها، وهى: أن أسوأ صور الظلم وأفدحها، وأبشع حالات الطغيان وأقساها، ما كان مستنداً إلى نظرة دينية يُساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة بتأويلها على وفق أهواء الظالمين، أو يُدس فيها على الدين ما ليس منه لتحقيق نزواتهم، والقضاء على خصومهم.

وهذه الحقيقة تجعل بيان جوهر موقف الإسلام من التعددية السياسية باعتبار حق الاختلاف حقا إنسانيا إصيلا ألزم الآن منه فى أى وقت مضى)

والسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هو: ما الذى توجبه النصوص أو الأصول الإسلامية على الناس فى حياتهم السياسية؟ وما الذى منعتهم منه؟ وهل حددت لهم طرقًا معينةً لبلوغ ما توجبه أو لتجنب ما تمنعه؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال أو هذه الأسئلة، ينبغى أن نقرر أن: الذى أوجبته الشريعة فى المصادر والأصول يجب الوقوف عنده ولا يجوز التحلل منه. وعدم العمل به معصية مستمرة لا تتقادم ولا يسقطها مرور الزمان أو مضى المدة، لأن النصوص لا يلغيها الإهمال، ولا يفقدها قوتها الملزمة عدم الإعمال.

ولقد أوجبت النصوص القرآنية النبوية ما أسلفنا - بإيجاز - ذكره وذلك أدلته من القيم السياسية.

فكيف يمكن فى مجتمع اليوم تحقيق هذه القيم السياسية دون أن نقرر أن التعددية السياسية ضرورية لحمايتها وممارستها وكفالة الحقوق المتصلة بها؟.

إن الناظر فى أصول الإسلام (مصادره) لا يجد إلا مثل هذه القيم الكلية التى توجبها نصوص يبلغ عموم ألفاظها مبلغًا لا يكاد يفيد المجتهد بشىء فى سبيل تنظيم وضعها موضع التنفيذ.

وتبقى بعد ذلك الوسائل التى تُبدعها الأمة لتحفظ لنفسها حقها فى العيش تحت

١٢- محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسى فى الإسلام، مرجع سابق.

لواء هذه القيم الإسلامية، ولتحول بين الحاكمين وبين الاستبداد والطغيان، سواء أكان هذا الطغيان باسم الدين أم كان بأى اسم آخر لمسمى سواه.

والوسائل، بداهة وضرورة، تختلف من عصر إلى عصر، ومن قوم إلى قوم، ولا تثريب على أهل بلد إسلامى إن رأوا اتخاذ ما لا يحتاج إليه أهل بلد آخر، أو ابتدعوا ما لم يسبقهم إليه سابق، واقتبسوا من تنظيم غيرهم ما يحفظ لهم حقوقهم ويصون عليهم حرياتهم وحرماتهم.

ومن الكلمات المضيئة لواحد من كبار علماء الإسلام (فى عصوره كلها)(قوله: وتقسيم بعضهم (أى بعض العلماء) طرق الحكم شريعة وسياسة.. كتقسيم غيرهم إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل.. وكل ذلك التقسيم باطل.

بل السياسة، والحقيقة والعقل.. كل ذلك ينقسم إلى أمرين: صحيح وفاسد؛ فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، وليس تقسيما لها، فاسد ضدها ومنافيها.. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها.[١٣]

ومن رأينا أن وجود الأحزاب السياسية فى الظروف الحالية للمجتمعات الإسلامية ضرورة لتقدمها، ولحرية الرأى فيها، ولضمان عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين، وهو استبداد واقع فى جل هذه المجتمعات أو كلها.

وفقه القواعد الأصولية الإسلامية يقوم من بين ما يقوم عليه على قاعدة عظيمة: (ما لا يتم الواجب به فهو واجب). فهل يمكن أن تقوم قائمة لنظام سياسى إسلامى فى العصر الحاضر وهو يُنكِرُ على الناس اختلاف الرأى، وهو فطرة؟!. أو وهو يُنكِرُ على الناس حرية التعبير عن الرأى، وهى حق أزلى؟! أو وهو يُنكِرُ على الناس التجمع لبيان ما يرونه حقاً أو يعتقدونه باطلاً وهو أمرٌ ربانى؟!

إن الصحيح هو الجواب بالنفى على كل هذه الأسئلة. ويكون منطق المصلحة السياسية ومنطق القواعد الفقهية، والقراءة الصحيحة للنصوص والتاريخ.. يكون ذلك كله شاهداً لضرورة التعددية السياسية من المنظور الإسلامى[١٤].

«حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرزاق انا معمر عن الزهري عن عروة عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ان الله لا ينزع العلم من الناس بعد ان يعطيهم إياه ولكن يذهب بالعلماء كلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لا يعلم فيتخذ الناس رؤساء جهالا فيستفتوا فيفتوا بغير علم فيضلوا ويضلوا»

(مسند أحمد)

١٣- ابن القيم الجوزى، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٤ ص٢٧٥.

١٤ـ محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسى فى الإسلام، مرجع سابق.

الحركة الإسلامية ومنهج التغيير



الشيخ/ راشد الغنوشى

الحركة الإسلامية تيار واسع، يعبر من جهة عن خيبة آمال الأمة فى المشاريع النهضوية العلمانية القطرية التى لوحت لها وبشرتها بأحلام النهضة، كما يعبر من الوجه الآخر عن عقد آمالها بالإسلام فى الخروج بها من وهدة ومآزق الحاضر وقيادتها إلى تحقيق الآمال المجهضة فى العدل والكرامة والوحدة واستعادة فلسطين السليبة. فليس عجباً، مع اتساع التيار وتباين أحوال البلاد الإسلامية واختلاف المصادر الثانوية لتكوين النخبة الإسلامية أن تختلف رؤاهم للواقع المحلى والدولى ومشاريعهم البديلة، وبحسب ذلك تعددت مناهجهم التغييرية. ومع الإقرار بهذه الواقعة فمما لا يمكن إنكاره أن التيار العام ـ تيار الوسطية الإسلامية كما أحسن صياغته وتهذيب مناهجه شيخنا القرضاوى حفظه الله ـ يكاد يجمع إن لم يجمع فعلاً على الالتزام بالنهج السلمى فى التغيير واعمال كل مساحة للحرية والعمل على توسيعها وصونها، على اعتبار الحرية المناخ الأمثل لعمل الدعوة الإسلامية التى تعتبر الاستبداد عدوها الأول مرددة نداء النبى عليه السلام إلى قومه:

«خلوا بينى وبين الناس»، حريصة على الاندراج بسائر مجالات نشاطها فى إطار القانون والعلنية بعيداً عن أجواء السرية الخانقة، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وتيار الوسطية الإسلامية ولئن شجب انغلاق الأنظمة ومصادرتها للحقوق والحريات، وارتكابها شتى المظالم وحظرها لحرية الدعوة إلى الله، وانتهاكها لحرمات الله، وتعطيلها للشرائع وصمها الآذان عن سماع كل نصح، ما من شأنه أن يقدم المسوغات الشرعية لاستخدام القوة كرد فعل حسبما تدل عليه ظواهر بعض النصوص والفتاوى، فهى ترفض الانسياق وراء العواطف والاندفاعات وتعتصم برد أحد ابنى آدم على عدوان أخيه:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

(المائدة: ٢٨)

وتصر على الالتزام الكامل بأساليب الجهاد السلمي وحسب في معالجة ما ينجم من مظالم وينشب من خلافات داخل المجتمع الإسلامي مهما عظمت. إنه جهاد الكلمة الجهاد الكبير الذي حرضت عليه الآية:

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

(الفرقان: ٥٢)

وجاء التنويه به على لسان صاحب الدعوة عليه السلام مقدما إياه على كل أنواع الجهاد الأخرى في التعامل مع الاختلافات داخل المجتمع الإسلامي: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه أحمد).

وهذه النصوص وأمثالها المنوهة بالجهاد السلمي، بقوة الكلمة وبقوة ضغط الرأي العام الذي يبدأ بالكلمة الفردية يصدع بها عالم في وجه طاغية، قد تتطور وتتراكم وتتكاثف لتصنع ثورة عبر العرائض الاحتجاجية والاعتصامات والمسيرات وعبر الإضراب عن الشغل ومقاطعة المؤسسات الفاسدة والامتناع عن دفع الضرائب مما يشكل منهجاً كاملا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد السلمي المعبر عنه في لغة غاندي استراتيجية اللا عنف، تلك التي قهر بها غاندي أعتى إمبراطورية استعمارية في عهده. غير أنه وللأسف لم يطور المسلمون هذا النهج في الجهاد السلمي الذي دلت عليه ونوهت به عديد النصوص، ما حصر التعامل مع ظلم الحكام بين الخروج عنهم بالسيف وبين الخضوع لهم حذر الوقوع في الفتنة:

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(البقرة: ١٩١)

مع أن الخيارات أوسع مما ضيقوا.

لقد انتهت تجربة علماء الإسلام مع تجارب الخروج المسلح إلى سد هذا الباب جملة أو إحاطته بشروط قل توفرها بسبب ما جرته تلك التجارب على الأمة من كوارث دون أن يتحقق المقصود أو حتى بعضه، ذلك ما ساقهم إلى منع الخروج والاعتراف بحكم المتغلب كأمر واقع مقابل التزامه بأحكام الشريعة مع العمل على الحد من العيوب ومحاصرتها من خلال إعمال آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفراغ الجهد في إصلاح الرعية ودعم مؤسسات العمل الشعبي الطوعي كالمساجد والمدارس وسائر الخدمات الاجتماعية بالاستناد إلى مؤسسة الوقف العتيدة بما حاصر سلطان الحاكم وقلل من حاجة الناس إليه فأغناهم عنه إلى حد كبير فيما عدا شئون الدفاع عن الحوزة «الأمن القومي» وإقامة الحدود.

أما الجهاد المسلح فقد قصر ضمن هذا النهج الذي ساد لدى جمهور علماء المسلمين ـ وكان ثمرة تجربة تاريخية طويلة ـ على مواجهة العدوان الخارجي على الدين وأهله وأوطانه.

والحقيقة أن هذا النهج الذي أفرزته تجربة تاريخية طويلة في التعامل مع ظلم الحكام رغم ما قد عيب ويعاب عليه من

تخاذل وسلبية وتجرئة للطغاة على الدعاة وعلى الحرمات والحقوق والحريات، وقد شهدت له تجربة التاريخ أنه إن لم يكن هو الأقوم فهو الأقل ضرراً بالأمة من نهج المغامرة وسل السيوف واستسهال استباحة الدماء بدعوى محاربة طاغية لا يمكن الوصول إليه غالباً إلا عبر بحر من دماء بريئة تزهق بغير وجه حق، وتدمير مصالح عامة وفتح ثغرات كبرى لتدخل أعداء الأمة وإضافة أسباب أخرى إلى رهنها.

والأدهى من ذلك أنه علاوة على جسامة التضحيات توصلا إلى اقتلاع الطاغية، فقد أثبتت التجربة أن المطلب عزيز المنال قل أن تم التوصل إليه.

وحتى في الحالات القليلة التي تم فيها ذلك فقد كانت المفاجأة مذهلة إذ حل طاغية محل آخر وربما أطغى منه، فلم يكن الحكم العباسي أرحم بالأمة من حكم بني أمية ولا حكام المماليك أرحم من سابقيهم ولا الذين خلفوهم من العثمانيين أشد بأساً على الأمة من حكام العرب المعاصرين.. هذا إذا لم يكن الأمر على نحو:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾

(الأعراف: ٣٨)

وذلك لا يعني بحال الاستسلام للطغيان، فإن مقاومته بلا هوادة واجب شرعي مقدس باعتبار أن ذلك هو المقصد الأعظم الذي أرسل به الرسل عليهم السلام، ألا وهو مقاومة الظلم وإرساء العدل في العالم، وإنما المقصود عقلنة هذه الآلية العظيمة التي أناطها الإسلام بكل مسلم بحسب قدرته فرداً وجماعة، أعني آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يخرج بهذه الآلية من طور العمل العشوائي الأعشى على نهج الخوارج ومن سار على دربهم على امتداد التاريخ الإسلامي، مخضبين حياة المسلمين بدماء وكوارث بلا حد، ولاتزال امتداداتهم موصولة دون أن يتحصل من ذلك شروى نقير من الخير والخلاص من الظلم.

إن الخروج من طور هذه الشورية الفوضوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أمر رشد وتبصر تتنزل معه أنواع الجهاد في منازلها الطبيعية بحسب القاعدة لكل مقام مقال، وحدثوا الناس بما يفهمون. أتريدون أن يكذب الله ورسوله»، وتلك هي الحكمة: وضع الشيء في موضعه. إن الخروج من هذه الفوضى ليس له من سبيل غير ضبط وتطوير نظرية في التغيير الإسلامي تحدد منازل واضحة للجهاد الإسلامي بدءاً بتطوير استراتيجية أفضل الجهاد: جهاد الكلمة.. الجهاد الوحيد المأذون فيه للتعامل مع ما ينجم من اختلاف داخل الأمة.

وإن من أسباب هذا الخلل، بل الضعف الفادح في الفكر السياسي الإسلامي المتعلق بفقه التغيير، ضعف وحتى ضحالة الفقه المتعلق بالدولة، وكذا الفقه المتعلق بالواقع، ولربما كان ذلك بأثر التقليد للأسلاف حيث كانت حاجاتهم

ومشكلاتهم بسيطة أو بسبب التأثر بمنطق القياس اليونانى المجرد عن الواقع بما صاغ العقائد الإسلامية صياغة مجردة عن الواقع وجعل عمل العقل حوارا بين مقولات نظرية بدل أن يكون حوارا ثلاثى الأطراف: العقل والشريعة والواقع.

وقد ترتب عن هذا النهج التجريدى أن ساد القياس، فكلما وقعت نازلة جديدة سارع المتناظرون إلى النصوص - كان ذلك فى المراحل الأولى - أو سارعوا إلى فتاوى وأقوال الأسلاف يبحثون عن واقعة مشابهة للقياس عليها. ولأن النصوص كالوقائع متعددة إلى حد الاختلاف والتناقض الظاهرى فقد اختلف النظار بحسب النص الذى أعمله كل طرف أو الواقعة من تاريخ السلف التى قاس إليها. ففى واقع الحال ترى دعاة الخروج عن الحكام الظلام يعملون آيات القتال فى القرآن ويعززون موقفهم بشواهد من أعمال السلف وآراء الفقهاء الأوائل، بما يجعل الجهاد أو الإعداد له على الأقل فى حال العجز عنه واجبا شرعيا بالنص فى زعمهم، والتخلى عن ذلك فى كل الأحوال إثما عظيما قد يخرج من الملة.. بينما يهملون مقابل ذلك الآيات الموجهة إلى الدعوة بالتى هى أحسن والتذرع بالصبر والمصابرة منعا للفتنة والهرج، واصمين الخارجين بالفتانين، غير أن هؤلاء إذا تحقق لهم النجاح، وهو قل أن حدث، استحقوا من طرف العلماء الاعتراف بهم كأمر واقع وطولبوا فقط بما كان يطالب بهم حكام الأمس. كل هذا يحدث دون إيلاء ما يكفى من الاهتمام بالعنصر الأساسى والحاسم فى معادلة التغيير ألا وهو الواقع، فهو وحده الكاشف عن الاستطاعة والإمكان أى حقيقة الظروف الموضوعية ومدى نضجها وما تتيحه من فرص للتغيير. إنه عنصر الاستطاعة الذى اعتبره الشارع حاسما فى تعيين نوع وسيلة التغيير المطلوبة شرعا إزاء منكر محدد فى زمن محدد، قال تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(التغابن: ١٦)

وقال:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

وقال صاحب الدعوة عليه السلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم) فمن ذا الذى يملك الكشف عن هذا العنصر المحدد لنوعية وسيلة التغيير التى فتح الشارع أمامها خيارات كثيرة؟ قطعا ليست هى نصوص الشرع فلقد قالت هذه كلمتها إذ أحالت الأمر إلى اجتهاد العقل فى تشخيص الواقع والكشف عن القدرات المتوفرة ومدى قيامها بالتغيير المطلوب. فليست إذن كتب الفقهاء بمجدية شيئا فى هذا الباب وإنما هى العلوم المتخصصة فى فقه الواقع: علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والاحصاء والسياسة.. إلخ، تلك العلوم التى يمثل

تخلفنا الفادح فيها أهم خلل فى فكرنا السياسى القديم وبخاصة الحديث، أهم مصدر لتخلفنا وإهدار معظم طاقات أمتنا ونواياها الطيبة وتضحياتها الجسام من أجل تحقيق أهدافها، بما جعل الخلل فى تجاربنا التغييرية ليس عائدا بحال إلى ضعف استعدادات أمتنا فى بذل دمائها وأرواحها وأموالها من أجل التغيير، فما عرف التاريخ أمة أكثر سخاء بالروح والدم من أجل عقيدتها من هذه الأمة، وإنما الخلل الأكبر فى وظيفة العقل وضعف قدرته على حسن تقدير الأوضاع والتصرف فى الموارد البشرية والمادية وتقدير إمكاناتنا إلى إمكانات أعدائنا، كضعف قدرتنا على ترتيب أولوياتنا، وتصنيف خصومنا، والبحث عن الأصدقاء، وتقليل الأعداء والاقتصاد فى التضحيات، ما أمكن والتبصر بالعواقب والتجارب، وتوسيع مجال الشورى، وتوظيف أهل الخبرة، واحترام التخصص وتوزيع المهام بحسب ذلك وإرساء العدل سبيلا لا بديل عنه لتعبئة طاقات الأمة، والتذرع بالصبر والحيلة وتفويت فرص استدراجنا إلى معارك لا ضرورة لها ولما تتوفر الفرص الكافية للنجاح فيها.

وبالنظر إلى كل ذلك بعين الاعتبار وغيره فى الحكم على تجاربنا التغييرية نلقاها لا تختلف كثيرا عن المعارك التى خاضتها دولنا مع أعدائها المتربصين بها. وتقدم معارك الخليج فى هذا الصدد نماذج لا تختلف كثيرا عن معارك الحركة الإسلامية فى معظم ساحاتها ومنها الجزائر وتونس ومصر والشام وأفغانستان والبوسنة وكوسوفو وكشمير.. نماذج محكومة بنفس المنطق والعقلية. إنه منطق التخلف إذا كان للتخلف منطق الجميع على اختلاف أيديولوجياتهم قد استقوا فى تربيتهم الأولى من نفس الينابيع

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

(الرعد: ٤)

ثقافة التجريد والتبسيط والفردية والتعجل والانفعال! إنه التخلف. وليس يعزينا أمام ما حصل من كوارث بسبب قلة التبصر بقوانين الواقع، وهى غلابة، وما جره ذلك من كوارث غير حسن المقاصد ونبل القضايا، وغير الأمل بعد عفو الله فى الأجيال الإسلامية الجديدة أن لا تقلدنا ولا من سبقنا، وأن لا تعتبر أن ما تزدحم به المكتبة الإسلامية من طارف الفقه وتليده مجد لها كثيرا فى ضبط نهجها فى التعامل مع واقع محدد بل قد يكون مضللاً وسائقاً إلى كوارث. إن طريقهم الوحيد هو التبصر فى الواقع المحلى والدولى من أجل الوقوف على قوانينه واستخراج ما يتيحه من إمكانات ووسائل تغييرية بعيدا عن كل تعجل وانفعال. ألا يكفى ما حصل من كوارث؟ فإلى الاستجابة إلى ما طولب به صاحب الدعوة أن يفعله وأن يبلغه

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف: ١٠٨)

فسارعوا إلى العلوم الكفيلة بتوفير إمكانات البصر بقوانين الواقع.

فرص وتحديات الديمقراطية الإسلامية

عويمر أنجم
جامعة توليدو، أوهايو، الولايات المتحدة

ترجمة صلاح عبد الكريم (بيعض التصرف)

إن أى مسلم لديه أى إلمام بالتاريخ الإسلامى سيسلم بحماس بأن المسلمين كانوا مزدهرين علميا متسامحين مع الآخرين عندما كانوا فى قمة العالم وكانت كلمة الإسلام هى العليا. والعصر الإسلامى الذهبى فى العقل الجمعى المسلم لم يكن علمانيا. كانت هناك مرحلتان سياسيتان متمايزتان فى التاريخ الإسلامى: الخلافة الراشدة فى العصر الأول التى لم تدم طويلا، وتميزت بالمساواة التامة بين الناس. ومثلت العصر الذهبى الذى سيظل محفورا فى الذاكرة الدينية المسلمة إلى الأبد، وكان القرآن والسنة فيها هما دستور الحياة والمثل الأعلى. ويرى كثيرون من المسلمين المعاصرين أن النموذج الأول كان ديمقراطيا فى جوهره.

لكن الفكر القانونى المسلم اضطر بدءا منذ القرن العاشر الميلادى إلى أن يتطور فى اتجاه مختلف، للموائمة مع القلاقل السياسية والغزوات الأجنبية، حيث برز إلى الوجود ترتيب سياسى جديد. وقد فهم بعض علماء الغرب خطأ هذا التطور على أنه علمنة. ففى هذه المرحلة الثانية، لم يكن هناك اندماج بين الدين والدولة، ولا فصل مؤسسى بينهما، بل ظهرت علاقة طريفة، أفضل وصف لها هو أنه تم الفصل بين السلطة السياسية والنفوذ من ناحية وبين الشرعية من ناحية أخرى، دون فصل الدين عن الدولة. ففى حين بقيت الشرعية حسب الشريعة الإسلامية مرتكزة فى المجتمع أو الجماعة بقيادة العلماء والفقهاء، أصبحت الدولة غير ذات صلة بالشرعية إلى حد كبير، وانحصرت مهامها فى الدفاع عن الأمة وحفظ النظام. لم تكن الدولة غير متدينة أو إلحادية، لكنها كانت فقط غير شرعية حسب مقتضى الشريعة. وهو مايشبه نوعاً من حالة طوارئ استمرت عدة مئات من السنين إلى أن يتم استعادة الخلافة الشرعية. وعلى حد تعبير روى موتيهيده مؤرخ الاجتماع بجامعة هارفارد: «إن المجتمع الإسلامى تعلم أن يعيش دون حكومة»، وبالتالى دون الأعباء الأخلاقية للحكم. وكانت تلك تشبه المقايضة، تخلصت بمقتضاها المجتمعات المسلمة بقيادة العلماء من تلاعب الحكام العسكر فى الشريعة والعقيدة، تنازلت فى المقابل عن أى حق فى التدخل فى شئون الحكومة وأصبح هذا البناء للشرعية المعزولة عن السلطة سمة دائمة للإسلام السنى، يقول عنها

الباحث الفرنسى أوليفيه روى أنها جعلت «الشمولية الاستبدادية غريبة عن الثقافة الإسلامية».

ولكن هذا الوضع كان أبعد ما يكون عن الحالة المثالية، فقد أصبح الحاكم والمحكوم على طرفى نقيض، وعلاقاتهم متقطعة ولكن لم يكن لهذا الأمر أهمية كبيرة لأن الدول والحكومات لم تكن تتدخل كثيرا فى حياة الناس فى تلك العصور. ولابد أن تلك المقايضة بين الجماعة والحكام كانت مناسبة للظروف فى نظر أهل النظر فى تلك العصور، وكان خيارا لم يخل من الوجاهة. فقد أنتج الإسلام السنى على وجه الخصوص تعددية قانونية متسامحة مع الاختلاف بصورة كبيرة، حيث تعايشت عدة مذاهب شرعية سنية جنبا إلى جنب مع جماعات الشيعة والطوائف المسيحية واليهودية، كل منهم يعيش فى ظل قوانينه الشخصية الخاصة. كان الحكام مسلمون بطبيعة الحال، وكان حكم الشريعة هو الدستور المطاع، لكن التسامح واحترام المسلمين للمجموعات الأخرى يمكن أن نتبينه من حقيقة أنه كان يسمح لغير المسلمين بتطبيق قوانينهم الخاصة فيما بينهم حتى لو تعارضت مع الشريعة الإسلامية. فكان يمكن مثلا لغير المسلمين شرب الخمر والتعامل بالربا.. إلى آخره. لكن أمرا معينا مثل محكًا لما وصل إليه هذا التسامح حيث كان الزرادشتيون من أتباع الدين الإيرانى القديم يعتبرون زواج المحارم جائزا وعندما سئل ابن القيم رحمه الله، وهو أحد الفقهاء العظماء الذين عرفوا بالورع والالتزام عما إذا كانت مثل هذه الزيجات مسموح بها فى البلاد الإسلامية، قال بأنه فى حين أن مثل هذا الفعل هو من أعظم الذنوب فى الإسلام، إلا أنه لا يجوز لأحد أن يمنع الزرادشتيين من ممارسته.

ولكن مع فرض نظام الدولة القومية على العالم الإسلامى فى القرنين الأخيرين، وانهيار وتفتت المجتمع التقليدى الذى امتد من المغرب إلى الهند وأفريقيا وحدود الصين، أصبح حكامه نخبًا علمانية متغربة. وقد اعتبرت الجماعة فى تلك المجتمعات المسلمة هذه النخب غير شرعية بطبيعة الحال، كما اعتادت أن تفعل على مر العصور بعد الخلافة الراشدة إلا أن سلطات الدولة الحديثة غير المسبوقة التى امتدت لتسيطر على كل مجال من مجالات الحياة، من التعليم والأسرة والقانون والاقتصاد إلى الجيش والشرطة، أوقعت الفكر الإسلامى التقليدى فى أزمة تاريخية.

وكان من عواقب الانهيار وانتشار الأمية بين عامة الناس أن حدث انقسام بين إسلام العامة وإسلام العلماء والفقهاء. فبدأت الأجيال الشابة من المسلمين الذين تعلموا فى المؤسسات العلمانية ولم يفقدوا تعلقهم الشديد بالدين فى تحديث الإسلام، ومحاولة جذب بلادهم إلى نطاق الشريعة الإسلامية. وعندما بحثوا حولهم عن نماذج إسلامية جيدة ليستفيدوا منها، لم يجدوا هذا الأمر سهلا لأن الفقه الإسلامى التقليدى عاش قرابة ألف سنة دون نظم سياسية فاضطروا إلى العودة إلى العصر الذهبى الأول للخلافة الراشدة، بكل ما فى هذه العودة فى حنين وعاطفة. كما وجدوا نماذج معاصرة للمقاومة والتغيير الديمقراطى فى كل من الليبرالية والحركات الشيوعية، وأخذوا منها ما وسعهم أن يأخذوا، مع رفضهم لهذه الأيديولوجيات. وكان هذا هو منشأ الجماعات الإسلامية التى تأسست فى العشرينات

والثلاثينات من القرن العشرين، مثل جماعة الإخوان المسلمين في مصر والجماعة الإسلامية في جنوب آسيا اللتان امتدتا بعد ذلك إلى بقية العالم المسلم.

وكان هناك أيضا العلماء والفقهاء التقليديين الذين قاوموا التغيير لعدم رغبتهم فيه، لأن جذورهم كانت أكثر انغراسا في التقاليد الفقهية للعصور الوسيطة وأكثر اعتيادا على التعايش والتكيف مع القوى غير الشرعية، طالما أنها كانت تستطيع في نظرهم أن تحمي الدين.

وكانت لدى الحكومات القومية العلمانية وسائلها المناسبة للتعامل مع كل فريق من هؤلاء الإسلاميين والعلماء حيث قمعوا المجموعة الأولى من النشطاء بلا رحمة، من خلال القتل والسجن والتعذيب وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى بعض التطرف الهامشي من بعض الشباب كما شهدنا منذ السبعينيات، وما أدى إلى اغتيال الرئيس السادات عام ١٩٨١ لكن الأحزاب الإسلامية الرئيسية تجنبت العنف أو حتى مجرد الانتقام، وأصبحت أكثر شعبية في أوساط الطبقة الوسطى المتعلمة.

كما تعاملت الحكومات مع المجموعة الدينية الثانية أي العلماء بسحب البساط من تحت أقدامهم بتأميم مؤسسات العلم العريقة حيث أمم الرئيس المصري عبدالناصر جامعة الأزهر على سبيل المثال في الخمسينات واستولى على أوقافها وحول العلماء إلى موظفين برواتب من الدولة. وقد مثلت تلك التصرفات بالإضافة إلى الطبيعة المحافظة للعلماء المنبتة الصلة بالجماعة بطبيعة الحداثة المفروضة التي تمددت لتسيطر على كل دوائر الحياة، عوامل أدت إلى انحسار نفوذ العلماء في أعين الناس، الذين رأوا أن الإسلاميين على استعداد لقول الحق في وجه السلطة الظالمة حتى ولو أدى ذلك إلى قتلهم، في حين انشغل العلماء بتحصيل الرواتب الهزيلة. وهذا هو ما أدى إلى الأزمة الهائلة للسلطة والشرعية التي تواجه العالم الإسلامي اليوم. إن الجماعات الراديكالية غير المؤهلة بالعلوم الشرعية لا تحظى بتعاطف الأمة إلا عندما يظهر أن العلماء والإسلامين المعتدلين مستسلمون أو خانعون للسلطان أو خائنون للأمة.

هذا التناول الموجز يصف بصورة عامة الحال في العديد من البلدان المسلمة، هناك طبعا استثناءات مثل حالة تركيا التي تعزز في الواقع وجهة النظر المقدمة في هذا المقال، لقد حكم العلمانيون المستبدون والمعادون للإسلام تركيا دون رحمة لما يقرب من ٦٠ عاما، حاولوا خلالها اجتثاث جذور الإسلام، وكانت تركيا خلالها دولة علمانية أكثر تطرفا في بعض النواحي من فرنسا اليوم لكن هذا لم ينجح في القضاء على المشاعر الإسلامية، مما أدى إلى ظهور الأحزاب الديمقراطية الإسلامية في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، والتي هي الآن في السلطة.

وإيران تمثل استثناء آخر يثبت القاعدة، فهي الحالة الوحيدة التي وقعت فيها ثورة إسلامية ناجحة أدت إلى تشكيل حكومة شبه دينية؛ لأن النخبة الدينية الشيعية يمكن أن تتوحد بطريقة لا يمكن أن تحدث في الإسلام السني. والسبب في هذا هو أن السلطة الدينية في الإسلام السني تضاد بصورة أساسية أي ميل لإفراز تكوين هرمي، أو هي ديمقراطية إن شئت استخدام هذا التعبير، كما هو الحال في معظم البلدان المسلمة اليوم. إن أي عالم سني مؤهل لا يملك أن يتقدم

على عالم مؤهل آخر، إلا بما يملك من قوة إقناع لغيره من العلماء أو للعامة ولقد مثلت هذه السيولة المرجعية في الإسلام السني نعمة ونقمة، فكان مصدرا للمتاعب بالنسبة لأي عالم مخلص يرغب في الإصلاح، وسبيلا يعطي الفرصة لكل من تسول له نفسه التلاعب بها.

وهذا التاريخ له معنى عميق بالنسبة للعالم المسلم اليوم فهو يفسر كيف ولماذا فشلت عملية استنساخ المؤسسات السياسية والقانونية الغربية في العالم الإسلامي بصورة عامة فالمسلمون لديهم ذكرياتهم ورغباتهم الخاصة، ويتعين على أي شرعية سياسية أن تعكس هذه الذكريات والرغبات والمخاوف لدى الناس. وتؤكد الاستطلاعات أن ٨٠٪ من المسلمين في العالم اليوم يريدون الإسلام والديمقراطية، وأنه على الرغم من تشدد البعض، فإن الغالبية العظمى من المسلمين لاتزال مقتنعة بأن دينها هو منارة التقدم والتسامح كما تعتقد أن حكوماتها فاسدة وغير إسلامية ومدعومة من القوى الأجنبية، وأنها لا تمثل الإسلام الحقيقي. ونحن متأكدون من أنه حالما يتم قطع الدعم الاقتصادي الخارجي عن الحكام المستبدين، فلن يكون بإمكانهم البقاء لفترة طويلة لكن التحدي الماثل أمام المسلمين هو: من الذي يمثل الإسلام؟ ومن يستطيع أن يدعي الشرعية الإسلامية؟ وكثير من الدارسين يتساءلون عن الضمان الذي يطمئن الجميع من أنه إذا تولى التيار الإسلامي الحكم بوسائل ديمقراطية، فإن الديمقراطية في تلك الحالة لن تكون «صوتا واحدا لكل إنسان، مرة واحدة».

ولهذا ينبغي التركيز على وجود معارضة قوية وقادرة على البقاء ووجود دستور شرعي وفي اعتقادي أن التقاليد الإسلامية يمكن أن توفر الشرطين معا، رغم أنه لم يتم الاستفادة منها في هذا الصدد حتى الآن، ويتمثل التحدي في القدرة على إفراز بدائل إسلامية قابلة للاستمرار تمكن من إشراك الجماعة كلها في العملية السياسية، وتسمح في نفس الوقت بوجود المعارضة وبالحرية والتعددية في المجتمع. ويمكن إنجاز المهمة الأولى وهي إشراك الجماهير المسلمة في الحياة العامة بواسطة أطراف التيار الإسلامي الذي يفوز في الانتخابات في الواقع في معظم البلدان المسلمة كلما كانت الانتخابات حرة ونزيهة.

والمهمة الثانية هي ضمان وضع دستور إسلامي يسمح في ضوء ضعف المعارضة وفي نظري أن التراث الفقهي العلمي يمكن أن يكون عظيم الفائدة في هذا الصدد. إن التعددية القانونية الإسلامية التقليدية يمكن أن تقدم نموذجا للتسامح مع المجتمعات المتعددة، وضمانا لحرية المعارضة. إن التناول الإسلامي التقليدي في السياسة والدستور الذي ستقام على أسسه النماذج الاجتماعية والقانونية التعددية في النظام السياسي هو غاية في التطور بالمقارنة بالتناول القانوني الغربي الحديث، رغم أن هناك أيضا فرصة للمزيد من الإبداع والمرونة وأنا أزعم أنه إذا ما سمح بالاستقلال المؤسسي والاقتصادي للمؤسسات الإسلامية العلمية الغنية بالمدارس المتعددة للتفسير القانوني، فإنه يمكن لها أن توجد لنا مخرجا قابلا للتطبيق والاستمرار ليوازن سطوة الدولة الحديثة، كما فعلت في العصور الوسيطة.

درس فى نقد الذات


أ.د. طه جابر العلوانى

لم يألف المنتمون إلى المدارس الفقهية والكلامية وحملة درجة الأستاذية ولقب الدكتوراة توجيه نقد حاد لأنفسهم ولما كتبوه. وإذا سمعوا النقد من غيرهم أعرضوا عنه، أو ردُّوا عليه بشدة أو بخفة. وكتابى «أدب الاختلاف» من أهم ما كتبتُ فى بدايات ممارستى للكتابة، فقد سبقه كتابى فى «الاجتهاد والتقليد» وفى «التعليل عند الحنابلة» وبعض دراسات أخرى حول «حقوق المتهم قبل التحقيق»، وفى «تاريخ أصول الفقه» وما إلى ذلك. وحين صدر كتاب «أدب الاختلاف» باعتباره الحلقة التاسعة من كتاب الأمة بتقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة، أقبل عليه الكثيرون ونال اهتماماً واسعاً، وطبع أكثر من مرة فى سنة واحدة، وانتشر وذاع صيته، ولعله فى تلك المرحلة كان أكثر كتبى قراء وأحظاها بالاهتمام، وقد ترجم إلى ثمانى عشرة لغة، وطبع طبعات لا أكاد أحصيها. وبعد أن شرح الله صدرى لقاعدة «مراجعة التراث على نور القرآن» رأيت أن أراجع كتابى هذا، فقد طالبنى بعض الناشرين بالإضافة إليه وتجديده؛ لإعادة طباعته وترجمته، وفى خلال تلك المراجعة وجدتنى قد سقطت فى أخطاء أرجو الله أن يغفرها لى، فهى أخطاء ما كان لمثلى أن يسقط فيها، لفتت نظرى إلى بعضها إحدى الباحثات المساعدات لى، وقد وجدت المرحوم سيد قطب قد رجع عن كتابه «العدالة الاجتماعية» وطلب ألا يعاد طبعه، لكننى لا أذكر أننى قرأت له نقداً لنفسه فى ذلك الكتاب، أو لماذا وقف منه هذا الموقف. أما أنا فأحمد الله أننى قادر الآن على أن أقول عن كتابى هذا ما لم يقله لى الآخرون، أو قالوه بطريقة ملؤها الحياء والتردد، واحترام نسبة الكتاب إلىّ، فأقول وبالله التوفيق:

حين نعرض هذا الكتاب اليوم على قاعدة مراجعة التراث فى نور القرآن نجد أن الكتاب صدر فى وقت كنت فيه محافظًا وتقليديًا لا أختلف عن أى أزهرى تخرج فى الأزهر فى مرحلة تخرجى فيه، فالسلف سلف لا يخطئون، والخلف خلف كل منهم خطاء إلا من رحم ربى، لا يستطيع القارئ أن يجد فيه دعوتى إلى مراجعة التراث، وتجديدة فى نور هداية القران والتى يستطيع القارئ أن يلحظها فى سائر كتاباتى ومؤلفاتى ومقالاتى ودراساتى التى صدرت فى التسعينيات وما تلاها، وبالتالى فإن كتابى هذا وكل ما سبقه أصبح يحتاج إلى مراجعة فكرية ومنهجية تتناسب مع قاعدة تحكيم القرآن فى كل ما أنتجناه ونتنجه، ولإظهار بعض النقاط التى سقطت فيها أستطيع أن أذكر الأمثلة التالية:

أولاً: اعتبرت أنّ المسائل الاعتقادية لا مجال للاجتهاد فيها، وتبنيت فى ذلك موقف الجمهور، فى حين أنّ الجاحظ والعنبرى وغيرهما كانا يريان أن الاجتهاد يشمل الاعتقاديات كما يشمل المسائل الفقهية العملية. وبالتالى فإن هذا المذهب الذى نسب إلى العنبرى والجاحظ - وإن هاجمه الجمهور كلهم- فإنه مذهب يستحق أن ينظر فيه، وأن يدرس بعناية، خاصة وأننا نمر بظروف وتحولات تجعل كل شيء موضعًا للنقاش، ولا يستثنى شئ من ذلك.

ثانيا: صنفت أسباب الخلاف بتحيُّز شديد: فذكرت أن هناك خلافًا أملاه الحق دون أن أبين كيف أملاه الحق ولم اعتبرته خلافًا لما اعتبرته الحق، وبأى دليل جعلته حقا وجعلت غيره باطلاً، وتحدثت عن خلاف أملاه الهوى، وحددت مرادى به بأنه خلاف أهل البدع: ولذلك اعتبرت الشيعة والخوارج من أهل البدع وصرحت بذلك فى أكثر من موضع من الكتاب، ثم أكدت أن أهل السنة -وأقصد بذلك الأشاعرة- يقفون فى مقابل أهل الأهواء والبدع [١] وكنت فى ذلك منسافًا مع أطروحات علماء الفرق وتحيزاتهم، وذلك مما أخجل منه الآن، ولا أحب أن ينسب إلىّ أو أنسب إليه.

ثالثًا: اللغة التى استعملتها فى الكتاب كانت لغة كلامية وفقهية وعقدية، تترع إلى التكفير وتسارع إليه، وتستسهل الرمى به، ومن ذلك قولى:

«وادّعاء استحالة تكرار الرعيل الأول إنما هو بمثابة نسبة العجز إلى كتاب الله وسنّة رسوله... وتلك مقولة تنتهى بصاحبها إلى الكفر الصراح»[٢].

رابعًا: عندما تعرّضت لقضيّة قتال مانع الزكاة قلت: «وحرصًا من الخليفة الأول على استمرار مسيرة الإسلام قرّر قتالهم لحملهم على التوبة، والعودة إلى حظيرة الإسلام»، وفى موضع آخر قلت: «ومادامو متفقين -أى الأمة كما يدل على ذلك السياق -على أن الامتناع عن الصلاة دليل ارتداد، فإن الامتناع عن الزكاة ينبغى أن يعتبر دليل ارتداد يقاتل مرتكبه»[٣]، والكل يعرف الآن -وخاصّة بعد أن أصدرتُ كتابى

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾

أننى لا أرى للردة حدًا، وأننى أؤمن بقول

١- انظر كتاب ادب الاختلاف: ص٧٨،٧٩ والصفحات التى سبقتها.
٢- انظر كتاب ادب الاختلاف: ص٥٠.
٣- انظر كتاب ادب الاختلاف: ص٥٩.

الله تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فلا يكره الناس على اعتقاد ما، بأى مسوغ من المسوغات، لكن دراساتى السابقة -والتى لم أكن فى وضع نفسى وعقلى يسمح لى بنقدها، كما لم يعلمنى أحد نقدها ولا كيفية عرضها على القرآن- أدت بى إلى هذه المهالك، وأنا أحمد الله وأشكره أن أطال فى عمرى، وألهمنى النقد، والقدرة على المراجعة على كتاب الله وفى نوره وهديه، وعلى ما اتصل به من سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لعل الله أراد لى بذلك النجاة، فحمدا لك ياربى وشكرا على حاسة البصر والبصيرة.

خامسا: اعتمدت القاموس العقدى فى لغة الكتاب بدلا من الكتاب الحضارى الذى أتبناه الآن فكثرت عندى فى طبعات الكتاب الأولى أوصاف الكفر، فمرة ألقى بها على أهل البدع، وأخرى ألقى بها على الكافر المستعمر، وثالثة ورابعة وهكذا.

سادسا: اعتمدت على أحاديث ثبت عندى الآن -بعد الدراسة الحديثية الناقدة- أنها تعارض القرآن الكريم، وقد اتفق المحدثون على رد ما يعارض القرآن الكريم، وكذلك سائر علماء المسلمين، ومنها حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، فهذا الحديث وإن ورد من طرق عديدة لكن طريقا واحدا منها لم تخل من مدلس أو مرسل أو مطعون فيه بشكل أو بآخر، وقد حققت ذلك وحققه غيرى، ووصلت إلى أن هذا الحديث لو قبل فسيؤدى إلى مناقضة مئتى آية من آيات الكتاب الكريمة المحكمة، وأن هذا الحديث قد شاع بعد أن تحول المسلمون من الدعوة إلى الفتح، ليعزز من شاء اتجاهات الفتح والغزو ويرجحها على اتجاهات الدعوة السلمية التى جاء القرآن بها:

﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾

(النساء: ٧٧)

سابعا: أشرت فى أكثر من موضع إلى مرجعية السلف دون ربطها بمرجعية القرآن، وهذا مناقض لمشروعى التجديدى القائم على ضرورة عرض تراثنا الإسلامى كله - أصوله وفقهه وكلامه وحديثه وتفسيره - على كتاب الله جل شأنه:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾

(الأنعام: ٥٧)

وقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

(آل عمران: ٢٣)

فالمرجعية للقرآن الكريم، ولما اتصل به من سنة رسول الله -ﷺ- وكان اتباعا له وتطبيقا لآياته.

وقد اقتضى ذلك منى أن أقول بأن: «جميع القضايا الخلافية يجب ردها إلى مذاهب كرام العلماء من أئمة السلف»[٤]

٤- أنظر كتاب أدب الاختلاف: ص١٦٣.

وهذا ظاهر فى مناقضته لمشروعى القرآنى الآن، والذى حصرت المرجعية فيه بالقرآن المجيد، باعتباره المصدر المنشئ للأحكام، وبالسنة النبوية المتصلة به باعتبارها السنة التطبيقية التى قدمت لنا منهج اتباع القرآن وتطبيقه وكيفياته بطريق المعصوم ﷺ.

ثامنا: كنت -كأى أزهرى آخر- أقول بـ«النسخ»، فاستندت إليه فى أكثر من موضع فى الكتاب، كذلك كنت أقول بـ«الإجماع» بكل تفاصيله التى قال بها الشافعية والمتكلمون، وهو أمر تجاوزته الآن، واعتبرت المرجعية لكتاب الله، وأن الأمة يمكن أن تتبنى بعض المذاهب على أن تستند إلى كتاب الله فى الاستدلال لها، وليس لها أن تدعى الإجماع على شئ لم يأت الكتاب به.

تاسعا: أوردت فى الكتاب كثيرا من الروايات: مثل محاورة ابن عباس للخوارج، ومحاورات بعض الأئمة لبعضهم، دون توثيق ودون التأكد من صحة وقوع تلك الحوارات أو عدم وقوعها، وهى فى سائر الأحوال إنما تندرج فى إطار أدب الحوار. كذلك تبنيت وجهة نظر تعديل الصحابة، وتبنى مفهوم الصحبة كما جاء عند الأشاعرة والشافعية، والتأكيد أنهم كانوا جميعا على حق. ولى فى هذا الآن مواقف أخرى -تعلمتها من القرآن الكريم- تقتضى ضرورة تعديل مفهوم الصحبة والأخذ بالصحبة كمفهوم قرآنى، فلا يعتبر من لم يصفه القرآن بالصاحب صاحبا: ولذلك فإن القرآن قد أعلم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بما لم يكن يعلم، فقال له:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

(التوبة: ١٠١)

ولذلك فإن القول بعدالة الصحابة -رضوان الله عليهم- يقتضى إعادة تقييم مفهوم «الصحبة»، وإعادة بنائه قرآنيا، وبعد ذلك تمييز من يعتبرون أصحابا للنبى -ﷺ- ومن يوصفون بالعدالة كأهل الشجرة، والذين امتدحهم القرآن وضرب لهم المثل فى التوراة والإنجيل فى قوله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الفتح: ٢٩)

من غيرهم، فـ ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ لا بد من أخذهم بنظر الاعتبار عندما نتكلم عن الصحبة، وعدالة الصحابة.

عاشرا: لقد سردت أحداث السقيفة أو أحداث الفتنة كما هى عند المؤرخين دون تحقيق، وأحداث السقيفة قد أضيف إليها وحذف منها ولا تصلح للاستشهاد بها إلا إذا تمت تنقيتها وتراثها، ودراستها وفقا لمناهج المحدثين لمعرفة حقائق ما دار فيها.

حادى عشر: تكلمت فى (ص ١٦٢ : ١٦٣) فيما اعتبرته ضوابط للأخوة الإسلامية ووحدة الصف. وكان حديثى ذلك -كما أنظر إليه اليوم- حديث خطيب جمعة أو واعظ من الواعظين، لا

يقدم الوحدة من منطلق حضارى مثلما قدمها القرآن المجيد، بحيث تصبح ممكنة بناء على حاكمية الكتاب وعالمية الخطاب وختم النبوة والمساواة بين البشر: «كلكم لآدم، وآدم من تراب»، والمساواة بين بقاع الأرض، «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»، والمساواة بين البشر فى الاستفادة من خيرات الأرض:

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

(فصلت: ١٠)

إن ذلك كله جعلنى أنظر إلى أن (طه العلوانى) الذى كتب «أدب الاختلاف» قبل ما يقرب من أربعين عاما قد تغير، واهتدى بالقرآن الكريم إلى مواقف لم يوصله التراث إليها، فأنا اليوم صاحب منهج، أدور مع القرآن حيث دار، والتزم بكل ما نزل على قلب محمد- ﷺ- ثم فاض على جوارحه منهجا واتباعا وبناء، ولذلك فإننى أستغفر الله لما قدمت وأخرت، وأعلن هذا على الملأ، لعل الله- جل شأنه- يغفر لى ما بدر منى، ويكون مع نيتى- التى كانت وما تزال خالصة له- لا مع ما وقع منى، وقد رأيت أن أتقدم بهذا إلى طلابى وإخوانى ليعلموا أن المراجعات بالفعل ضرورية.

لقد راجع الإمام الرازى تراثه قبل وفاته، وكتب وصيته بناء على ذلك، فقال: «لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم؛ لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفيّة، فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء فى القدم والأزلية والتدبير والفاعلية فذاك هو الذى أقول به وألقى الله تعالى به... إلخ»(٥).

إننى أدعو إخوانى وتلامذتى ألا يستنكف أحد منهم إذا ما بدا له أنه أخطأ فى شئ أن ينبه إلى ذلك الخطأ ويدعو إلى تصحيحه. ولقد تجنبت الفتيا قدر ما استطعت، ورفضت أن أفتى بشىء خوفا من أن أكتشف بعد الفتوى خطأ فيها، ثم لا أملك أن أنبه من أفتيه إلى ذلك الخطأ أو أحذره من العمل فيه أو على الأقل من الاستمرار فى العمل فيه، ولذلك فإننى دائما أحيل من يستفتينى إلى أهل الفتوى وأهل النظر.

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم، وأرجو الله تعالى السداد، وأن يكون مع صالح قصدى لا مع سىء رأى وعملى. وإذا اكتشف لى أخطاء فى ضوء هذا المنهج منهج العرض على القرآن المجيد- فى أى كتاب من كتبى فإننى على استعداد للرجوع عنه حيا، وأرجو من تلامذتى وإخوانى الاستغفار لى عن كل ما لم أستطع مراجعته فى عمرى القصير وإعلان الرجوع عنه. وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

تعليق

مع الاحترام لرأى الأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى، فإن مجلة الأزهر تسأل: هل الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة ليسو أهل بدعة؟ وهل الشيعة الإمامية الذين يكفرون جمهور الصحابة ومن والاهم ليسو أهل بدعة... الأزهر.

٥- انظر المحصول تأليف الإمام فخر الدين الرازى، تحقيق أ.د. طه جابر العلوانى (القاهرة: دار السلام، ٢٠١١م) ط١، ج١، ص٤٠.

القدوة المثلى للمرأة المسلمة فى العلم والعمل



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الاسلامية

لبيت النبوة مكانته العالية والأسوة الحسنة يقتدى بهداه كل بيت مسلم، يريد أن يترسم معالم الحياة الإيمانية المشرقة، وتقتدى به كل أسرة تتطلع إلى سعادة الدنيا والآخرة، ولأمهات المؤمنين دور أصيل وواضح فى إرساء أسس الأسرة المسلمة فى العلم والعمل.

ومن أمهات المؤمنين السيدة الفاضلة الكريمة عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، وأمها هى أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية.

بنى بها رسول الله ﷺ وعمرها تسع سنين ودخل بها فى شهر شوال من السنة الأولى، وكان قد خطبها من أبيها وهى بنت ست سنين وقبل سبع، وكانت نامية الجسم، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً سواها.

وفيما رواه البخارى، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «تزوجنى النبى ﷺ وأنا بنت ست سنين»، ولكنه دخل بها بعد ذلك كما سبق.

وقد أراه الله تعالى إياها فى المنام مرتين كما ثبت فى السنة الصحيحة، قال ﷺ: «أريتك فى المنام مرتين، إذا رجل يحملك فى سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فاكتشفها، فإذا هى أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه.

وعندما خطبها النبى ﷺ من أبيها قال: إنما أنا أخوك فقال النبى ﷺ: «أنت أخى فى دين الله وكتابه، وهى لى حلال» رواه البخارى، وقد نشأت منذ باكورة صباها وفجر حياتها نشأة طاهرة مباركة، وكبرت وترعرعت فى منزل الوحى فكان طبيعيا أن تجمع كل المحامد الفاضلة والمعانى النبيلة ومكارم الأخلاق.

ولقد وهبها الله تعالى عقلاً واعيًا متفقهًا، وذاكرة قوية حافظة، فكانت عالمة بأحكام الشريعة حافظة للأحاديث، مستوعبة لأمور الدين وأصوله وفروعه، وكيف لا، وقد أخذت علمها وروت ما روت وعاشت ما عاشت مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فروت عنه، وتخلقت بأخلاقه، وتأدبت بآداب الإسلام، وعايشت نزول الوحى فاستوعبت ما لم يستوعبه غيرها.

ولقد أخذ عنها الكثير من أحكام الشريعة، ولاسيما ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يصنعه فى بيته ومع زوجاته.

يقول مسروق: رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال أبو موسى الأشعرى: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ قط شيء فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما.

وهكذا تجد المرأة المسلمة، والأسرة المسلمة فى السيدة عائشة رضى الله عنها قدوة طيبة، وأسوة كريمة فى العلم بأمور الدين وأحكامه، والتثقيف بالثقافة الإسلامية العالية الدقيقة، وقد جمعت رضى الله تعالى عنها بين الفقه والعلم وحسن القول والعمل.

يقول عطاء بن أبى رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا فى العامة، بيد أن علومها كانت كثيرة وثقافتها العامة كانت شاملة فاستوعبت فقه الأحكام، والطب والشعر.

قال هشام بن عروة عن أبيه ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.

وأسند الزبير بن بكار عن أبى الزناد قال: ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة، فقيل له ما أرواك؟ قال: ما روايتى فى رواية عائشة ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً أ هـ. (من كتاب الإصابة لابن حجر).

وقد جمعت إلى جانب العلم الغزير العمل الصالح، ولا غرابة فهى زوج رسول الله ﷺ، كريمة الصديق رضى الله عنه ونشأت فى منزل الوحى، وكانت كريمة سخية، تبذل كل ما تملكه، وتعطى بلا حدود حتى ولو كانت فى حاجة إلى ما تقدمه فى الإنفاق وفى العطاء.

أخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهى يومئذ صائمة، فقالت لها: أما استطعت فيما انفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه، قالت: لو كنت ذكرتنى لفعلت.

فلتقتد الأمهات والأسرة بأعلى النماذج وبأرقى أسوة للأسرة الإسلامية فى العلم والمعرفة، وفى العمل والبذل، وفى السير على الجادة والاهتداء بهدى الإسلام الواضح والله الهادى إلى سواء السبيل.

وفى بيوت أزواج الرسول ﷺ أعظم القدوة للأسرة المسلمة فى التفقه فى الدين، وفى العمل بالعلم وفى استمرار العلم ولزومه، وفيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل .قال: وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته.

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها عالمة متفقهة ملمة بسنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، واعية لأحاديثه النبوية الشريفة، وهى من أكثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم رواية للحديث النبوى الشريف، روى لها عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ألفا حديث ومائتا حديث وعشرة أحاديث، واتفق البخارى ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثا، وانفرد البخارى بأربعة وخمسين، ومسلم بثمانية وستين، ولا غرابة فى هذا العدد الجم الذى روته من الأحاديث، فقد عاشت فى بيت النبوة، وعايشت أندى لحظات الحياة فى جوار الرسول ﷺ، ومع ومضات الإشراق الروحى، عند غدوات الوحى وروحاته، كانت تعيش سعيدة بما ترى واعية لما تسمع.

وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال: حدثتنى الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من السماء رضى الله عنها.

نعم فهى الصديقة وأبوها الصديق رضى الله عنها، وكانت لها مكانتها من الرسول ﷺ، ونزلت براءتها من فوق سبع سموات.

وفيها قال حسان بن ثابت رحمه الله:

حصان رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
عقيلة أصل من لؤى بن غالب
كرام المساعى مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل بغى وباطل
فإن كان ما قد قيل عنى قلته
فلا رفعت سوطى إلىّ أناملى
وإن الذى قد قيل ليس بلائط
بها الدهر بل قول امرئ متحامل
فكيف وودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل
رأيتك وليغفر لك الله حرة
من المحصنات غير ذات الغوائل

وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ الكثير الطيب، وروت أيضا عن أبيها، وعن عمر، وفاطمة، وسعد بن أبى وقاص، وأسيد بن حضير، وجذامة بنت وهب، وحمزة بنت عمرو، وروى عنها عمر وابنه عبدالله، وأبوهريرة، وأبوموسى، وزيد ابن خالد، وابن عباس، وربيعة بن عمرو الجرشى، والسائب بن يزيد، وصفية بنت شيبة، وعبدالله بن عامر بن ربيعة، وعبدالله بن الحارث بن نوفل، وغيرهم من الصحابة.

ومن آل بيتها: أختها أم كلثوم، وأخوها فى الرضاعة عوف بن الحارث، وابن أخيها القاسم، وعبدالله بن محمد بن أبى بكر، وبنت أخيها الآخر حفصة، وأسماء بنت عبدالرحمن بن أبى عتيق، وابنا أختها عبدالله وعروة ابنا الزبير بن العوام، وبنت عائشة بنت أختها.

ومن كبار التابعين: سعيد بن المسيب، وعمرو بن ميمون، وعلقمة بن قيس، ومسروق، وعبدالله بن حكمى، والأسود بن يزيد، وأبوسلمة بن عبدالرحمن، وأبووائل وآخرون كثيرون.

ولقد كان لها دور بالغ فى تبليغ الأحكام الشرعية لاسيما إلى النساء، جاءت امرأة من الأنصار تسأل رسول الله ﷺ: كيف تتطهر من الحيض؟ فقال: «خذى فرصة من مسك فتتبعى بها أثر الدم»، فلم تفهم، فاستحيا رسول الله ﷺ فأخذتها عائشة وشرحت لها الحكم.

وتلك مهمة لها أكبر الأثر فى التبليغ والتعليم، إذ إن تعليم المرأة للمرأة خاصة فى مثل هذه الأمور يكون أكثر إيضاحا وأبعد عن الحرج.

ومما يدل على كثرة علمها وفقهها ما قاله أبوموسى الأشعرى: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً.

وتوفيت سنة ثمان وخمسين فى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان على الأكثر، وقيل: سنة سبع ذكره على بن المدينى عن ابى عيينة عن هشام عن عروة، ودفنت فى البقيع رضى الله تعالى عنها وأرضاها.

المسئولية المجتمعية للمرأة المسلمة

٢



أ.د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ثانيا: الاتجاه المؤيد لحقوق المرأة فى المساهمة فى التنمية والعمل العام:

ينطلق الاتجاه المؤيد لحقوق المرأة من مسلمات تشريعية ورؤى اجتماعية ومن سوابق إسلامية أساسها أن الإسلام فى خطابه التشريعى إنما جاء على سبيل العموم لمجتمع المؤمنين، الذى يتكون من الرجال والنساء، بلا تمييز بينهم فى شئون الحياة والمعاملات الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية، إذ النصوص الشرعية تقرر لها الحقوق، وفلسفة الخطاب فيها تجىء على صفة العموم التى ينتظم فيها النوعان، فهذه النصوص إنما تخاطب المسلمين جميعا، أعضاء المجتمع الإسلامى بلا فرق بين الرجل والمرأة، وتثبت بهذه الصفة كون الفرد مسلما دون اعتبار لنوعه ذكرا كان أم أنثى، مصداقًا للنص الذى يقضى بالمساواة وعدم التمييز بينهما:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

والغرض من تقرير هذا المنحى: التنافس من أجل الخير والصالح العام بين الرجال والنساء فى العصر الإسلامى الأول، لذلك كان من زوجات الرسول ﷺ - المتفقهات فى الدين، المشتغلات بالأعمال الكثيرة فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فالثابت أن السيدة خديجة بنت خويلد كانت تعمل بالتجارة، وقد تزوجها الرسول وهى تعمل فيها، ثم تفرغت لشئون البيت ومعاونة زوجها فى رسالته الخالدة إلى الناس وكانت السيدة عائشة بنت أبى بكر من المتفقهات فى الدين، ودورها فى رواية السنة المطهرة المصدر الثانى للتشريع الإسلامى، وتعليم النساء أمور الدين معروف ومشهور، وأخذ الصحابة الرجال رواية الحديث عنها منقول ومتواتر.

كما كانت السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب الأمينة على القرآن، فقد كان لديها الصحف المسطرة فيها السور والآيات المكتوبة منه، احتفظت به عندها بعد أن تم جمع القرآن بطلب عمر على يد الخليفة أبو بكر الصديق فى المرة الأولى، ثم احتفظت به عندها حتى طلبه عثمان بن عفان الخليفة الثالث؛ ليقوم على جمعه للمرة الثانية على النحو الموجود فى نسخ المصحف الشريف التى بين أيدينا الآن، وهو عمل يحسب للمرأة من الرعيل الأول، ويعظم دورها على أساس أن القرآن هو عمدة الشريعة ودستور المسلمين.

وكذلك كانت السيدة أم سلمة ناصحة ومشيرة فى الشأن العام، فقد أشارت على الرسول ﷺ بالرأى فى صلح الحديبية، فكان سببًا فى اقتداء المسلمين به، وحسم مادة الفتنة لما أشارت على الرسول بالحلق أو التقصير عندما لم ينفذوا ما أمرهم به بسبب رأيهم بأن الصلح ينطوى على الإجحاف فى بنود الصلح بين المسلمين وأهل قريش.

وقد سبقت الاشارة إلى الدور الرئيسى للمرأة فى بيعة العقبة الثانية، فقد وجدت امرأتان شاركتا فى بيعة الرسول على النصرة وتأسيس المجتمع وقد سجل القرآن[1] مبايعة الرسول للنساء على الالتزام بالعقيدة والشريعة والمصالح العامة اللازمة لاستقامة الاجتماع الإنسانى وانتظام شئون الحياة الدينية والدنيوية تلك المتعلقة بالعبادات والمعاملات والأخلاق، وهى من مرتكزات الهوية الإسلامية، وهو المسلك الذى عرف وتطور فيما بعد، وقد أرسى به الرسول ﷺ ما اصطلح على تسميته بالعقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم، وهى النظرية التى جاءت فى كتابات جان جاك روسو.[2]

وما قامت به نساء العصر النبوى فى المشاركة فى شؤون الحياة، هو سابقة وحق لا مراء فيه، كونه دل عليه القرآن، فالمرأة من الرجل تتكامل معه وتكتمل به وهو ما حرص عليه قوله تعالى:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(البقرة: ١٨٧)

وطبقه الرسول ﷺ فى المجتمع الإسلامى، وأقره فى مسيرة العمل الإسلامى فهذه هى المساواة - كما يقول العقاد[3] - التى شرعها القرآن الكريم بين الرجل والمرأة أو بين الزوج والزوجة أو بين الذكر والأنثى، ولا صلاح لمجتمع يفوته العدل فى هذه المساواة، ولاسيما المجتمع الذى يدين بتكافؤ الفرص ويجعل المساواة فى الفرص مناطاً للإنصاف.

فمن المقرر أن للمرأة مثل ما للرجل وعليها ما عليه فى التكاليف والواجبات بقوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

(التوبة: ٧١)

وكل منهما قوة عاملة فى دنياه يطلب منه عمله ويحق له جزاؤه إعمالا لقول الحق:

(١) بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ «الممتحنة: ١٢».

(٢) انظر: محمد الشحات الجندى، معالم النظام السياسى فى الإسلام، ص٧٥.

(٣) عباس محمود العقاد، المرأة فى القرآن، ص٦٤.

﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾

(آل عمران: ١٩٥)

كما أن لكل منهما سعيه وكسبه:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

(النساء: ٣٢)

فلا يقف أمر مشاركة المرأة فى شؤون المجتمع الإسلامى على نموذج محدد لا يتعداه إلى غيره كما يزعم المنكرون على المرأة حقوقها الاجتماعية بمفهومها الموسع، وإنما تخطى ذلك حدود السياج الواقف عند حدود الأسرة وتربية الأطفال، رغم أهمية ذلك وضرورته، إلى القيام بأعباء جسيمة، تتطلبها مسيرة المجتمع والوجود الإسلامى برمته.

فقد تعاظم هذا الدور فى المهام الخطيرة، كما فى صنيع السيدة أسماء بنت أبى بكر التى كانت تنقل المؤن والزاد والأخبار إلى الرسول وصاحبه أبو بكر فى الغار فى أعظم الرحلات التى غيرت مجرى التاريخ الإسلامى والإنسانى. وكانت تخاطر بحياتها فى سبيل إنجاز مهمتها، وصنعت ما صنعت من شق بعض ثوبها، حتى سميت بذات النطاقين.

وقد شاركت العديد من النسوة فى الجهاد مع الجيش ضد العدو، فمنهن من حملن السلاح، ومنهن من كن يداوين الجرحى والمرضى، نذكر منهن الخنساء التى استشهد أولادها فى المعركة، ومنهن من يقفن خلف الصفوف تأييدًا ومؤازرة لجند المسلمين.

وفى الشؤون الاقتصادية والعامة، عهد إلى المرأة مهمة ضبط أمور المعاملات، حيث تولت الشفاء أمر الحسبة ومراقبة الأسواق، فقد عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثانى إلى امرأة تدعى الشفاء بهذه المهمة، التى تحتاج إلى عزيمة وفطنة وحزم لضمان انتظام المعاملات وضبطها وفق الشريعة الإسلامية.

وعلى هدى ذلك فإن إسهام المرأة فى التنمية المجتمعية لم يقتصر على مجال الأسرة وحدها، وإنما عم كل الأدوار الاجتماعية متى كانت المرأة مستعدة لأداء هذه الأدوار ومؤهلة لها، قادرة على الاضطلاع بمتطلباتها مدركة لواجباتها الإسلامية، جارية تصرفاتها على منهج الشريعة، فى نطاق ظروف وبيئة لم تكن تعترف للمرأة بأهلية التصرف. فالثابت المقرر أنه ليس فى القيام بالأعمال التى من شأنها تحقيق مصلحة المجتمع، والقيام على شؤونه ومصالحه الدينية والاجتماعية والاقتصادية، اختصاص أو حكر لنوع دون نوع، وإنما هذه المصالح من قبيل الواجب العام على كل مؤهل له، يؤديه بالدقة والاتقان والجودة المطلوبة، فهذا مما يتساوى فيه الرجل والمرأة، ويقدم فيه الأصلح منهما لأدائه، بحسب فضل الله على المسلم رجلا كان أو امرأة وإمكانيات كل شخص وملكاته التى ترشحه لهذا العمل، وتجعله مؤهلا وقادرًا على إنجاز المهمة.

سند ذلك أن الخطاب الإسلامى فى شأن العمل، وهو مقتضى خلافة الإنسان عن الله وهو خطاب عام لا ينظر فيه إلى خصوصية النوع الإنسانى الرجل أو المرأة، والمسلم وغير المسلم بما يوجب الشراكة الاجتماعية بلا تمييز شريطة القدرة والاستطاعة على القيام به، ذلك أن الإسلام لا يقيم ـ فى سباق الفضائل ـ وزنًا لصفات الذكورة والأنوثة، فالكل سواء فى مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد [٤].

هذا هو موطن الحق فى تحديد المجالات وبيان التخوم التى تقف عندها المرأة فى أداء الأعمال والاضطلاع بالمسئوليات مما يضفى الشرعية، ويستوجب المشاركة فى المسئولية عن طريق القيام بدور بناء فى مسيرة المجتمع، والاشتغال بأعمال التنمية بدءًا بالتنمية البشرية وانتهاء بالشأن العام. فإن مستند الحق فيها تشريع الإسلام ومصلحة المجتمع وقد صدق القول والعمل فيما أشرنا إلى بعضه. ولسنا بحاجة إلى تفسير جديد للنصوص فى القرآن والسنة، إذ أن النصوص والسوابق واضحة فى بيانها وفى طلبها بإيجاب العمل والسعى على كل مسلم، وكل مسلم يحاسب وفق عمله الصالح أو الطالح، وهو مطالب دينًا وشرعًا ومصلحة بأن يرتقى بنفسه وأهله ومجتمعه، لا يجوز له أن يتقاعس عن ذلك، فالوسيلة مطلوبة لتحقيق الهدف بحسبان أن الوسيلة تكون على وفق الحكم كما يقول علماء الأصول: «فهى إلى الواجب واجبة وإلى المندوب مندوبة، وإلى المباح مباحة» وعمل المرأة ومساهمتها فى تنمية المجتمع، وشؤونه العامة يدور بين هذه الأحكام التكليفية، بحسب حالة المرأة واستعدادها للعمل، وتبعًا لحاجة المجتمع إلى هذا العمل الذى تقوم به، الأمر الذى يتوجب معه أن تتاح الفرصة وأن تمكن المرأة من العمل فى قضايا التنمية والشأن العام. يبرهن على ذلك الضرورة وحاجة الوطن والمجتمع والأمة إلى مشاركة كافة الجهود الداعمة للتنمية المجتمعية، بعد أن وصل حال التنمية فى البلدان العربية إلى وضع درجة التخلف والاعتماد على الآخرين، ويقينًا فإن للمرأة دورًا فى ذلك بناء على قاعدة: «ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب». لكن هذا الدور وتلك الممارسة لاتزال محفوفة بالمخاطر والصعاب.

المخاطر والتحديات

الملاحظ أن المرأة المسلمة قد تنامى دورها فى العقود الأخيرة نتيجة ما حدث بالمجتمع من تطورات، أسهمت فى انخراط المرأة فى أنشطة مجتمعية بسبب ما طرأ من تغيرات على الصورة الذهنية لدى الأسرة بضرورة حصول فتياتها على قدر من التعليم والمعرفة نتج عنه ارتفاع فى المستوى التعليمى والعقلى بالمقارنة بوضعها إلى عهد قريب من خلال الانتقال من بيت الأب إلى بيت الزوج فى عملية روتينية أورثها عصر الانحطاط.

ولا يعنى ذلك التطور اختفاء الصورة النمطية للتخلف الذى صار إليه وضع المرأة، فلاتزال قطاعات غير قليلة أسيرة للتقاليد بمنأى عن التعاليم المستنيرة للإسلام، تكرس أوضاعًا خاطئة تزدرى المرأة، وتنقص من كرامتها وتحرمها من بعض حقوقها، باسم

(٤) محمد الغزالى، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص٩٩.

الإسلام واستنادًا إلى شريعته.

ومن الغريب أن تسرى وتنسب هذه التقاليد البائسة إلى الإسلام، وأن يحمل الدين الخاتم أوزارها، وأن تضفى عليه صفة الشرعية فى غيبة من الفكر السديد الذى يرتقى بأوضاعها، ويقوّم الإعوجاج فى طريقة التعامل معها، ويجعل منها طاقة خلاقة تضيف إلى الأسرة، وتسهم فى نهضة المجتمع على قدم وساق مع الرجل، وعلى نحو تكاملى ينأى به عن التنافر والصراع بين أفراد النوع البشرى.

وهذا الوضع المتدنى يشير إلى أن الطريق إلى إحياء دور المرأة لايزال دونه معوقات، وأمامه تحديات، حتى يتسنى للمرأة استعادة مكانتها، واسترداد حقوقها المسلوبة بسبب موروث ممتد عبر عصور وقرون الانحطاط، الذى قزم دورها وأقصاها عن شؤون المجتمع، ومكن للفكر الخاطئ والتقاليد البالية من فرض الوصاية عليها، وتدنى مكانتها.

ولا يخطئ المتابع لحركة المجتمعات العربية الإسلامية أن يرصد بعض هذه التحديات نوجزها فيما يلى:

(١) الأمية الأبجدية والثقافية

تتفشى الأمية بمظاهرها المختلفة لدى قطاعات عديدة من النساء فى الريف والحضر، إذ لاتزال معدلاتها المرتفعة تقف حائلا دون مشاركتها المشاركة البناءة فى تكوين شخصية الناشئة والإسهام فى الأنشطة المجتمعية بالرغم من دخولها فى مجالات التعليم بمراحله المختلفة، وزيادة عدد الفتيات فى التعليم بأنواعه العام والدينى والفنى.

ولاشك أن عامل الأمية يشكل حاجزًا دون تأهيل واستعداد المرأة، وحاجزيتها للقيام بالأعمال والمناشط الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التى تتطلب مستوى معينا من الاستعداد والكفاءة يؤهلها لأداء هذه المهام، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعليم الذى أوجبه الإسلام على المسلمة كالمسلم، فى قول الرسول - ﷺ -: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٥]، بأسلوب العموم، وبغير تفرقة بين الرجل والمرأة. فبتحصيل التعليم الملائم للولاية أو المنصب، يكون الشخص لديه الكفاءة والخبرة، كما أشار إلى ذلك القرآن، فى قصة النبى يوسف مع ملك مصر بقوله تعالى:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٥)

ويخبرنا التاريخ أن بعض النساء تبوّأن منزلة رفيعة وهذه المنزلة لم تكن حكرًا على الرجال، كما ذكر القرآن عن بلقيس ملكة سبأ أهليتها وقدرتها لإدارة شؤون الملك فيما أخبر به الهدهد نبى الله سليمان عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

(النمل: ٢٣)

فالإشارة القرآنية إلى أنها أوتيت من كل شىء من العلم والمعرفة والخبرة، الأمر الذى مكنها أن تكون ذات عرش عظيم، وحكم سديد، يقول الطبرى: «وأوتيت من كل شىء يؤتاه الملك فى عاجل الدنيا»، وعن الحسن: «وأوتيت من كل شىء يعنى من كل أمر الدنيا»[٦].

والواقع أن الأمية الأبجدية هى العقبة الرئيسية فى النهوض بوضع المرأة، يتفرع منها ضعف المستوى الثقافى، الذى يتجاوز القراءة والكتابة، ويمتد إلى توسيع مدارك أفق المرأة، فتتمكن به من الدخول إلى عصر المعلوماتية والمعرفة وبهما يتوافر لها القدرة على التعامل والتصرف الحصيف مع الموقف أو الوضع الناشئ عن الإشكاليات والأزمات الطارئة.

فقد أسفر هذا العصر عن معارف تقنية، وطفرات من التطور التكنولوجى، أضاف أشكالا أخرى للأمية الأبجدية، تتمثل فى الأمية التقنية تلك التى أفرزها وجود شبكة المعلومات الدولية - الإنترنت - والثورة المعلوماتية التى أحدثها هذا الاختراع الجديد، الذى جعل العالم بمنجزاته بين أصابع كل من يجيد التعامل مع هذه التقنية غير المسبوقة وقد أضافت هذه التطورات المتلاحقة تحديات جديدة، يتعين على المرأة أن تلم بها، وتعمل على الاستفادة من إيجابياتها وتوظيفها لما فيه خدمة قضايا المجتمع، وأن تنأى عن سلبياتها، إذا أرادات أن تكون على مستوى المنافسة الحقيقية مع الرجل، فذلك يعطيها مكنة الاستعداد اللازم للمشاركة فى الوفاء بأعباء المسئولية المجتمعية والمساهمة فى القضايا العامة كعضوة فاعلة فى الأمة، تؤمن بفكر وممارسة حقيقية بالاعتبار تؤكد على أهمية دورها، وضرورة إشراكها فى بناء الوطن، الذى يحتاج إلى عقول وجهود المرأة على السواء.

(٢) التقاليد والأغلال

من الآفات التى امتهنت المرأة، وصيرتها فى وضع دونى مقارنة بالرجل، قيود التقاليد والأغلال المقيدة لحركتها، المتحكمة فى شخصيتها، برغم أنها صنو الرجل وعديلته، فلطالما نبه القرآن إلى إنصاف المرأة وتحريرها من القيود والأغلال التى سادت فى الجاهلية وصيرتها أشبه بالمتاع أو السلعة حتى سلبها أبسط حقوق الإنسان، وجعلها ملهاة للرجل وأسيرة لأهوائه ونزواته، وأبلغ ما حكاه القرآن فى هذا السياق المعاملة المهينة للأنثى عند الإنجاب والصدمة التى تصيب العربى إذا علم أن المولود له أنثى، وجاء تصوير هذا الحدث فى أجلى صوره بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(النحل: ٥٨ - ٥٩)

وقد أحدث الإسلام نقلة فى شخصية المرأة، فيما أثبته لها من حقوق شاملة تقرر صفة الإنسانية لها كاملة غير منقوصة، فحررها من الدونية والمذلة والهوان، وجعل شأنها فى المنزلة والكرامة والمعاملة كالرجل،

(٥) رواه ابن ماجة وغيره، عن أنس بن مالك.

(٦) تفسير الطبرى المسمى جامع البيان فى تأويل القرآن، المجلد التاسع، تفسير الآية (٢٣)، ص٥٠٩.

فوجب أن تكون من ناحية الخلقة والشخصية والاجتماع على قدم المساواة، بصفتها الإنسانية، وعطائها الخلاق.

أرسى القرآن هذا المبدأ كركيزة لأصول المعاملة في الشؤون المجتمعية، فأفسح لها المجال لمشاركتها ولم يحرمها من العطاء، وموقفه من مشاركتها المجتمعية يعبر عن بيان واضح لا لبس فيه، يتجلى في إجراء الموازنة بين احترام خصوصيتها وكونها عضواً في التنظيم المجتمعي، وركيزة للتعايش الذي يحقق المصلحة العامة، بقوله تعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾

(آل عمران: ١٩٥)

وقد التزم ذلك النهج النبي وصحابته الكرام، فارتفعت مرتبة المرأة في المجتمع الإسلامي، وقدمت إسهامات اجتماعية ودينية بارزة تضاهي بها الرجال، بل قد تزيد في بعض المواضع والمواقف، الأمر الذي جعل مرتبة المرأة في العصر الذهبي للإسلام قائماً على الفهم الصحيح للنصوص، وينطوي على التطبيق الرشيد في حياة المسلمين، وينظر إلى المرأة كعضو فاعل في المجتمع، وهي النظرة التي لا تحصرها في كونها أنثى فقط كما حدث في عصور التخلف. هذا التسامي لوضع المرأة انطلق من التعاليم وليس من التقاليد، فقد كان ذلك الموقف الذي يستوحي الشرع ومصلحة المجتمع بقدر ما أودعه الله في كل نفس إنسانية، فقد رزق نفس الرجل والمرأة بالعقل والملكات والاستعداد والعطاء ليكون لها دور تحتاجه الجماعة وتزدهر به الأوطان ـ وما تزدهر به الأوطان ـ كما أودع في هذه النفس حظها من الشعور بالمسئولية للقيام على المهام والتكاليف المجتمعية، يشهد له أن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ عندما قال: أيها الناس، سارعت أم المؤمنين أم سلمة تلبي النداء، فلما اندهش البعض لسرعة الاستجابة، قالت: «ألست من الناس».

ومن الغريب أن تتراجع هذه المواقف البناءة والفاقهة لصحيح الشرع، ليحل ملحها الأغلال والقيود التي تغير الحلال إلى الحرام ويركب البعض متن الشطط أو التشدد في غفلة أو انحراف عن وجه الحق في القضية. من ذلك، ما يعتصم به البعض من تبني النظر الضيق، والتفسير الذكوري للخطاب الشرعي، وكأن النصوص إنما جاءت لصالح الرجل دون المرأة، وحتى كان الاعتقاد في صحة التشدد والجمود في التعامل مع قضية المرأة، وتهميش دورها في المجتمع، فضيق أمراً كان متسعاً، ورأى أن السلامة في التعنت والتعسف في النظر إلى النص وإخضاع النص للواقع مما جعل المرأة مكبلة بالأغلال والقيود.

ومن العجيب أن يعتقد أنصار هذا المسلك فيه النجاة، وأن فيه الحفاظ على المرأة، غافلاً عما نتج عنه من تشويش على التعاليم الأصلية، وتعطيل لدور جدير بإفساح المجال له، والحرص على تنميته بدلاً من حصار المرأة وجعلها تنسحب رويداً رويداً، عن واقع المجتمع الإسلامي، حتى ترسخت هذه التقاليد من عصر إلى عصر، مما ألزم المرأة أن تقبع في منزلها، وأن تحرم من حق التعليم والمشاركة، وأن تكون فريسة للمظالم وأن تهضم حقوقها الشرعية والحياتية، لا تفقه من دينها وأمر دنياها شيئاً، وتعيش في جهالة عمياء بمنأى عن فقه الشرع والحياة.

ولا عجب في مثل هذه الأجواء، وذلك الانحراف عن تعاليم الإسلام الصحيحة أن تكون المرأة المسلمة عنواناً على التخلف، لا تدرك من أمر حياتها شيئاً، وتظل كذلك جيلاً بعد جيل حتى صار حالها إلى ذلك الوضع المزري الذي يُغَيِّب تعاليم الشرع، ويُعَوِّق نهضة المجتمع، وأفسح الطريق أمام من يريد استغلالها، ودغدغة مشاعرها للدفع بها في سوق الحريم والجواري، وإطلاق العنان لابتزازها في عالم الحس والنزوات لطلاب المتعة، من دعاة التحرر والانفلات، من أبواق الفكر الغربي، الذين يتحللون من قيم الأديان، ولا يحترمون قدسية العفة وإنسانية المرأة.

(٣) الفقر والحصار الاجتماعي

تعاني المرأة بحكم التركيبة السكانية في المجتمع الإسلامي ألواناً من الفقر والفاقة، تعطي لذوي النفوس المريضة، والأغراض الشريرة الفرصة لإخضاعها، حيث لا موردا اقتصاديا أو ماليا يصونها من التحكم فيها، ويكفل لها الاستقلال في التفكير والتصرف، بما يتيح لها القدرة على القيام بالدور المسئول المراد لها أن تضطلع به في المجتمع.

ولاشك أن الفقر قد يشكل مأساة للمرأة، عبر عنه حديث الرسول ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً»(٧) فقد أسهمت الظروف والأوضاع التي جلبها الركود العقلي، والتراجع الحضاري الذي حل بالأمة، إلى إفقار المرأة وحرمانها من كسب الموارد الذاتية والوسائل المعيشية التي تفي باحتياجاتها، وتصون كرامتها وتعبد لها الطريق للمشاركة في نهضة المجتمع، وتحقيق ذاتها، والكشف عن قدراتها وإمكانياتها التي يتأتى لها أن تشارك بها في المجالات المتنوعة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

وقد أتبع ذلك الأمر تبعية المرأة المطلقة للرجل، وتهميش دورها وانتقاص إنسانيتها في عصور الانحطاط الحضاري، حتى صارت كماً مهملاً وعالة على الرجل تعيش في كنفه، وتدور في فلكه، وتتبعه كظله أينما سار، لاوزن لرأيها، ولا دور ملموساً لها في الحياة، وذلك بسبب فقرها واعتمادها المعيشي عليه.

وقد استمرأ العديد من الرجال هذا الوضع، فأحكموا السيطرة على المرأة، وعلى مواردها المالية، وحاصروها اقتصاديا، بكل ما تبع ذلك من مفاسد وتجاوزات، مع مخالفة ذلك للشرع، من حيث حق المرأة في حماية خصوصياتها، وتأكيد ذاتها، وتمكينها من حق الاكتساب والعمل، وامتلاك الثروة والمال، فإن مصادرة حقها في ذلك قد يجلب لها المآسي والهوان، تلك الحالة التي أوجدت المرأة في بؤس وفقر ذمه الإسلام كما روى عن الصحابي أبو ذر: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»(٨) وهو تصوير لحجم المهانة، وعظم المذلة والمعاناة التي قد تحمل الشريفات العفيفات على السقوط في بئر الانحراف.

وفي السياق ذاته نجد أن الإسلام لم يقف ضد عمل المرأة أو يقاوم طموحها في طلب الغنى والعزة بالمال والعمل

(٧) الجامع الصغير للسيوطي، ج٢، ص٨٩.

(٨) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر، ص١٦.

النافع، متى توفر لها العزم والإرادة لتحقيق ذلك، ونموذج ذلك أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - فقد كانت من ذوى اليسار وصاحبة تجارة وثراء، ساهمت به فى نصرة الدعوة الإسلامية وفى نهضة الجماعة المسلمة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك الإفقار بالحرمان من الكسب يحرم المرأة من أن يكون لها حق التمتع بالذمة المالية المستقلة الذى يجعل المال الذى اكتسبته أو حصلت عليه بطريق آخر كالميراث أو الوصية أو الهبة ملكًا خاصًا لها دون الرجل، تتصرف وحدها بأوجه التصرفات الشرعية، بلا تدخل أو إملاء من الرجل منشؤه حق الملكية الخاصة لها ووجب تمتعها بهذا الحق.

ومن الأهمية بمكان التنبيه على هذا الواقع فى المجتمع الإسلامى الذى يناقض نصوصا قطعية، فقد دأب بعض الرجال على مصادرة حق المرأة فى التملك، وحرمانها من سبل الكسب والحصول على المال، حتى اعتبر بعضهم أن تمتعها بحق العمل والملكية يعد انتقاصًا من حقه، وإخلالا برجولته. وهذا الفكر فى الهيمنة من جانب الرجل على المرأة لا يتفق مع حقائق الشرع، ولا يستند إلى الفهم السديد، ويجدر أن نشير إلى أن ذلك الاستبداد والحصار للنساء يتصادم مع مبدأ الاستقلالية التى أرساها الإسلام لها، فجعل من استحقاقات المرأة الاحتفاظ باسمها مستقلة عن زوجها، فلا تنسب إليه، وإنما تنسب إلى أبيها وعائلتها، فليس سائغا فى النظر الإسلامى، أن نطبق ما يسير عليه النظام الغربى فى نسبة المرأة إلى زوجها دون اسم أبيها، أو تدفع مهرا له، أو أن يؤخذ بنظام الثروة المشتركة. وينبغى أن يكون معلومًا أن استقلال المرأة، وتمتعها بالشخصية المستقلة عن الرجل، واكتسابها للحقوق المادية والمعنوية، مما لا يجوز إثارة الجدل حوله أو التشكيك فيه، فإن ذلك من شؤون المعاش، والأسرة فيه خير من الأثرة، ولا يجوز الافتئات على حق المرأة، أو الانتقاص من تلك الحقوق تحت ذريعة أنها أنثى.

فإن من يعتنق مثل هذا الفكر ويسير فى ذلك المسار، يعارض قول الحق تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

وفى ضوء هذه الحقيقة، فإنه يثبت للمرأة الحق فى التملك والتمتع بالحقوق الإنسانية، والمالية الأخرى تجاه الرجل أيًا كان أبًا أو زوجًا أو أخًا، وهى شهادة حق ودليل على إنصاف المرأة، واستقلالها عن الرجل، وضمانة لتمتعها بالعضوية الكاملة، والمواطنة الحقة فى المجتمع.

ومهما كان أمر هذه الصعاب، وتلك المعوقات فى طريق المرأة، فلن تمنعها من الاضطلاع بالمهام والمسئوليات التى تصلح لها، وتقدر على القيام بها.

«يتبع»

المنارة الهادية!

الأزهر الشريف وتحقيق التراث العربى الإسلامى



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب - جامعة المنوفية

مدخل: الأزهر الشريف والتطبيق الحى للمؤسسة النبوية الأولى!

آل موقع الأزهر الشريف بعد فترة من إنشائه إلى أن يستقر مؤسسة حية تمثلت النموذج النبوى الراشد الذى حكم مؤسسة المسجد فى التصور النبوى ليكون دار عبادة تربط بين الأرض والسماء، ومعهد علم يقود نهضة الأمة، ومؤسسة تدعم حقوق الناس اجتماعيا وسياسيا.

واستقر فى الضمير الإسلامى النظر إلى الأزهر الشريف على أنه العين الساهرة على حفظ الإسلام، ورعاية شئونه.

ومنذ هذا الذى استقر فى الضمير الإسلامى وورثه الوعى المعاصر وإحدى الوظائف الكبرى التى يضطلع بها هذا الجامع العريق ظاهرة فى حفظ التراث الإسلامى، وصيانته، وخدمته.

وليس من شك فى أن تحقيق التراث، ونشره متقنا مصححا ومضبوطا مندرج تحت هذه الوظيفة المركزية للأزهر الشريف.

والأزهر الشريف إذ يقوم بهذا العبء يضرب المثل للتطبيق الحى والإيجابى لمفهوم حفظ الإسلام، ورعايته، وصيانة مبادئه. وهو بعض المستقر فى قانونه ؛ذلك أن الأزهر هو: "الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى، وتجليته ونشره... وتهتم ببعث الحضارة العربية الإسلامية... وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن الكريم، على ما جاء فى المادة الثانية من القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر، وعلى ما جاء فيما جلاه الدكتور محمد سليم العوا فى كتابه: أزمة المؤسسة الدينية «دار الشروق القاهرة ٢٠٠٣م ص١٤».

وهو ما أكدته وثيقة الأزهر الشريف حول مستقبل مصر عندما قرر أن الأزهر هو المنارة الهادية التى يستضاء بها فى إحياء مختلف العلوم الطبيعية والآداب والفنون بتنوعاتها الخصبة، على ماجاء فى البعد السادس من هذه الوثيقة.

وهو ما جاء في مقترن قانون الأزهر الجديد سنة ٢٠١٢م في المادة الثانية أيضا.

لم يكن ذلك الذي ظهر في الوعي المعاصر فيما يتعلق بدور الأزهر الشريف إلا حصادا لتراكم تاريخي ممتد للوعي الإسلامي بطبيعة دور المسجد بما هو أهم مؤسسة حضارية في تاريخ التصور الإسلامي للمؤسسات الحضارية.

الأزهر الشريف في مقدمة طلائع الإحياء الحديث في ميدان خدمة التراث الفكري للأمة

وإذا كان ظهور المطبعة في مصر واحدا من أشهر العوامل التي يرصدها التناول المدرسي في باب عوامل نهضة مصر الحديثة، وأسباب تجاوزها لمراحل التراجع الحضاري، فإن التاريخ في هذا الباب تعيينا يقرر أن مطبعة بولاق كانت البداية المنيرة للعناية بتراث الأمة العربي والإسلامي ابتداء من سنة ١٨٢٢م .وهو الأمر الذي يقوله الدكتور/ محمود الطناحي رحمه الله تعالى في كتابه :مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي «مكتبة الخانجي القاهرة١٤٠٥هـ-١٩٨٤م ص ٣١»: "ولم يظهر الوجه العربي الإسلامي للطباعة إلا في مطبعة بولاق بمصر، لقد كان إنشاء هذه المطبعة في مصر صيحة مدوية أيقظت الغافلين، ومركز ضوء باهر هدى الحائرين، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربي الإسلامي كأنها السيل".

، لعله من المنطقي أن يثور السؤال عن السر وراء هذا الوجه المشرق الذي دفع إلى العناية بالتراث الفكري للأمة العربية الإسلامية ولعله من المنطقي أن يبحث الباحثون عن إجابة هذا السؤال لدى الأزهر الشريف، وهو ما كان، لتجئ الإجابة لتقرر: "أن الأزهر كان موجه الكثير من نشاط مطبعة بولاق، ومهيمنا عليه".

وهو الأمر الذي قرره كثير من الذين أرخوا لهذه البدايات من أمثال الدكتور محمود الطناحي والأستاذ عبد السلام هارون في التراث العربي والدكتور رمضان عبد التواب في مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، ومحمود شاكر في أباطيل وأسمار وفي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا.

وقد تنوعت جهود الأزهر الشريف في دفع حركة خدمة التراث الإسلامي والعربي، وسارت في مسارات متعددة، يمكن إجمالها فيما يلي:

● أولاً: وفرة المحررين الأزهريين المدربين.
● ثانيًا: وفرة المصححين الأزهريين المهرة.
● ثالثًا: وفرة المطبوعات الإسلامية والعربية المتقنة.

وفي هذا السياق يقول الدكتور الطناحي في المدخل إلى نشر التراث العربي (٣٨): "كان محررو المطبعة من الطلبة الأزهريين الذين دربوا تدريبا خاصا.. ثم كان إسناد رئاسة تصحيح مطبعة بولاق إلى الشيخ نصر الهوريني الأزهري الشافعي آية كبرى على هيمنة الأزهر على هذه المطبعة الكبيرة".

ولم يكن هذا الرجل وحيدا في هذا الميدان، ولكن يذكر معه الشيخ محمد بن عبد الرحمن المعروف بقطة العدوي رحمه الله تعالى.

ولم تتوقف ريادة الدور الأزهري عند حدود المطبعة الأميرية، أو مطبعة بولاق، لكنه نما وهيمن على عمل المطابع الأهلية أو الخاصة التي أسهمت في نبوغ عدد من المصححين الأزهريين نذكر منهم:

١-الشيخ عبد الغني محمود الأزهري.
٢-الشيخ محمد هارون، والد عبد السلام هارون.
٣-الشيخ حمدي إبراهيم.

والحق قاض أن نقرر أن التصحيح الذي نبغ فيه هؤلاء وغيرهم لم يكن بمعنى التدقيق اللغوي، فقط، وإنما كان أقرب إلى التحقيق الذي تمت مناهجه واستقرت فيما بعد، وهو مايعني أن مصطلح التصحيح الذي نطالعه في نهايات صفحات هذه الكتب التي خرجت من بولاق ومن غيرها من المطابع الأهلية على أيدي هؤلاء العلماء الكبار كان البداية الحقيقة لما استقر فنا وعلما له أصوله وقواعده عرف باسم تحقيق التراث ولنا على ذلك عدد من الأدلة، هي:

أ-ظهور آثار المقابلات بين النسخ، وإثباتها على هوامش الكتب المطبوعة.

ب- التقديم بين يدي عدد كبير من هذه الكتب بمقدمات تتضمن:


عبد السلام هارون

١- بيانا كاشفا عن فنها، وموضوعاتها، ومميزاتها.
٢-ترجمة مبينة للمؤلف صاحب الكتاب. كما تضمنت هذه الكتب ما يلي:
٣- التعليق على عدد من المعلومات التي يتضمنها متن هذه الكتب.
٤- تخريج بعض النقول، والشواهد.

وهذه الأربعة جميعا هي بإجماع من لوازم عمل المحققين المستقرة في أصول هذا الفن

ج- تطور مواقع عدد كبير من المصححين بهذا المعنى ليكونوا من أئمة المحققين بالمعنى الاصطلاحي العلمي المستقر، من أمثال المحقق الكبير الدكتور محمود الطناحي رحمه الله تعالى ومحمود شاكر وعبد السلام هارون، أنهما قليلا ما يذكر الدارسون أنهما عملا فترة في التصحيح.

ومن الجدير بالذكر أن نقرر أن ثمة أثرا إيجابيا يحسب للأزهر الشريف يتمثل في الإسهام الذي قام به كثير من علماء الأزهر الذين انضموا إلى دار العلوم، ونهضوا بمجال خدمة التراث فيها، ابتداء من المرصفي، حسن بن علي المرصفي- رحمه الله تعالى-.

الأزهر الشريف يؤسس لعلم تحقيق التراث
من خلال ريادة المحققين العظام من أبنائه في العصر الحديث

إن مراجعة مرحلة النبوغ والنباهة في مجال تحقيق النصوص التراثية تثبت أن الأزهر الشريف اضطلع بنصيب وافر في دعم هذه المرحلة، بدرجة واضحة تتناسب مع منزلته، ومثلما ظهرت ريادته وهيمنته في مرحلة البدايات الأولى، امتدت واستمرت علامات هيمنته في المرحلة التالية التي سيطر عليها ووجه أصولها كل من:

أ- أحمد محمد شاكر.

ب-عبد السلام محمد هارون.

ج- السيد أحمد صقر.

وهؤلاء الثلاثة الأعلام أزهريون نضج على أيديهم علم تحقيق التراث، واستقرت أصوله، وقواعده، وأخرجوا للنور عيونا من كتب التراث في العلوم الإسلامية والعربية جميعا، هي بلا مبالغة من أصول العلم التي يتأسس عليها العلم العربي والإسلامي من مثل: المسند للإمام أحمد، وتفسير الطبري، وأسباب النزول للواحدي، والبيان والتبيين للجاحظ، وغيرها مما هو معروف في هذا الباب.

وإسهام هؤلاء الإعلام من الذين أسسوا لأصول هذا الميدان ظاهر جدا في علامتين هما:

● أولاً: وفرة ما أخرجوه محققا من عيون التراث العربي الإسلامي وهذه الوفرة يحيط بها من علامات الجودة:

أ- التنوع المعرفي، تفسيرا وحديثا وعقيدة ولغة وشعراً إلخ.

ب-القيمة المعرفية؛ ذلك أنهم عنوا بأصول الكتب، أو ما يعرف بالأمهات في المجالات المختلفة.

ج- الكثرة والامتداد.

● ثانيا: التأصيل العلمي لفن تحقيق التراث، ومسائله؛ فقد كتب عبد السلام هارون كتابه: تحقيق النصوص ونشرها، وهو كتاب تأسيس في هذا المجال، وكتابه التراث العربي، وهو كاشف عن عدد من المسائل المهمة في بابه.

كما كتب أحمد شاكر كتابه: تصحيح الكتب، وصنع الفهارس وكيفية ضبط الكتاب، وهو الذي اعتنى به وعلق عليه العالم والأستاذ عبدالفتاح أبوغدة.

● ثالثًا: المتابعة النقدية لأعمال المحققين

وهذه السمة الثالثة هنا من آكد ما يدعم إسهامهم الرائد في ميدان تحقيق التراث؛ وقد ترك العلماء الثلاثة رصيدا وافرا من المراجعات النقدية الرصينة للأعمال التي حققت وظهر، وتناولت مراجعتهم النقدية تلك:

١-تصحيح النصوص، وبيان ما أصابها من تحريفات وتصحيفات.

٢-تصحيح نسبة عدد من الكتب والشواهد إلى أصحابها بعد أن خرج كثير منها منسوبا إلى غير صاحبه.

٣- الكشف عن كثير من الأعلام المجهولة في الأعمال التي خرجت على أيدي غيرهم.

وهو الأمر الذي يحتاج إلى قدر من العناية والفحص ولاسيما أن هذه الجهود النقدية للتراث العربي مجموعة في مثل كتاب: قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي في تحقيق التراث، للأستاذ عبدالسلام هارون رحمه الله.

الأزهر وتحقيق التراث اليوم ومثال غير أخير لريادته

وما زال الأزهر أعرق مؤسسة علمية ترعى تحقيق نصوص التراث الإسلامي والعربي المتنوع الذي يغطي خريطته العلمية جميعا.

والأدلة على ذلك متوافرة في هذا العدد الهائل من الكتب التي يعنى بها أبناؤه ويعتمدونها في رسائلهم لدرجتي الماجستير «التخصص» والدكتوراه «العالمية»، وهو ما يؤذن باستمرار هيمنة المؤسسة الأزهرية على توجيه أعمال تحقيق التراث الإسلامي ونشره.

ويقف الدكتور النبوي شعلان مثالا فريدا فذا في هذا السياق على الدور الممتد المستمر منذ البدايات كما رأينا ـ لعناية الأزهر الشريف بالتراث العربي الإسلامي تحقيقا ونشرا.

وهذا الحكم بفرادة الدكتور النبوي شعلان بما هو محقق من كبار المحققين الذين أنجبهم الأزهر الشريف مدعوم بعدد من العلامات هي:

● أولاً: عكوفه الدائم في شبه انقطاع على تحقيق التراث ولاسيما التراث الشعري، والنقدي، وهو باب خطير مؤثر في الدراسات العربية كلها تفسيرا وحديثا وأصولا ولغة.


محمود شاكر

● ثانيا: كثرة تحقيقاته، وتنوعها.

● ثالثا: علو تحقيقاته، وإتقانها.

● رابعا: عنايته بالمراجعات النقدية للتحقيقات السابقة.

● خامسا: وراثة أعلام كبار يدين لهم بالتأثير فيه من أمثال: محمود شاكر -رحمه الله تعالى-.

سادسا- إسهامه في تأسيس أول مركز يعنى بتحقيق التراث الإسلامي في جامعة الأزهر الشريف.

إن فحص منزلة الأزهر الشريف السامية لا يصح أن تقف عند حدود ما يرصده المؤرخون من ملامح ما قدمه للحياة العربية والإسلامية على امتداد تاريخه العريق، ولكن فحص منزلته ودوره ينبغي أن تنطلق ابتداء من واجبه الأول الذي استقر في الضمير الإسلامي والعربي أنه لصيانة الفكرة الإسلامية، وصيانة تراث هذه الفكرة، وهو ما رأينا أماراته في المراحل جميعا، في مرحلة البدء التي هيمن فيها رجاله على حركة النشر وتصحيحه، وفي المراحل التي تلت زمان البداية الحديثة تأسيسا وإنضاجا وإحكاما في ميدان تحقيق التراث الإسلامي والعربي.

وما يزال الأزهر، وسيظل، بما يخرجه للأمة من أعلام المحققين المنتمين ـ المنارة الهادية التي تنير الطريق للحياة في دروبها المختلفة.

من عيون التراث

التعريف بالمؤلف:

هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، ولد عام (٥٦٠ هـ) بمدينة مرسية بشرق الأندلس، وتوفي عام (٦٣٨ هـ) بمدينة دمشق، له من المؤلفات ما ينيف عن خمسمائة مؤلف بين رسالة وكتاب، لم يبق منها بخط يده إلا القليل منها، الفتوحات المكية. اعتبره فلاسفة الغرب والشرق من أكبر فلاسفة الإسلام ولقبه الأولياء وأهل العرفان بـ «سلطان العارفين وشيخ المحققين»..

رسالة روح القدس في محاسبة النفس

تأليف

الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربي

جمع

محمود محمود الغراب

دمشق: مطبعة نضر، ١٩٩٤م، الطبعة الثانية

عرض الكتاب:

كتبت هذه الرسالة لأخ في الله وصديق للشيخ الأكبر ابن العربي يدعى «أبو محمد عبدالعزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي» كان يعيش في تونس، يخاطب الشيخ الأكبر «محيي الدين بن العربي» صديقه بصورة مباشرة على امتداد الرسالة، التي تتضمن حواراً بين الشيخ ونفسه يتضمن الحوار حكايات عن سلوك الأولياء الذين اجتمع بهم بالجسم أو بالروح، أو الأولياء الذين رويت قصة حياتهم من قبل شهود ثقات قصد الشيخ بهذه الأمثلة تعليم النفس التي تشعر بالتقصير مقارنة بهؤلاء الأولياء.

يخبر الشيخ صديقه بأنه قد أمر بتقديم النصيحة، ويشرح المؤلف كلمات «ابن العربي» ذاته في كتاب المبشرات أنه قد أمر بالنصح العام كما جاء في الحديث النبوي، وأنه أمر بأمر مباشر من الله في مكة ودمشق، وكانت محاولاته الأولى في النصح تُجرى دون أن يعزوها لنفسه، إذ كان يعتقد أن المقصود هو أن ينتفع الناس وفق مقاييسهم، سواء علموا أم لم يعلموا من هو المؤلف، ولكن عندما نُسبت هذه الأعمال إلى «الغزالي» الذي تلقى السباب بسببها من النقاد، شعر «ابن العربي» بضرورة أن يصرح بتأليفه.

وقد أشار «ابن العربي» (ص٢٣) إلى النفس بأنها الصفات التي جبل عليها الإنسان والتي لا تتبدل، فهي ذاتية في النشأة

والمزاج الخاص، من الجبن والشح والحسد والحرص والغلظة وطلب القهر، فهي صفات لازمة للنفس في أصل خلقتها لا تنفك عنها ويشير هذا التعريف إلى سمات الشخصية Personality Traits.

وتشمل الرسالة ثلاثة أقسام رئيسة:

● القسم الأول: الدروس المستفادة من أحوال ومقامات الأولياء الذين عاشوا قبل زمن الشيخ «كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب مثلاً، بالاضافة إلى بعض الأولياء الآخرين مثل أويس القرني» وذلك من (ص٢٨ - ٦٥).

● القسم الثاني: يتناول الأولياء وأهل طريق الله الذين قابلهم الشيخ في حياته، مثل «أبو جعفر أحمد العريبي، أبو الحجاج يوسف الشبربلي، صالح الخراز» وغيرهم، وذلك من (ص٦٥ - ١٣٣) وفي سياق تناول الشيخ للفكرة الثانية تحدث عن الذكي وغير الذكي على لسان القاضي «عبدالوهاب الأزدي أحد أهل طريق الله الذين قابلهم الشيخ ابن العربي، فقال: الناس على قسمين ذكي وغير ذكي، فغير الذكي لا كلام معه لنقصه، وهو يأتي للعالم فيأخذ منه العلم تقليداً، لعدم ذكائه وفطنته، والذكي الغالب عليه الإصابة في عموم أحواله، وهذا لا يقنع في الأشياء إلا بالبراهين من نفسه لذكائه. وفي هذا إشارة إلى مفهوم الذكاء Intelligence من حيث الوصف اللفظي لمظاهر السلوك الذكي.

● القسم الثالث: تتضمن وصف النعم التي منحها الله لوليه، والشكر المناسب لها، والواجب عليه لله، تتمثل هذه النعم في:

- نعمة الإيجاد من العدم.
- ونعمة الإيجاد نامياً متغذياً وليس جماداً.
- ونعمة النقل من عالم النبات إلى عالم الحيوان.
- ونعمة النطق والتفضيل على الحيوان، وسر الألوهية والعبودية في الإنسان.
- ونعمة التوكل والتوبة والطهارة.
- ونعمة إدراك أنه «لا إله إلا الله».
- ونعمة الإيمان بالنبي ﷺ.
- ونعمة جعلك من أهل السنة.
- ونعمة جعلك طائعاً عارفاً وارثاً.

الخلاصة:

ورد في هذا الرسالة الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- سمات الشخصية Personality Traits
- الذكاء Intelligence.

القائم بالعرض

د. أمنية الشناوي

ضياع الأمانة هلاك للدولة





الشيخ/ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الأحزاب: ٧٢)

جاء الإسلام بأركانه وفرائضه، وأحكامه وتعاليمه، وأخلاقه وفضائله، وتوجيهاته وإرشاداته ليجعل من المسلم صاحب ضمير حي يقظ، يراقب الله في كل حركاته وسكناته، وأفعاله وأقواله، وسلوكه وتصرفاته، وبذلك تُصان حقوق الله وحقوق الناس، ويكون ضمير المسلم حارسًا أمينًا عليه يحميه من التفريط والإهمال، ومن التجاوز في الأفعال والأقوال.

ومن أجل تحقيق هذه الغايات والأهداف أوجب الإسلام أن يكون المسلم أمينًا.

إن أشق وأثقل وأضخم وأعظم التكاليف التي حملها الإنسان الأمانة، لقد بين الله - عز وجل - في هذه الآية الكريمة ضخامة التبعة والمسئولية التي حملها الإنسان من التكاليف والفرائض الشرعية التي كلف الله بها عباده: من إخلاص في العبادة، ومن أداء للطاعات، ومن مجانبة للمحرمات، ومن محافظة على آداب هذا الدين وتعاليمه وأخلاقه وشعائره وفرائضه وسننه، والتي عبر عنها - سبحانه - في الآية الكريمة بالأمانة.. فهذه التكاليف بجميع أنواعها وصورها: العقائدية والجسدية والمالية والسلوكية حقوق أمرنا الله برعايتها وتنفيذها، وأتمننا على أدائها كما طلبها الله عندما قبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها عند عرضها عليها لثقلها وضخامتها ومشقتها، وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير في أداء ما كلفن بأدائه - فالإباء هنا ليس إباء معصية ولكنه إباء خوف من ثقلها وتحمل تبعاتها.

وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة، إلا أن بعض جنس الإنسان لم يلتزموا بأداء ما كلفهم الله - تعالى - بأدائه على الوجه الذى طلبه الله وأمرنا به، فظلموا أنفسهم بخيانتهم هذه الأمانة، فالإنسان إذن مطالب بأداء هذه الأمانة أيًا كان موضعها وأيًا كان نوعها، ومسئول عن التقصير في أدائها.

والذى نشاهده من سلوك كثير من الناس أنهم فسروا الأمانة وقصروها على: رد الودائع التى يؤتمنون عليها، مع أن تفسير الأمانة وقصرها على هذا المعنى يعتبر إهمالاً جسيمًا وبعدًا شاسعًا عن معانيها وصورها المتنوعة والمتعددة في جميع التكاليف والفرائض والسنن قولا وفعلا وسلوكًا.

إن المجالات التى تدخل فيها الأمانة كثيرة ومتعددة.. منها: الدين، والأعراض، والأموال، والأجسام، والأرواح، والمعارف، والعلوم، والولاية، والوصاية، والشهادة، والقضاء، والكتابة، والقسم، وأداء اليمين، ونقل الأحاديث، والأسرار، والرسائل، والسمع، والبصر، وسائر الحواس.. ولكل مجال من هذه المجالات شرح وتوضيح يناسبه.

يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله -:

«والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهى ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه، على النحو الذى فصله الحديث الكريم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسئول عن رعيته»[1].

قال ابن عمر - راوى الحديث - سمعت هؤلاء من النبى ﷺ، وأحسبه قال: «الرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسئول عن رعيته».

والعوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيبا، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

إنها الفريضة التى يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها.. حتى إنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر، يقول له أخوه: استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»[2].

وعن أنس قال: «ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[3].

ولما كانت السعادة القصوى أن يُوقى الإنسان شقاء العيش في الدنيا وسوء المنقلب في الأخرى، فإن رسول الله جمع في استعاذته بين الحالين معا إذ قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع،

(١) البخارى. (٢) الترمذى. (٣) أحمد. (٤) أبو داود. (٥) كتاب «خلق المسلم».

وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة»[٤].. فالجوع ضياع الدنيا والخيانة ضياع الدين.

وكان رسول الله ﷺ في حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه بالأمين[٥].. إن من معاني الأمانة: الالتزام التام بدقة المعايير، ومطابقة الشروط، ومراعاة الصالح العام عند اختيار الأشخاص الذين تُسند إليهم مناصب عامة في الدولة، فيتحتم عند اختيارهم: أن تنحى الأهواء الشخصية، وأن تستبعد المجاملات الاجتماعية، وأن تجنب الميول إلى ذوى القربى، وأن تغلق أبواب الرشوة والمحسوبية، وأن يقطع دابر الشفاعات المغرضة، فلا يختار لشغل المكان إلا الشخص المناسب له، الجدير بمثله، الكفء في إدارته، الملتزم بمراعاة أداء الأمانة فيه.

فما أضاع الدول، ولا قضى على الأمم، ولا عانت الشعوب من القهر والاستبداد، ومن الظلم والطغيان، ومن الفقر والحرمان.. إلا عندما طبق الحكام عند اختيار الأشخاص الذين يتولون المناصب العامة قاعدة: «أهل الثقة مقدمون على أهل الخبرة».

واعتبار الولايات والمناصب العامة أمانات يسأل عنها الحكام أمام الله ثابت ومعلوم من الدين بالضرورة فالإمام راع ومسئول عن رعيته، فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَنْ أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٦].

فظاهر وواضح أن أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ لما طلب الولاية لم يره رسول الله ﷺ وسلم جلدا ومناسبا لها رغم مكانة أبي ذر وعلمه ومنزلته وقربه من مجالس رسول الله ﷺ، ومعنى ذلك أن الأمانة تقتضي أن نصطفي للأعمال ونختار لها أحسن الناس قياما بها، وأداء بواجباتها، فإذا مِلْنا عنه إلى غيره ـ لهوى أو قرابة أو رشوة أو تعصبا لحزب أو جماعة أو مجاملة أو كرها وبغضا للأصلح، أو غير ذلك من الأسباب الفاسدة ـ فقد ارتكبنا بتنحية الكفء الصالح، وتولية العاجز خيانة فادحة، حسابها وعقابها عند الله عسير.

قال رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[٧].

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلاً حتى يدخله جهنم»[٨].

(٦) مسلم. (٧) الحاكم. (٨) الحاكم

والأمة التي لا أمانة فيها، هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات والمجاملات والأهواء بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم وتقدم دونهم الجهلاء والمنافقين.. وقد أرشدت السنة النبوية إلى أن هذا من مظاهر الفساد الذي سوف يقع آخر الزمان، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النبي (ﷺ) في مجلس يحدث القوم جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله (ﷺ) يحدث.. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع.. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين أراه السائل عن الساعة؟»، قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٩].

كما أن من معاني الأمانة ـ التي أهملها بل وأغفلها كثير من الناس ـ أن يحرص الإنسان على أداء واجباته الكاملة في كل عمل يسند إليه، وأن يبذل جهده في إنجازه وإتمامه على أحسن وجه وفي أتم صورة، وأن يعمل على قضاء مصالح الناس التي وضعها الله أمانة بين يديه، وأن يراقب الله عند اتخاذ أي قرار يأمر به أو يوقعه، فلا يحابي قريبا، أو يجامل صديقا، أو يسلب حقا، أو يمنع عدلاً، أو يتقاضى مالاً عن طريق الرشوة أو عن طريق التحايل واستغلال السلطة، أو عن أداء أعمال وهمية لم يزاولها ولم يشارك فيها، بل ولا يعرف عنها شيئا، مستغلا منصبه الوظيفي، وما أكثر هؤلاء!! الذين غرتهم الدنيا فنسوا الله، ونسوا الموت، ونسوا البعث، ونسوا الحساب والجزاء.

إن أعظم خيانة للأمانة أن يتولى إنسان أمور الناس فيهملها وينام عنها حتى يضيعها، كما أن الاستيلاء على المال العام دون وجه حق، والتربح منه بالطرق الملتوية هو مال سحت، قال رسول الله ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»[١٠]، لأنه اختلاس من مال الأمة الذي يُنفق منه في حقوق الضعفاء والفقراء، ويُرصد للإنفاق على المصالح والخدمات العامة، يقول الله تعالى:

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ١٦١)

أما الإنسان الذي يلتزم حدود الله في وظيفته، ويراقب الله في عمله، ويخشى الله في أقواله وتصرفاته، فيؤديها بأمانة، ويأنف من خيانة الواجب الذي كلف به، فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته، قال رسول الله (ﷺ): «العامل إذا استعمل فأخذ الحق، وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»[١١].

(٩) البخاري. (١٠) أبو داود. (١١) الطبراني

قراءة في كتاب

محب الدين الخطيب

الخطوط العريضة

للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية

المكتبة السلفية

بقلم: عادل خفاجة

إن الاتفاق على ضرورة السعي إلى وحدة الأمة ولم شمل الطوائف الإسلامية أمر مفروغ منه، التزاما لأمر الله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

من أجل ذلك نهض المصلحون إلى لم شمل الأمة فنشأت فكرة "التقريب بين المذاهب" غير أن هذه الفكرة كما وجدت لها الكثير من المؤيدين الذين يرون أن التقارب يغلق باب الفتنة - وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت شيخ الأزهر -، وجدت أيضا الكثير من المعارضين، بل الذين يرون استحالة ذلك ومنهم الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب صاحب هذا الكتاب: "الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية".

الهدف من تأليف الكتاب:

أورد الأستاذ محمد نصيف ناشر الكتاب أن المؤلف قام بهذه الدراسة من أمهات كتب الشيعة لتحري وسائل التقريب فيها، وقد تبين له استحالة ذلك؛ لأن واضعي أسس الدين الشيعي لم يتركوا في أصولهم وسيلة لهذا التقريب بعد أن أقاموه على دعائم منافية لما جاء به النبي ﷺ.

ثم يقول: ولما كانت النقول التي وردت في هذه الدراسة مأخوذة من الكتب المعتمدة عند الطائفة الإمامية الاثني عشرية، ومدلول عليها بأرقام صفحاتها، وبيان طبعات الكتب المأخوذة منها ولا يستطيع أن يماري فيها أحد، لذلك رأينا أن نضعها أمام أنظار الناس

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الأنفال / ٤٢

مؤلف الكتاب:

هو محب الدين بن أبي الفتح محمد ابن عبد القادر بن صالح الخطيب، ولد بدمشق سنة ١٨٨٦ يتصل نسبه بعبد القادر الجيلاني الحسني: من كبار الكتاب الإسلاميين. ولد في دمشق، وتعلم بها والآستانة وشارك سنة ١٣٢٤هـ في إنشاء جمعية بدمشق سميت "النهضة العربية" وكان من أعضائها الدكتور صالح الدين القاسمي. ورحل إلى صنعاء فترجم عن التركية وعمل في بعض مدارسها. ولما أعلن الدستور العثماني (١٩٠٨) عاد إلى دمشق. ثم زار الآستانة ومنها قصد القاهرة (١٩٠٩) فعمل في تحرير المؤيد، وانتدبته إحدى الجمعيات العربية في أوائل الحرب العالمية الأولى، للاتصال بأمراء العرب فاعتقله الإنجليز في البصرة سبعة أشهر.

وأعلنت في مكة الثورة العربية (١٩١٦) فقصدها وحرر جريدة "القبلة" وحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابيا، ولما جلا العثمانيون عن دمشق، عاد إليها (١٩١٨) وتولى إدارة جريدة العاصمة، ثم عاد إلى القاهرة وعمل محررا في الأهرام.

وأصدر مجلتيه "الزهراء" و"الفتح" وكان من أوائل مؤسسي "جمعية الشبان المسلمين".

وتولى تحرير "مجلة الأزهر" ست سنوات، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها، فأشرف على نشر عدد كبير من كتب التراث وغيرها، ونشر من تأليفه:

"اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب"، و"تاريخ مدينة الزهراء بالأندلس"، و"ذكرى موقعة حطين"، و"الأزهر، ماضيه وحاضره والحاجة إلى إصلاحه"، و"الرعيل الأول في الإسلام"، و"الحديقة" مجموعة كبيرة في أجزاء صغيرة، أصدر منها ١٣ جزءا.

الكتاب:

يقع الكتاب في ثلاث وستين صفحة من القطع المتوسط ويضم مقدمة وعددا من الأبواب التي حشدها المؤلف ليبرهن على استحالة التقارب بين أهل المذهب السني وبين أهل مذهب الشيعة الاثني عشرية وهذه الأبواب هي:

الفقه الإسلامي، مسألة التقية، الطعن في القرآن الكريم، كذبهم على علي كرم الله وجهه، فرحة المبشرين، رأيهم في الحكام، الحقد على أبي بكر وعمر، تعظيم قاتل عمر، عقدة الحكم، من التشيع للشيوعية، الرغبة في التدمير والانتقام، عقيدة الرجعة، تفكيرهم لم يتغير، التحايل على التاريخ الثابت، الغيب للأئمة!! منزلة الأئمة فوق الرسول، خيانات العلقمي وابن أبي الحديد، النجاة لا تكون إلا بولاية آل البيت، الشيعة تخالف المسلمين في الأصول وليس فقط في الفروع، انشقاق النصيرية، حكاية الباب والسرداب، ولاء المسلمين، الحب والمودة بين الخلفاء الراشدين، لماذا نتبرأ منهم، انشقاق الإسماعيلية عنهم، الشيعة أنفسهم لا يريدون التقريب بل نشر مذهبهم، فتنة البابية، تعليق مفيد، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، تلخيص ما ورد في هذه الرسالة وغيرها من فروق، خاتمة.

وقد استهل المؤلف هذا الكتاب بقوله:

التقريب بين المسلمين في تفكيرهم، واقتناعاتهم واتجاهاتهم وأهدافهم من أعظم مقاصد الإسلام ومن أهم وسائل القوة والنهوض والإصلاح وهو من الخير لشعوبهم وجامعتهم

(١)الأعلام: خير الدين الزركلي الدمشقي ج٥ ص ٢٨٢.

في كل زمان ومكان.

والدعوة إلى هذا التقريب إذا كانت بريئة من الغرض، ولا يترتب عليها في تفاصيلها ضرر يطغى على ما يرجى من نفعها، فإن على كل مسلم أن يستجيب لها، وأن يتعاون مع المسلمين على إنجاحها.

وإذا كان الافتراق الأساسي بيننا وبينهم قائماً على دعواهم أنهم أكثر منا ولاء لأهل البيت، وعلى دعواهم أنهم يبطنون -بل يظهرون- الحقد والضغينة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين قام الإسلام على أكتافهم إلى درجة أن يقولوا مثل هذا الكلام القذر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان الإنصاف يقتضي أن يبدءوا هم بتخفيف إحنهم وضغينتهم عن أئمة الإسلام الأولين، وأن يشكروا لأهل السنة موقفهم النبيل من آل البيت وعدم تقصيرهم بشيء من واجبات الإجلال والتكريم لهم، إلا أن يكون تقصيرنا نحو آل البيت في أننا لم نتخذهم آلهة نعبدهم مع الله، كما هو مشاهد في مشاهدهم القائمة في الناحية الأخرى التي يراد التقريب بيننا وبينها.

الفقه الإسلامي

وتحت عنوان: «الفقه الإسلامي» يوضح المؤلف أن الفقه عند أهل السنة وعند الشيعة لا يرجع إلى أصول مسلمة عند الفريقين، وأن التشريع الفقهي عند الأئمة الأربعة من أهل السنة قائم على غير الأسس التي يقوم عليها التشريع الفقهي عند الشيعة، ويخلص إلى أنه ما لم يحصل التفاهم على هذه الأسس والأصول قبل الاشتغال بفروعها وما لم يتم التجاوب في ذلك من الناحيتين، في المعاهد العلمية للطائفتين، فلا فائدة من إضاعة الوقت في الفروع قبل الأصول، ويشير إلى أنه لا يقصد بقوله هذا أصول الفقه، بل أصول الدين.

مسألة التقية

وينتقل إلى أخطر القضايا المانعة لحدوث التقريب ألا وهي مسألة التقية إذ يرى أنها أول موانع التجاوب الصادق بإخلاص بيننا وبينهم، لأنها عقيدة دينية، تبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يبطنون، فينخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم في التفاهم والتقارب وهم لا يريدون ذلك ولا يرضون به ولا يعملون له، إلا على أن يبقى من الطرف الواحد مع بقاء الطرف الآخر في عزلته لا يتزحزح عنها قيد شعرة. ولو توصل ممثلو دور التقية منهم إلى إقناعنا بأنهم خطوا نحونا بعض الخطوات، فإن جمهور الشيعة كلهم من خاصة وعامة يبقى منفصلاً عن ممثلي هذه المهزلة، ولا يسلّم للذين يتكلمون باسمه بأن لهم حق التكلم باسمه.

الطعن في القرآن الكريم

ليس هذا فحسب، بل تناولوا القرآن الكريم بالطعن وهو المرجع الذي يجب أن ينال كل التقديس والتكريم والتبجيل من كل المسلمين لأنه الكتاب الذي كان ينبغي أن يكون المرجع الجامع لنا، ولهم على التقارب نحو الوحدة، فإن أصول الدين عندهم قائمة من جذورها على تأويل آياته، وصرف معانيها إلى غير ما فهمه منها الصحابة عن النبي ﷺ، وإلى غير ما فهمه منها أئمة الإسلام عن الجيل الذي نزل عليه القرآن.

بل إن أحد كبار علماء النجف، وهو الحاج ميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي

ألف في سنة ١٢٩٢هـ كتابا سماه: "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة ومجتهديهم في مختلف العصور بأن القرآن قد زيد فيه ونقص منه، وقد طبع كتاب الطبرسي هذا في إيران سنة ١٢٩٨هـ وعند طبعه قامت حوله ضجة لأنهم كانوا يريدون أن يبقى التشكيك في صحة القرآن محصوراً في خاصتهم ومتفرقا في مئات الكتب المعتبرة عندهم، وأن لا يجمع ذلك كله في كتاب واحد، تطبع منه ألوف من النسخ، ويطلع عليه خصومهم، فيكون حجة عليهم ماثلة أمام أنظار الجميع، ولما أبدى عقلاؤهم هذه الملاحظات خالفهم فيها مؤلفه وألف كتابا آخر سماه "رد بعض الشبهات عن فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" وقد كتب هذا الدفاع في أواخر حياته قبل موته بنحو سنتين، وقد كافؤه على هذا المجهود في إثبات أن القرآن محرف، بأن دفنوه في ذلك المكان الممتاز من بناء المشهد العلوي في النجف.

ومهما تظاهر الشيعة بالبراءة من كتاب النوري الطبرسي عملاً بعقيدة التقية، فإن الكتاب ينطوي على مئات النصوص عن علمائهم في كتبهم المعتبرة.

ومما تزعم الشيعة أنه أسقط من القرآن آية "وجعلنا عليا صهرك" زعموا أنها أسقطت من سورة "ألم نشرح" وهم لا يخجلون من هذا الزعم مع علمهم بأن سورة "ألم نشرح" مكية، ولم يكن عليٌّ صهراً للنبي ﷺ بمكة، وإنما كان صهره الوحيد فيها العاص بن الربيع الأموي رضي الله عنه الذي أثنى عليه صلوات الله عليه على منبر مسجده النبوي، لما أراد عليٌّ رضي الله عنه أن يتزوج بنت أبي جهل على فاطمة فشكت ذلك فاطمة إلى أبيها صلوات الله عليه، وإذا كان عليٌّ رضي الله عنه صهراً للنبي ﷺ على إحدى بناته، فقد جعل الله عثمان رضي الله عنه صهراً له على ابنتيه الاثنتين، وقال له النبي ﷺ لما توفيت الثانية: "لو كانت لنا ثالثة لزوجناكها".

رأيهم في الحكام

ويشير المؤلف إلى حقيقة خطيرة مفادها أن أصل مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية التي تسمى أيضا (الجعفرية) قائم على اعتبار جميع الحكومات الإسلامية من يوم وفاة النبي ﷺ إلى هذه الساعة -عدا سنوات حكم علي بن أبي طالب رضي الله عنه- حكومات غير شرعية، ولا يجوز لشيعي أن يدين لهؤلاء بالولاء والإخلاص من صميم قلبه، بل يداجيها مداجاة ويتقيها تقاة، لأنها كلها ما مضى منها وما هو قائم الآن وما سيقوم منها فيما بعد، حكومات مغتصبة والحكام الشرعيون في دين الشيعة وصميم عقيدتهم هم الأئمة الاثنى عشر وحدهم، سواء تيسر لهم مباشرة الحكم أو لم يباشروه، وكل من عداهم ممن تولوا مصالح المسلمين من أبي بكر وعمر إلى من بعدهم حتى الآن مهما خدموا الإسلام ومهما كابدوا في نشر دعوته وإعلاء كلمة الله في الأرض وتوسيع رقعة العالم الإسلامي، فإنهم مغتصبون إلى يوم القيامة.

الحقد على أبي بكر وعمر

وارتباطًا برأيهم في الحكام يلعن الشيعة أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وكل من تولى الحكم في الإسلام غير علي رضي الله عنه،

وقد كذبوا على الإمام أبى الحسن على بن محمد بن على بن موسى بأنه أقر شيعته على تسمية أبى بكر وعمر "الجبت" و"الطاغوت".

تعظيم قاتل عمر

وتأكيدا لهذه العقيدة التى تعتبر جميع الحكام مغتصبون للحكم نرى تعظيمهم لقاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد روى على بن مظاهر -من رجالهم- عن أحمد بن إسحاق القمى الأحوص (شيخ الشيعة ووافدهم) أن يوم قتل عمر بن الخطاب هو يوم العيد الأكبر ويوم المفاخرة ويوم التبجيل ويوم الزكاة العظمى ويوم البركة ويوم التسلية.

عقدة الحكم

ويشير المؤلف إلى واحدة من عقائدهم الأساسية وهى: أنه عندما يقوم المهدى (وهو إمامهم الثانى عشر) الذى هو حى الآن (بزعمهم) وينتظرون خروجه -أى ثورته ليثوروا معه- وإذا ذكروه فى كتبهم يكتبون فى جانب اسمه حرفى "عج" أى "عجل الله فرجه".

عندما يقوم هذا المهدى من نومته الطويلة التى زادت على ألف ومائة سنة، وسيحيى الله له ولآبائه جميع حكام المسلمين السابقين مع الحكام المعاصرين لقيامه -وعلى رأس الجميع أبو بكر وعمر فمن بعدهما- فيحاكمهم على اغتصابهم الحكم منه، ومن آبائه الأحد عشر إماما -لأن الحكم فى الإسلام حق لهم وحدهم من الله منذ توفى رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولا حق فيه لأحد غيرهم.

عقيدة الرجعة

ويوضح المؤلف أن عقيدة (الرجعة) أى: محاكمة حكام المسلمين، كان يؤمن بها عالمهم السيد المرتضى، مؤلف كتاب (أمالى المرتضى) وهو أخو الشريف الرضى الشاعر، وشريكه فى تزوير الزيادات على (نهج البلاغة)، ولعلها أكثر من ثلث الكتاب وهى التى فيها تعريض بالصحابة وتحامل عليهم فقال السيد المرتضى المذكور فى كتابه (المسائل الناصرية): إن أبا بكر وعمر يصلبان يومئذ على شجرة فى زمن المهدى (أى إمامهم الثانى عشر الذى يسمونه قائم آل محمد) وتكون تلك الشجرة رطبة قبل الصلب فتصير يابسة بعده.

تفكيرهم لم يتغير

ويوضح المؤلف إن أعلام الشيعة وأحبارهم فى جميع العصور واقفون هذا الموقف المخزى من صاحبى رسول الله ووزيريه أبى بكر وعمر ومن سائر أعلام الإسلام وخلفائه وحكامه وقادته ومجاهديه وحفظته. وقد سمعنا داعيتهم الذى كان قائما على دار التقريب، وينفق عليها يزعم لمن لم يتسع وقته لدراسة هذه الأمور أن هذه العقائد كانت فى الأزمان السالفة وأن الحالة تغيرت الآن.

وهذا الزعم كذب وغش فالكتب التى تدرس فى جميع معاهدهم العلمية تدرس هذا كله وتعتبره من ضروريات المذهب وعناصره الأولى.

الشيعة تخالف المسلمين فى الأصول وليس فقط فى الفروع

ونختتم هذه القراءة بما عرضه المؤلف من نصوص تؤكد أن الشيعة تخالف المسلمين فى الأصول حيث ذكر نصا يتعلق بموضوع التقريب ليعلم كل مسلم إمكان التقريب بين أبناء الطوائف والمذاهب الأخرى واستحالته مع الشيعة على وجه الخصوص وذلك اعترافهم الصريح الآتى بيانه:

قوله فى تعيين الفرقة الناجية من الفرق الثلاث والسبعين وأنها الإمامية قال: "إنى اعتبرت جميع المذاهب ووقفت على أحوالها وفروعها فوجدت من عدا الإمامية مشتركة فى الأحوال المعتبرة فى الإيمان، وإن اختلفوا فى أشياء يتساوى إثباتها ونفيها بالنسبة إلى الإيمان، ثم وجدت أن الطائفة الإمامية يخالفون الكل فى أحوالهم، فلو كانت فرقة ممن عداهم ناجية لكان الكل ناجين، فدل على أن الناجى هو الإمامية لا غير".

قال الخونسارى: وقال السيد نعمة الله الموسوى -بعد نقله لهذه عبارة "تحريره: أن جميع الفرق مطبقون على أن الشهادتين وحدهما مناط النجاة، تعويلا على قوله ﷺ "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة". أما هذه الفرقة الإمامية فهم مجمعون على أن النجاة لا تكون إلا بولاية أهل البيت إلى الإمام الثانى عشر، والبراءة من أعدائهم (أى من أبى بكر وعمر إلى آخر من ينتمى إلى الإسلام- من غير الشيعة حكاما ومحكومين) فهى مباينة لجميع الفرق فى هذا الاعتقاد، الذى تدور عليه النجاة".

وقد صدق الطوسى والموسوى والخونسارى.. وكذبوا. صدقوا فى أن فرق المسلمين متقاربة فى الأصول، ومختلفة فى الأمور الثانوية، ولذلك يمكن التفاهم والتقارب بين الفرق المتقاربة فى الأصول، **ويستحيل هذا التفاهم مع الشيعة الإمامية لأنها تخالف جميع المسلمين فى أصولهم ولا ترضى من المسلمين إلا بأن يلعنوا الجبت والطاغوت أبا بكر وعمر فمن دونهم إلى** اليوم، وبأن يتبرءوا من كل من ليس شيعيا حتى آل البيت من بنات رسول الله ﷺ اللائى صاهره عليهن ذو النورين عثمان بن عفان والأموى الشهم النبيل العاص بن الربيع الذى أثنى عليه النبى ﷺ على منبر المسجد النبوى على ملأ من جميع المسلمين لما أراد على أن يتزوج بنت أبى جهل ويجعلها ضرة لبنت ابن عمه فاطمة، فشكت ذلك إلى أبيها.

وأما الذى كذبوا فيه فهو ادعاؤهم أن مجرد النطق بالشهادتين هو مناط النجاة فى الآخرة، عند غير الشيعة من المسلمين، ولو كانت لهم عقول أو معرفة لعلموا أن الشهادتين عندنا عنوان الدخول فى الإسلام، وقائلها -حتى ولو كان حربيا- يصير معصوم الدم والمال فى الدنيا أما النجاة فى الآخرة فبصحبة الإيمان وأن للإيمان -كمال كما قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز-: "إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان".

وبعد.. فإن الكتاب يعد وثيقة تؤكد أن الشيعة يعتقدون أنهم هم فقط الفرقة الناجية وأن بقية الأمة الإسلامية فى النار.

ولم يقل بذلك أحد؛ إذ بيان الفرقة الناجية يأتى كفلق الصبح فى نهاية حديثه ﷺ حين قال الصحابة: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى. وما يفهم من رده ﷺ أن كل من أخذ بما عليه الرسول الكريم وأصحابه هو من الفرقة الناجية.. نسأل الله العظيم أن نكون منهم وأن يعصمنا من الزلل آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإسلام والدولة الحديثة «١»


منير شفيق
المفكر الاسلامى والباحث الاستراتيجى

كتب الكثيرون عن الدولة وقد حملت كتاباتهم عناوين مثل «الدولة والمجتمع»، و«الدولة والثورة»، «الدولة فى التاريخ»، «الدولة الإقطاعية»، «الدولة الرأسمالية»، «الدولة الاشتراكية»، «الدولة الإسلامية»، «الفرد والدولة»، مما يدل على أهمية موضوع الدولة وحيويته بالنسبة إلى كل عقيدة، ومذهب وكل نظام اجتماعى، واتجاه سياسى - ونظرية اقتصادية. أى لابد من أن يحدد بشكل أو بآخر الموقف من الدولة والرأى فيها.

الدولة والحكومة

بداية، عند الحديث عن الدولة، يجب عدم الخلط بينها وبين الحكومة أو السلطة السياسية. فالحكومة والسلطة السياسية هما جزء من الدولة. ولا يغطيان الدولة ككل؛ لأن الدولة تشمل البرلمان والحكومة والجيش والشرطة ومؤسسات كثيرة أخرى وتشتمل الدستور والقوانين والقضاء. والحكومات تذهب وتأتى غيرها ولكن مجموع المؤسسات المؤلفة منها الدولة تظل باقية، وتشكل الأساس الذى تقوم عليه الحكومات. أو قل كل حكومة تأتى لتكون امتداداً وتعبيراً وقيادة للدولة المعنية، وعندما لا تكون كذلك أو يصبح انسجامها، أو توافقها، مع جهاز الدولة فى حالة تعارض وتناقض يصبح لا مفر من سقوط الحكومة أو من حدوث تغيير جذرى فى مؤسسات الدولة نفسها. ويحدث هذا عادة، ولا سيما، فى العصر الحديث. عندما تقوم ثورة تؤدى إلى تغيير فورى للحكومة، ولبعض القيادات العليا فى أجهزة الدولة. ولكن الدولة السابقة نفسها بكل ثقل أجهزتها ومؤسساتها وقوانينها وإجراءاتها وتقاليدها وعلاقاتها تظل باقية. فعلى سبيل المثال تبقى أغلب التعليمات والقوانين هى نفسها فى طريقة إجراء المعاملات فى الدولة مثل الحصول على جواز السفر، أو تقديم طلب استخدام، أو إجراءات المحاكم أو قوانين السير فى الطريق أو عقود البيع والشراء. كل ذلك يعنى بمجموعة «أنظمة أجهزة الدولة». أى عمليا تكون قد تغيرت الحكومة أما أغلب أجهزة الدولة». السابقة وقوانينها فقد بقيت على حالها و من هنا

كان لابد من حمل فهم شامل للدولة يتعدى إقرانه بالحكومة أو بقيادة السلطة السياسية.

فعلى سبيل المثال تقوم الثورة وتنتصر ويسقط رأس الدولة الطاغوتية وحكومته وكبار حاشيته ومعاونوه، وتحل حكومة الثورة مكان حكومة الطاغية، أو حكومة الاستعمار، وينتخب الشعب برلماناً أو مجلس شورى، ورئيساً للجمهورية، ويتم تغيير الكثير من القيادات على مستويات مختلفة. فتحل محل القيادات السابقة قيادات تعلن انتماءها إلى خط الثورة. ثم يعلن عن دستور جديد، وتبدأ المحاكم والقضاة بالعمل لحل مشكلات الناس أو البت بالقضايا العالقة. وتتغير قيادات الجيش. ولكن مع ذلك، وبالرغم من كل ذلك، لا يمكن أن نقول أن الدولة السابقة قد صفيت. ويكفى على سبيل المثال أن يحتاج المرء إلى إنجاز معاملة فى أحد أجهزة الدولة حتى يجد نفسه أمام سلسلة الإجراءات، والتعليمات السابقة إياها إن لم يزد عليها تعقيدات جديدة. فيدرك أن الدولة ما زالت باقية بالرغم من تغيير طاقم الضباط، أو المشرفين أو المسئولين، أو بعضهم. إنه الجهاز، وما يحمله من إجراءات وقوانين وتعليمات... إنها العلاقة بين الإنسان وذلك الجهاز. وهى علاقة تشكل جانباً جوهرياً من الجوانب المكونة للدولة. فإذا لم يتغير الجهاز شكلا ومضمونا (التعليمات والقوانين وروح العلاقة بالسلطة وبالناس)، وليس تغيير الكادر والوجوه فقط، فهذا يعنى أن الدولة لم تتغير بعد. إن الهيكلية نفسها ليست مجرد شكل لجهاز الدولة وإنما تحمل بحد ذاتها مقومات لها علاقة بالأهداف والمحتوى. أى هى جزء مهم فى شكل الدولة، وفى المضمون، أى فى الأفراد والقوانين، والتعليمات، والعقلية، وروح العلاقة بالسلطة والناس، كل ذلك يشكل الجزء الآخر من تشكيل الدولة. فالهيكلية جاءت لتخدمه. وعندما يقال بتغيير المضمون واستبدال مضمون آخر به فهذا يقتضى بالضرورة تغيير الهيكلية. أما إذا لم تمس الهيكلية فستظل من عوامل شد المضمون الجديد للتحرك ضمن مقتضياتها.

مثال، طلب رخصة استيراد تحتاج إلى المرور بعدة مراحل، أو عدة «غرف» فى الوزارة، أو الإدارة أو الدائرة، أو قل بعدة أختام وتواقيع، وتحتاج إلى بضعة أيام. وربما بضعة أسابيع أو أشهر، أو طلب حق من خلال محكمة يحتاج إلى مراحل كثيرة، ومصاريف ورسوم، ومحامين، ثم قد يستغرق الأمر عدة أشهر وربما سنوات. فإذا بقى كل ذلك مع تغير الأشخاص فهل تكون الدولة قد تغيرت. إن التجربة العالمية أثبتت أن مع مجئ الثورة تظل الدولة على حالها هيكلية ومضمونا (باستثناء بعض المسئولين)، وأحياناً تزداد التعليمات والإجراءات تعقيداً ويزداد المطلوب من التواقيع والمراحل. فرءوس الأجهزة والدوائر والمؤسسات الجدد يميلون إلى إضافة تعليمات وإجراءات من عندهم أيضاً لتتراكم فوق سابقاتها.

الدولة الحديثة

لقد أخذت أجهزة الدولة الحديثة التى قامت على أساس النمط الغربى تتضخم وتتوسع، وأخذت تعليماتها وقوانينها تكثر

حتى لم تعد قابلة للحصر. وهذه ظاهرة عالمية. ووصل الأمر إلى حد انعقد معه اتفاق عام ضد ما يسمى «الروتين والبيروقراطية»، و«تعطيل مصالح الناس». فما من حكومة ومن حزب في الغرب إلا نادى بتحسين الإدارة والتخفيف من الروتين، ومحاربة البيروقراطية. ولم تحدث ثورة أو حركة إصلاح على النمط الغربي إلا طالبت بذلك ودعت إليه. ولكن المحصلة العملية كانت باتجاه المزيد من تضخم المؤسسات وزيادة التعقيدات والقوانين الإدارية فيما يتعلق بأي إجراء أو معاملة حتى أصبحت الدولة عالما قائماً بذاته، أو مجتمعاً آخر، مقابل المجتمع، والبعض سماها طبقة. لأن نمط الدولة الحديثة من الطراز الغربي حمل السمات التالية:

١- أجهزة تضخمت وتشعبت حتى وصلت إلى مختلف أنشطة الحياة.

٢- تشكل قطاع اجتماعي واسع من موظفي الدولة والمعتاشين من العمل مع أحد أجهزتها حتى أصبح ضخماً عدداً، وضخماً قدرة وسلطة وصلاحيات. فلم يعد وسيلة لتصريف أمور الدولة والمجتمع أو وسيلة لخدمة مصالح طبقة على حد تعبير الماركسيين المحدود، وإنما أصبح أيضاً قائماً بذاته، ولذاته، وأصبح حالة تقتضي الخروج على المجتمع بكل فئاته، والتحكم بالدستور والقوانين.

٣- ينزع الواقع الموضوعي والنفسي لأجهزة الدولة وأفرادها من القمة حتى القاعدة إلى التضخم وزيادة السلطة والصلاحيات والارتفاع فوق المجتمع وإخضاعه.. ويتفاقم هذا الأمر بصورة مضاعفة إذا امتلكت الدولة أدوات الإنتاج وأصبحت قيمة على تسيير اقتصاد الأمة وفق خططها وتحت إشرافها.

الدولة والثورة

تنزع الدولة التي تنشأ عن الثورة في هذا العصر إلى ابتلاع الثورة وإخضاعها لها والارتفاع فوق المجتمع وإخضاعه لأحكامها، وامتلاك أزمة الأمور التشريعية والتنفيذية، والتحكم بمختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والعسكرية والثقافية. والمعادلة في هذا بسيطة، تقول الدولة للثورة «أنا الثورة» بدلاً من أن تقول الثورة للدولة أنا الثورة وأنت الدولة وعليك أن تتبعي لي. أو بكلمات أخرى تبدأ الدولة بعد الاستيلاء على السلطة السياسية من قبل الثورة بعملية استيعاب متدرج للوضع الجديد. أو قل تحاول أن تفعل ما تفعله الأفعى حين تستبدل جلداً بجلدها بحيث يتغير الجلد ويبقى الهيكل والمحتوى على حالهما، ويصبح الجديد في خدمة الهيكل الأساسي ويتحرك ضمن حركته. فرجال الثورة الأقوياء حين يصبحون على رأس أجهزة الدولة يظنون أن أجهزة الدولة من تحتهم أصبحت مثلهم وهي تطيعهم. ولكنهم سرعان ما يكتشفون أن الوضع أكثر تعقيداً. بل سيكتشفون أن الكرسي الذي تحتهم ليس آلة صماء فحسب وإنما له أيضاً متطلباته ومقتضياته من الجالسين عليه.

ومن هنا تمضي أجهزة الدولة وهي تتأقلم مع الوضع الجديد تعمل على التلون بلونه،

لتصل في النهاية إلى الإعلان «أنا الثورة»، وتصبح مصلحتها ونظرتها وقوانينها السابقة واللاحقة هي الثورة في مرحلتها الجديدة أي بناء الدولة. وهكذا تمضي عملية ابتلاع الثورة من قبل الدولة. ويتم هذا الأمر بسهولة بالرغم من النيات الثورية النقية لأولئك الثوريين الذي يصبحون الدولة، فمن جهة هم مضطرون أن يمسكوا بأيديهم أجهزة الدولة ومؤسساتها لئلا تبقى السلطة بيد غيرهم. ويتصورون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك لا يكونون قد فعلوا شيئا حين أطاحوا برأس السلطة.

ولكنهم من جهة أخرى سيجدون أمامهم قوانين وأعرافاً تحكم سير تلك الأجهزة بالنسبة إلى علاقاتها بالمجتمع وقد أرسيت تلك القوانين والأعراف على أساس إحكام سيطرة الدولة على المجتمع ومن ثم تصبح المحافظة على تلك القوانين والأعراف أو تشديدها أكثر أمراً مغرياً ومقنعاً جداً، ما دامت تحقق سيطرة الدولة الجديدة على المجتمع. وعندئذ لابد من أن تنسى كل الموضوعات التي تتعلق بـ«البيروقراطية»، أو المطالبة «بتسهيل معاملات الناس»، و«التخفيف من الروتين الحكومي»،، ليحل محلها العمل الحثيث لتثبيت سلطة الثورة (الدولة الجديدة -القديمة)، أي تبقى الدولة السابقة من حيث الجوهر على حالها في كثير من الأمور ولا يتغير إلا اسم المسئول وصورة الرئيس التي يرفعها على الحائط خلفه بينما يبقى الجوهر نفسه فيما يتعلق بتحقيق سيطرة الدولة. أما بالنسبة إلى الناس فعليهم التعود على إطاعة السلطة الجديدة ومن ثم عليهم المضي في كل المراحل والعذابات السابقة مضافاً إليها مراحل وعذابات أشد من أجل تسيير أمورهم. وهذا ينطبق على تسجيل زواج أو ولادة، أو استخراج جواز سفر، أو الحصول على إذن بناء، أو استيراد، أو الحصول على تأشيرة، أو الدخول والخروج من المطار، أو تسجيل طالب في مدرسة أو نقله، وانتهاء بإجراءات المحاكم واللجوء إلى القضاء.

يمكن أن ترى هذه المسألة بصورة أوضح بالنسبة إلى أجهزة المخابرات حيث يعاد تكوين تلك الأجهزة على الأسس «العملية» نفسها. وربما احتفظ حتى ببعض الخبراء من رجال الحكم السابق في هذا المضمار، خصوصاً، من الأقل مرتبة.

أما آلية عمل رجال تلك الأجهزة ولاسيما عندما يقع متهم أو مشبوه بين أيديهم، ويصبح من واجبهم كشف المؤامرة، وقمع القوى المضادة للثورة، فعندئذ ترى الأساليب اللاشرعية واللا إنسانية تطبق على الضحية وترى الحقوق التي يتمتع بها هي «الحقوق» نفسها التي كان يتمتع بها أولئك الثوار عندما كانوا هم مكان الضحية ويجب أن يسجل هنا أن تجربة كثير من دول العالم الثالث تخطت التجربة السابقة في بلدانها في مجال القمع وهدر حرية الإنسان وحقوقه وكرامته «وطورت» أجهزة المخابرات والأمن فيها «تطويرا» يفوق المرحلة السابقة عشرات المرات. بكلمة، هذا اتجاه عام تحكمه آليات الدولة الداخلية إذا تركت تفعل فعلها. ويتفاقم هذا الاتجاه عندما يكون الثوار يحملون أفكاراً «تقدمية» حول «التوسع بالتأميم»، و«الإصلاح الزراعي» حيث

تتضاعف قوة الاتجاه نحو تقوية أجهزة الدولة؛ لأن الدولة هنا تمد أيديها إلى قطاعات جديدة فتصبح مالكة لوسائل الإنتاج بعد أن كانت تملك، بالدرجة الأولى، وسائل القمع ومصادر كبيرة من الأموال، وبهذا يختل التوازن بصورة أكبر بينها وبين المجتمع الذى أضعف حين فقد لحساب الدولة جزءا من مصادر قوته الاقتصادية المستقلة. وهكذا يكون الاتجاه نحو التوسع فى سلطان الدولة وأجهزتها وتحقيق سيطرتها على المجتمع قد تضاعف أيضا تحت شعارات الثورة والإصلاح ومحاربة الاحتكار والاستغلال الرأسمالي والإقطاعي. فبدلاً من أن تقلم أو تصفى الملكية الرأسمالية الاحتكارية أو الإقطاعية من خلال تحويلها لحساب الملكيات الفردية الصغيرة والمتوسطة وملكية المؤسسات الشعبية كالبلديات ومجالس القرى والقبائل والتعاونيات والأوقاف والمساجد والجامعات والمدارس. وبهذا تصبح قدرة الشعب أقوى عموماً وأكثر استقلالية عن الدولة، الأمر الذى يعدل التوازن بين الدولة والمجتمع لحساب الأخير.. بدلاً عن كل ذلك يصار إلى تحويل الملكية المصادرة أو المؤممة إلى الدولة لتقوى بها على حساب إضعاف المجتمع.

الدولة وأعداء الثورة

لا شك فى أن تغييراً مهماً يكون قد حدث حين تنتقل قيادة أجهزة الدولة إلى أيدى الثورة. ولا شك فى أن هذا التغيير يلحق أضراراً فى مصالح عدد من القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية العملية أو الفاسدة ذات النفوذ فى الدولة السابقة، ولا شك فى أن بعض الدول المجاورة والقوى الدولية الكبرى ستجد أن التغيير تم فى غير مصلحتها. الأمر الذى يجعل من المحتم أن تجرى محاولات للعودة إلى الوضع السابق. أى لا مفر من محاولة القيام بانقلاب عسكرى، أو تمرد مسلح، أو تخريب داخلي أو هجوم خارجي، أو حصار دولي «جزئي أو كلي». وهنا تتحرك أجهزة الدولة الثورية لتضرب أعداء الثورة. وقد يحتدم الصراع وكثيراً ما يصبح مصير الوضع الجديد فى خطر حقيقي، أو يصبح على حافة السقوط مما يؤدى بأجهزة الدولة إلى أن تسوغ لنفسها استخدام الأساليب الكفيلة بانقاذ الثورة وقمع الأعداء. وتبدأ أجهزة القمع تقوى وتوسع نفوذها وتشدد من قبضتها تحت هذا العنوان الجديد «المحافظة على الثورة وصون المكتسبات وسحق الثورة المضادة». ويمضى هذا الاتجاه إلى أقصى مداه فى حميا الصراع الدامي.. وأخيرا يذهب ذلك الخطر المحدق. وتثبت السلطة الجديدة، فتخرج أجهزة الدولة أقوى ساعداً، وأوسع امتدادا، وقد تعززت بالشعور أنها صاحبة الفضل فى الانقاذ إذ «لولاها» لعاد الحكم الأسود السابق. مما يجعلها تجنح إلى المحافظة على مكتسباتها الجديدة أى صلاحياتها الاستثنائية التى تمتعت بها فى فترة الطوارئ بل تجنح إلى توسيعها باستمرار ولن تعدم الحجة القائلة أن الخطر لم يزل محدقاً ولم يذهب بعد، وأن الأعداء بعد هزيمتهم ستتضاعف مؤامراتهم. وإن كل تراخ سيعيد المذابح مرة أخرى.

وبهذا يصبح بقاء القبضة الحديدية بالنسبة إلى الدولة الشرط الأول لوجودها أو الهدف الأول فى سياساتها.

يمكن أن ينوه هنا من خلال تجربة غالبية الثورات الحديثة، أن الفوضى، والصراع الدامي، واختلال ميزان القوى فى ظل اشتداد التآمر الخارجي وخطر عودة الحكم الظلامى السابق ينتج، أو يبرز، على مختلف المستويات عدداً من الرجال المنحرفين أو الذين انحرفوا بعد اضطرارهم إلى الغوص فى أعمال التعذيب والتنكيل والقتل والتجسس. هذا إذا لم يصل الأمر إلى هتك الأعراض واستخدام أحط الأساليب فى قهر العدو. إن هؤلاء يصبحون من أعمدة أجهزة الدولة الجديدة وأصحاب فضل عليها فى تثبيت سلطانها. ولكنهم يعلمون أن ما اقترفوه من أعمال تجاوزت الحدود ستجد من رجال الثورة نفسها ومن مؤيديها من سيحتجون عليها. ويطالبون بالمحاسبة ووضع حد لهذا الاتجاه.

وهكذا يصبح من الضرورى لأجهزة الدولة أن تمد إرهابها إلى إسكات تلك الأصوات وإلا وجدت نفسها فى وضع حرج وسط الجماهير إن لم يكن داخل السلطة نفسها أيضاً وهنا تبدأ عملية تحتية حتمية من الدسائس والمؤامرات وتشكيل المحاور، والاحتماء ببعض القادة المتنفذين الذين سيجدون بدورهم فى ذلك فرصة لتقوية نفوذهم الشخصى. مما يسمح بخلق أجواء مسممة تسوغ التشكيك فى إخلاص أولئك الذين رفضوا السكوت عن كل إجراء غير شرعى حتى فى مقاومة الأعداء، فضلاً عن الإجراءات التى ذهب ضحيتها أبرياء كثيرون فى غمرة الصراع الدامى وتتسلط بالقبضة الحديدية وتمتد لتُهز فى وجوه، أو فوق رءوس أغلبية الذين حملوا الثورة على أكتافهم وليس فقط على رؤوس أعداء الثورة. ثم تصل العملية إلى نتيجتها الحتمية، إن لم يجر تداركها فى الوقت المناسب، وهى تمحور نواة صغيرة حول قائد طامع بالسلطة ليصبح رجل الدولة ويمسك بالأجهزة والمؤسسات خصوصاً الجيش. وهكذا تصبح الدولة هى السند الأساسى للسلطة السياسية الثورية سابقاً - لا الشعب أو المجتمع - فى تثبيت الحكم الجديد مما يتطلب، بدوره إعطاء المزيد من الصلاحيات والسلطات للدولة. إنه مسار تطور راعب.

الدولة والمجتمع

هنالك نظرية تبسيطية يحملها كثير من الماركسيين أو المتأثرين بالنظرية الماركسية حول الدولة، وهى عدم رؤية عنصر الاستقلالية والتمايز للدولة عن الطبقة والمجتمع فيظنون أن الحكوم مجرد خادم مطيع للطبقة التى تسيطر على وسائل الإنتاج ما دام التعريف النظرى الأساسى يقول الدولة تمثل الطبقة فالأصل الطبقة والدولة الفرع. والدولة ممثل لمصالح الطبقة وهذه الطبقة تملك تغيير ممثليها كما تملك تغيير الثوب الذى ترتديه.

إن إزالة الحدود بين الدولة والمجتمع أو الطبقة أدت إلى سوء تقدير للعلاقة بين الدولة والطبقات أو بين الدولة والمجتمع؛ لأنها نظرة لم تستطع رؤية الهامش العريض للاستقلالية الذى تتحرك فيه الدولة خارج الطبقات والمجتمع بل فوق الطبقات والمجتمع

في أكثر الأحيان. أما ما هو أخطر من كل ذلك فإن التبسيطية في فهم العلاقة بين المجتمع والدولة سمح لدولة «دكتاتورية البروليتاريا» أن تستند إلى التعريف المذكور في تمرير دكتاتوريتها باعتبارها دولة «الطبقة العاملة» ثم راحت عملياً، تتحول تحت قيادة الحزب إلى القوة الوحيدة الحاكمة في المجتمع. وقد وضعت نفسها فوق الطبقة العاملة كما فوق الطبقات إنها الآن فوق المجتمع كله وهي تحمل راية «تمثيل القوى العاملة». وبهذا تولدت دولة مطلقة الصلاحيات لم يسبق لها مثيل في التاريخ حتى في الحالات التي سادت فيها جيوش الانكشارية، أو حكم فيها الحاكم الفرد المطلق الذي يعتبر نفسه ظل الله في الأرض. ولا حتى في حالة الدولة الفاشية أو النازية وهي تعلن نفسها صراحة فوق الجميع أو فوق المجتمع والطبقات. أما السبب الرئيسي في هذا التطور الاستثنائي لدور الدولة في ظل الاشتراكية من النمط السوفيتي فيرجع إلى أنها صادرت ملكية وسائل الإنتاج الأساسية وتحكمت بالعملية الاقتصادية كاملة. وبهذا لم يحرم المجتمع سيطرته على الدولة والقرار السياسي فحسب، وإنما فقد أيضاً قدرته الاقتصادية، وأصبح العمال الذين كانوا أجراء لصاحب المصنع أجراء لصاحب المصنع الجديد - الدولة - ولم يحدث مثل هذا في تاريخ الاقتصاد السياسي إلا في زمن الدولة الفرعونية حيث كانت الأرض ملكاً للفرعون وهو الذي يعين الذين يملكون إدراتها واستثمارها. وأما الفلاحون فهم أجراء أو عبيد عند فرعون وكان ذلك يشكل أساساً لادعائه أنه ابن «الإله» أو هو «الإله» نفسه. وبهذا بقيت الدولة من الناحية النظرية دولة «العمال والفلاحين»، وفيما بعد سمت نفسها دولة «الشعب كله». بينما تشكلت من ناحية عملية قوى كبرى موازية للشعب كله تملك الأرض والمصنع وطرق المواصلات ووسائل الإعلام والمدرسة والجامعة كما تملك القرار السياسي، وكان من الطبيعي أن تستولي أيضاً على الأجهزة الأخرى كالنقابات ومجالس الشعب بحيث أصبح الحزب - الدولة هو الذي يعين أعضاء النقابة والنواب وما الانتخابات إلا استفتاء على أسماء تم تعيينها، ولا منافسة بينها، ولا خيار للناخب بين مرشح وآخر حتى لو من الطينة نفسها. وبهذا تكون هنالك فئة حاكمة منتشرة من رأس الهرم إلى القاعدة في أجهزة الدولة والحزب والمؤسسات التابعة (النقابات والمجالس الشعبية) تتوزع فيما بينها السلطة والثورة والقرار السياسي والخط الأيديولوجي بينما يكون المجتمع قد فقد أبسط أشكال المقاومة وهي أكل لقمة العيش بعيداً عن الدولة ولم يملك المجتمع بعد أن حرم أيضاً من حق المعارضة والاحتجاج إلا أن يعاقب دولته من خلال التعامل مع مؤسساتها بلا مبالاة والأهم أصبح يتعامل مع الأرض بالصورة نفسها هجراناً وإهمالاً وكذلك بالنسبة إلى العمليات الإنتاجية الأخرى فضلاً عن الهروب إلى عالم الخمر والانحرافات المختلفة التي أخذت تطفو على السطح في هذه الأيام، وكانت في الماضي مخبأة تحت ستار كثيف من الأكاذيب الإعلامية.

- يتبع -

فتاوى لها تاريخ

ختان الأنثى



الشيخ/ محمود شلتوت

قال صاحبنا: اختلفت آراء الأطباء في ختان الأنثى، فمنهم من سمح به وأيده، ومنهم من أنكره وحذره، والناس على رغم هذا الاختلاف متمسكون به حريصون عليه، يفعلونه ويقيمون له الولائم الأسرية، ويرون أنه شأن يدعو إليه الدين، ويجعله شعاراً خاصاً للمسلمين، فهل لنا أن نعرف حكم الإسلام فيه! وأن تعرف وقته من عمر الطفل؟

وليس صاحبنا هذا بأول من يطلب حكم الإسلام في عملية الختان، وليس ما أكتبه اليوم جواباً له هو أول ما كتبت فيها. فقد كتبت فيها مرات كثيرة، غير أنها كانت لخصوص السائلين، لا لعموم القارئين، وقد آثرت اليوم أن أحقق رغبته الكريمة فأتحدث فيها عن طريق منبر له صوته في آذان الناس من جهة ما ترهف أسماعهم إليه، وهو حكم الدين وحكم الإسلام، فيعرف السائل وغير السائل موقف الشرع من هذه العملية، ويكون القارئون على بينة من الأمر في علاقتها بالشرع والدين.

الختان شأن قديم

وعملية الختان عملية قديمة، عرفها كثير من الناس منذ فجر التاريخ، واستمروا عليها حتى جاء الإسلام، واختتنوا وختنوا - ذكوراً وإناثاً - في ظله، غير أنا لا نعرف بالتحديد أكان مصدرها لديهم التفكير البشري وهداية الفطرة في إزالة الزوائد التي لا خير في بقائها، أو التي قد يكون في بقائها شيء من الأذى والقذر، أم كان مصدرها تعليماً دينياً، ظهر على لسان نبي أو رسول في حقب التاريخ الماضية؟ والذي يهمنا هو معرفة علاقته بالدين وحكم الإسلام فيه.

الفقهاء والختان

وقد أثرت في شأنه جملة من المرويات، كان الفقهاء أمامها في حكمه على مذاهب شأنهم في كل ما لم يرد فيه نص صريح، فمنهم من رأى أنه واجب ديني في الذكور والإناث، ومنهم من رأى أنه سنة فيهما، ومنهم من رأى أنه واجب في الذكور دون الإناث، وأنه فيهن "مكرمة" وكما اختلف الفقهاء في حكمه على هذا الوجه - الذي

تتباعد وجهات النظر فيه إلى أقصى حد للتباعد، وتتقارب إلى أقصى حد للتقارب - اختلفوا في الوقت الشرعي الذي تجرى فيه عمليته على نحو هذا الوجه أيضًا، فمنهم من رأى أنه لا يختص بوقت معين، ومنهم من حرمه قبل أن يبلغ الطفل عشر سنين ومنهم من جعل وقته بعد أسبوع من الولادة، ومنهم ومنهم إلى آخر ما نقل عنهم في ذلك من آراء.

وجهات النظر المختلفة

وإذا كان لنا أن نأخذ من اختلافهم هذا - وهو الشأن الكثير الغالب بينهم في كل ما لم يرد فيه نص صحيح صريح - ما ننتفع به في معرفة الوضع الحقيقي للتشريع الإسلامي، فإن أول ما نأخذه أن القوم كانوا على حرية واسعة المدى وهم يبحثون عن حكم الشرع فيما وصل إليهم أو وصلوا إليه من مصادر تشريعية، لم تنل قطعية الدلالة ولا كمال الحجة المتفق عليها، لا يعيب أحدهم على صاحبه ولو كان على نقيض رأيه، وكانوا يستمعون الحجج فيقبلون أو يرفضون دون تزمت أو إسراف في التجهيل أو الانحراف.

وليس أغرب من أن يستدل الذاهبون إلى وجوب الختان بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

(النحل: ١٢٣)

ويقولون إنه قد جاء في الحديث إن "إبراهيم اختتن بعدما أتت عليه ثمانون سنة" والاتباع الذي أمر به محمد وأصحابه يقضي عليهم أن يفعلوا ما فعله إبراهيم، وإذن يكون الختان وقد فعله إبراهيم واجبًا على محمد وأتباعه.

إسراف في الاستدلال، غاية ما قوبل به عدم التسليم له، وهو من نوع استدلال آخر للقائلين بالوجوب أيضًا وهو: أن الختان أحد الأمور التي ابتلى الله بها إبراهيم والتي ذكرها بعنوان "الكلمات" بقوله تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾

(البقرة: ١٢٤)

قالوا وورد عن ابن عباس أن تلك الكلمات هي خصال الفطرة: وهي الختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، إلى آخر ما قالوا ونقرؤه في المتداول من كتب التفسير.

الرأي في الختان

وقد خرجنا من استعراض المرويات في مسألة الختان على أنه ليس فيها ما يصح أن يكون دليلاً على "السنة الفقهية"، فضلاً عن "الوجوب الفقهي" وهي النتيجة التي وصل إليها بعض العلماء السابقين، وعبر عنها بقوله: "ليس في الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع" وأن كلمة (سنة) التي جاءت في بعض المرويات معناها، إذا صحت، الطريقة المألوفة عند القوم في ذلك الوقت، ولم ترد الكلمات على لسان الرسول بمعناها الفقهي الذي عرفت به فيما بعد.

والذي أراه أن حكم الشرع في الختان لا يخضع لنص منقول، وإنما يخضع في الذكر والأنثى لقاعدة شرعية عامة: وهي أن إيلام الحي لا يجوز شرعًا إلا لمصالح تعود عليه، وتربو على الألم الذي يلحقه.

ختان الذكر

ونحن إذا نظرنا إلى الختان في ضوء ذلك الأصل نجده في الذكر غيره في الإناث، فهو فيهم ذو مصلحة تربو بكثير على الألم الذي يلحقهم بسببه، ذاك أن داخل "الغلفة" منبت خصيب لتكوين الإفرازات التي تؤدي إلى تعفن تغلب معه جراثيم تهيىء للإصابة بالسرطان أو غيره من الأمراض الفتاكة، ومن هنا، يكون الختان طريقًا وقائيًا يحفظ للإنسان حياته، ومثل هذا يأخذ في نظر الشرع حكم الوجوب والتحتيم.

ختان الأنثى

أما الأنثى فليس ختانها هذا الجانب الوقائي حتى يكون كختان أخيها، نعم، حكم الناس فيها جانب آخر يدور حول ما يتحدث به بعض الأطباء من "إشعال الغريزة الجنسية وضعفها".

فيرى بعضهم أن ترك الختان يشعل تلك الغريزة، وبها تندفع إلى ما لا ينبغي، وإذن يجب الختان وقاية للشرف والعرض، ويرى آخرون أن الختان يضعفها فيحتاج الرجل إلى استعانة بمواد تفسد عليه حياته، وإذن يجب تركه حفظًا لصحة الرجل العقلية والبدنية.

إسراف هنا وهناك

ولعلي لا أكون مسرفًا أيضًا إذا قلت: ما أشبه إسراف الأطباء في وجهات نظرهم وإسراف الفقهاء في أدلة مذاهبهم. فإن الغريزة الجنسية لا تتبع في قوتها أو ضعفها ختان الأنثى أو عدمه، وإنما تتبع البنية والغدد قوة وضعفًا، ونشاطًا وخمولاً، والانزلاق إلى ما لا ينبغي كثيرًا ما يحدث للمختونات كما هو مشاهد ومقروء من حوادث الجنايات العرضية، والمستور منها أكثر مما يعلمه الناس.

والذين يتناولون المواد الضارة إنما يتناولونها بحكم الإلف الواصل إليهم من البيئات الفاسدة وليس ما يحسونه في جانب الغريزة إلا وهمًا خيله لهم تخدير الأعصاب.

والواقع أن المسألة في جانبيها "الإيجابي والسلبي" ترجع إلى الخلق والبيئة وإحسان التربية وحزم المراقبة، ومن هنا يتبين أن ختان الأنثى ليس لدينا ما يدعو إليه، وإلى تحتمه، لا شرعًا، ولا خلقًا ولا طبًا.

قد يكون مكرمة

نعم قد يكون ختان الأنثى - كما يقول بعض الفقهاء - مكرمة للرجال الذين لم يألفوا الأحساس "بالزائدة" وهو في ذلك لا يزيد عما تقتضيه الفطرة البشرية من التجمل والتطيب وإزالة ما ينبت حول الحمى.

أما بعد.. فهذا هو حكم الختان للذكر والأنثى فيما أرى، أخذًا من القواعد العامة للشريعة لا أخذًا من نصوص تشريعية خاصة بالموضوع.



﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

إعطاء القروض من الزكاة لا يجوز

● السؤال من: د.م.ن:

تقوم الشركة سنويًا بإخراج مبلغ كبير لحساب الزكاة، والسؤال: هل يجوز للشركة إخراج جزء من هذا المبلغ أو المبلغ بالكامل لصالح بعض العاملين بالشركة فى الظروف الآتية:

- الحالات المرضية المزمنة أو التى تفوق قدرتهم المالية، والتى لا يغطيها التأمين الطبى.

- حالات الكوارث والتى لا يمكن للموظف مواجهتها بمفرده.

- حالات القرض الحسن للمستحقين.

●● الجواب: يجوز إعطاء الزكاة للمرضى الذين لا يجدون ما يكفون به علاجهم؛ سواء أكانت أمراضهم مؤقتة أم مزمنة، وكذلك لأصحاب الكوارث الذين لا يجدون ما يواجهون به تبعاتها وآثارها؛ سواء أكان المحتاجون من موظفى الشركة أم من خارجها، لكن يراعى فى إعطاء موظفى الشركة المحتاجين عدم ربط ذلك بمستحقاتهم على أعمالهم وعدم المن عليهم أو مطالبتهم بزيادة العمل مقابل الزكاة حتى تكون الزكاة خالصة لوجه الله تعالى، أما إعطاء القروض من الزكاة فلا يجوز؛ لأن الزكاة يشترط فيها التمليك، وهذا غير متحقق فى القرض.

والله سبحانه وتعالى أعلم

صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة!!

● السؤال من: ج.خ.ف:

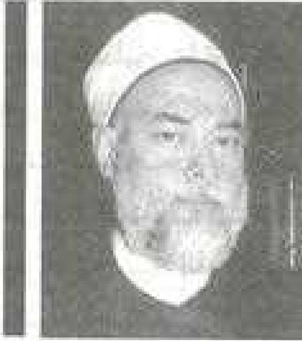
ما حكم قيام الشخص بصلاة الظهر بعد صلاة الجمعة؟

●● الجواب: المقصود من إقامة صلاة الجمعة إظهار شعار الاجتماع واتفاق الكلمة؛ ولذا اشترط جمهور العلماء لصحة صلاة الجمعة أن لا يسبقها ولا يقارنها جمعة أخرى فى بلدتها إلا إذا كبرت البلدة وعسر اجتماع الناس فى مكان واحد فيجوز التعدد بحسب الحاجة، وللشافعية فى ذلك قولان: أظهرهما - وهو المعتمد - أنه

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـى جمعـة

مفتى جمهورية مصر العربية



يجوز التعدد بحسب الحاجة، وقيل: لا يجوز التعدد ولو لحاجة، وفرعوا على ذلك مراعاة خلاف الأظهر أنه يستحب لمن صلى الجمعة مع التعدد بحسب الحاجة ولم يعلم أن جمعته سبقت غيرها أم لا أن يعيدها ظهرًا احتياطًا؛ خروجًا من الخلاف.

على أن الحنفية يجيزون على المعتمد عندهم أن تؤدى الجمعة فى مصر واحد بمواضع كثيرة؛ حيث ذكر الإمام السرخسى أن هذا هو الصحيح من مذهب الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى.

فتحرر من ذلك ما يأتى:

● أن من شرط صحة صلاة الجمعة عند جمهور العلماء عدم سبقها أو مقارنتها بجمعة أخرى فى نفس البلدة إلا لحاجة.

● أنه يجوز تعدد الجمعة إذا كانت هناك حاجة لذلك؛ كضيق مكان أو عسر اجتماع، وهذا هو المعتمد عند الشافعية.

● أن بعض العلماء استحب - احتياطًا وخروجًا من خلاف من لم يُجز تعدد صلاة الجمعة ولو لحاجة - إعادتها ظهرًا إذا لم يتيقن من صلى الجمعة أن جمعته هى السابقة وأنها لم تقارنها جمعة أخرى، وهذا الاحتياط مشروع على سبيل الندب والاستحباب لا على جهة الحتم والإيجاب.

● أن هناك من العلماء من يجيز تعدد صلاة الجمعة فى المصر الواحد مطلقًا ولو لغير حاجة، وذلك فى المساجد التى يأذن ولى الأمر بإقامة صلاة الجمعة فيها.

وبناءً على ذلك وفى واقعة السؤال: فيجوز أن يصلى المسلم الظهر بعد الجمعة بشرط أن لا يرغم غيره على ذلك؛ لأنها من المسائل الخلافية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

صلاة الأطفال فى المساجد

● السؤال من: ط.ع.م:

ما حكم اصطحاب الأطفال إلى المساجد؟

●● الجواب: اصطحاب الأطفال المميزين إلى المسجد هو أمرٌ مستحب شرعًا؛ لتعويدهم على الصلاة، وتنشئتهم على حب هذه الأجواء الإيمانية التى يجتمع المسلمون فيها لعبادة الله تعالى؛ حتى يكون ذلك مكونًا من مكونات شخصيتهم بعد ذلك، وذلك مع الحرص على تعليمهم الأدب، ونهيهم عن التشويش على المصلين أو العبث فى المسجد، على أن يكون ذلك برفق ورحمة، وأن يتعامل مع الطفل بمنتهى الحلم وسعة الصدر من غير تخويف أو ترهيب

له ؛ فإن ردود الأفعال العنيفة التي قد يلقاها الطفل من بعض المصلين ربما تُولد عنده صدمة أو خوفًا ورعبًا من هذا المكان ، والأصل أن يتربى الطفل على أن المسجد مليء بالرحمات والنفحات والبركات ، فيكبر على حب هذا المكان ويتعلق قلبه ببيت الله تعالى ، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله ؛ حيث ذكر النبي ﷺ وآله وسلم منهم : «ورجل قلبه معلق في المسجد» رواه البخاري .

وأما اصطحاب الأطفال الذين يُعلم أو يغلب على الظن أن الواحد منهم لا يكف عن التشويش وإلهاء المصلين إذا نُهي عن ذلك فهو أمر مكروه شرعًا ؛ وذلك للحفاظ على جو الهدوء المطلوب شرعًا في المسجد لحصول الخشوع الواجب أثناء الصلاة أو الخطبة ، وللحفاظ كذلك على طهارة المسجد وسلامة محتوياته .

وقد استدل العلماء على جواز إحضار الأطفال عمومًا إلى المساجد بأحاديث ؛ منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١ / ٥٩٢ ط . دار المعرفة) : «واستدل به على جواز إدخال الصبيان في المساجد» اهـ بتصرف .

وأخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «أني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» .

كما أخرج الأئمة أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن بريدة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يخطب ، فأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ؛ واحدًا من ذا الشق ، وواحدًا من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال :

«صدق الله :

﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

(الأنفال : ٢٨)

إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما» .

ومن هذه الأحاديث أخذ العلماء جواز إحضار الأطفال للمسجد ، واستثنوا منهم من كان لا ينتهي عن التشويش على المصلين إذا نهي عنه ، فبينوا مشروعية منعهم من دخول المساجد ، على أن يكون ذلك المنع بالرفق والرحمة .

قال الإمام الأبي الأزهري المالكي في «جواهر الإكليل شرح مختصر خليل» (١ / ٨٠ ، ط . دار الفكر) : (و) جاز (إحضار صبي به لا يعبث ويكف) عن العبث (إذا نهي) عنه ، فإن كان شأنه العبث أو عدم الكف فلا يجوز إحضاره به ؛ لحديث (جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم) اهـ .

وقال الإمام الشوكاني في «نيل الأوطار» (٢ / ١٤٤ ، ط . دار الحديث) : (وفيه جواز إدخال الصبيان المساجد . وقد أخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : «جنبوا مساجدكم صبيانكم وخصوماتكم و حدودكم وشراءكم وبيعكم و جمروها يوم جمعكم واجعلوا على أبوابها مطاهركم» ، ولكن الراوي له عن معاذ مكحول وهو لم يسمع منه ، وأخرج ابن ماجة من حديث واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال : «جنبوا مساجدكم صبيانكم و مجانينكم و شراءكم و بيعكم و خصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع» وفي إسناده الحارث بن شهاب وهو ضعيف . وقد عارض هذين الحديثين الضعيفين حديث أمامة المتقدم وهو متفق عليه . وحديث الباب وحديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إني لأسمع بكاء الصبي وأنا في الصلاة فأخفف ، مخافة أن تفتتن أمه» وهو متفق عليه فيجمع بين الأحاديث بحمل الأمر بالتجنيب على الندب كما قال العراقي في «شرح الترمذي» ، أو بأنها تنزه المساجد عمن لا يؤمن حدثه فيها) اهـ .

وقال العلامة الإمام النووي الشافعي في «المجموع شرح المهذب» (٢ / ١٧٦ ، ط . دار الفكر) :

(قال المتولي وغيره : يكره إدخال البهائم والمجانين والصبيان الذين لا يميزون المسجد ؛ لأنه لا يؤمن تلويثهم إياه ، ولا يحرم ذلك ؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ صلى حاملا أمامة بنت زينب رضي الله عنهما وطاف على بعيره ، ولا ينفي هذا الكراهة ؛ لأنه ﷺ فعله لبيان الجواز فيكون حينئذ أفضل في حقه فإن البيان واجب) اهـ .

وبناءً على ذلك : فإنه لا مانع شرعًا من اصطحاب الصبيان المميزين إلى المساجد ؛ لتعويدهم على الصلاة ، وتنشئتهم على حب الأجواء الإيمانية ، وأما من يعلم منهم عدم الانتهاء عن التشويش وإلهاء المصلين فيكره اصطحابهم إلى المساجد ؛ حفاظًا على مقصود الخشوع في الصلاة ، مع الالتزام بالرفق وعدم العنف في إرشادهم إذا تم اصطحابهم .

والله سبحانه وتعالى أعلم

الذكر وقراءة القرآن

● السؤال من : أ . ن . ظ :

ماهو الحكم الشرعي في قراءة القرآن والذكر بعد صلاة الفجر ؛ جماعة وجهرًا ؟

●● الجواب : ورد في السنة النبوية المطهرة الحث على ذكر الله تعالى بعد صلاة الفجر ، ومن ذلك ما رواه الإمام الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة» .

ومن أعظم الذكر قراءة القرآن الكريم ، وقد ورد الأمر الشرعي بقراءته مطلقًا ، والأمر المطلق يقتضي عموم الزمان والمكان والأشخاص والأحوال ، فامتثاله يحصل بالقراءة فرادى أو جماعات ، سرا أو جهرًا ، ولا يجوز تقييده بهيئة دون هيئة إلا بدليل ،

وكذلك الحال بالنسبة للذكر عمومًا .

وبناءً على ذلك وفي واقعة السؤال : فلا مانع من الذكر وقراءة القرآن الكريم بعد صلاة الفجر ، ولا بأس بالمواظبة على ذلك ، ولكن الجهر بذلك في جماعة مشروط بموافقة القائمين على المسجد ؛ ليتم ذلك بشكل ليس فيه تشويش علي بقية الذاكرين وقراء كتاب الله تعالى ؛ استرشادا بالأدب النبوي الكريم في قوله

ﷺ : «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» رواه الإمام مالك في «الموطأ» والإمام أحمد في «المسند».

والله سبحانه وتعالى أعلم

«مريض السكر»

● السؤال من : م.ش.ب :

برجاء التكريم بإعطائنا فتوى مكتوبة عن مريض السكر في رمضان؛ من المسموح له بالصيام؟ ومن المسموح له بالإفطار؟ ومريضة السكر الحامل، ومرضى السكر المصابين بالقلب أو المضاعفات على الأوعية الدموية والكلى.

●● الجواب : يقول الله تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾

(البقرة : ١٨٤)

والمعنى : أنه يرخص للمسلم المكلف المريض مرضا يرجى برؤه ولا يستطيع معه الصوم - وللمسافر كذلك - الإفطار في رمضان، ثم عليهما القضاء بعد زوال العذر والتمكن من الصيام.

أما إذا كان مريضًا مرضًا لا يرجى شفاؤه - بقول أهل التخصص - ولا يقوى معه على الصيام، أو كان كبيرًا في السن؛ بحيث يعجز عن الصيام وتلحقه مشقة شديدة لا تحتمل عادة فلا يجب عليه نية الصيام من الليل، ولا صيام عليه إن أصبح في نهار رمضان، وعليه فدية؛ إطعام مسكين عن كل يوم من الأيام التي يفطرها من رمضان وقدر هذه الفدية مد من الطعام من غالب قوت البلد؛ والمد عند الحنفية: يساوي رطلين بالعراقي؛ أي: ٨١٢,٥ جرامًا، وعند الجمهور: رطل وثلث بالعراقي؛ أي: ٥١٠ جرامات؛ والمفتى به: جواز دفع القيمة، بل ذلك أولى؛ لأنه أنفع للمسكين وأكثر تحقيقًا لمصلحته، وتخرج من تركته إذا ترك وفاء، فإن قوي بعد ذلك على الصيام فلا قضاء عليه، بل تجب عليه الفدية؛ لأنه مخاطب بها ابتداء مع حالته المذكورة.

والعبرة في الإفطار ليست بالسن مطلقا ولا بالمرض مطلقا، فرب كبير سن يقوى على الصيام بينما لا يقوى من هو أصغر منه، ورب مريض بداء عضال لا يمنعه من الصيام، وهناك من المرضى من ابتلي بداء يرجى برؤه ولكنه يمنعه من الصيام أو يجعله شاقًا عليه.

وإن صام مريض السكر واحتاج إلى الحقن بالأنسولين فهذا جائز شرعا ولا يفسد الصيام؛ لأن المفطر بالصيام إنما هو ما وصل عمدًا إلى الجوف المنفتح أصالة انفتاحًا ظاهرًا محسوسًا؛ وانفتاح المسام والشعيرات الدموية والأوردة والشرايين بالحقن ليس ظاهرًا ولا محسوسا، فلا يصدق على المادة المحقونة بها أنها وصلت إلى الجوف عن طريق منفذ طبعي مفتوح؛ سواء أكانت في الوريد أم في العضل أم تحت الجلد، وسواء كانت دواء أم غذاء؛ قال العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق بعد أن ساق نصوص أهل المذاهب الأربعة في ذلك : (ومن هذا يعلم أن الحقنة تحت الجلد لا تفسد الصوم باتفاق المذاهب الأربعة، سواء كانت للتداوي أو للتغذية أو للتخدير، وفي أي موضع من ظاهر البدن؛ لأن مثل هذه الحقنة لا يصل منها شيء إلى الجوف من المنافذ المعتادة أصلاً، وعلى فرض الوصول فإنما تصل من المسام فقط، وما تصل إليه ليس جوفًا ولا في حكم الجوف، وليست تلك المسام منفذًا منفتحًا لا عرفًا ولا عادة، ومثل الحقنة تحت الجلد فيما ذكر: الحقنة في العروق التي ليست في الشرايين، والحقنة التي تكون في الشرايين، وكلاهما أيضًا لا يصل منه شيء إلى الجوف، لكن الفرق أن الحقنة التي في الشرايين تكون في الدورة الدموية؛ ولذلك لا يعطيها إلا الطبيب. فالحق أن الحقنة بجميع أنواعها المتقدمة لا تفطر) اهـ. من مجلة الإرشاد، غرة رمضان سنة ١٣٥١هـ، العدد الثاني من السنة الأولى: ص (٤٢) وما بعدها.

ومثل الحقن فيما ذكر: ما يحتاجه المرضى أحيانًا من عمل ما يسمى بـ«القسطرة»، بإدخال آلة تصويرية في الأوردة أو الشرايين، ربما تصل إلى القلب للكشف عن الحالة الصحية للقلب، والشرايين فهذا غير مفطر.

فإن غلب على ظن المريض إنه إن صام حصلت له مشقة، أو صام ثم حصلت له المشقة؛ سواء باشتداد وطأة المرض عليه أم احتاج إلى تناول الدواء أم غلبه الجوع أو العطش - وهذا هو حال غالب مرضى السكر - جاز له أن يفطر، بل ويجب عليه أن يفطر إذا خشي على نفسه من الهلاك؛ لقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء : ٢٩)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

(البقرة : ١٩٥)

قال العلامة الخطيب الشربيني في «مغني المحتاج» (٢/ ١٦٩، ط. دار الكتب العلمية) : (وإن عاد المرض واحتاج إلى الإفطار أفطر، ويجب الفطر إذا خشي الهلاك؛ كما صرح به الغزالي وغيره وجزم به الأذرعي، ولمن غلبه الجوع أو العطش حكم المريض) اهـ. وكذلك تفطر الحامل إذا خافت على جنينها، والمرضع إذا خافت أن يضر الصيام ولدها.

والأخذ برخصة الإفطار فيما سبق أمر تقديري؛ أي أن مرجعه إلى الطبيب الثقة الأمين، وإلى طاقة الإنسان واحتماله وقدرته على الصيام؛ فإنه يقدر لنفسه مدى اضطراره أو حاجته إلى الفطر وجوبًا أو جوازًا، ويجب عليه أن يستجيب لرأي الطبيب في تقدير الحالة إن رأى الطبيب ضرورة أن يفطر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

زكاة المال

● السؤال من : ق.س.ط

أرجو التكرم بالإفادة عن طريقة احتساب زكاة مبلغ من المال في شهادة استثمار هل تكون ١٠٪ بعد أن يحول الحول عليها، أم كم في المائة؟ بالإضافة إلى مبلغ بسيط كمعاش.

●● الجواب : زكاة المال المودع في البنوك على هيئة ودائع أو شهادات تكون بمقدار ربع العشر على المال المودع في البنك أو الذي تم به شراء الشهادات الذي مر عليه حول قمري وعلى المال الذي يمر عليه عام قمري من الأرباح كذلك، وهناك قول آخر لبعض العلماء يجوز إخراج العشر على أي ربح يخرج من هذه الودائع أو الشهادات، دون رأس المال ودون النظر إلى الحول القمري.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الإمام محمد بن الحسن الشيباني حياته وأثره في الفقه النعماني



بقلم: غلام غوث الهندي
طالب بجامعة الأزهر الشريف

الحمد لله الذى فضل الفقهاء على بعض، أرشد طوائف منهم إلى وجوه الفرق فيما بين الواجب والفرض.. ووسع مداركهم فى دقائق المسائل، وأنار عقولهم إلى تعرف مراتب الدلائل. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بالحنيفية السمحة البيضاء.. وعلى آله المطهرين الأصفياء.. وصحبه القادة الأتقياء.

فمما لا شك فيه أنه لولا الإمام محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله، وقيامه بتصنيف وجمع فقه الإمام أبى حنيفة رحمه الله، لضاع الفقه الحنفى، وضياعه خسارة كبرى للثروة الفقهية الأصلية، فكان تقدير الله تبارك وتعالى وإحسانه وفضله أن قيض الله تعالى للأمة الإمام ابن الحسن، الشامى الأصل.

اسمه ونسبه ومولده: هو الإمام المجتهد العلامة فقيه العراق أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى [1].

أما أصله: فقيل هو من دمشق من قرية تسمى «حرستا» [2]. وقيل أصله من الجزيرة [3].. وقيل أصله من قرية قرب الرملة [4].. وأكثر المترجمين له على القول الأول.

(١) «الشيباني» بفتح الشين وسكون الياء المعجمة وفتح الباء، نسبة إلى بني شيبان بن ذهل بن ثعلبة قبيلة معروفة من بكر بن الوائل. انظر: كتاب الحجة على أهل المدينة مطبعة عالم الكتب صـ٥ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٢، الجواهر المضية فى طبقات الحنفية جـ٣ صـ١٢٢، الوافى بالوفيات جـ٢ صـ٢٣٢، وحرستا: بفتح الحاء المهملة والراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها ألف مقصورة، قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ. وفيات الأعيان جـ٤ صـ١٨٥، الجواهر المضية فى طبقات الحنفية جـ٣ صـ١٢.

(٣) انظر: تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٢.

(٤) انظر: «بلوغ الأماني» للشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى صـ٤.

أما مولده المكانى فإنه ولد بواسط [5] بالعراق بعد انتقال والده إليها، ولا أعلم خلافًا بين المترجمين فى هذا.

أما مولده الزمانى: فمختلف فيه: فقيل: سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة [6] وقيل سنة خمس وثلاثين ومائة من الهجرة [7] وقد قال الكوثرى إن هذا سهو محض [8]، وقيل سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة وهو الذى عليه جمهور المؤرخين [9].

نشأته واتصاله بحلقة الإمام أبى حنيفة: أما نشأته فقد كانت فى الكوفة، كما ذكرت آنفا أن والده من أهل حرستا فقدم أبوه إلى العراق فولد له محمد بواسط. فحمله إلى الكوفة فنشأ بها [10] حيث تلقى العلم على فقهائها المشهورين، وقد كان أبوه ثريا، فنشأ محمد نشأة سعيدة، وكان ذكيا، متقد الذهن، سريع الخاطرة، قوى الذاكرة، جميل الخلق والخلق للغاية، سمينا خفيف الروح، ذا صحة وقوة.

وجاء فى وصفه أن أباه قدم به إلى الإمام أبى حنيفة، فقال الإمام لوالده: احلق رأسه وألبسه الخلقان ففعل، فزاد عند الحلق جمالاً [11].

ولما بلغ سن التمييز تعلم القرآن وحفظ منه ما تيسر له حفظه، وبدأ يحضر دروس اللغة العربية ومجالس الحديث فى الكوفة التى كانت تزخر بكثير من العلوم، كالحديث والفقه وعلوم اللغة العربية ونحوها، منذ نزلها كبار الصحابة، واتخذها على بن أبى طالب كرم الله وجهه عاصمة الخلافة، وذكر شيخنا الجليل محمد زاهد بن الحسن الكوثرى: أن محمداً لما بلغت سنه أربع عشرة سنة حضر مجلس أبى حنيفة ليسأله عن مسألة نزلت به. فسأله قائلا: ما تقول فى غلام احتلم بالليل بعد ما صلى العشاء؟ هل يعيد العشاء؟ قال: نعم! فقام وأخذ نعله وأعاد العشاء فى زاوية المسجد.. وهو أول ما تعلم من أبى حنيفة فلما رآه يعيد الصلاة أعجبه ذلك وقال: إن هذا الصبى يفلح إن شاء الله تعالى. وكان كما قال، ثم ألقى الله سبحانه تبارك وتعالى فى قلبه حب التفقه فى دين الله بعد أن رأى جلال مجلس الفقه فعاد إلى المجلس يريد التفقه فقال له أبو حنيفةرحمه الله: استظهر القرآن أولا. لأن التفقه على طريقة أبى حنيفة فى حاجة شديدة إلى ذلك لأنه مادام الاحتجاج بالقرآن ميسورا لا يعدل عنه إلى حجة سواه وله المنزلة الأولى فى الحجة عنده حتى إن عموماته قطعية فيما لم يلحقه تخصيص.

ويظهر أن محمد بن الحسن لم يكن إذ ذاك

(٥) سميت واسطا لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها إلى كل واحد منهما خمسين فرسخا. انظر كتاب الكسب صـ٢٩ مطبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٦) وفيات الأعيان جـ٤ صـ١٨٥، وأصول الجامع الكبير صـ٨.

(٧) المصدر السابق وأيضاً فى الوافى بالوفيات جـ٢ صـ٢٣٤.

(٨) بلوغ الأمانى صـ٥.

(٩) انظر: تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٢، وكتاب الكسب صـ٢٩، وكتاب الحجة على أهل المدينة جـ١ صـ٨.

(١٠) انظر: الفوائد البهية فى تراجم الحنفية صـ١٦٣ للشيخ عبدالحى اللكنوى الهندى.

(١١) شرح الزيادات جـ١ صـ٢٧.

جيد الاستظهار للقرآن فغاب سبعة أيام ثم جاء مع والده وقال: حفظته. وسأل أبا حنيفة عن مسألة كانت أكبر من مستوى سنه وثقافته بدليل أن أبا حنيفة قال له: أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك؟ فقال محمد: من عندى، فقال أبو حنيفة: سألت سؤال الرجال، أدم الاختلاف إلينا وإلى الحلقة. ومن ذلك الحين أقبل محمد بن الحسن إلى العلم بكليته يلازم حلقة أبي حنيفة، ويكتب أجوبة المسائل في مجلسه ويدونها وبعد أن لازمه أربع سنين وفي وفيات الأعيان أنه حضر مجلس أبي حنيفة سنتين، على هذا الوجه توفي أبو حنيفة رحمه الله [12]، ثم أتم الفقه على طريقة أبي حنيفة عند أبي يوسف هذا ما يتعلق بفقه أبي حنيفة [13].

مشايخه في الفقه والحديث

تبين مما سبق أن الإمام محمد بن الحسن الشيباني بدأ حياته الفقهية بحضور حلقات الإمام أبي حنيفة، وبعد وفاته تفقه بأبي يوسف، ثم رحل إلى الإمام مالك وسمع منه الموطأ، فهؤلاء الأئمة الثلاثة هم أبرز أساتذة الإمام محمد، ثم كثر مشايخه وتنوعت ثقافته، وسمع منهم سماعًا كثيرًا، أذكر بإيجاز فيما يلي بعض شيوخه الذين لهم أكبر الأثر في تدوين شخصية محمد العلمية.

«١» الإمام أبو حنيفة:

هو الإمام فقيه الملة النعمان بن الثابت بن زوطي، الكوفي. ولد بالكوفة سنة (٨٠هـ) في زمن جماعة كثيرة من الصحابة رضي الله عنهم، ورأى أنس بن مالك غير مرة بالكوفة إذ قدمها أنس.

وقال يحيى بن معين: كان أبو حنيفة ثقة لا يحدث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظه [14]، ومحمد بن الحسن في فترة تلمذته للإمام أبي حنيفة لم يكن يكتفي بالسماع والمشاركة في تحقيق المسائل، فقد كان مع هذا يدون ويسجل ويحرص على ذلك حرصًا شديدًا، وكان لذلك أثر كبير في حياة محمد الباكرة بما قام به بعد أن استحصد علمه بتدوين الفقه وتصنيفه في صورة لم يسبق بها، وكانت نبراسًا لسائر الفقهاء من بعده.

وكان أبو حنيفة هو الأستاذ الذى اهتم بتربية الرجال أكثر من اهتمامه بتأليف الكتب. تخلف محمد عن الحلقة يومًا، وعرف الأستاذ أن تلميذه مريض فذهب يعوده ومرض أبو يوسف مرضًا خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة وكان معه تلميذه محمد، وقد توفي رحمه الله سنة (١٥٠هـ) وانتشر مذهبه في العراق والشام والهند ومصر والتركستان وباكستان والبرازيل وغيرها.

«٢» الإمام محمد بن يوسف (١٨٣هـ):

هو يعقوب بن إبراهيم، الإمام المجتهد المحدث، قاضي القضاة، ولد في الكوفة سنة ١١٣هـ. وقال محمد بن الحسن: مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضًا خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة ونحن معه، فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه، وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأومأ إلى الأرض.. ومما يدل على عظيم شغفه بالعلم أنه اشتغل به إلى أن لفظ نفسه الأخير.. وكان قد سكن ببغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وهو أول من دعي بقاضي القضاة.

«٣» الإمام مالك (١٧٩هـ):

هو شيخ الإسلام إمام دار الهجرة، أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني كان فقيهًا محدثًا يعد من التابعين، روى الخطيب بسنده إلى مجاشع بن يوسف أنه قال: كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتي الناس فدخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة هو حدث «وذلك قبل أن يدخل إليه لسماع الموطأ منه» فقال ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد. فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد. قال: فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل. قال من أين أنت؟ قال: من أهل هذه ـ وأشار إلى الأرض ـ فقال ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه. فقال: ما أكثر من لا تعرف. ثم نهض. قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. فقال مالك: محمد بن الحسن كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه وأشار إلى الأرض. قال: هذا أشد عليّ من ذاك [15]. وقال الشافعي: قال محمد بن الحسن أقمت عند مالك ثلاث سنين وكسرًا، وسمعت من لفظه سبع مئة حديث [16] وتوفي (١٧٩هـ) ودفن بالبقيع رحمه الله رحمة واسعة.

«٤» ابن جريج المكي (١٥٠هـ):

عبدالملك بن عبدالعزيز جريج، الإمام، الحافظ، شيخ الحرم، أبو خالد، القرشي، الأموي، المكي، صاحب التصانيف [17].

«٥» معسر بن كدام (١٥٣هـ):

هو معسر بن كدام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث، الإمام الثبت، شيخ العراق، أبو سليمان الهلالي الكوفي، الحافظ [18].

«٦» عمر بن ذر الهمداني (١٥٣هـ):

ابن عبدالله بن زرارة، الإمام الزاهد العابد، أبو ذر الهمداني الكوفي [19].

«٧» الأوزاعي (١٥٧هـ):

هو عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد، شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، أبو عمرو الأوزاعي، وكان مولده في حياة الصحابة، ولد سنة (٨٨هـ) في مدينة بعلبك. أحد الأئمة المجتهدين ومن أفاضل المحدثين.

«٨» عبدالله بن المبارك:

هو عبدالله بن المبارك أبو عبدالرحمن المروزي مولى بني حنظلة، ولد سنة (١١٨هـ)

---

(١٢) حينما توفي أبو حنيفة كان محمد بن الحسن في الثامنة عشرة من عمره.

(١٣) بلوغ الأماني للشيخ الكوثري صـ٥ ـ٦.

(١٤) شرح الزيادات جـ١ صـ٢٩.

(١٥) تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٦) سير اعلام النبلاء جـ٩ ص١٣٥.

(١٧) شرح الزيادات جـ١ صـ٣٢.

(١٨) شرح الزيادات جـ١ صـ٣٤.

(١٩) سير اعلام النبلاء جـ٦ صـ٢٨٥.

وتوفي في العراق سنة (١٨١هـ)[٢٠].

«٩» سفيان الثوري (١٦١هـ):

هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب، شيخ الإسلام، إمام الحافظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبدالله الثوري الكوفي المجتهد[٢١].

«١٠» داود الطائي (١٦٢هـ):

الإمام الفقيه، الزاهد، أبو سليمان، داود بن نفير الطائي، الكوفي، ولد بعد المائة بسنوات، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي.

«١١» القاسم بن معن

بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أبو عبدالرحمن الهذلي المسعودي الكوفي، الإمام الفقيه المجتهد، قاضي الكوفة، ومفتيها في زمانه، وكان ثقة أخباريا، نحويا، كبير الشأن.

هؤلاء أشهر أساتذة الإمام محمد بن الحسن، وليس من الميسور الإحاطة بجميع شيوخه في هذا المختصر، والذي يطلع على «الموطأ» برواية الإمام محمد، و«كتاب الآثار» و«كتاب الحجة على أهل المدينة» يظهر له وفرة شيوخ الإمام محمد الشيباني. وقد ذكر الشيخ زاهد بن الحسن الكوثري في «بلوغ الأماني» من شيوخ الإمام محمد أسماء نحو سبعين شيخا، فيهم: الكوفي، البصري، المدني، المكي، الواسطي، الشامي، واليمامي، ثم قال: وغير هؤلاء من أهل تلك البلاد وغيرها[٢٢].

ذكر بعض تلامذته: وانتهت إليه رئاسة الفقه بالعراق بعد الإمام أبي يوسف، وطار صيته في الآفاق، واشتهر أمره في جميع الأمصار، فقصده أناس كثيرون من شتى البلاد للأخذ من منهله والارتواء من معينه، لقد أخذ العلم من الإمام محمد الشيباني خلق كثير من العلماء والأئمة الأعلام، أثرى بهم العلم وانتشر في كل مكان، وأذكر باختصار أشهرهم وأكثرهم أخذا للعلم وتعليما للناس.

وتخرج به وتفقه عليه أئمة مثل الإمام المعظم والمجتهد المقدم أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي أحد الأئمة الأربعة.

ويحكي الإمام الشافعي عن قوة عقله قائلا: «جالسته عشر سنين، وحملت من كلامه حمل جمل، لو كان كلم على قدر عقله ما فهمنا كلامه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا». وأبي عبيد القاسم بن سلام الإمام المجتهد، وأسد بن الفرات القيرواني فاتح صقلية ومدون مذهب مالك وشيخ سحنون. وكتب عنه إمام الجرح والتعديل أبو زكريا يحيى بن معين: الجامع الصغير.

ومن تلامذته المشهورين الذين رووا كتبه، وأماليه، وأصبحوا أعيان عصرهم: فقيه المشرق وإمام الحنفية في ما وراء النهر أبو حفص الكبير البخاري أحمد بن حفص العجلي، والعلامة الإمام الفقيه المحدث الصدوق أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني، وقاضي بغداد العلامة أبو عبدالله محمد بن سماعة التميمي الكوفي، والإمام الحافظ الفقيه أبو الحسن وأبو محمد علي بن معبد بن شداد الرقي والعلامة الفقيه أحد أئمة

(٢٠) تاريخ بغداد جـ١٠ صـ١٦٨.

(٢١) شرح الزيادات جـ١ صـ٣٧.

(٢٢) انظر: بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للشيخ الكوثري صـ٧ ـ ٨.

السنة هشام بن عبيد الله الرازي السني، وشعيب بن سليمان الكيساني راوي الكيسانيات عنه، وعلي بن صالح الجرجاني راوي الجرجانيات عنه، وإسماعيل بن توبة القزويني راوي السير الكبير عنه، وإبراهيم بن رستم المروزي راوي النوادر عنه وأحد أئمة الأعلام، وفقيه العراق قاضي البصرة أبو موسى عيسى بن أبان البصري راوي الحجج على أهل المدينة عنه.

واستقصاء جملة من روى عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني أو أخذ عنه لا يمكن في هذه الترجمة الوجيزة فإنهم بالكثرة الكاثرة، فاكتفي هنا بهذا القدر[٢٣].

كلمات من ثناء أهل العلم عليه: نظرا إلى مناقب الإمام محمد العلمية والخلقية ومكانته السامية أشاد كبار الأئمة بفضائله وأكثروا بالثناء عليه وإليك بعض كلمات لبعض هؤلاء الأجلة مما نقله الثقات في كتبهم واكتفي منه ما يلي:

شيخه الإمام أبو يوسف رحمه الله، كان يقدر زميله وتلميذه، ويعترف بفضله، جاء في «الأنساب»: «عن أبي جعفر الهندواني: يحكي عن أبي يوسف أن محمد بن الحسن كتب إليه من الكوفة ـ وأبو يوسف ببغداد ـ: أما بعد، فإني قادم عليك لزيارتك، فلما ورد عليه كتاب محمد بن الحسن، خطب أبو يوسف ببغداد، وقال: إن الكوفة قد رمت إليكم أفلاذ كبدها، فهذا محمد بن الحسن قادم عليك، فهيئوا له العلم».. وقال أيضا إنه أعلم الناس وقال مرة: إنه من أعلم الناس.

روى عن الإمام الشافعي رحمه الله ثناء بالغ في حق شيخه محمد الشيباني، بأسانيد صحيحة، كما هو مدون في الكتب، ولقد أنصف الإمام الشافعي حيث قال: «من أراد الفقه فليلزم أصحاب أبي حنيفة فإن المعاني قد تيسرت لهم، والله ما صرت فقيها إلا بكتب محمد بن الحسن الشيباني. وذكر الحافظ ابن عبدالبر: «كان الشافعي رحمه الله يثني على محمد بن الحسن ويفضله ويقول: ما رأيت قط رجلا سمينا أعقل منه». وقال الشافعي أيضا: «ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام والعلل والناسخ والمنسوخ من محمد بن الحسن»، وقال الشافعي أيضا: «ما رأت عيناي مثل محمد بن الحسن، ولم تلد النساء مثله» وعن «الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول: لو أشاء أن أقول: نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن، لقلت لفصاحته». وقال الإمام الشافعي أيضا: «ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن كأنه عليه نزل» وذكر الكردي في «مناقب أبي حنيفة» عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: لقيته أول ما لقيته وهو قاعد في الحجرة، وقد اجتمع عليه الناس، فنظرت إلى وجهه، وكان من أحسن الناس وجها، فإذا جبينه كأنه عاج، ثم نظرت إلى لباسه وكان من أحسن الناس لباسا، وسألته عن مسألة فيها خلاف، وإني أطمع أن يلحقه ضعف أو يلحن في كلامه، فمر كالسهم فقوى مذهبه ولم يلحن في كلامه، وقال الشافعي أيضا: كان محمد بن الحسن الشيباني إذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل عليه لا يقدم حرفا ولا يؤخر.

(٢٣) انظر: كتاب الحجة على أهل المدينة جـ١ صـ٨، وكتاب الكسب صـ٣٢ ـ ٣٤ شرح الزيادات جـ١ صـ٤٧، بلوغ الأماني صـ٩ ـ ١٠، تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٢.

روى الخطيب بسنده إلى إبراهيم الحربى أنه قال: قلت لأحمد بن حنبل، هذه المسائل الدقاق من أين لك؟ قال: من كتب محمد بن الحسن الشيبانى. وقال الشافعى أيضاً: ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة فى وجهه، إلا محمد بن الحسن، وقال أيضاً: حملت من علمه وقر بعير.

قال الطحاوى فحدثنى أبو خازم، قال حدثنى ابن بنت محمد بن الحسن، قال قلت لأمى: صفى ما كان جدى يعمل فى منزلته؟ قالت: كان ـ والله ـ يا بنى، يكون فى هذا البيت وحوله الكتب، ما كنت أسمع له كلمة غير أنى كنت أراه يشير بحاجبه وإصبعه. وروى الخطيب بسنده عن محمد بن سماعة أنه قال: إن محمد بن الحسن قال لأهله لا تسألونى حاجة من حوائج الدنيا تشغلوا قلبى، وخذوا ما تحتاجون إليه من وكيلى، فإنه أقل لهمى، وأفرغ لقلبى [٢٤].

مؤلفات الإمام محمد بن الحسن الشيبانى: فقد ظهر علم محمد بن الحسن بتصانيفه كالجامعين والمبسوط والزيادات والنوادر حتى قيل إنه صنف فى العلوم الدينية تسعمائة وتسعة وتسعين كتاباً.

ولا يخفى مبلغ استمداد الكتب المدونة فى المذاهب من كتب محمد بن الحسن فالأسدية التى هى أصل المدونة فى مذهب الإمام مالك إنما ألفت تحت ضوء كتب محمد بن الحسن والإمام الشافعى إنما ألف قديمه وجديده بعد أن تفقه على محمد بن الحسن وكتب كتبه وحفظ منها ما حفظ، وأحمد بن حنبل كان يجاوب فى المسائل من كتب محمد بن الحسن كما سبق آنفاً.

إن كتب محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله تمثل المصادر الأولية الأساسية التى يعول عليها فى المذهب الحنفى فقد ارتبط المذهب الحنفى بكتبه ارتباطا وثيقا حتى ليمكن القول بأن المذهب الحنفى هو كتب محمد بن الحسن.

وكتب الإمام محمد الفقهية ليست كلها فى درجة واحدة من حيث الثقة بها، بل يقسمها العلماء من هذه الناحية على قسمين:

القسم الأول: كتب ظاهر الرواية، هى المبسوط «الأصل» والسير الصغير والسير الكبير والجامع الصغير والجامع الكبير والزيادات، وتسمى «الأصول» وسميت بظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهى ثابتة عنه، إما متواترة أو مشهورة.

والقسم الثانى: كتب الإمام محمد فى الفقه لم ترو عنه برواية مشهورة وتسمى «النوادر» أو «غير ظاهر الرواية» لورود تلك الكتب بطريق الآحاد دون الشهرة والتواتر.

وإليك الحديث عنها بشىء من التفصيل:

أولا: القسم الأول فإن الكتب الستة للإمام محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله أساس للمذهب الحنفى عول عليه فقهاء الحنفية فى كل عصر ومصر إجماعا منهم على أنه المصدر الموثوق لمعرفة المذهب.

(٢٤) انظر: شرح الزيادات جـ١ صـ٤٧ ـ ٤٨، كتاب الكسب صـ٣١، ٤٠، الفتح المبين صـ٣٦، وفيات الأعيان جـ٤ صـ١٨٤، الجواهر المضية فى طبقات الحنفية جـ٣ صـ١٢٤، تاريخ بغداد جـ٢ صـ١٧٧.

ومن المؤسف جداً، أن هذه الكتب الستة وشروحها الضافية افتقد اليوم معظمها فلا يوجد منها إلا الجامع الصغير والجامع الكبير وأبواب من المبسوط الذى يسمى الأصل وأما من الشروح الكبيرة فلا يوجد إلا شرح السير الكبير للسرخسى رحمه الله، والشروح الباقية لا يوجد منها إلا نسخ يسيرة خطية فى بعض المكتبات.

«١» «كتاب الأصل»

المعروف بالمبسوط للإمام محمد: روى هذا الكتاب من تلاميذه بطرق عديدة، ومن أشهرها رواية أبى سليمان الجوزجانى، وهى التى انتشرت وأصبحت متداولة بين أهل العلم وروى أن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ استحسنه وحفظه وألف الأم على محاكاة الأصل، وأسلم رجل حكيم من أهل الكتاب بسبب مطالعته قائلا: هذا كتاب محمدكم الأصغر فكيف كتاب محمدكم الأكبر وهو فى ستة مجلدات وكل مجلد منها نحو خمسمائة ورقة، وتوجد عدة نسخ كاملة منه فى خزانات اسطنبول منها ما هو فى ستة مجلدات وهى نسخة مكتبة فيض الله ومنها ما هو فى أربعة مجلدات وهى نسخ مكتبات جار الله ويوجد فى مكتبة الأزهر مجلد من أوله وفى دار الكتب المصرية عدة مجلدات باسم الأصل وباسم كتاب فى الفروع من غير أن تتم بها نسخة واحدة كما ذكرها الشيخ الكوثرى فى بلوغ الأمانى.

«٢» «الجامع الصغير»

اشتمل هذا الكتاب على ما رواه محمد عن أبى يوسف لذلك كان يصدر كل باب من هذه الأبواب بهذه العبارة «محمد عن يعقوب عن أبى حنيفة» وكان سبب تأليفه أن أبا يوسف طلب من محمد بن الحسن بعد فراغه من تأليف المبسوط أن يؤلف كتابا يجمع فيه ما حفظ عنه مما رواه له عن أبى حنيفة فجمع هذا الكتاب ثم عرضه عليه فأعجبه فقد اختلف العلماء فيمن قام بترتيبه على قولين:

القول الأول: أنه أبو عبدالله الحسن بن أحمد الزعفرانى، الفقيه الحنفى.

القول الثانى: أنه أبو طاهر محمد بن الدباس.

وقد اشتمل هذا الكتاب على ألف وخمسمائة واثنين وثلاثين مسألة، وذكر الاختلاف فى مائة وسبعين مسألة وأشاد فقهاء المذهب بفضله كثيراً، فقالوا: «مشايخنا كانوا يعظمون هذا الكتاب تعظيما، ويقدمونه على سائر الكتب وكانوا يقولون لا ينبغى لأحد أن يتقلد القضاء ما لم يحفظ مسائل هذا الكتاب» وكان الإمام أبو يوسف مع جلالة قدره لا يفارق هذا الكتاب فى حضر ولا سفر، وكيف يفارقه وهو الذى طلب من محمد بعد فراغه من تأليف ـ المبسوط ـ وطبع الجامع الصغير هذا فى الهند بتعليق الشيخ عبدالحى اللكنوى وفى اسطنبول ومصر ولبنان.

«٣» «الجامع الكبير»

من أهم مصنفات الإمام محمد وأعمقها وأدقها فقها، ويعتبر من أجل كتب ظاهر الرواية لاحتوائه على مسائل عويصة وفروق فقهية دقيقة، ولذا كان يعد معيارا لدى الفقهاء يختبر به تفاوت مداركهم ومبلغ يقظتهم فى الفقه، يقول الإمام السرخسى رحمه الله: «من أراد امتحان المتبحرين فى الفقه، فعليه بإيمان الجامع» وروى ابن أبى العوام بسنده عن

الأخفش ثناء بالغا فى حق هذا الكتاب وقال عنه ابن شجاع: «لم يؤلف فى الإسلام مثله فى الفقه» وقد صنفه مرتين: صنفه أولا ورواه عنه أصحابه أبو حفص الكبير وأبو سليمان الجوزجاني وغيرهما، ثم نظر فيه ثانيا فزاد فيه أبوابا ومسائل كثيرة، وحرر عباراته فى كثير من المواضع حتى صار أحسن لفظًا وأغزر معنى ورواه أصحابه ثانيا، وتوجد نسخ عديدة من الجامع الكبير فى مكتبات اسطنبول ونظرًا إلى صعوبة الكتاب ودقته شرحه فقهاء كثيرون منهم: الإمام البزدوى والسرخسي والسمرقندى وقاضى خان وغيرهم.

«٤» «السير الصغير»

بين الإمام فى هذا الكتاب أحكام الجهاد وما يجوز فيه وما لا يجوز، وأحكام الموادعة، وأحكام الأمان، وأحكام الغنائم والفدية وغير ذلك، والأحكام المذكورة فيه من روايته عن أبى يوسف عن أبى حنيفة.

«٥» «السير الكبير»

هذا الكتاب آخر تصنيف صنفه الإمام محمد من كتب ظاهر الرواية وقد احتفى الرشيد بهذا الكتاب جدًا وأسمعه ابنيه الأمين والمأمون وعظم قدر هذا الكتاب معروف، ومن الموضوعات التى اعتنى بها كثيرًا فى هذا الكتاب موضوع «الأمان» فقد عقد بابا مفصلا فيه، وأفاض فى بحثه، وبنى مسائله على أصول فقهية ونحوية مهمة، ولذلك نوه الإمام السرخسي بهذا الجانب فى شرح الكتاب، فقال: «أعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها فى أبواب الأمان» فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه.. وقيل من أراد امتحان المتبحرين فى النحو والفقه فعليه بأمان السير وقد قال الدكتور على أحمد: فى كتابه «الإمام محمد بن الحسن الشيبانى نابغة الفقه الإسلامي»: «ولما توغل الباحثون المعاصرون فى هذا الموضوع تحت هذا العنوان الجديد - القانون الدولى العام - وجدوا كتابه «السير الكبير» يغطى كافة جوانبه، فشهد أهل الغرب والشرق بعبقريته وبراعته فى هذا المجال، وأسسوا جمعيات تنتمى إلى هذا الإمام الجليل» رحمه الله.

وقد شرحه جماعة من الأئمة وقد طبع شرح السرخسي عليه فى الهند فى أربعة مجلدات، وفى لبنان، وتوجد نسخ خطية من السير الكبير بمكتبات اسطنبول.

«٦» «الزيادات»

هذا هو الكتاب السادس من كتب ظاهر الرواية وقد اشتمل على مسائل لم تشتمل عليها الكتب الخمسة السابقة لذا سمى بالزيادات حيث إنه لما فرغ من تصنيف - الجامع الكبير - تذكر فروعا لم يذكرها - فى الكبير - فصنفه ثم تذكر فروعا أخرى فصنف زيادات أخرى وسماها - زيادات الزيادات - وتوجد نسخ منها فى خزانات اسطنبول وقد اهتم علماء الحنفية بهما وتناولوهما بالشرح والاختصار وتعتبر الزيادات، وزيادات الزيادات - شيئا واحدا حيث اندمجت هذه فى تلك وعنى كثير من الفقهاء بشرح الزيادات عناية كاملة، منهم الإمام السرخسي، وبرهان الدين بن مازة، والإمام العتابى، والإمام قاضى خان، وشمس الأئمة الكردرى وغيرهم، إلا أننا لا نجد الآن فى خزائن مخطوطات العالم سوى شرح العتابى، وشرح قاضى خان وطبع شرح الإمام قاضى خان عليه فى لبنان.

هذه هى كتب ظاهر الرواية التى تعتبر الأصل الذى يرجع إليه فى فقه أبى حنيفة وأصحابه وسميت بظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهى ثابتة عنه، إما متواترة أو مشهورة.

وهناك ثلاثة كتب أخرى من مؤلفات الإمام محمد بن الحسن يمكن إلحاقها بالقسم الأول لشهرتها وأهميتها والاعتماد عليها وهى: «موطأ الإمام محمد» فى الحديث، و«كتاب الآثار» فى الحديث و«كتاب الحجة على أهل المدينة» فى الحديث والفقه المقارن.

والقسم الثانى: كتب الإمام محمد فى الفقه لم ترو عنه برواية مشهورة وتسمى «النوادر» أو «غير ظاهر الرواية» لورود تلك الكتب بطريق الآحاد دون الشهرة والتواتر.

فمنها الرقّيات:

وهى المسائل التى فرعها محمد بن الحسن حينما كان قاضيا بالرقة رواها عنه محمد بن سماعه.

الكيسانيات:

وهى التى رواها عنه شعيب بن سليمان الكيسانى وتوجد قطعة منها فى المكتبة الآصفية فى حيدر آباد الدكن بالهند.

الجرجانيات:

وهى مسائل جمعها بجرجان ويرويها على بن صالح الجرجانى عن محمد بن الحسن.

الهارونيات:

وهى مسائل جمعها لرجل يسمى هارون.

وله كتاب الكسب:

يشرح جوانب مهمة من هذا الموضوع أحسن شرح، وبذلك يعد الإمام محمد - بحق - أول من فتق البحث عن قضايا الأموال فى الإسلام بشكل مستقل.

وقد توجهت عناية بعض الاقتصاديين الإسلاميين المعاصرين إلى دراسة كتاب «الكسب» ومؤلفه الإمام محمد، نظرًا إلى أنه الرائد فى موضوع «الكسب» ويتوافق مع كتابه كثير من مباحث «الاقتصاد الإسلامي» المعاصر، ووجدوا فيه ثروة غنية تصلح أن تكون أساسا لموضوع «الاقتصاد» بالتعبير المعاصر.

وبالجملة ففقه الأئمة الفقهاء المتبوعين عامة وفقه الإمام أبى حنيفة والعراقيين خاصة مدين للإمام محمد بن الحسن بكتبه، فهى التى حفظت فقه العراقيين وأبقته مرجعا للأخلاف يرجع إليه، ومنهلا يستقى منه، وهى التى جرى على نهجها تدوين فقه باقى المذاهب المتبوعة، وبذلك يصدق على الإمام محمد القولة المشهورة: «وخبزه - أى الفقه - محمد بن الحسن، فسائر الناس يأكلون من خبزه» وتمام هذا الكلام ما ذكره الحصكفى فى «الدر المختار» وقد قالوا: الفقه زرعه عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، وسقاه علقمة، وحصده إبراهيم النخعي، ودرسه حماد، وطحنه أبو حنيفة، وعجنه أبو يوسف، وخبزه محمد، فسائر الناس يأكلون من خبزه وقال العلامة ابن عابدين رحمه الله فى «رد المحتار» وهو يشرح الكلام المذكور: «قوله زرعه» أى أول من تكلم باستنباط فروعه عبدالله بن مسعود الصحابى الجليل رضى الله عنه «قوله وسقاه» أى أيده ووضحه علقمة بن قيس بن عبدالله النخعي الفقيه الكبير «قوله

وحصده» أى جمع ما تفرق من فوائده ونوادره وهيأه للانتفاع به إبراهيم بن زيد أبو عمران النخعى الإمام المشهور «قوله ودرسه» أى اجتهد فى تنقيحه وتوضيحه حماد بن مسلم أبى سليمان الكوفى شيخ الإسلام «قوله وطحنه» أى أكثر أصوله وفرع فروعه وأوضح سبله إمام الأئمة وسراج الأمة أبو حنيفة النعمان، فإنه أول من دون الفقه ورتبه أبوابا وكتبا على نحو ما عليه اليوم وتبعه الإمام مالك فى «موطئه» ومن كان قبله إنما كانوا يعتمدون على حفظهم «قوله وعجنه» أى دقق النظر فى قواعد الإمام وأصوله، واجتهد فى زيادة استنباط الفروع منها والأحكام تلميذ الإمام الأعظم أبو يوسف يعقوب قاضى القضاة، وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفه «قوله وخبزه» أى زاد فى استنباط الفروع وتنقيحها وتهذيبها وتحريرها بحيث لم تحتج إلى شىء آخر، الإمام محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة وأبى يوسف، محرر المذهب النعمانى، المجمع على فقاهته ونباهته، فسائر الناس يأكلون من خبز محمد – مؤلفاته – الذى خبزه من عجين أبى يوسف ومن طحين أبى حنيفة، ولذا روى الخطيب عن الربيع قال: سمعت الشافعى يقول: الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه، كان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه.

وفاته:

قال محمد بن سماعة فى حديثه: قرب الرشيد محمد بن الحسن وولاه قضاء القضاة وحمله معه إلى الرى، وبقى الإمام محمد كذلك على منصب قضاء القضاة يؤدى فرائض هذا المنصب، ويخدم العلم وطلبته إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته سنة ١٨٩هـ، وقع موته بالرى وقد حمله إليه الرشيد معه، ومات فى بيت صاحبه الفقيه هشام بن عبيد الله الرازى، وتوفى معه إمام النحو الكسائى، رحمهما الله تعالى، ودفن بجبل «طبرك» بقرب دار هشام بن عبيد الله الرازى لأنه كان نازلا عليه، والكسائى بقرية «رنبوية» (٢٥) وبينهما أربعة فراسخ وكان معسكر الرشيد أربعة فراسخ نزل الإمام محمد فى جانب والإمام الكسائى فى جانب ففزع بذلك الرشيد وقال: دفنت الفقه والعربية بالرى.

وذكر الكفوفى: «قيل رؤى محمد فى المنام بعد وفاته فقيل له: كيف كنت فى حال النزع؟ فقال: كنت متأملا فى مسألة من مسائل المكاتب فلم أشعر بخروج روحى وقد روى عن إسماعيل بن أبى رجاء أنه قال: رأيت محمدا فى المنام بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى وأدخلنى الجنة، ثم قال: لو أردت أن أعذبك ما جعلت هذا العلم فيك فقلت له: فأين أبو يوسف؟ قال: فوقنا بدرجتين قلت: فأبو حنيفة؟ قال: هيهات، ذاك فى أعلى عليين كيف وقد صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وحج خمسا وخمسين حجة، ورأى ربه فى المنام مائة مرة(٢٦).

أغدق الله تبارك وتعالى على ضريحه سجال رحمته ورضوانه ونفعنا بعلومه بمنه وكرمه إنه قريب مجيب والله أعلم بالصواب.

(٢٥) رنبوية: بفتح الراء وسكون النون وفتح الباء الموحدة والواو وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة.

(٢٦) انظر: بلوغ الأمانى ص٦٢ – ٦٧، شرح الزيادات ج١ ص٥١ – ٥٧ رد المحتار ج١ ص٣٤ – ٣٥، كتاب الكسب ص٤٨ – ٤٩

المقصد التربوى للحج فى الجانب الجسدى للفرد المسلم


للأستاذ الدكتور: صلاح سلطان

يعد الحج كالصيام، من العبادات البدنية الروحية، وآثاره فى إصلاح الجسد كثيرة منها مايلى:

أولاً: من شروط الحج الاستطاعة لقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

(آل عمران: ٩٧)

ومن الاستطاعة القدرة البدنية على مناسك الحج والسفر وآلامه، يقول ابن حزم: استطاعة السبيل صحة الجسم والطاقة على المشى(١)؛ لأن الحج جهاد لا شوكة فيه، ويحتاج إلى قوة بدنية كى ينهض بأداء الشعائر وقد شرع الإسلام لمن توفرت لديه الاستطاعة المالية دون البدنية ألا يحرم الأجر، ويشعر بأن ضعف جسمه حال بينه وبين ثواب الحج، وربما ضاعف أمراضه، وانخفضت روحه المعنوية، أما إذا أرسل أحدا مكانه شعر بعظيم الارتياح مما يكون له أثر مباشر على تحسن صحته، وفى هذا روى البخارى ومسلم بسندهما، عن الفضل ابن عباس أن امرأة من خثعم جاءت النبى ﷺ عام حجة الوداع فقالت: يارسول الله، إن فريضة الله على عباده الحج، أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يستوى على الراحلة، فهل يقضى عنه أن أحج عنه؟ قال: «نعم» (٢)

هذا يدل على مراعاة الإسلام للحالات الصحية، وألا يكلف أحد فوق طاقته البدنية مع عدم حرمانه من الثواب بأن ينيب عنه غيره إن استطاع ماليا.

ثانيا: من الاستطاعة أيضا توفر أمن الطريق، حتى لا يعتدى قاطع طريق، أو عدو مترصد أو بغاة معتدون على حجاج بيت الله، يسرقون أموالهم، أو يأسرون أفرادهم، أو يضربون أجسامهم، أو يقتلونهم، هذا مما يسقط الحج عن المستطيع ماليا وبدنيا، خشية أن يتعرض لأذى فى نفسه أو جسمه أو عرضه أو ماله (٣)

ثالثا: لا يخرج المسلم للحج متشبعا

١- المحلى «لابن حزم» (٣/٥٣)

٢- «اللؤلؤ والمرجان» كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم رقم (٨٤٤)

٣- شرح فتح القدير لابن الهمام (١/٤١٨) والمغنى لابن قدامة (٥/٨)

بالعواطف النبيلة، وليس لديه مؤنته من نفقات المركب والمأكل والمشرب والمبيت، ولا يجوز له أن يخرج معتمدا على التسول؛ لأنه ربما أصاب ما يقيم صلبه أولاً، فيتعرض لأضرار بدنية كثيرة، وسبق أن رأينا نهى النبى ﷺ أهل اليمن عن الحج بغير زاد، واشترط الفقهاء أن يكون هذا الزاد الكافى له، ولأهله وأولاده ومن يعولهم فى بلده[4]، فلا يأخذ الزاد ويدعهم يتضورون جوعًا، أو يترك أولاده فى العراء ويذهب إلى الحج، وفى ذلك ضمان لحد معقول من الإشباع للحاجات الضرورية والحاجية للحاج ومن يعولهم، فلا نجد فى ديار الإسلام من يقيم فريضة على التراخى ويترك فريضة على الفور.

رابعًا: يسن للحاج والمعتمر قبل الإحرام أن يحلق عانته، وينتف إبطه، ويقلم أظافره، ويقص شاربه، ويغتسل ويتطيب، ويسن له مع إحرامه أن يزيل الأوساخ ويغتسل عند دخوله مكة وعند الطواف، وعند دخول منى وعرفة، وهذا كله يدل على أهمية العناية بالبدن فى الحج، ويسن تغيير الرداء والإزار كلما اتسخا حتى يبقى المسلم محافظًا على سمته الأصيل فى طهارة ونظافة تجعله كالشامة فى الناس، وهذه الآداب كلها تدل على أن الانهماك فى المطالب الروحية لا يجوز أن يشغل الإنسان عن النظافة الحسية؛ لأن الارتباط بينها جد وثيق، والمسلم الذى لا يغتسل قبل الطواف قد يخرج إخوانه الطائفين من إخباتهم وتبتلهم، عندما تزكم أنوفهم هذه الروائح الكريهة، هذا فضلا عن آثار الحركة الكثيرة فى الحج فى تحمل الأتربة، وخروج العرق، وهذا قد يسد مسام الغدد العرقية فيؤدى إلى أمراض جلدية، وبقاء نفايات سامة بداخل الجسم، أو بجوار البحر، وفى العادة يكون أغلب الطرق على حواف البحار والأنهار، فهذا من التوسعة على الناس فى طعامهم، وتخصيص الطعام الخارج من البحر بالنص حتى تتوافر مطالب الجسد الأساسية.

خامسًا: من أحكام الحج ما يجعل الحفاظ على الصحة العامة أسبق من أداء شخص مريض مرضًا معديًا فريضة الحج، فأسقط الإسلام عنه الفريضة حتى لا يؤذى الناس بمرضه المعدى، ونلحظ هذا الحجر الصحى فى أحكام الحج، فيما رواه مالك بسنده عن ابن أبى معبد أن عمر بن الخطاب مر بامرأة مجذومة، فقال لها ياأمة الله لا تؤذى الناس، لو جلست فى بيتك؟، فجلست، فمر بها رجل بعد ذلك، فقال لها إن الذى قد نهاك قد مات فاخرجى، فقالت: ما كنت لأطيعه حيًا وأعصيه ميتا[5]، هذا الأمر الذى فعله سيدنا عمر حيث رأى المرأة تطوف حاملة مرضًا معديًا وهو الجذام، فأمرها أن تجلس فى البيت، ففعلت راضية محتسبة أجرها عند الله تعالى، وهى ترى فى كلام عمر حكمًا شرعيًا لا أمرًا إداريًا تجوز مخالفته بعد موته، وهو رقى سواء فى الحكم أو فى الامتثال له لا تجد له مثيلاً فى واقعنا المعاصر.

سادسًا: إذا لم يكن المرض معديًا، فإنه لا حرج فى الحج إن قدر على مناسكه، ولكن رحمة الإسلام بهؤلاء يسرت عليهم بعض الأحكام، من ذلك ما يلى:

أ- ما رواه البخارى بسنده عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: طوفى من وراء الناس وأنت راكبة[6].

ب- ما رواه الشيخان بسندهما عن عائشة قالت: نزلت المزدلفة، فاستأذنت النبى ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة بطيئة فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس[7].

جـ- ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنا ممن قدم النبى ﷺ ليلة المزدلفة فى ضعفة أهلة[8].

د- جواز حلق الشعر لمن آذاه الهوام لما رواه الشيخان بسندهما عن كعب بن عمر قال: حملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهى، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك، فنزلت فى خاصة، وهى لكم عامة[9] يقصد الآية

﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

إلى آخر الآية.

هذه الأحكام وغيرها تشير إلى مراعاة الأحوال الصحية فى أحكام الحج، فلا يكلف الناس مالا يطيقون، فمن ألم به مرض فى رحلة الحج طاف وسعى راكبا ولا حرج ومن خشى الزحام فى رمى الجمرة الكبرى خشية أن يؤذى فى بدنه، أو تؤذى المرأة فى عرضها، أو الأولاد فى صغرهم، فتختار وقتا مناسبا قبل الفجر كما فعلت أسماء، أوقبل الشروق كما فعلت سودة وابن عباس فى صغره، أو بعد المغرب كما فعلت أم سلمة مع ابنة أخ صفية بنت أبى عبيد فلا حرج عليهم، وكذلك رمى الجمرات قبل الظهر أوبعد المغرب خشية الزحام المضنى، كما أجاز الإسلام الحلق لمن تأذى بأى مرض جلدى، ويصوم بدلاً من ذلك، هذه الأحكام كلها تدور حول محور واحد هو عدم تكليف المسلم أو المسلمة فوق طاقته البدنية؛ لأن هذا قد يضره صحيا ضررًا بالغًا يصعب أو يستحيل علاجه.

سابعًا: الحج من أكثر العبادات التى تمارس فيها رياضة المشى من سفر فى الطريق ودخول مكة والمسجد الحرام إلى الطواف بالبيت ثم النزول إلى بئر زمزم ثم الصعود على جبل الصفا والسعى بين الصفا والمروة والرمل (الجرى الخفيف للرجال) بين الميلين الأخضرين، ثم الذهاب إلى منى يوم التروية، والخروج إلى عرفات يوم عرفة، والنفير إلى المزدلفة، ثم منى ثم رمى الجمرة الكبرى، ثم الذهاب للطواف بالبيت الحرام ثم العودة إلى منى والمبيت ثلاثًا فى كل يوم يرمى الجمرات الثلاث، هذه مسافات كبيرة يمشيها الإنسان، والمعروف أن رياضة المشى من أهم الرياضات التى تحافظ على الصحة الجسدية، وتخليص الجسم من الدهون والسموم المختزنة فى جسمه، فإذا أضيف إلى هذه الأماكن المقدسة أنها فى الغالب ذات أجواء حارة، يعنى أن المشى يكون مصحوبًا بالعرق الذى يذيب فى الجسم الكثير من نفاياته الضارة.

٤- «شرح فتح القدير لابن الهمام (٤١٨/٢).

٥- الموطأ، باب جامع الحج: ٤٢٤/١

٦- صحيح البخارى، كتاب الحج، باب المريض يطوف راكبا، رقم ١٦٣٣

٧- اللؤلؤ والمرجان، كتاب الحج، باب استحباب تقديم الضعفة من النساء، وغيرهم من المزدلفة إلى منى فى أواخر الليل قبل زحمة الناس رقم ٨١٣

٨- نفسه رقم ٨١٤

٩- اللؤلؤ والمرجان، كتاب الحج، باب جواز مد حلق المحرم رأسه إذا كان به أذى رقم ٧٥٠

العلوم الكونية فى خدمة الشريعة الإسلامية ومقاصدها



أ. د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة

اختلف العلماء حول ترتيب المقاصد الكلية الخمس للشريعة الإسلامية، والمتمثلة فى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ورأى بعضهم أنها مترابطة فيما بينها ترابطاً محكماً، بحيث يتوقف وجود بعضها على البعض الآخر، "فلو عدم الدين لعدم ترتب الجزاء المرتجى، ولو عدم المكلف لعدم من يتدين، ولو عدم العقل لارتفع التدين، ولو عدم النسل لم يكن فى العادة بقاء، ولو عدم المال لم يبق عيش". أو بعبارة أخرى -أن هذه المقاصد يؤثر بعضها فى بعض، ويتداخل بعضها مع البعض الآخر، وأن حفظ بعضها ينعكس تلقائياً فى حفظ البعض الآخر، وانخرام بعضها يؤثر فى البعض الآخر، فهى أشبه بحلقات السلسلة الواحدة التى يرتبط بعضها ببعض، ويأخذ بعضها بيد بعض، ورأى بعض المعاصرين فى فكرة المنظومة الدائرية بديلاً عن الترتيب التقليدى[1].

ولما كان الفكر المقاصدى هو الذى يمثل العُدَّة العلمية (مبادئ وتقنيات ومفاهيم) التى يُتوسَّل بها فى التوصل إلى مقاصد الشريعة، سواء تمثلت فى المعانى والدلالات المقصودة من خطابها، أو تمثلت فى الغايات والأهداف المصلحية المقصودة من تشريع أحكامها العملية والاعتقادية، فإنه -أى الفكر المقاصدى- بذلك يُعدُّ جانباً أساسياً من الثقافة الفقهية والأصولية، باعتباره ممارسة اجتهادية فى الشريعة الإسلامية بوصفها خطابات أمرنا بالسعى المستمر للإفادة من معانيها، وبوصفها كذلك أحكاماً عملية تنطوى على غايات مصلحية تقاس مشروعيتها بمدى تطابقها مع الفطرة الإنسانية النقية بحسب ما يقصده الشارع.

وسوف نعرض فى هذه الدراسة لبيان الدور الذى يمكن أن تؤديه العلوم الكونية

(١) راجع تفاصيل ذلك فى:
د. جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سورية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

وتقنياتها لخدمة الشريعة الإسلامية وتفعيل مقاصدها فى الواقع وأولوياته، ولبيان أهمية كل من السنن الكونية والمنهجية العلمية فى الفكر المقاصدى، وأن الاستخدام المتوازن للتكنولوجيا وعلومها يلبى متطلبات كل مقاصد الشريعة.

مكانة الفطرة والمنهجية فى الفكر المقاصدى

إن الدين الصحيح -فيما يرى كثير من الباحثين المتخصصين فى دراسة الأديان، هو دين واحد فى أصله وجوهره المبنى على عقيدة التوحيد، أوحى به الله للمصطفين من الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(سورة الشورى:١٣)

وقال جل شأنه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(سورة الأنبياء: ٢٥).

كما أن الدين الصحيح مفطور[2] فى كينونة الإنسان منذ أن خلقه الله

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

(سورة الروم: ٣٠)،

ومعرفة الإنسان بخالقه معرفة فطرية ترجع إلى الميثاق أو العهد الذى أخذه الله على بنى آدم وهم فى مرحلة "الذر"، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(الأعراف: ١٧٢)،

وعلى ذلك فإن الرسالات الإلهية التى أوحى الله بها للأنبياء والمرسلين قد توالت لتصحيح الانحرافات التى وقعت من وقت

(٢) الفطرة فى اللغة: الخِلْقَةُ التى يكون عليها كل موجود أوَّل خلقه، والطبيعة السليمة التى لم تُشَب بعيب، ومن مرادفاتها: الجبلة، السليقة، السجيَّة.

وفى اصطلاح الفلاسفة: الفطريَّة Inneism: القول بأن الأفكار والمبادئ جبلِّية، وموجودة فى النفس قبل التجربة والتلقين، أى موجودة فى الذهن منذ النشأة، وهى مذهب الفطرة.

والفطرى Innate: ما يخص طبيعة الكائن ويصاحبه منذ نشأته، ومنه الأفكار الفطرية، وهى التى لم تُستمد من التجربة، والفطرى: اللازم والمتأصل فى صلب الشىء، نفسه أو طبيعته الأساسية، أو ما ينشأ بالسليقة، ويقابل المكتسب Acquired، وهو كل ما يضاف إلى القدرات الفطرية عن طريق النشاط التلقائى أو التجربة والتدريب، والعلم المكتسب ما يحصل بالتجربة والنظر العقلى الشخصى.

والجبلية Nativism: اتجاه يسلّم بفطرية الطبائع والصفات، وقد يمتد إلى نظرية المعرفة، على أنه ينبغى ألا نبالغ فى التقابل بين المكتسب والفطرى، إذ أن كل صورة من صور السلوك إنما تكون نتيجة تفاعل الوراثة وعوامل الاكتساب بعضها مع بعض.
راجع: المعجم الوجيز، والمعجم الفلسفى، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

لآخر فى تاريخ البشرية، ولتطهير الدين من مظاهر الوثنية والانحراف عن الدين الصحيح، التى كانت تطرأ عندما توشك رسالة أن تسلم الراية لغيرها، وكان الدين الخاتم هو الإسلام الحنيف الذى جاء ليقود حركة الإنسانية كلها دون أدنى تناقض مع الفطرة الإنسانية السوية التى تمثل مبدأ من المبادئ التى يقوم عليها الفكر المقاصدى، وجملةً من الإمكانات الإنسانية الجسدية والعقلية، التى تتسق وتتطابق مع ما جاء به الشرع الإسلامى، فالذى خلق النوع الإنسانى هو الذى شرع لهم الأحكام التى تصلح لهم:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(سورة الملك: ١٤).

وهكذا فإن استقراء التصرفات الشرعية من زواج وإرضاع، وآداب فى المعاشرة، وأحكام فى حفظ النفس والأنساب والأموال، يفضى إلى أنها مسايرة للفطرة؛ إما لأنها تقيمها فى أنفس المكلفين، وإما لأنها تحميها من الانحراف، لذا لا يمكن تفقه الشرع الإسلامى إلا على أساس دقيق وواضح من الوعى العميق لمكونات الفطرة الإنسانية[٣].

ولقد سبق للإمام ابن عاشور -رحمه الله- أن بين أهمية الفطرة، وكان من جملة ما نبّه عليه قوله: "إن كل فعل يحب العقلاء أن يتلبس به الناس، وأن يتعاملوا به، فهو من الفطرة، وكل فعل يكرهون أن يقابلوا به، ويشمئزون من مشاهدته وانتشاره، فهو انحراف عن الفطرة، فإذا تعارض فعلان أو خاطران مما تقتضيه الفطرة وجب اختيار أعرقهما فى المعنى الفطرى، أو أدومهما، أو أشيعهما فى الناس، أو أليقهما بالإشاعة فى البشر، على أنه إذا أمكن رعى أحد الفعلين فى بعض الأزمان أو بعض الأمكنة أو لبعض الأمم، مادام لمقتضيه مساس بحاجة الناس الملحة، وجب رعيه، فإذا ضعفت الحاجة إليه رجع إلى غيره"[٤].

ولما كان الاستقراء فى المنهج العلمى عمومًا هو الانتقال من تصفّح الجزئيات والحكم عليها، ثم الارتقاء من النظر فى حالات وأحكام جزئية إلى حكم عام فى فهم الظاهرة الكونية موضوع البحث والاستفادة منها، فإن علماء الأصول، خاصة أهل المقاصد منهم، قد اعتمدوه فى بناء أنساقهم المختلفة، باعتباره أداة مهمة من أدوات الفكر المقاصدى فى الإسلام[٥].

(٣) راجع فى ذلك:
- إسماعيل حسنى، الفكر المقاصدى وترسيخ الفكر العلمى، إسلامية المعرفة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ع ٥٧ (٢٠٠٩م).
- ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٥م.
- أ.د. عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساسى للإصلاح الإنسانى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة والمعهد العالى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- د. أحمد فؤاد باشا، دراسات إسلامية فى الفكر العلمى، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٩م.
(٤) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٧٥، ص ٢٢.
(٥) - د. أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- إسماعيل الحسنى، الفكر المقاصدى وترسيخ الفكر العلمى، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالى للفكر الإسلامى، العدد ٥٧، ص٤٥-٨٢، صيف ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- أبو إسحق الشاطبى، الموافقات فى أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة (د.ت)، ج١، ص ٢٣.

وأهم ما يميز الاستقراء كطريقة علمية للتتبع والإحصاء والتحقق والتفنيد والمراجعة المستمرة، وصولًا إلى حكم عام بأعلى درجة ممكنة من التصديق والرجحان، أنه يعين على استنباط فروض صائبة تتعلق بالسنن الإلهية المطردة التى لا تتبدل ولا تتحول فى الواقع الكونى الثابت، لأنها سنن الفطرة العاملة فى ظواهر الكون والحياة. فقد خلق الله هذا الكون على أعلى درجة من الترتيب والنظام والكمال والجمال، وحفظ تناسقه ووحدته وتوازنه، فى ترابط محكم بين عوالم الكائنات، وتنسيق معجز بين آحادها ومجموعاتها، وفى إطار هذا المفهوم الإيمانى لسنن الفطرة فى المخلوقات، يتمتع الباحث المسلم بالاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث العلمى والنظر فى مجموعة محددة من الوقائع ليستنبط من استقرائها حكمًا عامًا منسجمًا مع قوانين الفطرة السوية المستمدة من إرادة الخالق الواحد ومتوقفًا عليها، قال تعالى:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(فاطر: ٤٣).

حفظ الدين والعقل بالعلم والتفكر

"التوحيد" فى العقيدة الإسلامية هو الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، وردّ الأمور جميعها إليه، والوحدانية صفة من صفات الله تعالى، معناها أنه يمتنع أن يشاركه شىء فى ذاته أو صفاته، وأنه منفرد بالإيجاد والتدبير العام بلا واسطة، يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

(سورة البقرة: ٢٥٥).

ومن أوجه الإعجاز فى هذه الآية الكريمة، آية الكرسى، أنها جمعت فى عشر جمل مستقلة أصول صفات الألوهية والتمجيد لله الواحد الأحد ذى الوحدانية، ونطقت بأنه سبحانه وتعالى متفرد فى ألوهيته، موجود لغيره، منزّه عن كل نقص ومبرأ عن الفتور والغفلة، ليس كمثله شىء، واجب الوجود بذاته، كان من الأزل ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان، فهو فوق المكان وفوق الزمان، تعالى سبحانه عن أن يكون متحيزًا حتى يحتاج إلى مكان، أو أن يكون متغيرًا حتى يحتاج إلى زمان.

والإيمان الخالص بالله سبحانه وتعالى أساس العقيدة الإسلامية، وهو أمر فطرى ينعم به كل إنسان يتمتع بفطرة نقية، لكن البحث العلمى يوصلنا إلى حقائق كونية تيسر قبول العقل بمسلّمة (بديهية) التوحيد الإسلامى، وتكشف عن الوحدة التى تؤلف بين الكثرة مهما تكن درجات تنوعها.

ومن أبسط القضايا التى توضح منطق

التوحيد في الفكر العلمي وأثره الواضح في تطور العلم نذكر العلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة، باعتبارهما أساس الكون المادي، والشمس هي مصدر الطاقة في عالمنا المسمى بالمجموعة الشمسية، ولقد تمكن الفيزيائي "أينشتين" من إثبات التكافؤ بين المادة والطاقة، وحقق بذلك إنجازًا علميًا هائلاً يتمثل في اعتبار المادة طاقة حبيسة، فالمادة التي نراها بأعيننا ونقبض عليها بأيدينا تشغل في هذا الكون مكانًا أو حيزًا، لكنها قد تتخلى عن صفات التجسيد هذه وتتحرر من قيودها بحيز معين في الفراغ، وتنطلق على هيئة طاقة موجية تتحدى قيود الزمان والمكان، وكان إنتاج الطاقة النووية وصناعة قنبلتها من ثمار هذا الاكتشاف الخطير.

كذلك نجح العلماء في القيام بالعملية العكسية، أي تجسيد الطاقة وتحويلها إلى مادة، وبهذا أمكن إثبات التوحد والاندماج والتكافؤ بين المادة والطاقة، وتحقق العلماء من صحة العلاقة الرياضية التي تعبر عن علاقة التحول بينهما، وهكذا أمكن أيضًا التوحيد بين الصور المختلفة للطاقة، من كهربية وكيميائية وحرارية وغيرها، عن طريق تحويل إحداها إلى الأخرى.

من ناحية أخرى، اقتضى منطق التوحيد في الفكر العلمي أن يغير الإنسان من نظرته القديمة لكل من المكان والزمان اللذين كان يُظن أنهما مستقلان عن بعضهما، وهذه من عجائب العلم الحديث التي سلّم العقل بقبولها عندما تم التوحيد بينهما في نسق واحد ضروري لتفسير الظواهر الكونية، وهذا يعني أننا إذا كنا نحدد الحيز أو المكان عادة، مثل حيز الغرفة أو الحيز الذي يشغله


اينشتين

جسم ما، بأبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع، فإنه لابد من اعتبار الزمن بُعدًا رابعًا، وعلى ذلك فإن الجسم الساكن في عرف الرأي القديم الذي يتعامل مع الكون ثلاثي الأبعاد، يكون متحركًا حسب النظرية العلمية الجديدة على محور رابع هو الزمن الممتد من الماضي والمار بالحاضر إلى المستقبل، أي أن هذا الجسم يكون ساكنًا في الفضاء، ولكنه متحرك على محور الزمن، وهكذا يلتئم الزمن مع الفضاء في وحدة اندماجية بحيث لا يجوز الفصل بينهما، تمامًا مثلما تم التوحيد بين المادة والطاقة، ومهما تكن صعوبة هذا التصور العلمي على الفهم بسرعة، فإن الأخذ به يساعد على تطوير النظريات العلمية القديمة، وظهرت تجارب هامة تؤكد سلامته.

أيضًا، استطاع أينشتين أن يتوصل إلى نظرية شاملة تبيّن لنا أن الكون يظهر بمجال واحد وقوانين واحدة تنطبق على كل شيء فيه، سواء كان هذا الشيء إلكترونًا دقيقًا، أو كوكبًا كبيرًا، أو شعاعًا ضوئيًا سريعًا، وأوضح أن هذه القوانين تعمل منذ أن بدأ خلق الكون وسوف تستمر إلى أن يأذن الله بانتهائه.

إن مثل هذا الأسلوب في التوصل إلى نظريات التوحيد في الفكر العلمي لابد أن يكون مسترشدًا بوجود قوة عاقلة مهيمنة

تسيطر على جميع مكونات هذا الكون الهائل المترامي الأطراف، أما الحياة في جميع صورها فإنها تنتفع بالمادة والطاقة معًا وتتوقف عليهما، وهذه أيضًا وحدة تجمع الحياة والمادة والطاقة في إطار متكامل متصل ومتواصل، فسبحان الخالق العليم القائل في كتابه الكريم:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

(سورة الجاثية: ١٣).

إن الباحث المؤمن بعقيدة التوحيد الإسلامي يجد في نفسه دافعًا أقوى مما يجد سواه نحو البحث عن محور الوحدانية في الشخصية الإنسانية، وفي الكون كله مجتمعًا في وجود واحد، كما أنه -فضلاً عن ذلك- يتمتع بالاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث العلمي في ظواهر الكون المطردة إيمانًا منه في ضمان الوصول إلى تعميمات أو قوانين علمية باستقراء مجموعة محددة من الوقائع.

كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

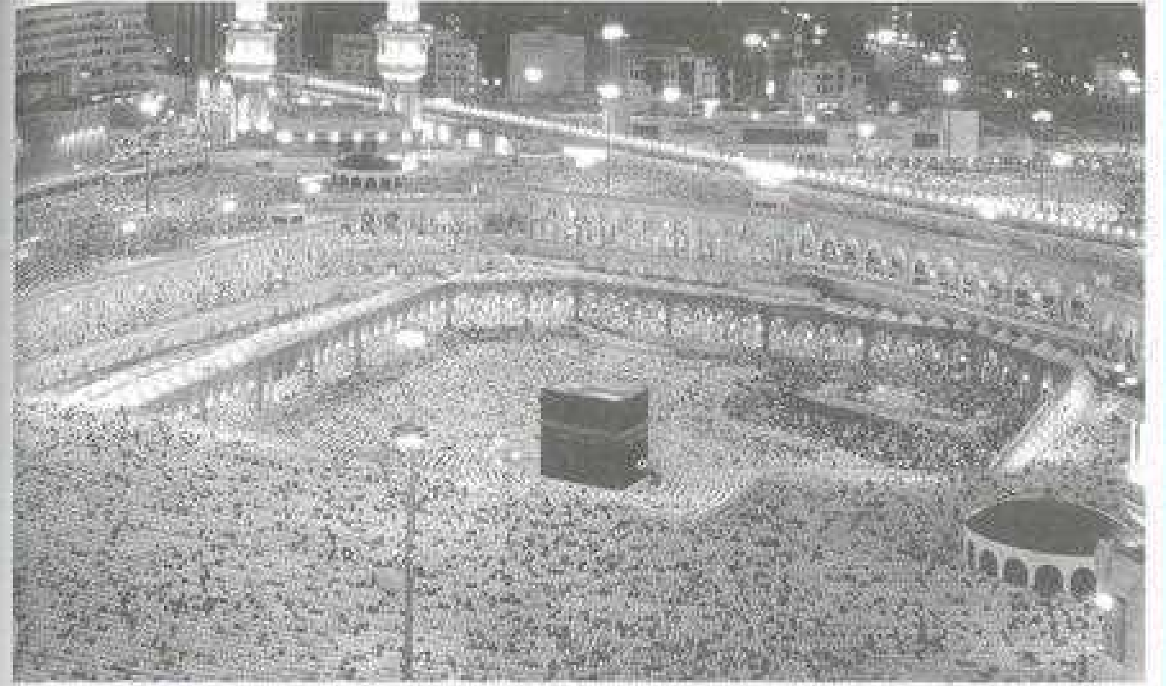
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(سورة الأنبياء: ٣٣)

وتدلنا هذه الآية الكريمة على حقيقة مهمة تتعلق بنظام الحركة في الكون، ويسهم العلم الحديث في تجلية هذه الحقيقة وإلقاء الضوء عليها، بعد أن أثبت أننا نعيش في كون فسيح تعتمد الحركة فيه على الدوران الذي هو أشبه بالطواف حول مركز معين، فالأرض تدور في فلك خاص بها حول الشمس مرة كل عام، والقمر يدور في فلك خاص به حول الأرض مرة كل شهر عربي، كما أن الكواكب الأخرى تدور في أفلاك خاصة بها حول الشمس، ومعظم هذه الكواكب لها أقمار تدور حولها، اكتشف العلماء منها أكثر من ستين قمرًا حتى الآن.

والمجموعة الشمسية التي ينتمي إليها كوكب الأرض تدور حول مركز مجرة "الطريق اللبني" أو "درب التبانة"، وهي تحتوي على نحو ١٣٠ بليون نجم، ومجموعة المجرات الكونية تدور جميعها حول مركز لا يعلمه إلا الله وحده، وكأننا، بهذا التصور العلمي لهيئة الكون، نلفت الأنظار إلى الحركة الدورانية، أو الطواف، كسنّة كونية تتجلى في الخلق كله.

وإذا انتقلنا إلى عالم المتناهيات في الصغر، نجد أن الذرة التي لم يرها أحد بعد بالعين المجردة، ولا بأقوى المجاهر (الميكروسكوبات)، نجدها تتكون من نواة لا يزيد قطرها عن جزء واحد من مليون جزء من المليليمتر، ويدور حولها إلكترون أو أكثر في مدارات، أو أفلاك خاصة، وهذا يعني أن جميع ذرات المواد الصلبة والسائلة والغازية في هذا الكون تعمل فيها ظاهرة الطواف، يدخل في ذلك جميع الذرات التي تؤلف أجسامنا وطعامنا وشرابنا والهواء الذي نستنشقه، وكل كائن حيّ من نبات أو حيوان، وكل شيء مادي على الأرض من بحار ورمال وجبال، أو في السماء من نجوم وكواكب وأقمار، أو بين السماوات من



غازات ونيازك وشهب ومذنبات وغيرها.

ولا يختلف عالم الأحياء عن هذه السنة الكونية التى تدل على وحدة الكون ووحدانية الخالق سبحانه وتعالى، فقد كشف العلم الحديث من خلال تقنية المجاهر القوية أن السائل المعروف باسم "السيتوبلازم" فى الخلية الحية يدور، أو يطوف، حول نواتها..

وأهم ما يجمع بين أنواع هذه الحركة فى جميع حالاتها هو الدوران، أو الطواف فى عكس اتجاه عقربى الساعة.

وهكذا يتعدد الطائفون، سواء فى حالة الإلكترونات حول نواة الذرة، أو حالة الكواكب حول الشمس، أو الأقمار حول الكواكب، أو النجوم حول مراكز المجرات، أو المجرات حول مركز لا نعرفه، فالكل فى هذا الكون يطوف.

وتتوجه بنا الفطرة النقية المؤمنة إلى صورة أخرى من صور الطواف جعلها الله جل وعلا من أهم مميزات الإسلام، وهو الطواف حول الكعبة المشرفة الذى يعتبر من شعائر الحج والعمرة.

والطواف حول الكعبة شعيرة تعبّدية قد لا يدرك البعض حكمتها، ولكنه طبقًا لحقائق العلم الحديث يرمز إلى سرّ عظيم من أسرار الكون يقوم على شهادة التوحيد الخالص لله، تلبية للنداء الإلهى الذى أمر إبراهيم الخليل عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج، مصدقًا لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

(سورة الحج: ٢٦-٢٧).

فكأن الكعبة المشرفة مركز للجاذبية الروحية التى ينبغى أن تكون بين العبد المؤمن وبين بيت الله العتيق، هذا البيت الذى يستقبله المسلمون ويتجهون إليه فى صلاتهم خمس مرات على الأقل كل يوم وهم بعيدون عنه، وهذه الجاذبية الروحية هى القوة الخفية التى تجعل كل قادم يطوف حول الكعبة بمجرد الوصول إليها، تمامًا مثلما يطوف أى جرم سماوى بمجرد وقوعه فى أسر جاذبية جرم آخر أكبر منه.

ونلاحظ هنا أيضًا أن المسلمين يطوفون حول الكعبة المشرفة فى عكس اتجاه حركة عقربى الساعة، حيث يكون القلب أقرب إلى مركز الجذب والطواف. ونلاحظ هذا "التيامن" أيضًا فى اتجاه الحركة عند السعى ذهابًا وإيابًا بين الصفا والمروة، الذى هو من شعائر الله.

وتدلنا هذه الرؤية الإيمانية الشاملة على أن الطواف سلوك كونى يشير إلى مظاهر الوحدة والتماثل بين التكاليف الشرعية ونواميس الظواهر الكونية، ولهذا كان شعار التلبية فى الحج أثناء الطواف حول الكعبة هو النداء الناطق بالتوحيد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك".

وهكذا نجد أن الكشوف العلمية التى يتوصل إليها الباحثون تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن الدين الإسلامى الحنيف هو دين الفطرة الإيمانية النقية الذى يقدم للإنسان رؤية صحيحة متكاملة تنسجم مع حقيقة الوجود الإلهى المهيمن على نواميس الكون، ومن هنا فإن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ينبغى أن تُفهم عقلاً قبل نطقها باللسان وإحساسها بالقلب، وذلك فى إطارها الشامل من الفكر التوحيدى واليقين الإيمانى الذى يجمع بين وحدة النظام فى بناء الذرة وبناء المجموعة الشمسية، وبين وحدة الطاقة بردّها إلى أصل واحد وإن تعددت صورها، وبين وحدة الحركة فى طواف الإلكترونات حول نواة الذرة، وطواف الأقمار حول الكواكب، وطواف الكواكب حول الشمس، وطواف السيتوبلازم حول نواة الخلية الحيّة، وطواف المسلمين حول الكعبة المشرفة، وسعيهم بين الصفا والمروة.

وفى القرآن الكريم أيضًا نقرأ قوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن: ١-٤)

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده فى هذه الآيات البينات من سورة الرحمن بأنه خلق النوع الإنسانى على أعلى درجة وفى أبهى صورة من الجمال والكمال، ومكّنه من بيان ما فى نفسه بالمنطق الفصيح، ومن فهم بيان غيره، فتميز بهذا البيان عن الحيوان الأعجم، واستعد لتلقى العلوم وحمل أمانة الاستخلاف فى الأرض، وقد توصل العلم الحديث إلى حقائق تظهر قدرة الخالق سبحانه وتعالى وتنطق بألوهيته وربوبيته، ذلك أن الوحدة البنائية لجسم الإنسان، وهى الخلية الحية، لا يمكن فحصها إلا بالمجاهر (الميكروسكوبات المكبرة)، ويبلغ

متوسط قطر الخلية الواحدة نحو ٠,٠٣ من المليمتر، ويبلغ متوسط وزنها جزءًا من المليار (ألف مليون) من الجرام، ويسمح جدار الخلية بتبادل الأكسجين والغذاء والعوادم المختلفة مع الخلايا المجاورة، ويحوى هذا الجدار سائل السيتوبلازم الذى يحتوى على مولدات الطاقة ومنتجات البروتينات، أما نواة الخلية فتحمل بداخلها الشفرة الوراثية التى تشغل حيزًا لا يزيد على واحد من المليون من المليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت يصل طولها إلى قرابة المترين موزع فيها حوالى ١٨,٦ بليون جزئ من جزيئات المادة، وإذا اختل وضع ذرة واحدة من ذرات هذه الجزيئات عن مكانها فإن هذا يعنى حدوث تشوه للخلية.

إن هذه الخلية الدقيقة يمكنها إنتاج مائتى ألف نوع من البروتينات، وهى فى حالة تجدد مستمر، فجسم الإنسان يتكون من حوالى مائة تريليون خلية حية، ويستهلك فى كل ثانية من عمره نحو ١٢٥ مليون خلية تموت ويتم استبدالها بخلايا جديدة متماثلة مع الأصل تمامًا بحيث يتجدد جميع خلايا جسم الإنسان، ماعدا الخلايا العصبية، مرة كل أسبوع تقريبًا.

أما البيان الذى علمه الله للإنسان، بعد أن سواه فى أحسن تقويم، فقد جعل الله أسبابه وأدواته فى جسم الإنسان، حيث يوجد مركز النطق فى المخ، وتوجد أجهزة النطق فى الرئتين والقصبة الهوائية بشعبها والحنجرة واللهاة واللسان والشفتين والفكين والأسنان، حيث تشترك كلها فى النطق والبيان، ويعمل كل من السمع والمخ والأعصاب فى ترجمة هذا النطق إلى معان تُفهم ويستجاب لها بالإيجاب أو النفى، فسبحان الذى علم آدم الأسماء كلها وأنطقه بالكلام المنظوم ليكون وسيلة تعارف واتصال بين البشر وأداة للتعبير عما ينجزه الإنسان من علوم ومعارف حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ربما يظن بعض الناس أن المحادثة والكلام أمر عادى، ولا يفطنون إلى إعجاز هذه النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان، ومن الواضح أن النطق لا يؤخذ من خلال التعلّم أو التعليم فى الحياة الاجتماعية، ولهذا بقيت مهارة النطق عند الإنسان من أسرار الخلق الإلهى، فعندما يبدأ كل شخص بالتكلم بسهولة، وعندما يعرف أنه يستخدم لسانه على أكمل وجه، فإنه يقوم بذلك دون أى معرفة أو قصد منه.

فى اللحظة التى يريد فيها الإنسان أن يتكلم تصل سلسلة من الأوامر إلى الحبال الصوتية واللسان، ومن هناك إلى عضلات الفكّين آتيا من الدماغ، إن المنطقة التى تحوى أنظمة الكلام فى الدماغ ترسل الأوامر الضرورية لكل العضلات التى تقوم بواجباتها أثناء الكلام على النحو الذى هيأه الخالق لإحداث النطق وتعليم البيان.

قبل كل شىء تقوم الرئة على جلب الهواء الساخن وهو المادة الخاصة للنطق، ويدخل الهواء عن طريق الأنف، ومن ثمّ إلى الفراغات الموجودة فى الأنف، ومن الحنجرة إلى قناة التنفس، ثم إلى الأوعية القصبية، ثم إلى الرئتين، ويمتزج الأوكسجين الموجود فى الهواء مع الدم الموجود فى الرئتين، وفى هذه الأثناء يُطرح غاز ثانى

أكسيد الكربون إلى الخارج، ويمر الهواء الخارج من الرئتين بالحبال الصوتية فيحركها بحسب تأثير غضروف صغير مربوط بها، وقبل النطق تكون الحبال الصوتية بوضعية مفتوحة، وعند الكلام تُجمع الحبال الصوتية فى مكان واحد وتهتز من جراء الهواء الخارج عند الزفير.

وقد جعل الله -تعالى- بنية الأنف والفم مهيأة لتعطى كافة المواصفات الخاصة للصوت، وفى الوقت الذى تبدأ فيه الكلمات بالخروج من هذا القسم بسلاسة يأخذ اللسان وضعا بين اقتراب من سقف الفم أو ابتعاد بمسافات محددة وأوضاع معينة، وتتقلص الشفاه وتتوسع، وتتحرك فى هذه العملية عضلات كثيرة بشكل سريع، وحتى يتحقق النطق السليم يجب أن تكون هذه العملية كاملة دون نقص، وأن تتم بشكل ميسر، إنها نعمة عظمى تستوجب الشكر لله المنعم على عباده.

وإذا بحثنا فى جسم الإنسان بأجهزته المختلفة نجد العديد من التوافقات المذهلة والتنظيمات العجيبة التى تؤكد أن الإنسان لم ينشأ نتيجة صدفة عمياء، أو يتطور من جماد وحيوان بفعل قوى الطبيعة المزعومة، بل هو من صنع قوة عاقلة جبارة تملك القدرة المطلقة على التدبير والتخطيط، وهذه القوة هى قوة القصد الإلهى التى تؤكد أهمية الغاية والهدف من وراء خلق الكائنات، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٥).

وقوله عز من قائل:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(الدخان: ٣٨- ٣٩).

ومن أمثلة التوافقات والتنظيمات المعجزة فى جسم الإنسان نستعرض ما يلى:

١- خلايا الجسم دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت بين هذه الخلايا، أما الخلايا العصبية فهى لا تنقسم لأنها لو انقسمت تحدث كارثة مروعة بتلاشى جميع معالم الذاكرة فى الخلايا العصبية للمخ.

٢- تعتبر عضلات الرحم عند الأنثى أقوى عضلات الإنسان للحاجة إليها فى دفع الجنين عندما يأذن الله بخروجه من بطن أمه، وتلى عضلات الرحم عضلات القلب التى لابد أن تكون قوية لتتحمل العمل ليلاً ونهارًا وتدفع الدم باستمرار إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول فى بعض الأحيان لأكثر من مائة عام.

٣- عند حدوث جرح فى الجسم يندفع الدم من الأوعية الدموية المجروحة، ولكنه لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح ليوقف استمرار النزيف، ولولا هذا التجلط لظل النزيف حتى الموت.

٤- المعدة فى الإنسان أشبه بمصنع كيميائى أعده الخالق الواحد سبحانه

وتعالى لكى يعمل ذاتيًا (أوتوماتيكيًا) وينتج مواد كيميائية أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره الإنسان، فالمعدة تقوم تلقائيا بتحليل ما يتناوله الإنسان من أطعمة على اختلاف أنواعها، وتقوم بمعالجتها وتجهيزها من جديد، وتتولى فرزها وتصنيفها وتوريدها بصورة مستمرة ومنتظمة إلى كل خلية من بلايين الخلايا حسب احتياجات هذه الخلايا وتخصصاتها لتكوين العظام أو الأظافر أو الشعر أو اللحم أو الأسنان أو الأنسجة أو غيرها، كما تحتوى المعدة على جهاز كيميائى مناعى أو دفاعى لمهاجمة الجراثيم والميكروبات المعادية، وهناك الكثير من التنظيمات الأخرى الرائعة.

٥- الأذن البشرية عضو معقد بالغ الحساسية يقوم بتحليل الأمواج الصوتية ونقلها إلى المخ فى صورة تيار كهربى يسرى فى العصب السمعى إلى مركز خاص فى المخ فيحس الإنسان بسماع الصوت، وقد خلق الله الأذن البشرية وجعل استجابتها محدودة بمدى معين من الذبذبات التى يتراوح ترددها (أى عددها فى الثانية الواحدة) من ٢٠ إلى ٢٠٠٠٠ ذبذبة فى الثانية، وذلك لكى ينعم الإنسان بالهدوء ولا يسمع الموجات الأقل أو الأكبر من هذا المدى، ولو استجابت الأذن لكل الذبذبات الصوتية لعاش الإنسان فى ضجيج لا ينقطع.

وما يقال عن الخلايا والعضلات والدم والمعدة والأذن يقال عن العين واللسان والأنف والحنجرة والجلد وغيرها من ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة فى جسم الإنسان، بل ومختلف التنظيمات الموجودة فى كل الكائنات النباتية والحيوانية، مما يدل على أن جميع المخلوقات خلقت منذ البداية على نحو من التصميم الدقيق المقصود الذى لا يدع مجالاً للصدفة أو الاحتمال.

وإذا كان التعبير عن حقائق العلم فى صورة أرقام يسهل الطريق نحو استيعاب بعض آيات الله فى الأنفس بكل خشوع وإيمان، فإننا نقدم الحقائق التالية:

• فى المعدة يوجد ٣٥ مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز، أما الخلايا الجدارية التى تفرز حمض الهيدروكلوريك فتقدر بمليار خلية.

• لو وضعت كرات الدم الحمراء لجسم واحد بجانب بعضها فى صف واحد، لأحاطت بالكرة الأرضية التى نعيش عليها خمس أو ستّ مرات، أما مساحتها فتقدر بنحو ٣٤٠٠ متر مربع، وعددها يبلغ خمسة ملايين كريّة حمراء فى كل ملليمتر مكعب من الدم، وتجرى كل كرية حمراء ألف وخمسمائة (١٥٠٠) دورة دموية فى المتوسط كل يوم، تقطع خلالها ١١٥٠ كيلومتر فى عروق البدن.

• تحت سطح الجلد يوجد ما بين خمسة وخمسة عشر مليون مكيف لحرارة الجسم، والمكيف هنا هو الغدة العرقية التى تخلص الجسم من حرارته الزائدة بواسطة عملية التبخر والعرق.

• القصبة الهوائية عند الإنسان تتفرع إلى قصبات، ثم قصيبات، وهكذا حتى تصل إلى فروع دقيقة على مستوى

الشعيرات الرئوية، ويبلغ عدد الشعيرات الرئوية حوالى ٧٥٠ مليون شعيرة يتمتع كل منها بغلاف دقيق ويتصل بجدار عرق دموى صغير، وهكذا يتم تصفية الدم بسحب غاز ثانى أكسيد الكربون ومنح الأكسجين اللازم للبدن بواسطة الحويصلات الهوائية.

• يوجد فى اللسان ٩٠٠٠ حلمة ذوقية لتمييز الطعم الحلو والحامض والمر والمالح.

• يستهلك الجسم من خلاياه نحو ١٢٥ مليون خلية فى الثانية الواحدة، أى بمعدل سبعة آلاف وخمسمائة مليون خلية فى الدقيقة الواحدة، وفى نفس الوقت يتشكل ويتركب عدد مماثل من الخلايا تقريبًا، ويكفى أن نعلم عظمة الإعجاز فى بناء وهندسة ووظائف الخلية الواحدة حتى نسجد لله عرفانًا بإحكام صنعه.

• فى كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥٠٠٠ مرّة، يسحب فيها ١٨٠ مترًا مكعبًا من الهواء، يتسرب منها ٦,٥ متر مكعب من الأكسجين للدم.

• لو وضعت الخلايا العصبية فى الجسم فى صف واحد لبلغ طولها أضعاف المسافة بين القمر والأرض.

• فى عين الإنسان الواحدة حوالى ١٤٠ مليون مستقبل حساس للضوء، ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبى ينقل الصورة بشكل ملون.

• الكلية الواحدة تحوى مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمّى "النفرونات" Nephrones، ويرد إلى الكلية ألف وثمانمائة (١٨٠٠) لتر من الدم على مدى ٢٤ ساعة، ويتم رشح ١٨٠ لترًا من هذا الدم، ثم يعاد امتصاص معظمه فى الأنابيب الكلوية ولا يتبقى منه سوى ١,٥ لتر هى كمية البول.

• فى الدم الكامل ٢٥ مليون مليون كرة حمراء لنقل الأكسجين و٢٥ مليار كرة بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن، ومليون مليون صفيحة دموية لمنع النزف بعملية التجلط فى أى عرق نازف، وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية فى نخاع العظام الذى يصب فى الدم ٢,٥ مليون كرة حمراء، و١٢٠ ألف كرة بيضاء وخمسة ملايين صفيحة فى الثانية الواحدة، وهذه هى أهمية العظام فى توليد عناصر الدم، وتتراجع وتضعف هذه الوظيفة عند المسنين، مصداقًا للآية الكريمة فى قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(مريم: ٤).

ولا يزال هناك الكثير غير الذى ذكرناه ينطق بأدلة التوحيد والإيمان بالله الذى أبدع كل شىء فى هذا الكون على أعلى درجة من النظام والكمال والجمال

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾

(لقمان: ١١)

- يتبع -

قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم



أ.د عماد الدين خليل

غوستاف لوبون

(١) «جمع محمد ـ ﷺ ـ قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت فى ذلك آيته الكبرى.. ومما لا ريب فيه أن محمداً ـ ﷺ ـ أصاب فى بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التى ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيما..»(١).

(٢) «إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد ـ ﷺ ـ من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدا ـ ﷺ ـ مع أن التعصب الدينى أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله..»(٢).

(٣) «استطاع محمد ـ ﷺ ـ أن يبدع مثلا عاليا قويا للشعوب العربية التى لا عهد لها بالمثل العليا، وفى ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد ـ ﷺ ـ على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه فى التضحية بأنفسهم فى سبيل هذا المثل الأعلى..»(٣).

«.. لا شئ أصوب من جمع محمد ـ ﷺ ـ لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية فى يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم فى قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد ـ ﷺ ـ»(٤).

لوقا(٥)

(١) «.. ما كان محمد ـ ﷺ ـ كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه، وهو الذى اجتمعت له

(١) دين الإسلام ص١٦

(٢) حضارة العرب، ص١١٥

(٣) نفسه ص١١٦

(٤) نفسه، ص٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٥) د. نظمى لوقا مسيحى من مصر يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيا، فإنه كثيراً ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة رسوله عليه السلام. بل أنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره. ألف عددا من الكتب أبرزها «محمد الرسالة والرسول»، و«محمد فى حياته الخاصة».

آلاء الرسل «عليهم السلام»، وهمة البطل، فكان حقا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيى فيه الرجل»(٦).

(٢) «لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الإسلامية.. وقد درجت شعوب الأرض على تألية الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشراً كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء؛ ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً فى آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾

(الكهف: ١١٠)

وفى تخير كلمة «مثلكم» معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾

(الشورى: ٤٨)

وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه ـ ﷺ ـ إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التى كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها»(٧).

(٣) «.. رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر، بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو فى سريرته، قبل أن يحاربه فى سرائر تابعية ولو أن هذا الرسول ـ ﷺ ـ بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادى، وما استقام له من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادى، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتز، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة يطريه أصحابه بالحق الذى يعلمون عنه، فيقول لهم: لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدالله، فقولوا عبدالله ورسوله. ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيما له، فينهاهم عن ذلك قائلا: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا»(٨).

(٤) «ماذا بقى من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعا أو شبه

(٦) محمد الرسالة والرسول، ص٢٨

(٧) نفسه، ص١٧٩ ـ ١٨٠

(٨) محمد الرسالة والرسول، ص١٧٩ ـ ١٨٠

متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة الأوثان والأزلام.. ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع لم يفد ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها وحرم على نفسه ما أحل لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوى ذلك كله بالأرض أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة فى الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى.. وما ضل وما غوى.. وما صدق بشر أن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين..»(٩).

(٥) «أى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من «أبى القاسم» ـ ﷺ ـ الذى حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟»(١٠).

(٦) «كان محمد ـ ﷺ ـ يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه فهى قوة له تحسب فى مزاياه، وليست ضعفا يعد فى نقائصه. لم يكن ـ ﷺ ـ معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به، لأنه يسخرها فى كيانه فى المستوى الذى يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل فى الصورة الجميلة الجليلة التى لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره. وبيان ذلك فى أمر بنائه بزوجاته التسع «رضى الله عنهن..»(١١).

***

(٩) نفسه، ص١٨٣ ـ ١٨٦.

(١٠) محمد فى حياته الخاصة، ص١٣.

(١١) نفسه، ص٣٩ ـ ٤٠، ويمكن للقارئ أن يرجع للكتاب نفسه «محمد فى حياته الخاصة»، فهو بمجمله يمكن أن يعد شهادة قيمة على حياة الرسول ـ ﷺ ـ العائلية الخاصة.

بنو النضير وخداع خبيث


لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

لقد رأيت أيها القارىء الكريم كيف انتهت غزوة أحد بهزيمة المسلمين وما ذاك إلا لأنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ حيث إنه أوصى الرماة وهم على جبل يطل على ساحة المعركة أوصاهم بأن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوه مهما تكن الظروف إن هم أصابوا القوم وهزموهم فلا يبرحوا مكانهم وإن كانت الأخرى فلا يبرحوا مكانهم، لكن الرماة لما رأوا النصر للمسلمين، ويبدو أن الرغبة فى الغنيمة والنصر أنساهم وصية رسول الله ﷺ فتركوا مكانهم، واهتبل القائد المظفر خالد بن الوليد الفرصة ودار بكتيبة خلف الجيش وانهال على المسلمين من خلفهم ضربا وطعنا حتى كان النصر للمشركين، بعدها رجع المسلمون للمدينة ورجع المشركون إلى قواعدهم وفى الطريق إلى مكة لقيتهم جموع منهم و أخذوا يعنفونهم ويوبخونهم على أنهم لم يستأصلوا شأفة المسلمين بعد ويقولون لهم: ما صنعتم شيئا فأصبتم شوكة القوم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم وقد بقى فيهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى منهم، وكان لا بد للنبى القائد ألا يركن إلى ما آلت إليه الأمور أوان يستكين لما حل بجيشه لكنه ﷺ وهو يدرك مدى حقد الحاقدين من أمثال أبى سفيان ومن على شاكلته وهم لا أمان لهم، فندب النبى ﷺ الناس وأمر بلالا أن ينادى أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس فوثب المسلمون إلى سلاحهم يبتدرونه للخروج مع رسول الله ﷺ وما همهم ما أصابهم من جراح ثم دعا ﷺ بفرسه على باب المسجد ولم يكن مع أصحاب رسول الله ﷺ فرس غيره بحمراء الأسد ثم سأل النبى ﷺ أين ترى القوم الآن؟ ـ يعنى أبا سفيان وجيشه ـ فقيل له: أنهم بالسيالة (موقع قريب)، فقال رسول الله

بنو النضير وخداع خيبر

ﷺ : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا ، ثم بعث رسول الله ﷺ طليعة فى أثر القوم فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد فبصر المشركون بالرجلين فعطفوا عليهما فقتلوهم فعسكر النبى ﷺ وأمر القوم أن يجمعوا الحطب بالنهار فإذا أمسوا أمر أن توقد النيران فأوقد كل رجل ناراً، لقد أوقدوا خمسمائة نار حتى رؤيت من مكان بعيد وكان ذلك إلهاماً من الله سبحانه وتعالى لنبيه فأوقع الوهن فى صدور اعدائه.

وبعد أيها القارىء الكريم أحسب أنك تسمع جعجعة الأعداء وكثرة إرجافهم بأن رسول الله ﷺ داعية حرب وأن الإسلام انتشر بالسيف فهل ترى فيما ذكرت لك من هزيمة المسلمين فى أحد وتلمظ أبو سفيان وجيشه لاستئصال شأفة المسلمين وقتله رجلين بعثهما النبى ﷺ لاستطلاع خبر جيش الأعداء، قتلوهما وتركوهما فى العراء ولم يكلفوا أنفسهم حتى بأن يواروهما التراب أرأيت كيف فعل ﷺ بقتلى المشركين فى بدر؟ لكن النبى ﷺ أقبل ودفنهما فى قبر واحد ويقال لهما القرينان ، بالله عليك هل يلام النبى ﷺ لو أنه أحرق أبا سفيان ومن معه من جيوش المشركين ؟ أو لو أنه رماهم بقنبلة ذرية مثل (هيروشيما) و (ناجازاكى) ؟ هل بعد هذا يقال إن رسول الله ﷺ معتد وأن الإسلام انتشر بالسيف؟ أم أن الغرب الصليبى الحقود ما عاد يعرف الحياء؟.

أيها القارىء الكريم أعلم أنك تعلم أن رسول الله ﷺ ما أن استضاءت المدينة بوجهه الكريم واستقر أصحابه فيها حتى كتب معاهدة بينه وبين أهل اليهود المقيمين فى المدينة فى الحرب و فى السلم ولم يكن هذا ضعفاً من النبى ﷺ لكنه فيما أحسب ضماناً للأقليات الموجودة فى المدينة من الديانات الأخرى حتى تأمن على نفسها وأيضاً حتى يظهر غدر الغادرين إن أرادت جماعة أو طائفة أن تغدر وكيف يكون الحساب ، كتب النبى ﷺ معاهدة بينه وبين الأوس والخزرج من طرف وبين اليهود على اختلافهم من طرف آخر بيّنت هذه المعاهدة واجب وحقوق كل طرف كان من أهم ما فيها أن أهل المدينة كلهم المسلمين واليهود جميعاً يد واحدة على من يحاربهم وأن اليهود لهم دينهم والمسلمين لهم دينهم وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه المعاهدة وأن بين أطرافها البر دون الإثم والنصح والنصيحة وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، ولقد اشتملت المعاهدة على أهم أسس ودعائم الحياة الآمنة لأهل المدينة جميعاً إذ لليهود عقيدتهم وللمسلمين عقيدتهم وللجميع

حق المواطنة والدفاع عن المدينة فكانت بحق أول معاهدة فى العالم تقوم على أسس واضحة سليمة نزيهة لكل أطرافها وأرجوك أيها القارىء الكريم أن تُصغى جيداً لما أقوله هل لو أن أحد أطراف المعاهدة التى ذكرتُ لك أهم بنودها أخل بشروطها أيُلام الطرف الآخر إن دافع عن نفسه أو طالب بتطبيق بنود المعاهدة؟ أو لو أن عدواً هجم على المدينة أو على طائفة فيها ودافعت الطائفة عن نفسها ؟ بمعنى لو أن عدواً هجم أو أغار على المسلمين بالمدينة أو لو أن عدواً أغار على يهود بالمدينة أليس من حق اليهود أن يطلبوا نصرة المسلمين تطبيقاً للمعاهدة؟ أولو أن هجوماً أتى على المسلمين أليس من حق المسلمين بمقتضى المعاهدة أن يطالبوا بنصرة اليهود أو مؤازرتهم بمقتضى المعاهدة؟ فما بالك لو أن الهجوم كان على اليهود أليس من حقهم أن يطالبوا بنصرة المسلمين بمقتضى المعاهدة؟ فما بالك لو أن الهجوم كان على المسلمين وأن اليهود لم يقوموا بواجب النصرة بل تمادوا بالغدر والخيانة وآزروا الأعداء على المسلمين أليس من حق المسلمين إذاً، بل أليسَ من واجب المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم؟ ولقد كانت بعد حمراء الأسد غزوة بنى النضير وسوف أسطر لك مما قاله المؤرخون المسلمون و كتاب السيرة والأحاديث رواية واحدة وهى فى مضمونها لا تختلف عن أخريات وسوف أترك لك الحكم فى نهاية الأمر هل ما فعله الرسول ﷺ هو عدوان وتهديد لأمن الآمنين أم أنه الواجب الذى تقتضيه الضرورة ويوجبه حفظ كيان المجتمع، أى مجتمع كان؟ سواء أكان مجتمعاً متجانساً أم مجتمعاً مختلفاً تشكل من طوائف وأعراق وديانات، بل قل إن شئت إن ما فعله النبى ﷺ فى مواجهة بنى النضير هو ما توجبه ضرورة الأخلاق والتعايش فإنه الردع الواجب لاستتباب الأمن وضرورة الاستقرار وإلا فكيف يواجه نقض العهود إن لم يكن بالردع والضرب على أيدى ناقضى العهود؟ ثم تأمل كيف أن رسول الله ﷺ تعامل مع واحد من أصحابه نقض العهد مع رجلين كان الرسول أمّنهما فقتلهما لم يفرح ولم يكافىء الرجل على أنه قتل رجلين من أعدائه بل تعامل بمقتضى القانون والمعاهدة والوثيقة التى كتبها مع أهل المدينة، يروى أن عمرو بن أميّة الضمرى رضى الله عنه أقبل من بئر معونة فلقى رجلين من بنى عامر بن صعصعة كان النبى ﷺ وادعهما فعرفهما واستراحوا جميعاً فى الظهيرة حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل!! أيها القارىء الكريم قبل أن أذكر لك ما فعل الرسول ﷺ وما قال أرجو و آمل أن تتذكر ما تناقلته

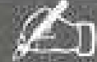
وكالات الانباء العالمية عما فعله الجندى الأميريكى حيث قتل أكثر من سبعة عشر مدنيًا فى أفغانستان وهو يلهو، نعم و هو يلهو ماذا فعلت امريكا حامية الحريات؟ لم نسمع تصريحًا من هيلارى كلينتون تستنكر فيه الحدث إنما سمعنا كلامًا أجوفً لا معنى له و بيانات بلهاء من ناس لا يعرفون قيم أو خلق، وتعال إلى ما قاله الرسول وما فعل. قال الرسول ﷺ : لعمرو بن أمية الضمرى: بئس ما صنعت قد كانا لهما (أمان وعهد)، أرأيت إلى الحرز المنيع و الحصن الحصين الذى أحرز به ﷺ الرجلين، فقال عمرو يعتذر: ما شعرت - أى ما سمعت بهذا العهد - ثم أردف يبرر ما فعل، كنت أراهما على شركهما وكان قومهما قد نالوا منّا ما نالوا من الغدر، وجاء بسلبهما فأمر رسول الله ﷺ بسلبهما فَعُزِل، تأمل وتعلم كيف تكون العفة؟ وكيف يكون الأمان؟ فعزل سلبهما حتى يبعث به مع ديتهما ثم سار رسول الله ﷺ يوم السبت فصلى فى مسجد قباء ومعه رهط من المهاجرين والأنصار حتى جاء بنى النضير فوجدهم فى ناديهم فجلس رسول الله ﷺ يكلمهم أن يعينوه فى ديّة القتيلين الذين قتلهما عمرو وقبل أن استطرد معك أرجو أن تتأمل كيف يكون الغدر اليهودى وتأمل أساليب الختل والمكر اليهودى التى لا تعرف عهودًا أو مواثيق لكنها تهتبل الفرصة ما دامت سانحة ولا ترعى ذمة ولا عهدًا، فقالوا فى خداع ماكر و خبث دنى: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت أجلس حتى تُطعم وترجع بحاجتك ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به، ورسول الله ﷺ مستند إلى جدار بيت من بيوتهم ثم خلا بعضهم ببعض فقال حييّ بن أخطب: يا معشر يهود قد جاءكم محمد فى نفر من أصحابه ولن تجدوا أخلى منه الساعة فإنه إذا قتل تفرق عنه أصحابه فما كنتم تريدون أن تصنعوا يومًا من الدهر فمن الآن، فقال عمرو بن جحّاش: إذًا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة فقال سلام بن مشكم: يا قوم أطيعونى فى هذه المرة وخالفونى الدهر كله والله لأن فعلتم ليخبرنه الله بأنا قد غدرنا به، وبينما عمرو بن الجحّاش يهيىء صخرته ليدحرجها على رسول الله ﷺ جاءه الخبر من السماء بما همّوا به فنهض رسول الله ﷺ سريعًا كأنه يريد حاجة وتوجه إلى المدينة وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضى حاجته، فماذا تظنون أن رسول الله ﷺ فاعل؟

و ماذا تظنون أن كل رجل حصيف يفعل؟

و ماذا تطلبون من جراح ماهر حصيف أمين يرى داء عضال يكاد يفتك بمجتمع ناشئ وليد؟

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

إبليس.. مأثرة الشر المطلق


للأستاذ/ أحمد القطب

ليس من شك فى كون «إبليس» أحد أهم وأقدم الشخصيات التى أثرت فى التاريخ الإنسانى، وأثرت الوعى العقدى والأخلاقى لدى بنى آدم على امتداد مراحل تاريخهم، ببساطة يمكننا تصور حال البشر، لو لم يعرف الشر حياتهم. ولم يكن له صيغة مطلقة يتجسد فيها، إذن لما كان بوسع الإنسان أن يدرك حقيقة الخير ويتعرف عليه، ولما استطاع أن يفرق بينه وبين ما عداه.

كانت ستتداخل الحدود بين الخير والشر. وتصير مائعة بعيدة عن الوضوح. ويصبح الإنسان غير قادر على تمييز الشر، ومصدره على نحو واضح دقيق. فنحن مثلاً قد لا نستطيع أن نميز بين درجات الرمادى. وبين اللون الأبيض القريب إليها، ولكن حين نضع مساحة من اللون الأسود الحالك بين هذا وذاك. لحظتها فقط ليتبين الفرق.

كان هذا وما يزال هو دور إبليس فى حياتنا نحن البشر، والمساحة السوداء التى صنعت التباين الهائل بين الخير والشر فى حياتنا، وعلمتنا قيمة الخير حين أسفرت لنا عن دمامة الشر وقبحه، وحملتنا على انتظار طلوع الصبح حين أطبقت علينا بقطع الليل المظلم فعلمنا حقيقة النور، وخيرنا عمله.

يناقض الخير

كلمة «إبليس» فى لسان العربية: تنطوى على إيقاع كإيقاع كلمة «إبريق» و«إكليل» وإن كان قد اختلف على أصلها فيما لو كانت عربية أو أعجمية، فإنه من الظاهر بعد الرجوع إلى معاجم اللغة، أن الكلمة عربية انصرفت عن «بلس» و«أبلس» وكلتاهما تقع فى المعاجم بمعنى واحد تقريبًا، وهو الرجل الذى قل خيره أو الذى لا خير عنده.

وتأتى «إبليس» كذلك بمعنى انكسر وحزن، فضلاً عن أنها تعنى فى العربية اليأس من رحمة الله، وفيما سوى المعنى الأخير، فإنه من الواضح الجلى أن الكلمة في اللغة العربية: ترمى إلى ما يناقض الخير وصفًا وعملاً.

ومن الطريف أن قصة إبليس قد بدأت بخلاف قائم على أساس عنصرى، تماما كبعض الخلافات التى نشأت بيننا نحن البشر حديثًا، وامتدت إلى ممارسات بشعة من العبودية والاضطهاد ومن ثم الحروب والثورات، وحمامات من الدماء لا تتوقف، ولا يتوقف من

ورائها إبليس عن مكائده وتدابيره التي نجحت في كثير من الأحيان، رغم أنه لم يحاول قط أن يستتر، فلم يدع بالنبوة، ولم يتشح بثياب المصلحين.

حيثيات العصيان

لقد طرد إبليس من رحمة الله حين عصى أمرا مباشرا منه سبحانه، كيدا وعنادا، وجهرا دونما مواربة أو تحايل، وكلنا يعرف تفاصيل ذلك المشهد، غير أن إبليس في دعواه العنصرية كان يستند إلى حيثية نابعة من الواقع، بغض النظر عن صحتها من عدمه، وهو ما حكاه القرآن حين قال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(الأعراف: ١١، ١٢)

إبليس كان يرى أن النار خير من الطين، وأنه لا يجوز أن يسجد كائن مخلوق من النار لكائن مخلوق من الطين، ولعلها مقارنة تدعو للتأمل أنه حين أرد المفاضلة في هذا المقام بالذات استخدم كلمة «خير». لقد كان إبليس يرى في نفسه خيرا، يفوق ما يمكن أن يكون لدى آدم ذلك الذي خلق من صلصال!

من أجل ذلك فقد نهى الله عباده، في كتابه الخاتم (القرآن). المنزل على النبي الخاتم (محمد) ﷺ: أن يتخذ أحد موقف إبليس حين أبى أن يسجد، وزعم أنه خير من آدم. فقال تعالى:

﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾

(النجم: ٣٢)

عنصرية قديمة

وقد طرد إبليس من رحمة الله نتيجة عنصريته، وتجلى لنا هذا واضحا إذا نظرنا إلى موقفه بعين إنسان القرن الحادي والعشرين، وقد كان يجد الحيثية التي يقيم عليها دعواه كما أسلفنا، تمكن على نحو ما من التسويق لنفس الفلسفة التي تبناها في بدء الخليقة، بين البشر أنفسهم..!

وهذه المرة بالاستناد إلى حجج أضعف بكثير من تلك الحجة التي ساقها في أول الزمان، ربما أراد أن يرضي غروره أو أن يثبت لنفسه صواب رأيه، أو صواب مقولته التي تنجح بها في حضرة خالقه حين رد قائلا:

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾

فإذا كان هو قد رفض السجود لآدم لأنه من عنصر آخر غير الذي خلق منه إبليس، فهاهم بنو آدم أنفسهم، يسحق بعضهم بعضا ويريقون دماء بعضهم البعض، دون أن يكون هناك اختلاف في العنصر أو حتى في الطينة التي خلقوا منها، بل هو مجرد اختلاف ألوان وأجناس.. «فأينا خير من الآخر..؟» لعله يطرح هذا السؤال بينه وبين نفسه..!

على هذا النحو اختار إبليس - أو أيا كان اسمه قبل خلق آدم - طريقه عبر عمر البشرية المديد منتقما من ذلك الذي خلق من طين، وتسبب في طرده من الملأ الأعلى كما يرى.. متنازلا عن مصيره الأخير ليكون خلودا في جهنم، مع من تمكن من غوايتهم من أبناء آدم على مدار التاريخ، ومحاولا أن يثبت لنفسه أنه حقا كان خيرا منهم.

نعم.. فهم الذين اتبعوه وساروا من ورائه مختارين، دون أن يكون له عليهم سلطان، وعبدوا من دون الله آلهة وعصوه كما عصاه هو في مشهد البداية، فلا فضل لأحد على الآخر إذن.

باب الرحمة

إبليس.. الذي نسي حين عصى ربه أن هذا الرب الواحد: هو الذي خلقه وخلق آدم وهو الذي يعلم حقا أيهما خير: النار أم الطين، آدم أم إبليس، نسي أيضا أن الله قد طرده هو وحده من رحمته، بينما وسعت رحمته توبة أبناء آدم جميعا، إن أرادوا أن يعودوا إلى ربهم مختارين، كما عصوه مختارين.

إن كل إنسان من ولد آدم قادر - ما دام حيا - أن يعود إلى الله، ويرتمي في أحضان رحمته، مهما بلغت ذنوبه، فليس بينه وبين الإيمان والعودة إلى الإله الواحد الحق من حائل أو مانع، وليس للشيطان عليه من سبيل إلا أن يوسوس له بمعصية جديدة، وهو من بعدها كذلك قادر أن يتوب إلى ربه.

حين طرد إبليس من رحمة الله، وسأل الله أن ينظره إلى يوم القيامة، فأجابه لما سأل، وأطلق إبليس تحديه، وتوعد بني آدم الذين أشهر عداوته لهم، وقد حكى القرآن هذا المشهد قائلا:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ

(الأعراف: ١٦، ١٧)

ولعل هذه الكلمات التي تحدى بها إبليس ربه، وتحدى بها عباده، صارت اليوم أشد ما يثير غيظه ويقتله كمدا حين يسمع بني آدم يقرءونها آية في القرآن الكريم، فتحتسب لهم بكل حرف عشر حسنات، قربة إلى الله جل وعلا، إنه أعظم وأجل رد سماوي على تحديه لله تعالى في ذلك المشهد، الذي ولد فيه عنوان الشرور في حياة الإنسانية.

في الماضي القريب كان لكل مدينة أسوار وبوابات تبتغي حمايتها وتقوية دفاعاتها في وجه أي اعتداء خارجي.

وفي العصر الحديث.. انتهى عهد الأسوار والأبراج، وصار على كل دولة أن ترسم حدود أمنها القومي بمنظور أوسع، إذ أصبحت البحار والمحيطات بديلة عن الأسوار والحصون وصارت المضائق والمعابر بديلة عن بوابات المدينة التي كانت تغلق في مساء كل يوم، ثم تعود لتفتح مع شروق شمس يوم جديد.

وعلى امتداد مراحل الصراع العربي الإسرائيلي كانت الممرات والمعابر المائية عاملا محوريا في كل مواجهة مسلحة مع الدولة الصهيونية الوليدة.. وقد مثلت الحيثية الأساسية لنشوب حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ التي أدت بدورها إلى معركة أكتوبر - تشرين عام ١٩٧٣. تأميم قناة السويس وانتزاع محور الملاحة البحرية العالمية الرابط بين شرق وغرب وشمال وجنوب العالم كان الحدث الذي أطلق شرارة العدوان الثلاثي على مصر.

ومطالبة إسرائيل بحق الملاحة في خليج العقبة كان بداية التداعيات التي انتهت بعملية عسكرية خاطفة نجحت بها إسرائيل

في احتلال سيناء كاملة وتأمين خليج العقبة لملاحتها البحرية فضلا عن هضبة الجولان والضفة الغربية وغزة.

وكما تقع دولة إسرائيل القائمة على أرض فلسطين المحتلة في قلب العالم العربي، وإن هذا العالم العربي بدوره يقع «على غير رأى منه» في قلب خارطة العالم وبالتالي فإنه لم يكن من قبيل المصادفة أن البوابات البحرية الثلاث المؤدية إلى قلب هذا العالم العربي هي بدورها الممرات البحرية الحيوية التي تربط شرق العالم بغربه وشماله بجنوبه.

باب المندب.. البوسفور والدردنيل.. وجبل طارق.

هي كلمات مفتاحية ثلاث لسيادة وتقرير مصير هذا العالم العربي، على امتداد مراحل تاريخه.. شاء ذلك أم أباه!

في عام ١٩٧٣ لم يكن من مفر أمام القيادة المصرية من إغلاق مضيق باب المندب، وبوابة البحر الأحمر بصورة قطعية، لتضمن لقواتها انتصارا حقيقيا.

ولعلنا إذا ألقينا اليوم نظرة على من كل مضيق البوفسفور ومضيق جبل طارق، سندرك ببساطة أن دولا أعضاء في حلف الناتو باتت تسيطر على البوابتين الرئيسيتين لقلب هذا العالم وتطل من خلالهما على حدود عالمنا العربي.. إذ تخضع منطقة جبل طارق في أسبانيا لإدارة بريطانية، بينما «وعلى الجهة الأخرى» تخضع سبتة ومليلة لإدارة إسبانية، أما البوسفور فهو كما يعلم الجميع خاضع للسيادة التركية ولم يعد مضيق باب المندب اليوم بعيدا عن محاولات التدخل والسيطرة الخارجية.

وإننا لا نبالغ.. إذا تصورنا أن عودة المنطقة العربية للسيطرة على بوابات ملاحتها البحرية ستكون المؤشر الأعظم لتحقيق السيادة الفعلية للعالم العربي على أراضيه ومقدراته وإذا كان الصراع قد بدأ في القلب، عند ممر قناة السويس الذي حفره المصريون منذ قرن ونصف ثم انتقل إلى النزاع على خليج العقبة والبحر الأحمر.. فإن عودة الثقل السياسي العربي لسابق عهده وسيطرته على ممرات البوسفور وجبل طارق فضلا عن باب المندب سوف يكون الفصل الأخير في بعث كيان سياسي عربي جديد يشارك بقوة في صناعة تاريخ منطقته والعالم ويقرر مصيره بدراية واقتدار وسيرسم كذلك مشهد النهاية في حياة الدولة الصهيونية القابعة في قلب المنطقة ويرى لحظة اندثارها.

لعل أحدكم يقرأ هذه السطور الأخيرة وكأنه يقرأ عبارات حماسية تحكي أحلاما وآمالا يصعب على الإنسان العاقل تصور وقوعها وإنني أدعو كل من راودته هذه الأفكار وهو يقرأ ما طرحناه.. أن يعود بذهنه إلى الوراء قليلا، فينظر ما صنعه سلطان مصر والشام قبل أن يعبئ الأمة لطرد الصليبيين وسحق ممالكها في المشرق.

ثم ما قامت به القيادة المصرية من قريب في حربها الأخيرة أمام الدولة اليهودية.

ليدرك طبيعة العوامل التي تحكم الصراع.. وطبيعة المؤشرات التي ترتبط بالنهضة.

الحياة يومان

فضيلة الشيخ/معوض عوض ابراهيم

الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكرم الله وجهه ربيب بيت النبوة وباب مدينة العلم كما قال معلم الناس الخير ﷺ، له في كل مواقف العقيدة والإسلام والعلم أجمع كلمات تشهد له بالإمامة والفضل، وهو رضوان الله عليه يقول: «الحياة يومان، يوم لك ويوم عليك».

فما كان لك فلا تغتر به، وما كان عليك فأحدث له يقينا بأن لله في كل طرفة عين مائة ألف فرج قريب، وذلك هو الميزان والبيان الذي يفهم من أمثال قول الله تعالى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه:

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾

«غافر: ٣٩»

ورحم الله الذي قال: من عمل بقول الله تعالى:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾

«الحديد: ٢٣»

فقد جمع الخير بطرفيه ومن أصدق من الله قيلا وهو يقول:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾

«الكهف: ٤٥»

ومن قبل ذلك قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

«البقرة: ١٦٤»

وقد قال تعالى شأنه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

«آل عمران: ١٩٠، ١٩١»

وما نزال مع أبي الحسن علي بن أبي طالب في علمه وفهمه لحقيقة الدنيا والآخرة فهو يقول: (ما أحسنت إلى أحد قط ولا أسأت).

فقيل له يا أمير المؤمنين: ما من أحد إلا قد أحسن وأساء، فقال: ألم تقرءوا قول الله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾

«فصلت: ٤٦»

الحياة يومان

وهو القائل: «إن المسجد أحب إلى من الجنة لأنى فى المسجد فى طاعة ربى وفى الجنة حاجة نفسى».

والإمام على رضوان الله عليه يقول:

إنما الدنيا فناء
ليس للدنيا ثبوت
انما الدنيا كبيت
نسجه من عنكبوت
ولقد يكفيك منها
أيها العاقل قوت
ولعمرى عن قريب
كل من فيها يموت

ولقد فهم حقيقة تلك الكلمات العلوية من قال:

خطب البرية فى البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار
طبعت على كدر وأنت تُريدها
صفوا من الآلام والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

ولقد كان الخليفة سليمان بن عبدالملك فى طريقه يوماً إلى المسجد فرأى إحدى جواريه فقال لها: كيف تريننى؟ فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان.

إن الحياة تمضى بقدر الله وإرادته ليل يتبعه نهار ثم يكون ليل دواليك حتى يبلغ الكتاب أجله، وفى مر الأيام وتتابع الشهور والأعوام ما أبرزه الذى قال:

أشاب الصغير وأفنى الكبير
كر الغداة ومر العشى

وذلك من الحق الذى قرره الأثر الكريم: «إن العبد بين أجلين، أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الصحة قبل السقم، ومن الشيبة قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعدالدنيا من دار الجنة أو النار.

ويوم يقول شيخ المعرّة أبو العلاء المعرى:

تعب كلها الحياة فما
أعجب إلا من راغب فى ازدياد

مضى فى ضيقه إلى المدى الذى قال فيه:

أرانى فى الثلاثة من حُبوس
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقد ناظرى ولزوم بيتى
وكون الروح فى البدن الخبيث

والخبر النبيث مأخوذ من قولهم: «لم ينبث ببنت شفة»

والله تعالى يقول:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

«الجاثية ٢٤»

وفى الأثر الكريم:

«الأيام تمضى والأعمار تطوى والأبدان تحت الثرى تبلى والليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك ما يُلهى عن الدنيا ويذكر بالآخرة.

ولابد للآخرة من الدنيا التى يُحسن فيها من يحسن ويسىء فيها من يسىء فتجىء الآخرة على غرارها إحساناً بإحسان وسوءاً بسوء إلا أن يغفر ربنا ولقد جاء بعد الإمام على من قال:

ثلاثة أيام هى الدهر كله
وما هى إلا الأمس واليوم والغد

ولقد قال الشاعر:-

أمسى الذى مرّ على قربه
يعجز أهل الأرض عن رده

وأسهب فى بيان حقيقة الحياة من قال:-

الأيام خمسة: يوم مفقود وهو الأمس الذى لا سبيل إلى رده، ويوم مشهود وهو اليوم الذى نحن فيه ويوم موعود وهو الذى يدركنا بين الأحياء ويوم مورود وهو آخر يوم من أيام الحياة ويوم ممدود يقول الله فيه: «يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت».

ولقد انطوت ديباجة رجب وشعبان ورمضان وكان رسول الله ﷺ إذا رأى هلال رجب قال: هلال خير ورشد آمنت بالذى خلقك، اللهم سلم لنا رجب وشعبان وبلغنا رمضان وعسى أن نكون ممن خرجوا من رمضان بقلب طهور وتوبة متقبلة واستقبلوا عيد الفطر بحمد الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله فلولا الله سبحانه ما صام أيام رمضان صائم ولا قام لياليه قائم ولا صادف ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر من قال فيهم رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناواحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

وفى عيد الفطر الذى يجىء فى أعقاب خير شهر وفى عيد الأضحى الذى يجىء ووفود الرحمن فى أداء الفريضة الخاتمة وفى يوم عرفة الذى لا يغيب عنه حاج والذى قلت فيه:-

هل شهدت الحجيج فى عرفات.. إذ أتوا ربهم على ميقات

يتجلى فى هذين العيدين رضا الله الذى يقول فى آيات الصوم

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

«البقرة: ١٨٥»

ويستجيب الله عز وجل دعاء الرسول ﷺ: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر لهم الحاج».

وكما تكون كل أيام المؤمن أعيادا إذا هو عرف ربه وأطاعه وكان من أهل الصلاح والإصلاح لنفسه وناسه والله تعالى يقول:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

«التوبة: ١٠٥»

ورحم الله الذى قال لشيخه ما أصلح العمل؟ قال: أخلصه وأصوبه قال: ما أصلحه وما أصوبه؟ قال: أن يكون خالصا لله وأن يكون موافقا للسنة.

فاللهم أصلح أعمالنا فى دنيانا وأكرم مصيرنا إليك يارب العالمين

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ. محمد جمعة

مأساة مسلمي بورما الإنسانية

تحت هذا عنوان جاء مقال الاستاذ/ ممدوح الشمرى المنشور بجريدة عكاظ السعودية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٧/٢٤م يقول فيه:

جاء فى تقرير المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، أن الروهنجيا المسلمين يتعرضون فى بورما، لكل أنواع الظلم والاضطهاد، ومنها العمل القسرى والابتزاز والقيود على حرية التحرك وانعدام الحق فى الإقامة وقواعد الزواج الجائرة ومصادرة الأراضى والإقصاء والتمييز.. ما دفع بالمسلمين فى هذا الوضع المأساوى إلى الفرار والتشرد والنزوح نحو مصير مجهول.

ومما يضاعف معاناة ومأساة «الروهينجيا» الذين يناهز عددهم الإجمالى أكثر من مليون نسمة فى بورما، عدم ترحيب البلدان التى يحاولون اللجوء إليها.

لذا فإن من واجب مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، بحث هذا الوضع الخطير، واتخاذ الإجراءات المناسبة لوضع حد لهذه الأعمال والانتهاكات، التى تتنافى مع أبسط مبادئ حقوق الإنسان الأساسية التى تقرها المواثيق الدولية.

وقد اعتبر الرئيس البورمى أن الحل الوحيد المتاح لأفراد أقلية «الروهينجيا» المسلمة غير المعترف بها، يقضى بتجميعهم فى معسكرات لاجئين أو طردهم من البلاد نهائيا.. ولعل منظمة التعاون الإسلامى وهيئتها الحقوقية.. المبادرة فى تسجيل موقف إنسانى.. وعرض تلك المأساة فى المحافل الدولية والضغط باتجاه إيجاد حل لتلك المعاناة الإنسانية والانتهاكات الخطيرة لحقوق الأقلية المسلمة المضطهدة فى بورما، وذلك من منطلق حماية الأقليات التى تقرها المواثيق والعهود والاتفاقات الدولية.



أيام مريرة.. فى بورما

تحت هذا العنوان جاء مقال الكاتب/ غوين دير المنشور بجريدة الشرق الأوسط اللندنية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٨/٢م يقول فيه:

دعت المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان إلى إجراء تحقيق مستقل فى الأنباء التى ترددت عن قيام قوات الأمن البورمية بالاستهداف الممنهج لشعب الروهينجيا، وهى جماعة أقلية مسلمة تعيش فى ولاية أراكان، وذكرت الحكومة البورمية نفسها أن ٧٨ من الروهانج على الأقل قد قتلوا، فى حين يقول زعماء جماعتهم إن عدد القتلى يصل إلى ٦٥٠ شخصا.



ولا يجادل أحد أن نحو ١٠٠ ألف من الروهانج (من إجمالى عدد السكان البالغ ٨٠٠ ألف) أصبحوا لاجئين داخليين فى بورما، فى حين فر الآخرون عبر حدود بنجلاديش، وقد أعلن الرهبان البوذيون فى بورما عن موقفهم فالرهبان البوذيون يقفون خارج مخيمات اللاجئين فى ولاية أراكان، لإبعاد من يحاولون إحضار الغذاء والمساعدات الأخرى إلى الروهانج، كما قامت اثنتان من المنظمات البوذية المهمة فى الولاية، وهما «رابطة سيتوى للرهبان الشباب»، و«رابطة رهبان مراكويو» بحث الأهالى على عدم إقامة أى معاملات معهم وذكر كتيب يوزعه الرهبان أن الروهانج «متوحشون بطبيعتهم».

لقد استقر أجداد الروهانج فى ولاية أراكان فى ما بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر، قبل وقت طويل من وصول الموجة الرئيسية من المهاجرين الهنود إلى بورما ما بعد غزو الإمبراطورية البريطانية لها فى القرن التاسع عشر.

وبحلول ثلاثينات القرن العشرين، كان المهاجرون الهنود الجدد قد صاروا الأكثرية فى معظم المدن البورمية الكبرى، كما سادوا القطاع التجارى من الاقتصاد وكان سخط البورميين بطبيعة الحال شديدا.

ودفع الغزو اليابانى لبورما أثناء الحرب العالمية الثانية معظم هؤلاء المهاجرين الهنود إلى الرحيل، إلا أن البورميين ظلوا يشعرون بالخوف والكراهية تجاه وجود «أجانب» يعيشون وسطهم، ثم تحول هذا الشعور ناحية الروهانج.



فالسبب الرئيسي لاستهدافهم هو أنه ينظر إليهم على أنهم أجانب، غير أن كونهم مسلمين داخل بلد يغلب عليه البوذيون ساهم في زيادة النفور منهم، ويتكون شعب الروهانج المقيم في ولاية أراكان من مزارعين فقراء، تماما مثل جيرانهم البوذيين، ولم يكن حقهم في المواطنة البورمية محل شك حتى استولى الجيش البورمي على السلطة عام ١٩٦٢م، فهاجم الروهانج ودفع مايزيد على ٢٠٠ ألف منهم إلى عبور الحدود إلى بنجلاديش عام ١٩٧٨م في حملة شهدت عاصفة هوجاء من القتل والاغتصاب الجماعي وتدمير المساجد.

وقام الديكتاتور العسكري الحالي - ني وين - بسحب المواطنة من جميع أبناء الروهانج عام ١٩٨٢م، كما صدرت قوانين جديدة تمنعهم من السفر من دون تصريح رسمي وتحظر عليهم تملك الأراضي، وتلزم المتزوجين حديثا منهم بالتوقيع على إقرار بعدم إنجاب أكثر من طفلين، ثم دفعت حملة عسكرية أخرى ربع مليون إضافيا من الروهانج للهرب إلى بنجلاديش خلال الفترة ١٩٩٠م إلى ١٩٩١م، ثم أخيرا ما نراه الآن.

وفي تصريح للجنرال السابق ثين سين، الرئيس الانتقالي لبورما، على المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان قال:

سوف نتحمل المسئولية عن عرقنا، ولكن من المستحيل قبول الروهانج الذين دخلوا البلاد بطريقة غير شرعية، ولا ينتمون إلى عرقنا، وأشار إلى أن أي بلد آخر يجب أن يأخذهم جميعا.

لكن الروهانج لم «يدخلوا البلاد بطريقة غير شرعية» كما أن هناك ١٢ «عرقا» في بورما، ولكن ما يحرك هذه السياسة هو الخوف والطمع والجهل الذي يستغله الساسة كالعادة، للترويج للعواطف القومية والتحيز الديني.

بورما تحترق

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة/ فاطمة عبدالعزيز بلال المنشور بجريدة العرب القطرية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٧/٢٦م جاء فيه:

من منا يتخيل بأن يعيش مشردا ومضطهدا؟!

شيخ يقتل...

شاب يحرق حيا..

طفل يشوه....

امرأة عفيفة تغتصب ثم تقتل....

بالمئات يجلسون وسط الجيش البوذي ينتظرون دورهم ليحرقوا أحياء..

فعباد الأصنام والأوثان وعلى رأسهم حاكمهم لم يتركوا مسلما في بورما إلا وقتلوه، ولم يسلم منهم منزل ولا حجر، فهل سنبقى صامتين؟!

شاب مسلم يركض والنار تحرقه حيا.. والبوذيون يركضون وراءه ليقوموا بتصويره، فأين نحن يا عرب يا مسلمين؟!

صغير بيده خبز يجلس في منظر حزين أمام والدته التي قتلت على أيدي البوذيين الزنادقة ويبكي عليها بحرقة قلب، فهل أنتم منتهون؟!

داعية يعود من العمرة فيتعرض له مجموعة من البوذيين فيضربونه على رأسه حتى الموت وهو مكبل الأيدي والأرجل، زوجة ممن نجت من مذابح البوذيين تقول: إنها رحلت مع ابنها إلى بنجلاديش، وأما زوجها وأمها وأبناؤها فقد لقوا حتفهم على أيدي عبدة الطاغوت، وكانت تبكي بحرقة وتقول حتى أمي العجوز لم تسلم منهم ولم يتبق لي سوى هذا الابن معي!! أي قلب يستطيع تحمل هذه المآسي يا ترى؟!

المسلمون هناك لا حق لهم في استكمال التعليم في الجامعات، فالحظ الأوفر لأبناء بوذا، ومن تسول له نفسه من المسلمين فيذهب للخارج ليستكمل تعليمه يلاقي أشد العقاب عند عودته.. أي حقد هذا؟!، المسلمون ممنوعون من السفر إلى الخارج ما عدا بنجلاديش ولفترة يسيرة، ولا يحق لهم السفر لأداء فريضة الحج، فلعنة الله على عبدة الأصنام والأوثان.

لا يسمح للمسلمين أن يدعوا أحدا من أقاربهم للمبيت عندهم إلا بإذن مسبق من حكومتهم الفاسدة وهذا يعتبر مخالفة يعاقب عليها القانون بهدم بيوتهم!!

المرأة المسلمة الحامل عليها أن تذهب كل شهر لأخذ صورة على بطنها إلى أن تضع مولودها، وعليها كل شهر من شهور حملها أن تدفع مبالغ كبيرة..



المسلمة ممنوعة من الزواج قبل سن الـ ٢٥ عاما أما الرجل فلا يسمح له بالزواج قبل سن الـ ٣٠ من عمره، ولا أعلم ما شأن عبدة الطاغوت في



هذا الأمر سوى إهانة كرامة كل مسلم يعيش هناك..

وكل ما ذكرته ليس إلا نقطة في بحر مما يعاني منه المسلمون في بورما من التعذيب والتنكيل والقتل والتشريد والاضطهاد،

فلا نقول سوى حسبنا الله ونعم الوكيل..

بورما!

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذة/ امينة عوض المنشور بجريدة الاتحاد الاماراتية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٧/٣٠م تقول:

قالوا: نحن نحيا في زمن يسوده القانون ولا شيء غير القانون، وإن التشريعات الإنسانية بكل بنودها قائمة على حماية البشر قالوا أيضا لا للعنصرية والتطرف الديني والعرقي، قالوا: إن من حق كل إنسان أن يحيا حياة كريمة، قالوا وقالوا.. وما أجمل ما قالوا.

ولكن أين هي مجازر بورما مما قالوا؟ أين هو الإنسان في بورما وتحديداً أراكان في كل ما قولوا؟ فقد وصل عدد قتلى المسلمين في ولاية أراكان الواقعة غرب بورما إلى ٢٠ ألف شخص، وفي ظل حالة التعتيم والغموض ارتفعت تقديرات أخرى لعدد الضحايا إلى ٧٠ ألف شخص، وفقا للتقارير الإخبارية القليلة عن هذا البلد الواقع في جنوب شرق آسيا.

المذابح والمجازر والإبادات ليست بالشيء الجديد في التاريخ الإنساني القائم على إقصاء الآخر، ولكن ظننا أننا تجاوزنا هذه المرحلة، ليس لأننا لمسنا سطح القضاء، ولا لأن الإنسان الآلي بات بيننا ولكنه السمو وتقبل الآخر والإدراك بأن هذا الكون للجميع ويتسع للجميع، فاختلافنا ما هو إلا اتفاق للطبيعة، ولن يكون هناك غيرنا على هذه الأرض، وجودنا ليس بإلغاء الآخر بل لا يكون إلا به.

من لمسلمي بورما؟!

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ أحمد محمد أبوالخير مقالاً نشر بجريدة المدينة السعودية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٦/١٦م جاء فيه:

شهد العالم ما ظلت تعانيه الأقلية المسلمة في بورما منذ سبعين عاما وحتى يومنا هذا من بطش الحكومة العسكرية البوذية في بورما، وذلك في محاولة جادة لطمس الهوية الإسلامية، وإبادة الشعب المسلم بأكمله، أو إخراجه من أرضه، لا سيما وأن بورما من أكثر الدول تأييداً للصهيونية العالمية، وهي أيضا محج البوذيين.

ففي عام ١٩٤٢م تعرضت قرى المسلمين لمذبحة دامية راح ضحيتها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ مسلم، أكثرهم من الأطفال والنساء، إثر قيام البوذيين بتحريق معظم قرى المسلمين، بمساندة القوات البورمية، أدت إلى تشرذم وتشرد مئات الألوف منهم إلى أقطار العالم الإسلامي، وبقاء من لم يتمكن الفرار منهم وسط سلسلة من المعاناة، والتضحيات في سبيل المحافظة على دينهم وهويتهم الإسلامية وأعراضهم، وتوالت الأحداث الدامية تجاه هذه الأقلية دون رقيب ولا حسيب واستمر دمها ينزف وعرضها ينتهك على مرأى ومسمع من العالم الذي يدعي حماية حقوق الإنسان.

ولا زال مئات الألوف منهم حتى اليوم ومنذ عشرات السنين يعيشون في مخيمات بالية.

وفي سلسلة الجراح التي لا تكاد تنكأ، يتعرض مسلمو بورما هذه الأيام لأبشع صور القتل والتحريق العشوائي، على يد الجماعة البوذية المتطرفة (الماغ) وسط تكتم إعلامي شديد وصمت مطبق بسبب منع الحكومة العسكرية هناك من دخول الصحفيين وغيرهم... أعتقد أن الوقت حان ليتحمل المسلمون شيئا من مسئولياتهم تجاه إخوتنا في أركان المسلوبة، ولنخرج من صمتنا العالمي تجاه هذه القضية المنسية، وأن يسعى العالم، خصوصا العالم الإسلامي لإيجاد حد لهذه الجرائم الوحشية والمجازر المتكررة والتي ترتكب في حق أقلية مسلمة مستضعفة لاحول لها ولا قوة إلا بالله، في بلد يحكمه أغلبية بوذية غاشمة، وأعتقد أن الاستنكار والتنديد كما هو مألوف لم يعد مجديا.

نناشد باسم إخواننا قادة العالم الحر، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص للعناية بهذا الموضوع الخطير والعمل على إيجاد موقف مشرف على كافة المستويات لإيقاف حمام الدم النازف في هذا الجزء من جسد الأمة الجريح، وبذل كافة السبل السياسية والدبلوماسية، والثقل السياسي والاقتصادي لاحترام حقوق هذه الأقلية وحماية دمائها وأعراضها ومصيرها.

بورما الجريحة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عادل عبدالله القناعي المنشور بجريدة جياد بتاريخ: ٢٠١٢/٧/٢٨م يقول:

بورما تستغيث بأمتنا الإسلامية وهي جريحة، يطعنها بوذيون حاقدين على الإسلام، يحاولون أن يطفئوا نور الإسلام بكل ما يملكون من عتاد، وبقتلهم لكل مسلم يؤمن بالله، وبارتكابهم المجازر الوحشية العنيفة ضد مسلمي أراكان، من حرق وقتل وتشريد وإحراق للهوية.

المساجد تحرق وتهدم على أصحابها، وها هي الأحياء والمساكن تحاصر بجميع حدودها، وحظر التجوال المفروض جبرا على المسلمين بينما يترك البوذيون أو ما يعرفون باسم «الماغ» يعيثون في الأرض فساداً ويهاجمون الأحياء المسلمة بالسكاكين والسيوف ويحرقون من فيهم أمام أعين القوات الأمنية الخونة.

فالرجاء من إخواننا وأخواتنا بالدعاء ثم الدعاء والتبرع بما ملكت أيديكم لنصرة المسلمين في بورما، فيارب العباد نسالك بأن تفرج عن إخواننا في بورما، اللهم اجعل لمسلمي بورما فرجا ومخرجا واحقن دماءهم واحفظ أعراضهم وآمنهم في وطنهم واكشف عنهم البلاء، اللهم اقتل البوذيين الظلمة المتجبرين وأرح البلاد والعباد منهم يارب العالمين «آمين».

مكتبة الأزهر

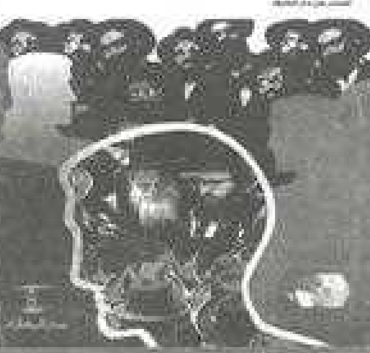


إعداد: أ. محمد شعبان

تسعى "الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

يستعرض محمد عبد الله عنان فى كتابه "تاريخ الجامع الأزهر" رحلة الأزهر الجامع والجامعة عبر مختلف العصور منذ افتتاحه يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هجرية "٩٧٢م" وحتى ستينيات القرن الماضى يتوقف المؤلف فى أول الكتاب على طبيعة المساجد فى عصر الفتوحات الإسلامية حيث كان يتم إنشاء مسجد جامع كبير فى كل بلدة يدخلها الإسلام أو تخضع لنظام حكم جديد وتكررت هذه الظاهرة فى القاهرة عدة مرات الأولى عند الفتح الإسلامى لمصر، حيث تم اختيار مدينة الفسطاط عاصمة للبلاد وكان المسجد الجامع وقتها "جامع عمرو" ونفس الأمر حدث أيام العباسيين والأيوبيين إلى أن جاء عصر الفاطميين فأصبح "الأزهر" وقتها منبراً للدعوة الشيعية ويوضح المؤلف أن "الأزهر" تحول إلى جامعة علمية فى صفر عام ٣٦٥ هجرية "أكتوبر ٩٧٥م" عندما جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيروانى بالأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت "الفقه الشيعى" وأثبت أسماء الحاضرين فكانت هذه أول حلقة للدرس، يتضمن الكتاب ملاحق بأسماء شيوخ الأزهر وأروقته وحاراته ومكتبته.

يتنقل بنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى عبر كتابه "اليهود فى عقول هؤلاء" الصادر عن دار المعارف فى جولة فى عقول نخبة من الأدباء والمبدعين من مختلف دول العالم للوقوف على موقف هذه النخب من اليهود والصهيونية ويوضح المؤلف فى مقدمة الكتاب أن اليهود يمثلون إشكالية أساسية فى العقل الغربى ويعود ذلك إلى طبيعة تكوين هذا المجتمع خاصة فى العصور الوسطى. كما يشير إلى أن ظهور هذه الإشكالية مرة أخرى فى أوائل القرن التاسع عشر أفرز تصورين مختلفين فى التعامل معها فاختلف الأمر عند هاينى وكافكا وروث عن جورجون وبرينر، حيث رأى الأخيرين أن حل المسألة اليهودية يتمثل فى محو اليهودية وإحلال الصهيونية محلها والتخلص من اليهود بنقلهم إلى فلسطين لتأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية التى تقوم على خدمة الاستعمار الغربى ويقوم هو بالمقابل برعايتها، هذا عن المبدعين الغربيين أما بالنسبة للمفكرين العرب فتوقف المؤلف عند رؤية جمال حمدان الذى قرأ المشكلة فى سياق استعمارى غربى للعالم العربى، ومن ثم جاءت دراسة الصهيونية جزءاً من مشروع دراسته لمصر والعالم العربى.



يقدم روجيه جارودى المفكر الفرنسى المسلم الذى رحل عن عالمنا أخيراً فى كتابه "أمريكا طليعة الانحطاط" الصادر عن دار الشروق شهادته على انحطاط الولايات المتحدة الأمريكية شارحاً حيثيات هذا الحكم وأسبابه وكيفية الخروج من النفق الأمريكى المظلم الذى أضحى يسيطر على العالم، ينقل جارودى فى مفتتح الكتاب شهادة الفيلسوفة سيمون فى عن أمريكا، حيث تقول «أوروبا سوف تمهد بلا شك لأمركة العالم بأسره.. وحينئذ سوف تفقد الإنسانية جمعاء ماضيها»، ويكشف المؤلف حقيقة الديمقراطية الأمريكية ناقلاً ما قاله المفكر الكسيس دى توكفيل: "لا أعرف دولة يوجد بها هذا القدر القليل أو المنعدم لاستقلالية العقل والمناقشة كما فى الولايات المتحدة الأمريكية" كما يتحدث جارودى عن معدل الجريمة فى أمريكا موضحاً أنه فى عام ١٩٩٨م سجلت الأجهزة الرسمية ٢١٠٠٠ جريمة قتل فضلاً عن وجود أكثر من مليون أمريكى فى السجن

فى ترجمة جديدة ومتميزة من الدكتور محمد عنانى لكتاب المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد "الاستشراق.. المفاهيم الغربية للشرق" والصادر أخيراً عن دار رؤية بالقاهرة تلحق دار النشر تذييلاً قد أضافه المؤلف للكتاب عام ١٩٩٥م ولم يطلع القارئ العربى على ترجمته، حيث يرد سعيد على نقاده بعد صدور الطبعة الأولى ويعيد النظر لأمور تحتاج للمراجعة. والهدف الأساسى من الكتاب هو كشف الأقنعة عن حقيقة التصورات الغربية عن الشرق والتى تم استخدام حيل علمية لتمريرها ويوضح سعيد أن أهداف هذه التصورات والدراسات عن الشرق هى أهداف سياسية استعمارية عنصرية بغرض التسلط والسيطرة، ويشير المؤلف إلى أن هذه النظرة الغربية ناتجة عن إحساس بالجهل فضلاً عن وجود بقايا خوف أوروبى من تهديد الشرق الذى كان يتمثل فى الدولة العثمانية



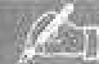
يستعرض كتاب "مبدأ الريبة" والصادر عن دار العين بترجمة نجيب الحصادى التطور الخطير الذى لحق بالعلم منذ عشرينيات القرن الماضى، حيث أنهى هذا المبدأ الذى صاغه الفيزيائى الألمانى هيزنبرج فكرة الحتمية العلمية بمعنى إمكانية تحديد كل شيء تحديداً دقيقاً بالعلم، بل وكشف هذا التصور عن أنه لم يعد فى مجال العلم براح لليقين والإطلاق والجزم فقهمنا للعلوم يشبه فى أحيان كثيرة فهمنا لحياتنا اليومية. لم يكن مبدأ الريبة مجرد نظرية علمية يقف تأثيرها عند مجال الفيزياء، بل أضحت روحاً لعصر بأكمله ودع اليقين العقلى.



من تراث الهلال:

شيخ الأزهر ظل مصرياً فى العصر العثمانى

لاشك أن فى تعيين العلماء المصريين دون سواهم فى منصب شيخ الأزهر ساعد على ثبوتهم على قيادة الحركة الوطنية «هوية شيخ الأزهر مصرية فى أيام الدولة العثمانية»


للأستاذ/ عاطف مصطفى

يعيش الأزهر الآن فترة من الازدهار، وراهن المصريون والمسلمون جميعا بأن صحوة الأزهر، ودوره الذى يؤديه فى السياسة ليس غريبا عليه، فطوال ألف سنة وأكثر هى عمر الأزهر تشهد كل كتب التاريخ ما أداه الأزهر الشريف لمصر وللعالم الإسلامى كحام للوسطية الإسلامية وكمنارة فكرية إسلامية أثرت فى عقول ووجدان كل المسلمين.

ونحن نواصل حديثنا عن «دور الأزهر فى السياسة المصرية» وهو كتاب صدر ضمن سلسلة كتاب الهلال عام ١٩٨٦م.. العدد رقم ٤٢١ لمؤلفه الأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل على.. حيث نبرز كيف قاوم الأزهر على مر العصور الاستبداد والظلم، وكذلك منزلة علماء الأزهر الشريف.

يقول أستاذنا المفكر الدكتور سعيد: «لقد شهد الشعب المصرى طوال عهد المماليك والعثمانيين صورا من آيات الظلم والاستبداد والاستغلال ما تنوء بحمله شعوب أخرى، ولكنها طبيعة الشعب الأصيلة التى تصمد لهذه الموجات العاتية بصبر وطول بال، إيمانا بأنها أيام معدودة مهما طالت، فسوف يزول هؤلاء المستبدون الظالمون، وسيبقى الشعب متجاوزا هذه العراقيل والعقبات».

ولقد أثبت الأزهر طوال هذه السنوات حقيقة هامة، وهى أن المؤسسة التربوية، لا تقف مهمتها عند حدود تلقين طلاب العلم مبادئه وحقائقه، وإنما لابد أن تمتد هذه المهمة لكى تشمل التصدى لمشكلات المجتمع؛ فكان أن دخل طرفا فى العلاقة بين الحكام والمحكومين، يفرض شخصية

علمائه عليهم بالاحترام والتقدير، ولا يغض الطرف عن العيوب والمثالب، بل يقف كاشفا ناقدا بالكلمة وبالنصيحة، ثم يبلغ الذروة بتحريك التجمعات الشعبية، لإجبار الحكام لاستماع صوت الشعب ومطالبه.

منزلة علماء الأزهر الشريف

ثم يواصل الدكتور سعيد إسماعيل على مبينا منزلة علماء الأزهر حيث يقول: «حظى علماء الأزهر طوال التاريخ بمنزلة لم تبلغها فئة أخرى من قبل، ولا غرو فى ذلك، فقد حفلت كثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ بالكثير من التقدير للعلم وطلبته وحملته، فقد قال سبحانه وتعالى:

قال تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

(آل عمران: ١٨)

ففى الآية الأولى قرن العلم بالإيمان بالله، وفى الآية الثانية جاء ذكر العلم بعد الله سبحانه وتعالى والملائكة، وهذا كله رفع لشأن العلم والعلماء.

ولم تكن القوة التى اكتسبها علماء الأزهر نتيجة لهذا شكلية بأى حال من الأحوال، فقدرتهم على تحريك العامة، وإصابة البلاد بشلل عام، إما بالتوقف عن الإنتاج، والتوقف عن ممارسة شعائر الدين، أو حتى بقيادة مسلحة.

هذه القدرة كانت عاملا لا يمكن لأى أمير عاقل أن يغفلها، أو يسمح لخصومه بالاستفادة منها فى لعبة السلطة.

د. سعيد إسماعيل على

ولم يكن المشايخ يجهلون قوتهم، ولا عدمت مصر فى أحلك العصور شيخا صريحا لا يخاف فى الحق لومة أمير، ولا حتى السلطان ذاته.

قوة رجال الدين

ولاشك أن التربية الإسلامية تحرص على تكوين العقل الإسلامى المفتوح بغير حد، بحكم مفاهيم الفلسفة الإسلامية، التى لا تسلم بالصواب المطلق لأى إنسان، ولا تعترف بالعصمة لأى حاكم مسئول، أو فرد غير الأنبياء.

ولاشك - أيضا - أن لهذا التكوين الفكرى أثره فى المواقف المتحررة المدهشة - حتى بمقاييس اليوم - التى يسجلها التاريخ لشيوخ الأزهر الشريف.

هذه المكانة كان معترفا بها فى عهد المماليك، والواقع أن المماليك كانوا دائما فى حاجة إلى سند يطمئنون إليه فى حكمهم ويستعينون به للوصول إلى قلوب الناس، واستدرار محبتهم، ولم يجدوا أفضل من العلماء وسيلة إلى ذلك، بحكم ما كان للدين ورجاله من قوة فى ذلك الزمن، فأقبلوا على رضاء العلماء وتيسير سبل العيش لهم، وإن

كان المقريزى يحاول أن يفسر إقبال المماليك على العلماء واحترامهم لهم، وإغداق الخير عليهم، بأن ذلك يرجع إلى أن المماليك بواسطة العلماء قد عرفوا دين الإسلام، وفى بركته يعيشون.

الحرص على عمارة الأزهر

يشير المؤلف إلى أن السلاطين والأمراء كانوا يتبارون فى الإنفاق على الأزهر، وتخصيصه بوقفيات كبيرة، ولا تكاد تقرأ سيرة لأحدهم إلا وترى أثراً له فى تجديد وترميم الأزهر.

ففى عهد الملك الظاهر بيبرس عادت خطبة الجمعة إلى الأزهر بعد أن ظلت معطلة منذ عهد صلاح الدين، كذلك عمل على إصلاحه وترميمه، وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء، وتبرع الأمير بيليك الخازندار بإنشاء مقصورة كبيرة بالجامع، عين لها بعض الأساتذة لتدريس الفقه الشافعى، والحديث النبوى، ورتب لها سبعة من القراء لتلاوة القرآن، وحبس على ذلك أوقافاً جليلة وفى سنة ٧٠٢هـ - ١٣٠٣م وفى عهد السلطان الملك الناصر، وقعت بمصر زلزلة عظيمة، وسقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر، فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت وتولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلام.. الخ.

وتوالت أوقاف السلاطين والأمراء والكبراء على الجامع الأزهر خلال العصور الوسطى، كما كانت تتوالى الأعطية والأرزاق الثابتة والمؤقتة لأساتذته وطلابه، وكان من أجل أعمال البر وأشرفها أن يوقف القادرون من أملاكهم وضياعهم على دور العلم وبخاصة على الجامع الأزهر.

وكانت هذه الأوقاف ترتب إما بصفة عامة، أو تخصيص لأساتذة المذاهب أو الأروقة المختلفة وطلبتها، أو للإنفاق على تدريس مادة معينة، ولاسيما علوم القرآن والحديث.

المركز الرئيسى للدراسات السنية فى العالم الإسلامى

يواصل الدكتور سعيد إسماعيل على حديثه عن مكانة الأزهر على مر العصور فيقول: لقد أظهر العثمانيون احتراما عميقا للأزهر وعلمائه، وكانت هناك عدة بواعث أملت عليهم هذه السياسة، إذ كان الأزهر بعد سقوط الدولة الفاطمية، قد غدا المركز الرئيسى للدراسات السنية فى العالم الإسلامى.

والعثمانيون يعتنقون المذهب السنى، ويتعصبون له أشد التعصب، فكان من الطبيعى أن يلقى الأزهر من الحكام الجدد السنيين المغرقين فى التعصب لمذاهبهم تقديراً للقائمين على أمره والعاملين فى رحابه.

والحقيقة أن الأتراك العثمانيين وهم فى عنفوانهم، وضعوا بدون قصد البذور لتدخل الأزهر فى السياسة والشئون العامة، فإن السلطان سليم وخلفاءه كانوا يريدون بجانب القهر والجبروت، أن يستغلوه فى القضاء على حيوية مصر، فاهتدوا إلى أن يتخذوا من الأزهر بعد تجريده من خيرة علمائه وكتبه النفيسة

أداة لهذا الغرض، فزاره السلطان سليم عدة مرات، وصلى به، وتظاهر بإجلاله، واتصل بشيوخه رغبة منه أن يتخذ منهم سلاح تخدير للشعب وللعامة بوجه خاص، وسار خلفاؤه سيرته فى ذلك.

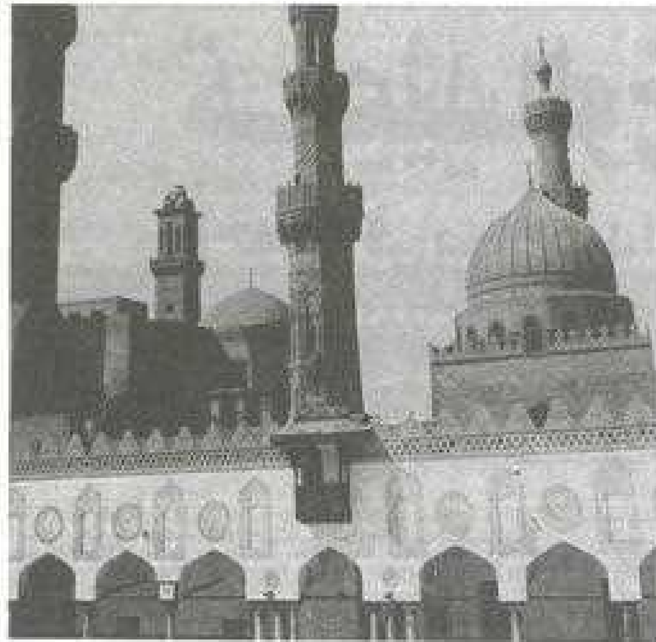
وهكذا فتح هؤلاء الباب دون قصد لشيوخ الأزهر، ليتدخلوا فى الشئون العامة وأمور الحكم.

وأحس المصريون بمكانة الشيوخ فى هذه الشئون، فاتجهوا إليهم كالأمل الباقى فى دياجير الظلمات، وكانوا يهرعون إليهم كلما نزلت بهم نازلة، ومن رحاب الأزهر كانت تنطلق حناجرهم تحمل أمانيهم وشكاواهم، وعادت الحيلة التركية وبالا على الأتراك.

شيخ الأزهر ظل مصرياً فى العصر العثمانى

ومن المظاهر التى تبين قوة علماء الأزهر فى العهد العثمانى، أن العثمانيين لم يجرأوا على تعيين عثمانى فى منصب شيخ الأزهر، بل تركوا هذا المنصب يشغله العلماء المصريون، دون أن ينافسهم فيه علماء عثمانيون.

وكانت نظرة الآستانة إلى منصب شيخ الأزهر تختلف عن نظرتها إلى قاضى القضاة، إذ قصرت التعيين فى المنصب الأخير على العثمانيين، وكان يطلق على شاغله قاضى عسكر أفندى، أو كانت الدولة توفده من الآستانة إلى



القاهرة، وهو لا يعرف اللغة العربية.

أما منصب شيخ الأزهر، فقد أبقت الدولة على مصريته، ولاشك أن فى تعيين العلماء المصريين دون سواهم فى منصب شيخ الأزهر، ساعد على ثبوتهم على قيادة الحركة الوطنية.

لقد وقف علماء الأزهر بجوار محمد على عندما تعرض سنة ١٨٠٦ لأزمة نقله من ولاية مصر إلى سالونيك، وكان محمد على قد أغدق نعمه ظاهرة وباطنة على المشايخ من علماء الأزهر.

مازال الحديث عن الدور الكبير للأزهر ورجاله فى السياسة المصرية على مدى أكثر من ألف عام. ونراه متجسد الآن وكل مصرى يحرص على هذا الدور المحورى من أجل نهضة الأمة المصرية، وعودتها من جديد لكى تتبوأ مكانتها ودورها المحورى من أجل الإسلام والمسلمين فى العالم.

عيد الوجود

(خواطر فى صباح عيد الفطر المبارك)

للشاعر أسامة كامل الخريبى

شوق يؤرق مهجتى وفؤادى … فى مطلع الأفراح والأعياد
ألقى على القلب الجريح مخايلاً … أقسى وأضيق من عرى الأصفاد
فلقد ذكرتك يا بلادى ساعة … والصبح عند تنفس الميلاد
والشمس من خلف الجبال تطلعت … كتطلع البيضاء خلف سواد
نهض النبات على خيوط ضيائها … فكأنها مدت إليه أيادي
والزهر فى لهف يشق عيونه … للنور فى إشعاعه المياد
حمراء ما زال النعاس بجفنها … فكأنها باتت بغير رقاد
والطير فى فرح كأن جناحه … رايات جيش حاشد الأجناد
والناس فى حلل الصفاء قوافلاً … كالنور حول مراكب الزهاد
ما بين تكبير الإله وحمده … تمضى كأمواج بغير قياد
وملائك الرحمن حول لقائها … تضفى عليه سكينة العباد
فوددت لو أنى هناك ببلدتى … والقوم بين معانق ومنادى
والآل والصحب الكرام ومن له … فى القلب حق محبة وودادِ
والدار والأرض التى أحببتها … وعبير آثار من الأجداد
ووددت لو أنى بعثت إليهم … برسالة: أنى أحب بلادى
وطنى كفانى أننى لك عاشق … ما أن باك أو ترنم شادى

أشواق حديثية



شعر دكتور محمد ابراهيم العشماوى
مدرس الحديث الشريف بكلية أصول الدين بطنطا

يا صاحب السُّنَّة الغرَّاء يا سَنَدى … يا من سَرَيْتَ كمَسْرَى الرُّوح فى جسدى
أُهْديكَ مُتَّبِعًا فى الحُبِّ مَنْ سَلَفُوا … فَيْضَ المَشاعرِ لم أنْقُصْ ولم أزِد
وأنتَ أكرمُ مَنْ يُهْدَى لحضرته … فقد هَدانا بكَ المولَى إلى الرَّشَد
وذلك الشِّعْرُ فَيْضٌ من محبتكُم … فأنتُمو عُدَّتى فيه ومُعتمدى
فكَمْ شَهِدْتُ به من نُورِكُمْ عَجَبًا … وكَمْ رأيتُ به فَيْضًا من المَدَد
دبَّجْتُه فيكَ والأقرانُ قد عَجَزُوا … وصُغْتُه لكَ والألفاظُ طَوْعَ يدى
علِقتُ قلبى بمَنْ مَولاهُ «أرسلَهُ» … «بالوَصْلِ» فارتفع «الإعضالُ» للأبد
السابقُ اللَّاحقُ المختارُ من مُضَرٍ … خيرُ البَرِيَّةِ فى الآباء والولد
لما تواترت الأفضالُ من يَدِه … عمَّ البرية لم يَسْتَثْنِ من أحد
أنَّى تُساويه «آحادُ» الورَى كرمًا … وفى «التَّواتُرِ» ما يُغْنِى عن العددِ؟!
أنا الغريبُ ولكنِّى اشتهرْتُ به … لما «أجاز سَماعِى» بالحياة فِدَى!
ناولْتُه الحُبَّ من قلبى مُكاتَبةً … وكم «عَرَضْتُ» عليه فِلْذةَ الكبد
أَوْصَى إلىَّ بسِرٍّ ثم أعلمَنى … أنىْ على «الوَجْد» موصولٌ به «سندى»

وما «وضعتُ» ولا عنه «قطعتُ» ولا   لى فى الهوى عنه من صبرٍ ولا جَلَد
وكيف ينعمُ صبٌّ فى محبته   والجسمُ فى بلدٍ والروحُ فى بلد؟!
ما كان «حُسْنُ حديثى» فيه «مضطربًا»   كلاّ ولا «منكرًا» إن رُمْتَ لم تجد
حُبِّى «عزيزٌ» فما دلستُ فيه ولا   «خلطتُ» حتى غدا كالطود والوتد
ولا تعارضَ عند «الجمع» «محكمُه»   ولا «ترجّحَ» إلا حبُّه الأبدى!
أُدرجتُ فى زمرة العشاق «مؤتلفًا»   إليه «مختلفًا» كالطائر الغرد
قد صحّ عنه «حديثٌ» فى محبته   فوقَ النفوس وفوقَ الأهل والولد
وقفتُ «شعرى» عليه «فارتفعتُ» به   إلى «العلوّ» فلم أنزلْ إلى أحد
تابعتُ حُلْوَ هواهُ وهْوَ «يشهدُ لى»   يا فوزَ «معتبرٍ» منه «ومعتضد»
لما جُرِحتُ أصابتنى «عدالتُه»   فبدّلَ العيشَ من غمٍّ ومن كمد
ومَنْ تكُنْ برسول الله عصمتُه   فلا تسلْ أبدًا عن عيشه الرَّغَد!
«متنى ضعيفٌ» ولى فى حبه «سندٌ»   ونظرةٌ منه تشفى «علّةَ» الجسد
يا «أوثقَ الخلق» فى دنيا وآخرة   يا خيرَ كفٍّ سخىٍّ بالعطاء ندى
أمّلتُ فيك من الآمال أكبرها   وأنت أكبرُ مما دار فى خلدى
ها قد أتيتُك بالأوزار أحملُها   فكُنْ شفيعى عند الواحد الصمد
تخشى «الأصاغرُ» «وحدانًا» فإن نزلتْ   ساحَ «الأكابر» كانت فى حمَى الأسد
هذا «مسلسلُ» عمرى أنت تعرفُه   ولن يخيبَ لديكُم حُسْنُ معتقدى
ما فيه من «خبرٍ» كلاّ ولا «أثرٍ»   عليك «يُعرَضُ» إلا كنتَ فى كبد
ما كان عنك «بمجهولٍ» ولا «نُسِختْ»   فيه «الصحائفُ» إلا من صنيع يدى

يا مصدرَ النورِ فى الأكوان قاطبةً   ويا شفاءَ عيونِ الخلق من رمد!!
إنى أحبُّك علَّ الحبَّ يشفعُ لى   فليس لى موردٌ إلاهُ إن أرد
وذا أوانُ «ورودى» والهوى «سببٌ»   وبردُ مائك ممزوجٌ من البرد
أذوبُ فيك هيامًا أستلذُّ به   ولا أبوحُ به من خيفة الحسد
وفى اللذاذة آلامٌ أكابدُها   ولستُ فى ذا ولا هذا «بمنفرد»
عجبتُ ممن له قلبٌ وفيه دمٌ   ولا يحنُّ له كالصخر فى أحد!!
جمالُ وجهك فى عينى يداعبُها   ونبضُ حبك فى قلبى وفى كبدى
سُمّيتُ باسمك يا أسمى الورى أملا   ألاّ أخيبَ ولا أشقى إلى الأبد
أحببتُ سنتك الغراءَ من صغرى   وعن هواك مدى الأيام لم أحد
«مولاى» يا كنيتى يا «اسمى» ويا «لقبى»   يا منتهى «نسبتى» يا «حاكمًا» بلدى!!
يا حافظًا حجتى يا «مسندًا» أملى   أنقذْ «أميرَ» الورى جيدى من المسد!!
أرّختُ فى «مولدى» حبى لحضرتكم   حتّى وفاتى ونزعِ الروحِ من جسدى
إنْ أحببْك والأحبابُ منزلُهم   معَ الحبيب إذا ما الحشرُ يومَ غد
عِدْنى بعفوٍ من المولى وعافية   فأنت أصدقُ خلق الله إن تعد
وأنت أقربُهم منهُ وأكرمُهم   عليه منزلةً من سالف الأمد
«أنت الحبيبُ الذى تُرجَى شفاعتُه»   وأنت للناسِ طرًّا خيرُ مستند
ولن يضيقَ رسولَ الله جاهُك بى   إذا الشدائدُ فتّتْ فى الردى عضدى
فامْنُنْ علىّ بقولٍ منك يسعدُنى   أنى أحققُ ما ترجُوهُ يا ولدى



طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

صفات سيدنا عمر - رضى الله عنه

قال معاوية بن أبى سفيان- رضى الله عنه- لصعصعة بن صوحان: صف لى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه، فقال: كان عالما برعيته، عادلاً فى قضيته، عاريا عن الكبر، قبولاً للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريًا للصواب، رفيقًا بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب.

لإذهاب الحمى

روى البيهقى، عن أنس - رضى الله عنه-، قال: دخل النبى ﷺ على عائشة وهى موعوكة تسب الحمى؛ فقال: «لا تسبيها، فإنها مأمورة، ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتيهن أذهب الله عنك»

قالت: فعلمنى..

قال: قولى: «اللهم ارحم جلدى الرقيق، وعظمى الدقيق، من شدة الحريق،، يا أم ملدم، إن كنت آمنت بالله العظيم، فلا تصدعى الرأس، ولاتنتنى الفم، ولاتأكلى اللحم، ولا تشربى الدم، وتحولى عنى إلى من اتخذ مع الله إلها آخر»

(وأم ملدم هى كنية الحمى)

العلم فى الجنة

حضر الشريف التلمسانى، وهو صبى درس الشيخ أبى زيد بن الإمام، فذكر الشيخ فى حديثه نعيم الجنة، فقال الشريف: هل يدرس العلم فى الجنة ياشيخ؟ فقال الشيخ: نعم، قال: ما دليلك؟ قال قول الله - تعالى-:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾

(الزخرف: ٧١)

والعلم يشتهى فهو موجود، قال الشريف: لو قلت لى لا، لحزنت، فالحمدلله.

مارأيت أنت ولا آباؤك مثلها

أهدى الشريف التلمسانى إلى الملك صلاح الدين الأيوبى هدايا، وكان الرسول يخرج منها واحدة واحدة، ويعرضها على الملك، فأخرج مروحة من

خوص النخل، وقال: أيها الملك هذه مروحة مارأى الملك، ولا أحد من أبنائه مثلها، فاستشاط الملك غضبا وتناولها منه وإذا عليها مكتوب:

أنا من نخلة تجاور قبرا
ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتنى سعادة القبر حتى
صرت فى راحة ابن أيوب أقرا

فعرف صلاح الدين أنها من خوص النخل الذى فى مسجد رسول الله ﷺ فقبلها الملك ووضعها على رأسه وقال للرسول: صدقت، صدقت.

أشد عيوب الإنسان

قال ابن المقفع: من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه، فإن من خفى عليه عيبه، خفيت عليه محاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذى يعرفه، ولن ينال محاسن غيره.

الأخ الحق

من كلام المثقب العبدى:

فإما أن تكون أخى بحق
فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاطرحنى، واتخذنى
عدوا أتقيك وتتقينى
فإنى لوتعاندنى شمالى
عنادك ماوصلت بها يمينى

أظلم الناس لنفسه

روى عن الإمام محمد بن إدريس الشافعى - رضى الله عنه - أنه قال: أظلم الناس لنفسه: اللئيم؛ فإنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف الأشراف، وتكبر على ذوى الفضل.

حقـــا

ومن العداوة ما ينالك نفعه
ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

رد سهمى

صوب الفضل بن يحيى - وهو أحد أجواد وكرماء العرب - سهمه إلى بدوى، وقال له: رد سهمى ببيت من الشعر!

فقال البدوى:

لقوسك قوس الجود والوتر والندى
وسهمك سهم العز فارم به فقرى

فأعجب الفضل ببلاغته، ووصله بمال، وأحسن إليه.

دعـــاء

اللهم أصبح ظلمى مستجيرا بعفوك، وذنبى مستجيرا بمغفرتك، وخوفى مستجيرا بأمنك، وفقرى مستجيرا بغناك، وضعفى مستجيرا بقوتك، وذلى مستجيرا بعزك، ووجهى الفانى مستجيرا بوجهك الدائم الباقى.

بين المجلة والقارئ

أ. أحمد السيد تقى الدين

الإنسان.. وقيمة العبادة.. وآفاق التقدم..

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ يحيى السيد النجار- كاتب وباحث/ دمياط - قال فيها:

●● اقتضت حكمة الله عزوجل من خلق الإنسان.. أن يجعله صالحاً.. ويعمل بثوابت العبادة الحقة لله عزوجل.. لأن فى صلاح الإنسان صلاح للمجتمع.. والإنسان بحاجة لإصلاح ذاتى..

وعن درة بنت أبى لهب ـ رضى الله عنها ـ قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله: أى الإسلام خير؟

قال ﷺ: «خير الناس اقرؤهم واتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم» رواه أحمد.. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

والرسول ﷺ قد هدى حين أخبر أنه ستكون فتنة.. فسأله الصحابة: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال ﷺ: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم.. وحكم ما بينكم.. هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله» رواه الترمذى..

●● اقتضت حكمة الله عزوجل من خلق الإنسان.. تعظيم وطاعة الله.. واكتشاف سنن الكون.. والاستخلاف فى الأرض.. ويتصف الله عزوجل بكل صفات الجلال والكمال وعرف الله خلقه وهم فى عالم سابق على وجودهم فى الدنيا فأشهدهم على وحدانيته لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

والإنسان بحاجة للعبادة الخالصة لله.. وقال تعالى:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾

(البينة: ٥)

والله عزوجل دعا عباده للتعاون على البر والتقوى.. وقال تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٢)

كما دعاهم إلى التواصي بالحق والصبر.. قال تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

(العصر: ١: ٣)

●● اقتضت حكمة الله عزوجل.. أن أرسل رسله وأنبياءه «عليهم السلام» مذكرين ومبشرين ومنذرين.. لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.. فمن حافظ على صفاء فطرته.. فإنه انضم لأهل الإيمان.. وتحقق له الفلاح فى الحياة الآخرة.. قال تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

(النازعات: ٤٠: ٤١)

وفى استقامة حياة الإنسان.. يحيا حياة طيبة مليئة بالطمأنينة والسكينة.. قال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

ومع غياب استقامة الإنسان.. يعيش الحياة الضنك.. قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(طه: ١٢٤)

كما أن كل إنسان مسؤول عن رعيته.. قال الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته.. والرجل راع فى أهله.. وهو مسؤول عن رعيته.. والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها.. والخادم راع فى مال سيده.. ومسؤول عن رعيته» رواه مسلم..

●● اقتضت حكمة الله عز وجل.. أن خلق الإنسان ضعيفاً.. وبين له طريق الحياة الحقة بقيمة القلب السليم.. قال تعالى:

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء: ٨٩)

والإنسان مسؤول عن المحافظة على نقاء فطرته.. وسلامة قلبه.. وتزكية نفسه.. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

(فصلت: ٣٠)

وعلى الإنسان الابتعاد عن هوى النفس وإغراءات الشيطان.. لأن الشيطان عدو للإنسان.. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(فاطر: ٦)

●● اقتضت حكمة الله عزوجل بتحديد هدف الإنسان.. اتقان حركة الحياة عملاً وسلوكاً والعمل بروح من النزاهة والإخلاص.. ويكون دائم ذكر الله شاكراً لنعمه.. كى ينال جزاء العمل.. وجزاء

الإيمان.. قال الرسول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله.. والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة.. فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها.. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا.. وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» رواه البخارى وأحمد والترمذى...

ومع عمل الإنسان يمتلك المجتمع المسلم آفاق التقدم.. والتقدم بحاجة للعمل بأخلاقيات وقيم العقيدة والضمير الإنسانى.

والإنسان صانع مستقبله.. والمستقبل بحاجة لترتيب أولويات.. مع إدراك قوى التجديد والتغيير.. والوعى بالمستقبل والاهتمام به هو وليد التغير المستمر الناشئ عن الزيادة المطردة فى سيطرة الإنسان على بيئته..

وقوانين المستقبل والتاريخ تحكمها قوانين حتمية.. قال تعالى:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

(التوبة: ١٠٥)

وقضية المستقبل بحاجة لتخطيط وإعداد.. والإنسان ذو تاريخ لأنه دائم التطور والتغيير.. كما أن الإنسان يعيش أحلامه وآماله.. ويتميز عن غيره من الكائنات الحية بقدرته المستمرة على رفض الواقع.. وتطلعه إلى التغيير فى ضوء نتائج تجاربه.. وما يرسمه خياله من آمال وأحلام عن المستقبل..

وإنسان ومجتمع بلا أمل.. ولا مثل عليا هو إنسان أو مجتمع محكوم عليه بالجمود أو الفناء.. كما أن طريق التقدم لا نهاية له.. وبالثقة بالنفس يحقق الإنسان أهدافه المستقبلية..

تغيير المنكر.. الثوابت والمتغيرات

تحت هذا العنوان جاءت رسالة: د.هانى حجاج hany - haggag@hotmail.com

بالنسبة لموضوع تغيير المنكر فهو وإن كان من ثوابت الإسلام، إلا أنه صار ملتبسا فى معناه ومضمونه وأسلوبه لدى البعض، هذا البعض الذى يشمل مع الأسف جماعات وحكومات، ومن ثم يجب علينا فى البداية أن نضع المعنى القرآنى كركيزة أساسية للموضوع. جاء تغيير المنكر فى القرآن الكريم على النحو التالى:

﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

«النساء: ٨٤»

أى أن المؤمن لا ينبغى أن يرده زجر الزاجرين وامتناع الفاحش عن الانتهاء ولو بقى وحده يحاول تغيير المنكر. وقوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

«المائدة: ١٠٥»

فى دلالة صريحة إلى أننا يجب أن نلتفت إلى أنفسنا ونعمل على سد ما بنا من نواقص قبل أن نتتبع عورات الآخرين ولو بحجة سترها، وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

«طه: ١٣٢»

فالصبر هنا قرين الأمر الهام، ونحن نرى الكثيرين من الآباء والأمهات الذين يعتقدون أن تكاسل أبنائهم الصغار يوجب تعنيفهم وتوبيخهم بشكل فظ، وأما مع الأقارب فيكون الأمر بالإنذار فقط وهو أخف وطأة من الأمر:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

«الشعراء: ٢١٤»

وأما مع سائر الناس فليس لنا الحق إلا بالدعوة التى هى أحسن:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

«النحل: ١٢٥»

وقوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

«آل عمران: ١١٠»

وقوله عز وجل:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

«فصلت: ٣٤»

من ذلك يتبين لنا أن مسألة تغيير المنكر حسب منهج القرآن تحتاج إلى قدر كبير من الحكمة تدرك أن لكل مقام مقال، وأن هداية الأعراب غير تكليف النفس، غير إنذار الأقارب، غير درجة الوعظ والجدال، غير الإرشاد الصامت بتجاهل المسئ، وقد قيد رسولنا الكريم ﷺ فرضية التغيير باليد بالاستطاعة، وكذلك التغيير باللسان، فإن عجز عن الأولى، انتقل الثانية، فإن عجز عنها أيضا انتقل إلى المرحلة الأخيرة وهى التغيير القلبى. عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» «رواه مسلم» وقال النووى فى هذا الحديث: «باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث، عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله بعذاب

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

«النور: ٦٣»

والعجز نوعان: حسى - ومعنوى. يكون الحسى لمرض أو فقد الأداة التى يكون بها التغيير، فيقدر العفو بقدر العجز:

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

«القيامة: ١٤-١٥»

فإن تحقق العجز الحسى عن مباشرة التغيير اليدوى أو اللسانى بقى وجوب إعانة من هو غير عاجز إعانة مستطاعة مثل المناصرة والمؤازرة، وتكثير السواد، والدعاء له بالتوفيق والتثبيت،

وإخلافه في أهله إن غاب، ومناصحته والتواصي بالحق بالصبر.

على أننا نوصي أنفسنا بالبر قبل أن نفعل مع الآخرين، فلا يعقل أن يمضي الشاب وقته في تفاهات ثم يجد بداخله الشجاعة لينصح الأخ الأصغر بالاستغلال الأمثل للوقت، مع ملاحظة أمر شديد الأهمية وهو أن المأخذ على هذه النقطة لا يجب أن يكون في اتجاه أنني مادمت على المعصية لا يجوز أن أعطي النصيحة أو أمنع المنكر، فهذا التوجه ناقص وسلبي أما المكسب فيكون بالارتفاع الإيجابي على هذا النحو: كيف أنصح غيري بالخير وأحرم نفسي منه؟ هنا يفوز اثنان ولا يخسر أحد.

اختيار وسيلة النصح يجب أن يكون حكيما ونظيفا، فكيف تصور فيلما يحفل بالألفاظ النابية بدعوى أنك تكشف عيوب مجتمع ما بغرض إظهار ما يترتب عليها من تدهور؟ ما أدراك أنه من بين جمهورك عقول ضعيفة ونفوس أضعف تلتقط هذه التصرفات المشينة وتمارسها وتروجها لأنها تبدو ظريفة أو مضحكة؟ هكذا أنت تقدم الدواء في غلاف مسموم فمهما كان أثره لا يمكنك تجاهل انتشار السم في الجسم! والحكمة تقتضي تقوى الله في ما تقدم من عمل قابل للاستمرار لزمن قد يزيد على عمرك نفسه كما في الكتب أو التسجيلات، فوسيلة النهي على المنكر يجب عليها مراعاة تبدل الأحوال بحيث لا تقتصر على بيئة معينة أو زمن بعينه.

نتذكر قول الرسول الكريم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (رواه الترمذي وابن ماجة) ونزيل من الذهن التعارض بين معناه وبين حديثه عن النهي عن المنكر، بإدراك ما إذا كان الفعل شخصي غير ضار بالنفس أو المجتمع وبين أن يكون التصرف فيه من الضرر ما لا تحمد عقباه إما في هيئته المباشرة أو عند تكراره أو في خطورة إمكان تقليده وإثارته للفتن كما أنه لا ينبغي لنا تسبب الحرج أو الضرر للآخر، فلا نفضحه بالنصيحة أو النهر، وأن نعرف طبيعة العلاقات بيننا وبين من ننهاه، فحسب السن والمكانة العقلية والظروف العامة تتحدد طريقة وأسلوب النهي عن المنكر، وبعض الكبائر التي ينغمس فيها الشخص المسيء تحتاج منا إلى وقفة مع النفس لتحديد خطة واضحة يمكن تقسيمها إلى مراحل، وقد تشتمل على عدة أنواع من أساليب تغيير المنكر، فهي تبدأ عموما بالإنكار في القلب، ثم التوجيه اللساني بالإشارة أو التصريح المباشر، وقد تشمل المساعدة في خلق ظروف معينة تبعد بها المسيء عن حياة المعاصي، وأخيرا يمكن اللجوء للنهي باليد كنهي معتد أثيم أو قاتل أو مغتصب.

عن أبي بكر الصديق أنه قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا﴾

«المائدة: ١٠٥»

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه (رواه الترمذي وأبو داود «وابن ماجة».

الإسلام وحسن الهندام

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ: شعبان عبدالعال إبراهيم - المنيا - بني حسن الشروق:

الإسلامي يوصي أن يكون المرء حسن المنظر يلبس ثوبا نظيفا متناسق الألوان ساترا لذا قال ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم» وذلك لأن اللون الأبيض فيه ضوء وجمال والتجمل في اللباس عنوان الإنسان وعلامة حكمته سئل حكيم: ما مالك؟ فقال: «التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس»

وصدق القائل:

حسن ثيابك ما استطعت فإنها
زين الرجال فيها تعز وتكرم

وقد كان السلف الصالح أجمل الناس ثيابا وأشد الناس اعتناء بمظهرهم وفي قلوبهم من التواضع والزهد ما يصعب مدحه، والرسول ﷺ كان إذا رأى مسلما يهمل في تجميل نفسه وتنسيق هيئته نهاه عن ذلك وأمره أن يلبس أفضل ما عنده، ومهما تكاثرت المتاعب والمسئوليات على الفرد فلا ينسى واجب الالتفات إلى زيه ونظافته فليس من التدين فوضى الملبس، بل هذا هو الجهل الواضح والإفتراء على تعاليمه فالأناقة مطلوبة في غير إسراف لأنها من تعاليم الإسلام ولم يحرم ﷺ أي لون أو نوع باستثناء الحرير للرجال فقط لحكمة ربانية، قال تعالى:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾

«سورة الأعراف: ٣٢»

مما يميل إليه الطبع ويقره العقل ويدعوا إليه الشرع النظافة وحسن الهندام لما في ذلك من آثار طيبة على الصحة البدنية والنفسية ومن توثيق الرابطة بين الفرد ومجتمعه الذي يخالطه ولا يستغني عن العيش معه ومن عنوان طيب يستدل على سلامة الذوق وحسن التقدير وعلى سمو الإدراك وصحة الفهم لطبيعة التشريع وبعكس ذلك يكون الإهمال والفوضى والفظاظة، وهي من أهم العوامل لكثرة العلل والأمراض، ويظن بعض الناس أن رثاثة الثياب وعدم المبالاة بحسن الهندام زهد في الحياة وبعد عن فتنة الدنيا وأن ذلك كان دأب الصالحين الذين وصلوا من طريق إلى رضوان الله سبحانه وكيف يستقيم ذلك والزينة من مقاصد الإسلام مَن الله بها على عباده فقال:

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا﴾

والريش من معانية اللباس الفاخر والنبي ﷺ كان يعني عناية بالغة بنظافة بدنه وثوبه ومكانه، وبحسن هيئته وطيب رائحته انجذبت إليه القلوب لكمال مظهره، كما التفت حوله لجمال خلقه وسمو تعاليمه.

نور رسول الله وأخذ العهد والميثاق على الأنبياء والرسل وطهارة نسبة وحسبه ﷺ

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة للأستاذ: محمد سعيد أبو هاشم رضوان - جزيرة سعود - مركز الحسينية - الشرقية:

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(الأحزاب: ٧)

هذا تنويه بأولية خلقه ﷺ حيث قدم ذكر رسول الله على ذكر الأنبياء المذكورين معه في الآية الكريمة وذلك رغم سبق أزمنتهم لزمن ظهوره، وهناك البعض من المفسرين، والبعض يرى أن التقديم في الذكر في الآية للتقدم في الرتبة والشرف، والبعض يري أن التقديم في الذكر في الآية دال علي التقدم في الخلق فقد ذكر الإمام الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: «ذُكر لنا أن رسول الله كان يقول: (كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث)، وقد ذكر الحافظ السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» عند تفسيره للآية الكريمة التي نحن بصددها عن هذا الحديث بتخريجه «أخرج الحسن بن سفيان وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والديلمي وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾

قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»

فبدئ به قبلهم.

وأخرج أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه والبيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» وهذا حديث صحيح الإسناد.

وقوله: لمنجدل، يعني: طريحًا ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه، وأخرج أحمد والحاكم عن ميسرة الفجر قال: «قلت يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ قال: وآدم عليه السلام بين الروح والجسد»

وعليه نقول أنه تحمل هذه الروايات على وجوب نبوته وثبوتها وظهورها في الخارج، وقد ذكر الإمام الغزالي في كتاب «النفخ والتسوية» في قول رسول الله: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»: «المراد بـ«الخلق» هنا: التقدير دون الإيجاد فإنه قبل أن تلده أمه لم يكن موجودا مخلوقًا، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود»

وقد قال العلامة تقي الدين السبكي ٧٥٦هـ «إنه قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: «كنت نبيا» إلى روحه الشريفة، أو إلى حقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر العقول عن معرفتها وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء فحقيقة النبي قد تكون من حين خلق آدم، أتاها الله ذلك الوصف، بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبيا، وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده».

وعليه فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية حاصل من ذلك الوقت، وإنما يتأخر البعث والتبليغ، وكل ما له من جهة الله ومن جهة تأهل ذاته الشريفة، وحقيقته معجل لا تأخر فيه وكذلك استباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ فهذا هو رسول الله الذى كمله ربه وجمله واصطفاه على سائر خلقه وميزه وعلمه وأدبه وقد أخذ الله العهد والميثاق من أنبيائه ورسله أن يؤمنوا به وينصروه قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(آل عمران: ٨١)

الرسول القدوة

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الاستاذ: عبدالباسط محمد السيد محمد الأربعين ـ السويس

قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

«الأحزاب ـ ٢١»

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل النبي ﷺ قدوة حسنة للمؤمنين، كي يقتدوا ويتأسوا به، وإنما كان ذلك لأن القدوة تمثلت في أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله، وفي شمائله وأخلاقه وصبره ومصابرته ومجاهدته، حتى نقتفي أثره، ونتنهج نهجه، ونتمسك بسنته، ولما كانت حياة النبي ﷺ في أعلى درجات القدوة، وأفضلها، وأحسنها، بين الله ـ تعالى ـ بأن لنا في النبي ﷺ. أسوة حسنة، والأسوة والقدوة بمعنى واحد، إلا أن الأسوة أشد وأقوى وأعمق في بابها من الاقتداء، لأنها جاءت مع النبي ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين، وكذا جاءت مع خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال عز من قائل:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾

«الممتحنة: ٤»

إن المسلم مطالب بأن يحاكي سيرة المثل الكامل في نبي هذه الأمة، وأن يطلع على جوانب شخصية النبي ﷺ.

إن سيرة النبي ﷺ هي المعين الذى ننهل منه فينبغي لنا أن نفكر كيف كانت حياة النبي ﷺ، وكيف أنها كانت فسيحة الأرجاء ومتسعة الجوانب، فما من طالب قدوة، إلا ويجد الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى.

فإن النبي ﷺ قدوة في العبادة، وقدوة في الزهد، وقدوة في العفو، وقدوة في البيت، وقدوة مع الأهل، وقدوة في التعامل مع الصغار، وقدوة في التعامل مع الكبار، وقدوة في التعامل مع الخصوم، وقدوة في حال الفقر، وقدوة في حال الغنى، وقدوة في حال السلم، وقدوة في حال الحرب، وقدوة في حال الصحة، وقدوة في حال المرض، وقدوة في التبليغ.

إن ميادين قدوة النبي ﷺ كثيرة ومتعددة، وأن المتأسي به سالك الطريق الموصل إلي طاعة الله، وسالك الطريق المستقيم، طالبا الهدى والرشد، مبتعدا عن الضلال والغي، محققا قدوة الرسول ﷺ في نفسه قدر الطاقة، وحسب الاستطاعة، وإنما يوفق لهذه القدوة من كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

ردود خاصة

* وردت إلينا خطابات، ومكالمات تليفونية من عديد من القراء الأعزاء بشأن قيام بعض باعة الصحف ببيع المجلة منفصلة عن الهدية المصاحبة لها، وقد تم إخطار مؤسسة الأهرام التى تتولى توزيع المجلة داخل جمهورية مصر العربية لاتخاذ ما يلزم بشأن هؤلاء الباعة، والمجلة تهيب بقرائها الأعزاء عدم شراء المجلة بدون الهدية المجانية المصاحبة لها.

* كما تلقت المجلة العديد من الاستفسارات من القراء الكرام عن طريقة الحصول على أعداد من المجلة لم يتمكنوا من شرائها ولهؤلاء نقول: بإمكانكم الحصول على هذه الأعداد عن طريق التوجه لمقر الإدارة العامة للمخازن والمشتريات بالأزهر الشريف بمعهد السلطان حسن بلقية أمام جوازات مدينة البعوث الإسلامية بشارع أحمد سعيد لشراء ما فاتهم من أعداد.

* وننصح قرائنا لضمان الحصول على المجلة بانتظام وفى موعد صدورها بالتوجه إلى أقرب مكتب اشتراكات تابع لمؤسسة الأهرام وسداد قيمة الاشتراك السنوى ويبلغ ٢٤ جنيها داخل القاهرة، أما خارج القاهرة فيتم إضافة خمسين قرشا مقابل الاشتراك لكل عدد شهرياً.

●ومن الأستاذ السيد مجاهد جاءتنا هذه الملاحظات:

السيد الأستاذ مدير التحرير

تحية طيبة وبعد،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نشكركم على ما تقدموه لنا كقراء مسلمين فى مجلتكم الغراء التى تضيف لنا الكثير بسعر زهيد جداً لا يتناسب مع ما تبذلونه فيها من جهد جعله الله فى ميزان حسناتكم.

ولى ملاحظة صغيرة على الكتيب الذى يصدر مع كل عدد كهدية مع المجلة فهو مضغوط عليه جدا عند التجليد من جهة اليمين بحيث لا يسمح للقارئ بمتابعة القراءة بينما الهامش من جهة اليسار به مساحة واسعة وأحيانا تكون السطور أما مرتفعة جداً لأعلى الكتيب أو منخفضة لأسفله بحيث يتعذر علينا قراءته.

ورد ذلك على سبيل المثال فى صفحات كتيب المدنية الإسلامية للدكتور السنهورى باشا فى الصفحات رقم ٤٦ و٤٧ وما بعدها.

نكرر شكرنا لكم ونأمل مراعاة تلافى تلك الملاحظة مع قبول وافر التحية والاحترام.

>> والمجلة تعد إن شاء الله بالعمل مستقبلاً على علاج هذه الملاحظات.

●الأخ الأستاذ عبدالعزيز محمد شريف ـ الغربية ـ قطور ـ طريق الشين:

تحتاج لإعادة قراءة المقالات التى قرأتها ومحاولة فهمها بهدوء، وبالمناسبة هذا الكاتب توفى منذ نحو نصف قرن أو يزيد وأعماله قُتلت بحثا ودراسة وأثنى عليها غير قليل من علماء الأمة وأحسبك متجنيا عليه فتذكر أخى الكريم أنه لا يعلم سرائر النفوس ودواخلها إلا الله سبحانه وتعالى، وقديماً منذ نحو ١٤٠٠ عام عاتب رسول الله «ﷺ» أسامة بن زيد ـ وهو من هو ـ يوم قتل رجلاً من المشركين بعد أن نطق الشهادتين قبل أن يصرعه أسامة بسيفه، وتعلل أسامة بقوله لرسول الله «ﷺ»: يا رسول الله إنما قالها تقية.. فرد عليه رسول الله «ﷺ» بقوله: «هلا شققت عن صدره»..

لنا الظاهر أما السرائر فلا يعلمها إلا الله.

أنبــــاء الأزهـــــر

للأستاذين: محمود الفشنى - عبدالموجود أمين



الرئيس محمد مرسى.. فى خطاب شامل للأمة:

لن تأخذنا رأفة بالمجرمين.. الذين يهددون أمن البلاد

أعلن الرئيس الدكتور محمد مرسى أن قرارات التغيير الأخيرة التى اتخذها لم تتوجه لأشخاص أو لإحراج مؤسسات بعينها.

قال: إننى قصدت من هذه القرارات مصلحة الأمة والشعب.

وجه د. مرسى فى خطابه الذى ألقاه خلال الاحتفال بليلة القدر كل الشكر والتقدير لرجال وقيادات القوات المسلحة، وقال: أريد لهم كل الخير، وأن يتفرغوا للمهمة المقدسة لهم وهى حماية البلاد.



ناشد د. مرسى أبناء الأمة العمل بهمة لزيادة الإنتاج وجذب الاستثمارات، وقال: إننا نحمل رسالة سلام ولا نسمح لأحد بتهديد الوطن، ولن يهدأ لى بال حتى تستقر أوضاع أهالى سيناء.

أضاف موجهاً خطابه إلى أبناء الشعب المصرى: اعلموا أنه طال رقاد هذه الأمة، وطال عدوان أعدائها عليها، واليوم تحتاج الأمة إلى وعى أبنائها وعملهم الجاد والمستمر والتضحية.

منارات الهدى

قال الرئيس مرسى: إن تاريخ مصر يشهد بأن علماء الأزهر كانوا دائماً منارات الهدى وقادة للنهضة والتنوير والعلم والمقاومة.. فالإسلام ليس إلا رسالة سلام.

أكد أنه كما كان نصر العاشر من رمضان دليلاً على نهضة وانتفاضة كبيرة فإن ثورة ٢٥ يناير قامت والمصريون على قلب رجل واحد، وأضاف: أننا حققنا بعض أهداف ثورة ٢٥ يناير، ومازالت مصر تسعى جاهدة لاستكمال هذه الثورة البيضاء المباركة.

حملة ضد المتآمرين

أشار الرئيس محمد مرسى إلى الحملة التى تقوم بها القوات المسلحة والشرطة ضد بؤر الإجرام فى سيناء بعد الهجوم الغادر على جنودنا فى منطقة رفح، وأكد رئيس الجمهورية أنه يقود بنفسه هذه الحملة.



قال: إن هذه الحملة لا يمكن أن تكون أبداً ضد الآمنين أو المواطنين الشرفاء من أهلنا فى سيناء، إنما هى ضد من بغى وطغى وتآمر وخطط، ومن اعتدى وقتل.. وأكد أن هؤلاء الخونة لن تأخذنا بهم أبداً رأفة أو شفقة.. مشيرا إلى أنه تم الإمساك ببعض المجرمين ويجرى ملاحقتهم جميعاً.

أضاف: أننا نستعد بكل ما نستطيع من قوة لكل من يفكر فى الاعتداء على مصر قولاً أو فعلاً.. ودعا د. مرسى فى خطابه أبناء مصر للعمل والإنتاج.. مشدداً على أن قطع الطرق يعتبر جريمة، لأنه يعطل المصالح العامة والخاصة للمواطنين.

مصر تنتفض

قال: ها هى مصر أيها الأحباب تنتفض لتقود هذه الأمة وتستعيد دورها فى كل المجالات بعد أن ظلت للأسف جاثية قدراً طال من الزمن، حيث وبكل أسف طغى عليها أعداؤها وتآمر عليها من جاءوا من خارجها، ووجدوا من بعض من يعيش على أرض مصر من يتعاون ويتآمر معهم ضد الوطن.

أضاف: ها هى مصر تنتفض وأيضا فى شهر رمضان، فأعزها الله بنصر العاشر من رمضان وحقق لها العزة فى حرب اكتوبر المجيدة.. فكانت تلك الانتفاضة دليل نهضة كبيرة لوطننا الحبيب مصر.

هذه هى مصر وهذا حالنا.. نؤدى واجبنا وندعو ربنا أن يوفقنا فيما نسعى إليه، لتحقيق أهداف الثورة ومطالب الشعب والأمة.. فمقاصد الشريعة لا يمكن أن تتعارض مع أهداف ورغبة وحاجات البشر.. لكنها تسعى فى تحقيقها رويداً رويداً وهذا ما نفعله ولن نأخذ وقتاً طويلاً، وإنما نأخذ بعض الوقت لنفكر وندقق ونخطط معاً ثم نمضى، فإذا عزمت فتوكل على الله.. ونحن نتوكل عليه فى كل شىء.

الرئيس يؤكد:

الأزهر يمثل إسلام أهل السنة والجماعة

شهد الرئيس الدكتور محمد مرسى حفل الإفطار الذى أقامته / الأحد ١٧ من رمضان ١٤٣٣ هـ مشيخة الأزهر الشريف فى قاعة الأزهر للمؤتمرات بمدينة نصر بمناسبة ذكرى غزوة بدر بحضور أعضاء هيئة كبار العلماء شارك فى حفل الإفطار الدكتور هشام قنديل رئيس مجلس الوزراء، وعدد من كبار رجال الدولة.

● أكد رئيس الجمهورية الدكتور محمد مرسى أن مصر تحتاج الى جهود جميع أبنائها من كل الفئات والاتجاهات للعبور بها ومواجهة التحديات التى تواجهها.

وقال الدكتور مرسى فى كلمته: إن التحديات التى تواجهها مصر ليست بالمستحيلات وهى تحتاج إلى الوحدة والتآخى وتضافر الجهود والعمل والتضحية والعزيمة والإرادة والمعرفة بعلوم العصر حتى تمضى هذه المسيرة إلى آفاق أرحب.

وقال الرئيس محمد مرسى: إن هذه المناسبة / ذكرى غزوة بدر الكبرى / مباركة وعظيمة وكانت فرقانا وهى فى رحاب الأزهر الشريف.. مؤكدا أن الأزهر هو رمز الوسطية والحضارة والتاريخ الإسلامى والفهم الصحيح للإسلام الكامل والشامل كما أكد أن الأزهر جامعة وجماعة يمثل إسلام أهل السنة والجماعة والذى سار على دربه السلف الصالح، وانطلق من القاهرة رائدة الأمة الى ربوع العالم.

وأضاف قائلا: ما أشبه اليوم بالبارحة حيث الدولة الوليدة الحديثة عندما نشأت دولة الرسول فى المدينة المنورة والتحديات التى واجهها فكانت غزوة بدر وكان الفرقان والنصر من عند الله.

● وفى كلمته التى ألقاها فى الحفل أكد الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أن الأزهر الشريف سيظل داعيا للتوافق الوطنى والتقارب الفكرى والوحدة التى تميز مصر ..وأن مصر ستبقى بجهود أبنائها ورجالها وقادتها واحة للإخاء والتوافق والعيش المشترك.

كما أكد أن الأزهر استعاد دوره بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، مشيرا إلى أن تشكيل هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف كان من أوائل القرارات التى اتخذها رئيس الجمهورية بعد تسلمه مهام منصبه.

وأوضح الدكتور الطيب فى كلمته التى ارتجلها أن الأزهر يمثل ضمير الأمة وأن رجاله أفنوا أعمارهم فى طلب العلم وهم ثروة مصر العالمية وقوتها الناعمة حيث تؤثر على نحو مليار ونصف المليار مسلم حول العالم.

وقال: إن إعادة الاعتبار لهيئة كبار العلماء كان من أوائل قرارات الرئيس بعد إعادة

تشكيلها بعد أن ألغيت فى مطلع الستينيات بقرار لم يكن للأزهر يد فيه وأوضح أن الأزهر شهد العام الماضى لقاء وطنيا ضم كل أطياف الشعب المصرى حول وثيقة الأزهر الشريف الأمة سبيلا ووقعت عليها الأطياف كلها من مسلمين ومسيحيين.

كما أكد أن آفاق المستقبل لمصر والأمة العربية رحبة وواسعة وأن هذا العالم الثالث سيغير من وضعه ومكانته الدولية وأوضح أن مشروع النهضة الذى طرحه رئيس الجمهورية فى برنامجه الانتخابى يجد حماسا ونجاحا من الأزهر الشريف.. داعيا الرئيس الى المضى قدما فى طريقه ومعه الشعب المصرى الذى جعله الله فى رباط الى يوم القيامة والأمة وفيها العلماء والشباب وهم حماة كل نهضة.

بيان الأزهر الشريف بشأن أحداث رفح الأخيرة

إنَّ الأزهر الشريف إذ يشعرُ بموجة الأسى والغضب التى تعمُّ الشارعَ المصرى إزاء الأحداث الأخيرة على مشارف مدينة رفح المصرية، يعلنُ رفضَه وإدانته لهذا النوع من الأحداث الإجرامية المنكرة التى ترتكبُها عناصر مضلِّلة، سواء كانت مخترقةً فى أفكارها الشاذَّة أو فى صفوفها الشاردة.

ومما يزيد من الأسى والغضب أن يرتكب هؤلاء المضلِّلون تلك الجرائمَ البشعة بحق إخوانٍ لهم يتناولون إفطارهم عقبَ أدائهم إحدى شعائر الإسلام، والله تعالى يقول:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢)

لكنَّنا نعرفُ ونشعرُ أنه لا يَزيدُ عن كونه حادثًا من أحداث الفوضى والبلطجة؛ للعبث بعلاقات المصريين بإخوانهم فى القطاع المحاصَر، وللتأثير على خطواتهم لتحقيق الاستقرار والوحدة فى الداخل، وإعطاء الحجَّة لخصومنا فى مؤامراتهم حول سيناء الحرَّة المجاهدة حقًّا وصدقًا.

والأزهر الشريف يُشارك كلَّ مصرى وكلَّ مسلم فى إدانة هذه الأحداث الإجراميَّة، ويدعو الجميع إلى التيقُّظ والحذر والوقوف صفًّا واحدًا للدفاع عن مصرية سيناء الصامدة، ويدعو للشهداء الكرام الذين أُخذوا على غِرَّة أنْ يتقبَّلهم الله تعالى فى رحمته، ويُدخلهم فراديس جنته، ويتمنى للمصابين الأبطال الشفاء العاجل، وعودة الروح المعنوية العالية إلى نفوسهم الشجاعة، ويدعو الأزهر إلى مزيدٍ من اليقظة والحذر للأهداف الخبيثة التى يسعى إليها أعداءُ مصر وأعداءُ الأمَّة الإسلاميَّة.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١)



الإمام الأكبر لوزير الداخلية:

استعادة الأمن ضرورة قصوى للعبور بالوطن إلى بر الأمان

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - اللواء أحمد جمال الدين، وزير الداخلية الجديد، وقد تناول اللقاء الوضع الأمنى فى مصر فى المرحلة الراهنة، والعديد من النقاط المتعلقة بالأمن الداخلى.

وقد أشاد الإمام بالدور المهم لوزارة الداخلية فى الآونة الأخيرة، وأهمية التواجد الأمنى الذى لا بد أن يشعر به كل مواطن، والذى سينعكس على تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية للمواطنين؛ مما سيسهم فى العبور بالوطن إلى بر الأمان فى تلك المرحلة الحاسمة التى يمر بها الوطن.

وتناول اللقاء الأحداث المؤسفة التى جرت فى شمال سيناء، والتى أحزنت الجميع، وقد راح ضحيتها العديد من خير أجناد الأرض من رجال حرس الحدود المصرية، وضرورة محاسبة الجناة على اعتدائهم الآثم الذى نهت عنه جميع الشرائع السماوية.

بيان الأزهر الشريف حول أحداث دهشور

إزاء ما تناولته وسائل الإعلام عن تنامى أحداث الصراع والعنف فى منطقة البدرشين التى يذهب فيها ضحايا أبرياء؛ مسلمون ومسيحيون، وينسبها البعض إلى الطائفية البغيضة، يعلن الأزهر الشريف رفضه التام لهذه الأحداث المؤسفة التى

تلصق ظلمًا وبهتانًا بالدين الإسلامى والمسيحى، وهما منها براء.

وقد وجَّه فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - الدعوة لعقد جلسة طارئة لبيت العائلة المصرية؛ لمناقشة هذا الموضوع، والبحث عن حقائق ما يدور وعن أسبابه وظروفه، واتخاذ الخطوات العاجلة نحو حل مُرضٍ وسريع؛ لإيقاف تلك الأحداث التى تضرُّ بسلامة الوطن وتعرِّضه للخطر فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة الشعب المصرى، الطامح إلى الديمقراطية والكرامة والاستقرار، والذى عُرف فى الدنيا كلها بوحدة نسيجه الوطنى وتماسُكه فى كل الظروف.

حفظ الله مصر وبنيها من كل سوء، ودفع عنها الفتن، إنه سميع مجيب.

نداء إغاثة عاجلة لمسلمى بورما (ميانمار)

سبق للأزهر الشريف أن أصدر بيانًا يوم الخميس ٨ من شعبان سنة ١٤٣٣هـ الموافق ٢٨ من يونيو سنة ٢٠١٢م استنكر فيه التطهير العرقى الذى يتعرض له الشعب المسلم فى بورما (ميانمار) ومازال هذا الشعب الصابر الأبىّ يعانى من سياسة العقاب الجماعى، من جانب الأكثرية البوذية، على غير ذنب جنوه، وحدثت مذابح عنصرية على نطاق واسع، وهم من أكثر الأقليات المسلمة فى جنوب شرق آسيا مسالمةً وحرصًا على استقرار وطنهم، وقد تم تجاهل هذه الأحداث المروِّعة فى خضم الأحداث التى تقع فى العالم العربى والإسلامى.

إن إخوانكم هناك فى حاجة ماسة إلى الدعم المعنوى الذى يرفع عنهم بطش الأكثرية الباغية، وإلى الإغاثة بكل صورها الطبية والغذائية وغيرها من سائر الاحتياجات الضرورية.

وفى الوقت الذى يعلن فيه الأزهر الشريف ضرورة وقف هذه التصرفات العنصرية التى تشين أية دولة فى عالم اليوم، فإنه يدعو المؤسسات الإسلامية الدعوية والخيرية والإغاثية الشعبية والرسمية إلى مد يد العون لإخوانهم المضطهدين فى غفلة من ضمير العالم النائم.

ولئن سكت المتحيزون الذين يدَّعون الغيرة على حقوق الإنسان، ولا يعنيهم إلا الإنسان الغربى أو من يدور فى فلك الغرب، فإننا نناشد الأمة المسلمة بكلمات سيد الرسل وخاتم النبيين - ﷺ -: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى" فهبوا أيها المسلمون لنصرة إخوانكم، طلبًا لرحمة الله وهربًا من عقابه الشديد.

اللهم قد بلغت اللهم فاشهد.

وفى استقباله لسفراء الهند وباكستان وبوروندى ولبنان وجنوب إفريقيا:

الإمام الأكبر يؤكد حرص الأزهر على متابعة قضايا المسلمين



● استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - السيد أر سوامينثان، سفير الهند بالقاهرة، وقد تناول اللقاء أوجه العلاقات الثنائية بين مصر والهند، والتى تتصف بالقوة والمتانة؛ حيث بلغ حجم العلاقات التجارية بين البلدين أربعة مليارات دولار، توفر تلك الاستثمارات أكثر من ثلاثين ألف فرصة عمل للمصريين.

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر حرص الأزهر على متابعة قضايا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وفى مقدمتها مشاكل الأقليات المسلمة مثلما يحدث من أشكال المعاناة والمآسى التى يواجهها مسلمو بورما، وأكد فضيلته أن التعاون بين الأزهر الشريف والهند الذى تمتد جذوره إلى ما يزيد عن ألف عام، يمثل نموذجًا أمثل للتعاون المشترك بين البلدين، وخير دليل على ذلك تخصيص رواق فى رحاب الأزهر الشريف للطلاب الهنود سُمي بـ"رواق الهنود".

وقال سيادة السفير: إنه فخور بالأداء المتميز للأزهر الشريف فى الحياة الوطنية، والذى استطاع أن يعبر بالوطن إلى بر الأمان بحكمة إمامه الأكبر، وخير شاهد على ذلك تلك الوثائق التى أصبحت محل دراسة وتحليل معظم مراكز الدراسات والأبحاث فى مختلف دول العالم.



● وفى ذات السياق أكد فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - أن الأزهر الشريف سيواصل دعمه لمختلف المؤسسات الدينية بباكستان، وعلى رأسها الجامعة الإسلامية العالمية

بباكستان؛ وذلك لنشر الوسطية والاعتدال؛ حيث يوجد فى الجامعة الإسلامية أكثر من ثلاثين أستاذًا مصريًا من الأزهر، ويجرى العمل الآن على إعادة فتح المعهد الأزهرى الثانوى بباكستان، جاء ذلك خلال استقبال فضيلته لمعالى السفير منظور الحق، السفير الجديد لباكستان بالقاهرة، والذى قدَّم لفضيلة الإمام الأكبر شكر الشعب الباكستانى وتقديره للأزهر الشريف ولإمامه الأكبر، على ما قدموه من إسهامات كبيرة للشعب الباكستانى، وخصوصًا فى توضيح سماحة الإسلام واعتداله من خلال مبعوثى الأزهر الذين توافدوا على باكستان منذ عقود ماضية وحتى الآن، فضلاً عن فتح الأزهر لأبوابه للطلاب الباكستانيين للدراسة بمعاهد الأزهر وكلياته فى مصر، خصوصًا وأن الشعب الباكستانى معروف بتدينه الشديد وغيرته على الإسلام، والذى أصبح سمة من سمات هذا الشعب العريق فى منطقة شرق آسيا.

وأكَّد سيادة السفير أننا نأمل فى تدعيم أواصر العلاقات بين مصر وباكستان بصفة عامة، وبين الأزهر الشريف والجامعة الإسلامية بصفة خاصة، خصوصًا فى هذا المنعطف الهام الذى تمر به أمتنا الإسلامية؛ مما يجعلنا نلتجئ للأزهر لإظهار جمال الإسلام وعظمته، ووسطيته وسماحته.



● واستقبل فضيلة الإمام الأكبر السيد موسى سليمانى، سفير بوروندى بالقاهرة، وقد تناول اللقاء أوجه التعاون بين الأزهر الشريف وبوروندى، وبخاصة فى مجال العلاقات الدينية والتعليمية وسبل تدعيم تلك العلاقات، والتى تعود جذورها لمئات السنين، والتى أثمرت تخريج العديد من القيادات البوروندية الدينية من جامعة الأزهر الشريف.

وأعرب السفير عن سروره بوجوده فى الأزهر الشريف قائلاً: إن وجودى فى رحاب الأزهر الشريف الذى يمثل عقل الإسلام، ليس للمصريين فقط، بل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، والذى يهرعون إليه عند النوازل، والمرجعية الأولى لهم فى أمور دينهم.

وحول طلب السفير زيادة المنح للطلاب البوروندين الدارسين فى الأزهر الشريف استجاب فضيلة الإمام الأكبر لطلب زيادة تلك المنح، بما يتواءم مع حاجة الجالية الإسلامية فى بوروندى؛ علاوة على قبولهم بالكليات العملية وفى مقدمتها كلية طب الأزهر.

وحول طلب سيادته دعوة علماء بوروندى لحضور المؤتمرات والندوات التى يعقدها الأزهر الشريف وجّه فضيلة الإمام الأكبر الدعوة إلى بعض العلماء المتميزين فى بوروندى لحضور اجتماعات الأزهر؛ حتى يكونوا على بينة من القضايا والأمور الشرعية التى تهم مجتمعهم وأمتهم.



● استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - السفيرة نولوتاندو ماينندى، سفيرة دولة جنوب إفريقيا بالقاهرة، وقد تناول اللقاء سبل تدعيم العلاقات الثنائية بين مصر وجنوب إفريقيا، وقد أعربت سيادتها عن رغبتها فى تدعيم العلاقات الاقتصادية والتجارية والصناعية؛ حيث يمثل التعاون بين البلدين أكبر تعاون بين أكبر قوتين فى الشمال والجنوب.

وقد أشارت السفيرة إلى أن المسلمين يمثلون نسبة ١٪ من مجموع السكان، ويشتغلون بمختلف المهن والحرف، ويعملون فى مجال التجارة والملاحة، ويتمركزون فى مدينة دربن؛ مما دعم العلاقات بين جنوب إفريقيا ومعظم الدول العربية والإسلامية وفى مقدمتها مصر.

وردًا على طلب السفيرة حول تدعيم العلاقات بين مصر وجنوب إفريقيا قال فضيلة الإمام الأكبر: إننا نأمل فى توطيد أواصر العلاقات بين البلدين، ليس فقط فى المجالات الاقتصادية والتجارية والصناعية فحسب، ولكن أيضًا فى مجال التعليم والثقافة؛ لتعود بالثمرة الطيبة على الجانبين.

وأضاف فضيلته: إنه يوجد حوالى ٥٨ دارسًا من جنوب إفريقيا فى المعاهد الأزهرية والجامعة؛ حيث سيكون لتعليم هؤلاء الطلاب وسطية الإسلام واعتداله المردود الطيب على أمن واستقرار بلدهم عقب عودتهم إليها ليقودوا قافلة التوعية والتنمية.

وقد استفسر فضيلة الإمام الأكبر عن صحة المناضل الوطنى الكبير نيلسون مانديلا، محرر جنوب إفريقيا، الذى قاد بلاده إلى التحرر، بعد أن ناضل كثيرًا من أجلها، وأدخل إلى غياهب السجون لمدة طويلة، وقال فضيلته: إن من حسن حظ إفريقيا أنها أنبتت هذا المناضل الذى كان رمزًا للوطنية؛ فالتف حوله الشعب، فنال الشعب ما تمناه.



الإمام الأكبر: مستعدون لزيادة أعداد الدعاة المبعوثين إلى لبنان

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - معالى السفير أشرف حمدى، المرشح للعمل كسفير لمصر فى لبنان، حيث تناول اللقاء سبل الارتقاء بمستوى العلاقات بين مصر ولبنان، وكيفية تدعيمها فى مختلف المجالات، والتواصل مع مختلف الطوائف اللبنانية، بما يحقق المصلحة العليا للبنانيين والأمة العربية، وأعرب فضيلة الإمام الأكبر عن استعداد الأزهر لتقديم مزيد من المنح الدراسية فى كليات الأزهر، وزيادة أعداد الدعاة المبعوثين إلى لبنان؛ لنشر وسطية الإسلام واعتداله وسماحته، والذى يعكس مدى تعلق اللبنانيين بالأزهر الشريف ورسالته السامية.

الإمام الأكبر:

لا بد من تأهيل الطلاب المتفوقين لأداء رسالة الأزهر

أكد فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - على أهمية تأهيل الطلاب المتفوقين من كليات العلوم الإسلامية على المهارات اللازمة لأداء رسالتهم فى الخارج للقيام بدور الدعوة، بالإضافة إلى مهارات اللغة الإنجليزية، وطالب بضرورة حصولهم على الدرجات العلمية من الجامعات الكبرى فى العالم، وأكد فضيلته على استمرار دعم المجلس البريطانى فى تسيير مركز الأزهر لتعليم اللغة الإنجليزية، وأيضًا فى دعم تعليم اللغة الإنجليزية بالمعاهد الأزهرية؛ وذلك بإعداد مدرسى اللغة الإنجليزية؛ ليصبحوا نواة أساسية لتدريب باقى زملائهم على مستوى كافة المعاهد الأزهرية.



جاء ذلك خلال استقبال فضيلته للسيد مارك ستيفنز، مدير المجلس الثقافى البريطانى، والسيدة جانيت، المديرة التعليمية للمركز سابقا، والوفد المرافق لهما، حيث تم توقيع مذكرة تفاهم بين الأزهر والمجلس البريطانى، تهدف إلى استغلال خبرة المجلس البريطانى فى تعليم اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية، علما بأن هذا المجلس يعمل منذ ست سنوات، ويعتبر هذا العمل نموذجا للمشروعات الناجحة على مستوى العالم.

وأشاد الوفد بجهود الأزهر فى متابعة المستجدات الحضارية التى تدعم دور الأزهر فى الداخل والخارج، ويرحبون باستمرار التعاون المتبادل بين الأزهر الشريف والمجلس.

الإمام الأكبر:

اللغة العربية ضرورية لفهم القرآن الكريم

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، فى كلمته التى ألقاها نيابة عنه فضيلة الشيخ عبدالتواب قطب، وكيل الأزهر، خلال الاحتفال بتخريج الدفعة الثانية من مركز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، أن اللغة العربية هى اللغة التى يتقرب بها العبد إلى الله من خلال التعبد بالقرآن الكريم وتلاوته، والذى لا يعرف اللغة العربية لن يعرف أو يعى معانى القرآن الكريم.



محمد عبدالفضيل القوصى

ووجه النصيحة للطلاب بضرورة الاستمرار فى التحصيل العلمى للغة العربية؛ حتى يستقيم اللسان، ويستطيع الحفاظ على صلته بالله تعالى وفهمهم للقرآن الكريم، مؤكدا للطلاب أنهم سفراء للأزهر فى بلادهم، وعليهم تفعيل ذلك الدور من تعليم اللغة العربية لإخوانهم فى تلك البلاد، معبرا عن سعادته بما سمعه من أداء راق للغة العربية ونطق الطلاب بها بصورة سليمة أمام الحضور.

من جانبه عبر الدكتور محمد عبدالفضيل القوصى، وزير الأوقاف السابق، عن سعادته بالدور الذى يقوم به مركز تعليم اللغة العربية للطلاب الوافدين، مؤكدا أن اللغة العربية على لسان هؤلاء الطلاب تشبه سلاسل الذهب، وتشعرك بالمتعة بسماع اللغة العربية من غير أبنائها.

مستشار شيخ الأزهر فى فرنسا:

نعمل على توضيح صورة الإسلام فى المحافل الدولية



أ.د. محمود عزب

عاد من باريس أ.د. محمود عزب، مستشار شيخ الأزهر للحوار، بعد مشاركته فى مؤتمر حول موضوع "الحوار بين المسلمين والمسيحيين فى العالم إلى أين؟".

ولقد ألقى فيه محاضرة أكد فيها أن الأزهر الشريف لا يضيع كثيراً من الوقت فى النظريات، وإنما يدخل مباشرة إلى عالم الحوار، وقد حقق فيه تقدماً كبيراً خلال العامين الماضيين على أرض الواقع، حيث بادر بتحقيق مشروع الإمام الأكبر شيخ الأزهر بإنشاء "بيت العائلة المصرية" الذى يتكون من: الأزهر الشريف، والكنيسة القبطية الأرثوذكسية مع الكنائس الثلاث الكبرى فى مصر، وأعضاء من غير الأزهر والكنيسة، مسلمين ومسيحيين، يعملون على إصلاح الخطاب الدينى، والتركيز على القيم العليا المشتركة فى المجتمع، ثم إصلاح مناهج التعليم، والعودة إلى القيم المصرية الأصيلة التى تتفق مع الإسلام والمسيحية، والتى عرفت بها مصر، ثم حل مشاكل سوء التفاهم، التى كانت قد تراكمت قبل الثورة.

والأزهر يعمل بتنسيق دائم مع الكنيسة، ويتوافقان حول قضايا الوطن والدستور، وقد تجلى هذا النشاط فى اللقاءات المستمرة للمثقفين مع علماء الأزهر؛ مما أنتج الوثائق التى شهد لها العالم كله، ويعمل الأزهر الآن على المضى قدماً فى جمع كلمة الوطن والرقى بمصر إلى آفاق تليق بها.

تأتى هذه المشاركة من الأزهر فى مثل هذا المؤتمر فى إطار حرص الأزهر على التواجد والمشاركة والإسهام، وتوضيح صورة الإسلام فى المحافل الدولية.

فضيلة الإمام الأكبر:

لا تهاون فى أى مظلمة فى الأزهر

التقى فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - بأعضاء اللجنة العليا لديوان المظالم بالأزهر الشريف، بحضور المستشار القانونى لشيخ الأزهر لشئون ديوان المظالم، وقد استعرض فضيلته سير العمل بالديوان، وسبل تحقيق التعاون بين ديوان المظالم وكافة قطاعات وهيئات الأزهر الشريف، وترجع فكرة إنشاء الديوان بالأزهر الشريف والذى أنشئ فى فبراير ٢٠١١؛ بهدف استقبال مظالم المنتمين والمتعاملين مع الأزهر الشريف بكافة هيئاته والتعامل معها؛ بغرض تحقيق العدالة الوظيفية بين العاملين به، ورد المظالم إلى

أصحابها، ويملك الديوان صلاحيات إصدار قرارات ملزمة لكافة مؤسسات وقطاعات الأزهر الشريف، ويتابع الإمام الأكبر تقارير شهرية عن عمل الديوان.

وقد شدَّد الإمام الأكبر خلال اللقاء على ضرورة إخطار أصحاب المظالم بما تم في شكاواهم خلال مدة أقصاها عشرة أيام من تاريخ تقديم الشكوى، كما شدَّد فضيلته على عدم التهاون في أي مظلمة كانت أو ضد أي مسئول بالأزهر كائنًا من كان.

الأزهر ينفي منح رسالة دكتوراه تنكر أن الحجاب فريضة إسلامية

ينفي الأزهر الشريف ما تردد في بعض وسائل الإعلام عن اعتماد كلية الشريعة فرع دمنهور بجامعة الأزهر لرسالة دكتوراه تؤكد عدم فرضية الحجاب في الإسلام.

وكانت بعض المواقع قد نشرت مؤخرًا خبرًا يدعي أن رسالة دكتوراه قد تقدَّم بها باحث يدعى مصطفى محمد راشد، وأن هذه الرسالة قد نفت فرضية الحجاب، وأن الكلية قد منحته تقدير امتياز؛ مما أثار جدلاً بين الأوساط الإسلامية.

وجامعة الأزهر تنفي نفيًا قاطعًا أن يكون المذكور قد تقدم برسالة علمية عما يدعيه من موضوعات، وسيقاضيه الأزهر عما أحدثه من بلبلة في أذهان بعض الناس.

والأزهر يؤكد دومًا أنه المرجعية الأولى للإسلام والمسلمين، التي تحافظ على ثوابت الأمة الإسلامية، وأنه لم ولن يسمح بنشر الأفكار المنحرفة التي تتنكب عن طريق الحق والشرع.

ويهيب الأزهر الشريف بوسائل الإعلام تحرِّي الحق والصواب، والتثبُّت في نقل الأخبار قبل نشرها وإذاعتها؛ وأدًا للفتنة والبلبلة بين الناس

الإمام الأكبر يثني على الجهود الخيرية لمؤسسة خليفة بن زايد آل نهيان



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - محمد حاجي الخوري، المدير العام لمؤسسة خليفة بن زايد آل نهيان للأعمال الإنسانية، الذي هنأ فضيلة الإمام بشهر رمضان المبارك، وأشاد بجهود الأزهر الشريف المبذولة في خدمة الإسلام والمسلمين.

ووجه فضيلة الإمام الأكبر الشكر للمؤسسة على ما تقوم به من مساعٍ خيرية متنوعة على مستوى العالم العربي والإسلامي.

الإمام الأكبر للمصريين بالخارج:

مصر لها حق عليكم بالمساهمة في دفع عجلة الإنتاج



طالب فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - المصريين بالخارج أن يكونوا مساهمين بصورة فعالة في عودة العمل ودفع عجلة الإنتاج إلى الأمام؛ لأنَّ مصر لها حق عليهم، وبحاجة إليهم في هذه المرحلة الحرجة.

وقال فضيلته خلال استقباله وفد الجاليات المصرية بالخارج برئاسة المهندس محمد ريان، رئيس اتحاد الجاليات المصرية، وبحضور رفعت حسن، وزير القوى العاملة: إنه يقدر النجاح الباهر للمصريين في الخارج في أوروبا وأمريكا وآسيا، واعتزازهم بمصريتهم دائمًا، مشيرًا إلى اهتمام الأزهر بأبناء مصر في الخارج لأنهم يمثلون رصيدًا هائلاً على المستوى العلمي والأدبي.

وأشار فضيلته إلى أن أبناء مصر في الخارج يمثلون طوقًا للنجاة لوطنهم، وعليهم أن يضعوا اللبنات التي تسهم في تقدُّم الوطن وانتشاله من مشاكله المتعددة؛ مثل البطالة والأمية والصحة والاقتصاد، وعلى كل مصري أن يعيش هموم بلده.

ومن جانبهم أكد أعضاء الوفد مساندتهم ودعمهم للأزهر الشريف كمرجعية للأمة الإسلامية، ومساندتهم لوثيقة الأزهر لدعم الحريات، مطالبين الأزهر بضرورة إنشاء مجموعة من المعاهد الأزهرية في الخارج، بتمويل منهم، على أن يتولى الأزهر تزويدها بالمناهج والعلماء؛ لنشر الفكر الإسلامي الوسطي المعتدل؛ حماية لأولادهم من الأفكار المتشددة بالخارج.

كما طالبوا فضيلة الإمام الأكبر بضرورة المشاركة في المؤتمرات الدولية التي تعقدها الجاليات الإسلامية؛ لما للأزهر وشيخه الأكبر من مكانة مميزة في وجدان جميع أبناء الأمة، والذين يتطلعون بشغف إلى الاستماع إلى حكمة ووسطية الأزهر، في وقت تنفق فيه كثير من الدول مليارات من الدولارات لنشر فكرها وأيدلوجياتها.

ومن جانبه أبدى فضيلة الإمام الأكبر استعداد الأزهر التام لتلبية طلبات المصريين بالخارج، مؤكدًا حرصه على دعم ونشر الفكر الإسلامي الوسطي الذي يمثله الأزهر في جميع أنحاء العالم؛ لحماية أبناء المسلمين من أي فكر قد يؤثر على مسيرتهم العلمية والفكرية والحضارية.

الأزهر يشيد بحملة خادم الحرمين الشريفين لدعم الشعب السورى



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر - سفير المملكة العربية السعودية بالقاهرة، أحمد القطان، حيث تناول اللقاء دعم التعاون العلمى بين الأزهر الشريف والمؤسسات التعليمية بالمملكة خلال المرحلة المقبلة، كما تناول اللقاء مناقشة ما يحدث على الساحة العربية والإسلامية، خاصة فى القدس وسوريا وبورما، والإشادة بالحملة التى أطلقها خادم الحرمين الشريفين، لدعم الشعب السورى.

الأزهر ينعى الدكتور عبد المعطى بيومى



ينعى الأزهر الشريف برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد الطيب - شيخ الأزهر - إلى الأمة الإسلامية والعربية فضيلة الدكتور / عبد المعطى بيومى - عضو هيئة كبار العلماء ومجمع البحوث الإسلامية الذى وافته المنية.

وقد شغل الفقيد مناصب عديدة منها: عمادة كلية أصول الدين بالقاهرة، وصدرت له العديد من الأعمال العلمية وشارك فى العديد من المؤتمرات.

وفضيلة الإمام الأكبر وعلماء الأزهر وطلابه يحتسبون عند الله تعالى فقيد الأزهر داعين المولى سبحانه وتعالى أن يجزيه خير الجزاء على ما قدمه من علم فى خدمة الأمة الإسلامية.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

الأصابع الإسرائيلية خلف جريمة رفح!!

هاجمت مجموعة مسلحة نقطتين للجيش المصرى عبر الحدود المصرية - الإسرائيلية عقب أذان مغرب يوم ١٥ / ٨ / ٢٠١٢ أثناء تناول الجنود المصريين طعام الإفطار توفى على أثرها ما يقرب من خمسة عشر جنديًا وضابطًا وقامت الجماعة المسلحة بسرقة مدرعتين حاولت مدرعة منهم اقتحام الحدود الإسرائيلية لكن تصدى لها الطيران الإسرائيلى وقام بتفجيرها، أما المدرعة الأخرى فتفجرت عند معبر كرم أبو سالم دون ان يعرف أحد سبب تفجيرها.

وقد اتهم الأستاذ/ ضياء رشوان - مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية - إسرائيل بالوقوف وراء العملية الإرهابية، مشيرًا إلى أن جميع العمليات الإرهابية التى استهدفت سيناء منذ عام ٢٠٠٣ كانت على خط الحدود بين مصر وإسرائيل، وارجع رشوان اتهامه لإسرائيل لتصريحات الجانب الإسرائيلى بشأن عدم قدرة مصر على حماية الأمن القومى المصرى.

وأضاف: إنه مع تكرار هذا الحديث عن عدم قدرة الجانب المصرى على حماية سيناء من العمليات الإرهابية تصاعدت المطالب الإسرائيلية بقيام قوات دولية بينها قوات إسرائيلية بعمليات هجومية ضد الإرهابيين فى عمق سيناء.

وتابع مدير مركز الأهرام: نحن لا ننكر وجود جماعات متطرفة ولكن هناك الكثير من هذه الجماعات مخترقة من الجانب الإسرائيلى ويتم تحريكهم للقيام بهذه العمليات بواسطة عملاء من جانب الموساد وهم لا يدركون أنهم يقدمون الخدمات



مصر تودع شهداءها

لإسرائيل ويسيئون للقضية الفلسطينية، واختتم بالتنويه إلى أن جميع العمليات الإرهابية التى استهدفت سيناء تمت بدرجة من التخطيط المتقن، واستخدم فيها أنواع من المتفجرات المتطورة التى يصعب على جماعات العنف المسلح امتلاكها دون تدخل جهاز استخباراتى لتزويدهم بها.

الجدير بالذكر أن بنيامين أليعازر - عضو الكنيست الإسرائيلى - صرح بأن حادث رفح حول موقف الرأى العام المصرى تجاه غزة إلى موقف عدائى، وهو مكسب استراتيجى لإسرائيل من منطلق فرق تسد.. فهل تنجح إسرائيل فى مسعاها؟ وهل حقا تحول الرأى العام فى مصر ليكون معاديا لغزة الواقعة تحت الحصار الإسرائيلى.

«هيومان رايتس» تدين إبادة المسلمين فى ميانمار

أدانت منظمة «هيومان رايتس ووتش» المعنية بحقوق الإنسان فى تقرير لها حملات الاعتقال الجماعية لمسلمى الروهينجا فى ميانمار.

وذكرت المنظمة فى تقريرها أن قوات الأمن فى ميانمار قتلت واغتصبت ونظمت حملة اعتقالات جماعية لمسلمى الروهينجا بعد أعمال شغب طائفية فى يونيو الماضى فى ولاية راخين شمال شرق البلاد، مشيرة إلى أن السلطات لم تقم بإجراءات تذكر للحيلولة دون وقوع الاضطرابات.. وأفاد تقرير المنظمة والتى تتخذ من نيويورك مقرا لها أن قوات الأمن أطلقت النيران على بعض الروهينجا الذين كانوا يحاولون الفرار أو إخماد الحرائق التى أشعلت فى منازلهم.. ودعت المنظمة إلى ضرورة وجود رد فعل دولى قوى حيال «الفظائع» التى ارتكبت خلال الاضطرابات الدموية الشهر الماضى.

الشورى يستنكر ويؤكد كذب تلك الادعاءات:

جلسة استماع بالكونجرس الأمريكى حول اضطهاد الأقباط فى مصر

استنكرت لجنة حقوق الإنسان بمجلس الشورى جلسات الاستماع التى عقدها الكونجرس الأمريكى فى ١٨/ ٧/ ٢٠١٢ بناء على طلب أقباط المهجر فى أمريكا.

وقال النائب عزالدين الكومى، وكيل لجنة حقوق الإنسان فى بيان: إن أقباط المهجر طالبوا الكونجرس بإجراء تحقيق دولى واسع حول أوضاع الأقباط فى مصر مدعين تعرضهم للاضطهاد وانتهاك حقوقهم، واعتبر البيان عقد جلسات الاستماع بناء على هذا الطلب تدخلا سافرا فى الشئون الداخلية لمصر، مؤكدا كذب إدعاءات أقباط المهجر ومخالفتها للواقع.

وكانت لجنة الأمن والتعاون بالكونجرس الأمريكى، المعروفة بـ«لجنة هلسنكى» حول حقوق الإنسان قد عقدت جلسة استماع حول أوضاع المرأة القبطية فى مصر بحضور عدد من الخبراء وسيدات مسيحيات زعمن تعرضهن للعنف قبل تمكنهن من مغادرة البلاد إلى الولايات المتحدة.

وتعد لجنة الأمن والتعاون فى أوروبا وكالة مستقلة تأسست عام ١٩٧٦ وتساهم فى صياغة سياسة الولايات المتحدة فى منظمة الأمن والتعاون، ولعبت دورا مهما فى متابعة أوضاع حقوق الإنسان قبل سقوط الاتحاد السوفيتى السابق.

قال النائب كريستوفر سميث، رئيس اللجنة: إن العالم كله يراقب قدرة مصر على حماية حقوق الأقليات وحرية الاعتقاد، ومن جانبها قالت كاترينا لانتوس، رئيس مؤسسة توم لانتوس للحريات الدينية: إن الأوضاع الحالية فى مصر تشهد استمرار الانتهاكات التى كانت تحدث فى العهد السابق.

أشارت لانتوس إلى مقتل ١٠٠ شخص فى عمليات عنف طائفى فى العام الماضى، بينما لم يتم تقديم أحد للعدالة فى تلك الجرائم وتسهم جلسات الصلح العرفى فى المزيد من اختراق القانون. فى الوقت نفسه، أشادت لانتوس ببعض الإيجابيات ومنها تصدى الأزهر الشريف لحماية حرية العقائد وإعادة فتح كنائس مغلقة، ودعت إلى قيام الحكومة المصرية بتقديم المتهمين فى قضايا طائفية إلى العدالة ومقاضاة المروجين لخطابات الكراهية واقتطاع جزء من المعونة العسكرية لصالح الشرطة المصرية لتدريبها على التصدى لتلك النوعيات من الجرائم.

مصر تشارك فى التحضير للقمة الإسلامية بمكة المكرمة

تبدأ اجتماعات كبار المسئولين بجدة للتحضير للقمة الإسلامية الاستثنائية يومى ١٤ و١٥ أغسطس الجارى بمكة المكرمة.

وصرح السفير عمرو رمضان، نائب مساعد وزير الخارجية لشئون عدم الانحياز والتعاون الإسلامى المتخصصة الذى يرأس وفد مصر فى اجتماعات كبار المسئولين، بأن خادم الحرمين الشريفين دعا إلى القمة بمصر مطلع ٢٠١٣ لتنظر تحديدا فى تعزيز التضامن الإسلامى خاصة فى هذا التوقيت الذى تمر به المنطقة العربية بتحديات جسام تتطلب التفاعل معها من كل دول المنطقة والدول الإسلامية.

أضاف رمضان: أن انعقاد القمة فى مكه المكرمة يضع قيداً على مشاركة الرؤساء غير المسلمين لبعض الدول الأعضاء بمنطقة التعاون الإسلامى، إلا أنه يتوقع أن يكون الحضور عاليا فى القمة بالنظر إلى أنها أول قمة بعد قمة السنغال ٢٠٠٨ وانعقادها بمكة فى تاريخ متزامن مع يومى ٢٦ و٢٧ من شهر رمضان.

وقال: إن محمد عمرو وزير الخارجية سيرأس وفد مصر فى الاجتماع الوزارى للإعداد للقمة.


محمد عمرو

أضاف: أن هناك تنسيقاً بين مصر والسعودية حول القمة، كما تناقش اللجنة التنفيذية للمنظمة محنة مسلمى ميانمار والممارسات العنصرية ضدهم.

الصين تقيد نشاط المسلمين فى رمضان

أصدرت السلطات الصينية توجيهات لقادة الحزب الشيوعى فى مقاطع شنجيانغ شمال غربى البلاد تأمرهم فيها بتقييد النشاطات الدينية للمسلمين فى الإقليم خلال شهر رمضان، ومن ضمنها الصيام وارتياد المساجد للصلاة.

وذكر بيان أصداره مجلس بلدية زونجلانج فى الإقليم أن لجنة المقاطعة أصدرت توجيهات شاملة بشأن ما سمته الحفاظ على الاستقرار الاجتماعى خلال شهر رمضان، ولفت البيان إلى أنه يحظر على كوادر الحزب الشيوعى والموظفين- بمن فيهم المتقاعدون والطلاب- المشاركة فى النشاطات الدينية فى شهر رمضان.

ودعا البيان قادة الحزب الشيوعى إلى إحضار هدايا من الطعام لزعماء القرى المحلية للتأكد من أنهم مفطرون خلال شهر رمضان، وقد دفعت هذه القرارات مجموعة "مؤتمر الإيجور العالمى" فى المنفى للتحذير من العنف فى الإقليم.

من جهة أخرى أصدرت محاكم فى إقليم شينجيانغ المضطرب غرب الصين أحكاماً بالسجن بحق ٢٠ شخصاً بتهم تتعلق بالترويج عبر الانترنت للإرهاب والأنشطة الانفصالية.

ذكرت تقريرات إعلامية محلية أن ثلاثة محاكم أصدرت الأحكام بحق ٢٠ شخصاً مثلو أمامها فى خمس مجموعات، بالسجن لفترات تتراوح بين ١٨ شهراً و١٥ عاماً الشهر الماضى بعدما خلصت إلى إدانتهم بتنظيم أنشطة إرهابية وانفصالية عبر الإنترنت وأجهزة المحمول.

القضاء السعودى ينظر لأول مرة قضية تنصير احدى المواطنات

تنظر محكمة محافظة الخبر «شرق السعودية» فى شهر شوال الجارى قضية تنصير فتاة سعودية على أيدى شخصين أحدهما مواطن سعودى والآخر مقيم من الجنسية اللبنانية وتعتبر القضية هى الأولى من نوعها بالمملكة العربية السعودية.

وصرح مصدر قضائى لصحيفة «الرياض» السعودية بأن المدعى العام السعودى رفع أوراق القضية إلى

محكمة الخبر بعد أن تقدم والد ووالدة الفتاة بدعوى قضائية ضد المواطن السعودى والمقيم اللبنانى يتهمانهما بتنصير ابنتهما البالغة من العمر ٢٨ سنة، واعتناقها ديانة المسيحية وتهريبها من السعودية إلى لبنان وإقامتها بكنيسة هناك، فى الوقت الذى لم يستطع والد الفتاة ووالدتها إقناعها للعودة للوطن، حيث تقيم حاليا فى كنيسة لبنانية وتدرس فى مدارس تابعة للكنيسة.

وقال المصدر: إن الفتاة كانت تعمل بإحدى الشركات بمحافظة الخبر، والتى يعمل بها المواطن السعودى والمقيم اللبنانى من خلال العمل تعرفت عليهما، وقد استطاع أن يقنعاها بالتخلى عن ديانتها المسلمة واعتناق الديانة المسيحية ومن ثم تهريبها للبحرين ثم لبنان.. وأكد المصدر القضائى أن هناك مجالاً للفتاة أن تستتاب وترجع عن ما هى فيه بعد عودتها للوطن، والجلوس معها وبيان العقيدة الصحيحة والحق والباطل، وطالب فى الوقت نفسه أن تضطلع الجهات المعنية بدورها فى حفظ شبابنا وتأصيل العقيدة الشرعية الإسلامية.. معرباً عن تخوفه أن يكون ذلك مخططاً لاستهداف شباب وشابات الوطن.

اجتماع دولى لحماية التراث الثقافى فى مالى

قررت كل من الإيسيسكو واليونسكو عقد اجتماع تنسيقى بالتشاور مع السلطات المختصة بدولة مالى، للاتفاق على الخطوات الخاصة بالحفاظ على التراث الثقافى المهدد بالانقراض فى مالى، بخاصة ما يرتبط بالمخطوطات النفيسة الموجودة فى معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية فى تمبوكتو.

يأتى الاجتماع فى إطار التعاون بين الإيسيسكو – واليونسكو، وسعياً لتعزيز آليات التشاور والتنسيق القائم بين المنظمتين ـ أطلعت السيدة يوكوفا إيرينا المديرة العامة لليونسكو، المدير العام للإيسيسكو على نتائج عمل الفريق الذى أرسلته اليونسكو لتقصى الحقائق حول واقع التراث الثقافى فى جمهورية مالى، وخاصة فى مدينة تمبوكتو، بناء على اقتراح من الإيسيسكو.

يذكر أن رئيس الحكومة الحالية فى جمهورية مالى الشيخ موديبوديارا هو سفير الإيسيسكو للنوايا الحسنة للحوار بين الحضارات والثقافات.

سفير سوريا ببغداد ينشق عن «الأسد» ويصفه بالديكتاتور

فيما يعد ثانى أبرز انشقاق عن نظام بشار الأسد بعد هروب نجل وزير الدفاع السابق مصطفى طلاس، أحد أبرز سدنة النظام السورى إلى باريس أخيراً، أعلن نواف الفارس سفير دمشق لدى بغداد انشقاقه عن الأسد واصفاً إياه بالديكتاتور، وداعياً عناصر الجيش النظامى والشباب السورى إلى الالتحاق بصفوف الثوار، وعدم السماح للنظام الحالى بزرع الفتنة، فى حين أعلنت الخارجية السورية فى بيان لها إعفاء نواف من مهام منصبه.

وفى تطور ميدانى مفاجئ ومهم، ذكر ناشطون أن قوات الأمن السورى أطلقت عدداً من قذائف الهاون صوب حى يقع عند مشارف دمشق فى أول سابقة تتعرض لها منطقة بالعاصمة للقصف منذ اندلاع الثوة.

والجامعة العربية تدعو الأسد للتنحى

كما وجه مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزارى فى دورته غير العادية المستأنفة نداء إلى الرئيس السورى بشار الأسد للتنحى عن السلطة على أن تساعده الجامعة العربية على توفير الخروج الآمن له ولعائلته حقنا لدماء السوريين وحفاظًا على مقومات الدولة السورية وعلى وحدة سوريا وسلامتها الوطنية ونسيجها الاجتماعى ولضمان الانتقال السلمى للسلطة مؤكدًا فى الوقت ذاته على حق الشعب السورى فى الدفاع عن نفسه.

إطلاق قناة فضائية لمسلمى روسيا

أعلن النائب الأول لرئيس الإدارة الدينية لمسلمى روسيا الأوروبية دامير مقتدينوف أنه سيتم قريبًا إطلاق أول قناة تليفزيونية فضائية مخصصة لبث برامج تعنى بقضايا المسلمين خاصة الدينية والاجتماعية فى روسيا.. وأوضح مقتدينوف فى تصريح لوكالة أنباء «نوفوستي» الروسية بأن القناة التى سيطلق عليها اسم «ال - أر - تى - فى» ستمول ذاتيا عن طريق تبرعات مؤسسيها ومن شخصيات ورجال أعمال، إلى جانب دعم حكومى محتمل.

وأشار إلى أن القناة ستبث برامجها ضمن باقة تضم عدة قنوات فضائية يتم بثها عن طريق «تريكلور» أفضل شركات تشغيل القنوات الفضائية فى روسيا.

محافظ القدس: الأقصى وقف ربانى للمسلمين لا يغيره تصريحات مسئول إسرائيلى


عدنان الحسيني

رفض وزير شئون القدس ومحافظ المدينة المقدسة عدنان الحسينى تصريحات المستشار القضائى للحكومة الإسرائيلية التى ادعى فيها أن المسجد الأقصى جزء لا يتجزأ من إسرائيل.

وقال الحسينى: الأقصى وقف إسلامى بقرار ربانى وليس بقرار محلى أو من صنع البشر، وهذا الأمر لا يمكن أن تغيره تصريحات المستشار القضائى للحكومة الإسرائيلية أو أى شخص سواه.

ووصف الحسينى المزاعم الإسرائيلية بأنها تنم عن فقدان الحكمة وعدم التقدير لحساسية الموقع وأهميته للمسلمين.

وقال الحسينى: إن المسجد الأقصى ملك للمسلمين وحدهم وسنبقى فيه مهما فعلوا.. مشددًا على أن ما صدر هو تعبير عن موقف أحادى لا نقبل به كفلسطينيين ولا يقبله المسلمون ولا المجتمع الدولى. وأكد الحسينى أن التصريحات الإسرائيلية تأتى فى سياق محاولة تهويد القدس والمسجد الأقصى، وقال «تتواصل الاقتحامات اليومية من قبل المتطرفين اليهود للمسجد المبارك بحماية الشرطة، كما تمضى عمليات الهدم والمصادرة والطرد، وكلها أعمال تتحمل مسئوليتها الحكومة الإسرائيلية التى تشجع وترعى هذه الممارسات.. ولكن مهما حاول الاحتلال فإنه لن يتمكن من إيجاد موطىء قدم له فى المسجد الأقصى أو تنفيذ مخططاته التهويدية.

First: Via Muwaffaq Al-Rabi`y – the Consultant of National Security in the ruling council.

Second: Via Ayatullah Hussein Ismail Al-Sadr, who is close to Al-Sistany.

Third: Via Emad Dia'a Al-Khurasany, who holds American nationality and has Iraqi origin and is Shiite. He was responsible of the committee of the U.S. reconstruction of Iraq. He told Bremer in the wake of one of his visits to Al-Sistany:

"Ayatullah Al-`Uzhma likes and admires you, and prepares for a chance to work with you for the sake of the Iraqi future."

d- Bremer said in his notes on pages 42, 43, 44, and 48 about his correspondences with Al-Sistany: "Whereas the Arab and foreign media talked about the cut relations between me and Al-Sistany, I was in constant contact with him to discuss the vital issues via mediators.

Hiyum Horan, the ambassador and expert in culture and Arabic language, was right in his analysis. He sent to Al-Sistany one day saying: "His non meeting with us does not result from enmity to alliance. He thinks by this stance that he may become more useful for achieving our mutual objectives and that he may lose some of his credibility with his advocators if he cooperated publicly with alliance responsible, as the secularists among the Shiites and Sunni or Shiite religious people have a low stance.

I exchanged correspondences regularly with Al-Sistany concerning the security situation in Al-Najaf especially in August in 2003, as Moqtada Al-Sadr became a source of threat.

3- When the stance of the Sadrists, who express the Arab Shiites, differed from that of the Safavid Shiites, who cooperated with the invasion and occupation, the Shiite groups and the ruling council, held by Bremer in agreement with the Shiites against the Sadrists. Bremer said in his notes on page 40:

"I received warning from the ruling council that the Sadrists prepare themselves to issue a Fatwa during Friday Prayer calling them to strive against the alliance forces and their advocators try to stir chaos in Kirkuk. Then, Bremer turned to speak about the stance of Al-Sistancy towards the Sadrists after the uprising of Al-Sadr in karbalaa and his resolution to form government in the 10th of October in 2003. He said on pages 245, 250, 253, and 254:

"Ayatullah fear the threat formed by Muqtady As-Sadr, and the preferable option of Al-Sistany is that Muqtady should not survive. I supposed that he wanted to kill this youth.

We knew that Al-Sistany sent an armed force to Karbala to face the forces of Muqtada. I add that some of the fighters belonging to Al-Sistany are members of the militias of the Supreme Council of Islamic Revolution in Iraq – Badr Corps. I asked Ayatullah Al-Sistany through mediators about his opinion concerning holding direct conversations with Muqtada. Then, he answered clearly saying: We do not know a reason for negotiating with Muqtada and any benefit for this...

The matter ended with leaving Muqtada As-Sadr and his trend to the forces of the occupation and Badr militias, and then Muqtada and his advocators were attacked while Al-Sistany was receiving treatment in London.

4- To prove the stance of Al-Sistany towards the occupation and his cooperation with Bremer to attain the mutual objectives, we read in Bremer's notes:

a- On page 279, there is telephone call from the U.S. Secretary of State Colin Powell to Bremer, in which he said:

"You should take the blessed approval of Al-Sistancy. Send someone to Najaf or go to him in person in case of necessity. I cannot ask my government to approve of any action without guaranteeing that Al-Sistany agrees to it. This means that Al-Sistany's blessed approval of the occupation and destruction of Iraq was confirmed by the Americans.

b- To achieve cooperation between Al-Sistany and the occupation authorities without violating the awe of the Shiites in front of general people – especially the Sadrists – there was an agreement, about which Bremer wrote on page 42: Al-Sistany informed us via his private channels that he will not meet any of the alliances. Thus, I did not call to hold personal meeting with him.

c- Mr. Hiyun horna, The American Ambassador who understands Arabic well, said: "Al-Sistany will not appear in public to be cooperative with the occupation. Also, he wants to protect his group from the people such as Muqtada As-Sadr. However, he will cooperate with us and we both have mutual interests.

D- Bremer used three main channels for frequent communications with Ayatullah Al-Sistany:

AL AZHAR
MAGAZINE



facebook.com/AlAzharMag

في العدد القادم

المفهوم الإسلامى للحرية (عوامل الازدهار وأسباب الانكسار)

أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن للإمام محمد عبده

أقسام السنة عند العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى

تحويل المرجعية التشريعية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين

المستشار طارق البشرى

من فتاوى الحاخامات



هدية عدد ذي القعدة

في فقه مقاومة الاستبداد
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الجزء الثاني والأخير)

لحجة الإسلام : أبي حامد الغزالي — دراسة وتقديم : أ.د. محمد عمارة



www.AlazharMag.com

السعر جنيهان

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ذو القعدة ١٤٣٣ هـ - أكتوبر ٢٠١٢ م
الجزء ١١ - السنة ٨٥
www.AlazharMag.com

اقرأ لهؤلاء


الشيخ محمود شلتوت


د. محمد عبد الله دراز

هدية العدد

في فقه مقاومة الاستبداد
(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الجزء الثاني
لحجة الإسلام : أبي حامد الغزالي .. دراسة وتقديم : أ.د. محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير عام التحرير
عادل رفاعى خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

سكرتير التحرير
محمود الفشنى

الاشتراك السنوى
داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٧٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

جامع قرطبة الذى جرى اغتصابه وتحويله ليصبح كاتدرائية قرطبة ... آية من آيات الفن الإسلامى .

• الافتتاحيــــة •

المفهوم الإسلامى للحرية.. عوامل الازدهــــار.. وأسباب الانكسار



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

الحرية: ضد العبودية.. والحر: ضد العبد والرقيق.. وتحرير الرقبة: عتقها من الرق والعبودية..

فالحرية: هى الإباحة التى تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته، فى أى ميدان من ميادين الفعل، وبأى لون من ألوان التعبير.

وفى المصطلح القرآنى، الذى يقابل بين الحر والعبد:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ﴾ (البقرة: ١٧٨)

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الراشد الثانى عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ - ٢٣ هـ - ٥٨٤ - ٦٤٤م) التى يقول فيها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

ولقد كان مبحث الحرية والاختيار أول المباحث التى بدأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى، بعد ظهور الإسلام- حول منتصف القرن الهجرى الأول-.. ولقد دلت ملابسات هذه النشأة على ارتباط «الحرية» «بالمسئولية» فى النظرة الإسلامية؛ لأن القضية التى أثارت الجدل فولدت البحث فى هذه القضية، هى التغييرات التى أحدثتها الدولة الأموية فى نظام الحكم الإسلامى، والتى انتقلت به من الشورى والخلافة الكاملة إلى الخلافة الناقصة والملك العضوض، ومن الصراعات الفكرية والسياسية التى حدثت بين المسلمين حول هذه التغييرات.. وهل القائمون بها مسئولون عنها، يحاسبون عليها، فهم أحرار مختارون؟.. أم أنهم غير مسئولين، كليا أو جزئيا، أو لا حساب عليهم؛ لأنهم مسيرون مجبرون؟.

وإذ كان «التكليف»- وهو عنوان المسئولية فى القانون والفقه الإسلامى - فرعا عن «الحرية».. فلقد تجاوزت الحرية- فى النظرة الإسلامية- نطاق الفرد- الحرية الفردية- إلى النطاق الاجتماعى - الحرية الاجتماعية- للأمم والجماعات.. ففى التكليف الإسلامى «فروض عينية» على «الفرد» تستلزم حرية هذا الفرد المكلف، وفيها كذلك «فروض كفائية»- أى اجتماعية- تجب على الأمة والجماعة.. وتستلزم حرية اجتماعية للأمة والجماعة.. الأمر الذى يقطع بتجاوز نطاق الحرية- فى النظرة الإسلامية منذ البدء- نطاق الفرد إلى الجماعة والاجتماع.. على عكس ما يظن الذين حسبوا مبحث الحرية- والاختيار «فرديا- دينيا» لم يتجاوز هذا الإطار!.. فإذا كانت التكاليف الفردية- الواجبة على الفرد، وهى فروض العين- تستلزم حرية المكلف بها، فإن التكاليف الاجتماعية- الواجبة على الأمة، وهى فروض الكفاية تستلزم حرية الأمة المكلفة بها.. بل إن هذه التكاليف الاجتماعية- فى النظرة الإسلامية- هى أشد توكيدا من الفروض العينية الفردية، بدليل أن التخلف عن «فرض العين» إنما يقع إثمه على الفرد، بينما التخلف عن فرض الكفاية الاجتماعى يلحق إثمه بالأمة جمعاء.. الأمر الذى يوحى أن حرية الأمة هى الأساس فى الحرية الفردية لآحاد هذه الأمة.

ونظرة الإسلام إلى الحرية، ومن ثم مقامها ومكانتها فيه، نظرة متميزة، خاصة إذا كانت المقارنة مستحضرة نظرة الحضارة الغربية وبعض الحضارات الشرقية القديمة إلى هذا الموضوع.

فالحرية، فى النظرة الإسلامية، ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعى واجب.. وليست مجرد «حق» من الحقوق، يجوز لصاحبه أن يتنازل عنه إن هو أراد!..

ومقام «الحرية» يبلغ، فى الأهمية وسلم الأولويات، مقام «الحياة» التى هى نقطة البدء والمنتهى، وجماع علاقة الإنسان بوجوده الدنيوى.. لقد اعتبر الإسلام «الرق» بمثابة

«الموت»، واعتبر «الحرية» إحياء «وحياة».. فعتق الرقبة، أى تحرير العبد، هو إخراج له من الموت الحكمي إلى حكم الحياة.. وهذا هو الذى جعل عتق الرقبة- إحياءها- كفارة للقتل الخطأ الذى أخرج به القاتل نفسا من إطار الأحياء إلى عداد الموتى، فكان عليه، كفارة عن ذلك، أن يعيد الحياة إلى الرقيق بالعتق والتحرير:

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾

(النساء: ٩٢)

وبعبارة واحد من مفسرى القرآن الكريم- الإمام النسفى (٧١٠هـ / ١٣١٠م)-: «فإنه -(أى القاتل)- لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكما»[1] وفى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾

فالإسلام عندما يهدى إنما يحرر الإنسان من عبودية الطواغيت، وعندما يحرر فإنه يحقق للإنسان ضرورة الحرية المحققة لمعنى «الحياة» وحقيقة الحياة.. ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله عنوان الحرية التى تحرر كل ملكات الإنسان وطاقاته من العبودية لكل الطواغيت، فإفراد الذات الإلهية بالعبودية هو قمة التحرير لعباد الله!.

وكلمات الإمام النسفى التى تقول: «إن الرق أثر من آثار الكفر»، تلفت النظر إلى الموقف العملى الذى اتخذه الإسلام، إبان ظهوره، من نظام الرق وواقع الاسترقاق.

لقد ظهر الإسلام ونظام الرق - إن فى شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها - نظام عام وراسخ وبالغ القسوة ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادى والاجتماعى لعالم ذلك التاريخ وفى كل الحضارات.. وإذا نظرنا إلى المحيط الذى ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد والمنابع المتعددة دائمة الإمداد لنهر الرقيق الزاخر بالجديد من الأرقاء فالحروب العدوانية والغارات الدائمة والفقر المدقع والعجز عن سداد الدين.. والحرابة وقطع الطريق.. وأسواق النخاسة التى تعج بالصغار المجلوبين - فتيانا وفتيات - والتى تمثل مصدرا من مصادر الاستثمار فى الرقيق - كانت من المعالم الأساسية لكل المجتمعات، حتى لا نغالى إذا قلنا: إن الرقيق كان العملة الدولية لاقتصاد ذلك التاريخ!.. ولقد بلغ من قسوتها وشيوعها ما صنعته القيصرية، الرومانية والكسروية الفارسية - القوى العظمى يومئذ - من تحويل كل شعوب المستعمرات إلى رقيق وبرابرة وأقنان!..

فلما جاء الإسلام، وقامت دولته بالمدينة المنورة، حرم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد

(١) النسفى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) جـ١ ص٦٨٩، طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ.

«نهر الرقيق» بالجديد. ووسع المصبات التى تجفف هذا النهر، وذلك عندما حبب إلى الناس عتق الأرقاء بل وجعله مصرفا من مصارف الأموال الإسلامية العامة، وصدقات المسلمين وزكواتهم.. وعندما جعل العديد من الكفارات هى تحرير الرقبة.. وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكه وسيده فى المطعم والمشرب والملبس.. ودعا إلى حسن معاملته والتخفيف عنه فى الأعمال.. حتى لقد أصبح الاسترقاق- فى ظل هذه التشريعات - عبئا اقتصاديا يزهد فيه الراغبون فى الثراء!.

فلم يكن موقف الإسلام من «الحرية» وعداؤه «للعبودية» مجرد موقف «فكرى» «نظرى»، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة «إصلاحية - ثورية» شاملة غيرت المجتمع الذى ظهر فيه تغييرا جذريا - وذلك هو الذى يحسب للإسلام، ولا تحسب عليه «الردة» التى حدثت عندما استشرى الاسترقاق فى فترات لاحقة من التاريخ!.

لقد وقف التشريع الإسلامى من الاسترقاق عند أسرى الحرب المشروعة، ليبادلهم مع أسرى المسلمين. بل وشرع لهذه الحالات المحدودة العدد «المن والفداء»:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

(محمد: ٤)[2]

وإذا كان هذا هو مقام الحرية فى النظرة الإسلامية، فإن هذه النظرة قد ربطت قيمة الحرية بالإنسان مطلق الإنسان، وليس بالإنسان المسلم وحده، وإذا كان الدين والتدين هو أغلى وأول ما يميز الإنسان، فإن تقرير الإسلام لحرية الضمير فى الاعتقاد الدينى لشاهد على تقديس حرية الإنسان فى كل الميادين.. فهو حر حتى فى أن يكفر، إذا كان الكفر هو خياره واختياره:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾

(هود: ٢٨)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)

(٢) انظر فى تفاصيل هذا البحث كتابنا (إزالة الشبهات عن معانى المصطلحات)- الرق- ص٤٧٤- ٤٧٩، طبعة القاهرة - دار السلام - ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

لقد أراد الناس الهدى والإيمان، لكنه - سبحانه - جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية الحرية والتخيير والتمكين، فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية في كل الميادين.. وإذا كانت شهادة التوحيد - «أن لا إله إلا الله» - هي جوهر التدين بالإسلام، فإنها، في مفهومه، ثورة تحرير للإنسان من العبودية لكل الطواغيت، ومن جميع الأغيار، فإفراد الله بالألوهية والعبودية هو جوهر تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، إنها العبودية للذات المنزهة عن المادة.. ومن ثم فإنها هي المحققة لتحرير الإنسان من كل ألوان الطواغيت المادية التي تستلب منه الإرادة والحرية والاختيار.

بل إن الإسلام عندما يدعو الإنسان، إلى الاقتصاد في الاقتناء والامتلاك - بتهذيبه لشهوات التملك وغرائزه - وبالوقوف بها عند حدود «الاستخلاف» و«الانتفاع» لا «ملكية الرقبة» و«الاحتكار».. إن الإسلام بصنيعه هذا إنما ينجز إنجازا عظيما على درب تحرير الإنسان.. وانعتاقه من العبودية للأشياء، التي يحسبها مملوكة له، على حين أنه لها مملوك!.

لكن للإنسان مذهبا متميزا في «نطاق» الحرية الإنسانية و«آفاقها» و«حدودها».. فالإنسان خليفة لله - سبحانه - في عمارة الوجود، ومن ثم فإن حريته هي حرية الخليفة، وليست حرية سيد هذا الوجود..

إنه سيد في هذا الوجود، وليس سيدا لهذا الوجود.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م): «.. فالإنسان عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»..

ثم إنه حر، في إطار الملابسات والعوامل الموضوعية الخارجية التي ليست من صنعه، والتي قد يستعصي عليه تعديل بعضها أو تحويرها وتغييرها.. وهو حر في إطار أشواقه ورغباته وميوله، التي قد لا تكون دائما وأبدا ثمرات حرة وخالصة لحريته وإرادته الخالصة، وإنما قد تكون - أحيانا - ثمرات لمحيط لم يصنعه، ولموروث ما كان له إلا أن يتلقاه.

ثم إنه «الخليفة والوكيل الحر»، في إطار ونطاق ثوابت ومقاصد الشريعة، التي هي عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل.. فحرية الإنسان الخليفة ليست الحرية الليبرالية الغربية، التي ادعت أن الإنسان هو سيد الكون، وأن حريته الشخصية - من ثم - لا تخضع لأية قيود.. وعندما وفد هذا المفهوم الليبرالي الغربي في الحرية إلى بلادنا في القرن التاسع عشر والقائم «على الإباحة وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة»، انتقده علماء الإسلام انتقادا شديدا.. وكتب الأستاذ عبد الله النديم (١٢٦١-١٣١٣هـ-١٨٤٥-١٨٩٦م) فقال:

«.. ولئن قيل: إن الحرية تقضي بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.. وهذا الذي تسمع به وتراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغا في أوربا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا

عاداتهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها»[٢].

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعة وقواها؛ ليتحرر من العبودية لها، فإنه قد أقام وأراد إخاء بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة - الخليقة - لتمتزج حريته بهذا التسخير المتبادل، فهو أخ لطبيعة بين قواه وقواها تسخير متبادل، هو أشبه ما يكون بالارتفاق، كل مرفق مسخر للمرفق الآخر، الأمر الذي يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق المسئول لا حرية الذي لا يسأل عما يفعل.. الفعال لما يريد.

هكذا جاء الإسلام لـ

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾
(الأعراف:١٥٧)

أي ليحطم القيود والأغلال التي كانت تحول بين الإنسان - مطلق الإنسان - وبين تحقيق أشواقه في الحرية والانعتاق.

ولقد بدأ الإسلام فوضع قيمة الحرية في الممارسة والتطبيق عند ما حرر الإنسان من أغلال الجاهلية وظلمها وظلماتها وذلك بإعادة صياغة هذا الإنسان الصياغة الإسلامية التي حررت ملكاته وطاقاته حتى لقد أصبح «العالم الأكبر» رغم أنه - ماديا - «جرم صغير» وتمت تربية «الجيل القرآني الفريد» الذي صنعه الرسول ﷺ على عينه في «دار الأرقم بين أبي الأرقم» التي كانت أولى مؤسسات الصناعة الثقيلة التي أقامها الإسلام لإعادة صياغة هذا الإنسان.. أي أن منهاج الإسلام في الحرية والتحرير قد وضع التربية قبل «السياسة»، و«الأمة» قبل «الدولة»؛ لأن «الأصول» لابد أن تسبق «الفروع».

ولقد عبر الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب (٨هـ - ٦٢٩م) عن حقيقة هذا التحرير الذي صنعته التربية الإسلامية للإنسان، وكيف أخرجته هذه التربية من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، متفجرة فيه الملكات والطاقات الدفينة، فقال للنجاشي - ملك الحبشة - عن سبب اضطهاد الوثنية القرشية - للمسلمين، وسبب هجرتهم من مكة إلى الحبشة - (سنة خمس من البعثة) فقال للنجاشي «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به

---

(٢) مجلة (الأستاذ)-العدد التاسع عشر - ص٤٣٩ - القاهرة - في ٨ جمادى الآخرة ١٣١٠هـ - ٢٧ ديسمبر ١٨٩٢م.

شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[٤].

وعندما تمت التربية الإسلامية، التي حررت هذا الجيل القرآني الفريد، جاءت «الدولة» ومؤسساتها - وجاءت «السياسة» وقوانينها، وجاءت «الفتوحات» التي حررت الشرق من قهر الفرس والرومان - القهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والثقافي الذي دام عشرة قرون - وذلك عندما فتح هذا الجيل القرآني الفريد في ثمانين عاما - أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون.. وشتان بين فتح وفتح.. شتان بين فتح حرر الضمائر والأوطان ثم ترك الناس أحرارا وما يدينون - حتى أن نسبة الذين أسلموا في مصر وسوريا وفارس بعد قرن من الفتوحات الإسلامية كانت ١٠٪ من السكان..[٥] شتان بين هذا الفتح التحريري وبين الفتح الروماني الذي حول كل شعوب المستعمرات إلى برابرة ورقيق وأقنان.

ولأن خطاب التحرير الإسلامي إنما هو موجه للإنسان - مطلق الإنسان - بصرف النظر عن دينه ولونه وجنسه فلقد بدأت السياسة الخارجية لدولة النبوة سنة ٧هـ/ ٦٢٨م بالرسائل التي دعا فيها رسول الله ﷺ إلى تحرير المضطهدين والمستضعفين.. فهذا التحرير للمستضعفين - بصرف النظر عن دينهم - هو فريضة إسلامية:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء:٧٥)

هذه الفريضة قد حملتها رسائل رسول الله ﷺ إلى القياصرة والأكاسرة والملوك والرؤساء فدعا رسول الله قيصر الروم هرقل (٦١٠ - ٦٤٠م) إلى تحرير «الأريسيين» النصارى الموحدين - الذين كانوا مضطهدين في دولة الرومان وقال له «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين» وفي اللقاء بين رسول رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة (٣٥ق.هـ/ ٣٠هـ، ٥٨٦-٦٥٠م) وبين المقوقس عظيم القبط - حذر حاطب المقوقس من الاستبداد وعواقبه، ومن الفرعونية ومصيرها فقال له: إنه قد كان قبلك رجل «فرعون موسى» زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك ثم أعلن له أن الإسلام لا يريد إلغاء الآخر بل الإضافة إلى ما لدى «الآخر» فقال: «إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله فقد ماسواه وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكن نأمرك به»[٦].

(٤) رفاعة الطهطاوي [الأعمال الكاملة] ج١ ص١ ص٣٢٩ دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة طبعة بيروت ١٩٧٣م.

(٥) فيليب فارح يوسف كرباج [المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي ص٣٥ ترجمة بشير السباعي طبعة القاهرة ١٩٩٤م.

(٦) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص٦٤ طبعة ليدن ١٩٢٠م.


توماس ارنولد

فلما جاءت الفتوحات الإسلامية التي طوت صفحات القوى المتجبرة الفرس والروم - كانت تجسيدا لهذه القيم في الحرية والتحرير فكانت كل معاركها ضد جيوش الفرس والروم ووقفت معها وساعدتها وناصرتها شعوب الشرق - وهي على دياناتها القديمة - عندما رأت فيها «الإنقاذ» الذي حررها من الظلم وحقق لها الأمن والطمأنينة» على حد تعبير البطرك المصري «بنيامين» (٣٩هـ / ٦٥٩م) الذي حرره عمرو بن العاص (٥٠ق.هـ، ٤٣هـ - ٥٧٤ - ٦٦٤م) من النفي والاضطهاد ولقد امتلأت كتب التاريخ التي أرخت لهذا التحرير الإسلامي بالشهادات التي كتبها غير المسلمين والتي تقطع بأن هذه الفتوحات الإسلامية قد وضعت قيمة الحرية هذه في الممارسة والتطبيق.

فنقل الأسقف المصري «يوحنا النقيوسي» الذي كان شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر - فرح الشعب المصري بالفتح الذي حرر الضمائر والوطن والأديرة والبطرك.. فقال:

«كان كل الناس يقولون: إن انتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين وأن عمرو بن العاص لم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام» كما نقل النقيوسي كلمات البطرك «بنيامين»، الذي حرره الفتح الإسلامي، ورد إليه كنائسه وأديرته، وأعاده إلى منصبه بعد عزل البطرك الروماني فلقد زار «بنيامين» كنائسه وخطب في «ديرمقاريوس» وقال: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهاد والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون» الرومان..[٧]

وبعد خمسة قرون من الفتح الإسلامي، أكد هذه الحقيقة البطرك السرياني «ميخائيل الأكبر» «١١٢٦-١١٩٩م» الذي قال:

«لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة» واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام..[٨]

وفي العصر الحديث، شهد المؤرخ القبطي «يعقوب نخلة روفيلة» «١٨٤٧-١٩٠٥م» «بأن الفتح الإسلامي قد حقق للشعب القبطي نوعا من الحرية والاستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية وحقق لهم راحة لم يروها من أزمان..[٩]

● كذلك حمل الفاتحون المسلمون قيمة الحرية والتحرير هذه إلى بلاد الفرس الذين كانوا

(٧) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي] ص٢٠١، ٢٠٢ ترجمة ودراسة د. صابر عمر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٨) د. صبري أبو الخير سليم [تاريخ مصر في العصر البيزنطي] ص٦٢ - طبعة القاهرة ٢٠٠١م.

(٩) يعقوب نخلة روفيلة [تاريخ الأمة القبطية] ص٥٧ تقديم د. جودت جبرة. طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

يعيشون في ظل كهانة الحكم بالحق الإلهي، ويقهرهم نظام طبقي مغلق يقتل الملكات والطاقات لدى جماهير المستضعفين.. ففي لقاء القائد المسلم «ربعي بن عامر التميمي» مع القائد الفارسي «رستم».. سأل «رستم» «ربعي»:

- ما الذي جاء بكم؟!

- فقال له «ربعي»: «إن الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»..[١٠]

● أما المؤرخ الإنجليزي الحجة «سير. توماس آرنولد» «١٨٦٤-١٩٣٠» فلقد شهد على هذا التحرير الذي حققه الإسلام للشرق فقال: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلا في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة..»[١١]

لكن.. إذا كان هذا هو مقام الحرية في الإسلام، وتلك هي تطبيقاتها في أرض الواقع.. فلماذا وكيف ساد الاستبداد «الدولة» الإسلامية لفترات طويلة من التاريخ؟! حتى اضطرت «الأمة» إلى الثورات التي غطت أغلب مساحات هذ التاريخ؟!..

● إن الجيل القرآني الفريد، والذي أقام الدين، وأسس الدولة، وفتح الفتوح، ووضع قيم الإسلام في الحرية بالممارسة والتطبيق، قد تحول إلى أقلية في الدولة الإسلامية بعد الفتوحات التي أدخلت في المجتمع الإسلامي شعوبا وقبائل وعادات وتقاليد ومواريث لم تتح لها سرعة الفتوحات العربية وإعادة الصياغة للإنسان، فأصبحت الغلبة في الدولة الإسلامية لعادات وتقاليد ومواريث وقيم عاشت طويلا وترسخت في ظل استبداد الفرس والرومان.. ويكفي لتقريب الصورة أن تعرف أن تعداد شبه الجزيرة العربية- يومئذ كان حوالي المليون.. بينما ضمت الدولة الإسلامية- على نحو سريع- قرابة الأربعين مليونا من السكان!.. فاختل التوازن بين الجيل الذي صاغه الإسلام وبين الملايين التي أدخلتها الفتوحات السريعة إلى «معدة» المجتمع الإسلامي..

ولقد كان عمر بن الخطاب واعيا بمخاطر هذا «الوافد السلبي» الذي يمتلك إغراءات الترف وغوايات الرفاهية التي تتمتع بها فضاءات هذه البلاد المفتوحة- على النقيض من البساطة والخشونة التي عاش في ظلالها الجيل القرآني الفريد-.. فحاول عمر الاحتفاظ بنقاء هذ الجيل القرآني «قوة ضاربة» للإسلام وحافظة لقيمه ومثله العليا حتى لقد ذهب إلى حد محاولة «الحجر» على ملأ قريش وأشرافها الخروج إلى مجتمعات البلاد المفتوحة، ففرض ما يمكن أن يعد «تحديد الإقامة» لهم بالحجاز كي لا تجتذبهم إغراءات المجتمعات الغنية فتقوم

(١٠) الطبري (التاريخ) ج٣ ص٢٠-٣٤ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف القاهرة.

(١١) آرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٤٦١ ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة القاهرة ١٩٧٠م.


محمد عبده

من حولهم «مراكز قوى» تنتصر لمنظومة القيم الموروثة التي لم تخضع لتهذيب الإسلام..

ويرصد التاريخ بعبقرية هذه الحقيقة التي مثلت تحولا عن نقاء النموذج القيمي الإسلامي لحساب المواريث التي ترسخت في ظلال الترف والاستبداد، فيقول:

«وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فلما ولي عثمان «٤٧ق.هـ- ٣٥هـ / ٥٧٧-٦٥٦م» لم يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد فلما نزلوها، ورأوا الدنيا، ورآهم الناس.. وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة. فكان ذلك أول وهن على الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة.. ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر..»[١٢]

وكثمرة من ثمرات هذا التحول الجتماعي، شهدنا كيف جاءت عوامل الفتنة ووقائعها ورموزها من المجتمعات التي أدخلتها الفتوحات السريعة في دولة الإسلام دون أن تتاح لها الفرصة للتهذيب بمنهاج الإسلام في إعادة صياغة الإنسان بقيم الإسلام:

- لقد جاء اغتيال عمر من فارس، بمؤامرة نفذها أبولؤلؤة المجوسي.

- وجاءت الثورة على عثمان بن عفان من مصر والعراق.

- وجاء الملك العضود من الشام.

وهكذا، رويدا رويدا تراجعت الحرية والشورى عن «الدولة والسلطة» بينما ظل العلماء الذين ورثوا ميراث النبوة في أحضان الأمة، يصنعون الحضارة، وتتوالى ثوراتهم ضد الاستبداد والاستعباد.

فلما ظهرت متناقضات العصبية العرقية- التي كان الإسلام قد هذبها في عهد النبوة، ووصفها ووصمها «بالجاهلية، والمنتنة» لما ظهرت هذه العصبية العرقية بين شعوبية الفرس وعصبية العرب، وعلت العصبية العربية في ظل الدولة الأموية، ثم علا شأن الشعوبية الفارسية في العقود الأولى من الحكم العباسي، خيل للخليفة العباسي المعتصم «٢١٨-٢٢٧هـ ٨٣٣- ٨٤٣م» أن عزل الفريقين- العرب والفرس- عن جيش الدولة يمكن أن يكون سبيلا لحفظ وحدتها، وتحجيم النفوذ السياسي لهذه العصبيات العرقية، فاستجلب المماليك من أواسط آسيا، وكون منهم جيش الدولة. وجعل لهم معسكر في «سامراء» بالقرب من بغداد لكن هذه المؤسسة العسكرية، الغريبة عن روح الحضارة العربية والقيم الإسلامية سرعان ما تضخمت وتحولت من أداة في يد الخلافة إلى حيث أصبحت الخلافة لعبة في يدها، حتى لقد أصبحت «سامراء» هي العاصمة بدلا من

(١٢) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ١١ ص١٢، ١٣ طبعة الحلبي القاهرة.

«بغداد»!. وهكذا زحفت العسكرة على المجتمع، وغالبت عوامل «القوة»، والجمود والتقليد قيم الإبداع والاجتهاد والتجديد فبدأ التراجع الحضاري يأخذ طريقه إلى الفضاء الإسلامي بالتدريج.

وعن هذا التحول السلبي - والرئيسي - يقول الإمام محمد عبده:

كان الإسلام دينًا عربيًا ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا بعد أن كان يونانيًا، حتى سيطر الترك والديلم وغيرهم ممن لم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، فلبثوا ثوبه على أبدانهم، ولم ينفذ منه شئ إلى وجدانهم فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم. أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملو كثيرا من أعوانهم على أن يندرجوا في سلك العلماء، وأن يتسربلوا بسرابيلهم ليعدوا من قبيلهم، ثم ليضعو للعامة في الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ودخلوا عليهم - وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين، وزعموا الدين ناقصا ليكملوه. فاستعاروا للإسلام ما هو منه براء ونجحو في إقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره والغوغاء يرعون الغاشم، وهم يد الظالم فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وسنوا لنا عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم مما فرق الجماعة وأوقع الناس في الضلالة وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة، حتى توقف الفكر، وتجمدت العقول، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأن لانظرلهم في الشئون العامة، وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدوله هو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل في شئ من ذلك من غيرهم فهومتعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك، وفي بعض الأحاديث الموضوعة والضعيفة ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة العذر مثبطًا للعزائم وغلا للأيدي عن العمل، والعامل الأقوى في عمل النفوس على قبول الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة في الدين، وموافقة الهوى - وهي أمور إذا اجتمعت أهلكت - فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم.

(١٣) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ص ٣١٧ - ٣١٩، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت ١٩٧٢م.

هذه السياسة، هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاًكان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات.. هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا»[١٣].

هكذا حلل الإمام محمد عبده - بعبقرية حضارية - دور عسكرة الدولة، التي سرت سلبياتها إلى المجتمع، ودور العجمة التي ميزت هذه العسكرة في إحلال الجمود والتفكير والخرافة محل المعالم الحضارية التي ميزت منظومة القيم الحضارية التي جاء بها الإسلام، والتي صاغت الجيل القرآني الفريد في صدر الإسلام.

● فلما جاء الإمام الشهيد حسن البنا (١٣٢٤-١٣٦٨هـ ١٩٠٦-١٩٤٩م) - وهو تلميذ نجيب للإمام محمد عبده - وأخذ في تشخيص عوامل التحلل والتراجع الحضاري في التاريخ الإسلامي، تبنى ذات التحاليل، وكتب يقول: «إن من أهم عوامل التحلل في الدولة الإسلامية.. انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم لمعانيه»[١٤].

فلما كانت المخاطر الخارجية - الصليبية [٤٨٩-٦٩٠هـ / ١٠٩٦-١٢٩١م] والتترية [٦٥٦-٦٥٩هـ / ١٢٥٨-١٢٦١م] - التي هددت الوجود الإسلامي - مدت هذه المخاطر في عمر «عسكرة الدولة».. فأصبحت الغلبة «لقوة العضلات» بدلا من «ملكات العقل والعقلانية».. وعدت الأرض إقطاعا للمماليك مقابل حمايتها من الصليبيين والتتار، وأصبحت «الدولة» قوة قهر واستبداد تراجعت من فضائها قيم الحرية والشورى ومشاركة الأمة في صناعة القرار.. وأخذ فقهاء السلاطين ينظرون ويبررون لحكم التغلب، ويدعون لطاعة أهل الفسق والفجور طالما تغلبوا بالقوة على البلاد والعباد!.

تلك إشارات لمقام الحرية في الإسلام.. ولأسباب صعودها وازدهارها.. ولبعض أسباب تراجعها عن فضاء «الدولة والسلطة والسلطان»..

وهي إشارات ترسم معالم الطريق نحو استعادة هذه الحرية من جديد.. إذا لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

- إعادة صياغة الإنسان بقيم الحرية التي جاء بها الإسلام.

- والبدء بالصناعة الثقيلة: التربية قبل السياسة.. والأمة قبل الدولة - لتأتي «الدولة الحرة» ثمرة ناضجة وطبيعية «للأمة الحرة».. وليتحقق شعار: «كما تكونوا يولى عليكم» بدلا من الشعار القائم الآن: «كما يولى عليكم تكونوا»!.

(١٤) حسن البنا [مجموعة الرسائل] ص ١٣١، ١٣٢، طبعة دار الشهاب، القاهرة، بدون تاريخ.

تفسير سورة البقرة

للأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

﴿ كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ
لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ
فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الكلام متصل بما قبله ومرتبط به ارتباطا محكما . والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل فإنه وصفهم أولا بنقض العهد الإلهى الموثق، وقطع ما أمر به سبحانه أن يوصل، سواء كان الأمر أمر تكوين وهو السنن الكونية، أو أمر تشريع وهو الديانة السماوية. ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجبى عن صفة كفرهم مقترنا بالبرهان الناصع على أنه لا وجه له ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه . فقال:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

أى: بأى صفة من صفات الكفر بالله - تعالى - تأخذون ، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذرا فيه؟ وبين هذه الحال بقوله:

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾

أى: والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا مبثثة أجزاؤكم فى الأرض، بعضها فى طبقتها الجامدة وبعضها فى طبقتها السائلة وبعضها فى طبقتها الغازية (الهوائية) لا فرق فى ذلك بينها وبين أجزاء سائر الحيوان والنبات ، فخلقكم أطوارا من سلالة من طين فكنتم بالطور الأخير فى أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والإدراك، وما سخر لكم من الكائنات ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ يقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم هذه فتنحل أبدانكم بمفارقته إياها وتعود إلى أصلها الميت وتنبث فى طبقات الأرض وتدغم فى عوالمها حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها

﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الاولى بلا فرق إلا ما تكون به الحياة الثانية أرقى فى مرتبة الوجود وأكمل لمن يزكون أنفسهم فى تلك ، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها ويفسدون فطرتها:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾
(الشمس: ٩-١٠)

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

فينبئكم بما عملتم ، ويحاسبكم على ما قدمتم ، ويجازيكم به ، وأقول:

إن تراخى الإرجاع إلى الله - تعالى - عن حياة البعث عبارة عن تأخير الحساب والجزاء وطول زمن الوقوف والانتظار كما ورد فى حديث الشفاعة العظمى وغيره ، فإذا كان هذا شأنكم معه وهذا فضله عليكم، وهذا مبدأكم وذلك منتهاكم، فكيف تكفرون به وتنكرون عليه أن يضرب لكم مثلا تهتدون به، ويبعث فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من قيام مصالحكم فى حياتكم الأولى، وسعادتكم فى حياتكم الأخرى؟

لا يقال: كيف يحتج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحى الذى هو دليلها ومثبتها؟ لأنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه الأكثرون منهم، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث فى هذا المقام؛ لأن الاحتجاج بالحياة الأولى بعد الموتة الأولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وإنكارهم عليه أن يضرب مثلا ما لهداية الناس زعما أن هذا لا يليق بعظمته، فإن من أوجد هذا الإنسان الكريم، وجعله فى أحسن تقويم، وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة، والنطفة المهينة الحقيرة، والعلقة الدموية أو الدودية ، والمضغة اللحمية .

﴿ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

والكلام مسوق لإبطال شبه منكرى المثل والقرآن الذى جاء به لا لإبطال شبه منكرى البعث بلوامع شبهه. ثم إن تمثيل إحدى الحياتين بعد الموت بالأخرى داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية، لأن ما جاز فى أحد المثلين جاز فى الآخر ، والكلام فى إثبات الوحى الإلهى للنبى المرسل من البشر والإيمان بالبعث تابع له.

ثم بعد بيان بعض آياته فى أنفسهم بذلك المبدأ والمنتهى ذكرهم بآياته فى الآفاق فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

فالكلام على اتصاله وترتيبه وانتظام جواهره فى سلوك أسلوبه، فليس فى قوله:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾

إلخ .. انتقال لإثبات البعث، كما قال بعض المفسرين غفلة عن هذا الاتصال المتين ، ولعمرى إن وجوه الاتصال بين الآيات وما فيها من دقائق المناسبات لهى ضرب من ضروب البلاغة، وفن من فنون الإعجاز، إذا أمكن للبشر الإشراف عليه فلا يمكنهم البلوغ إليه، والكلام فى البعث فى القرآن كثير جدا فلا حاجة إلى الإسراع إليه هنا.

يصور لنا قوله - تعالى -:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾

قدرته الكاملة، ونعمه الشاملة، وأى قدرة أكبر من قدرة الخالق؟ وأى نعمة أكمل من جعل كل ما فى الأرض مهيئا لنا، ومعدا لمنافعنا؟ وللانتفاع بالأرض طريقان:

(أحدهما): الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية.

(وثانيهما): النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية.

والأرض : هي ما في الجهة السفلى، أى ما تحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء : كل ما في الجهة العليا، أى فوق رءوسنا . وإننا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته ، والتعبير يفى بتناول ما في جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح . قال تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾

يقال استوى إلى لا شيء، إذا قصد إليه قصداً مستوياً خاصا به لا يلوى على غيره.

وقال الراغب: إذا تعدى استوى بإلى، اقتضى الانتهاء إلى الشيء، إما بالذات وإما بالتدبير . والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء، كما قال في سورة فصلت:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾

(فصلت: ١١)

﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾

فأتم خلقهن من تلك المادة الدخانية فجعلهن سبع سماوات تامات منتظمات الخلق.

وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفا عند اليهود عن سيدنا موسى عليه السلام، من أن الله - تعالى - خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماوات والنور، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية، فإن الخلق غير التسوية ، ألا ترى أن الإنسان في طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا ولكنه لا يكون بشرا سويا في أحسن تقويم ، كما يكون عند إنشائه خلقا آخر ، وستبين - إن شاء الله - تعالى - عند تفسير قوله - تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

إن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله - تعالى - بالخلق تفصيلاً وقدره تقديراً ، فلا مانع إذن من أن يكون خلق الأرض وما فيها سابقا على تسوية السماء سبعا، نعم إن هذا من أسرار الخلقة التي لا نعرفها، وربما يتوهم أن هذه الآية تناقض أو تخالف قوله - تعالى - بعد ذكر خلق السماء وأنوارها:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾

(النازعات: ٣٠)

والجواب عنه من وجهين:

* أحدهما : أن البعدية ليست بعدية الزمان ولكنها البعدية في الذكر وهي معروفة في كلام العرب وغيرهم، فلا بعد في أن تقول فعلت كذا لفلان وأحسنت عليه بكذا، وبعد ذلك ساعدته في عمل كذا ، كما تقول: وزيادة على ذلك ساعدته في عمله، تريد نوعا آخر من أنواع الإحسان، من غير ملاحظة التأخر في الزمان.

* ثانيهما : أن الذى كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أى جعلها ممهدة مدحوة قابلة للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير أقواتها فيها ، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الأرض ولا ينقطع منها ما دامت، وكذلك يقال في غيرها.

وحاصل القول: إن الله - تعالى - خلق هذه الأرض وهذه السماوات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن، وإنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته، لا لبيان تاريخ تكوينهما بالترتيب؛ لأن هذا ليس من مقاصد الدين.

فابتداء الخلق غير معروف، ولا ترتيبه، إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوين الأرض، ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعا، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال:

﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾

فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها ، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر ، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون، وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل، وما اكتشف المكتشفون من شئونه وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ويخترعونه من الأوهام والظنون، وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له.

هذه الإباحة للنظر والبحث في الكون، بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس، ككون كل ما في الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الإسلام في ترقية الإنسان، فقد خاطبنا القرآن بهذا على أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان لا يجتمعان، والعلم والدين خصمان لا يتفقان، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل.

ولذلك، جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكر والتدبر والتذكر، فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان، ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(يونس: ١٠١)

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾

(الحج: ٤٦)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

(الغاشية: ١٧)

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا ، وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به. ومن فوائد الحث على النظر في الخليقة - للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة، واستخراج علومها لترقية النوع الإنساني الذي خلقت هي لأجله، مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به.

كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل وظلمات من الفتن، تسيل الدماء فيها أنهارا لأجل الدين وباسم الدين وللإكراه على الدين، ثم فاض طوفان تعصبها على الشرق، ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسا من دين الإسلام وعلوم أهله، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا: إن لنا الحق

في أن تتفكر، وأن تعلم أو تستدل، فحاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله.

وبعد غسل الدماء المسفوكة قام - منذ مائتي سنة إلى اليوم - رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم: المدنية المسيحية، ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها - بعد انهزامها - من أمام الدين المسيحي، لأنها لا تتفق مع العلم وفي مقدمتها الدين الإسلامي، وحجتهم على ذلك حال المسلمين، نعم إن المسلمين أصبحوا وراء الأمم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها، فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾
(البقرة: ٢٩)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾
(الجاثية: ١٣)

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
(الأعراف: ٣٢)

وأمثال ذلك، ولكنهم:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
(البقرة: ١٧١)

إلا من رحم الله، ولو عقلوا لعادوا، ولو عادوا لاستفادوا، وبلغوا ما أرادوا، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون، ولا نيأس من روح الله:

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾
(يوسف: ٨٧)

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

أي فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته وبما ينفع الناس بيانه، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم، فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقرير رسالة النبي - ﷺ، وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولاً، والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول؛ لأن قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين على من هو بكل شيء عليم.

❋❋❋

أقسام السنة عند العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى

٢

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية في الرسول ﷺ:

هناك عدة مظاهر تنم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته، وتدل على أن اصطفاءه لأداء هذه المهمة القدسية لا يخرجه عن طبيعة الإنسان، يجوز عليه ما يجوز على إنسان ما آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس.

فهو يأكل قبل الرسالة وبعدها كما يأكل الإنسان، وينسل قبل الرسالة وبعدها كما ينسل الإنسان [1]، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي اعتاد أن يسلكها الإنسان في دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه، يحترف ويتجر على نحو ما يحترف الإنسان، يتجر لتأمين عيشه وعيش من يعوله، يقاوم المعتدى ويهاجمه أو عن طريق جمع من أعوانه.

يناضل في الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان، يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسبما يتجلى له من نفسه ودخيلة أمره، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسبما تتطلب الظروف والمواطن.

ولم يشأ الله أن يخرجه عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد، حسب ما في علمه، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالته في جيل أو في أمة أو للناس كافة، والله تعالى قادر على أن يخرجه عن هذه الطبيعة ويمنحه من الوسائل في الحياة والكفاح فيها ما ليست للإنسان، لكنه شاء جل جلاله أن يبقى رسوله للناس من الناس؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى مَلَك فضلاً عن أن يصل بها إلى مرتبة فوق مرتبة الرسالة والملك..

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام في رده على قومه لما قالوا له:

﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾

١- في رواية البخاري: «إني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء».

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾

(هود: ٣١)

وقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾

(الأنعام: ٥٠)

وقد تعنت كفار قريش مع نبينا ﷺ وطلبوا منه ما يدل على أنهم معاندون، وقالوا:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٠-٩٥)

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسي وماتوا أناسي كلهم احترف في سبيل عيشه، وكلهم ناضل من أجل عقيدته، وكلهم اجتهد في تخير وسيلة العيش وطريق النضال، وكلهم أخطأ وأصاب في اجتهاده فيما تخير من وسائل وطرق لعيشه وكفاحه[٢].

وفي موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان، نعم في غمرات الموت كانوا يتشوفون إلى لقيا الله تعالى أكثر من حنينهم للدنيا وما فيها، ذلك لأنهم ركزوا إيمانهم فيما وراء الدنيا بحكم اختيارهم للرسالة، وإيمانهم إيمانًا كاملاً بها.

وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات إن قوى أمله فيما هو آت.

وربما في عيشهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل أكثر من غيرهم؛ لأن الأنبياء- وكذا المصلحون في الجماعة- أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلي.

لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت في حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات، ولا يكفي في سرعة البت هذه حسن استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته، فكم في الفيافي ورءوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلي أو قلة الدربة في معالجة الأمور.

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول - كذا للمصلح - أكثر من غيره لا نجد بين من

٢- في الصحيح أنه ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي» انظر ما سيأتي في كلام القاضي عياض في مسألة أبي النخل، حيث قال ﷺ عن نفسه: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب».

اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل؛ قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب.

وكلهم من أجل عيشهم احترفوا؛ لأنهم لم يكونوا من أصحاب اليسار، وربما تشابهوا جميعًا في مزاولة حرفة بالذات: فكثير منهم نشأ يتيمًا أو شبه يتيم، وكثير منهم قد رعى الغنم، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيرًا يأكل من أجره.

وقد تجشم رسول الله ﷺ طويل الأسفار للتجارة في مال غيره بأجر، وذاق مرارة اليتم، وحرم حنو الوالد، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها، ومن فضائل الرجولة أعلاها، وسمت به نفسه عن مواطن الترهل والنعومة، فتسابقت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة، وأخصبت عبقريته وتفتحت لإلهام السماء مشاعره، الله أعلم حيث يجعل رسالته.

من الميسور للرجل أن يستغني عن الاجتهاد، وأن ينزوي في ناحية من نواحي الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة: فمن الميسور أن يتوارى الرجل في جوف صومعة منقطعًا للتبتل والعبادة حتى يلقى الله، ومن الميسور أن ينقطع للدنيا ويوليها جميع عنايته، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلا لها ولا يفكر إلا في جمعها، معرضًا عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أبنائها أحدًا.

كما أنه من الميسور أيضًا أن يعيش الرجل في هذه الحياة لا يهدف إلى غاية ولا يسعى إلى غرض طافيًا فوق تياراتها تقذف به مع الريح حيث درات وكيفما اتجهت، فتارة تراه عابدًا مع العباد، وتارة فاسقًا مع الفساق، وتارة عطوفًا خيرًا، وأخرى جبارًا عتيًا، وتارة ينهمك في جمع المال، وأخرى يغرق في السرف والتبذير، فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية، فمثل هذا إن لم يكن مجنونًا فهو أشبه بالمجانين.

كل هذا ميسور، أما أن يخوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحية من نواحيها بطرف فيعطي ربه حقه، ونفسه حقها، وبني جنسه حقوقهم، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم، يجامل ويواسي، ويقاطع ويخاصم، ويهادن ويحارب، كل في حدود المصلحة العامة والعدل والعقل، وهو في كل ذلك سلم له دينه وعرضه، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر، ولا يستطيعه إلا أحد رجلين:

١- رجل ألقى بنفسه بين يدي ملك الوحي، يحركه كيف شاء، وأنى شاء، يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل، ومثل هذا لا يحتاج في حياته إلى عبقرية ولا فكر، بل ولا إلى عقل، وهذا ما تنزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

٢- أو رجل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة ويقظة القلب وعبقرية الفهم ما سهل عليه أن يجتهد ويضع كل شيء في محله وأن يستعمل كل شيء عند ظهور

دواعيه، وهذا مقام الأنبياء والرسل والصلحين.

فمن اصطفاهم الله خاضوا الحياة فى جميع نواحيها وعالجوا كل صعابها وفكروا وقدروا. وإن وقعت من بعضهم فى طريق ذلك هنات فتلك من مقتضيات طبيعة البشر، للفرق بين الرب والمربوب والإله والمألوه، إذ العصمة لا تكون إلا لله وحده.

ونحن نعلم لهذا أنه لايكفى ليكون الرجل قائداً مصلحاً فى كل ضرب من ضروب الحياة أن يكون حسن السيرة تقياً ورعاً فحسب، بل لا بد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة، قوى الحجة صارم العزيمة شديد الشكيمة فى تنفيذ الحق، فطناً يقظاً، حذراً لا يخدع.

فكثير من الصحابة عرفوا بالصلاح والتقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلاد والحجاج والحذر: منهم أبوموسى الأشعرى - رضى الله عنه -، فقد كان ورعاً تقياً صالحاً خاشعاً ومع ذلك مكر به عمرو بن العاص وخدعه فى التحكيم حتى ظفر به وغلبه.

ومنهم أبو هريرة رضى الله عنه، قد كان عابداً حافظاً ولكن لم يبرز اسمه فى عداد شجعان الصحابة ولا ذوى الرأى النافذ فيهم، روى البخارى عن الأعرج قال: قال أبو هريرة: «إنى كنت امرأ مسكيناً أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطنى»، وقال محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: «لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة فيقال مجنون وما بى جنون، وما بى إلا الجوع».

ومنهم عبدالله بن عمر، وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أنهكته، ومع ذلك لما طعن والده رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده، قال لهم: خذوا رأيه ولا يكون هو الخليفة. ومنهم حسان بن ثابت فقد روى ابن كثير فى تاريخه: قال عباد بن عبدالله بن الزبير: كانت صفية بنت عبد المطلب يوم الخندق فى حصن، قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون فى نحور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، فقلت يا حسان! إن هذا اليهودى كما تراه يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه واقتله! قال: يغفر الله لك يابنت المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال ذلك أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن وقلت: ياحسان! انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل، قال: مالى بسلبه حاجة يابنت عبدالمطلب.

وإذا تطلبت صعاب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن وإعمال العقل والاجتهاد فى تخير الرأى الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسله سلامة الجسم، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة البدنية الثابرة فى التغلب على الصعاب وإيجاد حلول لمشاكل الحياة.

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعاً ذوى أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة، وربما كان حرفهم التى زاولوها فى حياتهم قبل البعثة والتكليف بتبليغ رسالة الله دخل فى صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم.

وربما كان احترافهم بهامن توجيه الله لهم، فقد رعى معظمهم الغنم [3] أو زاول حرفة أخرى [4]، ولا شك أن فى رعى الغنم أو مزاولة الحرفة دربة على الصبر على العمل مهما عظم أو شق على النفس [5]، كما يحفز إلى الاستخفاف بالمكاره والإقدام عند الفزع [6].

قال الحافظ ابن حجر: «وجاء عن ابن عباس: أن داود كان زراداً، وكان آدم حراثاً، وكان نوح نجاراً، وكان ادريس خياطاً، وكان موسى راعياً».

قال الخطابى: إن الله لم يضع النبوة فى أبناء الدنيا والترفين منهم، وأنما جعلها فى اهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف.

١- روى البخارى عن البراء بن عازب قال: «رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحذاب ينتقل من تراب الخندق حتى وراى عنى الغبار جلدة بطنة»، وروى البخارى أيضاً عن جابر بن عبد اله قال: كنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لا يعمل فيها المعول) فاخبروه صلى الله عليه وسلم، فقال: «أنا نازل: ثم قام وبطنه معصوب بحجر وكنا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيباً أهيل».

٢- روى البخارى عن أنس قال: «كان النبى ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم ﷺ وقد تحقق الخبر، وهو على فرس عرى، ما عليه سرج، وفى عنقة السيف وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعو».

3- روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت: فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». وروى النسائى من حديث نصر بن حزن قال: «افتخر أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله ﷺ: بعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم وبعثت أنا وأنا راعى غنم أهلى».

4- روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده». قال الحافظ بن حجر: «وجاء عن ابن عباس: أن داود كان زرادا، وكان آدم حراثا، وكان نوح نجارا وكان إدريس خياطا، وكان موسى راعيا». قال الخطابى: إن الله لم يضع النبوة فى أبناء الدنيا والترفين منهم، وإنما جعلها فى أهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف.

5- روى البخارى عن البراء بن عازب قال: «رأيت النبى ﷺ يوم الأحزاب ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه»، وروى البخارى أيضا عن جابر بن عبدالله قال: كنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لا يعمل فيها المعول) فأخبروه ﷺ، فقال: «أنا نازل: ثم قام وبطنه معصوب بحجر، وكنا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيباً أهيل».

6- روى البخارى عن أنس قال: «كان النبى ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم ﷺ وقد تحقق الخبر، وهو على فرس عرى، ما عليه سرج، وفى عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا».

الذرائع فتحاً وسداً
مساهمة فى علم اجتماع الفقه





أ.د. إبراهيم البيومى غانم
أستاذ العلوم السياسية المركز القومى للبحوث الاجتماعية (القاهرة)

تاريخ نشأة قاعدة "الذرائع فتحا وسدا" غير محدد بدقة، واسم أول العلماء المجتهدين الذى سك هذا التعبير فى تاريخ الفقه الإسلامى وأصوله لم أتوصل إلى معرفته، وغير معروف كذلك اسم البلدة أو المصر أو المدينة التى كان فيها "مكان" ولادة هذه القاعدة لأول مرة، وراحت سدى كل المحاولات والحيل البحثية التى بذلتها فى سبيل الوصول إلى إجابة محددة عمّن وضعها، وعن زمان ومكان وضعه لها، وأقصى ما أمكننى الذهاب إليه هو التعيين التاريخى والاجتماعى المجمل لهذه القاعدة؛ ومثل هذا التعيين المجمل لا يشبع من يبحث بحث المتخصص فى علم الاجتماع، ولا يقنعه، وغاية التعيين المجمل هذا هو أن هذه القاعدة بنت القرن الثانى الهجرى وشىء من القرن الثالث، وأنها نمت وترعرعت فى القرنين الرابع والخامس، واشتد عودها وبسقت أغصانها فى القرنين السابع والثامن، ثم واصلت النمو عبر القرون من التاسع إلى الخامس عشر الهجرى حتى تحولت بمرور الزمن إلى "نظرية" ذات جذور ممتدة فى أعماق التراث الفقهى وفى آفاقه، وذات أغصان وفروع كثيفة ومتشابكة مع مختلف جوانب رؤية العقل الإسلامى للعالم؛ حتى قال بعضهم مؤخراً "إنه ما من شىء فى الشريعة الإسلامية إلا وهو راجع إلى مسألة الذرائع سداً وفتحاً".

ما أرقنى وأقض مضجعى هو أننى بحثت عن "قاعدة الذرائع" ونظريتها بحث المتخصص فى علم الاجتماع وفروعه، ولم أبحث عنها بحث المتخصص فى علم الفقه وأصوله، وإلا فما أيسر على متخصص الفقه وأصوله أن يعثر على تفاصيل الاجتهاد والتأصيل لقاعدة "سد الذرائع وفتحها"، وأن يحيط باختلاف المدارس الفقهية الكبرى فى شأنها؛ ما بين موسع لأكمامها ومطيل لذيل ثوبها، ومكبر لحجم عمامتها؛ مثل السادة المالكية والسادة الحنبلية، أو مضيقٌ لكل ذلك مثل السادة الشافعية، وهناك من هم فى منزلة وسطى بين هؤلاء وأولئك مثل السادة الحنفية، وليس من

العسير على متخصص الفقه وأصوله كذلك أن يتتبع "السردية" الفقهية فى أصول هذه القاعدة وفروعها، ويتعقب علاقاتها بغيرها من القواعد والنظريات وخصوصاً "درء المفسدة وجلب المصلحة"، و"الاحتياط"، وغيرهما من قواعد ونظريات أسهب فيها هؤلاء القوم على تنوع مذاهبهم، وتباين أصولهم وفروعهم ومواقفهم ما بين مجدد ومقلد، وإن كان هذا التتبع يحتاج منه ـ وأولى من غيره ـ إلى كثير من التعب والصبر وطول النفس.

ما بحثت عنه فى هذا الموضوع هو "مادة" أستطيع الإسهام بها؛ ليس فى بناء "علم الفقه" بأصوله أو فروعه، فهذا له علماؤه ومتخصصوه ولست منهم؛ وإنما فى بناء "علم اجتماع الفقه الإسلامى"؛ فهذا هو العلم الغائب، والأهم والأخطر هو أن غيابه نادراً ما يستشعر فقده أحد؛ وخصوصاً من أهل الإفتاء والاجتهاد، والمفترض أنهم هم الأكثر حاجة إلى نتائجه، وأن يكونوا الأحرص على تحصيل فوائده.

هناك بعض الجهود والمقدمات والسوابق البحثية الجادة التى لا غنى لنا عنها فى سبيل جبر ذلك النقص، وسد هذا الثغر، وأذكر منها هنا مثالين أو ثلاثة.

أول تلك السوابق البحثية الجادة هو ما كتبه الشيخ أبو زهرة فى الخمسينيات والستينيات من القرن الرابع عشر الهجرى (الثلاثينيات والأربعينيات من



عبدالرحمن الشرقاوى — أبوزهرة

القرن العشرين الميلادى) عن أئمة الفقه وهم: أبو حنيفة، ومالك، وابن حنبل، والشافعى، وابن تيمية، وابن حزم، وزيد، والصادق [1]. وأهم ما يلفت النظر فى تلك السلسلة هو منهجها الجديد الذى اختطه الشيخ أبو زهرة فى تناوله للسيرة الاجتماعية والعلمية مربوطة بمعطيات البيئة التى عاشها كل منهم؛ على نحو يقترب من منهجية "علم اجتماع المعرفة"، وللشيخ رحمه الله قصب السبق فى فتح باب هذا النوع من الدراسات بلغة معاصرة ونسق واضح، ولعله تبارى فى هذا المضمار مع معاصريه من أمثال عباس العقاد ومحمد حسين هيكل فى الكتابة عن الشخصيات الكبيرة فى التاريخ الإسلامى بمنهجية اجتماعية تاريخية جديدة، فنسج سلسلته الرائعة عن الأئمة الثمانية، ثم من بعده جاء عبد الرحمن الشرقاوى الذى اختصر ما قدمه وزاد عليه شيئاً فى كتابه "أئمة الفقه التسعة"[2]، ولكنه كانت له فى كتابته وجهة أخرى غير وجهة الشيخ أبو زهرة.

1- صدرت سلسلة أئمة الفقه للشيخ أبو زهرة فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى، وأعيد طبعها مرات من دار الفكر العربى بالقاهرة.

2- عبد الرحمن الشرقاوى، أئمة الفقه التسعة (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠).

ثانى السوابق هو كتاب وائل حلاق عن "تاريخ النظريات الفقهية فى الإسلام: مقدمة فى أصول الفقه السنى"[3]، وهو عمل علمى رصين؛ حاول فيه أن يبين تأثير التغيرات السياسية والاجتماعية التى مرت بها المجتمعات الإسلامية على منهجية التفكير الفقهى، وأراد أن يعرف كيف ولماذا تعدلت الأوزان النسبية لمكونات النظرية العامة لأصول الفقه مثل الإجماع، والقياس، والعرف، وما يلحق بذلك من استحسان ومصالح مرسلة واستصحاب، وأنعم نظره كثيرا فى الإمام القرافى ابن القرن السابع الهجرى الذى أدخل فكرة السياق المجتمعى بشكل واضح وممنهج فى محاولة فهم النصوص واستنباط دلالاتها، وفعل الشىء نفسه مع أئمة آخرين منهم الشاطبى ابن القرن الثامن الهجرى، وبين كيف تأثر فى موافقاته واعتصامه بما آلت إليه الأحوال السياسية والاجتماعية فى زمنه، ووصل حلاق إلى عصرنا وميز فيه بين مدرستين:

- الأولى سماها "المنفعية الدينية" التى صاغ أنصارها نظريتهم الفقهية على أساس المصلحة؛ وإن أدى بهم ذلك إلى الخروج على بعض أصول الفقه ـ حسب رأيه الذى لا نوافقه عليه.
- والثانية سماها "التحرر الدينى" وأنصارها فى رأيه أكثر تماسكا فى تأصيلهم من أنصار المدرسة الأولى، وهو رأى لا نوافقه عليه أيضا، وأيا كان الرأى فيما قدمه حلاق؛ فدراساته مهمة ومفيدة فى سياق الطريق الطويل لبناء علم اجتماع الفقه.

ثالث السوابق، وهو الأحدث والأهم من منظور الدرس الاجتماعى، هو ما قدمه على محمد حاضرى تحت عنوان "الفقه وعلم الاجتماع: دراسة فى الروابط والصلات"[4]، ورغم صغر حجم هذا البحث؛ إلا إنه يقتحم المشكلة بجسارة، وينبه بشكل مباشر إلى ضرورات تطوير البحوث والدراسات الاجتماعية فى مجال الفقه، وينبه أيضا إلى تطوير البحوث والدراسات الفقهية بمنظور اجتماعى واسع وعملى وميدانى. ويضرب عددا من الأمثال التى يدلل بها على صواب القول بتأثير التغير الاجتماعى فى الاجتهاد الفقهى بأكثر مما يؤثر هذا الاجتهاد فى وقائع عملية التغير ذاتها، ويحلل ظاهرى قضايا: الاستبداد، والعدالة الاجتماعية، والمرأة، وبطء التغير الثقافى وأثره على تكليف المكلفين، ويشير ببراعة إلى "المراحل الانتقالية" أثناء عملية التغير الثقافى، وكيف يتعين أن تنعكس على الاجتهادات الفقهية، وكيف تؤثر على أحوال المكلفين الذين يمرون بتلك المراحل، ويتساءل كذلك عن أثر كل هذا على "العرف" وعلاقته بعمليات الحراك الاجتماعى، مع ما للعرف من مكانة مرموقة فى عملية استنباط الأحكام الشرعية.

ومن جانبى، فقد اكتشفت أهمية "علم اجتماع الفقه"، من اكتشافى لأهمية التاريخ الاجتماعى للفقه ذاته أثناء دراستى الموسعة عن "فقه نظام الوقف وتطبيقاته" فى تاريخ مصر الحديثة[5]، وتأكد لى أن مدار التاريخ الاجتماعى للفقه هو الإدراكات والاختيارات المجتمعية للاجتهادات الفقهية، أما مدار "علم اجتماع الفقه" فهو الخط الواصل بين اجتهادات المجتهدين والتحديات والمشكلات والوقائع التى عاصروها؛ وهل استجابوا لها، أم أنهم غضوا الطرف عنها أو عن بعضها، ولماذا؟، وعرفت أن ثمة فجوة كبيرة فى الدراسات الخاصة بما أسميته "علم اجتماع الفقه"، وكان ذلك فى منتصف العقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى (منتصف التسعينيات من القرن العشرين)، ثم عدت إلى الموضوع أكثر من مرة فى دراسات مفردة، تناولت فيها "مقاصد العمل الخيرى والأصول الإسلامية للمشاركة الاجتماعية"[6]، وفرض الكفاية وفرض العين وعلاقتهما بالمسئولية الاجتماعية[7]، وأصول المجال العام وتحولاته فى الاجتماع السياسى الإسلامى[8]، وفقه إدارة المياه وحماية البيئة فى نظام الوقف[9]، ثم هذا البحث الذى بين أيدينا، وهو عودة جديدة إلى الموضوع نفسه ولكن من زاوية قاعدة أصولية هى "الذرائع: فتحا وسدا" والسؤال الرئيسى الذى شغلنى فانشغلت به فى هذا البحث هو: لماذا تبدو "الأمثال الشارحة" المضروبة فى أغلب كتب الفقه وأصوله هزيلة؛ قياسا على قوة القواعد والنظريات التى ترد تلك الأمثال فى سياق شرحها، وتقريب معانيها؟، ثم ما الأثر الذى يتركه "هزال الأمثال" على التكوين العلمى للمشتغلين بعلوم الفقه وأصوله من جهة، وعلى الوعى الجمعى للمجتمع عموما، من جهة أخرى؟.

سأوضح فيما بعد أهمية "الأمثال" فى التكوين العلمى والتوجيه العملى ولكن الذى يهمنى هنا هو التأكيد على أن بحثى لا ينصرف إلى شىء مما أفضى إليه اجتهاد المجتهدين القدماء أو المحدثين فى موضوع "سد الذرائع وفتحها" من الوجهة الأصولية؛ وإنما ينصرف إلى تحليل الدلالات الاجتماعية "للأمثال" التى غلب استعمالها فى كتب الأصوليين والفقهاء، ولماذا ظلت هذه الأمثال تتكرر هى هى؛ لأكثر من ألف سنة دون أن يتصدى أحدهم لتحديثها بما يجعلها مستوعبة لوقائع التغير الاجتماعى وتحولاته من حقبة إلى حقبة؟ وما أثر هذه

٣ ـ وائل حلاق، تاريخ النظريات الفقهية فى الإسلام: مقدمة فى أصول الفقه السنى(بيروت: دار المدار الإسلامى، ٢٠٠٧).
٤ ـ على محمد حاضرى، الفقه وعلم الاجتماع:دراسة فى الروابط والصلات، فى: الاجتهاد وإشكاليات التطوير والمعاصرة، الجزء الأول (بيروت: معهد الرسول الأكرم ﷺ العالى للشريعة الإسلامية ٢٠٠٢)، ص٩٣ ـ ١٠٨.

٥ ـ هى فى الأصل أطروحتى للدكتوراه فى العلوم السياسية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، وقد انتهيت منها فى سبتمبر ١٩٩٧ ـ وصدرت عن دار الشروق فى سنة ١٩٩٨ بعنوان "الأوقاف والسياسة فى مصر".
٦ ـ إبراهيم البيومى غانم، مقاصد العمل الخيرى، والأصول الإسلامية للمشاركة الاجتماعية (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠).
٧ ـ إبراهيم البيومى غانم، فرض الكفاية والمسئولية الاجتماعية، بحث فى تحولات فرض الكفاية فى الاجتماع السياسى الإسلامى من الدولة السلطانية إلى الدولة الوطنية الحديثة، مسقط، ندوة تطور العلوم الفقهية ـ الفقه الإسلامى فى عالم متغير ٩ ـ ٢٠١١/٤/١٢).
٨ ـ إبراهيم البيومى غانم، أصول المجال العام وتحولاته فى الاجتماع السياسى الإسلامى"، المجلة الاجتماعية القومية(القاهرة)، العدد الأول ـ المجلد ٤٦ ـ يناير ٢٠٠٩، ص٣٦ ـ ٦٧.
٩ ـ إبراهيم البيومى، فقه إدارة المياه وحماية البيئة فى نظام الوقف الإسلامى(مسقط، ندوة تطور العلوم الفقهية، الفقه الحضارى /فقه العمران ٣ ـ ٢٠١٠/٤/٦).

الظاهرة على فاعلية القاعدة موضوع اهتمامنا؛ أعنى "سد الذرائع وفتحها" فى الممارسات الاجتماعية؟، ثم ما الذى تكشف عنه الوقائع الفعلية لهذه القاعدة عندما وجدت طريقها إلى التطبيق: أحققت أهدافها "سداً وفتحاً"؟ أم لا؟ ولماذا؟، وإذا كان "سد الذرائع" طريقاً من عشر طرق للاجتهاد فى تقدير المصلحة فى النوازل التى لم يرد فيها بعينها نص[10]؛ فلماذا آل أمر قاعدة "الذرائع" فى الممارسة إلى تغليب "السد"، على "الفتح" فيما يخص العبادات والمعاملات الفردية، وتغييب ما يدخل فى "المصالح العامة" مثل الخدمات والمرافق العامة، وأمور السلم والحرب؛ عن متناول الاجتهاد وفق هذه القاعدة؛ اللهم إلا فى حالات نادرة، والنادر لا حكم له كما يقول أهل الأصول؟.

تلك بعض التساؤلات التى نحاول الإمساك بأطراف الإجابة عليها بعد هذه المقدمة فى قسمين وخاتمة. أما القسم الأول فقيه نبحث مشكلة "الأمثال" الشارحة المستعملة فى أغلب كتب الفقه وأصوله لشرح قاعدة "الذرائع سداً وفتحاً". وفى القسم الثانى ندرس عدداً من الأمثال التطبيقية لهذه القاعدة قديماً وحديثاً لمعرفة مدى وظيفتها فى تحقيق غاياتها فى السد لدرء المفاسد، والفتح لجلب المصالح. أما فى الخاتمة فنحاول بيان الخلفيات الاجتماعية "لأزمة سد الذرائع وفتحها" فى الواقع المعاصر لمجتمعاتنا، مع إطلالة عامة على ما نسميه "نموذج التفكير بالسد والاحتياط" وجدواه من منظور التغير الاجتماعى وسننه التى لا تتبدل، والله تعالى هو المعين، ومنه وحده السداد والتمكين.

أولاً: "فى نقد الأمثال الشارحة لـ"سد الذرائع وفتحها"

"الأمثالُ" الشارحةُ التى تصادفها فى كتب الفقه وأصوله، هى أحد المفاتيح الذهبية التى تساعدنا على فتح مغلقات العلاقة بين نظريات الفقه وقواعده فى مستواها التجريدى من ناحية، وتطبيقاتها فى مستواها العملى والممارسات المجتمعية لها العملية من ناحية أخرى[11]، ينطبق هذا على نظرية المصلحة، ونظرية الاحتياط مثلاً، كما ينطبق على قاعدة "الذرائع سداً وفتحاً"، وقاعدة "درء المفسدة" وعلى غيرهما من القواعد. فبـ"المثال" يتضح "المقال" أو "الحال" ليس فقط كما قالوا قديماً؛ وإنما يكشف "المثال" جوانب من الواقع، وقد يؤثر على الميل العام فى الممارسات الاجتماعية التى هى منتهى إرادات واضعى تلك القواعد والنظريات؛ وإلا لما كان لها من فائدة، ولما كان من معنى لقولهم "لا خير فى علم لا ينبنى عليه عمل".

وإذا نظرنا ملياً فى "المثل" الذى

---

١٠ - حسين حامد حسان، نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى(القاهرة:مكتبة المتنبى، ١٩٨١).

١١ - هناك مفاتيح أخرى تساعد على فتح مغلقات تلك العلاقة منها مثلاً: الفتاوى، وأحكام القضاء، ولكن كلامنا مقتصر فى هذا البحث على "الأمثال" المضروبة فى بعض مؤلفات الفقه وأصوله.

يستخدمه المجتهد الأصولى أو الفقيه، سنجدُ أنه بمثابة المرآة التى ترتسم فيها ملامح العملية الاجتهادية، وبقدر براعته فى ضرب المثل والإتيان به فى محله، بقدر نجاحه فى إنجاز مهمته الاجتهادية والتعليمية فى آن واحد، إن "الأمثال" هى خير تعبير عن عمق التجربة الاجتهادية والاجتماعية، الفردية والجماعية معاً؛ وهذا بعض ما نستشفه من عناية القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بضرب "الأمثال" لغايات منهجية وتعليمية وتربوية وسلوكية وتعبيرية متعددة؛ منها البيان، والإقناع، والتذكير، والتحذير، والإرشاد، والاعتبار، والإصلاح، ..إلخ.

وفى رأينا أن "اختيار" الأمثال التى يسوقها العلماء، فى معرض حديثهم عن قاعدة "الذرائع" وغيرها من قواعد الفقه وأصوله؛ إنما هو عملية بالغة الدقة والحساسية؛ لأن الإخفاق فى اختيار "المثال" الشارح المناسب، يهدم جهده كله ويطرحه سدى، وغالباً ما تكون مادةُ "المثال" مقتبسةً من معطيات الواقع، ومنتمية إلى مجال "الحس الاجتماعى المشترك"، وتعبّر عن قناعات سائدة أو ماثلة فى مدركات السواد الأعظم من الناس، ولكن الأمثال قد تكون "افتراضية" فى بعض الأحيان بغرض التدرب على التفكير فى المستقبل، أو لتوسيع الأفق ولو بالرياضة العقلية دون الوصول إلى حد مبالغة "الأرأيتيين"، وأيضاً قد يكون هدفها هو توقع مآلات الأفعال فى قابل الأيام، وفى جميع الأحوال يكون توظيف الأمثال "الواقعية" و"الافتراضية" من أجل استثمار سلطتها فى تحصيل الاقتناع بصحّة ما يقول هذا المجتهد أو ذاك.

ارتباط "المثال" بسياقه المجتمعى، مسألة تبدو ضرورية؛ حتى ولو كان المثال من النوع "الافتراضى"، إذ يستحيل مثلاً أن يطرأ على ذهن مجتهد من أبناء القرن الثانى الهجرى أن يشرح لطلابه قاعدة سد الذرائع فى مسألة تختلط فيها المصالح مع المفاسد بأن يضرب مثالاً شارحاً لهم بصفقة طائرات إف ستة عشر، أو صفقة سيارات دفع رباعى، ولكن الأرجح هو أن ذلك المجتهد كان عليه أن يلتقط واحدة من المعاملات السائدة فى بيئته، وهو ما حدث فعلاً وورد مثلاً فى موطأ "ابن وهب" (١٢٥ ـ ١٩٧هـ - ٧٩٥م)، ففيه مثال "حمار ربيعة" الشهير الذى ولد السادة المالكية منه أربعاً وعشرين مسألة فى باب "سد الذرائع".

وبمعايير زمنهم ومعطيات مجتمعهم الذى عاشوه وعايشوه، فإن مثالهم الشارح (حمار ربيعة) قد أدى وظيفته وأنهى مهمته، ولا تثريب عليهم فيما قالوه أو فعلوه. أما غير المقبول وغير المعقول أيضاً أن يظل "حمار ربيعة" يتردد كمثال مرجعى شارح لأبناء القرن الخامس عشر الهجرى على لسان أحد أشهر علمائه وهو يقول قبل بضع سنين: "مسألة حمار ربيعة ذكرها ابن وهب عنه فى موطئه قال حدثنى الليث بن سعد قال كتب إلى ربيعة يقول فى رجل باع حماراً بعشرة دنانير سنة، ثم استقاله فأقاله بربح دينار عجله له، وآخر باع حماراً

.... إلخ"[١٢] !!، ولا يخطر على بال أحد من معاصرينا أن يضرب مثالاً جديداً، يكون أكثر ملاءمة لتوليد مئات المسائل في سد الذرائع التي تجلب المفاسد وتضيع المصالح بكفاءة منقطعة النظير في زمننا هذا، لن نطالب هذا الفقيه المعاصر أو ذاك بالتمثيل بصفقة "إف ستة عشر"، أو "سيارات دفع رباعي"؛ رغم أهميتها في دفع العقل الاجتهادي إلى النظر في صميم المصالح والمفاسد العامة التي تشمل مجتمعنا المعاصر كلّه؛ وإنما نطالبه على الأقل بمثال "صفقة قمح" مستوردة من روسيا، أو أمريكا، أو حتى صفقة ملابس جاهزة واردة من الصين أو الهند، ويتخذها مثالاً شارحاً، أوحالة تدريبية على كيفية إعمال قاعدة "الذرائع فتحاً وسداً" بحساب المصالح والمفاسد، ترى لو أن ربيعة حيّا بين أظهرنا اليوم أكان يسأل عن حمار ثمنه عشرة دنانير؟.

ليس من العسير ــ بعكس ما كنت أتوقع ــ حصر الأمثال المضروبة في شرح قاعدة "الذرائع فتحاً وسداً"، رغم كثرة المؤلفات الأصولية والفقهية التي تناولت هذه القاعدة قديماً ووسيطاً وحديثاً، وخصوصاً في أصول المالكية والحنابلة وفروعهم، وشروحهم، وحواشيهم، وهي موجودة أيضاً ولكن بدرجة أقل كثيراً لدى غير هؤلاء وأولئك، وقد خلصنا من حصرها إلى أن هناك ما لا يزيد عن ثلاثين من الأمثال الأساسية الشارحة؛ هي التي نجدها سارحة ومهيمنة على أغلب تلك المؤلفات في باب "سد الذرائع وفتحها".

وتدور عملية الاجتهاد في القول بالسد أو بالفتح طبقاً للشروط والتقسيمات التي وضعها الأصوليون أمثال القرطبي (ت ٤١٠هـ) صاحب أقدم تقسيم للذرائع، والقرافي، والزركشي، والشاطبي، وابن تيمية، وابن القيم، والغزالي، وغيرهم ممن أتى بعدهم وكرر أقوالهم؛ على ما بينهم من اختلافات في تلك التقسيمات، أو من مطارحات في تقدير شروط إعمال "سد الذريعة أو فتحها"، ومن أرادها فليلتمسها هناك في كتبهم.

وبعد أن تتبعنا الأمثال الشارحة لقاعدة "الذرائع" في المؤلفات المشار إليها، ودرسناها دراسة أولية، وجدنا أن سماتها الرئيسية تتمثل في أنها متركزة أساساً في "العقائد والعبادات"، وفي "المعاملات"، ثم العدد القليل منها في "العادات والأعراف"، و العدد الأقل في "الجنايات والجزاءات"، ولا نكاد نصادف في تلك المؤلفات مثالاً يتناول مسألة من مسائل "المصالح" العامة، أو قضية من قضاياها، وتلك السمات لم تفارق أغلب مؤلفات الفقه وأصوله منذ بدايات عصر التدوين إلى العصر الحديث.

فأغلب تلك المؤلفات تستنسخ الأمثال

١٢ ـ المسألة واردة في موطأ ابن وهب، وفي كثير من المصادر الأخرى انظر مثلاً:
ابن عبد البر، الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا محمد علي معوض (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢١ ـ ٢٠٠٠)، وانظر ترددها في بحوث حديثة كثيرة نقلاً عن ابن عبد البر منها مثلاً: عبد الله بن بيه سد الذرائع وتطبيقاته في مجال المعاملات (جدة: سلسلة محاضرات العلماء البارزين ـ رقم ٢٢ ـ المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب/البنك الإسلامي للتنمية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦).

نفسها، ولئن ساغ ذلك في الأزمنة السابقة؛ حيث كانت تلك الأمثال تؤدي وظيفتها الشارحة، والمسهمة أيضاً في تكوين الوعي العام، نظراً لثباتها النسبي لأن التغير الاجتماعي كان يجري بوتيرة بطيئة وغير محسوسة، وكان الأمر يستغرق وقتاً طويلاً حتى يحل شيء جديد محل شيء قديم؛ فما مسوغ استمرار المحدثين من أصوليين وفقهاء في استنساخ تلك الأمثال نفسها؟ وقد عدت عليها عوادي التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والسلوكية؛ حتى باتت تلك الأمثال قديمة شاحبة المعنى، ومتيبسة الدلالة، وبات استرجاعها عملاً غريباً في سياق المعطيات الاجتماعية المعاصرة.

ففي ذرائع العبادات والعقائد نجد باستمرار أمثال: "سبّ الأوثان"، "وسبّ الرجل والديه"، و"من شك في وضوئه أو صلاته"، و"المتحيرة في الحيض"، و"رجل له ثوبان أحدهما طاهر، والآخر نجس لا يستطيع تمييز أحدهما عن الآخر، يصلي عريانا على أحد الأقوال!"، و"دخول الركبة في حدود العورة"، و"الأسير يلتبس عليه دخول شهر رمضان"، و"من لبس خفيه فأحدث، ثم مسح، فشك: هل كان قبل الصلاة أم بعدها؟!

وفي ذرائع المعاملات الاقتصادية نجد باستمرار أمثال: حفر بئر في طريق المسلمين، وجميع بيوع الآجال التي يمثلون لها إلى اليوم بحمار ربيعة كما عند المالكية، وبيع السلاح في زمن الفتن، وبيوع الغرر التي يمثلون لها إلى اليوم "ببيع السمك في الماء، والطير في الهواء، وبيع المرء ما في كمه، وبيع "عسب الفحل"، و"شاة من قطيع"[١٣]، وما درى معاصرونا أن "الهاتف النقال" قد أزاح أكثر من ثلاثة أرباع الحاجة إلى "فقه بيوع الغرر"؛ حيث خفضت الاتصالات الحديثة وسهولتها احتمالات "الجهالة" وما يترتب عليها من "ضرر" هما "علّى تحريم بيوع الغرر.

أما في الذرائع ذات الصلة بالعادات والأعراف والسلوكيات الاجتماعية، فالأمثال أقل عدداً وأقل انتشاراً، ومنها: التبول في الطريق العام!، والتصرف مع "الخنثى المشكل"!، و"التجاور في سكنى البيوت"، و"دخول الحمامات العامة" لغرض النظافة، و"لعب الشطرنج"، و"نار في ملك امتدت للغير"، و"جارية مشتركة بين اثنين"!!.

ما لاحظناه في "الأمثال" المضروبة في المجالات السابقة هو أنها باستثناء مثالين أو ثلاثة تكاد تندرج كلها في الاستدلال على "سد" ذريعة، أو احتياط من مفسدة متيقنة، أو يغلب على الظن وقوعها، وليس منها أمثال على "فتح" ذرائع إلى جلب مصالح في أي من تلك المجالات، اللهم إلا مثال "عدم المنع من زراعة العنب" بحجة أن يتخذ خمراً، والسماح بمجاورة البيوت رغم خشية وقوع الزنا، هذا بالرغم من أن الجميع يسلمون بأن "الذريعة كما يجب سدها،

١٣ ـ الصديق محمد الأمين الضرير، الغرر وأثره في العقود في الفقه الإسلامي (بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٩٩٠)ص٧٦، ٧٧.

"يجب فتحها"، ويستذكرون مقولة الشاطبي، والقرافي من بعده التي يقول فيها: "واعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها، وبكره ويندب ويباح.."[14].

وأما في ذرائع العقوبات والجزاءات الجنائية، فهي وإن كانت قليلة العدد مقارنة بالأمثال في المجالات السابقة؛ إلا إن أغلبها يندرج في خانة "فتح الذرائع"، والمثير للانتباه هنا هو أن "السلطان"، أو "القاضي"، هو من رخصوا له في التصرف من باب "فتح الذرائع" في "الجنايات" على ما يظهر من الأمثال التي ضربوها، وأكثر الأمثال شهرة قال بها المالكية، ومنها: أن لولي الأمر "التعزير" الشديد في أمور ليست فيها حدود منصوصة، ولو أتى التعزير على نفس المتهم، قال خليل "وعزر الإمام لمعصية الله، أو لحق آدمي، وإن زاد على الحد، أو أتى على النفس"[15]، ومنها "أن للقاضي أن يحكم بما يدل عليه ظاهر الشهود إذا زكاهم الثقات، وألا يرد شهادتهم لمجرد الاحتياط"[16].

وهناك مثال ثالث يخص "سارق الكفن" (نباش القبور)[17]، وقد تجادل في عقوبته الحنفية قديماً، ولا يزال المحدثون يستعيدون المثال نفسه، مثلما يستعيدون غيره من الأمثال القديمة دون أن أي تغيير! رغم أنها توارت أو كادت تتلاشى من المخيال الاجتماعي لانقطاعها من الواقع المعاصر؛ الذي بزغت فيه أمثال أكثر خطراً تصل إلى سرقة المال العام، ونهب البنوك، وتصل إلى "سرقة الوطن"، وهو بلا شك أهم من مسألة سرقة الكفن.

لا تدل الأمثال "النادرة" في مسائل الجنايات والعقوبات، على وجود "فجوة" معرفية، وتهميش لمسائل أكثر أهمية؛ وإنما تدل تلك الأمثال أيضاً على ميل جارف نحو فتح باب الذرائع على مصراعيه للحاكم (السلطان) كي يفعل ما يشاء من منظوره الأمني؛ حتى لو "تجاوز الحد وأتى على النفس"، على ما جاء في مختصر خليل، والمشكل هنا ليس في أننا نعاند في حق السلطان في "التعزير" لاعتبارات أمنية، أو نقلل من حق القاضي فيه لاعتبارات حقوقية؛ وإنما معاندتنا في كيفية التحقق من جدية الأدلة، و"عدالة" الإجراءات التي يتخذها السلطان، وضمان عدم إساءته للسلطة الممنوحة له؛ حتى تفتح أمامه الذرائع على هذا النحو؟. لا أظن أن المالكية طرحوا على أنفسهم هذا السؤال قديماً أو حديثاً.

عندما فتشنا في مؤلفات المحدثين من الأصوليين والفقهاء؛ وجدنا تلك الأمثال القديمة حاضرة فيها بقوة، مع هامش ضيق للغاية لبعض الأمثال المستحدثة، لا يختلف

١٤ ـ القرافي، الفروق (بيروت: دار الكتب العلمية، ـــ) ج٢/٦١، وانظر أيضاً شرح تنقيح الفصول ٤٤٩.
١٥ ـ المثال في مختصر خليل المتوفى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، وأعاد استضافته الشيخ ابن بيه حفظه الله في بحثه السابق ذكره، ص ٦٢.
١٦ ـ محمد عمر سماعي، نظرية الاحتياط، دراسة تأصيلية تطبيقية(رسالة دكتوراه ـ الجامعة الأردنية ـ كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٦م)، ٢٢١.
١٧ ـ انظر المرجع السابق حيث استعاد الباحث ـ وهو متميز ـ المسألة بحذافيرها دون أن يعقب عليها بشيء في رسالته، ص ٢٨٠ـ ٢٨٢.

في ذلك علماء كبار مثل الشيخ الزنداني[18]، والشيخ الزحيلي[19]، والشيخ ابن بيه، والشيخ الشريم[20]، عن دارسين متخصصين من جيل الشباب مثل: إلياس بلكا[21]، ومحمد عمر سماعي[22]، وأفلح الخليلي[23]، وغيرهم.

فهؤلاء جميعاً يبدءون بالسردية الأصولية لقاعدة "الذرائع"، ويستنسخون الأمثال الشارحة لها من الكتب القديمة، ثم يخصصون حيزاً صغيراً للغاية لأمثال مستمدة من الواقع الاجتماعي الذي يعيشونه، ونادراً ما يقدمون جديداً، فالشيخ الزنداني، اقترح عدم الرد على المخالف في الرأي إذا كان هذا الرد ذريعة إلى الفرقة، والشيخ ابن بيه انتهى بعد أن استوفى السردية الأصولية استذكارا؛ انتهى إلى مثالين جديدين: حمل جوازات السفر، والامتثال لإشارات المرور، وفي عمل آخر له عن سد الذرائع قال "الديمقراطية هي لسد الذرائع إلى الحرب والصراع"؛ ولم يقل إنها لفتح ذرائع الحرية على أية حال!، بل قال إن "الملكية في المغرب توفر ضمانة تحول دون انزلاق الديمقراطية إلى وضع مأساوي".



ابن بيه — أفلح الخليلي

والشيخ الشريم أتى بمثال يقول "تمنع أطفالنا من تناول الحلوى سداً لذريعة التسوس؟"، وأفلح الخليلي قدم حزمة جديدة من الأمثال على "فتح الذرائع" ـ ولم ينضم إلى قافلة السد ـ فذكر في نهاية بحث له: تسويغ رسومات ذات الأرواح لتعليم الصم والبكم، وإبقاء جثة ميتة لدراستها وتشريحها لتعليم الطب، ونبش المقابر إن اقتضت ضرورة البحث عن جثة مفقود، والرسوم المتحركة لتعليم الأطفال المثل العليا، وأغلب هذه الأمثال وجدتها في فتاوى دار الإفتاء المصرية في أيام الشيخ جاد الحق رحمه الله.

أما إلياس بلكا، فقد التفت إلى قصور التعليل الفقهي في بيوع الغرر، وسود أكثر

١٨ ـ الشيخ عبد المجيد الزنداني، سد الذرائع، بحث منشور على موقع جامعة الإيمان www.jameataleman.org/student/new13.htm
ـ الشيخ وهبة الزحيلي، الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي(دمشق: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م).
١٩ ـ الشيخ عبد الله بن بيه، سد الذرائع وتطبيقاته في مجال المعاملات، مرجع سابق.
٢٠ ـ الشيخ سعود الشريم، قاعدة سد الذرائع ـ خطبة بالمسجد الحرام ٨/٧/١٤٢٢هـ.
٢١ ـ إلياس بلكا، الاحتياط: حقيقته وحجيته وأحكامه وضوابطه(بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٢٢ ـ محمد عمر سماعي، نظرية الاحتياط،، مرجع سابق.
٢٣ ـ أفلح بن أحمد الخليلي، فتح الذرائع: أدلته وضوابطه، بحث ضمن أبحاث المؤتمر العام الثاني والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ ورغم تقديري للأمثال التي قدمها إلا أنني لم أفهم المثال الذي نقله من كتاب الشيخ إطفيش(شامل الأصل والفرع ـ ١٩٨٤، ص١٢٢) وقال فيه "بجواز إنقاذ المرأة من فرجها بلا حائل إن تعذرت الوسائل الأخرى"، !!! ما الذي نستفيده من هذا المثال؟! هل يمكن أن نتساءل عن العكس؟

من عشر صفحات في سرديات فقهية وأصولية وأمثال شارحة للموضوع دون أن يطرح سؤال الواقع الأهم وهو: هل لا تزال عقود الغرر تحتل في واقع المجتمع اليوم، نفس الحيز الذي كانت تحتله إلى مطالع القرن الرابع عشر على أكثر تقدير؟ وكم يا ترى تأثر حجم "بيوع الغرر" بصيغها التي شرحتها قديماً كتب الفقه وأصوله ــ تحت تأثير انتشار التعليم، وتطور وسائط نقل المعلومات وسهولة تداولها عن أغلب المعاملات بفضل ثورة الاتصالات، ونظم الحاسبة والشفافية؟؟، أليس من الأولى أن ننحت تسمية جديدة هي "بيوع الضرر"، ونمثل لها بعقود بيع ثروات الأمة من غاز ونفط، وعقود امتيازات للشركات الأجنبية التي تنقب عن الثروات وتستغلها، أو امتيازات لدول أجنبية تقيم قواعد عسكرية في بلادنا؛ أو عقود "بيع الديون" القومية وما يترتب عليها. وفي هذه الحالات غالباً ما يكون الشعب كله هو المغرور به، وربما وقعت معه حكومته في الغرر نفسه. وفي مثل هذه الحالات والأمثال لا تغني شيئاً: مستويات التعليم العالية ولا تكنولوجيا المعلومات وسهولة تداولها ولا الشفافية وأنظمتها، أليس البحث في مآلات "عقود الضرر" من هذه الأنواع أحق بتطبيق قاعدة "سد الذرائع" ونظرية الاحتياط، وما الذي نخسره إن نسينا حكاية "بيع الرجل ما في كُمّه" كمثال شارح لسد الذريعة في بيع الغرر، مقابل أن تنشغل بمثال بيع الدين القومي الغارقة فيه بلد من بلادنا؟[٢٤].


وهبه الزحيلي

السابقون كان عندهم مبررات قوية للاهتمام بذلك النوع من البيوع وضربوا لها الأمثال المناسبة للمعطيات الاقتصادية والثقافية لمجتمعهم الذي عاصروه؟؟ فما حجتنا نحن؟.

الشيخ وهبة الزحيلي انفرد عن الفقهاء المعاصرين عندما أثار مسألة "الذرائع في السياسة الشرعية". وكشف عن الصلة بين قاعدة سد الذرائع و"السياسة الشرعية"، فبعد أن عرفها بتعريف الشيخ خلاف والشيخ تاج، وغيرهما من المعاصرين؛ أشار إلى أن فائدة السياسة الشرعية هي "مسايرة التطورات الاجتماعية". فكأنه يقدم إقراراً بأن "الفقه" ليس من عمله مسايرة تلك التطورات الاجتماعية!، ثم أضاف دليلين يؤكدان استنتاجنا هذا وهو يبرهن على شرعية "السياسة الشرعية". وأول الدليلين هو تغير الظروف والأحوال، والثاني "قاعدة سد الذرائع، وقاعدة العرف" باعتبارهما من أصول أحكام هذه السياسة.

٢٤ ـ لم نشأ التطرق إلى الأمثال التي ينهمك فيها بعضهم وهم يشرحون قاعدة الذرائع، مثل: حظر قيادة النساء للسيارات، ومنع افتراش جلود السباع للجلوس عليها سداً لذريعة الكبر!، وتحريم النقش سداً لذريعة رؤية الصور الخليعة، وتحريم نسبة المطر إلى النوء سداً لذريعة الشرك، ومنع الزوجة من الاطلاع على رسائل الإس إم إس التي تأتي لزوجها على هاتفه.. إلخ لأن هذا النمط من الأمثال الجديدة تضييق الضمير، وتفويت الوقت فيما لا طائل منه.

وليس هذا هو أهم ما قاله الشيخ وهبة؛ وإنما الأهم هو إشارته العابرة في سطر واحد فقط من كتابه بقوله "مبدأ سد الذرائع لا ينظر فيه فقط إلى النيات والمقاصد الشخصية، بل يقصد مع ذلك إلى النفع العام، أو دفع الفساد العام"[٢٥]، ولم يرجع بعد ذلك في كتابه إلى السياسة الشرعية، ولم يشبع هذه الفكرة الجديدة التي أتى بها ـ ربما لأول مرة ـ ولكنه انهمك في سردية أصول فقه الذرائع وأمثالها الشارحة المستنسخة من كتب القدماء، وتاهت فكرته الجديدة في خضم هذه السردية، ولم يتذكرها إلا في الفقرة الأخيرة من خاتمة كتابه عندما قال "باب سد الذرائع هو من أعظم الأبواب التي تدخل منها السياسة الشرعية للعمل على إصلاح شؤون الأمة، والأخذ بها في الجادة وطريق الاستقامة، والنهوض بها على الأسباب القوية القويمة من قواعد الشريعة؛ فإن ولي الأمر إذا رأى شيئاً من المباح قد اتخذه الناس ــ عن قصد ــ وسيلة إلى مفسدة، أو أنه لسبب فساد الزمان أصبح يفضي إلى مفسدة أرجح مما قد يفضي إليه من المصلحة ــ كان له أن يحظره، ويسد بابه، ويكون ذلك من الشريعة، وعملاً بالسياسة الشرعية التي تعتمد فيما تعتمد على قاعدة سد الذرائع"[٢٦]، نلاحظ هنا أن الشيخ لم يوضح كيف يتم التحقق من أن الناس اتخذوا مباحاً "عن قصد" وسيلة لمفسدة؟، وكيف نقيس "فساد الزمان"، وما معايير الترجيح بين المفسدة والمصلحة؟.

هنا تتجلى أزمة افتقار الفقه وأصوله لمنهجيات العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تسهم في الإجابة على هذه الأسئلة حتى يكون هذا الاجتهاد الفقهي قابلاً للتطبيق، والشيء الوحيد الواضح والمحدد القابل للتطبيق الذي قاله الشيخ هو أن ولي الأمر إن رأى شيئاً من ذلك "كان له أن يحظره ويسد بابه ويكون ذلك من الشريعة عملاً بالسياسة الشرعية".

ما الذي فعله الشيخ وهبة أيضاً؟!، أولاً هو أزاح الصمت التاريخي الذي مارسه الأصوليون والفقهاء تجاه المسائل التي تدخل ضمن "المصلحة العامة والمفسدة العامة"؛ وقد وجدنا أنهم لم يمثلوا لها بمثال واحد طوال أكثر من ألف ومائتي سنة، وهم يتناولون قاعدة الذرائع فتحاً وسداً درساً وشرحاً، وثانياً هو صرح بما لم يصرحوا به؛ ألا وهو أن كل ما يدخل ضمن المصلحة أو المفسدة العامة هو من اختصاص "ولي الأمر"، وليس للمجتهد الأصولي أو الفقيه دخل في تقديرها؛ باعتبار أن ذلك من "السياسة الشرعية".

ولكن الشيخ وهبة لم يضرب مثالاً واحداً شارحاً لهذا الذي ذهب إليه؛ واكتفى بإحالة الموضوع "لولي الأمر" مستخدماً صيغة المفرد؛ علماً بأن القرآن الكريم تحدث بصيغة الجمع عن "أولي الأمر" في الآيتين اللتين وردت فيهما هاتان الكلمتان: الآية ٥٩، والآية ٨٣ من سورة النساء؛ ما يعني أن النظر في المصالح العامة وتدبير شئون

٢٥ ـ الزحيلي، الذرائع في السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص: ١٧١.
٢٦ ـ المرجع السابق، ص١٩.

الناس مسئولية يشترك فيها أكثر من "ولى أمر" واحد، ولا معنى لتعدد أشخاص أولى الأمر إن كانوا من نوع واحد (سلطان أو رئيس) وإنما يتحقق جمعهم بتنوع اختصاصاتهم، وشيخنا أحال الموضوع برمته "لولى الأمر"، ولم يشرك المجتهدين والعلماء فى تحمل هذه المسئولية بحكم اختصاصهم فى تقدير المصالح والمفاسد والنظر فى المآلات!.

وكما أسلفنا، فإن مؤلفات المجتهدين "أصوليين وفقهاء"، قدماء ومحدثين؛ خلو ـ تقريبا ـ من أمثال شارحة لقاعدة الذرائع فى قضايا "المصالح العامة" و"المنافع العمومية"، ويبدو أن هذا النوع من المصالح قد أحالوه بـ "صمت" إلى فقه "السياسة الشرعية"؛ حسبما نجده فى كتبها المتكاثرة منذ القرن الثامن الهجرى، وفيها فوضوا ولى الأمر فى تقدير المصلحة العامة بالتشاور مع أركان حكمه، ووضعوا تعريفات بالغة الدلالة لمفهوم السياسة الشرعية، كالقول بأنها تعنى: "التصرف فى عموم مصالح الأمة بما زاد على القضاء والفتيا" كما قال القرافى[٢٧]، وتردد هذا المعنى بمضمونه عند آخرين منهم: ابن نجيم، وابن عقيل، والطرابلسى قديما، ومحمد البنا، وعبد الله جمال الدين، وعبد الوهاب خلاف، وعبد الرحمن تاج، وغيرهم حديثا، ولم يكن باب "السياسة الشرعية" (بالمعنى الذى ذكروه) سوى الباب الملكى لما سيعرف فى تاريخنا الحديث باسم الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ، ومن ثم تجذير السلطة الاستبدادية وإضفاء "الشرعية" عليها، وحصر اختصاص الاجتهاد الفقهى بمعناه الأصولى فى مسائل العبادات والمعاملات الفردية؛ لا الجماعية التى يعج بها واقعنا.


عبدالرحمن تاج

وليس مصادفة أن تتكرر فى كتب الفقه المالكى وأصوله ـ وفى غير المالكى ـ عبارة كالتى نقلها ابن فرحون (ت: ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م) أى قبل ما يقرب من ستمائة سنة فى كتابه "الديباج المذهب"، ونصها هو: "سلطان جائر سبعين سنة، خير من أمة سائبة ساعة من نهار"، أو كالتى ذكرها القاضى عياض (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ) أى قبل ما يقرب من ألف سنة فى كتابه "إكمال المعلم": "جمهور أهل السنة من أهل الحديث والفقه والكلام أنه لا يخلع السلطان بالظلم والفسق وتعطيل الحقوق، ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه"[٢٨]!.

أتدرى لماذا لم تناقش المجامع الفقهية المعاصرة ولو مرة واحدة "الحكم الشرعى فى قوانين الطوارئ" و"المحاكم الاستثنائية" فى أى بلد من بلادنا العربية؟، هل لأنها اعتبرتها من شئون "المصلحة العامة" التى يختص بها ولاة الأمر، ومجالسهم "التشريعية" التى لم تخذلهم مرة واحدة فى شأن العمل بالطوارئ وأحكام الضرورة القاسية حسبما يقدرها "ولى الأمر"، أم ثمة أسباب أخرى تتصل بمزدوج "الترهيب والترغيب"؟؟.

أيا ما كان الأمر؛ فإن "الأمثال الشارحة" لقاعدة "الذرائع سدا وفتحا" باتت تعانى من عدة إشكاليات موضوعية، وهذه الإشكاليات التى أتينا على بعض منها جعلتها معزولة فى معظمها عن الواقع المعاصر؛ وخاصة فى ظل استمرار عجز المعاصرين عن تجديدها؛ فضلا عن إحجامهم عن نقد الموروث منها للتأكد من فعاليتها أو عدم فاعليتها فى أداء مهمتها التعليمية والتطبيقية فى الواقع الاجتماعى المتغير على الدوام.

والغريب أن المعاصرين فى أغلبهم لم يتنبهوا إلى أن استحضار الأمثال القديمة إلى عالم الواقع إما أن يفككها من حمولتها التاريخية، ولا يكون ذلك إلا بجهد واع منهم، وإما أن يبقى على تلك الحمولة ومن ثم يجعل تلك الأمثال مفارقة للواقع المعيش، وعليه تتدنى فوائدها لأقل قدر، إن اكتفاء الفقيه المعاصر باستنساخ الأمثال القديمة فى قاعدة "الذرائع" وفى غيرها، قد أفقده الشعور بنبض الواقع.

وما نلاحظه هو أن جل جهد المعاصرين متجه للتشديد على "الذرائع" من جهة "السد"، أو من باب "الاحتياط"، وتبلغ هذه النزعة ذروتها باستحضار مقولة "فساد الزمان"؛ فهنالك ينهض الفقيه الأصولى "لسد" ذرائع الفساد العميم، وينهض فقيه السياسة الشرعية للاحتياط من الفتن؛ وتغليب دواعى حفظ النظام والاستقرار على أى اعتبارات أخرى، وبينهما وبسببهما تسود "ثقافة" مترعة بالتردد والحذر والإحجام عن أخذ زمام المبادرة فى كثير من أشغال الحياة ومتطلباتها؛ بدعوى سد ذرائع الفساد، والنتيجة هى وجود "فجوة" كبيرة تحجب النظرية الفقهية عن الممارسات الاجتماعية على اتساعها، والنتيجة هى أيضا مزيد من تراجع تأثير "الثقافة الشرعية" فى توجيه مسارات الحياة الاجتماعية، وإذا أضفنا إلى ذلك إشكالية "نقص" الاجتهادات فى كيفية نقل قواعد الذرائع إلى أرض الواقع وتحديد المسئول عن ذلك (فردا كان أو مؤسسة، أو سلطة ما)؛ لوضح لنا عمق أزمة "النظرية الفقهية" وقواعدها فى واقعها المعاصر، وهو ما سنتابع ـ فى البند التالى ـ جوانب منه ببحث مثالين أو ثلاثة لهذه القاعدة وهى قيد التطبيق.

ـ يتبع ـ

٢٧ ـ نفسه، ص٦٥.

٢٨ ـ القرافى، الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥) ص٥٦.



الإسلام والدولة الحديثة «٢»


منير شفيق
المفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي

كتب الكثيرون عن الدولة وقد حملت كتاباتهم عناوين مثل «الدولة والمجتمع»، و«الدولة والثورة»، «الدولة في التاريخ»، «الدولة الإقطاعية»، «الدولة الرأسمالية»، «الدولة الاشتراكية»، «الدولة الإسلامية»، «الفرد والدولة»، مما يدل على أهمية موضوع الدولة وحيويته بالنسبة إلى كل عقيدة، ومذهب وكل نظام اجتماعي، واتجاه سياسي - ونظرية اقتصادية. أي لابد من أن يحدد بشكل أو بآخر الموقف من الدولة والرأى فيها.

الدولة ونزعة التسلط

لا يراد هنا إطلاقاً من تشريح هذا النمط من الدولة غير إظهار ذلك الميل - الاتجاه أو النزعة لدى الدولة - أية دولة نحو توسيع الصلاحيات وتعزيز السلطان، والتحكم فى المجتمع. فإذا كانت العملية فى النظام الاقطاعى فى أوروبا صراعاً راوح بين الكر والفر بين الملك والأمراء الإقطاعيين.. وإذا كانت العملية فى النظام الرأسمالى الغربى صراعاً فيه الكر والفر بين رجال الدولة والساسة من جهة وبين أصحاب رءوس الأموال من جهة وبين العمال والنقابات والأقليات من جهة ثالثة، فإن غالبية الحالات تشير إلى جنوح الدولة نحو المزيد من مركزة السلطة ومحاولة الارتفاع فوق الرأسمالية والفئات الأخرى والمجتمع عموماً

أما النظام الفاشى - النازى (هتلر وموسولينى)، فقد كان نموذجاً لتحول الدولة إلى جهاز فوق طبقة الرأسماليين والمجتمع، تمارس بحقهما ألوان العسف والقهر وصولاً إلى إعلان حرب طاحنة لم يكن لهما حق فى قرارها إيجاباً أو سلباً.

ومن هنا فإن القانون الذى يحكم طبيعة الدولة -أية دولة هو- الاتجاه والميل النزعة نحو توسيع الصلاحيات، ونحو التحكم فى المجتمع، ونحو التحول إلى قوة فوق المؤسسات والمجتمع بل فوق الدستور والقانون. وهذا ما جعل الصراع بين اتجاه الدولة نحو السيطرة واتجاه المجتمع، عموماً، خصوصاً القوى الاجتماعية الأقوى بشكل قانوناً ملازماً آخر، وسمته محاولة زيادة دور

المجتمع ومؤسساته والحد من ذلك النزوع لدى الدولة. إنه الصراع الذى يخوضه العلماء والجمعيات والمؤسسات والقبائل والجهويات، وأصحاب الفكر والرأى وأهل العقد والحل، أو الطبقات والفئات الاقتصادية المتنفذة. وقد عرفت أكثر التجارب التاريخية الحديثة هذا الصراع بين نزعة الدولة للسيطرة واتجاه المجتمع للحد من تلك السيطرة لامتلاك المزيد من الحرية والاستقلالية والقدرة كما أظهرت تلك التجارب أن ميزان هذا الصراع يميل فى مصلحة المجتمع فى مراحل الثورات والانتفاضات وبناء الأنظمة الجديدة، أو إذا كان المجتمع يملك قدرات اقتصادية واجتماعية وتنظيمية وسياسية وأيديولوجية ثقافية تسمح له بالتحدى والموازنة مع قوة الدولة بينما يميل الميزان فى مصلحة الدولة فى حالات الحروب الخارجية أو الحروب الأهلية وإعلان حالة الطوارئ أو الحالات التى يسيطر فيها الجيش أو الحزب الواحد على الدولة ويجرد المجتمع من قوته الاقتصادية والتنظيمية والسياسية والأيديولوجية، ولاسيما فى الدول التى امتلكت فيها الدولة المصنع والأرض والتجارة والجامعة والمدرسة ووسائل النقل والإعلام وحرم المجتمع من حقه فى التعبير عن رأيه أو المطالبة بحقوقه.

ولهذا فإن الدولة التى تملك السيطرة على الأرض والمصنع والجامعة وأجهزة الإعلام إلى جانب سيطرتها على الجيش والشرطة وسائر أنشطة أجهزة الدولة تكون أكثر قدرة على حسم ذلك الصراع لعقود

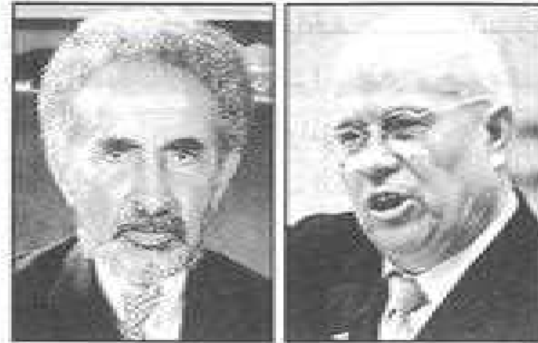


موسولينى هتلر

من السنين فى مصلحتها. لأنها تكون قد جردت المجتمع حتى من أبسط وسائل المقاومة والدفاع الذاتي. لأنها عندئذ لا تملك البندقية والسوط والسجن والقرار السياسى فحسب، وإنما أيضاً تملك مصادر أقوات الناس من العامل المهنى إلى المثقف. وهذا يفسر فى تجارب عدد من الأنظمة العربية أو أنظمة العالم الثالث تلك النتائج المروعة الناجمة عن الحكم العسكرى - أو حكم الحزب الواحد حين يسيطر على المراكز الرئيسية فى العملية الاقتصادية وفى المدرسة والجامعة وأجهزة الإعلام المختلفة والنقابات والمؤسسات الأخرى، فضلاً عن سيطرته على الجيش وأجهزة الدولة الأخرى، وقمة السلطة المصدرة للقرار السياسى.. دولة فوق المجتمع والقانون، دولة قمع حتى الحدود القصوى ومن ثم دولة تبعية للخارج بلا رادع داخلى لأن استئثار الدولة بالمراكز المنتجة الخاصة والعامة والمؤسسات الاجتماعية كذلك يؤدى إلى أن تنزع من المجتمع كل مصادر استقلاليته عن الدولة فتتركه بلا «أنياب ومخالب». لقد فعلت ذلك فى المجتمع ككل وهى تدعى أنها تهدف إلى نزع ملكية «الرأسماليين والإقطاعيين» أو تصفية «الرأسمالية

والإقطاعية، ولهذا انتهى فى تلك الأنظمة دور الشعب - الجماهير، وانتهى دور الفكر الحر. وأصبحت النقابات كأنها جزء من أجهزة الدولة وغاصت البلاد فى مستنقع عفن من الدكتاتورية والقمع والدماء والإرهاب ما يؤدى فى النهاية إلى اختزال كرامة الإنسان وثقته بنفسه وقدراته، فيهبط أخلاقياً وروحياً، وتتراجع قدراته الإبداعية والإنتاجية.

إنا طاغوت الفئات العليا المتفسخة من ملاك الأراضى الكبار والرأسماليين الاحتكاريين والسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية فى بلدان العالم الثالث وطاغوت الرأسمالية العالمية الاحتكارية فى العالم الغربى سمحا بتغطية اتجاه «الدولة الثورية» نحو السيطرة على كل مقدرات المجتمع تحت دعوى مقاومة الاقطاع والاحتكار والرأسمالية وإقامة الاشتراكية. وكان هذا هو الخيار الذى ظن أنه البديل لكل السلبيات والمفاسد الناجمة عن النظام الرأسمالى أو الأنظمة التى خلفها الاستعمار وراءه. ولكن التجربة أثبتت أن امتلاك الدولة لكل السلطات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وتجريد المجتمع من المرافق الاقتصادية والحريات السياسية يؤديان فى نهاية المطاف إلى أوضاع أشد سوءا من الأوضاع السابقة. ولا نكون قد فعلنا أكثر من الاستجارة من الرمضاء بالنار، أو النزول تحت المزارب ونحن نهرب من الدلف. ولقد أثبت الفكر الماركسى عجزه عن إعطاء الحل النقيض للحل الرأسمالى. فالحل الذى قدمه كان


خروتشوف
هيلاسيلاسي

وجها آخر للعملية نفسها. ولم يكن حلاً نقيضاً فعلا. ويكفي أن نلاحظ أزمة الأنظمة الماركسية مع شعوبها التى أصبحت فى حالة يرثى لها فى كل مكان. ووصلت حداً لو خيرت معه - تلك الشعوب لاختارت أى نظام آخر حتى الشيطان الرأسمالى. كما يكفى أن نلاحظ التراجعات تلو التراجعات التى تحاول تلك الأنظمة. وبعد خمسين سنة من التطبيق الاشتراكي .أى فى ظل الجيل الرابع أو الخامس من أبناء الاشتراكية، أن تستوعب من خلالها نقمة المجتمع لتقديم بعض التنازلات التى تخفف من قبضة الدولة على ملكية الأرض والتجارة والمصنع والسوق، ولا يبالغ المرء إذا قال إن صورة هذه الأنظمة ستصبح بعد عشرات السنين القادمة من الذكريات الرهيبة الراعبة فى مخيلة العالم تماماً أو أسوأ، من صورة الأنظمة الاقطاعية أو الاحتكارية الرأسمالية. أو الأنظمة المتفسخة للفئات العليا من ملاك الأراضى والسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية كما عرفتها بعض بلدان العالم الثالث بعد التخلص من الاستعمار. فصورة نظام منغستو هايلى مريم، على سبيل المثال، سوف ترى فى منظور التاريخ القادم أشد رعباً وفظاظة من صورة نظام

الأمبراطور هيلاسلاسى - ولا عجب حين يصل الأمر بنكيتا خروتشوف فى تقريره السرى الذى أقره المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفياتى أن يرى عهد ستالين من نواح كثيرة «أشد ظلاماً وإجراماً من عهود القياصرة». وهو ما ستفعله الأجيال القادمة عندما ستقارن عهد خروتشوف - برجنيف مع عهد القياصرة. وتقول القيادة الصينية شيئا شبيهاً حين تتحدث عن عهد من تسميهم «بعصابة الأربعة» ولعل هذه الشهادات، ومن خلال إقرار رسمى تم عبر مؤتمرات حزبية تكررت فى أغلب البلدان الاشتراكية - الماركسية، لا يمكن وصفها «بالدعايات المعادية للشيوعية»

نقد الرأسمالية وحدها لا يكفى

لعل من الاستنتاجات الأساسية التى تؤدى إليها دراسة تجربة الأنظمة الاشتراكية الماركسية أو المتأثرة بها هى القطع باستحالة حل أزمة الرأسمالية فى الحضارة الغربية من خلال ما يسمى بالاشتراكية العلمية (الماركسية) كما أثبتت التجارب اعتماد الفكر الثورى فى بلدان العالم الثالث على نقد ماركس للرأسمالية ومن ثم الانجرار وراء «الحل الاشتراكى» بنقل العالم الثالث من دياجير ظلام إلى دياجير أشد إظلاما، ومن هنا تتطلب عملية البحث عن حل لأزمة العالم الراهن الناجمة عن أزمتى الرأسمالية الغربية والاشتراكية السوفياتية من جهة وعن أزمة أنظمة العالم الثالث من جهة أخرى أن يجرى نقد صارم لكل من الرأسمالية والاشتراكية (أساسا للماركسية) الأولى فيما يتعلق باستغلال

العمال، والثانية فيما يتعلق بدولتها الطاغوتية، وكلاهما فيما يتعلق بالشعوب الأخرى، وبهذا يصبح بالإمكان معالجة العلاقة بين الدولة والمجتمع معالجة سليمة من خلال معالجة مشكلتى النظامين الرأسمالى والاشتراكى اللذين لم يستطيعا إيجاد حل متوازن وسليم لتلك العلاقة بين الدولة والمجتمع أو بكلمات أخرى إن المعضلة الناشئة عن التنازع بين الحاكم - الحاكمين - والمحكومين، - أو بين الدولة والمجتمع، أو بين الدولة والثورة لم تجد لها حلاً فى أنظمة الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والفاشية والنازية. فقد أثبتت التجارب التاريخية، والمعاصرة منها خصوصاً، أن كل واحدة من هذه الأنظمة كانت تزيد تلك المعضلة تفاقماً على طريقتها فالحل الرأسمالي جعل التنازع بين الدولة والرأسمالية سجالاً.

إنه صراع بين دولة تنزع إلى أن تزيد من سيطرتها على الطبقة الرأسمالية، وأن تضعف من سيطرة تلك الطبقة عليها لكى تتمتع بأعلى درجة من درجات الاستقلالية إلى حد الارتفاع فوقها - فكان نموذجها الأعلى النظامين النازى والفاشى فى أوروبا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية - ولكنها فى الوقت نفسه تظل حامية النظام الرأسمالى وحارسه اليقظ المنقذ، بينما تنزع الطبقة الرأسمالية إلى جعل الدولة وسلطتها السياسية الحكومية - والمجلس التشريعى، ممثلة لها، ومعبرة عن مصالحها، خاضعة لرؤيتها فى إدارة شئون السياسة، والاقتصاد، والسياسة الدولية وغير ذلك

من شتون فكان نموذجها الأعلى - بدرجات متفاوتة - الأنظمة الرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا خصوصًا أنظمة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

هذا من جهة أما من جهة الأخرى، فإن سمة هذا النظام اتفاق عام بين الدولة والطبقة الرأسمالية على فئات المجتمع الأخرى فهو اتفاق يتجه إلى تغلب مصلحة الدولة والرأسماليين كلاهما على مصالح المجتمع ككل، وسمة هذا التغليب المحاولات المستمرة لزيادة الضرائب غير المباشرة وتقليص الخدمات والضمانات الاجتماعية، والحد من الأجور ولكن هذه العملية تجرى ضمن معادلة معقدة متشابكة أو ضمن ما يسمى «باللعبة الديمقراطية» التى تجعل المجتمع يتحصل على بعض الحقوق ويمتلك متنفسات، وتفرض على رجال الدولة الذين سيواجهون الناخبين أن يراعوا ناخبيهم استطاعت لعبة الديمقراطية التخفيف من المعضلة الناشئة عن التنازع بين الحاكمين والمحكومين. ولكنها ما كانت لتنجح لولا اتفاق جميع الأطراف على المحافظة على النظام الاقتصادى والسياسى العالمى الراهن فهذه السيطرة سمحت بوضع الدولة والرأسماليين والمجتمع عمومًا على أرض مشتركة، أما فى الحالات التى كانت التناقضات تنشب بينهم فوق هذه الأرض المشتركة فقد كان منبعها الاختلاف فى الاجتهاد على كيفية إدارة الصراع مع شعب طال استعباده واستطاع أن يثور ويفرض إرادته، ويلغى إمكان استمرار السيطرة المباشرة عليه مما يجعل المجتمع ومعه فئات من الطبقة الرأسمالية نفسها تأخذ مظهرا ليبراليًا، وربما بعض أجنحة السلطة السياسية أيضًا، تعارض قرار استمرار الحرب الخارجية، ولكن يجب أن يلاحظ أن هذه التناقضات لا تصل درجة الحدة إلا بعد أن تكون الحرب قد فشلت فى إبقاء السيطرة وأصبحت فى نفق لا خروج منها وهذا ماحدث فى فرنسا فى المراحل الأخيرة من حربى فيتنام والجزائر وماحدث فى الولايات المتحدة فى أواخر حرب فيتنام.

إن السيطرة على الخارج، وما تجلبه من ثروات، وما تتطلبه من مساومات داخلية حتى يعبأ المجتمع كله فى سبيل إنجازها هى التى سمحت لأنظمة الرأسمالية أن تخفف من حدة المعضلة القائمة بين الدولة والمجتمع ولهذا لا يستطيع هذا النظام أن يقدم حلا عالميًا بما يطرحه من أنظمة دستورية، ومؤسسات ديمقراطية، ولعبة برلمانية؛ لأن حله لا يصلح إلا فى التخفيف من حدة المعضلة كما لا يصلح إلا لبضع دول تسيطر على بقية العالم - سيطرة مباشرة أو غير مباشرة وتعمل فيه اخضاعًا ونهبًا، ولهذا عندما حاول بعض السياسيين والمثقفين فى بلدان العالم الثالث اتخاذ التجربة الديمقراطية الرأسمالية فى الغرب نموذجا، فسعوا إلى تطبيقها على بلدانهم ازدادت المعضلة بين الدولة والمجتمع تفاقمًا؛ لأن الشرط الأساسى لمثل هذا النموذج لا يقوم إلا فى إطار سيطرة سياسية واقتصادية على الأقل. على السوق العالمى سيطرة تحقق انتهاب أجزاء من الثروات العالمية المتراكمة ومن هنا وجدوا تجربة التقليد تسير إلى فشل وتحولت دولهم إلى التعفن فى الفساد وإلى التمادى فى القمع والتجاوز فى السيطرة على المجتمع مما جعلها تفرز أنظمة عسكرية تنقلب على مجرد التوجه إلى النموذج الرأسمالى، لأن الديمقراطية، واللعبة البرلمانية، ومحاولة تثبيت المؤسسات الدستورية تسمح فى ظروف بلدان العالم الثالث بإعطاء المجتمع قوة فى التنازع مع الدولة والسلطة السياسية، وهى قوة لا تستطيع الدولة والطبقة الرأسمالية المساندة لها احتمالها لأنهما لا تستطيعان فعل ما يفعله النموذج الرأسمالى الأصلى فى استيعاب أو امتصاص ذلك الضغط من خلال التوجه إلى السيطرة على الخارج أو من خلال الثروات الفائضة التى تجتنى من السيطرة على الخارج وإذا أضيف إلى ذلك عامل الضغط الخارجى الذى تتعرض له هذه الدولة من قبل الدول الكبرى مما يجعلها بين المطرقة والسندان، فتزيد حدة تناقضها مع المجتمع خصوصًا حين تميل إلى المساومة والخضوع لذلك الضغط الخارجى.

الأمر الذى يولد الشروط التى تجعل تلك الدولة تدفع بأحد أجنحتها - الجيش لتأخذ بيدها، دون الشركاء الرأسماليين والمتنفذين اقتصاديًا، القرار السياسى، ومن ثم الارتكاز على الدولة وحدها فى عملية الصراع ضد المجتمع. ويصبح من الضرورة أن تُصفى الفئات الحاكمة السابقة لتنفرد بالسلطة تمامًا وهى تفعل ذلك تحت شعار تصفية العملاء، أو الرجعيين أو الاستغلاليين، أى تفعل ذلك تحت شعارات «الثورة»، وهكذا تتولد شروط بناء دولة «الثورة» التى ستجنح إلى حل المعضلة بين الدولة و المجتمع من خلال جعل نفسها فوق المجتمع، ونزع مخالب المقاومة منه. وعندما يمضى هذا الجنوح إلى مداه الأخير يصار إلى إلغاء المؤسسات السياسية المستقلة عن الدولة، الأحزاب والنقابات والجمعيات، ليقوم مقامها نظام الحزب الواحد (أو الجبهة الواحدة التى تقع تحت السيطرة التامة للقائد الأوحد أو الحزب القائد الأوحد)، أما فى المجال الاقتصادى فيتخذ ذلك المدى الأخير شكل التأميم و السيطرة على مركز الإنتاج والتجارة الخارجية والتحكم بأرزاق الناس فى العمل وفى السوق.

بهذا يكون هذا الإفراز الذى أقام السلطة العسكرية على رأس الدولة قد أخذ يتشبه بالنموذج الاشتراكى من النمط السوفياتى، ويستند إلى نقد الماركسية اللينينية للديمقراطية والليبرالية برفع شعارات «الديمقراطية الموجهة» أو «ديمقراطية الطبقة العاملة» أو «لا ديمقراطية لأعداء الشعب والقوى المضادة للثورة» إلخ ... وما هى إلا مرحلة قصيرة حتى يحسم الصراع فى مصلحة الدول كاملا، ويفقد المجتمع كل وسائل المقاومة السياسية والاقتصادية والفكرية، مما سيزيد تلك المعضلة تفاقما فوق كل تفاقم، وإن بدت الأمور على السطح هادئة بسبب قهر المجتمع قهرا شبه تام على الأقل فى مراحل معينة، وهكذا تتحقق النتيجة القائلة أن أنظمة الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والنازية الفاشية لم تستطع أن تقدم حلا مناسبًا لمعاضلة التنازع بين الدولة والمجتمع، ومن ثم تكون التجربة التاريخية الحديثة قد أثبتت الحاجة الماسة

إلى نقد الدولة الاشتراكية.. دولة التأميم وامتلاك أدوات الإنتاج والتحكم بالأرض والتجارة نقدا لا ينقص عن نقد الدولة الرأسمالية بأشكالها الليبرالية والفاشية والنازية، وما لم يتم ذلك ستظل كل ثورة، بما في ذلك الثورات الإسلامية معرضة للوقوع في براثن أحد التجاهين الأساسيين للدولة الحديثة: الرأسمالية أو الاشتراكية السوفيتية.

الثابت والمتغير في الدولة

إن النظريات التي لا تسلط الضوء الكافي على نزوع الدولة، أية دولة، نحو السيطرة على المجتمع بكل فئاته تخبئ نفسها تحت المقولة التي ترى التعامل مع الدولة انطلاقًا من تعاملها مع النظام ككل، وبعضها انطلاقًا من الطبقة المالكة لأدوات الإنتاج، وبهذا يكون هنالك الدولة في النظام الرأسمالي أو النظام الإقطاعي أو النظام العبودي في أوروبا، والدولة في النظام الإسلامي، أو «الأنظمة قبل الرأسمالية» في بلدان آسيا وإفريقيا، وبهذا يصبح الحديث عن الدولة حديثا عن النظام، أي تلحظ العناصر المتغيرة في الدولة ولا تلحظ الثوابت في طبيعتها وهذا يشبه بالضبط ما تفعله تلك النظريات بالإنسان حين لا تلحظ الثوابت الأساسية فيه كالفطرة والغرائز والأهواء، وما تولده من ميول واتجاهات، فترى صفات الإنسان ضمن النظام الاجتماعي الاقتصادي المحدد، وبعضها تراه جزءا من طبقة لا غير، وبهذا يصبح الحديث عن الإنسان حديثا عن النظام الاقتصادي -الاجتماعي، أو عن الطبقة التي ينتمي إليها، فتنكر العناصر الثابتة في تكوينه وتجلياتها المختلفة وفق الظروف والأنظمة المختلفة، ومن ثم ترى تلك النظريات الإنسان معادلة تأخذ لونها وطبيعتها وميولها وفق الظروف والأنظمة والطبقة، وترى بالعين نفسها الدولة معادلة (أو ظاهرة) تأخذ لونها وطبيعتها وميولها وفق الأنظمة والطبقة الأمر الذي يؤدي إلى كارثة نظرية وعملية نتيجة إنكار العناصر الثابتة وميولها ونزعاتها وتجلياتها الباقية في، والمؤثرة في، والمتأثرة بـ: الظروف والأنظمة والطبقات أحيانا، والتشكيلات الاجتماعية الأخرى أحيانا كالقبائل والعشائر.

إن من المخاطر الناجمة عن النظريات التي ترى العناصر المتغيرة في الإنسان أو الدولة فقط، ولا ترى العناصر ذات الثبات والمتعلقة بالتكوين الأساسي، أو بالجوهر، وبالطبيعة، هي انفلات تلك الميول والغرائز بالرغم من طبيعة النظام المحدد، دون رادع أو وازع، مما يجعلها تأكل الأهداف، أو المبادئ، وتتحكم بالنظام، والمجتمع، وقد يصل الأمر إلى صبغ العهد، أو الفترة التاريخية، أو النظام بطابعها وصبغتها، إن عدم إدراك هذا القانون المميز بين الثوابت والمتغيرات وذلك بإنكار الثوابت أو إنكار المتغيرات لا يستطيع أن يميز في تاريخ الإسلام بين الدولة- السلطة الحاكمة في زمن الخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين، بل لا يستطيع أن يميز بين عهد السلطان عبدالحميد وحكم حزب الاتحاد والترقي، وهو لا يستطيع أن يميز على مستوى التجربة الأوروبية بين الدولة النازية والدولة الديمقراطية ما دام النظام في الحالتين هو نظام رأسمالي وما دامت الطبقة المستقرة المالكة لأدوات الإنتاج الرئيسية هي الرأسمالية- الاحتكارية أو الرأسمالية في مرحلة «الكارتيلات والتروستات»، فلو أخذ التعريف التبسيطي الذي لا يرى للدولة جانبا هاما من الاستقلالية، ولا يرى نزوعها الناجم عن طبيعتها من حيث هي دولة، نحو السيطرة والارتفاع فوق المجتمع - الطبقة الاقتصادية- الاجتماعية المسيطرة فسوف لا يفهم من أين أتت الدولة النازية، ولا سيما حين يؤخذ بعين الاعتبار أن الطبقة الرأسمالية العليا في ألمانيا ما كانت راضية بأن تفقد قدرتها، ودورها القيادي السياسي والاجتماعي- الثقافي والاقتصادي لحساب دولة أصبحت تقرر كل شيء دون الرجوع إليها وما عليها إلا الرضوخ والتأقلم سواء كانت قرارات الدولة متقاطعة، أم غير متقاطعة مع مصالحها أو وجهة نظرها، وإن عدم رؤية هذه السمة هي التي ستصدم كل الرجال أصحاب المبادئ والمثل في مختلف الثورات حين يرون الدولة التي أقاموها لتعبر عن مبادئهم، ومُثلهم تنقلب لتعمل لحسابها. وتعيد صياغة الأهداف وفق نزوعها إلى إحكام السيطرة على من هم خارجها، وإخضاع المجتمع لها إلى حد تحويله إلى قطيع إن أمكن.

طبعًا إن تسليط الضوء على النزوع الطبيعي في تكوين الدولة من حيث هي دولة، أية دولة، لا يعني بالمقابل أن تجليه واحد في كل الحالات، أو بكلمة أخرى لا يجب أن يقود نقد النظريات التي تنكر على الدولة ذلك النزوع باعتباره مكونا أساسيا إلى عدم رؤية الفروق الأساسية في تجليات هذا النزوع من نظام لآخر ومن مجتمع لآخر، فتحول الدولة إلى ملك عضوض، على سبيل المثال، في النظام الإسلامي يختلف عن تحول الدولة إلى الفاشية في النظام الرأسمالي، وهذه تختلف عن تحول الملكية إلى ملكية مطلقة في النظام الاقطاعي، أو بكلمات أخرى أن أي تحليل لا يرى فعل العناصر الثابتة في تكوين الدولة أو الإنسان ضمن إطار الظروف والأنظمة يخطئ أيضًا في تحليل وإدراك ومعالجة تلك العناصر.

على أن الأمر الذي يراد التأكيد عليه هو إلقاء الضوء أساسًا على ذلك النزع في تكوين الدولة حتى لا يؤدي إنكاره إلى الخطأ في المعالجة الإسلامية للعلاقة بين الحكام وأجهزة الدولة من جهة وبين الجماعة الإسلامية والشرع من جهة أخرى في ظل قيام نظام إسلامي أو دولة إسلامية.



أوضاع الأقليات المسلمة في القارة الإفريقية



إعداد المشير:
عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب
رئيس مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية

يقول تعالى في محكم تنزيله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥)

هذه الآية أمر واضح للدعاة إلى الله أن يتخذوا من الوسائل الحكيمة ما يمكنهم من إبلاغ الدعوة والحكمة تقتضى أن يقف الناس لتدارس مناهجهم التى يعملون بموجبها ودراسة الواقع الذى تمارس فيه عملية الدعوة لاستنباط أحسن الوسائل المستخدمة للوصول لأفضل النتائج المبتغاة وأن يستفيدوا من تجاربهم الخاصة فى الدعوة سعيا لتجويدها بما يتلائم مع المبادئ المقررة والواقع المعاش حتى لا نصبح كالذى يجيء ويروح مكانه وفى هذه الورقة سنتلمس مشكلات الواقع الذى تعيشه الأقليات الإسلامية فى أفريقيا ونقترح من الطرق والأساليب التى ينبغى أن تسلكها الدعوة الإسلامية هناك فى محاولة لإرساء منهج يجمل بالعاملين فى هذا الحقل الكريم اتباعه صدعا بالحق ووصولا لإبلاغ كلمة الله للعالمين.

أوضاع الأقليات المسلمة فى القارة الإفريقية

يعانى المسلمون فى أفريقيا من مشاكل معقدة نتيجة لعوامل شتى أدت إلى انحطاطهم وقعدت بهم عن ممارسة دورهم فى نشر الدعوة الإسلامية فى مجتمعاتهم فضلا عن تقديمها لجيرانهم من الوثنين وأصحاب العقائد الأخرى.

وعند تعريفنا لكلمة أقليات إسلامية فإن المقياس إلى الذهن هو ضعف هذه المجموعات من الناحية الكمية العددية ولكن الواقع أننا نعنى كل الجماعات المسلمة المستضعفة التى ليس لها وجود فى السلطة السياسية والخدمة الدينية وليس لها أيضا نفوذ

اقتصادى فاعل أو دور مؤثر فى صياغة القرارت المصيرية وبهذا التعريف فإنه يصعب استثناء أى مجموعة مسلمة فى إفريقيا.

والمسلمون الأفارقة يشكلون ثقلا ضخما لا يمكن تجاهله رغم ما به من ضعف فهناك خمس عشرة دولة إفريقية جنوب الصحراء تفوق نسبة المسلمين فيها الـ ٥٠٪ وتليها عشر دول تزيد نسبة المسلمين فيها عن الـ ٣٠٪ لذلك فقد احتدم الصراع بين المسيحية والإسلام لتحويل قبلة القارة ودينها وحضارتها، ويعمل المسيحيون وفقا لخطط يأملون أن تصبح بموجبه إفريقيا قارة مسيحية .و سنحاول فيما يلي أن نقوم باستعراض سريع لأوضاع هذه الأقليات والتعرف على مشكلاتها توطئة لاستجلاء المناهج المناسبة لواقعها.

أولا: يعانى المسلمون الأفارقة من الوهن العام الذى تتبدى مظاهره فى عدم مقدرتهم على المشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية فى بلادهم شاءوا أم أبوا، فبلد مثل السنغال تبلغ نسبة المسلمين فيه ٩٧٪ كانت تدار إلى عهد قريب بواسطة رئيس مسيحى وبلد مثل أثيوبيا تفوق نسبة المسلمين فيه الـ ٥٠ بالمئة على أقل تقدير تجد معظم إدارييه من الأمهر المسيحيين ولا يوجد وزير مسلم واحد فى حكومتها.

كينيا تبلغ نسبة المسلمين فيها الـ ٣٠٪ لم يحظ مسلم واحد بوظيفة وزارية منذ استقلالها وقس على ذلك كثير من الأقطار الأفريقية.

ثانيا: يعانى المسلمون من الجهل والفقر الذى تتجلى مظاهره فى عدم تأهيلهم للحياة العامة نتيجة لاحتكار المؤسسات التنصيرية للتعليم الأمر الذى جعل المسلمين يعزفون عنه فأورثهم ذلك جهلا وبعدا عن دقة الحياة الحديثة وفى ذات الوقت أتاح لغيرهم التحكم فى مصائرهم ففى بلد مثل تنزانيا غالبيته من المسلمين تجد أن عدد الطلاب المسلمين بجامعة دار السلام لم يتجاوز الـ ١٠٪ حتى الآن فكيف الحال فى بلاد الأقليات الصغيرة وقد كان للاستعمار القدح المعلى فى الوصول بالمسلمين الأفارقة لهذا الوضع من الفقر المزرى.

ثالثا: يعانى المسلمون الأفارقة من مشكلة الذوبان الثقافى فى المجتمعات من حولهم وضياع هويتهم الثقافية فأصبحوا ينظرون إلى الحياة بنظرة هذه المجتمعات ويستحلون ما يستحله غيرهم وأصبح سلوكهم فى الغالب الأعم من جنس سلوك سواهم من غير المسلمين وذلك نتيجة للجهل بأمور الدين الإسلامى رغما عن وجود المدارس القرآنية وذلك لقلة المعلمين ومحدوديتهم وضعف ثقافتهم ومحدودية إلمامهم الصحيح للعلوم العربية والإسلامية كما أن الاستعمار والكنيسة عملا على تشجيع التفسخ الاجتماعى فى مناطق المسلمين عن عمد ففى الساحل الشرقى لكينيا حيث يتركز المسلمون عملت الشركات الأوروبية على إقامة الملاهى والمصايف السياحية التى تشجع الموبقات وتسعى لإفساد الشباب تحت مظلمة إنعاش السياحة.

رابعًا: يعاني المسلمون في إفريقيا من الفرقة والشتات وانقسامهم إلى طوائف وشيع وقبائل فالمجتمع الإفريقي مجتمع قبلي يجعل الكثير من المسلمين يوالون قبائلهم أكثر من ولائهم لدينهم مما كرس الجاهلية العرقية ومهد الطريق لأعداء الأمة لتنفيذ مخططاتهم.

كما أن للجهل بالدين دورا لا ينكر في تفاقم الخلافات حول قضايا هامشية ليس لها وزن في مبادئ الإسلام حيث تبدأ الانقسامات حول الزعامة وتتطور لانقسامات نظرية حول التقويم القمري والذكر، وعدد الذين تقام بهم الجمعة مما أدى لضعف المسلمين وأغرى بهم الساسة فصاروا ألعوبة في أيديهم، وغالبا ما تذكي نار الخلافات جهات خارجية من بعض الدعاة الذين يأتون من الخارج ويسعى كل منهم لنشر مذهبه الفقهي السياسي بغض النظر عن أثر ذلك على مجتمعات المسلمين الأمر الذي يؤدي لإضعاف المسلمين وتدخل الدولة في شئونهم كما هو الحال في يوغندا وتنزانيا وزنجبار وجيبوتي.

خامسًا: تعاني المجتمعات الإسلامية في أفريقيا من ضعف اتصالها ببقية أجزاء العالم الإسلامي نتيجة للعزلة التي ضربها الاستعمار وأخذت بها الحكومات التي أعقبته بالحد من حرية الحج الذي يهيئ أسباب الاتصال بالعالم الخارجي والالتقاء ببقية المسلمين كما أن لحكومات العالم الإسلامي أيضا دورا سلبيا في عزوفها عن إقامة المراكز الثقافية في البلاد الإفريقية على غرار المراكز الأوربية والأمريكية والبريطانية بالإضافة لإعراض الدول الإسلامية عن تقديم المنح الدراسية للمسلمين الأفارقة، فالناظر إلى المنح المقدمة من الدول الإسلامية مقارنة مع غيرها يجد أثرها لا يكاد يذكر.

العوامل التي أدت لمشاكل الأقليات المسلمة في إفريقيا

بعد هذا الوصف الموجز لأوضاع الأقليات الإسلامية ومشكلاتها نحاول إلقاء الضوء على العوامل الرئيسة التي أدت إلى هذه المشاكل:

أولا: الاستعمار:

كان مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م نقطة البداية للسباق المسعور للتكالب على أفريقيا من قبل الدول الأوربية كما أشار إلى ذلك الزعيم الإفريقي أحمد سيكوتوري حيث كتب قائلا: (ومهما يكن من تنوع أشكال التسلل الإمبريالي في إفريقيا وتنوع أشكال القوى اقتصادية كانت أم عسكرية ثقافية أم روحية فإن الاستعمار قد تميز قبل كل شئ بثلاثة ميزات فرضت نفسها على إفريقيا.

أولا: حرمان الأفارقة من تسيير دفة مصيرهم وسيادتهم وتجريدهم من حقهم الطبيعي في حل مشاكلهم.

ثانيًا: السيطرة الأجنبية على ثروات إفريقيا وشعوبها والاضطهاد الإداري والسياسي والثقافي.

ثالثًا: إيقاف التطور الطبيعي للثقافات الإفريقية وتجفيف منابع حضارتها بهدف سيطرة الثقافة الغربية.



هذا وقد استخدم الاستعمار أساليب متعددة لتحقيق هذه الأهداف من بينها السيطرة العسكرية والقمع ونهب الثروات الطبيعية وتجزئة، وتفتيت الوحدة الداخلية من خلال سياسة فرق تسد والتلاعب بالحدود وتشجيع التبشير الغربي والاستيطان الأجنبي، وفرض لغة المستعمر وثقافته على البلدان المستعمرة وفرض المستعمر لغته وثقافته على المجتمعات الإفريقية عن طريق مناهج التعليم وتوجيه الثقافة والإعلام وعندما قاومت الثقافة الإسلامية هذه المواجهة قابلها الاستعمار بحرب عنيفة وحاول اقتلاع جذورها من البلاد الإفريقية ومن أمثلة ذلك ما فعله ونجت باشا حيث أغلق مدرسة واو الابتدائية عام ١٩٠٤م بحجة أنها تساعد في نشر الدين وأمر حاكم كردفان بتدريس اللغة العربية بالحرف اللاتيني.

كما استخدم المستعمر القمع العسكري لكل الحركات الإسلامية التي وقفت في وجهه واستخدم السلاح الناري في مواجهة السلاح الأبيض وأوقع فيهم مقتلا عظيما كما كان الحال مع مهدي الصومال والسودان وخلفاء دان فوديو وعمربن سال الفولاني في غرب أفريقيا وعندما هدأت الحرب عمل تفتيت وحدة المسلمين فجزأ خلافة سكتو إلى نيجيريا ومالي وبنين والنجير وجزأ الصومال إلى إقليم إنجليزي وفرنسي وإيطالي وألحق بعضه بكينيا وجزأ سلطنة زنجبار إلى تنجانيقا وكينيا وزنجبار وشجع البعثات التنصيرية للعمل في مناطق المسلمين وأعطى المؤسسات التنصيرية حق احتكار التعليم الأمر الذي جعل المسلمين يعزفون عن تعليم أبنائهم فيها حفاظا على دينهم؛ هويتهم الحضارية مما فتح الباب على مصراعيه للمسيحيين والوثنيين ليتأهلوا بالتعليم المدني الأوروبي الحديث ومن ثم يرثوا مقاليد الأمور بعد رحيل المستعمر الأوروبي.

وقد امتدت هذه السياسات بعد رحيل الاستعمار العسكري المباشر حيث حافظت عليها ورعتها دول الاستعمار الاستراتيجي الغير مباشر والذي سار على نفس أهداف سلفه التقليدي فجر البلاد إلى تبعية وضعف وفتحها لإنشاء القواعد العسكرية وقبول السيطرة الاقتصادية وانحاز إلى جانب المسحيين والتأثير لصالحهم فسمح للمؤسسات الكنسية بالعمل والحركة دون قيود واحتكر لهم خدمات الصحة والتعليم في بلاد كثيرة كيوغندا وجنوب السودان

فصار المواطن لا يتمكن من التعليم أو العلاج إلا إذا تنصر وترك دينه

التنصير الكنسى

تعاون التنصير المسيحى بمؤسساته المختلفة مع الاستعمار الغربى لإقصاء المسلمين من مواقع التأثير فى الحياة العامة وتهميش دورهم ولم يكن فى بدء الأمر يسعى لتنصيرهم فقد بدأ يعمل بجد ونشاط فى المجتمعات الوثنية المجاورة لهم ويحول دون انتشار الإسلام إلا أنه عمد بعد ذلك إلى التأثير على عدد قليل من أبناء زعماء المسلمين باحتضانهم وتعليمهم وتربيتهم على ثقافته وسلوكه وإعادتهم لبلادهم حتى يكونوا رسلا لثقافته ثم تطور الأمر واجترأ المنصرون على التخطيط لتنصير أبناء المسلمين أنفسهم بعد أن نجحوا فى اجتذاب الملايين من أتباع الديانات الأفريقية التقليدية وقد عقد مؤتمر فى أبادان بغرب أفريقيا عام ١٩٥٨م لكنائس غرب أفريقيا وخرج بمقررات أسموها مشروع الإسلام فى أفريقيا، جاء فيها :-

١ـ يشكل المسلمون ٤٠٪ من الأفارقة ويجب عدم استثنائهم من تقديم بشارة المسيح.

٢ـ يجب أن تعمل كل كنيسة على تفهم واقع المجتمعات الإسلامية من حولها بإجراء الدراسات الميدانية.

٣ـ أن تعمل هذه الكنائس على نشر المسيحية من خلال التأثير فى مناهج التعليم والبحوث.

ولتحقيق هذه الأهداف كونت الكنائس لجنة أطلق عليها لجنة الارتباط واتخذت نيروبى مقرا لها ومهمتها إنشاء لجان من الكنائس فى المجتمعات المسلمة لتقوم بما يلى :

١ / تشجيع كافة المسيحين الذين يواطنون مجتمعات إسلامية على العمل المنظم بين المسلمين.

٢ / تنظيم حلقات دراسية وسمنارات للمنصرين المسيحيين.

٣ / تشجيع التعارف بين المسيحيين والمسلمين.

٤ / نشر الدراسات المسيحية عن الإسلام والمسلمين.

٥ / توفير الاستشارات والفتاوى الخاصة بموضوع العلاقة بين المسلمين والمسيحيين .

وقد أجريت دراسة شاملة للمجتمعات الإسلامية فى أفريقيا وأكدت نتائج بعض الدراسات إلى قابلية مجتمع الفولانى بغرب أفريقيا لبشارة المسيح بالإضافة لصومالى شرق كينيا ثم مدى التكثيف التنصيرى على المسلمين الأفارقة وكانت نتيجة ذلك أن تقبل أكثر من ٩٠٠،٠٠٠ مسلم المسيحية فى عدد من البلاد الأفريقية.

ويستعمل التنصير عدة وسائل أهمها :

١ / التنصير عن طريق التأثير فى المناهج التعليمية.

٢ / التنصير عن طريق البث الإذاعى خاصة فى المجتمعات الرعوية التى لايصلها المنصرون أو تلك التى يخشون فيها مغبة الاتصال المباشر وقد أوضحت الدراسات أن

هناك أكثر من خمسين إذاعة كنسية فى أفريقيا تبث برامج بمختلف اللهجات واللغات الأفريقية .

٣ / الفيديو والكاسيت تستعمل خاصة فى المجتمعات الأمية.

٤ / الكتب والمنشورات والصور المعبرة.

٥ / الخدمات الصحية والبيطرية.

٦ / الإغاثة من الكوارث العارضة كالمجاعات وغيرها.



الملامح الأساسية لمنهج الدعوة الإسلامية بين الأقليات الإسلامية فى أفريقيا

بعد هذا العرض السريع لأوضاع الأقليات وواقع الدعوة الإسلامية فى أوساطها، يضعنا البحث على أعتاب مرحلة استكشاف المناهج الصالحة للتحرك بالإسلام فى هذا الواقع واختيار منهج يتم بمقتضاه تلافى السلبيات الراهنة التى تلازم حركة الدعوة لنستشرف بها آفاق الغايات السامية للدين.

ويرتكز هذا المنهج ـ الذى تمليه ضرورات الواقع ـ على قاعدة كبرى مستوحاة عن مجمل العبر والدروس المستفادة من مناهج الدعوة التى اتبعها الأنبياء عليهم السلام على مدار التاريخ الإنسانى كله وعلى القواعد التى قررها القرآن الكريم فالأنبياء فى دعوتهم لعقيدة التوحيد لم يتبعوا مناهج تجريدية محضة لتوجيه الناس للإسلام لرب العالمين وإنما دخلوا إلى ذلك من منافذ اجتماعية عدة تختلف صورها باختلاف حال مجتمعاتهم واختلاف مشكلاتها وقضاياها كما أن الله تبارك وتعالى أمرنا فى كتابه العزيز بأن ندع إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وقد قال :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

ومن الحكمة أن يتبصر الدعاة أفضل السبل والطرق لتوصيل كلمة الله وأكثرها ملاءمة لحال المخاطبين بالدعوة.

ويقوم هذا المنهج الذى تستجلى ملامحه الآن على مشاركة الدعاة للناس ومقاسمتهم همومهم والسعى لعلاجها واقتراح الحلول لها فالأقليات الإسلامية فى أفريقيا هى الرصيد الأساسى والاحتياطى الضخم للدعوة الإسلامية فى القارة إذا ما حسنا أسلوبنا للارتقاء بحياتهم الروحية والمادية فهم سفراء الإسلام فى مجتمعاتهم ولهم القدرة أكثر من سواهم على مخاطبة إخوانهم الأفارقة من غير المسلمين.

الاهتمام بتطوير الوسائل والأساليب

لقد ظلت أساليب الدعاة إلى الله فى مناطق الأقليات المسلمة فى أفريقيا متوقفة زمنا طويلا على ذات الأساليب العتيقة الموروثة من عهود موغلة فى القدم وإن الحكمة التى يصفها القرآن كقاعدة لأسلوب الدعوة تقتضى النظر والتدبر فى وسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر ومقتضياته واكتشاف المنابر المؤثرة والمواقع الجديدة لخدمة الدعوة وأصبح لازما أن يتمتع الدعاة بقدر من المرونة والفهم ليطوروا وسائلهم المستخدمة، فمجرد الحديث على المنابر لم يعد وحده كافيا لإقناع الناس بالمعانى الدينية وقد أتاح التقدم العلمى والاختراعات التكنولوجية الحديثة قدرا كبيرا من النظم والوسائل والأساليب الفاعلة فى مجالات الاتصال والتأثير يمكن الاستفادة منها والإفادة بها أيما فائدة فى دفع حركة الدعوة أفقيا ورأسيا.

التخطيط

أصبح من الضرورى أن يخضع العمل الإسلامى فى أوساط الأقليات بصورة من التنظيم والتخطيط تتجاوز به مرحلة العشوائية التى اتسم بها العمل فى أوساط الأقليات وتمكن الدعوة من مواجهة الخطط المعادية وذلك من خلال الوعى بالزمن ودوره فى العملية الاجتماعية وربط الشباب بالنتائج ودراسة الاحتمالات وتوفير الحسابات الدقيقة وترجمة الأهداف إلى برامج والموازنة الدقيقة من الحاجات والإمكانات وترتيب الأولويات حماية للجهد وتوفير للطاقات برسم الاستراتيجيات الشاملة والخطط.

التنسيق

لابد من تنسيق العمل الإسلامى لتتكامل جوانبه وتتفادى التضارب فى الوظائف والاختصاصات وتركز الجهود فى رقعة معينة بينما تبقى المناطق الأخرى خالية من أى جهد وعمل وهو أمر مطلوب من هيئات الدعوة المحلية والقارية حتى توظف الجهود الإسلامية المبذولة بكفاءة وفعالية لخدمة الأهداف المرسومة فى خطط الدعوة الإسلامية العامة والخاصة.

التمويل

يعتبر توفير المال اللازم لمشروعات الدعوة وتسيير برامجها واحد من مقومات أى خطة تنشد النجاح ومن دون إيجاده يصعب على أى عمل أن يستمر ويؤتى أكله ولقد توقفت كثير من أعمال الدعوة الإسلامية فى أفريقيا لعدم توفر المال أو لاعتمادها على التبرعات التى تحسب فى عداد المصادر المؤقتة التى تتأرجح بين الفينة والأخرى وفى تاريخ الدعوة الإسلامية بعامة ابتكر المسلمون نظام الوقف الذى كان له أثره الكبير فى إنجاح الكثير من البرامج والمشروعات إلا أن إسهام الأوقاف اليوم أصبح ضئيلا لسوء الإدارة وعدم الصيانة والإهمال فلابد إذن من تطوير نظامها وخلق الاستثمارات كمصادر ثابتة وانتداب إدارات أمينة ومتمرسة لترعى شأنها وتحافظ على ريعها الذى يشكل المصدر الرئيسى لتمويل برامج الدعوة.

الخدمات الاجتماعية



خدمة المجتمع وتقديم العون للفئات الضعيفة فيه عبادة رفيعة القدر لم يحسنها كثير من المسلمين اليوم برغم ما ورد فى الإسلام من تعاليم تدعو لفعل الخير وتأمر به وتجعله فريضة يومية على الإنسان المسلم ولقد لمسنا فى صدر هذا البحث كيف نفذ التنصير من خلال هذه الثغرة فى مختلف الجوانب الصحية والاجتماعية فدعاة الإسلام مأمورون بأن يشاركوا المجتمع همه ويمسحوا دموع اليتامى ويبتسموا فى وجه البائسين ويسهموا فى إغاثة الملهوفين وإطعام الجائعين ويداووا جراح القلوب الحزينة بكلمة طيبة وموقف عملى ولابد أن تتعاون الهيئات الإسلامية العالمية والإقليمية والمحلية لتحقيق هذا الغرض فى أوساط الأقليات الإسلامية فى أفريقيا بإنشاء المستشفيات والمراكز الصحية والمرافق الخاصة برعاية الأمومة والطفولة وتوطين اللاجئين لسد الثغرة التى ينفذ منها المتنصرون ويحولون من خلالها الآف المسلمين الأفارقة إلى المسيحية مستغلين ضعفهم الاجتماعى ومرضهم، والمسلم مأمور بفعل الخير - بنص القرآن - مثلما هو مأمور بالركوع والسجود حيث يقول عزوجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(الحج: ٧٧)

التعليم

التعليم أداة رئيسية من أدوات التحول الاجتماعى والحضارى حرم منها المسلمون الأفارقة طيلة العهد الاستعمارى والاهتمام به يعد مفتاحا لنهضة الأقليات المسلمة لدوره فى تنمية الوعى وتقوية الشعور بالهوية خاصة وأن معظم الحكومات الإفريقية ترحب بالمساهمة فى هذا المجال وتسمح بقيام المؤسسات التعليمية الخاصة الأمر الذى استفادت منه الكنيسة فائدة قصوى ولابد أن تراعى عند إنشاء المؤسسات التعليمية فى مناطق الأقليات أن تكون من النوع الذى يسمح بالصعود للجامعات والمعاهد العليا بتخصصاتها المختلفة حتى تجذب العناصر الذكية والفاعلة من أبناء المسلمين، ومن الأوفق أن تتبع المناهج القومية فى بلاد الأقليات الإسلامية مع اهتمامها بالعلوم العربية والإسلامية والمناخ التربوى الإسلامى السليم، كما يجب الالتفات لتأهيل المعلمين، وتوسيع حجم المنح الدراسية التى تقدمها الدول

الإسلامية لأبناء الأقليات وعدم حصرها في التخصصات الدينية فحسب؛ لأن كثيرا من الدول الافريقية لا تعترف بالشهادات الدينية ولا توظف حملتها في المرافق الحكومية.

القطاعات الاجتماعية

أصبحت القطاعات الاجتماعية كالشباب والأطفال والمرأة تتعرض لمخططات منظمة تستهدف تحويلها عن دينها وتفريغها من محتواها لحرمان الأقليات الإسلامية من طاقتها الشابية البناءة ومن المهام العاجلة أن يقوم المشتغلون بأمر الدعوة بين الأقليات بوضع البرامج الإسلامية التي تتلاءم مع هذه القطاعات لتوجيهها إسلاميا والاستفادة منها في دفع عملية الدعوة ذاتها. وذلك بانصراف الاهتمام للمرأة باعتبارها الراعية للمؤسسة الاجتماعية الأساسية وتثقيفها إسلاميا لينعكس ذلك على دورها التربوي المهم. كما يجب مراعاة أن عددا كبيرا من أطفال الأقليات الإسلامية يعانون من مشاكل الفقر واليتم والتشرد، وعلاجها يتم بإنشاء دور التربية ومؤسسات رعاية الأطفال التي لا تزال محتكرة لهيئات التنصير.

وسائل الاتصال

تلعب وسائل الاتصال الحديثة دورا هاما في نشر الأفكار والتغير الاجتماعي ويمكن الاستفادة منها في الدعوة أيما فائدة عن طريق تعاون الهيئات العاملة في حقل الدعوة بين الأقليات بإنشاء مراكز لطباعة الكتيبات التي تقدم التعاليم الإسلامية الأساسية ونشرها بمختلف اللغات المتداولة في أوساط الأقليات. كما يمكن الإفادة أيضا من أفلام الفيديو وأشرطة التسجيل الصوتي في تعليم العقيدة والفقه ومبادئ الدين.

وقد حان الوقت لتوجيه بث إذاعي إسلامي بمختلف اللغات المستعملة ليغطي المناطق الجغرافية للأقليات بحسبان الإذاعة وسيلة فعالة للوصول للأميين وذات مقدرة على تخطي مختلف الحواجز وهنا يمكن أن يسهم تعاون الدول الإسلامية وتنسيقها بحيث تتولى كل دولة مهمة البث لمجموعات لغوية وجغرافية معينة ليتم تغطية القارة كلها.

تدريب الدعاة

إن الدعوة الإسلامية وفقا لهذا المنهج الذي نحن بصدده لابد أن تقوم على عاتق كوادر بشرية مؤهلة لكل حقل من الحقول المتقدمة وعلى درجة عالية من الكفاءة والتخصص الدقيق لتسيير دفة المشروعات المختلفة وهذا لا يتأتى إلا بالتدريب الرفيع والمستمر.

كما ينبغي إعادة النظر في المناهج التي تعمل بها معاهد إعداد الدعاة الميدانيين الذين يؤهلون للعمل في مناطق الأقليات بحيث يتم إعدادهم إعدادا خاصا يتناسب والمهمة التي تنتظرهم. وذلك بتزويدهم بفكرة كافية عن طبيعة المجتمعات التي سيعملون بها وتاريخها وعقائدها واتجاهاتها وتزويدهم بالخبرات اللغوية والمهارات الضرورية وفنون الاتصال والإقناع.

توطيد العلاقات الدبلوماسية بين الدول الإسلامية والبلاد الأفريقية



إن البلاد الإسلامية بإمكانها أن تدفع الدعوة الإسلامية في مناطق الأقليات بصورة كبيرة إذا ما وضعت هذا الهم في طليعة همومها الدبلوماسية وعند رسم سياساتها الخارجية بتبني قضايا الأقليات المسلمة والدفاع عنها واستخدام كافة إمكاناتها الدبلوماسية والسياسية لتقوية موقفها العاضد لهذه الأقليات بحيث تشكل هذه السياسة طوقا من الدفاع الاستراتيجي عن هذه الأقليات وارتباطاتها الحضارية والإسلامية ويدعم كل هذه الجهود الدبلوماسية علاقات ثقافية متينة ونشطة تستهدف إنشاء المراكز الثقافية الإسلامية في تلك البلاد وتقديم المنح الدراسية المنتظمة لأبناء المسلمين. إضافة لعلاقات التبادل التجاري والاستثمارات والمصارف التي من شأنها أن تقوى العلاقات وتحسن من أوضاع المسلمين الاقتصادية.

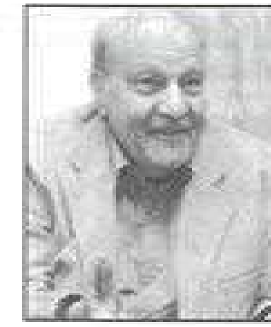
إن الجهود المتنوعة بإمكانها أن تدفع الدعوة الإسلامية شوطا متقدما بإذن الله إذا ما استصحب الدعاة والمشتغلين بأمر الدعوة أن واقع الأقليات يتطلب استخدام أكبر قدر من الحكمة بالبعد عن الخلافات والمذهبية وأن يتبعوا منهجا دقيقا في الخطاب يراعي فيه طبيعة هذه الأقليات التي تجهل الكثير عن الإسلام بحكم الظروف والملابسات التي تعرضنا لها في صدر هذا البحث فهي بعيدة عن المنابع الأساسية للدين بحيث لا يكاد المرء يميز بين سلوك المسلم وجيرانه من غير المسلمين فعلى الدعاة أن يهتدوا بهدى الآية الكريمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل: ١٢٥)

فإذا كانت هناك طريقتان للحوار إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها وجب على المسلم أن يجادل بالتي هي أحسن والداعية الحكيم هو الذي يدرك هذه المعاني ويحسن استخدام الأسلوب المناسب للظرف المناسب.

تحويل المرجعية التشريعية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين



للمستشار/ طارق البشرى

الموضوع الذى اخترته هو ، تحويل المرجعية التشريعية عبر القرنين التاسع عشر والعشرين ، يخرج قليلا عن إطار السمينار الذى يتخصص فيما يتعلق بالعصر العثمانى حتى سنة ١٩١٤ م، ولكننى سوف أزيد عن هذا التاريخ قليلا؛ لأن لها أهمية بالنسبة لى.

ولقد فضلت أن أتحدث ليس عن حركة التشريع، إنما عن المرجعية، وهذه لها أساس فكرى بالنسبة لى، فبعد استمرار عملية الحوار والجدل السياسى والثقافى الذى ثار على مدى العقدين الماضيين حول الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى، وجدت فى النهاية أن المسألة ينبغى ألا تطرح على أساس الأحكام القانونية، وإنما على أساس المرجعية؛ لأن المشكل لا يتعلق بالأحكام التفصيلية مثلا؛ أن عقد البيع يحتوى على ضمانات للمشترى عندما يشترى شيئا ما، ولا يتعلق بحقوق المستأجر عندما يستأجر قطعة أرض، أو مسكن، لا يتعلق بشىء من هذا.

والحلول التى يضعها الفقه الإسلامى والقانون الوضعى لمثل هذه الأمور متقاربة ، والخلاف فى هذا الأمر إذا كانت تقتضيه المصلحة حول بعض المعاملات الحاضرة من الممكن العبور إليه بسهولة ، والذين مارسوا التفسير بمناهجه ، سواء فى القانون الوضعى أو فى الفقه الإسلامى ، يعرفون كيفية هذا الأمر ، دون خروج عن النص ، إنما بإعمال مناهج مستقرة ومقررة ، فيها جانب منطقى ، وجانب مراعاة المصالح ، وقد كتب فيها فقهاء كثيرون ، خصوصا فى الفقه الإسلامى ؛ لأن نصوصه ثابتة ولا تتحرك ، فنجد كثيرين نظروا موضوع المصلحة ، قالوا إن المصلحة هى التى تؤدى إلى تغيير الأحكام ، ونحن سوف ننظر موضوع المصلحة - ونظروا موضوع المصلحة فعلا - ووضعوا لها قواعد كيف يمكن استخراج المصلحة ؟ وكيف يمكن تحريك النص فى إطار المصلحة ؟ وكيف يمكن استقراء الوصول إلى المقاصد العليا والعامة الخاصة بتشريع معين ؟ وكيف يمكن إعمالها فى هذه النصوص ؟ وكيف يمكن التقريب ما

بين ثبات النص وبين الواقع المتغير ؟

ولذلك المسألة فى الأساس يخيل لى أنها لم تكن مسألة أحكام فرعية ، فأنا مارست القانون فى شكله التطبيقى ، وكل شغلنا كان أننا نمسك النصوص الوضعية ونحركها على الواقع فى ظل واقع متغير ومتنوع ، والنص حتى إن كان وضعيا فهو نص ، فأساليبها معروفة ومستقرة ومعترف بها لدى أهل الصنعة ، ولذلك المشكلة ليست فى هذا الاتجاه ، وإنما المشكلة فى المرجعية ، ما هو الأصل الموضوعى ؟ ما هو الذى يجعل هذا النص شرعيا أو غير شرعى ؟

فى القانون الوضعى ترجع إلى ما يسمى حقوق الإنسان أو القانون الطبيعى ، القواعد العامة ، وهنا فلسفة القانون تدرس وفيها مدارس مختلفة ، وفى الفقه الإسلامى ترجع إلى القرآن والسنة بصفتهما المراجع الأساسية لتصرفات الإنسان ، فالمرجع هو الأساس .

ويوم أن غيرنا قوانين من الفقه الإسلامى إلى القانون الوضعى ، ابتداء من سنة ١٨٨٢ وما قبلها بقليل ، وسوف أفصلها فيما يلى ، يوم أن فعلنا ذلك لم تكن الأحكام التفصيلية هى مجال المشكلة ؛ بالعكس فعندما أحضرنا القانون الفرنسى وعرضناه على بعض علماء الأزهر وسألوهم رأيهم فيه ، مع أنهم لم يدرسوا القانون العالمى ولا القانون المقارن ، هم فقط درسوا المذاهب المقارنة فى الفقه الإسلامى فقط ، درسوا الحنبلى والشافعى والمالكى والحنفى ، والظاهرى والباطنى إلخ ، إنما لم يدرسوا الغربى ، فلما قرءوا القانون قالوا إنه قريب جدا من المذهب المالكى ، ونحن كان عندنا المذهب الحنفى هو المطبق من أثر من آثار العصر العثمانى ، إنما المذاهب المالكى بالنسبة للمصريين أقرب إليهم من المذهب الحنفى ، المذهب الحنفى أتت به الدولة العثمانية ، إنما المصريون عموما كانوا يتوزعون بين المذهب الشافعى بنسبة الثلثين تقريبا ، والمالكى بنسبة الثلث ، وكان شيوخ الأزهر جميعا شافعية ومالكية ، ولم يتول منصب مشيخة الأزهر قط حنفيا ولا حنبليا ، وكان أول حنفى يتولى مشيخة الأزهر هو الشيخ المهدى العباسى - رحمه الله - ، فى عهد الخديوى إسماعيل عندما أحب أن يجعل شيخ الأزهر بمثابة مفتى إستانبول ، وحيث كان المذهب الحنفى هو السائد ؛ فجاء بحنفى ووضعه فى مشيخة الأزهر ، وتولى الإفتاء فى نفس الوقت ، وبعد ذلك جاء الشيخ حسونة النواوى والشيخ عبد المجيد سليم وغيرهما ، إنما قبل ذلك كانت مالكية وشافعية . فلما يكون قانون أقرب إلى المذهب المالكى ، يرحب به المصريون أكثر مما يرحبون بالمذهب الحنفى ، والأزهريون بالذات يرحبون به أكثر .

ومع ذلك فإن ما حدث لم يكن كذلك ؛ لأنه قطع المرجعية . التشابك كان فى الأحكام التفصيلية ، إنما أين ذهبت المرجعية ، لم يعد الرجوع ثقافيا لرجال القانون للبحث عن أصل النصوص لم يعد الرجوع فى ذلك إلى القرآن والسنة ، فلم نعد نقول : قال الله وقال الرسول ، وإنما أصبحنا نقول قال قانون نابليون والقانون الرومانى من قبله ، فى مثل هذه المناسبات لم

نعد نرجع إلى الفتاوى الهندية والزركشي والمدونات الإسلامية، وإنما أصبحنا نرجع إلى الفكر الفرنسي، ولم نعد نقول من أين جاءت النصوص!! وإنما أصبحنا نرجع إلى محكمة النقض الفرنسية ونأخذ منها الأحكام، هذه هي المشكلة التي عزلت البناء القانوني عن التكوين الثقافي للجماعة المصرية في ذلك الوقت، حيث كان البناء الثقافي يستمد مشروعيته في الأخلاق وفي العادات وفي الثقافة العامة من الفقه الإسلامي، فالمشكلة إذن هي المرجعية وليست تشريعية الآخر، عندما نجد تشابها في القوانين لا يهمنا، عندما نجد تقليدا ومحاكاة من قوانين لقانون أجنبي لا يهمنا، فالقوانين المطروحة علينا نأخذ منها ما نريد لا مشكلة، إنما نربطها بالمرجعية التي تتعلق بالتقبل العام والثقافي في المجتمع لما هو الخير وما هو الشر وما هو الحسن وما هو القبيح، فعندما آخذ قلم الدكتور رءوف ويقول إنه قلمي، ويأتي آخر ليحكم، فبأى شيء سيحكم بيننا، سنقول هناك نص يقول كذا وكذا، وهنا سنسأل على أى أساس يحكم هذا النص؟

سنقول على أساس الدستور، إذن فعلى أى أساس يحكمنا الدستور؟ هذه هي المرجعية العليا التي تحكم في النهاية ما هو المشروع وما هو غير المشروع بالنسبة لتصرفاتنا وبالنسبة لسلوكنا. فأنا لست محتاجا إلى الشرعية في المأكل والملبس، إنما أحتاج إلى الشرعية عندما يكون رأى ينفذ على غيره، ولماذا ينفذ رأى على غيره؟ من الذي يجعل كلمته نافذة عليّ وماضية عليّ، نص أو قول أو فعل مرجوع فيه إلى مبدأ، المبدأ الفلسفي هو الذي يحكم في النهاية.

هذه هي النقطة التي تجعلني أشعر بأن المشكلة الأساسية ليست هي النصوص أو الأحكام الفرعية، بين القانون الأساسي والقانون الإسلامي، إنما المشكلة الأساسية هي: ما هي المرجعية؟، وهذا سيوصلنا إلى نتيجة حكم مختلفة تماما عما يمكن أن نصل إليه من ناحية تغيير القوانين والنصوص.

النقطة التي أريد أن أقولها أولا هي تعريف المرجعية، ما هي المرجعية؟ حتى تكون تعبيراتي واضحة. المرجعية في ظني هي الأصول الفكرية والثقافية العامة التي تؤمن بها الجماعة وتشكل قوة التماسك الأساسية في تشكلها بوصفها جماعة بشرية، وهي أيضاً الأصول الفكرية والثقافية التي تصدر عنها مبادئ المشروعية السائدة في المجتمع سواء بالنسبة للأوامر والنواهي، أو بالنسبة لأحكام التعامل بين الناس وهي الأصول الفكرية والثقافية التي تتشكل منها هياكل التنظيمات السياسية والاجتماعية المشخصة للجماعة العامة كجماعة سياسية، أو الجماعات الفرعية التي يتكون منها المجتمع والمنظمة لأنماط العلاقات الاجتماعية السائدة.

ملاحظات عامة

- أولا: قبل أن أدخل في الموضوع، فالذين تحدثوا عن الشريعة وعن فقه الشريعة قالوا أول حاجة عرفوا الشريعة، ونحن أول ما درسنا فقه الشريعة كانت أول محاضرة، وكان الشيخ على أول حاجة قالها شرع من مشرع، مشرع الماء هو مورد الماء وشرع من المصدر والمورد فكلمة الشريعة أصلها معناها المورد، أى العين التي نردها، وهذه هي أساس الحكم على المسائل كلها من الجانب الفلسفي أو الخط الأساسي، ثم بعد ذلك هناك أحكام تفصيلية تتعلق بالمعاملات بين الناس. هذه هي أول نقطة أحببت أن أوضحها.

- النقطة الثانية: علينا أن نثق فيما يأتي:

أولا: إن هناك دائما نصوصا ثابتة، وهنا وقائع متغيرة سواء بالنسبة للقانون الوضعي أو بالنسبة للشريعة، دائما أمامنا ما يسمى الاجتهاد أو التفسير، كل هذا يتعلق بتفسير النص الثابت على الواقع المتغير. فالنص أول ما يقال يصبح ثابتا، يصبح مجموعة من المعاني المحددة بمجموعة من الألفاظ، والوقائع متغيرة، وعليّ أن أطبق هذا النص الثابت على الواقع المتغير، سواء كان وضعيا أو قانونيا شرعيا.

كذلك النص يتعلق بمجموعة من المعاني المحددة المستقرة في النص، والوقائع متنوعة، ما من نص يتكون من مجموعة من الألفاظ، يمكن حصر جميع الوقائع التي يتناولها، إنما نلجأ إلى قدر من التجريد لكي يشمل معاني هذه العبارات، كل الوقائع المتغيرة، فهناك تنوع هائل، وهناك تحدد، والفرق بين التحدد والتنوع: التحدد هو النص، والتنوع هو الواقع، ومجاله إعمال النص، وهناك ثبات النص، وهناك تغير الواقع. والمشاكل التي تقابلنا في تطبيق النصوص الأساسية من الناحية الوضعية، هي بالضبط من نوع المشاكل التي تقابلنا في تطبيق النصوص الشرعية. هذه ناحية، الجانب الآخر: دائما هناك للنص سعة معينة، في وجه من وجوه الأعمال له سعة معينة، وهو محدد مثل السيف لا يحتمل التأويل، كما نقول مثلا الزوجة لها الثمن في الميراث، هذا الثمن لن يكون سبعا أو تسعا، الثمن ثمن ١٢,٥٪، إنما في غالب الأحكام هناك دائما سعة للنص، وسعة تسمح بقدر من الخلاف داخله، بين مشدد ومخفف، وبين من يراعي المعاني وبين من يراعي المباني، دائما هناك خلافات في هذا المجال، ودائما هناك سعة في النصوص، وهذه السعة هي التي تؤدى إلى نوع من الاختلاف في فهم النصوص، سواء كانت وضعية أو شرعية، وهناك مدارس وأحكام في فهم هذه النصوص وفي إعمالها، ثم يؤخذ أى معنى ويرجح بمدى ملاءمته للواقع ومطابقته له، فدائما هذه السعة موجودة في النصوص، ودائما تسع قدرا من الخلافات في داخله، إلى الحد الذي جعل واحدا مثل الإمام عبد الوهاب الشعراني يقول: الشريعة ليست مذهبا واحدا فقط، ولكنها جميع المذاهب معا، ليست رأيا على خلاف الآراء الأخرى، الآراء كلها هي الشريعة، وأى رأى واحد هو ناقص، رأى هو شريعة ناقصة؛ لأن كل هذا ممكن إعماله في ظروف معينة، فيعطيني سعة من التفسيرات، وسعة من كميات الأعمال بحيث أستطيع أن أغاير وأباين في التطبيق بين حالة وأخرى، مع اختلاف ظروف الزمان والمكان بالنسبة للجماعات التي تطبق عليها النصوص فلما نرى ثبات النصوص مع تغير التفسيرات التي ترد عليها عبر عشرين سنة أو ثلاثين سنة،

نلاحظ - وهذا لم يكن يعني أن الناس كانت تفكر خطأ أو صحا - فكل هذا استرداد لكميات النص، هذا إعمال للنص.

الذي زود إمكانيات السعة في هذا المجال، أنني ليس أمامي نص واحد، إنما أمامي مركز قانوني، والمركز القانوني يكون فيه مجال لإعمال عدد من القوانين معا في نفس الوقت على شيء واحد، فعندما أفتتح محلا أو كشكا في الشارع فسوف أجد نفسي خاضعا للقانون المدني والجنائي، وعدد كبير جدا من القوانين ينطبق على مجرد شخص يبيع سجائر مثلا، هنا عندما يأتي القاضي لتحقيق العدالة، يكون أمامه هذا المركز القانوني. فكيف يحقق العدالة من خلال تعامل هذه النصوص وتفاعلها مع بعضها؟ إن هذا التنوع يعطي له سعة أكثر، فلا يكون أمامه نص واحد: نعم أم لا، إنما أمامه عدد من القوانين تتعامل مع بعضها، وهذا إفساح في التعامل لتحقيق ما يراه من العدل والصالح والنافع في هذه الأمور.

المشكلة التي حدثت خلال العشرين سنة الماضية - مع أنها خارجة تماما عن نطاق هذه الدراسة - أننا تعاملنا في هذا الموضوع أخذاً ورداً حول الأحكام التفصيلية، وليس حول المرجعية، ومع أننا نلاحظ أن رجال الفقه والقانون عندما يتناقشون معا حول هذا الموضوع، يكونون أكثر هدوءا وأكثر تفهما لبعضهم البعض، وأكثر قدرة على مراعاة الجانب الصحيح من كلام الآخر؛ لأنهم يعرفون كيفية النقاش. إنما المشكلة التي حدثت أن عدداً من المفكرين السياسيين والفلاسفة بالمجردات التي في أذهانهم دخلوا في موضوع متخصص لن يتقنوا أساليب التعامل معه، فكان الصراع بينهم صراعا هائلا ما بين نافع أو ضار، تلغى أو تبقى، هكذا جملة واحدة، إنما التفاصيل لا تهم.

وهذا ما جعل الصراع بينهم صراعا حادا جداً، لأنه أصبح صراعا ارتطاميا واصطداميا عنيفا. ولكن عندما نرى أي مساجلات قانونية بين لجان متخصصة في موضوع الشريعة والفقه الإسلامي والفقه الوضعي، سنجد أنهم متفهمون، الوضعي يعرف جيدا مناهج الشريعة ودرسها جيدا ويعرف كيف يعمل، ويكون كلامه في موضوعات محددة، والمتخصص في الفقه الإسلامي والشريعة يعرف أيضا ما في الواقع المتغير من متطلبات جديدة، تحتاج إلى إعمال قدر من التجديد في هذا الوضع، ويعرف أساليبها وحدودها، ولذلك هم أكثر قدرة على التفهم من الآخرين دون الاصطدام والعراك الذي دار على مدى عشرين سنة، واستنفد منا قوة فكرية كبيرة حقيقة، وبدد طاقة فكرية لو كنا بذلناها في التعاون مع المختلفين، لكان الحال أحسن مما هو عليه.

من الناحية التاريخية عندما ندخل في بداية القرن التاسع عشر، نجد أن الوضع الفقهي في مصر يكاد يتفق الفقهاء الذين تكلموا عن هذه الفترة التاريخية أنه كان وضعا يتسم بالجمود الفكري والفقهي، وأنه كان يحتاج إلى قدر من إعمال مسائل الاجتهاد التي لم تكن واضحة في بداية القرن التاسع عشر، إنما لو نظرنا على مستوى العالم الإسلامي كله نجد أنه كانت

هناك أسس لحركات تجديد قامت في تلك الفترة، مثلا الدعوة السلفية في الجزيرة العربية، لما أسقطت المذاهب وقالت نرجع إلى القرآن والسنة وحدهما، حينما كانت في بداية التجديد؛ لأن التجديد في المعتقدات دائما يرجع إلى الأصول، ويسقط الاجتهادات التي حدثت ما بين الأصل والواقع الحاضر، حتى يبدأ من هذا الأصل بإعمال قواعد التفسير الجديدة دون أن يتقيد بالمذاهب وبما يراه. حتى الماركسية عندما أرادت أن تجدد قالت ماذا قال ماركس حقيقة، رجعوا إلى الأصول، وتجاهلوا الاشتراكية الثانية والثالثة وغير ذلك، وبدءوا من الأصول، فقالوا ماذا كان يقصد ماركس أولا، فالرجوع للأصل في هذه المسائل وسيلة من وسائل التجديد، والسلفية لا تعني هنا - في أصل وجودها - لا تعني الإمعان في الجمود، بالعكس هي صفة التجديد، وهي فكرة قالها محمد بن عبد الوهاب، وقالها من قبل الشوكاني، وقالها طاهر بن عاشور، وقالها فقهاء كثيرون على خلاف الأصقاع، عندما يأتون إلى التجديد يتركون المذاهب ويسعون إلى تجديد، والشيخ عبد الرزاق السنهوري - الله يرحمه - لما كان يسمع اجتهادا كان يقول أهذا اجتهاد على المذهب أم اجتهاد مطلق؟ لأنه كان يريد أن يعرف إذا كان اجتهادا مطلقا إذن فقد دخل من الباب الواسع.

أكان هذا هو الوضع في البداية، أما نحن فكان عندنا جمود في الفكر وجمود في المذهب في ذلك الوقت، أساسه في مخيلتي ليس الفكر وإنما أساس أن المجتمع نفسه، عاش نحو ٣٠٠ سنة في حالة سكون وجمود، المجتمع المصري والمجتمع الشرقي عامة، ولا يمكن تصور حتى من واقع الفكر الاجتماعي أن القانون بذاته يتطور مع وجود وضع اقتصادي واجتماعي ساكن وراكد وهادئ، من أين سيأتي التطور القانوني، ويتسع القانون لأفكار جديدة، مع هذا التحجر في الوضع الاجتماعي؟ على العكس عندما تكون هناك حركة ونشاط في المجتمع يبدأ القانون في تشريع هذه الأوضاع ويحيطها بالشرعية، وتحديد الصواب والخطأ والحق والباطل. غير هذا كيف يتطور القانون دون أن تستدعي الأوضاع الاجتماعية هذا التطور، فالركود القانوني هنا مردود إلى هذه النقطة الأساسية وهي ركود المجتمع كله. ولما جاء محمد على سنجد حركة في المجتمع فبدأ يصدر قوانين جديدة لتنظيم المجتمع. فكانت هناك جمود على أية حال في مطلع القرن التاسع عشر.

مشكلة أخرى كانت موجودة، على مدى النصف الأول من القرن التاسع عشر وهي النفوذ الأجنبي الذي وضح بشكل جيد في معاهدة ١٨٤٠، والذي صاحبناه بعد ذلك إلى نهاية القرن التاسع عشر، والذي بدأ يضع لنا حلولا قانونية جاهزة بدلا من قيامنا بإخراجها من نفس الإطار المرجعي القائم. وكانت هناك ضغوط سياسية، خاصة بالامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، والخاصة بالنفوذ الأجنبي الاقتصادي والنفوذ السياسي ثم العسكري فيما بعد، هذه هي المشاكل التي كانت تحيط بنا ونستطيع أن نوثق بها الوضع على مدى القرن التاسع عشر، ونرى كيف سنتعامل معها.

ونحن نبنى حضارتنا

للعلامة محمد فتح الله كولن

إننا كأمة لا بد لنا اليوم أن تعرف البرامج والخطط التى نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التى نريد التنقل عبرها فى مسيرنا لقد أحاط بمجتمعنا فى ماضينا القريب أحداث مأسوية زعزعتنا وفتحت عيوننا على العصر فى ضباب ودوى صواعق كأنها قيامة حمراء فكان عسيراً جدا بطبيعة الحال. أن نبصر بوضوح ونقاء الغاية والهدف الذى هو إحياء أمتنا، وأن نستدل على الاتجاه القصير الصائب للوصول إلى ذلك الهدف وقد وجدنا أنفسنا فى غبش ذاك الضباب والدخان ومركز رجة الكثير من الزلازل بل لعل ذلك كان محالاً بواقع الأحوال الداخلية والخارجية.

نعم كان عسيراً أو محالا لكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع فى الانبعاث من جديد وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية، متزامنا مع هذا الوقت العصيب بعينه، بعدما سيق إلى التضعضع فى كل ما هو ذاتى فيه وهى ليستلب وجعل قابلا للاستعمار وكان هذا حالاً خارقًا للعادة؛ لأن الشعور الفردى كان مهزوزا من الأساس والشعب كان حائراً ومضطربا فى قلب أشد الزلازل وأرهبها، وجموع البشر كانت مقصومة الظهر فى مآس مفزعة من أندر ما فى التاريخ.

وفى وسط ذلك الضباب والدخان الكثيف الذى لم يكتمل تشكل الوجدان والرأى العام الاجتماعى بعد لم يكن هناك غير أفراد منقطعين عن بعضهم البعض يكدون من أجل الوصول إلى المستقبل بدافع: أن يجدوا لقمتين ومأوى ويعنى ذلك أنهم يحسبون المراوحة فى مكانهم سيراً وتقدما غافلين عن غاية حياتهم وعن وجود قيم سامية تستحق كل شىء حتى الموت فى سبيلها! نعم كانت الأفكار مشتتة والإرادات مهزوزة والهمم مشلولة والآفاق مظلمة والقلوب خاوية، ولكن مع هذه الشطحات كلها كان المجتمع يصنع كل يوم أحلامًا جديدة ويسرى عن نفسه بالأمانى ثم يرجع خاوى الوفاض مما أمل فى كل يوم جديد ببرنامج جديد فحديثه عن تصاميم تشبه أحاديث النيام وحديثه عن مشاريع ولو ذات نطاق ضيق كانت تتزامن مع هذه المرحلة المشؤومة التى تضاعف فيها وقع النكبات عليه وتوالت عوامل التعرية الروحية ولقد بدا كل شىء فى البداية كرد فعل للأفكار

المستهان بها والمعتقدات المتعرضة للتزيف والضمائر المقموعة ثم أعقب ذلك حركات مستشعرة واعية وأنشطة مستديمة فمن اللائق أن نعتبر تلك البداية بداية حقيقية للانبعاث بعد الموت لأمتنا وكان طبيعيا أن يظهر بعد هذه المرحلة كما ظهر قبلها من يريد أن يتحكم فى هذه الحركة الواعية المستشعرة والطاقة الحاصلة من إحياء النفوس والأرواح ويوظفها كما يهوى ويشتهى وقد ظهر فعلا ولكن جموع البشر لم تعد تقبل أن تقع كرة أخرى فى موقع القابلية للاستعمار بعد ما بدأت تدرك ذاتها بذاتها وبمقوماتها الداخلية الذاتية ومع الزلات والكبوات كان الانخراط يمضى ويدوم فى هذا الإحياء الذى صارت الجموع تستشعره فى عوالمها الداخلية وفى أرواحها وقلوبها وسيحظى الجميع - الجميع من غير استثناء- بوجود ذاتى جديد عاجلا أو آجلا صحيح أن موانع كأمثال ذلك الضباب والدخان القديم لا زالت تعيق الرؤية السليمة والإحساس السليم للمجتمع لكن كثافة الضباب والدخان اليوم ليست كالقتام الذى عرفناه فبشىء من الهمة والجهد صارت القلوب قادرة على أن تنهل من منابعها الذاتية وأن تحلم بتحقيق رؤاها الحضارية.

غير أنه ينبغى اليوم أن تحدد إطار الفهم لتلك الحضارة ونعيد النظر فى كنهها (بتعريف جامع ومانع) ونقف على المعنى والمحتوى لأمسنا، وفوضوية يومنا وغموضه والمعالجات المتصورة لغدنا.. ثم نتعرف على صوت هذا العصر مع الحفاظ على الأصل والذات من جهة وأخذ معالجات الزمان الحاضر وتفسيراته بنظر الاعتبار من جهة أخرى وبدهى أن هذا عمل شاق لكننا قادرون على القيام بأعبائه بعناية الله عز وجل ما دمنا قد ألقينا بأنفسنا فى هذه الطريق.

ومن مقاربة أنثروبولوجية نجد أن الحضارة والتى يمكن أن نفسرها بأنها مجموع النشاطات المتعلقة بتنظيم الحياة الإنسانية أو التصورات الفكرية والاعتقادية والفنية لأى أمة أو كل الأوصاف الخاصة بوجودها المادى والمعنوى مفهوم له أشكال مختلفة وعديدة وذلك حسب الرؤى والفهوم والفلسفات والقدرة على التلقى ومهما كثر التنوع فى التفسير فلا شك أن الرؤية السليمة ليست تلك النوعية والأساليب من الحياة التى انتقلت إلينا من رجال فترة الاستعمار فتقطعت أنفاسنا لهثًا وراءها منذ سنين طويلة ونزعنا من أجلها عن أنفسنا كثيراً من قيمنا ولو كانت كذلك، لفقد الكفاحُ العظيم ضد الاستغلال والاحتلال كل معانيه وجدواه والواقع أن هدف الكفاح كان واضحًا وهو الاستقلال التام فى كل النواحى.

فإن كنا الآن نفكر فى إعادة بناء الذات من جديد ونبحث عن أسلوبنا الذاتى الحضارى فينبغى أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة فى داخلنا والبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتبع - بالضرورة - سبيلا يمكننا من العمل على طبع فكرنا الذاتى ونظامنا الاعتقادى الذاتى وفلسفتنا الذاتية فى الحياة على نسيجنا الحضارى الخاص.

وبغض النظر عن التحليلات الأنثروبولوجية الحديثة لا بد لنا - وبقدر المستطاع - أن نستخدم جميع الوسائل المشروعة للوصول إلى الهدف الجليل الذى

يمليه علينا فكرنا الذاتي، ونجد حلولاً بديلة للتخلص من الفوضى التى نعيشها وعلينا إذ نبحث عن الحلول البديلة - أن نأخذ بنظر الاعتبار كل الحيثيات التى تتعلق بموقعنا الجغرافية والاجتماعى ولئن كانت الحضارة عنوانا أو مصدراً لمجموع الأحوال والأشراط المادية والمعنوية، وكانت هذه الأحوال والأشراط واعدة بتلبية حاجة أفراد ذلك المجتمع من أطفال وشباب وشيوخ ومسنين، بل ملبية لها بالفعل فى كل مرتبة من مراتب الحياة وفى كل مرحلة من مراحل التطور فإنى أحسب أن الأصوب هو أن ننظر إلى القضية بعين عملية إلى جانب المنظور الأنثروبولوجى بصورة قد تتعدى علم الأنثروبولوجيا البحت وإذ نفكر فى هذا يلزمنا ألا نهمل المرحلة الراهنة لتطور المجتمع فإننا إذا اقتدينا - بوضعنا الحالى - بدول سبقتنا فى وتيرة الإمكانات الحضارية بأشواط بعيدة أو بأخرى تقطع المسافات بسرعة البرق فى الطريق الذى نمشى فيه مرة ونكبو أخرى ومعنا آخرون ممن يقاسموننا الخطوط والتوجهات نفسها وذلك للوصول إلى الغاية فأحسب أننا سنقع تحت صفعات الخيبة عند الفشل فى نوال المقصود ونعجز عن الوقوف على أقدامنا تحت وطأة الخذلان والفشل.

إن المجتمعات المتطورة والمتقدمة اليوم كانت من قبل تعانى من مثل ما نعانيه وكانت تقوم وتقعد فى تخبط كتخبطنا وتكتوى بنار عذاب كعذابنا ثم جاءتها أيام فتحت فيها أبواب التجديد على مصاريعها بفضل ما كانوا يتمتعون به من شوق البحث وعشق العلم وحثيث العمل ومكافأة من وفقوا بأجزل المكافآت فتحقق النجاح إثر النجاح مما أدى إلى فوران العزم وشحذ الشوق وصارت البيئة عندهم مشاتل تحتضن فسائل العبقرية فتتابع الاختراع من مكائن البخار إلى مصانع النسيج ومن مختبرات الأبحاث إلى المطابع وبلغوا بعد مدة عصر العلم والعقول الألكترونية.

ولما بادر الذين يقدرون العلم فى تلك الأيام بمكافأة الكشوفات والاختراعات والأبحاث العلمية صاروا وسيلة لانكشاف القابليات العظيمة فى كل مكان لتجد فرصتها فى النماء والتطور فكأن أطراف أرضهم معرض العجائب لأعمال النوابغ الذين لا يعرفون الفتور وكما تعاقب ظهور العلماء فى عالمنا الإسلامى من أمثال ابن سينا والفارابى والخوارزمى والرازى الزهراوى، إبان تحقق الوسط والبيئة الشبيهة. كذلك استخدم الغرب ما توارثه من المكتسبات خير استخدام وبأوسع وجه ممكن فى ذلك الوسط واستطاع أن يسم القرون الأخيرة بسمته لذلك من الغلط أن نحصر حاضر «الغرب» فى آثار جهود علماء ذوى قابليات راقية مثل كوبرنيك، وغاليلو، وليوناردو دافينشى، ومايكل أنجيلو، ودانتى، أو أديسون، وماكس. بلانك، وآينشتين، فلا يمكن أن ترجع النهضة العلمية أمس ولا الفوران العلمى والتكنولوجى اليوم إلى مساعى عدد قليل من أمثالهم فحسب وإلا فإننا سنواجه مشاكل نعجز عن إيضاح أسبابها بالقاعدة المعروفة بـ «تناسب» العلية فإن النجاحات الخارقة للعدة المتحققة أمس واليوم والتكوينات العالمية الكبرى مرتبطة إضافة إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم - بالبناء الاجتماعى المولد للعبقرية والوسط المناسب لتنشئة المكتشفين والبيئة العامة الحاضنة للقابليات فنقول بهذا الصدد إن الحديث عن الوسط والبيئة العامة مازال يرد حيثما كان يرد ذكر همة أصحاب الاستعدادات السامقة وجدهم وجهدهم بل كثيراً ما يظهر الدهاء والقابليات لأصحاب المواهب العظيمة والعباقرة السامقين بقدر ما تسمح به البيئة العامة وتوقع ما يخالف ذلك غير مجد اليوم أيضاً فبدهى أنه ما من أحد يقوى على تغيير قواعد الشريعة الفطرية فالذى يناطح السنن الكونية كلها فسيخر منهزماً عاجلاً أو آجلاً!! إن العبقرية فى أرض غير أرضها محكوم عليها أن تكون كعصف مأكول كما يحكم على البذرة بالفناء فى أرض لا ترعى فيها بالهواء والماء والقوة الإنباتية، إذن علينا نبحث عما نأمله لغدنا فى نقطة تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشق العلم وعزم العمل والبحث المنهجى، فإذا ما أثارت البيئة الصالحة العشق العلمى وألهبت العزائم على السعى والإنجاز فستشعر القلوب الحساسة بذلك فى أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقومه ثم تضعه موضع التنفيذ فى إطار منهجية معينة وبعد ذلك تعمل الدائرة الصالحة للارتقاء بالهامات وتداعيات وتركيبات وتحليلات جديدة تعقبها - باستمرار واطراد الجهود الفكرية والنظم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية والمتوافقة مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

لكن الحاصل عندنا كان دائماً عرضاً خلابًا لما أنتجه غيرنا تحت اسم الحداثة أو النهضة الإسلامية، وإن كان أكثر هذه المنتجات يناقض مرتكزاتنا الأساسية، فلم نفلح فى تفهيم «الحداثة» أو «النهضة» بمقوماتها الذاتية، أو قل إن شئت ذهلنا عن ذلك، ومن هذا الوجه، نستطيع القول بأن تخلف عالمنا عن اللحاق بما بلغته الدول المعاصرة وعجزه، مع كده وجهده، عن تحقيق النهضة المأمولة، ليس بسبب الوضع الجغرافى لبلادنا أو نقص الإمكانات أو ضعف القدرات والقابليات لإنساننا، بل لقصور عن فهم كنه التحديث ونقص فى الفكر، والاكتفاء بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة.

وأظن أن التعرف على أنموذج ألمانيا، وعملاق الشرق الأقصى اليابان، يزيح عن أنظارنا ستائر كثيرة لنطلع على نواقصنا، فألمانيا خرجت من حربين عالميتين مثخنة الجراح، فكان حالها فى النصف الأول من القرن العشرين خراباً وركاماً ومأوى لليوم الناعب فى كل طرف، وكأنها هى التى وصفها محمد عاكف فى بيت شعر «ترجمته»:

الديار خرائب،

والصحارى خالية موحشة،

والأيام محرومة من العمل والكد،

والليالى جاهلة بمعنى الغد.

لكنها تغلبت على المثبطات، ولمت شعثها وجمعت أشتاتها فى زمن قصير، وانتصبت بلداً عملاقاً أمام العالم، ولم يكن أحد يتفوه بكلمة عن الوحدة الألمانية، حينما كنا نحلم نحن بأحلام التحديث فى أوائل القرن التاسع عشر، وإذ صارت ألمانيا بلاد الأحلام متحدية كل هذا الخراب، لازلنا نتثرثر عن أحلام التحديث، وقد يقال: إن ألمانيا غيرت كفنها إلى قميص مرتين لكونها بلداً غربياً محظوظاً، فحققت انبعاثات بعد موتها مرات حسب فلسفة حياتها.. إذ ما كانت ألمانيا قادرة على القيام من كبوتها لولا حظها من القرابة الدينية والثقافية من دول أوروبا، ولئن قبلنا بهذه الفرضيات والتقديرات فى شأن ألمانيا، فثم يابان الشرق الأقصى التى تعرضت

إلى الحصر والتحديد من العالم الغربي كله ردحا من الزمن.

إن مشاريع التحديث عندنا تسبق اليابان بنصف قرن من الزمان، إنها بدأت بالسعي الحثيث في طريق التحديث بعدنا بخمسين أو ستين عاما.. فاجتازت كل العوائق وسبقتنا في طفرة واحدة مع أنها كانت قد أصيبت بنكبتين عظيمتين في تاريخها القريب، فأخذت موقعها بين العوائل الكبيرة والقوية التي تتولى شئون العالم، وإذ نسلي أنفسنا ونسرى عنها بأناشيد الولادة والانبعاث من جديد، بدأ اليابانيون بجني ثمار نهضتهم، وإذ ينهش بعضنا بعضا بعد مائة وخمسين سنة من المسير بمناقشة صحة نقطة الانطلاق بدلاً من النقاش حول الهدف المنشود، سد اليابانيون الفجوة بينهم وبين الغرب في زمن قصير لا يعدو الأربعين عاما، واكتسبوا قدرة منافسة عصرهم ومنازلته، فاليابان اليوم قوة عملاقة، بقدرة اقتصادها ونشاط مبادراتها، وطاقتها الاستثمارية الفعالة، وسمعتها الجيدة على مستوى العالم، وقد ظلت اليابان حذرة وانتقائية ومخلصة لهويتها القومية إبان تحقيقها التحديثات المتتالية وتبشير شعبها بوعود المستقبل المرفه، وأثناء اقتباسها من العالم ما تقتبس، وأخذها ما تأخذ أو تركها ما تترك.. فلم تستخف بتاريخها، ولم تلعن ماضيها، ولم تنكر جذورها المعنوية والروحية، بل ما فتئت تفكر مليا في المهاوي السحيقة بين حالها المتخلف وبين الذرى التي تصبو إليها، وتقوّم الحال بعقلانية وواقعية، فخططت مشاريع قابلة للتطبيق، وآمنت بأنها ستحل معضلات التخلف كلها بمنظومة اجتماعية تقوم، إلى حد كبير، على الأسس الأخلاقية، وملأت الفجوات الناجمة من نقص القدرات وزيادة الحاجات، بالاعتزاز الوطني والانتساب القومي والعز، والحركة المنظمة الهادفة وتنظيم المساعي والجهود، فنجحت في الاحتفاظ بهويتها الذاتية وصارت أنموذجا يذكره التاريخ كشعب أنجز عجائب العصر.

إن ما فعلناه في تاريخنا القريب هو الكدح في بناء الحضارة فوق إنجازاتها السابقة، وأنعمها وثمراتها، أما اليابان وأمثالها من البلاد المتقدمة، فقد أقامت كل شيء على أسس الفكر الحضاري والمفاهيم والسلوكيات الحضارية، ومع تقديري وتوقيري لشيء من التطور الحاصل عندنا، فإني أظن أن هذه النظرة المنحرفة، في عالمنا الإسلامي، هي السبب الرئيسي في مراوحتنا في مكاننا بينما يتسابق الآخرون من نجاح إلى نجاح، فبينما كنا نكافح نحن في استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة ووسائل تقاسمها، أقامت الشعوب المتقدمة بناء كل شيء على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة، واجتازت بسرعة الطير المهاوي التي سقطنا فيها، فارتقت إلى القمم التي قصرنا عنها.

ولننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، إن مجموع النتائج والمعطيات لحضارة معينة هي تلك الحضارة عينها، وعلينا أن ننسى أن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رءوس أموالها هو الزمن، ولا نشك أن الدول المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه، وعلاوة على استغلالها هذه المقومات استغلالاً حسنا، لم تهمل أبداً تقسيم الوظائف، واحترام الاختصاصات والاهتمام بالإنسان ومكافأة النجاحات واستثمار الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثماراً مجديا، وفي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تساوي قيماً فوق القيم في أيدي المجتمعات التي لم تنظم مساعيها تنظيما دقيقا، ولم توزع الواجبات والأعمال توزيعا جيداً، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيمة الحقيقية للإنسان، ولم تستثمر الزمن استثماراً مجزيا، ففي هذه الحالة ستكون هذه المقومات كالمتاع الذي يقع في يد بائع لا يقدر قيمته فيبيعه بثمن بخس دراهم معدودة.

إن كل الأمم التي تركت حضاراتها آثاراً وبصمات في التاريخ والخرائط الجغرافية لم ينقش اسمها على صفحات التاريخ بأحرف بارزة إلا بمثل هذه المثابرة في التقويم والتنظيم، والقابلية في التركيب والتحليل، والتعبئة الروحية والفوران المعنوي، ففي الخط التاريخي الطويل، الممتد من البراهمانية إلى البوذية، ومن اليهودية إلى المسيحية ثم الإسلام، هناك أمم عديدة تربت في مهد الإيمان والعشق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسب الأرض والزمان والإنسان قيما لا تقدر بثمن.

لكن الواقع أن الإسلام يمتاز بأوجه كثيرة عن جميع الأفكار والنظم القديمة والحديثة، الدينية واللا دينية، وابتداء، فإنه من المسلم به أن حركات التجديد والتحديث الواقعة في جميع النظم غير الإسلامية، أدت إلى إبعاد الدين عن مركز الحركة، أما في الإسلام، فعلى خلاف ذلك مطلقًا قد تولى الدين رسالة مهمة في مركز الحركة التجديدية، وتحولت كل حملة إلى تماسك وتضوع واعد بالمستقبل، بتغذيتها المستمرة من معانيه وروحه.

وما زال إنساننا منذ ستين ينتظر من روح الدين بارقة من هذا النوع كلما هم بالقيام بعمل، وبالفعل لاحظنا أن لمعان بارقة من هذا النوع ولو من بعيد، أو رؤى تحمل رموزا ودلالات حوله، قد كفت لانبعاث أرواح بالية منذ مئات السنين.

فما بالك إذا اطلعنا على نتائج الجهود التي تبدو الآن ضعيفة ولكنها في الحقيقة مهمة..؟! فإنني أظن أن الآمال حينذاك ستتحفز وتنشد بجدة «انبعاث بعد الموت»، وتنهض الإرادات، وتجيش القلوب بالإيمان، فإذا بنا نحقق المشاريع الحضارية المرتقبة منذ مئات السنين، واحدا تلو الآخر، هذا، ما لم نستسلم للعوائق المصطنعة والموقوتة التي تريد أن تقطع علينا السبيل، وما لم نتطلع إلى الأجور الدنيوية أو الأخروية لخدماتنا التي نحن ملزمون بأدائها والإيفاء بحقها، وحصرنا الغاية في طلب رضى الحق تعالى وحده.

إن التصور للديمقراطية والحرية، ولو بوضعهما الحاضر، قد خلصت شعبا عاش رهين الغفلة، وجهزته بأحاسيس وأفكار وقدرات للعبور إلى الحضارة.. فإذا لم تدمر التوازنات ضد مصالح أمتنا، في مواجهة الأحوال والمعادلات الداخلية والخارجية، فسنقتدر في العاجل القريب أن نقول: هاكم مشاعرنا الذاتية ومنظومتنا الفكرية وقراءتنا للحياة ورؤيتنا الحضارية وثقافتنا الأصيلة.

العلوم الكونية في خدمة الشريعة الإسلامية ومقاصدها (٢)



أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة

حفظ النسل والعرض وفطرية التزاوج

إن من يستقرئ تاريخ البشرية، فضلاً عن تعاليم الأديان السماوية، يدرك أن الزواج ونظام القرابة وتكوين الأسرة، وزيادة النسل وحفظ العرض، وعدم اختلاط الأنساب، والابتعاد عن الخيانات الزوجية، كلها قضايا مغروسة في فطرة الإنسان وكينونته، حتى عند البدائيين والوثنيين الذين لا يعتقدون في أية شريعة، نجد أن فطرتهم تنتفض بين حين وآخر، وتتجلى على شكل قانون، أو عادات وتقاليد، لتنظيم سلوكهم الأخلاقي وحياتهم الاجتماعية، فإن اتفاق البشر وتعاهدهم، على اختلاف مللهم ونحلهم وحضاراتهم وأديانهم وشرائعهم، على مسألة ما دليل على تأصل تلك المسألة في النفوس، وموافقتها للفطرة الإنسانية السليمة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، وتكون مهيأة لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين الخير والشر، وبين الجمال والقبح، واهتداء الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها فيه خير كثير يجعله يعيش في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، ولقد جاء الإسلام بشريعة واقعية توافق الفطرة النقية في كل ما أحلت وحرمت، وفي كل ما سنت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللدولة، وللمجتمع، من ذلك تشريعات الزواج والأسرة لحفظ كرامة الإنسان وبقاء ذاته ونوعه.

إن كافة الكائنات الحية يلهمها الله -سبحانه وتعالى- أعمالاً هي من صميم فطرتها وغريزتها التي لا إرادة لها فيها، من ذلك فطرية التزاوج والتناسل وما يلزمهما من سلوكيات تدل على قدرة الخالق الواحد- سبحانه وتعالى.

وإذا كان التزاوج بين أفراد الجنس البشري لم يختلف منذ بدء الخليقة من حيث الطرق المعروفة في إبداء الرغبة ولفت الانتباه بين الذكر والأنثى، فإن معظم الحيوان لا يختلف عن الإنسان في التزاوج، بل ربما تكون مظاهر الإلهام في تناسل الحيوان أقوى وأبلغ في الدلالة منها في الإنسان.

إن طائر البطريق -على سبيل المثال- له أسلوب في الغزل لا يحيد عنه، فإن أراد التودد إلى أنثاه، اختار حصاة وتقدم بها في زهو وحنان ووضعها تحت قدمه، فإذا التقطتها كان ذلك دليلاً على أنها قبلته زوجا لها، فيتزوجان، أما إذا تركتها ولم تمسها كان ذلك دليلاً على عزوفها عنه وإعراضها عن الزواج منه، وعندئذ يعود فيلتقط حصاته، وينصرف بها إلى أخرى!!!.

ويعتبر طائر الروبين من أوضح الأمثلة على ما تتخذه الطيور من خطوات طويلة للتزاوج، ففي صيف السنة السابقة لبناء العش يستدل الذكر على قطعة من الأرض كبيرة المساحة في حقل أو غابة، وحين يحط عليها يأخذ في الدفاع عنها ضد أي حيوان أو طائر يحاول انتزاعها منه، وحين يأمن وتثبت ملكيته لها، يقبع على شجرة قريبة ويأخذ في الصياح إعلانا منه وإشعارا لباقي الطيور بامتلاكه الأرض، ويظل على هذا الإعلان ستة أشهر كاملة، وفي منتصف الشتاء ينقلب صياحه إلى تغريد وغناء فتنجذب إليه الأنثى التي تعيش معه في الربيع، وحينئذ يتعاونان في بناء عشهما ثم يتلاقحان وتضع الأنثى البيض وتحتضنه حتى يفقس، وهنا نلاحظ أن التزاوج قد سبقته مقدمات منتظمة مقصودة الغرض طوال عام تقريبا، وكافة أفراد هذا النوع من الطيور تتفق في هذه الطقوس الفطرية التي علمها خالقها إياها مثلما علم غيرها في عالم الأحياء.

وقد لوحظ أن الطيور المهاجرة ترجع إلى مواطنها في مواعيد تكون محددة، مهما كانت المسافات التي تفصل بين الطير ووطنه، ليتم التزاوج والتناسل.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرى التي تدعو إلى العجب في عالم الحيوانات البرية والبحرية، وكذلك في عالم النبات الذي تتنوع فيه طرق التلقيح والتزاوج بين أعضاء التذكير والتأنيث بواسطة الحشرات أو الرياح أو الإنسان.

ويرتبط بفطرية التزاوج والتناسل في عالم الأحياء غريزة الأمومة السامية التي أوجدها الله -سبحانه وتعالى- في الأنثى من الإنسان والحيوان، وهي تأتي في مقدمة الغرائز الضرورية لاستمرار الحياة وبقائها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلقد ملأ الخالق -جل وعلا- قلب كل أم بالحب والحنان على صغارها، وهداها إلى وظيفتها في الحرص على أولادها مهما كانت التضحيات [1].

إلا أنه في هذا الصدد ينبغي إدراك الفرق الرئيسي بين الإنسان وغيره من الأحياء، ففي عالم الحيوان تقوم الغريزة الفطرية بتنظيم مواسم معينة للنشاط الجنسي، حتى إذا تمت المهمة، وحملت الإناث بذور الأجيال القادمة، صام الذكر والأنثى كلاهما عن كل محاولة جنسية صياما ينشأ من عدم وجود الرغبة، لا من ضبطها وتقييدها بإرادة الحيوان، ولهذا تهتم بعض الهيئات بالمحافظة على السلالات الحيوانية المهددة بالانقراض لأسباب مختلفة.

أما الإنسان فقد تحرر من هذا الضبط والقيد، وصارت الأيام كلها عنده موسما صالحا لهذا النشاط الجنسي، وفي مقابل

(١) د.أحمد فؤاد باشا، رحيق العلم والإيمان، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

الحرية تقوم دائما تبعة، فتلك سنة الحياة، وهذه التبعة تقتضى أن يقوم الإنسان نفسه بتنظيم مشاعره الجنسية وضبطها، بحيث تحقق أهدافها المرسومة، ولا تعود عليه بالضرر فرداً أو جماعة، وعلى قدر توفيقه فى هذه المهمة يكون مدى ارتفاعه فى سلم الرقى[٢]، فهو قادر على ضبط نفسه عن طريق الإرادة المتحكمة فى مشاعره وأعماله، وتلك مزيته التى كرمه الله بها، كما أنه قادر على اختيار ما هو خير من غيره وإيثاره على ما عداه، والإنسان لا يكون إنساناً إذا لم يعمل على ضبط نوازعه وتنظيم شهواته، وإذا لم يسلك الطريق المؤدية إلى كل ما يبعث على الرضا والاستحسان لكماله فى نوعه، أو لملاءمته، أو لفائدته، أو لاتفاقه مع التشريعات الإلهية[٣].

• أهمية النسب ومكانته فى الأسرة والحضارات القديمة:

من حقائق الفطرة الإنسانية أن هناك تجاذباً فطرياً بين الجنسين، لابد أن يأخذ سبيله إلى اللقاء على النحو الذى يحقق استمرار الحياة والإعمار فى الأرض إلى ما شاء الله تعالى، ومادامت فطرة التجاذب بين الجنسين حتمية الحدوث، ومادام الجنسان ليسوا أفراداً معدودين، ولكنهم رجال كثير ونساء، فقد لزم تنظيم التجاذب بينهما لكى لا يؤدى إلى الفوضى والاضطراب، وكان الزواج تلبية ضرورية لتلك الرغبة الفطرية، العميقة فى نفس الفرد، ونشأت "الأسرة" بنمو اجتماعى فطرى بحت لتكون "المجتمع" بادئ ذى بدء، فى أية صورة من صوره، ومازال الزواج والأسرة منذ وجدا فى مجتمع الصيد فى ظلمات التاريخ، "نظامين طبيعيين" فى بنية المجتمعات البشرية يلبيان دوافع الفطرة فى اللقاء الجنسى والرغبة فى النسل، رغم ما يظهر إلى جانبهما من نظم أخرى تقوم على الإباحية والتحلل، وتهدد البشرية بالدمار، فالفطرة تتأذى دائما من كل شىء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه[٤] وخاصية النمو، التى تنمى الطفل حتى يبلغ أشده، وهى خاصية بيولوجية، أى فى صميم الفطرة، هى ذاتها التى تنمى المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة، فتنتمى الأسرة إلى العشيرة، والعشيرة إلى قبيلة، والقبيلة إلى أمة، وهكذا، وتنمى العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة[٥]، ومن الطبيعى أن تكون التنظيمات الاجتماعية المختلفة ذات صلة وثيقة بالحضارة والثقافة.

وقد توصل علماء الأنثروبولوجيا إلى أن النسب والمصاهرة هما أساس القرابة بين اثنين أو أكثر، وتحدد هذه القرابة رابطة الدم، أو القبيلة، أو المصاهرة الناشئة عن الزواج، أو

(٢) محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
(٣) الاختيار فى ذاته قيمة إيجابية أنعم الله بها على الإنسان للسعى إلى الجانب الخير الكامن فى الفطرة الإنسانية، فالخير هو الغاية العليا للأخلاق إذا ما اتصفت به الأفعال فى طبيعتها، راجع مادة «خار» فى المعجم الوجيز، ومادة «خير» فى المعجم الفلسفى، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
(٤) محمد قطب، التطور والثبات فى حياة البشرية، دار الشروق، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
(٥) المرجع السابق.

الرضاعة، أو التبنى، الخ، ويقصر الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون مصطلح "النسب" على العلاقات القائمة بين أفراد ينتمون إلى أكثر من جيلين، فى حين يستخدمون مصطلح "البنوة" على علاقات النسب داخل "الأسرة النووية" ما بين الأب أو الأم- وأولادهما[٦]، وقد ظهر علم الأنساب بقواعده الجزئية والكلية للتعرف على أنساب الناس من أجل الاحتراز عن الخطأ فى نسب شخص.

وسوف نعرض فيما يلى بإيجاز لبيان أهمية النسب ومكانته فى الأسرة وفى بعض الحضارات القديمة.

١- حضارة المصريين القدماء

اعتمد مؤرخو الحضارة المصرية القديمة فى كتابة تاريخ هذه الحضارة على ما خلفته من تراث مكتوب وغير مكتوب يشمل الأهرامات والمعابد والمقابر وأوراق البردى واللوحات الجنائزية والتوابيت، وغيرها، بالإضافة إلى كتابات الرحالة اليونان والرومان، وما ورد فى كتابات الحضارة المعاصرة للحضارة المصرية القديمة، كالحضارة البابلية والسومرية والآشورية والفينيقية والآرامية، وما ورد فى الكتابين السماويين (التوراة والقرآن الكريم) من إشارات إلى مواقع قديمة وأحداث تاريخية.

وكان من بين الوثائق المهمة التى خلفها المصريون القدماء ما يعرف باسم "نصوص الأنساب"، ويقصد بها النصوص التى تحكى نسب عائلة معينة، وكان الاهتمام بتسجيل الأنساب قد انتشر بصورة خاصة فى العصور المصرية المتأخرة، وترجع أهمية تلك النصوص إلى أنها تساعد على معرفة تتابع بعض الملوك الذين عاشت أسر أصحابها فى عهودهم، ومن أشهر هذه الأنساب نسب كاهن عاش فى الأسرة الثانية والعشرين، منقوش على لوحة من الحجر محفوظة بمتحف برلين، وقد ذكر الكاهن أسماء ستين جداً، وأمام كل منهم الملك الذى عاصره.

وتشير مصادر أخرى إلى أن العرش انتقل فى يسر من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الثانية والعشرين دون إراقة دماء، ولعل رابطة النسب كانت الدافع لذلك الانتقال السلمى للسلطة لأن "سركون" ابن شاشنق مؤسس الأسرة ٢٢، وخليفته كان زوجاً لابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذى لم ينجب ذكراً، مما جعله يقبل تزويج ابنته من ابن أقوى رجل فى الدولة ليضمن العرش فى نسله من الإناث[٧].

وبصورة عامة، كانت النصوص المصرية القديمة تولى الزواج أهمية بالغة، وتنهى عن الزنا وتهدد مرتكبه بأعنف العقوبات، فالزوج الخائن يتعرض لعقوبة الجلد، والزوجة الخائنة تتعرض لجدع الأنف، كما كان الزنا أحد المبررات للطلاق عندهم دون تفرقة بين الرجل والمرأة.

ولقد كان لعقيدة الخلود بعد الموت عند المصريين القدماء أكبر الأثر فيما يتعلق بالأخلاق عندهم على مستوى الفرد والمجتمع،

(٦) مارفن هاريس، الأنثروبولوجيا الثقافية، الترجمة العربية مراجعة أ.د السيد حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٦م.
(٧) د.عبدالحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة، الخليج العربى للطباعة والنشر، د.ت.

وقد تضمن "كتاب الموتى" -الذي كانت توضع نسخة منه مع كل ميت- عددًا من "إعلانات البراءة" تكون بمثابة الدفاع الذي يدافع به الميت عن نفسه ويعلن أنه طاهر مبرأ من كل إثم حتى يمكن لسيد القضاء "أوزوريس" أن يحاسبه في الآخرة(٨).

ومما جاء في هذا الدفاع: "إنني لم أقارف الشر ولم أعتد، ولم أسرق، ولم أقتل غدرًا، ولم أمس القرابين، ولم أكذب، ولم أتدنس، ولم أذبح الحيوانات المقدسة، ولم أتلف أرضًا مزروعة، ولم أقذف (الأعراض)، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق، ولم أزن، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل، ولم أسئ الظن بالملك ولا بأبي، ولم ألوث الماء.. ولم أغش في الميزان، ولم امنع اللبن عن أفواه الرضع، ولم أسد قناة ري على غيري، ولم أطفئ نارًا يجب أن تشتعل، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة، إنني طاهر طاهر".

وبعد أن ينتهي الميت من هذا الكلام الذي يتوجه به إلى أوزوريس، يتوجه إلى القضاة قائلاً: ".. إنني آت بلا خطيئة ولا سوء، وقد فعلت ما يرضي الناس والآلهة، وأرضيت الإله بما يحبه، وقد أعطيت خبزًا للجائع، وماء للعطشان، وثيابًا للعاري، وزورقًا لمن ليس له مركب....".

ويلاحظ على هذا الدفاع الشامل أنه يتضمن كثيرًا من أوجه النشاط الإنساني الشامل في مجالات مختلفة تتعلق بالآلهة والملك والأب والجار، ثم بالناس جميعًا، بل بالبيئة الطبيعية نفسها، ثم يلاحظ كذلك أن هذا الدفاع ليس مقصورًا على الامتناع عن بعض الرذائل، وإنما يضيف إلى هذا الجانب عددًا من الفضائل الإيجابية التي تدل على التعاطف مع إخوانه من بني البشر، وإذا كان كل فرد يتخلق بهذه القيم الرفيعة والصفات الفاضلة، فإن المحصلة النهائية هي الارتقاء العام للأخلاق السائدة في المجتمع، وقلة نسبة المظالم والهبوط الأخلاقي(٩).

٢- الحضارة الصينية

تقف الحضارة الصينية وحدها وسط حضارات العالم الكبرى من حيث إنها قد تطورت في عزلة تامة، تقريبًا، عن بقية الحضارات، ولهذا كانت إنجازاتها فريدة، فهم يتكلمون لغة لا يربطها صلة بأي جماعة لغوية أخرى، وتكتب بخط اخترعوه لا يشبه غيره، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها وقراءتها بدور قوي في إحساس الشعب الصيني، لا بالوحدة والهوية فقط، بل كذلك بالاستمرار والتواصل، وهذه الخاصية الفريدة تكتسب أهمية خاصة في حديثنا عن مكانة النسب ونظام القرابة في الفطرة الإنسانية، مقارنة بالحضارات الأخرى القديمة، خاصة وأن استقراء التاريخ القديم يوضح لنا أن الصين قد تطورت بنفسها، وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوروبي الآسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء، ولا تمر بها أية طرق للتجارة، وبالرغم من هذه العزلة الجغرافية، فإن التجربة الصينية استوعبت مشاعر وتطلعات الجنس البشري كله، ولكنها عبرت عنها باستمرار بطريقة صينية خاصة في ظل الديانتين القوميتين الأصليتين: الكونفوشية، والطاوية (التاوية) على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصيني، حتى بعد مواجهة التراث الأجنبي الوافد إليها، وكانت الأولى ملهمة لفلسفة الأخلاق والسلوك الاجتماعي، بينما كانت الثانية ملهمة لديانة التصوف(١٠).

وإذا قصرنا الحديث عن الكونفوشية، فكان مؤسسها "كونفوشيس" (٥٥١-٤٧٩ ق.م) هو الفيلسوف الصيني الأول الذي أنشأ مذهبًا أخلاقيًا في التنظيم العائلي والاجتماعي وما يتعلق بهما من طقوس وممارسات، ويؤكد أحد مبادئ هذا المذهب على ما أسماه "ولاء الأبناء" أو "الهسياو Hsiao" التي تعني في اللغة الصينية أصلًا ولاء الأبناء للآباء الموتى وللأسلاف، والواجبات التي ينبغي أن تؤدى لهم كتقديم القرابين والطعام، لكن كنفوشيوس كان يشدد أيضًا على تأدية الواجب للأحياء، فقد أصبح "ولاء الأبناء" يعني خدمة الوالدين أثناء حياتهما، ومن ثم اكتملت علاقة الابن بأبيه، والأخ بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته.

فالهسياو إذن هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، حيث يتم أولاً، وقبل كل شيء، توقير الأبوين، لأن الحياة نفسها متولدة عنهما، وفي غمار إظهار التوقير للوالدين، يكون من الأهمية بمكان حماية الجسم من أن يلحق به أذى، حيث إن الجسم من الأبوين، ومن هنا فإن حماية الجسم هي تكريم للأبوين(١١)، والأكثر من ذلك أن يتم إظهار التوقير للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة، وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرف اسم أبويه، فعليه، على أقل تقدير، ألا يجلب لهما الخزي والعار، وهكذا فإن "هسياو" لا يتمثل في الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك في جلب الثراء العاطفي والروحي، ومن المهم بالقدر نفسه أن تكون أهدافهما وأغراضهما التي لم تتحقق هي نفسها، بعد موتهما، أهداف أبنائهما وأغراضهم، بل إن هذا أكثر أهمية من تقديم القرابين إلى روح الوالدين الراحلين.

والولاء للأسرة في فلسفة كونفوشيوس يعني أن يكون المرء مهذبًا وإنسانًا وخيرًا إلى أقصى حد، ويقول إن ما يجعل البشر إنسانيين على نحو فريد هو "جين" Jen، أي الصفة الجوهرية للقداسة، "فالجين" نفسه عند كونفشيوس هو نموذج متعال لم يبلغه سوى حكماء الماضي، إنه كيان صوفي(١٢)، ومن ثم فإن "هسياو" ليس فضيلة عائلية فقط، فهذه الفضيلة التي تنشأ في العائلة

(٨) جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م.
(٩) لمزيد من التفصيل، راجع: د. عبدالحميد عبدالمنعم مدكور، دراسات في علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٠م.

(١٠) جفري بارندر «محرر»، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣)، الكويت، ذو القعدة ١٤١٣هـ/مايو ١٩٩٣م.
(١١) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة: د. إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (١٩٩٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
(١٢) لقد تعددت ترجمات كلمة جين jen ومنها: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقي، الحب، الخير الإنساني، وهذه كلها قيم تشير بوضوح إلى أن «جين» هو المبدأ المطلق للفعل الإنساني، والكائن البشري الحق لا ينحرف عن طريق «الجين» قط، ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية.

تؤثر في الأفعال خارج المحيط العائلي، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية.

وعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم وتوقيرهم، فإن بمقدورهم أن يحبوا إخوتهم وأن يحترموهم، وعندما يحققون ذلك، فإن بإمكانهم ان يحبوا الإنسانية بأسرها، وأن يحترموها، وعندما يوجّه حبُّ الإنسانية كل الأفعال فإنهم يتصرفون وفقًا لإنسانيتهم، أو وفقًا "للجين "Jen"، وهكذا فإن بدايات "جين" إنما توجد في ولاء الأبناء "هسياو"، وإن العائلة تشكل في فلسفة كونفوشيوس البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففي العائلة يتعلم الطفل احترام الآخرين وحبهم، حيث يأتي الأباء أولاً، فالأخوة والأخوات والأقارب، ثم باتساع النطاق التدريجي، الإنسانية كافة، وقد قال "توتسو "Tutzu" أحد أتباع كونفوشيوس: "إن الولاء البنوى (هسياو) والاحترام الأخوى هما جذر الإنسانية"[١٣].

٣- حضارة وادي الرافدين

كان الزواج عند السومريين يحظى بأهمية بالغة، وكانت الخيانة الزوجية عندهم جريمة يعاقب عليها القانون، فالزانيان إن أخذا بالجرم المشهود يوثقان ويلقيان في الماء، وإن لم يكن بالجرم المشهود فيمكن للمرأة تبرئة نفسها بالقسم، ولم يختلف الأمر كثيراً عند الآشوريين، فالخيانة الزوجية عندهم عقابها الموت غرقًا، أو جلدُ الفاعلَين أو نتف شعرهما أو قطع آذانهما، وكانوا يدعون لزيادة النسل واعتبار الإجهاض جريمة خطيرة عقابها الإعدام، واعتبروا الضرب المفضى إلى الإجهاض جريمة عقابها الجلد خمسين جلدة، وتشغيل مرتكبها بأعمال السخرة، وقد تصل العقوبة في بعض الحالات إلى حد الإعدام، أما البابليون فقد خصصوا أكثر من ٦٠ حكمًا يتعلق بصيانة العائلة، والتشديد على الحد من وقوع الزنا وتنفيذ عقوبة الغرق لمرتكبه.

وفي أواخر الألف سنة الثالثة، أو في بكور الألف الثانية قبل الميلاد، نجد حمورابي أعظم ملوك الأسرة البابلية الأولى قد وضع نظامًا إداريًا لإمبراطوريته، وكان أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التي كشف عنها علماء الآثار الفرنسيون في "سوس" في السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادى، وكشف أيضًا عن أجزاء منها في مكتبة آشور بني بال في نينوى، وقد ترجمها القس س. هـ. و. جونس C.H.W.Johns، وهي تمثل تقدمًا عظيمًا بالقياس إلى ما جرت عليه العادات في المجتمعات الأولى، وكان من بين ما تضمنته "شريعة حمورابي" هذه أحكام الاستقامة في الزواج والتبني والإرث والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال، وقد ربط بعض الباحثين بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية، وأشاروا إلى امتداد تأثيرها في العهد المسيحي[١٤].

(١٣) راجع: جون كلور، الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق.

(١٤) و. ج. دى بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكى سوس، مراجعة: د. يحيى الخشاب، د. صقر خفاجة، دار الكرنك، القاهرة ١٩٦٥م.

الشكوك على كلام فاضل الأطباء جالينوس في الكتب التي نسبت إليه

تأليف: الرازي أبو بكر

القاهرة: مكتبة دار الكتب والوثائق القومية (٢٠٠٥م)

التعريف بالمؤلف:

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (٢٥١ هـ - ٣١٣هـ)، وكان مولده في بلدة الرى، بالقرب من مدينة طهران الحديثة. درس الرياضيات، والطب والفلسفة، والفلك، والكيمياء، والمنطق والأدب. ومن أهم إنجازاته: الإشراف على إنشاء بيمارستان (مستشفى) بغداد - بتكليف من الخليفة المعتصم بالله - وهو يضارع أحدث مستشفيات العالم اتساعاً وتنظيماً. ومن أهم إبداعاته كتاب الحاوى في الطب الذى يتكون من (٢٣) مجلداً، وهو موسوعة طبية أعدها لتعليم الأطباء فنون الفحص والتشخيص والعلاج لمختلف الأمراض، ووضع فيه كل ما توفر له من علوم السابقين والمعاصرين، مضيفاً إليها خبراته وآرائه. ومن أعظم كتبه «تاريخ الطب»، وكتاب «المنصورى» في الطب، وكتاب «الأدوية المفردة»، الذى يتضمن الوصف الدقيق لتشريح أعضاء الجسم. وألف موسوعة طبية أطلق عليها اسم «الجامع الكبير» في اثنى عشر جزءا على الأقل. وكان يعد العدة لكتابة جزأين آخرين من أجزاء «الجامع الكبير»، أحدهما «الجامع في العين» والثاني «الجامع في الحميات»، إلا أنه توفى قبل أن يحقق تلك الأمنية. وله مؤلفات في الصيدلة ساهمت في تقدم علم العقاقير. ويسجل للرازى أنه أول من استخدم مجموعتين؛ تجريبية وضابطة في البحث الطبي، وابتكر الطب النفسي في العلاج، واستعمال الموسيقى في علاج بعض الأمراض. كما يعد أول من استخدم خيوطاً من أمعاء الحيوان لخياطة الجراحات، وأول من حضر الجبس واستخدمه في تجبير العظام، وأول من اكتشف أثر الحساسية من مواد أو روائح معينة في إظهار بعض الأمراض، وأهم من ذلك أنه وضع نموذجاً للالتزام الأخلاقي للطبيب، وأسلوباً لاختيار الأطباء على أساس الالتزام والمهارة، والالتزام بحسن

رعاية المرضى. وقد ترجمت كتب الرازى، وتم تدريسها فى أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادى. وأمضى الرازى الشطر الأخير من حياته بمدينة الرى، وتوفى فى مسقط رأسه فى سنة (٣١٣هـ).

عرض الكتاب

يقع الكتاب فى (٢٥٢) صفحة، ويتكون من مقدمة للمحقق (ص٩-٣٥)، ثم عرض لآراء جالينوس فى قضايا عديدة، وإبراز مدى تناقضها (ص٣٩-٢١٦).

ويبدأ بآرائه فى قدم العالم وحدوثه (ص٤٤-٥٣). يذكر الرازى أن جالينوس قد منع بل قد حكم فى المقالة الرابعة من «البرهان» بأن العالم لا يفسد. ثم ناقض ما قاله وقال فى كتابات أخرى بأن: «ما لا يفسد فليس بمكون». فلم يكن ينبغى له أن يثبت الحكم بما أثبت به دون أن يبين أن العالم من الأشياء التى لا يمكن فسادها إلا على جهة الذبول كأنه لا يمكن أن يكون فسادا إلا على هذه الجهة فقط. وإنما يصح لزوم هذا التالى لهذا المقدم بزيادة مشروطة حتى يكون على هذه الصفة: لو فسد العالم فساداً ذبولياً لكانت الأجسام التى فيه لا تلبث بحالة واحدة بعينها (ص٤٦).

ويتناول الرازى آراءه فى أمر الإبصار (ص٥٥-ص٦٦). يذكر جالينوس: إنه من البين عند جميع الناس أنه ليس يكون البصر بأن صوراً تجرى إليه من كل واحد من الأشياء المبصرة ويستنكر الرازى ذلك بقوله: «كيف استجاز لنفسه الإقدام على هذا وهو يعلم أن أناساً كثيرين يخالفونه فى ذلك» (ص٥٦). ثم يذكر جالينوس: «وقول من زعم أنه يخرج من العين شعاع حتى يأتى البصر محال؛ لأنه لا يمكن للشعاع أن يمتد إلى الكواكب» فيعلق الرازى بقوله: «بل الأفضل من هذا أن يقال: إن صورة الكواكب والمبصرات متصلة بالبصر بتوسط المضىء» (ص ٥٦). وقال جالينوس: «وأعجب من ذلك أن يجرى فى وقت واحد صور كثيرة بحسب عدد الأعين التى تبصر بها». يذكر الرازى أن جالينوس استنكر ما ليس بمستنكر بل محسوس مشاهد وهو: تأدى أشباح الأشياء المبصرة. ونحن إذا أقمنا بحذاء البصر مرآة رأينا شبحه فيها: حتى إنه لو كان المبصر وراءنا، والمرآة أمامنا لأبصرناه بجميع أحواله حتى نخبر عنه كإخبارنا عنها لو كانت محاذية للبصر نفسه، ولو أقمنا حواليه وفوقه وتحته مرايا كثيرة لرأينا شبحه فى كل واحد، فكيف يكون الظاهر للحس مستنكراً؟ (ص٥٧). وقال جالينوس: «لو كان اللون وحده يأتى البصر بتوسط الهواء المحيط لم تحتج العين أن تتحرك، ولا كنا نعلم مقدار عظم الشىء وبعده وشكله». ويرد الرازى عليه إن العين إنما تحتاج إلى الحركة لتقابل المحسوس، كما أنا نحرك المرآة حتى نقابل لها ما نريد تشبحه فيها؛ ولذلك جعل لها العضل الذى يحركها ليقابل المبصر، ومتى لم يمكنها ذلك فزعت إلى حركة جملة الرأس (ص: ٥٨). (يقابل مفهوم الإدراك البصرى للحركة Visual Perception of The Movement).

ورد فى هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١- الجليدية «الرطوبة الجليدية»: جزء من العين الشبيه بالجليد المسماة باليونانية (قريسطالونداس) أى الجليدية. وهى بيضاء صافية نيرة مستديرة ليست بمستحكمة الاستدارة بل فيها عرض، وهى فى وسط العين كنقطة توهمناها فى وسط كرة (ص٦٢).

٢- العنبية: طبقة فى العين أمام الرطوبة، تحوى الرطوبة الشبيهة ببياض البطن، وهى شبيهة بالعنبة، وفى لونها سواد مع لون السماء، يقال لها باليونانية (راغويذيس خيطن)، أى العنبية.

٣- بطن الدماغ: خمسة أوعية، وعاءان فى مقدمه، ووعاء فى مؤخره، ووعاء فيما بين الوعائين المتقدمين والوعاء الآخر، وفى هذه الأوعية روح نفسانى تكون به أفعال التخيل والفكر والتذكر (ص٦٢).

٤- الروح النفسانى: هو الروح النورانى الذى به يكون البصر إلى الرطوبة الجليدية وهو يجرى فى عصب ينبت فى بطون الدماغ، وبه يكون التخيل، والفكر، والتذكر، وتوليد هذا الروح النفسانى من الروح الحيوانى الذى يتولد فى القلب، والحس والحركة الإرادية، إنما يكونان بنفوذ هذا الروح النفسانى، ووصول ما يحدث عنه فى العصب من الدماغ إلى الأعضاء الحساسة المتحركة (ص٦٣).

وبين الرازى تناقض آراء جالينوس فى طبيعة النفس الإنسانية (فى مواضع متفرقة: ص٦٧، ص١٧٨، ١٨٩). فجالينوس يقرر أن الأبدان آلة للنفس. وهذا مناقض لما يميل إليه فى أكثر كتبه. ويقول الرازى: «إن جالينوس يرى أن النفوس جواهر لها ذوات قائمة بغير جسد، وأنها موجودة قبل الأجسام، وهذا يناقض ما قاله فى أنه لا علم له بتة بأن النفس جوهر أم عرض، ولما يميل إليه فى أكثر كتبه فى أن قوى النفس تابعة لمزاج الجسد، فهو يرى أن النفس تابعة لمزاج الجسد من بخار الدم، والروح الذى فى بطون الدماغ، ولم يقل أنها شىء غير الجسد لها إنية، وذات قائمة بانفراد عند الجسد إلا فى هذا الكتاب (ص٦٧). ثم يتناول النفس الناطقة فيذكر جالينوس: «أى حجة لمن يقول إن النفس الناطقة فى القلب، ثم يداوى الرأس عند اختلاط الذهن ونحوه، فالقلب وإن كان المعطى والباعث إليه بالشىء الذى به تكون الأفعال العقلية والإرادية، فإن الدماغ حاله ما لا يمكن قبوله لذلك إلا معها، فنحن نداويه لكى يعود إلى حياته تلك» (ص١٥٢و١٥٣) وقال: «إن القوة النفسانية فى الدماغ، والعصبية فى القلب».

وورد فى هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم التالية:

١- العصبية: جسم أبيض لدن ينبت من الدماغ والنخاع، وينفذ فى جميع

البدن فيفيده الحس والحركة (ص: ٧٤).

٢- المراقية: مرض نفسي يشبه الماليخوليا إلا أن اختلاط الذهن فيها أقل، وهي وسواس سوداوي Obsessive يكون ابتداؤه من المعدة. ويتبع هذه العلة جشاء حامض، وبزاق رطب كثير، وحركة وقرقرة بعد تناول الطعام، والأعراض القوية لهذه العلة التفزع وخبث النفس (ص١٥٣).

ويشكك الرازي فيما ذهب إليه جالينوس من أن سبب تولد المني إنما هو بياض صفاقات المني، فيحيل الدم لذلك إلى بياض (في مواضع متفرقة: ص٨٤ - ٨٦، ص١٨١، ص٢٠٠). ويرى الرازي «أن السبب المولد للمني هو الغدد المحتوية على الدم الذي في صفاقات أوعية المني الذي في طبيعته المني» (ص٨٤-٨٦). وفي رد جالينوس على أرسطو، وبيان جالينوس: «أن الأعصاب والأغشية والآلات الأول بيض عديمة اللون، فهي بأن تكون مخلوقة من المني أولى من أن تكون مخلوقة من الدم»، يرى الرازي أن كلام جالينوس هذا مقنع لا برهاني؛ لأنه ليس كل ما يكون من شيء يحفظ لون مادته، بل لا يكاد يحفظه (١٨١). وقال جالينوس كذلك «إنما تنمو البيضة اليسرى قبل اليمنى لضعف خلقه، ونموها قبل اليمنى يدل على أن الحيوان يولد الإناث». ويرى الرازي أن هذا الكلام غير صحيح، ولو كان هكذا لكان إنما يولد الناس الإناث في الندرة والأقل، لا معتدلاً متكافئا، والبيضة اليمنى يجب أن يكون ضعفها في الأقل. ولذلك يجب أن يكون نمو اليسرى قبلها في أقل الأمر في الندرة. ويجب عن ذلك أن يكون تولد البنات في الندرة، وفي أقل الأمر (ص: ٨٤). ويفسر جالينوس العقم، حيث يذكر «أن المعتدل من الرجال يلد دائما، وأما الخارج عن الاعتدال فإنما يلد إذا صادف زوجا مضاداً له في المزاج». ويعقب الرازي «ليس يصح هذا فإنا رأينا رجالاً عقما، ونساء عواقر حال أبدانهم الحالة التي يحكم لها جالينوس باعتدال المزاج» (ص٢٠٠).

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:-

١- الصفاقات: هي الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر، وهي أغشية عصبية تلبس على التجويف من الداخل (ص: ٨٥).

٢- الكلام المقنع: هو الذي لا تقوم مقدماته على أساس منطقي، بل تقوم على أساس عاطفي (ص١٨١).

٣- الكلام البرهاني: هو الذي تكون مقدماته صادقة، فتصدق بذلك نتائجه (ص١٨١).

ويتناول الرازي مناقضة آرائه في مبدأ الحس والحركة (ص٨٦-٩٧). يرى جالينوس أنه «حيث مبدأ العصب فهناك مبدأ الحس والحركة الإرادية، وقوى النفس المدبرة، فينتج أن مبدأ ذلك أجمع من الدماغ». وقال: «ليس بالدماغ حاجة في هذه الأفعال إلى القلب إذا كان هو العضو الذي يتنازع فيه». ثم قال في توضيح ذلك: «إنه كشف عن القلب، وضغطت الكلتان، وعصر لا ينال الحيوان آفة في حسه، ولا في حركته، لا بل لو أخرج القلب عن الجسد جملة لبقي الحيوان بحاله في الحس والحركة، مدة ما إلى أن يجحف به خروج الدم فيموت. وأما القوم الذين ظنوا أنه يعرض للحيوان من شد هذه العروق الضوارب، يعني المعروفة بالمسبة سبات، فينبغي أن يعلم أن قد غلطوا وكذبوا أيضا، أما غلطهم ففي شدهم مع شد هذه الشرايين العصب الدقيق الذي يعرف بالراجع إلى فوق وأما كذبهم فقولهم إنه يعرض للحيوان عند هذه الحال سبات، وليس يعرض له سبات، بل إنما يعرض له عدم الصوت. ولو كان يعرض له عن شد هذين الشريانين أو قطعهما سبات، لكان الأمر على ما قال القوم؛ من أن الدماغ وإن كان منه منبت العصب؛ فإن الباعث إليه بقوة الحس والحركة هو القلب. ويعلق الرازي بقوله: «إن هذا الشك قائم بعينه ما لم يبين السبب في العارض، الذي يعرض عند الغمز، والضغط على هذين الشريانين، وهما العرقان النابضان الموضوعان عند جنبي قصبة الرئة، فإنه يعرض من الغمز على هذين العرقين حالة شبيهة بالصرع أولاً ثم بالسكتة، وربما لم ينحل، ولم يراجع الإنسان منه إذا أطيل إمساكه، والضغط عليه» (ص٨٨).

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١- السُبات: هو أن يكون الإنسان كالنائم مُلقى، وهو يحدث عن آفة في مقدم الدماغ، فإنه إن حدث فيه كله؛ أحدث سباتا ثقيلاً أو جموداً، فإن حدث في نصفه أحدث آفة في نصف الوجه. وصاحب السبات يكون ملقى لا يحس، ولا يتحرك إلا أن نفسه صحيح، وهذا هو الفرق بينه وبين السكتة (ص٨٨).

٢- الصرع: هو سقوط الإنسان بغتة وتخبطه، وضغط نفسه، ثم يفيق ويكون ذلك بأدوار (ص٨٨).

٣- السكتة: هو أن يعدم البدن كله الحس والحركة دفعة. ويتبع ذلك غطيط وزبد وموت في أكثر الأحوال (ص٨٨). وتعرف في موضع آخر بأنها: أن يعدم البدن كله بغتة الحس والحركة، خلا حركة التنفس وحدها، فإن عدمها فذاك أعظم وأدهى ما يكون منها (ص١٢٨).

ويناقض الرازي آراء جالينوس في الكون والاستحالة (ص٩٧-١٠٩). يرى جالينوس أن جميع الأجسام التي تقبل الكون والفساد، وهي أبدان الحيوان والنبات، والأجسام التي تتولد في باطن الأرض، إنما تركيبها من أربعة أسطقسات (عناصر)، وهي: الأرض والماء والهواء والنار. والطبيعة هي المزاج الذي تولد من الأسطقسات (العناصر) الأربع للإنسان. والطبيعة والنفس ليستا شيئا غير الحرارة الغريزية. وقال: إن مزاج العضو هو سبب أفعاله، وهذين جميعاً لا يتقدمان الجسم ويعلق الرازي بقوله: «كان يجب عليه مع اعتقاد هذا الرأي أن يحكم بأن النفس جوهر، وأن الطبيعة جوهر متقدمين في الكون للأجسام. وفي هذا

مناقضة لما قاله في هذه المواضع» (ص:١٠٣).

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١- الأسطقس (العنصر): ما منه يكون الشيء، ويرجع إليه متحللاً وفيه الكائن بالقوة، وأيضاً هو عنصر الجسم، وهو أصغر الأشياء من جملة الجسم (ص٩٨).

٢- القياس الخطابي: ما كانت مادته أو مقدماته من المقبولات والمظنونات (ص١٠٩).

٣- القياس الجدلي: ما كنت مادته أو مقدماته من المسلمات والمشهورات (ص١٠٩).

ويناقض الرازي آراء جالينوس في المزاج (ص١٢٤-١٣٦). يذكر جالينوس: «إن استعملت الزيت في الورم المعروف بالحمرة يبث لك حرارة، وأنه يضره مضرة عظيمة». ويعلق الرازي: ووفقاً لهذا القانون يجب أن تكون جميع الأشياء المجاورة للاعتدال، مجاورة يسيرة إلى الحر أو إلى البرد، لا تظهر أفعالها في الأبدان والأعضاء الصحيحة، لضعف تأثيرها. لكن إذا امتحنت الحارة منها في العلل الحارة والباردة ظهرت أفعالها، وبانت جداً، فيظهر إسخان المسخنة منها، إذا استعملت في العلل الحارة كالحمرة، إذا لطخت بالزيت، وتبريد المبردة إذا استعملت في العلل الباردة كدهن الورد؛ إذا صب على رأس صاحب الزكام البارد، أو السكتة البلغمية. وإذا استخدم في العلل الباردة؛ فإن ضرره بين فيها؛ لأن تبريده يظهر ظهوراً شديداً قوياً. وإذا كان هذا القانون صحيحاً، وهو صحيح فقانونه الثاني الذي قاده إلى أن دهن الورد يسخن بعض الأبدان، من أجل أنه أسخن مزاجاً منها باطل (ص١٢٩).

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم التالية:

١- السكتة البلغمية: هي ما يعرض من بلغم كثير بارد، يملأ بطون الدماغ، يتقدمه وجع حاد في الرأس، وانتفاخ في الأوداج، وظلمة البصر، ودوار، وبريق، وبرد في الأطراف واختلاج البدن كله، وثقل الحركة، وتصرير الأسنان في النوم، ويكون البول زنجارياً أو أسود، أو فيه قشار نخالي (ص١٢٨).

٢- المفلوج: هو من به ذهاب الحس والحركة من العضو البتة. وقد يذهب الحس وتبقى الحركة، وقد تذهب الحركة ويبقى الحس، وقد يذهبا جميعا (ص١٢٩).

٣- الحمرة: هي ورم حار صفراوي (ص١٢٩).

٤- الحمى المحرقة: هي الصفراوية التي لا تفتر، وتصل إلى القتل أو الإقلاع (ص١٢٩).

ويناقض الرازي آراءه في استخراج الأدوية (ص١٤٢-١٤٤). يذكر جالينوس: «إذا أردنا أن نصف أصل السوسن؛ لم نقل أنه يدر الطمث، وينفع السعال، وذات الجنب، والرئة، والصرع، والتشنج، والاختلاج، والرعدة، وهتك

العصب وفسخه، وأنه ينبت اللحم على العظام العارية، وينقي الجروح، ويسكن وجع الجنين، والكبد، والطحال، ويمنع سيلان المني، وينفع من أوجاع الرحم، ويقلع النمش، ولكن حسبنا أن نقول عنه - أي عن أصل السوسن - أنه من الحرارة في مقدار كذا، ومن اليبس في مقدار كذا، ومن اللطافة في مقدار كذا. فإذا ذكرنا ذلك تبين منه جميع هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة». ويرى الرازي أن في هذا الكلام تعدياً كثيراً، فجالينوس نفسه لم يكن ليعرف هذه القوى من هذا الوجه، لكن من التجارب والسماع من المجربين على الدهر.

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفهومين التاليين:

١- النمش: هو آثار في الوجه من غير لونه أكثر ذلك، وقد تكون في غير الوجه، وهو أقل من البرش (ص١٤٢).

٢- الكلف: هو كمد وقلة نضارة تقع في بقع من الوجه أكثر ذلك، وقد تكون في غيره من البدن (ص١٤٢).

ويناقض الرازي آراءه في الشعر (ص١٤٤-١٤٦). يذكر جالينوس أن استخدام الخضابات المسودة للشعر يورث الزكام والنوازل وقد يورث نوعاً من الاضطراب يطلق عليه قرانيطس وهو: سرسام حاد خطر، وعلامات مريض قرانيطس؛ مرة يعتريه السهر، ومرة ينام نوماً مشوشاً مضطرباً، مع اختلاط خيالات ظاهرة، حتى إنه يصيح ويثب، وفي بعض الأوقات يعرض له نسيان. ويكون مع جرأة وقحة زائدة على العادة، ولا يشرب إلا قليلاً، ونفسه عظيم متفاوت، والصابون به نبضهم ليس بعظيم، وهو صلب كأنه عصب، فإذا قرب الوقت الذي تعتريهم فيه العلة؛ يجدون وجعاً في مؤخر الرأس، حتى إذا وقعوا فيها يبست أعينهم جداً، وتدمع إحداهما دمعة حارة، ويصير فيها ومض، وتمتلئ عروقها دماً، ويقطر من آنافهم أيضاً الدم، وتبقى حماهم بحالها لا تنحط، ولا تنوب، ولسانهم خشن (ص١٤٥-١٤٦).

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الإدراك البصري للحركة Visual perception of the movement.
- بطن الدماغ.
- الروح النفساني.
- العصبة.
- المراقبة.
- الكلام المقنع.
- الكلام البرهاني.
- السبات.
- الصرع Epilepsy.
- وسواس سوداوي.
- السكتة.
- القياس الخطابي.
- القياس الجدلي.

القائم بالعرض

د. عبير محمد أنور

قراءة فى كتاب

حول معنى قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾

تكلم العلماء والفقهاء والمفسرون للوصول إلى مراد الحق تبارك وتعالى من النسخ وهل لفظة آية يقصد بها الجملة القرآنية أم آيات الله المثبوتة فى الكون؟

وهل النسخ تكرارها أم محوها؟

لقد تكلم الكثير من المفسرين فأخطأ من أخطأ وأصاب من عصمه الله.

فأما من أصاب فهو من سار على نهج الإمام الشافعى حيث قال: «إن النسخ هو: تأخير إنزال الحكم (على المكلف) فهو من قبيل بيان الأحكام، لا من قبيل إلغاء النصوص وإزالتها).

وكذلك من سار على نهج الإمام أبى حامد الغزالى حيث قال: «ليس معنى النسخ رفع الكلام، بل رفع تعلقه بالمكلف؛ والكلام (القرآن) لا يتغير فى نفسه.. فالنسخ سبب من جهة المخاطب يقطع تعلق الخطاب...

لأن كلام الله قديم، والقديم لا يتصور رفعه.

وأما من أخطأ فمنهم أصحاب النوايا الحسنة ومنهم أصحاب النوايا الخبيثة وقد سلّم كل منهما بوقوع النسخ فى القرآن الكريم بمعنى الإزالة والتغيير والإبطال فكان المنزلق الخطير الذى هوى بالأمة إلى هوة الاختلاف.

وقد تغافلوا عن قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾
(الكهف: ٢٧)

ومن أجل جلاء هذه الحقيقة جاء اختيارنا لهذا الكتاب «حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم».

أ.د. محمد عمارة
حقائق وشبهات
حول
معنى النسخ
فى القرآن الكريم
دار السلام

بقلم: عادل خفاجة

الهدف من تأليف الكتاب:

يرى المؤلف إن «علم النسخ والناسخ والمنسوخ» أثار ولايزال يثير الكثير من الجدل والاختلاف والخلاف، حول مفهوم النسخ وجوازه عقلا وعدم جوازه، وحول حدوثه أو عدم حدوثه.

وقد تركز الخلاف فى التساؤل: هل النسخ يعنى رفع الحكم الذى جاء به القرآن؟ أم أنه رفع لتعلق الحكم بالمكلف لتغيرات حدثت استدعت حكما آخر مع بقاء الحكمين الأول والثانى؟.

وبرغم التهافت الشديد لكثير من الروايات التى أسرفت فى الحديث عن الناسخ والمنسوخ - والتى لم تصح منها رواية واحدة - ولم يتم الاتفاق على إحداها ولا الاتفاق على الرفض لواحدة منها، وبرغم الآثار الواضحة ««للوضع» و«التدليس»، إلا إن الحديث عن النسخ مازال متراوحا بين القبول، والتحفظ والنقد والرفض الشديد.

وهكذا وجد المؤلف نفسه أمام هذه القضية التى استغلها الكثير من الزنادقة المعاصرين سبيلاً للهجوم على الصحابة الأمر الذى نقل القضية من خلاف فكرى فى تراثنا الإسلامى إلى ما سماه البعض «فتنة الناسخ والمنسوخ» فكان هذا الكتاب لتجلية وجه الحق فى هذه القضية.

مؤلف الكتاب:

هو مناضل جسور لا يبتغى غير الحق، إنه الأستاذ الدكتور محمد عمارة مصطفى عمارة - عضو مجمع البحوث الإسلامية «هيئة كبار العلماء» بالأزهر الشريف ورئيس تحرير مجلة الأزهر الغراء.


د. محمد عمارة

ولد فى السابع والعشرين من شهر رجب ١٣٦٠هـ الموافق ٨ من ديسمبر ١٩٣١م ببلدة «صروة» مركز قلين بمحافظة كفر الشيخ فى أسرة ملتزمة دينيا.

حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية، ثم التحق بمعهد دسوق الدينى الابتدائى الأزهرى.

- ثم التحق سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م بمعهد طنطا الأحمدى الدينى الثانوى وحصل على الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٤م.

- ثم التحق «بكلية دار العلوم» جامعة القاهرة وتخرج منها سنة ١٩٦٥م بدلاً من ١٩٥٨م بسبب نشاطه السياسى.

- ولفضيلة الدكتور محمد عمارة نشاط كبير فى مجال النشر حيث نشر المقالات فى صحيفة «المساء» المصرية - ومجلة «الأدب» البيروتية - وألف ونشر أول كتبه عن «القومية العربية» سنة (١٩٥٨م).

- وبعد التخرج فى الجامعة أعطى كل وقته - تقريبا - وجميع جهده لمشروعه الفكرى، فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة: رفاعة رافع الطهطاوى.. وجمال الدين الأفغانى.. ومحمد

عبده.. وعبدالرحمن الكواكبى.. وعلى مبارك.. وقاسم أمين.. وكتب الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامى.. مثل: الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا.. والشيخ محمد الغزالى.. وعمر مكرم.. ومصطفى كامل.. وخير الدين التونسى.. ورشيد رضا.. وعبدالحميد بن باديس.. ومحمد الخضر حسين.. وأبى الأعلى المودودى.. وحسن البنا.. وسيد قطب.. والشيخ محمود شلتوت.. والبشير الإبراهيمى.. إلخ.

- ومن أعلام الصحابة الذين كتب عنهم: عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وأبو ذر الغفارى، وأسماء بنت أبى بكر.. رضى الله عنهم أجمعين كما كتب عن تيارات الفكر الإسلامى - القديمة والحديثة - وعن أعلام التراث الإسلامى، مثل: غيلان الدمشقى.. والحسن البصرى.. وعمرو بن عبيد.. والنفس الزكية: محمد بن الحسن، وعلى بن محمد، والماوردى. وابن رشد (الحفيد)، والعز بن عبدالسلام.. إلخ..

- وتناولت كتبه - التى تجاوزت المائتين وأربعين - السمات المميزة للحضارة الإسلامية.. والمشروع الحضارى الإسلامى.. والمواجهة مع الحضارات الغازية والمعادية.. وتيارات العلمنة والتغريب.. وصفحات العدل الاجتماعى الإسلامى.. والعقلانية الإسلامية..

- وحاور وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة.

- وحقق عددًا من نصوص التراث الإسلامى - القديم منه والحديث.

- وكجزء من عمله العلمى ومشروعه الفكرى حصل على الماجستير سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠هـ - من كلية دار العلوم - فى العلوم الإسلامية - تخصص الفلسفة الإسلامية - بأطروحة عن «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية».. وعلى الدكتوراة سنة (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، بأطروحة عن «الإسلام وفلسفة الحكم».

- نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية منها:

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

- والمعهد العالى للفكر الإسلامى بواشنطن.

- ومراكز الدراسات الحضارية بمصر.

- «المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» - مؤسسة آل البيت بالأردن.

- مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

وحصل على العديد من الأوسمة والجوائز وشهادات التقدير.

- جاوزت أعماله الفكرية مائتين وأربعين كتابًا بالإضافة للمقالات فى العديد من الصحف والمجلات.

- ترجم الكثير من الكتب إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية.

الكتاب

يقع الكتاب فى مائتين وأربعة وعشرين صفحة من قطع ١٧سم × ٢٤سم. صدر عن دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة فى طبعته الأولى سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

وينقسم الكتاب إلى قسمين الأول: يشمل الدراسة موضوع البحث والقسم الثانى: يشمل ملاحق توثيقية.

تناول الملحق الأول: ثبت بالمواضع القرآنية التى وردت بها كلمة «آية» مفردة وجميعها بمعنى الحجة والمعجزة والعلامة وليس الكلمة أو الجملة من القرآن.

وتناول فى الملحق الثانى: بعضًا من النصوص التراثية: قديمة وحديثة ومعاصرة.. كتبها أصوليون وفقهاء ومفسرون تعارض حدوث النسخ فى القرآن الكريم - بمعنى إبطال الأحكام وإزالتها - وتبين ما تشابه على البعض فى هذا المقام واقتصر على كل من الإمام الشاطبى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الخضرى بك والشيخ محمد أبوزهرة والشيخ محمد الغزالى والأستاذ عبدالكريم الخطيب.

أما القسم الأول.. فقد خصصه المؤلف للتأكيد على عدد من النقاط نذكر منها أن العقيدة الإسلامية ترفض النسخ بمعنى التبديل لآيات القرآن وقد قدم فضيلته لهذه القضية بفصل عن النسخ فى اللغة والاصطلاح وفصل آخر عن النسخ فى القرآن ليصل إلى أنها مجرد شبهات فإذا ما وصل إلى ما يريد إثباته من أن العقيدة الإسلامية ترفض النسخ بمعنى التبديل لآيات القرآن يزيد الأمر وضوحا فى فصل تال يناقش فيه النسخ فى ميزان العقل.

ثم يتناول المعنى الحقيقى للنسخ عند الصحابة والقدماء والأصوليين من خلال عرضه لاقتباسات من كلام: حجة الإسلام أبى حامد الغزالى، والإمام الزركشى، والإمام الجصاص والإمام القرافى والإمام النيسابورى، والإتقانى الحنفى وابن القيم، وابن حزم الأندلسى، وعند أعلام المفسرين.



إن الرجوع إلى المعاجم اللغوية أمر مهم فى دراسة أى قضية ولكنه أكثر أهمية فى هذه القضية؛ لأنها فى الأساس قضية لفظية تعتمد أساسا على المعنى المقصود من اللفظ لذلك عوّل عليه المؤلف وأعطاه ما يستحق من الدراسة وانتهى إلى القول: «ونحن عندما نتأمل فى هذا الذى قالته معاجم اللغة العربية، عن معنى النسخ.. وفى تقسيمها لمعانيه.. وفى الأمثال التى مثلت بها لهذين المعنيين: الإثبات.. والإبطال والإزالة التى تحدثت عنها هذه المعاجم - لمعنى النسخ - والتى ضربت لها أمثلة: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الآثار، هى إثبات - مثلها مثل نسخ الكتاب - وليست إزالة ولا محوا ولا إبطالاً بحال من الأحوال.. فنسخ الشمس للظل هو نقل له من مكان إلى آخر، مثل نسخ الكتاب من صورة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر، وليس إزالة ولا محوا ولا

إبطالاً وإعداماً.. وكذلك نسخ الريح للآثار هو نقل لها من مكان إلى آخر.. فهو - بعبارة ابن منظور -: «نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو».. وكذلك الحال مع المثال الذى أورده الراغب الأصفهانى لتناسخ الأرواح: «أى بقاؤها وانتقالها إلى الأجسام على التأبيد»..

إذن.. فالنسخ الذى تحدثت عنه معاجم اللغة العربية له معنى واحد - فى هذه اللغة - وهو الإثبات.. ولم يرد هذا المصطلح - النسخ - بمعنى الإزالة والمحو والإبطال والإعدام..

ولهذه الحقيقة دلالتها المهمة فى سياق الدراسة التى يقدمها هذا الكتاب.

ويعلق المؤلف على ذلك قائلاً:

«وبهذه الإضاءات التى يعيها الفاقهون لهذه المعاجم والموسوعات تتبدد أوهام كثيرة وترتفع غشاوات كثيفة سادت وانتشرت فى كتب من سماهم السيوطى «عوام المفسرين» وهى الأوهام والغشاوات التى استغلها - ويستغلها - أعداء الإسلام من الملاحدة والزنادقة والمنصرين.

النسخ فى القرآن:

ننتقل إلى فصل آخر من فصول الكتاب حيث عرض المؤلف عدداً من الآيات الدالة على امتناع التبديل فى كتاب الله مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(الأنعام: ٣٤)

وقوله تعالى:

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(يونس: ٦٤)

ليدلل على استحالة تبديل أى كلمة من كلمات هذا القرآن الكريم ثم يقول:

«فالحفظ الإلهى - المؤكد - شامل لكل مكونات هذا الذكر الحكيم - من المبانى والألفاظ إلى المعانى والأحكام.. بل إنه إذا كانت المبانى والألفاظ إنما تغيّت فيما تغيّت - أن تكون أوعية للمعانى والأحكام، فإن الحديث عن محو الأحكام وتغييرها وتبديلها، مع بقاء مبانيها وأوعيتها وألفاظها، هو نوع من العبث اللا معقول، إذا هى مجرد شبهات.

بعد أن أشار المؤلف إلى من أسماهم الإمام السيوطى «عوام المفسرين» وتحذيره من الأخذ عنهم راح يتساءل: إذا كان هناك شبهة فما هو مصدر هذه الشبهة؟

وهل من الممكن رد هذه الشبهة انطلاقا من حقائق التراث؟ وليس بالثورة على التراث كما صنع بعض الذين أنكروا حدوث النسخ فى القرآن الكريم؟

لذلك يناقش المؤلف «الدليل العمدة» لجميع القائلين بالنسخ فى قول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾

(البقرة: ١٠٦)

وفى آية سورة النحل:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ١٠١)

فيتتبع ورود لفظ «آية» فى القرآن فى صورها «المفرد، والمثنى، والجمع» ليصل إلى المعنى المراد من هذا اللفظ وليصل إلى أنه باستقراء المواضع القرآنية التى ورد فيها لفظ «آية» مفردة فى جميع المواضع - على سبيل القطع والحصر - فإن المراد بالآية هو العلامة والمعجزة والحجة.

وهو موضوع حديث القرآن فى سورة البقرة وفى سورة النحل، ومن ثم فلا حجة للذين زعموا أن النسخ بمعنى المحو والإزالة. وبذلك سقطت الحجة الأولى والأساسية التى استند إليها القائلون بحدوث النسخ.

ويخلص المؤلف إلى أن السياق والمعنى المراد هو سياق الحديث عن المعجزة والحجة، وليس عن العبارة القرآنية بأى حال من الأحوال.

العقيدة الإسلامية ترفض النسخ بمعنى التبديل لآيات القرآن

يستهل المؤلف هذا الفصل بالإشارة إلى تلك البقع السوداء على صفحات الفكر الإسلامى التى جلبها التسليم بوجود النسخ فى القرآن الكريم بمعنى المحو والإزالة وضرب أمثلة لذلك:

- إن قبول الشيعة لعقيدة «البداء» - ذات الأصول اليهودية - قد نشأ عن تسليمهم بالنسخ - بمعنى التغيير والتبديل - فى القرآن الكريم.. لقد سلموا بأن الذات الإلهية قد أرادت أشياء.. وقضت بأمور.. وحكمت بأحكام.. ثم بدا لها ما لم يكن باديا، ولا كان لها به علم، فاستدركت وغيرت وبدلت فيما قضت به وأمرت ونهت وحكمت، رعاية - بزعمهم - لأمور تغيرت، ومصالح استجدت، وعلم لم يكن.. ولقد انعكس هذا «البداء» فى التغيير والتبديل - أى النسخ - الذى حدث - بزعمهم - فى القرآن الكريم.

وهكذا قاد التسليم بالنسخ فى القرآن هذا الفريق من الشيعة إلى تبنى هذه العقيدة اليهودية، التى أدخلت فى الفكر الشيعى صورة يهودية غريبة للذات الإلهية.. صورة الإله المتقلب والمتغير فى علمه وقضائه وحكمه. وهى صورة غريبة عن عقيدة الإسلام فى تنزيه الذات الإلهية تنزيها يجعلها مصونة عن أن تلحقها الحوادث والتغيرات - التى هى من صفات البشر - وليست من صفات الذات الإلهية، الذى

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(الشورى: ١١)

كما أنها هى الصورة الزائفة والغريبة التى جاءت للإله فى أسفار العهد القديم.

- كذلك، قاد هذا التسليم الشيعى بحدوث النسخ فى القرآن - بمعنى المحو والإزالة والتغيير والتبديل - إلى تجويزهم تحريف الصحابة للقرآن الكريم.. فخرجوا عن الإيمان بالحفظ

الإلهى للقرآن، وعصمته عن التحريف والتغيير والتبديل.. ومن ثم سقطوا فى خطيئة الادعاء بأن هناك تحريفا وتغييرا وتبديلاً قد طال القرآن الكريم.. وكذبوا فنسبوا إلى الإمام أبى جعفر محمد الباقر (٥٧ - ١١٤هـ/ ٦٣٦ - ٧٣٢م) القول بتحريف القرآن!

> - والمعتزلة، الذين قادهم الحرص الشديد على نقاء التوحيد والتنزيه للذات الإلهية.. وعلى نفى تعدد القدماء.. ونفى قدم الكلمة - كلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام كى لا ينفتح الباب أمام النصارى لتأليه المسيح.. قادهم هذا الحرص على المقاصد المشروعة والنبيلة إلى الوقوع فى منحدر القول بخلق القرآن وحدوثه.. وما كان لهم أن يقعوا فى هذا المنحدر - الذى مثّل صفحة سوداء فى تاريخ الفكر الإسلامى - إلا بسبب تسليمهم بالنسخ - بمعنى المحو والإزالة والإعدام والتغيير والتبديل - فلقد اعتبروا حدوث النسخ فى القرآن - بهذه المعانى - دليلاً على خلق القرآن وحدوثه، وجواز حدوث التغيير فيه.

النسخ فى ميزان العقل

وفى هذا الفصل يشير المؤلف إلى تلقف الحداثيين الوضعيين المبدأ الخطير الذى وقع فى حبائله القائلون بالنسخ - مبدأ تغير «أحكام القرآن» وآياته بسبب تغير «الواقع» ليعلنوا انتصار الفلسفة المادية التى تقول بأولوية «الواقع» على «الفكر».. جاعلين من «الوحى» «فكراً» - بعد أن أخضعه أنصار النسخ للتغير والتبدل تبعا لتغير الوقائع والمصالح..

انطلقوا يدعون إلى «تاريخية القرآن الكريم».. أى ربطه بالوقائع التاريخية التى سادت عصر ظهوره ونزوله، والتى جاءت آياته استجابة لها.. حتى سابقوا وسبقوا أنصار النسخ.. فقالوا - عمليًا - بنسخ كل القرآن الكريم!!

وقد نبّه المؤلف إلى أن القول بالنسخ هو الذى مثل «الحفرة» التى حولها الوضعيون الماديون إلى «بئر عميقة وسحيقة»، ثم يوضح أن النص القرآنى - الثابت الخالد - قد وقف عند الثوابت، سواء فى العقائد أو القيم والأخلاق أو كليات المعاملات وقواعدها وفلسفات أحكامها.. فلا حاجة لهذا النص القرآنى - فى خلوده - إلى النسخ والتغيير والتبديل.. كما أن ختم القرآن من الوحى الإلهى، وتمثيله حجة الله الدائمة على عباده، يقتضى خلود أحكامه - ومن باب أولى آياته - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما الواقع المتغير - دائمًا وأبداً - والمصالح - المتجددة دائمًا وأبداً - فإن الذى يواكبها، ويتغير كى يستجيب لمتطلباتها هو «الفقه» - الذى هو اجتهاد الفقهاء فى إطار ثوابت الشريعة التى جاء بها القرآن الكريم - والتى هى وضع إلهى ثابت - لا يلحقها نسخ ولا تغيير ولا تبديل.

..وبعد

فإن هذه الدراسة:

حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم قد أقامت كل ألوان الأدلة والحجج والبراهين على أنه:

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾

(يونس: ٦٤)

وعلى أنه لم يتطرق أى نسخ - بمعنى المحو والإزالة والإعدام والتغيير والتبديل - إلى أى حرف أو كلمة أو آية أو معنى أو حكم نزل به الروح الأمين - جبريل عليه السلام - على قلب الصادق الأمين المعصوم - محمد بن عبدالله ﷺ.

لقد أقامت هذه الدراسة - «الأصولية.. المجددة» - على هذه الحقيقة براهين:

- اللغة العربية - من معاجمها الكبرى والأصلية والمعتبرة.
- والاصطلاحية - من الموسوعات والكشافات التى تخصصت فى ضبط المفاهيم لمصطلحات العلوم والفنون فى حضارة الإسلام.
- والأدلة النقلية - من مصدر المصادر، وأرفع المصادر، وأوثق المصادر: القرآن الكريم..

«والأدلة العقلية - التى تنقض - بالبراهين الصريحة - إمكانية حدوث النسخ فى القرآن - بالمعنى الذى فهمه «عوام المفسرين»! -

- والأدلة الأصولية - التى امتلأت بها مصادر تراثنا الإسلامى فى علم أصول الفقه - والذى يعد النسخ بحثا من مباحثه -.. ومن بعض مصادر التفسير للقرآن الكريم -.
- ثم هذا الملف التوثيقى» - لإبداعات أعلام علماء الإحياء والتجديد فى نهضتنا الإسلامية الحديثة

والمعاصرة.. أولئك الذين انتصروا للحقيقة العلمية القاطعة: لأنه لا نسخ فى كتاب الله - فى مبانيه أو معانيه وأحكامه -.. فصدّق الفرع على الأصل. وطابقت الثمرة الشجرة.. وشهد هؤلاء العلماء الأعلام بالصدق المطلق لقول العزيز الحكيم:

﴿ وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾

(الأنعام: ١١٥)

﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾

(الكهف: ٢٧)

وبهذا الإبداع، أحيا هؤلاء العلماء تراث علم الأصول، الذى تقرر فيه: أن القرآن الكريم. - بمبانيه ومعانيه وأحكامه قديم، لأنه كلام القديم سبحانه وتعالى، «وأن ما ثبت قدمه استحال عدمه» أى أن هذه الدراسة - الأصولية التجديدية - قد أنجزت «ثورة تراثية» حققت مقاصدها بالتراث وليس بالثورة على التراث كما صنع عدد ممن عارضوا وجود النسخ فى القرآن فكان «الوعى بالتراث» - فى هذه الدراسة - هو طريق تحرير العقل المسلم من الأوهام التى أشاعها - عن النسخ - «عوام المفسرين»!

نسأل الله أن يجعل هذا العمل الجاد الذى أثار المكتبة الإسلامية فى ميزان حسنات ذلك الرجل الذى لا يحتاج منا إلى مدح وثناء.

بنو إسرائيل من الكتاب والسنة



للأستاذ الدكتور. محمد سيد طنطاوى

إنذارهم بالعقوبة إذا لم يتبعوا محمداً ﷺ

وكما أن القرآن الكريم قد استعمل مع اليهود كثيرا من وسائل الترغيب وهو يدعوهم إلى الإسلام - كما بينا ذلك من قبل - فقد استعمل معهم كذلك أسلوب الترهيب؛ ليصرفهم عن الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحملهم على الطاعة، والصلاح والإيمان.

ومن الآيات التى تحمل طابع الإنذار بالعقوبة لأهل الكتاب، إذا لم يتبعوا الحق، قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ۝ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾

[النساء: ٤٧-٤٨]

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله وأسلموا، فو الله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به حق، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا، وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾

وقد بدأ الله تعالى الآية الأولى بنداء لأهل الكتاب يأمرهم فيه بالإيمان بمحمد ﷺ فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم﴾

وفى هذه الجملة الكريمة تحريض لهم على الإيمان من وجهين:

● أولهما: أنهم أوتوا علم الكتاب، وهذا العلم يوجب عليهم أن يسارعوا إلى تلبية دعوة النبى ﷺ، وألا تأخذهم العصبية الدينية، كما أخذت أهل مكة العصبية الجاهلية.

● ثانيهما: أن هذا الإيمان الذى يدعون إليه، هو التصديق بما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ من قرآن لأنه يطابق - فى جوهره - ما أنزله على الأنبياء السابقين، الذين يزعم أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم، إذن فوحدة المنزل توجب عليهم أن يؤمنوا بجميع ما أنزله الله تعالى على رسله، وإلا كانوا ممن يفرقون بين الله ورسله، ويقولون:

﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾

ثم أنذرهم سبحانه وتعالى بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فقال تعالى:

﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾

والمعنى: يأيها الذين أوتوا الكتاب الإلهى وهو التوراة، آمنوا بالقرآن الذى أنزلناه مصدقا لما معكم فى أصول الدين وأركانه من قبل أن تنزل بكم إحدى عقوبتين:

الأولى: أشار إليها القرآن الكريم بقوله من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها.

قال مجاهد، أى: من قبل أن نطمس وجوها عن صراط الحق، فنردها على أدبارها فى الضلالة.

وقال السدى: معناه فنعميها عن الحق، ونرجعها كفارا.

وقال الضحاك: يعنى أن نردهم عن الهدى والبصيرة، فقد ردهم على أدبارهم فكفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به.

وظاهر كلام هؤلاء أن هذه العقوبة من قبيل الطمس المعنوى.

والمعنى: آمنوا من قبل أن تقسو قلوبكم، ونطبع عليها بسبب تمسكها بالضلال، وتماديها فى العناد. فهى كقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾

[الأنفال: ٢٤]

القلب هو العقل. والحيلولة بين المرء وقلبه هو أن يسلب التفكير السليم، والنظر المستقيم.

وكقوله تعالى:

﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ۝ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾

[يس: ٩-١٠]

ومن الواضح أن السد هنا سد معنوى رتب عليه أنهم لا يبصرون الهدى ولا يهتدون إلى الحق.

وأما العقوبة الثانية: فقد ذكرها الله تعالى بقوله:

﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾

ومعنى اللعن الطرد والإذلال المعنوى.

فخلاصة المعنى: أن الآية دعوة لليهود إلى الإيمان من قبل أن يطبع الله تعالى على قلوبهم، ويذهب بنورها، فلا تتجه إلى الحق، ولا تميل إليه، أو من قبل أن يلعنهم ويطردهم من رحمته، ويكتب عليهم الذلة والمسكنة، بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب.

وكلمة (أو) فى الآية لمنع الخلو، فيجوز أن يعاقب الله تعالى طائفة منهم بعقوبة من هاتين العقوبتين، ويعاقب طائفة أخرى منهم بالعقوبة الثانية إن هم استمروا فى ضلالهم وطغيانهم.

هذا وفى الآية أقوال أخرى للمفسرين منها: إن قوله تعالى:

﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها﴾

المراد بها عقوبة حسية ظاهرة ومعناها:

محو معالم الوجه من الأنف والفم والعين، وجعله على هيئة القفا، وأن قوله تعالى:

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾

معناه: أن نمسخهم قردة خاسئين، كما فعلنا بأصحاب السبت حين عاقبناهم على اعتدائهم فيه، وهذا القول مروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وتبعه عليه جماعة من المفسرين. ثم اختلفوا فى أن ذلك متى يكون؟ فقال بعضهم يكون فى آخر الزمان، وقال بعضهم يكون فى الآخرة وقالت طائفة: هو مقيد بعدم إيمان أحد من أهل الكتاب المخاطبين بذلك، وقد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وأمثاله.

وقيل المراد من الآية: آمنوا بالقرآن من قبل أن تنزل بكم إحدى العقوبتين:

الأولى: أن يسلط الله عليكم المؤمنين فيحاربوكم، وتولوهم الأدبار منهزمين، فتكون أقفيتكم هى الظاهرة.

والثانية: أن تلعنكم كما لعنا أصحاب السبت، فنطردكم من رحمتنا، ونمسخ عقولكم وأفهامكم، ونترككم فى الأرض أذلاء مشردين.

وقيل المراد من الطمس: التغيير مطلقا، ومن الوجوه: الرؤساء والوجهاء.

والمعنى: آمنوا بالقرآن من قبل أن نغير أحوال وجهائكم ورؤسائكم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم، وننكسوهم ذلا وصغارا، وإدبارا، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.

ويجوز أن يكون المعنى على تفسير الطمس والوجوه بما ذكرنا: آمنوا من قبل أن نرد وجهاءكم ورؤساءكم أذلاء صاغرين إلى المكان، الذى جاءوا منه، وهو (أذرعات) بأرض الشام، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.

وإنما جعل الله تعالى إذلال الرؤساء والوجهاء، وإلحاق الصغار بهم، عقوبة على ترك الإيمان؛ لأنهم عنوان الأمة، ورمزها، فإذا ذلوا ذلت الأمة جميعها.

قال عبد الرحمن بن زيد بناء على هذا التأويل: هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى، وتأول ذلك بإجلاء بنى قينقاع، والنضير إلى أرض الشام، فرد الله وجوههم على أدبارهم حيث عادوا إلى أذرعات وأريحا، من أرض الشام كما جاءوا منها.

وقوله تعالى:

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

معناه: وكان جميع ما أمر الله تعالى به نافذا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض، ولا فى السماء.

والضمير فى (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) يعود لأصحاب الوجوه، أو إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات.

ثم أخبر - سبحانه - خبرا مؤكدا، وهو أنه - تعالى - لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما سوى الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده فقال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

والمعنى: أن الله تعالى لا يغفر لهؤلاء اليهود، الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذنوب والكبائر والآثام؛ (وَمَنْ يُشْرِكْ) بأن يدين بالخضوع والعبودية لغيره من خلقه (فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) فقد اختلق إثما عظيما.

صوت المرأة

عنوان الفتوى: هل يسرى تحريم الاستماع إلى صوت المرأة باعتباره عورة حتى لو كانت المطربة متوفاة؟

مصدر الفتوى: www.moryia.org.il ، نوفمبر ٢٠٠٥ فتوى من الحاخام دافيد حيانى

● سؤال: ألا يجوز سماع أغانى مطربة لم تعد على قيد الحياة؟

●● جواب: صوت المرأة عورة، صحيح أن هناك من يقولون إنه لا يوجد تحريم لسماع صوت المرأة عبر الإذاعة أو مسجلا، ولكن لابد من الالتزام تماما بالتحريم؛ لأن هذا بند متشدد فى المحرمات. ويرجع سبب تحريم سماع صوت المرأة أيضا إلى أن صوت المرأة قد يؤدى بالمستمع إلى التفكير فى النساء، وهذا التفكير محرم وفقا لما ورد فى العهد القديم: «ولا تطوفون وراء قلوبكم» (سفر العدد ١٥ :٣٩). فالقلب به كثير من الخواطر ويجب الابتعاد عن كل ما قد يؤدى إلى إثارة هذه الخواطر. وغناء النساء هو أحد الأشياء الواضحة التى تؤدى إلى التفكير فى النساء. والتفكير الناتج عن سماع المرأة قد يؤثر فى المستمع سواء كانت المطربة على قيد الحياة أم لا، فهذا لا يغير من الأمر شيئا، ويجب تحريم سماع صوت المرأة تماما. هناك حالات استثنائية يجب فيها سؤال حاخام عن كل حالة على حدة، ولكن لا يمكن تعميم ذلك على القاعدة التى توجب الابتعاد عن سماع صوت المرأة بجميع الطرق.

عنوان الفتوى: سماع غناء النساء

مصدر الفتوى www.moryia.org.il ، نوفمبر ٢٠٠٥ فتوى من الحاخام موشيه عميئيل

● سؤال: هل سماع غناء النساء حلال (هل يمكن أن تشرح لى بالتفصيل فى حالة ما إذا كنت أرى من تغنى أو لم أرها من قبل)؟ وما أسباب ذلك؟

هل يمكن أن توافينى بمصادر الإجابة؟

●● جواب: تقرر الشريعة (اليهودية) أن صوت المرأة عورة (براخوت ٢٤ فقرة «أ»، وكتاب الحاخام موشيه بن ميمون بشأن المحظورات باب ٢١ فقرة ٢ وغيرها). فالاستماع إلى غناء المرأة، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة، محرم تماما، وهو محرم حتى بالنسبة للمرأة غير يهودية. وقد اختلف الفقهاء بالنسبة لسماع غناء النساء عن طريق الإذاعة أو أية وسيلة أخرى حينما لا يكون هذا هو الصوت الحقيقى المباشر للمرأة: هناك من يحرم ذلك تماما. وهناك من يسمح به. وهناك من يتساهلون فقط إذا كان المستمع لا يعرف المرأة أو لم يرها قط. يجب الحرص على احتشام وشرف النساء. ولذلك من الأفضل للفتى عدم سماع غناء الفتيات. ويجب على الفتيات الامتناع عن الغناء أمام الصبية حتى لا يفسدوا أخلاقهم.

ضوابط مشاركة المرأة في العمل العام



أ.د. وصفي عاشور أبو زيد
wasfy75@gmail.com

إذا كانت مشاركة المرأة في العمل العام جائزة في أصلها، فلابد لها من ضوابط تضبطها وقواعد تحكمها حتى لا يترتب عليها مفاسد لا تقارن بالمصالح التي تجلبها هذه المشاركة، وحتى تسد الذرائع التي يحتج بها من ذهب لمنع المرأة من العمل العام.

وقد حدد فقهاؤنا هذه الضوابط التي يجب أن تحققها المرأة وهي تشارك في العمل العام، فشيخنا العلامة د. يوسف القرضاوي يقول: "وإذا أجزنا عمل المرأة، فالواجب أن يكون مقيداً بعدة شروط:-

١- أن يكون العمل في ذاته مشروعاً؛ بمعنى ألا يكون عملها حراماً في نفسه أو مفضياً إلى ارتكاب حرام، كالتي تعمل خادمة لرجل عزب، أو سكرتيرة خاصة لمدير تقتضي وظيفتها أن يخلو بها وتخلو به، أو راقصة تثير الشهوات والغرائز الدنيا، أو عاملة في "بار" تقدم الخمر التي لعن رسول الله ﷺ ساقيها وحاملها وبائعها، أو مضيفة في طائرة للرجال يوجب عليها عملها تقديم المسكرات، والسفر البعيد بغير محرم، بما يلزمه من المبيت وحدها في بلاد الغربة، أو غير ذلك من الأعمال التي حرمها الإسلام على النساء خاصة أو على الرجال والنساء جميعاً.

٢- أن تلتزم أدب المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها في الزي والمشي والكلام والحركة:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(النور: ٣١).

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾

(النور: ٣١).

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

(الأحزاب: ٣٢).

٣- ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها، كواجبها نحو زوجها وأولادها وهو واجبها الأول وعملها الأساسي"[1].

أما أستاذنا الدكتور عصام البشير فيلخص هذه الضوابط في سبعة على النحو الآتي:

١- الزي الشرعي: قال تعالى:

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾

(النور: ٣١)

(١) فتاوى معاصرة: ٢/٣٠٥-٣٠٦، وراجع مكانة المرأة للمستشار سالم البهنساوي: ٨٦-٨٧.

وقال:

﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾

(الأحزاب: ٣٣)

فينبغي على المرأة أن تلبس اللباس المحتشم الساتر الفضفاض، الذي لا يكون زينة في نفسه، على نحو ما هو مبين في كتب الفقه.

٢- غض البصر، قال تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(النور: ٣٠، ٣١)

قال ابن عبد البر: "وجائز أن ينظر إلى ذلك منها (الوجه والكفين) كل من نظر إليها غير ريبة ولا مكروه، وأما النظر للشهوة فحرام".

٣- التمييز عن الرجال واجتناب المزاحمة: عن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث يسيرا قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: "فأرى - والله أعلم - أن مكثه لكي ينفذ النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم" ويؤكد هذا قوله ﷺ: "لو تركنا هذا الباب للنساء".

٤- اجتناب الخلوة: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: "لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم" قال الحافظ ابن حجر: "فيه منع الخلوة بالأجنبية، وهو إجماع.. لكن اختلفوا هل يقوم غير المحرم مقامه في هذا كالنسوة الثقات؟ والصحيح الجواز لضعف التهمة به".



عصام البشير

٥- جدية مجال اللقاء: قال تعالى:

﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

(الأحزاب: ٣٢)

وتشير هذه الآية إلى أنَّ موضوع الحديث بين الرجال والنساء ينبغي أن يكون في حدود المعروف، ولا يتضمن منكرا، كما ينبغي أن تكون للقاء أسبابٌ جادة تدعو إليه.

٦- وجوب إذن الزوج للدخول إن كان مقيما غير مسافر: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه".

٧- ألا يكون خروج المرأة للعمل العام على حساب زوجها وبيتها وأولادها: بمعنى ألا تمنعها المشاركة في العمل العام من الوفاء بكل واجباتها، زوجة وأمًا، و(خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش.. أحناه على ولد في صغره، وأرعاه لزوج في ذات يده)، ولابدَّ من محاولة التوفيق والتوازن بين العمل داخل البيت وخارجه[2].

ويحدد الأستاذ البهي الخولي أمرين إذا عالج الإنسان بهما قضية عمل المرأة لم يخطئ

(٢) مشاركة المرأة سياسيا شبهات وردود، بحث غير منشور لأستاذنا الدكتور عصام البشير، وراجع أيضا في هذه الضوابط: مكانة المرأة لأستاذنا الدكتور محمد بلتاجي: ٢٤٦-٢٤٩، وماذا عن المرأة للدكتور نور الدين عتر: ١٦٦-١٦٧، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، عمل المرأة في ميزان الشريعة: [illegible]، أ. حسنة الدريكي، تقديم د. عادل العوازي، طبع مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ٢٠٠٥م.

فيهما حكم الطبيعة ولا الشرع، يقول عنهما:

- "الأول: أن العمل في ذاته مشروع، على ألا يستغرق وقتها وفكرها ووجدانها؛ فيخرجها عن خصائصها ومقتضيات مهمتها الفطرية.
- الثاني: أن البيت هو المكان الطبيعي لتحقيق المقاصد العليا الروحية والاجتماعية التي أرادها الله بخلق الأنثى، وأنها لا يجوز لها الخروج منه إلا لمصلحة.

فلها في نطاقهما – أي الأمرين – أن تزاول أي عمل فكري أو بدني: في البيت أو خارجه، في الريف أو الحضر، بأجر أو بغير أجر، على أن تلتزم في ملبسها، وزينتها، وسلوكها، وعدم الخلوة – ما قرره الشرع"[3].

وقفة مع هذه الضوابط

بغير هذه الضوابط لا يصح للمرأة أن تشارك حتى لو لم يتحقق شرط واحد أو ضابط واحد من هذه الضوابط، وتزداد الحرمة كلما تخلف عن مشاركة المرأة في العمل العام ضابطٌ من هذه الضوابط، أو شرط من تلك الشروط.

وربما برز سؤال هنا أو شبهة يرددها دعاة التحرر أو بالأحرى دعاة الانفلات فيقولون: كيف ستمارس المرأة عملها في ظل كل هذه القيود، وأين الحرية التي يجب أن تتمتع بها المرأة في ظل مجتمع مدني متحضر؟، إنَّ مكث المرأة في البيت أفضل لها من أن تخرج وهي مكبلة بكل هذه القيود.

ونبادر فنقول

أولاً: إن الإسلام حين يشرع أمرا أو يحرم آخر فلابد أن نكون مؤمنين بأن فيه الخير كل الخير، والمصلحة كل المصلحة للمسلمين، وإن لم نكن نؤمن بذلك فإن له حديثا آخر غير هذا الحديث.

ثانيا: إن الإسلام حين وضع هذه الضوابط أراد أن يصون للمرأة عفتها وكرامتها، وأن يحفظ شرفها وسمعتها وسيرتها، وأن يجعل حول فطرتها وأنوثتها سياجا يحميها من التغيير والتبديل والميوعة، والتشبه بالرجال، وهذا يتسرب إليها دون أن تشعر حين لا تلتزم بهذه الضوابط.

ومن هنا يقول المستشار سالم البهنساوي: "هذه الضوابط الأخلاقية هي من الفطرة السليمة، وجاءت بها كل الديانات، وجاء القرآن ليتمم ما تحتمه قواعد المروءة والأدب والإنسانية؛ لأنها المميز للإنسان عن الأنعام"[4].

ويقول في مقام آخر: "إن الضوابط التي وضعها الإسلام لخروج المرأة وعملها تستهدف مصلحة المرأة والمجتمع، ولا يراد بها التقليل من دور المرأة وأهميتها في الأسرة والمجتمع؛ لهذا كانت المسلمات في عصر النبوة يروين السنة النبوية كالرجال سواء بسواء، وكن يقمن بدورهن في الحروب والغزوات"[5].

ثالثا: أراد الإسلام بذلك أن يحفظ للرجال

(٣) المرأة بين البيت والمجتمع: ٣٣٥–٣٣٦، بتصرف يسير، جمال البهي الخولي، مكتبة دار العروبة، القاهرة، طبعة ثالثة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

(٤) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية: ٣٩، سالم البهنساوي، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٥) السابق: ١٢١.

رجولتهم وفطرتهم وخصائصهم؛ فلا يتميعون وتتداخل طباعهم مع طبائع النساء، فلا الرجال بقوا رجالا ولا النساء بقوا نساء، ولهذا يحرص الإسلام على أن يحتفظ كل نوع بخصائصه وطبيعته، وقد روى النسائي بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ لعن المخنثين، وقال: "أخرجوهم من بيوتكم"، فأخرج رسول الله ﷺ فلانًا، وأخرج عمر فلانا[6].

رابعًا: لو منع الإسلام عمل المرأة مطلقا لضج هؤلاء الذين يريدون أن يغيروا الدين واللغة والشمس والقمر بالصراخ، لكن الإسلام لا يميل لأهواء هؤلاء، ولا لشهوات أولئك، إنما أباح للمرأة أن تشارك لكن في ضوء هذه الضوابط الحاكمة التي تحفظ للمرأة أنوثتها، وتبقي للرجال رجولتهم، وتضمن للمجتمع التطور والطهر والنقاء والرقي والترقي.

خامسا: أنه لا يوجد في العالم كله، ولا في مؤسسة أو اتحاد أو شركة أو مدرسة أو أي كيان مدني يتمتع بما يسمى "الحرية المطلقة"، لا توجد حرية مطلقة في الوجود، حتى أمريكا – التي تقيم تمثالا للحرية عندها – تمارس أبشع أنواع الظلم والاستبداد والنفعية والكيل بمكيالين في شتى أنحاء العالم، فلا توجد حرية مطلقة لكن توجد حرية مشروطة بعدم الإضرار بالغير، ولتحقيق مصالح الجميع، وليتمتع غيرنا بقسطه من الحرية، وإلا صار العالم فوضى غير خلاقة، وذلك عملاً بالمبدأ القائل: "حريتي تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين".

الآثار السلبية للمشاركة دون ضوابط

بالإضافة لما قررنا سابقًا من مصالح تترتب على المشاركة مع الالتزام بهذه الضوابط لابد من وقفة أخرى تبين الأضرار والسلبيات والمخالفات الجسيمة التي تقع فيها المرأة، وتحدث لها ولغيرها حينما تنهمك في عمل الرجال، أو جراء المشاركة بعيدًا عن الضوابط الشرعية.

١- ولعل من أبرز هذه الآثار تدمير الأسرة المسلمة، وذلك إن كانت حاضنة لأطفال صغار، أو حدث بين عملها وبين بيتها أو زوجها تعارض، أو تشاكل بشأن خروجها، وتمسكت هي بعملها بعيدا عن رغبة الزوج أو ولي الأمر حينئذ تنهار الأسرة أو توشك، والتي تعتبر أبرز لبنة في بناء المجتمع التي تشارك هي من أجله، فأفسدت من حيث أرادت الإصلاح.

٢- ومن الآثار أيضًا تفشي ظاهرة التحرش بالنساء، وانتشار الزنا؛ إذ خروج المرأة غير ملتزمة بالزي الشرعي يغري غيرها بالتحرش بها، وبكل ذريعة تؤدي إلى الفاحشة.

٣- مخالفة المرأة لأمر الله حين تخرج رغمًا عن زوجها، أو تمارس عملاً حرمه الشرع، أو تخرج بعيدًا عن الضوابط، وفي هذا من الضرر ما لا يخفى.

٤- فقدان المرأة لأنوثتها ومناقضتها لفطرتها حين تمارس أعمالاً لا تتناسب وطبيعتها؛ وذلك نتيجة عدم التزامها بالمجالات التي ندبها الشرع لها، وبوضعها نفسها في مجالات عمل ومشاركة نأى بها الشرع عنها.

(٦) كتاب عشرة النساء: أبواب حقوق الزوجين، باب: لعن المخنثين وإخراجهم، رقم (١١٢) ص: ٣١٦، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٥ـ تهديد الأمن الاجتماعي في المجتمع، وزعزعة الاستقرار؛ لانتشار الجريمة، ولذلك قالت الصحافية الأمريكية "هيليسيان ستانسيري" بعد زيارتها للجامعات المصرية: "من الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بدينه وتقاليده، فالقيم عندنا تهدد اليوم الأسرة والمجتمع في أوربا، فامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة؛ لأن الحرية التي عندنا قد جعلت منهم عصابات: منها عصابات أحداث، وعصابات مخدرات"[٧].

وفي كلام للعلامة القرضاوي يتوافق مع ما نقلناه عن العلامة ابن باز سابقا يبين مضار انهماك المرأة في الاشتغال بعمل الرجال من جوانب شتى، لا سيما إن كان بغير قيود ولا حدود، ويذكر من ذلك:

١ـ مضرة على المرأة نفسها: حيث تفقد أنوثتها وخصائصها، وتحرم من بيتها وأولادها.

٢ـ مضرة على الزوج: لأنه يحرم من نبع سخي كان يفيض عليه بالأنس والبهجة.

٣ـ مضرة على الأولاد: لأن حنان الأم، وقلب الأم، وإشراف الأم لا يغني عنه غيره من خادم أو مدرسة.

٤ـ مضرة على جنس الرجال: لأن كل امرأة عاملة تأخذ مكان رجل صالح للعمل.

٥ـ مضرة على العمل نفسه: لأن المرأة كثيرة التخلف والغياب عن العمل لكثرة العوارض الطبيعية.

٦ـ مضرة على الأخلاق: أخلاق المرأة إذا فقدت حياء النساء، وأخلاق الرجل إذا فقد غيرة الرجال، وأخلاق الجيل إذا فقد حسن التربية والتهذيب منذ نعومة أظفاره، وأخلاق المجتمع كله إذا أصبح كسب المال هو الهدف الأكبر.

القرضاوي

٧ـ مضرة على الحياة الاجتماعية: لأن الخروج على الفطرة، ووضع الشيء في غير موضعه الذي اقتضته هذه الفطرة يفسد الحياة نفسها، ويصيبها بالخلل والتخبط والاضطراب[٨].

وربما نختلف هنا مع شيخنا القرضاوي في النقطة الرابعة التي تقضي بأن خروج المرأة مضرة على جنس الرجال؛ لأنه يقضي بأنها تأخذ مكان رجل صالح للعمل، وهذا كلام يحتاج لمراجعة أو تفصيل؛ إذ أن الأعمال والمهن والوظائف لا تتوقف عند حد، وإلا فماذا تفعل الشعوب التي تقدر بمئات الملايين كالشعب الصيني مثلا، ربما يصدق هذا على النساء اللاتي يعملن في أعمال خاصة بالرجال فقط مثل: الأعمال الشاقة في الصحاري وغيرها، والتي من شأنها أن تعرض أنوثة المرأة وأمنها للخطر، وأما ما دون ذلك فلا نوافق الشيخ عليه في هذه الجزئية؛ إذ مجال العمل ما دام مباحا للمرأة فالأصل فيه الكفاءة، وليس النوع، بل إن هناك تميزا فطريا للمرأة على الرجل في بعض الأعمال.

---

(٧) صحيفة الجمهورية المصرية، عدد بتاريخ: ٩/٦/١٩٦٢م، نقلا عن مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية: ٣٩، وراجع ص: ٨٧-٨٨.

(٨) مركز المرأة في الحياة الإسلامية: ١١٢-١١٤، مؤسسة الرسالة، طبعة أولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، باختصار، وراجع له أيضا ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده: ٣٨٩-٣٩١، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

حــــواء

أ.د. نظمي لوقا

المرأة في الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية، فهي في ذلك صنو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه.. أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس، فجاء في سورة الأحزاب:

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾

(الأحزاب: ٣٥)

وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور، ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانا كثيرة كما تباع السلعة، يبيعها أبوها أو رأس عشيرتها أو زوجها، وكانت في كثير من الأحوال منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقته، بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص، وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه.

وأكثر من هذا، كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقا شديدا.

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ۝ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾

(النحل: ٥٨، ٥٩)

وفي هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق في التكاليف أو الجزاء:

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾

(النحل: ٩٧)

وفي سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود:

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾

(النساء: ٣٢)

وفي بعض الأمم القديمة، وفي بعض الأمم الحديثة، كانت المرأة تحرم غالبا من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش، ونص على ذلك في سورة النساء:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ (النساء: ٧)

وهذا النصيب المفروض:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١)

باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغا ما بلغ ثراؤها، أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء، فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير، وهذه القسمة إذن أقرب إلى مجاملة المرأة في شئون الأموال المورثة.

•••

ولا يخوض إنسان في موضوع المرأة في الإسلام من غير أن تخطر بباله قضية تحرير المرأة في هذا العصر، ومساواتها بالرجل ويخطر على البال حتما قول القرآن في سورة النساء:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء: ٣٤)

وما جاء في سورة البقرة:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)

فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى «درجة» دون درجة الرجل، وفي هذا ما فيه من بواعث التساؤل، في زمن استفحلت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت في جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب.

وهنا لابد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل. وليس كل تفضيل جورا، بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت، فهو العدل الصراح.

وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقا بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين، بل إن التفضيل - عقلا - لا يصح إلا بحصول الفضل وتحققه، يرتفع بارتفاعه، ويوضع بوضعه، ويتحول بتحوله.

فما الفضل الشاهد للرجل على المرأة؟..

إنه حاميها، وإنه عائلها، وإنه تركن إليه وتلوذ به، وإنه أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا، وإنه أحظى منها بنصيب من المواهب أوالقدرات.

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير بينة بل قيل:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة: هو إرباء الفضل والإعالة، أو النفقة المالية.

وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا في نزولها إلى ميدان الأعمال، وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى.

وأما إرباء الفضل: فهو رهن بإصابة نصيب من التعليم، أو البراعة في فن من الفنون، أو رجاحة العقل ونباهة الذكر: وهي مقررات الفضل بنص القرآن، فقد جاء في سورة المجادلة:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: ١١)

ولا يغيبن عن البال ورود «درجات» بصيغة الجمع ،وقد وردت في سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد:

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

وجاء في سورة الزمر:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)

وجاء في سورة النساء:

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ (النساء: ٩٥)

إن العلم يرفع صاحبه على من لاعلم له، فالعالم خير من الجاهل والجاهلة، والعالمة خير من الجاهلة والجاهل.

والمؤمن خير من الكافر والكافرة، والمؤمنة خير من الكافرة والكافر.

والمجاهد في سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن الجهاد والقاعدة، والمجاهدة في سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة عن الجهاد والقاعد.

لاتفضيل بغير فضل، ولا تشريف بغير تكليف، وإنما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات، ومتى زال هذا العائق، وارتفع عنها القصور أو التقصير، فهي حقيقة بثمرات فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام.

ولا أعتقد أن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والفتح فحسب، بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم في أمور دينهم ودنياهم.

فليس الإسلام - على حقيقته - عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة، بل إن المرأة في موازنته تقف مع الرجل على قدم المساواة، لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مطل أو مراء وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال.

وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الأطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسما أوفق من «تكافؤ الفرص» الذي يلغي كل تفريق ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح.

الوسطية الإسلامية

المرأة والعمل السياسى



أ.د/ محمد سليم العوا
مستشار رئيس الجمهورية

وتثور فى كل حديث عن الإسلام والسياسة فى هذا العصر مسألة الدور السياسى للمرأة، والحديث عن هذا الدور فى حياتنا السياسية الحاضرة مطلوب ومهم فى المجتمع الإسلامى كله؛ لأن المرأة المسلمة بين شقى رحى، أو بين أمرين أحلاهما مر: بين فريق من أهل الرأى والقدرة على الفعل يرون أنها لا تصلح لشىء إلا إنجاب الأطفال ورعاية المنزل. وأصحاب هذا الرأى يرون المرأة كلها عورة، وأنها المصدر الوحيد للفتنة، وأن خروجها من البيت لأى سبب كان هو أعظم محنة، وأن الذى أصاب المسلمين من فساد الدنيا والدين مرجعه كله إلى المرأة!، وبعض هؤلاء يجاهر بأن عملها حرام، ومصافحتها حرام، والحديث معها فى أى شأن حرام، أو قريب من الحرام.

وليس أشد خطأ من أصحاب هذا الرأى إلا أصحاب الرأى النقيض له: الذين يرون أن كل قيد متعلق بحشمة المرأة وحجابها أو عفتها وصيانتها تخلف ورجعية، ويدعون المرأة المسلمية إلى التشبه بنساء الغرب اللاتى لم يعد يحول بينهن وبين شىء مما حرمه الله دين، ولا التزام خلقى، ولا محاسبة اجتماعية، ولا روابط أسرية: فالعفيفة هناك حرة، والبالغة منتهى ما يبلغه بالإنسان تحلله من كل قيد حرة مثلها تماما، ولا يلوم أحد على أحد، ولا ينقم أهل العفة والصيانة على أهل الفجور والانحلال، وكأنهم جميعا قد صدق فيهم قول الله تعالى فى بنى إسرائيل[1]:

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾

(المائدة: ٧٩)

والأصل فى العمل السياسى كله أنه تطبيق من تطبيقات أصل إسلامى أعم؛ بل فرض من فروض الكفاية على الأمة، هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الذى يرمى فى النهاية إلى غاية أساسية واحدة هى تحقيق الصلاح الاجتماعى

(١) محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسى فى الإسلام، مرجع سابق.

ومنع الفساد الاجتماعى.

وتعبير القرآن الكريم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة آل عمران:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾

(آل عمران: ١٠٤)

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾

(آل عمران: ١١٠)

يدل بلا ريب على شمول واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للنساء والرجال جميعا، وأصرح من ذلك دلالة قول الله تبارك وتعالى اسمه، فى سورة التوبة:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾

(التوبة: ٧١)

فهذا نص صريح فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الرجال والنساء سواء بسواء.

والقرآن الكريم يصف المؤمنين - رجالا ونساء - بأنهم:

﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ۝ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ۝ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾

(الشورى: ٣٧ - ٣٩)

وهذا الوصف للمؤمنين يشمل الرجال والنساء كذلك، فإن من خصائص الخطاب العربى القرآنى وغيره أنه يشمل الرجال والنساء جميعا ويعمهم بالحكم الوارد فيه حقا كان أو واجبا، فإذا كان الحكم خاصا بالنساء أتى الخطاب العربى خاصا بهن جمعا أو إفرادا[2]، كما قال الله تعالى:

﴿يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا﴾

(الأحزاب: ٣٢)

وكما قال سبحانه حكاية عن بنى إسرائيل قولهم لمريم البتول:

﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾

(مريم: ٢٨)

فالقرآن الكريم دال بنصه إذن على

(٢) محمد سليم العوا، الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ٢٠٠٠م، ص٣٤.

المساواة بين الرجال والنساء في أصل وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أشهر أحاديث السنة النبوية الصحيحة في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٣].

والمقرر عند الأصوليين واللغويين أن لفظ (من) من ألفاظ العموم التي يصدق ما بعدها على جميع الأفراد الذين يشملهم من غير استثناء، ولا تخصيص إلا بدليل صريح على ذلك[٤]، فإذا سبق لفظ (من) كلمة (منكم) - كما في الحديث - فإنه يشمل المؤمنين جميعا رجالا ونساء بلا استثناء؛ لأنه ليس في موضع آخر من أدلة الشريعة - القرآن والسنة - ما يدل على هذا الاستثناء أو التخصيص.

ومثل هذا الحديث ما رواه الإمام مسلم عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٥] المرأة والرجل سواء في مطالبتهم بالتدين بالإسلام والامتثال له، فإذا كان (الدين) هو النصيحة؛ أي كانت النصيحة جزءا لا يتجزأ منه وفرعا لا ينفصل عنه، ومعلما مهما من معالمه حتى دل النبي ﷺ بها وهي جزء على الكل الذي هو الدين، فكيف يصح أن يقال: إن النساء لسن مسئولات عن أداء هذا الواجب؟ وهل العمل العام - كله أو جله - إلا نصيحة بوجه من الوجوه وهي قيام بواجب من واجبات الدين؟ فمن الذي يستطيع حرمان النساء - بلا دليل ولا شبه دليل - من أداء هذا الواجب؟

السنة مثل القرآن إذن في التسوية بين الرجال والنساء في إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليهم جميعا، وفي مطالبتهم بأدائه إذ جعلت الدين هو النصيحة، والدين هو موضع التكليف الكلي للرجال والنساء معا.

فإذا تبين هذا لم يعد لأحد الحق في إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ويتأكد هذا بالسوابق الإسلامية الثابتة منذ عهد النبوة لمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية، فقد كانت النساء يشاركن الرجال في جيوش رسول الله ﷺ في أشق أنواع العمل العام، وأعظمها خطرا، وأكثرها تعريضا للمرأة لما تتجنبه عادة، أعني القتال الفعلي مع الجيوش الإسلامية[٦].

وقد شاركت النساء في الهجرة إلى الحبشة، وفي الهجرة إلى المدينة،

(٣) سبق تخريجه.

(٤) شيخنا العلامة محمد مصطفى شلبي، أصول الفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، في مبحث ألفاظ العموم.

(٥) الحديث متفق عليه، واللفظ هنا لمسلم، الطبعة المصرية بشرح النووي، ج٢ ص٣٧.

والهجرة عمل سياسي يقوم به المهاجر عندما تضيق عليه أرضه الأصلية، وتحول بينه وبين أداء واجبات دينه، والعمل المنظم لنصرة عقيدته، وليست فرارا إلى أرض يتمكن المهاجر فيها من أداء العبادات فقط[٧].

وقد وصف الأستاذ ظافر القاسمي - رحمه الله - في كتابه القيم: «نظام الحكم في الشريعة والتاريخ» الأمر النبوي بالهجرة إلى الحبشة بأنه أول عمل سياسي قام به الرسول ﷺ[٨].

ويؤكد هذا الفهم للهجرة إلى الحبشة الدكتور نزار الحديثي في كتابه: «الأمة والدولة في سياسة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين»[٩]، فهو يعتبر الهجرة إلى الحبشة خطوة في سبيل بناء الأمة التي أقامت الدولة الإسلامية الأولى.

والهجرة إلى المدينة كانت عملا سياسيا محضا؛ فهي لم يؤذن بها إلا بعد الإذن للنبي ﷺ بالقتال، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه وهو يأمرهم بالخروج إلى المدينة: «إن الله - عز وجل - قد جعل لكم إخوانا، ودارا تأمنون بها»[١٠].

وقد شاركت المرأة في الشورى السياسية؛ ففي صحيح البخاري[١١]، وفي كتب السيرة المتعددة[١٢] واقعة مشورة أم سلمة على رسول الله ﷺ يوم الحديبية في قصة مفصلة جميلة؛ فليراجعها من أراد.

وأشارت أم سُليم على رسول الله ﷺ يوم حنين بقتل الطلقاء (مسلمة الفتح الذين انهزموا يوم حنين، فظنت هي أنهم سبب انكسار جيش المسلمين) فقال لها: «يا أم سُليم، إن الله قد كفى وأحسن»[١٣].

وقد استخرج أخونا الأستاذ عبدالحليم أبوشقة - رحمه الله - في موسوعته «تحرير المرأة في عصر الرسالة» نحوا من ثلاثمائة دليل من السنة الصحيحة وحدها على أن مشاركة النساء في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية أمر لا يمنعه الشرع، ولا يحول بين المرأة وبينه صحيح الفقه، مادامت ملتزمة بالزي الذي لا يخالف الحشمة الإسلامية الواجبة، وهو ما يغطي كل جسدها وشعرها، ولا يصف جسدها ولا يكشف عنه، ومادامت ملتزمة بالوقار

(٦) للتوسع في هذا الموضوع راجع كتاب أخينا العلامة الأستاذ عبدالحليم أبوشقة - رحمه الله - تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج٢، ٣.

(٧) محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، ص٤٤، ٤٧.

(٨) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، طبعة ١٩٧٤م، ص٣٧ وما بعدها.

(٩) نزار الحديثي، الأمة والدولة في سياسة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، بغداد، ١٩٨٧م، ص٨٠ وما بعدها.

(١٠) ابن هشام، السيرة النبوية، طبعة سنة ١٩٨٧م، ج٢ ص١٠٩.

(١١) الحديث رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

(١٢) مثلا الروض الأنف للسهيلي، ج٣ ص٢٢٦، والسيرة الشامية طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٥ ص٩٢.

(١٣) صحيح مسلم، الطبعة التركية بالآستانة، ج٥ ص١٩٦.

والصيانة والعفة التي تحفظ للمرأة كرامتها واحترامها في أي مجتمع توجد فيه، وليس وراء هذين القيدين شيء يمنع النساء من المشاركة في الحياة العامة بصورها كافة. وحين تمتنع المرأة عن ذلك لأسباب ترجع إليها مثل المشغلة بأمور أهم، أو الانصراف عن الحياة العامة لعدم الاهتمام بأمرها، أو عدم الرغبة في المشاركة فيها؛ فإن ذلك لا يضاف إلى الشرع ولا ينسب إلى الفقه، وإنما هو موقف شخصي لبعض النساء يتخذ مثله كثير من الرجال، وهو لا يحتاج إلى إلباسه ثوب الحكم الشرعي، أو تسويغه بإدعاء نسبته إلى اجتهاد فقهي. وما يعرض لبعض النساء الراغبات في المشاركة في الحياة العامة من الطوارئ، المانعة عن العمل العام أصلا، يحدث للرجال مثله، وحكم الرجال والنساء فيه سواء[١٤].

والموقف الفقهي التقليدي في مسألة الدور السياسي للمرأة يحسم القضية بأن المرأة لا شأن لها بالسياسة، وأن غاية ما يطلب منها أن تقوم به - إن استطاعت في نظر أصحاب هذا الرأي - هو أن تصون بيتها وتربي أولادها.

وبعض أنصار هذا الرأي يستدلون بالحديث غير الصحيح: «شاوروهن وخالفوهن»[١٥]، وهو حديث لا تصح نسبته إلى الرسول ﷺ ولا يجوز أن تستمد منه حجة.

وقد كان الرسول ﷺ يستشير زوجاته في الأمور العامة، ويأخذ بقولهن أو رأيهن، فكيف يقول هذا الكلام ثم يكون أول من يخالف؟! والمعترضون على ولاية المرأة للمناصب السياسية يحتجون بحديث الرسول ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[١٦] وهذا الحديث لا حجة فيه؛ لأن الأمر الذي يشير إليه هو أمر الولاية العامة التي ليس فوقها ولاية، وهي الخلافة أو الرئاسة العامة للدولة الإسلامية الواحدة التي تضم العالم الإسلامي كله، وهي دولة لم تعد موجودة الآن، ولا يتوقع أن توجد في المستقبل البشري المنظور.

واختصاصات (ولي الأمر) فيها وشروط ولايته بشمولها وسعتها واتصالها بجميع المجالات - بما فيها الإمامة في الصلاة، وقيادة الجيوش، والاجتهاد الفقهي المطلق ورئاسة القضاء - لم تعد متوافرة في أحد من الحكام اليوم، ولو ادعاها لنفسه أحد لكان

(١٤) محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسي في الإسلام، مرجع سابق.

(١٥) هو باطل لا أصل له، نص على ذلك العلامة الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي في الفوائد الموضوعة [بتحقيق أخينا العلامة الشيخ محمد الصباغ] طبعة دار الوراق بالرياض، ١٩٩٨م، وهو فيها برقم ٧٦ ص٩٩، ونص على عدم صحته السخاوي في المقاصد الحسنة طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، برقم ٥٨٥ ص٢٤٨، وملا على القاري في الأسرار المرفوعة [بتحقيق العلامة الشيخ محمد الصباغ] طبعة مؤسسة الرسالة، ١٩٧١م، برقم ٢٤٠ ص٢٢٢، والعجلوني في كشف الخفا ومزيل الإلباس طبعة دار إحياء التراث العربي (المصورة) برقم ١٥٢٩، ج٢ ص٣.

(١٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٤٢٥) وبرقم (٧٠٩٩) بسند واحد عن أبي بكرة رضي الله عنه.

الإسلاميون هم أول من يعترض عليه ويأبى التسليم بها له.

ولا بأس من حيث الأهلية والكفاءة أن تتولى المرأة بعض هذه السلطات ولو كانت رئاسة الدولة؛ لأن أيا من تلك السلطات - بما فيها الرئاسة نفسه - لا تمثل (الأمر) الذي يدل الحديث على عدم فلاح من يولونه لامرأة. ولأن (الأمر) في الحديث بمعنى الولاية العامة؛ فقد أباح بعض الأئمة للنساء بعض الولايات الخطيرة؛ فهي تلي القضاء عند أبي حنيفة فيما تجوز فيه شهادتها، وقال الطبري: تلي القضاء والإمارة، وهي رواية عن الإمام مالك أيضا[١٧].

لذلك فإنني لا أرى مانعا شرعيا من ولاية المرأة أي منصب تؤهله لها كفاءتها وقدرتها وثقة الناس (الناخبين) فيها إذا كان من مناصب الانتخاب، أو ثقة المسئولين عن التعيين إذا كان مما يعين له القائم به.

ولهذا الاجتهاد نظير في الفقه الشيعي المعاصر؛ فقد انتهى صديقنا العلامة الإمام مهدي شمس الدين - رحمه الله - إلى مثله في كتابه: «أهلية المرأة لتولي السلطة»، وهو بحث مقارن بين الفقهين السني والشيعي جمع فيه صاحبه بين علمي الرواية والدراية؛ فذهب إلى أن لفظ «لن يفلح قوم......» لا يفيد بطلان ولاية المرأة من الناحية الشرعية، وإنما غاية ما يفيد خطأ الاختيار، أو عدم ترتب الغرض عليه؛ فهو من قبيل قولك: «لن يفلح من اتجر في الصيف ببضاعة الشتاء؛ فإنه يعني لن يربح المقدار المناسب، ولكنه لا يفيد فساد البيع قطعا»[١٨].

ثم فرق بين الولاية الاستبدادية (الكسروية) وولاية الأمر في الدولة التي تديرها المؤسسات وتمارس فيها السلطات والصلاحيات عن طريق الشورى، فأبطل الولاية الأولى، سواء أكان الحاكم رجلا أم امرأة، وأجاز الثانية للرجال والنساء جميعا.

والأدلة الأخرى التي يتساند إليها المانعون من قيام المرأة بواجب المساهمة في العمل العام - أو باستعمال حقها في ذلك - كلها لا تدل على ما يستدلون بها عليه، وقد شرحت ذلك تفصيلا في غير هذا الموضع[١٩].

(١٧) نص على ذلك ابن حجر في فتح الباري، ج٨ ص١٢٨. ولا نعتد بمن ينكر ولايتها في مذهب الأحناف، فقد نصت الكتب المعتمدة في المذهب على ذلك ومنها: الكاساني في بدائع الصنائع، ج٧ ص٣، حيث قال: وأما الذكورة فليست من شرط جواز التقليد في الجملة؛ لأن المرأة من أهل الشهادات في الجملة إلا أنها لا تقضي بالحدود والقصاص؛ لأنه لا أهلية لها من ذلك، وأهلية القضاء تدور مع الشهادة. وابن نجيم في البحر الرائق، ج٦ ص٢٨١، حيث ينفي اشتراط الذكورة والاجتهاد في القاضي.

(١٨) آية الله محمد مهدي شمس الدين - رحمه الله - أهلية المرأة لتولي السلطة ١٩٩٥م، ص٨٢ وما بعدها. ويجب مراجعة كتابيه الآخرين: حق العمل للمرأة والستر والنظرة، وكلها من منشورات المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت.

(١٩) محمد سليم العوا وبرهان غليون، النظام السياسي في الإسلام، مرجع سابق ص١٧٦، ١٧٨.

المسئولية المجتمعية للمرأة المسلمة



أ.د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

نطاق المسئولية وأبعاد مشاركة المرأة

والحق الذى لا مراء فيه أن خالق الوجود ورب الناس قد خلق المرأة لتقوم بمهام وأدوار لا يتأتى بدونها خلافة الإنسان عن الله، ولا يستقيم بغيره نظام الاجتماع البشرى، ويتعين من خلاله أن يكون لها رؤية ودور وأحقية فى المشاركة. لكن وجدنا برغم ذلك جدلاً واختلافاً حول هذه الحقيقة، فالبعض يحصر دور المرأة ويضيق من مسئوليتها لتكون فى نطاق المنزل، فهى أسيرة جدرانه وجزء من أركانه، يتحدد دورها فيه، ويعظم شأنها بالتزامها له، لا يجوز لها أن تتخطاه بدليل قوله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾
(الأحزاب: ٣٣)

دون أن يمحص أن الخطاب لأمهات المؤمنين، زوجات الرسول فى شأن المحافظة على حرمة بيت النبوة وصيانة لمقام صواحبات هذا البيت، وتعليماً لهن كيف يتعاملن مع من يأتون للرسول ﷺ وفى مقابل هذا النظر، يكشف أصحاب الاتجاه الآخر عن رحابة أفق فى فهم الشرع، وتعددية الآفاق والمجالات التى تشارك فيها المرأة، وأن لديها القدرة على القيام بأدوار مجتمعية تتجاوز المدى التقليدى الذى يحصرها فى أن تكون رهينة المحبسين: الطلاق أو الموت.

ويقتضى بيان الحقيقة حول دور المرأة ومسئوليتها، والتعرف على مكانتها فى المجتمع، وأهليتها فى الشرع، وقدرتها على التصدى للعمل العام، أن نشير إلى أن المكانة التى تبوأتها فى الماضى، والدور الإيجابى الذى قامت به فى خدمة الأسرة والمجتمع، ساهم فى نهضة المجتمع والأمة، ومن ناحية أخرى فإن ما آل إليه وضعها الحاضر، وتدنى هذا الدور مرجعه إلى الجهل بالحكم الشرعى وأسباب أخرى، وأن السبيل إلى تصحيح ذلك يكون بأن يفقه الرجل والمرأة والمجتمع وظيفة المرأة، وأن تستعيد دورها فى المشاركة الخلاقة فى بناء الحاضر واستشراف المستقبل، وهذا يتأتى بتكامل الحلقات: ربط الماضى الواعى بالشرع على نحو يحقق المصلحة ويصحح الخطأ، ويستكمل الناقص منه، ويوفق بين الأصيل والزائف، ويحافظ على الثوابت ويواكب الجديد النافع. وليس بلوغ ذلك بالأمر الهين الميسور، لأنه يحتاج إلى رشد عقلى وفقه اجتهادى وإصلاح اجتماعى، ويستلزم ذلك تشخيص الحالة الحاضرة، والفائدة التى تعود على المجتمع، نتيجة إسناد مهام اجتماعية للمرأة، واكتشاف جدارتها باستحقاقات مجتمعية تكون مؤهلة لها استهداء بالنصوص والممارسات الرشيدة والمسئولية التى اضطلعت بها فى عصر النهضة الإسلامية فى نطاق دورها، وما يتعلق بذلك من تشريع وتنظيم يوفق بين ما هو ثابت وما هو متغير.

متطلبات المشاركة والمسئولية

أمام المرأة والمجتمع الفرصة لتصحيح الصورة المغلوطة، بشأن النظرة إلى المرأة، وتقدير دورها بلا تهوين ولا تهويل، والتعامل مع القضية برمتها بشكل موضوعى للتوفيق بين فكر الإسلام، وتحديات العصر، ومصلحة الأمة، فهو الميزان العادل للحكم على أهمية المشاركة وجدواها.

وفى ذات الوقت، فإن أمام المرأة الفرصة لإثبات وجودها والاعتصام بهويتها والاعتقاد الجازم بأنها الضمانة الأساسية لعزتها وصيانة حقوقها. ومما يعزز هذا الوجود الكريم لها، أن تكون مشاركتها فى عملية التنمية غير قاصرة على التنمية الاقتصادية بغرض كسب المال وشغل الواقع لمجرد منافسة الرجل، إذ أن التنمية الاجتماعية ينبغى أن تكون من الشواغل الرئيسية للمرأة. وتشكيل الاهتمامات الحاضرة فى كل الأوقات، ذلك أن عطاءها وطبيعتها التى فطرها الله عليها تعطيها الميزة والتفوق على الرجل فى الميدان الاجتماعى، بجانب أنها تكشف عن الرسالة النبيلة التى تضطلع بها فى الحياة، والجانب الذى أكد عليه الشرع الإسلامى، وأولاه أهمية واضحة، وهو ما ينبغى أن تتعانق فيه التقاليد مع التعاليم، وتتغير الأوضاع التى تبرهن على المفارقة بينهما.

فإذا أمكن تفهم ذلك، أو الوعى به والتحول الرشيد إلى فهم الأدوار الاجتماعية للمرأة والرجل فى التنمية الشاملة، فإن أحوال المجتمع ستصب فى الاتجاه الصحيح، وينطلق المجتمع نحو أهدافه وفقاً لنسق الهوية الإسلامية، والمصلحة العامة.

وهذا المنظور للتنمية الشاملة يجعلها شاملة غير قاصرة على التنمية الاقتصادية أو التنمية الاجتماعية فقط، فالإنسان كذلك بحاجة إلى التنمية الذاتية أو الشخصية، وهى المقومات التى تجعل منه إنساناً قوياً وفاعلاً فى مجتمعه، يكون نافعاً لنفسه وينهض به مجتمعه. كما جاء فى الحديث الشريف «خير الناس أنفعهم للناس» وقد جاء لفظ الناس على سبيل العموم، والمرأة من الناس.

إن الأخذ بزمام المبادأة من أجل حسن إعداد الشخصية وتزويدها بأصول التربية السليمة والأخلاق القويمة، هو من أوليات وأولويات بناء الشخصية لدى المرأة والرجل لأن فى وجود شخصية وفق هذا النموذج ضمانة وحصنا لصلاح وفاعلية أشكال التنمية الأخرى. وحقيق بالعلماء والمفكرين والمصلحين وصناع القرار والمسئولين أن تصب جهودهم صوب هذه المهمة، فإن بناء وتكوين الشخصية هو حجر الأساس لإقامة صرح التنمية فى آفاقها وجوانبها المتنوعة، وهو ما يرشد إليه الحديث: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل لو فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»[1].

وترتيباً على هذا الفهم الشامل المستوعب

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، رقم ٢٦٦٤.

لإيجابية المسلم في كل شؤون الحياة فقد أولى الإسلام التربية والتهذيب عناية خاصة، فجعل الأسرة محور اهتمامه، وركيزة مجتمعية، ولا قيام لأسرة بدون المرأة فهي الركيزة والأساس، لذلك كان دورها إيجابيا وخلاقا في رعاية النشء، وتوجيههم إلى السلوك القويم، ووقايتهم من مزالق الانحراف، وهو دور يفوق الأدوار الأخرى، على سند أن لدى المرأة من استعداد الأمومة والعاطفة الجياشة ما لا يبلغه الرجل، وهو الدعامة الراسخة في صلاح الأجيال وبناء صرح المجتمعات.

لذلك فإن على المرأة أن تؤدي دورها كأم وزوجة وصانعة الرجال، ولا يكون طلبها للعمل والمساهمة في الشؤون العامة على حساب هذا الدور أو خصما من رصيدها في أداء رسالتها في تنمية أطفالها ورعاية أسرتها، وعلى قدر مسئوليتها عن أداء هذا الدور، كان فضلها وعلو منزلتها في الإسلام.

وهذا الواجب على المرأة، هو حق لها في ذات الوقت، تأسيسا على أن كل حق يقابله واجب، مما يقر للمرأة الحق في المقابل في ممارسة حقوقها المدنية والقانونية، ولا يجوز حرمانها من ذلك مطلقا أو الافتئات على حقوقها فيها، كما لا يجوز حجبها عن تلك الحقوق بمقولة محورية الحقوق الأسرية، لأن القول بهذا يعتبر انتقاصا وإخلالا بحقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإهدارا للمساواة والعدالة بينها وبين الرجل في هذا المضمار، وهذا يستلزم تفعيل الجوانب المتعلقة بممارسة المرأة لهذه الحقوق وترجمتها في الواقع العملي دون الوقوف عند حدود المبادئ الشرعية والقانونية.

على هذا النسق في ترتيب الحقوق، تتحقق العدالة، والتكامل في الوفاء بسائر مجالات الحياة، ومتطلبات التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويجعل دور المرأة مجتمعيا بحق وليس مطلبا شخصيا ولا انتقائيا، ذلك أن المرأة كما قيل: تمثل نصف المجتمع، وهي مسئولة عن تربية النصف الآخر.

وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام لا يمنع من مساعدة الزوج زوجته في الشؤون المنزلية ورعاية الصغار، فقد كان الرسول ﷺ في خدمة أهل بيته، فقد روى الأسود سألت عائشة ما كان النبي ﷺ في أهله، قالت: «كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة»[٢] فإن القيام على شؤون البيت أو الأسرة ليس دونية على الإطلاق، ولا ينبغي للمرأة أن تعتبر مسئوليتها عن ذلك، هو موروث عصر الحريم، وليس للرجل أن يمتنع عن المساعدة.

وفي السياق نفسه، لا يجوز إطلاق مبدأ المساواة التامة في النوع: Gender Egaulity بإلغاء الفوارق بين الرجل والمرأة تماما بغض النظر عن أي اختلافات أو فروقات بيولوجية بينهما، يؤدي إلى المساواة التامة في كل الحقوق والواجبات على مستوى الفرد والأسرة، والمجتمع، وفي المجالين الخاص والعام.

فليس أداء المرأة لدور الأمومة وظيفة اجتماعية صرفة، ودورا نمطيا للمرأة، كما تقول

(٢) صحيح البخاري، ج٦، باب كيف يكون الرجل في أهله، رقم «٢٤٤».

وثيقة بكين، وليس مقبولا وصف المرأة بأنها مظلومة حين تؤدي هذه الوظيفة لأنها غير مدفوعة الأجر[٣] والصحيح أنها ممارسة فطرية، وحقا طبيعيا جعلت عليه المرأة، لا غنى لها عنه ولا غنى له عنها، تأبى أن يسلبها أحد هذا الحق.

فليس صحيحا أن المرأة تؤدي هذا الدور كنمط اجتماعي مفروض عليها، وإنما هي مدفوعة بكيانها وغريزتها وارتباطها العضوي والسري بطفلها بأداء هذه الرسالة الغالية والمحببة إلى نفسها، وهي على استعداد للتضحية بكل ما تملك للحرص على الاحتفاظ بحقها فيها وعدم حرمانها منها، فلم تصادم طبيعة المرأة وفطرتها؟

ومن ناحية أخرى، فإن الشريعة تقرر لها حقوقا مالية ومعنوية، فهي مستحقة للنفقة والرعاية والحماية من جانب الرجل وهو مسئول عن ذلك:

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾

(البقرة: ٢٣٣)

وهو ما يثبت زيف إدعاء الوثيقة، وافتئاتها على الحقوق المادية والمعنوية المقررة للمرأة أو عدم درايتها وجهلها بحقوق المرأة كأم في الشرع الإسلامي.

فبهذا يكون التعادل والتوازن في الحقوق والمسئوليات بلا إفراط ولا تفريط، وفي الحفاظ على أداء كل نوع للواجبات الملقاة على عاتقه من حفظ للنوع، وتقسيم للعمل والمسئوليات بما يحقق المصلحة لكل الأطراف، وهو ما تذهب إليه التشريعات العربية الخاصة بالأسرة والأحوال الشخصية، فإنها قد ضمنت موادها العديد من تلك الحقوق، ويؤكد ذلك تقرير منظمة الصحة العالمية، فقد ورد بالتقرير أنه: لا يليق بالمرأة أن تعمل في المجالات التي لا تلائم طبيعتها وثمة حقيقة ينبغي التنويه إليها، تنزلق إليه دعوات أنصار حقوق المرأة، بإثارة المرأة ضد الرجل، وإقامة خصومة معه ومع المجتمع، وخلق حالة من الاستنفار والاستعداء ضد الشرع والدين وتصويره، بأنه يقف حجر عثرة أمام تقدم المرأة وإنصافها وحصولها على حقوقها.

والحق أنه ليس من مصلحة المرأة ولا الرجل ولا المجتمع أن تقوم الحياة بينهما على أساس الصراع والشقاق، وإنما الأفضل للجميع أن تجري على نسق التعاون والتساند والتكامل والتناسق فيما بينهما، فهذا أدعى إلى تحقيق الحياة الكريمة لهما وللمجتمع في ظل المرجعية الإسلامية.

وفيما يتعلق بحق الرجل في القوامة، وتفسيره بأنه قرين للتحكم والظلم والاستعلاء، فهو فهم قاصر ومغلوط يجب تحريره، فإنه من المهم الفهم الصحيح لهذا المصطلح، فالقوامة ليست لكل الرجال على كل النساء، وإنما هي في نطاق الأسرة بالنسبة للزوج على زوجته وأولاده.

كما أن الطلاق ليس حقا مطلقا للرجل، وإنما هو رخصة، والصلح مطلوب وواجب، كما لا يجوز أن تؤدي القوامة إلى ظلم الرجل للمرأة بدعوى أحقيته فيها أو أنه تملكها، أو الاستخدام الخاطئ والتعسف لحق الطلاق، فإنه انحراف وفهم سقيم بسبب ما ينتج عن ذلك من ضرر جسيم، فإنه يعود بمردود سيئ ومدمر على حياة

(٣) انظر وثيقة بكين، «البند ٨٢ ـ بكين + ٥»، وتقرير «دور الرجال والصبية في تحقيق مساواة النوع».

الأسرة والمجتمع، كما يقول محمد عبده: «واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيتهم، إنما يلدون عبيداً لغيرهم»[٤].

واستحقاق المرأة النصف في الميراث بالنسبة للرجل، ليس تفضيلاً للرجل ولا تمييزاً ضدها، وإنما مرده إلى التحمل بالأعباء والمسئوليات، لأن الرجل استحق ذلك بسبب الواجبات المالية والأعباء التي يتحملها، سواء الأعباء التي يلتزم بها تجاه زوجته وأسرته المتمثلة في دفع المهر وتجهيز المنزل، والإنفاق والوفاء بأجر الرضاع والحضانة وتعليم الأطفال ورعايتهم صحيا واقتصاديا، بالإضافة إلى تحمله الأعباء العامة.

ولاشك أن فلسفة المنظومة التشريعية في الإسلام والدول العربية تغاير فلسفة النظم القانونية الغربية التي تتأسس على مساهمة المرأة بالمال مع الرجل بدفع الدوطة، وبالإنفاق على المنزل، واقتسام الثروة، مما لا وجود له في النظام الإسلامي، الأمر الذي لا يجوز للنظام الغربي الاحتجاج به على الإسلام، إذ إن لكل نظام فلسفته ومبادئه، ومن ثم فليس مقبولاً استنساخ أو فرض النظام القانوني الغربي على المسلمين وتنحية الإسلام بدعوى التطور وملاحقة العصر.

وبخصوص مسألة الشهادة، فإن الآية التي ينتقص بها البعض حق المرأة في إثبات الحقوق لا تنهض حجة على هذا الزعم، إذ هي خاصة بعملية التوثيق بين طرفي المعاملة المحررة بينهما بالكتابة كما جاءت به الآية الكريمة الموسومة بآية الدين وإثبات المديونية بين الدائن والمدين، وليست قاعدة عامة في الإثبات، وأداء الشهادة، وكما يقول الشيخ شلتوت [٥] فإن قوله تعالى:


شلتوت

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

ليس وارداً في مقام الشهادة التي يقضي بها القاضي ويحكم، وإنما هو وارد في مقام الإرشاد إلى طريق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل.

ثم يقول: والآية ترشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذي به تطمئن نفوس المتعاملين على حقوقها، وليس معنى هذا أن شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ولا يحكم بها القاضي، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو البينة. وهي تتأتى من كل ثقة عدل رجلاً كان أو امرأة. لأن العدل الثقة ليس مختصا بصنف الرجال فقط، وإنما يعم النساء، فهي موجودة فيهما لا تنحصر في نوع بعينه.

متى كان ذلك، فلا يصلح حرمان المرأة من المشاركة في التنمية، ولا يستقيم التذرع بظواهر بعض الأدلة وفصلها عن سياقها وعزلها عن النصوص الأخرى، وإغفال التطبيقات العملية وإهدار المصالح الاجتماعية، والخلوص إلى القول بعدم المساهمة في العمل العام، ومن ثم فإن على المجتمع والدولة أن توفر الفرص المتاحة لاشتغال المرأة، والقيام بمسئوليتها في العمل العام على نحو يحقق المصلحة للجميع، ويتواءم مع المستجدات التي طرأت على وضع المرأة ونظام المجتمع.

(٤) إقبال بركة، المرأة المسلمة في صراع الطربوش والقبعة، ص٩-١٠.

(٥) الإسلام والعقيدة، دار الشروق، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

تحريم الإسلام للعنف ضد المرأة




للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

وصّى الإسلام برعاية الرجل لزوجته وبين أنها ستار ووقاية له وهو ستار ووقاية لها، وكان التعبير القرآني أبلغ ما يكون حيث قال الله تعالى عن هذه العلاقة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

(البقرة: ١٨٧)

وبين الله تعالى الغاية المنشودة من حياة الزوجين، وهي أنها السكن والمودة والرحمة بين الزوجين وليس العنف ولا الشقاق فقال الله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

(الروم: ٢١)

وأمر الله سبحانه بالمعاشرة بالمعروف حيث قال جل شأنه:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

وكان من آخر وصايا رسول الله ﷺ ثلاثة أمور قال ﷺ: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه النسائي وابن ماجة، ومعنى «عوان»: أسراء.

وقد أعطى الرسول ﷺ للرجال القدوة في حسن معاملة النساء، فكان يداعب زوجاته ويلاعبهن تطييبا لقلوبهن حتى إنه روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو - أي الجري - فسبقته يوما وسبقها في بعض الأيام فقال عليه الصلاة والسلام: «هذه بتلك» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة.

وقد قرر الإسلام للمرأة حق الصداق، والعدل، والنفقة، وحسن العاشرة، قال ﷺ: «لا يفرَكْ مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر» رواه مسلم، ومعنى قوله «لا يفرك»: لا يبغض ولا يكره.

ووضح أن حسن معاملة النساء دلالة خيرية الإنسان وإيمانه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ

تحريم الإسلام للعنف ضد المرأة

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم».

وبما قرره الإسلام من حقوق للمرأة: حق الإعفاف، واستشارتها وأخذ رأيها، والوفاء لها.

فإذا كان الإسلام قد حمى حقوق المرأة على هذا النحو فكيف يتسنى للبعض أن يوجه عنفا وتشددا عليها، وفي العنف ضد المرأة مخالفة صريحة لهذه التوجيهات ولما كان عليه ﷺ.

● إن العنف ضد المرأة ليس خلقا إسلاميا بل هو من عادات الجاهلية الأولى حيث كان من عنفهم ضد المرأة: ظاهرة «وأد البنات» في بعض القبائل ولما جاء الإسلام حرم ذلك ونعى على مرتكبيه ظلمهم قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(النحل: ٥٨ - ٥٩)

وقال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٣١)

وقال الله سبحانه:

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾

(التكوير: ٨ - ٩)

● ومن ظواهر العنف ضد المرأة منعها في الجاهلية من الميراث ولم تزل هذه الظاهرة لها رواسبها في بعض البيئات التي تحرم النساء من حقوقهن التي فرضها الله تعالى في القرآن الكريم.

● ومن ظواهر العنف ضد المرأة أيضا تفضيل بعض الأسر الذكور على الإناث.

● ومن ظواهر العنف ضد المرأة إكراهها على الزواج من إنسان قد لا تكون راغبة فيه ولا موافقة عليه وقد قرر الإسلام ضرورة أخذ رأيها وموافقتها، وشرع رؤية كل منهما للآخر قبل الزواج.

● ومن ظواهر العنف ضد المرأة الظواهر الخارجة عن تعاليم الإسلام وآدابه مثل التحرش الجنسي، ومثل الاغتصاب، وهي ظواهر سيئة لا يقرها شرع ولا إنسانية ولا آداب.

إن مثل هذه الظواهر من الرجال تعتبر عدوانا على كرامة المرأة وحقها في الحياة الآمنة المستقرة.

وإن ظاهرة النشوز كما تكون عند المرأة قد تكون عند الرجل عندما يعرض عن زوجته ويبغضها ويسيء معاملتها وقد وضع القرآن الكريم الحل في مثل هذه الحالة حيث قال الله سبحانه:

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(النساء: ١٢٨)

● ومن حرص الإسلام على عدم العنف ضد المرأة أنه حتى في حالة النشوز وضع مراحل العلاج بدءا بالوعظ ثم الهجرة ولا يكون إلا في المضجع ومكان المبيت تمهيدا لعودة الحياة والصلح ثم آخر المراحل الضرب وهو غير شديد ولا مبرح قال الله تعالى:

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

(النساء: ٣٤ - ٣٥)

وبين القرآن أن المرحلة الثانية في الإصلاح - والتي تلي الوعظ هي الهجر في المضجع فقط وهو هجر يسير ولا يكون أمام الأبناء حتى لا يتأثروا نفسيا، وإن لم يجد الهجر، كانت الخطوة الثالثة وهي الضرب اليسير غير المبرح وليس ضرب عدوان أو تشف، بل ضرب محبة تصحبه عاطفة حميمة، ووضحت السنة النبوية ذلك في قول الرسول ﷺ: «ولا يضرب إلا ضربا غير مبرح ولا يهجرها إلا في المبيت»، رواه أبوداود وابن ماجة.

● ومما لا ريب فيه أن المرأة هي الأم والزوجة والبنت والأخت وهي حاضنة الرسل ولولا المرأة ما كان الرجل ولولا الرجل أيضا ما كانت المرأة فهما مكملان لبعضهما، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، ومن أجل ذلك كانت توجيهات الإسلام كثيرة في حسن التعامل مع المرأة وفي تحريم العنف معها في أي حال من الأحوال، فهي سكن للرجل وبينهما يجب أن تسود المودة والمحبة لا العنف ولا التشدد.

وأرى أن مقاومة العنف لا تكون بالقانون وحده فما أيسر أن يفلت الناس من طائلة القانون، ولكن لابد لمناهضة ظاهرة العنف ضد المرأة، من غرس الضمير الديني والوازع الديني الذي يصوغ شخصية الرجل على نحو كريم يحترم فيه المرأة ويصونها، ويعلم أن الله سيحاسبه على ظلمه لها أو عنفه معها، ولا يكون غرس الوازع الديني إلا بالتوعية الصحيحة والمكثفة من المؤسسات الدينية والدراسات الإسلامية في كل مجال من المجالات وبيان أهمية العلاقات الزوجية والحفاظ على ما بين الزوجين من عهد وارتباط وميثاق وصفه الله تعالى بأنه ميثاق غليظ، فلا يصح التهاون فيه بحال من الأحوال والتعبير القرآني بين أن الله تعالى خلق النساء من أنفسنا:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

فهي من نفس الرجل، فالزوجان مثل النفس الواحدة، فلا يصح العدوان على الزوجة ولا العنف معها بل لابد من المودة والرحمة.

● ومن ظواهر العنف ضد المرأة إضافة إلى ما سبق: تكليفها في الأعمال الشاقة.

● ومنها تحميلها أو تكليفها بالأعمال الشاقة كالعمل الزراعي في الحقول بالريف.

● ومنها إكراه المرأة على الحمل المتواصل دون فترة راحة.

● ومنها فرض بعض الرجال آراءهم على النساء بالإكراه أيا كان الرأي ولو كان غير صواب.

● ومن ظواهر العنف أيضا: حرمان المرأة من أبنائها عند التنازع والفراق، ومنها إيذاء الأبناء أمامها.

وبلاشك أنها ظواهر متنافية مع التعاليم الإسلامية.

● وحرم الإسلام الدخول على النساء دون محرم أو الخلوة بهن دون محرم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء» رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي.

قالوا: «يا رسول الله أرأيت الحمو؟» وهو قريب الزوج مثل دخول الأخ على زوجة أخيه وحدها فرد عليهم رسول الله ﷺ قائلا: «الحمو الموت» أي أن دخوله يشبه الموت في الاستقبال فهو محرم شديد التحريم، وإنما كان التأكيد بالزجر وتشبيه ذلك بالموت، لتسامح الناس عادة في ذلك حتى كأنه غير أجنبي عن المرأة.

● وحفاظا على حقوق المرأة إلى جانب حق الميراث والصداق الحق في المساواة في الهبة والعطية، وفيما رآه محمد بن الحسن وأحمد و إسحاق وبعض الشافعية والمالكية: «العدل أن يعطى الذكر حظين كالميراث واحتجوا بأن هذا حظها من ذلك المال لو أبقاه الواهب في يده حتى مات..

وقال غيرهم: لا فرق بين الذكر والأنثى، وظاهر الأمر بالتسوية في الحديث يشهد لهم ويستأنسوا بحديث ابن عباس رفعه: «سووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء» رواه سعيد بن منصور والبيهقي من طريقه وإسناده حسن.

● ومن عناية الإسلام برعاية حق المرأة في تأمين حياتها أن أنزل الله سبحانه وتعالى تشريعا لحل ما يعترض حياتها وأمنها من ناحية الزوج حين يظاهر من زوجته كما حدث مع خولة بن ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت عندما ظاهر منها، وأصل الظهار مشتق من الظهر، وكان الناس في الجاهلية إذا ظاهر أحدهم امرأة وقال لها: «أنت عليّ كظهر أمي» كان هذا الظهار عند الجاهلية طلاقا فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ا. هـ «تفسير ابن كثير» - روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه قالت، فدخل عليّ يوما فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به

المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتق الله فيه» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لي يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا، ثم قرأ عليّ:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

إلى آخر الآيات إلى قوله تعالى:

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(المجادلة: ٤)

قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة» قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق قال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام قال: فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر» فقالت: فقلت: والله يا رسول الله ماذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر» قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوص بابن عمك خيرا قالت: ففعلت» رواه أحمد.

وفي رواية في السنن أنها قالت: يا رسول الله إن أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني جعلني كأمه عنده؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «ما عندي في أمرك شيء» فقالت: اللهم إني أشكو إليك.

وروي أنها قالت: إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فنزل القرآن:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

وعاشت «خولة» إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحدث أن عمر رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين كان يمر بالطريق - يوما - ومعه «الجارود العبدي» فإذا امرأة تناديه وتقول: رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة فالتفت عمر وراءه، ثم وقف حتى بلغته السيدة، فقالت له - وهو مبتسم: يا عمر عهدي بك وأنت تُسمى «عميرا» تصارع الفتيان في سوق عكاظ فلم تذهب الأيام حتى سميت «عمر» ثم لم تذهب الأيام حتى سميت «أمير المؤمنين» فاتق الله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت!! فقال لها «الجارود العبدي»: اجترأت على أمير المؤمنين، فجذبه عمر من يده وهو يقول: «دعها فإنك لا تعرفها هذه خولة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها».

وهكذا نرى رعاية الإسلام لحق المرأة، وحماية حقوقها عبر عصور الإسلام.

نظرات فى الإسلام (١)

أسباب نجاح الدعوة الإسلامية





أ.د/ محمد عبدالله دراز

لقد نظرنا فى تاريخ الحركات الدينية، وتاريخ الرسالات الإصلاحية، ونظرنا فى تاريخ الدول الناشئة وتاريخ الدعوات الجديدة.. فما رأينا كرسالة الإسلام، لا فى تمكنها واستقرارها، حيث بلغت من أقطارها، ولا فى عمق نفوذها وبعد آثارها.. لقد قام الإسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل ميلاد المسيح، فهل كانت تلك الفتوحات إلا نار الهشيم سرعان ما اشتعلت، وسرعان ما انطفأت؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وموائدهم ونظمهم وآدابهم، ألم يكن الأمر على العكس أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التى فتحوها؟

ولقد جرب الاستعمار الأوروبى الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة فى بلاد الشرق لكى يغزو عقول أهليها وقلوبهم كما غزا أرضهم وديارهم، فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة فى آماد مديدة أو غير مديدة، فيخرج منها كما دخلها أول مرة لم يغير شيئا من جوهرها، لا فى عقائدها ولا فى لغتها ولا فى أسلوب تفكيرها.

أما رسالة الإسلام فإنها حين بسطت جناحيها فى أقل من قرن على نصف المعمور، كانت كأنها أنشأته خلقا آخر.. لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنا واحدا، ومن قوانينه المختلفة قانونا واحدا، ومن آلهته المتعددة إلها واحدا.. لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلا وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا، بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لسانا إلى جانب لسانه، وكثيرا ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هى لاتزال فى كل عصر، تتلقى معاول الهدم من أعدائها فتكسر هذه

الصدمات على صخرتها، وهى قائمة تتحدى الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر..

فليحاول الباحثون ماشاءوا أن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة، وهذا الانتصار الباهر.

إن هذا النجاح، ليس مرده فى نظرنا إلى سبب واحد من الأسباب، ولا إلى فضيلة واحدة من الفضائل.. لقد تضافرت عليه شخصية الداعى، ومنهاج دعوته، وشخصية الأمة التى تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها أما صاحب الرسالة وما أدراك من صاحب الرسالة، فحسبك منه أنه عليه الصلاة والسلام، جمع خلالا كل واحدة منها كانت عنصرا فعالا فى هذا النجاح، خلالا نعد منها ولا نعددها، ونرسم شيئا من جوانبها ولا نحدها:

صبر ومصابرة، وجد ومثابرة، وحرص على بلوغ الغاية، والتزام لأدق حدود الصدق فى الوسيلة وفى الغاية، تلطف فى الدعوة وقصد فى الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر فى السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة، سخاء بما فى اليد، وزهد فيما بيد الناس، تضحية بحظوظ نفسه وتنازل عن حقوق شخصه، أما فى تبليغ الرسالة وإقامة العدالة، فعزيمة متوفرة لا تنى، وصلابة فى الحق لا تنثنى.

هذه الخلال الفضلى، وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع فى نفس الرسول الكريم من ينبوع ذى ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل.. إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها، وحب للإنسانية، واهتمام بإنقاذها، وأمل فى نجاح الدعوة وبلوغها أقصى غايتها.

نعم إن هذا القلب الذى يمتلىء إيمانا وحكمة، يفيض فى الوقت نفسه حنانا ورحمة، ويطالع فى الأفق دائما أملا باسما فى النجاح والفلاح.. لا أقول: إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب. فإنه وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر، فهو - كما وصفه الله رحمة للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص على خيرهم وسعادتهم، مشفق على عنتهم وشقوتهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٢٨)

ولا أقول: إنه كان يداعب أملا فى نجاح جزئى يخص عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرى ومن حولها، ولكنه كان يحمل أملا فى نجاح محيط شامل، بتنظيم البشرية كلها.. ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح. انتقاصا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادة فى أحزانها وآلامها؟ هذا القلب الرحيم كيف يطيب له

عيش وهو لا يزال يرى طائفة من إخوته فى الإنسانية، يعيشون فى ظلمة الضلالة والجهالة، أوفى حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله؟ كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه، وترددوا أمامه فى الهاوية متهافتين- على ضعفهم- كما يتهافت الفراش على النار، لا بد إذا أن يعيد الكرة. وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح وقد ملئت برا وعدلا، وسعادة وكرامة... إيمان قوى، وحب عميق، وحرص على اقتناص الأمل البعيد، ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد الذى كان أول عوامل النجاح..

هذا العامل من جانب صاحب الرسالة. يسنده ويؤيده عامل آخر من جانب الأمة التى تلقت تلك الدعوة والأرض التى بزغ فيها نورها.. أرض بكر لم يدنسها فى التاريخ كله أقدام الفاتحين، ولم تتحكم فيها يوما ما أيدى الغاصبين، وأمة ألمعية الذهن، مرهفة الحس، حفيظة للحمى. أبية للضيم، ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب، وما هو إلا أن فتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شعورها وتفكيرها، فحملت مشعله بسواعدها القوية، وقلوبها الفتية.. الحمية إذاً هى الحمية، ولكنها تبدلت حمية الحق بحمية الجاهلية.

هكذا تجاوبت نفسية الداعى والمدعو، فالتقت القوتان فى حلقة مفرغة، حملت إلى العالمين رسالة الإسلام.

وبعد- فما رسالة الإسلام؟ إنها رسالة تدعو إلى نفسها بنفسها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، رسالة نزيهة القصد مجردة من كل غرض، إنها ليست رسالة العلو والاستعباد ولا رسالة الطغيان والفساد.. إنها رسالة النور والإيمان، والعدل والإحسان، رسالة الفطرة السليمة، والأخلاق الكريمة، والسياسة الحكيمة. فلماذا لا تكون رسالة الانسانية كلها!؟؟

لماذا لا تعتنقها البشرية جمعاء؟!

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(القصص: ٥٦)

***

فتاوى لها تاريخ

القتل والانتحار



الشيخ/ محمود شلتوت

لا زال بعض الناس فى ريفنا وصعيدنا يستهينون بجريمة القتل، ويقدمون عليها من أجل ثأر أو عصبية أو أسباب واهية.

ومن عجب أن نرى فى المدن- خاصة بين الشباب المثقفين- ظاهرة سيئة انتقلت العدوى بجراثيمها من مجتمعات أخرى، تلك هى ظاهرة «الانتحار».

نرجو كلمة شافية فى بيان حكم الإسلام فى من يعتدى على الحياة الإنسانية بقتل نفسه أو غيره.

بعث الله الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الأحكام، توجيها للإنسان نحو معرفته ومعرفة أسراره التى خلق عليها العالم، ونحو انتفاعه بما سخر له فى الأرض والسماء على وجه لا تطغى فيه الشهوات ولا تتحكم الأهواء، وبذلك تكمل سعادته ويستتب أمنه، ويعيش مع أخيه الإنسان، متعاونين متعاطفين متراحمين فى ظل من رحمة الله بهما، وعطفه عليهما، وهدايته لهما.

والسعادة على هذا النحو إنما تكون بسلامة جملة من العناصر، لابد منها فى أصل الحياة وقيامها، وأول هذه العناصر الأرواح، فحفظها حفظ لما سواها، وهدمها هدم لما سواها، ولا يستقيم نظام لأموال ولا لأعراض ولا لعقول ولا لاجتماع، والأنفس معرضة للأخطار والهلاك والدمار، وهذا شأن قد قر فى طبائع النفوس ومدركات الإنسانية الأولى.

القتل فى تقدير الإنسانية

ومن هنا لم يفتأ الناس، منذ أن عرفوا الحياة وتكونوا جماعات، يرون على رغم ما ظهر بينهم من تعارض الرغبات والشهوات، وتمكن فى نفوسهم من بواعث الحقد والغضب- أن جريمة القتل من أكبر الجرائم، يرونها سلبا لحياة المجنى عليه بغير حق، وتيتيما لأطفاله، وترميلا لنسائه، وحرمانا لأهله وذويه منه، وحرمانا له من حظه المقدر له فى الحياة يرونها مصادمة لإحساس الجماعة البشرية، الذى فطرت

عليه في اعتقاد أن الحياة حق لكل حي، يتمتع به، وينفع وينتفع في ظله، ولا يجوز الاعتداء عليه فيه، ولا انتزاعه منه، يرون أنها زعزعة لما ترجو هذه الجماعة من هدوء الحياة واستقرارها كي تنتفع بأسرارها، وتصل إلى سبيل العزة والكمال، وأنها فوق ذلك كله هدم لعمارة شادها الله بيده، وجهزها بما جهز، وسخر لها ما سخر بحكمته ورحمته، وبهذا استكملت الحكمة الإلهية العمارة الكبرى التي جعل الإنسان خليفة فيها، يعمرها وينميها.

ولا نكاد نعثر في التاريخ، مهما أغرق في القدم- على جماعة إنسانية هانت عليها الأرواح، وغضت أبصارها عن الآثار السيئة لهذه الجريمة، فلم تغضب لها ولم تكترث بشأنها، ومن هنا كانت حرمة النفس البشرية من الحرمات التي تقضي بها طبيعة الإنسان في خلقه وتكوينه، وكانت تارة في نفسه بمقتضى هذه الطبيعة، وأن الشرائع السماوية، حينما جاءت بحرمتها، لم تكن إلا مؤيدة ومؤكدة لما تمليه الطبيعة على الإنسان في اعتقاد حرمتها.

جريمة القتل الأولى

وهذا هو القرآن الكريم يحدثنا عن أول اعتداء وقع من الإنسان على أخيه الإنسان بالقتل:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(المائدة: ٢٧)

ويصور لنا القرآن في ذلك أن كلا من القاتل والمقتول كان يرى- بمجرد عقله وتقديره- أن القتل جريمة منكرة وظلم فادح واعتداء موجب للندم، موجب لغضب الله. فالمقتول يقول:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

(المائدة: ٢٨- ٢٩)

والقاتل يعالج في نفسه الإقدام على الجريمة علاج الكاره لها، المتحرج منها، الواقع تحت ضغط آخر مقابل.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(المائدة: ٣٠)

ثم نظر فوجد جثة أخيه بجواره هامدة، فوقع في حيرة من أمرها، وماذا يصنع بها فعظمت حسرته، واشتد ندمه:

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

(المائدة: ٣١)

جريمة القتل في نظر الشرائع

قص الله علينا بهذه الآيات جريمة القتل الأولى التي وقعت بين بني الإنسان، وربط بها أول إرشاد سماوي- فيما نعلم- إلى قبحها وبشاعتها، فقال

عز وجل بعد هذه القصة:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

ودرجت على استفظاع الجريمة جميع الشرائع السماوية والأرضية، وجاءت كلها تقرر وتؤكد ما أدركه الإنسان بفطرته من حرمة النفس البشرية، وأن قتلها عمداً بغير حق يبرره جريمة فوق الجرائم كلها، جريمة لا يقرها شرع، ولا يتقبلها وضع، ولا يستسيغها اجتماع.

ثم جاءت الشريعة الإسلامية فعنيت بهذه الجريمة أيما عناية، وأولتها كثيراً من الاهتمام، فكررت النهي عنها، وشددت التنفير منها، والنكير لها، وبينت بوجه خاص حكمها الدنيوي وفصلت أهم نواحيه، وحكمها الأخروي وأفاضت فيه؛ وكان من آيات النهي قوله تعالى في الوصايا العشر التي ختمت بها سورة الأنعام المكية، والتي لم تخل منها شريعة سماوية، والتي قال فيها ابن مسعود: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

ثم اقرأ هذا النهي عينه مع بعض تفصيل لحكم الجريمة في وصايا سورة الإسراء التي سبقت بعنوان القضاء:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(الإسراء: ٢٣)

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾

(الإسراء: ٣٣)

توبة القاتل:

وقد جاء في الوعيد الأخروي لتلك الجريمة من سورة النساء المدنية قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٩٣)

وعيد تنخلع لهوله القلوب المؤمنة، وعيد لم يرمثله في جريمة غير القتل: جنهم! وخلود فيها وغضب الله

ولعنته، وعذاب عظيم أعد وهيئ للقاتل. كل ذلك دون أن يردف في الآية بما يدل على الغفران عند التوبة، كما نرى في وعيد غيرها من الجرائم.

وقد أخذ بعض العلماء من هذا أن توبة القاتل غير مقبولة، ونقل ذلك عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وغيرهما من الصحابة. ولهؤلاء مع مخالفيهم كلام طويل في هذه المسألة، وسواء أصح رأيهم وكانت توبته غير مقبولة أم لم يصح، كما هو مقتضى النظر الصحيح في الموازنة بين حجج الفريقين وما يتعلق بها، فحسبنا في عظم الجريمة عندالله أن يذكر وعيدها على النحو الذي ذكر في الآية، دون أن يردف بما يدل على قبول توبة القاتل.

جريمة الانتحار

تعلق النهي في آيات النهي بقتل «النفس» وليس من ريب في أن نفس التي تكرر النهي في القرآن عن قتلها بغير حق تتناول بإطلاقها كل نفس بشرية، ونفس القاتل ونفس غيره سواء، وإذا كان من المألوف في الطباع البشرية أن يثور الإنسان على غيره ويغضب ويحقده، ويشتد غضبه وحقد على ذلك الغير، فتسول له نفسه أن يقتله، شفاء لحقده وذات صدره، ويكون كل ذلك من الإنسان نقصا في إنسانيته، وشذوذا عما استقر في ضمير الإنسانية من حرمة النفس البشرية، فإن من الشذوذ القادح المزري بالإنسانية الذي لم تنزل إليه الحيوانات العجم، أن يثور الإنسان على نفسه بفقر ضاقت به يده، أو مرض طالت به زمانته، أو إخفاق في مرغوب، أو فتنة من لعوب، أو أي ضيق كان نوعه وكان مبعثه، فلا يجد لديه عزما، ولا إرادة يدفع بها الثورة على نفسه، وتعجز مواهبه الإنسانية الأولى- وفساد تصور لسنن الله في الحياة عن المكافحة، وعن الصبر والمصابرة- فيفر من الميدان فرار الجبان الذي خارت عزيمته، وتلاشت إنسانيته، ليس من ريب في أن نكبة الإنسانية بقاتل نفسه أثقل في الميزان من نكبتها بقاتل غيره، نعم، كلاهما قاتل لنفس حرم الله قتلها، وكلاهما هادم لعمارة شادها الله، ولكن الأول قتل غيره ليحيا، والثاني قتل نفسه ليموت، وإذا كانت فكرة القتل بغير حق جرثومة إفساد في الإنسانية فإن فكرة قتل الإنسان نفسه أشد فسادا وأعظم خطرا، تنهال الإنسانية منها بيدها، وعلى المصلحين أن يتكاتفوا بكل ما يرون من وسائل على تطهير الإنسانية في أي مجتمع كان، ديني أو غير ديني، من هذه الجرثومة التي تحمل في صورتها معناها سقوط الإنسان من رتبة التكريم، ومقام الخلافة التي وضع فيها منذ خلق وكون.

العقاب الأخروي لقاتل نفسه

وإذا كان القرآن قد أهمل النص الصريح الخاص بالعقاب الأخروي لقاتل نفسه فإن ذلك لم يكن تهوينا

لأمر الجريمة، ولا عنوانا على عدم استحقاقها الجزاء، وإنما كان إسقاطا لصاحبها عن درجة الاعتبار، وعن مكانة الاعتداد به، وإيحاء في الوقت نفسه بأنها من الجرائم التي لا تنتظر أن يعرفها الإنسان ولا أن يفكر فيها، حتى تحتاج في التحذير منها إلى نهي تشريعي خاص، أو ذكر وعيد بين تلي عبارته في كتاب جاء منظما لشئون البشرية في درجات رشدها واكتمالها الإنساني.

ومن هنا جاءت أحاديث الرسول عليه السلام، الواردة في شأن الانتحار، تسجل فقط العاقبة السيئة، والعذاب الأليم لقاتل نفسه، دون أن يكون من بينها نهي عن ارتكاب الجريمة نفسها، وقد جاء الوعيد عليها في هذه الأحاديث على نحو ما جاء في القرآن من وعيد قاتل «المؤمن المتعمد»- حرمانا من الجنة وخلودا مؤبدا في النار.

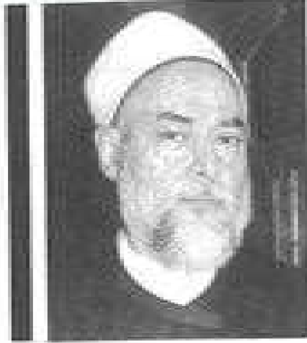
ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ، قال: «كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة».

ومنه ما روياه أيضا عن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل هذا الرجل قتالا شديدا (أي مع المسلمين) فأصابته جراح، فقيل يارسول الله: الذي قلت آنفا إنه من أهل النار قد قاتل قتالا شديدا، وقد مات، فقال عليه السلام إلى النار!! فكاد بعض المسلمين يرتاب، وقالوا: كيف يكون هذا في النار؟! فبينما هم على ذلك إذ قيل لهم: إنه لم يمت، ولكن أصابته جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فأخذ ذباب سيفه فتحامل عليه فقتل نفسه، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله، ثم أمر بلالا فنادى في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

هذه نظرة الإسلام وتقديره لجريمة الانتحار، وجدير برجال التربية والتهذيب أن يعدوا لمكافحتها في نفوس الشباب ما استطاعوا من وجوه التقويم، وغرس مبادئ الكفاح لما لا تخلو منه الحياة من الآلام، ومصادمات الرغائب، وأن الشأن في هذه الجريمة لأكبر من أن نشغل أنفسنا بذكاء مرتكبها أو غباوته!! فهي جرثومة محققة وجرثومة مفسدة للإنسانية، وعدوى نرى ميدان تفشيها يتسع من عام إلى آخر، بل من شهر إلى شهر، فعلينا أن نعنى بمكافحتها وأن نتابعها، فنتقي شرها، ونسلم من ويلها، ونؤدي بذلك ما علينا من حق لأبناء مجتمعنا الإنساني الكريم، فيطمئن الخاطر، ويأمن العاثر، والله المسدد والمعين.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـي جمعـة
مفتي جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

أحكام الزكاة

السؤال من س.ا.ى: ما هو حكم إخراج الزكاة مبكرًا عن وقت وجوبها بأكثر من سنتين؟ وهل هناك خلاف بين العلماء في ذلك؟ وما الحكمة في منع ذلك إن كان هناك منع؟

●● الجواب: ذهب جمهور الفقهاء- ومنهم الحنفية والشافعية والحنابلة وأبوعبيد وإسحاق- إلى أنه يجوز للمزكّي تعجيل إخراج زكاة ماله قبل ميعاد وجوبها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأصحاب السنن، والدارقطني، والحاكم وصححه، والبيهقي من حديث علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-: «أن العباس- رضي الله عنه- سأل رسول الله ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن تحل، فرخّص له في ذلك».

قال الحافظ ابن حجر في "التلخيص الحبير": "ويعضده حديث أبي البختري عن علي- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «إنا كنا احتجنا فاستسلفنا العباس صدقة عامين» رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا، وفي بعض ألفاظه أن النبي ﷺ قال لعمر -رضي الله عنه-: «إنا كنا تعجلنا صدقة مال العباس عام أول»، رواه أبو داود الطيالسي من حديث أبي رافع- رضي الله عنه- قال الإمام الترمذي في سننه: "وقال أكثر أهل العلم: إن عجلها قبل محلها أجزأت عنه، وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق" اهـ.

وتوسّع الحنيفة فأجازوا للمزكي المالك نصابًا واحدًا أن يعجّل زكاة نصب كثيرة؛ لأن اللاحق تابع للحاصل، حتى قالوا: لو كان له ثلاثمائة درهم، فدفع منها مائة درهم عن المائتين زكاة لعشرين سنة مستقبلة جاز، إلا أن الشافعية في الأصح عندهم قالوا: يجوز التعجيل لعام واحد، ولا يجوز لعامين؛ لأن زكاة العام الثاني لم ينعقد حولها، واشترطوا لجواز ذلك أن يكون النصاب موجودًا فلا يجوز تعجيل

الزكاة قبل وجود النصاب بغير خلاف؛ وذلك لأن النّصاب سبب وجوب الزكاة، والحول شرطها، ولايقدم الواجب قبل سببه، ويجوز تقديمه قبل شرطه، كإخراج كفارة اليمين بعد الحلف وقبل الحنث، وكفارة القتل بعد الجرح وقبل الزهوق.

وقال الحنابلة: إن ملك نصابًا فقدّم زكاته وزكاة ما قد يستفيده بعد ذلك فلا يجزئه عندهم.

وقال الحنيفة- وهو المعتمد عند الشافعية-: إن قدم زكاته وزكاة ما قد ينتج منه أو بربحه منه، أجزأه، لأنه تابع لما هو مالكه الآن.

وذهب المالكية إلى أنه إن أخرج زكاة الثمار أو الزروع قبل الوجوب- بأن دفع الزكاة من غيرها- لم يصح ولم تجزئ عنه، وكذا لا تجزئ زكاة الماشية أن قدّمها وكان هناك ساعٍ يأتي لقبضها فأخرجها قبل قدومه، أمّا زكاة العين والماشية التي ليس لها ساعٍ فيجوز تقديمها في حدود شهر واحد لا أكثر، وهذا على سبيل الرخصة، وهو مع ذلك مكروه، والأصل عدم الإجزاء لأنها عبادة موقوتة بالحول.

وقد ذهب كثير من متقدمي الشافعية إلى أنه يصح التعجيل لعامين فأكثر إذا كان الباقي من المال بعد المعجل نصابًا فأكثر، وهو مقابل الأصح عند متأخريهم، قال الإمام النووي في "المجموع شرح المهذب": "ولو عجل صدقة عامين بعد انعقاد الحول أو أكثر من عامين فوجهان ذكرهما المصنف بدليلهما، وهما مشهوران: أحدهما: يجوز للحديث، والثاني: لا يجوز.

وأجاب البغوي والأصحاب عن الحديث بأن المراد تسلف دفعتين، في كل دفعة صدقة عام أو سنة، واختلفوا في الأصح من هذين الوجهين: فصحححت طائفة الجواز وهو قول أبي إسحاق المروزي، وممن صححه: البندنيجي، والغزالي في الوسيط، والجرجاني، والشاشي، والعبدري، وصحح البغوي وآخرون المنع، قال الرافعي: صحح الأكثرون المنع، فإذا قلنا بالجواز فاتفق أصحابنا على أنه لا فرق بين عامين وأكثر، حتى لو عجل عشرة أعوام أو أكثر جاز على هذا الوجه، بشرط أن يبقى بعد المعجل نصاب، فلو كان له خمسون شاة فعجل عشرًا منها لعشر سنين جاز، فلو نقص المال بالتعجيل عن النصاب في الحول الثاني لم يجز التعجيل لغير

العام الأول وجهًا واحدًا، هكذا قاله الجمهور؛ لأن الحول الثاني لا ينعقد علي نصاب، وحكى البغوي والسرخسي وجهًا شاذًا: أنه يجوز؛ لأن المعجل كالباقي على ملكه". أهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في "تحفة المحتاج": "ولا تعجل لعامين" فأكثر "في الأصح" وإن نازع فيه الإسنوي وأطال"، قال الشرواني في حاشيته عليه: "قوله: وإن نازع فيه الإسنوي.. إلخ"، أي أن العراقيين وجمهور الخراسانيين إلا البغوي على الإجزاء، ونقله ابن الرفعة وغيره عن النص، وأن الرافعي قد حصل له في ذلك انعكاس في النقل حالة التصنيف، قال -أي الإسنوي-: ولم أظفر بأحد صحح المنع إلا البغوي بعد الفحص الشديد، انتهى، وتبعه على ذلك جماعة، أسنى، زاد النهاية: ويرد بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ". أهـ.

وهذا الذي ذكره الإمام الإسنوي ظاهر لمن تأمل عبارات متقدمي الشافعية: يقول الإمام الماوردي في "الحاوي الكبير" ٣/ ١٦٠: "فإن قيل: فتعجيل زكاة عامين عندكم لا يجوز. قلنا: فيه لأصحابنا وجهان:

● أحدهما - وهو الأظهر -: جواز تعجيلها أعوامًا إذا بقي بعد المعجل نصاب؛ استدلالًا بظاهر هذه الأخبار.

● والثاني: لا يجوز تعجيل أكثر من عام واحد". أهـ.

وقال حجة الإسلام الغزالي في "الوسيط" ٢/ ٤٤٦- ٤٤٧: "ويجوز تعجيل الزكاة قبل تمام الحول، خلافًا لمالك؛ لما روى أن العباس استسلف منه رسول الله ﷺ صدقة عامين، ولا يجوز تعجيله قبل كمال النصاب، ولا قبل السوم؛ لأن الحول في حكم أجل ومهلة، فلذلك عجل عليه، ولو ملكه مائة وعشرين شاة واجبه شاة، وهو يرتقب حدوث سخلة في آخر السنة فعجل شاتين، ففي تعجيل شاتين وجهان مرتبان على الوجهين في تعجيل صدقة عامين، والصحيح بحكم الخبر جوازه، ووجه المنع: أن النصاب كالمعدوم في حق الحول الثاني، ومسألة السخلة بالجواز أولى؛ لأن الحول منعقد في حق الشاة الثانية". قال الإمام ابن الصلاح في "شرح مشكل الوسيط" "المطبوع بهامشه" هو كما قال، ويشكل على وجه المنع الجواب عن الخبر". أهـ.

هذا طرف من اختلاف العلماء في مسألة تعجيل الزكاة، وإنما جاءت الفتوى السابقة بالاقتصار على سنتين وقوفًا مع النص الوارد، وتوسطًا بين القول بالجواز المطلق عند الحنفية ومقابل الأصح عند الشافعية وبين الجواز بمقدار سنة واحدة كما هو الأصح عند الشافعية، وأن هذا القول بالتوسط هو الأوفق بانضباط الموارد المالية السنوية للفقراء، لكن لا مانع من الأخذ بقول الحنفية ومتقدمي الشافعية في تعجيل الزكاة لسنتين فأكثر عند وجود الحاجة العامة أو الخاصة إلى ذلك كنقص موارد الزكاة في سنة بعينها، أو عدم كفاية مقدار زكاة المزكي لسد حاجة فقير محتاج، وغير ذلك مما تقتضيه المنفعة العامة أو الخاصة، وذلك بشرط أن يكون الباقي بعد المعجل بالغًا للنصاب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

كفاية حاجة الفقراء

السؤال من ق.ص.ص: من أنشطة جمعيتنا مشروع أصدقاء المرضى، وفيه يتم الإنفاق على المرضى الفقراء، ومشروع كفالة اليتيم، وفيه يتم الصرف على اليتامى نقديًا وعينيًا، ومشروع المساعدات الاجتماعية للفقراء عينيًا ونقديًا.

فهل يجوز لنا الصرف على هذه النشاطات من صدقة الفطر على مدار العام، أم يشترط توزيع حصيلة ما تتلقاه الجمعية من صدقة الفطر خلال شهر رمضان؟

●● الجواب: مصارف زكاة الفطر هي مصارف زكاة المال عند الجمهور خلافًا للمالكية والإمام أحمد في رواية، في قصرهم إياها على الفقراء والمساكين، كما أن وقت أدائها هو العمر كله عند السادة الحنفية، مع قولهم بكراهة تأخيرها عن يوم العيد، خلافًا للحسن بن زياد والجمهور في إيجابهم أداءها يوم العيد وتأثيمهم من أخرها عن ذلك ولا مانع من تقليد قول السادة الحنفية في الإنفاق منها على الفقراء سائر أيام السنة إذا كانت المنفعة والمصلحة تقتضي ذلك مع التنبيه على أنه لا ينبغي أن يكون أمرًا عامًا تصرف فيه كل زكوات الفطر حتى لا يكر على مقصودها بالبطلان، فإن المقصود الأعظم من زكاة الفطر هو كفاية حاجة الفقراء في يوم العيد والتوسعة عليهم فيه وهو المعنى الذي حرم من أجله تأخيرها عن يوم العيد عند الجمهور وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «أغنوهم عن طواف هذا اليوم» أخرجه ابن سعد في الطبقات والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- فلا ينبغي العدول عن هذا المقصود التكافلي في العيد إلى غيره من مصارف الزكاة ما دام الناس محتاجين إلى من يغنيهم يوم العيد، كما هو ظاهر في كثير من البلدان والمجتمعات الفقيرة التي قد لا يجد الكثير من الناس فيها ما يوسعون به على أنفسهم وأهليهم يوم العيد.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

صلاة المنفرد

السؤال من خ.غ.ط: هل تصح الصلاة منفردًا خلف الصف إن لم يوجد مكان آخر بالصف الأمامي.

وهل يجوز أن يسحب المنفرد رجلًا من الصف الأمامي ليصلي معه.

●● الجواب: صلاة المنفرد إما أن ترد مطلقة أو مقيدة فإن وردت مطلقة فإنها تكون في مقابلة صلاة الجماعة، كما قال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ -أي المنفرد- بسبع وعشرين درجة» متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أما إذا أريد بها ما ذكر بالسؤال فإنها تقيد به فيقال: صلاة المنفرد خلف الصف.

وصلاة المنفرد خلف الصف إذا كانت لعذر - كأن لم يجد من يصف معه - صحيحة، فإذا انتفى العذر فإنها تكون صحيحة مع الكراهة وذلك لما روى البخارى عن أبى بكرة - رضى الله عنه - «أنه انتهى إلى النبى ﷺ وهو راكع فركع قبل أن يصل إلى الصف فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال زادك الله حرصا ولاتعد» ، فأخذ الفقهاء من ذلك عدم لزوم الإعادة وأن الأمر الذى ورد فى حديث وابصة بن معبد - رضى الله عنه - عند الترمذى - من «أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة» ، إنما هو على سبيل الاستحباب جمعا بين الدليلين.

أما الحنابلة فأبطلوا صلاة من صلى خلف الصف وحده ركعة كاملة دون عذر، حملا للأمر فى حديث وابصة على الوجوب .

ومن لم يجد فرجة ولا سعة فى الصف فللفقهاء فيه مذاهب :

١ - فعند المالكية وأحد قولى الشافعية - وهو ما نص عليه الإمام الشافعى فى البويطى واختاره القاضى أبوالطيب أنه يقف منفردا خلف الصف ولا يجذب أحدا لئلا يحرم غيره فضيلة الصف السابق، بل زاد المالكية أنه إن جذب أحدا فلايطعه المجذوب وهذا رأى الكمال بن الهمام من الحنفية.

٢ - أما عند الحنفية والصحيح عند الشافعية فإنه يستحب أن يجذب إليه شخصا من الصف ليصطف معه لكن مع مراعاة أن المجرور سيوافقه وإلا فلا يجر أحدا، منعا للفتنة.

٣ - وعند الحنابلة يقف عن يمين الإمام إن أمكنه ذلك، ذلك لأنه موقف الواحد، فإن لم يمكنه ذلك فله أن ينبه رجلا من الصف ليقف معه وإلا صلى وحده خلف الصف، ويكره تنبيهه بجذبه، واستقبحه أحمد وإسحاق لما فيه من التصرف بغير إذنه.

وبناء على ما سبق، فصلاة المنفرد خلف الصف إن لم يمكنه إلا ذلك صحيحة باتفاق الفقهاء ومن أجاز منهم له أن يجذب رجلا من الصف أمامه فإنما اشترط معرفة موافقة المجرور على ذلك مسبقا، ولذلك فإنا نرى قصر ذلك على هذه الحالة فقط، أما إن لم يعلم المنفرد خلف الصف هل يوافقه المجذوب أولا ،أو علم عدم موافقته على ذلك فليس له أن يجذب أحدا وذلك تأدبا مع مذهب المخالف ودرءا للفتنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم:

الجهر بالبسملة

السؤال من د.ا.م: هل قول: «بسم الله الرحمن الرحيم» ممنوعة فى الفاتحة وما بعدها فى الصلاة الجهرية.

●● الجواب: مسألة الجهر بالبسملة من المسائل المختلف فيها بين العلماء فالشافعية يرون مشروعية الجهر بها وغيرهم من العلماء يرون أن الإسرار بها هو الأفضل، وهذا الأمر معدود من هيئات الصلاة التى لا ترقى إلى درجة السنن المؤكدة، فالخلاف فيه قريب والشأن فيه واسع ومن المقرر شرعا أنه إنما ينكر ترك المتفق على فعله أو فعل المتفق على تركه ولا ينكر المختلف فيه فمن جهر بالبسملة فهو حسن ومن أسر بها فهو حسن ولا يجوز أن تكون أمثال هذه المسائل الخلافية مثار فتنة ونزاع وفرقة بين المسلمين بل يسعنا فيها ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذى كانوا يتحلون به فى خلافاتهم الفقهية واختياراتهم الاجتهادية.

والله سبحانه وتعالى أعلم:

تقليب صفحات المصحف فى الصلاة

السؤال من : ظ.غ.س : هل يؤثر تقلب صفحات المصحف أثناء صلاة التهجد على صحتها.

●● الجواب: من مبطلات الصلاة - سواء أكانت فرضا أم نفلا - العمل الكثير المتوالى، والكثير ضابطه العرف وقد حده الشافعية بثلاث حركات كثلاث خطوات عمدا أو سهوا، ولو كانت الحركات الثلاث أو الأكثر بأعضاء متعددة، كأن حرك المصلى رأسه ويديه ولو من أجناس أفعال متعددة كخطوة ،وضربة، وخلع نعل ويحسب ذهاب اليد وعودها مرة واحدة مالم يسكن المصلى بينهما ويحسب رفع الرجل مرة سواء أعادت إلى موضعها أم لا، أما ذهابها وعودها فمرتان ومثل العمل الكثير الوثبة الفاحشة أى القفزة وكذا تحريك كل بدنه أو معظمه ولو من غير نقل قدميه ومحل البطلان بالعمل الكثير إن كان بعضو ثقيل فإن كان بعضو خفيف فلا بطلان، كما لو حرك المصلى أصابعه - من غير تحريك كفه - فى سبحة أو حل أزرارا أو عقدها أو حرك لسانه أو شفته أو أجفانه ولو مرات متعددة متوالية، فأمثال ذلك لا تبطل به الصلاة، إذ لا يخل بهيئة الخشوع والتعظيم، فأشبه الفعل القليل ولو تردد المصلى فى فعل هل هو قليل لا تبطل به الصلاة أو كثير تبطل به فالمفتى به أنه لايؤثر ويشترط فى الحركات الثلاث المبطلةأن تكون متوالية، بحيث لايعد العمل الثانى منقطعا عن الأول عرفا، ولاالثالث منقطعا عن الثانى فلايؤثر غير المتوالى عرفاولو كثر جدا.

وقال الحنابلة: لا يتقدر اليسير بثلاث ولا بغيرها من العدد بل اليسير ما عده العرف يسيرا، لأنه لا توقيف فيه فيرجع للعرف كالقبض والحرز فإن طال عرفا ما فعل فيها وكان ذلك الفعل من غير جنسها غير متفرق أبطلها عمدا كان أو سهوا أو جهلا ما لم تكن ضرورة، فإن كانت ضرورة كحالة خوف وهرب من عدو ونحوه كسيل لم تبطل وعد ابن الجوزى من الضرورة الحكة التى لا يصبر عليها، وأما العمل المتفرق فلا يبطل الصلاة، لما ثبت أن النبى ﷺ أم الناس فى المسجد فكان إذا قام حمل أمامة بنت زينب وإذا سجد وضعها «وصلى النبى ﷺ على المنبر وتكرر صعوده ونزوله عنه»، وقول الحنفية والمالكية قريب من قول الحنابلة.

وبناء على ذلك وفى واقعة السؤال: فإن تقليب صفحات المصحف الشريف لاتبطل به الصلاة، لأنه عمل يسير عرفا ولكن على المصلى أن يقتصر فى ذلك على أقل حركة يتم بها الغرض من غير مجاوزة أو زيادة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم



أ.د. عماد الدين خليل

ماسيه (١)

[١] «بفضل إصلاحات محمد ﷺ الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدوا دخولهم النهائي إلى تاريخ المدنية»(٢).

[٢] «.. كان محمد ﷺ هو المشرّع الملهم والمحرك الأول للوحدة الدينية بين جميع الأقوام.. وكان بسيطًا وحازمًا..»(٣).

مونته(٤)

[١] «إن طبيعة محمد ﷺ الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحًا دينيًا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيرًا وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كبارًا جدًا في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا ﷺ وبخسوه حقه وذلك؛ لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها..»(٥).

[٢] «كان محمد ﷺ كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله»(٦).

[٣] «.. تدر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد ﷺ وإن ما قام به من إصلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية..»(٧).

(١) هنري ماسيه H. Masse، المولود عام ١٨٨٦م، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضوًا في مجمع الكتابات والآداب وفي المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين، من آثاره: نشر كتابًا عن الشاعر سعدي (١٩١٩م)، وصنف كتابًا بعنوان الإسلام (١٩٥٧م)، كما ترجم وحقق العديد من النصوص العربية، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.
(٢) الإسلام، ص ٥٥.
(٣) نفسه، ص ٥٩.
(٤) مونته (١٨٥٦-١٩٢٧)، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، من كتبه (محمد والقرآن)، وترجمة جيدة للقرآن، و(حاضر الإسلام ومستقبله).
(٥) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١/٣٢).
(٦) نفسه (عن ستودارد ١/٣٢).
(٧) حاضر الإسلام ومستقبله (عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/٦٧).

[٤] «لا مجال للشك في إخلاص الرسول ﷺ وحماسته الدينية التي تشبعت بها نفسه وفكره..»(٨).

نهرو(٩)

[١] «.. لربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الذين تسلموا كتب الرسول ﷺ الدهشة من هذا الرجل البسيط الذي يدعوهم إلى الطاعة. ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد ﷺ بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة وحولهم من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم.. وقد توفي محمد ﷺ بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماسًا..»(١٠).

هارت(١١)

[١] «إن اختياري محمد ﷺ ليكون رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء.. ولكن في اعتقادي أن محمدًا ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي»(١٢).

[٢] «لقد أسس محمد ﷺ ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويًا وعارمًا..»(١٣).

[٣] «.. من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمدًا ﷺ كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح (عليه السلام)..»(١٤).

[٤] «.. إن محمدًا ﷺ يختلف عن المسيح بأنه كان زعيمًا دنيويًا فضلًا عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال»(١٥).

[٥] «.. إن هذا الاتحاد الفريد لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معًا يخول محمدًا [صلى الله عليه وسلم] أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية»(١٦).

(٨) نفسه ١/٦٧.
(٩) جواهر لال نهرو J. Lal Nahro ولد في عام ١٨٨٩، في مدينة الله أباد، في الهند، والتقى بغاندي في أوائل عام ١٩١٩م، اعتقل عدة مرات، وانتخب رئيسًا لحزب المؤتمر الهندي الوطني عدة مرات، دخل الوزارة، وتولى الشئون الخارجية، وأصبح نائبًا لرئيس المجلس التنفيذي، تولى رئاسة الوزراء الهندية عدة مرات، له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة والشئون الهندية، توفي عام ١٩٦٤م.
(١٠) لمحات من تاريخ العالم، ص ٢٥-٢٦.
(١١) الدكتور مايكل هارت Michael Hart أمريكي، حصل على عدة شهادات في العلوم وعلى الدكتوراة في الفلك من جامعة برنستون، عام ١٩٧٢م، عمل في مراكز الأبحاث والمراصد، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.
(١٢) دراسة في المئة الأوائل، ص ١٩.
(١٣) نفسه، ص ١٩ – (١٤) نفسه، ص ٢٣
(١٥) نفسه، ص ٢٤ – (١٦) نفسه، ص ٢٥

قصص الأنبياء

يوسف وامرأة العزيز

للعلامة الشيخ عبد الوهاب النجار

يوجد فى الأمثال، ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى، ذلكم المثل هو مثل امرأة العزيز مع يوسف. ذلك أنها لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول، وكان معه ابن عمها. أرادت أن تشفى غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به، وتوقعه فى الشر جزاء إبائه عن مطاوعتها.

تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة:

﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

واتهمته أنه راودها عن نفسها وأنها أبت عليه.

وأما يوسف فقد وجد نفسه فى مأزق حرج وأن الصدق سبيل نجاته. وأنه اللائق بمقابلة العزيز بما صنع معه من جميل وما أسدى إليه من المكرمة. فقال:

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها إلى أن نازعتنى ثوبى.

وهنا ظهرت فراسة ابن عمها فى تحقيق الحق من قولهما، فقال:

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

لأن الهاجم على المرأة وهى تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها فى مقدمة قميصه. والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك من الخلف، لأنه يكون مستدبرا لها وهى تجاذبه من خلف. فظهر حق يوسف وكذب امرأة العزيز بأن رأوا قميصه قد من دبر. فعاد الشاهد أو العزيز على امرأته باللوم وقال:

﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

وأمر يوسف بكتمان الخبر وأمرها بالاستغفار لذنبها وصرح بأنها مخطئة فيما صنعت.

اقرأوا قوله تعالى:

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

(يوسف: ٢٥ - ٢٩)

لطيفة

للإمام الفخر الرازى كلمة قديمة أوردها فى تفسيره. خلاصتها: أن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

وشهد الشيطان ببراءته بقوله:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز إذ قال:

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

وشهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن بقولهن:

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها:

﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف فلا مفر له من الإقرار بالحق على أى حال، وهو براءة يوسف من الهم بها.

شيوع الخبر فى المدينة وتحدث النساء به

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها فى أرجاء المدينة، ولاكته أفواه النساء لاثمات لها على هذا الغرام، وشرعن يضللنها ويلمنها بفادح اللوم. ودوى صدى هذا القول فى أذن امرأة العزيز فأخذت فى الكيد لهن ليعذرنها ولا يعزلنها، فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها العازلات واعدت لهن مكانا يجلسن فيه، وقدمت إليهن طعاما يحتاج إلى القطع بالسكين. آتت كل واحدة منهن سكينا. وفى تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن، فبهرهن جماله، وألهاهن عن أن يحسن قطع الفاكهة التى بأيديهن فصرن يقطعن أيديهن. وشغلن بمطالعة محاسن خلقه والتأمل فى جماله واللذة فى ذلك تغمر ألم جراحهن بأيديهن فأعلن إكبارهن لذلك الجمال، وقلن:

﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

حينئذ باحت امرأة العزيز لهن بما يجنه فؤادها من اللوعة. وقالت لهن كما يشكو العاشق بلواه لعاشق مثله:

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى صادتهن وأوقعتهن فى شباك غرامه. وصرن كلهن فى الهوى سواء. ثم باحت لهن

بذات نفسها آمنة النميمة عليها ومن هذا القبيل قول القائل:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق
واشرح هواك فكلنا عشاق

وأنتم ترون أيضا أن عشقها فضحها في المرة الأولى. وكذبت لتتخلص من العار ولتشفي من ذلك الرجل الذي وصل حبه إلى شغاف قلبها وأنضج فؤادها بنار هواه، فلم تحسن التخلص ولم يكن كذبها منجيا لها من اللوم. وكان من حقها أن ترتدع، ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية فتوعدته بأن يصدع بأمرها وإلا كان مأواه السجن ولقاء الصغار بدخوله.

ولما فشت القالة بذلك، رأى العزيز وحسن له مشيروه أمرا هو أنه لا يخلصهم من العار ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلا زجه في السجن، ليخيلوا للناس أنه ما زج في السجن إلا لأنه آثم كاذب في ادعاء البراءة. وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به. وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾

وإني ألفت نظركم إلى لفظ:

﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾

فإن رؤية الآيات الدالة على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز - فيما حاولت أن تلصقه به من عار الخيانة لسيده - كان ظاهرا واضحا. وكان من حق العزيز أن يوقع بها العقاب على ما اجترحته، ويكرم يوسف ويظهر للناس براءته:

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾

ولكن شيئا من ذلك لم يكن. بل عمد هو وآله إلى الإساءة إلى من أحسن عمله. و حفظه بالغيب في زوجه. ورعى له حق السيادة والإكرام. فجزاه جزاء سنمار، وعمد إلى السيئة الكاذبة المستهينة بكرامتها وكرامة زوجها، والتي عرضت عفافها بضاعة مزجاة في سوق الفسوق فلم يمسها بأذى، بل قدم يوسف البريء النقي الطاهر فدية عن سمعتها، فكانت كأنها الدنيا تحب على كثرة أذاها ويرغب فيها مع إساءتها.

والآية تشير من طرف خفي إلى أن القوم استعانوا بالقوة القضائية على الكيد ليوسف وزجه في السجن، لأن رؤية الآيات على براءته إنما تكون أمام القضاء، وهو إما رسمي أو عرفي، ولعل القضاء الأخير هو الذي استعملوه. وهو قضاء خير منه الاستبداد لأن الاستبداد يجور فاعله على أن عمله جور - سافر غير مقنع - ولكن القضاء الذي يجور ويلبس ثوب العدل هو شر أنواع القضاء.

يوسف في السجن يدعو لدينه

أدخل يوسف السجن على غير جريمة أتاها. ودخل معه السجن فتيان، أحدهما: رئيس الخبازين عند الملك، والثاني: رئيس سقاته. فبعد يوم أتاه صاحب شراب الملك وأخبره أنه رأى في منامه أنه يعصر في كأس الملك الخمر، يتناول العنقود من العنب ويعصره في كأس الملك.

وجاء الخباز وقال له: إني رأيت فوق رأسي طبقا من الخبز والطير تأكل من ذلك الخبز وطلبا إليه أن ينبيء كل واحد منهما بتأويل ما رأى في منامه.

انتهز يوسف هذه الفرصة ليعلن لهم دينه ويدعوهم إليه، وقام فيهم خطيبا ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا، وأنه لا يأتيهما طعام إلا نبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما، وأن ذلك مما علمه الله تعالى إياه بتركه ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وذلك كله من فضل الله عليه وعلى ذريه وعلى الناس. وسأل صاحبيه:

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

الذي أمر ألا يعبد الناس ربا سواه. وأن ذلك هو الدين القويم. وأن جهلة الناس لا يعلمون وبعد أن فرغ من دعوتهم إلى دينه وانتهى من خطبته الوعظية قال:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

وفي تلك الحال أمل يوسف أن يجد الفرج لما هو فيه من الضيق على يد الذي ظن أنه ناج منهما. وقال له:

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

وتحقق تأويل المنام كما قال.

الفرج ليوسف

بعد تلك السنين أراد الله أن يعجل بالفرج ليوسف فهيأ لذلك الأسباب، وذلك أن الملك رأى سبع بقرات جميلات طالعة من النهر فارتعت البقرات في روضة. ثم رأى سبع بقرات أخرى قبيحة المنظر عجافا خرجت من النهر وأكلت البقرات الأولى السمينة. ثم استيقظ من منامه. ثم عاد فرعون إلى رقاده فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة في ساق واحدة، وإذ سبع يابسات خلفها قد لفحتهن الريح الشرقية قد عدت على السنابل الخضر فأكلتها.

أصبح فرعون منزعجا لهذين المنامين فدعا بالسحرة وكل من له علم، يسألهم عن تأويل هذا المنام فلم يجد عند أحد منهم جوابا. بل:

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

في ذلك الوقت انتبه رئيس سقاة الملك إلى الأمر. وتذكر ما قدم بما حدث، ومر على خاطره منامه الذي رآه في السجن، ويوسف الذي عبره له تعبيرا كأنه يشاهد أمرا واقعا. فعرض الأمر على الملك، واقتص عليه حلمه وحلم رئيس الخبازين، وأن غلاما عبرانيا في السجن - لرئيس الشرطة - قد عبر لهما رؤياهما. فكان الأمر كما قال، وطلب أن يرسله إلى السجن ليأتي بالتعبير الذي لا مراء فيه من يوسف، فأرسله الملك إليه.

فلما التقى بيوسف قال له:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

تأكل الخضر فأخبره يوسف بتأويل ذلك. وهو أن مصر يأتي عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة، ثم سبع سنين مجدبة تأتي على المخزون من السنين السبع التي تقدمتها. ثم بعد ذلك تأتي أعوام الخصب والرغد. وأن عليهم أن يقتصدوا في سني الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن القوت في سنبله. حتى إذا حل الجدب وجدوا في مخازنهم ما يسد الرمق ويمسك الحوبة إلى أن يأتي الخصب.

عاد رئيس السقاه إلى الملك بتأويل رؤياه فسر بها، وعلم أنه تأويل مناسب متفق مع الرؤيا.

فقال الملك ائتوني بيوسف. فلما أرادوه على ذلك أبى أن يخرج من السجن حتى يعرف أمره على حقيقته، وطلب إلى الرسول أن يعود إلى الملك ويسأل عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولابد أن يكون قد سماهن له بأسمائهن، فلما أحضرهن الملك وسألهن عن شأن يوسف، قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء، وأنكرن أن يكن سمعن شيئا عن شأنه وشأن امرأة العزيز.

وهذه هي الآيات المتعلقة بهذا الموقف:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

(يوسف: ٥٠-٥١)

في الكلام إيجاز كما هو شأن القرآن من عدم ذكر الأشياء التي تكون معلومة من المقام وفي الكلام شواهد تدل عليها. والذي يفهمه من الآيات كل من له عقل أن يوسف كبر عليه أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين المحدثين الخائنين ليقف أمام الملك. فأراد ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة مرفوع الرأس أبيض الصحيفة. فذكر الحادثة على وجهها وأنه بريء منها وأن الجانية إنما هي زوجة العزيز التي بهتته في وجهه. وأن الإشاعة في البلد كانت أن امرأة العزيز راودته عن نفسها. وآية ذلك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإنها لما سمعت أنهن لائمات لها دعتهن إلى دارها - وسماهن طبعا - وأنهن لما رأينه قطعن أيديهن، وراودته عن نفسه أيضا لها ولأنفسهن وأن امرأة العزيز أقرت أمامهن قائلة:

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

قالت ذلك على ملأ منهن وأنها نفذت وعيدها بإلقائه في السجن وهو بريء مما يوجب سجنه، وشهادتهن بما سمعنه من امرأة العزيز برهان براءته وتثبيت لقوله. والذي قلته مفهوم من أساليب القرآن. وأن الملك أحضرهن وسألهن عن شأنهن في ذلك اليوم الذي راودن فيه يوسف عن نفسه فكان جوابهن:

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

يمكن أن فهم قولهن هذا على أنهن لم يسمعن عن يوسف شيئا ولم يعلمن عليه سوءا، أو يكون قد وقع منهن مراودات.

وحينئذ يكن قد أنكرن الشهادة ولم يؤدين ما طلب يوسف منهن: وهو الشهادة بما سمعنه من امرأة العزيز وتوعدها يوسف بالسجن إذا لم يصدع بأمرها. وذلك الموافق لقولهن:

﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾

لأنه إنكار لما سئلن عنه.

وحينئذ يكن قد خيبن أمل يوسف فيهن، وأردن أنهن لا يتهمنه بسوء، وفي الوقت نفسه يكتمن على امرأة العزيز ما باحت به أمامهن من مراودتها إياه واستعصامه، وأن نجاته من السجن رهينة بموافقتها على مرادها الذي أرادته عليه من قبل.

وحينئذ يكون يوسف قد اغتر بما أظهرن له من الإكبار والمحبة حتى دعته كل واحدة إلى نفسها، وظن أن ذلك يدعوهن إلى أن يقلن الكلام الذي حصل على جهة الحق وفي ذلك براءته، فلم يقلن، بل قلن شيئا لم يدعين لأجله وهو قولهن:

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

فإن عدم علمهن بالسوء عليه لا يجعله بريئا في الواقع. وهذه شهادة على النفي لا تثبت بها الوقائع المعينة التي أراد يوسف إثباتها.

ويحتمل أن يكون ما رواه القرآن من قولهن:

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

عبارة عن خلاصة لما روينه عنه مما يقتضي براءته. وأنهن أتين بالشهادة على وجهها، وملخصها براءته من السوء، وهذا أولى الاحتمالين عندي. وأقول إن إتيانهن بالشهادة على وجهها هو الذي أحرج مركز امرأة العزيز. وسد في وجهها المسالك، فلم تجد للإنكار سبيلا فقالت:

﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

ساقت التوراة حكاية السجن وحلم رئيس السقاة ورئيس الخبازين.. الخ كما قصها القرآن الكريم. ولم تذكر المراودة بين يوسف والملك في شأن براءته، ولم تذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولا أي شيء عن شأنهن. وذكرت التوراة أيضا أن يوسف ارتفع شأنه في السجن وصار كشخص رئيسه وله الأمر والنهي في كل النازلين في بيت السجن.

أضيف إلى ما تقدم من شهادة النسوة ليوسف بما يبرئ ساحته: أن امرأة العزيز لما رأت أن يوسف الذي زجت به في السجن ظلما قد أكرمه الله تعالى حتى صار من هم الملك أن يأتي به ليستخلصه لنفسه، وأن تماديها في اتهامه بما لم يقترف لا يجديها نفعا ولا يلحق بيوسف ضررا؛ وطدت نفسها على الصدق في شأن يوسف لأول مرة. بعد أن بهتته في وجهه ورمته بما هو منه براء وظلت مصرة على باطلها السنين الطوال، فأقرت بما لا تقر به المرأة إلا مغلوبة على نفسها وباحت بما كتمته عن زوجها وآلها سنين عدة. فقالت:

﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

بهذا الإقرار الصريح - الدال على صدق يوسف وبراءته مما قرف به ظلما - ذلك الإقرار الذى ما كان يوسف يظن أنه يصدر من امرأة العزيز الجانية عليه الموقعة له فى السجن - لم يعد يومئذ فى حاجة إلى جمع الأدلة وتصيد البراهين على براءته وإقامة الحجج على أنه حبس ظلما وعدوانا. وقدم فدية عن عرض امرأة العزيز وذبيحة بيد مكرها وقسوتها.

(ملاحظة) يجعل بعض المفسرين قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾

الآية من كلام يوسف وهو خطأ لأن نظم الآيات وروح الموضوع يأبيان ذلك. وإنما هو من قول امرأة العزيز لأن ذلك صدر ويوسف فى السجن قبل أن يقول الملك:

﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

يوسف بحضرة الملك

لما ظهرت براءة يوسف لفرعون هذا الظهور، وخرج يوسف واضح الحجة مستقيم الحجة. قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى. وحينئذ رأى يوسف أنه لا علة له، فجاء الملك وكلمه فسر الملك به وأعجبه عقله وحسن تعبيره للرؤيا، وسأله أى عمل يرضاه لنفسه ويكون فيه سروره، فقال يوسف:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾

وما يخرج منها من الغلات والخيرات

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

اقرءوا قوله تعالى فى سورة يوسف:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

(يوسف: ٥٤ - ٥٧)

هذا الموقف ذكر فى التوراة فى الإصحاح الحادى والأربعين من سفر التكوين، وهى لم تذكر إباءه الخروج من السجن حتى تظهر براءته. بل ذكرت أن رئيس السقاة أخبر فرعون بأن يوسف قادر على تعبير الرؤيا وأنه عبر له - على النحو الذى قدمناه - وقال لهم: لابد من ادخار خمس غلة الأرض فى السنوات الخصبة، حتى إذا جاءت سنوات القحط كانت البلاد مستعدة لمكافحة الجوع، وأن يقوم على ذلك نظار أرجاء البلاد. فقال فرعون لجنوده: هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله؟!

ثم التفت إلى يوسف وقال له: بعد ما أعلمك الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك، أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى، إلا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك.

وقال له أيضا: قد جعلتك على كل أرض مصر، وخلع خاتمه من يده وجعله فى يد

يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه وأركبه فى مركبته الثانية، ونادوا على الناس أمامه بالركوع له وجعله على كل أرض مصر وصاحب الأمر والنهى والأمر المطاع والكلمة النافذة، وسمى يوسف «صفنات فعنيح» وأعطاه «أسنات بنت فوطى فارع» كاهن أون زوجه. وكان يوسف ابن ثلاثين سنة حين كان هذا الحادث فخرج يوسف وارتحل فى كل أرض مصر لتفقد الأحوال وتهيئة الأعمال اللازمة لمقاومة الجوع فى البلاد.

إخوة يوسف فى مصر يمتارون

مرت السبع المخصبة وأعد يوسف عدته فيها، واتخذ الخزائن وخزن الغلات فى غلفها. ثم جاءت السبع المجدبة واشتد الجدب فى جميع أنحاء الأرض. فأما المصريون فذهبوا إلى فرعون يطلبون القوت فأحالهم على «صفنات فعنيح» يوسف، ففتح المخازن وباع لهم من الطعام ما يكفيهم. وأحس أهل فلسطين الجوع وعلموا أن الطعام بمصر، فأرسل يعقوب أولاده ومعهم الجمال والحمير لحمل الطعام وأعطاهم الثمن، فقدموا إلى مصر لشراء قوت لأهلهم، فلما قدموا إلى مصر رآهم يوسف فعرفهم ولم يعرفوه.

وذلك طبيعى لأنه فارقهم أمرد غض الإهاب وقد ناهز اليوم الأربعين من عمره، وقد كسته أبهة الملك مهابة تغض عنه عين الناظرين إليه. وأما هم فعلى حالهم فى ملبسهم ولغتهم ومنظرهم.

لما جهز يوسف إخوته بالطعام الذى اشتروه. قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم عامكم القادم مرة أخرى، فإذا لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تأتوا إلىّ. وذلك أنه رأى إخوته جميعا إلا أخاه لأمه «بنيامين» وهو أصغر منه. فأخذ فى استدراجهم حتى علم منهم حياته وأنه عند أبيه لم يسمح بمفارقته، فأعطاهم الطعام بلا ثمن فى الواقع ليأتوه بأخيهم دون أن يعلموا أنه رد عليهم الثمن. فقالوا له: سنراود عنه أباه، وكان يوسف قد أكرمهم وأظهر لهم السماحة، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام فى أوعيتهم فإنهم يعودون بها إلينا، لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم. وقد جعل يوسف ذلك شركا لهم ليعودوا إليه.

إخوة يوسف عند أبيهم

عادة إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه أن «وزير التموين والتجارة» منعهم الشراء من الطعام فيما بعد حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم، فتذكر يعقوب قديم أمرهم بحديثه وعاودته لوعته على يوسف فقال لهم:

﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

فتح إخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذى أتوا به من مصر، فوجدوا فضتهم بحالها لم تمس، فكان ذلك مما شدد عزائمهم فى الكلام مع أبيهم وقالوا له: يا أبانا ما نبغى! هذه بضاعتنا ردت إلينا! فإذا سمحت بأخينا يذهب فإننا نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير وهو شىء يسير عند الملك الذى طلب أخانا!

والظاهر أن القحط كان شديدا جعل يعقوب يسمح بسفر ابنه تحت شروط اشترطها على أولاده. فقال لهم:

﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

أى إلا أن تغلبوا على أمركم، فأعطوه موثقهم على الوفاء بما اشترطه. وحينئذ قال: الله على ما نقول وكيل. وأوصى بنيه أنهم إذا أتوا مصر لا يدخلون من باب واحد بل يدخلون من أبواب متفرقة.

ويقول المفسرون: إن ذلك خوفه عليهم من الحسد. والذى أميل إليه أن ذلك كان منه لئلا يلفتوا نظر الناس. وذلك يدعو إلى التحدث بشأنهم والحدس فى مقصدهم. فيظن بهم أنهم جواسيس أو رواد لمن وراءهم ممن يريد الإغارة على البلاد من الأقوام التى عضها الجوع.

ومهما كان من الأمر فقد عاد إخوة يوسف إلى مصر فى طلب الميرة ولم يبق عند أبيهم أحد منهم ومعهم البضاعة التى ردت إليهم.

هذا الموضوع ذكر فى التوراة. وليس بينه وبين ما فى القرآن كبير اختلاف.

فقد ذكر فى الإصحاح ٤٢ تكوين: أن إخوة يوسف لما جاءوا إليه تنكر لهم وتكلم معهم بجفاء وقال لهم: من أين جئتم؟ فقالوا: من أرض كنعان لنشترى طعاما! فقال لهم: إنكم جواسيس جئتم لتعرفوا أرضنا ومداخلها ومخارجها وعورتها. فقالوا له فى عرض تبرئتهم لأنفسهم بأننا لسنا جواسيس. عبيدك اثنا عشر أخا بنو رجل واحد، الصغير منا عند أبينا، وواحد مفقود.

أى ولا يعقل أن عشرة من الرجال هم إخوة لأب واحد يكونون جواسيس. فأظهر أنه يريد منهم البراءة من الجاسوسية. ولا دليل على براءتهم إلا أن يأتوه بأخيهم الصغير، وحبسهم ثلاثة أيام وفى اليوم الثالث أتى بهم وقال لهم: إنى خائف الله فى أمركم فإن كنتم أمناء ولستم جواسيس فليحبس واحد منكم. وانطلقوا أنتم وخذوا قمحا لإمساك رمق أهليكم وأحضروا أخاكم الصغير إلىَّ لأعلم صدقكم.

وكان إخوة يوسف قد تذكروا حرج مركزهم أمام وزير التموين والتجارة وما هم فيه من الضيق، فعادوا باللوم على أنفسهم إذ رأوا أخاهم يوسف وهو فى حال شدة حين هموا بقتله ثم ألقوه فى الجب وهو يستغيث بهم فلم يغيثوه فندموا. وأيقنوا أن هذا الموقف الذى وقفوه جزاء من الله تعالى لهم على قسوتهم على أخيهم وقال بعضهم لبعض: حقا إننا مدينون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم تسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فقال لهم رأوبين: ألم أكلمكم قائلا لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهو ذا دمه يطلب؟ ولم يكن القوم يعلمون أن يوسف فاهم حوارهم. لأنه إنما كان يكلمهم بواسطة ترجمان، فتحول يوسف عنهم وبكى ثم أمر أن تملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد منهم إلى عدله. وأن يعطوا زادا للطريق فرأى واحد منهم فضته فى عدله فتكدروا وخافوا. وكان يوسف قد استبقى شمعون عنده رهنا على وفائهم.

ولما عادوا إلى أبيهم وأوقفوه على حقيقة أمرهم نفر من هذا الأمر فقال: أعدمتمونى يوسف فهو مفقود. وشمعون ـ الذى تركوه فى مصر ـ مفقود وتأخذون بنيامين؟ فإن حصل له أمر فى الطريق أهلك من الحزن! فقال له رأوبين: سلمه لى أرده إليك فإن لم أفعل فاقتل ابنى، فأبى «ص٤٣».

ولما اشتد الجوع طلب يعقوب إلى بنيه أن يذهبوا لأرض مصر ويبتاعوا منها طعاما. فقال يهوذا له: إن الرجل قد أشهد علينا قائلا: لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم. فلامهم على إخبارهم إياه بأن لهم أخا تخلف. فقالوا: عذرنا أن الرجل اتهمنا بالجاسوسية وسألنا: هل أبوكم حى، هل لكم أخ؟ وما كانوا يحسبون أنه سيطلبه منهم. وألح يهوذا على أبيه وضمنه له فسمح بذلك. وأمرهم أن يأخذوا هدية للرجل الذى يبيعهم الطعام تكون من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن واللوز والفستق. ويردوا له الفضة، ويأخذوا فضة أخرى ثمنا للطعام الجديد.

نزل اخوة يوسف بعد ذلك إلى مصر، فلما رأى يوسف إخوته ومعهم بنيامين أمر غلمانه باضافتهم وأن يذبحوا لهم ويهيئوا طعاما لأكله معهم وقت الظهر.

ولما فعل رجال يوسف ما أمروا به جاءوا بإخوة يوسف إلى بيته، فلما علموا أنهم داخلون إلى البيت خافوا على أنفسهم وقالوا فيما يناجى به بعضهم بعضا: إن إدخالنا إلى البيت إنما هو بسبب الفضة التى وجدناها فى أعدالنا وأنه سيهجم علينا ويأخذ حميرنا ويجعلنا عبيدا له.

فكلموا خادما من خدم يوسف وقصوا عليه قصتهم ورجوع الفضة معهم وهم لا يعلمون، وأنهم عادوا بها وبفضة أخرى لشراء القمح. فهدأ الرجل روعهم، وأدخل إليهم أخاهم شمعون الذى كان رهينة فى يد يوسف، وأدخلهم إلى دار يوسف للغداء.

ولما جاء يوسف وقت الغداء قدموا إليه الهدايا، ونظر إلى بنيامين وقال: أهذا أخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه؟ ودعا قائلا: الله ينعم عليك يا بنى! ولم يطق يوسف الجلوس معهم لما حضره من الحنين إلى أخيه. فذهب إلى مكان منفرد وبكى ثم عاد وسألهم عن أبيه وسلامته. ثم قدم إليهم الطعام، وأكل هو وحده والمصريون وحدهم.

لأن المصريين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة. ولعل عدم أكله مع إخوته لئلا ينتقد المصريون عليه ذلك. وقد أجلس إخوته بحسب ترتيبهم فى السن فبهتوا لأن عمله صادف الواقع الذى يعرفونه وأغدق على بنيامين الطعام أ.هـ.

حيلة يوسف فى إبقاء بنيامين عنده

أمر يوسف بتجهيز إخوته فملأ لهم الأعدال طعاما، وأمر أن توضع فضة كل واحد فى عدله، وأن توضع طاسة فى عدل الصغير ـ وهى الطاس التى كان يشرب فيها ـ فساروا غير بعيد فلم يفاجئهم إلا وكيل يوسف يناديهم ويوبخهم على ما صنعوا وأنهم قابلوا الاحسان بالكفر، وأنهم سرقوا سقاية الملك «يوسف» فأظهروا البراءة من هذا العمل.، وقالوا: من وجدت سقاية الملك فى رحلة يؤخذ عبدا للملك ففتش أعدالهم ـ مبتدئا بالكبير منتهيا بالصغير ـ فوجد السقاية فى عدل بنيامين، فرجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين، ولامهم يوسف على ما صنعوا، فراودوه على أن يأخذ أحدهم عبدا مكان أخيهم، فأبى وقال: إن

الذى وجد الطاس فى رحله يستعبد لى، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم، وأبى يوسف - بعد الاستعطاف وبيانهم أن أباه متعلق به، وأنه سلوته عن أخيه المفقود - أن يطلقه. فقالوا بحضرة يوسف وقد ملئوا غيظا على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة:

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

وقال لهم: أنتم شر مكانا من هذا السارق.

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وكانوا يعنون يوسف، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير فكفلته عمته وتعلقت نفسها به. فلما اشتد قليلا أراد أبوه أن يأخذه منها. فعنت به وألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سرقت منها وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به.

يئس إخوة يوسف من أخذ أخيهم - بطريق المبادلة - فقال كبيرهم «رأوبين» إن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله برد أخيكم، ومن قبل ذلك كان تفريطكم فى يوسف، وعلى ذلك لن أبرح الأرض «مصر» حتى يأذن لى أبى فى القدوم، أو يحكم الله فى شأنى وهو خير الحاكمين. وأشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم وإخباره بما كان من أمر أخيهم ومن الملك «يوسف» وأن ابنه صار عبدا للملك بسبب سرقته طاسة. وأن ظهور السرقة كان عن ملأ منهم ومن أهل العير التى كانوا فيها وأنهم صادقون فيما أخبروا به.

عاد إخوة يوسف - عدا أكبرهم وأصغرهم - إلى أبيهم وأخبروه بالأمر على جليته فلم يدخل عليه هذا القول. وأحاله على أمر دبروه له كما دبروا لأخيه من قبل، وزاد به الحزن حتى ابيضت عيناه وعاوده من الوجد على يوسف ما عاوده فقال:

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾

فلامه أولاده على ذكر يوسف وقد انقضى أمره. ثم إن يعقوب رد أولاده الذين وردوا عليه إلى مصر ليشتروا طعاما وليتحسسوا له شأن يوسف وأخيه. وأمرهم بعدم اليأس من روح الله، فإن ذلك شأن الكفار. فذهبوا كما أمرهم أبوهم.

من المقارنة بين هذا الموقف من القصة فى القرآن وبينه فى التوراة نجد الخلاف قليلا: فإن القرآن يجعل أخذ الموثق على جميع أولاد إسرائيل العشرة. والتوراة تجعله على يهوذا خاصة، ولعله كان متكلما عنهم وكلمته كلمتهم وعهده عهدهم. والقرآن يذكر أن يوسف آوى إليه أخاه وقال:

﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾

والتوراة تجعل يوسف مجهولا من بنيامين إلى أن أخبرهم جميعا بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس. والقرآن ذكر قولهم:

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

والتوراة لم تذكرها. والقرآن يذكر عودة إخوة يوسف إلى أبيهم وإخباره بأن ابنه قد سرق واستعبد فى مصر، والتوراة لم تذكره.

ومعلوم أن القرآن مهيمن على ما تقدمه.

نحُجُّ إلى مهد العقيدة



فضيلة الشيخ معوض عوض إبراهيم

المرء بعقيدته وعلمه، لا بشحمه ولحمه، ولا بأبيه وأمه، وخاله وعمه! إنما بعقيدته وعلمه ينشط لمقتضيات الإيمان الذى يظل زعما ودعوى حتى يصدقه العمل، والعمل لا يعتدُّ به إلا أن يكون صالحا، استجاب الإنسان المؤمن له بفطرته التى بقيت على نقائها وصفائها وصدقها فلم تغيرها الشهوات والشبهات، ولم يكدر صفوها التقليد للغير بغير بينة من الله.

وهذه الفطرة السوية تتساوى دائما مع أوامر الله تعالى ونواهيه فى كتابه الكريم، ولا تكون إلا وفق ما دعا إليه أو حذر منه الصادق المصدوق، سيدنا محمد ﷺ وهو يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[١]، وهى بهذا الالتزام تشهد بأنها فطرة الله تعالى حقا:

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ «الروم: ٣٠»

إن اتباع الأهواء والغفلة عن سنن الله تعالى فى خلقه ومخلوقاته، والخلاف عن أمر الله تعالى فيما شرع وأوجب، أخذاً وتركاً، هى آفات تعرض للفساد فى العقيدة، والضلال فى العبادة، والذبذبة والنفاق فى السلوك والمعاملات، وما بذلك يصح دين، أو تصلح حياة أبداً، وهل تكون الآخرة الباقية التى لا تحول ولا تزول إلا نتيجة موافقة مطابقة لحياة لم يتر مسالكها الدين، ولم يكن الحى فيها مع ربه ومصطفاه على صراط مستقيم؟!

والعقيدة الإسلامية تلوح شواهدها، وتتضح مشاهدها، وتتبدد فى الآفاق والأنفس على السواء لكل منصف مستبصر، ولهذا وجه الله بها العقول والقلوب والأسماع والأبصار والمشاعر والحواس إلى كل ما يكون فى متناولها باعتباره الشاهد والدليل على تفرد

١- أخرجه ابن أبى عاصم فى «السنة» ١٠/٧/١، ح «١٥» من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما.

الله في صنعه بمن خلق وما خلق، وعلى إحكام صنعه، وبالغ حكمته في كل ما خلق وأوجد فقال:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

«الذاريات: ٢١»

وقال:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

«عبس: ٢٤ - ٣٢»

والإنسان الذى خلقه الله من الماء الدافق، ومن الماء المهين، ومن تراب، ومن صلصال من حمأ مسنون ومن طين لازب، هو بشرف «النفحة الإلهية»، ومما استتبع ذلك من خلق الله العجيب له على صورته، وخلقه إياه بيده، وتعليمه ما لا تعلمه الملائكة، وتكريمه بذلك إلى المدى الذى أسجد الله الملائكة المقربين له، وتابع في ذريته هداياته عن طريق النفر:

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾

«الأحزاب: ٣٩»

هذا الإنسان استخلفه الله وكلفه، وخلق له ما فى الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، إنه مخلوق سوى، تؤلفه طائفة من الانفعالات والأحاسيس والمشاعر التى تتصارع فى كيانه، حتى تظهرها الأقوال والأعمال التى تضع المرء بحق فى مكانه، باعتبارها المرآة الصحيحة التى يرى الناس بعضهم بعضا من خلالها، فما لهم وراء الظواهر إلى ذلك من سبيل، لتبقى النيات وبواعث الأعمال مما استأثر الله بعلمه، فقد أحاط سبحانه بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وهو عليم بذات الصدور، قال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾

«الأحقاف: ١٩»

والمرء حيث يضع نفسه كما قالوا «وهو مخبوء تحت لسانه»[٢].

إن منة الله تعالى على آدم عليه السلام منة قائمة علينا، فالأصول عليها ينبت الشجر، والفروع تبع للأصول فى امتنان الله عليهم، فهى توجب الاعتراف بفضل الله على الآباء والأجداد، حمدا لا يتوقف عن حد الكلام، ولكنه يتجاوز ذلك إلى العمل والاقتداء، وما أكذب دعوى الانتساب والانتماء إلى الصالحين، إن لم تكن امتدادا لهم فى شتى ميادين العمل لله، والتأسى فى ذلك برسوله ﷺ، والله تعالى يقول:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

«الأحزاب: ٢١»

ووضوح العقيدة الإسلامية، وهى إيجاب حق الله تعالى فى أن يعبد وحده ويتجرد القصد له فيما تأخذ وما تدع، ووصف الله تعالى بكل كمال، وتنزيهه جلت آلاؤه عن كل نقص، والرضا بقضائه وقدره، واليقين بأنه سبحانه فى كل ما قضى وقدر أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأنه فى كل ما أوجب وشرع حكيم عليم.

هذا الوضوح فى عقيدة المسلم لا يشبهه فى دنيا الناس إلا يسر تكاليف هذا الدين فى الصلاة التى لا عسر فيها ولا مشقة، وفى الصيام الذى هو ساعات فى أيام معدودات هى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، وفى الزكاة التى هى حق معلوم فى أموال الذين ملكوا النصاب وحال عليه الحول وكان فائضا عن حاجتهم، وفى الحج الذى هو فرض الله على من يستطيعون إليه سبيلا، وهذا السبيل ليس مجرد الزاد والراحلة، ولكنه بالإضافة إلى ذلك أمن الطريق، والقدرة على مواجهة مشاق السفر، والقيام بشعائر الفريضة الخاتمة، ووجود من يرعى الأهل والولد، والعمل الذى هو وديعة الله تعالى للحياة والأحياء.

والمرء يصلى فى المسجد، وقد جعلت له الأرض مسجدا وطهورا، ويؤدى الزكاة، ويصوم الشهر حيث كان، لكنه يحج فى زمان وإلى مكان لا يتعددان، وتخالط صلاته وصومه - أحيانا - وصدقاته أعمال الحج، وتلك فضل للفريضة الخاتمة تمتاز به.

وهى تتميز بأنها لا تؤدى إلا إلى مكة ومشاعرها، ومكة وطن العقيدة، ومهد الرسالة، ومنزل الوحى، وكانت التربة التى تمت فيها مغارس الدين العظيم، وكان مناخها أطيب الأجواء لظهور الصديق أبى بكر، والفاروق عمر، وذى النورين عثمان، وأبى تراب أبى الحسنين وزوج البتول على بن أبى طالب، وحوارى رسول الله الزبير بن العوام، وسيف الله خالد، وصاحب سر رسول الله حذيفة بن اليمان، وحبر قريش عبدالله بن عباس، وأشبه الناس فى قراءته بجبريل - عليه السلام - عبدالله بن مسعود، وأكثر الناس رواية لحديث رسول الله ﷺ أبى هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى، وحب رسول الله زيد بن حارثة، والحب ابن الحب أسامة بن زيد.

لقد خرجت مكة التى إليها حج الحظوظين السعداء هؤلاء، ومن ورائهم من النساء نماذج هن فى أرفع مثل الاهتداء كأمهات المؤمنين، وفى القمة منهن خديجة التى أقرأها جبريل من ربها السلام، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب - لؤلؤ - لا صخب فيه ولا نصب[٣]؛ لأنها حازت قصب السبق بالإيمان، ولم ترفع على النبى صوتا! وكبنات النبى رضوان الله عليهن، وكأسماء بنت أبى بكر، وصفية بنت عبدالمطلب، وسمية أول شهيدة فى الإسلام، وكأم أيمن بركة الحبشية «أم النبى بعد أمه» ومولاته وحاضنته، وأم الحب ابن الحب أسامة بن زيد ابن حارثة، والمباركة نسيبة بنت كعب الأنصارية، والخنساء تماضر بنت الشريد!!

إن مكة كانت مهد هذا الدين الأول، وكانت أول بقعة قام فيها لعبادة الله وحده، بيت قال فيه الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

«آل عمران: ٩٦، ٩٧»

وهو فى صحيح البخارى أول بيت بنى لعبادة الله قبل المسجد الأقصى بأربعين عاما. فهل عرف الناس فى البلد الحرام وفيما وراءه من بلاد فيها مسلم واحد ماذا عليهم لوطن العقيدة، وماذا عليهم من حق الجهاد لتبقى بلادنا فوق الأطماع والتطلعات الحاقدة المتربصة؟

٢- أورده العصامى فى «سمط النجوم العوالى» (٣٢/٢) من كلام الإمام على كرم الله وجهه.

٣- متفق عليه، أخرجه البخارى فى «صحيحه» (٦/٣) ح (١٧٩٢) ومسلم فى «صحيحه» (١٣٣/٧) ح (٦٤٣٦) من حديث عبدالله بن أبى أوفى - رضى الله عنه -.

تأملات فى السيرة

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

انتهينا فى المقال السابق إلى ثلاثة أسئلة وتركنا الإجابة عنها إلى هذا اللقاء ومضمون الأسئلة الثلاثة هى: ما العمل بعد مؤامرة بنى النضير على رسول الله ﷺ وتآمرهم على قتله وإلقاء حجر عليه وهو جالس مسند ظهره إلى جدار بيت من بيوتهم وما يجب على كل قائد حصيف أن يفعل وقد تآمر عليه ونقض عهد من تحالف معه؟

من الغفلة أن تتسرع فى الإجابة على هذه الأسئلة خصوصا إذا أدركنا أن الإجابة تسلمنا إلى سوء التقدير فى رد فعل النبى ﷺ عندما غزى بنى النضير وقد ورد أنه ﷺ أمر بقطع النخيل وإحراقها حتى قالت بنو النضير: مالك يا محمد ﷺ تأمرنا بعدم الإفساد فى الأرض وأنت تقطع وتأمر بحرق النخل؟

إذاً من الواجب علينا الذى يسلمنا إلى إجابة سديدة سليمة على هذه الأسئلة وأشالها مما يرجف به الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف وأن رسول الله ﷺ داعية حرب، من الواجب علينا أن ننظر إلى الموقف كله حول رسول الله ﷺ الذى لو تأملناه لرأينا ما يدفعنا دفعا إلى ما فعله النبى ﷺ، أما أن تحصر الموقف كله فى رد فعل النبى ﷺ فهذا ظلم للحقيقة وللتاريخ ولفعل النبى ﷺ فمن الواجب إذن أن نذكر الموقف كله وقد كان حال المسلمين بعد موقعة أحد التى انتصر فيها المشركون بقيادة أبى سفيان وقد عاد إلى مكة منتصرا وقد وفى نذره بعد أن كان حلف ألا يغتسل من جنابة حتى يوقع الهزيمة بمحمد وأصحابه وفى القبائل تركت موقعة أحد على المسلمين ظلالاً كئيبة فوق الهزيمة فى الحرب فقد تنكر كثير من أهل المدينة واجترأ كثير من أهلها على المسلمين وكذلك اجترأ كثير من قبائل العرب ممن حول المدينة وقد ردت أحد إلى كثير من القبائل طمأنينة وجراءة على النبى ﷺ وعلى المسلمين مما جعلها تفكر فى معارضتهم ومناوأتهم وكان لابد من عمل يرجع هيبة المسلمين فى قلوب من حولهم من الأعراب وقد بلغ النبى ﷺ أن طليحة وسلمة ابنا خويلد وكانا زعيمين لبنى أسد يحرضان قومهما ومن أطاعهما

يريدان مهاجمة المدينة وغزو محمد فى عقر داره وكان هذا أثراً من آثار الهزيمة فى أحد وكان لابد للنبى ﷺ أن يجهز جيشاً يرد هذا الإحساس لدى الأعداء بوهن المسلمين وأنه لابد من عمل يرد ويثبت هيبة المسلمين فى قلوب الأعداء فجهز النبى ﷺ سرية بلغت عدتها مائة وخمسين مقاتلا فيهم سعد بن أبى وقاص وأسيد بن حضير وعبيدة بن الجراح وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهارا والسير فى طريق غير معهودة حتى لا يطلع عليه أحد فيفاجأ العدو بالإغارة عليه فنفذ أبو سلمة قائد السرية ما أمره به النبى ﷺ ففاجأ القوم ولم يستعدوا للقتال وأحاط بهم فى عماية الصبح وحرض رجاله على القتال ولم يستطع المشركون أن يثبتوا ولاذوا بالفرار فوجه أبو سلمة فرسانه لمطاردة المنهزمين وأقام هو ومن معه حتى عاد الفرسان بمغانم النصر ورجع هو ومن معه إلى المدينة ظافرين وقد أعادت هذه السرية إلى المسلمين بعض هيبتهم التى أصيبت يوم أحد.

ولم يكن تمرد بنى أسد هو الوحيد الذى هدد المسلمين بل إنه قد بلغ النبى ﷺ أن خالد بن سفيان بن نبيح المقيم (بعرنة) يجمع ويحرض الناس لغزو النبى ﷺ فى المدينة فبعث النبى ﷺ عبد الله بن أنيس يتحسس حتى يقف على جلية الخبر وسار عبد الله حتى لقى خالداً فى جماعة من النساء يرتاد لهن منزلاً فسأله خالد من الرجل؟ فأجابه عبد الله بن أنيس أنا رجل من العرب سمع بك وأنك تجمع لمحمد!! فلم يخف خالد أنه يجمع لغزو المدينة فلما بان لعبد الله بن أنيس غدر خالد ونيته فى قتال النبى ﷺ استدرجه للمسير معه حتى إذا واتته الفرصة حمل عليه فقتله وأخبر الرسول بالخبر وهدأت بنو لحيان من هزيل بعد موت زعيمهم.

هذه ثانى المحاولات للانقضاض على رسول الله ﷺ فى المدينة مع المسلمين وما ذاك إلا أثراً لاهتزاز هيبة المسلمين فى جزيرة العرب بعد أحد وليس ذلك فحسب بل تجرأ آخرون بحيل وخدع حتى ينالوا من المسلمين فقد وفد رهط من إحدى القبائل المجاورة للمدينة وزعموا أن فيهم إسلاماً وطلبوا من النبى ﷺ أن يبعث معهم من أصحابه من يقرؤهم القرآن ويعلمهم شرائع الدين فهل يرفض النبى ﷺ مثل هذا الطلب ..؟ فبعث ﷺ ستة من كبار أصحابه تلبية لهذه الدعوة ولما كانوا بناحية تسمى (الرجيع) غدروا بهم واستصرخوا عليهم هزيلا وأقبلوا وأحاطوا بالرجال الستة فأخذ الصحابة أسيافهم ليدافعوا عن أنفسهم لكن هزيلا لجأوا إلى خدعة أكثر وكذبوا وقالوا والله لا نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض كأنهم يتشاورون لكنهم أدركوا أن الذهاب إلى مكة فى هذه الأثناء إنما هى المذلة والهوان وهو شر من القتل فانبروا إلى قتالهم وقتلت هزيلاً ثلاثة منهم أما الثلاثة الباقون فهم

تأملات في السيرة:

من سجلوا أسمائهم في سجل الشرف لكنهم يمثلون العار والدنس للمشركين وأعداء الإسلام حيث أن هزيلا أسكتهم وأخذتهم أسرى وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها أما أول الثلاثة عبد الله بن طارق نزع يده من قيد الأسر ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم يريد القتال وأخذوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه أما الآخران فقدمت بهم هزيل مكة وباعت زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذى اشتراه ليقتله لأبيه أمية بن خلف فدفعه لأحد مواليه ليقتله وله قصة مشهورة فاجتمع حوله كبار المشركين في مكة منهم أبو سفيان بن حرب الذى قال له: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك قال زيد والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا في مكاني هذا!

فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت أحداً يحب أحداً مثل ما أحب أصحاب محمد محمداً، ومضى زيد شهيداً يسطر في التاريخ حقد المشركين ليكذب المستشرقين الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف أما آخر الثلاثة خبيب فحبس حتى خرجوا به ليصلبوه فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين ففعلوا.

أيها المستشرقون تأملوا هذا الإيمان واليقين والاطمئنان إلى الصلاة في مقابلة هذا العدوان الجائر ثم بعد ذلك يقولون إن محمداً ﷺ متعطش إلى الدماء وأن الإسلام انتشر بالسيف! فصلى خبيب ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل في ثبات شامخ ورفعة واطمئنان لا يمكن أن ترقى إليه عقول وقلوب أو نفوس المستشرقين ثم قال في أنفة: «أما والله لولا إن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل واستكثرت من الصلاة» لك الله يا خبيب يا صاحب رسول الله ﷺ فأنت على دربه إذ يقول: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فلما أضجعوه وأوثقوه للقتل نظر إليهم وصاح فيهم «اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحداً» أرأيت إلى قوة الإيمان والاستهانة بالقتل في سبيل الله مما جعل القوم تصيبهم رجفة من صيحته واستلقوا على جنوبهم خوفاً من أن تصيبهم دعوته.

أرأيت إلى فعل الغدر والحقد الذى بدا من المشركين بعد أحد وليس ذلك فحسب وإن كانت هذه الخدعة ثالثة الأثافي إلا أن ما جاء بعدها كان أشد مكراً وسفكًا للدماء لابد أن يحذر النبي ﷺ وأن يأخذ حذره وليس أقتل لهيبتك من استخفاف عدوك بشأنك ويبدو أن هذا حال المسلمين بعد أحد فيروى أنه قدم على النبي ﷺ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة فعرض على النبي ﷺ أن يسلم والغريب أن الروايات تقول إن النبي ﷺ لم يقبل منه لكنه لم يظهر للإسلام عداوة وقال لرسول الله ﷺ لو أنك بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ودعوهم إلى أمرك رجوت أن

يستجيبوا لك؟!! فخاف النبي ﷺ على أصحابه من أهل نجد وخشي أن يغدروا بهم كما غدرت هزيل بخبيب وأصحابه ولم يجب طلب أبي براء حتى قال: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا إلى أمرك وكان أبو براء رجلا مسموع الكلمة في قومه يأمن من أجاره ولا يخاف عادية أحد عليه فبعث النبي ﷺ منذر بن عمر أخو بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا بئر معونة وبعثوا من هناك حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب رسول الله ﷺ .فقتل الرسول ولم ينظر إلى كتاب النبي ﷺ واستصرخ بني عامر ليقتلوا المسلمين فلما أبوا أن يخفروا ذمة أبي براء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، فهل ترى فيما فعله عامر بن الطفيل من قتل الرسول الذى أرسله إليه النبي ﷺ وصلفه وكبريائه فلم ينظر في كتاب النبي ﷺ فضلا عن إخفاره ذمة أبي براء عامر بن مالك واجترائه على جواره فهل ترى في كل هذا الفعل المشين ما يستوجب السكوت أم أن الأمر يتطلب الرد المناسب حتى تحفظ حقوق الرسل ويأمن الناس في مراسلتهم وهذا ما فعله المسلمون في أنهم قاموا بواجب لدفع ضرر خطير يهز الثقة في المعاملات الدولية وذلك ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ وهانت في سبيله أرواحهم فإن المبادئ فوق كل اعتبار وذلك ما فعله الرسول ﷺ في إحدى غزواته فيما سوف نحكيه في مستقبل الأيام إن شاء الله، فلما قتل رسوله قام وجهز جيشاً غزا به الغادرين تثبيتاً لمبادئ العدل وتأميناً للرسل أرجوك قبل أن تحكم على فعل رسول الله ﷺ مع بني النضير أن لا تأخذ المسألة من جانب موقعة واحدة بل عليك أن تحيط بالأمر كله وتضع الصورة أمامك وما فعله المشركون من استهانة بكيان المسلمين بعد موقعة أحد فهذا فعل طليحة وسلمة ابنى خويلد وكانا على رأس بني أسد ثم ما فعله خالد بن سفيان الهزلي أنه يجهز الناس لغزو النبي ﷺ في المدينة وكذلك ما زعمه قوم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: إن فيهم إسلاما ويطلبون أن يبعث الرسول ﷺ من يعلمهم شرائع الدين ويقرؤهم القرآن فبعث إليهم ستة من أصحابه وما فعله بهم من الغدر والخيانة مما حكيناه لك، وما حدث ببئر معونه من قتل أربعين رجلاً وقعوا فريسة هذه الخدعة، فقتلوهم جميعاً عن آخرهم!! ضع كل هذا أمامك أيها القارئ الكريم ثم احكم على فعل النبي ﷺ إن أردت الإنصاف، فهل يلام النبي ﷺ إذا لقى غدر الغادرين واجتراء المجترئين بما يناسبه من الضرب على أيديهم حماية للحق وترسيخاً للمبادئ والمثل؟ أم يلام لو أنه لم يفعل؟ إذا أردت العدل والإنصاف .. وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

طرائـــف ومواقـــف

للشيخ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

وكان فضل الله عليك عظيما

تشـفع يا رسـول الله فـينا
فـما نرجو الشـفاعة من سـواك
وأغث ياخـير خلق الله قـوما
ضـعـافا ظلهم أبدا لواك
وأسـرع في إغـاثتنا فـإنا
نرى المولى يسـارع في رضـاك
عليك من المهـيمن كل وقت
صـلاة وسـلام لعـلاك

سؤال.. وجواب

قيل لسيدنا عمر - رضي الله عنه -: «رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها»؟

قال سيدنا عمر - رضي الله عنه -: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات: ٣)

الحج في الشعر العربي

قال أحمد شوقي يصف يوم الحج:

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم
لبيت طهور الساح والعرصات
أرى الناس أصنافا ومن كل بقعة
إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت
لديك ولا الأقدار مختلفات

من أشعار الإمام الشافعي - رضي الله عنه -

• ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لاتفرج

***

ما طار طير وارتفع
إلا كما طار وقع

***

• نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

ويدعو إلى التزام الصبر عند الضيق، فيقول:

ولرب نازلة يضيق لها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج

ويشير إلى واحد من أهم هذه المخارج، فيقول:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه
وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل لاتخطئ ولكن
لها أمد وللأمد انقضاء

ثم يقف الشافعي يرجو عفو ربه، ولعله قال هذه الأبيات في آخريات حياته يقول:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منة وتكرما

ورحم الله الشافعي حيث قال:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر
ومن دونها أرض المهامة والقفر
فوالله لا أدري أللفوز والغنى
أساق إليها أم أساق إلى القبر

فكأنه سطر في هذا البيت ما سيكون له فقد ساقه الله - تعالى - إلى الفوز والغنى بفضله، وإلى قبر يعرف أهل مصر جميعا فضل ساكنه.

أوجع هجاء لي

قال عبد الله بن مروان: ما هجاني أحد بأوجع من بيت هجاني به ابن الزبير وهو:

فإن تصبك من الأيام جائحة
لم نبك منك على دنيا ولا دين

وأن المساجد لله

تغير الرشيد يوما على زبيدة، فقال لها: أنت طالق ثلاثا إن بت الليلة في مملكتي، فاستفتوا في ذلك القاضي أبا يوسف، فقال: تبيت في بعض المساجد، فإن المساجد لله، فولاه القضاء بجميع مملكته.

كفى بهذا سؤددا

قدم البصرة بدوي، فقال خالد بن صفوان: أخبرني عن سيد هذا المصر.

قال: «هو الحسن البصري».

قال: عربي أم مولى؟

قال: مولى؛ قال وبم سادهم؟

قال: احتاجوا إليه في دينهم، واستغنى عن دنياهم.

فقال البدوي: كفى بهذا سؤددا.

من هذا؟

سمع أبو الدرداء رجلا في جنازة يقول: من هذا؟

فقال له: أنت، فإن كرهت فأنا.

من كلام الحكماء

خير الأمور ثلاثة: الحياة، وضعف الحياة، وما هو خير من الحياة.

فأما الحياة: فالراحة وحسن العيش.

وأما ضعف الحياة: فالمحمدة وحسن الثناء.

وأما ما هو خير من الحياة: فرضوان الله - تعالى-.

وشر الأمور ثلاثة: الموت وضعف الموت.. وما هو شر من الموت؛ فأما الموت: فالفاقة والفقر.

وأما ضعف الموت: فالمذمة وسوء الثناء.

وأما ما هو شر من الموت: فسخط الله - تعالى-.

دعـــاء

كان الحسن البصري يقول:

اللهم لا تجعلني ممن إذا مرض ندم، وإذا استغنى فتن.. وإذا افتقر حزن!!

حفظ الأيمان



لفضيلة الشيخ / فوزى الزفزاف

يقول الله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٤، ٢٢٥)

دعا الإسلام المسلمين إلى ضبط النفس وعدم التهور، وإلى التحكم فى اللسان وعدم الانطلاق فى الوعود التى لن تتحقق ولن تنفذ، وعدم الانسياق فى الغضب، وإلى التحلى بالحلم والصبر، فعن ثوبان - رضى الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته»(١) وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال: إن رجلا قال للنبى ﷺ: أوصنى، قال: «لا تغضب» فردد مرارا قال: «لا تغضب»(٢).

وقد شاعت فى المجتمع ظاهرة تسرع كثير من المسلمين بإطلاق ألفاظ الأيمان فى أحاديثهم سواء أكانت هذه الأيمان بالقسم بالله - تعالى -، أو بألفاظ الطلاق غير مبالين بخطورة هذه الأيمان، ولا بعواقبها الوخيمة..

والأيمان: جمع يمين، واليمين: القسم، قال ابن حجر - رحمه الله - وأصل اليمين فى اللغة: اليد، وأطلقت على الحلف؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌ بيمين صاحبه، وقيل: لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشيء؛ فسمى الحلف بذلك؛ لحفظ المحلوف عليه، وسمى المحلوف عليه يمينا؛ لتلبسه بها، وهى توكيد الشيء بذكر اسم الله أو صفة لله.

صيغة اليمين: قال ابن حجر - رحمه الله -: وجملة ما ذكر فى: «كيف كانت يمين النبى ﷺ» أربعة ألفاظ:

• أحدها: والذى نفسى بيده، وكذا: نفس محمد بيده.

• ثانيها: لا ومقلب القلوب.

(١) - الطبرانى.
(٢) - البخارى ومسلم.

• ثالثها: والله.

• رابعها: ورب الكعبة.

ويمتنع الحلف بغير اسم الله - تعالى - أو بغير صفة من صفاته الجليلة، لأن الحلف يقتضى تعظيم المحلوف به، والله - تعالى - وحده هو المختص بالتعظيم.

فمن حلف بغير الله أو بغير صفاته، بأن حلف بالنبى أو بالولى، أو بالأب أو بالأم، أو بالكعبة، أو بما يشبه ذلك، فإن يمينه لا تنعقد، ويأثم بتعظيمه لغير الله - تعالى - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا، فليحلف بالله، أو ليصمت»(٣) وعن بُرَيْدة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بالأمانة فليس منا»(٤)، وعنه - أيضا - قال: «قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال: إنى برئ من الإسلام فإن كان كاذبا فهو كما قال، وإن كان صادقا فلن يرجع إلى الإسلام سالما»(٥).

وإذا كان الحالف بغير الله أو بغير صفاته لا يقصد التعظيم بالمحلوف به، وإنما قصد تأكيد الكلام، ففى هذه الحالة يكون فعله هذا مكروها، وعليه أن يقلع عن ذلك.

انعقاد اليمين

قال ابن حجر - رحمه الله -: بم تنعقد اليمين؟ قد جزم ابن حزم - وهو ظاهر كلام المالكية والحنفية - بأن جميع الأسماء «أى: أسماء الله الحسنى» الواردة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وكذا الصفات صريح فى اليمين، تنعقد به وتجب بمخالفته الكفارة.

والمشهور عند الشافعية والحنابلة أنها ثلاثة أقسام:

• أحدها: ما يختص به كالرحمن، ورب العالمين، وخالق الخلق، فهو صريح تنعقد به اليمين سواء قصد الله أو أطلق.

• ثانيها: ما يطلق عليه وقد يقال لغيره لكن بقيد كالرب والحق، فتنعقد به اليمين إلا إن قصد به غير الله.

• ثالثها: ما يطلق على السواء كالحى والموجود والمؤمن، فإن نوى غير الله أو أطلق فليس بيمين، وإن نوى به الله انعقد على الصحيح.

وخطورة الإيمان وما يترتب عليها من عواقب وآثار ضارة، وعقوبات فى الدنيا والآخرة، طلب الإسلام - فى الآية الكريمة - من المسلمين عدم الإكثار بالحلف بالله.

العرضة تطلق على:

١- كل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه، ومنه يقال: فلان عرضه دون الخير، أى: حاجز عنه.

٢- وتطلق على النصبة التى تتعرض للسهام، وتكون هدفا لها، ومنه قولهم: فلان عرضة للناس، إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه.

والمعنى على الوجه الأول: لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون - حاجزا ومانعا من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وذلك أن

(٣) - متفق عليه.
(٤) - أبو داود.
(٥) - أبو داود.

بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير، وهو لا يريد أن يفعله يقول: حلف بالله ألا أفعله.. فنهاهم الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق، وقد وردت أحاديث كثيرة تحض من حلف على ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتى الأمر الذى فيه خير... منها عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها»[6] وشبيه فى النهى عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - فى شأن سيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - عندما أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان من الفقراء الذين تعهد أبو بكر - رضى الله عنه - بالإنفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه؛ بسبب أنه كان من الذين خاضوا فى حديث الإفك فى ابنته السيدة عائشة - رضى الله عنها - قوله جل شأنه:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(النور: ٢٢)

فالآية الكريمة على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين مانعة من فعل الخير.

ومعنى الآية على الوجه الثانى - النصبة التى تتعرض للسهام -: لا تجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به فى كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذى يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه، وقد ذم الله - جل شأنه - من يكثر الحلف بقوله:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾

(القلم: ١٠)

وأمر بحفظ الإيمان فقال - جل شأنه -:

﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾

قال الإمام الرازى - رحمه الله -: والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلى فى اليمين، وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله، كان أكمل فى العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - عظمت قدرته - أجل وأعلا عنده من أن يتشهد به فى غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك ﴿ أَن تَبَرُّوا ﴾ فهو علة لهذا النهى. أى: إرادة أن تبروا، والمعنى: إنما نهيتكم عن هذا - أى: عن الإكثار من الحلف - لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثاركم من الأيمان بررة أتقياء مصلحين[7].

ولا تنافى بين المعنيين، لأن الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعاً من فعل الخير، كما ينهانا فى الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به فى عظيم الأمور وحقيرها..

(٦) - البخارى ومسلم

(٧) - تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٨٠

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى: سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها، عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته..

ثم تبين الآية الكريمة فضل الله ويسره ورحمته وعفوه:

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

اللغو فى الكلام: الساقط الذى لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية، والمعنى: لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية التى لا يقصدها الحالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد - كرما منه وفضلا ورحمة بكم - ولكن يعاقبكم الله بما قصدته قلوبكم، وتعمدتم فيه الكذب فى اليمين، بأن يحلف أحدكم على شىء كذبا ليعتقد السامع صدقه - وتلك هى اليمين الغموس التى تغمس صاحبها فى النار - ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور، والكذابون عند التقاضى، والكذابون الذين يخفون الحق ويدعون عدم معرفته وهم يعلمونه يقينا.. والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو، حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة..

وقد نهانا الإسلام عن اتخاذ الأيمان من أجل الغش والخديعة، وأكل أموال الناس بالباطل واستلاب حقوقهم. يقول الله - تعالى -:

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(النحل: ٩٤)

ففى هذه الآية الكريمة ينهانا الله - تعالى - عن اتخاذ الإيمان سبيلاً وطريقاً للغش والخديعة أى: ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف بالله - تعالى - ذريعة ووسيلة إلى غش الناس وخداعهم، فقد جرى العرف فى المعاملة بين الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم لهم بالله - تعالى -، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب على الناس، وبالدخول فى الشر ونشر الفساد فى المجتمع إذا استبان للناس كذب الحالف بالله..

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

الزلل: الخروج عن الطريق المستقيم، أى: لا تتخذوا إيمانكم وسيلة للغش والخديعة والإفساد بين الناس، فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها، وتكون العاقبة:

﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

أى: ويكون جزاء فعلكم هذا أن تذوقوا العذاب الدنيوى من المصائب ونزول البلاء عليكم بسبب إعراضكم عن تنفيذ أوامر الله ونواهيه، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول فى دين الله، حيث رأى منكم ما

يجعله ينفر منكم ومن دينكم.. وسيكون هذا العذاب الذى ينزل بكم شديدا تحسون آلامه إحساسا واضحا، كما يحس الشارب للشيء المر مرارته..

قال ابن كثير - رحمه الله -: حذر الله - تعالى - عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا، أى: خديعة ومكرا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة وحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة عن الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام[8].

﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

لا يعلم مقدار شدته وألمه وهوله إلا الله - عزوجل - عن أبى علقمه - رضى الله عنه - قال: جاء رجل من حضرموت، ورجل من كندة إلى النبى ﷺ. فقال الحضرمى: يا رسول الله إن هذا قد غلبنى على أرض لى كانت لأبى، فقال الكندى: هى أرض فى يدى أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله ﷺ للحضرمى: «ألك بينة»؟ قال: لا، قال: «فلك يمينه»، قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالى على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: «ليس لك منه إلا ذلك». فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر: «أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما، ليلقين الله وهو عنه معرض»[9].

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلف أحد عند منبرى هذا على يمين آثمة، ولو على سواك أخضر، إلا تبوأ مقعده من النار، أو وجبت له النار»[10].

قال الماوردى - رحمه الله - فى قوله - تعالى -:

﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات:

«أحدها: احفظوها أن تحلفوا.

والثانى: احفظوها أن تحنثوا.

والثالث: احفظوها لتكفروا».

عن أبى مالك - رحمه الله - قال: «الأيمان ثلاثة: يمين تكفر، ويمين لا تكفر، ويمين لا يؤاخذ بها، فأما التى تكفر فالرجل يحلف على قطيعة رحم أو معصية الله فيكفر يمينه، والتى لا تكفر فالرجل يحلف على الكذب متعمدا ولا يكفر، والتى لا يؤاخذ بها فالرجل يحلف على الشيء يرى أنه صادق فهو اللغو لا يؤاخذ به».

عن سويد بن حنظلة - رضى الله عنه - قال: خرجنا نريد النبى ﷺ ومعنا وائل بن حجر فأخذه عدو له، فتحرج القوم أن يحلفوا، وحلفت أنه أخى، فخلى سبيله، فأتينا النبى ﷺ فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا وحلفت أنه أخى، قال: «صدقت المسلم أخو المسلم»[11].

(٨) - تفسير ابن كثير جـ٢. (٩) - مسلم. (١٠) - الموطأ وأبو داود وابن ماجه. (١١) - أبو داود وابن ماجة.

بين الصحف والمجلات



إعداد أ. محمد جمعة

كلمة فخامة الرئيس فى طهران

دعا الرئيس محمد مرسي إلى ضرورة توسيع دائرة الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن بما يتناسب مع واقع الدول الآن وليس منذ إنشاء المنظمة.



وطالب الدكتور محمد مرسى، فى كلمته الافتتاحية لقمة عدم الانحياز بالعاصمة الإيرانية بضرورة تمثيل إفريقيا فى مجلس الأمن ومعالجة سلبيات استخدام حق الفيتو، والذى يعطل المنظمة الدولية عن اتخاذ كثير من المواقف أبرزها ما يحدث حاليا فى سوريا.

وأكد مرسى على حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وأهمية دور حركة عدم الانحياز فى دعم الحق الفلسطينى، والاعتراف بحق الفلسطينيين فى عضوية كاملة للدولة الفلسطينية فى الأمم المتحدة ومساعدة الشعب الفلسطينى ومساعدة السجناء الفلسطينيين لنيل حريتهم.

وتعهد الرئيس بدعم مصر لأى خطوة تتخذها فلسطين للعضوية الكاملة فى الأمم المتحدة ودعم المصالحة داعيا الفلسطينيين لإتمام المصالحة وتنفيذ ما تم الاتفاق عليه كى يركزوا على قضيتهم الحقيقية وهى مقاومة الاحتلال والتحرر منه، وانتقد الرئيس قرار إسرائيل بمنع بعض وزراء حركة -عدم الانحياز- من دخول رام الله.

كما أكد الرئيس على دعم الشعب السورى ونضاله ضد النظام القمعى معتبراً ذلك حق وواجب.

ودعا دول الحركة جميعًا أن تعلن دعمها الكامل غير المنقوص لمطالب الحرية فى سوريا، وأن يتم ترجمة ذلك فى خطوات عملية تدعم الانتقال السلمى لنظام ديمقراطى وبطريقة سلمية، وبما يحفظ سوريا من الحرب الأهلية أو التقسيم.

ودعا الرئيس إلى توحيد صفوف المعارضة السورية دون تفرقة أو تمييز، مضيفًا أن مصر على أتم استعداد للتعاون مع كل الأطراف سعيا لحقن الدماء والاتفاق على سوريا الجديدة التى يتوق إليها كل سورى.

ونوه إلى أن مصر تقدمت بمبادرتها لحل الأزمة السورية داعيا الأطراف المختلفة لإيجاد الحل المناسب لهذه المحنة وتحقيق التطلعات المشتركة لشعوب الحركة ووقف نزيف الدم السورى معتبراً أن ذلك النزيف فى رقاب جميع دول، قائلا: "علينا أن تدرك أن هذا الدم وأولياءه لا يمكن أن يتوقف بغير تدخل منا جميعا لوقف هذا النزيف".

وأكد مرسى أن دول الحركة تواجه تحديات تتطلب التعاون لدعم دور الحركة ومنها مبادرات نزع السلاح النووى ومنع انتشاره بما ينطبق على الجميع خاصة أن دول المنطقة انضمت جميعها للمعاهدة باستثناء إسرائيل.

ودعا الرئيس إلى الحفاظ على حق دول المنطقة فى الاستخدام السلمى للطاقة النووية.

وطالب مرسى دول الحركة بالتنسيق ومجموعة الـ ٧٧ والصين للتعاون بين دول الجنوب والحوار مع الشركاء الدوليين والتعاون لتنفيذ ما تحقق من إنجازات وتحقيق التعاون الدولى فى مجال التنمية المستدامة وتحقيق تطلعات الشباب، وتمكين المرأة ومنع التمييز ضدها.

أكد الرئيس على أن نجاح حركة عدم الانحياز ارتبط بتوحيد مواقفها وتنوع أعضائها والتفاعل المستمر مع التفاعلات الدولية دون التخلى عن ثوابت الحركة ومبادئها، داعيا إلى التمسك بها وترجمة زيادة عدد أعضاء الحركة إلى التأثير فى الأحداث الدولية.

وقدّم مرسى تقريرا عن قيادة مصر للحركة خلال السنوات الثلاث الماضية منذ قمة شرم الشيخ عام ٢٠٠٩م داعيا الحضور إلى انتخاب الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد رئيسا للحركة فى دورة قمتها السادسة عشر والتى تستمر إلى ثلاث سنوات مقبلة.

وأكد أنه جاء لتسليم إدارة الحركة من مصر إلى إيران الشقيقة، مؤكدا أمله فى قدرتها على قيادة الحركة بما يدعم تماسكها فى إطار من الشفافية والواقعية، والحفاظ على الإنجازات التى تحققت على مدار نصف قرن، مؤكدا أن مصر ستظل ملتزمة بدعم دور الحركة لتحقيق السلام الدائم والشامل العادل.

الخوف من نجاح مرسى!!

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ جمال سلطان المنشور بجريدة «المصريون» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٨/٢٦م يقول:

فى مصر الآن أغرب معارضة سياسية فى العالم، ففى أى ديمقراطية فى الشرق أو

الغرب يكون تحرك المعارضة فى الشارع أو البرلمان، احتجاجا على فشل السلطة أو اعتراضا على رئيس الدولة أو رئيس الوزراء، حسب النظام السياسى - إذا تسبب فى اهتزاز خطير فى الاقتصاد أو انتكاسات سياسية أو أمنية خطيرة كانت سياساته سببا فيها، وهذا عادة يحدث بعد عدة سنوات من الممارسة السياسية للسلطة، وليس بعد أسبوع أو أسبوعين، باختصار تتحرك المعارضة عندما يفشل الرئيس أو تفشل السلطة، أما فى مصر فإن المعارضة تتحرك وبسرعة عندما ينجح الرئيس أو خوفا من نجاح الرئيس، وإلا فليشرح لى أحد، بالعقل والمنطق، ما معنى أن يتحدث معارضون عن مظاهرات حاشدة ضد الرئيس مرسى بعد أقل من شهرين من توليه السلطة فى مدة ولاية قانونية أربع سنوات بعد أن انتخبه ملايين الشعب المصرى بإرادة حرة، والحقيقة التى استبانت لى كشمس النهار أن هناك فى مصر من يخاف من نجاح محمد مرسى، هناك من يفزعه أن يحقق الرئيس "الإسلامى" نجاحا اقتصاديا أو أمنيا أو تنمويا أو نهضويا مما يعزز حضوره الشعبى ويصب فى رصيد التيار الإسلامى عند صندوق الانتخابات، هو صراع أيديولوجيا يحاول التمسح فى أسباب سياسية، ففريق كبير من المعارضة المصرية الآن يتمنى الخراب والانهيار والفشل لمصر ومؤسساتها ودولتها، لا لشىء، إلا لكى يفشل الرئيس محمد مرسى، ولا يتمكن من النجاح، ولذلك يحاولون إرباكه واستفزاز مؤسسة الرئاسة بصفة دائمة والحديث الدائم عن أخونة الدولة، وأنا لا أعرف ما هى هذه الأخونة، التى تتم لدولة بحجم مصر فى أقل من شهرين، هذه هستيريا لا تليق بالعقلاء، ولكن المسألة فى جوهرها هو محاولة قطع الطريق على الدكتور محمد مرسى ومنعه من العمل ومنعه من الحركة ومنعه من الإنجاز.

سياسة مصر الخارجية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ محمد حبيب المنشور بجريدة «المصرى اليوم» الصادرة فى: ٢٠١٢/٨/٢٥م يقول:

لاشك أن معظم علاقات مصر الدولية فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر فيها بما يحقق مصلحتها العليا من جانب، وبما يؤدى إلى استعادة مكانتها ومنزلتها اللائقة بها من جانب ثان، وبما يجعلها قادرة على القيام بدورها المحورى والاستراتيجى على المستويين الإقليمى والدولى..

فعلاقات مصر مع الدول العربية يجب أن تكون لها الأولوية، فما يجمعنا كثير، كروابط اللغة والدين والتاريخ والمصالح المشتركة.. ولا تقل أهمية فى ذلك دول العالم الإسلامى.. وإذا كان عالم اليوم هو عالم الكيانات الكبيرة، فإنه يصبح من المحتم أن يكون هناك تكامل على مستوى العالمين العربى والإسلامى فى شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وربما السياسية أيضا.. ولاشك أن ذلك سوف يعين على مواجهة المشروع الأمريكى الصهيونى

الذى يستهدف تفتيت المنطقة وتركيع الأمة والقضاء على خصوصيتها الثقافية وطمس معالم تراثها الحضارى.. لابد أن يتم تواصل وتطوير للعلاقات بين مصر وإيران، بين مصر والصين، وبين مصر ودول أمريكا اللاتينية، بجانب أن تكون هناك علاقات واضحة وقائمة على الندية مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى.. ولا يخفى أن العلاقات الدولية تحكمها المصالح لا العواطف، وهى على وجه العموم علاقات متشابكة ومتداخلة، فالولايات المتحدة على سبيل المثال رغم العداوة الظاهرة مع إيران إلا أن بينهما نوعاً من التنسيق فيما يخص العراق وأفغانستان، وهكذا.

ومن المشكلات الحيوية التى تهم مصر بالدرجة الأولى مشكلة حوض نهر النيل، حيث تمثل قضية الحاضر والمستقبل، الأمر الذى يتطلب وضع استراتيجية جديدة فى التعامل معها... فالزيارات المستمرة لرؤساء دول الحوض والتواصل معهم، بل تقوية الصلة بهم وإيجاد علاقات ثنائية مع كل دولهم على المستوى الزراعى والصناعى والتجارى والثقافى، أمور مهمة وضرورية للغاية، وفى هذا الصدد يجب أن تشهد العلاقة مع السودان تحسناً واهتماماً خاصاً فى الأيام المقبلة، فهى عمقنا الاستراتيجى ومدخلنا الطبيعى لأفريقيا، وقد أصبح ذلك ضروريا خاصة بعد انفصال الجنوب عن الشمال، وما يحدث فى الجنوب الآن غنى عن البيان.

الإسلام فى قفص الاتهام

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عثمان ميرغنى المنشور بجريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٩/٥م يقول:

أصبح من المعتاد أن يقحم الإسلام فى النقاش والجدل بطريقة أو بأخرى كلما وقع عمل إرهابى فى أى مكان بالعالم.. قضية الإرهابى النرويجى أندرس بيرينغ بريفيك الذى صدر الحكم بسجنه بعد محاكمة استمرت ثلاثة عشر شهرا تقريبا أثير خلالها الكثير من النقاش والجدل. فهذه القضية هى النموذج الأحدث على خطورة النقاش المنحرف عن الإسلام والمسلمين، والكتابات والتصريحات التى تنشر أجواء العداء والكراهية ويتغذى منها المتطرفون وأصحاب الغرض.

بريفيك الذى ارتكب مجزرة بشعة راح ضحيتها ٧٧ من الأبرياء، ومعظمهم كانوا من الشباب الذين شاءت الأقدار أن يوجدوا فى المكان الذى اختاره هذا القاتل المنحرف لتنفيذ جريمته، سلط الأضواء على تنامى أفكار التطرف والعنصرية ضد المهاجرين المسلمين، اعترافات بريفيك ثم محاكمته، إذ تبين أنه ينتمى إلى تيار متطرف يتغذى من أجواء العداء للإسلام وللمهاجرين المسلمين خصوصا فى أوروبا حيث ينمو تيار لا يستهان به من العنصريين الذين يروجون لنظرية أن الإسلام خطر زاحف يجب التصدى له ووقفه، و«طرد» المهاجرين المسلمين وإنهاء ما يسمى بـ«الثقافات الموازية» التى يقولون إنها تريد فرض أفكارها وتقاليدها وترفض الاندماج.

فالإرهابى النرويجى أعلن أنه نفذ عمليته، التى بدا فخورا بها وغير نادم إلا لكونه لم يحصد عددا أكبر من الضحايا، لأنه أراد إيقاظ بلاده وأوروبا «للخطر الإسلامى» الذى يهدد الحضارة الغربية. وحتى لا يترك مجالا لأى شك حول دوافعه فقد أرسل لعدد من وسائل الإعلام فى يوم تنفيذه لعمليته بيانا من ١٥٠٠ صفحة تحت عنوان «إعلان أوروبى للاستقلال» ضمنه أفكاره الكارهة للإسلام وللمهاجرين المسلمين الذين طالب بترحيلهم «حفاظا على الهوية الأوروبية»، و«دفاعا عن الحضارة الغربية». وعن أسبابه لاختيار أهدافه سواء بتفجير شحنة متفجرات فى منطقة المجمع الحكومى فى أوسلو، أو مهاجمة المشاركين فى المعسكر الصيفى لشباب حزب العمال النرويجى، قال بريفيك: إنه يعتبر الحكومة مسئولة عن وضع النرويج «فى جحيم التعددية الثقافية»، وهو تعبير يعكس خطورة بعض جوانب الجدل فى عدد من الأوساط الأوروبية والغربية بشأن الإسلام ووضع الجاليات المسلمة فى الغرب، وهو جدل يغذيه بعض السياسيين والكتاب ومن يسمون بالمفكرين الذين يكثرون من الحديث عن «التطرف الإسلامى»، أو يروجون لفكرة الخطر الإسلامى على القيم الغربية ويقولون: إن الكثير من المهاجرين الإسلاميين يرفضون الاندماج فى مجتمعاتهم الجديدة ويريدون فرض ثقافة موازية.

المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل على سبيل المثال أثارت جدلا واسعا عندما أعلنت أن التعددية الثقافية فشلت تماما، حيث فهم كلامها على أنه موجه تحديدا للمسلمين الذين يقدر عددهم فى ألمانيا بنحو أربعة ملايين، خصوصا أنها أشارت إلى العمال الأجانب، ومعظمهم كانوا من الأتراك الذين جاءت بهم ألمانيا حيث قالت: «اعتقدنا فى الستينيات أننا أحضرنا عمالا ضيوفا على ألمانيا لقد كذبنا على أنفسنا طويلا وقلنا إنهم لن يبقوا طويلا وهذا غير صحيح بالطبع إن المقاربة المتعددة الثقافات بأننا نعيش جنب إلى جنب سعيدين ببعضنا البعض هذه المقاربة فشلت فشلا تاما».

ميركل ليست وحدها بالطبع التى تقول كلاما يؤجج الجدل حول وضع المسلمين فى أوروبا، فالرئيس الألمانى يواخيم غاوك أثار انتقادات واسعة بمجرد توليه منصبه هذا العام عندما قال: «إننا لا نريد مجتمعات موازية»، كذلك فإن رئيس الوزراء البريطانى ديفيد كاميرون تعرض لانتقادات عندما بدا وكأنه ينضم إلى ميركل فى الحديث عن فشل التعددية الثقافية، أو فى مطالبته للمسلمين بأن يثبتوا أن الإسلام يمكن أن يتعايش مع الديمقراطية. هذه التصريحات تسهم فى الجدل الدائر حول الإسلام ووضع المهاجرين المسلمين، لكنها لا تقارن بالطبع مع طروحات أحزاب اليمين المتطرف والعنصرى فى أوروبا أو فى أميركا، وهى تصريحات تنضح بالعداء الفج للإسلام والمسلمين، وتنتج عنها تصرفات حاقدة أو جاهلة مثل حرق القس الأميركى تيرى جونز أو زميله وين ساب لنسخ من القرآن.

حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام (٨)

حق التكافل الاجتماعى



أ. د. محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

للإسلام نظام فريد متكامل يخلق الجو الصحيح للمودة المتبادلة بين أفراد المجتمع، ويستعمل المال وسيلة لتحقيق هذا الهدف، ولضمان مستوى معيشى لائق بكرامة الإنسان، ولذلك نراه حريصاً على تكافؤ الفرص وحماية المجتمع من البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة.

إن الفرد الذى أصيب بعاهة تمنعه من أداء العمل وليس لديه من المال ما يكفل له المعيشة الطيبة، وإن الضعيف الذى لا تمكنه طاقاته من اكتساب أجر يضمن له تلك الحياة المناسبة، وإن اليتيم الذى فقد أباه وليس لديه ما يساعده على التربية السليمة حتى ينتفع المجتمع من مواهبه وطاقاته، وإن الأرمل التى فقدت زوجها - وهو يعمل فى خدمة الأمة - ولم يترك لها ما يكفيها وعياله، وإن الشيخ الهرم الذى استنفد قواه لصالح هذا المجتمع، ولم يستطع توفير ما يحفظ كرامته فى الكبر، إن هذه الطوائف - وأمثالها كثير فى كل مجتمع - لا يتفق مع كرامة الإنسان، ولا كرامة الأمة أن يتركوا هملاً بلا رعاية، بل إنه لا يتحقق الأمن عند العامل إذا رأى زميله - الذى أصابته محنة فى بعض أعضائه، أو أصابه الكبر والشيخوخة - مهملاً ضائعاً بلا كفالة ولا ضمان من المجتمع..

من أجل هذين الهدفين:

١ - مراعاة الكرامة الإنسانية.

٢ - تحقيق وسائل الثقة والأمن عند الأفراد العاملين.

شرع الإسلام من وسائل التضامن الاجتماعى ما يهيىء للجميع حياة طيبة وكريمة، بحيث لا يوجد فى هذا المجتمع - الذى يطبق هذه الوسائل - عاجز ولا فقير ولا محتاج.. ولقد حقق هذا الأمل الكبير سيدنا (عمر بن عبدالعزيز) فى مدة لا تتجاوز ثلاثين شهراً، هى كل المدة التى حكم فيها الدولة الإسلامية الواسعة، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.. فلقد روى المؤرخون أن (يحيى بن سعيد) قال: «بعثنى عمر بن عبدالعزيز عاملاً على صدقات إفريقية، فاقتضيتها وطلبت الفقراء لأعطيها إياهم، فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها. لقد أغنى عمر

الناس، فاشتريت بها عبيداً وأعتقتهم وجعلت ولاءهم للمسلمين».

ذلك أن الإسلام يوزع الثروات توزيعاً عادلاً يحقق كل هذه الأهداف النبيلة.. لقد فرض نظام الزكاة وجعله ركناً من أركان الإسلام فى معظم روافد الثروة: فى الزروع، والثمار، والتجارة، والأنعام، والذهب، والفضة، والركاز.. وحدد مصارفها لمحتاجيها من الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والمكاتبين والغارمين وأبناء السبيل وفى سبيل الله.. وسلك مانعى هذه الزكاة وجاحديها مع الكافرين والمرتدين عن دين الله تعالى لدرجة جعلت (أبا بكر) رضى الله عنه يحاربهم ويقول: «لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه».

وشرع مع الزكاة صدقة التطوع ورغب فيها بإثارة مشاعر الرحمة والإنسانية فى النفوس المؤمنة، قال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربه من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[1]، وقال ﷺ: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[2]. وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا»[3] وشبك بين أصابعه، وقال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقى»[4].

وأوصى الإسلام بالجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب.. قال ﷺ: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[5]، وقال ﷺ: «ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع»[6].

وأوجب على الأغنياء نفقة أقاربهم العاجزين.. وعلى الولد نفقة الوالدين الفقيرين.. وعلى الزوج نفقة الزوجة والأطفال.. وعلى المجتمع أن يتضامن فى القضاء على الجوع والفاقة والحرمان.. وعلى بيت المال أن ينفق على الزمن والشيخ الفانى، والمريض، والعاجز، والمرأة التى لا عائل لها ولا مال عندها.

حق التكافل للمسلم ولغيره

ولا فرق فى تعاطف المجتمع الإسلامى بين مسلم وغير مسلم قال (ابن عباس) لغلامه - وهو يذبح شاة -: يا غلام لا تنس جارنا اليهودى - ثلاث مرات - فقال الرجل: لم تقول ذلك يا بن عباس؟ فقال: والله إن رسول الله ﷺ قال: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».. ورأى (عمر) شيخاً يتسول وهو يهودى فقرر له نفقة من بيت المال وقال: «ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب، وتركناك تتسول وأنت شيخ».

وكتب (خالد بن الوليد) فى معاهدة الصلح مع أهل الحيرة المسيحيين: «وجعلت لهم أى شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت

---

(١)، (٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم ٧٠٢٨.

(٣) أخرجه البخارى، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، حديث رقم ٦٠٠٥.

(٤) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب فى الرحمة، حديث رقم ٤٩٤٢.

(٥) أخرجه البخارى، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، حديث رقم ٦٠١٤.

(٦) أخرجه البخارى، الأدب المفرد ١/٥٢.

مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام».

هذه هي العدالة الإسلامية في أسمى معانيها.. وهذا هو الضمان الاجتماعي الحق.. فليقارن من أراد أن يقارن بين هذه القوانين، وبين ما استحدث من قوانين، ليجد السمو والعظمة يتبديان بوضوح كامل في تشريعات الإسلام.

حق الإعفاف

هذا الحق مما تفرد به الإسلام، فلم ترد له إشارة في ميثاق الأمم المتحدة من حيث إنها تتبنى فكر الغرب الذي يبيح تصريف الشهوة في غير مؤسسة الأسرة.. بل ويحث الشباب من المراهقين والمراهقات على الاتصال الجنسي قبل الزواج، أما الإسلام فيرى أنه إذا بلغ الشاب مبلغ الرجال.. وبلغت الفتاة مبلغ النساء، فمن حقهما على المجتمع أن يؤسسا أسرة، وأن يسهما في خدمة الأمة وهما في بيت مستقر ترفرف عليه السعادة والهناء والاطمئنان، دون عقبات أو عراقيل.. قال تعالى:

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(النور: ٣٢)

وقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[7].

والزواج في الإسلام له أهداف نبيلة تتجاوز حدود المتعة الجسمية إلى آفاق من السمو الروحي، بالسكن والمودة والرحمة قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

وهو عماد الأسرة.. والأسرة عماد المجتمع.. وكلما كان الزواج قائما على أسس متينة كانت الأسرة أقوى وأسعد تفيض منها القوة والسعادة على المجتمع الذي هي لبنة من لبناته.

لذلك شرع الإسلام نظما محكمة تمنع الشطط في الاختيار.. وتمنع أن يكون الاختيار لأسباب سريعة الزوال. منها: مراعاة الجانب المعنوي من الجانب الحسي في الاختيار: من حسن الطبع والأخلاق والدين.. قال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[8].

ولكي يتوافر الاختيار الصحيح، شرع الإسلام (الخطبة) وأباح للخاطب والمخطوبة أن يرى كل منهما الآخر في حضرة المحارم، فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.. وحدد هذه الرؤية بما يظهر عادة من المرأة المسلمة، ويدل في نفس الوقت على الحسن

(٧) أخرجه البخاري - كتاب النكاح - باب قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج» - حديث رقم ٥٠٦٥. وأخرجه مسلم - كتاب النكاح - باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة - حديث رقم ٣٤٦٤.

(٨) أخرجه البخاري - كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين - حديث رقم ٥٠٩٠.

والجمال.. وهو الوجه والكفان.

عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أنظرت إليها؟». قلت لا. قال: «فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما»[9].

وكما أعطى الإسلام هذا الحق للرجل أعطاه كذلك للمرأة، فهو حين يراها مكشوفة على الوجه ستراه هي أيضا.. ولقد أعطى لها الإسلام حق الاختيار ولكن في صورة من الحياء تتفق مع طبيعة الأنوثة التي يزيدها الحياء جمالا وكمالا، بحيث يستأذنها وليها إن كانت بكرا.. ويستأمرها إن كانت ثيبا.. قال ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»[10].

ثم بعد هذه المقدمات المهمة يأتي عقد الزواج الذي يسميه الإسلام في القرآن الكريم بالميثاق الغليظ، ويحرص الإسلام على حياطته برعاية خاصة، فيؤكد على الرجل أن يستوصي بزوجته، وأن يكون لها الراعي الأمين، والشريك الحريص على إيفائها حق الزوجة، في إطار الإخلاص والرحمة.. قال ﷺ: «استوصوا بالنساء»[11]، وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله»[12].

ويؤكد على المرأة كذلك أن تراعي حقوق زوجها، وأن تكون في طاعته.. قال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»[13]. وقال ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»[14].

معالجة الشقاق بين الزوجين

فإذا حدث شقاق بينهما طلب الإسلام إلى الزوج أن يتريث ويتأنى ولا يغضب.. قال تعالى:

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ١٩)

وقال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر»[15]، وبذلك يتغلب على الخلاف الطارئ الذي قد يهدد الأسرة بالانهيار، فإذا حدث الشقاق من ناحيتها.. فللزوج أن ينصحها بالكلام اللين وبأسلوب الملاطفة، فإن أصرت فله أن يهجرها في

(٩) أخرجه النسائي - كتاب النكاح - باب إباحة النظر قبل التزويج - حديث رقم ٣٢٣٥.

(١٠) أخرجه البخاري - كتاب النكاح - باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها - حديث رقم ٥١٣٦. وأخرجه مسلم - كتاب النكاح - باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت - حديث رقم ٣٥٣٨.

(١١) أخرجه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته - حديث رقم ٣٣٣١. وأخرجه مسلم - كتاب الرضاع - باب الوصية بالنساء - حديث رقم ٣٧٢٠.

(١٢) أخرجه الترمذي - كتاب المناقب - باب فضل أزواج النبي - حديث رقم ٤٢٦٩.

(١٣) أخرجه أحمد - مسند عبد الرحمن بن عوف - حديث رقم ١٦٨٣.

(١٤) أخرجه الترمذي - كتاب الرضاع - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة - حديث رقم ١١٩٤.

(١٥) أخرجه مسلم - كتاب الرضاع - باب الوصية بالنساء - حديث رقم ٣٧٢١.

المضجع، فإذا عاندت فله أن يضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح.. فإذا لم يحدث وفاق بعد هذه الوسائل عقدت لجنة مصالحة مكونة من مندوب عن الزوج من أهله، ومندوب عن الزوجة من أهلها:

﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾

(النساء: ٣٥)

فإذا وجدا أن الشقاق قد اتسع، وأن الرأب لن ينصدع، وأن الحياة بينهما صارت جحيماً لا يطاق، فإن الإسلام يبيح في هذه الحالة الطلاق، ولكنه حين يبيحه يضع له نظاماً خاصاً يكون به طلاقاً سنياً حسناً.. فينهى الإسلام الزوج أن يطلقها إلا في حالة طهر من الدورة الشهرية، ولم يقربها في هذا الطهر.. في هذه الحالة الخاصة التي هي مدعاة لكمال الرغبة في المرأة.. إذا ظل الخلاف مستمراً فإن الرجل لن يقدم على الطلاق حينئذ إلا وحبال الصلة قد انقطعت ولم يعد للحياة الزوجية معها سبيل.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء»(١٦).

وهو حين يقدم على الطلاق يطالبه الإسلام أن يوقع عليها طلقة واحدة رجعية.. ويطالبه كذلك بأن يبقيها في بيت الزوجية مدة العدة لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، وفي أثناء العدة وهي مدة كافية لندم المتسرع، له حق مراجعتها بدون تعقيدات ولا معوقات:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾

(البقرة: ٢٢٨)

فإذا ما انتهت العدة صارت غريبة عنه، ولكن الإسلام يبيح لهما أن يعودا إلى حياة الزوجية بعقد جديد.. وقد وسع الإسلام أمامهما الفرص فأعطاهما حق الطلاق والعودة مرتين، قال تعالى:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

(البقرة: ٢٢٩)

كما ندب حين الطلاق أن يكون هناك شاهدان حتى يبذلا جهداً في منع وقوعه، قال تعالى:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾

(الطلاق: ٢)

والإسلام لا يضع كل هذه التشريعات إلا ليحصر الطلاق في دائرة الضرورة، حفاظاً على حق الأولاد في حماية الأسرة والتربية، والحيلولة بين انهيار الأسر وتشريد النشء الجديد.

(١٦) أخرجه البخاري - كتاب الطلاق - باب قوله تعالى: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن» - حديث رقم ٥٢٥١.

دور عالمي للأزهر في نشر الدين السمح وإبراز وسطية الإسلام ومعاني العدل والرحمة



للأستاذ/ عاطف مصطفى

إن أفضل ما نختتم به هذه السلسلة من المقالات حول كتاب «دور الأزهر في السياسة المصرية» لمؤلفه الأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل على رأيه الذي نشره في كتابه هذا بالهلال عن الدور الذي لعبه بالنسبة لبعض قضايا العالم الإسلامي، ونلقي الضوء على شذرات منها نقول في البداية إن تاريخ مصر يشهد بأن علماء الأزهر كانوا دائما منارات الهدى، وقادة النهضة والتنوير، حيث ينتشرون في كل بلاد الأمة الإسلامية يدعون لوسطية الإسلام وسماحته وعدله.

وطوال تاريخه، كان الأزهر يفتح أبوابه لكل أبناء المسلمين في مختلف الأقطار، وهو بحكم هذا، وبحكم وجوده في مصر بوزنها السياسي، كان يجب أن يكون له رأي وموقف فيما كان يواجهه العالم الإسلامي من مشكلات وقضايا، وتأتي قضية «الخلافة» في مقدمة هذه القضايا والمشكلات.

وما يهمنا هنا هو متابعة بعض الأوساط الإسلامية خارج مصر للنقاش الذي دار حول كتاب علي عبدالرازق، فقد ذكر مراسل جريدة السياسة المصرية في تونس أن عدداً من علماء وطلبة جامع الزيتونة من الذين يتبعون خطة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، قد نظر إلى المسألة من وجه نظر «سلفية» واستصوبوا خطة زملائهم الأزهريين.

وكان كتاب «الإسلام وأصول الحكم» حديث نواديهم طوال هذه المدة، بل إن بعضهم قد عزم على الكتابة في الموضوع، وكان أول من بدأ منهم الشيخ محمد الطاهر عاشور كبير علماء المالكية ورئيس مجلسهم الشرعي ومحكمة الاستئناف الشرعية.

ومن جهة أخرى، فقد نقل المراسل رأياً آخر لتيار مشايع لاتجاه «السياسة» أسماه «الرأي المستنير» وقد نشر هذا الرأي في جريدة «الصواب» حيث وصفت الجريدة ما

حدث بأنه يؤكد أن مصر قد سارت إلى الوراء والذى يسوؤنا فى هذه الحادثة بنوع خاص - كما يشير المراسل من تونس - إنما هو تدخل أعيان علمائنا فى الأمر ووقوفه موقف الخصم العنيد لهذا الشيخ - يقصد على عبدالرازق - الذى أراد - وإن أخطأ - خدمة الإسلام وتخليصه من وصمات طالما ألصقها الجهلاء!

ازدياد مكانة الأزهر

يشير د. سعيد إسماعيل إلى أن إلغاء الخلافة أدى إلى ازدياد مكانة الأزهر، فأصبح هو رمز الجامعة الإسلامية، ووضح لدى المسئولين عنه وعى بالأعباء الجديدة التى أصبح يتحملها، وظهر ذلك جليًا فى ذلك البيان الذى أذاعه شيخه الأكبر سنة ١٩٣٠ عندما اشتدت حملة الفرنسيين على الإسلام، واللغة العربية بين مسلمى المغرب، وجاء فى البيان:

«لقد ارتحت إلى ما تضمنه بيان الفوضية الفرنسية من أن فرنسا واقفة فى المسائل الدينية على الحياد، وأن البربر مسلمون وسيبقون مسلمين، وأنه بتشجيعها رممت مساجد كثيرة فى بلاد المغرب الأقصى، ولكنى لم أر فيه ما يكشف الحقيقة من جميع وجوهها، ولا ما يرد على كل التفاصيل التى وردت بها الأنباء، وكانت سببا فى هياج الرأى العام الإسلامى، فهو لم يتعرض لما قيل من إرسال ألف راهب إلى تلك النواحى لتشجيع التبشير المسيحى، ولا ما قيل من إلغاء المكاتب القرآنية والمحاكم الشرعية ولم يبين ما هو نظام الإرث الذى أقر الآن لأمة البربر، ولا ما هى الأحكام الشخصية التى أقرت إليهم الآن



محمد الطاهر عاشور — على عبدالرازق

أيضا، مع أنهم ماداموا مسلمين لا يجوز شرعًا أن يكون لهم نظام إرث غير نظام الإرث الشرعى، ولا أحوال شخصية غير النظام الإسلامى، وتلك هى النتيجة المنطقية لأنهم مسلمون وسيبقون مسلمين..»

وختم الشيخ الأكبر بيانه بقوله: «وإننى بصفتى الدينية التى أعمل بها على توطيد دعائم السلم ومعاملة الأجانب من أى دين أو أى جنس بالحسنى والتسامح، آملين من القائمين بالأمر أن لا يساعدوا على ما يثير حفائظ النفوس، وأن يعملوا على إعادة الاطمئنان إلى تلك البلاد الإسلامية».

وهذا الوعى الذى يبدو فى الفقرة الأخيرة من البيان - كما يشير الكاتب - قد بدا كذلك فى تقديم «مجلة نور الإسلام» الأزهر بعد ذلك لهذا البيان حيث ذكرت: «وردت رسائل من نواح متعددة تطلب من مشيخة الأزهر بما لها من حق الدفاع عن حقوق المسلمين الدينية أن تقول كلمة فى هذه المسألة».

المكانة الكبيرة

ونجد صورة أخرى من المكانة الكبيرة التى احتلها الأزهر بين ربوع العالم الإسلامى بعد إلغاء الخلافة فى الاستفتاء الذى بعث به أحد

مدرسى اللغة العربية فى زنجبار يسأل عن:

١ - حقيقة الأخوة الإسلامية المراد بقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(سورة الحجرات: ١٠)

وعن حقيقة معنى دار السلام، وحق المسلم فيها، وإن لم تكن هى وطنه.

وقد جاء فى رد المجلة الناطقة بلسان الأزهر:

«إن دار الإسلام هى التى تجرى فيها أحكام الحنيفية السمحة، وتعتبر بالنسبة للمسلمين بلدا واحدا.

وبعبارة أخرى دار الإسلام هى الإقليم الواقع تحت ولاية ملك مسلم تجرى فيه أحكام الإسلام، فكل مملكة من ممالك الأرض جرى الأمر فيها على الوصف الذى قدمناه تعتبر دار إسلام، وإن اختلفت هذه الممالك باختلاف الملك والمنعة؛ إذ لا عبرة باختلاف الدار فى حيز المسلمين بعضهم مع بعض؛ لأن حكم الإسلام يجمعهم فالممالك الإسلامية كلها فى حكم المملكة الواحدة، والدين الذى يوجب القصاص، فيقتل المسلم بالذمى، والحر بالعبد، حقنا للدماء وصيانة للأنفس، لا يبيح لأهله أن يتفرقوا شيعا مهما اختلفت الدار، ولا يجيز لأهله أن يعاملوا بعضهم بعضا معاملة غير جائزة، فليس من الجائز فى الدين أن يعامل مسلمو إفريقية مسلمى آسيا معاملة لا يرضونها لأنفسهم، متذرعين بأنها ليست موطنا لهم، فإن ذلك من حمية الجاهلية التى نعاها الله على مشركى العرب.

ولأن المسلم من أى قبيلة أو أية قارة أخ للمؤمن فى الدين، لأن الإيمان قد عقد بين أهله من النسب القريب، والنسب اللاحق ما إن لم يفضل الأخوة النسبية لم ينقص عنها.



سعيد اسماعيل على

وأخوة المؤمن للمؤمن معناها أن كلا منهما انتسب لأصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، والذى هو جماع الفضل ومكارم الأخلاق، ومنشأ المجد والسؤدد».

وقد كان للأزهر دوره فيما يحدث من «الفظائع» التى كانت تحدث خاصة الاضطهاد الدينى من قبل الروس تجاه مسلمى القوقاز.

وأشار الدكتور سعيد إسماعيل إلى تلك الدعوة من السيد محمد أمين الحسينى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى فلسطين إلى مؤتمر ينعقد فى القدس يوم ٢٦ رجب سنة ١٣٥٠، وجاء فى الدعوة أن الغرض من المؤتمر النظر فى أمور تهم المسلمين، وأشيع مع هذا أن المؤتمر سينظر فى مسألة الخلافة.

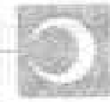
ولم يكن هذا بطبيعة الحال مما يسعد القصر الملكى فى مصر؛ ذلك لأن مناقشة قضية الخلافة بعيداً عن أرض مصر، وفى القدس من شأنه أن يبعدها عنه، ومن هنا كان تحفظ، كما عبرت عن ذلك مجلته: «ولما كانت الخلافة أمرا خطيرا فى الإسلام لا يجوز طرحها فى أى مؤتمر إلا بعد روية، ويجب أن تكون الدعوة إليها صريحة لكى يتمكن مندوبو الأقطار الإسلامية من

درسها، واستطلاع آراء الشعوب التي ينتمون إليها، وحتى لا تمثل الحادثة التي كانت قد جرت في عمان من قبل، فنحن نرجو أن لا يكون شيء من تلك الأقاويل صحيحا، فإن الخوض في مسألة الخلافة لم يحن بعد».

الأزهر يفتح أبوابه لطلاب المسلمين

وللحديث عن دور الأزهر العالمي يقول المؤلف: وعلى الرغم من فتح الأزهر أبوابه أمام طلاب جميع البلدان الإسلامية، فقد نشرت جريدة الأهرام حديثا للسيد أمين الحسيني ومحمد علي علوبة عضوي الوفد الإسلامي إلى الهند قالا فيه عن الجامعة الأزهرية: «إن التعليم فيها يكاد يكون مقتصرا على الشئون الدينية. وإن حواجز وقيود تحول دون دخول الأجانب فيها!».

فقابل مندوب الجريدة شيخ الأزهر وسأله رأيه في هذا الموضوع فأبدى دهشته العميقة لأن يصدر هذا الكلام من هاتين الشخصيتين بالذات مؤكدا أن الجامعة الأزهرية «مازالت منذ إنشائها منهلا عذبا يرده أبناء المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباين لغاتهم ولهجاتهم، وما ردت طالبا لجنسيته. كذلك أشار إلى المادة الثانية من القانون ٤٩ لعام ١٩٣٠م، حيث نصت على أن «الجامع الأزهر والمعاهد الدينية معدة لقبول الطلبة المسلمين أيا كانت جنسيتهم.. بل لقد منحت القوانين المتبعة الطلبة الأجانب امتيازات خصت بها على

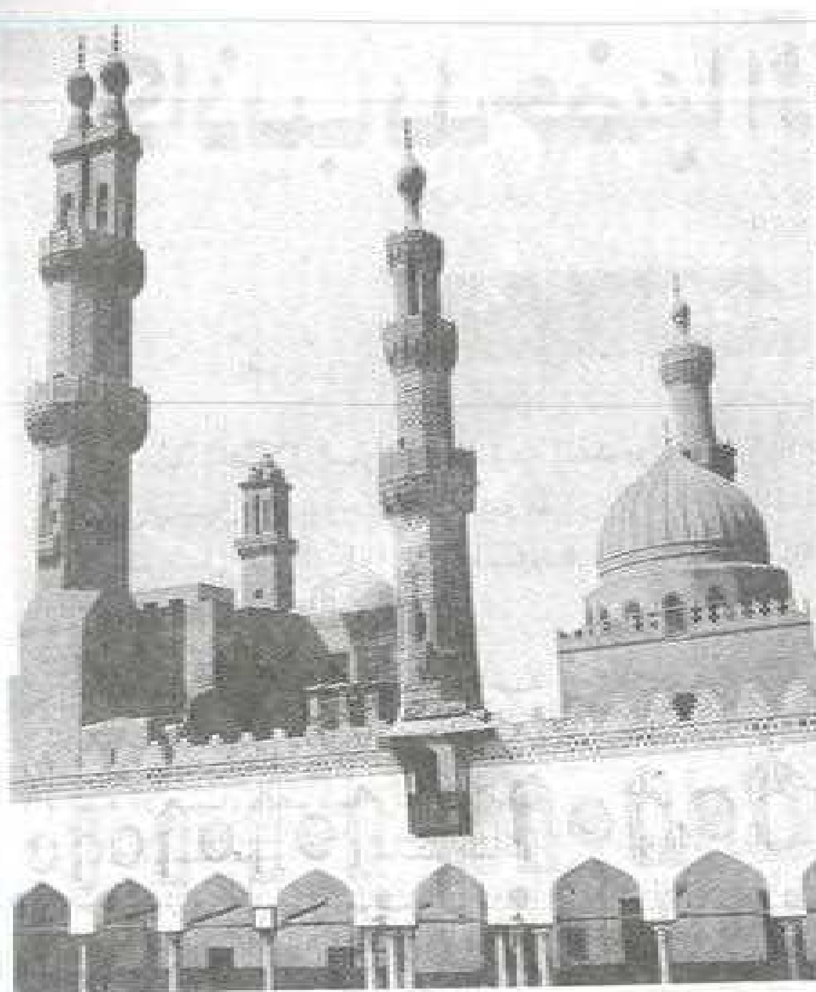




زملائهم المصريين، وأثبت شيخ الأزهر أن الجامع كان به ١٨ أروقا معدة لهؤلاء تضم ٦٤٣ طالباً من جنسيات مختلفة وأقطار متباينة.

وقد أرسل الأزهر بعوثا من علمائه المبرزين إلى الأمم الإسلامية المختلفة لبث الثقافة الدينية والدعوة إلى الإسلام في البلاد الوثنية.

فأرسل بعثات إلى الصين والحبشة وجنوب أفريقيا والهند واليابان، وأنشيء قسم الوعظ والإرشاد سنة ١٩٢٨م بناء على اقتراح الشيخ المراغي، حيث أقنع صديقه محمد محمود رئيس الوزراء بأن في تعيينهم خدمة للأمن، حيث كانوا يعينون في وزارة



الداخلية.

وقد امتد نشاط الوعاظ إلى الشعوب العربية، فذهب بعضهم إلى ارتيريا.. وبعضهم إلى السودان.

كذلك صدر قرار بتكوين لجنة الفتوى بالأزهر في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ- ١١/٨/١٩٣٥، وكان الغرض منها سد حاجة كان يشعر بها المسلمون في الأقطار الشقيقة، فقد كانت ترد إلى الأزهر استفتاءات كثيرة في مسائل دينية مختلفة، وكان أصحاب هذه الاستفتاءات يطلبون لإفتاء على مذهب معين، أو من غير تقيد بمذهب معين.. لهذه الحاجة ولأهمية المسائل التي كان يطلب من الأزهر إصدار الأحكام فيها، رأى المراغي تكوين لجنة من العلماء الثقات لتضطلع بهذا العبء الجميل.

******

حفظك الله يا أزهرنا الشريف شامخاً عتيداً تقوم بدورك الكبير لنشر الدين الإسلامي السمح وإبراز صورة الإسلام الوسطي، الذي يحمل كل معاني التسامح والعدل والرحمة والإخاء، ويرفع راية الإسلام عالية خفاقة في كل أنحاء الدنيا.

ومن يقرأ السطور الأخيرة من هذا المقال يكتشف رسالة الأزهر للدنيا متمثلة في أعداد الطلاب الوافدين الآن من كل البلاد الإسلامية، وما يتحمله الأزهر من أعباء يؤديها عاما بعد عام بصبر وأناة وبلا ضجيج أو حديث عما تتكبده ميزانية الدولة من أعباء برغم ظروفها الاقتصادية الصعبة، ولتشهد الدنيا له بالدور الكبير من أجل عالمية الإسلام ونصرة المسلمين في كل مكان.

وها نحن نرى الآن دور الأزهر ورسالته في بلد تستحق كما يقول فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب في خطابه في الاحتفال بليلة القدر: «إن مصر تستحق من الشرفاء بذل ما في وسعهم للانطلاق نحو الاستقرار».

أكاذيب يدحضها التاريخ



أ.د/ مصطفى رجب

منذ احتلال إسرائيل مدينة القدس عام ١٩٦٧م لم تأل إسرائيل جهداً فى سبيل دعم وجودها غير المشروع فى هذه المدينة المقدسة، واتخذت إسرائيل عدة إجراءات استهدفت من ورائها - ومازالت - تهويد المدينة وظهر ذلك من خلال:

١) استبدال القوانين الصهيونية بالقوانين المحلية وتغيير العملة.

٢) هدم الأحياء العربية والإسلامية وبناء المستعمرات "المستوطنات" لإحلال اليهود محل العرب.

٣) انتهاك حرمة المسجد الأقصى عن طريق ارتياده فى ملابس منافية للحشمة واستباحة دخوله فى جميع ساعات النهار والتعدى على المصلين.

٤) الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية فى القدس.

٥) هدم الأماكن الأثرية المجاورة للمسجد الأقصى.

٦) وكان آخر حلقات هذا المسلسل حفر سلسلة من الأنفاق تحت المسجد.

بداية المؤامرة

بدأت مؤامرات الصهيونية ضد المسجد الأقصى من قبل احتلال إسرائيل إياه، فقد ورد فى دائرة المعارف اليهودية أن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم وأن يتقدموا إلى المسجد الأقصى ويتغلبوا على قوة الأعداء وأن يعيدوا بناء الهيكل ويقيموا ملكهم هناك.

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية أن اليهود يتطلعون إلى امتداد إسرائيل واستعادة الدولة اليهودية وإعادة بناء الهيكل.

وفى أثناء الانتداب البريطانى على فلسطين طلب اليهود من الحكومة البريطانية أن تسلمهم الحرم الشريف بحجة أنه ملك لهم وأن الجدار الغربى من المسجد هو حائط المبكى المزعوم.

وفى عام ١٩٢٩م أعلن جلوزنر أحد زعماء الصهيونية أن المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس إنما هو ملك لهم، وقد ردد هذا الادعاء وزير بريطانى يهودى يدعى اللورد ملشت الذى قال: "إن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريباً جداً وإننى أكرس ما



باب المغاربة الذى تخطط إسرائيل لهدمه

بقى من حياتى لبناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى".

وقال بن جوريون رئيس إسرائيل عقب إقامة الدولة عام ١٩٤٨م عبارته الشهيرة: "لامعنى لقيام إسرائيل بدون القدس، ولامعنى للقدس بدون هيكل".

وفور ضم القدس فى ٥ يونيو ١٩٦٧م بدأت إسرائيل تنفيذ مخططاتها الجهنمية، ففى ١١ يونيو ١٩٦٧م دمرت إسرائيل المنطقة الواقعة أمام حائط المبكى وأجلت سكانها وفى ١٣ يونيو ١٩٦٧ م بدأت عمليات التنقيب عن الآثار بالمنطقة ودمرت بعثات التنقيب خلال عاميها مسجد الزاوية ومسجداً آخر كان يقع جنوب حائط المبكى.

وفى يناير ١٩٦٨م أصدرت الحكومة الإسرائيلية قراراً بتأليف بعثة تنقب عن الآثار برأسها بنيامين مازار من الجامعة العبرية وقامت البعثة خلال عملها بتحطيم الباب الأوسط للمسجد الأقصى.

وفى ٨ يونيو ١٩٦٨م زار بن جوريون حائط المبكى (وحائط المبكى يقع فى الجانب الغربى من المسجد وهو الجانب الذى يعتقد المسلمون أن جبريل عليه السلام ربط عنده البراق الذى صعد به النبى إلى السماء) ونظر بن جوريون إلى إشارة البراق المحفورة بالسيراميك وقال: يجب إنزال هذا الشعار.

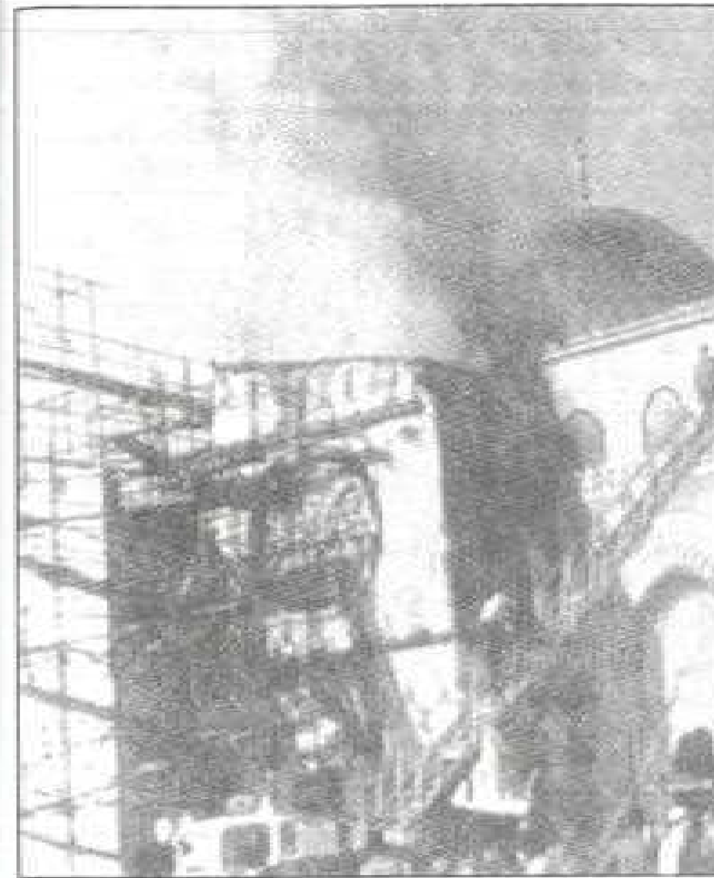
وفى ٢١ أبريل ١٩٦٩م بعثت الحكومة الأردنية إلى يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة تطلب تدخل المنظمة الدولية لوقف عدوان إسرائيل على الحرم الشريف.

دعت إسرائيل أنصارها فى الخارج لإنشاء صندوق لجمع الأموال من أجل إعادة بناء هيكل سليمان.

وفى ٤ يوليو ١٩٦٩م اتخذ مجلس الأمن قراراً أعلن فيه تمسكه بقراره السابق للمجلس بعدم جواز ضم القدس

إلى إسرائيل واستنكر كل الإجراءات التي أخذتها إسرائيل لتغيير الوضع في الأراضي المحتلة.

وبعد هذا القرار بنحو شهر ونصف ارتكبت إسرائيل في ٢١ أغسطس ١٩٦٩م أكبر جريمة بإشعال حريق استمر من السابعة صباحًا حتى قبيل الظهر وقد أتت النيران على الجناح الشرقي للمسجد فأزالت منه مقدسات ظلت مصونة لأكثر من ١٣٠٠ عام وهددت قبته الأثرية المصنوعة من الفضة الخالصة بالسقوط بعد أن انهار جانب من سطح المسجد الكبير.



حريق الأقصى ٢١ أغسطس ١٩٦٩

وقد أكد الحريق، والأحداث التي تلته في القدس، أن النار أشعلت في المسجد الأقصى بتدبير محكم، فقد بدأ الحريق المفاجئ في الساعة السابعة والنصف صباحا من داخل المسجد، دون أن تتحرك سلطات الاحتلال لإنقاذ واحد من أعز وأغلى مقدسات الإسلام، وأخذت النيران تسري في الجناح الشرقي للمسجد، وأعمدة الدخان ترتفع منه إلى عنان السماء، معلنة عن الجريمة التي ارتكبت ضد تاريخ الإنسان وحضارته.

وكان ارتفاع اللهب والدخان منه لمئات الأقدام في الجو، ثم سريان النبأ بين جماهير القدس، هو بداية يوم رهيب في المدينة، فقد سارع عشرات الآلاف من كل صوب إلى منطقة المسجد داخل أسوار الجزء القديم من المدينة المقدسة، يحاولون بأيديهم العارية أطفاء النار بكل وسيلة.

وسارعت مجموعة من الشباب باقتحام المسجد لجمع كل ما يمكن حفظه من المقدسات الأثرية، بينما كانت مجموعات منهم تقف صفوفًا متراصة، مشكلة جدارًا بشريًا يمتد من داخل القدس إلى أبواب المسجد الأقصى ليسلم كل منهم "جرادل" المياه إلى زميله في محاولة لإطفاء النيران، وكان البعض الآخر قد سارع إلى جمع أكبر مجموعة من خراطيم المياه لتسليطها على الأعمدة الأثرية والسقف التاريخي لحمايتها من النيران، بينما كانت كتل أخرى تقف في ساحة المسجد التي تشغل ١٤٤ ألف متر مربع لحماية قبة الصخرة المشرفة من امتداد النيران إليها.



صورة قديمة لباب العامود من داخل سور المسجد الأقصى

وكانت الجماهير لا تزال تتدفق على منطقة الجريمة التي دبرتها إسرائيل، وسلطات الاحتلال ساكنة لا تتحرك، وكانت عربات الإطفاء التي بدأت تشارك في إخماد النيران قد تحركت تلقائيًا، وهي تضم فرقة الإطفاء العربية في القدس التي عززتها بعد ذلك فرق أخرى للإطفاء من مدينتي رام الله والخليل في الضفة الغربية المحتلة.

المسجد الأقصى من الناحية التاريخية

المسجد الأقصى المبارك هو قبلة المسلمين الأولى وثالث الحرمين الشريفين وكان قبلة الصلاة زمنًا ثم عادت القبلة إلى الكعبة وظل من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وقد أسرى بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى مكان المسجد الأقصى حيث عرج منه إلى السماء ويطلق على مجموعة الأبنية المحيطة به الحرم القدسي ومساحة الحرم حاليًا تبلغ نحو

أكاذيب يدحضها التاريخ



قبة المسجد الأقصى من الداخل

١٤٤ ألف متر مربع أي ما يعادل سدس مساحة القدس القديمة، واعتاد المسلمون أن يحتفلوا بذكرى ليلة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب وأن يتجهوا بالقلوب والأذهان إليه.

والمقصود بالمسجد الأقصى هو جميع ما أحاطه السور وفيه الأبواب ويشمل المسجد المعروف حاليًا بالمسجد الأقصى ومكان الصخرة المشرفة والساحات المحيطة بهما، وحائط البراق هو الجزء الغربي للحرم القدسي الشريف الذي يعتقد المسلمون أن جبريل عليه السلام قد ربط عنده براق النبي ليلة الإسراء ويسمي اليهود هذا الحائط بحائط المبكى إشارة للهيكل وجاءت الصهيونية بتعصبها الأعمى تعمل من أجل هدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل مكانه.

ويقع المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية من منطقة الحرم الشريف وقد بدأ بناءه عبدالملك ابن مروان عام ٧٠٥ م ويبلغ طول المسجد ١١٠م وعرضه ٥٥ م ويقوم على ٥٣ عمودًا من الرخام و٤٩ سارية مربعة.

والمسجد الأقصى أحد مساجد الحرم القدسي الذي يعتبر أكبر مساجد الدنيا مساحة وأروعها بناء. ويحتوي بجانب المسجد الأقصى على مسجد الصخرة المشرفة، وعلى آثار إسلامية ومقدسات هامة.

ولما احتل الصليبيون بيت المقدس عام ١٠٩٩ م جعلوا قسما منه كنيسة واتخذوا القسم الآخر مسكنًا لفرسان الهيكل ومستودعًا لذخائرهم، وعندما استرد العرب مدينة القدس أمر القائد صلاح الدين بتجديد المسجد وإصلاحه، وجدد محرابه وكسا قبته بالفسيفساء وصنع منبره الخشبي.

وفي داخل المسجد الأقصى جامع مستطيل يسمونه بجامع (عمر) بذلت إسرائيل محاولات كثيرة لهدمه بعد احتلال القدس ولكنها فشلت في ذلك.



الحائط الجنوبي للمسجد الأقصى بعد أن تحول إلى أطلال

خطأ اليهود في زعمهم أن حائط المبكى يقع مكان المسجد الأقصى

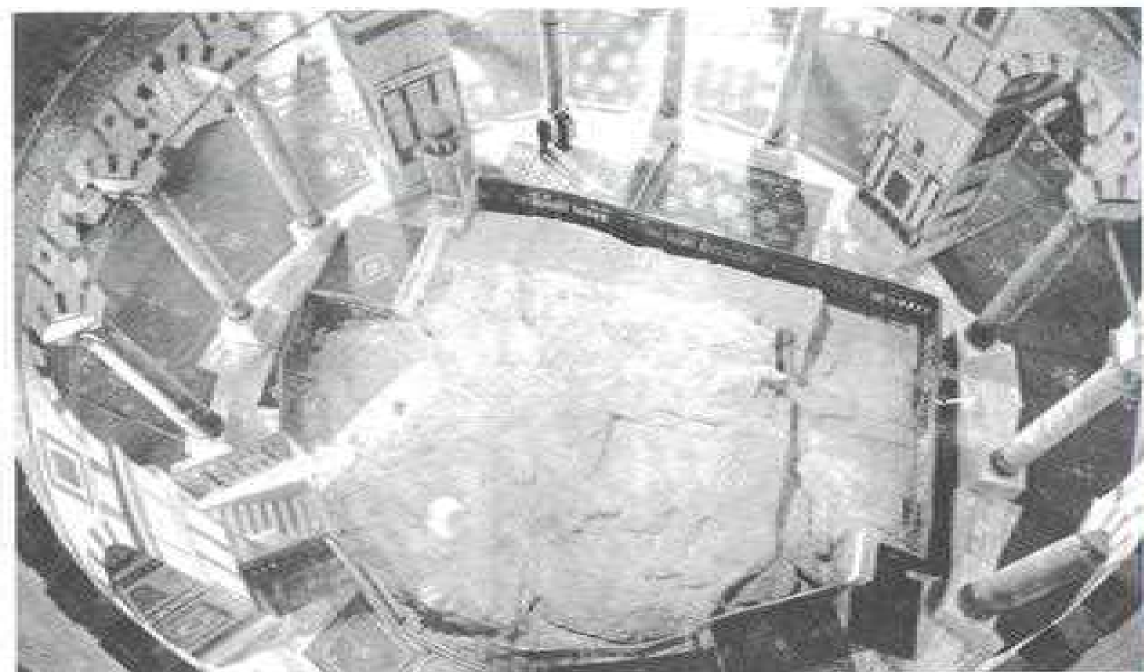
من المعروف أن الأرض التي شيد عليها المسجد الأقصى عند الفتح الإسلامي وبالتحديد في عهد عمر بن الخطاب كانت أرضًا خالية من أية مبان، ولم يكن هناك أي أثر لمعبد يهودي، والحق أن المعبد اليهودي كان قد تهدم واندثر أثناء حصار تيتوس لمدينة بيت المقدس عام ٧٠ م، ومن المعروف أن الإمبراطور الروماني هادريان (٧٦-١٣٨م) حرم المدينة على اليهود، وإن كان قد سمح للحجاج لزيارتها، فما يدعيه الإسرائيليون إذن أمر لا أساس له من الصحة، فلم يخرب العرب شيئًا، لأنهم لم يجدوا مباني على الإطلاق ولم يستولوا على ما يزعمون أنه يخصهم.

والواقع أن المسجد الحالي ليس بالمسجد الأصلي الذي شيد في عهد عمر، ولا في عهد الأمويين إذ تعرض المسجد لعاديات الزمن وأحداث التدهور ولحقه الخراب والدمار أكثر من مرة.

فقد تعرض المسجد لهزة أرضية عام ١٢٠هـ وأعيد تعميره تمامًا حتى عام ١٥٤هـ، ثم تعرض لزلزال آخر في ١٥ محرم عام ٤٢٥هـ مما دعا الخليفة الفاطمي الظاهر إلى إعادة بنائه عام ٤٢٦هـ (١٠٣٥م) وإلى إصلاحات الظاهر يرجع الجزء الأكبر من المسجد بوضعه الحالي.

حائط المبكى

أما حائط المبكى فهو الجدار الغربي من الحرم الشريف وسمي كذلك لأن اليهود اعتادوا زيارته وتأدية الطقوس الدينية حوله ومن بينها البكاء على مسجدهم الذي ضاع وهيكلهم الذي هدم، وكان الملك سليمان قد بناه خلال فترة حكمه (٩٧٢-٩٣٣ ق.م)، ثم هدم على يدي بوختنصر عام ٥٩٧ ق.م، وفي أثناء حكم الرومان طرد الإمبراطور هادريان


الصخرة الشريفة داخل مسجد قبة الصخرة

اليهود من القدس وحرم عليهم دخولها ثم سمح لهم بزيارتها بعد ذلك مرة واحدة في السنة حتى جاء المسلمون وحكموها فسمحوا لهم بزيارتها وتأدية الطقوس الدينية حول الحائط بالصورة المتعارف عليها، وكانت الأحوال في المناطق المقدسة قبل ١٩٤٨م تخضع لما يسمى بنظام "الوضع القائم" وهو النظام الذى وضعته اللجنة الدولية التى أرسلتها عصبة الأمم للمنطقة عام ١٩٣٠م عقب الاضطرابات التى نشبت عندما حاول اليهود وضع كراسي ومصابيح وستائر في ساحة الحرم الشريف متجاهلين بذلك العرف المتفق عليه.

وماذا عن المستقبل؟؟:

إن ما تقوم به إسرائيل حاليًا من محاولة بناء مستوطنة في جبل (أبو غنيم) في القدس الشرقية إن هو إلا محاولة سافرة سافلة من حلقات مسلسل التهويد الذى وضع بذرته الأولى الزعماء المؤسسون للحركة الصهيونية ابتداء من هرتزل ومرورًا بن جوريون وانتهاء بالفتى المدلل لحزب الليكود :بنيامين نتنياهو، الذى يذهب في كتابه "مكان تحت الشمس" إلى أن سياسة حزبه في عملية السلام الحالية تعتمد على إنشاء عدد من المستعمرات "المستوطنات" في مجموع الجبال المحيطة بالقدس يطلق عليها فيما بعد اسم القدس ويمكن التفاوض مع العرب حولها وإعطاؤها نوعًا من الحكم الذاتي: المحلى" المحدود، أما القدس بوضعها التاريخي الذى استعرضناه آنفا فهي - في المفهوم الصهيوني - غير قابلة للتفاوض، والأمل معقود على أن تسعى الشعوب الإسلامية والعربية لحفز قادتها على اتخاذ مواقف أكثر تشددًا مع العدو الصهيوني للحفظ على ثالث الحرمين وأولى القبلتين.

ما بعد الرحيل



شعر: أسامة كامل الخريبى

(بعد سقوط ٢٧ ألف شهيد سورى خلال ١٧ شهرًا منذ بدء الثورة السورية فى حملات إبادة السنة فى سوريا والعراق).

* من بين أنقاض العدم
من بين أطلال الألم
يأتي النسيم.. محطم الخطوات
مبتور القدم
ما عاد - من هول المصائب -
يسحب الأذيال.. أو يهوى القمم
يمشي على جثث الضحايا بالمئات
وكم يقطعه الألم
يحنو عليها
يمسح الدمع المجمد
والدم المسفوح.. شلال الغضب
فكأنه قد جاء من خطو الملائك
من حزون الحور
من ظل السحب
لا تحزنوا.. أبدًا.. ففي غدكم تلاقيكم (حلب)
في جنة الفردوس بالرحمات
في أبهى الحلل
تنهار طهورًا.. من سنا (العاصي)



ومـــــن (بــــــردى) أطـــــل
وشـرابكم فـيـهـا قُـبل ، وطعـامكم فـيـهـا قُـبل
وحـداؤها التـسـبيح والتكبيـر غـضًـا لم يزل
وغـــدا ســينتــقض الهــشــيمُ على الذنبْ
وغـــدا ســينتــصـر الثــبــاتُ على الدّجل
من حـــســرة الطفل المروع .. والأيامى والعــويل
من دمــعــة الثكلى وآلاف الضــــبايا والكهــول
من وثبــة الخيـل الجـمـوح .. إذا تمرّد بالصــهيل
بركانُ ثورة ذلك الشعب الذى عرف الطريق إلى الشُّهُب
ومضى إلى النصر المؤزر واثق الخطوات مُهور الغضب
ومشى إلى الحلم الجميل مجدعَ الأطراف موصول النسب
من بين أحــراق الملاجئ والخـيــام على الجـبـــال
وكـذا مـغـيب الشـمس فى عين الحـدائق والتــلال
وغـيــاب آمـال البـقـاء على الحـيــاة بلا نضــال
ســيـجئ يومًـا صـارخٌ : أن الظلوم قــد اعـتــقل
وعلى خطا المجنون فى لـيـــبـــيـــا تملكه الخــبل

أو قــد ألم بـه (الشلل) أو للجــحــيم قــد انـتـقل ..
أو غـــادر الأرض اليـــبــــاب إلى (زُحَل)
وعليـــه آلاف من اللعنات فى عــدد الذين لهم قــتل
تأتى لتلعن ذلك الشــيطان والصنم المؤله والخطل
* يا طول طابور الضـــحــايا فى انتظار للكفن
يا طول ليل القـــهــر فى ســوريا وأيام المحن
أو كلمـــا قـــد جـــاء يومٌ .. لا هدوء ولا سكن
* فى كل صبح يشهد الطابور أمواجًا ممزقة الجثث
تمضى إلى الشطآن ..... أهرامًا يُشيدها العبث
تشكو إلى الرحـــمن من غـــدر اللئيم إذا نكث
حلمٌ كبيرٌ .. أن يخف القصف أو يخبو من البيت الحريق
أن يستطيع الناس سحب قوافل الشهداء من عرض الطريق
وتود لو يتكلم الموتى .... ولو ينجو الغريق
حلمٌ عـــزيزٌ أن يعـــود الأمنُ فى قلب الصــغــار
أن تـســرح الأحــلامُ والأطيــارُ فى أفق النـهــار
أن يُولد البـــادون فى الفلوات من رحم الدمـــار





لكن أسئلة على الدرب الكؤود تصدني
وتطل من بين السطور تلومني.. وتهزني
هل تستطيع كتائبُ الأحرار أن تحيي الموات؟
هل تستطيع أصابعُ الأبطال أن تؤوى الشتات؟
هل تستطيع بناءَ آلاف المآذن شامخات؟
هل تستطيع إعادة الليمون للأرض الموات؟
* ويظل ذاك الصوت يصرخ بالدموع وبالعويل
يا رحلة الظلم الطويل.. ورحلة الصمت الوبيل
ركب السنين يمر.. في الدرب الطويل المستحيل
لا لن يموت الناسُ.. لا الأحرارُ لا الحبُّ النبيل
* سيجيئ طفلٌ يزرعُ الورد الجميل على التلال.. على الخدود
سيجيئ جيل يغرس الأمن العزيز على القلوب.. على اللحود
سيجيئ جيل يمسح الدمعات من جفن الثكالى والجنود
سيجيئ يبنى ثم يرتفع البناءُ إلى السماء
لتعود سوريا.. مثلما كانت بلادًا للأمان والهناء

أثر العقيدة فى تكوين الشخصية



أ.د. حمدى فتوح والى

برغم ما يقوم به العلماء المخلصون من جهد، وما تقدمه الفضائيات الراشدة من تنوير وتبصير، فإننى أشعر أن الأمة تحتاج من الدعاة الموهوبين، والعلماء العاملين والقادة المخلصين، إلى ما هو أكثر من ذلك وأعظم؛ لأن الخطب جسيم والخطر عظيم؛ ولأن الأمة تعانى - اليوم - نوعا من الغياب والاستلاب، جعلها فى حالة شلل عقلى، عجزت به عن توصيف حالها، وتشخيص دائها، وهذا أمر تعب فيه شياطينه، وأنفقوا فيه المال الجزيل، والوقت الطويل، حتى اطمأنوا إلى ثمرة جهدهم، ونجاح خططهم، عندما رأوا أمة تعددت مصادرها، واختلفت مشاربها، وتنوعت ولاءاتها، وتحولت فرقًا ومزقًا:

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

(المؤمنون: ٥٣)

إن أبناء هذا الجيل معذورون- إذا كانوا قد ولدوا فلم يروا ولم يسمعوا إلا الثناء على النموذج الغربى، والإعلاء من شأن ثقافته والاحتفاء الزائد برموزه ومثقفيه، فى الوقت الذى غابت فيه عن الساحة الثقافية رموز الأصالة العربية والإسلامية، الذين يمثلون القدوة والمثل ويبعثون فى قلوب شباب الأمة روح العزة والإباء.

إننا نستطيع أن نتنبأ بمصير هذا الجيل إن استمر على هذا الحال.

وإذا كنا لا ندرك أبعاد المأساة فى إبعاد عنصر الدين عن مراحل التكوين الأولى للإنسان، فإن أعداء الأمة كانوا على وعى دقيق بأبعاد هذه القضية منذ استقرت خطتهم على اختيار الغزو الفكرى وسيلة أكيدة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه بالغزو العسكرى، وسأكشف لك أخى القارئ طبيعة هذا التخطيط بلسان أصحابه ومدبريه، فمنذ بدايات القرن الماضى ظهرت فى مصر دعوات تدعو إلى السخرية من الأديان وضرورة التحرر من عبودية التقليد - كما يزعمون - ويعتبرون الإيمان بالغيب نوعًا من الأوهام متذرعين فى ذلك بأن العلم الصحيح هو الذى تدركه الحواس ويقع تحت سلطان العقل، ويعتبرون كل ما دون ذلك نوعًا من الضلالات والأوهام، وهذا نموذج من كتابات الصحافة فى ظل

الاستعمار الإنجليزى الذى حرص بقوة على إعداد جيل خاو من العقيدة، خال من الإيمان، مستعينا بأذنابه الذين وجدوا فى ظل الحماية والرعاية وأمكنهم أن ينفثوا سمومهم وأن يحققوا أغراضهم بتدمير الإسلام وإبادة أهله. ففى مقال الافتتاح للكاتب (إميل زيدان) شقيق الكاتب المشهور (جورجى زيدان)، صاحب مجلة الهلال كتب يقول: «إن الناس واهمون حين يتخيلون أنهم أحرار فى تفكيرهم، فهم يخضعون عن وعى أحيانا وعن غير وعى فى - كثير من الأحيان- لقيود ثلاثة وهى: قيود الوراثة، وقيود البيئة بكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين، وقيود، والنفس بما فيها من ميول وعواطف وما لها من مصالح. ويبنى الكاتب على ذلك أننا لا نفكر لنصل إلى رأى أو عقيدة ولكننا فى الواقع نعتقد أولا ثم نحاول بتفكيرنا أن نبرر هذه العقائد، ولهذا فهو يدعو الناس إلى أن يحرروا أنفسهم ثم يعتقدوا، ثم يختم مقاله بهذه العبارة المدمرة فيقول: «حرر فكرك واتبعه حيثما يذهب بك» (1). فهل هناك فرق أخى القارئ بين جملته الأخيرة وبين قول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾

(الجاثية: ٢٣)

ولك أن تتصور! كيف يكون حال الشباب الذين يخاطبون بهذا السم الزعاف، دون رصيد من الوازع الدينى الذى ينهض مدافعا ومانعا أمام تلك الشبهات التى كانت تحاك بعناية، وتعرض عن علم ودراية، ثم تقارن بين هذه الفئة المظلومة المقهورة وبين جيل الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم أدعوك أن تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

(الأعراف: ٥٨)

إن الفرق بين ما كان يقدم لشباب الأمة وناشئتها من علم نافع وإيمان راسخ وعقيدة صادقة ويقين عميق، وبين ما يقدم على موائد الغرب وأذنابه من شهوات ماجنة وشبهات قاتلة وأفكار مسمومة وثقافات مرذولة، هو نفس الفرق بين الجيل الذى فتح الدنيا وعلم البشرية، وصنع الحضارة ومنح الإنسانية المعنى الحقيقى للحياة، وبين الجيل الذى يعيش لشهواته ويسعى لإرضاء نزواته، وقد تسلط عليه سلطان الجشع والحرص، فكأن به مسا من الجنون فهو يلتهم الدنيا التهاما، فهو كشارب ماء البحر كلما ازداد منه شربا ازداد عطشا، وهذه هى الحالة التى أشار إليها الخالق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾

(طه: ١٢٤)

١ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المصرى، د. محمد محمد حسين، جـ ٢، ص ٢٩٢، مؤسسة الرسالة.

إن الحياة بغير دين جحيم لا يطاق، ولك أن تتصور حياة إنسان بغير دين كيف يجد الإجابة الشافية إذا سأل نفسه من أين جاء ولماذا جاء؟ وإلى أين يمضى؟ وما مصيره الذى ينتهى إليه، وهل بعد هذه الحياة حياة أخرى؟ وما هو وصفها إذا كانت وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات؟

وما الطرق والأسس التى إذا سار الإنسان عليها كانت حياته الآخرة راضية مرضية؟

وما مصدر هذه الطرق؟ وما الطريق المثالى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق؟

وهذه كلها أسئلة تلح على عقل الإنسان ووجدانه، فلا يهدأ له بال ولا يقر له قرار حتى يجد الجواب الشافى عليها.

إن العقيدة فى الله هى التى تمنح الإنسان حريته، وتضمن له استقلاله واستعلاءه أمام سلطان اللذائذ وسيطرة الآلات، كما تضمن له حالة من الاسترواح النفسى والثقة الروحية والاطمئنان العميق، وهذه كلها ضرورات روحية لا يستطيع الإنسان أن ينفك عنها فى أية لحظة من اللحظات.

فهل تدرك مؤسسات التربية فى بلادنا قداسة المسئولية وعظم الأمانة، ويستشعرون رهبة الموقف العظيم بين يدى الله عندما يسألهم عن دورهم فى صيانة العقول، وحراسة القلوب وتهذيب النفوس، وأن يعلموا أن دور المربى يشبه دور الكهربائى الذى يصل تيار الروح الوحى إلى تيار الروح النفس فيستنير هذا الكيان الربانى بنور الله، وأن يدرك المسئولون تمام الإدراك بأن الروح الوحى لن يصل إلى الروح النفس إلا من خلال وسيط يتمثل بتلك الروح وتحسين توصيلها، ولن يتأتى هذا إلا بمعلم يحسن التلقى عن ربه بصدق وحب ويحسن الأداء لأبنائه بحب، ويشعر وهو يؤدى هذا الواجب أنه قائم بين يدى ربه فى محراب صلاة، وتلك هى الأجواء التى تتلاءم مع روح الثورة المصرية والتى لن تسمح تلك الثورة بغيرها، بعد أن شهد العالم أجمع أنها ثورة ارتبطت بيوم الجمعة وانطلقت من المساجد، واشتاق أبناؤها للشهادة فى سبيل الله مستشعرين المعنى الحقيقى لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

***

مواقع التواصل الاجتماعى والواقع رؤية معرفية

د. يحيى رضا جاد
طبيب بشرى وكاتب وباحث مصرى

مواقع الإنترنت بمختلف أشكالها هى «إحدى أدوات» - وليس «كل أدوات» -: (الحوار) و(التواصل وتبادل الخبرات والمعلومات والرؤى) و(صناعة المستقبل).. ومن ثم:

١- فهى لا تنقل لنا «الصورة كاملة».. وإنما تضع بين أيدينا «جزءاً منها».

٢- وهى لا تمثل «الواقع كاملاً».. وإنما هى جزء منه، تؤثر فيه وتتأثر به، ومن ثم: تغير وتتغير.

وصورتنا عن الواقع إنما تتكون عبر عناصر هى: الذات + الأغيار (أو: «الآخر» بالتعبير الحديث) + الأفكار + الأفعال + التفاعل بين المكونات السابقة.

ومن ثم: يجب التفريق بين «رصد الأفعال» و«تفسيرنا لهذه الأفعال».. بين «المعلومات» و«العلم والمعرفة».. بين «الحقائق» (أى الوقائع) و«الحقيقة» (أى تفسيرنا لهذه الحقائق).. بين «الوقائع» و«الواقع».

و«رقع الواقع» (أى رصده) يجب أن يكون بدقة وأمانة وتتبع كاملين قدر الطاقة.. بينما «فهم الواقع» (أى تفسيره وفقهه) يخضع للرؤية الكلية الحاكمة للذات، وللخلفية المعرفية لها، ولمدى ذكاء وسعة أفق المرء فى التحليل والتفكيك والتركيب لتفاصيل الواقع السابق رقعه.. وكل قراءة «فهم تفسير للواقع» يستلزم بالضرورة تنحية بعض الوقائع المرصودة (أى تصنيف بعضها على أنها هامشية غير أساسية)؛ حتى يتاح للمرء اكتشاف الكامن فى المجموع؛ لئلا يذهب نظرنا شعاعاً (أى متفرقاً) ونغرق فى بحر التفاصيل ونسقط فى «جب المعلومات»: فيبتلعنا «حوتها» أو يلتهمها ذئبها إن شئت قلت!

ومن ثم: فإن كل «تفسير للواقع» هو «اجتهادى بالضرورة» (بغض النظر عن مدى صوابه أو خطئه).. بينما كل «رصد للوقائع» هو «ظن راجح على أقل تقدير» (أو هكذا يجب أن يكون؛ إذا توافرت: الأمانة فى الرصد + التتبع والاستقراء)

وبناء عليه: فكل قراءة فهم تفسير للواقع: هو - من أى الناس صدر - «متحيز» بالضرورة

وبهذا البيان تتم تصفية الإشكالية الوهمية حول «الذاتية» و«الموضوعية».. فليس هناك - فى ظنى - «جدار أسمنتى عازل» بينهما، وإنما هناك «تفاعل حلزونى بينهما»

وتعود ثانية إلى الحديث عن مواقع الإنترنت

- وخاصة مواقع التواصل الاجتماعى - فنقول:

من مميزاتها:

١- إلغاء حاجز الزمان؛ ومن ثم: سرعة التأثير

٢- وإلغاء حاجز المكان؛ ومن ثم: سعة الانتشار

٣- وإلغاء إمكانية التعتيم على الوقائع؛ ومن ثم: تحقيق الصداقية والشفافية وتفعيل مبدأ الحق فى الاطلاع (أى حرية تداول المعلومات)

٤- إلغاء إمكانية تكميم الأفواه؛ ومن ثم: تحقيق مناخ الحرية (خاصة حرية التعبير) وتفعيل آلية الشورى (بوجه من الوجوه)

٥- التشجيع على إبداء الرأى دون خوف عقاب أو تسلط؛ وهذا من أكبر المحفزات على الإبداع والاجتهاد والتجديد (بمعانيها الواسعة الشاملة)

٦- تفعيل «آلية الضبط الاجتماعى»؛ فأى انحراف فى الرأى أو خلل فى الرؤية أو تقصير فى الفعل ينشر على هذه الصفحات الإلكترونية سيجد من يقومه ويرشده (بشرط ألا يكون صاحب هذه الصفحة الإلكترونية من الذين سقطوا فى «جب الذاتية الجوانية» الذى سيأتى الحديث عنه فى النقطة الرابعة من العيوب)

ومن عيوبها:

١- الرصد المبتور / الجزيئى / الفسيفسائى للأحداث والوقائع؛ والخلل فى رصد «الوقائع» يفضى إلى الخلل فى فهم «الواقع»

٢- والرصد- الرفع المنحرف للوقائع-؛ عبر نشر الشائعات والأكاذيب والمعلومات المغلوطة أو غير الكاملة؛ وهذا مناخ ممتاز للتعكير والتكدير والتفريق والتمزيق.

٣- وطغيان تأثير الصورة على الإدارك والتفسير والتحليل والتفكيك والتركيب؛ مما يفضى إلى السطحية والتبسيط والسقوط فى «جب الواحدية السببية» (وهى نوع من «الشرك التحليلى») و«جب الموضوعية الوهمية» (وهى فى حقيقتها «سلبية متلقية») فى حين أن الواقع «تصور مركب ومعقد» غاية التركيب والتعقيد.

٤- السقوط فى «جب الذاتية الجوانية» أو بتعبير آخر «جب مدرسة الرأى الواحد والاتجاه الواحد».. فكثير من مستخدمى هذه المواقع يحرص على ألا تضم قائمة المتواصلين معه (أو لا يحرص على ضم) أى «آخر» جنسى (ذكورة أو أنوثة - مصرى أو خليجى أو مغربى أو أندونيسى) أو ثقافى (حضرى أو ريفى أو بدوى - قاهرى أو صعيدى أو نوبى) أو فكرى فلسفى (إسلامى أو علمانى) أو سياسى (مستقل أو حزبى).. ولهذا أثر غير منكور فى انتشار «حوار الطرشان» أحياناً أو «التنميط والقولبة» أحياناً أخرى؛ فالمرء ههنا - باستبعاده لأى آخر - إنما يخاطب ذاته، وكأنما ينظر إلى نفسه فى المرآة، مع أنه يدعى محاولة التأثير والتغيير والإصلاح من خلال هذه الصفحات الإلكترونية، أو مع أنه يدعى محاولة «الرصد الأمين للوقائع» و«التفسير الدقيق للواقع» من خلال هذه الصفحات الإلكترونية، أو مع أنه يدعى محاولة «تزكية نفسه وفكره ورأيه ورؤيته» من خلال هذه الصفحات.. وكل هذه الأمور الثلاثة - مجتمعة أو منفردة - لا يمكن تحقيقها تحقيقاً رشيداً وفاعلاً من خلال «جب مدرسة الرأى الواحد»!

٥- «التماهى الإلكترونى»؛ بالانسحاب التدريجى الخفى من الزمان والمكان؛ من خلال الاكتفاء به عن «المشاركة الفاعلة» فى الحياة، متخيلاً تحقيق ذاته بذلك؛ فيصبح الإنسان - ذلك الكائن المركب الربانى - «مجرد صفحة فى موقع»!

بين المجلة والقارئ

أ. أحمد السيد تقي الدين

دور الدعاة.. والعلماء.. وحق احترامهم

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ / إبراهيم مسلم النجار مدير عام تنظيم وإدارة، سابقًا، سندنهور- قليوبية:

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾

(فصلت: ٣٣)

إن هذه الآية الكريمة تضفى تكريمًا خاصًا وإعزازًا لدور الداعية المتخصص الذى يستمد قدوته من تميزه بالتزامه بالعمل الصالح وكذلك تمكنه من توصيل الرسالة للجمهور المستهدف فى تحقيق التأثير المطلوب لترشيد المجتمع والوصول به إلى الطريق الأمثل تنفيذًا للخطاب الموجه من رب العزة سبحانه إلى رسوله الكريم ﷺ ليبين له كيفية إبلاغ الناس ودعوتهم بالحكمة ثم الموعظة ثم بالكلمة الطيبة فيقول سبحانه:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

(النحل: ١٢٥)

ويوجهنا القرآن العظيم إلى الاهتمام بالمعاملة بالمعروف فى مسألة المجادلة والتخاطب بالحسنى فى مواجهة الآخرين وبخاصة أهل الكتاب حيث يقول سبحانه:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وبذلك.. فإننا إذا كنا مأمورين بأن نجادل أهل الكتاب بالحسنى فمن باب أولى أن ينسحب ذلك على من يختلفون معنا فى الرأى من بيننا.. وانظر عظمة التوجيه القرآني في رسم شخصية الداعية بأنه يكون متواضعا مع المؤمنين معتزا بإسلامه على الكافرين.. فيقول سبحانه فى وصف الدعاة أنهم:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(المائدة: ٥٤)

ثم يؤكد هذا الوصف فى آية أخرى حيث يقول سبحانه:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(الحجر: ٨٨)

ومن هنا يمكننا أن نشير إلى أهمية دور الداعية فى الدين الإسلامى وضرورة التواصل معه بالتنسيق والتعاون بينه وبين وسائل الإعلام وتمكينه من أداء رسالته الدعوية والإعلامية لخلق خطاب

دينى واجتماعى عصرى يستوعب متطلبات مسيرتنا الراهنة وجمع الأمة على كلمة سواء بعد أن استقرت الأمور باختيار رئيس جديد منتخب انتخابا شرعيا نزيها وعلينا أن نتعاون معه بعمل دعوى وإعلامى مخلص يحسن عرض مشاكلاتنا بشكل يليق بقيمنا الدينية فى ظل تعاليم وتوجيهات معلم البشرية الأول سيدنا محمد ﷺ بعد أن تجاوزنا الأيام العصيبة وانزاحت من طريقنا ضبابية الرؤية وتخلصنا من آثار ما خلفته لنا ستين حكم المخلوع الثقيلة من مشكلات فالسيطرة على المنحرفين والمتجمهرين والمعتصمين ليست كافية؛ لأن الشرطة لم تسترد كل عافيتها حتى الآن.

إن دور الداعية كبير ومتشعب ولابد من تدعيم أجهزته لتوعية الناس وإمدادهم بالمعلومات والحقائق الصحيحة أمام الموروثات السلبية الهائلة التى خلفها الحكم السابق من تناقضات ومويقات كان من نتيجتها ضعف الوازع الدينى بين أفراد المجتمع الذى نشأ عنه التشاجر والتشاحن وخلق تيارات تتصارع وترفض الثقة أو القبول بدور العلماء والدعاة ومعهم مسئولى الإعلام وأصحاب الرأى والقيادات الجماهيرية.

لقد أصبح لزاما على الجميع أن يتصالحوا على تناسى مآسى الماضى البغيض وأن يتعاونوا فيما بينهم ليكونوا يدا واحدة تقود الشعب كله بجميع قطاعاته للعمل والإنتاج حتى نسد احتياجاتنا ومتطلبات بلدنا حتى يتحقق الاستقرار والأمان للجميع يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾

(الأنفال: ٤٦)

إن علماء المسلمين ودعاتهم لهم احترامهم ومكانتهم التى أعطاها إياهم الشرع الحنيف فهم ورثة الأنبياء وهم قادة الرأى وأئمة الناس فى تقوية إيمانهم وتحسين العلاقة بينهم وبين خالقهم لذلك يجب احترامهم وتوقيرهم.

وتبعا لذلك يلزمنا تطوير الأزهر الشريف وتمكينه من أداء رسالته وتوحيد القيادات الدينية تحت مظلته ورعايته وهو بهذا يكون أقوى وأفضل من إنشاء أحزاب دينية كثيرة غير مفعلة وليس لها أى تأثير.

وقد كان للأزهر الشريف شعبيته التى انكسرت دونها زعامات سياسية كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال: أنه قامت الحكومة البريطانية بالضغط على الحكومة المصرية للاشتراك فى الحرب العالمية الثانية وخطب الشيخ المراغى- رحمه الله وكان شيخا للأزهر - حينئذ فقال فى خطبته:

«نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل وغضبت بريطانيا وقابل رئيس الوزراء المصرى الشيخ المراغى الذى اشتم فى لهجة رئيس الوزراء تهديدا فقال له: أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟!! إن شيخ الأزهر بمركزه ونفوذه أقوى من رئيس الحكومة ولو شئت لارتقيت المنبر وأثرت الجماهير ولوجدت نفسك إنسانا معزولا فى هذا الشعب»

حفظ الله الأزهر وجعله لنا سندا وعضدا وجمعنا تحت مظلته على كلمة سواء.

إنها أزمة أخلاق لا قلة أرزاق

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الدكتور/ على عبد العظيم على، واعظ بمجمع البحوث الإسلامية:

إن الواقع الذى نعيشه يشهد أحداثًا متداخلة ووقائع متشابكة، وأكثر ما يشغل أذهان الناس الأوضاع الاقتصادية المتردية التى جنحت بالبعض إلى الحصول على الرزق بأى وسيلة كانت حتى وإن أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإزعاج الآمنين ونهب الممتلكات العامة والخاصة بالإضافة إلى مايصاحب ذلك من كذب فى الحديث وغش فى المعاملة وبذاءة فى الألفاظ وخيانة للأمانة، وإن رحت تقاوم هذه الأخلاق الذميمة كانت الحجة أن السبب فى تدنى المستوى الخلقى هو العوز والفقر والحاجة.

والحقيقة أن العكس هو الصحيح، فإن تفشى الأخلاق المنحلة والذمم المريضة هو السبب فى نكد المعيشة وقلة ذات اليد، والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أكد أنه لا قلة أبدًا فى الأرزاق فهى موجودة ومقدرة من قبل الله تعالى، قال عز وجل:

﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ۝ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾

(فصلت: ٩-١٠)

والملاحظ أن الله قدم البركة على التقدير فالرزق مبارك فيه قبل أن يكون مقدرًا.

وفى عبارة صريحة وأسلوب مؤكد يطمئن الله الناس على رزقهم فيقول:

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾

(هود: ٦)

وقد وضح القرآن الكريم فى أكثر من موضع أن الكون كله مسخر لبنى الإنسان وما عليهم سوى السير فيه واستخراج بركاته، قال تعالى:

﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۝ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ۝﴾

(الجاثية: ١٢-١٣)

إذن قضية الأرزاق محسومة من قبل الله عز وجل.

لكن هذه الأرزاق يتهدد وجودها وتضيع بركتها وتنعدم فائدتها عندما يريد الناس الحصول عليها بأساليب خسيسة وضمائر ميتة ونفوس خربة، قال عز وجل:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾

(الأعراف: ٩٦)

وقال أيضًا:

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ۝ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾

(المائدة: ٦٥-٦٦)

وعن أبى أمامة الباهلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته" حديث صحيح صححه الألبانى فى الجامع رقم: ٢٠٨٥.

وعليه، فإن ما يصيب الناس أحيانًا من فاقة وضيق مادى ناتج فى أساسه عن الفساد الأخلاقى والبعد عن الله وإهمال تعاليمه، قال تعالى:

﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ۝ قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ۝ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾

(طه: ١٢٤: ١٢٦)

قال ابن كثير - رحمه الله -: معيشة ضنكًا فى الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك فلا يزال فى ريبه يتردد فهذا من ضنك المعيشة" تفسير القرآن العظيم - دار الحديث ج ٣/ ١٦٤.

وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً من أحوال السابقين فقوم سبأ غمرتهم نعم الله وتقلبوا فى آلائه فمساكنهم كانت ذات روعة وجمال وجنانهم كانت ممتدة عن اليمين والشمال ولم يطلب منهم إلا شكر النعمة والاعتراف بالمنعم ولكنهم قابلوا النعمة بالجحود والمنعم بالكفران فبدل الله أحوالهم وغير ما أنعم به عليهم وفقًا لسنته الحاكمة.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾

(الرعد: ١١)

ومن ثم فقد قال عنهم سبحانه:

﴿لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ۝ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ۝ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾

(سبأ: ١٥: ١٧)

يقول ابن خيرة وهو من أصحاب سيدنا على رضى الله عنه: جزاء المعصية الوهن فى العبادة والضيق فى المعيشة والتعسر فى اللذة" تفسير القرآن

العظيم- دار الحديث ج٣ / ٥١١ .

والخلاصة : أن أزمة مجتمعنا الحقيقية هى أزمة أخلاق لا قلة فى الأرزاق ، وأن ما نشاهده وما نعايشه من ضيق اقتصادى وعوز مادى ما هو إلا عرض لمرض يوجد بوجوده ويتلاشى بانعدامه ، فلو عامل الناس بعضهم بعضا بالصدق والأمانة والوفاء - لو فعلوا ذلك - لفتحت عليهم بركات من السماء والأرض وعاشوا فى رغد من العيش ووفرة فى النعمة ورضا من النعم .

خير الكلام: يقول أمير الشعراء:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

تحت هذا العنوان جاءت رسالة إبراهيم أحمد محمد جاد الكريم - واعظ بمنطقة وعظ قنا:

هو سيد الأولين والآخرين . وهو إمام الأنبياء والمرسلين وهو المرسل من رب العالمين

هو سيدنا :- محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم . يتصل نسبه ﷺ بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

أمه :- سيدة نساء مكة ومن أطهر بيوتها

هى السيدة :- آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة

ولد ﷺ فى مكة فى شعب بنى هاشم يوم الإثنين . الثانى عشر من ربيع الأول ، الموافق للعشرين من شهر أبريل من سنة واحد وسبعين وخمسمائة من الميلاد فى عام عرف عند العرب . بعام الفيل . حادثة الفيل المعروفة

ولد يتيم الأب . فقد مات أبوه وهو ﷺ فى بطن أمه وسماه جده عبدالمطلب (محمداً) ليكون محموداً فى الأرض والسماء

أول من أرضعته أمه آمنة .. ثم ثويبة جارية أبي لهب ثم حليمة السعدية .. ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره وعاش مع جده عبدالمطلب عامين . ثم عاش مع عمه أبا طالب حتى تزوج ﷺ من السيد خديجة بنت خويلد

كان يخلو بنفسه فى غار حراء شهراً فى كل عام . يتعبد بشريعة إبراهيم عليه السلام . وبعد أن بلغ الأربعين من عمره آتاه الوحى من السماء عن طريق جبريل عليه السلام .

ونزل عليه القرآن الكريم .. واستمرت دعوته ﷺ ثلاثة وعشرون عاماً . بلّغ فيها رسالة ربه إلى الناس جميعاً .

زوجاته ﷺ

تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد . والسيدة سودة بنت زمعة والسيدة عائشة بنت أبي بكر . والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب والسيدة زينب بنت خزيمة . والسيدة جويرية بنت الحارث الخزاعية . والسيدة زينب بنت جحش . والسيدة أم سلمة . والسيدة صفية بنت حيى بن أخطب . والسيدة أم حبيبة : رملة بنت أبي سفيان . والسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية . ومن السرارى :- كانت السيدة : مارية القبطية التى أهداها له المقوقس ملك مصر . والسيدة ريحانة بنت زيد القريظية التى كانت من سبايا بنى قريظة .

كان له من الأولاد ثلاثة ذكور وأربع إناث .

الذكور :- أبوالقاسم ، وعبدالله ، وإبراهيم ، وقد ماتوا صغاراً . أما الإناث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

أعمامه ﷺ : الحارث ، وجحل ، والمقوم ، والزبير ، وأبولهب ، وصفار ، وأبوطالب ، والعباس ، وحمزة والذى أسلم منهم :- العباس وحمزة رضى الله عنهما .

وعماته ﷺ : أميمة ، وأم حكيم ، وبرة ، وعاتكة ، وصفية ، وآروى .

أخواله ﷺ : أسود ، وعبد يغوث ، وعمير .

خالاته ﷺ : فريعة وفاختة .

إخوته من الرضاع :

١- من ثويبة :- كان عمه حمزة وأبو الأسود بن عبدالأسد ، مسروح بن ثويبة .

٢- ومن حليمة السعدية : كان عبدالله بن الحارث ، وأبوسفيان بن الحارث ، والشيماء ، وأنيسة بنت الحارث .

كانت وفاته ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول فى السنة الحادية عشر من الهجرة . عن عمر يناهز الثلاث والستين عاماً .

فاللهم صلى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين

أبرياء يتهمون وأدعياء يمكرون ووطن جريح من أبنائه

تحت هذا العنوان جاءت رسالة أحمد على أحمد الأمير وكيل وزارة الأوقاف الأسبق لمحافظة قنا:

لا يستطيع الإنسان أن يقف صامتا ومن حوله أحداث دامية تحرق الأخضر واليابس وتهدم العامر وتدمر اقتصاد أمة هى خير أمة أخرجت للناس .

وهنا يعلو صوت الإيمان ينادى يا أتباع الأنبياء : ربنا جل جلاله لايحب الخائنين ولايحب الظالمين ولايحب الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون .

فلماذا لانطلب مرضاة ربنا بالصدق والإخلاص فى العمل وحب الخير للناس وحسن الانتماء لبلدنا الحبيب فلا نخرب ولا نهدم ولا نحرق ونبعد نهائيا عن عوامل الهدم ونلعن بكل لسان المنافقين والخربين الذين يصنعون العراقيل وينشرون الأراجيف ويتربصون بحاضر مصر ومستقبلها ، ويدورون فى فلك الأعداء ويدعون أنهم الصالحون المصلحون الذين لايريدون إلا خير مصر .. فتراهم فى كل واد يهيمون ومع كل قناة يتحدثون يعجبك قولهم والله يعلم إنهم لكاذبون .

ولضعف إيمانهم وفساد معتقداتهم لا يكرهون شيئا إلا سماعهم لكلمة «مصر الإسلام» مصر الحضارة والتقدم والإيمان، مصر التي ذكرها المولى عزوجل في القرآن، مصر الأزهر والعلماء.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾

(البقرة: ١٠)

وإذا خلوا إلى شياطيهم قالوا بفعالهم ألف مرة نكره كل هذا، تريدها ديمقراطية مدنية لا تعرف شرعا ولادينا، ولا حلالا ولا حراما، إنهم يريدونها «الفوضى الخلاقة» التي يريدها أسيادهم الذين غرسوا في نفوسهم الكره والبغض لكل حرف من كلمة مصر.

لكن الله غالب على أمره. ينصر رسله والذين آمنوا. يحق الحق ويبطل الباطل

وعما قريب ينجلي الأمر كله..

فـــمـــا أول إلا ويتلوه آخـــر

وسيحفظ الله مصر بحفظه ويمدها بجنده ويبارك نهضتها وثورتها ويمنح قائدها العون والتوفيق؛ لأنه مؤمن وحفيظ وعليم ولا نزكي على الله أحدا

ولقد قرأت كلمات أعجبتني وسيطرت على مشاعري للسيد «عبدالله النديم» خطيب الثورة العرابية وهي تعبر فعلا عن الواقع الذي نحياه وتحياه مصر – لقد قال رحمه الله

(لاحول ولاقوة إلا بالله، اشتبه المراقب باللاهي، واستبدل الحلو بالمر، وقدم الرقيق على الحر وبيع الدر بالخزف (الخزف: الفخار) والخز بالخشف (ردئ الصوف) وأظهر كل لئيم كبره إن في ذلك لعبرة – والوشاة إن سعوا لا يعقلوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فكيف تشترون منهم الفار في صورة العنبر، وقد بدت البغضاء من أفواهم وماتخفي صدورهم أكبر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

(القمر: ٤)

فهل نتجاوز المحن ونعلو فوق الشدائد ونقتحم الصعاب ونضع في أفواه هؤلاء الحمقى التراب إن مصر غالية ومكانتها سامية وهي زعمية العالم العربي والإسلامي بحق لايضرها بإذن الله حقد الحاقدين ولا مكر الأفاكين ولن تنال منها مؤامرات الحرق والتخريب والترويع لسبب واحد هو أن الله لايحب الفساد ونقول لأبناء مصر: اتقوا الله في بلدكم. تعاونوا على البر والتقوى، لاتعتدوا على مؤسسات مصر ولا على اقتصادها ولا على الأعين التي تبيت ساهرة لحمايتها وحمايتكم فلا وقت يسمح لتدمير العقول وإزهاق الأرواح والتجارة في السلاح والمخدرات وسرقة منشآت الدولة وقطع الطرق والسوق السوداء.

رب احفظ مصر وأهلها وقيادتها من كل سوء واجعلها يارب بلدا آمنا مطمئنا يأتيها رزقها رغدا من كل مكان وصلى الله على معلم الناس الخير القائل «الجماعة رحمة والفرقة عذاب».

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾

(الدخان: ١٢)

أنبـــاء الأزهـــــر

للأستاذين: محمود الفشني - عبدالموجود أمين

هيئة كبار العلماء

أصدر رئيس جمهورية مصر العربية القرار رقم ٢٤ لسنة ٢٠١٢م بشأن تشكيل هيئة كبار العلماء وفيما يلي نص القرار:

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الإعلان الدستورى الصادر بتاريخ ١٣ / ٢ / ٢٠١١ م، وعلى الإعلان الدستورى الصادر بتاريخ ٣٠ / ٣ / ٢٠١١ م، وعلى القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها المعدل بالمرسوم بقانون رقم ١٣ لسنة ٢٠١٢ م، وبناء على ما عرضه شيخ الأزهر.

وبعد موافقة مجلس الوزراء.

قرر

(المادة الأولى):

تشكل هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف برئاسة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر وعضوية كل من:

- أ.د/ مصطفى عبدالجواد عمران، أستاذ بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين.
- أ.د/ عبدالرحمن عبدالنبي العدوى، أستاذ الفقه المقارن بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- أ.د/ يوسف عبدالله القرضاوى، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- أ.د/ بركات عبدالفتاح دويدار، أستاذ بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة.
- أ.د/ محمد الأحمدى أبوالنور، أستاذ الحديث ووزير الأوقاف الأسبق.
- أ.د/ حسن محمود عبداللطيف الشافعي، أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ورئيس مجمع اللغة العربية.



يوسف القرضاوى — الأحمدى أبو النور — نصر فريد واصل — حمدى زقزوق

- أ.د/ محمد عمارة مصطفى عمارة، المفكر الإسلامى وعضو مجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ عبدالفتاح عبدالله بركة أستاذ العقيدة والأمين العام الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ محمود حمدى محمد زقزوق، أستاذ العقيدة والفلسفة ووزير الأوقاف الأسبق.
- أ.د/ عبدالفتاح حسينى الشيخ، أستاذ أصول الفقه ورئيس جامعة الأزهر الأسبق.
- أ.د/ محمد رأفت عثمان، أستاذ الفقه المقارن وعميد كلية الشريعة والقانون الأسبق.
- د/ إسماعيل عبدالخالق الدفتار، أستاذ الحديث بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ نصر فريد واصل، أستاذ الفقه ومفتى الديار المصرية الأسبق.
- أ.د/ طه مصطفى أبو كريشة، أستاذ اللغة العربية وعضو مجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ محمد محمد أبو موسى، الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.
- أ.د/ القصبى محمود زلط، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين.
- أ.د/ أحمد طه ريان، أستاذ الفقه بكلية الشريعة والقانون.
- أ.د/ محمد المختار محمد المهدى، أستاذ اللغة العربية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية.
- أ.د/ أحمد معبد عبدالكريم، أستاذ الحديث بكلية أصول الدين.
- أ.د/ عبدالمعطى محمد بيومى، أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر.
- أ.د/ أحمد عمر هاشم، أستاذ الحديث ورئيس جامعة الأزهر الأسبق.
- أ.د/ محمد عبدالفضيل محمد عبدالعزيز محمد الحلاوى، أستاذ العقيدة والفلسفة ووزير الأوقاف.
- أ.د/ محمود مهنى محمود إسماعيل، نائب رئيس الجامعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ عبدالله الحسينى أحمد هلال، أستاذ اللغة العربية ورئيس جامعة الأزهر ووزير الأوقاف السابق.
- الأستاذ الشيخ/ محمد محمد عبدالرحمن الراوى، أستاذ التفسير وعضو مجمع البحوث الإسلامية.
- أ.د/ على جمعة محمد، أستاذ أصول الفقه ومفتى الديار المصرية.



أحمد عمر هاشم — على جمعة — طه أبو كريشة — محمد رأفت عثمان

(المادة الثانية):

ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية ويعمل به اعتباراً من اليوم التالى لتاريخ نشره.

صدر برئاسة الجمهورية فى ٢٧ شعبان سنة ١٤٣٣هـ

الموافق ١٧ يوليه سنة ٢٠١٢م.

محمد مرسى

الاجتماع الأول لهيئة كبار العلماء

عقد صباح يوم الأربعاء ١٨ من شهر شوال عام ١٤٣٣هـ الموافق الخامس من سبتمبر عام ٢٠١٢م، أول اجتماع لهيئة كبار علماء الأزهر الشريف فى إطارها القانونى وتشكيلها الجديد الذى يعيد الأوضاع فى الأزهر الشريف إلى ما كانت عليه، وذلك فى ضوء تعديل قانون الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م.

وبعد مناقشات طويلة معمقة تناولت ما حدده القانون بشأن تشكيل الهيئة ومهامها القانونية وحول مبدأ الاستقلال التام للأزهر؛ حتى يؤدى بكفاءة دوره فى المجالات الثلاثة التى عرف بها ونهض بأعبائها منذ أكثر من ألف عام، وهى مجال الوطنية المصرية ومجال الأمة العربية والإسلامية، ثم مجال الدعوة العالمية الإنسانية.

والأزهر إذ بدأ ينطلق - بحمد الله - منذ ما يقرب من عامين فى هذه الدوائر والمجالات الثلاثة بفاعلية عالية، كما عهدت الأمة من أئمته وشيوخه طوال هذه القرون، وبما يبشر بمستقبل زاهر - إن شاء الله - فقد ناقش فى هذه الجلسة توزيع العمل بين الهيئة الموقرة وبين مجمع البحوث الإسلامية، وطرق استكمال العضوية وسير العمل فيهما.

ثم ناقشت الهيئة ما ينصح به الأزهر بشأن المادة الثانية فى الدستور الجديد المقترح، والمادتين المستحدثتين برقم ٣و٤ فى هذا الدستور، بشأن استقلال الأزهر الشريف باعتباره أحد المقومات الأساسية للمجتمع والدولة المصرية.

وتؤيد هيئة كبار العلماء بقاء المادة الثانية فى الدستور المقترح كما هى فى دستور ١٩٧١م

دون زيادة أو نقص، إضافة إلى المادة المستحدثة الخاصة بتقرير استقلال الأزهر الشريف أن "رأى هيئة كبار العلماء هو الفيصل عند الاختلاف فى كل ما يتعلق بالشريعة الإسلامية" وقد استظهرت الهيئة أن مبادئ الشريعة الإسلامية تشمل أدلتها الكلية، وقواعدها الفقهية والأصولية المعتبرة فى مذاهب أهل السنة والجماعة.

وكذا المادة التى تقرر أن "للمصريين المسيحيين واليهود التحاكم إلى مبادئ شرائعهم فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية، وشعائرهم الدينية، واختيار قياداتهم الروحية" وستواصل الهيئة الموقرة المهام الموكلة إليها فيما يتعلق بخدمة الأزهر، والأمة الإسلامية والإنسانية كافة.

وقد أعلن المجتمعون ثقتهم الكاملة فى فضيلة الإمام الأكبر شيخًا للأزهر الشريف ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، كما تتوجه الهيئة إلى السيد رئيس الجمهورية بالشكر والتقدير بتفضله بالحضور فى الملتقى الأول للهيئة فى السابع عشر من شهر رمضان المبارك أعاده الله على مصر والعالمين العربى والإسلامى بالخير واليمن والبركات.

أ.د. أحمد محمد الطيب

شيخ الأزهر الشريف

رئيس هيئة كبار العلماء

الإمام الأكبر: الأزهر على استعداد لتقديم المنح الدراسية لمسلمى أمريكا اللاتينية



شارك فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، فى حفل تأهيل عدد ١٧ من المسلمين الجدد من أمريكا اللاتينية، الذى نظمته جمعية سفراء الهداية وجمعية تبليغ الإسلام بالإسكندرية، بالاشتراك مع الرابطة العالمية لخريجى الأزهر والتى استمرت ثلاثة أشهر وذلك لتعريفهم بالإسلام ووسطيته، وتم رفع مستواهم فى اللغة العربية، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم.

وأكد فضيلة الإمام الأكبر الاستعداد التام للأزهر الشريف لتقديم بعض المنح الدراسية لهم لمواصلة الدراسة بالأزهر الشريف، ودعم هذا الجهود المشرف من الجمعيات.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الأزهر يساهم فى نهضة موريتانيا



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، السفير أحمد فاضل يعقوب، سفير مصر المعيّن لدى جمهورية موريتانيا الإسلامية.

وقد تناول اللقاء مناقشة وسائل تدعيم أواصر العلاقات بين الأزهر الشريف وجمهورية موريتانيا الإسلامية حكومةً وشعبًا، فى مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية والدينية والصحية، ودور الأزهر الشريف فى التنمية الاجتماعية والصحية التى تشهدها موريتانيا.

وأبدى فضيلة الإمام الأكبر استعداد الأزهر لزيادة عدد المنح الدراسية المقدّمة لطلاب موريتانيا للدراسة بالأزهر إلى (١٥) منحة للدراسة بالكليات العملية كالطب والصيدلة والهندسة؛ حتى يتمكنوا من المشاركة الإيجابية فى نهضة موريتانيا الشقيقة.

كما وافق فضيلته على استضافة بعض علماء موريتانيا لإلقاء محاضرات فى الأزهر الشريف؛ انطلاقًا من مكانتهم العلمية، وتقديرًا لمستواهم العلمى والفكرى الرفيع.

كما أبدى فضيلته استعداده من حيث المبدأ لزيارة موريتانيا، وذلك فى إطار جولته العربية المرتقبة، والتى ستشمل بعض الدول العربية والإفريقية.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر: الأزهر لا ينسى أبناءه

شهد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الاحتفال بتكريم أوائل الشهادات الأزهرية "الابتدائية، الإعدادية، الثانوية، البعوث، القراءات" دفعة ٢٠١٠-٢٠١١م.

وقال فضيلة الإمام الأكبر فى الاحتفال: إن الأزهر لا يدّخر وسعًا فى تكريم أبنائه الطلاب المتفوقين، ونسعى دائمًا لأن نشاركهم فرحتهم لتفوقهم، وإن كانت الفرحة اليوم قد تأخرت عامًا كاملًا؛ نظرًا للظروف التى مرّت بها مصر العام الماضى، إلا أن الأزهر لا يمكن أن ينسى أبناءه المتفوقين، مطالبًا الطلاب بمواصلة التفوق؛ لأنّ تفوقهم سيُسهم فى نهضة مصر والأمة.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر يناشد الدول العربية والإسلامية

دعم الصمود الفلسطيني في مواجهة المخططات الصهيونية



شدَّد فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيِّب، شيخ الأزهر الشريف، على أهمية التضامن بين جميع الفصائل الفلسطينية، وإنهاء جميع مظاهر الانقسام بين الإخوة الفلسطينيين، وإعلاء المصلحة العليا للشعب الفلسطيني على المصالح الحزبية الضيِّقة؛ حتى يكونوا صفًا واحدًا في مواجهة مخططات الكيان الصهيوني، الذي يُضمر شرًا للجميع دون استثناء، كما طالب فضيلته جميع الدول العربية والإسلامية مساعدة ودعم صمود الشعب الفلسطيني الشقيق في نضاله؛ حتى تحرير أرضه والمقدَّسات الإسلامية والمسيحية التي ينتهكها الكيان الصهيوني.

جاء ذلك خلال استقبال فضيلته لمعالي السفير د. بركات الفرا، سفير فلسطين بالقاهرة والمندوب الدائم لفلسطين لدى جامعة الدول العربية، والوفد المرافق لسيادته، وقد تناول اللقاء بحث المستجدَّات على الساحة الفلسطينية، وفي مقدمتها مشكلة القدس والمسجد الأقصى المبارك؛ حيث أوضح سيادته خطورة مخططات الكيان الصهيوني لتهويد القدس، وما يُحاك ضد المسجد الأقصى من مخاطر على غرار ما حدث بالحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل؛ حينما اقتطع الصهاينة جزءًا كبيرًا من باحاته لإقامة الشعائر اليهودية فيه، وحرمُوا المسلمين من الدخول إلى هذا المكان وإقامة الصلاة فيه.

كما تناول اللقاء قبول الطلاب الفلسطينيين خريجي المعاهد الأزهرية الفلسطينية بجامعة الأزهر، ودراسة تخفيف أعباء الرسوم الدراسية المقرَّرة عليهم، مع زيادة المنح الدراسية للطلاب الدارسين بالأزهر وتقديمها من خلال السفارة الفلسطينية بالقاهرة؛ باعتبارها الممثِّل الرسمي لدولة فلسطين الشقيقة بالقاهرة.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر لدعاة الأمة:

انشروا الوعي الصحي في الناس وتصدوا لدعوات تحريم التطعيم



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، د. علاء الدين العلوان، المدير الإقليمي للشرق الأوسط لمنظمة الصحة العالمية، وقد تناول اللقاء سبل التعاون بين منظمة الصحة العالمية، والأزهر الشريف، في مجال التوعية الصحية والبعد الديني، خصوصًا في مكافحة الأمراض، بما في ذلك استئصال مرض شلل الأطفال والوقاية من الأمراض غير السارية مثل أمراض: القلب والسرطان والسكري، وأمراض الرئة المزمنة التي تنتج عند التعرض لعوامل ومخاطر مثل: التدخين والأنماط الغذائية غير الصحية، وفرط الوزن والسمنة، وقلة النشاط الإيجابي.

ومن جانبه أكَّد فضيلة الإمام الأكبر على حرص الإسلام على جلب المصلحة ودرء المفسدة، وأنَّ ذلك ينطبق على مقاومة مرض شلل الأطفال، خصوصًا وأنه أصبح معلومًا وبشكل علمي ويقيني أن اللقاح ضد شلل الأطفال يمثِّل الوسيلة المثلى للوقاية من هذا المرض، فضلاً عن أنها وسيلة ذات جدوى اقتصادية عالية؛ لأنها من جهة قليلة التكاليف، ومن جهة أخرى تقي أبناء الأمة من الإصابات التي يمكن أن تنجم عن هذا المرض.

وناشد فضيلته علماء الأمة ضرورة دعم حملات التوعية ضد مرض شلل الأطفال، ونشر الوعي السليم بخصوص مقاومة الأمراض وعلاجها، وضرورة التصدِّي لبعض الفتاوى التي ظهرت في الآونة الأخيرة والتي تحرم التطعيم ضد مرض شلل الأطفال في دول شرق آسيا وغيرها من الدول؛ حيث إنَّ هذا المرض يُمثِّل خطورة كبيرة؛ لأنه يُعرِّض الأطفال للموت أو الشلل في بعض الأطراف.

وقد أشاد المدير الإقليمي للمنظمة بدور الأزهر الشريف بقيادة إمامه الأكبر في الحث على تكثيف حملة التطعيم ضد مرض شلل الأطفال، بغرض استئصال هذا المرض؛ حيث تم إحراز تقدم كبير في سبيل محاربة هذا المرض على الصعيد العالمي باستثناء ثلاثة دول وهي للأسف تنتمي جميعها للعالم الإسلامي وهي: (أفغانستان، وباكستان، ونيجيريا)، كما أبدى الدكتور العلوان أسفه من بعض الآراء التي تنسب زورًا إلى الدين الإسلامي وتدعو إلى عدم التطعيم.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر.. يشيد بالدور المتميز للكويت في خدمة القضايا العربية والإسلامية



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، معالي السفير رشيد الحمد، سفير الكويت بالقاهرة، وبصحبته الأستاذ إسماعيل الكندري، رئيس المكتب الكويتي للمشروعات الخيرية بمصر، وقد تناول اللقاء بحث تدعيم أواصر العلاقات بين الأزهر الشريف ودولة الكويت الشقيقة في المجالات الدينية والثقافية والفكرية والاجتماعية، بما يخدم مصالح الشعبين الشقيقين، والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ.

ومن جانبه قدم فضيلة الإمام الأكبر الشكر لدولة الكويت الشقيقة على مساهمتها الفعالة في المشروعات الخيرية التي تقدمها لمصر، والتي تعد نموذجا طيبا للأخوة الصادقة بين الشعوب العربية في تكاتفها وتعاونها؛ بما يجعلها كمثل الجسد الواحد.

وقد جدد معالي السفير الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة دولة الكويت الشقيقة، وقد وعد فضيلة الإمام الأكبر بتلبيتها في الوقت المناسب؛ تقديرا لدولة الكويت؛ ولدورها المتميز على الساحة العربية والإسلامية والدولية.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر في ماليزيا لاستلام الدكتوراه الفخرية



استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، د. محمد فخر الدين بن عبد المعطي سفير ماليزيا، بمناسبة انتهاء فترة عمله بالقاهرة، وقد تناول اللقاء زيارة فضيلة الإمام الأكبر إلى ماليزيا، والمحدد لها شهر أكتوبر القادم، بدعوة رسمية من

رئيس الوزراء السيد داتو سري محمد نجيب عبد الرازق؛ لاستلام فضيلة الإمام الأكبر الدكتوراة الفخرية من جامعة ملايو بماليزيا.

كما تناول اللقاء إنشاء المدينة السكنية المقرر إقامتها بتمويل ماليزي؛ كمساهمة من الدولة الماليزية لإسكان طلابها في رحاب الأزهر الشريف.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

أبواب الأزهر مفتوحة لطلاب العلم لينهلوا من علومه



كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، السفير طارق أبو سنة، سفير مصر بأذربيجان، وقد تناول اللقاء بحث سبل تدعيم أواصر العلاقات بين الأزهر الشريف ودولة أذربيجان في المجالات الدينية والتعليمية والثقافية.

وأوضح فضيلة الإمام الأكبر جهود الأزهر الشريف في استضافته لطلاب الدول المختلفة في رحابه، ورعايتهم علميا وثقافيا وفكريا واجتماعيا وصحيا، بما فيهم طلاب جمهورية أذربيجان، للدراسة بمعاهد البعوث وجامعة الأزهر الشريف؛ لتأهيلهم ليكونوا مشاعل هدى ونهضة لبلادهم فور تخرجهم.

وأعرب فضيلة الإمام الأكبر عن استعداد الأزهر الشريف لتلبية احتياجات دولة أذربيجان من الدعاة والمبعوثين، وأن أبواب الأزهر مفتوحة لكل طالب علم لينهل من علومه ووسطيته واعتداله.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر يؤكد على الحفاظ على استقرار أوضاع جميع العاملين بالأزهر

أصدر فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، توجيهاته للجهات المختصة بالأزهر الشريف بمتابعة كافة القرارات التي تصدر في وزارة التربية والتعليم، وتعطي ميزات للمعلمين بالوزارة؛ لإقرارها على معلمي الأزهر الشريف.

من ناحية أخرى فقد صرح أ. إبراهيم صادق رئيس قطاع مكتب شيخ الأزهر بأنه جاري التنسيق بين الأزهر الشريف والجهاز المركزي للتنظيم والإدارة، لتقنين أوضاع المتعاقدين

بالحصة الذين ينطبق عليهم قانون الكادر ١٥٦، وجارى النظر فى استحداث وظائف لغير المتخصصين فى التعليم الذين لا ينطبق عليهم هذا القانون، والأزهر الشريف فى انتظار موافقة الجهاز على الوظائف المقترحة، ويجرى حاليا التنسيق مع وزارة المالية لتعزيز البند المالى للعاملين بالحصة، فى محاولة لزيادته لصالح المتعاقدين بالحصة.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر لوكيل لجنة الصحة بمجلس الشورى:

هدفنا توفير كافة السبل لتحصيل العلم


د. حامد الدالى

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، د. حامد محمد الدالى، وكيل لجنة الصحة بمجلس الشورى، حيث ناقش مع فضيلة الإمام الأكبر إمكانية إصدار قرار من الإمام الأكبر بتشغيل كلية الدراسات العربية والإسلامية للبنات بمدينة بورسعيد؛ حتى تكون قائمة بذاتها.

كما تناول اللقاء مناقشة الضوابط الجديدة التى وضعها المجلس الأعلى للأزهر والخاصة ببناء المعاهد الأزهرية الجديدة، وقد وعد فضيلة الإمام الأكبر بدراسة تلك الأمور بما يحقق الصالح العام للأزهر الشريف وطلابه، مؤكداً أن هدفنا هو توفير كافة السُّبل لتحصيل العلم وتذليل كافة العقبات للطلاب والمدرسين.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر

الإمام الأكبر يكرم الطلاب الوافدين الفائزين فى مسابقة القرآن الكريم

قام فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - بتكريم الطلاب الوافدين الفائزين فى مسابقة القرآن الكريم التى نظَّمتها الرابطة العالمية لخريجى الأزهر.

وقال أسامة ياسين - نائب رئيس الرابطة -: إنَّ عدد الطلاب الفائزين فى المستوى الأول - القرآن كاملاً بلغ ١٤ طالباً، وفى المستوى الثانى ثلاثة أرباع القرآن ١٠ طلاب، وفى المستوى الثالث نصف القرآن ١٠ طلاب، وفى المستوى الرابع ربع القرآن ٥ طلاب، وفى الترتيل ٥ طلاب.

صرح بذلك الدكتور محمد جميعة مدير عام الإعلام بالأزهر.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

١٠ آلاف توقيع، مسلم، أمريكى.. لوقف مذابح بورما



قام الدكتور إبراهيم نجم - مستشار فضيلة مفتى الجمهورية- بجمع ما يزيد على عشرة آلاف توقيع من الجالية الإسلامية بنيويورك لتقديمها للأمين العام للأمم المتحدة (بان كى مون) وللخارجية الأمريكية بهدف الضغط الشعبى والدبلوماسى على حكومة ميانمار لوقف المذابح ضد مسلمى بورما.

جاء ذلك عقب صلاة العيد التى أمها د. نجم فى ولاية نيويورك- بالجالية الإسلامية هناك ودارت خطبة العيد حول أهمية العمل لصالح الأمة الإسلامية ورفعتها ووحدتها وقضاياها مؤكداً أن الجالية الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك من الإمكانيات والقدرات الكبيرة ما يؤهلها أن يكون لها دور مؤثر فى دعم القضايا الإسلامية العادلة موضحاً أن المجازر التى يتعرض لها مسلمو بورما عار على جبين الإنسانية كلها مؤكدا أن السكوت على هذه المجازر جريمة فى حق الإنسانية والمسلمين على وجه الخصوص.



وحث د. نجم الجالية الإسلامية فى نيويورك على جمع حملة توقيعات لوقف هذه المأساة الإنسانية بهدف زيادة الضغط الشعبى والدبلوماسى على حكومة ميانمار التى تمارس أبشع أنواع الجرائم ضد مواطنيها المسلمين.

وفور الانتهاء من خطبة العيد استجاب عدد كبير من المصلين لهذه الحملة ومن المقرر أن تصل التوقيعات إلى مكتب الأمين العام للأمم المتحدة والخارجية الأمريكية وفى وقت قريب.

الجدير بالذكر أن فضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة أوفد الدكتور نجم لإحياء شهر رمضان فى الولايات المتحدة الأمريكية.

البوذيون يتظاهرون لطرد المسلمين من ميانمار

نظام مئات الرهبان البوذيين فى ميانمار مسيرة للمطالبة بطرد أقلية «الروهينجا» المسلمة من البلاد، مؤكدين دعمهم لموقف الحكومة فى «ناى بى تاو» فى هذا الشأن، وسارت طوابير طويلة من الرهبان بأثوابهم الحمراء التقليدية فى شوارع «ماندالاى» فى وسط البلاد، وانضم إليهم آلاف المواطنين المؤيدين لطروحاتهم، ورددوا جميعا شعارات تؤكد أن أقلية الروهينجا ليسوا جزءا من هذا البلد، فى حين أطلق آخرون هتافات مناهضة للمبعوث للأمم المتحدة توماس أوجيا كوينتانا الذى يتهمه المتظاهرون بالانحياز للمسلمين.

وكان الرئيس البورمى قد أكد أنه من المستحيل القبول بالروهينجا، طارحا فكرة ترحيلهم أو تجميعهم فى مخيمات تديرها الأمم المتحدة.

حفريات إسرائيلية واسعة بالمسجد الأقصى وإصابة ٥ فلسطينيين على يد مستوطنين

أعلنت مؤسسة الأقصى للوقف والتراث أن الاحتلال الإسرائيلى ممثلا بما يسمى «سلطة الآثار الإسرائيلية» و«جمعية إلعاد» الاستيطانية و«سلطة الحدائق والطبيعة» شرع خلال الأيام الماضية فى حفريات واسعة فى منطقة قصور الخلافة الأموية جنوب المسجد الأقصى وتحديدا فى الزاوية الشرقية الجنوبية.

وأضافت المؤسسة فى بيان لها أنه خلال زيارة ميدانية لطاقمها الإعلامى شوهد عشرات الحفارات والحفارين من الإسرائيليين والأجانب يقومون بحفريات واسعة فى منطقة القصور



الأموية، تشمل الأرضيات والجدران، ويتم تفريغ المنطقة من الأتربة والحجارة ثم توضع فى أكياس كبيرة، تنقل فيما بعد إلى أماكن مجهولة ليلا.

وميدانيا، أصيب خمسة فلسطينيين بجروح مختلفة بعد رشق الحافلة التى كانوا يستقلونها بالحجارة من قبل مستوطنين على طريق نابلس - رام الله وسط الضفة الغربية، وذكرت مصادر فلسطينية أن طريق رام الله شهد تجمع عشرات المستوطنين على الطريق وإلقاء الحجارة على المركبات الفلسطينية، الأمر الذى أدى إلى تحطيم عشرات المركبات الفلسطينية، وأن الإغلاق استمر لأكثر من ساعة وتم فتحه بعد تدخل جنود الاحتلال الإسرائيلى وإجبار المستوطنين على مغادرة المكان وفى سياق متصل، أفاد مصدر أمنى فلسطينى، لوكالة «وفا» بأن قوة من جيش الاحتلال اقتحمت قرية بتير بمدينة بيت لحم بالضفة الغربية وداهمت عددا من المنازل وفتشتها بشكل دقيق ثم اعتقلت فلسطينيين اثنين.

مفتى موريتانيا يدعو لتشكيل هيئة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

دعا مفتى موريتانيا وكبير الأئمة أحمد ولد لمرابط ولد حبيب الرحمن إلى تشكيل هيئة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقال ولد لمرابط «إن إنشاء هذه الهيئة أولى وأجدر من إنشاء المجلس الأعلى للإفتاء ورفع المظالم».

وكانت الحكومة الموريتانية قد أنشأت مؤخرا مجلسا أعلى للإفتاء ورفع المظالم.

وأضاف أنه سبق وأن طالب بتشكيل هيئة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مؤكداً أنه ما

يزال يطالب بها.

وأشار إلى أنها هيئة لها سلطة قد خولت لها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب على أيدى المفسدين، مؤكداً أن «العناية بها من الضرورة بمكان وهى أولى وأجدر بأن تنشأ من هيئة الإفتاء دون التقليل من هيئة الإفتاء وإنما لأن هنالك كثير من العلماء يقومون بالإفتاء»، وفق تعبيره.

بوتين: المجتمع الإسلامى الروس يشهد صحوة حقيقية

هنأ الرئيس الروسى فلاديمير بوتين مسلمى روسيا بمناسبة حلول عيد الفطر مشيرا إلى أن هذا العيد يدعو الناس إلى كل ما هو سام من الأخلاق.

وذكرت صحيفة «روسيسكايا جازيتا» الروسية أنه جاء فى برقية التهنئة أن المجتمع الإسلامى الروسى يشهد صحوة حقيقية اليوم وإن روسيا تشهد تشييد المزيد من المساجد ومؤسسات التعليم الإسلامى.

ومن جهة أخرى أشارت صحيفة «ازفستيا» الروسية أن الإدارة الدينية لمسلمى موسكو تقدمت لسلطات العاصمة بطلب لبناء مسجد كبير ضمن الحدود الإدارية لمدينة موسكو وترى الصحيفة أن هذه الخطوة تعنى تخلى الإدارة الدينية عن مطالبها السابقة بإقامة عدد من المساجد موزعة فى أحياء المدينة لصالح بناء مسجد ضخم يتسع لعدد كبير من المصلين.

وقالت الصحيفة: بما أن الطرفين اتفقا من حيث المبدأ يبقى عليهما الاتفاق بشأن الموقع حيث تشترط الإدارة الدينية أن يكون الجامع العتيد وسط المدينة وعلى مقربة من إحدى محطات المترو ليسهل الوصول إليه لكن سلطات العاصمة تخشى من معارضة الموسكويين.

وتعليقا على هذه القضية التى لا تزال تنتظر حلا منذ سنوات يقول ممثل المجمع الكنسى فى بطريركية موسكو: لا جدال فى أن ثمة حاجة حقيقية وملحة لبناء مسجد كبير لكن المواقع التى تقترحها الإدارة الدينية من شأنها أن تثير مشاكل نحن فى غنى عنها.

..وروسيا تدين اغتيال داعية إسلامى فى داغستان

ذكرت صحيفة (نيزافيسيمايا جازيتا) أن الداعية الإسلامى الراحل الشيخ سعيد أفندى الذى لقى مصرعه فى تفجير انتحارى بداغستان تمكن من إرساء علاقات بناءة مع أركان الدولة والسلطة وكان له تأثير قوى على أعضاء الإدارة الدينية لمسلمى داغستان.. واصفة جريمة اغتياله بأنها «محاولة من المتطرفين لمنع التقارب بين مختلف الجماعات الدينية والقومية».

وأضافت الصحيفة أن الشيخ سعيد أفندى كان من أشهر رجال الدين بشمال القوقاز وكان له ٢٥ ألفا من المريدين على الطريقتين النقشبندية والشاذلية.. لافتة إلى المساعى التى بذلها فى شهر مارس الماضى حين عقد اجتماعا بين الصوفيين والسلفيين الممثلين فى رابطة علماء (أهل السنة) المعترف بها رسميا وتوافق الجانبان آنذاك حول جملة من القضايا مما بعث الأمل

بوقف المواجهات الدامية المستمرة فى الجمهورية منذ عقدين.

وكان الشيخ سعيد أفندى قد لقى مصرعه مع ستة من طلابه إثر قيام انتحارية بتفجير لغم كان بحوزتها داخل منزله بمنطقة شيركى فى الجمهورية التابعة للاتحاد الفدرالى الروسى بعد أن ادعت أنها إحدى طالباته لتتمكن من دخول المنزل والاقتراب منه.

الخبراء العرب يدينون العمل الإرهابى ضد الجنود المصريين برفح

أدان السفير أشرف محسن رئيس فريق الخبراء العرب المعنى بمكافحة الإرهاب الحادث الإرهابى الذى تعرضت له قوة حرس الحدود المصرية برفح فى الشهر الماضى.

أشار إلى أن الخبراء فى اجتماعهم بمقر الجامعة العربية أكدوا دعمهم لمصر وللحكومة المصرية لبسط سيادتها ونفوذها على كافة أراضيها وحقها فى اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة للحفاظ على أمن مواطنيها وأراضيها.

وأكد محسن نجاح الدول العربية فى وضع بصمتها فى الأمم المتحدة من خلال الاستراتيجية الدولية لمكافحة الإرهاب وفى منع صدور اتفاقيات دولية كانت ستضر بصورة العرب والمسلمين، مشيراً إلى ضرورة استمرار التنسيق والتواصل العربى فى مجال مكافحة الإرهاب والحفاظ على المصالح العربية والإسلامية فى الأمم المتحدة وكافة المحافل التى تعمل فى مجال مكافحة الإرهاب.

صحيفة أمريكية تتساءل عن سر السكوت عن السلاح النووى الإسرائيلى

تساءلت صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية عن السبب الكامن وراء رصد الصحف لكافة تطورات البرنامج النووى الإيرانى، فى حين لا توجد أى تقارير دقيقة عن القدرات النووية الإسرائيلية.

وأوضحت الصحيفة الأمريكية على موقعها الإلكترونى أن الأسباب الكامنة وراء ذلك تتمثل فى أن إسرائيل ترفض الاعتراف علنا بامتلاكها أسلحة نووية - كما ترفض الإدارة الأمريكية الاعتراف بوجود مثل هذا البرنامج - مشيرة إلى أن موقف إسرائيل الرسمى - كما أكد المتحدث باسم السفارة الإسرائيلية فى واشنطن، هو أن «إسرائيل لن تكون أول دولة تدخل السلاح النووى إلى الشرق الأوسط. فإسرائيل تدعم أن تكون منطقة الشرق الأوسط خالية من كافة أسلحة الدمار الشامل، عقب إرساء السلام بداخلها».

ولفتت الصحيفة إلى أن الرئيس الأمريكى الأسبق جون كينيدى حاول وبقوة منع إسرائيل من امتلاك سلاح نووى، إلا أن الجهد المبذول من قبل خلفائه كان أقل، ومنذ أن تم التوصل إلى اتفاق، لم يتم الضغط على إسرائيل للكشف عن قدراتها النووية والتوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، وفى المقابل، وافقت إسرائيل على عدم الاعتراف علنا بامتلاكها أسلحة نووية.

which preserves the rights of the nation without harming them with permitting prohibited matters.[3]

Allah made all the natural phenomena submit to the human being. Also, He willed to make compromise between the human powers and the natural powers. He is like a brother to nature, everyone of them submits to the other, the matter which makes the freedom of the human being the freedom of the responsible creature. It is the freedom of someone who is asked about what he does not have who is completely not like the one who does whatever he wants.

Thus, Islam came to:

{Releases them from their heavy burdens (of Allâh's Covenant with the Children of Israel), and from the fetters (bindings) that were upon them.}

[Al-A`raf 157]

This is to destroy the bonds which prevent the human being from achieving his desires of freedom. Islam started with setting a value for freedom in practicing and applying, when it liberating the human being from the cuffs of the pre-Islamic era and its oppression and darkness. It reformulated the human being in an Islamic way that liberated his abilities and faculties until he becomes great although he is in fact small.

The unique Qur'anic generation was educated and brought up in Dar Al-Arqam ibn Abu Al-Arqam, which was one of the first establishment set up by Islam to reformulate this human being. It created the curricula of freedom and liberation, putting education before politics and the nation before the state because origins precede the branches.

[3] Al-Ustaz Magazine – 19th issue, p. 439, Cairo, 8th of Jumada Al-Thaniyyah 1310 corresponding to 27 December 1892 A.D.

هامبورج تعترف بحقوق الجالية الإسلامية

أعلنت بلدية مدينة هامبورج الألمانية أنها توصلت مع الجالية الإسلامية إلى اتفاقية توسع دائرة اعترافها بحقوق الجالية الدينية بمنح أفرادها أجازات رسمية في أعيادهم وتحسين دروس تعليم الدين الإسلامي في المدارس والإقرار بحقوقهم في دفن موتاهم بمقتضى أحكام الشريعة.. ووفقا لما ذكرته مجلة «دير شبيجل» الأسبوعية الألمانية. فإن الاتفاقية التي تعد الأولى من نوعها في ألمانيا مازالت تحتاج لموافقة برلمان المدينة عليها من أجل أن تصبح قابلة للتطبيق وتتيح لأبناء الجالية الإسلامية في هامبورج حق الحصول على أجازة بأجر في الأعياد، ومن لا يرغب في التمتع بها يحق له التعويض عنها في أيام أخرى، كما تقوى فرص تحسين دورات تعلم الدروس الدينية في المدارس.

«محمد» الاسم الأكثر انتشارا في بريطانيا وويلز للعام الخامس

احتل اسم محمد مقدمة الأسماء الأكثر استخداما للأطفال في إنجلترا وويلز، للعام الخامس على التوالي، بعدما أظهرت إحصائية رسمية أنه الاسم الأكثر شيوعا بين مواليد العام الماضي تلاه اسم هاري.

وقال مكتب الإحصاء الوطني البريطاني، في بيانات نشرها في شوال الماضي إن «هاري» هو الاسم الأكثر انتشارا بين الأولاد للعام ٢٠١١، ومع اعتبار اختلاف طرق الهجاء الخمس لاسم «محمد» بالحروف اللاتينية فإنه يصبح الاسم الأكثر شيوعاً.

ويشار إلى أن «محمد» هو الاسم الوحيد الذي حافظ على مكانته المتقدمة ضمن لائحة الأسماء الأكثر استخداماً للمواليد ببريطانيا وويلز منذ عام ٢٠٠٧.

ولأول مرة، احتل اسم «محمد» المرتبة الأولى في ٢٠٠٩، واسم «أوليفر» في العام التالي. وبحسب بيانات «مكتب الإحصاء الوطني» للعام الماضي، جاء «هاري» الاسم الأكثر انتشارا بين الأولاد من المواليد، حيث تكرر ٧٥٢٣ مرة، يليه «أوليفر» الذي تكرر ٧٠٠٧ مرة، بينما محمد تكرر ٦٩٤٥ مرة ليحتل الترتيب الثالث.

وجاء ترتيب اسم محمد مقسما على ثلاث مراتب حيث تختلف طريقة الهجاء بالحروف اللاتينية. ويتوقع أن يزداد اسم محمد انتشاراً خلال العام الحالي تيمناً بالعداء، «محمد» فرح، الذي منح بريطانيا ميداليتين ذهبيتين في سباق المسافات الطويلة في أولمبياد لندن، بجانب توقعات بتضاعف أعداد الجالية المسلمة في بريطانيا خلال العقدين المقبلين.

وتقول إحصائية حديثة إن نسبة المسلمين ببريطانيا نمت من ٢ في المائة عام ١٩٩٠ إلى ٤,٦ بالمائة في ٢٠١٠، ويتوقع أن تصل النسبة إلى ٨ في المائة بحلول ٢٠٣٠.

{There is no compulsion in religion. Verily, the Right Path has become distinct from the wrong path. Whoever disbelieves in Tâghût and believes in Allâh, then he has grasped the most trustworthy handhold that will never break. And Allâh is All-Hearer, All-Knower.}

[Al-Baqarah [the Cow): 256]

{'He said: "O my people! Tell me, if I have a clear proof from my Lord, and a Mercy (Prophethood) has come to me from Him, but that (Mercy) has been obscured from your sight. Shall we compel you to accept it (Islâmic Monotheism) when you have a strong hatred for it?}

[Hud: 28]

{'And had your Lord willed, those on earth would have believed, all of them together. So, will you (O Muhammad peace be upon him) then compel mankind, until they become believers.}

[Yunus: 99]

Allah willed for the people guidance and faith, but he gave this along with this divine will choice. Thus, Islam supports freedom in all fields.

If the testimony of faith is the essence of religiousness, it is a revolution to liberate the human being from the slavery of worshipping idols. It is to dedicate worship to Allah Alone, which is regarded as the essence of liberating the human being from worshipping other than Allah. It is worshipping Allah Who is free from materialism. Thus, it liberates the human being from worshipping the material idols, which steal their resolution, choice, and freedom.

When Islam calls the people not to squander their properties by refining the desires and to be limited to benefiting from them not merely possessing, it achieves a great achievement on the way of liberating the human being and to be freed from being enslaved to the possessed things.

The human being has a remarkable trend with regard to human freedom, its scope and limits, the human being is Allah's successor on earth. Thus, his freedom is that of the successor not that of the master of this universe. He is a master in this universe, but not the master of this universe. In the words Imam Muhammad Abdu[1266-1323 A.H. / 1849-1905 A.D.]: "The human being is the Slave of Allah only, and master of anything other than Him."

Also, he is free within the scope of the external factors and circumstances, which are not made by him and which he can not change or amend. Also, he is free within the scope of his desires and trends, which may not be always for the sake of his freedom.

Also, he is the free successor within the scope of the firmly established facts of the Shari'ah, which is the contract of succession. The freedom of the human being, who is Allah's successor is not the liberal western freedom, which claimed that he is the master of this universe and that his personal freedom does not submit to any limits. When this concept, which is based on dissipation and not interference in the affairs of others came to our Islamic countries in the nineteenth, the Muslim scholars criticized it extremely. Abdullah Al-Nadim [1216-1313 A.H. / 1845-1896 A.D.] said:

If we say that freedom entails the non interference in others' affairs, we say that freedom is claiming for rights and abiding by the limits. We hear about things which take us to bestiality and getting out of human limits. If these things are appropriate in Europe, we can say that every nation has its religious and environmental customs. This dissipation does not suit the morals of Muslims or their religious rules and customs. Real law is that

[Al-An`am (the cattle)123]

When a person embraces Islam, he is freed from the slavery of worshipping idols and achieves the freedom which establishes the meaning of life and its reality. Thus, the testimony of faith is the title of freedom, as it frees the person from worshipping the idols. Thus, dedicating worship to Allah Alone.

The words of Imam Al-Nasafy saying: "slavery is an effect of disbelief" draws our attention to the practical stance adopted by the Islam since its emergence towards slavery.

Islam emerged in the Arabian Peninsula and the area behind it – while slavery was a well-established and very harsh system. Also, it is regarded as an economic and social pillar for the world at that time. If we look at the background and circumstances that accompanied the emergence of Islam, we find slavery which spread at that time along with the wars, continuous invasions, dire poverty, inability to pay the debt, slave markets which were full of slaves and represent a source of investing.

These were the basic and distinguishable marks of all of the societies. We may say that slaves were the international currency for the economy, to the extent that it caused the Roman and Persian Empires – the Supreme Powers at that time – to make all of the peoples of the world to slaves.

When Islam emerged and its state was established in Al-Madinah Al-Munawwarah, it prohibited and cancelled slavery, as it caused the people to like freeing the slaves and made it one of the recipients of obligatory charity. Thus, many Kaffarahs (expiation) were freeing slaves.

When Islam called for equality between slaves and masters in food, drink, and clothing and called for treating the slaves kindly and not burdening

them with many tasks, slavery became a burden and the rich did not like to buy slaves.

The stance of Islam towards freedom and its enmity to slavery are not merely intellectual and theoretical stances. Rather, they embody comprehensive revolutionary and reforming experience, which changed the society in which these changes appeared. This is regarded in favor of Islam and apostasy can not be regarded against it, when slavery spread in subsequent periods in history.

Islam considered replacing the prisoners of war with the Muslim prisoners. Also, it prescribed ransom in this regard.

{So, when you meet (in fight — Jihâd in Allâh's Cause) those who disbelieve, smite (their) necks till when you have killed and wounded many of them, then bind a bond firmly (on them, i.e. take them as captives). Thereafter (is the time) either for generosity (i.e. free them without ransom), or ransom (according to what benefits Islâm), until the war lays down its burden.}

[Muhammad -4][2]

If this is the stance of freedom in the Islamic view, then this view linked the value of freedom with the human being in general not the Muslim only. If the religion and religiousness are the most precious things possessed by a person, the Islamic confirmation of the freedom of conscience in the religious creed witnesses the sanctity of the human freedom in all fields. He is free even in choosing disbelief:

[2] See the details of this field in our book: "Izalet Al-Shubhat `and Ma`ny Al-Qur'an" slavery, pp. 474-479, Cairo edition – Dar Al-Salam – 1431 A.H./2010 A.D.

emergence indicated the link between freedom and responsibility in the Islamic view, as the issue which stirred dispute is the changes that happened during the Umayyad Dynasty in the Islamic ruling, which changed from consultancy and complete caliphate to incomplete one as well as the intellectual and political struggles that occurred among the Muslims concerning these changes. Are the people in charge regarded responsible for them, as they are free and can choose, or they are not responsible either wholly or partially as they are destined and compelled to that? If Taklif (meeting the conditions to be held legally accountable for actions) which is the indication of responsibility in the Islamic law and jurisprudence is regarded as a branch of freedom, then freedom in the Islamic view exceeded the scope of individualism (the freedom of the individual) to the social freedom of the nations and societies.

There are individual obligations in the Islamic Taklif, which necessitates the freedom of the Mukallaf (person meeting the conditions to be held legally accountable for actions). Also, there are other social obligations which necessitate the freedom of the society. This means surpassing the scope of freedom in the Islamic view from the beginning the scope of the individual to the society.

This contradicts the opinion of those who opine that freedom and choice are related to the individual and religion without exceeding this scope. If the individual obligations necessitate the freedom of the individual, then the social obligations, which are imposed on the nation, necessitate the freedom of the nation. Rather, the social obligations in the Islamic view are more stressed than the individual obligations.

The evidence is that the non-performance of the individual obligation affects negatively the individual only while the non-performance of the social obligations affects negatively the whole nation. This indicates that

the freedom of the nation is the basis of the freedom of the individual. The Islamic look at the freedom and its status in it is distinguished, especially when the comparison indicates the look of the western civilization and some of the eastern civilizations at this subject.

- Freedom in Islam is a human necessity, divine obligation, and a legal duty. It is not merely a right, which can be canceled by the individual.
- The status of freedom reaches in its importance the status of life which is starting and ending point, and the point at which the existence is united with the human. Islam regarded slavery as death and freedom like life. Freeing a bondsman is like getting him out of death into life. This is the reason behind making freeing bondsman expiation for involuntary manslaughter, as by so doing, a person gets a person from slavery which is like death to life, which is freedom.

{and whosoever kills a believer by mistake, (it is ordained that) he must set free a believing slave and blood money is to handed to his family}

[Al-Nisa' (Women): 92]

Imam Al-Nasafy – one of the jurists who illustrate the meanings of the Noble Qur'an – said: "When a person causes another person to get out life, he should revive another person and free a person from slavery to life, as the slaves are associated with the dead, and slavery is one of the effects of disbelief, which is regarded as death[1]. Allah says:

{'Is he who was dead (without Faith by ignorance and disbelief) and We gave him life (by knowledge and Faith)}

[1] Al-Nasafy: Madarik Al-Tanzil wa Haqa'iq Al-Ta'wil, part. 1, p. 189, Cairo edition, 1344 H.

of Staff of the Armed Forces, Sami `Anan, and the Minister of Interior Affairs, General Ahmad Gamal Al-Din arrived at Rafah.

Soon after their arrival at Rafah where the attack took place went to assured of the exerted efforts to cure the effects of the terrorist accident, which caused the martyrdom of 16 officers and soldiers and the injury of other 7 soldiers.

The President visited all of the security points to be assured of the status of the soldiers and the forces working in this area. This accident was to carry out a plan to unsettle the security of Sinai. Also, the political analysts linked the Israeli call to let its citizens to leave Sinai for fear of a probable attack to this accident. They concluded the involvement of Israel in it and suchlike.

Whatever the reality is and whatever is the criminal is, the Islamic parties as well as the other Egyptian parties responded to this treacherous aggression with denouncement, condemn, and call to arrest the criminals quickly and submitting them to the court.

Freedom and Justice Party issued a statement in which he condemned this treacherous terrorist aggression and called the President, the Supreme Commander-in-Chief, the government, and all of the concerned bodies to take the requires measures to face it dangerous challenge to the Egyptian sovereignty, and taking the necessary measures to protect Sinai from all of the destructive plans.

Hasan Hijab, the General Assistant of Freedom and Justice Party in the north of Sinai, considered this accident as an aggression against Egypt and the Egyptian forces, and regarded Israel responsible for it, as it tries to spread mess and unsettlement. Also, it wanted to frighten the Egyptians. Kamal Habib, the Jihadi leader and expert of the Islamic groups' expert, denied any relation of Hamas to Sinai accidents.

No one can deny that what happened is a treacherous crime and it will not pass without punishment. Egypt and the Arab region will get out of this operation treacherous safe, and Egypt will remain Allah's Quiver on earth, and its men will destroy the places of evil wherever they are.

*The Islamic Concept of Freedom...!

The reasons for prosperity and breakdown

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine

Freedom is the opposite of slavery, and the free person is the opposite of the slave or the bondsman. Freeing a bondsman means freeing it from slavery. Freedom is permitting a person to do whatever he wants, being expressed in any way. On condition that, he does not violent the other people wrights.

The difference between the two words is revealed in the Qur'an:

{Al-Qisâs (the Law of Equality in punishment) is prescribed for you in case of murder: the free for the free, the slave for the slave, and the female for the female.}

[Al-Baqarah (The Cow): 178]

One of the Islamic aphorisms is that said by the second Guided Caliph, `Umar ibn Al-Khattab [40 B. H – 23 H / 548-644 A.D] in which he said: "How do you enslave the people who were born free?"

The topic of freedom and choice is the first topic handled by the Islamic philosophy in the Islamic civilization after the emergence of Islam around the middle of the first century after Hijrah. The circumstances of this

* The Leading Article In Arabic Section Of Al – Azhar Magazine.The Dhul-qaedah, 1433 A,H

The Targeted Sinai…!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Out of the decisions made by the late President Muhammad Anwar As-Sadat but he passed away before being achieved is reconstructing Sinai and settling three millions and half million Egyptians in it. There were many plans set after uncountable studies to develop and reconstruct Sinai but were not achieved. Many of these plans were declared, but found no strong resolution to achieve them. The crimes of the enemies did not stop targeting the lands of Sinai, out of which is the horrible crime which occurred in Ramadan, when the Adhan of Maghrib (Sunset) Prayer was announced on the 17th of Ramadan, corresponding to the 5th of August, 2012.

Our soldiers on the borders started to prepare their food after performing the Maghrib Prayer in congregation, being guarded by a few number of soldiers, as they get used to this in these days. They guard the borders, which should be protected and this was done according to the Islamic Shari`ah, not to give a chance to their enemy to attack them. Our brave soldiers did not expect to be killed by these bullets of treachery. These bullets surrounded them from everywhere, so that 16 officers and soldiers were killed and others were injured in a scene that looked like a massacre. This happened in the desert of Sinai at the eastern borders. What happened to day?

A group of people called Al-Jihad carrying black banners exploited the time of breaking the fast to attack our brave soldiers at the borders. They are 35 persons who started to attack border point and were able to steal police armored car driven by one of them. Then, they reached the border point and shoot all of the soldiers in this point. Also, they targeted at the dawn of the same day another secured site near Al-Risah. They shot the policemen who responded to the attackers, as they fled.

A security source commented that these attackers chose suitable time for carrying out their operations. They chose the time of breaking the fast to attack the border point in Rafah and the time of pre-dawn meal to attack Al-Risah. Security services managed with the help of the tribes of Sinai to besiege all of the people who carried out the operation. There was also done by a helicopter to attack them.

In the same context, the Egyptian officers and soldiers who work at the borders of Rafah performed the Funeral Prayer near their working places over the martyrs who were killed in the terrorist operation at the night of the same day. As for the people who carried out this attack, they are people of the black banners, who have the thought of rendering people as disbelievers. They attacked previously Al-`Arish second police station. They executed armed operations against Egyptian citizens, police stations, and destroying gas lines.

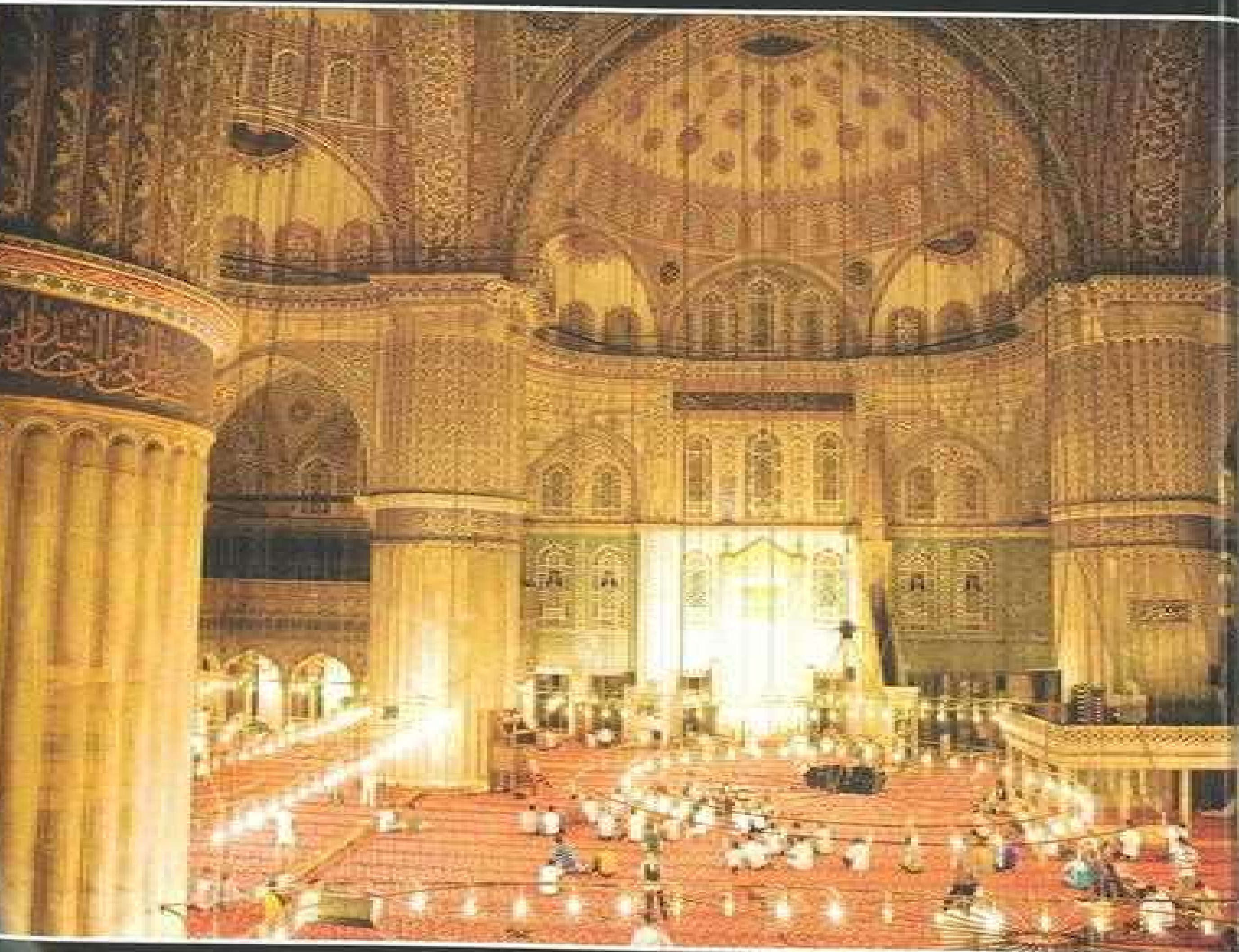
As for the current status, an official source affirmed that emergency state was declared in Sinai, especially in Rafah to arrest the accused people. The source said that 50 ambushes were spread in addition to combing the area completely and carrying out intensive measures and cooperating with the sheikhs of the tribes to recognize the people who executed this attack as soon as possible.

Dr. Samy Anwar, the manager of Al-Arish Public Hospital, said that the blood refrigerators in Arish were full of blood after calling the citizens to donate blood after this painful accident. It is well- known that such a crime which took place in Rafah is financed by external elements. This accident has shaken the conscience of the Islamic world, and the Salafi Da`wah in Sinai confirmed the necessity of searching for the criminals and arresting them as soon as possible. Also, it said in its statement that no mercy should be shown to the criminals after they violated the sanctity of blood and that of the blessed month and risked our security.

Form the political point of view, President Muhammad Morsy, the Minister of Defense, Field Marshal Muhammad Hussein Tantawi, Chief

الأزهر

www.AlazharMag.com

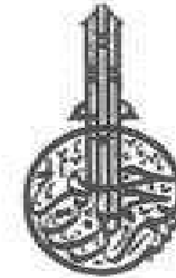


مسجد السلطان أحمد - إسطنبو

AL AZHAR
MAGAZINE

AL-AZHAR MAGAZINE

Dhul-qaedah, 1433 A.H



ENGLISH SECTION

September, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University



AL AZHAR
MAGAZINE


facebook.com/AlAzharMag

تذكاري عدد

في فقه الحج
إلى بيت الله الحرام

الافتتاحية: مؤتمر الحج الأكبر

أ.د. محمد عمارة

ويكتب فيه هؤلاء العلماء:

الشيخ محمود شلتوت - د. محمد عبد الله دراز
العلامة محمد فريد وجدي - الشيخ عبد الله بن بيه
د. أحمد الريسوني - د. طه جابر العلواني
د. مصطفى محمود - د. أحمد خيري العمري
د. يحيى رضا جاد

هدية عدد ذي الحجة

الخطوط العريضة لدين الشيعة

للعلامة المجاهد محب الدين الخطيب

دراسة وتقديم: أ.د. محمد عمارة

في العدد القادم

www.AlazharMag.com

السعر جنيهان

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ذو الحجة ١٤٣٣هـ - نوفمبر ٢٠١٢م - الجزء ١٢ - السنة ٨٥


الشيخ محمد عبده


د. محمد سليم العوا


المستشار طارق البشري

مؤتمر الحج الأكبر
أ.د. محمد عمارة

الحج: الجوانب الاجتماعية ووحدة الشعوب الإسلامية
أ.د. محمد عبد الله دراز

سألت نفسي
د. مصطفى محمود

فريضة الحج.. مقاصد وغايات
د. وصفي عاشور

الخطوط العريضة لدين

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ٢٤ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٣٦٢٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

داخل العدد

الأغلفة من تصميم الأستاذ أحمد القطب

الافتتاحية

مؤتمر الحج الأكبر



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

هناك «أفكار» تظل دائمة الإلحاح على العقل المسلم.. طالما هي لم توضع في الممارسة والتطبيق!

وهناك «مقالات» تتجدد الحاجة إلى مطالعتها، طالما أن مهمة السعي إلى تنفيذ «أفكارها» لم تجد بعد فرسانها المرتقبين!

ونموذج لذلك.. «الأفكار» التي يقدمها هذا «المقال»؟!

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(المائدة: ٤٨)

صدق الله العظيم

نعم.. ومرة أخرى: صدق الله العظيم!

فعلى الرغم من «وحدة الدين».. الدين الإلهي الواحد، منذ بدء الرسالات السماوية بآدم عليه السلام وحتى ختامها على يد محمد بن عبدالله ﷺ.. وهي الوحدة التي تتجلى في «التوحيد» و«الطاعة» لله الواحد. والتي لأجلها كان جماع الدين وجوهره: «الحنيفية المسلمة» كما علمنا رسول الله ﷺ.. على الرغم من وحدة هذا الدين الإلهي منذ الأزل.. إلا أن سنة التطور في سير الاجتماع الإنساني قد اقتضت تعدد «الشرائع» لدى كل رسول من الرسل ونبي من الأنبياء.. فالوحدة في «الدين» قد زاملها وواكبها التعدد في «الشرائع»، ومن ثم اختلفت وتنوعت فيها «المناسك.. والشعائر.. والعبادات».

فـ«الصلاة» ـ مثلا ـ وهي دعاء العبد إلى ربه ـ و«الصوم» وهو القربة الذاتية والخاصة بين المخلوق والخالق ـ عرفتها كثير من الشرائع الدينية، في أمم الرسالات المتعاقبة، ثم اختلفت صورها وأركانها من شريعة إلى أخرى.

و«الحج».. الذي يربط أمة الرسالة بمركز واحد، يديم لها ويجدد فيها رباط الدين ويوثق خيوطه، ويشدها بواسطته إلى ذكريات النور الذي انبثق في فجر رسالتها فهداها، وأخرجها من ظلمات جاهليتها إلى نور الحق وضوء العرفان.. هذا «الحج» تتعدد فيه المناسك والشعائر بتعدد أمم الرسالات:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾

(الحج: ٦٧)

الحج الإسلامي

لكن المتأمل في «المركز» الذي يتم إليه حج المسلمين في الإسلام:

ـ «بيت الله الحرام» في مكة المكرمة ـ يلحظ خصوصية إسلامية جديرة بالتأمل والتنويه..

فالإسلام هو الشريعة الخاتمة لسلسلة رسالات الله السماوية إلى الإنسان، الذي هو خليفته في الأرض.. ومحمد بن عبدالله ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

وبيت الله الحرام، بمكة، هو أول بيت لله قام على هذه الأرض التي عليها نعيش:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

(آل عمران: ٩٦)

فكأنما شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون حج أمة الرسالة الخاتمة إلى أول بيت وضع للناس في الأرض، وذلك حتى يرتبط الختام بالبدء، والقمة بالجذور، والمنتهى بالمنطلق، فيتجسد الرمز، رمز استيعاب الإسلام الذي جاء به محمد للدين الإلهي، على إطلاقه، وللتدين في عمومه..

وترتفع الأعلام المؤذنة بأن تصديق الأمة المحمدية بنبيها عليه الصلاة والسلام، إنما هو جزء من تصديقها بجميع الرسل والأنبياء، واحتضانها لهدى النبوة جميعه على امتداد موكب الأنبياء والمرسلين، منذ آدم إلى محمد عليهم السلام؟!

والناظر المتأمل فى شعائر الإسلام وعباداته يرى ذلك الخيط المتين والعروة الوثقى التى تربط بين كل «عبادة فردية» قد فرضت على ذات الفرد وعينه، وبين «مجموع الأمة».. أمة الرسالة والدين.

- ففى «الصوم»: استشعار لحاجة المحتاج.. فتكافل وتضامن يربط الفرد بالمجموع.
- وفى «الزكاة»: تطهير للثروة الفردية، تنمو به هذه الثروة.. وتكافل مالى للأمة جمعاء.
- وفى «الصلاة»: جماعة وجماعية تجعل الفرد لبنة فى بناء أكبر وقطرة فى البحر البشرى العظيم.
- وفى «الشهادة بالوحدانية»: نزع لكل القيود والأغلال التى تقطع ـ بالعبودية ـ روابط الإنسان وأخيه الإنسان، وربط لهذا الإنسان الفرد بالمجموع من خلال إفراده العبودية لله وحده؟!

وهكذا فى كل شعائر الإسلام.. نلمح خيط الجماعة والجماعية يجمع الأفراد، ويجدد رباط الأمة المتكافلة تكافل أعضاء الجسد الواحد والبنيان المرصوص، الذى تسرى فيه الحياة، حتى ليشد بعضه بعضا!

وفى اعتقادى أن هذه المعانى فى العبادات الإسلامية، وهذه الروابط الجماعية والاجتماعية فى شعائر الإسلام هى لب هذه العبادات وجوهر هذه الشعائر.. وفيها تتمثل أهم «المنافع» التى تثمرها وتنميها وترعاها عبادات الناس لله، الذى هو غنى عن هذه العبادات؟!

وفى ضوء هذه الحقيقة، وفى إطار هذا الفهم «لمنافع» العبادة للعابدين المسلمين، يجب أن ننظر إلى شعيرة الحج الإسلامى.. ذلك أن اجتماع المسلمين للحج، والمؤتمر الأكبر لهذا الركن من أركان الإسلام هو الهدية الربانية التى تجسد قمة «المنافع» المبتغاة للمسلمين من ورائه.. وهى «المنافع» التى لازلنا متخلفين عن الاستفادة منها.. حتى الآن؟!

إن القرآن الكريم يحدثنا عن حكمة الله من وراء فريضة الحج، فيقول:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

(الحج: ٢٧ ـ ٢٩)

فمع «ذكر الله» و«شعائر الحج» هناك «المنافع» المبتغاة، من وراء هذا الحج، لأمة الإسلام.

والأمر الذى لاشك فيه هو أن معنى «المنفعة» إذا اتحد ـ لأنها هى كل ما ينفع جمهور الأمة ـ فإن السبل إلى تحقيقها، وتحديد أولوياتها هو مما يختلف باختلاف الأزمان والملابسات والتحديات التى تواجه أمة الإسلام؟!

لقد كانت مكة، فى عصور قديمة، حاضرة تجارة شبه الجزيرة العربية، ويومها قال المفسرون للقرآن الكريم: إن «التجارة» هى «المنافع» التى يشهدها الحجيج إلى بيت الله الحرام!

لكن.. أتظل التجارة فى موسم الحج ـ وهى فى جوهرها اليوم «استهلاك» لسلع يصنعها غير المسلمين، بل والوثنيون الذين يصنعون للمسلمين حتى «سجادة» الصلاة و«بوصلة القبلة»؟! ـ أتظل هذه «التجارة» هى «منافع» الحج، التى أرادها الله، فى ظروف عالم اليوم بما جد فيه من جديد، وطرأ على واقعه من تحديات؟!

لقد تفجر البترول من حول مكة، فلم يعد أهلها هم البؤساء الذين يعيشون بواد غير ذى زرع.. ومن ثم فلا مجال لقائل أن يقول إن «منافع» الحج اليوم مقصورة «سمسرة» تجار البقاع المقدسة من بيع السلع الاستهلاكية المستوردة من خارج عالم الإسلام إلى الحجاج المسلمين!!

٢.

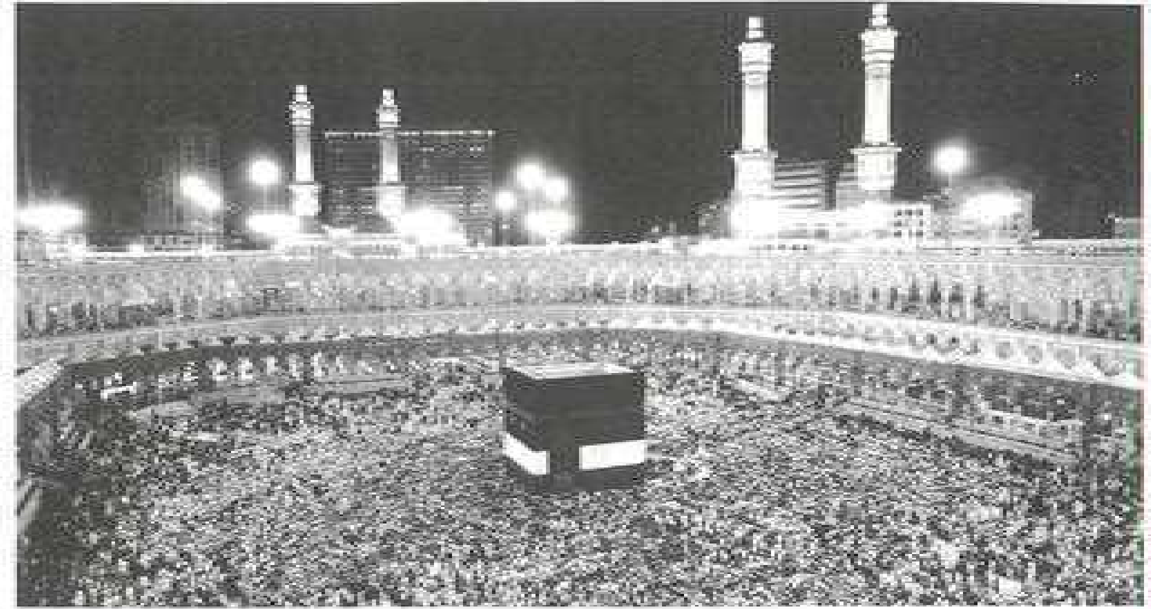
فى ظروف عالمنا الإسلامى، التى لا يحتاج بؤسها إلى تفصيل فى الحديث.. وأمام التحديات التى جعلت «أمة» الإسلام «أمما» بأسها بينها شديد، بينما الكثيرون منها أشداء على بعضهم الآخر، رحماء على الكفار؟!.. فى ظروف عالمنا الإسلامى هذه تبدو المهمة العظمى والأولى والعاجلة هى إعادة هذه «الأمم الشراذم» إلى معنى «الأمة الإسلامية الواحدة» بما لهذا المعنى من دلائل ومعطيات.. ومن ثم فإن «منافع» الحج إلى بيت الله الحرام هى اليوم ـ فى اعتقادنا ـ دعوة صفوة الأمة وراشديها ـ بواسطة مؤتمر الحج الأكبر ـ إلى كلمة سواء؟!

سوابق التاريخ الإسلامى

ثم.. ألا يحق لنا ـ أمام أى شك أو تشكيك فى هذه الحقيقة ـ أن نتساءل:

- ألم تكن تلك هى «المنافع» المبتغاة من الحج يوم أن انبثق نور الإسلام؟!
- ألم يكن الخليفة الراشد ـ فى عهد الخلافة الراشدة ـ يجعل من موسم الحج مؤتمرا يلتقى فيه بالولاة والعمال والقضاة وجباة الزكاة والصدقات وقادة الجند والفقهاء وأهل الرأى من مختلف الأقاليم الإسلامية.. فتوضع صورة واقع الأمة أمام العقل القائد والمفكر؟!

وألم يكن موسم الحج، على عهد الخلافة الراشدة، منتدى لقاء القراء والفقهاء يتبادلون فيه الفكر والرأى والخبرات، فتنمو فى الأمة ملكة التعقل والاجتهاد؟!



• ورسول الله ﷺ .. ألم تكن حجته الوحيدة سنة ١٠هـ ـ حجة الوداع والبلاغ ـ ألم تكن مؤتمرا جامعا قرر فيه «الحقوق المدنية» لأمة الإسلام؟!

إننى لا أبالغ إذا قلت: إن خطبة الرسول الشهيرة، فى حجة الوداع، تلك التى مثلت وثيقة «الحقوق المدنية» الإسلامية، فيها لعالمنا الإسلامى الراهن المنطلقات لجدول أعمال مؤتمر الحج الأكبر، الذى يجب أن ينعقد لدراسة الواقع البائس الذى تعيشه هذه الأمة، وتحديد السبل لتغييره، والوسائل اللازمة لمواجهة التحديات المحدقة بالإسلام والمسلمين!

لقد تأسست دولة الإسلام الأولى فى السنة الأولى للهجرة.. وفى جمادى الأولى من السنة الثانية بدأت المواجهة المسلحة بين دولة الإسلام ودولة الشرك ـ فى غزوة «العشيرة»، التى كانت المقدمة لـ«بدر الكبرى».. وفى السابع عشر من شعبان، من نفس السنة، تحولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، بما مثله ذلك الحدث العظيم من إيذان بانتقال القيادة من العبرانيين إلى الأمة العربية المسلمة، التى تأهلت بالعدل ـ الوسطية ـ لتكون لها الشهادة على غيرها من أمم الرسالات!

وفى العام التالى ـ سنة ٣هـ ـ فرض الله الحج، مؤتمرا يشهد فيه المسلمون «منافع لهم».. وفى العام العاشر للهجرة، حج الرسول ﷺ، فعقد للمسلمين مؤتمرهم الذى أبلغهم فيه «حقوقهم المدنية» كأمة واحدة متميزة بين الأمم، قال ﷺ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبدا..

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة

فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، اسمعوا قولى.. واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم.. إنى قد بلغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه!.. إلخ.. إلخ.

تلك كانت كلمات النبى ﷺ فى خطبة «حجة الوداع» التى ألقاها فى مؤتمر الحج الأكبر، ليقرر فيها «الحقوق الإنسانية ـ المدنية» التى شرعها الإسلام للإنسان.

وتلك كانت «حكمة» الحج عندما فرضه الله ركنا من أركان الإسلام..

وتلك كانت تطبيقات الرسول والخلفاء الراشدين لهذه «الحكمة»، وفهمهم «للمنافع» التى ابتغاها الله لعباده من وراء حجهم إلى بيته الحرام.

اقتراح

واليوم.. وفى ظروف عصرنا الحديث، وعلى ضوء الواقع البائس الذى تحياه أمتنا، رغم ما لديها من إمكانات مادية وما تملك من عقول مبدعة ومفكرة.. هل تطمح وتطمع وتتطلع إلى إعادة شعيرة الحج «مؤتمرا أكبر» لأمة الإسلام؟!.. ولقاءً جامعا لعقل الأمة الراشد، يتأمل واقعها، ويرسم لجمهورها سبل الخلاص؟!

إننا نقترح ـ تحديدا ـ وفى إيجاز:

١ ـ إقامة منظمة غير حكومية، تكون لها صفة الدوام، مهمتها تنظيم «مؤتمر الحج الأكبر».

٢ ـ تدعو هذه المنظمة: كل المؤسسات الفكرية والتعليمية والبحثية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنقابية.. إلخ.. إلخ.. فى بلاد العالم الإسلامى، ولدى الجاليات الإسلامية خارج عالم الإسلام.. تدعوها إلى إخطارها بمن سيؤدى فريضة الحج من أعضائها قبل شهور من موسم الحج فى كل عام.. لتتكون من هذه «الصفوة» الممثلة «لأهل الذكر» فى كل الاختصاصات، عضوية «مؤتمر الحج الأكبر».

٣ ـ تحدد «منظمة مؤتمر الحج الأكبر» الموضوعات والقضايا التى تقترحها هى، والتى ترد إليها من الأفراد والهيئات فى مختلف بلاد الإسلام، كجدول أعمال لـ«مؤتمر الحج الأكبر» مع

التركيز، في كل عام، على القضايا التى تمثل أكثر مشكلات المسلمين إلحاحا، وأخطر التحديات التى تواجه أمة الإسلام.. وتتلقى الدراسات والتقارير حولها.. وتتخير من هذه الدراسات والتقارير ما يفى بإنضاج الرأى حول قضايا ومشكلات وجدول أعمال المؤتمر».. كما تكلف المنظمة ذوى الاختصاص بإعداد ما يلزم من الدراسات.



٤ - يعقد المؤتمر، سنويا، عقب أداء مناسك الحج، لتدارس لجانه مشكلات الإسلام والمسلمين، ويصدر فيها التوصيات والقرارات.

٥ - تصدر «منظمة مؤتمر الحج الأكبر» مجلة شهرية، تنشر فيها الدراسات التى ستناقش بالمؤتمر كل عام، لتأتى وفوده إليه وهى على بينة من القضايا موضوع البحث والنقاش.. كما تنشر فيها توصيات المؤتمر وقراراته.. والتى تخطر بها الحكومات والمنظمات والهيئات والمؤسسات والاتحادات والنقابات.. إلخ.. إلخ..

٦ - تقوم «منظمة مؤتمر الحج الأكبر» بمتابعة تنفيذ قرارات المؤتمر، وتقييم كفاءته وجدواه.. لاقتراح السبل الكافلة له التطور والفاعلية فى تحقيق «المنافع» الإسلامية من وراء «الحج» كشعيرة ابتغى الإسلام من ورائها تحقيق «المنافع» لأمة الإسلام.

•••

إن هذا الاقتراح المحدد، القابل للتطوير والتفصيل، يمكن - فى اعتقادنا - أن يحقق للأمة الإسلامية جوهر «المنافع» التى دعا الله، سبحانه وتعالى، أمة محمد ﷺ، كى تشهدها عندما يشد المستطيعون من أبنائها الرحال حاجين إلى بيت الله الحرام.

فهل من مجيب لهذا النداء؟!

وهل من مستجيب لهذا الاقتراح؟!

إننا نأمل.. ونطمح.. ونتطلع.. وما ذلك على الله بعزيز.. ولا على «رابطة العالم الإسلامى»، وعقلاء الأمة وراشديها ببعيد!

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات. وقد قام البرهان العقلى والبرهان النقلى على هذه العقيدة، فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره، وهو التنزيه فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شىء ينافى ظاهره التنزيه، فللمسلمين فيه طريقتان:

إحداهما: طريقة السلف، وهى التنزيه الذى أيد العقل فيه النقل، كقوله تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(الشورى: ١١)

وقوله عز وجل:

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(الصفات: ١٨٠)

وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لخيلاتنا.

والثانية: طريقة الخلف، وهى التأويل. ويقولون: إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل، فلا يخرج شىء منها عن المعقول. فإذا جزم العقل بشىء وورد فى النقل خلافه، يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره، ولابد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل.

وأنا على طريقة السلف فى وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب وإننا نسير فى فهم الآيات على كلا الطريقتين لأنه لابد، للكلام من فائدة يحمل عليها؛ لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى.

أما الملائكة، فيقول السلف فيهم إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم، فيجب علينا الإيمان بهم ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم، فنفوض

علمها إلى الله تعالى. فإذا ورد أن لهم أجنحة، نؤمن بذلك، ولكننا نقول إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور، إذ لو كانت كذلك لرأيناها. وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس وأن له علاقة بنظامه وأحكامه والعقل لا يحكم باستحالة هذا، بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به.

وقد بحث أناس في جوهر الملائكة، وحاولوا معرفتهم، ولكن من وقفهم الله تعالى على هذا السر قليلون والدين إنما شرع للناس كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته؛ لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم به كاد يكون من تكليف ما لا يطاق ومن خصه الله تعالى بزيادة في العلم، فذلك فضله يؤتيه من يشاء فقد ورد في الصحيح عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه في هذا العلم الديني الخاص، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء من العلم، فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن.. إلخ.

وأما ذلك الحوار في الآيات، فهو شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته، صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا وأن هناك معاني قصدت إفادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شئونه تعالى قبل خلق آدم، وأنه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله.

وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى، فهي من وجوه:

إحدها - أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفي عليهم من أسراره في خلقه، ولاسيما عند الحيرة والسؤال يكون بالمقال، ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها، كالبحث العملي والإلهام الإلهي. وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

ثانيها: إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة، فنحن أولى بأن يخفى علينا. فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

ثالثها: أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم. وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، علم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه.

رابعها: تسلية النبي ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين. وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها وكون الكلام لايزال في موضوع الكتاب، وكونه لا ريب فيه وفي الرسول، وكونه يبلغ وحي الله تعالى ويهدي به عباده، وفي اختلاف الناس فيهما ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها، مع كون الجميع في سياق موضوع واحد.

وأما الخلف، فمنهم من تكلم في حقيقة الملائكة، ووضع لهم تعريفاً. ومنهم من أمسك عن ذلك. وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون. والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ما تفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية، وما لها من المكانة والخصوصية: أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، ففهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تعن له يكون بحسب علمه، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد، وهو متعين لازم الوقوع، لأن العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى.

فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون، أو بلسان الحال والتوجه إليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب البيان والحكمة، وعبر الله عن ذلك بالقول لأنه هو المعهود بالاستعلام والاستفهام عند البشر الذين أنزل القرآن لهدايتهم، كما نسب القول إلى السموات والأرض في قوله:

﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾

(فصلت: ١١)

فأول ما ألقي إليهم من الإلهام أو غيره من طرق الإعلام، هو وجوب الخضوع والتسليم، لمن هو بكل شيء عليم؛ لأن ما يضيق عنه علم أحد ويحار في كيفيته يتسع له علم من هو أعلم منه، ومن شأن الإنسان أن يسلم لمن يعتقد أنه فوقه في العلم ما يتصدى له مهما يكن بعيد الوقوع في اعتقاده.

ومن ذلك اعتقاد جماهير الناس في بلاد الحضارة والصناعات في هذا العصر إمكان أمور وأعمال لم يكن أحد يتصور إمكانها من قبل إلا بعض كبار علماء النظر، فإذا قيل إنهم يحاولون عمل كذا فإنهم يصدقونهم، وإن لم يعقلوا كيف يعملونه.

فإن الذين يصنعون سلكاً لنقل الأخبار بالكهرباء إلى الأماكن البعيدة في دقيقة أو دقائق قليلة يصدقون بأنهم يوصلون تلك الأخبار من غير سلك، وقد كان، ويصدقون بإمكان إيجاد آلة تجمع بين نقل الصوت ورؤية المتكلم وهو ما يحاولون الآن وإذا قال لنا أهل هذه الصناعة إن ذلك ممكن الحصول

صدقناهم فيما يقولون من غير تردد. وليس تصديقنا تقليدا ولا تسليما أعمى كما يقال، بل هو تصديق عن دليل ركنه قياس ما يكون على ما قد كان بعد العلم بوحدة الوسائل. والملائكة أعلم منا بشأن الله في أفعاله وأنه العليم الحكيم، فهم وإن فاجأهم العجب من خلق الخليفة يردهم إلى اليقين أدنى التنبيه، ولذلك كان قوله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

جوابا مقنعا أى إقناع.

على أن هذا النوع من التسليم للعالم القادر، ربما لا يذهب بالحيرة ولا يزيل الاضطراب من نفس المتعجب، وإنما تسكن النفس ببروز ذلك الأمر الذى كانت تعجب من بروزه إلى عالم الوجود ووقوفها على أسراره وحكمه بالفعل. ولذلك تفضل الله تعالى على الملائكة بإكمال علمهم بحكمته فى خلق هذا الخليفة الإنسانى وسره عند طلوع فجره، فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى، فعلموا أن فى فطرة هذا الخليفة واستعداده علم ما لم يعلموا، وتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة فى الأرض، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه، وناهيك بمقام العلم وفائدته، وسر العالم وحكمته.

فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شئون المخلوقين، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الإنكار، فلا فرق فى هذه النتيجة بين تفويض وتسليم وتأويل وتفهيم، والله بكل شىء عليم. وهاك تفسير الآيات بالتفصيل.

قد علمت مما تقدم أن الآيات متصلة بما قبلها من الكلام فى الكتاب ومن جاء به ومن دعا إليه فهى تجلى حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التى تناسب حالهم، فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم؛ لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شىء اكتسابا وهى من جهة أخرى تسلية له ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويقتنعوا، وأن الإفساد فى الأرض وجحود الحق ومناصبة الداعى إليه ليس بدعا من قومه، وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر.

ثم إن للمفسرين فى ﴿ الخليفة ﴾ مذهبين: ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق، وأنه انقرض، وأن هذا الصنف الذى أخبر الله الملائكة بأنه سيجعله خليفة فى الأرض سيحل محله ويخلفه، كما قال بعد ذكر إهلاك القرون:

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾

(يونس: ١٤)

وقالوا: إن ذلك الصنف البائد قد أفسد فى الأرض وسفك الدماء، وإن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه؛ لأن الخليفة لابد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله، كما يتبادر إلى الفهم. ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه، وليس ذلك من مقتضى الخلافة، أجاب الله الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله، وما له سبحانه فى ذلك من الحكمة البالغة.. وإذا صح هذا القول، فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق، تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه فى الذات والمادة، وتخالفها فى بعض الأخلاق والسجايا.

هذا أحسن ما يجلى فيه هذا المذهب وأكثر ما قالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم، ومنه أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق يسمون بالحن والبن، أو الطم والرم. والأكثرون على أن الخلق الذين كانوا فى الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن والقائلون منهم بالحن (بالمهملة) والبن، قالوا إن هؤلاء عاثوا فى الأرض فسادا فأبادهم الله (كما تقدم آنفا) وقالوا إن الله تعالى أرسل إليهم إبليس فى جند من الملائكة، فحارب الجن فدمرهم وفرقهم فى الجزائر والبحار وليس لهم فى الإسلام سند يحتج به على هذه القصص، ولكن تقاليد الأمم الموروثة فى هذه المسألة تنبئ بأمر ذى بال، وهى متفقة فيها بالإجمال، ألا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التى سكنت الأرض. هذا هو المذهب الأول فى تفسير الخليفة.

وذهب الآخرون إلى أن المراد أنى جاعل فى الأرض خليفة عنى، ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله فى أرضه، وقال تعالى:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(ص: ٢٦)

والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ولكن ما معنى هذه الخلافة؟ وما المراد من هذا الاستخلاف؟ هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض؟ أم استخلاف النوع على غيره؟

جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك. وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية، أى الشرعية لأن الشرع وضع إلهى، كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات: نطق الوحى ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشىء محدود معين لا يتعداه. فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحى كالملائكة، فقد ورد فى الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة قال تعالى:

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾

(الأنبياء ٢٠)

﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴾

(الصافات: ١٦٥، ١٦٦)

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾

(الصافات: ١، ٢)

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾

(النازعات ١ ـ ٥)

على قول من قال إن المراد بها الملائكة، إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف، لكل طائفة وظيفة محدودة، ورد في الأحاديث أن منهم الساجد دائما، والراكع دائما إلى يوم القيامة.

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار، فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل وحال النبات، وإنما تأثير حياته في نفسه، فلو فرض أن له علما وإرادة فهما لا أثر لهما في جعل عمل النبات مبينا لحكم الله وسننه في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية، فإن له استعداداً محدوداً، وعلما إلهاميا محدودا، وعملا محدودا، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذى لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه، ولا نهاية لأعماله وتصرفه.

وإما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال في كتابه:

﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء: ٢٨)

وخلقه جاهلا كما قال:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

(النحل: ٧٨)

ولكنه على ضعفه عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب، لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء. يولد الحيوان عالما بالإلهام ما ينفعه وما يضره، وتكمل له قواه في زمن قليل.

ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطئ بالنسبة إلى غيره من الحيوان، ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره، وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات، فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة، وهي التي يسمونها العقل، ولا يعقلون سرها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها، فهي التي تغني الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر، والأعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد، ولا محدود الرغائب، ولا محدود العلم، ولا محدود العمل فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الأرض وسخر له عوالمها ـ أعطاه أحكاما

وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذى كان له كل تلك المزايا، فلهذا كله جعله خليفته في الأرض، وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة.

ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض، ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء فهو يتفنن ويبتدع، ويكتشف ويخترع، ويجد ويعمل، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلا، والماحل خصبا، والخراب عمرانا، والبراري بحارا أو خلجانا. وولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن كالليمون المسمى «يوسف أفندى» فإن الله تعالى خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه. وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضرب التربية والتغذية والتوليد، حتى ظهر التغير في خلقتها وخلائقها وأصنافها. فصار منها الكبير والصغير، ومنها الأهلي والوحشي، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره خدمته، كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات. أليس من حكمة الله، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته وبدائع حكمه ومنافع أحكامه؟ وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذى خلقه الله في أحسن تقويم؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى، فكيف تعجب الملائكة منه؟

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب:

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾

فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك،

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

بلا غفلة ولا فتور، لاشك في أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والإرادة المطلقة، وكون هذا العلم المصرف للإرادة لا يحصل إلا بالتدريج، وكون عدم الإحاطة مدعاة للفساد، والتنازع المفضى إلى سفك الدماء كما تقدم.

نعم، إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه الله تعالى، وكلما أوتي نصيبا منه ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم. وكلما أعطى حظا من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله، ولله در الشافعي حيث قال:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي إلا قليلا، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهي، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم:

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم.

أقسام السنة عند الشيخ عبدالجليل عيسى [٣]

رأى بعض العلماء فى جواز اجتهاد الأنبياء

رأينا أن نقدم بين يدى تفصيل الكلام على اجتهاد نبينا ﷺ جملة من أقوال كبار العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم فى اجتهاد الأنبياء عليهم صلوات الله، ومنها يتبين للقارئ أن الذين ينكرون اجتهاد الأنبياء إنما يغمضون أعينهم ويستغشون ثيابهم حتى لا تخطف أبصارهم هذه الأدلة القاطعة التى لا يصمد أمام صولتها لجاجة معاند ولا مكابرة جاحد.

ولدى من منع الاجتهاد عن الأنبياء من أمثال أبى على الجبائى وابنه أبى هاشم دليل امتاز بكثرة دورانه على ألسنة الناس وهو فى واقع الأمر ليس بدليل وهذا الدليل هو التمسك بقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾
(النجم: ٣)

فقد اقتطع الجبائى هذه الآية عن سابقتها ولا حقتها، وقذف بها فى آذان الناس فصارت تلوكها ألسنتهم بدون فكر ولا روية والعجيب أننا كثيرا ما نسمع من يستدل بها حتى الآن من بين طلاب العلم والعلماء.

وإذا قطعنا النظر عن أن سياق الآيات يدل كما فهم كبار المحققين على أن الكلام فى القرآن وأن المراد أن هذا القرآن الذى يتلوه عليكم محمد ليس من عنده، بل هو وحى يوحى إليه من الله، نقول: إذا قطعنا النظر عن كل ذلك فإنا نقول: ماذا تريدون بـ

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾

أتريدون أنه ﷺ لا يلفظ بقول مطلقا فى جزئية ما إلا بوحى حتى قوله: كيف أنت يا فلان، أو إلى أين أنت ذاهب، أو مزاحه مع زوجه، أو خادمه، أو قوله: أنا عطشان أو جوعان، أو اسقنى مثلا إن قلتم إن كل هذا بوحى خاص، قلنا لكم قد سقط الخطاب معكم.

وإن أردتم أنه لا ينطق عن الهوى، بمعنى أنه لا يقول عن شهوة وغرض بل ما يقوله لمصلحة، قلنا: نحن معكم فى هذا ولكن لا يفيدكم فى منع الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد لا يصدر منه إلا تحت اعتقاد أنه مصلحة وإن ظهر خلاف ذلك فهو معذور.

وإن أردتم أنه لا ينطق عن هوى بمعنى أنه أوحى إليه بأن له أن يجتهد، فاجتهاده بإذن، قلنا لكم: ونحن نقول بذلك ولا مانع

حينئذ من أن يجتهد ولا يصيب فى جزئية؛ لأنه لا تلازم بين الإذن فى الاجتهاد وبين الإصابة فى كل جزئية، كما أنه لا تلازم بين الأمر بالصلاة وبين وقوعها كما أمر الله، بل قد يعتريه فيها السهو فيصلى الرباعية مثلا خمسا.

وإن قلتم: إن المراد ما ينطق عن الهوى فى الأمور الشرعية فقط، أى ما يكون فعله لها يعتبر تشريعا مرغبا فيه، قلنا لكم: وهل أخرجتم من أعماله الشرعية سوى خصوصياته كنكاح ما فوق الأربع، وسوى جبلياته كالجوع والعطش، والصحة والمرض. أما ما عدا ذلك من أقواله وأفعاله وسكوته فكل ذلك أدخلتموه فى أعماله التشريعية، فقلتم: يسن لنا أن نرخى فى غطاء الرأس عذبة، كما كان ﷺ يفعل. وقلتم ما نقل عنه فى الصحيح أنه ﷺ قبل ابنه إبراهيم وشمه -: وفى الحديث مشروعية تقبيل الوالد لولده وشمه، وقلتم -لما فلى ﷺ ثوبه-: يؤخذ من الحديث مشروعية تفلية المرء ثوبه فهل كل ما كان من هذا النوع -وهو لا يعد ولا يحصى ولا يخلو عنه ﷺ فى جل حياته الشريفة- بوحى؟ أظن أنه لا يقول بذلك عاقل.

رأى ابن حزم:

وابن حزم فى كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» يقول:

«قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى، وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلا بل ينبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم، ويظهره لعباده وربما عاتبهم على ذلك بالكلام، كما فعل مع نبينا ﷺ فى أمر «زينب»، وقصة ابن أم مكتوم[1]، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام.

والأنبياء عليهم السلام بخلافنا فى هذا فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده تعالى، بل نحن مأجورون على هذا أجرا واحدا..

ثم ذكر عن آدم قوله تعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾
(طه: ١٢١)

وقوله:

﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب ثم قال: وهذا وقع منه عن قصد إلى خلاف ما أمر به متأولا فى ذلك ولا يدرى أنه عاص، بل كان ظانا أن الأمر للندب مثلا أو النهى للكراهة وهذا شىء يقع فيه العلماء والفقهاء كثيرا وهذا هو الذى يقع مع الأنبياء، ويؤاخذون به إذا وقع منهم.

ثم قال: وقال تعالى لنوح:

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾
(هود: ٤٦)

لأن نوحا ظن أن ابنه من أهله، وأن المراد أهل القرابة فلما علم أن هذا ليس مرادا

١- قصة زينب وابن أم مكتوم سيأتى تفصيلها بعد.

ندم، وليس هنا تعمد لمعصية.

وقال «الله» فى يونس:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الأنبياء: ٨٧)

وقال الله لنبينا ﷺ:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾

(القلم: ٤٨، ٤٩)

ثم قال «صاحب الفصل»: إنه غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوتب بذلك، وإن كان ظانًا أن هذا ليس عليه فيه شيء. وهذا هو ما أراد الله من نبينا ﷺ حين نهاه عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وأما إخبار الله بأنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التى تداركته بها للبث معاقبا فى بطن الحوت، فهذا هو ما تقرر آنفا من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيرا إذ لم يوافق مراد الله. وعلى هذا الوجه أقر يونس عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين»[٢].

رأى ابن تيمية:

وابن تيمية يرى أن «الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون عن الله تعالى وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة بخلاف غير الأنبياء فإنهم غير معصومين، ولو كانوا أولياء الله».

وأما العصمة فى غير ما يتعلق بالتبليغ فللناس فيه نزاع: والقول الذى عليه جمهور الناس - وهو الموافق للمنقول عن السلف - إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقا.

واحتج من قال: إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب بأن التأسى بهم مشروع وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذنب وأجيب بأن التأسى مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه، كما أن أمر الله ونهيه إنما تجب طاعته فيما لم ينسخ منه، أما ما نسخ منه فلا يكون مأمورا به فضلا عن وجوب طاعته[٣].

احتجوا أيضا بأن الذنوب تنافى الكمال وأنها توجب التنفير، ونحو هذا من الحجج العقلية ورد بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك، وإلا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع قال تعالى:

٢- ملخص من كتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» ج٤ ص ٢ طبعة صبيح سنة ١٣٤٧هـ.

٣- ويقول أيضا لا نزاع بيننا وبينكم فى أن التأسى به (ﷺ) مشروع بل واجب، ومع ذلك يقع منه السهو والنسيان ويراجع فى سهوه ويصحح ما سها عنه، فلم لا يكون الخطأ فى الاجتهاد كوقوع السهو فى العبادة والكل بينه روى البخارى عن ابن مسعود - عندما سها (ﷺ) فى الصلاة وذكروه - أنه قال: (لو حدث شىء فى الصلاة لنبأتكم به ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(القلم: ٤٨، ٤٩)

وهذه الحال الأخيرة بخلاف حال التقام الحوت، فإنه قال فيه:

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

(الصافات: ١٤٢)

فأخبر سبحانه أنه فى تلك الحال مليم والمليم هو الذى فعل ما يلام عليه. فكان حاله بعد قوله:

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الأنبياء: ٨٧)

أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان والاعتبار بكمال النهاية، لابما جرى فى البداية والأعمال بخواتيمها والله خلق الإنسان لا يعلم شيئا، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى الكمال. فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال بل الاعتبار بحال الكمال، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى حال النهاية فى أكمل الأحوال.

وقد كان هذا حال الأنبياء دائما يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة والقرآن شاهد عدل.

فها هو ذا لم يذكر شيئا من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجه:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(الأعراف: ٢٣).

وقول نوح:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(هود: ٤٧).

وقول الخليل:

﴿ يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

(الشعراء: ٨١، ٨٢)

وقول موسى:

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾

(القصص: ١٦)

وقوله:

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأعراف: ١٤٣)

وقوله تعالى فى داود:

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

(ص: ٢٤، ٢٥)

إلى غير ذلك.

والذين لا يقولون بصدور مخالف عن الأنبياء تأولوا كل ذلك بمثل تأويلات

الجهمية[٤] والقدرية[٥] لنصوص الصفات والمعاد. وهى من جنس تأويلات الباطنية[٦] والقرامطة[٧] التى يعلم بالضرورة أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

فأكثر هؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع فى الكفر بهم.

ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد الكمال ورضى الرحمن ودخول الجنان، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، لرجعوا عن خطئهم.

وما يظنه بعض الناس من أن من وُلِد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل مما كان كافرا فأسلم، ليس بصواب، بل الاعتبار بالعاقبة، فأيهما كان أتقى فى عاقبته كان أفضل، إذ من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بعد كفرهم أفضل مما ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم، وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام ومع ذلك لما أسلما تقدما من سبقهما فى الإسلام، لما ظهر منهما من كمال الجهاد للكفار والانتصار لله ورسوله.

وذلك يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية وقد ورد أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد يأس.

فمن ظن أن صاحب التوبة النصوح يكون ناقصا فقد غلط غلطا عظيما فإن الذم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منهما شكاء أصلا لكن إن أسرع بالتوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنب والتوبة ما يناسب حاله من الذم والعقاب.

والأنبياء صلوات الله عليهم كانوا لا يؤخرون التوبة، بل يسارعون إليها ولا يصبرون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك ومن أخر ذلك زمنا يسيرا كفر الله عنه ذلك، بما يبتليه به، كما فعل بذى النون على المشهور من أن إلقاءه كان بعد النبوة. أما إذا كان قبلها فلا يحتاج إلى ذلك ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة لكن المنازعون يتأولونها كتأويلات الباطنية، كما تقدم، وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدبرها فهى من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

٤- أصحاب جهم بن صفوان، قالوا: لا قدرة للعبد، والله لا يعلم الشيء قبل وقوعه وعلمه حادث لا فى محل، ولا يتصف بما يتصف به غيره كالعلم والقدرة، ويسمون المعطلة أيضا فالمعطلة والجهمية فرقة واحدة

٥- القدرية هم المعتزلة، ولقبوا بذلك لأنهم أسندوا أفعال العباد إلى قدرهم ويلقبون بأصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب الصلاح، ونفى الصفات القديمة

٦- فرقة من فرق الشيعة، ويسمون أيضا الإسماعيلية وسموا باطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره ولقبوا بالإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر ووقفهم الإمامة عليه

٧- لقبوا بذلك لأن زعيمهم الداعى إلى المذهب وهو حمدان قرمط ظهر بالكوفة سنة ٢٧٠هـ ومن زعمهم أن لا غسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، وأن الحج إلى بيت المقدس.

من ذلك تأويلهم قوله تعالى:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

(الفتح: ٢)

قالوا: المراد ذنب أمتك وذلك باطل من وجوه:

١- قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

(المدثر: ٣٨)

وقال:

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾

(النور: ٥٤).

٢- أنه قد ميز بين ذنبه ﷺ وذنوب أمته، بقوله:

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾

(محمد: ١٩)

فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنبا له؟

٣- إن هذه الآية لما نزلت هم بعض الصحابة بالتشديد على أنفسهم بعدم قربان النساء والصيام دائما تقربا لله بذلك فلما علم بذلك ﷺ غضب، وقال: (إنى أقوم، وأنام، وأصوم، وأفطر، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتى فليس منى! فقالوا: إنا لسنا مثلك يا رسول الله، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)[٨].

فدل هذا على أن الرسول ﷺ والمؤمنين يعلمون أن قوله تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ﴾ خاص به دون أمته وفى الصحيح أنه ﷺ كان يقول: (اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى هزلى وجدى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى) وأخرج الصحيحان أن آية الفتح نزلت عند مرجعه ﷺ من الحديبية فقال ﷺ: (لقد نزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض، ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله، بين الله ما يفعل بك فيما يفعل بنا؟ فنزلت:

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

حتى بلغ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ روى البخارى عن المغيرة: (كان ﷺ يقوم حتى تورم قدماه أو ساقاه فقيل: لم هذا وقد غفر لك؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا) ؟

فكل هذه الروايات الصحيحة الصريحة تدل على بطلان قول من رأى أن الذنب المغفور ذنب أمته ولكنه التعصب للرأى واللجاجة فى غير الحق[٩].

***

٨- فى رواية البخارى

٩- فتاوى ابن تيمية ج٢ ص٢٨٣ طبع كرد ستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ

الحج



للإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت

الحج عبادة معروفة، تنتظم من الإنسان قلبه وبدنه وماله، وليس ذلك لغيرها من العبادات، يقوم بها المستطيع من المسلمين في زمن معلوم، وأمكنة معلومة، امتثالا لأمر الله، وابتغاء مرضاته، وتبتدىء تلك العبادة بنية الحج خالصًا لله، مع التجرد من الثياب المخيطة، ومن صنوف الزينة والترف، وتنتهي بالطواف حول بيت الله الحرام.

الحج قبل الإسلام

والحج بمعنى زيارة أمكنة مخصوصة، ابتغاء التقرب للإله المعبود صورة قديمة من صور العبادات، اتخذتها الشعوب والقبائل رمزًا لإجلال معبوداتهم وتقديسها.

قام بها المصريون، واليونانيون، واليابانيون وغيرهم من الأمم القديمة إلى الهياكل المقدسة عندهم.

وكانت كل أمة تتخذ في حجها ما يناسب تخيلها لعظمة معبودها، واستمرت الحال على هذا حتى هيأ الله الأمر لإبراهيم عليه السلام، وأمره ببناء البيت الحرام بمكة ليطوف الناس به ويذكروا اسم الله فيه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٧)

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

(الحج: ٢٦-٢٧)

لبى إبراهيم عليه السلام أمر ربه؛ فبنى بيته، وطهره، ودعا الناس إلى حجه، وأسكن عنده من ذريته، ومن ذلك الحين اتجه العرب إلى البيت الذي بناه إبراهيم، يحجونه ويعبدون الله فيه بما رسم الله، وظلوا كذلك يحجون بيت الله ويعظمونه حتى بعث الله محمداً ﷺ، غير أنهم بتطاول القرون غيروا في الحج وبدلوا كثيرا مما كان عليه في زمن إبراهيم: فأشركوا بالله الأصنام والأوثان، ورفعوها على ظهر البيت، وجعلوا حوله نطاقًا منها، وتوجهوا إليها واستعانوا بها، واتخذوها شفعاء عند الله، وذبحوا لها، وذكروا اسمها على ما يذبحون. وكذلك أحدثوا في كيفية الحج تقاليد معينة تبعا للأهواء، فطافوا بالبيت عرايا، وحرموا على أنفسهم الدسم وما وراء القوت من الطعام، وترفع فريق منهم عن الوقوف مع الناس بعرفة، والإفاضة منها اعتقادا منهم أنهم فوق الناس جميعا؛ لأن بيدهم ولاية البيت، فلا ينبغي وهم كذلك أن ينزلوا بمستوى العامة، ويأخذوا أنفسهم بقوانين الناس، ويقفوا معهم في صعيد واحد ولو كان في موقف العبادة لله الواحد القهار. هكذا غير العرب في الحج وبدلوا.

محمد يجدد دعوة إبراهيم

جاء الإسلام بعد ذلك يجدد دين إبراهيم، ويحيي دعوته: دعوة الحق والعبادة الصحيحة:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام: ١٦١)

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾

(الحج: ٧٨)

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(البقرة: ١٣٠)

جاء الإسلام هكذا مجدداً لدين إبراهيم، وهو الدين عند الله، فوجد القوم يحجون إلى الكعبة بما أحدثوا وغيروا؛ فتركهم يحجون كما اعتادوا، وقصر الرسول جهوده على الدعوة إلى إقرار التوحيد في القلوب، وإفراد الله بالعبادة والاستعانة حتى أُخرج هو وصحبه من مكة موقع بيت الله الحرام، وحيل بينهم وبين القيام بفريضة الحج، وظلوا يكافحون في سبيل الله حتى تجلت منهم آثار التضحية الخالدة، وعرف فيهم الشوق المبرح لزيارة بيت الله الذي حرموا النظر إليه والطواف به؛ فجاءتهم البشرى بأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله، آمنين، محلقين رءوسهم ومقصرين.

وفي حرارة هذا الشوق، وضوء هذه التضحية أعاد الله عليهم ذكر الحج وأنزل آيات كثيرة شرح بها أحكامه، وبين أوقاته وآدابه، وأصلح ما أفسد القوم فيه، ورده إلى عهده الأول عهد إبراهيم وإسماعيل. ومن ذلك الحين قام المسلمون بتنفيذ فريضة الحج الذي فرضه الله على الناس من عهد إبراهيم، وقد تم على أيديهم تطهير البيت من هذه الأصنام، وأمر أرباب العظمة الزائفة أن يقفوا مع الناس في عرفات، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس تقريرا لمبدأ المساواة الذي جعله الله بين عباده.

زمن الحج وحكمة اختياره

عين الإسلام لأداء فريضة الحج أشهرًا معلومة من السنة العربية هي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وشوال - وهو الشهر الذي يعقب رمضان - له في الوضع الإسلامي اعتباران قويان جديران بالتقدير والرعاية وذلك لما لهما من أثر في استدامة التقويم الخلقي، والتصفية الروحية التي حصل عليها المسلم بالصيام، والقيام في شهر رمضان.

وأول هذين الاعتبارين أن شوالا أول شهر من أشهر الحج.

وثانيهما أنه بشير بالأشهر الحرم «ذى القعدة وذى الحجة والمحرم».

وقد عنى القرآن الكريم بأشهر الحج عنايته بالحج، كما عنى بالأشهر الحرم، عنايته بتطهير النفس من المظالم، وكف العدوان والبغى، ولفت أنظار المؤمنين إلى ما لهذه الأشهر كلها من بواعث البر والتقوى، بواعث الترفع بالنفس عن مواطن الإثم والطغيان، وانتقاص الحقوق والواجبات؟ ففى أشهر الحج يقول:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(البقرة: ١٩٧)

رحلة بعد رحلة

وإذا كان المؤمنون بانتهاء رمضان عادوا إلى دنياهم من رحلة روحية، تعلقت فيها قلوبهم بمولاهم، وعظمت بها مراقبته فى نفوسهم، حتى امتنعوا فى أيامه ـ لله وفى سبيل الله ـ عما أبيح لهم من مقومات الحياة، فإنهم بدخول شهر شوال، يملأ قلوبهم الشعور باستئناف رحلة أخرى، يشارك الروح فيها البدن، ويهرع إليها القادر عليها تاركا وراءه أهله وماله ووطنه، متحملا فى سبيل ربه عناء السفر ووعثاء الطريق لا لشىء من حظوظ النفس، إلا أن يقف الله عبدا خاشعا ملبيا أمام بيته معترفا بالتقصير، ملتمسا منه المعونة والرضوان، حتى إذا ما فرغ من ذلك واطمأن إلى حسن وقفته، عاد إلى وطنه آمنا مطمئنا، قويا فى الأخذ بنفسه وبأمته إلى سبيل الهدى، والرشاد، وقد أرشد القرآن إلى ما يضمن للمؤمنين هذا الهدف السامى من تلك الرحلة

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

وهذا جانب التخلية والتطهير من المدنسات النفسية، والمفرقات الاجتماعية، أما جانب التحلية بالفضائل المزكية للنفوس، المؤلفة للقلوب، المقربة إلى الله فإنك تراه فى قوله:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

الأشهر الحرم

وإذا كان شوال باعتباره أول شهور الحج، يثير فى نفوس المؤمنين ذكريات الحج ويتمثلون به وبأخويه «ذى القعدة وذى الحجة» الطواف ببيت الله الحرام، والوقوف بمكان الضراعة الخالصة بعرفات والمشعر الحرام، فتهفو القلوب إلى تلك المشاهد، منابع الوحى والنور، وتتجرد من دنياها، وترحل إلى مولاها، متقلبة فى هذه الحرمة المكانية ـ فإنه باعتباره الثانى ـ وهو أنه بشير بالأشهر الحرم، يثير فى نفوسهم مرة أخرى، يستقبلونها بشهر ذى القعدة، وهى حرمة زمنية، قصد بها من قديم تأمين الطريق لأداء الحج، وزيارة الله فى بيته الحرام، وهى فى الوقت نفسه تغرس فى القلوب عوامل الأمن

والطمأنينة، تلكم الحرمة الزمنية، هى حرمة الأشهر الحرم، ذات القدسية التى نوه الله عنها فى كتابه:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾

(التوبة: ٣٦)

وقد عرض القرآن كثيراً إلى قدسية الأشهر الحرم وجعل المحافظة عليها بالبعد عن القتال وسفك الدماء وسائر المظالم والخيانات، من شعائر الله التى وجه إليها الأنظار توجيها عاما شاملا فى الأزمنة كلها، وفى الرسالات كلها:

﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾

حرمتان تربويتان

وبحرمتى الحج، والأشهر الحرم، كان لله فى تربية عباده وتدريبهم على الخير حرمتان:

حرمة مكانية: دائرتها البيت الحرام والبلد الحرام، وقد اتسع نطاق هذه الحرمة حتى شملت الحيوانات

﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾

وشملت الأشجار «لا يختلى خلاها، ولا يقطع شوكها».

وحرمة زمنية: ميقاتها الأشهر الحرم، تجتمع حرمة ثلاثة منها «ذى القعدة وذى الحجة والمحرم» مع الحرمة المكانية، وتنفرد حرمة رابعها، وهو «شهر رجب» كمذكر فى أثناء السنة بحرمات الله التى لا ينبغى أن يغفل عنها المؤمنون.

ومنهج التربية بتحريم الزمان والمكان، شرع إلهى قديم أقره الإسلام وربط به بين المؤمنين الأولين والمؤمنين الآخرين، وهو فى واقعه لأهل العصر الواحد فرصة تهيىء لهم ـ لو آمنوا به ونزلوا على مقتضاه واتبعوا شرع الله فيه ـ حسن التفاهم والعمل على قطع أسباب الخلاف والتخاصم، وعلى إقرار الأمن والسلام، هو بمثابة هدنة إلهية يتدبر الناس فيها شئونهم فيعرفون مهمتهم فى الحياة، من حسن التعمير وإسعاد البشرية على أسس من المحبة والتعاون، وبذلك يكفون عن العدوان، وعن الجشع المثير للحروب، القاضى على الهناءة والاطمئنان، المفسد لخلافة الإنسان فى الأرض.

حكمة تحريم الزمان والمكان

إن الله خلق الخلق على سليقة واحدة، تدفعهم ـ بحكم ما ركب فيهم من قوتى الغضب والشهوة فى كثير من الأحوال ـ إلى التحاسد والتقاطع، إلى القتل والتخريب، وإلى السلب والاستعلاء، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يكون لهم رادع ينبع احترامه من ضمائرهم، ومن هنا عظم البيت الحرام فى قلوبهم، وملأ بهيبته نفوسهم، وضاعف فى حرمته جزاء المنحرفين.

ولما كان البيت الحرام فى مكان مخصوص لا يدركه كل مظلوم، ولا كل الناس ولا ينال حظه من الأمن فيه إلا من ارتحل إليه، ولم يكن من الممكن أن يرتحل

إليه جميع سكان المعمورة فى وقت واحد، لهذا جعل الأشهر الحرم ملجأ آمن عام، تنشر على الناس وهم فى أقاليمهم وأقطارهم ألوية الأمن والاطمئنان، ويدخلون بها فى هدنة الرحمن الرحيم، فقرر كذلك فى القلوب حرمتها، فيها تسكن السيوف فى أغمادها، وتتجه القلوب إلى ربها، وفيها يتضاعف الجزاء لمن أحسن أو أساء وفى ذلك يقول:

﴿ ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾

(المائدة: ٩٧)

إذا آمن الإنسان بهذه الهدنة الإلهية، وانفعلت نفسه بشرائع ربه، وعالج نفسه فى ظلها وهى أربعة أشهر من اثنى عشر شهراً، صار ولا شك إلى فسحة وراحة واتسع أمامه مجال العمل والسياحة، واستطاع الاتصال بإخوانه بنى الإنسان، وكان معهم فى أمن واطمئنان، متعاونين على البر والتقوى، عزوفين عن الإثم والعدوان.

مناسك الحج

للحج مناسك وأفعال تلقاها المسلمون جيلا بعد جيل عن نبيهم ﷺ الذى قال: «خذوا عنى مناسككم» وهى:

الإحرام، والتلبية، والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام «المزدلفة» ورمى الجمار، وذبح الهدى.

وقد ربط كثير من الناس أنفسهم فى أفعال الحج بشخص، وكثيراً ما يكون مستأجراً لذلك، وليس لديه من معانى الحج سوى ما تلقفه سمعه من الحكايات المتوارثة عن الحجر الأسود، من جهة بياضه وسواده، ومن جهة أصله الذى نزل منه، وغير ذلك مما يكثر دورانه على ألسنة الحجاج، ويشغلون به عن تفهم روح الحج وأسراره، ويقعون به فى قبضة ذلك المستأجر، يطوفون بطوافه، ويسعون بسعيه، ويفرغون وسعهم فى تحرى محاكاته فى كل ما يصدر عنه من حركة أو سكون.

ومن الخير أن يعرف الحجاج مناسك الحج بأنفسهم، ويمرنهم أهل العلم على فعلها فى ندوات تعقد لذلك فى الأحياء المختلفة، ليدخلوا الحج وهم فاهمون متمرنون.

الإحرام

وأول ما يفعله الحاج، نية الحج خالصاً لله سبحانه، والله لا يقبل من عبده حجا يتخذه ستاراً لما يريد من سمعة زائفة أو متاع زائل، وما الحج إلا هجرة، ولا قيمة لهجرة قصد بها غير الله.

وهذه النية هى المعروفة باسم «الإحرام» وله شعاران: شعار مرئى صامت، وهو التجرد من المخيط المفصل على الجسم أو العضو، وعن مظاهر الترف الجسمى كالتزين بالطيب، وحلق الشعر أو قصه، وعن كل ما حذره الله بقوله:

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

وشعار مسموع ناطق، وهو «التلبية» وهى رفع الصوت بكلمات «لبيك اللهم لبيك»، والحاج يسجل على نفسه بهذا الشعار، أنه



فى مكان السمع لأوامر الله، وفى مكان المسارعة إلى إجابته الدائمة فيها - وأنه سبحانه - وهو صاحب الملك والنعمة، لا يحمد ولا يشكر ولا يجاب أحد سواه.

وللإحرام مكان معين يعرفه الحاج وهو فى طريقه إلى مكة، ويختلف هذا المكان باختلاف مواقع الأقطار الإسلامية من مكة، وأهل كل قطر يعرفون مكان إحرامهم بالعمل المتكرر المتواتر، ومكان إحرامنا، معشر المصريين، هو المكان المعروف «برابغ» ويكون الإحرام ناقصاً إذا أخره الحاج عن مكانه، ولكن له أن يقدمه عليه ولو من بيته فى بلده.

طواف التحية

وإذا وصل الحاج إلى مكة قصد البيت الحرام، وحيا الله فيه بالطواف، حوله سبعة أشواط. وهذا الطواف يعرف باسم طواف «التحية والقدوم» ويبدؤه الحاج من ركن الحجر الأسود، وهو حجر طبيعى من أحجار مكة، وضعه إبراهيم عليه السلام فى مكانه، تعييناً لمبدأ الطواف حتى لا يضطرب الطائفون بين المبدأ والمنتهى، وليس له من تكريم سوى تكريم الذكرى المحببة للنفوس بالنسبة للأسلاف المصلحين، وقد قال فيه عمر بن الخطاب كلمته المأثورة: «إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك» ولكن لبعض الناس فيه معتقدات تدفع بهم إلى تزاحم مهلك، يأباه الإسلام، فى سبيل تقبيله والتمسح به.

السعى بين الصفا والمروة

وإذا انتهى الحاج من طواف القدوم خرج إلى الصفا وسعى بينه وبين المروة سبعة أشواط، يبدأ بالصفا وينتهى بالمروة. والسعى بينهما مظهر من مظاهر الالتجاء والتردد بجانب بيت الله - بعد الطواف به - طلباً للمغفرة، والتماساً للعفو. وفيه بعد ذلك، استحضار لذكر الحالة التى كانت عليها السيدة هاجر وهى تطلب الماء والسقيا لها

ولولدها إسماعيل، فعرفت منبعه وقضت به حاجاتها، ثم كان سببا في عمارة هذا الإقليم وامتلائه خيرا وبركة. ولله قبل هذا وذاك أن يتعبد عباده بما يشاء بعد أن سكنت قلوبهم إلى أنه المعبود، كما تعبدنا في الصلاة بالاتجاه إلى الكعبة، وفي الدعاء إلى السماء.

التحلل من الإحرام

وللحاج بعد أن يتم سعيه بين الصفا والمروة أن يبقى محرما حتى يخرج إلى عرفة، وهذا مستحسن لمن ليس عنده وقت متسع. أما من كان لديه متسع من الوقت فله أن يتحلل من إحرامه بالحلق أو التقصير، وتكون الأعمال الماضية «الإحرام والطواف والسعي» عمرة له ثوابها. وعليه في تلك الحالة أن يذبح «هدى التمتع» وهو المذكور بقوله تعالى:

﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي ﴾

ويجوز له أن يذبحه بمجرد تحلله، ولا يجب تأخيره إلى يوم النحر، كما لا يجب أن يكون ذبحه في منى، وهذه مسألة يكثر الجدل فيها هناك بين أتباع المذاهب وبين الحجاج بعضهم وبعض. ولو ذبح المتمتعون بعد تحللهم وهم في مكة خف تكدس اللحوم في منى الذى كثرت منه الشكوى، وحاول به بعض الناس تغيير شرع الله في الهدى باستبدال النقود به.

الوقوف بعرفة

وإذا تحلل المحرم من إحرامه، بقى حلالا بمكة حتى اليوم الثامن من ذى الحجة، فيحرم بالحج كما أحرم في المرة الأولى، ويذهب إلى عرفة عن طريق منى بحيث يكون بها في اليوم التاسع، ويؤدى هناك فرض الوقوف بعرفة، والمقصود به الحضور مع التذكر والذكر، ولو قاعدا أو مضطجعا، ويكفى في صحة الوقوف، الحضور بعرفة في أى وقت من أوقات اليوم التاسع، من ظهره إلى طلوع فجر اليوم العاشر. غير أن مد الوقوف إلى جزء من الليل أكمل وأتم. والصعود على الجبل المعروف بعرفة «بجبل الرحمة» ليس بشرع حتى يتهافت الناس عليه، ويعرضوا به أنفسهم لخطر السقوط.

والوقوف بعرفة أهم مناسك الحج، حتى ورد عن الرسول «الحج عرفة» فهو موقف الضراعة الصادقة، موقف التجرد من الحول والقوة، موقف البعد عن المظاهر المادية، فيه تشرق عليهم ذكرى الماضي بأنوارها الوهاجة، فيستمعون بآذان القلوب إلى صوت الرسول محمد عليه الصلاة والسلام؛ يخطب آباءهم في أصلابهم؛ يحمل لهم رسالته، ويحثهم على صدق الإيمان، وكمال المعرفة بحقوق الله وحقوق العباد، وفيه تتم رسالة السماء الأخيرة، وينزل عليه قوله تعالى:

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾

(المائدة: ٣)

الوقوف بالمزدلفة

وإذا أتم الحاج الوقوف بعرفة، اتجه إلى المزدلفة، وهى المذكورة في القرآن باسم «المشعر الحرام» ويصبح في منى في اليوم

العاشر «يوم النحر» وفيه يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات، يأخذها من أى مكان شاء، ويحلق أو يقصر، ويذبح إن كان عليه ذبح، ويطوف طواف الإفاضة، والحاج مخير في تقديم أيها شاء، وقد ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسأل عن تقديم شيء منها أو تأخيره، إلا كان جوابه «افعلوا ولا حرج».

وله أن يؤخر طواف الإفاضة إلى ما بعد أيام النحر التى ترمى فيها الجمار الثلاث.

رمى الجمار

ورمى الجمار على العموم، ليس بفرض يبطل الحج بتركه، وإنما هو مطلوب على سبيل الوجوب، في جمرة العقبة التى ترمى وحدها في اليوم العاشر، وعلى سبيل السنة في بقية الأيام.

ورمى الجمار رمز عملي، يعلن به الحاج تصميمه على ترك نوازع النفس الشريرة، وتكريره تأكيد لهذا التصميم، وللحجاج أن ينتهزوا فرصة أيامه فيجتمعوا ويتشاوروا في منافعهم، ولا أساس لما يصور به بعض الناس هذا الرمى، ولا اعتداد به في حكمة تشريعه.

طواف الوداع

وإذا أكمل الحاج أعماله، وطاف طواف الإفاضة، وأراد الرجوع إلى بلده، قصد البيت الحرام، وطاف به طواف الوداع، وهو بمثابة استئذان في الانصراف وتجديد عهد الولاء، والإقامة على تلبية الله في شرعه ودينه، وبه يكمل الحج، ويرجع الحاج إلى أهله مزودا بالتقوى، طاهرا من الذنوب والآثام

﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾

(البقرة: ١٩٧)

الهدى من شعائر الله

الهدى: اسم للحيوان الذى يهدى باسم الله إلى الحرم، يذبح فيه، ويطعم منه الفقير والمسكين:

﴿ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾

(الحج: ٣٦)

وقد أرشد القرآن إلى الروح الذى يتقبل الله به الهدى، وهو روح الإخلاص وتقوى الله، شأن كل التكاليف لا تكفى صورتها:

﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾

(الحج: ٣٧)

﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾

(المائدة: ٢٧)

والتقرب إلى الله بذبح الهدى في الحرم، وإطعام الفقراء منه شرعة قديمة، تعبد الله بها عبادة الأولين، وفيها إحياء لسنة إبراهيم، وتذكير بنعمة الله عليه وعلى الناس بفداء ولده إسماعيل من الذبح الذى ابتلاه الله به، إظهارا لقوة إيمانه.

وهكذا ينبغى أن يكون إبراهيم وولده إسماعيل للمؤمنين المثل الأعلى، الذى يجب أن يتحلوا به في جميع الأجيال والعصور، وقد استمر التقرب به إلى الله كما رسم،

وكما فعل إبراهيم، حتى انحرف به القوم فيما انحرفوا به من مناسك الحج فذبحوا تقربا للأصنام. كما فعلوا بالتلبية، وقد خلصه الرسول محمد ﷺ، من شوائب الشرك وجعله باسم الله وحده، كما خلص التلبية وجعلها لله وحده، وبين أن الهدى يكون من الإبل والبقر والغنم، وشرط أن يكون سليما من العيوب التى تفسد اللحم، أو تقزز النفس:

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».

الهدى فى القرآن

وقد عرض القرآن للهدى فى ثلاث سور: سورة البقرة، والمائدة، والحج.

عرض له فى تلك السور من جهات ثلاث:

أولا - جهة التنويه بشأنه: طلبه وطلب الإخلاص فيه لله، وجعله من شعائره التى تجب المحافظة عليها، ويحرم إهمالها وإحلالها، ففى سورة الحج:

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

(الحج: ٣٦)

وفى سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾

(المائدة: ٢)

ثانيا - جهة الحالات التى يطلب فيها، وهى:

حالة الإحصار، وهو المنع عن إتمام الحج، وهى المذكورة بقوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

وقد طلب فيها عينا متى تيسر، ولم يخير بينه وبين غيره، كما لم يجعل له بدلا عند العجز عنه.

وحالة الاعتداء على الإحرام بفعل محظور من محظوراته، وهو المذكور بقوله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

وقد طلب هنا على سبيل التخيير بينه وبين غيره من صوم أو صدقة.

وحالة التمتع بالتحلل من العمرة إلى الحج، وهو المذكور بقوله:

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

وقد طلب هنا على أن يكون له بدل عند العجز.

وحالة الجناية على الحرم بقتل صيده، أو قطع شجره، وهو المذكور بقوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾

(المائدة: ٩٥)

وقد طلب هنا كما طلب فى حالة الاعتداء على الإحرام، على سبيل التخيير بينه وبين الطعام أو الصوم.

وكما عرض القرآن للهدى من جهتي التنويه بشأنه والحالات التى يطلب فيها عينا أو تخييرا، عرض له من جهة المكان الذى يذبح فيه:

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

(الحج: ٣٣)

﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾

(المائدة: ٩٥)

﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

والمراد، الحرم كلية، وقد صح عن الرسول أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة كلها منحر.

أما الوقت الذى يذبح فيه، فهو على العموم أيام النحر الثلاثة، أو مع أيام التشريق كلها، فيدخل اليوم الرابع، وليلاحظ هنا أن تعيين الوقت إنما هو لغير هدى الكفارات والنذر؛ لأنه لا يتقيد بوقت. كما يلاحظ أن هدى التمتع يجوز أن يقدم ذبحه على الوقوف.. بعرفة بعد الإحرام بالحج أو قبله بعد التحلل من العمرة.

الأسرار التى تنطوى عليها هذه المناسك

ولكل عمل من أعمال المناسك سر ينطوى عليه، ومعنى يرمز إليه، يجب أن يلتفت إليه المسلم، وهو يؤدى صورة هذه الأعمال.

فما الإحرام فى حقيقته - وهو أول المناسك - إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير فى جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذى ترى نعمه، ولا تدرك ذاته.

وما السعى بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعى إلا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية. وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة فى أرحم الراحمين.

وما الرمى بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزغات النفس، وإلا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

وما الذبح وهو الخاتمة فى درج الترقى إلى مكانة الطهر والصفاء إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة، ورمزا للتضحية والفداء على مشهد من جند الله

الأطهار الأبرار.

هذا هو معنى الحج فى حقيقته ومعناه، والعبادات كلها وإن اختلفت صورها، تلتقى عند غاية واحدة، وهى تحقيق معنى العبودية لله، بالإخلاص فى طاعته، والتوجه إليه وحده والاستعانة به وحده، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة.

ولكن الحج بزمنه اللافح قيظه وزمهريره، وأمكنته الناطقة بنور الله وهديه، وأفعاله التى يرجع بها المؤمنون إلى وحدتهم الطبيعية، القارة فى وجدانهم:

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

ـ إنسانية عابدة، أمام أحدية معبودة ـ أقواها وأعمها فى تحقيق معنى العبودية والإخلاص لله، لهذا جعل عنوان الشروع فيه، والشعار الذى يصحبه فى جميع مراحله، فيوجه القلب إلى الله، ويصرفه عما سواه. هذا النشيد الربانى الذى ينزع النفس من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء، يسجل به المؤمنون على أنفسهم، أسمى معانى الإخبات والخضوع والاستجابة لنداء مولاهم.

يسجلون به على أنفسهم الاعتراف بوحدانية الله وأحديته فى الملك والسلطان، فى الفضل والإنعام، فى التدبير والتصرف، فى استحقاق الفضل والثناء: لبيك اللهم لبيك، فأنا الواقف ببابك، المتسمع لأوامرك، المسارع لإجابتك، والمقيم عليها دون تحول أو تردد، وأنت الواحد الأحد، الذى تلبى دعوته، وتهرع النفوس إليه، أنت الواحد الأحد، رب النعمة التى لا تحصى ولا تكفر، رب العزة التى لا تذل، رب القوة التى لا تعجز، رب السلطان النافذ فى السماء والأرض، سبحانك، لا إله إلا أنت: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

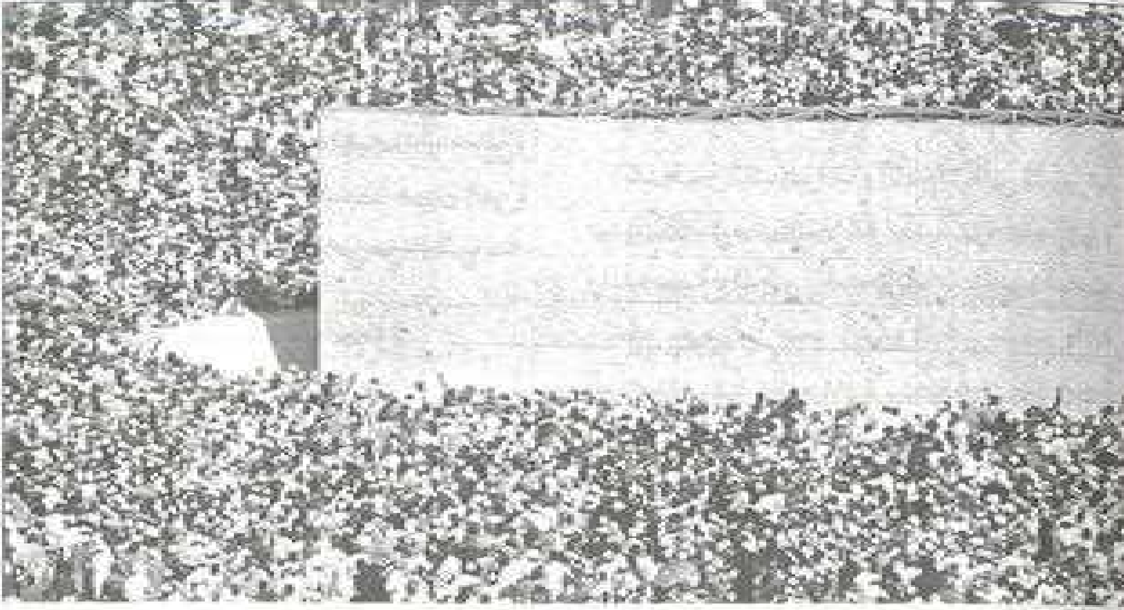
الحج مؤتمر إلهى كريم

والحج باعتبار مكانته فى الإسلام، وغايته المقصودة منه للفرد والجماعة، جدير أن يتجه إليه رجال العلم والرأى، ورجال التربية والثقافة، ورجال النظام والإدارة، ورجال المال والاقتصاد ورجال الشرع والدين، ورجال الحرب والجلاد.

جدير أن تفد إليه الطبقات ذات الرأى والحزم، ذات النظر والاجتهاد، ذات الإيمان الصادق والأهداف السامية، التى يجب أن يقصدها المسلمون فى حياتهم، جدير أن يتجه إليه هؤلاء جميعا، فتراهم وقد نشرت عليهم مكة أجنحتها، وجمعتهم بكلمة الله، حول بيت الله، يتعارفون، ويتشاورون، ويتعاونون، ثم يعودون إلى بلادهم أمة واحدة، متحدة القلب، متحدة الشعور والإحساس.

الأفئدة فى دعوة إبراهيم

ولعل فى هذا ما يكشف لنا عن المراد بالأفئدة التى جاءت فى دعوة إبراهيم عليه السلام، حينما أكمل البيت ورفع قواعده، وأسكن من ذريته بواديه:



﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

فإن كلمة أفئدة، لا تعنى مجرد الأشباح التى تروح وتغدو، والتى لا تعرف من معنى الحج، سوى أعماله الفردية، وسوى زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما تعنى الأرواح والقلوب التى تقدر ما يجب أن يكون لهذا الاجتماع الحاشد ـ فى أمكنة الذكريات الأولى، وفى ظل عبادة الله ـ من أهداف تجمع قلوب الموحدين على خطط الحياة العزيزة، كما جمعت أشباحهم العبادة والذكريات.

شهود المنافع

ولعل هذه الأهداف هى أول ما لفتت إليه الآية الكريمة التى تضمنت دعوة الناس إلى الحج:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

(الحج: ٢٧ ـ ٢٩)

فالمنافع التى جعل الحج سبيلا لشهودها والحصول عليها وهى أول ما ذكر فى حكمة الحج ـ عامة مطلقة، لم تقيد بنوع دون نوع، ولا ناحية دون ناحية، وهى بعمومها وإطلاقها، تشمل كل ما ينفع الفرد والجماعة، ويصلح شأنهما فطهارة النفس، والتقرب إلى الله، منفعة، والتشاور فى رسم خطط العلم والثقافة، وفى جمع الكلمة على تركيز الدعوة، والعمل على إظهار الإسلام بسمحاته وأحكامه الرشيدة، منفعة، وإعداد العدة لنسج خيوط الشخصية الإسلامية، ثوبا

واحداً، منفعة وأى منفعة، وامتلاء القلوب بمبدأ المحافظة على تلك الشخصية من التحلل والذوبان، منفعة، وهكذا تتعدد المنافع وتتنوع على حسب مقتضيات الأحوال التى توحى بها الأزمنة ومواقف الناس من الناس.

طيش عالمى يجب اتقاؤه

ولقد جدت فى البشرية آراء ومذاهب فى الدين، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وبدت فى آفاق القوة الغاشمة، أسلحة جديدة أعدت للتخريب والتدمير وترويع الإنسانية، وتجلت مطامع الجشع الإنسانى فى صورها البشعة الكريهة.

ولابد - احتفاظًا بدعوة الحق، دعوة السلام والإصلاح الإلهى - أن يكون للمسلمين بإزاء هذا الجديد، اجتماع عام شامل، يحددون فيه موقفهم ويشهدون به منافعهم التى تقيهم، وتقى العالم، شر ذلك الطيش الذى يقضى على الأمن والسلام، ويلتهم الفضائل والتدين الحق.

وإذن، فمنافع المسلمين اليوم التى يتخذ الحج سبيلا لشهودها، لم تبق فى دائرتها الأولى، دائرة المنفعة الروحية الفردية التى عمادها فى الأذهان، مجرد فعل المناسك حول بيت الله الحرام، ألا وإن أبرز ما تصدق عليه كلمة «منافع» فيما بين المسلمين، أن تتحد كلمتهم وشعورهم فيما يجب أن يتخذوه - بحكم دينهم وإيمانهم - أساسًا لحياتهم، وهو الاعتصام بحبل الله:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

مقتضيات الاعتصام بحبل الله

والاعتصام بحبل الله، يقضى أولا:

بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها بينهم العصبيات: القبلية، والجنسية، والمذهبية، تلكم العصبيات التى دفعت وتدفع بهم إلى جمر التفرق عن سبيل الله الواضحة، وتجعلهم فلولا، يستعين ببعضها العدو المشترك على باقيهم، ويقضى على الجميع.

والاعتصام بحبل الله يقضى ثانيا:

بالنظر السريع فى تنقية العقائد والأعمال بيننا، مما يشوبها من صور الشرك والابتداع، الأمر الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا: إن الإسلام ليس دينا واحدا، وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب، فلتركيا إسلام، وللعراق إسلام، ولإيران إسلام، ولباكستان إسلام، ولمصر إسلام، وبلاد المغرب إسلام، وللحجاز إسلام، وأى إسلام من هذه، هى إسلام محمد وإسلام القرآن؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا، فالإسلام وحدة فى العقيدة والعمل، تعرف عناصرها من كتابه المبين الواضح، وما هذه المظاهر المختلفة التى نراها فى الجماعات الإسلامية إلا أثر من آثار الانحراف البشرى فى فهم المصادر بما توحيه العصبيات الكريهة، وما ينبغى أن تكون حالة المرضى الذين انحرف المرض بطبيعتهم، مصدرا سليما لمعرفة تلك الطبائع، وإذن فعلينا، ونحن المرضى، أن نعالج أنفسنا من هذه العلة، حتى يعود إلينا النقاء والشفاء، وعندئذ تكون أحوالنا وشئوننا مصدراً حقا لقدسية الإسلام وصلاحه، كما هو واضح فى

كتابه:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

(الإسراء: ٩)

والاعتصام بحبل الله يقضى ثالثا:

بالعمل الجاد السريع فى إبراز أهداف القرآن، بتفسير سهل واضح، ويكون خاليا من الإسرائيليات، والخلافات المذهبية والتطبيقات الغريبة التى اتصلت به، وحشرت فى تفسيره حشرا، شغل الناس بها، عن معرفة هدايته وإرشاده، وأن يطبع ذلك التفسير بلغات العالم المختلفة، ثم يوزع على سائر الأقاليم، ليتبين الناس عن كثب حقيقة الإسلام، ويعرفوا دعوته على وجهها الصحيح، وعندئذ تبوء بالإثم هذه الأقلام المأجورة على الدعايات السيئة، ضد الإسلام وجماله.

والاعتصام بحبل الله يقضى رابعاً:

بوضع نظام محكم لنشر الدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم، يكون أساسه الإعداد القوى لطائفة من الدعاة والمرشدين، مزودين بالنضج الفكرى والمعرفة الصحيحة، واللغات الأجنبية، وأساليب العرض الملائمة، وذلك وراء إلمامهم بمواقع البلاد التى يوجهون إليها، ونفسيات أهلها. وعقائدهم وتقاليدهم، وسائر شئونهم حتى يستطيعوا أن يتبوأوا فيما بينهم مكانة المواطن الحريص على خير مواطنيه، وأن يتخذوا فى دعوتهم إلى الخير سبيل الحكمة التى أمر الله بها فى كتابه.

والاعتصام بحبل الله يقضى خامساً:

بالنظر السريع الجاد فى تنسيق شئون الاقتصاد فى الجماعات الإسلامية، ويكون ذلك بتأسيس منظمة إسلامية اقتصادية مهمتها: تنظيم التبادل الاقتصادى، وسد حاجات الجماعات الإسلامية، بعضها من بعض، حتى لا يكون للمستعمر، أثر فى اتخاذ هذا الجانب سبيلا لاستنزاف ثروة البلاد الإسلامية وتثبيت أقدامه فيها، ثم الحيلولة بيننا وبين الحصول على ما يحفظ كياننا ويرفع مستوانا.

والاعتصام بحبل الله يقضى سادساً:

صونًا لهذه المبادىء، بالنظر فى تكوين قوة حربية عليا، ذات تعليم واحد، وقيادة واحدة، على أحدث ما يعرفه أهل الحرب فى هذا العصر، لا لتخرب وتدمر، ولا لتستعبد ولا لتستعمر ولا لتسلب الناس أوطانهم وأموالهم وأمنهم، وإنما لتدفع شر الاعتداء، وتخلص الرقاب المسالمة من أيدى المعتدين الظالمين، ولا ريب أن قيام تلك القوة، المحوطة بقلوب المؤمنين، من أقوى وسائل السلم المسلح الذى أمر الله به وأرشد إليه فى كتابه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(الأنفال: ٦٠)

هذه هى جهات المنافع التى تتوقف عليها حياتنا، والتى يجب أن تفسر بها الآن قوله تعالى فى حكمة الحج:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

وإن تفصيلها ورسم خططها والإيمان بها يتطلب اجتماعا فى ظل روحية صافية، وليس ذلك إلا فى اجتماع الحج ومؤتمره الإلهى الكريم.

أين مؤتمرنا السنوى؟

ليس لنا اجتماع سنوى عام يجب أن تهرع إليه من جميع الأقطار - بحكم الدين، لا بحكم المطامع، وبدعوة الأشخاص - سوى هذا الاجتماع.

ألا وإن مسارعة القادرين أرباب الرأى والحزم، إلى حضوره لمعالجة شئوننا لأجدى علينا وعلى الإنسانية كلها من مسارعتنا لحضور مؤتمرات لا يعرف من آثارها، سوى الاجتماع على موائد الطعام والشراب، وسوى تبادل التحيات وكلمات القدوم والانصراف. ثم يكون الانفضاض، والظلم هو الظلم، والاعتداء هو الاعتداء.

إن تشاورنا فى إعداد العدة لإبراز المنافع التى يقتضيها الاعتصام بحبل الله، لأجدى بكثير علينا وعلى ديننا، من إعداد العدة لمعرفة قوانين الغرب وفلسفة الغرب، وآداب الغرب، وتقاليد الغرب، فنحن لا نجنى من وراء ذلك كله قبل تركز حياتنا، سوى ضياع شخصيتنا والثقة بأنفسنا.

توجيه وتقريب

ليس من المعقول - ولله الحكمة البالغة - أن يكون القصد من هذا الاجتماع مجرد أن يطوف المؤمنون بالبيت، وأن يقفوا فى عرفات، فإن الله يعبد فى كل مكان، ويجيب الداعى فى كل مكان:

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١١٥)

وإنما الحكمة كما أفصحت عنه آية للحج، أن يجتمع الموحدون فى زمن واحد ومكان واحد، ليشهدوا منافعهم، وليزيلوا تفثهم. أما المنافع فسبيلها ما ذكرنا، وأما إزالة التفث، فليس الأمر فيها قاصراً على إزالة أدران البدن من شعث السفر. وإنما هو تنبيه بالأدنى، وهو درن البدن على الأعلى وهو درن العقل ودرن الجماعة، فدرن القلب: وقوعه تحت ضغط الشهوة والهوى ودرن العقل: وقوعه تحت ضغط الشكوك والأوهام، ودرن الجماعة: وقوعها تحت سيطرة الجهل والفقر وتحت سيطرة الغاصبين.

وإذن، فإزالة التفث، تخلية عما لا ينبغى للفرد والجماعة، وتحصيل المنافع، تحلية بما ينبغى للفرد والجماعة، والحج قد شرعه الله، سبيلا لتلك التخلية، وهذه التحلية وهكذا كان الحج فى زمن الرسول، كان حينما خرج إليه المسلمون أول مرة فى السنة التاسعة تحت إمرة أبى بكر رضى الله عنه، إذ تلا على بن أبى طالب - نائبا عن الرسول - أوائل سورة التوبة، وفيها تطهير البيت من المشركين، وكان حينما خرج إليه الرسول فى السنة التالية، العاشرة بعد أن نفذت مواد التبليغ الإلهى السابق وفيه سمعوا من الرسول عليه الصلاة والسلام. أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجعن بعدى كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى.. كتاب الله.

الحج



بقلم: الأستاذ محمد فريد وجدى

الدين الإسلامى كله أسرار وعجائب، ويكفيك دليلاً على كونه أكبر آيات الله فى هذا العالم أنه تعالى كوّن به فى بضع وعشرين سنة أمة أحدثت فى الوجود أكبر وأعظم الحوادث الاجتماعية والانقلابات العمرانية، وتربعت فى دست خلافة الله فى الأرض قرونا كثيرة كانت فى خلالها أعجوبة العالم الإنسانى دنيا ودينا، ورفعت أعلام الحرية والإخاء والعلم إلى أعلى ما يصل إليه إمكان البشر، ولم تزل لليوم حية قوية، وإن كانت كامنة كمونا وقتيا يظهر من ذلك انتشار نفوذها الروحانى فى كل الأمم بصفة تبشر بضرورة رجوعها إلى مجدها القديم والقبض على زمام أمور النوع البشرى كله بتلك اليد الرحيمة التى خلصته بها من قتلة عواطفه من قبل.

كل أصل وركن وفرض وسنة من هذا الدين تحته أسرار وأنواع تعوز الدرس الطويل والشرح الضافى والبحث العميق، ويدل عليه دلالة محسوسة انتقال العرب بمجرد العمل بها من حالتهم الأصلية إلى حالة أخرى أقل ما يقال فيها إنهم أصبحوا بها مثلاً يضرب فى الفضائل فى جميع الأمم حتى أعدى أعدائهم. وإنا لنرى بأعيننا أن العالم الغربى مسوق بدوافع الطبيعة ونواميس الحياة إلى العمل بتلك التعاليم والاهتداء بنورها فى حوالك أحوالهم، وإن كان متطرفوهم قد غالوا فى التشهير عليها ووصموها بما هى بريئة منه.

هذه مسألة الطلاق التى طالما حاولوا أن يغضوا بها من أبصارنا، ويحطوا من كرامتنا قد التجأوا أخيراً إلى عدها علاجاً شافياً لكثير من المفاسد العائلية التى لها أسوأ أثر فى كيان الهيئة الاجتماعية، وقد أصبح لديهم محاكم مخصصة للتطليق فى كل بلد متمدنة(١).

وهذه مسألة تعدد الزوجات التى كانوا يتفكهون بترددها على ألسنتهم فى مجالسهم الخاصة والعامة أصبحت الشغل الشاغل لبعض أفرادهم ممن يبحثون فى ذلك الجيش الجرار من النساء اللاتى أصبحن لا عائل لهن وصرن عرضة للفساد

(١) انظر كتابنا المرأة المسلمة.

الخلقى الشديد الوطأة على النوع البشرى[٢].

وهذه مسألة الصيام التى كان يعدها سوادهم الأعظم وبعض الأغرار منا من الويلات الكبرى على الجسد والعقل معا، أصبحت اليوم لديهم أكسيرا كبيرا يداوون به الجبن الأدبى وفقد عزيمة الرجولية، وقد ألفوا فى ذلك الكتب الضخمة، إليك ما قاله عنه الدكتور (جبهاردت) في كتابه: (كيف يكون الإنسان قوى الإرادة) ردا على الذين يتوهمون أن فى الصيام ضررا، قال: «لا نشك فى أن معترضا سيعترض علي هذا العلاج الصومى ظانا أن فى الأخذ به ضررا على الصحة، وهو اعتراض لا أساس له البتة، أما من حيث الصحة والطب فإن الصيام من العلاجات التى يجب الأمر بها والاعتراف بعظم فوائدها»، إلى أن قال متابعا فى ذلك الدكتور (ستوهر): «إن من الناس من كبر وعاش مقتنعا بأن طينته أرق وألطف من طينة غيره من الآدميين، ومع ذلك فإن المراقب لأحوال أمثال هؤلاء الناس لتأخذه الدهشة إذا وقف على هذا المعني الذي لايحل وهو أنه بينما يري الواحد من هؤلاء قد يقع علي الأرض من الضعف والهزال إذ لم يقدم إليه ما اعتاده من كأس المرق يراه قبل بضعة أيام قد احتمل أعباء الرقص وتكاليفه بغاية النشاط والجلد طول الليل لغاية الساعة الأولى صباحا».

أما الحج فلم يوجد بينهم فى أى عصر من العصور من يطعن على تشريعه لوضوح فائدته وسطوع حكمته ولما له من الأثر الظاهر فى بقاء جامعة المسلمين حية لليوم، وليس أحد يستطيع أن ينكر الفوائد المادية والأدبية التى تنجم من اجتماع العناصر المختلفة من أمة كبير كالأمة الإسلامية فى صعيد واحد، من يريد أن ينكر ذلك فلينظر حتي في كتب أعداء الإسلام وما كتبوه عن الحج من أنه مثار الوحدة الإسلامية والباعث إلى نفوس الآخذين بهذا الدين روح الانضمام والتآلف، وبما أنهم لا يريدون وجود تلك الوحدة التى تحول بينهم وبين فصم جامعة المسلمين، فتراهم يرون فى الحج خطرا دائما على مشروعهم فى حل تلك الجامعة حماها الله.

الإنسان جسد وروح وهما قائمان على قسطاس من العدل الإلهى بحيث إن صلاح أحدهما أو فساده ينال الآخر لا محالة، فشرع الله دينه على كيفية بها كل أصل فيه يفيد كلا من هذين الجوهرين فائدة تلائمه ليقوم الإنسان بهذا الدستور الإلهى الأقوم على صراط الفطرة الصحيحة:

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦)

الحج هو اجتماع الألوف المؤلفة من المسلمين، المبعثرين فى سائر أرجاء العالم، المختلفين فى الأجناس واللغات، فى بقعة واحدة ملبين بالروح والجسم معا نداء ربهم، وهم من بساطة الملبس، والتساوى فى الدرجات على صورة لا توازيها صورة فى أى شرع من الشرائع ولا مدنية من المدنيات الأرضية وهم بين أمير ومأمور، وحاكم ومحكوم، وعربى وتركى، وأفغانى وفارسى، وهندى وسودانى، وحبشى وصينى، وأوروبي، وأوقيانوسى؛ وبين أبيض ناصع، وأصفر فاقع، وأحمر قاتم، وأسود فاحم، والكل شخوص بالأعين والأفئدة إلى نقطة واحدة ليس في ضمائرهم إلا موضوع واحد: تركوا الأهل والوطن، وهجروا المال والسكن، خاضوا غمرات البحار الزاخرة، واقتحموا الصحارى الغامرة، لعبت هوج الرياح بهم تارة على السفائن، ولفحتهم لوافح السموم طورا فى السباسب، خلعوا عاداتهم وتقاليدهم، وغيروا لباسهم ومآكلهم، وصعدوا وهم على هذه الصورة التجريدية على سطح جبل يضم أشتاتهم ويلم جمعهم، فماذا يكون من أثر هذا الموقف المهيب عليهم، وماذا تكون نتيجة هذا المنظر الفخم على أفئدتهم وأرواحهم؟

لا شك أن تركز كل الأشعة المنبعثة من صميم معانيهم إلى غرض واحد ونقطة مشتركة، وهم على هذه الصورة من المساواة والبساطة على قمة ذلك الجبل الذى وقف عليه قبلهم بناة مجد هذه الأمة الكريمة من الشهداء والصالحين والعلماء العاملين والأولياء المقربين وفوق هؤلاء كلهم خاتم النبيين محمد الأمين ﷺ.

كل ذلك يوحى إلى سرائرهم، وينقش فى صميم روعهم، ويصور لهم فى لباب فطرهم، حقيقة معنى (الله أكبر) وناهيك برجل (يعتقد) أن الله أكبر.

من يعتقد أن الله أكبر، لا يرضخ للذل، ولا يستكين للعبودية، ولا يلين قياده فى يد غاشم، من يعتقد أن الله أكبر لا يخاف بطش العوادى، ولا يرهب قرع الحوادث، ولا ترتعد فرائصه من نازلة مهما عظمت، من يعتقد أن الله أكبر لا يستعظم الأقوياء، ولا يكبر الأعلياء، ولا يستخذى للكبراء.

من يعتقد أن الله أكبر، لا ينسحر بمدنية، ولا يؤله أى قوة أجنبية، ولا ييأس من بلوغ أمته أقصى المكانات العمرانية.

من يعتقد أن الله أكبر، كان رجلا صحيحا، وإنسانا تاما، وفاضلا صرفا؛ لأن من يعتقد أن الله أكبر لا يستبد ولا يتكبر ولا يتجبر، ولا يعجب بنفسه وهى من كبرى مهلكات الإنسان، ثم لا يسرف؛ لأن باعث الإسراف حب التفرد وكيف يتفرد والله أكبر، ولا يقتر؛ لأن موجبه خوف الفقر وكيف يخافه والله أكبر، والخلاصة أنه لا يقارف دنيئة سواء كانت معنوية أو حسية لأن مثيرها إرضاء الهوى، وكيف يرضى هواه من يعتقد أن الله أكبر!

نعم من كان يعتقد أن الله أكبر على هذه الصورة كان مسلما حقا، ولو قلت إن الذى سما بهمم آبائنا الأولين، فرفعهم فى بضع وعشرين إلى أعلى عليين هو محض اعتقادهم أن الله أكبر لما كنت مغاليا فى المقال، ولا ذاهبا بالقارئ مذهب الشعر والخيال.

يقولون إذا كان هذا أثر الحج فأين نحن منه اليوم؟!

قلنا إن أركان الإسلام كلها مرتبطة ببعضها ولا يغني شئ عن شئ منها وقد ترك المسلمون كل تلك الأركان وبعضهم يأتيها صورة لا حقيقة فكيف تؤثر فيهم هذا الأثر الباهر الذى أحدثته فى آبائنا الأولين الذين كانوا يراعونها على حقيقتها؟

(٢) انظر كتابنا المرأة المسلمة.

الحج

الجوانب الاجتماعية ووحدة الشعوب الإسلامية




أ.د. محمد عبدالله دراز

ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإسلامى، تلك هى الطبيعة الثنائية المادية الروحية والإنسانية والفردية الاجتماعية التى تسرى باطراد فى شعائر الإسلام، حتى أرى كل قاعدة من قواعدها الأربع تمثل قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين، ظاهرة مطردة، كلما ازددنا فى دراستها إمعانًا، زادتنا إيمانًا بأن الذى فصل هذه الشريعة على مقياس الإنسان هو الذى فطر الإنسان روحًا فى مادة، وفردًا فى جماعة.

هذه الطبيعة الثنائية قد تكون جلية واضحة، فى بعض الشعائر، دقيقة عميقة فى البعض الآخر، ولكنها فى شعيرة الحج أوضح وأجلى منها فى سائر المواطن.

ولا نريد أن نطيل فى وصف الجانب الروحى من هذه المأدبة الكبرى التى أعدها الله للمؤمنين عند أول بيت وضعه للناس، فذلك الجانب الروحى منها مثار الانبعاثة الأولى فى قلب كل مؤمن يريد أن يلبى هذه الدعوة، ألا تراه حين يتفرغ لها من مشاغله وشواغله، ويفارق من أجلها أهله ووطنه، مضحيًا بماله ووقته وراحته، متجردًا حتى من ثيابه وزينته، محتملا فى هذه السبل كل وصب ونصب، إنه يرى فى ذلك كله مرضاة لربه، ومطهرة لذنبه، وبرهانًا على الإيمان، وزادًا من التقوى، حتى إذا بلغ غاية سفره فأطل على الحرم الأمين، ثم وطئت قدماه مهبط الوحى الأول، أحس هنالك بشعور عميق من السكينة والطمأنينة، ثم أحس برباط وثيق من القرابة والنسب، ينتظم به فى أسرة النبيين والصالحين الذين رفعوا هذا البنيان منارًا وهدى للناس، أو الذين اجتذبهم إليه نوره وهداه، حتى إذا قضى مناسكه، وأتم شعائره شعر كأنه خلق خلقًا جديدًا، وعاد بريئًا طهورًا كيوم ولدته أمه.

غير أن هناك بونًا شاسعًا بين فكرة

العمرة، وفكرة الحج، فلو أن امرءا أدى مناسك العمرة كلها منفردًا، فى أى وقت يحلو له من أوقات السنة، دون أن يرى أحدًا، أو يشارك أحدًا فى حل أو ارتحال، لأدى شعيرتها، وفرغت ذمته منها، ومن هنا يتجلى ما فى العمرة من طابع الروحية الفردية، التى تتسم به فى الأعم والأغلب، نوافل العبادات، أما شعيرة الحج فريضة كانت أو نافلة فقد حدد الإسلام لها أشهرًا معلومات، وعين لمناسكها أيامًا معدودات، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من تلك الأيام المعدودة، بحيث لو فاتت فلا قضاء لها، بل قد يجب العود لها من عام قابل!

هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك، فى وقت واحد، وفى صعيد واحد، بل فى زى واحد، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة فى كل موسم، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية، مجتمعة فى ميقاتها من كل عام.

هذا العنصر الجمعى هو إذن ركن ركين، وعنصر أساسى أصيل، من دونه لا يكون الحج حجًا، ولا يقع فرضًا ولا نفلا، ولقد حرص الإسلام على هذا التجمع فى الحج حرصًا يفوق كل حرص، وجعله هو الحلقة الختامية العليا كل عام يتوج بها سلسلة التجمعات المحلية التى دعا المسلمين إليها فى مختلف المناسبات: دعا أهل المحلة أو الحى الصغير إلى التجمع فى أقرب المساجد خمس مرات كل يوم، ثم دعاء أهل القرية أو الحى الكبير من المدينة إلى التجمع فى مسجدهم الجامع مرة فى كل جمعة، ثم دعا مرتين لصلاة العيدين.. مراحل متصاعدة، تنمو فيها روح الجماعة شيئًا فشيئًا، ويتضخم مظهرها رويدًا رويدًا، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسلامى الكبير مرة فى كل عام، حول أول بيت وضع الناس.

ما سر تلك العناية البليغة، بهذا التجمع الموسمى الأكبر؟.

لقد كان مقدرًا للإسلام أن ينتشر نوره فى الآفاق، على مختلف الأقطار والأقاليم، ولقد رأيناه بالفعل يبسط جناحيه على الأرض يمينًا وشمالا حتى أتى على نهايتها فى أقصى الشرق، وفى أقصى الغرب، ثم رأيناه فى الاتجاه الرأسى يمد قطبيه ما شاء الله أن يمدهما فى الشمال وفى الجنوب، ولئن كان قد توقف سيره بعض الشىء فى هذا الامتداد الرأسى لقد كان ذلك العارض وقتيًا، إذ وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية، لو رفعت من طريقه لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها، ذلك أن الإسلام فكرة سائغة، وشريعة عادلة، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر، لا يصادف أرضًا مطمئنة إلا غمرها وعمرها، أيًا كان جوها وأيًا كانت تربتها، وهكذا انفتحت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها، على تنائى أقطارها، واختلاف ألسنتها وألوانها، وأنظمتها وعوائدها وموروثاتها، فلو أن الإسلام رخص لكل أمة قبلت دعوته فى أن تبقى حيث هى محصورة فى نطاق حدودها لا تدرى ما يجرى وراء تلك الحدود، من أنظمة وآراء، أو أنها تسمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها، إن صدقًا وإن كذبًا، لو أن الإسلام رخص بذلك، لأفسح إذن الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات

الاجتماعية الخاصة بكل قُطر، لتركها تربوا وتنمو، وتتبلور وتتجمد حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة، بل عقيدة في قلب العقيدة، وإذن لأصبحت الوحدة الإسلامية وحدة إسمية نظرية، ولعادت شعوب الإسلام جماعات متنافرة متناثرة، لا قدر الله.

كان من الضرورى إذن لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية أن يفرض على الشعوب الإسلامية نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاوز والتزاور، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية إلى التماثل والتشابه، أو على الأقل إلى التقارب والتناسق إذ يكون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن جميل، وتهذيب ما هو شاذ متطرف، ويكون في الوقت نفسه تدريبًا عمليًا على التسامح والإغضاء عن الفوارق الشكلية التى لا يخشى أن تحدث صدعًا في كيان الجماعة العظمى.

ماذا عسى أن يكون هذا النظام؟.

نفرض على كل قطر أن يُوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر، للوقوف على سير عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عبادتها ومعاملاتها، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر.

يالها من ضريبة قاسية، ومهمة شاقة عسيرة!. أليس من الخير واليسر أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد؟، أو ليس من خير الخير وأيسر اليسر، أن يكون هذا البلد في صرة الأرض على بُعد متناسب من كل أقطارها، وأن يكون هذا البلد، هو البلد الآمن الذى يلجأ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون؟ وأن يكون هذا البلد هو البلد المحروم من ثمرات الأرض الأحق بالبر والرفد وهو البلد الذى للإسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور، منذ قال إبراهيم (عليه السلام):

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم/ ٣٧).

أو ليس من تمام الحكمة أن يكون هذا البلد هو المكان الذى نزل فيه القرآن، والذى يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب ألفة ما بلغها العرب التى ينبغى أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية؟

وأخيرًا، أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد هو البلد الذى فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم: مطافهم ومسعاهم، وموقفهم ومرماهم؟.

هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوى في مكان يُوفون فيه حق دينهم ودنياهم معًا، كما قال، جلت حكمته:

﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾

(الحج/ ٢٧-٢٨).

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾

(الحج/ ٢٨)..

ما أعجب هذه الكلمة! ما أوجزها! وما أجمعها! إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة، والحرب والقانون. والعرف، واللغة، والآداب، والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التى تتأثر أعظم التأثر بهذا الاتصال والتلاقى، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأوانى المستطرقة، فتأخذ في التوازن والتعادل طلبا للوصول إلى مستوى واحد.

ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبى الذى لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟، أليس يجب أن يتقدّموا خطوة إيجابية، توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة؟، بلى، لقد آن للأُمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة، والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التى يرون منها نموذجًا مصغرًا في هذه الرحلة المقدسة.

- ٢ -

هل أنت قريب عهد بالاطلاع على خريطة العالم الإسلامى، وعلى موقعها من الخريطة الجامعة؟.

إن لم تكن قريب العهد بها فإننا نعيدها إلى ذاكرتك، ونقرب لوحتها إلى خيالك، حتى كأنك تراها رأى العين.

جاوز ببصرك منطقة الثلوج المتجمدة في شمالى القارات الثلاث، وجاوز ببصرك من الناحية الأخرى منطقة الثلوج المتجمدة في جنوبها وتخط كذلك المناطق المتاخمة لهاتين المنطقتين، أو القريبة منها.. فإذا جاوزت هذين الطرفين في أعلى الخريطة الجامعة وأسفلها فأقبل على الرقعة المتوسطة بينهما، مبتدئا من أقصاها في المغرب على شاطئ المحيط الأطلسى متجها نحو المشرق، وانظر ما ترى.

إنك سترى رقعة فسيحة الأرجاء متلاحمة الأجزاء، تصطبغ بلون واحد، وترتسم أمامك في صورة طريفة تستوقف النظر وتستأثر بالانتباه، إنها صورة جمل ضخم، قد برك على الأرض بمؤخرته، ولكنه أخذ يهم بالنهوض، فنصب ساقيه الأماميتين، ورفع رأسه ومد عنقه، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل، وتدلى من عنقه حبل ثان، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث، كأنه المقود في يد الراكب، أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الأفريقية، أعنى كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر المتوسط والبحر الأحمر، وأما ساقاه الأماميتين فهما الصومال وأوغندا، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال.. وأما عنقه ورأسه الممتدان في قلب القارة الأسيوية فهى بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسياوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادى أمام الجزر اليابانية وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادى والهندى وهناك تؤلف مجموعة الجزر الأندونيسية، وأما المقود الذى يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوربية تبتدئ من الأقطار التركية، وتسير في اتجاه شمالى غربى حتى تصل إلى قرب بحر البلطيق.

الجوانب الاجتماعية في وحدة الشعوب الإسلامية

دع عنك الآن هذه التفصيلات الجزئية وألق على الخريطة نظرة عامة جامعة، أرأيت الكتلة العظيمة المعترضة في صلبها من الغرب إلى الشرق، وسطًا في موقعها بين الشمال والجنوب، وسطًا في جوها غالبًا بين البرد القارس والحر اللافح؟.

في هذه الرقعة الوسط، وفي الجو الوسط، تستوطن الشعوب الإسلامية التي جعلها الله أمة وسطًا، وسطًا في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود، وسطًا في شريعتها، نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب، والمثالية الذاهلة العقل، وسطًا في مطامحها بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة، والحرص والجشع، وسطًا في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط السلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها.

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة. وحدتين لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامي. كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية من شئون الاقتصاد والإنتاج، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعا ينشر فيها الرغد والرخاء، ويحقق لها الاكتفاء الذاتي والاستغناء عما سواها.

وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب الإسلام في ألسنتها وألوانها، وفي مذاهبها وعاداتها، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية، وأن توجه رءوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمي والأدبي، ورءوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية. وأن توجه جيوشها إلى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها. فكلما اشتكى من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية.

نعم، لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشًا وأعظمها قوة، وأتمها عزة.. فياليت شعري. ما الذي قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية. وبعد أن وضع الإسلام في يدها مفاتيحها الروحية؟.

لقد كاد المجال يكون فسيحًا في الجواب عن هذا السؤال، وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود لو كان الإسلام اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادئ، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ الذين تتسع آفاقهم، حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامي في نظرة، ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته في فكرة.

ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة عبء جسيم لا يسعى إلى حمله طائعًا مختارًا من بين هؤلاء الأفذاذ، إلا عبقري يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية في هذا العالم. أما الجماهير والدهماء، فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو أقليمه، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته، أو نطاق حرفته.

فالرجل الذي لم ير في حياته هنديًا ولا صينيًا ولم يعرف روسيا ولا تركيًا، ولم يعامل صوماليًا ولا سنغاليًا، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم، وأن يهتم بشئونهم وشئون أقوامهم؟.

ألا فقد أبطل الإسلام هذه الحجة. وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار. إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية. ولكنه وضع إلى جانبها نظامًا إلزاميًا. وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزًا في بقعة.

أتدري ما هذه البقعة؟. إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب. إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة، البيت الحرام، ومكة البلد الحرام، ومنى معسكر الحرام، وعرفة، عتبة باب الحرم، ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته ومبعث نشاطه في فتوته.

جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتما على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا، ولو مرة في حياته فليس لأحد منهم إذن أن ينطوي على نفسه في قطره وإقليمه، وأن يقول: إني لم أر في حياتي مشرقيا ولا مغربيا. إنه يجب عليه دينيا أن يرحل ليرى ويسمع، وليندمج في هذه الكتلة الإسلامية الكبرى، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة، فإنه لا يباح لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الإسلامية هنالك في كل عام في وقت واحد في صعيد واحد، بل في زي واحد، وأن ينشدوا جميعًا نشيدًا روحيًا واحدًا، تردده معهم الجبال والأكمات، فتتجاوب أصداؤه، في قلوبهم، وتنصهر نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد.

تلك هي تجربة الوحدة الروحية، تكملها وتتوجها الوحدة الاجتماعية، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب، ولكنه - كما سبق البيان - جعله في الوقت نفسه قيامًا للناس وموسمًا لتبادل مصالحهم، في مختلف وجوهها وأنواعها. بل إن لأمر ما جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج. ألا تسمع إلى قول الله - جلت حكمته -:

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾

(الحج/ ٢٨).

إنه تطبيقًا لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة، وأن يمكثوا هنالك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية متكشفًا كل منهم عن زيه ومهنته، وجنسه ولهجته، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا، وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى تبرز بينهم صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر، المؤتلفة الجوهر.

هل فقه الناس إذن مغزى هذه الشريعة؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع، وعلى مقياس حقيقي مبكر؟.

فقهنا الله في أسرار شريعته، وأدبنا بآدابها.. آمين.

سألت نفسى!





د/ مصطفى محمود

سألت نفسى عن أسعد لحظة عشتها..؟

ومر بخاطرى شريط طويل من المشاهد.. لحظة رأيت أول قصة تنشر لى، ولحظة تخرجت فى كلية الطب، ولحظة حصلت على جائزة الدولة فى الأدب.. ونشوة الحب الأول والسفر الأول.. والخروج إلى العالم الكبير متجولا بين ربوع غابات إفريقيا العذراء، وطائرا إلى ألمانيا وإيطاليا والنمسا وسويسرا وانجلترا وفرنسا وأمريكا.. ولحظة قبضت أول ألف جنيه.. ولحظة وضعت أول لبنة فى المركز الإسلامى بالدقى.. استعرضت كل هذه المشاهد وقلت فى سرى.. لا.. ليست هذه.. بل هى لحظة أخرى ذات مساء من عشرين عاما اختلط فيها الفرح بالدمع بالشكر بالبهجة بالحبور حينما سجدت لله فشعرت أن كل شىء فى بدنى يسجد.. قلبى يسجد.. عظامى تسجد.. أحشائى تسجد.. عقلى يسجد.. ضميرى يسجد.. روحى تسجد.. حينما سكت داخلى القلق وكف الاحتجاج ورأيت الحكمة فى العذاب فارتضيته، ورأيت كل فعل الله خير، وكل تصريفه عدل، وكل قضائه رحمة، وكل بلائه حب.. لحظتها أحسست وأنا أسجد أنى أعود إلى وطنى الحقيقى الذى جئت منه وأدركت هويتى وانتسابى وعرفت من أنا.. وأنه لا أنا.. بل هو.. ولا غيره.. انتهى الكبر وتبخر العناد وسكن التمرد وانجابت غشاوات الظلمة وكأنما كنت أختنق تحت الماء ثم أخرجت رأسى فجأة من اللجة لأرى النور وأشاهد الدنيا وآخذ شهيقا عميقا وأتنفس بحرية وانطلاق.. وأى حرية.. وأى انطلاق.. يا إلهى.. لكأنما كنت مبعدا منفيا مطرودا أو سجينا مكبلا معتقلا فى الأصفاد ثم فك سجنى.. وكأنما كنت أدور كالدابة على عينيها حجاب ثم رفع الحجاب.

نعم.. لحظتها فقط تحررت.

نعم.. تلك كانت الحرية الحقة.. حينما بلغت غاية العبودية لله.

وفككت عن يدى القيود التى تقيدنى بالدنيا وآلهتها المزيفة.. المال والمجد والشهرة والجاه والسلطة واللذة والغلبة والقوة..

وشعرت أنى لم أعد محتاجا لأحد ولا لشىء؛ لأنى أصبحت فى كنف ملك الملوك الذى يملك كل شىء.

كنت كفرخ الطير الذى عاد إلى حضن أمه..

كانت لحظة ولكن بطول الأبد.. نعم تأبدت فى الشعور وفى الوجدان وألقت بظلها على ما بقى من عمر ولكنها لم تتكرر.. فما أكثر ما سجدت بعد ذلك دون أن أبلغ هذا التجرد والخلوص وما أكثر ما حاولت دون جدوى.. فما تأتى تلك اللحظات بجهد العبد بل بفضل الرب.. وإنما هو الذى يتقرب إلينا وهو الذى يتحبب إلينا.. وما نتعرف عليه إلا به.. وما نعبده لحظة تمام العبادة إلا بمعونته.. وما ندخل عليه إلا بإذنه.. فهو العزيز المنيع الجناب الذى لا يدخل إليه بالدعاوى والأقاويل.

ولقد عرفت آنذاك أن تلك هى السعادة الحقة وتلك هى جنة الأرض التى لا يساويها أى كسب مادى أو معنوى.

يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾

(العلق: ١٩)

صدق الله العظيم.. وما كل ساجد بمقترب إلا إذا خلع النعلين فألقى بالدنيا وراءه ثم ألقى بنفسه خلفها ودخل مسلم القلب عريان المشاعر خاشع الفؤاد ساجد الأعضاء.. حينئذ يكون القرب.. وتكون السجدة.

ولكم أتمنى أن أعاود تلك السجدة.

أو تعاودنى تلك السجدة.. ويتفضل علىّ الله بالقرب ويأذن لى بالعبادة حق العبادة..

وأقول فى نفسى أحيانا.. لعلى لم أعد أخلع النعلين كما يجب وكما يليق بجلال المقام الأسمى.. ولعل الدنيا عادت فأخذتنى فى دوامتها وعاد الحجاب فانسدل على العينين وعادت البشرية فنامت بثقلها وكثافتها على النفس الكليلة ولكنى لا أكف عن الأمل وأسأل الله أن يشفع الأمل بالعمل سبحانه وسعت رحمته كل شىء.

الحب فى الكعبة

وسألت نفسى وأنا أطوف بالكعبة:

ما بال المسلمين يطوفون الآن فى خشوع وتبتل فإذا خرجوا تفرقوا وانقسموا وأصبح كل منهم يطوف حول نفسه أو حول اسمه أو حول شيطانه؟

أهى أدوار يمثلونها لبضع دقائق ثم يذهب كل منهم بعد ذلك إلى حال سبيله.

أيكون طوافهم طوافا ونسكا دينيا حقا أم تمثيلا.

هل أراد الله بالطواف أن يكون مجرد حركة معزولة عن السلوك والحياة أم أراد به أن يكون شعيرة دينية.. هى تكثيف وتلخيص للحياة كلها.

بل أراد الله أن تكون حياتنا كلها طوافا حول مشيئته فى كل صغيرة وكبيرة.

ولو أن العرب طافوا فى سياستهم حول نقطة واحدة كما يطوفون الآن، ولو أنهم اجتمعوا أبيضهم وأحمرهم وأسودهم فى رحاب رأى واحد كما يجتمعون فى الكعبة لما ذلوا ولما هانوا ولما أصبحوا عالما ثالثا أو عالما رابعا كما تراهم الآن.

وسألت نفسى فى دهشة:

وكيف بالطائفين حول الكعبة يحارب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا.. وعلى أى معنى إذا كانوا يطوفون.. وعلى أى شىء كانوا يجتمعون. هل صدقوا حينما طافوا؟

وهل صدقوا حينما اجتمعوا؟

وهل صدقوا حينما قالوا.. الله أكبر؟

بل كانت الدنيا عند كل منهم أكبر.

وكان كل منهم طوافا حول نفسه مسبحا برأيه مهللا لأفكاره صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما رد على الأعرابى الذى قال له.. أصلى الفروض الخمسة ولا أزيد.. فقال.. أفلح إن صدق.

فالقول مازال ساريا على العرب جميعا إلى اليوم. أفلحوا إن صدقوا. ويبدو أنهم إلى الآن.. ما صدقوا.

دروس من رحلة الحج




بقلم أ.د. أحمد عمر هاشم
رئيس جامعة الأزهر الأسبق
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

إن الناظر إلى فريضة الحج يرى أنها إلى جانب كونها ركنا من أركان الإسلام، أن فيها دروسا مهمة للأمة الإسلامية:

من هذه الدروس تحرى الكسب الطيب والعمل الحلال والرزق الحلال؛ حيث يشترط فيمن يقوم لأداء هذه الرحلة ومن يجب عليه أداء الحج أن يكون مستطيعا فإذا وجدت الاستطاعة وجب الحج، كما قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

والاستطاعة تتحقق بوجود القدرة والصحة للسفر وأداء المناسك كما تتحقق الاستطاعة بأمن الطريق، وبأن يوجد المال الحلال الذى ينفقه الحاج فى رحلته، فإن لم يكن المال طيبا حلالا فلا يكون الحج مقبولا؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، ولكى يوجد المال الحلال فلابد لمن أراد الحج أن يكسب المال الذى يحج به من عمل مشروع وأن يحصل عليه بالطرق الحلال المشروعة فتدفع رغبة من يريد الحج أن يعمل وأن يسعى وأن يتحرى المال الحلال الذى لا شبهة فيه فيجتهد فى البحث عن العمل الصالح ليحصل على الرزق الحلال حتى يستطيع أداء فريضة الحج وحتى تكون حجته مقبولة، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال الله جل شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾

وقال الله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

والذى يحج بالمال الحلال يبشره الملك: «حجك مقبول غير مأزور» وأما الآخر الذى كان ماله من حرام فيقول له: «حجك مأزور غير مقبول» كما جاء فى بعض الأحاديث.

● ومن دروس الحج أيضا: المساواة وهى التى تتجلى فى الزى والمظهر وذلك فى ملابس الإحرام، تلك الملابس التى يتساوى فيها الحج، إنها عبارة عن إزار ورداء لا يمكن أن يتميز فيها إنسان عن آخر، ولا يمكن أن يكون هناك فوارق فى هذا الزى الموحد بين الغنى والفقير، ولا بين الرئيس والمرءوس إن الملابس الدنيوية يمكن أن تميز فيها بين إنسان وآخر أما ملابس الإحرام ففيها معنى المساواة لا فرق بين إنسان وآخر وهى تذكر الناس بالآخرة بالكفن الذى لا يتميز فيه إنسان عن غيره.

وهذه المساواة التى هى من دروس الإحرام لا يشعر فيها إنسان بأنه أفضل من الآخر وإنما الأفضلية والتميز بتقوى الله فقط.

كما قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

● ومن دروس الحج أيضا إعلان توحيد الله سبحانه وتعالى حيث يحرم الحاج وينوى بادئا بإعلان توحيد الله، مرددا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» فمن أول لحظة يحرم فيها الحاج ويلبس ملابس الإحرام يعلن أنه يلبى دعوة الله سبحانه وتعالى التى دعاه بها إنه يلبى معلنا التوحيد ونافيا الشرك قائلا: «لبيك لا شريك لك لبيك» ومقرا بأن الحمد لا يكون إلا لصاحب النعمة التى أنعم بها وهو الله سبحانه وتعالى، الذى يستحق الحمد والشكر والعبادة وحده لا شريك له وفى التلبية إعلان بتوحيد الله سبحانه، وحين يلبى الملبى يشعر الكون كله بهذه العبادة التى اختص بها رب العزة سبحانه فتلبى الكائنات من حوله معلنة بلسان حالها ومقالها أن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد.

عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يلبى إلا لبى من عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا» ومعنى «مدر»: هو الحصى، وهذا الحديث رواه ابن ماجه الترمذى والحاكم وصححه.

● ومن دروس الحج أيضا: التعود على الحياة العادية البعيدة عن الترفه والتميز والزينة إذ أن المحرم يحظر عليه أن يلبس ملابس الزينة وأن يتطيب وأن يقص الشعر إلى آخر المحظورات التى تجعله فى حياة عادية بسيطة بعيدة عن الترفه.

● ومن هذه الدروس: أهمية «الاتباع» فالحاج يفعل ما يفعل من المناسك متبعا رسول الله ﷺ ويعلن هذا منذ أول لحظة يطوف فيها بالكعبة فيبدأ طوافه قائلا:

«بسم الله والله أكبر اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة النبى ﷺ».

وقد أكد هذا الاتباع الفاروق عمر رضى الله عنه عندما طاف بالبيت واستلم الحجر الأسود معلنا «الاتباع» لرسول الله ﷺ قائلا: «إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» فهو يفعل ذلك اتباعا واقتداء برسول الله ﷺ.

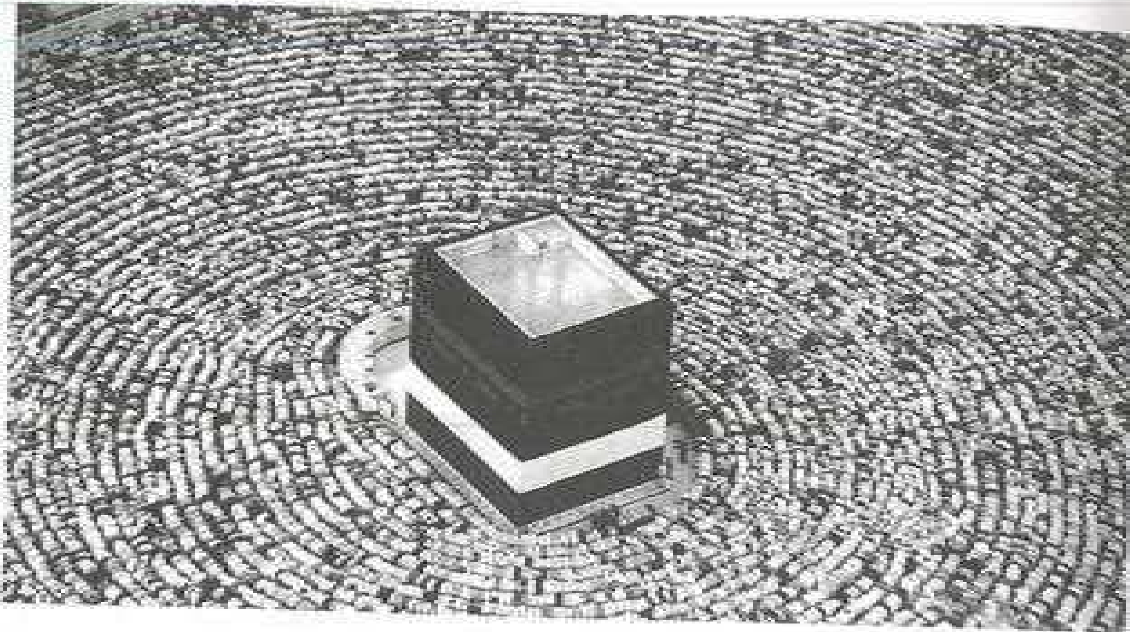
● ومن دروس الحج: إظهار المسلمين لقوتهم ومكانتهم والإبقاء على ما كان يفعله رسول الله ﷺ حتى وإن زال السبب لتبقى الصورة ماثلة عبر الأجيال، ويظهر ذلك فى سنة «الرمل» وهو الإسراع فى المشى مع هز الكتفين وتقارب الخطى إظهارا للنشاط والقوة، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ مكة وقد وهنتهم - أى أضعفتهم - حمى يثرب، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شرا فأطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ما قالوه، فأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين فلما رأوهم رملوا قالوا: قال هؤلاء الذين ذكرتم أن الحمى وقد وهنتهم هؤلاء أجلد منا - أى أقوى -.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم.. رواه البخارى ومسلم وأبوداود.

ولقد بدا لسيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن يدع الرَّمل بعدما انتهت الحكمة منه، ومكن الله للمسلمين فى الأرض، إلا أنه رأى إبقاءه على ما كان عليه فى العهد النبوى لتبقى هذه الصورة ماثلة للأجيال من بعده قال محب الدين الطبرى: وقد يحدث شىء من أمر الدين بسبب ثم يزول السبب ولا يزول حكمه، عن زيد بن أسلم عن أمية قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: فيم الرملان اليوم والكشف عن المناكب؟ وقد أطأ الله الإسلام - أى ثبته - ونفى الكفر وأهله، ومع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ.

● ومن دروس الحج أيضا أنه لقاء عالمى إسلامى يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على مختلف لهجاتهم وأجناسهم وألوانهم يلبون إلها واحدا ويعبدون ربهم ويضرعون إليه وكلهم أمل فى الله أن يغفر ذنوبهم وأن يقبل أعمالهم وفى اجتماعهم فى يوم واحد على أرض عرفات وفى وقت واحد يدعون الله ويتقربون إليه فى هذا إشارة إلى وحدتهم وقوتهم، وفى هذا اللقاء العالمى الكبير يتدارسون كبرى قضايا أمتهم الإسلامية ويعملون على حل مشكلاتهم ويدعون إلى وحدة صفهم وجمع كلمتهم.

وليوم عرفة مكانته فهو أهم أركان الحج كما قال رسول الله ﷺ: «الحج عرفة» إنه يوم الرحمات والمغفرة والفيض



الربانى، عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يباهى بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء» رواه مسلم.

● ومن دروس الحج: التعود على الإخلاص والمراقبة وتأكيد مراقبة الله للإنسان؛ لأن الحاج يتعود أثناء حجه على أن الله يحاسب فى الحرم على الإرادة وإن لم يحدث فعل وهذا يجعل العبد دائما بين الخوف والرجاء، قال الله تعالى:

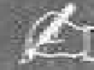
﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

فالله سبحانه لا يحاسب فى البقاع الأخرى إلا على ما عمله الإنسان أما فى الحرم فيحاسب على الإرادة وإن لم يحدث عمل، وهذا يجعل الإنسان متعود على مراقبة ربه وعلى نقاء قلبه وصفاء سريرته ولا يحمل شرا لأحد ويكافح فى الإرادة النفسية إذا نزعت للشر.

ومن الدروس المستفادة فى الحج التعود على معنى الأمان فى الحياة؛ لأن البيت الحرام من دخله كان آمنا ولا يتعرض أحد لأحد فيه بسوء ويحرم على المحرم بل وعلى غير المحرم صيد الحرم أو تنفير الطير أو قطع الشجر والنبات، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة -: «إن هذا البلد حرام لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه - أى لا يقطع الرطب من نباته - ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقيطته إلا لمعرف».

وهكذا نرى أن الإنسان فى الحرم آمن «ومن دخله كان آمنا» وأن الطير آمن والحيوان آمن والشجر آمن والنبات آمن كل معانى الأمن مكفولة للمخلوقات فى الحرم فيعود الحاج من رحلته وقد تعود على الأمان وألف الطمأنينة، والأمن والسكينة وبالله التوفيق.

من أسرار الحج
دراسة فى فقه الدلالات والمقاصد



د. يحيى رضا جاد
طبيب بشرى وكاتب وباحث مصرى

لما آل أمر المسلمين - للأسف - إلى التخلف العام فى الدين والدنيا، أصبحت العبادات مجرد رسوم وشكليات لا تكاد تتجاوز الأداء والحركات والسكنات.. مما دفعنى إلى كتابة هذا البحث عن عبادة الحج، أحد أركان الإسلام العظيمة؛ راجيًا به انتشال نفسى، وغيرى، من "شرك الشكلية فى العبادة"، ومن "مستنقع الجفاف الروحى"، ومن "بركة الركود العقلى".. فلنبدأ باسم الله:

الحكمة من الحج بشد الرحال إلى المسجد الحرام

قد يقول قائل: "لماذا نتكبد المشاق لنذهب إلى الله فى رحلة الحج؟ لماذا هذه الرحلة المضنية والله معنا، بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد؟ ما الداعى إلى السفر والارتحال لنقف فوق عرفة ندعوه فيها وهو القائل:

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

(البقرة:١٨٦)

فأقول:

١- الحقيقة أن الله قريب منا حقًا وصدقًا، ولكننا (مشغولون على الدوام بغيره).. إنه لا يقيم دوننا الحجب، ولكننا نحن الذين نقيم هذه الحجب: نفوسنا، بشواغلها وهمومها وأهوائها، تلفنا فى غلالات كثيفة من الرغبات.. وعقولنا تضرب حولنا نطاقًا من الغرور.. وكبرياؤنا يصيبنا بنوع من قصر النظر، بل والعمى فى بعض الأحيان.. فلا نعود، بسبب من ذلك كله، نرى أو نحس بشىء سوى نفوسنا.

٢- إن شد الرحال إلى مكة، وتكبد المشقات والنفقات، هى وسائل مادية للتخلص من هذه الشواغل، وتفريغ القلب لذكر خالقه، وإيقاظ الحواس على حقيقة القرب القريب لله جل جلاله.

٣- ومن هنا كانت كلمة "عرفة"؛ فبعد رحلة من ألوف الأميال يتيقظ القلب على "معرفة"؛ فهو "يتعرف" على ربه و"يكتشف" قربه، كما "يتعرف" على نفسه و"يكتشف" بعدها عنه تعالى.

٤- والحج فى معناه "خروج".. خروج من دنيانا إلى دنيا الله.. خروج من اعتدادنا بأنفسنا إلى الاعتداد به سبحانه.. خروج من العبودية لـ "الأسباب" (من مال وولد وأرض وعقار ومنصب وسلطة ونفوذ وجاه) إلى العبودية لـ "سبب الأسباب".. خروج من حولنا وقوتنا الموهومتين إلى حوله وقوته المتيقنتين.. خروج من إرادتنا إلى إرادته، ومن رغبتنا إلى رغبته..

من أسرار ثياب الإحرام

١- إن ثياب الإحرام البيضاء التى نرتديها على اللحم، والتى يشترط أن تكون غير مخيطة، هى رمز الوحدة الكبرى التى تذوب فيها الأجناس، ويتساوى فيها الفقير والغنى؛ لأن فى هذا الثوب البسيط معنى الأخوة والمساواة برغم تفاوت المراتب والثروات.

٢- وهى رمز للخروج من زينة الحياة الدنيا.. تمامًا كما نأتى إلى الدنيا فى لفة، ونخرج منها فى لفة.

٣- وهى رمز للتجرد التام أمام حضرة الخالق؛ لأننا أمام الله لا نكاد نساوى شيئًا، بل نحن بالنسبة له سبحانه: لا شىء.. فعلينا أن نخلع كل ثياب الغرور والزينة، متجردين من شهوات النفس والهوى، حابسين إياها: عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير فى جلاله.. وما التلبية بعد الإحرام إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة لله، والامتثال لأوامره.

٤- وثياب الإحرام ثوب من قطعتين؛ رمزًا لستر العورة الظاهرة، وستر العورة الباطنة.. الأولى: حياء من الخلق، والثانية: حياء من الخالق.. حياء من سوء الخلق الظاهر الذى تعرفه الناس، وحياء من العورة الباطنة، عورة القلوب والنفوس والشهوات، التى لا يراها، ولا يطلع عليها، إلا الله.

من أسرار الطواف حول الكعبة

١- إن المسجد الحرام - أقصد كعبته - هو أول بيت اتخذه الإنسان لعبادة الله.. ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا المكان "رمزًا قدسيًا"، أصبح "بيتًا لله"، بل إن شئت قلت: أصبح "علم الله المركوز فى أرضه".. ومن ثم نحن نطوف حوله تعظيمًا لله، متبعين فى ذلك سننه وقوانينه الكونية؛ ألا تلاحظ معى - فى قوانين المادة وسننها التى اكتشفها الإنسان- أن "الأصغر" يطوف حول "الأكبر"، وأن "الإلكترون" فى الذرة يدور حول نواتها، وأن القمر يدور حول الأرض، وأن الأرض تدور حول الشمس، وأن الشمس تدور حول المجرة، وأن المجرة تدور حول مجرة أكبر، وهكذا إلى أمد لا يعلمه إلا الله..

ومن ثم، فنحن نطوف حول الكعبة "تعظيمًا لله"، وتأكيدًا على أنه سبحانه مركز الثقل فى حياتنا كلها؛ فمنه البدء، وبه المسيرة، وإليه المصير.

٢- إن الطواف رمز للحب والتعلق

الكاملين بالله: شعوراً وقولاً وفعلاً.. فأنت تطوف حول بيته سبحانه بقلبك وعقلك وقدميك.. فما الطواف - في حقيقته- إلا دوران للقلب والقالب حول قدسية الله؛ صنع "المحب" مع "المحبوب المنعم"، الذي ترى نعمته ولا تدرك ذاته.

٣- وهو رمز لدوران الأعمال حول قطب واحد، واستهداف الحركات والأفكار لهدف واحد: هو الله؛ حيث كل شيء منه وإليه.. فالطواف هو التعبير الجسمي والروحي - بالكلمة والفعل والقلب- عن "توحيد الله" وعن "مدى إخلاصك له" وعن وحدة أهدافك الظاهرة والباطنة بتحليقها حول مراد الله واستهدافها لرضاه.

من أسرار تقبيل الحجر الأسود

قد يقول قائل: "ألا تلاحظ معي أن تقبيل الحجر الأسود وثنية صريحة؟!"

فأقول:

١- ويحك.. ألا تقبل خطاباً يأتيك من حبيبتك؟! هل أصبحت بذلك وثنياً؟! اللهم لا.. فعلام اللوم إذا قبلنا نحن ذلك الحجر الذي حمله نبينا ﷺ في ثوبه وقبله.. إن تقبيلنا له تزود من غائب؛ فأنت تضع شفتيك حيث وضع النبي ﷺ شفتيه.

٢- واعلم، رحمك الله، أن الحجر الأسود يمين الله في أرضه - رمزاً- .. من استلمه - بالإشارة أو اللمس أو التقبيل- فقد بايع الله على الالتزام بأمره ونصرة دينه.. فعند الحجر تكون البيعة لرب الأرض والسماء على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء؛ الإيمان بالله لا بالحجر، والتصديق بكتابه لا بالخرافة، والعمل بسنة نبيه المختار لا بسنة الكفار والفجار، والوفاء بعهد الله - توحيداً خالصاً: قلباً وقالباً، في العبادات وفي المعاملات.

٣- فتأمل، وافهم، ولا تكن من الغافلين؛ لأننا لا نتجه بمناسك الحج نحو الجدر والأحجار ذاتها، وإنما نحو المعاني العميقة والرموز والذكريات، كما مر، وكما سيأتي إن شاء الله.

من أسرار السعي بين الصفا والمروة

١- إن السعي بين الصفا والمروة - ومثله رمي الجمار، والشرب من زمزم - إعلان لارتباط الإسلام وأمته بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وعائلته؛ لتؤكد الأمة الإسلامية بهذا الارتباط أنها سائرة على درب النبوات السابقة، ومتممة لها، لا منكرة إياها، ولا شاذة عنها.

إن مثل تلك الشعائر، التي يؤديها الحجاج، توقظ في نفوسهم ذكرى الأنبياء العظام الذين قاموا بمثل تلك الشعائر في نفس تلك المواطن، وتعيد إلى الحياة أعمالهم، وتوقظ النزعة إلى الاقتداء بهم في كل تصرفاتهم.. وهي إحياءٌ لذكريات عزيزة وأيام لا تنسى في حياة هؤلاء الأنبياء.

٢- والسعي بين الصفا والمروة تذكير للمسلم بوجوب البحث والعمل والكد والسعي في حياته الدنيا إذا أراد الارتقاء والتقدم، بله النجاة.. فهو رمز للهرولة التي يجب أن يعيش فيها كل منا إلى لحظة وفاته - إذ الكسل والدعة والتواكل ليست من صفات المسلم الحق- ملتمساً من الله - طيلة حياته- العون والتأييد، والرضوان والغفران.

٣- إن السعي بين الصفا والمروة سعيٌ بين نقطتين محددتين؛ وهذا يرشدنا إلى "تأطير" و"تقصيد" و"ضبط" و"تنظيم" مساعينا في حياتنا الدنيا؛ بأن نجعل له "إطاراً" و"قصداً" و"خطة"، وإلا فستنفلت الأمور، ويموج بعضنا في بعض؛ فيخيب مسعانا.

من أسرار الوقوف بعرفة

١- إن الوقوف بعرفة وسيلة مادية للتخلص من الشواغل الدنيوية، ولتفريغ القلب لذكر خالقه، ولإيقاظ الحواس على حقيقة القرب القريب لله - جل جلاله- .. ومن هنا كانت كلمة "عرفة"؛ فبعد رحلة من ألوف الأميال يتيقظ القلب على "معرفة"؛ فهو "يتعرف" على ربه و"يكتشف" قربه، كما "يتعرف" على نفسه و"يكتشف" بعدها عنه تعالى.

٢- والوقوف بعرفة بعد السعي: بذلٌ للمهج في الضراعة إلى الله، بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالدعاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وروح تحسن الظن ببارئها، ألا يخيب سعينا، وأن يبارك أعمالنا، وأن يجزينا عن حسن الأفعال بالحسنات، وأن يغفر لنا الذنوب ويتجاوز عن الزلات؛ إذ لا ملجأ منه إلا إليه.

٣- والوقوف بـ"عرفة" فرصة لـ"التعارف" والتقارب والتفاهم والتشاور والتعاون وإنشاء الصلات الجديدة، المظللة بالمحبة والإخاء، بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأقطارهم وطبقاتهم وقدراتهم وأذواقهم.

٤- وهو، بالإضافة إلى ذلك كله، رمزٌ للوحدة بين المسلمين؛ إذ هو تجمعٌ في مكان واحد، وفي وقت واحد، وبملبس واحد: إلى قبلة واحدة وهدف واحد.. يتلقون فيه من الله، ويتجهون إليه، ويسيرون بأمره - فحضورهم بأمره، وأفعالهم بأمره، وانصرافهم بأمره.

٥- والمشهد يوم عرفة، حين ترى الحجاج في ثيابهم البيض، وفي موقفهم المزدحم العظيم، تحس أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون.. إنه "تجسيد مصغر" لمشهد الحشر والوقوف بين يدي الله يوم القيامة.. يا له من موقف رهيب، ومشهد مهيب، تعجز الكلمات عن الإحاطة به، بله اكتناه أسراره!!

من أسرار حلق الرأس

١- ما حلق الحاج لرأسه، فيما يبدو لي، إلا حلقٌ للكبرياء عن عقله؛ اعترافاً منه بالقصور، ومعرفةً منه لمقامه بالنسبة إلى مقام ربه، وإقراراً منه بأن للعقل حدوداً لا يجوز له أن يتعداها، ومجالات يحرم عليه الخوض فيها.

٢- وهو - فوق ذلك: "خضوعٌ" لعظمة الله و"تذللٌ" لعزته.. لقد كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه: حلقوا رأسه وأطلقوه.. إذن، فوضع النواصي بين يدي ربها محلوقة: هو "تمام" الخضوع

والتذلل والعبودية له تعالى.. ولهذا كان الحلق من "تمام" الحج.

من أسرار رمي الجمار

قد يقول قائل: "ألا تلاحظ معي أن رجم إبليس برمي الجمار عمل بدائي خرافي أسطوري؟!"

فأقول:

١- على رسلك .. ألا تضعون باقة ورد على نصب حجري تذكاري - تقولون: إنه يرمز إلى الجندي المجهول - وتلقون خطبة لتحيته وتمجيد أعماله .. فهل عملك هذا عمل بدائي خرافي أسطوري وثني؟! .. اللهم لا .. فعلام اللوم إذا ألقينا حجرا على نصب حجري تذكاري نقول إنه يرمز إلى الشيطان؟!.. فتنبه ولا تكن من الغافلين.

٢- والرمي مقت واحتقار لعوامل الشر ونزعات النفس ونزغات الشيطان.. إنه رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الشرور ومطاردتها حتى إزهاقها.

من أسرار الذبح والنحر

١- النحر رمز لذبح رغبات النفس الدنيئة، وشهواتها وأهوائها المفسدة.

٢- وهو رمز للتضحية والفداء؛ حيث تضحي ببعض مالك رمزاً لإزهاق شهواتك وأهوائك.

٣- إنه، باختصار، إراقة لدم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة.

من أسرار الرقم "سبعة"

قال لي أحدهم مرة: "ألا تلاحظ معي أن حكاية السبع طوفات، والسبع هرولات، والسبع رجمات؛ هي من بقايا خرافة الأرقام الطلسمية في الشعوذات القديمة؟!"

فقلت متعجباً من سخريته واستنكاره:

١- دعني أسألك [1]:

أ- لماذا أيام الأسبوع سبعة؟!

ب -ولماذا تدور الإلكترونات حول نواة ذرتها في نطاقات سبعة؟!

ت -ولماذا تتكون الكرة الأرضية من سبع طبقات؟!

ث -ولماذا تتكون السماء من سبع نطاقات؟!

ج- ولماذا كانت ألوان الطيف سبعة؟! [2]

.. ألا يدل ذلك على شيء.. أم أن كل هذه الأمور، هي الأخرى، شعوذات

١- الأسئلة هنا موجهة بالدرجة الأولى لمن هو خارج دائرة الإسلام أصلاً، رداً على ما يثيره من شبهات، ودعوة له كي يتأمل ويتفكر، وموجهة ثانياً - لمن هو مؤمن بالإسلام، ليزداد إيماناً على إيمانه. وموجهة - ثالثاً - لكل حيران: دفعاً لشكوكه وحيرته، وتثبيتاً له. أما الأسئلة الواردة بالهامش القادم مباشرة فهي موجهة فقط للصنفين الثاني والثالث، لابتنائها على الإيمان بالإسلام، إذ لا مصدر لها إلا القرآن والسنة.

٢- ولماذا خلق الله سبع سماوات؟ وسبع أرضين؟.. ولماذا سخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال؟.. ولماذا كانت تكبيرات العيدين سبعا في الركعة الأولى؟.. ولماذا سيدخل الله الجنة من هذه الأمة - بغير حساب - سبعين ألفا؟.. ولماذا مثل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل - في كل سنبلة مائة حبة؟ ولماذا - بناء عليه - يضاعف الصدقة سبعمائة ضعف ويزيد؟.. ولماذا كانت السنابل التي رآها ملك مصر - على أيام يوسف عليه السلام، سبعا؟ ولماذا كانت البقرات كذلك؟ ولماذا كانت السنين التي زرعوها دأباً سبعاً أيضاً؟

طلسمية؟!.. يبدو أن "السبعة" سر في البناء المادي والمعنوي للكون.. يبدو لي - والله أعلى وأعلم- أن السبعة هي درجة "الاستواء" و"التمام".

٢- ولهذا - والله أعلم - كان الأمر بـ "السبع طوفات"؛ حتى نظهر له سبحانه "تمام" التعلق به، و"تمام" التعظيم والحب والتوحيد له. ولهذا - والله أعلم- كان الأمر بـ "السبع هرولات"؛ حتى نظهر له سبحانه "تمام" إيماننا بالسابقين من الأنبياء، و"تمام" اقتدائنا بهم، و"تمام" إخلاصنا وبذلنا لوسعنا فيما سنقوم به من أعمال.

ولهذا - والله أعلم- كان الأمر بـ "السبع رجمات"؛ حتى نظهر له سبحانه "تمام" تحررنا من الأهواء ونزعات النفوس ونزغات الشياطين وإغوائهم، إنسهم وجنهم، و"تمام" و"صدق" عزيمتنا في طرد الشرور، بل ومطاردتها حتى إزهاقها.

أبعاد فلسفة المكان ورسالته الخالدة

ألست معي - قارئي الكريم- في أننا بحاجة إلى أن نعي ونفقه "أبعاد فلسفة الأماكن" التي تؤدى فيها مناسك الحج؛ حتى تبتعد قدر الإمكان عن شرك "الشكلية في العبادة"؛ حتى تعود "الحياة الحقة" لمناسك الحج وشعائره؛ إذ مناسك الحج تبتغي "تقوى القلوب".

فحرام أن نختزلها في الحركات والسكنات، وأن تغرق مقاصدها الروحية السامية في التفريعات والجزئيات!!

تعال بنا نطوف معاً، قليلاً، حول أبعاد تلك الفلسفة:

١- نحن بحاجة إلى أن يتذكر الحاج، وهو يطوف حول الكعبة، ما هو أكثر من مجرد الطواف والدوران؛ إذ حول الكعبة نزلت كلمات الله على خاتم الرسل ﷺ.. وبهذه الكلمات تمت في مدرسة النبوة إعادة صياغة أهل الجاهلية - أسرى العصبية وعبدة الأوثان- حتى غدو الجيل الفريد الذي غير مجرى الدنيا والحضارة، وأمسك بدفة التاريخ.

٢- ونحن بحاجة، كذلك، إلى أن يتذكر الحاج، وهو ذاهب ليرمي جمرة العقبة، ما هو أكثر من رمي الجمرات.. إذ في العقبة عقدت "الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية".. تلك الدولة التي غيرت الواقع، وحولت مسار التاريخ، وجعلت المستضعفين في الأرض: الأئمة والوارثين لمواريث النبوات والحضارات.. وذلك عندما بايع الأنصار رسول الله ﷺ على إقامة الدولة، بعد أن سبق لهم بيعته على إقامة الدين.. فولدت في العقبة الدولة التي حرست الدين، والتي ساست الاجتماع والعمران بشريعة هذا الدين.

٣- ونحن بحاجة، كذلك، إلى أن يتذكر الحاج، وهو بالعقبة أيضاً، أن رسول الله ﷺ قد أسس الدولة الإسلامية الأولى على "البيعة والشورى والاختيار" لا على الاستبداد والتزوير والإجبار.. وذلك عندما هم الأنصار بمبايعته على إقامة الدولة، فرغب إليهم أن تتم البيعة بواسطة "مؤسسة دستورية" تنشأ بالاختيار والانتخاب، فقال لهم ﷺ: "اختاروا منكم اثني عشر

تقنيناً" .. فولدت بذلك أولى المؤسسات الدستورية فى الدولة الإسلامية .. فمن العقبة، يا من ترمى الجمرات، بدأ تراث أمتنا فى المؤسسات الدستورية القائمة على الشورى والاختيار والانتخاب، وبمشاركة الرجال والنساء، قبل أن تعرف الأمم والحضارات لها تراثاً فى هذه المؤسسات.

٤- ونحن بحاجة، كذلك، إلى أن يتذكر الحاج، وهو واقف بعرفة، ما هو أكثر من مجرد الوقوف والدعاء .. إذ فى هذا المكان كانت حجة الوداع والبلاغ، تلك الحجة التى كانت مؤتمراً جامعاً قرر فيه ﷺ "الحقوق المدنية الإسلامية" .. وذلك فى خطبة الوداع الشهيرة، تلك الخطبة التى مثلت، بحق، "وثيقة الحقوق المدنية الإنسانية" التى شرعها الإسلام للإنسان.

من دلالات منسك الحج

١- إحياء ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، وتذكرة أهل الكتاب بها :

لما كان إبراهيم الخليل "أبو الأنبياء" وابنه إسماعيل - عليهما السلام- قد أقاما قواعد البيت العتيق، فلقد شاء الله أن يكون إلى ذلك البيت العتيق حج أمة "خاتم الأنبياء" الذى أحيت شريعته ملة إبراهيم، والذى تعيد أمته - فى مناسك حجها- مناسك إبراهيم وإسماعيل وهاجر، مجسدة بهذا الإحياء وحدة دين الله.

فإلى "أول بيت" تحج الأمة الخاتمة .. "فتحيى أمة" خاتم الأنبياء" مناسك ملة" أبى الأنبياء، وتذكر بها أهل الكتاب - توحيداً خالصاً، وملة حنيفية سمحة- خاصة بعد أن اختلفوا فى إبراهيم وتشاكسوا فيه.

٢- التأكيد على أن الإسلام هو الشريعة الخاتمة لسلسلة رسالات الله إلى الإنسان:

إن البيت العتيق هو "أول بيت" عبد الله فيه على هذه الأرض .. ففيه، ومنه، بدأ الدين، وإليه قرر الله أن يكون حج "الأمة الخاتمة" !.

أ- رمزاً وتجسيداً لوحدة دين الله من لدن آدم إلى محمد صلى الله وسلم عليهم جميعاً.

ب- ورمزاً وتجسيداً لاكتمال لبنات هذا الدين الواحد بشريعة الإسلام ورسالة محمد ﷺ؛ حتى يرتبط "الختام" بـ "البدء" و"القمة" بـ "الجذور" و"المنتهى" بـ "المنطلق"؛ فيتجسد الرمز: رمز استيعاب الإسلام، الذى جاء به محمد من عند الله، للدين الإلهى على إطلاقه، وللتدين على عمومه، وهيمنته عليه .. وحتى ترتفع الأعلام المؤذنة بأن تصديق الأمة الخاتمة بنبيها محمد ﷺ، إنما هو جزء من "تصديقها" بجميع الرسل والأنبياء، و"احتضانها" لهدى النبوة جميعه على امتداد موكب حملته، و"هيمنتها" على الدين كله بتربعها على عرشه؛ إذ هى الأمة "الخاتمة" و"المكلفة بالحفاظ عليه" و"الدعوة إليه".

من مقاصد الحج العامة

نشر السلام :

إن الحج طريقة فذة لـ "تدريب" المسلم على السلام، و"إشرابه" روح السلام؛ فهو "رحلة سلام" إلى "أرض سلام" فى "زمن سلام":

رحلة سلام : إذ المسلم لا يبغى قتال أحد، ولا قتل أحد، وإنما يخرج قاصداً وجه الله وبيته .. محرماً يظل فترة إحرامه فى سلام حقيقى مع من حوله وما حوله من إنسان وحيوان، وطير ونبات .. فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج، ولا قطع لنبات ولا شجر، ولا صيد لحيوان ولا ذبح له، بل ولا حلق لشعر نفسه، ولا قص لظفره.

إلى أرض سلام: إذ أرض الحج هى البلد الحرام: مكة، والبيت الحرام: الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(آل عمران:٩٧)

إنها منطقة أمان فريد فى نوعه؛ يشمل الطير فى الجو، والصيد فى البحر، والنبات فى الأرض .. فهى "منطقة معقمة" لا يصاد صيدها، ولا يروع طيرها ولا حيوانها، ولا يقطع شجرها ولا عشبها.

فى زمن سلام: إذ الحج، بالسفر إلى تأديته، والعودة منه، وأداء مناسكه- يقع فى ثلاثة أشهر، هى: ذى القعدة وذى الحجة والمحرم، هى من الأشهر الحرم التى جعلها الله "هدنة إجبارية" تغمد فيها السيوف، وتحقن الدماء، ويوقف القتال؛ حتى "يتذوق" الناس طعم السلام والهدوء والأمن والأمان؛ فيسعوا إليه مهرولين !

.. فهل رأت الدنيا "تطبيقاً عملياً" للسلام و"تدريباً" عليه كهذا الذى يصنعه الإسلام فى رحلة الحج كل عام[٣]؟!

التربية :

يقول تعالى :

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(البقرة:١٩٧)

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

(الحج:٣٠)

﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾

يمتنع فى الحج منعاً جازماً حاسماً الاستجابة لشهوة الفرج، وكل ما يتصل بها، ويمهد لها، أو يحركها - من قول أو فعل أو إشارة.

﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾

ويمنع فى الحج ارتكاب أى مخالفة شرعية .. والمعاصى والمخالفات يعظم إثمها بعظم حرمة زمانها ومكانها، وبمقدار التشديد والتوكيد فى النهى عنها .. وكل ذلك متحقق فى الحج؛ إذ مخالفة الشرع منهى عنها نصاً خارج وقت الحج، ونصاً أيضاً فى وقت الحج، إضافة إلى حرمة زمان الحج ومكانه .. ومن ثم، على الحاج أن يلتزم فى أثناء مدة حجه بأعلى درجات الطاعة والانضباط .. وإذا كان الشرع قد كف الحاج عن عدد من المباحات، فكيف لا يكف الحاج نفسه عما هو محرم ومنهى عنه من أصله.

٣- ولقد حرم الله الإسلام مكة والمدينة - أى جعلهما حرمين آمنين - لحكم كثيرة جليلة، نحسب أن أهمها: تقديم نموذج للبشرية لما ينبغى أن تكون عليه ديارها من أمن وطمأنينة وتسمح بإقامة عمران لا يخالطه فساد ولا إفساد فى الأرض.

﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾

الحاج فى أمس الحاجة للصفاء ولاستغلال وقته والاستفادة منه.. والجدال - فى أغلب الأحيان- مضيعة للوقت، ومذهب للصفاء، وسبب للمشاحنات، ومقدمة للخصومات والمنازعات.. ولذلك نهى الله عن الجدال فى الحج.

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

إن الحاج ضيف من ضيوف الرحمن، بل هو نزيل بيت الضيافة الربانى.. ونحن إذا كنا ضيوفًا على غيرنا من الناس نكون على غاية ما يمكن من الأدب والهدوء والانضباط والالتزام واللياقة، فكيف بمن يكون فى بيت الله وضيافته؟ وكيف إذا كان المضيف فى غاية الإكرام والتنعيم لضيفه ونزيل بيته؟ إن الإساءة فى مثل هذا المقام جريمة، بل وفضيحة تسير بها الركبان!

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾

على الحاج، وهو يستعد لسفره، ويتزود لرحلته، أن يتذكر أنه عما قريب سيفارق أهله وولده وبلده وماله إلى غير رجعة، وأن عليه أن يتزود أكثر وأكثر لسفره الأكبر، ورحلته الأخطر.. وليتعلم من رحلته إلى الحج، وتزوده لها، ومفارقته من يحب وما يحب، أنه لابد مرتحل ومفارق، وأن لكل ارتحال زادًا واستعدادًا، وأن زاد الآخرة هو التقوى والعمل الصالح.. ومن أهم لوازم التقوى أن يبرئ المرء ذمته من المظالم وحقوق العباد؛ فيرد منها ما يمكن رده، ويستسمح من يمكن الاستسماح منه، ويستغفر الله ويتوب إليه مما لا يعلمه ولا يستطيع رده ولا التحلل منه؛ حتى لا يكون فى سفره، الأصغر والأكبر، مثقلاً ومكبلاً بالمظالم وآثامها.

وبناء على كل ما سبق، يجب على الحجاج أن يكونوا على درجة عالية من حسن الخلق، ومن الرفق واللين والتسامح.. وأن يعتبروا الحج فرصة نادرة لترويض النفس وتدريبها على التواضع والهدوء والخشوع والصفاء والبر والعفو والحلم.. إذ كل هذه أخلاق ضرورية كي يكون الحج مبرورًا مقبولاً.

وبهذا يعود الحاج كيوم ولدته أمه.. ويعود وقد أصبح من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.. يعود وقد أصبح يدرأ بالحسنة السيئة، ويدفع بالتى هى أحسن.. يعود وقد ألزم نفسه بكف الأذى عن الناس، بل وبالتغاضى عن أذاهم، ومقابلته بالحلم والغفران..

أما أن يذهب على ما كان عليه من سوء الخلق وفظاظة الطبع وكثرة الجدال والخصام والأذى والفسوق، ثم يمكث هناك ويعود على ما كان عليه، فما استفاد من حجه، وما ضمنه حجًا مبرورًا متقبلاً، بل "ما حج هو، وإنما حج الجمل"!!

.. أرأيت كيف هو الحج "دورة تربوية تدريبية نادرة".. فإذا رأيت وعلمت؛ فالزم!!

الوحدة الإسلامية - تجسيداً واقعياً وتطبيقاً عملياً:

الحج طريقة فذة لربط أمة الإسلام بمركز واحد، يديم لها رباط الدين، ويجدده فيها، ويوثق خيوطه، ويشدها بواسطته إلى ذكريات النور الذى انبثق فى فجر رسالتها فهداها وأخرجها من الظلمات إلى النور.. وفى الحج تتجلى "الوحدة الكاملة للأمة الإسلامية" بكافة شعوبها وأعراقها وأقطارها: وحدة فى المشاعر والشعائر، ووحدة فى القول والفعل.. لا إقليمية ولا عنصرية ولا عصبية ولا طبقية، وإنما الجميع مسلمون، وبرب واحد يؤمنون، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرءون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون، ولهدف واحد يبغون.

الحج فرصة لكل حاج كي "يجسد" الوحدة الإسلامية و"يستمتع" و"يعمق" شعوره بها، ولو لبضعة أيام أو أسابيع، فليوثقها بحسن التعارف والتآلف، وبالتعاون وحسن التعامل، وبتبادل الآراء والأخبار والمعلومات، مغلفا ذلك كله بالمحبة والإخاء.

الانتفاع

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾[4]

(الحج: ٢٨)

١- ﴿ مَنَٰفِعَ ﴾.. هكذا بالتنكير، ومن غير تحديد.. ومن ثم، فهى مفتوحة وعامة ومطلقة.. مما يدل بدوره على أن منافع الحج كثيرة ومتنوعة، بل وغير محصورة -لو أعددنا لها الإعداد الأمثل، واستثمرنا هذا الموسم أحسن استثمار: ماديًا ومعنويًا، سياسيًا وثقافيًا فكريًا، واجتماعيًا.

٢- ولقد نبهنا رسول الله ﷺ إلى قيمة الحج كـ"مؤتمر عالمى أكبر"؛ حيث اتخذ منه منبرًا لإذاعة أهم القرارات والبلاغات والتوجيهات والقضايا التى تتصل بالسياسة العامة للمسلمين؛ ففى الحجة التى تمت فى السنة التاسعة للهجرة، تحت إمارة أبى بكر الصديق، أعلن على الناس، بتوجيه من النبى ﷺ، قرار إلغاء المعاهدات التى عقدت مع المشركين؛ إذ قد نكثوها وعبثوا بها وخرجوا عليها..

وفى العام التالى، حج رسول الله ﷺ بنفسه، حجة الوداع، وألقى خطابًا لم تع مسامع الوجود أرقى من مبادئه، ولا أشرف من مقاصده: جاعلاً إياه سجلاً صادقًا لحقوق الإنسان وحريات الأمم، وملخصًا فيه أهم مبادئ الإسلام.

وعلى درب رسول الله ﷺ سار الخلفاء الراشدون؛ إذ جعلوا من موسم الحج مؤتمرًا يلتقون فيه بالولاة والعمال والقضاة، والعاملين على الزكاة، وقادة الجند، والفقهاء وأهل الرأى، بل وجمهور الناس من مختلف الأقاليم الإسلامية؛ حتى توضع صورة واقع الأمة أمام العقل القائد والمفكر - الخليفة الراشد- ؛ ليغيث الملهوف، وينصف المظلوم، ويرد الحق إلى أهله، ويضبط الأمور ويرشدها وينظمها، ومن كانت له مظلمة أو شكاية أو اقتراح فليتقدم به له.

٣- وعلى درب الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين سار التابعون بإحسان؛ فكان موسم الحج منتدى للقراء والفقهاء والمحدثين وأهل الفكر والأدب، يتبادلون فيه الآراء والأفكار والخبرات والاجتهادات والروايات؛ لتنمو فى الأمة ملكات الضبط والحوار والتعقل والاجتهاد واحترام الرأى الآخر.

٤- واليوم.. وفى ظروف عصرنا الحديث، وعلى ضوء الواقع البائس الذى تحياه أمتنا - التى أصبحت "أمما شراذم" بعد

٤- شهود الشيء - أي شيء - يقتضي الإعداد المسبق له

أن كانت أمة واحدة، رغم ما لديها من إمكانيات مادية، ورغم ما تملك من عقول مبدعة ومفكرة وخلاقة.. هل تطمح وتطمع وتتطلع إلى إعادة شعيرة الحج "مؤتمرًا عالميًا أكبر" لأمة الإسلام، و"لقاءً جامعًا" لعقل الأمة الراشد؛ يتأمل واقعها، ويرسم لجمهورها سبل الخلاص؟[٥]!.. ما ذلك على الله بعزيز، ولا على المخلصين المصلحين "المتضامنين المتضامين" ببعيد!!

٥- والحج، عند سبر غوره، رحلة علمية وثقافية، وتوسيع لأفق المسلم، ووصل له بالعالم الكبير من حوله.. هكذا ينبغي أن تكون رحلة الحج من أولها إلى آخرها، بذهابها ورجوعها، بإقامتها وتنقلاتها.. فمشاهدة البلدان وأهلها، ومجالسة العلماء والحكماء والمثقفين، وحضور الدروس والمحاضرات، على اختلاف أنواعها، وزيارة المواقع الأثرية والمآثر الإسلامية التي شهدت بزوغ فجر الإسلام وسطوع نوره على الأرض.. كل ذلك علم وثقافة، وتفقه وخبرة، لا ينبغي للحاج أن يضيعها أو يقلل من شأنها؛ لأنها من المنافع التي دعانا الله لأجل شهودها وتحصيلها باعتبارها من مقاصد الحج وثماره.

٦- وفي الحج "تدريب على تحمل المشقات"، واحتمال الشدائد، والصبر على المكاره؛ إذ السفر للحج ركوب للمشقات، ومفارقة للأهل والوطن، وتضحية بالراحة والدعة والمال.

وفيه "تدريب على مواجهة الحياة كما فطرها الله"؛ بأزهارها وأشواكها، وشهدها وصبرها، وحرها وقرها؛ إذ حياة الحاج أشبه بحياة الكشاف - وخاصة في خيام منى وعرفات- في بساطتها وخشونتها، وتنقلاتها وارتحالاتها، واعتمادها على النفس، وبعدها عن الترف والتكلف والتعقيد.. مع ما قد يصطدم به الحاج من مناخ سيء؛ إذ أشهر الحج دائرة مع شهور السنة القمرية؛ وهي أشهر، كما تعلم، تأتي أحيانًا في وقدة الصيف، وأحيانًا في زمهرير الشتاء.. كل ذلك ليكون المسلم على استعداد لتحمل كل الأجواء، والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.. فأعظم بها من منافع!!

٧- إن الحج "شحن لبطارية الروح والإيمان".. يملأ جوانح المسلم بالتقى والخشية من الله، والعزم على طاعته، والندم على معصيته.. ويغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسوله ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.. فيعود المسلم أصفى قلبًا، وأطهر مسلكًا، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عودًا أمام مغريات الشر.. ينشئه الحج خلقًا آخر، ويعيده كيوم ولدته أمه.

٨- والحج تبادل للمنافع التجارية والاقتصادية -على نطاق واسع- بين المسلمين..[٦] أو هكذا يجب أن يكون..

٥- في الحج يسيطر (السمو الوحي) على كيان المسلم، فيتمكن من مناقشة أخطر القضايا وأعقدها وأكثرها تأزمًا بـ(صفاء ذهن) (ورحابة صدر)، مما يمكن من حلها، أو بالأقل: تنقية الأجواء بين أطرافها وتمهيد سبل السلام لهم.

٦- عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا بالجاهلية، فتحرج أصحاب رسول الله أن يتجروا في موسم الحج، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية:

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم﴾

(البقرة: ١٩٨)

أخرجه البخاري

وموسم الحج - في واقع أمره اليوم- مجرد "استهلاك" لسلع يصنع أغلبها غير المسلمين، بل إن "سجادة الصلاة" و"بوصلة القبلة" يصنعها الوثنيون للمسلمين!!

ذكر الله وعبادته والخضوع والتسليم له:

﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ۝ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ۝ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾

(البقرة: ١٩٨- ٢٠٠)

﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾

(البقرة: ٢٠٣)

وانظر سورة الحج: ٢٨، ٣٤، ٣٦، ٣٧)

● إن الأمر بذكر الله أمر متكرر في كل مراحل الحج ومناسكه، وهو أمر ملازم لكل أعمال الحج ومحطاته.. مما يجعل الحاج في حالة انقطاع وتجرد وتفرغ واستغراق، فتسمو روحه إلى آفاق علوية ربانية نورانية لا يعلم مداها، ولا فيوضاتها، إلا الله.

● والحج - وهو شرعًا: القصد إلى بيت الله والهجرة الفعلية إليه- هو في حقيقته وجوهره: قصد إلى الله، وهجرة إليه مما سواه؛ خضوعًا وتسليمًا له..

وشد الرحال إنما هو في حقيقته وجوهره إلى "رب البيت" لا إلى "ذات البيت"..

● ويمثل ما أن الحج "دورة ذكر مكثفة"، فهو أيضًا "دورة تعبدية شاملة" سواء بسواء.. وهاك البيان: لقد أكرمنا الله وشرفنا بعبادات متنوعة ومتعددة؛ حتى يجد الناس، على اختلاف ظروفهم وأحوالهم وقدراتهم- فرصتهم ونصيبهم ومجال قوتهم منها، وحتى يجد كل مكلف أنواعًا من العبادات تتسع لكل ما فيه، وما لديه، من بدن وعقل وروح ونفس ومال ووقت.. فالصلاة عبادة لروحه ونفسه وعقله وبدنه.. والصيام عبادة لروحه ونفسه وبدنه.. والزكاة عبادة لروحه ونفسه وماله.. والجهاد عبادة لبدنه أو لماله أو للسانه.. والذكر عبادة لقلبه وروحه ونفسه ولسانه..

ولكن الحج يجمع كل هذا ويزيد عليه؛ فالحاج يعطي غير قليل من وقته في رحلته ومناسكه.. وهو يضحي بماله الذي ينفقه والذي يقوته كسبه.. وهو يجاهد ويعاني ببدنه وكافة حواسه؛ فيمشي بقدميه طائفًا وساعيًا، ويرمي بيديه راجمًا.. وهو ينهمك في حجه بقلبه وروحه ونفسه.. ويلبي ويذكر ويدعو بقلبه ولسانه..

وبذلك يتضح أن الحج عبادة تستغرق من الحاج كل كيانه؛ ففي الحج نصب وتعب، ومجاهدة ومعاناة، وصلاة ودعاء، وذكر وفكر، وحلم وصبر، ونفقات وصدقات.. وقد وصفه النبي ﷺ بأنه "جهاد لا قتال فيه" رواه ابن ماجة (٢٩٠١) وصححه الألباني.

ألست معي - بعد ذلك كله - في أن الحج "دورة تعبدية شاملة"!!

الحج عِبَرٌ وتأمّلات



أ.د. عبدالله بن بيه
نائب رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين

إن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة كما جاء فى الحديث الصحيح: "بُنى الإسلام على خمس .. إلى قوله وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً".

وهو واجب بالكتاب والسنة قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾
(آل عمران: ٩٧)

وقال ﷺ: "يا أيها الناس كتب عليكم الحج فحجوا".

فهو عبادة من أجلّ العبادات، وهى من ملة أبينا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وخليل الرحمن، قال تعالى موجهًا الخطاب لإبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾
(الحج: ٢٧)

وورثته الأمة المحمدية فكان الركن الخامس، وقد شرع فى العام الخامس من الهجرة كما يقول ابن سعد فى طبقاته: إذ إن وفادة ضمام بن ثعلبة على النبى ﷺ كانت سنة خمس: إذ علمه فرائض الدين ومنها: "أن تحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً".

فهو شعيرة من شعائر الدين وفريضة من فرائضه، من أنكر وجوبه، بشروطه، على المسلم يخرج من الملة الإسلامية بإجماع علماء الأمة.

وقد وعد الله سبحانه وتعالى بالأجر الجزيل من يأتى به على ما ينبغى قائمًا بواجباته ومتصفًا بآدابه الرفيعة، ومن أهم المثوبات التى يرجع بها الحاج مغفرة الذنوب، والتجاوز عن الخطايا لقوله عليه الصلاة والسلام: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه".

وليس غرضنا من هذا المقال المختصر بيان أنساك الحج الثلاثة، ولا أركانه الأربعة التى لا تقوم ماهيته دونها، ويبطل عند فقدها أو أحدها كالإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة و"السعى" على خلاف.

وليس الغرض بيان أحكام الحج وواجباته التى تنجبر بالفدية أو بالهدى، ولا إيضاح محظورات الإحرام ولا غيرها من المكروهات أو السنن والمستحبات.

ولكننا نحاول إلقاء الضوء على بعض المعانى السامية التى تستوقف المتأمل فى هذه الشعيرة.

إن موسم الحج مناسبة عظيمة للأمة الإسلامية وفريدة فى نفس الوقت لا يوجد لها نظير لدى أمم العالم كله منذ أقدم التاريخ، إنها مؤتمر عالمى رائع، ولهذا فيمكن بحق أن تعتبر من خصائص هذه الأمة ومميزاتها التى لا يشاركها فيها غيرها.

● إن أول شىء يلفت انتباه المرء عندما يفكر فى هذه المناسبة هو مظهر العالمية الذى يتجلى بأنصع صوره؛ إذ تتجمع أعداد هائلة تتجاوز المليونين من كل الجنسيات، تتكلم بكل اللغات، وتمثل كل الأعراق والألوان، لا يجمعها إلا رباط الإيمان ووشيجة العقيدة.

إنها العولمة الطوعية والاختيارية التى لا تفرضها سلطة ولا دولة كبرى.

● الوحدة التى تستعلى على كل العصبيات القومية والخلافات المذهبية والنزاعات السياسية.

إنها وحدة تتمظهر فى وحدة الشعور والشعار والمشاعر والشعائر، إنها ألفاظ أربعة مشتقة من جذر واحد هو جذر "شعر".

فما هو مرادنا بهذه الألفاظ "المصطلحات"؟ وما علاقتها بالحج؟

- الشعور: إن شعور الحجيج هو شعور واحد، هو الافتقار إلى الخالق البارى العظيم والخضوع له.

- أما شعارهم فهو الملابس البيضاء والتلبية.

- أما الشعائر فهى أعمال الحج التى يقوم بها الجميع بهيئة واحدة، من إحرام ووقوف بعرفات، ونزول بمنى، ورمى للجمرات، وطواف إلى آخره.

- أما المشاعر فهى الأماكن التى يغشاها الحجيج لتأدية الشعائر، فعرفة مشعر، والمزدلفة "المشعر الحرام" ومنى ومكة كلها مشاعر؛ لأنها مكان أداء الشعائر.

● المساواة التى تذوب فيها الامتيازات والأبهة؛ فلا فرق بين غنى وفقير، وملك وسوقة، ولا بين رئيس ومرؤوس، فهم يلبسون ملابس لا يزيد ثمنها على بضعة ريالات، ويقيمون فى خيم منى المنضدة فى طراز واحد، وعلى طريقة موحدة، يرفعون نفس الحصيات من مزدلفة ليرموا بها الجمار بمنى.

إن هذه المعانى تعمق لدى المسلم الشعور بالتضامن والتعاون مع إخوانه، ولكنه تنطبع فى ذهنه صورة الوحدة الإنسانية على حقيقتها، فيعود بشخصية إيمانية ملؤها التواضع وحب الخير للآخرين.

إن هذا الجمع العظيم يحتاج إلى رعاية فائقة لكى يؤدى مناسكه فى جو من

السكينة والطمأنينة والرخاء النفسى والمادى أيضًا.

وهنا يمكن أن تقدر المسئولية العظمى التى يضطلع بها إمام المسلمين فى الديار المقدسة وحكومته؛ إذ إن الحج من العبادات التى لا يمكن ممارستها إلا فى ظل سلطة شرعية مهيبة وولاية معتبرة؛ لأن الحج مناسبة يجتمع فيها الناس من كل حدب وصوب، يريد خيارهم العبادة، ويبحث شرارهم عن التخريب، وفى كل زمن خيار وأشرار.

ولولا تلك السلطة لذهب الأخيار ضحايا الأشرار، وضاعت شعيرة الحج بالكلية؛ لأنه لا سكينة مع الخوف، ولا خشوع مع القلق، وقد كان عليه الصلاة والسلام يحث على السكينة والطمأنينة؛ ففى حديث جابر الطويل الذى وصف فيه حج النبى ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام كان يشير على الناس بيده السكينة السكينة. (رواه مسلم)

ولهذا فإن أمن الحاج يعتبر أمرًا لا غنى عنه، وهنا يجب الاعتراف بما تقوم به حكومة خادم الحرمين لتوفير جو من الأمن والطمأنينة؛ مما يمثل ثابتًا من الثوابت التى قامت عليها هذه المملكة منذ عهد الملك عبد العزيز كما شهد به المؤرخون؛ إذ يقول شكيب أرسلان فى رحلته: أما الأمن فقد توفر فى أيام ابن سعود إلى حد لا يتطلع فيه متطلع إلى مزيد، وإنما يرجو دوام هذه النعمة".

ذلك هو الثابت الأول من ثوابت المملكة فى خدمة الحرمين الشريفين، وهو الأمن.

أما الثابت الثانى فهو العمارة التى تجاوزت كل التوقعات؛ وقد كان مشروع خادم الحرمين لتوسعة الحرمين يمثل أكبر توسعة فى التاريخ؛ إذ أصبحت مساحة الحرم المكى الشريف بعد التوسعة (٣٢٨٠٠٠) متر مربع، ليتسع ويستوعب أعدادًا متزايدة.

وتضاعفت مساحة الحرم النبوى عشرات المرات مع تزويده بكافة معطيات التقنية الحديثة.

وكان تنفيذ مشروع الخيام المضادة للحريق قمة تسخير التكنولوجيا لخدمة حجاج بيت الله الحرام.

أضف إلى ذلك توفير كل البنى التى تريح الحاج كسلسلة الفنادق التى تحف الحرمين الشريفين والمنتشرة فى المدينتين المقدستين.

إنها أعمال جليلة نسأله - تعالى - أن يديم على هذه البلاد العافية، وأن يزيدها من سوابغ نعمه، وأن يوفق القائمين عليها لكل خير، وأن يجزيهم أفضل الجزاء.

***

مناسك الحج: حكم وأسرار



أ.د طه جابر العلوانى

فى هذه المقالة سأتناول بعض حكم مناسك الحج، تبدأ المناسك ببداية السفر التى تذكر بسفرة الإنسان الكبرى من هذه الحياة إلى الدار الآخرة عبر بوابة الموت، فيتذكر الحاج، وهو يُهيء نفسه ويعد حقائبه للتوجه إلى البيت الحرام، أنه مهما عاش فإنّ هناك رحلة أخيرة هو بانتظارها، لابدّ أن يكون مهيئًا ومستعدًا للقيام بها عندما يلبى نداء الله للرحيل من هذه الحياة الفانية إلى الدار الباقية، فيستصحب فى ذهنه ذلك لينصرف بحواسه كلها وقوى وعيه جميعها إلى ذكر الله والدار الآخرة، فإذا وصل تلك الديار بدأ بالإحرام من الميقات الذى أقته الله لحجاج بيته.

والإحرام أبرز ما فيه تخلى الإنسان عن جميع ملابسه المعهودة، واستبدالها بلباس الإحرام، وملابس الإحرام تُذكر بالأكفان، فهى غير مخيطة ولا مزخرفة ولا تدل على غنى الغنى أو فقر الفقير، وفى ذلك إعداد لنفسيّة الحاج وعقليّته لقبول أعباء التزكية والتطهر والتخلى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود.

والتزكية مقصد من المقاصد القرآنيّة العليا، ولكن المعنى لا يقتصر على ذلك، وحده، فإن (نسك الإحرام) يذكرنا بقصّة (خروج أبوينا من الجنّة):

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(طه: ١٢٠-١٢١)

وفيه تذكير بالعداء الدائم بين الإنسان والشيطان، وتذكير بأبشع النتائج التى تؤدى الاستجابة إلى وسوسته إليها.

كما أن من حكم الإحرام إحساس الحاج بأنه يتعرض لنفحات الله -تبارك وتعالى- التى تعرّض لها أنبياؤه ورسله والصالحون من عباده عبر تاريخ البشرية، فيطمع فى رضوان الله تعالى، ويسأله رحمته ومغفرته.

لقد ارتبط الحج ومناسكه بـ(الأرض المحرّمة) لا بالأرض المقدّسة، كما اختصت الأرض المحرّمة بخصائص لا تشاركها فيها أية بقعة من الأرض، فلا يختلى خلاها، ولا ينفّر صيدها، ولا يُسمح بإدخال الخوف والإرهاب إليها.

إن المحرم يستدعى ذكر سائر النبيّين الذين نُودوا ولبُّوا النداء لكى يكون مهيئًا، بكل قلبه ونفسه وعقله وجوارحه، لتذكر تلك المواقف

والإصغاء إلى نداء رب العزة لآدم بالتوبة:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(البقرة: ٣٧)

وكيف نادى نوح:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾

(الصافات: ٧٥)

وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود وغيرهم.

فهؤلاء، جميعًا، كانوا يُصيخون السمع حتى لتكاد أجسادهم كلُّها تصبح سمعًا، فإذا جاء النداء الإلهيُّ صدرت التلبية بذلك الشكل المعبِّر عن الإسلام التام، والاستسلام الكامل، والطاعة المطلقة.

والنداء الإلهيُّ للمسلم المحرم القرآن المجيد، فكيف نعدُّ أنفسنا للإنصات إليه، والاستماع له، وتلبية كل نداء من نداءاته، ونجاوز كل ما يمكن أن يؤدى لهجره، لفظًا أو معنى، قولا أو فعلا، حتى لا نجد في أنفسنا حرجًا في أى أمر أو نداء يوجَّه إلينا، ونُسلِّم إليه تسليمًا تامًّا.

عند الإهلال بالتلبية تتذكر القرآن وسيدنا محمدًا -خاتم النبيِّين- وتلقيه (الأمر بالقراءتين) لأول مرَّة، ثم ما تلا ذلك من نداء الله له:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

(المدثر: ١-٤)

ثم تتابعت النداءات الإلهيَّة له:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾

(المزمل: ١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾

فما تردَّد مرة ولا لحظة في المسارعة إلى تلبية نداء ربه عبر (اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا)، فإذا أهلَّ الحاج بالتلبية، وقال: (لبَّيك اللهم لبَّيك...) فعليه أن يستحضر في ذهنه كل تلك الأمَّة (أمَّة الأنبياء الواحدة)، ويتَّخذ مكانه بين أبنائها، ويواصل التلبية، وهو يسمع أصوات النبيِّين والمرسلين كافَّة وهم يصدعون بالتلبية، وما أجمله من شعور أن يشعر الإنسان بالانتماء إلى أمَّة الأنبياء ومشاركتهم التلبية، وضم صوته إلى تلك الأصوات الصادقة الطاهرة، والإعلان الصريح لله -سبحانه وتعالى- بأنه لن يعصى له أمرًا، ولن يرتكب ذنبًا أو مخالفة أبدًا، فإذا دخل حدود الحرم فليعط المحرم لنفسه فرصة التنفُّس بملئ رئتيه، شهيقًا وزفيرًا، كأنَّه يريد أن يستشفى ليطهِّر الصدر وما حوى، والقلب وما وعى، من سائر ما علق به، وإعادة تنظيم دورة دم جديدة في عروقه وشرايينه، فيها عبق النبوة، وأريج الوحى والرسالة، وحداثة العهد بالله، وليقل:

هذه دارُهُم وأنت محبٌّ

ما بقاءُ الدموع في الآماق؟

وليغتسل بدموعه إن استطاع، فدموع اللُّقاء بعد الاغتراب تغسل القلوب، وتطهِّر النفوس، وتطفئ لهيب الشوق، وتبدله بقطر ندى اللُّقيا، وسعادة الوصال والاتصال بعد الهجر والانقطاع؛ وبذلك يتهيأ المحرم لتكحيل عينى بصيرته برؤية بطن مكة والحرم.

فإذا صار على مقربة من البيت، ذاته، أنطق لسانه وجوارحه بتلك الكلمات النبويَّة، ليُهيء القلب والعقل والوجدان وسائر الجوارح لاستقبال النفحات الإلهيَّة، ثم ليُشر إلى الحجر الأسود، أو ليستلمه، دون مضايقة لأحد.

ليبدأ (سباعيَّة الطواف) واستيعاب حكمها وأسرارها، ومنها: ارتباط قلب الإنسان دائمًا بالله وطوافه حول اسمه -جل شأنه- فالطواف تعبير عن ذلك وعهد مع الله -تعالى- وأنه لن ينسى ذكر الله بعد انتهاء طوافه وحجه، ومنها: أن الطائف بقلبه سوف يتحرر إذا أحسن الطواف وتمثَّل معانيه، من قيود التدين الجغرافي والقومي إلى العروج إلى (المدار الكوني)، بإذن من أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام، فيعرج بصحبة خاتم النبيِّين إلى تلك الآفاق الكونيَّة التى ارتادها أبوه إبراهيم بعينى بصيرته، وارتادها هو من بعد، وبعد جولته تلك أعلن:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام: ٧٩)

إنَّ العروج من الطاف يسمو بالإنسان إلى مستوى إنسانيَّته، ويتجاوز به الحدود الإقليميَّة، والانتماءات العرقيَّة والعنصريَّة، ويربطه بالأسرة الآدميَّة الممتدَّة المستخلفة، وهو الذى يؤدى إلى التحرُّر من (الإخلاد إلى الأرض) واتباع هواه؛ إن وجوده في الأرض لا يُنسيه سباعيَّة أخرى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

(الطلاق: ١٢)

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(الإسراء: ٤٤)

وإذا كنَّا لا نفقه تسبيح السماوات السبع والأرضين السبع، فالطواف حول البيت يرتقى بنا للعروج إلى مستوى الكونيَّة، وبذلك نرتبط ببقيَّة الكون المسبِّح لخالقه، بل نقوم بقيادة قافلة التسبيح، فنحن أبناء آدم المستخلفون في الكون، المسئولون عن إعماره الذى لن نتمكن منه بدون التوحيد والتزكية..

والله قد آتى محمدًا سبعًا من المثانى والقرآن العظيم، بل أعطاه (الاستخلاف الكونيَّ) والرسالة الخاتمة لتحقيق (كونيَّة الدين)، لتتخذ البشريَّة مدارها الموحَّد حول اسم الله تبارك وتعالى، وهكذا (جمع الله لسيدنا رسول الله محمد بين القراءتين): وجعل القرآن معادلا موضوعيًّا للكون وحركته:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٨٩-٩٠)

مقاصد العيد



أ.د. أحمد الريسونى

جاءت أحكام الشريعة تحقيقًا لمصالح العباد في الدنيا والآخرة، وقد وردت كثير من النصوص الدالة على أن الشريعة وُضعت لمصالح العباد فى العاجل والآجل، نذكر منها قوله تعالى:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة:٥٣)

وقوله سبحانه:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة:٢١)

وقوله عز وجل:

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾

(غافر:٨٠)

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى تفيد هذا المعنى.

ومن هذا القبيل مشروعية العيد، فإن لمشروعيته حكمًا ومقاصدا، يمكن تلمسها وتدبرها من خلال النصوص الواردة، فى هذا الشأن، ونحن نحاول تلمس شيء من ذلك - أخى الكريم - فى المقال الذى بين يديك.

فمن أهم المقاصد التى شُرِعَ العيد لأجلها الالتقاء بين المسلمين والاجتماع فيما بينهم.

وأبرز ما يتجلى ذلك فى صلاة العيد، وهم يذكرون الله الواحد "الله أكبر الله أكبر".

وما يستشعره كل فرد منهم من رابطة الأخوة التى تجمع بينهم، والإيمان الذى يوحد قلوبهم، تحت راية واحدة، هى راية الإسلام، وشعار واحد هو شعار التوحيد "لا إله إلا الله"، ولأجل هذا المعنى كان من السُّنَّة أداء صلاة العيد فى المصلى، حيث يجتمع معظم أهل البلد فى مكان واحد، وعلى صعيد واحد، يؤدون صلاة واحدة، ويتبادلون أطراف الحديث فى أمر دينهم ودنياهم.

ومن مقاصد العيد إدخال الفرحة على المسلمين بعد أدائهم عباداتهم، فعيد الفطر يأتى بعد صوم شهر رمضان، وعيد الأضحى يأتى بعد انقضاء أعظم أركان الحج وهو يوم عرفة، فالعيد مرتبط بالعبادة ولصيق بها، وفى ذلك

إشارة عظيمة أن تعب المتعبدين يأتى بعده الفرح والسرور، وأن العيد إذا كان جائزة المتعبدين فى الدنيا، فإن الجائزة الكبرى فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار.

ومن مقاصد العيد أنها تفتح مجالاً لوصل ما انقطع بين الأرحام والأقارب والأصدقاء، فليس هناك وقت تصفو فيه النفوس، وتقبل على بعضها كأيام العيد فهى أيام حرى بكل ذى حقد على أخوانه أن ينبذه، وبكل من طبعت علاقته بأهله شائبة أن يزيلها، فتتآلف القلوب وتتعانق الأرواح فى سماء المحبة والإخاء.

ومن مقاصد العيد أن يحيى الفقراء المسلمون جميعًا فى كفاف من قوتهم ولبسهم، فيفرحون بالعيد كما يفرح غيرهم، ويلبسون الثياب النظيفة كما يلبس غيرهم، ولا يتعرضون لذل السؤال، لذلك شرع الله صدقة الفطر لمواساتهم، كما ورد فى الحديث عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر، وقال: أغنوهم فى هذا اليوم» رواه الدار قطنى وفى سنده ضعف.

ومن مقاصد العيد المعتبرة، تغيير نمط الحياة المعتادة، وكسر رتابتها الثابتة، وذلك أن من طبيعة النفس الإنسانية أنها تحب وتتطلع دوما إلى تغيير ما اعتادته وألفته من عادات، فكان العيد مناسبة لتغيير نمط الحياة، بحيث يشعر المسلم فى هذه المناسبة بصلة جديدة مع من حوله، ويحس واقعًا متجددًا من الحياة.

ومن مقاصد العيد التوسعة على المسلم باللهو المباح، يرشدك لهذا المعنى قوله ﷺ لـ أبى بكر - رضى الله عنه -، وقد دخل على عائشة رضى الله عنها فى يوم عيد ووجد عندها جاريتين تغنيان، فأنكر عليها ذلك، فأشار إليه ﷺ دعهما والحديث فى الصحيحين والمراد من قوله ﷺ «دعهما» مراده ﷺ أن لكل قوم فى عيدهم فرحًا ومسرة وشيئًا من اللهو، فهذا إعلام بالرخصة فى غناء الجاريتين، لأجل كون اليوم يوم عيد.

وقريب مما تقدم، كان من مقاصد العيد مباسطة الأهل ومداعبتهم والتوسعة عليهم، خاصة بعد أن اختل ميزان العلاقات الاجتماعية، إذ باعدت تكاليف الحياة وشئونها وشجونها بين الأب وأبنائه، وبين الزوج وزوجته، وبين الإنسان وأرحامه، فيأتى العيد ليُعيد شيئًا من ذلك التوازن المفقود، ويصحح الوجهة وفق الهدف المنشود.

فهل يتنبه المسلمون لهذه المعانى الرفيعة فى مشروعية العيد، فيلتمسوها ويمتثلوها

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(ق:٣٧)

الأبعاد الحضارية لمدونة أحاديث الحج
مقال فى آفاق الاستثمار



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

من المستقر أن العبادات فى التصور الإسلامى تهدف إلى مقاصد كثيرة تسعى فى المجمل إلى الارتقاء بالإنسانية؛ ومن أجل ذلك كانت مجالا من قبل الكثيرين من العلماء قديما وحديثا لاستجلاء مقاصدها، وهو ما ظهر تحت عنوانات عديدة متنوعة من مثل: مقاصد العبادات، أو أسرار العبادات، أو محاسن الشريعة، أو الحكمة من العبادات إلخ.

وفى مقابل ذلك كان قليلاً توقف العلماء أمام المرامى أو الأبعاد الحضارية للسنة عموما، أو لباب من أبوابها تعيينا، وكان أكثر من أخلص بعضًا من جهده لهذا الباب المعرفى المهم - الشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى، ثم الدكتور يوسف القرضاوى أكرمه الله تعالى.

(١) الحضارة منجل لاستئصال البداوة:

والمتأمل لمعنى كلمة الحضارة يصل إلى أنها تمثل: "جملة مظاهر الرقى المادى والعلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى مجتمع من المجتمعات" كما يقرر الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، ص ٢٠١).

ويلح الدكتور يوسف القرضاوى على هذا المدلول فى أكثر من موضع من كتابه هذا، فيقول مرة أخرى: "لقد كان الإسلام رسالة حضارية من غير شك، هدفها الرقى بحياة الإنسان، وإخراجه من البداوة إلى المدنية".

وفى كثير من الأحيان وفى كثير من أنواع الخطاب الإسلامى المعاصر نلمح أن الحضارة بدت فى التصور الإسلامى مرادفة أو شبه مرادفة للتمدن، والترقى، والإصلاح، والإيمان، والتقدم العلمى، والتهذيب السلوكى، وهذه المرادفات الكثيرة مدعومة بما يظهر من مرادفات البداوة أو أشباه مرادفاتها من مثل:

التوحش، والهمجية، والتراجع، والتخلف، والسقوط، والمعصية.

وليس من شك فى أن الحضارة يمكن أن تمثل على سبيل الاختصار خزينة للمقاصد الشرعية، أو خزينة للكليات الكبرى فى الشريعة، بمعنى أن طريق تحقيق الحضارة هو طريق تحقيق المقاصد الإسلامية كليا وجزئيا إجمالا وتفصيلا.

والذين قد يرتابون فى هذا التعميم أو فى هذه التسوية مدعوون إلى أن يفحصوا أمر الرحمة والأمان والعمران وحفظ الأبدان بما هى عماد ما يسمى بالحضارة وبما يسمى فى الوقت نفسه عماد ما يعرفه علماء الأصول فى باب الكليات أو المقاصد الشرعية ومناهج التحليل الدلالى بما هى بحث فى أنظمة الأفكار الكبرى يمكنها أن تسهم فى هذا الباب ببعض عطاء.

(٢) مدونة أحاديث الحج: مفهومها، ومصادرها، ومجالات استثمارها

ومقصود هذه المقالة من مدونة أحاديث الحج هو كل ما روى عن رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام عليهم الرضوان من أحاديث وآثار تتعلق بالحج وما يدور فى فلكه من شرائع وسنن، مضموما إليها ما روى كذلك فى موضوع العمرة، وفضائل البيت الحرام، والمدينة المنورة إلى غير ذلك.

وهذا الاتساع مقصود من ورائه توسيع دائرة النفع الحضارى للأمة، لا بما هو تسوية بين كل الأحاديث وأمر الشريعة و، وإنما من باب التوسع فى التأسى بالنبى ﷺ، والاقتداء بحركته فى الحياة، ولاسيما وهو المثال الفريد الفذ فى إرادة الخير للوجود الإنسانى، وبما هى المثال الفريد الفذ للحنو على الحياة فى شتى جوانبها.


القرضاوى

ومن هنا فإن مصادر هذه المدونة الكريمة التى هى مجموع ما ورد من أحاديث تتعلق بالحج والعمرة ومناسكها تتسع هى الأخرى لتضم المصادر التالية:

أولاً - مصنفات السنة الشريفة على اختلاف مناهجها، وأحجامها، حيث نجد بابا أو كتابا لأحاديث الحج والعمرة والمناسك فى كتب الصحاح والسنن والمسانيد، والمستدرك عليها جميعا، وكتب الدعوات، وهو تراث ممتد عريق، متنوع، مشفوع بفقه عزيز يتجلى فى عمل أصحابها واستنباطاتهم الفقهية والشرعية التى ظهرت فى عناوين الأبواب أو ما يسمى فى علم الحديث باب التراجم؛ إذ تراجم البخارى أو مسلم أو غيرهم هى فقه بالسنة التى أوردها كل منهما فى الصحيحين.

ثانيا - مصنفات السيرة النبوية الشريفة، على تنوع مناهجها، وأحجامها، حيث تمثل كتب السيرة الميدان التطبيقى الذى يترجم السنن القولية الشريفة.

ثالثًا - كتب فضائل مكة المكرمة، بما هي مسرح إتيان مناسك الحج و العمرة، وهو ما يقسر امتلاؤها بعدد وافر من أحاديث هذا الباب الجليل.

رابعًا - كتب فضائل المدينة المنورة، بما هي موطن استقرار النبي ﷺ، وموطن المسجد النبوى أحد المساجد التى تشد إليها الرحال.

خامسًا - كتب التفسير في سياق الآيات الكريمة المتعلقة بالحج والمناسك؛ حيث حرصت التفاسير الموسعة على الاستعانة بعدد وافر من أحاديث هذا الباب الكريم من الشريعة.

سادسًا - كتب الرحلات الخاصة بالمدينتين المقدستين على امتداد التاريخ الإسلامي.

أما من جهة مجالات استثمارها فهي كثيرة متنوعة، يمكن أن نقف أمام المجالات التالية في إشارة مجملة:

أولاً- المجال الحضارى، وهو ما سوف نفصل القول فيه بعد قليل

ثانيًا- المجال الدعوى.

ثالثًا- المجال التربوى.

رابعًا- المجال السياسى.

خامسًا- المجال الثقافى.

سادسًا- المجال الاقتصادى.

(٣) الأبعاد الحضارية لمدونة أحاديث الحج: مثال تحليلي لآفاق معينة

إن هذه المقالة تهدف إلى مسألة محددة تتمثل في إعادة فحص مدونة السنة المطهرة في أبوابها المختلفة بما يجعلها أساسًا لتحقيق تقدم الأمة الإسلامية، وترقيها في ميادين الحياة المادية والمعنوية المختلفة، وهو عين ما ظهر في العنوان باسم الأبعاد الحضارية لأحاديث الحج.

وفيما يلي محاولة لرصد أهم هذه الأبعاد الحضارية التى تسكن هذه المدونة الشريفة لأحاديث الحج وما يدور في فلكه ويتعلق به.

أولاً- تأمين الإنسان

يظهر من فحص عدد من أحاديث الحج الحرص على تأمين الإنسان من جوانب مختلفة، بدنيا ونفسيا ومكانيا، وحمايته مما من شأنه تعريض بدنه وأمنه للمخاطر.

وهو الأمر الذى يظهر في أحاديث المواقيت المكانية، أو أماكن الإحرام بامتدادها الجغرافى، وفي نسك الهدى في جزء إطعام الطعام.

وقد صح في الحديث أن رسول الله ﷺ قال في الجواب عن سؤال بر الحج: إنه إطعام الطعام وطيب الكلام.

كما تشير أحاديث أخرى إلى شئ من التدابير الوقائية المانعة من تعريض الإنسان للخطر، والتخفيف من الآثار السلبية للزحام، يقول النبي ﷺ: "يا أيها الناس عليكم بالسكينة، ليس البر بإيجاف الخيل والإبل" وحديث أسامة هذا الذى أخرجه الحاكم في المستدرك، (باب المناسك ١ / ٦٣٩ حديث ١٧١١) مروى في سلوك الإفاضة من عرفات.

ثانيًا- حماية الطبيعة والحفاظ على البيئة

ومن جانب ثان يظهر من عدد من أحاديث الحج أن ثمة مرادا في حفظ البيئة وحماية الطبيعة، لدرجة وصل فيها الأمر إلى ما يمكن أن يدخل في عداد تأسيس مفهوم المحميات الطبيعية المفتوحة.

ففي أحاديث الحج نصوص توجب حماية نبات مكة المكرمة، وحيوانها، حتى صح في الحديث أن النبي ﷺ في باب فضل مكة المكرمة من كتاب الحج في صحيح البخارى (٤ / ٤٤٩ حديث ١٥٨٧) قال: إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده" والإشارة في الحديث إلى أدنى الممنوعات ليتوصل من ورائها إلى ما يفوقها في الخطر؛ ذلك أن المنع من قطع الشوك وتنفير الحيوان مستوى راق لم تصل إليه قوانين حماية البيئة في الثقافة المعاصرة إلا بعد جهد مضن، وكفاح طويل، ويظل ما دعا إليه الإسلام في مثل هذه المدونة أعلى في الميزان بسبب من ارتباطه بركن الحج، والمدينة المقدسة.

ثالثا - الارتقاء بالسلوك الإنساني الاجتماعي

وتكشف مدونة أحاديث الحج عن إرادتها الارتقاء بالسلوك الإنساني والانتقال به من أجواء التوحش والبداوة إلى أجواء التحضر والتمدن والترقي، ولاسيما في السياق الاجتماعي عند اختلاط الناس واحتكاك بعضهم ببعض، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذى أخرجه البخارى (في كتابه الحج ٤ / ٣٨٢ حديث ١٥٢١) الذى يقول فيه: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" والمنع من الرفث ومن الفسق هو عين التهذيب على محورى القول والفعل جميعا.

ومر قريبا أن بر الحج يتأسس على: طيب الكلام، على ما أخرجه الحاكم في المستدرك.

ومر كذلك إغراء السنة للناس بالسكينة والوقار ولاسيما في المواقف الداعية إلى ذلك، كما يظهر من قوله صلى الله عليه سلم: عليكم بالسكينة.

رابعًا- إعمار الحياة

الإعمار مقصد كلي يضم في داخله مقاصد عديدة، وهو بعد حضارى ظاهر الحضور في مدونة أحاديث الحج، توزع على مفردات ومحاور كثيرة نجملها فيما يلي:

١-حماية الإنسان من المخاطر التى تتهدده، (تأمين باشتراط الزاد، وتأمين طرقه بما كان من أمر المواقيت المكانية، تأمينه في الزمان بما كان من أمر فرض الحج في الأشهر الحرم إلخ)

٢-حياطة مكة المكرمة بالحماية، وتحريمها، وتشريف البيت الحرام منها، وتعظيمه، وإتاحته في كل الأوقات، وتيسير ذلك للناس، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذى أخرجه الحاكم (١ / ٦٠٨ حديث ١٦١٣): «وفد الله ثلاثة: الغازى، والحاج، والمعتمر» وفي التعبير بوفد الله حض على حياطتهم بالكرامة والرعاية.

ويقول ﷺ في الحديث الذى أخرجه الحاكم كذلك (١ / ٦١٨ حديث ١٥٤٥): «لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت، وصلى أى ساعة أحب من ليل أو نهار».

٣-العناية بعمارة المسجد الحرام، وزينته باب للعمارة والتشييد

ومما يدعم هذه العناية بعمارة المسجد قوله ﷺ في الحديث الذى أخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ٦٠٨ حديث ١٦١٣): «استمتعوا من هذا البيت، فإنه قد هدم مرتين، ويرفع الثالثة».

والحديث يشير إلى مسألة رفع البيت الحرام، وهو تعبير يتعلق بعمرانه وتزيينه، والتأنق في ذلك.

وفى الحديث الذى يرويه ابن عباس دليل إضافي يشير إلى ذلك، يقول رسول الله ﷺ: «إن لهذا الحجر لسانا وشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة» والاستلام فعل عن عاطفة قلبية جليلة تبعث على الحنو على هذا الحجر الكريم.

فضلا عن أوامر صريحة تأمر بتعظيم البيت الحرام، وتشريفه، وتكريمه، وترتيب الثواب العظيم على ذلك.

خامسا- رعاية الصناعات الاستراتيجية

إن دراسة مدونة أحاديث الحج تقود إلى أن ثمة عناية خاصة لعدد من الصناعات الاستراتيجية، وضرورة حمل الأمة على رعايتها من مثل:

١- صناعة النقل، وإنشاء الطرق.

٢- صناعة الأغذية، ومياه الشرب.

وهذه المدونة عند توسيع دائرة فهم أحاديثها تقود إلى ذلك الذى تقرره ذلك أن أحاديث كثيرة جدا تشير إلى ضرورة إتاحة البيت الحرام للزائرين من الحجيج والمعتمرين والمصلين والطائفين في كل وقت، ولن يكون ذلك إلا بالتقدم في صناعة النقل والمواصلات وما يرتبط بها من تمهيد الطرق، وإنشائها، والعناية بالخدمات المقدمة لسالكيها.

كما أن هناك نوعاً حث على العناية بصناعة الأغذية مما يدور في فلك أحاديث الهدى، وكذلك يظهر نوع حث على صناعة مياه الشرب مما تكشف عنه أحاديث فضل زمزم.

سادسًا- رعاية الفنون القولية والبصرية

ومن المدهش أن تقف على بعد يرعى الجماليات، ويحتفي بها، مما يجعل من رعاية الفنون القولية والبصرية، من مقاصد أحاديث الحج، فقد كشفت أحاديث مدونة الحج عما يلى:

١- الحرص على طيب الكلام، والأمر به

٢- الدعوة إلى الاستمتاع من البيت، والمتعة نفع معجون باللذة، وهو ما ظهر من حديث ابن عمر: "استمتعوا من هذا البيت" وربما كان لعمارته وزينته مدخل يتعلق بهذا الطلب.

إننى على ثقة كاملة بأن السنة الشريفة باب واسع لتحقيق الارتقاء والتقدم في جوانب الأمة الإسلامية كلها، وهو الأمر المرهون بتوسيع آفاق دراسة السنة، وفحصها، وتحليل مشكلاتنا المعاصرة في ضوء ما تمنحه لنا من حلول وآفاق للتغلب عليها، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين.

الحج: صندوق المعانى

د.أحمد خيرى العمرى

طبيب أسنان وكاتب وباحث عراقي

تأخذنا فريضة الحج إلى نبى الله إبراهيم، تأخذنا بالذات إلى رحلته تلك، التى رأيناه يخرج فيها أولاً من كل المكرسات التقليدية الأفلة التى استخدم عقله ليرفضها، ورأيناه يخرج من مسقط رأسه متجولاً بين حضارات العالم القديم، باحثًا عن شيء ما، عن مجتمع ما، عن فردوس مفقود ما، كان يريد، عبر رحلته تلك أن يستعيده.

ستتذكر كيف أنه تجول بين تلك المدنيات وكيف أن ظلمها وطغيانها وفسادها دفعه بعيداً عنها، متيقنا أن الفردوس المستعاد لن يكون هناك..

وستذكرك تلك المدنيات بمدنيات اليوم، بظلمها وطغيانها وفسادها، ستشعر أن الأمر لم يتغير كثيرا رغم مرور آلاف السنين على رحلة إبراهيم، كل الذى تغير هو القشور والمظاهر والأدوات لكن جوهر الظلم والطغيان الذى رآه إبراهيم ظل نفسه..

.. سيبدو لك طريق الحج إلى مكة مختلفًا، إذ أنه سيكون الجزء الأهم من رحلة استعادة الفردوس، سيكون ذلك عندما وعى إبراهيم إلى حقيقة أن الفردوس المستعاد لن يكون في تلك المدنيات التى تبدو زاهرة رغم خوائها الداخلى، بل سيكون في تأسيس مجتمع من نوع آخر، في بذر أساسات جديدة لحضارة مختلفة.. في مكان سيبدو للوهلة الأولى أنه غير مهيأ لاحتواء تلك البذرة ونموها..

مكان أجرد غير ذى زرع، لن يصلح حتى ليكون تجمعا لسكان، فكيف يصلح أن يكون بذرة لحضارة جديدة..؟

نعم، هذا ما سيبدو للوهلة الأولى، وفق مقاييس كل المدنيات الأخرى وقيمها..

لكنه لن يكون نفس القياس، هذه المرة مع الحضارة الجديدة، ومع الفردوس المستعاد، بل سيكون هناك ميزان جديد لكل الأمور..

وها أنت تحاول أن تستعيد هذا الميزان، من أجل أن تستعيد ذلك الفردوس..

وها أنت، عبر الحج، تقتفى خطوات إبراهيم، عندما وضع قدميه على الطريق الصحيح، عندما عدل عن البحث في المدنيات الأخرى، بعدما خبرها وعرف ثوابتها، وانطلق نحو تأسيس حضارة جديدة بثوابت مختلفة..

ها أنت تضع قدميك على نفس الطريق، تلتفت برأسك يمينا ويسارا بين مدنيات اليوم، ثم تتوجه نحو ذلك الطريق الذى سار فيه إبراهيم ليضع فيه حجر أساس مختلف، ومميز، لحضارة أخرى.. هى الفردوس المستعاد..

.. وها أنت تضع قدميك على نفس الطريق..

ويربطك ذلك على الفور بتاريخ سحيق العمق لدرجة أنك لا تعرف، ولا أحد يعرف، مدى عمقه..

فعلاً، لا أحد يعرف متى كانت تلك الرحلة الإبراهيمية، خمسة آلاف سنة من الآن، أو أقل أو أكثر.. لا أحد يعرف لها تاريخا محددا.. وهذا يزيد من عمق الأمر، إنك ترتبط، بالتاريخ، هنا بشكل مطلق ودون أن تدخل فى تفاصيل السنين والقرون التى تفصلك عن الحدث، وسيذكرك ذلك بالتفاصيل غير المهمة عن عدد فتية الكهف التى تترفع عنها السورة لتركز على ما هو مهم..

نعم، ها هو الحج، ذلك الركن الخامس، يربطك بتاريخ عميق سحيق، يجعله قريضة، يجعله شعيرة..

يقول لك: إنك لم تولد البارحة، وأن قيمك ومثلك لم تولد البارحة، وأن خلفك تاريخ طويل عريض.. وأنك لا يمكن لك أن تتخلى عنه، إلا إذا قررت أن تتخلى عن دينك، عن أركانه.. واستبدلته بمجموعة قيم أخرى، تفتقد التاريخ، وتفتقد الحس التاريخى، بل وأكثر من ذلك، تعتبر أن التاريخ هو عبء ثقيل لا جدوى منه، وأن المهم هو، الآن، وهنا..

ولعله من المهم هنا، الإشارة إلى أن مناسك هذا الحج، هذه الفريضة، لم ترتبط فى أى تفصيل من تفاصيلها، برحلة قام بها الرسول ﷺ كان يمكن مثلاً أن يكون هناك فى المناسك تمثلاً لرحلته ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً، وواضعاً لأسس المجتمع الإسلامى، والحضارة الإسلامية..

لكن ذلك لم يحدث، لأنه لو حدث وقت الرسول ﷺ لكف عن أن يكون (تاريخا عميقا).. بل لصار مجرد حادثة قريبة، (معاصرة) لزمن الرسول ﷺ لكن مناسك الحج ألقت بجذورها بعيداً منذ ذلك الوقت، لقد كان الأمر تاريخا منذ يومها، وكان آلاف السنين منذ يومها، كان تواصلاً بين التاريخ والحاضر، (الحاضر الذى صار تاريخا فيما بعد).. وسيظل الأمر كذلك، ستظل تلك الفريضة تمثل ذلك التواصل التاريخى الذى يمتد إلى آلاف السنين إلى حيث أول مجتمع قام على التوحيد..

.. ستدخلك مناسك تلك الفريضة، فى مناخ خاص، قد يكون غريبا كما تعودنا، لكنه فى حقيقته منسجم أشد الانسجام مع قيم الفردوس المستعاد.. بالذات منسجم مع استعادة ذلك الفردوس المفقود..

منذ أن تدخل فى نية الإحرام، ستعرف أن الأمر جد، وأنك ستترك كل شيء وراءك، وستقول لك تلك التفاصيل الصغيرة المتعلقة بقص الأظافر والشعر وعدم التطيب إنك هنا تدخل مرحلة تتبدل فيها أولوياتك، وأن تلك الأمور المتعلقة بجسدك ستكون هنا محض توافه لا قيمة لها، وأنك ستنقطع عنها لأنك ستدخل مرحلة جديدة، مرحلة عليك أن ترتفع فيها عن أظافرك وشعرك وجسدك إلى ما هو أعمق من ذلك.. ربما إلى داخل رأسك، أو فى أعماق روحك..

المهم أنك ستترك الأجزاء الظاهرة: أظافر وشعر وجلد لن تطيبه.. لتدخل إلى ما هو أعمق..

وعندما تقوم بجمع الماء فى منسك التروية، فإن ذلك سيذكرك بصعوبة الأمر يوم كان، سيذكرك بذلك الجهد الذى بذل، والمشاق التى تم اجتيازها..

سيذكرك جمع الماء، فى تلك الصحراء الجرداء، كيف أن الأمر هو بالأساس عن أساسيات الحياة، عن ثوابتها عن أولوياتها، سيأخذك ذلك من أوهامك التى بثتها حولك حياتك وتفاصيلها وسيرجع بك إلى ما هو أساسى ومهم ولا يمكن لحضارة أن تقوم من دونه.. وستشعر كيف أن الأمر كان صعبا آنذاك، مادام هو صعب الآن..

.. وعندما تجمع الحصى، سيذكرك ذلك بأنك دوما يجب أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن قيمك ومعتقداتك، وأنه حتى ولم يكن هناك خطر (داهم).. فإن هناك دوما خطر (كامن).. سيذكرك جمعك للحصى بأن درب استعادة الفردوس لن يكون بلا محاولات ممن أذلك وأخرجك عن الفردوس فى المقام الأول، من أن يذلك عن درب استعادته.. سيذكرك جمعك للحصى، بأن الخير والشر، سيظلان يتصارعان فى هذه الحياة، وأن كلاً منهما سيرى مداً، وسيمر بجزر، والمهم أن تعرف أنت مع من تقف.. ومع من سيكون مدك، وجزرك..

.. وسيذكرك رميك للجمرات، والطريقة التى تؤدى فيها ذلك، وتحريك إصابة الهدف، بأنك يجب أن تحدد عدوك، وتعرفه.. وتميزه..

سيذكرك ذلك بأنك جزء من الصراع، سواء شئت أم أبيت، وأنك مهما حاولت أن تسير قرب الحائط، كافيا خيرك شرك، فإن الأمر سيظل يشملك، شئت أم أبيت.. وسيظل عليك أن تحدد عدوك ومكانه وماذا يريد منك.. سيظل عليك أن تكون مستعدا....

وستذكرك، الحصى الصغيرة، التى تقضى المناسك بأن تجمعها أن الأمر ليس بالحجم وبالضخامة، التى قد تؤذى الآخرين من أصحابك.. وإنما هو التوازن و الانتقاء الذى يحميك، ويحميهم، ويؤدى فى الوقت نفسه دوره ضد الشر ورموزه.

ستذكرك تلك الحصى الصغيرة، بحقيقة أن دورك كفرد لن يكون مؤثراً فى الصراع إذا عزل عن دور الآخرين، الذين سيكون دورهم أيضا غير مؤثر إذا عوملوا كأفراد معزولين، لكن الحصى الصغيرة، إذا اجتمعت، إذا توحد هدفها، إذا اتجهت بالرمى نحو هدف واحد..

ستذكرك الحصى الصغيرة، أنها لن تكون مؤلمة ولو قليلاً إلا إذا قيس أثرها عندما تجمع أثرها التراكمى الذى يعكس ذوبان الفرد فى الجماعة، والأنا فى النحن..

.. وسيذكرك تعدد مواقع رمى الجمرات، أن عدوك لن يكون له عنوان واضح أو ثابت، وأنه يغير وجوهه دوماً، وأنه يغير شعاراته، وراياته، وأنه قد يتستر أحياناً خلف شعارات جذابة، لكن ذلك لن يغير من حقيقة جوهره..

وستذكرك الحصى الصغيرة، وأنت ترمى بها نحو رمز الشر، أن المواجهة بينك وبين الشر لا تشترط، بل أنها على الأغلب لا تستلزم، مواجهة عسكرية، بل إنها قد تكون مواجهة قيم، مواجهة خيارات، مواجهة وجود

مجتمع بديل وخيارات بديلة..

.. وسيذكرك استلامك الحجر الأسود بحقيقة أنه مجرد حجر، لا ينفع ولا يضر، ولكنه الحجر الأساس، الذى وضعه إبراهيم ليكون اللبنة الأولى لذلك المجتمع المختلف، اللبنة الأولى لتلك الحضارة التى ستقوم، لأول مرة، على التوحيد، على فكرة التوحيد للإله الواحد الأحد..

سيذكرك الحجر الأسود، وبالذات بكونه ظل حجراً أسود متمايزاً عن بقية بناء الكعبة، أنه سيظل حجراً أساساً لبناء سيظل يتطاول.. لبناء سيظل مستمرا، وسيكون استلامك له، كجزء من المناسك، بمثابة تحملك لمسئولية هذا البناء، على أساس هذا الحجر..

.. وستذكرك أشواط الطواف حول الكعبة، بأن الأمر كله، فى هذا الدرب، درب الاستعادة والبناء، يتمحور حول هذا الحجر الأساس الذى وضعه إبراهيم، وأن كل القيم، وكل الثوابت، ستكون منبعثة من ذلك الحجر الأساس: التوحيد.. بأوسع وأشمل وأسمى معانيه..

سيذكرك الطواف، أن الأمر ليس بالقرب، أو بالبعد، بمقدار هو بالدوران حول المحور، حول البؤرة.. حول المنطلق الواحد.. حول حزمة ثوابت لن تتغير..

ستطوف وتطوف، وسيكون الرقم (سبعة) هنا ترميزا للتكرار والاستمرار، سيكون طوافك هنا بمثابة رحلة حياتك المفترضة كلها، وفى كل مرة، تقترب فيها من الحجر الأسود، ستستلمه مجددا، كما لو كنت تبايع تلك القيم، وتجدد تلك البيعة، مرة تلو مرة تلو مرة..

وسيذكرك السعى بين الصفا والمروة، بلحظات الشدة التى مرت بها التجربة الإبراهيمية، وستذكر جزع هاجر، وخوفها على وليدها من الموت عطشا، وستعلم هنا أن الأمر ليس مجرد طفل رضيع تخاف أمه عليه، بل إنه تجربة حضارية، وقيم كاملة، علينا أن نخاف عليها، ونحميها، ونسعى من أجلها كما تخاف وتحافظ وتسعى أم حنونة على طفلها الباكى..

وسيذكرك النحر، وتوزيع الأضاحى على الفقراء، بحقيقتين أساسيتين أولهما أنك أنت السيد فى هذا العالم، وأن هذا العالم بثرواته وموارده ومخلوقاته، قد خلق من أجلك..

وثانيهما، أن تصرفك أنت، فى هذه الموارد والثروات، يجب أن يظل محكوما بتوازنات العدالة الاجتماعية ومتطلباتها..

وسيذكرك التحلل من الهدى، وعودتك لتفاصيل جسدية صغيرة، أنك بعد كل شيء إنسان، وأنك لم – ولن – تدع رهبنة وتبتلا لم تصمم أساسا من أجلها، كل ما فى الأمر أن أولوياتك مختلفة، وأن جسدك، موجود على قائمة اهتماماتك، لكنه ليس أولها..

.. إنه التاريخ، بل عمق التاريخ، ممثلاً فى فريضة.. ممثلا فى شعيرة تعبدية، تؤديها، إذا بك ترتبط بعمق التجربة الحضارية التاريخية..

وإذا بالحاضر الذى تعيشه، الآن وهنا، يتمثل ذلك التاريخ ويتقمصه، إذا بالتاريخ يعود حيا، ينفض عليه غبار الزمان، غبار القرون المتطاولة، غبار آلاف السنين، ويعود ليسكن الحاضر، هذه اللحظة بالذات، من خلالك أنت..

إنه التاريخ، لم ينته كما يزعمون، بل لا يكف عن الاستمرار.. عبر فريضة، تنتقى من التاريخ تجربته الأهم..

وتجعلك عضواً فاعلاً فى هذه التجربة...، والأهم من هذا أنها تجعلك عضواً فاعلاً فى هذه التجربة...، والأهم من هذا أنها تجعلك تستلهم هذا التاريخ، فى تغيير هذا الحاضر.. (أو هذا على الأقل، هو ما يجب أن تكون عليه الأمور).

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، مع هذه الفريضة، فهى لا تكتفى بوضع التاريخ، فى الحاضر، من أجل إنشاء مستقبل آخر..

بل إنها أيضاً، تضع كل ذلك ضمن مناخ أخروى، يجعلك تدرك، وأنت على المحك، أن (الآخرة)، فكرتها وحقيقة وقوعها والإيمان بها، كان موجودا خلال كل تلك الرحلة، تاريخا وحاضرا ومستقبلا..

ستكون الآخرة هناك فى كل المناسك، تتغير المناسك، وتتدرج من واحدة لأخرى، ولكن تظل الآخرة موجودة فى كل التفاصيل، تظل الآخرة، فكرتها وحقيقتها، جاثمة هناك، قريبة عليهم، بمثل قرب جلدك عليك..

بالضبط، ستكون الآخرة تلبسك.. تلبسك..

كيف؟.

ببساطة شديدة، ودونما تعقيدات أيدلوجية، أو عمليات غسيل مخ مزعومة، سيكون ذلك عبر ملابس الإحرام، التى سيرتديها الجميع قطعا وحتما فى تلك الرحلة، والتى لن تكون فى حقيقتها سوى، أكفان، بل ستكون بالضبط، كأكفان، لونا وهيئة وتفصيلا، وسيتساوى الجميع فى هذا، الغنى والفقير، العالم والجاهل، الكبير والصغير، الأمير والفقير، الكل سيتساوون مع ملابس الإحرام، كما سيتساوون مع تلك الحقيقة التى لن تجامل أحدا بلا استثناء: الموت..

سترتدى كفنك، سيكون اسمه هذه المرة ملابس الإحرام، وسيرتدى الآخرون أكفانهم أيضا، رجالا ونسوة، سيكون اسمها ملابس الإحرام.. ستضيع الفوارق كلها هنا، ستضيع الألقاب، ستضيع الشهادات، ستضيع المظاهر، ستخلف وراءك كل ما كان يميزك ظاهريا عن غيرك..

ستخلف قناعك وجاهك وعزك ورياءك، لن يبقى مع كفنك هذا سوى حقيقتك الداخلية، حقيقتك التى طالما أخفيتها عن الآخرين، وستلاحظ، فى زحام المكفنين من حولك، أنك تشبههم جدا، وأنك بالكاد تميز نفسك عنهم، وأنهم قد يكونون داخليا، وعلى المحك، أفضل منك، وسيضعك ذلك كله فى لحظة الحشر، عند البعث، والناس قد خرجوا للنشور، ليس عندهم غير حقائقهم.. ليس عندهم غير ما فعلوا حقا، بغض النظر عن ما ادعوه..

سيغير ذلك من الأمر كله، ها أنت تعبر الحاضر، متقمصا التاريخ، ومتلبسا الآخرة..

سيكون الأمر كله مثل صيغة جديدة تضع المفاهيم كلها فى عبوة واحدة.. (ثلاثة فى واحد).. التاريخ، التاريخ السحيق العميق، الحاضر، الآن وهنا، والآخرة.. تلك الحقيقة الواقعة لا محالة..

وسيكون ذلك كله عبر تلك الفريضة، التى ستبدو مجرد شعيرة تعبدية للوهلة الأولى، الركن الخامس، ثابتنا الأخير الذى بدونه لا يقوم البناء.

الوقفة النبوية.. بين يدى الله، وحيال الأحداث



للعلامة محمد فتح الله كولن

إن من نذر نفسه للحق تعالى واستمد العون من الله عز وجل، يمضى فى طريق وظائفه ومسئولياته من دون أن ينظر إلى الوراء...، لأنه يعرف القوة التى استند إليها، ويعرف مالكه الذى يعمل هو له وهو مطمئن لصواب هدفه والطريق التى يسلكها، وأنه فى رعاية من لم يتخل عنه، ولو لحظة واحدة، فى هذا الطريق ولن يتخلى عنه، فهو، لذلك، لن يقع فى تشرذم فكرى أو حسى أبداً، ولن يكابد تشوشاً أو تردداً، بل ينكبُّ على أداء ما كُلِّف به فى شعور وحساسية مرهفة، ثم ينتظر النتيجة من الله تعالى فى اطمئنان مكين.. فيهتم اهتماماً بالغاً بترك التدخل فى شأن الربوبية ويحصرُ حركاته وفعالياته فى ابتغاء مرضاة الحق سبحانه. فيعتبر رضاه جل وعلا ركناً أساسياً وضرورياً.. ولذلك تراه موصد الأبواب، ما استطاع، حيال كل الأمور التى ليس فيها رضا الله تعالى، وساعياً إلى تجنُّب رغبات النفس ومطالبها. فإذا توعرت الطرق يوماً وتشابكت السبلُ، واحلولكت الآفاقُ، ودوَّت أصداءُ الاضطراب والقلق، فلن يتشكى عن الطريق التى يسلكها ولن يرتبك أو يتقهقر، بل يستعين بالله ويتشبثُ بالسعى والعمل، ويستسلمُ للحكمة الإلهية.. ويفعل كما فعل سيدنا نوح - عليه السلام حيث رفع يديه:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾

(القمر: ١٠)

ثم يلتجئ بتمام الإخلاص والصدق إلى حفظه تعالى ورعايته، ويترقب منه ما يمنُّ عليه من لحظة الفرج ونقطة الخروج.

وكما أن من العبادة أن يكون الإنسان على طريق الحق جل شأنه، ويُعرِّفَ الناس بالحق سبحانه ويذكِّرهم به، ويقوم بإرشاد من فى الطريق إلى آداب الطريق.. فكذلك من العبادة توقُّع كلِّ شىء من الله تعالى، والانتظارُ فى الأمور التى تتطلب الانتظار مع الصبر على تباطؤ الزمان بشكل يستنفد الصبر ويسلب العقل.. فالمرء قد يحظى بالتوفيق فى أول حملة أو حركة أو قيام وشبوب، فيجدُ ما يبتغى، لكن قد يجول ويصول كجواد أصيل فلا يحصل على شىء فى الظاهر، لكنه يفوز فى النهاية بصبره وإقدامه ونيته.

وأحياناً تقطع الحوادثُ الدنيوية والدنيويون الطريقَ أمام الإنسان، وأحياناً تشتدُّ وطأةُ الأحداث المنهمرة فلا يُطاق التصدى لها.. فتتعاقب السنوات وتمضى وكأنها "محرمٌ" كلها، وتؤدى الطرق إلى "كربلاء" فتمتد وتقف هناك!.. لكن القلوب التى تتلقى أوامر الحق تعالى، رغم ذلك كله، لا تهتز ولا تترنح ولا تتذبذب حيالها؛ فيرون كل حادثة "معاملة" مرتبطة بإرادة الله المتعالية، ويحتسبون المصائبَ امتحاناً، ويستقبلون الامتحانات فى توكل وتسليم، ويُعلِّمون قُطَّاعَ الطرق، الذين لا يرعون ذمة ولا تقاليد، دروساً فى الإنسانية، ويقوِّمون كل حركاتهم وتصرفاتهم فى إطار دقة الامتثال للأوامر الآتية من العوالم الماورائية؛ فعينٌ منهم ترقُّب سلوكيات أنفسهم، وعينٌ أخرى ترقُّب انفراجَ ذلك الباب المتعالى، ويندفعون، بلا تشتيت لهمتهم، نحو هدفهم الذى هو أسمى الأهداف، جعلنا اللهُ فداءً لذلك الهدف السامى الذى هو مرضاته تعالى، ويتحرزون من التلوث بالتوجه نحو الأغيار ولو بخيالهم.

إن رجلاً بهذه الأوصاف من أهل الوفاء والصدق، له همٌّ وحيد بدرجة العشق، هو أن يجد اللهَ كلُّ أحد ويتوجه إليه ويتخلص بالعبودية لله وحده من شتى العبوديات.. إنه يطوفُ فى الدروب والأسواق، لا يهدأ ولا يسكن.. صوته ونفسه ترجمانٌ لقلبه، فينادى، نداءً لا ينقطع، بأسلوب مفتوح لقبول كلِّ وجدان لم يفسد، فيئن وينادى:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(الأعراف: ٥٩)

هذا التوجع هو شىء من نواح النبى نوح عليه السلام:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

(الأعراف: ٦٥)

وهذا شىء من صراخ النبى هود عليه السلام:

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء: ١٠٧-١٠٩)

وهذه التعبيرات الصادقة الخالصة هو البيان المشترك لدعوة أولئك الأنبياء أجمعين.. يقول ذلك ويسمع خفقات قلبه أبداً، أو يهرع لعون الذين يهتفون

بتلك النغمات فينادى:

﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ۝ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ۝ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ۝ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ۝ إني إذا لفي ضلال مبين ۝ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾

(يس: ٢٠-٢٥)

فيأمر اللهُ تعالى أن يدخل الجنة (وفُسّر بأنه قتل فدخل الجنة شهيداً)

﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ۝ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾

(يس: ٢٦-٢٧)

فبهذه الهمهمة والتمتمة يُعلن عن موقفه تجاه الله وتجاه قومه، (وتروى كُتُبُ المناقب أن هذه الصرخات القلبية الموازية لأنفاس ملائكة السماء هى للبطل الشجاع حبيب النجار).

وهناك رجل مؤمنٌ من آلِ فرعون مجهولُ الاسم، هذا البطل الهزبر الذى يخفق فؤادى كلما سمعت صوته الهادر، يبدأ كلامه بقوله:

﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾

(غافر: ٢٨)

ويعنى بـ﴿ رجلا ﴾ موسى عليه السلام.. فيدلى بنصائح وبيانات بليغة ومؤثرة في الأحاسيس والأفكار الإنسانية كنفخ الصور، فتملأ الصدور خشية وتُرعش وتُرعد أرواحا، وتشرح وتريح أرواحا، ثم يصرخ، في جرأة، بما ينبغي أن يقال، ويختمُ كلامه بقوله:

﴿ لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ۝ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾

(غافر: ٤٣-٤٤)

لقد ظل رجال العزم والإرادة هؤلاء، صامدين وثابتين حيال تلك الجموع التى تردّت وهبطت إلى منتهى الطيش والصلف والهوان والغرور والأنانية والحقد والكره والغضب.. تلك الجموع التى اعتبرت مروءتهم وشجاعتهم هذه ضلالةً وسفاهة، وخوّفتهم بالطرد والتهجير من مساكنهم وديارهم، أو هدّدت أتباعهم بقطع أرجلهم وأيديهم، أو استخفت بهم واحتقرتهم، أو أساءت الظن بمواقفهم النبوية بأن بعض آلهتهم اعتراهم بسوء، أو أوعدت هؤلاء المرشدين بالرجم، أو هوّنت من شأنهم دائما بقولهم:

﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾

(إبراهيم: ١٠)

ولكن هؤلاء ردوا عليهم فى صوت جهورى:

﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴾

(يونس: ٧١)

هذه الوقفة وهذا الصوت الهادر لنبي الطوفان عليه السلام..

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾

(الأعراف: ٨٩)

وهذا التحدى من خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام..

﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ۝ من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ۝ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾

(هود: ٥٤-٥٦)

وهذه البيانات تُظهر مواقف النبى هود عليه السلام..

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

(هود: ٨٨)

وهذا تحذير بليغ من النبى شعيب عليه السلام. أما ردهم على قولهم:

﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾

(إبراهيم: ١٠)

فكان:

﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ۝ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾

(إبراهيم: ١١-١٢)

وهذه وقفة من وقفات أولى العزم للأنبياء نوح وهود وصالح وغيرهم من الأنبياء العظام عليهم السلام.. فحينما وصل الأمر إلى حد لا يطاق، توجهوا إلى الله تعالى بكل كيانهم وقالوا:

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ۝ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

(الممتحنة: ٤-٥)

وهذه باقةُ رسائلَ حول التوكل من أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى السائرين فى الطريق.

والملحوظ أن أبطالَ القلوب هؤلاء، الذين تمتعوا بإرادة صلبة ومواقف حكيمة، حافظوا جميعًا على مقصود بعينه وساروا على خط واحد والتزموا قيمًا بعينها. فإنّ ما كان ينعكس على أحاسيسهم وأفكارهم وسلوكياتهم هى أمور بعينها، ووحدة القضية والدعوة تظهر جليًا فى رسالاتهم وتبليغاتهم. وإن تمثيلهم للمهمة نفسها لجليٌّ وواضح مهما اختلفت بلادهم

وأزمانهم، وإن أبرز خصائصهم أنهم في كل أفعالهم لم يطلبوا إلا مرضاة الله تعالى، ولم يستعينوا في جهادهم إلا بقدرته وعنايته، ولم يلتجئوا إلا إلى حفظه وكلاءته، ولم يتحركوا إلا باسمه.

أما الوظيفة الأصلية لهؤلاء القدسيين، فهي إنقاذ البشر من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان، وتحفيز الأرواح لتصفى القلوب إلى الحق تعالى، وكشف ما أمام ستار الأشياء وما وراءها وإراءتها على حقيقتها حتى تزول الشبهات والشكوك في الأذهان، وتنشر الأنوار على وجه الوجود ليُقرأ ككتاب، وليُطلع عليه كمشهر ومعرض، وليفسر كلوحة فنية بارعة، ثم يترجم حسب أفق إدراك العصر، وجعل هذه المسيرة الفانية مدرجًا إلى العوالم الباقية وجسرًا إليها ومزرعة لها وسوقًا لشرائها.

ففي معرض البيان لطرف من هذه الأمور يقول الله تعالى في القرآن لسيد السادات ﷺ:

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

(إبراهيم: ١)

ويعرِّفنا بإطار من الأطر لرسالة النبوة ودورها. وليس سيدنا محمد ﷺ وحيدًا في هذا الأمر؛ فهو وظيفة كل الأنبياء من لدن أبينا آدم إلى سيدنا موسى ومنه إلى سيدنا عيسى عليهم السلام. وانظر كيف يربط القرآن الكريم الأمر في السورة نفسها بالنبي موسى عليه السلام أيضًا قائلًا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾

(إبراهيم: ٥)

ومع أن ممثلي هذه الرسالة السامية، التي تتطلب شعورًا بالغًا بالمسئولية وإرادة مكينة وشخصية متينة، مع أن هؤلاء بشر من أمثالنا.. لكنهم بشر يختلفون ويتميزون عن غيرهم في قوة عزمهم وإيمانهم، وحدة استقامتهم وعلو أمانتهم، وغاية شعورهم بوظيفتهم، وشدة حرصهم على رضا الحق تعالى، وثبات مواقفهم، وإرادتهم حيال المعاصي أبدًا، وولعهم بدعوة الناس إلى الصراط المستقيم، وكأنها غريزة فيهم؛ فلا يقر قرارهم ولا يعرفون سكونًا، إلا "الإرشاد".. "الإرشاد"! فيؤدون وظائفهم في اشتياق غامر، لا يعرفون كللًا أو مللًا، وإذ يوفون بوظائفهم بحساسية مرهفة، لا يتدخلون في شأن الربوبية، فلا ينشغلون بحساب النتائج قط، ولا يرجون إلا عناية الرب جل وعلا. يُرجعون الهداية والضلالة إلى الله تعالى، مع قبول وجود أثر للإرادة في مستوى "الشرط العادي"، ويعترفون برجوع الأمر إليه كله،

ويخضعون لحكمه وقضائه بألف نفس ولا بنفس واحدة.. وكما يرعون الأوامر الشرعية والتنزيلية أدق رعاية، كذلك يتحرون الحفاظ على الأوامر التكوينية بأعظم العناية. وإن لهم لوقفات وطيدة ومكينة حيال القرآن والكائنات، وأمام مخاطَبيهم وربهم.. وهذه هي وقفة "أولي العزم" والمصطفين.

وإن همم هؤلاء المصطفين لعالية علوًا بحيث لا هم يكتفون بما يحرزون، ولا ييأسون أو يرتبكون إذا لم يحصلوا على ما يريدون.. يعرفون أن التوفيق من الله، ويُرجعون إخفاقاتهم إلى أنفسهم.. يقفون منتصبين في ثبات، ويأبون أن ينهاروا.. فإن حصلت لهم رجة من حيث لا يشعرون، استعادوا الثبات من فورهم ثم مضوا لسبيلهم.. لا يفرحون بما ربحوا من حظوظ الدنيا، فلا ينشدهون بها ولا يغتمون أو يتكدرون لفرصة أضاعوها.. فيعرفون أن الحظوظ كلها من الحق سبحانه، فتصيبهم رعشة ورجفة خشية أن يتعرضوا للابتلاء من وجه، ومن وجهة أخرى ترى ظهورهم منحنية خشوعًا ومهابة منه تعالى، لعلمهم أن كل الألطاف والإحسانات منه تعالى.. فللوقفة السليمة السديدة لهؤلاء المصطفين الأخيار، لن يتخلى الله عنهم، بل يؤيدهم بنصره في الدنيا ويشرفهم بوراثة الأرض، ويورثهم "جنة الفردوس" في الآخرة. واقرأ إن شئت شاهدًا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

والمعنى أن الأرض كلها ستصطبغ بصبغتهم:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(المؤمنون: ١٠-١١)

إن المقومات الداخلية لهذه الهامات السامقة وأطر رسالاتهم، تستدعي مقالة أخرى مسهبة ومستقلة تشبعها شرحًا وتفصيلًا، وقد نعود إليها..

***

فريضة الحج... مقاصد وغايات



د. وصفى عاشور أبو زيد
wasfy75@gmail.com

من أسماء الله تعالى "الحكيم"، ومقتضى هذا الاسم أن الله تعالى لا يخلق شيئا باطلاً ولا يشرع شيئا عبثا، إنما شرع كل شيء لحكمة، وأمر بكل أمر لغاية، ونهى عن كل نهى لمقصد، وخلق كل شيء فقدره تقديرا.

ولإدراك الأهداف والغايات والمقاصد والأسرار التى شرع الله تعالى لها الأحكام والعبادات، وحد لها الحدود، وفرض لها الفرائض وشرع لها الشرائع، أثر كبير فى روح تحصيل هذه العبادة، ودافع أكبر للحرص عليها وأدائها على الوجه الذى يرضى الله تعالى، كما أنه يترتب على إدراك ذلك ثواب عظيم للعبد الذى أقبل على الطاعة وقام بالعبادة وهو يدرك مقاصدها ويحصل نواياها.

وما من شك فى أن الحج، أو الفريضة الخامسة، كما جاء ترتيبه فى حديث "بنى الإسلام على خمس"، من أعظم شعائر الإسلام، وحسبنا ما قاله حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى بداية كتاب أسرار الحج من الإحياء: "إن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين"، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يرفع أمامه مقاصد الحج وغاياته، وحكمه وأسراره، حتى يكون على بصيرة من أمره، وفقه من دينه، واستمتاع بعبادته، فإن ذلك أرجى للخشوع والخضوع فيها، وإتمامها على الوجه الصحيح المقبول.

والحقيقة أن مقاصد الحج متنوعة إذا نظرنا إليها من زوايا متعددة، فمنها ما يتصل بالدنيا، ومنها ما يتصل بالآخرة، ومنها ما يتصل بالأفراد، ومنها ما يتصل بعموم الأمة، ومنها ما يحصل حقوق الخالق، ومنها ما يعود على المخلوقين، وقد رأيت، بعد التأمل، أن أقسمها تقسيماً آخر يبدو فيه وضوح محاور كبيرة تضم تحتها مقاصد متعددة ومتنوعة، وتحقق الزوايا المتنوعة سالفة الذكر.

مقاصد ربانية وإيمانية

فمن هذه المقاصد التى شُرع الحج لها مقاصد تندرج تحت الإيمان وتزكية النفس، ففى كل شعيرة من شعائر الحج يبدو مقصد تحقيق التوحيد بارزا وواضحا بروزا لا يحتاج إلى بيان، ووضوحا لا غموض معه ولا لبس فيه.

فالمسلم يخرج من بيته تاركًا أهله ووطنه وماله وتجارته مهاجرا إلى الله، يرجو رحمته ويخشى عذابه، لا يعبد معه شيئا، ولا يشرك به أحدا، بل يتمحض التوحيد وإفراد الله بالعبودية هنا أتم ما يكون التمحُّض، فياله من مشهد مهيب حين ترمق الوفود المنطلقة فى البر والبحر والجو تجأر إلى الله تعالى بالدعاء والتهليل، والذكر والشكر والتمجيد فى عالم ما أكثر التائهين فيه عن الله والمتمردين عليه، وما أكثر العابدين بغير ما أنزل الله وبغير ما شرع.

وشعار الحجيج فى هذه الشعيرة: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"، لهو خير شاهد على ذلك، وكذلك ذكره ودعاؤه والابتهال إليه والتكبير والتسبيح كلما هبطوا واديا أو علوا جبلاً، فكل أعمال الحج يتخللها الذكر، ويتجلى فيها الثناء والدعاء والخوف والرجاء حتى عند أداء الشعائر التى ربما لا نعرف لها حكمة بادى الرأى.

يقول الشيخ الغزالى يرحمه الله: "وإذا كان بعض المغفلين يزعم أن تقبيل الحجر الأسود نوع من الوثنية فليكن تقبيل الملوك والرؤساء لأعلام دولهم نوعا أيضا من الوثنية ومن عبادة الأقمشة!! من قال هذا؟ إذا كان الأمر لا يعدو ترجمة لمشاعر الولاء لله فليس فى هذا شىء، ونحن فى هذا نلتزم ما ورد".

ومن حق رب البيت أن يضع طريقًا لزيارة بيته، فإذا جعلها طوافًا من سبعة أشواط فليس فى الأمر ما يستغرب، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات"[1].

وفى هذا اختبار للعباد فى مدى طاعتهم لله؛ فقد كلفهم بما يعقلون سره ويدركون مقصده، فها هو يبتليهم بما لا يعقلون أو يدركون أسراره، فهل يطيعون أم يتمردون؟

إن تحقيق الطاعة لله والانقياد لأمره لهو من أبرز مقاصد الحج، ويتجلى ذلك فى شعائر ربما تبدو غير معقولة كما سبق القول، مثل تقبيل الحجر، أو السعى بين الصفا والمروة، أو الطواف بالبيت، أو غير ذلك من شعائر، لكن لا شك أن لكل هذه الأعمال حكمها ومقاصدها التى علمها من علمها وجهلها من جهلها، ويجمعها كلها تحقيق العبودية لله والسمع والطاعة لما يأمر به عباده ابتلاء لهم واختبارا.

أىُّ مشاعر تلك التى تكسبها هذه الفريضة فى نفس المؤمن، وأى مدى ذاك الذى يبلغ إليه إخلاص العبد وتوحيده لربه وتجديد إيمانه به، وكل شعيرة من شعائر الحج فيها ذكر وتهليل وتوحيد، وتلبية وإخلاص وتمجيد؟ أى حالة تصبح عليها نفسه من الشفافية والنقاء والصفاء، لا سيما وقد رجع من حجه كيوم ولدته أمه كما أخبر الصادق المعصوم ﷺ؟ فالحج بهذه الصورة وتلك الأعمال يجدد الإيمان، ويحقق التوحيد، ويظهر فيه كمال صدق العبد فى العبودية المطلقة لله تعالى.

(١) انظر خطب الغزالى: ٣/ ١٢١، طبعة دار الاعتصام، ومائة سؤال عن الإسلام: ٨٣، دار ثابت، القاهرة، ط الخامسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

مقاصد اجتماعية وإنسانية

ومن مقاصد الحج مقاصد إنسانية واجتماعية؛ فوحدة الأمة وتوحيدها مقصد عظيم من مقاصد الحج، بل من مقاصد الإسلام الكبرى، ويُستمد هذا المقصد الاجتماعي والإنساني من "توحيدات" الحج، فالكل، كما نحفظ، يعبد ربا واحداً، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ورسولهم واحد، وحداؤهم واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، ومن هنا تتجلى وحدة الأمة وقوتها؛ فالحج من الشعائر التي تحفظ للأمة الحد الأدنى من الوحدة والتماسك.

ومن المقاصد الإنسانية تحقيق معنى المساواة؛ فالغني والفقير، والرئيس والمرءوس، والأمير والخفير، والملك والمملوك، الكل يرتدي لباساً واحداً لا خيط فيه، ولا ألوان مختلفة له، فالكل يرتدي رداء واحداً لونه واحد هو اللون الأبيض، فلا يعرف فيهم عظيم من حقير ولا رئيس من مرءوس، الكل أمام الله سواسية، ومن ثم تتراجع هنا كل الموازين والمعايير، ولا يبقى إلا مقياس واحد ومعيار واحد:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

ومن هنا شاء النبي ﷺ أن يذكر الجموع الحاشدة من المسلمين الذين تبعوه يوم الحج الأكبر، حجة الوداع، فعن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:

"يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"[٢].

ونحن نحفظ قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

مقاصد سياسية وتاريخية

ومن مقاصد الحج مقاصد تاريخية وسياسية، فمن المقاصد التاريخية أن المسلم يرى بعينيه الأماكن التي قرأ عنها في السيرة والتاريخ، فهنا طريق الهجرة بصعوبته وخشونته وطوله، وهنا عُذّب فلان من الصحابة، وهناك استشهد فلان، وهنا كانوا يصلون، وهنالك كانوا يجتمعون، وهنا قاتلوا وهناك قتلوا، وهنا وقف إبراهيم يدعو ربه، وفي هذا المكان كان يبني البيت ويرفع منه القواعد، وفي هذا الموضع كان معه ابنه إسماعيل، وهنا هرولت هاجر وسعت بين الصفا والمروة، وهذه هي زمزم التي فجرها الله لها برحمته... وهكذا.

ومن شأن هذه الرؤية أن تعمق معاني الإيمان بالرسالة الإسلامية في نفس المؤمن فيحمله ذلك على الدعوة للإسلام والتضحية له والصبر من أجله، وهذا من المقاصد العظيمة التي يتغياها الحج في الإسلام.

ويجتمع المسلمون في هذا الموسم الهائل

(٢) أورده أحمد في المسند: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ورواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، ورجال البزار رجال الصحيح

الذي يأتي فيه المسلمون من كل فج عميق من مشرق الأرض ومغربها؛ ليناقشوا ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم، فالحج من الناحية الروحية تجديد للإيمان وتحقيق للتوحيد وتهذيب للنفس، ومن الناحية السياسية فرصة عظيمة للتوجيهات والتوصيات الجامعة للأمة، وملتقى جامع يكفل ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

يقول الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله: ولكي ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون في السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة، ففي السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم، وفي السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التي ألقاها الرسول ﷺ في حجة الوداع[٣].

واقتداء بما فعله الرسول وخلفاؤه لا يمكن إهمال الجانب السياسي من الحج أبداً؛ إذ ما يصنع الحجيج بعدما يعودون إلى بلاد اعتدى عليها المجرمون واستباحوا حرماتها؟! أو عندما يعودون إلى بلاد كثرت فيها الفتن وماج خلالها المستضعفون؟!

نعم، لا يجوز أن تترك هذه الحشود الهائلة يوم الحج الأكبر دون توجيه جامع تلقى به خصومها، صحيح أنهم في محاريب ذكر، وساحات تسبيح وتحميد، وأوقات تبتل إلى الله وتشدان لرضاه، لكن من قال: إن كسر العدو ليس عبادة؟! والسهر على هزيمتهم ليس تهجداً؟! إن صيحة الله أكبر تفتتح بها الصلاة ليتأى بها المؤمنون عن مشاغل الدنيا، ويفتتح بها الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ولتجف دموع البائسين وآلام المستضعفين، ومن هنا نفهم قول الله سبحانه للمحتشدين في عرفات، ولمن وراءهم من جماهير المؤمنين في كل مكان:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾

(التوبة: ١٤-١٥)

فالحج عبادة تقيمها قلوب ساجدة وأيد مجاهدة[٤].

ثم يهيب الشيخ بأمته قائلا: يا قومنا، إن الحج ليس لقاء أجساد، ولا شراء هدايا، ولا حمل ألقاب، اجعلوا الموسم الجامع فرصة إعداد، وموطن دراسة علمية وعملية، ورسم خطة لإنقاذ أنفسكم من طوفان مقبل[٥]، إن ناسا يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكتفين بأن حملوا لقبا، هل درست قضاياهم؟ لا، هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلي والغزو الخارجي؟ لا.. إن الحج ليس عبادة فردية، لا في ديننا ولا في تاريخنا، فيجب أن نعلم ديننا، وكفانا جهلا حتى لا نستيقظ على الويل والثبور وعظائم الأمور[٦].

مقاصد دنيوية وأخروية

وقد أطلق الله تعالى شهود المنافع فلم يقيدها بدنيا ولا أخرى، حين قال:

(٣) مائة سؤال: ٨٥-٨٦، وانظر الحق المر: ٩٢-٩٣، مكتبة التراث، والخطب: ١/٢٣٨-٢٤٠، و٣/١٢٤-١٢٦.

(٤) علل وأدوية: ١٥٦-١٥٨.

(٥) الحق المر: ٩٣، مكتبة التراث.

(٦) الخطب: ٣/١٢٨.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (الحج: ٢٨)

فربما كانت المنافع مادية أو اجتماعية وهذا فى الدنيا، وقد جاءت كلمة "منافع" نكرة لتفيد العموم والشمول؛ فالحج يتيح الفرصة أمام جموع المسلمين لممارسة أنواع النشاطات وأصناف الصفقات التجارية والمالية والاقتصادية، وقد ذكرت كتب التفسير أن بعض المسلمين فى زمن النبى ﷺ تحرجوا من ممارسة التجارة والبيع والشراء حال الحج، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)

فاستبشروا بهذا التيسير الإلهى لهم؛ فباعوا واشتروا وتاجروا.

وربما كانت روحية إيمانية وهذه تعود ثمرتها للآخرة، فقد جعله الله تعالى فرصة لتكفير السيئات، وسببا لمحو الذنوب، وطريقا لرفعة الدرجات، وأعظم ما يصور هذا الأمر ما رواه عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال: لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدى، قال: "ما لك يا عمرو؟!" قال قلت: أردت أن أشترط، قال: "تشترط بماذا؟" قلت: أن يغفر لى، قال: "أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟"(٧)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(٨).

المقاصد الكلية

وهذه المقاصد ليست مقاصد تؤخذ عن الحج مباشرة إنما تحمل مراعاتها المسلم على أن يراعى المقاصد السابقة ويحقق ما أمر الله به فى هذه الفريضة، ويفوز برضا الله ومغفرته.

أعنى بذلك المقاصد الكلية أو بعض الكليات التى تحدث عنها علماء المقاصد، ومن ذلك حفظ النفس، فلو أدرك المسلم أن نفس أخيه المسلم أشد حرمة عند الله من الكعبة لما أقدم على التزاحم الذى يفضى إلى إزهاق عشرات الأرواح، ولما رأينا الدماء التى حرمها الله وشدد عليها تسيل فى كل موسم من مواسم الحج.

ومنه أيضا حفظ الدين والمال، فلو أدرك المسلم أن هذا من المحرمات القاطعة التى أجمعت عليها الشرائع لما تلفظ بألفاظ ربما تخرجه من الملة وهو يؤدى شعيرة من أعظم الشرائع، ولاجتنب كل التصرفات المسيئة إلى قدسية الحج ومكانته ومكانه وزمانه، وابتعد عن الممارسات التى تؤذى المسلمين وتسبب لهم الضرر، وحافظ على المرافق العامة والخاصة وراعى نظافة المكان وقدسيته.

لو أدرك المسلم هذه المقاصد وتلك الحكم والأسرار الإيمانية والاجتماعية والتاريخية والسياسية والإنسانية، لأدى العبادة على الوجه المطلوب الذى يبرئ به ذمته، ويرضى به ربه، ويريح به ضميره، ويرحم به إخوانه المسلمين، ولحصل من الأجر والثواب ما يعيده كيوم ولدته أمه؛ فائزا بمغفرة الله فى الدنيا، ودخول الجنة فى الآخرة، فليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.
(٨) صحيح البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

د. هانى حجاج
hany-haggag@hotmail.com

عنوان المقال هو الآية رقم ٩٥ من سورة الحجر، فسيدنا محمد ﷺ طالته الألسنة والأيدى بالسوء بعد مماته وقبله، إلا أنه فى آية الذكر الحكيم فصل الخطاب وحكم حاسم من رب العزه بنصرة نبيه، وقد سجل التاريخ قصصا ومشاهد لانتقام الله لنبيه ﷺ وكما قال عنه سبحانه وتعالى فى سورة الكوثر:

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ٣)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح": "وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله إياه من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة فى الدنيا فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذى أكرم الله نبيه به "وان الله قد توعد الذين يؤذون النبى محمد ﷺ فى كتابه فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (الأحزاب: ٥٧)

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

القصة الأولى جاءت فى الصحيحين وهى قصة الرجل الذى ادعى على النبى ﷺ كذبا وزورا أنه هو من كان يكتب، وقد بوّب لها البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب "باب علامات النبوة"، ومسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وجعلت رواية الصحيحين فى سياق واحد عن أنس رضى الله عنه قال: كان رجل نصرانيا (عند مسلم: كان منا رجل من بنى النجار) فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب

للنبي ﷺ فعاد نصرانيًا (وعند مسلم: فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب قال: فرفعوه) فكان يقول: «ما يدرى محمد إلا ما كتبت له» (وعند مسلم: قالوا: «هذا قد كان يكتب لمحمد فأعجبوا به»، (وفي رواية الإسماعيلي كان يقول: "ما أرى يحسن محمد إلا ما كنت أكتب له")، فأماته الله فدفنوه (وعند مسلم :فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم) فأصبح وقد لفظته الأرض (وعند مسلم : قد نبذته على وجهها) فقالوا: "هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم (في رواية الإسماعيلي "لما لم يرض دينهم") نبشوا عن صاحبنا فألقوه "فحفروا له فأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: "هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه" فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه (وعند مسلم فتركوه منبوذًا)، أخرجه البخاري (٣٦١٧) ومسلم (٢٧٨١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الصارم المسلول، ص٢٣٣) معلقًا على القصه: "فهذا الملعون الذى افترى على النبي ﷺ أنه ما كان يدرى إلا ما كتب له قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دفن مرارًا، وهذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذبًا، إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد، إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا وأن الله منتقم لرسوله ﷺ ممن طعن عليه وسبه، ومظهر لدينه، ولكذب الكاذب إذا لم يمكن للناس أن يقيموا عليه الحد".ا.هـ.

الحادث الثاني ذكره القاضي عياض في (الشفا، ٢ / ٢١٨) قصة عجيبة لساخر بالنبي ﷺ وذلك أن فقهاء القيروان وأصحاب سحنون أفتوا بقتل إبراهيم الفزاري، وكان شاعرا متفننا في كثير من العلوم، وكان يستهزئ بالله وأنبيائه ونبينا محمد ﷺ، فأمر القاضي يحيى بن عمر بقتله وصلبه، فطعن بالسكين وصلب منكسًا، ثم أنزل وأحرق بالنار، وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبته، وزالت عنها الأيدي استدارت وحولته عن القبله فكان آية للجميع، وكبر الناس، وجاء كلب فولغ في دمه.

القصه الثالثة يرويها ابن كثير في (البداية والنهاية، ١٤ / ٢٨٦) عند أحداث سنة (٧٦١هـ) ما نصه: "وفي يوم الجمعة السادس عشر منه قتل عثمان بن محمد المعروف بابن دبادب الدقاق بالحديد، على ما شهد عليه به جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب أنه كان يكثر من شتم الرسول ﷺ، فرفع إلى الحاكم المالكي وادعى عليه فأظهر التجابن، ثم استقر أمره على أن قتل قبحه الله وأبعده ولارحمه.

وفي يوم الإثنين السادس والعشرين منه قتل محمد المدعو زبالة، على ما صدر منه من سب النبي ﷺ ودعواه أشياء كفرية وذكر عنه أنه كان يكثر من الصلاة والصيام، ومع هذا يصدر منه أحوال بشعة في حق أبي بكر وعمر وعائشة أم المؤمنين، وفي حق النبي ﷺ، فضربت عنقه أيضًا في هذا اليوم في سوق الخيل ولله الحمد والمنة.

وعبرة رابعة كانت السبب في تأليف كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – قصة ذكرها تلميذه ابن كثير في (البداية والنهاية، ١٣ / ٣٥٥)، فقال: واقعة عساف النصراني: كان هذا الرجل من أهل السويداء، قد شهد عليه جماعة أنه سب النبي ﷺ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي، فاجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة فكلماه في أمره، فأجابهما إلى ذلك، وأرسل ليحضره، فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس، فرأى الناس عسافًا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه، فقال ذلك الرجل البدوي: هو خير منكم – يعني النصراني – فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت عسافًا ووقعت خبطة قوية، فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه، ورسم عليهما في العذراوية، وقدم النصراني فأسلم، وعقد مجلس بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة، فحقن دمه، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما، ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز، فاتفق قتله قريبًا من مدينة رسول الله ﷺ، قتله ابن أخيه هنالك، وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة كتابه الصارم المسلول على ساب الرسول. ا.هـ.

وعظة خامسة لشيخ الإسلام الجليل ابن تيمية في (الصارم المسلول) يذكر من التجارب بخصوص سب النبي ﷺ فيقول:

«ونظير هذا ما حدثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر فيها بني الأصفر في زماننا قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منه، حتى إذا تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عرضه، تعجلنا فتحه وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يومًا أو يومين أو نحو ذلك ثم يفتح المكان عنوة ويكون فيهم ملحمة عظيمة قالوا: حتى إنا كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظًا بما قالوه فيه.

وذكر الكتاني في ذيل مولد العلماء (١ / ١٣٩) أنه ظهر في زمن الحاكم رجل سمى نفسه هادي المستجيبين

وكانوا يدعون إلى عيادة الحاكم وحكى عنه أنه سب النبى ﷺ وبصق على المصحف فلما ورد مكة شكاه أهلها إلى أميرها فدافع عنه واعتذر بتوبته فقالوا: مثل هذا لا توبة له! فأبى فاجتمع الناس عند الكعبة وضجوا إلى الله فأرسل الله ريحا سوداء حتى أظلمت الدنيا ثم تجلت الظلمة وصار على الكعبة فوق أستارها كهيئة الترس الأبيض له نور كنور الشمس فلم يزل كذلك ترى ليلا ونهارا فلما رأى أمير مكة ذلك أمر بهادى المستجيبين، فضرب عنقه وصلبه.

وحكى الشيخ العلامة أحمد شاكر أن خطيبا فصيحا مفوها أراد أن يثنى على أحد كبار المسئولين لأنه احتفى بطه حسين فلم يجد إلا التعريض برسول الله ﷺ.. فقال فى خطبته جاءه الأعمى فما عبس وما تولى!!- قال الشيخ أحمد: ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه فى الدنيا قبل أن يجزيه جزاءه فى الأخرى فأقسم بالله لقد رأيته بعينى رأسى - بعد بضع سنين وبعد أن كان عاليا منتفخا مستعزا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء - رأيته مهينا ذليلا خادما على باب مسجد من مساجد القاهرة يتلقى نعال المصلين يحفظها فى ذلة وصغار!!

ومن صور حماية الله لنبيه ﷺ وكفايته إياه استهزاء المستهزئين أن يصرف الشتيمة والذم والاستهزاء إلى غيره.. فإذا بالشاتم يريد أن يشتمه فيشتم غيره من حيث لا يشعر!!

قال ﷺ: ألا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد! (البخارى) قال ابن حجر (الفتح ٦/٥٥٨): كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم فى النبى ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح فيعدلون إلى ضده فيقولون: مذمم وإذا ذكروه بسوء قالوا: فعل الله بمذمم. ومذمم ليس اسمه ولا يعرف به، فكان الذى يقع منهم مصروفا إلى غيره!

وهذه زينب بنت الحارث جاءت للنبى ﷺ بشاة مشوية دست فيها سما كثيرا فلما لاك النبى ﷺ منها مضغة لم يسغها وقال: «إن هذا العظم يخبرنى أنه مسموم»! ثم دعا باليهودية فاعترفت. فانظر كيف كسر الله السنن الكونية من جهتين: أولاهما: أنه لم يتأثر ﷺ بالسم الذى لاكه. وثانيتهما: أن الله أنطق العظم فأخبره عليه الصلاة والسلام بما فيه.

ومن صور الكفاية الربانية لنبى الهدى ﷺ ممن آذاه أن يقذف الله فى قلب هذا المؤذى المعتدى الإسلام فيؤوب ويتوب حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من ماله وولده ووالده والناس أجمعين!!



مواكب الشوق إلى بيت الله الحرام




لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم
مراقب عام الوعظ وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، سابقا

الأيام والليالى تختلف فى معانيها ومبانيها، فهذه أيام صيف وتلك أيام شتاء وهذه أيام حكم عادل وتلك أيام مقسط آت.

ها هى الأيام الباركات فى الأشهر المعلومات التى يقول الله تعالى فيها:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

تتعاقب وتتابع، وكأنما يسوق بعضها بعضا، مضى شوال ومن بعده ذو القعدة لتطل هنا ويطل السعداء المحظوظون هنالك فى الديار المقدسة على هذه الأيام الباركات العشر الأول من شهر ذى الحجة إنها أيام لها فى دين الله تبارك وتعالى شأن عظيم وذكر كريم ففيها يحمد السعداء المحظوظون مسراهم وينتهون إلى البلد الحرام بعد سفر طال ونزول وارتحال وركوب لمراكب الشوق إلى بلد الله الحرام فلا تراهم هنالك إلا طائفين حول الكعبة التى يقول الله تعالى فيها:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾

(المائدة: ٩٧)

ولا تراهم إلا ساعين يتمثلون أمنا هاجر والأسى يعتصر قلبها وهى تجد وتجتهد ساعية من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا فى سبعة أشواط علها تجد دلالة أو إشارة إلى ماء تعود به إلى ابنها الصغير إسماعيل عليه السلام والظمأ يضنيه والعطش يكاد يهلكه، ثم ترى الحجيج بعد ذلك مصلين مكبرين مهللين شاكرين فضل الله الذى وفق خطاهم وبلغهم أملهم ومناهم فلولا الله عز وجل ما اهتدى مهتد ولا صلى مصل، ولولا الله عز وجل ما أحسن محسن ولا اجتمع ذلك العدد العديد القادم من شتى بلاد الله عز وجل وهم على ميعاد فى علم الله عز وجل يوم قال لإبراهيم عليه السلام:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾

(الحج: ٢٧، ٢٨)

لقد لبت أرواحهم، وها هم فى مكة حالهم بين طواف وسعى وبين صلاة وتهليل وتكبير وإعزاز لذلك البلد الذى أقيم فيه أول بيت لله تبارك وتعالى على أرض الله حيث يقول تعالى شأنه، فى خصائصه وفى فضائله:

مواكب الشوق إلى بيت الله الحرام

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٦، ٩٧)

وبالشرف بيت يكون أول بيت أقيم على أرض الله لتوحيد الله تبارك وتعالى وفيه من المعالم والآثار ما علم لنا منذ أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل بأمر الله عز وجل:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٧)

ذلك البيت أراد له الله سبحانه وتعالى مكة بلداً وحدد فى مكة موضعه ومكانه قال تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

(الحج: ٢٦)

وفى ذلك البلد وفى ذلك البيت يمنح الله تعالى أمنه لقاصديه للحج والعمرة، وفى ذلك البلد ولد سيد الكائنات محمد ﷺ ودرج وشب على ثراه الطهور وعلمه الله عز وجل ما لم يكن يعلم واصطفاه وأرسله بالهدى ودين الحق، كما قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء: ١١٣)

كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

فى هذه الأيام العشر الأوائل من ذى الحجة يطوف ويسعى الحجاج والمعتمرون وتنتهى أعمال العمرة ويتحلل القوم من العمرة ويظلون فى حياتهم العادية إلى يوم التروية، وفى ذلك اليوم يلتقى الذين انتهوا من عمرتهم ثم أحرموا بحجهم، والذين أهلوا من أول الأمر بالحج إفراداً، والذين أهلوا فى أول الأمر بالحج قراناً، يلتقون فى يوم عرفة، وما أجلّ عرفة، والوقوف بعرفة ذلك النسك الذى يجتمع فيه الحجيج جميعاً لا يغيب عنهم واحد كما لم يجتمعوا فى منسك من مناسك الحج الأخرى، يجتمعون على ثرى عرفات ويباهى بهم ملائكته رب الأرض والسموات.

وقد روى ابن خزيمة، وابن حبان والبزار وأبويعلى والبيهقى عن جابر رضى الله عنه، مرفوعاً: (ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ينزل الله تعالى إلى سماء الدنيا، فيباهى بأهل الأرض أهل السماء فيقول: أنظروا إلى عبادى جاؤونى شعثاً غبراً ضاحين، جاؤوا من كل فج عميق، يرجون رحمتى ولم يروا عقابى، فلم ير يوماً أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة).

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، إنه ليدنى، ثم يباهى بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء).

- نعم فلم ير يوم أكرم ولا أعز ولا أكثر عتقاً من النار من ذلك اليوم!!

إنه يوم عرفة الذى يُطل منه المسلمون على يوم النحر على يوم عيد الأضحى والذى يبدأه وفد الله عز وجل برمى جمرة العقبة وبالحلق وبعمل أى شىء آخر يصيرون فيه متحللين تحللهم الأصغر فإذا ما طافوا طواف الإفاضة تحللوا تحللهم الأكبر، وصاروا بعد ذلك وقد أتموا النسك ورضى الله تعالى عنهم وأرضاهم وعادوا إلى حياتهم الطبيعية ينالون فيها كل ما شرع الله بين الأزواج من صلات، إنه يوم عرفة الذى يُطل منه المسلمون على يوم النحر الذى هو تمام العشر الأوائل من شهر ذى الحجة وفيها يقول نبينا صلوات الله وسلامه عليه:

(ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام - يعنى الأيام العشر - قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشىء).

إنها هبات وأعطيات ومنح ربانية لأكرم وفد لضيوف الرحمن، ولقد أسأل وتسألون ماذا لى ولكم؟ ماذا للمسلمين فى كل قطر من الأقطار ودار من الديار من أولئك الإخوة الذين لم يتح لهم حج بيت الله هذا العام. إن لهم شأناً كبيراً وحظاً عظيماً فى هذه الأيام العشر من ذى الحجة، إن العمل فيها كما علمتم يضاعف أجره، فعلينا ونحن هنا، وعلى الإخوة الذين لم يقدر لهم أن يكونوا هذا العام بين ضيوف الرحمن، عليهم أن يتنافسوا فى الخيرات وأن يتسابقوا إلى الصالحات وأن يشمروا عن سواعدهم فى الجد فى الطاعة والجد فى الضراعة والجد فى ذكر الله تبارك وتعالى صلاة وصياماً وصدقات وتودداً للجيران وتواصلاً بين الأهل والعشيرة، وتوسعة على العيال، ومراقبة لله ذى الجلال والإكرام سبحانه وتعالى، وقبولاً للنصيحة التى تسدى إليهم، وإسداً للنصح إلى إخوانهم، إننا فى هذه الأيام العشرة الأوائل من ذى الحجة ننتظر أجر الله عز وجل، بل إننا ننتظر أجزل أجر الله، وأجل أجر الله عز وجل بمقدار توفرنا على الطاعات وحرصنا على موجبات رضا الله تبارك وتعالى، نفعل ذلك لإخواننا ونوصى به ويوم ذلك تكون فى مشاركة وجدانية عملية لوفد الرحمن ولضيوف الرحمن هنالك. أنهم هنالك فى أشرف للبقاع ونحن هنا على حرص المؤمن أن يكون مع الله عز وجل بذكره وطاعته وصالح أعمالنا لنكون مع وفد الرحمن وضيوفه سبحانه وتعالى بقلوبنا وبمراقبتنا وبحرصنا على مرضاة الله تبارك وتعالى، وبذلك يجزل الله الأجر، ويعظم الذخر الذى نجده عند ربنا يوم القيامة خيراً وأعظم أجراً، وبارك الله لكم فى عيد الأضحى الذى يذكرنا بالذبيح الأول إسماعيل عليه السلام بعد أن قضى الله لنا عيد الفطر فى أعقاب فريضة الصوم فنكون فى العيدين وإخواننا كعين وأختها، وكف ومعصم، متواصين بالحق ناصرين له على كل حال، فبذلك نسود ونسعد ونكون أهلاً لخيرات ربانية توجب الحمد والشكر لمانح الخير ومفيض النعم ربنا ورب كل شىء.

تحية المقام النبوى ومناجاة الرسول



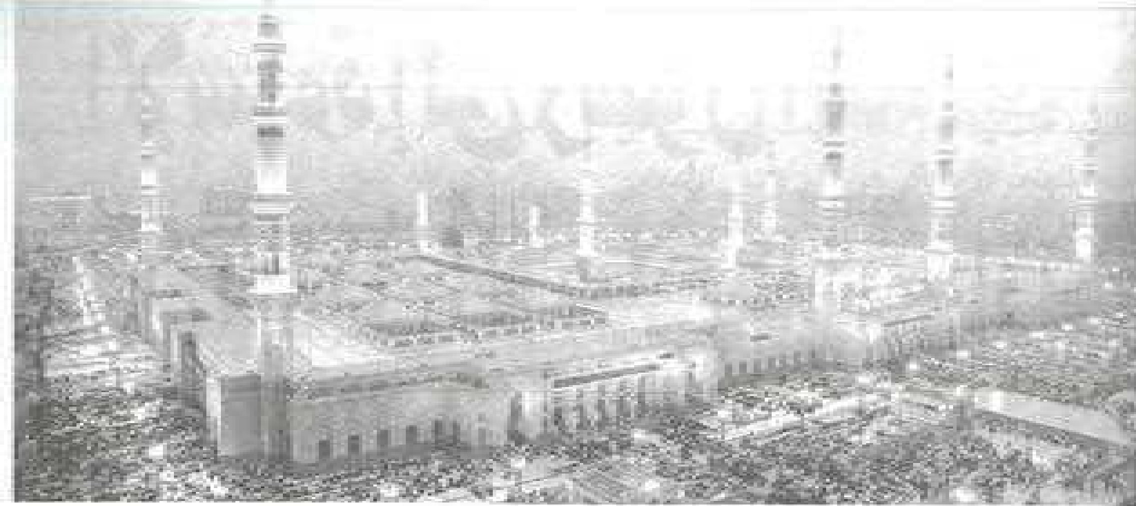


للإمام محمد الخضر حسين

«من قصيدة ألقاها أمام المقام النبوى سنة ١٣٣١هـ»

أحييك والآماق ترسل مدمعا   كأنى أحدو بالسلام مودعا[1]
وما أدمع البشرى تلوح بوجنة   سوى ثغر صب بالوصال تمتعا
وقفت بمغنى كان يا أشرف الورى   لطلعتك الحسنى مصيفا ومربعا[2]
فذا موقف لامست فيه بأخمصى   أجل من الدر النضيد وأرفعا[3]
وذلك مرقى كنت تصدع فوقه   بما حاز فى أقصى البلاغة موقعا
وذاك مصلى طالما قمت قانتا   به، ويقوم الصحب خلفك خشعا[4]
وذى حجرة كان الأمين يؤمها   بوحى فكانت للشريعة منبعا
وأروع ما شق الفؤاد بحسرة   وهاج به الأشجان حتى تقطعا
تخاذل حال المسلمين وما أتى   من الخطب فى أرجائهم وتجمعا
وما شأننا إلا كعقد تناثرت   جواهره فى سطح أحدب أنزعا[5]
فهذا يحاذى فى قضاياه نزعة   تخط وراء الحق للناس مرتعا[6]
وهذا يصوغ القول فى قالب يرى   بجانبه قول الشريعة أوسعا
وذاك ينادى بالضلالة ماسحا   بصبغة دين كى يغر ويخدعا
ونما على الآذان نومة جاهل   بما يضع المستيقظون لنصرعا

(١) الآماق: جمع المؤق: مجرى الدمع من العين.
(٢) المغنى: المنزل. المصيف: المكان يقيمون فيه صيفاً. المربع: الموضع يُقام فيه فصل الربيع.
(٣) الأخمص: القدم أو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.
(٤) القانت: القائم بالطاعة الدائم عليها، والمصلى.
(٥) الأنزع: الذى انحسر الشعر عن جانبى جبهته، والمقصود الأملس.
(٦) النزعة: نزع إلى الشىء: ذهب إليه، يقال: له نزعة إلى كذا. المرتع: الموضع الذى يتنعم فيه.



ولم نستفق للقوم حتى تحفزوا   وأوجس كل بين جنبيه مطمعا[7]
ولم نستفق للقوم إذ كل انتضى   ليظفر باستعبادنا السيف مقرعا[8]
ولم نستفق للقارعات وقد دنت   إلى مهجة الإسلام حتى تصدعا[9]
وفى الناس من حاك الأياس بصدره   فجرد أفراس الجهاد وأقلعا[10]
وندب ذوى عرف الليالى وأنها   تزل بأعلام وتونس بلقعا[11]
فقام على جد يهيب بقومه   ليرفأ فتقا أو يشيد مصنعا[12]
يقول أناس إنما الدين عثرة   بسابلة العمران تهوى بمن سعى[13]
رمى بهم التقليد فى إثر ملحد   ولم يكشفوا عن ميسم الحق برقعا[14]
تجليت فى شعب جرى فى عروقه   دم الكبر وارتاد الغواية إمعا[15]
تجليت والبغضاء تشوى صدورهم   بنار فأصلتها قلوبا وأضلعا
فلقنتهم كيف الطموح إلى العلا   إلى أن علوا فوق السماكين مطلعا[16]
عليك سلام الله ما انسجم الحيا   وحيا صباح بالضياء وودعا

(٧) أوجس: أحس وأضمر.   (٨) انتضى السيف: استله من غمده.
(٩) القارعات: جمع القارعة وهى الداهية.   (١٠) حاك: أثر وعمل. الأياس: القنوط.
(١١) الندب: السريع إلى الفضائل. تونس: أى تؤنس، يقال أنس به الله وسكن قلبه به. البلقع: الأرض القفر التى لا شىء فيها.
(١٢) رفأ: أصلح.   (١٣) السابلة: الطرق المسلوكة.
(١٤) الميسم: أثر الجمال، يقال امرأة ذات ميسم أى ذات حسن وجمال. البرقع: ما تستتر به المرأة وجهها.
(١٥) الإمّع والإمعة: الرجل يتابع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شىء.
(١٦) السماكان: كوكبان نيران يقال لأحدهما السماك الرامح والآخر السماك الأعزل.

الإساءة إلى رسول الله ﷺ جهل بالمثل الأعلى للإنسانية

أ. د. محمد فتحى فرج بيومى
كلية العلوم - جامعة المنوفية

باتت محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين، عند الآخرين، فى الأدبيات الغربية، أمرا شائعا، لاسيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، بيد أنها بلغت ذروتها، بل وتعدت خطوطها الحمراء والسوداء وكل الألوان، منذ سنوات قليلة بنشر تلك الرسوم الكاريكاتورية الصبيانية الدانمركية والغربية، التى تعمد فيها صانعوها، الإساءة إلى سيد الخلق أجمعين، والمبعوث رحمة للعالمين، سيدنا وسيدهم - بلا شك - رسول الله، محمد بن عبد الله ﷺ إلى يوم يبعثون، يوم يذوقون جزاء ما يمكرون ويعبثون، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فمحمد ﷺ هو المثل الأعلى للإنسانية، فى أسمى معانيها، ولذلك فقد وصفه ربه بقوله تعالى: "

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤

تيرى جونز وصبيانه الخونة

والآن، وفى ذكرى الحادى عشر من سبتمبر (٢٠١٢)، يتعاون القس الأمريكى الأخرق تيرى جونز مع مجموعة قليلة من أقباط مصر التى لا يشرفها انتماؤهم إليها فى إنتاج فيلم يسىء إلى نبى الإسلام ﷺ الذى لا يضيره ولا يضير المسلمين هذه الأعمال الصبيانية البعيدة كل البعد عن جوهر أى دين من الأديان التى تكرم الإنسان بوصفه إنسان، ناهيك برسل الله الذين بعثهم الله لهداية البشر، وتكريس قيم الخير والحب والعدل والسلام على هذه الأرض للبشر أجمعين.

وهذه ليست أول مرة يتعرض فيها تيرى جونز للإساءة إلى الإسلام ونبيه الكريم، فمنذ وقت قصير مزق هذا القس المتعصب المأفون المصحف الشريف أمام أجهزة الإعلام، ولكن الجديد هذا العام هو تعاون بعض الصبية من أقباط المهجر الأمريكى فى هذا "الشر" الإعلامى الذى لن يقدم أو يؤخر، بل قد يؤدى إلى تعرف الكثيرين من مسيحيى الغرب إلى الإسلام وعظمته وسماحته والدخول فى واحته ورحمته.

ولهذا، فلا ينبغى أن ننساق وراء هذا الحدث الشاذ، ونبتلع هذا "الطُّعم" السَّام، خصوصاً بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، ونقوم بردود أفعال غير محسوبة، تجاه إخوتنا من أقباط الوطن الشرفاء، الذين تأثروا كثيرا بهذا الفعل المُشين، وشجبوه واستنكروه ومن فعله أو شارك فيه، قبل إخوانهم المسلمين.

"إنا كفيناك المستهزئين"

وهذه الظاهرة ليست جديدة، فالكيد للإسلام ورسوله الكريم ﷺ من قبل النفوس المريضة والقلوب الحاقدة بدأ مع بداية الدعوة الإسلامية، وقد كفاه ربه هذه المكائد وهذه الصور الصبيانية من السخرية والاستهزاء الذى قال تعالى فى قرآنه الخالد:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

الحجر: ٩٢-٩٦

بل إن الله تعالى قد ينصر نبيه ورسالته السمحاء بغير المسلمين، فهذا عمه أبو طالب، فعلى الرغم من أنه أبى أن يدخل حظيرة الإسلام، فقد سخره الله تعالى لرعاية النبى ﷺ قبل بعثته، وقد يقول قائل رجل يرعى ابن أخيه الطفل اليتيم الضعيف، فنقول: إن أبا طالب ظل أيضا راعيا ونصيرا لمحمد ﷺ حتى بعد بعثته ﷺ واستمرار أبى طالب على الكفر.

جوهر الإسلام

لقد جاء الإسلام - دين الوسطية والسماحة والحرية والعدل - بمبادئ رفيعة راقية، لتصوغ المسلم قلبا وقالبا، وروحا وجسدا، وخلقا وسلوكا، بشكل يجعله يحلق فى الأفق الأعلى، حتى إنه يبدو فى صورته، المثلى الكاملة، ترجمة حية لآيات القرآن العظيم، على نمط خُلق الرسول الكريم ﷺ، وهو ما أشارت إليه زوجه السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - حينما سئلت عن خلق الرسول ﷺ فقالت: «كان خُلقه القرآن» فهذه الصياغة القرآنية، كما يقول الأستاذ محمود الشرقاوى[1] - رحمه الله - تجعل المسلم طاقة كونية فعالة مهيمنة وموجهة لكل شئ.. طاقة عزيزة أبية، لا تذل ولا تضعف، ولا تهن ولا تجبن، تواجه الأحداث فى ثقة، وتجاهد فى قوة ويقين، وترفع رأسها فى عزة، ولا تستسلم لرهبة أو رغبة، متمثلة قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

المجادلة: ٢٠-٢١

(١) محمود الشرقاوى، الدين والدولة العصرية، دار الشعب، القاهرة، ص٩.

أما مشروعية الانتفاضة العادلة في وجه من أثاروا هذه الموجات الصبيانية الطائشة، حتى ينتهوا من ضلالهم وسفاهتهم، ويعلنوا أسفهم وتوبتهم، من أن يعودوا لمثل هذا السفه مرة أخرى فيأتي من قول الله تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

المجادلة: ٢٢.

وفي أسباب نزول هذه الآية قال ابن جريج: حدث أن أبا قحافة سبّ النبي ﷺ فصكه أبو بكر صكة شديدة سقط منها، ثم ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "أو فعلته؟"، قال: نعم، قال: "فلا تعد إليه". فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريبا مني لقتلته، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية[٢].

وشهد شاهد من أهلها

ومن الذين ذكروا رسولنا الكريم بما تحب أن تسمع كثيرون، ينتمون إلى كل بلاد الدنيا، شرقا وغربا، سواء في مؤلفاتهم أو حواراتهم، فمنهم الإنجليز مثل الكاتب والناقد والمؤرخ الشهير توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) Thomas Carlyl، صاحب كتاب "الأبطال وعبادة البطولة" Heroes and Hero-Worship، الذي ضمنه فصلا كبيرا عن سيدنا محمد ﷺ تحت عنوان "البطل في صورة رسول" وقد ترجم هذا الكتاب المرحوم الأستاذ محمد السباعي والد أديبنا الكبير المرحوم الأستاذ يوسف السباعي، أصدرته مؤسسة دار الهلال في سلسلتها الشهرية "كتاب الهلال"، أما الفصل الخاص بسيدنا محمد ﷺ فقد ترجمه أيضا لأهميته، ترجمة عصرية، المرحوم الأستاذ على أدهم.

ومما ذكره كارليل في معرض دفاعه عن النبي ومهاجمته خصومه قوله: «لقد أصبح من أكبر العار، على أي فرد متمدين، من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن أن دين الإسلام كذب، وأن محمدا خدّاع مزور، فقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير لمدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون[٣] من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها، وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة، كان الأولى بها ألا تخلق، فوا أسفاه ما أسوء هذا الزعم، وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والرحمة، وبعد: فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء! فإنها نتاج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان، ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا الرأي وألأم، فالرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتا من الطوب فكيف يبلغ دينا؟ وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يؤسس دينا وينشره، عجبا والله»[٤]!

أما عن براءة محمد ﷺ من الشهوات فيقول كارليل: «وما كان محمد أخا شهوات، برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا، وشدّ ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهويا، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلا، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت، لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه، ومأكله، ومشربه، وملبسه، وسائر أموره وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار، وإنهم ليذكرون -ونعم ما يذكرون- أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن الطعام، عابد لله قائم النهار، ساهر الليل، دائبا في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت، رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء، وغلظة.. وكانوا حماة الأنوف، أباة الضيم، وعروا القادة صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضتهم، وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل، لما خضعوا له ولا أذعنوا، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه».



كارليل

ثم يقول: «وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة، بتاجه وصولجانه، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد، في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة، وهكذا تكون الأبطال»[٥].

ومن هؤلاء الإنجليز أيضا الرياضي والفيلسوف الكبير برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) الذي قال: لقد قرأت عن الإسلام ونبي الإسلام، فوجدت أنه دين جاء ليصبح دين العالم والإنسانية، فالتعاليم التي جاء بها محمد، والتي حفل بها كتابه (يقصد القرآن الكريم)، مازلنا نبحث ونتعلق بذرات منها وننال أعلى الجوائز من أجلها، وكان محمد بتعاليمه وكتابه، أحق بكل الجوائز، لكنه لم يسع إلى ذلك، وترك الأمور تسير بطبيعتها، حتى لا يتهم بأن الإسلام، بالسيف ساد وانتشر، وهذا ما يفعله المفكرون الآن، أمام فكرهم الفردي،

(٢) النيسابوري: أسباب النزول.

(٣) الآن نحو حوالي مليارين من البشر.

(٤) توماس كارليل [١٩٩٣]، محمد المثل الأعلى، تعريب محمد السباعي (وهو فصل من كتاب كارليل: الأبطال وعبادة البطولة)، مكتبة الآداب بالقاهرة، ص١١.

(٥) المصدر السابق، ص٤٩.

فما بال البعض بفكر السماء، الذى جاء به محمد للإنسانية»[٦].

وهذا هو الأديب الإنجليزى والمسرحى الساخر برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠)، الذى كان محل احترام مواطنه الإنجليزى الفيلسوف الكبير برتراند راسل، وذلك لرفضه أن يكون أداة لتشويه صورة نبى الإسلام محمد - عليه الصلاة والسلام، بل إن هناك من يؤكد أنه ألف كتابا بعنوان "محمد" - أحرقته السلطات البريطانية يقول فيه: «إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل فى تفكير محمد.. فإننى قد اطلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة.. وأنه يجب أن يسمى منقذ الإنسانية.. وفى رأيى أنه، لو تولى أمر العالم اليوم لوُفِّق، فى حل مشكلاتنا بما يؤمن من السلام والسعادة التى يرنو البشر إليها»[٧].

أما المستشرق المعروف ادوارد وليم لين (١٨٠١-١٨٧٦) Lane . W . E الذى أحب مصر ومكث بها ثلاث سنوات تعلم فيها العربية، وعشق الإسلام فأسلم وتسمى باسم "منصور"، كما يذكر الأستاذ أحمد حامد فى كتابه "الإسلام ورسوله فى فكر هؤلاء"، ثم عاد الرجل إلى بلاده عاقدا العزم على أن يؤلف كتابا عن المصريين المعاصرين عام ١٨٣٣ ومكث بها عامين آخرين ليصدر عام ١٨٣٦ ذلك الكتاب بعنوان: Manners and Customs of the Modern Egyptians، وقد ترجمه الأستاذ عدلى طاهر نور بعنوان: "المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم" وقد صدرت طبعته الأولى


برنارد شو

عام ١٩٥٠، والثانية عام ١٩٧٥، وقد أعادت هيئة قصور الثقافة المصرية طبعه عام ١٩٩٨، فى جزءين، فى سلسلة "ذاكرة الكتابة".

ثم قام لين بترجمة كتاب "ألف ليلة وليلة"، وقد وجد نفسه أخيرا مهيأ لعمل معجم عربى عن اللغة العربية، على النسق الغربى، شرح فيه المواد العربية باللغة الإنجليزية، فأمضى فى إعداده بقية حياته، ومن مؤلفاته أيضا "المجتمع العربى فى العصور الوسطى: دراسات مستخلصة من ألف ليلة وليلة".

وعن الأخلاق العربية وتأثرها بالنبى ﷺ يقول إدوارد لين: «الشمائل المحمدية راسخة فى عمق الأخلاق العربية، حيث استطاع محمد ﷺ أن يؤثر برسالته، ليغير من الجذور، الأخلاق التى كانوا عليها قبل الإسلام، لتصبح أخلاقا عربية إسلامية يطلق عليها الآن الأخلاق العربية، فالأخلاق التى كان عليها الرسول الكريم - قبل وبعد الرسالة - أصبحت كل شئ عاشته وتعيشه الجزيرة العربية، والعرب عامة، والمسلمون كافة، وما وجدت سوى هذه الأخلاق أرفع ولا أعظم ولا أبدع، فعلا، ما كان ينطق عن الهوى، والذين يحاولون طمس الخلق المحمدى، ما هم إلا جهلة على الصعيد العالمى، فالنبى محمد، ﷺ، جاء بالأخلاق، وهى أخلاق عاشت، وستظل إلى يوم البعث قائمة، ولن ينال المغرضون، الكارهون، لنبى الإسلام، منه شيئا، وسيظل الإسلام شامخا بقرآنه وبالنبى محمد، رغم أنف الكارهين».

ثم يقول إدوارد لين: «والإسلام هو الدين الذى جاء ليضئ للعالم الطريق إلى حياة أفضل».

وعن تجربته يقول ادوارد لين أو الشيخ منصور: «الذى يقترب من الإسلام يقترب منه الإسلام فيضفى عليه جلالا ووقارا، فالإسلام رغم أنه عبادة عظيمة فهو، بقرآنه الكريم، يحمل كل العلوم فى هذا الكتاب الإلهى، وكنت أود أن أعرف مكنونات القرآن الكريم، لكنى رغم بحثى أقول: ما أوتيت إلا قليلا، وليت الذين يبحثون ويدرسون بحب، كتاب الله الكريم، يتوصلون، الواحد بعد الآخر، إلى اللغز القرآنى الذى لا يمكن أن يفكه إلا المختارون بعناية الله»[٨]!

أما سير وليم موير فهو اسكتلندى، درس الحقوق فى جامعتى أدنبره وجلاسجو، وقد تدرج فى المناصب العلمية حتى أصبح رئيسا لجامعة أدنبره، يقول موير فى كتابه "سيرة النبى": «من صفات النبى الجديرة بالتنويه والإجلال، الدقة والاحترام، اللتان كان يعامل بهما أتباعه، حتى أقلهم شأنا، وحينما نصف الرسول محمد، بهذه الصفات العظيمة، فإننا بذلك نصف الإسلام، ونقدره، ونوقره، ونحترمه، ولقد امتاز محمد بوضوح كلامه، وسهولة دينه، ولقد أتم من الأعمال ما لم ولن يستطيعه مصلح اجتماعى، فقد أحيا محمد الأخلاق، وحث على الفضيلة، ورفع شأنها فى زمن قصير، لم يسبقه ولم يلحقه أحد غيره، وهذا حال الأنبياء والرسل حينما يربيهم الله، ويرسلهم برسالة حق، كما أرسل محمدا بالإسلام، الحقيقة والحق، ليختم الرسالات وأيضا ليختم الأنبياء»[٩].

هذا شطر مما قاله بعض أرباب الفكر، وحملة أمانة الكلمة، من فلاسفة وأدباء ومؤرخين وعلماء إنجليز، لم نذكر - فى هذه العجالة - بعض الأسماء الأخرى مثل: هاملتون جب، وريتشارد بيرتون، وبالمر، ونيكلسون، وغيرهم كثيرون.

أما الفرنسيون فمنهم: روسو وفولتير ونابليون وجوستاف لوبون وماسينيون وجاك بيرك وكثيرين غيرهم، وهناك أيضا الألمان مثل جوته وبروكلمان وشاخت وهونكه وغيرهم كثيرون، وهناك أيضا الكثيرون من أمريكا وإيطاليا وهولندا وإسبانيا وروسيا والهند واليابان وغيرها من دول العالم، شرقا وغربا، ممن عرف قدر رسولنا محمد ﷺ ووضعه فى الموضع اللائق به كنبى عظيم ورسول كريم، وهؤلاء هم الذين يُعتدّ بقولهم ويُسمع لقولهم، حيث عرفوا الحق وشهدوا به حقا وصدقا، وليس تيرى جونز وصبيته، وهو ما يجب علينا أن نبرزه ونبيّنه للعالم كله.

(٦) أحمد حامد (١٩٩٦)، الإسلام ورسوله فى فكر هؤلاء، دار الشعب بالقاهرة، ص ٧٧.

(٧) مجلة "التبيان" القاهرية، العدد التاسع عشر، ص ٣٢.

(٨) المصدر السابق رقم ٦، ص ٤١.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٢.

من أسرار البيان النبوى في خطبة حجة الوداع


بقلم الأستاذ الدكتور/ صابر عبد الدايم يونس
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق - جامعة الأزهر
وعضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر

قال رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع: الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله أوصيكم. عباد الله، بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد أيها الناس: أسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[1]، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية[2]، والعمد قود[3]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنما النسئ[4] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله.

[1] يقول ابن هشام فى السيرة النبوية: وكان مسترضعا فى بنى ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية.
[2] السدانة: خدمة الكعبة، والسقاية: سقاية الحجاج.
[3] العمد: القتل العمد، والقود: قتل القاتل بمن قتل.

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة: ثلاث متواليات وواحد فرد، ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان[5] ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق، ولكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان[6] لا يملكون لأنفسهم شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، قالوا: نعم قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر[7].

من أدعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.[8].

وفى خطبة «حجة الوداع» تتجلى معالم البيان النبوى، وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبى كاد يندثر فى عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبى الراقى، إنه فن الإلقاء وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر فى المتلقى وتأسر أحاسيسه وتثير انفعالاته، وتقنع عقله، وتشبع

[4] النسيء: شهر المحرم، وكانوا يحرمونه عاما ويحلونه عاما آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون: إنه بعد شهر صفر.
[5] فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق «ورجب مضر» وقد قال النبى ﷺ ذلك لما ورد فى هامش «السيرة النبوية»: لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه رجبا، من رجبت الرجل ورجبته إذا عظمته، فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.
[6] عوان: أسيرات أى عندكم بمنزلة الأسيرات.
[7] الفراش: أى لصاحبه، والعاهر: أى أن هذا نقضى به رغم أنفها.
[8] فى رواية ابن هشام جاء فى آخر الخطبة هذا النص: أيها الناس: اسمعوا قولى واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلمن أنفسكم... اللهم هل بلغت؟

عاطفته!!!

وحين نتأمل هذه الخطبة: نجدها كنزاً من الأساليب المضيئة بالإيمان، والناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى لغة القرآن الكريم.

والخطبة تبدأ بمقدمة حرص الرسول على ذكرها كثيراً في افتتاح خطبه، وهذه المقدمة تعد صورة صادقة لمكونات الشخصية الإسلامية، وتبياناً لعلاقة المسلم بالله والكون والإنسان ومن هنا تنأى المقدمة في «الخطبة الإسلامية» عن الترف اللفظي، والحشر الزائف فما ورد في المقدمة يعد من أدق صفات وسلوكيات المسلم.

فالمقدمة تعلن عن خمسة مبادىء إسلامية تحدد علاقة المسلم بربه وهي: الحمد، الاستعانة، الاستغفار، التوبة، الاستعاذة.

وقد وردت هذه المبادىء في صيغة الجمع المتكلم لتوحي بأنها حالة شعورية صافية يموج بها الوجدان الإسلامي كله؛ وإعلانه عن علاقة ثابتة بين المسلم وربه، في إطار هذه المبادىء، وزمن هذه المبادىء - حين نتأمل البنية اللغوية - تراه قد صيغ في قالب المضارعية، وفي ذلك إيحاء بتجدد هذا الشعور واستمراره فهو هتاف المؤمنين في كل زمان ومكان، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

والإقرار بالتوحيد يأتي في ختام المقدمة ليصبح سمة من سمات الخطابة في الإسلام وليميزها عن الخطابة الجاهلية، فشهادة التوحيد هي مفتاح الجنة، وبرهان الإيمان.

والخطبة دستور إسلامي متكامل بين فيه الرسول عليه الصلاة والسلام موقف الإسلام من التقاليد والعادات الجاهلية، وهو موقف الرفض ما عدا خدمة الكعبة وسقاية الحجيج.

ثم بين الرسول عليه الصلاة والسلام الأحكام التشريعية بتنظيم المجتمع الإسلامي فيما يتعلق بالحقوق والواجبات.

ثم يحدد العلاقة بين الرجل و المرأة ويوحي بضرورة تحقيق المساواة وتآزر المسلمين والعمل على تحقيق الأخوة فيما بينهم ومعيار هذه الأخوة هو العدالة والحفاظ على حدود الله، ويخص النبي عليه الصلاة والسلام الميراث بذلك؛ لأنه باب التناحر والشقاق حين يخالف الناس في شرع الله عز وجل.

وهذه القيم الإسلامية يصوغها الرسول عليه الصلاة والسلام في أسلوب سهل واضح مبين، لا عوج فيه ولا التواء، إنه كما قال الجاحظ «كلام قد حف بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وألقى الله محبة عليه، وغشاه بالقبول وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام».

وقد فاضت هذه الخطبة بالأسرار التعبيرية والقيم الجمالية والأساليب الموحية، ومنها:

أولاً النداء:

وقد تكرر النداء في الخطبة ثماني مرات، ويتمثل هذا الأسلوب في قوله عليه الصلاة والسلام «أيها الناس»؛ والنداء هنا يكشف عن حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام على هداية العالمين جميعاً، ولذلك جاء التعبير بلفظ «الناس» فالإسلام دين البشرية جمعاء؛ قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

وبين كل نداء ونداء يبث السراج المنير شعاعاً من نور الحق ليضيء به دروب النفوس التي أظلمت قروناً عديدة، ويظل النداء سارياً في ضمير الأجيال المؤمنة عبر القرون المتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانياً: التكرار:

ويمتزج التكرار بالنداء في قوله: «أيها الناس» كي يوقظ الحواس الغافية والقلوب الغفل، والآذان الصم.

ويمتزج التكرار بالتوكيد في قوله عليه السلام: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» وتكرار اسم الإشارة يفسر لنا حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على حرمة الأماكن المقدسة؛ وثمرة ذلك الحرص المحافظة على أمن البلد الأمين واستقراره بما فيه من أناس وطير وشجر وحيوان من خلق الله.

وبتكرار اسم الإشارة في موضع آخر للدلالة على التعظيم والتحديد وأيضاً لتنبيه المخاطبين إلى اكتمال الرسالة وبلوغها الدرجة المثلى.. وكأنها تهيئة نفسية للمسلمين من أجل ألا يفزعوا حين يلقى المصطفى ربه راضيا مرضيا.. إنه يقول: «اسمعوا مني أبين لكم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا».

ويكرر المصطفى عليه الصلاة والسلام قوله: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» ست مرات في خطبته الرائعة، وهو بهذا التكرار يلقي على المسلمين عبء المسئولية ويشهد عليهم الحق سبحانه وهو خير الشاهدين، وهذا التكرار يأتي في قالب الاستفهام المثير للانتباه، والراصد للمشاعر المؤمنة، التي لن تجيب إلا بالقبول والإقرار، ومن هنا تكون الحجة على المخالفين المعاندين، قال تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

(التوبة: ١٢٩)

ثالثاً: التوكيد:

ويتكرر التوكيد في هذه الخطبة تسع عشر مرة، والمؤكدات هنا أداتها حرف «إن» أو «أن»، وكثرة التأكيد له علاقة بمدى أهمية الأمر المؤكد، وأي أهمية أكبر من إقامة المجتمع الإسلامي على دعائم الحق والخير والعدالة والمساواة والتآخي، فقوله عليه السلام: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا

ربكم» تأكيد للمحافظة على النفس والمال، وقوله: «إن ربا الجاهلية موضوع» تأكيد لرفض السياسة الجاهلية الاقتصادية مهما كان زمنها، وقوله: «إن دماء الجاهلية موضوعة» تأكيد لرفض التصور الجاهلى للمحافظة على النفس أو الثأر لها، وقوله: «إن مآثر الجاهلية موضوعة» تأكيد لرفض التصور الجاهلى لأسس التفاضل بين الناس، وقوله: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه» تأكيد لوجوب مقاومة الشيطان بكل مغرياته وموحياته، وقوله: «إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق» تأكيد لإقامة البنيان الأسرى على أسس عادلة ثابتة، وقوله: «إنما المؤمنون إخوة» تأكيد لاستمرار حيثيات الأخوة وترجمتها إلى سلوك إسلامى، وقوله: «فإنى قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله» تأكيد لوجوب الحرص على العمل بالكتاب والسنة حتى تكون النجاة من تيه الضلال وعماية الفساد.

إن القيم السابقة تعد معالم أساسية فى حياة المسلم، وهى من جوامع كلمه ﷺ ولن تفقد معناها وخصائصها حين تنفصل عن كيان الخطبة الكلى، ومن هنا يختلف البيان النبوى عن غيره من بيان الخطباء والبلغاء، والأدباء، فالحقائق توشيه والجمال يغشاه من جميع جوانبه، وهو كما قال «ابن أبى هالة» حين سأله «الحسن بن على» عن منطق رسول الله عليه الصلاة والسلام: «يتكلم بجوامع الكلام فصلا لا فضول فيه ولا تقصير».

رابعاً: أسلوب الشرط والجواب:

ويتكرر هذا الأسلوب فى الخطبة ثمانى مرات: ومواضع ورود هذه الأساليب تشير إلى منهج الإسلام فى الثواب والعقاب، فالجزاء من جنس العمل فلكل عمل صالح ثواب، ولكل عمل مخالف عقاب، فالسماع شرط البيان فى قوله عليه السلام: «اسمعوا منى أبين لكم».

والأمانة من أخص صفات المسلم ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: «فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها».

وجواب القسم هنا جاء فى صيغة الطلب إعلانًا عن حتمية الأداء وعدم التهاون والتقصير فى هذا الشأن.

وقد حسم الرسول عليه السلام قضية «التبنى» فى الإسلام حين قال: «من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه.. فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل».

ومجئ هذه القضية فى أسلوب الشرط والجواب يرشد إلى عظم الفرية ويفسر التركيب اللغوى تفاقم خطرها فى خلط الأنساب، وتشويه صورة المجتمع الإسلامى، ولذلك جاء الجواب فى أسلوب القصر، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

خامساً: التوازن:

وهذه الخاصية من سمات الأدب النبوى فهو يخاطب العاطفة قدر ما يخاطب العقل ولا يجور فيه الخيال على الحقيقة، ولا يطغى فيه المحسوس على المعقول، ولا يتجه إلى قوم آخرين، ولا يخضع لمؤثرات بيئية، ولا لحيثيات زمنية، إنه خطاب شامل للبشرية جميعاً، وهى ستظل بظلال الإسلام فى كل زمان.. وفى كل مكان، مهما اختلفت اللغات، ومهما تباينت الأجناس، وتعددت البيئات، فالشعور الإيمانى هو الدائرة التى يتحركون فى فلكها، وهو المنبع والمجرى والمصب، منبع العقيدة ومجرى السلوك ومصب الرؤى والإشراقات.

والتوازن فى هذه الخطبة يتألق فى مبانيها وفى معانيها، عبارة وفكرة وأداء جماليا مشرقًا: وتناسق التراكيب من سمات ذلك التوازن، فالعبارات متناسقة متوازنة كأنها صورة لنفس المسلم فى توازنها، وتناسقها السوى، ففى مجال رفض قيم المجتمع الجاهلى المتطرفة التى نأت عن التوازن بكل أبعاده يقول المصطفى عليه السلام:

«إن ربا الجاهلية موضوع.. وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبدالمطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن أبى ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية».

فالتصور الإسلامى لقيم العصر الجاهلى محدد وواضح، ولذلك جاء التعبير عن ذلك التصور فى بيان الرسول ﷺ متناسقًا فى عباراته، متزنا فى مبانيه، فصياغة الأحكام ومتعلقاتها جاءت فى صور متشابهة من حيث البناء اللغوى، وقد اتحد خبر إن فى الأحكام الثلاثة وهو لفظ «موضوع» ومعناه «ساقط ومحرم» ودلالة هذا اللفظ تخالف ما تعاهد عليه المتحدثون بالعربية فى العصر الحديث، وتوافق ما تعارف عليه رواة الحديث والشعر فى قضية «الوضع والانتحال» فيقولون: هذا حديث موضوع، وهو شعر موضوع، أى غير صحيح النسبة إلى قائله.

.. ومن سمات التوازن فى الأدب النبوى مطابقة الكلام للحقيقة، فهو ليس استعراضاً أسلوبياً، وليس زخرفة لفظية، وليس تهويما فى أودية الخيال ومسابح الظنون بل هو حقائق تلبس أردية الجمال وأحكام تناصر فيها الأفعال والأقوال، فالمصطفى عليه السلام يقول: «إن ربا الجاهلية موضوع» ثم يوازن بين الحكم (القول) وبين القدوة (الفعل) فيبدأ بربا عمه العباس، فيسقط عن رقاب المدينين له رباه، وحين قال: «إن دماء الجاهلية» بدأ بعشيرته وأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

فأى عدالة حاسمة بعد هذا؟ وأى توازن نفسى واجتماعى وسلوكى بعد هذا؟ وأى قدوة حسنة مضيئة مشرقة بعد هذا الذى أعلنه المصطفى عليه السلام؟

إن نكبة المسلمين فى العصر الحديث تفاقمت أخطارها بسبب انفصال المسلمين عن واقع دينهم المحكم، فأصيبت شخصيتهم بالانفصام والازدواجية، وفقدوا خاصية «التوازن» فنصوص الكتاب والسنة فى واد، وهم فى واد آخر، قدوتهم

فى سلوك أعدائهم!!! ودواؤهم فى مكمن دائهم!!! ورجاؤهم مقطوع الأسباب وطريقهم موغل فى التيه بلا إياب!.

وكان المصطفى عليه السلام يشاهد واقع المسلمين اليوم، فيوصيهم بالتآخى والوئام والبعد عن التناحر والخصام ويناديهم فى خطبة الوداع، نداء من بالمؤمنين رءوف رحيم: «أيها الناس: إنما المؤمنين أخوة.. ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فلا ترجعن بعدى كفارا.. يضرب بعضكم رقاب بعض».

إن هذه الوصايا المحمدية تشخص الداء وتعطى الدواء الناجع المفيد، وهى تمثل حالات متعددة يمكن أن تجثم على واقع الوجود الإسلامى، ولذلك تنوعت أساليبها وتآزرت تراكيبها اللغوية.. فهنا أسلوب النداء.. وبعده يأتى أسلوب القصر ليؤكد الأخوة الإيمانية الثابتة، وثباتها نطقت به اسمية الجملة: «إنما المؤمنون إخوة»، ويأتى النفى مقرونا بالفعل المضارع فى قوله: «لا يحل» إشارة إلى تجدد ذلك النفى واستمراره.. حيث يظل المال فى منطقة الحرمة لا يتعدى عليه سارق أو مغتصب أو مختلس أو محتال، ويأتى الاستفهام مقيما الحجة على السامعين والمخاطبين فى كل زمان وفى كل مكان، ويأتى الدعاء وطلب الشهادة من الله، بعثا للرهبة فى النفوس التى يطوف بها الإثم، وتمكينا للطمأنينة فى النفوس المؤمنة المفعمة بزاد التقوى وبرد اليقين ويرشد المصطفى عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى أفق الرجاء وباب النجاة فيقول مؤكدا قوله الذى صاغه فى أسلوب الشرط والجواب: «فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله».

فهل يدرك المسلمون أسباب النجاة؟ هل يعودون إلى مشرق الأمل ومنارة التوحيد؟

هل يتواصون بالحق والصبر، ويبلغ الشاهد الغائب؟

هل يجعلون من وقفة عرفات موسما للذكر والمكاشفة والتناصح والتآلف/ فهم فى حاضرهم كما قال شوقى يضرع إلى ربه فى يوم عرفة:

شعوبك فى شرق البلاد وغربها
إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا.. فلا الأنساب فيها تفاوت
لديك.. ولا الأقدار مختلفات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم فى حالك الظلمات!!!

وبعد.. فهذه بعض الأسرار التعبيرية فى خطبة حجة الوداع، وأعظم سر فى بيان المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه لم يزل مشرقا بالمعانى الوضيئة والألفاظ المبينة، ولم تزل النفوس الظمأى تجد فيها ريها، والقلوب الحيرى تجد فيها هديها ولله در الجاحظ حين قال: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم طلبا ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ».

حقوق المرأة فى الإسلام



أ.د/ محمد المختار المهدى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تختلف نظرة الإسلام إلى المرأة عن أى نظام سبقه، لم يعتبرها سببًا لوقوع آدم عليه السلام فى الخطيئة حتى تلعن كما فعل غيره، ولكن إبليس قد وسوس لهما معًا. ولم يعتبرها جنسًا أدنى من الرجل، بل ردهما إلى أصل واحد، ومزج بينهما مزجًا لا يستطيع أحد فصله:

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾
(النساء: ١)

ووجه الخطاب إليهما معًا فى التكاليف، وحدثنا عن إمكان تفوق المرأة على الرجل فى القيام بهذه التكاليف:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾
(التحريم: ١١)

فالمساواة قائمة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة، وأمام القانون، والتكاليف، وفى الحقوق العامة.. فلها حق التعليم، وحق التملك والتصرف فيما تملك دون حجر عليها من الرجل، قال تعالى:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾
(البقرة: ٢٢٩)

ولها حق اختيار الزوج كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ولها شخصيتها القانونية، فالإسلام لا يسلبها حق انتسابها إلى أبيها حينما تتزوج وينسبها إلى زوجها كما تفعل بعض الدول.. والقرآن الكريم يعبر عن هذه المساواة القائمة بينهما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾
(البقرة: ٢٢٨)

قضية القوامة

هذه الدرجة التى تحدثت عنها تلك الآية الكريمة تحتاج إلى مزيد من التفصيل والبيان حتى تأتى على نقد الناقدين وتشهير المحرفين.

هناك فعلاً تفرقة فى بعض الأحكام بين الرجل والمرأة تبعاً لاختلاف وظيفة كل منهما فى الحياة نتيجة لاختلاف الطبيعة المفطور عليها كل منهما.

فشهادة المرأتين برجل فى بعض الأمور العامة التى لا تتصل بمحيط النساء.. إذ أن اختلاط المرأة بالحياة العامة قليل لكثرة مشاغلها فى البيت وتربية الأولاد.. كما أنها تنتابها الدورة الشهرية وأعراض الحمل والوضع.. وكل ذلك يؤثر عليها ذهنياً فقد أثبت الطب الحديث أنها تشبه المريضة فى هذه الأحوال.. وهذا المرض المتكرر قد يؤثر على ذاكرتها فتنسى ما رأته، وهذا المعنى هو الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قوله:

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

والقوامة فى البيت للرجل لما طبعت عليه المرأة من عاطفة جياشة تؤهلها للحضانة والأمومة.. وهذه الطبيعة تجعلها سريعة الانفعال.. ولأن الرجل هو المكلف بالإنفاق عليها وعلى البيت.. وليس من العدالة فى شىء أن يكلف أحد بالإنفاق على هيئة دون إشراف عليها.. زد على ذلك أن المرأة بحكم طبيعتها وحيائها لا تتصل بالحياة العامة كثيراً كما أسلفنا.. والإشراف على البيت يحتاج إلى دراية كاملة بكل ما يجرى على أرض الواقع، حتى تكيف الأسرة نفسها وتصرفاتها على ضوء خط السير للمجتمع، إذ هى لبنة من لبناته.. ولقد صرح القرآن الكريم بسبب إعطائه الرجل حق القوامة، فقال تعالى:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

(النساء: ٣٤)

التفرقة فى الميراث

والمرأة على النصف من الرجل فى الميراث فى بعض الحالات، لأنها من مبدأ حياتها إلى نهايتها مكفولة لا كافلة.. حينما تكون فتاة لها حق النفقة على والدها حتى تتزوج، وحينما تتزوج تكون زوجة لها حق المهر والنفقة على زوجها.. وحينما تكون فقيرة أرمل لها حق النفقة على أقربائها الموسرين.. فإن لم يكن لها أقرباء موسرون فعلى الدولة.. فكانت التفرقة فى الميراث تبعاً للتفرقة فى الأعباء الاقتصادية.

حق الطلاق

وحق الطلاق ثابت للرجل.. إذ هو الخاسر الذى سيتحمل مغبته من تحمله لحقوق المرأة والأولاد بعد الطلاق.. كما أنها سريعة الانفعال كما أسلفنا.. هذا إذا وثقت المرأة فيه أولاً، وأسلمت له قيادها، أما إذا ارتابت فى حسن تصرفه أو تخلخلت ثقتها فيه فلها أن تشترط عليه قبل الزواج أن تنوب عنه فى طلاق نفسها متى شاءت كما رأى ذلك بعض الفقهاء..

كما أن لها حق طلب الطلاق فى حالات وقوع غبن عليها أو إساءة الرجل فى استعمال حقوقه، ولها حينذاك أن ترفع أمرها للقضاء وتطلب الطلاق لإعساره بالنفقة، أو لتقصيره فى حق من حقوق الزوجية، أو لاتقاء الضرر والضرار، أو لغيبة الزوج غيبة طويلة.

كما أن لها أن تدفع المهر الذى أخذته وتطلب الخلع منه للكراهية.

المرأة ورياسة الدولة

والمرأة لا يجوز لها أن تتولى رياسة الدولة وتوجيه دفة الحكم، فلقد صح عن النبى ﷺ حينما ولى الفرس عليهم بنت كسرى قوله: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1]، ذلك أن هذه المناصب الخطيرة تحتاج إلى وعى دائم وكامل لا يتوافر للمرأة فى الحالات الخاصة بالنساء والتى أسلفنا بعضها.. وليس عندها استعداد فطرى للقيام بهذه المهمة الخطيرة.

منع زواج المسلمة من غير المسلم

والمرأة المسلمة لا يجوز لها أن تتزوج بيهودى أو نصرانى.. والرجل المسلم له أن يتزوج بيهودية أو نصرانية.. ذلك أن للرجل حق القوامة على المرأة.. ولا يتأتى من الرجل المسلم أن يجرح مشاعر امرأته غير المسلمة، إذ هو مطالب فى الإسلام أن يحترم كل الرسالات السابقة، وأن يؤمن بكل الأديان والأنبياء الذين بعثوا قبل الإسلام.. فإذا ما بدرت منه بادرة تخل بالاحترام الواجب لسيدنا «عيسى» عليه السلام أو لسيدنا «موسى» عليه السلام مثلاً، فليس بمسلم.. أما اليهودى والمسيحى فإنهما لا يؤمنان بالإسلام، ولا بنبى الإسلام، وهما بهذا قد يطعنان ويجرحان دين زوجتيهما المسلمة مما قد يؤدى إلى شقاق دائم وخلاف مستمر.

حق الحفاظ على كيان الأسرة

لحماية هذا الكيان شرع الإسلام واجبات وآداباً يرعاها كل من الزوج والزوجة داخل البيت حتى يستمر حبل الصلة والمودة متيناً وقوياً، وحتى لا تكون هناك أخطار ومشكلات داخلية.. وشرع واجبات وآداباً أخرى يتكفل بإقامتها المجتمع ممثلاً فى الدولة حتى يحميها من الأخطار الخارجية التى تهدد بقاءها.

فقد أمر الزوج بالعمل والتكسب ليحمى زوجته وأولاده من آلام الفاقة والحرمان.. وأوصاه بزوجته خيراً، وبغض إليه الفرقة.. وحمله من التبعات ما يجعله يتوقف كثيراً قبل التجرؤ على الطلاق.

وأمر الزوجة بالأمانة فى بيت زوجها، وحفظ ماله، ورعاية أولاده.. ونهاها عن إدخال أحد بيت زوجها إلا بإذنه، حتى لا يدخل بالفساد والإفساد، وأمرها بالتحبب إلى زوجها وطاعته، ولطف المعاشرة معه.

وأمرهما بتربية الأولاد وحسن تأديبهم، قال تعالى:

(١) أخرجه البخارى، كتاب المغازى، باب كتاب النبى إلى كسرى وقيصر، حديث رقم ٤٤٢٥.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(التحريم: ٦)

وأباح للمرأة الفطر في رمضان إذا كانت مرضعا حماية لها ولطفلها من الضعف والضرر.. وقد سبق مزيد من التفصيل والبيان لهذه الواجبات والآداب.

فإذا ما تمت على وجهها المشروع كان البناء الداخلي متماسكًا لا تنال منه الأعاصير الهوج.. وتفرغ أعضاؤها للعمل البناء، وإفراغ كل الطاقات المثمرة في نهضة الأمة ورعاية الطفولة التي هي الثمرة المرجوة لمستقبلها.

وشرع لذلك أيضًا حدودًا يرعاها المجتمع تكفل لكل أسرة أمنها واستقرارها، وتحميها من التصدع والانهيار.. وأي رجل وأي امرأة في المجتمع كلاهما مأمور بغض البصر، والاعتصام بالحياء من التردي في عواقب النظرة الخائنة، حتى لا يفتتن أحد بجمال أحد، فتتقوض دعائم الأسرة، فقال تعالى بالنسبة للرجال:

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾

(النور: ٣٠)

وقال بشأن المرأة:

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(النور: ٣١)

وأمر كل النساء بالتزام الحشمة والوقار وألا يبدين زينتهن للأجانب وألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.. حفاظًا عليهن من أطماع المشتهين بالفضائل.. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٥٩)

وجعل الإسلام للبيت حرمة خاصة لا يجوز انتهاكها، وحد حدودًا للزنا والقذف وكل أنواع الانحراف السلوكي الذي يؤدي إلى هدم الأسر وانصراف الطاقات الشابة للتسكع والجري وراء الرذيلة والفساد.

إن الدولة بعد كل هذه التوجيهات الإسلامية الرائعة مكلفة بتوفير ضمانات الاستقرار للأسر وحماية الآداب العامة التي تعين على ذلك، إذ لا يمكن تركها للأفراد وحدهم.

وإن ذلك لا يقل أهمية عن الدفاع ضد العدو الخارجي، فإن العدو الداخلي ممثلاً في شيوع الرذيلة والفساد وانهيار الأخلاق لهو أنكى وأشد ضراوة في خلخلة الكيان للمجتمع الإسلامي بأسره.. قال الشاعر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعويلا

حق التعليم والثقافة

للتعليم في الإسلام منزلة فريدة من الاهتمام والعناية، فهو لا يتصور أن هناك إنسانًا على وجه الأرض يرجى منه خير وهو غير معلم أو متعلم: «كن عالمًا أو متعلمًا، ولا تكن الثالث فتهلك».

وإنه بأول جملة نزلت من دستوره الخالد تحددت معالم هذا الدين، وأنها تعتمد على التربية والتعليم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١-٥)

وأن آدم عليه السلام لم يفق الملائكة إلا بالعلم والمتعلم العامل بعلمه في نظر الإسلام ليس كالجاهل ولو كان عابدًا قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر: ٩)

والعلم بتعبير القرآن الكريم يهدي صاحبه إلى الحق:

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾

(سبأ: ٦)

والعلم العميق سبيل الخشية من الله:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

(فاطر: ٢٨)

وطلبه ليس للمسلم والمسلمة فيه اختيار، إنه فرض لازم وواجب محتم.. قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٢]

والتعليم للصغار حق إلزامي على الكبار، وعلى الدولة بنص هذا الحديث الكريم، وبذلك التطبيق السليم من سيد المرسلين ﷺ.. لقد قبل في فداء بعض أسرى بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة، بل إن رسول الله ﷺ ليلزم المجتمع بالتضامن في إزالة الأمية ومحو الجهل، ويضع على عنق المتعلم مسئولية التعليم للجاهل.. وعلى عنق الجاهل مسئولية التعلم من المثقف.. بل جعله حقًا من حقوق الجوار.

خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم؟! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون؟! والله ليعلمن قوم جيرانهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة».. ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟.. ثم عرف أنه قصد بذلك الأشعريين، فإنهم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة جهلاء، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: «ليعلمن قوم جيرانهم وليتعلمن قوم من جيرانهم أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا»، فقالوا: يا رسول الله، أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فطلبوا منه سنة يمهلهم فيها حتى يطيقوا هذا التوجيه الكريم.

(٢) أخرجه ابن ماجة ـ المقدمة ـ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ حديث رقم ٢٢٤.

الوسطية الإسلامية

وضع غير المسلمين فى الدولة الإسلامية



أ.د. محمد سليم العوا

إننا لا نتحدث عن النظام السياسى الإسلامى فى فراغ فكرى أو عملى، وإنما نتحدث عنه فى خضم عمل سياسى مستمر. فى كل بلاد الإسلام تقريبا - يدعو إلى (دولة إسلامية) ونتحدث عنه فى غمرة تطور لا يتوقف فى العلاقات بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية، بلغ مبلغ إعلان الحرب غير مرة فى سنين معدودة على عدة بلدان إسلامية، والتهديد الصريح بإعلانها على دول أخرى!

وإخواننا من غير المسلمين فى الدول الإسلامية من حقهم أن يتساءلوا عن الذى سيؤول إليهم وضعهم إذا نجحت الدعوة إلى إقامة (دولة إسلامية) فى بلد من بلاد الإسلام الذى يتجاور فيه أهل أديان شتى.

المسلمون وغير المسلمين معا فى بلاد الإسلام وخارجها عليهم - أو لهم - أن يعرفوا طبيعة العلاقات بين دولهم وغيرها من الدول الإسلامية، محاربة كانت أم مسالمة لبلاد المسلمين.

فأما غير المسلمين المواطنين فى الدولة الإسلامية فإنهم والمسلمين سواسية فى حقوق المواطنة وواجباتها، لا فرق بين مسلم وغير مسلم فى التمتع بالخدمات والانتفاع بالمرافق وشغل الوظائف - غير الدينية - التى يقوم بها كيان الدولة وبنيانها. والوظائف الدينية تقتصر فى شأن أهل كل دين على المؤمنين به، وإلا كان شغلها بغيرهم تكليفا بما ليس فى الوسع، وهو غير جائز فى شريعة الإسلام.

وقد انقضى العقد الذى كان يعرف - تاريخيا - باسم عقد الذمة بانقضاء الدولة الإسلامية التى أبرمته عندما وقعت ديار الإسلام تحت نير الاستعمار الغربى، وقد قاوم أهل البلاد - من المسلمين وغير المسلمين - هذا الاستعمار، وآل الأمر إلى نشأة دول قومية غالبية أهلها من المسلمين، وأقليتهم من غيرهم، لكنهم جميعا كانوا شركاء فى إقامة هذه الدول، وفى تشكيل بنيتها السياسية التى ورثت الاستعمار بعد رحيله.

والذمة عقد وليس وضعا، والعقود بطبيعتها قابلة للانتهاء والإنهاء، أما الأوضاع فهى باقية ما بقيت شروطها والظروف التى سوغت قيامها. وإذا كان عقد الذمة قد انقضى، ولم يعد أى من أطرافه قائما.. فقد نشأ الوضع الجديد: وضع المواطنة الذى يستوى فيه المسلم وغير المسلم فى الحقوق والواجبات القانونية أمام الدولة، وأمام قضائها، وأمام سلطاتها كافة.

وإذا كان المسلم ملتزما - ديانة - بما أمرته به نصوص القرآن والسنة من البر والقسط حين معاملته لمواطنيه من غير المسلمين، ولاسيما أهل الكتاب منهم، فإن الالتزام الدينى سيجعل العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين قائمة فى ظل الأخوة فى الوطن، والناظرة فى الإنسانية، فوق قيامها - وقبل قيامها - على الالتزام بحدود القانون والدستور.

وكان مقتضى عقد الذمة أن يدفع غير المسلم المقيم فى الدولة الإسلامية مبلغا ضئيلا من المال (لم يزد فى أى وقت عن دينارين على أغنى من يؤخذ منهم) يسمى الجزية: والفقهاء المسلمون مجمعون على أن هذا المال كان بدلا من أداء غير المسلمين واجب الدفاع عن الدولة الإسلامية بالخدمة فى جيشها (أى بدلا عن الجهاد) ولم يكن غير المسلمين يكلفون بالخدمة العسكرية؛ لأن الجيش كان - فى الأساس - يحمل العقيدة الدينية لا الوطنية، ويقاتل فى سبيل الله لا فى سبيل حماية الحدود، وفى تكليف غير المسلمين بالمساهمة فى مثل تلك الجيوش تكليف بما لا يطاق وهو غير جائز. فلما تحول الأمر عن تلك الصورة إلى صورة الجيش الوطنى الذى مهمته الأولى - وقد تكون الأخيرة - حماية الدولة وحدودها ورد العدوان عنها، أى أنها مهمة وطنية بحتة، واستوى فى أداء هذه المهمة المسلمون وغير المسلمين لم يعد لفكرة الجزية محل ولا سبب وذهبت أدراج التاريخ، كفكرة الذمة نفسها.

إنه مما لا ريب فيه أن الدفاع عن الوطن، عند المسلمين، هو جهاد فى سبيل الله، والمسلم مكلف به بالاعتبارين معا، وغير المسلم مكلف به من حيث هو مواطن، وأمر تكييفه الدينى متروك لأحكام دينه وما يقرره العلماء به؛ لكنه قطعا يسقط فكرة الجزية من أساسها حتى لو كنا فى ظل عقد الذمة، فكيف والعقد نفسه غير قائم؟!

وغير المسلمين فى الدولة الإسلامية يجب أن يسمح لهم بإقامة دور العبادات الخاصة بأديانهم، ولا صحة لما يلهج به كثيرون من أن ذلك لا يجوز فى الأمصار (أى المدن) التى مصرها (أى أنشأها) المسلمون؛ لأننا ما دمنا لا نمنعهم من الإقامة فيها، وهو أمر لا يقول به ولا يدعو إليه ولا يدافع عنه أحد فإننا لا يجوز أن نمنعه من إقامة دور - كافية لأعدادهم - ليؤدوا العبادة فيها وفق عقائدهم وشعائرهم.

وينبغى أن يشار هنا إلى الوضع الدولى المعاصر، حيث تعيش أعداد كبيرة - تعد بالملايين - فى دول غير إسلامية، وهم فى هذه الدولة إما مقيمون إقامة مؤقتة، أو مهاجرون إليها اكتسبوا جنسيتها وأصبحوا مواطنين فيها، وفى الحالين لا تمنع دولة من تلك الدول المسلمين المقيمين فيها من إقامة دور العبادة والمؤسسات التى تخدم التجمع المسلم فيها ثقافيا وتعليميا واجتماعيا واقتصاديا، فإذا كانت هذه هى معاملة الدول غير الإسلامية: لا تحرم مواطنيها أو المقيمين مؤقتا فى أراضيها من حقهم فى التعبد فى دور عبادة يقيمونها لأنفسهم.. فهل نفعلها نحن؟!

تحويل المرجعية التشريعية في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين



للمستشار/ طارق البشري

سأحاول أن أستعرض قوانين محمد على لنرى هل هى فيها جديد، كثير، إنما السؤال هو إلى أى حد هى كانت تستجيب للمرجعية الإسلامية وهل خرجت عنها؟ ومتى كان الخروج بالضبط؟ وكيف تتابعت الظروف بعد ذلك؟ هذه هى النقطة الأساسية بالنسبة لى فى هذا الموضوع، موضوع المرجعية.

ولكن لكى أبحث فى المرجعية يجب أن أضع أمام حضراتكم منهجى فى بحثها، فالأحكام سهلة؛ لأننا سنبحث إن كان الحكم موجود أم لا؟ موجود إذن هو شرعى، غير موجود إذن جاء من الخارج، أى غير شرعى.. فمن السهل جداً أن أسكن الأحكام وفقاً لما هو وافد منها وما هو موروث، إنما الأمر ليس سهلاً بالنسبة للمرجعية فما هى الأدوات التى بواسطتها أقول إن هنا مرجعية شرعية، وهنا لا توجد مرجعية شرعية.. أمام حضراتكم سأعرض الوسائل الآتية والتى أرى أنها يمكن أن تتبع فى هذا المجال:

أولاً: هل القوانين والأحكام التى صدرت من محمد على أو الولاة التالين له كان فيها ما يتعارض مع أحكام الشريعة أو لم يكن؟! إذا كان فيها ما يتعارض مع أحكام الشريعة، وما يتعارض بشكل مع حكم قطعي الدلالة، أو مع حكم راجح أداؤه مختلف تماما، إذن فهذا ليس مرجعية شرعية وإنما مرجعية أخرى.

هذه نقطة، النقطة الثانية هى ما يسمى بالسياسة الشرعية؛ لأن الفقه الإسلامى يضع فى الأحكام والنواهى والأوامر والواجبات الموجودة فى الفقه والموجودة أصلاً فى أحكام الشريعة عقوبات محددة، إنما هناك منطقة متروكة للحاكم، وليس فيها أوامر ولا نواه، ومتروكة للحاكم لكى يعمل فيها سلطانه لكى يقود المجتمع والجماعة إلى ما فيه خيرها وصلاحها، وهذا مستقر فى الفقه الإسلامى ومسموح به، وهذا ما يسمى بالسياسة الشرعية، من باب ساس يسوس وهو سائس،

من باب تدبير أمور الرعية ومصالحها، وهى لا تتعارض مع أحكام الشريعة وإنما هى جزء من الشريعة، فمثلاً عندما تصدر اليوم قانونا من مجلس الشعب، والقانون يقول: تصدر لائحة من الوزير أو رئيس الجمهورية تحدد كذا وكذا، هنا القانون ترك مساحة مفتوحة لكى تقوم السلطات التنفيذية - التى هى لا تشرع أصلاً - بوضع تشريعاتها بما يتلاءم مع الواقع المتغير، هذه نسميها قوانين، وتلك نسميها لوائح، واللائحة صحصحة، وعندما نرى لائحة بأحكام ليست واردة فى القانون فلا نقول إنها تخالف القانون؛ لأن القانون أتاح لها هذا التفسير.

كذلك ما يسمى بالسياسة الشرعية، ولذلك محمد على عندما يشرع يسمى قوانينه سياسة نامة، كلمة سياسة هنا مصطلح فقهى، كلمة سياسة لا تحمل معنى سياسة كما تفهمه الآن، فيقول قانون نامة سياسى، سياستنامة، وتتعدد هذه الألفاظ فى القوانين التى يصدرها فى هذا الوقت، وعندما نقرأ القانون نفسه نجد أنه كله تعازير وأوامر ونواه ليس لها فى الفقه الإسلامى ما يخالفها، ونحن لا نحسبها كقانون وضعى، فهى تدخل فى إطار التكوين الفقهى والفكرى القائم بمرجعيته القائمة فى المجتمع، وليست خارجة عنه، تماماً مثل اللائحة والقانون، ستجد كثيراً من هذا النوع، قانون المنتخبات ستجده بهذا الشكل، ولذلك نجد فى هذه القوانين إحالات كثيرة لما يكون هناك حكم شرعى، مثل القتل أو السرقة أو قطع الطريق أو الأشياء التى فيها حدود شرعية، فهذه ينص على أن يتبع فيها الشرع.

والقوانين التى يصدرها محمد على ستجد فيها حبساً وفيها سجناً وفيها ربطاً بالجنزير، وفيها جلداً.. ولكن لما يكون هناك جلد تجد أنواعاً من الجلد لا تدخل فى الحدود الشرعية، يقول ٧٩ جلدة، وساعات يقول ٣٠٠ كرباج.. وأنا الحقيقة مندهش، وأرجو أن تفهمونى كيف يقول على مادة معينة يضرب المتهم ٣٠٠ كرباج، فإذا عاد يضرب ٥٠٠ كرباج، فإذا عاد يعزل، العزل يكون أشد من ضرب الـ ٥٠٠ كرباج أنا لست أفهم هذا حقيقة، لكنها موجودة فى القانون هكذا.. المتهم يضرب ٥٠٠ كرباج فى الحالة الخفيفة، وفى الحالة الثقيلة يعزل.

النقطة الثانية عندما نجد مثلاً مجالس معينة وبها عدد من الفقهاء، فقهاء الشريعة، لكى يضبطوا الجانب الشرعى إن كان له وجود فى القرار، مثلما نفعل اليوم فى مجالس إدارة المؤسسات العامة وغيرها، حيث تضع فيها رجال قانون لضبط الشرعية عند اتخاذ القرار، فهو لا يفهم فى الزراعة، ولا فى الحسابات ولا غيرهما، ولكن يفهم فقط فى المشروعية، وإذا حدث نوع من أنواع الخروج على المشروعية يقول إن هذا القرار سيكون خطأ، فلما نجد واحداً من هؤلاء فى المجالس نقول إن المرجعية الإسلامية لاتزال هى الموجودة ولو نظريا فى نشاط هذه المجالس.

هذا الطابع لقوانين محمد على كان هو الطابع الغالب حتى سنة ١٨٥٩ يمكن بعد محمد على حتى عصر سعيد، نرى أن القوانين والقرارات التى تصدر يغلب عليها هذا الطابع، أى أنها فى إطار السياسة الشرعية، إنها تتكلم فى حدود ما يتعلق بالشريعة، إنها تضع عقوبات فى إطار ما

يتعلق بالتعزير، وليست من نوع الحدود التى تعرف فى الفقه الإسلامى بأنها ما ورد له نص فى القرآن وحدد العقوبة، والتعزير هى ذنوب لم يرد فيها نصوص لتحديد العقاب، وهى متروكة للقاضى ولولى الأمر.. فكلها تتعلق بالتعزير ما يتعلق منها يحد من الحدود يرجع فيها إلى الشرع الشريف، أو الحنيف، باختلاف الصياغات التى وردت حول هذا المعنى.. وكان فى العديد من المجالس ـ وليس كلها ـ يوجد فيها فقيه حنفى وشافعى، أو حنفى فقط، أو يسمون اسم الشيخ الحاضر: إن كان الشيخ السادات أو الشيخ البكرى.. واستمر هذا الوضع حتى نجد سنة ١٨٥٩ و١٨٦٥ مجلس قومسيون مصر ومجلس التجار التى نشأ بعضها فى ١٨٥٩، وفى سنة ١٨٦٥ بعضها الآخر فى أوائل عهد إسماعيل، خصوصًا مجلس تجار ١٨٦٥ هنا المرجعية بدأت تظهر فنجد لائحة المجلس تقول الآتى: حصل الاتفاق بين الحكومة السنية والقناصل الجنرالية بإجراء العمل بمقتضى هذا القانون، فهو لم يكن من الحكومة وحدها وإنما اتفاق مع القناصل فى هذا الأمر، ويأتى فى الآخر ليقول اللغة العربية والفرنسية هى لغات هذه المجالس، وبعدها يقول اللغة العربية والطليانى.. وفى هذا القانون يقول: يحكم فى القضايا حسب العوايد الجارية فى هذه الديار وعلى مقتضى الأحكام المقررة فى قانون التجارة العثمانى.

وقانون التجارة العثمانى كان تقرر فى استانبول سنة ١٨٥١ على مصر، وهذه كانت فترة التنظيمات العثمانية من ١٨٤٠ إلى ١٨٧٦ لغاية تولى السلطان عبدالحميد، فى هذه الفترة اتخذت العديد من التنظيمات، ووضعت العديد من التقنينات المأخوذة عن فرنسا، ودائما كان القانون الفرنسى هو أول قانون يدخل، وأول محكمة غير شرعية تظهر كانت دائما المحكمة التجارية أو مجلس التجار، دائمًا، واليوم نجد ذلك فى دول الخليج، لكن فى القرن العشرين، أول أحكام مخالفة للشريعة فى هذه الأقطار كانت مجالس أو لجان، ولا تسمى محاكم ولها تنظيم مأخوذ من القوانين الإدارية الفرنسية.

المادة التى تليها تقول ـ وهذه واضحة فيها المرجعية الفرنسية ـ إذا اتفق أن قانون التجارة المذكور أعلاه ـ أى العثمانى ـ غير مشتمل على أحكام تخص بعض الدعاوى، فعلى أرباب المجلس فى تلك البنود الأخذ بالقانون الفرنسى نفسه، وهنا المرجعية سنة ١٨٦٥، القانون الفرنسى.

شىء آخر ظهر سنة ١٨٦٨، حيث نشأت مدرسة الإدارة والألسن التى تحولت بعد ذلك إلى كلية الحقوق، وكان مديرها اسمه فيكتور ريدال، وكان مهندسًا ولكن بدا له فى أوقات فراغه أن يتعلم القانون، وليته لم يتعلمه لأنه تعلم قانونًا لكى ينشئ عندنا كلية حقوق، يعنى ليتنا أحضرنا فقيهًا كبيرًا، وإنما أحضرنا مهندسًا فى السكة الحديد، جاء إلى مصر، ولما عمل الخديو مدرسة الحقوق، عينه مديرًا لها لمدة ٢٤ سنة، هذه المدرسة التى صارت بعد ذلك كلية الحقوق الخديوية ثم السلطانية ثم الملكية.. لأنه كان أخذ ليسانس الحقوق فى فرنسا قبلها بخمس سنوات، هذه المدرسة عندما نرى ماذا كانت تدرس نجد الآتى:

قانون مدنى فرنسي، قانون رومانى، قانون تجارى، قانون البحرى، الخاسية، المرافعات، قانون العقوبات، قانون تحقيق الجنايات، إنما الذى لفت نظرى أولا أنها كانت تدرس لغات، ليس فقط اللغات الغربية، وإنما أيضا اللغات الشرقية: تركى وفارسى.

وبالنسبة للعلوم القانونية التى تدرس بتلك المدرسة لفت نظرى أنها كانت تدرس القانون الطبيعى، والقانون الرومانى، قبل أن يدرس الطالب القوانين الفرنسية فى ذلك الوقت: مدنى وجنائى ومرافعات، لكى أرى الحلول لكى تفيدنى فى دراسة القانون المقارن، لأن القانون المقارن أحد وسائل تجديد القوانين والتشريعات عن طريق أننى أدرس كيف تحل الأمم المختلفة مشاكلها بنصوص تحكم التعاملات الجديدة فيها، من الضرورى أن أفهمها أولا، وأطلع عليها، إنما أجده يدرس فيها القانون الطبيعى والقانون الرومانى، معنى ذلك أنه يريد أن يكون على تنسيقية، يريد أن يضع لى أساسًا فلسفيًا.. وأنا لا أتصور أن المدارس وكل تعليم محمد على فى هذه الفترة لم يكن التعليم يتعرض للفلسفات، دراسة الفلسفات الغربية بدأت فى نهاية القرن، والغريب أن يبدأ دراسة فلسفة القانون فى مصر فى وقت مبكر جدا وهو سنة ١٨٦٨.

فكرة القانون الطبيعى ستدلنى فورًا للفلسفة الوضعية، وليست الفلسفة الإيمانية التى تستمد منها الشريعة، هذه كانت مقصودة أم لا.. الله أعلم، ولكن الحكم هنا على الأثر وليس على النيات.

النقطة الثانية التى لفتت نظرى أن هناك علومًا تدرس فى كليات الحقوق وسقطت هنا، رغم أننا محتاجون لها جدًا، القانون الدستورى، القانونى الإدارى، الاقتصاد، وهو كان جزءًا من دراسة كليات الحقوق، كل هذا غير موجود، والمالية، القانون المالى، الضرائب والرسوم، والميزانية التى هى جانب مالى له وجه قانونى يتعلق بالسلطة والتنظيم المالى للسلطة، لا يوجد شىء من هذا، رغم أننا كان عندنا فقهاء فى الفقه الإسلامى يعرفون مدنيًا وجنائيًا، ويعرفون الغريب كقانون مقارن ،لكن لا يوجد احتياج فكرى وتنظيمى لخبرة أجنبية كبيرة فى هذا المجال، أما ما كنا نحتاجه كخبرة كبيرة فى ذلك الوقت هو القانون الدستورى، تنظيم الدولة، والقانون الإدارى، تنظيم الإدارة الحكومية، التى كان لابد أن نفهمها بشكلها الحديث فى أوروبا، وكذلك علوم الاقتصاد والمالية، يعنى أسقطت ما نحن فى حاجة إليه، وركزت على ما لسنا فى حاجة إليه والله أعلم بالنوايا، ولا أعلم حقيقة لماذا ،وليس أمامى وثيقة أو مستند يقول لى ماذا كان المقصود من ذلك، إنما أنا أتكلم فى حدود أثر ترتب على وضع معين، إنه يأتى لي بقانون يزاحم القانون الموجود عندى، ولا تنقصنى الخبرة فيه، ولا يأتى بما ينقصنى حقيقة.

النص الذى قرأته عن مجلس التجار سنة ١٨٦٥، ابتدأ يتكرر فى مجالس الأحكام التى صدرت بعد ذلك فى فترة الستينيات والسبعينيات وبدأت المرجعية ـ لا أقصد تعدلت ـ وإنما حصل لها نوع من أنواع التزاوج، موجودة الأحكام الشرعية كما هى، والناس ترجع لها فى أى قضية، وتحكم حسب المذهب الحنفى، والمجالس موجودة تحكم فى تخصصها، لغاية ما حصل بعد الاحتلال الإنجليزى من وضع قوانين على نظام

المحاكم الحديثة سنة ١٨٨٢، والذى بدأ يسرى فى سنة ١٨٨٣.. حيث اجتمع مجلس النظار - وكان رئيسه مصطفى رياض باشا - فى نوفمبر ١٨٨٢، ونجد فى محضر المجالس كلامًا عن ترتيب المحاكم الأهلية النظامية وتأسيسها فى مصر، وأن هذا الموضوع يجب أن تعتنى به وتدرسه، وأنه قد كلف فخرى باشا وزير الحقانية أن يضع مذكرة فى هذا الشأن ويعرضها على المجالس.

ونجد بعد ذلك أن المجلس اجتمع فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢، وعرضت عليه مذكرة فخرى باشا، فماذا كان فى المذكرة؟

أولاً: عرض فخرى باشا لتنظيم مجالس الأحكام القائمة بالتفصيل، ثم قال إننا نريد وضع قوانين ملائمة لعوائد البلاد، وأشار إلى القوانين المختلطة.

ولقد نسيت أن أذكر أن نظام المحاكم المختلطة كان موجودًا من قديم، عن طريق المحاكم القنصلية، كأحد الامتيازات الأجنبية، حيث عندما يتحاكم الأجانب يتحاكمون إلى محاكمهم القنصلية التى تنعقد فى مقار قناصلهم، والقنصل أو من ينيبه القنصل يحكم فيما يتنازعون فيه من حقوق، وكان هناك حوالى ١٧ - ١٨ قنصلاً فى مصر لهم هذه الإمكانية، ولما ضعفت مصر والدولة العثمانية أصبحت هذه ميزة، إلى درجة أنهم جروا المصريين إلى هذه المحاكم، لدرجة أن أى نزاع يوجد فيه طرف مصرى مدعى أو مدَّعى عليه كان يحكم عليه فى المحاكم القنصلية، واستمر نوبار باشا من ١٨٦٤ إلى ١٨٧٥ يحاول مع الدول صاحبة الامتياز لتنظيم هذه الفوضى التشريعية التى تمس السيادة التشريعية، كما تمس السيادة القضائية، وتشكلت المحاكم المختلطة واستبدل قضاء مختلط واحد، والذى عطل هذه المسألة لمدة ١١ سنة كانت فرنسا، لأنها كانت تشترط حتى توافق على إلغاء قضائها القنصلى، أن يؤخذ بالقوانين الفرنسية، فلما اتفقت الدول كلها على هذه القوانين، انعقدت المعاهدة وأنشئت المحاكم المختلطة، وأنشئ لها ستة تقنينات، وأيضًا حضر ذلك المهندس الذى جعلناه مديرًا، وأحضر سكرتير نوبار باشا، وكان رجل قانون، طلياني، وخلال ستة أشهر عمل قانونًا مدنيًا، وقانونًا تجاريًا، وقانونًا بحريًا، وقانونًا لتنظيم المحاكم، وقانونًا جنائيًا، وقانونًا لتنظيم المحاكم الجنائية، الستة تقنينات الكبرى التى ندرسها خلال أربع سنين ونتخرج جهلاء ونقوم بدراستها بعد ذلك من جديد، هو وضعها فى ستة أشهر، وعرض اختصارات وملخصات للقانون الفرنسى ووضعت قوانين المحاكم المختلطة، وصدرت التشريعات التى تحكم المحاكم المختلطة، ولم يعد ممكنًا لأى قانون مصرى أن يسرى على تطبيق المحاكم المختلطة، إلا إذا وافقت الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة على ذلك، وأحضروا قضاة أجانب، وكانت اللغة الأساسية هى الإنجليزية والفرنسية والعربية والطليانية، ولكن العربى لم يستخدم قط فيها، وكانت جميع الدوائر تضم جهازًا مصريًا، لكن دائمًا كانوا أقلية، ودائمًا كانوا فى أقل المناصب، وكل دائرة أكثريتها دائمًا أجانب ورئيس الدائرة دائمًا أجنبى، وكان لها نيابة عامة ونائب عام أجنبى، وكان المصريون فى أقل مناصب النيابة العامة.

فالمهم عندما بدءوا يضعون القوانين فى



شريف باشا

على مبارك

مجلس النظار، فخرى باشا طالب فى مذكرته بأن تكون القوانين ملائمة لعوائد البلاد، وأشار للقوانين المختلطة، وقال إنه أوكل إلى قدرى باشا أن يضع قانونًا مدنيًا موافقًا للشريعة الإسلامية، ولكن هذا لم يتم، وعلى العموم لو تم سيكون فيه نوع من أنواع التعارض بين قانون متخذ من الشريعة وقانون آخر له مرجعية أخرى، فاستحسن ألا يؤخذ به.. وفى النقطة الثانية اقترح أخذ قوانين المحاكم المختلطة كما هى، مع تعديلات قليلة جدًا فى قانون العقوبات والإجراءات الجنائية، لكى تتفق مع أوضاع مصر، وبذلك ستكون عندنا محاكم أهلية ومحاكم شرعية.

وإنصافًا لهؤلاء الناس فمن الضرورى القول بأنهم كانوا يعملون لإلغاء المحاكم المختلطة، فقالوا عندما [illegible]خذ القوانين الغربية ونجعلها هى النظام السائد لدينا، لن تكون هناك حجة للغرب ولا [illegible]نسيين ولا [illegible]ب الامتيازات، لن تكون لهم حجة فى الإبقاء على المحاكم المختلطة، فكان أمامهم معادلة استرداد السيادة القضائية والقانونية على مصر، عن طريق إدخال القانون الأجنبى، وهذه المسألة كانت تناقش فى مجلس الوزراء، وهذه الروح كانت فيهم حقيقة، وكان شريف باشا يفكر فى هذا، وكان على مبارك وعمر لطفى يفكران كذلك، ووافقوا على هذا الإجراء من أجل هذا الغرض، لاعتقادهم أنه خلال أربعة أو خمسة أشهر نتخلص من المحاكم المختلطة، وتكون ذريعة لنا لنسترد السيادة القضائية والقانونية بهذه الطريقة، لكن هذا لم يحدث.

فعندما أكون ضعيفًا وأنت قوى سأتنازل لك، فأنت ستأخذ ما تنازلت عنه ولن تتنازل لى عن المقابل.. إذن فالسبب معروف للأسف، لكن هذا ما كان موجودًا فى أذهانهم إنصافًا لهؤلاء القوم.

إنما لما تكلم فخرى باشا قال إننا لا نستطيع أن تعمل محكمة شرعية بها ولاية عامة للنظر فى كل الأمور، ومحكمة أهلية بها ولاية خاصة، بمعنى أن من قتل منتسب به إلى القضاء الشرعى فيبرئه؛ لأنه ليس متفقًا [illegible] وسائل الإثبات الشرعية، والوضعى [illegible] يحكم [illegible] بالإعدام، إذن ستتضارب الأحكام إذا جعلت الاختصاص موزعًا أو [illegible]احلا بين المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية، ولذلك أوصى بأن المحاكم الشرعية تكون قاصرة فى اختصاصها على الأحوال الشخصية، وتكون المحاكم الأهلية هى المختصة بكل ما عدا ذلك من أمور مدنية وبحرية وتجارية وجنائية.. واعترض على ذلك على مبارك وعمر لطفى قالا نوافق على كل ما قلته إنما علينا ألا نقيد سلطات وولاية المحاكم الشرعية، ولكن القرار الذى صدر لم يراع هذا الرأى.. وانتقلت فعلاً بصدور هذه القوانين المرجعية كاملة، فى كل القضايا، وفى كل المنازعات: المدنية والتجارية والجنائية وغيرها، ونظم المحاكم أيضًا،

انتقلت إلى المرجعية الوضعية، وانحصرت عنها المرجعية الشرعية.

بعد ذلك، نجد أنه قد بدأ نوع من أنواع التغلغل البطيء من الفقه الإسلامي، كحلول لبعض المشكلات داخل الثقافة القانونية للقضاة، ورجال القانون والمحامين.

مدرسة الحقوق كانت تدرس الشريعة؛ لأنه من الضروري تدريس الأحوال الشخصية، فالقاضي ضروري أن يعرف الأحوال الشخصية: زواج وطلاق ونفقة ونسب، وكذلك الوقف وغيرها، ولذلك وجدنا مثل الشيخ حسونة النواوي يدرس في كلية الحقوق، والشيخ محمد الخضري الذي ألف كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامي كان يدرس في هذه المدرسة، وبدأ هذا النوع من الثقافة يمتزج بالبيئة القانونية، يمتزج بالعقلية القانونية والموضوعية في مصر، الآخذة عن الفقه، وبعد ذلك بخمسين سنة أو زيادة، حيث تخرجت أنا سنة ١٩٥٣م، ودرست على يدي هؤلاء الناس، درسنا الفقه الإسلامي في الكلية، فجزء كبير من المدرسة التي تحاول الدفاع عن الشريعة والفقه الإسلامي ستجد أنهم من خريجي كلية الحقوق؛ لأن العبقرية الإسلامية كعبقرية وضعية حتى لم تتبدد في فرع من فروع المعرفة لأكثر مما تبدت في تناول الفقه الإسلامي، القواعد التي وضعت ومناهج التفسير والبحث التي وضعت كانت على مستوى رفيع جداً، بحيث إنهم لما تحدثوا على المصلحة، يقول لك تحاول أن نرشدها ونعمل لها مثلما فعل الشاطبي مثلاً، أي تحاول أن تقعدها ونعمل لها قواعد.

ولما نبحث اليوم في أحكام محكمة النقض، أحكام القضاء الإداري، ستجد التأثر بأصول الفقه قوياً جداً، نحن نطبق القانون الوضعي، مثلاً في مجلس الدولة كله قانون وضعي، إنما التأثر بأصول الفقه


حسونة النواوي

في استخلاص المعاني من النصوص واضح جداً في هذه الأحكام، خصوصاً في الأحكام التأسيسية التي تمت في العشر سنوات أو الخمس عشرة سنة الأولى، وتدرب العقلية على هذا النوع من التفكير.. ولم تكن هناك فكرة أن هذا الفقه أصبح متخلفاً، فقد استخدموه في تفسير الأحكام الوضعية القانونية الصادرة حتى في لائحة تنظيم الطرق والكبارى والشيكات وغيرها، فنرى ما هو العام وما هو الخاص، وما هو المطلق وما هو المقيد، بمناهج أصول الفقه في ذلك الوقت.. وهذا جعل العنصر المنهجي للفقه الإسلامي رغم أنه فقد مرجعيته، إلا أنه كان متغلغلاً في العقلية القانونية التطبيقية الموجودة في هذا المجال.

الفقه الإسلامي كان يشكو من الجمود في البداية ظل كذلك لمدة، ثم في نهاية القرن وجدنا جهود الشيخ محمد عبده وغيره، لكن حتى لا نتكلم عن أفراد نمسك المؤسسات، مدرسة القضاء الشرعي، كان لها دور غير عادي في تكوين عقلية فقهية إسلامية قادرة على التعامل مع علوم العصر، وظلت من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٢٤، حتى انضمت إلى الأزهر، ولكن خلفتها مجموعة من الأساتذة دخلوا كليات الحقوق، وعملوا بها، وخلفتهم لاتزال تعمل، وهم الذين درسنا نحن عليهم، وبذلك فهي موصولة وواصلة لهؤلاء الناس.

ولذلك فأنا لا أتكلم عن مدينة فاضلة بادت، أو أورشليم القديمة، لأن الشريعة لاتزال حية بأفكارها، وبدأت الرسائل الجامعية على مدى الخمسين سنة التي مضت، نجد عدداً هائلاً من الرسائل الجامعية ليست في الفقه الإسلامي فقط، بل في الفقه المقارن بين الفقه الإسلامي وبين القانون الوضعي، سواء في كليات الحقوق أو في الأزهر، ودار العلوم أيضاً رائدة في هذا المجال.

فحركة التجديد من الناحية المنهجية داخل الفقه الإسلامي إذا تتبعناها من نهايات القرن التاسع عشر؛ ستجد أن المذهب الحنفي كان هو المذهب الراجح، بنص لائحة ترتيب المحاكم الشرعية، ثم بدأ التجديد يأخذ شكل خروج من الرأي الراجح من المذهب الحنفي إلى رأي ما في المذهب الحنفي متى كان متلائماً ومتفقاً ومتجاوباً مع أوضاع الواقع المعيشي، وهذا تبنته مجلة الأحكام العدلية في الدولة العثمانية التي صدرت سنة ١٨٧٦م آخذة عن المذهب الحنفي.. وبعد ذلك خرجوا من رأي المذهب الحنفي كله، إلى رأي يختارونه من المذاهب المختلفة يتلاءم مع الوضع الحاضر، وبدأت قوانين الأسرة وقوانين الأحوال الشخصية والميراث والوصية تستجيب لهذا الأمر، فيصبح ترجيح ولي الأمر لحكم من الأحكام مأخوذ من أي مصدر من مصادر الفقه، حتى لو كان معتزلياً يأخذه لا مانع، مثل الوصية الواجبة مثلاً، بعد ذلك وصلوا إلى الاجتهاد المطلق، وأثاروا بعض المشكلات فيما يتعلق بمحاورات صاخبة، وحادة أحياناً، وهادئة أحياناً أخرى، ولكنه قائم بهذا الشكل.

فالاجتهاد المطلق ليس في حاجة لاتباع أحد الفقهاء السابقين، إنما الفقيه الحديث ينظر في أصول المنهج ويخرج الحكم، النقطة الأساسية أننا الآن لا يجب أن يكون جدالنا حول الأحكام، ومآخذ الأحكام، إنما يكون جدالنا حول المرجعية، وأن القضية هنا قضية ثقافية في الصف الأول وليست قضية سياسية، المشكلة أننا دائماً نطلب من السلطة أنها تغير القوانين، والحقيقة أننا نكلف السلطة - أي سلطة - الكثير، نقول لها إلغ كل هذه القوانين وأت بقوانين أخرى حتى لو كانت وضعية، يعني عملية إلغاء القوانين كلها ووضع قوانين أخرى يؤدي إلى قدر من الاضطراب والقلق بين المتعاملين، فأي واحد منا يدخل في اليوم الواحد في عشرين أو ثلاثين معاملة قانونية من أول ما يشتري علبة سجائر لغاية ما يؤجر بيتاً أو أي شيء آخر، كل هذه معاملات تغييرها يثير شيئاً من القلق الشديد، فأتصور أن فكرة نمط المرجعية هو الإسناد الشرعي للقوانين الموجودة، لما يحتمله الفقه الإسلامي، وإسناده إسناداً شرعياً، ونتعامل نحن رجال المهنة ورجال هذا العلم بالإسناد الشرعي للقوانين القائمة، ونقل الإسناد وليس نقل الحكم فقط، طالما أنها تطيقه وتحتمله.

فالعملية فعلاً عملية ثقافية أساساً، داخلة في التوجه الثقافي، وليست داخلة في التوجه السياسي، وليست مخاطبة للسلطة بقدر ما هي مخاطبة للأمة والجماعة، هذا ما حاولت أن أوضحه، وأرجو أن أكون أوضحت الفكرة.

الذرائع فتحاً وسداً
مساهمة فى علم اجتماع الفقه (٢)



أ.د. إبراهيم البيومى غانم
أستاذ العلوم السياسية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية (القاهرة)

ثانيا: مآلات قاعدة الذرائع فى التطبيق

انصرف نقدنا فى البند السابق إلى "الأمثال الشارحة" لقاعدة الذرائع، وقد مارسنا حقنا فى النقد من منظور اجتماعى / تاريخى، ويقينى أن لدينا "نظرية فقهية" عملاقة، وأن المجتهدين فى الفقه وأصوله شيدوا بناء رائعاً من القواعد والمبادئ التى تشكل مضمون هذه النظرية، وإن بقيت فيها مواضع لبنات تحتاج إلى إكمال هنا أو هناك، ولكن "النظرية" مهما كانت قوتها، و"القواعد" مهما كانت روعتها؛ فإنها لا تنتقل تلقائياً إلى التطبيق فى الواقع الاجتماعى، كما لا تكفل "النظرية"، أو "القاعدة" نجاح هذا التطبيق فى بلوغ أهدافه، ومن هنا بالضبط يتعين البحث فى وقائع عملية الانتقال من "التأصيل النظرى"، إلى حيز التطبيق العملى.

نظرياً توجد أربع جهات مسئولة، وهى ذاتها وسائل تنتقل عبرها النظرية أو القاعدة الفقهية إلى حيز الواقع الاجتماعى بمستوياته الفردية والجماعية، وبأنساقه الاقتصادية، والعائلية، والفئوية، والسياسية، والسلوكية أيضاً.

الوسيلة الأولى هى فتوى المفتى، وقبول المعْنى بهذه الفتوى لها وعمله بها؛ إذ المفتى مخبر، وليس مجبراً على أية حال، والثانية هى حكم القاضى، وهو واجب التنفيذ والعمل به لحسم الخصومة؛ إذ القاضى "مجبر" وليس مخبراً على أية حال، والثالثة هى قرار السلطان / الرئيس / الحكومة وهو واجب اللزوم والعمل به فى حدود طاعة الحاكم الشرعى، وقد يصدر بها قانوناً أو تشريعاً واجب النفاذ، أما الوسيلة الرابعة فهى مجالس العلم والتعليم والوعظ والإرشاد، وأدوات تكوين الوعى والتأثير فى الوجدان العام؛ كنشر الكتب، وبرامج الفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعى على شبكة المعلومات الدولية؛ باعتبار أن التبليغ واحد من أهم وظائف العلماء[١].

فى مباحث "سد الذرائع" بمؤلفات الفقه وأصوله قديماً وحديثاً لا نكاد نعثر على إجابة "نظرية" لسؤالين: الأول من المنوط به مسئول . . ير المفسدة والمصلحة والتوصل إلى رأى . ; قرار بترجيح أحداهما على الأخرى؟، والثانى هو: من المنوط به "تنفيذ" عملية السد أو الفتح عندما تغدو لازمة التنفيذ؟، لا جواب على أى من ذينك السؤالين؛ وإن كنا قد وجدنا ثروة من المعايير "النظرية" التى يمكن تحويلها لمؤشرات تساعد فى الإجابة، وبالقطع هى ستساعد فى تحديد وتمييز المفسدة من المصلحة وترجيح إحداهما على الأخرى؛ وذلك بعد عرضها على واحدة أو أكثر من الجهات آنفة الذكر (المفتى ـ القاضى ـ الحاكم)، وأهم تلك المعايير هى: "قوة الشبهة"، و"عدم مخالفة المنصوص عليه"، و"انتفاء البديل الشرعى"، و"أن لايؤول الأمر إلى الحرج"، و"أن لا يوقع العمل فى الوساوس والأوهام"، و"أن يتحقق المقصود من العمل به"، و"تقديم الأقوى عند التعارض"، و"عدم الإخلال بالنظام العام"، و"تعيين المحصور مما لا ينحصر"[٢] . . . إلخ.

من نقاط القوة ـ وهى كثيرة ـ فى قاعدة الذرائع، وكذلك فى نظرية "الاحتياط" بشكل عام؛ أنها تدفع العقل الاجتهادى الفقهى ـــ ومعه العقل الجمعى للمجتمع ـــ للتفكير فيما سموه "المآلات"؛ أى فى المستقبل، كما أنها تدعو إلى تقدير عواقب الأمور، وتحليل مساراتها المحتملة، وهذا النمط من التفكير المتقدم يلزمه مدُّ البصر إلى الأجلين المتوسط والبعيد لأخذ ما يلزم وفى التوقيت المناسب لدرء المفسدة وجلب المصلحة.

والمؤكد أن فوائد كثيرة تحققت بفضل تشغيل العقل الفقهى لفكرة "المآلات"، وتنوير الوعى الجمعى بأهمية النظر للمستقبل والتخطيط له والاحتياط من مزالقه، ومن ثم المساعدة فى الخروج من حالة الامتثال للأمر الواقع، والاكتفاء بعلم الحاضر والماضى على طريقة ابن أبى سلمى وهو فى الجاهلية فى قوله "وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما غد عمى".

ولكنَّ وقائع الممارسة الاجتماعية التاريخية تُظهر أنَّ الأمر لم يَسرْ على هذا المنوال الإيجابى طول الوقت. وأن روعة فكرة "المآلات" كما تجلت فى قاعدة "الذرائع"، ونظرية "الاحتياط" مثلاً؛ لم تتحول فى الواقع إلى ثقافة عامة للتفكير فى المستقبل والمبادرة بالأعمال والمشروعات الكفيلة بتحقيق المصالح ودرء المفاسد العامة والخاصة، بل ثمة مؤشرات ودلائل على أن

١ـ القاضى عياض: إكمال العلم بفوائد مسلم تحقيق يحى خليوش (المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٩)، وقد استدل بتلك المقولة الشيخ بن بيه حفظه الله فى بحثه "الإرهاب: التشخيص والحلول"، سلسلة محاضرات منتدى الفقه الإسلامى ـ جدة ـ (ب. ت) منشور على موقع www.fiqhacademy.org.sa . قد اجتهدنا فى استنتاج الوسائل الأربع سالفة الذكر وهى قد تسهم فى الإجابة على السؤالين المذكورين.

٢ـ من الحالات النادرة ما ذكره الشيخ الزحيلى وهو بمعرض الحديث عن سد الذرائع فى العقود قال: "وإذا علم الغرض (الفاسد) من العقد بأدلة مثبتة كان للقضاء إبطاله سداً لذريعة ضياع الحقوق. انظر: الذرائع فى السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص٦٠، ولم يزد الشيخ على هذه الإشارة العابرة.

النزوع "الفقهي" نحو المبالغة في الاحتياط وسد الذرائع كان ولا يزال أقوى منه نحو فتحها، وأقوى من توظيفها في التدرب على رؤية المستقبل وحسن تقدير المآلات، ويكفي أن نشير إلى خطورة هذه النزعة تحت دعوى "فساد الزمان"[3]؛ هكذا بإطلاق! لأننا إذا سلمنا بأن الفساد صار صفة "للزمان" فإن بناء السدود والحوائط لقفل ذرائع الفساد لن يكفيها جميع المجتهدين من فقهاء وأصوليين!. فمثل هذه التعميمات غير المتحفظة لا يؤيدها الواقع الاجتماعي، وترفضها منهجيات العلوم الاجتماعية، وبداهة العقول تقول إن الخير في الدنيا أقوى من الشر؛ وإلا لآلت إلى الخراب.

ألمحنا فيما سبق إلى أن الفقهاء سلموا كل ما له صلة بالمصالح العامة إلى زمام "السياسة الشرعية" وسلطة ولي الأمر!، ومع ذلك فإنهم لم يسلموا من "سلطة ولي الأمر"؛ حيث أجبرت تلك السلطة بعضهم حينا ورغبت بعضهم الآخر حينا للمشاركة في تقدير تلك المصالح العامة، أو بالأدق في إضفاء الشرعية على تقدير "ولي الأمر" لها، وسندرس مثالين أو ثلاثة على ذلك لنفحص من خلالها مآلات قاعدة الذرائع وهي قيد التطبيق، وقد اخترت ثلاث حالات كلها تتعلق بمصالح عامة.

الحالة الأولى: فتوى "سد ذرائع" مفاسد اجتماعية عامة تقع من طريق "الوقف".


محمد على

في سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م أصدر "الشيخ محمد الجزائرلي) مفتي الإسكندرية فتوى بجواز منع الوقف، وكان محمد على باشا قد أرسل للمفتي الجزائرلي سؤالا نصه هو: "ما قولكم فيما لو ورد أمر أميري بمنع إيقاف الأماكن المملوكة لأهلها؛ سدا لذريعة ما غلب على العامة من التوصل به لأغراض فاسدة من حرمان بعض الورثة، والمماطلة بالديون وتعريضها للتلف: هل يجوز ذلك، ويجب امتثال أمره، أم كيف الحال أفيدوا" (أ.هـ).

فأفتاه المفتي الجزائرلي، وجاء في نص فتواه أنه: "يجوز لولي الأمر أن يصدر أمرا بمنع الناس من وقف أملاكهم وتحبيسها فيما يستقبل من الزمان؛ سدا لذريعة أغراضهم الفاسدة.. ولأنه مما تقتضيه السياسة الشرعية، استنادا لما حكيناه عن إمام المذهب "أبو حنيفة).

وعلى أثر تلك الفتوى، أصدر محمد على أمرا عاما في ٩ رجب ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م)، بمنع إنشاء أوقاف جديدة اعتبارا من تاريخه[4]، إذن فقد قام اثنان من المنوط بهم

٣ - مسألة كيفية تمييز المحصور من غير المحصور من المسائل التي ناقشها عدد من الأئمة ببراعة تناسب عصرهم، منهم الغزالي، انظر: إحياء علوم الدين، ج٢/٣-١٠٢، ومنهم العز بن عبد السلام في شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال(بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٣) ص٤٧٦.

٤ - انظر حيث يؤصل لهذا المفهوم ويقوي نزعة السد، يوسف بلمهدي، البعد الزماني والمكاني وأثرهما في الفتوى (بيروت: دار الشهاب، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)ص٢٠٣، ويتابعه كمال إمام مؤكدا أن "فساد الزمان ليس إلا من تطبيقات مبدأ الذرائع سدا وفتحا"،

نقل قاعدة سد الذرائع إلى أرض الواقع: الوالي والمفتي، فماذا حصل بعد ذلك؟، تقول الوثائق إن أمر محمد على بمنع الوقف استنادا إلى تلك الفتوى لم يطبق إلا في حدود ضيقة جدا في الأراضي العشورية؛ أما الوقف في بقية الممتلكات من عقارات مبنية وأراض زراعية فلم يتوقف، ومع ذلك استمر أمر المنع ثلاث سنوات فقط، وظل أقرب إلى أن يكون حبرا على ورق، إلى أن ألغاه عباس باشا الأول بعد أن أصبح واليا على مصر دون أن يستصدر فتوى جديدة أو يستشر المفتي نفسه، وأصدر عباس بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٥٦هـ (١٨٤٩م) أمرا ليس فقط بالإلغاء؛ وإنما بإدانة ضمنية لفتوى الشيخ وأمر المنع الذي كان جده محمد على قد أصدره، ومما جاء في أمر عباس: "كان قد صدرت إرادة مخصوصة من جانب الحكومة بمنع الأهالي من وقف أملاكهم، ولكن ظهر أن هذا الأمر جائر، وتعد على حقوق الناس؛ لذلك أمرنا بصرف النظر عن اتباع حكم هذه الإرادة، ليكون كل شخص حرا في وقف أملاكه حسب حكم الشرع الشريف المحمدي، ولا يتعرض له أحد، ولا يمنعه"[5].

وما أن زال أمر المنع رسميا حتى عاد وقف الأهالي للأراضي العشورية بأشد مما كان، ورصدنا وقف ثلاثة آلاف فدان في سنة واحدة (١٢٦٧هـ) وهي المساحة التي سجلت في محكمة مصر الشرعية وحدها، ويحتمل أن هناك مساحات أخرى تم وقفها وتسجيلها في محاكم أخرى خلال تلك السنة، هذا إضافة إلى أن الأهالي استمروا في وقف أملاكهم خلال سنوات المنع في غير الأراضي العشورية كما ألمحنا سلفا.

ثمة خطأ أكيد أدى إلى ذلك المآل الفاشل لأمر المنع وإلغائه وإدانته وإدانة الفتوى التي استندت إلى "سد الذرائع"، وإلى "السياسة الشرعية"، وسؤالنا هو: أين مكمن الخطأ؟، هل هو في أن الوالي اعتمد على معلومات غير دقيقة في تقدير حجم حالات سوء استخدام الوقف لتحقيق "أغراض فاسدة"؛ ومن ثم لم يأبه الناس بأمر المنع؟، وإذا كان الأمر كذلك: فهل يلام المفتي في شيء على المآل الفاشل لفتواه؟، أم إن ضعف شكيمة محمد على في أواخر سني حكمه هو الذي تسبب في عدم تطبيق أمره بمنع الوقف، وكانت الرغبة الاجتماعية أقوى من أمر السلطة، رغم استنادها على فتوى شرعية بجواز ذلك سدا لذرائع "الأغراض الفاسدة"؟. لسنا نعرف على وجه الدقة، لكن لا يحتج على أية حال بقول قائل: إن محمد على كان عدوا للأوقاف فأراد أن يمنعها بغطاء فتوى شرعية، فآل أمره

دون أن يعرفنا المقصود بفساد الزمان؛ انظر: كمال إمام، قواعد تغير الفتوى بين الحدث الكائن والزمن: قراءة أصولية(مسقط، ندوة تطور العلوم الفقهية: الفقه الإسلامي في عالم متغير، ٩-٢٠١١/٤/١٢)، ص١٣.

٥ - ولد الشيخ محمد الجزائرلي بالجزائر سنة ١١٨٩هـ، وولي القضاء هناك قبل أن ينفيه الاحتلال الفرنسي، فرحل للإسكندرية، فعينه محمد على باشا مفتيا لها، وظل في منصبه إلى أن عزله عباس باشا سنة ١٢٦٦هـ - ١٨٥٠م وتوفي سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥١م انظر: محمد زياد التكلة، ترجمة العلامة المفتي ابن العنابي الجزائري الأثري، موقع الألوكة بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٧، www.aluka.net

- انظر كتابنا: الأوقاف والسياسة في مصر(القاهرة:دار الشروق، ١٩٩٨) ص٣٨٩، و٣٩٠.

للإخفاق، فهذه حجة غير صحيحة؛ لأن محمد على قبل سنتين فقط قبل إصدار أمر المنع كان قد فرغ من إنشاء خامس وقفية له وباسمه شخصيا سنة ١٢٦٠هـ[٦]، أي إنه لم يكن عدوا للوقف، الأمر الذى يشير إلى أنه كان جادا فى سد ذرائع الفساد فى الممارسة الاجتماعية للوقف حسبما تشير إليه المعلومات التى تجمعت لديه، ولكن خطأ ما وقع، ومن جهة أخرى لا يعقل أبدا أن أحوال الناس تغيرت من الفساد إلى الصلاح فى السنوات الثلاث التى فصلت بين أمر منع الوقف سدا لذرائع الفساد، وأمر إلغاء المنع الذى أصدره عباس الأول!.

والملفت للنظر أن المفتى الجزائرلى كان على قيد الحياة عندما أطاح الوالى عباس بالفتوى وبأمر جده محمد على ووصفه بأنه "جائر"، وتضمن أمر الإلغاء نقدا لاذعا؛ صرح فيه بأن المنع مخالف لحكم "الشرع الشريف المحمدى"، فهل كان عباس أحرص على إمضاء حكم الشرع المحمدى من فضيلة المفتى؟، وإذا كانت الإجابة بالنفى فلماذا لم يوضح المفتى هذا الأمر ولم يدافع عن فتواه؟؟، أم إن علامات الاستفهام الأكبر تحوم أصلا حول محمد على الذى ترك مفتى المحروسة، واختار أن يستفتى مفتى الإسكندرية بالذات ـ وقد علمنا أنه عينه مفتيا على الإسكندرية بعد نفيه من الجزائر؟، وأضف إلى هذا كله أنه لم يثبت أن جهة رسمية أو علمائية قامت بمراجعة ما جرى لفتوى الجزائرلى أو أمر محمد على بمنع الوقف لمعرفة لماذا كان مآلهما الفشل؟، وفى حدود علمنا؛ لا توجد أبدا سوابق مراجعات لمآلات فتاوى "الذرائع"؛ لا سدا ولا فتحا.

إن كل تلك التعقيدات التى أحاطت بفتوى وأمر منع الوقف تطبيقا لقاعدة سد ذرائع تربنا حجم الفارق الهائل بين جمال التنظير والتقعيد الأصولى والفقهى، وبين مصائر التفعيل فى الممارسة الاجتماعية. والأهم من ذلك أنهما ترينا أن نقص أدوات التعرف على حقائق الواقع والممارسات الاجتماعية تعتبر سببا رئيسيا من أسباب تلك الفجوة بين النظرية والتطبيق، وهو ما يدعونا إلى التفكير فى كيفية علاج هذا النقص بإزالة الحواجز بين متخصصى العلوم الاجتماعية والإنسانية ومتخصصى العلوم الفقهية والأصولية.

الحالة الثانية: فتاوى "سد ذرائع" مفاسد عامة تقع من طريق الحرب والمطالبة بالإصلاح السياسى. (فتاوى حرب الخليج الثانية، وفتاوى مظاهرات الربيع العربى).

وجدت قاعدة "سد الذرائع" طريقها إلى قضايا الحرب والسياسة عبر "فتاوى" كثيرة، كان من أشهرها "فتاوى حرب الخليج الثانية" التى اندلعت ضد العراق يوم ٢٩/ ٦/ ١٤١١هـ ـ ١٦/ ١/ ١٩٩١، وفتاوى المظاهرات الشعبية التى اتسع نطاقها فى أجواء ما سمى "الربيع العربى" فى سنتى ١٤٣٢/ ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١١/ ٢٠١٢م، وبالرغم من الصعوبة البالغة فى تتبع هذا النمط من الفتاوى، إلا إننا سنحاول التعرف على أهم آليات تشغيل قاعدة "الذرائع" فيها، وما المآلات التى آلت إليها هذه القاعدة على أرض الواقع: هل أدت مهمتها فى قطع الطرق المؤدية إلى تضييع المصالح وحسم ذرائع الفساد أم لا؟.

فى شأن فتاوى حرب الخليج الثانية

لا نريد أن ننكأ الجراح باستذكار "فوضى الفتاوى" ما بين مؤيد ومعارض للاستعانة بجيوش "المشركين والكفار" لدفع الضرر عن المسلمين، وسد ذرائع الفساد والدمار المتوقع "من حاكم العراق" آنذاك. وإنما تشير هنا فقط إلى أن الأمر قد غم على الجميع: "المفتين"، و"المستفتين"، وحتى على صناع القرار من رجال الحكم والسياسة فى شتى بلاد المسلمين، ومع هذا توالت الفتاوى من الطرفين معتمدة - فيما اعتمدت - على قواعد فقهية كثيرة منها "سد الذرائع"، و"منع الضرر"، و"الاحتياط"، و"الضرورة"، وغيرها من القواعد الأصولية التى تتطلب معرفة دقيقة بمعطيات القضية محل النظر قبل الإفتاء فيها أو تنزيل حكم شرعى ما عليها، ومن ذلك على سبيل المثال: فتوى الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، رقم ٦/ ١٧٢ التى جاء فيها: «وأما ما اضطرت إليه الحكومة السعودية من الأخذ بالأسباب الواقية من الشر، والاستعانة بقوات متعددة الأجناس من المسلمين وغيرهم للدفاع عن البلاد وحرمات المسلمين وصد ما قد يقع من العدوان من رئيس دولة العراق فهو إجراء مسدد، وموفق، وجائز شرعا.

وقد صدر من مجلس هيئة كبار العلماء - وأنا واحد منهم - بيان بتأييد ما اتخذته الحكومة السعودية فى ذلك، وأنها قد أصابت فيما فعلته..»[٧] انتهى.

وفى سياق الجدل العارم حول أمثال تلك الفتوى، رد الشيخ ابن باز على من شكك فى وجود أدلة شرعية قوية تدعم فتوى هيئة كبار العلماء بشأن الاستعانة بغير المسلمين فى الدفاع عن بلاد المسلمين وقتال حاكم العراق، ومما جاء فى رده: "وهيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية لما تأملوا هذا ونظروا فيه، وعرفوا الحال بينوا أن هذا أمر سائغ.... بل يجب فورا استعمال ما يدفع الضرر عن المسلمين، ولو بالاستعانة بطائفة من المشركين فيما يتعلق بصد العدوان وإزالة الظلم، وهم جاءوا لذلك وما جاءوا ليستحلوا البلاد، ولا ليأخذوها، بل جاءوا لصد العدوان وإزالة الظلم ثم يرجعون إلى بلادهم..."، وأنهى جوابه بعبارة هى أدق ما وصف به الحال؛ إذ قال: "والناس أقسام: منهم من جهل الحقائق والتبست عليه الأمور، ومنهم من هو جاهل لا يعرف الأحكام الشرعية، ومنهم من هو مستأجر من الطغاة الظلمة ليشوش على الناس"[٨].

وسؤالنا هنا هو: هل توافرت لمن أصدروا مثل تلك الفتوى المعلومات الكافية ودرسوا

---

٦. المرجع السابق، ص٣٨٩.

٧. نفسه، ص١٣٢، ١٣٣ حيث أثبتنا جميع بيانات وقفيات محمد على باشا الخمس التى قام بتسجيلها خلال الفترة من ١٢٢٨هـ - ١٢٦٠هـ. وملاحظة الباشر بكة صحيحة إلى حد كبير عندما قال: "أصول الفقه كان علما نظريًا أكثر من اللازم" انظر: بكة، الاحتياط، مرجع سابق ص؟

٨. عبد العزيز بن باز مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة، الموقع الرسمى للشيخ php.index/sa.org.binbaz.www//:http

احتمالات الحرب والسلم في ضوئها، وعرفوا "مآلاتها" قبل أن يصدروا فتواهم؛ سواء بتأييد الاستعانة بجيوش "الكفار" أو بمعارضة ذلك؟. أشك[9]، وعلى أية حال فإنَّ المتيقن هو أن أحداً لم يراجع تلك الفتاوى أو درسها بعد أن مضت "مدة المآل" الذى جرى استبصار "المصالح والمفاسد" فى ضوئه عند صدور الفتوى، والأرجح أن تأثيرها كان شبه منعدم فى التأثير الإيجابى على مجريات الأحداث؛ غير أنها صبت الزيت على النار. وغالبُ الظن أن تلك الفتاوى كانت "فتاوى استظهار" بقواعد فقهية ومنها "سد الذريعة"، و"حكم الضرورة"؛ أكثر من كونها "فتاوى افتقار" إلى تلك القواعد والسعى لإعمالها فى الواقع بعد دراسة مقتضياتها حق دراستها.

ووفق ما سبق أن عرفناه من قيام المجتهدين القدامى بإزاحة مسائل ومعضلات "المصالح العامة" إلى زمام "السياسة الشرعية"، وتفويض "ولى الأمر" فى تقدير المصالح والمضار، واتخاذ ما يراه مناسباً؛ أكانت ثمة حاجة أصلاً لأن تتصارع مرجعيات الإفتاء للإدلاء "بفتاوى" فى شأن بالغ الخطورة مثل "حرب الخليج"؛ وذلك بتسخير قواعد فقهية بغير استجماع شروط تطبيقها، وهو ما أدى بها لمآلات الفشل فى نهاية المطاف؛ وكانت عاقبة أمرها أنها لا مصلحة جلبت ولا مفسدة درأت.

فى شأن فتاوى مظاهرات الربيع العربى

انخرط المفتون الشرعيون أيضاً فى إصدار فتاوى المنع سداً لذرائع الفساد، أو الإجازة فتحاً لذرائع الحرية فى عديد من مجتمعاتنا، وإن كان صوت المفتين بالسد والمنع أعلى وأشيع من نظرائهم المفتين بالفتح والإجازة، وبعيداً عن الفريقين؛ فإن أغلب المتظاهرين فى عواصم ومدن العالم العربى فى أغلبهم لا ينتظرون مثل تلك الفتاوى كى يقرروا المشاركة أو عدم المشاركة فيها، فضلاً عن أن أكثرهم لا يهتم بقراءتها أو التدقيق فى أدلتها.

ومعجنةُ الخلافات بين مراجع الإفتاء واقعةٌ فى شأن "التظاهر السلمى"، وغيره من أشكال الاحتجاج السلمى مثل: الاعتصامات، والإضرابات، والعصيان المدنى، أما الاحتجاجات غير السلمية فلا خلاف بين الجميع فى منعها لكون المفاسد والأضرار التى تؤول إليها راجحة، ولا تغيب قاعدة "الذرائع" سداً أو فتحاً عن الحجج التى يسوقها المؤيدون والمعارضون.

الحجةُ الأساسية للذين يفتون بجواز التظاهرات وغيرها من صور الاحتجاجات السلمية هى: أنها من باب "العادات والعرف"، و"المصالح المرسلة"؛ حيث إنها تجلب المنافع وتدفع الأضرار، وأن الأصل هو الأمر الشرعى بالتغيير إلى الأفضل، وعدم الرضا أو السكوت على الفساد والمعاصى والظلم، وإلا أصابنا الله بالخذلان فى الدنيا، والنيران فى الآخرة؛ فقد جاء فى التنزيل:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

٩- انظر السؤال الموجه للشيخ ابن باز ورده عليه: الموقع الرسمى للشيخ رحمه الله. المرجع السابق.

إلى غير ذلك من الأدلة[10].

أما الحجةُ الأساسيةُ للذين يفتون بمنع التظاهرات فهى: أنها بدعةٌ مستحدثةٌ من أفعال الكفار فى الغرب، وأنها ذريعةٌ للشغب والفوضى والتخريب والصدام مع الشرطة، واختلاط الرجال بالنساء، وهى أيضاً باب للخروج على الحكام وفتح ذرائع الفتنة[11]. والفتاوى بالمنع استناداً لتلك الحجج وأمثالها متظاهرة متكاثرة، منها ما جاء فى فتوى الشيخ بن عثيمين، والتى يرددها كثيرون فى شأن منع تظاهرات الربيع العربى، وفيها قال: "المظاهرات كلها شر؛ سواء أذن فيها الحاكم أو لم يأذن، وإذن بعض الحكام بها ما هى إلا دعاية، وإلا لو رجعت إلى ما فى قلبه لكان يكرهها أشدَّ كراهة، لكن يتظاهر بأنه كما يقول: ديمقراطى،(!) وأنه قد فتح باب الحرية للناس، وهذا ليس من طريقة السلف"، ومنها فتوى الشيخ عبد العزيز الراجحى: "السؤال: ما رأيكم فيمن يُجوِّز المظاهرات للضغط على ولى الأمر حتى يستجيب له؟، الجواب: المظاهرات هذه ليست من أعمال المسلمين، هذه دخيلة، ما كانت معروفة إلا من الدول الغربية الكافرة"[12].

تستند تلك الفتاوى التى تمنع المظاهرات والاحتجاجات السلمية إلى قاعدة "سد الذرائع" خشية وقوع ما أشار إليه المفتون من مفاسد، أما الأضرار والمظالم التى يئن منها الناس فعلاجها هو "الصبر"، وعندما يرد الحديث عما هو واقع من المفاسد وليس "المتوقع" يأتى رد أولئك المفتين باستدعاء تراث "السياسة الشرعية"، مع تكثيف التركيز على ما فيه من وصايا "بالصبر" على الحاكم مهما كان ظلمه وفسقه وفجوره؛ "حتى يستريح برٌّ، أو يستراح من فاجر"، وهكذا يبدو المشهد "الإفتائى" فى مجمله "سورياليا" فحجج كل فريق منقوضة عند الفريق الآخر، لا حجر منها يبقى على حجر.

ولا يزال الوقت مبكراً لمعرفة "مآلات" فتاوى تظاهرات الربيع العربى، وهل ستكون كسابقاتها من الفتاوى التى تناولت "مصالح عامة" على الأقل فى العصر الحديث؟ أم سيختلف مآلها من بلد لآخر بحسب ضغوط عمليات التغير الاجتماعى ومطالبات الإصلاح السياسى؟.

١٠- تقارير اليونيسيف مثلا قالت إن ٥٠٠٠ طفل عراقى كانوا يموتون شهريا جراء الحصار الذى فرض على العراق أعقاب حرب الخليج الثانية. انظر:

January 2001 ، No ٦، Vol. Stephen zunes: Iraq 10years after Gulf War, Foreign Policy inFocus

فهل كان ذلك فى تقدير مآلات فتوى جواز الاستعانة بالكفار فى الدفاع عن المسلمين؟.

١١- انظر حشداً من تلك الأدلة فى: فهد بن أحمد بن ناصر بن هلالى الجعيدى الثرى القحطانى: التظاهرات حكمها الشرعى، مصالحها، مفاسدها وأقوال العلماء فيها، دراسة منشورة على موقع

php.showthread/vb/com.eltwhed.www//:http

١٢- المرجع السابق نفسه.

الحالة الثالثة: فتاوى غائبة بشأن "ذرائع" قوانين الطوارئ العربية:

لم تحظ "قوانين الطوارئ العربية"[13] بعناية أي مرجع إفتائي؛ لا مجمع فقهي، ولا مفت مفرد؛ لكي يبحثها وفق قاعدة "سد الذرائع وفتحها" وغيرها من القواعد الأصولية ذات الصلة برعاية "المصلحة" و"دفع الضرر"، إن معظم الدساتير العربية تمنح رئيس الدولة حق إعلان "حالة الطوارئ" وتعطيل العمل بالدستور ذاته، ووقف العمل بالقوانين العادية؛ كليا أو جزئيا في حالات: وقوع الفوضى، والكوارث الطبيعية، والحرب، والنزاعات الأهلية "الفتنة" الداخلية... إلخ.

وعندي ثلاثة أسباب تدعو المجامع الفقهية وعلماء الفقه وأصوله بصفة عامة إلى البحث في قوانين الطوارئ وإعلان الرأي الشرعي فيها:

السببُ الأولُ هو دخول هذه القوانين بأكملها تحت قاعدة "سد الذرائع"، وغيرها من القواعد الأصولية الخاصة برعاية المصالح كما أسلفنا.

والثاني: هو أن الفكرة الأساسية لهذه القوانين متجذرة في كتب "السياسة الشرعية"، وهذا مجرد "افتراض" مني؛ وهو بحاجة إلى "أصولي نابه" يقوم بالتثبت من صحته. والسبب الثالث هو أن تأثيرات هذه القوانين أسهمت في تشكيل مسارات ووقائع التغير الاجتماعي والسياسي في عديد من المجتمعات العربية خلال النصف قرن الأخير، ومن ثم فإن دراسة الآثار والنتائج التي ترتبت عليها دراسة أصولية ستساعدنا في سد النقص الحاصل في دراسات "علم اجتماع الفقه"، وأتوقع أن تكون الأسئلة البحثية بالغة الثراء في هكذا بحث؛ وخاصة أن قوانين الطوارئ تتناول في موادها كافة المصالح العامة والخاصة، والحقوق الفردية والجماعية، وتخول "ولي الأمر" حق التصرف فيها بحسب ما يقدره هو للمحافظة على تلك المصالح ورعايتها.

لا توجد اختلافاتٌ نوعيةٌ كثيرةٌ بين نصوص قوانين الطوارئ العربية، وبالمثال يتضح الحال، وفيما يأتي مثالان أحدهما هو م/ ٣ من قانون الطوارئ المصري، والثاني هو م/ ٤ من قانون الطوارئ السوري.

أ- مادة ٣ من قانون الطوارئ المصري رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨[14]:

"لرئيس الجمهورية متى أعلنت حالة الطوارئ أن يتخذ بأمر كتابي أو شفوي التدابير الآتية:

أولاً: وضع قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والانتقال والإقامة والمرور في أماكن أو أوقات معينة والقبض على المشتبه بهم أو الخطرين على الأمن والنظام العام واعتقالهم، والترخيص في تفتيش الأشخاص والأماكن دون التقيد بأحكام قانون الإجراءات الجنائية، وكذلك تكليف أي شخص بتأدية أي عمل من الأعمال.

ثانياً: الأمر بمراقبة الرسائل أيا كان نوعها ومراقبة الصحف والنشرات والمطبوعات والمحررات والرسوم، وكافة وسائل التعبير والدعاية والإعلان قبل نشرها وضبطها ومصادرتها وإغلاق أماكن طباعتها.

ثالثاً: تحديد مواعيد فتح المحال العامة

13 - منقولة بنصوصها كاملة في المرجع السابق نفسه، وتجدها مبثوثة في مواقع كثيرة بشبكة المعلومات الدولية منها مثلا: action=news&id=748-php.news/cms/com.alsalafway.www//:http

- توجد قوانين طوارئ في عدد من الدول العربية منها: مصر، وسوريا، والجزائر، واليمن، والعراق، وتونس، وموريتانيا.

14- صدر برئاسة الجمهورية في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٨هـ - ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨.

وإغلاقها، وكذلك الأمر بإغلاق هذه المحال كلها أو بعضها.

رابعًا: الاستيلاء على أي منقول أو عقار والأمر بفرض الحراسة على الشركات والمؤسسات وكذلك تأجيل أداء الديون والالتزامات المستحقة والتي تستحق على ما يستولى عليه أو على ما تفرض عليه الحراسة

خامسًا: سحب التراخيص بالأسلحة أو الذخائر أو المواد القابلة للانفجار أو المفرقعات على اختلاف أنواعها والأمر بتسليمها وضبطها وإغلاق مخازن الأسلحة.

سادسًا: إخلاء بعض المناطق أو عزلها وتنظيم وسائل النقل وحصر المواصلات وتحديدها بين المناطق المختلفة ويجوز بقرار من رئيس الجمهورية توسيع دائرة الحقوق المبينة في المادة السابقة على أن يعرض هذا القرار على مجلس الأمة في أول اجتماع له".

ب- مادة/ ٤ من قانون الطوارئ السوري رقم[15].

"للحاكم العرفي أو نائبه أن يصدر أوامر كتابية باتخاذ جميع القيود أو التدابير الآتية أو بعضها وأن يحيل مخالفيها إلى المحاكم العسكرية:

أ- وضعُ قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والإقامة والتنقل والمرور في أماكن أو أوقات معينة، وتوقيف المشتبه فيه أو الخطرين على الأمن والنظام العام توقيفا احتياطيا، والإجازة في تحري الأشخاص والأماكن في أي وقت، وتكليف أي شخص بتأدية أي عمل من الأعمال.

ب- مراقبة الرسائل والمخابرات أيا كان نوعها، ومراقبة الصحف والنشرات والملفات والرسوم والمطبوعات والإذاعات وجميع وسائل التعبير والدعاية والإعلان قبل نشرها وضبطها ومصادرتها وتعطيلها وإلغاء امتيازها وإغلاق أماكن طبعها.

ج- تحديد مواعيد فتح الأماكن العامة وإغلا"

"جازات الأسلحة والذخائر والمواد القابلة للانفجار والمفرقعات على اختلاف أنواعها والأمر بتسليمها وضبطها وإغلاق مخازن الأسلحة.

هـ- إخلاء بعض المناطق أو عزلها وتنظيم وسائل النقل وحصر المواصلات وتحديدها بين المناطق المختلفة.

و- الاستيلاء على أي منقول أو عقار وفرض الحراسة المؤقتة على الشركات والمؤسسات وتأجيل الديون والالتزامات المستحقة والتي تستحق على ما يجرى الاستيلاء عليها.

ز- تحديد العقوبات التي تفرض على مخالفة هذه الأوامر على أن لا تزيد على الحبس مدة ثلاث سنوات وعلى الغرامة حتى ثلاثة آلاف ليرة سورية أو إحداهما، وإذا لم يحدد الأمر العقوبات على مخالفة أحكامه فيعاقب على مخالفتها بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر وبغرامة لا تزيد على خمسمائة ليرة سورية، أو بإحدى هاتين العقوبتين، كل ذلك مع عدم الإخلال بالعقوبات الأشد المنصوص عليها في القوانين الأخرى".

وبعد: فتلك هي خاتمة البحث: ذلك بلاغ علمي لمن عنيتهم بالأمر.

هذا ما تبين لي بعد البحث والنظر، والله تعالى أعلى وأعلم.

15 - صدر بالمرسوم التشريعي رقم ٥١ بتاريخ ١٩٦٢/١٢/٢٢.

الإدارة فى الإسلام



أ.د محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

مفهوم الإدارة

هى فن قيادة المرءوسين، والقائمين على أمر الوظيفة العامة، تحقيقاً للأهداف الموضوعة. تعظم الحاجة إلى التنظيم الإدارى، فى علاقة الأفراد بالدولة، وفى علاقات المؤسسات العامة بعضها مع البعض، وعلى قدر انتظام الجهاز الإدارى فى الدولة، وضبط الأداء فيه، تتحقق الأهداف، وتتقدم الدولة، وتقدم الخدمات للأفراد على أفضل ما تكون.

وتظهر أهمية الإدارة فى النظم المتقدمة والدول المتخلفة على سواء، ويعد كفاءة النظام الإدارى وفعاليته، هو المحك الذى يميز بين تقدم الدول أو تخلفها، حتى لقد قيل إن المشكلة الرئيسية فى الدول المتخلفة، هى مشكلة إدارة، قبل أن تكون نقص إمكانيات مالية.

الإدارة أداة لتحقيق التنمية

وتبدى أهمية الإدارة فى كونها أداة تحقيق التنمية قبل كل شيء وهو المفهوم الحديث للإدارة الذى يعبر بها من مجرد أداء الوظيفة التنفيذية التقليدية، إلى كونها أداة للإسهام فى تشكيل السياسات، وصنع القرارات، وقاطرة التقدم فى مسيرة الدولة والمجتمع.

أداة تطوير وحركة ذاتية

وتفعيل الإدارة، يتطلب أن تكون إدارة تطوير وحركة ذاتية، واستشراف للمستقبل، ولن يتأتى ذلك عن طريق الجمود والسكون والمحافظة على القديم، وإنما يكمن التطوير فى أن يتحلى القادة الإداريون والعاملون معهم بالفكر المتجدد الخلاق، وبأن لديهم الفكر الذى يتخذ من المبادرة وزمام المبادأة شعاراً ومسلكاً، وأن يصوغ ويصمم برامج للتغيير تستهدف بحق إحداث هذا التغيير بشكل يحقق الانطلاق على درب التنمية والتقدم.

أداة تسيير المرافق العامة

ولا ينبغى أن تكون الإدارة، أداة تسيير المرافق العامة، والقيام على الوظيفة الإدارية التقليدية فحسب، وإنما يجب أن تضع هذه الإدارة نصب عينيها الارتقاء بالوظيفة

الإدارية، على النحو الذى يقلل من سلبياتها، ويخلصها من عيوبها، وأن يبتكر من الأساليب والحلول الفعّالة لبلوغ الأهداف الموضوعة لها، وترشيد الجهود وضبطها، وتوزيع الخدمات لمستحقيها، وانضباط العملية الإدارية، والعدالة فى أدائها، وفى التعامل مع الجماهير.

مرتكز القيادة الإدارية

مرتكز القيادة الإدارية فى الإسلام معتمدها الولاء والانتماء، والالتحام مع الآخرين ما يقوم به الخليفة أو الحاكم العام وولاته فى الجهاز الإدارى الإسلامى، من الأعمال التى تقتضيها تنظيم المرافق، وتحقيق المصالح العامة.

والمبدأ الإدارى فى الإسلام: هو الانتماء والولاء للنظام الإسلامى بحيث يجعل من قيم الإخلاص والنصيحة، والانضباط، والجودة والإتقان آليات ووسائل لإنجاز مقاصد وأهداف النظام الإدارى فى الدولة الإسلامية، بما يحقق صالح الدين والدنيا، والفرد والجماعة، والوطن والأمة.

وسبيل ذلك أن يمارس كل عامل اختصاصاته بنفسه، وألا يعول على تقاعس غيره أو عدم قيامه بواجباته، وألا يعتمد فى أداء العمل على زملائه؛ لأنه مسئول مسئولية فردية، وهذه المسئولية تبرز بشكل واضح بالنسبة للقائد الإدارى الذى ينبغى أن يعتمد على الالتحام بالمرءوسين، وأن ينخرط فى مواقع العمل، وأن يباشر الوظيفة بنفسه، وينتقل إلى ميادين ومواقع الخدمة، على أرض الواقع، ويتعرف على مواطن الخلل، وأن يسمع من الجماهير، كما كان يفعل عمر فى قيامه بالتجول فى الطرقات المعروف بالعسس، ومن ثم فلا يجوز فى المنطق الإسلامى، أن تكون الوسيلة الوحيدة للتعرف على تسيير الأمور، التقارير التى يرفعها إليه الأعوان والمرءوسين، وينبغى ألا يعول القائد الإدارى على التفويض، كما يقول الماوردى تشاغلاً بلذة أو عبادة؛ لأنه قد يخون الأمين ويغش الناصح.

ويحتاج ذلك إلى غرس الولاء والانتماء على مستوى القيم المعنوية، وأن يقوم على تقسيم العمل، ويعتمد التخصص، وإسناد العمل إلى من يصلح له، والقادر عليه.

مواصفات القيادة، والتنمية البشرية

قوة الإدارة وتفعليها يكون بالإنسان

والإنسان هو محور التنظيم الإداري، فهو أس القيادة، وهو صانع القرار، ومخطط السياسات، ثم هو من بعد صانع مستقبل التنظيم الإدارى، وهو فى كلمة أس العملية الإدارية، الذى يدور عليها نجاحها أو فشلها، فهو القادر على الابتكار، وبث الروح البناءة.

وبموجب ذلك، فإن القائد الإداري هو روح المنظمة، وليس مجرد رئيس لها، والقيادة هى مفتاح نجاح الإدارة العامة، لكونها مسئولة عن سلامة التنظيم وإدارة الأعمال، وحث العاملين على إنجازها بحماس وكفاءة. ولن يكون القائد الإدارى كذلك، إلا بأن يكون هو الموجه والمنسق والمراقب لأعمال الآخرين، وأن يمارس نفوذه وإشرافه على مرءوسيه، والتواصل معهم، والتفاعل معهم بحيث يعمل الجميع فى تناغم وتناسق، وأن ينمى بينهم العمل بروح الفريق.

وهذا يتطلب تنمية الموارد البشرية، والارتقاء بالعنصر البشرى فبدونه لا تتحقق تنمية إدارية على الاطلاق وسبيل ذلك حسن تربية الفرد، والعمل على إعداده وتأهليه بما يمكنه من استعداده لأداء العمل المنوط به، وأهليته فى القيام بمتطلباته، منجزاً أهدافه.

وهذا ظاهر فى طلب الترشيح لولاية، فى قول يوسف:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٥)

وطلب استئجار موسى فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

(القصص: ٢٦)

فإذن مطلوب فيمن يخول القيام بعمل إدارى توفر شروط القدرة والصلاحية والتأهيل، وأن يكون إسناد العمل إليه وفق أسس موضوعية:

«من ولي من أمر المسلمين شيئاً وهو يجد من هو أصلح منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».

وتوفر مثل ذلك قليل فيمن يسند إليه الولاية، وهو ما شكا منه عمر بقوله: «اللهم إنى أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة».

وينبغى أن تجرى مسابقة لاختيار القائد الإدارى، وأن توضع عناصر لتقييمه، يختار على أساسها من بين المتقدمين للوظيفة، مثل الجدارة لتولي الوظيفة القيادية، القدرة على العمل بروح الفريق، إدارة الأزمات والمواقف الطارئة، قدرته على المبادأة والابتكار فى ترقية الوظيفة العامة.

مشروعية الإدارة فى الإسلام

الإدارة فى الإسلام مطلوبة شرعاً، ولأهميتها وضرورتها لانتظام مسيرة الأفراد والجماعة، فإنها قد شرعت على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الدولة؛ لأن بوجودها انتظام الجماعة، وتوحد الرأى، وتحرى المصلحة، وفي هذا قوة للأفراد والمجتمع على سواء.

يلمس هذا التوجه الإداري فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: [لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض، إلا امروا عليهم أحدهم] (١).

وحديث: [إذا خرج ثلاثة فى سفر، فليؤمروا عليهم أحدهم] (٢).

وإذا كان اختيار الأمير فى الصحبة القليلة، فأحرى وأوجب أن تكون فى التجمعات الكبيرة، وفى المرافق العامة، ومؤسسات الدولة، مثل مرافق التعليم، والصحة والأمن والإسكان، والصناعة، والجيش، والثقافة، والاقتصاد، وغيرها من الشئون الحياتية.

إلى جانب أن الإسلام يوصي بلزوم الجماعة والعمل بروح الفريق، وليس الانعزال والتفرد، وهو ما يجسده قول

(١) مسند الإمام أحمد ١١/٢٢٧.

(٢) المعجم الأوسط ٨/١٠٠.

الرسول ﷺ [يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار] (٣)، وقوله: [من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية] (٤).

وإذا كان الأمر كذلك، فإن وجود القائد على رأس المؤسسة أو المرفق الإدارى، والعمل بروح الفريق، يعد من الواجبات الدينية لصريح الأمر فيها، وشدة الوعيد على المخالف لها. ولأن ذلك يندرج تحت قاعدة: «ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وإنه متى وجد الأمير، وعمل الجميع بروح الفريق انتظمت الأمور، وحسن العمل، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الرئيس، والتكامل بين الجميع، والتعاون لما فيه المصلحة العامة، وخدمة الجمهور، وهو المطلوب الشرعى بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

(النساء: ٥٩)

ففرض علينا طاعة أولى الأمر فينا، وهم القادة المتأمرون علينا، ومعلوم أن الرئيس الإدارى أمير على مرءوسيه، وهو ما يتعين طاعته.

فلسفة العمل الإداري الوضعى والإسلامى

ثمة مفارقة جلية بين مقومات العمل الإدارى فى النظام الوضعى، والنظام الإسلامى، يتبدى فى أن النظام الإدارى يعتمد على أنه: يعتنق الفلسفة النفعية، والكسب المادى، وتعظيم الربح المالى، دون اكتراث بالمبادىء الأخلاقية، والروح الإنسانية فى التعامل بين العاملين والجماهير.

وفى النظام الإسلامى، فإنه يعتبر القيم الأخلاقية، هى الطابع الذى يطبع العلاقات بين العاملين والمتلقين للخدمة، ومن مبادئه فى هذا الخصوص: [أحب لأخيك ما تحب لنفسك] (٥).

يعتمد النظام الوضعى على الرقابة المادية، والأجزية القانونية والتأديبية، كوسيلة لإجبار العاملين على حسن أداء أعمالهم، وانضباط مسلكهم.

أما النظام الإسلامى، فإنه يعتمد على الرقابة الضميرية، والمحاسبة الذاتية، النابعة من الضمير، والمنضبطة بالوازع الدينى:

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾

(البقرة: ٢٨٤)

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

(النساء: ١)

وقوله عز وجل:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

(غافر: ١٩)

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة، وأخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب العلم ١/١٩٩ ح (٣٩١) بلفظ «يد الله مع الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ فى النار».

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة - باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ٦/٢٠، ح (٤٨٩٢).

(٥) مسند الإمام أحمد ٢٧/٢٦٧.

وميزة هذه الرقابة أنها تغني عن رقابة الرؤساء، والشرطة، والأجهزة الرقابية المختلفة، التي تفوق ما تكلفه من أعباء مالية، فإنه يسهل التفلت منها، من خلال استغلال الثغرات، والتحايل على القرارات.

يقوم النظام الوظيفي على فكرة الحق والواجب، والتلازم بينهما، فلا يؤدى العامل الواجب الذي عليه إلا بعد حصوله على حقه، أو اقتران حصوله علي حقه بالواجب الملقى على عاتقه.

بينما الأمر فى النظام الإسلامي، يتأسس على العطاء، وعلى أداء الواجب قبل أخذ الحق، حيث إن حق الله تعالى هو حق المجتمع، لذلك فإن فكرة الواجب تسبق الحق، لأن أداء العمل جزء من الإيمان بالله، والله هو المطلع على العمل المراقب له، وهو الشاهد عليه ورسوله والمؤمنون. يقول تعالى:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة: ١٠٥)

طبيعة الإدارة

تعددت الاتجاهات فى النظام الإدارى، فاتجه البعض إلى أن الإدارة علم، بمعنى أن الإدارى الكفء لا يكون إلا لمن درس وبحث وحصل المعارف الإدارية، وتمرس بالنظريات القيادية، ونظم التنفيذ. فالقيادة الإدارية أو التنفيذية تعتمد على أساس موضوعي يتأسس على البحث العلمي.

ويذهب اتجاه ثان، إلى أن القيادة أو الإدارة فن، بمعنى أنها تعتمد على صفات الشخص وقدراته، وتتأسس على موهبته وحنكته وحصافته فى قيادة العمل الإدارى، فهي تؤدي بطريقة تلقائية، وهي استعداد طبيعي موروث فى الشخص، وليس مكتسباً، وهي أقرب إلى الفطرة الطبيعية منها إلى العلم المنظم.

والاتجاه الثالث يرى أن القيادة التنفيذية، هي علم في أصولها المعرفية، وفن في تطبيقها وفي تعاملها مع الواقع، وتحقيقها لمبدأ الإدارة بالأهداف، وبمعنى آخر، فإن الحنكة الإدارية المترسخة فى الشخصية الإدارية لابد من صقلها بالعلم الإداري والمعرفة القيادية الرصينة.

طبيعة القيادة فى النظام الإسلامي، ومواصفات القائد

القيادة الإدارية فى النظام الإسلامي تقوم على العلم والفن معاً، فإن المتقلد لها ينبغي أن يكون على دراية بالمبادئ الإدارية العامة فى الإسلام مثل:

١- تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

٢- وقاعدة «أن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة.

٣- ومبدأ النصيحة لله ورسوله وجماعة المؤمنين.

٤- ومبدأ الثواب والعقاب.

٥- ومبدأ الجدارة والكفاءة فى تولى الوظائف العامة.

٦- ومبدأ الجودة وإتقان العمل.

هذه المبادئ التى نجد أصولها فى الشريعة الإسلامية، والتى يعد تمثلها والالتزام بها من قبيل النظام العام الإسلامي، فلا يجوز إهدارها أو تعطيلها فى العمل الإدارى، وإلا فقد النظام الإداري خاصته الإسلامية.

وبالإضافة إلى العلم بهذه المبادئ الإدارية الإسلامية، فإن الإسلام يولى عنايته للموهبة والحكمة والحصافة، فإن من يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وقد كانت القيادة الإدارية لعمر بن الخطاب نموذجاً يحتذى فى ذلك، فقد أوتي الحكمة والحنكة وحصافة الرأى، وهو صاحب الأوليات فى المجال الإدارى.

- فهو أول من أرخ بالتقويم الهجرى للدولة الإسلامية.
- وأول من دون الدواوين.
- وأول من أخذ العشور.
- الرسوم الجمركية علي السلع الداخلة للدولة الإسلامية.
- وأول من فرض الإعانات الاجتماعية للأطفال الرضع.
- وأول من جعل الأراضي المفتوحة ملكاً للأجيال الإسلامية، دون أن تكون حكراً على الفاتحين.
- وأول من حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر.

إلى غير ذلك من مبادراته الخلاقة، والتى استلم فيها المصلحة الإسلامية، وأول من عس فى الطرقات، وأول من سن قانون من أين لك هذا؟ (الكسب غير المشروع).

ولعل رعاية المصلحة، وتطبيق الملائمة، واختيار الكفء لأداء العمل هو ما أدى بالرسول - صلوات الله عليه - إلى اختيار أسامة بن زيد، لقيادة الجيش الإسلامى فى وجود أبي بكر وعمر، وتمسك أبو بكر باختياره بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، وإعلانه أنه وعمر من بين جنده، مصطحباً إياه خارج المدينة على هذا الأساس، والاستئذان منه فى أن يعفى عمر من الجندية ليعاونه فى إدارة شئون الدولة.

واعتبار الإدارة من الفنون التى تحتاج إلى موهبة ودراية وبصيرة ذاتية هى التى أوحت إلى عمر، أن يعزل شرحبيل بن حسنة من ولاية الشام، معلناً أنه لم يعزله عن سخط أو خيانة، ولكن بحسب مقولته: «أردت رجلاً أقوى من رجل، لكون الشام بها العديد من ثغور الإسلام. فتتطلب رجلاً داهية يحسن التصرف، والاستعداد لكل أمر بما يناسبه وبما يصلح له.

ومثل هذا الصنيع، أدى بعمر أن يختار شريحا قاضياً على الكوفة، لما تنازع مع آخر على فرس، فحكم شريح لصالح الآخر ضد عمر، فأعجب به عمر لعدله وجرأته فى الحق، وقال: «وهل القضاء إلا هكذا، قول بالحق، وفصل بالعدل».

وهذه النماذج مناطها المصلحة العامة، والقوة على العمل، والأمانة فى أداء الحقوق لأصحابها.

الإسلام والدولة الحديثة (٢)

الحل الإسلامى



أ/ منير شفيق

ضرورة الوعى لسنة العلاقة بين الدولة والمجتمع

يلاحظ أول ما يلاحظ من بسط إشكالية العلاقة بين الدولة والمجتمع أن القانون الموضوعى أو السنة الجارية، يتمثل أو تتمثل، بوجود تجاذب متعاكس بينهما (الدولة والمجتمع) تكون الغلبة فيه للدولة عموماً - عدا فى بعض الفترات، قصيرة العمر، التى تهب فيها عواصف الانتفاضات الشعبية والتغيير الثورى، ومن ثم تؤدى هذه الغلبة التى حققتها الدولة الحديثة إلى إفراز ألوان من السيطرة والطغيان تراوحت من النمط الرأسمالى إلى الاشتراكى الماركسى إلى الفاشى - النازى ثم إلى الأنماط التى أفرزتها الدولة الحديثة فى بلدان العالم الثالث، وهى من الطراز الهجين الذى يتذبذب فيما بين الأنماط الرأسمالية، والاشتراكية الماركسية، والفاشية النازية، مع التمادى فى تحقيق أعلى درجة من الاستبدادية والسيطرة بالنسبة إلى الدولة، وأعلى درجة من الإلغاء والاختزال والقمع بالنسبة إلى المجتمع ودوره.

إن سمة غلبة سيطرة الدولة على المجتمع، تتطلب إقامة توازن فى هذا التجاذب يمنع من تحقيق هذه الغلبة من قبل الدولة، ولا يكون ذلك إلا إذا قلمت أظافرها ومصادر قوتها نسبياً، وإذا عزز المجتمع، ودعمت مصادر قوته من جهة أخرى. فالدولة الحديثة، كما لاحظنا، تنزع، بغض النظر عن نيات الحكام، فى بادئ الأمر، نزوعاً قوياً نحو تعزيز سيطرتها على المجتمع والانفصال عنه، وهى بهذا تتجاوز نمط الدولة التاريخى الذى عرفته أوروبا فى عهدى العبودية والإقطاع، فقد كانت الدولة أو السلطة فى هذين العهدين أقرب إلى تمثيل الطبقة المسيطرة - طبقة الأسياد أو طبقة الإقطاع - ولهذا عندما كان القيصر أو الملك يميل إلى توسيع سلطته بأكثر مما كان متعارفاً عليه كان يدخل أزمة مع مصادر قوته، وهى مجموع الطبقة الحاكمة - المالكة، لم يكن بمستطاعه الارتفاع عنها إلا بحدود تبقيه جزءاً منها، وهذا ما حافظت علية الدولة الحديثة من النمط الرأسمالى بالنسبة إلى الطبقة الرأسمالية.

ولكن نظام الدولة شهد فى المائة سنة الأخيرة اتساعاً وتضخماً هائلين فى الأجهزة والمؤسسات والجيوش والموازنات، جعل الانفصال عن المجتمع أقوى من ذى قبل لدى الدولة، وجاءت برامج نزع الملكية الإنتاجية فى الأرض والمصنع، ووضعها كلياً أو جزئياً تحت سيطرة الدولة، لتقوى نزعة الانفصال هذه إلى حد اختزال دور المجتمع اختزالاً شبه كامل وانتزاع مصادر المقاومة منه نزعاً تاماً.

من هنا أخفقت المعالجات التى تناولت حل إشكالية العلاقة بين الدولة والمجتمع فى ثورات التغيير التى حدثت خلال المائة سنة الماضية، وذلك حين لم تمتلك الوعى الصحيح لتلك العلاقة، ومن ثم لم تؤخذ الإجراءات الضرورية على مختلف المستويات لردع تلك النزعة فى الدولة الحديثة، وتعزيز أسباب المقاومة فى المجتمع، أما عندما كان البعض يمتلك مثل هذا الوعى أو على الأصح كان يلتقط جوهر الإشكالية ويسعى إلى امتلاك مثل هذا الوعى، فلم يكن قادرا على إنجازه، لأن وعيه تأخر فى الإمساك بالأسباب التى تسمح له بتحقيق ذلك الهدف لأن الدولة أثبتت، فى كل مرة، ومن خلال سلطتها السياسية وأجهزتها المختلفة أنها قادرة على استعادة امتلاك زمام المبادرة فى تحقيق نزعتها الهيمنية، ومصادرة ذلك الوعى، أو تشويهه.

وقد أثبتت التجربة، ولا سيما فى البلدان الإسلامية، أن عدم التقاط الخطوط الأساسية التى طرحها ويطرحها الإسلام لحل هذه الإشكالية لا يسمح بتشكيل الوعى المطلوب، ولا يسمح بتوفير الأسباب العقدية والمعنوية والمادية والفكرية والقانونية التى تعزز ذلك الوعى، وبتوطيد حالة من التوازن تحد من نزعة الدولة نحو الانفصال عن المجتمع والطغيان عليه وتشجع نزعة المجتمع للمحافظة على مصادر قوته من أجل ردع هذا الطغيان ومواجهة تلك النزعة.

الشرع والدولة والمجتمع

لعل من أكثر التعريفات دقة حول الحكومات الإسلامية هى «الحكم بما أنزل الله» أو «الحكم بموجب ما يقتضى الشرع الإسلامى»، والتأكد من نفاذ أحكام الإسلام فى مجال العبادات والمعاملات والجهاد ومختلف شئون الحياة العامة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

فالحاكم هنا، ومن ثم الحكومة، بل الدولة ككل، مكلفون بالحكم بما أنزل الله، وبالتصرف والعمل وفق ما يقتضى الشرع، أو بالتأكد من أن أحكام الإسلام نافذة، ومن ثم لسنا هنا حيال حاكم بأمره، ولا حيال طبقة أو فئة أو حزب سياسى يأتون بحاكم وحكومة ويقيمون دولة بهدف تحقيق مصالحهم وقمع الطبقات المقابلة، أو الشعوب الأخرى، كما هو الحال فى تجارب الأنماط الرأسمالية، ولسنا حيال حزب يأتى بحكومة ودولة يجعلها فوق المجتمع مسيطرين عليه فيسن ما شاء من القوانين، كما هو الحال فى التجربة السوفياتية

والتجارب المشابهة لها، أو تجارب عدد من دول العالم الثالث، بل إننا حيال حالة فريدة لا شبيه لها في كل التجارب الاجتماعية وأنماط الدول، عدا التجارب التي أقام فيها الأنبياء حكم الله؛ إنها حالة لم تترك فيها الدولة والمجتمع يتصارعان على الغلب، حالة لا تقر القوة فيها القانون والحقوق، فالبيعة تعطي للحاكم من الجماعة ـ المجتمع.. فيقود الدولة على أساس إقامة أحكام الله، أي تطبيق الشرع، أي على الحاكم أن يعتبر سلطته سلطة تكليف لا تشريف، ولا تحقيق هيمنة ونفوذ، وهي عقد مع جماعة المسلمين مشروطة بإقامة الشرع.. أي أن نقطة البداية هي خضوع الحاكم والناس كلاهما لله تعالى.. ومن ثم تجرى الأحكام وفق القرآن والسنة، ويقوم الاجتهاد على أساسهما، لا منفلتا من هذا الأساس، وبهذا يكون الأساس الأول الذي يضعه الإسلام لتنظيم العلاقة بين الدولة والمجتمع، هو إخضاع الطرفين لعبودية الله وإخراج الأساسات والأصول التشريعية من أيديهما، فالشرع الإسلامي يقضي من الحاكمين والناس الخضوع لأحكام الإسلام؛ وتقع هنا مسئولية أكبر على الحاكم الفقيه، كما على مجموع العلماء والفقهاء في إقامة تلك الأحكام بتوازن سليم يحقق العدل فيقوى المؤمنون جميعا به، ومن ثم يصبح بالإمكان ضبط الصراع حين ينشأ بين الدولة والمجتمع، كما بين مختلف التناقضات ضمن معيار خارج عن معيار خارج عن معيار الغلب والهوى والمصالح والنفوذ والسيطرة، أي ثمة معيار فيصل فوق المتصارعين فيما يمكن أن ينشب من تجاذب متعاكس بين الدولة والمجتمع، أو فيما بين القوى الاجتماعية المختلفة.

إن إقرار هذا الأساس في ظل إقامة الدولة الإسلامية لا يلغي نـ[ز]عة الدولة ككل نحو تخطي الشرع والسيطرة على المجتمع وتحقيق الغلب، فالسنن التي وضعها الله تعالى في الإنسان والمجتمع لا تلغى ولا تتوقف حين يصبح الإنسان مسلما والمجتمع مسلما. فالغرائز تبقى في ذلك الإنسان وتظل تسعى إلى الانحراف به، وهوى النفس يظل يلح على المؤمن لينحرف به، والأمر نفسه ينطبق على السنن الأخرى، ومن ثم لا مفر من أن تمضي حياة المسلم في صراع لا يتوقف بين إسلامه وبين هوى النفس، ونوازع الغرائز الجامحة، وفتنة الدنيا، أو بكلمة أخرى، إن أجهزة الدولة في ظل نظام الإسلام لا تفقد نزعة الجنوح نحو التسلط والطغيان بما ينمي فيها اتجاه التفلت من الشرع ومحاولة الاستقلال عنه وليس عن المجتمع فقط، فالإنسان المسلم الذي يلتزم في حياته الشرع، ويتولى الحكم لا يفقد في نفسه نوازع الهوى والطغيان والطمع والجشع والجزع، فكما تظل النفس بعد إسلام المرء أمارة بالسوء فإن الدولة تبقى، بعد تحولها إلى إسلامية أمارة بالتسلط، نزاعة لكي تطغى، بل يمكن القول إن نفس الإنسان حين يمتلك القدرة والسلطة والثروة تزداد نزوعا إلى الطغيان واتباع الهوى، مما يفرض ألا تنام اليقظة الإسلامية لحظة واحدة عن الدولة في الإسلام، كان الخلفاء الراشدون شديدو الخوف على أنفسهم من السلطة في أيديهم بسبب ما يمكن أن يتعرض له القائم عليها من أخطاء أو يرتكب من مظالم؛ لأن أساس تلك السلطة يكمن في الحكم بالشرع.. والوصول بما يطبق من أحكام إلى مرتبة العدل بين الناس. وإذا كان ـ الحاكم والحكومة، وأجهزة الدولة مكلفين بذلك وقام عقد الجماعة معهم على هذا الأساس، فعلى الدولة الإسلامية، والحالة هذه، ألا تتحول إلى طرف مقابل المجتمع، أو تصبح ممثلة لهذه القومية أو الفئة أو القبيلة أو الجهة أو الولاية أو الطائفة أو الحزب السياسي دون جماعة المسلمين ككل، فالدولة التي تصبح لهذه أو تلك ولا تكون للشرع والأمة تخل بدورها الأساسي الذي حدده التكليف وأوجبه الشرع.

حول ميزان القسط

بيد أن الإسلام لم يكتف بتغيير الأساس الذي قامت عليه الدولة وحكوماتها وأجهزتها من حيث علاقاتها بالناس، وإنما حدد أيضا، عدة خطوط عريضة للحيولة دون وقوع الدولة الإسلامية بحاكمها وحكومتها وأجهزتها في براثن نزعة السيطرة على المجتمع والارتفاع فوق الشرع، فكان منها أن كلف الفقهاء والعلماء وأهل الحل والعقد (ومنهم أعضاء مجلس الشورى) والمسلمين عموما بالشورى والإرشاد والمراقبة والنصح والتصويب حتى خلع البيعة أو نزع الثقة إذا اضطروا إلى ذلك، وكانت الظروف مناسبة، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا على كل مسلم، ولم يترك ذلك للعفوية، وإنما عمد إلى توسيع استقلالية الفرد والجماعة والمسجد في المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية، ولم يسمح للدولة أن تحتكر حق الاجتهاد، أو إصدار القوانين، دون رقابة العلماء المجتهدين، ولم يسمح لها باحتكار أرزاق الناس من خلال السيطرة عليها، أو امتلاك الأرض والمصنع والتجارة الخارجية والسوق المحلي، ولم يجعل حتى حمل السلاح حكرا على جيش الدولة المحترف، ويلاحظ من التجربة الإسلامية الأولى أن جوهر نهج الرسول ﷺ، ومن بعده من سار على نهجه من خلفاء وأولي أمر كان تقوية جماعة المسلمين، وتعزيز قدرة الجماعات الإسلامية من قبائل وأهل عقد وحل، فالنهج الذي استخدم في توزيع الأرض كان التوسع بأشكال الملكية من وقف عام، ومشاع عام، إلى مشاع خاص، إلى وقف على مستوى القرية والعائلة والذرية والمدرسة والحرفة، إلى ملكية فردية، إلى أوقاف على المؤسسات التعليمية والصحية والخدماتية الأخرى، وجعل أرض العنوة وهي غالبية أراضي البلاد الإسلامية ملكية عامة لكل المسلمين، وقد أراد الإسلام لمن يحكم باسمه أن يحمل ميزان العدل من خلال تطبيق أحكام الشرع. أي أراد لهم أن يحمل ميزان الشرع ليحكم بما ينشأ من منازعات في المجتمع بين بائع ومشتر، أو بين مالك ومستأجر، أو بين صانع وعامل، أو بين منتج ومستهلك، أو بين وال ورعية، أو بين قبيلة وأخرى، أو جماعة

وجماعة، ومن ثم لم يجعله طرفًا مقابل المجتمع، لكي لا يصبح الخصم والحكم في آن واحد، لأن ميزان العدل عندئذ سيسقط من يده، وأراد الإسلام من جماعة المسلمين بمختلف فئاتهم ومجموعاتهم ولا سيما الفقهاء والعلماء وأهل العقد والحل أن تبقى جماعة قوية عفية غير مسلوبة الإرادة، قادرة على ممارسة مسئولياتها هي الأخرى في حمل ميزان القسط الإسلامي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كانت التقوى في الحالتين: حالة الحاكم وحالة الجماعة الإسلامية أولى الضمانات التي يضعها الإسلام لحمل ذلك الميزان، إلا أنه بعد ذلك يراعي شروطًا أخرى معنوية ومادية تساعد على إقامة العدل، وتحول دون إعطاء الحاكم ما يسمح له بالتسلط على الجماعة وتحول دون سلب الجماعة من عوامل قوتها حتى تكون قادرة على مواجهة الحاكم، فإذا أصبح السوق والأرزاق ملكًا للدولة - للحاكم وأصبحت المدرسة والمستشفى والجامعة ملكًا للدولة - للحاكم يكون قد امتلك أرزاق الناس وأعناقهم، مما يغرية على الطغيان ويقعد الجماعة عن تقويمه فيختل الميزان.. إن هذه الإجراءات تضع طغيان فئة على فئة أخرى في ميدان من الميادين، أو تضع نزوع جماعة من الجماعات لاغتصاب السلطة، في مواجهة قوى إسلامية تمسك بالشرع وتواجه به ذلك الطغيان والاغتصاب، وهذا بالضبط ما جعل دولة الإسلام وحكمه في أكثر من مناسبة في التاريخ الإسلامي نماذج فريدة تصل في العدل حدًا لا مثيل له فيما عرف العالم من أنظمة وحالات وجعل التاريخ الإسلامي يعج بمواجهة الجور والانحراف.

إن الفكرة الأساسية التي يراد إنشاؤها هنا، هي التأكيد على أن الإسلام جعل حكومته ودولته خادمين للشرع، منفذين لأحكامه، قائمين بالقسط والعدل، وجعل الجماعة قوية في مسئوليتها الشرعية، وأولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتركها قوية في نفوذها العلمي والثقافي، وقوية في قدرتها الاقتصادية، مما يطرح السؤال الآن كيف يمكن أن تعالج مشكلة العلاقة بين الدولة والمجتمع، والدولة والثورة على أساس الإسلام ضمن معطيات العصر الراهن؟ أو كيف يمكن أن تطبق تلك الخطوط العريضة على ظروف العصر في حالة قيام أنظمة حكم تبتغي الحكم بما أنزل الله ملتزمة بالشرع في تنفيذ أحكام الله في مختلف المجالات؟

الإسلام والدولة الحديثة

أصبحت الدولة الحديثة اليوم أكثر تعقيداً من دول الأمس القريب بما لا تقاس، وكثرت أجهزتها ومؤسساتها وتضخمت موازناتها وإمكاناتها، وتغلغلت في كل مرافق الحياة، وسيطرت على أغلبها وأصبحت تمتلك جيوشًا، لا جيشًا واحداً، وأصبحت قواتها أمنها ومخابراتها جيوشًا، وهذا ما يجعل مهمة الثورة، أية ثورة، بما في ذلك الثورة الإسلامية - أمام أخطبوط خطير اسمه الدولة الموروثة عن العهد السابق، وقد خطنا القانون الذى يدفع هذا الأخطبوط إلى ابتلاع الثورة، أية ثورة، وهو يعلن بالصوت العالي «أنا الثورة»، «أنا الشعب»، «أنا الأمة» و «ما أفعله يمثل كل هؤلاء»، وهكذا تنطلق منازع «غرائز» الدولة لتعلو فوق الثورة والشعب والمجتمع، مبعدة عنها الشرع، أو متحرفة به، أو مفرغة له، فإذا ترك الحبل على غاربه للدولة حتى تحقيق هذا النزوع، ولم تقم الضوابط لمنعه في الوقت المناسب، فسرعان ما تمحى الفروق المميزة بين ثورة وثورة أو دولة ودولة ولا يبقى غير الاسم مميزًا، ولا يغير من هذا الأمر ما يمكن أن تنزعه على نفسها من أوصاف مثل: - تحررية أو وطنية أو إسلامية - أو ثورية - أو قومية - أو وحدوية - أو جماهيرية - أو شعبية - أو اشتراكية - أو ديمقراطية - أو تقدمية.

ولهذا كان التسلح بالوعي الإسلامي في معالجة هذه السمة المعاصرة للدولة الحديثة، بل هذه النزعة، يشكل نقطة حاسمة وأساسية، ومن ثم فإن بناء دولة في العصر الحديث، على هدى دولة الرسول ﷺ، يحتاج إلى اتباع أساليب ووضع ضوابط وفق روحية الضوابط والأساليب التي عرفها الإسلام الأول، فأسلوب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على سبيل المثال، في السهر شخصيا على إقامة العدل وكيفية إقامته يقتضي في تطبيقه أن يعمم على أجهزة الدولة فالحاكم اليوم لا ينجز ما أنجزه عمر حين كان يخرج في الليل يتفقد أحوال الناس فيطعم جائعه ويؤمن خائفهم ويرفع مظلمة مظلومهم ويحد فاسقهم، إن المشكلة الآن تتطلب أن يتحول كل جهاز من أجهزة الدولة إلى القيام بمثل هذا الدور، وهذا يخالف طبيعة أجهزة الدولة النزاعة إلى التسلط لا إلى العدل، والجانحة إلى تعقيد المعاملات لا تيسيرها، فلا بد لها من أن تظن كلما تخلت عن توقيع، أو خففت من مسئولية، أو سهلت معاملة أو أسرعت بها، كأنها تخلت عن صلاحياتها وعملها وقللت من شأن دورها وأهميته. أو كلما طلب منها أن تسمع إلى شكوى الناس وتلبيها كأنها فقدت هيبتها الضرورية لتنفيذ الأحكام، فالهيبة هنا تنبع من قانون القوة والتسلط لا من قانون العدل والتقوى، لذلك هي ذات ميل دائم إلى زيادة التواقيع المطلوبة من كل معاملة، ومضاعفة ما يكابده المتعامل معها من تعب ومشقة، وهي ذات ميل لصم آذانها عن سماع الشكاوى والنقد حتى لا يتجرأ الناس عليها، وتفقد هيبتها، وبهذا لا يبقى أمام الناس غير اللجوء إلى الرشوة والمحسوبية، أو إلى الاعتزال والهجرة، ومن ثم لا يظن أحد أن تحول قيادة الدولة إلى أيدي الإسلاميين سيمنع تلقائيا تلك الأجهزة من سلوك طريقها الخاص ولا يتوهمن أحد أن تلك الأجهزة لن تعمل على جعل الكادر الإسلامي يتخلق بأخلاقها من حيث تعامله مع الناس، ومع نفسه الأمارة بالتسلط، وهذا ما يتطلب مضاعفة الجهود في هذا العصر الذى ابتعد عن الفطرة من أجل مقاومة التخلق بأخلاق أجهزة الدولة الحديثة في روتينها وبيرقراطيتها وعليائيتها وتسلطها.

إن الخط الذى يعكس الحل الإسلامي لهذا المعضل في هذا العصر لا يكفي معه

تزول الحاكم المسلم إلى الأزقة والشوارع، وإنما يتطلب عملاً دائماً لتغيير عقلية جهاز الدولة من أساسه هيكلية ومحتوى، وتشجيع كل العوامل الروحية والمعنوية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي بيد العلماء وأهل الحل والعقد والناس والمؤسسات الشعبية لمحاصرة الجهاز بالإسلام.

فالمطلوب أن يفاجئ الحاكم تلك الأجهزة وهي في وسط عملها حتى يرى بأم عينه كيف يتعذب الناس، وكيف يتوارى العدل وكيف تأكل الدولة الثورة.

إن نقد التجربة الرأسمالية والإقطاعية أو الدولة العلمانية لا يكفي للتنبه إلى الخطر الآتي من الدولة على الثورة الإسلامية والنقد الصارم للدولة الاشتراكية من النمط السوفياتي لا يكفي أيضاً لإبعاد هذا الخطر، وإن كان هذا وذاك ضروريين ابتداء، إن مثل هذا النقد يسمح للمجاهدين المسلمين ألا تبهرهم نظريات الغرب في الاشتراكية أو الرأسمالية. ولكن الحل الإيجابي يكون بعودتهم إلى قرآنهم وسنة رسولهم ونماذج التجارب الإسلامية العادلة في تاريخهم يستقرؤونها في كيفية بناء النمط الإسلامي للدولة في ظل متغيرات هذا العصر وإلا سيقعون في دوران جهنمي يجعلهم يهربون من طغيان قلة من الرأسماليين والتجار والإقطاعيين إلى طغيان الدولة حين يسلمونها المصانع والمزارع والتجارة ثم يجدون أنفسهم بحاجة إلى الهرب من طغيان تلك الدولة إلى طغيان الرأسماليين والمحتكرين.

وهكذا دواليك ما لم يهربوا من هذين الطريقين إلى الطريق الإسلامي.

الحل الإسلامي للمعادلة الصعبة

إن النزوع لدى الدولة إلى الهيمنة والطغيان والابتعاد عن الشرع والعلو فوق المجتمع، يجب أن يعامل كما تعامل الغريزة في الإنسان أو القانون الداخلي في المادة. وبهذا لا ينظر إليه كأنه خطأ فكري أو انحراف ناجم عن تصور ذهني. الأمر الذي يعني أن المعالجة لا تكون بتصحيح أفكار أفراد الدولة وتصوراتهم. ومن ثم يذهب ذلك النزوع، وإنما تكون من خلال ضبطه كما تضبط الغرائز، وأهواء النفس. فيصبح تعزيز العقيدة والوصول بالإيمان إلى الإحسان لدى أفراد الدولة، وتصحيح أفكارهم وتصوراتهم شروطاً لضبط غريزة قائمة ستظل تسعى وتغري وتوسوس.

ومن هنا تقتضي أولى واجبات قيادة إسلامية تتولى سلطة الدولة بأن تضبط هذا القانون المتحكم بطبيعة الدولة كما تتحكم الغريزة في الإنسان. أي كما تقتضي أولى واجبات المسلم تجاه نفسه بأن يضبطها بإخضاعها لميزان الإسلام، وتنظيمها وفق مقتضياته. وبهذا تكون أولى واجبات الحاكم المسلم، وهو في السلطة ضبط ذلك القانون الذي يتغذى من أهواء النفس وفتنة المال والسلطان والأهل والشهرة. وهذا الجانب ينفرد الإسلام- من دون مختلف النظريات السياسية- بمعالجته من خلال الإيمان والتقوى والإحسان من جانب، ومن خلال ميزان عدله الذي يعطي كل أمر حقه من جانب آخر.

على أن ضبط السنة المتمثلة بطبيعة الدولة يختلف عن ضبط الفرد لنفسه. وإن كانت عملية ضبط الفرد لنفسه تنسحب تلقائياً على أفراد أجهزة الدولة، وهذا من الأمور المساعدة، ولكن غير الكافية أيضاً، لأن الدولة ليست مجرد مجموعة أفراد متراكمين كمياً، وإنما هي هيكلية متماسكة متشابكة، وتشكيلة مركبة معقدة، ولها عقلها الجمعي ونزوعها الجمعي. مما يسمح لها بالتغلب على الفرد في داخلها مهما علا شأنه، وقوى نفوذه، بل هي أقوى من مجموعة الأفراد فرداً فرداً. ومن ثم لابد لها من ضوابط أخرى بالإضافة إلى ضوابط الإيمان والتقوى بالنسبة إلى أفرادها. وتقف في مقدمة هذه الضوابط ما يفرضه الإسلام من واجبات على المسلمين خارج سلطة الدولة، وما يعطيهم من صلاحيات، وما يزودهم من قدرات روحية ومعنوية واجتماعية واقتصادية ومادية. مما يبقى في دولة الإسلام «المقصود هنا الدولة والمجتمع» ما يسمى في علم الطب المضادات الحيوية التي تقوم بعملية الضبط لذلك القانون.

كما أن الإسلام يوجب على الحاكم وأجهزة الدولة أن يحملوا ميزان الإسلام لضبط الدولة وضبط الجماعة المسلمة، فإن من واجب الجماعة الإسلامية أن تحمل الميزان نفسه لضبط نفسها وضبط الدولة. وبهذا تطوق إشكالية العلاقة بين الدولة والمجتمع، الدولة والثورة، من جوانب عدة، وهذا الأمر غير ممكن إلا في ظل شرع الإسلام، لأن التسليم بالعبودية لله وحده من قبل الدولة والمجتمع والأجهزة والأفراد والمؤسسات، والخضوع لحكم الله وشرعه هو الذي يسمح بوضع الأساس لحل تلك الإشكالية.

بيد أن المطلوب هنا هو أكثر من البقاء ضمن هذه السمات الإسلامية الأساسية العامة، ليصار إلى تعزيز الجوانب التي شبهت بالمضادات الحيوية، وبهذا يصبح من الممكن حل المعادلة الصعبة في العلاقة بين الدولة والمجتمع.

يفترض الإسلام من الحاكم أن يكون مرشداً وموجهاً ومراقباً ومصححاً ومنجداً، ولا يفترض به أن يحل محل الناس في القيام بالأعمال. فالإسلام لا يلغي السوق ليولي الدولة مهامه، ولا ينفي مبادرة الأفراد والجماعات في التملك أو التصرف أو الإشراف على الإنتاج في الأرض والمصنع ليولي الدولة ملكية أدوات الإنتاج حتى تقوم مقام أصحاب العمل والمنتجين تقريراً وإدارة وتصرفاً. ولا يترك للأغنياء أو الرأسماليين أو الاقطاعيين باب الاحتكار والثراء غير المشروع واستغلال الناس مفتوحاً على غاربه. ولا يجعل الدولة شريكاً لهم وحامياً لاحتكارهم واستغلالهم، فهو يطالب الدولة بمنع الاحتكار والضرب على يد الاستغلال ويجعل من الإرث في الإسلام وسيلة مهمة لتفتيت الملكيات الكبيرة، ويجعل من المشاع والأحباس والوقف وملكية عموم المسلمين لغالبية الأرض طريقاً لتشكل الجماعات القوية بامتلاكها وسائل الحصول على رزقها.

ومن ثم يكون الحل الإسلامي لتلك

المعادلة الصحية يتجه إلى تقوية المجتمع من خلال تقوية أفراده ومؤسساته وجماعاته، فإلى جانب تقويتهم من خلال العقيدة والإيمان، وتقويتهم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتقويتهم بحق الشورى وإعطاء البيعة وسحبها، وتقويتهم بجعل العلماء مرجعهم فى إدارة شئون حياتهم، ثم تقويتهم من خلال عدم حرمانهم من حق التصرف فى الأرض ومن حقوق الملكية الخاصة، ومن خلال الملكيات العامة التى تعود لعموم المسلمين أو الجماعات محددة منهم، قرية، قبيلة، مدينة، حرفة.. ومن ثم يوجب على الدولة ألا تسلبهم هذه الميزات. فلا تمد يدها على عمل أو مهمة يمكن أن يقوم به، أو بها، المسلمون أفرادا وجماعات.. بل تعمل على تهيئة الأعمال لهم وتشجيعهم على أدائها. وبهذا تصبح الدولة قوية بحرماتها من سلب المجتمع حقوقه. لأنها إذ فعلت طغت وانحرفت وأصبحت ضعيفة لأنها ستفقد دعم الشعب وتبوء بغضب الله. أما إذا فعلت العكس أصبحت قوية بدعم الشعب وبما تقيمه من عدل وبما ستكسبه من رضى الله تعالى.. وبهذا يكون ضبط ذلك النزوع قد تم من خلال الضبط الذاتى بالعقيدة، وبنظرية العمل بالنسبة إلى الدولة، ويكون قد تم من خلال المجتمع القوى المنتج، المستقل، المالك زمام أمره، والقادر على ممارسة حقوقه. مما يشكل شروطًا لضبط ذلك النزوع فى الدولة، كما يشكل شروطًا لضبط عدد من النوازع السلبية فى الأفراد والجماعات والمجتمع نفسه.

وبهذا يكون النظام الإسلامى قد تجنب طريق الرأسمالية والدولة الرأسمالية من خلال تقوية الجماعات والملكيات العامة والمشروعات الأهلية والمؤسسات التى تديرها مجالس البلديات، والقرى والقبائل والمساجد والنقابات والتعاونيات، وصغار المنتجين والحرفيين، فضلاً عن دور السلطة كحامل لميزان العدل فى ترشيد الإنتاج والتجارة والاستهلاك فيمنع فوضى السوق ويضرب الاحتكار. فيلعب دور الموجه والمصحح والمنقذ. كما يكون قد تجنب طريق الدولة الاشتراكية التى يمتد نزوع الدولة فيها نحو السيطرة إلى مستويات امتلاك وسائل الإنتاج والسيطرة عليها والتحكم بالأرزاق من خلال تأميم المصانع والأرض ومن خلال تأميم التجارة الداخلية والخارجية. مما يشكل من الدولة طبقة صاحبة امتيازات فوق المجتمع رفاها وطغيانًا. ومما يضعف المجتمع ويسلبه قدراته الاقتصادية ويسلبه دوره فى إدارة الأعمال واقتراحها والقيام بها، الأمر الذى يرتد إهمالاً للأرض، ولا مبالاة فى المصنع، وضياعًا فى الحياة العامة.

يمكن أن يلاحظ حول المعالجة الإسلامية لهذا الموضوع أن ميزان الإسلام فى تعزيز قوة الجماعة بالاستقلال عن الحاكم جعلها قادرة على الصمود حتى عندما كان ينحرف الحكم، أو تحتل البلاد من قبل الغزاة. فلم يكن شرعه ليذهب عندما يفسد رأس السلطة كما هو الحال فى مختلف الأنظمة، وإنما كان قادرًا على الفعل فى القاعدة الشعبية التى بقيت قوية

مستقلة عن السلطة لا بمعاشها فحسب، وإنما أيضا بمرجعها الشرعى أى من خلال علاقتها بالعلماء الذين كانوا يوجهونها ويقودونها وفقًا للشرع. ويطبقون ما أمكن من تعاليم الإسلام عليها حتى فى ظل القهر أو فى ظل الانحراف أو فى ظل الاحتلال. فكيف يكون الحال إذا ما اكتملت هذه الميزة بالميزة الإسلامية الأخرى وهى الحكومة الإسلامية العادلة حاملة ميزان الشرع الداعمة للناس والمدعومة من الناس.

ملحوظات حول الحل الإسلامى الممكن لإشكالية الدولة والمجتمع فى العصر الراهن

أولاً: لعل أول ما يتبادر إلى الذهن عند تسلم جهاز الدولة القديم أن يصار إلى إحلال الكوادر والعناصر الإسلامية فى مواقع المسئولية فى أجهزة الدولة. وهو أمر ضرورى، ولاشك فيه، ولا سيما، فى الجيش والأمن العام والمخابرات، والخزينة، ودوائر الداخلية، ومراكز القرار الأساسية فى مختلف الوزارات. ولكن اتساع أجهزة الدولة وضخامة كادرها والحاجة إلى الخبرات فى إدارتها يجعل من المتعذر تحقيق هذا التغيير إلا جزئيا. مما يصبح من الضرورى رفع شعار «إعادة صياغة الكادر القديم بالإسلام» مع إبقائه فى مواقعه. ومن ثم يمكن القول لا يجوز اعتبار هذا الاستبدال قد حل المشكل الجوهرى فى الدولة، إنه فى أحسن الحالات يؤمن الوضع الجديد من انقلاب عسكرى مفاجىء ويملك الثورة القدرة على مواصلة التغيير بكلمة، إنه إجراء ضرورى ولكنه غير كاف. أما الاكتفاء به فسوف يجعل الدولة تعيد صياغة الكادر الجديد ضمن قانونها الأساس، وهو النزوع للهيمنة وتوسيع الصلاحيات والاستقلال عن الشرع والمجتمع.

ثانيًا: تنجح الثورة الإسلامية بعيدًا عن أجهزة الدولة فهى ليست ثورة انقلاب عسكرى، وإنما هى ثورة شعبية تعتمد على الله أولاً وقبل كل شيء، أما أداتها فقيادة المجاهدين والعلماء والمسجد والساحات الشعبية والجماهير فى إسقاط حكم الطاغوت. ومن ثم لابد أن تبنى المؤسسات الشعبية بعيدًا عن الدولة القديمة كالقوات المسلحة الشعبية ومؤسسات التعاون والرعاية وغيرها إلى جانب مواصلتها لأسلمة أجهزة الدولة القديمة.

يسمح هذا الوضع للثورة أن تواجه أصعب المراحل التى مرت بها داخليًا وخارجيا. ولهذا يمكن القول أنها تستمر بعد توليها للسلطة ثورة شعبية تعتمد على الله، أولاً وقبل كل شيء، ويبقى أداتها من المجاهدين وقيادة العلماء والمسجد والساحات الشعبية والجماهير.. ولكن ليس بعيدًا عن الدولة كما فى الوضع السابق للثورة، وإنما بتكامل مع الدولة الجديدة - القديمة. وهو تكامل يحمل فى داخله نزوعًا نحو التنافر ونزوعًا نحو الانسجام، ونزوعًا نحو التوازى، وآخر نحو الاندماج. ولكن الاتجاه العام يكون مزيدًا من تقوية دور الدولة، ومزيدًا من الدمج فيها نسبيًا.

ثالثاً: من الواضح أن مثل هذا المسار يبقى الوضع أمام مفترق طرق فى معالجة الاشكالات الناشئة عن التنازع فى الصلاحيات بين أجهزة الدولة والمؤسسات الموازية التى تنشأت خارجها. فيندفع البعض إلى دمج تلك المؤسسات فى أجهزة الدولة من أجل تحقيق أعلى درجة من الوحدة والفعالية فى أخذ القرار والتنفيذ، ومنع ما ينشأ من تنازع وفوضى، بسبب التعدد وكثرة المراكز. وهى حجة يجب ألا يستهان بقوتها ومنطقها. لأن ثمة سلبيات، أحياناً خطيرة، للتنازع والفوضى وتعدد مراكز القرار والعمل، بينما يتجه البعض الآخر إلى ترك الشارع يتحرك كما لو أن الدولة مازالت دولة طاغوت أو نفاق من أجل منع إجهاض الثورة واختزال دور المجاهدين العلماء والجماهير والحيلولة دون طغيان بيروقراطية الدولة.. ومن ثم تجنب الطريق الذى انتهت إليه كثير من التجارب العالمية حين ابتلعت الدولة الثورة، وصادرت الشرع والشرعية وطغت على الشعب، وهى حجة يجب ألا يستهان بقوتها ومنطقها. لأن سلبيات انتهاء دور المجاهدين العلماء والجماهير ينهى بالنتيجة حكم الإسلام نفسه.

إن هذين الطريقين يترجمان أنفسهما بأشكال كثيرة، وفى مختلف الميادين: فى التعليم، وفى الاقتصاد، وفى الحرب، وفى العلاقات مع الدول والحركات الإسلامية. ومن ثم ستستخدم فى الصراع بين هذين الطريقين مختلف الحجج الجزئية هنا وهناك. فعلى سبيل المثال ستثار فى مجال الاقتصاد ضرورة سيطرة الدولة على التجارة الخارجية والتجارة الداخلية والتوسع بالتأميم، وستثار فى الحرب ضرورة سيطرة الجيش «والعقل العسكرى العلمى» والانضباط، وستثار فى التعليم ضرورة توحيد المناهج وتطويرها وضبط التوجيه، وستثار فى العلاقات بين الدول والحركات الإسلامية الحاجة إلى تحالفات دولية ذات فائدة ملموسة بدلاً من علاقات بحركات لا حول ولا طول لها «المتاجرة بها أقرب لشراء السمك وهو فى البحر».. وفى المقابل، ستثار كل الحجج التى ستتهم هذه التوجهات ببناء دولة طاغوتية تصادر المبادرة الاقتصادية والحرية العلمية والفاعلية الشعبية والثورة الإسلامية العالمية.

ومن هنا ينشأ الحديث عن طريق ثالث يقوم على توازن دقيق بين هذين الطريقين. وذلك بما يسمح باستدرار الإيجابيات من هنا وهناك، وتجميعها لخدمة الإسلام. وبالتخفيف من السلبيات هنا وهناك، أو سلبيات بقاء هذين النهجين من أجل خدمة الإسلام أيضاً.

على أن التوصل إلى اتفاق بالتراضى بين هذين الطريقين ليس ممكناً فى أغلب الحالات. فهو لا يرضى الدولة ـ السلطة أساساً ـ ولاسيما ضمن الظاهرة العالمية الراهنة للدولة الحديثة كما لا يرضى بعض الاتجاهات داخل الطريق الثانى، ولاسيما، تلك التى تميل إلى الهدم لا إلى البناء، وإلى الفوضى لا إلى النظام. وإذا ترك الأمر يعمل عفوياً فسوف تتمكن الدولة من أن تفرض طريقها، وتنهى أمر الطريق الآخر، على الأقل، من ناحية قانونية عملية رسمياً، أو دستورياً، أو عرفاً. هذا ما يجعل البعض يتشاءم من المستقبل، أو من المصير الذى تنتهى إليه الثورات على يد بعض قادتها أنفسهم من خلال «الدولة الثورية» نفسها.

رابعاً: لابد للدولة من أن تراعى القاعدة التى تطالب الدولة بألا تقوم بما يمكن أن يقوم به الأفراد والجماعات. إن هذه القاعدة تشكل صيغة نظرية من أهم ما طرح فى عصرنا لمعالجة موضوع العلاقة بين الدولة الحديثة والثورة، أو بين الدولة والمجتمع، وإذا أمكن أن تجد ترجمة حقيقية فسيخرج منها وضع جديد لم يسبق له مثيل فى تنظيم المجتمع نفسه وتوزيع السلطات والقدرات والصلاحيات فيه.

إن الحكومة ومعها أجهزة الدولة حين لا تتولى شئون التنفيذ إلا فى المجالات التى لا يمكن أن ينفذها سواها. فهذا يجعل دورها لا الاستيلاء على الأدوار التى يقوم بها غيرها من الأفراد والفئات والجماعات فى المجتمع، وإنما يصبح دورها تشجيع الأفراد والفئات والجماعات على القيام بما يقومون به من أدوار، بل تشجيعهم على القيام بأدوار أخرى، وتحمل الأعباء. فيحال عدد كبير من المهام التعليمية والاقتصادية والصحية والتعبوية والعسكرية إلى المساجد والمؤسسات والبلديات ومجالس القرى واللجان الشعبية والشركات الخاصة والأفراد. ويصبح دور الدولة مرشداً، ومراقباً، ومتدخلا فى حل الإشكال الذى يعجز غيرها عن حله، بما فى ذلك المنازعات الفردية. وبهذا يصبح بالإمكان تطبيق حكم الإسلام فى الحياة والمجتمع تطبيقاً أفضل، وإذا ما فعلت الحكومة وأجهزة دولتها ذلك أمكنها أن تقوم بواجباتها التى لا يستطيع غيرها القيام بها على أحسن ما يرام، بسبب ما يمكن أن تضعه من تركيز عليها.

إن مراعاة هذه القاعدة تساعد على حل الإشكالية بين الدولة والشعب، بين الحكام والناس. ويؤدى تأملها جيداً إلى رؤية التمايز الواضح بين الحكومة الإسلامية والأنظمة الرأسمالية. وذلك من جهة انتمائها إلى الإسلام أولاً، وفى الموقف من الفئات المحرومة ومن الشعب ثانياً وفى تمايزها عن الحكومات السابقة التى لم تكن تعتمد على الشعب لأنها تعتمد على الخارج، وتسعى لخدمة الخارج ثالثاً، ثم رابعاً، ميزتها الفاعلة فى مراقبة السوق والإشراف عليه وهى تحمل ميزان العدل لتردع الاحتكار والظلم والفساد. وتهب للنجدة حيثما كان هنالك نقص خامساً.

أما من الزاوية الأخرى فواضح تمايز الحكومة الإسلامية، عن حكومات الدول الاشتراكية ذات الطابع السوفياتى فهى لا تقوم بما يجب أن يقوم به الناس، وهى تبقى الشعب فى الساحة، وتشرك السوق فى الأعمال، ولا تعزله، ولا تؤدى من مهامه إلا ما يتعجز عن أدائه، ولا تقف

حائلاً أمامه. لأن حرية الناس يجب ألا تسلب. بما فى ذلك ألا تسلب من قبل الحكومة، وأجهزة الدولة.

خامسًا: تبقى نقطة تحتاج إلى إيضاح من أجل إغناء هذه الموضوعة العلمية لأعلى مستوى الفقه الإسلامى فحسب، وإنما أيضًا، على مستوى علم الاقتصاد وعلم المجتمع وعلم الحياة والتاريخ.

إن الترجمة لهذا الحل الإسلامى تتطلب أن يتجه إشراك الشعب بالأعمال المختلفة الاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية والاجتماعية والحربية وذلك بإعطاء تشجيع أكبر للمؤسسات ذات الصفة الجماعية، وللجان الشعبية، ولجان المساجد، وللتعاونيات، ولجان القرى، ولجان المعامل، وللقبائل وللعائلات، وللنقابات، والنوادى، وبهذا تصاد عدة عصافير بشبكة واحدة:

١ - تصان الحكومة وأجهزة الدولة من الوقوع فى الطغيان والتعادى مع الشعب حين لا يسمح لها بتملك أدوات الإنتاج والتحكم بالأرزاق والأعمال.

٢ - يمنع الانحراف إلى طغيان الاحتكاريين أو الرأسماليين أو الجشعين وسيطرتهم على الاقتصاد والدولة حين تشجع التعاونيات والمؤسسات والهيئات واللجان والجماعات لتملك، وتعمل، وتسهم فى السوق والإنتاج الذى يؤدى إلى تقوية المجتمع بدوره، ويساعد على ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويجعل اصطدام الأعداء بدولة الإسلام إصطدامًا مع الجماهير الواسعة.

٣ - يعطى الحكومة فرصة لتقيم العدل، وتنجح حين تحصر أعمالها المناسبة لها، والتى يمكن التركيز عليها. وبهذا تصبح هناك حكومة إسلامية قوية. ومصدر قوتها العدل ودعم الشعب لا القمع والسيطرة ودعم الخارج، ويصبح هناك مجتمع قوى ومصدر قوته آت من إيمانه بالله وإسلامه أولاً ثم قدرته وقدرة مجاهديه وعلمائه المعنوية والاقتصادية وعدل حكومته، ومن ثم لا يأتى الضمان الوحيد لعدم طغيان الحكومة وأجهزة الدولة من إيمان الذين على رأسها وإنما- وهذا ما له الأهمية الأساسية- آت من قوة المجاهدين والعلماء وأهل الحل والعقد والمجتمع، لا من جهة العلم والرأى والمعنويات فحسب، وإنما أيضًا، من حيث موقعه فى إدارة وتسيير الأعمال المختلفة من الحقل حتى السوق ومن المصنع حتى المستهلك كما فى المدرسة والجامعة والمستشفى والنادى والنقابة والجمعية، وذلك لأنهم فى هذه الحالة يتمتعون باستقلال عن الدولة ويمارسون دورًا فاعلاً فى مختلف مجالات الحياة، كما لا يخضعون لتحكم قلة من الرأسماليين الاحتكاريين أصحاب الشركات الكبرى. إن هذا هو الحل الذى ينبع من مبدأ التوحيد، من مبدأ العبودية لله وحده. وهو الحل الذى يجعل تقوى الأفراد تمتلك القدرة والقوة أيضًا ويجعل دولة الإسلام قادرة على الاستمرارية ومواجهة المخاطر والعواصف، ويجعل الملايين وعشرات الملايين المسلمة وغير المسلمة تحلم بالحل الإسلامى لمشاكلها.

الإنسان فى رحلة البحث عن الله عزوجل

للأستاذ عاطف مصطفى

يظل الأزهر الشريف كعبة العلم لكل المسلمين فى قلب كل مسلم وعلى الأخص فى مصر بلد الأزهر، لمكانته العلمية الرفيعة، ولدوره التاريخى المشهود. فعلماؤه فى كل بلاد الدنيا، سفراء ينشرون الإسلام بوسطيته السمحة، ويعلمون الناس ما حصلوا عليه من علوم إسلامية، تعد بمثابة مصابيح تهدى الناس إلى صحيح الدين وثوابته.

فلقد كان من أبرز أسباب علو منزلة الأزهر فى مصر والعالم الإسلامى انفتاح أبوابه لمختلف الجنسيات من مختلف البلاد، فى وقت كانت فيه كثير من هذه البلدان خالية من المعاهد العليا على نفس المستوى مستوى الأزهر، مما جعل هؤلاء الوافدين للتزود والدراسة فيه رسلاً منتشرين فى أنحاء العالم الإسلامى يحملون رسالته السمحة.

فى رحاب الأزهر ومنذ نشأته عرفت المساواة، وانعدمت الامتيازات بين كل طلابه، فأروقته ترحب بأبناء المسلمين الذين نفروا إليه من مختلف الأقطار فى شتى العصور يبتغون الفقه فى الدين والمعرفة والعلم النافع، والتوجيه السديد، حتى إنه يمكن اعتباره «هيئة أمم إسلامية شعبية».

ومؤسسة كهذه لها مكانتها فى العالم الإسلامى، وهذا هو تأثيرها لابد أن تحظى بموقع ممتاز فى القيادة المصرية.

وأنا أتناول فى هذه الحلقة من «تراث الهلال» كل ما كتب عن الأزهر وما كتبه علماؤه ومشايخه على صفحات هذه المجلة والتى تصدر منذ مائة وعشرين عامًا، كان من واجبى أن أبدأ بهذه المقدمة لمكانة الأزهر فى نفسى، ولدى كل مسلمى العالم.

فهذا رئيس تحرير الهلال صالح جودت فى تصديره لعدد الهلال الذى صدر أول يوليه ١٩٧٢م - ربيع الآخر ١٣٩٢هـ، وكان عددا خاصا عنوانه «الله».

الإنسان في رحلة البحث عن الله عز وجل

يقول: «في مثل هذا الشهر من ألف عام، أقيمت أول صلاة جامعة في رحاب الأزهر، واحتشدت في صحنه جموع المسلمين تحتفل بقيام أعظم جامعة إسلامية في الأرض، وتعالى من مئذنته الدعاء باسم الله جل جلاله.

وقد توالت الأحداث على مصر، وتعاقب الغزاة، وتحكم الطغاة، وانعكس ذلك على الأزهر، فأصابه ما أصاب مصر من نكبات، ووقع فيه ما وقع في مصر من فتن، كما كلله كل ما كلل مصر من انتصارات، وارتفع به ما ارتفع بمصر من وثبات.

حاول بعض الحكام في بعض الآونة أن يطفئ منارة الأزهر، ببناء يضاهيه، كالجامع الأنور، ولكن بقيت منارة خفاقة، وانطفأ ما عداها من منارات.

وحاول بعض الغزاة أن يهدر كرامة الأزهر، فاقتحمه نابليون بخيله ورجله، ولكن نابليون خرج من مصر، وذهب في النهاية إلى المنفى كسيرا ذليلا، وبقيت حرمة الأزهر مطهرة مكرمة.

مكانة رفيعة للأزهر

وحرصت الهلال في عددها هذا الخاص أن يكون مقالها الافتتاحي لفضيلة العالم الجليل الدكتور عبدالحليم محمود وزير الأوقاف وشئون الأزهر آنذاك، وكان واحدا من كتابها الدائمين وقد كنت حريصا على الذهاب إلى مكتبه في مشيخة الأزهر أو إلى منزله العامر بحي الزيتون لتسلم المقال منه تكريما وحبا له.

مقال شيخنا الكريم عنوانه: «الإنسان في رحلة البحث عن الله عز وجل»، وبدأه بقوله: من روائع مناجاة ابن عطاء السكندري ما يلي:


أ.د عبدالحليم محمود

«إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟».. «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟».. «ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟».. إن مسألة وجود الله لم تكن في يوم من الأيام محل بحث عند ذوي الشعور الديني السليم.

ولم ينشأ الجدل في هذه المسألة إلا في العصر اليوناني، فهو العصر الذي جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد، والقبول والرفض والواقع أن ظروف العصر اليوناني القديم هي التي جعلت منه مثلا سيئا في كل ما يتعلق بالدين والخلق.

لقد كان عصرا خلا من الدين الحق، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة، عن طريق الوحي، فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحي عن طريق الكهانة، ومن ذلك كاهنات معبد دلفي المشهورات.

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحي عن طريق النسك والعبادة والذكر، ومن هؤلاء: فيثاغورث وأتباعه، وأفلاطون والأفلاطونيين القدماء منهم والمحدثون.

لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحي اقتناصا، وأن يكشفوا عن الحجب، وأن يزيلوا الأقنعة، وأن يصلوا إلى الله فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق بيد أن الطريق الذي سلكوه، إنما هو طريق خاطئ؛ لأنه لم يؤسس على وحي يرسم طريق الهداية الصحيح، وإنما أسس على نهج عقلي بشري، أو على تقاليد متوارثة.

في الإسلام الله لا يحتاج إلى إثبات

يشير فضيلة الدكتور عبدالحليم في مقاله قائلا: لقد أخذ هذا الوضع يتخطى القرون، حتى جاء الإسلام، فوضع الأمر في نصابه، ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسي إنما هو مسألة الوحدانية: «أشهد أن لا إله إلا الله».. وجه الإسلام الأذهان في عنف وفي قوة إلى التوحيد، لا إلى إثبات الوجود.

لقد وجه الإسلام الأذهان إلى أن الله لا يحتاج في إثباته وفي وجوده إلى دليل.. وهو ـ على العكس ـ الدليل على غيره، فغيره ثابت به، والعالم ثابت به، والسماوات والأرض والعرش والكرسي، كل ذلك موجود بوجوده، ثابت بثباته، والوجود بأكمله محتاج في كل لحظة إليه فضلا عن احتياجه إليه في نشأته الأولى ووجوده الأصلي.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾

(فاطر: ٤١)

إنه يمسكهما في كل آونة، وفي كل لحظة، فإذا تخلى عنهما طرفة عين تلاشتا فكانتا هباء، وكانتا عدما، وكل ذرة في العالم، وكل خلية في كائناته إنما ثباتها وقيامها به.

ومثل الإنسان كمثل أي كائن حي من حيث وجوده وقيامه بالله، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا، ووهبه هذا التمييز والفهم، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى وجعله خليفة في الأرض ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة.

أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٣)

طريق الهدى والصواب

في رحلة البحث عن الله يواصل شيخنا الجليل قائلا: فرق كبير بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعارا، ومن يحاول ـ متجاوزا قدره ـ الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته.

إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب، وطريق الجدل والشك.. وجاء الإسلام ـ كما قلنا ـ يضع الأمور في نصابها، وليصحح الأوضاع التي انحرفت.

ومن هذه الأوضاع الشرك بالله، والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم، وقد يكون هذا الضعف فقرا، وقد يكون جهلا، وقد يكون طمعا وجشعا، وقد

يكون خوفًا وفزعًا، وقد يكون غير ذلك.

ومهما يكن من أمر الشرك فإنه أينما وجد، ليس إلا مظهرًا من مظاهر الضعف.. وحاول الإسلام أول ما حاول أن يطهر النفوس من هذا الضعف، وأن يعيدها بالتوحيد إلى مجالات العزة والكرامة..

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(المنافقون: ٨)

فكانت دعوته للتوحيد.

رحمة الخالق بعباده

أما ما فى القرآن الكريم مما تخيله بعض الناس استدلالاً على وجود الله.. وأعتقد أن القرآن قصد بذكره الاستدلال على وجود الله. فليس إلا بيانًا لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم، ومن ذلك مثلاً:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾

(الرعد: ٤)

وأن الله سبحانه وتعالى جعل:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾

(النبأ: ٦ - ١٦)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

(الملك: ١ - ٤)

وما مثل هذا فى التصوير قدرة الله إلا كمثل:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

(طه: ١٠٥ - ١١١)

إن ذلك وكثير غيره، إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته، ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم.

وما من شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقى، فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج، ويكون متفقًا مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه، ولكن ذلك لن يكون قط تصويرا لهدف من أهداف القرآن، فالقرآن لا يضع قط وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه.

من روح القرآن

أشار شيخنا الجليل إلى بعض القصص التى تروى على أنحاء شتى وأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم.. قال: يحكى أن بعض مشاهير العلماء ألف كتابًا ضخمًا فى إثبات وجود الله، فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله الضخم هذا، ومر بهم بعض الصالحين، فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف، قال: «ومتى غاب الله حتى يكون فى حاجة إلى إثبات»، فوجم الجميع ولم يستطع المؤلف الإجابة، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد:

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(الأنعام: ٩١)

وقال رجل للنورى ـ الصوفى المعروف: ما الدليل على وجود الله؟

قال: الله

قال الرجل: فما العقل؟

قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

والنتيجة التى نريد أن نصل إليها هى: أن روح القرآن إذن هى قيادة النفوس إلى التوحيد..

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧، ١٠٨)

دور مهم للعلماء

فى ختام مقاله تحدث فضيلة الدكتور عن الفاسدين الذين ينكرون وجود الله أو يسيئون إليه سبحانه وتعالى قائلاً: مما لا شك فيه أن من الوسائل الكريمة التى تحول دون انتشار أفكار هذه القيادات الفاسدة الملحدة فى المجتمع، ما يرجع إلى علماء الدين، فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينيا، لا شك يكون تأثيرهم جارفًا إذا كانوا مثلاً عليا للفضيلة: للفضيلة فى أسمى معانيها وأشملها، أى إذا كانوا ـ حقا ـ بالمنزلة التى ترضى الله ورسوله علمًا وخلقًا وحبا للخير.. وإخلاصا فى كل ما يأتون وما يدعون.

وقد بين الله موازين الخير وموازين الفضيلة، وبين طريق الخير وسبل الضلال.

وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم، فمسئوليتهم أشد، وواجباتهم أصرم، وتأثيرهم فى المجتمع: بادية وحاضرة، لا شك كبير.. والله يهدينا جميعًا سواء السبيل.

***

مياه النيل وضرورة العمل المشترك بين دول الحوض



أ.د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ج. القاهرة

كان الناس على مدار التاريخ ينظرون إلى الماء على أنه سر من أسرار الحياة وهبة من الخالق للإنسان، ينتفع بها كيف يشاء، وكانوا يفترضون وفرته الطبيعية كالشمس والهواء، ثم جاء القرن العشرين ليغير هذا الحلم الجميل.

بلغت الكثافة السكانية في العصر الحاضر حجمًا لم يعرف التاريخ له مثيلاً[١]، ومع التنمية الزراعية والصناعية، وسائر استخدامات الماء العذب، زاد الطلب على الماء زيادة كبيرة مما أظهر نقصًا في المياه العذبة يتفاوت من بلد لآخر، ومع وجود النقص ظهرت مشكلتان:

الأولى: توزيع المياه بين الاستخدامات المختلفة على صعيد البلد الواحد.

والثانية: توزيعها على صعيد الإقليم بين الدول المختلفة التي تشترك في حوض نهر أو بحيرة أو مياه جوفية.

لم تعد البلدان تتعامل مع الماء كمادة متوفرة، بل وضعت الدول خططًا قومية، وأقامت آليات لإدارة مواردها المائية، وأدى التنافس على موارد المياه العذبة في العالم إلى عقد اتفاقيات ثنائية بين دولتين، أو اتفاقيات جماعية بين الدول المتشاطئة.

وبالنسبة لنهر النيل فقد عده المؤرخون شريان الحضارة المصرية القديمة وهو أطول أنهار العالم، وبرغم أن ما يغذى أعاليه أمطار تبلغ ٢٠٠٠ مليار متر مكعب سنويا، فإن ما يحمله مجراه لا يتعدى ٧٪ من هذه الكمية المائية الضخمة، وبدأت الدول المشتركة في مياه النيل تشعر بمشكلة مزمنة، خاصة بين دول أعلى النهر وأسفله، وتفاقمت هذه المشكلة في القرن العشرين.

ولم تكن دول أعالي نهر النيل في الماضي تهتم بمياه النهر الذي ينبع من أراضيها:

أولا: لأن لديها وفرة هائلة في المياه بسبب غزارة الأمطار التي تسقط عليها.

وثانيا: لأن مناطق الزراعة المروية في هذه البلاد والكثافة السكانية فيها كانت

(١) في الألفية الثالثة للميلاد زاد عدد سكان الأرض زيادة هائلة، وزادت نسبة السكان الذين يعيشون في المدن ويستخدمون المياه استخداما عاليا، واتسع استخدام المياه للزراعة المروية التي تشكل ثلث الإنتاج الزراعي في العالم، وتضاعفت التنمية الصناعية والإنتاج الكهرومائي.



ضئيلة للغاية، وفي مطلع القرن العشرين تبدلت الأحوال، حيث أدى الجفاف والكثافة السكانية إلى مجاعات جعلت هذه الدول تفكر في تطوير الزراعة المروية.

من الطبيعي أن تختلف الظروف البيئية من منطقة إلى أخرى حسب الظروف التضاريسية والمناخية وغيرها، وقد ظلت مناطق حوض النيل، خاصة في الجزء الجنوبي - منطقة أعالي النيل - ظلت مئات السنين على طبيعتها دون تدخل كثيف من الإنسان، بسبب قلة أعداد السكان من جهة، ووفرة الأرض والمياه من جهة أخرى وظل هذا النمط ساريا إلى حاضر القرن العشرين تقريبا، ثم حدثت متغيرات سكانية دفعت إلى تغيير الأنماط السائدة في العيش، والرغبة المتنامية في التغيير والتنمية، رغبة الإنسان في التنمية هي التي جعلته يخترع ويبدع ويفرض إرادته وقدرته على الطبيعة بصورة حققت تطورا عقليا وفكريا وعلميا وتكنولوجيا لم يسبق له مثيل، ولكنها في ذات الوقت أثرت على توازن البيئة الطبيعية.

وقد تنبه كثير من العلماء لهذه الظاهرة، ونبهوا على خطورتها ونادوا بضرورة حماية البيئة الطبيعية.

وفي الثمانينيات من القرن العشرين عقدت ندوة في «نادي روما» دقت ناقوس الخطر، وأعلنت أن التنمية التي اندفع فيها الإنسان إذا استمرت غافلة عن آثارها على البيئة الطبيعية فإنها سوف تهدد مستقبل الحياة على الكوكب الأرضي.

وفي عام ١٩٩٢م اجتمع مؤتمر «قمة الأرض» في «ريو دي جانيرو» الذي ركز على المخاطر المحيطة بالبيئة الطبيعية، وأوصى بالبرامج المطلوبة للمحافظة عليها.

واهتم مؤتمر «قمة الأرض» بالأنهار بصفتها من مصادر المياه العذبة المهمة، ونبه إلى الأخطار التي تواجهها بسبب نقص حجم مياهها ونقائه، ولما كانت البيئة الطبيعية هي ميراث الإنسان للأجيال اللاحقة، والأنهار جزء من هذا الميراث العظيم فقد وجب على الإنسان أن يحفظه ويرعاه ولذلك نبه الخبراء في هذا

المؤتمر إلى ما يلي:

١- خطورة توزيع الثروة والقدرات الاستراتيجية في العالم توزيعا غير متوازن حيث أصبحت ثقافة الاستمتاع والاستهلاك ثقافة عالمية، ولذلك اعترف الخبراء بأهمية الجانب الثقافي للإنسان، وأهمية البعد الإنساني في التنمية [٢].

٢- تركيز العولمة على الربحية صار يضغط في اتجاه التخلي عن التكاليف التي تفرضها الرعاية الاجتماعية، التي هي إحدى وسائل المجتمعات لامتصاص الصدام الاجتماعي وتحقيق السلام الاجتماعي.

٣- العولمة تفترض أن عوامل حرية انتقال رؤوس الأموال والتبادل التجاري سوف تكون أفضل وسيلة لتنمية البلدان المتخلفة اقتصاديا، والنتيجة الأكثر رجحانًا هي أن العولمة سوف تركز على البلدان الأكثر تطوراً، وتهجر البلدان المتخلفة، فتزيد الفوارق بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة.

٤- أن السلام والاستقرار العالمي نفسه يعتمد على الجهد الإيجابي؛ لأن العالم الفقير إذا عانى من الجوع، والفقر، والمرض والإهمال، فإنه سوف يدفع إلى مشكلات خطيرة على رأسها: الهجرة غير القانونية لدول الشمال والتطرف السياسي تحت شعارات مختلفة.

٥- ومن أهم سلبيات التركيز على الربحية وحدها كهدف للنشاط الاقتصادي، عدم الاهتمام بآثار الاستثمار في المجالات المختلفة، خاصة البيئة الطبيعية. لذلك برز في الاتجاه المعاكس للعولمة الاهتمام بالبيئة الطبيعية ذلك الاهتمام الذي صار له وزن عالمي لا سيما بعد مؤتمر «قمة الأرض»، وصارت تتبناه منظمات عالمية، وأحزاب سياسية في البلدان الديمقراطية.

هذا ولم يعد هناك شك في أن تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي يتزايد، وأن درجة حرارة الأرض ترتفع، وأن ترسبات النيتروجين والكبريت تتزايد، وأن غلاف الأوزون في طبقات الجو العليا آخذ في التآكل [٣] مما قد يؤدي إلى كوارث تصيب الطبيعة والإنسان على وجه الأرض بأضرار بالغة.

أما عن البيئة الطبيعية في حوض النيل حاليًا، فإنها تعاني من عدة مشكلات على رأسها:

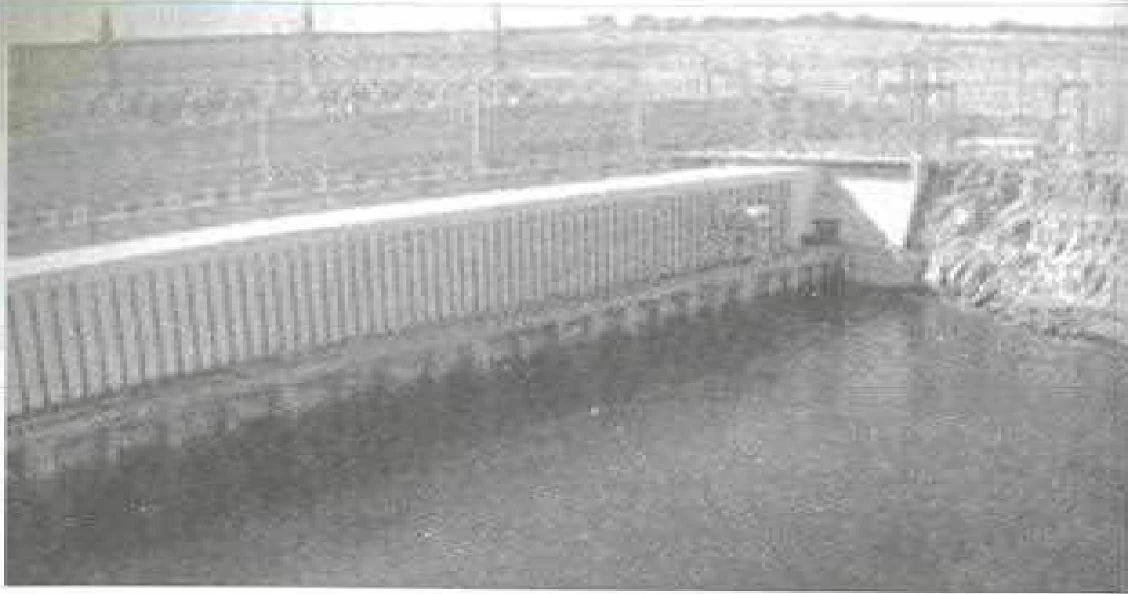
١- الجفاف:

في الثمانينيات ظهر جفاف أصاب عدداً من البلدان الإفريقية، ونتيجة للجفاف نزحت أعداد كبيرة من المواطنين من المناطق الجافة لمناطق أخرى، هؤلاء سموا بـ«لاجئي البيئة»، وفي عدد من البلدان المعنية، لاسيما في حوض النيل، فكرت الحكومات المعنية في توطين هؤلاء النازحين في أرض مجاورة لمجرى النهر ليزرعوا الأرض التي تروى من مياه النهر.

---

(٢) راجع بحث المؤلف بعنوان: البعد الإنساني في التنمية ضمن قضايا التنمية والبيئة في إفريقيا - قسم الجغرافيا - معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ١٨ - ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠م ص٢٩.

(٣) فخر البزاز في: «المياه في العالم العربي: آفاق واحتمالات المستقبل» جمعها بيتر روجرز وبيتر ليدون، ص٢٧٣.



السد العالي

والنتيجة الأولى للجفاف هي التحول الكبير في الخريطة السكانية، والزحف نحو وديان الأنهار وإقامة السدود للري.

وفي إثيوبيا على سبيل المثال جاء استخدام موارد النيل المائية، كرد فعل مباشر للجفاف والمجاعات التي حلت بأراضيها كنتيجة لإزالة الغابات من الأراضي الجافة مما أدى إلى ازدياد سرعة المياه المنحدرة شمالا الذي أدى إلى جرف التربة، ومن ثم حمل كميات أكبر من الطمي، مما زاد من الترسبات الغرينية خلف السدود، وقد قلل هذا بدوره من كفاءة الخزانات في السودان ومصر، حيث أدى إلى خفض طاقاتها التخزينية للمياه، وتقليل قدرتها على إنتاج الطاقة الكهربائية.

٢- التصحر:

إثيوبيا كمثال أيضًا كانت مغطاة بالغابات في نحو ٤٠٪ من أراضيها حتى عام ١٩٠٠م.

أما اليوم فهي تعاني من انحسار كبير في الغطاء الغابي الذي لم يعد يغطي أكثر من ٤٪ من أراضيها.

أما السودان الذي به أطول مجرى للنيل فهو يعاني من الزحف الصحراوي الذي يؤدي إلى دفن وطمس مجاري المياه التي تصب في النهر، مما يؤدي بدوره إلى تغطية الأرض الصالحة للزراعة، ويزيد من درجة تبخر المياه، بعض هذا التصحر بسبب الجفاف الطبيعي وبعضه عائد للممارسات البشرية في مجال التوسع في الزراعة الآلية، والاحتطاب لأغراض بناء المساكن والوقود وغير ذلك.

٣- انتشار الحشائش:

يعاني مجرى النيل من وجود كثير من الحشائش، التي يؤدي انتشارها في كثير من أجزائه إلى الإضرار بالنهر وبيئته الطبيعية وأضرارها تتعلق بتقويض منشآت

إدارة الموارد المائية، وبتعويق الملاحة النهرية، وبتعويق انسياب النهر في مجراه، وبالتالي زيادة البخر، وإهدار نسبة ليست قليلة من مياه النيل.

٤- آثار التنمية على البيئة:

الحقيقة التي ينبغي تأكيدها هي أنه قبل السبعينيات كانت الآثار البيئية نادرا ما تؤخذ في الحسبان عند تصميم مشروعات الري، وقد أدى ذلك إلى ظهور عدة مشكلات تمس حياة السكان مباشرة، مما أدى إلى وقوفهم ضد مشروعات تنموية مهمة للغاية، مثل مشروع «قناة جنقلي».

٥- الأمراض:

هناك عدد من الأمراض الخطيرة مثل مرض عمى النهر والبلهارسيا والملاريا وهناك الأمراض المرتبطة بنقص المياه النقية وصعوبة الحصول عليها وتقدر منظمة الصحة العالمية أن ٨٠٪ من الحالات المرضية بالدول النامية راجعة لنقص المياه النقية.

هناك وسائل لحل مشكلة نقص المياه منها العمل المشترك بين دول حوض النيل، وزيادة العرض من مياه النيل، وهي قضية إقليمية لا يمكن تناولها إلا في نطاق الحوض كله بحيث تؤدي إلى زيادة الموارد المائية المتدفقة إلى نهر النيل، وهي عملية متاحة لدول منابع النيل، بالاضافة لوجود أنهار أخرى فيها، تسهم في سد حاجاتها المائية، وهي عبارة عن أنهار بعضها قطري، وبعضها الآخر دولي مشترك.

الاتفاق على توزيع موارد النيل الحالية

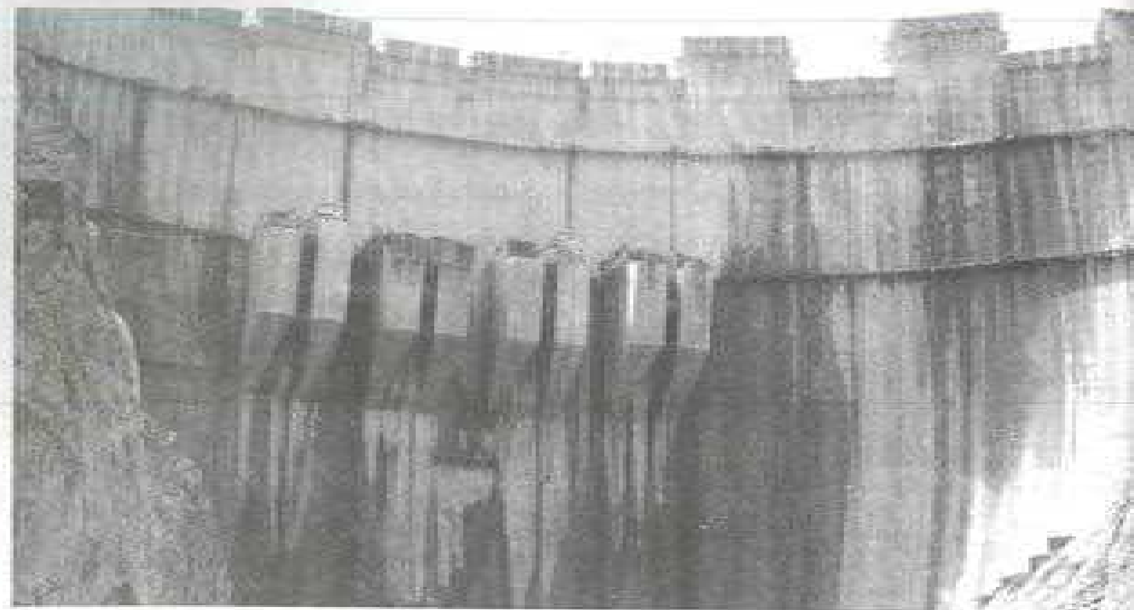


خزان أسوان

بصورة تقبلها كل دول الحوض، والاتفاق على مشروعات إنتاج الطاقة الكهرومائية من مياه النيل، والاتفاق على مشروعات تخزين المياه، ومشروعات ترشيد مجاري المياه، والتعاون بشأن البيئة الطبيعية في حوض النيل، وتنظيم جمع وتحليل وبث المعلومات المناخية والهيدرولوجية - كلها مهام لا تدرك ولا تعالج إلا في نطاق إقليمي يشمل دول حوض النيل بأكملها.

والنيل نهر دولي مشترك بين عدد كبير من البشر وهو يعاني من نقاط ضعف مهمة:

- **أولاً:** النيل لدى منابعه أقل مجاري المياه تنمية.
- **ثانياً:** نسبة ما يحصده النيل في



سد تكيزا الأثيوبي

مجراه من الأمطار الكثيفة التي تهطل على حوضه نسبة قليلة جداً تبلغ حوالي ٧٪.

- **ثالثاً:** التعاون الجماعي بين دول حوض النيل في أضعف حالاته.

ولا سبيل لإجراء إصلاحات إلا بحركة وعمل جماعي مشترك.

والجدول الآتي يوضح تدفق المياه في حوض النيل، ومنه تتضح الكميات الكبيرة التي يفقدها النهر في المراحل المختلفة من مجراه [٤]:

المنطقة	الفاقد بمليارات الأمتار المكعبة
منطقة السدود	١٥
منطقة بحر الغزال	١٤,٥
مستنقعات مشار	٤
الخيران الشرقية	٢,٥
الحجم الكلي	٣٦

ومن هذا الجدول يتضح أن نهر النيل القادم من بحيرات وسط أفريقيا يتحول من تيار جارف عبر كتل جبلية إلى سلسلة متفرقة من الأحواض والبحيرات الضحلة، مما يؤدي لفقدان كميات كبيرة من المياه بالتبخر وفي قلب منطقة السدود مستنقع دائم مساحته ٩٥٠٠ كيلو متر مربع، رغم أن المساحة تتغير بين سنة وأخرى حسب سقوط الأمطار على البحيرات الجنوبية.

جاء في دراسة فنية قدمها ثلاثة من الخبراء المصريين قولهم: إذا تعاون المنتفعون من مياه النيل، فمن الممكن زيادة تدفق هذه المياه بمقدار ٥٧,٤٥٣ مليار متر مكعب في السنة [٥] وهذا ما تؤكده أيضا دراسات خبراء عالميين [٦] إذا ما أبرم اتفاق شامل يفتح أبواب التعاون بين شعوب حوض النيل، ويحقق التنمية والرخاء للجميع.

(٤) نهر النيل - محمود النزلاوي - ص٣٠.
(٥) جمال علام، فهمي الجمل، مني القاضي، ورقة قدمت لمؤتمر النيل عام ٢٠٠٢م - القاهرة ١٥ - ١٩ مارس ١٩٩٩م
(٦) القضايا الأخلاقية وإدارة الموارد المائية - لجنة اليونسكو القاهرة - مارس ١٩٩٩م.

العلوم الكونية فى خدمة الشريعة الإسلامية ومقاصدها (٣)



أ.د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة

حفظ النفس والبدن (الصحة) بالعلوم الطبية وتقنياتها:

يعرّف الطب بأنه علم يُعرف منه أحوال بدن الإنسان ونفسه من جهة ما يصحّ ويزول، لتحفظ الصحةُ حاصلةً وتستردُّ زائلة، ويقول ابن خلدون فى مقدمته: "صناعة الطب تنظر فى بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية"، والأصل فى الطب هو التخفيف عن آلام الناس الجسمية، وكُربهم النفسية، والصحة ضرورية لإنسان الاستخلاف المكلف بعمارة الأرض وترقية الحياة عليها حتى يستكمل حكمة الله من خلْقه وخلقها، قال تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١)

ويحتل الطب الوقائى فى عصرنا منزلة مهمة بين فروع العلوم الطبية، وكان أطباء المسلمين الأوائل يطلقون عليه "حفظ الصحة"، وقدموه على إعادتها فقالوا: إن حرز الشىء الموجود أجل من طلب الشىء المفقود، وعرف ابن أبى أصيبعة الصناعة الطبية بأنها "حافظة للصحة الموجودة، ورادّة للصحة المفقودة" ويعتبر كتاب أبى زيد البلخى فى القرن الثالث الهجرى بعنوان "مصالح الأبدان والأنفس" من أوائل المؤلفات الطبية العربية التى أفردت "حفظ الصحة" فى مصنف خاص، فهو يبحث فى موضوعات حفظ صحة البدن وحفظ صحة النفس، أما إعادة الصحة -فيما يقول البلخى- فإنها داخلة فى صناعة المداواة (أى الطب العلاجى).

وقد كان لتوجيهات الإسلام وتعاليمه الأثر البالغ فى العناية بحفظ الصحة، سواء فيما فرض من فروض الصلاة والزكاة والصيام والحج، أو فيما أمر من تحميل المسئولية عن البدن، والحث على التداوى، والتوجيه إلى النظافة الشخصية والعامة، وإلى الحفاظ على البيئة واختيار الأطعمة النافعة، وعدم الإسراف فى الطعام، والوقاية من الأمراض.

من ناحية أخرى، أسهمت العلوم الطبية وتقنياتها فى الكشف عن المزيد من أسرار الفروض التعبدية وفوائدها الجمّة، ويكفى أن نشير هنا -على سبيل المثال- إلى ما يقوله الطب فى فريضة الصوم فقد كان الصوم خير أسلوب يتبعه البشر لتنقية النفس والروح والجسم، وقد كتبه الله -تعالى- على المسلمين كما كتبه على الذين من قبلهم، فقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(سورة البقرة: ١٨٣)

وقد بيّنت السنة النبوية المطهرة كيفية صيام المسلمين وآدابه وأحكامه وغايته، أما أبحاث العلماء فقد كشفت عن حقائق مهمّة تجلّى الحكمة الإلهية من وراء تشريع الصيام، لا ليكون فرضا تعبديا فقط، ولكن باعتباره أيضا من ضرورات الإبقاء على حياة الأحياء وسلامتهم.

وقد اختص الله شهر رمضان المعظم الذى أنزل فيه القرآن الكريم ليكون شهر الصيام المفروض بنفحاته التى تبهج النفس والقلب، فهو يبدأ فى جوّ تعم فيه الفرحة ديار المسلمين، ويستقبله المؤمنون مهلّلين مكبّرين مرددين دعاء رسول الله (عندما كان يرى هلال رمضان ويقول: "الله أكبر، اللهم أهلّه علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربى وربك الله، هلال خير ورشد" (زاد المعاد)، وفى شهر رمضان يزداد السمو النفسى والصفاء الروحى بصلاة القيام وقراءة القرآن وكثرة التسبيح والذكر والدعاء، والبعد عن اللغو والرفث والجدال، ولاشك أن كل هذه المشاعر الروحية والوجدانية السامية تزيل ما علق بنفس المسلم من رواسب كامنة يؤثر استمرارها على حالته النفسية، وكثيرا ما يفضى إلى الإصابة بأمراض جسدية عضوية، والإيمان الخالص بالله سبحانه وتعالى فى شهر النفحات والبركات على وجه الخصوص يصنع أثرا يشبه المعجزات فى علاج مثل تلك الحالات المرضية قبل تفاقمها، والصوم بلا شك تعبير حىّ عن هذا الإيمان وتطبيقه، فحين يبدأ شهر رمضان المعظم يكون المسلم الموصول بخالقه وتعاليم دينه قد تهيأ نفسيا لقدومه، ثم تمضى أيام رمضان المباركة حتى اليوم العشرين، فيعتكف المسلم فى المسجد متفرغا للعبادة، ومسلمًا قلبه لربّه الغفور الرحيم، اقتداء برسول الله (الذى قالت عنه عائشة رضى الله عنها: "كان رسول الله إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر" (البخارى ومسلم)، وهذا التفرغ الكامل لعبادة الله يزيد بالتدريج من استعداد النفس وطهارة الروح لتقبّل المزيد من فيوض التجلّى الإلهى على المؤمنين، فقد جاء فى الحديث الشريف: "من قام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه" (رياض الصالحين).

من ناحية أخرى، يعتبر الصوم -من وجهة النظر الصحية- وسيلة لتطهير الجسم مما يحتمل أن يكون به من زيادات فى السموم الضارة، أو ما يكون به من غذاء فائض لا لزوم له، ولهذا نجد الحديث عن الصوم فى الموسوعات الصحية يندرج تحت باب العلاج بالغذاء، ففى خلال ساعات قليلة من فترة الصوم الإسلامى التى تتراوح بين ١٢ و ١٦ ساعة يوميا، حسب الفصل من شتاء أو صيف أو ربيع أو خريف، يهبط معدل سكر الدم، ويتنبّه الجسم ليبحث عن مصدر آخر للطاقة، فيستمدها من مخزون النشا الحيوانى فى الكبد، وهو مخزون يكفى الجسم حوالى ٦ ساعات، وبعد أن ينفد مخزون النشا الحيوانى فى الكبد، يلجأ الجسم إلى الدهون الموجودة تحت الجلد وفى الأعضاء ليهدمها ويتمثلها ويحصل على الطاقة اللازمة

بعد هدم بعض الأنسجة والخلايا ذات الأهمية الأقل، وبخاصة المحتقنة والملتهبة والمتقيحة، فيتخلص الجسم منها ومن سمومها مع إذابة الرواسب الكلسية الموجودة بتلك المناطق، ويتبع ذلك بناء أنسجة جديدة مكان ما تهدّم، ومن ثم تتجدد حيوية الأعضاء ويستعيد الجسم نشاطه وتواصل أجهزته المختلفة أداء وظائفها بكفاءة عالية.

ومن المعروف لدى أغلب المدارس الطبية الحديثة أن هناك قواعد صحية معينة لزيادة الحيوية تعتمد على تبسيط الغذاء، والصوم لفترات محدودة عن كل أنواع الغذاء التقليدية، والاكتفاء بالأغذية الخفيفة سهلة الهضم التى تعتمد على الخضروات وعصير الفواكه والسوائل الدافئة، وينصح أهل الاختصاص فى الصحة العامة بتطبيق هذا النظام العلاجى لمدة سبعة أيام مرتين فى كل عام فى الربيع وفى الخريف، حتى يتلافى الجسم الكثير من متاعبه، خاصة فى فترة الشيخوخة.

ويتميز الصوم الإسلامى بأنه يبيح لأتباعه بعد انتهاء فترة الصوم اليومية كل أنواع الطعام والشراب -فيما عدا المحرمات- فى قصد واعتدال، وبذلك يعوض الجسم ما فقده من طاقات، ولا يصاب الصائم بأمراض سوء التغذية أو نقص الفيتامينات والأملاح المعدنية، وهذا بعكس بعض أنواع الصوم التى تمتد لفترات طويلة، كما هو الحال بالنسبة لمن يسمون أنفسهم "بالنباتيين" الذين يعيشون على الأغذية النباتية فقط.

وهكذا نجد أن منهج الإسلام فى الصوم يراعى فائدة الجسد وصحة النفس ونقاء الروح، مع الحرص على مواصلة الحياة الطبيعية بنشاط وحيوية، وهذه الحقيقة هى عكس ما يتصوره الجهلاء من أن الصوم يؤدى إلى الهزال أو الضعف أو فقر الدم، فالصوم فيه الخير كل الخير للصائمين المؤمنين:

﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٤)

حفظ المال بحسن التعامل مع البيئة وثرواتها

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليعيش على كوكب الأرض بين جنبات ثلاث منظومات متباينة، تتفاعل وترابط مع بعضها البعض فى شبكة من التداخلات بالغة التعقيد، هى التى تضم كل ثرواته وموارده التى بها تتحدد جودة حياته: المنظومة الأولى هى النطاق الأحيائى الذى يشمل الطبقات السفلى من الغلاف الجوى، والطبقات العليا من الغلاف المائى، والطبقات السطحية من الغلاف اليابس، وهى منظومة كونية تسبح فى فلك لا دخل للإنسان فى تسيير مجرياته إلا فى أطر محدودة للغاية، والمنظومة الثانية هى النطاق الاجتماعى الذى يتضمن مجموعات النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية التى تحدد علاقاته مع غيره من بنى جنسه، أما المنظومة الثالثة فهى النطاق التقنى الذى يتألف من كل ما يشيده الإنسان فى إطار النطاق الأحيائى ويقع تحت إدارته وتحكمه بدرجة كبيرة.

ومن البيّن بذاته أن حفظ الوجود الإنسانى متوقف على استمرار وجود تلك الأنظمة الثلاثة فى تساوق وانسجام مع بعضها البعض، والإنسان مطالب بأن يحافظ على هذا التوازن لصالح الحياة والأحياء، دون أن يجور على حق الأجيال القادمة، أو أن يقطن إلى آثار انشغاله الزائد بثورة العلم والتكنولوجيا.. من هنا فإن منطق التقويم فى علاقة الإنسان بالبيئة (الكون) يعتبر الأساس العقدى لشرح الوجود فى التصور الإسلامى، وكذلك الأساس العقدى للغاية من الوجود الإنسانى، فمن هذين الأساسين تحددت علاقة الإنسان بالبيئة ومنزلته فى الكون، وتعددت جوانب النشاط الذى يقوم به فى بيئته تحقيقًا لصالح الفرد والجماعة والأجيال المقبلة، وحفاظًا على الموارد الطبيعية التى هى عصب الحياة، وامتثالاً للقيم الإيمانية التى تشكل محورًا مهمًا فى حياة البشر.

لكن ممارسات بنى الإنسان على الأرض تسهم فى الإخلال بالتوازن البيئى الطبيعى الذى أوجده الخالق سبحانه وتعالى لمصلحة الحياة والأحياء.

وقد أدى هذا الإخلال إلى حدوث تغيرات غير طبيعية فى المعدلات البيولوجية أو الكيميائية أو الإشعاعية، وهى التغيرات التى توصف بما يسمى "التلوث البيئى" للإنسان ومحيطه الحيوى، متضمنًا الهواء والماء والغذاء والتراب والحيوان والنبات، وقد زاد من حدة هذه التغيرات خلال العقود القليلة الماضية انفجار ثورة صناعية وتقنية عارمة واكبتها برامج تصنيع ثقيلة، وتوسعات هائلة فى التنقيب واستخلاص الخامات الطبيعية، بالإضافة إلى تنويع مصادر الطاقة واستخدام المخصبات الكيميائية للتوسع فى الإنتاج الزراعى، واستخدام المبيدات لمقاومة الآفات والحشرات، وفى غمرة التنافس المحموم لتطوير الصناعات والتقنيات الحديثة؛ لم يفطن الإنسان إلى ما يسفر عنه هذا النشاط من تدمير لمقومات بيئته التى تدعم مقومات حياته، حيث واكبت النهضة التقنية زيادة مطردة فى تركيز الملوثات بأنواعها المختلفة فى المحيط الحيوى للأرض، وبطبيعة الحال لم يكن الإنسان بمعزل عن كل هذا، حيث تراكمت آثار التلوث فى الجسم بمرور الزمن حتى بلغت فى بعض الأعضاء الحساسة عند كثيرين درجة اختل معها الاتزان الطبيعى لمسيرة العمليات البيولوجية داخل أنسجة الجسم وخلاياه، وأصابت الأضرار المادة الوراثية الخلوية التى تتحكم فى أنشطة الجسم الحيوية، وتمتد فاعليتها فى حالة الأمشاج التناسلية للتحكم فى مسار تكوين الأجيال المتعاقبة، مما قد يعرضها لأمراض وراثية متنوعة مثل التشوهات الخلقية والأورام الخبيثة وغيرها.

وإذا كانت مؤتمرات قمة الأرض قد عقدت بمبادرة العديد من الدول الصناعية المتقدمة، ومشاركة كل دول العالم، لوضع الضوابط التى تكفل الحد من مخاطر التلوث وفرض رقابة صارمة على تنفيذها، إلا أن العديد من الدول النامية مازالت تبدى عدم الاكتراث فى هذا الشأن، برغم ما تعكسه الإحصاءات الصحية من تصاعد متسارع فى الإصابة ببعض الأمراض الكبدية والرئوية والكلوية والدموية، إلى جانب الزيادة المطردة فى معدلات الإصابة بالأورام السرطانية.

وقد دعت ضرورة التعامل مع هذه الأخطار البيئية إلى استخدام آلية تعرف باسم "تقييم الأثر البيئى"، تطرح فيها البدائل لاختيار أقلها ضررًا، وهذه الآلية الحديثة لها سند فى الشريعة الإسلامية الغراء بأصولها الكلية الدقيقة التى يمكننا

أن نتخذها نبراساً يعصمنا من الخطأ إذا خالفنا الصواب في تطبيقها، وذلك من قبيل قول الفقهاء إن الأصل في الأمور الإباحة ما لم يكن هناك حكم شرعي قاطع بعكس ذلك، وهذا يفتح لنا أبواب الإفادة المشروعة من كل جديد ينفع البشر أفراداً أو جماعات، فالأصل في الإسلام هو مراعاة مصالح الناس ودفع الضرر عنهم والحفاظ على البيئة وصون مواردها والتعامل معها تعاملاً رشيداً، حيث لا ضرر ولا ضرار، فالتخطيط للمشروعات ينبغي أن يعمل على استقامة المصالح والتوفيق بينها، اعتماداً على دراسة ووضع خيارات يتم الترجيح بينها، فالقاعدة الشرعية توضح أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما، ومن قواعد المفاضلة بين المصالح والمفاسد ترجيح المصلحة الأعلى على المصلحة الأدنى، واختيار أخف الضررين، والضرورة بقدرها، ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع، والضرورات تبيح المحظورات، ومثل هذه القواعد تضع الأسس اللازمة للنظر في مشروعات التنمية، حيث تبتغي دراسة السلبيات والإيجابيات عند التخطيط لأي مشروع، وموازنة الأمر للأخذ بجانب درء المفاسد، وفي جميع الأحوال تكون مصالح الأمة مقدمة على المصالح الخاصة للأفراد عند التعارض، وهو ما تقضيه القاعدة الكلية الشرعية: "تقديم حفظ الكلي على الجزئي" وترجيح المصالح العامة على المصالح الخاصة، ومن هنا وضعت القاعدة الشرعية: "يتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام".

فقه الواقع المعاصر
بين العلم والشريعة

إن الثورة التي نشهدها الآن في مجالات المعلومات والاتصالات والفضاء والبيولوجيا وغيرها تؤثر تأثيراً مباشراً على الناس في حاضرهم ومستقبلهم، بما أسفرت، وتسفر عنه من نتائج وإنجازات لم تكن تخطر على بال السابقين، ومن فضل الله -تعالى- على الإنسان أن أنزل عليهم شرائع سماوية تتفق جميعها على عبادة الله عز وجل وإفراده بالألوهية، كما تحث على مكارم الأخلاق وتنفر من سيآتها، برغم اختلاف الأحكام الفرعية فيها، مثل كيفية الصلاة، وكيفية الزكاة، والصيام.

ومن فضل الله على المسلمين أن جعل أركان دينهم العملية، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام بتركيز وإجمال، لكن إذا جدت أمور أو ظهرت مشكلات يكون الرجوع إلى أهل الذكر والاجتهاد مطلوب لإزالة أي لبس أو غموض أو سوء فهم.

ولعل من أهم دلائل الواقعية في هذا الدين الحنيف التيسير على أتباعه، ورفع الحرج عنهم، والنزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة، قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام من الفطر للمريض والمسافر:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وقال سبحانه في ختام آية الطهارة بعد أن رخص في التيمم لمن لم يجد الماء:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(المائدة: ٦)

وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد هذا الاتجاه القرآني وتبينه فيقول صلى الله عليه وسلم: "بعثت بحنيفية سمحة" (رواه أحمد)، ولا عجب بعد هذا الهدى من القرآن والسنة أن نجد الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه يسير في نفس هذا الاتجاه، ثابتاً على الأصول والكليات، مرناً متطوراً ومجتهداً في الفروع والجزئيات، خاصة فيما يسمى "بمنطقة العفو أو منطقة الفراغ التشريعي" التي تركتها النصوص قصداً، وترك لفقهاء الشريعة أن يختلفوا في تقديرها، ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور، أي غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغيير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال (انظر: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي)، بل إن هناك من بلغ الذروة فيما يعرف بالفقه التقديري أو الافتراضي.

إن الثورة العلمية والتقنية التي يشهدها عصرنا والعصور القادمة أسفرت عن واقع جديد لم يخطر من قبل ببال أحد من العلماء أو الفقهاء، وأصبح المسلمون في حاجة إلى استنباط الحكم الشرعي الذي يضع حدوداً فاصلة بين الحلال والحرام في مسائل غير مسبوقة، ومن أمثلة هذه القضايا في مجال الاستنساخ ما يحدث نتيجة دمج خلية جسمية (وليس حيوان منوي) من فرد مع بويضة أخذت من أنثى ثم نزعت مادتها الوراثية قبل الإدماج لينتج "زيجوت" يغرس في رحم أنثى لينمو ويكون جنيناً تتم ولادته، والفرد الناتج هنا تكون صفاته الوراثية من مصدر واحد هو صاحب الخلية الجسمية فقط، حيث إنه لا يحمل صفات صاحبة البويضة أو صفات من حملته في رحمها، إن مثل هذا الاستنساخ الذي نجحت تجاربه في بعض الحيوانات، إذا ما انسحب جدلاً على الإنسان، فإنه يثير ضمن ما يثير مخاوف عديدة منها:

- إنتاج مجموعات من الأفراد المتشابهين تماماً، مما يخلق مشكلات اجتماعية.
- إذا نتج طفل ذكر بالاستنساخ من زوج وأخذت البويضة منزوعة النواة من زوجته، فهل يرث الطفل من المرأة التي حملته في رحمها برغم أنه لا يحمل أياً من صفاتها الوراثية؟
- الاستنساخ يسفر عن طفل بلا أم حقيقية، برغم أن هناك سيدة حملته في رحمها، ويسفر عن طفلة بلا أب إذا أخذت الخلية الجسمية من أنثى.
- الاستنساخ يعطي الفرصة كاملة للتحكم في نوع الجنين إن كان ذكراً أو أنثى بحسب مصدر الخلية الجسمية، ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى مشكلات اجتماعية خطيرة.
- الاستنساخ يؤدي إلى تأجير الأرحام، أو إلى أن تبيع النساء بويضاتهن لصالح من يريد استنساخ نفسه.
- قد ينتج عن محاولات استنساخ البشر أطفال بهم تشوهات جسمية، فمن يتحمل مسئولية ذلك؟
- من الناحية النظرية (الافتراضية)، ماذا

يحدث لو عمدت النساء إلى الاستنساخ باستخدام خلاياهن الجسدية فقط، وعزفن عن التزاوج الجنسي؟ هل ينقرض الرجال؟

وفي مجال الهندسة الوراثية، حيث يتم إحداث تعديل في بناء المادة الوراثية لكائن حي بقصد حذف صفة من صفاته الوراثية، أو إدخال صفة وراثية جديدة عليه: هل يجوز تطبيق هذه التقنية على الإنسان؟ وإذا جاز ذلك، ما هي الصفات التي لا يجوز فيها التعديل؟

وفي مجال الفضاء، كيف يؤدي المسلم عباداته المكلف بها إذا كان في حالة انعدام الوزن في محطة فضائية، أو سافر ليقيم على أحد الأقمار أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية؟

هذه مجرد أمثلة من واقع حياتنا المعاصرة توضح الحاجة إلى صياغة أو استنباط أحكام شرعية تتناسب مع الواقع المعيش في ظل ثورات علمية وتقنية متلاحقة.

إن هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه من صنع خالق واحد عليم حكيم ومتصف بكل صفات الجلال والكمال والقدرة، والدليل على صفات الله جل في علاه أن الأفعال المحكمة قد صحت منه ابتداء، حيث أوجد هذا العالم على أعلى درجة من الترتيب والنظام، ولا يليق بكمال الحكمة ترك أمر الكون مضطربا بغير سنة يجري عليها، فالله سبحانه وتعالى له الخلق وتدبير الأمر وفق سنن أجراها:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

وقد سلك القرآن الكريم مسالك كثيرة في إيقاظ العقول ولفت الأنظار للاستدلال على وجود الخالق سبحانه وتعالى عن طريق التأمل في قضية الخلق والوجود وما فيها من آيات لا يعقلها إلا أولو الألباب:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(فاطر: ٤٣)

هذه هي طريقة القرآن الكريم في تأسيس اليقين الإيماني باستقراء الموجودات وملاحظة الظاهرات، والانتقال من المحسوس إلى المعقول، انتهاء إلى الاستدلال المنطقي على وجود الخالق الواحد المنعم على عباده بالخلق والتدبير.

كما تحدث القرآن الكريم عن العناصر التي تتألف منها المخلوقات الحية، فأشار إلى أن الماء هو الأصل:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾

(النور: ٤٥)

ونبه الإنسان إلى العنصر الذي خلق منه

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾

(الطارق: ٥: ٧)

وتحدث عن الخلق الأول للإنسان وهو خلق آدم من تراب، وتحدى الجاحدين أن يثبتوا أن لأحد في هذا الكون غير الله سبحانه أي أثر في الخلق والإيجاد من عدم:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

(الطور: ٣٥- ٣٦)

وفي عصرنا الحاضر نجد البحث العلمي في بعض المجالات يحيد عن المنهج السليم الموصل إلى حقائق ونتائج يفيد منها المجتمع البشري كله، ويتخبط فيه العابثون على غير هدى، اللهم إلا انقياداً لهوى أو نزعة أشبه بنزعة الطفل الذي يعبث بكل ما يلعب به، ويحاول تدميره غير مكترث بما يصيبه من أذى محتمل.

وكان من أحد المجالات التي أغرت العابثين بمزيد من العبث مجال الهندسة الوراثية التي أثبتت جدواها في عالم النبات والحيوان، ولكنها أتت في بعض التجارب على الإنسان بما لا يحمد عقباه، وخير مثال على ذلك ما يحدث في عمليات الإخصاب الصناعي، عندما تكون الزوجة غير قادرة على الحمل، ويستعان بامرأة أخرى بدلاً منها يطلق عليها اسم "أم البديلة" حيث أثار ذلك الكثير من القضايا والمشكلات الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تمس حقوق الإنسان وكرامته، فضلاً عن أنها تدنس قدسية حياته التي استحق لأجلها أن يكون خليفة الله في الأرض.

وتطورت عملية الإخصاب الصناعي بعد ذلك إلى تجارة عن طريق إنشاء "بنوك" للحيوانات المنوية، بهدف تحسين الجنس البشري، والحصول على جيل من العباقرة، لكن هذه التجارب باءت بالفشل وأثارت التخوف من انتشار "جينات" غير معروفة ومتنحية وضارة بالجنس البشري، هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يضمن أن المولود سوف يحمل صفات الوالدين نفسيهما، وبحث تجار هذه "البنوك" عن هدف شيطاني آخر، حسبوه إنسانيا، غير تحسين النسل، فوجدوا ضالتهم في الأسر المحرومة من الأطفال، حيث تقوم هذه "البنوك" في الوقت الحاضر بتوفير السائل المطلوب لحل مشكلة العقم عند أحد الزوجين أو كليهما، وفي أغلب الأحيان يكون المتطوع غير معروف حتى لا يكون الزوجان علاقة ما معه، ولكي لا يطالب بالطفل فيما بعد!

وقد نجم عن هذا السلوك قضايا أخلاقية وقانونية واجتماعية ودينية، بالإضافة إلى تفاقم المشكلة الصحية، فالمتطوع كما سبق القول مجهول الهوية، وفي الغالب لا يعرفه حتى الطبيب، وكل ما يمكن الحصول عليه من معلومات هو الصفات الخارجية التي تساعد في عملية الاختيار، أما الأمور المرتبطة بالأمراض فمن الصعب التعرف عليها حتى لو طلب الطبيب سيرة حياة المتطوع، وإن أقصى ما يمكن معرفته هو نوع الدم وخلوه من الأمراض التناسلية، أما الأمراض الوراثية غير الظاهرة فمن الصعب معرفتها، من ناحية أخرى، يخشى البعض أن تكون هناك صلة قربى بين المتطوع والأم دون أن يعلما، كأن يكون أباها أو أخاها، وهو أمر وارد وممكن الحدوث، خاصة أن "سائل" الشخص الواحد يستخدم لتلقيح أكثر من امرأة "من ست إلى سبع نساء".

وترتبت على كل هذا آثار خطيرة، لكن العابثين تمادوا في غيهم وشرعوا في تجميد الأجنة والحيوانات المنوية لعشرات السنين لاستخدامها في أي وقت وحسب الطلب، وهنا تعالت تساؤلات من نوع جديد بسبب غياب الضوابط والقوانين الصارمة التي تحكم مسيرة البحث العلمي، وتوجهه لما فيه صلاح المجتمع الإنساني وتقدمه، فشتان شتان بين البحث العلمي لبحث الأسرار الإلهية في عملية الخلق والإفادة منها، والعبث بعملية الخلق الذي لا يسفر إلا عن ضرر بالعباد، وشتان شتان بين تدبير العباد وتدبير رب العباد القائل في محكم التنزيل:

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾

(المرسلات: ٢٣)

وهنا تتجلى أهمية الحاجة الماسة إلى نظرية شمولية في مقاصد الشريعة كسياق اجتهادي يُعين على حل المسائل الفقهية الطارئة من مستجدات التكنولوجيا، حيث لا توجد لها نصوص في الكتاب والسنة، ولا يمكن استخدام القياس في تحليلها.

الوفاء بالعهود والمواثيق



للشيخ / فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

حرص الإسلام على أن يبنى الناس حياتهم على الصدق فى أقوالهم وأفعالهم، وأن يحترموا عهودهم ومواثيقهم فيلتزموا بتنفيذ ما أعطوا من عهود وما قطعوا على أنفسهم من مواثيق..

فمن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها، ينتهى إليها كما ينتهى الماء عند شطآنه، فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ، لا خوف من نقضها، ولا خشية من النكوث فى تنفيذها.

ولأهمية الوفاء بالعهود والمواثيق فى استقرار أمن المجتمع وسلامته أكثر القرآن الكريم فى آيات سوره من الأمر بوجوب الوفاء بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان، فالعهد لابد من الوفاء به، كما أن اليمين لابد من البر بها. ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير، وإلا فلا عهد فى عصيان ولا يمين فى مأثم.. ومن ثم فلا تعهد إلا بمعروف، فإذا وثق الإنسان عهدا بمعروف فليصرف همته فى إمضائه، ما دامت فيه عين تطرف، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالا للتردد والانثناء.. ولا غرو، فقد تتابعت آيات القرآن الكريم تحض على الوفاء بالعهد وتخوف من الغدر، يقول الله - تعالى -:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(النحل: ٩١، ٩٢)

العهد: ما من شأنه أن يراعى ويحفظ، كاليمين والوعد والوصية... وعهد الله: أوامره ونواهيه وتكاليفه الشرعية التى كلف الناس بها، والوفاء بعهد الله - تعالى -: يتأتى بتنفيذ أوامره وتكاليفه، واجتناب ما نهى عنه.

قال القرطبى - رحمه الله - قوله - تعالى -:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾

لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان، ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة، أو موافقة فى أمر موافق للديانة..

والمعنى: أن الله يأمركم - أيها المسلمون - بالوفاء بالعهود التى التزمتم بها مع الله - تعالى - أو مع الناس، أى: كونوا أوفياء بعهودكم، ولا تبطلوها بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين أو أكثر، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله - تعالى - وصفاته.

ونقض الأيمان والعهود والمواثيق وإن كان قبيحا فى كل حالة، فهو فى حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحا.. ولذا قال بعض العلماء: وهذا القيد لموافقة الواقع، فلا يختص النهى عن النقض بحالة التوكيد.. بل نقض اليمين منهى عنه مطلقا... أو يراد بالتوكيد القصد، ويكون احترازا عن لغو اليمين، وهى الصادرة عن غير قصد للحلف.. فالآية الكريمة تنهى المسلم عن نقض الأيمان نهيا عاما، إلا أن السنة النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من فعل خير، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذى هو خير»[1].

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

تأكيد لوجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، والنهى عن نقضها، والكفيل: من يكفل غيره، أى: يضمنه فى أداء ما عليه، أى: ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، والحال أنكم جعلتم الله - تعالى - ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود، وشاهدا ورقيبا على أموالكم وأعمالكم، وفى هذا تحذير للمتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى - كفيلا عليهم؛ لأن الله - تعالى - يعلم ما تفعلون من الوفاء أو النقض، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر.

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لتقبيح نقض العهود والمواثيق، فقال - جل شأنه -:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه، والمعنى: كونوا - أيها المسلمون - أوفياء بعهودكم ومواثيقكم، ولا تنقضوها بعد إبرامها، فإنكم إن نقضتموها كان مثلكم كمثل تلك المرأة الحمقاء التى كانت تفتل غزلها فتلا محكما، ثم تنقضه بعد ذلك وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة محلولة.. وفى هذا تحقير لمن ينقض العهد والميثاق، وتشبيه على سبيل التنفير والتقبيح بحال امرأة ملتاثة فى عقلها، مضطربة فى تصرفاتها..

(١) مسلم.

حالة كونكم - يا من تفعلون ذلك - متخذين أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة، من أجل أن هناك جماعة أوفر عددا أو أكثر مالا من جماعة أخرى..

فالآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق فى جميع الأحوال، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع وتلك المبررات، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة، أو دولة أعز من دولة فيحل الرجل عقدا أبرمه ينتظر ربحا أوفر من عقد آخر، وتطرح الأمة معاهدة بينها وبين أمة أخرى جريا وراء مصلحة أحظى لديها.. والدين يكره أن تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة، ويكره أن تنطوى دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تصان العهود والعقود على الفقر والغنى، وعلى النصر والهزيمة.

ولذلك يقول الله - بعد الأمر الجازم باحترام العهود-

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٩٤، ٩٥)

والله - سبحانه - يختبركم لينظر أتوفون بعهودكم ومواثيقكم أم لا، وتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من عهود ومواثيق، وليظهر المطيع من العاصى، وقوى الإيمان من ضعيفه.. وأن مردكم جميعا إلى الله فيجازى يوم القيامة أهل الحق بما يستحقون من ثواب، ويجازى أهل الباطل بما هم أهله من عقاب.

والوفاء بالحق واجب مع المؤمن بالإسلام ومع الكافر به، فإن الفضيلة لا تتجزأ، فيكون المرء خسيسا مع قوم كريما مع آخرين.. والمدار على موضوع العهد، فما دام خيرا فإقراره حتم مع كل فرد، وفى كل حين، وقد قال رسول الله ﷺ فى حلف الفضول- «لو دعيت به فى الإسلام لأجبت»، وعن عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إيما رجل أمن رجلا على دمه، ثم قتله، فأنا من القاتل برىء، وإن كان المقتول كافرا»[٢].

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به فى حاضره ومستقبله، فإن كان معسرا فأغناه الله، أو مريضا فشفاه الله، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيرا ولا مريضا.. ويبنى على غروره بحاضره مسلكا كله فظاظة وجحود.

هذا نوع من الغدر ينتهى بصاحبه إلى النفاق. وربما انطرد به من رحمة الله - تعالى - فلم تتسع بعدئذ له.

رووا أن رجلا من أهل المدينة يدعى ثعلبة أتى مجلسا من مجالس الأنصار فأشهدهم: لئن أتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه، وتصدقت منه ووصلت القرابة. فمات ابن عم له، فورث منه مالا. فلم يف بشىء مما عاهد عليه، فنزل قول الله:

(٢) - ابن حبان.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

(التوبة: ٧٥-٧٨)

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة، ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن ثلاثة فى بنى إسرائيل، أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأرض فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطى لونا حسنا وجلداً حسناً، قال الملك: فأى المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال البقر، شك إسحاق فى الأبرص والأقرع، قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر، قال: فأعطى ناقة عشراء، فقال الملك: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأقرع فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، وأعطى شعرا حسنا، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطى بقرة حاملا، فقال الملك: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأعمى فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلىّ بصرى فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأعطى شاة والدا «حاملا».

فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته «السابقة» فقال: رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً! فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال - الملك-: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع فى صورته «السابقة» فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال - الملك - إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته «السابقة» فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلىّ بصرى، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله «أى: لأشق عليك برد ما تأخذه أو تطلبه من مالى لله»، فقال الملك: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك»[٣]

فالوفاء بالعهود والمواثيق، والالتزام بتنفيذها من خلق المسلم الذى يحرص على التمسك بآداب وأحكام دينه.

(٣) - البخارى ومسلم

﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر – المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

تسوية الصفوف فى الصلاة واصطحاب الأطفال

• من القارئ: أ.م.ن جاء هذان السؤالان:

السؤال الأول: حول تسوية الصفوف فى الصلاة. هل يوجد نص عنها؟

السؤال الثانى: اصطحاب الأطفال إلى المساجد ما حكمها؟

•• الجواب:

إجابة السؤال الأول:

ورد فى السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة فى الأمر بتسوية الصفوف منها ما جاء فى الصحيحين ومنها ما جاء فى غيرهما:

١- فمما جاء فى الصحيحين: حديث أنس بن مالك– رضى الله عنه– عن النبى ﷺ قال: «سووا صفوفكم؛ فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة».

٢- وحديث أنس– رضى الله عنه– أيضا، أن النبى ﷺ قال: «أقيموا الصفوف؛ فإنى أراكم خلف ظهرى».

٣- وفى الصحيحين أيضا من حديث النعمان بن بشير – رضى الله عنه– قال:

قال النبى ﷺ: «لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم».

٤- وروى الإمام مسلم من حديث أبى مسعود– رضى الله عنه– قال: عن أبى مسعود رضى الله عنه – قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

٥- وروى الإمام أبو داود فى «سننه» بإسناد صحيح من حديث ابن عمر– رضى الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدى إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله». وتسوية الصفوف لها معنيان؛ كلاهما وارد فى الأحاديث السابقة:

الأول: التسوية الظاهرة: وهى اعتدال القائمين فيها على سمت واحد؛ بحيث لا يتقدم بعض المصلين على بعض.

الثانى: التسوية المعنوية: وهى سد الفرج والخلل فيها؛ بحيث لا يكون فيها فرجة. وقد اتفق العلماء على أن تسوية الصفوف هى من السنن المؤكدة فى صلاة الجماعة؛ بل نص الحنفية وغيرهم على أنها واجبة على الإمام، غير أنه ينبغى أن تكون تسوية الصف بالتأليف والمحبة، خاصة بعد قلة العلم؛ فالأمر يتطلب مزيد الرفق بالناس لتعليمهم وتفقيههم، ولكن كل هذا لا يكون على حساب المقصود الأصلي من الصلاة، وهو حضور القلب وخشوعه، فالأكمل الاستنان بالسنن النبوية الظاهرة والباطنة، وإذا لم يمكن الجمع بينهما فالحفاظ على خضوع القلب للبارى سبحانه فى الصلاة والتآلف بين المسلمين أولى من الهدى الظاهر الخالي عن هذه الحقائق الأصيلة المقصودة لذاتها، على أن الهدى الظاهر مقصود لغيره، فما كان مقصودا لذاته أولى مما هو مقصود لغيره عند التعارض، والكمال بثبوتهما معا. قال العلامة الكشميرى الحنفى فى «العرف الشذى شرح سنن الترمذى» (١/ ٢٣٥ط: مؤسسة ضحى): «تسوية الصفوف واجبة على الإمام كما فى «الدر المختار»، وتركها مكروه تحريما، وقال ابن حزم بفرضيتها، والاعتبار فى التسوية الكعاب، وأما ما فى البخارى من إلزاق الكعب بالكعب فزعمه بعض الناس أنه على الحقيقية، والحال أنه من مبالغة الراوى، والحق عدم التوقيت فى هذا بل الأنسب مايكون أقرب إلى الخشوع» اهـ.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

•• أجابة السؤال الثانى:

لا مانع شرعا من اصطحاب الأطفال إلى المسجد، بل ذلك مستحب إذا كانوا مميزين؛ لتعويدهم على الصلاة، وتنشئتهم على حب هذه الأجواء الإيمانية التى يجتمع المسلمون فيها لعبادة الله تعالى؛ حتى يكون ذلك مكونا من مكونات شخصيتهم بعد ذلك، وذلك مع الحرص على تعليمهم الأدب، وتنبيههم عن التشويش على المصلين أو العبث فى المسجد، بشرط أن يكون ذلك برفق ورحمة، وأن يتعامل مع الطفل بمنتهى الحلم وسعة الصدر من غير تخويف أو ترهيب له؛ فإن ردود الأفعال العنيفة التى قد يلقاها الطفل من بعض المصلين ربما تولد عنده صدمة أو خوفا ورعبا من هذا المكان. والأصل أن يتربى الطفل عل حب هذا



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علــى جمعــة

مفتى جمهورية مصر العربية

المكان ويتعلق قلبه ببيت الله تعالى، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، «ورجل قلبه معلق بالمساجد» وأن هذا المسجد ملئ بالرحمات والنفحات والبركات وقد استدل العلماء علي جواز إحضار الأطفال إلي المساجد بأحاديث منها: ما رواه البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبي قتادة الأنصارى- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ». قال الحافظ ابن حجر في «فتح البارى» (١ / ٥٩٢ ط: دار المعرفة): «واستدل به على جواز إدخال الصبيان في المساجد». اهـ بتصرف.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن بريدة- رضي الله عنه- قال: «كان النبي ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين- رضى الله عنهما- عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: صدق الله:

﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾

«الأنفال: ٢٨»

إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما».

ومن هذين الحديثين وغيرهما أخذ العلماء جواز إحضار الأطفال للمسجد، واستثنوا منهم من كان لا ينتهي عن العبث إذا نهي عنه، ومع ذلك فلا يكون نصحه إلا بالرفق والرحمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

زكاة العسل!!

● ومن القارئ: ع.ج.د: أمتلك منحلا ينتج عسلا أبيض، ويدر دخلا ماديا سنويا فما حكم الزكاة فيه؟

●● الجواب: اختلف العلماء في زكاة العسل، فذهب المالكية والشافعية وغيرهم إلى أنه لا زكاة فيه؛ وذلك لضعف الأحاديث الواردة في ذلك وعدم ثبوت شئ منها عن النبي ﷺ قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الحديث في أن «في العسل العشر» ضعيف، وفي أن «لا يؤخذ منه العشر» ضعيف إلا عن عمر بن عبد العزيز، واختيارى: أن لا يؤخذ منه؛ لأن السنن والآثار ثابتة فيما يؤخذ منه، وليست فيه ثابتة، فكأنه عفو. اهـ وقال الإمام البخارى: «ليس في زكاة العسل شئ يصح». اهـ وقال الإمام أبو بكر بن المنذر: «ليس في وجوب صدقة العسل حديث يثبت عن النبي ﷺ ولا إجماع؛ فلا زكاة فيه». اهـ

بينما يرى الحنفية والحنابلة وجوب الزكاة في العسل، وأنه يخرج منه العشر، على خلاف بينهم في نصابه، فبينما لم يشترط الإمام أبو حنيفة في ذلك نصاباً وأوجب الزكاة في قليل العسل وكثيره، اشترط صاحبه الإمام محمد بن الحسن أن يبلغ ثمانية فرقان، والفرق ستة وثلاثون رطلا عراقيا، وقال أبو يوسف: في كل عشرة أزقاق زق، متمسكاً بحديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ «في العسل في كل عشرة أزق زق» رواه الترمذى، وقال: «حديث ابن عمر في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شئ». اهـ

والذى تميل إلى الفتوى به هو ما ذهب إليه الجمهور من أنه ليس في العسل زكاة؛ لعدم ورود الدليل الصحيح في ذلك، والأصل براءة ذمة المكلف حتى يدل الدليل على خلاف ذلك، على أن الزكاة وإن لم تكن واجبة فإن صدقة التطوع مندوبة. وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فإنه لا زكاة عليك في العسل الذى ينتجه منحلك، أما المال الذى يدره هذا العسل فإن الزكاة إنما تجب فيه إذا بلغ نصاب زكاة المال، وحال عليه الحول القمرى، ونصاب زكاة المال هو قيمة خمسة وثمانين جراماً من الذهب عيار واحد وعشرين، ومالم يبلغ الدخل المادى ذلك أو لم يحل حوله فلا زكاة فيه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تكبيرات العيد

● من القارئ: م.ن.س: أدعى بعض الشباب المتشددين أن تكبيرات العيد التى اعتاد الناس عليها "الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلاً" أنها بدعة وأنها مخالفة للسنة، فما حكم الشرع في ذلك؟

●● الجواب: التكبير في العيد مندوب، ولم يرد في صيغة التكبير شئ بخصوصه في السنة المطهرة، ولكن درج بعض الصحابة منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على التكبير بصيغة: "الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد" رواه ابن أبي شيبة في المصنف بسند جيد، والأمر فيه على السعة لأن النص الوارد في ذلك مطلق وهو قوله تعالى:

﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

والمطلق يؤخذ على إطلاقه حتى يأتي ما يقيده في الشرع، ودرج المصريون من قديم الزمان على الصيغة المشهورة وهي: الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد الله أكبر كبيراً والحمدلله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أنصار سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا وعلى ذرية سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً" وهي صيغة شرعية صحيحة قال عنها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "وإن كبر على ما يكبر عليه الناس اليوم فحسن، وإن زاد تكبيراً فحسن، وما زاد مع هذا من ذكر الله أحببته" أهـ.

وزيادة الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته في ختام التكبير أمر مشروع؛ فإن أفضل الذكر ما اجتمع فيه ذكر الله ورسوله ﷺ، كما أن الصلاة والسلام على النبي ﷺ تفتح للعمل باب القبول فإنها مقبولة أبداً حتى من المنافق كما نص على ذلك أهل العلم؛ لأنها متعلقة بالجناب الأجل ﷺ.

وبناء على ذلك فمن ادعى أن قائل هذه الصيغة المشهورة مبتدع فهو إلى البدعة أقرب؛ حيث تحجر واسعاً وضيق ما وسعه الله تعالى ورسوله ﷺ وقيد المطلق بلادليل، ويسعنا في ذلك ما وسع سلفنا الصالح من استحسان مثل هذه الصيغ وقبولها وجريان عادة الناس عليها بما يوافق الشرع الشريف ولا يخالفه، وننهى من نهى عن ذلك غير صحيح لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قراءة فى كتاب



بقلم: عادل خفاجة

منذ عدة سنوات كتبت عن ضرورة تنفيذ دورات تدريبية للحجاج وذلك أن هذه الفريضة - وهى الركن الخامس من أركان الإسلام - هى الوحيدة التى لا يأخذ المسلمون حظهم فى التدريب عليها، بخلاف غيرها من الفرائض كالصلاة التى يتدرب عليها المسلم منذ أيام الطفولة فإذا ما شب بالغا وأصبح مطالبا بأداء الصلاة.. كان أداؤه لها على الوجه الصحيح فى الأعم الأغلب.. ولا يحدث هذا بالنسبة لفريضة الحج، وهى عبادة تكلف الكثير من المال والجهد وكم أتمنى أن أرى هذه الدورات التدريبية قيد التنفيذ فى كل البلدان الإسلامية، وبخاصة وأن بعض الدول الإسلامية فى شرق آسيا قد نفذت هذه التدريبات بالفعل.

وحتى يتم ذلك فليس أمام المسلمين سوى القراءة الواعية للكتب التى تتناول هذا الموضوع ومنها هذا الكتاب الذى نعرض له وهو «فتاوى الحج والعمرة».

أسباب تأليف الكتاب

أورد المؤلف عدة أسباب دفعته لتأليف هذا الكتاب نذكر منها:

١- أن كل إنسان تتوق نفسه لهذه الفريضة العظيمة ويتمنى أن يؤديها اليوم قبل الغد ولا يمل الإنسان هذه الرحلة أبداً. فكلما وفقه الله وذهب لأداء فريضة الحج أو العمرة؛ اشتاق إليها من جديد.

٢- أن الكثير من الناس ليسوا على درجة عالية من فقه الحج والعمرة، فيقومون بالسؤال عن فقه الحج وذلك قبل سفرهم بوقت قصير فيتعلمون القليل عن الحج والعمرة، وهناك يقعون فى بعض الأخطاء التى توقعهم فى حيرة كبيرة، هل الحج صحيح أم لا؟

٣- أن فقه الحج والعمرة به آراء كثيرة للفقهاء وهو ما يعطى تعدد الآراء فى النسك الواحد كالوقوف بعرفة والنزول والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى ورمى الجمار، ويفتى العلماء المعاصرون كل على مذهبه فتختلف ا لفتاوى فى السؤال الواحد ويقع الناس فى حيرة.

من أجل ذلك قام المؤلف بجمع الأشهر والأصح من آراء الفقهاء فى المسألة الواحدة ثم اختار للقارئ الأيسر، مسترشدا فى ذلك بالعديد من الفتاوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية وفتاوى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وفتاوى الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق وفتاوى الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى الأسبق.

المؤلف: هو فضيلة الشيخ محمد عبد العزيز السيد بدوى المدير العام للدعوة سابقا وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.

الكتاب:

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من «مختارات من الفقه المعاصر» ويقع فى أربعمائة واثنتين وثلاثين صفحة من مقاس ١٧ × ٢٤ سم صدر فى طبعته الأولى عام ٢٠١٠م.

وقد قسمه المؤلف إلى مقدمة وأربعة أبواب تناول فى الباب الأول عدة مباحث بدأها بفضل الحج والعمرة، ومتى فرض الحج وأن الحج أفضل الأعمال وأنه يمحو الذنوب ثم تكلم عن تكرار الحج والعمرة ثم تكلم عن العمرة هل هى فرض أم سنة؟ ثم عقد فصلا عن حكم الاستطاعة فى الحج، وتكلم عن استطاعة المرأة.

ثم أورد آراء الفقهاء فى الزوج والمحرم، ثم تكلم عن عدد من أحكام حج المرأة ثم أفرد فصلاً عن الحج بالمال الحرام ثم أتبعه بفصل آخر عن الحج على الفور أو التراخى ثم أتبعه بعدة فصول تحدث فيها عن: الحج مع لبس الأجهزة التعويضية - الحج بالديون والجمعيات والتقسيط وغيرها من القضايا المعاصرة. ولعل من أهمها ما أجاب فيه عن سؤال: الحج أولاً أم زواج البنات؟

وكذلك تكرار العمرة فى السفر الواحد وحج رجال الأعمال وخدمة الحجاج والتجارة فى الحج إلى غير ذلك من قضايا تشغل بال الكثير فى هذه الأيام.

وفى نهاية هذا الباب يتناول المؤلف عدداً آخر من القضايا التى تكثر فيه التساؤلات منها:

محظورات ومباحات الإحرام، بدء الزيارة والطواف وأحكامه، الإحرام بالحج والتوجه إلى عرفة، الإنابة فى رمى الجمرات وأحكامها، طواف الوداع وزيارة المدينة.

أركان الحج

أما الباب الثانى فقد تناول فيه عدداً من الأحكام كأحكام التلبية وعدداً من القضايا مثل أنواع دخول الحرم دون إحرام، وأنواع الإحرام ومحظورات الإحرام ومباحاته، وحكم إزالة الشعر وتقليم الأظافر، حكم قتل المحرم للصيد، وكيفية دخول مكة؟ وشروط وأركان الطواف وسننه وحكم تركه، وحكم طواف الوداع وحكم السعى وشروطه وسننه والوقوف بعرفة ووقته وآدابه والدعاء فيه، وغير ذلك من أحكام وقضايا.

وعلى هذه الشاكلة جاء البابان الأخيران الثالث والرابع ليضم كل منهما العديد من الفتاوى والعناوين للإجابة عن الكثير من التساؤلات التى تعن للحجيج وقد توقعهم فى الحيرة والشك.

ونتوقف مع القارئ الكريم أمام بعض هذه

القضايا المهمة التي أثارها إذ يقول فضيلته ص٨٣:

● سؤال: هل الحج أولاً أم زواج البنات؟

●● الجواب: الحج فريضة الإسلام الخامسة فهو ركن من أركان الإسلام يجب أداؤه على كل مسلم بالغ عاقل مستطيع. واختلف العلماء في وجوب الحج فوراً أو على التراخي.

وإلى الرأى الأول: ذهب جمهور العلماء وأئمة المذاهب متى توفرت شروط الاستطاعة. يجب الحج فوراً.

وإلى الرأى الثانى: ذهب الإمام الشافعى أى أن الحج يجب على التراخى فهو ممتد إلى آخر العمر.

فمتى أداه المكلف سقط عنه ولا يأثم بتأخيره.

أما الزواج: فهو مشروع ومرغوب فيه بالآيات والأحاديث الكثيرة غير أنهم تحدثوا فى حكم الزواج فقالوا:

١- الزواج واجب على من قدر على نفقته وقدر على تبعاته وخاف الوقوع فى العنت (الزنا). وما ينطبق على الرجال ينطبق على النساء. ولو عزف الرجال عن الزواج لأضر هذا بالنساء.

٢- وقد يكون مندوبا إذا قدر عليه ولم يخف الوقوع في العنت إن لم يتزوج.

وعلى هذا: فإن كان الزواج واجباً للخوف من الوقوع في العنت قُدِّم على الحج. وإن كان الزواج مندوبا قدم الحج عليه.

١- وإذا كان العرف قد جرى هذه الأيام أن ينفق الأب على زواج ابنته أو ابنه.

فإن هذه النفقة مطلوبة للبنات لزواجهن وإعفافهن.

٢- وإذا كان الزمان الذى نعيشه الآن القابض على دينه كالقابض على الجمر.

٣- وإذا كان هناك قول مأثور عن سيدنا على رضى الله عنه قال: ثلاثٌ لا يؤخرن:

● الأيم إذا جاء طالبها - أى البنت إذا جاء خاطبها.

● الصلاة إذا حان وقتها.

● الجنازة إذا حان حملها.

٤- وإذا كان هناك من الفقهاء من أجاز أداء الحج على التراخى كالإمام الشافعى. يستطيع المرء أن يحج فى أى وقت من العمر.

يمكن تقديم زواج البنات على الحج خاصة إذا كبرت البنت فى السن. وخاف الولد على نفسه العنت وتقدم به العمر والله أعلم.

ويقول فى حكم تكرار الحج، وتأشيرة رجال الأعمال وتأشيرة خدمة الحجاج ص٨٨:

● س: بعض رجال الأعمال يصرون على الحج كل عام. بل وعلى العمرة فى رمضان كل عام فهل فى هذا فضل؟ وهل الحج بتأشيرة رجال الأعمال وتأشيرة خدمة الحجاج لغير رجال الأعمال صحيح؟

●● الجواب: الحج فرض على المستطيع مرة واحدة فى العمر وذلك لحديث البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت النبى حتى قالها ثلاثا. ثم قال ﷺ: لو قلت نعم لوجبت. ولما استطعتم».

وفى رواية للإمام أحمد وأبى داود والنسائى: أن السائل هو الأقرع بن حابس التميمى وأن الرسول رد عليه فقال: «الحج مرة فمن زاد فهو تطوع».

وعلى هذا: فإن تكرار الحج ليس بواجب بل تطوع.

ومساعدة المسلمين الذين هم فى حاجة شديدة أهم من حج التطوع قال العلماء:

ينبغى على المسلم تقديم الأهم على المهم وقد تكون هناك حالات للناس يكونون فى أشد الحاجة إلى المعونة لإنقاذ الحياة أو تخفيف الويلات. فالإنفاق فيها أولى بعمل مشروعات صناعية. زراعية. إسكانية يعمل فيها الفقراء المتعطلون فتفتح لهم أبواب الرزق.

وفى مساعدة المحتاجين من الناس بعمل المشروعات التى يعملون بها أجر عظيم وثواب كبير أفضل من حج التطوع.

أما عن تأشيرة رجال الأعمال وخدمة الحجاج فيقول:

التأشيرة هى تصريح الدخول للأراضى السعودية لأداء شعيرة الحج والعمرة أو لغرض التجارة أو العمل أو أغراض أخرى وهذا أمر تنظيمى يصنعه ولى الأمر فى كل دولة.

● فهل مخالفة هذا التصريح والدخول إلى الأراضى السعودية بهدف التجارة لرجال الأعمال أو خدمة الحجاج لغيرهم هل هذا يبطل الحج أو العمرة؟

●● الإجابة: مخالفة تصريح ولى الأمر فى الدخول إلى الأراضى السعودية لغرض ما ثم الحج بعد الدخول، لا يبطل الحج والعمرة وفيه معصية مخالفة ولى الأمر.

لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

«النساء: ٥٩»

فطاعة ولى الأمر واجبة ما لم يأمر بمعصية.

وهو هنا لا يأمر بمعصية. فطاعته واجبة. ومخالفته معصية.

ولكن هل مخالفته هنا. تبطل الحج أو العمرة؟

الجواب: لا.

قال العلماء: لا يبطل الحج إلا بالآتى:-

١- عدم أداء أركانه كاملة صحيحة.

٢- الحج فى غير أوقات الحج.

٣- الجماع فى الحج قبل الوقوف بعرفة لمن هو محرم بالحج أو بعد الوقوف بعرفة وقبل طواف الإفاضة عند كثير من العلماء.

٤- من رفض الحج وخلع ملابس الإحرام وانصرف إلى بلاده.

٥- ومن ترك واجبات الحج كمزدلفة والمبيت بمنى ورمى الجمرات وذبح الهدى وقص الشعر صح حجه مع ترك هذه الواجبات ويلزم بالهدى لكل مخالفة أو ترك واجب ومع هذا فحجه صحيح وعلى هذا:-

فحج رجال الأعمال بتأشيرة الدخول للتجارة أو حج أفراد من الناس بتأشيرة خدمة الحجاج صحيحة وكذلك الذين يعتمرون فى رمضان ويختبئون فى مكة أو غيرها إلى موعد الحج. فيحجون بهذه الطريقة حجهم صحيح مع معصية مخالفة ولى الأمر ما داموا أدوا أركان وواجبات وسنن الحج كاملة غير منقوصة.

عرفة ركن الحج الأعظم

ونتوقف فى هذا الباب عند قوله:

إذا لم تتمكن من الذهاب إلى منى يوم التروية الثامن من ذى الحجة للمكث بها وصلاة خمس صلوات بها قصراً وهى:

١- الظهر.

٢- العصر.

٣- المغرب.

٤- العشاء.

٥- الفجر.

فهذه سنة فلا شىء عليك بتركها.

التوجه إلى عرفات يوم ٨ من ذى الحجة:

فاعلم أن الحج عرفة كما جاء فى الحديث الشريف.

فمن فاته الوقوف أو وقف بغير عرفة فقد فاته الحج:

ويتحقق الوقوف بعرفة بالآتى:

١- الحضور ولو لحظة (بمقدار سجدتين) واقفا أو جالساً. أو راكبا أو ماشياً.

٢- والوقوف فى أى وقت من بعد ظهر اليوم التاسع إلى فجر اليوم العاشر.

٣- الأفضل الجمع بين آخر جزء من النهار وأول جزء من الليل (قبيل غروب شمس يوم ٩ إلى ما بعد الغروب ليلة ١٠ من ذى الحجة).

٤- الأفضل أن تكون على طهارة ولا يشترط دوام الطهارة طول اليوم.

٥- وأن تكثر من الدعاء فى هذا اليوم لنفسك ولإخوانك وأهلك والمسلمين عامة.

وعن الذهاب إلى مزدلفة يقول:

فعند الوصول إليها يؤدى الحاج بها صلاتى المغرب والعشاء جمعا (تأخيراً) وقصرا ركعتين للعشاء فقط والمغرب كما هو. وذلك فى وقت صلاة العشاء.

١- المبيت بمزدلفة - إن استطعت - حتى تصلى بها الصبح.

٢- النزول إليها وقضاء ثلث الليل الأخير بها وصلاة الصبح.

٣- النزول إليها وأداء الصلاة فقط.

٤- النزول والصلاة وجمع الحصى.

٥- المرور بها فقط وهذا أضعف الإيمان.

وعن المبيت فى منى يقول:

وأمامك أيها الحاج أن تفعل الآتى:-

١- إما أن تنزل إلى مكة من منى لطواف الإفاضة. ثم تتحلل بقص الشعر فى مكة ثم تعود للمبيت بمنى ثلاثة أيام بعد العيد أو يومين.

٢- أن تبقى فى منى أيام التشريق لترمى الجمرات وبعدها تتوجه إلى مكة لطواف الإفاضة.

فإذا فعلت فعليك بالتحلل فى منى بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر بقص الشعر أو الحلق.

ولك أيها الحاج وأنت فى منى الآتى:-

١- أن تغادر منى لطواف الإفاضة ثم العودة إلى منى لتبيت بها ليالى أيام التشريق.

٢-لا تغادر منى وتبيت بها ليالى أيام التشريق ثم طواف الإفاضة بعد هذا.

٣- لك أن تقضى أول الليل بمكة وآخره بمنى أو العكس (أول الليل بمنى وآخره بمكة).

٤- ولك أن لا تبيت بمنى إذا كان لك عذر وتبيت بمكة.

٥- وعند ابن عباس وهذا مذهب الحنفية أن المبيت بمنى سنة.

٦- والأفضل المبيت بها لليالى أيام التشريق كما هى سنة النبى ﷺ إلا لأصحاب الأعذار

٧- وإذا لم تبت بمنى فعليك الحضور إليها لرمى الجمرات.

رمى الجمرات:-

١- وفى اليوم الأول (النحر) ١٠ من ذى الحجة رمى جمرة العقبة الكبرى (بسبع حصيات).

٢- وفى الأيام الثلاثة بعد العيد رمى كل يوم ثلاث جمرات الأولى (الصغرى) تلى منى وهى بجوار مسجد الخيف الثانية (الوسطى) الثالثة (الكبرى) نهاية جسر الجمرات ناحية مكة والرمى من الزوال - لغير يوم العيد - أى الظهر - إلى غروب الشمس.

وهذا هو الرأى القديم. وهذا هو الأفضل لفعل النبى ﷺ إذا كان هذا ميسوراً أما إذا كان فيه ضرر أو مشقة فالرأى الجديد وهو: يجوز الرمى فى كل الأوقات إذا لم يتيسر الرمى من بعد الزوال (الظهر) إلى غروب الشمس قال بهذا:

١- عطاء بن أبى رباح وطاووس بن كيسان من فقهاء التابعين:

٢- أجاز الرمى من الفجر الإمام الرافعى. من فقهاء الشافعية.

٣- هذا موافق لإحدى الروايات فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة.

٤- قال بهذا الكثير من الفقهاء غير هؤلاء.

٥- أفتى بالرمى فى جميع الأوقات إن لم يتيسر الرمى بعد الزوال:

أ- مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بمصر.

ب- مجمع الفقه الإسلامى بجدة.

وهذا موافق للسنة لقوله تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

[البقرة: ١٨٥]

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

وعن طواف الإفاضة يقول: وهو ركن من أركان الحج يبطل الحج بتركه لقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾

(البقرة: ١٩٩)

وبعد...

فعلى مدى ما يربو عن أربعمائة وثلاثين صفحة ضمت مائة وستين عنوانا ناقش المؤلف الكثير من قضايا الحج ولعله لم يترك موضعاً لسؤال حتى أفاد فيه.

وكنت أود أن يحمل غلاف الكتاب عنوان الموضوع «فتاوى الحج والعمرة»؛ ليسهل على الباحثين الوصول إلى هذا العنوان وأقصد بالباحثين هنا زوار بيت الله من غير المتخصصين فى البحث العلمى؛ فأغلبهم يبحث عن ضالته قبل السفر بوقت يسير.

نسأل الله أن يجزى المؤلف خيراً وأن يجعل عمله هذا فى ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وآخر دعوانا أن «الحمد لله رب العالمين»

طـرائف.. ومواقـف


للشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

مختارات شعرية

● خلقت مبرأ من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

● وكل كسر فإن الله يجبره
وما لكسر قناة الدين جبران

● لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

● وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرق العود

أحكم آية فى القرآن الكريم

إن من يعتدى ويكسب إثما
وزن مثقال ذرة سيراه
ويجازى بفعله الشر شرا
وبفعل الجميل أيضا جزاه
هكذا قوله تبارك ربى
فى إذا زلزلت وجل ثناه

قال ابن مسعود - رضى الله عنه - هذه أحكم آية فى القرآن الكريم، وصدق.

وجاء عن كعب الأحبار قوله: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

وكان رسول الله ﷺ يسمى هذه الآية: الآية الجامعة الفاذة كما فى الصحيح: إن فى حبة العنب مثاقيل ذر، وكم فى التمرة وكسرة العيش من مثقال الذر، وكم فى الآثام مهما حقرت من الذلة والصغار.

فطوبى لمن وعظته الآيات، ونبهته العبر والأمثال.

قالوا عن سيدنا عمر - رضى الله عنه -

● فى مسند الإمام أحمد، عن النبى - ﷺ - قال: «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه».

● وقال على - رضى الله عنه - وكرم وجهه: إن الله عز وجل - جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهم من الولاة إلى يوم القيامة سبقا، والله سبقا بعيدا، وأتعبا من بعدهما إتعابا شديدا».

● عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «أشد أمتى فى أمر الله عمر».

● قالت أم أيمن حين أصيب عمر: «اليوم وهى الإسلام».

● رأت الشفاء بنت عتب الله فتيانا يقصدون فى المشى، ويتكلمون رويدا، فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نساك. فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقا.

● قال ابن عباس: دعوت الله أن يرينى عمر بعد موته، فرأيته فى المنام يسلت العرق عن وجهه، فقلت له: ما لقيت؟ قال: رأيت الله رءوفا رحيما، ولولا رحمته لهوى عرشى.

● بكى سعيد بن زيد حين مات عمر، وقال: على الإسلام أبكى، إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة.

● حقا يا عمر كنت جوادا بالحق، بخيلا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف طيب الظرف لم تكن مداحا ولا مغتابا.

مات عمر فهوى علم من أعلام الإسلام، أبكى الدنيا مصرعه، وطويت صفحة من صفحات لا مثيل لها فى التاريخ الإنسانى كله سواء بمقاييس الأقدمين أو بالمقاييس العصرية.

عظة بالغة

قال الأصمعى: صنع الرشيد يوما طعاما فاخرا، وزخرف مجالسه ثم أحضر أبا العتاهية الشاعر، فقال له:

صف ما نحن فيه من نعيم الدنيا، فأنشد:

عش ما بدالك سالما
فى ظل شاهقة القصور

فقال: أحسنت، ثم ماذا؟ فأنشد:

يسعى إليك وما اشتهيـ
ـت لدى العشية والبكور

فقال: أحسنت أحسنت، ثم ماذا؟ فأنشد:

وإذا النفوس تغرغرت
بزفير حشرجت الصدور
فهناك تعلم موقنا
ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد بكاء شديدا، فقال بعض الحاضرين لأبى العتاهية بعث إليك الأمير لتسره فأحزنته؟

فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا فى عمىً فكره أن يزيدنا منه.

الشيطان ومداخله

قيل إن إبليس ظهر لسيدنا عيسى - عليه السلام - فقال له: ألست تقول: لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك؟ قال: بلى، قال: فارم نفسك من ذروة هذا الجبل، فإذا قدر الله لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون إن الله - تعالى - يختبر عباده، وليس لعبد أن يختبر ربه.

دعـاء

من دعاء بعض الصالحين يمنى:

كم من نعمة أنعمتها علىّ، قلّ لك عندها شكرى.

وكم من بلية ابتليتنى بها قلّ لك عندها صبرى.

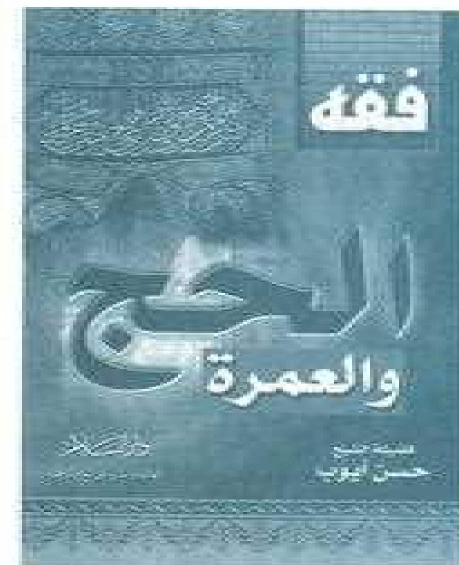
فيا من قلّ شكرى عند نعمته فلم يحرمنى، ويا من قل صبرى عند بلائه فلم يخذلنى، ويا من رآنى على الذنوب العظام فلم يفضحنى، ولم يهتك سترى؛ ويا ذا المعروف الذى لا ينقضى، ويا ذا النعمة التى لا تحول ولا تزول، صل على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا وارحمنا.

مكتبة الأزهر



إعداد: أ. محمد شعبان

تسعى "الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يقدم الشيخ حسن أيوب فى كتابه "فقه الحج والعمرة" الصادر عن دار السلام تبسيطاً لمناسك الحج والعمرة يناسب ثقافة الإنسان العادى دون تعقيد مع إلمام كامل بكل الأحكام الشرعية يبدأ المؤلف بتعريف الحج والعمرة والأدلة عليهما من الكتاب والسنة مع استعراض شامل لكل الآراء الفقهية المتعلقة بكل شعيرة ويعلل المؤلف فى مقدمة كتابه أسباب ذكره آراء العلماء المختلفة فى كل التفاصيل بقوله: "السبب فى ذلك هو إشعار المسلم بسعة رحمة الله وفضله، حيث جعل دينه سهلاً ميسراً لا حرج فيه ولا مشقة ولا تضييق ولا تشديد وحيث جعل فقهاء الإسلام أمناء على فهمه واستخراج أحكامه من كتاب الله وسنة نبيه". ويمضى المؤلف موضحاً سبب تأليفه للكتاب: "قد رأيت أثناء تأديتى فريضة الحج ما يقع فيه بعض الناس من مشقة وحرج وضيق بسبب التمسك بمذهب معين قد يكون ضعيف الدليل ويحرم نفسه الأخذ بمذهب آخر مع ما فيه من اليسر والتخفيف ومع اعتماده على دليل أقوى أو مماثل".



عبر ثمانية عشر فصلاً هى كتاب "أفكار مارقة" الصادر عن مكتبة جزيرة الورد يتتبع الدكتور إبراهيم عوض الناقد الفكر العلمانى العربى بالرد والتفنيد لأفكارهم. الكتاب بدأ بأفكار إسماعيل أدهم وطه حسين مروراً بمحمد أركون ونصر أبوزيد وسيد القمنى وأحمد صبحى منصور وعباس عبد النور ومحمد سعيد العشماوى وغيرهم والتبهاء بعلاء الأسوانى ويشير المؤلف فى مقدمته إلى أن القارئ سيطلع على معالجات هؤلاء الكتاب وفجاجة تفكيرهم وسطحية كتاباتهم ومروقها عن الحق واستفزازها فى كثير من الأحيان إلى التحامك والاشتراء بالتنكر مضيفاً "وسوف يستغرب كيف يمكن أن يكون هؤلاء الناس بهذا الضعف المزرى فى العلم والتفكير وفى ركاكة العبارة رغم الطنطنات التى تحيط بأسمائهم وحديث الكثيرين عنهم بوصفهم المفكرين الذين ليس كمثلهم أحد، يمتاز الكتاب ببساطة العرض التى تناسب القارئ العادى رغم الغموض الذى يسيطر على كتابات هؤلاء العلمانيين، لكن المؤلف أخذ فى

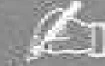
يعرض المستشرق الهولندى رينهارت دوزى فى كتابه "ملوك الطوائف ونظرات فى التاريخ الإسلامى" الصادر عن دار كلمات بترجمة لكامل كيلانى، تاريخ صعود ملوك الطوائف بعد اضمحلال الدولة الأموية بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى، حيث أدى تحلل دولة الخلافة فى الأندلس إلى تكوين حكومتين شوريتين إحداهما فى قرطبة تحت حكم أبو محمد بن جهور والثانية فى أشبيلية وولى أمرها بنو عباد.. والمؤلف رغم موقفه العدائى للوجود الإسلامى فى تلك الفترة، حيث يصفه بـ "الاحتلال الإسلامى لأوروبا" إلا أنه كان أميناً فى نقل عدة مظاهر للحكم الإسلامى أبرزها روح التسامح تجاه المسيحيين، حيث يقول نصاً: "عاش المسيحيون فى كنف المسلمين وأحسنت الحكومة معاملتهم ومنحتهم الحرية الدينية وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك فاعتنق كثير منهم الحضارة الإسلامية والفن بها افتتاناً" ويقل المؤلف حسرة كاهن قرطبة فى تلك الحقبة نتيجة انصراف المسيحيين إلى دراسة الشعر العربى وكتب علماء الكلام الإسلاميين. يعطى هذا الكتاب رغم بعض مثالبه فكرة جيدة لتلك المرحلة الهامة فى التاريخ الإسلامى.



فى طبعة جديدة بحجم الجيب أعادت دار السلام نشر كتاب "الإيضاح فى مناسك الحج والعمرة" للإمام النووى.. يضم الكتاب ثمانية أبواب عن آداب السفر ووجوب الحج والإحرام ودخول مكة وزيارة قبر الرسول ﷺ وحج الصبى وآداب الرجوع من السفر والأذكار التى تستحب، ويوضح النووى فى مقدمته الغرض من الكتاب قائلاً: "جمعت هذا الكتاب مستوعبا لجميع مقاصدها - أى المناسك- مستوفياً لكل ما يحتاج إليه من أصولها وفروعها ومعاقدها وضمنته من النفائس ما لا ينبغى لطالب الحج أن تفوته معرفته ولا تعزب عنه خبرته ولم اقتصر فيه على ما تحتاج إليه فى الغالب، بل ذكرت فيه أيضاً كل ما قد تدعو إليه حاجة الطالب، بحيث لا يخفى عليه شىء من أمر المناسك فى معظم الأوقات ولا يحتاج إلى السؤال لأحد عن شىء من ذلك فى أكثر الحادثات وقصدت فيه أن يستغنى به صاحبه عن استفتاء غيره عما يحتاج إليه".

يشن د. محمود سعيد ممدوح مؤلف كتاب "تنبيه المسلم إلى تعدى الألبانى على صحيح مسلم" الصادر حديثاً عن مكتبة المجلد العربى هجوماً شرساً على الراحل الشيخ ناصر الألبانى أبرز رموز الفكرة السلفية المعاصرة وذلك لموقف الألبانى النقدى من صحيحى البخارى ومسلم، يوضح المؤلف فى مقدمة الكتاب السبب الداعى للرد على الداعية السلفى الشهير حيث يقول: "وقفت على كلام للشيخ الألبانى ضعف فيه جملة من الأحاديث التى فى صحيح مسلم فتكلم عليها بما يؤكد خطأه ويثبت خروجه على ما قرره العلماء من صحتها وتلقيها بالقبول المفيد للعلم" ويؤكد المؤلف أن كلام الألبانى على أحاديث مسلم فيه من الإغراب والمخالفة والتعقب على المتقدمين ما يوهم المغترين به أنه استدرك على الأئمة المتقدمين كالبخارى ومسلم، وبعد أن يؤصل المؤلف لتلقى الأمة أحاديث البخارى ومسلم بالقبول يمضى رداً على الألبانى بالتفصيل فى الأحاديث التى انتقدها فى صحيح مسلم.

بين الصحف والمجلات



إعداد: أ. محمد جمعة

هولوكوست فلسطيني

تحت هذا العنوان جاء «رأى القدس» المنشور بجريدة «القدس العرب» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٩/١٩م يتضمن ما يلي:

مرت ذكرى مجازر صبرا وشاتيلا، التي راح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف إنسان معظمهم من النساء والأطفال، مرور الكرام في ظل انشغال العالم العربي بالأحداث السورية ومجازرها، والفيلم المسيء للرسول (ﷺ) وما تبعه من احتجاجات مشروعة.

المجزرة خطط لها إرييل شارون ونفذتها مجموعة مسلحة تابعة لحزب الكتائب بقيادة إيلي حبيقة.

من المفارقة أن إسرائيل شكلت لجنة تحقيق «كاهان» لكشف ظروف وملابسات هذه المجزرة، أكدت أن القوات اللبنانية عملت بتنسيق مع الجيش الإسرائيلي، وبإشراف رافائيل إيتان رئيس هيئة أركانه، وبضوء أخضر من شارون، ولكن لم يتم تشكيل أى لجنة لبنانية أو عربية أو دولية.

مناحيم بيجن رئيس الوزراء فى حينها أصيب باكتئاب مزمن لازمه حتى موته، وشارون أدين وعزل من منصبه وكذلك الجنرال إيتان، بينما جرى توزير إيلي حبيقة منفذ المجزرة وصديق النظام فى سوريا إلى أن تم اغتياله لاحقا بسيارة مفخخة.

منظر جثث الشهداء مازال ماثلاً فى الأذهان حتى هذه اللحظة، رغم مرور ثلاثين عاماً على المجزرة، أمهات يحتضن أطفالهن، وكهول منتفخة جثثهم ورجال جرى التمثيل بجثامينهم، فى فورة انتقام حاقد ليس له أى مثال فى التاريخ الحديث.

لم يتبادر إلى ذهننا مطلقاً أن هناك بشراً يقدمون على أعمال قتل كهذه وفى حق أناس عزل فى مخيمهم لم يرتكبوا أى جريمة، ولم يملكوا سلاحاً للدفاع عن أنفسهم.

لا نعرف ما إذا كان هؤلاء يملكون ضمائر، أو ينتمون إلى البشرية، وتجرى فى عروقهم دماء إنسانية أم دماء وحوش الغاب حتى يقدموا على هذه المجزرة وبهذه الطريقة البشعة.

إنه هولوكوست فلسطيني ينضم إلى مسلسل طويل من الهولوكوستات التى لحقت بالفلسطينيين والعرب ومازالت.

لا تحسبوه شراً لكم

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور محمود إبراهيم الدوعان المنشور بجريدة المدينة الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٩/٣٠م يقول فيه:

أشعل الفيلم المسيء لمقام سيدنا رسول الله ثورة الغضب فى قلوب المؤمنين الموحدين والمحبين لنبينا وسيدنا محمد بن عبدالله (ﷺ)، وثارت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها حبا وصدقاً ووفاء وفداء لهاديها إلى الطريق المستقيم وصاحب الخلق العظيم.. كما أشعل ذلك الفيلم المسيء جذوة الحب فى قلوب جميع المسلمين تجاه نبيها الكريم، وأصبح ذكره (ﷺ) على لسان الصغير والكبير، والمحب والنكير؛ لأنهم تعرضوا بالإساءة لسيرة البشير النذير.

إن الذّب عن عرض رسول الله، وصحابته المكرمين، وأهل بيته الطاهرين لهو أمر واجب، وفرض على كل مسلم ومسلمة، وله الحق فى أن يعترض على الإساءة لسيد الخلق، وأن يرد الإساءة بعدة وقفات كما علمنا (ﷺ) ومنها: أولاً: اتباع سنته والتأسي بهديه، والتمسك بشريعته العصماء، وإنفاذ توصياته والعض بالنواجذ على ما جاء به عليه الصلاة والسلام؛ ثانياً: نشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، حتى تقتدى بهديه، ونستن بسنته المطهرة وهى التعامل الراقى حتى مع أعدائنا وأعداء نبينا، الذين طعنوا فى أخلاقه، وصفاته، وشمائله، التى لا نقبل المساس بها بأى حال من الأحوال؛ ثالثاً: محبته ظاهراً وباطناً كما قال عليه الصلاة والسلام: «والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

تحية إعجاب وتقدير لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الذين هبوا للذود عن عرض سيدنا رسول الله (ﷺ) أو الإساءة لشخصه الكريم، فكانوا جميعاً محل تقدير من العالم أجمع.

ولن يزيدنا الحقد والحسد لنبينا إلا حبّاً والتصاقاً وأكثر تبعية لصاحب الرسالة العصماء، وبهذه المحبة وصل ذكر المصطفى (ﷺ) إلى قلب كل بيت فى أرجاء المعمورة، وعرفه الملحدون، والوثنيون، والكارهون، وجفاة القلوب، وشعروا جميعاً بعظيم الأسى والغيظ، لمشاعر الحب العظيمة من جميع المسلمين تجاه نبيهم الكريم صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المكرمين، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

لماذا يكره العرب والمسلمون أمريكا؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الكاتب البريطاني «باتريك سيل» المنشور بجريدة «الحياة» الصادرة بتاريخ: ٢١ / ٩ / ٢٠٠٢م، يقول فيه:

بعد أن أطلق المسلمون والعرب موجة عنف معادية للأمريكيين فى عدد من الدول، إلى جانب قتل السفير الأمريكى كريس ستيفنس فى مدينة بنغازى، جاء رد الفعل الأمريكى

مملوءاً بالإرباك وبالغضب وبالعطش إلى الانتقام، فتم إرسال قوات المارينز لحماية السفارات الأمريكية. ويبدو أن عدداً قليلاً من الأمريكيين يدركون أن بلدهم يدفع ثمن السياسات الخاطئة التي تم اعتمادها على مدى عقود.

وحاول بعض الرؤساء الأمريكيين خرق جدار الأزمة العربية ـ الإسرائيلية، إلا أن السياسات الداخلية المعتمدة وتعنت القادة الإسرائيليين أحبطت مساعيهم. فأحبط مناحيم بيجن المساعي التي قام بها جيمي كارتر فيما أحبط إسحق شامير كل محاولات جورج بوش الأب. وكاد بيل كلينتون أن يعقد صفقة قبل أن يرحل عن منصبه، غير أن مسئولين موالين لإسرائيل مثل دينيس روس قوضوا جهوده.

لم تحقق الولايات المتحدة فحسب في حل النزاع العربي ـ الإسرائيلي، بل عززت هيمنة إسرائيل الإقليمية، ويجب بالتالي اعتبارها متواطئة في الهجمات الكثيرة التي شنتها ضد الدول المجاورة لها ونادراً ما وقف الأمريكيون وسألوا أنفسهم عن سبب الهجوم الذي تعرضوا له في ١١ (سبتمبر) ٢٠٠١م. لاشك في أن مسألة فلسطين كانت السبب، غير أن السبب الآخر هو العقاب القاسي الذي أنزلته الولايات المتحدة بالعراق من خلال إخراجها عنوة من الكويت عام ١٩٩١م ومن ثم من خلال فرض عقوبات قاسية عليها خلال السنوات الـ ١٣ التالية، ما أدى إلى مقتل نصف مليون طفل عراقي.

أدت «الحرب العالمية على الإرهاب» التي أطلقها جورج بوش الابن عقب أحداث الحادي عشر من أيلول إلى سوء استخدام للسلطة الأمريكية. وبدلا من الاستعانة بالشرطة لمطاردة أعضاء تنظيم «القاعدة»، خاضت الولايات المتحدة حرباً في أفغانستان ومن ثم سمحت لنفسها بالانقياد وراء خدعة بول وولفويتز والمحافظين الجدد الآخرين الموالين لإسرائيل الهادفة إلى غزو العراق الذي اعتبره المحافظون الجدد عقب الحرب التي اندلعت بين إيران والعراق تهديدا محتملا لجبهة إسرائيل الشرقية. ويقال إن ١.٤ مليون عراقي قتل نتيجة احتلال العراق وتدميره إلى جانب ٤٥٠٠ جندي أمريكي.

ويتم إلى اليوم ارتكاب أخطاء فادحة. بدلا من التحاور مع إيران كما وعد أوباما حين وصل إلى السلطة شن حرباً غير معلنة على الجمهورية الإسلامية، ففرض «عقوبات» عليها. وتم تفويت فرصة التوصل إلى صفقة مع طهران تكون رابحة للطرفين ومن شأنها السماح لإيران بإنتاج اليورانيوم المنخفض التخصيب لتوليد الكهرباء إلى جانب التخلي عن ٢٠٪ من اليورانيوم؛ لأن إسرائيل تصر على ضرورة تدمير صناعة إيران النووية بالكامل.

وقلبت إسرائيل الطاولة على حليفها القوي. فبدلا من أن تكون إسرائيل حارسة أمريكا، يبدو أن الولايات المتحدة تحولت إلى حارس لإسرائيل، يهدد أعداء إسرائيل ويعاقبهم ويشوه سمعتهم ويشن حروبا عليهم بالنيابة عنها. لابد من أن الأمريكيين قد نسوا هذه الوقائع، هذا إن كانوا يعرفونها أصلا.

سوريا... تخطى قيود السياسة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ هاني البنا المنشور بجريدة «الشروق» الصادرة بتاريخ: ٢٠١٢/٩/٣٠م يقول: شهد شهر أغسطس زيادة ماساوية في حدة الأزمة السورية، إذ أشارت التقارير إلى مصرع أكثر من ٥٠٠٠ سوري، وجرح أعداد لا تحصى، وفرار ١٠٠.٠٠٠ من البلاد. وكان يوم الأربعاء الموافق ٢٠١٢/٩/٢٦م هو اليوم الأكثر دموية منذ بدء الاحتجاجات في سوريا، حيث سقط ٣٤٣ قتيلا، وأعلنت الأمم المتحدة بنزوح حوالى ألفين إلى ثلاثة آلاف يومياً.

ومنذ بداية أعمال القمع الوحشية في مارس ٢٠١١، أجبر ١٠٪ من الشعب السوري على ترك منازلهم، وأصبح ربع مليون سوري ـ ومن بينهم أطفال بلا عائلات ـ لاجئين، فروا إلى مخيمات مؤقتة رثة في الدول المجاورة، الأردن، وتركيا، ولبنان، وغيرها من البلدان القريبة.

على مدار أكثر من ١٨ شهراً، ومع استمرار زيادة وتيرة العنف في سوريا، ظل المجتمع الدولي منقسماً؛ وظلت حكوماته تتبادل الاتهامات بالتعاطف مع النظام أو مناهضته، هذه الحالة أفضت إلى انسداد سياسي وزيادة عسكرة النزاع، ليصبح المدنيون السوريون العاديون هم الخاسر الأكبر.

فلابد أن يُتاح للمنظمات الإنسانية الدولية أن تخفف كثيراً من آثار العنف وترفع الكثير من معاناة مئات الآلاف من السوريين، فتلك المنظمات قادرة على تقديم الإغاثة الطبية الأساسية، وتوزيع الغذاء، وإعادة تأهيل إمدادات المياه والرعاية الصحية للمدنيين الضعفاء، مهتدية في ذلك بالمبادئ الإنسانية واتفاقيات جنيف، وفي نأي تام عن أي أجندات سياسية. وبإمكانها أيضا أن تنسق جهودها مع منظمات المجتمع المدني السورية المحلية الشعبية، التي ظهرت خلال عام ونصف العام الماضي، وتعزز عملها بشكل كبير، حتى تلعب دوراً إنسانياً حيوياً وتتواصل بشكل فريد مع السكان المحليين.

تستطيع روسيا والصين وإيران، اليوم، بوصفهم الحلفاء الرئيسيين للنظام السوري، أن يضغطوا على الحكومة السورية لرفع قيودها عن المنظمات الإنسانية المستقلة القادرة على توفير الإمكانات المتخصصة، اللازمة لعلاج الوضع المتزايد سوءاً.

شهد اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، في نيويورك، إدانة العديد من قادة العالم لما يحدث في سوريا، في نفس الوقت الذي يستمر الوضع على الأرض في التدهور، لقد آن الأوان ليرى الشعب السوري أن حلفاء النظام لن يتركونه وحده، فتوفير نفاذ غير معوق وآمن ومستدام للخدمات الإنسانية إلى سوريا ليس بالخيار السياسي، بل هو بالأحرى مسئولية أخلاقية.

بين المجلة والقارئ

أ. أحمد السيد تقي الدين

الحج وحركة الأمة المسلمة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

لم يكن الإسلام يومًا ما، دين مساجد وصلوات وخلوات خاصة بين العبد وربه فقط؛ بل كان من أولى لحظاته انطلاقة نحو تجميل الحياة وبعث الروح فيها من جديد عبر منهج متكامل يشمل الفرد والمجتمع والأمة جمعاء.

أم القرى والبيت

ومن يتأمل في روعة ودلالة الأسماء التي وردت في القرآن الكريم يجد حكمة الله البالغة في تسمية البقعة المقدسة التي فيها البيت الحرام. أقصد مكة المكرمة بـ«أم القرى»، والكعبة بـ«البيت الحرام»، كما جاء في قوله تباركت أسماؤه:

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

وعن الكعبة قال تعالى:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾

فمكة هي أم القرى، والأم - بطبيعتها - تحتضن أبناءها وتلقى عليهم من ظلالها الوارفة ويشعرون معها بالأمن والأمان وروعة الاحتواء وصدق الولاء، وهو شعور لا ينكره كل من دخل مكة حاجًا أو معتمرًا، وكذا الكعبة والمسجد الحرام «ومن دخله كان آمنا» فهو «البيت»، وفي البيت يشعر ساكنوه بالأمان والانتماء وهذا - كذلك - ما يحسه كل من يمكث بالبيت ويطوف حول الكعبة ضارعًا ومبتهلاً.

الأمة حين تلتقي

وفي الحج والعمرة تتجلى روعة المكان وحكمة الرحمن في أن يجعل هذا النسك العظيم في تلك البقعة الجامعة على ضيقها ومحاولات توسعتها المستمرة أن تلتقي فيها وجوه المسلمين من أنحاء الدنيا ومن جميع الجنسيات" بل ومن كل فج عميق ليعيش هذا النموذج المصغر من الأمة كلها حقيقة الإسلام الكبرى وهي التوحيد والتلبية في مكان واحد فيكون قد تحقق المعنى الجليل للحج والعمرة في توحيد الله العلي العظيم بتوحيد المكان المقدس الجليل؛ لتمارس تلك الجموع المسلمة المعنى العميق لقولة تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

العائد البرئ

وكم هي غالية - كذلك - تلك الأمنية، وكم هو سعي مشكور بأن يبذل المسلم من ماله ونفسه ليغادر أهله وموطنه ويقضي أيامًا فيها من الجهد والمعاناة، والابتلاء الحكيم بالامتناع عما يسمى بـ«محظورات الحج»... كل ذلك ليعود - إن كان حجه مقبولاً بإذن الله - بريئًا من ذنوبه، صفحته بيضاء نقية، كأنه يولد من جديد في أطهر بقعة، مكة حيث الكعبة و الحجر الأسود والمقام وزمزم والصفا والمروة وعرفات والمزدلفة والإحرام ورمي الجمرات والذكر والدعاء والبكاء من خشية الله والشوق الذي يملاء القلوب بالرجوع إلى الأهل والأوطان بميلاد جديد ليس فيه ذنب ولا إثم ولا خطيئة.. لينال أعظم الأجر وأفضل المثوبة بقول النبي الكريم ﷺ «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

تتحقق الأهداف بالتقارب والائتلاف.. بين الداعية والإعلام

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ / إبراهيم مسلم النجار - مدير عام نظم وادارة سابق سندهور - قليوبية، قال فيها:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

(فصلت ٣٣)

ومن الواضح أن معنى هذه الآية ينسحب على الدعاة والإعلاميين على حد سواء فالرسالة والهدف واحد ولكل تخصصه.. كما أن رب العزة أمرهم بحسن الأداء للدعوة وترشيد المجتمع في خطابه الموجه إلي رسوله الكريم ﷺ بقوله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

وفي مسألة المجادلة والتخاطب بالحسنى في مواجهة أهل الكتاب.. يقول سبحانه:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت ٤٦)

وبذلك فإننا إذا كنا مأمورين بأن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن فمن باب أولى أن يكون ذلك مع المخالفين في الرأي من بين أهل الإسلام.. وانظر عظمة التوجيه القرآني في ذلك والذي ينسحب وصفه على الداعية والإعلامي لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(المائدة: ٥٤)

وأيضًا قوله:

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الحجر ٨٨)

ومن ذلك تتبين أهمية الترابط والتنسيق والتعاقد بين الداعية والإعلامي في خلق خطاب ديني عصري يستوعب متطلبات مسيرتنا الراهنة خصوصًا وأن بلدنا تمر بأوضاع وأحداث هي غاية في الخطورة والصعوبة ونحن في أشد الحاجة إلى تيار دعوي وإعلامي مخلص يحسن عرض مشاكلنا بشكل يليق بقيمنا الدينية في ظل تعاليم وتوجيهات معلم البشرية الأول سيدنا محمد ﷺ وقد ضاقت أزماتنا واستحكمت حلقاتها حتى وكأننا نعيش عنق الزجاجة تحتاج إلي الحكمة والتروي لنتجاوز هذه الأيام العصيبة

بين المجلة والقارئ

وضبابية الرؤية للوضع الحالي والخوف من المستقبل المجهول بعد أن تخطينا سنين حكم المخلوع الثقيلة إلا أن هناك كثيرا من المشاكل والصعوبات بسبب عدم الاستقرار فالسيطرة على المتحرفين والمتجمهرين والمعتصمين ليست كافية علاوة على مؤامرات فلول المخلوع في بث الفوضى وارتكاب الحوادث والانتهاكات مما جعل الأعداء يتربصون بنا في الداخل والخارج لتنفيذ مؤامراتهم بعد أن أفرزت هذه الظروف جماعات يمولونها بالمال ويمدونها بالسلاح خصوصًا وأن المخلوع لطول مدة حكمه كون طبقة عجيبة من زملائه وعملائه وذيوله الذين حاربوا الكفايات وأبعدوهم مما نكس لواء التطوير والتقدم واختصوا لأنفسهم منافذ السيطرة ليباشروا السرقة والنهب والتزوير بينما هم قيادات غير مؤهلة لا شرعيا ولا دينيا حتى ضعف الوازع الديني وتسببوا في كثرة التصارع بين الكثير من القوى والتيارات مما تسبب في إحداث التباين والتقاطع في مواقف المشايخ والدعاة وبين مسئولي الإعلام وأصحاب الرأى:

كلهم في الهوى يزين دينه
ألف مفت ومالك في المدينة
جهلوا لجة البحار فضلوا
وادعوا قياد السفينة

ونحن ننادي – من هنا – أنه أصبح من الواجب والحتم على الجميع توحيد الصفوف والاجتماع حول رأى الأمة وكفى ما حدث !!

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

إن علماء المسلمين ودعاتهم لهم احترامهم ومكانتهم التي أعطاها إياهم الشرع الحنيف فهم ورثة الأنبياء وعلى المجتمع أن يحترمهم وأن يوقرهم.. وتبعا لذلك يلزم تطوير الأزهر الشريف وتمكينه من أداء رسالته بتوحيد القيادات الدينية في مصر تحت مظلته وعنايته، وهذا قد يكون أقوى وأفضل من إنشاء أحزاب دينية غير مفعلة وليس لها أي تأثير يذكر.. فقد كان للأزهر الشريف شعبيته التي تحطمت دونها زعامات سياسية أمام سلطانه.. ونذكر من مواقفه أنه قامت الحكومة البريطانية بالضغط على الحكومة المصرية للاشتراك في الحرب العالمية الثانية! وخطب الشيخ المراغي – رحمه الله – شيخ الأزهر حينئذ قائلا: «نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل».. وغضبت بريطانيا وقابل رئيس الوزراء الشيخ المراغي الذي اشتم في لهجة رئيس الوزراء تهديدا فقال له: أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟؟!! إن شيخ الأزهر بمركزه ونفوذه أقوى من رئيس الحكومة.. ولو شئت لارتقيت المنبر وأثرت الجماهير ولوجدت نفسك إنسانا معزولا في هذا الشعب.

وهكذا كانت قوة الأزهر وشيوخه طوال عهوده فالمنصب علمي وديني رفيع وكلنا يعلم الدور العظيم والهائل الذي قام به الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب في تأييده ومساندته الثورة والثوار وتقديمه تلك الوثائق الوطنية التي أضاءت الطريق أمام الشعب المصري لبناء مؤسساته السياسية والوطنية.. وفق الله الجميع وجمعهم على كلمة سواء بالتعاون بين الداعية وجناحه الإعلامي.

فلنعلمهم ثقافتنا !!

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذة/ ناهد السيد شعبان قالت فيها:

في كل مرة يقوم فيها أعداء الله وأعداؤنا بشيء ضدنا تكون الحجة أن هذه ثقافتهم وبدعوى الحرية يسب الإسلام ويهزأ من رسوله ﷺ بل وجدنا من بني جلدتنا من يدافع عن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، حيث استمعت إلى الفضائية العراقية فوجدت المذيع يدافع دفاعا مستميتا عن القائمين على أمر الفيلم المسيئ للرسول ﷺ وقال: «إن الأمر لا يستدعي التظاهر لأن هذا يثبت أن المتطرفين هم من الإسلاميين»!! ولا أعجب من هؤلاء وأمثالهم لأن القرآن نوه إليهم وأشهد عليهم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

(البقرة: ١١)

وأنا أرى أن المصطفى ﷺ لم ولن يمس قال تعالى:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

(الحجر: ٩٥)

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(المائدة: ٦٧)

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(الأنبياء: ٤١)

إذن الذي تأذى هم المسلمون وهم اليوم أهل الضعف والتخلف والخور ولو كانوا اليوم خير أمة أخرجت للناس لأشربوا المعتدين والمستهزئين من نفس الكأس ولأعلموهم ثقافتنا وأن الرد قاس وحين يتعلق الأمر بالعقيدة فإن المسيئ يجب أن يطأطئ الرأس خجلا!! في ذات يوم قال أبو ذر لبلال: يا ابن السوداء ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

وهنا وضع أبوذر رأسه على التراب وقال لبلال: «لن أرفعها حتى تطأها بقدمك» وهذه ثقافتنا وهذا وضعنا مع أن الصحابي لم يقصد النيل من بلال.

فكيف الحال اليوم حين أراد السفهاء والفسقة النيل من أشرف وأعظم الخلق ﷺ هل نكتفي بالصراخ والعويل في الخطب.

وإذا كان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن فهل أبلغ سلطان المسلمين من ملك أو رئيس أو أمير بأن الإسلام خط أحمر وعلى العين والرأس.

وإذا كان البروتوكول والمراسم عند الزيارات الدولية بين القيادات تجعل أي زعيم مسلم ينفذ بل ويتدرب على الزيارة من قبل أن يبدأ فهل أنبأ أحد من هؤلاء السلاطين زعماء الغرب والأمريكان بأن قواعد الإسلام لا تقبل المفاضلة أو القياس؟

فهل غضب حكام المسلمين للإساءة التي أرادها الملعونون للرسول الكريم؟!

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد: محمود القشنى . عبد الموجود أمين

رسالة الإمام الأكبر إلى الأمين العام للأمم المتحدة بان كى مون بشأن الفيلم المسىء لنبى الإسلام محمد ﷺ

لقد اجتاح الغضب ومشاعر الصدمة والإحساس بالإساءة كل أنحاء العالم الإسلامى بلا استثناء ، وموجات الجماهير الغاضبة – كما تعلمون – تملأ الطرق والميادين فى بلادنا ، ووقفات الاحتجاج والاستنكار أمام المؤسسات والهيئات المحلية والدولية ما زالت متواصلة ، منذ أيام متتابعة ، لما أقدم عليه بعض السفهاء من تطاول على ذات النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يؤمن برسالته ويوقِّره ويحترمه ويُعظِّمه أكثر من مليار ونصف المليار من البشر فى العالم المعاصر .

والأزهر الشريف – الذى يُعبِّر عن ضمير الأمة الإسلامية – ويُعدُّ مسئولا عن حماية مقدساتها ورموزها الجليلة – يتوجَّه إلى الرأى العام العالمى ، والعقلاء من المتديِّنين أيا كانت عقائدهم ، وإلى الشرفاء من أصحاب الرأى والفكر فى العالم أيا كانت مواطنهم ، أن يستنكروا هذا العمل اللا مسئول ، الذى يهدِّد سلام العالم والعلاقات الإيجابية بين الأمم والشعوب ، فى وقت يسعى فيه الحكماء لرأب الصدع فى هذه العلاقات الدولية ، ولأم الجراح التى خلَّفتها سياسات العدوان والأنانية المادية ، للعديد من الشعوب الإسلامية ،فى العراق وأفغانستان والصومال وفلسطين وغيرها ، ويفاجأ بطائفة شاذة ، لفظتها كنيستها ،وتبرأ منها أهلها ، تُقدِمُ فى وقاحة بشعة على تحقير الدين الإسلامى وازدرائه ، والإساءة إلى شخص النبى الخاتم محمد ﷺ وهو عبثٌ خطيرٌ بعلاقات المواطنين فى الشعوب الآمنة بالشرق ، يأتينا من ناحية الغرب ، وإساءة بالغة لإحدى الديانات التوحيدية الإبراهيمية الكبرى ، التى قامت على أساسها حضارة من أكثر الحضارات الإنسانية عطاء وإبداعا ، وتأثيرا فى الماضى والحاضر ،والتى يعترفُ ، بل يؤمن أصحابُها بكل ما سبقها من رسالات سماوية ، ويحترمون رموزها الروحية ،ويحتضنون أتباعها ، فى تجربة تاريخية يشهد بها المنصفون طوال أربعة عشر قرنا من الزمان .

إن الأزهر الشريف إذ يدعو الجميع – فى هذه اللحظات القاسية – إلى الحكمة وضبط النفس ويُدين المساس بالأبرياء ، ويُواسى أسر الضحايا ويتعاطف مع المصابين كافة ، ويؤكِّدُ وجوب حماية البعثات الدبلوماسية ومقار الهيئات الدولية – ليُعلن فى الوقت نفسه ، أنه لا بدَّ من اتخاذ الإجراءات القانونية الدولية لعدم تكرار مثل هذا التطاول الوقح ، الذى وقع من قبل

فى بعض بلاد الشمال الأوربى ، وحدث مرة أخرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ،التى تقضى قوانينُها بتجريم ازدراء الأديان ، وتجريم التمييز بين معتنقيها .

لا بدَّ من صدور قرار دولى يقضى بعدم المساس برموز الدِّين الإسلامى ومقدَّساته التى يجترئ عليها بعض الحمقى والضَّالين ، ممن لا يعرفون قيمة السلام الاجتماعى بين الشعوب ، ويستبيحون تأجيج الفتن بينها ، ولا بدَّ من معاقبة هؤلاء المستهترين الذين أقدموا على تلك الأفعال الشنيعة .

والأزهر الشريف ينادى السيد بان كى مون أمين عام الأمم المتحدة ، وأوَّل واجباته حماية السِّلم العالمىّ من كل تهديد أو عدوان : أليس هذا العبث اللا مسئول – أيها السيد الأمين العام – يُماثل دعاوى المساس بالسَّامية التى تستنكرونها فى كلِّ حين ، والتى تصدُر الأحكامُ ضدَّ المتهمين بارتكابها فى العديد من بلاد العالَم ، ولو كانوا من كبار المفكِّرين والعلماء؟

لقد آن الأوانُ لصدور هذا القرار بتجريم المساس بالرموز الإسلامية ورموز سائر الأديان العالمية ، بعد ما وقع من عدوان عليها ،تسبب فى تعكير السَّلام العالمى ، وتهديد الأمن الدولى ، وهما المسئولية الأولى للمنظمة التى تتولَّون أمانتها ، وتقومون على شئونها ؛ ضمانا لعدم تكرُّر هذه الأحداث الخطيرة فى المستقبل ، ولكى يلقى المستهترون الحمقى من مرتكبيها جزاء ما صنعُوا ، ولن يُجدى فى هذا الموقف الخطير التزام الصَّمت ، فهو موقف لا يليق بالشرفاء والمسئولين . وإنا فى الأزهر والعالم الإسلامى لمنتظرون والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

الأقصر فى الثامن والعشرين من شوال سنة١٤٣٣ من الهجرة الشريفة

الموافق الخامس عشر من سبتمبر سنة ٢٠١٢ من ميلاد السيد المسيح

أ.د/ أحمد الطيِّب

شيخ الأزهر

بيان بيت العائلة المصرية بخصوص الفيلم المسىء للنبى الكريم

إن بيت العائلة المصرية ، وهو الهيئة الممثِّلة للمسلمين والمسيحيين فى مصر ، التى تجمع بين الأزهر الشريف والكنائس المصرية الكبرى ، وفى مقدمتها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، وهو يراقب بكل اهتمام ما يدور من أحداث فى هذه الأيام ، وخصوصا ما فجَّره الحادث الإجرامى الذى وقع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الفيلم المسىء للإسلام وللرسول ﷺ والذى أطلق شرارة غضب المسلمين وكل العقلاء فى العالم كله ، وأغضب الكنائس المصرية والمسيحيين المصريين مثل إخوانهم المسلمين ، وفجَّر ردود فعل تتجاوز أحيانا حدود العقل وضبط النفس ، وإن كان لهم الحق فى الغضب والرفض وإدانة الإهانة غير المقبولة على الإطلاق .

يراقب بيت العائلة المصرية برئاسة شيخ الأزهر كل ذلك وكان قد صدر بيان هيئة كبار العلماء بالأزهر ، والذى يرى أنَّ مصدر هذه الإساءات المتكرِّرة ليس عقلاء الناس ولا العاديين منهم ، وإنما هى

جهات تقف وراءها مؤسسات الهيمنة الاستعمارية ومعها الصهيونية التى يجاهدها الإسلام لكسر هيمنتها.

وأوصت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف فى بيانها بضرورة أنْ يتّسم رد الفعل بالحكمة، وأن يزيد ذلك من إيضاح حقائق الإسلام ومقدساته. كما أكّدت الهيئة على أنّ هذا العمل الشائن والمجرم ليس جديداً، وإنما هو قديم تحدث عنه القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

[الفرقان: ٣١]

وناشدت الهيئة مؤسسات العالم الإسلامى الدعوة الى دراسة ظاهرة العداء والإساءة إلى الإسلام ورموزه ومقدساته؛ لتحديد مصادرها، والعوامل التى تغذيها وتحركها، واتخاذ السبل الصحيحة لوقفها ودحضها، ومقاومتها بالأساليب العلمية القويمة التى أوصى بها القرآن الكريم، وضرورة التواصل مع الجاليات والمراكز الإسلامية فى الغرب؛ لإيصال هذه الحقائق إلى البلاد التى تصدر منها هذه الإساءات.

كما دعا شيخ الأزهر الشريف الجماهير الإسلامية إلى الحرص على ألا يتجاوز الغضب المشروع لله ولرسوله ﷺ حدود الآداب والشمائل الإسلامية؛ حتى لا نأخذ البرىء بذنب المسىء، وحتى نحافظ على وحدتنا الوطنية؛ لكى لا نحقق – دون أنْ ندرى – مقاصد الأعداء من وراء هذه الإساءات الخبيثة.

كما قرأ بيت العائلة باهتمام مماثل بيان المجمع المقدس فى القاهرة، والذى يدين بشدة هذا العمل المسىء للإسلام ورسوله ﷺ وقد أشار البيان إلى أفلام مشابهة أساءت قبل ذلك إلى السيد المسيح، وكلها أعمال تهدف لبث الفرقة بين الشعوب وأهل الأديان، وتستهدف الآن أمن مصر بشكل خاص، وأن المجتمعين بالمجمع المقدس قد هالتهم هذه الإساءة البالغة للإسلام والمسلمين داخل مصر وخارجها، وشعروا ببالغ الأسى من جرح مشاعرهم، وقد قرر المجمع المقدس أنّ ازدراء الأديان والإساءة لرموزها جريمة يتعين على الجميع منعها ومواجهتها، وهى إساءة تتعارض مع قيم المسيحية وتعاليم المسيح؛ ولهذا يتعين محاسبة كل من تثبت مشاركته فى إنتاج أو عرض أو ترويج هذه الأفلام، لخروجها عن مبادئ المسيحية، والمجمع المقدس ومعه أقباط مصر المنتمون إلى الكنيسة القبطية المصرية قد عبروا عن استيائهم، والمجتمعون يرفضون الإساءة لوحدة الشعب المصرى الذى سيتخطى هذه المحنة.

وقد أعلن بيت العائلة المصرية موافقته على كل ما ورد فى هذين البيانين، وهو يُعلن بعد توافقه التام قراره التالى:

- يتبنى بيت العائلة المصرية نداء شيخ الأزهر باستصدار قرار وقانون من الأمم المتحدة بتجريم ازدراء الأديان ورموزها وأنبيائها وكتبها المقدسة، وضرورة التعامل مع مرتكبى هذه الجريمة ومع ما يسمى "بالإسلام فوبيا" مثل التعامل مع العداء للسامية سواء بسواء.

- ويطالب بيت العائلة كل الهيئات والمؤسسات الإسلامية والمسيحية فى مصر وفى الشرق والعالم كله، ومنظمة التعاون الإسلامى وجامعة الدول العربية ووزارة الخارجية بضرورة رفع هذا الطلب إلى الأمم المتحدة، ومتابعة خطوات تنفيذه؛ حفظاً للسلام والأمن والروابط الأخوية والمحبة بين شعوب العالم.

والله ولى التوفيق

بيان الأزهر الشريف حول ما يسمى "اليوم العالمى لمحاكمة الرسول"

يستنكرُ الأزهرُ الشريفُ تلك الدعوات الفوضوية التى طالعتنا بها وسائل الإعلام الغربية والعالمية حول ما يسمى بـ "اليوم العالمى لمحاكمة الرسول محمد ﷺ" والتى يُعدّ لها فئة من ذوى النفوس الحاقدة، والعقول المريضة، التى طالما وقفت من الإسلام والمسلمين موقف الشبهات والأغراض الرديئة، تحت دعوى حرية الرأى والتعبير.

والأزهرُ الشريفُ إذ يُدينُ هذه الدعوات المتطرفة التى تُشعلُ روحَ العنصرية الدينية والطائفية، وتُهددُ أمن المجتمعات واستقرارها.. فإنه يعلن:

١ – أن الإسلام رسالة إلهية خاتمة أوحى بها الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ، وهى رسالة عامة للناس جميعا، وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى هداية للناس فى كل شئونهم الدينية والسياسية والاقتصادية، جاء بالسلام وأمر بالعدل ودعا إلى الإحسان بين الناس جميعًا، واتهام الإسلام بأنه دين وضعى أو بشرى هو هوسٌ وسخافةٌ وضلالٌ فى الفكر والرأى، وهو ليس بجديد بل ردّده كفارُ قريش فى زمن النبى ﷺ، وسوف يُردّده كلُّ من ينتمى إليهم من المنحرفين قديمًا وحديثًا ومستقبلًا.

٢ – أن الإسلام دين التعايش والتآلف والتعارف بين الناس، وهو دينُ العقل والمنطق الذى يدعو إلى "حوار الحضارات" والتعايش السلمى، وليس دين "صراع الحضارات"، وبث الكراهية وإثارة الصدام والعداء بين الشعوب، وهو دين المودة والبر والتعاطف مع أهل الأديان الأخرى المسالمين لنا. قال تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة: ٨)

ولا يفوتنا فى هذا الشأن أن نشيد بموقف بعض الأصوات العاقلة من إخوتنا من أبناء الديانات السماوية الأخرى داخل البلاد وخارجها، والتى رفضت تلك الدعوات العنصرية المتطرفة، ودعت إلى الحوار والتسامح بدلًا من الدعوة إلى التنابذ والتباغض، التى تُفرقُ ولا تجمعُ، وتهدمُ ولا تبنى، وتُفسدُ ولا تُصلحُ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛؛؛

مشيخة الأزهر فى ٢٣: من شوال سنة ١٤٣٣هـ

الموافق ١٠ من سبتمبر سنة ٢٠١٢م

أ.د أحمد الطيّب

شيخ الأزهر

سفير بروناى بالقاهرة: للأزهر ومصر مكانة كبيرة فى قلوبنا

أكد سفير سلطنة بروناى دار السلام داتو محمد مهدى بالقاهرة أن الأزهر منارة العلم والعلماء فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى، وأن الأزهر وعلماءه لهم مكانة فى قلوبنا.

وأشار سفير بروناى خلال حفل تكريم طلاب بلاده يوم الأحد ٣٠ سبتمبر ٢٠١٢، إلى أن مصر والأزهر بدءا فى استرداد دورهما الريادى فى المنطقة العربية والإسلامية، ونحن فى بروناى نبنى آمالا كثيرة على الأزهر، خاصة وأن معظم علماء السلطنة من خريجى الأزهر ويتبوءون أرفع المناصب.

وحضر الحفل الدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر وأشاد العبد بطلبة بروناى، وكرم فضيلته أوائل الطلبة الفائزين لهذا العام، كما حضر اللقاء رئيس الجمعية الخيرية لطلبة بروناى بالقاهرة عبد القوى الحاج خليفة، وأشار العبد فى كلمته إلى أن الأزهر مهد الوسطية والاعتدال، والأزهر بعيدٌ عن التشدد والتطرف، ويقوم بتدريس جميع المذاهب ويضم جميع التيارات.

وأضاف رئيس الجامعة أن طلبة بروناى وغيرهم من الطلبة الوافدين درسوا فى الأزهر باختيارهم ولم يُجبروا على دراسة مذهب بعينه، بل تربوا على الوسطية والاعتدال، بعيداً عن التشدد والتطرف، وقام بتقديم شهادات التقدير إلى خريجى طلبة بروناى دار السلام وتوزيع الجوائز على الأوائل منهم.

الأزهر: محاولات الصهاينة اقتحام الأقصى تنذر بحرب دينية فى المنطقة

حذر الأزهر الشريف فى بيان له يوم الثلاثاء ١٦ من ذى القعدة ١٤٣٣ هجرية الموافق ٢ من أكتوبر ٢٠١٢، من تبعات مواصلة الكيان الصهيونى جرائمه ضد المقدسات الإسلامية، ومحاولات المستوطنين المستمرة فى اقتحام باحات المسجد الأقصى.

وقال البيان إنّ الأزهر الشريف يُحذِّر من تبعات هذا العمل الإجرامى الذى يُؤجِّجُ نارَ الفتنة ويُنذر بحربٍ فى المنطقة، محملا الكيان الصهيونى المسئوليّة الكاملة عنه.

وأكد البيان على أنّ مدينة القدس وعلى رأسها المسجدُ الأقصى المبارَك «خطٌّ أحمر» لا يُمكن تجاوزُه، وأنّ أىّ اعتداء عليه سيُهدِّدُ حتمًا الأمنَ والاستقرار، ليس فى المنطقة فحسْب بل فى العالم أجمع؛ وعلى الكيان الصهيونى أنْ يُدرِكَ أنّ المسجد الأقصى المبارَك هو من أقدس مُقدَّساتنا العربيّة والإسلاميّة، ولا يُمكن المساس بحُرمته بأىّ حالٍ من الأحوال.

وطالب بيان الأزهر المجتمعَ المسلم والمجتمعَ الدولىّ بضرورة التدخُّل الفورى لوقف هذه الانتهاكات، والعمل على حماية القدس؛ باعتبارها تراثًا إنسانيًّا حضاريًّا، إسلاميًّا مسيحيًّا على السَّواء.

يشار إلى أن منظمة «منهيجوت بيهوديت» المتطرفة – إحدى أجنحة حزب الليكود الحاكم – حاولت اقتحام باحة المسجد الأقصى بشكلٍ جماعى بمناسبة ما يُسمَّى بـ«عيد العرش اليهودى» فى ظل حماية من الشُّرطة الصهيونيّة.

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذين: أحمد رضوان - يحيى سليمان

أكبر توسعة للحرم النبوى.. و ٢٩٠ طنا من مياه زمزم يوميا

تيسيرا على الحجاج والمعتمرين وزوار المسجد النبوى الشريف يضع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حجر أساس أكبر مشروع توسعة للمسجد النبوى الشريف ليستوعب ١,٨ مليون مصل، بالإضافة إلى ما يزيد على عشرة مشاريع تنموية كبرى.

وصرح أمير منطقة المدينة المنورة الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز بأن المشروع ينفذ على ثلاث مراحل، تستوعب الأولى ٨٠٠ ألف مصل، كما يشهد المسجد النبوى تطويرا للخدمات المقدمة لزائريه بتزويده بنحو ٢٩٠ طنا يوميا من مياه زمزم بمكة المكرمة عبر ناقلات متخصصة وتفريغها فى ثلاثين خزان مياه مبردة موزعة على أنحاء المسجد، وأعلنت شركات وممثلوا حملات الحج السعودية أنه سيتم اللجوء لمصر لسد العجز القائم بمعدل الثلث فى الحافلات المخصصة لنقل الحجاج بسبب الأزمة السورية وزيادة تكلفة إيجار الحافلات من تركيا عبر العراق والأردن بنسبة ٢٥٪.

أوباما يؤكد فى رسالة لمرسى رفضه للفيلم المسىء للإسلام والعنف ضد الأبرياء

تلقى الرئيس محمد مرسى رسالة خطية من الرئيس الأمريكى باراك أوباما أكد فيها رفض الولايات المتحدة للفيلم الحاقد المسىء للدين الإسلامى والقيم الأمريكية وقدم أوباما الشكر للرئيس مرسى على الجهود المصرية لتأمين بعثة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة.

وصرح الدكتور ياسر على المتحدث الرسمى باسم رئاسة الجمهورية بأن الرئيس أوباما قال فى رسالته مخاطبا الرئيس مرسى «كما أكدت لكم خلال محادثتى الهاتفية السابقة فنحن نرفض هذا الفيلم الحاقد الذى أساء للدين الإسلامى وأساء للقيم الأمريكية فى حرية الدين والاعتقاد والتسامح، «وأنه ليس هناك أى مبرر للعنف ضد الأبرياء».

وأضاف أن الرئيس أوباما أكد فى رسالته أيضا أنه يقدر التصريحات المهمة التى أصدرتها الرئاسة المصرية

بعد الأحداث الأخيرة أمام السفارة لإدانة العنف.

وأشاد أوباما بتصريحات الرئيس مرسي واصفاً إياها بأنها جزء من القيم المصرية والتي تدعم الشراكة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

وقال المتحدث الرئاسي إن الرئيس أوباما أكد في ختام رسالته تطلعه إلى العمل مع الرئيس مرسي في الأشهر المقبلة لمواصلة التقدم في الشراكة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة الأمريكية ومصر.

استمرار الاحتجاجات الدولية ضد الفيلم المسيئ لرسول الله ﷺ

مفتي استراليا: دماء الأمريكان في رقاب اقباط المهجر

أكد د. إبراهيم محمد مفتي استراليا في بيان نشره على صفحته بالفيس بوك أن دماء الأبرياء الذين قتلوا في بعض السفارات الأمريكية في أعناق مجموعة الأقباط الذين صنعوا هذه الفتنة وتسببوا في تأجيج نارها وأنهم الفاعل الأول في أي جريمة ترتكب في هذا الشأن موضحاً أن الفيلم الذي أنتجه عدد من المنتمين إلى أقباط المهجر المقيمين بأمريكا يؤسس لنظرية جديدة في الكراهية تستغل فيها الحرية لهدم القيم وتفتح باباً للعدوان على كل المقدسات في كل الأديان.

أضاف مفتي استراليا: إن أمريكا حين تسمح بهذا الكذب ولا تتخذ بشأنه موقفاً جاداً فإنها توسع دائرة الكراهية لنفسها شعباً ونظاماً؛ بسبب ازدواج المعايير والكيل بمكيالين لأن الممول للفيلم يهودي إسرائيلي تقدم الولايات المتحدة لبلده كل أنواع الدعم كما تجرم بالقانون وتعاقب كل من تبدو عليه معاداة السامية، فلماذا تقف الولايات المتحدة موقف السكوت من هذا الفيلم وتتغاضى عمن قاموا به؟!

ألمانيا تمنع قسيس الفتنة الأمريكي من الدخول

من ناحية أخرى أصدرت الداخلية الألمانية قراراً بمنع القس الأمريكي المثير للجدل تيري جونز صاحب حرق نسخ القرآن والداعم للفيلم المسيء للإسلام من دخول ألمانيا رداً على محاولة جمعيات ألمانية يمينية متطرفة ومعادية للإسلام توجيه دعوة إليه.

ونقلت مجلة «دير شبيجل» الألمانية على موقعها الالكتروني عن الوزارة قولها: إنها أصدرت «قراراً بمنع القس الأمريكي من دخول أراضيها».

ونقلت المجلة عن مصادر مقربة من وزير الداخلية قوله: «إن من يدعون إلى الكراهية لا مكان لهم في ألمانيا».

محكمة برازيلية تقضي بحظر بث الفيلم المسيء

وفي رد فعل دولي آخر احتجاجاً على الفيلم المسيء، قضت محكمة برازيلية بحظر بث الفيلم المسيء للرسول ﷺ والذي أثار احتجاجات عارمة في العديد من الدول الإسلامية. كما أمهلت المحكمة موقع «يوتيوب» عشرة أيام لإزالة لقطات الفيلم من شبكة الانترنت نهائياً وذكرت شبكة «إن. بي. سي» الأمريكية أن هذا القرار الصادر من محكمة بولاية «ساو باولو» البرازيلية، والتي تضم جالية كبيرة من المهاجرين من الشرق الأوسط، جاء عقب ساعات من انتقاد رئيسة البلاد ديلما روسيف لظاهرة «الإسلاموفوبيا» في الدول الغربية وكان «الاتحاد الإسلامي الوطني» قد أقام دعوى قضائية ضد شركة «جوجل» المالكة لموقع «يوتيوب» لبثها على الانترنت فيلماً وصف بأنه «مهين وينتهك الحق الدستوري في حرية الأديان» يأتي ذلك في الوقت الذي أعلنت فيه الحكومة التركية أنها بدأت بالفعل في اتخاذ الإجراءات القانونية لحجب الفيلم المسيء من جميع مواقع الانترنت.

الإفتاء اتفقت مع هيئة أمريكية لتحريك الدعوى ضد جونز

كما أعلن الدكتور إبراهيم نجم المستشار الإعلامي لمفتي جمهورية مصر العربية أن دار الافتاء قامت خلال الأيام الماضية بالتواصل مع العديد من المراكز والمؤسسات الإسلامية الأمريكية لحثها على تحريك دعوات قضائية ضد من أطلق عليهم وصف «المجانين» أمثال «تيري جونز» ومن معه الذين استفزوا مشاعر المسلمين بإنتاج هذا الفيلم المسيء عن النبي محمد رغبة في كسب دعاية مجانية لما أطلق عليه مستشار المفتي مسمى «الهراء» الذي يطلقون عليه فنا.

أوضح نجم أن الدار قررت السير في اتخاذ الإجراءات القانونية استناداً إلى المواد الخاصة بجرائم الكراهية وفقاً لما هو ثابت في القانون الأمريكي حيث وجه فضيلة مفتي الديار المصرية د. علي جمعة خطاباً إلى الأمين العام للأمم المتحدة للمطالبة بتوقيع اتفاقية لأعضاء الأمم المتحدة تجرم التطاول على الأديان والرموز والمقدسات الدينية بحيث يكون ذلك رادعاً للسفهاء أمثال تيري جونز ومن هم على شاكلته رغبة في إيجاد حلول غير تقليدية لتفادي وتجنب مثل هذه الإساءات في المستقبل من خلال وضع خطط متعددة ومتنوعة ومنها تنظيم ندوات تعريفية عن رسول الرحمة معلم البشرية سيدنا محمد.

مفتي السعودية يحذر من فيلم آخر يجسد النبي ﷺ بتكلفة ٤٥٠ مليون دولار

كما حذر مفتي عام السعودية الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ من فيلم آخر مرتقب تستعد إحدى الجهات الخارجية لإنتاجه ويتم فيه تجسيد شخصية الرسول الكريم ﷺ من خلاله منتقداً هذه الخطوة بشدة ومبدياً معارضته التامة لها.

ووصف الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ خطوة تجسيد الرسول الكريم ﷺ بأنه عمل به عيث كبير خاطئ، وقال: «لقد علمت بشأن هذا الفيلم وبأنه سيتكلف نحو ٤٥٠ مليون دولار وهذا عمل خطأ وعبث وترهات وإن هذا العمل لا خير فيه.

واعتبر آل الشيخ أن إنتاج أفلام أو نشر الرسوم المسيئة إلى الرسول الكريم ﷺ يعبر عن الحقد غير المستغرب من أعداء الإسلام على شخص رسول الله، مشدداً على أن تلك الممارسات والأقاويل افتراء وظلم للنبي الكريم.

«دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي

تشهد كلية اللغة العربية ـ فرع جامعة الأزهر بالزقازيق إقامة المؤتمر العلمي الدولي الثالث في الفترة من ٦ ـ ٨ محرم ١٤٣٤هـ الموافق ٢٠ ـ ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢م تحت عنوان «دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي» وذلك تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، ومعالي الأستاذ الدكتور أسامة العبد ـ رئيس جامعة الأزهر، وفضيلة الأستاذ الدكتور صابر عبدالدايم ـ عميد الكلية ورئيس المؤتمر. وذلك بالتعاون مع الرابطة العالمية لخريجي الأزهر ورابطة العالم الإسلامي؛ وموضوعه يتعلق بالدفاع عن الأزهر ويوضح جهود علمائه في ميادين العلم والثقافة، خاصة في الظروف الراهنة التي تمر بها مصر.. في مرحلة التغيير والتحول والعودة إلى الجذور العربية والإسلامية..

وسوف يشارك في هذا المؤتمر كل المهتمين بعلوم العربية من علماء الأمة حتى تتحقق الأهداف المرجوة من وراء انعقاد المؤتمر ومن هذه الأهداف:

١ـ تجلية دور الأزهر الشريف جامعاً وجامعة وجهود أعلامه في تأصيل قضايا الفكر الإسلامي والتقريب بين المذاهب في ضوء المتغيرات العالمية.

٢ـ دور الأزهر وجهود علمائه في تحقيق التراث العربي والإسلامي.
٣ـ جهود أعلام الأزهر في الرد على المستشرقين وتقويم مناهجهم وأفكارهم.
٤ـ دور الأزهر وجهود أعلامه في تطوير وتأصيل الدراسات اللغوية والأدبية والشرعية.
٥ـ دور الأزهر وجهود أعلامه في توحيد فكر الأمة من خلال التكامل المعرفي والتلاقي بين التخصصات المتعددة.
٦ـ تجلية أثر ووسطية الأزهر في تقريب المفاهيم بين التيارات والمذاهب الفكرية والعقدية.
٧ـ دور الأزهر في مقاومة المستعمر، وأثره في الثورات ضد الاستبداد ودوره المعاصر في المشهد السياسي والثقافي والاجتماعي في مصر والعالم العربي.

خبراء يحذرون من مشروع سياسي لتهجير الفلسطينيين من الدول العربية

حذر مجموعة من الخبراء والسياسيين الفلسطينيين والأردنيين في ندوة نظمها مركز الدراسات العربي الأوروبي ومقره باريس وأديرت حواراتها من عمان من وجود مخطط لتهجير الفلسطينيين من بعض الدول العربية. حيث أن تلك الخطوة تعطي مؤشرا خطيرا يتعلق بملامح حل القضية الفلسطينية الذي يحاك في الخفاء من حلفاء العدو الإسرائيلي.. وقال رئيس الديوان الملكي الأردني الأسبق عدنان أبو عودة إنه في حال وجود مشروع تهجيري لفلسطينيي سوريا فسيكون مكملاً لمشوار الشعب الفلسطيني في التشتت في الأفق، مؤكدا ضرورة إقامة الدولة الفلسطينية بالضفة الغربية وقطاع غزة لتكون الملاذ الآمن لهم بدلاً من التشتت.. وأشار أبو عودة إلى أنه في العراق مثلاً كان تهجير الفلسطينيين إلى الأردن وسوريا سياسة مقصودة وجاءت بضغط من حكامه. أما في سوريا فهناك حالة هجرة كما هو حال السوريين الذين هربوا إلى الأردن فراراً من الذعر في بلادهم.. ومن جانبه، قال السفير الفلسطيني السابق عبدالشافي صيام: إذا كان أمر ما يشاع مقتصرا على بعض الدول العربية فإن الأمر يعطي مؤشرا ذا بعد خطير يتعلق بملامح حل القضية الفلسطينية الذي يحاك في الخفاء.

أحداث عنف جديدة ضد مسلمي ولاية آسام الهندية

أغلقت المتاجر والمدارس ومؤسسات المال والأعمال في مقاطعات آسام الهندية وتوقفت عن العمل مشاركة في الإضراب العام الذي دعت إليه الجماعة الإسلامية الجديدة «بوقا بارايشاد» احتجاجاً على تصاعد أعمال العنف الطائفية ضد مسلمي الولاية.. كانت الجماعة الإسلامية الجديدة بالولاية قد دعت إلى الإضراب في مقاطعات آسام مما أثر على الحياة العامة فيها وذلك اعتراضاً على أحداث العنف الأخيرة ضد مسلمي الولاية في الوقت الذي تراجع فيه حجم الحركة على الطريق السريع.

وقد بحث رئيس الوزراء الهندي تارون جوجري مع أعضاء منظمات المجتمع المدني أحداث العنف الأخيرة في كواكراجهار وديبروي وبونجايجاون وشيراغ، واعترف بأن معسكرات الإغاثة مكتظة بالنازحين وأن هناك حاجة لتوفير صرف صحي سليم مطالبا الناس بتجاهل الشائعات المنتشرة.. وطالبت منظمات المجتمع المدني الحكومة بمصادرة الأسلحة غير المرخصة وعبرت عن قلقها من تدمير المنازل والممتلكات ومن الهجرة الجماعية لمواطني شمال شرق البلاد من بعض الولايات وطالبت الطلاب والعمال بعدم السماع للشائعات.

Earlier, Makkah was the center of trade in the Arabian Peninsula. Thus, at these days, the people concerned with the exegesis of the Qur'an said that trade is the benefit, which the pilgrims witness. However, will trade in Hajj season remain the benefit of Hajj while the non-Muslims; rather, the Pagans produce the itmes which the Muslims consume such as Prayer rag and Qiblah compass? Will trade remain the benefit of Hajj amidst the circumstances of the world today and the challenges arising?

Oil is found around Makkah and its inhabitants are no longer miserable, inhabiting an uncultivable valley. Thus, we can no say that the benefits of Hajj are limited to the commission done by the traders of the inviolable land by selling the consumer goods imported from outside the Islamic world to the pilgrims.

We find in the our Islamic world some circumstances, whose wretchedness does not require detailed explanation and challenges which divided our nation and made some of its people harsh to their Muslim brothers and merciful to the disbelievers. In these circusmtsances, the greatest and most important mission is restoring the unity of the earlier Islamic nation. This is the benefit behind Hajj – in our point of view, that is to say, calling the elite and intellectuals of the nation to unify their word in the grand Hajj conference.

The one who contemplates at the rituals and acts of worship of Islam will see this strong rope and connection between every individual act of worship imposes on the individual and the whole nation, which is the nation of message and religion.

In Sawm, one feels the state of the needy; thus, he helps them in a way that links the individual to the society.

In Zakah (obligatory charity), the individual wealth gets purified and grows; thus, financial solidarity occurs in the nation.

In Salah, the congregational Salah makes the individual an integral part in the society.

In testifying monotheism, the restraints and handcuffs which break the relations between the Muslim brothers are taken off. The individual is linked to the society throughout worshipping Allah Alone.

Thus, we notice that in all of the rituals and acts of worship in Islam, there is a string that links individual to the society and renews the correlation among the individuals of the nations in which solidarity prevails. They become like the parts of the building or of the human body.

In the light of this fact and the understanding of the benefits of worship for the Muslim worshippers, we should consider the rituals of Hajj. The meeting of Muslims for performing Hajj and

the grant conference for one of the pillars of Islam is the divine present, which embodies the top of the benefits granted to the Muslims. We are still in need for benefiting from it.

The Noble Qur'an talks to us about the wisdom behind the obligation of Hajj:

{And proclaim to mankind the Hajj (pilgrimage). They will come to you on foot and on every lean camel, they will come from every deep and distant (wide) mountain highway (to perform Hajj). 'That they may witness things that are of benefit to them (i.e. reward of Hajj in the Hereafter, and also some worldly gain from trade), and mention the Name of Allâh on appointed days, over the beast of cattle that He has provided for them (for sacrifice), [at the time of their slaughtering by saying: (Bismillah, Wallâhu-Akbar, Allâhumma Minka wa Ilaik)]. Then eat thereof and feed therewith the poor having a hard time. 'Then let them complete their prescribed duties (Manâsik of Hajj) and perform their vows, and circumambulate the Ancient House (the Ka'bah at Makkah).

[Hajj (pilgrimage): 27-29]

The benefits sought from Hajj to the nation are achieved with mentioning the Name of Allah and the rituals of Hajj. No doubt that if the meaning of benefit is unified, the ways of achieving it and its priorities differ according to times, circumstances, and challenges.

Commands of Allah, the Only Lord. Thus, they are these basics of Islam, as the Messenger of Allah taught us. In spite of the unity of the Divine religion since the beginning of the creation, the evolution of the human society required the multiplicity of Shari`ahs (laws) for every Messenger and Prophet. The unity of religion is associated with the multiplicity of Shari`ahs. Thus, the rituals and acts of worship varied in every Shari`ah.

For example, he Salah (Prayer) in which the servant of Allah invokes his Lord and Sawm (fasting) which is a subjective and private act of worship between the Creator and the created are known in many religious Shari`ahs in successive nations. Then, their way of performance and pillars differ from on Shari`ah to another.

Hajj links the nation of message to one center and continues and renews the Rope of religion. Also, it attracts it to the memories of light which emanated from the message and guided this nation from the darkness of the pre-Islamic era to the light of truth. The rituals of Hajj vary according to the nations of the different messages.

{And for every nation We have appointed religious ceremonies}

[Hajj (Pilgrimage) 67]

Hajj in Islam

The one who contemplates in the "center" which is visited to perform Hajj in Islam will see that:

- The Sacred House of Allah located in Makkah has special characteristic in Islam, which should be contemplated. Islam is the last Shari`ah of the Divine Messages to the human being, who is Allah's successor on earth. Also, Muhammad ibn `Abdullah (may the blessings and peace of Allah be upon him) is the seal of prophets and messengers (may the blessings and peace of Allah be upon them all). Allah's Sacred House in Makkah is the first House of Allah which was established on earth.

{ 'Verily, the first House (of worship) appointed for mankind was that at Bakkah (Makkah), full of blessing, and a guidance for the 'Alamîn (mankind and jinn).}

[Al-`Imran (The Household of `Imran): 96]

It seems that the Wisdom of Allah (Glory be to Him) willed that the Hajj of the last nation to be to the first House appointed for mankind, so that the end gets linked to the beginning and the value to the roots. Thus, this reveals that Islam, which was sent to Muhammad, can encompass and include absolute and general divine religion. This also reveals that the belief of Muhammad's nation in its Prophet is part of its belief in all of the messages and prophets from Adam to Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon them both).

Inviolable Mosque. Also, one of the attributes of Hajj is non aggression against the animal or plant as well as the human being.
{Kill not the game while you are in a state of Ihrâm [for Hajj or 'Umrah (pilgrimage)]}
[Al-Ma'idah (The Table): 95]

Whoever commits a prohibited act in a state if Ihram should offer ransom such as a sheep at least and should not eat from it. Also, it should be slaughtered in the Sacred Country at any time.

As for killing a game or whatever indicates that or cut the permissible trees, this obligates one of the following matters:
Slaughtering a sheep, fasting for three days, or feeding six poor people.
The pilgrim should observe his deeds in secret and in public and feel that he is the guest of his Lord. He should behave in good manners and be quiet. These attributes will accompany him forever. Allah (Glory be to Him) says:
{So whosoever intends to perform Hajj therein (by assuming Ihrâm), then he should not have sexual relations (with his wife), nor commit sin, nor dispute unjustly during the Hajj. And whatever good you do, (be sure) Allâh knows it.}
[Al-Baqarah (The Cow): 197]

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever performs Hajj and did neither have sexual intercourse nor commit a sin will come back free from sins like a newborn baby."

Whoever abides by these attributes will abide by the behavior liked by Allah. These should be among the Muslims and non-Muslims as well.

The Grand Hajj Conference

By: Dr. Muhammad `Imarah
Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

There are "ideas" that impose themselves on the mind of the Muslim mind as long as they are not set to practice. There are articles that should be reread as long as their ideas have not yet handled. The ideas put forth by this article are an example of this.

{To each among you, We have prescribed a law and a clear way. If Allâh had willed, He would have made you one nation, but that (He) may test you in what He has given you; so compete in good deeds. The return of you (all) is to Allâh; then He will inform you about that in which you used to differ.}

[Al-Ma'idah (The Table): 48]

Sadaqa Allah-ul-`Azhim (True are the Words of Allah, the Ever-Great)

In spite of the unity of religion; the Divine religion, since the beginning of the Heavenly Messages by Adam (may the peace of Allah be upon him) until its end with Muhammad ibn `Abdullah (may the blessings and peace of Allah be upon him), they declare one main matter which is monotheism and obedience to the

The Islamic slogan with regard to Hajj is ease and tolerance, as Allah (Glory be to Him) says:

{ Allâh intends for you ease, and He does not want to make things difficult for you}

[Al-Baqarah (The Cow): 185]

Allah (Glory be to Him) says:

{He has chosen you (to convey His Message of Islâmic Monotheism to mankind by inviting them to His religion of Islâm), and has not laid upon you in religion any hardship}

[Al-Hajj (Pilgrimage): 78]

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said:

"This religion is very profound so approach it in a gentle manner and do not make yourself hate the worship of Allah because the traveler who does not let his mount rest will not reach his destination and his mount will not be able to keep going."

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "I was sent as a Messenger with the tolerant religion."

There is a strong connection between fasting and Hajj. At the time when the Muslim fasts in Ramadan to reach the intended objective: purifying the soul from selfishness after practical training to strengthen the spirit of patience, Hajj, which needs for its success the previously mentioned factors such as psychological and spiritual preparation, starts.

Hajj is concerned firstly with deepening the idea of security and peace among the people in general. We should take into consideration that the place of Hajj is the Safe Country and the safe

along with that of his Companions until they raised the Word of Allah and fixed the pillars of religion. All of this will be meditated by the Muslims as they feel as if they live with the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and listen to the Qur'an from his pure tongue and honorable pronunciation.

It is not strange to find that Hajj calls to obeying Allah and worshipping him sincerely. Thus, the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Let Hajj be followed by `Umrah, as they rid the Muslim of sins in the way bellows blows iron slag."

That is why Allah (Glory be to Him) commanded every able Muslim to perform Hajj and likened abandoning Hajj to disbelief, as He said:

{And Hajj (pilgrimage to Makkah) to the House (Ka'bah) is a duty that mankind owes to Allâh, those who can afford the expenses (for one's conveyance, provision and residence); and whoever disbelieves [i.e. denies Hajj (pilgrimage to Makkah), then he is a disbeliever of Allâh], then Allâh stands not in need of any of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists).}

[Al-Imran (The Household of Imran): 97]

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) added in this regard: "Whoever is able to perform Hajj and does not do that, he may die as a Christian or a Jewish."

In this way the Companions understood this concept, as Umar ibn Al-Khattab said: "I intended to write to the rulers of the countries under the Islamic state to impose Jizyah (tax) on whoever could perform Hajj, but does not perform it."

Said ibn Al-Musayyib and other Muslim rulers said: "If I get to know that there is a Muslim who was rich and can perform Hajj, but did not perform it, I do not offer Funeral Prayer over him."

Hajj implants the love of peace in the souls of the Muslims ....!

BY: Dr. Ibrahim Al-Assil

In these days every year, some Muslims go to the Sacred House to perform the fifth pillar of Islam: Hajj. This is to witness benefits for them, to mention the Name of Allah, and to renew the spirit of Islam in their souls by visiting these pure places, from which the light of guidance came and the civilization started. Also, it is the place where the Revelation was sent down, as the earth was linked to the heaven, the prophet may the blessing and the Pease of Allâh be upon him. strived hard with his Companions to help the people to be guided to the Religion of Allah and to open their hearts to know the Truth and realize the honorable principles, which brought out to the people of the best nation and generation.

At these days, the happy Muslims compete to reach the Sacred lands to revive their souls and hearts and to live, leaving all of their worldly tasks, desires, misdeeds, sins, and grudge.

At these days, the sinners and transgressors go to the places where they get mercy and forgiveness, as their tears drop down, supplications are said, and people repent to Allah by performing the obligation of Hajj.

Hajj is the last pillar of Islam. Allah (Glory be to Him) said about it:

{This day, I have perfected your religion for you, completed My Favour upon you, and have chosen for you Islâm as your religion. [Al-Ma'idah (The Table): 3]

It is Hajj in which the Prophet concluded the essentials and most important points of his message in the Farwell Sermon. In this

sermon, the Prophet said all the things that establish fraternity and liberty, safeguard the rights, defined the signs of guidance after which they do not go astray, nor commit misdeeds, or be beaten.

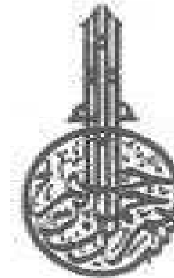
It is the place where the Muslims from all races are united and have a chance to get acquainted with each other, advise, and consult each other until they define their objective and confront their enemy as one nation with one and unified plan and work.

The obligation of gathering the people in `Arafat, about which the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said "Hajj is standing in 'Arafat" is to let the Muslims realize the value of unity in Islam and gathering for Allah. This is to face their enemy being united and strong as a great rock, half of which is in the deepest part of the earth; thus, it cannot be moved.

Man in this clamorous life does have even a short time to get rid of the aspects of hypocrisy and to go above the bad attributes and longing for interests. He cannot find this except in hajj, as the Muslims beseech their Lord with humbly with their hand raised for supplication, weeping eyes, and clothes that look like the shrouds of the dead. In this case, he does not remember life with its hypocrisy, but he remembers only the Afterlife with its reality. He does not seek pride, but he seeks only humbleness.

The religious creed needs growing faith to be strong and it cannot be so except by linking it to one of the earlier sources. Hajj can best do so. It includes seeing the Ka`bah, the first House established for the people. It is the place to which the people are directed every day five times. Also, it includes seeing honorable places, which protected Islam, repeated the Da`wah of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), and witnessed his strife

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Hejjah, 1433 A.H



ENGLISH SECTION
October, 2012

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

AL AZHAR
MAGAZINE


facebook.com/AlAzharMag

الإسلاموفوبيا
أ.د. محمد عمارة

الدين والثورة
للكاتب الكبير: على عزت بيجوفيتش

المانوية الجديدة وقتل الآخر
للأستاذ الدكتور : طه عبد الرحمن

فتاوى لها تاريخ
للشيخ: محمود شلتوت

قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم
للأستاذ الدكتور: عماد الدين خليل



هدية عدد المحرم
الأزهر والشيعة
بقلم لفيف من العلماء
دراسة وتقديم : أ.د. محمد عمارة

في العدد القادم

www.AlazharMag.com

السعر جنيهان